الجزء الأول

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى

المعروف بكتاب الحماسة

صنعة

الشيخ الإمام أبى على أحمد بن محمد بن الحسن

المرزوقى الإصفهانى

٠٠٠ — ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

[الحمد لله خالقِ الإنسان ، متميزًا بما علّمه من التبيُّن والبيان ، وصلّى الله على أفضلِ مَن صدع بأمره وزَجْره ، داعيا وناهيا ، وعلى الطاهرين من آله وسلم .

وبعد فإنَّك جارَيْتَنى — أطالَ الله بقاءك فى أشملِ سعادة وأكمل سلامة ، لَمَّا رأيتَنى أَقصُر ما أستفضِلُه من وقتى ، وأستخلصه من وُكْدى[1] ، على عملِ شرحٍ للاختيار المنسوب إلى أبى تمامٍ حبيب بن أوس الطائىّ ، المعروف بكتاب الحماسة أمْرَ — الشِّعرِ وفنونِه[2] ، وما نال الشُّعراء فى الجاهلية وما بعدها ، وفى أوائل أيّام الدولتين وأواخرها من الرفعة به ، إذ كان الله عزّ وجلّ قد أقامه للعرب مقام الكُتُب لغيرها من الأمم ، فهو مستودع آدابها ، ومُستحفَظ أنسابها ، ونِظام فَخارها يوم النِّفار ، وديوانُ حِجاجها عند الخِصام .

ثم سألتنى عن شرائط الاختيار فيه ، وعمّا يتميز به النَّظم عن النَّثر ، وما يحمد أو يذمّ من الغُلوّ فيه أو القصد ، وعن قواعد الشعر التى يجب الكلامُ فيها وعليها ، حتّى تصير جوانبُهَا محفوظة من الوَهْن ، وأركانها محروسة من الوَهْى إذ كان لا يُحكم للشَّاعر أو عليه[3] بالإساءة أو بالإحسان إلاّ بالفحص عنها ، وتأمُّلِ مأخَذِه منها ، ومدى شأْوِه فيها ، وتميز المصنوع مما يَحُوكُه من المطبوع والأتِىّ المُتسهَل من الأبِىّ المستكرَه . وقضيتَ العَجَب كيف وقع الإجماعُ من النُّقّاد على أنه لم يَتّفق فى اختيار المقطَّعات أنقَى مما جمعه ، ولا فى اختيار

(١) الوكد بالضم : السعى والجهد ، وبالفتح ، : المراد ، والهم ، والقصد .

(٢) أمر ، هو المفعول الثانى لجاريتنى فى الكلام قبله . على أن المعروف أن يقال جاراه فى كذا وبكذا ، أى جرى معه فى المناظرة والجدال .

(٣) م : « وعليه » .

لُلْقصَّدات أوفَى مما دوّنه المفضَّلُ ونقده[١] .

وقلت إنّ أبا تمّام معروفُ المذهب فيما يقرِضُه ، مألوف المسلك لما ينظمه نازعٌ فى الإبداع إلى كل غاية ، حاملٌ فى الاستعارات كلَّ مشقّةٍ ، متوصِّلٌ إلى الظَّفَرِ بمطلوبه من الصّنعة أين اعتَسَفَ وبماذا عَثَر، متغلغِلٌ إلى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنَّى تأتَّى له وقَدَر ؛ وهو عادلٌ فيما انتخَبَه فى هذا المجموع عن سلوك معاطفِ مَيْدانه ، ومُرْتضٍ ما لم يكن فيما يصوغه من أمرِه وشانِه ، فقد فَلَيْتُه فلم أجدْ فيه ما يوافق ذلك الأسلوبَ إلا اليسير . ومعلومٌ أن طبع كل امرئٍ — إذا ملك زمام الاختيار — يجذبُه إلى ما يستلذُّه ويهواهُ ، ويصرِفه عما يَنفِرُ منه ولا يرضاه . وزعمْتَ بعد ذلك أجْمَعَ أنك مع طول مجالستِك لجهابذة الشِّعْر والعلماءِ بمعانيه ، والمبرِّزين فى انتقادِه ، لم تقفْ من جهتهم على حَدٍّ يؤدّيك إلى المعرفةِ بجيّدِه ومتوسِّطِه ورديئِه ، حتى تجرِّد الشهادةَ فى شيءٍ منه ، وتَبُتَّ الحُكْمَ[٢] عليه أوْله ، آمنًا من الجاذبينَ والمُدافعين . بل تعتقدُ أنّ كثيراً مما يستجيدُه زيدٌ يجوز أن لا يطابقَه عليه عَمْرو ، وأنه قد يُستحسَنُ البيتُ ويُثْنَى عليه ثم يستهجَن نظيرُهُ فى الشَّبَه لفظاً ومعنًى حتّى لا مخالفةَ ، فيُعرضُ عنه ، إذْ كان ذلك موقوفاً على استحلاءِ المستَحْلِي واجتواءِ المُجتوِى ، وأنّه كما يُرزق الواحدُ فى مجالسِ الكبارِ من الإصغاءِ إليه والإقبال عليه ، ما يُحْرَمُ صِنْوُهُ وشبيهُهُ ، مع أنّه لا فضيلةَ لذلك ولا نَقيصةَ لهذا إلاّ ما فازَ به من الجدِّ عند الاصطفاء والقَسْمِ .

وقلتَ أيضاً : إنِّى أتمنَّى أن أعرفَ السببَ فى تأخُّرِ الشُّعراء عن رُتبةِ الكُتّاب البُلغاء ، والعذرَ فى قِلّة المترسِّلين وكثرة المُفلِقين[٣] ، والعلّةَ فى نباهة

---

(١) يعنى بذلك القصائد المفضليات ، التى اختارها المفضل الضبى .

(٢) فى الأصل : « لتحكم » وأثبتنا ما فى م .

(٣) المفلق : الشاعر المجيد يجىء بالعجائب فى شعره .

أولئك وخُمول هؤلاء ، ولماذا كان أكثرُ المترسِّلين لا يُفلِقون فى قَرْض الشعر ، وأكثرُ الشعراء لا يَبرعون فى إنشاء الكُتُب ، حتى خُصَّ بالذكر عَدَدٌ يسير منهم ، مثل إبراهيم بن العبّاس الصولىّ ، وأبى علىٍّ البَصير[(١)] ، والعَتّابىّ ، فى جمعهم بين الفَنَّين ، واغترازِهم رِكابَ الظَّهْرَين[(٢)] . هذا ونظامُ البلاغة يتساوى فى أكثره المنظومُ والمنثور .

وأنا إنْ شاء الله وبه الحولُ والقوّة ، أُورِدُ فى[(٣)] كلّ فَصْلٍ من هذه الفُصولِ ما يحتمله هذا الموضع ، ويمكن الاكتفاء به ؛ إذ كان لتقصّى المقالِ فيه موضِعٌ آخَر ، من غير أن أنْصِبَ لما تُصَوِّرُه النعوتُ الأمثلةَ ، تفادياً من الإطالة ، ولأنّه إذا وَضَحَ السّبيلُ وقَعَتِ الهداية بأيسرِ دليل . والله عزّ وجلّ الموفِّق للصواب ، وهو حسبنا ونعمَ الوكيل .

* * *

اعلم أنّ مذاهبَ نُقَّادِ الكلام فى شرائطِ الاختيار مختلفة ، وطرائقَ ذوى المعارف بأعطافِها وأردافِها مفترقَة ، وذلك لتفاوُتِ أقدار منادِحِها على اتّساعها[(٤)] وتنازُح أقطار مظانِّها ومعالمِها[(٥)] ، ولأنّ تصاريفَ المبانى التى هى كالأوعية ، وتضاعيف المعانى التى هى كالأمتعة فى المنثور ، اتَّسَعَ مَجَالُ الطبع فيها ومَسْرَحُه ، وتَشَعَّبَ مَرَادُ الفِكْر لها[(٦)] ومَطْرَحُه . فمِن البلغاء من يقول : فِقَرُ

---

(١) هو أبو على الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعى ، المعروف بالبصير ، كان من أهل الكوفة وسكن بغداد ، ومدح المتوكل والفتح بن خاقان ، وكان يتشيع فى غلو . وبقى إلى أيام المعتز . نكت الهميان ٢٢٥ .

(٢) الاغتراز : أن يدخل قدمه فى الغرز ، وهو للجمل مثل الركاب للبغل . فى الأصل « اغترارهم » ، صوابه فى م .

(٣) م : « من » .

(٣) المنادح : المفاوز ، والمنتدح : المكان الواسع .

(٥) عنى بالتنازح التباعد .

(٦) م : « فيها » .

الألفاظ وغُرَرُها ، كجواهر العقود ودررها ، فإذا وُسِمَ أَغْفَالُها بتحسين نظومها[١] وحُلِّيَ أَعطالُها بتركيب شُذورِها ، فراق مسموعُها ومضبوطُها ، وزانَ مفهومُها ومحفوظُها ، وجاء ما حُرِّر منها مُصَفًّى من كَدَر العِيِّ والخَطَل ، مقوَّما من أَوَدِ اللّحن والخطأ ، سالما من جَنَف التأليف[٢] ، موزوناً بميزان الصواب ، يَمُوج فى حواشيه رونَقُ الصّفاء لفظاً وتركيباً — قَبِله الفهمُ والتذّ به السمع . وإذا وَرد على ضدّ هذه الصفة صَدِئَ الفهمُ منه ، وتأذّى السّمع به تأذِّى الحواسِّ بما يخالفها .

ومنهم من لم يَرْضَ بالوقوف على هذا الحدِّ فتجاوزه ، والتزم من الزيادة عليه تتميمَ المقطع ، وتلطيفَ المطلَع ، وعَطْفَ الأواخر على الأوائل ، ودَلالةَ الموارد على المصادر ، وتناسُبَ الفصول والوصول ، وتعادُلَ الأقسام والأوزان ، والكشفَ عن قناع المعنى بلفظٍ هو فى الاختيار أوْلَى ، حتّى يطابق المعنى اللفظَ ، ويسابق فيه الفهمُ السمع . قال : ولا غاية وراء هذا .

ومنهم من تَرَقَّى إلى ما هو أشقُّ وأصعب ، فلم تُقنعْه هذه التكاليفُ فى البلاغة حتّى طَلب البديع : من الترصيع والتسجيع ، والتطبيقِ والتجنيس ، وعكس البناء فى النّظم[٣] ، وتوشيح العبارةِ بألفاظٍ مستعارة ، إلى وجوهٍ أُخَر تَنطق بها الكتُب المؤلَّفة فى البديع ، فإنى لم أَذْكر هذا القَدْر إلاّ دلائل على أمثالها . ولكلٍّ مما ذكرتُه ومما لم أذكرْ رسمٌ من النفوذ والاعتلاء ، بإزائه ما يضادُّه فيُسَلِم للنُّكوص والاستقال[٤] . وأكثر هذه الأبواب لأصحاب

---

(١) م : « بحسن نظومها » .

(٢) الجنف : الميل فى الكلام وفى الأمور كلها .

(٣) يعنى بذلك ما ورد فى نحو قوله :

مودته تدوم لكل هول … وهل كل مودته تدوم

(٤) الاستفال ، النزول إلى أسفل .

الألفاظ ، إذ كانت المعانى بمنزلة المعارِض للجوارى[١] ، فأرادوا أن يلتذّ السمْعُ بما يُدْرِكُ منه ولا يَمُجَّه ، ويتلقّاه بالإصغاء إليه والإذْن له فلا يحجُبَه[٢] .

وقد قال أبو الحسن ابن طَبَاطَبَا[٣] رحمه الله ، فى الشِّعر : هو ما إن عَرِىَ من معنًى بديع لم يَعْرَ من حُسن الديباجة ؛ وما خالف هذا فليس بالشعر[٤] .

ومن البُلَغاء من قصد فيما جاشَ به خاطِرُه إلى أن يكون استفادةُ المتأمّل له ، والباحثِ عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قولهِ أو مِثْلَه . وهم أصحابُ المعانى ، فطلبوا المعانى المُعْجِبَةَ من خواصّ أماكنها ، وانتزعوها جَزْلَةً عَذْبَةً حكيمةً ظريفةً أو رائقةً بارعةً[٥] ، فاضلةً كاملةً ، لطيفةً شريفةً ، زاهرةً فاخرةً ؛ وجعلوا رسومَها[٦] أن تكون قريبةَ التشبيه ، لائقةَ الاستعارة ، صادقة الأوصافِ ، لائحةَ الأوضاح ، خَلاّبةً فى الاستعطاف ، عَطّافةً لدى الاستنفار ، مستوفيةً لحظوظِها عند الاستهام من أبواب التصريح والتعريض ، والإطناب والتقصير ، والجِدّ والهَزل ، والخُشونة واللَّيان[٧] ، والإباء والإسماح ، من غير تفاوُت يظهر فى خِلالِ أطباقِها ، ولا قصورٍ ينبَعُ من أثناء أعماقِها ، مبتسمةً من مثانى الألفاظ عند الاستشفاف ، محتجبة فى غموض الصِّيان ، لدى الامتهان[٨] تعطيك مُرادَكَ إن رفَقت بها ، وتمنعُك جانِبَها إن

(١) المعارض جمع معرض كمنبر ، وهو الثوب تعرض فيه الجارية وتجلى .

(٢) م : « فلا يحجبه » .

(٣) ذكره ابن خلكان عرضاً فى ترجمة أبى القاسم أحمد بن محمد ابن طباطبا قال : « ولا أدرى من هذا أبو الحسن ، ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور » . وفى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية كتاب له يدعى « عيار الشعر » ذكر فى صدره أنه لأبى الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا العلوى . وذكر هذا الكتاب فى كشف الظنون وذكر أنه لابن طباطبا .

(٤) م : « بشعر » .

(٥) م : « حكيمة طريفة ، أو رائعة بارعة » .

(٦) م : « وسومها » .

(٧) الليان ، بالفتح كسحاب : مصدر لان يلين لينا وليانا .

(٨) لدى الامتهان ، ساقطة من م .

عَنُفْت معها . فهذه مَناسِبُ المعانى لطُلاَّبها ، وتلك مناصِبُ الألفاظ لأربابها . ومتى اعترف اللفظ والمعنى فيما تَصُوبُ به العقولُ[١] فتعانَقا وتلابَسا ، متظرهِرَين فى الاشتراك[٢] وتوافَقا ، فهناك يلتقى ثَرَيَا البلاغةِ[٣] فيُمطرُ رَوْضُها ، ويُنشَر وشْيُها ، ويتجلّى البيان فصيحَ اللسان ، نَجيحَ البُرْهان ، وترى رائدَى الفَهمِ والطَّبع متباشرين لما من المسموعِ والمعقول بالمَسرح الخِصْب والمَكْرَع[٤] العذب . فإذا كان النثرُ — بما له من تقاسيم اللفظ والمعنى والنظم — اتسع نطاقُ الاختيار فيه على ما بيَّنّاه بحسبِ اتساع جوانبها وموادّها ، وتكاثر أسبابها ومَوَاتِّها[٥] ، وكان الشعر قد ساواه فى جميع ذلك وشاركه ، ثم تفرَّد عنه وتميَّز بأنْ كان حَدُّه « لفظ موزون مُقَفًّى يدُلُّ على معنًى » ، فازدادت صفاتُه التى أحاط الحَدُّ بها بما انضمّ من الوزن والتقفيةِ إليها ، ازدادت الكُلَف فى شرائطِ الاختيار فيه ، لأن للوزن والتقفيةِ أحكاما تماثلُ ما كانت للمعنى واللفظ والتأليف أو تُقارِب ، وهما يقتضيان من مراعاة الشاعر والمنتقد ، مثلَ ما تقتضيه تلك من مراعاة الكاتب والمتصفِّح ، لئلا يختلّ لهما[٦] أصلٌ من أصولهما ، أو يعتَلَّ فرْعٌ من فروعهما .

فإذا كان الأمر على هذا ، فالواجب أن يُتبيَّن ما هو عمودُ الشعرِ المعروفُ عند العرب ، ليتميَّزَ تَليدُ الصنعةِ من الطريف ، وقديمُ نظامِ القريضِ من الحديث ، ولتُعرفَ مواطئُ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومَراسمُ إقدام

(١) تصوب به : تجود به ، من قولهم صاب المطر صوباً : نزل .

(٢) فى الأصل : « الاعتراف » وأثبتنا ما م .

(٣) ضبطت فى الأصل بضم الثاء وفتح الراء وتشديد الياء ، وهذا خطأ . يقال التقى الثريان ، وذلك أن يجىء المطر فيرسخ فى الأرض حتى يلتقى هو وندى الأرض . اللسان (ثرا) .

(٤) م : « المشرع » .

(٥) موات : جمع ماتة بوزن فاعلة ، وهى الوسيلة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة من م .

المزيِّفين على ما زيَّفوه ، ويُعْلَمَ أيضاً فرقُ ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلةُ الآتيِّ السَّمْحِ على الأبيِّ الصعب ، فنقول وبالله التوفيق :

إنهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحَّتَهُ ، وجزالةَ اللفظ واستقامته ، والإصابةَ في الوصف — ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثُرت سوائر الأمثال ، وشواردُ الأبيات — والمقاربةَ في التشبيه ، والتحامَ أجزاء النَّظْم والتئامَها على تخيُّرٍ من لذيذِ الوزنِ ، ومناسبةَ المستعارِ منه للمستعارِ له ، ومشاكلةَ اللفظ للمعنى وشِدَّةَ اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما — فهذه سبعة أبواب هي عمودُ الشعر ، ولكلّ باب منها مِعْيار .

فعِيَار المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح والفَهم الثاقب ، فإذا انعطف عليه جَنْبَتَا القَبُول والاصطفاء ، مستأنِساً بقرائِنِه ، خَرَج وافياً ، وإلاّ انتقَص بمقدار شَوْبِهِ ووحْشَتِهِ .

وعيار اللفظ الطَّبعُ والرِّواية والاستعمال ، فما سَلِمَ مما يُهَجِّنُهُ عند العَرْضِ عليها فهو المختار المستقيم . وهذا في مُفْرداته وجملته مُرَاعًى ، لأنّ اللفظة تُستكرم بانفرادها ، فإذا ضَامَّها مالا يوافِقُها عادتِ الجملةُ هَجيناً .

وعيار الإصابة في الوصف الذّكاء وحسنُ التمييز ، فما وجداه صادقا في العُلُوق ممازِجاً في اللُّصوق ، يتعسّر الخروج عنه والتبرُّؤ منه ، فذاك سِيماء الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في زهير : « كان لا يَمدَحُ الرجلَ إلاّ بما يكون للرّجال » . فتأمّل هذا الكلامَ فإنّ تفسيره ما ذكرناه .

وعيار المقاربة في التشبيه الفطنةُ وحسنُ التقدير ، فأصْدَقُه مالا ينتقِض عند العكس ، وأحسَنُه ما أُوقع بين شيئين اشتراكُهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليَبِينَ وجهُ التشبيه بلا كلْفَة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهرَ صفات المشبَّه به وأمْلَكَها له ، لأنه حينئذ يدلُّ على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس .

وقد قيل: «أقسام الشعر ثلاثة: مَثَلٌ سائرٌ، وتشبيهٌ نادر، واستعارةٌ قريبة».

وعيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيُّرٍ من لذيذ الوزن، الطبْعُ واللسان، فما لم يتعثّر الطبعُ بأبنيتِهِ وعقودِهِ[1]، ولم يتحبّس اللسانُ فى فصوله ووصوله، بل استمرّا فيه واستسهلاه، بلا مَلالٍ ولا كلال، فذاكَ يُوشِكُ أن يكون القصيدة منه كالبيتِ، والبيتُ كالكلمةِ تَسالُماً لأجزائه وتقارُناً، وألاّ يَكُونَ كما قيل فيه:

وشِعرٍ كبعر الكبش فرَّقَ بينَهُ لسانُ دعِيٍّ فى القريضِ دَخِيلِ[2]

وكما قال خَلَفٌ:

وبعضُ قريضِ الشِّعرِ أولادُ عَلَّةٍ يَكُدُّ لسان الناطقِ المتَحَفِّظِ[3]

وكما قال رُؤْبَةُ لابنه عُقْبَةَ وقد عَرَضَ عليه شيئاً مما قاله، فقال:

* قد قلتَ لو كان له قِرانُ[4] *

وإنّما قلنا «على تخَيُّرٍ من لذيذ الوزنِ» لأنّ لذيذَهُ يطْرَبُ الطَّبْع لإيقاعه، ويُمازِجُهُ بصفائِهِ، كما يَطرُبُ الفهمُ لصواب تركيبه، واعتدالِ نظومِهِ. ولذلك قال حَسَّان:

تَغَنَّ فى كل شعرٍ أنت قائلُهُ إنّ الغِناءَ لهذا الشعر مِضمار[5]

وعيار الاستعارة الذِّهن والفطنة. ومِلاَكُ الأَمْرِ تقريب التّشبيه فى الأصل

(١) فى الأصل: «بأبيه»، صوابه فى م.

(٢) البيت لأبى البيداء الرياحى، كما فى البيان (١ : ٦٦).

(٣) أولاد علة: بنو رجل واحد من أمهات شتى، فهم مختلفون. انظر البيان (١ : ٦٦) والعمدة (١ : ١٧٢).

(٤) فى البيان (٢ : ٦٨): «إنه يقول لو كان لقوله قران»، وذلك حيث ورد الخبر برواية أخرى.

(٥) المضمار، يطلق على الموضع الذى تضمر فيه الخيل، وعلى زمانه أيضاً، ويستعمل كذلك بمعنى التضمير. عنى أن الغناء وسيلة لتحسين الشعر واختباره. وهذا البيت مما لم يرد فى ديوان حسان. وأنشده فى العمدة (٢ : ٢٤١) بدون نسبة.

حتى يتناسَبَ المشبَّه والمشبَّه به ، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعارِ لأنه المنقولُ عمَّا كان له فى الوضع إلى المستعار له .

وعيارُ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدَّةِ اقتضائهما للقافية ، طول الدُّرْبة ودوامُ المدارسة ، فإذا حكما بحسن التباس بعضها ببعض ، لا جفاء فى خِلالها ولا نُبُوٌّ ، ولا زيادة فيها ولا قُصورَ . وكان اللفظ مقسوماً على رُتَب المعانى : قد جُعِلَ الأخَصُّ للأخصِّ ، والأخسُّ للأخَسِّ ، فهو البرىء من العيب . وأما القافيةُ فيجبُ أن تكون كالموعودِ [به[1]] المنتظر ، يتشوَّفُها[2] المعنى بحقِّه واللفظ بقِسْطِهِ ، وإلا كانت قَلِقَةً فى مَقَرِّها ، مُجتَلَبَةً لمستغنٍ عنها .

فهذه الخصال عَمُودُ الشِّعر عند العرب ، فمن لَزِمها بحقِّها وبَنَى شِعرَه عليها ، فهو عندهم المُفْلِق المعظَّم . والمُحْسن المُقدَّم . ومن لم يجمعها كلَّها فبقدر سُهْمَتِه منها يكون نَصيبه من التقدُّم والإحسان ، وهذا إجماعٌ مأخوذٌ به ومُتَّبَع نَهْجُه حتى الآن .

واعلم أنّ لهذه الخِصالِ وسائطَ وأطْرافاً ، فيها ظَهَر صدقُ الواصف ، وغُلُوّ الغالى ؛ واقتصادُ المقتصِد . وقد اقْتفَرَها اختيارُ الناقدين[3] ، فمنهم من قال : « أحسنُ الشعرِ أصدَقُه » قال : لأن تجويد قائلِهِ فيه مع كونه فى إسارِ الصدْقِ يدلُّ على الاقتدارِ والحِذق . ومنهم من اختار الغُلُوَّ حتى قيل «أحسن الشعر أكذبه» ؛ لأنَّ قائلَهُ إذا أسقط عن نفسه تقابُلَ الوصف والموصوفِ امتدّ فيما يأتيه إلى أعلى الرُّتبة ، وظهر قوَّتُه فى الصياغة وتمهُّرهُ فى الصناعة ، واتّسعت مخارجُهُ وموالِجَه ، فتصرَّف فى الوصف كيف شاء ، لأنّ العَمَلَ عنده على المبالغة والتمثيل ، لا المصادفة

(١) هذه من م .
(٢) فى الأصل : « يتشوفه » وأثبتنا ما فى م .
(٣) الاقتفار : الاقتفاء والتتبع .

والتحقيق . وعلى هذا أكثرُ العلماء بالشّعر والقائلين له . وبعضهم قال : « أحسَنُ الشّعر أقصَدُه[1] » ؛ لأنّ على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرًا فَقَطِّ[2] ، فما استوفَى[3] أقسام البراعة والتجويد أو جُلّها ، من غير غُلُوٍّ فى القول ولا إحالةٍ فى المعنى ، ولم يُخْرِج الموصوفَ إلى أن لا يُؤْمَنَ لشىءٍ[4] من أوصافه ، لظهور السَّرفِ فى آياته ، وشمول التزيُّد لأقواله ، كان بالإيثار والانتخاب أولى .

ويَتْبع هذا الاختلافَ مَيْلُ بعضِهم إلى المطبوع وبعضِهم إلى المصنوع . والفرقُ بينهما أن الدّواعى إذا قامت فى النفوس ، وحَرَّكت القرائح ، أَعملت القلوبَ . وإذا جاشت العقولُ بمكنون ودائعها ، وتظاهرت مكتَسَباتُ العُلومِ وضروريّاتُها ، نبعت المعانى ودَرّتْ أخلافُهَا ، وافتقرت خفيّات الخواطرِ إلى جليّات الألفاظ ، فمتى رُفِضَ التكلُّف والتعمُّل ، وخُلِّيَ[5] الطبعُ المهذَّب بالرّواية ، المدرَّب فى الدّراسة ، لاختياره ، فاسترسل[6] غيرَ محمولٍ عليه ، ولا ممنوع مما يميل إليه ، أدّى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكونُ صَفْوًا بلا كَدَرٍ ، وعَفْوًا بلا جَهدٍ ، وذلك هو الذى يسمَّى « المطبوع » . ومتى جُعل زِمامُ الاختيارِ بيدِ التعمُّل والتكلُّف ، عاد الطبع مستخدَمًا متملَّكا ، وأقبلتِ الأفكارُ تستحمِلُهُ أثقالَهَا ، وتردِّدُه فى قَبُول ما يؤدّيه إليها ، مُطَالَبَةً له بالإغرابِ[7] فى الصنعة ، وتجاوزِ المألوفِ إلى البِدْعة ، فجاء مؤدّاهُ وأَثَرُ التكَلُّفِ يَلُوحُ على صفحاته ، وذلك هو « المصنوع » .

---

(١) من القصد ، وهو الوسط فى الأمور .

(٢) ورد فى نسخة الأصل ، بتشديد الطاء مع ضمها ، وصوابها التشديد مع الكسر ، كما فى اللسان والقاموس ، وهى لغة فى « قط » ساكنة الطاء بمعنى حسب .

(٣) فى الأصل : « فاستوفى » ، والصواب من م .

(٤) م : « بشىء » .

(٥) وردت فى الأصل بالحاء المهملة ، مع تقييدها بالإشارة ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا فى م . وفى الأصل : « واسترسل » .

(٧) مطالبة بفتح اللام فى الأصل وم . وفى م « بالإعزاب » ، والإعزاب : الإبعاد .

وقد كان يتّفقُ فى أبيات قصائدهم — من غير قَصْدٍ منهم إليه — اليسيرُ النَّزْرُ ، فلما انتهى قَرْضُ الشعر إلى المُحْدَثين ، ورأوا استغرابَ الناس للبديع على افتنانهم فيه ، أُولعوا بتَوَرُّدِهِ إظهاراً للاقتدار ، وذَهاباً إلى الإغراب . فمن مُفْرِط ومُقْتَصِد ، ومحمودٍ فيما يأتيه ومذموم ، وذلك على حسب نُهوض الطبع بما يُحَمَّلُ ، ومَدَى قُوَاهُ فيما يطلب منه ويُكَلَّفُ . فمن مال إلى الأوّلِ فلأنَّهُ أشبه بطرائق الإعراب ، لسلامته فى السَّبْك ، واستوائه عند الفحص . ومَن مال إلى الثانى فلدلالته على كمال البراعة ، والالتذاذ بالغرابة .

* * *

وأما تعجُّبُك من أبى تمّام فى اختيار هذا المجموع وخروجِه عن مَيْدان شِعره ، ومفارقتِه ما يهواه لنفسه ؛ وإجماع نُقّاد الشعر بَعْدَه على ما صحبه من التوفيق فى قصدهِ ، فالقولُ فيه أنّ أبا تَمَّامٍ كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته . والفرق بين ما يُشْتَهى[1] وبين ما يُستجاد ظاهرٌ ، بدلالة أنّ العارف بالبَزِّ قد يشتهى لُبْس ما لا يستجيده ، ويستجيد ما لا يشتهى لُبْسَه . وعلى ذلك حالُ جميع أعراض الدُّنيا مع العقلاء[2] العارفين بها ، فى الاستجادة والاشتهاء . وهذا الرجُل لم يعْمِدْ من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشّعر إلى المتردِّدِ فى الأفواه ، المجيب لكلِّ داعٍ ، فكان أمرُه أقرب ، بل اعتَسَفَ فى دواوينِ الشّعراء جاهليِّهم ومخضرَمِهم وإسلامِيِّهم ومولَّدِهم ، واختطف منها الأرواحَ دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام[3] ، وجَمَع ما يوافق نظمَه ويخالفه ؛ لأن ضروبَ الاختيار لم تَخْفَ

(١) فى الأصل : «يشتر» ، صوابه فى م .
(٢) فى الأصل : «من العقلاء» ، صوابه فى م .
(٣) الاختراف : اجتناء الثمر . والأكمام : جمع كِم ، بالكسر ، وهو غطاء النور الذى هو أصل الثمرة .

عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تَستتِر عنه، حتى [إنّك[1]] تراه ينتهى إلى البيت الجيِّدِ فيهِ لفظة تَشِينُه، فيَجْبُرُ نقيصتَه من عنده، ويُبدِّل الكلمة بأختها فى نقده. وهذا يَبِين لمن رجع إلى دواوينهم، فقابل ما فى اختياره بها. ولو أنّ نقْد الشعر كان يُدرَكُ بقوله لكان مَن يقول الشعرَ مِن العلماء أشعر الناس. ويكشف هذا أنه قد يميِّزُ الشعر من لا يقولُه، ويقولُ الشعرَ الجيد من لا يَعرف نَقدَه. على ذلك كان البُحتُرِىّ، لأنّه فيما حُكِىَ عنه كان لا يُعْجَبُ من الشِّعر إلا بما وافق طبعَه ومعناه ولفْظَه.

وحكى الصُّولِىّ أنه سَمع المُبَرِّد يقول: سمعت الحسنَ بن رجاء يقول: ما رأيت أحداً قطُّ أعلمَ بجيّد الشعر قديمِهِ وحديثِهِ من أبى تمَّام. وحُكى عنه أنه مَرّ بشعر ابن أبى عُيَيْنَة فيما كان يختاره من شِعر المحدَثين فقال: «وهذا كله مختار». هذا وشعرُه أبعدُ الأشياء من شِعره. وهذا واضِح.

* * *

وأمّا ما غَلب على ظنك[2] من أنّ اختيار الشعر موقوفٌ على الشّهوات؛ إذ كان ما يختارُه زيدٌ يجوز أن يزيِّفَه عمْروٌ، وأنَّ سبيلَها سبيلُ الصُّوَر فى العيون، إلى غير ذلك مما ذكَرْتَهُ — فليس الأمر كذلك؛ لأن من عَرَفَ مستورَ المعنى ومكشوفه، ومَرْفوض اللفظ ومألوفَه، ومَيَّزَ البديعَ الذى لم تقتسمه المَعارِض، ولم تعتسفْه الخواطر، ونَظَر وتبحَّر، ودار فى أساليب الأدب فتخيَّرَ، وطالت مجاذبتُه فى التّذاكر والابتحاث، والتداوُل والابتعاث، وبانَ له القليلَ النائبُ عن الكثير، واللّحظ الدالُّ على الضمير، ودَرَى تراتيبَ الكلام وأسرارَها، كما درى تعاليق المعانى وأسبابَها، إلى غير ذلك مما يكمِّل الآلةَ، ويَشْحَذُ

(١) عنه من م.

(٢) م: «فى ظنك».

القريحة — تراه لا يَنظر إلّا بعين البصيرة ، ولا يسمع إلا بأذُن النَّصَفة[١] ، ولا ينتقد إلا بيد المَعْدِلة[٢] ، فحُكمُه الحكم الذى لا يُبدَل ، ونقدُه النقد الذى لا يُغيَّر .

واعلم أنه يَعرف الجيّد من يجهل الردىء . والواجب أن تعرف المقابح المتسخَّطة كما عَرفتَ المحاسن المرتضاة ، وجِماعُها إذا أُجمِلت أنّها أضدادُ ما بيّنّاه من عُمُد البلاغة ، وخِصال البراعة ، فى النظم والنثر . وفى التفصيل كأنْ يكون اللفظُ وحْشيًّا أو غير مستقيمٍ ، أو لا يكونَ مستعمَلًا فى المعنى المطلوب ، فقد قال عمر رضى الله عنه فى زهير : « لا يتتبّع الوحشىّ ولا يُعاظِلُ الكلامَ » . أو يكونَ فيه زيادة تفسد المعنى أو نقصان ، أو لا يكون بين أجزاء البيت التئام ، أو تكون القافية قَلِقَةً فى مقرِّها ، أو مَعِيبةً فى نفسِها ، أو يكونَ فى القَسْم أو التقابُلِ ، أو فى التفسير فساد ، أو فى المعنى تناقض وخروجٌ إلى ما ليس فى العادة والطبعِ ، أو يكونَ الوصفُ غيرَ لائقٍ بالموصوف ، أو يكونَ في البيت حَشْوٌ لا طائِلَ فيه ، إلى غير ذلك مما يحصِّلهُ لك تأمُّلُك جُمَل المحاسن وتفصيلَها ، وتتبُّعُك ما يُضادُّها[٣] وينافيها ، وهذا هيِّنٌ قريب .

وإنما قلت هذا لأنّ ما يختاره[٤] الناقد الحاذق قد يتّفق فيه ما لو سُئل عن سبب اختياره إياه ، وعن الدّلالة عليه ، لم يمكنه فى الجواب إلا أن يقول : هكذا قضيَّةُ طَبْعِي ، أو ارْجِعْ إلى غيرى ممن له الدُّرْبَةُ والعلم بمثله فإنّه يَحْكُم بمثلِ حُكْمى . وليس كذلك ما يَسترذله النّقد أو ينفيه الاختيار ، لأنه لا شىء من ذلك إلاّ ويمكن التنبيهُ على الخلل فيه ، وإقامة البرهان على رداءته ، فاعلمْه .

* * *

(١) النصفة والنصف ، بالتحريك فيهما : الإنصاف .
(٢) المعدله بكسر الدال وفتحها : العدل . وجاءت فى الأصل بكسر الدال .
(٣) فى الأصل : « ما لا يضادها » ، والوجه ما أثبتنا من م .
(٤) فى الأصل : « ما لا يختاره » والوجه حذف « لا » كما فى م .

وأمَّا[١] تمنّيك معرفةَ السبب فى تأخّر الشعراء عن رتبة الكُتّاب البُلَغاء، والعذرِ فى قِلّة المترسِّلين وكثرة المُفْلقين، والعلّةَ فى نباهة أولئك وخُمول هؤلاء، ولماذا كان أكثر المُفْلقين لا يبرعون فى إنشاء الكتب، وأكثرُ المترسِّلين لا يُفلِقُون فى قَرْض الشعر، فإنِّى أقول فى كل فَصْلٍ من ذلك بما يَحْضُر[٢]، والله وَلِىُّ توفيقى، وهو حسبى وعليه توكُّلِى.

اعلم أن تأخُّر الشعراء عن رتبة البلغاء، مُوجِبُه تأخُّرُ المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب، لأمرين:

أحدهما أنّ ملوكهم قبل الإسلام وبعدَه كانوا يتبجّحون[٣] بالخطابة والافتنان فيها، ويَعُدّونها أكملَ أسباب الرياسة، وأفضلَ آلات الزّعامة. فإذا وقف أحدُهم بين السِّماطيْن لحصولِ تنافرٍ أو تضاغُنٍ أو تظالم أو تشاجر، فأحسَنَ الاقتضابَ عند البُداهة[٤]، وأبْجَعَ فى الإسهاب وقت الإطالة، أو اعتلى فى ذِرْوة مِنبرٍ فتصرّف فى ضروب من تخشين القول وتليينه، داعيا إلى طَاعَةٍ، أو مُسْتَصْلحاً لرعيّةٍ، أو غيرِ ذلك مما تدعو الحاجةُ إليه، كان ذلك أبلغَ عندهم من إنفاق مالٍ عظيم، وتجهيز جيشٍ كبير. وكانوا يأنَفون من الاشتهار بقَرض الشعر، ويَعُدُّه ملوكهم دناءة. وقد كان لامرئ القيس فى الجاهلية مع أبيه حُجر بن عَمرٍو، حين تعاطى قولَ الشعر فنهاه عنه وقتاً بعد وقت، وحالا بعد حال، ما أخرَجَه إلى أن أمر بقتله. وقِصّتُه مشهورة، فهذا واحد.

والثانى أنهم اتخذوا الشعر مَكْسَبَةً وتجارة، وتوصَّلوا به إلى السُّوَق كما

(١) فى الأصل: «وإنما»، والصواب فى م.

(٢) م: «ما يحضر».

(٣) التبجح: الفخر والتباهى.

(٤) اقتضاب الكلام: ارتجاله، اقتضب الحديث والشعر: تكلم به من غير تهيئة أو إعداد له.

توصلوا به إلى العِلْية ، وتعرَّضوا لأعراض الناس ، فوصفوا اللئيمَ عند الطمع فيه بصفة الكريم ، والكريمَ عند تأخُّر صلته بصفة اللئيم ، حتى قيل : « الشعر أدنى مروَّة السريّ ، وأسرى مروَّة الدنيّ » . وهذا الباب أمرُه ظاهر . وإذا كان شرفُ الصانع بمقدار شرف صناعته ، وكان النظمُ متأخِّراً عن رتبة النثر ، وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلِّفاً عن غاية البليغ .

ومما يدلُّ على أن النثر أشرف من النظم ، أن الإعجاز من الله تعالى جدُّه والتحدّيَ من الرسول عليه السلام وقَعَا فيه دون النظم ؛ يكشف ذلك أن معجزات الأنبياء[١] عليهم السلام فى أوقاتهم كانت من جنس ما كانت أُمَمُهم يُولَعون به فى حِينِهم ، ويغلِبُ على طبائعهم ، وبأشرف ذلك الجنس . على ذلك كانت معجزةُ موسى عليه السلام ، لأنها ظهرت عليه وزمنُه زمن السِّحر والسَّحَرة ، فصارت من ذلك الجنس وبأشرفِه . وكذلك كان حالُ عيسىٰ عليه السلام ، لأن زمنَه كان زمنَ الطبّ ، فكانت معجزتُه وهى إحياء الموتى ، من ذلك الجنس وبأشرفه . فلما كان زمنُ النبي صلى الله عليه وسلم زمن الفصاحة والبيان ، جعل الله معجزتَه من جنس ما كانوا يُولَعون به وبأشرفه ، فتحدّاهم بالقرآن كلاماً منثوراً ، لا شعراً منظوماً .

وقد قال الله عزَّ وجلَّ فى تنويه النبي عليه السلام[٢] : ﴿ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ[٣] ﴾ .

---

(١) فى الأصل : « فيكشف ذلك أن معجز الأنبياء » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) يقال نوه فلانا ونوه به إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قول أبى نخيلة :

ونوهت لى ذكري وما كان خاملا ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

م : « فى تنزيه النبى عليه السلام » .

(٣) هذا وجه جائز فى الاستشهاد بالقرآن مع ترك الواو أو الفاء ونحوها . انظر الحيوان (٣ : ١٥/٤ : ٥٧ ، ٢٧٦) ورساله الشافعى الفقرات رقم ٦٤٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .

وقال أيضاً : (والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ) .

ولمّا كان الأمر على ما بيّنّاه وجب أن يكون النثر أرفع شأناً ، وأعلى سَمْكاً وبناء من النظم ، وأن يكون مزاوِلُه كذلك ، اعتباراً بسائر الصناعات وبمزاوليها[1] .

* * *

وأما السبب فى قِلَّة المترسلين وكثرة المُفْلِقِين وعِزِّ مَن جمع بين النوعين مبرِّزًا فيهما ، فهو أنَّ مبنَى « الترسُّل » على أن يكون واضحَ المنهج ، سهلَ المعنى ، متسِع الباع ، واسع النِّطاق ، تدلُّ لوائحُهُ على حقائقه ، وظواهرُه على بواطنه ، إذ كان موْردُه على أسماعٍ مفترقةٍ : من خاصيٍّ وعاميّ ، وأفهام مختلفة : من ذكيّ وغبيّ . فمتى كان متسهِّلا متساويا ، ومتسلسِلا متجاوباً ، تساوت الآذانُ فى تلقِّيه ، والأفهام فى درايته ، والألسن فى رِوايته ، فُيُسمِحُ شاردُه إذا استُدعىَ ، ويَتعجَّلُ وافِدُه إذا استُدنى ، وإن تطاوَلَ أنفاسُ فصوله ، وتباعَدَ أطراف حُزُونِه ومهوله . ومبنى « الشعر » على العكس من جميع ذلك لأنه مبنىّ[2] على أوزان مقدّرة ، وحدود مقسَّمةٍ ، وقوافٍ يُساق ما قبلَها إليها مهيَّأةٍ ، وعلى أن يقوم كلُّ بيت بنفسه غير مفتقِرٍ إلى غيره إلا ما يكون مضمَّناً بأخيه ، وهو عيب فيه . فلما كان مداه لا يمتدُّ بأكثر من مقدار عَرُوضِه وضَرْبِه ، وكلاهما قليل ، وكان الشاعر يعمل قصيدتَه بيتاً بيتاً ، وكلُّ بيت يتقاضاه بالاتحاد ، وجب أن يكون الفضل فى أكثر الأحوال فى المعنى ، وأن يبلغ الشاعرُ فى تلطيفه ، والأخذ من حواشيه ، حتى يتسع اللفظ له ، فيؤدّيه على غموضِه وخفائه — حدًّا يصير

(١) م : « وبمزاوليها » .
(٢) م : « بنى » .

المُدركُ له والمشرِفُ عليه ، كالفائز بذخيرة اغتنمها ، والظافرِ بدفينةٍ استخرجها . وفى مثل ذلك يحسُن انِّحاء[١] الأثر ، وتباطؤُ المطلوب على المنتظِر . فكلُّ ما يُحمَد فى الترسُّل ويُختار ، يُذمّ فى الشعر ويُرْفَض .

فلما اختَلف المبْنَيانِ كما بيّناً ، وكان المتولِّى لكل واحدٍ منهما يختار أبعدَ الغايات لنفسه فيه ، اختلفت فيهما الإصابتان ، لتبايُن طرفيهما ، وتفاوُتِ قطريهما ، وبَعُد[٢] على القرائح الجمع بينهما . يكشفُ ذلك أن الرّجَزَ وإنْ خالف القصيدَ مخالفةً قريبة ترجع إلى تقطيع شأو اللفظ فيه ، وتزاحم السّجع عليه ، قلَّ عددُ الجامِعِين بينهما ، لتقاصر الطباع عن الإحاطة بهما . فإذا كان الرّجز والقصيد مع أنهما من وادٍ واحد ، أفضت الحالُ بمتعاطِيهما إلى ما قلتُ على خلافٍ يسير بينهما — فالنثر والنظم وهما فى طرفين ضِدَّين ، وعلى حالتين متباينتين ، أولَى وأخصُّ .

* * *

وأمَّا السبب فى قلّة البلغاء وكثرة الشعراء ، ونباهة أولئك وخمول هؤلاء ، فهو أنَّ المترسِّل محتاجٌ إلى مراعاة أمورٍ كثيرة ، إن أهملها أو أهمل شيئا منها رجعت النقيصةُ إليه ، وتوجهت اللائمة عليه .

منها تبيُّنُ[٣] مقاديرِ من يَكتب عنه وإليه ، حتّى لا يرفع وضيعاً ، ولا يضع رفيعا .

ومنها وزن الألفاظ التى يستعملها فى تصاريفه ، حتّى تجىء لائقةً بمن يُخاطَب بها ، مُفخَّمة لحضرة سلطانه[٤] التى يصدر عنها .

---

(١) رسمت فى الأصل وم : « انمحاء » مع وضع شدة على النون .
(٢) م : « فبعد » .
(٣) فى الأصل : « يبين » ، صوابه فى م .
(٤) م : « سلطانها » .

ومنها أن يعرف أحوالَ الزمان ، وعوارضَ الحدَثان ، فيتصرّف معها على مقاديرها فى النقض والإبرام ، والبسط والانقباض .

ومنها أن يعلم أوقات الإسهاب والتطويل ، والإيجاز والتخفيف ؛ فقد يَتّفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار ، حتى يستغرق فى الرسالة الواحدة أقدارَ القصائد الطويلة ، ويَتّفِق أيضا ما تغْنى فيه الإشارة ، وما يجرى مَجرى الوَحْى فى الدّلالة .

ومنها أن يعرف من أحكام الشّريعة ما يقف به على سَوَاء السبيل ولا يَشتطّ فى الحكومة ، ولا يَعدِل فيما يخُطّ عن المَحجّة . فهو إنّما يَترسّل فى عهود الوُلاة والقضاة ، وتأكيد البَيعة والأيمان ، وعِمارة البُلدان ، وإصلاح فسادٍ ، وتحريضٍ على جهادٍ ، وسَدّ ثغورٍ ورَتْق فتوق ، واحتجاجٍ على فئةٍ ، أو مجادَلةٍ لِمِلّةٍ ، أو دعاءٍ إلى أُلفةٍ ، أو نهى عن فُرْقةٍ ، أو تهنئة بعطيّة ، أو تعزية برزيّةٍ ، أو ماشا كل ذلك من جلائل الخطوب ، وعظائم الشئون التى يُحتاج فيها إلى أدواتٍ كثيرة ، ومعرفةٍ مفتَنّةٍ .

فلما كان الأمرُ على هذا صار وجود المضطلعين بجودة النثر أعزّ ، وعددُهم أنْزَر . وقد وسمَتْهم الكتابةُ بشرفها ، وبوّأتهم منزلةَ رياستها ، فأخطارُهم عالية بحسب عُلوّ صناعتهم ، ومَعاقِدِ رياستهم ، وشدةِ الفاقة إلى كفايتهم .

والشعراء إنّما أغراضُهم التى يُسدِّدون نحوَها ، وغاياتُهم التى يَنزِعون إليها ، وصفُ الدّيار والآثار ، والحنين إلى المعاهد والأوطان ، والتشبيب بالنساء ، والتلطيف فى الاجتداء ، والتفنُّن فى المديح والهجاء ، والمبالغةُ فى التّشبيه والاوصاف . فإذا كان كذلك لم يتدانَو فى المِضمار ، ولا تقارَبُوا فى الأقدار . وهذا القول كافٍ .

وإذْ قد أتينا بما أردنا ، ووفَينا بما وَعَدنا ، فإنا نشتغل بما هو القصد من شرح الاختيار ، والله الموفِّق للصواب ، والصلاة والسلام على رسوله محمدٍ وآله الأخيار .

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الحماسة

قال الشيخ أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقىّ الإصفهانى رحمه الله .

الحماسة : الشجاعة ، والفعل منه حَمِسَ ، ورجلٌ أحْمَسُ . وكانت العرب تسمِّى قريشا : حُمْساً[(١)] لتشدُّدهم فى أحوالهم دِيناً ودُنْيا . وتسمِّى بنى عامر : الأحامِسَ ، وكأنّهم ذهبوا فى واحد حُمْس إلى أنه صِفَةٌ ، فجمعوه جَمع الصفات ، كما يقال أحْمَرُ وحُمْرٌ ، وأشقر وشُقْرٌ ، وذهبوا فى واحد الأحامس إلى أنه اسم ، فجمعوه جمع الأسماء كما يقال أحمد وأَحَامِد ، وأجْدَل وأجادِلُ . وهم يُخْرِجون الأسماء إلى باب الصفات كثيراً ، فيقولون : بنو فلان الذوائب لا الذنائب ، والمراد هم الأعالى لا الأسافل ، كما يُخْرِجون الصفات إلى باب الأسماء كثيراً . وعلى هذا الأساود : الحيّاتُ ، والأَداهِمُ : القُيُود : قال :

* أَوْعَدَنِى بالسِّجن والأداهِمِ[(٢)] *

والأباطح : جمع الأَبطح . وكلُّ ذلك صفات أُخرجتْ إلى باب الأسماء .

وقال الدُّرَيْدى[(٣)] : حَمِسَ الشرُّ : اشتدَّ . والحُمْسُ : قريش ، وكِنَانةُ وخُزَاعةُ ، تَحَمَّسوا فى دينهم . وبنو حِمَاسٍ : قبيلة من العرب ، وكذلك بنو حُمَيْسٍ[(٤)] . وقوله :

---

(١) م : « الحمس » .

(٢) نسبة العينى (٤ : ١٩٠) للعديل بن الفرخ ، قاله حين هجا الحجاج فتوعده . وبعده :

* رجلى فرجلى شثنة المناسم *

(٣) يعنى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد .

(٤) انظر جمهرة ابن دريد (٢ : ١٥٦) .

١

قال بعض شعراء بَلْعَنْبَر(١) :

المراد به بنى العنبر ، ولهذا وجب ألاَّ يصحبَ الـكسرة التى فى الراء التنوين . وإنّما حذِف النون من « بنى » لاجتماعه مع اللام من العنبر ، وتقاربهما فى المخرج . وذلك لأنّه لما تعذّر الإدغام فيه جُعِلَ الحذف بدَلاً من الإدغام . وإنّما تعذَّر الإدغام لأن الأول متحرِّك والثانى ساكن سكوناً لازما ، فلما كان من شرط المُدْغَم تحريك الثانى إذا أُدْغِمَ الأولُ فيه ، وكان لام التعريف ساكناً سكونا لازما ، جُعِلَ الحذْفُ لـكونه مؤدياً إلى التخفيف المطلوب من الإدغام بدلاً لمّا تَعَذَّرَ هو . ولا يلزم على هذا أن يُحذفَ النون من بنى النّجار لأنّ اللام قد أُدْغِمَ فى النون التى بعده ، فلا يمكن تقدير إدغام النون التى قَبْلَه فيه ، حتى إذا تعذَّر جُعِل الحذْفُ بَدَلا من الإدغام ، بدلالة أن ثلاثة أشباه(٢) لايصح إدغامُ بعضها فى بعض ، ومما يُشْبِهُ هذا من اجتماع المتجانسين من كلمتين واستعمال الحذف فى أحدها بدلاً من الإدغام قولهم عَلْمَاءِ بنو فلان(٣) ، والمعنى على الماء . ومما يُشْبِهه لـكنهما التقيا فى كلمة واحدة ، قولهم ظَـلِلْتُ ومَسِسْتُ يقال منهما ظَلْتُ ومَسْتُ ، وإن شئت ظِلْتُ ومِسْتُ . تُلْقَى حركة المحذوف على فاء الفعل . قال الله تعالى : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَـكَّهون﴾ . وإنّما تعذر الإدغام ها هنا لأنّ لامَ الفعل فى مثل هذا المكانِ إذا اتَّصل به ضميرُ الفاعل يُسكّن البتّة ، فلما

(١) فى شرح التبريزى : « واسمه قريط بن أنيف » ، وفى التنبيه لابن جنى : « وقد تروى لأبى الغول الطهوى » .

(٢) فى النسختين : « أشياء » ، وكذا النص عند التبريزى . والوجه ما أثبتنا .

(٣) شاهده ما أنشده التبريزى وابن جنى فى المبهج من قول قطرى :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وعجنا صدور الخيل نحو تميم

لزمه السكون لم يصحّ إدغام العين فيه ، فلذلك حُذِف .

والعَنْبَرُ في اللغة : التُّرْسُ والطِّيبُ . وعَنْبَرَةُ الشتاءِ : شِدَّتُهُ . وعنبرة القوم : خلوص أنسابِهم . ويقال : رأيته بهذا البلد عَنْبَرِيًّا . يُضرَبُ به مثلاً في الهداية . وبنو العنبر أَهْدَى قَوْمٍ . ويمكن تقدير النون زائدة فيه، فيكون فَنْعَلا من عَبَرْتُ، كأنه بحُسنِ تأتِّيهِ للاهتداء يَعْبُرُ الطُّرُق . ومنه قيل في البعير : [هو[1]] عُبْرُ أسفار .

١ ـ لَوْ كُنْتُ مِن مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلِي بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا[2]

مَازِنُ بن مَالِكِ بن عَمْرِو بن تَمِيم ، هُمْ بَنُو أَخي العَنْبَرِ بن عَمْرِو بن تميم ، وإذا كان كذلك فمَدْح هذا الشاعرِ لهم يَجْرِي مَجْرَى الافتخار بهم ، وفي بني مازن عصَبِيّةٌ شديدة قد عُرِفوا بها وحُمِدوا من أجلها ، ولذلك قال بعض الشعراء[3] موبِّخا لغيرهم :

فَهَلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْيَ عُصْبَةِ مَازِنٍ وهل كُفَلائِي في الوفاءِ سَواء
كأَنَّ دنَانِيرًا على قِسَماتِهِم وإنْ كان قد شَفَّ الوجوهَ لقاء

وقصد الشاعرِ في هذه الأبيات عندي إلى بَعْث قومه على الانتقام له من أعدائه ومُهْتَضِميه ، وتهييجهم وهزِّهم ، لاذَمِّهم . وكيف يَذُمُّهم ووبالُ الذمّ راجع إليه ؟ ! لـكنّه في هذا المعنى سالك لطريقة كَبْشَةَ أخت عَمْرِو بن مَعْدِيكَرِبَ في قولها :

---

(١) التكملة من م .

(٢) في شرح التبريزي : « وزعم أبو محمد الأعرابي أن الرواية :

. . . لم تستبح إبلي بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا

قال : « الشقيقة هي بنت عباد بن زيد بن عمرو بن ذهل بن شيبان » ثم ذكر أن اللقيطة هي نضيرة بنت عصيم بن مروان بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدى بن فزارة » .

(٣) هو محرز بن مكعبر الضبي ، كما في اللسان (قسم) ، وستَرِد هـذه المقطوعة في الحماسة برقم ٦١١ .

أرْسَلَ عبدُ الله إذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قومِهِ لا تعقلُوا لَهُمُ دَمِي

ألا تَرى أنّها قالت فى جملة هذه الأبيات :

وَدَعْ عَنْك عَمْراً إن عَمْراً مُسَالِمٌ وهَلْ بَطْنُ عَمْرٍ غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

فلا يجوز أن يُتوهم أنها كانت تهجوأخاها عَمْراً أو تَنْسُبه إلى العَجْزوالتقصير فى طلب ثأر أخيه ، وعمرو هو الذى كان يُعَدُّ بأَلْفِ فَارِسٍ ، ولكن مرادها بَعثُهُ وتهييجُه . وهذا كما يقول العبد لمولاه والغلام لصاحبه وقد لحقتهما هَضِيمة من أجنبىّ : لو كُنّا فى خدمه فلانٍ عمِّكَ أو أخيك لما جَسَر هذا أن ينالَنا بمكروه ! ولا يجوز أن يقال إنهما هجوَا سيّديهما أو فضَّلا غيرَهما عليهما ، ولكن المراد تحريكُهُما لهما ، وإذا كان الأمر على هذا فمن الظاهر بُطلانُ قولِ من يذهب إلى أنّ هذا الشاعر هجا قومَهُ ومَدَح بنى مازن يؤكِّدُ ما قلته قوله :

يَجْزُونَ من ظُلْمِ أهل الظلْمِ مَغفِرَةً ومن إساءةِ أهْلِ السُّوءِ إحْسانا

لأنه لا يقال لمن يُمْسِكُ عجزاً عن الانتصار إنه غَفَرَ ، ولا لمن يقدر على جزاء الإساءة إنه اختار الإحسان . فإن قيل : أليس قد قال :

* لَيْسُوا من الشَّرِّ فى شىء وإنْ هَانَا *

وقال أيضا :

فليْتَ لى بِهِمُ قَوْمًا إذا رَكِبُوا شَنُّوا الإغارةَ فُرْسَانًا ورُكْبَانا

قلت : ليس يزيدُ شىء مما قاله على قول كبشة :

* ودَعْ عنك عَمْرًا إنَّ عَمْراً مُسَالِمٌ *

وإذا كانت أبياتُها باتّفاق من أصحاب المعانى لا تكون هجواً ، فكذلك أبيات هذا العنبرىّ . ومما يشهد للطريقة التى سلكناها ويؤيدها ، أنّ فى جملة أبياته التى وصف فيها قومه :

يُخْبُونَ نِيرَانَهُمْ حتى إذا خَمَدَت شَبُّوا لِمُوقِدِ نار الحرْبِ نيرَانَا(١)

(١) هذا البيت مما لم يختره أبو تمام من هذه القصيدة .

وهذا المعنى هو مثل ما افتخر به غيره فى صفات نفسه فقال :

أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[(١)] فكيف الفِرارُ إذا ما اقتربْ

بل الذى ذكره العنبرى أزْيَد ، لأنه وصفهم بالاحتمال والصبر ما أمكن ، فإذا اهتاجوا زادُوا على كل هائج . ألا ترى أنه قال :

* شَبُّوا لِمُوقِد نار الحرب نيرانا *

ومعنى البيت لو كنت مازنياً لم تُغِرْ بنو اللَّقِيطةِ على إبلى .

ولَقِيطَةُ أُلْحِقَ بها الهاء وإن كان فَعِيلاً فى معنى مَفْعُولَةٍ ، لأنه أُفْرِدَ عن الموصوف به وجُعِل اسما . وهذا كما يقال النَّشِيطَةُ[(٢)] والذَّبيحَةُ ، والبَنِيَّةُ فى الكعبة .

فأما الاستباحة ، فقد قيل هى فى معنى الإباحة ، وقد قيل : إن الإباحة هى التَّخلِيَةُ بين الشىء وبين طَالِبِهِ ، والاستباحة اتخاذُ الشىء مباحاً للنَّفس . وكأن الأصل فى الإباحة إظهار الشىء للمَناظر ليتناوَلَه مَن شاء ومنه بَاحَ بسرِّه بَوْحاً وبُؤُوحاً . والمَازِنُ فى اللغة : بَيض النَّمْل ، ويقال : هو يَتَمَزَّن على أصحابه ، كأنه يَتَفَضَّل عليهم . وذُهْل من ذَهَلْتُ عن الشىء .

٢ـ إذًا لَقَامَ بِنَصْرِى مَعْشَرٌ خُشُنٌ عند الحَفِيظَةِ إنْ ذُو لوثَةٍ لانَا[(٣)]

---

(١) الرخو : ما فيه رخاوة وسهولة . وفى م : « رخوة » .

(٢) النشيطة من الإبل : التى تؤخذ فتستاق من غير أن يعمد لها . والأوفق كما ورد فى م « النسيكة » ، وهى الذبيحة التى تذبح بمكة .

(٣) نص التبريزى على أن الرواية ضم اللام فى « لوثة » . قال : « ومن روى اللوثة بالفتح قال : إذاً لان ذو القوة ، وكان أبلغ فى المعنى » . يذهب التبريزى إلى أن هناك فرقا بين الضم والفتح ، وهو قول لبعض اللغويين ، وزعم أن معناها بالضم الضعف ، وبالفتح القوة والشدة . والأصح أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو الحمق والاسترخاء والضعف ، وسيأتى للمرزوقى كلام فى هذا .

اللام فى «لقام» جوابُ يمينٍ مضمرة ، والتقدير إذاً والله لقام [بنصرى[١]] .
فإن قيل : فأين جواب لو كنت ؟ قلت : هو لم تستبح إبِلى . وفائدة « إذاً » هو أنّ هذا أخرجَ البيت الثانى مُخْرَج جواب قائلٍ قال له : ولو استباحوا ماذا كان يفعل بنو مازن ؟ فقال : إذاً لقام بنصرى مَعْشَرٌ خُشُن . قال سيبويه : « إذاً جوابٌ وجزاء » ، وإذا كان كذلك فهذا البيت جواب لهذا السائل وجزاء على فعل المستبيح . ويجوز أن يكون أيضاً إذاً لقام جوابَ « لو » ، كأنه أجيب بجوابين . وهذا كما تقول : لو كنتَ حُرًّا لاستقبحت ما يفعلُه العبيدُ ، إذاً لاستحسنت ما يفعله الأحرار[٢] . وقوله « إنْ ذو لوثة » يرتفع ذو عند حُذَّاق النحويِّين بفعل مُضمَرٍ ، الفعلُ الذى بعدَه تفسيره ، وهو لاَنَ . والتقديرُ إن لاَنَ ذو لُوثَةٍ لانا . وإنّما قالوا هذا لأنَّ « إنْ » لمَّا كان شرطاً كان بالفعل أولى ، وعملُه الجزم فيجب أن لايفارِقُ معمولَهُ فى اللفظ والتقدير . وليس هذا موضعَ الكلام على من يجعل « ذو » بعد إنْ وما أشْبَهَهُ مبتدأ . ومعنى البيت إذاً والله لقامَ بنَصْرِى ، أى لتكفَّلَ به قومٌ أشدَّاء عند الغضبِ ، إذَا الضعيفُ لاَنَ .
ويقال : قام بالأمر ، أى تكفل به . وهو القائم والقيِّم . وقام بالقِسْطِ والعَدْلِ فى الرعيَّةِ ، وقامَ عليه إذا ساسَه ووليه ، ومنه القيُّومُ والقَيَّامُ[٣] فى صفات الله تعالى ، وقولُه : ﴿إلاَّ ما دُمْت عليه قائماً﴾ أى قاهراً . وأقمتُ الرُّمْحَ فقامَ ، بمعنى قوَّمْتُه فتقوّم . وقولُه « إنْ ذو لُوثَةٍ » تعريضٌ منه بقومِه ليَغْضَبوا ويهتاجُوا لنُصْرَتِه . وهو فى البعثِ والتهييج أحسن من التصريح ، كما أنه فى الذَّمِّ والهجو

(١) هذه من ل .

(٢) ما بعد هذه الكلمة إلى كلمة « والتقدير » تجده بلفظه عند التبريزى بدون تنبيه على مأخذه .

(٣) أصله « قيوام » على فيعال كما ورد فى اللسان : ومثله « صياغ » من الصوغ . وقد قرأ بها عمر بن الخطاب فى سورة آل عمران : « الله لا إله إلا هو الحى القيام » . انظر كتاب المصاحف للسجستانى ٥٢ بتحقيق المستشرق أرثر جفرى .

كذلك . وهذا بعضُ الناس رواه «إنْ ذو لَوْثَةٍ» وزعم أنَّ ذو لُوثَةٍ ليس بجيّد لأن الضعيف أبدًا مَهِينٌ ، والواجب أن يقول إن القويَّ لانَ ، واللَّوْثَةُ هى القوّة . والرِّواية الصحيحة هى ضم اللام من اللُّوثَة(١) . والفائدةُ ما ذكرت من التعريض بقومه . ولأَنْ يكون طَرَفَا البيت متناولَين لمعنيين متقابلين ، أحسن من أن يكونا مفيدَين لمعْنًى واحد . و «المَعْشَرُ» : اسم للجماعة ، لا واحد له من لفظه . وقال الخليل : هو اسم لجماعةٍ أمْرُهُم واحد . ويقال جاءوا مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرةً عَشَرةً . و «خُشُنٌ» : جمعُ خَشِنٍ وأَخْشَنَ . و «الحفيظةُ» : الخَصْلَةُ يُحفَظُ لها ، أى يُغضَبُ . وقيل هى الحَمِيّة ، وفى المثل : «الحفائظُ تُحلِّلُ الأحقادَ» وقيل أيضاً «أهل الحفائظِ أهل الحِفاظ» . وذلك أن ذا الأَنْفِ يحترِسُ من العارِ ، فلا يزال يَتحفّظ ويُحافِظ حتى يَسْلَمَ منه . وكأنّ الأصل فى الكُلِّ الحِفظُ الذى هو نقيض النِّسيان . وقد طابق الخشونة باللين فظهرت الصنعةُ به ، وجادَ البيتُ له ، كأنه(٢) قال معشَرٌ خَشِنُون عند الحفيظة إن كان ذوُو اللُّوثةِ ليِّنين عندها .

٣ـ قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أبْدَى ناجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إليهِ زَرَافاتٍ وَوُحْدانا

أراد أن يَصف بنى مازن بما يهتاج له قومُه فينصرونه ، فقال : هم قوم إذا ظهر لهم الشَّرُّ واشتدّ سارعوا إليه غير متوقِّعِين(٣) لتجَمُّع ، ولا مُعَرِّجين على تَأَهُّب ، لكنّهم يتبادرون أفراداً وثُبَاتٍ ، وأشتاتاً وجماعاتٍ . وإبداء النّاجذِ — وهو ضِرس الحِلْم — مَثَلٌ لاشتداد الشرّ . ومثله قولُ الآخر :

فَمَنْ يَكُ مِعْزالَ اليدينِ ، مكانُهُ إذا كَشَرَتْ عن نابِها الحربُ خامِلُ

---

(١) انظر ما سبق من التعليق عند إنشاد البيت .

(٢) فى الأصل : «أنه» ، وأثبتنا ما فى م .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : «متوقفين» .

فأمّا قول عَنترَة :

* إذْ تَقلِصُ الشفتانِ عَنْ وَضَحِ الفَمِ[١] *

وقول الأَعْشَى :

* سَعَةُ الشِّدْق عن النَّابِ كَلَحْ[٢] *

وقول الآخر :

* وقَدْ أَسْلَمَ الشَّفَتَانِ الفَا *

فإنما هو صفةٌ للمُصطلى بنار الحرب عند اشتداد الأمر عليه . ومثلُه لبعض البلغاء : « صارَ الأَكَسُّ كالأَرْوَق ، والمُحتال كالأحمق ؟ وذو البصيرة كالأَخْرَق[٣] » . ويقال : عَضَّ على ناجِذِه[٤] ، إذا صَبَرَ على الأمر . ونجّذَتْهُ الأمورُ : أحكمَتْه . قال الشاعر[٥] :

* ونَجَّذَنِي مُدَاوَرَةُ الشُّؤونِ *

ويقول الرجل إذا أراد أن يتشدّد على صاحبه : لأُرِيَنَّكَ نَاجِذِي ! والمعنى أنه يَكْشِرُ له ويكْلَحُ فى وجهه حتّى يبدوَ ناجِذُهُ . ويقولون : « خِلْتُهُ لِعُبُوسه يبتَسِمُ[٦] ، ولإقدامِهِ يَنْهَجِمُ[٧] » . وقال بعضهم: النواجِذُ : الضَّوَاحِك، واحتجّ بحديث النبي صلى الله عليه وسلم « أنّه ضحك حتى بَدَتْ نواجذُه » . قال :

---

(١) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى فى الضحى *

(٢) صدره فى الديوان ١٦١ : * وله المقدم فى الحرب إذا *

(٣) الأكس : القصير الأسنان الصغيرها . والأروق : الطويل الأسنان .

(٤) م : « ناجذيه » .

(٥) هو سحيم بن وثيل الرياحى ، كما فى اللسان (نجذ) والأصمعيات . وصدر البيت :

* أخو خمسين مجتمع أشدى *

(٦) فى النسختين : « يتبسم » ، والتصحيح بعده يقتضى ما أثبتنا ليصلح السجع .

(٧) كذا على الصواب فى م . يقال انهجم الخباء : سقط . وفى الأصل : « يتهجم » ، ولا أصل له فى اللغة . وعلى هذا فالوجه أن يكون الفعل قبله : « يببسم » لكنه ورد كذا فى النسختين .

وأقاصى الأسنان لا يُبْدِيها الضَّحِك . والصحيحُ الأوّل ، فأمّا الخبَرُ فمحمولٌ على المُبَالَغَةِ وإنْ لم تَبْدُ النواجِذُ .

وجواب « إذا » طاروا . و « وُحْدَانًا » هو جَمْعُ واحد ، وواحِدٌ صِفَةٌ ، كصاحب وصُحْبَانٍ ، وراعٍ ورُعْيَان . ويقال طِرْتُ إلى كذا ، إذا أسْرعتَ إليه ، وطِرْتُ بكذا ، أى سبَقْتُ به . والزَّرَافاتُ : الجماعاتُ ، واشتقاقُه من الزَّرْف ، وهو الزِّيادة على الشيء . ويقال زَرَفْتُ القَوْم قُدَّامِى ، أى قَدَّمْتُهُم فِرَقًا . وحُكِىَ فى الزَّرافَة تشديد الفاء ، يقال جاء القوم بِزَرَافّتِهِم ، أى بجماعتهم ؛ وهو غريب . والمعنى أنهم لحرصهم على القتال وجُرْأتهم ، لا ينتظِرُ بَعْضُهُم بَعْضاً ، لكنّ كُلاًّ منهم يعتقد أن الإجابة تعيّنت عليه إذا تشدّد الشرُّ لهم . وفى طريقته قول بعضِ الشعراء[1] :

قَوْمٌ إذا هَتَفَ الصَّرِيخُ رأيتَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافِعِ[2]

سَافِعٌ : آخذ بناصية فَرَسِهِ . ومنه قولُ الله تعالى : ﴿ لنَسفَعًا بالنّاصِيَة ﴾ .

وقول الآخَر[3] :

وكنتُ إذا جارى دعَا لمضُوفَةٍ أشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئْزرِى

٤ـ لا يَسْأَلُونَ أخاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فى النائبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا

الأصْلُ فى النُّدْبة — وإن اشتهرت ببكاء الأموات وقولِهم عنده : وافُلاَناه : — الدُّعَاء ، وتوسَّعُوا فيه فقالوا : نُدِبَ فُلاَنٌ لكذا وكذا ، إذا نُصِبَ له ورُشّحَ للقيام به . ويقولون : تكلَّمَ فلانٌ فانتدَبَ له فُلاَنٌ ، إذا عارضَهُ . والشاعر يقول : هؤلاء القوم ، يعنى بنى مازن ، لحسن محافظتهم وقوّة تناهيهم

(١) هو عمرو بن معديكرب ، كما فى تفسير أبى حيان (٨ : ٤٩١) .

(٢) رواية أبى حيان : « إذا كثر الصياح » .

(٣) هو أبو جندب الهذلى ، كما فى اللسان (نصف) وديوان الهذليين (٣ : ٩٢) .

في نُصْرَةِ المُنْتَسِبِ إليهم والمُعَلِّق(١) حَبْلَهُ بحَبْلِهم ، لا يسألونَ الواحد منهم إذا دَعَاهُم حُجَّةً على دعواه ، ولا يراجعونه في كيفية ما ألجأه إليهم ، لكنهم يُعَجِّلون الإغاثة له . وهذا تعريضٌ منه بما لحِقَهُ من قومه أو رآه من عادتهم عند الاستغاثة بهم . والعرب تقول : يا أخا قريش ؛ والمعنى يا وَاحِدًا منهم . ومِثْلُه :

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يَسْألُوا من دَعَاهُمُ   لأيّةِ حَرْبٍ أمْ بأيِّ مكانِ(٢)

وقد وَصَفَ بني مازنٍ غيرُ واحدٍ من الشعراء بمثل ما وصفهم هذا الشاعر ، فمن ذلك قول بعضهم :

نَفْسِي فِداءُ ابنَي مَازِنٍ   من شُمُسٍ في الحَرْبِ أبْطَالِ

وقول الآخر(٣) :

فَهَلَّا سَعَيْتُمْ سَعْيَ عُصْبَةِ مازِنٍ   وهَلْ كُفَلَائِي في الوَفَاءِ سَوَاءُ

٥ — لَكِنَّ قَوْمِي وإنْ كانوا ذَوِي عَدَدٍ   لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ في شَيْءٍ وإنْ هَانَا

رَجَع إلى صفة قومه بما يأنفون منه عنده ؛ وتَدْخُلُهم الحميّة لدى الإصْغاء إليه ، وليس قَصْدُهُ ذَمّهم فقال : لكنّ قومي وإن كان فيهم كثرة عَدَدٍ وعُدَّةٍ ليسوا من دَفْع الشر وإنكاره ، وقَصْدِهِ وارتكابه في شيء ، وإن كانَ فيه خِفةٌ وقِلّةٌ . وقد قابَلَ الشَّرْطَ بالشَّرْطِ في الصّدْرِ والعَجُزِ ، وطَابَق العَدَدَ والكثرةَ بالهَوْن والخِفّة في هذا الكلام ، ويريد أن يَصِفَهُم بأنهم يؤثرون السلامَةَ والعَفْو عن الجُناة ما أمكن ، ولو أرادوا الانتقام لقَدَرُوا بعَددهم وعُدَّتهم ولكنَّ المراقَبَةَ والتقوى تدعُوهُمْ إلى إيثارِ الحُسْنَى .

---

(١) كذا ضبط في الأصل . وفي م : « المعلق » بسكون العين وتخفيف اللام المكسورة ، وكلاهما بمعنى واحد . اللسان (علق) .

(٢) لوداك بن ثميل المازني ، سيأتي في المقطوعة ١٨ .

(٣) هو محرز بن مكعبر ، كما سبق في حواشي ص ٢٣ .

٦ـ يَجْزُونَ من ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ومن إساءةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

روى بعضهم « من ظَلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ » والظَّلْمُ بالفَتْح المصدر وبالضّم الاسم . وهذه الرواية عندى أحسن . وقد بيّنْتُ ما فى المغفرة والإحسان من الدلالة على أنهم كانوا يَقْدِرُون على إيثار ضدِّها . والظُّلْم : انتقاص الحظّ والنصيب . وقيل هو وضْع الشىء فى غير موضِعِه ، ونقيضُهُ العَدْلُ . ويَنتصب إحساناً بيَجْزُونَ مضمَرًا ، كأنه قال : ويَجْزُون من الأساءة إحسانا . وجَازَ حَذْفُهُ لأن الفِعْلَ قَبْلَه يَدُلُّ عليه .

٧ـ كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِخَشْيَتِهِ سِوَاهُمُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنسَانَا[1]

الخَشْيَةُ والخَشْىُ والمَخْشَاةُ : مصدر خَشِىَ . ويقولون : هذا المكان أَخْشَى مِن ذاك ، وهو نادرٌ لأنّ المكانَ يُخْشَى فهو مفعول . ورجُل خَشْيَانٌ وامرأةٌ خَشْيَانَةٌ . وقولُه « سِوَاهم من جميع النّاسِ » هو استثناء مَقدَّمٌ ، ولو وَقع مَوقِعَهُ لكان الكلامُ لم يَخْلُق لخشيته إنساناً سواهم ، فكانَ يجوزُ فى سواهم البَدَلُ والاستثناء والصِّفةُ ، فلمّا قُدِّمَ بَطَلَ أن يكُونَ بدلاً وصِفةً لأنهما لا يتقدّمان على الموصوف والمبدل منه ، فبقِىَ أن يَكونَ استثناءً . وقد نَبَّهَ بهذا الكلام أنّ احتمالهم لاحتسابِ الأَجْرِ على زَعْمِهم ، وإبقاءهم فى الانتقام لِخَشْيَةِ فواتِ الذُّخْرِ فى دعواهم ، فكأنّ الله لم يَخْلُقْ لخوفِهِ غيرَهُمْ .

(١) بعده بيت ثامن لم يروه المرزوقى ، ورواه التبريزى ، وهو :

فليتَ لى بهمُ قوماً إذا ركبوا شَدُّوا الإغارةَ فُرساناً وركبانا

قال التبريزى فى تفسيره : « ويروى : شنوا الإغارة ، أى فرقوها . يقال شن عليهم الغارة بالشين معجمة . وسن عليه درعه بالسين ، إذا صبها عليه . ومن روى : شدوا الإغارة ، فليس الإغارة مفعولا به ولا انتصابها على ذلك . لكن انتصابها انتصاب المفعول له ، أى شدوا للإغارة كقولك حملوا للإغارة فرساناً وركبانا ، أى فى هذه الحالة . وهو كقول الآخر :

* شددنا شدة فقتلت منهم *

أى حملنا حملة . وشدت هذه غير متعدية ، وإذا أريد تعديتها وصلت بعلى . قال :

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها » .

٢

وقال شَهْلُ بن شيبانَ الزِّمّانى[١] :

ويُلقَّبُ بِالفِنْدِ . والفِنْدُ فى اللغة : القطعة العظيمة من الجبَل ، وجمعه أَفْنَادٌ . قال الدُّرَيْدِى : لُقِّب به لعظم شخصِه . قال : وهو أحد الفرسان . وقال غيره : لُقِّب به لأنّه قال لأصحابه فى يومِ حَرْبٍ : « استَنِدُوا إلىّ فإنّى لَـكُمْ فِنْد » .

١ — صَفَحْنَا عن بَنى ذُهْلٍ   وقُلْنا القَوْمُ إخْوَانُ[٢]

صَفَحْتُ عنه : عَفَوْتُ عن جُرْمِه . ويقال أعرضتُ عن الأمرِ صَفحًا ، إذا تركتهُ . وقد يقال : أَصْفَحْتُ عنه ، كما يقال أَضْرَبْتُ [عنه[٣]] . ويقال : أَبْدَى لى صَفْحَتَهُ ، إذا مكّنك من نفسه . يقول عفَوْنا عن جرم هؤلاء القوم ، وراعَيْنا من الأحوال المتواشِجة بيننا وبينهم ، ما حَمَلَنا على الإغضاء على قَبيحٍ يتّفق منهم ، والتجاوزِ عن هَفْوَةٍ تَحْصُل مِن جهتهم ، وقلنا : إنّ ما بيننا وبينهم من الاخوّةِ يقتضى الإبقاء على الحال معهم ، وانتظاراً لفَيْئةٍ[٤] تكون منهم . وحقيقةُ صَفَحْنا عن بنى ذُهْلٍ : أعرضْنا عنهم : ولَّيْنَاهم صَفْحةَ أعناقِنا ووجوهِنا ، وهى جانبُها ، فلم نؤاخذْهم بما كان منهم . وقال فى هذا المعنى ضربْنَا عنهم صَفْحًا ، وفى القرآن : (أفَنَضْرِبُ عنكم الذِكْرَ صفحًا) .

٢ — عَسَى الأيامُ أن يَرْجِعْ   نَ قَوْمًا كالذى كانوا

إنّما نَـكَّر قوما لأنَّ فائدتَه مثل فائدة المعارف ، ألا ترى أنه لا فَصْل بين

(١) هو شاعر جاهلى قديم ، وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة (٢ : ٥٨ — ٥٩) والأغانى (٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤) واللآلى ٥٧٩ .

(٢) التبريزى : « ويروى : * صفحنا عن بنى هند * وهى هند بنت مر بن أد أخت تميم ، وهى أم بكر وتغلب ابنى وائل . فيقول : « صفحنا عن بنى تغلب لأنهم إخوتنا عطفتنا عليهم الرحم » .

(٣) هذه من م .   (٤) الفيئة : الرجعة .

أن تقولَ عَفَوْت عن زَيْدٍ فلعلّ الأيام ترُدُّ رَجُلاً مثل الذى كان ، وبين أن تقولَ فلعلّ الأيام تَرُدُّ الرجلَ مثلَ الذى كان؛ لأنك تريد فى الموضعين به رَجُلاً أو الرَّجُلَ . والمعنى فَعَلْنا ذلك بهم رجاءَ أن تَرُدَّهُم الأيامُ إلى أحْسَنِ ما كانوا عليه من قَبْلُ . وعَسَى من أفعالِ المقارَبَةِ . وأن يَرْجِعَنْ فى موضع خبر عسى ، ولو قال عَسَى أن يَرْجِعَ الأيامُ قوما لكانَ أن يرجعَ فى موضع فاعل عَسَى وكان يَكْتَفِى [به(١)] ؛ وذلك لأنّ عَسَى لمقاربة الفعل ، والفعل لا بُدّ له من الفاعل ، فإذا تقدّم الفِعْلُ مع أن وتبعه الفاعل فقد حصل ما يطلبه ، فإذا وليه الاسم بقى ينتظر الفعل وإن ارتفع ذلك الاسم به ، فيجرى الفعل مع أن بعده مجرى خبر كان بعد اسم كان . ومعنى يَرْجِعَنْ : يَرْدُدْنَ ، وهو باب فَعَل وفَعَلْتُه . يقال رَجَعَ فلانٌ رجوعا ومَرْجَعًا ورُجْعَى ورُجْعَانًا ، ورَجَعْتُهُ رَجْعًا . ومعنى يرجعن قوماً يَرْدُدْن بأمرهم أمرَ قوم ، وبائتلافهم ائتلاف قوم . فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه . وخبر كان محذوف كأنه قال كالذى كانُوه ، أى كانوا عليه قبلُ من الائتلاف والتوادّ والاتفاق . والضمير الذى أظهرناه فى « كانوه » هو الذى تصحّ الصلة به ، لأنّ الموصول لابد من أن يكون فى صلته ضمير يعود إليه إذا كان اسماً ، والذى ليس يرجع إليه من كانوا شىءٌ إلا ما أبرزناه من الضمير . ومن جوّز حذف الجارّ والمجرور من الصفة فى نحو قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عن نفسٍ شيئا ﴾ ويقدّر فيه أنّ الكلام لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ، لا يَسُوغُ له أن يقدِّر فى الصلة أيضا كذلك . وإذا كان الأمر على هذا فلا يجوز أن يكون التقدير يَرْجِعَنَ قَوْمًا كالذى كانوا عليه ، لأن مثل عليه لا يجوز حذفه من الصلة ، لا تقولُ الذى مَرَرْتُ جالسٌ، وأنت تريدُ مررتُ به ، والذى دَخَلتُ منطلقٌ ،وأنت

(١) هذه من م .

تريد الذى دخلت عليه . وبمثل هذا توصَّلَ مَن زعم فى الآية أنّ التقدير : واتَّقُوا يومًا لا تجزيه نفس عن نفس شيئا ، لأنه قال : الصفة كالصّلة ، فكما لا يجوز حذف فيهِ وأشباهه من الصّلة ، كذلك لا يجوز حذفها من الصّفة ، فاعلمْه . ويجوز أن يكون قوله كالذى كانوا ، أراد « كالذين » كانوا ، وحذَف النون تخفيفا ، كما قال(١) :

إنّ الَّذِى حانت بفَلْج دماؤهم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالِدِ(١)

فيكون المعنى يَرجِعْن بهم قوماً كالذين كانوا من قبل . وفى هذا الوجه يجوز أن يُجْعَل « الذى » للجنس ، كما قال الله تعالى : ﴿ والذى جَاء بالصِّدقِ وصَدَّق به ﴾ ثم قال ﴿ أولَئِكَ هم المتَّقُون(٢) ﴾ ، والفصل بين هذا الوجه وبين الوجه الأوّل أنَّه أمَّل فى الوجه الأول أنَّهم إذا عَفَوا عنهم أدّبَتْهُم الأيام وردّت أحوالهم فى التَّوادِّ والتّحاب كأحوالهم فيما مضى ، وأزالت من فسادِ ذات البين ما اعترض بسُوء عشرتهم . وفى الوجه الثانى أمَّلَ أن ترجِـعَ الأيامُ أنفسَهُم إذا صفحوا عنهم كما عُهِدَتْ : سلامةَ صدورٍ ، وكَرَمَ اعتقادٍ وعُهُود .

٣ — فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وهْوَ عُرْيَانُ

فائدة أمسَى وأصبح وظَلّ وبات فى مثل هذا المكان على حدِّ الفائدة فى « صار » لو وَقَعَ موقعها ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأُنثَى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ، والبِشارة بالأنثى تقع ليلاً ونهارا . وكذلك تقول : أصبحوا خاسرين وأمسَوْا نادمين ، وإن كانوا فى كلِّ أوقاتهم على ذلك . « وَلَمّا » عَلَمٌ للظرف ، وهو لوقوع الشىء لوقوع غيره ، ولهذا لا بدَّ له من جواب . ويقال صَرَّحَ الشىء إذا كشف عنه وأظهره ، وصَرَّح هو إذا انكشف(٣) . ومثله بيَّن

(١) البيت للأشهب بن رميلة ، كما فى البيان (٤ : ٥٥) والخزانة (٢ : ٥٠٨) .
(٢) هم المتقون ، من م .
(٣) م : « بمعنى انكشف » .

الشيء وبيِّن هو، أى تبيَّن، وفى المثل « قد بَيَّنَ الصُّبحُ لذى عينين ». وفَعَّلَ بمعنى تفعّل واسعٌ، يقال وَجَّهَ بمعنى توجَّه، وقَدَّم بمعنى تَقَدَّمَ، ونبَّه بمعنى تنبه، ونكَّبَ بمعنى تنكَّبَ. فيقول: لمّا ظَهَرَ الشَّرُّ كلَّ الظُّهور وصار بحيث لا يستُره شيء ولم يبق بيننا وبينهم سِوَى الصَّبر على الظلم الصريح. والمعنى أنهم لمّا تجاوزُوا الأحوالَ المتشابكة، والأخْذَ بالإنصاف والمَعْدِلة، إلى استعمال الظُّلم ورَفْع الحِشْمَةِ، حينئذ جازيناهم بمثل ما ابتدءونا. وذكر العُريَانِ مَثَلٌ لظُهور الشّر. وقد اشتمل هذا الكلام على تفسير البيت الذى يتلوه، وهو قوله :

٤ — ولم يَبْقَ سِوَى العُدْوَا نِ دِنَّاهُم كما دَانُوا

العُدْوان والعَدَاء والعَدْوَ[1] : الظُّلْم. وأما قوله دِنّاهُم كما دانوا، والأول ليس بجزاء، فهذا لميلهم إلى المطابقة والموافَقة، وإخراجِ اللفظ فى مِعْرَض صاحبه[2] ليُعْلَمَ أنّه جزَاؤه على حَدِّه وقَدْرِه، أو ابتداؤه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُخادِعُون الله وهو خادِعُهُم﴾ و ﴿الله يَستَهزِئُ بهم[3]﴾ ومَا أشبهه. وجواب لَمَّا صَرَّح « دِنَّاهُمْ ». وقوله فى البيت التالى[4] هو تفصيل لما أجمله قوله دِنّاهُمْ، لأنه فَسَّرَ كيف كان ذلك الجزاء. والدِّين لفظةٌ مشتركة فى عدّة معانٍ: الجزاء، والعادةُ، والطاعة، والحِسَاب. وهو هاهنا الجزاء. ويقولون : « كما تدين تُدان » أى كما تَصْنَع يُصْنَع بك.

٥ — مَشَيْنا مِشْيَةَ اللَّيْثِ غَدَا واللَّيْثُ غَضْبَانُ[5]

كرّر الليثَ ولم يأت بضميره تفخيماً وتهويلا، وهم يفعلون ذلك فى أسماء

---

(١) كذا ضبط فى الأصل، ومثله العدد بالفتح أيضاً.

(٢) يعنى ما يسميه البلاغيون المشاكلة.

(٣) قبلها : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).

(٤) م : « الثانى ».

(٥) التبريزى : « ويروى : شددنا شدة الليث ».

الأجناس والأعلام . قال عدىّ :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شىءٌ نَغَّصَ الموتُ ذا الغنى والفقيرا[١]

فيقول : سَمَيْنا إليهم مِشْيَةَ الأسد ابتكر وهو جائع ، وكَنَى عن الجوع بالغضب لأنّه يصحبه . وهذا التشبيه أخرج ما لا قوّةَ له فى التصوُّر إلى ما له قوّة فيه ، ومن روَى « عَدَا » على أن يكون من العدوان فليست روايته بحسنةٍ ، لأنّ الليث فى أكثر أحوالِهِ ظالمٌ عادٍ . والمِشْيَةُ : اسم الحالة التى يكون عليها الماشى فى مَشْيِهِ ، والمَشْيَةُ المَرّة الواحدة ، والفعل يتعدَّى إلى كلٍّ واحد منهما . والليث من أسماء الأسد . ويقال : استَلْيَثَ الرجل ، إذ اشتدّ وقَوِىَ .

٦ – بِضَرْبٍ فيه تَوْهِينٌ وتَخْضِيعٌ وإقْرَانُ[٢]

تَعَلّقَ الباء منه بمَشَيْنا ، أى مَشَيْنَا بضَربٍ فى ذلك الضرب تضعيف للمضروب به ، وتذليلٌ ولينٌ . ويجوز أن يكون المعنى فيه تَوْهين وصوتٌ فى القَطع وكسرُ العِظام وإطاقَةٌ وقوّةٌ . ويكون حينئذ « تَخْضِيعٌ » من الخَضْعَةِ والخَضِيعَةِ وهما اختلاط الصَّوت فى الحرب . ومنه خَضِيعَةُ بَطْنِ الفَرَس ، قال الأصمَعِىُّ : يقال « للسِّيَاطِ خَضْعَةٌ » لا أَدْرِى أَمِنَ الصَّوْتِ هو أو من القَطْع[٣] . وقد روى بَعْضُهم :

* والضَّارِبين الهامَ تحت الخَيْضَعَهْ[٤] *

وقال : هى السيوف . و « إقْرَانٌ » من قولهم : أَقْرَنَ فُلانٌ ، أى أطاق .

(١) انظر الخزانة (١ : ١٨٣ / ٢ : ٤/٥٣٤ : ٥٥٢) وسيبويه (١ : ٣٠) .

(٢) التبريزى : « ويروى : تخذيع ، وهو القطع . ويروى :

بضرب فيه تفجيع وتأييم وإرنان »

(٣) م : « أم من القطع » .

(٤) الرجز للبيد فى ديوانه ٧ – ٨ وأمالى ثعلب ٤٥٠ والخزانة (٤ : ١١٧) . وهى مع قصتها فى الخزانة وأمالى المرتضى (١ : ١٣٤ – ١٣٧) والحيوان (٥ : ١٧٣) والأغانى (١٤ – ٩١ – ٩٢) والعمدة (١ : ٢٧) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ . وفى الأوّل[١] إقْرانٌ من قولهم : أَقْرَنَ الدُّمَّلُ ، إذا نَضِجَ ولان . ويقال استَقْرَنَ الجبْنُ أيضا . و « تَخْضِيعٌ » من الخضوع يكونُ ، وهو الذُّل . ويقال خَضَعَ الرجل وأَخْضع ، إذا لَيَّنَ كلامَه للنِّساء . وفى الحديث : « نَهَى أن يَخْضَعَ الرجل لغير امرأتِه » ، أى يُلَيِّنَ كلامَه .

٧ ــ وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ غَــذَا والزِّقُّ ملآنُ

كرّر ذِكْر « الزِّق » كما كرر ذكر الليث فيما قبله . وهذا الوصف أبلغُ من قول النابغة :

* وطَعْنٍ كإِيزَاعِ المخَاضِ الضَوارِبِ[٢] *

وهذا التشبيهُ أبرزَ ما يقلّ فى الاعتياد فى صورة ما يَكثُر فيه : ومثلُه :

فَجَبَهْنَاهُم بِضَرْبٍ كما يَخْـ رُجُ من خُرْبَةِ المَزَادِ الماءُ[٣]

أى وبِطَعْنٍ فى اتّساعه وخروج الدم منه كفمِ الزِّق إذا سال بما فيه وهو مملوء . وغَذَا يَغْذُو غُذُوًّا[٤] ، إذا سال . وغَذَاهُ يَغْذُوه غَذْواً . والاسم الغِذاء . فأمّا قول الهُذَلىّ[٥] :

* فالطّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضّرْبُ هَيْقَعَةٌ[٦] *

فهو حكايةُ صوت الوَقْعِ ، وقوله « غَذَا » فى موضع النصب على الحال ، والأجودُ أن يُجْعَلَ « قَدْ » مُضْمَرةً[٧] .

(١) يريد فى أصل استعماله .
(٢) ويروى : «كإيزاغ» بالغين المعجمة . وصدوره كما فى ديوانه ٨ :
* بضرب يزال الهام عن سكناته *
(٣) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته . شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٦٦ .
(٤) كذا ضبط فى الأصل . وفى اللسان : « غذوا » بالفتح .
(٥) عبد مناف بن ربع الهذلى .
(٦) عجزه . * ضرب المعول تحت الديمة العضدا *
(٧) ابن جنى : « غذا حال من المضاف إليه ، وهو قليل . ويجب أن تكون قد هاهنا مرادة ، لذوقة ، أى قد غذا ، من حيث كانت قد تقرب الماضى من الحال » .

٨ — وبعضُ الحِلْمِ عند الجَهْـ ـلِ للذِّلَّةِ إذْعَانُ

يَعْتذر من تركهم التَحلُّمَ مع الأوِدَّاء والأقارب ، لَمَّا كان مُفْضِيًا إلى اكتساء ذُلٍّ ، واكتساب خُضُوعٍ وعَارٍ . والتقديرُ : بعض الحِلمِ إذْعان للذِّلَّةِ عند جَهْلِ الجاهل . وهذا إذا تُوُهِّمَ أن المُحْتَمِلَ إنما فَعلَ ما فَعَلَهُ خَوْفاً وعَجْزاً ؛ لا مَيْلا منه إلى التجاوز والإغضاء واستبقاء الأُخُوَّةِ والوِدادِ . ويقال : أَذْعَنَ لِـكذا : إذا انقاد له . ومنه ناقةٌ مِذعانٌ . وأَذْعَنَ بكذا : أقرَّ به .

٩ — وفى الشّرِّ نجاةٌ حِيـ ـنَ لا يُنجيكَ إحْسَانُ

قوله « فى الشر نجاة » أراد : وفى دفع الشرّ ، فحذَف المضاف وأقام المضافَ إليه مُقامَهُ . ويجوز أن يريدَ : وفى عمل الشر نجاةٌ ، كأنه يريدُ وفى الإساءة مَخْلَصٌ إذا لم يُخَلِّصْكَ الإحسان . وهذا مِثْلُ قولِهِم : « الطَّعْنُ يَظْأَرُ » أى يَعْطِفُ ، وكما قال زُهَيْر :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنَّهُ مُطيعُ الْعَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ[1]

وهذا الكلام يجرى منه مجرى الاعتذار مما أَجْرَى إليه مع القَوْم ، فاعْلَمْهُ ويقولون أيضا : « من لم تُقَوِّمه الـكرَامة قَوَّمته الإهانة » .

٣

وقال أبو الغُول الطُّهَوِىّ[2] :

الغول مَأخوذٌ من غَالَهُ يَغُولُهُ غَوْلاً ، إذا أهْلَـكَهُ . وهم يُسَمُّون كلَّ داهية

(١) م : « يطيع العوالى » ، وهى الرواية المشهورة .
(٢) شاعر إسلامى كان فى الدولة المروانية . الخزانة ٣ : ١٠٩ واللآلئ ٥٧٩ .

غولاً . وبذلك سَمَّوا الشيطانَ والحَيَّة[١] غُولاً . والغِيلَان عِندهم سَحَرة الجنّ . قال :

* كَمَا تَلوَّنُ فى أثوابها الْغُولُ[٢] *

١ ـ فَدَتْ نَفْسِى وما مَلَـكَتْ يَمِينِى   فَوَارِسَ صَدَّقُوا فيهم ظُنُونِى

لَفْظُه لَفْظ الخبر . والمَعْنى معنى الدعاء . يقول : تفدى نفسى مالِى أَجْمَعُ فوارس يكونون عند الظَّنِّ بهم فى الحَرْبِ ، وقد رُوى آخر البيت على وجوهٍ تتقارب معانيها . روى : « فوارسَ صُدِّقَتْ فيهم ظُنُونى » . ويكون ظنونى فى موضع رفعٍ بصُدِّقت ويُروى : صَدَّقَتْ فيهم ظُنونى » بفتح الصاد . وتضعيف عين الفعل يَدُلّ على التكثير . وظنونى يرتفع بالفعل . وتخصيص اليمين فى قوله : « وما ملـكت يمينى » لِفَضْلِها وقوة التصرّف بها . وهم يقيمون البعضَ مقام الجلة فينسُبون إليه الأَحداثَ والأخبارَ كثيرا ، على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّت أَعْناقُهُمْ لها خَاضِعِين ﴾ . وقَوْلُهُم : عُذْتُ بِحَقْوِ فلان . وهو عَبْدَ القَذَّ[٣] ، وحُرُّ الوجهِ ، ولئيمُ القفَا وما أشبهه . وفى القرآن : ﴿ أو ما مَلَـكت أيمانُـكُم ﴾ . وفوارِس شاذٌّ فى الجُمُوع عند سيبويه ، لأنّ فواعل إنما تكونُ جمع فاعلة فى صفات ما يَعْقِل دُون فاعل ، واستُدْرِكَ على سِيبَوَيْه هَالِكٌ فى الهوالِك .

وبيتُ الفرزدق :

وإِذَا الرِّجالُ رأَوْا يزيدَ رأيتَهم   خُضعَ الرِقابِ نَوَاكِسَ الأَبصارِ

---

(١) فى الأصل : « والجنة » ، صوابه فى م .

(٢) لكعب بن زهير ، وصدره :

* فما تدوم على وصل تكون به *

(٣) القذ : منتهى منبت الشعر من مؤخر الرأس .

وبيتُ عُتَيبة بن الحارث :

* ومثْلِي فى غَوَائِبِكُم قَلِيلُ *

وقال أبو العباس المُبَرِّد : هو الأصْلُ فى جميعه ، ويجوز فى الشِّعر .

٢ـ فَوَارِسُ لا يَملُّونَ المَنَـــايَا إذا دَارَتْ رَحَى الحَرْب الزَّبُون

مَلِلتُ الشيءَ أَمَلُّه مَلالاً وَمَلاَلةً ومَلَلا ، إذا سَئِمْتُهُ . ويقال : فُلَانٌ ذو مَلةٍ طَرِفٌ ، إذا ضَجِرَ بشيءٍ فتطرَّفَهُ . قال :

* إنّك واللهِ لذو مَلَّةٍ(١) *

ويجوز الرفْعُ فى فوارِس على أن يَكُونَ خبر ابتداءٍ مُضْمَرٍ ، كأنه قال : هم فوارِسُ . ويجوز النصب فيه على أن يَكُونَ بَدَلاً من فوارِسَ الأُولى ، ولا يمَلُّون فى موضعِ الصفة للفوارس . والمعنى فَدَتْ نفسى فوارسَ لا يَضْجرون بمكايدة الحرب(٢) ومقَاسَاةِ الشدائد فيها ، ولا يكرهون المقاتلةَ إذا دارت رحَى الحرب بأهلِها . والزَّبُونُ : الدَّفُوع ، ومنه الزَّبَانِيَةُ . وإنما شبَّهَ الحربَ بالناقةِ الزَّبُونِ فوصف بصفتها ، وهى التى تَزْبِنُ حالبَها وتدفَعُه برِجْلِها . قال :

تَزْبِنُ بالأخفَــاف والمَنَاسِمِ عَنْ ذِرْوَةٍ تَخْضِبُ كَفَّ الهَاشِمِ

ويقولون : ثَبَتَ فُلانٌ فى مَرْحَى الحَرْب ، أى حيثُ دارت رحاها . ومَنِيَّةٌ ومَنَايَا ، كصحيفة وصَحَائفَ ، والأصل منائِىُ فاستُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ فى الياء فحذقت ثم فروا من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة فانقلبت الياءُ أَلِفًا فصار مَنَاءَا ، فأَبدَلوا من الهمزة لتوسُّطِها أَلِفَيْنِ يَاءً فصار مَنَايَا .

٣ـ ولا يَجْزُونَ من حَسَنٍ بِسَيْءٍ ولا يَجْزُونَ من غِلَظٍ بِلِينِ(٣)

---

(١) لعمر بن أبى ربيعة فى اللسان (طرف) وإصلاح المنطق ٢٢٢ ، ٢٨٨ . وعجزه
* يطرفك الأدنى عن الأبعد *

(٢) م : « لمكايدة » .

(٣) التبريزى : « ويروى : من حُسن بسوء ، ومن حسن بسوأى ، على فعلى » .

هذا الكلام من صفة الفوارِس . يريدُ أنّهم يعرفون مَجارِىَ الأمور ومقادِيرَ الأحوالِ فيُوَازِنُونَ الخشِنَ بالخشِنِ واللّينَ باللّين ، كما قال الآخر :

تَجَازِىَ الوَافِى بكَيْـــلٍ وافٍ   مَلْآنَ والطِّفَافُ بالطِّفَـــافِ

وقولُهُ « بِسْىءٍ » أراد بسَيِّئٍ فخفّف ، كما قالوا فى هَيِّنٍ هَيْنٌ وفى لَيِّنٍ لَيْنٌ . وروى بعضُهم : بِسِيٍّ[1] » . والمعنى أنهم يزيدون فى الجزاءِ على قَدْرِ الابتداءِ . وليس ذلك بشَىء لأنّ سَيِّئٌ فى مقابَلَةِ حَسَنٍ ، كَما أنّ اللّينَ فى مقابَلةِ الغِلَظ ، وفى العُدُول عنه إلى سِيٍّ إخلالٌ بالتقابُلِ ، والبيت إنّما حَسُنَ به .

٤ — ولا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ   صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بَعْدَ حِينِ

يقال : بَلِىَ الثّوبُ يَبْلَى بِلًى وَبَلَاء[2] ، ويستعار فيقال : لبِسْتَ فُلَاناً وبَلَّيْتُه ، إذا استمتَعْتَ به وتَمَلَّيْتَهُ . وإنّما يصفهم بالاستمرار على حالةٍ واحدةٍ فى مُزَاوَلَةِ الحَرْبِ ، وأنَّ شجاعَتَهُم لا تَنْقُص ولا تَبْلَى عند امتدادِ الشَّرِّ ، واتّصال البَلاءِ . والبَسَالَةُ تُوصَفُ بها الأُسْدُ والرِّجال ، يقال أَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولٌ . كما يقال رجل باسل وبسول . قال امْرُؤُ القَيْسِ :

* ما غرَّكُمْ بالأَسَدِ البَاسِلِ[3] *

و « صَلُوا » هو من صَلِيتُ بكذا أى مُنِيتُ به ، وهو من الفِعْل فَعِلُوا بكسر العين ، ولهذا انضمّ اللام من صَلُوا ، ولو كان فَعَلُوا بفتح العين لقيل صَلَوْا ، كما قيل دَعَوْا ورَمَوْا . فإن قيل : فأين جوابُ الشرط فى قوله « وإن هُمْ صَلُوا بالحرب » ؟ قيل : هو متقدّم ، والتقدير إن صَلُوا ومُنُوا بالحرب لم تَخْلُقْ شجاعَتُهم . وفَصَل بين الفِعْلِ وإنْ بـ« هُم » ، لأنه ماض لم يَظْهَر فيه أثرُ إنْ

(١) السى : المثل . وهما سيان أى مثلان .

(٢) التبريزى : « إذا فتحت الباء مددت ، وإذا كسرت قصرت » .

(٣) صدره كما فى ديوانه ١٤٨ :

* قولا لدودان عبيد العصا *

بالجزْم . ولو كان الفِعْلُ مُسْتَقْبلًا لَظَهر الجزمُ فيه ، ولَمَا حَسُنَ الفصلُ بينه وبين إنْ بالاسم . يقْبُح أن يقال إنْ زَيْدٌ يأتنِي أَكْرِمْهُ ، وتقولُ إن اللهُ أَقْدَرَنِي على زَيْدٍ فَعَلْتُ به كذا . وهذا شيء يجوز فى إنْ دون سائر حروف الجزاء ، لأنه الاصْلُ فى الجزاء والحرْفُ الذى لا يَزولُ عنه . وروى بعضُهم : « ولا تُبْلَى بَسَالَتهم » من بَلَوْتُه إذا اختبرتَهُ ، ويكون المعنى لا يمكن اختبار شجاعَتهم فَيُعْرف غَوْرُها ومُنْتهاها على مَرِّ الأزمان ، واختلاف الأحوال .

٥ـ هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقْبَى بضَرْبٍ ... يُؤلِّفُ بينَ أشتَاتِ المَنُونِ(١)

قوله « بضرب يؤلّف » وقد وقع المنع والضرب جميعاً حكايةُ حال ، لولا ذلك لقال : بضربٍ ألّف . ومثله فى القرآن : ﴿ ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمين وذَاتَ الشِّمالِ وكَلبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيد ﴾ . يقول(٢) : هؤلاء القوم الذين أشرتُ إليهم بقولى : فوارس صدَّقوا فيهم ظُنونى ، هم الذين منعوا حمى هذا المكان بضَرْبٍ يجمع بين المنايا المتفرِّقة . وهذا تقييدٌ بعد إطلاق ، وتخصيصٌ بعد تعميم : والحِمَى : موضع الماء والكلإ . ويقال : أَحْمَيْتُ المكان ، أى جعلته حِمًى . وحَمَيْتُه : ذَبَبْتُ عنه . وقوله « يؤلف » من صفة الضَّرب ، ويحتمل وجوهاً : يجوز أن يكون المعنى إنّ هؤلاء لو بقُوا فى أماكنهم ولم يجتمعوا فى هذه المعركة لوَقَعَت مَوتاتُهم متفرِّقة فى أمكنةٍ متغايرة ، وأزمنةٍ متفاوتةٍ ، فلما اجتمعوا تحت الضرب الذى وصفه صار الضربُ جامعاً لتلك المنايا ووجوهها . وحُكِيَ عن أبى سعيد الضرير(٣) أن المَعنَى إذا وَقع بهم أَلَّف بين أقدارهم التى قُدِّرت عليهم . ويجوز

(١) الوقبى ضبط فى الأصل و م بسكون القاف ، وضبطه ياقوت بفتحها . وانظر ليوم الوقبى شرح التبريزى ومعجم البلدان والخزانة (٣ : ١٠٧) والميدانى (٢ : ٣٥٧) .

(٢) م : « فيقول » .

(٣) هو أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير . لقى أبا عمرو الشيبانى وابن الأعرابى . وكان يلقى الأعراب الفصحاء الذين استوردهم ابن طاهر نيسابور فيأخذ عنهم ، مثل عرام ، وأبى العميثل . نكت الهميان ٩٦ — ٩٨ .

أن يكون المعنى أنّ أسباب الموت مختلفةٌ ، وكأنّ هذا الضَّربَ جمع بين الأسباب كُلِّها . ويجوز أن يكون المراد ضَرْباً لا يُنفِّسُ المضروبَ ولا يمهِلُهُ ، لأنه جمع فِرَق الموت له . وقوله « أشتاب المَنُون » واحدها شَتٌّ . والمَنُون : الموت ، وهو من مَنَنْتُ أى قطعت .

٦– فنَكَّبَ عنهم دَرْءِ الأعادِى وداوَوْا بالجُنُونِ مِنَ الجُنُونِ

نَكَّبَ قد جاء متعدّياً إلى مفعولين ، قال أَوْسٌ :

نَكَّبْتُها ماءَهُمْ لمَّا رأيتُهُمُ صُهْبَ السِبَالِ بأيديهم بيازِرُ

والأكثر نَكَّبْتُ عن كذا . يقول : حَرَّفَ عن هؤلاء القومِ هذا الضربُ اعوجاجَ الأعداء وخِلافَهم ، وداوَوْا الشر بالشر . وهذا كما يقال : « الحديد بالحديد يُفلَحُ » . وكما قيل : « لا يَفُلُّ الحديدَ إلاَّ الحديد » . وأصلُ النَّكْب : المَيْلُ ، ولذلك يقال نَكَبْتُ الإناء ، إذا أمَلْتَهُ . ونُكِبَ الرجُل نَكْبَةً . وعلى هذا النَّكْباء فى صفة الريح : والدَّرْء ، أصله الدَّفع ، ثم استُعْمِل فى الخلاف ، لأن المختلِفَين يتدافعان . ومثله :

* وقوَّمتُ عنه دَرْأه فتنكَّبا[1] *

٧– ولا يَرْعَوْنَ أكنافَ الهُوَيْنَى إذا حَلُّوا ولا أَرْضَ الهُدونِ

يُروى : « ولا رَوْض الهُدُونِ » ، وهو أفصح . والهُدُون : الصُّلح والسُّكون . وفى الحديث : « هُدْنةٌ على دَخَنٍ » ، أى صُلْحٌ على فَسَادٍ دَخِيلةٍ . يصفهم بالميل إلى الشر ، والحرصِ على القتال والقتل ، وأنهم يؤثرون جانبَ الخصومة على الصلح ، وناحيةَ الذُّعرِ على السكون ، فيقول : لا يَرعى هؤلاء

(١) لابن مفرغ الحميرى ، كما فى البيان (٢ : ٢٨١) . وصدره :

* فيارب خصم قد كفيت دفاعه *

القومُ جوانبَ الخصال السَّهلة والأمور الهيِّنة ، ولا ينزلون منازل الأَمْنِ والراحة . والْهُوَيْنَى : تصغير الْهُونى ، والْهُونى : تأنيث الأَهْوَن . ويجوز أن يكون الْهُونى فُعْلَى اسماً مبنيًّا من الهِينَةِ ، وهى السكون . ولا تجعله تأنيث الأهون .

٤

وقال جعفر بن عُلْبَةَ الحارثى[1] :

١ــ أَلَهْفَى بقُرَّى سَحْبَلٍ حينَ أَحْلَبَت علينا الولايا والعدوُّ المُبَاسِلُ

التلهُّف يكون على الفائت بعد الإشراف عليه ، يقولون : وا لَهْفَاه ، ووالَهْفَ أُمَّاه . ولَهَّفَ نفسه وأمَّه إذا قال ذلك . وفى المثل : « إلى أُمِّهِ يَلْهَفُ اللَّهفان » . وقوله « أَلَهْفَى » يجوز أن يكون مُنادًى مفرَداً ، ويجوز أن يكون مضافاً . فإذا جَعَلْتَه مضافاً فإنَّ أصلَهُ أَلَهْفِي أو أَلَهْفِ . فإذا كان أَلَهْفِي فكأنه فرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفاً . وعلى ذلك يا غُلامَا أَقْبِلْ . وقوله :

* وهل جَزَعٌ أنْ قلتُ وا بأباهُما *

وإنَّما المعنى بأَبِي هُمَا . وعلى ذلك طريقتهم فى مَدَارِى ومَدَارَى ، وعَذارِى وعَذارَى ، وصَحارِى وصَحارَى ، وفى بَقِيَ بَقَى ، وفى رَضِيَ رَضَى[3] . وإذا كان أَلَهْفِ يكون الألف قد زيدت لامتداد الصوت به ليكون أدلّ على التحسُّر . وكذا إن جعلتَه ألهفُ مفرَداً يكون الألِفُ زيدت لذلك . ومعنى « أَحْلَبَتْ »[2] : أعانت . وأصله الإعانة فى الحَلَبِ خاصّة ، ثم استمرت فى الإعانات كلِّها . وقد

(١) فى الأصل : « علية » صوابه فى م والتبريزى والمبهج وابن جنى .
(٢) التبريزى : « ويروى : أجلبت . والأصل الجلبة رفع الأصوات » .
(٣) بقى ورضى ، بفتح القاف والضاد لغه طيىء ، يجعلون كل ياء انكسر ما قبلها ألفا . اللسان (بقى) .

يكون الشيء مختصًّا في الأصل ثم يصير بالعُرف عامًّا ، كما قد يكون عاما في الأصل ثم يصير به مختصا . ورُوي : « الوَلاَيا » وهي جَمْعُ الوَلِيَّةِ ، وهي البَرْذَعَةُ ، وهي تكون كنايةً عن النساء إن شئت ، وعن الضعفاء الذين لا غناء عندهم إن شئت . ويشبه هذا قول أم تأبّط شرًّا تؤبنه : « وا ابناه ليس بعُلْفُوف ، حُشِيَ من صوف ، تَلُفُّه هُوف[1] » . وقولهم : « هو كالحِلْس المُلْقَى » . ويُروى : « المَوالِي » ومعنى البيت أنه يتلهف لِماَ نزل بهم في الموضع الذي ذكره حين أعان الأعداءَ عليهم كَوْنُ الحُرَمِ مَعَهُم أو مَن يجري مَجْرَى الحُرَم من الضعفاء الذين لا دِفاعَ بهم ؛ لِمَا وجَبَ عليهم من الذبِّ عنهم ، والاشتغال بالحماية عليهم . ومن رَوى المَوالى — وهم أبناء العمّ — فإنما خصَّهم بالذكر لأن الجفاء منهم أشدّ تأثيراً في النفس . ألا ترَى أنَّ من كان بنو عمه عليه فهو كمن قُوتِل بسلاحِهِ ، ألا ترى إلى قول الآخَر حيث يقولُ :

مَخَافَةَ جَوْرٍ من أميرٍ مُسَلَّطٍ ورَهْطِي وما عاداكَ مثلُ الأقاربِ

والعدوّ إشارة إلى الجنس . وللُباسِل ، من البَسالة . وأجراه على لفظ العدوّ لا على معناه . وفي القرآن : (فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلاَّ رَبَّ العالمين[2]) .

٣ — فقالوا لنا ثِنتَانِ لا بُدَّ منهما صُدورُ رِماحٍ أُشْرِعَتْ أوْسَلاسِلُ

التاء في « ثنتان » كالتاء في بنتان ، إلا أنه لم يُستعمل واحدهُ كما استعمِل بنت . وكذلك التاء في اثنتان كالتاء في ابنتان إلاّ أنهم لم يقولوا اثْنَةٌ كما قالوا ابْنَة . والشاعر حَكَى مادار بينهم عند الالتقاء فيقول : أدارَنا[3] أعداؤُنا على

(١) العلفوف : الجافي الكثير اللحم والشعر . والهوف : الريح الحارة . وفي اللسان (هوف) : « وقيل لم يسمع هذا إلا في كلام أم تأبط شرا » .

(٢) إلا رب العالمين ، من م فقط » .

(٣) كذا في الأصل و م بتقديم الدال ، وهي هنا أليق من « أرادنا » .

خَصْلَتَيْن حكموا علينا بهما ، وخَيَّرُونا فيهما ، وهو[١] الاستسلام الذى آخره الاسْرُ ، أو القتل الذى أوّلُهُ الامتناعُ والدَّفع . وقوله « ثنتان » أراد خصلتان اثنتان ، ثم فسَّرها بقوله « صُدورُ رماح [أشرِعت[٢]] » وخصّ الصدورَ لأن المقاتلةَ بها تقع ، ويجوز أن يكون ذَكَر الصدور وإن كان المرادُ الـكُلّ كما قال :

* الواطئين على صدور نِعاَلِـهِم *

وإن كان الوطء للصدور والأعجاز . وكنى عن الأسر بالسَّلاسل . وقوله « لا بدّ منهما » أراد لا بدّ منهما على طريق التعاقب لا على طريق الجمع بينهما ، وإلاّ سقط التخيير الذى أفاده « أو » من قوله « أو سلاسل[٣] » . ألا ترى أنّه إذا قال خُذ الدينار أو الثَّوبَ ، وكُلِ السمك أو اشرب اللبن ، فليس فيه الجمع بينهما . وإذا كان الأمر على هـذا فالمعنى لا بدّ من إحداهما[٤] . و « أشرعت » : هُيِّئَتْ للطَّعن . وكذلك شُرِعت . ويُستعمل فى السَّيف أيضا وكان الأصلُ فيه مشارِعُ المياه . وفى المَثَل : « أهْوَنُ الوِرْدِ التشريع » ، أى إيراد الشريعة .

٣— فقُلنا لهمْ تِلـكمْ إذًا بَعْدَ كَرَّةٍ تُغادِرُ صَرْعَى نوءها متَخَاذِلُ

يقول : أجبناهم وقلنا تلـكم ، [أى تلك[٥]] التخييرة وذلك التحكّم . ولا يجوز أن تكون الإشارة بتلكم إلى واحدة من هاتين الخصْلتين اللتين تقدَّم ذكرُهما ، لأنّه لا اختيار فيهما لمختارٍ حكمه حكم هؤلاء ، إلا أن يكون الكلام على طريق

(١) الوجه « وهما » .
(٢) هذه من م .
(٣) كلمة « أو » هنا من م فقط .
(٤) قال ابن جنى : « لك فى منهما وجهان : إن شئت كان على حذف المضاف ، أى لابد من إحداهما . ألا تراه قال أو سلاسل . أو إنما توجب أحد الشيئين . وإن شئت كان على ظاهره لابد منهما جميعا . فصدور الرماح لمن يقتل ، والسلاسل لمن يؤسر ، أى يكون بعضنا كذا وبعضنا كذا » .
(٥) هذه من م .

التهكُّم والسخرية . والمعنى إنّما يكون ذلك بعد عَطْفَةٍ وجَوْلةٍ تترك بيننا قوماً مصروعين يخذُلُهم النُّهوض ولا يطيقون الحَرَاك . وإذًا ، هو جوابٌ وجَزَاءٌ وهو مُلْغًى هَاهُنَا . وكُمْ من تِلْكُمْ للخطاب لا للضمير ، فلا موضع له من الإعراب . واختار أن يقول « متخاذِلُ » لأن هذا البناء يختصّ بما يَحْدُثُ شيئاً بعد شيء . على ذلك قولهم تداعى البناء[١] كأنّ أجزاء النهوض يخذُل بعضُها بعضاً فلا يكمُل ، وكأنه أنكَرَ عليهم الاشتراط والتحكم والإلجاءَ منهم إلى ذلك ، فقال : يَسُوغُ ما ابتدأتم فيه لكُمْ بعدَ جولةٍ يتعقّبها هذا الأمر . ويجوز أن يكون الحُكم والتخيير بقوله « ثنتان لا بد منها » وقع بين الحرب والاستِئسار ، لا القتل والاستئصال ، فاختاروا المحاربةَ . والإشارة[٢] بقوله تلكم حينئذ يجوز أن تكون على ما قَدَّمْتُهُ ، ويجوز أن تكون إلى ما دَلَّ عليه قوله أو سَلَاسِلُ ، من الأَسْرِ فكأنه قال : الخصلة الثانيةُ نؤخّرها وننظر فى الأولى ماذا يَنْتَتِجُ منها . وقوله « تغادِرُ » صفةٌ للكَرّة ، وقوله « نوءها » الضمير يعود[٣] إلى صَرْعَى ، والجمع مآله إلى التأنيث ، ولو قال نوءهُمْ لكان أحسن . والنوْء : النُهوض ، وهو أصل المناوأة ، وإن اشتهرت فى المعاداة . ويكون النَّوْء : السقوطَ أيضا . ويُشْبِه هذا قول الآخر :

* ينوءُ بصدره والرّمحُ فيه *

٤ — ولم نَدْرِ إِنْ جِضْنَا من الموت جَيْضَةً ... كَمِ العُمْرُ باقٍ والمدى مُتطاوِلُ[٤]

---

(١) م : « البنيان » .

(٢) م : « ويكون الإشارة » .

(٣) م : « يرجع » .

(٤) التبريزى : « كلهم روى هذا البيت إن جضنا من الموت جيضة ، بكسر الهمزة على ما مر تفسيره ، غير أبى العلاء المعرى فإنه أخذ على أن جضنا بفتح الهمزة . وكأنه ذهب فى هذا إلى أن إن بكسر الهمزة لما يستقبل ، وأن بفتح الهمزة لما مضى . والشاعر فى ذكر قصة قد مضت فيحمل قوله أن جضنا بفتح الهمزة ، على تقدير لما جضنا » .

جاضَ عن قِرْنِه وحاصَ بمعنًى، أى عَدَلَ وانحرفَ. والعُمْر والعَمْر لغتانِ: الحياةُ والبقاء. ومنه قولُهم: لعَمْر الله، وعَمْرَكَ اللهَ. إلا أنه فى اليمين لايستعمل إلا بفتح العين. وقوله «كم العُمْر» فى موضع الظرف، والمعنى كم يومًا أو وقتاً العمر باقٍ. وارتفع العمر بالابتداء. والواوُ فى قوله «والمدى متطاوِل» واو الحال، أى كم العمر باقٍ ومداه متطاول. ولم يأت بالضمير لأنَّ الواو أغْنَى عنه، والمعنى لم نَعْلَمْ إن عَدَلْنا عن الحرب عَدْلَةً كم بَقِيَ من أعمارنا، وغايات العمر ممتدّة مبهمة حتَّى لا ينتهِى أحدٌ منها إلى حدّ إلاّ وكما يرجو أن يتّصل بعده أيضا لا يَأمن أن ينقطع، فكأَنه قال: إذا كان الحال فى الأعمارِ على هذا أبداً فلا مَعنَى للعُدُول عن الحرْب، إذْ لا يمتَنِعُ مع تطاول المدَى فى رجاء العُمْر أن يَقْصُرَ فى نفسه وينقطِعَ عن المأمول فيه. ويَجوز أن يَتعلق الحال الذى دَلَّ عليه «والمَدَى متطاوِلُ» بإن جِضْنَا. والتقدير لم نَدْرِ إن جِضْنَا ومَدَانَا متَطاوِلٌ كَمِ العمْر باقٍ أى مَدَى رجائِنا. وهذا حَسَنٌ عندى. ويجوز أن يكون الواو عاطفةً كأنه قال: لم نَعلم كم العُمْر بَاقٍ وكم المدى متطاوِلٌ إنْ جِضْنَا. وحُكى عن بعض المتأخرين أنه فَسَّرَ العُمْر على أنّهُ الحِينُ، قال ومنه قوله تعالى: ﴿فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا﴾ وهذا إذا حُقِّق يرجع إلى الأوّل[1].

٥ — إذا ما ابْتَدَرْنا مأزِقًا فرجَتْ لنَا بأَيْمانِنا بِيضٌ جَلَتْها الصَّياقِلُ

يقول: إذا ما استَبَقْنا إلى مَضِيقٍ فى الحرب وسَّعَتْهُ لنا سُيُوفٌ مَصْقُولَةٌ بأيماننا

(١) ابن جنى: «لك فى كم وجهان إن شئت جعلتها زماناً فتنصبها حينئذ على الظرف بباق، أى يبقى عشرين أو ثلاثين. وإن شئت جعلتها أفعالا فتنصبها حينئذ على المصدر، أى أبقية تبقى أم ألف بقية أم أقل أم أكثر، وهى منصوبة أيضاً بباق».

والفائدة فى قوله « جعلتْها الصَّياقل » اهتمامُهم بإصلاح آلاتِ الحرب ، لدوام مُزَاولتهم لها[١] . وجَعَلَ الفِعْلَ للسُّيوف على المجاز والسَّعَة .

٦ـ لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِى يَوْمَ بَطْحَاءِ سَحْبَلٍ وَلِى مِنْهُ ماضُمَّتْ عَلَيْهِ الأَنامِلُ[٢]

هذا مثل قوله :

مقابِرُهُنَّ بطونُ الأَكُفِّ وأغمادُهُنّ رءوسُ المُلُوكِ

وإنْ كان فى هذا تقسيمٌ خَلَا منه المُشَبَّهُ . وَلَكَ أن تَرْوِى « ما ضُمَّتْ عليه الأناملُ » و « ضَمَّتْ » ، فإذا قلتَ ضُمَّت فالمعنى قُبِضتْ عليه الأناملُ[٣] . وإذا قلتَ ضَمّت فالمعنَى قبضَتْه الأناملُ . والبَطْحاء والأَبْطَح : مَسِيلٌ فيه دُقاقُ الحصَى واسِعٌ . وهما صفتان أُخرِجتا إلى باب الأسماء . وبطحاء مَكّة وأبْطَحُها معروفان ، والتأنيث والتذكير فيهما يُحْمَلان على البَلْدَة والبقْعَةِ ، والبَلدِ والمكانِ ، إلاّ أنّه لا يُقالُ مكانٌ أَبْطحُ ولا بُقعةٌ بطحاء . ويقال : تَبَطَّحَ السَّيْلُ ، إذا سال عَرِيضاً . فأمّا « سَحْبَلٌ » فاسم موضعٍ أُضيفَ البطحاءُ إليه ، كما يقال صَحْراءُ سَحْبَلٍ . ويقال ضَبٌّ سَحْبَلٌ ، إذا كان عريضَ البَطْنِ . ولا يَمتنع أن يكون المكانُ سُمِّى به لاتِّساعه .

٥

وقال أيضاً :

١ـ لا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلاّ ابن حُرَّةٍ يَرَى غَمَراتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُها

مَعنى « يرى غَمَرات الموت » أنْ يتحقّقها بالممارسة حتّى يصير كأنّه أدركها

(١) التبريزى : « وقوله جلتها الصياقل ، ضرورة ، لأن السيوف لا تجلوها إلا الصياقل ، ولو كان يجلوها غيرهم وكان لجلائهم إياها فضل على جلاء غيرهم لكان لذكرهم هاهنا معنى . . . ولو قال اجتهد فى صقلها الصياقل وما أشبه كان حسنا » .

(٢) م : « ولى فيه » . (٣) انظر الحماسية ٨٢ .

(٤) م : « قبض عليه بالأنامل » .

بحاسة العين وشاهَدَها ، فيقول : لا يكشف الخصْلَةَ الشديدة إلاّ رَجُلٌ كريم، يرى قُحَمَ الموتِ ثم يتوسّطُها ويَصْبِرُ فيها ولا يَعْدِلُ عنها . وإنما قال « ابنُ حُرَّةٍ » لينبّه على زوال الهُجْنَةِ منه ، وخُلوصِ مَوْلده مما يَشُوبهُ ، وليصيرَ كَرَمُه مهيِّجاً لأَنَفَتِهِ ، ومصبِّراً له على كلِّ ما يُدْفَع إليه من الشرِّ إلاّ أنْ يُزِيلَهُ . ولأنَّ ما يَسْتَنْكِفُ منه العرَبُ هو الهُجْنةُ إذْ كان مَن ليس أبوه من العربِ خارجاً من أن يكون عَرَبيًّا . والغَمّاء والغَمُّ والغُمَّةُ والغَمَمُ مَرْجِعُ جميعها إلى التغْطية . فإنْ قيل : لِمَ عَطَفَ الزِّيارةَ على رؤية الغَمَرات بحَرْفِ المُهْلَة ، وهلَّا جعلَها عَقِيبَ الرُّؤية ؟ قلت : إنَّ « ثمَّ » وإن كان في عطفه المفردَ على المفرَدِ يدلُّ على التَّراخي فإنه في عَطْفه الجملةَ على الجملةِ ليس كذلك . ألا ترَى قولَه عزَّ وجلَّ : ﴿ وما أدْراكَ ما العَقَبَةُ . فَكُّ رقبةٍ . أوْ إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَةٍ . يتيماً ذا مَقْرَبةٍ . أو مِسكينا ذا مَتْرَبةٍ . ثمَّ كان من الذين آمنوا ﴾ . ولا يجوز تراخِي الإيمان عن شيء مما عَدَّدَهُ وذكره[1] .

٢ ـ تُقاسِمُهُم أسْيافَنا شَرَّ قِسْمَةٍ فَفِينا غَوَاشِيها وفيهِمْ صُدُورُها

وَضَع « قِسمةٍ » موضع مقاسمة ، أراد شرَّ مُقاسَمَةٍ . وانتصاب « شرَّ » على المصْدَر . والغَوَاشي : القوائم ، وتكون الأغماد أيضا . والصُّدور ، أراد بها المضاربَ ، وإنما قال : شرَّ قِسْمَةٍ ، لأنَّ مَنْ حُمِلَ على مثل هذه القِسْمة فيما يُقاسَمُ عليه كان الشرُّ لَهُ . وهذا أيضا مِثلُ قوله :

* لَهُمْ صَدْرُ سَيْفِي يَوْمَ بَطْحاءِ سَحْبَلِ[2] *

(١) زاد التبريزي : « وأصل الزيارة الميل ، وهو من الزور ، والميل في أحد الشقين ، فقوله يزورها ، أي يميل إليها فيأتيها » .

(٢) من الحماسية السابقة .

والمعنى قاسمناهم سيوفنَا ففينا مقابضُها وفيهم مضاربُها[١] .

٦

وقال أيضا :

١ـ هَوَاىَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمَانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وجُثْمَانِى بِمكَّةَ مُوثَقُ

هذه الأبيات ضمَّنها هذا الباب لِمَا اشتملتْ عليه مِن حُسْنِ صَبْرِه على البَلاءِ ، وقلّة ذُعْرِه من الموت والفناء[٢] ، واستهانته بوعيد المتوعِّد وحِذْقه بِرَسَفَانِ المُقيَّد . و « هَوَاىَ » ياءُ الإضافةِ فُتِحَتْ منه على الأصل ، وذاك أنّ هذه الياء لمّا كان ضميرَ اسْمٍ على حَرْفٍ واحدٍ متطرِّف كَرِهوا أن تُسَكَّنَ فتَخْتَلَّ[٣] فجعلوا من أصلِه التحريك ، فإذا كان ما قبلَه متحركا كغُلامِى ودارى : كان لك فيه وجوهٌ : تحريك الياء وهو الأصل ، وتسكينه تخفيفا ، وحَذْفُهُ من النّداء إذا قُلْتَ ياغُلَامِ ، وإبدالُ الألفِ منها مع انفتاح ماقَبْلَها كقولك وا بأباها وياغُلَامَا أقبِلْ . وإذا سَكَنَ ما قَبْلَهُ فمتى كان واوًا أو ياءً أُدْغِمَ فيه ولم يَكُنْ بُدٌّ من تحريكه لئلاَّ يلتقىَ ساكنان ، تقول مُسْلِمِىَّ فى الجميع[٤] ومسلمَىَّ فى التثنية . وإذا كان ما قبله ألِفاً كَعَصَاىَ وقَفَاىَ وهَوَاىَ ، لم يكن بُدٌّ من الإتيان به على الأصل ، وهو تحريكه ، لئلا يلتقى ساكنان أيضا ، ولا يجوز الإدغام هَاهُنا كما جاز مع الواو والياء ، لأنّ الألف لا تُدْغَمُ فى شىء ولا يُدغمُ فيها غيرُها ، لـكونها هوائيّة

---

(١) ابن جنى : « فى هذا البيت دلالة على قوة شبه الظرف بالفعل ، وذلك أنه عطف قوله : ففيناغواشيها على قوله : نقاسمهم ، ومن شرط المعطوف أن يكون وفق المعطوف عليه » .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « من الموت و القتل » .

(٣) م : « أن يسكن فيختل » .

(٤) م : « فى الجميع » .

لا مُعتَمَد لها فى المخرَج ، إلاّ فى لُغَةِ هُذَيلٍ ، لأنهم يُبْدِلونَ من الألِفِ الياء ويُدْغِمُون . على هذا قوله :

سَبَقُوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لِهَوَاهُم فتَخَرَّموا ولِكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[1]

واليَمَانُون : جمع يَمانٍ ، والنسبةُ إلى يَمَنٍ يمَنىٌّ ، لكنّه حُذِف إحدى ياءي النسب وأُتِىَ بالألف عِوَضاً منْهُ . ومِثْلُهُ شَآمٍ وتَهامٍ ، ومعنى البيت هَوَاىَ رَاحِلٌ ومُبْعِدٌ مع رُكْبَانِ الإبل[2] القَاصِدِين نحو اليَمَن ، مُنْضَمٌّ إليهم ، مَقُودٌ معهم ، وبدنِى مأسُورٌ مُقَيَّدٌ بمكة . ورَاكِبٌ ورَكْبٌ مثلُ تاجِرٍ وتَجْرٍ . وقد قيل فى الجُثمانِ إنه الشَّخصُ والجُسْمَانُ الجِسْم ، هكذا قاله الأصمعىُّ . والشَّخْصُ إنما يُستعملُ فى بدن الإنسان إذا كان قائماً . والخليلُ ذَكَر فى العين أنّ الجُثمَان والجُسْمَان بمعنًى واحدٍ . وأَصْعَدَ فى الأرض : أَبْعَدَ ، وحُكِىَ أن صَعْدَةَ اسْمٌ عَلَمٌ للأرض ، وأنّ الصَّعيد منه . ولهذا قيل لحُمُر الوحش : بَنَاتُ صَعْدَةَ ، وأولادُ صَعْدَةَ . وهذا إن ثَبَتَ فهو كما يقال بناتُ البَرّ . وقوله « جَنِيبٌ » أى مَجْنُوبٌ مُسْتَتْبَعٌ . وذكر أنّ بَعْضَهُم يرويه « حَثِيثٌ[3] » ، والصحيحُ الأول لفظاً ومعنًى .

٢ـ عَجِبْتُ لمَسْرَاهَا وأَنَّى تَخَلَّصَتْ إِلَىَّ وبَابُ السِّجْن دُونِى مُغْلَقُ

يقول : تعجَّبْتُ من سير هذهِ[4] الخيال إلىّ ، ومن حُسْن توصُّلِها مع هذه الحال ، وهو أنّ بابَ السجْن مرتَجٌ[5] دونى . فأمّا تعجُّبه من سيْرِها فعَلَى غادة العرب والشُّعراء فى وصف الخيال ، وذلك أنّهم يُجْرُونَها مجرَى المرأةِ نَفْسِها ،

---

(١) البيت لأبى ذؤيب الهذلى ، من قصيدته التى رثى بها بنيه . وهى أول ديوان الهذليين .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .

(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .

(٤) كذا وردت ، كأنه جعل الخيال مؤنثا لأنه خيال أنثى .

(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « مرتد » .

فيستطرفون منها ما يُسْتَطرَفُ من تلك لو وَقَع الفعل منها على الحقيقة مع نَعْمَتِهَا . وهذا كما قال غيره :

طَرَقَ الخيالُ ولا كَلَيْلَةِ مُدْلِجِ سَدِكاً بأَرْحُلِنَا ولم يَتَعَرَّجِ (١)

وكما قال الآخر (٢) :

وأَنَّى اهْتَدَتْ والدَّوُّ بينى وبينها وما خِلْتُ سَارِى الليل بالدَّوِّ يَهْتَدِى

وأمّا تَعَجُّبُه من تَوَصُّلِهَا فهو تَعَجُّبٌ من لُطفِهَا فى ذَلِكَ ، وحُسْنِ تأتِّيهَا ، مع العوارض والموانع . والمَسْرَى يصلُح فى اللُّغة أن يكون مصدراً ومكاناً ووقْتاً والبيت لا يمتنع من وُجُوهِهِ . وأَنَّى معناه كيف ، أو مِنْ أين ، كذا قال سيبويه . وقد تَجرَّدَ لأن يكون بمعنى كيف فى قول الكميت :

* أَنَّى ومن أين آبَكَ الطَّرَبُ *

٣ـ أتتنافحيَّتْ ثم قامت فودَّعتْ فلمَّا تَولَّتْ كادَتِ النَّفسُ تَزْهَقُ

التَّحيَّةُ : السَّلام والمُلكُ والبقاء . والمُحَيَّا : الوجْهُ من الإنسان ، لأنه يُخَصُّ عند التسليم بالذِّكْر فيقال حَيَّا الله وَجْهَكَ ، وإن كانَتْ الجملةُ متلقَّاةً به . وقيل التَّحية مشتقة من الحَيَاة أو الحياء . والمُحَايَاةُ : تحيَّةُ القومِ بعضهم بعضا . والمحيَّا من الفرس: حيث انفرَقَ اللَّحم تحت الناصِيَة . فيقول حاكياً لحال الخيال: جاءتنا فسلَّمت علينا ، ثم لم تلبث إلاّ قليلا حتَّى قامت وأعرضَتْ ، فلما تَولَّتْ كادت النفس تَخْرُجُ فى أثَرها . ويُروَى :« ألمَّتْ فحيّت » . والإلمامُ : الزيارة الخفيفةُ . وقوله « لما تولَّتْ » جوابُهُ « كادَت النفسُ » وهو عَلَمٌ للظرف . ومتى كان عَلَماً للظرف لم يكن له بُدٌّ من جوابٍ ، لأنّه يكون لوقوع الشىء لوقوع غيره . وتَزْهَقُ

(١) مطلع قصيدة للحارث بن حلزة اليشكرى ، فى المفضليات (٢ : ٥٥) .

(٢) هو الحطيئة من قصيدة فى ديوانه ٢١ — ٢٥ .

خبر كادَتْ ، لأنّ كاد[١] ككان وأخواته هاهنا إذا وقع بعده الاسم ، وهو موضوعٌ لمشارفةِ الفِعْل ومشافَهته ، ولهذا وجبَ ألاّ يكُونَ مَعَهُ « أن » . تقول : كاد يَفْعَلُ ، ولا يجوز أن يفعلَ إلاّ فى الشِّعر . ومعنى تَزْهَقُ : تَهْلِكُ ، ومنه قيل للبئر البعيدة القَعْر والمَتْلَفةِ البعيدة : زاهِقَةٌ وزهوق . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ . ويجوز أن يريد به فى البيت تَخرج فى إثرِهاَ سريعةً لما تولّت . ومنه زَهَقَتِ الراحِلَةُ : تقَدَّمَتْ . وزَهَقَ السهمُ : أسرع .

٤ — فَلاَ تَحْسَبِي أَنِّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ ... لِشَيْءٍ وَلاَ أَنِّي مِنَ المَوْتِ أَفْرَقُ

ترك الإخْبَارَ عنها وأقبل عليها يخاطِبُها ، جَرْياً على عادتهم فى التنَقُّلِ والافتنانِ فى التصرُّف . ومعنى تَخَشَّعْتُ : تكلّفْتُ الخشوع . والخشوعُ فى البَصرِ كالخُضُوع فى البدن . ويقال : اختشع فلانٌ ، إذا طأطأَ رأسَهُ رَامياً ببصره إلى الأرض وهو خاشع الطَّرْفِ خاضِعُ العُنُقِ . يقول مُسْتَهِيناً بما اجتمع عليه من الحبس والتقييد ، ومتبجّحاً عندها بالصبر على الهوى والتهالك فيه — وبهذا دخلت الأبياتُ فى الحماسة — لا تظنِّى أنى تكلّفتُ الخشوع بعدَكم لشىء عارضٍ ، ولا أنّى أخاف من الموت . والفَرَق : الخوفُ ، وهو فَرِقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَة . وقال :

* أنوْرًا سَرْعَ ماذا يا فَرُوقُ[٢] *

فإن قيل : فأين مفعول تحسبي ؟ قلت : قد نابت الجملة ، وهى قوله « أنى تخشّعت بعدكم » عن المفعولين . ألاَ ترى أنّ تقديره لا تحسبينى خاشِعاً ، فكما أنّ المفعولين يحصلان من دون « أنَّ » كذلك إذا دخل « أنّ » فى الكلام

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأنه كادت » .

(٢) صدر بيت لزغبة الباهلى ، أو مالك بن زغبة الباهلى ، أو أبى شفيق الباهلى . اللسان (نور ، حذق) ، وعجزه :

* وحبل الوصل منتكث حذيق *

ينوب مع ما بَعْدَهُ عنهما ، لأن اللفظ بالمفعولين قد حَصَل وإن كانا فى صلة أنَّ . وأنَّ وما بعده فى تقدير اسمٍ ، وهذا كما تقول : لو أنك جئتنى لأكرمتُك ، إذْ كنتَ قد لفظتَ بالفعل فى صلة أنّ ، وإن كنت لا تقولُ لَوْ مجيئُك .

٥ — ولاَ أنّ نفسِي يَزْدَهِيهاَ وَعِيدُكُمْ ولاَ أنَّنِي بالمَشْيِ فى القَيْدِ أخْرَقُ[1]

الوعيدُ والوَعْدُ من أَصْلٍ واحدٍ ، وإن كانَ أحدُهُما ضَمَانا فى الخيْرِ والآخر ضمانا فى الشرّ ، لكنه فُرِقَ بين المعنيَيْن بتغيير البناءين ، كما فعلوا مثل ذلك فى العدْل والعَديل ، فجعلوا أحدَهما فى الأَناسىّ والآخر فى غيرهم . يقول : ولا تظُنّى أن نفسى يَسْتَخِفُّها تهدُّدُكُمْ ، ولا أننى ضَجِرت بالرَّسَفَان ، وهو المشى فى القَيد . ويقال زَهَاهُ زَهْوًا وازدهاه ، إذا استخفّه . ويُستعمل الزَّهْو فى الباطلِ والتزيُّدِ فى القول . يقال : قال زَهوًا ، وفى الكِبْر يقال زُهِيَ لا غير ، وهو مَزْهوٌّ ، والأصل الخِفّةُ . والأخرَق : القليل الرِّفق بالشّىء . وقال أهل اللغة : الخُرْق : ضدّ الرفق . وفلان رفيقٌ وفلان أَخرق . وربّما قالوا : فلانٌ صَنَع وفلان أخرق . قال :

* وهْيَ صَنَاعُ الرِّجْلِ خَرقاء اليَدِ *

ويروى «أخرُق» بضم الراء فيكون فِعلاً ، و«أخرَق» بفتح الراء فيكون صفةً .

٦ — ولكنْ عَرَتْنِي من هَوَاكِ صَبابَةٌ كما كنت أَلْقَى منْك إِذْ أنا مُطْلَقُ[2]

قوله « كما كنت ألقى منك » ، الأجود أن يكون « ما » موصوفة غير

(١) أشار التبريزى إلى أنه يرو : «وعيدهم» ، وابن جنى إلى رواية : «ولا أنا ممن يزدهيه وعيدهم» .

(٢) أشار ابن جنى إلى رواية : «زمانة» بدل «صبابة» .

موصولة ، لأنك إذا جعلتها موصولة كانت مَعْرفة وفى تَقدير الذى ، والقصْد إلى تشبيه صَبابةٍ مجهولةٍ بمِثْلِها ، والتقدير عرَتْ صبابَةٌ تشْبه صبابةً كنت أكابدها فيكِ فى ذلك الوقت . كأنه شبَّه حالَه فيها بعد ما مُنِيَ به[1] بحالِه من قبل . ومفعول ألَقى محذوف تخفيفاً له ، [أراد[2]] كما كنتُ ألقاهُ منكِ .

ويقال عرَاه وأعراه بمعنًى واحد . ومنه عرَاء الدار وعرْوتها بفتح العين ، أى حيث تُعرَى منه أى تُؤْتَى . يقول : ولكنّى تعرونى فى الهوَى رِقَّةُ شوْقٍ وجَهْد صبابة ، كما كنتُ أقاسيه منكِ وفيكِ حين كنتُ مُطْلقاً ومُخَلًّى . والفعل من الصَّبابة صبِبْتُ بكسر الباء ، والصفة صَبٌّ . وقولُه « إذْ أنا مطلق » الجملة فى موضع جرّ بالإضافة ، وقد شُرِح بها « إذْ » كأنّه قال : وقت إطلاقى[3] .

٧

وقال أبو عَطاءِ السِّنْدِىّ[4] :

١ــ ذَكَرْتُكِ والخطِّىُّ يَخطِرُ بيْنَنا ... وقَدْ نَهلَتْ مِنَّا المثَقَّفَةُ السُّمْرُ

يَعنِى بالخطِّىّ رُمْح نفسه ، أى يتَردّدُ بالطَّعْنِ . كأنه يُصوِّر حالَهُ وما يُكابِدُه فى مُجاهدةِ أعدائِه . والخطُّ : سِيفُ البَحرين وعُمَان[5] وإليه يُنسب القَنا .

---

(١) به ، باتفاق النسختين ، فالضمير للحال . وفى التبريزى : « بها » .

(٢) هذه من م والتبريزى .

(٣) أورد التبريزى عقب شرح هذه المقطوعة « حديث جعفر بن علبة الحارثى وسبب حبسه وقتله » ، وهو حديث طويل .

(٤) التبريزى : « واسمه أفلح مولى عنبر بن سماك بن حصين ، وكان به عجمة شديدة يجعل الجيم زايا والشين سينا ، وهو من شعراء بنى أمية » . وانظر ترجمته أيضا فى الشعر والشعراء ٧٤٢ والأغانى ١٦ : ٧٨ ــ ٨٤ والخزانة ٤ : ١٦٧ .

(٥) وردت فى النسختين بتشديد الميم ، وهو ضبط لا تقره المعاجم ولا كتب البلدان . وهذه هى المجاورة للبحرين . وأما المشددة الميم المفتوحة العين فهو التى بالشام .

وكأنّ قولهم : الخطيطةُ ، وهى أرض لم تُمْطَرْ بين أرضين ممطورتين ، منه . والخطْرُ أصله التحرُّك ، يقال مَرَّ يَخْطِر خَطْرًا ، وخَطَر البَعير بذنَبِه خَطْرًا وخَطَرَانًا . فنبّه بهذا الكلام على قلّةِ مبالاته بالحرب ، وأنّ نفسَه تاقت والرمح يختلف بالطّعْن بينهم(١) إليها حتّى كانت تلك هَمَّه وشُغْلَهُ ، فقال : ذَكَرْتُكِ بقلبي ورماحُ الخطِّ تضطرب فى الحرب بيننا ، وقد رَوِيَتْ منّا أى من دمائنا(٢) . وروى بعضُهم : « وقد نُهِكَتْ(٣) منّا المثقَّفة » من نَهْك المرض ، وليس بشىء : ومصدر ذكرتُكِ ذُكْر بضم الذال ، لأنّ الذُّكْر بالقَلب والذِّكْر باللِّسان . والاسْمُ من نَهِلَتْ النَّهَلُ . والمَوْرِدُ : المَنْهَلُ : وقد عُدَّ الناهِلُ فى الأضداد ، لوقوعه على الرَّيّان والعَطْشان ، وكأن حقيقة النَّهَلِ أوّل السَّقْى ، والاكتفاء بِهِ قَدْ يقع وقد لا يَقَعُ(٤) فلذلك استُعمل النَّاهِلَ فى الرِّى والعَطَش .

٢ ــ فوَاللهِ ما أَدْرِى وإنِّى لَصَادِقٌ أَدَاءٌ عَرَانِى من حِبَابِكِ أم سِحْرُ

أقسَمَ بالله على استواء علمِه(٥) بالحالتين اللتين ذكرها . ويسمّى الألِف التى فى قوله « أَدَاءٌ عرانى » ألفَ التَّسوية ، لهذا الذى ذكرناه . وكذلك لو قال : ليت شعرى أزيْدٌ فى الدار أم عَمْروٌ ، لكان الألفُ ألفَ التسوية أيضاً ، لأنّه بتمنّيه العِلم بما ذَكَرَهُ من الأمرين ، دَلّ على استواءِ درَايته بهما : « وعَرَانى » معناه أصابنى . يقال عَرَاه يَعْرُوه ، واعتراه يعتريه ، وعَرَّهُ يَعُرُّهُ بمعنًى واحد .

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بينهما » .
(٢) أشار ابن جنى أن جملة « وقد نهلت » بدل من الحال الأولى ، أو هى حال من الضمير فى « بيتنا » .
(٣) كذا فى النسختين بالبناء للمفعول .
(٤) بعض النحويين لا يجيز هذا التعبير ، وهو إيلاء النافى للفظ « قد » .
(٥) هذه الكلمة ساقطة من م .

و « الحِبَابُ » بمعنى الُحبِّ ، كأنه مصدر حَبِبتُه . وقد يكون مصدر حابَبْتُه ويكون من اثنين . ويكون أيضا جَمعَ الُحبِّ ، وكأنّه جَمعه على اختلاف أحواله فيه ، كما تُجْمَعُ الشَّمس على مواقِعِهَا . ويُروَى « جَنَابِكِ[(١)] » والمعنى من ناحيتك . وقوله « إنّى لصادِقٌ » يجوز أن يريد به صِدْقَهُ فى الخبر ، ويجوز أن يُرِيدَ بِرَّه فى الحلفِ ، ومرجع الوجهين إلى معنًى واحدٍ .

٣ — فإِنْ كَانَ سِحْرًا فاعْذِرِينِي على الْهَوَى وإِنْ كَانَ دَاءً غَيْرَهُ فَلَكِ الْعُذْرُ

السِّحر والتمويه يرجعان إلى معنًى واحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاسِ ﴾ ، أى أَخرجوه على وَجهٍ فى مَرأى العين وحقيقتُه على خِلَافه . والسَّحَّارَةُ[(٢)] : لُعْبَةٌ ذلك صِفَتُها . ويقال عَنْزٌ مسحورةٌ ، إذا عَظُمَ ضَرْعُها وقَلّ لَبَنُهَا . وأرضٌ مسحورةٌ ، إذا لم تُنْبِتْ شيئًا : فيقول : إنْ كان ما بى سِحْرًا فلى عُذْرٌ فى هواكِ ، لأنّ من يُسْحَر يُحْبِبْ ، وإن كان داءً غيرَ السحر فالعُذر لك ، لأنّى وقعتُ فيه بتعرّضى لك ، وفِكْرِى فى مَحَاسِنِك ، والدَّلالة على أن « فاعْذِرِينى » فى موضِع فَلِى عُذْرٌ ، ما قابَلَهُ به من قولِهِ « فَلَكِ العُذْرُ » . وفى هذا إسقاطُ سؤال السائل : لم قال اعذِرِينى ولا ذَنْب له وإنّما يحتاجُ إلى بَسْطِ الْعُذرِ مَن له ذَنْب أو يُتَصَوَّرُ بصورته ، وانتصاب «داء» على أن يكون خبر كان ، كأنّه قال : وإن كان ما بى داءً . ويجوز أن يكون تَوَهَّمَ أن تلك تصوَّرتْهُ[(٣)] بصورة المُذنِبِ[(٤)] فيما أظهرَه من عشقِهِ فقال لها : إن أنتِ فتنْتِنِي

(١) زاد التبريزى : « من جنابك » بالكسر ، أى مجانبتك .

(٢) ضبط فى م بتخفيف الحاء ، والصواب تشديدها كما فى اللسان . قال : « شىء يلعب به الصبيان إذا مد من جانب خرج على لون ، وإذا مد من جانب آخر خرج على لون آخر مخالف وكل ما أشبه ذلك سحارة » .

(٣) م : « صورته » .

(٤) فى الأصل : « الذنب » صوابه فى م والتبريزى .

وأوقعتِني في حِبالَتِكِ لِماَ عَرَضْتِ عليّ من محاسنِكِ فلي عُذْرٌ حين افتتنت ، لأن مثْلَ محاسِنِك تُزِلُّ العفيف ، وتنقُلُ عن طَبعِهِ الحليم . وإن كنتُ المتعرِّضَ لكِ والجالب على نفسي ما شَقِيتُ به ، فالعُذْرُ لكِ .

٨

وقال آخر[١] :

١ — وفَارِسٍ في غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ إذَا تَأَلَّى على مَكْرُوهِهِ صَدَقَا[٢]

جَعَل الموت غِماراً على التّشبيه بالماء ، ثم جَعَلَهُ مُنْغَمِساً فيها فَحَسُنَت الاستعارة جِدًّا : وتَأَلَّى وائتَلَى وآلى من الأَلِيَّةِ . ولا حَلِفَ ثَمّ ، إنّما يريد الحَتْمَ والإيجابَ ، فيقول : رُبّ فارسٍ داخلٍ في شدائد الموت إذا حَلَفَ على ما يُكْرَهُ منه أو يكون كريهاً في نفسه بَرَّ ولم يَحْنَثْ أنا فَعَلْتُ به كذا . ويُروى « مكروهةٍ » والمعنى خَصلةٍ تُكْرَهُ وتَشُقُّ . فعلى هذا يكون صفةً مُفْردةً عن الموصوفِ . ويجوز أن يكون مصدراً كالمصدوقة وما أشبهها من المصادر الجائية على زنَةِ المفعول . وأضاف المكروه إذا رويت « مكروهِهِ » إلى الفارس لوقوعه منه . والمنغمسُ : الداخِلُ في الشّيء ، يقال غَمَسْتُه في الماء وغيره ، ورَجُلٌ مُغامِسٌ للذى يغشى الحْربَ ويتردّد فيها . والغِمَارُ والغَمَرات جمع غَمْرَةٍ ، وهى في الماء والحرب والشرّ ترجع إلى السَّتْر . ويقال رجل مُغَامِرٌ ، إذا ألقى نفسه في الغمرات والمهالك . ورَوى بعضهم « في غُمَار الموت » بضم الغين ، وكسرُها أجود مع ذكر المنغمِس .

(١) م : « آخر » فقط . وعند التبريزى وابن جنى : « وقال بلعاء بن قيس الكنانى » . وكان بلعاء هذا رأس بنى كنانة في حروبهم ، وهو شاعر محسن . المؤلف ١٠٦ . ومات قبل يوم الحريرة ، وهو اليوم الخامس من أيام الفجار . العقد الفريد .

(٢) يروى « مكروهه » بالإضافة إلى الهاء ، و« مكروهة » بالتاء في آخره .

٢ – غَشَّيْتُه وهو فى جَأْوَاءَ باسِلةٍ   عَضْبًا أصابَ سَوَاءَ الرَّأسِ فانفلقا

العَضْبُ: القَطْعُ، وتوسَّعُوا فيه فقالوا: عَضَبَهُ عن حاجته، أى حَبَسَهُ، وامرأةٌ مَعْضُوبَةٌ أى معضولة[1]، وسيْفٌ عَضْبٌ أى قاطع، كأنّه وُصِفَ بالمصدر. والتغشّى أصله الإتيان والملابسة، ومنه الغِشاوة: الغطاء. وتوسَّعُوا فيه حتى قيل تَغَشَّاهم بالعَدْل أو الجوْرِ. وفى القرآن: ﴿ إذْ يُغَشّيكم النُّعاسُ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾. فقولُه غَشَّيْتُه، هو كما يُقال قَنَّعْتُهُ، وهو جَوَاب رُبَّ فارسٍ هكذا أنا ضربْتُهُ وهو فى جيشٍ تامِّ السِّلاح كريه اللِّقاء، بسيفٍ قاطع أصاب وَسَطَ رأسِه فشَقَّهُ. والسَّوَاءُ: الوسط ها هنا، وفى التنزيل: ﴿ فى سَواءِ الجحيم ﴾. ويوضَعُ موضعَ المصدر ثم يوصَف به، وفى التنزيل: ﴿ سَواءً للسائلين ﴾. وأصابَ، بمعنى طَلَب وبمعنى نَالَ، ويقالُ أَصَبْتُ الصواب فأخْطَأْتُه. والجأواء: الخضرَّة، وهو من الجُؤْوَة، يعنى اخضرار السلاح. والبَسالة تستعمل فى الناس وغيرهم، وهى الشَّجاعة. ويقال رَجُلٌ باسل وأَسَدٌ باسِلٌ وبَسُولٌ. قال:

* ما غَرَّكُم بالأَسَدِ الباسِلِ[2] *

وهذا يجوز أن يكون من البَسْلِ، وهو الحرام، كأنه لِتَمنُّعه محرَّم.

٣ – بِضَرْبَةٍ لم تَكُنْ مِنّى مُخالَسَةً   ولا تَعَجَّلْتُها جُبْنًا ولا فَرَقا

يُقالُ تَعَجَّلْتُ الشيء، أى تكلَّفْتُه على عَجَلَةٍ. ويقال أيضا أعْجَلْتَه واستعجلته وتعجّلته بمعنًى. والخَلْسُ: أخْذ الشيء مخاتَلةً، وقيل الاختلاسُ أَوْحَى من الخَلْسِ. ويقالُ هو لَكَ خُلْسةٌ، كما يُقال نُهْزَةٌ وفُرْصَةٌ. يقولُ: غَشَّيْتُه

(١) أ معضولة، ساقط من م.

(٢) لامرئ القيس. وصدره:

* قولا لدودان عبيد العصا *

سَيْفًا بأن ضرَبْتُه ضرْبَةً هكذا . فأمّا قوله لم تكن منى مُخَالسةً ، فهو خلاف قول الآخَرِ[١] :

وَقَدْ أَخْتَلِسُ الضَّرْ بَـ ةَ لا يَدْمَى لهَا نَصْـلِى

وقول الهُذَلىِّ[٢] :

* وَطَعْنَةِ خَلْسٍ قَدْ طَعَنْتَ مُرِشَّةٍ[٣] *

لأنّ قصْد الشاعرِ هاهنا إلى أنّه تناوَلَ من خصمه ما تناول بتثُّبتٍ وقوّة قلب لا كما يفعله الجَبانُ . وثَمَّ يذكُر تمَكُّنَه من خَصْمه على شدّة احترازٍ منه حتّى تناول ما تناوَلَه خَلْساً . وقد وُصِفَ الشجاعُ بالمخَالِس والخَلِيسِ ، وكذلك المُصارِعُ . ومن مَدَح خَصْمه ثم ذكر غلبتَهُ له كانَ أبلغَ فى الافتخار به ، فاعرِفْ فرقَ ما بين الَموضعين . وقوله : « ولا تعجلتُهَا جُبناً ولا فرَقا » يُؤَكِّدُ ما ذكرناه . وانتصاب « جُبْنًا » على أنّه مفعول له ، وهو الذى يُسَمَّى مصدراً للعلّةِ . والمعنى : ولم أتَكَلَّف عَجلتَها لضَعْفِ قلبى ولا لخوفى من صاحبى . وضَرْبَةُ الجبان أعجَلُ وأسرع .

٩

وقال رَبِيعة بن مَقْرُومٍ الضَّبِّىِّ[٢]

١ — ولقَدْ شَهِدْتُ الخَيْلَ يومَ طِرَادِهَا بِسَلِيمِ أَوْظِفَةِ القوائمِ هَيْكَلِ

اطِّراد الماء والسَّراب[٥] والكلام : اتّساقُها على حدّ الاستقامة والمرادِ .

(١) هو الفند الزمانى ، أو امرؤ القيس بن عابس الكندى . انظر اللسان (دفنس) .

(٢) هو ربيعة بن الجحدر الهذلى . اللسان (محج) وشرح أشعار الهذليين للسكرى ٢٨٥

(٣) عجزه : * يمج بها عرق من الجوف قالس *

(٤) شاعر مخضرم ، ترجم له فى الشعر والشعراء ٢٧٩ والأغانى ١٩ : ٩٠ — ٩٣ والإصابة . وفى المبهج : « الربيعة : بيضة الحديد ، والربيعة أيضا : الحجر الذى يرتبع ، أى يشال : وأما مقروم فمفعول من قولك قرمت الشىء بأسنانى فهو مقروم ، أ مقطوع » .

(٥) فى الأصل : « والشاب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

ويقال : جَدْوَلٌ مطّرِدٌ ، وبَلَدٌ طَرّادٌ ، أى واسعٌ يطّرد فيه السَّراب . وأراد بالخيل الفُرسانَ لا الأفراسَ ، ألاَ ترى أنّه قال « يوم طِرَادِها » . والطِّرادُ من الفُرْسَانِ : حَمْلُ بعضهم على بَعْضٍ . وعلى هذا ما روى عن النبى صَلّى الله عليه وسلم ، وهو « يا خَيْلَ الله اركبى » . والمعنى حَضَرْتُهم يوم تَطَارُدِهِمْ بالرِّماح وأنا على فَرسٍ ضَخمٍ سليمِ الأوظفَة من العيوب . ول « شهدتُ » مَوْضِعَانِ : الحضورُ من قول الله تَعالى : ﴿ ولْيَشْهَدْ عذابَهُمَا طائفةٌ مِنَ المُؤْمنينَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوات والأرضِ ﴾ ، وحينئذ يتعدى إلى مفعول واحدٍ . والعِلمُ والتبيين ، على ذلك قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنه لا إلَهَ إلاّ هُوَ ﴾ ، وحينئذ يتعدّى إلى مفعولين . وقد يُقسَمُ به كما يُقْسَمُ بالعِلْمِ ، فيقال يشهدُ الله كما يقال يَعلَمُ الله . فأمَّا شهادَةُ الشاهِدِ فلا بدَّ من القول فيها . والهَيْكَلُ أصله فى البناء العظيم ، ثم وُصِفَ به الفَرَس .

٢ — فَدَعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ وعَلامَ أَرْكَبُهُ إذا لم أَنزِلِ

قوله « دَعَوا نَزَالِ » أى صاحوا : نزال نزال . ومنه قيل لتطريب النائحة فى نِياحَتِها : التَّدَعِّى . وهذا كما قال الأعشى :

* قالُوا الطِّرَادَ فقلنا تلك عادَتُنَا[1] *

وفى القرآن : ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العالمين ﴾ . ويجوز أنه يكونوا جعلوا نَزَالِ على التوسّع هى المَدْعُوَّةَ وإن كانت دُعِىَ إليها ؛ ويَشْهدُ لهذا الوجه قولُهم[2] :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ[3] *

---

(١) عجزه : * أو تنزلون فإنا معشر نزل *
(٢) كذا فى النسختين .
(٣) لزهير بن أبى سلمى ، فى ديوانه ٨٩ . وصدره :
* ولنعم حشو الدرع أنت إذا *

وفى القرآن : ﴿ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبورًا . لاَ تَدْعُوا اليومَ ثُبورًا واحدًا وادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . ونزالِ : اسمٌ لا نْزِلْ ، مَبنىٌّ على الـكسر ، معرفةٌ مؤنّث معدول . والدلالة على تأنيثه قول زهير :

* دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعرِ *

والمعنى تنادَوْا وقالوا نَزالِ فـكنتُ أوّلَ النازلين . ثم قال مظهرًا لترك التحمُّد بذلك ، وأنّه فيما فعله كمن أدّى واجبًا عليه : « وعلام أركبُهُ » . المعنى لأىِّ شىءٍ أركب فرسى إذا لم أنزل إذا دُعيتُ إلى النِّزال . و « ما » من « عَلاَمَ » حُذف ألِفُهُ لأنّه فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرف الجر يخفَّف بالحذف(١) ، على ذلك بِمَ وَلِمَ وفيمَ وعَمّ ومِمّ ، إلا إذا اتَّصل بذا فيقال بماذا ولماذا ، لأنَّه يصير ماذا كالشَّىء الواحد فلا يغيِّر « ما » ، وقوله « وعلام أركبُه إذا لم أنزِل » يجرى مجرى الالتفات ويقاربُه ، وفائدتهُ أنّه أسقط التحمُّد بما فعله به . وفى طريقته من جهة المعنى قولُ الآخَر :

ولا يَحْمَدُ القومُ الـكرامُ أخاهُمُ الـ عتيدَ السِّلاحِ عنهم أن يمارِسَا

ومثل الأوّل قوله :

عَلاَمَ تقولُ الرُّمْحَ يُثْقِلُ سَاعِدِى إذَا أنا لم أَطْعُنْ إذا الخيْلُ كَرَّتِ(٢)

٣ ــ وألَدَّ ذِى حَنَق عَلَىَّ كأنَّمـا تَغْلِى عَداوَةُ صَدْرِهِ فِى مِرْجَلِ

أَخرجَ التشبيهُ مالا يُدْرَكُ من العداوة بالِحسّ إلى ما يُدْرَكُ من غلَيَانِ

(١) وأحيانا لا يحذف ، وقرئ : « عما يتساءلون » . وأنشدوا لحسان :

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد

انظر حواشى البيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) لعمرو بن معديكرب . الحماسية ٣٠ .

القِدْرِ ، حَتَّى تَجَلَّى ، فصارَ كالمشاهَد[١] . والألدُّ : الشديد الخصومة . كأنه لدَّ بالخصومة ، أى أُوجِرَ فَلُدَّ به . ولذلك كان اللَّدَدُ مصدر ألدّ . ويقال فى معناه ألَنْدَدٌ[٢] . والحَنَقُ : شِدَّةُ الغَيظ ، يقال أحْنَقَهُ فَحَنِق ، يقول رُبَّ خَصْم شديد الخصومة ذى غيظٍ وغضبٍ علىَّ تغلى عداوتُه لى فى صدره غليانَ المِرجل بما فيه إذا كان على النار ، أنا دفعتُه عن نفسى . وجواب رُبَّ هو صدر البيت الثانى . والحَنِقُ يجوز أن يكون من اللُّزُوق ، كأنّ الحِقد لزِق بصدره ، ومنه يقال أحْنَقْتُ الدابَّةَ ، إذا ضَمَّرتَه .

٤ — أَرْجَيْتُهُ عَنِّى فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُه فوق النواظِر من عَلِ[٣]

ذكر بعض المتأخرين فى أرجَيْتُهُ ، أن الرِّواية الصحيحة « أوْجَيْتُهُ » وما عداه تصحيف . قال . وهو أفعلته من الوَجَى ، وإنما أوجب ذلك ليكون لِفْق قوله بِزُعْمِهِ : « وَكَوَيْتُه » . والمعنى أذْلَلْتُه وردَدْتُه رازِحًا كرُزوح الفَرَس الوَجِى . ثم أنشد قول طَرَفَة مُؤَنِّسًا به :

وقَوْمٍ تنَاهَوْا عن أذَاتِىَ بعدما أصاب الوجَى منهم مُشَاشَ السَّنابِكِ[٤]

قال الشَّيخ : ولقد قضيتُ العَجَبَ من هذا المُسْتَدْرِكِ ، ومن ضَلاَلِه عن طريق الرَّشادِ فيما قَصَدَهُ من المعنى ، ورواه فى الاستشهاد ، وذلك أنّ شعر طَرَفَة إنما هو :

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « كالمشاهدة » .

(٢) ويقال يلندد أيضا .

(٣) ابن جنى : « أكثر من ترى يروى هذا البيت أرجيته بالراء ، فإذا تعالى شيئا رواه أوجأته ، وكلاهما تصحيف ، وإنما هو أوجيته بالواو ، أى ذللته وقهرته . كذلك رويناه وكذلك وجدته أيضاً فى شعر القبيلة » .

(٤) ديوان طرفة ٥٦ بهذه الرواية عينها فى نهاية القصيدة . قال صانع ديوانه : « ولم يرو الشنتمرى هذا البيت » .

ومازَالَ شُرْبِي الرَّاحَ حَتَّى أشَرَّنى صَدِيقى وحتَّى ساءنى بعضُ ذَلِكِ (١)
وحتَّى يقولَ الأقربُونَ نَصَاحَـةً دَعِ الغيَّ واصرِم حَبْلَهُ من حِبالكِ (٢)
وحتَّى تناهَوْا عن أذانِيَ بعد ما أصاب الوَجَى منهم مُشَاشَ السّنابك

فقوله : « حتى تناهَوْا » ليس مما فَسَّره واستشهد له بسبيلٍ ، إنما يُريدُ طرَفة أنّه أبْعَدَ غايته فى الخسارة ، وتمادَى فى تعاطى الصِّبَا والجَهالة ، فلم يُصغِ لناصحٍ ، ولم يَرْعَوِ لعاذلٍ ، حتَّى نَفَضُوا أيديهم من إنابتِهِ ، ويَئسوا من قَبُولِهِ وإعتابه ، فألقَوا حَبْلَهُ على غَارِبِهِ : وصاروا من بين ناسبٍ له إلى الشَّرِّ ، ومسىءٍ إليه فى القولِ ، وقاذفٍ إيَّاهُ بالغَيّ ، فأفْضَتْ بهم الحالُ إلى أنْ تناهَوْا بعدأن بَلَغ منهم العناءُ كلَّ مبلغ ، وأثّر فيهم الإعياءُ والإحْفَاءُ أشَدَّ تأثير . ألا تَرَى أنه جَعَلَ الوَجَى فى المُشَاشِ منَ السّنابكِ منهم . فهذا ما عليه فى الرواية ، والذّهابِ عن طريقة الشاعر . وبَعْدُ فإنَّهُ لا يقال أوجَيْتُ الدّابةَ عنِّى ويُراد الإحفاء ، ولم يُسْمَع فى التّذليل ذكر الحَفَى والوَجَى مُسْتَعارًا كما سُمِعَ الكَىُّ والوَسْمُ فيه . وبُعْدُ الغَوْصِ (٣) لا يُدْرَى على ماذا يَهْجُمُ بصاحبه . والرواية الصحيحة « أرْجَأْتُهُ » و « أَرْجَيْتُه » وهما لُغتان ، والهَمْزُ أفْصَحُ . قد قُرِئ : ﴿ تُرْجِئُ من تشاءُ مِنْهُنَّ ﴾ و ﴿ تُرجِى ﴾ . ويُروى : « أوحَيْتُه » ، ويروى : « أزجيتُه » والمعانى تتقاربُ (٤) فى الكل . يقول : رُبَّ خَصْمٍ هكذا أنا وحَّيْتُه (٥) عن نفسى وصرفتُه ، وقد أبْصرَ رُشْدَهُ ، وعرَف مقدار نفسِه ، فعاد إليه بعد أن كان يشتطُّ فيما له ، ويتغابَى عما عليه . والقَصْدُ : ما لا سَرَفَ فيه ، ولذلك قيل اقتَصِدْ فى

(١) ديوان طرفة ٥٥ واللسان (شرر) مع تحريف . أشره : نسبه إلى الشر .
(٢) الديوان : « ذر الجهل واصرم حبلها »
(٣) م : « الغرض » .
(٤) م : « والمعنى يتقارب » .
(٥) وحاه توحية : عجله .

كذا . وطريقٌ قاصِدٌ ، إذا كان على حَدِّ الاستواء . ومن كلامهم : ضَلَّ عن قَصْد الطريق ، كما قيل : ضَلَّ عن سواء السَّبيل . قال الراجز[١] :

إنّى إذا حَارَ الجبانُ الْهُدَرَهْ[٢] رَكِبْتُ من قصد الطريقِ مَنْجَرَهْ[٣]

وقوله : « وكوينْه فوق النَّواظر » ، يشبهه قول الآخر[٤] :

ولَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أرادُوا نقيصتى جَعَلْتُ لَهُمْ فوق العَرانين مِيسَمَا

أى كَوَيْتُهُ مِنْ عَلٍ فوق نَاظِرِه ، أى وَسَمْتُهُ بِسَمةٍ من الذّلِّ اشتهر بها ، ولم يمكنْه إخفاؤها . ويقال لمن يُتوَعَّد بالإذلال والتَّشويه : لأَسِمَنَّك وَسْمًا لا يفارِقُكَ . ولذلك قال جرير :

لَمَّا وَضَعْتُ على الفرزدق مِيسَمِى وضَغَا البَعيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأَخطلِ

وكما يجعلون هذه السِّمة فى الجبين يجعلونها فى الأنف ، ولذلك قال الأعشى :

* أَنْفَ مَنْ أَنْتَ وَاسِمُ[٥] *

وفى القرآن : ﴿ سَنَسِمُهُ على الخُرْطُوم ﴾ . فإن قيل : لم أتى بقوله من عَلٍ ، وقد قال فَوْقَ النواظر ويُعْلَم منه أنَّهُ أعلى ؟ قيل : إنّ التقدير كَوَيْتُه من علٍ فوقَ النواظر ، أى من أعْلاَه فوق ناظره ، وفيه التّقديم والتأخير ، ولو سكت عَلَى من عَلٍ لكان يجوز أن يكون فوق النَّواظر ودون النَّواظر ، لـكنه بيَّن أنّ قَصْدَهُ إلى الجبين بِميسمه . والمعنى شَهَرْتُه بإذلالى ، ووسَمْتُه بكَيِّى حيثُ يظهر للناظرين ولا يخفى . وانتصاب « فوقَ » يجوز أن يكون على البَدَلِ من الضمير فى كوينْه ،

(١) هو الحصين بن بكير الربعى . اللسان (هدر) .
(٢) الهدرة كهمزة : الساقط . ويروى : « الهذرة » بالذال المعجمة ، وهو بالمهملة أجود .
(٣) المنجر : الطريق المستقيم . اللسان (هدر ، نجر) . م : « منحره » .
(٤) هو المتلمس . ديوانه نسخة الشنقيطى .
(٥) قطعة من بيت له يرو كاملا فى ديوانه ٥٧ ، بل روى على هذه الصورة الناقصة :
. . . . . يغنيك واحمد لغيرها بشرك واطلب أنف من أنت واسم

لأن « فَوْقَ » من الظُّروفِ المتمكنة . ويجوز أن تجعلَه ظرفاً تُرِيدُ كَوْنَهُ فى هذا المكان مما علا مِنْهُ . وإنما لم يَبْنِ من علِ لأنّه جَعَلَهُ نكرةً ، كما تقُولُ أتَيْته قَبْلاً أى أوّلا ، وأنْتَ لا تَقْصِدُ إلى أنّه مُضَافٌ إلى معرِفةٍ مخصوصةٍ ، فاعلمه . ومنه[1] :

* كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْل من عَلِ[2]

فالكسرة فى الموضعين كسرة إعراب ، وإن شئت جعلته معتلَّ الآخِر لا مَنْقُوصاً كشَجٍ وقَاضٍ ، وجعلتَهُ فى النّيَّةِ مُضَافاً ، فيكون مَعْرِفَةً وتنوى ضَمّة البناء فى موضع لامه ، كما تنويها فى الياء من قَاضٍ وغازٍ إذا ناديت بهما واحدًا بعينه . وفى عَلِ لُغَاتٌ كثيرةٌ ، وله نَحْوٌ فى البناء والإعراب لَيْسَ لأخواته من الغايات ، وليس هذا موضعَ شرحه .

١٠

وقال سَعْدُ بن نَاشِبِ بن مَازِنِ بن عَمْرو بن تميم[3] :

١ — سَأَغسِلُ عَنِّى العارَ بالسَّيْفِ جَالِبا عَلَيَّ قضاءَ اللهِ ما كان جَالِبَا

القضاء ، أصله الحَتْمُ والإيجاب ، ثم يستعمل فى إكمال الصُّنْع والفَراغ من الشيء . ولهذا قيل قُضِيَ قضاؤُك ، أى فُرِغَ من أمْرِكَ . وفى القرآن : ﴿ فقضاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ ﴾ . ويروى : « قضاهَ اللهِ » بالرفع والنصب ، فإذا رفعتَه فإنه يكون

(١) م : « ومثله » . والبيت التالى لامرئ القيس فى معلقته .

(٢) صدره : * مكر مفر مقبل مدبر معا *

(٣) شاعر إسلامى ، كان من شياطين العرب ، وهو صاحب يوم الوقيط فى الإسلام بين تميم وبكر بن وائل . الشعر والشعراء ٦٧٧ والخزانة (٣ : ٤٤٤ — ٤٤٦) واللالى ٧٩٢ — ٧٩٤ . وفى شرح التبريزى : أنه كان أصاب دما فهدم بلال داره .. واشتقاق « ناشب » من قولهم رجل ناشب ، أى ذو نشب .

فاعلا لِجَالباً عَلَيَّ ، وما كان جَالِباً فى موضع مَفْعولِهِ (١) ، ويكون القضاء بمعنى الحكم . والتقدير : سأغسل العارَ عن نفسى باستعمال السَّيف فى الأَعْدَاء ، فى حال جَلبِ حكمِ الله علىَّ الشىء الذى يجلبه . وإذا نَصَبَ القضاء فإنه يكون مفعولاً لِجَالِباً وفاعِلُهُ ما كان جَالِباً ، ويكون القضاء الموت المحتوم والقَدَر المقدور ، كما يقالُ للمَصِيدِ الصَّيْدُ ، وللمَخلُوق الخلقُ . والمَعنَى جَالِباً المَوْتَ عَلَيَّ جَالِبُهُ . وذَكَرَ بعضُهم أنّ « كان » من قوله ما كان جَالِباً فى مَعنى صار . قال : ومثله :

بِتَيهَاءِ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأَنَّهُ ... قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخًا بيوضها (٢)

لأن المعنى قد صارت .

٣ — وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِى وأَجعَلُ هَدْمَهَا ... لِعِرْضِىَ مِنْ باقِى المَذَمَّةِ حَاجِبَا (٣)

الذُّهول : تَرْكُ الشَّىء متناسيًا له ومتسلِّيا عنه ، ومنه اشتقاق ذُهْلٍ . يقول : إذا ضاق المنزلُ بى حتى يصيرَ دارَ الهوان انتقلت عنه ، وأَجْعَلُ خَرَابَهُ وقاية للنَّفس (٤) من العار الباقى ، والذّمِّ اللاحق . وهذا قَرِيبٌ من قوله :

* وإذا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فتحوّلِ (٥)

وهو ضدّ المعنى الذى يقصِدونه بالثَّبات فيه والصَّبر عليه ، من الإقامة فى دار الحفاظ والافتخار به ، لأنّ الانتقال ثَمَّ هو الجالب للعار ، كما أن الأقامة هنا هو الجالب . فمن ذلك قوله :

(١) م : « مفعولة » .

(٢) البيت لابن أحمر فى اللسان (كون) . ونسبه ابن يعيش فى شرح المفصل إلى ابن كنزة . ويروى : « كأنها » .

(٣) انظر الإشارة إلى هدم بيته فى ترجمته السالفة .

(٤) م : « لنفسى » .

(٥) لعبد قيس بن خفاف التميمى ، كما فى حماسة البحترى ١٧٩ . وصدره :

* احذر محل السوء لا تحلل به *

وتُقيمُ فى دارِ الحِفَاظ بُيُوتُنَا   زَمنًا ويَظعَنُ غَيْرُنا لِلأَمْرُعِ[(١)]

ومنه قوله :

يُقال مَحْبِسُهَا أَدْنَى لمَرْتَعِها   وإنْ تَعادَى بِبَكْءٍ كُلُّ مَحلُوبِ[(٢)]

وفى ضِدِّه قولهُ :

دَارُ الهَوَانِ لِمَنْ رآها دارَهُ   أَفَراحلٌ عنها كمَن لم يَرحَلِ

وقول الآخر :

ولَسْنَا بِمُحتَلِّينَ دَارَ هَضِيمَةٍ   مَخَافَةَ مَوْتٍ إن بِنا نَبَتِ الدَّارُ

وانتصبَ « حاجبا » على أنه مفعولٌ ثانٍ لأَجْعَلُ ، لأنه بمعنى أُصَيِّرُ . والتقدير : أجعل هَدْمَهَا حاجِبًا لِعِرْضِى ، ومانِعاً من باقى الذَّمّ . ول « جعلت » غيرَ هذا مواضعُ ، يكون بمعنى خَلَقْتُ وأنشأت فيتعدّى إلى مفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ وجَعَلَ الظُّلماتِ والنُّورَ ﴾ ؛ ويكون بمعنى سَمَّيْتُ ، كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلُوا الملائكةَ الذينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إناثًا ﴾ ؛ ويكون بمعنى ظَنَنْتُ ، تقُولُ : جَعَلتُه عَبْدًا وشَتَمْتُهُ ، أى ظَنَنْتُه ؛ ويكون بمعنى طَفِقَ فلا يتعدّى . تقول : جَعَلَ يُكَلِّمُهُ ، أى أَقْبَلَ . وعلى هذا قوله :

جَعَلْتُ وما بِى مِنْ جَفاءٍ ولا قِلًى[(٣)]   أزورُكُمُ يَوْمًا وأَهْجُرُكم شَهْرَا

٣ ــ ويَصْغُرُ فى عَيْنِى تِلَادِى إذا انْثَنَتْ   يَمِينِى بإدْرَاكِ الذى كُنت طَالِبَا

أراد بقوله « يصغُر » صِغَر القدر وخفّته ونَزَارَتَهُ فى الهَمِّ والفِكْرِ .

---

(١) للحادرة الذبيانى فى المفضليات (١ : ٤٣) . و « للأمرع » ضبطت فى الأصل بضم الراء وفى م بفتحها ، وهما روايتان .

(٢) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٢) .

(٣) فى الأصل : « عن جفاء » ، والوجه ما أثبتنا من م .

وخصّ « التلاد » وهو المَالُ القديم ، لأنّ النفس بمثله أضَنُّ ، وبه أَنْفَس ، وله أَضْبَطُ . نبّه بهذا الكلام على أنّه يَخِفُّ على قَلْبِه تَرْكُ الدار والوَطن خوفاً من التزام العار ، كذلك يقلُّ فى عينه إنفاق المالِ عند انصراف اليدِ حائزةً للمطلوب ، جامعةً له . وجوابُ « إذا » قُدِّم عليه وهو قوله « يَصْغُرُ » ، فأمّا قوله « كنت طالِباً » ، فقد حُذِف منه الضمير العائد إلى الذى ، والتقدير كنت طَالِبَهُ .

٤ — فإنْ تَهدِموا بالغَدْرِ دارِى فإنّها تُراثُ كَرِيمٍ لا يُبَالِى الْعَوَاقِبَا

الهَدْمُ : القَلْعُ والتخريبُ ، ويسمّى المهدوم هَدَمًا . قال :

* كأنّهُ هَدَمٌ فى الجَفْرِ مُنْقَاضُ[١] *

وتوسعوا فيه فقيل للثوب الخَلَقِ هِدْمٌ ، وجمعه أهدَامٌ . وقيل عَجُوزٌ متهدّمة أى هَرِمَةٌ فانِيَة . وتَهَدّمَ عليه من الغَضَب ، كما يقال تَهَجّمَ . والغَدْرُ : تَرْكُ الوفاء ، ومنه غادرتُهُ ، والغدير . وكأنَّ هذا الرجل كان أخلَّ بدارِه لنائبةٍ نابَتْهُ[٢] فصار يخاطِبُ أعداءهُ ويريهم قِلّةَ فِكرِه فيما تجرى عليه أحواله من جهتهم ، وفيما تُفْضِى عواقبُ أمرِه إليه معهم ، فيقول : إنْ تخرِّبوا دارِى غدْرًا منكم فإنّها ميراث رَجُلٍ هكذا ، ويعنى بِهِ نَفْسَهُ ، وسَمَّى مِلْكَهُ ميراثاً وهو حَىٌّ ، والمعني أنه سيُورَثُ ، وهذا تسمية الشَّىء المتنقّل فى أيدى مُلاكه والمتصرّفين فيه على التشبيه : ميراثاً ، وإن لم يتنقّل بالأسباب والأنساب . على ذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ وللهِ ميراثُ السّمواتِ والأرض ﴾ ، وقولُه : ﴿ وأورثَـكُم أرْضَهُم وديارَهُمْ وأموالَهُمْ ﴾ . وتُراث ، أصله وُرَاثٌ ، والتاء فيه كالتاء فى تُكَأةٍ وتُخَمَةٍ . وقوله : « تُرَاثُ كَرِيمٍ » أراد بالكَرَمِ التنزّهَ عن

(١) فى الأصل : « منفاض » ، صوابه فى م واللسان (هدم) . وصدره :
* تمضى إذا زجرت عن سوأة قدما *
(٢) انظر ما سبق فى ترجمته من هدم بلال داره .

الأقذار ، والتَّباعُدَ مِن جوالِبِ العار : على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وإذَا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله : « لا يبالى العواقبا » يقال : ما بَالَيْتُه بَالَةً وبالِيَةً ومبالاةً وبِلاء ، وما باليت به . وكأنه أُخِذَ من البَلاَء ، واستعمل فى المفاخَرَةِ وتَعدَادِ الخِصال الحسَنَة عند المُنافَرَةِ ، ثم كَثُر استعماله حتَّى صار يُقالُ فى الاستهانة بالشَّىء . ويشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

مَالِى أَرَاكَ قائمًا تُبَالِى ۝ وأنتَ قد مِتَّ من الهُزَالِ(١)

أى تفاخر .

٥ — أخِى عَزَماتٍ لا يُرِيدُ عَلَى الّذى ۝ يَهُمُّ به من مَقْطَعِ الأمْرِ صَاحِبَا

يقال : ما له عَزْمٌ وما له عَزِيمَةٌ ، أى تثَبُّتٌ وصبرٌ فيما يعزِم عليه . وحقيقة العزْم : توطين النَّفس وعَقْدُ القلب على ما يُرَى فِعْلُه ، ولذلك لم يَجُزْ على الله عزّ وجلّ . والاعتزامُ : لزوم القَصْدِ وتركُ الانثناء ، ولذلك قيل اعتَزَمَ الفرسُ على الجرى . يصف نفسَه بأنّه صاحب همٍ وأخو عَزَماتٍ ، مستبدٌّ برأيه فيها غيرُ متّخِذٍ رفيقاً ، ولا مستنصرٍ أخًا وصديقًا . و « مَقْطَعُ الأمْرِ » أراد فَصْلَه والخروج منه . ويُرْوَى : « أخِى غَمَرَاتٍ » وهى الشدائد . ويُروى : « من مُفْظِعِ الأمر » وهو من فَظُعَ الأمْرُ وأَفْظَعَ ، فَظَاعَةً وإفظَاعًا ، وهو فَظِيعٌ ومُفْظِعٌ . أو من أَفْظَعَنِى الأمْرُ فَفَظِعْتُ به ، أى أعيانى فضِقْتُ به ذرعا . وقوله : « صاحِبا » صِفَةٌ فى الأصل استُعْمِلَتْ استعمالَ الأسماء ، فلم يَجْرِ مَجْرَى أسماء الفاعلين ، ويَجرى على طريقتِه قولُهم والِدٌ .

٦ — إذَا هَمَّ لم تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ ۝ ولم يَأْتِ ما يأتى من الأَمْرِ هَائِبَا

الهَمُّ : ما تُجِيلُ لفِعله وإيقاعه فِكرَكَ . والهِمَّةُ : اسم الحالة التى تكون

(١) أنشد الرجز فى اللسان (بلا) .

عليها فى ذلك . ويقال فى المَثَلِ لمن يُعَيَّرُ[1] بطول الأَمَل : « تَهُمُّ ويُهَمُّ بك » ، ومنه المُهِمَّات ، وهذا يخبر عن نفسه بأنه يتبع الرأى الأوّل . وهذا طريقةُ الفُتَّاكِ لأنّ الرجوع عن الرَّأْى إلى غيره طريقةُ من يتدبَّرُ العواقب فيَترك[2] الشَّىء إلى الشىء لما يرجُوهُ من حُسْنِ المآب . فقال : إذا هَمَّ هذا الرجل بشىء أنفَذَ عزيمَتَهُ ولم يَرْدَعْها ، ولم يَفْعل ما يفعله خائفاً . ومثله قول الآخر :

جَسُورٌ لا يُرَوَّعُ عِنْدَ هَمٍّ ولاَ يَثْنِى عزيمَتَه اتِّقاء

ويقال : رَدَعْتُه فَارْتَدَعَ ، أى كَفَفْتُه ورددته رَدْعًا . ومنه الرُّدَاع فى العِلَّةِ وهو النُّكْسُ ، يقالُ رُدِعَ رَدْعًا ورُدَاعًا . والهَيْبَةُ تكون من الذُّعْرِ ومن الإجلالِ جميعاً ، ويقال للجبان هَيُوبُ وهَيُوبَةٌ ، والهاء للمبالغة ، وللمحتشَم مَهِيبٌ . وفى الحديث : « الإيمانُ هَيُوبٌ » . ويقال : تهيَّبْتُ الشىء وتَهيَّبَنى بمعنًى ، لمَّا كان لا يَلتَبِس ، ومثله من المقلوب كثير .

٧ — فَيالَ رِزَامٍ رَشِّحُوا بى مُقدِّمًا إلى المَوْتِ خَوَّاضاً إليه الـكتائبا[3]

ويروى : «الـكرائبا» . الفاء من قوله « فيالَ رِزَامٍ » النِّيَّةُ بها استئناف ما بعدها وإن نُسِقَ بها جملةٌ على جملة . واللامُ من يال رِزَام ، هو لامُ الاستغاثة ، ورِزَامٍ ينجرُّ به وهم المدعوُّون . وأصل حركة لام الإضافة إذا دَخَل على ظاهرٍ الـكسر ، ولهذا إذَا عُطِف على هذه اللام بلام أخرى كُسِرَت الثانية ، تقولُ : يالَزيدٍ لِعمرو ، ولـكن هذه فُتِحَتْ لـكون ما بَعْدَها مُنادًى ، ووقوعِ المنادَى على هذا الحدّ موقعَ المضمرات ، فكما قيل لك وله ، قيل يالَزَيْد . وقوله «رشِّحوا بى مقدِّما » بكسر الدال بمعنَى متقدِّما ، فهذا كما يقال وَجَّه بمعنى توجَّه ، ونَبَّه بمعنى تنبَّه

(١) كذا فى النسختين . وليست « يغتر » .

(٢) فى الأصل : « فينزل » ، ووجهه من م .

(٣) ابن جنى : « هذا البيت شاهد على إعمال فعال إعمال اسم الفاعل » .

ونكَّبَ بمعنى تَنَـكَّب . وعلى هذا قولهم مُقَدِّمة الجيش ، ومن فتح الدال فالمعنى على أنّه يُقدَّم ليَقِيَهم بنفسه . « خَوَّاضاً إليه الـكتائبا » ، انتصب الـكتائب على أنه مفعول خوّاضٍ . ويُروى « الـكرائب » وهى الشدائد جمع كَرِيبَة ، والأصل فى الـكَرب : الغَمّ الذى يأخذ بالنَّفس . والتَّرشيح أصله التَّنْبيت والتَّربية ، ومنه قيل رَشَّحَتِ المرأةُ ولدَها إذا درَّجَتْهُ فى اللَّبَنِ ، ثم قيل رُشِّحَ فلانٌ لـكذا ، توسُّعاً . ومعنى البيت : يا بنى رِزام هَيِّئُوا بى رَجُلاً يَتقدَّم إلى الموت ولا يَحِيد عنه ، مقتحِما الجيوش والشدائد غير متنَـكِّبٍ ولا حائد . ويروى : « رَشِّحوا بى مُقْدِماً » ، وتلخيصه : رَشِّحوا بترشيحكم رجلاً هذه صفتُه ، فأقام الصّفةَ مقام الموصوف .

٨ — إذَا هَمَّ أَلْقَى بيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ ونَـكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العواقِبِ جَانِبا[1]

قوله : « ألقى بين عينيه عزمَه » ، أى جعله بمرأًى منه لا يغفُل عنه ، وقد طابق فى المعنى لَمّا قابَـل قولَهُ ألقَى بين عينيه عزمَهُ ، بقوله : نَـكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا . ومثْله قول الآخَر :

* ولا ناظِرٌ عند الوَغَى فى العواقِبِ *

وانتصب «جانباً» على أنه ظَرْفٌ . وَنكّب يكون بمعنى تنكّب . والمعنى أنَّه إذا هَمَّ بالشيء جَعَلَهُ نَصْبَ عينيه[2] إلى أن ينفُذ فيه ويخرج منه ، ويصير فى جانبٍ من الفكرِ فى العواقب . ويجوز أن ينتصبَ جانباً على المفعول ، ويكونُ نَـكّب بمعنى حَرَّف . والمراد انحرفَ عن ذكر العواقب وطَوَى كَشْحَهُ دُونَهُ . وسمِّى المعزوم عليه عَزْمًا على عادة العرب فى وصف الفاعل والمفعول بالمصادِر .

(١) مثله ما أنشده له البكرى فى اللآلى ٧٩٣ :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجى ذى الأثر

(٢) كذا ورد فى النسختين ، بفتح النون ، وهو من أخطائهم ، والصواب ضم النون . وفى اللسان : « القتيبى : جعلته نصب عينى بالضم ، ولا تقل نصب عينى » ، يعنى بالفتح —

٩ ــ ولم يَسْتَشِر فى أَمْرِهِ غَيْرَ نَفسِهِ ‏ ‏ ‏ ولم يَرْضَ إلاَّ قائمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

مِثلُ المِصراع الأول قول ابنِ هَرْمَةَ :

* ولاَ يَنْتَجِى الأَدْنَـيْنِ فيما يُحَاوِلُ *

ويقارب الثانى قول الآخر :

* فَفِى السيفِ مَوْلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ *

والشاعر يصف استبدادَه وتفرّدَه عند ما يَدْهَمُه بما يأتيه[1] فِعلاً ورَأْياً . وإنّما نبَّهَ على الرأى بقوله : « لم يَسْتَشِرْ » ، وعلى الفعل بقوله : « ولم يَرْضَ إلا قائمَ السّيف صاحبا » . وانتصبَ قائم على أنّه استثناء مقدَّم . ألا تَرَى أن الأصل ولم يَرْضَ صَاحباً إلا قائم السيف . ولو أتى على هذا لـكانَ الوجْهُ أن يكون بَدَلاً ، فقدَّم المستثنى كما ترى .

١١

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا[2] :

١ ــ إذا المرءُ لم يَحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّه ‏ ‏ ‏ أَضَاعَ وقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ

قولُه « لم يَحْتَلْ » ذهب بعضُهم إلى أن الحيلة مأخوذة من قولهم حَالَ الشىء ، أى انقلبَ عن جهتِهِ[3] ، كأنّ صَاحبَها يريد أن يستنبط ما يَحُولُ[4] عند غيره

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وما يأتيه » .

(٢) هو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمى ، وسمى تأبط شراً لأنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهذا أشهر ما قيل فى سبب تلقيبه . وكان أحد لصوص العرب المغيرين ؛ قرينا للشنفرى وعمرو بن براق . الشعراء ٢٧١ وشرح الأنبارى للمفضليات ١ ــ ٢ ، ١٩٥ ــ ١٩٦ والأغانى ١٨ : ٢٠٩ ــ ٢١٨ والاشتقاق ١٦٢ ــ ١٦٣ ــ والخزانة ١ : ٦٦ ــ ٦٧ واللآلى ١٥٨ ــ ١٥٩ .

(٣) م : « عن وجهة » . ‏ ‏ ‏ (٤) يحول بالحاء كما فى النسختين ، ولعلها « يجول » .

ولذلك قيل : فُلانٌ حُوَّلٌ قُلَّبٌ . وقولُه « جَدَّ جِدُّهُ » أى ازداد جِدُّه جِدًّا . ويكونُ مثلَ قولِه :

* حتى أستَدقَّ نُحولُها *

المعنى ازداد دَقِيقُها دِقَّةً ، ويجوز أن يكونَ المعنى صار غَيْرُ الجدّ جِدًّا بمآله(١) ، وهذا كما يُقال رِيعَ رَوْعُهُ ، وخَرجتْ خوارجُه ، وجُنَّ جُنونُه ، وقال الهُذَلِى :

* يُدْعَوْنَ حُمْسًا ولم يَرتَعْ لَهُمْ فَزَعُ *

وإنما هو ريع أَمْنُهُ ، وخرجت دَوَاخِلُه ، ولم يَرْتَعْ لهم أَمْنٌ . فَسَمَّى الشىء بما آل إليه . وقولُه « أَضاعَ » يجوز أن يكون معناه وَجَد أمرَه ضائعاً ، ويجوز أن يكون بمعنى ضَيَّع . ويقال : ضاع الشىء ضَيْعةً وضَياعاً ، وترَكهم بضَيْعةٍ ومَضِيعةٍ . وإذا أخَذ الرجُلُ فيما لا يَعْنيه ، قيل : فَشَتْ عليه الضَّيْعة . ويقاربه قولهم :

* اتَّسع الخَرْقُ على الرَّاقع(٢) *

وقوله : « وهو مُدْبِرُ » يجوز أن يكون الضميرُ للأَمْر ، والمعنى قاسَى أمرَه ، أى شقِىَ به وهو مُوَلٍّ فائتٌ . ويجوز أن يكون الضميرُ للمرء ، والمعنى عالَجَ أمرَه وكابَدَه مُدْبِراً فيه غيرَ مُقْبِلٍ ولا مَنْصورٍ ، ومعنى البيت إذا الرجُل لم يَطلُب رشده ولم يُنْفِذ الحيلةَ فى إصلاح أمرِه ، فى الوقت الذى يجب أن يَفعَلَه ،

(١) م : « بما آل إليه »

(٢) عجز بيت لشقران السلامى فى المجتنى لابن دريد ٧٨ ، أو لابن حمام الأزدى فى المؤتلف ٩٢ . وصدره :

* كنا نداريها فقد مزقت *

ونحوه قول أبى عامر جد العباس بن مرداس ، فى العينى (٢ : ٣٥١) :

لا نسب اليوم ولا خلة اتسع الخرق على الراتق

وقد صار الأمر جِدًّا لا شُبْهَةَ فيه، عالَجَه وهو هكذا، أو عالجه والأمر هكذا. ومثله:

ولـكنَّ مَن لا يَلق أمراً يَنوُبه بِعُدَّتِه يَنزِلْ به وهو أعزَلُ

٢ـ ولكنْ أخُو الحَزْمِ الذى ليسَ نازِلاً به الخَطْبُ إلاَّ وهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ

السائرُ عنهم فى مَثَلٍ قولُهم: « رَوِّئْ تحزُمْ، فإذا روَّأْت فاعزِمْ »، فيقول: صاحبُ الحزْم هو الذى يَستعدُّ للأمر قبل نزوله، ويدبِّره قبل فوْتِه، حتى إذا نزَل به يكونُ عارفاً بالقصة فيه، سالكا للوجْهِ الذى يفصِلُهُ منه. وهذا كما قيل فى المَثَل: « قَبلَ الرِّماءِ تُملأُ الـكنائن[1] ». والحزْمُ فى اللغة: الشَّدُّ والضبط، ومنه الحِزَام، والحَزْمة، والحَيْزومُ، والمَحْزِم: والخَطْب: الأمر المطلوب، ويقال: خطَبْتُ الأمر فأَخطَبَ، كما تقول طَلَبْتُه فأَطْلَبَ.

٣ـ فذاكَ قَرِيعُ الدّهرِ ماعاشَ حُوَّلٌ إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاشَ مَنْخِرُ

« ذاك » أشار به إلى أخى الحَزْم. و « قريعُ الدَّهْرِ » يحتمل وجهين: يجوز أن يكون فى معنى مختار الدهر، ويكون من قَرَعْتُ الشىءَ أى اخترْتُه وخَصَصتُه بقُرعَتى، ويقال هو قَريعُهم وقريعتُهم وقِرِّيعهم بمعنًى واحد. ويجوز أن يكون بمعنى مَن قرَعَهُ الدهر بنوائبه حتى جرَّب وتبصَّر. ويكون قريع فى الوجهين فَعيلاً فى معنى مفعول. ولا يمتنع أن يكون المراد بقريع الدهر فَحْلَ الدهر، ويكون فى هذا الوجه قريع فى معنى فاعل، لأنه يَقرَعُ الناقةَ أى يضربها. وما تقدَّم أحسن. وقوله « ما عاشَ » فى موضع الظَّرْف، والمعنى مُدَّةَ عيْشِه. وقولُه « إذا سُدَّ منه مَنْخِرُ » مَثَلٌ للمَكروبِ المُضيَّقِ عليه، وهذا كما استُعمل

(١) الكنائن: جمع كنانة، وهى جعبة السهام.

فيه الخَنْقُ والخِنَاق . وأصل المنخر فى الأنف من النخير ؛ ويسمى النُّخْرة أيضاً . والجميع النُّخَر . والنخير : مدّ النَّفَس ، ومنه نَخِيرُ الحمار . وقيل نُخْرَتا الأنفِ : حَرْفاهُ . وجاشَتِ القِدْرُ : غَلَتْ . وجاشَ البحرُ : اهتاجَ ، وأصلُهُ التحرُّك فى الموضعين والاضطراب ؛ ومنه الجيش واحِدُ الجيوش . والمعنى : لافتنانه فى الحِيَل لا يؤخَذُ عليه طريقٌ إلاّ نَفَذَ فى آخَرَ . و « الحُوَّل » : الـكثير التحوُّل فى الأمورِ . ويقال هو قُلَّبٌ وحُوَّلٌ ، وفى معناه رَجُلٌ حَوِلٌ وحَوَالِيٌّ . قال ابن أحمر(١) :

أو يُنْسِئَن يَوْمِي إلى غَيْرِهِ　　　أنّى حَوَالِيٌّ وأنّى حَـذِرْ

ويقال : هو ذو حَوْلٍ وحَوِيل ، وفى المثل : « لو كان ذا حيلة تحوّل » . فأمّا قولهم : هو ذو مَحْلَةٍ(٢) ، فهو فى معنى مَحَالَةٍ ، وَلَيْسَ من بنائِهِ ، لأن الميم فى مَحْلَة أصلية ، وفى مَحَالَةٍ زائدة .

٤ ــ أَقُولُ لِلِحْيَانٍ وقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ　　　وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الحَجْرِ مُعْوِرُ(٣)

من كلامهم : « نعوذ بالله من صَفَرِ الإناء ، وقَرَعِ الفِناء » . وهذه الاستعارة من شُمول القَحْط وهَلاكِ المال . ولِحيان : بَطْنٌ من هُذَيْل كان تَأَبَّطَ شَرًّا راغَمَهُمْ ووَتَرَهُم ، فكانوا يطلبون غَفلَتَهُ ، حتى اتفَّق منه الصُّعودُ إلى الجبل الذى وصفَه ليشتار العسل ، ولم يكن له إلا طريقٌ واحد ، فجاءوا وأخذوا عليه ذلك الطّريق ، فقال : أقول لهم ، يعنى عند مخاطبتِهِ إيّاهم وهو على الجبل . وقوله

(١) فى اللسان (حول) : « ويقال للمرار بن منقذ العدوى » . وروايته عند التبريز : « أو ينسأن » .

(٢) ضبط فى م بضم الميم ،

(٣) الحجر ، كذا وردت فى النسختين بتقديم الحاء وفتحها وهو الناحية . وتفسير المرزوقى يحتم هذه الرواية عنده . وفى مطبوعات الحماسة : « الجحر » بتقديم الجيم المضمومة . وفى شرح التبريزى : « وذلك أن الحشرة إذا لجأت إلى جحر ضيق لا منفذ له وصل إليها الطالب » . فتفسيره يعين روايته كذلك .

« وقد صَفِرتْ لهم وِطابى » يحتمل وجوهًا : يجوز أن يكون المعنى وقد خلا قلبى من ودِّهم . وبعضهم يستضعف هذا ويقول : ومتى كان يَودُّهم ؟ وهذا اللفظ كيف يفيد هذا المعنى . ويمكن أن يُقال فى ذلك إنَّما أراد وِطابَ ودِّى . وهذا كما قال بِشْر :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنْكُمْ ولم يك بيننا فيها ذِمامُ(١)

كأنه تبيّن منهم أنّهم لا يُبْقُون عليه ، ولا يَرعَون ذِمامًا لَهُ ، فلا رِعَةَ ولا رِقةَ لديهم ، ولا بُقْيَا ولا محافظة عندهم ، فصار اعتقاده فيهم كما بانَ له اعتقادهم . فيه . فلهذا قال ما قال . ويجوز أن يكون المعنى أشرفَتْ نفسى ، بسببهم ولتعرُّضهم وهَمِّهم بانتهاز الفرصة لما أمكنهم ، على الْهلاك . ويكون هذا من قوله :

* ولو أدركْنَهُ صَفِرَ الوِطَابُ(٢)

وفى طريقته قول الآخر(٣) :

هَرَقْنَ بساحُوقٍ جِفَانًا كثيرةً وأَدَّيْنَ أُخْرى من حَقِينٍ وحازرِ

وقال غيره :

ياجَفْنَةً كنَضيحِ الحوْض قد كُفِئَتْ بِثْنِي صِفِّينَ يعلو فوقها القُتَرُ(٤)

ويجوز أن يكون أشار بالوِطاب إلى الجسم ، أى كاد تفارقُه الرُّوح . وهذا كما يقال : الإنسان(٥) : زِقٌّ مَنْفُوخٌ . ويجوز أن تكون الإشارة إلى

(١) فى المفضليات (٢ : ١٣٥) : « فإذ صفرت » .

(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ١٦٠ ، وصدره :

* وأفلتهن علباء جريضا *

(٣) هو سلمة بن الخرشب الأنمارى ، كما فى المفضليات (١ : ٢٦) وانظر معجم البلدان (ساحقوق) .

(٤) عجز هذا البيت من م ، وهو ساقط من الأصل .

(٥) فى الأصل : « للإنسان » وأثبتنا ما فى م .

ظروف العَسَل التى اشتارها[1] لأنه لما تيقّن قَصْدَهم لِقَتْلِهِ وتركَهمْ مسامحتَه صَبَّ العسلَ على الجبل من الجانب الآخر وركِبَهُ متزلِّقًا عليه، حتَّى لَحِق بالسَّهل. قولُه: «ويَوْمِي ضَيِّقُ الحَجْرِ مُعْوِرُ»، أى ضَيِّقُ الناحية مُمكنٌ. ويقال فى الحَجْر الحَجْرةُ أيضا. وفى المَثَل: «يَربِضُ حَجْرَةً ويَرْتَعِي وَسَطًا». ومُعْوِرٌ، من أَعْوَرَ لكَ الشيء، إذا بَدَتْ لَكَ عورَتُه، وهى موضع المَخافةِ. قال الله تعالى فى الحكاية عن المنافقين لما قَعَدوا عن نُصْرَة النبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿ إنّ بيوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ أى واهيةٌ يجب سَتْرُها وتحصينُها بالرِّجال، وكما قيل يومٌ مُعْوِرٌ قيل مكان معوِرٌ، أى مَخُوفٌ. ويقال: عَوِرَ المكانُ إذا صار كذلك، وقرئ: ﴿ إنّ بيوتَنَا عَوِرَةٌ[2] ﴾. وقال بعضُهم: كلُّ ما طلبْتَه فأمْكَنك فقد أعْوَرَكَ وأَعْوَرَ لَكَ. ومعنى البيت: أقول لهؤلاء القوم والحالُ هذا، وهو أَنّى قد جعلتُ لنفسى طريقًا إلى الخَلاَص منهم أوْ أَنِّى أشرفْتُ على الهلاكِ واليَوْمُ يوم شديدٌ عَسِيرٌ.

٥ ــ هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٍ ومِنَّةٍ   وإما دَمٍ والقَتْلُ بالحُرِّ أَجْدَرُ

الخُطَّةُ مأخوذةٌ من الخَطِّ، وهى تجرى مجرى القِصّة، وإن كان لها مواضع تنفرِد بها، وحَذَف النون من «خُطَتا» إذا رَفَعْتَ «إمَّا إسَارٌ» استطالةً للاسم، كأنه استطال خُطَّتا ببدَلِه وهو قولُه إما إسَارٌ، كما استطال الشاعرُ الآخرُ الموصول [بصلته، والموصوفَ[3]] بصفَتِه فقال:

أَبَنِي كلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا   قتلَا المُلُوكَ وَفَكَّكَا الأَغْلَالَا[4]

(١) كذا فى م. وفى الأصل: «الذى اشتاره». والعسل يذكر ويؤنث.

(٢) هذه قراءة ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبى رجاء، وأبى حيوة، وابن أبى عبلة، وأبى طالوت، وابن مقسم، وإسماعيل بن سليمان عن ابن كثير. وقرأ الجمهو بإسكان الواو. تفسير أبى حيان فى (سورة الأحزاب).

(٣) التكملة من م.

(٤) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤. ونسب فى الضرائر للآلوسى ٦٨ إلى الفرزدق وهو خطأ. وبنو كليب هم قوم جرير. وعما الأخطل هما: عصم بن النعمان، ودوكس بن الفدوكس

فحذَفَ النون من اللَّذَا . ومثله فى الحذف قول الآخر(١) :

لها مَتْنَتَـــانِ خَظَاتا كما أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ

فحذف النون من خظاتا . وقول الآخر :

لَنَا أَعْنُزٌ لُبْنٌ ثَلَاثٌ فَبَعْضُها لأولادها ثِنْتَا وما بيننا عَنْزُ(٢)

ويجوز أن يكون الحذف على وجه الحكاية ، كأنَّه قال : هُمَا خُطَّتا قولِـكُم إمَّا كذا وإمَّا كذا ، فلما نَوَى ذلك حَذَفَ النونَ للإضافة . وكأنهم كانوا يُدِيرونَهُ على الخصْلَتين(٣) ، فأخذ يتهكّم عليهم ويحكى مقالتَهُم ، ونحوُه قولُ الخليلِ فى قَوْلِهِ : ﴿ ثم لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كلِّ شِيعَةٍ أَيُّهم أشدُّ على الرَّحْمٰن عُتِيًّا(٤) ﴾ ، قال معناه لَنَنْزِعَنَّ من المتشايعين الذى يقال لعُتُوِّه أَيُّهُم أشدّ ؛ فحَكَى . وقولُه :

* فأَبِيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ(٥) *

وإذا جَرَرْتَ « إمّا إسَارٍ » يكون حذف النون لنيّة الإضافة ، والتقدير : هُمَا خُطَّتَا إسارٍ ومِنَّةٍ . والمعنى ليس [لى(٦)] إلا واحدةٌ من خَصْلَتَيْنِ اثنتين على زُعمِكم(٧) : إما استئسارٌ والتزامُ مِنَّتِكم إنْ رأيتم العفو ، وإمّا قتلٌ وهو بالحرِّ أجدر من التعرّض لما يُخزِيه ويُكسِبه الذلّ . فهاتان الخصلتان هما اللتان أشار إليهما

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ١٤ .

(٢) أنشده هذا البيت التبريزى وابن جنى كذلك ، ولم ينسباه .

(٣) انظر مثيل هذا التعبير فيما مضى ، ص ٤٥ س ١٨ .

(٤) كذا وردت الآية بهذا الضبط فى النسختين ، وهى قراءة الجمهور ، وانفرد حمزة والكسائى وحفص بالقراءة بكسر العين والجيم والصاد فى « عتيا » و« جثيا » وصليا » . انظر تفسير أبى حيان (٦ : ٢٠٨) . والكلام بعد هذه الكلمة إلى « أشد » ساقط من م .

(٥) للأخطل فى ديوانه ٨٤ وسيبويه (١ : ٢٥٩) . وأنشده فى المخصص (٨ : ٦٩ ، ١٦ : ١١٠) . وصدره :

* ولقد أبيت من الفتاة بمنزل *

(٦) هذه من م .

(٧) الزعم : مثلث الزاى ، كما فى القاموس . وتكاد النسختان تجمعان على ضم الزاى فى كل موضع ترد فيه هذه الكلمة ، كما هنا .

بقوله هما خُطَّتان ؛ وقد ثلَّثهما بخطّة أخرى ذكَرَها فيما بعد . وفى هذا الكلام تهكّم وهُزْء . وقوله : « والقتل بالحرِّ أجدر » يسمَّى اعتراضا لوقوعه بين ما عَدَّدَه من الخصال .

٦ ــ وأُخْرَى أُصَادِى النَّفْسَ عَنْها وإنَّها لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إنْ فَعَلْتُ ومَصْدَرُ

المصاداة : إدارة الرَّأى فى تدبير الشىء والإتيانُ به على أتْقَنِه ، ومنه يقال : إنّه لصَدَى مالٍ ، إذا كان حَسَنَ القيامِ به . يقول : وهاهنا خَصْلَةٌ أخرى أدارِى نفسى فيها ، وأُداوِرها عليها ، وإنّها لَلموضِعُ الذى يَرِدُهُ الحزم ويَصدُر عنه إن فعلْتُ . وهذا إنَّما قَسَّم الكلامَ هذه الأقسامَ لأنّه رآهم يبنون أمرَه عليها ، ولأنَّه نظر إلى جهتى الجَبَل فعلِمَ أنّه إنْ رَضِىَ الطريق التى عليها بنو لِحيَانَ لنفسه طريقاً كان فيها إحدى الحالتين : من الأسْرِ أو القَتْل ، على ما كانوا يزعمون ويقولون . وإن احتال للجهة الأخرى والحزمُ فيها ، لأنَّ خلاصه منها ، كان أمراً ثالثا . ثم اقتصَّ ما فعله[1] . وقوله « وإنّها لموردُ حَزْمٍ » اعتراضٌ أيضا ، لوقوعه بين قوله وأخرى أصادى النفسَ عنها ، وبين تبيين كيفية مزاولته لها وشَرْحِها .

٧ ــ فَرَشْتُ لها صَدْرِى فزَلَّ عن الصَّفَا بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبْلٌ ومَتْنٌ مُخَصَّرُ

الفَرْش : البَسْط ، ثم توسَّعوا فيه فقالوا : فَرَشْتُه أمرى ، وافترَش لسانَهُ فتكلَّم كيف شاء . وقوله «لها» الضمير للخَصْلةِ التى عبّر عنها بقوله « وأخرى » . يقول : فَرَشت من أجْل هذه الخطّة صدرى على الصَّفا . وهذا حين صَبَّ العسلَ فزَلِقَ [به] عن الصَّفا . أى بصدْرِه صَدْرٌ ضخم ومَتْنٌ دقيق ، والصَّدْرُ والمَتْنُ صَدْرُه ومَتْنُهُ ، ولكن أخرجَه مخرجَ قولهم : لَقِيتُ بزَيْدٍ الأسَدَ[2] ، وزَيد هو

(١) م : « على ما فعله » .

(٢) هذا مما يسميه البلاغيون « التجريد » ، ويسمون الباء فى مثل هذا باء التجريد .

الأشد عندهم . وَوَضَع فرشت موضع أَلْقَيْتَ ووضَعْت . ويقال : فَرَشْتُ ساحتى بالآجُرِّ ، وافترشت الشاة للذَّبح إذا أَضْجَعْتَها . وذكر بعضهم أنه يجوز أن يكون الضمير من « لها » للصَّفاة ، والكلمة مقلوبةٌ ، والمعنى فَرَشْتُها لصدرى . وفى هذا إضمارٌ قَبْلَ الذِّكر والقلب ، وإذا كان كذا فالأوّلُ هو الوَجْه .

٨ ـ فَخَالَطَ سَهْلَ الأَرْضِ لم يَكْدَحِ الصَّفَا بِهِ كَدْحَةً والموتُ خَزْيانُ يَنْظُرُ

الخَلْط أصله تداخل أجزاء الشَّىء فى الشىء ، وقد توُسِّع فيه حتَّى قيل : رَجُلٌ خَلطٌ[1] ، إذا اختَلَط بالنَّاس كثيراً . وجاء فى الحديث : « لا خِلاطَ ولا وِرَاطَ » ، وفى المثل : « ليس أَوَانَ يُكْرَهُ الخِلاَطُ » . يقول : أسْهَلْتُ ولم يؤثِّر الصَّفا فى صدرى أثراً ، لا خَدْشًا ولا خَمْشًا ، والموتُ كانَ طَمِعَ فِىَّ ، فلما رآنى وقد تَخَلَّصْتُ بَقِىَ مُسْتَحْيِيًا ينظُر ويتحيَّر . والواو من قَوْلِه « والموت » واوُ الحالِ . وهذا من فصيح الكلام ، ومن الاستعارات المليحة . وقد حُمِل قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وأنتم حِينئذٍ تنظُرون ﴾ على أنْ يكون المعنى[2] تتحيّرون . وقد سَلَكَ أبو تمّام مَسلكَ هذه الاستعارة فقال :

* إن تَنْفَلِتْ وأُنوفُ المَوْتِ راغِمَةٌ[3] *

ويقال إنّ الموضع الذى يقع عليه كان بينه وبين الطَّرِق الذى عليه بنو لحيان أميالٌ عِدَّةٌ . وقوله « يَنْظُر » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويجوز أن يكون خَبَراً بعد خَبَر ، ويكون معناه فى مقَابَلَتِى . ويقال : بيُوتُهم تَتَناظر ، إذا تقابَلَتْ ، لأنَّ النَّظَرَ تقَابُبُ العين نحو المرئِىّ وفى مقابلته . لذلك صَحَّ أن

(١) كذا ضبط فى الأصل ، وضبط فى م بضم الخاء واللام ، وهما لغتان صحيحتان . ولغة ثالثة « خلط » بكسر الخاء . وشاهد الأخير فى اللسان قوله :

وأنت امروٌ خلط إذا هى أرسلت يمينك شيئاً أمسكته شمالكا

(٢) م : « بمعنى » . (٣) م : « إن تنقلب » . وعجزه فى الديوان ٩٨ :

* فاذهب فأنت طليق الركض يا لبد *

يقال للأعمَى : نَظَر إلىّ ، ويجوز أن يكون معنى يَنْظُر يَعلمُ حُسْنَ حِيلتى وغَنَائِى فيما يَدهَمُنى . وفُسِّر قولُه تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنْظُرون ﴾ ، أى يعلمون ذلك ويتيقّنون . وقوله « لم يَكدَح الصَّفَا » قيل الكَدْح بالأسنانِ والحجَر دون الكَدْم ، ومنه قيل المكدَّح المكدَّمُ فى حمار الوحش ، لتعضيض بعضها بَعْضاً . وقوله « خَزْيَانُ » يجوز أن يكون من الخِزى : الهَوانِ ، ويجوز أن يكون مِنَ الخَزَايَةِ : الاستحياء .

٩ ـ فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ ولم أكُ آيِبًا وكَمْ مِثْلُهَا فارَقْتُها وهِىَ تَصْفِرُ[(١)]

يقولُ : رجعتُ إلى قبيلتِى فَهْمٍ ، وكِدْتُ لا أؤُوبُ ، لأنِّى شافَهْتُ التّلَفَ . ويجوز أن يُريدَ : ولم أَكُ آيِباً فى تقديرهم وظنِّهم . واختارَ بعضهم[(٢)] أن يُرْوَى : « فَأُبْتُ إلى فَهَمٍ وما كِدْتُ آيبا » وقال : كذا وجدتُه فى أصلِ شِعْرِه . قال : ومِثْلُه فى أنَّهُ رَدَّ إلى الأَصْلِ وَوَضَع اسم الفاعل[(٣)] موْضعَ الفعل قولُ الآخَر :

أَكْثَرْتَ فِى العَذْلِ مُلِحًّا دائما لا تُكْثِرَنْ إنِّى عَسَيْتُ صَائِما[(٤)]

والمثل السائر : « عَسَى الْغُوَيْرُ أَبْؤُسا » . ولا أدرى لِمَ اختار هذه الرواية ؟ أَلِأَنّ فيها ما هو مَرْفُوضٌ فى الاستعمال شَاذٌّ ، أم لأنّه غَلَبَ فى نَفْسِهِ أنَّ الشاعرَ كذا قَالَهُ فى الأصْلِ ؟ وكلاهما لا يُوجِبُ الاختيار . عَلَى أنِّى قد نَظَرتُ فوجدتُ

---

(١) مثلها ، ضبطت فى الأصل بالجر ، وفى م بالرفع . وفى الخزانة (٣ : ٥٤١) أنه يروى بالجر والرفع والنصب . فالجر على أن كم خبرية ، والنصب على أنها استفهامية ويكون مثلها صفة لنكرة محذوفة تقديره كم مرة مثلها ، والرفع على معنى كم مرة وقع مثلها .

(٢) هو ابن جنى فى التنبيه على الحماسة . قال التبريزى : « وتكلم المرزوقى على اختيار أبى الفتح هذه الرواية رادا عليه ولم ينصفه » .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « اسم الفعل » . والذى فى التنبيه : « فاستعمل الاسم الذى هو الأصل : المرفوض الاستعمال موضع الفعل الذى هو فرع » .

(٤) فى الخزانة (٤ : ٧٩) : « نسب إلى رؤبة بن العجاج ولم أجده فى ديوان رجزه »

أبا تَمَّامٍ قد غيَّر كثيراً من ألفاظ البيوت التى اشتملَ عليها هذا الـكتاب ، ولعلهُ لو أنشَرَ اللهُ الشُّعراءَ الذين قالوها لتبعوه وسَلَّموا له . ويُروَى : « ولم آلُ آيِبًا » والمعنى لم أدعْ جُهدِى آيِباً وفى الإياب . والأول أحْسَنُ . وكم مِثْلِهَا ، أى كم مِثْلِ هذه الخُطَّة[1] فارَقْتُهَا بالخروج منها ، وهى مغلوبَةٌ تَضْغُو[2] وأنا الغالب . وصَفِير الطائر معروف ، ومنه ما فى الدار صَافِرٌ ، أى ذو صفير .

١٢

وَقَالَ أَبُو كبِير الهُذَلِىُّ[3] :

١٥ — وَلَقَدْ سَرَيْتُ على الظَّلَامِ بِمِغْشَمٍ جَلْدٍ من الفِتْيانِ غيْرِ مُثَقَّلِ[4]

يقال سَرَى يَسْرِى سُرًى ، وأَسْرَى إسرَاءً بمعنى ، وهو سَيْر الليل . وفى القرآن : ﴿ سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ليلا ﴾ . وعلى الظلام ، أى فى الظلام موضعه نَصْبٌ على الظّرف . ويقال فَعَلْتُه ظَلامًا ولَيْلاً فى مُقَابَلَةِ فعلتُه نهارًا . ويقولون : عِمْ ظَلَامًا وعِمْ صَبَاحًا ، وهذا كما جعلوا فى مقابلة اليومِ اللّيلةَ . ويجوز أن يكون على الظلامِ فى موضِعِ الحالِ ، أى وأنا على الظلامِ ، أى راكبٌ له . يقول : ولقد سَرَيْتُ لَيْلاً برجُلٍ غَشُومٍ قَوِىٍّ من الرِّجالِ غَيْرِ منسوبٍ إلى الثِّقَلِ والكسلِ فى الأُمورِ . فإن قال قائلٌ : إذا كان السُّرَى لا يكون إلا ليلاً

(١) وفى التنبيه : فأنث المثل حملا على المعنى ، لما كان المراد به الحال والصورة التى ذكرها » .

(٢) الضغاء : صوت الذليل المقهور . م : « تصفر » . وانظر بيت جرير فى ص ٦٦ .

(٣) اسمه عامر (أو عويمر) بن الحليس ، وهو مخضرم ذكره بعضهم فى الصحابة . الشعراء والشعراء بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ٦٥٢ والإصابة والخزانة (٣ : ٤٦٦ — ٤٧٣/٤ : ١٦٥ — ١٦٧) والعينى (٣ : ٥٤ — ٥٧) واللآلى ٣٨٧ . قال التبريزى : « أحد بنى سعد بن هذيل » .

(٤) قصيدة هذه المقطوعة فى ديوان الهذليين (٢ : ٨٨ — ١٠٠) .

فلم قال على الظلام ، ولم جاء فى القرآن : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ و : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ﴾ ؟ قلتَ : المرادُ تَوَسُّط الليل والدخولُ فى معظَمه ، تقول : جاءَ فلانٌ البارِحةَ بِليلٍ ، أى فى معظَمِ ظُلْمَتِهِ وتَمَكُّنِ ذلك الوقتِ من لَيلَتِهِ . والجَلْدُ : الصُّلب القوىُّ ؛ ومنْهُ الجَلَدُ من الأرضِ . وإنَّما قال « مِغْشَمٍ » لأنه جَعَلَهُ كالآلةِ فى الغَشْمِ ، ومِفْعَلٌ بناءٌ لهذا المعنى ، ويريد به تَأَبَّطَ شَرًّا . وكان لأبى كَبِيرٍ مَعَهُ قِصَّةٌ معروفة(١) ، والأبيات مَقْصُورَةٌ عليها ، وناطِقَةٌ بها أو بأَكْثَرِها . والغَشْمُ والاعتِسَافُ يتقاربان . ويقالُ غَشَمَ الوَالِى رَعِيَّتَهُ غَشْمًا . وفى كلام بعضهم : « أَسَدٌ حَطُومٌ خَيْرٌ من سلطان غَشُومٍ » . ويجوز أن يكون معنى « غَيْرِ مُثْقَل » أى كان حَسَنَ القَبُولِ ، مُحَبَّبًا إلى القلوب .

٢ — مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

قولُه : وهُنَّ عواقِدٌ حُبُكَ » حكايةُ الحال وإن كان ذلك فيما مضى . ومثْله قوله تعالى : ﴿ وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ ﴾ . ويُرْوَى : « مِمَّا حَمَلْنَ به » أى هو من الحَمْلِ الذى حَمَلنَ به . والضميرُ فى حَمَلْنَ للنِّساء ولم يَجْرِ لَهُنَّ ذِكْرٌ ، ولكن لمَّا كان المرادُ مفهومًا جازَ إضمارها . ويُرْوَى : « مِمَّنْ حَمَلْنَ به » ، والمعنى : هذا الفتى من الفتيان الذين حَمَلَتْ أمهاتُهم بهم وهُنَّ غيرُ مستعدَّاتٍ للفراشِ ولا واضعاتٍ ثِيَابَ الحَفْلَةِ(٢) فنشأ مَحْمُودًا مَرْضِيًّا ، لم يُدْعَ عَلَيْهِ بالهَبَلِ

---

(١) كان أبو كبير قد تزوج أم تأبط شراً ، وكان تأبط شراً يبدى الكراهة لأبى كبير ويرتاب به وهو صغير ، فلما كبر وترعرع خشى أبو كبير بأسه فاحتال ليقتله وخرج به فى غزوة ودفع به إلى بعض الأعداء ولكنه تمكن من الفتك بهم ، ثم حاول أبو كبير أن يغتاله فى نومه فكان يختبره بأن يرمى بحصاة إليه فيهب من نومه سريعاً ، فعل ذلك مراراً إلى أن عرف أنه لا يمكن اغتراره فى نومه ، وكف عن عزمه ،وقال فى ذلك ما قال . انتهى ملخصا من التبريزى .

(٢) الحفلة : الاحتفال والجد ، يقال رجل ذو حفلة إذا كان مبالغاً فيما أخذ فيه ، وأخذ للأمر حفلته إذا جد فيه . يقول : غير متبذلات ملقيات ثيابهن .

والثَّكَل[١] . وإنما قيل : ممَّنْ حَمَلْنَ به ، لأنه رَدَّ الضَّميرَ على لفظِ مَنْ ، ولوْ رَدَّ على المعنى لقال بهم . وفى القرآن فى موضع : ﴿ ومِنْهُم مَن يَستمِعُ إليك ﴾ ، وفى آخَر : ﴿ ومِنهم من يَسْتَمِعُون إليك ﴾ . وحُكى عن بعضهم : إذا أردْتَ أن تُنْجِبَ المرأةُ فأَغْضِبْها عند الجماع . وأنشد :

تسنَّمتُها غَضْبَى فَجَاءَ مُسَهَّدًا   وأَنْفَعُ أوْلادِ الرجالِ المُسَهَّدُ

وكذلك يقال فى ولد المذعورة : إنّه لا يُطاق . والحُبُك : الطَّرائق . والنِّطَاقُ : ما تَشُدُّ[٢] المرأةَ فى حَقْوِها . والرواية : « حُبُكَ الثِّياب » ، لأنّ النِّطَاقَ قد جاء من بَعْدُ فى صِفَةِ أمِّ المُغْشَمِ فتكرّر ، ولأنَّ النِّطاق لا يَكُونُ لَهُ حُبُكٌ وطرائق . وواحد الحُبُكِ حَبِيكٌ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والسَّماءِ ذاتِ الحُبُك ﴾ . وقال الباهِلِيُّ : الحُبْكَةُ والحِبَاكُ : الإزار أيضا . وقد احتبكتِ المرأة . وذكر بعضهم أن المُهَبَّل : المعتوه الذى لا يتماسَك[٣] فإن صَحَّ ذلك فكأنَّهُ من الإسراع ، يقال جَمَلٌ هِبِلٌّ[٤] .

٣ ـ ومبرَّأً من كلِّ غُبَّرِ حيضَةٍ   وفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغْصِلِ[٥]

غُبْرُ الحَيْضِ وغُبَّرُه : بَاقِيهِ قبل الطُّهرِ . وكذلك غُبْرُ اللَّبَنِ : باقيه فى الضَّرْعِ . وتزوّجَ رَجُلٌ من العَرَبِ بامرأةٍ[٦] مُسِنَّةٍ فقيل له فى ذلك ، فقال : « لعَلِّى أتغبَّرُ منها وَلَدً » . والحِيضَةُ والحَيضُ وَاحِدٌ . والغُبَّرُ يكون جَمع غَابِرٍ أيضاً . ولم يَرْضَ بلفظ التَّبرئة حتى أتى بلفظ الكلِّ مَعَهُ تأكيداً ، كأنه نَفَى قليل ذلك

(١) كذا ضبط فى م . وضبط فى الأصل بالضم ، وهما لغتان .
(٢) م : « ما تشده » . (٣) م : « يتمسك » .
(٤) كذا ضبط فى الأصلين . ويقال أيضاً : هبل بكسر الهاء وفتح الباء .
(٥) حيضة ، بكسر الحاء فى النسختين فى متن البيت وشرحه ، وفى اللسان أنه الاسم من الحيض ، وأما الحيضة بالفتح فاسم المرة منه .
(٦) م : « امرأة » .

وكثيرهُ . وأضاف الفسادَ إلى المُرْضِعَةِ لأنّه أرادَ الفسادَ الذى يكونُ من قِبَلِها . وهم يُضِيفُون الشيء إلى الشيء لأدنى مناسَبَةٍ . ويروى « مبرأً » بالنصب والجرّ ، فإذا نصبتَهُ فإنّه ينعطِفُ على « غيرَ مُهَبَّلَ » ، كأنه قالَ : شَبَّ فى هاتين الحالتين . وإذا جَرَرْتَهُ ينعطف على قَوْلِهِ « جَلْدٍ من الفتيان » كأنّه بمغشَمٍ جَلْدٍ ومبرّإ . والمعنى أن الأمّ حملت به وهى طاهرٌ ليس بها بَقِيَّةُ حَيْضٍ ، ووضَعَتْه ولا دَاءَ به استصحَبَهُ من بطنها فلا يقْبَلُ عِلاَجًا ، لأنَّ داءَ البَطْنِ لا يفارِق . ولم تُرْضِعْهُ أمُّهُ غَيلاً ، وهى أن تسقِيَه وهى حُبْلَى بعد ذلك . ويروى عن أمّ تأبَّطَ شرًّا قالت : « ما وضَعْتُهُ يَتْنًا ، ولا أرضَعْتُه غَيْلاً ، ولا أبَتُّه مَئِقًا ، ولا رأيتُ بنفسى دَمًا . ولقد حَمَلْتُ به فى لَيْلَةٍ مظلمة وتحتَ رأسى سَرْجٌ ، وعلى أبيهِ دِرْعٌ » . وإنّما تريد بهذا الكلام الآخِرِ[1] ما تقولُ العربُ من أن المرأةَ إذا أُكْرِهَت على الوطء ، أو وُطِئت وهى مذعورة ، أنجبت وأذْكَرَت . الداء المُعْضِل : الذى لا دواءَ له كأنه أعضل الأطباء وأعياهم ، وأصل العَضْلِ المنع ، ومنه عَضَّلت المرأةُ إذا نَشِبَ ولَدُهَا فى بطنِها فلم يَخْرُج . وعَضَلْتُها : منعتها التزويج ظلما .

٤ ـ حَمَلَتْ به فى لَيْلَةٍ مَزْؤُودَةٍ كَرْهًا وَعَقْدُ نِطَاقِها لم يُحْلَلِ

الزَّأْدُ[2] : الذُّعر ، وقد زُئِدَ فهو مزؤود . والمعنى حملت الأمُّ بهذا المِغْشَم . ويُروى « مزؤودةً » بالنصب على الحال للمرأة ؛ ويروى « مزؤودةٍ » بالجر ، ويجوز فيه وجهان : أحدُهما أن تجعله صفةً لِلَيْلَةٍ ، كأنه لمَّا وقع الزُّؤُود والذُّعر فيها جعَلَهُ لَهَا ، والأكثر فى المجاز والاتّساع أن يُنسَب الفعلُ إلى الوقت فيُؤتَى به على أنّه فاعل ، كما قيل : نهارُه صائمٌ ، وليلُه قائمٌ . وحَسُن هذا لأنّ الظَّرف قد يقدَّر

---

(١) م : « الأخير » .
(٢) يقال زأد بالفتح والتحريك ، وزؤد بالضم ، وزؤود كسرور .

تقدير المفعول الصحيح ، بأن يُنزع منه مَعْنَى فِى ، كما قال الشاعر :

* ويَوْمٍ شَهِدْناهُ سُلَيْماً(١) *

فعلى ذلك تقول شُهِدَت الليلةُ ، وزُئِدَت اللَّيلة ، وليلةٌ مشهودة ومزءودة .
ويجوز أن يكون انجرارُه على الجِوار ، وهو فى الحقيقة للمرأة ، كما قيل : هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ . وهذا لميلهم إلى الحَمْل على الأقرب ، ولأمْنِهم الالتباس .
وانتصاب « كَرْهًا » على أنه مَصْدَر فى موضع الحال ، والتقدير كارهةً . ومعنى البيت بما تقدّم ظاهر . وقولُه : « عَقْدُ نِطَاقِهَا لم يُحْلَل » ، ابتداء وخبرٌ ، والواو للحال . وأظهر التَّضعيف فى قوله لم يُحْلَل ، وهو لغةُ تميمٍ ، ووجه الكلام لَمْ يُحَلّ . والنِّطاق : ما تَنْتَطِق به المرأةُ : تشدُّ به وسَطَها للعمل . قال الأصمعىّ : كنّ فى القديم ينتطقن بخَيطٍ أو تِكَّةٍ . وذات النِّطاقين : أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه . والمِنطَقَةُ أُخِذَت من هذا . والمعنى أُكرِهَتْ ولم تحُلّ نطاقَها . وحُكى عنها فى وصف ابنها قالت فيه : « إنّه والله شيطان ، ما رأيتُه قطُّ مستثقِلاً ولا ضَحِكاً ولا همَّ بشىء منذُ كان صبيًّا إلاّ فعلَه ، ولقد حَمَلْتُ به فى ليلةٍ ظلماء وإنّ نطاقى لمشدود(٢) » .

٥ — فأَتَتْ بهِ حُوشَ الفُؤادِ مُبَطَّنًا سُهُدًا إذَا ما نَامَ لَيْلُ الهَوْجَلِ

حُوشُ الفؤاد وحُوشِىُّ الفؤاد : وحشِيُّه ، لحدَّته وتوقُّده . ورجُلٌ حُوشِىٌّ : لا يُخالِط الناس . وليلٌ حوشىٌّ : مظلم هائلٌ ، وكذلك إبلٌ حوشٌ وحوشِيَّةٌ أى وحْشِيَّةٌ . وهذا كما يقال : ليلٌ سُخَامٌ وسُخَامِىٌّ : أسْوَد . وقيل : الحُوشُ :

(١) كلمة « سليما » ليست فى م . والبيت بتمامه كما فى سيبويه (١ : ٩٠) والكامل ٢١ ليبسك :

ويوم شهدناه سليما وعامراً قليل سوى الطعن النهال نوافله

ورواية المبرد وابن جنى : « ويوما » .

(٢) كذا فى م والتبريز . وفى الأصل : « مشدود » .

بلاد الجن . مبطَّنا : خميص البَطْن[١] . وقولُه « نامَ ليلُ الهَوْجَلِ » ، جعل الفعل للَّيل ، لوقوعه فيه . والمعنى نام الهَوْجَلُ في ليله . والهوْجلُ : الثقيل الكَسْلانُ ذو الغفلة . يقول : أتت الأمُّ بهذا الولد متيقِّظًا حذِرًا ، حديدَ الفؤاد ذَكِيًّا ، يَسْهَرُ إذَا نامَ الثَّقيل البليد . والسُّهاد والسَّهَد[٢] : السَّهَر . ورَجُلٌ سُهُدٌ ومُسَهَّدٌ . ويقولون للملدوغ : سَهِّدُوه لا يَسْرِ فيه السّم . وقيل الهوْجَل : الأحمق لا مُسْكَةَ به . قالوا : وبه سُمِّيَ الفَلاَةُ لا أعلامَ بها ولا يُهتَدَى فيها : الموْجَل .

٦ – وإذا نَبذْتَ لَه الحَصَاةَ رأيْتَه فَزِعًا لوَقْعِهَا طُمُورَ الأَخْيَلِ[٣]

يقال : نبذْتُ الشيء من يدى ، إذا طرحتَهُ ، وتوسَّعوا فيه فقيل صبيٌّ منبوذٌ ، ونابذْتُ فلانًا ، إذا فارقتَه عن قِلًى . والحصى : صغار الحجارة[٤] . والشاعر إنما يَحكى ما رآه منه ؛ وذلك أنّ أبا كبيرٍ ذُكر أنه كان أراد أن يغتالَه ، وكان يطلُبُ منه فرصةً ينتهزها في نومِهِ أو غَفْلته مع أنه كان لا يجترئُ عليه ، فكان يَروز أحوالَه ليتمكَّن من مراده فيه . والمعنى إذا رميتَه بحصاةٍ وهو نائمٌ وجدتَه ينتبه انتباهَ مَنْ سمِعَ بوقعتها هدَّةً عظيمة ، فيطْمُرُ طُمُورَ الأخْيَل ، وهو الشِّقِرَّاق . وانتصاب « طمورَ » بما دلّ عليه قولُه « فزِعًا لوقعتِها » ، كأنه [رأيتَه[٥]] يَطْمُرُ طُمُوره ؛ لأنّ الخائف المتيقِّظ يفعل ذلك . والطُّمور : الوَثْب ؛ ومنه قيل فَرَسٌ طِمِرٌّ ، أي وثّابٌ . وذكر أبو العباس أن الطِمِرّ في وصف الفَرَس

---

(١) ابن جنى : « قوله مبطناً من ألفاظ السلب لا الإثبات . وأصل هذه الأحرف وهى بطن أن تجىء لإثبات البطن ، كالبطن والبطين والمبطان ونحو ذلك . ومبطن هنا أى خميص البطن ، فهو من سلب ذلك المعنى لا إثباته » .

(٢) ويقال سهد بالضم ، وسهاد كذلك .

(٣) رواه التبريزى : « ينزو لوقعتها » ، ثم نبه فى الشرح على رواية : « فزعا لوقعتها » .

(٤) م : « ضعاف الحجارة » . (٥) هذه من م .

هو المُشْرِف ، ومنه قيل الموضع العالى : طَمَارِ . وفزِعًا انتصابه على الحال ، وجواب إذا قولُه رأيتَهُ . وقال بعضُهم : الأخْيَل : الشاهِينُ . ومنه قيل تَخَيَّلَ الرَّجُل ، إذا جَبُن عند القتال فلم يتثبت . والتَّخَيُّل : المُضِيُّ والسُّرْعةُ والتلوُّن .

٧ – وإذا يَهُبُّ من المَنَامِ رأيتَهُ كَرُتُوبِ كَعْبِ السَّاقِ لَيْسَ بزُمَّلِ

أصلُ هَبَّ تحرَّك واضطرب ، ثم قيل هَبَّ من نَوْمِهِ هَبًّا[1] ، وهَبَّتِ الريح هُبُوباً ، وهَبَّتِ النّاقة فى سيرها هِبَاباً ، وهَبَّ التَّيْسُ هَبِيباً . وأهْبَبْتُ السّيفَ : هَزَزْتُه . يقول : إذا استيقَظَ هذا الرجُل من منامه انتصب فى مضجعه سريعاً كانتصاب كَعب السَّاق فى الساق ، وهو ليس بضعيفٍ . وإنَّما يعنى شهامَتَه وتشمُّرَه فى تلك الحالة . وكَعْبُ الساق مُنْتَصِبٌ أبدًا فى موضعه ، فلذلك شَبَّهَهُ به . والرَّاتب : القائم ، ومنه المراتب . وتحقيق الكلام : وإذا يَهُبُّ رأيت رُتُوبَه كَرُتُوبِ كَعْب الساق ، لكنَّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . وهذا التَّشبيه يجرى مجرى التصوير . والزُّمَّل والزُّمَّال والزُّمَّيْلَة ، كلّه الضَّعيف ، واشتقاقه من التلفُّفِ كأنّه متساقِطٌ لا مُتَشَمِّرٌ مُتَجرِّدٌ .

٨ – ما إنْ يَمَسُّ الأرْضَ إلاَّ جانِبٌ منه وحَرْفُ الساق طَيَّ المِحْمَلِ

إنْ ، زيد لتوكيد النفْى ، ويبطِل عمل « ما » بانضمامه إليه فى لغة من يُعْمِله . وانتصب طىَّ على المصدر مما دَلّ عليه ما قبله ، لأنّه لما قال ، ما يمسُّ الأرضَ منه إذا نامَ إلا جانبُه وحَرْفُ السَّاقِ ، عُلِمَ منه أنّ الرَّجلَ مَطْوِىٌّ غيرُ سَمِينٍ ، وهَضِيم الكَشْحِ غير ثقيل . والمعنى أنّه إذا نام لا يتبسّط[2] على الأرْضِ ولا يتمكّن منها بأعضائه كلها ، فِعْل من يُرْخِيه نومُه ويتمكّن منه ، حتّى لا يكاد يتجمّع

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .
(٢) م : « ينبسط » .

ويتشَمّر عند الانتباه إلا بعد مزاولةٍ وتهيُّؤٍ يُعْمِلُه فى كلِّ عضو . وهذا من أبياتِ كتاب سيبويه[١] . واحتجّ به بقوله « طىَّ المَحملِ » . وأراد بالمِحمل حمائل السَّيف ، وهذا كما يُقال : هو كالجديل ، وكالزِّمام . والمِحملُ والحِمالةُ بمعنًى .

٩ — وإذا رَمَيْتَ بهِ الفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِى غوارِبَها هُوِىَّ الأجْدَلِ

قال الخليل : الفَجُّ : الطَّريق الواسع فى قَبَل[٢] جَبَلٍ ونَحْوِهِ ، والجميعُ الفِجَاجُ . وغارِبُ كلُّ شىء : أعلاهُ ، ومنه غارِبُ البعير . والشّاعرُ يحكى فى هذا أيضاً عنه ما رآه منه عند استصحابه له ، فيقول : إذا وجَّهْتَه فى طُرُق الجبل[٣] رأيتَه يَقْصِدُ عَالِيَها قَصْدَ الصَّقْرِ . والهُوِىّ بضم الهاء ، هو القَصْدُ إلى أعْلَى ، وبفتح الهاء القَصْدُ إلى أسفل . على ذلك قولُه :

* هَوِىَّ الدَّلْوِ أسْلَمَه الرِّشَاءِ[٤] *

ولا تَخْتَرْ فى رواية البيت على الضَّمّ . وأُنشِد فيه قوله[٥] :

كأنّ هُوِيَّها خَفَقانُ ريحٍ خَرِيقٍ بينَ أعْلامٍ طِوَالِ[٦]

ويروى : « مخارِمَها » . والمخارِمُ : جمع المَخرِم ؛ وهو منقطَعُ أنفِ الجبل . والخَرْمُ : أنف الجبل ، وجَمْعُه خُرُومٌ . ومن فصيح كلامِهِمْ : « هذه يَمِينٌ طَلَعتْ

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٨٠) .
(٢) ضبط فى الأصل واللسان بضمتين ، وليس بشىء . وقد ضبط فى م بالتحريك . والقبل ، بالتحريك : سفح الجبل . وفى اللسان : « يقال انزل بقبل هذا الجبل ، أى بسفحه » .
(٣) م : « الجبال » .
(٤) الدلو ، تذكر وتؤنث . ويروى : « أسلمها » . والبيت لزهير فى ديوانه ٦٧ . وصدره :

* فشج بها الأماعز وهى تهوى *

(٥) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وأنشد قوله فية » .
(٦) للأعلم الهذلى . اللسان (خرق) .

فى المخارِمِ » ، وهى التى تجعل لصاحبها منها مَخْرَجا . والأجْدَلُ ، مِن جَدَل الخلْق .

١٠ — وإذا نَظَرْتَ إلى أَسِرَّةِ وجْهِهِ   بَرَقَتْ كَبَرْقِ العارِضِ المُتَهَلِّلِ

الخطوط التى فى الجبهة الأغاب عليها سِرَارٌ ويجمع على الأسِرّة ، والتى فى الكف الأغلبُ عليها سِرَرٌ وسُرٌّ ويُجمع على الأسرار . قال :

أُنظر إلى كَفٍّ وأسرارِها   هَلْ أنت إن أوعدْتَنِى ضائرى[1]

وقد قيل : الأسِرّة : الطرائق . يقول : إذا نظرْتَ فى وجه هذا الرّجل رأيتَ أساريرَ وجهه تبرُق وتُشرِق إشراقَ السَّحابِ المتشقِّق بالبَرْقِ . يصفُه بحُسْن البِشْر وتَطَلُّق الوجْهِ فى[2] كلِّ حال . والعَارِضُ : ما يعرض فى جانبٍ من السماءِ من السَّحاب . وعلى ذلك العارضُ فى الأسنان ، ولهذا قيل العارضان لما يبدو من جانبيها . ويقال : تهلَّلَ الرجُل فَرَحًا ، واهتلّ ، إذا افترّ عن أسنانه فى التبسّم .

١٣

قال آخر ، ويقال إنها لتأبَّطَ شرًّا[3] :

١ — إنِّى لمُهْدٍ من ثَنائِى فقاصِدٌ   به لابنِ عَمِّ الصِّدْقِ شَمْسِ بنِ مالِكِ[4]

لا يُقال فى الهديّة إلاّ أهديتُ . ويُقال فى العَروس : هَدَيْتُها وأهدَيْتُها

(١) البيت للأعشى فى ديوانه ١٠٧ واللسان (سرر) . وعجزه لم يرو فى م . وهو فى الأصل : « ضائر » بالروى المرفوع ، وهو خطأ .

(٢) الكلام بعده إلى نهاية شرح هذا البيت ساقط من م .

(٣) عند التبريزى : « وقال تأبط شرا » . وقد سبقت ترجمة تأبط شرا فى المقطوعة ١١ . وعبارة الإنشاد هذه وما بعدها من البيتين الأولين وشرحهما ساقط من م .

(٤) شمس ، بفتح الشين هى الرواية التى اعتمدها المرزوقى . وسيأتى تنبيه على رواية ضم الشين .

جميعًا . والأصل واحد ، لأنَّ المعنى على القَصْدِ والدّلالة ، فيقول : إنى أمدح ابنَ عمِّى الـكريمَ الصادقَ فى الودِّ شَمس بن مالك ، بما أقْصِدُ به راغِبًا ، وأُنفِذُهُ إليه مُتحِفًا . والمعنى : إنِّى فى غيبتى منه وحضورى له ، مولَعٌ بالثناء عليه ، فلا أُخْلِيهِ من المَدْحِ فى الحالتين جميعا . واللامُ فى قوله : « لابن عمِّ الصدق » يجوز أن يتعلّق بمُهْدٍ ، يقال : أهديتُ له كذا ، وعلى هذا تكون أعْمَلْتَ الفِعْلَ الأوّل ، وما أهْدَاه يكون محذوفًا لعِلْمِ السامع بأنه يُرِيدُ شِعْرَهُ وتقريظَهُ . وكان الأجْوَدُ أن يقال فقاصِدٌ إيّاهُ به ، ويجوز أن يكون على قَوْلِ من يزيد « مِنْ » فى الواجب(١) أن يكون قوله ثنائى مفعولَ مُهدٍ ، فيكون أهْدَاهُ مذكورًا . ويجوز أن يتعلّق اللام بقولِهِ فقاصدٌ ، يقال قَصَدْتُه بكذا وقصَدْتُ له به . وعلى هذا تكون قد أعْمَلْتَ الفِعْلَ الثانى ، وهو المختار إذا جَمَعْتَ بين فعلين عند أصحابنا البصْريين ، ويُقال هذا ثوبُ صِدْقٍ وأخو صِدْق ، وُضِع الصِّدْقُ موضع الفَضْلِ والصَّلاَح . والتّسمية بالشَّمس كالتسمية بالبَدْرِ والهِلاَل . وذكر بعضُ المتأخّرين(٢) أنه يروى « شُمْسِ بن مَالك » بضمّ الشين ، قال : ويكون هذا فى أنّه عَلَمٌ لهذا الرجل فقط ، كَحَجَرٍ فى أنّه عَلَم أبى أوسٍ الشاعِرِ ، وأبى سُلْمَى فى أنه عَلَمَ أبى زهير الشاعر . والأعْلام لا مضايقة فيها .

---

(١) الأكثر فى « من » أن تكون زيادتها بعد النفى ، كما فى قوله تعالى : « ما جاءنا من بشير » . وفى التنبيه لابن جنى : « وسيبويه لا يرى زيادة من فى الواجب وأبو الحسن يراه ويحكى عن العرب فى تصحيحه قولها : قد كان من مطر ، وقد كان من حديث فخل عنى ، أى كان مطر وكان حديث » .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى . ونصه فى التنبيه : « ومن رواه شُمس بضم الشين فيحتمل أن يكون جمع شموس سمى به ، منه قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

ويجوز أن يكون ضم الشين على وجه تغيير الأعلام نحو معديكرب ... وغير ذلك مما غير عن حال نظائره لأجل العلمية الحادثة فيه . وليس فى كلام العرب شمس علماء إلا هذا الموضع ، ولا فى كلامهم حجر علماً إلا أبو أوس الشاعر ، ولا فى كلامهم سلمى بضم السين إلا أبو زهير ابن أبى سلمى » .

٢ ـ أَهُزُّ بِهِ فى نَدْوَةِ الحَىِّ عِطْفَهُ كَمَا هَزَّ عِطْفِى بالهِجَانِ الأَوَارِكِ

عِطْفُ كلِّ شىء : جانبُه . ويقال ثَنَى عِطْفَهُ ، إذا أعْرَضَ وجَفَا . وكأنّ القَوْسَ والرِّداء سُمِّيَا عِطَافاً لاشتمالِهِا عند التوشّح بهما على العِطْف . يقول : أُحَرِّكُ بالثّناء جانبَهُ كما حَرَّكَ جانبى بمطيّته ، أى أسُرُّهُ بذلك حتّى يرتاح ويطرب كما سَرَّنى حتّى اهتززت . والهِجَان : الإبل البيض الكرام . والأَوَارِكُ : التى رَعَتِ الأَرَاكَ ، يُقَالُ أَرَكَتِ الإبل فهى أَرِكَةٌ . وقال ابن السكّيت : الأوارك التى تَرْعَى الأَرْكَ[1] ، وهو نَبْتٌ . والنَّدْوَةُ أصلُه الجَمْع ، ويقال نَدَاهُم النّادى ، أى جَمَعَهم . وانْتَدَى القَوْمُ وتَنادَوا ، إذا تجمَّعوا . ومنه دار النَّدْوةِ . والنَّدِىّ : المجلس ، والجميع أَنْدِيَةٌ . ويقع لفظ هجَانٍ للواحد والجمع ، يقال ناقةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجَانٌ ، ومثله دِرْعٌ دِلَاصٌ ، ودروعٌ دِلَاصٌ ، وذلك لأنّ فِعَالاً وفَعِيلاً يتشاركان كثيرًا ، وكما جُمِعَ فَعِيلٌ فِعَالاً كذلك جُمِعَ فِعَالٌ فِعالاً . ألا تَرَى أنَّ العدد والوزنَ فيهما واحِدٌ وحرف المدِّ من كل واحدٍ بإزاء ما فى الآخَر ؟ فإذا كان كذلك حُمِل عليه ، إلاّ أنّ فِعالاً إذا كان جَمْعًا يُنْوَى بحركاته وألِفه أنّها حركات بنائه وهو جَمْعٌ لا واحِد ، كأنّ الكسرةَ فى أوّلِهِ الكسرةُ التى فى أول ظِرافٍ وكِرَامٍ ، لا الكسرة التى فى أول حِمَارٍ وإزارٍ ، وكذلك ألِفُهُ فاعلَمْه .

٣ ـ قَلِيلُ التشكّى للمُهِمِّ يُصِيبُهُ كَثِيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى والمسالكِ

المُهِمّ يجوز أن يكون من الْهَمِّ الذى هو الحزْن ، ويجوز أن يكونَ من الهَمّ الذى هو القَصْد . يَقُولُ : هو صَبُورٌ على النوائب والعِلَّات ، لا يكادُ يتألّم

(١) كذا ضبط فى الأصل بالفتح ، وضبط فى القاموس بالكسر .

مما يَعْرُوه من المهمَّاتِ . واستعمل لفظ القليلِ والقَصْدُ إلى نَفْى الكُلِّ ، وهذا كما يقالُ فُلانٌ قَلِيلُ الاكتراث بوعيدِ فُلانٍ ، والمعنى لا يكترث . وعلى ذلك قولُهم : قَلَّ رجُلٌ يقولُ كذا ، وأقلّ رجُلٍ يقول كذا . والمعنى معنى النفى ، وليس يرادُ به إثباتُ قليلٍ من كثير . فإن قيل : من أين ساغَ أن يُستعمل لفظُ القليلِ وهو للإثبات فى النفى ؟ قلتَ[١] : إنّ القليل من الشىء فى الأكثرِ يكون فى حكم ما لا يُعتَدُّ به ولا يُعرَّجُ عليه ، لدخولِه بخفةِ قدْرِه فى مَلَكَةِ الفناء ، والدُّروس والاتّحاء ، فلما كان كذلك استُعمل لفظه فى النفى على ما فى ظاهرِه من الإثباتِ محترزين من الرد ، ومُجْملين فى القوْلِ ، وليكونَ كالتعريضِ الذى أثرُه أبلغ وأنكَى من التصريح . وقولُه : « كثيرُ الهوَى » طابَقَ القليلَ بقوله كثيرٌ ، من حيث اللفظ لا أنّه أثبت بالأوّلِ شيئًا نَزْرًا فقابلَه بكثير . والمعنى أنّه كثيرُ الهمّ مختلفُ الوجه والطرُق ، لا يوقَف منه على مَدَى غَوْرِه فى الأمور ، ولا يَقِف به أمَلُه على فَنّ لا يتجاوزه[٢] إلى الفنون . ويريدُ بالهوى الجِنْس وكذلك النوَى ، وهى وِجْهَتُه التى ينويها . ومثله قول الآخر :

. . . . باقٍ عَلَى الحدثانِ مختلِفُ الشُّؤون[٣]

٤ — يَظَلُّ بِمَوْماةٍ ويُمْسِي بغيْرِها جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهُورَ المَهالِكِ

المَوْماةُ : المَفازة ، ووزنه فَعْلَلَةٌ ، وجمعها موامٍ . وإنما قال « يُمْسِي بغيرها » ولم يقُل يَبيت ، لأنّ قصدَهُ إلى أن يصفَهُ بأنه يقطعَ فى بياض نهاره مَفازةً ، ولو قال يبيت لم يتبين منه ذلك . فيقول : يقطع المفاوِزَ لاكتساب المكارم ، فتراهُ

(١) كذا ضبط بفتح التاء فى النسختين فى أشباه هذا الموضع .
(٢) م : « فلا يتجاوز » .
(٣) صدره عن التبريزى : * شديد مجامع الكتفين باق *

يكون نَهارَه بمفازةٍ فإذا[1] أتى عليه المَساء تجده فى أخرى فريداً وحيداً — ويقال : حَلَّ فُلانٌ جحيشاً ، أى منفردًا — ويركَبُ ظهور المَهالك وللعاطب غير مستصحبٍ رفيقاً ، ولا مستجمعٍ سلاحًا . وهذا كما يقال : أعرَوريتُ الفرسَ ، إذا ركبتَه عُرْيًا . وكانت طباعُهم أنَّ من كَدَّ نفسَه وابتذلَها ، وتوَحَّشَ فى المهالك ولَزِمَها ، وتعرّضَ للمعاطبِ ولم يتوقَّها ، كان ذلك أدْعَى إلى ما يُنَوِّهُ به ويميِّزه عن رِجَالِ جِنسِه . وانتصب « جحيشاً » على الحال ، وقولُها بغيرها لا يجوز أن يكون مستَقَرًّا فاعلَه .

٥ـ ويَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيثُ يَنْتَحِي ... بِمُنْخَرِقٍ من شَدِّهِ المتداركِ

قوله « من حيث ينتحى » يجوز أن يكون للممدوح ، ويجوز أن يكون لوفْد الرِّيح ، لأنّ المراد أنّه يسبقُه وإن أعطاهُ مُهْلَةً . ومعنى ينتحى : يَقْصِد . والشاعر إنّما يصف خفّتَهُ وتشمُّرَهُ وجِدَّهُ وتيقُّظه ، فيقولُ : من حيث اعتَمَد فى السَّير جاء سابقاً للريحِ بعَدْوٍ له واسعٍ من عَدْوِه . المتدارك : المتتابع . وجَعَل العَدْوَ منخرِقاً[2] لاتِّساعه . والمتدارِك . المتلاحِق . ويقال : أَدْرَكَ فلانٌ عِدَّةً من أصحابه ، أى لِحَقَهُم وشاهَدَ أيامَهُم . وأخذ أبو تمّامٍ هذا فزاد عليه وإن كان فى لفظة ركاكة ، فقال :

فَمَرَّ ولو يجارِى الريحَ خِيلَتْ ... لديهِ الرِّيحُ تَرْسُفُ فى القُيُودِ[3]

٦ـ إذا خاطَ عينيهِ كَرَى النَّوْمِ لم يَزَلْ ... له كالِئٌ من قَلْبِ شَيْحَانَ فاتِكِ[4]

الـكَرَى : النوم الخفيف ، وكأنه مأخوذٌ من كَرَيْتُ ، إذا عَدَوْت عَدْواً

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « فإن » .

(٢) م : « متحركا » ، والصواب ما فى الأصل .

(٣) يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائى . وقبله :

رآه العلج مقتحماً عليه ... كما اقتحم الفناء على الخلود

(٤) رواه التبريزى : « إذا حاص » ، وهى بمعنى خاط ، ثم نبه على رواية « خاط » .

شديداً . فقوله : « خاط عينيه » يريد مرَّ فيه ، وليس يريد التمكُّن منه حتى يَجعلَ أجفانه كالمَخيطة . ومنه قَوْلُه :

* حَتَّى تُخَيَّط بالبياضِ قُرُونِى[1] *

وأضافَ الـكَرَى إلى النَّوم كما يُضاف البعض إلى الجِنْس ، كأنّ النوم لِجنس الفِعْل ، والـكَرَى لِمـا كانَ على جهةٍ مخصوصةٍ . يقول : إذا نامَ النَّوْمَةَ التى أشارَ إليها لم يَزَلْ له رقيبٌ وحافِظٌ من قَلْبِ رَجُلٍ جادٍّ فى الأمور ، مفاجئٍ عِرِّيضٍ ، وهذا الرَّجُل هُوَ هُوَ . كأنه يريد إذا نام عينُه لا ينامُ قلبُه .

والشَّيْحَانُ والشَّائحُ والشِّيحُ : الحذِر الحازِم . قال الهُذلىّ :

* وشايَحْتَ قَبْلَ اليَوْمِ أنَّكَ شِيحُ[2] *

والفاتِكُ : الذى يفاجئُ غيره بمكروهٍ أو قَتْلٍ . وفى الحديث : « الإيمانُ قَيَّدَ الفَتْكَ[3] » . وقال الدُّرَيْدِى : هو الذى إذا هَمَّ بالشىءِ فَعَل .

٧ - ويَجْعَلُ عينيهِ رَبيئَةَ قَلْبِهِ إِلَى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخْلَقَ بَاتِكِ[4]

يُرْوَى :

إذا طَلَعَتْ أولَى العَدِيِّ فَنَفْرُه إلى سَـلَّةٍ[5] ... ...

---

(١) ويرو : « تَخيَّط » . والبيت لبدر بن عامر الهذلى ، فى اللسان والمقاييس (خيط) . وصدره :

* تالله لا أنسى منيحة واحد *

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ١١٦ واللسان والمقاييس (شيح) . وصدره :

* بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

(٣) ويروى : « قيد الفتك » على المصدرية . وفى اللسان : « ومنه الحديث : أن رجلا أتى الزبير فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ فقال : فكيف تقتله ؟ فقال : أفتك به . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قيَّد الإيمان الفتك ، لا يفتك مؤمن » .

(٤) رواه التبريزى : « أخلق صائك » ولم يفسر الصائك ، وهو المتغير الريح . ثم روى رواية أخرى قال فيها « وهى أسلم الروايتين » . وهى كما رواها :

إذا طلعت أولى العدى فنفره إلى سلة من صارم اللرب باتك

(٥) انظر الحاشية السابقة .

وهى أَسْلَمَ الروايتين . والعَدِيُّ : الرَّجالة الذين يَعْدُون قُدَّام الخيل . وهو اسم صِيغ للجَمْع ، كالكَلِيب والضَّئِين . وعلى الرواية الأولى يقول : لا يَغْفُلُ قَلْبُه عن التحفُّظ ، وعينُه دَيْدَبَانُهُ إلى سَلِّ سيفه . فإنْ قيل : كيف يكون العَيْنُ دَيذَبان القلب ، وهذا يقول إذا نام بعينه لم ينَمْ بقلبه ، أم كيف تَصِحّ هذه الرواية وفيها يتكرّر معنًى واحدٌ فى مصراعَى البيتين ، وهل الواجب فى هذا إلاّ أن يقال إنّ القلبَ هو دَيذبان العين ، لأنّ العين نائمةٌ والقلب منتَبِهٌ ؟ قلتَ : إنّه وصَفَ حالتين ، بالمتقدِّم صِفةُ حال النّوم ، والثانى هو صفةُ حال اليقظة . والمعنى أنّ العين رقيب القلب ، والمنتظر لإظهار ما يكرَهُهُ وتغييرِه ، فإذا كره القلبُ شيئا كان العينُ صاحبَه الذى يُظهره ، فهو ربيئَتُه إلى نَزْعِ السَّيْفِ وتجريدِه ، وإنكارِه ما أنكره وتغييره . والأَخْلَقُ : الأمْلَس . والباتِكُ : القاطع . وقوله « إلى سلةٍ » يجوز أن يكون إلى بمعنى مع ، كما تقول هذا إلى ذاك ، أى مع ذاك ، ويجوز أن يكون المعنى أنّها ربيئَته إلى أن يستلَّ سيفَه ، وبعد ذلك فالعمَلُ للقلب ، ويكونُ إلى للانتهاء . وقوله : « من حَدِّ أخلَقَ » فيه تَوَسُّع ، لأن السَّيف يُسْتَلّ من الغِمْدِ فيصير مسلولاً . ألا تَرَى قولَه :

إذا سُلَّ من جَفْنٍ تأَكَّلَ أَثْرُهُ على مثلِ مِصحاةِ اللُّجَيْنِ تأَكُّلا(1)

وهذا جعَل الجَفْنَ مسلولاً والسيف مسلولاً منه . ألا ترى قولَه : « إلى سَلَّةٍ من حَدِّ أَخلَقَ » ، فهو فى ذلك كقولِهم : أدخلتُ الخُفَّ فى رِجْلى والقَلَنْسُوَةَ فى رأسى .

٨ ــ إذَا هَزَّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهلَّلَتْ نواجِذُ أفواهِ المَنَايا الضواحِكِ

مثله قول الآخر :

سَقَاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إذا سُلَّ أَوْمَضَتْ إليه تنايا الموتِ من كلِّ مَرْقَبِ

(١) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٠ واللسان (صحا) .

وإن كان هذا وصفَ السيفَ وقوّةَ صاحبه فى الضرْب . والمعنى أنه متى حرَّكه فى الضريبة ضَحِك الموت عِلماً بظفره بالمضروب . وذِكْرُ التهلُّلِ والناجذِ مَثَلٌ وتصويرٌ للمراد . وقوله « المنايا الضَّواحك » . أى التى من شأنها أن تَضحك عند الظفَر بمطلوبها ، وإنما قال « فى عَظم قِرن » إيذاناً بأنّه لا يتعرّض له إلا من يقارنه بأساً وشدَّة ، وكذلك هو لا يُعمل هذا السيفَ إلا فى عَظم من يقارنه حَزْماً ونَجْدةً . ونسبةُ التهلل إلى النواجذ مجاز وسَعَةٌ ، وهذا كما يقال سُرَّ فلانٌ بكذا حتى صار لكل سِنٍّ له ضَحِكٌ . وقد سُمِّيَتْ ما يبدو من الأسنان عند الضحِك الضواحِك .

٩ ـ يَرَى الْوحْشَةَ الأُنْسَ الأَنيسَ وَيَهْتَدِي بحيثُ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشّوَابِكِ

قوله : « يرى الوحشةَ الأنْسَ » أى ذلك مذهبُه . وهذا كما يقال هو يرَى رأْى أبى حنيفة ، أى يذهب مَذْهبَه . فيقول : أُنْسُ هذا الرّجُل التامّ فى التفرُّدِ الذى يعُدُّه غيرُه وَحشةً . وإتْباعه الأنْسَ الأنيس تأكيدٌ وإظهارٌ للمبالغة . وهذا كما قيل : ظِلٌّ ظليلٌ ، وداهيةٌ دَهْياء . وهم يَبنون من لفظ الشىء ما يُتْبعونه به طريق التأكيد . وقوله : « يَهتدى بحيث اهتَدَتْ » يصِفُ عِلمَه بِالطُّرُق واستغناءه عن الدليل . وقد قيل فى « أُمِّ النجومِ » إنه الشمس ، وقيل هو المَجَرَّة . والمعنى أنه يهتدى بحيث تهتدى الشمسُ . ويُسمّى مُعظم الشىء أُمَّه . والشمسُ أعظمُ الكواكب . ويسمَّى جامع الأشياء أُمَّها ، يُعنَى[(١)] أنها تأوى إليه . والشَّوابك : المشتبكة . وإذا جعلت أُمّ النجومِ المَجَرَّة فيجوز أن يكون المعنى أنه يهتدى بالكواكب التى تجمعها ، فجَعَل الفِعْل لها لاجتماعها فيها . ويجوز أن يكون المعنى أنه يستغنى عن الدليل كما تستغنى تلك .

(١) م : « بمعنى » .

١٤

قال بعض بني قَيْس بن ثَعْلَبَةَ ، ويقال إنها لبَشَامَةَ بن جَزْءٍ[١] النَّهْشَلي :

١ — إنّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمى فَحيِّينَا وإنْ سَقَيْتِ كِرَامَ الناسِ فاسْقِينا

يقول : إنَّا مُسَلِّمُون عَلَيْكِ أَيَّتها المرأة فقابلينا بمِثْله ، وإن خَدَمْتِ الكِرامَ وسَقَيْتِهِمْ فَأَجْرِينا مُجْرَاهُم فإنّا منهم . والأصل في التحية أن يقالَ حَيَّاكَ اللهُ ، ثم اسْتُعْمِلَ في غيرِهِ من الدُّعاء عند اللِّقاء . وأما قولُه :

وَلَكُلُّ ما نالَ الفَتَى قد نِلْتُهُ إلا التَّحِيهْ[٢]

فالمراد به تحِيّة المُلُوكِ خَاصَّةً ، وهو قولهُم: أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! وقيل في سَقَيْتِ إنَّ معناهُ : إن دَعَوْتِ لأَماثِلِ الناس بالسُّقْيَا فادْعِي لنا أَيْضًا . والأَشْهَرُ في الدُّعاءِ أن يُقال فيه سَقَّيْتُ فُلاَنًا فيُثَقَّل ، [والحجة في التخفيف قول أبي ذؤيب :

سَقَيت به دارَها إذ نأت وصدَّقت الخالَ فيه الأَنُوحا[٣]]

وعلى هذا يكونُ في الكلامِ إضمارٌ ، كأنه قال : وإن سَقَيْتِ بظَهْرِ الغَيْبِ الكِرَامَ بالدُّعاء عند ذِكْرِهم فافعلي بنا مِثْلَهُ ، وقُولِي سَقَاكُم اللهُ . وقد فَصَل بعضُهم بين سَقَيْتُ وأَسْقَيْتُ بأنْ قال: أَسقيتُهُ : جَعَلْتُ له سُقْيَا يَفعل بها ماشاء ، وسقَيته : أعطيته ماءً لفيه . ومثلُه كَسَوْتُهُ وأَكْسَيْتُهُ ، لأن معنى كَسَوْتُهُ

---

(١) كذا في النسختين . وعند التبريزي والمبرد ٦٥ والبغدادي (٣ : ٥١٥) : « حزن » . وكذلك عند ابن جني في المبهج . قال : « والحزن : الموضع الغليظ » . قال البغدادي : « والظاهر أنه إسلامي كما يظهر من شرح المبرد لأبياته » . أي لتنبيهه على أنه أخذ بعض معانيه من شعراء إسلاميين . انظر الكامل ٦٥ — ٦٧ ليبسك . ونسب ابن قتيبة الأبيات في الشعر والشعراء ٦٢٠ إلى نهشل بن حري ، وفي عيون الأخبار (١ : ١٩٠) إلى بشامة .

(٢) لزهير بن جناب الكلبي في اللسان (حيا) والمعمرين ٢٦ .

(٣) التكملة من م . والبيت لم يرو في قصيدة أبي ذؤيب التي على هذا الوزن والرو . انظر ديوانه ١٢٩ — ١٣٦ لكنه نسب إليه في اللسان (أنح) ، وفسر الخال فيه بأنه المتكبر .

أَلبَسْتُهُ ، وأَكْسَيْتُه جَعَلْتُ لَهُ كِسْوَةً[1] ، وبعضُهم يجعلهما سواءً ، ويحتجُّ ببيت لبيد :

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْـدٍ وأَسْقَى نُمَيْرًا والقبائلَ من هِلاَلِ[2]

وإذا فُصِلَ بينهما فى البيت لم يختلّ به لفظا ولا معنًى ، كما أنه إذا سُوِّىَ بينهما لم يختلّ معنًى ولا لفظا ، فكأنه لا حُجَّة فيه لواحدٍ من القَوْلَيْنِ . والقَصْدُ فى الدعاء بالسُّقْيَا إلى أن يُمِدَّ اللهُ المدعُوَّ له بما يزيد فى نمائِه ونَضارته . ألا تَرَى الآخرَ قال لما دَعا على ما تَسَخَّطَهُ[3] :

إذا سَقَى اللهُ أرضاً صَوْبَ غادِيَةٍ فلا سَقَاهُنَّ إلا النارَ تَضْطَرِمُ

فذكر ما يُحرِق ويَستأصِل .

٢ ـ وإنْ دَعَوْتِ إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ يوْمًا سَرَاةَ كِرَامِ النَّاسِ فادْعِينا

جُلَّى فُعْلَى ، أجراها مجرى الأسماء ويُرادُ بها جليلةٌ . كما يُرادُ بأفْعَلَ فاعِلٌ وفعيلٌ ، نحو قولِه تعالى : ﴿ وَهوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ، أى هَيِّن ؛ وكما قال :

* فتلكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بأوْحَدِ[4] *

أى بواحدٍ ؛ وكقولك : الله أكبر ، تريدُ كبير . يقول : إنْ أشَدْتِ بذكر خيار الناس بجليلةٍ[5] نابَتْ ، أو مَكْرُمَةٍ عَرَضَتْ وسَنَحَتْ ، فأشيدى بذكرنا أيضاً . وهذا الكلام ظاهره استعطافٌ لها ، والقصدُ به التوصُّلُ إلى بيانِ

(١) ضبط فى النسختين بكسر الكاف ، ويقال كسوة أيضا بالضم .

(٢) وكذا روايته فى اللسان والتبريزى والديوان ١٢٧ . قال الطوسى : « مجد ابنة تيم بن غالب بن فهر بن مالك ، وهى أم كلاب وكليب ابنى ربيعة بن عامر بن صعصعة » . وفى م فقط : « بنى بدر » .

(٣) م : « ما يسخطه » .

(٤) صدره كما فى أمالى القالى (٣ : ٢١٨) :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

(٥) م : « لجليلة » .

شرفه واستحقاقِه ما يستحقُّه الأفاضل الأشراف، والأماثل الكرام. ولا سَقْىَ ثَمَّ ولا تحيَّةَ ولا دُعاءَ ولا مَغَاثةَ. ألا ترى كيف اشتغل بمقصوده مِن الافتخار فيما يتلو هذا البيت. وهم كما يتخلصون من التّشبيبات وغيرِها إلى أغراضهم على اختلافها[1] فإنهم قد يتوصَّلون بمبادئ كلامهم إلى أمثالها، فتقلّ المؤونة، وتخفّ الكُلْفة. ولهذا نظائرُ وأشباهٌ تجيء فيما بعد. والسَّرَاة فى الناس، والشَّراة بالشين معجمةً فى المال والخيْلِ. وفى حديث أمّ زرع[2]: « فنكَحْتُ بعدَهُ رَجُلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وأخذ خَطِّيًّا، وأرَاحَ عَلَىَّ نَعَمًا ثَرِيًّا». والجُلَّى بالألف واللام: تأنيث الأجَلّ، كما يقال الأكبر والكُبرى، وكما قيل السَّبْعُ الطُّوَل جمع الطُّولَى. ولا يُحذف الألفُ واللام منه حينئذ، لأنَّ أصْلَه يكونُ أفعَلَ الذى يَتِمُّ بمِنْ. ويقال لكلِّ ما عَلاَ شيئًا: جَلَّلَهُ، ومنه الجَلاَلَة.

٣— إنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لا نَدَّعِي لِأَبٍ عَنْهُ وَلاَ هُوَ بالأبْنَاءِ يَشْرِينا[3]

نَدَّعِي: نَفْتَعِلُ من الدِّعْوَةِ. وقوله « عنه » تعلّقَ به. ويقال ادَّعى فلانٌ فى بنى هاشِمٍ، إذا انتسبَ إليهم؛ وادّعى عَنْهم، إذا عَدَل بنسبِهِ عنهم. وهذا كما يقال: رَغِبْتُ فى كذا ورَغِبْتُ عن كذا. وقوله: « لأبٍ » أى من أجْلِ أَبٍ ولمكان أَبٍ. وانتصاب « بنى » على إضمارِ فِعل، كأنه قال: أَذْكر بنى نَهْشَل. وهذا على الاختصاص والمَدْح. وخبر إنّ « لا نَدَّعِي ». ولو رَفَعَ فقال: بنو نَهْشَلٍ، على أن يكون خبر إنّ لكان لا نَدَّعِي فى موضِع الحال. والفَصْل بين أن يكونَ اختصاصًا وبين أن يكون خَبَرًا صُرَاحًا: هو أنّه لو جَعَلَهُ خبرًا لَكَانَ قَصدُه إلى تعريف نفسِه عند المخاطَبِ، وكان لا يَخْلُو فِعْلُهُ لذلك من

(١) فى الأصل: « على اختلافهم »، وأثبتنا ما فى م.
(٢) انظر حديث أم زرع فى أوفى رواياته عند السيوطى فى المزهر (٢: ٥٣٢).
(٣) التبريزى: « إن كان الشعر للقيسى فالرواية: إنا بنى مالك ».

خُمُولٍ فيهم ، أو جَهْلٍ من المخاطَبِ بشأنهم . فإذا جُعِل اختصاصًا فقد أَمِنَ هو الأمرين جميعا . فقال مفتخرًا : إنَّا نَذْكر من لا يخفى شأنُه ، لا نَفْعَلُ كذا وكذا . وإنَّما قُلتُ خبرًا صُرَاحًا ، لأنَّ لفظ الخبرَ قد يُستعار لمعنى الاختصاص ، لكنه يُسْتَدَلُّ على المُرَادِ منه بقرائنِهِ ؛ على هذا قولُه :

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وشِعْرِى شِعْرِى(١) *

ومعنى البيت : إنا لا نَرْغَبُ عن أبينا فننتَسِبَ إلى غيره ، وهو لا يَرْغَبُ عنا فيتبنَّى غيرَنا ويبيعَنا به ، لأنه قد رَضِيَ كلٌّ منا بصاحبه ، عِلْمًا بأن الاختيار لا يَعْدُوه لو خُيِّرَ فاختار . ويقال : شَرَيْتُ الشىء بمعنى بِعْتُهُ واشتريتُه جميعاً ، ومنه الشَّرْوَى ، وهو المِثْلُ .

٤ — إنْ تُبْتَدَرْ غايةٌ يَوْمًا لمكْرُمَةٍ تَلْقَ السوابقَ مِنَّا والمُصَلِّينا

يقال : بادَرْتُهُ مكان كذا وكذا(٢) ، وإلى مكانِ كذا . قال :

* فبادَرَهَا وَكْناتِ الخَمرْ *

وكذلك يقال : ابتدَرنا الغَايَةَ وإلى الغَايةِ . وقولُه : « لمكرمةٍ » أى لاكتسابِ مكرمةٍ . ويجوز أن يكون اللامُ مُضِيفةً للغاية إلى المَكْرُمَةِ ، كأنّه يريدُ تَسَابُقَهُم إلى أقْصاها . يَقُولُ : إن تُسْتَبَقْ نهايةُ مَجْدٍ أو غايةُ مكرمةٍ ترَ السابقينَ مِنّا والتَّالينَ أيضا مِناً . وإنّما قال « المصلِّين ولم يقل المُصَلِّيَات مَعَ السَّوَابق ، لأنّ قَصْده إلى الآدميّين ، وإن كان استعارَهُما من صفات الخيل . ويجوز أن يكون أخرجَ السابقَ لانقطاعِه عن الموصوف فى أكثر الأحوالِ ،

---

(١) الرجز ينطق بنسبته إلى قائله ، وهو أبو النجم العجلى .

(٢) وكذا الثانية ، ليست فى م .

ولغيابته عن المُجَلِّي وهو اسم الأوّل منها[١] إلى بابِ الأسماء تجمعه على السَّوابق، كما يقال كاهِلٌ وكواهلُ، وغاربٌ وغواربُ. والمُصَلِّي هو الذي يتلو السابق فيكون رَأْسُه عند صَلَاهُ. والصَّلَوانِ: العظمان الناتئان من جانبي العَجُز. وقال الدُّرَيدي: هو العظم الذي فيه مَغْرِز عَجْبِ الذَّنَب. وقال بعض أهل اللغة: هما عِرْقان في موضع الرِّدفِ.

٥ — لَيْسَ يَهْلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا افْتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فِينَا

نبّه بهذا الكلام على أنّ مَن يستحق السيادة فيهم يكثُر ولا يقلُّ، فمتى دَرَجَ منهم رئيسٌ ترشَّح[٢] لسدّ مكانِهِ واحدٌ. وهذا مثلُ قولِه:

وإنِّي من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحِبُه[٣]

والافتلاء: الافتطام والأخْذُ عن الأمر، ومنه الفَلُوّ. والمعنى هنا الترشيح والتهيئة والصرفُ عما عليه إلى الرِّياسة. و «أبداً» في المستقبل بمنزلة قَطُّ في المُضيّ. والقصدُ أنهم كلَّ وقتٍ على ذلك، فلا يحتاجون إلى الاستعانة بالأجانب دون الأقارب. والأبَدُ: الدَّهر، وقيل سُمِّيت الوَحْشُ أوابِدَ لأنها تُعَمَّرُ على الدَّهرِ، حتى لا تموتُ إلا بآفة. وأن يكون من التأبُّد التوحُّش أحسَنُ، وإن أمكن رَدُّ الكلِّ إلى أصلٍ واحد.

٦ — إنَّا لَنُرْخِصُ يومَ الرَّوْعِ أنْفُسَنَا ولَوْ نُسَامُ بها في الأَمْنِ أُغْلِينَا[٤]

---

(١) م: «منها».

(٢) م: «رشح».

(٣) البيت للقيط بن زرارة كما في الحيوان (٣: ٩٣). ونسب إلى أبي الطمحان القيني في الكامل ٣٠ والوساطة ١٥٩. وذكر التبريزي أن البيت أيضا نظير قول أوس بن حجر:

إذا مقرم منا ذرا حدنا به تخمط منا ناب آخر مقرم

(٤) في الكامل ٦٧ أنه أخذه من قول الأجدع الهمداني:

« أُغلينا » الألف للإطلاق ، والنون ضمير الأنفُس ، ومعنى أُغلينَ وُجِدَتْ غاليةً أو جُعِلَتْ غاليةً . وهو هكذا أجْوَد ، وليس يُريد أنهم مع الغلاء يمكّنون منها ، بل المرادُ قَطْعُ المَقْدُرَةِ عنها . ومثْل هذا :

نُعَرِّضُ للسُّيــوفِ بكلِّ ثَغْرٍ   خُدُودًا لا تُعَرَّضُ للسِّبَاب[1]

فيقول : نَبتذل أنفسَنا فى الحروبِ ولا نصونُها ، ولو عُرِضَ علينا إذالتُها فى غيرها لامتَنَعْنا . وهذا لِحِرْصِهِمْ على تخليد الذِّكر الجميل ، والأبانة عن مَحَلّ النفس فى الشجاعةِ . والرُّخْصُ فى السِّعر : سُهولتُه ولِينُه ، وهو من قولهم فيما أظن امرأةٌ رَخْصةً ، إذا كانت ناعمةً . وقولُه : « ولو نُسامُ بها » أى نُحمَل على أن نَسومَ بها . ويقالُ سامَ بسلعته كذا وكذا ، واستامَ أيضاً ، وأَغْلَى السَّوْمَ والسِّيمَةُ . وأَسَمْتُهُ أنا ، أى حَمَلْتُه على أن سامَ . ولا يمتنع أن يكون قولُهم : سُمْتُه خَسْفا ، أصله من ذاك وإن استُعْمِل فى المكروه ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ . وفى البيت طِباقٌ بذكر الإرخاص والإغلاء ، والرَّوْع والأمن ، فى موضعين ، وهو حسنٌ جيِّد .

٧ — بِيضٌ مَفارِقُنا تَغْلِى مَرَاجِلُنا   نَأْسُو بأموالنا آثارَ أَيْدِينا

يُروى : « بِيضٌ معارفنا » ، وهى الوجوه . والمراد بذلك نَقاء العِرضِ وانتفاء الذّمّ والعيْب . ويقال : امرأةٌ حسنةُ المعارِف ، أى الوجْهِ بما يشتمِلُ عليه . وقيل الأنْفُ وما والاهُ . وقيل : الحُسْنُ فى الأنف ، والمَلاحةُ فى

—
لقد علمت نسوان همدان أننى   لهن غداة الروع غير خذول
وأبذل فى الهيجاء وجهى وإننى   اه فى سوى الهيجاء غير بذول
ومن القتال الكلابى حيث يقول :
أنا ابن الأكرمين بنى قشير   وأخوالى الكرام بنو كلاب
نعرض للطعان إذا التقينا   وجوها لا تعرض للسباب

(١) عند التبريزى : « إذا التقينا نفوسا » .

الأسنان . وواحِدُ المعارِفِ مَعْرَفٌ و مَعْرِفٌ[١] ، وكأنَّ الوجهَ سُمِّىَ بها لأنّ معرفةَ الأجسام وتمييزها تقع[٢] بها . والأشهر والأحسن « بِيضٌ مفارقُنا » . ويجوز أن يكون أراد ابيضَّت مفارقنا من كثرة ما نقاسى الشدائد . وهذا كما يقال أَمْرٌ يُشيبُ الذَّوائب . وفى القرآن : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ . و « تَغْلِى مراجلُنا » أى حروبُنا ، كقول الآخَرِ[٣] :

تَفُورُ علينا قِدْرُهُم فَنُدِيمُها ··· ونَفْثَؤُهَا عَنَّا إذا حَمْيُها غَلاَ

ويجوز أن يكون المراد : ابيضَّت مفارقُنا لانحسار الشَّعر عنها ، باعتيادِنا لُبس المَغافر والبَيْض ، وإدماننا إيّاه ، ويكون هذا كما قال :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما ··· أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ[٤]

وتكون المراجِلُ على هذا كنايةً عن الحروب أيضا . ويجوز أن يكون المراد : ابيضّت مفارقنا من كثرة استعمالنا للطِّيب ، ويكون كقول الآخر :

* جَلاَ الأَذْفَرُ الأحوَى من المِسْكِ فَرْقَهُ[٥] *

ويكون على هذا معنى « تغلِى مراجلنا » أى قدورُنا للضِّيافة ، ويجوز أن يُرِيدَ : مَشِيبُنَا مَشِيبُ الكرام ، لامشيب اللئام . وأنشد ابن الأعرابى فى نوادِرِه :

وشِبْتَ مَشِيبَ العَبْدِ فى نُقْرَةِ القَفَا ··· وشَيْبُ كِرامِ النّاسِ فوق المَفَارِقِ

وعلى هذا يُحْمل المراجِلُ على أنّ المُراد بها قدور الضيافة . فأمّا قولُهُ : « نأسو

(١) ذكر فى اللسان والقاموس « المعرف » مفتوح الراء فقط .

(٢) هذه الكلمة من م ، وفى أصلها « يقوم » وكتب تحتها « تقع صح » إشارة إلى الصواب .

(٣) هو النابغة الجعدى ، كما فى اللسان (فثأ) ومقاييس اللغة (دوم) .

(٤) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى ، كما فى المفضليات (٢ : ٨٤) .

(٥) روى فى الكامل ١٠٣ ليبسك والبيان (٣ : ٣٠٥) :

جلا المسك والحمام والبيض كالدمى ··· وفرق المدارى رأسه فهو أنزع

وانظر للخلاف فى نسبة الشعر الخزانة (٢ : ٥٣٢) .

بأموالنا آثارَ أيدينا » فإنما يريد تَرَفُّعَهم عن القَوَدِ ودَفْعَ أطماع النَّاس عن مُقَاصَّتِهم، فيداوون جراحاتِهم ببذل الأُرُوشِ والدِّيات . والأَسْوُ : مداواة الجُرْح وإن استعمِل فى موضع الإصلاح . قال :

والأُساةُ الشُّفَاةُ للدَّاءِ ذى الرِّيـــبةِ والمُدْرِكون الأَوْغَامِ(١)

ويُقال للضّارّ النّافع : يَشُجُّ ويأسُو . ومنه اشتقاق الإسوَة ، ويقال الأُسْوَةُ أيضا . ويُروى أنّ مُصْعَبَ بن الزُّبير لما انهزمَ الناسُ عنه يومَ مَسْكَنَ جعل يُقاتِل ويتمثّل :

وإنَّ الأُولَى بالطَّفِّ من آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّوا فَسَنُّوا للكِرَام التأسِّيا(٢)

وفى البيت مع حُسن المعانى التى بيَّنتُها توازُنٌ فى اللفظ مستقيم ، وسلامةٌ ممّا يجلب عليه التَّهجين .

٨ — إنِّى لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوائِلَهُم قَوْلُ الكُمَاةِ أَلا أَيْنَ المحامُونا(٣)

يقاربه قول الخَنْساء :

* أَقَلَّتْ مُسَامَاةُ الرِّجَال عَدِيدَنا *

فيقول مفتخرًا إنِّى لمِن قومٍ أهلَكَ أسلافَهُم قولُ الأبطال لَهُمْ ألا أين الذّابّون والمُحَامون ؟ فكانوا يتقدّمون ويفنَوْن . والكُمَاةُ : جمع الكمِىّ ، وهو من قولهم كَمَى شهادتَه ، إذا كتَمَها ؛ لأنَّ الشُّجاع يستغنى بالفَعَالِ ، عن الدَّعْوَى والمَقَال ، فكأنّه يستُر أمره وشأنه لوقت الحاجة ، ولأنّه إذا سَكَتَ دَلَّ على صِفَاتِه بلاؤُه .

٩ — لو كانَ فى الألْفِ منَّا واحدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إيّاه يَعْنُونا

(١) فى الأصل : « للأرغام » بالراء ، صوابه بالواو كما فى م . والأوغام : الترات ، واحدها وغم .

(٢) كذا ورد إنشاده فى النسختين . وفى اللسان والكامل ١٠ :

* تآسوا فسنوا للكرام التآسيا *

(٣) رواية التبريزى : « قيل الكماة » .

يعنى بقَوْلِهِ « فدَعَوْا » أعلنوا الاستغاثة بيَال فُلانٍ ، ومَن فَتًى ، وما أشبهه . ويقال خِلتُهُ أَخَالُه خَيْلاً ومَخِيلةً وخَيَلانًا[1] . وهذا مثل قول طَرَفَةَ :

إذا القومُ قالوا من فَتًى خِلتُ أنّنِي عُنِيتُ فلم أَكْسَلْ ولم أتبَلَّدِ

وقد زاد هذا عليه بقوله « لو كان فى الألف مِنّا وَاحِدٌ » . لأنّ ذلك قال : إذا القومُ قالوا من فَتًى ، فنصب نفسه مع قومه ؛ وهذا جَعَلَهُ مُنضمًّا مع الكثرة إلى الغرباء . وإنما قال : « مَن فارِسٌ » فنَكّر ، كما قال طَرَفَةُ : « من فتًى » فنكّر . ولم يُعرّف واحدٌ ، منهما ، لأنّ السُّؤال بالمنكَّر لشدة إبهامه يكون أشمَلَ لتناوله واحِدًا واحدًا لاسيَّما وليس القصد فى الاستفهام إلى معهودٍ معيَّن ، ولا إلى الجِنْس فيقال : من الفَتَى ، ومن الفارس . وفى هده الطريقة قولُ الآخَر :

إذا القومُ قالوا مَن فتًى لعظيمةٍ فما كُلُّهُمْ يُدعَى ولكنّه الفتى

وبيت بشامة أجْوَد الثلاثة . وقد أحسن الفرزدق كلَّ الإحسان لمّا أشار إلى هذا المعنى فقال :

إذا ما قيل يا لَحُماةِ قَوْمٍ فَنَحْنُ بدَعْوَةِ الداعِي عُنِينَا

١٠ – إذَا الكُماةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ حَدُّ الظُّبَاتِ وصلناها بأَيْدِينَا[2]

إنّما قال حدّ الظُّبات – وظُبةُ : السّيف حَدُّه – لأنّه أراد المضارب بأسْرِها . وكما صَلَحَ أن يُقال أَصَابَتْهُ ظُبَةُ السيفِ صلح أن يُقَالَ حَدُّ الظُّبَةِ . وقيل الظبَةُ : طَرَفُ السيف ، والشباةُ حَدُّ طَرَفِه . يقولُ : إذا الأبطالُ تباعَدُوا عن المصادمة والمكافحة ، مخافة أن ينالَهُم حَدُّ السيوف مَدَدْنا أَبْوَاعَنَا إليهم بِها[3] أو وصلناها ، وفى هذا المعنى قوله :

---

(١) ضبط فى النسختين بكسر الخاء . وفى اللسان والقاموس « الخيلان » بالتحريك .

(٢) رواية التبريزى : « أن يصيبهم » .

(٣) فى الأصل : « بنا » ، والكلمة ساقطة من م .

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كان وَصْلُهَا خُطَانا إلى أعـدائِنَا للتّضاربِ[1]

وقوله « تنحّوا أن ينالهم » أى تنحوا أن ينالهم ، ومخافةَ أن ينالهم ؛ فلمّا حُذِفَ مِنْ وَصَلَ الفِعْلِ فَعَمِل . وعلى هذا قولهم : تَحَصَّنَ فلانٌ أن يُطْلَبَ ، وقول الله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلّوا ﴾ . وقوله : « وصلناها بأيدينا » أى إذا عجزت جعلنا وُصَلَها أيدينا . وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلَت فكلٌّ منها غاية يدعُو إلى نفسه لَفْظًا ومعْنًى .

١١ — وَلاَ تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مع البُكَاةِ على من مَاتَ يَبْكُونَا

يصف تعوُّدهم للثُّكْل ، وإلْفَهُم للمصائب والقتل ، وأنَّ قلوبهم قد مَرَّتَتْ عليها حتّى قَسَتْ ، فلا يبكون مع البكاةِ على من قُتِلَ منهم . ومثله قول عمرو بن كلثوم :

مَعَاذَ الإِلٰه أن تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالِكٍ أو أن نَصِيحَ من القَتْلِ

١٢ — وَنَرْكَبُ الكُرهَ أَحْيَانًا فَيَفْرُجُهُ عَنَّا الحِفَاظُ وَأَسْيَافٌ تُوَاتِينَا

يجوز أن يكون هذا كما قال الآخر :

* فخالَفْنَا السُّيوفَ على الدهْرِ *

ويجوز أن يكون أراد بالسيوف رجالاً كأنَّهم السيوف مضاء ونفاذًا . والأوّل أولَى . وإنما يصِفُ خِطارَهُم بمُهَجهم ، وركوبَهم المهالك ، ورمْيَهم بأنفسهم المَرَامِيَ المُعْطِبَةَ . فيقول : إذا فعلْنا ذلك فى الوقت بعد الوقت ، وسَّعَتِ المضايقَ عنَّا مُحافَظَتُنَا على الكرم وصَبْرُنا على الشدائد ، واستعمالنا سُيُوفَنَا المطاوِعةَ لنا . ومعنى

(١) كذا جاءت الرواية فى النسختين . والمعروف فى رواية بيت قيس بن الخطيم :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وللأخنس بن شهاب التغلبى فى المفضليات (٢ : ٧) :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها خطانا إلى القوم الذين نضارب

يفرُجُه : يكشِفه ويوسِّعه . ويقال : فَرَج الله غَمَّه وفرَّجه ، بالتخفيف والتشديد . ومنه سمِّى ما بين القوائم : الفروج . وإطلاق لفظ الفَرج على العَوْرَةِ يجرى مجرى الكنايات . وعلى هذا قيل : رجُلٌ فُرَجَةٌ ، إذا كان كشَّافاً لأسراره .

١٥

عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، ويقالُ إنَّهُ للسَّمَوْءَل ابن عَادِيَا اليهودىّ[1] :

١ ــ إِذَا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فكلُّ رِدَاءٍ يرتَدِيهِ جَمِيــلُ

يقال : دَنِسَ دَنَسًا ، وَتَدَنَّسَ تَدَنُّسًا ، إذا تكلّفه . فيقول : إذا لم يتدنّس الرجلُ باكتساب اللُّؤْم واعتياده فأىُّ مَلْبَسٍ لَبِسَهُ بعد ذلك كان حَسَنًا جميلا . وذِكر الرِّداء هاهنا مُسْتَعَار ، وقد قيل : ردَّاه اللهُ رداءَ عَمَلِهِ ، فجُعِل كنايةً عن مكافأة العبْد بما يعمَله ، أو تشهيره به ، كما جَعَله هذا الشّاعر كنايةً عن الفِعْلِ نفسِه . وتحقيقه : فأىُّ عملٍ عَمِلَهُ بعد تَجَنُّبِ اللُّؤم كان حَسَنًا . واللؤم : اسمٌ لخصالٍ تجتمع ، وهى البُخْلُ واختيار ما تتَّقيه المروءة[2] ، والصَّبرُ على الدنيَّة ، ودناءةُ النّفسِ والآباءِ . وإذا يتضمَّن معنى الجزاء ، والفاء مع ما بعده جوابه . وليس هنا من قول عمرو بن معديكرب :

ليس الجمــــالُ بمئزرٍ فاعـلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

---

(١) لم يذكر التبريزى النسبة الأولى فى صدر الإنشاد ، ولكنه ذكرها قبل تفسير البيت الأول . قال : « ويقال إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى ، وهو إسلامى » . وهو السموءل ابن غريض بن عاديا ، المضروب به المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه حتى قتل ولم يخن أمانته فى أدراع أودعها عنده امرؤ القيس . انظر الأغانى (١٩ : ٩٨ — ١٠٠) وابن سلام ١٠٩ . وهذا الإنشاد وما بعده من الكلام إلى البيت الثالث — ما عدا سطرا قبله — ساقط من م .

(٢) فى الأصل : « يتقيه » وعند التبريزى : « ما تنفبه » ؛ والمؤدى متقارب .

فيُعتقَد أنّه يريد بالرّداء الثيابَ بسبيلٍ ، فاعلمْه .

٢ - إذا المَرْءُ لم يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ[١]

يقول : إذا المرء لم يَحْمِلِ ظُلْمَ نفسِه عليها ، ولم يصبِّرها على مكارِهها ، فليس له طَرِيقٌ إلى الثَّناء الحسن . وهذا يشير إلى كَظْم الغيظ ، واستعمال الحِلْم ، وترك الظُّلْمِ والبَغْى مع ذويه ، والصَّبر على المشاق ، وإهانة النفس فى طلب الحُقوق ؛ لأنّ مَنْ تعوّد هذه الأشياءَ علا ذِكْرُه ، وحَسُنَ ثناؤه . ويقال : ضامَهُ ضَيماً ، وهو مَضِيمٌ ، إذا عَدَلَ به عن طريق النَّصَفَة واهتضمه . ومنه قيل : قعد فى ضِيم الجَبَلِ ، أى فى ناحيةٍ تَنْعدِل إليه[٢] . وكما استُعْمِلَ الضِّيمُ من ضَامَ ، كذلك استُعمِل الهِضْمُ واحِدُ أهْضَامِ الوَادى من هَضَمَ . ويَبْعُدُ من طريق المعنى أن يُرِيدَ بقوله « ضَيْمَهَا » ضَيْمَ الغَيْرِلها فأضَافَ المَصْدَرَ إلى المفعول ، لأنَّ احتمالَ ضَيْم الغَيْرِلهم يأنفُون منه ، ويعدّونَه تذلُّلاً .

٣ – تُعَيِّرُنا إنا قليــل عَدِيدُنَا فقُلْتُ لها إنَّ الكِرَامَ قَلِيــلُ

يقال عَيَّرْتُه كذا ، وهو المختار الحَسَنُ ، وقد جاء عَيَّرته بكذا . قال عَدِيٌّ :

أيُّهَا الشامِتُ المُعَــيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أأَنْتَ المــبَرَّأُ الموفُورُ

والمعنى أنكرَتْ منّاً قلّةَ عَدَدِنا فعدّته عاراً ، فأجبْتُها وقلتُ إنّ الكِرامَ يقِلّون . والكَرَم : اسمٌ لخصالٍ تُضادُّ خِصالَ اللُّؤمِ ، وقد ذكرناها[٣] . وهذا الاعترافُ الذى حصل منه إنما هو اعترافٌ بقلّة العدد لا بقلّة القَدْرِ والغَناء ،

---

(١) التبريزى : « وإن هو لم يحمل » .

(٢) فى الأصل : « فى ناحيته يتعدك إليه » تحريف . وفى الحماسة : « فى ناحية تعدل إليه » .

(٣) فى تفسير البيت الأول ص ١١٠ .

ألا ترَى أنه رَجَعَ عليه بالنّفى فى البيت الثانى فقال :

* وما قَلَّ مَن كانت بقاياه مِثْلَنَا *

على أن قولَه « إنّ الكرام قليل » يشتمل على معانٍ كثيرة : وهى وَلوعُ الدَّهر بهم ، واعتيام الموت إيّاهم ، وقلة النَّسْل فيهم ، واستقتالهم فى الدِّفاع عن أحْسَابهِم ، وإهانتُهمْ كرائم نفوسهم مخافةَ لزوم العار لهم ، ومحافظتُهم على عِمارة ما ابتناه أسلافُهم . وكلُّ ذلك يقلّل العَدَد ، ويقصر المَدَد . وقليلٌ وكثيرٌ يوصف بهما الواحد والجمع .

٤ ــ وما قَلَّ من كانَتْ بقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلاَ وكُهُولُ

الهاء من قوله « بقاياه » راجعة إلى لفظ « مَنْ » لأنّ معناه الكثرة . ولو ردّ عليه[1] لقال بقاياهم . يقول : وما حصَلت القِلّةُ فى القَدْر والغَنَاء ، ولا لَحِقت الذِّلّةُ فى اللِّقاء والدفاع لأسلافٍ أخلافُهم نحنُ ، شبّانٌ وكُهولٌ يتسامَون فى اكتساب المعالى ، ويترقَّون فى درجات الفضل . و « شبابٌ » مَصْدَرٌ فى الأَصْل ووُصِفَ به ، ولذلك لا يثنَّى ولا يُجْمَع . يقال شَبَّ الصبىّ يَشِبُّ شَبَاباً . وقولُه « تَسَامَى » أراد تَتَسَامَى ، فحذف إحْدَى التاءين استثقالاً للجمع بينهما . فإن قلتَ : هَلّا أُدغمَت كما أُدغِمَتْ فى اُدّراك ــ والأصل تدارك ؟ قلت : ليس هذا موضعَ إدغام ، لأنّه فعل مضارع . ألا تَرَى أنه لو أُدْغِم لاحتيج إلى جَلْب ألف الوصْل لسكون أوّله ، وألفُ الوصل لا يدخل على الفعل المضارع . والكَهْل : الذى قد وخَطه الشيب ، ومنه اكْتَهَلَ النَّبْتُ ، إذا شَمِلَهُ النوْر .

٥ ــ وما ضَرَّنا أَنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

فى هذا الكلام تعريض بعشيرة من جاذبه الكلام[2] . يقول : وما يضرّنا

(١) أى على المعنى . وفى م : « عليهم » .
(٢) م : « بالكلام » .

قِلّةٌ عددنا وجارُنا فى عِزٍّ ، وجار من لهم العدَدُ والكثرة فى ذُلّ . وقوله : « وما ضَرَّنا » يجوز أن يكون ما حَرْف نفى ، والمعنى لم يضُرَّنا ؛ ويجوز أن يكون اسمًا مستفهَما به على طريق التَّقرير ، والمعنى أىُّ شىء يَضُرُّنا . والواو من قوله : « وجارُنا عزيزٌ » واو الحال ، أى لايضرُّنا ذلك والحال هذا . وكذلك الواو من قوله : « وجار الأكثرين ذليل » واو الحال . وإنّما صَلَح الجمع بين الحالين لأنَّهما لذاتين مختلفتين ، ولو كانا لذات واحدةٍ لم يَصْلُح . والعِزُّ والعزازة استُعمل فى القُدرَة والمَنْع ، وفى الصَّلابة والشِّدّة . ويقال : تعزَّز اللَّحم ، لأنّ الكلَّ يرجع إلى أصل واحد ، كما أنّ الذُّل والذِّل الذى هو ضدُّه استُعمِل فى الانقياد والسُّهولة واللِّين والوَطاءة ، إذ جميعُه يدعو إلى شىء واحد . وفى طريقته :

فجارُكَ عند بيتك لحمُ ظَبْيٍ وجارِى عند بيتى لا يُرامُ

وقول الآخر[1] :

* وهم يَمْنَعون جارَهم أن يُقَرَّدَا[2] *

٦ ــ لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ من نُجِيرُهُ مَنِيعٌ يرُدُّ الطَّرْفَ وهو كَلِيلُ[3]

ومثله :

لنا هَضْبَةٌ لا يدخُلُ الذُّلُّ وَسْطَهَا ويأوِى إليها المستجيرُ لِيُعْصَمَا

وأراد بذكر الجبل العِزَّ والسموّ . فيقولُ : لنا جبلُ عِزٍّ يدخُله من نُدْخِله فى جوارِنا ، ممتنعٌ على طالِبِه ، يَرُدُّ لإشرافه وسُمُوقه طَرْفَ الناظر إليه وهو حسير .

(١) هو الحصين بن القعقاع ، كما فى اللسان (سنت ، ألس) .
(٢) صدره : * هم السمن بالسنوت لا ألس بينهم *
(٣) فى الأصل : « برد الطرف » ، صوابه فى م والتبريزى .

ومنيعٌ : اسم الفاعل من مَنُعَ مَنَاعَةً ومَنَاعًا[١] ، ومنه المَنَعَةُ . ويجوز أن يكون فعيلاً فى معنى مفعول ، أى ممنوع منه ، وكما استُعْمِل المنيع فى العِزِّ استُعْمِلَ أيضا فى العِفَّةِ ، فقيل امرأة منيعةٌ وممتنعةٌ[٢] أى عفيفةٌ . وحَلَّ واحتلّ بمعنًى . والطَّرْف : النّظَرُ والعين جميعا . وقال الدُّرَيْدِىّ : طَرْف العين امتداد لَحْظِها[٣] .

٧ — رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ   إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنَالُ طَوِيلُ

رَسَا الجَبَلُ : ثبتَ أصلُه فى الأرض . ومنه رسَت السُّفُن ، إذا انتهت إلى قَرار البَحر[٤] . والرُّسُوُّ والرُّسوخ يتقاربان . والثَّرَى : النَّدَى . وما تحت الأرض ثرًى . ويقال : ثرًى ثَرِىٌّ ، على المبالغة . يقول : ثبت أصلُ هذا الجبل — وهو يريد العزّ على ما بيّنت — تحت الأرض وارْتفَع به أَعْلَى طويلٌ لا ينَال إلى محلّ النَّجم . والمرادُ : عِزُّنا أصلُه تحت الأرض السّابعة ، وفَرْعُه عند النجم . ومعنى لا يُنال : لا يُوصَلُ إليه ولا يُحَصَّلُ مثلُه . وكما كان يقال فى الرَّفيع الشّأن العالى القدْر : هو فى النجم وهو فى السُّكَاك ، وكان قصْده فى الفَرْع أنه مديدٌ حتَّى اتّصل بالنجم ، زاده صِفَةً فقال طويل . وقد طَابَقَ الرسُوَّ بالسُّمُوّ ، كما قابل الأصل بالفَرْع . ونقله أبو تمّامٍ فقال :

لنا نَبعَةٌ فرعُها فى السماء   وفى هامةِ الحوتِ أَعْرَاقُها

٨ — وإنّا لَقَوْمٌ ما نَرَى القَتْلَ سُبَّةً   إذا ما رأَتْهُ عَامِرٌ وسَلُولُ

كان وجه الكلام أن يقول : ما يَرَوْن القتل سُبَّةً ، حتّى يرجع الضمير من

---

(١) هذا المصدر مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

(٢) م : « متمنعة » .

(٣) نبه التبريزى إلى أنه روى بيت آخر بعد هذا البيت فى بعض الروايات ، وهو :

هو الأبلق الفرد الذى سار ذكره   يعزّ على من رامه ويطول

(٤) م « إلى قرار الأرض » ، والمؤدى واحد . وفى اللسان : « ورست السفينة ترسو رسوا : بلغ أسفلها القعر وانتهى إلى قرار الماء ، فثبتت وبقيت لا تسير » .

صفة القوم إليه ولا تعرى منه ، لكنه لما علم أن المراد بالقوم هم قال : ما نرى . وقد جاء فى الصلة مثلُ هذا ، وهو فيه أفظع ، قال :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمّى حَيْدَرَهْ[1] *

والوجه « سمّته » حتّى لا يعرى الصلةُ من ضمير الموصول . قال أبو عثمان للمازنىُّ : لولا صحّة مورِدِهِ وتكرُّره لردَدته . فضَّل عشيرته فى الصّبر على الموت، والثّبات فى الحرب على عامرٍ وسَلُول ، وهما قبيلتان[2] . فيقول : إذا حَسِبَ هؤلاء القتل والقتال عارًا ومنقصةً عدّهما عشيرتى فخرًا ومكرُمةً . والسُّبّة : ما يُسَبّ به ، كما أن الخدعةَ ما يُخدَع به . وأصل السَّب : القطْع ، ثم استُعمِلَ فى الشَّتم . وهذا كما يقال : فلانٌ يُقطِّع أعراضَ الناس . وقولُه : « ما نَرَى » أى لا نجعل ذلك مذهبًا .

٩ ــ يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لَنَا وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُولُ[3]

قوله : « يقرب حبُّ الموت » أى حبُّنا للموت . وجعل فى مقابلته : « وتكرهُه آجالهم » لأنّه يشتمل على ما يوفِّيها حَقَّها من اللَّفظ . وإنْ كانت[4] من حيث المعنى قد حصَلَتْ : ويبعِّد بُغْضُهُمْ إيّاه آجالَهم . ويكون الشّاعر مُلِمًّا فى المصراع الأوّل بقول الآخر :

* رأيتُ الكريمَ الحرَّ ليس له عُمْرُ *

لأنه يشير إلى أنهم يُغْتَبَطون لاقتحامهم المنايا ، وحِرْصهم على ملابسة

---

(١) لعلى بن أبى طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) .

(٢) التبريزى : « يعنى عامر بن صعصعة . وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان » .

(٣) ويه و : « يقصر حب الموت » ، كما سيأتى ، وكما عند التبريزى .

(٤) الضمير فى « كانت » للمقابلة . فى الأصل : « وهو وإن كانت » . م : « وهو وإن كان »

الحروب ، وأن أولئك يعمرّون لمجانبتهم الشرور ، وزهدهم فى مجاذبة العدوّ[١] . ويجوز أن يكون أضافَ الحُبَّ من قوله « حُبُّ الموت » إلى الفاعل ، فيكون المعنى : يقرِّبُ حُبُّ الموت لنا آجالنا ، ويكون هذا كقول طرَفَة :

أرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويصطفِى عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتشدِّدِ

ويكون على هذا قوله « وتكرهه آجالهم » محمولا على أنه إذا كرهت آجالهم الموتَ فقد كره الموتُ آجالهم أيضاً . ألا ترى قول دُرَيد :

أبَى القَتْلُ إلا آلَ صِمَّةَ إنّهُم أبَوْا غيرهُ والقَدْرُ يَجرِى إلى القَدْرِ

وقول مُتممٍ :

* أرَى الموت طَلاَّعًا على مَن ترَفَّعَا[٢] *

وإذا كان كذلك فالتقابل فى هذا الوجه حاصلٌ أيضاً . وبعضهم روى : « يُقصِّرُ حُبُّ الموت » واختارهُ ، ليكون القِصَرُ بإزاء الطول . وهم لا يُراعون مثل هذا إذا تناسبت المعانى وتقابلت ، ويكون ذلك منهم كالمتبرئ[٣] من التكلّف . ألا تَرى أبا ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيَّ قال :

وَشِيكُ الفُصُولِ بَعيدُ القُفُول إلا مُشاحًا به أو مُشِيحَا

وقد كان يمكنه أن يقول بطىء القفول فلم يُراعِ ذلك . وقد أحسَنَ عنترة كلَّ الإحسان فى سُلوكِ هذه الطريقة ، حين قال :

* ليْسَ الكريمُ على القَنَا بمُحَرَّمِ[٤] *

---

(١) م : « محاربة العدو » .

(٢) م : « توقعا » . وفى المفضليات (٢ : ٧٠) :

فلا تفرحن يوماً بنفسك إننى أرى الموت وقاعاً على من تشجعا

(٣) م « كالمبرأ » .

(٤) صدره :

* فشككت بالرمح الأصم ثيابه *

١٠ — وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ولا طُلَّ مِنا حيثُ كان قَتِيلُ[(١)]

« حتفَ » انتصب على الحال ، ولم يُستعمل منه حُتِف ولا هو محتوف . وليس هذا مثل تبَسَّمَتْ وميضَ البَرْقِ[(٢)] ، فاعلمه . يقول : لم يَمُتْ رئيسٌ منّا على فراشِهِ ، بل مات ميتةً كريمةً فى الحرب تحتَ ظِلالِ السُّيوف والرِّماح ، ولا أُبطِلَ دَمُ قتيلٍ منَّا حيث كان ، وعلى يدِ مَن اتفَّق . وهذا غاية ما يَتَحَمَّدُ به الفُتَّاكُ وأبناء الحروب ، حتَّى إنّ بعضهم اعتذَرَ عمن مات على فراشه فقال :

بحَمْـدٍ من سِنانِكَ لا بِذَمّ أبَا قُرَّانَ مُتَّ على مِثَالِ[(٣)]

وفى هذه الطريقة قولُه :

كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ[(٤)]

وقوله : « مات حتف أنفه » يقال إنّ أوّل مَن تكلم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم . وتحقيقُه : كان حتفُه بأنفه ، أى بالأنفاس التى خرجت من أنفه عند نُزوع الرُّوح ، لا دَفْعةً واحدة . ويقال خُصَّ الأنفُ بذلك لأنه من جهته ينقضى الرَّمَق . ويقال : طُلَّ دمه يُطَلُّ طَلاًّ ، إذا أُهْدِر .

١١ — تسِيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا وليست على غَيْرِ السيوفِ تَسِيلُ

يُروى : « تسيل على حدِّ السُّيوف نفوسُنا » . ولم يقل وليست على غيرها تَسِيلُ فى الروايتين ، لأنّهم يكررون أسماء الأجناس والاعْلام كثيرًا ،

---

(١) التبريزى : « ويروى :

* وما مات منا سيد فى فراشه *

وهذه الرواية رواية من يجعل القصيدة جاهلية » .

(٢) أى ليس من المنصوب على أنه مصدر مرادف .

(٣) المثال : الفراش . وفى قول الأعشى :

بكل طوال الساعدين كأنما يرى بسرى الليل المثال الممهدا

(٤) لعمر بن أبى ربيعة . الأغانى (٨ : ١٣٣) وزهر الآداب (٣ : ٧٦) وعيون الأخبار (٢ : ٤٩) .

ولا سيّما إذا قَصَدوا التفخيم بها . كما قال عَدِيٌّ :

لاَ أرَى الموت يسبقُ الموتَ شىءٌ نَغَّصَ الموتُ ذَا الغِنَى والفقيرا

وفى الرواية الثانية — وهى المشهورة — أضافَ الحدَّ إلى الظُّبَات . وهذا فيه وجهان : أحدُهما أن يكون أراد بالظُّبَاتِ السيوفَ كلَّها ثمّ أضاف الحدَّ إليها ، والمعنى : تسيل على حَدِّ السيوف دماؤنا وليست تسيل على غيرها . وهذا كما يُسَمّى السيفُ كما هُوَ نَصْلاً ، وكما يُسَمَّى السَّهْمُ نَصْلاً كما هو . والثانى أن إضافة الحدِّ إلى الظُّبات كإضافة البعض إلى الكلّ ، ويكون التقدير : تسيل على الحدِّ من الظُّبَاتِ ، وتكون الظُّبَاتُ مَضَارِبَ السيوف . فإن قيل : كيف تبجّح بأن تكون دماؤهم تسيل على حَدِّ السيوف لا على غيره ؟ قلتَ : إنَّ الدماء قد تُسال بالعِصِىّ وبغيرها مما لا يكون شَرَفاً ، فعَدّ القِتلةَ التى تكون بالسَّيف أكرم . ألا تَرَى أنَّ بنى أَسَدٍ يُسَمَّون « عبيد العَصَا » لمّا كان حُجْرٌ أبو امرئ القيس حينَ أوقع بهم قتلهم بها ، لتكون قِتلتهم ذميمة . وقد قُتل كثيرٌ منهم بالجلاميد والصُّخور ، ولذلك قال بعضهم :

جلاميدُ أملاءُ الأكُفّ كأنها رءوسُ رِجالٍ حُلِّقَتْ فى المواسم[1]

وقال آخر[2] :

ولا نُقَـــاتلُ بالعصـ ـىّ ولا نرامى بالحجارهْ
إلاّ عُـــلاَلَةَ أو بُدَا هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُـزَارهْ

وإذا كان الأمرُ على هذا فمعنى التبجّح أن تكون منيّتهم بالسيوف ظاهرة .

وأما قوله :

لو بأَبَانَيْنِ جاء يخطُبُها رُمِّلَ ما أنفُ خاطبٍ بدَمِ[3]

(١) انظر البيان (٣ : ١٥) والكامل ٣٣٣ ليبسك .
(٢) هو الأعشى . ديوانه ١٤٤ — ١١٥ .
(٣) لمهلهل بن ربيعة ، كما فى معجم البلدان (أبانان) .

فإنّ الفَحْل المجينَ إذا تعرّض للناقة الكريمة قُرِعَ أنفه بالعصا وضُرِبَ وجْهُهُ بها ، فهو من ذاك مأخوذ .

١٢ ـ صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأَخْلَصَ سِرَّنا إناثٌ أطابَتْ حَمْلَنا وفُحُولُ[1]

أشار بهذا الكلام إلى كَرَمِ المَناصِبِ والمَناسِب ، وطيب المَنبتِ والمَغرِس . فيقول : صَفَتْ أنسابُنا فلم يَشُبْها كُدُورَةٌ . وخَلَّصَ نِكاحَنا أُمَّهاتٌ طَيَّبَتْ حَمْلَنا ، وآباءٌ كَرَّمَتْ عُرُوقَنا . ويقال : كَدِرَ الماء يَكْدَرُ كَدَرًا وكُدُورا وكُدُورةً ، وهو أكدَرُ وكَدِرٌ . وفى ضِدِّه صفا الماء يَصْفُو صُفُوًّا ؛ والصَّفاء الاسم . ومن أمثالهم : « خُذْ ما صَفَا وَدَعْ ما كَدِرَ » . والسِّرُّ : النِّكاحُ . وسِرُّ الشىء : خالصُه . ويجوز أن يكُونَ قولُهم سُرِّيَّةٌ فُعْلِيَّة من هذا .

١٣ ـ عَلَوْنا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا لوقتٍ إلى خيرِ البطون نُزولُ

يصف تردُّدَهم فى شَرَف المَصْعَد والمنحدر ، وكرم العُنْصر والمتحوَّل ، كما ذكر طهارة المَنكِح والمولِد ، وجلالة المُعتَلَى والمستقرّ ، فيقول : عَلَوْنا فى خير الظهور ، أى حصلنا فى أعلى المراتب من ظهور أكرم الآباء ، وحَدَرَنا منها لوقتٍ معلومٍ ــ يُشير إلى وقتِ الأطهار ــ نزولٌ إلى خيرِ البطون من أشرف الأمهات[2] . والمعنى أنّا كِرام الأطرافِ . وهذه الأبيات إذا تُؤُمِّلت أدّى التأمُّل منها إلى سلامة اللفظ والمعنى من كل مَعَاب[3] ، وحُصُولِ الفخامة والجلالةِ لها فى كل جانبٍ وبابٍ .

(١) نكدر ، ورد بفتح الدال فى النسختين ، ويجوز ضمها ، فإن ماضيها مثلث الدال كما فى القاموس .

(٢) أى نزول من ظهور آبائهم إلى خير بطون من أشرف أمهات .

(٣) معاب ، أى عيب ، وفى الاصل : « مصاب » صوابه فى م .

١٤ ـ فنحنُ كماء المُزْنِ مافى نِصَابِنا كَهَامٌ ولا فينا يُعَـدُّ بَخيلُ

ماء المطر أصفى المياه عندهم ، فشبَّه صفاءَ أنسابهم بصفاء ماء المطر . والمُزنُ : السحابُ . وقوله : « ما فى نصابنا كَهَامٌ » ، أى ليس فينا كليل الحدِّ ، ولـكن كُلٌّ منا ماضٍ نافذٌ ، ولا فينا بخيل فيُعَدَّ . وهو نَفْيٌ للبخـل رَأْساً ، وليس يريد أن فيهم بخيلاً ومع ذلك لا يعدُّ[1] . ومِثلُه :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ[2] *

أى ليس بها ضَبٌّ رأساً فينجحر ، ومثل هذا كثير . ويقال كَهَمَ وكَهُمَ يَكْهَمُ ويَكْهُمُ كَهَامةً ، فهو كَهَامٌ وكَهِيمٌ . يقال ذلك للرَّجُـل إذا ضَعُف ، وللسيَّف إذا كَلَّ .

١٥ ـ نُنْـكِرُ إنْ شِئنا على الناسِ قَوْلَهُمْ ولا يُنْـكِرُون القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

هذا مثل قول الآخر :

وما يستطيعُ الناسُ عَقداً نَشُدُّه ونَنْقُضُهُ منهمْ وإن كان مُبْرَمَا[3]

يصف رياستَهُم وعلوَّ كلامهم ونفاذَ حُـكمِهم ، ورجوعَ الناس فى المهمّات إلى رأيهم ، والاعتمادَ على تدبيرهم[4] ومَشُورتهم . فيقول : نُغَيِّرُ ما نُرِيدُ تغييرَه من قول غيرِنا ، وأحَدٌ لا يَجسُرُ على الاعتراض علينا ، والإنكارِ لقولنا ، انقيادًا لهوانا ، واقتداءً بحزمِنا . وهذا كما قال الأعشى :

(١) لا يعد ، ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م .
(٢) البيت لابن أحمر ، كما فى الخزانة (٤ : ٢٧٣) . وصدره :
* لا تفزع الأرنب أهوالها *
(٣) عند التبريزى : « نشده » و « وينقضه » .
(٤) فى الأصل : « فى تدبيرهم » ، وأثبتنا ما فى م .

* كُلٌّ سيَرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعا[١] *

١٦— إذا سيِّدٌ مِنَّا خَلا قامَ سيِّدٌ قَؤُولٌ لِمَا قال الكِرَامُ فَعُولُ

يشبهه قول حاتم :

إذا مات منَّا سيِّدٌ قامَ بَعْدَهُ نَظيرٌ له يُغْنِي غَنَاهُ ويَخْلُفُ

وقولُ عُرْوَةَ :

إذا ماتَ منهمْ سيِّدٌ قامَ بَعدَه عَلَى مجدِهِ غَمرُ المروءة سيِّدُ[٢]

١٧—وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنادُونَ طارقٍ ولا ذَمَّنا فى النازِلِينَ نَزِيلُ

أراد بقوله « نارٌ لنا » نار الضيافة . يقول : نُدِيم إيقادَها فلا تُطْفَا دون طارقِ ليلٍ . والضيفُ إذافارَقَنا حَمِدَنا ولم يَذْمُمْنا ، لحُسْنِ توفُّرِ ناعليه ، واحتفالِنا عند سَوْق الخير إليه . والنَّزِيل ، كالرَّفيق والجليس والأكيل . والطُّرُوق يَختَصّ باللَّيل . وسُمِّيَ النجم طارقاً لذلك .

١٨—وأَيَّامُنَا مَشْهورَةٌ فى عَدُوِّنا لها غُرَرٌ معلومةٌ وحُجُولُ

يقول : وقَعاتُنا مشهورةٌ فى أعدائنا معلومةٌ ، فهى بين الأيّام كالأفراس الغُرِّ المُحجَّلَةِ بين الخَيْل ، يُعرَف بلاؤنا فيها ، وحُسْنُ آثارِنا عند النُّهوض لها . وهذا كما قال :

* وإمَّا يَكُنْ يومٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ *

والتحجيل : أن يبيضّ من الأوظِفة مواضعُ الحِجْلِ ، وهو القيْدُ والخَلخَالُ .

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « يلقى لها » ، وفى الديوان ٨٦ : « بأن يرعى له » . وصدر البيت :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

(٢) عجز هذا البيت من م . والبيت لم يرو فى ديوان عروة .

فإذا ارتفع التَّحجيل حتى يبلُغ الفخذين فما فَوْقُ فهْوَ التجويف . قال طُفَيْلٌ :

* شَمِيطُ الذُّنابَى جُوِّفَتْ فهى جَوْنةٌ(١) *

١٩ــ وأَسيافُنا فى كل غَرْبٍ ومَشْرِقٍ   بها من قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

مثله قولُ النابغةِ :

وَلاَ عَيْبَ فيهم غيرُ أن سيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الـكتائب

يقول : قد تَفَلَّلَتْ سيوفُنا بما نضارب بها الأعداء ، فى مشارق الأرض ومغاربها . وقال : « من قِرَاعِ الدّارِعِين » ، لأن الغَرَض أن يكون عدوُّهم على غاية الاحتراز منهم ؛ وفى أكمل الاستعداد لهم . وقوله : « فى كل غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ » ظَرْفٌ لِقراع الدّارِعِين . أى بأسيافنا فُلُولٌ من القِراع فى كل غربٍ ومَشْرِق .

٢٠ــ مُعْوَدَّةٌ أَلاَّ تُسَلَّ نِصَالُها   فَتُغْمَدَ حتى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ(٢)

مثله قَوْل الآخر(٣) :

بأيْدى رِجالٍ لَمْ يَشِيمُوا سيوفَهُمْ   ولَمْ تَـكْثُر القَتلَى بها حين سُلَّتِ

(١) عجزه كما فى الديوان ٦٠ واللسان (شمط ، جوف)

* بنقبة ديباج وريط مقطع *

(٢) فى الأصل : « قبيل » ، وصواب الرواية من م والتبريزى ، وهو ما يقتضيه التفسير بعده .

(٣) هو سليمان بن قتة ، أو الفرزدق . ديوانه ١٣٩ واللسان (شيم) والكامل ١٧٤ ليبسك والعمدة (٢ : ١٥١) . وقال المبرد « وهذا البيت ظريف عند أصحاب المعانى، وتأويله لم يشيموا : لم يغمدوا . ولم تكثر القتلى ، أى لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت » . وقال ابن رشيق : « أراد لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم أضربك و [أنت] لم تجن على إلا بعد أن جنيت على . وقال آخرون : أراد لم يسلوا سيوفهم إلا وقد كثرت بها القتلى . كما تقول : لم ألقك ولم أحسن إليك إلا وقد أحسنت إليك . والقولان جميعا صحيحان ، لأنه من الأضداد » .

وانتصبَ « مُعَوَّدَةً » على الحـال . ويجوز أن تُرْفَعَ على أن تكون خَبَرَ ابتداءٍ مُضْمر ، والعامل فيه إذا كان حَالاً ما يَدُلُّ عليه قولُه : « بها من قِرَاعِ الدَّارِعينَ فُلُولُ » . فيقول : عُوِّدَتْ سيوفُنَا ألّا تُجَرَّدَ من أغمادها فتُرَدَّ فيها إلا بعد أن يُسْتَباحَ بها قبائِلُ . ويقال : عَوَّدْتُه كَذَا فتعوَّدَهُ واعتادَهُ . والعادةُ من العَوْدِ وهو الرُّجُوعُ ، ولذلك قالوا للمُواظِبِ على الشيء : هو معاوِدٌ له . وقولُه « فتَغْمَدَ » ، يُقال غَمَدتُ السَّيفَ وأغْمَدْتُه ، وأصْلُه السَّتْر ، ومنه تغمَّدَهُ الله برحمته .

٢١ ـ سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنّا وعَنْكُمُ (١) وليْسَ سَوَاءً عَالِمٌ وجَهُولُ

يُرْوَى: «عَنّا فتُخْبِرِى» . كأنّه استدلّ على تصحيح ما ادّعاها من الخصال التى عَدَّدَها بشهادة النّاسِ له وتصديقِهم مَقَالَهُ . يقولُ : سَلِي النّاس عَنَّا إن جَهلتِ ما حَـكَيْتُه من أفعالنا حتى تُخبَرِى فتؤمِنِى به وتَسْـكُنِى إليه ، فليس العالمُ بالشى كالمخَمِّنِ أوالمُجوِّز أوالشَّاكِّ أوالحادِسِ أوالمقَدِّر (٢) . والعِلْمُ قد يَحْصُل بإخْبارِ المخبرين كما يَحْصُل بالمشاهدة ، فلذلك دَعَاهَا إلى ما دَعَا من السُّؤَالِ والـكَشْف . وقولُه : «فتُخبَرِى» ينتصب بأنْ مضمَرَةً وهو جواب الأمر بالفاء . والسَّواءُ يكونُ مَصْدَراً ووَصْفًا فى مَعْنَى مُسْتوٍ . يقال : هذا دِرْهَمٌ سَوَاءٌ ، أى مُسْـتَوٍ ؛ وهذا دِرْهَمٌ سَوَاءٌ أى استواءً ، كما تقولُ هذا دِرْهَمٌ تَمَامًا ، أى تَمّ تمامًا . وفى القرآن : ﴿ فى أَرْبَعَةِ أيّامٍ سَواءً للسَّائلين ﴾ أى مستويات ، وقرئ ﴿ سَوَاءٍ (٣) ﴾ على المصدر كأنّه قال : استواءً . حَـكَى أبو الحسن الأخفَشُ : هُمَا سَوَاءٌ وهما سَوَاءَان .

---

(١) التبريزى : « عنا وعنهم » .

(٢) م : « أو المقلد » .

(٣) قراءة النصب على الحال هى قراءة الجمهور . وقرأها بالجر على النعت زيد بن على ، والحسن ، وابن أبى إسحاق ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى ويعقوب . وقرأها أبو جعفر بالرفع ، أى هو سواء . تفسير أبى حيان (سورة فصلت) .

٢٢ ــ فإنَّ بنى الدَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِم   تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُمْ وتَجُولُ

القُطْبُ : الحديدة فى الطَبَقِ الأسْفَلِ من الرحَى يدورعليها الطَّبَقُ الأَعْلَى . وسُمِّىَ قُطْبُ السَّماء لما يَدُورُ عليه الفَلَكُ . وعلى التشبيه قالوا : فُلاَنٌ قُطْبُ بنى فُلاَنٍ ، أى سَيِّدُهُم الذى يَلُوذون به ، وهو قُطْبُ الحَرْبِ .

١٦

الشَّمَيذَرُ الحارِثىُّ :

قال الدُّرَيْدِىُّ : شميذر : دَابَّةٌ زعموا ، ولا أَحْسِبُهَا عَرَبيَّةً صحيحةً .

قال البَرقىُّ : هذا الشِّعر لسُوَيْدِ بن صُمَيْعٍ المَرْثَدِىِّ ، من بنى الحارث ، وكان قُتِلَ أخُوهُ غِيلَةً فقتَل قاتِلَ أخيِه نَهارًا فى بعض الأسْوَاقِ من الحَضَرِ .

١ ــ بَنِى عَمِّنَا لاتَذكُرُوا الشِّعْرَ بَعْدَمَا   دَفَنْتُم بِصَحْرَاءِ الغُمَيْرِ القَوَافِيَا

الصحراء : اسم للمكان الواسع ، وجَمْعُهُ صَحَارٍ وصُحَرٌ . قال :

* أَتِىٌّ مَدَّهُ صُحَرٌ ولُوبُ (١) *

وأَصْحَرَ القَوْمُ : بَرَزُوا إليها ، ومنه قيل لقيته صَحْرَةَ بَحرةَ ، أى عِيانًا ومُبارَزَةً . يقول : دَعُوا التَّفَاخُرَ فى الشِّعْرِ وبالشِّعر ، فإنكم قصَّرْتُم بصحراء الغُمَيْرِ ولم تُبْلوا فيها فتنطلِق ألسنتكم لَدَى المساجَلة ، وتستجيب قوافِى الشعر لكم ، إذا أردتم نَظْمَها وإنشادَها ، عند المنافَرَة والمحاكَمَةِ ، لأنكم أَمَتُّمْ قوافىَ الشِّعر ودفنتموها . فكما أنَّ الميِّت لا يُجيب إذا دُعِىَ ، كذلك لا يُجيبُكُم الشِّعر إذا أردتموه ، مع سُوءِ بلائكم ، وقُبْح آثارِكُم . والقافية : آخر البيت المشتملُ على

(١) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ٩٢ واللسان والمقاييس (صحر) . وصدره :

* سبى من يراعته نفاه *

ما بُنِيَ عليه القصيدة . وقد يُسمَّى البيت كما هو قافيةً . قال :

وقافيةٍ مِثلِ حدِّ السِّنانِ   تبقى ويذهبُ من قالها[١]

قال الأخفش : وتسمَّى القصيدة بأسرِها قافيةً . قال :

* فمَنْ لِلقوافِي بعْدَ كعب يَحُوكُها[٢] *

٣ـ فلَسْنَا كَمَنْ كُنْتُم تصيبُون سَلَّةً   فنَقْبَلَ ضَيْمًا أو نُحَكِّمَ قاضِيَا

فى هذا الكلام تعريضٌ بقومٍ أشار إليهم بقوله : « كمن كنتم » ، وتصريحٌ للمخاطَبين ، ومُجَاهَرَةٌ[٣] بالقَوْلِ ، فهو يرميهم بالضَّعف وأنّهم إذا نالوا من العَدُوِّ شيئًا نالُوهُ سَرِقَةً . فيقولُ : لسنا كالذين كنتم تنالونَهُم سَرِقَةً ، فنلتزِمَ لكم الضَّيم ، أو نَنْصِبَ حاكمًا يقضى بيننا وبينكم . وأشار بالضَّيْمِ إلى التغميض على ما يكون من سَرِقتهم . وكأنَّ القومَ الذين أشار إليهم وانتفى من أن يكون حالُهُ كحالهم ، كانوا يقابِلُون سَرِقَتَهُم وتَجاسُرَهُمْ عليهم إمّا بالتغميض ، وهو التزامُ الضَّيْمِ عِندَهُ ، وإمّا بالمرافَعَةِ إلى الحاكِم ونَصْبِ المتوسّط ، والعَجْزُ فى حُكْمه . وانتصاب « نقبل » على أنه جوابُ النَّفى بالفاء . ويقولون : فى بنى فُلانٍ سَلَّةٌ ، أى سَرِقَةٌ . وانتصابُ سَلَّةً على أنه مَصْدَرٌ فى موضِعِ الحال ، والتقدير : تصيبونهم سالِّينَ وساقين .

٣ـ ولكِنَّ حُكْمَ السَّيْفِ فِيكُمْ مُسَلَّطٌ   فنَرْضَى إذا ما أَصْبَحَ السَّيْفُ رَاضِيَا

يقولُ : مَتَى عَدَوْتُم طَوْرَكُمْ ، أو خَرَجْتُمْ من حَدِّكُمْ ، فإنّا نُسَلِّطُ السيفَ

(١) البيت للخنساء ، كما فى اللسان .
(٢) البيت لكعب بن زهير فى الشعر والشعراء ١٠٣ ، ١٠٧ . وعجزه :
* إذا ما مضى كعب وفوز جرول *
(٣) م : « ومجاهدة » .

عليكم، ولا نَرْضَى إلا بحُكْمه فيكم . فمتَى رَضِىَ رَضِينا(١) ، وفى طريقته قوله :

* ونَشتِمُ بالأَفْعالِ لا بالتَّكَلُّمِ *

٤ـ وقد ساءنى ما جَرَّتِ الحربُ بيننا   بَنِى عمِّنا لو كان أمْرًا مُدانيا

دَلَّ بقوله : « لو كان أمْرًا مُدانيا » على أنه لم يسُؤه ما جَنَتِ الحربُ بينهم ، لأنّه وقع بالاستحقاق . ألا ترى أنّه قال ساءنى ذلك لو كان الأمرُ المؤدِّى إليه أمرًا مُدَانِيًا ، وكنّا نعرفُ للاحتمالِ فيه موضعا ، وللصَّبْر عليه مَجَالاً ومَذْهَبًا . فأمّا والشَّان مُسْتَفْحِلٌ ، وتعدّيكم متفاقمٌ ، فإنّه لا يَسُوءنى . وقوله : « لو كان أمْرًا مُدَانِيا » ، أراد لو كان الأمرُ أمرًا أَمَمًا اساءنى . وإذا كان كذلك فجواب لو متقدِّم ، وتلخيصه : لو كان ما تردَّدْنا فيه قريبًا لساءنى ما جنته الحرب بيننا ، ولكن الآن لم يَسُؤْ . وهذا تعظيم لما كان منهم إليهم ، وكالاعتذار عن الأخذ بالفَضْل عليهم ، وتَرْكِ الصَّفح عنهم .

٥ـ فإنْ قُلتُمُ إنّا ظَلَمْنَا فَلَمْ نكُنْ   ظَلَمْنَا ولكنّا أَسَأْنَا التَّقَاضِيَا

رواه بعضهم : « فإن تزْعُمُوا أنّا ظَلَمْنَا » . والزُّعْمُ فى دَفْعِ الدَّعْوَى أبلغُ ، وإنما نبَّه بهذا الكلام على أنه لا يَعُدُّ ما عُومِلُوا به ظُلْمًا ، مع كَوْنِ ابتدائه منهم ، وإن كان فيه سَرَفٌ . فيقولُ : إنِ ادّعيتُم علينا أنّا ظلمناكم فإنّا لم نظلمْكم ، مع عُدوانكم ، وسَبْقِكم إلى الشرّ وتهييجه ، ولكنَّا أسأْنا فى تقاضيكم الحقَّ ، وإيفائكم الجزاء ، حين استخرجْنا بالعُنْفِ والقَهرِ ، ومجاوزَةِ الأدنى من الأمرَيْنِ إلى الأقصَى . فكأنه سَمَّى ما عَدَّه أولئك ظلما سُوءَ تَقَاضٍ . والظُّلْمُ قيل فيه : إنه وضعُ الشىء فى غير موضِعِه ، ولذلك قيل للأرضِ الصُّلْبةِ إذا حُفِرَتْ : مظلومةٌ ، وللسِّقاءِ إذا تُنُووِلَ ما فيه قبل إدراكه : ظَلِيمٌ . وقيل : الظُّلْمُ :

(١) فى الأصل : « فمن رضى رضيناه » ، وأثبتنا ما فى م .

انتقاصُ الحق . قوله « فلم نكُنْ ظَلَمْنا » إذا كانَ من حكم الجوابِ أن يكون طِبْقاً للابتداء ومبنيا عليه ، فمن الواجب عليه كان أن يقول : فإن قُلتُم إنّا كنّا ظلمْنا . ألا تَرَى أنّا نقُولُ فى قولِ الله تعالى : ﴿ وما كانَ اللهُ لِيُعذِّبَهُمْ ﴾ إنه كان جوابَ قائلٍ قال كان الله سيعذِّبُهُمْ . فنَفَى على حَدِّ الابتداء وطريقتِه ، لـكنَّ الشاعر حَذَفَ مِن الابتداء كُنَّا ، لأن ما فى الجواب يَدُل عليه .

١٧

وَدَّاكُ بن نُمَيْلٍ المازِنِىّ

قال البَرقىُّ هو وَدَّاكُ بن سِنَانِ بن نُمَيْلٍ[(١)] :

١ — رُوَيْدَ بَنِى شَيْبَانَ بَعْضَ وَعِيدِكُم ... تُلاَقُوا غَدًا خَيْلِى على سَفَوَانِ

رويْدًا : تصغيرُ إرْوادٍ ، وهو مصدر أرْوَدتُ فلانًا ، على طريق التَّرخيم ، وانتصابه بفعْلٍ مضمرٍ دَلَّ عليه لفظُه . وأكثر ما يجىء تصغير الترخيم يجىء فى الاعْلاَم ، وقد يُجْعَلُ رُوَيْدًا اسْماً لارْفُقْ ، فيُبْنَى حينئذ كما يُبْنَى أخَوَاتُهُ من أسماءِ الأفعالِ . على ذلك ما جاء فى المثَلِ من قَوْلهم : « رُوَيْدَ يَعْلُونَ الجَدَدَ » . وقد تُزَادُ كاف الخطاب عليه فيقال : « رُوَيْدَكَ » ، على ذلك قولُهُمْ : « رُوَيْدَكَ الشِّعْرَ يَغِبَّ » . وقوله : « بعضَ وعيدِكم » انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عليه رُوَيْدَ ، لأنَّ مع استعمالِ الرِّفْق كَفًّا عن بعض الوعيد ، فكأنه لما قال

(١) نميل ، وردت هكذا بالنون فى الأصل فى هذا الموضع وسابقه ، وهى رواية نص عليها التبريزى فيما يلى . ويبدو أن « وداكا » شاعر جاهلى ، ولم نعثر له على ترجمة . التبريزى : « وداك فعال من الودك والدكة ، وأصله الصفة ، ألا ترى أن فعالا بابه بالصفة ، وقلما توجد فى الأسماء . وفى الكتاب من ذلك الكلاء والجبان . قال أبو الفتح : وزادنا أبو على الفياد : ذكر اليوم . ووجدت أنا الجيار ، وهو السمان أو نحوه ، والصاروخ أيضا . ونميل : تصغير نمل أو نامل على الترخيم . ويقال فيه أيضا نميل بالنون » .

أَرْوِدوا يا بنى شيبانَ قال : كُفُّوا بَعْضَ الوعيد . وهذا تهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ[١] . وقوله : «تلاقوا» ، الجزْم على أنّه جوابٌ للأمر الذى دلّ عليه رُوَيْدًا . وإنّما جُعِلَ للأمْرِ الجوابُ لأنّه ضُمِّنَ معنى الجزاء والشَّرْطِ . وسَفَوانُ : اسمُ ماءٍ قالوا هو من البَصْرَةِ على أميَالٍ . ومعنى البيت مفهوم . وقولُه « غداً » لم يُشِرْ به إلى اليوم الذى يَلِى يومَهُ ، وإنما دَلّ على تقريب الأمر ، فكأنه قال : تُلاقوا خَيْلِى قريباً على هذا الماء[٢] .

٣ـ تُلاَقُوا جِيَادًا لا تَحِيدُ عن الْوَغَى إذا ما غَدَتْ فى المأْزِقِ المُتَدانِى

الوَغَى ، أصله ، الجَلَبَةُ والصّوتُ ، وكذلك الوعَى بالعين غير معجمة . قال :

* كأنّ وَعَى الخُموشِ بجانبَيْها[٣] *

وجِيَاد هاهنا : جمع جَوَادٍ ، يقال فَرَسٌ جوادٌ : عتيقٌ ، وخيلٌ جيادٌ : عِتاقٌ . وفى غير هذا المكان يكون جمع جَيِّدٍ . وتُلاَقُوا بدل من تُلاقوا الأوّل . نبَّهَ بهذا على أنّ المرادَ بالخيل الفُرْسانُ ، على عادتهم فى قولِهِم الخَيْلُ والرَّجْلُ . قال الله تعالى : ﴿ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قال فيما بعده :

(١) السخرية ، وردت فى النسختين بتشديد الياء ، وهو مصدر سخر به ، كما فى اللسان ، ولم ترد فى القاموس . والسخرية بتخفيف الياء اسم منه .

(٢) ابن جنى : «وبنى شيبان منصوب على نداء المضاف البتة فى القولين جميعا ، كقولك مع التنوين رفقا يابنى شيبان ، وكذلك حاله إذا بناه وجعله اسما للفعل فى الأمر كأنه قال : رويدكم يابنى شيبان ، أى انتظروا الأمر يابنى شيبان . فإن قلت : فهل تجيز أن تكون بنى شيبان مع كون رويد اسما للفعل مجرورا بإضافة رويد هذه إليه ، كما تقول فى الكاف والميم ، من رويدكم إنها مجرور بإضافة هذا الاسم المبنى عليه ويستدل على أنها اسم لا حرف خطاب بما حكاه سيبويه عنهم من قولهم رويدكم أجمعين وأجمعون ، فأجمعين توكيد للكاف والميم ، وأجمعون توكيد الضمير المرفوع فيه . فالجواب أن ذلك لا يجوز هنا ، من قبل أن هذه الأسماء المسمى بها الأفعال لا يؤمر بها الغائب ، وإنما هى موضوعة لأمر الحاضر » .

(٣) للمتنخل الهذلى ، كما فى اللسان (خمش ، وعى ، وغى) وديوان الهذليين (٢ : ٢٥) . وصواب الرواية « بجانبيه » لأنه فى صفة ماء . وعجزه :

* وعى ركب أميم ذوى زياط *

« تُلاَقُوهُمُ فتعرِفُوا كيف صَبْرُهُمْ » . ويجوز أن يكون أراد بالخيل الدوابَّ ، ووصفها بأنها لا تَجْبُنُ عن الوَغَى ، لِدَوَام مُمَارستها له ، وتعوّدِها إيّاهُ . ثم خَبَّرَ فى قوله : « تُلاقوهم » عن أربابِها ، فيقول : أرْفُقُوا تُلاَقُوا فُرْسانًا كِرَامًا لا تَمَلُّ الحروبَ ولا تَعْدِلُ عنها إذا ابتكرَتْ فى مَضيقٍ منها ، تتلاحَمُ فيه الفُرسان وتتدَانَى فيه الأبطالُ والشُّجعان . وإنّما قال ذلك لأنّه مع التدانى لا يكون إلاّ التّجالُد ، وعندهُ تَثْكَلُ الأُمّهات . والمَأْزِقُ : المَضِيقُ ، وكانّ أصلَهُ من الأَزْق فى الحَرْبِ ، فهو مَفْعِلٌ منه .

٣ — تُلاَقُوهُمُ فَتَعْرِفُوا كَيْفَ صَبْرُهُمْ عَلَى ما جَنَتْ فِيهِمْ يدُ الحَدَثَانِ

قوله « على ما جنت » يريد على جنايةٍ . وموضعه نصبٌ على الحال ، والعامِلُ فيه تَعْرِفُوا . أو تُلاَقُوا . يقول : تُلاقُوا من بلائِهم ما يُسْتَدَلُّ به على حُسن صبرهم وثَباتهم فى جِلاَدِهم ، هذا مع تحامُل الزّمان عليهم ، وسوء تأثير الدَّهر فيهم . وأصل الصّبر : الحَبْسُ ، ومنه قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا . وحَدَثُ الدَّهْرِ وأَحْدَاثُهُ وحَدَثَانُهُ وحوادثه : نوازِلُهُ .

٤ — مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فى الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ بِكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمَانِ

مَقَادِيمُ : جمع مِقْدَامٍ . ويشبه هذا البيت قوله :

إذا قَصُرَت أسيافُنا كان وَصْلُهَا خُطَانا إلى أعدائنا للتضارُبِ[1]

وقد مرَّ مثلُه ، لكنّ فى هذا قَلْبًا ، وذاك أنه قال : وَصَّالُون خَطْوَهُمْ بكلِّ رقيق الشفرتين ، وكان الواجب أن يقول : كُلَّ رقيقِ الشفرتين بخَطْوِهِمْ . ألا تَرى أنه قال : إذا قَصُرَتْ أسيافنا وصلناها بخُطانا ؟ وقال الآخر :

(١) سبق البيت فى ص ١٠٩ .

* نَصِلُ السيوفَ إذَا قَصُرْنَ بخطْونا[1] *

ومثل هذا البيت فى القَلب بل فى تبيين جواز القلب ، وقول حُمَيْد بن ثَوْر :

نَصِلُ الخُطَى بالسَّيفِ والسيفَ بالخُطَى إذَا ظنَّ أن السَّيْفَ ذا الأَثْرِ قاصِرُ

٥ — إذَا استُنْجِدُوا لم يَسْأَلُوا من دَعَاهُمُ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أم بأىِّ مَكانِ[2]

هذا مثل قوله :

لا يَسألون أخاهم حين يَنْدُبُهم فى النائبات عَلَى ما قالَ بُرْهانا[3]

والمعنى : إنّا لا نَطّالَبُ العِلَلَ على المستنجِد توصُّلا إلى دفعِهِ أو مَطْلِهِ ، ولكنّا نعجّل غَوْثَهُ على كلِّ حالٍ . والاستنجاد : الاستصراخ . ورجل مِنجادٌ : مِغْوَان ، وقد أنْجَدَنِى ، ويقالُ هُوَ نَجْدٌ من قومٍ أنْجَاد . ومثله قولُ الآخر :

كُنَّا إذا ما أتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كانَ الصُّرَاخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيبِ[4]

١٨

سَوَّار بن المُضَرَّبِ السَّعْدِى[5] :

من سَعْدِ بنى تَميم . وقال البَرْقِىّ : من سعد بنى كلابٍ .

١ — فَلَوْ سأَلَتْ سَرَاةَ الحَىِّ سَلْمَى عَلَى أنْ قد تَلَوَّنَ بى زَمَانِى

---

(١) لكعب بن مالك الأنصارى كما فى الخزانة ٣ : ٢٢ والسيرة ٧٠٥ — ٧٠٦ وشرح شواهد المغنى ١٢٢ . ونسبه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ٢٧٩ إلى ربيعة بن مقروم . وعجزه :

* قدما ونلحقها إذا لم تلحق *

(٢) م : « أم لأى مكان » .

(٣) البيت ٤ من الحماسية الأولى .

(٤) لسلامة بن جندل فى المفضليات (١ : ١٢٣) .

(٥) المضرب بتشديد الراء المفتوحة ، ذكر التبريزى أنه سمى بذلك لأنه شبب بامرأة فحلف أخوها ليضربنه بالسيف مائة ضربة ، فضربه فغشى عليه ، فسمى مضربا لذلك . وهو شاعر إسلامى ، ذكر المبرد فى الكامل ٢٨٩ ، ٦٦٦ أنه هرب من الحجاج ، وقال :

أقاتلى الحجاج إن لم أزر له دراب واترك عند هند فؤاديا

وذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨٣ .

سَرَاةُ الناسِ : خيارُهُمْ . وشَرَاة الإبل بالشين معجمةً : كرامُهَا . وقد مَرَّ ذِكْرُه(١) . وقال الخليل : السَّرْوُ : سَخَاءٌ فى مُرُوَّةٍ . وسَرَا يَسْرُو فهو سَرِىٌّ وقومٌ سَرَاةٌ ، ولم يجئ على فَعَلَةٍ غيرها . يعنى أن فَعَلة يُختصّ بها الصَّحيح فى الجمع دون المعتلّ ، وذلك كالفَجَرةِ والفَسَقَةِ . وتلوُّن الزَّمان يشير به إلى تصاريفِهِ بالخير والشّر ، والنَّفع والضَّر . فيقول : لو بحَثَتْ هذه المرأة بالسُّؤال عن أحوالى على تبَدُّل الأَبْدال ، وتغيُّر النَّفْع والضَّر بى فيما مضَى ، وتَنَقُّل الأحداث علىَّ مرةً بعد أخرى . وجواب « لو » يجىء من بعدِ قولِه : « أَنْ تَلوَّنَ » ، وأَنْ إذا وُصِلَ بالماضى أفاد حَدَثًا ماضيًا ، وإذا وُصِلَ بالمستقبل أفاد حدَثا مُستَقبلاً .

٢ — لَخَبَّرَها ذَوُو أَحْسابِ قَوْمِى وأعدائى فَكلٌّ قَدْ بَلانِى

قولُه : « لخبَّرها » جوابُ لو . وأحْساب : جمع حَسَبٍ ، وهو ما يُحْسَبُ ويُعَدُّ عند التفاخُر . يقول : لو سأَلتْ لأنبأها بخبرى أشرافُ قومى ، وأماثلُ أعدائى ، فكلٌّ منهم قد خَبَرَنى . يشير بهذا الكلام إلى أنّ زعماء قبيلته وذَوِى الشرف من رَهْطِه ، يعترفون له بالفَضْلِ ، ويشهدُونَ له بما يَكْسِبُه جميلَ الذِّكر ، وأنّ أعداءه على ما قاسَوْا من وقَعاته بهم ، وكابدوا من بَدَرَاتِه فيهم ، لا يَجحدون تَبْرِيزَه ، ولا يُنكِرون تقديمَه . ومَن اعترَف له بالفضل مُواليه ومُعاديه ، وصَدَّقه فى دعواه أقارِبُه وأجانِبُه ، فهو النهايةُ فى الكمال ، والغايةُ عند البحث عن الفَعَالِ . وقولُه : « فكُلٌّ قد بلانى » اعتراضٌ حَصَل بين خَبَّرومفعولِه ، وهوقوله «بذَبِّى الذم» ، والفاء دخلت معلّقةً لجواب الجملةِ بها .

٣ — بِذَبِّى الذَّمَّ عن حَسَبِى بمَالِى وزَبُّونَاتِ أَشْوَسَ تَيَّحَانِ

الباء من قوله « بذبّى » تتعلق بقوله لخبَّرها . وكأنّ الإخبار بحسن دِفاعِه

---

(١) انظر البيت ٢ من الحماسية ١٤ .

عن حَسَبِهِ بمالِهِ ، وكَرَمِ مُحافظته على شرفه وحاله ، من تزكية ذوى الأحْسَاب من عشيرته وثنائهم عليه ، والإنباء بدفعِهِ مَعَرَّةَ الأشْوَسِ التَّيَّحان ، من إخبار أعدائه وشهادتهم له . فكما أَجْمَلَ فى الأوّل أجمل فى الثانى ، ثقةً بأن مسامع عند التفصيل يردُّ كُلاً إلى موضعه . وإنما خَصَّ ذوى الأحسابِ من قومِهِ لأنّ شهادتَهم أوجَه ، والتحاسُد لهم أشملُ ، والقَرينَ بمُقَارِنِه أعلم . وقوله : «زَبُّونات» فَعُّولات من الزَّبْنِ ، وهو الدّفع . والتَّيَّحان : العِرِّيض المِقدام ، وهو فَيعَلان بفتح العين ، ولا يجوز أن يُرْوَى بكسرها ، لأن فيعِلان لم يجئ فى الصحيح فيُبْنَى المعتلّ عليه قياساً . وفيعِلٌ كسيِّدٍ من الأبنية المختصةَ بالمعتلّ . ومثل تيَّحان هَيَّبانٌ ، وهما صفتان حكاهما سيبويه بالفتح ، ومثالهما من الصحيح قَيْقَبانٌ وسَيْسَبانٌ . وتيَّحانٌ ، مَن تاحَ له يَتُوحُ ويَتِيحُ اغتان ، إذا أشرف وتهيّأ . ورجُلٌ مِتْيَحٌ ، ويقال قَلْبٌ مِتْيَحٌ أيضاً . وأُتيح له كذا . ومثْلُ الزَّبُّون البَيُّوت ، وهو السَّقِيطُ[١] ، والهَمُّ المُبايِتُ لصاحبه . يقال زَبَنَتْهم الحرْبُ ، وحَرْبٌ زَبُونٌ وطَحُونٌ . والزِّبْنِيَةُ واحد الزَّبانِيّ من هذا . وفِعْلِيَةٌ من الأبنية التى تلزمُها الهاء . والأشْوَسُ : الذى يُعْرَفُ فى نظرِه الغَضَبُ والحِقْدُ ، ثم استُعمل فى المتكبِّر والمَهِيب .

٤ — وأَنِّى لا أَزالُ أَخَا حُرُوبٍ إِذَا لم أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ

فى هذه الطريقة قول الآخر :

ولَمْ يَجنِها لكنْ جَناها وَلِيُّهُ فآسَى وآداه فكان كمن جَنَى[٢]

ويُرْوَى : « وأنّى لا أزال أخا حُرُوب » فيعطف على بذبّى الذَّمّ ، ويكون موضِعُه جرًّا ، ويكون هذا مما شَهِدَ به الأعداء له أيضاً . فإن كسرت إنّى

(١) السقيط ما سقط من الندى على الأرض .

(٢) آداه : عاونه . وهذه رواية م . وفى الأصلى : «وآذاه» بالذال معجمة .

فهو على الاستئناف والانقطاع عما قبله . والمعنى: إنّى أَلْبَسُ الحروبَ وأمارِسُها دائمًا ، فإذا لم يكن لى من أحوالى وزمانى ما يبعثنى على مُجاذَبةِ الأعداء ومدافعتهم ، طلبت من قد شَقِى بمثل ذلك ، فدافَعْتُ دونه وحامَيْتُ عليه ، لأنى لا أصبِرعلى حالِ السلامة والسَّلْمِ . ومثله قول الآخر :

وما إنْ تراهُ الدَّهْرَ إلا مُغَرِّرًا بنَفْسٍ أَبَتْ إلا صِعَابَ المَرَاكِبِ

١٩

آخر(١) :

١ ـ ولقَدْ شَهِدْتُ الخَيْلَ يَوْمَ طِرَادِهَا فَطَعَنْتُ تحْتَ كِنانَةِ المُتَمطِّرِ(٢)

يقال : تَمطَّرَ الرَّجُل ، إذا أَسْرَع . ويقال مَطَرَ بِهِ ، وقَطَر به ، إذا بادر(٣) . وأراد بالخيل الفُرسان ، كأنَّه يخاطب بهذا الكلام مَن شَهِد معه المعركة ، نخبّره بمعاملته المتمطّرَ الذى عَهِدَهُ ، وقولُه : « تحت كِنَانَةِ » أشار به إلى المَقتَل . وهذا المتمطّرُ كأنَّه كان بارَزَهُ ، أو أراد أن يُبادِرَ إلى أَمْرٍ ، فحال بينه وبينه . والكِنانَةُ من الكَنِّ : السِّتْر ، لأنه يُصَانُ بها النَّبلُ .

٢ ـ ولقَدْ رأيْتُ غَدَاةَ شُلْنَ عَلَيْكُمُ شَوْلَ المَخَاضِ أَبَتْ على المُتَغبِّرِ(٤)

يُروى : « ولقد رأيتُ الخيلَ شُلْنَ عليكُمُ » ، أى شائلة . والتقدير : وقد شُلْنَ . وأراد بالخيل هاهنا الدوابّ ، وهى تَشُولُ بأذْنابها إذا اشتدّ عَدْوُها ؛

---

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هذه الأبيات لبعض بنى تيم الله بن ثعلبة ، يوم أوارة . وأوارة : موضع ، وهو الموضع الذى أحرق به عمرو بن هند بنى دارم » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « لبابة المتمطر » ، وقال : اللبابة : ثوب يتلبب به الرجل على ثيابه ، إذا تحزم لحرب » .

(٣) التبريزى : « والمتمطر : اسم رجل من لخم ، وهو من قولهم : تمطر الرجل ، إذا أسرع » .

(٤) ترتيب هذا البيت عند التبريزى ثالث الأبيات ، وثالثها هنا ثانيها عنده .

ويُستدَلُّ بذلك منها على قوة ظَهرِها . فيقول : لقد رأيتكم منهزمين والخيل تَعْدو عليكم رافِعةً أذنابَها ، رَفْعَ النُّوقِ الحوَامِلِ لها إذا طُلب حَلَبُ غُبْرِ لبنها . والغُبْر : البقيّة تبقَى من اللَّبن فى الضّرْع . ويُقالُ تَغبَّرْتُ الغُبْرَ ، كما يُقالُ تَحلَّبْتُ المحلوب . والمخاضُ لا واحدَ لها من لفظها ، وهى اسم مفردٌ موضوع للنُّوق الحوامل ، والواحد من غير لفظها : خَلِفَةٌ . وقوله : « أَبَتْ على المتغبِّر » قَدْ معه مضمرة ، وهو واقعٌ موقع الحال . أراد : رأيتُ الخيلَ شائلةً أَذنابَها عليكم شَوْلَ المخاضِ آبيَةً على المتغبِّر . ومن روى : « ولقد رأيت غدَاة » فقد أضمر مفعول رأيت ، وهو الخيل . وساغ ذلك ، لأنّ قوله ولقد شهِدتُ الخيلَ — وإن أريد به الفُرسان — يدلُّ عليه .

٣ — ونُطَاعِنُ الأَبْطَالَ عن أَبْنَائِنَا وَعَلَى بَصَائِرنا وإنْ لم نُبْصِرِ

ذَكَر الأبناء كِنايةً عن الحُرَم ، كما قال الآخر :

* نُقَاتِلُ الأَبْطَالَ عن بَنِينَا *

والبصائر : جمع بَصيرة ، وهو ما يستدِلُّ به الرجُل من رأيه وعَقْلِه على ما يَغيب منه . وعلى ذا سُمِّيَت الطَّريقةُ من الدم بصيرة ، لأنّهُ يُسْتدلُّ بها على الجُرْحِ ، وفُسر قوله :

رَاحُوا بصائرُهُم على أَكتافِهِمْ وبصيرتى يَعْدُو بها عَتَدٌ وأَى[1]

على الوجهين جميعاً . فإذا جعلنها بصائر الرأى يكون المعنى خَلَّفُوا آراءهم وطرحُوهَا ، كما يقال تركْتُ الرّأى بموضع كذا وكذا ، وجَعلْتُ غَداً منِّى عَلَى ظَهْرٍ[2] . ومعنى « وبصيرتى يعدُو بها عَتَد وأَى » أنّ رأيه معه نافِذٌ مستمرٌّ ،

(١) للأسعر الجعفى من قصيدة فى أول الأصمعيات طبع ليبسك . وأنشده فى اللسان (وأى) .
(٢) م : « بظهر » .

وإذا جَعَلْتَهَا بصائرَ الدَّمِ يكون المعنى أنّهم مهزومون مَكلُومُون[1] فى ظهورهم وأقفائهم، فدماؤهم على أكتافهم. ومعنى «وبصيرتى يعدو بها عَتَدٌ وأى» فى هذا الوجه أن دَمِى سَالمٌ فى نفسى وفَرَسى يَعْدُو بى. ومعنى البيت: إنا ندافع عن حُرَمِنَا وحريمنا، وعلى ما يعترض فى الوقت، نَفْعَلُ ذلك وإن لم نُبْصِرْ عاقبة الأمر، ولم نَتَدَبَّرْها بالفكر فيها، وتأمُّل نتائجها، فَنَعْلَمَ مَوادَّها. وهذا شأنُ الفُتَّاك فيما يُمَشُّونه من أحكام الحرب وينفّذونه، ويفْتِلونه من أسباب الجذاب والنِّزاع ويُبْرِمونه. وقد قيل فى هذا البيت إنّه كما حُكِيَ عن مُسَيْلِمَةَ حين قال لبنى حنيفة: «قاتِلوا عن أحسابِكم، فأمّا الدينُ فلا دينَ». وكأنّ المعنى على هذا: وعلى بصائرِنا فى الحرب عند المحافظة على الشرف وإن لم نُبصِر أمرَ الدين. وهذا بعيدٌ متعسِّفٌ، وإذا تأمَّلْتَهُ ظَهَرَ لك. وفى الطريقة الأولى قول القُطَامِيّ:

وخَيْرُ الأمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ   وَلَيْسَ بأنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعا

وسمعت بعضَ أصحاب المَعَانِي يقول: المعنى إنّا نُقاتل الأبطالَ جَرْياً على عادةِ النّاسِ عند نَظَرِهم لدُنياهم ودينهم، فى الذَّبِّ عن الُحرَمِ والعشيرةِ والشَّرَفِ، وعلى الأديان والاعتقادات والبصائر، وإنْ لم نُبصِرْ وَجْهًا واحدًا من هذه الوجوه نُقاتِلْ أيضاً، لأنّ هَمَّنَا القتلُ والقتال. قال: فَحُذِفَ مفعولُ وإن لم نُبصِرْ لأنَّ المراد مفهوم. وكذلك حُذِف جوابُ إنْ، لأنّ فيما تقدَّم دليلاً عليه.

(١) م: «مكلمون».

٢٠

القَطَرِىُّ بن الفُجَاءةِ المــازِنِى(١)

١ ـ لا يَرْكَنَنْ أَحَدٌ إلى الأحجامِ   يومَ الوَغَى مُتَخَوِّفًا لِحِمَامِ

قَصدُه إلى البعثِ والتحضيض، على التغرير بالنفس والتعريض. ألاَ تَرَى أنه يحثُّ بهذا الكلام على ترك الفِكر فى العواقب، ورَفْض التحرُّز خوفاً من المعاطِبِ. ويُنبِّه على أن الحذَر لا يُنجِى من القَدَرِ، وأن الأجَلَ إذا جاء لم تُغْنِ معه قُوَّة الأمل، فيقول: لا يَميلَنَّ أحدٌ إلى هَجْرِ الإقدامِ، والسكون إلى الإحجام فى الحرب مُتَخَشِّماً من الموت. والإحجامُ: مطاوعةُ حَجَمْتُ أى كَفَفْتُ ودفَعْتُ. فهو كالإكْبابِ فى أنه لمطاوَعَةِ كَبَبْتُ. ويقال حَجَمْتُ البعير، إذا خَطَمْتَهُ بما يمنعه من العَضّ، ويُسَمَّى ذلك الشىء الحِجَامَ.

٢ ـ فَلَقَدْ أُرَانِي للرِّماحِ دَرِيئَةً   مِنْ عَنْ يَمِينِى مَرَّةً وأَمَامِى

الدَّرِيئَةُ تُهمَز ولا تُهمَز، فتُجعل من الدّرْءِ وهو الدَّفْعُ، ومن الدَّرْيِ وهو الخَتْل، ولهذا سُمِّيت الدابّة التى يختل بها الصيدُ ليُمْكِنَ فيُرمَى: دَرِيَّةً، والحَلْقةُ التى يُتعَلَّمُ عليها الطَّعن دَرِيئةً. ويُمكن حَمْل البيت عليهما جميعاً. فإذا جَعَلتَ الدَّرِيئة الحَلْقَةَ يقول: لا يفعلنَّ ذلك أحدٌ وليعتبرْ بحالى، فلقد رأيتُ نفسى فى غير وقتٍ وحالٍ، وكأنى للرّماح بمنزلة الحَلْقَةَ التى يُتَعلَّمُ عليها الطعن، فتأتينى الرِّماحُ من جوانبى كلّها ثم سَلِمْتُ. وإنما اقتصَرَ على ذِكْر

---

(١) قطرى أحد زعماء الخوارج، خرج زمان مصعب بن الزبير لما ولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله. وكانت ولاية مصعب فى سنة ٦٦ للهجرة، فبقى قطرى عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وكان الحجاج يسير إليه جيشا بعد جيش فيهزمه، ولم يزل كذلك حتى توجه إليه سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه وقتله سنة ٧٨. وقطرى: نسبة إلى موضع بين البحرين وعمان. وليس قطرى اسما له، بل اسمه جعونة بن مازن. وفيات الأعيان.

اليمين والقُدَّام لأنه يَعْلم أن اليسار فى ذلك كاليمين . فأما الظَّهْر فإن الفارس لا يُمكِّنُ منه أحداً . وإذا جَلعتَ الدَّرِيَّةَ الدابّة الموصوفة يكون المعنى : فلقد أُرانى وقد اتُّقِىَ بى فصِرْتُ سُتْرةً لغيرى من الطَّعن ، كما تكون تلك الدابَّةُ سُتْرةً للصائد(١) والطعنُ يتناولُنى . وعلى هذا يكون معنى « للرِّماح » من أجل الرِّماح . والأوَّلُ أحسنُ . وقوله : « مِنْ عن يمينى » مِنْ تَعلَّقَ بِفِعْلٍ دَلَّ عليه قولُه أُرانى دَرِيئَةً للرِّماح ، وهو تأتينى وما يَجرِى مَجْراهُ . وعَنْ من قولِهِ « عن يمينى » اسمٌ هاهنا ، وليس بحَرْفٍ . والمعنى من جانبِ يمينى ، ومثله قول الأعشى(٢) :

* مِنْ عَنْ يمين الُحَبَيَّا نَظْرَةٌ قَبَلُ(٣) *

وقول الآخر :

* مِنْ عَنْ يمينِ الدَّارِ والحائطِ *

٣— حَتَّى خَضَبْتُ بما تَحَدَّرَ مِن دَمِي أَكْنافَ سَرْجِى أَو عِنَانَ لِجَامِي

وقوله « أو عِنان لجامى » ، أو هاهنا ليست للشّك ، وإنما هى التى يُراد بها أحدُ الأمرين على طريق التعاقُب ، أى إمّا ذا وإمّا ذا . ولك أن تريد الجمعَ ، لأن أصل « أو » الإباحة . وهذا كما يُسأل الرجل فيقال له : ما كان طعامُكَ فى بَلَدِكَ ؟ فيقول : الحنطة ، أو الأرز . والمعنى أحد هذين ، على أن يكون كلُّ واحد منهما بدلاً من صاحبه أو الجميع . ومعنى البيت : انتصبتُ للرِّماح حتى خَضَبْتُ بما سال من دمى إمّا عِنانَ لجامى وإمّا جوانبَ سَرْجى ، أى على

(١) فى الأصل : « للصيد » وأثبتنا ما فى م .

(٢) كذا . والصواب أنه القطاعى ، كما فى اللسان (عنن) وديوان القطاعى ٥ .

(٣) صدره : * فقلت للركب لما أن علا بهم

حَسَب ما اتَّفق من الطعن . فالعِنان لما سالَ من أعاليه ، وجوانب السَّرج لما سال مِن أسافله .

٤ — ثم انصرفْتُ وقد أَصَبْتُ ولم أُصَبْ   جَذَعَ البَصِيرَةِ قارِحَ الإقدام

الجذوعةُ قبل الإثناء بسَنَةٍ ، والدَّهْرُ لجِدَّته يُسَمَّى جَذَعًا ، وكذلك يقال لمن يُرَى فى أمرٍ ما على حالةٍ واحدة : هو جَذَعٌ فيه . وانتصابُ « جَذَعَ البصيرةِ » على أنه حالٌ وهو نَكِرَةٌ . والمعنى ثم انصرفت مع ما وصفْتُ من حالى واتَّفق مع ضِيق المجال عَلَيّ ، وقد نِلْتُ ما أردتُ من الأعداء ولم ينالوا منِّى ما أرادوا ، وأنا على بصيرتى الأولى لم يَبْدُ لى فى الاقتحام ، ولا غَلَبَ فى اختيارى التَّطرُّف والانحراف ، بل صار إقدامى فى الحرب قارحًا لطُولِ ممارستى ، وتكرُّر[1] مبارزتى ، وإن كان بَقِيَ رأْيى فيه جَذَعًا . وهذا يريدُ به ما يَترقَّى فيه الإنسان من التدرُّب والتمرُّن عند مزاولةِ الأعمال ، ومن بقاء وَلُوعِهِ بها ، وحِرْصِهِ عليها على حَدِّه فى أوّل الشأن . وكما جَعَلَ هذا القُروح والجُذُوعة : البصيرة والإقدام ، قال أبو تمّام :

* كَهْلُ الأَناةِ فَتَى الشَّذَاةِ[2] *

فنقَلَه كما ترى . واقتدى به البحترىُّ فقال :

* إقدامُ غِرٍّ واعتزامُ مُجَرِّبِ[3] *

وقد أشار الأعشى إلى كلِّ ذلك فى قوله :

---

(١) فى الأصل : « وتكنه » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) هو بتمامه كما فى الديوان ٢٠٧ :

كهل الأناة فتى الشذاة إذا عدا   للحرب كان القشعم الغطريفا

(٣) فى ديوان البحترى ٢٠ :

ملك له فى كل يوم كريهة   إقدام ليث واعتزام مجرب

* تَمَهَّلَ فى الْحَرْبِ حَتّى امْتَهَنْ[(١)] *

وفى طريقته قَوْلُ أبى الغولِ :

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ صَلُوا لِلْحَرْبِ حِينًا بعد حِينِ[(٢)]

٢

الَحرِيشُ ، ويُرْوَى للعَبَّاسِ بن مِرْدَاسٍ[(٣)] :

١ — شَهِدْنَ مَعَ النَّبِيِّ مُسَوَّماتٍ حُنَيْنًا وَهْىَ دَامِيَةُ الحَوَامِى

الْحَوَامِى من الِحمَاية ، وهى الَمنْع . وكما جَعلوا للحوافر حوامىَ سَمَّوا ما يُطْوَى به البئرُ من الحجارة وغيرها ليحمى جوانبها من التَّشَعُّثِ والتهدُّم : حَوَامِىَ . يَصِفُ خَيلاً فيقولُ : حضرتْ حُنينًا مع النبى ، صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ ، مُعْلَمَاتٍ وقد دَمِيتْ جوانبُ حوافرها لكثرة العَدْوِ ، ولِمَا لِحقَها من التَّعَب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزَا هَوَازِنَ بوادى حُنَيْنٍ ، ورئيسُ هوازِنَ مَالِكُ بن عَوْفٍ النَصرِىُّ ، وهو اليوم الذى قتل فيه دُرَيْد ابن الصِّمَّة الُجشَمِىُّ . وإنما قال « مُسَوَّماتٍ » لأنهم أعلموا أنفسَهم بعلامَاتٍ ليَبِينَ بها فضلُ كلٍ منهم وبلاؤه . والسِّيماء : العلامَةُ ، وقد فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ على ذلك . وكذلك قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ .

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « امتحن » . وفى الديوان ٢١ : « حتى اثخن » . واللسان (ثخن) : « حتى اثخن » . وصدره :

* عليه سلاح امرئٍ ماجد *

(٢) انظر الحماسية ٣ : ٤ .

(٣) التبريزى : « وقال الحريش بن هلال القريعي ، ويروى للجحاف بن حكيم بن عاصم » . والحريش هذا مختلف فى صحبته . انظر الإصابة ٢٠٨٣ . وأما العباس بن مرداس فهو صحابى من المؤلفة قلوبهم . انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٢٥٩ والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والخزانة (١ — ٧١ — ٧٤) والمرزبانى ٢٦٢ — ٣٦٣ . على أن الأبيات رواها الأعلم فى شرح الحماسة لخفاف بن ندبة . انظر الإصابة ٢٠٨٣ .

٢ ـ وَوَقْعَةَ خالِدٍ شَهِدَتْ وَحَكَّتْ سَنَابِكَهَا على البَلَدِ الحرامِ

أصلُ الحكِّ صَدْمُ جسمٍ بآخَر وترديده عليه ليؤثِّر فيه. وتَوَسَّعوا فيه فقالوا: حَكَّ هذا الأمرُ في صدرى، لِمَا يَتَرَدَّد في خاطرك. وهو يتحكّك بفلانٍ أي يتعرَّض له، حتّى إنّهم يقولون للشّيء الخفيّ: هو حُكَيكٌ نَحِيتٌ[1].

ويعني خالد بن الوليد بن المُغِيرة. وأشار بهذا إلى فتح مكّة، وإنّما نسَبَها إلى خالدٍ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم استعمل خالدًا يومَ الفتح على الخيل فلقِيَ قريشًا بالخَنْدَمَة[2]، فقاتلهم وهزَمهم. فيقولُ: وحضرَتْ أيضًا وقعةَ خالدٍ يومَ الفتح، وحكَّت أطراف حوافرها بأرضِ الحرَم. والمُراد بيانُ طولِ مُمارستها للحروبِ والوَقَعات، وتردُّدِها في تحمُّل أعباء الشّرِّ والمَشَقّات.

٣ ـ نُعرِّضُ للسُّيوفِ بكلِّ ثَغْرٍ خُدُودًا ما تُعرَّضُ لِلّطَامِ

مثْلُه:

نُهِينُ النُّفوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَوْقَى لَهَا[3]

يقول: نبتذل في الحروب أنفسنا طلبًا لصيانتها، ونَسْتَقْتِلُ فنتعرَّض ولا نَتَقَبَّض[4] عنها، بل نبذُل لها وجوهَنا التي هي حَرَمُ النُّفُوسِ، ولو عُرِضَ علينا في السِّلْمِ والسَّلامةِ بذلُها لِلّطَام، لا نِفْنَا منه وامتنعنا. والمعنى: نتاقى السيوف بخُدودِنا إذا كَسَبْنا ذِكْرًا، وإنْ صُنَّاها عن الأذى اليسير. وأكْشَفُ من هذا وأشْرَفُ قولُ الآخَر:

(١) في الأصل: «مخبث»، صوابه في م.

(٢) الخندمة: جبل بمكة.

(٣) للخنساء، كما في الحيوان (٦ : ٤٢٧). على أن أقرب تمثيل له هو قول القتال الكلابي، في الكامل ٦٧:

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(٤) م: «نتقبض».

ويبتذلُ النَّفْسَ المَصُونَةَ نَفْسَهُ إذا ما رأى حَقًّا عليه ابتذالَها[١]

٤ــ ولَسْتُ بخالعٍ عنِّى ثيابى إذا هَرَّ الكُماةُ ولا أُرَامِى[١]

الثِّيابُ يَعنى بها السِّلاح ، وهذا كما يُسمَّى بَزًّا . ألاَ تَرَى قَوْلَ الآخر :

* بَزُّ امرئٍ مُسْتَدْسِلٍ حازمٍ[٢] *

وقول الهُذَلىّ :

* فَوُقِّرَ بزٌّ ما هُنَالِكَ ضَائعُ[٣] *

يعنى السَّيف . وهَذا يحتمل وجهين : يجوز أن يكون المعنى لا أَنْزَعُ ثيابى وقتَ هَرِيرِ الأَبطال تشمُّراً وتَخَفُّفًا ثم لا أُبْلِى ولا أَجْتَهِد ، ولكن إذا وطَّنْتُ نفسى على الشَّرّ تقصَّيْتُ أبلغَ ما يكون منه بأبلغِ ما يكون من بَلائِى . وموضع « ولا أرامى » نَصْبٌ على الحال ، أى لا أفعل ذلك غَيْرَ مُرَامٍ . ويَعْنِى بالمُراماةِ مدافعةَ الخَصْمِ ومجاهَدَتَه بكلِّ ممكن ومُعْرِض . وليس يريدُ الرَّمْىَ بالنِّبَال . وقد توسَّعُوا فى الرَّمْىِ والمراماةِ حتّى استُعمِل فى الافتخار ، واستُعير لتأثير الدَّهر والشَّيب ولنَظَر المحبوبِ المُفْتَتِن . ويجوز أن يكونَ نَفَى الأمرين جميعاً فقال : لا أخلَعُ ثيابى تخفيفاً عن نفسى فى التّولِّى والانهزام عند هَرِيرِ الشُّجْعَان ، ولا أرامِى أيضاً ، يعنى الرَّمْىَ بالنِّبالِ ، ولكن أتلَقَّى الشَّرَّ وأصْدِمُهُ بوجهى . ويشهد لهذا أوَّل البيتِ التالِى له ، وإنّما قال ذلك لأنَّ المُرَماةَ تكون من بعيد فتُخطِئُ وتصيب ، وعند المكافحة[٤] تَتْشَكَّلُ الأمهات .

---

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « نفسها » .

(٢) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضليات (٢ : ٨٥) برواية : « حاذر » . وعجزه : * للدهر جلد غير مجزاع *

(٣) لقيس بن عيزارة الهذلى فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره :
* فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٤) م : « المفاتحة » .

٥ — ولٰكِنى يَجُولُ الْمُهْرُ تَحْتِي إِلَى الغاراتِ بالعَضْبِ الْحُسَامِ

العَضْبُ : القَطْعُ والمَنْع ، ثم قيل سَيْفٌ عَضْبٌ ، أى قاطِعٌ ، كما قيل ضَيْفٌ فى الضَّائف[1] . وقال الخليل : سُمِّيَ السيفُ حُسَامًا لأنّه يَحسِم العَدُوَّ عمّا يُرِيدُ من بلوغ عَدَاوته . وقوله : « بالعَضْبِ » ، أىْ ومَعِى العَضْبُ ، وهو فى موضع الحال . ومعنى البيت ظاهر .

٢٢

ابْنُ زَيَّابَةَ التَّيْمِي :[2]

مأخوذٌ من زَيَّبَ الرَّجُل[3] .

١ — نُبِّئْتُ عَمْرًا غارزًا رَأْسَهُ فى سِنَةٍ يُوعِدُ أخْوَالَهُ

جَعَل غَرْزَ الرأس كِنايةً عن الجَهْلِ والذَّهَابِ عما عليه وله من التحفُّظ . ونُبِّيَ وأُنْبِيَ مما يتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل . فَعَمْرًا انتصب على أنه مفعول ثانٍ . وغارزًا ، انتصب عَلَى أنه مفعولٌ ثالث ، ورأسه انتَصَبَ من غارِزاً . وأرادَ بالسِّنَةِ : الغَفْلة ، وهى ما يَحدثُ من أوائل النَّوْم فى العَين ولم يستحكِمْ بَعد . وهذا من أحسن التَّشبيه وأبلغ التعريض . والإيعادُ إذا كان على ما وَصَفَ حقيقٌ بالتَّهجين . يَدُلُّ على ذلك قولُه .

---

(١) الضائف : الذى يضيف القوم ضيفا وضيافة ، أى ينزل بهم ويميل إليهم .

(٢) هو عمرو بن الحارث بن همام ، أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، شاعر جاهلى ، وزيابة أمه . يقول فيها :

يا لهف زيابة للحارث الـ صابح فالغانم فالآئب

وقال أبو رياش : هو فارس مجلز عمرو بن لأى . انظر اللآلى ٥٠٤ .

(٣) التبريزى : « زيابة اسم مرتجل للعلم ، وهو فعالة أو فيعالة أو فوعالة ، من لفظ الأزيب ، وهو النشاط » .

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النعاسُ فرنَّقَتْ في عينِهِ سِنَةٌ وليس بنائمِ[١]

وقد فَصَل الله تعالى بينهما بقوله : ﴿ لا تأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ . والفِعلُ وَسِنَ يَوْسَنُ وسَنًا . وموضع « يُوعِدُ » نَصْبٌ على الحال . ومعنى « غارزا رأسَهُ » : مُدْخِلاً ؛ ومنه الغَرْزُ بالإبَر . ويقال : غَرَزَ فُلانٌ رِجْلَهُ في الغَرْزِ ، أي في الرِّكاب . وتوَسَّعوا حتَّى قالوا : اغترَزَ فلانٌ في ركاب القَوْلِ .

٢ – وَتِلْكَ منه غَيْرُ مَأْمُونَةٍ أن يَفْعَلَ الشيءَ إذا قالَهْ

هذا الكلام تَهكُّمٌ وسُخْرِيَّةٌ ، وفي طريقته قول الآخر :

وأما أخُو قُرْطٍ فلستُ بساخِرٍ فقولاَ ألا يا اسْلَمْ بمُرَّةَ سالما

قال هذا ومُرَّةُ مُعَرَّضٌ لكلّ بلاء . « أن يَفعل » موضِعُهُ رَفْعٌ على البدل من قوله وتلك منه . والمعنى تلك الخَصْلَةُ لا يؤمَنُ وقوعُها من عَمْرٍو ، وهو فِعْلُهُ لما يقوله .

٣ – الرُّمْحُ لا أَمْلأُ كَفِّي به واللِّبْدُ لا أَتْبَعُ تَزْوالَهْ

هذا التمدّح منه تعريضٌ بخَصْمه وإزراءٌ بفروسيّته ، وإشارةٌ إلى أن أضدادَ هذه الأوصاف مجتمعة فيه . فيجوز أن يكون المعنى : إنّي لا أقتصِرُ مِن تعاطِي أنواعِ السلاح على الرُّمْح فقط ، ولكنِّي أجمع في الاستعمال بينها . وهذا كما يُقال : مَلأَ كَفَّه من كذا[٢] فليس فيه موضِعٌ لغيرِهِ . ويجوز أن يكون المعنى : [إنِّي أستعمل رمحي بأطراف أصابعي لحذقي واقتداري ، ولا آخذه بجميع كَفِّي[٣]] . وهذا كما يقالُ : أقبِصُهُ ولا أَقْبِضُهُ ؛ لأن القبصَ : الأخْذُ بأطراف الأصابع ، والقَبْضَ بالكَفِّ كُلِّها . ومثلُه قول الآخر[٤] :

(١) لعدى بن الرقاع ، كما في اللسان (رنق) .
(٢) في الأصل : « من هذا » وأثبتنا ما في م .
(٣) التكملة من م .
(٤) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثي . المفضليات (١ : ١٥٦) .

* لَبِيقاً بتصريف القَنَاةِ بَنَانِيا[1] *

وقولُه : « واللِّبْد لا أَتْبع تَزَوَالَهُ » أراد : ألزم ظهر دابَّتى ، وإنْ مالَ اللِّبدُ لم أَمِلْ معه . وهذا كما قال أبو النجم :

أَدْرَكَ عَقْلاً والرِّهانُ عَمَلُهْ ثَقْفُ أعاليـــهِ وقارٌ أَسْفَلُهْ[2]

أى كأنه يُلْصِقُ الأسفل بظهر الفَرَس فلا يَزُول ولا يَميل .

٤ — والدِّرْعُ لا أُبغِي بها ثَرْوَةً كل امرِئٍ مُسْتَودَعٌ مالَهُ

لولا أنّ قَصْده فى التمدُّح إلى التعريض بالمختبِر عنه لكان لا معنى لهذا الكلام . ألا تَرَى أنّ قولَه : « والدِّرْع لا أبغى بها ثروة » وقد فُسِّر على أنه يجوز أن يكون المراد : لا أقتنى الدِّرع لكى اتَّجِرَ فيها فأَتموّل . وتَرْكُ التِّجارة فى الأسلحة ليس فيه كبير تَمَدُّح[3] . ويجوز أن يكون المعنى : لا أعدُّها سبباً فى ارتفاق المَغانم فأُثْرِىَ ، ويكون كقول عنترة :

يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أننى أَغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

وقوله : « كلُّ امرِئٍ مُسْتَوْدَعٌ مَالَهُ » ، يريدُ به : المال ودائعُ عند النّاس ، ولا بدّ من ارتجاعها والتقاضى بها وإن أُمْهِلُوا مُدَّةً ، فلم أَتَّجِرْ فى دِرْعِى أو لم ألبَسْها لتَغَنُّم الأنفالِ بها ، والمالُ هذه حاله عند أربابِهِ . ويكون هذا كما قال الآخَرُ[4] :

وَمَا المـالُ والأَهْلُونَ إلاّ ودائعٌ ولا بُدَّ يَوْمًا أن تُرَدَّ الودائعُ

ويجوز أن يكون « ما » من قوله « مَالَهُ » بمعنى الذى ، فيكون المعنى : كلّ

(١) صدره : * وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا *

(٢) م : « نقف » بالنون .

(٣) هذا ما فى م . وفى نسخة الأصل : « كثير تمدح » .

(٤) هو لبيد . ديوانه ٢٢ طبع ڤينا ١٨٨٠ .

امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجَلِه ، وبالذى كُتِبَ له ، ولا يمتنع أن يكون أشار بـ « ما » إلى ما يُقتنى من أغراض الدنيا . ويروى : « كلُّ امرئٍ مُسْتَوْدِعٌ مالَهُ » بكسر الدال ، والمعنى أنَّ ما يجمعه المرء بكسْبِه إذا جاء مَخْتُومُ القضاء يتركُه لغيره لا محالة ، فلِمَ أرغبُ فيه وفى ادّخاره ، وأزهدُ فى اكتساب المحامد والمَعَالِي ؟ وهذا الكلام نهايةٌ فى التنقُّص ممن عَرَّضَ به ، وغايةٌ فى الطَّعن عليه ، والقَدْح فى عادَته . ويُروى : « والدِّرْع لا أبغِي بها نَثْرةً » ، وهى الواسعة . والمعنى : إنّى أكتَفِي من الدِّرْع ببَدنةٍ ، فلا أطلُب ما يفيضُ فَيْضًا ، ويجب مع هذه الرِّواية والتفسير أن يكون معنى المِصْرَاع الثّانى : كلُّ امرئٍ مُرْتَهَنٌ بأجله ، ومُمَهَّلٌ ليومه .

٥ – آلَيْتُ لَا أَدْفِنُ قَتْلَاكُمُ فَدَخِّنُوا المَرْءَ وسِرْبَالَهُ[1]

هذا البيت لم أَجِدْهُ فى نسخٍ كثيرة ، فيغلب فى ظنِّى أنّه ليس من الاختيار . وعلى ما بِهِ فله قِصّةٌ مشهورةٌ زَعَمُوا . وهى أنه يُرْوَى فيه أنّ واحداً من المُخاطَبين كان أحْدَثَ فى حَرْبٍ حَضَرَها خَوْفاً على نَفْسه ، فَعَرَّضَ الشاعرُ بهم وذَكَّرهم سوء بلائهم ، وضَعْفَ ثباتِهم . وإنّما يُرِيدُ أنهم إذا صُرِعُوا فى المعركة عُثِرَ منهم إنْ لم يُطَيِّبُوا على مِثل ما فَعَلَهُ ذلك الواحد المُعَرَّضُ به ، أو استُدِلَّ بالرّائحة عليه فافتضحوا . وهذا تهكُّمٌ أيضاً وتعييرٌ بالاتّفاق السيّئ . وآلَيْتُ معناه حَلَفْتُ ولفظُه لفظ الخبر ، والمعنى معنى القَسَم . وربّما قالوا : آليت على نفسِي .

---

(١) بين هذا البيت وسابقه بيت رواه التبريزى وهو :

إنَّكَ يا عمرو وتَرْكَ النَّدَى كالعَبْدِ إذْ قَيَّدَ أجمالَهُ

وقال : « قال ابن السكيت : أنت كالعبد اقتصر على موضع يرعى فيه ولا يتعزب بإبله . وقال غيره : أى إنك قد تركت الندى واكتساب الشرف به ، فلا تستفيد ، كالعبد يقيد أجماله وينام فيستريح . وطلب الشرف إنما يكون مع التعب » .

٢٣

الحارثُ بن همَّامٍ الشَّيْبَانِيُّ[١]

١ ــ أَيَا ابْنَ زَيَّابَةَ إنْ تَلْقَنِى لا تَلْقَنِى فى النَّعَمِ العَازِبِ[٢]

النَّعَمُ يُذَكَّرُ ويؤنَّث، والتذكير فيه أغلب. وفائدته فى الإفراد الإبلُ فى الأَكْثَر، وإذا جُمِعَ دَلَّت على الأزواج الثمانية[٣]. يُعرِّضُ بأنَّهُ راعٍ فيقولُ: يا ابْنَ زَيَّابَةَ إنّك لا تجدنى راعيًا يبعد فى المَرْعَى بإبِلِهِ. والمعنى أنت كذلك، ويُقالُ: مالٌ عازِبٌ وعَزَبٌ[٤]، إذا بَعُدَ عن أَهْلِهِ. ورَوْضٌ عَازِبٌ: بعيد المَطْلَب.

٢ ــ وتَلقَنى يَشْتَدُّ بى أَجْرَدٌ مُسْتَقْدِمُ البِرْكَةِ كالرَّاكِبِ

قوله: «وتلقنى» عَطَفَه على الجواب، لأنه يَصْلح أن يكون جَوَابًا. ألا تَرَى أنه لو قال: إن تَلْقَنِى تلقنى كذا، لَصَلَحَ؟ يقول: تلقانى يَعْدُو بى فَرَسٌ قصيرُ الشَّعْرِ، متقدِّمُ الصَّدْرِ، مُشْرِفٌ كالرَّاكِبِ، [أى إشرافُه إشرافُ الراكب[٥]] لا المركوب. ويَشْتَدُّ: يَفْتعِلُ من الشَّدّ، وهو العَدْو. ويقال: استَقْدَمُ وتَقَدَّمَ، واستأخر وتأخّر، بمعنًى. والبِرْكَةُ، كُسِرَ باؤها عند اتِّصال الهاء بها، لولا ذلك لقيل بَرْكٌ بفتح الباء.

---

(١) الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان، شاعر جاهلى.

(٢) ابن زيابة، مضت ترجمته قريباً، وهو ابن الحارث بن همام. ولهذه المقطوعة استبعد بعضهم أن يكون ابن زيابة هو عمرو بن الحارث بن همام، وارتضى القول الآخر.

(٣) هى الضأن والمعز والإبل والبقر، ذكورها وإناثها. انظر الآيتين ١٤٣، ١٤٤ من سورة الأنعام.

(٤) كذا فى النسختين، والمعروف «العزيب».

(٥) التكملة من م.

٢٤

فأجابَهُ ابنُ زَيَّابَةَ

١ — يا لَهْفَ زَيَّابَةَ للحارِثِ الـ ـصَّابِحِ فالغـــانِمِ فالآيِبِ

يجوز أن يكون أورد هذا الـكلام ساخِرًا متهانِفًا، ومستهزِئًا متهكِّمًا، فوصفه بهذه الصِّفات وكان الأمرُ بخلافه، ويقرِّبُ هذا أنّ ما قَبْل هذه المقطوعةِ فى مثل هذه الطريقة. ويجوز أن يكون ذكَر ما كان منه[1] على الحقيقة، فهو يتحسَّرُ لما رأى من فَلَاحِه فى غَزَاتِه، وسلامتِه فى مآبِه. ويقولُ: يا حَسْرةَ أُمِّى[2] من أجْلِ هذا الرَّجل فيما ارتفع له من المراد فى الغَزْو، وجُمِعَ له من السلامة والوَفْرِ. والصابحُ، يجوز أن يكون فى معنى مُصْبِحٍ، كما قال:

* حين لاحَتْ للصابحِ الجوْزاءُ[3] *

والغارةُ وقتُها الغَدَاة، فلذلك قال: للحارث المُصْبِح عندنا والغانِم منّا. والترتيب الذى يفيدُه الفاء جارٍ على سَنَنِه، كأنه أرادَ للحارثِ الغازى نَحْوَنا والغانم منّا — والغُنْمُ بعد الغَزْو — فالآيبِ إلى قومِهِ — والأَوْبَةُ بعد الاستغنام. ويجوز أن يكون الصابحُ من صَبَحْتُ القومَ، إذا أتيتَهُمْ صباحًا. وفى لمَثَل السائر «صَبَحْناهم فَغَدَوْا شَأْمَةً[4]». وهذا الوجْهُ أوْجَهُ وأجوَدُ. واعلم أن الصِّفة إذا جاءت للتَّبيين وإزالة اللَّبْسِ عن الموصوف، فالوَجْهُ أن يُعْمَدَ

(١) هذا ما فى م. وفى الأصل: «أن يكون ذكر منه».
(٢) فى الأصل: «ياحسرة بى»، وفى م: «ياحسرة أى».
(٣) لأبى زبيد الطائى. الحيوان (٥ : ٢٣١) والخزانة (٣ : ٢٨٣). وصدره:
* أى ساع سعى ليقطع شربى *
(٤) ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال وقال: «أى أوقعنا بهم صبحاً فأخذوا الشق الأشأم، أى صاروا أصحاب شأمة، وهى ضد الميمنة».

إلى أخصِّها بالموصوف ، وأحقِّها بالبيان والشرح ، حتى تُغْنِي عن العُدُول عنها إلى غيرِها من الصِّفات . فإن اتَّفَق بعد ذلك لَبْسٌ حينئذٍ يُزال بما يُضَمُّ إليه . وإذا جاءت للتعظيم أو التهجين فإنه قد يُوالَى بين عِدَّةٍ منها بحروف النَّسَقِ ومِنْ دونِها : تقول : جاءنى زيدٌ الظريفُ الكاتبُ الفاضلُ العالِمُ : وإن أتيت بالواو العاطفة متخلِّلةً له ساغَ⁽¹⁾ ، فإن قيل : إذا كانت الصفةُ هى الموصوفَ ، والشيء لا يُعطفُ على نَفْسِهِ ، فكيف جازَ عطفُ بعضِ الصفاتِ على بعض ؟ قلتَ : تَغايُرُ المعانى الحاصلةِ بها وقوّةُ اتِّصالِ بعضِها ببعضٍ فى بابَىِ الصِّلَة والصِّفَةِ ، سَوَّغَ ذلك فى ألفاظِها .

٢ ـ واللهِ لوْ لاقَيْتُهُ خالِيًا لَآبَ سَيْفَانا مَعَ الغالِبِ

أَقسَمَ بالله فيقول : والله لو لقيتُه منفرِدًا عن أشياعه لحصَلَ سيفانا للغالب معاً . وذَكَرَ السَّيفينِ والمرادُ جميعُ ما معهم من بَزِّهما وسِلاحهما ، لعلوّ شأنهما . وجعَل الفِعْلَ للسَّيفين على المجاز . والمعنى : لو خَلَوْتُ به لقتلْتُه أو قتَلنى .

٣ ـ أَنَا ابْنُ زَيَّابَةَ إنْ تَدْعُنى آتِكَ والظَّنُّ عَلَى الكاذِبِ

قوله : « والظنُّ على الكاذب » يجرى مَجْرَى الأمثال ، ويكون مبنيًّا على ما قال لبيد ، وهو :

واكذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثتَها إنّ صِدْقَ النفسِ يُزْرِى بالأَمَلْ

والمعنى : كلٌّ منا يحدِّثُ نفسه ويَكذِبها ، ثم الظنُّ على من لا يَتحقق أمَلُه . ويجوز أن يريد : أنا المعروف المشهور ، إنْ دَعَوْتنى لمبارزتك جئتك ، فإن كنتَ تظنُّ غير هذا فظنّك عليك ، لأنك تَكْذِبُ نفسَك فيما تتوهّمه من قُعودى عنك ، أو نُكُولى عن الإقدام عليك . ويجوز أن يكون المعنى :

---

(١) هذا الصواب من م . وفى الأصل : « لما ساغ » .

إن تدعُني أجبك ، فإن ظننت أن تكون الغالب فظنُّك عليك ، لأنك تكذب نفسك .

٢٥

الأَشْتَرُ النَّخَعِي[١] :

١ـ بَقَّيْتُ وَفْرِي وَانْحَرَفْتُ عَنِ العُلاَ ... وَلَقِيتُ أَضْيافِي بِوَجْهِ عَبُوسِ

الوَفْر : المالُ الكثير . والعَبُوس : الكالُوح عن غضَبٍ ، وتوسَّعوا فقالوا : يومٌ عَبُوسٌ ، أي شديدٌ . وهو جِبْسٌ عِبْسٌ ، في اللئيم . وهذا من الأيْمان الشريفة ، واللفظُ لفظُ الخبَر ، وظاهرُه الدُّعاء ، ومحصولُه القَسَم . فيقول : ادّخرتُ مالِي ولم أفرّقه فيما يَكسِبُ لي حَمْداً ، فِعْلَ البُخلاء ، وزهِدْتُ في اكتساب المعالي والمآثر زُهْدَ الأدنياء ، وتلقَّيت الأضياف[٢] بوجه رجلٍ كالحٍ إن لم أفعَل كذا . ومثْلُه في اليمين قولُ النابغة :

* إذًا فلا رَفَعَتْ سَوْطِي إليَّ يَدِي[٣] *

٢ـ إنْ لمْ أَشُنَّ على ابنِ حَرْبٍ غَارَةً ... لم تَخْلُ يَوْمًا من نِهابِ نُفُوسِ[٤]

شَنُّ الغَارَةِ مُعْجَمَةً ، وسَنُّها معجمةٍ : صَبُّها . وأصل جميعِها في الماء ،

(١) الأشتر : لقب له ، واسمه مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة النخعي الكوفي . أدرك الجاهلية ، وكان من أصحاب علي ، شهد معه الجمل وصفين وغيرهما ، وكان ممن ألب على عثمان وشهد حصره ، وولاه عليّ بن أبي طالب مصر بعد صرف قيس بن عبادة عنها ، فلما وصل إلى القلزم شرب شربة عسل فمات سنة ٣٨ . ولقب بالأشتر لأن رجلا ضربه في يوم اليرموك على رأسه فسالت الجراحة قيحاً إلى عينه فشترتها . الإصابة ٨٣٣٥ وتهذيب التهذيب ومعجم المرزباني ٣٦٢ . التبريزي : « وفي الشعراء آخر يقال له الأشتر بن عامر ، أحد بني عوف بن ولاد بن تيم اللات . ومنهم الأشتر الحامي الأزدي من بني حمامة من أزد عمان » .

(٢) م : « أضيافي » .

(٣) صدره : * ما قلت من سيئ مما أتيت به *

(٤) التبريزي : « ابن حرب ، يعني معاوية بن أبي سفيان » .

ثم حَصَلَ التوسُّع فيها . يقول : تَصَوَّرتُ بتلك الصورة التى ذكرتُها وأقسَمْتُ بها ، إن لم أُصُبَّ على هذا الرجل خَيْلاً لا تخلو يَوْمًا من اختلاسِ نُفُوسٍ ، وانتهابِ آجال . وسَمَّى الخَيْل غارَةً لمَا كانت من قِبَلِها تكون . وموضع « لم تَخْلُ يَوْمًا » نَصْبٌ على الصفة للغارة ، أى خَيْلًا جَرَتْ عادتُها بذلك . والنِّهابُ يجوز أن يكون مصدرَ ناهَبْتُهُ ويُسْتَعْمَلُ فى المُغَاورة والمُباراة ، ويجوز أن يكون جَمْع النَّهبِ . وجوابُ « إن لم أشُنّ » فيما تقدم .

٣ ـ خَيْلًا كأَمْثَالِ السَّعَالِى شُزَّبًا تَعْدو بِبِيضٍ فى الكريهةِ شُوسِ

الشُّزَّب[١] : الضُّمَّر . والشُّوس : جمع أشْوَس . ويقال شَاسَ يَشُوسُ وشَوِسَ يَشْوَسُ ، إذا عُرِفَ فى نظرِه الغضب أو الكِبْرِ . وانتَصَب « خَيْلاً » على أنّه بدلٌ من غارَةً . وشَبَّهَ الخَيلَ فى ضُمْرِهَا وسُرعَةِ نَفَاذِها بالجِنّ . وانتَصَب « شُزَّبًا » على أنَّهُ صِفَةٌ للخيل ، لأنّ قولَهُ « كأمثالِ » ، أيضاً صِفَة . ويجوز أن يكون حَالاً للمُضْمَر فى كأَمْثَالِ السَّعالِى . والمعنى : خيلا تشابه السَّعالى فى حَالِ شُزُوبِها وضُمْرِها . وقولُه : « تَعْدُو ببيضٍ » أيضاً صِفَةٌ ، إمَّا لقوله شُزَّبًا ، وإما للأوَّل تَعْدُو برجالٍ كِرَام ، متكبِّرِين فى الحرب ، ذوى أَنفَةٍ . وإذا جُمِعَ بين مفرداتٍ وجُمَلٍ فى الوصْفِ ، فالترتيب المختار تقديم المفردات على الجُمَل ، وقد جاء البيت على ذلك . والعَرَبُ تَجْعَلُ البياضَ كِنَايةً عن الكَرَمِ ، كأنَّها تُرِيد نقَاء العِرْض . على ذلك قولُه :

* أُمُّكَ بيْضَاءُ مِنْ قُضَاعَةَ . . .[٢] *

وكما فَعَلُوا هذا جَعَلُوا الغُرَّ كنايةً عن الكِرام ، وربَّما قالوا غُرَّانٌ .

---

(١) هذا ما فى م والتبريزى . وفى الأصل : « الشزوب : الضمر » يقرآن على المصدرية .

(٢) البيت بتمامه كما فى شرح ديوان زهير ٥٢ واللسان (بيض) :

أمك بيضاء من قضاعة فى ال بيت الذى يستكن فى طنبه

فأمّا قولهُم : « بيض الوجوه » فالمراد أنَّهم لم يفعلوا شيئاً يَشينُهم فيغيِّر لونَهُم عند ذكره . وقد قالوا فى ضِدِّهِ : « أَوْجُهُهُمْ كالُحمَم » ، و « سُودُ الوُجُوه » . وأما الشَّوَسُ فكما وُصِف به الرِّجالُ وُصِفَ به الخيلُ أيضا ، والُمراد به عِزّةُ النّفس . وقوله « فى الكريهة » لُلحوق الهاء بها أُلحق بباب الأسماء ، ويُستعمل فى نوازِل الدَّهر وشدائد الأمر . وهو ظَرْفٌ إن شئتَ لما دَلّ عليه قَوْلُهُ « بيضٌ » من الكرم ، وإنْ شئت لقوله شُوسٌ . والكرم فى الكرائهِ : نزاهة النَّفس عن لوازم العار .

٤ — حَمَى الحديدُ عليْهِمُ فكأَنَّهُ   وَمَضانُ بَرْقٍ أو شُعَاعُ شُمُوسِ

شُعَاعُ الشَّمْس : انتشار ضوئِها . ويقال : أَشَعَّتِ الشَّمسُ : انتشر شُعاعُها . يقول : حَمِيت الأسلحةُ يومَ الوَغَى لصبرهم وثباتهم ، وطول مُقَامِهِم . ثمّ شَبَّهَ لمعانَها بومَضَان البَرْق أو شعاع الشمس ، وجَمَع الشُّموس لاختلاف مطالعها . والوَمَضَان : مَصْدَر وَمَضَ ، وكذلك الوَمْض والوَمِيض . ويقال فى فِعله أَوْمضَ أيضا .

٢٦

مَعْدَانُ بن جَوَّاسٍ الكِنْدِىُّ(١) :

ودخَلَ هذان البيتان فى الباب لما اشتملَا عليه لفظًا ومعنًى من الفظاظة والقسوة .

---

(١) معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية بن عامر بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون السكونى الكندى ، وكان له حلف فى ربيعة . مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، ونزل الكوفة وكان نصرانيا فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام بأمره . الإصابة ٨٤٣٥ ومعجم المرزبانى ٤٠٧ . على أن هذه الحماسية تنسب أيضاً إلى أبى حوط حجية بن المضرب السكونى ، وهو شاعر جاهلى فارس . نص على ذلك التبريزى ، وكذا الآمدى فى المؤتلف ٨٥ .

١ـإنْ كان ما بُلِّغتِ عَنِّى فَلامَنِى صَدِيقى وشَلَّتْ من يَدَىَّ الأنامِلُ[١]

قولُه « صديقى » يجب أن يُريدَ به الكثرةَ لا الواحد . ويقال : شَلَّتْ يَدُهُ شَلَلاً . وهذا من الجنس الأوّل فى أنَّ لفظَه لفظُ الخبر ، والمعنى معنى الدُّعاء ، والمراد القسم . وقوله « فلامنى » لامنى فى موضع رفع على أنه خبر ابتداء محذوف ، كأنه قال : فأنا لامنِى . والفاء مع ما بعده جواب إنْ . والمعنى : إن كان ما أُدِّىَ إليكِ عنّى حقًّا ففعلت ما استحققتُ به لَوْمَ الصديق ، واستَرْخَتْ أصابعى . فإن قيل : اليمين والشَّرط[٢] كيف يصحّ ؟ قلت : هذا كلام مُبْطِلٌ لما ادُّعِى عليه ، نافٍ له ، فاليمين تناوَلَتْ نَفْىَ ما أُثْبِتَ فيه ، ودفعَ ما قُرِفَ به . ودَلَّ على ذلك فَحْوى الكلام . ويجوز فى « كان » أن يكون التامَّةَ لا الناقِصَةَ ، فيكتَفِى بالفاعِل ولا يَحتاجَ أن يُضْمَر بَعْدَهُ « حَقًّا » . والمَعْنَى إنْ وقع ما بُلِّغْتِ عنّى وحَدَث . وتخصيصه للأنامل لأنّ أكثر المنافع بها . وجازَ إضمارُ خبر كان إذا جعلتها ناقصةً لأنّ فى الكلام والحال دليلاً عليه ، ولأنّ دخُولَه على المبتدإ والخبر ، فكما يُحذَفُ الخبر فى ذلك الباب يُحذف هنا .

٢ـوكَفَّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا بِرِدَائِهِ[٣] وصَادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتِلٌ

وَحْدِى انتصَبَ على المصدر ، وهو فى موضع التَّوحُّد . وفى النَّحويين من يجعله وإن كان مَعْرِفةً فى موضع الحال . يقول : وفُجِعْت بِمُنْذِرٍ وأُحوِجْتُ إلى أن أباشرَ تكفينَه وتجهيزَهُ بنفسى — وهذا مما يزيد المُصابَ كَلْمًا ودَاءً — وصَادَفَ ابنى من أعدائى من لا يُبْقِى عليه[٤] . وأعادِىَّ بَنَاهُ على الفتح لخفّته ،

(١) بلغت ، بخطاب المؤنثة كما فى النسختين . وعند التبريزى : « بلغت » بخطاب المذكر .

(٢) م : « اليمين فى الشرط » .

(٣) م : « فى ثيابه » . التبريزى « فى ردائه » .

(٤) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصحيح نسبة الشعر إلى حجية بن المضرب . وأن المنذر هو أخو حجية ، وأن حوطا هو ابنه الذى كنى به . ثم روى عنه سبب الشعر =

ولأنه الأصل فى ياءِ الضمير إذا حُرِّكَ . وعلى هذا تقولُ : هؤلاء بَنِيَّ ومعطِيَّ ، وهذا قاضِيَّ . وأعادِيّ يجوز أن يكون أفاعِلَ وأضافَهُ ، ويجوز أن يكون أفاعيل كأبابيت وخَفَّفَهُ ، كما خُفِّفَ أثافٍ ثم أضافَهُ . ويجوز أن يكون لمّا رَامَ الإضافةَ اجتمع ثلاث ياءاتٍ فَحَذَفَ مَدَّةَ أفاعيل .

٢٧

عامِرُ بن الطُّفَيْلِ الكِلاَبِىُّ(١) :

١ـ طلِّقْتِ إنْ لم تسألِى أىُّ فارسٍ حَلِيلُكِ إذْ لاَقَى صُدَاءَ وخَثْعَمَا

جعَلَ الإقسام عليها بما يضيِّق طريقها فى التجوُّز والإهمال ، لمَّا وَلاَّها البحثَ والسؤال . هذا إذا جعلْتَ الكلامَ دُعاءً . يقولُ : بِنْتِ من زَوْجِكِ إن لم تُفتِّشى بالسؤال عن أحوالِه حين لاقَى هاتين القبيلتين ، هَلْ أَبْلَى فى ملاقاتهما ، وكيف ثبَتَ فى وجوهِهما . ويجوز أن يكون طُلِّقْتِ وعيداً توعَّدَها به إن لم تَنتَهِ إلى مرسومِها(٢) . والحَليلُ : الزَّوج ، سمِّىَ بذلك لأنه يُحَالُّ

=« أن النعمان بن المنذر أغار على بنى تميم فنذروا به ومعه بكر بن وائل والصنائع من العرب ، وكان فيمن معه حجة بن المضرب ، وكانت أخته فكيهة بنت المضرب تحت ضمرة بن ضمرة ، فنذر بنو تميم بالنعمان بن المنذر فهزموه ، فاتهم النعمان حجية أن يكون أنذرهم فقال . . . » وأنشد البيت وما بعده .

(١) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى ، وهو ابن عم لبيد ، وكان فارس قيس . وكان عامر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : تجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم ؟ فقال النبى صل الله عليه وسلم : « اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر » . فانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جرداً ، ورجالا مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ! فطعن فى طريقه فمات وهو يقول : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ! الشعراء ٢٩٣ — ٢٩٥ والخزانة ١ : ٤٧٣ — ٤٧٤ والمؤتلف ١٥٤ والمرزبانى ٣٢٢ والأغانى ١٥ : ٥٠ — ٥٦ والنقائض ٦٥٤ — ٦٧٨ .

(٢) م : « مرسومه » .

صاحبتَه . وخَثْعَمُ هو خَثْعَم بن أنْمَارٍ . والخثعمة : التلطُّخ بالدم . ويقال : كانوا تحالفوا فغمسوا أيديَهم فى دَمِ بعيرٍ نَحَرُوه واجتمعوا عليه فسُمُّوا خَثْعَمًا . ومفعول تَسْأَلِى محذوفٌ ، المراد تسألى الناس . وقوله « أىُّ فارس » هو المسألة ، وهو فى موضع المفعول أيضاً . وجواب الشرط مُقَدَّم ، كأنه قال : إن لم تسألى الناسَ عن هذه المسألة فأنتِ مطلّقةٌ من بَعْدُ ، أو فجَعَل الله خاتمةَ أمرِكِ ذلك .

٣ — أَكُرُّ عليهمْ دَعْلَجًا وَلَبَانُهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقْعَ الرِّمَاحِ تَحَمْحَمَا[1]

أَجْمَلَ فى اقتصاص بلائه ، ثِقَةً بأنّ بحثَها واستقصاءها يأتى على تفاصيله . يقول : أعْطِفُ فرسى دَعْلَجًا عليهم ، حالاً بعدَ حالٍ ، وكرًّا بعدَ فرٍّ ، وإذا اشتكى من كثرةِ وقوعِ الطَّعن بصدره حمحم . وجعَل الفعل للصَّدر على المجاز والسَّعةِ لكونهِ موْقِعَ الطعن . هذا إذا رَوَيْتَ : «ولَبَانُه» بالرفع ، لأن بعض الناس روى «ولبانَه» بالنصب ، كأنه فرَّ من أن يكون الاشتكاء والتحمحُم للَّبان على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة ، فوقَعَ فيما هو أقبح ؛ لأن المرادَ أكرُّ عليهم فَرَسى ، فلا معنًى لعطف اللَّبان عليه . وسمعت من يجعله من باب تكرير البعض من الكلِّ بالعطف عليه ، وإن كان داخلاً فيما دَخَلَ فيه على وجه الاختصاص وتفخيمِ الشأن ، كقولِهِ عزّ وجل : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ . قال : ووجه الاختصاص أنّ الذَّكَرَ بصدره ، كما أنّ الأنثى بعَجُزِه . والدَّعْلَجُ : المَرِحُ فى السَّيْر والتردُّدِ ، ويُوصَفُ به الفَرَسُ

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : الصواب :

أقدم فيهم دعلجاً وأكره إذا أكرهوا فيه الرماح تحمحما

والبيت لعبد عمرو بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، فارس دعلج ، قاله يوم فيف الريح ، وليس هو لعامر بن الطفيل . وأنشده فى تصداق ذلك لمروان بن سراقة الجعفرى :

وعبد عمرو منع القياما ودعلجا أقدمه إقداما

والبعيرُ والحمارُ ، وذكر بعضهم أنه يقال فى الضَّبِّ الهائج أيضاً . [وقد أحسنَ عنترةُ كلَّ الإحسان حينَ سلكَ هذا السبيل فقال :

فازورَّ مِن وَقْعِ القنا بلَبَانِه ... وشكا إلىَّ بعَبرةٍ وتحمحُمِ (١)]

٢٨

زُفَرُ بن الحارثِ الكِلابىّ (٢) :

١ - وكُنَّا حَسِبْنَا كلَّ بيْضَاءَ شحْمَةً ... لَيَالِيَ قَارَعْنَا جُذَامَ وحِمْـيَرَا (٣)

حكى الأصمعىُّ فى الأمثال : « ما كلُّ بيضاء شَحْمَةً ، ولا كُلُّ سَوْدَاء تَمْرَةً » . والمعنى : ليس كلُّ ما أشبه شيئاً ذلك الشىء . ومعنى البيت : ظَنَنَّا لما التقينا مع جُذَامَ وحِمْيَرَ أنَّ سبيلَهم سبيلُ سائر الناس ، وأنَّا سَنَقْهَرُهم قَهْرًا قريبًا ثم وجدناهم بخلاف ذلك ، لكون أصلهم من أصلنا ، واجتماعِهم فيما تَمَيَّزْنا فيه عن سائر الناسِ مَعَنا ، وجُذَامُ أبو هذه القبيلة فسمِّيت به ، وأصلُه الجَذْم : القَطْع ، وبه سُمِّىَ الداء المعروف جُذَامًا ، وقيل للمقطوع اليد : أَجْذَم . وحَكى بعضُهم : ما سَمِعْتُ لَهُ جَذْمَةً ولا زَجْمَةً ، أى كلمةً ، لتقطُّع الصَّوت بها عند النُّطق . والقَرْعُ : ضَرْبُ الشّىء بغيره ، ثم توسَّعُوا فقالوا : قَرَعْتُ باطِلَه بحَقِّى ، وقَرَعَ الشارِبُ جبهتَهُ بالإناء ، إذا استوفَى ما فيه .

٢ - فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بالنبعِ بَعْضُهُ ... بِبَعْضٍ أَبَتْ عيدانُهُ أن تَكَسَّرَا

بعضَه ، انتصب على البدل من النَّبع . وجوابُ لمّا قولُه « أَبَتْ » .

---

(١) هذه التكملة من م .

(٢) زفر بن الحارث الكلابى ، أحد بنى عمرو بن كلاب ، كان قد خرج على عبد الملك ابن مروان وظل يقاتله تسع سنين ثم رجع إلى الطاعة . وكان سيد قيس فى زمانه ، وكان على قيس يوم راهط . وزفر من التابعين ، سمع عائشة ومعاوية ، وروى عنه ثابت بن الحجاج . الكامل ٥٣٣ والجهشيارى ٣٥ والمؤتلف ١٢٩ وشرح شواهد المغنى ٣١٣ .

(٣) التبريزى : « ليالى لاقينا » .

وتكسَّرَ أصله تتكسَّر . والشاعر اعترف بأنَّ أصل أولئك نَبْعٌ ، كما أنّ أصلهم نَبْعٌ ، النَّبعُ خَيْرُ الأشجار التى يُتَّخذ منها القِسِىّ وأصلبها ، كما أن الغَرَبَ شرُّها وأرخَاها ، فجعلت العرب تَضْرِبُ المثل بهما فى الأصل الكريم واللَّئيم ، حتى إنَّ بعض المُحدَثين قال :

هَيْهَاتَ أَبْدَى اليقينُ صَفْحَتَهُ وبَانَ نَبْعُ الفَخَارِ مِنْ غَرَبِهِ

فيقول : لمـا قَرَعْنَا أصلَهم بأصلنا أبت العيدانُ من التكسّر . والمعنى أنّ كُلاًّ مِنَّا أبى أن ينْهزم عن صاحِبِهِ . فالعيدان مَثَلٌ للرجال ، والنَّبع مَثَلٌ للأَصْلِ .

٣ - وَلَمَا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِبِيَّةً يَقُودُونَ جُرْدًا للمنيَّةِ ضُمَّرَا

يقال تَغلِبِىٌّ وتَغْلَبِىٌّ ، والكسر أكثر ، ومن فَتَح فلتوالى الكسرات والياءين . وهذا كما قالوا : نَمَرِىٌّ فَرَدُّوا من فَعِلٍ إلى فَعَلٍ . يقول : لمّا لقينا جماعةً من بنى تغلب[1] يقودون للحَرْبِ خَيْلاً ضُمَّرًا قِصَارَ الشعور . وجواب لمّا فيما بعد ، وهو سقيناهم . وإنّما احتاج إلى الجواب متى كان عَلَمًا للظرف ، لأنّه يجىء لوقوع الشىء لوقوع غيره . وجَعَل الخيل جُرْدًا لأنّ العِرَابَ منها تكون كذلك . واللام من قوله « للمنيّةِ » يجوز أن يتعلّق بيقودون ، ويجوز أن يُتعلّق بقوله ضُمّرا ، أى ضُمِّرَتْ لَهَا .

٤ - سَقَيْنَاهُمْ كأسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِها ولكنَّهُم كانُوا على المَوْتِ أَصْبَرَا

يقول : قابلناهم بمثلِ ما بدءونا به من سَقى كأس الموت ، لكن القتل كان فيهم أعمّ ، ولهم أشْمَل . وجَعَل ذلك فيهم كالصَّبر منهم عليه[2] . ويقرُب أن

(١) التبريزى : « يعنى تغلب بن حلوان ، بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، لأن الظافر فى يوم مرج راهط كان لكلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان ، وليس لتغلب وائل هنا مدخل » .

(٢) ذهب التبريزى إلى أن هذا التفسير خطأ ، وأن المعنى أنه شهد لهم بالغلبة واعترف أنهم أهل صبر ، وقد أقر بهزيمة قومه فى قوله :

ولم تر منى نبوة قبل هذه فرارى وتزكى صاحبىّ ورائيا

يكون قول الله تعالى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ على هذا الوجه . كأنّ النّارَ حَقّتْ عليهم ووَجَبَتْ ، بما كان منهم من المعصية ، فجعل ذلك فيهم كالصَّبر منهم عليه ، ولذلك قال بعض المفسِّرين فى معناه : ما أعملَهُم بعمل أهل النار ، كأنَّ إصرارَهم على ذلك العمل كالصَّبر منهم على النار . وردُّ الآيةِ إلى البيت وإجراء القول فيها على هذا الحدّ غريبٌ حَسَنٌ . وقوله : « أَصْبَر » أى أصْبَرُ منّا ، وأفعل الذى يتمّ بِمِنْ يُحذف منه « من » فى باب الخبر دون الوَصْف . وساغ ذلك لأنّ الخبر كما يجوز حَذْفُه بأسْرِهِ لقيام الدلالة عليه يجوز حَذْف بعضِهِ أيضاً له .

٢٩

عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبَ(١) :

حَكَى ابن الأعرابىّ : قالوا مَعْدِيكَرِبَ لأنّه عدَا الفسادَ . والكَرب : الفَساد .

١ – وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ زُورًا كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فَاسْبَطَرَّتِ(٢)

اسبطرَّتْ : امتدَّتْ ، والسِّبَطْر والسَّبطُ بمعنًى واحد . يقول : لمّا رأيت الفُرسان منحرفين للطَّعن ، وقد خلّوا أعنَّةَ دوابِّهم وأرسلوها ، وقرَّطوا آذانَها بها ، فكأنها أنهارُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ مِيَاهُهَا فامتدَّتْ بها . والتشبيه وَقَعَ على جَرْىِ الماء فى الأنهار لا على الأنهار ، كأنّه شبّه امتدادَ الخَيْلِ فى انحرافها عند الطَّعْنِ بامتداد الماء فى الأنهار ، وهو يطّرِدُ ملتوياً ومضطرباً . وكما وَصَفَ الخَيْلَ

(١) هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدى ، كان من فرسان العرب المشهورين بالبأس فى الجاهلية ، وأدرك الإسلام وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد بعد وفاته فيمن ارتد من اليمن ، ثم هاجر إلى العراق فأسلم ، وشهد القادسية وأبلى فيها . الشعر والشعراء ٣٣٢ والأغانى (١٤ : ٢٤ – ٣٩) والخزانة (١ : ٤٢٢ – ٤٢٦) وكتب الصحابة .

(٢) التبريزى : « أرسلت فاسبطرت » .

فى انحرافِها بزُورٍ وُصِفَتْ أيضًا بنُكْبٍ ، فقال بعضهم :

* لِأَعْدَائِنَا نُكْبٌ إِذَا الطَّعْنُ أَفْقَرَا *

فالنُّكْبُ : جَمْعُ أَنْكَب ، وهو الذى ينحطُّ أحد مَنكِبيه عن الآخَر ، كما أنّ الزُّور جمع أَزْوَر ، وهو المُعْوَجّ الزَّوْر . وهذا من التشبيه الحسن الصائب . وقوله : « خُلِّيَتْ فاسبطرّت » جُعِلاَ للجداول على المجاز والسَّعة ، لأنّ المياه هى التى تخَلَّى وتمتدّ . وهذا كما يقال نَهْرٌ جَارٍ ، وإنْ كان الماء هو الذى يجرى .

٢ — فَجَاشَتْ إِلَيَّ النفسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ   ورُدَّتْ على مَكْرُوهِهَا فاستقرّتِ[1]

فجاشت إلىَّ النفس أول مرة . اعترض بعضُهم فقال : لولا أنّه جَبُن لما جاشت إليه النَّفس . قال : ومثلُه فى الرداءة قول عنترة :

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ   عَنْهَا ولكِنِّى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

هَلاَّ قال كما قال العباس بن مرداس :

أَشُدُّ على الكتيبة لا أُبَالِى   أَحَتْفِى كان فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

قال الشيخ : وليس الأمر كما توَهّم ، لأن ما ذكرَهُ عمرٌو وعنترة بيانُ حالِ النَّفس ، ونفسُ الجبانِ والشُّجاع على طريقةٍ واحدةٍ فيما يَدْهَمُهَا عند الوهلة الأولى ، ثم يختلفان : فالجبانُ يَرْكَبُ نفرتَه[2] ، والشُّجاع يدفعُها فيثبُتُ . فأمّا قول العباس ابن مرداس فليس مما ذَكَرَاها بسبيلٍ ، وإنما هو بيانُ الحالة الثانية وما يعزمُ عليه بعد الاعتصام والمراجعة والتمسُّك . فاعلمْه إن شاء الله . وقولُه : « أوَّلَ مَرَّةٍ » وذاتَ مَرَّةٍ ، لا يكونانِ إلاّ ظَرْفَيْنِ ؛ لأنّ مَرَّةً ليس باسْمٍ للزمان لازمٍ ، وإنّما هو مُدْخَلٌ عليه . فإذا قلتَ مرّةً فإنما حقيقتُها فَعْلَةٌ واحدةٌ ، ويجوز أن

---

(١) م والتبريزى : « فردت » بالفاء .

(٢) هذا ما فى م والتبريزى . وفى الأصل : « نفسه » .

يكون وقتًا واحدًا . ويجوز أن يكون الفاء فى « فجاشت » زائدةً ، فى قول الكوفيين وأبى الحسن الأخفش ، ويكون جاشت جَوَابًا لِلَمّا . والمعنى : لمّا رأيتُ الخَيْلَ هكذا خافَتْ نَفْسِى وثَارَتْ . وطريقةُ جُلِّ أصحابنا البصريين فى مثله أن يكون الجواب محذوفا ، كأنه قال : لما رأيتُ الخَيْلَ هَكَذَا فجاشَتْ نَفْسى ورُدَّت على ما كَرِهَتْهُ فقرّتْ ، طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ . ويَدُلُّ على ذلك قولُه : « علامَ تقولُ الرمح يثقل ساعدى إذا أنا لم أَطْعُنْ » ، فحَذف طَعَنْتُ أو أبْلَيْتُ لأنَّ المراد مَفْهُومٌ . وهذا كما حذفوا جَواب لو رأيتَ زَيْدًا وفى يده السيف ! وعلى هذا الكلامُ على المذهبين فى قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وفُتِّحَتْ[٢] أَبْوَابُها﴾ ، وفى قول امرئ القيس :

فَلَمّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحىِّ وانْتَحى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِى قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

وحذفُ الجواب فى مثل هذه المواضع أبْلَغ وأدلّ على المرادِ وأحْسَنُ ، بدلالة أن المولى إذا قال لعبده : « واللهِ لئن قُمْتُ إليك » وسَكَتَ ، تزاحَمَتْ عليه من الظُّنون المعترضة للوعيد ما لا يتزاحم لو نَصَّ من مؤاخذته على ضَرْبٍ من العذاب . وكذلك إذا قال المتبجِّحُ : « لو رأيتنى شابًّا » وسكتَ ، جالتِ الأفكار له بما لم تجُلْ به لو أتى بالجواب .

٣ — عَلَامَ تَقولُ الرُّمْحُ يَثْقِلُ سَاعِدِى إذَا أَنَا لَمْ أَطْعُنْ إِذَا الخَيْلُ كَرَّتِ

« ما » فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرفِ جرّ يُحذف الألفُ من آخره تخفيفاً ، على ذلك فِيمَ وبِمَ ولِمَ ، إلاّ إذا اتَّصَلَ ما بِذَا فقلت : بماذا ولماذا ، لأنه يُتْرَكُ على تَمَامِهِ[١] . وقوله : « تَقُولُ الرُّمْحُ » يُرْوى بفتح الحاء وضمّها ، فإذا

(١) وقد يترك على تمامه مع عدم اتصاله بذا . وقرأ عكرمة وعيسى : « عما يتساءلون » . وقال حسان : على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد
انظر المغنى فى (ما) والخزانة (٢ : ٣٥٧) والبيان (٣ : ١٢٥) .

(٢) كذا فى النسختين . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش بتخفيف التاء وباقى القراء بتشديدها .

نَصَبْتَ فلأنك جعَلْتَ تَقُولُ فى معنى تَظُنُّ . وهُم — عند الخطاب والكلام استفهام — يحملون القول على الظَّنِّ . على ذلك قَوْلُه :

* فَمَتَى تَقُولُ الدَّارَ تَجْمَعُنَا[1] *

أى متى تظنُّ ذلك فتقول ، فجعل القولَ يَدُلُّ على الظَّنِّ لَمَّا كان القَوْلُ تَرْجَمَةً عن الظَّنِّ . والخِطَابُ والاستفهام يحتملان مالا يحتمل غيرها . وإذا رفعْتَ الرُّمْحَ فالقَوْلُ مَتْرُوكٌ على بابه ، والرُّمْحُ يرتفع بالابتداء ، والكلامُ حكايَةٌ ، وما بَعْدَ القَوْلِ إذا كان كلامًا مُفيداً يُحْكى . ومعنى البيت : على أىِّ شىء ولأىِّ وجهٍ تقول : أَحْمِلُ الرُّمْحَ فيُثْقِلُ ساعِدِى إذا لم أَعْمِلْهُ إذا حَصَلَ الكرُّ من الخَيْلِ بعد الفرِّ ، واشْتَدَّ عليهم الأمْر . والمعنى بأى حُجَّةٍ أَحْمِلُ السِّلاَحَ إذا لَمْ أُبْلِ فى الحَرْبِ ولم أَسْتَعْمِلْهُ فى وَقْتِهِ . وهذا الكلامُ إسْقَاطٌ للتبجّح بالبَلاَءِ الذى كان منه أيضا . وقولُهُ : « إذا أنا لم أَطْعُنْ » أى لم يُثْقِل ساعِدِى الرمْحُ فى وقت تَرْكِى الطَّعْن زَمَانَ كَرِّ الخيل ، فإذا الأوّلُ ظَرْفٌ لقوله يُثْقِلُ ، وإذا الثانى ظَرْفٌ لقوله لم أَطْعُن .

٤ — لَحَا اللهُ جَرْمًا كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ وُجُوهَ كِلاَبٍ هَارَشَتْ فازْبَأَرَّتِ

ازْبَأَرَّ : انتفش حتّى ظهر أصولُ شعره . قال :

فهو وَرْدُ اللَّونِ فى ازبئرارِه وكُميتُ اللَّونِ ما لم يزبئرْ[2]

كُلَّمَا انتصب على الظَّرْف ، و«وجُوهَ» انتصَبَ على الشَّتم والذَّمِّ ، والعامِلُ فيه فِعْلٌ مُضْمَرٌ وهو أذْكُرُ . كأنّه شَبَّهَ وجوههم بوجوه الكلاَبِ فى الحالة المذكورة . ويجوز أن يكون انتصابه على البَدَل من قَوْلِهِ « جَرْمًا » . ومعنى

---

(١) لعمر بن أبي ربيعة ، كما فى اللسان (قول) . وصدره :
* أما الرحيل فدون بعد غد *

(٢) البيت للمرار بن منقذ فى المفضليات (١ : ٨١) .

لَحَا الله : قشر الله ، أى فَعَل ذلك بهم غَدَاةَ كُلِّ يَوْمٍ ، أَذْكُرُ قَوْمًا يُشْبِهُون الكِلَابَ إذا واثَبَت غيرَها وساوَرت ، فانتفشت وتجمّعتْ للوثب ؛ وتلك الحالةُ من أحوالها أشْنَعُ وأنكر . وهذا تحقيقٌ للشَّبَهِ ، وتصويرٌ لقباحة المنظر . والذُّرور فى الشمس أصلُه الانتشار والتفريق . قال :

* كالشَّمس لم تَعْدُ سِوَى ذرورِها *

أى طلوعِها وانتشار ضوئِها . قال الخليل : المهارشةُ من الكلابِ وغيرها كالمُحارشَةِ . ويقال : فلانٌ يُهَارِشُ بين الكَلْبَيْنِ .

٥ — فَلَمْ تُغنِ جَرْمٌ نَهْدَهَا إذْ تلاقَيَا ولكنَّ جَرْمًا فى اللقاءِ ابْذَعَرَّتِ[1]

جَرْمٌ ونَهْدٌ : قبيلتان من قُضَاعة[2] . ومعنى ابذعرّت : تفرّقَتْ . وأضافَ نَهْدًا إلى ضمير جَرْمٍ ، لاعتماده كان عليها ، واعتقاده الاكتفاء بها . والمعنى لم تَنصُرْها فكانت تكتفى بها وتَغْنَى ، ولكنّ جَرْمًا انهزمت ، وهَامَتْ على وجهها فمَضَتْ ، واصطلت نَهْدٌ بنارِ الحرْبِ ، فمَسَّتْ حاجَتُها إلى من يؤازرها ، ويناهض الأعداء معها .

٦ — ظَلِلْتُ كأنِّى للرِّماحِ دَرِيَّةٌ أُقَاتِلُ عن أبناء جَرْمٍ وفَرَّتِ

يقول: بقيتُ نهارى منتصباً فى وجوه الأعداء ، والطعنُ يأتينى من جَوَانبى ، وكأنى للرِّماح بمنزلة الحَلْقةِ التى يُتعلَّمُ عليها الطعنُ ، أَذُبُّ عن جَرْمٍ وقد هَرَبَت هىَ . ويجوز أن يكون : كأنِّى للرِّماحِ صَيْدٌ . فقد حكَى أبو زيد أنه يُقال

(١) رواية التبريزى : « إذ تلاقتا » .

(٢) التبريزى : وكانت جرم ونهد فى بنى الحارث بن كعب ، فقتلت جرم رجلا من بنى الحارث يقال له معاذ بن يزيد ، فارتحلت جرم فتحولوا إلى بنى زبيد قوم عمرو بن معديكرب ، فجاءت بنو الحارث يطلبون بدم صاحبهم ، فعبى عمرو جرما لبنى نهد ، وتعبى هو وقومه لبنى الحارث ، فكرهت جرم دماء بنى نهد نفرت ، وانهزمت بنو زبيد ، فلامهم عمرو » .

للصيد خاصةً دَرِيّةٌ ، غيرُ مهموزةٍ ، ودَرَايا ؛ كأن هذا من دَرَيْتُ أى خَتَلْتُ . فأمّا الدابة التى يُسْتَرُ بها من الصَّيدِ ، فإذا أكْثَبَ رُمِىَ من خَلْفِها ، فذكرَ أبو زيدٍ أنها تسمَّى دَرِيئةَ الصيدِ ، بالهمز . قال : ويقال : دَرَأْتُها نحوَ الصَّيد وإلى الصيد وللصيد ، إذا سُقْتَها . وكأن هذا من الدَّرْء ، وهو الدفع . وقد تسمَّى تلك الدابّة الذَّرِيعة والسَّيِّقةُ والقَيِّدة . وأنشِدْتُ عن أبى العبّاس المُبَرِّدِ ، رحمه الله ، أنشدنيه حمزة بن الحسن ، قال : أنشدنيه على بن سليمان الأخفش عنه :

إذا نَصَبْنَا لقوْمٍ لا نَدِبُّ لهم كما تَدِبُّ إلى الوحشيَّة الذُّرُعُ(١)

الذُّرع : جمع ذريعة ، كصحيفة وصُحُف . وإن جعلت « كأنى » فى موضع الحال فأقاتل فى موضع الخبر لظَلِلت حينئذ .

٧ ـ فلو أنّ قومِى أنطقتنى رِماحُهم نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّماح أَجَرَّتِ

النُّطق استُعمل فى الكلام وغيره ، ولذلك قيل مَنْطِق الطير ، ثم توسَّعوا فقالوا : نَطَقَ الكتابُ بكذا . يقولُ : لو أنّ قومى أَبْلَوْا فى الحرب واجتهدوا لافتخرت بهم ، وذكرْت بلاءهم ، ولكنَّ رماحَهم أجرَّت لسانى ، كما يُجَرُّ لسان الفَصِيل . وجَعَل الفعلين للرِّماح لأن المراد مفهومٌ فى أن التقصير كان منهم لا منها . والإجرار : أن يُشَقَّ لسانُ الفصيل للرماح فيُجعلَ فيه عُوَيْدٌ لئلاّ يرضَع أمه . وقد استُعمل الإجرار فى الرُّمح إذا تكسَّر فى المطعون . قال :

* أجِرَّهُ الرُّمحَ ولا تُهالَه(٢) *

---

(١) أنشد فى اللسان (ذرع) :

وللمنية أسباب تقربها كما تقرب للوحشية الذرع

(٢) فى اللسان : « فتح اللام لسكون الهاء وسكون الألف قبلها . واختاروا الفتحة لأنها من جنس الألف التى قبلها ، فلما تحركت اللام لم يلتق ساكنان فتحذف الألف لالتقائهما » ـ وقبله :

* ويهاً فداء لك يا فضاله *

وفى طريقه قوله : « أنطقتنى رماحُهم » قول الآخر (١) :

أقولُ وقد شَــدُّوا لسانى بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا عن لِسَانِيَا

لأنّ المعنى أحسِنوا إلىّ ينطلِقْ لسانى بشكركم .

٣٠

سَيَّارُ بنُ قَصِيرٍ الطائىّ

١ — لو شَهِدَتْ أُمُّ القُدَيْدِ طِعَانَنَا بِمَرْعَشَ خَيْلَ الأرمَنِىِّ أَرَنَّتِ (٢)

جواب لو ، «أرنّت» . يقال رَنَّ وأَرَنَّ بمعنًى واحد . ومَرْعَش من ثغور أرمِينِيَةَ . وأمُّ القُدَيد ، قيل هى امرأته . والخيل ينتصب من قوله « طِعَانَنَا » . ومعنى البيت : لو حَضَرت هذه المرأةُ مطاعنَتَنا بمَرْعَش خَيْل هذا الرّجل الأرمَنِيِّ لَوَلْوَلَتْ وضَجَّتْ ، إشفاقاً علينا ، لـكثرتهم وقلّتنا . والباء من قوله « بمَرْعَشَ » تعلّقَ بطعاننا ، وهو ظَرْفُ مكان له قد عَمِلَ فيه . وإنما قلت هذا لئلا يُتوهَّم أنه تعلّق بشهِدَتْ ، وأنه فى موضع الحال للخيل أو المطاعنين ، فيكون قد فُصِلَ به بين الصِّلة والموصول ، وهما طعاننا وخيل الأرمَنِىِّ .

٢ — عَشِيَّةَ أَرْمِى جَمْعَهُمْ بلَبَانِهِ وَنَفْسِى وقد وَطَّنْتُها فاطمَأَنَّتِ

لَبَان الفرس : صدره . ويقال : وطّنْت نفسى على كذا فتوطّنَت ، أى حَمَلتُها عليه فذَلّت . وانتصب « عَشِيَّةَ » على أنه ظَرْفٌ لِطِعَاننا . ويجوز أن يكون ظرفاً لِشَهِدَت ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأرمى ؛ لأن أرمى أضيفت عشيَّة إليه ، والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف . ومعنى البيت : عشِيَّة أَحمِلُ عَلَى القوْمِ ولا أُبالى إن كانت عَلَىَّ أوْ لِى ، لأنى وطّنت نفسى على الشر فألفَته

(١) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى . المفضليات (١ : ٥٥)

(٢) أنشد هذه الأبيات ياقوت فى (مرعش) بدون نسبة .

وسكنَت إليه . فمن روى : « ونفسىَ قد وطّنتها » يكون الواو للحال ، ونفسى يرتفع بالابتداء ، ووطَّنتُها فى موضع الخبر . ومن رَوَى : «ونَفْسِي وقد وطَّنْتُها» فإنّ نفسى يكون فى موضع الجر عطفاً على بلَبانه ، أى أرمى جيشهم بنفسى وفرسى ، ويكون قد وطّنتها فى موضع الحال . وتحقيق الكلام : وقد وطّنتُها على الشر فسَكَنت إليه ، ورضِيَت به . ومثلُه قول عنترة :

ما زِلْتُ أرْمِيهِمْ بقُرْحة مُهرِى ولَبَانِ لا وَكَلٍ ولا هَيَّابِ

وقول الآخر :

مازِلْتُ أرميهم بثُغْرَةِ نَحْرِه وفارسِه حتى ثأرتُ ابنَ وَاقِد[١]

٣ـ وَلاحِقَةِ الآطالِ أَسْنَدْتُ صَفَّها إلى صَفِّ أُخْرَى من عِدًى فاقْشَعَرَّتِ

إنما نَكَّرَ قولَه « عِدًى » لينبّه به على اختلافهم وكثرتِهم ، وأنّ ذلك لتوفُّر فضائلِهم ، وتظاهُرِ عزِّهم ورياستِهم ، إذْ كان الحسَدُ يتبع ذلك ، ولأنهم يَتِرُونَ مَن لا يَذِلّ لهم ، ولا يهوَى هواهم . يقول : ورُبَّ خَيْلٍ قد لحقَت بطونُها بظهورِها[٢] ، وارتفعت جنوبُها إلا متونها ، أنا أمَلْتُ صَفَّها إلى صَفِّ خَيْلٍ مِثْلِها من الأعداء ، فخافت لقلّتنا وكثرتِهم . وأصل الاقشعرارِ تقبُّض الجِلد وانتصابُ الشَّعر ، وقد تكلَّم الناسُ فى قول امرئ القيس :

* والقَلْبُ من خَشْيَةٍ مُقْشَعِرْ[٣] *

فقال بعضهم : الاقشعرار لا يصحُّ فى القلب ، لأنه يُخبَرُ به عما عليه شعَرٌ ، ولا شَعَرَ على القلب . وقال غيرُه : إنما هو كنايةٌ عن الوَجَل ، ولمّا كان

(١) فى الأصل : « وبوجهه حتى » ، ولا يستقيم به الوزن . وهو من الطويل مع الخرم فى أوله . وأثبتنا ما فى م .   (٢) م : « وظهورها » .
(٣) هو بتمامه ، كما فى الديوان ٩ :
فبت أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر

الاقشعرارُ يقع عنده كُنِيَ به عنه . وإذا كان كذلك فكأنه قال : والقلبُ من خَشْيَةٍ وَجِل .

٣١

بعضُ بنى بَوْلانَ من طَيِّءٍ(١)

بَوْلان فَعْلان ، من قولهم رجُلٌ بُوَلَةٌ ، إذا كان كثير البَوْل . والبُوَال : داءٌ يصيب الغنم فيبول حتى يموتَ .

١ – نحنُ حَبَسْنَا بنى جَدِيلَةَ فى نارٍ من الحَرْبِ جَحْمَةِ الضَّرَمِ

جَدِيلةُ من الجَدْلِ ، وهى فيما زعموا أُمُّهم . والجَدْلُ : الفتلُ . قال الدُّرَيْدِى : جَدِيلةُ من قولِهم امرأةٌ مجدُولةٌ ، إذا كانت قَضِيفَةً . ويقال ضَرِمَتِ النارُ ، إذا التهبت ، تضرَمُ ضَرَمًا . ولهذا ما تلتهب به النارُ سريعًا من الحطب قيل له الضِّرَام . فيقول : حبسنا هؤلاء القومَ على نارٍ من الحربِ شديدة الالتهاب . والجَحْمَةُ : مَصدَرُ جَحِمَتِ النارُ فهى جاحمةٌ ، إذا اضطرَمَت ؛ ومنه الجحيم . قال : وُصِفَت النار بالجحيم لحُمْرَتِها ، ولذلك سُمِّيَت عَيْنُ الأسد(٢) جَحْمَةً ، لأنها تتراءى بالليل كأنها نار . وقال الدُّرَيْدِى : الجَحْمَةُ العين ، لغةٌ يمانيَّةٌ . وعين الأسد خاصَّة فى كلِّ اللغات الجَحْمَة .

٢ – نستَوْقِدُ النَّبْلَ بالحضيضِ ونَصْـ طاد نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى الكَرَمِ

قولُهُ « نَسْتَوْقِدُ النَّبل » من فصيح الكلام ، كأنّه جَعَل خروج النار من

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « هذا الشعر لرجل من بلقين ، وسبب ذلك أن القين بن جسر وطيئا كانوا حلفاء، ثم لم تزل كلب بأوس بن حارثة حتى قاتل القين يوم ملكان ، فحبسهم بنو القين ثلاثة أيام ولياليها لا يقدرون على الماء، فنزلوا على حكم الحارث بن زهدم أخى بنى كنانة بن القين ، فقال شاعر القين يومئذ : نحن حبسنا » .

(٢) فى الأصل : « عين الشمس » تحريف ، صوابه فى م والتبريزى واللسان .

الحجَر عند صَدْمة النَّيل استيقادًا منهم . والوَقْدُ ، توسَّعُوا فيه حتَّى قِيلَ قَلْبٌ وقادٌ . فإن قيل : هَلاَّ قال نستقدِحُ النّبْل ، فكان أصَحَّ ؟ قلتَ : الذى قاله أفصح ؛ وقد قيل زَنْدٌ مِيقادٌ ، إذا كان سريعَ الوَرْىِ . وقال الخليل : كلُّ ما تلألأَ فقد وَقَدَ ، حتى الحافر . يقول : تنفذ سهامُنا فى الرَّمْيَة حتى تَصِلَ إلى حَضيض الجبل فتخرجَ منه النار لشدة رَمْيِنَا ، وقوة سواعِدنا ، و نصيد بها نفوساً مبنيّة على كَرَمٍ . أى نقتل الرؤساء ومن تَكَرُمُ نفسه و تَعِزُّ حياتُه . وقوله « بُنَتْ » أصله بُنِيَتْ ، فأخرجه على لغة طيِّئٍ ، لأنهم يقولون فى بَقِيَ بَقَى ، وفى رُضِيَ رُضَى . ولهذا قال بعضهم :

* على مِحْمَرٍ ثَوَّبْتُمُوه وما رُضَى[(١)] *

وقالوا فى بادِيَة : باداة ، كأنهم يفرّون من الكَسْرَة بعدها ياءٌ إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والحَضِيضُ : قرار الأرض عند سفح جَبَلٍ . والنَّبْلُ لا واحِدَ له من لفظه .

٣٢

وقال رُوَيْشِدُ بن كثِيرٍ الطائىُّ :

١ — يأَيُّها الراكِبُ المُزْجِى مَطِيَّتَه سَائِلْ بنى أَسَدٍ ماهذه الصَّوْتُ[(٢)]

المَطِيَّةُ من المَطا ، وهو الظَّهْرُ . ويقال مَطَاهُ وامتطاه ، إذا ركبه . ولِلحُوق الهاء به صار اسماً ، وقد مر مثلُه . ويُروى : بَلِّغ بنى أَسَدٍ » . وقوله : « ما هذه

(١) لزيد الخيل ، كما فى نوادر أبى زيد ٨٠ والأمالى (٣ : ٢٤) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٦٥ . واللسان (أتم) . وصدره :

* أفى كل عام مأتم تجمعونه *

(٢) التبريزى : « هــذه الأبيات شاذة فى الشعر القديم ، لأن العادة قد جرت إذا استعملوا هذا الوزن أن يكون اللين فيه كاملا ، وذلك أن يكون قبل الروى ألف أو واو قبلها ضمة ، أو ياء قبلها كسرة . وقوله : الصوت ، قد جاء بالواو وما قبلها مفتوح » .

الصوتُ » الجملة فى موضِع المفعول ، وارتفع الصوت على أنه عطف البيان . يُخاطِبُ الراكبَ السائقَ لمطيّته بإعجالٍ ، يسألُه أن يُبلِّغ بنى أسَدٍ عنه عن طريقِ الفحص والاستعلام : ما هذه الجَلَبَةُ . وهذا الكلامُ تهكُّمٌ وسخريّة ، لأنه هو الذى أثار عليهم ما اهتاجوا له ، وجَلَبَ عليهم ما أشكاهم . وإنما قال ما هذه الصوت ، والصوت مُذكّر ، لأنه قَصَدَ به إلى الصيْحَةِ والجَلَبَةِ . وهذا كما قال حاتمٌ :

أمَاوِىَّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ وقد عَذَرَتْنِى فى طِلَابِكُم العُذْرُ

يريد المعذرة . وكما قال الآخر(١) :

وكان مِجَنِّى دونَ من كُنْتُ أتَّقِى ثلاثُ شُخُوصٍ كاعِبَانِ ومُعْصِرُ

فأنَّث الشُّخوصَ لأنه قصد بها إلى النفوس . وحكى عن أبى عمرو ابن العَلاء أنه سَمِع بعضَهم يقول : « جاءته كتابى فاحتقرها » . قال أبوعمرو : فقلت : أتقول جاءته كتابى ؟ قال : نعم ، أليست هى صحيفة ؟ وقد قيل : لمّا كانت الشُّخوصُ شُخوصَ النِّساء أنّث العدد . وقوله : « الراكبُ المُزْجِى » الراكب يقع على راكب البعير خاصةً ؛ لأن راكب الخيل يقال له فارس . والمُزْجِي ، يُقال زَجَا الشيء يزجو زَجْوًا وزَجَاء ، وأزجَيْتُه أنا وزجَّيْتُه ، إذا استحثثته . ومنه زَجَاء الخَرَاجِ . وفى هذا الكلام دَلالةٌ على أنه ليس يُقْنِعُه ما أوقعهم فيه . ألا ترَى أنه يتوعّد بالاستئصال إن لم يصح عُذرُهم . ويجوز أن يكون المراد بقوله « ما هذه الصوت » ما الذى يتأدَّى إلىَّ عنكم ، ويتحدَّث به الناس من شانِكم وقصتِكم . ويقال : ذهَب صوت هذا الأمرِ فى الناس للتحدُّث به ، وذهب صِيتُ بنى فلانٍ فى الناس إذا ذُكِروا بالخير . فكأنّه على هذا يوهمهم

(١) هو عمر بن أبى ربيعة ، من قصيدته التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

أنه لم يصحّ عندَه ما يُقال، وأنهم إن لم يقيموا المعذِرة والدّلالة على براءة الساحة حينئذ عاقبَهم. وهذا المعنى فى نهاية الحُسْن[1].

٢ – وقُلْ لَهُمْ بادِرُوا بالعُذْرِ والتَمِسوا قَوْلاً يُبَرِّئُكم إنّى أنا المَوْتُ

مفعول بادروا محذوف، كأنّه قال: بادِرُوا العِقابَ بالعُذر، أى سابِقُوه. يقول: قُلْ لَهُمْ: سارِعوا بالعُذْر فيما ركبتموه واطلبوا قولاً يُبَرِّئُ ساحَتكم، إنّى أنا حَتْفُكُم إنْ لم تفعلوا، أى أقرَب حَيْنَكم، وأسْعَى فى هلا ككم إن لم تفعلوا. ويقال: لَمَسَ والتمسَ فى معنى طلب. على ذلك قولُ الله تعالى حاكيًا عن مسترِقة السمع: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فوجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا﴾، أى طلبناها. وقال الشّاعر:

أَلاَمُ عَلَى تَبَكِّيهِ وَأَلْمُسُهُ فلا أَجِدُهْ

و « يبرئكم » فى موضع الصِّفة للقول، أى قولاً مبرِّئًا لكم من الذنب.

٣ – إنْ تُذْنِبُوا ثم يأتينى يَقِينُكُمُ فَمَا عَلَىَّ بذَنْبٍ عِندَكم فَوْتُ[2]

قولُه « بذَنْبٍ » أى بسبب ذَنْبٍ، وقد حَذَفَ المضاف وأقام المضَاف إليه مقامه، كأنّه قال بجزاء ذَنْبٍ، ويقال: « لا فوتَ عليك فى كذا »، كما يقالُ لا بأس عليك. والمعنى: لايفوتك. وفى هذا الكلام إيذانٌ بأنّه مستعمِلٌ الأناةَ والحلم معهم، ثقةً بأنّهم لا يفوتونه. يقول: إن تُجْرِموا ثم يصحّ عندى تعمُّدُكم فى إجرامكم وتيقُّنكم ما يلحقكم من لائِمةٍ وعيْبٍ[3] وأنكم أقدمتم مستهينين، وبمن يأخذُكم نكيرُهُ غير حافلين، فما يفوتنى

(١) كذا فى م. وفى الأصل: « فى نهاية » فقط.

(٢) يروى أيضا: « تقيتكم » كما نص التبريزى. ويروى: « بقيتكم » كما سيأتى.

(٣) م: « وعتب ».

مكافأتكم، ولا يُعْيِينى مؤاخذتكم ومحاسبتكم. ورُوِى: «ثم يأتينى بقيّتكم» وفُسِّر على وجهين : أحدُهما أنّ المعنى ثمّ تأتيني خياركم وأماثلكم ، يقيمون معذرةَ أنفسِهم، ويبيِّنون أنَّهم لم يساعدوكم لا بالرأى ولا بالفعل. وهذا كما يقال: فُلانٌ من بقية أهْلِهِ، أى من أفاضلهم . والآخر أن يكون المعنى : ثمّ تأتينى بقيّتكم الذين لم يذنبوا متنصِّلين بأنهم قد فارقوكم وأسلموكم، لعظيم جنايتكم، وخلعوا رِبْقَةَ النُّصْرةِ والمعاوَنَةِ لكم.

٣٣

أُنَيْف بن حَكَمٍ النَّبْهَانِىّ(١)

١ ـ جَمَعْنَا لَهُمْ مِنْ حَىِّ عَوْفِ بن مَالِكٍ كَتَائِبَ يُرْدِى المُقْرِفِينَ نَكَالُهَا

الكَتِيبَةُ من الجيش : ما جُمِع فلم ينتشر . وقولُه : « يُرْدِى » مع ما بعدَهُ فى موضع الصِّفة للكتائب . يقول : جمعنا لهؤلاء القوم جُيُوشًا من خُلَّصِ العرب تُهلِك عُقوبَتُها الذين فى نَسَبِهم هُجْنَةٌ أو إقرافٌ إذا بركوا عليهم. وهذا يجوز أن يكون تعريضًا بمنا بذِيه ووعيدًا لهم . والإقراف يكون من قِبَل الفحل، والهُجْنَةُ من قبل الأُمّ . وذَكَرَ المُقْرِفين ولم يذكر الهُجَناء لأنَّهم وإن كانوا يأخذون مأخذَهم فى أنّه لا يَخلُصُ نَسَبُهُمْ ، [ولا يصفو سببُهم(٢)] ، فنافيهم أشدّ نقدًا، ومزيِّفهم أنكَرَ دَفْعًا . وكان عَنْتَرَة العَبْسِى هجينًا فقال :

إنِّى امرؤٌ من خَيرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا شَطْرِى وأَحمِى سائرى بالمُنْصُلِ

[نافيًا للإقراف(٣)] ، فجعل أحد شَطْرِيه من خير عَبْس ، وجعل الباقىَ يحميه من الذّم باستعمال السَّيف يوم الرَّوْع ، وحسنِ البلاء فى الحرْب ، حتَّى

(١) التبريزى والمبهج : « أنيف بن زبان النبهانى » .
(٢) التكملة من م .
(٣) التكملة من م . وما بعده إلى « عبس » ساقط من م .

يُلْحِقَهُ بالخُلَّصِ ، ولا تَقْعُدَ به هُجْنَتُه عن الدُّخُولِ فى زُمْرَةِ الصُّرَحاء .

٣ ــ لَهُمْ عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيسَ رِعَالُهَا

الرَّعيل: قطعةٌ من الخيل متقدِّمَةٌ ، وتوسَّعوا فقالوا : أراعيلُ الرِّياح . ويقال: استَرْعَلَ فُلَانٌ ، أى خَرَجَ فى الرَّعيل الأول . يقول : سَوَابِق هذه الكتائب وأوائلُها قد جاوزت بلادَ طَسْمٍ وجَدِيسَ ، ولواحِقُها قد شُحِنَتْ بها هذه المواضع . وبين بلاد حَيَّىْ جديسَ والبقاعِ التى ذكرها مَسَافَةٌ بعيدة . واللِّوى ، حيثُ يرِقُّ الرَّملُ فيخرج السائر فيه إلى الحَزْن . وطَسْمٌ وجَدِيسُ : أمّةٌ من العرب بادوا وانقرضوا . وقيل أراد بالحَيَّيْن جَدَسًا[1] وجَدِيسًا ، وذَكَرَهُم والقَصْدُ إلى ديارهم وبلادهم ، ورتَّبَ المواضع الذى عدَّدَها بالفاء ، وجعل أعجاز الكتائب فيها تكثيرًا لها .

٣ ــ وتَحْتَ نُحُورِ الخَيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ تُتَاحُ لِغِرَّاتِ القُلُوبِ نِبَالُها

رَجْلَةٌ موضوعةٌ لأدنَى العدد ، بدلالة أنك تقول : ثَلَاثَةُ رَجْلَةٍ . ومن عادتهم أن يُقَدِّمُوا الرَّجَّالة عند تعبئة الجيش ، ليستَنِدُوا إلى الفُرسان . وقوله : « وتحت نُحورِ الخيل حَرْشَفُ رَجْلَةٍ » أراد قطعة من الرَّجَّالة . ومعنى تُتاحُ : تُقَدَّرُ وتُهَيَّأُ . ويقال : تَاحَ له كذا وأَتَحْتُهُ أنا ؛ رَجُلٌ مِتْيَحٌ . وموضِعُهُ جَرٌّ على الصِفة لرَجْلَةٍ . فيقول : تحت صدور الدوابّ قِطْعَةٌ من الرَّجّالة تُقَدَّرُ نبالُها للقلوبِ الغافِلة ، أى لا يُشْعَر بهم فإذا نبالُهم تَعمل هذا العمل . والحَرْشَف ، الأصل فيها أن تُستعمل فى الجراد ، ثم استُعير للجماعةِ من الرَّجَّالة على التَّشبيه ، وقال امرؤُ القَيْس :

كأنّهم حَرْشَفٌ مَبْثُوثٌ بالجوِّ إذ تَبْرُقُ النِّعَالُ

(١) فى القاموس : « وجدس محركة : بطن من لخم ، أو هو تصحيف والصواب بالحاء المهملة »

وغِرّاتٌ: جمع غِرّة، وهى صفةٌ، يقال رجُلٌ غِرٌّ وغَرِيرٌ، وجاريةٌ غِرّةٌ وغَرِيرةٌ، ومصدره الغَرَارة.

٤ - أَبَى لَهُمُ أَن يَعْرِفُوا أَنَّهُم بَنُوا نَاتِقٍ كانَتْ كَثِيرًا عِيالُها

هذا الكلام من صفة الكتائب. و« أن يعرفوا » فى موضع المفعول لِأَبَى، وفاعِلُه قولُه «أنهم بنو ناتق». وقولُه « كانت» من صفة الناتق. يقول: مَنَع لهم معرفةَ الضَّيم كثرتُهم وترادُفُهم. والناتق: المرأة الكثيرة الأولاد. وجَعَل العِيال كِنايةً عن الأولادِ، وهو جمعُ عَيِّل، كجَيِّد وجِيَاد. يقال: عند فلانٍ كذا عيِّلاً، وهو مُعْيِلٌ ومُعَيِّلٌ[1]: كثير العيال. والفِعل من ناتقٍ نَتَقَتْ تَنْتِقُ نَتْقًا.

٥ - فلمّا أَتَيْنَا السّفْحَ من بَطْنِ حائلٍ بحيْثُ تلاقَى طَلْحُها وسَيالُها

الباء من قول « بحيث » تعلّق بفِعلٍ دَلّ عليه أَتينا، كأنه قال: حَصَلْنا بحيث تَلاقَى طلحها وسيالُها. وموضِعُه من الإعراب نَصْبٌ على الحالِ للمضمرِين فى أَتيْنا. والسَّفْحُ: أسفل الجبَل، ولاشتهاره بما وُضع له أغْنَى عن إضافته إلى الجبل. والطَّلْحُ والسَّيَالُ: شجَرانِ. فيقول: لما بلغنا أسفَلَ الجبل من بطن هذا الوادى بحيث التقى هذان الجنسان من الشجر. وهذا إشارةٌ منه إلى موضِع العِراكِ والقِتال. وجوابُ لمّا فيما بعده.

٦ - دَعَوْا لِنِزَارٍ وانْتَمَيْنَا لِطَيِّئٍ كأُسْدِ الشَّرَى إقدامُها ونِزَالُها

انتمينا: انتسبْنا، أى قالوا يا لَنِزَارٍ، وقلنا نحن: يا لَطَيِّئٍ، مشابهين للأسود. وقوله « كأُسْد الشَّرَى » حذَف المضاف وأقام المضاف إليه مَقامه، كأنه قال: وكإقدام أُسْد الشَّرَى إقدامُها ونِزالُها وجاز الحذفُ لأنه لا يلتبس

(١) كذا فى الأصل. وفى م: « مُعَيِّل ومتعيِّل »، وكلاهما صحيح.

وجهُ التشبيه بغيره . ومعنى « دَعَوْا لنزار » : انتسبوا إلى نِزار . وهذا الاعتزاء الذى أشار إليه قد يفعله الفارسُ عند الطعن والضرب أيضاً ، يقولُ الواحدُ منهم : خُذْها وأنا من بَنى فلان ، وأنا فلان بن فلان .

٧ ـ فلمَّا الْتَقَيْنَا بَيَّنَ السَّيْفُ بَيْنَنَا لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُهَا

الإحفاء يكون فى السُّؤال عن الشَّىء ، ويكون فى طلب الشَّىء من الغير ، وهو المبالغةُ فيهما ، والذى بيّنه السَّيفُ هو حُسْن بلاءِ أحدِ الفريقين وزيادَتُه فيما يُحْمَدُ من الصَّبرِ والثَّبَاتِ على صاحِبِه . وقد حَذَفَه من اللَّفظ لأنَّ المفاعيل تُحذف كثيراً إذا دَلَّ الدَّليل عليها . ومعنى قولِه : « لسائلةٍ عَنَّا حَفِيٍّ سُؤَالُهَا » أنَّ الإحفاء فى السُّؤال والاستقصاءَ فى البحث ، ممَّا يزداد معه بيِّنات الأحوال ، وجَليّات الأمور . وجعَل الحَفِيَّ للسُّؤال على المجاز والسَّعَة . وفسَّرَ قولَه تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ : كأنَّ المعنى كأنك عالمٌ بها ، لمّا كان الإحفاء فى المسألة حقيقاً بأن يؤدِّىَ إلى العِلم بالمسئول عنه . والسَّائلَةُ يجوز أن يريد بها قبيلةً ، ويجوز أن يريد بها امرأةً . وجَعَلَ قولَه « السَّيْفُ » كنايَةً عن أنواع السِّلاح ، بدلالة أنَّه أعادَ ذكر استعمال السَّيف فيما بعده ، لَمّا فصَّل أحوالَهُم وفَسّر مقاماتِهِم فقال : ولمَّا عَصينا بالسُّيوف » .

٨ ـ ولمّا تدَانَوْا بالرِّمَاحِ تَضَلَّعَتْ صُدُورُ القَنَا مِنْهُمْ وَعَلَّت نِهَالُهَا

يقول : ولما تقارَبْنَا باستعمالِ الرِّماح رَوِيَت القَنا من دمائِهِمْ ، وصار النَّاهِلُ منها عَالًّا . والنَّهَلُ : الشُّربُ الأوّلُ ، والعَلَلُ : الشُّرب الثانى كأنَّهم عاوَدُوا الطَّعنَ وكرُّوا حالاً بعد حال . والتَّضَلُّع ، حقيقته أن يُستعملَ فيما له ضِلعٌ ، وعند الارتواء تنتفخ الأضلاع ؛ واستعاره ها هنا . ويقال : تَضَلَّعَ شِبَعاً ، وتَحَبَّبَ رِيًّا . وخَصَّ الصُّدُورَ لأنَّ الطَّعْن بها . ويقال عَلَّ إبِلَهُ يَعُلُّ ويَعِلُّ ، فَعَلَّتْ

هِىَ . وإن شئت على هذا رَوَيْتَ : « وعَلَّتْ نِهالُهَا » ، وإن شئت رويت : « وعُلَّتْ » .

٩ ـ وَلَمَّا عَصِينَا بالسُّيُوفِ تَقَطَّعَتْ وسائلُ كانت قَبلُ سِلْماً حِبالُهَا

وَسَلْتُ إليه وَسِيلةً ، أى تقرَّبْتُ إليه بقُرْبَةٍ . ويقال تَوَسَّلْتُ أيضا . وفى القرآن : ﴿ وابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسِيلَةَ ﴾ . ويقال . عَصِيتُ بالسَّيف[1] ، إذا ضَرَبْتَ به ، وعَصَوْتُ بالعصا . وجَعَل انبتَاتَ الوسائل وانقطاعَ الأواخىّ عند استعمال السُّيوف لأنَّ الأمر يَشْتَدُّ عندَهُ ، والقِناعَ يكشف مَعَهُ . ولهذا لمّا استُوصِف عَمْرو بن معديكرب أنواعَ السِّلاح قال فى السيف : « عِندَهُ تَثْكَلُ الأمَّهاتُ » . وقولُهُ : « كانَتْ قَبلُ سِلْماً حِبالُها » ، يريد به أنّ حبال تلك الوسائل كانت مفتولَةً على الصُّلْح[2] فتقطَّعت باستعمال السيوف ، لأنّ كُلاًّ منها صار واتِراً وموتوراً ، فسقطَ الملامةُ من بينهم .

١٠ ـ فَوَلَّوْا وأَطْرَافُ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمُ قَوَادِر مَرْبُوعَاتُها وطِوَالُهَا

قَوْله : « وأطراف الرِّماح » فى موضع الحال للمضمرِين فى ولَّوْا . وذَكَر الأطْرافَ لأنَّ الطَّعْنَ بها يقع ، وإن كانت الرِّماح بأسْرِها مَقْصُودَةً . يقول : انهزموا وأسِنَّةُ الرِّماحِ متمكّنةٌ منهم ، ومُقْتَدِرَةٌ عليهم ، طِوَالُهَا وأوساطُها . والمَرْبُوع والمُرْتَبِع[3] : ما كان بين القصير والطويل ، ومنه رَجُلٌ رَبْعَةٌ . وإنّما قال ذلك لأنّ المنهزمين إذا مَنَحوا أكتافَهم لمن يَطلُب أثرهم ويقصِد النِّكاية فيهم ، فتأثير الأسلحة على اختلافها متقارب . وارتفَع « مربوعاتُها » على البَدَل من الأطراف . وهذا يُبيِّنُ أنّ القَصدَ بها إلى جميعها ، لا إلى بعضها .

(١) كذا جاءت هذه اللغة فى الأصل وم . ويقال أيضاً : عصاه يعصوه ، وعصاه يعصاه .
(٢) كذا فى م مع أثر تصحيح من الناسخ . وفى الأصل : « الصلاح » .
(٣) المرتبع ، بفتح الباء وكسرها ، كما فى اللسان (ربع ٤٦٣) ، وجاءت اللغة الأولى فى م ، والأخيرة فى الأصل .

٣٤

قال عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِب[١] :

١ — لَيْسَ الجَمَالُ بِمِئْزَرٍ فاعلمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

قوله « فاعلم » اعتراضٌ تأكَّدَ به الكلام ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجومِ . وإنَّهُ لَقَسَمٌ لوْ تَعلَمُونَ عَظِيمٌ . إنَّهُ لقُرْآنٌ كريمٌ ﴾ ؛ لأن قوله « وإن رُدِّيت » متعلِّقَ بما قبلَه تعلُّقُ جواب القسَم بالقَسَم . يقول : ليس جمالُ المرءِ فيما يلبَسُه من الثياب وإن استَسرَى الملابسَ واختار أرضاها وأكملَها . وكانوا يأتزِرون ببُرْدٍ ويرتدون بآخر ، ويُسَمَّيان حُلَّةً ، وباجتماعهما كان يكمُل اللبُوس ، حتى كانت خِلْعَة ملوكهم لا تعْدُوهما . ولذلك سُمِّيَ من سُمِّيَ ذا البُرْدَيْن . قال :

أيا ابنةَ عبــدِ الله وابنةَ مالكٍ ويا ابنةَ ذى البُرْدَين والفَرَسِ الوَرْدِ[٢]

وقولُه : « وإن رُدِّيتَ بُرْدًا » فى موضع الحال ، كأنه قال : ليس جمالُكَ بمئزر مُرَدًّى مَعَهُ بُرْدًا . والحال قد يكون فيه معنى الشَّرط ، كما أنّ الشرط يكون فيه معنَى الحال . فالأوّلُ كقولِك : لأفعَلَنَّه كائنًا ما كان ، أى إن كان هذا وإن كان هذا . والثانى كبيت الـكِتاب :

* عاوِدْ هَرَاةَ وإن مَعْمُورُها خَرِبا[٣] *

لأنّ الواوَ منه فى موضع الحال ، كما هو فى بيت عَمْرٍو ، وفيه لفظ الشرط ومعناه ، وما قبله نائبٌ عن الجواب . والمعنى : إن خَرِبَ معمور هراة فعاوِدْها . وكذلك بيت عمرو ، تقديره : إن رُدِّيَت بُرْدًا على مئزرٍ فليس الجمالُ ذلك .

(١) سبقت ترجمته فى المقطوعة ٢٩ .

(٢) البيت لحاتم الطائى . وابنه عبد الله هى ماوية بنت عبد الله زوج حاتم . وذو البردين عامر بن أحيمر بن بهدلة . انظر حواشى البيان (٣ : ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) كتاب سيبويه (١ : ٤٥٧) .

٢ ــ إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ وَمَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدا

أراد أنّ جمال المرء فى أصوله الزّكيّة ، وأفعالٍ له كريمةٍ تورث المجد والشرف . والمَعْدِنُ ، هو من عَدَن بالمكان عَدْنًا وعُدُونًا ، إذا أقامَ . وكذلك عَدَنَتِ الإبلُ فى الْحَمْضِ ، وقيل المَعْدِنُ اشتقاقُه من عَدَنْتُ الْحَجَر ، إذا قَلَعْتَه . وإذا جمع الرجلُ بين الشرف الموروث والمستحدث المكسوب فهو النهايةُ . ومَناقِبُ الإنسان : ما عُرِف فيه من الخصال الجميلة ، والطّرائق الحميدة ، والوحدة مَنْقَبةٌ . والنَّقِيبُ كأنه منه . قال الدُّرَيدِيّ : يقال نَقِبَ بَيِّنُ النَّقَابة بالفتح ، مثل كَفِيلٍ بيّن الكَفَالة . فأما التعريف فمصدَرُهُ العِرافةُ بالكسر : والمَجْد : الشرف والرِّفعة ، وسُمِّيَت الأرض المرتفعة مَجْداً ونجداً به . ويجوز أن يكون أصله الكثرة ، يقال أَمجَدْتُ الدّابّةَ علفاً ، أى وَسَّعتُه لها .

٣ ــ أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثانِ سَا بِغَةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى

أَعْدَدْتُ واعتَدْتُ واحد ، والاسم العُدّة والعَتَاد . يقول : هَيَّأْت لنوائب الدّهْرِ ، أى لدفْعِها دِرعًا واسعةً وفَرسًا ضخمًا جَيِّدَ العَدْو كثيره . والعَلَنْدَى أَلِفُهُ للإلحاق ، كسفَرْجَل . وأصل الكلمة ثلاثِيٌّ ، والنون والألف زائدتان ، فهو من العَلْد . قال الخليل : هو الغليظ الشّديد من كلِّ شىء . والدلالة على أن الألف للإلحاق أنّك تقول للمؤنث عَلنداةٌ ، وأنّك تنوّن فتقول عاندًى . وذكر بعضهم أنَّ العَلَندَى : الضَّخم من الإبل والخيلِ جميعا ، وجمعه عَلانِد وإن شئت عَلادٍ ، كما قالوا فى حَبَنْطَى حَبَانِطُ وحَبَاطٍ . وفرسٌ عَدّاء وعَدَوَانٌ ، إذا كان كثير العَدو .

٤ ــ نَهدًا وذَا شُطَبٍ يقُدُّ البَيْضَ والأبدانَ قَدًّا

نَهْدًا ، أى فرسا غليظا . والنُّهود فى الثدى : بيانُ حجمه ونُتوُّه من هذا .

وسَيْفًا ذا شُطَبٍ : ذا طرائق ، يقطع البَيْض والدُّروع قَطْعًا . والقَدّ : القَطْعُ طُولًا ، والقطُّ : القطع عرضا . والبَدَنُ من الدِرع : قدر ما يَسْتُر البَدَنَ . ويقال سَيْفٌ مُشَطَّبٌ : فيه شُطُوبٌ وطرائق .

٥ – وعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْـــدَا

قوله : « يومَ ذاك » يجوز أن يُشَارَ بذلك إلى أَمْرٍ قد عَلِمَهُ السامعون ، وهو الحرْب ، لأنّ النِّزال يكون فيها . ويجوز أن يكون أشار به إلى السِّلاح الذى زَعم أنه أعَدَّه . ويومُ السِّلَاحِ : يوم الحرب . ويجوز أن يكون أشار به إلى الحَدَثان ، لأنه قد قال « أعدَدْتُ للحَدَثان » . ومعنى البيت : علمْتُ أنّ مُنَازِلٌ هؤلاء فأعددتُ لهم هذا السِّلاح ، لعلمى بالحاجة إليه . والحَازِمُ يتهيّأُ للأمر قبـل وقوعه ، فكأنه قال : فعَلْتُ ذلك بحزامتى[1] ، وعلمى بموارد الأمور ومصادرها .

٦ – قَوْمٌ إذَا لَبِسُوا الحَدِيـ دَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقِدًّا

انتصب حَلَقًا على أنه بَدَلٌ من الحديد ، ويُريدُ به الدُّروع التى نُسِجَتْ حَلْقتين حلقتين . والقِدُّ ، أراد به اليَلَب ، وهو شبه دِرْعٍ كان يُتَّخذ من القدّ . ويروى : « خُلُقًا وقَدًّا » ويكون انتصاب خُلُقًا على التمييز ، أى تشبَّهوا بالنَّمِر فى أخلاقهم وخِلَقِهم . ودَلّ على الخِلَق قوله قَدًّا . ومعنى الرواية الأولى أنهم إذا لبِسُوا الحديد الدروع واليلَب تشبَّهوا بالنَّمِر فى أفعالهم فى الحرب . ويجوز أن يُريدَ بتنمَّروا تلوّنوا بألوانِ النَّمر ، لطُول ثَباتِهم وملازمتِهم الحديد ، وحينئذ يصحّ أن يكون انتصاب حلقًا على التمييز . والمعنى الأوّل أجود . فإن قيـل : كيف دخل قولُه : « وقِدًّا » بالعطف على حَلَقًا فى أن يكون بدلًا من الحديد

(١) م : « لحزامتى » .

وليس منه ؟ قيل : لمّا كان يُغْنى غَناء دِرع الحديد ، جاز أن يصحبه فى أن يكون بدلاً . وقوله « إذا لبِسُوا الحديد » ظَرْفٌ لتنمَّرُوا .

٧ ــ كلُّ امرئ يَجْرِى إلَى يوْمِ الهِيَاجِ بِمـا اسْتَعَدّا

هذا كما قيل فى المَثَل : « قبل الرِّماء تُملأُ الكنائن[1] » ، فيقول : كلُّ رَجلٍ يجرى إلى يوم الحرْب بما أعَدَّه واستعدَّه . والضمير من صلة « ما » محذوفٌ استطالةً للاسم . ويجوز أن يكون استعدَّ فعلاً ليوم الهياج لا لكل امرئ ، ويكون معناه بما كلَّفَ يوْمُ الهياج أن يُعَدَّ له . يقال : استعددته كذا ، أى سألته أن يُعِدَّ .

٨ ــ لمّا رأيتُ نِسَاءنا يَفْحَصْنَ بالمَعْزَاء شَدَّا

الأمعز والمَعْزَاء : الأرض الحَزْنَةُ ذاتُ الحجارة ، والجميع المُعْز والأماعز والمَعْزاوات . والأصل فى المَعَز الصَّلابة . ويقال رجل ماعِزٌ ومَعِزٌ . ويُروى : « يَفْحَصْن » ، ومعناه يؤثِّرن لشدّة العَدو فى المَعْزاء ، حتَّى يصير به لآثارهن كالأفاحيص . ويقال : استَضْحَك فلانٌ حتى فَحَص برجلَيْه . وقيل على التوسُّع : فحَصْتُ عن الأمر . وينتصب « شَدًّا » على أنْ يكون مفعولاً له ، كأنّه قال : يَفْحَصَن بالمَعْزَاء لشَدِّهنّ ويجوز أن يكون شَدًّا مصدرًا فى موضِع الحال ، أى يفعلن ذلك بالمعزاء شَادَّاتٍ . ويروى : « يَمْحَصْن » ، والمَحْصُ : العَدْو الشديد ، وينتصب شَدًّا على أنَّه مصدرٌ من غير لفظه ، كأنّه قال يشدُدْن شَدًّا ويمْحَصْن مَحصًا . وجواب لمَّا قولُه « نازلت » ، وسيجىء من بعده . وإنَّما عَمِلت النِّساء ما ذَكَر إشفاقًا من الغارة والسِّباء .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٧٦ .

٩ – وبَدَتْ لَمِيسُ كأَنَّها بَدْرُ السَّماءِ إذا تَبَدَّى[١]

قولُه : « كأنَّها بدرُ السماء » فى موضِع الحال للمرأة ، أى بَدَتْ مُشْبِهَةً البَدْر ، وقولُه : « إذا تبدّى » ظَرْفٌ لما دَلّ عليه كأنّ من معنى الفِعْل . يقول : وبرزَتْ هذه المرأةُ كاشفةً عن وجهها سافرةً ، كأنّها قد أرسلت نِقابها . ودَلَّ على هذا بقوله : « كأنّها بدرُ السَّماء إذا تَبَدَّى » . وإنما فَعلَتْ كذلك لأحد وجهين : إمّا للتَّشبُّه بالإماء حتى تأمَنَ السِّباء ، أو لما تَداخَلَها من الرُّعب . وفى طريقته :

وَنِسْوَتُكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وُجُوهُهَا يُخَلْنَ إمَاءً والإماءُ حَرَائِرُ[٢]

١٠ – نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ أَرَ من نِزَالِ الكَبْشِ بُدَّا

لا بُدّ يستعمل استعمالَ لا محالة ، وتحقيقه لا مَحِيدَ ولا مَعْدِل . ومنه قولُهم : استبدَّ فلانٌ بالأمر ، أى انفرَدَ به . والبَدَدُ والتَّبَدُّد : مَصْدَرُ الأبَدّ . وهذا جواب قوله : « لما رأيتُ نساءنا يَفْحَصْنَ » . وكَبشُ الكتيبة : رئيسها[٣] . فيقول : لمّا رأيت الأمْرَ على ما ذكرْتُ أنِفْتُ وقصدْتُ رئيسَ الأعداء وملاقاتَه ولم أجِدْ من ذلك بُدًّا . وإنَّما قال : « نازلتُ كبشَهم » ليُرِيَ أنَّه ممن تدعوه نفسُه إلى مُجاهدة الرُّؤساء والتعرُّضِ لهم فى الحرب ، وأنّه ممن لا يرضَى عن المبارَزة بالمنزِل الأدْنَى . والرَّئيسُ متى كان واثقا بنفسه طلبَ أمثالَه ، واستَعْفَى من مبارزة مَن لا يُؤْبَه له ، وتفادَى منها ، إلاَّ عند الضَّرورة .

---

(١) روى التبريزى بعد هذا بيتاً لم يروه المرزوقى ، وهو :
وبَدَتْ مَحاسِنُها الَّتِى تَخْفَى وكانَ الأمرُ جِدَّا

(٢) البيت لسبرة بن عمرو الفقعسى . وهو من أبيات الحماسة .

(٣) ابن جنى : « أعاد لفظ الكبش دون ضميره لأنه موضع تفخيم وتعظيم ، وكان إعادة لفظ المعظم أوكد وأفخم » .

١١ – هُمْ يَنْذِرُونَ دَمِي وأَنْـ ـذِرُ إِنْ لَقِيتُ بِأَنْ أَشُدَّا

يقول : هم يقولون لله علينا سَفْكُ دَمِ عمرو ، وأنا أقول لله علىَّ أن أحملَ عليهم وأبذُلَ نفسى لهم ، ثقةً بكِفايتى واستهانةً بنذرِهم . ويقالُ فى الحَمْلة : شددنا عليهم شَدَّةً صادقةً ، وشدة غيرَ كاذبةٍ ، إذا أرادوا المبالغة .

١٢ – كَمْ مِنْ أَخٍ لِيَ صالحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَـدَىَّ لَحْدَا

بوَّأْتُه مُبَوَّأَ صِدْقٍ : أنزلتُه . والَمباءة : المَنزِل . وإنما فرَغَ من التبجُّح بالشجاعة ثم ذكر صبرَه على البلاء ، وتوطِينَ نفسه على اللَّأْواء ، فيقول : كم من أَخٍ موثوقٍ به فُجِعْتُ بموته ، وأُحوِجتُ إلى تولى دفنِهِ ، ومباشرةِ تجهيزه . وهذا إذا ابتُلِى به المرء كان أعظَمَ لجزَعِه ، وأنكَى فى قلبه .

١٣ – ما إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْـ ـتُ ولا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا[1]

الهَلَعُ : أَفْحَشُ الجزَع ، لأنه جَزَعٌ مع قِلَّة صبر . وقد فسَّره التنزيل فى قوله تعالى : ﴿ إنّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا . وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعًا . إلاّ المُصَلِّينَ ﴾ . لأن المعنى أن الإنسان لا يصبر على ضَيْرٍ ، ولا على خَيْرٍ ، فكأنّه قال : ما حزِنْت عليه حُزنًا هيِّنًا قريبا ، ولا فظيعاً شديدا . وهذا نَفْىٌ للحُزْن رأسًا ، فهو كقولك : ما رأيتُ صغيرَهم ولا كبيرَهم . وقد أعطى التّرتيبَ حَقَّه لأنّه ارتقى فيه من الأدْوَن إلى الأعلى ، إذ كان قوله « ما إنْ جَزِعْتُ » وإن كان مستصلَحًا لجميع أنواعه مُفيداً للأدْوَان ، وقد جاء بعدَهُ « ولا هَلِعْتُ » ، وقوله : « ولا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا » ، وكان بعضُ الناس

(١) أشار التبريزى إلى رواية ابن دريد :

ما إنْ جزِعت ولا هلِعْـ ـت ولا لطمت عليه خدا

يرويه : « ولا يرُدُّ بُكاى زَيْدًا » ، وزعَمَ أنه أخٌ له . ورأيت مَن زعَمَ أنه فتَّشَ عن نَسَبِ عمرٍو فلم يجد له نَسِيبًا[1] ولا شقيقاً يسمَّى زيدا . على أنّ قوْله « كم مِن أخٍ لِىَ صالحٍ » لا يلائمه — فيما يقتضيه سِياقُ اللفظ ونظام المعنى ، ومع إفادته الكثرة — أن يُقابَل بِوَلاَ يَرُدّ بكاى أخى زَيْدًا مع تخصُّصِه . فأما من روى « زَنْدًا » فبعض الشيوخ كان يقول : أراد ولا يَرُدّ بكاى شَرَرَة ، فذكرَ الزَّنْدوأراد ما يَخْرُج منه عند القَدْح . وأحسَنُ من هذا أن يكون ذكر الزَّندَ تقليلاً لعائدة الحُزْنِ لو تكَلَّفَه عند ما دَهِمَه من الفَجيعة بالأخ المذكور . وهم يستعملون الزَّنْدَ فى هذا المعنى ، كما يستعملون الفُوفَ والنَّقيرَ والقِطميرَ والنَّتيل . وحكى أبو زيدٍ أنهم يقولون إذا قلَّلوا مالَ الرجل : « زَنْدَانِ فى مُرَقَّعَة[2] » . وهذا المعنى حسنٌ ، والشاهِدُ له قوىٌّ . ورأيت فى بعض النُّسخ : « ولا يردُّ بكاى رَدًّا » ، وهذا حسنٌ أيضا ، ويكون المعنى : ولا يرُدّ بكائى مردودا . والمعنى : ولا يُغنى بكائى شيئا . وفى كلام الناس : هذا الأمرُ أرَدُّ عليك ، أى أنفعُ وأجْدَى . وإنما عَقَّبَ نَفْىَ الجَزَع بهذا الكلام تنبيها على أنّ صبرَه عن تأدُّبٍ وتبصُّرٍ ومعرفةٍ بالعواقب ، وحُسْنِ تأمُّل .

١٤ — أَلْبَسْتُهُ أثْوَابَهُ وخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدَا

يقول : تولَّيت تكفينَه وتجهيزَه بنفسى ، وخُلِقتُ صبوراً حين خُلِقتُ . وهذا يريدُ به أنه جمع إلى الجَلادة المكتسَبة جَلادَةَ الخِلقَةِ والطبيعة .

١٥ — أغْنِى غَنَاءَ الذَّاهِبِينَ عدٌّ للأَعْداءِ عَدَّا

قول « الذاهبين » يجوز أن يريدَ بهم مَن انقرضَ من عشيرته وذويه ، ويكون المعنى أنه المعتمَدُ عليه بعدهم ، ويجوز أن يريدَ بهم المتغيِّبين عن

---

(١) فى الأصل « نسباً » صوابه فى م .

(٢) المرقعة : كناية أو خريطة قد رقعت . أمثال الميدانى .

المشاهِدِ والمَعارِكِ . وقولُه « أَعَدُّ للأَعداءِ عَدًّا » يجوز أن يكون المعنى : يقال فيَّ للأَعداء : خُذُوا فلانًا فإنه يُعَدُّ بكذا وكذا من الفرسان . ويقال إن عمرا كان يعدّ بألف فارسٍ . ويجوز أن يكون المعنى أُهَيَّأُ للأَعداء مَعْدُودًا ، فيكون عَدًّا انتصابه على الحال ، وموضوعًا موضِعَ المعدود ، وأُعَدُّ مستقبل أُعْدِدْتُ ، أى هُيِّئت . وفى الأول يكون مَصدَرًا لأُعُدُّ . والواحد لا يصح عَدُّه ولكنْ كأنه يقال فيه : إنه يقوم مقام كذا وكذا من العَدَد . ويروى « أَعُدُّ للأَعداءِ » بفتح الهمزة ، ويحتمل وجهين من المعنى : أن يقول أعدُّ لهم وقَعاتى وأيَّامِى عند المفاخرة والمنافرة عَدًّا ؛ وهذا معنى حَسَنٌ . والآخر أن يكون المعنى : أَعُدُّ لهم كلَّ ما يُحتاج إليه من عَدَدٍ وعُدَّةٍ ، وهذا يؤذِنُ بأنه يدبِّرُ أمرَ الحربِ ، ويُرْجَعُ إليه فى أسبابها والجمع لها وهذا يرجع معناهُ إلى معنى مَن يَروِى « أُعِدُّ للأَعداء » بضم الهمزة وكسر العين . وفى هذه الرواية يجوز أن يكون عَدًّا مفعولاً به ، والمعنى : أُعِدُّ لها معدوداتها .

١٦ – ذَهَبَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدَا

يقول : فُجِعْتُ بأَحبَّائى وبَقِيت منفرِداً بالسِّيادة ، فأَنا كالسَّيْف لا يُجْمع اثنان منه فى غِمدٍ . ويجوز أن يكون : بقيت لنفاذى فى الأمور ومضائى كالسيف . وفرْدًا ينتصب على الحال ، أى منفرِدًا .

٣٥

وقال عمروٌ أيضاً :

١ – ولَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَيَّ بِهاَ حَذَرَ المَوْتِ وإِنِّى لَفَرُورْ(١)

هذا كلام من جَمَع إلى شجاعَتِه وإقدامه حَذَرًا وحَزَامَة ، وإلى جرأته وتهوُّره

(١) هذه المقطوعة رويها فى الأصل مقيد بالسكون ، وهى فى م مطلقة الروى بالضم . وقال التبريزى : « من الرمل الأول إذا أطلقت ، ومن الثانى إذا قيدت ، مردف فى الضربين جميعاً ، والقافية من المتواتر إذا أطلقت ، ومن المترادف إذا قيدت » .

رِفقًا وأَصَالَة ، ثم يكونُ عارفًا بوقت كلٍّ منها ، وبالحالة الموجِبة لاختياره بَعْضَها . وأَجْمَعُ رِجْلَيَّ ، أى أستَحِثُّ فَرَسِى . وهو من فصيح الكلام ، ومن العبارة التى تصوِّر المعنى . ومن لفظِهِ وبابِهِ قولُهم : جَمَعْتُ يَدِى على كذا[1] ، ورفَعْتُ يَدِى عن كذَا . وحَذَرَ الموت ، انتصب على أنّه مفعولٌ له ، والضميرُ من قولِهِ : « بها » للفرس . والمعنى: أركُضُها وأستدِرُّ جريَها ، ذَهابًا فى الفِرار ، واحترازًا من الموت إذا كانَ الوقتُ وقْتَهُ ، وإنِّى لكثيرُ الحربِ إذا كان الهربُ أغْنَى ، وإلى مراغَمة العدوِّ أدْعَى .

٢ — وَلَقَدْ أَعْطِفُهَا كارِهَةً حِينَ لِلنَّفْسِ مِنْ الْمَوْتِ هَرِيرُ

يقول : كما أهْرُبُ وقت الهرب فإنِّى أعطِفُ وقتَ العطف ؛ لأنّ الكرّ والفرّ من شأنى ، والإقدامَ والإحجام عادتِى ودَأْبِى .وأشار بقوله :«حين للنَّفس من الموت هَرِير» إلى شدة الأمر وتفاقُم الخطْب . أى أعْطِفُ الفَرَسِ وهى كارهةٌ فى الوقت الذى تَهِرُّ النفسُ وتضِجّ من شِدّة البَلْوَى. والهَرِير ، قيل هو دون النُّباح .

٣ — كُلُّ ما ذلك مِنِّى خُلُقٌ وبِكُلٍّ أنا فى الرَّوعِ جَدِيرُ

« ما » زائدةٌ . وأشار بقوله : « ذلك » إلى ما قَدَّمَه من الكرِّ والفرّ . أى كلُّ ما وَصَفْتُ عادةٌ منّى وطبيعةٌ ، وبفعلِ كُلِّه أنا خَليقٌ فى الرَّوع . ويقال : هو جَدِيرٌ بكذا ، وجدير لكذا ، وجديرٌ أن ينال كذا ، ولقد جَدُرَ جَدَارَةً ، وأجدِرْ به أن يفعَلَهُ . قال :

---

(١) فى الأصل : «على يدى» ، وأثبتنا ما فى م .

* جَدِيرُونَ يَوْمًا أن يَنَالُوا ويَسْتَعْلُوا[١] *

٤ ــ وابنُ صُبْحٍ سَادِرًا يُوعِدُنى مَا لَهُ فى الناسِ ما عِشْتُ مُجِيرْ

قال الدُّريدى : يقال أَتى فُلانٌ أمرَه سادرًا ، إذا جاءه من غير جهتِه . يقول : وهذا الرّجلُ مع ما ذكرتُ من قِصَّتِى فى الحرب يتهدَّدُنى ساهيًا لاهِيًا ، ومَا لَهُ عاصِمٌ منِّى فى الناسِ ما عِشْتُ . وموضِعُ « ما عِشْتُ » ظَرْفٌ ، بيانُه أنَّ ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسم الزمان محذوف معه ، كأنه قال : مدَّةَ عيشى .

٣٦

قَيْسُ بن الخَطِيمِ الأوسِىُّ[٢] :

١ ــ طَعَنْتُ ابنَ عبدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ لَهَا نَفَذٌ لَوْلاَ الشَّعَاعُ أَضَاءهَا[٣]

الشَّعُّ والشَّعَاعُ : المتفرِّق . ومنه شَعَّ الغارَةَ ، وتَطايَرَ القومُ شَعَاعًا . يقول : طَعَنْتُ هذا الرجُلَ طَعْنَةَ طالبٍ بالدّم فاتِكٍ[٤] لا مُبْقِيًا معها ، ولا تقصيرَ

---

(١) لزهير فى ديوانه ١٠٣ . وصدره :

* بخيل عليها جنة عبقرية *

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو الأوسى ، شاعر فارس ؛ كان له فى وقعة بعاث التى كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة ، كان بينه وبين حسان بن ثابت منافسة : كان حسان يذكر ليلى بنت الخطيم أخت قيس فى شعره ، وكان قيس يذكر عمرة امرأة حسان فى شعره . وذكره بعض المؤرخين فى الصحابة خطأ ، فقد ذكر أصحاب المغازى أنه قدم مكة فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، وتلا عليه القرآن فقال : إنى لأسمع كلاما عجيباً فدعنى أنظر فى أمرى فى هذه السنة ثم أعود إليك . فمات قبل الحول . انظر الإصابة ، والخزانة (٣ : ١٦٨ ــ ١٦٩) والأغانى (٢ : ١٥٤ ــ ١٥٩) ومعاهد التنصيص (١ : ٦٧) .

(٣) روى التبريزى هذه المقطوعة تسعة أبيات ، إذ روى بين البيتين الخامس والسادس بيتين آخرين سننبه عليهما فيما سيأتى .

(٤) م : « قاتل » .

فى المبالغة فيها، لها نَفَذٌ، أى خَرْقٌ، لولا انتشار الدَّم لأضاءها. وأضاءها جواب لَوْلاَ، والمبتدأ وهو «الشَّعَاع» خبرُه محذوف، كأنّه قال: لولا الشَّعَاع مانعٌ لأضاءها النَّفَذُ. ومن رَوَى «الشُّعَاعُ» بضمّ الشين، فإنّه يُرِيدُ به نُورَ الشَّمس. والأوّل أَجْوَدُ وأشهر. ويقال: أشعَّتِ الشّمسُ، إذا امتدّ نُورُها وانتشر.

٢ـــ مَلَكْتُ بها كَفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَها يُرَى قائمًا مِنْ دُونِها ما وَرَاءَها

يُروى: «يرَى قائمٌ من دونها مَن وراءها» و«ما وراءها»، ويُروى: «يرَى قائمًا» أيضاً. ويقال: مَلَكْتُ العجين وأمْلَكْتُه، إذا بالغْتَ فى عَجْنِهِ وشدّدت. وكان الأصمعيّ يمتنع من أمْلَكت، فيكون المعنى شَدَدت بهذه الطعنةِ كَفِّى ووسَّعتُ خَرْقَها حتى يرَى القائمُ من دونها الشىءَ الذى وراءها. وهذا التفسير فى ملَكتُ تفسير القدماء. ويجوز أن يكون معنى «ملَكْت بها كفِّى» أى تمكّنت من فعلها، فأطقْتُ تصريفَ كفِّى فى إيقاعها على مرادى. وهذا كما يقول[1]: أنا أمْلِكُ هذا الأمر، إذا كان قادِراً عليه. وكأنه أشار بهذا الكلام إلى أن الطعنةَ لم تكن على دَهَشٍ واختلاس، ولكن عن تمكُّنٍ واقتدار. ويروى: «يُرَى قائما مِن دونها مَنْ وَراءها» و«ما وراءها» ومن روى «مَن وراءها» فالمعنى يُرَى مَن وراءها إذا كان قائما مِن دونها. ووراء ههنا بمعنى خَلْف، وإن كان يقع على الخَلْف والقُدَّام جميعا. ومِن دُونِها، أى من قُدَّامِها. وبيت الأعشى على هذا، وهو قوله:

* تُرِيكَ القَذَى من دُونِها وهى دُونَهُ[2]

أى تريك الخمرةُ فى الزجاجة القَذَى من قُدَّامِها، وهى قُدَّام القَذَى؛

(١) فى النسختين: «تقول».
(٢) عجزه كما فى ديوان الأعشى ١٤٧:
* إذا ذاقها من ذاقها يتمطّق *

أى تريك الزُّجاجةُ ما خلفها من قدّامها لصفاء الخمرة فيها . ومعنى أَنْهَرْتُهُ : وسَّعْتُه حتى جعلته كالنَّهر سَعَةً . والنهر نفسه سُمِّىَ بذلك لاتّساعه . ومنه المَنْهَرَةُ ، وهى فَضَاءٌ بين بُيُوتِ الحىّ يلقُون فيه كُنَاسَتَهُم . وفى هذا الوَصْف سَرَفٌ مُسْتَنْكر وخروجٌ عن القَصْدِ مُسْتَهْجَن . ويجرِى مَجْراه فى الغُلوّ قول مُهَلْهِل :

فلوْلاَ الرِّيحُ أَسْمَعَ أَهْلَ حَجْرٍ صَلِيلَ البَيْضِ يُقْرَعُ بالذُّكُورِ (١)

واستعمل عنترةُ لَفظَ الإنهار مع اقتصادٍ فقال :

أَنْهَرْتُ لَبَّتَهُ بأَحْمَرَ قانِئٍ ورَشَاشِ نافِذَةٍ على الأثوابِ

٣ – يَهُونُ عَلَىّ أنْ تَرُدَّ جِرَاحُها عُيُونَ لأَوَاسِى إذْ حَمِدْتُ بَلاءَها

الأواسِى : النِّساء المداويات للجِراح ، والفِعْل منه أَسَوْتُ . ويقال للرِّجال الآسُونَ والأُساةُ . وإنما ذَكَر النِّساءَ لأنهم يأْنَفُونَ من الصناعات ، ويعلّونها العَبِيد والإماء وحرائرَ النساء أحيانًا ، إذ لم يكُنَّ فى غايةٍ بعيدةٍ من الشَّرَف . وقوله « أن تَرُدّ » موضعُهُ رَفْعٌ على أنه فاعِل يَهُون . و « إذ حَمِدْتُ » ظَرْفٌ ليَهُونَ ، وهى حكاية حالٍ ماضية . والمعنى : يخفُّ عَلَىّ رَدُّ جِراح هذه الطعنة عيونَ النِّساء المداويات لها ، إذ حَمِدْتُ أثرى فيها . وبلاءها ، يجوز أن يكون المراد بلائى فيها ، ويجوز أن يريد ببلائها شدّتَها وفظاعتَها . والمصادر تُضَاف إلى الفاعِلين والمفعولين جميعا .

٤ – ساعَدَنى فيها ابن عمرو بن عامرٍ زُهَيْرٌ فأَدَّى نعمةً وأَفاءَها (٢)

---

(١) انظر البيان (١ : ١٢٤) والحيوان (٦ : ٤١٨) ونقد الشعر ٨٤ ، والموشح ٧٤ ، والعمدة (٢ : ٧٠) والأغانى (٤ : ١٦٤) .

(٢) التبريزى : « خداش فأدى » . وروى من الخبر : أن خداش بن زهير كان للخطيم والد قيس عنده يد ، فدل قيسا على قاتل أبيه وأعانه عليه ومكنه من أن ينال ثأره . وقد ساق الآمدى فى المؤتلف ١٠٧ نسب خداش ، وهو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

يجوز أن ينتصب نعمةً على الحال ويكون مفعول أدّى محذوفاً كأنه قال : فأدّاها نِعمةً ويَدًا يَستحِق عليها شُكرًا ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول أدّى ، ويكون المعنى : ساعَدَنى فى هذه الطعنة زُهير بن عمرو ، فأدّى صنيعة كانت لى عندهُ بمُساعدته ، واتخذها مَغْنَماً لنفسِهِ أيضا . ويجوز أن يكون أفاءها من الفىء : الغنيمة ، وهذا قول أبى عبيدة . ويجوز أن يكون أفاءها من الفَيْءِ : الرجوع ، أى أدّاها ورجعها إلى مُصْطَنِعِها ، لأن الأيادى قُروضٌ فى الصالحين .

٥ — وكنتُ امرأً لا أَسمَعُ الدّهرَ سُبّةً أُسَبُّ بها إلاّ كَشَفْتُ غطاءَها[١]

يُرْوَى « لا أَسمَعُ » و « لا أُسمَعُ » . ومن الغطاء قيل غَطَا الليلُ ، وغطا عليهم الشرُّ وغيره . يقول : كنت رَجُلاً لا أُعَيَّرُ شيئاً طول الدّهر إلا بيَّنْتُ للناس براءةَ ساحَتى منه . وحقيقةُ « كشفْتُ غِطاءها » أى لم أترُك السُّبَّةَ ملتبسةً على سامِعِها ، فكان يتردّد بين تصديقها وتكذيبها ، بل أَبَنْتُ أمرَها[٢] وأظهرتُ وجهَها ، حتى بان للناس اختلاقُ السابِّ بها ، وكِذَابُه فيها . والسُّبَّةُ ، كالغُمَّةِ والغُصَّةِ وما أشبهها . وذهب بعضُهم إلى أن المعنى : إذا رُميت بعَيْبٍ كان حَقًّا عَلَىَّ مَحْوُه عن نفسى ، بما استأنِفُه من سَعْيى . والأوّل أحسن .

٦ — مَتَى يأتِ هذا الموتُ لا تَبْقَ حاجةٌ لِنَفْسِىَ ، إلاّ قد قَضَيْتُ قضاءها[٣]

---

(١) روى التبريزى بعده هذا البيت :

فإنِّىَ فى الحرب الضَّروس مُوَكَّلٌ بإقدام نفسٍ ما أريد بقاءَها

وقال فى تفسيره : « الضروس : الشديدة ، من ضرس البئر ، وهو طيها بالحجارة . ويروى : العوان ، وهى التى قوتل فيها مرة بعد مرة » . ثم روى بعد هذا البيت الزائد ، البيت رقم ٧ لرواية « إذا ما اصطبحت أربعاً » .

(٢) م : « بأن أبنت أمرها » .

(٣) روى هذا البيت عند التبريزى مؤخراً عن تاليه ، ثم روى بعدهما :

يُرْوَى « لا يُلفِ حاجةً » على أن يكون الفِعل للموت ، و « لا تُلْفَ حاجةٌ » على ما لم يسم فاعله ، أى لا توجد . يقول : أجتهد فى إدراك الآثار[(١)] ، وطلب الأوتار ، قبل دُنُوِّ الأجل ، فمتى جاء الموت لا يجدْ حاجةً تتعلَّق نفسى بها قبلُ إلاّ وهى مقضيَّةٌ . ومعنى « قَضَيْتُ قضاءها » أى فرَغْتُ منها كقضائى لأمثالها . وقوله « هذا الموت » يجوز أن يكون تصوُّرُه [حاضراً[(٢)]] لمعرفته بإدراكه لا محالة ، وأشار إليه . ويجوز أن يكون لدوام استقتاله وتحدّثه بمجيئه ، وكوْنه من همّه ، أشار إليه على جهة التقريب له .

٧- إذا ما شَرِبْتُ أَرْبعًا خَطَّ مِئْزَرِى وأَتْبَعْتُ دَلْوِى فى السَّماحِ رِشَاءَها[(٣)]

يقول : إذا شربْتُ أربعةَ أكْؤسٍ جَررتُ مِئْزَرِى ، فأثَّرَ فى الأرض خُيَلاءَ وكِبرًا ، وتمَّمْتُ ما بَقِىَ علىّ من السَّماح فى حال الصَّحْوِ ، كأنّ معظَمَهُ فعلَهُ صاحِيًا ، والباقى منه تمَّمَهُ فى حال السُّكْرِ . وهذا الكلام يجرى مجرى المثل للمعنى الذى بيَّنْت . حَكَى الأصمعىُّ أنّهم يقولون : « أَتْبِعِ الفَرَسَ لجامَها » ، و « أَتْبِعِ الدَّلْوَ رشاءَها » ، أى تَمِّمْ ما بقِىَ عليك من أمرك . وكأنه يُضرِبُ لمن جاد بالكثير وترَكَ القليل الحقير . وهذا أجود من قول عنترة العبسىّ ، وإن

= ثأرتُ عَدِيًّا والخطيمَ فلم أضِعْ ولايةَ أشياخٍ جُعِلتُ إزاءَها

وقال فى تفسيره : « ثأرته : طلبت بثأره ثأراً . والثأر : المصدر . والثأر : المطلوب بالدم ، سمى بالمصدر . يقال فلان الثأر المنيم ، أى هو الذى إذا قتل أنام طالب الدم عن الطلب . والمثور به : المقتول . والثؤرة : المصدر على فعالة . قال الشاعر :

طلبت به ثأرى وأدركت ثؤرتى بنى عامر هل كنت فى ثؤرتى نكسا

وقوله : جعلت إزاءها ، جعلونى أقوم بها . من قولك : فلان إزاء مال ، إذا كان يقوم بإصلاحه » .

(١) آثار مقلوب أثآر ، جمع ثأر . كما فى اللسان .

(٢) التكملة من م .

(٣) التبريزى : « إذا ما اصطبحت أربعا » كما سبق التنبيه .

كان مفضّلاً عند كثير من الناس على قول عمرو بن كلثوم ، وقول عنترة :

وإذا انتَشَيْتُ فإننى مُسْتَهلِكٌ مَالِى وعِرْضِى وافِرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صَحَوْت فَمَا أُقَصِّرُ عن نَدًى وكَمَا علمْتِ شمائلى وتكرُّمِى

وبيت عمرو :

مُشَعْشَعَةً كأَنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماء خَالَطَهَا سَخِيناَ

لأنّ هذا قال : إنا نتسخّى إذا شربنا الخمر ممزوجة . وما قاله عنترة فى بيتين أشار إليه قيسٌ فى مِصْرَاع . وكان ابنُ الأعرابى يذهب فى قوله « سخينا » إلى أنه يقال ماء مُسَخَّنٌ وسَخِينٌ ، وإن كان فعيلٌ فى معنى مُفَعَّل قليلا . وانتصب عنده على أنه حال للماء . ويكون المراد على طريقته : كأنّ الحُصَّ فيها إذا مُزِجَ بماء سخينٍ . وهذا لهَرَبه ممّا استقبحه الناسُ . وهو حَسَنٌ ، لكنَّهُ يقتضى أن يكون بلادُهم صُرُوداً[1] .

٣٧

الحَارِث بن هِشَامٍ المَخْزُومِىّ[2] :

وهو أخُو أبى جَهْلٍ لعَنَهُ الله . وكان هرب يوم بدرٍ لمّا أنزَلَ الله تعالى النَّصْرَ على رسوله عليه السلام .

١ — اللهُ يَعْلَمُ ما تَرَكْتُ قِتالَهُمْ حَتَّى عَلَوْا فَرَسِى بأَشْقَرَ مُزْبِدِ

(١) الصرود : البلاد الباردة ، يقابله الجروم ، وهى البلاد الحارة .

(٢) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، كان شريفا مذكورا ، شهد بدرا مع المشركين وكان فيمن انهزم ، فعيره حسان بقوله :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام

فأجابه الحارث بهذه الحماسية ، ثم شهد أحدا مشركا أيضا ، ثم أسلم يوم فتح مكة ، واستشهد يوم اليرموك . الإصابة ١٥٠٠ والسيرة فى غير ما موضع .

أخذ يستشهد بربِّه ، وينفصل من هربه ، بأنّه لم يأته إلّا بعد غلبة اليأس من نفسه عليه إن ثَبتَ ، وإلّا بعدَ أَن ضُرِّج بالدّم الشامِل له ولفَرِسه . ومثلُه قولُ مهلهل :

لَمْ أَرِمْ حَوْمَةَ الكتيبة حتّى حُذِىَ الوَرْدُ من دُمِىٍّ نِعالا[1]

وهذا قاصِرٌ عن درجة ما تقدّم ، لأنّه يعتذر مما آثَرَه من الهرب فى وقته ، وذاك أوردَه موردَ المتبجِّح ، وأنّه خُلُقُه ومذهبُه ، لِعلمه بمصادر الحروب ومواردها . وقوله : « الله يعلم » لفظُه لفظ الخبَر ، والقصد إلى الحَلِف ؛ لأنّه يستشهد بربّه فيقول : علم اللهُ ما تركتُ مقاتَلتَهُم ، حتَّى جرحونى فسال مِنّى على فرسى دمٌ أشقر كثيرٌ ، علاه زَبَد .

٣ ــ وعَلِمتُ أَنّى إنْ أُقاتِلْ واحِدًا أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِى[2]

أراد : وحتى عَلِمْتُ . وإنما أَطلقَ لَفْظَةَ عَلِمْتُ لارتفاع الشُّبَه عن اعتقادِه ذلك[3] . وانتصب واحداً على الحال ، والمعنى منفرداً ، وواحِدٌ هاهنا صفةٌ ، والمعنى : وحتى تيقَّنْتُ أنى إنْ ثَبَتُّ فى وجوههم ، وأنتصِب منفردًا لمقاتَلتهم قُتِلْت ، ولا يَضُرّ حضورى أعدائى . ونبّه بقوله : «ولا يَضْرُرْ عدوِّى مَشْهدى»

---

(١) الدمى : جمع دم . وفى م : « من دماء » وهما بمعنى .

(٢) روى التبريزى بيتاً بين هذا وسابقه ، وهو :

وشَمِمْتُ ريحَ الموتِ من تلقائهم فى مأزِقٍ والخيلُ لم تتبدَّدِ

قال التبريزى : « ويروى : ووجدت . وهو مثل ، ومعناه أنه غلب ظنه أنه لو وقف قتل . والتلقاء ، مأخوذ من لقيت ، فيجوز أنه يستعمل فى معنى اللقاء . وعلى ذلك حملوا قول الراعى :

أملت خيرك هل تأتى مواعده فاليوم قصر عن تلقائك الأمل

وأكثر ما يستعمل تلقاء فى معنى نحو الشىء ، كما جاء فى الكتاب العزيز : تلقاء أصحاب النار . أى نحوهم » .

(٣) هذا الصواب من م والتبريزى . وفى الأصل : « لإيقاع الشبه على اعتقاده ذلك » .

أنه لو كان فى ثباته ضَرَرُ عدوٍّ لثبتَ فى وجهه ، ولم يُبالِ بقتْله . وقوله « عَدُوِّى » يفيد الكثرة وإن كان لفظُهُ موحَّدًا .

٣ — فَصَدَدْتُ عنهمْ والأَحِبَّةُ فيهِمُ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقابِ يَوْمٍ سَرْمَدِ[1]

يقال : صَدَّ فُلَانٌ عنِّى ، إذا صَرَفَ وجهَه صدودًا ، وصددته أنا عن كذا صَدًّا . وحُكِىَ أصدَدْتُه ، وليس بشىء . يقول : أعرَضْتُ عنهم ودماؤهم وأَسْراؤهم فيهم ، ولم أَنَلْها ولم أظفَرْ بها . وهذا يدُلُّ على أنه كان موتورًا . وإنما حاربَهم لطَلَبِ دماءٍ كانت له فيهم . وقوله « الأحبّة » على هذا التفسير يجب أن تكون أحبَّتَهُم . ويجوز أن يريد بالأحبّةِ أحبَّةَ نفسه ، ويكون المراد : ودماء أحبّتى وأَسْرَاى فيهم . وقوله « طَمَعًا » انتصب على أنه مفعول له ، وهو الذى يسمَّى مصدرًا لِعلَّة . والمعنى : فعلت ذلك لطمعى فى أن يُعْقِبَ الله تعالى لى يومًا يُرْصِدُ الشرَّ لهم ، ويمكّننى منهم ، فأنتهزُ الفرصة وأروِى الغُلّة[2] . ويقال : رَصَدْتُ فلانًا بالمكافأة ، ورَصَدْتُ له أيضاً وأرصدته ، وأنا مُرْصِدٌ لفُلانٍ بما كان منه حتى أكافئه . ويجوز أن يكون انتصاب « طَمَعًا » على أنه مصدَرٌ فى موضِع الحال ، والتقدير : صددت عنهم طامِعًا . والعقاب يجوز أن يراد به العاقبة ، ويجوز أن يراد به المكافأة . يقال : أولاهُ خيرًا فعقبَه بشرٍّ ، عُقْبَةً وعِقابًا وعُقْبَى . وإذا كان للفَرس بعد انقطاع جريه جَمامٌ قيل له عِقابٌ ، وهو من ذاك . ومن روى « يوْمٍ سَرْمَدِ » فالسَّرمد قال الخليل : هو دوام الزَّمان واتصالُه من ليل أو نهار ، واستدلَّ بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ جَعَلَ الله عليكمُ اللَّيلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة ﴾ ، فيكون المعنى : بعقابِ يومٍ طويلٍ

---

(١) كان حقه أن يثبت فى المتن رواية « مرصد » لأنها الرواية التى جعلها أساسا فى التفسير ، كما صنع التبريزى من جعله رواية « مرصد » أساسا فى المتن والتفسير .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « غليلى » .

يَتّصل زمانُه ، ويَمتدّ بلاؤه . وأيّام الغمّ والمحنة توصَف بالطُّول ، ولهذا قيل :
مَضَى لفلانٍ يومٌ كأيّامٍ ، وشهرٌ كدهرٍ .

٣٨

قال الفَرّارُ السُّلمِى (١) :

١ — وكتيبةٍ لبَّسْتُها بكتيبةٍ حتى إذا التَبَسَتْ نَفَضْتُ لها يَدِى

هذا يتبجّح بأنه مِهْياجُ شرٍّ وأذًى ، وجَمّاعٌ بين كتائبَ شتّى تتقاتل من دونه ، ثم يَخرج هو من بينهم غير مُبالٍ بما يُجْرُونَ إليه ، ولامفكّرٍ فيما يَنْتجمن الشرّ فيهم . فيقول : رُبَّ كتيبةٍ خلَطْتُها بكتيبةٍ ، فلما اختَلَطَتْ نفَضْتُ يدى منهم ولهم ، وخلّيتُهم وشأنَهم . وكتيبة ، أُلْحِقَ الهاء بها لأنه جُعِل اسمًا ، وهو من كَتَبْتُ أى جَمَعْتُ . وتوسَّعُوا فى النَّفْضِ — وأصلُه الإلقاء والإماطة — فقيل : نفَضْتُ اليَدَ من فُلانٍ ولفُلانٍ أشدَّ النَّفض ، إذا وَكَلْتَه إلى نفسه ، يائسًا من رَجْعَتِه ، وفى ضِدِّه يقال : قبَضْتُ عليه كَفِّى ، وجَمَعْتُ عليه يَدِى . وقد قالوا : نفَضْتُ الطريقَ أيضًا ، وفرّقتُ النَّفَضَةَ فى الطُّرُق . وذكر بعضُهم (٢) أنَّ قولَه : « حتى إذا التَبَسَتْ نفَضْتُ لها يَدِى » و « بها يدى » ، المراد به قنَّعْتُ فَرسى بسَوْطِى ، كأنه لما ضربَ فرسَه إنّما نفَضَ يَدَه . يَصِفُ سُرعةَ ضَربِه بالسَّوْط ، وأنه لا كُلْفةَ عليه به . قال : وهذه السرعة مستَحَبّة فى ضرب السَّوط ، كما يستحبُّ فى العمل بالسِّلاح . ومن رَوَى « بها » يجوز أن

---

(١) الفرار شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، واسمه حبان (ويقال حيان) بن الحكم . أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم راية سليم يوم الفتح ثم نزعها منه وأعطاها يزيد بن الأخنس . وكان الفرار ممن شهد حنينا . وسليم ، بالتصغير : اسم قبيلته . انظر الإصابة ١٥٥١ .

(٢) يعنى بذلك ابن جنى ، والنص الذى نقله المرزوقى مثبت فى كتاب التنبيه لابن جنى .

يُريدَ المِخْصَرة . انتهَتِ الحكاية عنه . والتعجُّبُ من إدراكه لهذا المعنى يَمنَعُ من الكلام عليه . فسبحان من لا يحتاج إلى التفسير .

٢ــ فتَرَكتُهُم تقِصُ الرِّماحُ ظُهورَهُم من بَيْنِ مُنْعَفِرٍ وآخَرَ مُسْنَدِ

قوله « تَقِصُ » أى تَكسِرُ فى موضع الحال لهم . وكذلك قوله « من بين مُنْعَفِرٍ وآخر مُسْنَدِ » والعاملُ فى الأول تركْتُهُم ، وفى الثانى تَقِصُ . يقول : فارقتُهُم والرِّماح تختلفُ بالطعنِ بينهم ، وتكسر ظهورهم ، فهُمْ من بَيْنِ مصروعٍ أُلْقِيَ فى العَفَرِ ، وهو التُّراب ، وآخرَ مطعُونٍ أومجروحٍ ، وقد أُسْنِدَ إلى ما يُمسِكُه وبه رَمَق .

٣ــ ما كانَ يَنْفَعُنِي مَقالُ نِسائِهِم قُتِلْتُ خَلْفَ رِجالِهِم لا تَبْعَدِ[1]

قول « ما كان » يجوز أن يكون ما استفهامًا وكان تجعَلُهُ الناقِصَةَ ، ويجوز أن يكون نَفْيًا وتجعَل كانَ مؤكِّدَةً ، ونبَّهَ بهذا الكلام على أنّه لو ثبَتَ لم ينفَعْهُ الثَّبات . فيقول : أىَّ شيء كان ينفعنى قولُ النّوادِبِ لى لا تَبْعَد وقد قُتِلْتُ . ومعنى لا تَبْعَد : لا تَهلِك . يقال بَعِدَ ، إذا هَلَكَ ، وبَعُدَ ، إذا نأى . وكانوا يَدُلّون بهذه اللَّفظة عند النُّدْبَةِ بها على مَسَاس الحاجة إلى حياة المندوب ، وقِلَّة الاستغناء عنه . وإذا كان كذلك فالوجه أن يُنْدَبَ به من كان محْمُودَ الحياة ، وعزيز الفِقْدان . وقولُهُ خَلْفَ رِجالِهِم » نَبَّهَ على أنّه لو ثَبَتَ لكان يَدفعُ وجهَ الكتيبة ، ويصير واقِيًا لأصحابه ، وحائلاً بين الأعداء وبينهم ، فلا يمكنهم تجاوُزه إلّا وقد فَرَغوا منه . فلهذا قال « وقُتِلْتُ خَلْفَ رجالهم » .
وموضع « لا تَبْعَد » وهو حكايةٌ ، رَفْعٌ أو نَصْبٌ على أنّه بَدَلٌ أو مَفْعُولٌ من مَقَالِ نسائِهِمْ . وقوله وقُتِلْتُ ، فى مَوْضِعِ الحال للمضمَرِ فى يَنفعُنِي ، والعامِلُ فيه مَقَالُ أيضًا ، وخَلْفَ رجالِهِم حالٌ للمُضْمَرِ فى قُتِلت .

(١) التبريزى : « دون رجالها » .

٣٩

وقال بَعْضُ بنى أَسَدٍ(١) :

١ – يَدَيْتُ على ابنِ حَسْحَاسِ بنِ وهْبٍ بأَسْفَلِ ذِى الجَدَاةِ يَدَ الْكَرِيمِ(٢)

إنما عُدِّى يَدَيْتُ بِعَلَى ، لأنه أُجْرِى مجرى أنعَمْت . وهم يَحمِلون النَّظيرعلى النّظير ، كما يحملون النقيض على النقيض . وقال الأخفش : يقال يَدَيْتُ عِنْدَه وأَيْدَيْتُ جميعا ، إذا اتّخذْتَ عندَهُ صنيعةً ، وإن كانَتْ أيْدَيْتُ فى هذا المعنى أَشْهرَ من يَدَيْتُ ، لأنّ يَدَيْتُ اشتهر فى أَصَبْتُ يَدَهُ ، كما تقول : رأَسْتُه ووَجهْتُه وصدَرْتُهُ ، إذا أصَبْتَ هذه الأعضاءَ منه . ومعنى هذا البيت : اتَّخذْتُ عند هذا الرجل بهذا المكان يَداً غرَّاء ، وصنيعةً شريفَةً ، مِثْلُها يَفْعَلُه الكِرَامُ . وقولُه : « يَدَ الكريم » نبَّهَ على هذا المعنى الذى ذكرناه ، ويجب أن يكون مصدر يَدَيْتُ يَدْيًا ، مِثل جَرَيْتُ جَرْيًا ، لكنه وضَعَ اليد مكانه . فإن قيل : ما تُنكِر أن يكون لسمَ الحَدَثِ ، وقد حُذِف لامُهُ كما حُذِف من اسم العين ؟ قلت : اسمُ الحَدَث لم يَكْثُر كَثْرةَ اسم العين ، وإذا كان حُذِف اللام من اسم العين حُذِفَ لكثرة الاستعمال ، فيجب أن يكون اسمُ الحَدَثِ الذى لم

(١) هو معقل بن عامر الأسدى . ذكر التبريزى من سبب الشعر « أن معقل بن عامر الأسدى أخا حضرمى بن عامر ، وهو فارس الدهماء ، مر يوم جبلة على ابن الحسحاس بن وهب الأعيوى وهو صريع ، فاحتمله إلى رحله وداواه حتى برئ ، ثم كساه وأداه إلى أهله » .

(٢) الجداة ، بالدال المهملة هى رواية الأصل ومعجم البلدان . قال ياقوت : « موضع فى بلاد غطفان » . وفى م والتبريزى : « الجذاة » بالذال المعجمة . وذكر ياقوت أنها لغة فى « الجداة » بالدال المهملة ؛ ومهما يكن فالكلمة مفتوحة الجيم . لكن نقل التبريزى عن النمرى أن الرواية المشهورة « الجذاة » بكسر الجيم . وابن حسحاس ، نقل التبريزى أنه يروى : « ابن حساس » .

يكثر استعمالُه لا يَجرى مجراه . وقوله : « ابن حَسْحاسٍ » من الحَسْحَسةِ ، وهو إحراق الجِلْد بالنار .

٢ — قَصَرْتُ له مِنَ الحَمَّاءِ لمَّا   شَهِدتُ وَغابَ عن دارِ الحَميمِ

القَصْرُ : الحَبْسُ والردُّ ، ومنه القَصْرُ والقُصارَى : الغايةُ . والحَمَّاء : تأنيث الأحمّ ، وهو الأسود من كل شيء . والحُمَم : الفَحْمُ . وجارية حُمَمَةٌ ، أى سوداء . وهذا تفسير النِّعمة التى اتخذها عنده . فيقول : لمّا وجدته جريحًا ، وفى المعركة طريحًا ، قد غابَ عنه ذَوُوه والمشفِقُون عليه ، حَبَسْتُ عليه فَرَسى فأرْدَفْتُه . وجوابُ لمّا مقــدّم ، وهو قَصَرْتُ . كأنه قال : لمّا رأيته كذا حَبَسْتُ عليه فَرَسى . وحذف مفعول شهدتُ لأنه أمِنَ الالتباس . وقوله : « وغابَ عن دارِ الحميم » كان وجْهــه أن يقول : لمّا شهِدْتُه وغاب حَميمُه ، لـكنّ المعنى لا يُخيلُ[1] . والحَميمُ : القريب المُشفِق . والحامّةُ : خاصّةُ الرَّجُل من أهلِه وولدِه ، ويقالُ هو الأَحَمُّ من ذوى قرابته[2] ، أى الأخَصُّ .

٣ — أُنبِّئُه بأنَّ الجُرْحَ يُشْوِى   وَأَنّكَ فَوْقَ عِجْلِزَةٍ جَمُومِ

هذا مما تمَّمَ به الصَّنيعةَ عنده ، بعد أن ارتَدَفَهُ ، وذلك أنه ســلّاه بقوله « الجُرْح يُشْوِى » ، ومَنّاه بقوله « وأنّك فوق عِجْلِزةٍ جَمُومٍ » . ويقال : رَماهُ فأشْوَاه ، إذا أصاب غيرَ المَقتَل . والجَمُوم : الذى لا ينقطع جَرْيُه . والعِجْلِزة : الصُّلْبَة . وبِئرٌ جَمُومٌ من هذا ، لأنّ ماءها يَغُورُ أحيانًا ثم يَعُودُ ويَغْزُر . والمُرَادُ : أنَّ تبليغَكَ المأْمَنَ به سَهْـلٌ ، وأنّ ما بك[3] من الجُرْحِ هَيِّن .

(١) يقال أخال الشىء : اشتبه ، وهذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل . اللسان —

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « من ذى قرابة » .

(٣) فى الأصل : « ما بان » ، صوابه من م والتبريزى .

٤ ـ وَلو أنّى أشاء لـكُنْتُ مِنْهُ مَـكانَ الفَرْقَدَيْنِ من النُّجُوم

يُبَيِّن بهذا أنه تبَرَّع بما فعَل ، وأنه لم يَلزمْهُ لزومَ الواجب الذى لا يَسُوغُ الإخلالُ به ، فيقول : لو شئت لبعُدتُ منه بُعْد الفَرقدين من النُّجُومِ السَّيَّارَة ، وهى التى يحُلُّ فيها النَّيِّران ، والفَرْقَدَان لاحُلُول فيه[1] ،وهذا يجرى مجرى قَوْلِهِم : « هو مِنِّى مَناطَ الثُّرَيَّا » فى أن المراد به التَّبعيد ، ويجوز أن يريد بَعُدتُ منه بُعد الفرقدين ، ثم بيَّن أنَّ الفَرْقَدَيْنِ من النجوم ، فيكون من النجوم تبيينًا ، كقوله تعـالى ﴿ فاجتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأَوْثانِ ﴾ . ويجوز أن يريد بالنُّجوم نباتَ الأرض ، لأنَّ كلَّ ما طَلَع فقد نَجمَ ، ويكون المعنى بُعْدَ الفَرقدين من الأَرْضِ ومنابتها ، ويكون فى هذا المعنى شبه إلْغَازٍ فيضعُف .

٥ ـ ذَكَرْتُ تعِلَّةَ الفِتْيانِ يَوْمًا وإلْحَـــاقَ المَلامة بالمُليم

بَيَّنَ بهذا الـكلام أنه اتّقى بما فعَل تَوَجُّهَ الذّمِّ إليه من الناس ، فيقول : أخطَرْتُ ببالى ما يَتعلَّل به الفتيانُ فى محافِلِهم ومجالِسِهم ، وتقبيحهم من أخبارِ الناس ما يُستحقُّ بفعله أو بتَرْكِه عندهم ذَمٌّ ، فيُلحِقُون بِهِ اللَّوْمَ ، ويهجِّنُونَهُ فى أحكام الفُتُوَّةِ . ومَصدرُ قوله « ذَكَرْتُ » الذُّكْر بضم الذال لأن هذا كان بالقَلْب ، والذِّكْرُ بكسر الذال باللسان . والمُليمُ : الذى يَأتى بما يُلامُ عليه . قوله « تَعِلَّة » مصدر علَّلْتُهُ ، فهى كالتَّقدمة والتكرمة . ويجوز أن يكون تسميتهم المُعَلِّلَ ، وهو يَوْمٌ من أيام العَجُوز ، من هذا ، كأنَّه يعلِّل النّاس بشىء من تخفيف البرد .

(١) نزل الفرقدين لتلازمهما منزلة المفرد .

٤٠

وقال الشَّدَّاخُ بنُ يَعمَرَ الكِنانىُّ (١) :

١ ــ قاتِلِي القَوْمَ يا خُزَاعُ وَلا يَدْ خُلْكُمُ مِنْ قِتالِهِمْ فَشَلُ (٢)

يُرْوَى « قاتِلُوا » و « قاتِلِي » على اللفظ مَرّة وعلى المعنى أخرى ، وجَعَلَ النَّهْيَ فى اللَّفْظ للفَشَل ، والمُرادُ لا تفشلوا . وهذا بَعْثٌ وتحضيض ، فيقول : حاربى (٣) أعداءكِ (٤) يا خُزَاعة ، ولا يتداخلْكم الجُبْنُ والضَّعف منهم . وخُزاعة ، قال الخليل : هو من خَزَعَ عَن أصحابه إذا تخلف ، لأنّهم تَخَلَّفُوا عن قَوْمِهِمْ بمَكّةَ أيّامَ سَيْلِ العَرِمِ .

٢ ــ القَوْمُ أَمْثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فى الرَّأْسِ لا يُنْشَرُونَ إن قُتِلُوا (٥)

يبيّن بهذا الكلام أنّهم ناسٌ كما أنّ خُزَاعَةَ ناسٌ ، فيقول : لا تَهابُوهُمْ فإنَّ خِلْقَتَهم كخِلْقَتِكُم ، وإنّهم إذا قُتِلوا لم يَحْيَوْا مِنْ فَوْرِهم ، فيرجِعُوا إلى القتال . هذا

(١) الشداخ بن يعمر الكنانى ، شاعر جاهلى ، من بنى كنانة بن خزيمة . وكان من خبر هذه الأبيات كما روى التبريزى ، أنه كان بين بنى كنانة وخزاعة حلف على التناصر والتعاضد على سائر الناس ، فاقتتلت خزاعة وبنو أسد فاعتلتها بنو أسد ، فاستعانت خزاعة ببنى كنانة ، فذكر الشداخ قرابة بنى أسد ، فخذل كنانة عن نصرة خزاعة ، وبهذا السبب انحدرت بنو أسد من تهامة إلى نجد غضبا على بنى كنانة إذ لم تنصرهم .

(٢) ابن جنى : « هذا الشعر من البحر المنسرح ، وإنشاده على هذا الظاهر يكسره ، وذلك أن أول المنسرح لا يجوز فيه فاعلن ، ويروى : فقاتلى ، وإذا روى هكذا كان وزنه مفاعلن ، وهذا جائز فيه ، لأنه خبن مستفعلن » .

(٣) م : « جازى » .

(٤) فى الأصل : « أعدائى » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٥) ابن جنى : « وضع الرأس موضع الرؤوس كقوله :

* فى حلقكم عظم وقد شجينا *

مبالغةٌ في الاستحثاث والتّجسير. وجَعَل قولَهُ: «لهُمْ شَعْرٌ في الرّأسِ» بما بَعدَهُ، تفسيرًا للماثلة وتَبْيِينًا. وجواب إن قُتِلُوا فيما تقَدَّم عليه.

٣ ـ أَكُلَّمَا حَارَبَتْ خُزَاعَةُ تَحْدُونِي كأَنِّي لأُمِّهِم جَمَلُ

قولُه «كأني لأمِّهم» في موضع الحال، أي تحدونى مُشْبِهًا جملاً لأمِّهِمْ. وكلَّمَا ظَرفٌ لقوله تحدونى. وكأَنّه قال: تَحْدونى خُزاعة كلَّما حَارَبَتْ، أي تسوقُنِي لنَصْرِها والدِّفاع عنها، كأَنى ناضِحٌ لأمِّهم يُسْتَقَى عليه الماء، فيُقال له أَقْبِلْ بالدَّلْوِ وأَدْبِرْ. وذَكَر الأمّ تغليظاً للقول وتخشيناً. وقولُهُ «أكلّما»، كأنَّه أقْبَلَ على إنسانٍ بَعْد أن كانَ بَعَثَهُمْ وجَرَّأهم على قتالِ أعدائهم، فقال على طريق الإنكار ما قال.

٤١

وقال الحُصَيْنُ بنُ الحُمامِ المرىُّ(١):

١ ـ تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

يجوز أن يكون هذا مثل قَوْلِهِم: «الشُّجَاعُ مُوَقًّى». وفي طريقته قولُ الآخر:

أكانَ الجَبَانُ يَرَى أَنَّهُ سَيُقْتَلُ قَبلَ انقضاءِ الأَجَلْ

(١) الحصين بن الحمام المرى، من مرة غطفان، وهو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان. والحمام، بضم الحاء، قيل إنه عرق الخيل. وهو شاعر جاهلى مقل. قال أبو عبيدة: اتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة: المسيب بن علس، والمتلمس، وحصين بن الحمام المرى. والشعراء ٦٣٠ والاشتقاق ١٧٦ والاستيعاب وأسد الغابة والإصابة، والمؤتلف ٩١ والأغانى (١٢: ١١٨ ـ ١٢٤) والخزانة (٢: ٧ ـ ٣/٩: ٣٥٢ ـ ٣٥٥).

فَقَدْ تُدْرِكُ الحادِثُ الجَبانَ ويَسْلَمُ منها الشُّجاعُ البَطَلْ

ومثله قولُ الآخَرِ(١) :

نُهِينُ النُّفُوسَ وهُونُ النُّفو سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أَوْقَى لهَا

ويجوز أن يقول : أَحْجَمْتُ مُسْتَبْقِيًا لِعَيْشى ، فلم أَجِدْ لنفسى عَيْشاً كما يكونُ فى الإقدام ، وذاك لأنَّ الأُحدوثَةَ الجميلة ، والنُّجْح عند الناس فى المَبَاغِى الحميدة ، إنما يكون بالتقدُّمِ لا بالتأَخُّرِ ، وبالافتخار لا بالانحراف ، ومن ذِكِرَ بالجميل وتُحُدّث عنه بالبلاءِ الحسَنِ حَيِيَ ذِكْرُه واسمُه ، وإنْ ذَهَبَ أثَرُهُ وجِسْمُه . وقولُهُ : « حَيـاةً مِثْل أن أتقدّم » معناه حياةً تُشْبِهُ الحياة المكتسبة فى التقدّم وبالتقدُّم .

٢ ــ فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا ولـكن على أَقْدامِنَا تَقْطُرُ الدِّما(٢)

أراد : لَسنا بدامِيَةِ الكُلُومِ على الأعْقَابِ . ولو لم يجعل الإخبارعن أنفسِهِم لكان الكلام لَيْسَتْ كُلُومُنا بداميَةٍ على الأَعْقَابِ . فيقول : نتوجَّه نحو الأَعْدَاءِ فى الحرْب ولا نُعْرِضُ عنهم ، فإذا جُرِحنا كانَتِ الجراحاتُ فى مُقدَّمِنا لا مُؤَخَّرِنا ، وسالت الدِّماءُ على أقدامنا لا على أعقابِنَا . وقولُه « تَقطُرُ الدِّما » إذا رُوِيَتْ بالتاء كان المعنى تَقطُرُ الكُلُومُ الدَّمَ ، فيكون الدَّما مفعولا به . ويقال: قطرَ الدَّمُ وقَطرْتُهُ ، وهذا وَجهٌ حَسَن ، وإن شئتَ جَعَلتَ الدَّمَ منصوباً على التمييز ، كأَنّه أراد تَقْطُرُ دَمًا ، وأَدْخَلَ الألِفَ واللَّامَ ولم يعتدّ بهما ، كقول الآخر(٣) :

* ولا بِفَزَارَةَ الشُّعْرِ الرِّقَابا(٤) *

(١) هو الخنساء ، كما سبق فى حواشى ص ١٤٠ .

(٢) رواية ابن جنى : « الدما » بكسر الدال على أنه مقصور « الدماء » . وذكر ابن جنى فى روايته أيضا : « تُقْطِر الدما » . من قولهم أقطرت الدم ، أى أسلته .

(٣) هو الحارث بن ظالم المرى . المفضليات (٢ : ١١٤) .

(٤) صدره : * فما قومى بثعلبة بن سعد *

ويجوز أن يُرْوَى « يَقطُرُ الدَّمَا » بالياء ، ويكون الدَّمَا فى موضع الرّفع على أنَّهُ فاعِل يَقْطُر ، لـكنَّهُ رَدَّه إلى أصله فأتى به مقصوراً وإن كان الاستعمال بحذف لامِهِ . ومثل هذا البيت قولُ القُطَامِيّ :

لَيْسَتْ تُجرّحُ فُرَّاراً ظُهورُهم وفى النحورِ كُلُومٌ ذات أَبْلادِ

٣ — نُفَلِّقُ هامًا من أُناسٍ أَعِزّةٍ علينا وهُمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هاماتٍ من رجال يَكْرُمونَ علينا لأنهم منّا ، وهم كانوا أسبَقَ إلى العُقوق وأوْفَرَ ظُلْمًا ، لأنهم بدءونا بالشّرّ ، وألجؤونا إلى القتال ، ونحن منتقِمون ومُجازُون .

٤٢

وقال رجلٌ من بنى عُقَيْلٍ[١] :

وحارَبَهُ بنوعمّهِ فقتل مِنهم :

١ — بكُرْهِ سَرَاتِنا يا آل عَمْرٍو نُعَادِيكُم بمُرْهَفَـةٍ صِقَـالِ

الـكُرْهُ بالضم : المشقّة ، والـكَرْه بالفتح الإكراه . وسَرَاةُ القومِ : خِيارُهم . فيقول : بمشقّةِ رؤسائنا وكراهتِهم نباكِركم بسيوفٍ مُحَدَّدة الحدّ[٢] مصقولةٍ ، وإنما قال « بكُرْهِ سَرَاتِنا » لأنّ الرؤساء يحبون التألُّفَ بين العشيرة وإصلاحَ ذات البين ، وتركَ التدابرو الاختلاف ، إذْ كان عِزُّ الرئيسِ بأصحابه ، وحِشمتُهُ فى نفوس مُنابذِيه بقوّةِ ذَوِيهِ وأقاربه . ويجوز أن يكون ذَكَرَ السَّراةَ والمراد الجميعُ . والمعنى : على كُرْهٍ منّا نقاتِلُـكُمْ ولـكنكم ألجأتمونا إليه . وجَمع

(١) التبريزى : « عقيل : تصغير عقل أو عقل مصدر عقل ، ويجوز أن يكون تحقير عقيل تحقير الترخيم ، ويجوز أن يكون تصغير عقال وتصغير أعقل تصغير الترخيم منهما » .

(٢) م والتبريزى : « مرققة الحد » .

صقيلاً وهو فعيل بمعنى مفعول على صقالٍ وذلك على غير بابه، لأن التكسير على فِعَالٍ يكون فى الأصل فَعِيل إذا كان بمعنى فاعِلٍ، نحو ظَرِيفٍ وظِرَافٍ وكَرِيم وكِرَامٍ، ومثلُه قولُهم فَصِيلٌ وفِصَالٌ، وساغ ذلك لاتفاقهما فى الزِّنة والوصفيَّة. ورُوى: «بمُرْهَفَةِ الصِّقَال»، وتكون إضافةُ المُرْهَفَةِ إلى الصِّقال كإضافة البعض إلى الكلّ، لأن المعنى بالمُرهفة[1] الحدِّ من الصِّقال، أى من السيوف المصقولة[2].

٢ – نُعَدِّيهنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ عَنْكُمْ   وإنْ كانت مُثَلَّمَةَ النِّصَالِ

قوله «نعدّيهن» أى نصرفُهنّ. ويقال: عَدِّ الهمَّ عنك، أى اصرفه. والبيت يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعنى نَصرِفُ السيوفَ عنكم إبقاء عليكم، وكراهيةً لاستئصالكم، وإن كانت نِصَالُها قد تَفَلَّلَتْ من كثرة ما نُقَارِع بها الأعداء. ويجوز أن يكون المعنى: نصرفُها وإن تثلمَت بكُمْ وفيكم، لأن القدرةَ تُذْهِبُ الحفيظة، ولأن ما يَجْمَعُنا يدعو إلى البُقْيا، والأخذ فيكم بالحُسْنَى.

٣ – لهَا لَوْنٌ من الهامات كَابٍ   وإنْ كَانَتْ تُحَادَثُ بالصِّقَالِ

قولُه «من الهامات» أى من دماء الهامَاتِ ومن التأثير فيها. يقول: لهذه السيوف لَوْنٌ متغيِّرٌ قبيحٌ، لكَثْرةِ ما يُسْفَكُ بها الدِّماء، وإن كانت يُجدَّدُ صَقْلُها كلَّ يومٍ. والمحادَثةُ: إعادةُ الماءِ إلى السيفِ بالصَّقْل. وقد قال الحسن رحمه الله فيما حُكِيَ عنه من مواعِظه: «حادِثوا هذه القلوبَ فإنها سريعةُ الدُّثور، واقدَعوا هذه الأنفسَ فإنها طُلَعَةٌ». وقولُه «كابٍ» من قولِهم كَبا

(١) والتبريزى: «بالمرققة».

(٢) وذكر ابن جنى أن الصقال هنا أيضا مصدر صقلت، وتأويله: بمرهفة عند الصقال، كما أن قوله «بضة المتجرد» معناه بضة عند المتجرد.

وَجْهُه ، إذا اربَدَّ [واسودّ] . وكَبَا نُورُ [الصُّبْحِ و(١)] الشمس ، إذا نَقَص وأظلَم . وجوابُ إن كانَتْ فيما تقدَّم عليه ، والجملة فى موضِع الصِّفةِ للمُرْهَفة .

٤ ـ وَنَبْكِي حِينَ نَقْتُلُكُمْ عَلَيْكُمْ ... وَنَقْتُلُكُمْ كأَنَّا لا نُبَالِى

وَصَفَ حُسْنَ صَبْرِهِم ، على ما يتَّفِقُ من نائبةٍ ، ويتجدَّدُ من عارضِ حادثةٍ ، فيقول : نبكى قتلاكم إذا قتلناكم لما يجمَعُنا وإيّاكم من الرَّحِمِ الماسَّة ، والقرابة الدانية ، ونقتلكم إذا أحوجتمونا إلى قتلكم ، كأنّا لا نبالى بما يمنع من ذلك ، أو يدعو إلى الجزَع له . وقولُه « نُبالِى » نُفاعِلُ من البَلاَءِ . فإذا قال لا أُباليه كأنه أراد : لا أحتفِلُ به فأُعادّهُ بلائى وبلاءه وأُفاخِره . هذا أصْلُه . وقد مَضى . وحكى سيبويه : ما أُباليه بالةً ، وذكر أن البالَةَ كالحانةِ ، وأنه حُذِفَ ياؤه حَذْفَ تخفيف لا حَذْفَ قِياسٍ .

٤٣

وقال القَتَّالُ الكلابىُّ(٢) :

١ ـ نَشَدْتُ زِيَادًا والمَقامَةُ بَيْنَنا ... وذَكَّرْتُهُ أَرْحامَ سِعْرٍ وَهَيْثَمِ

يقال : نَشَدْتُكَ اللهَ والرَّحِمَ ، وناشَدْتُكَ اللهَ ، أى سألتك بالله وبالرَّحِمِ .

---

(١) هذه من م .

(٢) القتال لقب غلب عليه ، واسمه عبد الله بن المجيب بن المضرجى بن عامر بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وهو شاعر إسلامى . وكان من حديث هذا الشعر كما روى التبريزى وأبو الفرج أن القتال كان يتحدث إلى ابنة عم له ولها أخ غائب ، فلما قدم رأى القتال يتحدث إلى أخته ونهاه ، وحلف له لئن رآه ثانية ليقتلنه . فلما كان بعد ذلك رآه عندها ، فأخذ له السيف ، ورآه القتال فخرج هاربا وخرج فى أثره ، فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم ، فلم يلتفت إليه ، فبينا هو يسعى وقد كاد يلحقه وجد رمحاً مركوزاً عند بيت ، فأخذه القتال ثم عطف عليه فقتله . وانظر ترجمته فى الأغانى (٢٠ : ١٥٨ ـ ١٦٦) والمؤتلف ١٦٧ والخزانة ٣ : ٦٦٧ ـ ٦٦٨ والشعر والشعراء ٦٨٦ ـ ٦٨٧ .

يقول : أقسَمْتُ على زيادٍ بالله وأهلُ المجلس بيننا حاضرُون ، ولِمَا يأتيه كُلٌّ منّا مُشَاهِدُون[١] ، وذكَّرْته ما يجمعنى وإيّاهُ من الرّحِمِ من جهة هذين الرجلين ، وإنَّما ذَكَّرَهُ بهذا على زُعْمِهِ طَلَبًا للصُّلح ، أو استظهاراً بإقامَةِ الحجج عليه ، وإلقاء مغاليق البَغْى إليه .

٢ ـ فلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّه غَيْرَ مُنْتَهٍ أَمَلْتُ لَهُ كَفِّى بِلَدْنٍ مُقَوَّمِ

يقول : لمّا وجدْتُه لا ينتهى بالقَوْلِ ، ولا يَرْعَوِى بالزَّجر ، حدرْتُ له كفّى برُمحٍ ليّنٍ مثقَّفٍ فطَعَنْتُهُ . وقوله « أَمَلْتُ لَهُ » ، أى من أجْلِهِ « كَفّى بِلَدْنٍ » ، من فصيح الكلام ، وبليغ الكنايات .

٣ ـ وَلَمَّا رأيْتُ أنّى قد قَتَلْتُهُ نَدِمْتُ عليْهِ أىَّ ساعَةِ مَنْدَمِ[٢]

يقول : لمّا بَانَ لى إتيانُ تلك الطَّعنة عليه نَدِمْتُ فى وقْتٍ لم تنفع الندامة فيه ، لفوت الأمْرِ فى الإبقاء . وهذا فى إظهار التحسُّر به كقول الآخر[٣] :

* ودِدْتُ وأينَ ما مِنِّى ودَادِى[٤] *

وانتصب أىَّ ساعَةٍ على الظرف ، لأن أيًّا لما كان للبعض من الكلّ جُعِلَ حُكْمُهُ حُكْمَ المُضافِ إليه من جميع الأجناس .

(١) م : « شاهدون » .
(٢) هذا ما فى م والتبريزى . وفى نسخة الأصل : « فلما رأيت » .
(٣) هو عمرو بن معديكرب . اللآلئ ٦٣ .
(٤) صدره : * تمنانى ليلقانى قييس *

٤٤

قَيْس بن زُهَيْرٍ العَبْسِيُّ(١)

١ — شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بنِ بَدْرٍ وسَيْفِي من حُذَيْفَةَ قد شَفَانِي

كان حَمَلُ بن بَدْرٍ قتل مالك بن زُهير أخا قيس ، فظفِر به وبأخيه حذيفة فقتلهما . يقول : اشتفيْتُ بقتل حَملِ بن بَدْرٍ . ثم قال : وشفانى سيفى أيضاً من أخيه حذيفة ، لأنه أتى عليه لمَّا أعملْتُه فيه . وهذا مما جرَى بين عَبْسٍ وفزارة بسبب دَاحِس والغبراء .

٢ — فإنْ أَكُ قد بَرَدْت بِهِمْ غَلِيلِي فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إلَّا بَنَانِي

يقول : إن سَكَّنْت لَوْعَتِي بمجازاتهم ، وبَرَّدتُ غُلَّتِي ، فإنِّى لم أقطع بهم إلاّ أطراف أصابِعِي . وذلك أن عِزّى كان بهم ، وكانوا كالكفّ ، فلما ماتُوا وأعوزَنِي التبجُّح بمكانهم(٢) ، والاستعلاء على العدوّ بهم ، صِرْتُ كمن قُطِعَتْ أناملُهُ . ومن الأمثال فى هذه الطريقة : « بالسَّاعِدِ تَبْطِشُ الكَفّ » .

٤٥

وقال الحارِثُ بن وَعْلَةَ الذُّهْلِيُّ(٣) :

الوَعْلَةُ : الصخرة المشرفة من أعلى الجبل .

(١) قيس بن زهير : شاعر جاهلى ، كان سيد عبس ، وكانت له ضلع كبيرة فى حرب داحس ، وهو صاحب داحس . انظر أمثال الميدانى (١ : ٢٥٠) والأغانى (٧ : ١٦/١٤٣ : ٢٣) والعقد وكامل ابن الأثير وغيرهما ، فى حرب داحس والغبراء .

(٢) التبجح : الافتخار .

(٣) شاعر جاهلى ، ذكر نسبه فى الأغانى (٢٠ : ١٣٢) والمؤتلف ١٩٧ قال « الحارث بن وعلة بن المجالد بن يثربى بن الديان بن الحارث بن مالك بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة » . وهو غير الحارث بن وعلة الجرمى . انظر المفضليات (١ : ١٦٢ — ١٦٣) .

١ ـ قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي ... فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

يقول : قَومى ، يا أميمةُ ، هم الذين فَجَعُونى بأخى ووتَرونى فيه ، فإذا رُمْتُ الانتصار منهم عاد ذلك بالنِّكاية فى نفسى ، لأنَّ عزّ الرجل بعشيرته ، وهذا الكلامُ تحزُّنٌ وتفَجُّعٌ وليس بإخبار .

٢ ـ فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً ... وَلَئِن سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

عَفَا عن المُذْنِبِ والذَّنبِ عَفْوًا ، إذا صَفَحَ . وحَذَفَ حرف الجرِّ فوصَلَ لأَعْفُوَنْ بنفسِهِ . والكلامُ تحَسُّرٌ وتوَجُّع . يقول : إنْ تركْتُ مؤاخذَتَهم ، وأُطَّرَحْتُ طَلَبَ الانتقام منهم ، صَفَحْتُ عن أمرٍ عظيم ، وإن سَطَوْتُ عليهم أضعَفتُ عَظْمِي ، وهدَدتُ رُكْنِي . والجَلَلُ يزعم أهل اللُّغَةِ أنَّهُ من الأضداد ، يَقَعُ على الصَّغير والكبير ، وهاهنا يُرادُ به الكبير . وكذلك فى قوله :

* ومِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَلَلْ[1] *

والسَّطْو : الأخذ بعُنْف . وفى كلٍّ واحدٍ من المِصراعين يمينٌ مُضْمَرَةٌ ، جوابها فى الأوّل لأَعْفُوَنْ ، وفى الثانى لأُوهِنَنْ . واللام من لئن فى الموضعين موطِّئة للقَسَم .

٣ ـ لَا تَأْمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ ... وَبَدَأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ

حوَّلَ الكلام عن الإخبار توَجُّعاً على عادتهم إلى الخطاب ، متوعِّدًا . يقول : لا تَسْكُن إلى ناحية قوم اهتَضَمْتَهُم وبدأْتَهُم بسَبِّهِمْ واطِّراحهم ، وإسقاطِهم وتذليلِهم . وظَلَمتَهم مع ما بعدَه من صفة القوم . والرَّغْم مصدر رغَمْتُ فلانًا إذا قلت له رَغمًا أو فَعلتَ به ما يَرغَم به أنفُه ويُذِلّه . والرَّغام : التُّراب ،

(١) للبيد فى ديوانه ص ١٧ . وصدره :

* وأرى أربد قد فارقنى *

وحكى الخليل : أرغمتُه : حملتُه على ما لا يقدِر على الامتناع منه .

٤ ــ أَنْ يَأبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمُ والقـــولُ تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِى

موضع قولِه « أن يأبِرُوا » نصبٌ على البدَل من قومًا فى البيت الذى قبلَهُ ، كأنّه قال : لا تأمنْ أَبْرَ قومٍ ظلمتَهم وأوحشْتَهم نخلاً لغيرهم . ويقال : أبَرْتُ النخلَ وأبَّرْته ، إذا ألْقَحتَهُ . وجعل هذا الكلام وعيدًا فى مفارقة القوم الذين وصَفَهم إيّاهم ، وتقويتِهم لأعدائهم بعد الانتقال إليهم ، وإصلاحِهم الفاسد من فَخْرِهِم وأَمْرِهم نُصرَةً لهم ، وجعل قَوْلَهُ « أن يأبِروا » كناية عن هذا المعنى ، كما قال طَرَفَةُ :

وَلِيَ الأَصْلُ الذى فى مثلِه يُصْلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المؤتبِرْ

وقد قيل : أراد : لا تأمَنْ قوماً أسأت فى معاملتهم أن يتركوا أرضَهم وديارَهم ويَلحقوا بالأعداء فيأْبروا نَخيلهم ويتصرّفوا فى مِهَنِهم ، ليكونوا معهم عليكم . والأوّل أحسن وأغرب . وقوله « والقول تَحْقِرُه وقد يَنمى » يجوز أن يكون ضرَبه مثلاً فى التّهاوُن بما لا يجوز التهاوُنُ فيه ، ويجوز أن يشيرَ بالقول إلى ما يقوله فى شِعره هذا ، ويريد أنّه سيزداد بانضمام الفعل إليه .

٥ ــ وَزَعَمْتُمُ أَنْ لا حُلُومَ لنـا إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِى الحِلْمِ

زَعم زُعْمًا وزَعْمًا ومَزْعَمًا ، وأكثر ما يستعملُ فيه ما كان باطلاً أو فيه ارتيابٌ . ولذلك يقال : تَزَعَّم ، أى تكذّب ؛ وزَعَمٍ فى غير مَزْعَمٍ ، أى طَمِع فى غير مَطْمَعٍ . و « أنْ لا حُلوم » أنْ فيه مخفّفة من الثقيلة . أراد : زعمتم أنه لا حُلوم لنا . والهاء ضميرٌ للأمر والحديث ، و « لا حُلومَ » فى موضع الخبر . أراد : وزعمتم أنّ الأمر والشأن لا عقول لنا ، فإنْ كان الأمر على ما زعمتم فنبِّهونا أنتم ، فإنّ عامِرَ بن الظَّرِب حَكَمَ العربِ كان يُقْرَعُ له العصا فينبَّه ، لما

كان يَزيغُ فى الحُكْمِ لِكَبْرَتِهِ وسِنِّهِ. وهذا الكلام تهكُّم وسخريَّة. ومثله قولُك لمن أنكَرَ عليك ما لا يُشَكُّ فى صلاحه وصحّته: إنْ كان ذلك فاسداً فصحِّحه أنت. وهذا ظاهرٌ. وذو الحِلْم الذى قُرِعَ له العصا مختلَفٌ فيه، فتدَّعيه اليمنُ وتقول: هو عَمْرو بن حُمَمَة الدَّوْسىُّ، رَوى ذلك الشّعبىُّ عن ابن عباس رضى الله عنه. وتدّعيه مُضَرُ، فتقول: هو عامرُ بن الظَّرِب العَدْوانىُّ، وإياه عَنَى ذو الإصبَعِ فى قوله:

ومِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِى ولا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

وتدّعيه ربيعة فتقول: هو قيس بن خالد الشّيبانى، وهو جِدُّ بِسْطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد.

٦ ـ وَوَطِئْتَنَا وَطْئًا عَلَى حَنَقٍ وَطْءَ المُقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ

يقول: أثّرتَ فينا تأثير الحنِق الغضبان، كما يؤثِّر البعير المقيَّد إذا وطئ هذه الشُّجَيرة. وخصَّ المقيَّدَ لأن وطْأتَه أثقل، كما خصَّ الحنِقَ لأن إبقاءهُ أقلُّ. والهَرْمُ: ضَرْبٌ من الحمض، يُقالُ جملٌ هارِمٌ، وإبِلٌ هَوارِم إذا رَعَت الهَرْم. وانتصب وطْءَ المقيَّدِ على البَدَل، أى وطْئاً يُشْبه هذا الوطْءَ. ومما حُكِىَ عن العرب: «أعوذُ بالله من طِئَةِ الذليل»، أى من أن يطأنى، لأن وطأته أشدُّ، لسوء مَلِكَتِه، كما قال الآخر(١):

* ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ *

وعلَى هذا قيل: ضَرَبتُه ضَربةَ الجبان، وضبطته ضبطةَ الأعمى.

٧ ـ وَتَرَكْتَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمٍ لو كُنْتَ تَسْتَبْقِى مِنَ اللَّحْمِ

(١) هو امرؤ القيس. ديوانه ١٧٧. والبيت بتمامه:
وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

هذا مَثَلٌ يُضربُ فى الانقياد والذُّلِّ . ولذلك يقولون : « النِّساء لَحمٌ على وَضَمٍ إلاَّ ما ذُبَّ عنه » . يقول : تركتَنا لا دِفاعَ بنا ، كاللَّحم على خِوَانِ الجزّار يتناوَلُه مَن شاء ، لو كُنْتَ تترك مِنّا بقيّة ، وتطلب علينا بقيّة . والمعنى أنّك تَرُومُ استئصالَنا ، فلستَ ترضى بالإذلال . وجواب لو فيما تقدّم عليه .

٤٦

وقال أَعْرَابِىٌّ

قَتَل أخوهُ ابنًا له فقدِّم إليه ليقتاد منه ، فألقى السَّيف وهو يقول :

١ ـ أَقولُ للنَّفْس تأساءً وتَعْزِيَةً   إِحْدَى يَدَىَّ أصابَتْنِى ولم تُرِدِ

التَّأساء : تَفعال من الإسْوَة . ويقال إسْوَةٌ وأُسْوَةٌ ، فيُضَمُّ أوّله ويُكْسَرُ ، وانتصابُه على أنَّه مصدرٌ فى موضع الحال . أى أقول متأسّياً بغيرى ، ومسلّيا لنفسى : جَنَى عَلَىَّ أخى الذى مَحَلُّه منى محلُّ إحدى يَدَىَّ ، سهواً لا إرادةً لمَسَاءَتِى وخطأً لاَ عَمْدًا . وقوله « إحدى يَدَىَّ » فى موضع المبتدأ و « أصابتنى » خَبرُه ، وقوله « ولم تُرِدْ » فى مَوْضِع الحال ، والجملة فى موضع النَّصب على أنه مفعول لقوله أقول .

٢ ـ كِلاَهُمَا خَلَفٌ من فَقْدِ صَاحِبِه   هَذَا أَخِى حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِى

يقول : كلُّ واحدٍ من الأخ الواتر والابن المفقود يصلُح لأن يُرْضَى به عِوَضًا من فِقدانِ الآخَر ، فإن اقتدت من الأخ منتصفاً للابن فقدتُهما جميعاً ، فاستبقائى أخى هو على كلِّ حالٍ أقرَبُ وأعْوَد[1] .

(١) أعود . أى أكثر عائدة ؛ والعائدة : الفائدة .

٤٧

وقال إِيَاسُ بْنُ قَبِيصَةَ الطَّائِىُّ[١] :

١ — ما وَلَدتنى حاصِنٌ رَبَعِيَّةٌ لَئِنْ أنا مَالأْتُ الهوى لاتِّباعِهَا

امرأةٌ حاصِنٌ وحَصَانٌ ، أى ممتنعة[٢] عن الرَّفَثِ ، عفيفةٌ . ومصدره الحَصَانة والحُصْن ، وربعِيَّةٌ : منسوبةٌ إلى ربيعة : وهذا الكلام خبرٌ يجرى مجرى اليمين ، واللام من « لَئِن » يُؤْذن بأن الكلام قَسَمٌ ، فيقول : لست ابنَ امرأةٍ من بنى ربيعة كريمةٍ عفيفةٍ إنْ كنت شايَعْتُ الهوى وتابَعْتُهُ فى طَلَبِ امرأةٍ . والمعنى : لستُ لِرِشْدةٍ إن فعلتُ ذلك . ومالأْتُ ، مأخوذٌ من قولهم : هو مَلِئٌ بكذا ، وقد مَلُؤَ يَمْلُؤُ مَلاَءَة . وجواب الشَّرط فيما تقدم .

٢ — ألم تَرَ أنّ الأرضَ رَحْبٌ فسيحةٌ فهَلْ تُعْجِزَنِّى بُقْعَةٌ من بِقَاعِهَا

قال الخليل : البُقعة : قطعة من الأرض على غير هيئة التى إلى جنبها ، واستشهد الشاعر لنفسه فى إنكار ما انتفَى من فعله بقوله : ألم تَرَ أنّ الأرض ، لأن ألم تَرَ وإن كان لَفْظُه لفظَ الاستفهام ، كلمةٌ يُواقَفُ بها المُخاطَبُ فى تحقيق الأمور ، وتثبيت الخطوب ، وربما صَحِبها معنى التعجُّب . فيقول : إنك تعلم أن الأرض واسعةٌ عريضةٌ ، وأنّ بِقاعَها لا تَنْبُو بى ، ولو نَبَتْ لم تُعجِزْنى ، فكما أنِّى فى هذا بهذه الصفة ، فكذلك أنا فى الأوّل . ومذهب هذا الكلام

(١) كان إياس هذا عاملا لكسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد جعله كسرى على رأس العرب فى يوم ذى قار ، الذى كان بين بكر بن وائل ، وبين الفرس وأحلافهم من تغلب وطيىء وضبة وتميم وبهراء وتنوخ ، وقد هزمت الفرس وأحلافها ، وقال فى ذلك رسول الله : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نصروا » ، وفى أثناء عمالته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . الأغانى (٢٠ : ١٣٤ ، ١٣٨) والتنبيه والإشراف ١٥٨ ، ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) م : « متمنعة » .

مذهب قول القائل عند تحقيق أمر وتصويره للمخاطَب : إن هذا حَقٌّ كما أنى حاضرٌ ، وكما أنك تسمع وتُجيب .

٣ — ومَبْثُوثةٍ بَثَّ الدَّبا مُسْبَطِرَّةٍ رَدَدتُ عَلَى بِطَائِها من سِرَاعِها

يقول : رُبَّ خَيْلٍ متفرِّقةٍ ممتدَّةٍ فى وجه الأرض امتدادَ فِرَاخِ الدَّبا وتفرُّقِها — والمعنى أنهم يمُوجُون فى انتشارهم ، كما أن الجراد إذا انبثَّتْ ماجَ بعضُها فى بعض — أنا رددت أوّلها على آخرها ، وحَبَسْتُ متقدِّماتها على متأخّراتها ، حتى لِحقَت الأعجازُ بالصدور ، واختلطت اللَّواحق بالسَّوابق . ويقال : هم يتهافَتُون تهافُتَ الفَراش ، ويتماوَجون تماوُج الجراد .

٤ — وأقْدَمْتُ والخَطِّيُّ يَخْطِرُ بيننا لِأَعلَمَ مَنْ جَبَانُها مِنْ شُجَاعِها

قولُه « والخطىّ » واوه واو الحال . واللام من « لأعلم » لام العلّة . يقول : تركتُ الإحجام ، وآثرتُ الإقدام ، ورماحُ الخطِّ تختلف بالطَّعن ، وتحكُم للشَّجاعة على الجُبْن ، لأتبيَّنَ الضعيفَ من القوىّ ، والمتقدّم من المتخلِّف . والمعنى فعلت ذلك ليَبِينَ فضلى على غيرى .

٤٨

وقال رجل من بنى تميم (١)

وطَلَبَ منه ملك من الملوك فَرَساً يقال له (٢) سَكَابِ فمنعه إياها :

١ — أَبيْتَ اللَّعْنَ إنَّ سَكَابِ عِلْقٌ نَفِيسٌ لا تُعَارُ ولاَ تُبَـاعُ (٣)

قولُه « عِلْقٌ نفيسٌ » أى مالٌ يُبْخَل به . وهذا كما يقال : هو عِلْقُ مَضِنَّةٍ .

(١) هو عبيدة بن ربيعة بن قحفان بن ناشرة بن سيار بن رزام بن مازن ، كما فى كتاب الخيل لابن الأعرابى ٦٢ حيث أنشد الأبيات . وفى همدان فرس يقال له سكاب ، فارسه الأجدع بن مالك . الخيل لابن الأعرابى ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى ، ذكر للفظ ، وأنث بعد ذلك للمعنى .

(٣) رواية ابن الأعرابى : « ليست بعلق يستعار ولا يباع » .

ويقال: عالَقْتُه بِعِلقٍ وعِلْقِه، إذا خاطَرتَهُ بكرائم المال. يقول: مُنِعْتَ أن تفعل ما تَستحِقُّ به اللّعن، إنّ فرسي سَكَابِ مَتَاعٌ نَفِيسٌ، وعِلقٌ كريم، لا يُعْرَضُ للبيع، ولا يُبذَلُ للإعارةِ. و « سَكَابِ » إذا أعربته منعته الصَّرْف، لأنّه عَلَمٌ، فلحصول التعريف فيه والتأنيث مع كثرة الحروف يُمنَع الصرف. والشاعر تميميٌّ، وهذا لُغَةُ قومه. وإذا بَنَيْتَهُ على الكَسْرِ أجريته مجرى حَذَامِ، لأنّه مؤنث معدول معرفةٌ، فلمشابهته بهذه الأوصاف دَرَاكِ ونَزَالِ يُبنَى؛ وهذه اللّغة حجازيّة. واشتقاق سَكَابِ من سَكَبْتُ إذا صببتَ. ويقال في صفة الفرس: هو بَحْرٌ وسَكْب. وقوله: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، تَحِيَّةٌ كان يُسْتَعْطَفُ بِهِ الملوك. وأَصْلُ اللَّعن: الطَّرْد. وقول الشاعر(١):

ولَكُلُّ ما نَالَ الفَتَى قَدْ نِلتُه إلا التَّحِيَّهْ

يعني إلاّ أن يقال لي: أبيت اللعن، لأنّه تحيّة الملوك. وكأنّه قال: نِلتُ كلَّ شيء إلا المُلك.

٢ — مفدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنا يُجَاعُ لها العِيَالُ ولا تُجَاعُ

يقول: لعزّتها على أربابها تُفَدَّى بالآباء والأمّهات، وتُؤثَر تكريماً لها على العيال عند الإضافة والإقتار، فيَجَوَّعُ العيال ولا تجوَّع هذه.

٣ — سَلِيلَةُ سَابِقَيْنِ تَنَاجَلاَها إذا نُسِبَا يَضُمُّهُمَا الكُرَاعُ(٢)

يقول: هي وَلَدُ فَرَسَيْن سابقَيْن، إذا نُسِبا ضَمَّ مَنَاسِبَهُمَا ومناصبهُما الكُرَاعُ، وهو فَحْلٌ كريم معروف. وسَلِيلَةُ أُلحِقَ الهاء بها وإن كان فعيلاً

(١) هو زهير بن جناب الكلبي، كما سبق في حواشي صفحة ١٠٠.
(٢) ابن الأعرابي: «يضمهما إذا نسبا».

فى معنى مفعول ، لأنّه جُعِلَ اسْمًا ، كما تقول هى قتيلة بنى فُلان . ومعنى سُلّ : نُزِعَ . ويقال : نَجلاً ولدَهُما وتناجلاه ، بمعنى واحد ، قال :

* إذْ نَجَلاهُ فنِعْمَ ما نَجَلا[1] *

وأصلُ الكُرَاع فى اللُّغة : أنفٌ يتقدَّم من الجبَل ، فسُمِّى هذا الفحلُ به لعِظَمِهِ . وأمّا الكُراع الاسم الجامِعُ للخيل ، فهو غَيْرُ ذَا .

٤ ــ فلا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فِيها وَمَنْعُكَها بِوَجْهٍ يُسْتَطَاعُ

يقول : ارفَعْ طَمَعَك فى تحصيل هذه الفرس ، أبيْتَ أن تأتى ما تستحق به اللّعن ، ودَفْعُكَ عنها يُقْدَرُ عليه بوجْهٍ ما وبحيلة ما . والمعنى : إنّى لا أُسْعِفُك بها استَبَعْتَها أو استوْهَبْتَها ، ما وجدتُ إلى الردِّ طريقاً ، فلا تطمع فيه مادامت لى هذه الحالة . وقوله « ومنعُكها » أى منعُك عنها . ويقال مَنَعْتُكَ كذا ، ومَنَعْتُكَ عن كذا ، وأمّا المَنَعَةُ العِزُّ[2] فهو مصدرٌ كالحركة والجلَبة مِن مَنع مَناعَةً ومَنَاعًا ، فهو مَنِيع .

٤٩

وقالت امرأةٌ من طَيِّءٍ[3] :

١ ــ دَعَا دَعْوَةً يَوْمَ الشَّرَى يَالَمَالِكٍ ومن لا يُجَبْ عند الحَفِيظَةِ يُكْلَمِ

يقول : استغاثَ هذا الرّجلُ فى يوم اجتماعنا بالشَّرَى — وهو مكانٌ معروف اتفقت فيه وقعةٌ فنُسب يومُها إليه — استغاثةً وقال : يالَمَالِكٍ ؛ ومَن لا يُجَب

(١) للأعشى فى ديوانه ١٥٧ . وصدره :

* أنجب أيام والداه به *

(٢) م : « العزة » . والمنعة تقال بفتح النون وإسكانها .

(٣) هى بنت بهدل بن قرفة الطائى ، أحد لصوص العرب زمان عبد الملك بن مروان كما سيأتى فى التفسير .

إذا استصرَخ ، ولم يُغثْ إذا استنْصَر ، يُهتَضَمْ ويُجرح . وقوله « يا لَمَالكٍ » اللام فيه للإضافة ، وإنما فُتِحَ لأنّه دَخَل على ما هو واقعٌ موقع المضمر ، فكما يُفتح لام الإضافة مع المضمَر كذلك فُتح مع المُنادَى لوقوعه موقِعَهُ . فإن قيل : فما المدعوُّ ؟ قلتَ : : مالِك ، كأنّه قال : دُعائى لمالِكٍ . والحفيظةُ : الخَصْلَةُ التى يُحفَظ الإنسانُ عندها ، أى يُغضَبُ . وكذلك الحِفْظَةُ . قال :

* وحِفْظَةٍ أكَنَّها ضَمِيرى[1] *

وقوله « يُكْلَمِ » كناية عن الغَلَبَة أو القتل .

٣ — فياضَيْعَةَ الْفِتْيانِ إذْ يَعْتِلُونَهُ ببَطْنِ الشَّرَى مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُسَدَّمِ

الفنيق : الفَحل المُفنَّق لا يُركَب لكرامته على أهله . والمُسدَّم : الفحل الهائج الممنوع . ويقال : عَتَله يَعتِلُه ويَعتُلُه جميعاً ، إذا قادَه بعُنْف . ومعنى « يا ضَيْعةَ الفتيان » وإن كان لفظُه لفظَ النداء ، معنى الخبر ، كأنّه قال : ضَاعَ الفتيان جدًّا . فيقول على وجه التعجُّب والاختصاص : ما أضْيَعَ الفتيانَ فى ذلك الوقت وفى تلك الحالة . كأنَّه لمّا لم يُنْصَر فى تلك الحالة ولم يَحضُرْه فَتًى يُعينه كان الفتيانُ ضائعِين ، إذ كانوا يعْنُفون فى قوْدِهم إيّاه ، وهو كأنّه فحل مشدود الفم خَوْفاً من صِيَالِه ، فلا يُناكر بنفسه[2] ، ولا يدَافع أحد دونَه . وذكر بعضهم أن هذا المقتولَ هو بَهْدَل بن قِرْفَة ، أحد بنى نبهان ، وأُخِذ بسبب دم ابن جَعْدَةَ المخزومى[3] فقُتِل بالمدينة صَبْرًا . وما اقْتُصَّ فى الأبيات يدل على خلافه[4] .

(١) للعجاج فى ديوانه ٢٦ واللسان (حفظ) .

(٢) المناكرة : المحاربة والقتال .

(٣) هو عون بن جعدة بن هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، كما ذكر التبريزى .

(٤) قال التبريزى : « بل الذى اقتص فى الأبيات يدل على صحته » . ثم نقل نصا طويلا من كتاب أخبار اللصوص للسكرى .

٣— أَمَا فى بَنِى حِصْنٍ مِنِ ابنِ كَرِيهَةٍ من ٱلقَوْمِ طَلَّابِ ٱلتِّرَاتِ غَشَمْشَمِ

هذا الكلام بَعْثٌ وتحضيض لأبناء حِصْن . والغَشَمْشَم : الذى يركبُ رأسه ولا يَهَابُ الإقدامَ على شىء . والكلام لفظُهُ استفهامٌ ، والمعنى معنى التَّمنِّى ، كأنّه يَبْعثُ ويُحَضِّضُ مَن يَطْلُب دمَه إذْ فاتَ نُصْرتَه حَيًّا . فيقول : أمَا فى هذه القبيلة ابنُ حَرْبٍ مُتَنَاهٍ فى طلب الدَّم وإدراكِ الثأر ، ظَلُومٌ غَشوم ، يركب الكرائهَ والأمورَ الصَّعبة ، غير مُرْعَوٍ ولا مُنْقبِض .

٤— فَيَقْتُلَ جَبْرًا بامرئٍ لم يَكُنْ لَهُ بَوَاءً ولكن لا تَكَايُلَ بالدَّمِ(١)

جَبْرٌ هو القاتل لِوَلِىّ هذه المرأة . ويقال : باء فلانٌ بفلانٍ يبُوء بواءً ، إذا ارتُضِىَ لقَتْلِهِ بدلاً منه . وأَبَأْتُ فلانًا بفلانٍ ، أى قَتَلتُه . وانتصب « يقتُلَ » على أنه جواب التمنّى بالفاء ، والعامل فى الفعل أن مضمرة ، أى أَمَا فيهم رجُلٌ هكذا فيَقتُلَ هذا الرجلَ برجل لم يكن له نظيرًا ، فيكون فى دمه وفاءٌ بدمه ، ولكنْ سقطت المكايلة فى الدماء منذُ جاءَ الإسلام ، فَلاَ يُقتل بدل الواحد إلاّ واحدٌ ، شريفًا كان أو وضيعًا .

٥٠

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَسٍ(٢) :

١— رَأَيْتُ مَوَالِىَّ ٱلأُولَى يَخْذُلُونَنِى عَلَى حَدَثَانِ الدهرِ إذ يَتَقَلَّبُ

الموالى هاهنا : أبناء العم . والأُولَى فى معنى الذين ، ويخذلوننى من صِلَتِه . يقول : رأيتُ أبناء عمِّى هم الذين يقعدون عن نُصرتى على تقلُّب الزّمانِ ، وتصرُّف الحَدَثان . وقولُه « على حَدَثان الدَّهر » فى موضع الحال ، أى

(١) فى الأصل : « حبر » بالحاء المهملة فى المتن والشرح ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى .
(٢) التبريزى : « قيل هو مرة بن عداء الفقعسى » .

يخذلوننى مُقَاسِيًا لما يحدث فى الدَّهر أوانَ تقلُّبِه وتغيره .

٢ — فَهلاّ أَعدُّونِى لِمِثْلِى تَفَاقَدُوا إذِا الخَصْمُ أَبْزَى مائلُ الرأسِ أنْكَبُ(١)

قوله : « تفاقدوا » دعاء ، وقد اعترض بين أوّل الكلام وآخره ، ولكنّه أكّد ما يقتصّه فَصَلَحَ لذلك . يقول : هَلاّ جعلونى عُدَّة لرجلٍ مثلى ، فقد بعضُهم بعضا وقد جاءهم الخَصْمُ متأخِّر العَجُز مائل الرأس منحرفا . وهذا تصويرٌ لحال المُقاتل إذا انتصب فى وجه مقصوده ، وهو أبلغُ فى الوصف من كلِّ تشبيه ، ومثله قول الآخر(٢) :

* جاءوا بمَذْقٍ هَلْ رَأَيتَ الذئبَ قَطّْ *

ألا تَرى أنه صوَّر لون المذْق لَمّا قال : هل رأيت الذئب قط ؟ وقوله : « إذِ الخصم » هو حكاية الحال المتوهَّمَة ، وهو الرواية المختارة . وقد رُوِى : « إذَا الخَصْمُ » والجُمْلَة التى تبيّن بها إذَا هذه يجبُ أن يكون فيها فِعْلٌ ، وقد عَرِيَتْ منه هاهنا ، وأظُنُّ أنّ الأخفش جوّزَ مثله . والمعنى : لِمَ أفاتونى أنفسَهم ، وهلا ادَّخرونى ليوم الحاجة إذا كان الخصم هكذا . وأراد بالخَصم الجِنس . وقال الأصمعىّ : البزَى : تأخُّر العَجُز . وقال غيره : هو إشرافُ وسَط الظَّهر على الاسْت . والبيت يشهد للأصمعىّ . والنّكَبُ : شِبْه الميل فى المَشْى ومنه الأنكب من الإبل ، وهو الذى يَمشِى فى شِقّ .

٣ — وَهَلاَّ أَعَدُّونى لمثْلِى تَفَاقَدُوا وفى الأرض مَبْثُوثٌ شُجَاعٌ وَعَقْرَبُ

الكلام فى « تفاقدوا » وأنّه دعاء واعتراض ، على ما مرّ . وإنّما وكرّر

---

(١) إذا ، كذا ورد رسمها فى النسختين بالألف مع كسر الذال ، وذلك لتقرأ بالروايتين ، إذ وإذا . قال ابن جنى : « فمن رواه إذ حكى الحال المتوقعة كقول الله سبحانه : إذ الأغلال فى أعناقهم . ومن رواه إذا فهو كقوله آتيك إذا زيد قائم . وهذا جائز على رأى أبى الحسن ، وذلك أنه يجيز الابتداء بعد إذا الزمانية المشروط بها » .

(٢) قيل هو العجاج . الخزانة (١ : ٢٧٧) .

ما كرّره على وجه التأكيد ، وتفظيعاً للأمر . والمعنى : هلّا جعلونى عُدّةً لرجلٍ مثلى فى البأس ، فَقَدَ بعضُهم بعضاً . وقد انتشرَ فى الأرض أعداءٌ كثيرة ، وأنواعٌ من الشر فظيعة . والشُّجَاع : الحَيَّة . وَكَنَى بالعَقْرَبِ وبه عَنِ الأعْدَاء والشَّرِّ . وارتفاع شُجَاعٌ ، يجوز أن يكون على البَدَل ، ويجوز أن يكون على الابتداء ومبثُوثٌ خَبَرٌ له قُدِّم عليه ، ويجوز أن ينصب مبثوث على الحال ، ويُجعل فى الأرض الخَبَرَ[1] . ولم يُثَنَّ مبثوث لأنّ القصد بالشُّجاع والعقرب إلى خيل الأعداء والشرّ ، فكأنهما شىءٌ واحد .

٤ — فَلَا تأخُذُوا عَقْلًا من القَوْمِ إنَّنِي أَرَى العَارَ يَبْقَى وَالمَعَاقِلُ تَذْهَبُ

لك أن ترفَعَ المعاقِل على الاستئناف ، ولك أن تحمله على ما قَبلهُ فتعطِفَهُ على العار . يقول : لا ترغبوا فى قبول الدِّية فإنه عَارٌ ، والعار يبقى أثَرُه ، والأموال تفنى . والمعاقِلُ : جمع المَعْقُلَةِ . والمَعْقُلَةُ والعَقْلُ : الدِّيةُ ، وأصله الإبل كانت تُعْقَلُ بفناء وَلِىّ المقتول ، وهو مصدرٌ وُصِف به . وحكى الأصمعىُّ : صار دَمُهُ مَعْقُلَةً على قومه ، أى صاروا يَدُونَهُ .

٥ — كَأَنَّكَ لم تُسْبَق من الدَّهْرِ لَيْلَةً إذا أنت أدركتَ الذى كُنْتَ تَطْلُبُ

يقول : مَن أدركَ ما طلبه من الثّأر فكأنه لم يُصَبْ ولم يُوتَرْ . وهذا بَعْثٌ وتحضيض على طلب الدّمِ والزّهدِ فى الدّية . وفى طريقته قول الآخر[2] .

كأنَّ الفتَى لم يَعْرَ يَوْمًا إذا اكْتَسَى ولم يَكُ صُعْلوكاً إذا ما تموَّلَا[3]

لكنّ هذا بَعْثٌ على طَلَبِ المال .

---

(١) ابن جنى : « فمن نصب فإنه وصف نكرة قدم عليها فنصب على الحال منها ، كقولك : * لمية موحشاً طلل قديم *

(٢) هو جابر بن ثعلبة الطائى ، كما فى الكامل ٢٩٩ ليبسك . وفى الحماسية ٩٥ أنه جابر بن الثعلب .

(٣) التبريزى : « ولم يك فى بؤس إذاما تمولا » .

٥١

وقال آخرُ :

١ ــ فَلَوْ أَنْ حَيًّا يَقْبَلُ المالَ فِدْيَةً لَسُقْنا لَكُمْ سَيْلاً من المال مُفْعَمَا

انتصب فِدْيةً على الحال من المال ، والمُراد به الإبلُ لا غير ، وَنَكَّر قولَهُ « حَيًّا » وهو يقصد به قَصْدَ حَيٍّ بعينه ، لأنّ المراد كان مفهوماً عند من عَرَف القصّة ، فجعله كالتّعريض . وقوله « سَيْلاً مُفْعَمَا » والسَّيْلُ يُفْعَمُ به الشّيء ، يجوز أن يكون من باب هَمٌّ ناصِبٌ وما أشبَهَهُ ، ويكون المعنى سَيْلاً ذا إفْعَامٍ ، ولكنَّ أكثَر ما يجيء معنى النِّسبة فيما كان للفاعل ، كطالِقٍ ومُرْضِعٍ . ومثله قولهم نَخْلَةٌ مُوقِرٌ . ويجوز وهو الأجْوَدُ أن يكون عَبَّر عن الكثرة بقوله مُفْعَمُ كما عُبِّرَ فى قولهم شِعْرٌ شَاعِرٌ وَمَوْتٌ مَائتٌ عن التّناهى بلفظ فاعل ، وإن كان الموت لايموت ، والشِّعر لايشعُرُ ، كما أنّ السَّيْلَ لا يُفْعَمُ . وقد قيل امرأةٌ فَعْمَةُ المُخَلْخَلِ ، أى غليظةٌ كثيرةُ اللَّحْم عليه . والمعنى : لو كانت معاملتُنا مع حَيٍّ يَرَى قَبول المال فداءً لأرضيناه بالمال الكثير .

٢ ــ ولكِنْ أَبَى قَومٌ أُصِيبَ أَخُوهُمُ رِضَى العَارِ واختاروا على اللَّبَن الدَّما

يقول : ولكن امتنع قومٌ أصبْنَا صاحِبَهُم من الرِضا بالدنيَّة ، وآثروا طَلَبَ الدم على قَبُول الدِّيَةِ . وجعل اللَّبَنَ كنايةً عن الإبل تؤدَّى عَقْلاً ، [لأنه[1]] منها ، وكما نَكَّر حَيًّا فى البيت الأول نكَّر أيضاً فى الثانى قوله « أَبَى قَوْمٌ » ، والغَرَضُ بهما على حَدٍّ واحد ، ولا يجوز أن يكون « يَقْبَل المال فِدْيَةً » صِفَةً لقوله حَيًّا ، لأنه يَبقَى أنّ بلا خبر . فأمّا قولُه « أُصيبَ أخوهم »

---

(١) التكملة من م .

فهو صِفَةٌ لقوله قَوْمٌ . وقوله « رِضَى العارِ » العارُ فى موْضِع المفعول ، أى أبَوْا أن يَرضَوا العار خُطَّةً لأنفسهم .

٥٢

وقالت كَبْشَةُ أُخْتُ عَمْرِو بن مَعْدِيكَرِب[1] :

١ ــ أَرْسَلَ عَبْدُ اللهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ إلى قَوْمِهِ لا تعقِلوا لهُمُ دَمِى

الشعر لكبشة أخت عبد الله[2] . والكلام بَعْثٌ وتهييجٌ . وإنَّمَا تَكَلَّمَتْ به على أنه إخبارٌ عما فعله عبد الله وأقامَهُ من الوَصَاةِ عند الوفاة ، فتقول : راسل عبد الله بن معديكرب لما دنا أجَلُه قومَه وذويه ، بأن لا تَعْقِلوا دَمِى . وغَرَض كَبْشَةَ تحضيضُهم على إدراك الثَّأر ، وتركِ التباطؤ والتَّكاسُلِ فيه ، وإن كانت آمنةً من مَيْلِهم إلى قَبُول الدِّية ، فغلَّظَت القولَ لتهتاج حميَّتهم . ويقال عَقَلْتُ فُلاناً ، إذا أعطيتَ ديتَهُ . وجَعَل هذا المفعول الدَّمَ لأنَّ المراد مفهوم ، كأنّه قال : لا تأخذوا بَدَلَ دَمِى عَقْلاً . ويقال عَقَلتُ عن فلانٍ ، إذا غَرِمْتَ عنه دِيَةَ جنايَتِهِ أو أرْشَها .

٢ ــ ولا تأخذوا مِنْهُم إفالاً وأَبْكُرًا وأُتْرَكَ فى بيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظْلِمِ

الإِفَالُ : جَمْعٌ وواحدهُ أَفِيل ، وهى صِغارُ الإبلِ ، والأبْكُر : جَمْع البَكْر، وهو الفتىُّ منها . يقول : لاتأخذوا من قَتَلَتِى صِغارَ الإبل وبكارَتَها ، فتتركونى فى قَبرٍ مُظلم بصَعْدَةَ ؛ وهو مكان باليَمَن . وإنما جعَلَ قبرَهُ هكذا ، لأنهم كانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره ، فإنْ أُهْدِرَ دَمُه أوقُبِلَتْ دِيَتُهُ بقى ،

---

[1] (١) سبقت ترجمة أخيها عمرو فى الحماسية ٢٩ . التبريزى : «كبشة اسم مرتجل علماً ، وليس بتأنيث كبش ، لأن ذلك لا مؤنث له من لفظه ، إنما هى نعجة » .

[2] (٢) عبد الله أخو كبشة وأخو عمرو بن معديكرب .

قبْرُهُ مُظلِماً . فإن قيل : لمَ ذَكَر الإفَالَ والأبْكُرَ وما يؤدَّى فى الدِّيات لا يكون منهما ؟ قُلْتَ : أراد تحقير الدِّيات ، وهذا كما يقول الرّجُلُ إذا أراد تحقير أمْرِ خِلْعَةٍ فازَ بها إنسانٌ : إنما أُعْطِيَ خِرَقاً وفُلُوساً ! وإنْ كانت الثِّياب المُعْطَاة كِسوةً فاخِرةً ، والمَالُ الموفَّر جائزةً سنيّةً . وانتصَبَ « وأتْرُكَ » بإضمارِ أن وهو جَوابُ النَّهْى بالواو .

٣ ــ وَدَعْ عَنْكَ عَمْرًا إنّ عَمْرًا مُسَالِمٌ وَهَلْ بطْنُ عَمْرٍو غَيْرُ شِبْرٍ لِمَطْعَمِ

عَمْرو هو أخوها ، وكان يُعَدُّ بألفِ فارس ، ولم يكن ممن يُسالِم ولا سيَّا فى طلب دمِ أخيه . وإنما رَمَتْه بهذا الكلام لتهيِّج منه وتبعَثَهُ على التعجُّل فى دَرَكِ الثأر ، والتسرُّع فى الانتقام . وقولهُ : « وهل بَطْنُ عمْرٍو غير شبرٍ لمطعم » تزهيدٌ فى الدِّيَةِ ، وهذا كما رُوِى فى الخبر : « وهل بَطْنُ ابنِ آدمَ إلا شِبْرٌ فى شِبْرٍ » لمَّا أُريد تزْهِيدُهُ فى الدنيا وحُطَامِهَا . أى ما يَصْنَعُ بالمال وجوفُه يمتلئُ باليسير . وعمْرٌو لم يكن ممَّن يميل إلى الدِّيَة ، كما لم يكن يميل إلى المسالمة ، ولكنَّ المرادَ ما ذكرناه من التحضيض والحثّ .

٤ ــ فإن أنْتُمُ لم تَثْأَرُوا واتَّدَيْتُمُ فَمَشُّوا بآذانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ

الصَّلْمُ : قَطْع الأذُن من أصلها ، ومنه الصَّيْلَمَ : الدّاهِية المستأصلة . واتّديتم ، معناه قَبِلْتُمُ الدِّيَةَ . يقال : ودَيْتُه فاتَّدى ، كما يقال وَهَبْتُهُ فاتَّهَبَ ، أى قَبِل الهِبَةَ . وفى الحديث : « هَمَمْتُ ألا أتَّهِبَ إلاّ من قُرَشيٍّ أو أنصاريّ » ومثله قضَيْتُه الدَّيْنَ فاقتضَاه ، أى قَبِله وتوفَّرَهُ . وقوله : « فَمَشُّوا» أى امشُوا . وضَعَّفَ الفعل للتكثير . ومن روى « فمُشُّوا » بضم الميم فمعناه امسَحوا ؛ ويقالُ لمنديلِ الغَمَرِ : المَشُوشُ . والمعنى : إنْ لم تقتلوا قاتِلِي وقبلتم دِيَتِى فامْشُوا أذلاءَ بآذانٍ مُجَدَّعةٍ كآذان النَّعامِ . ووصَف النَّعام بالمُصَلَّم تصويرًا لها ، وإن كانت

خِلْقَةً جميعها ذلك . ومن أحاديثهم عن البهائم : « ذهبت النّعامة تطْلب قَرْنَيْن فجُدِّعَت آذانُها[(١)] » . ومن روى « فمُشُّوا » فالمعنى امسحوا بِآذانكم مجدَّعةً مُثْلَةً بكم كآذان النّعام .

٥ــ ولا تَرِدُوا إلا فُضُولَ نسائِكُمْ إذا ارْتَمَلَتْ أَعْقابُهُنَّ من الدَّم

تَرَمَّلَ وارْتَمَلَ إذا تَلطَّخَ بالدم . قال :

* إنّ بَنِيَّ رَمَّلُونى بالدَّمِ[(٢)] *

ويجوز أن يكون هذا الكلام دعاء عليهم[(٣)] ، أى أحلَّكم الله محلّ من ذا صفتُه . وعلى هـذا يكون قوله « فَمَشّوا » من البيت الأول أيضاً[(٤)] . وإن شئت جَعَلْتَهُ نَهْيًا ، وفَمشّوا أمراً . والمعنى : إذا فعلتم ذلك فتأخَّروا فى المواطن كلها والمَناجع ، وتخلّفوا عن المشاهد والموارد ، وألبَسُوا الذُّلَّ راضِينَ به ، فإنّ مآل أمركم[(٥)] مع تضييعكم دمَ صاحبكم إلى مثل ذلك . وكان عادتُهم إذا وَرَدوا المياه أن يتقدَّم الرِّجالُ ثُمّ العضاريط والرُّعاةُ ، ثم النِّساء ، إذا صَدَرَتْ كلُّ فِرْقةٍ عنه ، فكنَّ يَغْسِلْنَ أنفسهنّ وثيابَهنّ ويتطَّهرن آمِنَات مما يزعجهن غيرَ مستعجلات ، فمَنْ تأخَّرَ عن الماء حتى تَصْدُرَ النِّساء فهو الغاية فى الذُّلِّ . وجَعَلَ النِّساء مُرْتَمِلات بِدَمِ الحيض تفظيعاً للشَّأن ، وتدنيساً للماء . والأعقاب واحدها عَقِبٌ ، وهو موخر الرِّجْل . يقال : وَلَّى على عقبَيه ، إذا انصرف راجعاً عن مطلوبه .

(١) انظر الحيوان (٤ : ٣٢٣ ، ٣٩٨) .
(٢) لأبى أخزم الطائى ، كما فى اللسان (رمل) .
(٣) فى الأصل : « عليه » وفى م : « عليكم » ، والوجه ما أثبتنا .
(٤) أى يكون على معنى الدعاء .
(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « فإن مآ لكم » .

٣٣

وقال عَنْتَرَةُ بن الأخرس المَعْنيُّ من طيِّءٍ[(١)] :

١ ــ أَطِلْ حَمْلَ الشناءةِ لى وبُغْضِى وعِشْ ماشِيتَ فانظرْ من تَضِيرُ[(٢)]

يقال : شَنِئْتُهُ شَناءة وشَنْئًا[(٣)] وشَنَآنًا[(٤)] ومَشْنَأَةً ، إذا كان بُغْضًا مختلطًا بعداوةٍ وسوءِ خُلُقٍ ، كما أنَّ الشَّنَفَ اسمٌ لِشِدَّةِ العداوة . يقول : أَدِمْ احتمال الضَّغائن والبُغْض لى ، وعِشْ مدّة مشيئتك فتأملْ من يضُرُّهُ ذلك . ويقال ضَارَهُ يَضِيرُهُ ، وضَرَّهُ يَضُرُّهُ بمعنًى واحد . وانتصب موضع ماشيت على أنّه ظَرْفٌ . و « مَنْ » مفعول تضير ، لأنّه استفهام فلا يَعْمَل فيه ما قبله . أى انظُر تضير مَنْ .

٢ ــ فمَا بِيَدَيكَ خيرٌ أَرْتَجِيهِ وَغَيْرُ سدودِكَ الخَطْبُ الكبيرُ[(٥)]

بَيَّنَ وجْه استهانَتِهِ به ، وقلّةَ مُبالاتِه ببَغضائه وعداوته . فيقول : لا نَفْع عِنْدَكَ أعلِّق رجائى به ، وغيرُ إعْراضِكَ هو الخَطْبُ الكبير ، فأما إعراضُكَ فأهْوِنْ به وأحْقِرْ بكوْنه . وأرتجيه ، فى موضع الصِّفة للنَّفع ، أى نَفْعٌ مُرْتَجًى .

٣ ــ أَلَمْ تَرَ أَنَّ شِعْرَكَ سارَ عَنِّى وشِعْرِى حَوْلَ بَيْتِكَ ما يَسِيرُ[(٦)]

(١) ويعرف أيضاً بعنترة بن عكبرة ، وعكبرة اسم أمه . قال الآمدى فى المؤتلف ١٥٢ : « شاعر محسن وفارس » . والعنترة : واحدة العنتر ، وهو الذباب الأزرق ، فهو اسم منقول كما فى المبهج لابن جنى . والمعنى : نسبة إلى معن بن عتود .

(٢) رواية الآمدى : « حبل الشناءة » بالباء . قال التبريزى : « الرواية الجيدة : حمل الشناءة بالميم . ويروى : حبل الشناءة ، بالباء ، وهو استعارة حسنة أيضاً ، جعل للشناءة حبلا » .

(٣) هذه مثلثة الشين . (٤) الشنآن بسكون النون وفتحها .

(٥) وكذا رواية الآمدى . وفى م والتبريزى : « نفع أرتجيه » .

(٦) شعرك ، أى شعرى المقول فيك ؛ وشعرى ، أى شعرك المقول فىَّ . والأوفق رواية الآمدى والتبريزى : « إن شعرى سار عنى وشعرك » .

هذا تقريرٌ له فى بيان فَضْله عليه ، وسلامة عِرْضه من قَرْفِهِ إياه . يقول : ألم تَعْلَمْ أن شِعرك الذى قلتَه فىَّ لم يَعْلقْ بى ذَمُّهُ ، لأنه كان كَذِباً وزُورا ، وشعرى الذى قلتُه فيك يطوف حول دارِك وبيتك ولا يفارقُك ، لأنه كان صِدْقاً . ويجوز أن يكون المعنى : ألم تَرَ أن شِعْرى الذى قلتُه فيك سَارَ عنّى ، لأنّ الرواة احتملوه استجادَةً له واستلذاذاً ، وشعرك الذى قلتَه فىَّ مُلازِمٌ لك لزُهْد الناس فيه لَمّا كان سَفْسَافاً . وساغَ الوجْهَان جميعاً لأنّ المصدر يُضَاف إلى المفعول كما يُضَاف إلى الفاعل ، فعلى ذلك جاز أن يقول شعرُكَ ويريدُ شعرى المَقُول فيك . وروى بعضهم :

ألم تر أنّ شِـعرى سارَ عنِّى وشِعرُكَ حوْل بيتِك ما يســيرُ

وهذا الراوى[1] صرّح بالتفسير الثانى .

٤ ـ إِذَا أَبْصَرْتَنِى أَعْرَضْتَ عَنِّى كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِى تَدُورُ

فى طريقته قول أوس :

إذ يَشْزِرُنَ إلىَّ الطَّرْفَ عن عُرُضٍ كأنَّ أعيُنَهُم من بِغْضَتى عُورُ

يقول : إذا رميتَنى ببصرك لم يمكنك مَلْؤه منّى بُغضاً وعـداوة ، حتى تُعْرِضَ عنى فعلَ الناظرِ إلى الشمس ، فـكأن الشمس تدور من جهتى . فأما قول الآخَر :

* نَظَرٌ يُزِلُّ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ *

فهو صفةَ نظر المهيب المعظَّم . وفى نَظَر الناظرين على اختلافهم ما يستدلُّ به على أحوالهم ، وسنذكر ما يجىء عنه مُبَيَّناً من بَعْدُ .

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « وهذه الرواية » .

(٢) صواب روايته : « نظراً » . وصدر البيت كما فى البيان (١ : ١١) .

* يتقارضون إذا التقوا فى موقف *

٥٤

وقال الأحوص بن محمد[1] :

١ ــ إِنِّى عَلَى ما قَدْ عَلِمْتِ مُحَسَّدٌ أَنمِي عَلَى البَغْضَاءِ والشَّنَآنِ

عَلِمتِ بمعنى عَرَفتِ ، ولهذا اكتفى بمفعولٍ واحدٍ . ومعنى البيت . إنى مرموقٌ محسودٌ على ما قد عَرَفتِهِ من أحوالى ، زائدٌ كلَّ يومٍ على بغضاءِ الناسِ وشنآنهم لى ، ويكون قوله « على ما قد عَلِمتِ » ، وقوله « على البَغْضَاءِ » جميعا فى موضع الحال . والعامل فى الأول قولُه مُحَسَّدٌ ، وفى الثانى أنمِي . ويجوز أن يكون على ما قد عَلِمْتِ من صِلَةِ مُحَسَّدٍ ، كما تقول حَسَدْتُه على كذا . وقال بعضُ الناس : الشنآن : بُغْضٌ يختلط به عداوة وسوء خُلُق ، فلهذا جاز الجمعُ بينه وبين البَغْضاء . وقال غيره : بل هُمَا بمعنى واحد ، واللفظان إذا اختلفا على اتفاقِ معناهما جاز الجمعُ بينهما تأكيداً . واحتجّ بقوله :

* وهِنْدٌ أتى من دُونِها النَّأْىُ والبُعْدُ[2] *

قال : ولا خلاف بين أهل اللغة أنه لا فَصْل بينهما .

٢ ــ ما تعتَرِينى من خُطوبٍ مُلِمَّةٍ إلاّ تُشَرِّفُنى وتُعْظِمُ شانِى

أضاف الخطوب إلى مُلِمَّةٍ لأنه أراد بها أوائلَ أمرٍ عظيم ، وجوانب شرٍّ

---

(١) هذه العبارة ساقطة من الأصل ، وإثباتها من م . وعند التبريزى : وقال الأحوص ابن مد بن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » . والأحوص : لقب له ، ومعناه الضيق العين ، واسمه عبد الله . وهو شاعر إسلامى أموى ، من شعراء المدينة ، وقد نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة لتهم وجهت إليه . الشعر والشعراء ٤٩٩ وابن سلام ١٣٧ — ١٤٠ والأغانى (٤ : ٤٠ — ٥٨) والخزانة (١ : ٢٣١ — ٢٣٤) .

(٢) للحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* ألا حبذا هند وأرض بها هند *

فظيع . وأصل الخَطْب الطَّلَب ، يقال خَطَبْتُ كذا فأخْطَبَنى ، كما تقول طَلَبْتُه فأطْلَبَنى ، فكأنه أراد أوائل مُلِمةٍ وأسباباً لها تَطْلُبُه . ويقال : هذا خَطْبُ أمْرٍ عظيم ، وهذا خطبُ أمرٍ يسير . فيقول : ما يَطْرُقُ ساحتى أسبابُ نازلةٍ شديدةٍ إلاّ عَظَّمَتْ شأنى ، ورفعَتْ قَدْرى ، لأنه يُعْرَفُ بلائى فيها ، وحُسْن مَخْلَصى منها ، فازددْتُ فى عيون الناس وقلوبهم .

٣ ــ فإذا تَزُولُ تَزُولُ عن مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ لَدَى الأقْرانِ(١)

المتخمِّطُ : المُتَغَضِّبُ لَهُ سَوْرَةٌ والتهابٌ ، واستعير فى آذِىّ البحر وأمواجِهِ إذا التجَّتْ . قال :

* خَمِطِ التَّيارِ يَرْمِى بالقَلَعْ(٢) *

يقول : إذا انكشفت تلك الخُطُوبُ والملمَّات انكشفت عن رَجُلٍ تمكبِّر يُخَاف فلتاتهُ وَبَدَرَاتُه عند نُظَرَائِهِ فى البأس والشِّدَّة . والمعنى : إنَّ الدَّواهىَ إذا نَزَلت بساحتى لا تَلين لها عريكتى ، ولا تُحَصِّل عَلَىّ تذَلُّلاً لم يكن من قَبْلُ لِى . وقولُه : « تُخْشَى بوادره » فى موضع الصفة للمتخمِّطِ . ولم يَرْضَ حتَّى يَجعل البوادِرَ مَخْشِيَّةً عند أشباهه ، فكملت الصِّفة ، وتمكَّنت القافية .

٤ ــ إنِّى إذَا خَفِىَ الرِّجَالُ وَجَدْتَنِى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مَكَانِ

إنِّى إذا خَفِى مواقِعُهم من قلوب الرؤساء ، ومواضعُهم من صدور المجالس فأنا بخلافهم . يصف اشتهارَه فى الأماكن وجلالَته فى النُّفوس ، فيقول : إذا غَشِىَ الرِّجَالَ خُمُولٌ أَلْفَيْتنِى فى شُهرتى ونباهتى كالشَّمس التى يَتَّصل شُعاعها بكلِّ مكان ، ويُعْرَف شأنُها فى كلِّ نفسٍ وكلِّ زمانٍ .

(١) ابن جنى فى التنبيه : « على الأقران » .
(٢) لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات (١ : ٢٠٠) . وصدره :
* ذو عباب زبد آذيه *

٥٥

قال الفَضْلُ بن العَبَّاسِ بن عُتْبَةَ بن أبي لَهَبٍ(١) :

١ — مَهْلاً بني عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينا   لا تَنْبُشُوا بيننا ما كان مَدْفُونَا

المَهْلُ والمَهَل والمُهْلَةُ تتقارب في أداءِ معنى الرِّفق والسكون . ويقال : لا مَهْلَ لكَ ، ومالكَ من مَهْلٍ . قال :

يقولون مَهْلاً يا جَمِيـــلُ وإنني   لأُقْسِمُ مَا بي عَنْ بُثَيْنَةَ من مَهْلِ(٢)

يقول : رِفْقًا يا بني عمِّنا ، رفقا موالينا . وهذا التَّكرار يريد به التأكيد . ويجوز أن يكون هذا الكلام تهكُّمًا ، ويجوز أن يكون رآهم ابتدءوا في أمرٍ لم يأمَنْ مَعَهُ من تفاقُم الشَّأن ، واستفحال الخطب ، ما لا يَقْدِرُ على تلافيه ، فاسترفَقَهم لذلك . وقولُه : « لا تَنْبُشُوا بيننا » أي لا تُثِيرُوا ما كان مستورًا من الشَّر . وذِكر الدَّفْن والنَّبش استعارةٌ في الإظهار والكتمان .

٢ — لا تَطْمَعُوا أنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ   وأنْ نَكُفَّ الأَذَى عنكمْ وتُؤْذُونَا

يقال : طَمِع فلانٌ في كذا طَمَعًا وَطَمَاعِيَةً وَمَطْمَعًا . وأوْصَل الفِعْلَ بنفسه من دُون في ، لأنَّ أَن الخفيفة والشديدة إذا اتَّصل بها حروف الجرّ حَسُنَ حذفُها لطولِ الكلام بها . تقول : أنا راغبٌ في أن أَلْقَاكَ ، وطَامِعٌ في أن يُحْسِنَ زَيْدٌ إليْكَ ، وحَرِيصٌ على أن أصِلَكَ . ولو قُلْتَ : أنا راغِبٌ أن ألقاكَ ،

(١) هو المسمى بالأخضر اللهبي ، لقوله :

وأنا الأخضر من يعـــرفني   أخضر الجلدة من بيت العرب

وهو شاعر خبيث متمكن . معاصر للأحوص والفرزدق ، وكان يميل إلى الوليد بن عبد الملك منقطعاً إليه ، فلما مات الوليد جفاه سليمان وحرمه . الأغاني (١٥ : ٢ — ٩) والمؤتلف ٣٥ والمرزباني ٣٠٩ واللآلي ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٢) الشعر ينطق بنسبة قائله ، وهو جميل .

وطامِعٌ فى أن يُحسن زيدٌ إليك ، وحريصٌ على أن أَصِلَكَ ، ولو قلت : أنا راغب أن ألقاك ، وطامع أن يحسن زيد إليك ، وحريص أن أصلك لجاز . ولو جَعَلْتَ مكان أن المصدر فقلتَ : أنا راغِبٌ فى لقائك ، وطامِعٌ فى إحسانِ زَيْدٍ إليك ، وحَرِيصٌ على صِلَتِكَ ، لم يجُزْ حذف حرف الجرّ . لا تقول : أنا راغب لقاءك ، وطامع إحسانَهُ إليك ، وحريصٌ صلتَك ؛ لأن ما كان يطول الكلام به لم يَحصُل . يقول : لا تُقَدِّروا أنكم إذا أهنتمونا قابلناكم ، بالإكرام ، وأنكم إذا آذيتمونا كفَفْنا عن أذاكم ، لأنَّ عزّتنا تَمْنَعُ من ذلك .

٣ ــ مَهْلاً بَنِى عَمِّنَا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا   سِيرُوا رُوَيْدًا كَمَا كُنْتُم تَسِيرُونا

هذا الكلام فيه تهكُّم فيقول رِفْقاً يا بنى عَمِّنَا عن ثَلْبِنَا ، والوقوع فينا ، وسيروا على هِينَةٍ[1] ووقارٍ ، وسكينةٍ وانخفاض ، على عادتكم المتقدِّمة ، وسنّتِكم المعهودة ، ودَعُوا ما استأنفتموه من الأَخْلَاق المنكَرة ، والسِّيَر الذميمة . والأَثْلَة : شجرةٌ تُجْعَلُ مَثلاً للعِرض ، فيقال : فُلَانٌ يَنْحَتُ أَثْلة فلانٍ ، إذا ذَمَّهُ وتَنَقَّصه . وقوله « سيروا رُوَيْدًا » أراد سِيرُ وا سَيْراً تُرْوِدُون فيه ، أى تَرْفُقُونَ فيه وتَسْكُنُون . « كما كنتم تَسِيرُونا » أى ارجِعوا إلى مثل سيرتكم الأولى ، وإلى طريقتكم المُثْلَى ، واتركوا ما ابتدعتموه ، فإنَّا لا نحتمله ولا نُصَابِرُكم عليه . وروى بعضهم بَدَلاً من المِصْرَاع الثانى :

* مَهْلاً بنى عَمِّنَا مَهْلاً موالينا *

ويُحمل التكرار فيه على أنه تَوَعُّد وتأكيد .

٤ ــ اللهُ يعْلَم أَنَّا لا نُحِبُّكمُ   ولا نَلُومُكُمُ أَلَّا تُحِبُّونا

استَشْهَدَ ربّه فى انتفاء الحبِّ عن قلوبهم ، وذكر أنّهم لا يلومونهم إذا

(١) م : « هيبة » .

لم يحبّوهم . كأن المعنى أنّ القلوبَ مَجْبُولَةٌ على حُبِّ المُحْسِنِ وبُغْض المُسيء ، فإذا ارتفَعَ التّعامُل بالإحسان مما بينهم ، وحَدَثَ التجاذُب بالإساءة فيهم ، فالتَّحابُّ لا محالة ساقطٌ ، والتباغُض حاصِل .

٥ — كلٌّ لَهُ نِيَّةٌ في بُغْضِ صَاحِبِهِ   بِنِعْمَةِ اللهِ نَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

يقول : كلٌّ واحدٍ منا ومنكم من قبلُ وإلى الآنَ له نيّةٌ صادقة لصاحبه في العداوة والبغضاء ، وعقيدةٌ خالصة في القطيعة والجفاء ، فبحمد اللهِ ومَنِّه وجزيل مِنَحِه قد استمرّ أمْرُنا على أنّا نبغضكم وتبغضوننا . وقوله « بنعمة الله » هو كما جاء في القرآن : ﴿ ما أنْتَ بِنعمةِ رَبِّكَ بمَجْنُونٍ ﴾ . وقوله « نقليكم وتقلونا » إشارةٌ إلى الحال . وحَذَفَ المفعول من الثاني لأنَّ في الكلام ما يدُلّ عليه . ويجوز أن يكون أراد وتقلونَنَا فَحَذَفَ الثَّانيةَ عن الإعراب ، وهي لغة حجازية . ومثله :

* قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فماذا تَحْذَرِي[1] *

يريد تحذرين ، وعلى هذا قولُ الآخر :

* إلَى من بالحَنِينِ تُشَوِّقِينِي *

وهذا يؤيِّد مذهب سيبويه في تجويزه للشاعر حذف حركة الإعراب عند الضرورة .

(١) نسب في حياة الحيوان للدميري إلى طرفة بن العبد . وقبله :

يالك من قبرة بمعمر   خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

٥٦

وقال الطِّرِمّاحُ بن حَكِيم الطائىُّ(١) :

١ ـ لَقَدْ زَادَنى حُبًّا لِنَفْسِى أَنَّنِى بَغِيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طَائِلِ

قوله «أننى بغيض» فى موضع الفاعل، والمعنى: زادنى بَغَاضتى إلى كل رجلٍ لا فَضْلَ فيه ولا خَيْرَ عنده ، حُبًّا لنفسى ، لأنّ التمايز بينى وبينه والتباينَ ، هو الذى أدّاه إلى بُغضى ، ولو كان بيننا تشاكلٌ وتقارب لمَا نبَا عنّى ولا أبغضَنى . وهذا الكلام تعريضٌ بمنابذٍ له . وقوله « غير طائل » هو من طال عليهم يطول طَوْلاً . والطَّوْل : الفَضْل . وقال الخليل : يقال للشّىء الدُّونِ الخسيس : هذا غير طائل ، والمذكَّر والمؤنَّث فيه سواء . ويقال : زِدتُ فضلاً كما يقال ازددتُ فضلا وزادنيه كذا .

٢ ـ وأنّى شَقِىٌّ باللِّئام ولا تَرَى شَقِيًّا بهم إلاّ كريمَ الشمائِلِ

قولُه « وأنى شقىٌّ » أصله أنّنى، لكنّه حذَف النون الأولى من أنّ تخفيفاً لأنّه اجتمع ثلاث نونات . وهو محمول فى الإعراب على أننى فى البيت الأول ومعطوف عليه ، فيقول : وزادنى حُبًّا لنفسى أيضاً شِقْوَتى باللّئام حتى تَنَقَّصونى واغتابونى، ثم قطع الإخبار وكأنّه أقبل على مُخاطَبٍ ملتفتاً إليه فقال : ولا تَرى أحداً يشقَى بهم إلاّ وهو كريم الطبائع ، مجانِب لهم بعِرضه وأصلِه ، وخُلُقِه وفعلِه .

---

(١) هو الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر ، شاعر خطيب ، وكان يعد فى المعلمين ، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ، ومنشؤه بالشام ، وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك ، وكان صديقا للكميت على ما كان بينهما من تباعد فى النسب والبلاد ، وكان يمدح خالد ابن عبد الله القسرى . الأغانى (١٠ : ١٤٨ ــ ١٥٣) والمؤتلف ١٤٨ والعينى (٢ : ٢٧٦ ــ ٢٧٨) والشعر والشعراء ٥٦٦ .

ويقال شَقِيتُ شِقْوَةً [وشَقَاوةً][1] وشَقَاء . والشمائل : الطَّبائع ، واحدها شِمَالٌ . قال :

* أَلُومُ وما لَوْمِى أخى من شِمَالِيَا *

ثم يقال : هو حسَن الشَّمائل ، والمراد به الهَيْئه والشَّكل .

٣ ـ إذَا مارآنى قَطَّعَ الطَّرْفَ بينه　　وبينَى فِعْلَ العارف المتجاهِلِ

رجع إلى اقتصاص[2] الحال بينه وبين من عَرَّض به فيقول : إذا أبصرنى المُبَاغِضُ لى ارتدَّ طَرْفُه عنِّى ، وقطَّع نَظَره إلىَّ ، فِعْلَ مَن يَعْرِف الشَّىء ويتكلَّف جهلَهُ . وقوله « قَطعَ الطرْفَ بينه » ، الطَّرْفُ : مصدر طَرَفْتُه ، إذا أبصرتَه . وعلى هذا قوله :

* تَحْسَبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً[3] *

وقد يراد بالطَّرف العين أيضاً فيكون اسما للجارحة والحَدَثِ جميعا . وانتصب « فعلَ العارف » على المصدر مما دَلّ عليه قَطَّع الطَّرفَ بينه وبينى . والمتجاهِل : متكلِّف الجهل . وعلى هذا : تعامَى ، وتعارَجَ ، وتخازر . وفى طريقته لفظًا ومعنًى قولُ الآخر :

* تَشَاوَسْ يزيدُ إنَّنى مَن تأمَّلُ *

٤ ـ مَلَأْتُ عَليَهِ الأرضَ حتَّى كأَنَّها　　من الضِّيقِ فى عَينيهِ كِفَّةُ حابِلِ

يقال : ملأتُ عليه الأرضَ ، إذا ضيَّقتَها عليه . وملأت منه الأرض ، إذا قمتَ وقعدتَ بذكره . والحابل: ناصِبُ الحبَالة . ويقال حَبَلْتُ الصَّيْدَ واحتَبَلْتُهُ ، إذا أخذتَه ؛ وتوسعوا فيه فقالوا : احْتَبَلَهُ الموتُ بحبائله . والكِفَّةُ ، يجوز أن يريدَ

(١) هذه من م .

(٢) فى نسخة الأصل : « اختصاص » ، صوابه فى م .

(٣) فى الأصل : « علينا » صوابه فى م . وهو لطرفة فى ديوانه ٦٤ . وعجزه :

* يا لقومى للشاب المسبكر *

به الحفيرة التى ينصِبُ الحابلُ فيها الحِبَالة . ويجوز أن يُرِيدَ بها قُتْرَتَهُ ، ويجوز أن يريد بها عَين الحِبالةِ ، لأنَّها تُجعل كالطَّوْق . وهذا أقرب لأنّ الخليل فسَّر الـكِفَّةَ على ذلك . وجاز إضافتها إلى الحابل كما يجوز إضافَةُ نَفْسِ الحِبالةِ إليه ، والمعنى : ضَيَّقْتُ عليه الأرضَ على اتِّساعِها ، لشدَّة بغضِه لى ، أى حتَّى كأنَّها برُحْبِها فى عينيه كِفَّةُ حابِلٍ إذا اجتمع فيها مَعِى . وهذا يشير به إلى تضادِّ الطبْعَيْن ، وتبايُن الخُلقَيْن ، وأنَّه لو أمكنَه لا نتفى وجودُه فى الأرض انتفاء الضدّ للضدّ ، قلةَ موافقةٍ وكثرةَ مُخَالفَة .

٥٧

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَسٍ (١) :

١ ــ وذَوِى ضِبَابٍ مُظْهِرِينَ عَدَاوَةً قَرْحَى القُلوبِ معاوِدِى الإِفْنادِ

يقول : رُبَّ قوم ذَوِى أحقادٍ وضغائن ، مجاهِرِين بعداوتى ، مراجِعين حالاً بعد حالٍ قولَ الفُحْش فىَّ ، مُتَقَرِّحِي الأفئدة لشدّة الحسد والبُغْضِ لى ، فعَلْتُ بهم كذا . وجواب رُبَّ فيما بعد . وذَكر قَرَحَ القَلْبِ مَثَلاً فى العَداوة ، كما يُذكر مرضُه مثلاً فى النِّفاق . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فى قلوبهم مَرَضٌ فزَادهم الله مَرَضاً ﴾ . فأما ذكر الصَّعَر والشَّوَس فهو من هذا الباب ، لـكنَّه تصوير حال المباغِض أو المتكبِّر فى نظره ، أو إقباله أو التفاته ، وكذلك ما يشبهه . وقوله « معاودى الإفناد » الإفناد بكسر الهمزة : مصدر أفنَدَ الرجل ، إذا أتى بالفَنَد . وإذا رُوِى « الأَفناد » بفتح الهمزة فهو جمع الفَنَدِ ، وهو الفُحْشُ والخطأ فى

(١) التبريزى : قال أبو محمد الأعرابى : الصواب أنه لمرداس بن جشيش ، أخى بنى سعد ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة .

الرأى . ويقال فى اللَّوم : فَنَّدْتُه ، لأنه يجمع تخطئة الرأى وذكْرَ القبيح . والضِّباب : جمع الضَّبّ ، وهو الحِقْد . قال :

* يا رُبَّ ذِى ضِغنٍ وضَبٍّ فارِضِ[1] *

ويقال : فلان خَبٌّ ضَبٌّ ، إذا كان مُنكراً فى المعاداة .

٢ ــ نَاسَيْتُهُمْ بَغْضَاءَهُمْ وتركْتُهُمْ وهُمُ إذا ذُكِرَ الصَّدِيقُ أَعَادِ

يقول : رُبَّ قَوْمٍ هكذا أنا نَسِيتُ بُغْضَهم لى حتَّى نَسُوا أيضا — لأنّ المُناساة تكون من اثنين فصاعِداً — وتركتُهم وهم من جملة الأعداء ، إذا مُيِّزَتْ بالذِّكر الأصدقاء . وقوله « الصديق » أراد به الجنس .

٣ ــ كَيْما أُعِدَّهُمُ لِأَبْعَدَ مِنْهُمُ وَلَقَدْ يُجاءُ إلى ذَوِى الأَحْقَادِ

يقول : لم أكاشِفْهُمْ ، ولا أظهرتُ لهم عِلْمى بعداوتهم ، بل استمررت فى مداجاتهم ومساترتهم ، وعركت بجَنْبِى ما بَدَرَ من هَفَوَاتهم ، طَلَباً لأنْ أُعِدَّهُمْ لمن هو أَبْعَدُ شأْوًا فى العداوة[2] ، أو أشدُّ تأخُّراً فى الالتحام والقَرابة . ثم قال : ولقد يُضطَرُّ الإنسان إلى نُصْرَةِ بنى الأعمام وإن كانوا مُنطَوِين على ضغائن ، فإذا قاتَلَ ببعضِهم بَعْضًا لاءَمَهُ ذلك ووافقه ، وحصلت الدَّبْرة[3] على من حَصَل ، إذْ كان فيه تفانيهم ، واشتفاء الصُّدُور منهم . وهذا كما قيل لبعض حكماء العَرَب ما تقولُ فى ابن العم ؟ قال : عدوُّك وعدوّ عدوك .

---

(١) انظر الحيوان (٦ : ٦٦) ومجالس ثعلب ٣٦٤ واللسان (فرض) .

(٢) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : لأبعد قرابة منهم . قال : وهو مثل قول حضرمى بن عامر :

ولقد طويتكم على بللاتكم وعلمت ما فيكم من الأذراب
كيما أعدكم لأبعد منكم ولقد يجاء إلى ذوى الأنساب

(٣) الدبرة ، بالفتح : الظفر والنصرة ، كما إللسان (٥ : ٣٥٣) .

٥٨

وَقالَ يَزِيدُ بن الحَكَمِ[1] :

١ — دَفَعْنَاكُمُ بالقَوْلِ حَتَّى بَطِرْتُمُ وبالرَّاحِ حَتَّى كانَ دَفْعُ الأصابِعِ

يقول : درَّجناكم فى استبقائكم[2] ورتَّبْنا القول والفِعْل فى استفاءتِكم وإصلاحكم ، فوعَظناكم أوّلا باللّسان وضرب الأمثال فى الجِدال ، حتى أبطَرَكم ذلك وزادَكم إغراءً ، فارتقينا من القَول إلى الدَّفع بالرّاح ، وتقبيح ما تأتونه بأحسن المَسّ ، فلما لم يُغْنِ شىءٌ من ذلك عَدَلْنا منه إلى الدفع بالأصابع ، وما بينَ هذه المنازلِ من التفاوُت فى الخشونة واللِّيان معلومٌ عند ذوى الألباب . ومَرّ بى فيما قرأتُه من محاوبات قُرَيْش ، أن بعضهم قال لآخر منهم مستضعِفًا لما أوردَهُ عليه : هذا دَفْعٌ بالرّاح ! فقال مجيبا : كلاّ إنّ معها الأصابع ! وقوله « حتى كان دَفْع الأصابع » انتصب دَفْع على أنه خبر كان ، واسمه مُضْمَر كأنه قال : حتى كان الدفعُ دفعَ الأصابع . ولك أن ترفعه على أن يكون اسمه ، وتضمر الخبر ، كأنه قال : حتى كان دفعُ الأصابع دَفْعَنا ، أو على أن يكون كان بمعنى حَدَث ، فتكتفى بالفاعل ، وهى التى تُسمَّى كان التامَّة .

٢ — فلمَّا رَأَيْنا جهْلَكُمْ غَيْرَ مُنْتَهٍ وما غَابَ مِنْ أَحْلامِكُمْ غيرَ راجِعِ

يقول : ولمّا وجدناكم لا ترعَوُون لمواعظكم ونُذُركم ، ولا يعاودكم ما عَزَبَ من بصائركم وعقولكم ، ولا يقف الجهلُ بكم على غايةٍ لا متجاوَزَ وراءها ، ولا يُغنِى ما استفرغنا فيه الوُسْع من رَدِّكم وزجرِكم ، رَاجَعْنا أنفسَنا

(١) التبريزى : « يزيد بن الحكم الكلابى » . وهذا غير يزيد بن الحكم الثقفى ، المترجم فى الأغانى (١١ : ٩٦ — ١٠٠) والخزانة (١ : ٥٤ — ٥٦) .

(٢) م : « درجنا فى استصلاحكم » .

مُنكِرين ومتعجِّبين، وأقبلنا نُباحِثُ عن أُصولِنا وفروعنا مُعتَزِين[1]، لنقفَ على ما وَطَّأ لكم مراكِبَ العُقوق، وحسَّنَ فى آرائكم تخطِّىَ موانعِ الحقوق، إلى نَكْث قُوَى العُهود.

٣ — مَسِسْنَا من الآباءِ شَيْئًا وَكُلُّنَا   إِلَى حَسَبٍ فى قَوْمِهِ غَيْرِ واضِعِ

قوله «مَسِسْنا» يجوز أن يكون بمعنى أَصَبْنا واختَبَرْنا، لأن المَسّ باليد قد يُقصَدُ به الاختبار، ويجوز أن يكون بمعنى طلبْنا. وقد قال بعضُ الناس فى قول الله تعالى: ﴿لا يَمَسُّه إلاّ المُطَهَّرُون﴾: إنّ المعنى لا يطلبُه. قال: واللَّمس كالمسّ فى أنه يوضع فى معنى الطَّلَب. قال: وعلى هذا يُحمَل قولُ الله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا[2]﴾. فمِن الأوّل قولُهم: مَسَّهُ الكِبَرُ، وأفضى الرّجل إلى امرأته إفضاءَ مَسيسٍ. ومن الثانى مَسَاسُ الحاجة. فأما قولهم: به مَسٌّ من جنون، فيصحّ أن يكون من الأوّل ومن الثانى جميعاً. وهذا كما يُقالُ: به لَمَمٌ من جُنُونٍ، وأصلُه من اللَّمّ وهو الجَمْع أو الإلمام. وقوله «وكلُّنا إلى حَسَبٍ» أى يَنتَمِى وننتمى[3]. فـ«إلى» تعلَّق بهذا وما أشبَهه من المُضمَرات. وهذا كما يقال: أنا منك وإليك. وقولُه «كلُّنا» أى كلُّ واحدٍ منّا، يعنى أهلَ بيتهم. ألاَ تَرَى أنه قال «إلى حَسَبٍ فى قومه». ومعنى البيت: لمّا اشتدَّ لَجَاجُهم وطال تمادِيهم، وصاروا لا يَنزلون عن مراكِبِ البَغْى، ولا يَرْجِعونَ عن الذَّهاب فى طُرُق الفساد،

---

(١) م: «معتبرين».

(٢) وإنا، وردت بكسر الهمزة فى النسختين. وقد اختلف القراء فى كسر همزة إن وفتحها فى اثنى عشر موضعاً من هذه السورة، وهى سورة الجن، فقرأ بعضهم بالكسر فى جميعها، وبعضهم بالفتح فى جميعها، وبعضهم بالكسر فى بعضها والفتح فى بعضها الآخر. إتحاف فضلاء البشر.

(٣) م: «أى ننتمى وننتهى».

نظَرْنا : أىُّ عِرْقٍ يقتضى مُنْكَرَ الخلاف معنا ، وما الذى يوجِب التدابُرَ من الأنساب والأسباب بيننا ، فلمَسْنا أطرافَ أبُوّتنا ، واستشفَفْنا جوانبها ، ووجدنا كلاًّ منّا ينتمى إلى حَسَبٍ يرفعُهُ ولا يضَعُه . ويقال : وضَعْتُه ، إذا حَطَطْتَ منه . وَوضُع الرجُلُ ، وهو وضيعٌ بيّن الضِّعة والضَّعَةِ . والتوضيعُ : التأنُّث والانكسار من هذا . ويقال : دابّةٌ حَسَنَةُ الموضوع ، وضِدُّه المرفوع . وبعيرٌ عارِفُ المُوَضَّع ، أى ذَلُولٌ عند الرُّكوب .

٤ — فَلَما بَلَغْنَا الأُمّهَاتِ وَجَدْتُمُ بَنِى عَمِّكُمْ كانوا كِرَامَ المَضَاجِعِ

جَعَل المضاجِعَ كنايةً عن الأزواج . وهذا كما يُكْنَى عنهنّ بالمفارش . قال :

سُجَراءُ نَفْسى غير جمعِ أُشَابَةٍ حُشُدٍ ولا هُلُكِ المفارِشِ عُزَّلِ

يعنى أنّ أُمهاتِهم عفائف . فيقول : لما تقصَّينا بالبحث والكشف أنسابَ آبائنا ، وعلائق[1] وُصَلِها فلم نجد فيها مَغمَزًا ، ولا إلى ما ذَمِمْنا من أخلاقِكم منها داعيًا ، عَدَلْنا إلى النظر فى أنساب أُمهاتنا ، والتوصُّل إلى مكنون وشائجها ، ومجهول مواصلها ، فألفيتم أبناءَ عمِّكم كانوا كرامَ الفُرُش . وهذا من أحسن المعاريض ، لأن المراد : كانت أُمهاتُنا أشرفَ من أمهاتكم ، فعلمنا أن ماخالفتمونا فيه ، وصرتم على حَرْفِ مباينةٍ لنا من أجْلِه ، شىءٌ يرجع إليهنّ . وإنما قال « وجدتم » ليكون كالتقرير لهم ، ويصيرَ ما ادُّعىَ من الفَضْل عليهم باتّفاقٍ منهم . وذكر بعضُهم أنه كان يجب أن يقول : وجدتمونا ، فوضع بنى عمكم مكان « نا » ، وهو أخصُّ من بنى عمكم ، بدلالة أن ما يكون للنفس أخصُّ مما يكون للغائب ، وإذا كان كذلك فقد وضع الأدْوَنَ موضعَ الأخص .

(١) م : « وعلق » .

وليس الأمر على ما قال، لأن الرَّجُلَ إنما يريد ببنى عمِّكم الآباءَ ، وقد قدَّمَ ذكرَهم فى قوله « مسِسْنامن الآباء » . ألا ترى أنه قال : كانوا كِرامَ المضاجع . وإذا كان الأمرُ على هذا ، كان الواجب عليه أن يقول: وجدتم آباءنا كانوا، لا وجدتمونا .

٥٩

وقال جابرُ بن رَالَانَ(١):

١ ــ لَعَمْرُكَ مَا أخزَى إذا ما نَسَبْتَنِى ... إذَا لم تَقُلْ بُطْلاً عَلَىَّ ومَيْنَا

لعَمْرُكَ مبتدأ ، وخبَره محذوف، فكأنه قال لعَمْرُكَ ما أقسِمُ به ، ولا يُستعمل فى اليمين إلا بفتح العين ، وإن كان ضمُّها لغةً فيه . و « أخْزَى » يجوز أن يكون من الخِزْى : الهَوَان ، ويجوز أن يكون من الخَزَاية : الاستحياء . والبُطْل يُراد به الباطِلُ . والمَيْنُ : الـكَذِبُ ، وقَدْ مَانَ ، وهو مَائنٌ ومَيُونٌ . والمعنى : وبقائك ما أستحيي أو ما أهُونُ ولا أَذِلُّ متى ما ذَكرتَ أسلافى وآبائى ولم تقلْ باطلا ، ولم تدَّعِ علىّ زُوراً . وقوله « إذا ما نسبْتَنِي » ظَرْفٌ لقوله ما أخْزَى . و « إذا لم تَقُلْ » يجوز أن يكون بدلاً منه . ولولا أنه كرّر « إذا » لـكان الـكلام ما أخْزَى إذا ما نسبتني ولم تقُلْ بُطْلاً ومَيْناً . ولا يجوز أن يكون العاملُ فى إذا « ما نسْبَتَنى » لأن ذا قد أُضيف إليه وبُيِّن به ، والمضاف إليه لا يُعمل فى المضاف . ويجوز أن يكون إذا الأولى بما اتَّصَل به وماعمِلَ فيه الجملةُ فى جواب إذا الثانية ، كأنّه قال : إذا لم تَقُلْ بُطْلاً فلعَمْرُكَ ما أخْزَى إذا ما نَسَبْتَنِي . وانتصب « بُطْلاً » على أنّه

(١) التبريزى : « جابر بن رالان السبنسى » . ثم قال : « من همز رألان فهو فعلان من لفظ الرأل ، ومن لم يهمزه احتمل أمرين : أحدهما أن يكون تخفيف رألان ، كقولك فى تخفيف رأس راس ، والآخر أن يكون فعلان من رولت الخبز فى السمن ونحوه ، إذا أشبعته منه » .

مفعول لم تقل، لأن القول يُحكى بعده الجمل فيعمل فى مواضعها لا فى لفظها، ويقع المُفردُ بعده — إذا كان معنى الجملة — منصوبا به.

٢ ــ ولكنّما يخزى امْرُؤٌ يَكْلِمُ اسْتَهُ قَنا قَوْمِهِ إذا الرِّماحُ هَوَيْنا[1]

هذا تعريض بالمخاطَبِ، يقول: أنا لا أُخْزَى إذا ذُكِرَ مَسْعَاةُ آبائى على حَدِّهَا وحَقِّهَا، إنّما يَخْزَى لذلك رَجلٌ هذا صفته ونَعْتُه، وهو أنّه يَجرح استَه، لكونه مولِّياً ومنهزماً، رماحُ قومه إذا شُرِعَتْ للطَّعْن. وإنما قال «قَنَا قَوْمِهِ» لأنه أشار فى تعريضه إلى حالةٍ اتَّفقت للمُخاطَب مع أبناء عمِّه. وكلُّ جرحٍ صَغُر أو كَبُر فهو كلْم.

٣ ــ فإن تُبْغِضُونا بِغْضَةً فى صدورِكم فإنَّا جَدَعْنا مِنْكُمُ وَشَرَيْنَا

قوله «فى صدوركم» بما تَعلّق به فى موضِع الصفة للبِغْضَة. والمعنى: إن انطَوَتْ صدورُكم لنا على بِغْضَةٍ راسخةٍ فيها، متمكّنةٍ منها فغيرُ مستنكَرٍ عندنا ولا مُسْتَطْرَف من أحوالنا، لأنَّ ما ارتكبْناه فيكم من جَدْعِ الأنوف وبيع النُّفوس بإذلالنا إيَّاكُم، وبما أخذناه فى فدائكم، يوجب البغضاء، ويقتَضِى الشَّنآن.

٤ ــ ونَحْنُ غَلَبْنَا بالجبال وعِزِّها ونَحْنُ وَرِثْنَا غَيَّثاً وبُدَيْنَا

يعنى بالجبال أَجَأً وسَلْمَى وهضابَهما، ولذلك جمع. وقوله «وعِزِّها» أراد وعزّ أربابها وسكّانها. ويجوز أن يريد العزّ الذى يحصل لهم عند التحصُّن بها. وطَيِّئ أبداً تفتخر بذلك، لأنَّهم إذا اعتصموا بها لم تتوصَّل الأعداء إليهم فيها. وغَيَّثٌ وبُدَيْنٌ: قبيلتان[2]. يريد: وَرِثْنَا أحسابَهم ومفاخِرَهُم. وغيَّث:

(١) التبريزى: «تكلم استه».

(٢) التبريزى: «وغيث وبدين: اسما رجلين من طيئ».

فَيْعِلٌ من الغَوْثِ ، وفى بُطون طَيِّئٍ بطنٌ يقال لهم الغَوْثُ ، ومنهم أبو زُبَيْدٍ الطائىّ .

٥ — وأَىُّ ثَنَايَا المَجْدِ لَمْ نَطَّلِعْ لَهَا وأَنتُم غِضَابٌ تَحْرُقُونَ عَلَيْنَا

الاستفهام هنا يجرى مَجْرَى النَّفى ، كأنه قال : ما ثَنِيّةٌ من ثنايا المجد إلّا طَلَعْنَا لها . والثنيّ : فعيلة من ثَنَيْتُ ، أى عَطَفْتُ وصَرَفْتُ ، وكما استُعْمِلَتْ فى الجبال استُعْمِلتْ فى الأمورِ والخُطَّات[1] . قال :

وَثَنِيَّةٍ من أَمْرِ قَوْمٍ وَعْرَةٍ فَرَجَتْ يَداى فكان فيها المَطْلَعُ

فلذلك ذكرها هنا مثلا ، والمعنى : إنَّ مَطَالِعَ الشَّرف على توعُّرِها أو تَسَنُّمِها ارتقَيْنَا إليها ، وأنتم تتهدّدوننا فى غضبِكم ، والحَرْق : حَرْقُ أحد النابين بالآخر . وقد حَرَقَ نابه يحرِقُ ويَحْرُقُ ، حَرْقاً وحُرُوقاً[2] ، من الغَيْظِ . وذكر الخليل : حَرِيق النَّاب كصريف الناب . و « فلان يَحْرُقُ عَلَىَّ الأُرَّم » ويروى « الأُرَّم » . والأَرْم : الأكل ، والأَزْم : العضّ ، وهما جميعاً بالأسنان ، والمعنى يَحْرُق عَلَىَّ أسنانَه . والمتوعِّدُ يفعل ذلك يُظهِر به شدّةَ الغيظ . واكتفى بقوله « يحرُقون » عن ذكر المفعول ، لأنَّ المراد مفهوم . ويقال : اطّلَع عليه وله ، إذا أشْرَفَ . والمعنى إنّاً رددنا على حَسَدِكم لنا ، وتغيُّظكم فينا ، قوّةً وشرفاً ، وعِزةً وكَرماً ، حتَّى لم تُبقَ غايةٌ من المَجْدِ إلاّ ارتقينا إليها وعَلَوْناها .

(١) الخطاطات : جمع خطة ، وهذا ما فى م . وفى الأصل : « والخطاب » .

(٢) حرق ، هذه لازمة ومتعدية ، يقال حرق ناب البعير ، وحرق البعير نابه أيضا .

٦٠

وقال سَبْرَةُ بن عَمْرٍو الفَقْعسى (١)

وعيّره ضَمْرةُ بن ضمرةَ النَّهشليُّ كثرةَ إبله .

١ — أَتَنْسى دِفاعِى عَنْكَ إِذْ أَنتَ مُسْلَمٌ وَقَدْ سَالَ من ذُلٍّ عَلَيْكَ قَراقِرُ (٢)

لفظُه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار . أى لِمَ تَنْسَى مُدافعتى عنك حين كنتَ مخذولاً لا ناصِرَ معك ، وقد امتدَّ سيل الذلِّ نحوكَ فسأل عليك . فإذْ ظَرْفٌ لدِفاعى . وقُراقِر : اسمُ وادٍ ، ويكون ذكره مثلاً . ومن كلامهم : « سال عليه الذُّلُّ ، كما يسيل السَّـيل » . ولا يمتنع أن يكون لحقه ما لحقَه من الذلّ من ناحية قراقِر ، فلذلك خَصَّــهُ . وقولُه « إذ أنتَ مُسْلَمٌ » يقال أسْلَمْتُه وسَلَّمْتُهُ ، إذا خَلَّيْتَ بينَه وبين مَن يريد النِّكاية فيــه . وأسلَمْتُ الصبيَّ فى حِرْفةٍ ، إذا أرْسَلْتَهُ فيها . وقوله « وقد سال » فى موضع الحــال ، أى أسلمْتَ وحال ذلك .

٢ — ونِسْوَتُــكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وجُوهُهَا يُخَلْنَ إماءً والإماءُ حَرائِرُ

قولُه «ونسوتكم» مع خبَرِه جملةٌ انعطفت على قوله « وقد سال من ذُلٍّ »

---

(١) التبريزى : « ذكر أبو عبيدة أن سبرة بن عمرو قال هذه الأبيات فى منافرة عباد ابن أنف الكلب ومعبد بن نضلة بن الأشتر الفقعسى . . . . تنافرا إلى ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطعن بن نهشل بن دارم ، وبينهما مائة من الإبل خطر ، فقال عباد لضمرة : لك مائة من الإبل ، وتنفرنى على معبد . ففعل ، فهو أول من ارتشى من حكام الجاهلية » . وقد روى ياقوت الأبيات (فى قراقر) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن الصواب : « وقد سال من نصر عليك قراقر » ، قال : يعنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة. يقول : دافعتهم عنك حين سال الوادى بهم عليك .

وهذا وصفُ الحال التى مُنِىَ بها حين نَصَرَه مخاطِبُه. والمراد: ونساؤكم تَشبَّهْن بالإماء، مخافةَ السِّباء، حتى تبرَّجْنَ وبرزْن مكشوفاتٍ ناسياتٍ للحياء وإن كنّ حرائر. وإنما قال هذا لأنهم كانوا يَقصِدون بسَبْى من يَسْبُون من النساء إلحاقَ العار، لا اغتنامَ الفداءِ والمال، ولما كان الأمرُ على هذا فالحُرّة كانت فى مثل ذلك الوقتِ تتشبَّه بالأمَةِ، لكى يُزْهَدُ فى سَبْيِها. ومعنى و « الإماء حرائر » : واللائى يُحْسَبْن إماءً حَرائرُ. ولو قال يُخَلْن إماءً وهنّ حرائر لكان مأخذُ الكلام أقربَ، لكنَّه عدل إلى « والإماء حرائر »، ليكون الذِّكر به أفخم، والاقتصاص[1] أشنع وأعظم. وقال « بادٍ وجوهها » لتقدُّم الفعل، وأنّ تأنيث الوجوه غير حقيقى، ولو قال بادِيَةٌ وجوهُها لجاز. وفى هذه الطريقة قول الآخر:

وَخِمارِ غانيةٍ عَقَدْتُ برأسها أُصُلًا وكان مُنَشَّرًا بشمالها

٣ — أَعَيَّرْتَنَا أَلبانَها ولُحومَها وذلكَ عارٌ يابنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ

يريدُ على وجه الإنكار والتقريع: لِمَ عيَّرتَنا ألبانَ الإبل ولحومَها واقتناء الإبلِ مُباحٌ لا محظورٌ فى القديم والحديث، والانتفاعُ بلُحمانها وألبانها مُسوَّغٌ غير مردودٍ فى الدِّين والعقل، وتفريقُها فى المحتاجين إليها إحسانٌ ومعروف يَجلُبان[2] الحمْدَ والشكر. وذلك عار ظاهرٌ، أى زائلٌ. قال أبو ذؤيب:

وعَيَّرَها الواشُون أَنِّى أُحِبُّها وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

ومن هذا قولُك: ظَهَرَ فوق السَّطح، وقولك: جعلتُهُ منِّى بظَهْرٍ، وقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾. ويجوز أن يريد بالظاهر أنّ الحال فى أنّ

(١) كذا فى م. وفى الأصل: « والقصاص ».

(٢) كذا ضبط بضم اللام فى النسختين، وهى إحدى لغتين: ضم اللام وكسرها فى المضارع.

ذلك ليس بعارٍ ظاهِرَةٌ غيرُ مُلبِسَةٍ ولا خافيةٍ . ويقالُ عيَّرْتُه كذا وهو الأفْصَحُ ، وعيَّرتُه بكذا . قال عديٌّ :

أيُّها الشَّامِتُ المعيِّرُ بالدَّهْ ... رِ[1] . . . .

والواو من قوله « وذلك عارٌ » واو الحال ، أى أتعيِّرُنا والحال ذلك .

٤ — نُحَابِى بها أَكْفَاءَنا ونُهِينُها ... ونَشْرَبُ فى أَثْمَانِهَا ونُقَامِرُ

بيّن وجوه تصرُّفهم فيما عَـيَّرَهم به ، فقال : نجعلها حِباءً لنظرائنا فنتهادى بها ، ونُسهِّلَ تمكن العُفاةِ والزُّوَّار منها ، بابتذالها وإهانتها — وحذَفَ ذِكْرَ مَن أُهِينَتْ له لأن المراد مفهوم — ونبيعها فنصرفُ أثمانَها إلى الخمر والإنفاق ، ونَضرِب بالقِداح عليها فى المَيسِر عند اشتداد الزَّمان ، فنفرِّقُها فى الضُّعفاء والمحتاجين إليها . وفى تَعْدادِ هـذه الوجوهِ إبطالٌ لـكلِّ ما أُوهِمَ أو ادُّعِىَ يَلْحَقُ من العار فى اقتنائها وادِّخارها . وروى بعضهم : « نُحَايِى بها أكفاءنا » على أن يكون نُفاعِلُ من الحياةِ ، أى نعايِشُهم بها ونجامل ؛ وليس بشىء ، فلا تُعَرِّجْ عليه .

٦١

وقال آخر من بنى فَقْعَسٍ[2] :

١ — أَيَبْغِى آلُ شَدَّادٍ عَلَيْنَا ... وما يُرْغَى لشَدَّادٍ فَصِيلُ

مخرجُ هذا الكلامِ مخرجُ الكلام المتقدّم ، فى أنه إنكار وتقريعٌ ، وفيه إشارة إلى ما يتضمنه قول الآخَر من التَّبخيل ، وهو :

(١) تمامه ، كما فى الأغانى (٢ : ٣٤ ساسى) : « أأنت المبرأ الموفور » .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هو لعمرو بن مسعود بن عبد مرارة » .

فَلاَ واللهِ ما لَبَنِي بِرَبٍّ ولا لَحْمِي عَلَىَّ ولا سِلاَئِى[(١)]

أى ما لَهُم يَبْغُون علينا وحالُهم فى أنفسهم ما هو نهايةُ البخل والشُّوم ، والدِّقَّةِ واللوم ، حتى لا يُحَمِّلَ فَصِلٌ لهم على إرْغاء بأن يُفْصَلَ بينه وبين أمِّه بنَحْرٍ أو هِبَةٍ ، ضَنًّا به ، وإشفاقاً عليه . أى إنهم لا يَسُوغ لهم البَغْىُ مع هذه الحال . ويجوز أن يكون قوله « وما يُرْغَى لشدّاد فَصِلٌ » يراد به ما لهم فصيلٌ فيُرْغَى ، كما قال الآخر[(٢)] :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ *[(٣)]

والمعنى : لا ضَبَّ بها فينجحر . يَرميهم بالفَقر والفاقة ، وضَعف المُنَّة ، وقصور الاستطاعة . ويقال : أَرْغَى فلانٌ فصيلَه ، وإذا حمَلَه على الرُّغاء ، وأَرْغى فُلاَنٌ فُلاناً وأَثْغَى ، إذا أعطاه إبلاً وغنما . ورَوَى بعضهم : « وما يُرْغِى » بكسر الغين ، أى لا يُعمل بالفصيل ما يَحْمِل أُمَّه على الرُّغاء له . وليس بشىء .

٢ — فإنْ تَغمِزْ مَفاصلَنَا تجِدْنا غِلاَظًا فى أنامِلِ مَنْ يَصُولُ

هذا تعريضٌ وإيعادٌ ، فيقول : إنْ رُزْتمونا وجدتمونا غِلاظاً على مَن يصولُ علينا ، جُفَاةً عند من يَسُومُنَا مكروها . والمعنى: لانُسْتَلان عند الامتحان . وجَعَل الغَمْز غَمْزَ للفاصل كنايةً عن الاختبار . وحُكِى عن بعضهم[(٤)] : « لا أُغْمَزُ كتَغماز التِّين » ، ولذلك صَلَح أن يقولَ استَغْلَظْتَنا فى أناملِهمْ . وخَصَّ الأنامل لأنَّ الانفتال عن الشىء والإقبال عليه بسلامتها من الآفات يَقْوَى .

---

(١) أى لا أجل اللبن بمنزلة المعظم المبجل ، أو المالك لى ، بل أبذله وأهينه للضيف .
(٢) هو عمرو بن أحمر ، يصف فلاة . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .
(٣) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *
(٤) هو الحجاج ، قالها فى خطبة له بمسجد الكوفة . البيان (٢ : ٣٠٩) .

٦٢

وقال جَزْءُ بن كُلَيْبٍ الفَقْعَسِيُّ :[١]

١ — تَبَغَّى ابنُ كُوزٍ والسَّفاهَةُ كاسْمِها   لِيَسْتَادَ مِنَّا أَنْ شَتَوْنا لَيالِيا

قوله « والسَّفاهةُ كاسمِها » اعتراضٌ دخل بين تَبغَّى ومفعولِه . والأصل فى السَّفَه : الخِفَّة . ويقال : زِمامٌ سفيه ، لاضطرابه ، كما يقال زمام عيَّارٌ[٢] . فيقول : تَطَلَّبَ هذا الرّجُل ما تطلّبه سفهًا ، وفعلُ السفاهةِ قبيحٌ كما أنّ اسمَها قبيح . وإنّما قال هذا لأنّ التسفه كما تُنكِر العقولُ والقلوبُ ذاتَهُ وفعلَه ، كذلك تَمُجُّ الآذانُ والصُّدورُ اسمَه . فإن قيل ما اسمُ السّفاهةِ حتى قال : والسّفاهةُ كاسمِها ؟ قلتَ : قولُه والسفاهة ، أراد ما يُسمَّى سفاهة ، أى المسمى بهذا الاسم ، كما أنَّ الاسمَ الذى هو السَّفَه قبيح . إلا أنّه لمّا لم يجِدْ إلى العبارة عن الذّات طريقًا إلا باسمه قال : والسفاهة . ويجوز أن يكونَ أراد بتَبغَّى : أدخَلَ نفسَه فى البَغْيِ ، حين عَدَا طَوْرَه ، وَسامَنَا مواصلتَه ، كما يقال تشجَّع وتمرَّأ . وقوله « ليستاد مِنَّا أنْ شَتَونا لياليا » أتى بالفعل واللام ، لأنَّ تبغَّى مثل أراد . فكما قال الله عز وجلّ : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، وقال الشاعر :

* أرادتْ لِتَنْتَاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ *

والمعنى يريدون إطفاء نور الله ، وأرادت انتياشَ الرِّواق — كذلك قال هذا :

---

(١) التبريزى : « قال أبو محمد الأعرابى : هو جرير بن كليب ، لا جزء . وقد ذكر جريرا فى المؤتلف ٧١ وقال : « جرير بن كليب بن نوفل بن نضلة الشاعر . كذا ذكر ابن حبيب فى كتابه الذى ذكر فيه شعراء القبائل ، ولم يذكر له شعرا ، ولا وجدت له فى قبائل بنى أسد ذكرا . وهو إسلامى » .

(٢) م : « عيال » كشداد . وكلاهما متجه . فالعيار : الكثير المجىء والذهاب . والعيال : المتبختر الميال .

تبغى ليَسْتَاد ، والمعنى تَبغِّى الاستيادَ منا ومُراد الشاعر تطلُّبَ النِّكاحَ فى سادتنا من أجل أنّا دخَلنا فى الشِّتاء . والمعنى من أجل أنّا افتقَرْنا واشتدَّ الزمان علينا فأثَّرَ فينا . قوله « أن شَتَوْنا » موضعُه نَصْبٌ ، أصلُه لأَنْ شتَونا ، فلمّا حُذِف الحرف الجارُّ وَصَل الفعلُ فعَمِل . ومعنى شتَونا : قَحِطْنا [1] وأقَمْنا فى القَحْطِ ، كما تقول شتَونا بمكانِ كذا . ويقال : اشْتَيْنا ، إذا أُرِيد دَخلْنا فى الشتاء .

٢ — فما أكبرُ الأشياءِ عندى حَزازَةً ... بِأَنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليك وزَارِيَا

انتصب « حزازةً » على التمييز ، فيقول : ليس انصرافُك عنّا عائباً علينا حين لم نُسْعِفْك بمُرادِك ، ولم نُجِبْك لمّا خَطَبتَ من خَطبتَ إلى ملتمَسِك ، ومَعيباً عندنا حين عَدَوْتَ طَورك فتجاوزْتَ مستحَقَّك وقَدْرَك ، بشيءٍ يكْبُرُ عندى تقطيعه [2] فى الصّدر ، وتأثيره فى النَّفس . أى إرغامُك وإسخاطك يهون علينا . والباء الذى فى قوله « بأَنْ أُبْتَ » هو الباء الذى فى قولك ما زيدٌ بمنطلقٍ . ويقال : زَرَيْتُ عليه فِعْلَهُ ، إذا عِبْتَ عليه فِعلَه ؛ وأزْرَيْتُ به ، إذا وضَعْتَ منه وقَصَّرْتَ به . وقوله « وزاريا » أى وزاريا علينا ، فحذف لأنَّ المراد مفهوم .

٣ — وإنّا عَلَى عَضِّ الزّمانِ الذى تَرَى ... نُعالِجُ من كُرْهِ المَخازِى الدَّوَاهِيَا

يقول : إنّا نقاسى هَرَباً من المكروه [3] الشدائد ، ونصبر تفادياً منها على العظائم [4] . هذا — ما تَرَى من نكاية الحَدَثان ، وسوءِ تأثير الزّمان ، وقَصدِه إيّانا بالمكاره والبلاء ، والمَفاقر والضَّرّاء . وهذا تنبيهٌ على أنَّ محافظتَهم على

---

(١) ضبط فى الأصل بضم القاف ، وفى م بفتحها ، وكلاهما صحيح وإن كانت لغة الفتح أعلى وأكثر . ففى القاموس : « وقحط الناس كسمع ، وقحطوا وأقحطوا بضمهما قليلتان » .

(٢) م : « تفظيعه » .

(٣) م : « من مكروه المخازى » .

(٤) فى الأصل : « بجنى العظائم » ، وأثبتنا ما فى م .

الشّرف يمنعُهم من مناكحة مَن ليس بكُفْءٍ لهم ، وأنَّ مُسَاعَفَتَهم إيَّاه بما طلبَه مُخزِيةٌ عندهم . وقوله « على عضّ الزمان » موضعه موضع الحال . والمعنى : إنّا منكوبين وفقراء نفعل ذلك حَذَرًا من العار .

٣ – فَلاَ تَطْلُبَنْهَا يابْنَ كُوزٍ فإنّه غَذَا النَّاسُ مُذ قَامَ النبيُّ الجَوارِيَا

يقول : لا تُطلبِ التزوُّجَ بالمرأة التى خطبْتَها يابن كوز ، فلك فى سائر النِّساء مندوحةٌ ، سِيَّمَا ومنذ بَعَثَ الله عزَّ وجل النبى عليه السلام ، وقام بأداء الرسالة عنه ، رَبَّى الناسُ البناتِ وتركوا وَأْدَهُنّ فكثُرْن[1] . ويقال : غَذَاهُ يغذوه غَذْوًا ، وتغذّى بكذا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب .

٥ – وإنَّ التى حُدِّثتَهَا فى أُنُوفِنا وأَعْنَاقِنا من الإباء كما هِيَا

يقول : وإنّ النخوة التى أُبلِغْتَهَا ، والحَمِيَّة التى حُدِّثتَها ، باقيةٌ فى أُنوفنا حتى لا نشَمَّ بها مَرْغَمَةً ، وفى أعناقنا ورءوسنا حتى لا نَلْوِيهَا إلى مُخْزِيَةٍ ومَنْقَصَةٍ هى حاصلةٌ فيها كما أُبْلِغْتَ ؛ فالامتناعُ مِن مِثل ما سُمْتَ معروفٌ منَّا ، ومأخوذ به فى عاداتنا ، فلا نستَطرِفُه . وقوله « فى أنوفنا » فى موضع المفعول الثالث لحدِّثتَها . وقوله « كما هيا » فى موضع خبر إنّ ، وما زائدة . أراد كَهِيَ ، أى هى باقيةٌ بحالها ، مستمرّةٌ على طريقها . ويجوز أن يكون هى مبتدأ ، وكما فى

(١) التبريزى : « وأصل الوأد الثقل ، وذلك أنها كانت تثقل بالتراب . وأول من منع عن الوأد صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، وذلك أنه أضل ناقتين له فخرج فى بغائهما ، فلما أجنه الليل رفعت له نار فأمها ، فإذا شيخ وامرأة ماخض ، فسلم فرد الشيخ فسأله عن الناقتين ، فقال : وجدتهما وقد أحيانا الله بهما . ثم قال الشيخ لنساء كن عنده : إن جاءنا غلام فما أدرى ما أصنع به ، وإن جاءتنا جارية فاقتلنها ، ولا أسمعن صوتها . فجاءت جارية ، فاشتراها صعصعة بناقتيه وجمله الذى ركبه فى طلبهما ، وجعل ذلك سنة ، فكل من أراد أن يئد ابنة له جاءه فاشتراها منه بلقحتين وجمل ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلثمائة موءودة ، فقال الفرزدق :

وجدى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيـــدة لم توأد

موضع الخبر . ويقولون : كما أنا كما أنت ، أى تشابهْنا ، ويكون ما نَكِرَةً غير موصوفة . ويجوز أن يكون حذَف صفَتَه كأنه قال : كما حُدِّثْتَه أى كشىء حُدِّثْتَه . وإنما خَصّ « فى أنوفنا وأعناقنا » بالذِّكْر لأنه يقال فى الكِبْر والصُّعوبة : فى أنفِ فلانٍ خُنزُوَانةٌ ، وزَمَّ فُلانٌ بأنفِه ، وأنفُه أنفُ الليث ، وهو أَحْمَى أنْفًا من أن يَقبَل كذا . ويقولون : فى خدِّه صَعَرٌ ، وفى عنقِه صَوَرٌ وصَيَد ، وفى ناظره شَوَسٌ وَصَادٌ . قال يصف سُيوفًا .

* يُدَاوَى بها الصادُ الذى فى النَّوَاظِرِ *

٦٣

وقال زِيادَةُ الحارِثِىُّ[(١)] :

١ ـ لَمْ أَرَ قَوْمًا مِثْلَنَا خَيْرَ قَوْمِهِمْ أَقَلَّ بِهِ مِنَّا على قَوْمِنَا[(٢)] فَخْرَا

ينتصب قولُه « خير قومِهِمْ » على أنه بدلٌ من قوله « قوْمًا » . ويجوز أن يكون صفة . و « أقلّ » ينتصب على أنه مفعول ثان ، و « فَخْرًا » ينتصب على التمييز . وقوله « به » الضمير منه يرجع إلى ما ذكره ودلَّ عليه من قولِهِ « خير قومِهِم » يريد أقل بكونهم خيِّرين . ومثله قول القائل :

* إذا زُجِرَ السَّفيهُ جَرَى إليه[(٣)] *

أى إلى السَّفه . وتقدير البيت : لم أرَ خيرَ قومٍ مثلَنا أقلَّ بذاكَ فَخْرًا منّا

---

(١) شاعر إسلامى ، كان بينه وبين هدبة بن الخشرم مهاجاة ومناقضة ، وقد قتله هدبة فى قصة رواها أبو الفرج . وهو زيادة بن زيد بن مالك بن عامر بن قرة بن خنيس بن عمرو ابن عبد الله بن ثعلبة بن ذبيان بن الحارث بن سعد بن هذيم . الأغانى (٢١ : ١٦٩) .

(٢) التبريزى : « على قومهم » .

(٣) عجزه كما فى الخزانة (٣ : ٣٨٣) وأمالى ابن الشجرى (١ : ٦٨ ، ٢/٣٠٥ : ١٣٣ ، ٢٠٩) : * وخالف والسفيه إلى خلاف *

على قومنا . والمعنى إنّا لا نبغى على قومنا ، ولا نتكبَّر عليهم ، بل نَعُدّهم أمثالَنا ونظراءَنا ، فنباسِطُهم ونوازِنُهم قوْلاً بقوْلٍ ، وفعْلاً بفِعْل .

٢ — وما تَزْدَهِينا الكِبْرِياءُ عَلَيْهِمُ إذا كَلَّمُونا أن نُكَلِّمَهُمْ نَزْرا(١)

ينتصب قولُه « نَزْرًا » على أنه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنه قال : نكلِّمهم كلاما نَزْرًا . والمعنى لا يستخفُّنا التكبُّر إلى أن نتَعَلَّى عليهم ، ونقلِّل الكلامَ معهم تَرَفُّعًا عن مساواتهم ، بل نباسِطُهم ونكاثرهم فى القوْل والسؤال ، إيناسًا لهم وتسكينا منهم . ويقال : زهاه وازدهاه بمعنًى . والأصل فى ازدهى : ازتهى ، لأنه افتعل من الزَّهو ، لكنه أبدل من التاء دالاً تقريبًا للحرف من الزاى . وقوله « أن نكلِّمهم » أراد لأن نكلِّمهم ، فحذف حرفَ الجر . و « أن » يُفعلُ به ذلك كثيرًا .

٦٤

وقال ابنُهُ مِسْوَرٌ :

حين عَرَض عليه سعيد بن العاصِ سبْعَ دِياتٍ بأبيه(٢) فأبَى . ويقال : هى لعمِّه :

١ — أبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ رَهِينَةِ رَمْسٍ ذى تُرابٍ وجَنْدَلِ

(١) روى التبريزى بعده بيتا ، وهو :

ونحنُ بنو ماءِ السَّماءِ فلا نرى لأنفُسِنا من دون مَملكةٍ قَصْرا

وقال فى تفسيره : « القصر هاهنا : الغاية . يقال قصرك أن تفعل كذا . وماء السماء : إمرأة كانت فى حسنها وصفاء بشرتها مثل ماء السماء فسميت به . وماء السماء الملك سمى بذلك لأنه كان للناس بمنزلة المطر فى جوده . يقول : نحن بنو ملك فلا نرى لأنفسنا غاية دون أن نكون ملوكا » .

(٢) انظر خبر مقتله فى الأغانى ، فى الموضع الذى سبقت الإشارة إليه .

ألف الاستفهام دخل هاهنا على معنى الإنكار ، وتناول الفعلَ الذى فى صدر البيت الثانى ، لأنّ ألف الاستفهام يطلُبُ الأفعال . والمعنى : أُذَكَّرُ بالإبقاء بعد المدفون بنَعْفِ هذا الجبل — وهو ما استقبلك منه — المَرْهُونِ فى قبرٍ ذى تُراب وحجارة . والنَّعْفُ ، اشتُقَّ منه انْتَعَفَ له ، أى تعرَّض . والمناعَفَةُ : المعارَضَةُ من رجلين فى طريقين يريد كلُّ واحدٍ سبْق الآخر . وقيل النَّعْفُ : المكان المرتفع فى اعتراض . وقوله « رهينة » جعله اسماً فلهذا ألْحَقَ الهاء بها . والرمْس : القبر . ويقال رَهَنْتُه رَهْناً بمعنى رَهَنْتُ عنده ، وأصلُه من اللزوم والدوام ويقال هذا لك رَاهِنٌ . والأصل فى الرّمْسِ : التغطية ، يقال رَمَسْتُه بالتراب ؛ ومنه الرياح الرّوَامِس .

٢ — أُذَكَّرُ بالبُقْيَا على مَنْ أَصَابَنِى وبُقْيَاىَ أَنِّى جاهِدٌ غَيْرُ مُؤْتَلِ

يقول : أأُسامُ الإبقاءَ على من وتَرَنى ؟ إبقائى عليه أَنِّى أجتهد فى قَتلِه ، ولا أقصِّر . والإبقاء لا يكون الجُهْدَ ، ولكنّ المعنى : يكون هذا منِّى عِوَضًا من ذاك . ومثله قول الآخر[١] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٢] *

والبُقْيَا : اسمٌ على فُعْلَى ، مبنىّ من الإبقاء وفى معناه ، والواو منه واو الحال ، ولو لم يأت به لكان الكلام على الاستئناف والإنقطاع مما قبله . ويقال : لا آلُوفى كذا ولا آتَلِى ، أى لا أقصِّر ، ولا آلُو كذا ، أى لا أستطيعُه .

٣ — فإلاّ أَنَلْ ثَأْرِى من اليَوْمِ أو غدٍ بنى عمِّنا فالدَّهْرُ ذو متطوَّلِ[٣]

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) ابن جنى : « يحتمل متطول هذا أمرين : أحدهما أن معناه ذو تفضل وإيصال لى إلى بغيتى ، والآخر ذو متطاول ، أى فيه طول ، فإن تأخر ما أرومه الآن لم أيأس منه فيما بعد ، وهذا أظهر الوجهين ، لأن الشعر بمثله ورد كثيراً . وتكون هذه لغة فى تطاول الدهر ، وتطول يعتقب عليها تفاعل وتفعل ، كقولهم تكأده الأمر وتكاءده ، وتكايس وتكيس » .

يقول مُخْبِرًا عن صبْرِه وحُسنِ رِفْقه فى طلب الأمور ، وأنّه لا يتسلَّطُ عليه الملاَلُ وإن تراخَى المطلوب ، وتدافَع الوقت فى الحصولِ ، فيقول : إن لم أدْرِكْ ثأْرى قريباً يا بنى عمِّنا ففى الدهر تطاوُلٌ ، والزّمان بتبديل الأبدال وتحويل الأحوال كافِلٌ ، وله ضامِنٌ ، وما يتعسَّر فى وقتٍ يتيسَّرُ فى آخَر . وذِكْر اليومِ والغَدِ إشارةٌ إلى تقريب الوقت فى المستقبل ، كما يقال فى الماضى : كان بالأمس يفعل كذا . ومُتطَوَّلٌ : مصدرٌ مثل تَطَوُّلٍ .

٤ ــ فَلاَ يَدْعُنِى قَوْمِى ليومِ كريهةٍ   لئن لم أُعَجِّلْ ضَرْبةً أو أُعَجَّلِ

جَزَم « يَدْعنى » بلا على أنّه دعاء ، والمعنى : لادُعيتُ لكشف مكروه ، ولا للدّفْع عن مظلومٍ ، إن لم أعجِّل ضَرْبةً لمن وتَرَنى ، أو يعجِّلها لِى . والمعنى : إنْ لم أقتلْه أو يقتلْنى . وهذا الكلام وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فالمعنى معنى القَسَم . وقوله : « أو أعجَّل » أراد : أو لم أعجَّل لمثلِها ، فحذَف . وفى هذا بيانٌ للتوعُّد بالإقدام ، والتسرُّع إلى القتل أو الاستقتال بعد الإمكان .

٥ ــ أَنَخْتُمْ علينا كَلْكَلَ الحرْبِ مَرّةً   فنحْنُ مُنِيخُوها عليكم بكَلْكَلِ[1]

---

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات ، وذكر ابن جنى أولها ، وهى :

يقولُ رجالٌ ما أُصيبَ لهم أبٌ   ولا من أخٍ أقبِلْ على المال تُعقَلِ

كريمٌ أصابته ذئابٌ كثيرة   فلم يدرِ حتّى جِئْن من كلِّ مَدخلِ

ذكرتُ أبا أروَى فأسبلتُ عَبرةً   من الدّمع ما كادت عن الدمع تنجلى

قال التبريزى : « يقول : يشيرون على بأخذ الدية ولم يصبهم ما أصابنى ، ولعلهم لو أصيبوا بما أصبت به لم تقنعهم الدية » . وقال : « ويروى : حتى جئن من غير مدخل . أراد بالذئاب الأعداء . وقوله : حتى جئن من غير مدخل ، أى من مداخل كثيرة . ويقع فى بعض النسخ : ديات كثيرة » .

وقال ابن جنى فى تفسير أول الأبيات الزائدة : « عطف الثانى – يعنى كلمة أخ – على ما من عادته أن يزاد فى الأول . ألا ترى إلى جواز قوله : ما أصيب لهم من أب ؟ وهذا مثل قوله : بدا لى أنى لست مدرك ما مضى   ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا » .

هذا الكلام تهدُّدٌ ، وضمانٌ فى أنَّه سيكافئهم على ما بدأوا . والمعنى : سنؤثِّر فيكم كما أثَّرتم فينا ، ونُنْزِلُ الحربَ بكم كما أنزلتموها بنا . ويقال : أنَخْتُ البعير فاستناخ وبَرَكَ ، ولا يقال فناخ . وتقول فى شدة التأثير : بَرَكَ عليهم الدَّهرُ بكلكله ، ووطِئهم بمناسمه ، وأنْحَى عليهم بجِرانِه . وهذا جَعَل الكلكلَ هو المُناخ فى صدر البيت ، وفى العَجُز جَعل الحربَ مُنَاخَةً بكلكلها . وكلُّ ذلك أمثالٌ ، والمعنى مِن جميعها ظاهر .

٦٥

وقال بعضُ بَنى جَرْمٍ من طَيِّئٍ :

١ – إخالُكَ مُوعِدِى بِبَنِى جُفَيْفٍ وَهَالَةَ ، إننى أنْهَاكِ هَالاَ

فى قوله « إخالُ » ضربٌ من الاستهانة ، يقول : أحسَبُك تُهدِّدنى ببنى جُفَيفٍ وبِهالَة . ثمَّ أقبلَ على هالَة فقال : إنِّى أزجُرُكِ عن التحكك بنا ، ونُصْرَةِ من ينابِذُنا . ومثل هذا الكلام يُسمَّى التفاتاً . والعرب قد تجمع فى الخطاب أو الإخبار بين عِدَّةٍ ، ثم تُقبِل أو تلتفت من بينهم إلى واحدٍ لكونه أكبرَهم ، أو أحسنَهم سَماعًا لما يُلقَى إليه ، أو أخصَّهم بالحال التى تنطق بالشكوى بينهم ، فتفرِده بكلام . على هذا بيت الهُذَلىّ[1] :

* أَحْيَا أبَا كُنّ ياليلَى الأماديحُ *

فقال أبا كُنَّ ، ثم قال ياليلى . ويقال : خِلت أَخَالُ ، وإخال طائيةٌ ، فكثر استعمالُها فى ألْسنةِ غيرِها ، حتّى صار أَخَالُ كالمرفوض . والهَالَةُ : الدّارة

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) .
(٢) صدره : * لو كان مدحة حى أنشرت أحداً *
ويروى فى عجزه : * أحيا أبوتك الشم الأماديح *

حَوْل القَمر ، فى اللغة ، وإذا أنَّث خطابها فإنّه جعلها قبيلةً ، وإذا ذَكَّرها فعلى إرادة رجُلٍ هو أبو القبيلة ، وإذا جُمِع فعلى المعنى . وفى جميع ذلك قد صرّف كلامه .

٢ ــ فإلاّ تَنْتَهِى يا هَالَ عَنِّى أدعْكَ لمن يُعادِينى نَكالاَ

يقول : إنْ لم تنزجرى عنِّى ولم ترتدعى بكلامى ، أجعلْك لأعدائى عِبْرةً رادعة ، وعقوبةً زاجرة . والنَّكال : اسم لما يُجعل عبرة للغير ، ويقال نَكَلَ يَنْكُلُ ، ونَكِلَ يَنْكَل لغتان ، الأولى تميميَّة والأخرى حجازية .

٣ ــ إذَا أخْصَبْتُم كُنْتُم عدوًّا وإن أَجْدَبْتُم كنتم عِيالاَ

يصفهم بالأَشَر والبطَر وسوءِ الحِفاظ ، والتعجُّل إلى الشّرّ ، فيقول : إذا نلتم الخير وطاوَعكم الوُجْدُ خرجتُمْ لنا أعداء ، ثم إن أثّر فيكم الدّهْر ، أوْ ضَغطَكم البؤس والضُّرُّ ، أوَيْتُم إلينا ، ولحقتم بجملتنا ، فاحتجنا إلى أن نُموِّنكم .

٦٦

وقال آخر (١) :

١ ــ اللُّؤْمُ أَكْبَرُ مِنْ وَبْرٍ ووالِدِه واللؤم أكْرَمُ من وَبْرٍ وما وَلَدَا

فضَّل اللؤمَ فى اللَّفظ عليهم وعلى أسلافهم ، والقصدُ به إلى تفضيله على أخلاقهم وأفعالهم وطباعهم ، لأنَّ الشَّرط تشبيه الأحداث بالأحداث ، والذَّوات بالذَّوات . وإذا كان كذلك فقد حُذف المضافُ وأقيم المضافُ إليه مَقامَه ،

(١) التبريزى : «قال أبو هلال : لم يذكر أبو تمام اسمه واسمه الحكم بن زهرة . قال الجمحى : زهرة أمه ، وهو الحكم بن المقداد بن الحكم بن الصباح ، أحد بنى مخاشن بن عصيم ، ثم أحد بنى زهرة بن قيس بن عمرو بن ثرملة بن مخاشن بن شمخ بن فزارة ، ويعرف بالحكم الأصم الفزارى . وقال أبو رياش : هو لعويف القوافى» . ونسب فى معجم المرزبانى ٢٧٨ إلى عويف القوافى .

كأنّه قال : اللؤم أكرم من أخلاق وَبْرٍ وأخلاق والدِه ، وقوله « ووالدِهِ » دخل فيه كلُّ أبٍ لهم ، كما دَخَل فى قوله « وما وَلَدَا » كلُّ وَلَدٍ لهم . واللُّؤم : خصالٌ مُنْكَرة ، إذا اجتمعتْ سمِّيت لؤما ، كدناءه النّفسِ والآباء والبُخلِ مردَّدًا فيهم ، والنَّظَر فى الأمور التافهة المخزية . وَوَبْر فى اللغة : دُوَيْبَّةٌ أصغر من السِّنّور طحلاء اللون ترَجُن فى البُيوت(١) ، وجمعه وِبَارٌ . ويُسمَّى بها ، ثم جُعِلت للقبيلة(٢) . فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : ومن وَلدَا ؟ قلتَ : أشار إلى الجنس وما يقع للأجناس .

٢ ـ قَوْمٌ إذا ما جَنَى جانيهمُ أَمِنوا من لُؤْمِ أَحْسَابِهِمْ أن يُقْتَلوا قَوَدَا

يقول : هم قومٌ إذا جَرَّ واحدٌ منهم جَرِيرةً أَمِن جَميعُهم ، لدقَّةِ أصولِهم ، وَلُؤْم أحسابهم ، أن يؤاخَذوا كلُّهم بها ، فكيف الواحد منهم . كأنّ القبيلةَ بأسْرِها لا يُعَدُّون بَواءً لِقتيلٍ فيُقتلوا به ، فالأَمْنُ الذى شَمِلهم عند اتّفاق الجنايات منهم لهذا . والقَوَدُ : أن يُقتَل القاتلُ بالقتيل ، فيقال : أقَدْتُه به . وإذا أتى الرجل صاحبَهُ بمكروهٍ فانتقم منه بمثلِها ، قيل : استقادَها منه ، وهذا كما قال الآخَرُ :

* مَن ذا يَعَضُّ الكلْبَ إن عَضَّا *

ونقله أبو تمّام فقال :

أمَّا الهِجاءُ فَدَقَّ عِرْضُكَ دُونَهُ والمَدْحُ عنك كما عَلِمْتَ جَليل
فاذهَبْ فأنتَ طليقُ عِرْضِكَ إنَّهُ عِرْضٌ عَزَزْت به وأنتَ ذليلُ

٣ ـ اللُّؤْمُ داءٌ لوَبْرٍ يُقْتَلون به لا يُقْتَلون بداءِ غيرِهِ أَبَدَا

أشار بهذا إلى أنَّ مطامعَهم الخسيسة تُرْديهم ، وإسفافَهم لها يعرّضهم للقتل

(١) ترجن هنا بالراء ، وهى تطابق تدجن بالدال وزناً ومعنى . والرجون والدجون : الإقامة . (٢) التبريزى : « وبر بن الأضبط : قبيلة من كلاب » .

ويهلكهم ، فقال : هذا داؤهم لا يُقتلون إلا به ، ولأنَّ حَيْنَ كلِّ حائنٍ فيما يَغلِب به وعليه . ويجوز أن يريد أنّه لما تَرَفَّع القصاص عنهم عند وقوع الجرائر منهم ، كانت القِتلةُ الكريمة فيهم أزهد ، وعنهم أبعد ، ولا يموتون إلا بدائهم الذى هو اللؤم . والموت قد يُسمَّى قَتْلاً . وإنَّما أدخل هذه الأبياتَ فى الباب لقوله « قَوْمٌ إذا ما جَنَى جانيهم أمنوا » فلما ذَكَر من يجتهد فى إدراك الثَّأر من جهته تيسّر أو تعسّر ، ذَكر أيضا ما يُضادّه ممن يُرغَبُ عنه ويُزهَد فى النَّيْل منه ، تَرَفُّعاً عن مكافأته . وهذا عادتُه فى إتْباع الشَّىء بضدّه ، فاعلمْه .

٦٧

وقال آخر :

١ ـ أَلَا أَبْلِغَا خُلَّتِي رَاشِدًا وصِنْوِى قديمًا إذا ما اتَّصَلْ

قديمًا ، انتصَبَ على الظَّرْف لقوله خُلَّتى . والمراد : أَبْلِغَا خَليلى قديمًا راشِداً ، وصِنْوى إذا ما انتَسَبَ . والصِّنْوانِ : الفَرعان يَخرُجان من أصلٍ واحدٍ . ويقال للأخَوَينِ هما صِنوانِ ، تشبيهاً بذلك ، ولعمِّ الرجل صِنْوُ أبيه . ويقال صِنْوٌ ، وصِنوانِ فى التثنية ، وصِنوانٌ فى الجميع ، ولا يُعرفُ له نظير إلا قِنْوٌ . فيقول : راشِدٌ خليلى القديمُ ، ونسيبى القريبُ ، فأبلغاه عنى رسالةً . وفى جَمْعِه بين خُلَّتِي وصِنْوِى ، وتأخيره قديما إذا ما اتَّصل ، ما ذَكَره أبو العباس المبرِّد رحمه الله ، من أن العرب تَلُفّ الخبرَيْنِ لَفًّا ، ثم تَرْمِي بتفسيرهما جملة ، ثقةً بأن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ ما لَهُ .

٢ ـ بأنّ الدَّقِيق يَهِيجُ الجَلِيلَ وأنّ العَزِيزَ إذا شَاءَ ذَلّْ

الباء دخل للتأكيد ، وموضع أنّ مفعول ثانٍ من أَبْلِغا . فيقول : أَبلِغاهُ

أنّ صغيرَ الأمورِ يجنى الكبير ، وأن العزيزَ من الرجال متى أراد عاد ذليلاً ، بأن يَعْدُوَ طَوْرَهُ ، ويشتغل بما لا يهمّه . ومثل هذا قولهم : « الشرُّ يبدؤه صغاره » ، وقول شاعرهم[1] :

* الحرْبُ أوّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ[2] *

وقول الآخر[3] :

* كم مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ[4] *

٣ ـ وأنّ الحَزَامَةَ أن تَصْرِفُوا لِحَيٍّ سِوَانا صُدُورَ الأَسَلْ

هذا الكلام تحذيرٌ وإنذار . يقول : وأبلغاه أنّ الحَزْمَ فى صَرْف أعِنّة خيلكم إلى غيرنا ، فإنكم لا تقومون لنا إذا هَيَّجْتُمونا ؛ والرّأىَ فى أن تعدِلوا بصدور رماحكم إلى طعنِ مَن سوانا ، فإنكم لا تكمُلون لدِفاعنا ، ولأنّ الكَرْهَ لا يُخرج منّا إلا إباءً وامتناعا .

٤ ـ فإن كُنْتَ سيِّدَنا سُدْتَنا وإنْ كُنتَ للخَالِ فاذْهَبْ فَخَلْ

العرب تقول : « سيِّدُ القوم أشقاهم » . ولذلك قال شاعرُهم[5] :

وإنّ سيادةَ الأقوامِ فاعْلَمْ لها صُعَداءُ مَطْلَعُها طَوِيلُ[6]

(١) هو عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .
(٢) عجزه : * تسعى بزينتها لكل جهول *
(٣) هو أبو تمام . البيان والتبين (٣ : ٦٧) .
(٤) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *
(٥) هو الأعلم الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٨٧) والبيان (١ : ٢/٢٧٥ : ٣/٣٥٢ : ٢١٨) .
(٦) صعداء ، كذا وردت فى النسختين ، وكذا فى أصل ديوان الهذليين نسخة الشنقيطى وشرح السكرى لأشعار الهذليين ، ونسخة مكتبة فيض الله من البيان والتبيين . وضبط فى اللسان (صعد) بفتح الصاد وسكون العين ، وفسره فقال : « أكمة صعود وذات صعداء يشتد صعودها على الراقى » . وأما الصعداء بضم ففتح ، فهو التنفس بتوجع ، وهو المشقة أيضاً .

فيقولُ : إن رُمْتَ سيادَتَنَا مِن وجهِها ، وبالآلات التى يُحتاجُ إليها فى تحصيلها ، تمَّ لك ذلك ؛ وإنْ كنتَ للكِبْر فاذهَبْ فاحْسَبْ أنَّكَ سَيِّدٌ ، فإنك لا تكون . هذا إذا رويتَ « فَخَلْ » بفتح الخاء . وإن رويتَ « خُلْ » بضمِّها فالمعنى : اذهب وتكبَّرْ ، فإنّا لن ننقادَ لك ، واستعمالُ البَغْيِ والصَّلَفِ وَالكِرْه لا يزيدُنا إلاّ إباءً عليك ، وتمادياً فى اللَّجَاج معك . والخال : الكِبْرُ . واختالَ الرّجُلُ فهو مُخْتالٌ وخالٌ أيضاً . قال الشَّاعر :

* إذا تَجَرَّدَ لا خَالٌ وَلا بَخَلُ *

ويقال خَالَ يَخُولُ ويَخَالُ خَوْلاً وَخَالاً ، وفى الظنّ يُقَالُ خَالَ يَخَالُ لا غير . وقوله « فاذهب » أمْرٌ من قولِكَ ذَهَبَ يقول كذا . وعلى هذا قول الشاعر :

* فاذْهب فما بِكَ والأيَّامِ من عَجَبِ[1] *

وكذلك قولُك لِلغريم : قُمْ فاعْطِنِي حَقِّي . فالأمر فى الحقيقة بالعطيّة لا بما سِوَاهُ . وأُجْرِى مُجْرَاهُ قَوْلُهُمْ : أخذ يتمسَّك بكذا ، وطَفِقَ يَتحدَّث بكذا ، وجعل يشتمنى . وخرجوا فى التوسُّع إلى أن قالوا : قام يَهْزَأُ بى ، وقَعَدَ يظنّ أنه أمير[2] . وليس القصْد إلى فعله القيامَ والقعود ، ولكن زيادةٌ كالتَّصوير للحال والتأكيد للقِصّة .

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . انظر الكتاب (١ : ٣٩٢) والخزانة (٢ : ٣٣٨) والإنصاف ٢٧٣ . وصدره :

* فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا *

(٢) م : « أمين » .

٦٨

وقال بعضُ بنِي أَسَدٍ :

١ – كِلاَ أَخَوَيْنَا إنْ يُرَعْ يَدْعُ قَوْمَهُ ذَوِى جَامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ

يقوله رجلٌ اقتَتَل فريقان من قومه على بئرٍ ، فيقول : كِلاَ صاحبَينا إن يُفْزَعْ يستغِثْ بقومٍ ذوى عَدَدٍ وعُدَّةٍ . والجاملُ : الإبلُ ، وهو اسم صيغ للجمع . والدَّثْرُ : الكثير . والعَرَمْرَم : الجيش العظيم . وعُرَامُ الجيش : حدُّهم وكثرتُهم . وانتصب « ذوى » على الحال . والجزاء مع جوابه خبرُ المبتدأ ، وهو كِلاَ .

٢ – كِلاَ أَخَوَيْنَا ذُو رِجَالٍ كأنّهم أُسُودُ الشَّرَى مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ ضَيْغَمِ

يقول : كلُّ واحدٍ من صاحبينا مؤيَّدٌ برجالٍ كأنَّهم أسودُ هذه المأسَدَةِ ، من كلِّ ليثٍ غليظ العُنق ، شديد . وضَيْغَمٌ : فَيْعَلٌ من الضَّغْمِ ، وهو العضّ . وكِلا مُوحَّد اللفظ ، موضوع للمثَّى؛ لكنّ المرادَ به هنا كلُّ واحدٍ .

٣ – فمَا الرُّشد فى أن تَشتَرُوا بنعيمِكُم بَئِيسًا ولا أن تَشْرَبوا الماءَ بالدّمِ

يدعوهم إلى المصالحة ، ويعرِّفهم أنّه لا خَيْرَ فى مَاءٍ ، يَصِلُون إليه بإراقة دماء ؛ ويزهّدهم فى خِصْبٍ ونَعيمٍ ، يَحْصل عن عَيْشٍ بَئِيسٍ ، فيقول : ليس الصَّلاحُ والنَّجاحُ فى أن تستبدلوا بنعيمكم بُوسًا ، وبسلامتكم هُلْكًا ، ولا أن تشربوا الماءَ بسَفْكِ الدِّماء . والبئيس ، يكون مَصْدَرًا كالبُؤْس ، ويوضع فى مقابلة النَّعيم كما فعلَهُ هذا ، ويكون صفةً ، على هذا قول الهُذلىّ[١] :

ومَعِى لَبُوسٌ للبئيس كأنّهُ رَوْقٌ بجبهةِ نِعاجٍ مُجْفِلِ

وهو الرّجل الشُّجاع ذُو البأس .

---

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٩٨) .

٦٩

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ(١) :

١ — تعَالَوْا أفاخِرْكُمْ : أأعْيَاوفَقْعَسٌ إلى المَجْدِ أدْنَى أم عَشِيرَةُ حَاتِمِ

يقول : هَلُمُّوا أنافِرْكُم : أهؤلاء البطونُ أقربُ إلى المجد أم رَهْطُ حاتم ؟ وبنو أعيا : مِن بنى سعد بن قيس ، وبنو فقعس : حىٌّ من بنى أَسَد . وروى بعضهم : « أأعيار فَقْعَسٍ » ، يريد رؤساء فَقْعَسٍ . ورغم أنَّ أعيا لا يعرفه اسمَ قبيلةٍ ، وأنّ هذا تصحيف استدركه . فأما إنكاره لأعْيَا قبيلةً فلا وجْهَ لَهُ لأنَّ بنِي أَعْيَا من قبائل سعد بن قيس ، وهو مَشْهُورٌ ذكره النَّسَّابُونَ وغيرهم ، وَوَهْب بن أعْيَا بنِ طَرِيفٍ الأَسَدى ، معروفٌ معدود فى الأعلام . وأمَّا من طريق النَّظم فلأَنْ تكون القبيلةُ مقابلةً بمثلها ، ومذكورةً فى المنافرة مَعَها — أحسَنُ من أن يُقابَلَ الأفراد بالقبيلة . و « أَعْيَار » إشارةٌ إلى الأفراد ، لأنَّه يُراد بها الرّؤساء . يقال : هو عَيْرُ قومِهِ ، أى سَيّدهم . هذا وقد رجعنا إلى نُسَخٍ مختلفات المصادر ، فوجدناها متوافقةً فى تحمُّلها « أعْيَا وفَقْعس » . وإذا كان

(١) عناب ، بالنون ، كما فى م . قال ابن جنى فى المبهج . « اسم مرتجل غير منقول . وهذا أحد الأمثلة التى جاءت على فعال اسما لا صفة ، وهى الكلاء ، والجبان ، والفياد : ذكر اليوم ، والجيار فى الصدر وهو أيضاً الصاروج ، والعقار : أحد الأنبتة ، وعناب هذا الرجل والخطار : دهن طيب . ويجوز أن يكون عناب من العنب كتمار من التمر » . وحريث ، ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٦١ وقال أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيئ . شاعر محسن مكثر ، وهو القائل :

أترجو حيى أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا حييا كبارها

فأخذه الفرزدق فقال :

أترجو كليب أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا كليبا كبارها

وقال أبو محمد الأعرابى فيما نقله عنه التبريزى : « وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية » .

كذلك لا يجوز العُدُول عمّا قاله الشّاعر إلى ما لم يقله . وقوله « أأعيا وفَقَعسٌ » استفهام فى الأصل نُقِلَ عن بابه ، والمعنى : أُنافركم بالقضية التى تكون نتيجة هذا الاستفهام ، وقوله « أدْنى إلى المَجدِ » لم يُثَنّه وإن كان خَبَرًا عن اثنين ، لأنّه افعلُ الذى يتم بِمِنْ ، وقد دَخل عليه الاستفهام ، فيجب أن يستوى فيه الواحد والاثنان ، والمذكَّر والمؤنّث . وهذا الكلام لو أُتى به على وجهه لكان : أم عَشِيرةُ حاتِمٍ أدنى إلى المَجْدِ منهم ، لكنّه حَذَفَ إذْ كان المرادُ مفهوما . وإنّما جاء على حرف الاستفهام ليُبَصِّرُوا ضَلاَلتَهم . وفى طريقته بيت جرير :

هَلُمُّوا نُحَاكِمْكُمْ فَفِى الحُكْمِ مَقْنَعٌ إلَى الغُرِّ من آل البِطَاحِ الأَكارِمِ

والتقدير : أنافِرُكم أيُّهم أَمْجَدُ وأَعْرَف . وحاتِمٌ المذكورهو حاتم بن عبدالله الطائى . و « تَعَالَ » كان يقولُه من هو فى رابيةٍ للمتسفِّل ، لأنه تفاعَلَ من العُلوّ ، فكثُر استعماله حتّى جرى مجرى هَلُمّ ، فصار المتسفِّل يقوله عند الدُّعاء المُسْتَعْلِى .

٢ ــ إلى حَكَمٍ من قَيْسِ عَيْلاَنَ فَيْصَلٍ ومن آخَرَ حَيَّىْ ربيعة عَالِم

قيل : أراد بأحد الحَكَمين عامر بن الظَّرِب[1] وبالآخر دَغْفَلًا النَّسَّابَةَ . والفَيْصل : الذى يفصِلُ الأمور ، والياء دَخَلَتْهُ لتلحقه ببناء جعفر ، كما أنّ الضَّيْغَم فَيْعَلٌ من الضَّغْم ، والبناءانِ بحصول الياء فيهما صارا صِفَتَيْن بعد أن كانا مصدريْن ، لأنّ فَصْلاً من دون الياء مصدرُ فَصَل ، كما أنّ ضَغْمًا من دون الياء

(١) التبريزى : « وقال النمرى : الحكم من قيس عيلان عامر بن الظرب العدوانى ، والآخر الذى هو من حى ربيعة دغفل . وحيا ربيعة : بكر وتغلب ، ورجل واحد لا يكون من حيين ، وإنما يريد من أحد حيى ربيعة » . وقال أبو محمد الأعرابى معترضاً على ذلك : « كيف يكون الحكم من قيس عيلان هاهنا عامر بن الظرب ، وهو قبل الإسلام بمائتى عام ، ومتى لحقه حريث بن عناب وهو فى عصر عمر بن الخطاب وبعد ذلك إلى زمن معاوية ؟! وإنما عنى بالحكم من قيس عيلان هرم بن قطبة بن سيار بن عمرو الفزارى . والحكم من حيى ربيعة دغفلا النسابة . وحيا ربيعة : ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وذهل بن ثعلبة ، وهو عم ذهل بن شيبان ، وعم الرجل أبوه » .

مصدر ضَغَمَ ، فلمَّا حَصَل الياء فيهما وُصِفَ بهما وأفادَا مبالغَةً فى المعنى . ألا تَرى أنّ فَيْصَلاً يفيد ما لا يفيده فاصِلٌ ، وكذلك ضَيْغَمٌ يُفيد ما لا يُفيد ضاغِمٍ ، فاعلمْه .

٣ – ضَرَبْنا كُمُ حتى إذا قَامَ مَيْلُكُمْ ضَرَبنا العِدَى عنكم بِبِيضٍ صوارِمِ

قام له بمعنى تَقَوَّمَ وتَرَكَ الخلاف ، وقام عليه بمعنى دَاوم ولازَم . وفى القرآن : ﴿ إلَّا ما دُمْتَ عَلَيْه قائماً ﴾ . يقول : قَدَعنا كم[1] بالمكروه ، حتَّى إذا بانَ لنا فَيْئتكُمْ واستقامتكم ، حينئذٍ ذبَبْنا الأعداء عنكم بسيوفٍ قواطع . والمعنى : نعاملكُم بمعاملةِ الأعداء ، فإذا استقمتم لنا وذهب الخلافُ عنكم ، ضممنا كم إلى أنفسنا ، وحَمَيْنَا عليكم مع الأولياء .

٤ – فَحُلُّوا بأَكْنَافِى وأَكْنافِ مَعْشَرِى أَكُنْ حِرْزَكُمْ فى المَأْقِطِ المتلاحِمِ

فى جمعه الأكناف ظهورُ تَجَبُّرٍ فيهم ، وأخْذٌ بالتَّعلِّى عليهم . يقول : انزِلُوا بجَنابِى وجَناب عشيرتى ، وتَحصَّنُوا بفِنائى وفِناء قومى أَكُنْ كَهْفَكُمْ فى المَضيق من الحرب المتلاصق . والمتلاحِم ، يجوز أن يكون من الِّلحام ، لأنَّ كلَّ شىء كان متبايناً ثم تلازَمَ[2] يُقالُ فيه : الْتحَمَ وتَلاحَمَ ، ويجوز أن يكون من المَلحَمَةِ ، لأن أهلها يتلاحمون فيها . يقال : لَحَمْتُه فهو لَحِيمٌ ، أى قتلتُه . قال الهُذَلِىُّ[3] :

* فَلاَ رَيْبَ أَنْ قَدْ كانَ ثَمَّ لَحِيمُ[4] *

٥ – فقَدْ كانَ أَوْصانى أَبى أَنْ أُضِيفَكُمُ إلَىَّ وَأَنْهَى عَنْكُمُ كلَّ ظالمِ

(١) م : « فرعناكم » ، أى علوناكم .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى م : « تلان من » ، والأخيرة محرفة .
(٣) هو ساعدة بن جؤية الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢٣٢) واللسان (حصر ، لحم) ومقاييس اللغة (ريب ، لحم) .
(٤) صدره : * فقالوا تركنا القوم قد حصروا به *

نبَّه بهذا الكلام على استعلائه عليهم قديماً وحديثاً ، وأنهم كانوا لهم كالخوَلِ والتَّبَعِ ، وأن الأسلاف كانت تُوصِى الأخلافَ بهم لتطاوُلِ أيامهم فى جَنْبتهم ، واكتناف العناية بهم من ماضيهم وغابِرِهم .

٧٠

وقال إبراهيم بن كُنَيْفٍ النَّبْهانىُّ :(١)

١ — تَعَزَّ فإن الصَّبْرَ بالحُرِّ أَجْمَلُ   وليسَ على رَيْبِ الزَمان مُعَوَّلُ(٢)

الخطاب بهذا الكلام للنَّفْس على طريق التَّسلية ، فيقول : تصبَّرْ فإنّ الصَّبر بالرجل الكريم أحسَنُ من التخشُّع فيما لا يَحْسُن الخضوع فيه وله . والأصلُ فى الصَّبرِ الحبْسُ ، ومنه قولهم : قُتِلَ فلانٌ صَبْرًا . وقولُه « وليْس على رَيْبِ الزمان مُعَوَّلُ » ، يريد به أنّ الأحداثَ لا تقف على شىء بحُكم واحد ، ولكنها تتنقَّل وتتبدل ، فلا مُتَّكَل عليها ، ولا مُعتَمد على عَهدها ، فهى كما تُحْسِنُ تُسِىء ، وكما تُدْوِى تُدَاوِى ، وكما تَجْمَعُ تُفَرِّق . وقوله « تَعَزَّ » هو من عَزَا الرَّجُلُ وعَزِىَ الرجل ، إذا صَبَر عَزَاءً ، ورَجلٌ عَزِىٌّ أى صَبورٌ . وفى بناء تَفَعَّل زيادةُ تكلُّف ، ودلالة على فرط تعمُّلٍ . والمُعَوَّل : المَحملُ والمتَّكَلُ .

(١) قال البكرى فى اللآلئ ٤٣٠ : « شاعر إسلامى » .

(٢) بعده عند التبريزى أبيات ثلاثة وهى :

فلو كانَ يُغْنِى أن يُرَى المرءُ جازعاً   لحادثةٍ أو كان يُغنِى التذلُّلُ

لكانَ التعزِّى عند كل مصيبةٍ   ونائبةٍ بالحُرِّ أوْلَى وأجْمَلُ

فكيفَ وكلٌّ ليس يَعْدُو حِمَامَه   وما لامرئٍ عما قضَى اللهُ مَزْحَلُ

والحرّ أصله الأعتقُ من كلِّ شيء والأكرم ، ولذلك قيل لِمَا بدا من الوجه فى اللِّقاء : حُرُّ الوَجهِ . قال الشاعر(١) :

* لقد شانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنةُ مُسْهِرٍ(٢) *

٢ — فإنْ تكنِ الأيامُ فينا تبدَّلَتْ ببُوسَى ونُعْمَى والحوادِث تَفْعَلُ

قوله « والحوادث تفعل » يسمى اعتراضا ، ومثل هذا من الاعتراض يَزيد القصة تأكيداً ، وهو هاهنا حائلٌ بين الجزَاء وجوابه ، لأن جوابَ إنْ تكُنْ قولُه « فما لَيَّنَتْ مِنَّا قَناةً صَلِيبَة » وحَسُنَ الكلامُ به جِدًّا إذ كان تأكيداً لما يقتصُّه من تحوُّل الأحوال ، وتحقيقاً لما شكاهُ من رَيبِ الزمان ، وبَعْثاً على التَّسلى ، وأَخْذِ النفسِ بالتأسِّى . فيقول : إن كانت الأيام دارت فينا بالنَّعماء مَرَّةً وبالبأساء أخرى — وهذا عادةُ الدهر وحوادثِه — فما غيَّرتْ منّا شيئا .

٣ — فما ليَّنَتْ مِنّا قناةً صليبةً ولا ذَلَّلتْنا لِلَّذِى ليسَ يَجْمُلُ(٣)

ذِكْرُ القَنَاةِ مَثَلٌ ، وقد مَضَى الكلام فى مِثله . وأبين ما يُسْتَشْهَد به فى استعارتها للإباء والتشدُّد قولُه :

كانت قَنَاتى لا تلينُ لغامزٍ فألانَها الإصباحُ والإمْساءُ(٤)

وهذا البيت بيانٌ لفائدة الصبر الذى دعاه إليه ، وبَعَثَ نفسَه عليه ، لأن

(١) هو عامر بن الطفيل . ديوانه ١١٩ والشعر والشعراء ٢٩٣ .

(٢) صدره : * لعمرى وما عمرى على بهيِّن *

(٣) التبريزى : « للتى ليس تجمل » .

(٤) فى الكامل ١٢٥ ليبسك : « وقال بعض شعراء الجاهلية » . والبيت مع قرين له فى الكامل وعيون الأخبار (٢ : ٣٢٢) . ونسبا فى زهر الآداب (١ : ٢٠١) إلى عمرو بن قميئة .

الصابرِ على الشدائد حَقيقٌ بألاّ يتذلَّلُ لما لا يحسُنُ به ، ولا تَجْمُل الأُحدوثة فيه عنه ، وألاّ يتليَّن لما كان يَتصلَّبُ له من قبلُ . فإن قال قائلٌ : فإذا كان غاية الصبر ومعناه هذا ، فإلى أىِّ شىءٍ دعا نفسَه بقوله : تَعَزَّ فإن الصبر بالحُرِّ أجملُ ؟ وقد خبَّرَ عن نفسِه بأنه آخِذٌ بما هو حقيقتُه ؟ قلتَ : يجوز أن يكون معنى « تَعَزَّ » دُمْ على التَّعزِّى ، ويكون بناء الأمر لما هو الحال ، ولا يريد استئنافُه ، كما أن قولَ الله عزّ وجلّ : ﴿ يأيُّها الذينَ آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِهِ ﴾ معناه دُوموا على الإيمان . ويجوز أن يكون أمر نفسَه فى المستقبل بما كان عادتهم فى المُسْتَقْدَم .

٤ — ولَـكن رَحَلْنَاها نفُوساً كَرِيمةً تُحَمَّلُ ما لا يُسْتَطاعُ فتَحْمِلُ(١)

يجوز أن يكون معنى رَحَلْنَاها رَحَلْنَا لها نفوساً ، والضمير للحوادث ، ويكون هذا كقولهم كِلْتُكَ وَكِلْتُ لك ، وَوَزَنْتُكَ وَوَزَنْتُ لك ، ويكون نفوساً مفعولاً لِرَحَلْنا . ويجوز أن يكون الضمير أعنى ضمير المنصوب فى « رحلناها » للنفوس ، على أن يكون مفعولا . وأتى بالضمير قبل الذِّكْر ، ثم جعلَ قولَه نُفُوساً بدلا منها ، على طريق التبيين . وقولُه « ولـكِنْ » حَرْفٌ يُستدرَكُ بها بَعْدَ النفى ، فيكون المعنى ما تذلّلنا للنوائب ، ولـكن هيَّأنا لها نفوساً تأنف من الرِّضا بالدنيّة ، فلا تَنْسى كَرَمَها ، وتُكلَّفُ أمورًا لا تنهض بها فتتكلَّفها . وفى وصف النفوسِ بالـكرم إشارةٌ إلى الظَّلَف والعفّة ، والتَّأبِّى من المُخْزِيَةِ ، ومجانبة الريبةِ ، والنفور من كلِّ قبيحة . ولذلك قال الله عزّ

---

(١) بعده عند التبريزى :

وقَيْنا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنَّا نفوسَنَا فَصَحَّتْ لنا الأعراضُ والنّاسُ هُزَّلُ

وجلّ فى صفة المختارين من عباده المزكِّين(١) : ﴿والذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ . فأما قولُه « رَحَلْناها » فى الاستعارة ، فكما يقال استَحْمَلتُ فلاناً نفسى ، وركِبَتْنى ظُلاماتٌ وما أشبهَهَا . وحُكى : هو يَرْحَله بما يَكرهُه ، أى يَرْكبُه ؛ ولا رَحَلْتُكَ بالسيف ، أى لا عَلَوْتُك .

٧١

وقال آخَرُ :

١ — وكمْ دَهَمَتْنِي من خُطُوبٍ مُلِمَّةٍ صَبَرْتُ عليْها ثم لم أَتَخَشَّعِ

يقول : مراراً كثيرة فاجأتنى خُطوبٌ شديدةٌ ، ونزلَتْ بى ، فحَبَسْتُ نفسى عليها ، وتجلدت لها ، فلم يَظهرْ فى مَناظِرِى خُشُوعٌ ، ولا بَدَا فى جوارِحى خُضوع . وموْضِعُ كم على هذا التأويل ظَرْفٌ . « ومِنْ » على طريقة الأخفش تكون زائدة ، لأنه يُجوِّز زيادة « مِنْ » فى الواجب ، ويَستدِلُّ من المسموع بقول بعضهم : « قد كان من مَطَرٍ فَخَلِّ عَنِّى » وبغيره . فكأنه قال : كم مَرّةً دِهَمَتْنى خطوبٌ كثيرة . ويكون قولُه صَبَرْتُ عليها صفةً للخطوب . ويجوز أن يكون كم فى موضع الابتداء ، ومن خُطوبٍ هو بيانٌ له ، وقد فَصَل بينهما بخبره ، وهو دهمَتْنى ، وتقديره كم من خطوبٍ دهمتنى ، أى كثيرٌ من الخطوب . فأمّا فائدة العطْف بثُمّ من قوله « ثُمَّ لم أتَخَشّع » فهو إبانة الاستمرار فى الصَّبْر ، وإن طالت المُهْلة إلى أن انكشفت تلك الملمّات العارضة وانفرجت . ومعنى دَهَمَنى : فاجأنى ، ومنه الدَّهْم ودَهْماء الناس .

٢ — فأدركْتُ ثأْرِي والذى قد فعلتُمُ قلائِدُ فى أعناقِكُمْ لم تُقَطَّعِ

(١) المزكين ، كذا ضبطت بكسر الكاف فى النسختين ، أى الذين زكوا أنفسهم . وفى كتاب الله : « قد أفلح من زكاها » .

يقول : أَصَبْتُ ما طَلَبْتُهُ ، وتقاضَيْتُ به ممن كان لى عنده ثأرٌ أَوْ وِتْرٌ ، فاستنزلته عنه ، وما فعلتم من القُعودِ عن نُصْرَتى ، وخِذلانى فيما نابنى ازِمَكُمْ ، فكأنّها قَلائد وأطواقٌ لا تَنحلُّ عنكم ولا تنقطع . وهذا تحقيقٌ للزوم العار لهمْ فيما أَتَوْا . ومثله قول بِشْر :

* وقُلِّدَهَا طَوْقَ الحمامةِ جَعْفَر *

يصفُ غَدْرَةً ارتكبوها . ومثلُه فى القرآن : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴾ .

٧٢

وقال عُوَيْفُ القَوَافِى (١) :

١ — ذَهَبَ الرُّقَادُ فما يُحَسُّ رُقَادُ   مِمَّا شَجَاكَ ونَامَتِ العُوادُ (٢)

يقول : طارَ النَّومُ فلا يُعرفُ له أَثرٌ ، مما دَهاك وحَزبَكَ ، ونام الذين كانوا

---

(١) عويف القوافى الفزارى ، وهو عوف بن معاوية بن عتيبة بن حذيفة بن بدر ، سمى عويف القوافى لبيت قاله ، وهو :

سأكذب من قد كان يزعم أننى   إذا قلت شعراً لا أجيد القوافيا

وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، مدح الوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وعمر ابن عبد العزيز . البيان (١ : ٣٧٤) ومعجم المرزبانى ٢٧٧ — ٢٧٨ والأغانى (١٧ : ١٠٥) والاشتقاق ١٧٣ .

قال أبو رياش : « وكانت أخته عند عيينة بن أسماء فطلقها ، فكان مراغما لعيينة وقال : الحرة تطلق لغير بأس ! فلما أخذ الحجاج عيينة فحبسه قال عويف هذا الشعر » .

(٢) روى التبريزى بعده :

خبرٌ أتانى عن عيينةَ موجِعٌ   كادت عليه تَصَدَّعُ الأكبادُ
بلغَ النُّفوسَ بلاؤه فكأننا   موتَى وفينا الرُّوح والأجسادُ
يَرجون عثرةَ جدِّنا ولو انهم   لا يدفعون بنا المكارهَ بادُوا

يعودونك ولم يَسْهَرُوا لك . والمعنى : إنّى اختُصِصْتُ فيك بما عَرِى منه عُوَّادُك ، وتحمّلت من الجزَع ما سَقَطَ عنهم وخَفَّ عليهم . والرُّقادوالرُّقود : النّوم باللّيل ، وعرّف الأوّلَ تعريف الجنس ، ونكّر الثانى لأنه أراد نوْعًا من الجِنس ، كأنّ المرادَ : ذهبَ النومُ على اختلافِه حتّى ما يُرَى لنَوْعٍ منه مُخْتَصٍّ أثَرٌ .

٢ — لَمَّا أتانى عن عُيَيْنَةَ أنّه أَمْسَتْ عليه تَظَاهَرُ الأقيادُ[1]

قوله « لَمَّا أتانى » ظرْف لقوله « نَخَلَتْ له نَفْسِى » لأنّ لَمَّا إذا وليَهُ الفِعْل الماضى ، كان علماً للظرف ، وفُسّرَ بحِين . والمعنى : حين تَساقَطَ إلىّ عن هذا الرجل وتأدَّى أنّهُ أُسِرَ وَقُيِّدَ بقَيدٍ بَعْد قَيْد ، فارَقَنى ما كنت أُخامِرُهُ وأنطوى عليه من التنكُّر له ، وأزَلْتُ عن نفسى ما استجفيته فيه ، لأنّ الكريم يرقُّ لمثله من الكِرام عند النَّوازل . ومعنى التظاهر : أنْ يَصِير الشَّىء فوق الشىء فيَقْوَى . ويقال : ظاهَرَ بين ثَوبين ، إذ لبِسَ أحدَهما فوق الآخر . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ ﴾ معناه تعاوَنا ، ومنه قولهم : هو ظَهْرٌ ظهيرٌ ، أى قوىٌّ فى الاستغاثة .

٣ — نَخَلَتْ لَهُ نَفْسِى النَّصِيحَةَ إِنّهُ عِنْدَ الشَّدائد تَذْهَبُ الأحْقادُ

يقول : أَصْفَتْ عند ذلك نفسى له النُّصْحَ ، لأنَّ الضغائن تُفارِق عند الشدائد . وهذا الكلام هو بيان عِلّة مفارقة ضِغْنه ورجُوعه إلى سلامة الصَّدْر له . وقد ذكر فيما بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على حسن الإنصاف من النَّفس ، والاعتراف بالفضل للغَير . ويجوز أن يُرْوَى « أنه » بفتح الهمزة ، والمعنى لأنّه عند الشَّدائد . وإذا رُوِىَ بالكسر يكون على الاستئناف .

---

(١) التبريزى : « أمسى عليه » .

٤ – وذَكَرْتُ أىَّ فتًى يَسُدُّ مَكَانَه بالرِّفْدِ حين تَقَاصَرُ الأَرْفَادُ

مصدر ذَكَرْتُ فى هذا الذُّكْر بضم الذال ، لأنّه بالقلب . وقوله «بالرِّفد» ، يريد ببذْل الرِّفد ، فحذَفَ المضاف . يقول : أَجَلْتُ فى فِكْرِى ، وقُلْتُ فى حديث نفسى : لو خَلَّى مكانه مَنْ كان يَسُدُّ مَسَدَّه ، ومَن يُعْطِى عَطَاءه عند تقاصُر العطايا وتراجُع المعونات . وهذا إشارةٌ إلى زَمان الجَدْب والقَحْط وقتَ تَنافُس النّاسِ فى المتملَّكات ، والدَّفع عنها بإعْداد العِلاَّت . والمعنى : إنَّ مِثْلَه لا يُوجَدُ ولا يُظْفَرُ به فى مثل ذلك الوقت ، فإذا كان كذلك فكيف يَسْمَحُ المُنصِفُ به لدَهرِه ، أو كيف ينطوى الصدْرُ على السُّلُوِّ عنه والخُلُوِّ منه ، مع شدة الحاجة إليه . ويقال : رَفَدْتُ الرّجل رَفْدًا إذا أعطيتَه ، ثم سُمِّىَ العطيَّةُ رِفْدًا بكسر الراء ، وجَمْعه الأرفاد . وأرفَدْتُه مَحْكِىٌّ لكنه ليس بالمتخيِّر . وتقاصَرُ ، أصلُهُ تتقاصَرُ فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ، وهو فى موضع الجر بإضافة حين إليه .

٥ – أَمْ مَنْ يُهِينُ لنا كَرائمَ مَالِهِ ولَنا إذا عُدْنا إليه مَعَادُ

أمْ هذه هى المنقطعة ، والاستفهام دَخَل فى الكلام على طريق التوجُّع والتلهُّف لما جَرَى على عُيَينه المذكور . والمعنى : لو فقدناه مَن كان يبذُل لنا عقائلَ أمْوَاله ، ومتى شئنا وجَدْنا عنده معاداً فلا يَملُّ السُّؤال ، ولا يُغِبُّ النَّوال ؛ وهذا الكلام تنبيهٌ على أنّه كان يُدِيم الإحسان ، ولا يَحُولُ عطاء يومه دون عطاء غَدِه . وقوله « كرائمَ مالِهِ » ، جَمْع كريمةٍ ، وقد أُجْرِى مَجْرى الأسماء حتَّى جاء فى الحديث : « إذا جاءكم كريمةُ قومٍ فأكرموه[1] » .

---

(١) قاله صلى الله عليه وسلم ، فى إكرام جرير بن عبد الله لما ورد عليه فبسط له رداءه وعممه بيده . اللسان (كرم) .

٧٣

وقال بِشْرُ بن المُغيرَة[١] :

١ — جَفانى الأَميرُ والمغيرةُ قد جَفَا ... وأمْسَى يزيدُ لِى قد ازْوَرَّ جانِبُهْ[٢]

أراد بالأمير المهلَّب بن أبى صُفرَة . والمغيرَةُ أخوه ، ويزيد ابنه . وقائل هذا الشعر بِشر بن المغيرة ، وهو أحدُ الفُرسان المشتهرين[٣] ، فيقول : جفانى عَمِّى المُهَلَّبُ ، وأبى المغيرة ، وصار يزيد ابن عمى لاقتدائه بهم منحرفاً عنِّى ، غير مائلٍ إلىّ . والازورار : الانحراف ، وهو من الزَّوَر : نُتُوٌّ أحدِ شِقَّى الصدر واطمئنانِ الآخر : ويقال رَجُلٌ أزْوَرُ ، وامرأةٌ زوراء .

٢ — وكلُّهُمُ قدْ نالَ شِبْعًا لِبَطْنِهِ ... وشِبْعُ الفَتَى لُؤْمٌ إذا جَاعَ صاحِبُهْ

أراد بالكلّ الاتحاد لا الجميع . يقول : كلٌّ واحدٍ منهم قد نال من الدُّنيا وأعراضِها قَدْر ما يشبعه ويمكنه الاكتفاء به ، ثم قال : وشِبْعُ الإنسان لُؤْمٌ إذا لم يُشْرِكْ صاحِبَهُ فيه فبقى جائعاً . أى هو كذلك فى ذلك الوقت ، وعلى تلك الحالة . والشِّبْعُ لا يكون لُؤمًا ، لكنَّ التفرُّد به من دون ذَوِيه على حاجةٍ منهم إليه يكونُهُ[٤] ، فرَمَى بالكلام على ما تَرَى لأنَّ المراد منه مفهوم . والفَرْقُ بين الشِّبْع والشِّبَع ، أن الشِّبْع بسكون الباء : القَدْر الذى يُشْبِع ، والشِّبَع بفتح الباء :

---

(١) قال التبريزى : « ويروى أن اسمه كان بُسْراً » . وقال أيضاً : « وكان بشر بن المغيرة بخراسان مع المهلب فلم يوله شيئاً » .

(٢) يزيد ، ضبطت فى الأصل بضمتين فى أعلى الدال وضمة فى وسطها لتقرأ بالصرف وعدمه ، وذلك مع كلمة « معا » فوق الضمتين .

(٣) م : « المشهورين » .

(٤) أى يكون لؤما .

الامتلاء من الطعام ، وقد استعمل الشِّبَع فى غير الطّعام فيقال : أشْبَعْتُ الثوبَ صِبْغاً ، وكذلك فى كلِّ ما وفّرتَه من القول وغيره ، حتّى قيل تَشَبَّع الرّجُلُ ، إذا تَكَثَّر .

٣ — فيا عَمِّ مَهْلاً واتّخِذْنِى لنَوْبَةٍ تُلِمُّ فإنّ الدهْرَ جَمٌّ نوائبُهْ[1]

قولُه « مَهْلاً » معناه رِفْقاً ودَعِ العجلة . ويحرَّكُ الهاء منه فيقال ائت كذا على مَهَلٍ ومَهْلٍ جميعا . ويقال : ما بى عن كذا مَهْلٌ ، أى إنّى فيه مستعجِل . وفى هذا بعض التوعُّد والتطنُّز وإنْ كان ظاهِرُه أنه يَستعطف المُهلَّب ويُعرّفه أنَّ الدَّهرَ ذو غِيَرٍ وذو ألوان فلا يُؤمَن بوائقُه ؛ وأنّه قد يُحتاج إلى المُسْتَغْنَى عنه لحادثةٍ تَحْدُثُ . فيقول : ادَّخِرْنى لِنَوْبةٍ تَنزِل ، وهى المصيبة أو النَّكبة ، ولا تَطَّرِحْنِى اغتراراً بالأَمْنِ ، فإنَّ الدَّهْرَ كثيرُ النوائب ، وشِيكُ التحوُّل . وقولُه « يا عَمِّ » حَذَفَ الياء منه لوُقوعه موقعَ ما يُحْذَفُ فى هذا الباب ، وهو التنوين ، ولأنّ باب النّداء بابُ إيجاز ، ولأن الكسرة تَدُلُّ عليه .

٤ — أنا السَّيفُ إلّا أنَّ للسَّيْفِ نَبْوَةً ومِثْلِىَ لا تَنْبُو عَلَيْكَ مَضارِبُهْ

يُفَضِّلُ نفسَه فى نفاذِه فى الأمور ومضائه ، على السَّيف ؛ فقال أوّلاً : أنا السَّيف ، أى أشْبِهُهُ ، ثم تَلافَى فقال : إلّا أن السَّيْفَ رُبَّما نبا عن الضَّريبة وكَبا ، ومثلى لا يَكِلُّ ولا تَنْبُو حُدُودُه عن شىءٍ تُلاقيه . وفى هذه الطريقة قول جرير :

وليس لسَيفى فى العظام بقيّةٌ وللسَّيفُ أشوَى وقعةً من لِسَانيا

والمَضارِبُ : جمع مَضرِبٍ ، وهو الموضع الذى يُضرَبُ به من السيف .

---

(١) التبريزى : « جم عجائبه » .

٧٤

وقال بعض بنى فَقْعَس(١) :

١ ــ يأيُّها الرَّاكِبانِ السَّائِرانِ مَعًا قُولاَ لِسِنْبِسَ فَلْتَقْطُفْ قَوافِيها

الراكب : اسمٌ لمن ركب حيوانًا إلا الفرَس ، فإنه يقال لراكبه فارسٌ متى أطلِقَ . ومَعًا ، انتصب على الحال ، ومعناه مُصْطحِبِين ومجتمعين . فيقول : يأيها السائران المصطحِبان ، قولاَ لهذه القبيلة لتتركْ قولَ الشِّعر ، أو تتوقَّفْ قليلا حتى تتباطأَ قوافيها عنّى(٢) . وفى هذا الكلام ضَرْبٌ من الاستهزاء بهم ، وإشارةٌ إلى التجبُّر والتعلِّى عليهم . والقَطوفُ من الدوَابِّ : الذى فى خَطْوِه بُطءٌ مع تقارُب . وجعلَ فعلَ الأمرِ للقوافى على السَّعة والمجاز . وسِنْبِسُ هم المأمورون . وهذا كما يقال فى النَّهْى : لا أَرَيَنَّكَ هاهنا ، والمخاطَبُ هو المنهِىُّ ، لأنّ المعنى : لا تكن هاهنا فأراك . ثم بيَّن هذا الشاعرُ الوجهَ الذى أوجَبَ منه اطِّراح الافتخار ورفضَ الهجاء له ، فقال :

٢ ــ إنِّى امرؤٌ مُكرِمٌ نفسى ومُتَّئِدٌ مِن أن أُقاذِعَها حتى أُجازِيها

يقول : إنى رجلٌ أَرْبأ بقدْرى عن مكايلتهم ، وأترفَّع عن موازنتهم ، وأتوقَّف عن مُلاحاتهم ، طلبًا لمجازاتهم . والتقدير : لا أُقاذِعُها لكى أُجازِيَها ، لأنّ حتى الداخلةَ على الفعلِ مرّةً يكون بمعنى كَىْ ، ومَرّة يكون بمعنى إلى أن .

(١) التبريزى : « وقال بعض بنى عبد شمس من فقعس » .

(٢) جعل « تقطف » هنا من القطاف وهو بطء الدابة . وأما أبو رياش فجعلها من قطف الثمرة بمعنى قطعها ، أى لتدع قول الشعر فيما بيننا وبينها . وأما النمرى ففسرها من القطف : جنى الثمرة ، أى إن فعلنا بهم شراً فهو جناية قوافيهم عليها . وهذا القول الأخير حسن جداً ، إلا أن ما بعده يدل على أنهم لم يجازوهم بعد ، لقوله : إنى امرؤه مكرم نفسى ومتئد . وعلى هذين المعنيين تكون « تقطف » متعدية . وعلى ما فسره المرزوقى تكون لازمة .

ويجوز أن يكون المعنى : لا أُقاذِعُها إلى أن أُجازِيَها ، أى أوّلاً أُجازيها فعلاً لأرى القُدرة عليها ، ثم حينئذ أجازيها بالـكلام . والأول أحسن . ثم أخذ يقتصُّ ما كان منهم لمّـا طلب مكافأتَهم بالفعل . والمُقاذعة : المُفاحَشة . ويقال قَذَعْتُه ، إذا رَمَيْتَه بالفُحْش . ومتَّئِدٌ : مُفتعِلٌ من التُّؤَدةِ ، وهى الرِّفْق .

٣ — لمّا رَأَوْهَا مِنَ الأَجْزَاعِ طالِعَةً شُعْثاً فَوَارِسُهَا شُعْثاً نَوَاصِيهَا

يقول لمّـا رأوا الخيلَ بارزةً لهم ومفاجئةً إياهم من أجزاعِ الوادى — وهى جوانبها — مُغبَرَّةَ النَّواصى مغبرّة الفرسان . وجواب لمّـا فيما بعده . ويقال شَعِث شَعَثاً وشُعوثةً ، وهو أَشْعَثُ وشَعِثٌ . وأضمَرَ الخيل فى قوله « لما رأوها » وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ، لأن الحالة الحاضرة تدلُّ عليه . ويجوز أن يكون تقدَّم ذِكرها فيما تُرِكَ من أبياته .

٤ — لاذَتْ هُنَالِكَ بالأَشْعَافِ عالِمَـةً أَنْ قد أَطاعَتْ بلَيْلٍ أَمْرَ غاوِيها

يقول : التجأتْ فى ذلك الوقتِ إلى قُلل الجبال وأعالى الهضـاب ، عارفة سوء اختيارها فى تحكُّـكها بى ، وتعرُّضِها بالشِّعر لى ، وأنَّها قد ائتمرت لغواتها بِلَيْلٍ . وذِكْر الليل هاهنا إشارةٌ إلى حَيْرَتها فيما أَتَتْه من تَرْكها الرَّشاد ، وقَبولها مَشورة الغُواة . والأَشْعافُ : جمع الشَّعَفَة ، وهى أعلى الجبل ، وأعلى كلِّ شىء ، ولذلك قيل شَعَفة القَلْب لرأسِه عند معلَّقِ النِّياط . وهنالك ظرف ، ويكون للزَّمانِ والمكان جميعا ، وزيادة اللام تكون للتأكيد فيه ، كأنّ البُعدَ فيما يُشار إليه بهُنالِك أبلغُ مما يكون فيما يشار إليه بهناك . وهذا على طريقةِ ما تقوله فى ذلك وذاك . وقوله « أنْ قد أطاعت » أن فيه مخفَّفة من الثقيلة ، أى عالمة أنها قد أطاعت . ويقولون لمـا لا يُعمَل بتثبُّتٍ وحُسن تدبُّر : « هذا

أمرٌ قد قُدِّرَ بليل » . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الذى تَقُول ﴾ .

٧٥

وقال آخر فى ابنٍ له :

١ ـ لا تَعذُلى فى حُنْدُجٍ إن حُنْدُجًا وليْثَ عِفِرِّينٍ لَدَىَّ سَوَاءُ

يخاطب لائمةً عذَلته فى التوفُّر على ابنه حُنْدُجٍ واختصاصه إيّاهُ واستخلاصه ، وذكر الخليل أن حُنْدُجًا فى اللُّغة : رَمْلَةٌ طيّبة تُنْبِتُ ألوانًا من النبات . فيقول : لا تلوميني فى أمر حُندجٍ ، إنّ حُندجًا وليثَ هذه المأسَدَةِ متساويان عندى . وقد قيل فى ليث عِفِرِّين : إنّها هى التى تصيد الذُّبابَ وثبًا ، فشبّهه فى كَيْدِهِ ومكرِه به ، وقد وُصِف الخبيثُ المُنْكَر بالعِفْر والعِفْرِيَةِ وعَفَرْنَى ، ويقال أيضا للأسد عِفْرٌ وعَفَرْنَى . وقيل هو أشدُّ عَفَارَة ، واستعفَرَ فلانٌ . وحكى الأصمعى أنّ ليث عِفِرِّينَ دابّة كالحِرباء يتحدّى الراكبَ ويضرب بذنَبه[1] . وقيل عِفِرِّينَ : موضعٌ نُسِبَ إليه ، وقيل عِفِرِّين : فِعِلِّين من العَفَر ، وهو التُّراب ، لأنّ عادة الأسدِ أنْ لا يصيب من فريسته حتى يُعفِّرَه ، يشهد لذلك قولُ الآخَرِ فى صفته :

* ولا نَالَ قَطُّ الصَّيْدَ حتى تَعَفَّرَا[2] *

وذكر بعضُهم أنّ ليثَ عِفِرِّين كقولهم : لَيْثُ لُيُوثٍ ، لأنّه يقال المُنْكَر الداهية عِفْرٌ ، ويوصَف به الأسود والرِّجال . ويكون على هذا عِفِرِّين جمع جَمْعَ السَّلامة كالأقْوَرِينَ ، ومرّ بى أنّ قولهم ليث عِفِرِّين يستعمَل فى المدح والذّمّ وسَوَاءٌ : مصدرٌ فى الأصل وُصِفَ به .

---

(١) م : « تتحدى الراكب وتضرب بذنبها » .

(٢) م « حتى يعفرا » .

٢ — حَمَيْتُ على العُهَّارِ أطْهارَ أُمِّهِ   وبعْضُ الرِّجال المُدَّعِين جُفَاءُ

يُبيِّن فى هذا الكلام انتفاء الرِّيْبِ عن مشابهته له ، وتقيُّله إيّاه ، وأنّه لا يُشَكُّ فى كونه من صُلبه ، فيقول : حَفظْتُ أطهارَ أُمِّهِ عن الزُّناة ، لأنى اخترتُها من بيتِ العفّة ، وأَرومة الكرم ، ومَغْرِس النَّجابة ، والعِتْق والشَّهامة[1] ودَعوَاىَ حقٌّ ، وبعض دَعاوَى المُدَّعِين كالذى يَعْلو السَّيلَ ويحتملُه من سَقَطِ الأرض . والمراد بقوله : وبعض دَعاوَى الرجال ، فحذف المضاف وأقامَ المضافَ إليه مقامه . والعَهْر والعُهُور : الفجور . ويجوز أن يريد بقوله « حَمَيْتُ على العُهَّارِ » ما أراد امرؤ القيس بقوله :

* وأَمْنَعُ عِرْسِى أن يُزَنَّ بها الخالِى[2] *

أى بِفَرْط غَيرتى وكمال رُجوليَّتِى وتمام محاسِنى . وإنّما خَصَّ الأطهار لِمَا فى المَحِيض من الاعتزال ، وكما قال الآخر[3] :

* دُونَ النِّساء ولو باتَتْ بأطْهارِ[4] *

وذكر بعضُهم أنَّ المراد بقوله جُفَاءُ : وبعضُ الرجال محمولٌ دعِىٌّ ، فهو كالجُفَاء لا يُعتدُّ به . والصَّحيح الأوّل .

٣ — فَجاءتْ به سَبْطَ العِظَامِ كأنَّما   عِمامَتُهُ بَيْنَ الرِّجالِ لِوَاءُ

(١) قال أبو محمد الأعرابى : إنما وصف الشاعر ابن أمة . يقول : لم أسبها كما تسبب الإماء فجاءت به لرشدة . وإذا وقفت على قصة البيت عرفت مصداق ما قلته . أكتبنا أبو الندى قال : كان رجل من بنى جناب من بلقين عنده ابنة عم ، له منها ابن يقال له سيار ، وكان له ابن من أمة يقال له دملج ، فكانت الحرة إذا رأته يلطف دملجا ببعض اللطف لامته وغضبت ، فأنشأ يقول :

ألا نمى فى دملج إن دملجا   وشركة سيار إلى سواء
شغلت عن العشاق أطهار أمه   وبعض الرجال المدعين زناء

(٢) صدره : * كذبت لقد أصبى على المرء عرسه *

(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٠ وشرح شواهد المغنى ٢٢١ .

(٤) صدره : * قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم *

يقول : جاءت الأمُّ بهذا الولد وهو تامُّ العظام مديدُ القامة ، فكأنَّ قامتَه رمح ، وكأنَّ عمامتَه إذا توسَّطَ الرِّجالَ لواءٌ محمول عليه . وأحسن صنعةً منه قولُ مسلمٍ ، وإن كان هذا سليما من العَيْب .

يَقُومُ مَعَ الرُّمْحِ الرُّدينيِّ قَامَةً وَيَقْصُرُ عنه طُوُل كلِّ نِجادِ

وفى طريقته قولُ الآخر[1] :

* يَكَادُ يُسَاوِى غَارِبَ الفَحْلِ غاربُه[2] *

٧٦

وقال آخر[3] :

١ ــ إذا كانَ أولادُ الرِّجالِ حَزَازَةً فأنتَ الحلاَلُ الحُلْوُ والباردُ العَذْبُ[4]

إذا يتضمَّن معنى الجزاء ، ولهذا احتاج إلى الجواب فجُعل بالفاء . فيقول : إذا كان الأولاد تقطيعاً فى الصدور وتحزيزاً فى القلوب ، لعقوقِهم واستعمالهم الجفاء فى موضع البِرِّ مع آبائهم ، فأنْتَ العَسَل مَشُوباً بالماء العذْب . وقد وصف بعضُهم كلاماً فقال : « هو السِّحْرُ الحلال ، والعَذْبُ الزُّلال » . ويشير الشّاعر إلى سهولة جانبِه ، وحُسن طاعته ، ودماثَة خُلقه . وقال الخليل : الحزازة : وَجَعٌ فى القلبِ من غَيْظٍ أو أذًى . والحزَّاز أيضا كذلك ، وأنشد بيت الشَّمَّاخ :

---

(١) هو فرعان بن الأعرف ، يقوله فى ابنه منازل . الحماسية ٦٠٣ .

(٢) صدره : * لربيته حتى إذا آض شيظما *

(٣) قال أبو رياش : هو لأبى الشغب العبسى ، وقال أبو عبيدة : للأقرع بن معاذ القشيرى .

(٤) أول المقطوعة عند التبريزى :

رأيت رِباطاً حينَ تم شَبابُه ووَلَّى شَبابى ليس فى بِرِّه عَتْبُ

قال : « ليس فى بره عتب ، أى ليس فيه فساد . قال أبو هلال : الوجه أن يقال إنه لا يمن ببره فينكر منه ذلك ، يقال عتبت على الرجل عتبا ، إذا أنكرت عليه شيئاً من فعله . ويجوز أن يقال : إنه يعم بالبر جميع أهله فليس يعتب عليه أحد منهم ، أو يقوم بجميع ما يحتاج إليه أبوه فلا يعتب عليه فى شىء » .

* وفى الصّدر حَزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[(١)] *

٢ ـ لنا جانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وجانِبٌ إذَا رَامَهُ الأَعداء مُمْتَنِع صَعْبُ

خاطَب فى الأوّل ثم عَدَلَ فى الثانى إلى الإخبار ، وهذا عادتُهم إذا افتنُّوا فى كلامهم ، نظموا أو نثروا ، لِمَا فى التحوّل من سهولةِ تجاوبِ الألفاظ ، وتلاؤُمِ طرائق النظام . فيقول : لنا مِن هذا الولد خُلُق سَجِيح ، ومذهبٌ فى البِرّ فسيح ، فهو هَيِّنٌ لَيِّنٌ معنا ، وللأعداء منه إذا طلبوه أو جرّبوه جانبٌ خشِنٌ مِدْفَعٌ ، وطريق صعب مُتْلِفٌ ، وخُلُق وعْرٌ شَرِسٌ . ولم يقل وللأعداء جانب ولكنْ عَطَفَ الثانىَ على الأوّل ، بمعنى أنّ أحدهُما لاجتذاب الخير ، والآخر لدِفاع الشرّ . فكأنّ التقدير : ولنا منه جانب مُعَدٌّ للأعداء ذلك صفتُه ، فصار الجانبان لهم فى اللفظ ، والقسمةُ ثابتة فى المعنى . والدَّماثة : سهولة الخُلُق ولينُ الجانب . ويروى « ممتنِعٌ صَعْبُ » ، و « مَتْلَفَةٌ صَعْبُ » ، والمعنى ظاهر .

٣ ـ وتأخُذُه عند المكارِمِ هِزَّةٌ كما اهتَزَّ تحت البارحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ

البارحُ : ريحٌ حارةٌ تجىء من قِبَل اليمن . فيقول : تملّكه عند اكتساب المكارم أريحيّة يهتزّ عندها اهتزازَ الغُصْن الرَّطب ، الذى جرى الماء فيه ، إذا هبّت عليه البارح . و « كما اهتزّ » أراد كاهتزاز . وقوله « تحت البارح » حسَنٌ جدًّا ، لأنّ الريح تعلو الغُصُونَ فى مرورها . وقد نسبوا البارحَ إلى النجوم إذا ذكروا الأنواء . قال :

أيا بارحَ الجوزاءِ ما لَكَ لا تَرَى عِيَالَكَ قد أمسوا مَرَامِيلَ جُوَّعا[(٢)]

(١) صدره فى ديوان الشماخ ٤٩ واللسان (حزز ، حمز) :
* فلما شراها فاضت العينُ عبرة *
(٢) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى (١ : ٢١٦) ومجالس ثعلب ٤٩٠ .

هذا يقولُه بعض المتلصِّصة . وعِيالُها : السُّرّاقُ ، وذلك أنّ البارِح تَحمِل الغُبار وتَدْرُس الآثار ، فتَجْسُر المتلصِّصة على السَّعى ، وتُمكِنُهم السرقة .

٧٧

وقال آخر(١) :

١ ــ وفارقْتُ حتَّى ما أُبالى مِنَ النَّوَى وإنْ بَانَ جِيرَانٌ علَيَّ كِرامُ(٢)

يُروى : « مَنِ انْتَوى » وهو افتَعَل من النَّوى ، وهى الوِجهة المنويّة للقوم ، أو البُعْد . يقول : ألِفْتُ مفارقة الوَطَنِ والإخوانِ شيئاً بعد شىء ، واعتدتُ التّباعُدَ عنهم يَوْماً بعد يوم ، حتَّى لا أبالى مَن انتوى منهم أو نأى ، وإنْ كَرُموا علَيّ عند المجاورة . ومن روى : « لا أُبَالِى من النَّوَى(٣) » فمعناه لا أحتفل به ، والأوّل أحسن . فإن قيل : كيف تعلّقَ « حتى » بفارقْتُ ؟ وما معناه ؟ قلتَ : أراد تكرَّرَت المفارقةُ علَيّ وقتاً بعد وقْتٍ ، وحالاً بعد حَالٍ ، إلى أن صِرْتُ لا أبالى بالفِراق . فمعنى حتَّى : إلى أنْ . وقوله «فَارَقْتُ» مُسْتصلَحٌ للقليل والكثير فانصرَف إلى الكثير ، بدَلالة أنَّ المتمرِّن بالبلاء قديماً ، والمتحكِّك به كثيرا ، هو الذى يستهين به كثيراً ، دون من مَارَسَهُ يسيرا ، وعالَجه حديثا .

٢ ــ فقد جَعَلَتْ نفسِى هى النَّأْيِ تَنطوى وعيْنِى على فَقْدِ الصديقِ تَنامُ

جعلَتْ نفسى ، بمعنى طَفِقَتْ وأقبلَتْ ، ولذلك لا يتعدّى . فيقول : أخذَتْ نفسى تَصبرُ على النأْى ، وتنطوى على الفِراق ، فلا يظهر منها جزَعٌ ، ولا تبوحُ بشَكْوٍ ، وعينى تنام على فقد الصديق منهم فلا تسهر ، ولا تبكى

(١) التبريزى : « وذكر أنه لعبد الصمد بن المعذل ، وقيل للحسين بن مطير » .
(٢) التبريزى « ويروى : وفارقت حتى ما أحن من النوى » .
(٣) كذا فى النسختين مع اتفاقهما فى صلب البيت أنه « ما أبالى » .

فتذرِف . وهكذا النفسُ إذا وُطِّنَتْ على الشدائد ، وتمرَّنَتْ بالمصائب . وقوله « تَنطوى » أَصْلُ الطَّيِّ الثَّنْى والقَبْضُ ، ومنه الطاوى والطَّيَّان .

٧٨

وقال آخر (١) :

١ — رُوِّعْتُ بالبَيْنِ حتَّى ما أُرَاعُ له وبالمصـــائبِ فى أهلِى وجيرانى

يقول : فُزِّعْتُ بالفِراق مرَّةً بعد أخرى ، وثانيةً بعد أُولى ، حتى صِرْتُ لا أرتاعُ له ، وواظبَتِ المصائبُ علىّ واتَّصَلَتْ فى الأَهْلِ تارةً ، والإخوان أخرى ، حتى صارت الرَّزايا بالإلْف كأنها مرازِئُ وعطايا . والـكلام فى حتَّى واتصالِه ومعناه على ما تقدّم .

٢ — لم يَترُكِ الدهرُ لى عِلقًا أَضَنُّ به إلا اصـــطفاهُ بِنَأْيٍ أو بهِجْرانِ

يقول : لم أدَّخِرْ لنفسى عِلْقًا نافَسْتُ فيه إلا زاحمنى الدهرُ عليه فاستأثر به ، إما بإيقاعِ بُعدٍ بيننا ، أو إحداثِ هِجرانٍ توسَّطَنا . وأصـلُ العِلْق : المـال الـكريم ، وجمعه أَعْلَاقٌ وعُلُوقٌ . واستِعَارهُ هاهنا .

٧٩

وقال طُفيلُ الغَنَوِىُّ (٢) :

١ـ وما أنا بِالمستَنْـكِرِ البَيْنَ إنَّنى بِذِى لَطَفِ الجِيرانِ قِدْمًا مُفَجَّعُ

(١) التبريزى : «قال أبو العلاء : هذا يروى لمؤرج السدوسى ، وكان مؤرج يكنى أبا قيد » .

(٢) هو طفيل بن عوف ، أو هو طفيل بن كعب الغنوى . كان من أوصف الناس الخيل وكان يقال له فى الجاهلية المحبر ، لحسن شعره . وطفيل شاعر جاهلى فحل كان أكبر من النابغة وليس فى قيس فحل أقدم منه . الأغانى (١٤ : ٨٥ — ٨٧) والخزانة (٣ : ٦٤٢ — ٦٤٣) والعينى (٣ : ٢٤ — ٣١) والاشتقاق ١٦٥ والمؤتلف ١٤٧ ، ١٨٤ والاقتضاب ٣٢٧ والشعر والشعراء ٤٢٢ .

يقال : نَــكِرَ وأنكَرَ واستنكرَ بمعنًى واحدٍ . فيقول : أنِسْتُ بفراقِ الأحبّة بعد نَفْرَتِي[1] ، وببُعْد ذوى اللَّطَفِ عَقْبَ[2] قَلَقِى ، وذلك لأنِّى فُجِّعْتُ بالخلطاءِ والجيران قديماً ، حتَّى صار كالعادة المألوفة . وقوله « بذى لَطَفِ الجيران » أراد بلطيف الجيران ، أى باللطيف منهم . وقِدْمًا ظرف للمُفَجَّع .

٢ ــ جَدِيرٌ بهم من كل حيٍّ صَحِبْتُهُمْ إذا أَنَسٌ عَزُّوا علىَّ تَصَدَّعُوا

يقول : أنا خَليقٌ بالبَيْن من كلِّ حيٍّ أجاورُهم إذا استَوْقَفْتُ قُرْبَهُمَ ، واستحليت السُّكُونَ معهم ، حتَّى لا يَعِزُّ علىَّ أُنَاسٌ إلاَّ تفرّقوا عن كَثَبٍ . والانَسُ : الطَّائفة من النّاس . يقال : رأيت معه أَنَسًا كثيراً ، أى نَاساً . تَصَدَّعوا : تفرَّقوا . ومنه يقال تصدَّعتِ الأرضُ بفُلانٍ ، إذا تَغَيَّبَ هَارِباً .

٨٠

وقال الرَّاعِى[3] :

١ ــ وَقَدْ قادَنِى الجيرانُ حِيناً وقُدتُهُمْ وفَارَقْتُ حَتَّى ما تَحِنُّ جِمَالِيا[4]

يقول : جَذَبنى الخلَطَاءُ زماناً وجذَبتُهم ، حتى كُنتُ فى حُــكْمِ من لا يَصبِرُ عنهم ، ولا ينفَكُّ منهم ، كالقائد للشَّىء وهو مقودٌ لهُ ، لأنّ من كان هذه صِفَتَه مع شىءٍ فهو يلزمُه ولا يفارِقُه . والآن فارقْتُهم فلا أَحِنُّ إليهم ، ولا أنْزِعُ نحوهم .

(١) م : « نفرى » .

(٢) كذا بسكون القاف فى النسختين ، وهى لغة صحيحة .

(٣) الراعى لقب له ، واسمه عبيد بن حصين بن معاوية ، أو حصين بن معاوية النمرى . وإنما قيــل له الراعى لأنه كان يصف الإبل فى شعره . وهجاه جرير لأنه كان اتهمه بالميل إلى الفرزدق . الأغانى (٢٠ : ١٦٨ – ١٧٣) والمؤتلف ١٢٢ والخزانة (١ : ٥٠٢ – ٥٠٤) والاشتقاق ١٧٩ والنقائض فى مواضع كثيرة . والشعر والشعراء ٣٧٧ – ٣٨١ .

(٤) البيتان فى معجم البلدان (وهبين) .

ونَسَبَ الحنينَ إلى جِمالِه وإن كان المُرادُ النَّفس ، لأنَّها فى الحنين أقلُّ صَبْرًا حتَّى ربما تَهِيم على وجوهها ، وتَنِدُّ عنْ صواحبِها ، طَلَبًا للإلْف ، وجَرْيًا مع الْهَوى . وعلى هذا قال مَن قال فى مخاطَبة راحلتِه وقد رآها :

فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولكنْ أصحبَتْ عَنْهم قَرُونِى(١)

٢ ـ رجاؤُكَ أَنْسانِى تَذَكُّرَ إِخْوَتِى ومَالُكَ أَنْسانِى بِوَهْبِينَ مالِيَا

يقولُ : أمَلِى فيك أنسانى الفكر فى إخوتى وأهل بيتى ، وطمعى فى مالك أنسانى مالى بوَهْبِينَ . وهذا قاله لأنّه يُرى أنّ رجاءه فيه لتَحَقُّقِه صار مؤثِّرًا على ذِكر وطنه وعشيرته ، وأنَّ ما طَمِع فيه من مالِه لمَّا كان أكثرَ مِمَّا ملكه بوهبين صار مُنْسِيًا له .

* * *

وهذه المقطوعات بما اشتملت عليه من الفظاظة والقَسوة ، وذِكر قلّة الفِكر فى الأوطان والأحبَّة ، وتناسِى العُهود والأذِمَّة ، ومفارقة الأماكن المألوفة . والحِلَلِ المورودة ، وشَكْوى النّفس إلى التنائى والغُرْبَةِ ، دَخَلَتْ فى باب الحماسة . وبمِثْلِ هذه المناسبة دخل فيه كثير من نظائرها . وسَنَدُلّ عليها إذا انتهينا إليها .

٨١

وقال آخر :

١ ـ وإنّا لتُصْبَحُ أَسْيافُنا إذا ما اصْطَبَحْنَ بيَوْمٍ سَفُوكِ

يرْوَى « تُصْبَحُ » بفتح الباء على ما لم يسمَّ فاعله ، فيكون المعنى : إنَّا لَتُسْقَى أسيافنا الصَّبُوحَ بيوم سَفُوكٍ إذا ما اصْطَبَحْن . ومن روى « لَتُصْبِحُ » بكسر الباء فخبَرُ تُصْبِحُ فى البيت الثانى ، وهو « منابرُهُنَّ بُطون الأكُفِّ » . والمعنى : إنّا لتصير أسيافنا إذا شَربَتِ الصّبوح فى يوم سَفُوكٍ للدماء بهذه الحالة .

(١) فى اللسان (قرن) : « أسمحت عنهم قرونى » . والبيت لرجل من بنى كليب . انظر ص ٢٩٥ .

ونسْبَةُ السَّفْكِ إلى اليَوْمِ مَجازٌ لَمَّا كان يقعُ فيه ، فهو كقولهم : نَهارُهُ صائمٌ .

٢ ــ مَنَابِرُهُنَّ بُطُونُ الأَكُفِّ وأغْمادُهُنَّ رءوسُ المُلُوكِ

أراد أنها تُنْتَضَى فتَخْطُبُ واعظةً للأعداءِ زاجرةً ، ومُنْذِرةً للكُماةِ محذِّرَةً ، لكنّ منابرَهُنَّ أكُفُّ الضاربين ، وأغمادها إذا أُغمِدت رءوس المُلوكِ المعظَّمين . وهم يتبجَّحون بقتل الملوك وقِتالها . ويقرُبُ من هذا قولُه :

* يكونُ جَفِيرَها البَطَلُ النَّجيدُ *

وقوله :

من عَهْدِ عادٍ كان معروفاً لنا أَسْرُ الملوكِ وقتْلُها وقِتالُها

والمنابرُ : مواضِعُ النَّبْرِ ، وهو الصوت ، لأنها نُصِبت للخطب والمواعظ والتحميدات .

٨٢

١ ــ لا يَمنعَنَّكَ خَفْضَ العيْشِ فى دَعَةٍ نِزَاعُ نَفْسٍ إلَى أَهْلٍ وأَوْطانِ(١)

يقول : لا يُزَهِّدَنَّكَ اشتياقُكَ إلى السَّكْنِ ، وحنينُك إلى الوَطن ، فى إيثار سَعَةِ العيش ورَغدِهِ مع الرّاحة والسُّكون . ويُرْوَى : « نُزُوعُ نَفْسٍ » والنزوع اشتهارُه فى الكَفِّ عن الشيء ، والنِّزاعُ فى الشوق ، وإن كان جائزاً وقوعُ أحدِها موقعَ الآخر فى التشوُّف . ويقال ناقةٌ منازِعُ ونَزُوعٌ . وقد أَنزَعوا ، إذا حَنَّتْ إبلُهم . والنَّزْعُ : الجَذْب ، ويقال : خَرَجَ نازعَ يَدٍ ، إذا خرَج عن الطاعةِ .

٢ ــ تَلْقَى بكُلِّ بِلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها أَهْلاً بأَهْلٍ وجيرَانًا بجيرَانِ

(١) جعل التبريزى الرواية الأولى : « نزوع نفس » ، ثم نبة على رواية « نزاع » .

هذا تسليةٌ للنفس عن الأهل . يقول : تجدُ بكلّ بلد تنزلُ به أهلاً بدلاً من أهلِك ، وجيراناً بدلا من جيرانِك . والعربُ تقولُ : هذا بذاكَ ، أى هو عِوَضٌ منه . وإنما ضَمَّنَ أبو تمَّام هذه الأبياتَ بابَ الحماسة ، لما قدَّمتُه من أنها صادرةٌ عن قَسْوةٍ شديدةٍ ، وقلّةِ فِكرٍ فى التحوُّل عن الإلْف والعادة ، ولإنّ تَرْكَ الوطن والإخلال بالعشيرة يُضَمُّ إلى القتلِ وتلف النفس ، فالصبر عليه كالصبر على القتل . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ ولَوْ أنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اُقْتُلُوا أنفسَكم أَوِ اُخرُجوا من ديارِكم ما فعَلُوه إلاّ قليلٌ مِنْهم ﴾ .

٨٣

وقال بعض بنى أَسَدٍ[1] :

١ — إلاّ أَكُنْ مِمّنْ عَلِمْتِ فإنّنى إلَى نَسَبٍ مِمّنْ جَهِلْتِ كَرِيمِ

يقول : إن لم أكُن ممن عرَفْتهم بالشرف ، فإنى أنتمى إلى شرَفٍ كريم ممن جهِلْتِهم . كأنه يريد : ليس الاعتبارُ بما تَعُدِّينه شرَفاً أو تعرفِينَه نَسَبًا ، لكنَّ الاعتبار بحصول الكَرَمِ على أىّ وَجْهٍ حصَل ، وحَوْزِ المَجْد وإنْ جَهِلَه من جَهِل . وقولُه « إلَى نَسَبٍ » يَتعلقُ بفعل مضمَرٍ ، كأنه قال : فإننى أنتمِى إلَى نسبٍ .

٢ — وإلاّ أكُن كلَّ الجوَادِ فإنّنى عَلَى الزَّادِ فى الظَّلماءِ غيْرُ شَتيمِ

يقولُ : إن لم أكُن النهايةَ فى الجودِ فإنى لا أُشْتَمُ بسبب الزاد فى الليلة المظلمة ، فلا أُذَمُّ لصَرْفى الضيف عن نفسى بالعِلل الكاذبة فى الشَّتْوةِ القَحِطة . وقد اشتَمَل قولُه « على الزادِ فى الظَّلماءِ » على ما بَيَّنّا وأكثرَ منه . وهذا الذى خبَّرَ

(١) التبريزى : « قيل لعبد العزيز بن زرارة » .

به عن نفسه هو الجُودُ ، لكنه أراد أن يُرِيَ من نفسه تَرْكَ ادّعاء النِّهايات ، والأخذِ بالاقتصاد فى الحالات ، وإن كان تناهَى من حيث اقتصَدَ . ويقال زَيْدٌ الشُّجاع كلُّ الشجاع ، والمعنى أنه الكاملُ فى معناه . ومن هذا الباب قوله عزّ وجلّ : ﴿ وإنّا أو إيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أو فى ضَلَالٍ ﴾ . وهذا كلامُ من نظر لنفسه وغَيْرِهِ ، وتبيَّن ما عليه وله ، فأثبَتَ ما أثبتَ فى أحسن مِعْرَضٍ ، ودفع ما دَفع بألطفِ تعريضٍ . وتعلّق على من قوله : « على الزاد » بشتيم وإن كان مضافاً إليه ، لأنه أُجْرِىَ غير مَجْرَى لا ، لأنهما للنَّفْى ، فحُمِل الكلام على المَعْنى فكأنه قال : إنَّنى على الزادِ لا أشتِمُ . ونزيد هذا شرحًا فيما بَعدَه .

٢ — وإلاّ أكُنْ كلَّ الشُّجاعِ فإنّنى بضَرْبِ الطُّلى والهامِ حَقٌّ عَلِيمِ

هذا كالبيت الذى قبله . يقول : إن لم أكُنِ النِّهاية فى الشَّجاعة ، والمعنى إن لم يكن فِعلِى النهاية فيما يفعلُه الشجاع ، فإننى عالمٌ حقًّا بضرْب الرءوس والطُّلَى . والمتناهِى فى الشجاعة لا يَتعدَّى فعلُه هذا ، لكنَّه سَلَكَ طريقته فيما قَبْلَهُ . الطُّلَى : الأعناق وأعراضها ، والواحدةُ طُلْيَةٌ . والباء من قوله « بضَرْب الطُّلَى » تعلّق بقوله عليم .

فإن قيل : كيف سَاغَ ذلك والمُضاف إليه لا يعمل فيما قَبْلَ المضاف ؟ قُلْتَ : لمّا كان قولُه « حَقٌّ عَلِيم » لا زيادةَ فيه إلا التوكيد لم يُعْتَدَّ بالمضاف ، فحُمِل الكلام على المعنَى لا على اللّفظ ، فكأنَّهُ قال : إنّنى بضَرب الطُّلَى عليمٌ جدّا . ويجرى هذا المَجْرَى إجازتُهم لقول القائل أنتَ زَيدًا غير ضاربٍ ، مع امتناعهم من إجازة أنت زَيدًا مثْلُ ضاربٍ ، لما كانت مَعْنَى غَيْرٍ معنى لا ، فَحُمِلَ الكلام على المعنى لا على اللفظ ، حتَّى كأنه قيل : أنْتَ زَيْدًا لا ضَارِبٌ . فاعلمه ، وبالله التوفيق .

٨٤

وقال عَمْرو بن شَأْس [1] :

١ — أَرَادَتْ عِرَارًا بالهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ ... عِرَارًا لَعَمْرِى بالهَوَانِ فقد ظَلَمْ

المُضْمَرَةُ فى أرادت رابَّةُ عِرَارٍ، فقال والدُهُ عَمْرٌو: أرادت امرأتى إهانةَ عِرَارٍ والاستخفافَ به، ومن يطلبْ ذلك فى مثلِهِ فقد وضعَ الشىءَ فى غير موضِعِه. فإن قيل: هل تَفْصِلُ بين قولِه أرادت عِرَاراً بالهوان وبين قوله لو قال أهانت عراراً؟ قلتَ: بَلَى، لأنَّ معنى أرادتْهُ بالهوان أرادت كونَهُ لها وصحبتَه إياها باستعمال الهوانِ معه، فيجوز أن يكون الهوانُ واقعاً، ويجوز أن يكون غيرَ واقعٍ. ومعنى أهانَتْه: ابتذلَتْهُ وأذَلَّته. فهو إخْبارٌ لوقوع الفعل به فيما مضى. ويجوز أن يكون معنَى ظَلَمَ: تَحَيَّفَ حَقَّهُ وبَخَسَهُ.

٢ — فإنْ كُنْتِ مِنِّى أو تُرِيدِينَ صُحْبَتِى ... فكُونِى له كالسَّمْنِ رُبَّتْ لهُ الأَدَمْ

نَقَلَ الكلامَ عن الإخْبارِ إلى الخطاب، على عَادَةِ تفَنُّنِهم. يقول: إنْ كُنْتِ تَهْوَيْنَ هوَاىَ، أو تُرِيدِينَ الكَوْنَ مَعِى ومصاحبتى، وإن انْطَوَيْتِ فى حُبِّه على مُخالَفَتِى، فكُونِى له فى تَصَنُّعِكِ كأنكِ موافقةُ الظّاهِرِ للباطنِ، جاريَةٌ معَهُ على الحَدِّ الواحد من حُسْنِ العِشْرَةِ، وإظهارِ المَيل والمَوَدّة. والسَّمْنُ

---

(١) عمرو بن شأن الأسدى، قال الجمحى: «كثير الشعر فى الجاهلة والإسلام، وهو أكثر طبقته شعراً». وأسلم فى صدر الإســلام وشهد القادسية. وقال ابن قتيبة: «وهو أبو عرار، وفيه يقول عمرو لامرأته». وأنشد الأبيات. الشعر والشعراء ٣٨٩ والجمحى ٤٦ — ٤٧ والمرزبانى ٢١٢ — ٢١٣ واللآلئ ٧٥٠ — ٧٥١ والأغانى (١٠ : ٦٠ — ٦٣). وقال التبريزى: «هو مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير، وكانت له امرأة من قومه وابن من أمة سوداء يقال له عرار، فكانت تعيره إياه وتؤذيه ويؤذيها، فأنكر عمرو أذاها له».

إذا رُبَّ نحيُهُ لم يتغير . يريد فلا تتعيّرى أنتِ أيضاً . ومعنى رُيِّتْ له أى من أجْلِه ، والأَدَمُ : جمعٌ ، يقالُ أديمٌ وأدَمٌ . وله نظائرُ قليلة : إهَابٌ وأَهَبٌ ، وأفيقٌ وأَفَقٌ ، وعَمُودٌ وعَمَدٌ .

٣– وإن كُنْتِ تَهْوَيْنَ الفِراقَ ظَعِينَتِى فَكُونِى له كالذِّئبِ ضاعتْ لهُ الغَنَمْ

يقول : وإن كنتِ تُؤْثرين مفارقتى وتميلين إلى التّباين عنِّى فأسِيئى عِشْرتَه وكونى له كالذِّئب ضاعتِ الغنم من أجل وُقوعه فيها . والمعنى عاشِرِيه عِشْرَتَهُ لها . ويجوز أن يريد بقوله « ضاعت له الغنم » فاتَتْه الغنم بعد أن أمكَنَتْه . والسَّبُعُ إذا شارفَ فريسته ثم فَاتَهُ كان ذلك مُهَيِّجًا له ، وداعِياً إلى الفساد فيما يُمكنه[1] .

٤– وإلاّ فَسِيرِى مِثْلَ ماسَارَ راكِبٌ تَجَشَّمَ خِمْسًا ليس فى سَيْرِهِ أَمَمْ

هذا كما يقال على طريق الوعيد أو إظهار الزُّهْد لمن يُؤْمَرُ شيئا : اعْمَل كذا وكذا وإلاّ فَدَعْهُما ولا تَعْمَل أحدَهُما فلا حاجةَ لنا فيه . يقول : وإلاّ فلا تُحْسِنِى إليه وفارقينى مِن وقتِك . وهذا إظْهَارٌ لزهده فيها ، واطّراح تَكَلُّفِ الاشتراطات مَعَها . ثم قال : ليكن سَيْرُكِ سَيْرَ الرّاكِبِ تكلَّفَ وُرودَ الماء لِخِمسٍ ، وليس فى سَيْرِهِ قَصْدٌ ولا قُرْبٌ . وقوله « مِثْلَ ما سار راكِبٌ » أى سَيْرًا يُشابه سَيْرَهُ . وقوله «تَجَشَّم » من صِفَةِ راكب . والأَمَمُ : القربُ ، ويقال أَمْرِى من أمرِكُمْ أَمَمٌ . ويُروَى : « ليس فى سيره يَتَمْ » أى إبطاء[2] .

٥– فإنّ عِرَارًان يَكُنْ ذَا شَكِيمَةٍ تُلاَقِينها منه فما أَمْلِكُ الشِّيَمْ

يقول : إنّ عِرَاراً إنْ يكن ذا سوء خُلُقٍ تُمْنَيْنَ به وتَشْقَيْنَ بمقاساته ، فإنى

(١) زاد التبريزى : « وهذا تهدد منه لها ، وليس هو على حقيقة الأمر » .

لا أملِكُ تغيير الطبائع والخلائق . وكأنّه جوابٌ لاعتذارها مِن قلّة الملاءمة بينهما . والشّكيمةُ : الحدُّ والشِّدّة . ويقال : إنّه لشديدُ الشّكيمة ، أي شديد العارضة . ويجوز أن يكون شكيمةُ اللّجام — وهي الحديدة المعترِضة منه في الفم — مأخوذاً منه ، والجميع الشكائم .

٦ — وإنّ عِرارًا إنْ يكُنْ غيرَ واضحٍ فإنّي أُحِبُّ الجَوْنَ ذَا المَنكِبِ العَمَمْ

يقول : وإنّ وَلَدِي عِراراً إن لم يكن وَضيء الوجه ممسوحًا بالجمال ، فإنّي أحبُّه على سوادِه وتمام خَلْقِه . وهذا كأنه إسقاطٌ لقول من يُزَيّفُ ابنَه ويُعَيِّرُه القُبحَ والدّمامةَ . وكان عِرارٌ هذا أحَدَ الفُضَلاء ، وتوجَّه عن المُهلّب بن أبي صُفْرة إلى الحجّاج رسولاً في بَعض فُتوحه ، فلما مَثَل بين يَدَى الحجّاج لم يعرفْه ، وازدراه ، فلما استَنطقه أبانَ وأعرَبَ ما شاء ، وبلغ الغاية والمرادَ في كلّ ما سأَل ، فأنشدَ الحجّاجُ : « أرادت عِراراً بالهَوَان ... » . الأبياتَ متمثّلاً ، فقال عِرارٌ : أنا أيّدَ الله الأميرَ عِرارٌ ! فأُعجِبَ به وبذلك الاتفاق . وفي هذه الطريقة قول المأمون لإبراهيم بن المَهدِيّ :

إن يكن للسَّوادِ فيك نَصِيبٌ فبَيَاضُ الأخلاقِ منك نَصِيبي

والعميمُ والعَمَمُ : الطويل التامّ من كلّ شيء . والجون الأسود هاهنا ، ويُجْعَل من الأضداد .

٨٥

وقال آخر(١) :

١ — لولاَ أُمَيْمةُ لم أَجْزَعْ من العَدَمِ ولم أُقاسِ الدُّجَى في حِنْدِسِ الظلَمِ

(١) التبريزي : « وهو إسحاق بن خلف » .

يُرْوَى : « ولم أَجُبْ فى الليالى حِنْدِسَ الظُّلَمِ » . والمبتدأ بعد لولا يُحذَفُ خَبَرُه أبداً ، ويُستغنَى بجواب لَوْلاَ عنه . والتقدير : لولا أُمَيْمةُ مانعةٌ لم أَجْزَع . فيقولُ : لولا ابنتى أميمة لم أَخَفِ الفقر ولم أَرْحَلْ فى طَلَب المال ، ولم أركب الليل ، فكنت أجوبُ ظَلْماءه ، وأُكابدُ أهوالَه . والحِنْدِس : شدة الظُّلمة ، وقد اشْتُقّ منه الفعل ، فقيل : حَنْدَسَ الليلُ فهو مُحَنْدِسٌ[1] . ومعنى لم أجُبْ : لم أَقطع . وقاطِع المواضع المُظْلِمة كأنه قاطعٌ للظُّلْمة . ومن رَوَى « ولم أُقاسِ الدُّجى » يريدُ أهوالَها . وإضافة الحِنْدِس إلى الظُّلَم كإضافة البعض إلى الكلّ ، أى فى الشَّديد من الظُّلَم . ويقال تَحَنْدَس الرَّجُل[2] ، إذا ضَعُف وسَقَط .

٢ — وزادنى رَغْبَةً فى الْعيْشِ مَعْرِفَتى ذُلَّ الْيَتيمةِ يَجْفُوها ذَوُو الرَّحِمِ

يقول : زادنى حِرْصًا على الدُّنيا ورَغْبةً فى العَيْشِ فيها ، عِلْمِى بذلِّ اليتيمة وقد جَفاها أقاربُها ، وأَطَّرَحها أَهْلوها . وموضع « يَجْفُوها » من الإعراب نَصْبٌ على الحال لليتيمة ، والعامِلُ فيه ذُلّ اليتيمة . والتقدير : زادنى مَعرفتى بذُلّ اليتيمة إذا جَفاها ذَوُوها رَغْبَةً فى العَيْش ومُهْلَةَ العُمْر .

٣ — أُحاذِرُ الفَقْرَ يَوْمًا أن يُلِمَّ بها فَيَهْتِكَ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ

قوله « أن يُلِمّ بها » موضعُهُ نَصْبٌ على البَدَل من الفقر . والمعنى : أُحاذِر إلمامَ الفَقْرِ بها فيَكْشِفَ السِّتْرَ عَمّن لا دِفاعَ به ، فتناوَلَهُ من شاء بما شاء . والعربُ تقولُ : « النِّساء لَحْمٌ على وَضَمٍ إلا ما ذُبَّ عَنْهُ » . والوَضَمُ : خِوَانُ الجزّارِ والخبّاز ، ومَوضِعُه مِيضَمَةٌ ، والجميع المَوَاضِم .

٤ — تَهْوَى حياتى وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا والمَوْتُ أَكْرَمُ نَزّالٍ على الحُرَمِ

(١) هذا الفعل ومشتقه مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .
(٢) ورد فى القاموس ، ولم يرد فى اللسان .

يقول : تحبّ ابنتى بقائى لها ، وأنا أودُّ مَوتَها إشفاقاً عليها ، وخوفاً من ابتذالٍ يَلْحَقُها ، وابتلاء بمن لا يَعرفُ لها ما يُعرَفُ لمثلها ، ثم قال : والموتُ أكْرم نَزّالٍ على الحُرَم ، كما قيل : « نِعمَ الخَتَنُ القَبْرُ » و « دَفْنُ البناتِ من المكرُمَات » . وانتصب شَفَقًا على أنه مفعولٌ له .

٥ – أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جَفَاءَ أخٍ وكُنْتُ أُبْقِي عَلَيهَا مِنأَذَى الكَلِمِ

هذا تفسير قوله « أهْوَى مَوْتَها شَفَقًا » يريد : أُشْفِقُ من مغالَظَةِ عَمٍّ لها ، أو جَفْوَةِ أَخٍ تَلْحَقُها ، وأنا كنت[1] أُبْقِى عليها من إيذائها بالكَلِم فَضْلاً عن غَيْرِها من الأفعال . يقال : رَجُلٌ فَظٌّ ، إذا كان قاسِيَ القَلْب غليظَ القول . والكَلِمُ : جمع كلمةٍ . ومعنى : « أذَى الكَلِم » الأذَى الذى يَلحقُ من الكَلِم .

وهذه الأبيات مع ما يشبهها لمّا ضادّت ما قبلها فى تضمُّنها رِقة القَلْب ، والتعطُّفَ على الوَلَدِ والأَهْلِ ، أتْبَعَها بها . وكلٌّ ذلك كالعارِض ثم يَعُود إلى ما بنى عليه الباب . وهذا عادةُ أبى تمام فى أبواب هذا الاختيار . ويشبهها قول الآخر[2] :

لَقَدْ زَادَ الحياةَ إلىَّ حُبًّا بَنَاتِى إنَّهُنَّ من الضِّعَافِ
أُحاذِر أن يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِى وأن يَشْرَبْنَ رَنْقاً بعد صافٍ[3]
وأنْ يَعْرَيْنَ إن كُسِىَ الجَوَارِى فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ

(١) م : « وإنما كنت » .
(٢) هو أبو خالد القنانى ، كما فى الكامل ٥٢٩ ليبسك واللسان (كرم) .
(٣) الكامل : « أن يرين الفقر » .

٨٦

وقال خَطَّابُ بن المعلَّى[1] :

١ ـ أنزَلَنِي الدَّهرُ على حُـكْمِهِ من شَامِـخٍ عَالٍ إلى خَفْضِ

يقول للدَّهْرِ حُـكْمٌ مَعْرُوفٌ ، وطَرِيقٌ مألوفٌ ، فى رَفْعِ الوضيع ، وحطِّ الرفيع ، فأَجْرَى حُـكْمَه عَلَىّ ، وأنزَلَنِي عن رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ إلى مَنْزِلَةٍ مُنْخَفِضَةٍ ، والخَفْضُ : ضِدُّ الرَّفْع ، وهو مَصْدَرٌ وُضِـع موضِـعَ المفعول . يريدُ إلى مكان منخفض .

٢ ـ وغَالَنِي الدَّهرُ بوَفْرِ الغِنَى فَلَيْسَ لِى مَالٌ سِوَى عِرْضِى

يُرْوَى : عالَنِي « ومعناه غلبنى ، ويروى : « غالنى » ومعناه أهلكنى بارتجاع عَوَارِيِّه من المال ، واستلابِ ما كنتُ وُفِرْتُ[2] به من العَتَادِ ، فمالى مَالٌ سِوَى نَفْسى ، وليس النَّفْسِ من المال فى شىء . ومَوْضِـعُ « سوى » نَصْبٌ على أنه استثناء خارجٌ ، وهذا الاستثناء يتأكّد به انتفاء الغِنَى . ومثله قوله :

ولا عَيبَ فيهم غَيْرَ أنَّ سُيُوفهم بِهِنّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الـكَتَائِبِ[3]

ويجوزأن يكون المعنى:ليس لى غِنًى سوى غنى نَفْسِى، فحذَفَ المُضَافَ، والمعنى: إنّ نَفْسِى غَنِيّةٌ فلا تَطْمَعُ فى المـكاسِب الوضيعة ، ولا تتدنس بالمآكل الخبيثة . وقوله « بوفْرِ الغِنَى » أى بِسَلْبِ وَفْر الغِنَى ، فحذَفَ المُضَافَ . ويتعلّق الباء منه بقوله غَالَنِي . والوَفْرُ : كثرةُ المال ، وأضافَهُ إلى الغنى ، لأن المراد المال الذى يَحْصُلُ

(١) كذا باتفاق النسختين . التبريزى : « حِطان بن المعلى » وذكر عن اشتقاقه عن أبى العلاء : « حطان فعلان من الحط » .

(٢) م : « وقرت » بالقاف .

(٣) البيت للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٦ .

به الغِنَى . وهم يضيفون الشيء إلى الشيء لأدنى مناسبة بينهما ، سَوَاءٌ كان له أو عَلَيْه ، أو معه أو فيه ، أو من أجْلِهِ ، أو مما يليه . ويجوز أن يكون مَوْضِع « بوَفْر الغِنى » نَصْبًا على الحال للدَّهْر ، كما تقول : فاتنى فُلانٌ بكذا ، والمعنى فَاتَنِي مستصْحِبًا لَهُ . ومثله : جاء فى أَطْمارٍ ، أى لابِسًا لها . ويجوز أن يكون حملَ الكلام على المعْنى ، فَعَدَّى غَالَنِي تَعْدِيَةَ فَجَعَنِي ، لأنه فى معناه ، فكأنه قال : فَجَعَنِي بوفر الغِنى وأصابنى .

٣ ــ أبكانِيَ الدَّهْرُ وَيارُبَّمَا أَضْحَكَنِى الدَّهْرُ بما يُرْضِي

قولُه « بما يُرْضِي » يدُلُّ على أنه أضمَرَ مع قولهِ أبكانى الدهرَ شيئا يكونُ فى مقابَلتِهِ ، وحذف لأنّ المراد مفهومٌ . والمعنى أبكانى الدهرُ بما يُسْخِط . وقوله « يارُبَّمَا » المُنادَى فيه محذوف ، كأنه قال : يا قوم رُبَّما . وهذا النداء على وجْهِ التحسُّر والتوجع من معاملة الدهر وسوء تَنَقُّلِه . وقولُه « رُبَّما » « ما » هذه دخلتْ كافَّة لِرُبَّ عن العمل ، ومخرِجةً لها إلى أن تَصيرَ مشتركةً حتَّى جازَ وقوعُ أضحكنى بَعدُه . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الذين كَفَروا[1] ﴾ . ومعنى البيت : أبكانى الدهر بما أسخَطَنى ، ويا قَوْمِ ربما أضحكنى الدهرُ فيما مضى بما أرْضانى . وفى طريقتهِ قولُ الآخر[2] :

فإنْ تكُنِ الأيّامُ أحْسَنَّ مَرّةً إلىَّ فقد عادتْ لهُنَّ ذُنُوبُ

٤ ــ لولاَ بُنَيّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلَى بَعْضِ

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء فى ربما ، والباقون بتشديدها . إتحاف فضلاء البشر ٢٧٤ . وقد وردت فى النسختين بتشديد الباء . ومما يجدر ذكره أن « رب » لم تقع فى القرآن إلا فى هذه الآية من سورة الحجر على كثرة وقوعها فى لسان العرب . تفسير أبى حيان (٥ : ٤٤٢) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى . أمالى القالى (٢ : ١٤٩) .

بُنَيَّاتٌ في موضع المبتدأ ، وجاز الابتداء به لـكونه محدوداً[1] بما اتصل به من الصفات . وجوابُ لوْلا « لكان لى مُضطرَبٌ واسعٌ » وهو أول البيت الذى يليه ، واستغنى به عن خبر المبتدإ ، والتقدير : لولا بُنَيّاتٌ صفاتهنّ هذه مانعةٌ لى لفَعَلْت . ومعنى البيت : لولا بُنَيّاتٌ لى صغيراتٌ كفِراخ القَطَا التى عليها الزَّغَب — وهو الشَّعرُ اللّيِّن لصغرهنّ — اجتمعنَ لى فى مُدَّةٍ يسيرةٍ ، فمِنْ ثانيةٍ بعد أُولَى ، وواحدةٍ إلى جنب أُخرى فـكَثُرْنَ — لكان كذا . ومثله :

تَجَمَّعْنَ مِنْ شَتَّى ثَلاثًا وَأَرْبَعًا ووَاحدةً حتَّى اجتَمَعْنَ ثمانِيَا

أى جِئْن متواليات . ويُروى : « رَدَدْنَ مِن بعضٍ إلى بعضٍ » ، بفتح الراء من رَدَدْن وإضافة البعض ، والمعنى : قوّسْنَنِي وحَنَيْنَ ظهرى . ويجوز فى الرواية الأولى أن يكون المعنى أنّ هذه البنات زُوّجْن فرُدِدْنَ مع بناتٍ لهنّ صغار . ويقال : ابنتك مردودة ، أى مطلَّقةٌ . وإلى فى موضع مَعَ ، يقالُ هذا إلى ذلك أى معه . ويكون « من بَعضٍ إلى بَعضٍ » فى موضع الحال ، أى رُدِدْنَ مع غيرهن . وقد شَبَّهَ الحُطَيْئَةُ وغيرُه الأولادَ بزُغْبِ القَطَا ، فقال :

ماذا تقولُ لأفْرَاخٍ بذِى مَرَخٍ زُغْبِ الحَوَاصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

يجوز أن يُروَى « رُدِدْن » على ما لم يسمّ فاعله . و « من بعضٍ إلى بعضٍ » مُضافَيْن . والمعنى : كُنّ فى صُلْبى ، فلما وَلَدْتُهنّ صِرْنَ فى كَبِدِى فهى تحترق عليهنّ لفرط شفقتى .

٥ — لـكانَ لى مُضْطربٌ واسعٌ فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

المضطرَبُ يكون الاضطرابَ ، ويكون موضع الاضطراب . يقول : لوْلاَ خَوْفى من ضَياعِهِنّ وإبقائى عليهنّ ، لكان لى مَجَالٌ واسعٌ ، ومذهَبٌ فسيحٌ

(١) فى الأصل : « محذوفا » ، صوابه فى م والتبريزى .

فى الأرض الطويلة العريضة . وإنما تلوَّمْتُ ولزِمْتُ مكانى هذا لهنّ وبسببهنّ .

٦ – وإنما أَولادُنا بَيْنَنا أَكْبادُنا تمشِى عَلَى الأَرْضِ[1]

يقول : محلُّ أولادنا من أنفسنا فيما بيننا وإن كانت ماشيةً على الأرض محلُّ الأكباد من الأجواف . ويقال « الوَلَد فِلذَةٌ من الكبد » ، أى قِطعةٌ . وقولُه « تمشى على الأرض » فى موضع الحال للأولاد ، وبيننا ظَرْفٌ لتمشى . والتقدير : أولادُنا وهى ماشيةٌ على الأرض بيننا أكبادُنا . وقوله « إنما » يدخُل لتحقيق الشىء على وجْه مع نفى غيره عنه .

٨٧

وقال حيّان بن ربيعة[2] :

١ – لقد عَلِمَ القبائلُ أَنَّ قوْمى ذوُو جِدٍّ إذا لُبِسَ الحَديدُ[3]

يقول : شَهِدَتِ القبائلُ أَنَّ قومى يَجِدّون فى الحرب إذا تَدَجَّجَ أهْلُها فى الأسلحة ، ويُبْلُون فيها ولا يُقصِّرُون . و « إذا لُبِس الحديد » ظَرْفٌ لقوله « ذَوُو جِدٍّ » كأنه قال : إنهم يجتهدون فى ذلك الوقت . وأنّ قوْمى مع ما بَعدَه سَدَّ مَسَدَّ مفعولَىْ عَلِمَ .

(١) بعده عند التبريزى :

لو هبَّت الرِّيحُ على بعضهم لامتَنَعَتْ عَينِى مِن الغُمضِ

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هكذا قال أبو تمام . ونحن نقول : هو حيان بن عليق بن ربيعة الطائى ، أخو بنى أخزم ثم أحد بن عدى بن أخزم بن أبى أخزم بن عمرو بن ثعل . وفى نسخة أبى أحمد : جبار بن ربيمة ، وهو غلط ، وليس فيهم جبار بن ربيعة ، إنما هو جبار بن جزء بن ضرار ، ابن أخى الشماخ ، وجبار بن مالك بن حمار الشمخى من فزارة ، وجبار بن عمرو بن عميرة الطائى ، ويعرف بالأسد الرهيص . وأما جبار بن ربيعة فليس بمعروف ولا مذكور » .

(٣) التبريزى : « ويروى : ذوو حد . والحد : السلاح » .

٣ ـ وأَنَّا نِعْمَ أَحْلاسُ الْقَوافِي إذا اسْتَعَرَ التَّنافُرُ والنَّشِيدُ

يقول: ويشهدون أيضاً أنه نِعمْ أصحابُ القوافى وأربابُها نحن، إذا التهبَتْ نارُ التفاخُر والتناشُد والتحاكم. والحِلْس، أَصْلُهُ البَرْذَعَةُ وما يَلِى الظَّهْرَ تحت الرَّحْل، ثم يُستعمل على طريق التَّشبيه على وجهين: يقال فى الذَّمِّ: فُلانٌ كالحِلْسِ الْمُلْقَى، فيمن لا غَناء عنده ولا كفايَةَ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ. ويقال فيمن لَزِمَ ظهورَ الخَيْل: هم أَحْلاسُها؛ وهذا إذا مَدَحُوا بالفروسيّة. ثم قالوا: ما هذا من أحْلاسِ فُلانٍ، أى ليس من آلاتِه. وقد مَرّ بى أيضاً أنه يقال للكِفْل الذى ليس بفارِسٍ: هو كالحِلْس. وأحْلاسُ البيت: ما يُلْقَى تحت حُرِّ مَتَاعه:

٤ ـ وَأَنَّا نَضْرِبُ المَلْحَاءَ حَتَّى تُوَلِّيَ والسُّيُوفُ لنا شُهُودُ[1]

يقول: وشهدوا أيضاً أنا نُضارِبُ الكتيبةَ البيضاءَ لكثرة سلاحِها فنَغْلِبُهم حتى تُوَلِّيَ منهزمَةً، وسيوفُنا لها حاضِرةٌ نَكْتَسِحُهُم بها فى الهَرَب أيضاً، والمَلْحَاء من المَلَحِ، وهو البَيَاضُ. يقال: كَبْشٌ أَمْلَحُ. ويُرْوَى «نَضْرُبُ المَلْحَاءَ» بضمّ الراء. ويقال: ضاربْتُهُ فضَرَبْتُه أَضْرُبُهُ، أى غَلَبْتُه فى الضِّراب.

٨٨

وقال الأَعْرَجُ المَعْنِيُّ[2]:

١ ـ أَنا أَبُو بَرْزَةَ إِذْ جَدَّ الْوَهَلْ[3]

---

(١) م: «لها شهود».

(٢) التبريزى: «معنى طيئ». وقيل الصحيح أنها لعمرو بن يثربى». والأعرج المعنى هو عدى بن عمرو بن سويد بن ريان الأعرج الطائى المعنى، وقيل اسمه سويد بن عدى. وهو شاعر مخضرم. معجم المرزبانى ٢٥١.

(٣) التبريزى: «ويروى: أنا أبو بردة». وقد روى التبريزى الأشطار الخمسة الأولى بترتيبها هنا، ثم روى بعدها الشطر السابع ثم شطراً آخر لم يروه المرزوقى، وهو: =

٢ ـ خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ ولا وَكَلْ

يريد أنا الذى لِشهرَته تُغنى كُنيتُه عن صفاته وذكر أحْوَالِه ، وقت اشتداد الخَوْف . فإن قيل : ما العاملُ فى قوْلِه « إذْ جَدَّ » ؟ قُلْتَ : ما دلّ عليه قولُه أنا أبو بَرْزَةَ من المعنى الذى بَيَّنْتُه هو العامِلُ ــ ومثلُه :

* أنا أبو النَّجمِ وشِعرى شعرِى *

وقولُه « خُلِقْتُ غَيْرَ زُمَّلٍ » ، أى غير ضعيف ولا جَبَان يتّكل على غيره فيما يَنُوبُه . والزُّمَّل[1] والزُّمَّال والزُّمَّيْلة[2] : الضعيف . والوَكلُ : الذى يتّكلُ على غيره .

٣ ـ ذَا قُوَّةٍ وذا شَبَابٍ مُقْتَبَلْ

٤ ـ لا جَزَعَ الْيَوْمَ على قُرْبِ الأَجَلْ

٥ ـ المَوْتُ أَحْلَى عِنْدَنا من العَسَلْ

يقول : خُلِقْتُ قويًّا مُقْتَبَلَ الشباب ، لم تُبلِنى السِّنونَ ، ولم يُضْعِفنى ما مَسَّنِى من النّوائب والهموم . فإن قيل : ما الزِّيادة فى قوله « ذا قُوَّةٍ » على قوله « غير زُمَّل » ؟ قلتَ : يجوز أن يكون ذا قوة مصروفًا إلى الرّأى ، وغير زُمَّل مصروفًا إلى البِنْيَةِ . ويجوز أن يكون المراد بذا قوةٍ الجَلادَة ، لأنّه ليس من كان غير ضعيف كان جَلْدًا . واقتبالُ الشَّباب : ألّا يُرَى أثرٌ من الكِبَر معه .

وقوله « لا جَزَعَ اليوم » يقول : استَقْتَلْنا يومَنا ، فلا نجزع على دُنُوِّ الأجل

---

* نحنُ بنُو الموتِ إذا الموتُ نَزَلْ *

ثم الشطر الثامن ثم الشطر السادس .

(١) يقال بتشديد الميم وتخفيفها .

(٢) وهذا أيضاً بتشديد الميم وتخفيفها .

فيه إن دنَا ، لأنَّ الموت إذا غشِيَنا فيما نطلبه ، أحْلَى طعمًا عندنا من طعم العسل ، وقوله « اليوم » ظرف لقرب الاجَل ، وعلى قُرْب الأجل ، خَبَرٌ إلاَ . ويجوز أن تجعل اليَوْمَ خبَرًا « على قرب الأجل » تبييناً له أو حالاً . وإنْ جعلتَه خبرًا بعد خَبَرٍ ، كما تقول : هذا حلوٌ حامِضٌ ، جاز أيضا . وذكر بعضُ المتأخِّرين أنه لا يجوز أن يكون معنى « على » هنا معناها فى قَوْلِك جَزِعْتُ على كذا ، أى أشفقت عليه ، لأنّه غَيرُ الغَرض المقصود . ألا تَرى أنَّ معناها لا جَزَع اليومَ من الموت على أنَّ الأجل قريبٌ منَّا ، فإذا قَرُبَ منا فلم نَجزعْ منه فما ظَنُّك بنا إذا بَعُدَ عنا . وأنا أقول : وإنَّ من البيان لِسحراً ، وإنّ مِن الغَوْصِ على المعانى لِمِثْـلِهِ دُرًّا .

٦ — رُدُّوا عَلَينا شَيْخَنا ثُمَّ بَجَلْ

٧ — نَحْنُ بَنِى ضَبَّةَ أَصحابُ الجَمَلْ

٨ — نَنْعَى ابنَ عفَّانَ بأَطْرَافِ الاسَلْ

يعنى بالشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه . المعنى : إنّا طالبون بدَمِه ، فإذا أدركْنا ثأرَه فحسبُنا ذاك . وهذا معنى قولِه « ثم بَجَل » . وموضع بَجَل رَفْعٌ على الابتداء وخبرُه مُضمَر ، كأنه قال : « ثم بَجَلُنا ذلك » ، أى حَسْبُنُه ذلك . وثُمَّ عاطِفةٌ لجملةٍ على جملةٍ . وقال لَبيدٌ :

* بَجَلِى الآنَ من العيْشِ بَجَلْ[1] *

وحكى الأخفش أنّ بَجَلْ ساكنةٌ أبدًا . يقولون بَجَلْكَ ، كما يقولون قَطْكَ وقَدْكَ ، إلاّ أنهم يقولون بَجَلِى ولا يقولون بَجَلْنِى كما يقولون قَطْنِى وقَدْنِى »

---

(١) صدره كما فى ديوان لبيد ١٧ طبع ١٨٨١ :

* فتى أهلك فلا أحفله *

وهو القياس مع مجيئه على السكون . وانتصاب « بنى ضَـبَّةَ » بفِعْلٍ مُضْمَر ، والقصد فيه المدح والاختصاص . وخبر المبتدأ الذى هو نحنُ « أصحابُ » ، والتقدير : نحنُ — أذكُر بنى ضَبَّةَ — أصحابُ الجَمَل . وهذا الكلام يُنبِّه به على أنهم مُجِدّون فى طلب دم عثمان رضى الله عنه ، لأنّ الذين خرجوا مع عائشة رضى الله عنها وقاتلوا يومَ الجَمَلِ كان دعواهم طلَبَ الثأر . ولو قال نحن بنو ضَبَّةَ لكان يسقُط فخامةُ المدح وتعظيمُه ، وكان يصير أصحابُ صفةً وبنو خبرًا ، وكان يجوز أن يكونا جميعا خبرين ، ويجوز أن يكون أصحاب بدلاً من بَنُو .
وقوله « نَنْعَى ابن عفان » كان عادتُهم إذا مات رئيسٌ فيهم عظيمُ الشأن والمَحلّ أن يطوفَ واحدٌ منهم على القبائل ، ويَصْعَدَ الرَّوابىَ المطِلَّة عليهم ، والآكامَ المرتفعة بمحالِّهم ويقول : نَعاءِ فُلانًا ! يريدون تشهيرَ أمره ، وتعظيمُ الفَجْع به ، وربما أرَّخوا بموته . فيقول : نحن نجعلُ بدلَ هذا الفعل أن نطلُبَ دَمَه بأطرافِ الرِّماح . وهذا معنًى حَسَن .

٨٩

وقال آخر(١) :

١ — داوِ ابْنَ عَمِّ السَّوْءِ بالنَّأْيِ والْغِنَى ... كَفَى بالغِنى والنَّأْيِ عنه مُدَاوِيا

يقول : عالِجْ ما بينك وبين ابن عمِّ السَّوْءِ من التضاغُن والتبايُن ، والتغايُظ والتحاسُد ، بالبُعْدِ منه ، والاستغناء عنه . ثم قال : وكَفَى بهما من مُداوٍ معه . وهذا يجرى مجرَى الالتفات ، وهو تنبيهٌ على أنهما الغاية فيم يُحْسَمُ به شرُّهُ ، ويُدْفَعُ به ضيْرُه . وموضع بالغِنَى رفعٌ بكَفَى . ومداويًا يجوز أن يكون حالاً ويجوز أن يكون تمييزاً ، وهو أحسنُ ، ومثلُه : ﴿ كَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾ . والكلام يجرى

(١) التبريزى : « وقيل إنه لرجل من بنى أسد » .

أيضا مجرى التأكيد فيما دَعا إليه ، والتحقيق لغَنَاءِ ما أشار به .

٢ ــ جَزَى اللهُ عَنَّا مِحْصَنًا ببلائه وإن كان مولاىَ القريبَ وخالِيَا

مِحْصَنٌ المذكور ، هو ابن عمّه الذى تأذَّى به فدَعا عليه . يقول : جزاه الله بفعله فِينا ، إنْ خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا ، وإن كان متصلَ النَّسَبِ بطرَفَىْ أبى وأُمِّى .

٣ ــ يَسُلُّ الغِنَى والنَّأْىُ أدواءَ صَدْرِه ويبدى التّدَانى غِلْظَــةً وتقالِيَا

السَّلُّ : النَّزْعُ . والأدواء : جَمْعُ الداء . وهذا مِثلُ ما رُوِى : « أنْ مُرْ ذَوِى القَرابات أن يتزاوَرُوا ولا يتجاوَرُوا[١] » ، وزاد عليه أيضاً بما شَفَع النَّأْىَ[٢] به من ذكر الغِنى . ونبّه أيضاً على أنّ فى التدانى تحاسُداً يبدو معه القِلَى والقَسْوَةُ لأن الكلام كالتعليل للأمْرَيْن اللذين رَغَّبَ فى أَحدِهما وزَهّد فى الآخر ، وهما التَّدانى والتنائى . والمثل السائر : « فَرِّقْ بين مَعَدٍّ تَحَابَّ » مِثْلُ البيتِ .

٤ ــ أعَانَ عَلَىَّ الدَّهْرَ إذْحَكَّ بَرْكَهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَّلْتَهُ بِىَ كافيا[٣]

هذا الكلام شِكَايَةٌ مما عامَلَه به مِحْصَنٌ ، وتصريح بأذاه ، فيقول : لم يَرْضَ بالقعود عَنِّى وإسلامى للدّهرِ حتَّى صار عوناً له علىَّ ، لَمَّا أخذ يؤثِّر تأثيره ، ويلْقِى كَلْكَلَهُ وجِرَانَهُ . ثم قال مُنْتَقِلاً عن الأخبار عنه إلى مخاطبته ، إظْهَاراً للجزَعِ من فعله . لو اتّخذتَ الدَّهْرَ وكيلاً واعتمدت عليه ، دون أن تُبَاشِرَ مَسَاءَتِى بِفِعْلِك لَكفاك . ومِثْلُ هذا القول ، أعْنِى كَفَى الدَّهْرُ ، يسمى التفاتاً . وقولُه « كافياً » يجوز أن يكون تمييزاً ، ويجوز أن يكون فى موضع المصدر ،

(١) هذا من كتاب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى . انظر مجمع الأمثال فى (فرق بين معد تحاب) .

(٢) فى الأصل : « الثانى » ، صوابه من م .

(٣) التبريزى : « ويروى : إذ حل بركه » . وكتب فى نسخة الأصل : « حل » بحيث تقرأ باللام والكاف أيضاً . وذلك بتقعير اللام وإلحاق علامة الكاف من جانبها الأيمن .

أراد : كَفَى الدَّهْرُ لو وكَّلْتَهُ بى كفايةً . واسمُ الفاعل يقع موقعَ المصدر كثيراً كما يَقعُ المصدر مَوْقِـع اسم الفاعل . ومثْلُه قول بِشْرٍ :

* كَفَى بِالنَّأْيِ من أسماءَ كَافِ[1] *

فقوله كافٍ فى أحد الوجوه مَصْدَرٌ لـكنه لم يَنْصِبْهُ ، وجعله كقول الآخر:

* كأنّ أيْدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[2] *

فى ترك إعراب المعتل فى موضع النّصْبِ أيضاً ، إذْ كان من العَرَب من يستثقل الفتحة فى الياء ، والتّقدير : كَفَى النَّأْيُ من أَسْماء كافيا ، أى كِفَايَةً . وقد جاء فى المثل : « أَعْطِ القَوْسَ بارِيها » ، بسكون الياء فى باريها ، ولم يَرْوِ أَحَدٌ بَارِيَهَا بالفتح ، فليس يجوز إلاَّ ما حُـكِيَ ، لأنَّ الأمثالَ لا تُغَيَّر .

٩٠

وقال رَجُلٌ من بنى كُلَيْبٍ[3] :

١ — وحَنَّتْ ناقَتِي طَرَبًا وشَوْقًا إلى مَنْ بالحنينِ تُشَـوِّقِينِي

انتصب « طَرَبًا » على أنَّه مَصدَرٌ فى موضِـع الحال ، أو على أنه مفعولٌ له . وأوّل البيت خبَرٌ عن راحِلته ، وآخِرُه خِطَابٌ لها . وقوله « تُشَوِّقِينى » حذف نونه استثقالا لاجتماع نونين ، والأصل تشوِّقيننى . ومثْلُه فى الحذْف قول الآخر[4] :

* يَسُوءُ الفالِيَاتِ إذا فَلَيْنِي[5] *

---

(١) عجزه فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ :
* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) انظر اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

(٣) التبريزى : « من بنى كلب » .

(٤) هو عمرو بن معد يكرب ، كما فى اللسان (فلا) .

(٥) صدره : * تراه كالثغام يعل مسكا *

يريد فَلَيْنَنى . والمعنى : اشتَكَتْ ناقتى حانّةً لطرَبِها وشَوْقِها . ثم أخذ يخاطِبُها مُنْكِرًا عليها ما ظهَر منها فقال : تُشَوِّقِينَنى بحَنينِك إلى مَنْ ؟ أراد أنه مع حصولِ اليأس يجبُ ألاّ تحِنَّ ولا تُشَوِّقَ . ويجوز أن يكون المعنى تعظيمَ المشتاق إليه ، فكأنّه قال : تشوقيننى إلى مَن بحنينِكِ ؟ أى إلى إنسانٍ وأىّ إنسان ؟ ومَنْ من قوله « إلى مَنْ » فى هذا الوجه يكون نَكِرَةً غير موصوفةٍ وإن كان الكلامُ خبرًا ، وفى المعنى الأوّل يكون مَن استفهامًا . وتقول : مَرَرْتُ بما صَالحٍ ، ومَرَرْتُ بمَنْ كَريمٍ ، تريدُ بإنسانٍ كَريم . وقد حُمِلَ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلاً ما بَعُوضَةً ﴾ ، على أنّ معناهُ مَثَلاً شيئًا بَعُوضَةً . والطَّرَبُ : خِفّةٌ تعترى لعارِض سُرُورٍ أو هَمٍّ :

٣ — فإنّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولكنْ أَصحَبَتْ عنهُمْ قَرُونى

هذا الكلام اعترافٌ بالحُبّ ، وتسويغٌ لحنين الناقة وإنْ كَرِهَ التذكير الحاصلَ منه . والشَّجْوَ المُنْتَتِجَ عنه . وقوله « مثل ما تجدين » يجوز أن يكون خبرًا مقدّمًا والمبتدأ وَجْدِى ، فيكون التقدير : إنِّى وَجْدِى مثلُ ما تجدين ، والجملةُ خبرُ إنّ . ويجوز أن يكون مِثلُ خَبَرَ إنّ ، ووَجْدى بدلٌ من ياء الضمير المتصل بإنِّى ، كأنه قال : إنّ وَجْدى مثلُ ما تجدين . وما بمعنى الذى ، وتجدين من صلتِهِ ، والضمير العائد إليه محذوف ، كأنه قال : مِثلُ ما تجدينَهُ ، أى مِثلُ الوَجْدِ الذى تجدينَه . ويجوز أن يكون ما مَعَ الفِعْل فى تقدير مَصدَرٍ ، كأنه قال : إنّى وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ . والأصْلُ فى إنِّى إنّنى ، لكنّه حُذِفَ نُونُه لاجتماع ثلاث نُونات ، ويجوز أن يكون لم يَأْتِ بنون العِماد كما لم يُؤْتَ به فى لَعَلِّى ولَيْتِى ، والمعنى إنّ وَجْدِى مِثْلُ وَجْدِكِ ، ولكنْ تابَعَتْنِى نفسى باليأسِ منهم ، وأنتِ لا تَعرفين اليأسَ . والإصحاب : الانقياد . والقَرُون

والقَرُونَةُ : النَّفسُ . ويقولون : أَخَذْتُ قَرُونى من هذا الأمر ، أى رَفَضْتُهُ واطَّرَحْتُهُ .

٣ ـ رأَوْا عَرْشِي تَثَلَّمَ جانِبَاهُ فلمَّا أنْ تَثَلَّمَ أفرَدُونى

يقول : رأَوْا عِزِّى قد تَهَدَّم جانباهُ ، وانهَدَّ رُكْنَاهُ ، فلما صار أمْرِى كذلِكَ تَرَكونى وَحيداً ، وَقَعَدوا عن مشايَعَتِي ومُتَابعَتِى ، فدَعَتْنِي الحالُ إلى مفارقتِهِم ، والتحوُّلِ عنهم . والعَرشُ : سَرِيرُ المُلْكِ ، وقِوام أمْرِ الرَّجُل وعِزِّه ، فإذا زال قيل : ثُلَّ عَرْشُه وتَثَلَّمَ . وقد ألَمَّ فى هذا بقولِ أوْسٍ :

* وهُمْ لِمُقِلِّ المالِ أولادُ عَلَّةٍ(١) *

وبقوله :

* بنو أمٍّ ذِى المالِ الكثير(٢) * (البيتان)

٤ ـ هَنِيئًا لابن عَمِّ السَّوْءِ أَنِّى مُجَاوِرَةٌ بَنِى ثُعَل لَبُونى

أَنِّى فى موضِعِ الفاعل لهنيئاً ، ومجاوِرَةٌ ارتفع على أن يكون خَبَرَ أنَّ ، ولَبُونى فى موضِعِ الرَّفعِ على أنها فاعِلَةٌ لمجاورَة ، وبنى ثُعَلٍ مفعولٌ به . والمعنى : لِيَهْنِئْ ابْنَ العَمِّ السَّوءِ بُعْدِى عنهم ، ومجاوَرَةُ لَبُونِى لغيرِهِمْ . واللَّبون : الناقةُ التى بها لَبَنٌ . ويجوز أن يرتَفِعَ مجاوِرَةٌ على أنّه خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ، والمبتدأ لبونى والجملة كما هى تكون خبر أنّ . ويجوز أن يكون لَبُونى بَدَلاً من الضمير المتّصِل بأنّى ، والخَبَر مُجاوِرَةٌ . والمعنى والتقديرُ أَنَّ لَبُونى مجاورةٌ بنى ثُعَلٍ . وهذا الكلامُ إنباءٌ أنَّ ما حَصَل من بُعْدِه عن العشيرة كانوا بتمنَّوْنَهُ ، فقال هَنَأَ اللهُ أبناء عَمِّى ما أرادُوهُ وفازوا به . ويجوز أن يكون وعيداً وتهكُّماً .

(١) عجزه : * وإن كان محضاً فى العمومة مخولا *

(٢) هو بتمامه :

بنو أم ذى المال الكثير يرونه وإن كان عبداً سيد الأمر جحفلا

٩١

وقال رَجُلٌ من بنى أسَدٍ :

١ — وَمَا أنا بالنِّكْسِ الدَّنِيِّ ولا الّذى إذا صَدَّ عَنِّي ذوالمَوَدَّةِ أَحْرَبُ

النِّكس أَصْلُهُ فى السِّهام ، ونُقلَ إلى الضَّعيف من الرِّجال . يُقالُ نَكَسْتُه نَكْسًا ثم يُسَمَّى المَنكوسُ نِكسًا ، كما يُقالُ نَقَضْتُه نَقْضًا ثم يُسَمَّى المَنْقُوضُ نِقْضًا بكسر النون . كأنَّ السهم انكسر فُوقُه فنُكِس فسمِّيَ نِكْسًا . فيقولُ : ما أنا بالمُسْتَضْعَفِ اللَّئيم ، ولا الذى إذا انحرف عَنْهُ مَنْ يُوادُّه دعَا بالوَيْلِ والحَرَب فقال : واحَرَباهُ . وفى طريقته .

ولا أَقُولُ إذا ما خُلَّةٌ صَرَمَتْ ياوَيْحَ نَفْسِيَ من شَوْقٍ وإشْفَاقِ[(١)]

ويجوز أن يكون مَعْنَى أحْرَبُ : أغْتَاظُ . ومنه قولُه :

* إنِّي إذَا الشاعِرُ المَغْرُورُ حَرَّبَنِي *

وهذا أَسْلَكُ فى طريقة العربية ؛ وكان يجب أن يقولَ : ولا الذى إذا صَدَّ عنه ذُو المودّة يَحْرَبُ ، حتَّى يكونَ فى الصلة ما يعودُ إلى الموصولِ ، لكِنهُ لما كان القَصْدُ فى الإخبار إلى نفسِهِ وكان الآخِرُ هو الأوّل ، لم يُبَالِ بردِّ الضمير على الأول وحَمْلِ الكلام على المعنى ، لأمْنِه من الالتباس . وهو مع ذلك قبيحٌ عند النحويين ، حتى إن أباعثمانَ المازنىّ قال: لولا اشتهارُ مَوردِهِ وكثرتُه لرددتُه . ومِثْلُهُ :

* أنا الّذى سَمَّتَنِ أُمِّي حيْدَرَه[(٢)] *

---

(١) لتأبط شراً . المفضليات (١ : ٢٦) .

(٢) لعلى بن أبي طالب ، كما فى اللسان (حدر ، سندر) . وقد سبق فى ص ١١٥ .

٢ ـ ولكنّنى إن دام دُمْتُ وإن يكن ... له مَذْهبٌ عنّى فلى عنه مَذْهَبُ(١)

يقول: أمْلِكُ نفسى وودّى فى مصادقةِ الأخلاَّء، فإنْ داموا لى على العَهْد دُمْت لهم، ولَزِمْتُ الوفاء معهم، وإن رأوْا ذَهاباً عنّى و مَيْلاً إلى غيرى ذهبْتُ عنهم، ومِلتُ إلى غيرهم. ويُرْوَى: «ولكنّنى ما دام دُمْت» ويكون موضعُ ما دام ظَرْفاً، وخَبرُ لكنَّ دُمْتَ. وفى الأولى يكون الجزاء وجوابه خَبرًا. وفى طريقته قول لَبِيد:

فاقطَعْ لُبانَةَ مَن تعَرَّضَ وصْلُهُ ... ولَخيرُ واصِلِ خُلّةٍ صَرّامُها

٣ ـ أَلَا إنَّ خَيْرَ الوُدِّ وُدٌّ تطَوَّعَتْ ... به النَّفْسُ لا وُدٌّ أَتَى وَهْوَ مُتْعَبُ

يقول: خير الوُدِّ ما جاء عفواً من غير جَهْدٍ، ولا إكراه نفس وطَبْع، بل يبعثه الميلُ، ويحكُمُهُ الخلوص؛ فأما المُتْعَبُ من الموَدّات، المَشُوبُ بالتعمُّلِ والتكلُّف، فلا طائل فيه. ومثله قول بعضهم:

ولا خَيْرَ فى وُدِّ امرىءٍ مُتَكَارِهٍ ... عَلَيْكَ ولا فى صَاحِبٍ لا تُوافِقُهْ(٢)

وقول الآخر:

إذا أنت لا يَثْنِيك إلا شَفاعةٌ ... فلا خَيْرَ فى ودٍّ يكون بشافِعِ

٩٢

وقال أبو حَنْبلٍ الطّائىّ(٣):

١ ـ لقَدْ بلانى علَى ما كان من حَدَثٍ ... عِنْدَ اخْتِلاَفِ زِجاجِ القَوْمِ سَيَّارُ

---

(١) كتب بخط مخالف قبل هذا البيت:

ولست إذا ولى الصديق بوده ... بمكتئب أحنو إليه وأندب

(٢) أنشده التبريزى، مع بيتين بعده، وقال: «قالوا هو لمسلم بن الوليد».

(٣) هو جارية بن مر، أبوحنبل الطائى، شاعر جاهلى فارس. ذكره فى المؤتلف ٩٩. التبريزى: «ويقال إن هذه الأبيات لعامر بن جوين، حين أجار سيار بن موألة بن عامر ـ

ارتفع « سَيَّارٌ » بقوله بَلَانِى . واللام فى « لقد » تُؤْذِن بيَمِين . يقول : لَقَدْ خَبَرَنى هذا الرجل على ما اتفق من حَدَثٍ ، واعترَضَ مِن شرٍّ ، فعَرَف حُسنَ بلائى عند اختلاف القنا بالطَّعْن . وذَكَرَ الزِّجاج ، والمُرَاد الرِّماحُ بكمالها ، ومثله قول الآخر[1] :

* الواطِئين على صُدُور نِعَالِهِمْ[2] *

وإنما يُوطَأُ النَّعْل كُلُّها . ويقال : زَجَجْتُهُ بالرمْح ، إذا زَرَقْتَهُ .

٣ – حَتَّى وَفَيتُ بها دُهْمًا معَقَّلَةً كالقارِ أَرْدَفَهُ من خَلْفِهِ قَارُ

يقول : صَبَرْتُ لِمَا عَزَّ من أَمْرٍ ، وتَعَسَّرْ من وفاءٍ وأَداء ، لأخرُج مما به تَكَفَّلْتُ ، من العُهْدَةِ التى فيها دَخَلْتُ . وقد كان أبو حَنْبَل تضَمَّن لسَيَّار إبلاً لَهُ بأعيانها أو شَرْوَاهَا ، أى مِثْلِهَا ، فيقول : أخذ سَيَّارٌ يَنتظِر ماذا يكون مِنِّى فيما تضَمَّنْتُ حَتَّى وَفَيْتُ بإبِلِهِ سوداً مشدودةً بعُقُلِها ، كأنها فى سَوَادِها قَارٌ عُولِى بقارٍ . وهذا يرادُ به تأكيدُ السوَادِ . ويقال رَدِفْتُهُ وأردفتُه ، إذا جئت بَعْدَهُ . ورَدِفَكُمْ ورَدِفَ لكم ، أى تَبِعَكم وجاء بَعْدَكُم . وانتصب « دُهْمًا » على أَنَّهُ حالٌ للإبل . وفائدة قوله « كالقار » تصويرٌ للإبل بألوانها . ومعنى لقد بلانى حَتَّى وَفَيْتُ ، أى انتظَرَ ما يكون من البلاء فى وفائى عند ما ضَمِنْتُ ، وصار يُحَرِّبنِي إلى أنْ وفَيْتُ . وفائدةُ قَوْلِهِ مُعَقَّلَةً ، أنه سَلَّمَهَا فى مَبَارِكِها آمِنَةً .

— بن مالك بن تيم الله بن ثعلبه ، وكان سيار جاراً لرجل من بنى ثعل يقال له عدى بن أفلت ، فمر عامر بن جوين بعدى بن أفلت وقد قامره سيار بن موألة بالقداح فقمره عدى حتى غلق مال سيار ، فظعن الحى فقال سيار لقينتين له : تخلفا بأهلكما بعد الحى حتى ينزلوا ، فإذا نزلوا فانطلقا برحلكما حتى تفدا إلى رحل عامر بن جوين ، ففعلتا فجاء عدى بن أفلت فأراد أن ينقلهما ورحلهما ، فأبى ذلك عامر بن جوين وقال : قد جاورنى الرجل ! فلما خرج امرؤ القيس بن حجر عند عامر بن جوين فنزل على أبى حنبل جارية بن مر ، تهادى أبو حنبل وعامر الشعر ، فقال عامر : لقد بلانى . . . » .

(١) هو الأعشى . الكامل ٣٥ ليبسك واللسان (دفن) .

(٢) عجزه : * يمشون فى الدفنى والأبراد *

ويجوز أن يكون أراد إبلاً متقدماتُها ومتأخّراتها سُودٌ ، فلذلك قال كالقار أُردِفَ بِقارٍ ، ويجوز أن يكون أراد بالقَارِ جمع قَارَةٍ ، وهى الجبال ، فَشَبَّهها بها فى عظَمِها .

٣ — قَدْ كانَ سَيْرٌ فحُلُّوا عن حُمُولَتِكُم إنِّى لِكلِّ امرئٍ مِنْ جارِهِ جَارُ

يقول : وجَبَ السَّيْرُ للخوف والحَذَر قبل هذا الوقت ، وأمّا الساعةَ وقد بَلَغتم المأمَن فى جِوَارى فحُلُّوا عن أجمالكم ، إنِّى لكلِّ رجل منكم جارٌ بَدَلاً من جَارِهِ الأول . والعرب تقول : هذا من ذاك ، وهذا بذاك أى عِوَضٌ . وفُسِّرَ قَوْلُ الشاعر :

لَيْتَ لنَا من مَاءِ زَمْزَمَ شرْبَةً مُبَرَّدَةً باتت على الطَّهَيَانِ(١)

على أنّ المعنى لَيْتَ لنَا بَدَلاً من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً . ويقولون : فلانٌ لك من الجارِ جَارٌ ، ومن النديم نديمٌ ، ومن الأكيل أَكِيلٌ . ويحتمل أن يكون معناه : إنِّى لِكُلِّ رَجُلٍ مُجيرٌ ممن يجاوِرُه ، أى ممن يدانيه بسوء ، والأول أجْود وأصْوب . والحُمولة : جَمْعُ حِمْلٍ ، ودخلت الهاء فيه توكيداً لتأنيث الجمع . والحَمُولة : الأبل التى يُحمل عليها ، وهى فَعُولَةٌ كالقَتُوبةِ ، والرَّكوبةِ ، ولا يَجْرِى على الموصوف ، لا يقال دَابةٌ حَمُولة .

٩٣

وقال يزيدُ بن حِمّانَ السَّكُونِى(٢) :

١ — إنِّى حَمِدتُ بَنِى شَيْبَانَ إذْ خَمَدَتْ نِيرَانُ قَوْمِى وفيهم شُبَّتِ النارُ

(١) للأحول الكندى كما فى معجم البلدان (الطهيان) . وهو اسم قلة جبل باليمن .
(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٩٣ أنه « يزيد بن حمار السكونى » . قال المرزبانى : « حليف بنى شيبان ، وكان له بلاء ورأى يوم ذى قار ، فقال يمدح =

الحمد : الثَّناء على الرجُل بما فيه من الخصال المرتَضَاة . وبهذا المعنى فارَقَ الشُّكر ، لأنَّ الشكر لا يكون إلا على صَنِيعةٍ . فيقول : لمّا رأيت بنى شَيْبان عند إمْحَالِ الأرض وإجْدابِهَا ، وإقْتَار النّاس وإضاقتهم ، يوقدون نار ضيافتهم ويقيمونها ، وإن كانت نيران غيرهم خامِدَةً متْرُوكاً إشعالُها ، أثنيْتُ عليهم ، ونشرتُ فضيلتهم . وقال « نيران قومِىَ » وإن أراد غيرَهم معهم ، تفضيلاً لهم على قومه ، وإيذاناً بالصِّدق فى مَخْبرِه ، فبدأ بذكر قومِه وذويه . ويُروى : « نيران قوْمٍ » ، والأوّل أجْوَد .

٢ — ومِن تَكَرُّمِهم فى المَحْلِ أنّهُمُ لا يَعْلَمُ الجار فيهِمْ أنه الجارُ[1]

٣ — حتى يكونَ عزيزاً مِن نفوسِهِمُ أو أن يَبِينَ جميعًا وهو مُخْتارُ[2]

يقول : مِن تكلُّفِهم الكَرَم كأنهم لا يَرضَوْن فى مثل ذلك الوقت بما طُبِعوا عليه وجُبِلُوا ، حتى تكلَّفُوا أكثر منه ، أنّهم يُحِلُّون جارَهم من العناية به والاتحاف[3] والإحسان إليه والاصطناع ، مَحَلاًّ يتشكّكُ مِن بَعْدُ فى نفسه : هل هو جارُهم أم من صَمِيمهم . وعلى هذا يتعلّق حتى من قولِه « حتى يكون عزيزاً » بالمعنى الذى دلَّ عليه قولُه لا يَعلَمُ الجارُ فيهم أنه الجارُ ، أى يعاملونه بهذه المعاملة إلى أن يكون عزيزاً فيما بين ظهرانَيْهم ، أو يَختار مفارَقتَهم . والمعنى : ذلك له فيهم ، ما اعتزَّ بجوارِهم ، أو مالَ إلى فِراقهم . ويجوز أن يكون

= بنى شيبان : إنى حمدت . . . » . وقال التبريزى : هكذا قال أبو تمام — أى فى نسبة الشعر — والصحيح أنه عدى بن يزيد بن حمار ، بعد الألف راء ، بن عباد بن مسلمة بن عوف بن تراغم بن معاوية بن ثعلبة بن عقبة بن سكون . وعدى جاهلى ، ويعرف بالجون ، وكان نازلا فى شيبان » .

(١) المرزبانى : « لا يشعر الجار فيهم » .

(٢) المرزبانى : « فى نفوسهم » .

(٣) فى النسختين : « والالتحاف » ، ولم نجد لها وجها .

قوله « من نفوسهم » فى موضع الحال ، وعزيزاً خبر كان . وإنْ جَعلْتَ « عزيزاً » فى موضع الحال ومن نفوسهم خبرًا جاز . والمعنى : حتى يكون كأنه من أَصْلِهم ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ مِن أَنفسِكم ﴾ ، والمعنى من جِنْسِكم ومن بِطانتكم . ويجوز أن يكون البيت مُضمَّنًا ، ويكون معنى لا يَعلَمُ الجارُ فيهم أنه جار ، أنَّ الجارَ لا يكون قد أَحَسَّ بمجاورتِه لهم حتى يتفقَّدُوه هذا التفقُّد ، ويُحِلُّوه هذا المَحَلّ . وقوله « أو أنْ يَبِينَ جميعًا » انتصب جميعًا على الحال ، والمعنى أو أن يُفارِق وهو مجتمع الحال غيرُ مُنتشِرِها ، ومُختارٌ لذلك غيرُ مُضطَرٍّ إليه . ومِثلُ هذا بيتُ زهير :

ضَمِنَّا مالَهُ وغَدَا جَمِيعًا علينا نَقْصُــه وله النَّماء

وقبل بيتِ زهيرٍ هذا قوله :

وجارٍ سار معتمِدًا إلينا أجاءَتْهُ المخافةُ والرجاء

فجاوَر مُكْرَمًا حتى إذا ما دعاهُ الضيفُ وانقطع الشِّتاء

ضَمِنَّا ما له وغدا جميعًا . . . .

فقد علِمتَ اشتمالها على ما ذكره هذا الشاعر وتفرُّدَها بما زاد عليه من المعنى . ويجوز أن يكون « حتَّى » بمعنى كَيْ ، فيكون المراد لا يَعْلَمُ الجار لحُسْنِ توفُّرِهم عليه ، وتوحُّدِهم إيّاه باتخاذ الصنائع لديه أنّه جارٌ ، لكَىْ يكونَ عزيزاً مُدَّةَ مُقامِه ، أو يُفارقَهم مُختاراً ، موفورَ المال ، مَصُونَ الحالِ .

٤ — كأنَّهُ صَدَعٌ فى رأسِ شاهِقَةٍ من دَونِه لعِتَاقِ الطيرِ أَوْكَارُ[1]

يقول : كأنّ الجارَ لتمنُّعِه بهم ، وتعزُّزه حين استظهر على الزمان بمكانه فيهم ، وعِلٌ احترز عن طُلّابه فى رأس قُلَّةٍ شامخةٍ أوكارُ عِتاقِ الطير دونَه ، وهو

(١) فى معجم المرزبانى : « ودونه » .

أرفع منها وأحصن . فالتشبيه تناوَلَ ما ذكرْتُ من التمنُّعِ والتحصُّن . ويَعْنى بعِتاق الطير : العِقْبانَ وما أشبهَها من أحرار الطير ، وما يَتَّخذ الوُكُورَ فى الجبال . وإلى هذا أشار الهُذَلىّ[1] فى قوله :

حتى انتَهيْتُ إلى فِراشِ عَزيزَةٍ سَوْداءَ رَوْثةُ أنفِها كالمِخْصَفِ

يعنى وكْرَ عُقابٍ . والصَّدَع والصَّدِيعُ : الفتىُّ من الأوعال ، وقيل هو للربوع وقد استُعمِل فى الرَّبْعةِ من الرِّجال .

٩٤

وقال آخر[2] :

١ ــ نزَلْتُ على آلِ المُهَلَّبِ شاتِيًا غرِيبًا عن الأوطانِ فى زَمَنٍ مَحْلِ[3]

يقول : أوَيْتُ لمّا تغرَّبتُ عن أوطانى داخلاً فى الشِّتاء ، مُمْتَحَنًا بالجَدْب والقَحط ، مُلْجَأً إلى الاستعانة على الزمان بغيرى ، إلى آلِ المُهلَّبِ بن أبى صُفْرة ونزلْتُ فيهم . ثم أخذ يقتَصُّ ما رأى فيهم . ويقالُ زَمَنٌ مَحْلٌ ، وُصِفَ بالمَصْدَر ، وزمن ماحِلٌ وزمن مُمْحِلٌ . والأصلُ فى المحل : انقطاعُ المطر ويُبْسُ الكلإ . ويقال أرضٌ مَحْلٌ وأرضٌ مُحُولٌ ، وُصِفَ بالجمع ، كأنه أجْرِى على أقطاعِ الأرضِ ، كما يقال : ثوبٌ مِزَقٌ .

٢ ــ فما زَالَ بى إكْرَامُهُمْ واقتفاؤهم وإلْطافُهُمْ حتى حَسِبْتُهُمْ أهْلِى[4]

---

(١) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) .

(٢) هو بكير بن الأخنس ، كما فى البيان والتبيين (٣ : ٢٣٣) . على أن المقطوعة بدون نسبة فى ترجمة المهلب بن أبى صفرة من وفيات الأعيان ، وكذا فى عيون الأخبار (١ : ٣٤١) .

(٣) فى البيان : « فقيراً بعيد الدار » .

(٤) البيان : « إلطافهم وافتقادهم وإكرامهم » .

يقول: لم يزالوا يؤثرونى بالإحسان والحُسْنَى، ويختصُّونى بإسداء الجميل والنُّعْمَى، ويلتزمون لى من الإكرام والتَّقريب، والإدناء والتَّرحيب، حتَّى ظننتهم عشيرتى، وتشكَّكْت فى اغترابى منهم، وبُعد نَسَبى عنهم. ومن الاقتفاء القَفِيُّ، وهو المكرَمُ من الضيوف والسَّكْنِ، والقَفَاوةُ. قال:

* يُعْطَى دَوَاءَ قَفِيِّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ[1] *

٩٥

وقال جابر بن ثَعْلَبٍ الطائِىُّ[2]:

١ — وقَامَ إِلَىَّ العاذِلاتُ يَلُمْنَنِى ... يَقُلْنَ أَلاَ تَنفَكُّ تَرْحَلُ مَرْحَلا[3]

يقول: انتصبَ اللوائم عاتباتٍ علىّ، سائقاتِ العُنْف إلىَّ قائلاتٍ: ألا تزالُ تَرْحَل ارتحالاً فلا تَسْتقرُّ بك دار، ولا يُقرَّبُ لكَ مَزَارٌ، ولا يُحَطُّ عن راحلةٍ رَحل. ومَرْحَلاً انتصب على المَصْدَرِ، كما تقولُ: أما تَنفَكُّ تَخرُجُ مَخْرَجًا وتَبْعُدُ مَبْعَدًا. ومعنى تَرْحَلُ تشدُّ الرَّحْل. وموضع «يَلُمْنَنى» موضِع الحالِ، «وَيَقُلْنَ» فى موضع البَدَل من يَلُمْنَنى.

٢ — فإنَّ الفتَى ذا الحَزْمِ رامٍ بنَفْسِهِ ... جَوَاشِنَ هَذَا اللَّيْلِ كَىْ يَتَمَوَّلا

فى الكلام اختصار، كأنَّه قال: فأجبتهنَّ فقلت: إنَّ الفتى الحازمَ يُحَمِّلُ نفسَهُ المشَقَّات، ويَرْمِى بنَفْسِهِ المَتَالِفَ الصَّعبات، ويَمتطى الأَهْوَال، كَىْ ينالَ

---

(١) لسلامة بن جندل السعدى، كما فى اللسان (قفا). وصدره:

* ليس بأسفى ولا أقنى ولا سغل *

(٢) التبريزى وابن جنى: «جابر بن الثعلب». وفى الكامل ٢٩٩ ليبسك: «جابر بن ثعلبة». وانظر ما سبق فى ص ٢١٥.

(٣) التبريزى: «ويروى: ألا يا ارحل لأهلك مرحلا».

الأمْوَال ، غيْرَ مُفَكِّرٍ فى ظلمة ليْلٍ ، ولا مُسْتَصْعِبٍ لِرُكُوبِ خَطْبٍ . وقوله : « جواشِنَ هذا الليل » يَعْنى صُدُورَها وأوائلها . واللَّيْلُ بإزاء النهار فى الاستعمال ، والليلةُ بإزاءِ اليَوْم . والإشارة بـ « هذا » على طريق التَّقريب . وهم يستعيرون الجَوَاشِنَ والهَوادِىَ والصدورَ والنُّحورَ والأَعْنَاقَ والرُّءوسَ لأوائِلِ الأمور ، كما يَسْتَعِيرُونَ الأَعجازَ والأَدبارَ والأَعقابَ والأذناب لآواخرها .

٣ ـ وَمَنْ يَفْتَقِرْ فِى قَوْمِهِ يَحْمَدِ الْغِنَى ... وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ وَاسِطَ العَمِّ مُخْوَلا[1]

افْتَقَرَ فِعْلُ مُفْتَقِرٍ وفَقِيرٍ جَمِيعًا ، استُغْنِى بِهِ عن فَقِر . يقولُ : مَنْ نَالَهُ الفَقْرُ بين عشيرته وأهْلِيهِ حَمِدَ الغِنَى ، وصار عِندهُ المطلوبَ والمتمَنَّى ، وإن كان مَعْطُوفًا عليه مُكْرَما ، ومُعَمًّا فيهم مُخْوَلاً . وقولُه : « واسِطَ العَمِّ » سِطَةُ الحسَب : كَرَمُهُ ، والفِعْلُ منه وَسَطَ . قال :

* وَقَدْ وَسَطْتُ مالِكاً وحَنْظَلاَ[2]

ويقال : فلانٌ وسِيطٌ فى قَوْمِه : جَليلٌ ، وفُلانٌ واسِطُ القَوْمِ ، وهو أَوْسَطُهُمْ أى أشْرَفُهم .

٤ ـ كأنَّ الفتَى لم يَعْرَ يَوْمًا إذا اكْتَسَى ... وَلَمْ يَكُ صُعْلُوكاً إِذَا مَا تَمَوَّلاَ

هذا الكلام بَعْثٌ على التَّجْوَال ، وتَحْضِيضٌ فى اكتساب المال ، فيقول : إذا اقْتَنَيْتَ بَعْدَ فَقْرِكَ ، واكْتَسَيْتَ عن عُرْيِك ، فكأنّك ما كنت قط فَقِيرًا ولا عُرْيَانًا . والمعنى : إنّ من استبدَلَ بعُسْرِهِ يُسْرًا ، ونال عَقْب ضِيقِه

(١) ضبطت « مخولا » بفتح الواو فقط فى النسختين ، وهى لغة صحيحة . يقال أخول الرجل وأخول ، بالبناء للمعلوم والمجهول ، فهو مخول ومخول بكسر الواو وفتحها . ومثله المعم والمعم ، وهو الكثير الأعمام . ورواه ابن جنى :

ويزرى بظرف المرء قلة ماله ... وإن كان أقوى من رجال وأحولا

(٢) أراد : وحنظلة . وهى القبيلة . والرجز لغيلان بن حريث . اللسان (وسط) . وبعده :

* صيابها والعدد المجلجلا *

رخاء ، فكأنه ما سُبِقَ إليهما ، ولا زوحِمَ فيهما . وفى طريقته ما بَعْدَهُ ، وهو : « ولم يَكُ فى بُوسٍ » . والصُّعْلُوكُ : الفقير .

٥ — ولَمْ يَكُ فى بُوس إذا باتَ لَيْلَةً ... يُنَاغِي غزالاً ساجِيَ الطَّرْفِ أكْحَلاَ[1]

يقول : وإذا استمتع لَيْلَةً بمناجاةِ إنْسَانٍ كأنّه غزالٌ فى طَرْفِهِ فَتَرٌ ، وفى عَيْنِه كَحَلٌ ، فكأنه ما كان ذا بُوسٍ قَطُّ . أى تُعَفِّى النَّعْمَةُ على آثارِ الضُّرِّ ، وتَمْحُوها حتى تُنْسَى . وقولُهُ « ولم يَكُ فى بُوسٍ » قد مرَّ الكلام فى حذف النون منْها تخفيفاً . والمناغاة : المغازلة ، وأصلُهُ من النَّغْيَةِ ، وهى الصوت اللطيف ، والنَّغْمة الحسنة الخفيَّةُ ، ولذلك يُفَسَّرُ المُناغاةُ على المُسَارَّةِ . والساجِى : الساكن ، يقال لَيْلٌ سَاجٍ . قال :

* يا حَبَّذَا القَمْرَاءِ وَاللَّيْلُ السَّاجْ[2] *

٩٦

وقال بعض بنى طيِّئ :

١ — إنْ أَدَعِ الشِّعْرَ فَلَمْ أُكْدِهِ ... إذْ أَزَمَ الحـــقُّ عَلَى البَاطِلِ

قوله « إذْ أَزَمَ » ظرفٌ لقوله أَدَع . وتقدير الكلام : إنْ أَدَعِ الشِّعْر إذْ أزم الحقُّ على الباطل فلم أُكْدِهِ . ويريد بالحق كَبْرَتَهُ وشيخوخته ، وما أخَذَ به النَّفْسَ عِندَهُ من مراعاة الحقِّ ، والرجُوع عن الهزْلِ إلى الجدِّ . وأراد بالباطل الصِّبا واللَّهْوَ وما يَتْبَعُهُمَا مما يُعَدّ سَفها وقوله « فَلَمْ أُكْدِهِ » أصله منْ حَفَرَ

---

(١) التبريزى : « فاتر الطرف » ، ثم أشار إلى رواية « ساجى الطرف » . وأنشد بعده بيتا لم يروه المرزوقى ، وهو :

إذا جانبٌ أعياكَ فاعمِد لجانب ... فإنك لاقٍ فى بلادٍ مُعَوَّلاَ

(٢) فى الأصل : « ساجى » ، صوابه من م واللسان (قمر) . وبعده :

* وطرق مثل ملاء النساج *

فأَكْدى ، إذا بَلَغَ الكُدْيَة ، فتَعَذَّرَ عليه الحَفْرُ وَإنْبَاطُ الماء . والكُدْيَةُ : مَكانٌ صُلْبٌ يُعْيِي الحَافِرَ . ويقال أيضاً : حَفَرَ فأَجْبَلَ ، إذا بَلَغَ جَبَلاً . وتوسَّعُوا فيه فقالوا : أَكْدَى فى الشِّعْرِ والعَطَاء . وفى القرآن : ﴿ وأعْطَى قليلاً وأَكْدَى ﴾ . وقالوا أيضاً : فلانٌ بَلغ الناسُ كُدْيَتَهُ ، أى كان يُعْطِى ثم أَمْسَكَ . ومعنى البيت : إن تركْتُ الشِّعْرَ حين تَحَلَّمتُ[1] وارْعَوَيْتُ ، وَصار الحقّ عاضًّا على بَطَالَتِى ، والحِلْمُ[2] مانعًا من جَهَالَتِى ، فلم أتْرُكْهُ عن عَجْزٍ لاحِقٍ ، وإفحامٍ حاصِلٍ . والأزْمُ : العَضُّ ، وتُوُسِّعَ فيه ، فقيل : « نعم الدواء الأزْمُ » ، يريدون الحِمْيَةَ .

٢ ـ قَدْ كُنْتُ أُجْرِيهِ عَلَى وَجْهِهِ وَأُكْثِرُ الصَّدَّ عَنِ الجَاهِلِ

يقول : كنتُ أُجْرِى الشِّعرَ على حَقِّه وكُنْهِه ، وأقْرِضُه مستمرًّا فيه على حَدِّه أيَّامَ شَبابى ، وقَبْلَ ارتِدَاعى ، ومع ذلك كنتُ أُكثِرُ الإعراضَ عن الجُهَّال ، وأتَصَوَّنُ عن مكايَلَتِهم وموازَنتِهم . وهذا يجرى مَجْرَى قول الآخَر :

إِنِّى امرُؤٌ مُكْرِمٌ نَفْسِى ومُتَّئِدٌ مِن أَنْ أُقاذِعَها حتى أُجازِيها[3]

والمعنى أَرْبَأُ بقَدْرِى عن مقارضة الشعراء ، ومجاذبة السُّفهاء ، ولكن إنْ دَعَتِ الحالُ معهم ، والضَّجَرُ بهم ، إلى المجازاة مع مراجعة الحِلْمِ ، فبالفِعْل لا بالقوْل ، وعلى هذا كنتُ قبلَ هذا الأَوَانِ مع الجُهَّال .

٩٧

وقال آخر :

١ ـ زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّ ناقَةَ جُنْدَبٍ بِجُنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأُجِمَّتِ[4]

(١) فى الأصل : « تحكمت » ، صوابه فى م .
(٢) فى الأصل : « والحكم » ، صوابه فى م .
(٣) من الحماسية ٧٤ ص ٢٦٧ .
(٤) « جنوب » فى النسختين بضم الجيم : جمع جنب . وعند التبريزى بفتح الجيم ـ

يقول : قال اللوائم عاتِبَةً على جُنْدَب ، ومُنْكِرَةً لتودُّعِه ومَيْلِه إلى الراحة والخَفْض وتَرْكِ السَّفَر : إنّ ناقتَهُ حُطَّ عنها رَحْلُها ، وأُزيلَ كَلالُها ، فهى جامّةٌ بجُنُوب خَبْتٍ : والخَبْت ، أصله ما اطمأنّ من الأرض[1] . ويقال أَخْبَتَ الرجُلُ ، إذا صار فى الخَبْتِ ؛ وتُوُسِّعَ فيه فقيل للمتأله الخاشع : هو مُخْبِتٌ .

٢ ـ كَذَبَ العَواذِلُ لو رَأَيْنَ مُنَاخَنَا بالقادِسِيَّـــةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

أبْطَلَ قولَهُنَّ فذكر أنَّهُنَّ لَوْ رَأَيْنَ مَنزِلَنا ومَبْرَكَنا بهذا البلد ، لَقُلْنَ لَجَّ جُنْدَبٌ فى السَّيْرِ وذَلَّتِ النَّاقةُ . ويجوز أن يكونَ قولُه « مُنَاخَنا » لم يُشِرْ به إلى إناخةٍ وإلى موضعٍ لها ، وإنما يكون كقولِهِ :

* فإنّ المُنَدَّى رِحْلَةٌ ورُكُوبُ[2]

فيكون المعنى : لو رَأَيْنَ ما جُعِلَ بَدَلاً لناقتنا فى موضعِ الإناخَةِ لَقُلْنَ ذلك . ومثله :

* تَعليقُها الإسراجُ والإلجامُ *

أى جُعِلَ الإسراجُ بدلاً مما كان يُعلَّق عليه . ويَقرُبُ منه قوله :

لَمّا تذكّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ أَرَّقَنِي صوْتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنواقِيسِ[3]

وإنما شاهَدَ وقتَهُما فذكرَهُما به ، ولم يكن ثَمَّ دَجاجٌ ولا نَواقيس .

---

(١) ذكر ياقوت أن « خبت » علم لصحراء بين مكة والمدينة وماء لكلب ، وقرية من قرى زبيد باليمن .

(٢) لعلقمة النحل فى المفضليات (٢ : ١٩٤) واللسان (ندى) . وصدره :

* ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

وركوب : مصدر ركب ، ويروى : « وركوب » بفتح الراء ، وهو اسم هضبة . وفى اللسان : « رحلة وركوب : هضبتان » .

(٣) لجرير فى ديوانه ٣٢١ والحيوان (٢ : ٣٤٢) .

٩٨

وقال الرّاعى(١) :

١ ـ كَفَانى عِرِفّانُ الكَرَى وكَفَيْتُه ... كُلُوءَ النُّجُومِ والنُّعاسُ مُعانِقُه(٢)

عِرِفّان : اسم صاحبه . فيقول : نام هذا الرجلُ وكفانى الاشتغالَ بالنوم ، وكلأتُ النجومَ وارتقبْتُها ، وكفَيته السهر ، وقد لازَمَ النُّعاسَ وعانَقَهُ . فإن قيل : كيف كَفاهُ الكَرَى ؟ قلتَ : هذا على مطابقةِ الكلامِ ، فلما قال كفَيْتُه مُراعاةَ النجوم ونُبْتُ عنه فيها ، قال : كفَانى الكَرَى ، وإن كانت نيابةُ ذلك عنه فى الكَرَى لا يَصِحُّ . ويُرْوَى : « كفانىَ عِرْفَانَ الكَرَى وكَفَيْتُه » ، أى معرِفة الكَرَى ، وليس بمُرْتَضًى .

٢ ـ فبَاتَ يُرِيهِ عِرْسَهُ وبنَاتِهِ ... وَبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ أَيْنَ مَخافِقُهْ

هذا تطنُّزٌ من القولِ(٣) ، لأن الساهرَ لا يَعْلَمُ من حال النائمِ أنه يَحلُمُ أو لا يَحلُمُ . وإنما نَبَّهَ بهذا الكلامِ على استحكامِ نوْمِهِ وتلذُّذِه به ، إذ كانت الأحلام لا تحصُلُ للنائم إلا عند ذلك . ولمّا قال بات يُرِيه النومُ امرأتَهُ وأولادَه ، قال فى مقابَلَتِهِ على الطريقة التى فى البيت الأوَّل : وبِتُّ أُرِيهِ النَّجْمَ . وهذا الجنْس يَكثُر فى كلام البُلَغاء ، ومثله قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فمنِ اعْتَدَى عليْكُمْ فاعْتَدُوا عليه ﴾ . و ﴿ إنما نَحْنُ مُسْتهزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهزِئُ بهم ﴾ . وقول الشاعر(٤) : * دِنَّاهُمْ كما دَانُوا *

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ .

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : ويروى عُرُفَّان . مسمى بالعرفان ، وهو دويبة ، وقيل ضرب من الجراد » .

(٣) التطنز ، أراد به السخرية والتهكم . والمعروف « الطنز » .

(٤) هو شهل بن شيبان . انظر ما مضى فى ص ٣٥ .

وقد مرَّ جميعُه مُسْتَقْصًى .

٩٩

وقال آخرُ :

١ ـ فَلَسْتُ بِنَازِلٍ إلاّ أَلَمَّتْ بِرَحْلِي أو خَيَالَتُها الكَذُوبُ(١)

حَذَفَ مفعولَ نازلٍ لأنّ المرادَ مفهومٌ ، كأنّه قال : لا أنزِلُ مَنْزِلاً . ومِثلُه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ فَذُوقُوا بما نَسِيتُمْ لِقَاءَ يومِكُمْ هذا ﴾ ، أي العذاب . والإلمامُ : زيارةٌ لا لَبثَ معها . يقول : لا أنزِلُ مَحلاًّ إلا رأيتُ هذه المرأة مُلِمّـةً برَحْلِي ، أي متصوِّرةً لي بهذه الصورة ، تشوُّقاً مِنِّي وتَحَفِّيًا . هذا في حالِ اليقظة وعند فراغ البال والاشتغال بحال النفس . أو رأيتُ خيالتَها الكَذُوبَ القليلةَ الوَفاء إذا نِمْتُ . ويقال خَيَالٌ وخَيَالَةٌ ، كما يقال مَكانٌ ومَكانَةٌ . وجعَلَها كذوباً لمّا لم يَتحقّق فِعْلُها وقولُها . والمعنى : إنِّي لا يُخْلِينى منها لا النوم ولا اليقظة ، ولا يَلفِتُني عنها لا الرَّخاء ولا الشِّدة ، وفي هذه الطريقة قول امرئ القيس :

تَنَوَّرْتُها من أذْرِعاتٍ وأَهْلُها بيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِها نَظَرٌ عالِ

وقال الأصمعيّ في قول الآخر :

أَلبْسَ بصيرًا مَن رأى وهو قاعِدٌ بمكةَ أهلَ الشـام يَختَبِزُونا

هو على التَّشوُّف والتَّحَفِّي .

٢ ـ فَقَدْ جَعَلَتْ قَلُوصُ أُبَنَيْ سُهَيْلٍ مِنَ الأَكْوَارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ(٢)

(١) ابن جني : « عطف على المضمر المرفوع المتصل بغير توكيد ، ولو أكد فقال ألمت هي لكان حسنا ، غير أن الكلام طال بقوله : برحلي ، فناب طوله عن توكيده ، كما أن قول الله تعالى : ما أشركنا ولا آباؤنا ، لما طال الكلام فيه بلا » .

(٢) البيت من شواهد الخزانة (٤ : ٩٢) . ويروى : « ابني زياد » .

جَعَلَتْ هاهنا بمعنى طَفِقَتْ وأقبَلَتْ ، ولذلك لا يتعـدَّى . والقَلوص : الفَتِيَّةُ من الإبِل ، ومَرْتَعُها قريب فى موضع الحال[1] . يقولُ : أقبَلَتْ قَلُوصُ هٰذين الرجلين قريبةَ المَرْتَع من رِحَالِهم ، قصيرةَ المَسْرَح فى رواحِهم ، لأنه لِمَا لحقَها من الـكَلاَلِ والإعياء ، لم تَقْدِر على التباعُد فى المَرْعى والارتياد .

٣ ـ كأنَّ لَهَا بِرَحْلِ القَوْمِ بَوًّا وَمَا إنْ طِبُّهَا إلَّا اللُّغُـوبُ

يقول : كأنّ لهذه الناقةِ ولَدًا بِرَحْلِ القَوْمِ ، تَتَعَطَّف عليه ، ولا تتباعد عنه ، وما داؤها إلا الإعياء . ومثلُ هذا قولُ الآخَرِ :

من الـكَلاَلِ لا يَذُقْنَ عُودَا لا عُقُلاً تَبْغِى ولا قُيُودَا

والطِّبُّ أصـلُه العِلْم ، والمراد به هاهنا الداء الذى يُعْلَم ويُعْرَف . والبَوُّ ، أصلُه : جِلْدُ فَصِيلٍ يُحْشَى تِبْنًا لتَدُرَّ الأُمُّ عليه .

١٠٠

وقال آخر[2] :

٦ ـ إنْ كنتُ لا أُرْمَى وتُرْمَى كِنَانَتِى
تُصِبْ جانِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِى ومَنْكِبِى[3]

---

(١) التبريزى : « وقال أبو العلاء : ويروى : فقد جعلت قلوص ابنى سهيل . وكثير من الناس يرفع القلوص ، وهو وجه ردىء ، لأن القائل إذا قال جعلت وهو يريد المقاربة لم يكن من إتيانه بالفعل ... وليست جعلت فى هذا الوجه فى معنى المقاربة ، وإنما هى بمعنى صيرت فلا تفتقر إلى فعل ، ويكون قوله مرتعها قريب ، جملة فى موضع المفعول الثانى » .

(٢) التبريزى : « وقال آخر وضرب بنو عم له اسمه حوشب ـ والحوشب : العظيم البطن ـ ويقال إن هذا لجندل بن عمرو » .

(٣) م : « جانحات » فقط . وكتبت فى نسخة الأصل كما أثبتنا لتقرأ « جانحات » و « جانئات » بوضع همزة تحت النون ، وكتب فوقها كلمة « معا » .

هذا مَثَلٌ . والمعنى : إذا لم أُقصَد فى خاصِّ أمرى ، ثم قُصِدْتُ فيمن يَشْمَله عِنايتى ، عاد ذلك القَصْدُ بالشرِّ والمَساءةِ علىَّ ، وصرتُ كأنى أنا المقصودُ . و « الجائحاتُ » : المائلاتُ ، ورَوَى بعضهم « جائحاتُ النَّبْلِ » وهى للمستأصِلات المُهْلِكات . ويقالُ جاحَهُ واجتاحَهُ بمعنًى . وليست هذه الرواية بجيِّدة ، لأن الغرضَ ما ذكرْتُه من أنّ من يَمَسُّه أمرُه إذا قُصِد كان كنَفْسِه . فإن قيل : فلِمَ خَصَّ الجائحاتِ ؟ قلتَ : المرادُ فيما ضربَ المَثَلَ له : إنِّى رُميتُ[1] إذا رُميتِ الجَعْبَةُ المعلَّقة[2] علىَّ ، لأن بعضَ السِّهامِ يصيبه وبعضها يصيبنى . وإذا كان كذلك فلا بد من ذكر الجائحات . و « النَّبْلُ » : اسمٌ صِيغَ للجمع . والكِنانَةُ : ما يُغطَّى به الشىء فى الأصل ، واختُصَّ بها الجَعْبة وهو من الكِنِّ ، كالسِّتارةِ من السَّتْرِ . وفى القرآن : ﴿وقالوا قُلُوبُنا فى أكِنَّةٍ﴾ . وقد فُصِل بين كَنَنْتُ واكتَنَنْتُ ، فجُعل اكتَنَنْتُ لما يُضْمَرُ فى القَلْبِ من الحديث والسرّ ، وكَنَنتُ لما يُستَرُ بشىء . وذكر الدُّريدىُّ أن الكِنانَةَ لا يكون إلا للنَّبْل ، ويكون من أَدَمٍ ، فإذا كانت من خَشَبٍ فهو جَفِيرٌ ، وإن كانت من قطعتين مقرونتين فهى قَرَنٌ ، والجَعْبَة تكون للنَّبْل والنشَّاب جميعا .

٢ — أَفِيقُوا بَنِى حَزْنٍ وأَهْواؤُنا مَعًا   وأَرحامُنا موصولةٌ لم تُقَضَّبِ[3]

يقول : اصحوا بَنِى حَزْنٍ من سَكْرةِ جَهْلِكم ، وانتبهوا من رَقْدةِ

(١) م : « إنى مرمى » . (٢) فى الأصل : « المعلقة » ، صوابه فى م .

(٣) روى قبله التبريزى :

فقلْ لبنى عمى فَقَدْ وأبيهمُ   مُنُوا بهَرِيت الشِّدقِ أشوسَ أغلبِ

وفى تفسيره : « الهرت : سعة الشدق . ويقال منى له كذا ، أى قدر له كذا . وقوله : منوا ، أى بلوا بمن هذه صفته ، وهى من صفات الأسد » . وروى بعده :

ولا تَبعثُوها بعد شدِّ عِقالها   ذميمةَ ذِكرِ الغِبِّ فى المتعقَّبِ

وفى تفسيره : « هذا مثل ، أى لا تبعثوا الحرب بعد السلم » .

غفلتكم ، الأهواء بعدُ متفقةٌ ، وأسبابُ الرَّحِمِ موصولةٌ ، لم يتسلّط عليها العُقوق ، ولم يقطَعْها الجَفاءُ والنُّبُوُّ . والمعنى : كُفُّوا عما أنتم عليه من سيِّئات التقاطع والتدابُر ، قبل تفاقُمِ الخَطْبِ ، واستفحال الشأن . والقَضْبُ : القَطْعُ ، ومنه قيل للسيفِ المِقْضَبُ والقَضِيب . وقولُه « معًا » فى موضِعِ الخَبَر ، أى مجتمعةٌ .

٣ ـ فإنْ تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَميمَةً قَبيحَةَ ذِكْرِ الغِبِّ للمُتَغَبِّبِ

يقول : إن هَيَّجتُمُ الحَرْبَ هيَّجتُمُوها مذمومةً قبيحة ذِكْرِ العاقبةِ لمن يتتبَّع العواقِبَ فيتدبَّرُها ، ويتعهدُ المصايِرَ فيتأمَّلها . ويقال تغبَّبْتُ الأمرَ كما يقال تعقَّبتُه ، أى تفقَّدْتُ عاقبته وغِبَّهُ . والغِبُّ أصلُه فى ورود الماء والزِّيارة ، وهو يَنُوبُ فى أسماءِ الأظْماءِ وغيرِها عن الثِّلْثِ . فأما قولهم : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » فالمُهلةُ فيه أوسَعُ .

٤ ـ سآخُذُ منكم آلَ حَزْنٍ لحوْشَبٍ وإن كان مَوْلًى لى وكنتم بَنى أَبِي

إنما قال هذا لأن بنى عمِّهِ ضربوا مولًى له ، فيقول : سأنتقمُ منكم يا آلَ حَزْنٍ وإن كنتم بنى أعمامٍ ، وكان حَوْشَبٌ مولَى محالفةٍ وجِوارٍ . وفى طريقته قول الآخر :

فإن غَضِبَت فيها حَبيبُ بنُ حَبْتَرٍ فخُذْ خُطَّةً تَرْضاكَ فيها الأباعِدُ

وروى بعضُهم : « وإن كان موْلائى وكُنتُمْ » ، والبصريُّون لا يجوِّزون مدَّ المقصور ، لأنه إدخالُ زيادةٍ على كلامِهم ، ويجوّزون قصْرَ الممدود ، لأنه حذْفٌ للتخفيف ، وردٌّ إلى الأصل(١) . وحوْشَبٌ عند النحويِّين أنه

(١) التبريزى : ويروى : « وإن كان مولاى وكنتم بنى أبى . على الزحاف الذى هو الكف ، وليس فى الحماسة بيت مكفوف غيره . ويروى : مولى لى ، فعلى هذا يسلم من الزحاف . والأولى أشبه بطريقة الشعراء . ألا ترى أنهما معرفتان مضافتان : مولاى وبنى أبى » . قلنا : والرواية بالكف هى رواية ابن جنى فى التنبيه .

[مما(١)] لم يجئ إلا بزيادة الواو ، وأنه مثلُ كوكب . وحَكَى الخارزَنجيُّ أن حَشَبًا اسمُ رجُلٍ ، وأنه يقالُ أحْشَبَنى كذا ، أى أحشَمَنى(٢) .

١٠١

وقال جَمِيلٌ(٣) :

١ — أَبُوكَ أَبُوكَ أَرْبَدُ غيرَ شَكٍّ ... أَحَلَّكَ فى المَخازِى حَيْثُ حَلاَّ

ارتفع أبوكَ بالابتداءِ ، وكرَّره تأكيداً ، وأَرْبَدُ بدَلٌ منه ، وخَبَرُ المبتدأ أحَلَّكَ . وانتَصَبَ « غيرَ » على المَصدرِ ، وهو مما يؤكَّدُ به ما قبله . ومِثلُه حَقًّا وما أشبَهَهُ . والمعنى أنّ لُؤْمَ أبيه موروث ، وأنه اقتداءً بسَلَفِه قد أنزَلَ ابنَه مَنزِلَه فى المخازى والقبائح ، حَقًّا لا مِرْيةَ فيه .

٢ — فَمَا أَنْفِيكَ كَىْ تَزْدادَ لُؤْمًا ... لِأَلْأَمَ من أبيـــك ولا أَذَلاَّ

يقول : لا أبرِّئُكَ من أبيك طَلَبًا لأنْ أنْسُبَك إلى من هو أَلْأَمُ منه وأذَلُّ لتزدادَ ذُلاًّ ولؤما ؟ لأنَّ أباكَ النهايةُ فى هذين . وانْتَصَبَ « لُؤْمًا » على التمييز ، واللام من « لألأم » تعلَّق بفعْلٍ مُضمرٍ ، كأنه قال : ما أَنفيك من أبيك وأدعُوكَ لألأمَ منه ، لأنهُ إذا نَفاه من أبيه فقد جعله لغيرِه . ويجوز أن يُحمَلَ الـكلام فيه على المعنى ، فيُتَصَوَّرَ أَنفِيكَ بأدْعُوكَ ، ويُعَدَّى تعدِيتَهُ . ومِثْلُهُ

---

(١) هذه من م فقط .

(٢) م : « أحشبنى كذا فى معنى أحشمنى ، أى أغضبنى » .

(٣) عند التبريزى وابن جنى : « وقال آخر » وعكس الأمر فى المقطوعة التالية ، إذ نسبها التبريزى إلى جميل ، على حين نجد عبارة الإنشاد فيها فى النسختين : « وقال آخر » . وهو جميل بن عبد الله بن معمر ، أحد عشاق العرب المشهورين ، وصاحبته بثينة ، وهما جميعا من عذرة . وجميل شاعر إسلامى معاصر لجرير والفرزدق وكثير عزة . الشعر والشعراء ٤٠٠ — ٤١٢ والأغانى (٧ : ٧٢ — ١٠٤) والمؤتلف ٧٢ ، ١٦٨ وابن سلام ٢٠٨ والخزانة (١ : ١٤٣ — ١٤٦) وابن خلكان فى رسمه .

قولُ الله عزَّ وجلّ : ﴿ هَلْ لكَ إلى أن تَزَكَّى ﴾ . وعلى هذا يُحمل قول الفرزدق :

* قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي [1] *

لمّا كان مَعْناهُ صَرَفَهُ اللهُ عَنِّي . ومن أبيات الـكتاب [2] :

إذا تَغَنَّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجَنِي ولو تَعَزَّيْتُ عَنْها أمَّ عَمَّارِ [3]

لأنه تُصَوِّرَ هَيَّجَنِي أنه ذَكَّرَني ، فعُدِّى تعديتَه .

١٠٢

وقال آخر [4] :

١ — أبوكَ حُبابٌ سارِقُ الضَّيْفِ بُرْدَهُ وجَـدِّيَ يا حَجَّاجُ فارِسُ شَمَّرَا

يقول : أبوك الذى سَرَق بُرْدَ ضَيْفِهِ وغَدَرَ به وخانه ، وجدّى فارس هذا الفَرس المعروف . وسارِق الضيف بُرْدَهُ ، أصله سارِقُ بُرْد الضَّيْف ، لـكنه أضافَهُ إلى الضَّيف بناء على قولهم سَرَقتُ الضَّيْفَ بُرْدَهُ ، والمراد سَرَقتُ من الضَّيف ، لـكنه لما حَذف الجارّ تخفيفاً وصَل الفِعْل فعمل فيه ، ثم أضاف اسم الفاعل إليه . وعلى هذا يقال اخترتُ الرِّجالَ زَيداً : وشَمَّرُ فِعْلٌ فى الأصل سُمِّى به الفَرَسُ ، لأنه ليس فى الأسماء شىءٌ على فَعَّلِ . ومثله خَضَّمُ ، وهو لَقَبٌ للعَنْبَرِ بن مازن [5] . وحُبَابٌ يجوز أن يكون بَدَلاً وسارق الضيف خبَرًا ،

(١) ديوان الفرزدق ١٨١ . قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد . وقبله :

* كيف ترانى قالبا مجنى *

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٤) .

(٣) للنابغة الذبيانى من معلقته فى رواية جمهرة أشعار العرب ٥٣ . والرواية فيها : « واو تغربت » ، وكذا فى كتاب سيبويه .

(٤) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « قال جميل » .

(٥) التبريزى : « وشمر اسم فرس ينشد بفتح الشين وكسرها ، فإذا فتحت الشين فهو مسمى بالفعل الماضى ، كما سمى الرجل خضم لكثرة أكله ... وإذا كسرت الشين فهو اسم فعل ، مثل الإمر والهلع ، ويجب أن يكون على هذا الوجه اسم فرس أنثى ، وهو علم المؤنث كامرأة نسميها بقنب ودنب . هذا ما ذكره أبو العلاء فى هذه الكلمة » .

ويجوز أن يكون حُبَابٌ خَبَرًا وسارقُ الضيف صفَةً ، وهذا أجود حتى يكون فى مقابلة فارس شَمَّر . كأنَّ المرادَ : أبوكَ المعروف بذا الاسم ، وجَدِّى المعروف بِذَا . ورواه بعضهم « فارس شِمَّر » بكسر الشين ، وقال : هو عَلَمٌ مؤنث مثل امرأة تُسَمِّيها قِنَّب ودِنَّب .

٢ـ بَنُو الصَّالحين الصَّالِحونَ ومن يَكُنْ لآباءِ صِدْقٍ يَلْقَهمْ حَيْثُ سَيَّرَا

كما فضَّل جَدَّه على أبيه فى البيت الأوَّل فضَّل نفسه عليه فى البيت الثانى . والمعنى أنَّ المرء يتقيَّل أباه ، فإذا كان جَدِّى صالحاً فأنا صالح ، وإذا كان أبوك صالحاً فأنت صَالحٌ . وقوله « ومن يَكُنْ لآباء صِدْقٍ » يُرِيدُ من كان وَلَدَ آباء كِرامٍ عُرِف بهم حيث ذهب ، ولقيهم أنَّى سارَ وظَعَن . واللام دَخلَ فى قولِهِ لآباء صِدْقٍ لهذا المعنى . ومِثالُه :

لِئِنْ كانَ للقَبْرَيْنِ قَبْرٍ بِجِلَّقٍ وقَبْرٍ بصَيدَاءَ التى عِنْدَ حَارِبِ[1]

أى إن كان وَلَدَهما . وصِدْقٍ يُضَاف إليه الواحد والجمع ، والمؤنث والمذكَّرُ ، ويُرَادُ به المَدْح . فإذا قُلْت ثَوْبُ صِدْقٍ ورجال صِدْقٍ ، فالمعنى نِعْمَ الشىء ذاكَ ، أى هو صادِقٌ فيما يُحْمَدُ فيه لا كاذبٌ . وإذا أَرَدْتَ أن تجعلَهُ نعتاً فتحتَ الصَّادَ منه فقلتَ : هو الرَّجُل الصَّدْق ، ويُثَنَّى ويُجْمَع ويُؤَنَّث . قال :

* مَقْذُوذَةُ الآذان صَدْقاتُ الحَدَقْ[2] *

٣ـ فإنْ تَغْضَبُوا من قِسْمَةِ اللهِ حَظَّكُمْ فَلَلّهُ إذْ لم يُرْضِكُمْ كان أَبْصَرَا

يقول : إن تسخَّطتم ما قَسَمَهُ الله ، تَعَالَى جَدُّه ، لَكُم ، وجعلَه نصيبَكم ،

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ص ٣ .

(٢) لرؤبة فى ديوانه ١٠٤ واللسان (صدق) .

فَلَنَّهُ كانَ أعْلَمَ بكم وبقدر استحقاقكم ، لمَّا لم يَرَكم أهلاً لأكثر منه . والمعنى : إنّ ما حَصَلْتُم عليه من البَخْس فى القِسْمَةِ ، والنَّقْصِ من المَقْدُرَةِ . والتأخُّر فى المنزلة ، حِكْمَةٌ من الله عزّ وجلّ ونَصَفَةٌ ، ولو زاد مستحقُّكُمْ عليه لأعطاكم ، فإنّه العالِمُ الحكيمُ فى أفعالِه وأقضيته . والبصير فى صفة الله ، تحقيقُه العالِمُ .

١٠٣

وقال أبو النَّشْنَاش[١] :

١ ـــ إذَا المَرْءُ لم يسْرَحْ سَوَامًا ولم يُرِحْ سَوَامًا ولم تَعْطِفْ عليْه أَقَارِبُهْ[٢]

يُقالُ سَرَحْتُ الماشيَةَ ، إذا أخرجْتَها بالغَدَاةِ إلى المرعَى ؛ وأرَحْتُها ، إذا ردَدْتَها بالعشِيّ . فإن قال قائل : لِمَ قال « ولم يُرِحْ سَوَامًا » والنَّكِرَةُ إذا أُعِيدَ ذِكْرُهَا يجِبُ تعريفُها ، بدَلالة أنّك تقول رأيت رجُلاً بمكان كذا ، فقال لى الرجل كذا ؟ قلتَ : يجوز أن يكون نَكَّرَهُمَا لأنَّهُ تَصَوَّرَ المُرَاح بما دَخَلَهُ من التناقُص والتزايد ، [بالأخذِ[٣]] منه والرَدِّ إليه غيرَ المَسْرُوح ، وإذا كان كذلك فالثَّانى غير الأول . ويجوز أن يكون السَّوَامُ الثانى غير الأول ، وذاك أنَّ المُكْثِرين منهم كانوا يأمرون رِعاءَهم بأن يقتَضِبوا قِطعةً من المال كيفَ اتفقت[٤] ، ليحبِسُوهَا على الحُقُوق العارِضة ، سِوَى المُؤَنِ اللازمة ، فكانت الغادية لما يقيمونها من النُّوَبِ

(١) كان أبو النشناش من لصوص بنى تميم ، وكان يعترض القوافل فى شذاذ عن العرب بين طريق الحجاز والشام ، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده ، ثم هرب فلقى فى طريقه غرابا على شجرة بان ، ينتف ريشه ، فلجأ إلى رجل من بنى لهب فقال له : إن صدقت الطير يعاد إلى حبسه وقيده ويقتل ويصلب . فقال أبو النشناش هذه الأبيات . الأغانى (١١ : ٤٢-٤٣) .

(٢) الأغانى : « ولم يبسط له الوجه صاحبه » .

(٣) التكملة من م والتبريزى .

(٤) فى الأصل : « اتفقها » ، صوابه فى م .

فى ذلك غير الرائحة ، والرائحةُ غير الغاديةِ . وإذا كان كذلك فالسؤال ساقط . والمَعْنَى : إذا الرَّجُل لم يَـكُنْ ذا مَالٍ يُسْرَحُ بَعْضُه ويُرَاحُ عليه بَعْضُهُ ، على حَسَبِ ما يتَّفق ، ولم يَـكُنْ لَهُ أقارِبُ يتعطَّفُون عليه ويَرَون من الفُروض(١) الواجبةِ الإِحسانَ إليه ، فالمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ . وجَوَاب إذا فى البيت الثانى . ويجوز أن يكون المُرَاد بقوله ولم تَعْطِفْ عليه أقارِبُه تَعَطُّفَ النُّصْرَة والإِعزاز ، فيكون المعنى إذا لم يكن غنِيًّا ولم يكن مؤيَّدًا بذوِيه فيعتزُّ بهم ، فالموتُ أَصْلَحُ لَهُ من الحياة . وهذا المعنى أحسَنُ .

٢ — فَـلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلفَتَى من قُعُودِهِ عَدِيمًا ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقَارِبُهْ(٢)

فلَلموت جواب إذا ، لتضمُّنِه معنى الجزاء . يقول : إذا الرجل لم يَـكُنْ على ما وصفْتُ فورُودُ المَوت عَلَيْهِ خَيْرٌ له من قُعُوده راضيًا بفَقْرِه ، وبإفضال مَوْلًى يؤْذيه بالمَنِّ ، ولا يُخَلِّصُ النعمةَ عِنْدَهُ من الشَّوائب . ودبيبُ العقاربِ كِنَايَةٌ عن فِعْلِ الأذَى والتَّحمُّدِ بالـكلمات المُـكدِّرةِ . وانْتَصَبَ « عديمًا » على الحالِ . ويجوز أن يكون المعنى فى قولِه « ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عقارِبُه » أن يَحْصُل الفسادُ بين العشيرة ، والتَّدابُرُ والاختلاف ، فكُلٌّ يَقْصِدُ صاحبَه بالمَسَاءة ، ويَبْغِى له الغوائل . وهذا المَعْنَى يَتَلَاقَّقُ مع المعنى الثانى فى البيت الذى قَبْلَه .

٣ — ونائيَـةِ الأَرْجاءِ طَامِسَةِ الصُّوَى خَدَتْ بأبِى النَّشْنَاشِ فيها رَكائِبُهْ(٣)

انجرّت « نائية » بإضمار رُبَّ ، والواو داخلةٌ للعطف ، ولم يَصِرْ بدلاً من رُبَّ

(١) م : « الفرائض » .
(٢) الأغانى : « تعاف مشاربه » .
(٣) الأغانى : « ودوية قفر يحار بها القطا » . وبعد البيت عند التبريزى :

لِيَـكْسِبَ مَجْدًا أو لِيُدْرِكَ مغْنَمًا جزيلا وهذا الدَّهْرُ جَمٌّ عَجَائِبُه

وعند أبى الفرج :

ليدركَ ثأرًا أو ليـكسِبَ مغنماً ألا أن هذا الدَّهرَ تترى عجائبُه

بدلالة وقوع الفاء العاطفة موقعه وبل فى نحو :

* فمثلك حبلى قد طرقت[١] *

و : * بل بلدٍ ذى عُقَدٍ وإحْبابِ[٢] *

يقول : ورُبَّ مفازةٍ بعيدة الأطراف ، دراسةِ الأعلام ، سارت بأبى النشناش فيها رواحِلُه يَطلُبُ المالَ ، ويكتسبُ المجدَ . وهذا الكلامُ تبجُّحٌ منه بأنَّهُ لم يتَّخِذ الفقرَ ضجيعا ، ولا الدَّعَةَ حليفًا ، بل رَمَى بنفسه نحو المرامى المُتلِفَةِ ، وطوَّحَها فى المَوامِى المُعْطِبَةِ . والأرجاء واحدُها رَجًا . والطَّامِسُ : الدَّارِس . ويقالُ طَمَسَ وطَسَمَ . والصُّوَى : الأعلام ، والواحدة صُوَّةٌ ، ومِثْلُه قُوَّةٌ وقُوًى . ومعنى خَدَتْ : أسْرَعَتْ ، ومَصْدَرُه الخَدَيان . والركائبُ : جَمْع الرَّكُوبة ، وهى المركوبة ، ولا يَتْبَعُ الموصوف ، بل يُسْتَعْمَل على انفرادِها ، ومِثْلُها الحَلُوبَةُ .

٤ ــ وسائلةٍ بالغيبِ عنِّى وسائلٍ ومَن يَسأَلُ الصُّعلوكَ أين مذاهِبُهْ[٣]

يقول : رُبَّ رجُلٍ وامرأة سألاَ عنِّى بظَهْرِ الغيْبِ ، لما تداخَل القلوبَ من هَيبتى ، والإشفاقِ من وَقعَتِى . ثم قال مستفهمًا على طريق الإنكار : ومَن يسأل الصعلوكَ ، أى يجب ألاّ يُسأَلَ الصعاليكُ عن مذاهِبهم وطُرُقِهم ، لأنها لا تُعْلَم ، إذ لم يكُن يستقرّ بهم موضعٌ ، ولم يكن يَحْوِيهم بَلَدٌ ومَذهَبٌ يلزَمونَه أو يختصُّون به . وكان وَجْهُ الكلامِ أن يقولَ : ومن يَسألُ عن الصُّعلوك ليكون وَفْقَ قوله « وسائلةٍ بالغَيْبِ عنِّى » ، لكنه عَدَلَ عنه إلى ما قالَهُ تأكيداً للمراد ، وذلك أنه إذا كان سؤالُ نفسِه عن مَذهَبِه مُنْكَرًا لاستبهامه عليه ، فسؤال غيره عنه أبعدُ من الصواب .

(١) لامرئ القيس فى معلقته ، وهو بتمامه :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

(٢) فى م : « بل بلدة » فقط . وعند التبريزى : « بل بلد » فقط .

(٣) الأغانى : « وسائلة أين ارتحالى » .

٥ — فلم أَرَ مِثلَ الفَقْرِ ضاجَعَهُ الْفَتَى ولا كَسَوادِ الليلِ أَخْفَق طالِبُهْ

يُرْوَى « مِثلَ الهَمِّ » ، هو مَصدَرُ هَمَمْتُ بالشيء ، أى إذا همَّ يجب عليه أن يُنفذَه ولا يؤخِّرَه . ويقول : لم أرَ كالفقر يتخذه الفتى ضَجِيعًا ، أى يَرْضَى به ويلزومه له ولم أَرَ كسوادِ الليل أكدى رَاكِبُه والطالبُ فيه . والمعنى : يجب ألا يحصُلَ واحدٌ منهما ، لا الرِّضا بالفقر ، ولا الإخفاق مع رُكوب الليل . ويقال ضَجُع ضَجْعًا وضُجُوعًا واضطجع بمعنًى واحد ، ومنه قيل للعاجز الضُّجْعِيُّ والضجْعَةُ . وتُسمَّى الكواكبُ التى لا تسير : الضَّواجع . والإخفاقُ : أن يَغزُوَ فلا يغنم ، أو يرجوَ فيَخيب . قال عنترة :

فيُخْفِقُ مَرَّةً ويُصِيبُ أُخْرَى ويَفْجَعُ ذا الضغائن بالأريب

وقولُه « أَخفَقَ طالبُه » ، أى الطالب فيه . وهذا من إضافة الشيء إلى الشيء لكونه فيه .

١٠٤

وقال آخر(١) :

١ — ألاَ قالَتِ الخنْساءُ يومَ سُوَيْقَةٍ
عَهِدْتُكَ دَهْرًا طاوِىَ الكَشْحِ أَهْضَمَا

يقول : قالت هذه المرأة يومَ اجتماعنا فى سُوَيْقَةٍ : عهدتُك زمانًا ممتدًّا صغيرَ البطنِ ، مطويَّ الكَشْحِ والجَنْبِ . وإنما أنكرتْ سِمنَهُ وكثرةَ لحمه ، فأجابها بالبيت الثانى . والهَضَمُ : انضمامُ الضلوع ، وتقارُب الجَنْبَيْن .

٢ — فإمَّا تَرَيْنِى اليَوْمَ أَصْبَحْتُ بادِنًا لَدَيْكِ فَقَدْ أُلْفَى على البُزْلِ مِرْجَما

(١) وردت هذه الحماسية عند التبريزى بعد المقطوعة التالية إذ تقدمت المقطوعة التالية عليها عنده .

يقول : إن كنتِ تريني اليَوْمَ — وهو إشارةٌ إلى يومِهِ وما يَقْرُبُ منه — أصْبَحْتُ مُثْقَلَ النفس ، مُبَدَّنَ الخَلْقِ لديك ، أى فى مَنْظَرِكِ ومُعْتَقَدِكِ ، فإنى إذا رَكِبتُ البُزْلَ وُجِدتُ عليها مِرجما . والمِرْجَمُ : الذى كأنه آلةٌ فى رَجْمِ الأرض بأخفاف الإبل ووطء الأقدام . وينتصب « مِرْجما » على الحال . وقيل المِرْجَمُ فى السَّفَرِ : البعيد فى الغاية . وكما قيل رَجُلٌ مِرْجَمٌ ، قيل يَدٌ مِرْجَمٌ ، ورِجْلٌ مِرْجَمٌ ، ولسانٌ مِرْجَمٌ ، قال الشاعر :

* شَدِيدُ الرِّجَامِ باللسان وباليدِ *

و « إمَّا » ، فى أكثر الأحوال يلزَمُ الفعلَ الواقع بعده إحدى النونَيْن الثقيلة والخفيفة ، لأنَّه كما أُكِّدَ حرفُ الشرط بـ « ما » أُكِّدَ الفعل المشتَرَطُ به بالنُّون أيضاً . وهاهنا جاء خالياً من النون .

١٠٥

وقال آخر(١) :

١ — أَلاَ قَالَتِ العَصْمَاءُ يَوْمَ لَقِيتُها أَرَاكَ حَدِيثًا نَاعِمَ البَالِ أَفْرَعَا(٢)

هذا فى طريقة ما قبْلَهُ . فيقول : قالت هذه المرأة لما التقيت معها : أعلَمُكَ عن قريبٍ ناعِمَ الحال ، تامَّ شَعَرِ الرأس ، لم يتسلَّطْ عليك صَلَعٌ ، ولا حدثَ انحسارُ شَعَرٍ ، ولا شُحُوبُ لَوْنٍ ، فكيف تغيّرتَ مع قُرْبِ الأَمَدِ . وانتصب « حَدِيثاً » على الظرفِ . وناعمَ البال ، مفعولٌ ثانٍ من أراكَ . والأفرعُ : التَّام شعر الرأس ، وجَمْعُه فُرْعَانٌ . والأصْلَعُ خِلافُه .

(١) انظر ما سبق من الكلام على الترتيب فى الحماسية السابقة ، وقد روى هذه الحماسية صاحب الخزانة (١ : ٤٨٢) ، وذكر أن أحداً لم يعرف نسبتها .

(٢) وقع هذا العجز فى شعر متمم بن نويرة فى قصيدته التى رثى بها مالكا :

تقول ابنة العمرى مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أفرعا

المفضليات (٢ : ٦٨) .

٢ ـ فَقُلْتُ لَهَا لا تُنْكِرِينِي فَقَلَّ مَا   يَسُودُ الفَتَى حَتَّى يَشِيبَ ويَصْلَعَا

يقول : أجَبْتُهَا وقُلت : لا تستنكِرِى ما رأيتِ من شُحُوبِ لونى ، وانحسار الشعَرِ عن رأسى ، فما ينالُ الفتى السِّيادة حتى يستبدِلَ بشَبِيبَتِهِ شَيْبًا ، وَوُفور شعره[1] صَلَعًا ، وإلا بعد استحكامِ الرأى ، واستنفاد العُمْر فى اكتسابِ المَجْدِ . وقَوْلُه « قَلَّ ما » يفيد النَّفى هنا ، وما تكون كافة اقلَّ عن طلب الفاعل ، وناقلةً له عن الاسم إلى الفعل ، فإذا قلت : قَلَّ ما يقوم زيدٌ فكأنك قُلْتَ ما يقوم زيدٌ . يَدُلّ على ذلك أنّهم قالوا : قَلَّ رَجلٌ يقول ذاك إلا زَيْدٌ ، وأُجرِىَ مجرى ما يقول ذاك إلا زيد ، وقالوا أيضاً : أقلُّ رجلٍ يقول ذاك إلاّ زيد . وأنهم أجرَوْا خِلاَفَهُ مجراه ، فيقول : كَثُرَ ما يقول زيد . وعلى ذلك بيت الكُتّاب :

. . . . وقَلَّ ما   وِصَالٌ على طول الصُّدُودِ يدوم[2]

ويجوز أن يكون « ما » من قَلَّ ما يسود الفتى ، مع الفعل فى تقديرِ المَصدَر ، كأنه قال : قَلَّ سِيَادَةُ الفتى ، أى ينْزُرُ استكمالُها إلاّ مَعَ هذه الحالة . ومِثْلُه قولُ لَبيدٍ :

قَلَّ ما عَرَّسَ حَتَّى هِجْتُهُ   بالتَّباشِيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ

لأنه ليس يريد نَفْىَ التَّعْرِيسِ رأساً ؛ إذْ كان يعتادُه قُطَّاعُ الفَلاَةِ ، ورُكَّابُ الظلام ، بل يريدُ عَرَّس تَعرِيسًا قليلا فَهِجْتُهُ . ويقال : صَلِعَ صَلَعًا وصُلْعَةً ، وهو أَصْلَعُ وَصَلِيعٌ .

٣ ـ ولَلْقَارِحُ اليَعْبُوبُ خَيْرٌ عُلاَلَةً   من الجِذْعِ المُرْخِى وأبْعَدُ مَنْزَعَا

هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ فى تفضيل نفسه على شيخوخَتِهِ وقد أَدَّبَهُ الكِبَرُ ، ونازَعَ

(١) فى الأصل : « ووفور شيبه » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « وصال يدوم على الصدود » ، صوابه فى م وسيبويه (١ : ١٢ ، ٤٥٩) . ونسبة سيبويه إلى عمر بن أبى ربيعة ، والشنتمرى إلى المرار الفقعسى . وصدره : * صددت فأطولت الصدود وقلما *

الدَّهْرَ وأبناءَهُ أطرافَ الخطُوبِ، ومرائر السِّيادة والعُلُوِّ على الأحداث الذين لم يجربوا الأمور، والأغمار الذين لم يُجاذِبُوا الشدائد، فيقول: للفرسُ المُتَناهى فى القوَّةِ والسِّن، الذى يجرى جِريَةَ الماءِ سُهُولَةً ونفاذًا، خَيْرٌ إبقاءً وأبْعَدُه غاية من ابن سنتين وهو مُهْمَل لم يُسْتَغْنَ به فى رُكوبٍ ونزُول، ولم يُرَضْ[1] بإسراجٍ وإلجام. واليعبوب: الفرس الكثير الجرى[2]، والجَدْوَلُ الكثير الماء. والعُلَالَة: البقيّة من الجَرْى وغيره، وهاهنا يريد الجَرْى. قال الشاعر[3]:

إلاّ عُلالَةَ أو بُدَا هَةَ سابحٍ نَهْدِ الجُزَارَهْ

فالبْداهةُ: أوّل الجَرْيِ، والعُلالةُ: آخِرُه. وقولُه «من الجَذَع المُرْخى» يُرْوَى المُرخى بكسر الخاء، والإرخاء: لِين فى العَدْو. قال:

* وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريب تَتْفُلِ[4] *

وإذا رُوِىَ بفتح الخاء فهو المُرْسَلُ المُهْمَل النَّزوع إلى الغاية. وانتصاب «عُلالة» و «مَنْزَعًا» على التمييز.

١٠٦

وقال شبيب بن عَوانة[5]:

١ ــ قضَى بيننا مَرْوانُ أَمْسِ قضيَّةً فما زادَنا مَرْوانُ إلا تنائيَا

(١) م: «ولم يؤدب».
(٢) كذا فى م. وفى الأصل: «الكريم الجرى».
(٣) هو الأعشى. ديوانه ١١٤.
(٤) لامرئ القيس. وصدره:
* له أيطلا ظبى وساقا نعامة *
(٥) التبريزى: «قال أبو هلال: ورواه بعض علماء البصرة للكروس الطائى، وهو الكروس بن زيد بن الأخزم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة ــ وفطرة هو جديلة ــ. وخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم، فحبسه مروان.

يقولُ : قَضَى بيننا هذا الرجل بحكومةٍ تَسخَّطْناها ، ولم نَرْضَ بها ، إذ لم يُقْصَد بها صَلاحُ ذاتِ البَين ، ولا تلافى جَمْع الشَّمْل ، فازددنا بها تَبايُناً عن الاصلاحِ والمراجعة واختلافاً وتنائيًا عن الالتئام والموافقة وتباعُدًا . وقوله « أمْسِ » تقريبٌ لزمانِ فِعْلِه ، ولم يُرِدِ اليومَ الذى وَلِيَ يوْمَه . وهذا كما تقول : فلانٌ بالأمْسِ يَفعل كذا وأَمْسِ مَعرِفةٌ ، وإنما بُنِيَ لتضمُّنِه معنى الألف واللام .

٢ — فلو كنتُ فى الأرْضِ الفضاءِ لَعِفْتُها ولـكن أَتَتْ أَبوابُه من وَرائيا[1]

يقول : لو كنت بالبَدْوِ لرددْتُ حكومتَه وأبديْتُ كراهتى لها ، ولـكنى كنت أسيرًا إذ كنتُ فى الحَضَرِ حاصلاً فى داره ، وداخلاً تحت مَلَـكَتِه . ومعنى « أتَتْ أبوابُه من ورائيا » أى حالت مَسالِحُه ومراصِدُه بينى وبين مرادى . ووراء بمعنى قُدَّامَ هنا ، ومِثْلُه فى القرآن : ﴿ وكانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ .

١٠٧

وقال جميل[2] :

١ — فَلَيْتَ رِجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دَمِى وهَمُّوا بِقَتْلِى يا بُثَيْنَ لَقُونى

فيكِ أى فى معناكِ وبسببك . وقولُه « قد نَذَرُوا » من صِفة رِجالاً ، ولقُونى خَبَر لَيْتَ . والمعنى تمنَّيتُ أنّ رجالا فعلوا فى معناكِ ما فعلوا من الهَمِّ بقتلى ، وعَقْدِ النَّذْر فى سَفْك دمى ، التقوا معى ، ماذا كانوا يفعلون . وفى هذا الـكلام إيهامٌ أنهم لا يَجْسُرون على التعرُّض له ، وفيـه استهانةٌ بأقوالِهم

(١) م والتبريزى : « بالأرض الفضاء » .

(٢) فى الأصل : « وقال آخر » وأثبت ما فى م . وعند التبريزى : « وقال جميل بن عبد الله بن معمر العذرى » . وقد سبقت ترجمة جميل فى الحماسية ١٠٢ .

ومكايدهم ، وإن كانوا قد بَذَلوا من القَولِ ما بَذَلوا ، وأَضمرُوا فيه ما أضمروا . وقد فسَّرَ تهَيُّبَهُم له ، ونُكوصَهم عن الإقدام عليه فى البيت الثانى .

٢ — إذا ما رَأَوْنى طالعًا من ثَنِيَّةٍ يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

يقولُ : إذا ما أبصرونى[1] مُقْبِلاً عن عَقَبَةٍ ، طالعًا عليهم من طريقٍ إليهم مُفْضِيَةٍ ، يتساءلون فيما بينهم بقولهم : مَنْ هذا ، وإن كانوا عارفين بى . أى يتجاهلوننى جُبْنًا وإحجاما .

٣ — يقولون لى أهْلاً وسهلاً ومَرْحَبًا ولو ظَفِرُوا بى ساعةً قَتَلُونى

نَبَّهَ بهذا الكلام على تملُّقِهم وإظهارِهم بالنِّفاق ما لا يوافِقُ باطِنَهُم ، عَجْزًا وضَعْفَ كيدٍ . والمعنى يستقبلوننى بالتأهيل ويتلقَّوْننى بالترحيب عند الالتقاء ، ولو أُعْطُوا الظَّفَر لأتَوْا علىّ وما أبقَوْا .

٤ — فكيفَ ولا تُوفى دِماؤُهُمُ دَمِى ولا ما لُهُم ذو كَثْرَةٍ فيَدُونى[2]

يقال : أوْفيْتُهُ وَوَفَيْتُ له بكذا وأوْفيْتُ ، وفى هذا بيانُ عُذرِهم فى تَرْكِ الوَفاء بالنَّذْرِ ، وتعجُّبٌ من أفعالهم عند اختلاف أحوالِهم . فيقول : كيف يُقدِمون علىّ وليس فى دمائِهِم كلِّهم وفاءٌ بدمى ، ولا فى مالِهم اتّساع ، فإذا عَجَزَت دماؤهم عن دمى فكيف يُعْطُونَ دِيَتى .

ويقال وَدَيْتُهُ أدِيه دِيَةً ووَدْيا .

---

(١) فى النسختين : « أبصروا بى » .

(٢) التبريزى واللسان (نده) : « دو ندهة » . والندهة ، بفتح النون وضمها : كثرة المال .

١٠٨

وقال يحيى بن منصور(١) :

١ – وَجَدْنا أبانا كان حَلَّ ببَلْدَةٍ سِوًى بَيْنَ قَيْسٍ قَيْسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

سِوًى فى موضع جرٍّ على أنه صفةٌ لبَلْدَةٍ . والمعنى وجَدْنا أبانا حَلَّ ببلْدَةٍ متوسِّطة لديار قيس بن عَيْلان وسَعْدِ بن زَيْدِ مَناةَ . والمعنى حَلَّ بين مُضَرَ ونأى عن ربيعة ، لأنّ قَيْسًا والفِزْر من مُضَر . والفِزْر : لَقَبٌ لسَعْد بن زيدِ مَناةَ . وقال الأخفشُ : سِوًى وسَوَاء فى معنى العَدْل . وفى القرآن : ﴿ إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بينَنا وبَيْنَكم ﴾ . وفى موضع آخر : ﴿ أجْعَلْ بَيْنَنا وبينَك مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نحْنُ ولا أنتَ مكانًا سِوًى(٢) ﴾ ، أى مكانًا عدْلا .

٢ – فلما نَأَتْ عَنَّا العشيرَةُ كُلُّهَا أَنخْنَا فحالَفْنا السُّيوفَ على الدَّهْرِ

٣ – فَمَا أسْلَمَتْنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ولا نَحْنُ أغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

يقول: لما خَذَلَتْنَا عَشِيرَتُنا — وهم رَبِيعة — فيما نابَتْنا ، وتباعَدَتْ بنُصرتِها ومَعُونتِها عنَّا ، وتَرَخَّصَتْ فى القُعودِ عن مُساعدتنا ، اكتفينا بأنفُسِنَا فأقَمْنا بدار الحِفاظ والصبْر ، واتَّخَذْنا سُيُوفَنا حُلَفاء على الدَّهْرِ ، فَمَا خَذَلَتْنا فى يومِ حَرْبٍ وعند مُدَافَعَةٍ وجَهْدٍ ، ولا نحن غَمَّضْنا(٣) جُفوننا على وِتْرٍ وحِقْدٍ . والمعنى : إنَّا وسيوفَنا توافَيْنَا فيما عليه تعاقَدْنا ، وتوازرنا فيما له تحالَفنا(٤) ، فَبَلَغْنَا نحن أقصى

---

(١) التبريزى : « وقال يحيى بن منصور الحنفى . قال أبو رياش : هذا غلط من أبى تمام . يحيى بن منصور من ذهل ، وهذه الأبيات لموسى بن جابر الحنفى » .

(٢) كذا بكسر السين فى النسختين . وهى إحدى القراءات ، وقرئ « سوى » بضم السين فى أخرى . تفسير أبى حيان (٦ : ٢٥٣) .

(٣) م : « أغضينا » .

(٤) فى الأصل : « وتوازنا له له تحالفنا » ، صوابه فى م .

المبالغ فى طلَب الأوتار ، وانتهت هى إلى أَبْعَدِ النهايات فى المعاونة والإحْلاب . وهذا مثلٌ ضربه لاستقلالهم فيما نَهضُوا فيه بعدَدِهم وعُدَّتِهم ، وبلائهم وصَبرهم واستغنائهم عن القاعِدِين عن التَّحمُّل معهم والذَّبِّ عنهم من عشيرتهم . وقولُه : « أَنَخْنَا » كِناية عن الإقامة والثَّباتِ فى وجوهِ الأعداء ، إلى أن وصلوا إلى المراد .

١٠٩

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلِىُّ(١) :

١ ــ رَأَيْتُ فَضِيلَةَ القُرَشِىِّ لَمَّا ... رَأَيْتُ الخَيْلَ تُشْجَر بالرِّماحِ(٢)

جعل القُرَشِىَّ جِنساً لا عَينًا . والمعنى : رأيْتُ فَضيلةَ القرشيِّين حين قِسْتُهم إلى غيرهم عند اشتجار الخيل بالرماحِ ، وانتظامها بها للطَّعْنِ المختلِفِ بينهم ، المتردِّدِ فيهم . وجوابُ لَمَّا مُقَدَّمٌ ، وهو « رَأَيْتُ » فى صدرِ البيتِ . يريد : عند هذا الأمر بَانَ فَضْلهم على النّاس ، وقولُه « تُشْجَرُ » كُلُّ شىء دَخَل بعضُه فى بعض فقد تَشَاجَرَ ، ومنه سُمِّىَ المِشْجَبُ مِشْجَرًا ، وتشاجَرَ القومُ بالرِّماحِ : تطاعَنُوا .

٢ ــ وَرَنَّقَتِ المَنِيَّةُ فَهْىَ ظِلٌّ ... عَلَى الأَبْطَالِ دانِيَةُ الجَناحِ

(١) هو عبد الله بن سلم السهمى الهذلى ، شاعر إسلامى ، من شعراء الدولة الأموية ، كان متعصباً لبنى مروان مواليا لهم ، وله فى عبد الملك وأخيه عبد العزيز مدائح كثيرة ، وروى أبو الفرج خبراً طريفاً له مع عبد الله بن الزبير إذا حبسه فى سجن عارم ، بعد مقاولة أدبية بينهما ، ثم أطلق سراحه . الأغانى (٢١ : ٩٤) والخزانة (١ : ٥٥٥) .

(٢) مما هو جدير بالذكر أن هذه المقطوعة لم ترد فى أشعار الهذليين أو دواوينهم . وذكر التبريزى رواية أخرى أيضاً ، وهى « فضيلة » بهيئة التصغير ، جعله علما ، وقال : « رأيت نضيلة ، أى ضربت رئته . ويجوز أن يكون من رؤية العين ، أى رأيته فى مشتجر الرماح ، وكان شهد هذا الشاعر وفضيلة الحرب ، فعاد ولم يعد فضيلة ، فسئل عنه فجمجم فى الجواب » .

انعطفَ « رَنَقَّتْ » على الفِعْلِ الذى تناوَلَه لمَّا . فيقول : ولمّا استدارت المَنيَّةُ وحَلَّقَتْ على رءوس الأبطال ، فهى ظِلٌّ دانيةُ الجَناح من قِمَمِ رءوسهم . وهذا مثلٌ . والمعنى : لمَّا أشرفتِ المنيَّةُ عليهم إشرافَ الطَّائرِ على ما يريد انكدارَه عليه ، بانَتْ فضيلتُهُمْ . ويقالُ : رَنَّقَ الطائرُ فى الهواءِ ، إذا حلَّقَ واستدار ، وجَعَل للمَنيَّة ظِلًّا تحقيقاً[1] للاستعارَة من الطائرِ ، لأنه يُوقِعُ ظِلَّهُ فى تلك الحالة . وجعل الجناح دانياً تأكيداً لطَمَع المَوْت فى الفوزِ بالأرواح الاختلاس . وكذا الطَّائر فى التَّحليق عند الانقضاض . وارتفع « دانيَةُ الجناحِ » و « ظِلٌّ » جميعاً على أن يكونان خَبرين لقوله هى ، كما تقول : هذا حُلوٌ حامِضٌ . ويجوز أن يكون دانيةٌ صفَةً للظِّلّ ، وأنَّثها على المعنى . ويجوز أن يُرْوَى « دانِيَةً » بالنَّصْبِ على أن يكونَ حالاً .

١١٠

وقال بَعْضُ بَنِى عَبْسٍ :

١ — أرِقُّ لأرْحَامٍ أُرَاهَا قَرِيبَةً ... لَحارِ بنِ كَعْبٍ لا لَجِرْمٍ وراسِبِ

يقولُ : يرِقُّ قلبى بما تَملَّكَهُ[2] من الرحمة ، فانعَطَفَ[3] من أجْلِ أواصِرَ أراها قريبةً مشتبكةً بيننا ، من جهةِ الحارث بن كَعْبٍ ، لا من جهة جَرْمٍ وراسِبٍ . والحارث بن كَعْبٍ فى نِزَارٍ ، وجَرْمٌ وراسِبٌ من قضاعَةَ ، وهُمْ من اليمن ، وكان الحارث بن كعب انتقلَتْ إلى اليمن ، ولم تكن منهم ، فلهذا قال ما قال .

---

(١) فى الأصل : « تخفيفا » ، صوابه فى م

(٢) م : « بما يملكه » . (٣) م : « فأنعطف » .

وقيلَ : عَيْسٌ وَضَبَّةُ والحارثُ بن كَعْبٍ إخوةٌ لأُمّ . [ورخَّم الحارث فى غير النداء وذاكَ فى الشعر جائز(١)] .

٢ — وأَنَّا نَرَى أقدامَنا فى نِعالِهِمْ ... وآنُفَنا بين اللِّحَى والحَواجِبِ(٢)

ذَكَرَ المشابهَ الحاصلةَ بينهم تأكيداً للقُرْبَى والقرابةِ ، المُوجِبَةِ لما ذَكَرَ من الرِّقَّة والشَّفَقة ، على ما حَدَثَ فيهم من وقوع الفُرْقَةِ ، وسُقُوطِ التَّجاوُرِ والخُلْطَةِ . فيقولُ : أرِقّ للرَّحِمِ القريبة ، ولأنَّا نَرَى أقدامَهم فى النِّعال كأقدامنا(٣) ، وآنُفَهُم بين لحاهم وحواجبهم كآنُفِنا . وقال بين اللِّحَى ولم يَقُلْ لحاهُمْ ، لأنّه بإضافةِ الأقدامِ والنِّعال اكتفى . وذَكَرَ الأطرافَ لأنها تَظْهَرُ للعُيُونِ ، والمَشابهُ تَعَلّقُ بها أكْثَرَ .

٣ — وأَخْلاقَنا إعطاءَنا وإباءَنا ... إذا ما أَبَيْنا لا نَدُرُّ لعاصِبِ

جَعَل الشبه فى البيت الأوّل فى الخَلْق وهاهنا فى الخُلُقِ ، تأكيداً للأمر . وكان يجب أن يقولَ وأخْلاقَنا أخلاقهم ، فاعْتَمَد على أنّ العطف على قوله أقْدامَنا يَدُلُّ ويُغْنِي — لما يُفيدُه من الاشتراكِ — ما يُغْنِى فى قَوْلِهِم قام زيدٌ وعَمْرٌو ، وإنَّ زَيْدًا مُنطلِقٌ وعَمْرٌو . فكأنَّهُ قال : وأنَّا نرى أَخْلاقَنا كأخلاقِهم ، إذا أَعْطَيْنا أو أبَيْنا . ثم ذَكَرَ ما دلَّ على تَشَدُّدِهم بعد الامتناع فقال : وإذا أبينا لا نَتَسَهَّلُ .

---

(١) التكملة فى م . ونحوها فى التبريزى . وقال ابن جنى : « رخم حارثا فى غير النداء كقوله :

* وأضحت منك شاسعة أماما *

وغيره . وسبب جواز ذلك عندى فى الضرورة كثرة ما تنادى هذه الأسماء ، فإذا نوديت رخمت كثيراً ، فلما ألف فيها ذلك وكان فيه أيضاً ضرب من التخفيف جنحوا إليه عند الضرورة » .

(٢) م : « فإنا نرى » .

(٣) فى الأصل : « كأقدامهم منا » ، صوابه فى م .

لمن يُرِيدُ قَهرَنَا . وأَصْلُ العَصْبِ الشَّدّ ، ومنه العِصابَةُ . وضَرْعُ الحَلُوبَةِ إذا اشتدَّ الزمانُ بها ، وساء خُلُقُها فرفعَتِ اللّبَن ، يُشَدُّ ويُحْتَلَبُ وإن ضَجِرَتْ ، لِمَسَاسِ الحاجة ، واستيلاء الفاقة . وهذا الكلامُ مَثَلٌ هاهنا . ومثلُ البيت قول الآخر(١) :

لا يُخْرِجُ الكَرْهُ مِنّى غَيْرَ مَأْبِيَةٍ ولا ألين لِمَنْ لا يَبْتَغِى لِينِى

يُرِيدُ : إنّ الإكراه لا يزيدنا إلا امتناعاً ، والاقْتِسَارَ لا يُحَصِّل منّا إلاّ إباءً . ويُشْبِهُ من حيثُ النَّظْمُ قوله : « إذا ما أَبَيْنَا لا نَدُرُّ لِعاصِبِ » الالتفاتَ . ألا تَرَى أنّهُ تَرَكَ ما كان يَطْرُدُهُ من القَوْلِ وصار كأنّهُ التَفَتَ فقال ذلك .

١١١

وقال بَعْضُ شُعَرَاء حِمْيَر(٢) :

١ — مَنْ رَأَى يَوْمَنَا ويَوْمَ بَنِى التَّيْـ ـمِ إذا الْتَفَّ صِيقُهُ بِدَمِهْ

ذُكِرَ أنها قيلت فى وقْعةٍ كانت بين حِمْيَر وعَبدِ مَنَاةَ وكلْبٍ ، وكانت على حِمْيَرَ ، وقُتل فيها عَلْقمة بن ذى يَزَن . وقولُه « من رأى » لفظه استفهامٌ ، ومعناه التفظيع والتعظيم . وأراد باليوم الوقْعة ، لولا ذلك لما صَلَحَ أن يكونَ إذا ظَرْفًا له . ومثله قولُه تعالى : ﴿ فإذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ . فذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عسيرٌ ﴾ . ألا تَرَى

(١) هو ذو الإصبع العدوانى . المفضليات (١ : ١٦١) .

(٢) ذكر التبريزى عن أبى رياش خبر هذه الأبيات ، وهو خبر طويل آثرنا الإشارة إليه . وملخصه أن الحرب وقعت بين حمير وصحار ، فظهرت عليهم صحار ، وقتلوا ملكا من ملوكهم يدعى « ذا ثات » ، فجمعت حمير لصحار ، فارتحلت صحار من البيداء فلحقت ببلاد معد فثارت حمير إلى كلب تطلبهم بدم الملك — وكلب إخوة صحار — فاستنجدت كلب بتيم الرباب فأنجدتهم على حمير ، ثم ظعن بنو تيم من البيداء فلحقوا ببلادهم وخلوا بيوتهم بينهم وبين حمير ، ثم صارت حمير إلى التيم وعدى وعكل بنى وبرة ، فظهرت بنو عبد مناة وكلب على حمير وقتلت التيم علقمة بن ذى يزن ، فقال بعض شعراء حمير هذه الأبيات .

أنَّ فى قوله ﴿ يوم عسيرٌ ﴾ معنَى فِعْلٍ ، فصار يومئذ ظَرْفًا له ، كأنّه قال : فذلك النَّقر يومئذ نَقْرُ يومٍ عسير . فيقول : مَن شاهَدَ يومَنا مع بَنِي التَّيْم حين التفَّ غُبارُ الجوِّ بالدّم ، وتَنَدَّى به وابتلّ ، حتّى قَلَّ . والصَّيقُ : الغُبار الجائل فى الجوّ . وأضافَهُ إلى اليَوْمِ لِكَوْنهِ فيه ، والتفافِهِ كان برَشاش الدَّم القاطِر من الجراح . ويُقال صِيقَةٌ أيْضًا : قال [رؤبة[1]] :

* يَتْرُكْنَ تُرْبَ الأرْضِ مَجْنُونَ الصِّيَقْ *

وصِيَقٌ : جمع صِيقَةٍ .

٢ — لمّا رَأوْا أنّ يَوْمَهُمْ أشِبٌ		شَدُّوا حَيازِيمَهُمْ على ألَمِهْ

قوله أشِبٌ أى كثيرُ الجَلَبَةِ ، ضَيِّقُ الاختلاط ، والمكانُ الأشِبُ فيه شَجرٌ مُلتفٌّ . وجوابُ لَمَّا «شَدُّوا» . يقول : لَمَّا أحسَّ بَنُو التَّيم بفظاعة الأمر واختلاط الشأن ، وتضايُق المجال والمَكَرّ ، وطَّنُوا أنْفُسَهم على الألَم ، وشدّوا حيزومَهم للجَهْدِ ، وتَهَيَّئُوا للصَّبر على ما ابتُلُوا به وشقُوا له . والحَيْزوم : الصدر ، لأنَّه موضِعُ الحَزْم والعَزْمِ ، لاشتماله على القلب الذى هو موضعُهُما . ويُسمَّى حَزِيمًا أيضًا ، كأنَّه الموضع الذى يُشَدُّ بالحِزَام . والحِزامِ من الحَزْمِ أيْضًا . وشَدُّ الحيازيم مَثَلٌ للصَّبْرِ على ما لحِقهم . ورُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام :

حَيازِيمَكَ للمَوْتِ		فإنّ المَوْتَ لاقِيكَ[2]

يُريدُ : اُشْدُدْ حيازيمك .

٣ — كأنّما الأُسْدُ فى عَرِينِهِمُ		ونَحْنُ كاللَّيْلِ جَاشَ فى قَتَمِهْ

(١) التكملة من م والتبريزى وانظر ديوان رؤبة ١٠٦ .

(٢) يروى أيضاً : « اشدد حيازيمك للموت » ، وهو أكثر ما جاء فى الخزم . انظر العمدة (١ : ٩٢) والأغانى (١٤ : ٣٣) .

يقول : إنّ هؤلاء القَوْم يتمنّعون على الأعداء ، ويبْطِشون بهم ، تمنُّعَ الأُسْد فى أَجَمِها وبطْشِها منها ، ونحنُ كاللَّيل ، يريدُ نَحْنُ فى كَثْرتنا وهَوْلنا وإحاطتنا بهم ، وإدرا كِنا إيّاهم كاللَّيل إذا جَاشَ ظُلْمَتُه ، وترا كَمَ سَوادُه . والقَتامُ والقَتَمُ والقُتْمَةُ ، يجيء فى الظُّلْمَةِ والغُبار والرِّيح ، وجاء الفعل منه فقيل قَتِمَ يَقْتَمُ قَتَماً وقَتامًا . وذَكَرَ بعضُهم أنه أراد بالقَتَم القَتامَ فحذَفَ الالِفَ ، كما قال غَيْرُه ورواه قُطْرُبٌ :

أَلاَ لا بَارَكَ اللَّهُ فى سُهَيْلٍ   إذا ما الله بارَكَ فى الرِّجال

ومَصْدر ما كان على فَعِلَ الفَعَلُ فى الأَكْثَرِ ، فلا أدرى لِمَ أَنكَره حتَّى اعتذر بما ذكره . والعرينُ: الأَجَمَةُ ، أَجَمَةُ الأسد ، ثم يُسَمَّى مُقْتَتَل القَوْم عَرِيناً . ويُقال للرّجُل : هو عِرْنَةٌ لا يُطاق ، إذا كان خبيثا . وقولُه « عرينهم » موضِعُهُ موضع الحال ، والأُسْد خَبَرُ مبتدإ محذوفٍ ، كأنه قال كأنّما هم الأُسْدُ فى مُقتَتَلِهم ، ونحن كاللَّيل فى هَوْلِنا وإدراكِنا ، ويكُونُ قولُه جَاشَ فى قَتَمِهْ ، فى موضِع الحال أيضا ، والأَجْوَدُ أن يكون قَدْ مَعهُ مُضْمَرةً ، أى كالليل وقد جَاشَ .

٤ — لا يُسْلِمُونَ الغَدَاةَ جارَهُمُ   حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عن قَدَمِهْ

مَدَحَهُم بحُسْنِ المُحاماةِ على الجار . وتَرْكُ الإسلام له مدَّةَ بقائه فيهم . وقولُه « الغَدَاةَ » أشار بها إلى غَداة اللِّقاء ، أو صَبَاحِ الغِوَار . وقولُه « حتى يَزِلَّ الشِّرَاكُ عَن قَدَمِهْ » فيه قَلْبٌ ، والأصل زَلَّتِ القَدَمُ عن الشِّراك . وهذا مَثَلٌ لموته ، لأنه لا يَلْبَسُها بعدهُ . واحتَمَلَ الكلامُ القَلْبَ لأن المعنى لا يُخِيل(1) كما لا يُخِيل فى قولهم : أدخلتُ الخُفَّ فى رِجْلِى ، والقَلَنْسُوَةَ فى

(١) لا يخيل : لا يشتبه ولا يلتبس . وفى اللسان : « وأخال الشىء : اشتبه . يقال : هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لا يشكل » وفى الأصل : « لا يجبل كما لا يجبل » ، صوابه فى م .

رأسى . وهذا كما يُقال هُريق جِفانُهُ ، وصَفِرَ وِطابُهُ ، وطُوِىَ حَصِيرُه ، وخَلَّى مكانَهُ . والمعنى لا يُسْلِمُون الجارَ إلى أن يَمُوتَ فيهم . ويجوز أن يكون الهاء من قَدَمِهْ راجعًا إلى الشِّرَاكِ ويكونُ الكلامُ مَثَلاً لتفظيع الأمْرِ ، وهذا كما يقالُ : « زال السَّرْجُ عن المَعَدِّ[1] » و « بَلَغَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْن » وما أشْبَهَهُما . والمعنى إلى أن يَزْلَقَ الرَّجُلُ عن مَقَرِّه فلا يثبتُ فى النَّعل ، والمعنى إلى أن يَبْلُغَ الأمر كلَّ مَبلغٍ فَظِيعَ .

٥ — ولا يَخِيمُ اللَّقَاءَ فَارِسُهُمْ حتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ من كَرَمِهْ

يقول : ولا يَجْبُنُ عن اللقاء فَارِسُهُمْ فيُحجِمَ ، ولا يَضعُفُ دونَهُ فيَحارَ ، بل يُقْدِمُ إقْدَامًا تُخْرَقُ[2] الصُّفوفُ به عِزَّةَ نَفْسٍ ، وكَرَمَ عِرْقٍ . واللقاء ينتصبُ على المفعول ، الأصل عن اللقاء ، فلمّا حَذَفَ حرفَ الجرّ تخفيفاً وَصَلَ الفِعْلُ فَعَمِلَ . ويجوز أن يكون ظرْفاً كَمطلع الشَّمس ، أراد وقت اللقاء . وقولُه « حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوف » يريد إلى أن يَشُقَّهَا كَرَمًا منه ، كأنَّه لا يرضَى بأدْوَنِ المنزلَتَيْن فى اللِّقاء لنفسه ، بل يَأْبَى إلاّ النِّهاية والغُلوّ . ويُقالُ خامَ الرَّجلُ يَخِيم ، إذا كادَ كَيْدًا فلم يُفْلِحْ فيه ، أو تقدَّم فى الحرب فَنَكَص ولم يَظْفَرْ . قال الشاعر ، وأنشدَهُ الخليل :

رَمَوْنِى عن قِسِىِّ الزُّورِ حَتَّى أخامَهُمُ الإلهُ بِهَا فَخَامُوا[3]

ويجوز أن يكون قولهُم خَيَّمَ بالمكان ، إذا أقام ، والخَيْمَةُ واحِدةُ الخيام ، منه أُخِذَا .

٦ — وما بَرِحَ التَّيْمُ يَعْتَزُونَ وَزُرْ قُ الخَطِّ تَشْفِى السَّقِيم مِن سَقَمِهْ[4]

(١) المعد : واحد المعدين ، وهما موضع دفتى السرج .
(٢) م : « يخترق » . (٣) أنشده فى اللسان (خيم) .
(٤) كذا جاء البيت فى الأصل بالخزم ، أى بزيادة حرف فى أوله . وفى م والتبريزى : « مابرح » .

ما بَرِحَ وما زالَ بمعنًى ، وليس هذا من البَرَاحِ من المكان . ألا تَرَى أن الله قال : ﴿لا أبرَحُ حتى أبلُغَ مَجْمعَ البَحْرَيْنِ﴾ ، ومُحَالٌ أن يبْلُغَ هـذا الموضِـع ، وهْوَ لم يَبْرَحْ من مكانه . وكأنّ الـكلِمَةَ فى اللغة تدُلُّ على معنى المجاوَزة ، ولذلك قيل :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبْرَحْتَ جارا[1] *

أى جاوزْتَ ما يكون عليه أمثالُكَ من الخِلالِ المَرْضِيَّةِ . والمعنى : ما زال بنو التَّيْمِ ينتسبون ويدْعُونَ بيالفُلانِ مُعْتَزِين ، أو بِخُذِ الطّعنةَ وأنا فلانٌ مُدّعين ، والرِّماح المحمولة من الخطّ الزُّرْق فى ألوانِها تَشْفِى التكبُّرَ من كِبْره ، والعَدُوَّ المُخاتل من دَائِه . وقوله « السقيم » يجوز أن يكون كنايةً عن المُنافِق المُدَاجي ، كما قال الله تعالى لمّا وصَفَهم : ﴿فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ . ويجوز أن يكونَ يُرَادُ به الصَّلِفُ التَّيَّاه ، كما يُقال عند صفته : فى طَرْفِهِ شَوَسٌ ، وكما جاء فى صفة السُّيوف :

* يُدَاوَى بها الصَّادُ الذى فى النَّوَاظِرِ[2] *

ويجوز أن يكون المعنى : والرِّمَاحُ فى اختلافها تَشْفِى الموتورِينَ من أوتارِهم وذُحُولهم . وجَعَل الفِعلَ للرِّماح على المجازِ والسَّعَةِ . وقولُه « وزُرْقُ الخطِّ » الواوُ واو الحال . ويَعْتَزُون خبَرُ ما برَحَ .

٧ ــ حَتَّى تولَّتْ جُمُوعُ حِمْيَرَ فَالْـــفَلُّ سَرِيـعٌ يَهْوِى إلى أَمَمِـــهْ[3]

يريدُ : ما زالوا بهذه الحالة إلى أن انهزمت جيوش حِمْيَر ، فصارَ المَفْلُولُ المُنْهزِمُ مُبَادِرًا فى السُّرْعَةِ إلى مَقْصِدِه . وقولُه الفَلُّ مَصْدَرٌ فى الأصْل وَصِفَ فى

(١) للأعشى فى ديوانه ٣٧ . وهو بتمامه :

تقول ابنتى حين جد الرحيل * لى أبرحت ربا وأبرحت جارا

(٢) سبق فى ص ٢٤٤ .

(٣) التبريزى : « والفل » .

وهو مَوْضُوعٌ موضِعَ المفعول ، ولذلك جازَ أن تَقُولَ رَجُلٌ فَلٌّ وقَوْمٌ فَلٌّ ونِسْوَةٌ فَلٌّ . ومِثْلُه رَجُلٌ فَرٌّ ، إلا أنه موضعٌ موضِع فارّ ، ويقع للواحد والجميع .

٨ — وَكَمْ تَرَكْنَا هُنَاكَ من بَطَلٍ تَسْفِي عليـه الرِّيَاحُ فى لِمَمِهْ

مَوْضِعُ كَمْ نَصْبٌ على المفعول من تَرَكْنَا . يَقولُ : وكَثيرًا تركْنا فى تلك للعركة من الأبطال وهم مُصَرَّعُون مُعَفَّرُون فى تلك المَعْرَكة ، بادُون للضياء والظُّلْمَةِ ، تأتى الرياحُ بسَفاهَا وتَجعلهُ فى لِمَمِهِمْ ولِحَاهُمْ . وأشار بقوله هناكَ إلى مُعتَرَكِ القَوم ومُزدَحَمِ الطَّعنِ والضَّرب .

١١٢

وقال حَسَّانُ بْنُ نُشْبَةَ[1] :

١ — ونَحْنُ أَجَرْنا الحَيَّ كَلْبًا وقدأَتَتْ لَهَا حِمْيَرٌ تُزْجِي الوشِيجَ المُقَوَّما[2]

يقول : أدخَلْنَا فى جِوارِنا هذه القبيلة ، وضَمِنَّا لها الذَّبَّ عنها وسلامتها على ما يعرِضُ لها ، وقد قَصَدَتْ لَهَا حِمْيَرُ بعَدَدِها وعُدَّتِها ، تَسُوقُ نَحْوَها الخيلَ المُطَهَّمةَ ، والرِّماحَ المُثقفةَ . والوَشِيجُ أَصلُهُ عُرُوقٌ ، ثمَّ جُعِلَ للرِّماح أَنفُسِها وجَعَلَها مثقَّفةً ، لِيُرِى عنايتهم بإعْدَاد الآلة لزمان المُقاتَلةِ .

٢ — تَرَكْنا لهم شِقَّ الشِّمالِ فأَصبَحوا جَمِيعًا يُزَجُّونَ المَطِيَّ المُخَزَّمَا

(١) التبريزى : « وقال حسان بن نشبة العدوى فى ذلك — أى فى الحرب التى سبق الكلام عليها — أخو بنى عدى بن عبد مناة بن أد . قال أبو محمد الأعرابى : هذا الاسم مصحف ، والصواب جِساس بن نشبة ، مثل عِساس . قال جرير يهجو جخدب بن خرعب التيمى :

أجخدب أشبهت التى كان بظرها كطرثوث أرض غير ذات أناس
لقد شهدت تيم على أم جخدب وكان سراة التيم رهط جساس

يعنى جساس بن نشبة التيمى » .

(٢) م والتبريزى : « نحن أجرنا » بالخدم فى أوله .

لَهُمْ يمنى لِحِمْيَر . والعرَبُ تجعلُ الشمال كِناية عن الشؤم . فمن أمثالِهم :

* صَبَحْناهمُ فغدَوْا شَأْمَةً *

ويقولون : خَلَّيناهمْ والجانبَ الأشْأَمَ ، وخَلَّيناهم والناحية الشُّؤْمَى ، فكأنهم يقولون ذلك للمنهزم وإن كان مأخَذُهُ في الشِّقِّ الأيمَنِ ، لأن الشؤمَ معه والإدبارَ ، أيَّ طريقٍ أَخَذَ ، ومَسْلَكٍ توجَّه . وهذا كما يقال : فُلانٌ مِنِّى باليمين ، وفلانٌ بالشِّمال ، وفلانٌ بعَلياء عندى ، وفلانٌ في المهابط ؛ إذا جعلْتَ مَنْزِلتَهُ عَلِيَّةً أو مُتسفِّلةً . ومعنى البيت : خَلَّينا لهم في الانهزام شِقَّ الشُّؤمِ وجانِبَه ، فأصبحوا يُزَجُّون مَطاياهم مُخزَّمَةً حَسْرَى كالَّةً[1] لا يُبقَى على وَجاها ، ولا يُتَّقَى حفاها والخزْمُ : الشَّدُّ والقَطْعُ . ويقال شِرَاكٌ مخزُوم ، أى مقطوعٌ .

٣ — فلمَّا دَنَوْا صُلْنا فَفرَّقَ جَمْعَهُمْ سَحابتُنا تَنْدَى أَسِرَّتُهُمْ دَمَا[2]

يقولُ ، لمّا قرُبوا في الالتقاء ، صُلْنا عليهم وبطَشْنا بهم ، فبدَّدَ شَمْلَهُم جيشنا الذى كأنه سَحَابةٌ تَنْدَى طرائقُها دَمًا . جعَلَ السحَّابةَ تَرشحُ بالدَّم لمّا كثُرَ سَفْكُهم له . وتَنْدَى في موضِع الحال . وانتصَبَ دمًا على التمييز . ويقال : نَدِيَ يَنْدَى نَدًى . والأَسِرَّةُ : الأوساط والطرائقُ ، واحدها سِرَرٌ ، ويستعمل في بطون الأَوْدِيةِ أيضا .

٤ — فغادَرْنَ قَيْلاً من مَقاوِلِ حِمْيَرٍ كأَنَّ بخَدَّيْهِ من الدَّم عَنْدَمَا

يقولُ : ترَكَتِ الخيلُ في تَجْوَالِها منهم رئيسًا مَصْرُوعًا ، قد سالَ الدَّمُ على خَدَّيهِ فكأنهما خُضِبا بالعَندمِ ، وهو دَمُ الأَخَوَين . والمِقْوَلُ بلغة أهل اليمَن : القَيْل ، والمَقاوِلُ والمَقاوِلَةُ جَمْعُه ، وهُمُ الأقوال والأقيالُ . وقَيْلٌ مُخفَّفٌ

(١) كذا في م ، وفي الأصل : « فالة » .

(٢) م والتبريزى : « تندى أسرتها » .

من قَيْلٍ ، فهو من الواو أيضا ، ومعناه هو الذى يَنفُذُ قولُه ، ويُعتَمدُ أمرُه ونَهيُه . ووُصِفَ به الملك كما وُصِفَ بالهُمَام ، لمّا كان إذا همّ بالشىء فعَل ، لا يُرَدُّ ولا يُدفَع . وقيل للسان مِقْوَلٌ لمّا كان آلةً فى القَوْل .

٥ ــ أَمَرَّ على أفْواهِ من ذَاقَ طَعْمَها مَطَاعِمُنا يَمْجُجْنَ صَاباً وَعَلْقَما

يقولُ : صارت مَطاعِمُنا مُرَّةً على أفواهِ من ذَاقَها ، حتى إنها تَمُجُّ بعد ذَواقها صاباً وعَلقماً ، والصَّاب : شَجرةٌ لها لَبَنٌ إذا أصاب العينَ حَلَبها . والعَلْقَمُ : شَجرٌ مُرٌّ ، وقيل هو الحنظَلُ . حُكِى أن العَلقمة المَرارة . ويقال عَلْقَمَ الحنظَلُ . إذا أدرَكَ مَرَارتُه . وقولُه : « يَمْجُجْن » حَالٌ للأفواه ، والتقدير أمَرَّ مُطاعِمُنا على أفواه الذائقين طَعْمَها ، ماجَّةً صَاباً وعَلْقماً ، أى إذا ذاقت رَمَتْ بما هو كهذين . والمعنى : إذا خَبِرْنا حُصِلَ منا على ما هو كذلك . وجاز فى « طَعْمَها » الإضمارُ قبل الذكْرِ ؛ لأن الكلامَ يحتَمِلُ نِيَّةَ التقديم والتأخير ، لما كان رُتْبةُ الفاعِلِ وهو مَطَاعِمُنا التقديم ، ورتْبةُ المفعول وما يَجْرِى مَجْراه التأخير ، وهو على أفواهِ من ذَاق طَعْمَها . وفى طريقة هذا البيتِ قول الآخر (١) :

فإنْ تَغمِزْ مَفَاصِلَنا تَجِدْنا غِلاَظاً فى أنامِلِ من يَصُولُ

والطَّعْمُ : الذوْق ، والمَطَاعم : جَمْعُ المَطْعَمِ . ويقال هو حَسَنُ المَطْعَمِ ، أى طَيِّبُ الطعَامِ .

١١٣

وقال فى ذلك أيضاً :

١ ــ وإنّى وإنْ لَمْ أَفْدِ حَيًّا سِواهُمُ فِدَاءٌ لِتَيْمٍ يَوْمَ كَلْبٍ وحِمْيَرا

يقول : أنا وإن كُنْتُ أَرْبَأُ بقدرى ، وأَرْفَعُ نفسى أن أجْعلَها فِدَاءً لغيرى ،

(١) هو عمرو بن مسعود . انظر الحماسية ٦١ .

أفْدِى تَيْماً بها ؛ لِمَا كان منهم من حُسن البلاء يومَ اجتماع كَلْبٍ وحِمْيَرَ للقتال . وجَوَابُ الشرط ، وهو قوله « إن لَمْ أَفْدِ » قد اشتمل عليه الكلام ، لأن المعنى : [إن[1]] لم أَفْدِ غيرهم ترفعاً ، فإنى أفْدِيهم تَشَكُّرًا .

٢ ـ أَبَوْا أَنْ يُبِيحُوا جَارَهُم لعدوِّهم وقد ثارَ نَقْعُ المَوْتِ حتى تَكَوْثَرَا[2]

أَبَى ، الفِعْلُ لبنى التَّيْمِ . يقول : امتنعوا من أن يُخَلُّوا بين جيرانِهم قبيلة كَلْبٍ وبين أعدائهم حِمْيَرَ ، وقد ارتفع غُبارُ الموتِ حَتَّى التَفَّ فى الجوّ . وأراد بالجار والعَدُوّ الكثرة ، إذْ كان المُراد بِهِمَا القبيلتين ، وإنما أضافَ النَّقْع إلى المَوْتِ تَهْوِيلاً ، ويجوز أن يُريدَ بالموت الحَرْبَ . وتَكَوْثَرَ : تَفَوْعَلَ من الكَثْرَةِ ، يريد تراكُمَ الغُبارِ والتفافَهُ . وهذا الذى أشار إليه بقَوْلِهِ تكَوْثر من التَّرَاكم ، جعلَه بعضهم كالسحاب ، وجَعَلَهُ بعضهم يَسُدُّ عينَ الشمس حتى ظهرت له الكواكب ، وحتّى صار النَّهار بسببه كالليل . وتجاوز المتنبّئ[3] جميع ذلك ، حتى بلغ حَدًّا من الإفراط مُسْتَشْنَعًا فقال :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَرًا لو تَبْتَغِى عَنَقًا عليه أمْكَنَا[4]

وإذا أردتَ بالموتِ المنيّةَ يكون المُراد : كأنَّ المَوْتَ أثارَ الرَّهَجَ فى سَلْبِ النُّفوسِ حتى كَثُفَ فى الهواء . وهذا مَثَلٌ .

٣ ـ سَمَوْا نَحْوَ قَيْلِ القَوْمِ يبتدرُونَهُ بأسيافِهِمْ حَتَّى هَوَى فَتَقَطَّرا

يعنى بَنى تَيْمٍ . يقول : ارتفعوا نحوَ رئيس القوم مُسْتَبِقينَ إليه بأسيافِهم فتناوَلُوه حتى سَقَطَ . ومعنى تَقَطَّر : وقعَ على أَحَدِ قُطْرَيْهِ . والقُطْرانِ : الجانبان .

---

(١) بها يلتئم الكلام ، وليست فى إحدى النسختين .

(٢) التبريزى : « ويروى : تكورا . من كور العمامة ، والمعنى واحد » .

(٣) كذا بالهمز فى الأصل ؛ وبالتسهيل فى م .

(٤) رواية الديوان بشرح العكبرى : « عليها أمكنا » .

وفى الكلام اختصارٌ ، كأنّه قال : ابتدروه بالأسياف وضَرَبُوه حتَّى سقط ، فحَذَفَ ضربوه . وموضع يبتدورنه نَصْبٌ على الحالِ ، وتَعَلَّقَ حَتَّى بالمحذوف الذى بَيَّنْتُهُ .

٤ــوكانوا كأنفِ اللَّيْثِ لاشَمَّ مَرْغَمًا ولا نالَ قَطُّ الصَّيدَحتَّى تَعَفَّرَا(١)

الأسَد أحْمَى الحيوان أنفًا ، ويبلغ من عُجْبه بنفسه أنّه لا يتواضع لأكل صَيْدِ غيره . ونُسِبَ الأنَفَةُ إلى الأنْف كما يُنْسَبُ الحِمِيَّةُ إليه . يقالُ : هو أَحْمَى أنفًا من فُلانٍ ، وآنَفُ أَنفًا مِنْهُ ، وحَمِى فلانٌ أَنْفَهُ من كذا ، أى أَنِفَ منه ولم يَرْضَ بِهِ . وحَسُنَ فى الكِنَايَةِ عن الإباء والتصوُّنِ عن الدَّناءة والمَذَلَة قوله : « لا شَمَّ مَرْغمًا » بعْدَ ذِكْرِ الأنْف . فيقول : وكان بنو التَّيْمِ فى التَّمنُّع كاللَّيث الذى لا يُغمِضُ عَلَى قَذًى ، ولا يَشَمُّ مَرْغَمًا ومَذَلاً ، ولا يَصْبِرُ لشىءٍ على هَوَانٍ ، ولا يعْطِفُ على مَكْرَهٍ وصَغَارٍ ، ولا ينَالُ الصَّيْدَ قَطُّ حتى يَكُونَ هو المُعَفِّر . والعَفَرُ : التُّرَاب . هذا إذا رَوَيْتَ « قَطُّ الصَّيْدَ حتى تَعَفَّرَا(٢) » وقال ذلك لأنَّه فيما يتصيَّده لا يَرضى بالاختلاس ، ولا يعتمد على صَيْدِ غيره والإصابَةِ مِنْهُ . ويُرْوَى : ولا نَالَ فَظَّ الصَّيْدِ حتى تَعَفَّرَا(٢) » . والفَظُّ : ماء الكَرِش . ويُقال افتَظَظْتُ الكَرِشَ ، إذا استخرجت ذلك الماء منه . والمعنى : ولا نَالَ الفَظَّ من بَطْنِ الصَّيْدِ حتَّى يتعفّر أى يسقط فى العَفَر ويتمكَّن منه . والأَسَدُ يبدأ من الصَّيْدِ بحَشْوِ بَطْنِه ، فلذلك خَصَّ الفَظَّ . والثَّميلةُ خِلافُ الفَظّ ، لأنه اسمٌ لما يبقى فى البطن من العَلَف والرُّطْبِ . وقَطُّ فى الماضى كأبَدًا فى المستقبل ،

(١) م فقط : « يعفرا »

(٢) م : « يعفرا » . وزاد التبريزى رواية : « قَصَّ الصَّيد » عن عبد السلام البصرى .

وهو مَعْرِفَةٌ مَبْنِيٌّ كأمس ، وأبداً نكِرَةٌ كَغَدًا . ولا نَالَ ولا شَمَّ فى مَعْنَى لم يَشَمّ ولم يَنَلْ . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ﴾ .

١١٤

وقال هِلاَلُ بن رَزِينٍ[١] :

١ — وَبالبَيْدَاءِ لَمَّا أَنْ تَلاَقَتْ ... بِهَا كَلْبٌ وحَــلَّ بِهَا النُّذُورُ

يقولُ : لمّا تلاقت كَلْبٌ وحِمْيَرَ بالبَيْداء وأدركوا الأوتار ، فَحَلَّ بها النُّذور وسقطت الأقْسَامُ عن الحالفين بها لإدْراكِهِم الآثار[٢] . وجوابُ لما يجوز أن يكون ما دَلّ عليه قولُهُ « فحَانت حِمْيَرُ » أو قولُه » وحَلَّ بها النُّذُور » . ويجوز أن يكون قولَه « أَجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » ، وهو أول البيت الرابع ، وعند من يُجَوِّز زيادَةَ الحُروف فى مثل هذا المكان يكون « حَلَّ بها النُّذور » أو « فحَانَتْ » الجوابَ ، فيكون الفاء والواو مُقْحَمَةً ، وهكذا يقولون فى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ عندَهم الواو زائدة ، والُمراد فُتِحَتْ[٣] ، وقول امرئ القيس :

* فَلَمّا أَجَزْنا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى[٤] *

---

(١) التبريزى : أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد » . وعند ابن جنى : « وقال هلال بن رزين الربابى » . وذكره المرزبانى فى المعجم ٤٨٢ وقال : « هلال بن رزين أحد بنى ثور بن عبد مناة بن أد . جاهلى . يقول فى وقعة كانت لبنى عبد مناة وكلب على حمير » . وأنشد بعض هذه الحماسية .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو على القلب ، حكاه يعقوب ، والمألوف فى جمع ثأر أثآر كما فى م .

(٣) كذا ورد فى النسختين بتخفيف التاء هنا وتشديدها فى التلاوة قبلها . وقراءة التخفيف هى قراءة عاصم وحمزة والكسائى وخلف ووافقهم الأعمش ، والباقون بالتشديد . إتحاف فضلاء البشر ٣٧٧ .

(٤) عجزه : * بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل *

يقولون : المراد انتحى ، والواو زائدة .

٢ ــ فَحَانَتْ حِمْيَرٌ لما التَقَيْنَا وكانَ لَهُمْ بِهَا يَوْمٌ عَسِيرُ[(١)]

يقول : هَلَكَتْ حِمْيَرُ عند الالتقاء ، لأنّ الدَّبْرة كانت عليهم لا لَهُم ، وكان لَهُم بالبيداء يَوْمٌ صَعْبٌ . ويقال : يَوْمٌ وأَمْرٌ عَسِرٌ وعَسِيرٌ ، والفِعْلُ مِنْه عَسُر بالضم وعَسِر بالكسر ، ويقال هو العُسْرُ واليُسْر ، والعُسْرَى واليُسْرَى .

٣ ــ وأَيْقَنَتِ القبائِلُ من جَنَابٍ وعامِرَ أن سَيَمْنَعُها نَصِيرُ[(٢)]

يقول : وتيقَّنَتْ جَابٌ وعامِرٌ بطونُ بنى كَلبٍ[(٣)] أنّه سَيَذُبُّ عنها نَصِيرٌ ظَهِيرٌ ، ومُعِينٌ قَوِىٌّ . ويعنى بالنَّصير بنى التَّيْمِ . وجَعَلَ اللَّفْظَ نَكِرَةً ليكونَ أبلَغَ فى تعظيم النُّصْرَةِ ، لأنّه أَرَادَ نصيرٌ من النُّصّار ، أى كامِلٌ فى معناه . وجَعَلَهُم كُلهم نَصِيرًا لا نُصّارًا . لاتفّاق كلمتهم وأهوائِهم . وقوله «أنْ سَيَمْنَعُها» أن مُخَفَفَةٌ من الثقيلة ، واسمه محذوف ، يريدُ : أنّه سَيَمْنَعُها والسّين فى الفعل لئلاّ تلتبس المُخَفَّفة بالنَّاصبة للفِعْل . والهاء الذى أظهرتَهُ ضَمير الأمر والشأن .

٤ ــ أَجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرَّتْ عليهم صَوْبَ سَارِيَةٍ دَرُورُ[(٤)]

---

(١) المرزبانى : « تحابت » .

(٢) ابنى جنى : « ويروى وعامر ، عطفاً على القبائل . ولم يصرف عامر لأنه عنى بها القبيلة ... وقد يجوز أن تكون الرواية : وعامرٍ أن . على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على تنوين عامر » .

(٣) التبريزى : « وقال أبو رياش : يعنى عامر الأجدار ، وهم بطن عظيم من كلب ، وإنما لقب بالأجدار لأنه ولد فى أصل جدار ، وهو أخو عامر بن صعصعة لأمه . وجناب بن هبل بن عبد الله من كلب » .

(٤) التبريزى : « ويروى : صوب سارية ــ يعنى بالرفع ــ قال أبو رياش : أنت صوب لأنه أراد الدفعة » . وقد نبه إلى هذه الرواية ابن جنى ، بل جعلها الرواية الأولى .

يُقالُ : هذا يَوْمُ دَجْنٍ ، أى يَوْمُ إلباس غَيمٍ . والدُّجُنَّة : الظُّلمة ، وليلةٌ مِدْجَانٌ . فيقول : أتت سحابَةُ الجيش بمَطرٍ جَوْدٍ ، فوَبَلَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ — أى سَحَابَةٍ لها ظَلامٌ ، لكثافتها وقُرْبِها من الأرْض — فَصَبَّتْ عليهم المَنايا دَرَّ سَارِيَةٍ ، أى سَحَابَةٍ تَسْرِى لَيْلاً . والدَّرُور ، هى الكثيرة الدَّرّ . ويرتفع على أنّه فاعل دَرَّتْ . وصَوْبَ مَصْدَرٌ من غير لَفْظِه ، كأنَّه قال صَابَتْ دَرُورٌ صَوْبَ سَارِيَةٍ . وجَعَلَ ما فى العَجُز من هذا فى مقابلة ما فى الصدر ، من قولِه « أجَادَتْ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ » كأنه قال : أجادت الخيلُ وَبْلَ مُدْجِنَةٍ فدَرّت درور الموت دَرَّ سارية ، فالسَّارية بإزاء المدْجنة لا غير . وكلُّ ذلك مَثَلٌ لتكثير الشَّر ، وتفْظيع البلاءِ والقتل . وفى هذه الطَّريقة قول النابغة :

ومُعَلِّقِينَ على الجِيَاد حُلِيَّها حَتَّى تَصُوبَ سَمَاؤهم بقِطَارِ

وذَكَر بعضُهم أنّ أجادَتْ ودرّت فِعْلاَن جُمِعَا للدَّرُور ، فهو كما يُقال قَامَ وقَعَدَ زَيْدٌ . قال : والدَّرُور : حَرْبٌ تَدُرُّ بالدِّماءِ . ويُقالُ : جادَتْ وأجادت بمعنًى واحِدٍ ؛ والمُرَادُ جَادَتْ دَرُورٌ فَدَرّت عليهم كوَبْلِ مُدْجِنَةٍ ، وكَصَوْبِ سَارِيَةٍ . والأوَّلُ أقْرَبُ وأكشف وأصَحّ .

٥ — فوَلَّوْا تَحْتَ قِطْقِطِها سِرَاعًا تَكُبُّهُمُ المُهَنَّدَةُ الذُّكُورُ

يقول : انهزَمَت حِمْيَرُ مُسْرِعين تحت صِغَار البَرَدِ ، ولم يصبِروا إلى كِبَاره ، والسُّيُوفُ الهِنْدِيَّة تَسْتَقِطُهُمْ لوجوهم . ويُقالُ هَنَدتُ السيفَ ، إذا نسبْتَهُ إلى الهِنْدِ . وقال أبو عمرو : وهَنَّدتُ السَّيف ، إذا أحْدَدْتَهُ . وذَكَر الدُّرَيْدِى فى القِطْقِطِ أنَّه ضَرْبٌ من المَطَرِ ، ولم يَحُدَّهُ . وموضِعُ « تَكُبُّ » نَصْبٌ على الحَال ، وما قَدَّمناه فى القِطْقِطِ قول الخليل .

١١٥

وقال جَزْءُ بن ضِرَارٍ[(١)] :

١ ــ أَتَانِي فَلَمْ أُسْرَرْ بِهِ حين جَاءنِي حَدِيثٌ بأَعْلَى القُنَّتَيْنِ عجيبُ

تقديره : أتانى حديثٌ عجيب بأعلى القُنَّتَين[(٢)] ، فلم أُسْرَرْ به حين جاءنى . وإنما استَعْجَبَ من الحديث لتَضَمُّنِه ما كَرِهَهُ ، فكان يَرُدّه بما يَقْوى فى أَمَلِهِ من ضِدّه . وقد اجتمع فِعْلَانِ أتانى وجاءنى ، فأعمل الأول . ومثله قول الآخَر[(٣)] :

ولَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بشعرى لَئيماً ....[(٤)]

٢ ــ تَصَامَمْتُهُ حَتَّى أَتانِي يَقِينُه وأَفْزَعَ منه مُخْطِئٌ ومُصِيبُ[(٥)]

تصامَمْتُه ، أراد تصاممت عنه ، حتَّى أتانى يقينه ، أى الجَلِيُّ الواضِحُ منه . وأَفْزَعَ يجوز أن يكون معناه صَادَفَ الفَزَعَ فلا يقتضى مفعولا ، ويجوز أن يكون أَفْزَعَ الغيْرَ فيكون مفعوله محذوفاً . ومعنى البيت : تكلّفتُ الصمم عن

---

(١) جزء بن ضرار ، أخو الشماخ بن ضرار ، قال ابن حجر فى الإصابة ١٢٨١ : « ذكره المرزبانى فى معجمه وقال : هو شاعر مخضرم . وهو القائل يرثى عمر بن الخطاب :

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق » .

وانظر الأغانى (٨ : ٩٨) .

(٢) التبريزى : « القنتان : جبل أسود مشرف بعض الإشراف » .

(٣) هو ذو الرمة كما فى التنبيه لابن جنى .

(٤) تمامه كما فى التنبيه :

* لئيما أن يكون أصاب مالا *

وعند التبريزى : « أن يقال أصاب » .

(٥) جعل التبريزى الرواية الأولى عنده : « وأفرع » بالراء المهملة ، وقال : « وأفرع معناه صادف الفرع ، وإذا كان هكذا فلا يقتضى مفعولا . ويجوز أن يكون معناه أفرع الغير ، فيكون مفعوله محذوفا » .

ذلك الخبرَ حتَّى جاء ما لم يمكن رَدُّهُ ، لسكونِ الشُّبَهِ[١] منتفيةً عنه ، واتفق المخطئُ والمصيب على تصحيحه ، وصادَفَا الفَزَعَ فيه ، أو أفزَعَا الغير منه .
ومثل قوله « تصاممته » فى انحذاف حرف الجر[٢] منه قول الآخَر :

* وأُخفى الذى لولا الأُسى لقَضَانى[٣] *

يريد : لَقَضَى علىَّ . وفى القرآن : ﴿ وإذا كالُوهم أو وزَنُوهُمْ ﴾ ، يريد كالُوا عليهم أو وزنوا عليهم . وأضاف اليقين إلى ضمير الخبر لأنه يريد المُتَيَقَّنَ منه .

٣ – وحُدِّثْتُ قومِى أحْدَثَ الدهرُ فيهم وعَهْدُهُمُ بالحادثاتِ قريبُ
٤ – فإنْ يكُ حقًّا ما أتانى فإنَّهُمْ كِرامٌ إذا ما النائباتُ تَنُوبُ

قوله « حُدِّثْت » يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، فالأول قام مَقامَ الفاعل وضميره التاء ، والثانى قومى ، والثالث أَحْدَثَ الدهر فيهم أَحْداثًا . وكما قال الآخر[٤] :

* وإن تُكَلِّمْكَ تَبْلَتِ[٥] *

يريد تَبْلتْ كَلامَها . ويجوز أن يكون أَجْرَى قولَهُ « أَحْدَثَ الدَّهْرُ فيهم » مَجْرَى نَكَى الدَّهْرُ فيهم ، فاستغنى عن المفعول . وقوله : « وعَهْدُهُم بالحادثات قريب » يجوز أن يكون من جملة ما بُلِّغ وأُنْبِىءَ به ، ويجوز أن يكون الواو للحال ، كأنه نَكَى الدهْرُ فيهم وحالُهم قُرْبُ العهدِ بحوادِثِه ، ويجوز أن يكون جاريًا مجرى الاعتراض بين ما قبله وما بعده ، وحقيقة معناه تصديقه لما خُبِّر به ،

(١) م : « الشبهة » .
(٢) م : « بحذف حرف الجر » .
(٣) لرجل من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك . وصدره :
* نحن فتبدى ما بها من صبابة *
(٤) هو الشنفرى . المفضليات (١ : ١٠٧) .
(٥) البيت بتمامه :
كأن لها فى الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت .

وأنّ قومَه من الكِرام الذين لا يَسْلَمُون على الدَّهر ، بل يُولَعُ بالتأثير فيهم كما قال :

أَرَى الدَّهرَ يَعْتَامُ الكِرام ويَصطفِي   عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(١)

وإذا عُزِلَ هذا الاعتراض يكون الكلام : وحُدِّثْتُ قومى أَحْدَثَ الدَّهر فيهم ، فإنْ يك حَقًّا ما أتانى . ومعنى البيتين : أنبئْتُ أنّ قومى نَكَى الدهر فيهم ، وحَمَل أثقالَهُ عليهم ، فإن كان ما بُلغْتُ حَقًّا من إخناء الدهر عليهم ، وسوء تأثيره فيهم ، فإنَّ أخبارَهم كريمةٌ فى النّوائب إذا نابتهم ، ونفوسَهم عزيزة تَأْبَى الانقياد لما لا يَحْسُنُ ، والمُطَاوَعَةَ فيما يَشِين ولا يَزِين . وجواب « فإن يَكُ حَقًّا » ما دَلَّ عليه قولُه فإنَّهم كِرَامٌ ، لأنَّ معناهُ فإنهم يَصْبِرُونَ صَبْرَ الكِرَام . ومثْلُه قوله تعالى : ﴿ إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ؛ لأنَّ المعنى : فإنّك تملكُهم وتَقْدِر عليهم .

٥ — فقيرُهمُ مُبْدِى الغِنَى وغَنِيُّهم   لَهُ وَرَقٌ للسائلين رَطِيبُ

يقول : محتاجُهم متجمِّلٌ ، وبما لا تنَالُه مَقْدُرته ولا يَنْهَضُ وُسْعُه متكثِّرٌ ، وظاهِرُه الغِنَى اكتفاءً بما يملِكُهُ ، وتَصَنُّعاً لمن يَرْمُقُه ؛ وغنِيُّهم له إفضَال على العُفاةِ ، ومعروفٌ عند السؤّال ، يَحْيَوْنَ فى جَنَابِه ، ويعيشون فى كَنَفِهِ وظلاله . وقولُه « له وَرَقٌ » مَثَلٌ ضَرَبه للنَّدَى ، وأصله هاهنا ورق الشَّجَر ، وبه عَيْشُ المال : الإبِلِ والغنم . وإذا لم يَمنَعوا من الوَرَق عاشَ الناسُ فى فِنائهم . هذا الأصل ، ثمّ يتمثَّلُ به بَعْدُ لِغَيْرِهِ من ضروبِ المنافع ، ووجوه المرازئ . وسَلَكَ فى هذه الاستعارة والتمثيل مَسْلكَ زهير حيث يقول :

وليس مانعَ ذى قُرْبَى ولا رَحِمٍ   يَوْماً ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقَا

---

(١) البيت لطرفة فى معلقته .

ويقال : وَرَّقَتِ[١] الشّجرةُ وأوْرَقَت، وشجرة وَرِيقَةٌ ، إذا كَثُر ورقُها والوِراقُ : زَمنُ خروجِ الوَرَق ، كالصِّرَام والجِدَاد .

٦ – ذَلُولهُمْ صَعْبُ القِيَادِ وصَعْبُهُمْ   ذَلُولٌ بحقِّ الرَّاغِبِين رَكُوبُ[٢]

يقولُ : مَن كان سَهْلَ الجانب منهم تراه متعسِّرًا إذا سِيمَ الضَّيْمَ ، مُتَصَعِّبًا في التزام الظُّلْم والجوْرِ ؛ والأبِىّ الخشِنُ الخُلُق منهم مُعْتَرِفٌ بحقِّ الراغبين ، يُرْكَبُ به ولا يمنَعُ ، ويُقَادُ له ولا يَأبَى . وقولُه رَكُوبٌ ، هو في معنى مفعول هاهنا . والذَّلُولُ : الوطِيءُ الظَّهر ، والذُّلُّ والذِّل يرْجِعان إلى السُّهولة والوَطَاءَة ، وإنْ كان كلٌّ تفرَّد بمعنًى يتميّزُ عن صاحبه بما يُضادّه . ألا ترَى أنَّ ضِدَّ الذُّلِّ بالضم العِزّ ، وضد الذِّل بالكسر الصُّعُوبة .

٧ – إذا رَنَّقَتْ أَخْلاقَ قوْمٍ مُصِيبَةٌ   تُصَفَّى بها أَخْلاقُهُم وتَطِيبُ[٣]

يقول : إذا كَدَّرَتِ المصائب أخلاق الناس فتغيّرتْ ، حتى لا يصير عليها تَحمل ، ولا إليها من النوائب مَلْجَأٌ ، فإن أخلاقَ هؤلاء تُصَفَّى بها [ولها[٤]] وتطِيب عند تَحَامُلها ؛ كأنهم كلما ازدادوا امتحانًا بالدهر ازدادوا طَلاقَةً وهَشَاشَةً ، ولِينَ مَعْطِفٍ ولُدُونةً ، ونُهُوضا بالاعباءِ ، وصَبْرًا لدَى اللأْواء . ويقال ماءٌ رَنقٌ ورَنْقٌ ، وما فى عيْشِه رَنِقٌ أى كَدَر .

٨ – ومن يَغْمُرُوا منهمْ بفَضْلٍ فإنّهُ   إذا ما انتَمَى فى آخرِينَ نَجِيبُ

أَصْلُ الغَمْر التَّغطية ، ومنه قولهم : دخَل فى غُمَار الناس . والنَّجيبُ : الكريم من الناسِ والخيلِ والإبل ، ولذلك قيل للمختار من كلِّ شيءٍ المُنْتَجَب ، وقد نَجُبَ الرجُلُ نَجَابَةً ، وأَنجَبَ : أتى بأولادٍ نُجَباء . يقول : والمَغْمُورُ

(١) ضبط فى الأصل بتشديد الراء ، وفى م بفتحها فقط . وهما لغتان صحيحتان .

(٢) م : « لحق الراغبين » . (٣) التبريزى : « تصفى لها » . (٤) هذه من م .

الخامِلُ منهم ، لظُهور الفضل عليه ، إذا انتَسَبَ فى قومٍ آخرين عُدَّ نَجيبًا . ومِثْله قولُ الآخر(١) :

يَسُودُ ثِنَايانَا مَنْ سِوَانا وَبَدْؤُنَا   يَسُودُ مُعَدًّا كُلَّها ما تدافِعُهْ

وإن كان هذا زائدًا على ذلك . وحذَف مفعول « يَغْمُروا » لأنه لا يَلتَبِسُ . أراد ومن يَغْمُرُوه ، أى المفضول(٢) فيهم إذا انتمى فى غيرِهم كان فاضِلا .

١١٦

وقال القُطامىّ(٣) :

١ ــ من يكُنِ الْحِضارَةُ أَعْجَبَتْه   فأَىَّ أُناسِ بادِيَةٍ تَرَانا

الْحِضَارةُ تُكْسَر منه الحاء وتُفتح ، وكذلك البداوة تُكسر منه الباء وتُفتح . والُمراد بالحِضارة أهل الحِضارة ، فحُذِف المُضاف ، يدُلُّ على ذلك قوله « فأىَّ أُناسِ باديةٍ » ، لأن التفضيل إنما يصحُّ بين الحضريِّين والبدويِّين . وأىّ هذه تُضافُ إلى النَّكِرة ، ولا تُضاف إلى أكثر من الذى جَعَلْتَه خبرًا ،

(١) هو حجر بن خالد الثعلبى ، كما سيأتى فى الحماسية ١٧٠ .

(٢) فى الأصل : « المقصود » ، صوابه فى م .

(٣) القطامى ، بضم القاف وفتحها : لقب غلب عليه . قالوا سمى به لقوله :

يحطهن جانباً فجانبا   صك القطامى قطا قواربا

واسمه عمير بن شييم التغلبى ، شاعر إسلامى مقل ، وله ديوان مطبوع . وكان قبل إسلامه نصرانيا ، وكان الأخطل يعجب به كثيراً . وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابى لأنه كان أسره ثم من عليه ووهب له مائة ناقة ورده إلى قومه . الشعر والشعراء ٧٠١ ــ ٧٠٥ وابن سلام ١٢١ ــ ١٢٢ والاشتقاق ٢٠٤ ــ ٢٠٥ والمؤتلف ١٦٦ والمرزبانى ٢٤٤ ــ ٢٤٥ والأغانى (٢٠ : ١١٨ ــ ١٣١) والخزانة (١ : ٣٩١ ــ ٣٩٤ / ٣ : ١٨٨ ــ ١٩٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(٤) م والتبريزى : « من تكن » بالتاء .

لأنك تريد صِفَته . ألا تَرَى أنك تقول مَرَرْتُ برجُلٍ أىّ رجل ، وأىُّ رجلٍ أخوكَ إذا جعلته خبرًا يكون مَخْرَج الكلام المَدْح والتعجُّب ، كأنك قلت : نهايةٌ فى الرجوليَّةِ أَخوكَ . فعلى هذا قوله فأىّ رجال باديَةٍ . فيقول : مَن أعجبَهُ رجال الحضَرِ ؛ فأىُّ رجالِ بَدْوٍ نحن ، إذا حُصِّلَتِ الرِّجال . والمعنى : أىُّ أُناسٍ نحن وإن كنَّا من أهل البَدْو . والمراد التمدُّح والتعجُّبُ .

٢ ــ ومَنْ ربطَ الْجِحَاشَ فإنّ فينا قَنًا سُلُبًا وأَفراسًا حِسَانَا[1]

يقول : ومن ارتبَط الحُمُر واقتناها ، وكان عيشُه منها ، فإنّا أربابُ الغَزو ، وآلاتُنا رِمَاحٌ طِوالٌ ، وخَيْلٌ رائقة عِناقٌ . والجحشُ من أولاد الحُمُر كالمُهْرِ فى الخيل ، والجمع الجحاش والجِحَشَةُ . والسُّلُبُ : الطوال ، والواحد سَلوبٌ .

٣ ــ وكنَّ إذا أَغرْنَ على جَنابٍ وأَعْوزَهُنَّ نَهبٌ حَيْثُ كانَا

يقالُ : عَوِزَ الرّجُل كذا عَوَزًا ، مثل عَدِمَ ، وأعْوَزَهُ الدهر : أفْقَرَهُ . وأعْوَزَ الرجلُ : ساءت حاله ، وهذا لا يَتعدَّى . يقول : كانت هذه الخيل إذا أغارت على ما حوْلَها من القبائل فبدَّدَتْ شَمْلَها ، وخَوَّفَتْ آمِنَها ، وصارت تأخذ حِذْرَها ، وتتقيها بالبُعْدِ عنها ؛ حتى أعْوَزَها النَّهْبُ حيث كان النهبُ ، لمعاوَدَتِهم الغارة وقتًا بعد وقتٍ ، وإدامتهم إيّاها ، وإلحاحهم بها . وقوله « إذا أَغرْنَ » ظَرْفٌ لقولهِ أَغرْنَ من البيت الذى يليه ، وهو جوابٌ له ، والجملة خبرُ كُنّ .

٤ ــ أغرْنَ من الضِّبابِ عَلَى حُلُولٍ وضَبَّةَ إنَّه مَنْ حانَ حانَا

(١) أشار ابن جنى فى التنبيه إلى رواية « سلبا » بالتحريك . قال : « ومن روى سلبا وصفه بالواحد ، كقول الله سبحانه : من الشجر الأخضر ، وأعجاز نخل منقعر . ومن قال سلباً وصفه بالجمع ، كقول الله تعالى : وينشئ السحاب الثقال . وقد جاء الشعر بهما جميعاً ، وذلك فيما كان بينه وبين واحده الهاء » .

٥ – وأَحْيانًا على بَكْرٍ أَخِينَا إذا ما لم نَجِـــدْ إلاّ أَخَانا

الضِّبابُ يشتمل على ضَبَّةَ وضُبَيْبٍ ، وحِسْلٍ وحُسَيْل ، فلذلك سُمُّوا الضِّبَاب . يقولُ : أغارت على أقاربهم وعلى الخِلاَّت النازِلة حَولَهم وفيهم ، لأنّ من قُدِّر له الحَيْنُ فقد أدركَهُ . والمعنى : إنهم لاعتيادهم الغَارة لا يَصْبِرُون عنها ، حَتّى إذا أعوزَهُمْ الأباعِدُ عَطَفُوا على الأقارب . ألا تَرَى أنه تمَّمَ ذلك بقولِهِ :

وأحيانًا على بَكْرٍ أخِينَا إذا ما لم نَجِدْ إلا أخانا

وقوله : « إنّه من حان حانًا » يُسَمَّى الالتفات ، كأنّه التفتَ إلى إنسانٍ فقال : إنَّهُ من هَلَكَ بغَزْوِنا فقد هَلَكَ . وقولُه « على بَكْرٍ » تعَلَّقَ بفعلٍ مضمَرٍ دَلَّ عليه ما تقدَّم فيا قبله ، كأنَّه قال : وأحيانًا أغَرْنَ على بَكْر .

١١٧

وقال الأعْرَجُ المَعْنِيُّ[1] :

١ – أَرَى أمَّ سَهْلٍ ما تزَالُ تَفَجَّعُ تَلُومُ وما أَدْرِى عَلاَمَ تَوَجَّعُ

يقول : أرى هذه المرأة تتفجّع تارةً وتتوجّع أخرى ، تَعْتِبُ علىَّ وتلُومُ ، وما أدْرِى من أى شىء شَكْواها ، وفى أمْرٍ توجّهَ علىَّ عَتْبُها ، لأنِّى لا أتعاطَى مُنْكَرًا فاستحقّ به ذلك : وقد مَرَّ الكلامُ فى عَلاَمَ وأشباهِهِ[2] . وقولُه : « ما زال » يريدُ به اتِّصال تلك الحالة منها ، لأنَّ ما زال لدوام الماضى ، وما يزال هو مُسْتَقْبَلُ ما زال ، فيصير لامتداد الحال . فإن قيل : أليس زال ضِدَّ دام

---

(١) التبريزى : وهو رجل من الخوارج » . وذكره المرزبانى فى المعجم ٢٥١ ، وقال : « عدى بن عمرو بن سويد بن زبان الأعرج الطائى المعنى ، وقيل سويد بن عدى ، وهو مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام » وذكره ابن حجر فى الإصابة ٣٧١٣ ، ٦٤٠٩ . وأنشدا له :

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعى صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى
وحرمت الخمور وقد أرانى بها سدكا وإن كانت حراما

(٢) انظر ص ١٩٥ .

فكيف يُفيدُ وهو للنَّفى معنى الدوام ؟ قُلْتَ لمّا دَخَل ما النافِيةُ عليه تغيّر معناهُ إلى الإيجاب ، لأنّ نَفْيَ النَّفْيِ إيجاب ، فعاد إلى معنى الدّوام . وقوله : « تَلومُ » فى موضع الحال ، أى تفجَّعُ لائمةً ، وقولُه : « وما أدْرِى عَلَامَ » ، يريدُ وما أدرى ما يقتضى هذا السُّؤال .

٢ — تَلُومُ عَلَى أَنْ أُعْطِىَ الْوَرْدَ لِقْحَةً وما تَسْتَوِى والوَرْدَ سَاعَةَ تَفْزَعُ

يقول : تعيبُ علىَّ فى إيثارى فَرَسى الوردَ بلبن لِقْحَتِي — وهى النّاقة التى بها لَبَنٌ — وما تَسْتَوِى هِىَ مع الورد ساعة الفَزَع ووقت الغارة . وقوله « والوَرْدَ » منصوب على أنّه مفعولٌ مَعَهُ . يريد : لا تَسْتَوِى هى مع الورد . ولو أرادما تستوى هى وما يستوى الورد لم يكن يجوز إلاّ الرفع ، والعامِلُ فى هذا المعمول[1] لا يعمل بتوسُّط الواو بينهما . وإذا أردت تجريد الفعل على ما يدلُّ عليه قوله تستوِى ، يكون تقديره إذا أظهرتَهُ عامِلاً فيه : وما تُساوى الوردَ . وعلى هذا قولُهم : استوى الماء والخَشَبةَ لأن المعنى سَاوَى الماء الخَشَبةَ . فإن قيل : كيف قال ولا أدرى عَلَامَ توجّعُ ، ثم أتْبَعَهُ بقوله تَلُومُ على أن أُعْطِىَ الورد لِقحةً ، وهل كذّبَ نفسه ؟ فالجواب أنّ قولَه ما أدرى إنكارٌ وتفظيعٌ للشّأن ، والمتضجِّرُ بالشّىء يقول ذلك وإن كان عالمًا . وروى بعضهم « والوَرْدُ » بالرفع وكان الأجود أن يقول : وما تستوى هى والورد ، لأنّ عطفَ الظّاهرِ على المُضْمَر المرفوع ضعيفٌ حتّى يُؤكّدَ . ويكون المعنى : وما تَستوى أمُّ سَهْلٍ وفرَسى فى ذلك الوقت ، لاختلاف غَنائهما ، ولأنّ قُصَارى تلك الهرَبُ والدَّهَش ، وغَنَاء فرسى كونُهُ عُدّةً للدِّفاع والذّبّ . والأوّلُ أجْودُ وأفصح وأسلم .

٣ — إذا هِىَ قامَتْ حَاسِرًا مُشْمَعِلّةً نَخِيبَ الفؤادِ رأسَهَا ما تُقَنَّعُ[2]

(١) م : « المفعول » . (٢) التبريزى : « رأسها ما يقنع » ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

هذا بيانُ الحالِ ساعةَ الفزع ، وموضع إذا نَصْبٌ على أنه بَدَلٌ من ساعةَ تَفْزَعُ ، ويكون على ذلك قوله « هنالك يجزيني الذى كنت أصْنَعُ » من البيت الذى يليه مُنْقَطِعًا ، وإن كان بيانَ عِلّة إيثاره باللّبن وانتفاء المساواة بينه وبين المرأة . والمعنى : ما تُساوِى هذه المرأةُ الفرسَ إذا هى قامت بلا قِناعٍ ، جَادَّةً فى العَدْوِ ، مَنْخُوبَةَ القَلْبِ ، طائرة اللُّبّ ، لا خِمار عليها ولا قِناع ، لدَهَشِها فى احتمارها ، وذَهابها عن عادتها وإلفها . وقوله « مشمعلةً » أى جَادَّةً فى العَدْوِ . وانتصبَ « رأسَها » لأنه مفعولٌ مقدَّمٌ . ويجوز أن يكون « إذا هى قامت » استئنافَ كلامٍ ، وحينئذٍ يكون جوابُ إذا قوله هنالِكَ يجزينى الذى كنت أصْنَعُ .

٤ — وقُمْتُ إليه باللِّجام مُيَسَّرًا ... هُنالِكَ يَجزينى الذى كنت أصْنَعُ

يقول : وقُمْتُ إلى فرسى فى تلك الحال ، مُهَيِّئًا له باللِّجام ، للدِّفاع والقتال . ثم قال : فى ذلك الوقت يجزينى ما أعامِلُه به السّاعةَ من إيثارٍ بلَبَنٍ ، وتضميرٍ وصَنْعة . وقوله « مُيَسَّرًا » أى مهيَّئًا . وفى القرآن : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ . هنالك إشارةٌ إلى الوقت ، ويستعمل فى المكان . ويقال هناك أيضا فيهما . والعاملُ فيه هاهنا يجزينى .

١١٨

وقال حُجْرُ بن خالدٍ(١) :

١ — كَلْبِيَّةٌ عَلِقَ الفؤادُ بذِكرِها ... ما إنْ تَزالُ تَرَى لها أَهْوالاَ

(١) التبريزى : « وقال حجر بن خالد بن محمود بن عمرو بن مرثد بن مالك بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة » . وحجر شاعر جاهلى كان معاصراً لعمرو بن كلثوم ، وكان أنشد شعراً بين يدى النعمان بن المنذر ، فأحفظ عمرو بن كلثوم ، فلطمه عمرو فى مجلس الملك ثم اقتص منه حجر ، وأجار الملك حجراً ، فقال حجر ، أبياتاً يمدح بها النعمان ، رواها الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٨) . وانظر الحماسية ٧١٨ .

يقول : عَلِق الفؤادُ بذكرِ امرأةٍ كلبيّةٍ ، لا تزال تُقاسى من أجْلِها أهوالاً ، وتتحمَّل مَشقّاتٍ . قوله « عَلِق الفؤاد بذكرها » يجوز أنْ يكون أراد عَلِق ذكرُها بالفؤاد فقَلَبَ ، لأن المراد مفهومٌ ، ويكون كقول الآخر :

* عَلِقَ الأحشاءَ من هِنْدٍ عَلَقْ *

وكما يقال عَلِق بقلبِه عَلاقتَه . ويجوز أن يكون جَعَل الفؤادَ تابعًا للذِّكر فكأنّه تعلَّق به . وكلُّ شيءٍ وقَعَ موقِعَهُ قبل عَلِق معالِقَهُ . وجعل صدر البيت على الإخبار عنها ، ثمّ نَقَل الكلامَ إلى مخاطبةِ نفسه . ويجوز أن يكون استمرَّ فى الإخبار عنها ويكون المعنى : عَلِقَها الفؤادُ فلا تزالُ هى تُقاسى أنت بسبَبِها أهوالاً . و « إنْ » من قوله « ما إنْ » زِيدتْ لتأكيد النفى .

٢ — فاقْنَىْ حَياءَكِ لا أَبا لكِ إننى فى أرضِ فارِسَ مُوثَقٌ أحْوَالاَ

أقبل يخاطب المرأة فقال : الْزمى حياءكِ ، أى لا تفعلى ما يُقالُ نُسِىَ الحياء معه واُطُّرِحَ ، إننى محبوسٌ فى أرض فارسَ سِنِينَ لا أَبا لَكِ . وقوله « لا أَبا لَكِ » بَعْثٌ وتحضيض ، وليس بنفْىٍ للأُبُوّةِ ، وخَبَرُ لا محذوف ، لأنّ المعنى لا أَبَاكِ ، ودخلت اللام مؤكِّدةً للإضافة ، لأنّ هذه إضافةٌ لا تُخَصِّصُ ، فساغَ تأكيدها باللام ، ولو كانت الإضافةُ مخصِّصةً لـكان لا يَعملُ فى أَبالَكِ . وتقدير الخبر : لا أبا لك موجود . ويقال : قَنِىَ يَقْنَى ، واقْنَىْ : أَمْرٌ منه . وقنا يَقْنُو . قال المتلمِّسُ :

* كذلك أقنو كُلَّ قِطٍّ مُضَلَّلٍ (١) *

وإنّما قال إننى مُوثَقٌ ولم يكن قد أُسِرَ وأوثق ، لِعلمهِ بما يُؤَول إليه فى

(١) صدره : * فألقيتها بالثنى من جنب كافر *

مَقْصَدِهِ أمْرُهُ ، كأنه لما وطَّنَ نفسه على ترك التَّحَامِي والاتِّقاء علم أنَّ أحْسَنَ العاقبتين فيه الأسر ، فذكره . ويكون هذا كقول الآخر :

* قد يَتِمَتْ بِنْتِي وآمَتْ كَنَّتِي *

فهذا وجْهٌ ، ويجوز أن يكون قال هذه الأبياتَ بعد الأسْرِ .

٣ — وإذَا هَلَكْتُ فلا تُرِيدِي عاجِزًا غُسًّا ولا بَرَمًا ، ولا مِعْزَالَا

ليس قَصْدُهُ فى هذه الوَصَاةِ إلى أن يَبْعَثَهَا على تَخَيُّرِ الرِّجال ، أو يرشدَها لوجوه الانتخاب(١) ، وإنما المراد : اطلبي مثلى . وهو يعلم أنَّها لا تظفر بمن يُماثله أو يقاربه . والغُسُّ : الضَّعيف . قال :

* فَطَعْنَةٌ لا غُسٍّ ولا بِمُغَمَّرِ(٢) *

والبَرَم : الذى لا يَدْخُل مع القوم فى المَيْسرِ ، لضيق صدرِهِ وتبرمه بما يلتزَمُ فى مثله . والمِعْزَال : الذى لا يحمل السِّلاح ، ويتناهَى اعتزالُه ورَفْضُه إياه . والأعزلُ مثله . ومثل هذا قول ابن أحمرَ :

فإمَّا زَالَ سَرْجٌ من مَعَدٍّ وأَجْدِرْ بالحوادث أن تكونا
فَلاَ تَصِلِي بِمطْرُوقٍ إذَا ما سَرَى فى القومِ أَصْبَحَ مُسْتَكِينا
إذا شَرِبَ المُرِضَّةَ قال أَوْكِى على ما فى سِقائِكِ قد رَوِينا

٤ — واسْتَبْدِلِي خَتَنًا لأَهْلِكِ مِثْلُه يُعْطِى الجَزِيلَ وَيَقْتُلُ الأبْطالَا

يقال : اعتاصِي مِنِّى لأَهْلِكِ خَتَنًا مثلَ ذلك الختن ، يُعطِى عطاءً جَزْلاً ، ويقتُلُ الأبْطالَ بَطَلاً فبطلا . ومثله يرتفع بالابتداء ، وما بعدَهُ فى مَوضع الخَبَرِ لَهُ ، والجملة فى موضع الصِّفة للخَتَن ، ولا يجوز نصب « مِثْلُه » .

(١) م : « الانتجاب » .

(٢) لزهير بن مسعود ، فى اللسان (غسس) . وصدره :

* فلم أرقه إن ينج منها وإن يمت *

٥ — غَيْرَ الجَدِيرِ بِأَنْ تَكُونَ لَقُوحُهُ رَبًّا عليه ولا الفَصِيلُ عِيَالَا

هذا أيضاً من صِفَةِ الخَتَنِ. يقول: لا يكون خليقاً بأن يكون مملوكاً لماله[1] لا مالكاً، ويَحُلُّ الفصيلُ منه مَحَلَّ العِيال لا مَحَلَّ المال. وهذا كما قال الآخَرُ:

فَلَا واللهِ ما لَبَنِي بِرَبٍّ ولا لَحْمِي عَلَيَّ ولا سِلَائِي[2]

واللَّقُوحُ صِفَةٌ، يقال ناقةٌ لَقُوحٌ إذا كان بها لَبَنٌ، وجمعُه لُقُحٌ. قال الخليل: فإذا أرادوا استعمالها على حدِّ الأسماء قالوا لِقْحَةٌ، يقال: هذه لِقْحَةُ فُلان، للنَّاقة الحلوب — ولا يقال ناقةٌ لِقْحةٌ — والجميعُ لِقَاحٌ.

١١٩

وقال ابن رُمَيضٍ العَنْبَرىُّ[3]:

١ — باتوا نِياماً وابنُ هِنْدٍ لم يَنَمْ

٢ — بَاتَ يُقَاسِيها غُلَامٌ كالزَّلَمْ

يقول: مَكَثَ الناسُ نائمينَ فى ليلهم، وهذا الرّجل لم ينَمْ، لأنّه كان بَيَّتَ للغارة، ثم قال «بات يقاسيها»، أى يُعانى الغارة كيف يُوقِعُها ويُدَبِّرُها متى

(١) فى الأصل: «بماله»، وأثبتنا ما فى م.

(٢) سبق البيت فى ص ٢٤٠.

(٣) هو رشيد بن رميض، بهيئة التصغير فيهما. فى الأصل: «ربيض»، تحريف صوابه فى م والعنبرى، كذا وقع فى نسختى المرزوقى، والصواب «العنزى»، نسبة إلى بنى عنز ابن وائل، أو بنى عنزة. انظر تاج العروس (٥ : ٣٧)، والأرجح أنه من بنى عنزة. انظر أمالى القالى (٢ : ١٢٦) وتحقيق اسمه فى حواشى الحيوان (٥ : ٤٣٤) وسمط اللآلى ٧٢٩. وقال التبريزى: قال أبو رياش: هذه قالها فى غارة الحطم، وهو شريح بن شرحبيل بن عمرو ابن مرثد، أغار على اليمن فقتل وليعة بنى معديكرب، أخا قيس، وسبى بنت قيس بن معديكرب أخت الأشعث بن قيس، فبعث الأشعث يعرض فى فدائها بكل قرن من قرونها مائة من الإبل، فلم يفعل الحطم، وماتت عنده عطشاً».

يأخُذ فيها ، غُلامٌ مُدْمَجُ الخلقِ خفيفٌ ثَقْفٌ مُشمِّرٌ ، كأنه قِدْحٌ . يعنى ابن هِنْدٍ . والزَّلَمُ بفتح الزَّاء وضمِّها : القِدْحُ كان يُسْتَقْسَمُ به . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ . ويجوز أن يكون المُضمرين فى باتوا المغارُ عليهم .

٣ — خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ خَفَّاقُ القَدَمْ

٤ — قَدْ لَفَّها اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ

يصفه بأنَّه غليظ السَّاقَين ، ولوطْئِه الأرضَ صَوْتٌ ، ولقَدمه خَفْقٌ ، وهو سُرْعَة الخَطْوِ مع ضَرْب الأرض بها ، كأنَّه يشير بهذا إلى ثباته وقُوَّته فى العمل والسَّير ، وشدَّة بلائه وصبْره على الكدِّ . وقوله « قد لَفَّها » يريد الإبل . وجَعَل الفِعْل لِلَّيل على المجاز . والمعنى : جَمَعَها برَجُلٍ مُتناهى القُوَّةِ ، عنيف السَّوْق ، يَكْسِرُ الطرائد بَعْضًا[1] على بعضٍ ، لقلّة رِفْقِهِ وكثرة عَسْفِه ، ولأنَّه قليل الفِكْرِ فيها إذْ كانت حُصِّلَتْ بالغارة ، فإن سَلِمَتْ فهى غُنْمٌ ، وإن تَلِفَتْ فليستْ بغُرْمٍ ، فالعِوَضُ منها بالقُرْبِ . وقولُه « حُطَمْ » بناء للمبالغة ، وهو من الحطمِ الكسر .

٥ — لَيْسَ براعِى إبِلٍ ولاَ غَنَمْ

٦ — ولا بجَزَّارٍ على ظَهْرِ الوَضَمْ

يقول : لا يَرْفُق هذا الرجل بوَسائقه رِفْقَ الرُّعاةِ ، ولا رِفْقَ الجزَّارِ ، وذلك أن الراعى مُكْتَرٍ لاستصلاح مَرْعِيِّه ، وحفْظ ما ضُمَّ إليه بجَهْدِه ، والجزَّارُ لا يستَهْلِكُ مالَهُ ولا يَعْنُفُ عُنْفَ مَن لا يُبالِي به . وهذا صِفَةُ المِغْوار

(١) م : « بعضها » .

القليل الفِكْر فى فَسَاد ما يَحْوِيهِ منها ، الذَّاهب عن استبقائها ، لا يبالى كيف استوسقت ، وعلى أىِّ حَالةٍ تَحصَّلَتْ .

١٢٠

وقال جَعْفَرُ بن عُلبَةَ الحارثىُّ(١) :

١ — ألا لا أُبالى بَعْدَ يَوْمِى بسَحْبَلٍ إذا لم أُعَذَّبْ أن يَجِىءَ حِمَامِيَا(٢)

يقول : اشْتَفَيْتُ من أعدائى يومَ سَحْبَلٍ — وهو اسم وادٍ — وأدركتُ آثارى(٣) عندهم فلا أُبالى بدُنُوِّ موتى بَعْدَهُ إذا لم يُعَذِّبْنِى الله تعالى تبارك اسمُهُ ، إذ كنت نِلْتُ أُمْنِيَّتى ، وقَضيتُ مَأْرُبَتى . والذى تناوَلَه قولُهُ « لا أُبالى » هو أن يجىء حِمَامِيَا . ويقال لا أُبالى كذا ولا أُبالى بكذا . وإذا لم أُعَذَّبْ ظَرْفٌ للا أُبالى ، أى لا أُبالى بالموت إذا سَلِمْتُ من عذاب الله عزّ وجلّ . وإنما أتى بإذا رجاءَ أن يكون الأمر كذلك . وقد مَضَى القَوْلُ فى أُبالى وأصله وما استَقَرَّ عليه فى الاستعمال ، وأنّ قَوْلَهُم لا أُباليه بالَةً أصله عند سيبويه بالِيةً فخُفِّف . وقد ذهب غيرُه إلى أنها مقلوبة ، ويقول فى بالةٍ إنها فَعْلَةٌ ، وإن أَلفها منقلبة عن واو ، وأن أُبالى كان أُباوِل أى لا أُكاثِر ، ثم وُضع موضع لا أَحْفِلُ ولا أَكْثِرت . وللترجيح والنَّظر فى المسألة موضعٌ غير هذا .

٢— تَرَكْتُ بِجَنْبَىْ سَحْبَلٍ وتِلاَعِهِ مُرَاقَ دمٍ لا يَبرحُ الدَّهرَ ثاويا

أخذ يقتصّ ما هوّن عليه الموتَ من فِعْلِهِ ، فيقول : تركت بجانِبَىْ هذا الوادى

(١) سبقت له الحماسية الرابعة . التبريزى : « وقال جعفر بن علبة الحارثى حين لقى بنى عقيل » .

(٢) التبريزى : « يوم بسجل » .

(٣) الآثار : جمع ثار بالقلب ، ومثله الأثآر .

ومسايل مياهه مَصْوبَ دَمٍ ، يلزم ذلك المكان على مرور الأيام فلا يبرح . وقوله « ثَاوِيَا » مِن ثَوَى بالمكان ، إذا أقام . يقال ثَوَى وأَثْوَى جميعا . وقوله « مُرَاق دَمٍ » يجوز أن يريد موضعا أُرِيقَ به دَمٌ ، كما يجوز أن يريد به دَمًا مُرَاقًا ، ولكنه إذا أريد به الموضع يكون لا يبرحُ من صفة الدّم ، ويجوز أن يريد به رجلاً أريق دمه ويكون كقولك هو حَسَنُ وجْهٍ . وذكر بعضهم أن المراد مُرَاق دَمٍ لا يزال ذكرُه باقيا على الدّهر فحذَف المضاف . والتِّلاع : جمع تَلعةٍ ، وهى أرضٌ مرتفعة يتردَّد فيها السَّيل إلى بطن الوادى . ومن الاستعارة الحسنة : فلانٌ لا يُوثَقُ بسَيلِ تَلْعَتِه ، إذا كان غير صَدوقٍ فى أخبارِه .

٣ — إذا ما أَتَيْتَ الحارثيّاتِ فانْعَنِى لهُنَّ وخبِّرهُنَّ أَنْ لا تَلاقِيَا

هذا كلامُ رجل يؤنسُ أحِبَّتَهُ من نفسه لاستقتاله ، أو لأنه مُنِيَ بما لم يَرْجُ الخلاصَ منه . فقال : إذا زُرْتَ نساءَ بنى حارثة فاُذكُرْ موتى لَهُنَّ ، وأعلمهنّ أنه لا التقاء بينى وبينهن . فقولُه « أن لا تلاقِيا » أن مخفَّفةٌ من أنّ الثقيلة ، واسمه مُضْمَرٌ ، وتلاقِيا نَصْبٌ بلا وخَبَرُهُ محذوف ، المرادُ لا تلاقِيَ لنا ، والهاء فى أنه ضمير الشأن والأمر ، والجملة خَبَرَ أنْ . وهذا البيت مع ما بَعْدَهُ لمالك بن الرَّيْبِ[1] فيما أظن ، وانضمّا إلى أبيات جَعفر بن عُلبَةَ على سبيل الغلط .

٤ — وقَوِّدْ قَلوصِى فى الرِّكابِ فإنّها ستُضْحِكُ مَسْرُورًا وتُبكِى بواكِيَا

يقول : وأَكثِرْ قَوْدَ ناقتى حالاً بعد حالٍ ، فإنّ الأعداءَ يَشْمَتُون إذا استدلُّوا بها ويضحكون سروراً ، والأصدقاء ذواتُ الشَّفقة يغتمُّونَ فيبكون توجُّعًا[2] . وهذا الكلام تحزُّنٌ وتحسُّرٌ . وقوله « ستُضْحِكُ مسروراً وتُبكى

(١) انظر الخزانة (١ : ٣١٧ — ٣١٩) . (٢) كذا فى النسختين .

بواكيا » من باب وصْف الشيء بما يؤول إليه ، ومثلُه قولهم : خرجَت جوارحُه . وقول الفرزدق :

* قتَلْتَ قتيلاً لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ *

والقَلُوص ، قال الخليل : هي الناقة الباقية على السَّير ، لا تزال قلوصًا حتى تبزُلَ(١) . وإنما سمِّيت قَلُوصًا لطُول قوائمها ولم تَجْسُمْ بَعْدُ .

١٢١

وقال آخر(٢) :

١ ـ لَعَمْرِى لَرَهْطُ المَرْءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً عليهِ وإنْ عالَوْا به كلَّ مَرْكَبِ

خَبَرُ « لعَمرى » مُضْمَرٌ ولا يجوز إظهارُه ، وهو قَسَمٌ ، ولا يجوز أيضاً فيه إلاّ فتح العين ، ولَرَهْطُ جوابُه . والرَّهْطُ يقع على ما دون العشَرة ، ولهذا دَخَل عليه من الأسماء أسماء الآحاد فقيل ثلاثةُ رَهْطٍ . ومثْله نَفَرٌ ، ولو كان يقع على الكثير لما جاز لك فيه ألا ترى أنك لا تقول ثلاثُ إبلٍ . وانتصابُ « بقيّةً » على التميز ، وموضع « وإن عالَوْا به » نَصْبٌ على الحال للرهط ، وجوابُ الشَّرط فيما دلَّ عليه قولُه « خيرٌ بقيّةً » . وقوله « كلَّ مَرْكَبِ » يريدُ به كلَّ مَرْكَبٍ مذموم . وعالَيْتُ بفلان بمعنى أعلَيْتُه . ومعنى البيت : وبَقائى ، لَعِتْرَةُ الرّجلِ أحسنُ إبقاءً عليه ، وأكثرُ حشمةً له ، وإن أركبُوه مراكبَ صعْبَةً مكروهة ، وأنزلوه منازلَ حَزْنَةً مذمومةً .

٢ ـ مِنَ الجانبِ الأقصَى وإن كان ذاغنًى جَزِيلٍ ولم يَخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

تعلّق « من » بقوله خَيْرٌ بقيّةً ، لأنَّ معناه أَفْعَلُ الذى يَتِمُّ بِمِنْ . يقول : هُمْ

(١) البازل : التى استكملت الثامنة وطعنت فى التاسعة .
(٢) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان (٣ : ١٠٣) والبيان (٣ : ٢٥٠) .

أَحْسَنُ إبقاءً عليه من الغريبِ الأبعَدِ ، وإن كان الرجل محتشما فى نفسِهِ غنيًّا ، ومُعَظَّماً مَهِيبًا . وقوله « وإن كان ذا غنًى » فى موضع الحال أيضاً . والجانب يرادُ به الجِنْس لا واحِدٌ بعيْنِه . وقوله « ولم يُخبِرْكَ مثلُ مُجَرِّب » يجرى مجرى[1] الالتفات ، وهو توكيد للخبر الذى أورده ، وتحقيقٌ لما أنبأ به وشرَحَهُ ، وأنَّ ما قالَهُ قالَهُ عن تجربةٍ وخبرةٍ ، لا عن سماعٍ وخَبَر .

٣ — إذا كنتَ فى قوْمٍ ولم تكُ منهمُ فكُلْ ما عُلِفتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

هذا الكلام تحذير من الاغترار بالأجانب ، والاستنامة إلى ناحيتهم ، وبَعْثٌ على طلَبِ موافقتهم وترْكِ الخلاف عليهم ، بعد الحصول فيهم ، وأنَّ استعمال الإدلال معهم ، والأخذ بالمضايقَةِ فى إيفائهم والاستيفاء منهم غيرُ واجبٍ . ويروى : « فى قَوْمٍ عِدًى لَسْتَ منهم » ويكون معنى لست منهم : وأنت لاتهوَى هواهُم . والعِدَى يقع على الواحِدِ والجميع ، يقال رجلٌ عِدًى ، وقومٌ عِدًى ، أى بُعُدٌ غرباء . وقوله « كُلْ ما عُلِفتَ » مَثَلٌ . ومثله .

* ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونَكَ *

وكأنَّ العَلْفَ مختصٌّ بهذا المعنى ؛ فإنِّى لم أجدْه فى غيره .

١٢٢

وقال البُرْجُ بن مُسهِرٍ[2] :

١ — فَنِعْمَ الحَيُّ كَلْبٌ غير أنّا رأينا فى جِوَارِهِمِ هَنَاتِ

(١) فى الأصل : « مثل » وأثبتنا ما فى م والتبريزى .

(٢) هو البرج بن مسهر بن جلاس ، أحد بنى جديلة ثم أحد بنى طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان . وهو من معمرى الجاهلية . وكان قد جاور كلبا أيام حرب الفساد فلم يحمدهم . المؤتلف ٦١ وشرح التبريزى على الحماسة فى هذه المقطوعة . وانظر لحرب الفساد شرح التبريزى والأغانى (١١ : ١٢٧) والميدانى (٢ : ٣٥٨) .

هذا الكلام تهكُّمٌ وسخريَّةٌ . وجاز أن يأتى به بلفظ المدْح لأنه بما بَعْدَهُ تبيَّنَ الغَرَضُ؛ فيكون أبْلَغَ فى الهزْء . والهنَات : الأمور المنكرة، ولا تُسْتعمل إلا فى الشَّرّ(١) ، وهى جَمْعُ هَنَةٍ ، وإنما يُكْنَى بها عن المحقَّرات ، كأنّه يُرِى الإبقاء والمجامَلة ، ويُجرى الأمر على المَداجاة وترْكِ المجاهرَةِ . وقد يُجْمَعُ هَنَةٌ على هَنوَاتٍ ، فمن ردَّ اللام فى الجمع رَدَّهُ فى النِّسْبَة أيضاً ، ومن لم يَرُدَّهُ فهو فى النِّسبة بالخيار ، إن شاء قال هَنِيٌّ وإن شاء قال هَنَوِيٌّ . فيقول : قبيلة كلبٍ محمودةٌ فى الأحْيَاءِ ، غيرأنَّا مُنِينا فى جوارِهِمْ بدواهٍ وبُلينا بمُنْكَراتٍ. والاستثناء فى هذا المكان يكون منقطعاً . وكان فارَقَ قومَهُ طيِّئاً مُرَاغِمًا وجاوَر كلبًا فلم يَحْمَدْ جِوَارَهُم ففارقهم ذامًّا لهم .

٢ ــ ونِعْمَ الحىُّ كَلْبٌ غيْرَ أنَّا رُزِينَا من بَنِينَ ومن بَنَاتِ

يريد مثلَ ما أرادَ فى البيت الأول من السخريَّةِ . ومعنى رُزِينَا : أُصِبْنَا ببنين وبَنَاتٍ . ويقال فلانٌ مُرَزَّأٌ فى مالِه فيكون مَدْحًا ، وفلانٌ مرزَّأٌ فى أهْلِه فيكون تَرَحُّمًا وتوجُّعًا . ومثل هذا التهكم قول الآخر(٢) :

فِدًى لِسَلْمَى ثَوْبَاىَ إذْ دَنِسَ الْ قَوْمُ وَإذْ يَدْسُمُونَ مَا دَسِمُوا

فالتَّفْدِيةُ هاهنا كالمدح بنِعْمَ ثَمَّ . وقوله « من بنينَ » مِنْ دَخَل للتَّفضِيل ، كأنَّه قال : رُزِينَا أناساً من بنينَ ومن بنَاتٍ ، ومفعولُ رُزِينا محذوف ، ويجوز أن يكون ذاد مِنْ فى الواجب على ما أجازه الأخفش وحكاه عنهم من قولهم : « قد كان من مطرٍ نخلِّ عَنِّى(٣) » ، فيكون المرادُ رُزِينا ببنين وبَناتٍ .

---

(١) ذكر التبريزى أن بعض المحدثين ، قد استعملها فى الخير ، وهو قوله :

وعشرة محمودة تحتها مساعدات وهنات عذاب

(٢) هو الجميح الأسدى . المفضليات (١ : ٤٠) .

(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « على ما أجاره الأخفش وحكاه عنه كان من مطر » ، وفيه تحريف ونقص .

٣ — فإنّ الْغَدْرَ قد أَمْسَى وأَضْحَى مُقِيماً بَيْنَ خَبْتَ إلى الْمَسَاتِ[(١)]

يقول زاريًا عليهم ومبيِّنًا : إنهُ نالَهُم ما نالَهُم لأن الغَدْرَ مُقيمٌ فيما بين ديارهم ، ومما انطوَى عليه أحشاؤهم : وفائدة قوله أَمْسَى وأَضحَى بيانُ اتصالِ الوَقْت . وقوله « فإنّ الغَدْر » الفاء رَبطَ الجملةَ التى بعدَها بما تقدَّم ورتَّبها عليه ، كأنه قال : قاسَوْا ما قاسَوْهُ فى جِوارِهم فإنَّهم غادرونَ . وخَبْتٌ والمَسَاتُ : ماءَانِ لِكَلْبٍ . يقولُ : الغَدْرُ مُقيمٌ فى كَلْبٍ بين هٰذين ، أى فى أوّل ديارِهم وآخرِها .

٤ — تَرَكْنا قَوْمَنَا من حَرْبِ عَامٍ أَلاَ يا قَوْمِ لِلأَمْرِ الشَّتَاتِ

هذا الكلام اقتصاصٌ لحالِهِ ، وإظهارٌ للتأسُّفِ على مجاوَرَةِ كلبٍ ، والتندُّم على ما اتَّفق من مفارقة العشيرة : وقوله « يا قومِ للأمرِ الشَّتَاتِ » تعجُّبٌ . والشّتاتُ : مَصْدَرٌ وُصِفَ به . واللام فى الأمرِ لام الإضافة ، لكن فائدته ما ذكرناهُ من التعجُّب ، وأُتِىَ به مع المَدْعُوِّ . وقد يقالُ يا لَزَيْدٍ فيكون المُنادَى محذوفًا . وهذه اللام تدخل مفتوحةً فى المُنادَى ويُراد به الاعتزاء[(٢)] ، كقولِك يا لَبَكْرٍ ويا لَتَمِيمٍ . فيقول : انتقلنا عن قوْمِنا وفارقناهُم مُنذ زمن الحرْبِ التى اتّفقت بيننا عامًا أوّلَ . ثمّ أخذ يستعطفهم ، ويتذمَّمُ من مراغمتهم ، ويُظهر الحاجةَ إليهم فقال : يا قوْمِ أَقبِلُوا لما تشتّت من أَمرِنا ، واختلَّ من حالِنا . وقولُه « من حَرْبِ عامٍ » جعَلَ مِن بَدَلَ مُنْذُ ، لأنه فى المكان مثلُه فى الزمان ، كما قال زُهَيْرٌ :

---

(١) المسات ، كذا ضبط فى النسختين بفتح الميم ، وضبطه ياقوت بضمها .

(٢) الاعتزاء : الادعاء والانتماء فى الحرب ، ومثله التعزى . وفى الحديث : « من لم يتعز بعزاء الله فليس منا . أى من لم يدع بدعوى الإسلام فيقول يالله أو ياللإسلام أو ياللمسلمين » .

* أَقْوَيْنَ مِن حِجَجٍ ومِن دَهْرِ(١) *

٥– وأَخْرَجْنَا الأَيامَى من حُصُونٍ بها دارُ الإقامةِ والثَّباتِ

يقول: أَخْرَجْنا النِّساءَ اللاتى صِرْنَ أَيامَى من مقرِّ عزِّهِنّ، ودار أَمْنِهِنّ، إلى جِوَارِ كَلْب، حتى اتّفق عليهنّ من الأعداء ما اتّفق، ومن حُلولِ الرَّزايا ومقاساةِ الهَنَاتِ بهنَّ ما أَقْلَق. ووَصَفَ النِّساء بما آلَ إليه أَمرُهُنَّ من الإيمَةِ، وإنْ كُنّ وقت الإخراج ذَوَاتِ بُعولٍ. ومثْلُه قولُ الآخَر(٢):

* ستُضْحِكُ مسْرُورًا وتُبْكِى بَوَاكِيا(٣) *

وفى القرآن: ﴿إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا﴾. وأَيَامَى: جمع أَيِّمٍ، ويقع على الرجُل والمرأة. والفِعل منه آم، أى بَقِيَ بلا زَوْجٍ. وهو من الفِعل فَيْعِلٌ، وجَمْعُهُ أَيايِم على فياعل. وأَيَامَى مقلوبٌ كأنه قُدِّمَ اللامُ على العين فصار أَيَامِى على فيالِع، ثم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة، فانقلبت أَلِفًا.

٦– فإن نَرْجِعْ إلى الجَبَلَيْنِ يَوْمًا نُصَالِحْ قَوْمَنَا حتى المَمَاتِ

هذا إظهارُ رَغْبَةٍ فى الرُّجوع إلى العشيرة، ومعاودة الوَطنِ والمحَلَّة. يقول: إن اتَّفَق لنا عَوْدَةٌ إلى بلادنا ترَكْنا الخِلاف على ذَوِينا، وأقمنا بها إلى انقضاء الأجل، واستنفاد المَهَل. ويعنى بالجَبَلَيْن أجأ وسَلْمَى: جَبَلَىْ طيِّئ(٤). وقوله «حتّى المَمات» أراد به إلى حين المَمات، فحذَفَ المضافَ. والمماتُ يكونُ مصدراً، وإن جعلْتَه اسْمًا للحِين فلا حذْف.

(١) صدره كما فى الديوان ٨٦ طبع دار الكتب:

* لمن الديار بقنة الحجر *

(٢) هو مالك بن الريب. الأمالى (٣: ١٣٨) والخزانة (١: ٣١٩). وانظر الأغانى (١١: ١٤٢).

(٣) صدره: * وعطل قلوصى فى الركاب فإنها *

(٤) وكان أجأ لبنى ثعل، وسلمى لبنى نبهان.

١٢٣

وقال موسى بن جَابِرٍ[١] :

١ — لا أَشتَهِي يا قَوْمِ إِلَّا كَارِهًا بَابَ الأميرِ ولا دِفَاعَ الحاجِبِ

يصفُ بهذا الكلام مَيْلَهُ إلى البَدْوِ ، وتفضيلَهُ رِجالَهُ على رِجالِ الحَضَر ، فيقول : لا أتمنَّى ورودَ بابِ الأمراء ، ومُدافعةَ الحُجّاب ، ولا أعلِّقُ شَهوتِي بهما إلا على كَرْهٍ وعن داعيةٍ عارضَةٍ ؛ إذ كُنْتُ أَلِفْتُ الصَّحارِي والبَرارِي ، وصاحَبْت بها مَن لا تملكني معه حِشْمَةٌ ، ولا يَصُدُّني دونَهُ عِزَّةٌ . وانتصب « كارِهًا » على الحال .

٢ — ومن الرِّجَالِ أَسِنَّةٌ مَذْرُوبَةٌ ومُزَنَّدُون شُهُودُهُمْ كالغائبِ

يقولُ : مِن الرجالِ رجالٌ كالأسِنَّةِ المطْرورة ، أي يمضون في الأمور ويفصِلونها نفاذَ الأسِنةِ ؛ ومنهم مزنَّدون . والمُزَنَّد : المُبَخَّل المُقَلِّل . وقيل الزَّنْد ضُرِبَ به المثل في القِلّة . يقال : « زندانِ في مُرَقَّعَةٍ[٢] » ، ثم قيل هو مُزَنَّدٌ مشتقًّا منه . وقولُهُ « شهودُهم كالغائب » أي لا غَناء عندهم ، ولا دِفاعَ بهم ، فحضورهم كغيبتهم . وأراد بالغائب الكثرةَ لا التَّوحيد . وكان من حقِّ التقسيم أن يقولَ :

---

(١) هو موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة بن عبيد الحنفي اليمامي ، شاعر نصراني جاهلي كثير الشعر ، فيما ذكر الآمدي والمرزباني ، وكان يلقب أزيرق اليمامة ، ويعرف بابن ليلى وهي أمه . وكان يقال له أيضاً : ابن الفريعة ، كما يقال لحسان بن ثابت . وقال أبو العلاء فيما تقله عنه التبريزي : « موسى منقول من العبرانية ، ولم أعلم أن في العرب من سمي موسى زمان الجاهلية ، وإنما حدث هذا في الإسلام لما نزل القرآن وسمى المسلمون أبناءهم بأسماء الأنبياء على سبيل التبرك » . وقول أبي العلاء هذا معترض بما ذكره المرزباني في معجمه ٣٧٦ . وانظر المؤتلف ١٦٥ .

(٢) انظر ما سبق في ص ١٨٠ .

ومنهم مزنَّدون ، لكنه اكتفى بمِن الأوَّل . ومثلُه قول الله تعالى : ﴿ منها قائمٌ وحَصِيدٌ ﴾ . وسمعتُ أبا عليٍّ الفارسيَّ رحمه الله يقول : كلُّ صِفَتَيْن تتنافَيَان وتتدافعان فلا يصحُّ اجتماعهما لموصوفٍ لا بُدّ لإضمار مِنْ مَعَهُما إذا فُصِّل جُملةً بهما ، متى لم يجِئْ ظاهرا ، ثم أنشَدَ :

وما زَوَّدونى غَيْرَ سَحْقِ عَبَاءَةٍ   وخَمْسِ مِيءٍ منها قَسِيٌّ وزائفُ[1]

وقال : يريد ومنها زائف . وهذا كما تقولُ زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ وعَمْرٌو ، والمعنى وعمْرو منطلق ، فحذف اكتفاء بالخبر عن الأول ، وعلْماً بأنّ المنعَطِف ذلك حَاله . قال : فإن أمْكن اجتماعُ الصِّفتين لموصوفٍ واحد استُغنِى عن إضمار مِن ، ذلك كقولِك صاحباك منهما ظريفٌ وكريمٌ .

٣ — مِنْهُمْ لُيُوثٌ لا تُرَامُ وبَعْضُهم   مِمَّا قَمَشْتَ وضَمَّ حَبْلُ الحَاطِبِ

يقول : من الرجال رجالٌ كالأُسود عِزَّةً وأَنَفَةً ، لا يُطلب اقتسارهم واهتضامُهم ، ومنهم متقارِبون كالقُماش واللفائف ، جُمِعُوا على ما اتَّفق من شىء إلى شىء . كأنَّه لم يُقْنِعْه ذلك التشبيه وتلك القسمة ، فاستأنفهما على وجهٍ آخر . وقولُه « وبعضهم مما قَمَشْتَ » ينوب فيه ذكر البعض عن قوله « ومنهم » ، لأنّ مِن للتبعيض فاستغنى به . وقوله « وضمَّ حبلُ الحاطبِ » كقول الآخر :

* وكُلُّهُمْ يَجْمَعُهُمْ بَيْتُ الأَدَمْ[2] *

قال الأصمعىّ : لأنّ بيتَ الأَدَم يجمع الجيِّد والردىء ، على تقارب بينهما ، ففيه من كل جِلْدٍ رُقْعَةٌ . وكذلك الحاطب يجمَعُ فى حبله[3] الجيّد والردىء ،

(١) البيت لمزرد ، كما فى اللسان (سحق ، قسا ، مأى) .

(٢) قبله فى اللسان (أدم) :

* الناس أضياف وشتى فى الشيم *

(٣) فى الأصل : « صدره » ، صوابه فى م والتبريزى .

والرَّطب واليابس ، على تَدَانٍ بينهما . فإنْ قِيل : وما الفائدة فى إعادة التَّقسيم والتشبيه ؟ فالجواب أن يقال : كأنهُ صَنّفهم[1] فى الأولى من حيث اختلفوا عنده فى الأعمال والأخلاق ، وعلى توهُّم تباعدٍ بينهم ، بدلالة قوله من الرِّجال أَسِنَّةٌ ومنهم مزنّدُون لا يُعْتَدُّ بحضورهم . وبين الصفتين تفاوتٌ عظيم ، وتباينٌ شديدٌ . وصَنَّفَهُم فى الأخرى من حيث اختلفوا فيها على توهُّم تقارُبٍ بينهم ؛ لأنّ فيمن يُقَمَّشُ من لا يُبَايِنُ المباينةَ الفاحشة ، ولا يُخالِفُ المخالفةَ المنكرة .

١٢٤

وقال آخر :

١ ـ أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُهَا   مكانَكِ لمَّا تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ

يقال : خَوَّدَ رَأْلُه ، للمذعور المرتاع : والرَّأل . فَرخ النَّعَام . وهذا مَثَلٌ . والتخويد : ضَرْبٌ من السَّيْر سريع . والتَّخويد والوَخْد والخَدْىُ متقاربةُ المعنى ، فى أنها تفيد ضروبًا من المَشْى ، ويُوصَفُ بجميعها النعام . ويقال فى هذا المعنى « زَفَّ رَأْلُه » ، لأن الزَّفيف ضربٌ من العَدْوِ سريعٌ أيضًا . وفى هذه الطريقةِ قولُهم « طار طائره » . ويقولون : « هو أنفرُ من نَعَامٍ » ، و « أشْرَدُ من ظَلِيم » . ومعنى البيت : إنى أُثَبِّتُ نفسى عند ما يَبدَهُ من ذُعْرِ الحرب ، ويَفْجأ من روعة القتال ، فأخاطب نفسى إذا هَمَّت بالإحجام ، أو وُسْوِسَ إليها وجوبُ الانهزام : الْزَمِى مكانَكِ لم تُذْعرِى وقت ذُعْرٍ . وقوله « مكانَكِ » أَمرٌ ، وهو موضوعٌ موضعَ الفعل الذى عَمِل فيه ، ومكتفًى[2] به عنه ، فهذا إيجابٌ . وقوله « لما تُشْفِقِى حين مُشْفَقِ » تأنيسٌ ، أى لم تخافى وقتَ مخافةٍ .

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « وصفهم » .
(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « ومكتف » .

فهما كلامان . والإشفاق : الذُّعْرُ ، وقد يختلط بالنُّصح ويتجرَّد عنه . قال الله تعالى : ﴿ إنَّا كُنَّا قَبْلُ فى أَهْلِنا مُشْفِقِين ﴾ .

٢ — مكانَكِ حتى تَنظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى عَمَايَةُ هذا العارِضِ المتألِّقِ[(١)]

يقول : أستَأْنِى وأترَفَّقُ ، وأقول فى تلك الحالة ، تماسَكِى يا نَفْسُ واحفظى مكانَكِ إلى أن يتبين لكِ عن أىِّ شىء تنكشف لك ظلمةُ هذا العارض المتشقق بالبَرْق . والعارضُ ، أصلُه فى السَّحَاب ، وهاهنا أراد به الجيش . وجعل التألُّق مثلاً لِلمَعان الأسلحة . ويقال ائتلق البَرْق أى تلألأ ، وتألَّق . والعَمَايةُ : الظلْمَة والهَبْوَة . ويروَى : « غَيَاية هذا العارض » وهى فى طريق العَمَاية لأنهما من الغَىِّ والعَمَى ، وقد تُوُسِّع فيهما . وإنما طلبَ من النَّفس الصَّبرَ إلى ذلك الوقت ، لأنَّ مَن ثَبَتَ فى الحرب إلى انكشاف الحال فيه فقد أعطاها حقها .

١٢٥

وقال موسى بن جابر[(٢)] :

١ — وقلت لزَيْدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنَّهُمْ يَرَوْنَ المَنَايَا دُون قَتْلِكَ أو قَتْلِى[(٣)]

التَّرترة : العَجَلة . وحكى الدُّرَيدِىُّ أنها كثرة الحركة[(٤)] ، فهى كالتَّلْتَلَة . ورُوِىَ الحديث : « تَلْتِلُوهُ ومَزْمِزُوهُ » بالراءِ[(٥)] واللام جميعاً . ويُرْوَى

---

(١) ذكر التبريزى أن بعد البيتين :

وكونى مع التالى سبيل محمــد وإن كذبت نفس المقصر فاصدق
إذا قال سيف الله كروا عليهم كررنا ولم نحفل بقول المعوق

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٣ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « قلت لزيد » بالخرم .

(٤) انظر الجمهرة (٢ : ١٣) .

(٥) فى النسختين : « بالزاى » ، تحريف .

« لا تُبَرْبِرْ » ، والبَرْبَرَةُ : كثرة الكلام ، وكذلك الثَّرْثرة بالثاء ، ورَجُلٌ ثرثارٌ . ويقال : ما أكثَرَ بَرْبرتهم ، إذا ماجُوا فى الكلام . ومنه سُمِّىَ البَرْبَر : جِنْسٌ من المغاربَةِ[١] ، وكذلك البَزْبَزَة بالزاى : كثرة الحركة . وقد رُوِىَ : « لا تُبَزْبِزْ » . ويقال ما أكثر بزبزتهم ، ورجل بَزْبازٌ وبزَابزٌ ، إذا كان يكثرُ حركاتُه ويخِفُّ[٢] فيقول : لا تَعْجَلْ يا زَيْدُ ، أو لا تُكْثِرِ كلامَكَ ولا تَضْطَرِبْ ، فإنَّ القومَ يَرَون الصبر على المنايا ويخفُّ عليهم ويقلّ عندهم إذا ثبت فيه قَتْلُكَ أو قَتْلِى لهم[٣] . وانتَهَزُوا فى تحصيل أحدهما فُرَصهم . ويكونُ « يَرَوْنَ » فى هذا الوجْه من الرَّأى ، كما يقال فلانٌ يرَى فى دينِهِ أو فى مروَّتِهِ كذا ، أى يتَّخِذه مَذْهَبًا ويدومُ عليه . ويجوز أن يريد بيرَوْنَ المنايا : يُقاسُون الشَّدائد ، ويذوقون المنايا ، ولم يَصِلُوا بَعْدُ إلى قتْلِى أو قَتلِكَ . ويكون معنى « دون قَتْلِك » كما يقال « دُونَ هذا الأمرِ خَرْطُ القَتاد » ، وكما قال بِشْرٌ :

* ومِنْ دُونِ لَيْلَى ذو بَحَارَ ومَنْوَرُ[٤] *

ومعنى يَرَى كما يُقال لو علِمْتَ ماذا رأيتُ من فلانٍ ، يراد أىَّ شىء مارَسْتُ وكايَدت . والكلام فى المعنى الأول تصويرٌ لحال القوم فى عداوتهم ، ونَهْىٌ عن المعاجلة[٥] مَعَهُم ، وبَعْثٌ على مصابرتهم ومحاذرتهم . وعلى المعنى الثانى يكون تثبيتاً لصاحبه وتشجيعا ، وتسكينا منه وتصبيراً ، فيكون مثل قَوْله :

---

(١) ومنه سمى البربر ، إلى هنا ساقط من م .

(٢) م : « إذا كان تكثر حركاته وتخف » .

(٣) أى إذا ثبت لهم . وكلمة « لهم » فى م نقط .

(٤) صدره كما فى معجم البلدان (٢ : ٦٥) :

* لليلى على بعد المزار تذكر *

وبحار فى النسختين بفتح الباء ، وهى لغة فيه نص عليها ياقوت ، وأورد لغة أخرى ، وهى كسر الباء . وقد جاء مصروفا فى م وممنوعا من الصرف فى الأصل .

(٥) كذا فى م . وفى الأصل : « المعالجة » ، تحريف .

* أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُهَا[1] *

وكأن أبا تمام تَصوَّرَ هذا المعنى ، فلذلك ألحق الأبيات بما يليها .

٢ — فإنْ وَضَعُوا حَرْباً فَضَعْها وإن أَبَوْا فَعُرْضَةُ عَضِّ الحَرْبِ مِثْلُكَ أو مِثْلِى

يقول : إن حَطُّوا الحرب أو اطَّرَحُوها ، وراموا المسالمة والمتاركَةَ فيها ، فاتَّبِعْهُمْ فى ذلك واقْتَدِ بِهِمْ ، وإن أَبَوْا إلا الشَّرَّ فالقَوِىُّ على عِضَاضِ الحَرْبِ والصَّبُور على لزامِهَا مِثْلُكَ أو مثلِى ، والمعنى : أنا وأنت . وهذا كما يقال : مثلُه لا يغْتَاض منه ، والمَعْنى هو لا يُغْتَاضُ منه . ويقول : فلانٌ عُرْضَةُ الشَّرِّ ، إذا كان قوياً عليه .

٣ — وإنْ رَفَعُوا الحَرْبَ العَوَانَ التى تَرَى فَشُبَّ وقُودَ الحَرْبِ بالحَطَبِ الجَزْلِ

جَعَل الرَّفْع فى مقابلة الوَضْع من البيت الأول ، والمعنى : إنْ هَيَّجُوها . والعَوَانُ : التى قُوتِلَ فيها مَرَّةً بعد أخرى ، فتقادَمَ وتطاول لَبْثُها ، واتَّصل هيجانُها ، واتَّسَعَ نَفَيانُها . وهذا على التَّشبيه بالعَوَان من النِّساء . فهو كما وصفها غيرُه — لَمَّا أراد ابتداءها وجِدَّتها — بأنّها فَتَاةٌ وبِكْرٌ ، فقال :

الحَرْبُ أوَّلَ ما تكونُ فُتَيَّةٌ تَسْعَى ببزَّتِها لِكُلِّ جَهُولِ[2]

وقد استعملوا البِكْرَ والعَوانَ فى الحاجات أيضا ، فقال : هى بِكْرُ حَاجَاتى ، وحاجتى بِكْرٌ ، وحاجَتُكَ عَوَانٌ . يقول : وإن أَجَّجُوا نار الحَرْبِ العَوَان التى تشاهِدُ واستجاشُوا لها ، وأثاروا كوامِنَهَا ، فاسْتَجِشْ أنْتَ أيضاً وأَوْقِدْ نَارَهَا بالحطبِ الغليظ الجَزْلِ .

---

(١) البيت الأول من الحماسية السابقة . وقد روى فى م كاملا .

(٢) لعمرو بن معديكرب . انظر شروح سقط الزند ١٦٧٨ .

١٢٦

وقال أيضاً :

١ — إذا ذُكِرَ ابنا العَنْبَريَّةِ لم تَضِقْ ذِراعى وأَلْقِى باسْتِهِ مَنْ أُفاخِرُ[١]

قوله : « لم تَضِقْ ذراعى » مَثَلٌ ، ويقال ذَرْعِى . قال الخليل : الذِّراعُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُسَمَّى يَدًا من الرُّوحانيين[٢] . يقول : إذا ذُكِرَ هذان الرَّجلان من آبائى اتَّسَعَ نِطاق افتخارى ، ورَحُبَ مَجَالى وباعِى ، ولم تُعْيِنِى غَلَبَةُ من أساجِله ، ولم يَقْعُدْ بى ذكرهما عن الارتقاء فى الفخر إلى ما لا يَطْلُعُ له مَن أُوازِنُهُ وأُكايِلُه ، حتى أَلقاه باستِهِ دون وَجْهِهِ لتولِّيه وإعراضِه . وذِكْرُ الاست تقبيحٌ لفعله عند النُّكوصِ والانهزام ، وتشنيعٌ عليه فى التولِّى والإدْبار .

٢ — هِلالانِ حَمَّالانِ فى كُلِّ شَتْوَةٍ من الثِّقْلِ ما لا تستطيعُ الأباعِرُ

يقول : هما فى الاشتهار واعتلاء الشَّأن ، واستضاءة الناس بنورهما ، والانتفاع بمكانهما ، بمنزلة هلالَيْن ؛ ويتكلَّفانِ عند كُلِّ جَدْبٍ ومَحْلٍ ، من الأثقال والأعباء ، ما لو صارت أجْرامًا لَعَجزَ عن النهوض بها وتَحمُّلِها البُعْرانُ . فإن قيل : إذا كان قَصْدُه فى تَحَمُّلِ الأثقال إلى قِرَى الضَّيف ، ونَحْرِ الجزور وقِسْمَتِهَا فى المَيْسِرِ ، والصَّبْرِ على المُؤَنِ ، والنُّهوض بالكُلَفِ ، فكيف قال حَمَّالانِ من الثِّقْل ما لا يستطيع الأباعِرُ ؟ وكيف مَثَّلَ ما يَثقل على القلوب من الغرامات والحقوق ، بالأوقار التى تثقُل على الظُّهور ؟ قلتَ : إنَّما يريدُ أنَّ تلك المُؤَن والتكاليفَ التى يلتزمها ، ويَسْعَى بها وفيها ، لو جُسِّمَتْ ثم حُمِلَتْ ، لكانت

---

(١) فى الأصل : «من يفاخر» ، وصواب الرواية المتساوق مع التفسير من م والتبريزى .

(٢) فى اللسان (ذرع ٨ : ٤) : « من الروحانيين ذوى الأبدان » .

الجمالُ لا تستقلُّ بها ، ولا تقْوَى عليها[١] ، فهذا وَجْهٌ . ويجوز أن يكون لمتاقال حَمّالَانِ فى كل شَتْوَةٍ من الثقل ، جَعَلَ لِفقَهُ مالا تستطيع الأباعر ، إذْ كانت الجِمَالُ وأشباهُها هى التى لحمل الأثقال خلِقَتْ[٢] ، وبها اشتهرتْ ، وليكون فى اللفظ توافُقٌ ، مع الأمن من عارضِ الالتباس . ويكون هذا كما قال غيره[٣] :

أَلا هَلَكَ امرؤٌ ظَلَّتْ عليـــه … بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ بَقَرٌ هُجُـــودُ
سَـــمِعْنَ بمَوْتِهِ فَظَلِلْنَ نَوْحًا … قِيامًا ما يَحِلُّ لهنّ عُودُ

ألا ترى أنَّه لمّـا كان قد كَنَى عن النساء بقوله « بقرٌ هجود » عَبَّرَ عن إمسـا كهنّ عن الطعام تحزُّنا بقوله « ما يَحِلُّ لهن عود » إذْ كانَت البَقَرُ وما يجانسها من البهائم تعتلف العُود وما يكون كالعُودِ . وليس ذلك إلَّا لِطَلَبِ الموافقة فى اللفظ ، مع الأمْنِ من اللَّبْس . فأمّا قولُ لَبيدٍ :

فإذا جُـــوزيتَ قَرْضًا فاجْزِهِ … إنمـا يَجزِى الفَتى ليس الجَمَلْ

فمعناه إنّما يعْرِفُ النِّعَمَ وما يَجب لهـا من شُـكْرِ الْمُنْعِمِ أربابُ العقول وذوو التَّمييز ، لا البهائم . فمتى أزِلَّت إليْكَ نِعْمَةٌ فـكُنْ من المجازاة عليها بمَرْصَدٍ ، فإنّ معرفةَ ذلك والأخذَ به من تمـام العقل ، ويوجِبهُ المميِّزون وأولو الِحْجَى ، لا غيرهُم ممّا لا تَمييز له ، ولا معرفة بذلك عنده . وذَكَرَ الجَمَل مُـكتفِيًا

(١) م : « بحملها » .

قال التبريزى : « هذا قول المرزوقى . وقال النمرى : أى هذان الرجلان يحملان من أعباء المغارم وأثقال الصنائع ما لو أنه يوزن لم تستطع حمله الإبل ، وهى أثقل الحيوان حملا ، وأكثره صبرا . قال أبو العلاء : قد تأول النمرى له معنى قد يجوز مثله ولكنه بعيـــد ، وإنما ينبغى أن يحمل الشىء على ما كثر ، وذلك أنه ذهب إلى أن هذين الممدوحين يحملان من قرى الأضياف ومن نحر الإبل ما لا تستطيعه الأباعر ، أى إنها لا تقوى عليه لأنه يهلـكها » .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « هى التى تحمل الأثقال لها خلقت » .

(٣) هو امرأة من بنى حنيفة ترثى يزيد بن عبـــد الله بن عمرو الحنفى . المفضليات (٢ : ٧٢) .

وإن كان القَصْدُ جِنْسَه أو أجناسَ مِثْله . وفى طريقةِ ما نحن فيه قول أبى تمّام إلّا أنه فَصَلَ بين المنزلتين ، وهو :

والصَّبْرُ بالأرْوَاح يُعْرَف فَضْلُهُ   صَـبْرُ الملوكِ وليس بالأجسامِ

١٢٧

وقال[1] :

١ — ألمْ تَرَيَا أنِّى حَمَيْتُ حَقِيقَتِى   وباشَرْتُ حَدَّ المَوْتِ والمَوْتُ دُونَهَا

الحقيقة : الخصلة التى يحِقُّ على الإنسان حمايَتُهَا . وقال الخليل : الحقيقة : ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجوبُه . وقوله « ألَمْ تَرَيَا » تقريرٌ للغير على ما كان من بلائه . يقول : ألم تَعلَمَا أنِّى ذَبَبْتُ عَمَّا يَجِبُ علىَّ الذَّبُّ عنه ، وباشرت الموت بنفسى ، والموتُ دونَ حماية الحقيقة . يريد أنَّ المحافظةَ على الشرَفِ أشقُّ من اقتحامِ الموتِ والاستقتال ، لأنه يَحتاج أن يُصْبَر فيه من المكارِه على ما لا يُحَدُّ ولا يُحْصَرُ ، ويُتَكَلَّفُ له من المشاقِّ ما لا يُعَدُّ ولا يُضبط . فهذا وجْه . والضَّمير من قوله « دُونَهَا » يرجع إلى ما دَلَّ عليه حَمَيْتُ من الحِماية والحِفْظِ . ويجوز أن يكون قولُه « والموت دونها » أى قريبٌ من الحقيقة التى دفَعْتُ عنها أو من الحماية التى الْتزمْتُها ، وحائلٌ بينى وبينَها ، ويكون هذا بياناً لكيفية مباشَرَته لحدِّ الموت ومشافهَته إيّاه على سَمْتِ القُرْب ، والواو من قولِهِ « والموتُ » واو الحال . وإذا جَعلتَ المعنى الأول فيكون الكلامُ بياناً لتفضيل حماية الحقائق على مباشرةِ المَنَايَا .

---

(١) كذا فى م . وعند التبريزى : « وقال أيضاً » . وعبارة م والتبريزى تدل على أن الحماسية لموسى بن جابر . وفى الأصل : « وقال آخر » .

٢ — وجُدْتُ بنفسٍ لا يُجادُ بمثلِها وقُلْتُ اطمئِنّى حين ساءتْ ظُنُونُها

يصف ابتذالَهُ نفسَه فيما تعنّاه على حاجَةٍ من العشيرة إلى بقائها ، وحُلولها من القلوب محلّ ما يُضَنُّ بها ، فيوجِبُ صيانتَها . يقول : تسخَّيْتُ بنفس لا يُتَسَخَّى بمثلِها كرمًا وعِزَّةً ، وشَرَفًا وأُبَّهَةً ، وقلْتُ تثبيتاً لها : اسكُنِى واصبرِى عند استيلاء الرُّعب عليها ، واختلاف الظُّنون بها . وهذه إشارةٌ إلى ما يلحق النّفسَ فى الأوّل من الالتقاء[١] ، للوهلة العارضة ، والفجعة المروّعة . ومِثلُه :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَأْلُها مكانَكِ لَمَّا تُشْفَقِى حين مُشْفَقِ[٢]

٣ — وما خَيْرُ مَالٍ لا يَقِى الذَّمَّ رَبَّهُ ونَفْسِ امرِئٍ فى حَقِّهَا لا يُهِينُها[٣]

لفظُه لَفْظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنكار الذى يَجرى مَجْرَى النَّفْى . يقول : أىُّ خَيْرٍ فى مالٍ لا يصون صاحبَهُ من ذمٍّ وعارٍ ، ولا يحميه من لُحُوقِ تَهْجِنٍ وشَنَارٍ ؟ وأى شىء غَنَاء نَفْسٍ لا يبتذلها صاحبُها فى استيفاء حقوقها ، ولا يُتْعِبُها فى الدِّفاع دون حقائقها ؟ وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من التحمُّد[٤] بما كان منه من إنفاق المالِ ، وابتذال النّفْسِ . ومثلُه قول الآخر :

وَيبتَذِلُ النَّفْسَ المصونَةَ طائعًا إذا ما رَأَى حَقًّا عليه ابتذالَها[٥]

(١) م : « فى أول الالتقاء » .
(٢) انظر الحماسية ١٢٤ .
(٣) التبريزى : « بنفس امرئ » .
(٤) هذا ما فى م . وفى الأصل : « التحمل » ونراه تحريفا .
(٥) م : « المصونة نفسه » ، وقد سبق البيت فى ص ١٤١ برواية م .

١٢٨

وقال :

١ — ذَهَبْتم فَلُذْتُمْ بالأميرِ وقُلْتُمُ   تَرَكْنا أَحادِيثًا ولَحْمًا مُوَضَّعًا[1]

يخاطِبُ قومَه ويلومُهم على ما كان منهم من القعود عن نُصْرَته، والنُّكوص عن مشايعتِه، واعتلالهم عند اعتذارِهم من ذلك بالمعاذيرِ المَشُوبَةِ بالكذبِ، التجأْتُم إلى الأمير وقُلْتُم تَرَكْنا قوْمَنا يقولون ولا يَفعلون، وعند تَسَلُّط الأعداء عليهم لا يمتنعون منهم ولا يدافعون، فهم كاللحم المُبَضَّع على خُوان الجزّار، تمتدّ الأيدى على توضُّعِه إليه، وتتعلّق الأطماع بتناوله وأخذه[2]. ويكون هذا كقول الآخَر :

رَضُوا بصفاتِ ما عَدِمُوه جَهْلاً   وحُسْنِ القَوْلِ من حُسْنِ الفِعَالِ

هذا إذا رَوَيْتَ « تَرَكْنا » بفتح التاء، وإن رَوَيْتَ بضم التاء كان المعنى : ادّعيتم علينا فيما نابنَا، وعندما هَمَمْتُم به من مفارقتنا وخِذْلاننا، أنَّا تُرِكْنا أُحدوثةً للناسِ قبيحةً، يقومون ويقعدون بذِكْرِنا، وأذلاّء مهتضمين لا دِفاعَ بنا، ولا امتناع من مَذَمَّةٍ فى طباعِنَا. والموضَّع : المُقَطَّع المُفرّق فى مواضع[3].

٢ — فمَا زَادَنِى إلاّ سَنَاءً وَرِفْعَةً   وما زادَكُم فى الناسِ إلا تَخَضُّعَا

يقول : لم يَزِدنى فِعلكم وقوْلكم عند اعتلالكم فى مفارقتكم إلاّ ارتفاعَ

---

(١) أشير فى هامش نسخة الأصل إلى أنه فى نسخة أخرى : « مبضّعا ». والمبضع : المقطع

(٢) كذا فى م. وفى الأصل : « تمتد الأيدى إليها، وتتعلق الأطماع بتناولها وأخذها »

(٣) كذا فى م. وفى الأصل : « والمبضع : المقطع المفرق ».

مَحَلٍّ ، وسُمُوَّ حالٍ ، وجَلالةَ قَدْرٍ ، ولم يَزِدْكم فى الناس إلا تراجُعًا وتذلُّلاً ، وتصوُّرًا بالقبيح وتسقُّطًا ، لأنَّ مَن لا يَصْلُح لعشيرته وأقْرَبيهِ ، وفصيلته وذَوِيه ، لم يَسْكُن إليه البعيد الذى يُؤْوِيه ، والمُسْتَعان به لما يرتجيه .

٣ — فَمَا نَفَرَتْ جِنِّى ولا فُلَّ مِبْرَدِى ولا أَصْبَحَتْ طَيْرِى من الخَوْفِ وُقَّعَا

وهذا يحتمل وجوها : يجوز أن يريد لم يَنخزل — لما أتيتم وأخبرتم — أصحابى الذين هم كالجن ، ولا فُلّ لسانى الذى هو كالمِبْرَدِ ، ولا ذُعِرَ جأشى فصار طَيْرى واقعةً . ويكون الأوّل كقول الآخر :

* عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَجِنَّةِ عَبْقَر *

وتشبيه اللِّسان بالمِبْرَد وحَدِّ السيف أكثرُ من أن يُحتاجَ له إلى شاهد . وقد قيل فى « نفرَتْ جِنّى » إنه مثَلٌ لفَلَتَاته وبَدَراتِه ، ويكون هذا كما وصف امرؤ القيس فرسَه بالمرح وحِدَّةِ القلب فقال :

* به طائفٌ من جِنَّةٍ غَيْرِ مُعْقِبِ *

وإنَّ ذِكْرَهُ المِبْرَدَ مَثَلٌ لصلاحِه ، وإنّ ذِكرَهُ الطير مثلٌ لصيته وذِكرِه الذاهبِ فى الناس . ويجوز فى هذا الوجه أن يريد به ذكاءه ونشاطه وشهامتَه ، فقد قيل فى ضِدّه : هو ساكِنُ الطائر ، وكأنّ على رءوسهم الطَّير . ويجوز أن يشير بالجِنِّ إلى ما يدّعيه الشُّعراء من أنّ لكلٍّ واحدٍ منهم تابعًا من الجن يستعين به فيما يَحزُبُه ، ويجعلُ المُرادَ بالمِبْرَد فى هذا الوجه اللسان لا غير . ويجوز أن يريد بالطَّير سَرَاياه وطوائفَ خيْلِهِ التى يطيِّرُها للغارات والارتِباء ، وتجسُّس[1] الأخبار وغيرِها .

(١) م : « وتحسس » بالحاء المهملة ، وكلاهما بمعنى واحد ، وهو البحث .

١٢٩

وقال حُرَيْث بن جابرٍ (١) :

١ ـ لَعَمْرُكَ ما أنْصَفْتَنِي حين سُمْتَنِي ... هَوَاكَ مع المَوْلَى وأنْ لا هَوَى لِيَا

العَمْرُ والعُمْر لغتان، ولا يُستعمل في القَسَم إلاّ بفتح العين. وأنصَفْتَنِي: أعطَيْتَنِي النَّصَفَةَ والنِّصْفَ. ويقال انْتَصَفْتُ من فُلَانٍ، أي استوفَيْتُ حقّي منه كاملاً حتَّى صرت أنا وهو على النِّصف سواءً. ومعنى سُمْتَنِي: جَشَّمْتَنِي خُطّةً من الشَّرِّ. ويقال أيضا: سَام فُلَانٌ فُلَانًا، إذا داوَمَ عليه وألحَّ في شيء. يقول: وبقائك ما أعطيتَنِي النَّصَفَةَ حين عرَضْتَ عليّ الرِّضا بأن يكون لكَ هَوًى مع مَوْلاك، حتَّى تنتقم لَهُ وتَذُبَّ دونه، وألاّ يكون لِي هَوًى مع مَوْلاَي وأُخَلِّيَ بينه وبين أعدائه. قولُهُ « وأن لا هَوى لِياَ » أراد: وأنَّهُ لا هَوَى لِياَ.

٢ ـ إذا ظُلِمَ المَوْلَى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ ... فَحَرَّكَ أحشائِي وهَرَّتْ كلابِيا

يُبَيِّنُ كيفَ يتعَصَّبُ لمَوَاليه، وكيف يأنَفُ من اهتضام يَلْحَقُهُمْ، يقول: إذا اهتُضِم حليفٌ لي أو ابنُ عَمٍّ، ذُعِرْتُ لامتهانه واهتضامه، فاضطربَ أحشائي ونبحَتْ كلابي. والمعنى: لم أعْتَدِ المضيمة فيمن يتَّصِلُ بي، ويتسبَّبُ إليّ، فإذا اتَّفق وقوعُها صارت كلابي تَنْبحُ، وأخذَتْ نَفْسي تقْلَق. فيجوز أن يكون تحركتْ أحشاؤه لوَجيبِ قلبه وخفقانه، ونبحَتْ كلابُه لتهيُّئِه للانتقام، وتدجُّجه في السِّلاح له، وتجمُّع أصحابه وإعدادِهِم الخَيْل والرَّجْل لإغاثته. والكلبُ يُنكِرُ أصحابَه إذا رآهم بهذه الأحوال فينبحُ. أنشدَ الأصمعي في مثلِهِ:

---

(١) التبريزي: « وقال حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدئل بن حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل ».

أُنَاسٌ إذا ما أنْـكَرَ الـكلبُ أَهْلَهُ   حَمَوْا جارَهُمْ من كل شنعاءَ مُظْلِمِ (١)

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحرَّكت أحشاؤه لاضطرابه فى جَمْع من يَجْمَع ، وإعدادِ ما يُعِدُّ ، والتسرُّع فى الشيء يلحقُه ذلك ، ومثله .

أشارَتْ له الحرْبُ العَوَانُ فجاءَها   يُقعْقِـعُ بالأقراب أوّلَ من أتَى

فقعقعة الأقرابِ كتحرُّك الأحشاءِ وأكثَرُ . ويكون معنى فَزِعْتُ أَغَثْتُ على هذا . ومثلُه قوله :

* حَلَلْنَا الـكَثِيبَ من زَرُودَ لِنَفْزَعَا (٢) *

أى لِنُغيث . ويجوز أن يكون أرَاد بالـكلام الأصحابَ ، ويكون مثل قول الهُذلِىّ (٣) :

ولا هَرَّها كلبى ليَبْعُد نَفْرُها   ولو نَبَحَتْنِى بالشَّـكَاةِ كِلاَبُهَا

فقد فُسِّرَ فى بعض الوجوه على هذا . وكذلك قول تأبَّط شرًّا :

* لَيْلَةَ صَاحُوا وأغرَوْا بى كلابَهم (٤) *

فُسِّرَ على ذلك أيضاً.

١٣٠

وقال البَعيثُ بن حُرَيْث (٥) :

١ ــ خَيالٌ لأمِّ السَّلْسَبِيل ودُونَهَا   مَسِيرَةُ شَهْرٍ للبريدِ المُذَبْذَبِ

(١) روى فى الحيوان (٢ : ٧) مع نسبته إلى طفيل الغنوى : « شنعاء مظلع » . وفى الأمالى (١ : ٥٥) : « مضلع » ، وقال : « ويروى مفظع » .

(٢) للـكلحبة العرنى فى المفضليات (١ : ٣٠) . وصدره :

* وقلت لكأس ألجميها فإنما *

(٣) هو أبو ذؤيب . انظر ديوان الهذليين (١ : ٨٠) .

(٤) عجزه فى المفضليات (١ : ٢٦) :   * بالعيكتين لدى معدى ابن براق *

(٥) هو البعيث الحنفى ، كما فى المؤتلف ٥٦ . وهو البعيث بن حريث بن جابر بن سرى بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبه بن الدئل بن حنيفة بن لجيم . وقد سبق ترجمة والده حريث بن جابر فى الحماسية السابقة .

خبر الابتداءِ محذوف ، كأنَّه قال : خَيالٌ لهذه المرأة أتانى أو زارنى ، وبينى وبينها مسيرة شهرٍ للبَريد للُسْرِعِ المتعجِّل . كأنَّه استَطْرَفَ من الخيال ما كان يستطرِفُهُ من المرأة لو زارتْ . وقوله « البريد المُذَبْذَب » كما يُقالُ للسائق الحاثِّ طَارِدٌ . ألا تَرَى قولَه يصِفُ فَرَسًا :

* ويَسْبِقُ مطروداً ويلْحَقُ طارِدا *

لأنَّ المذبذَبَ والمُذبَّبَ الأصل فيهما واحدٌ ، يَرْجِعُ إلى الطَّرْدِ والاستعجال . والمُسْرِع المُسْتَعْجِل يتذبذَبُ ، أى يضطرب . فأمّا قولُه تعالى : ﴿ مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذلك ﴾ فهو من صفة المنافقين ، ومعناه مطرودين بين المؤمنين والكافرين ، فليسوا بمقبولين عند واحدة من الفرقتين . ومثلُ ذَبَّ وذَبْذَبَ ، كَبَّ وكَبْكَبَ . فإن قيل : لم نَكَّر فقال خيالٌ لأمِّ السلسبيل ؟ قلتَ : يجوز أن يكونَ كان يرى خَيالَها على هيئاتٍ مختلفة ، فاعتقَدَ لاختلاف هيئته أنَّه عِدَّةُ خَيال ، فلذلك نكَّرَهُ ، كأنه قَصَدَ إلى واحدٍ منها ، ومثله :

خَيالٌ لزَينبَ قَدْ هَاجَ لِي نُكَاسًا من الحبِّ بعد اندِمَالِ[(1)]

٢ — فَقُلْتُ لَها أَهْلاً وَسهلاً وَمرْحَبًا فردَّتْ بتأهيلٍ وسَهْلٍ وَمَرْحَبِ

حكى ما دارَ بينه وبين الخيالِ . والخيالُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ . ونبَّه بكلامِهِ على أنَّهُ أظهر لها قبولاً حَسَنًا ، وبِشْرًا وطَلاَقَةً ، فِعْلَ المتشوِّفِ لها ، المتشوِّقِ إلى لقائها ، وأنه تلقاها بالترحيب والتأهيل ساعة طلوعها ، فأجابته بمثل ذلك . وانتَصَبَ أَهْلاً بفِعْلٍ مُضْمرٍ كأنَّه قال أتَيْتَ أَهْلاً لاَ غُرَباء ، وَسَهلاً مِنَ المنازِلِ لا حَزْنًا ، ورَحْبًا من الأماكن لا ضَيِّقًا : والتأهيل : مصدر أَهَّلْتُهُ أى قلتُ له أهْلاً . وكان يجب أن يقول فردّت بتأهيل وتسهيل وترحيبٍ ، لو أتى

(١) لأمية بن أبى عائذ فى ديوان الهذليين (٢ : ١٧٣) برواية : « خيال لجمدة » .

بالكلام على حدٍّ واحدٍ ، لكنَّه أتى فى بعضه بحكاية اللفظ ، وفى بعضه ببناء الأخبار . وقال سيبويه : إذا قال الرَّادُّ وبك أهْلا ، فإنَّما يقول : أنت عندى بمنزلة من يقال له هذا لو جِئْتنِي . وإنما قال هذا لأنَّ الحال لا تقتضى من الزَّائر أن يُصَادِفَ الْمَزُورَ عندَهُ ذلك ، فحمل الكلامَ — وقد اعتيد فيه ما ذَكَرَهُ — على أنه يُرَادُ لو جئتنى لكنتَ بهذه المَنْزلةِ .

٥ — مَعَاذَ الإلٰهِ أن تَكُونَ كظَبْيَةٍ ولا دُمْيَةٍ ولا عَقِيلَةِ رَبْرَبِ

معاذَ انتَصَبَ على المصدر . والمعنى أستعيذُ بالله أو أعوذ به معاذًا . كأنه أنِفَ وصار يَرْبأ بصديقته أن تكون فى الحُسْنِ بحيث تشبَّهُ بالظَّبْيِ أو الظبْيَةِ أو بالصورة المنقوشةِ ، أو بكريمةٍ من بَقَرِ الوَحْشِ ، إذ كانت هذه الأشياء عنده دونَهَا ، وقاصِرَةً عن رُتْبَتِها . وقد سَلَكَ من المتقدمين امرؤ القيس هذه الطريقة فقال :

كأنَّ دُمَى سَقْفٍ على ظَهْرِ مَرْمَرٍ كسا مُزْبِدَ السَّاجوم وَشْيًا مُصَوَّرَا[(١)]
غرائرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ يُحَلَّيْنَ ياقوتًا ودُرًّا مُفَقَّـــرا

فشبَّهَ الدُّمَى بالنِّساء لا النِّساء بالدُّمى . ومما يستحسن من هذه الطريقة قول أبى تمام :

كأنما جَادَ مَغْنَاهُ فَغَـــيَّرَهُ دُمُوعُنَا يَوْمَ بانوا وهى تَنْهَمِلُ

لأنّه شَبَّهَ الأمطارَ المغيِّرَةَ لرُسُومِ الدِّيار بدموع العُشَّاقِ . فى إثْرِ الأحْبَابِ يومَ الفِراق . والعقيلة : الكريمة من النِّساء [والدُّرِّ[(٢)]] وكلِّ شىء . والرَّبْرَبُ : القطيع من البقر .

---

(١) مزيد الساجوم ، مبيض لها فى نسخة الأصل ، وإثباتهما من شرح ديوان امرئ القيس ٩٢ — ٩٣ . والساجوم : اسم واد . والمزبد : الذى علاه الزبد . وفى م : « مزيد الساجور » ، تحريف .
(٢) هذه من م .

٤ ــ ولكنَّها زادَتْ على الحُسْنِ كُلِّهِ كمالا ومِن طِيبٍ على كلِّ طَيِّبِ

يقال : زدتُه فزاد وازداد جميعاً . وكمالاً ينتصب على التمييز ، والمعنى أنها يزيد حُسْنُها على كلِّ حُسْنٍ كمالاً ، لأنَّه لا حُسْنَ إلا وتدخُلُه نَقيصَةٌ ، سِوَى حسنِها . وكذلك كلُّ الطيِّب يتخلّله حَطيطة إلاّ طِيبَها . و « من طِيبٍ » أى وزادَتْ من طيبها على كلِّ طيِّبٍ طيباً . والغَرَض أن يبيِّنَ لم أنكر لها[1] تشبيهها بغيرها ، فقال : هي تترفَّع عن ذلك : إذْ كانت جامعةً للمحاسِن ، مستحِقَّةً للوَصْفِ بالكمال ، وإذْ كان كل واحدٍ من تلك الأشياء استَبَدَّ بصفَةٍ دون صِفَةٍ ، ويَتفرَّدُ بنوعٍ دون نوع .

٥ ــ وإنَّ مَسيرِى فى البِلادِ ومَنْزِلِى لَبِالمنزِلِ الأقْصى إذا لم أقَرَّبِ

يقول : مكانى الذى أسير فيه من البلاد ، وموضعى الذى أنزل فيه ، لَأَبْعَدُ المنازل ، وأوضع المساير ، إذا لم يلحقْنى فيها تقريبٌ وتعظيم . وقولُه « أقرَّب » بمعنى أكرَّم وأُدْنى ، على طريق الإعظام . وليس يريد تقريب[2] المسافة به . ويجوز أن يكون المعنى إذا لم أُقرّب كنت بمنزلة المطرودِ المنفِيّ ، وإن كنت مقيما دانياً . وكان الواجب أن يقول لبالمَنْزِلِ والمسير ؛ فاكتفَى بأحدها . وآثَرَ المنزلَ بالذِّكر لأنّ النُّزول لا يكون إلا بعد السير . ودَلَّ بهذا الكلام على أنّه لا يَرْضَى فى متَصرَّفاته إلاّ بما يَقضِى بتبجيله ، ويُفضى إلى اصطفائه والرفع منه ؛ وأنّه لا يصبر على الهوان والجفاء حيثُ سار ونزَلَ ، بل يَطْلُبُ إكرامَهُ وإلّا انتقل وتحوَّل .

٦ ــ ولَسْتُ وإن قُرِّبْتُ يَوْمًا ببائعٍ خَلَاقِي ولا قومى ابتغاءَ التَّحبُّبِ

---

(١) كلمة « لها » ليست فى م .

(٢) م : « تقليل » .

يقول : لستُ وإن أُدنيت وبُجِّلتُ ببائع نصيبى من شَرَفِى ، وموضعى[١] من عشيرتى ، طلبًا للتحبُّب إلى من أجاوِرُهُ وأعاشِرُهُ ، أو تهالكا فى تعليق الطَّمع بمن أرجوه وآمُله . والخَلاَقُ : الحظُّ والنَّصيب من الصّلاح . ويقال : ما لفُلاَنٍ خَلاقٌ ، إذا لم يكن له رغْبةٌ فى الاستصلاح واكتساب الخير . وانتصب « ابتغاءَ التَّحَبُّبِ » على أنه مفعولٌ له .

٧ — ويَمْتَدُّهُ قومٌ كثير تجارَةً   ويَمنعنى من ذَاكَ دِينى ومَنْصِبِى

يقول : وَيَعُدُّ ما تبرّأتُ منه وأنِفتُ من فعله كثيرٌ من الناس تجارةً رابحة ، وصفقةً مفيدة نافِعَةً ، وأنا يدفعنى عنه ويزهِّدنى فيه شرفى وديانتى . وهذا القول يجوز أن يكون تنزيها لنفسه ، وتزكية لفَعَالِهِ وخُلُقِه فَقَط ، وأن يكون القصد منه التعريض بغيره . وهذه الأبيات وإن كان فى جملتها[٢] ما ليس من الباب فإنّه كرِهَ تبديدها لسلامتها من العَابِ ، ووفورِ حظّها من الانتخاب .

٨ — دَعَانِى يزيدٌ بعد ما ساء ظَنُّهُ   وعَبْسٌ وقدكانا على حَدِّ مَنْكَبِ

ما قَدَّمَهُ تَوَصُّلٌ إلى بيان مراعاته أمْرَ العشيرة ، والتعطُّفَ على القريب وقتَ الحاجة ، والتمسُّكَ بما يوجبه الكَرَمُ والحرّيّة . يقول : دعانى هذا الرجلُ وصاحبُه مستغيثَين ، بعد سوء ظنّه بعشيرته وبى لما أَسْلَفَ من الشرِّ ، وقَدَّمَ من العُقوق والإيذاء ، وقد كانا أشرَفَا على حَدِّ الهلاك . هذا إذا رويْتَ بفتح الكاف مَنْكَب ، والمعنى : شافهَا حَدَّ الشرِّ وحَرْفَهُ ، ولا يأمنان اقتحامَهُ وتوسُّطَه . ويقال أصابَهُ نَكْبٌ من الدَّهرِ ومَنْكَبٌ ونَكْبَةٌ ونُكُوبٌ كثيرةٌ ، ومنه قيل حافرٌ نكِيبٌ ومنكوبٌ ، إذا أثَّرَ فيه حجرٌ أو غيره .

(١) م : « أو موضعى » .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « من جملتها » .

ويروَى « على حَدِّ مَنْكِب » بكسر الكاف ، والمعنى : كانا مُهاجِرَيْنِ لى . يقال : فلانٌ معى على حَدِّ مَنْكِبٍ ، أى كلما رآنى اَلْتَوَى ولم يتلقنى بوجهه ، وتنكَّبَ عنِّى ؛ أى اجْتَنَبَنى . والمَنْكِبُ من كلِّ شيء : جانِبُه وناحيَتُه . ومثله قولُهم : فلانٌ يلقانى على حَرْفٍ ؛ وهو منحرفٌ عنى ومتحرِّفٌ . ويجوز أن يريد بقوله « بعد ما ساء ظنُّه » بعد تَسَلُّط اليأس والقنوط من الحياة عليه .

٩ — وقد عَلِمَا أنَّ العشيرَةَ كلَّها سِوَى مُحْضَرِى من خاذِلينَ وغُيَّبِ

دَلَّ بهذا الكلام على الضرورة الداعية إلى الاستعانة به ، والاستظهار بدعوته وإجابته . يقول : استغاثا بى متيقِّنَينِ أنَّ كلَّ عشيرتهما إذا لم أحْضُرْ من بين شاهدٍ لا يَنْصُر ، وغائبٍ لا يَحضُر وأنّ الكفاية لا توجد إلاّ عندى ، والنُّصرَة لها لا تَحْصُل إلاّ بَسعْيى . وقولُه « من خاذلين وغُيَّبِ » أراد ومِنْ بين غُيَّبٍ ، فاكتفى بمِن الأوّل عن الثانى ، وقد مرّ القول فى مثله مشروحًا . ومعنى سِوَى هاهنا معنى بَدَلٍ ومكانٍ . وذكر المحضَر والمراد النَّفْس ؛ كأنه قال : وقد علما أنّ العشيرة كلَّها بدلاً منِّى ومكانى ، من خاذلٍ وغائبٍ .

١٠ — فكُنْتُ أنا الحامِى حَقِيقَةَ وائلٍ كما كانَ يَحْمِى عن حَقائقِها أَبِى

يقول : أعَنْتُهما على ضعف رجائهما ، وتسلّط الظنون السيِّئة عليهما ، جاريًا على الغاية الموروثة عن أسلافى ، ومقتديًا فى الذَّبِّ عن العشيرة ، والمواظبة على حماية الحقيقة ، بآبائى . ويقال : حَميت الحقيقة وحَمَيْتُ عن الحقيقة ، وهو يَحْمِى عليه ويُحامِى عليه .

١٣١

وقال المُثلَّم بن رِيَاح (١) :

١ – مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى سِنَانًا رِسالةً وَشِجْنَةَ أنْ قُومَا خُذَا الحقَّ أودَعَا

يقول : مَن يؤدِّى عنى رسالةً إلى هذين الرجلين ، بأن ارضَيَا الحقَّ وقومَا واستوفياه ، أو اتركاه فمالَكُما غيرُه وإن تسخَّطْتُماهُ . وهذا تَوَعُّدٌ واستهانَةٌ . وقولُه « أنْ قُوما » أن مخفّفَة من أن الثقيلة والمراد : أنَّهُ قُومَا . ومثله قولُهُمْ فى : أَمَا أَنْ جزاكَ اللهُ خيراً ، ويجوز أن يكون أن المفسِّرة ، كأنه فسَّرَ الرِّسالة بقُومَا خُذَا الحقَّ . ومثلُه قولُهمْ : أتَفْخَرُ عَلَيَّ أَنْ أصحابُكَ أكثر من أصحابى . وأن هذه تجرى مَجْرى أىْ فى أنَّهُ يُفَسَّرُ به . ولو قال قوما وخذا الحقّ ، فأتى بحرْفِ العطف كما قال الله تعالى : ﴿ قُمْ فأنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ كان أفصح . وقد جاء مثلُه بغير العاطف كثيراً . وقوله « قوما » ليس المراد به فِعْلَ القيام ، لكنه وُصْلَةٌ فى الكلام ، وقد بُيِّنَ فيما مضى أمثالُه . ويجوز أن يكون قوله خُذَا الحق على طريق التهكُّم والسخرية . أى إنْ قدَرْتُما على أخذ الحقِّ المُدَّعَى فَخُذَا . ويجوز أن يكون المعنى : تَرْكُكما ما سميتماهُ حقًّا ، وطلبكما له عندى سواء على الحقيقة .

٢ – سَأَكْفِيكَ جَنْبِى وَضْعَهُ وِوسَادَهُ وأَغْضَبُ إن لَمْ تُعْطِ بالحق أَشْجَعَا (٢)

(١) التبريزى : «المثلم بن رياح بن ظالم المرى» . وقال المرزبانى فى المعجم ٣٨٦ : « المثلم بن رياح المرى جاهلى ، وله يقول سنان بن أبى حارثه وأجار عليه :

من مبلغ عنى المثلم آية وسهلا فقد نفرتم الوحش أجمعا
هم إخوتى دنيا فلا تقربنهم أبا حشرج وافسح لجنبك مضجعا

فأجابه المثلم :

من مبلغ عنى سنانا رسالة وشجنة أن قوما خذا الحق أودعا »

(٢) قال التبريزى : « هو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان » . وقال أيضاً : « قال أبو هلال فى قوله إن لم تعط بالحق : هكذا روى ، وهو تصحيف =

يقول : أكفيك ما يَمُسُّنى ويخصُّنى ، ولا أضايقك فيما يرجِع نفعُه وضَرُّه إلىّ . وذِكر وضع الجنْب والوسادِ مأخوذٌ من المَثلِ السائر فى المعتَنِى بالشّىء المتعهِّد له ، وهو قولهم : « أمٌّ فَرَشَتْ فأَنامَتْ » : والمعنى : لا أكلِّفك عنايَةً بأمرى ، ولا أؤاخذك بمصالح أسبابى : ومتى لم تناوِل مَولاى أشجَعَ الحَقَّ ، ولم تُعامله فيما بينكما بالحقّ والعَدْلِ ، غَضِبْتُ له وانْتقمتُ ؛ لأن فى تضييع حقِّ المولى والأخْذ بالتغميض فيه لازِمَ العارِ ، وفى استعمال التَّغابى فيما يتعلّق بى واطِّراحى المُناقشة والمُشاحَّةَ فيه باقِىَ الصِّيت والجمال . قوله « إن لم تُعْطِ بالحقِّ » قيل فيه مفعولُ تُعْطِ الثانى محذوفٌ ، ومعنى بالحق : بالعَدْلِ والإنصاف . كأنه قال : تُعطِ أشْجَعَ ما يَجبُ له بالحق . وقيل أراد بتُعْطِ تُعامِلْ فعدَّاه تَعْدِيتَه . وقيل بالحقِّ هو المفعول الثانى ، لكنه زاد الباء فيه تأكيداً ، كما قال الآخر[1] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ[2] *

ويغلب فى نفسى أنّ الشاعِرَ قال وأغضبُ إن لم تعطِيا الحقّ أشجعا ، لأنه بَنَى الرسالة على أن تكون متوجهةً نحو اثنين : سِنَانٍ وشِجْنَة . ومخاطَبَتُهُ من بَعْدُ أحدَهما فى قوله سأكفيك ، على عادتهم فى الافتنان والتصرُّف ، لا يمنع من الرجوع إلى ما بَنَى كلامَهُ عليه من ذكر الاثنين . وهذا ظاهرٌ لمن تأمَّلَهُ .

= قبيح ، والصحيح : وأغضب إن لم يغضب الحق أشجعا . يقول : سأكفيك أمرى كله ولا أحملك شيئاً ، وأغضب لك ولحقك إن لم يغضب له أشجع » .

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى ، إذ ورد فى شعر لكل منهما . الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٢) صدره : * هن الحرائر لاربات أحمرة *

٣ — تَصِيحُ الرُّدَينِيَّاتُ فينا وفيهِمُ صِيَاحَ بنَاتِ الماءِ أَصْبَحْنَ جُوَّعَا

يريد: تختلف الرِّماح المنسوبة إلى هذه المرأة[(1)] بيننا وبينهم بالطَّعْنِ، فصياحها كصِيَاح بنات الماء إذا جاعت. وهذا كما حكى الآخرُ وَقْعَ ٱلْقَنَا والسَّيْفِ عند الطَّعن والضَّرْبِ، فقال:

* والطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ والضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ[(2)] *

ويَعْنِي ببنات الماء طيورَ الماء. وهذا كما يقال في الوحش: بناتُ الفَلاَ، وللنوائب: بنات الدَّهْر.

٤ — لَفَفْنَا البيوتَ بالبيوتِ فأصْبَحُوا بَنِي عَمِّنَا من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا

يقول: استأنفنا حالةً جامعةً لنا ولعشيرتِنا، فاستبدلْنَا بالتبايُن اجتماعاً، وبالتَّزايُل اختلاطاً، وبالتنافر تأنُّسًا، وبالتَّشارد تألُّفًا، حتى صِرْنَا يدًا واحدةً على المنابذين، ولسانا واحداً على المخالِفين، فمن رَمَى واحِداً مِنّا فقد رَمَى جميعَنا. هذا إذا رويت: «من يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا». ومن روى: «من يَرْمِهِمْ يَرْمِنَا مَعا» يكون المعنى في اجتماع الكلمة أبين. وفي هذه الطَّريقة قولُ الآخر[(3)]:

فأمْسَى كَعْبُهَا كَعْبًا وكَانَتْ من الشَّنَآنِ قد دُعِيَتْ كِعَابَا

(١) هي ردينة، واسم زوجها سمهر، كانا يقومان الرماح بخط هجر، فنسبت إلى كل منهما. اللسان (سمهر، ردن).

(٢) البيت لعبد مناف بن ربع الهذلي. اللسان (شغغ، هقع، عول، عضد) وبقية أشعار الهذليين ص ٣. وقد سبق الاستشهاد به في ص ٣٧. وعجزه:

* ضرب المعول تحت الديمة العضدا *

(٣) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب. المفضليات (٢ : ١٥٨).

١٣٢

وقال آخر (١) :

١ ــ يازِمْلُ إِنِّى إن تَـكُنْ لى حَادِياً   أَعْـكِرْ عليكَ وإن تَرُغْ لا تَسْبِقِ (٢)

يقولُ : إنْ تَخَلَّفْتَ عنِّى حتى يكون مكانك مكان الحادى من البعير أعْطِفْ عَلَيْكَ . وإن تَقَدَّمْتَنى هارباً حتَّى تصير كالهادى لى مستعملاً الخداع والرَّوَاغَ معى لم تَفُتْنِى . والمعنى : إنِّى أُدْرِكُكَ على كل حالٍ . وقد أحسَنَ النَّابغةُ فى قوله :

فإنَّكَ كاللَّيلِ الذى هو مُدْرِكى   وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسِعُ

ويقال عَـكَر واعتَـكَر بمعنى عَطَفَ ، وإنّه لعَكّارٌ فى الفِتَن ، إذا كان ثابت القَدَم .

٢ ــ إنِّى امرُؤٌ تَجِد الرجَالُ عَدَاوتِى   وَجْدَ الرِّكابِ من الذبابِ الازْرَقِ

يقول : إنِّى رَجُلٌ ينال أعدائى من عداوتهم لى ما ينال الإبلَ من الذُّباب الأزرق ، وهذا الجنس من الذُّباب يتأذى به الإبلُ تأذِّىَ الحُمُر بالنُّعَر أو أشدّ . وعداوتى ينتصب على المفعول . كأنّه قال : يجد الرِّجال من عداوتى ، فحذف

(١) عند التبريزى فقط : « وقال ابن دارة » . وابن دارة هو سالم بن مسافع ابن يربوع — ويربوع هو دارة ، وإنما سمى دارة لأن رجلا من بنى الصادر قتل ابن عم ليربوع ، فقتله به وأخذ ابنته ، ثم أرسلها فأتت قومها ، فسألوها عن قتل أباها فقالت : غلام كأن وجهه دارة القمر . انظر الخزانة (١ : ٢٩١) والأغانى (٢١ : ٥٠) .

(٢) زمل هذا ، هو زميل بن أبير ، أحد بنى عبد الله بن مناف ، قاتل ابن دارة . وفى ذلك يقول :

أنا زميل قاتل ابن داره   وغاسل المخزاة عن فزاره .

وكان سالم وزمل جميعاً فى صدر الإسلام ، أدركا زمان معاوية .

حَرْفَ الجرّ ووصل الفِعْل فعَمِلَ . يَدُلّ على ذلك قولُه . « وَجْد الرِّكَابِ من الذُّباب » . ومثله :

* أستَغْفِرُ الله ذَنْباً لست مُحْصِيَهُ[1] *

وقوله « عداوتى » يجوز أن يكون مُضَافًا إلى الفاعل ، أى عداوتى لَهُم ، ويجوز أن يكون مضافًا إلى المفعول ، أى عداوتهم لى ومعنى تَجِدُ تَحْزَنُ ، ولذلك كان الوَجْدُ مَصْدَرَهُ . ويجوز أن يكون تجد بمعنى تَألَم ، ويكون عداوتى المفعولَ الأول ووَجْدَ الرِّكاب المفعول الثانى . والمعنى : إنّ عداوتهم لى تُقْلِقُهم وتُنَزِّيهم ، فيعلمُها الرِّجالُ مثْلَ وَجْدِ الرِّكابِ من هذا الجِنْس من الذُّباب ؛ أى ينالون منها ما ينال تلك منهم . ويحصل فى البيت تجنيسٌ حينئذ .

١٣٣

وقال الحُصَيْن بن الحُمَام[2] :

١ — فقُلْتُ لهم يَا آلَ ذُبْيَانَ مالَـكُم   تَفَاقدتُمُ لا تُقْدِمُون مُقَدَّمَا

يقول : قلتُ لهؤلاء القوم : ما لـكم تُحجِمُون ولا تُقدِمون ، فَقَدَ بعضكم بَعْضًا ولا اهتَدَى أحدُكم إلى الآخَر . وهذا الكلام تَضَجُّرٌ منه بهم لمَّا تخاذَلوا ولم يكونوا عند الظّنِّ فيهم . وَوَضَعَ مُقَدَّماً موضع الإقدام ، وساغَ ذلك لأنّ مصادرَ الكلمات الصَّادرة عن أصْلٍ واحدٍ يوضَعُ بَعْضها مَوْضِعَ البعض لدَاعٍ يَدْعُو إذا لم يَـكُنْ ثَمَّ مانِـعٌ . وإنما قُلْتُ هذا لأنَّ قَدَّم يكون مرّةً متعدِّياً ،

(١) هو من أبيات سيبويه الخمسين التى لا يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧) والخزانة (١ : ٤٨٦) . وعجزه :

* رب العباد إليه الوجه والعمل *

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١ .

ومرة يكون بمعنى تقدَّم ولا يتعدَّى ، ومُقدَّمًا هاهنا مصدر ما لا يتعدَّى ، فهو مِثْلُ تَقَدُّم لو قاله ، ومنه مُقَدِّمةُ الجيش ، يُرادُ متقدِّمَته . وقوله « تفاقَدْتم » اعتراضٌ بين ما لـكُم وبين لا تُقْدِمون ، وهو دعاء عليهم . ومثله فى الأمرين جميعاً قولُ الآخر(١) :

إن الثمـانينَ وبُلِّغتَها قدأحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمانْ

وإن كان هذا دُعاءَ خَيْر .

٢ ــ مَوَاليكُمُ مَوْلَى الوِلَادَةِ مِنْهُمُ وَمَوْلَى اليَمِينِ حابِسًا مُتَقَسِّمَا

إنَّما قَسم المَوْلَىَ هذه القسْمَة لأنَّ المولَى له مواضع فى استعمالهم ، منها المَوْلى فى الدِّين : وهو الوَلِىُّ . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وأنَّ الكافرينَ لا مَوْلَى لَهُم ﴾ ، وقول النبىّ عليه السلام : « من كُنْتُ مَوْلَاه فعَلِىٌّ مَوْلاهُ » ، وقوله عليه السلام : « مُزَيْنَةُ وأَسْلَم وغِفارٌ مَوَالِى الله ورسوله » . ومنها العَصَبَةُ وبنو العَمّ ، وهو الذى سماه الشَّاعر مَوْلَى الوِلادة . ومنها الحليف ، وهو من انضمَّ إليك واعتَزَّ بعزِّك وامتنع بمَنْعِك ، وهو الذى سَمَّاهُ مَوْلَى اليمين ؛ لأنَّه يُقْسِمُ له عند الانضمام بذلك ، وهو المُعْتَقُ لكَ ينتسب بنسَبِك ، وأنت مَوْلَاهُ وذاكَ مَوْلاكَ . وهم يقولون : إنَّ المَوْلَى لا يَكادُ يَفْضُلُ الصميم ، قال :

وليس أُبَيْرُكُم كأُبَيْرِ سَوْء وما جُعِلَ المَوَالِى كالصَّميم

يقول تَدارَكُوا الذين ينتسبون بالوَلاء ، ولاءِ النَّسبِ ، وولاءِ الحِلْفِ والنُّصْرَةِ ، فَكُلٌّ منهم ذو حَبْسٍ على الشَّرّ متقسِّم الحال ، ، متوزَّع المال مُغَارٌ عليه ، فما لَكُمْ لا تَمْتَعِضُون ولا تُنْكِرُون .

وقولُه : « حابِسًا » فى معنى مَحْبُوسٍ ؛ لكنَّه أخرجه مَخْرَجَ النَّسَب ؛ أى

(١) هو عوف بن محلم الخزاعى . الأمالى (١ : ٥٠)

ذو حَبْسٍ ، وانتصابه على الحال . وقوله « مواليكم » على هذا انتصب بفعلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه قال : أغيثوا مواليكم وتداركوا . ويُرْوَى « حابِسٌ قد تُقُسِّمَا » . وقيل هو اسمٌ عَلَمٌ ، وارتفاعه على أنّه بدلٌ من مولى اليمين ، وقد تُقُسِّمَا فى موضعِ الخبَر . واكتفى بالإخبار عن المَوْلَيَيْنِ لأنَّ الموالى انقسموا إليهما .

٣ — وقُلْتُ تَبَيَّنْ هَلْ تَرَى بَيْنَ وَاسِطٍ وَنِهْيِ أُكُفٍّ صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا (١)

يُرْوَى « فارِسًا غَيْرَ أَخْرَمَا » ، كأنَّه أقبل على واحد منهم فقال : تأمَّلْ هل تَرَى بين هٰذين الموضعين فارساً غيرَ مُنْقَطع . المعنى : أنهم يتواترون أرْسَالاً فى الصُّرَاخِ غير متجمِّعين له ، بل يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضاً فى أرضِكم ودياركم يستنصرون فلا يُنصَرون ، فما لكم لا تأْنَفُون . ومن رَوَى : « صَارِخًا غَيْرَ أَعْجَمَا » فمعناه مستغيثاً لا يُجَابُ ، فكأنه أعجم لا يُفهمُ قولُه . يريد : تَبيَّنْ فإنك لاتَرَى إلا فارساً أخْرَمَ ، أو صارخًا أعْجَمَ . والأعجم : الذى لا يُفْصِح . والصارخ والصَّرِيخ واحد ، ويقال صرخ فَأَصْرَخْتُهُ ، أى استغاث فأغَثْتُه . وفى القرآن : ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ والصَّرْخَةُ تُستعمل فى الفزَع والمصيبة . وفى المَثَل «لَهُ صَرْخَةُ الحُبْلى» . والخَرْمُ : القَطْع ، ومنه أَخْرَمُ الكتِف ، وهو مَحَزٌّ فى طرف عَيرِها (٢) .

٤ — من الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ لا تَرَى من الخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مُسَوَّمَا

أى ابتدأ الأعداء يغيرون ويَنْهَبُون ، وهؤلاء يصرخون ويستغيثون ، من

---

(١) التبريزى ومعجم البلدان : « ونهى الأكف » ، ونص ياقوت على أن النهى بالكسر ويفتح . وذكر التبريزى فى بعض رواياته : « غير أخزما » ، وقال : « وصارخ ، قبل مغيث . وأخزم : جبل . ومعنى البيت على هذا أنه ليس بين هذين الماءين مفزع إلا هذا الجبل » .

(٢) فى الأصل : « غيرهما » ، وفى م : « غيرها » ، والوجه ما أثبتنا . والعير ، بفتح العين المهملة : كل عظم ناتئ .

وقت الغَدَاةِ إلى أن غابَتِ الشَّمس ، فلا تَرَى من الخيل إلا ما خَرَجَ بنفسه لا أوَارِيَّةَ له كَمِثْلِهِ ، وقد أُعْلِمَ بعلامة ليعرفَ بلاءَ صاحبه . وقوله : « من الصُّبْحِ » ، وُضِعَ مِنْ فيه موضع مُنْذُ ، لأنَّ مُنْذُ فى الأزمنَةِ بمنزلة من فى الأمكنة . ومثله قول زهير :

* أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومن دَهْرِ [(١)] *

وقال الأصمعىُّ : الخارجىُّ : كلُّ مُتناهٍ فى جنْسه ، فائقٍ نُظَرَاءه فى معناهُ . والمُسَوَّمُ من السِّيما ، وهى العلامة ، وفى القرآن : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ .

٥ ــ عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ وكَانَ إِذَا يَكْسو أَجَادَ وأَكْرَمَا

يقول : على هذه الخيل رِجَالٌ كَسَاهُمْ مُحَرِّقٌ ، أى دروعهم وسائر أسلحتهم مما كان يكسوهم ، ويجْعَلُهُ خِلْعَةَ : وكان مُحَرِّقٌ إذا كسا الأسْلِحَةَ أتى بها جيِّدةً كريمة . ومُحَرِّقٌ : لقَبٌ لعمرْو بن هنْدٍ ، وكان أحْرَقَ قَوْمًا من تميم حين أجَّج النارَ بأُوَارة ، فلُقِّبَ به ، وقال بعضُهم : لُقِّبَ بذلك لأنّه كان إذا عاقب عاقبَ بالنار . وقوله «إذا يَكْسُو» اعتراضٌ بين الفعل وهو يَكْسُو وبين المفعول به وهو « صفائحَ بُصْرَى » من البيت الثانى . ويقال أجادَ الشىء بمعنى جاء به جَيِّدًا ، وبمعنى جوَّدَهُ . وكذلك أكْرَمَهُ يكون بمعنى أتى به كريما ، وبمعنى كَرَّمَهُ . وقد توسعوا فى كَسَا وإن كان أصل الكُسوة اللِّباس ، فقيل : اكتسَى الأرضُ بالنَّبات ، على التشبيه ، فقال رُؤْبَةُ يصِفُ الثّورَ والكلاب :

* وقَدْ كَسَا فيهنَّ صِبْغًا بَرْزَغَا *

أى كَسَا الكلابَ دَمًا طرِيًّا . وقال بعضهم فى وصف نبالٍ :

* وزُرْقٍ كَسَتْهَا رِيشَها مَضْرَحِيَّةٌ *

(١) صدره : * لمن الديار بقنة الحجر *

أى قُذَذُها من ريش مَضْرَحِيّ . فعلى هذا قوله « كسامٍ مُحرِّق » .

٦ ـ صَفَائِحَ بُصْرَى أَخْلَصَتْهَا قُيُونُهَا وَمُطَّرِدًا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مُبْهَمَا

صفائحَ انتصَب على أنه مفعولٌ ثانٍ من كَساهم مُحرِّقٌ . وبُصْرَى : قَرْيَةٌ بالشام تُطْبَعُ بها السُّيوف . فيقول : كساهُم مُحرِّقٌ سُيُوفًا بُصْرِيَّةً ، اتخذَها طَبّاعُوها من خالصِ الحديد ، ودُرُوعًا ليِّنةً سهلة سَلِسَةً ، متتابعة السَّرْدِ ، تَطَّردُ ولا تختلف ، داوديَّة . والصفائحُ : جمع صفيحة ، وهى كلُّ سيفٍ عريضٍ أو خشَبةٍ عريضة . ويقال سيف مُصْفَحٌ أيضًا ، أى عريض ، كأنه زِيدَ فى صَفْحَتَيْه ، أى جانبَيْه . ويقال أصفَحَ بسيفه ، أى ضَرَب بصَفْحِه . ومعنى أخلَصَتْها : أتَتْ بها خالصةَ الحديد . واستعمِل الكِسْوَةُ فى السيفِ كما يستعمَلُ فيه البَزُّ . قال :

* فَوُفِّرَ بَزٌّ ما هُنالِكَ ضائعُ[1] *

يريدُ السيفَ . ووصَفَ الدِّرْع بالاطِّراد لتتابع سَرْدِها على حَدٍّ واحد ، لا اختلاف فى حَلَقِها ، ولا تفاوُتَ فى نَظْمِها . وجَعَلها مُبْهَمًا لإحكامِها .

٧ ـ فلما رَأَيْتُ الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ وَإِنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبَ مُظْلِما[2]

يقول : لما رأيتُ الأمرَ مُستفحِلاً ، والخَطْبَ عظيما مُستفظَعًا ، والصبرَ عامًّا لنا كُلِّنا ، مغلوبًا عليه ممنوعًا ، صَبَرْنا نحن من بين أصحابنا على عادتِنا المعهودة مِنّا ، ووطَّنّا أنفُسَنا على الشرّ . ويجوز أن يريد بقوله « لما رأيتُ الصبرَ قد حِيلَ دونه » لما رأيتُ الوقتَ وقتًا يُمالُ فيه الصبرُ ، ويُحالُ بين طالِبيه وبينَه .

(١) لقيس بن عيزارة الهذلى ، فى ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) . وصدره :

* فويل ام بز جر شعل على الحصى *

(٢) م : « ولما رأيت » . التبريزى : « ولما رأينا الصبر » .

وقولُه « وإن كان يومًا ذا كواكب مُظْلِمَـا » اعتراضٌ بين لمّا وجوابِهِ ، وهو شَرْطٌ فى وقوع الصبرِ منهم يُترجِم عن الحال . أى صَبَرْنا وإن كان اليومُ يومًا مُظلِمًا تُرَى فيه الـكواكب ظُهرًا ، لانسداد عين الشَّمس بغُبار الموت . وجوابُ الجزاء استُغْنِيَ عنه بجواب لمّا . وروى بعضُهم : « وأَنْ كان يومًا » بفتح الهمزة على أن يكون أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، والمرادُ وأنه كان اليومُ يومًا ذا كواكب . وهـذا الرّاوى لعلّه لم يعرف الاعتراضاتِ والفصاحةَ فيها ، والتَبَس المعنى عليه أيضاً .

٨ ــ صَبَرْنا وكانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً بأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا ومِعْصَمَا[1]

يقول : حمَلْنا أنفُسَنا على المـكروه ، وحبَسْناها فى مجالِ الموت والشرّ ، وكان ذلك مِنَّا عادةً وطبيعةً . وقوله « أسيافنا » يجوز أن يتعلّق الباء منه بصَبَرْنا ، واعترَض بينهما قولُه « وكان الصبرُ منا سجيّةً » ، إذ كان أرادَ أن يُبيِّنَ أنّ ذلك الفِعْل ليس بمُسْتبدَعٍ ولا مُسْتنكَرٍ من أخلاقِهم . ويجوز أن يتعلق بما دلّ عليه « وكان الصبر منا سجيَّةً » . ويَقطَعْنَ فى موضِـعِ الحال للأسياف على الوجهين جميعاً . وفى طريقته قول نَهْشَل بن حَرِّيّ :

وَيَوْمٍ كأنّ المُصْطَلِينَ بحَرِّهِ وإن لم يكن نارٌ قُعُودٌ على جَمْرِ
صَبَرْنَا لَهُ حتى يَبُوخ وإنما تُفَرِّج أيّامُ الـكريهة بالصَّبْرِ

٩ ــ نُفَلِّقُ هامًا من أُناسٍ أعِزَّةٍ عَلَيْنا وهم كانوا أعَقَّ وَأَظْلَمَا

يقول : نُشَقِّقُ هامَاتٍ من رجالٍ يَكرُمون علينا ويَعِزُّون ، لمـا يجمَعُنا وإيّاهُم من الأحوال الوكيدة ، والحُرَم القويّة بالأنساب والأسباب ، وهم كانوا

(١) ابن جنى : « يريد أكفا ومعاصم ، فوضع الواحد موضع الجمع . . . وجاز ذلك لأنها إنما يقطعها كفاكفا ، ومعصما معصما ، فتصور هذه الحال فوحد » .

أشدَّ عقوقاً وأتمَّ ظلماً ، بما اطَّرحوه من مراعاة الحقوق ، وبدءوا به من تناسِي العُهود ، واستعجَلوه من البَغْى ، وسَلَكُوه من سَنَن الغَىِّ . ويروى أن يزيد ابن معاوية لا رحمه الله[1] تمثَّلَ بهذا البيت لمّا وُضِع بين يديه رأسُ الحسين ابن علىّ رضى الله عنهما .

١٠ـ ولمَّا رَأَيْتُ الوُدَّ ليس بنافِعِى   عَمَدْتُ إلى الأَمْرِ الذى كان أَحْزَمَا

١١ـ فَلَسْتُ بمُبتاعِ الحياةِ بِذِلّةٍ   ولا مُرْتَقٍ من خَشْيةِ المَوْتِ سُلَّمَا

قوله « إلى الأمرِ الذى كان أَحْزَمَا » جُعِلَ الحزْمُ للأمرِ كما جُعِل له العَزْمُ فى قوله تعالى : ﴿ فإذا عزَمَ الأمْرُ ﴾ ، فكلٌّ ذلك مجازٌ واتساعٌ . وصَلَح أن يريد بقوله أَحْزَمَ ، أَحْزَمَ من غيره ، لوُقوعِه خبرًا ، لأنه كما يجوز حذف الخبر بأسرِه إذا دَلَّ دليلٌ عليه ، كذلك يجوز حذف ما يتمّ به منه إذا لم يلتبس بغيره ، ولم يختلَّ الكلامُ بسببه . وقوله « لمّا رأيتُ الوُدَّ » حَذَفَ المُضاف فيه وأقام المضافَ إليه مَقامَه ، كأنه قال : لما رأيت مُراعاة الوُدِّ ومحافَظَتَه ، أو إظهار الود وإبقاءه . ومعنى البيت : لما رأيتهُم لا يَرْتَدِعُون عن ركوب الرّأس ، والمجاذبة إلى أقصَى ما فى الطَّوْق من اللَّجَاج والشرّ ، قصدْتُ إلى ما كان أَجْمَعَ للحَزْمِ معهم من مكاشفتهم ، وتَرْكِ الإبقاء عليهم ؛ لأن ظهور التّعادِى والتكاشُف خيرٌ من رُكوبِ الغُرُورِ[3] مع التشابُك . ويُلاحظ هذا البيتَ قولُ الآخَر :

إذا حاجةٌ عَزَّتْكَ لا تَسْتَطِيعُها   فَدَعْها لأُخْرَى لَيِّنٍ لك بابُها

وقوله « فلستُ بمبتاع الحياةِ بسُبَّةٍ[2] » ، يقال ابتاعَ الشىءَ بمعنى اشترى ،

(١) م : « لعنه الله » .
(٢) الرواية فى متن البيت : « بذلة » . أما رواية « بسبة » فقد أشار إليها التبريزى .
(٣) كذا فى النسختين . والوجه « الغرر » .

وإن كان بعْتُه بمعنى اشتريْتُه وبعْتُه جميعًا . والسُّبَّةُ : الخَصْلَةُ التى يُسَبُّ بها ، فهى كالهُجْنَة والعُرَّة[١] . يقول : فَعلْتُ ذلك ، فإننى لست ممن يَطْلب العَيْش مع الذُّلِّ ، ولا مِمَّن يرْتقى فى الأسباب خوفًا من الموت ، بل المِيتَةُ الحَسَنَةُ على ما يتعقَّبُها من الأُحدوثة الجميلة آثَرُ عندنا ، وأَوْقَعُ من هَوَانا ، من العيشة الذَّميمة على ما يُخالِطُها من الرِّضَا بالدَّنِيَّة .

١٣٤

وَقَالَ بَشَامَةُ بن الغَدِير[٢] :

١ — وَلَقَدْ غَضِبْتُ لِخِنْدِفٍ ولِقَيْسِهَا   لَمَّا وَنَى عن نَصْرِهَا خُذَّالُها

خِندفُ . لَقَبٌ لليلى امرأةِ الياسِ بن مُضَرَ ، لقولها لزوجها يومًا : ما زِلْتُ أُخَنْدِفُ فى أثرِكُمْ — والخَنْدَفَةُ : مشية كالهَرْوَلَةُ — فقال لها : وأنتِ خِنْدِفٌ . فلزِمَهَا ، فصارت مُضَرُ نسلين : أحدهما ولد قَيس بن عِيلان ، والآخر خِنْدِفٌ . ويُرْوَى أنَّ رجلا على عَهْد الزبير بن العَوّام ظُلِم . فنَادَى : يالَخِنْدِفَ[٣] . فخرج الزُّبير وبيده السَّيف ، وهو يقول : خَندِفْ أيُّها المخندِف ، والله لئن كنتَ مظلوما

(١) فى الأصل : « والعصرة » وفى م : « والغرة » ، والوجه ما أثبتنا ، والعرة بوزن الهجنة : ما يعترى المرء من جنون .

(٢) جعل التبريزى هذه الحماسية لبشامة بن حزن : وقال : « قال أبو هلال : فى الشعراء رجلان يقال لهما بشامة ، أحدهما بشامة بن الغدير ، وهو عمرو بن هلال بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . . . والآخر بشامة بن حزن النهشلى ، وهذا الشعر له . وقال الآمدى : هو لبشامة بن الغدير » . وابن الغدير خال زهير بن أبى سلمى ، كما فى المؤتلف للآمدى ص ٦٦ . وقد سبق لبشامة بن حزن الحماسية رقم ١٤ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « خندف إليك أيها المخندف » ، وصواب هذه الأخيرة : « أخندف إليك أيها المخندف » ، كما فى اللسان (خندف) ، وقال : « يقول : يا من يدعو خندفاً أنا أجيبك وآتيك . قال أبو منصور : إن صح هذا من فعل الزبير فإنه كان قبل نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن التعزى بعزاء الجاهلية » .

لأنصُرَنَّكَ . يقول : غَضِبْتُ لِنَسْلَىْ مُضَرَ خِنْدِفٍ وقَيْسٍ ، لما ونى عن معاونتها والنُّهُوض لها نُصَّارُها . ويقال وَنَى يَنِي وَنْيًا ، وهو وانٍ . وإنَّما قال : «خُذَّالُهَا» ولم يَقُلْ نُصَّارُهَا ، لأنَّه وصفهم بما آل إليه أَمرُهُم . وهذا كما يُقال قَتَلْتُ قَتِيلَ بنى فلان ؛ وقد مَضَى له أشباهٌ وأمثال . فكأنَّ الشاعر تبرع بما كان منه من المدافعة دُونهم والمقاتلة عنهم ، فلذلك تحمَّد به . وقال غَضِبْتُ لهم لما رَأَيتُ من وَجَب نُصْرَتهم عليه خَذَلَهم . وجواب لمَّا وَنَى ، ما هو صدر البيت .

٢ — دَافَعْتُ عن أعْرَاضِها فَمَنَعْتُها ... وَلَدَىَّ فى أمثالِها أمْثَالُهَا

هذا تفسير للغضب الذى ذَكَرَهُ وبيان نتيجته . والعِرْض : النَّفْس ، ويُسْتَعْمَل فى الحسب . يقول : ذَبَبْتُ عَنْهَا ومنعت الأعداء منها ، وَلَدَىَّ فى أمثالِها من القبائل أمثال هذه النُّصْرة . هـذا وَجه ، ويجوز أن يريد ولدَىَّ فى أمثال هذه النصرة أمثال هذه القصيدة . والقرائن التى تسوِّغ رَدَّ الضميرين إلى جميع ما ذكرناه حاضرةٌ فى الكلام قوية .

٣ — إِنِّى امرؤٌ أَسِمُ القصائِدَ للعِدَى ... إنّ القصائد شرُّهَا أَغفالُهَا

هذا يمكن الاستدلال به على صحَّة المعنى الثانى ، ومعنى « أسِمُ القصائد » : أعْلِمُها بما يصير كالسِّمَةِ عليها ، حتى لا تُنْسَبَ إلى غَيرى ، وحتّى يُعْرَفَ منها السبب الذى خَرَجتْ عليه ، فَمَنْ سَمِعَها عرف قصتها ؛ ولهذا قال إنَّ القصائد شَرُّها أغفالها ، أى شَرُّ الشعر ما لا مِيسَمَ لقائله والمَقُول فيه عليه . ويقال دَابَّةٌ غُفْلٌ ، إذا عَرِىَ من الأعلام . وسمعتُ من يقول فى البيت إنه مقلوبٌ ، والمرادُ أَسِمُ العِدَى بقصائدى ، كما قال الآخر[1] :

(١) هو المتلمس . ديوانه ص ١ نسخة الشنقيطى بدار الكتب والكامل ١٥٨ ليبسك .

* جعَلتُ لهُ فَوْقَ العَرَانِينِ مِيسَمَا(١) *

والأوّل أكشَفُ وأَصحّ ، بدِلالةِ أن الغُفْل جعَلَه من القصائد ، فكذلك الموْسومُ يجب أن يكون منها(٢) .

٤ — قوْمِى بَنُو الْحَرْبِ العَوَانِ بِجَمْعِهِمْ   والْمَشْرَفِيَّةُ والْقَنَا إِشْعَالُهَا

يُرْوَى « والمَشْرَفِيَّةِ بالجرِّ » ويكون معنى البيت قَوْمِى إخوانُ الشَّرِّ الفظيع ، وأبناء الحرب التى قوتل فيها مرّةً بعد أُخْرَى ، فصارَتْ عوانًا بعد أن كانت بِكراً ، أى رُفِعَتْ من حَالٍ إلى حَالٍ أشدَّ منها ، ويكون هذا مثلَ قولِ الآخَر :

فلسنا من بنى جَدَّاء بَكْرٍ   ولكِنَّا بَنُو جَدٍّ النِّقَالِ

وعلى ما ذكرنا يتمُّ الكلام بقوله العَوانِ ؛ ثم قال « بجمعهم » أى باجتماع قومى واجتماعِ آلات الحرب اشتعلت نارها . والباء من بجمعهم يتعلّق بقوله إشعالها . ويروَى « والمشرَفيّةُ » بالرّفع ، ويكون على هذه الرِّواية تمام الكلام عند قوله بجمعهم ؛ لأن الباء منه حينئذٍ يتعلّق بقوله العَوَانِ(٣) . والمعنى : قومى بنو الحرب التى عُوِّنت ، أى صارت عوانًا بهم ، وباجتماع جيشهم ؛ ثم استأنف الكلام ؛ فقال : « والمشرفيّةُ والقنا » ، والمُراد واشتعال نارها بالرِّماح والسُّيوف المَشْرَفيّة .

---

(١) صواب الرواية : « جعلت لهم » . وصدر البيت :

* ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى *

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء : أى أجعل فيها شيئاً تشهر به وتعرف ، كما تعرف الناقة بسمتها . وأما الشعراء اليوم فيجعلون الموسوم من الشعر ما ذكر فى قافيته اسم الممدوح ، كقول الأعشى :

فآليت لا أرثى لها من كلالة   ولا من حفى حتى تلاقى محمداً .

(٣) ابن جنى : « والقنا إشعالها ، أى ذوات إشعالها ليكون الثانى الأول ، وهذا واضح . والباء فى بجمعهم حال من قومى ، أى قومى فى حال اجتماعهم بنو الحرب . وعمل فيها ما فى بنى الحرب العوان من معنى الفعل . ألا تراه فى معنى صبر ومقدمون » .

وهذا الكلام — أعنى والمشرفية — وإن استُؤْنِفَ به فمن صفة الحرب . وقيل فى المشرفية إنَّها نسبت إلى المشارف ، وهى قُرًى معروفة تُجْلَب منها وتُطْبع بها . ويقالُ : أشعلتُ النَّار فى الحطَبِ ، وأشْعلتُ الخيلَ فى الغارة ، وأشعلته غَضَباً .

٥ — مازَالَ معروفاً لمُرَّةَ فى الوَغَى عَلٌّ القَنا وعليهمُ إنْهالُهَا

ما زال لدوام الماضى ، وارتفع عَلُّ القنا على أنّه اسمه ، وخبرُه معروفاً . والمعنى : سَقْىُ الرِّماح عَلَلًا بعد نَهَلٍ عادةٌ معروفةٌ لهم ، فيما تقادم من الأيّام إلى الآنَ إذا حضروا الحرب . والعَلُّ والعَلَلُ : الشَّرْبةُ الثّانية ، ويقال : عَلَّ إبلَهُ يَعُلُّهَا فَعلّت هى . وأَنْهَلْتُ الإبلَ ، إذا سقيتَها أوّلًا ، فَنَهِلَتْ ، إذا شرِبَت فى أوّل الورود حتّى رَوِيَت . ومثل هذا البيت قول الآخر :

نَهِلْنَا مِنْ دِماءِ بَنِى لُؤَىٍّ وأَنْهَلْنَا القَنَا حَتَّى رَوِينَا

وتوسَّعُوا فى الاستعمال حتى سَمَّوا منازل السَّفْرَ على المياه مَنَاهِلَ . وإنما قال : « وعليهم إنهالُها » لأنّه كأنه جعل ذلك واجبا عليهم .

٦ — من عَهْدِ عَادٍ كان مَعْرُوفاً لنا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُها وقِتالُهَا

وَضَعَ مِنْ فى قولِهِ « من عَهْدِ عَادٍ » موضع مُنْذ لقوّتها وكثرةِ تصرُّفها وتمكُّنِها فى باب الجرّ ، وأداء معنى الابتداء ، ومِثلُه قول الله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أوّل يَوْمٍ أَحَقُّ ﴾ ، وقولُ الرّاجز :

من غُدْوةٍ حَتَّى كأنَّ الشَّمْسَا بالأُفُق الغربىِّ تُطلَى وَرْسا

ومعنى البيت أنّه نبّه على مجاذبتهم للملوك والعِلْيَة ، لا للأذناب والسَّفِلَةِ . والقِتال فى ترتيب الفِعْل مُسابِقٌ[1] للأَسر والقتل ، لكنَّه لم يُبالِ بتأخيره فى ترتيب اللفظ ، لأنَّ الواو لا يُوجِبُ فى العَطْفِ ترتيباً ، إنما هو مَوْضُوعَةٌ للجَمْع

---

(١) كذا فى النسختين .

فقطّ ، وتبجّح أيضاً بأن ذلك قديمٌ فيهم(١) منذ زمن عادٍ لا حديثٌ .

١٣٥

وقال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ(٢) :

١ ــ ونَحْنُ بَنُو عَمٍّ على ذَاكَ بيننا زَرَابِى فيها بِغْضَةٌ وَتَنافسُ(٣)

يقول : نحن أبناء عمٍّ ، وعلى ما بيننا من القُرْبَى والقرابةِ فُرِشَتْ بيننا بُسُطُ شرٍّ تشتمل على تباغُضٍ وتحاسُدٍ . وذِكْر الزرابىّ مَثَلٌ هاهنا ، وهى البُسُطُ ، واحِدُها زرْبِيَّةٌ وزرْبِىٌّ(٤) ، وقال أبو عبيدة : وهى فى لغةٍ أخرى الشَّوَاذكين(٥) : وأنشد لذى الرُّمَّة :

تَرَدَّيْتَ مِن أفوافِ نَوْرٍ كأنَّها زَرَابِىُّ وَارْتَجَّتْ عليكَ الرَّوَاعِدُ

وفى القرآن : ﴿ ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ : أى مفرّقة فى المجالس . ويقال : اطْوِ بِساط الشرّ بينى وبينك . ويقولون أيضاً : أعطانى فلانٌ فى بِسَاط كلامه كذا ، أى فيما بَسَطَ منه . وقال الخليل فى الزرابىّ : إنَّها

---

(١) فى الأصل : « قديماً منهم » ، وأثبتنا ما فى م .

(٢) ذكر ابن جنى فى المبهج أن الأرطاة واحدة الأرطى ، وأن سهية تحقير سهوة ، يقال فرس سهوة ، إذا كانت سهلة الجرى . وسهية أم أرطاة غلبت على نسبه ، وأبوه زفر ابن عبد الله بن مالك . وأرطاة شاعر إسلامى فى دولة بنى أمية لم يسبقها ولا تأخر عنها ، وقيل أدرك الجاهلية وعاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان . وهو من بنى مرة بن عوف بن سعد ، وكان ممن وفد على عبد الملك بن مروان وكان عمره إذ ذاك مائة وثلاثين سنة . الأغانى (١١ : ١٣٤ ــ ١٤٠) والاشتقاق ١٧٦ ــ ١٧٧ والإصابة واللآلى ٢٩٩ : ٦٣٠ .

(٣) التبريزى : « قيل إنها فى ديوان أرطاة : زرائب على مثال غرائب ، فكأنه جمع زريبة ، فجعل العداوة زريبة لأنها تزرب فى القلب ، أى تدخل » . وأنشده أبو الندى « زآنب » وهى القوارص ، قال أبو الندى : ولا أعرف لها واحداً .

(٤) بتثليث الزاى فيهما ، كما فى اللسان .

(٥) كذا ورد هذا اللفظ . ولعل له صلة بكلمة « شادكونه » الفارسية ، بمعنى ما ينام عليه الإنسان من حشية ونحوها . انظر معجم استينجاس ٧٢٢ .

القُطُوعُ الحِيرِيّة الرَّقيقة . وفى كلام بعض الفصحاء : « فُرِشَت بيننا قُطُوعُ النَّمائم » . فعَلَى هذا استعمل هذا الشاعر الزَّرابىّ . فأما قوله « على ذاك بيننا » ، فإنما أشار بذلك إلى ما جَمَعهم من سببِ العمومة ونَسَبِها . ويُرْوى : « على ذات بيننا ، زرابىٌّ » كأنه أراد بذاتِ بينِهم خالِصَةَ النَّسب والقَرابة ، ثم جعل فوقها ما قد غَمَرَها وسترها من زرابىِّ الفساد . ويُروى :

. . . . على ذاك بيننا تَنَاءٍ وفينا بِغْضَةٌ وتنافسُ

والمعنى : وعلى ما يَجمعنا من الرَّحِمِ ينأى بعضُنا عن البعض ، ومع ذلك بيننا تدابُرٌ وتباغُضٌ ، وتهاجُر وتقاطُع . كأنهم جعلوا التنائىَ مداواةً فى إزالة ما بينهم فلم ينفع .

٢ ـ ونَحْنُ كَصَدْعِ العُسِّ إن يُعْطَ شَاعِبًا يَدَعْهُ وفيه عَيْبُهُ مُتَشَاخِسُ

العُسُّ : القَدَحُ الضخْمُ . والشَّعْبُ ، يستعمل فى الجمع والتفريق . ويقال أيضاً : تفرَّق شعبُهم . والشاعِبُ هاهنا : مُصْلِح القِدَاح . يقول : استَحْكم الفسادُ بيننا حتى لا يَقْبَل صُلْحًا ولا صَلاَحا ، وتفاقَمَ الانصداع حتى لا يلتحم تبايُنًا وتدافُعًا ، فلن تعودَ الحالُ إلى ما كانت وإن أَمسَكْنا عن إثارة الشرّ والزيادة فيه زماناً ، وتصنَّعْنا فى الاحتمال والمُقاربة إبقاءً على الحظّ من المراجعة وإدْناءٍ ، بل يكونُ ما بيننا كالشَّقّ فى القَدَح ، إن أُعطِىَ شاعِبًا تركَهُ والعَيْبُ ظاهِر فيه ، غير مُنْكَتِمٍ ولا خافٍ . والمتشاخِس : المتفاوتُ المُتبايِنُ . ومنه قولُهم : تشاخَسَت أسنانُه من الكِبَر ، إذا اختلفَتْ . قال الخليل : هو أن يسقط بعضُها ويميل بعضُها . وقيل الشَّخْسُ فى الأصل فتْح الفم للتثاؤُب . ويجوز أن يريد بقوله « وفيه عَيْبُه » : ومَعِيبُه هكذا . وفى طريقته قول الآخَر :

ومِنَ المَوَالِي ضَبُّ جَنْدَلَةٍ نَخِرُ المَوَدَّةِ ظاهِرُ الغِمْرِ

وقد أَحسَنَ أَبَانُ اللاَّحِقِيُّ فى مُزْدَوِجَتِه حينَ قال :

وإنما مـــودَّةُ الأشرار في وَهْيِها كمَثَلِ الفَخَّارِ
يصيبُه أَدْنَى يَدٍ فينكَسِرْ[١] وليس يُرْجَى شَعْبُه إذا جُبِرْ

٣ — كَفَى بَيْنَنَا أَلاَّ تُرَدَّ تَحِيَّةٌ على جَانِبٍ ولا يُشَمَّتُ عَاطِسُ

يُرْوَى « يشمَّت » بالشين والسِّين ، وهما بمعنًى واحد ، وسمعْتُ أبا علىٍّ الفارسىَّ يقول فى اشتقاق التَّسميت بالسين غير معجمة — وهو قولُك للعاطِس : يَرْحمك الله — فقال : كأنّه إذا عَطَسَ لحقَتْه نَفْضَةٌ فى جسمه ، فإذا دعا الداعى له فكأنه رَدَّه إلى سَمْتِه وهَدْيه . وقال فى التشميت بالشين معجمة : كأنّه التثبيت من الشَّوامِت وهى القوائم[٢] . يقول : يكفيك من الشَّرِّ الرَّاتب بيننا أنَّه لا تُرَدُّ تحيَّة الواحِدِ مِنَّا — يريد جَوَابَ تسليمه — وإن كان الالتقاء معه عن عُفْرٍ كالالتقاء مع الأجانب والغُرباء ، وأنَّه إذا عَطَسَ واحِدٌ لا يُتلَقَّى بالدُّعاء له على ما استمرَّ وعُرِف من عَادَةِ الناس فى تَنادِيهم وتجاورهم[٣] . وقوله « كَفَى بيننا » هو بينَ الذى كان ظَرْفاً ، فنقله إلى باب الأسماء . ومثله قولُ الله عز وجل : ﴿ لقد تَقطَّعَ بَيْنُكُم[٤] ﴾ وقال الشاعر[٥] :

كأَنَّ رِمَاحَهُمْ أَشْطَانُ بئرٍ بَعيدٍ بين جَالَيْهَا جَرُورِ

ويجوز أن يُرْوَى « أن لا تُرَدُّ » بالرفع ، وكذلك « ولا يُشَمَّتُ » على أن

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى م : « أدنى أذى) .

(٢) قال ابن جنى : « وذلك أن القائمة هى التى تحمل الفرس ونحوه ، وبها عصمته ، وهى قوائمه . وكأنه إذا دعا له فقد ثبت أمره وأنهضه وأحكم دعائمه » .

(٣) كذا فى النسختين ، بالجيم .

(٤) وردت فى الأصل بفتح النون والاستشهاد يقتضى ضمها كما فى م . والأولى قراءة نافع وحفص والكسائى وأبى جعفر ، وقرأ الباقون بالضم . إتحاف فضلاء البشر ٢١٣ فى سورة الأنعام.

(٥) هو مهلهل . انظر الكامل ٢١٢ ، ٣٥٢ ليبسك . وانظر القصيدة بتمامها فى أمالى القالى (٢ : ١٢٩ — ١٣٣) .

تَجْعَلَ أن مُخَفَّفَةً من الثقيلة . ويكون المراد أنه لا تُرَدُّ تحيةٌ . ومثله قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أن لا يرجع ﴾ ، بالنصب والرفع .

١٣٦

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ(١) :

١ — تناهَوْا واسألوا ابنَ أَبِي لَبِيدٍ أَأَعْتَبَهُ الضُّبَارِمَةُ النَّجِيد

يقول : كُفُّوا عما أنتم عليه من تهييج الشّر ، وأمسكوا عن الشّر فى تأريث نار الحرب ، واسألوا هذا الرجل : هَلْ أرضاه الأسدى القوىُّ الغليظ الشديد لمَّا تحكّك به ، وهل وفّاه ما استحقَّهُ عليه . كأنَّه جعَل إنزاله السُّوء به والزّيادةَ عند تكرُّهِهِ له إعْتاباً ، على التهكم والسُّخريَّة . ومثله فى ذلك قول بِشْرٍ :

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ يومَ النِّسَارِ فَأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

والضُّبارِمَةُ ، قال الخليل : هو الجرىء على الأعداء . وسمى الأسَدُ ضُبارِمًا . قال : ويُقال هو الأسَدُ الوثيقُ الخَلْقِ ، المكتنز اللحم . ويجوز عندى أن يكون من معنى المُضَبَّر لا من لفظه ، فيكون من باب دَمِثٍ ودِمَثْرٍ ، ودُلامِصٍ ودِلاصٍ وسَبِطٍ وسِبَطْرٍ . والنَّجِيد : ذو النَّجْدةِ ، وهى البأسُ والشِّدَّة .

(١) هو عقيل بن علفة بن الحارث المرى . شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية ، وكان معروفا بكبره واعتزازه بنفسه . وانظر أخباره فى الأغانى (١١ : ٨١ — ٨٩) وابن سلام ٢١٤ والخزانة (٢ : ٢٧٨ — ٢٧٩) . وعقيل ، بفتح العين ، قال ابن جنى فى المبهج : « اسم مرتجل ، ويمكن أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، أى معقول ... والعلف : ثمر الأراك، الواحدة علفة » .

٢ — ولَسْتُم فاعِلِينَ إخَالُ حتَّى   ينَالَ أَقاصِيَ الحطَبِ الوَقُودُ

حَذَفَ مفعولَ قولِه فاعلين ، وهو ما دلَّ عليه قوله في البيت قبله « تناهَوْا » كأنّه قال : ولَسْتُمْ فاعلين التّناهِيَ . يقولُ : ما أرَى أنّكم تنتهون إلى مارَسَمْتُ ، أو تَقْبَلُون كلامِي الذي إليه أشَرْتُ ، حتَّى يَعْظُمَ الخَطْبُ ، ويَبْلُغَ البلاءُ أقْصَى مبالِغ الجُهْدِ ، فيتعدَّى الأقاربَ إلى الأباعد ، ويتأدَّى من السَّقيم إلى البرىء . وذِكْر الحطَب والوَقود هاهنا مَثَلٌ لتفاقم الشّأن واستفحاله ، واتّساع المكروه واشتماله . وقد مَضَى القولُ في « إخَالُ » وكَسْرِ الهمزة منه .

٣ — وأبْغَضُ من وَضَعْتُ إلىَّ فيه   لِسَانِي مَعْشَرٌ عنهم أذودُ

يقول : إنِّي متعطِّفٌ على عشيرتي وإن كانوا مُسِيئين إلىّ ، متكرِّمٌ معهم وإنْ كانوا متحاملين عَلَيَّ ، فأبْغَضُ إنسانٍ أذْكُرُه وأتناوَلُه بلساني مُتَنَقِّصًا له ، قومٌ أذْفَعُ عنهم في وَقْتي ، وأحامِي عليهم في ظاهرِ أَمْرِي . وفي البيت تقديمٌ وتأخيرٌ ، وأصْلُ ترتيبه : أبغَضُ مَن وَضَعْتُ لِسَانِي فيه إلىَّ قومٌ هكذا شأني معهم . وهذا تنبيهٌ على أنَّ الرشادَ في المحافظة على حُرَمِ ذوى الرَّحِمِ وإن كانوا مُنابِذين . فمَنْ مِنْ قوله « أبْغَضُ مَنْ » نَكِرةٌ موصوفَةٌ ، وصِفَتُهُ وَضَعْتُ لساني فيه الجملة . وقد فَصَلَ بين بَعْضِها والبعض الآخر بقولِه « إلىّ » وهو أجنبيٌّ منها . وهذا في الصفة أقْرَبُ منه في الصِّلة ، فاحتمالُه فيه أقْرَبُ . ومثْلُ هذا قولُ جرير :

فَلَوْ شاءَ قَوْمِي كان حِلْمِيَ فيهِمُ   وكان على جُهَّالِ أعدائِهِم جَهْلِي

ومعنى أذُود : أدْفَعُ ، ومنه سُمِّيَ اللسانُ المِذْوَدَ ، وهذا كما سُمِّيَ المِفْصَلَ .

٤ — ولَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بيْتِي   أغُيَّابٌ رِجَالُكِ أمْ شُهُودُ

يحتمل وجهين : أحدُهما أن يتبجّح بتعفّفه في جَارَاته ، وأنّه لا يتطلَّبُ

مفارقة القيِّمين بهنّ ، مبرصِّدًا للتمكّن منهنّ ، فيكون ذلك باعثاً للسُّؤال عن رجالهنّ ، ليغتنم الخَلْوَةَ بِهِنَّ . والثانى أن يريدَ رَفْعَ الطَّمَعِ عن جِيرَتِهِ ، وقِلّةَ الفِكْرِ فى تتبُّعِ أحْوَالِهِم ، عند حضورِهم وغيبتهم ، إذْ لم يكن همّه فى النَّيْلِ منهم ، ومشاركتهم فيما يتجدّد لهم من خَيْر ، فِعْلَ المُسِفِّ للمطامعِ الدنيّة . ويكون هذا كما قال الآخر :

وإذا أتى من وجْهِهِ بِطَرِيقِهِ   لم أَطَّلِعْ مِمّا وَرَاءَ خِبَائِهِ

وهذا أَوْجَه ، لأنَّ ذِكر العِفّة قد جاء من بَعْدُ .

٥ – ولَسْتُ بِصادِرٍ عن بيتِ جَارِى   صُدُور العَيْرِ غَمَّرَهُ الوُرُودُ[1]

هذا يَشْهَدُ لما اخْتَرْنَاهُ فى تفسير ما قَبْلَهُ ، فيقول : وإذا دَعَانِى الجار إلى بَيْتِهِ يُكْرِمُنِى بِبِرِّه ، ويُشْرِكُنِى فى خَيْرِه ، لا أَنْصَرِفُ عنه والطَّمَعُ فيه بحالِهِ ، والاستغنام للحقير من مَالِهِ وطَعَامه على حَدِّه ، انصرافَ العَيْرِ عن المَاءِ وقد غَمَّرَهُ الورود . والتَّغْمِير كالتَّصريد ، وهو شُرْبٌ دون الرِّىّ . ومنه الغُمَرُ : القَدَحُ الصَّغِير ، وقال الخليل : يُتَكَايَلُ به الماء فى المَهَامِهِ . وأنشد :

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بها   من الشِّوَاءِ ويُرْوِى شُرْبَهُ الغُمَرُ[2]

وقيل فى غَمَّرَهُ معناه أرواهُ من الغَمْر : الماء الكثير ، فيكون المعنى : إنّى لا أتهالَكُ على طعامه فِعْلَ المَنْهُوم الخسيس الهِمَّة فأتضَلَّعُ ، لكنى آكُلُ أكلاً كريماً . وهذا المعنى أقْرَبُ عِنْدِى .

٦ – ولا مُلْقٍ لِذِى الوَدَعَاتِ سَوْطِى   أُلاعِبُـهُ وَرِيبَتَـهُ أُرِيدُ

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : البيتان الأخيران لابن أبى نمير القتالى ، من بنى مرة ، جاء بهما أبو تمام صلة فى هذه الأبيات ، وليسا منها » .

(٢) لأعشى باهلة يرثى أخاه المنتشر بن وهب . اللسان (غمر) وإصلاح المنطق ٥، ٩٨ و ٣١٦ . وقصيدته فى حماسة ابن الشجرى ١٠ والأصمعيات ٣٣ ليبسك .

هذا مثلُ قولِ الآخر[١] :

لا آخُذُ الصِّبْيَانَ أَلْثَمُهُم والأمرُ قد يُغرِى به الأمْرُ

وفى طريقته أيضاً قول الآخَر :

أُحِبُّ صَبِيَّ السَّوْءِ من أَجْلِ أُمِّهِ وأبغضُه مِنْ بُغْضِها ، وهو حادِرُ[٢]

أى حَسَنُ الخَلْق : يَصِفُ عِفَّتَه فيقول : لا أُلقِى سَوْطى بين يَدَى الصبىّ الذى فى عُنُقِه عُوَذٌ وتمائم لصِغَره ، أُلاعِبُه فى الظاهرِ ، وأُضمِرُ التودُّدَ إلى أُمِّه وأطلُبُ الخلْوَة بها لاشتغالِه . وهذا إذا رَوَيْتَ : « وربّته أُرِيدُ » ، وقولُه أُلاعِبه فى موضع الحال . ويُرْوَى : « ورِيبتَه » وهو أَكْشَفُ . ورأيتُ من يَقْصُرُ الأبياتَ الثلاثة على صِفة العفّة عن الجارات ، وأن يكون كلُّ بيتٍ منها لمعنًى أَحسنُ وأَوْلَى .

١٣٧

وقال محمّد بن عبد الله الأزدِىّ[٣] :

١ ــ لا أَدْفَعُ ابْنَ العَمِّ يَمْشِي على شَفًا وإنْ بَلَغَتْنِي من أَذاهُ الجَنادِعُ

الشَّفَا : حَرْفُ الشيء . ويمشى فى موضِع الحال . والبيت يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون المعنى إذا أَشْفَى ابنُ عمّى على بلاء وشَرٍّ يُخاف عليه منه ، ويُخْشَى عَطَبُه فيه ، فإنى لا أَدفَعُ فى صدرِه تحامُلا عليه ليقتحمه ، ولا أَزُجُّ به فيه لأغرِقه . ويجوز أن يريدَ : إذا انحرَفَ عنى مهاجِرًا لِى ومشَى على جانب من المؤانسة معى لا أُنفره ، ولا أُتمِّم استيحاشَه بما أُثيرُ من كوامن غيظه ، وإن

(١) هو مسكين الدارمى . أمالى القالى (١ : ٤٥) .

(٢) أنشده فى اللسان (حدر) شاهداً على أن الحادر : الغليظ .

(٣) المبهج : «قد قالوا الأزد والأسد ، وكأن الزاى يدل من السين ، وكلاهما علم مرتجل» .

بلغَتْنى الدواهى عنه ، وقاسيتُ الشدائد من التأذِّى به . أى لا أنتهزُ الفرصةَ فى مكاشفته وإن اتصل بالسُّوء تعرُّضُه ، ودام فيما يَعِنُّ اعتراضُه . والجَنَادِعُ فى الأصْل تُستعمل فى هوامِّ الأرض ، تُستعمل كنايةً عن ضروب المَكاره وأنواع الأذى . ومن قولهم[1] : « بَدَت جَنادِعُه والله جادِعُه » . وهذا كما استعاروا العقاربَ فقالوا : دَبَّتْ عقارِبُه . وقال الخليل : الجَنَادع : جَنادب فى جِحَرة الحشرات يخرُجْن إذا كان الحافرُ يبلغ أقصاها . ومنه قيل فى المثل : « جاءت جَنادِعُ الشَّرِّ » ، أى أوائله . واستعمل فى الكلام أيضا فقيل جنادعُ القوْلِ لِمَا يَسُوء منه . ويجوز فى قوله « يمشى على شَفًا » وَجْهٌ آخر حَسَنٌ ، وهو أن يكونَ يمشِى فى معنى يَنِمُّ ويَحطبُ . وفى المَثَل : « هو أضْرَبُ من مشَى بشفَةٍ[2] » . وكأنه مأخوذٌ من قوله تعالى ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، ويكون على هذا قولُه «على شَفًا» متعلِّقًا بمضْمَر ، كأنه قال : يَفعَل ذلك كائنًا على شَفًا أو حاصلا ؛ والمعنى مُنْحَرِفًا : أى لا أدفعُهُ عن التَّحريش والنَّميمةِ قَهْرًا وعُنْفًا ، ولكن أعْطِفُه بالحُسْنَى .

٢ — ولكنْ أُواسِيهِ وأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعَهُ يومًا إلىَّ الرواجِعُ

قولُه « أواسيه » أى أجعلُه إسْوَةَ نفْسى ، فأقاسمه مالِى ومِلْكى : يقول : لكنِّى أتناسَى ذُنوبَه وهَفَواتِه ، وأتغابَى جرائمَه وزَلاتِه ، وأُحْسِنُ التأنِّىَ فى أثناء ذلك لمواساته ، عند ما أنتظر من فَيْئَتِه وعَطْفَتِه ، حتَّى يرُدَّه إلى ما كان عليه من قَبْلُ دَوَاعى الأحوالِ ، وتَشَابُكُ الأرْحام ، ورواجِعُ العَقِبِ ، ولواحِقُ النَّسَبِ . وهذا الذى وَصَفَهُ هو الغاية فى الإبقاء والاستبقاء .

٣ — وَحَسْبُكَ من ذُلٍّ وسُوءِ صَنِيعَةٍ مُنَاوَاةُ ذِى القُرْبَى وإنْ قِيلَ قاطِعُ

---

(١) م : « ومن كلامهم » .

(٢) كذا فى م والتبريزى . وفى الأصل : « هو أخرب » ، بالخاء .

يقول : كافيك مِن سُوء الفِعْل واكتساء الذُّلِّ ، أن تُناوِئَ أقاربَكَ وإن كانوا قاطِعِينَ عاقِّينَ ، مُهاجِرِينَ مُصارمين . وإنّما قال « من ذُلّ » لأنَّ عِزَّ الرّجُلِ بعشيرتِه ، ومن أَماتَ نفسَه الحظَّ منهم فقد ذَلَّ . ولُلمَناواةُ أَصْلُها الهَمْز ، واشتقاقها من النَّوْء : النُّهُوض . كأنَّ المتعادِيَيْنِ يُناهِضُ كلٌّ صاحِبَهُ إما بنَفْسِه ، وإما بعقيدته ونيَّتِه . وقوله « سُوءِ صنيعةٍ » جَعَلَ الصَّنيعة اسما فهى كالكريهة . وقوله « وإن قيل قاطِعُ » ارتَفَعَ قاطعُ على أنّهُ خَبَرُ ابتداءٍ مُضْمَر ، كأنَّهُ أراد وإن قيل هُوَ قاطع . وفى طريقته قول الحطيئة :

فأَبْقُوا لا أَبَالَكُمُ عليهِمْ[1] فإنَّ مَلامَةَ المَوْلَى شَقَاء

وروى بعضهم : « وأَنْ قيل » بفتح الهمزة ، كأنَّهُ يَعْطِفُهُ على قولِهِ مُناواةُ ، والمعنى حَسْبُكَ من الأَمْرَيْنِ المذكورين مُناوَاةُ الأقارب ، وقول الناس هو قاطِعٌ عاقٌّ . والأوّل أَجْوَدُ وأَشْبَهُ بما اقتصَّهُ وتَصَرَّفَ فيه .

١٣٨

وقال آخَرُ :

١ ــ إن يَحْسِدُونى فإنّى غيرُ لائِمِهِمْ قَبْلِى من النّاسِ أَهْلُ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[2]

الضمير فى « يحسدونى » لطائفةٍ من الناس خَصَّهم بالإخبار عنهم ، وقَصَدَهم بالكلام . فيقول : إنْ نافَسُونى وحَسَدونى ، ورَمَقُوا النِّعْمَةَ عَلَىَّ بعينِ التَّسَخُّطِ . فإنّى لا ألومهم ولا أَعْتِب عليهم ، إذْ كان التَّنافُسُ والحَسَدُ يَتْبَعان الفَضْلَ ،

(١) وكذا فى الديوان ٢٧ . وفى م : « عليكم » تحريف . وبعده :

فإن أباهم الأدنى أبوهم وإن صدورهم لكم براء

(٢) الابيات فى أمالى القالى (٢ : ١٩٨) وعيون الأخبار (٢ : ١٠ - ١١) . ورواية عيون الأخبار :

* إن تحسدونى فإنى لا ألومكم *

وإذْ كانَ من قَبْلَنَا اعتادَ بعضهم من بَعْضٍ مِثْلَ ما نراه بسبب الفضل . وقد أحْسَنَ كلَّ الإحْسانِ من قالَ :

وإذا سَرَحْتَ الطَّرْفَ حَوْلَ قِبابِهِ لم تَلْقَ إلا نِعْمَةً وحَسُودا(١)

فأمّا قولُه « قَبْلى من الناسِ أهْلُ الفَضل قد حُسِدوا » . فِمْثلُهُ قول عُمَر بن أبي ربيعة :

* وقَديماً كانَ فى النّاسِ الحَسَدْ(٢) *

وقَبْلِى جَعَله لغواً ، ومن الناس تَبْيِينٌ ، وقد حُسِدوا خبر المبتدأ .

٢ــفدَامَ لِى ولَهُمْ ما بِى وما بِهِمُ وماتَ أكْثَرُنا غَيْظاً بما يَجِدُ

هذا الكلامُ دُعاء لنفْسِه وعليهم ، على طريق التَّسَلِّى وقلّة الاحتفال ، ولأنَّ الحاسِدَ يَرْفَعُ الخاملَ من الفَضْل ويُنَوِّهُ به . فيقول : أدَامَ اللهُ لى ما أنا عليه من الفَضْلِ ، ولَهُمْ ما هم عليه من الحَسَد ، وماتَ أكْثَرُنا لغَيْظه بما يَجِدُ . وقولُه « ومات أكْثَرُنا » الأكْثَرُهم الحَسَدَةُ ، لأنّه ــ وإن أدْخَلَ نَفْسَهُ فيمن أضَاف الأكثر إليه ــ واحِدٌ . وقوله « بما يَجِدُ » حَذَفَ المَفْعولَ ، والمعنى بما يجِدُهُ فى نفْسه من الحَسَد ، أو بمـا يَجِدُهُ من النِّعمة والفَضْلِ عند المَحْسُود . وحَدَّثنى أبو عبد الله حَمْزَةُ بن الحسن قال : سمعت أبا الحسن علىّ بن مهدىّ الكِسروىّ يقول : أنا قد تتبّعْتُ من دواوين الشُّعراء قديمِهم ومُحْدَثِهم فوجدتُ أبا تمّامٍ الطائىَّ متفرِّداً بمعنى قوله :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيـــلَةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لهَا لِسانَ حَسُودِ
لَوْلَا التخوُّف للعواقب لم يَزَلْ للحاسِدِ النُّعْمَى على المَحْسُودِ

---

(١) فى م : « فإذا سرحت » .

(٢) صدره فى الديوان ٧٦ :

* حســد حملته من شأنهــا *

غير مَسْبُوقٍ إليه . وعندى أنّه أخذه من فَحْوَى هٰذين البيتين وإن كان زاد عليه .

٣— أنا الذى يَجِدُونِى فى صُدُورِهِم   لا أَرْتَقِى صَدَرًا مِنْهَا ولا أَرِدُ

قَوْلُهُ « يجِدُونِى » كان يجب أن يقولَ يجدوننى ؛ لأنَّ الفِعْل فى موضِع رَفْعٍ ، لـكنّه حَذَفَ النون تخفيفاً . وكان يجب أن يَقُولَ لَوْ جرَى على حُكْمِ الصِّلَةِ : يجدونَهُ ، حتَّى يكُونَ فى الصِّلة ضمير يَعُود إلى الّذى . وإنّما جازَ أن يجىء وليس فيه ما يَعُودُ إلى الذى وإن كان صِلَةً لَهُ ، لأنَّ الذى خَبَرُ أنا ، وهو والمبتدأ شىءٌ واحِدٌ ، فلما كان الأول والثانى شيئاً واحِدًا لم يُبَالِ أن يَرُدَّ الضمير الذى يجب رجُوعُه إلى الثانى إلى الأوّل . ومِثْلُ هذا ما نُسِبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ ولم يقل سَمَّتْهُ . وقد مَضَى القولُ فى مثلِه فيما تقدَّم مُسْتَقْصًى ، ومعنى البيت : أنا الذى صِرْت غُصَّة فى صُدورِهم قد نَشِبَتْ فَلاَ تَصْدُرُ ولا تَرِدُ ، أى صارت لازِمَةً لا تَسُوغُ ولا تؤوبُ . وقولُه « صَدَرًا » مَصْدَرٌ فى مَوْضِع الحال . و « لا أَرْتَقِى » إن جعلْتَ فى صدورهم لَغْوًا يكون فى موضع المفعول الثانى ، وإن جعلْتَ فى صدورهم مفعولا ثانيا كان لا أَرْتَقِى حالا .

١٣٩

وقال آخر :

١— الشَّىءُ يَبدؤُهُ فى الأَصْلِ أَصْغَرُهُ   وَلَيْسَ يَصْلَى بِكُلِّ الحَرْبِ جانيها

يَبْدَؤُهُ أى يبدأ منه ، فحذف حرف الجر وَوَصل الفِعْلَ فَنَصَبَ . يقول :

(١) سبق الرجز فى ص ١١٥ .

أوائلُ الأمور ضعيفةٌ ، ومبادئُها صغيرةٌ حقيرة ، ثم تَستحكِم على مَرّ الأيام وتَصَرُّف الأحوالِ فتعظُم . وهذا كما قال الآخَر[١] :

الحربُ أوّلَ ما تكونُ فُتيَّةٌ تَسْعَى بزِينَتِها لِكُلّ جهولِ

وفى طريقته قولُ الآخرِ[٢] :

* كم مَطَرٍ بَدْؤُهُ مُطَيْرُ[٣] *

وقولُه «وليس يَصْلَى بنار الحرْب جانيها» يروَى : «بِجُلّ الحرب» والمعنى : لا يصْطَلِى بنار الحرْبِ ومُعْظَمِها مَن يكتسبُها ويوقدُها فقط ، بل يحصُل بالمشاركة فيها ويُمْنَى ببَلْوَاها ، مَن لم يَنْقُل خَطْوَته فى بَعْثِها ، ولم يَسْعَ فى تهييجها .

٢ــ والحَرْبُ يَلحَقُ فيها الكارِهونَ كما تَدْنُو الصِّحاحُ إلى الجَرْبَى فتُعْدِيها

يقولُ: شَرُّ الحَرْبِ يُعْدِى إعداءَ الجَرَبِ ، فترى الكارِه لها يَلتَحِقُ بها[٤] وإن كان غيرَ حازمٍ لها ، وتَلْقَى البعيدَ منها يصطلِى بحرِّها وإنْ لم يُذْكِها[٥] ولم يُشَيِّعْ مَوقِدَها . وفى هذا التشبيه خروجُ المُشبَّه من الكُمُونِ إلى الظُّهُورِ ، ومن الخَفَاءِ إلى البرُوز ، حتى يَتجَلَّى لِمُتأمِّله والمُفكِّرِ فيه على بُعْدِه فى التصوُّرِ تَجلِّىَ القريبِ فى العُرْفِ والاعتياد . وهذا هو غاية المراد من التَّشبيهات .

٣ــ إنِّى رأيتُكَ تَقْضِى الدَّيْنَ طَالبَهُ وقَطْرَةُ الدَّمِ مَكْروهٌ تَقاضِيها

هذا البيتُ يصلُحُ أَن يكون مدْحًا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُكَ تخرُجُ إلى المُدِينِين سَرِيعًا من دَيْنِهم عليك ، غيرَ مُدافِعٍ بما فى ذِمَّتِكَ لهم ولا مُماطِلٍ ،

(١) عمرو بن معديكرب . شروح سقط الزند ١٦٧٨ .
(٢) هو أبو تمام . البيان والتبيين (٣ : ٦٧) .
(٣) صدره : * رب قليل جنى كثيراً *
(٤) م : « يمتحن بها » .
(٥) فى الأصل : « يدركها » والوجه ما أثبتنا من م .

فإذا طُولِبْتَ بِدَمٍ أو نُوزِعْتَ فى ذَحْلٍ ، شَقَّ تقاضيك به وتعذَّرَ ، وتَصَعَّب نيلُه من جِهَتِك وتعسَّرَ . فعَلَى هذا قولُه « مكْرُوهٌ تقاضيها » ، معناهُ مرُوهٌ تقاضيك بها . ويصلُحُ أن يكون ذمًّا ، فيكون المعنى : إنى رأيتُك بأهْوَنِ سَعْيٍ وأقربِ طلَبٍ تخرُجُ من الأوتار والدماء إلى طُلَّابها ، فلا كُلْفَةَ فى نَيْلها وإدراكِها من جِهَتِك ، والتَّقاضِى بالدَّم عَسِرٌ صعبٌ إلا إذا كان عندَكَ وَقِبلَكَ ، فما ذلك إلاَّ لضَعْفِ كيدِكَ ومَهانةِ نفسِك ، وقُصورِ آبائك . والدِّين فى هذا الوَجه يُرَادُ به الوِتْرُ والدَّمُ . وقولُه « مكروهٌ تقاضيها » يعنى تقاضى غيرِكَ بها . ومثْلُ قولِه مكروهٌ تقاضيها فيما أُضيفَ إليه قولُ لَبيدٍ :

* باكَرْتُ حاجَتَها الدَّجاجَ بسُحْرَةٍ[(1)] *

لأنَّ المعنى باكَرْتُ حاجَتِى إليها .

١٤٠

وقال شُرَيْح بن قِرْوَاشٍ[(2)] :

١ ــ لَمَّا رأَيْتُ النَّفسَ جَاشَتْ عَكَرْتُهَا على مِسْحَلٍ وأىُّ سَاعَةِ مَعْـكَرِ

يقولُ : لما تحرَّكَتْ حَمِيَّتى وغَلَبَ[(3)] نَفسى ، حتى كادَتْ تثورُ من مَقَرِّها فتجرى أنَفَةً وامتعاضاً ، عَطَفْتُها على صاحبِ مِسْحَلٍ وفى أىِّ وقتٍ مَعْطَفٍ فعَلْتُ ذلك . وهذا تفظيعٌ للشأن ، وتفخيمٌ للأمر . فإذا رَوَيْتَ « وأىُّ ساعة مَعْـكَرٍ » بالرفع يكون مبتدأ وخبره محذوف ، كأنه قال : وأى ساعة مَعْـكَر

---

(١) من معلقته . وعجزه :

* لأعل منها حين هب نيامها *

(٢) كان من سبب هذه الأبيات ما رواه التبريز عن أبى رياش قال : لقى شريح بن مسهر أخو بلحارث بن كعب ، مسحل بن شيطان بن جذيم بن رواحة ، فطعن مسحلا فصرعه فحمل شريح بن قراوش على شريح بن مسهر فطعنه فصرعه واستنقذ مسحلا : وقال هذه الأبيات .

(٣) كذا فى النسختين ، أى غلبت نفسى .

ومَعْكَرٍ تلك الساعةُ . وإذا رويتَه بالنصب يكون ظَرْفاً ، ويكون العامل فيه مضمرًا ، كأنه قال : وعَكَرتُ أيَّ وقتِ مَعْكَرٍ . ومعنى عَكَرَ : عطف . ويقال : هو عَكَّارٌ فى الفِتَن . وجواب لمَّا « عَكَرتُها » .

٣ ـ عَشِيَّةَ نازَلْتُ الفَوارِسَ عِنْدَهُ وزَلَّ سِنَانِى عن شُرَيْحِ بن مُسْهِرِ

عشية انتصبَ على أن يكون بدلاً من قوله وأيَّ ساعة مَعْكَرٍ إذا نصبْتَ أيًّا ، وإن رَفَعْتَه فانتصابُ عَشِيَّةَ على أن يكون ظَرْفاً والعامل فيه فِعْلٌ مضمرٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَهُ ، كأنه قال عَكرتُ عشيَّةَ . ولا يكون العامِل نازَلْتُ ، لأنه مضافٌ إليه وبَيانٌ للوقتِ ، والمضافُ إليه لا يعمل فى المضافِ . فيقول : عَطَفْتُ عليه ذابًّا عنه ومدافعًا دونه ، عشيَّةَ منازَلَتى الفُرسان بحضْرته ، وحين زَلَّ سِنَانُ رمحى عن ابن مُسْهِرٍ ، وإنما زَلَّ السِّنان عنه وسَلِمَ من طَعْنَتِه لأنه كان لبِس دِرْعًا تحت ثيابه وهو لا يشعُر ، فكأنه يعتذر ويتلهَّفُ .

٣ — وأُقْسِمُ لَوْلَا دِرْعُهُ لَتَرَكْتُهُ عليه عَوَافٍ من ضِبَاعٍ وأَنْسُرِ

قولُه أقْسِمُ يَمينٌ ، والمحلوف به محذوف ، وهو لفظةُ الله . ولكثرة مجيئها مع أُقْسِمُ صار وهو محذوف كالمنطوقِ به ، وجوابُ القَسَم استُغْنِيَ عنه بحديث لولا ، لأنه فيه . والمعنى أنه بَيَّنَ العُذْرَ فيما اتّفقَ عليه ، فقال لولا دِرْعُه التى استظهر بها ، وظاهَرَ بثوبه فوقها ، لتركتُه بطَعْنتى مقتولًا ، وعوافى السِّباع والطير تأتيه وتنالُ منه . ويقال عفَاهُ واعتفاه بمعنًى واحد .

٤ — وهَلْ غَمَراتُ المَوْتِ إلا نِزالُكَ الْ كَمِيَّ عَلَى لَحْمِ الكَمِيِّ المُقَطَّرِ

هذا الكلام بيانُ ما تكلَّفه عند التعطُّف على مِسْحَلٍ ، وتصويرٌ لهَوْل ما رَكِبَهُ وعاناه من عظيمِ البلاء فى نُصْرته . ولهذا جعل النَّفْى بلفظ الاستفهام ، فقال : وما شدائدُ الموت إلا منازلَتُكَ الكميَّ فوق لحم الكمِيِّ ، أى فوق جِيَف

القتلى . ولولا أنَّ هَلْ فى طريق النفى هاهنا لما جاء بعده إلَّا . والمُقَطَّرُ : المُلْقى على أحد قُطْرَيْهِ ، وهما الجانبان . ولقَطّر اختصاصٌ بالعبارة عن الإسقاط والصَّرْع . على ذلك قول عمْرو بن مَعدِيكَرِبَ :

* ما قَطَّرَ الفَارِسَ إلَّا أَنَا[1] *

ومن المَحْكِيِّ عنهم فى المعنى الذى قَصَدَهُ هذا الشَّاعر ، أنه سُئِل بعضُهُم : ما أشدُّ ما رأيتَه فيما زاولْتَه من الحروب ؟ فقال : « الزَّلَقُ على العَلَق » . وفى طريقته قولُ الآخر :

يَطَأْنَ مِنَ القَتْلَى ومِنْ قِصَدِ القَنَا شَرِيجًا فما يَجْرِينَ إلَّا توَهُّما[2]

١٤١

وقال طَرَفَةُ الجُذَيمِىُّ[3] :

١ — يارَاكِبًا إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ بَنِى فَقْعَسٍ قولَ امرئٍ ناخِلِ الصَّدْرِ[4]

---

(١) صدره كما فى شرح شواهد المغنى ٢٤٥ .

* قد علمت سلمى وجاراتها *

(٢) م : « إلا تقحما » .

(٣) ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٤٦ ، وقال : « أحد بنى جذيمة بن رواحة بن قطيعة ابن عيس بن بغيض ، شاعر فارس » ، وتصحف على صاحب القاموس فجعله طرفه الخزيمى ، وقال : « من بنى خزيمة بن رواحة » . وقال ابن جنى فى المبهج : « الطرفة : واحدة الطرفاء ومثله قصبة وقصباء ، وحلفة وحلفاء . . . . وجذيمة : علم مرتجل وليس منقولا . ويجوز أن يكون من جذمت يده أى قطعتها ، فيكون اسماً كالنطيحة والذبيحة . وقال ابن جنى فى التنبيه : « طرفة الجذيمى جذيمة عبس ، ويقال الجذمى » . وبهذه النسبة الأخيرة ورد فى المؤتلف

(٤) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أن جذيمة بن [رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس — هو ابن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث ابن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة . وذلك أن حية بنت مالك بن مرة كانت تحت فقعس فمات عنها فخلف عليها رواحة ، فولدت جذيمة على فراشه . فزعموا أنها تزوجته وهى حبلى بجذيمة فولدته لثلاثة أشهر ، فجعله جذيمة يطلب بميراثه من أبيه فقال له أعيا بن طريف : ما أعرفك ولا لك عندى ميراث . فقال له : ويحك أعطنى ولو بكراً أستحق به النسب . فمنعه ... وثبت جذيمة فى بنى عبس » .

يخاطِبُ واحداً من الركبان غيرَ مُعيَّنٍ ، ويكلِّفُهُ إن عَرَضَ لبنى قَقْعسٍ أن يُبَلِّغَهم عنه قولَ رجُلٍ ناخِلِ الصَّدرِ ناصح الجَيْبِ ، صادِقِ الوُدِّ . وإنما نَكَّرَ المدعُوّ لأمْرين : أحدهما شدّة اهتمامه بالرسالة وتحميلها رسولاً كائنًا من كانَ . والثانى أنّه أراد أنْ يضع رسالةً ظاهرها أنّها أودِعَتْ متحمِّلاً ، علماً بأنَّ الرسالة بنفسها إذا ضُمِّنَت الشِّعْرَ وعُقِدَتْ به ستبلُغ على أفواه الرُّوَاة . وقوله « نَاخِلِ الصدر » يريدُ مُصَفَّى ما فى الصَّدر ، فحذف المُضَاف . أو يريد ناخل الصَّدْرِ لما يَعيه فجعل الفعل للصَّدر توسُّعاً ، والمعنى أنّه موافق الظّاهر للباطن . ويقال : نَخَلْتُ الوُدَّ والنُّصْحَ لفلانٍ ، إذا أخلصتهما .

٢ــ فواللهِ ما فارقْتُكُم عن كَشَاحَةٍ ولا طِيبِ نفْسٍ عنكمُ آخِرَ الدَّهْرِ

يقول : أحْلِفُ أنّى لم أُوثِرْ فراقَكم لعداوةٍ لازمةٍ لِكَشْحِى ، وبغضاء متمكِّنةٍ من طوِيّتى ، ولا لِسُلُوّ نفسٍ عنكم وسخاء قلب بكم آخر الدّهر . وهذا الكلامُ إظهارُ مَيْلٍ إلى إصلاح ذات البين لو تساعَدَت الأحوال ، ومَعْذِرَةٌ أقامها فيما قَصَدَهُ من مُرَاغمتهم ، وآثَرَهُ فى مهاجرتهم ومفارقتهم ، وإبانَةٌ عن الأمرِ فى أنَّ الباعث على ما اتّفق لم يكن من سُوء خَلّةٍ ، وانطواء على حَسَدٍ وقطيعةٍ . وإنما قَرَنَ السُّلُوّ بقوله آخر الدهر ليُرِيَ أن ذلك التقدير ليس بحاصِلٍ ولا واقعٍ أبداً ، وهذا كما يقال لا أفعل كذا ما دامت السموات والأرض .

٣ــ ولكنّنى كُنْتُ امرأً من قبيلةٍ بَغَتْ وأَتَتْنِى بالمظالم والفَخْرِ

هذا كَشْف العِذْرة وذِكْر السَّببِ الموجب للمجانبة والفُرْقة ، فيقول : ولكننى كنت رَجُلاً من قبيلةٍ خرجت عن طريق التَّوَاصُل إلى طريق التَّقاطع بما استعملتْه من البَغْى والشِّقاق ، وتعاطَتْهُ معى من الظُّلم والعِناد ، حتّى تَدَاعَتْ مبانِى التّواشُج والتّحابّ ، وانفصمتْ عُرَى العلائق بيننا والتّوادّ ، وعِيلَ

الصَّبْرُ ، بما لحق من الهَضْم ، وحَرِجَ الصَّدرُ ، لِمَا تلاحَقَ حالًا بعد حالٍ من الاستخفاف والذُّلّ .

٤ ــ فإنّي لَشَرُّ النّاسِ إنْ لم أُبِتْهُمُ على حَالةٍ حَدْبَاءَ نابِيَةِ الظَّهْرِ (١)

انتقل عن الخطاب إلى الإخبار حين توعَّدهم ، وإنْ كان الكلُّ من جملة الرِّسالة . ويروَى : « لِشَرِّ الناس » بكسر اللام ، والمعنى أنا ابنُ شرِّ الناس ، كما قال النابغة :

* لئن كان للقبرين قبرٍ بجلّقٍ (٢) *

والكلام لفظه لفظ الخبر والمعنى معنى القسم . وهذا من الأيمان الشريفة . ويروى : « لَشَرُّ الناس » . والمعنى : أنا شَرُّ الناسِ إنْ أَحمِلْ هؤلاء القَوْم بياتًا على حَالَةٍ مُنكرةٍ ، وخُطَّةٍ صعبة ، لا يُستقَرُّ عليها ، ولا يُثبَتُ على ظَهْرِها .

وفى هذه الطريقة قولُ الآخَر (٣) :

لَقَدْ حَملتْ قيسُ بنُ عيلانَ حربَنا على يابِسِ السِّيساءِ مُحدَودِبِ الظَّهْرِ

فقوله نابية الظهر مثل قول هذا مُحْدَوْدِب الظهر ، أى ظَهْرُها يَجفُو لِنُتُوِّه ونُبُوِّه فيقلق راكبها ولا يَقِرُّ ، وجوابُ الجزاءِ الفاء فى قوله وإنى لَشَرُّ النَّاسِ .

٥ ــ وحتى يَفِرَّ النّاسُ من شَرِّ بَيْنِنَا ونَقْعُدَ لا نَدْرِى أَنَنْزِعُ أم نَجْرِى

تَعلّق حَتَّى بفعلٍ مضمرٍ ، كأنّه قال : وأُديمُ ذلك لهم حتَّى يَفِرَّ الناسُ ، أى إلى أن يفِرَّ الناسُ . والمعنى : إنّى لا أزالُ أتمادَى فى اللَّجاج والشَّرّ ، وأترقّى فى دَرجاتِ النِّزاعِ والحْرب ، حتَّى يَستقِيلَ النّاسُ من مشاركتِنَا وملابستنا فيما نُزاوله ، ويستَعْفُوا من التوسُّط بيننا وردِّنا عمَّا نقتحمه ، ويَنفُضُوا أيديَهم من استطلاحنا

(١) كذا ورد فى الأصل وفى م والتبريزى والمؤتلف : «على آلة» . والآلة : الحالة أيضا .

(٢) عجزه : * وقبر بصيداء التى عند حارب *

(٣) هو الأخطل ، ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) .

ونتحيَّر نحن أيضاً ونرتبك إذا توسَّطنا أمورَنا ، فلا نَدْرِى أنُقْصِرُ ونَـكُفُّ ، أم نجْرِى فَنَنفُذُ . وهذا إلمامٌ بما سارَ به المَثَلُ فى قصة السالئة للسَّمْن ، وبقول الشاعر[2] :

وكُنْتُ كذاتِ القِدْرِ لم تَدْرِ إذْ غَلَتْ أتُنْزِلُها مَذْمُومَةً أم تُذِيبُها[2]

وفى المثل السائر : « اختَلَطَ الخاثِرُ بالزُّبَّاد[3] » . وقولُه « لا نَدْرِى » فى موضع الحالِ .

١٤٢

وقال أُبَىُّ بن حُمام المُرّىُّ[4] :

١ — تَمَنَّى لِىَ الموْتَ المُعجَّلَ خالدٌ ولاخيْرَ فيمَنْ لَيْس يَعْرفُ حاسِدُهْ

٢ — فَخلِّ مَكانًا لم تَكُنْ لِتَسُدَّهُ عَزِيزًا على عَبْسٍ وذُبْيانَ ذَائِدُهْ[5]

يقول : وَدَّ لِىَ الموتَ الوَحِىَّ السريعَ الإتيانِ خالدٌ ، حَسَدًا منه وبُغْضاً ، ومُنافَسَةً فى الرِّياسة وحِقْدًا . ثم قال مُتَسَلِّيًا : ولا خَيْرَ فيمن لا حاسِدَ له ، لأنَّ الحَسَد من توابِـع الفضل ومسبَّباته . ومثل هذا قولُ الآخر :

إن يَحْسُـدُونى فإنى غـير لائمِهم

قَبْلِى من الناسِ أهلُ الفَضْلِ قد حُسِدُوا[6]

وقد شرح القول فيه . وقوله « فخَلِّ مَقامًا » أقبَلَ على خالدٍ مُبَكِّتًا له

(١) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣١) .

(٢) رواية المفضليات : « فكانوا كذات »

(٣) الزباد ، كرمان : ما لا خير فيه .

(٤) التبريزى والآمدى : « العبسى » قال التبريزى : وحمام هو ابن جابر بن قراد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس » . ومثله عند الآمدى فى المؤتلف ٩١ .

(٥) التبريزى والآمدى : « فخل مقاماً » .

(٦) من الحماسية ١٣٨ .

ومُقصِّرًا به ، يعرِّفه أنه يَحسُدُه فيما لا يَصْلُحُ له ولا يُسْتَكْفَى مِثلُه فيه ، فقال : أَتْرُكْ مقامًا تَزِلّ قدَمُك عنه ، وتسقُطُ رُتْبَتُك دُونه ، وأْنَسَ مكانًا لا تسدُّه بكفايتك ، ولا تقوم فيه بغَنائك ، [ويعزّ المدافعُ دونه على طوائف عبس وذبيان — وإنما يريد رياسة العشيرة(١) —] وخَلِّ القيام بأمر عَبْسٍ وذُبْيان إذْ لَسْتَ من رجالِ ذلك . وقوله « لِتَسُدَّه » اللام فيه لام الجحود ، وهى لام الإضافة ، والفعل بعده ينتصب بأن مُضْمَرَةً ولا يُظْهَرُ البَتَّةَ .

١٤٣

وقال أيضًا :

١— لَسْتُ بِمَوْلَى سَوْءَةٍ أُدَّعَى لَهَا فإنّ لِسَوْءاتِ الأمُورِ مَوَالِيَا

مَوْلَى سَوْءَةٍ : مُتَوَلِّيها وصاحبها . ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الوَلْيِ : القُرْب أى لا أُقارِبُها(٢) ولا أُدانيها : وقوله « أُدَّعَى » من الدِّعاوةِ والدِّعْوَةِ ، وهى النِّسْبة . يقول : لا أتعاطى قبيحًا ، ولا أتولَّى مُخْزِيَةً فأُنْسَبَ إليها ، وأُعْرَفَ بها ، فإنّ لمقابح الأمور أَرْبابًا غيْرِى . وهذا انتفاء من الأدْناس ، وتبرُّؤٌ من القبائح ، وتعريضٌ بأن ما يتنزّه عنه حاصلٌ فى مُجاذِبِه وملازِمٌ له .

٢— ولَنْ يَجِدَ النَّاسُ الصديقَ ولا العِدَى أَدِيمِى إذا عَدُّوا أَدِيمَ وَاهِيَا(٣)

---

(١) التكملة من م .

(٢) م : « أقارفها » . والمقارفة : المقاربة والمداناة .

(٣) ابن جنى : « زاد لا مؤكدة للنفى ، وفاصلة بين معنيين ، وذلك أنه لو قال : ولن يجد الناس الصديق والعدى أديمى واهياً لم يكن فيه دليل أنه لا يجد بعضهم دون بعض ، وإنما فيه من الدليل أنه لا يجدونه كذلك كلهم ، فقد يجوز أن يجده واهيا بعضهم ، كما أنك إذا قلت ما جاءنى الناس كلهم ففيه نفى مجىء الكل وليس فيه نفى مجىء البعض . فإذا قلت ما جاءنى الصديق والعدو جاز أن يكون قد جاء بعض أولئك . فإذا قلت ما جاءنى الصديق ولا العدو لم يجز أن يكون جاءك أحد منهم . فهذا هو الفرق ، وهو أمدح ، لأنه لم يطلع أحد منهم على ضعفه » .

يقولُ : إنى صحيحُ الأصل ، تقىُّ العرض ، فلو تعاوَنَ فى الكَشْفِ عَمَّا أدَّعيه والبحثِ دونَه أصدقائى وأعدائى ، ومن يَرَى التغميضَ على ما يُنكِرُه ، أو التشهيرَ والتنديد بما يثيرُه ، لما وجدوا غميزةً ، ولا ظَفِروا بنَقيصة . وذِكْرُ الأديم مَثَلٌ للعَرض والأصل . والعَدُّ والإحصاء كنايةٌ عن الفَحْص والتنقير .

٣ — وإنّ نِجَارِى يا أبْنَ غَنْمٍ مُخَالِفٌ نِجَارَ اللِّئام فابغِنى مِنْ وَرَائيا

النِّجَارُ : الأصل . وهذا تعريضٌ بالمخاطَب ، يقول : أصلى مخالِفٌ لأصول الأدنياء ، فاطلبْنى للمُفاخرة إذا غبتُ عنك [أو فُتُّكَ[1]] . فأما إذا حَضَرْتُ فإنك لا تقاوِمُنى ولا يستقيم لك مساجَلتى . هذا إذا جعلْتَ وراء بمعنى خَلْف ، فإن جعلتَهُ بمعنى قُدّام يكونُ بمعنى أبغِنى إذا تقدَّمْتَنى . ومَن طَلَبَ من تخلَّفَ عنه مِن قُدّامٍ لا يُدرِكُه . والكلام على هذا يكون تهكُّمًا وسُخْريَّةً . فالمعنى فى الأوّل والثانى : إنك لا تَلْحَقُ شأْوِى فاطلُبْنى طَلَبَ المعَذِّر واليائس[2] . ويجوز أن يكون يُرِيدُ : إنى كريمُ الأصل ، رفيع المَحَلّ ، علىُّ الرُّتبةِ ، ومن كان كذلك لا يُظفَرُ به ، ولا يُصْطادُ مِثْلُه [إلاّ[3]] بالخضوع له والانقياد بالتذلُّل بين يديه ، فأبغِنى وأنت تابعٌ لى ، وواطئٌ عَقِبِى ، حتى تنالَنى ، وإلا لم تَبْلُغْ مُرادَكَ منِّى . ويقالُ : فلانٌ من وراءِ فلانٍ ، إذا كان ناصرًا له ، وتابعًا . وأنشد ابن السِّكِّيت :

لَعَمْرُكَ ما كان ٱلقَرَنْبَى ورَهْطُهُ بِعَمِّى ولا خالِى ولا مِنْ ورائيا

وقال : المَعْنَى ولا ناصرى . فأما قولُهم الله من ورائك ، فالمعنى طالبُكَ ومُترصِّدٌ لمكافأتك . فعَلَى القولِ الأخير يكون من ورائى فى موضع الحال لضمير الفاعل فى أبْغِ .

---

(١) التكملة من م . (٢) التبريزى : « كبعض الرجال » .
(٣) المعذر : المقصر المتوانى من غير عذر . ومنه : « وجاء المعذرون » .

٤ – وسِيّانِ عِندِى أن أَمُوتَ وأن أُرَى كبَعْضِ رِجالٍ يوطِنُونَ المخَازِيا

ارتفع سِيّانِ على أنه خبر مُقَدَّم لقوله « أن أَمُوتَ وأنْ أُرَى » ، والمعنى : مِثْلَانِ عندى مَوتى وأن أُرَى كمن يَألفُ المخازىَ ويَرْضاها وطَنًا ومأوًى ، ولا يأنَسُ إلاّ بها ، ولا يَرْجِعُ إلّا إليها . وهذا تَعْرِيضٌ بالمُخَاطَبِ أيضاً . والسِّىُّ : المِثْلُ . قال :

فإيّاكُمْ وحَيَّـةَ بَطْنِ وَادٍ هَمُوزِ النّابِ ليس لـكُمْ بِسِىٍّ[1]

٥ – ولَسْتُ بِهَيَّابٍ لمن لا يَهَابُنِى ولَسْتُ أُرَى للمَرْءِ مالاَ يَرَى لِيَا

يقول : لاأحتشِمُ مَن لا يحتشمنى ، ولا أتهيَّبُه إذا لم يتهيَّبْنى ، ولا أرى من إعظام المرء وإجْلَالِهِ ما لا يَرَاهُ لى ، لـكنِّى أُوازِنُ الناسَ فى أفعالِهِم ، وأجازيهم على قدر استحقاقهم . وقوله « ما لا يرى ليا » حَذَفَ مفعول يرَى تخفيفاً ، وهذا الحذفُ سائغٌ إنْ جَعَلْتَ ما مَعرِفةً فكان ما بعدهُ صِلةً ، أو جعلته نكرة فكان صِفة .

٦ – إذا المَرْءُ لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا عِرَاضَ العَلُوقِ لم يكنْ ذاكَ باقيا

انتصب قوله « تَكرُّها » على أنه مَصْدَرٌ فى موضِـع الحـال ، والتقدير إلا متكرِّهًا . وانْتَصَبَ « عِرَاضَ العَلُوقِ » على أنه مصدرٌ مما دَلّ عليه قوله « لم يُحْبِبْكَ إلا تَـكَرُّهًا » ، لأنّ المعنى إذا الرّجلُ عارَضَكَ فى الُحبِّ عِراضَ العَلُوقِ لم يكن ذلك الُحبُّ باقياً ولا ثابتاً . والعَلُوق ، هى المرأة التى ترأَم ولدَها وتَلسُنُهُ حتّى يأنسَ بها ، فإذا أرادَ ارتضاع اللّبنِ منها ضَرَبَتْهُ وطردَتْهُ . قال :

(١) للحطيئة فى ديوانه ٦٩ واللسان (سوا) .

وما نَحَنِى كَمِنَاجِ العَلُو   قِ ماترَ من غِرَّةٍ تَضْرِبِ[١]

ويشْبِهُ البيتَ الذى نحن فى تفسيره قولُ الآخَر[٢] :

أَمْ كيف ينفعُ ما تُعطِى العَلُوقُ به   رِئْمانَ أَنْفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَنِ

١٤٤

وقال عَنْتَرَةُ بن شَدَّادٍ[٣] :

١ — يُذَبِّبُ وَرْدٌ على إثْرِهِ   وأَمْكَنَهُ وَقْعُ مِرْدًى خَشِبْ

هذا وَرْدُ بن حابِسٍ طَلَبَ نَضْلَةَ الأَسَدِى بوِتْرٍ كان له عِندَهُ[٤] . فيقولُ : تَسَرَّع هذا الرجل فى إثْر الهارب منه ، واستحثَّ فَرَسَهُ فى لَحَاقِه ، فمكَّنَهُ منه عَدْوُ فَرَسٍ صُلْبٍ كأنَّه مِرْداةٌ . والمِرْدَى : صَخرة يُكسرُ بها النَّوَى وغيرُه . ومعنى خَشِبٍ خَشِنٌ . ويقال خَشَبْتُ الشيءَ خَشْبًا فَخَشِبَ . والخَشِبُ[٥] من السَّيف[٦] : الذى بُدِئَ طَبْعُه فلم يَلِنْ بعْدُ . وقوله « وَقْعُ مِرْدًى » هو من وقَمْتُ الحديدَة ،

(١) للنابغة الجعدى فى اللسان (علق) . وقد روى فى الأصل : « تضرب » بالرفع ، وصوابه بالخفض لأنه جواب الشرط كما فى م ، وعليه نبه ابن برى . اللسان (علق) . وقبله :

وكان الخليل إذا رابنى   فعاتبته ثم لم يعتب

(٢) هو أفنون التغلبى . اللسان (علق ، رأم) والبيان والتبيين (١ : ٩) والمفضليات (٣ : ٦٢) وخزانة الأدب (٤ : ٤٥٦) .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م والتبريزى : « وقال عنترة » فقط . ويبدو أن هذا الأخير هو النص الصحيح . وقال التبريزى : « قال أبو هلال : يعنى عنترة بن معاوية بن شداد بن قراد بن مخزوم بن مالك بن قطيعة بن عبس ، وكنيته أبو المغلس . وفى الشعراء جماعة يقال لهم عنترة منهم هذا ، ومنهم عنترة بن عكبرة الطائى ، وهو عنترة بن الأخرس ، وقد مرّ ذكره . ومنهم عِنترة بن عروس مولى ثقيف ، وكان مولدا فى بلاد أزد شنوءة : شاعر راجز » . وانظر الحماسية ٥٣ والمؤتلف والمختلف للآمدى ١٥١ — ١٥٢ .

(٤) التبريزى : « وقيل ورد : اسم فرسه » .

(٥) فى الأصل : « والخشيب » ، والوجه ما أثبتنا من م .

(٦) كذا فى النسختين ، كأنه جعل السيف جنسا ، أو لعل : « من » مقحمة .

إذا ضربْتهَا بالميقَعَةِ ، كأنّ الفَرَسَ كان يَضربُ الأرضَ بحوافِره ضَرْبَ الحديد بالميقَعَةِ . ومن هذا قول الهُذَلىّ ساعِدَةَ :

وحَوَافِرٌ تَقَعُ البَرَاحَ كأنَّمَا ... أَلِفَ الزِّمَاعَ بها سِلاَمٌ صُلَّبُ[١]

[فمعنى تقع البراح ، أى تقرعه . وروى الجمحى هذا البيت :

. . . . كأنما ... ألف[٢] الزِّماع ردى سِلام صُلَّب[٣]]

وقال : رَدَى صخرَةٍ ، شَبَّهَ الأنف بها ، فعلى هذه الرواية يَحْصُل التوافُق بين بَيْتَىْ عَنْترة وساعِدَة الهُذَلِىّ فى اللفظ أيضا .

٢ ــ يتَابِعُ لا يَبْتَغِى غَيْرَهُ ... بأَبْيَضَ كالقبَس المُلْتَهِبْ[٤]

التتابُع والمتابعةُ يستعملان فى اطِّراد الشَّىء واستمراره على حَدٍّ واحِدٍ . على هذا قولهُ :

* وَعُرَاضَةُ السِّيتَيْنِ تُوبِعَ بَرْيُها *

ومفعول يُتابع محذوفٌ ، ويجوز أن يكون الفعل للرّجُل ويجوز أن يكون للفَرس . كأنّ المرادَ : يتابِع الرّكضَ أو العَدْوَ . وموضع لا يبتغى نَصْبٌ على الحال . والباء من قوْلِهِ « بأبيض » يجوز أن يُريدَ به سَيْفاً . والقَبَسُ : النار . شَبَّهَهُ بها فى بَريقها ولمعانها ويجوز أن يريد به رجُلاً كريما ، ويكون على هذا « يتابع » للفرس . وشبَّهَهُ بالنار لذكائه ونفاذه . واستعمالُ البياض فى الكَرَم ونقاءِ العِرْضِ كثيرٌ معروف ، على ذلك قولُ الآخَرِ[٥] :

---

(١) ديوان الهذليين (١ : ١٨٦) .

(٢) فى الأصل ، وهو هنا م : « كافا أنفسه » .

(٣) هذه التكملة من م .

(٤) جعل التبريزى الرواية الأولى : « تتابع » وقال : « أى تمادى هذا الرجل لا يبتغى غير نصلة . والتتابع فى الشر دون الخير . ويروى : يتابع ، ومفعول يتابع محذوف » .

(٥) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ .

* أُمُّكَ بَيْضَاءُ من قُضَاعَةَ(١) . . . . *

فأما مَعْنَى قوله « يبتغى غَيْرَه » فيجوزُ أن يكون أن هِمَّتَهُ كانت موكولةً به لا بشىءٍ من الغنائم والأموَالِ . وكأنَّه أَلَمَّ بقوله :

* أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عند المَغْنَمِ(٢) *

ويجوز أن يُرِيدَ أنَّ قَصْدَه فى الطَّلَبِ كان إليه لا إلى غيره من النَّاس .

٣ — فَمَنْ يَكُ فى قَتْلِهِ يَمْتَرِى فإنَّ أبا نَوْفَلٍ قد شَجِبْ

أضَافَ المَصْدَرَ فى قَتْلِهِ إلى المفعول . يقول : مَنْ شَكَّ فى قتل وَرْدٍ لِنَضْلَةَ فَلْيُزِلِ الشَّكَّ عن نفسه ، ولْيَدَعِ الارتياب إلى غيرِه فإنه هَلَكَ لا مَحالة . وأبو نَوْفَلٍ : كنية نَضْلَةَ . وفى الـكلامِ تَهَكُّمٌ وإظهار شَماتة . ويقال شَجَبَ بفتح الجيم ، إذا هَلَكَ ، فهو شَاجِبٌ ، وشَجِبَ بكسر الجيم فهو شَجِبٌ ، لغتان .

٤ — وَغادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأَسِـنَّةَ كالمُحْتَطِبْ

النون ضمير الخيل . يقول : تَرَكَتِ الخَيْلُ هذا الرجل لمَّا انكشفت عنه وهو فى مُزْدَحَمِ الحَرْب جارًّا للأَسِنَّة المـكسورة فيه عند الطعْن ، كأنّه جامع حَطَبٍ . ويقال أَجْرَرْتُ فُلاناً الرُّمحَ فجرَّهُ ، أى كسرْتُه فيه لمَّا طعَنْتُه فصار يجرُّه . وأنشد أبو زَيْدٍ :

* أَجِرَّهُ الرُّمْحَ ولا تُهالَهْ(٣) *

وحكى بعضهم أن المحتَطِبَ : دُوَيْبَةٌ تمرُّ على الأرْضِ فيَعْلقُ بها العِيدانُ .

(١) هو بتمامه كما فى الديوان وما مضى فى حواشى الحماسية ٢٥ : ٣ :
أملك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذى يستكن فى طنبه
(٢) لعنترة فى معلقته . وصدره :
* يخبرك من شهد الوقيعة أننى *
(٣) سبق إنشاده فى البيت السابع من الحماسية ٢٩ ص ١٦٢ .

ويكون المعنى يجُرُّ الأسِنَةَ كما تجُرُّ هذه الدُّوَيبَّةُ العِيدانَ . وهذا تصويرٌ للخفىِّ بالجلِىّ .

١٤٥

وقال عُرْوَةُ بن الوَرْدِ[1] :

١ ـــ لَحَى اللهُ صُعْلوكًا إذا جَنَّ لَيْلُه مُصَافِى المُشَاشِ آلِفًا كلَّ مَجْزِرِ[2]

لَحَى الله : كلمةٌ تُستعملُ فى السَّبِّ ، وأصله اللَّوْم والقَشْرُ أيضًا . والصُّعلوك : الفقير . يقول : زاد الله كلَّ فقيرٍ يرضى من عَيشه بأن يطُوفَ فى المَجَازر إذا أظلمَ عليه الليلُ ، ويلتقط المُشاشَ منها كأنه يصافيها ويلازمها حُبًّا لها ـــ فَقْرًا[3] . وإنما قال هذا على وجْه الإنكار . أى لِمَ يقنعُ بذلك ، ومالَهُ يُسِفُّ لمثْلِ هذا المَطْمعِ الخسِيس ولا يطلبُ مَعالىَ الأمور . والمُشاش : كلُّ عَظْمٍ هَشٍّ دَسِمٍ ، والواحدُ مُشاشةٌ . وقولُه « مُصافِى المُشاش » نَكِرَةٌ ، وانتصبَ على أنه صفةٌ لقوله صُعْلوكًا . وإضافته ضعيفةٌ ، لأن المشاشَ أُشيرَ به إلى الجنْس ، ولا يَحصُل التخصيص بالإضافة إليه . وعلى هذا قولهم : قَيْدُ الأوَابِد ، وَدَرَكُ الطَّرِيدةِ وما أشبهُ . وكان يجب أن يحرِّكَ الياء من مُصافى بالفتح ، فسكَّنه لأن منهم من يُجْرِى الفتحةَ فى مِثله من المعتلِّ مجرى سائر الحركات فلا يُثْبِتُها .

٢ ـــ يَعُدُّ الغِنَى من نَفْسِه كلَّ لَيْلَةٍ أَصابَ قِرَاهَا من صَدِيقٍ مُيَسَّرِ

---

(١) التبريزى : « سمى بالعروة من الشجر ، وهو ما لاييبس فى الشتاء فتستغيث به الإبل فى الجدب » . وعروة : شاعر جاهلى فارس من بنى عبس ، كان يلقب عروة الصعاليك ، لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم . انظر الأغانى (٢ : ١٨٤ ـــ ١٩٠) واللآلئ (٨٢٣ ـــ ٨٢٤) والخزانة (٤ : ١٩٤ ـــ ١٩٦) والشعر والشعراء ٦٥٧ .

(٢) رواية الديوان : « مضى فى المشاش » .

(٣) فقرا ، مفعول « زاد » فى أول هذه العبارة .

يقول : لِفَرَحِه بما يَنالُه من كَسْبِه الدّنِيّ ، ورضاهُ عن أيّامِه بعَيْشِه اللئيم يَعُدُّ — إذا أصابَ القِرَى لَدَى صديقٍ وُلِدَت له شِياهٌ فاتّسَع اللَّبَنُ عنده وفى رَحْلِه — الغِنَى مَحُوزًا لَهُ ، ومحصَّلاً عنده ، فلا غَضاضَةَ تلحقه ، ولا أَنَفَةَ تقبضُه . والمُيَسِّرُ ضِدُّ المجنِّب ، يقال يَسَّرَ الرَّجُل ويَسَّرَتْ غنمُه . وجَنَّبَ الرجُل ، إذا قَلَّتِ الحَلُوبة فى إبلِه وغنمه . قال :

* وكلُّ عامٍ عليها عامُ تجنيبِ (١) *

وقولُه « أَصابَ قِرَاهَا » أضافَ القِرَى إلى الليلة على المجازِ ، والمرادُ قِرَاهُ فيها .

٣ — يَنَامُ عِشَاءً ثم يُصْبِحُ ناعِسًا يَحُتُّ الحَصَى عَن جَنْبِهِ المتَعَفِّرِ (٢)

يقول : ينامُ هذا الصُّعْلوكُ لدناءة هِمَّته ، وقماءة معيشته ، واستيلاء الكَسَل على نفسه ومكسَبِه قُبُلَ الليل (٣) ، لأن هِمَّتَه (٤) فى راحَتِه ونومِه ، وحِرْصِه على ما يَسُدُّ جَوْعَتَه به . ثم يأتى الصَّباحُ عليه وهو ناعسٌ بَعْدُ ، غير قاضٍ حاجَتَه من الرُّقاد ، ولا ضَجِرٍ فى مَضجَعِه بالتساقط والانجدال ، يَنفِى عن جَنْبِه ما لَصِق به من الحَصَى والتُّراب ، ونَشِبَ فيه من دُقاقِ الحصى . وذلك لأنه نامَ بلا وِطاء . وقوله « يَحُتُّ الحصى » أى يُسقِطُه ، فهو قريب مِن يَحُطُّ . والعَفَرُ : التراب . ويقال عَفَّرْتُه فتعَفَّرَ .

---

(١) للجميح الأسدى فى المفضليات (١ : ٣٣) وصدره :

* لما رأت إبلى قلت حولتها *

(٢) الديوان : « ثم يصبح طاويا » .

(٣) م : « ومكسبته . وقبل كل شيء : أوله .

(٤) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « لأن نهمته » .

٤ — ولكنّ صُعْلوكاً صَفيحَةُ وَجْهِهِ كَضَوْءِ شِهابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ (١)

صَفْحةُ الرّجُل وصَفِيحته : عُرْضُ وجهِه . يقول : ولكنَّ فقيرًا مُشرِقَ الوَجه صافِيَ اللوْنِ ، لا يتخشّع لفقرِهِ ، ولا يتذلَّلُ إذا أثَّرَ الدهرُ فيه ، فكأَنَّ ضوْءَ وجهِه ضَوءُ نار القابس المتنوِّر . والقابس هاهنا ذو القَبَس معناه . والقَبَسُ : النار ، ويكون القابسُ الطالبَ . ويقال : أقْبِسْنى نارَكَ . والمتنوِّر : المتفعِّل من النار . ويقال تنوَّرْتُ النار ، أى نظرْتُ إليها واستضأْتُ بنورها . ومنه قول امرئ القيس :

تنوَّرْتُها من أذرعاتٍ وأهْلُها بيَثْرِبَ أَدْنَى دارِها نَظَرٌ عالِ

وموضع « صفيحةُ وجهه » مع خَبَرِه نَصْبٌ على أن يكون صفةً لصُعْلوكاً وخَبَرُ لكنّ يجىء فيما يجىء من بَعْدُ . وقوله « صفيحة وجهه » حَذَفَ المُضافَ منه لأنّ المرادَ ضوءُ صفيحه وجهه كضَوْءِ شِهابٍ ، فأقام المضاف إليه مَقامَه .

٥ — مُطِلاًّ على أعدائه يزجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

يقالُ : أطَلَّ على كذا ، إذا أوفَى عليه . والمَنِيحُ ، قال الخليل : هو الثّامنُ من القِداح . وقال أبو عَمْرٍو : المَنِيحُ والسَّفِيحُ والوَغْدُ قِدَاحٌ لا أنْصِباءَ لها ، وإنّما يُكَثَّرُ بها القِدَاح فهى تُجَالُ أبدَ ، وقال الأصمعىُّ : المنيح الذى لا يُعْتَدُّ به . فيقولُ : ولكنّ الفقير الوضىءَ الوجْهِ ، الذى يبذُل جُهْدَه ويبتذِلُ نفسَه فى طلب غِناه ، ويُقْصِرُ سَعْيَه على ما يبلغ به عُذرَه فيُشرفُ على أعْدائِهِ غازِياً ومُغِيراً ، وهم يزجرونهُ حالاً بعد حَالٍ ، ويكُرُّ هو عليهم وقتاً بعدَ وقتٍ يُزْجَرُ هذا القِدْحُ فى خروجه ومع ذلك يُرَدّ . وخَبَرُ لكنّ بَعْدُ لم يجِئْ .

---

(١) بين هذا البيت وسابقه عند التبريزى :

يُعِينُ نِساءَ الحَىِّ ما يستعِنَّهُ ويُمْسِى طليحًا كالبعيرِ المحَسَّرِ

٦ — إذَا بَعُدُوا لا يَأْمَنُون اقترابَهُ تَشَوُّفَ أهل الغائبِ المُتَنَظَّرِ (١)

يقول : هذا الفقيرُ لا يَقْعُدُ به عن طَلَبِ الأعداء والإغارَةِ عليهم والنَّيْلِ منهم بُعْد الغَزَاةِ وتنائى الدّار ، فهم لا يأمنونَهُ وإن شَحَطُوا ، بَلْ يتشوَّفونَهُ تَشَوُّفَ الغائب المُتَنظَّر ، أى كما يُتَشَوَّفُ غائبٌ دَنَا قفولُه ويُنتظَرُ . وانتصب «تشوُّفَ» على المَصْدَر فيما دلّ عليه لا يَأْمَنون اقترابَه ، ومفعول تَشَوُّفَ محذوفٌ ، كأنّه قال تَشَوُّف أهل الغائب رُجوعَهُ .

٧ — فذٰلك إن يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَهَا حَميداً وإنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فأجْدِرِ

يقولُ : ذلك الصُّعْلُوكُ إنْ أدْرَكَهُ الأجَلُ ، قبْلَ نيلِ الأمَل ، لَقِيَهُ محموداً ، إذ كانَ قَدْ فعَلَ ما وَجَبَ عليه ، وأَقامَ عُذْرَه فى مطلُوبِهِ باستفراغ الوُسْعِ فى السَّعْيِ لَهُ ، وإذْ كانَ التَبِعَةُ فيما فَاتَ على من يَملكُ العَوَاقبَ دُونَهُ . وإن نَالَ الغِنَى يَوْماً فما أَخْلَقَهُ بذلك . وقولُه « إن يَلْقَ المنِيَّةَ » خبَرُ قولِهِ ولـكنَّ صُعْلُوكاً لو انفَرَدَ عَنْ قوله فذلك ، لـكنَّه لما تراخَى الخبرَ عن المُخبَر عنه وتباعَدَ المقتضِي عن المقتضَى له أتى بقولِهِ فذلك ، مُشِيراً به إلى الصُّعلوك . فصار إن يَلْقَ خبراً عنه . وساغ ذلك لأنَّ المراد بالأول والثانى شىء واحد ، ومما أُجرى هذا المجرى لحصول مثل هذا التراخى فيه قولُ الله عز وجل : ﴿ألم تَعْلَموا (٢) أَنَّه من يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَه فإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّم﴾ ، فأعاد أنّ فى قولِهِ « فأنّ » كما تَرى .

---

(١) الديوان : « فإن بعدوا » .

(٢) هذه قراءة الحسن والأعرج . وقراءة الجمهور : « ألم يعلموا » بالياء . انظر تفسير أبى حيان (٥ : ٦٤) .

١٤٦

وقال عَنْتَرةُ بن شَدّادٍ العَبْسِي[(١)] :

١ — تَرَكْتُ بَنِى الهُجَيمِ لَهُمْ دَوَارٌ إذا تَمْضِى جماعَتُهُم تَعُودُ

البيت يُرْوَى على وجهين : أحدُهما :

تركتُ بنى الهُجيمِ لَهُ دَوَاراً إذا يَمضِى جماعَتَهمْ يعودُ

ويكون الضمير فى قوله له للفرس ، ويمضى فِعْلٌ لَهُ ، وجماعتهم ينتصب على المفعول ، لأنّ يمضى هذا يتعدّى ، ومعناهُ يُجاوِزُهم . ويكون المعنى : تَرَكْتُ هؤلاء القومَ لفَرَسى مَطَافاً بمنزلة الدَّوَار — وهو صَنَمٌ كانوا يحجُّونه — يطُوفُ حَوْلَ ذلك الصَّنَم ، إذا نَفَذَهم وخرقَ صفوفَهم ودار عليهم عادَ إلى مثل فعلِهِ الأوّل ، وإلى مكانِهِ الأوَّل . ويُشْبِه هذا البيتَ بيتُ الأعشَى فى المعنى واللَّفظ ، وهو :

تَطُوفُ عليهم وتَمْضِيهِمُ كما طَافَ بالرُّجْمَةِ الْمُرْتَجِمْ

وجاء فى الحديث حُجَّةً لتعدِّى يمضى ، فى صِفَةِ المَحْشَر : « يَمْضِيهِم الدَّاعى ويَنْفُذُهم البَصَرُ » .

والثانى أن يُرْوَى :

تَرَكْتُ بنى الهُجَيم لهم دَوَارٌ إذا تَمضى جَماعَتُهم تعُودُ

والمعنى : تركتهم يطوفون حَولَ قتلاهم كما يُطاف على ذلك الصّنَم ، أو ذلك النسُك ، فإذا انقَضَتْ جماعَةٌ منهم عادت الأخرى للنِّظارة[(٢)] . وقوله «جماعتُهم» يريد جَماعةٌ منهم ، فأضافَ البعضَ إلى الـكُلِّ ، وليس يريد جُمْلتَهم ، فهو فى

(١) سبقت له الحماسية ١٤٤ .

(٢) كذا وردت الكلمة بضبطها فى الأصل . وهى ساقطة من م .

حكمِ النَّـكِرات. وموضـعُ « لهم دَوَارٌ » نَصْبٌ على الحال، وقوله « تعُودُ » فاعِله مضمر، وهو جماعة أخرى، فاكتفى بذكر الأولى عَنها.

٢ ـ تَرَكتُ جُرَيَّةَ العَمْرِىَّ فيه شَدِيدُ العَيْرِ مُعْتَدِلٌ سَدِيدُ[١]

يفتخر بأنه أصابَ المذكور، لمَّا رماه بسَهْمٍ مُحكَمِ النصل، مُقوَّم القِدْح، صُلْبِ العَيْرِ، سديد الوَقْع. وموضع قوله « فيه شديدُ العَيْرِ » نَصْبٌ على الحال. والعَيْرُ: النَّاتئ من وسط النصل. وقد أُقيم الصِفَةُ مَقامَ الموصوف، لأنَّ المُرَادَ به سَهْمٌ شديد العَيْرِ. ولولا ما حَصَلَ من الاختصاص بإضافة الشديد إلى العَيْرِ لَمَا جاز ذلك فيه، لأنَّ الصفة لا يقوم مَقام الموصوفِ حتى يَدُلَّ عليه دَلالةً قويةً. فأمّا إذا كانت عامّةً فى أجناس، فلا يجوز ذلك فيه. لو قُلتَ مَرَرْتُ بطَويلٍ، وأنت تريدُ رَجُلاً، لم يَحْسُنْ، لأنَّ الطويل يكونُ فى غير الرجال كما يكون فى الرجال. ولو قُلْتَ مررتُ بكاتبٍ، يَحْسُنُ إذْ كانت الـكتابة مُخْتَصَّة.

٣ ـ فإنْ يَبْرَأْ فلَمْ أَنفِثْ عَلَيْهِ وإنْ يُفقَدْ فحُقَّ له الفُقُودُ

كان من رموزهم أنّ الواحد إذا رمى بسهْمٍ وأراد سلامة الرَّمِيَّةِ منه رَقَى سَهمَهُ بعُوذة ونَفَثَ فيه، ثمَّ رَمَى به، وإذا أراد هلاكَهُ لم يفعل ذلك. ومثل هذا قول الآخر[٢]:

فلم أَرْقِهِ إن يَنْجُ منها وإنْ يَمُتْ فَرَمْيَةُ لا غُسٍّ ولا بِمُغَمَّرِ[٣]

وقولُه « فحُقَّ له الفقود » المبتدأ محذوف، كأنّه قال فَهوَ حَقٌّ له الفقود،

---

(١) التبريزى: « إنما قال العمرى لأن الهجيم ابن عمرو ». ورواية التبريزى: « معتدل شديد » بالشين.

(٢) هو زهير بن مسعود، كما فى اللسان (غسس). وقد سبق الاستشهاد بعجز البيت فى ص ٣٥٣.

(٣) فيما سبق وفيما سيأتى فى الصفحة التاليـة: « فطعنة لاغس ». ونخشى أن تكون الرواية التبست على المرزوقى.

لأنَّ الفاء يُجْلَبُ في الجزاء إذا كان الجواب بالابتداء والخبر ، ولو قُصِد إلى أن يكون الفعل جوابًا لا يُسْتَغْنَى عن الفاء . وبعض من يدْفَع هذه الطريقة يقول لا رُقْيةَ ولا نَفْثَ ، إنَّما كَنَوا عن الإبقاء بمثل هذا الكلام . وقولُه : « وإن يُفْقَد » فهو مِثْل قَوْلِه « فَطَعْنَةٌ لا غُسٍّ » . والمعنى : إن يَبْرَأْ فليس ذلك من بُقْيَاى ، وإن يهلِكْ فواجِبٌ لأنَّ المصابَ بمثله يَهلِكُ لا مَحالة .

٤ – وما يَدْرِى جُرَيَّةُ أَنَّ نَبْلِي يَكونُ جَفِيرَها البَطَلُ النَّجيدُ

يُرْوَى : « وهل يَدْرِى جُرَيَّةُ » . والمعنى لا يعلم أنّه كما أنى أصَبْتُهُ فدأبى وعادتى أن تكون الأبطال النُّجَدَاء لِنَبْلِي بمنزلة الجَعْبَةِ ، أُصيبُهُمْ أبداً بها . وفى ذكره البَطَلُ النَّجيد إلمامٌ بقول الآخر[1] :

. . . . ونَصْطَادُ نُفُوسًا بُنَتْ عَلَى كَرَمِ[2]

ويقول الآخر[3] :

من عَهْدِ عَادٍ كان مَعْرُوفًا لَنَا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُهَا وقِتالُها

وأخذ أبو تمّام هذا المعنى فقال :

فَلا تَطْلُبُوا أسْيَافَهُمْ فى جُفُونِهَا فَقَدْ أُسْكِنَتْ بَيْنَ الطُّلَى والجَماجِمِ[4]

ويجوز أن يُريد بالبَطَل النَّجيد جُرَيَّةَ بعينه ، ثم يجوز أن يكون مُتَهَكِّمًا فيما وَصَفَهُ به ، ويجوز أن يكون مادِحًا له ، لأن مدحَ خَصمه وقْتَ غَلَبِه راجِعٌ إليه .

---

(١) أحد بنى بولان ، من طيئ . الحماسية ٣١ .
(٢) صدره : * نستوقد النبل بالحيض ونص *
(٣) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .
(٤) كذا فى م والديوان ٣٨٧ . وفى الأصل : « ولا تطلبوا » .

١٤٧

وقال قَيْسُ بن زُهَيْرٍ العَبْسِىُّ سيِّدُ بَنِى عَبْس[١] :

١ — تَعلَّمْ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا على جَفْرِ الهَبَاءَةِ لا يَرِيمُ[٢]

يُرْوَى « أنْ خَيرَ النّاسِ حَيًّا » ، والمعنى هو حَىٌّ ، وقولُه « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » خَبَر أنَّ . ويروى : « مَيْتًا » وإعرابه على ما ذكرناهُ فى حَيًّا . ويروى : « مَيْتٌ » وارتفاعُهُ على أنَّهُ خبر أنّ ، و « على جَفْرِ الهَبَاءَةِ » فى مَوْضِعِ الصفة له . ومعنى تَعَلَّمْ : اعْلَمْ . ولا يقال فى جوابِهِ تَعَلَّمتُ ، استُغْنِيَ عنه بعَلِمتُ . ويَعْنِي بخير الناس حَمَلَ بنَ بَدْرٍ . وجَفْرُ الهباءة : بِئْرٌ قريبَةُ القَعْرِ ، وماؤها كثيرٌ مَعِينٌ . وكان حملٌ انهزم فى وَقْعَةٍ بين عَبْسٍ وذُبْيان ، فلما انتهَى إلى الهباءة أَمِنَ لبُعْدها عن الطّلَب ، فرَمَى بنفسه إلى الماء ليبتَرِد ، فاتفق لَحَاقُ قَيْس به مع عِدَّةٍ من ذَوِيه ، فقَتلوا عن آخرِهم .

٢ — ولوْلاَ ظُلْمُهُ مازلتُ أَبْكِى عليه الدهرَ ما طَلَعَ النُّجُومُ

أشار بالظُلْمِ إلى ما جرَى بينهم فى أمرِ داحِسٍ والغبراء ، وإنكارِهِ السَّبْقَ ، وركوبِهِ البَغْىَ . وقولُه « ما طَلَعَ النُّجُومُ » ينتصب على أنه بدَلٌ من الدهر . والمعنى : لولا ما أسلَفَه من الظُّلْمِ لاقتضى ما يجمعنى وإيَّاه من الأحوال والذِّمم ،

---

(١) قيس بن زهير العبسى شاعر جاهلى فارس . وهو صاحب داحس ، وكانت الغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزارى ، وقد أجرى السبق بين الفرسين فوضع حمل بن بدر أخو حذيفة كمينا يصدون داحسا عن الغاية ، وحدث خلاف أيهما السابق ، فنشبت الحرب بسبب ذلك بين عبس وفزارة ، واستمرت أربعين عاما قتل فيها خلق كثير . انظر العقد والأغانى (٧ : ١٤٣/ ١٦ : ٢٣) والكامل ٣٤٣ والميدانى (١ : ٢/٣٥٩ : ٥١) .

(٢) جعل التبريزى الرواية الأولى : « أن خير الناس ميت » ثم نبه على روايتى « حيا » و « ميتا » .

والتّشاجُرِ والرَّحِم — البكاءَ عليه مدّةَ الدهر . وقوله « ما طَلَع » بمنزلة المَصْدر ، وقد حَذَف اسم الزّمان معه . والمراد بذكر الدّهر الكثير والمبالغة والتأبيد . وقد بيَّنَه بقوله « ما طلَعَ النجومُ » ، لأنه على ذلك يصحُّ أن يكون بدلاً منه . فمعْنَى « عليه الدهرَ » عليه طَوالَ الدَّهرِ[1] ، وامتدادَ الدّهرِ .

٣ — ولكنّ الفَتَى حَمَلَ بْنَ بَدْرٍ بَغَى والبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

يقول : استعمَلَ البَغْيَ واستَوْبَلَ العافية ، واستذمَّ المَرْتَع ، ومَن بُغِيَ عليه فإنه يُنْصَرُ . ويقال : بَغَى الرَّجُل على فُلانٍ ، أى جارَ . وبَغَى الفَرَسُ فى عَدْوِه ، وهو فرَسٌ باغٍ ، وذلك إذا اختالَ ومَرِحَ . وإذا استُعْمِلَ فى الفخار والاستطالة فهْوَ من هذا . والوَخامةُ : الثِّقَلُ يَعرِضُ من الطَّعام . يقال وخُم وخامَةً فهو وَخيمٌ ووَخِمٌ ، أى لا يُسْتَمْرأ .

٤ — أظُنُّ الحِلمَ دَلَّ عَلَى قَوْمِى وقد يُستَجْهَلُ الرَّجُلُ الحليمُ[2]

يقولُ : احتمالى من عَشيرتى ، واستعمالُ الحلم معهم ، هو الذى جسَّرهُم علىَّ فيما أظنّ ، ودَلَّهُم على قَصْدى واهتضامى على ما يتبيَّن . ثم قال « وقد يُستَجهَلُ الرجلُ الحليم » أى إذا أُحْوِجَ الحليمُ وأُحرِجَ[3] فقد يَتكلَّفُ ما لا يكون معهوداً فى طَبْعِه ، ولا موجوداً من خَلْقِه . وإنما نَبَّه بهذا الكلام على أنه يتحلَّمُ عن الأَدْنَيْن ، ويَصْبِرُ على أذاهم ، وأنه لمَّا عِيلَ صَبْرُه وحُمِّلَ فوقَ ما فى وُسْعِه ، خرجَ عن المعتادِ منه إلى غيره .

---

(١) كذا فى م . وفى نسخة الاصل : « طول الدهر » .

(٢) أنشده بعد التبريزى :

ومَارَسْتُ الرِّجالَ ومارَسُونى فمُعْوَجٌّ علىَّ ومُستَقيمُ

(٣) فى الاصل : « وأخرج » ، والصواب ما أثبتنا من م «

١٤٨

وقال مُساوِرُ بن هِنْدٍ(١) :

١ — سائلْ تَمِيمًا هَلْ وَفَيْتُ فإنّني أعددتُ مُكْرُمَتِي ليَوْمِ سِبَابِ

يقول : سائل تميما هل كان منّي وفاء بما تضمَّنْته لجارى ، فإنى رجلٌ نَظَّارٌ فى أعقابِ الأحاديث ، مُهتَمٌّ بإعداد المكارِم ليوْمِ النِّفَار ، شديدُ النِّزاع فى مجالس الفَخَار . كأنه يقرِّرُ خصَماءَهُ على ما كان من وفائه ، ليُسْقِطَ التَّبعة عنه فيه ، ويُنبِّهَ على أنه يُراعِي أفعالَه فيُخلِصُها مما يُعَدُّ سَيِّئَةً وسُبّةً وَوَصْمةً فى حَسَبِه .

٢ — وأَخَذْتُ جارَ بَنِى سَلامةَ عَنْوَةً فَدَفَعْتُ رِبْقَتَهُ إلَى عَتَّابِ

عَتَّابٌ هذا كان معتصِما بحبله ، ومستظهِرًا بذِمَّته ، فلحِقَه من بنى سلامة اهتضامٌ فى أمرٍ ، فجاء مُساوِرٌ ومكَّنَه من جارِهم ، وأعطاه رِبْقَتَه ليتحكَّم فيه ، ويشتفِىَ لما لحِقَهُ منهم . وهذا الكلامُ بيانٌ لكيفية وفائه والخروج إلى جارِه مما كان تضمَّنَ لَه . وقولُه « عَنْوَةً » أى قَهْرًا ، وهو مَصدَرٌ فى موضع الحال . ويقال : أخذَ بَلَدَ كذا عَنوةً ، أى قَهْرًا بالسيف . والرِّبْقةُ : الحَبْلُ يُشَدُّ فى عُنُقِ البَهْم ، وقد توسَّعُوا فيه فقالوا : خَلَع فلانٌ رِبقةَ الإسلام . وقولُه « فدفعتُ رِبْقتَه » ، هو كما يُقال دفعْتُ مَقادَتَه .

٣ — وجَلَبْتُه من أهْلِ أَبْضَةَ طائعًا حتَّى تحكَّمَ فيه أهلُ إرَابِ

---

(١) هو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى . شاعر فارس مخضرم أدرك النبى ولم يجتمع به ، ويقال إنه ولد فى حرب داحس قبل الإسلام بخمسين عاما . الإصابة ، والخزانة (٤ : ٥٧٣) والشعر والشعراء ٣٠٧ . وفى المبهج أن « مساور » منقول من اسم الفاعل . وأما هند فعلم مرتجل .

الهاء من « جَلَبْتُه » ترجع إلى دار بنى سَلامة . وأبْضَةُ : اسم ماء . وقولُه « جَلَبْتُه طائعا » تنبيهٌ على أنه وإن لزِمَه لجارِه الانتقام له من خصمه ومهتضِمِيه فقد تبرَّع له بما لم يكُنْ عليه ، وتكلف فيه ما لم يَلزَمْه . وإرابُ : موضع ، وقيل إرابُ : ماء لبنى العَنْبَر . وأُبْضَةُ : ماء لطيِّء . والأَبْضُ كالعَقْل ، ومنه المَأْبِضُ فى الرِّجْلِ . وقيل للغرابِ مُؤْتَبِضُ النَّسا ، لأنه يَحْجِل فكأنه مأبوض .

٤ — قتلوا ابْنَ أُخْتِهِم وجارَ بُيُوتِهِمْ   من حَيْنِهِمْ وسَفَاهَةِ الألبابِ

يشَنِّع بفَعْلتهم الذميمة ويُندِّدُ ، فيقول : قطَعُوا الرَّحِم ونقَضُوا العهد ، وارتكبوا ما كان محظورًا فى الدِّين والمرُوَّةِ ، والعهد والذِّمَّة ، فقتلوا جارَهم وابْنَ أختهم ، بخِفَّةِ عقولهم ، واقتراب هلاكهم . والسَّفَهُ : الخِفَّةُ فى الأصْل ، ومنه قيل زِمامٌ سَفِيهٌ ، إذا كان كثير الاضطراب ، ومنه قيل : تسفَّهَتِ الرِّيح الغصْنَ ، وتسفَّهْتُه عن مالِه . واللُّبُّ : العقْل ، والفِعْلُ منه لَبَّ يَلَبُّ . وقالت صَفِيَّةُ بنت عبد المُطَّلِب(1) : « أضرِبُه لكَىْ يَلَبّ ، ويَقُودَ الجَيْشَ ذا الجَلَب(2) » .

٥ — غدَرَت جَذِيمَةُ غَيْرَ أنى لم أَكُنْ   أبَدًا لِأُولِفَ غَدْرَةً أَثْوابِى

عَيَّرَهم باستعمال الغَدرِ وتَرْكِ الوفاء للجار ، ثم بَرَّأَ ساحتَهُ من تعاطِى مثل فعلهم ، ونَزَّهَ نَفْسَه عن ارتكاب نظيرِ ما ارتكبوه . فأما قولُه « لم أَكُنْ لأولِفَ » فاللامُ فيه لام الجحود ، وانتصابُ الفِعْل بأَنْ مضمرة بينه وبين اللام . وموضع « لأولِف » نَصْبٌ على أنّه خبر كان ، وانتصاب غَيْرَ على أنه استثناء

(١) فى الأصل : « عبد الملك » ، صوابه فى م واللسان (لبب) . وكانت قد ضربت الزبير فقيل لها : لم تضربينه » ؟ .

(٢) ويروى : « ذا اللجب » .

مُنْقَطِعٌ . وَذَكَرَ الثَّوْب على عادَتِهِم فى الـكِنَايةِ عن النَّفس . وعلى هذا قوله :

نُبِّيتُ أَنَّ دَماً حَرَاماً نِلْتَهُ ... فَهُرِيقَ فى ثَوْبٍ عَلَيْكَ مُحَبَّرِ

وقد قيل معنى قولِهِ تعالى : ﴿ وثيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، أى نَفْسَك . ويقولون على هذه الطريقة : فُلانٌ غَمْرُ الرِّدَاء ، وعَفيف الُحجْزة ، والمراد النفسُ . وعلى هذا قول النّابغة :

* رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ (١) *

وقَوْل الهُذَلِيّ (٢) :

تَبَرَّأُ مِنْ دَمِّ القَتِيلِ وبَزِّهِ ... وقَدْ عَلِقَتْ دَمَّ القَتِيلِ إزارُهَا

٦ ــ وإِذَا فَعَلْتُمْ ذلِـكم لم تَتْرُكوا ... أَحَداً يَذُبُّ لَـكُمْ عن الأَحْسَابِ

الخِطَابُ يُوَجَّهُ إلى جَذِيمة وهو منهم ، ولذلك جَعَلَ لهم أَحْسَاباً يُحْتاجُ إلى الذَّبِّ عَنْها ، ويَنْصَحُ لهم بالإبقاء عليها ، وتَرْكِ الأَفْعَالِ التى تَدْعو إلى البَرَاءَةِ منهم ومنها ، لـكنَّه أَخرجَ نَفْسَهُ ممـا عَصَبَ من الذَّمِّ بهم ، وألزمهم من ذَميمِ القَوْلِ فى شِيَمِهم وطُرُقِهم ، فقال : إذا رَكِبتم من شَنيع الغَدْر مثلَ ما أنْـكَرْتُهُ اشْتهرَ أمرُكُم ، وانتفى النَّسيب والغريب من مُلَابستكم ، وخُلِّيَ بين القَادِح فى أَحْسَابِكم وأعراضكم وبينَـكُم ، فلا يَذُبُّ عنكم ذَابٌّ ، ولا يُدافع دونكم مُدافِـع ، وتفرَّدْتم بالعار اللاحق ، والتَّهجين العائد .

(١) : عجزه : * يحيون بالريحان يوم السباسب *

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢٦) .

١٤٩

وقال العباس بن مِرْدَاسٍ[1] :

١ ــ أَبْلِـغْ أَبَا سَلْمَى رَسُولاً يَرُوعُهُ وَلَوْ حَلَّ ذَا سِدْرٍ وأَهْلِي بِعَسْجَلِ

٢ ــ رَسُولَ امرِئٍ يُهْدِي إليْكَ نَصِيحَةً فَإِنْ مَعْشَرٌ جَادُوا بِعِرْضِكَ فَابْخَلِ

يخاطب بقَوْلِهِ « أَبْلِـغْ » صاحباً له ، يقولُ أدِّ إلى أبي سَلْمَى رسالةً تُفَزِّعُهُ على ما بيننا من البُعْد ، وعلى استيطانه ذا سِدْرٍ ونزولِ أهلي بعَسْجَلٍ . وذو سِدْرٍ : موضع فيه السِّدْر ، وهو شَجَرُ النَّبِقِ . وعَسْجَلٌ : موضعٌ من حَرَّةِ بني سُلَيْم ، وبينهما مسافَةٌ بعيدةٌ . والرَّسُولُ يقع على المُرسَلِ والرِّسالة جميعاً ، ويَجرى مَجْرَى المصادر ، فيقع على الواحد فما فَوْقَهُ ، ومجازُ « لو حَلَّ » مَجازُ الشَّرْطِ ، فهو يفيدُ معنى إنْ ، كأنَّه قال : أَبْلِغْهُ ذلك فإنِّى لا أَدْخَرُهُ نُصْحِى ، وإن بَعُدَ عَنِّى وعَنْ عَشيرَتى . وانتصب « رسول » من البيت الثانى على أنّه بدلٌ من رَسُولاً يرُعُهُ . ونَقَل الكلام فى البيت الثانى عن الإخْبار إلى الخطاب ، لتكون الوَصَاةُ أنجع ، والرِّسالة أبْلغَ . وإنّما قال « رَسُولاً يَرُعُهُ » لما فيه من التّحذير . فيقول : أدِّ إليه رسالةَ رَجُلٍ مُتَنَصِّحٍ متقرِّبٍ ، وعلى ما يكون فيه صلاحُه وخلاصُه مُنَبِّهٍ . وقوله « فإنْ مَعْشَرٌ جادوا بِعِرْضِك » تَعْرِيضٌ بمن كان يَغُشُّه ويخونُه ، ويداجيه فيما استشاره فيه فلا يَصْدُقه . وارتفع « مَعْشَرٌ » بفِعْلٍ مُضْمَرٍ « جادُوا » تفسيره ؛ لأنَّ إنْ بالفِعْلِ أوْلَى ، والمَعْنَى : إنْ عرَّضَك مَن لا يُهِمُّه سَلامَةُ عِرْضِكَ لما فيه ذَهابُ النفس وتَلَفُ المُهْجَةِ ، وتَسَخَّى بك

---

(١) هو العباس بن مرداس السلمى الصحابى ، أسلم قبل فتح مكة بيسير . وأمه الخنساء الشاعرة ، وكان العباس من المؤلفة قلوبهم . الخزانة (١ : ٧٣) والإصابة ، والأغانى (١٣ : ٦٢ — ٧٠) والمرزبانى ٢٦٢ — ٢٦٣ واللآلى ٣٢ — ٣٣ والطبرى (٣ : ١٣٦ — ١٣٧) والشعر والشعراء ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، ٧٢٢ — ٧٢٥ .

وبما يجمعك وإيّاه من أسباب المودّة واللُّحْمَة ، فابْخَلْ أنت به وتَماسَكْ ، قُبيْل فَوْتِ الْوَقْتِ ، وانْظُرْ ليومِكَ وغَدِكَ قُدّامَ تَوَلى الأَمْرِ .

٣ ــ وإن بَوَّءوكَ مَبْرَكاً غيرَ طائلٍ غَلِيظاً فلا تَنْزِلْ به وتَحَوَّلِ

يقال : بَوَّأْتُه مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، أى أَحْلَلْتُه . والمَباءةُ : المنزل . يقولُ : وإنْ حَمَلُوكَ على مَرْكَبٍ غيرِ وطِيءٍ يَسُومونَك فيه خسفا ، وأنزَلوكَ منزلاً خَشِناً حَزْناً يؤَثِّر فى ثَفِناتِ الإبل فيُدْمِيها ، ويَسْتَوْعِرُه الرَّكْبُ فلا يرَونهُ منزلاً لها ، فلا تَرْضَ به ، وانتقِلْ عنه . وهذا مَثَلٌ لِما عَرَضُوهُ لَهُ ، وَيَبْعَثُه بِضَرْبِهِ إيَّاه على مُحاذرتِه ، وتَصوُّرِ الأمر معهم بصورته . وقولُه « غيرَ طائل » يجب أن يَكُونَ من الطَّوْلِ : الفَضْلِ ؛ يقال : طالَ عليهم طَوْلاً فهو طائلٌ . والمعنى : لا خَيْرَ فيه فيطُولَ على غَيْرِه . ومِثْلُ هذا البيت قولُ امرئ القيس :

هُوَ الْمُنْزِلُ الآلاَفِ من جَوِّ ناعِطٍ بنِي أَسَدٍ حَزْناً من الأرضِ أَوْعَرَا

وقوله « فلا تنزل به » الفاء [مع ما[1]] بعده جَوابُ الشَّرْطِ فى قوله وإن بَوَّءوكَ . وموضع فلا تَنْزِلْ رَفْعٌ على أنَّهُ خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنه قال : فأنت لا تنزل به .

٤ ــ ولا تَطْعَمَنْ ما يَعْلِفُونك إنَّهُمْ أَتَوْكَ على قُرْباهُمُ بالمُثَمَّلِ[2]

أخْرَج ما قَدَّمَه من التمثيل لكيدهم وسُوءِ دِخْلَتِهم ، وما يجب عليه من الأخذ بالتحرُّز معَهم ، وتَرْكَ الاستناخة فى المَبْرَكِ[3] الذى اختاروه ، والمُبَوَّأ الذى أعدُّوه ، فى مِعْرَضٍ آخَرَ . والمعنى : وما يُعَدُّ قِرًى لك فتجنَّبْه ولا تتناوله ، فإنهم هيَّئوا لك به سَمًّا قاتِلاً فلا تَطْعَمْهُ . والمُثَمَّل ، هو السَّمُّ الذى قد خُلِطَ به

(١) التكملة من م .
(٢) سبق الاستشهاد بصدر البيت فى ص ٣٥٩ .
(٣) كذا فى م . وفى الاصل : « المنزل » .

ما يقوّيه ويُهيِّجُه، ليكون أنفذ. ويقال للصُّوفة التى توضع فى الهِناء عند[1] طَلْى البعير به. الثَّمَلةُ، وهو مما ذَكَرْتُ. قال الرَّاجز[2]:

* كما يُلاثُ فى الهِناءِ الثَّمَلَهْ[3] *

وقوله «أتوكَ على قُرْباهُم» يجوز أن يريد به على تقرُّبهم وتنصُّحهم، ويجوز أن يريد به على قرابتهم وتشابُك الأحوال بينك وبينهم. وإنما تنقَّلَ فى المَثَلِ بعدَ المَثَل تأكيدًا للقوْل عليه فى محاذرتهم[4]، وإنذارًا فى الرُّكونِ إليهم، والاستنامة إلى ناحيتهم.

٥ ــ أَبَعْدَ الإزارِ مُجْسَدًا لكَ شاهِدًا أُتِيتَ به فى الدَّارِ لم يَتَزَيَّلِ

هذا الكلام وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فهو تقريعٌ وإنكارٌ، وتنبيهٌ وإنذارٌ، فيما يُضرِبُ المخاطَبُ عنه، ويَغفُلُ دونَه، مع كوْنِه أعدلَ شاهدٍ على سوءِ نيَّتِهم، وخُبْثِ طوِيَّتِهم، ومع خروجه عن حيِّز الاستدلال عليه إلى المشاهدةِ، ومن خَلَلِ الخفاءِ والتشكُّك إلى ظاهرِ الضرورة. فيقول: أتغترُّ بهم، أو تَستريبُ بما أُحذِّرُك منهم، بعد ظهور أمرهم وانكشاف قصْدِهم، وبعد ما أُتِيتَ به فى الدارِ من الإزارِ المتلطِّخِ بدم ابنِ عمِّك، وقد يَبِس عليه ولم يتزَّيلْ عنه. فقولُه «بعدَ الإزار» يتعلَّق بفِعْلٍ مُضْمَرٍ قد دَلَّ عليه خبيئات القِصَّة المحكيَّةُ[5]. والمُجْسَدُ: الثَّوْبُ المُشْبَعُ صِبغًا. والجِسَادُ: الزَّعفران. ومعنى لم يتزَيَّل: لم يفارق الدَّم، ولم يَنْفَكَّ مما خالطَهُ منه.

---

(١) م: «بعد»، تحريف.

(٢) هو صخر بن عمير، كما فى اللسان (ثمل).

(٣) فى اللسان: «كما ثلاث بالهناء». وقبله:

مغنوثة أعراضهم مموطلة فى كل ماء آجن وسملة

(٤) فى الأصل: «مجاذبتهم»، صوابه من م.

(٥) كلمة «قد» و«خبيئات» من م.

٦ــ أراكَ إذاً قد صِرْتَ للقومِ ناضِحًا ... يُقالُ له بالغَرْبِ أَدْبِرْ وَأَقْبِلِ

الناضح : البعير الذى يُسْتَقَى عليه الماء . والنَّضَحُ من الحِياض[١] : ما قَرُبَ من البئر فيُفْرَغُ الماء من الدَّلْوِ فيه ، وهذا الكلامُ صدر عمَّن نَصَحَ جُهْدَهُ وَبَيَّنَ لموعوظِهِ رُشْدَه ، فلمَّا لم يُتَلَقَّ بالقبول قولُه جعله قضيَّةً منه على المُخاطبِ ، بسوء الاختيار ، وركوب الاغترار ، وأظهر أنه قد صار من التضجُّرِ به ورَفْعِ الطمع عنه وعن صَلاحِه ، فى حكم اليائس من فلاَحِه ، والمُمْسِك عن وعظِه وإبلاغه ، لكونه فى حكم المُسخَّرِ لهم حتى لا رَأْيَ له ولا اعتبار ، ولا تدبُّر ولا اختيار . فقال : أراك قد صِرْتَ معهم بمنزلة البعير الذى يُستَقَى عليه ، طاعةً وانقيادًا ، فيقال له أَدْبِرْ وأَقْبِل بالغَرْب . والمعنى تُسامُ ما تُسامُ فتلتَزِمُه وتنقادُ ، فِعْلَ ذلك البعير . ومعنى « يُقالُ له » أى يُحمَلُ على ذلك . والتصرّف فى القوْلِ على وجوهٍ كثيرة من المجاز .

٧ــ فَخُذْهَا فَلَيْسَتْ للعَزيزِ بخُطّةٍ ... وفيها مَقالٌ لامرئٍ متذلِّلِ

هذا الكلامُ خُروجٌ عن[٢] عُهدةِ ما يفعله المخاطَبُ ، وبَراءَةٌ إليه مع الإنكار عليه والتنبيه على موضع الخطأ فيه ، فيقول : وكَلْتُك إلى نفسِك ، ونفضْتُ يدى من مُراجعتِك ، فارضَ بما عليه تُدارُ ، وابْذُلْ ما تُراوَدُ عنه وتُسامُ ، عالما أنّ مثلَه لا يَرضى به عزيزٌ ، ولا يلتزِمُه آنِفٌ ؛ وفيه مع ذلك نَظَرٌ وجدالٌ لمن يتذلَّلُ : هل هو خُطَّتُه أيضاً . والمعنى : إنك تركَبُ ظَهرًا لا يقتعده المتكلِّف للذُّلّ فكيف العزيز . ويجوز أن يكون المعنى : فيها للناس ، إذا تذاكَرُوا الأحوالَ والخُطَطَ ، نَظَرٌ وكلامٌ مبسوطٌ : هل يَرْضَى بمثله المتذلِّلُ

---

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان : « النضيح » .
(٢) م : « من » .

أَوْ لا . ويجوز أن يريد : إنّ الذّليل يتكلّم فيمن يرضاها خُطّةً ويُعيِّره إيّاها ، فكيف يكون خُطّةً للعزيز . وهذا الوجه أبلغُ الوجوه الثلاثةِ وأدقُّها .

١٥٠

وقال العباس بن مِرْداس[١] :

١ — أَتَشْحَذُ أَرْماحًا بأَيْدِي عَدُوِّنا ... وتَتْرُكُ أَرْماحًا بِهِنَّ نُكايِدُ[٢]

هذا مَثَلٌ . والمعنى : أتعِينُ أعداءنا علينا ، لأنَّ مَنْ أحَدَّ سلاحَ العدوِّ الذى يقاتل به ، وترَكَ سِلاحَ صاحبِه الذى يكايدُه فقد أعانَه عليه . وإنّما خَصَّ من بين العُدَدِ الرِّماح لأنها كأنّها أخَصُّ بهم . وقولُه « وتتركُ أرْماحًا » أراد وتتركُ شَحْذَ أَرْماحٍ ، فحذَف المُضافَ . ويجوز أن يكون كَنَى بالأرماح عن الرِّجال . والمعنى : أتهيِّج أصحابَ عدوِّى[٣] عَلَيَّ ، وتسدِّدهم نحوى ، وتتركُ أصحابى الذين بهم أكايِدُ ، فلا تُقوِّى فى القتال والصَّبر رأيَهم ولا تُمِرُّ فى الثَّبات عزائمَهم ، ومن المعروف قولُهم : فلانٌ سَيْفِى ورُمحى ، فى الذى يستظهر به عند مُلاقاةِ الأعداءِ وفلانٌ تُرْسِى وجُنَّتى ، فيمن يُتَّقَى به من الأسواء . وإنما قال فى هذا الوجه أرْماحًا بأيدى عدوِّنا لأنّه إذا كَنَى عنهم بما يكُونُ آلةً جعلها باليد . ويقال شحَذْتُ السِّكِّين ، إذا أحدَدْتَه . والباء من قوله « بأيدى » يتعلّق بمضمر ، كأنّه قال أرْماحًا مستقرّةً وحاصلةً بالأيدى . والعدوُّ يقع على الواحد وعلى الجمع . وفى القرآن ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ .

٢ — عَلَيْكَ بجار القوْمِ عَبْدِ بن حَبْترٍ ... فلاَ تَرْشَدَنْ إلاّ وجارُكَ رَاشِدُ

(١) التبريزى : « وقال أيضاً » .

(٢) التبريزى : « بهن تكابد » . وفى تفسيره : « والمكابدة : معالجة الأقران . يقال كابدت الشىء مكابدة وكباداً ، إذا قاسيته فى مشقة . والكبد : الشدة .

(٣) فى الأصل : « رسولى » ، وأثبتنا ما فى م .

هذا الكلامُ بَعْثٌ وتحضيضٌ على مراعاة العهود والذِّمم ، وصيانة الجار من الاهتضام ، وإن لام فيها اللَّوائم . فيقول : أَنتَصِفْ لجارِكَ وانتقم له بأن تؤثّر فى جار القوم ، فإنك لا تكون راشدًا إلاّ وقد رَشَدَ جارُكَ معك . ويقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ ، ورَشَدَ يَرْشُدُ ، لغتان . والباء من قوله : « بجار » يتعلّق بعليك ، لأنّ معنى عليك خُذْ . ويقال خُذْ كذا وخُذْ بكذا . يقال أيضاً عليك كذا وبكذا . ودخول النون الخفيفة فى قوله « تَرْشَدَنْ » لأنه ليس بواجبٍ فهو يجرى مَجْرى الأمرِ والنَّهْى والاستفهام .

٣ـ فإنْ غَضِبَتْ فيها حَبيبُ بنُ حَبْتَرٍ فَخُذْ خُطّةً يَرْضاكَ فيها الأباعدُ

الضمير فى « فيها » للفَعْلةِ والخُطّة . ألا ترى قولهُ « فخذ خطةً يرضاكَ فيها الأباعد » . والمعنى : إن تَسخَّطَ ما تتكلّفُه لجارِكَ من الذَّبِّ عنه والانتقام له هؤلاء القومُ فلا تُبال بهم ، وخُذْ فى أمره ما يَحمَدكَ الأباعدُ دون الأقارب ، فإنّ الأخبار إذا انتشرت عنك بالوفاء استرْجَحَكَ الأجانب . وخَذْلُ الجار وتسليمُه إيثارًا لهوى الأقارب ، ومُجانَبةً لكراهتهم ، يجلب الذمَّ ويُلحِق العار .

٤ـ إذا طالَتِ النَّجْوَى بغَيْرِ أُولِى القُوَى أَضاعَتْ وأَصْغَتْ خَدَّ مَنْ هو فاردُ

هذا بيان الرَّأْى فى قَبول ما أشار به ، وترك التَّعريج على غيره . والعاملُ فى « إذا طالت » أضاعَتْ ، وهو جوابه أيضاً . فيقول : إذا طالت المناجاةُ وامتدَّت الاستشارة مع غير أرباب الآراء القويّة ضَيّعت المستشيرَ وأمالت خَدَّه ، وصار فى الانفراد بما يعانيه بمنزلة مَنْ لا ناصرَ له ولا مُشيرَ ، لوقوع التشاور على غير حَدِّه ، وتقصير المُشيرِ فى القيام بواجبه ، وقد جمع بين فعلين فى قوله «أضاعت» و « أصْغَتْ » فأَعمَل الثانى ، وهو المختار عند أصحابنا البصريِّين . ويجوز أن يكون مفعول أضاعت غير « خدّ مَنْ » فحذَفَهُ ، كأنّه قال أضاعت رَبَّها . وكان

الحكمُ فى هذا الوجه أن يقول لو أظهر المفعول : وأصفَتْ خدّه لكونه فارداً وحيداً ، لكنّه لما كان الآخِر هو الأول وقد حذفَه ، لم يُبال بإظهاره ، لأن الذى هو فارِدٌ ربُّ النجوى لا غير . ومعنى إصغاء الخدّ الإذلالُ والانحرافُ للفتُور والخجل . والقُوَى : جمع قوة ، وأصلها طاقات الحَبْلِ ، ثم استُعملت فى الآراءِ والعزائم . وأصل النَّجوى المُسارَّة ، فاستُعيرت للمشُورة لأنَّها فى أكثر المواضع تَقَعُ بها . ويقال : فلانٌ نَجِىُّ فلانٍ ، وتناجَوْا فيما بينهم وانْتَجَوْا ، وهم نَجْوَى ، وصْفٌ بالمصدر . وفى هذه الطريقة قول الآخر :

ومَنْ لا يكُنْ ذا ناصِرٍ يَوْمَ حَقِّهِ ... يُغَلَّب عليه ذو النَّصير ويُضْهَدِ

فَحَارِبْ فإنْ مَوْلاكَ حَارَدَ نَصْرُهُ ... فَفِى السيف مَوَلًى نَصْرُهُ لا يُحَارِدُ

يقول : حارِبْ من قَصَدَ جارَكَ وأعان عليه ، ولا تَقْعُدْ عن نُصْرَتِهِ والانتصار له ، فإنْ لم يعاوِنْك فيما تَرُومُهُ مواليك ، وتأخّروا عن النُّهُوض مَعَك ، فاستعِنْ بالسَّيف ، فإنّ فيه مَوْلًى لك لا يَخْذُلُك ، ولا يتباطَأ عنك . وهذا كما قال غيره(١) :

* أنَخْنَا فَحَالَفْنَا السيوفَ على الدَّهْرِ(٢) *

والُمحاردة أصلها فى قِلّةِ اللَّبَن ، واستعير فى قِلَّة الموازرة والمظاهرة . وقوله « فإنْ مَوْلاكَ » ارتفع مولاك بفعل مُضْمَرٍ ما بَعْدَهُ . [تفسيره ، لأن إن بالفعل أولَى(٣)] .

(١) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .
(٢) صدره : * فلما نأت عنا العشيرة كلها *
(٣) التكملة من م . وانظر ما سبق فى ص ٤٣٣ س ١٦ — ١٧ .

١٥١

وقال أيضاً :

وهذه الأبيات تُعَدّ من المُنْصِفَات[1] :

١ — فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الحَيِّ حَيًّا مُصَبَّحًا ولا مِثْلَنَا يوم التَقَيْنَا فَوَارِسَا

أشار بالحى إلى قوم معهودين . يقول : لم أر مُغَاراً عليه كالذين صبّحناهم ، ولا مُغِيراً مثلنَا يوم لَقِيناهم . فقَسَم الشهادة قَسْمَ السَّواء بين أصحابه وأصحابهم ، وتناوَلَ بالمَدْحِ كلَّ فِرْقةٍ منهم . وانتَصَبَ قولُه « حَيًّا مُصَبَّحًا » على التّمييز ، وفيه دَلاَلَةٌ على جواز قول القائل : عندى عشرون درهما وَضَحًا[2] . وكذلك قولُه فوارِساً تمييز وتبيين . ويجوز أن يكون الأول والثانى فى موضع الحال ، والمُصَبَّحُ الذى يُؤْتَى صُبْحاً للغارة ، ويستعمل فى الخير أيضا ، يقال : صَبَّحَكَ اللهُ بخَيْر . فإن قيل . لِمَ قال فوارس والتّمييز يُؤْتى به مُوَحَّدَ اللفظ . قلت : إذا لم يَتَبَيَّنْ كثرةُ العدد واختلافُ الجنس من المميَّز يُؤْتى بالتمييز مجموعَ اللفظ متى أُرِيدَ التنبيهُ على ذلك . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ ، كأنّه لما كانت أعمالهم مختلفةً كثيرةً ، نَبَّهَ على ذلك بقوله : أَعْمَالاً

---

(١) المنصفات : القصائد التى أنصف قائلوها فيها أعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم من إمحاض الإخاء . ويروى أن أول من أنصف فى شعره مهلهل بن ربيعة حيث قال :

كأنا غدوة وبنى أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

ومن المنصفات قول الفضل بن العباس بن أبى لهب :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم * وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

انظر الخزانة (٣ : ٥٢٠ — ٥٢١) .

(٢) الوضح : النقى الابيض .

ولو قال عَمَلاً كان السّامع لا يَبْعُدُ فى وهمه أن خُسْرَهم[1] كان لجنسٍ واحد من أجناس المعصية ، أو لعملٍ واحدٍ من الأعمال الذَّميمة . فكذلك قوله « فوارِسَ » جَمَعَهُ حتَّى يكون فيه إيذانٌ بالكثير .

٢ — أَكرَّ وَأَحْمَى للحقيقة مِنْهُمُ وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوف القَوَانِسَا

المصراع الأول ينصرف إلى أعدائه وهم بنو أسد ، والمصراع الثانى إلى عِتْرَتِهِ وأصحابه . والمراد : لم أر أحسَنَ كرًّا ، وأبلغ حمايةً للحقائق منهم ، ولا أضْرَبَ للقوانس بالسُّيوف منا : وانتصب القوانِسُ من فِعْلٍ دَلَّ عليه قوله « وأَضْرَبَ منا » . ولا يجوز أن يكون انتصابه عن أَضْرَبَ لأَنَّ أَفْعَلَ الذى يَتِمّ بمِنْ لا يَعْمَلُ إلاَّ فى النَّكِرَات ، كقولك : هو أحسن منك وَجْهًا . وأفعلَ هذا يجرى مجرى فعل التعجُّب ، ولذلك تَعَدَّى إلى المفعول الثانى باللام ، فقلتُ ما أضْرَبَ زَيْدًا لعمْرٍو . وقول الله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِه[2] ﴾ ، موضع حيث نَصْبٌ مما دَلّ عليه أَعْلَمُ . والقَوْنَسُ ، قال الدريدى : هو أعلى البَيْضَةِ وقال غيره : قَوْنَسُ الفَرَس : ما بين أُذُنيه إلى الرَّأس . ومثله قَوْنَسُ البيضة من السِّلاح .

٣ — إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً نَصَبُوا لنَا صُدُورَ المَذَاكِى والرِّماحَ الدَّوَاعِسَا

يُرْوَى : « إذا ما شَدَدْنَا شَدَّةً[3] » . يقول : إذا حَمَلْنا عليهم ثَبَتُوا فى وجوهنا ، ونَصَبُوا صدور الخيلِ القُرَّحِ ، والرماحَ المُعَدَّةَ لذلك[4] .

(١) فى الاصل : « جسرتهم » ، والصواب فى م .
(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة . وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحيد . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٦ — ٢١٧) .
(٣) جعلها التبريزى الرواية الأولى ، وما قبلها الرواية الثانية .
(٤) م : « للدفع » .

و لدَّعْس : الدَّفْع فى الأصل ، ثم يُستعمل فى الطَّعن وشدَّة الوطْء والجِماع . والذَّكاء : ضِدُّ الفَتاء . ويقال فَرَسٌ مُذَكٍّ ، إذا تَمّ سِنُّه وكَمَلَ قوّته . وفى المثل : « جَرْىُ المُذَكّياتِ غِلَابٌ » . ويقال « غِلاءٌ » . ويقال : فَتَاء فلان كذكاء فلان وكتذكية فلان ، أى حَزَامَتُه على نقصان سنه كحزامة ذاك مع استكماله لِسِنِّه . وقال زهير بن أبى سلْمَى :

يُفَضِّلُهُ إذا اجْتَهَدَا عَلَيْهِ تَمَامُ السِّنِّ منه والذَّكاءُ

٤ — إذا الخَيْلُ جالَتْ عن صَرِيعٍ نَكُرُّهَا عَلَيْهِم فَمَا يَرْجِعْنَ إلاَّ عَوَابِسَا

يقول : إذا الخَيْلُ دارَتْ عن مَصْرُوعٍ مِنّا كَرَرْنَا عليهم لنصرع منهم مثلَ ما صرعوا منا . ويجوز أن يريدَ : إذا جالَتِ الخَيْلُ عن صَرِيعٍ منهم لا يُقْنِعُنَا ذلك فيهم ، بل نَكُرُّها عليهم لمثله[1] ، وإن كَرِهَتِ الكَرَّ لشدة البأس فلم تَرْجِعْ إلا كوالح . والعامل فى قوله « إذا الخيل » نَكُرُّها ، وهو جوابُه أيضاً . وإلاّ عَوَابِسًا فى موضع الحال ، وقولُه « الخيلُ » ارتفع بفعل مُضْمَر ما بَعْدَهُ تفسيره .

١٥٢

وقال عبد الشَّارِق بن عبد العُزَّى الجُهَنِىّ[2] :

١ — أَلَا حُيِّيتِ عَنَّا يا رُدَيْنَا نُحَيِّيها وإنْ كَرُمَت عَلَيْنا

---

(١) فى الاصل : « لميله » ، صوابه فى م .

(٢) فى الاصل : « وقال عبد الشارق » ، والتكملة بعده من م . وزاد التبريزى بعده « وهى من المنصفات » وانظر ما سبق من الكلام على « المنصفات » فى الحماسية السابقة . وعبد الشارق ، كما يظهر من تسميته : شاعر جاهلى . قال فى المبهج : « الشارق اسم صنم لهم ، ولذلك قالوا : عبد الشارق كقولهم عبد العزى ، وكلاهما صنم . ومثله عبد يغوث وعبدود ونحو ذلك . ويجوز أن يكون الشارق من قولهم عبد الشارق ، وهو قرن الشمس ، كقولهم لا أكلمك ما ذر شارق ، أى ما طلع قرن الشمس ، فقولهم إذا : عبد الشارق كقولهم عبد شمس . وأما العزى فهو اسم صنم ، وهو تأنيث الأعز » .

هذا على كلامين . و« ألاَ » افتتاحٌ[1] . والتحيّة ،قال بعضهم : هى الوَدَاعُ ها هنا ، يقول : ألا أبْلِغتِ وَدَاعَنا يارُدَيْنةُ . ثم قال : نحيِّيها ، أى نُوَدِّعُها وإن عَزَّت[2] علينا مفارقتُها . ويجوز أن يكون دعا لرُدَينةَ مبتدئاً فقال : جَزَاكِ اللهُ عنّا ، أى تَوَلَّى الله ذلك من دُونِنا ، ثم راجَع نفْسَه فقال : نَفْعل ذلك على فَخامةِ موقِعِها منّا ، وجلالَةِ مَحَلِّها من قُلوبِنا ، إذ كُنَّا لا نَقدِرُ لها على غير ذلك . وقوله « نُحَيِّيها وإن كَرُمَتْ » يسمَّى التفاتاً ، كأنه التفَتَ إلى من معه فقال ذلك .

٢ ـ رُدَيْنَةُ لوْ رَأَيْتِ غَداةَ جِئْنا على أَضَمَاتِنا وقد اُحْتَوَيْنا

توصَّلَ بمخاطبتها إلى اقتصاص الحال التي يريدُ شَرْحَها ، فأخذ يُبَاثُّها فيقول : لو رأيْتِنا غَداةَ جئنا على حَزَازَاتٍ فى النَّفس ، واحتراقاتٍ فى الجَوْف والصَّدْرِ ، من الغَيْظ والحِقْد ، وقد حَوَيْنا أموالَ أعدائنا ، واستَبَحْنا حَرِيمَهم ، ومَلأْنا أيدينا من غنائمهم . هذا إذا رَوَيْتَه بالحاء غير مُعْجَمَةٍ . وروى بعضهم : « اُختَوَيْنا » بالخاء المعجمة ، ويكون افْتَعَل من الخَوَى ، والمعنى : خَوَتْ أفئدتنا من الوُدِّ ، كقول الآخَرِ[3] :

وإذْ صَفِرَتْ عِيَابُ الوُدِّ مِنْكُمْ ولم يَكُ بَيْنَنا فيها ذِمامُ

وأَجْوَد منها « وقد اُجْتَوَيْنَا » بالجيم ، وهو اُفتَعَل من الجَوَى ، كأنه يريدُ ما اشتملَ الجوانحُ عليه من العَداوة حتى صار جَوًى . والأَضَمُ : الغَضَب . ومع ذِكْرِ الأَضَمِ اُجتَوَى بالجيم أَشْبَهُ ، وهو أقْرَبُ . وجوابُ لو محذوفٌ ، لأنّ الأفعال التابعةَ لهذا البيت جميعُها مقصورٌ على بيان القِصّةِ ، وشَرْحِ أحوال الوَقْعةِ .

---

(١) أى ألا : أداة لافتتاح الكلام . وفى الاصل : « والافتتاح » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « كرمت » ، صوابه فى م .

(٣) هو بشر بن أبى خازم . المفضليات (٢ : ١٣٥) .

وقد بيَّنْتُ فيما تقدَّم أنَّ حَذْفَ الجواب من مِثْل قولِ القائل : لو رَأَيْتَ زيدًا وفى يده السَّيْفُ ، أدَلُّ على التهويل والتفخيم من إثباته .

٣ — فأرسَلْنا أبا عَمْرٍو رَبيئًا فقالَ أَلاَ انعَمُوا بالقَوْمِ عَيْنَا

يقول : توجَّهنا نحوَهم وأنفذْنا مِن قِبلنا من ارْتَبأَ لنا ، فعادَ مبشِّرًا وقال : قَرُّوا عَيْنًا واستَبْشِرُوا ، فقد أقبَلُوا . وهذا ممَّا يُترْجِمُ عن محبّتهم لملاقاة الأعداء ، وحِرصِهم على القتال ، وتشوُّفهم للمجاذبة والنِّزاع ، حتى عَدُّوا قُرْبَهم بِشَارَةً ، والالتقاءَ معهم غنيمة . وهذا عندى أبلَغُ من قول الآخر :

يَســـتعذِبُونَ مَنايَاهم كأنَّهمُ لا ييأَسُونَ من الدنيا إذا قُتِلوا(١)

ومن قوله :

* لِقاءُ أعادٍ أَم لِقاءُ حبَائبِ *

وقولُه « عَيْنًا » انتصبَ على التمييز ، وهو من باب ما نُقل الفِعْل عنه وَوُضِـع النَّـكِرةُ فيه موضع المَعْرِفةِ ، لأنّ الأصل فى قَرِرْت به عَيْنًا : قَرّت عينى . ومِثْلُه قولهم : يتَصَبَّبُ عَرَقًا ، ويتفَقَّأُ شَحْمًا . وفى القرآن : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

٤ — ودَسُّوا فارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءً فلمْ نَغْدِرْ بفارِسِهِمْ لَدَيْنَا

يقول : وجَّهوا فارسًا ليَنْدَسَّ فى أثناء خيلنا ، ويَعْرِف سِرَّنا وعَلَنَنا ، ويقفَ على عَدَدِنا وعُدَّتِنا ، فيرجعَ إليهم بواضح الأحوال والأخبار ، فخلَّيناه والانصرافَ إليهم ، ولم نَستعمِل غَدرًا فى احتباسه عندنا ، وطىَّ أخبارنا عنهم .

(١) « يستعذبون منا » هى من هامش نسخة الأصل فقط مع علامة إلحاق ، وهذه العبارة سابقة من م . وبقية حروف الكلمة ، وهى « ياهم » من « مناياهم » هى تكملة ضرورية وليست فى النسختين . ويبدأ الاستشهاد فى النسختين بكلمة « كأنهم »

وأصل الدَّسِّ : إخفاء الشيء تحت غيره . وفى القرآن : ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ ﴾ ويقال[١] : اندسّ إلى فلانٍ ، أى أتاه بالنمائم . فإن قيل : ما فائدة ذِكر الغَدْر هاهنا والفارس الذى أنفذوه جاسوسًا[٢] لم يكن اتخذَ[٣] منهم أمانًا ، ولا اشترط عليهم شرطا يوجِبُ سلامتَهُ به مع مخالطته لهم . قلتَ : كأنّ المرادَ لم نَستعمِل مَكْرًا باحتباس الرّسول ، إذ كان فى منعه من الانصراف إليهم انطواء أخبارنا عنهم ، فيكون كالغَدْرِ بهم وبه . ويجوز أن يكون ذلك الفارس الذى ظَهر لهم ثِقَةً بالمعرفة بينه وبينهم ، فعَدَّ ظهورَه أخْذًا للأمان عليهم . ويجوز أن يكون سَمَّى تركَ أقربِ الأمْرَين إلى الكرم والوفاء معه غَدْرًا ، ثم برَّأ ساحتَه منه .

٥ — فجاءوا عارضًا بَرِدًا وجئْنَا كمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وازِعَيْنا

يقول : تَسارَعُوا مُقْبِلين نحونا ، وكأنهم فى كثرتهم وتعجُّلهم قطعة من السَّحاب فيها بَرَدٌ — ووَجْهُ التشبيه أنّ لهم حَفِيفًا وَوَقْعًا شديداً متهافِتاً ، كما يكون لذلك السَّحاب — ونحن لكثرتنا وإتياننا على ما يَعترض فى طريقِنا كالسَّيل الذى لا يُبْقِى ولا يَذَر . ومعنى « نَرْكَبُ وازِعَيْنا » أى لا نَنْقادُ لمن يريد ضَبْطَنا ، ولا نُطاوع من يَطْلُبُ كَفَّنا من الجيشَين جميعا . ولم يُثَنِّ « وازعَيْنا » لأنه يشير إلى رجلين ، لكنه أراد الكثرةَ والجِنْس بالوزاع ، ثم ثَنَّى مبيِّناً اختلافَ الطائفتين من الخَيْلَيْن . ولا يجوز أن يُرْوَى « وازِعِينا » بكسر العين لما يَحْصُل من العيب بالسِّنَادِ مع ارتفاع الضرورة[٤] .

---

(١) فى النسختين : « ويقول » .

(٢) م : « داسوسا » فاعول من الدس . وقد أشير فى نسخة الأصل إلى أنها كذلك فى نسخة أخرى . والمعروف ، كما فى مادة (دسس) من المعاجم : « الدسيس » .

(٣) م : « أخذ » .

(٤) فى التذبيه : « وقد رواه بعض الرواة : وازعِينا ، فركب قبح السناد لضيق طريق المعنى الأول عليه . والقول فيه ما ذكرته » .

٦ ـ فَنَادَوْا يَالَبُهْثَةَ إذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِى ضَرْبًا جُهَيْنَا

يقول: لمَّا شارفْناهُم استغاثوا ببنى بُهثَةَ مُعْتَزِينَ إليهم، ومستمِدِّين منهم، فاستَتَرْنَا نحن أيضًا فى مقابلةِ ما فعلوا بنى جُهَيْنَةَ ، وهَزَزْناهم للضَّرْبِ فيهم، والإيقاع بهم . وإنّما يستعملون الاعتزاز فى مثل هـذه الحالة تهويلاً للأمر، وتكثيراً للعشيرةِ، ليستشعرَ كلٌّ من الفريقين الرُّعْبَ من صاحبه، والتهيُّب له . واللام من « يالَبُهْثَةَ » لام الجرّ، وتعلقت بيا: حَرْفِ النِّداء . ولا يجوز أن يقالَ تعلّقَتْ بالفعل الذى دَلّ عليه يا ، لأنَّ ذلك الفعل لما لم يَخرجْ إلى الوجود سقط حكمه . وفتِحَتْ لوقوع المُنادَى موقع المضمَر . وبُهْثَةَ مَدْعُوَّةٌ، والجارّ مع المجرور فى موضع نصبٍ لأنَّه منادًى . وقوله أَحْسِنِى ضَرْبًا » يجوز أن يكون ضَرْبًا مفعولا به من أَحْسِنِى ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال أى ضارِبَةً . ويُرْوى: « أَحْسِنِى مَلًأ »، ومعناه خُلُقًا . والمرادُ مخالَقَةُ[1] أهل الحرب والمستنصرين ؛ وهذه رواية أبى زيد . وقال ابن السِّكِّيت : معناه أحْسِنِى تمالُؤًا أى تعاوُنًا . ويقال مالَأْت على فُلان ، وكأنه من قولهم رَجُلٌ مَلِىءٌ ، وقد مَلُؤَ يَمْلُؤُ مُلاءةً ومَلاءً .

٧ ـ سَمِعْنَا دَعْوَةً عن ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَـــوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا

يقولُ: قَرَعَ أسماعَنا فى أثناء التهيُّؤ والتطالُع دَعْوَةٌ تأدَّتْ من مكانٍ غائبٍ عن عيوننا ، فَدُرْنا دَوْرَةً ثم رجَعْنا إلى أماكننا . وهذا يجوز أن يكونوا خافوا الـكَمِينَ فجاءوا ليتأمَّلوا ، فلما أَمِنوا رَجَعُوا . ويقال : ارعَوَى عن الجَهْلِ ارعِوَاءً ورَعْوَى حسنة ورُعْوَى ، أى رَجَعَ . ويقال : فَعَل فُلانٌ كذا بظَهرِ الغيبِ ، وأتانى خَبَرٌ عن ظهرِ الغيبِ .

(١) كذا على الصواب بالقاف عند التبريزى . وفى النسختين : « مخالفة » .

٨ ـ فَلَما أنْ تواقَفْنا قَليلاً أَنَخْنا للكَلاكِلِ فارْتَمَيْنا(١)

هذه المواقَفَةُ التى أشار إليها ، يجوز أن تكون للتَّعْبِيَة والتهيِئَةِ ، ويجوز أن تكون لتَداعِى الأبطال والمبارزة ، واعتراضِهم بين الصَّفَّين للمطاعَنَة . وقوله « قليلا » يجوز أن يُريدَ به زَمَاناً قليلاً ، فيكونُ ظَرْفاً ، ويجوز أن يريد به(٢) : تواقُفاً قليلاً ، فيكون صفةً لمصدرٍ محذوف . والصفات تَنُوبُ عن المصادِر والظروفِ كثيراً . وجوابُ لمَّا « أَنَخنَا » ، ومفعولُه محذوف . والمعنى : إنّا بَعْدَ المطارَدَةِ نزلْنا ، وأَنَخْنَا للصُّدور فتَناضَلْنا .

٩ ـ فَلَما لم نَدَعْ قَوْسًا وسَهْمًا مَشَيْنا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إلينا

١٠ ـ تَلأْلُؤَ مُزْنَةٍ بَرَقَتْ لأُخْرَى إذَا حَجَلُوا بأسْيَافٍ رَدَيْنا

يقول : لمَّا مَلِلْنَا الطِّراد والرِّماء ، بإفْناءِ النِّبال وتَعطِيلِ القِسِيِّ لانقطاع الأوتار ، مَشَى بَعْضُنَا إلى بَعْضٍ للكِفاح والجِلادِ ، طلباً للاشتفاء ، كأنَّهم تَنقلوا فى دَرج القتال ومراتِبه ، حتى بَلَغُوا أعلاها وأَصْعَبَها ، وأولاها بدَرَكِ الثَّأر وأحَقها . ولهذا لمّا سأل عمر بن الخطّاب رضى الله عنه عمْرو بن مَعْدِيكَرِبَ عن أنواع السِّلاح ، وانتهَى إلى ذكر السيف ، قال « عِنْدَهُ تَثْكَلُ الأمّهات » . وانتصبَ

---

(١) م : « وارتمينا » . وقال ابن جنى : « لك أن تجعل اللام صلة إلى المفعول توكيدا كقول الله سبحانه : قل عسى أن يكون ردف لكم ، وكقوله : إن كنتم للرؤيا تعبرون . غير أن هذا قدم فيه المفعول فحسن زيادة اللام لإعانة الفعل . وقرأت على محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى لابن ميادة :

وملكت ما بين العراق ويثرب ملكا أجار لمسلم ومعاهد

أى أجار مسلما ومعاهداً ، فكأنه قال : أنخنا الكلاكل ، فزاد اللام من حيث ذكرنا . ويجوز أن يكون اللام خبر مبتدأ محذوف يدل عليه قوله أنخنا ، فكأنه لما قال أنخنا قال : إناختنا للكلاكل » .

(٢) كذا فى م وفى الأصل : « أن يكون به » .

« تلألُوءَ مُزْنَةٍ » على أنه مَصْدَرٌ مما دَلّ عليه « مَشَيْنَا نحوهم ومَشَوْا إلينا » ، لأنَّ فى ذلك تلألُؤَ السِّلاح من الجانبَين جميعا ، ووميضَ كلٍّ واحدةٍ من الطَّائفتين جميعاً للأخرى . وقولُه « إذا حَجَلُوا بأسْيَافٍ رَدَيْنَا » ، أى إذا كان مشيُهم إلينا حَجْلاً كان مَشْيُنَا إليهم رَدَياناً . والرَّدَيان فَوْقَ الحَجَلان ، لأنَّه مَشْيُ الحمار بينَ آرِيِّهِ ومُتَمَعَّكِه ، فهو أسْرَعُ من الحَجَلان ، إذْ كان فى الحجلان تقارُب الخطْو كمشْي المقيَّد ووَثْبَتِهِ . فيقول : تلألأنا لوفور أسلحتنا ، وبَرِيقِ دُروعِنا وبَيْضِنا ، وإيماض أعيننا ، تلألُؤَ سحابةٍ بَرَقَتْ لسَحَابةٍ أُخْرَى قابَلَتْهَا . وقال أبو زَيدٍ : هذا من رَدَيَان الجوارى إذا لَعِبْن[1] تَرْفع إحداهُنّ رِجْلاً وتَخْطُو بأخرى خُطوتَين ، ثم تضعُها وتَرفع الأخرى ، تفعل ذلك مِرَاراً . قال : والغُرَاب يَرْدِي ويَحْجِل .

١١ — شَدَدْنَا شَدَّةً فقَتَلْتُ منهم ثلاثَةَ فِتْيَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا

١٢ — وشَدُّوا شَدَّةً أخرى فجَرُّوا بأرْجُلِ مِثْلِهم ورَمَوْا جُوَيْنَا

يَقُولُ : حَمَلْنَا عليهم حَمْلَةً مُنْكرة[2] ، فأصَبْنا منهم ثلاثَةً من الفتيان ، وقَتلتُ قَيْناً . وقَيْن : اسمُ رجُلٍ كان مشهوراً فيهم بالبأس والنَّجْدَةِ ، فلذلك عَيَّنَ عليه . وقولُه « ثلاثَةَ فِتْيَةٍ » فِتْيَةٌ من أبنية القليل ، كغِلْمَةٍ وصِبْيَةٍ ، ولذلك أضافَ الثَّلاثَةَ إليها . وبناء الكثير الفِتْيان . و « شَدُّوا شَدَّةً أخرى » ، يقول : وحملوا حَمْلَةً فأصابوا منَّا مِثْلَ ما أصبْنَا منهم ، وارْتُثَّ من قَتْلانا مثلُ ما ارتُثَّ من قتلاهُمْ ، ورمَوْا جُوَيْناً أخِي . قوله « بأرْجُلِ مثلهم » لو قال أمثالِهم لجاز ، وفى القرآن : ﴿ ثُمَّ لا يَكُونوا أمْثالَكُمْ ﴾ ، وفى موضعٍ آخر :

---

(١) فى نسخة الأصل : « نعين » ، صوابه فى م .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من م .

﴿ يَرَوْنَهم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العَيْن ﴾ ، وفى موضع آخر : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُم ﴾ .
وهذه الأبيات تُسمَّى المُنْصِفَةَ ، لِمَا تقابَلَ فيها من صِفات الجيشَيْن على وَجْه التعادُل ، وسَنَن التصادُق . إن قيل ما فائدة قوله « شَدَّةً أُخْرَى » ، ولم يكن قد تقدّم لهم أُولَى؟ قلت : يجوز أن يكون أرادَ تَوالَى بيننا حَمْلَتان : الأولى مِنّا ، والأخرى منهم ، لأنَّ قَصْدَهُ اقتصاصُ الحال الدائرة بينهم . ويجوز أن يكون أراد أن يبين أنهم كانوا السابقين والمبتدئين ، فوصَف شَدَّتهم بالأخرى لِيُعْلَمَ أنَّ المتقدم فى الذِّكر كانت الأولى .

١٣ — وكَانَ أَخِي جُوَيْنٌ ذَا حِفَاظٍ وكان القَتْلُ لِلفِتْيانِ زَيْنا
١٤ — فآبوا بالرِّماحِ مكسَّرَاتٍ وأُبْنا بالسُّيوفِ قد انْحَنَيْنا

نَبَّهَ على أنه بحُسْنِ محافظتِه على الشَّرَف ، وجميل مدافعَته دون العشيرة ثَبتَ حتَّى قُتِل ، وأنَّ قِتْلتَهُ كانت قِتْلَةً محمودةً تَزينُ ولا تَشِين . وقولُه : فآبوا بالرِّماح مكسَّرات ، وأُبْنا بالسيوفِ مُنحَنِيَاتٍ ، جعَل فيه أعلى الصفتين لنَفْسه وذَويه[1] ، وإن كان الظاهر من قَصْدِه فى الوَصْف الجَرْىَ على سَنَن النِّصْف ، يَشْهد لذلك ما رَتَّبَهُ زهيرٌ فى قوله :

يطعَنُهم ما ارْتَمَوا حتى إذا اطَّعَنُوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربُوا اعتَنَقا

ألا ترَى أنه جعَل الطَّعنَ فوقَ النَّضْل ، والضِّرابَ فوقَ الطِّعان ، والعِناقَ فوق الكِفاح . وكذلك فعَل فى الرَّدَيانِ والحَجَلان ، وفى وَصْفِ أخيه بحُسْن الحِفَاظ عند قوله « ورمَوْا جُوَيْنًا » فى مقابلَةِ « وقَتَلْتُ قَيْنًا » . وأمّا قول الآخر[2] .

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « لنفسه من ذويه » .
(٢) هو الحصين بن الحمام المرى . المفضليات (١ : ٦٣) .

نُطَارِدُهُم نَستَنقِذُ الجُرْدَ كالقَنَا ويَستَنقِذُونَ السَّمهرِىَّ المُقَوَّمَا

فليس من التناصُفِ فى شىءٍ ؛ إذ كان المعنى : إنَّا عِند الطِّعانِ نُذْوِيهم عن ظُهور الدَّوابِّ ، فنَغْنَمُ دوابَّهم ونفوز بها ، وهم يستنقذون رِماحَنا لأنَّا نكسرُها فيهم إذا طَعَنَّاهم ، ونُجِرُّها إياهم فيفوزون بها . فيقول : انصرَفوا وقد تكسَّرَتْ رماحُهم بالإجْرارِ ، ورجَعْنا وقد تثَنَّتْ سُيُوفُنا بإعمالنا إيَّاها فى البَيْضِ والدُّروع وقتَ الجِلاد .

١٥ – فباتُوا بالصَّعيدِ لهُمْ أُحَاحٌ ولو خَفَّتْ لنا الكَلْمَى سَرَيْنا

يقول : بقُوا ليلَهم يئِنُّون على الصعيدِ ، وهو وجه الأرض ، ولو ساعَدَتْنا الطائفة المجروحةُ مِنَّا ، وقدَرَت على السُّرَى لسَرَيْنا ، لكنَّ كُلاًّ منَّا اضطُرَّ إلى الإقامةِ والتلوُّم ريثَما يَثُوبُ إليه القُوَى بَعْدَ لُحُوقِ الجَهْدِ ، ومشارفَةِ الرَّدَى . وقد قيل إن الأحاح العطش ، والمشرف من الجراح على الهلاك يَعطش . وقد قيل إنّ الاحاحَ شِدَّة الوَجْدِ من الغَيْظ حتى يُسْمَعَ له من الصَّدْرِ صوتٌ ، وهو على مثال الأَدْواءِ والأصوات جميعًا ؛ لأنّ فُعالا يَكْثُر فيهما . والكَلْمَى : جمعُ كَلِيمٍ ، وفَعْلَى يكونُ جَمْعًا لما كان من الزَّمانة والضَّرَرِ وأنواع البَلايا . وأبنيةُ واحدِهِ تختلف

١٥٣

وقال بِشرُ بنُ أُبَىّ [١] :

١ – إنّ الرِّباطَ النُّكْدَ من آلِ داحِسٍ كَبَوْنَ فما يُفلِحْنَ يَوْمَ رِهَانِ

(١) التبريزى : « وقال بشر بن أبى حمام العبسى ، ابنى زهير بن جذيمة . ويروى : بشير » . وفى المؤتلف ٦١ « بشير بن أبى جذيمة العبسى ، بضم الباء تصغير بشر » . وقد سبقت ترجمة « أبى بن حمام » فى الحماسية ١٤٢ .

يُرْوَى « أَبَيْنَ فَلَا يُفْلِحْنَ[١] » ، ويُرْوَى « كَبَوْنَ » أى سَقَطْنَ لوجوهِها . قال :

* فَكَبَا كما يَكْبُو فَنِيقٌ تارِزٌ[٢] *

وهذا الكلام تَضَجُّرٌ بما اُنْتَتِجَ بين اُبَنَىْ بَغِيضٍ عَبْسٍ وذُبْيانَ من الشرِّ ، فى الرِّهانِ على داحسٍ والغَبْراءِ ، ودُعاءٌ على داحسٍ ونسلِهِ بألاَّ تُفلِحَ فى خِطارٍ ، وأن تَأْبَى النَّجاحَ فى سِباقٍ ، فقال : إنّ الخيلَ المربوطةَ المشائيمَ من آل داحسٍ وداحِسًا ، أَبَتِ السَّبْقَ فى حَلْبَةٍ وميدانٍ ، والفَلَاحَ يومَ خِطارٍ ورِهان . والمعنى : لا جعَل الله لها ذلك ، فقد تَرَدَّدْنا من البَلاءِ فى عَمَاياتٍ لا انكشافَ لها . وخبَرُ إنّ « جَلَبْنَ بإذْنِ الله » وقولُه « كَبَوْنَ فما يُفْلِحْنَ » أو « أَبَيْنَ فلا يُفْلِحْنَ[٣] » اعتراضٌ بين إنّ وخَبَرِه . والمعنى مَعْنَى الدُّعاء ، فهو كما يقال إنّ زَيْدًا خَذَلَهُ اللهُ فعَل كذا . ومثله فى الاعتراض بالدُّعاءِ قولُ الآخر[٤] :

. . . . ما لَكُمْ تفاقَدْتُمُ لا تُقْدِمُون مُقَدَّما[٥]

ويجوز أن يكون الكلام كله إخبارًا متجرِّدًا[٦] عن الدُّعاء ، فيكون معنى كَبَوْنَ وأَبَيْنَ ، أنه حصَل لهنّ ذلك . والنُّكْدُ : جمعُ أَنْكَد . والرِّباط :

(١) كذا فى النسختين ، ورواية التبريزى : « أبين فما يفلحن » . وانظر ما سيأتى فى الحاشية التالية .

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١٥) . وعجزه :

* بالخبت إلا أنه هو أبرع *

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : « فما يفلحن » .

(٤) هو الحصين بن حمام المرى . الحماسية ١٣٢ .

(٥) صدره : * فقلت لهم يا آل ذبيان مالكم *

(٦) أشير فى هامش نسخة الأصل إلى أنها فى نسخة أخرى : « مجردا »

مصدر رابَطْتُ ، ولذلك وقَع على الواحدِ والجَمْع . والآلُ ، ذَكَر البَصريُّون أنه فى معنى الأهل ، لا فَرْقَ بينهما ، وأنّ تصغيره أُهَيْلٌ ، وهذا يُؤْذِن بأنّ أصل أَلِفِه هاء . وحكى ثَعلبٌ عن شيوخِه أنّ الأَهل ، القرابةُ ، مُتَّبِعًا كان أو غيرَ مُتَّبِع ، وأَنّ الآلَ المُتَّبِعُ وإنْ لم يكُنْ ذا قَرابةٍ ، فهما المَعْنَيَيْن . قال : وحكى الكسائى فى تصغير الآلِ أُوَيْلٌ ، وفى تصغير الأَهْلِ أُهَيْل .

٢ – جَلَبْنَ بإذن الله مَقْتَلَ مَالِكٍ وطَرَّحْنَ قَيْسًا من وَرَاءِ عُمَانِ

أخذ يعتدُّ الخصالَ المكروهةَ الحاصلة بها ، فيقول : جَلبَ سَبْقُ دَاحِسٍ بِعِلْمِ الله تعالَى قَتْلَ مالِك بن زُهَيْر ، وتطريحَ قَيْسِ بن زُهَيْرٍ من أرض العَرَب إلى عُمَان . وكان قَيْسٌ نَذَرَ ألاَّ يَنْظُرَ فى وَجْهِ غَطَفَانىّ أبداً ، فدَعاه ذلك إلى مراغمة العشيرة ، والتباعُد فى الغُرْبَةِ . وقولُه « بإذن الله » من قَوْلِكَ أَذِنْتَ بالقوْمِ . وفى الحديث : « ما أَذِنَ اللهُ لشىءٍ[1] » . وقَصْدُ الشَّاعِرِ أن يَذْكُرَ ما أعْقبَ سَبْقَ دَاحِسٍ من الشَّرِّ ، وأُلْحِق من الشؤمِ . وقوله « جَلَبْنَ » جعَلَ اللَّفظ للآل ، والمُراد دَاحِسٌ ، لكنَّه لما جعَلَ الدُّعاءَ لآله استمرّ فى الإخبار على حاله ولم يغيِّر . ويشبه قول الآخر :

إنّ ابْنَ ضِرَارٍ حِينَ أَنْدُبُهُ زَيْدًا سَعَى لى سَعْيًا غَيْرَ مَكْفُورِ

أراد : إنّ ابن ضِرَارٍ زيداً ، فذكر الآل والمراد غيره . وهم فى كثير من المواضع أقاموا الوَالِدَ مَقامَ الوَلَد والوَلَد مقام الوالد ، والعشيرةَ مقام الواحِدِ منها ، والواحد مقام العَشيرة ، لأغراض مختلفة ، حين أَمِنوا الالتباس . وممَّا يُجانِسُ هذا زيادتهم « ذو » و « حيّ » . أنشد أبو زيد :

(١) تمام الحديث ، كما فى اللسان : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى يتغنى بالقرآن » . وقد فسر الأذن ، بالتحريك ، أنه الاستماع .

يا قُرَّ إنَّ أباكَ حَيٌّ خُوَيْلِدٍ قد كُنْتَ خائفَه على الإحْمَاق[١]

وقال الشّماخ :

* فأُدْمِجَ دَمْجَ ذى شَطَنٍ بديعٍ[٢] *

والقَصْدُ إلى خُوَيْلِدٍ وإلى شَطنٍ .

٣ — لُطِمْنَ على ذَاتِ الإِصَادِ وجَمْعُكُمْ يَرَوْنَ الأَذَى من ذِلَّةٍ وهوَانِ

الملطومُ داحِسٌ ، فجرى على ما بَنَى عليه الكلامَ من الإخبارِ عن نَسْلِهِ وآله . وكان حُذَيفَةُ بن بَدْرٍ أَرْصَدَ فِتْيَانًا لَهُ من بنى فَزَارَةَ لمَّا تغالَقَ هو وقَيْسٌ على الفَرَسَيْنِ فى موْضِعٍ من ذات الإصَادِ لُقِّبَ بشِعْبِ الحَيْس — لحَيْسٍ أكلوه فيه — وقال لهم : إن جاء دَاحِسٌ متقدِّمًا سابقًا فالطِموه ونَهْنِهُوهُ عن الغاية حتَّى تتقدَّمَهُ الغَبْرَاء ، فمرَّ بهم دَاحِسٌ مُبَرِّزًا وفعلوا به ما رَسَمَ لهم حتَّى تخَلَّفَ عن الغبراء ، فاجتهَدَ داحس وتكلَّفَ من العَدْوِ ما لَحِقَ بها ، وتقدَّم عليها ثانيًا فجاء سابقًا . وقولُه « وجَمْعُكم يَرَوْنَ الأَذَى » ، يخاطِبُ به بنى عَبْسٍ ، وإنَّما يصِفُ ما نيلَ منهم وركبهم من المَضِيمة فى فَرَسهم لمّا لُطِمَ ، وفى أنفسهم حين مُنِعُوا ما استُحِقَّ له . واللَّطْمُ : الضَّرْبُ فى الخدِّ ، ثم قيل فَرَسٌ لَطِيم تشبيهًا بذلك . وهذا كما يقال هو مَمْسُوحٌ بالجمال مسْحًا . وذات الإصَادِ يُرِيد البُقْعَةَ التى فيها الإصاد ، ويقال هى رَدْهَةٌ بين أَجْبُلٍ . والردهة كالحُفَيْرَةِ[٣] يجتمع فيها الماء ، والجميع الرِّدَاهُ .

٤ — سَيُمْنَعُ مِنْكَ السَّبْقُ إنْ كُنْتَ سَابِقًا وتُقْتَلُ إن زَلَّتْ بك القَدَمَانِ

(١) نوادر أبى زيد ١٦١ .

(٢) صدره فى ديوان الشماخ ٦١ :

* أطار عقيقه عنه نسالا *

(٣) م : « كالحفرة » وأشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « كالنقرة » .

هذا يحتمل وجهين : أحدهما أنَّه جعل الخطاب لصاحب الفَرَس على المجاز والسَّعة ، والمقصود الفَرس ، فيقول : تُمْنَعُ من السَّبْقِ إن سَبَقْتَ — وهذا إشارة إلى ما كان منهم من لَطْمِ داحسٍ . وقد قُدِّمَ ذِكْرُه — فإن خَفَّتْ قَدَماكَ بِكَ وبَرَزْتَ ثانياً أُتِيَ عليك . ويكون قَوْلُهُ « زَلَّتْ بك القَدَمان » على ما فَسَّرْناهُ من قولهم قِدْحٌ زَلول ، إذا كان خفيفاً . فهذا وَجْهٌ . والثانى أن يُتْرَكَ الخطاب على ظاهره وحَدِّه ، فيكون المَعْنَى : سَيُمْنَعُ منك المُتَّفَقُ عليه من الخطَرِ بسَبْقِ فرَسك ، فإن لم يَثْبُتْ قَدَماكَ عند التَّقاضى به ، وفى الدفاع عن نفسك فيما يُرادُ من ظُلْمِكَ ويرام من هَضْمِكَ قُتِلْتَ أيضاً . وهـذا أقْرَبُ وأشبه بالقِصَّة .

١٥٤

وقال غَلَّاقُ بن مَرْوانَ [(١)] :

١ — هُمُ قَطعُوا الأرْحامَ بيني وبَيْنَهُمْ وأَجْرَوْا إليها واستَحَلُّوا المَحارِمَا

قَطَعُوا بالتخفيف يَصْلُح لقليل الفِعْـل وكثيره ، فإذَا ثَقَّلْتَ لم يَـكنْ إلاَّ للتَّـكثير أو التكرير . والشّاعرُ يَصِفُ ما أَجْرَى إليه القومَ فى سَبْقِ داحِسٍ من قطيعة الرَّحِمِ ، وانتهاكِ المَحْرَم ، واستِحْلَالِ المَحْظُور المحرَّم ؛ ويَقتَصُّ ما تنَقَّلُوا فيه وتدرّجوا إليه حَالاً بعد حَالٍ ، وشيئا بعْدَ شىء . وقوله « أجْرَوْا إليها » الإجراء يُسْتَعْمَلُ فى المُنْـكَر المذموم ، ومفعولُهُ محذوف ، كأنّهُ أجرَوا

(١) التبريزى : « غلاق بن مروان بن الحكم بن زنباع » . المبهج : « يكون علاق فعالا من غلق الرهن فهو غلاق ، كعلم فهو علام ، وسلم فهو سلام . ويجوز أن يكون من من أغلق الباب ونحوه ، وهذا أقلها لعزة فعال من أفعل ، إنما جاء منه أسأر فهو سآر ، وأدرك فهو دراك ، وأجبر فهو جبار . وأقصر فهو قصار . وقرأ بعضهم : يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد . ومروان : علم مرتجل » .

فِعلهُم إليها ، والضمير فى « إليها » للقطيعة ، لأنّ الفِعْلَ يَدُلُّ على مَصْدَرِه . وهذا كما يُقال : مَن كَذَبَ كان شَرًّا له ، أى كان الكَذِبُ شَرًّا له .

٢ — فيالَيْتَهُمْ كانوا لِأُخْرَى مَكانَها ولَمْ تَلِدِى شيئاً من القَوْمِ فاطِما

البيتُ على كلامَيْن : صَدْرُهُ إخبارٌ ، وعجُزُه خطابٌ لفاطمة ، وهى أختٌ لهم . ومِثْلُه فى أنّه كلامَيْن قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا واستَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ﴾ . والشاعِرُ قَصْدُهُ إلى إظهار التوجُّع من الحال ، فيقولُ متمنِّياً : بِوَدِّى إنْ يكونوا لوُصْلَةٍ وقَرَابَةٍ غير وُصلتهم وقرابتهم ، حتَّى لا يَبلغ الجفاء من جهتهم مَبالِغَهُ فى نُفوسِنا ، لأنَّ ظُلْمَ ذَوِى القربى أشَدُّ تأثيراً . والشَّرُّ إذا وَرَدَ على الإنسان من مَظَنَّةِ الخيرِ كان أنْفَذَ تحزيزاً . فقولُه « كانوا لأخرى مكانَهَا » أى لِقَرَابةٍ أخرى مكان هذه القرابة ؛ أو لِأَرْحامٍ أخرى مَكانَ هذه الأرحام . وقوله « لم تَلِدِى شيئا » تمنَّى ارتفاع الوُصْلَةِ كما تَمنَّى فى الأوّل انقطاعَ القرابة ؛ كأنَّه وَدَّ بعد استبدالهم بالتناصُرِ تَدَابُراً ، وبالتَّواصُلِ تقَاطُعاً ، أنَّهم كانوا منهم غُرَباءَ . وقوله « فيا لَيْتَهُمْ » المُنَادَى محذوف ، أراد يا قَوْمِ لَيْتَهُم .

٣ — فَمَا تَدَّعِى من خَيْرِ عَدْوَةِ دَاحِسٍ فَلَمْ تَنْجُ منها يا ابْنَ وَبْرَةَ سالِما

يَذُمُّ ما أَحْمَدُوه من سَبْقِ داحِسٍ وتبريزه ، ويُسَوِّئُ رأيَهم فى تبجُّحِهم ، ويعرِّفُهم قُبْحَ عاقبةِ ما اختاروه ، وسوءَ مَغَبَّةِ ما شَرعُوا فيه . وإنّما قال « ماتَدَّعى » لأنّ أصحاب الغَبراء كانوا يعلُّون[1] سَبْقَ دَاحِس وينكرونه ، فلهذا علَّقَ ما حكاهُ عَنْه بالدَّعْوَى . وقولُه « من خير عَدْوَةٍ » أى من نَفعِه وسَنَاءِ ذِكْرِه . وقوله « فلم تَنْجُ منها » رَدَّ الضمير على المضافِ إليه وهو العَدْوَة . يريدُ : لم يَرْجِع

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « لأن أصحاب الغبراء لأنهم كانوا يعلون » .

إليك منْها جِدْوَى ، ولا ارتفع الأمر فيه كَفاً . ولَمَّا فاتت الغنيمة فيه لم تَحْصُل لك السّلامةُ أيضاً .

٤ ــ شَأَمْتُمْ بها حَيَّىْ بَغيضٍ وغَرَّبَتْ   أَبَاكَ فأَوْدَى حَيْثُ وَالَى الأَعَاجِمَا

قال أبو زيد : يقال شَأَمَ فلانٌ أصحابَهُ ، إذا أصابهم الشُّؤم من قِبَلِه . و « بها » يُرِيدُ بالعَدْوَةِ ، وهذا تفسير قولِه : فَلَمْ تَنْجُ مِنْهَا يا ابْنَ وَبْرَةَ سَالِماً . يَقُولُ : أَوْقَعْتُمْ بعَدوَتِها والخِطارِ عليها الشُّؤمَ فى حَيَّىْ بَغِيضٍ : عَبْسٍ وذُبيَانَ ، وأَحْوِجَ أَبُوكَ ــ يعنى قيس بن زُهَيْرٍ ــ إلى تَرْكِ أَرْضِ العَرَبِ ومهاجرتِها . يعنى حين أُخْرِجَ[(١)] وأزْعِجَ إلى بلادِ العجم ، حتى صار يُواليهم بها ، إلى أن مات غريباً بين ظهرانيهم . وأشار بقوله « حَيْثُ » إلى عُمان وما وَرَاءَه .

٥ ــ وكَانَتْ بَنُو ذُبيَانَ عِزًّا وإِخْوَةً   فَطِرْتُمْ وطاروا يَضْرِبُونَ الجَمَاجِمَا

يقول : كان بنو ذبيانَ لكم يا بنى عَبْسٍ مَلَاذاً وعِزًّا ، وعَتَاداً وظَهراً ، لما يجمعُكم وإيّاهُمْ من الأُخُوَّةِ ، فاطّرَحتم مَوَاتَّ التمازُج والتّشَابُكِ ، وتجاوزتُموها إلى التَّجاذب والتقاتُل . وهذا تحسيرٌ للمُخاطَبِ فيما انتقل عنه من موالاة العشيرة ، والإبقاءِ على الأحوال الجامعة ، وتلهيفٌ فيما انتقلوا إليه من تهييج الحرب ، وبَسْط الأذَى والشرّ ، وتنبيهٌ على ما يتعقَّب أحوالَهم إن استمرُّوا عليها من التفانى والتَّهالُك . وكان الواجب أن يقول : فطِرْتُم تَضرِبُونَ وطاروا يَضْرِبون ، فاكتفى بالإخبار عن إحْدَى الفرقتين ؛ إذْ قد عَلِمَ أنَّ حال الأخرى كَحَالِها . ومعنَى طِرتُم : تَسَرَّعْتُم ، كما قال :

* طاروا إليه زَرافاتٍ ووُحْدَانا[(٢)] *

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « أخرج » بالخاء المعجمة .

(٢) من الحماسية الاولى . وصدره :

* قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم *

٦ ــ فأضْحَتْ زُهَيْرٌ فى السِّنِينَ التى مَضَتْ وما بَعْدُ لا يُدْعَوْنَ إلَّا الأشائما

أنّثَ الفِعْل لأن المُراد بذكر زهَيْر القبيلةُ بأسْرِهَا ، ومعنى يُدْعَوْن يُسَمَّوْن ، كما قال ابن أحْمَر :

* وكنتُ أدْعُو قَذَاهَا الإثْمِدَ القَرِدَا[1] *

يريد أُسَمِّى ، ولذلك تعدّى إلى مفعولين ، فيقول : صار أسلاف بنى زُهَيْر ابن حُذَيفة وأخلافُهم لا يُسَمَّوْن قديمًا ولا حديثًا إلّا المشائم . والأشائم : جمع أشْأم . ويقال : جَرَتْ لَهم طَيْرٌ أشائِمُ ، أى جَرتْ لهم بالشُّؤْمِ . وقال زهير :

* فتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمَ[2] *

أى غلمان أمرٍ أشْأَم . وقوله « فى السنين » يجوز أن يكون ظرْفا لأضْحت ، ويجوز أن يكون ظرفا لقوله « لا يُدْعَوْنَ » . وقولُه « وما بَعْدُ » يراد به وفيما بعد فيكون ما معطوفًا على السِّنين . ويجوز أن يكون موضع « ما » نَصْبًا على أن يكون معطوفًا على موضِع فى السِّنينَ لا على لفظِه ، لأنَّ موضِعَهُ نَصْبٌ لكونه ظَرفًا . ويجوز أن يُجْعَلَ مَا صِلَةً ، كأنَّه فى السِّنينَ الماضيةِ وبعدها . ويجوز أن يُرْوَى : «ومن بَعْدُ لا يُدعَونَ » ، وهو حَسَنٌ . وذكر بعضُهم[3] أنَّ ما من قوله « وما بَعْدُ » لا يجوز أن يكون إلّا صلةً وزائدةً[4] لأنَّ بَعْدُ لَمّا جُعِلَ غايةً ودخَلَهُ النُقْصَان بِحذْفِ ما كان مُضَافًا إليه امتنع من أن يكون مبنيًّا على شىء وخَبَرًا عنه ، وإذا امتنع من ذلك امتنع أن يكون صلةً لموصول ، لأنّ الذى يكونُ

---

(١) صدره ، كما فى اللسان (دعا) :

* أهوى لها مشقصا جشرا فشبرقها *

(٢) تمامه : فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

(٣) هو ابن جنى فى التنبيه .

(٤) نص التنبيه : « ينبغى أن يكون ما من قوله : وما بعد ، زائدة ... » الخ .

صِلةً من الظروف والجُمَل هو ما جاز أنْ يكون خَبَر المبتدأ . وليس الأمر على ما قاله ، ألا ترى أنّ قوله عزَّ و جلّ : ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا من الله ومِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُم في يُوسُف﴾ . معناه : ومن قبل الذي فرّطتم في يوسف ، أي قدَّمْتم . ويجوز أن يُرادَ : ومن قبلِ تفريطكم ، فيكون ما مع الفِعْل في تقدير مَصْدَرٍ . وعلى الوجهين جميعا ما في مَوْضِع رَفْع ومن قَبْلُ خَبَرُه . وذكر أبو إسحاق الزَّجَّاجُ في ما من الآية ثلاثة أوجهٍ ، ما ذكَرْنَا أحدُهَا . وإذا كان الأمْرُ على هذا فما ذَكَرَهُ هذا القائل غير صحيح ، لأني قد أرَيْتُكَهُ بَعْد وهو غايَةٌ خَبَرًا ، وكَوْنُه صِلَةً تابِعٌ لكونه خَبَرًا ، فاعْلَمْهُ .

١٥٥

وقال المُسَاوِرُ بن هِنْدٍ[(١)] :

١ ـــ أَوْدَى الشَّبَابُ فَمَالَهُ مُتَقَفَّرُ وفَقَدتُ أَتْرَابِي فأَيْنَ المَغْبَرُ[(٢)]

يقول : أَدْبَرَ الشبابُ وولّى[(٣)] ، فهو فائتٌ لا يُتَتَبَّعُ[(٤)] ، ومطلوبٌ لا يُلْحَقُ ، وعَدِمْتُ نُظرائي وأقرانِي ، فأيْنَ بقائي بَعْدَهم ، وكيف خَلاصِي ممّا اخترَمَهم وأفناهم . وهذا الكلام توجُّعٌ وتحسُّرٌ لما تَقَضَّى من شبابِه ، وعُنفوان عُمْرِه[(٥)] وتقدَّم من أقْرانِه ولِدَاته . أي إذا خَلَوْتُ منهم ، وصِرْتُ عائشاً في

(١) سبقت له الحماسية ١٤٨ .
(٢) التبريزي : « وأكثر الناس ينشد : وفقدت أصحابي » .
(٣) هذا ما في م . وفي الأصل : « وقل » مع الإشارة إلى أنها في نسخة أخرى : « وولى » .
(٤) م « لا يتبع » .
(٥) أشير في الأصل إلى أنها في نسخة : « أمره » .

غَيْرِهم فَكَمْ عَسَى أن أبْقَى بَعْدَهُمْ . ويقال غَبَرَ إذا مَضَى ، وغَبَر إذا بَقِى . ويريد(١) بالمَغْبَر هنا البقاء ، ويقال : اقتفرتُ الشَّىء وتقفّرته ، إذا تتبّعْتَه .

٣ ــ وأَرَى الغَوَانِىَ بَعْدَمَا أَوْجَهْنَنِى أَعْرَضْنَ ثُمَّتَ قُلْنَ شَيْخٌ أَعْوَرُ

الغوانى : جمع غانيةٍ ، وهى التى تَسْتَغْنِى بزوجها عن الرِّجال ، وقيل هى التى تَستغنِى بمحاسنها عن التزيُّن بالحلِىّ . وقال أبو عبيدةَ : هى المتزوّجة ، وأنشد لجميل بن مَعْمَرٍ :

حَبَتْ الأَيامَى إذْ بُثَيْنَةُ أَيِّمٌ فلما تَغَنَّتْ أَعْلَقَتْنِى الْغَوَانِيَا

وأنشد ابنُ الأعرابىّ :

* أَزْمَانَ لَيْلَى كَعَابٌ غَيْرُ غَانِيَةٍ(٢) *

والشاعر يقول متشكِّيًا من الشّيْبِ المُعْتَاض من الشَّباب ، ومن الضعف التابع لصحّة الجسم ، ومن السقوط والانحطاط بعد الجاهِ عند الغانيات : أرى النِّساء بعدما كُنَّ يجعلنَ لى عِنْدَهُنَّ جاهاً أعْرَضْنَ عنى واطّرَحْنَنِى ، وأبدلْنَنِى بالحمد ذَمًّا ، وبالتسمية تَلْقِيبًا ونَبْزًا(٣) ، فمتى ذُكِرْتُ عِنْدَهُنَّ قلن هو شَيْخٌ أَعْوَرُ . وقوله « أَوْجَهْنَنِى » من الوجاهة : المَنزِلة . يُقَالُ وَجُهَ وَجَاهةً ، ووجَّهَنِى السلطان وأَوْجَهَنى : جعل لى جاهاً ومنزلة . ورَجلٌ مُوَجَّهٌ وَوَجِيهٌ . وقوله « شيخٌ » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وقد مَضَى القولُ فى التاء من ثُمَّتَ ورُبَّتَ ، وأنه علامة التأنيث للقصَّة . وجُعِلَتْ تاءً مفتوحة فرقا بينها وبين التى تَلحَقُ الفعل والاسم .

(١) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة : « ويراد » .

(٢) لنصيب ، كما فى اللسان (غنا) . وعجزه :

* وأنت أمرد معروف لك الغزل *

(٣) النبز ، بالفتح : التلقيب ، وبالتحريك . اللقب .

٣ـــ ورأَيْنَ رَأْسي صارَ وَجْهًا كُلُّهُ إلاّ قفَاىَ ولِحْيَةٌ ما تُضْفَرُ[١]

يقول مستمرًّا فى تكلُّفِ الجزَع إثْرَ ما تولَّى من الشَّبَاب ، وباسِطًا مَعْذِرَةَ النِّسَاء فيما استَحْدَثْنَ له : رأينني قد صَلِعْتُ وانحسر الشَّعْرُ عن رأسى حتَّى صار كلُّهُ كوجهى ، إلا قفاىَ فإنَّ به نَبْذًا مِن الشَّعَرِ ، وإلا لحية لا تُقام مَقام الذُّؤابة فى الضَّفْرِ والتَّجمُّلِ . فقوله « لِحْيَةٌ مَا تُضْفَرُ » تَحَسُّرٌ على ما عَدِمَ فى رأسه من الضَّفَائر وإن كانت اللِّحية لم يُعْتَدْ ضَفْرُها . وقولُه « كلُّه » ارتفَع على أنَّه توكيدٌ للمُضْمَرِ فى صار ، أو على أنه اسم صارَ ، أو على أنه يرتفع بفعله وفِعلُهُ ما دَلَّ عليه قوله « وَجْهًا » كأنَّ المراد توجَّه كُلُّهُ ، ويكون كقولك رأيتُ زَيْدًا قَيْسِيًّا أبوه ، أى تقَيَّسَ أَبوه ، ومررت بِسَرْجِ خَزٍّ صُفَّتُهُ[٢] .

٤ ـــ وَرَأَيْنَ شَيْخًا قد تحَنَّى صُلْبُهُ يَمْشِى فَيَقْعُسُ أو يُكِبُّ فَيَعْثُرُ[٣]

يقول : ورأَيْنَ شيخاً منحنِيَ الصُّلْبِ ، مُحْدَوِدبَ الظَّهرِ ، يمشى مِشْيَةَ القُعْسَان إذا استَمرَّ فى المشى ، أو يتعثَّر فيسقط لوجهه . وكان الواجب أن يقول : أو يَعْثُرُ فيُكِبُّ ، لأنَّ العِثَار قَبْلَ السُّقُوط للوجه ، لكنَّه لم يُبَالِ بتغيير الترتيب ، لأمْنِهِ من الالتباس ، وهذا دون ما يجىء فى كلامهم من القَلْبِ ، مثل قوله :

* كما أَسْلَمَتْ وَحْشِيَّةٌ وَهَقَا *

---

(١) ابن جنى : « يروى كله بالرفع والنصب . فالنصب على أنه توكيد للرأس ، والرفع على أنه توكيد للضمير فى صار . والوجه الرفع ، وذلك أنه ليس يريد أنهن رأين رأسه كله ، وإنما يريد أنهن رأين رأسه قد صار كله وجها . وقد يجوز أيضاً أن يكون كله إذا رفع اسم صار ، حتى كأنه قال : ورأين رأسى صار جميعه وجها . ... وقد يجوز أن يكون كله صفة أو تأكيدا ، وهو أولى من أن يباشر به العامل ، ألا تراه أخا ما لا يباشر العامل أبدا ، وهو أجمع وأجمعون » . (٢) الصفة : هنة كالمرفقة فوق السرج ، بمنزلة الميثرة للرجل .

(٣) يقعس ، كذا ضبطت بضم العين فى الأصل ، وهى رواية أبى هلال كما نص التبريزى . وضبط فى م . بفتح العين . التبريزى : « ويروى : يقعش . أى يضطرب . ومنه تقعوشت الخيمة ، إذا سقطت » .

وكقول امرئ القيس :

* كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ[(١)] *

ويقال : قعِسَ يَقْعَسُ ، إذا صار أقْعَسَ خِلْقَةً فيه ، وقَعَسَ يَقْعُسُ قَعَسَانا إذا مَشَى مِشْيَةَ الأَقْعَسِ تكلُّفاً ، ومثله عَرِجَ يَعْرَجُ وَعَرَجَ . ويقالُ : أَكَبَّ زَيْدٌ فلا يتعدَّى ؛ وكَبَّهُ اللهُ لوجهه ، وهذا على العكس مما عليه أكثرُ الأفعال . ومثلُهُ أَقْلَعَ الغَيْمُ وقَلَعَهُ اللهُ .

٥ — لَمَّا رأَيتُ الناسَ هَرُّوا فِتْنَةً عَمْياءَ تُوقَدُ نارُها وَتُسَعَّرُ[(٢)]

إنما قَدَّمَ ما اقتصَّهُ من ضَعْفِهِ وكَبْرَتِهِ ، ليُرِيَ العُذْرَ فيما يَعْجِزُ عنه من النهوضِ في الفتنة التي ذكرها ، فيقول : لمَّا وجدتُ الناسَ قد كَرِهُوا ما تَرَدَّدُوا فيه من فِتْنَةٍ لا يُهْتَدَى لوجْهِها ، ولا يُقْتَدَرُ على كشْفِها ، تَسْتَعِرُ نارها وتتلهَّبُ ، ويُبْتَعَثُ شرُّها فَشْتَمِلُ . ويَعني بهذا فتنةَ ابن الزُّبير وعبد الملك . وجوابُ لمَّا منتظَرٌ ، وهو هنا محذوف يدُلُّ عليه الكلام ، كأنه قال : انقبَضنا عن النهوضِ فيها والحِرَاكِ ، لننظُرَ ماذا تكون . والفِتنةُ العمياء : التي لا يُهْتَدَى فيها لوجهِ أمرٍ ، وفَصْلِ شأن . والتَّعْمِيةُ : التلبيس . ويقال : هو في عُمْيانه[(٣)] ، أي عَماهُ ، مَصْدَرٌ كالطُّغْيان .

٦ — وتَشَعَّبوا شُعَبًا فكلُّ جزيرةٍ فيها أَميرُ المؤمنين ومِنْبَرُ

شَعَبْتُ يكون بمعنى جَمَعْتُ وبمعنى فرَّقْتُ . ويقال التَأَمَ شَعْبُهم ، إذا اجتمعوا بعد تَفَرُّقٍ ؛ وتفرَّق شَعْبهم ، إذا تبدَّدُوا بعد تجمُّع . والشُّعْبةُ : الطائفة ، وجمعها شُعَبٌ . يقولُ تفرَّق الناس فِرَقاً ، فصار الاختلاف لازِمًا

(١) صدره : * يزل الغلام الخف عن صهواته *

(٢) م : « فتسعر » بالفاء . (٣) هذه الكلمة مما لم يرد في المعاجم المتداولة .

لأهوائهم ، والتباينُ مُقْترِناً بآرائهم ، فى كلِّ جزيرة أميرُ المؤمنين ومِنْبَرٌ ، يدْعو إلى نَفْسِه ويَخْطُبُ على مِنْبَرِه لِجَذْبِ(١) الأمرِ إليه . وقولُه « أميرُ المؤمنين » لفظه معرفةٌ للإضافة المعتادة فى هذه اللَّفظة المألوفة على الحدِّ الذى تَرَى ، لكنّ التنوين مَنْوِىٌّ ، وإذا كان كذلك كان فى حُكْمِ النكِرات . وإنما ساغ ذلك لأنّ قوله « أمير المؤمنين » يُشارُ به إلى الحال ، أى فيها أمير على المؤمنين ، واسمُ الفاعل إذا أُرِيدَ به الحال أو الاستقبال كانت إضافَتُه على وجه التخفيف لا على وَجهِ التعريف ، ويصير التَّنوين الذى هو الأصل مُنَوِيًّا فيه ، وعلى هذا قولُه : ﴿ عارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ لأنّ التقدير مُمطِرٌ لنا . وكذلك قوله عزَّ وجلّ : ﴿ هَدْياً بالِغَ الكَعْبةِ ﴾ . وعَنَى بذلك ابنَ الزُّبير ونظراءَه مِمَّنْ كان يَطْلُب الخلافةَ فى أيام عبد الملك بن مَرْوَان . وهذا البيت منعطِفٌ بما فيه على قوْلِهِ « هَرُّوا فِتْنَةً » .

٧ ـ ولَتَعْلَمَنْ ذُبْيانُ إنْ هِىَ أعرضَتْ أَنَّا لنَا الشَّيْخُ الأغَرُّ الأكْبَرُ(٢)

يقول على وجْهِ التَّوعُّد : لتَعلَمَنَّ هذه القبيلةُ إن تَوَجَّهتْ نَحْوَنا أَنَّا لنا هذا الرَّئيس المشهور الشّأن ، العظم الأمرِ . ويُقالُ : عَنَى به زُهَيْرَ بن جذيمةَ العَبْسِىّ . وقيل هو قيس بن زُهَيْر . ويُرْوَى « إنْ هِىَ أَدْبرَتْ » . والمعنى : إن وَلَّتْ وأعْرَضَتْ ، فإنها سَتَعْلَمُ أنّا نكتَفِى من دونهم . ويجوز أن يكون المُرادُ بأدْبرَتْ : تركت الحق . وجواب إنْ فى قوله : « لَتعْلَمَنْ ذُبيَانُ » ، وقد مَضَى مِثْلُه .

٨ ـ ولنا قَناةٌ من رُدَيْنَة صَدْقَةٌ زَوْرَاء حامِلُها كذلك أَزْوَرُ

(١) هذا ما فى م . وفى الأصل : « بجذب » .

(٢) فى الأصل : « إن هى أدبرت » ، والوجه ما أثبتنا من م والتبريزى ، كما يدله عليه سياق الشرح .

قوله : « من رُدَيْنَةَ » أى من رِمَاح ردينة ، وهى امرأةٌ كانت تبيع الرِّماح ؛ فحذف المضاف . والصَّدْقَةُ : الصُّلْبة ، والعربُ تَذْكُر القناةَ وصلابَتَها واعوجاجَها ، وأنَّها لا تلين ولا تقبل التَّقويم والتَّثقيف ، ضاربةً بها المثلَ فى الخِلاف والإباء ، والامتناع والتَّعَسُّرِ على من يُرِيدُ إكْرَاهَهم ، والتَّصَعُّبِ على من يُرِيدُ[1] تلْيِينَهم أو الغَضَّ منهم . والمعنَى : قَنَاتُنَا لا تَستقيمُ لمُقَوِّمٍ ، وحامِلُها لا ينقاد لمجتذِبٍ . وعلى هذا قول عمرو بن كلثوم :

عَشَوْزَنَةٌ إذا غُمِزَتْ أَرَنَّتْ ... تَشُجُّ قَفَا المُقَوِّم والجَبِينا[2]

وقولُ الآخر[3] :

كانَتْ قنَاتى لا تَلِينُ لغامِزٍ ... فألانَها الإصباحُ والإمْسَاء

وهـذا الشَّاعر لم يَرْضَ بذِكرِ القَنَاةِ وما جَرَت به العادة من وصْف اعوجاجِها ، حتَّى عَقَّبَهُ بقولِه « حامِلُها كذلك أَزْوَرُ » ، فزاد على مَن تَقَدَّمَ كما ترى ، وإنما أراد التأكيد والمبالَغة وتبيين قوّة الامتناع على مَن يطلب اقتسارَهُم . وهذا كما يَصفون المتكبِّر بالشَّوَسِ والصَّعَر والصَّيَد . وقولُه : « حامِلُها كذلك » من صِفَة القناة ، وارتفع حاملها بالابتداء ، وقد أَخبَرَ عنه بخَبَرَين : كذلك ، وأَزْوَرُ . وقولُهُ « كذلك » إذا وَقَعَ هذا الموقع لا يُغيَّر ، بل يكون المذَكَّر والمؤنَّث على حال واحدة[4] . وأنشد أبو زيد :

(١) م : « يطلب » .

(٢) المقوم ، هى فى م : « المثقف » . وقد أشير فى نسخة الأصل إلى أنها فى نسخة أخرى : « المثقف » .

(٣) هو شاعر جاهلى كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .

(٤) الحق أن هذه إحدى اللغات ، وإلا فهناك لغة المطابقة التى تطابق فيها الكاف المخاطب إفراداً وجمعاً وتذكيراً وتأنيثاً ، وهى أفصح اللغات . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦ — ٧٧) وشرح ابن يعيش على المفصل (٣ : ١٣٥) وشرح التصريح (١ : ١٢٨) طبع ١٣٤٤ والمغنى (١ : ١٥٥) طبع ١٣٤٨ .

أَمَا أقاتِلُ عن دِينِي على فَرَسٍ ولا كَذَا رَجُـلاً إِلَّا بأصحابى[١]

والمَعْنَى ولا كما أنا الساعةَ راجِلًا .

١٥٦

وقال عُرْوَة بن الوَرْد[٢] :

١– قلتُ لِقَوْمٍ فى الكَنِيفِ تروَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ

تقدير البيت : قلتُ لقوم رُزَّحٍ عشيَّةَ بِتْنَا عند مَاوَانَ فى الكنيف : تروَّحوا . والمعنَى بَعثْتُهم على السَّير فى الرَّواح ، وإن كانوا مُتَسَاقِطى القُوَى[٣] كالِّينَ ، لا حَرَاكَ بهم ، ولا نُهُوضَ يُقِيمُهم ، هَزْلَى لتأثيرِ السَّفَرِ فيهم ، وظهورِ أَثَرِ الشُّقَّةِ عليهم . وواحد الرُّزَّح رَازِحٌ[٤] ، ويقال رَزَحَ البعيرُ رُزُوحاً ،

(١) فى نوادر أبى زيد ص ٥ وكذا عند التبريزى : « بأصحاب » ، بدون إضافة . وقد تكلم أبو زيد على البيت ، ونسبه إلى حيى بن وائل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ . وكان من خبر هذه الأبيات كما فى ديوانه ص ٨٨ والتبريزى عن أبى رياش : « تتابعت على معد سنوات جهدن الناس جهداً شديداً ، وكانت غطفان من أحسن معد فيها حالا ، وترك الناس الغزو لجدوبة الأرض ، وكان عروة فى تلك السنين غائبا فرجع مخفقا قد ذهبت إبله وخيله ، وجاء إلى قومه وقد عنن بعضهم عليه عنة ، فندب منهم رهطا فخرجوا معه فنحر لهم بعيرا وحملوا سلاحهم على بعير آخر وقدّد لهم بعيرا فوزعه بينهم وخرج يريد أرض قضاعة ، وقصد قبل أرض بنى القين ، فمر بمالك بن حمار الفزارى وقد نفد ما معه فقال له مالك : أين تنطلق بفتيانك هؤلاء تهلكم ضيعة ؟ قال : إن الضيعة ما تأمرون به : أن أقيم حتى أهلك هزالا . فقال : إن أطعتنى رجعت على حرسين – وهما جبلان فى أرض بنى فزارة – فكان طريقك حتى تأتى قومى فتكون فيهم . فقال : فما أصنع بمن كنت عودتهم إذا جاءونى واعترونى ؟ قال تعتذر فيعذرونك إذا لم يكن عندك شىء . قال : لكن أنا لا أعذر نفسى بترك الطلب . فقال عروة يذكر شدة حال أهل الكنيف ومن بماوان ، وقيامه بأمرهم حتى صلحوا ، وندبه إياهم حتى خرجوا معه » .

(٣) م : « ساقطى القوى » . (٤) الكلام بعده إلى « رزاح » ساقط من م .

إذا أَعْيَا، وإبِلٌ رَزْحَى، وقَوْمٌ رِزَاحٌ (١) أى مَهَازِيلُ ساقِطُون. والكنيف: الحَظِيرة من الشَّجَر.

٣ — تَنَالُوا الغِنَى أو تَبْلُغُوا بنفوسِكُم ... إلى مُسْتَرَاحٍ من حِمَامٍ مُبَرِّحِ (٢)

قولُه « تنالوا » جواب الأمر من البيت الأول، وهو تَرَوَّحوا. والمعنى: سِيروا واجتهدوا تنالُوا الغنى، وتَبْلُغوا حَدًّا من الطَّلَب يُفْضِى بكم إلى الموت المُرِيح الباسط لعُذْرِكم (٣). والمُبَرِّح: المُلِحّ الشديد، ومن هذا وصف الرِّيح بالبارِح. ويقال: بَرَّح بِىَ الحُبُّ، أى اشتدَّ؛ وبَرَّحَ بِى فلان، إذا آذى؛ وأَبْرَحَ الرَّجلُ، إذا أتى بالبَرْح، والبَرْح يكون الشدةَ ويكونُ العَجَبَ، ومنه قول الأعشَى:

* أَبْرَحْتَ رَبًّا وأَبْرَحْتَ جارَا (٤) *

٣ — لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يُصيبَ رَغِيبَةً ... ومُبْلِغُ نفسٍ عذرَها مِثْلُ مُنْجِحِ

قولُه « لِيَبْلُغَ » تفسير ما قَدَّمَهُ. ويشير بقوله « عُذْرًا » إلى قاطع المَوْت لأنَّ المجتهد فى طَلَب الشىء إذا حَال أجلُه دون أَمَلِه فقد أَعْذَرَ، إذْ كان قد فعل ما عليه (٥). وقولُه « أو يصيبَ رَغِيبَةً » إشارةٌ إلى نيلِ الغِنَى. والرُّغْب: اتِّساعُ الشَّىء، ومنه بَطْنٌ رَغِيبٌ. وقولُه « ومُبلغ نفسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحٍ » أى من أَعْذَر فيما يَطْلُبُه، أصابَهُ أو فَاتَهُ، فقد أَنْجَح. وهذا الكَلَامُ وإن كان ظاهِرُه

(١) هذا الجمع لم يرد فى المعاجم المتداولة، وبدله « رزاحى » بفتح الراء مع قصر آخره.
(٢) الديوان: « من عناء مبرح ».
(٣) م: « إلى موت يريحكم ويبسط عذركم ».
(٤) هو بتمامه فى ديوان الأعشى ٣٧:
تقول ابنتى حين جد الرحيـ * ـل أبرحت ربا وأبرحت جارا
(٥) م: « إذا كان ما عليه قد فعل ».

وظاهِرُ صَدْرِ البيت الأوّل أنَّه يتكرر به المعنى الذى قدمه فيه ، فليس الأمر كذلك ، لأنَّه ذَكَرَ فى الأوّلِ إبلاغَ النّفس من المَوْتِ حَدًّا يُرِيحُهُ ، ولم يُبيِّن من فَعَل ذلك : هل أَنْجَحَ أولا . وفى الثانى بَيَّنَ أنّ المُعْذِرَ فى طَلبِ الشيء كالمُنْجِح ، وأنّه إذا استَغرَقَ وُسعَه فى طَلَب ما يَهُمّ به ثم حالَ دونَهُ حائلٌ فقَدْ أَعْذَر . وفى طريقته قَوْل أبى تمام :

لِأَمْرٍ عليهمْ أن تَتِمَّ صُدُورُهُ ... وَليسَ عليهم أن تَتِمَّ عَواقِبُه

١٥٧

وقال أبو الأَبْيَض العَبْسىّ(١) :

١ — ألا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ ... وقَدْ حَانَ منهم يومَ ذاكَ قُفُولُ

قولُه « شِعرى » اسم لَيْت ، وخَبرُه مُضمرٌ استُغنىَ عنه بمفعولِ شِعْرِى . وليت شِعْرِى لا يجىء إلاّ هكذا ، كما أنَّ لولا يجىء أبدًا مَحْذُوفَ خبر المبتدأ الذى بَعْدَهُ ، وقد استُغْنِيَ عنه بجوابه ، وذلك كقولك لولا عبد الله لَفَعَلْتُ . وقولُه « هَلْ يَقُولَنْ فَوَارِسٌ » سَدَّ مَسَدَّ مفعول ليتَ شِعْرِى . ومعنى الكلام ليتَ عِلْمِى وَاقعٌ : هل يَقَع هذا القَوْلُ من الفُرْسَانِ فى تلك الحال ؟ ومفعول « يَقُولَنْ » أول البيت الثانى ، وهو قولُه « تَرَكْنَا » ، واعتَرَضَ بينهما قَوْلُه « وقد حَانَ منهم يَوْم ذلكَ قُفُولُ » ، وموضِعُهُ نَصْبٌ على الحال ، والذى تَمَنَّى عِلْمَهُ أنَّهُ هَلْ يُقْتَلُ ، فإذا انْصَرَفَ الأَبْطَالُ عنه قالوا هذا القَوْلَ أولا . وتحقيق الكلام : ليتنى عَلِمتُ ما يقتضى هذا السّؤالُ من الجواب ، لأنّ ذاكَ يُهِمُّه

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : وكان فى أيام هشام بن عبد الملك ، وخرج مجاهداً فى بعض الوجوه فرأى فى المنام كأنه أكل تمراً وزبداً ودخل الجنة ، فلما كان من الغد أكل تمراً وزبداً وتقدم فقاتل حتى قتل » .

لا نَفْس السُّؤال . وقولُه : وقد حَانَ منهم قُفُولٌ ، أى رُجُوعٌ عن المَعْركة إلى ديارِهم وحَيِّهم ، كأنَّهُ كان هَمَّ بالاستقبال ، ووَطَّنَ نفسَهُ من مُصادمةِ العَدُوِّ(١) ، ومصادَمَةِ القِتال على ما غَلَّبَ اليأسَ من الانصرافِ عنهم ، لتعرُّضه لِمَا لا يَسْلَمُ مَعَهُ من يُلَابِسُهُ ، فتَكلَّم بذلك . وقولُه « يَوْم ذاكَ » إشارةٌ إلى يوم ملاقاةِ الأعداء . فإن قيل : هل تُقَدِّر فى الكلام بعد الاستفهام شيئاً لأنَّكَ إذا استفْهَمْتَ عن شىءٍ كان ما تَسْتَفْهِم عنه وخِلافُه سَوَاءً عندكَ ، وإلاّ لم تكن مُسْتَفْهِمًا ؟ قُلتَ : مَعْنَى الاستفهام هَلْ يَقُولَنْ فوارِسٌ كذا ، وهل زَيْدٌ عِنْدَكَ ، عَلَى « أَوْ » أو « أَمْ » وَلَوْلا ذلك لامتنع الاستفهام . وسنَشرح الكلام فيما يقتضيه هذا الموضع فى البيت الذى بعده .

٢ ـ تَرَكْنَا ولم يُجْنَنْ من الطَّيْرِ لَحْمُهُ أَبَا الأَبيَضِ العَبسِيَّ وهو قَتيلُ(٢)

يقول : ليتنى عَلِمتُ هل يقولون فى مُنْصَرِفِهم تَرَكْنا أبا الأبيض مصرُوعاً متروكاً بالعَرَاء، تَعفُوهُ(٣) سِباعُ الطير وتأكلُ من لحمِه، غيرَ مستُورٍ عنها ولا ممنوعٍ منها . وقد اعتَرَضَ بيْنَ تَرَكْنا ومفعولِهِ وهو أبو الأبيض بقوله « ولم يُجْنَنْ من الطيرِ لحمُهُ » ، وموضعُه نَصْبٌ على الحال . فإن قيل : فما المُقدَّر بعد الاستفهام هنا من حرفَىِ العطف : أم ، وأوْ ، وكيف يكون معنى الكلام مع ذلك المقدَّر ؟ قُلْتَ : المعنى على أَوْ ، بدلالة أنه يُجابُ مثل هذا الكلام بنَعَمْ أَوْ لا ، إذ كان المبنَى على ليتنى عَلِمتُ هل يَقَعُ ذلك منهم . فأمّا تقدير أَمْ وهى عاطفةٌ فلا يصحُّ فى مثل هذا الموضع ، كما لا يجوز اللَّفظ بها على جهة المعادلة . وقد قال أبو العبّاس :

(١) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « على مصادمة العدو » .
(٢) التبريزى : « ولم نُجْنِنْ » .
(٣) تعفوه : تعتريه . وهذه رواية م . وفى نسخة الأصل : « تقفوه » .

لا يكونُ أَمْ بَعْدَ شىء من حروف الاستفهام سِوَى الألف إلاّ على كلامين . وأما تقدير أَمِ المنقطعة فبعيدٌ ، لأنه لو قُصِـدَ لم يكن بُدٌّ من ذِكْرِه وذِكْرِ المُستفْهَمِ به عنه بعده . فاعلَمْهُ .

٣ــ وَذِى أَمَلٍ يرْجُو تُرَاثِى وإنّ مَا يَصِيرُ له مِنِّى غَدًا لَقَلِيلُ

يقول : رُبَّ إنسانٍ يُعلِّقُ طَمَعَه بميراثى ، ويرجو تحصيله بَعْدِى ، والذى يَنالُه منه غدًا ــ يُشِيرُ إلى يَوْمِ مَوْتِهِ ــ قليلٌ غير كثير . والمَعْنَى : إنّى لا أَذْخَرُ مالى بل أُتْلفه فى اكتساب المحامد ، فلا يكون لى تُرَاثٌ إلا سلاحى وما لا بُدَّ للفارس منه .

٤ــ وما لِى مالٌ غيرُ دِرْعٍ حَصِينَةٍ وأَبيَضُ من ماءِ الحَديدِ صَقِيلُ(١)

٥ــ وَأَسْمَرُ خَطِّىُّ الْقَنَاةِ مُثَقَّفٌ وأَجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلُ

نَفَى أن يكون له مالٌ يدَّخِره(٢) طولَ حياتِه ، ويرِثُه الوارث بعدَ مماتِه إلاّ دِرْعَهُ وبَيْضَتَهُ ، وسَيْفاً مَصْقولاً طُبِـعَ من خالِص الحديد ، ورُمْحًا حُمِلَتْ قَنَاتُه من الخَطِّ ــ وهو جزيرةٌ بالبَحْرَيْن ــ وفَرَسًا قصيرَ الشَّعْرِ مُنْجَرِدَ الظَّهْرِ من اللَّحْمِ ، مُشْرِفَ الهامَةِ ، طويل القامَةِ . المِغْفر : حَلَقٌ يتَقَنَّعُ بها المتسلِّحُ ، وكذلك الغِفَارَةُ . وقال الخليل : المِغْفَرُ : رَفْرَفُ البيضةِ . وأصلُ الغَفْرِ التغطية والسَّتر . وقوله « غير دِرْعٍ » يجوز رفعُه ، وهو الوَجْه ، على أن يكون بدلاً ، ويجوز النَّصْب على الاستثناء .

٦ــ أَقِيهِ بِنَفْسِى فى الْحُرُوبِ وأَتَّقِى بِهادِيهِ إِنِّى لِلْخَلِيلِ وَصُولُ

---

(١) م والتبريزى : « غير درع ومغفر » . وأشير فى حواشى الأصل إلى أنها فى نسخة « ومغفر » .

(٢) م : « يذخره » .

هذا معنًى شريفٌ حسَن . يقول : أحْفَظُ مَقاتِلَ فَرَسِى بفخذى ورِجْلى ، وأتّـقِى فيما[1] يأتينى بعُنُقِه . والمعنى : من أراد أن يصيب مَقتَلى جعَلْتُ بينى وبيْنَهُ عُنُقَ دابّتى ، كما أنّ من أراد مَقتَلَ فَرَسِى أجعلُ بينه وبيْنَهُ فَخِذَىَّ ورِجْلَىَّ . ثم قال : « إنِّى للخَليل وَصُولُ » أى لا أَخْذُلُهُ فى الشدائد ولا أنتفِـعُ به إلاّ وأنفعُه . وهذا مَثَلٌ . والعربىُّ يُسَمِّى[2] سلاحَهُ ومَرْكُوبَه خَليلاً ، على ذلك ما أنْشَدَه الأصمعىُّ ، وهو :

وإنِّى كما قالَتْ نَوَارُ إنِ اجتَلَتْ عَلَى رَجُلٍ ما شَــدَّ كَفِّى خَليلُها

١٥٨

وقال قَيْس بن زُهَيْرالعَبْسِىُّ[3] :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَضَاعَ بَنُو زِيَادٍ ذِمَارَ أَبِيهِمُ فِيمن يُضِيعُ

اللامُ من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدأ محذوفٌ ، كأنهُ قال : لعمرُكَ قَسَمِى . يقول : وبقائك ما ضَيَّعَ هؤلاء العصابةُ من حقِّ أبيهم وشرَفِ أسلافهم ، ما يوجب التذمُّرَ عند المحافظة عليه فى جُملة من يُضِيـعُ حُقوقَ آبائهم ، وما أَثَّلُوهُ من مَفاخِرِهم ومحاسِنِهم ؛ بل حافظوا عليه بما ضَمُّوا مما استحدثوه واطَّرَفوه إليه . وحَذَفَ مفعول يُضِيع كأنه قال : فيمن يُضِيع الذِّمَارَ . ويُقالُ : فلانٌ حامى الذِّمار ، أى إذا ذَمَرَ وغَضِبَ حَمِىَ . وهذا كما يُقالُ ، هو ثَبْتُ الخَبَارِ ، أى إذا حَصَلَ فى الخَبَار ثبت . وقولُه « ما أضاعَ » تهكُّمٌ

(١) م : « مما » .

(٢) فى النسختين : « والعرب تسمى » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤ . والتبريزى : « وقال قيس بن زهير فى بنى زياد الربيع ، وعمارة ، وأنس ، وكان يقال لهم الـكملة » .

أو تعريضٌ؛ لأنَّ الذين أخبر عنهم أَشْهَرُ أمرًا وأعظمُ شأنًا مِن أن يُقالَ فيهم ذلك .

٢ — بَنُو جِنِّيَّةٍ وَلَدَتْ سُيُوفًا صَوَارِمَ كُلُّهَا ذَكَرٌ صَنِيعُ

يَعْنِي ولَدَ زياد بن عبد الله بن ناشِبٍ العَبْسِيّ ، يقول : هم بنو امرأةٍ كأنَّها فى فَضْلِها ودَهَائها منَ الجِنّ . وهذه المرأة هى فاطمة بنت الخُرْشُبِ الأنماريّة ، وهى إحْدَى المُنْجِبات من العرب ، وكانت قد رأت فى مَنَامِها كأنّ[1] قائلاً قال لها : « أَعَشَرَةٌ هِدَرَةٌ[2] ، أحَبُّ إليك أم ثلاثة كعشَرَةٍ » فلما انتبهت اقتصَّتْ رؤياها على زوجها فقال لها : إن عاوَدَكِ فَقُولى : بل ثلاثةٌ كعشرةٍ . فرجعت إلى المنام ورأت مثل ما رأَتْ من قبل ، فجعلت تَقُولُ فى الجواب : بل ثلاثة كعشرة . فولدت بنين ثلاثة[3] صَارَ كلٌّ منهم أبًا لقبيلة ، ومُعَظَّمًا فى قومه وعشيرته ، وهم ربيع الحَفاظ ، وعُمَارة الوَهّاب ، وأنَس الفَوَارس . وكما جعل الأم جِنّيَّةَ لخروجها فيما أتَتْ به عن المعتاد [من الإنس[4]] جعل الأولاد سيوفًا . ومعنى البيت : هم أولاد امرأة ولدَتْ رجالا كأنهم فى النَّفاذ سُيُوفٌ

---

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « أن » .

(٢) ضبطت فى الأصل بالتحريك ، وفى م بكسر الهاء ، وفيها لغة ثالثة وهى ضم الهاء وفتح الراء ، أى ساقطون ليسوا بشىء . وفى اللسان : قال ابن سيده : والفتح أقيس ، لأنه جمع هادر مثل كافر وكفرة . وإما هدرة — أى بكسر ففتح — فلا يكسر عليه فاعل من الصحيح ولا المعتل ، إلا أنه قد يكون من أبنية الجموع . وأما هدرة — أى بضم ففتح — فلا يوافق ما قاله النحويون ، لأن هذا بناء من الجمع لا يكون إلا للمعتل دون الصحيح نحو غزاة وقضاة ، اللهم إلا أن يكون اسماً للجمع . والذى روى هدرة بالضم إنما هو ابن الأعرابى . وقد أنكر عليه » .

(٣) وهذا يوافق السجع قبله . والحق أنهم أربعة ، أو أنهم صاروا فيما بعد أربعة وهم المسمون بالكملة . والرابع هو قيس الحفاظ . وأما ربيع فالمعروف فى لقبة ، أنه « ربيعة الكامل » . انظر شروح سقط الزند ٢٠٥١ والاشتقاق ١٦٩ .

(٤) التكملة من م .

قواطع ، كلٌّ واحدٍ منها ذَكَرُ الحدِّ ، مَصْنُوع صقيلٌ . و « صَنِيعٌ » كما استُعْمِل فى السَّيْف استعْمِل فى الخيل . يقال صَنَعْتُ الفَرَس ، إذا ضَمَّرْتَه .

٣— شَرَى وُدِّى وشُكرِى من بَعيدٍ   لآخِرِ غالبٍ أبداً رَبِيع

يقال : شَرَيْتُ الشَّىءَ بمعنى اشتريت وبِعْتُ جميعا ، وكذلك بِعْتُ يَصْلُح للأمرين ، ومن شَرَيْتُ الضَّرْوَى ، وهو المِثْلُ ، لكن لامُهُ وهو ياء قُلِبَتْ واوًا ، لأنّ فَعْلَى إذا كان اسماً ولامُه ياء يُفعَلُ به ذلك ، فَرْقاً بين الاسم والصفة . وعلى هذا قولهم الفَتْوى . فيقول : اشترى ربيعُ الحِفَاظِ على بُعْدِه مِنّى ، وُدِّى له ، وثَنَائى عليه وعلى آخِرِ رُجُلٍ يبقى من بنى غالب أبداً[1] . وقوله « من بَعيدٍ » فى موضع الحال . وإنّما قال هذا لأنّه ناله إحسانه ووجَبَ عليه شُكْرُهُ وبينهما مَسَافَةٌ وبُعْدٌ .

---

(١) وكذا وردت العبارة بتمامها عند التبريزى مما يدل على اعتماده اعتماداً كبيراً على المرزوقى وزاد التبريزى : « وإنما شكر الربيع بن زياد لقيامه معه ، ونصرته إياه فى حرب داحس . وذلك أن الربيع قد كان ساوم قيساً على درع له ، والربيع راكب وقيس راجل ، فلما وضعها على قربوسة ركض فرسه فمضى بها ، فلما انتجعوا أخذ قيس بن زهير بزمام أمه فاطمة بنت الخرشب يريد أن يرتهنها بدرعه فقالت : أين ضل حلمك يا قيس ؟ أترجو الصلاح فيما بينك وبين بنى زياد ، وقد ذهبت بأمهم يمنة ويسرة ، وقال الناس ما شاءوا ، وحسبك من شر سماعه ! فذهبت مثلا . وعلم قيس أنها صدقت ، فأرسلها وأغار على إبل الربيع فاستاقها وكان هذا بينهما . فلما قتل حذيفة مالك بن زهير ظن قيس أن الربيع لا يقوم معه بطلب ثأر أخيه لما بينهما من الشحناء . فلما قام معه قال قيس :

* شرى ودى وشكرى من بعيد *

أى كان يبنى وبينه بعد فألقى العداوة وراء ظهره ونصرنى ، للرحم والقرابة . وغالب من عبس . وقال أبو هلال وروى هشام بن محمد بن السائب الكلبى هذه الأبيات لحاتم . وكان قد جاور حاتم زمن الفساد بنى زياد عبد الله بن عبس ، فأحسنوا جواره ، فقال فيهم هذه الأبيات » .

١٥٩

وقال هُدْبَةُ (١) :

١ — إنِّى من قضاعَةَ مَنْ يَكِدْهَا أَكِدْهُ وَهْىَ مِنِّى فى أَمَانِ (٢)

ليس يريد بهذا الكلام نسبة نَفْسِهِ إلى قُضَاعَةَ فقط ، بل يريدُ اختصاصَه بهم ، وتعصُّبَه لهم . وهذا كما يقال : أنا من فُلاَنٍ وإلى فُلانٍ ، أى ابتدائى منه وانتهائى إليه ، فيقول : إنِّى مُنْتَمٍ إلى قُضَاعة أَهْوَى هَوَاها ، وضَلْعِى معها ، فمَنْ عَادَاهَا أو نابَذَهَا عاديْتهُ ونَابَذْتُه ، وهى آمنةٌ من مَكْرُوهى وأذاى ، إذ كُنْتُ أنعَطِفُ عليها فيما يَنُوبُها ، وأغْتَفِرُ زَلاَّتِها فيما يتفق مِنها . وهذا الكلام فى التنبيه فى الاختصاص ، والإبانَةِ عن الطاعة والإخْلاص ، من أَبْلَغِ كلام وأَكْرَمِ إيناس . ألا تَرَى أنه فَصَّلَ ما أَجْمَلَ ، وفَسَّرَ ما أَبْهَمَ بقوله « من يَكِدْها أَكِدْهُ وهى مِنِّى فى أمَان » ؟ وهذا صفة جوارح الإنسان مع جملته وأبعاضِه مع كُلِّهِ ، بدَلالةِ أنّه يدافع من يريد إصابة أحدها ، ثم هى آمِنَةٌ من جنايته عليها ، أو على شىء منها .

٢ — ولَسْتُ بشاعِرِ السَّفْسَافِ فيهم ولَكِنْ مِدْرَهُ الحَرْبِ العَوَانِ

---

(١) التبريزى : « هدبة بن خشرم » . المبهج : « هدبة واحدة الهدب ، وهى للثوب وللأرطى ... ... والخشرم : جماعة النحل ، وهو أيضاً الثول والدبر » . وهدبة ابن خشرم بن كرز شاعر عذرى ، وكان صاحب زيادة بن زيد العذرى فى سفرة ، فلم يزل يطلب غرته حتى قتله ، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص ، وكان ولى دمه أخوه عبد الرحمن زيد ، فمكنه منه سعيد فقتله . انظر الأغانى (٢١ : ١٦٩ — ١٧٧) ومعجم المرزبانى ٤٨٣ واللآلى ٢٤٩ — ٢٥٥ ، ٦٣٩ — ٦٤٠ والخزانة (٤ : ٨١ — ٨٧) والشعر والشعراء ٦٧١ — ٦٧٦ .

(٢) روى التبريزى خبر هذه الأبيات مسهباً فى نحو تسع صفحات تصور ما كان بينه وبين زيادة بن زيد من عداء ومكايدة .

يقول : ليس مَحَلِّى منهم وفيهم محلَّ شاعرٍ يُسَفْسِفُ القَرِيضَ ، ثم يقف دُونَ غايته باليدِ واللِّسان . والسَّفْسَاف : ما لا خَيْرَ فيه من الأفعال والأقوال : وفى الحديث : « إنَّ الله تعالى يحب معالىَ الأمور ويُبْغِضُ سَفْسَافَهَا » . والعَوَانُ من الحرب : التى قُوتِلَ فيها مرّةً بعد أخرى . فإن قيل : أين عَجُز البيتِ مِنْ صَدْرِه فى النظام ، وهلَّا قال بعد ما نَفَى عن نفسه من الشّعر الرّكيك : ولكنِّى شاعِرُ المتخيَّرِ الرصين ؟ قلتَ : إنَّمَا المُراد[1] التنبيهُ على فَضْلِهِ فيهم[2] وطَوْلِهِ ، وعلى كفاية بيانه ، وعلى غَناء سِنانه . والحرب كما تقع بالضِّرَابِ والطِّعان تقع بمجاذبة الحِجَاج عند النِّفار والفَخَار . وآثر أن يقول : « ولكن مِدْرَه الحَرْب » ليدخل تحته الأمْرَان جميعا . وقيل : المِدْرَه هو السَّيِّد الذى يُدْفَعُ به الشَّرُّ فينتظم به أمورُ الحَرْبِ ، ويقوم بأسباب الصِّحاب . وذَكَرَ بعضُهم أنه من دَرَه عَلَيْنَا ، أى طلع . وقيل إنه من دَرَأَ أى دَفَعَ ، وأنَّ الهاء فيه بَدَلٌ من الهمزة . ويجوز أن يكون الكلام تعريضاً بإنسان نَفَى عن نفسه حَالَهُ وَأَنْبأَ أَنَّ الأمر[3] بخلافه .

٣ ـ سَأَهْجُو من هَجَاهُمْ مِنْ سِوَاهُمْ ۝ وأُعْرِضُ مِنْهُمُ عَمَّنْ هَجَانِى

قولُه « من سواهم » يتعلَّق مِنْ بهجَاهم[4] ، وموضعه نَصْبٌ على الحال . ويحتمل معانِىَ : يجوز أن يريد به مخالطاً لغيرهم ؛ لأنَّ مِن هذه تكون للملابسة ؛ على ذلك قولهم : أنت مِنِّى فرسخين ، أى أنت مُخَالِطِى . يقوله الدَّليل والخفير[5] . ويكون للولاء والنُّصْرَة ، على ذلك قول النابغة :

(١) م : « إنما أراد » .
(٢) كذا فى م ، وفى الأصل : « منهم » . (٣) م ، « أمره » .
(٤) م والتبريزى : « من سواهم يتعلق بمن هجاهم » .
(٥) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « يقوله الدليل الحقير » .

إذا حَاوَلْتَ فى أسَدٍ فُجُورَا فإنى لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتَ مِنِّى

فيكون معنى « مِن سوَاهم » ناصراً لغيرهم . وتكون للنَّسْل والولادة . يقول هُمْ مِنْ أَبٍ واحِدٍ وبعضهم من بعض ، فيكون المعنى منتسِبًا إلى غير أصْلِهِم . وعلى هذا قوله « وأُعْرِضُ منهم » يتعلق مِن بهجانى ، ويكون الكلام فى موضعه ومعناه على الحدّ الذى بيّناه . من تعرض لهم بمكروهٍ أو ذَكَرهم بسوءٍ فإنِّى أدافِعُهُ عنهم ، وأعارِضُه دونهم ، وأقاتله عن تناوله منهم ، ومن تَعَرَّض لى منهم فإنِّى أُعرِض عنه ، وأصْفَحُ عن غَيِّه فلا أؤاخِذُه بِهِ ، صِيَانَةً لهم ، ومحافظة على ما يجمعنى وإياهم .

١٦٠

وقال عَمْرو بن كُلثوم[١] :

١ ــ مَعَاذَ الإلٰهِ أنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا على هَالِكٍ أو أن نَضِجَّ من القَتْلِ

مَعَاذ الله ، من المصادر التى لا تكون إلا منصوبةً ، وُضِعَتْ موضِعًا واحداً من الإضافة على ما تَرَى ، ولا يتصرف . والعياذ فى معناه ومن أصله ، وهو يتصرَّف مرفوعاً ومنصوباً ومجروراً ، وبالألف واللام . وانتصب معاذ الإلٰه على إضمار فِعْلٍ تُرِكَ إظهاره . ويقولون : عائذاً بالله من شَرِّها ، فيجرى مَجْرَى عِياذاً بالله ، كأنه قال : أعوذ بالله عائذاً وعِيَاذاً . ومن أبيات الكِتاب :

---

(١) ليس فى حاجة إلى ترجمة . وشهرته شاعراً من شعراء المعلقات شهرة ظاهرة . وهو تغلبى من بنى عتاب ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة . انظر ترجمته بإسهاب فى الأغانى (٩ : ١٧٥ – ١٧٨) والخزانة (١ : ٥١٧ – ٥٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٤٤ – ٤٥ والشعر والشعراء ١٨٥ – ١٨٨ .

أَلْحِقْ عَذابَك بالقَوْمِ الذين طغَوْا   وعائذاً بك أن يَعْلُوا فيُطْغُونى(١)

ويُقال : عُذْتُ بالله عَوْذاً ومَعَاذاً وعِياذاً . ويقالُ : أَفْلَتَ منه عَوَذاً بفتحتين ، أى عائذاً ، وأَتَيْتُهُ عَوَذاً . وهذا الكلامُ تبرُّؤٌ من إظهار الجزَع على قَتْلاهُم ، واستعمالِ البكاء والضِّجاج فى بَلْواهم ، وتَصَبُّرٌ على نوائب الدَّهر ، وانتفاءٌ من تكرُّهِ القَتْل . يقولُ : نعوذُ بالله من نَوْحِ نسائنا على مُتَوَفًّى منا مفقُودٍ ، ومن ضجيجنا من القَتْلِ والقِتال ، وكيف يكون أحدُ هٰذين مِنَّا وقد تعوَّدَتْ نساؤنا الثُّكْل ، ونشأْنا فى ممارسة الحَرْب ومزاولتها . وفى طريقته قولُ الآخر(٢) :

إذا ما أَتَتْنى مِيتَتى لمْ أُبالِها   ولم تُذْرِ خالاتى الدُّموعَ وعَمَّتى

٣ ــ قِرَاعَ السُّيُوفِ بالسُّيوف أَحَلَّنَا   بأرْضٍ بَرَاحٍ ذى أَرَاكٍ وذى أَثْلِ

الأصلُ فى البَرَاحِ الأرْضُ التى لا بناء فيها ولا عُمْرَانَ . والمُقَارَعةُ : مُضارَبةُ القومِ فى الحرب . وكلُّ شىءٍ ضربتَهُ بشىءٍ فقد قَرَعْتَه . وهذا على حَذْفِ المضاف ، كأنه قال قِرَاعُ أصحاب السُّيوفِ بالسُّيوفِ . أخبَرَ عن نفسه وذويه بأنّ صَبْرَهم فى دارِ الحِفاظ هو الذى أنزَلهم بأرْضٍ واسعةٍ ذاتِ أثْلٍ وأَرَاكٍ ، وصَرَفَهم عن الانتجاع وتَطَلُّب الخِصْبِ فى المَظَانّ(٣) . وهذا صريحُ ما قاله غيرُه(٤) ، وهو :

* أَنَخْنَا لِحالفَنَا السُّيوفَ على الدَّهْرِ(٥)

(١) كتاب سيبويه (١ : ١٧١) واللسان (عوذ) . وقد نسب فيهما إلى عبد الله ابن الحارث السهمى . وانفرد اللسان برواية : « أن يغلوا » .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

(٣) هذا ما فى م . وفى الأصل : « والمظان » .

(٤) هو يحيى بن منصور . الحماسية ١٠٨ .

(٥) صدره :   * فلما نأت عنا العشيرة كلها *

والأراكُ : شجرٌ تُتخذ منه للمَساويك . ويقال : إبلٌ أَوارِكُ ، إذا اعتادَتْ أَكْلَها . والأثْلُ أيضاً : شجرٌ . وهذا كما قال الآخر[1] :

وتَحُلُّ فى دارِ الحِفَاظ بُيُوتُنا زَمَنًا ويَظْعَنُ غيرُنا بالأَمْرُعِ[2]

ونَبَّهَ بذِكْرِ الأرض البَرَاح على أنّهم غير محتجزين[3] بحُصُونٍ ولا قِلاعٍ ، ولا ممتنعين بهِضابٍ ولا جِبالٍ . والأَثْل والأَرَاكُ يَنْبُتانِ فى السَّهْلِ أكثر ، فوَكَّدَ بذكرهما المُرَاد ، وجَعَل البَرَاح بدلاً من قوله « بأرْضٍ » ولذلك قال « ذى أَرَاكٍ » ولم يَقُلْ ذاتِ .

٣ — فما أَبقتِ الأيّامُ مِلْمَالِ عِنْدَنا سِوَى جَذم أَذْوَادٍ مُحذَّفَةِ النَّسْلِ

أراد بالأيّام الوَقَعات . وقوله « مِلْمَالِ » أرادَ من المال ، فجَعَلَ الحذْفَ بدلاً من الإدغامِ لمّا التَقَى بالنون واللام حَرْفان متقابلان ، الأوّل مُتَحَرِّكٌ والثانى ساكنٌ سكوناً لازمًا . والمعنَى : ما بَقَّى تأثيرُ الحوادِث ونَكَباتُ الأيّامِ عندنا من أُصولِ المال ومقتنياتِها ، إلاّ بَقَايا أَذْوَادٍ قطَع الضُّرُّ نَسْلَها ، وتمكَّنَ الهُزَالُ وسوءُ الحال منها ، فهى على شَرَفِ فَنَاءٍ وذَهابٍ . والجِذْمُ : الأصلُ . والأَذْوَادُ : جمع الذَّوْد ، والذَّوْدُ يقع على ما دون العَشَرَة . وقال أكثر أهل اللُّغة : إنها تَقَعُ على الإناث دون الذُّكورِ . وبعضهم يجوِّز وُقوعَها على الذكور أيضاً . وما فى البيت يَشْهَدُ للأوّل .

٤ — ثَلاَثَةُ أَثْلاثٍ فأَثْمانُ خَيْلِنَا وأقواتُنا وما نَسُوقُ إلى الْعَقْلِ[4]

---

(١) هو الحادرة الذبيانى . المفضليات (١ : ٨) .

(٢) المفضليات : « ونقيم » . م والمفضليات : « للأمرع » .

(٣) م : « محتجرين » بالراء المهملة .

(٤) فى الأصل : « وأقواتها » . تحريف . ورواية التبريزى : « إلى القتل » .

أراد : أموالُنا ثلاثة أثلاث ، فيرتفع الثلاثة على أنه خَبَرُ مبتدأ محذوف ، وما بعدَها تفسيرٌ لها وتفصيل[1] . ونَبَّهَ بما أَوْرَدَ وقَسَم على الوجوه التى انصرَفَتْ إليها أموالُهم فأَفْنَتْها ، والطُّرُقِ التى توزَّعَتْها فقلَّلتها ، فقال : افترَقَتْ أموالُنا فِرَقًا ثلاثًا[2] ففِرقةٌ منها صرَفْناها إلى أثمانِ خَيْلِنا لأنّا غزّاؤون ، ومُعَالِجُو حُرُوبٍ ، فلا نستغنى عنها ؛ إذ كان جدُّنا وهَزْلُنا منها وبها . وفِرقةٌ منها حَبَسْناها على أقواتِنا ومعايشنا ؛ لأنّ العُفَاةَ والزُّوّار كانت تنتابُنا وتتناوَبُ علينا حتى تستَغرِقَها ، لأَنّ إقامَتَنا بدارِ الحِفاظ [شغَلَتْنا[3]] عن الغَزْوِ واجتذاب الزّيادة إليها . وفرقةٌ منها وجَّهناها إلى الدِّيات ، وأرُوش الجِنايات التى كَسَبَتْها أيدينا ، واجترحَتْها رِماحُنا ، إذ كنا لعِزِّنا ومَنْعَتِنا لا يُطْمَعُ فى الاقتصاص منَّا . ومثْل هذا قولُ الآخر[4] :

* نأسو بأموالنا آثار أيدينا[5] *

---

(١) ابن جنى فى التنبيه : « أى أموالنا ثلاثة أثلاث ؛ فحذف المبتدأ وحذفه أيضاً فيما بعد فى قوله : فأثمان خيلنا . أى فثلث أثمان خيلنا ، أو فأثمان خيلنا ثلث وكذا وكذا . وجاز أن يقدره على : ثلث أثمان خيلنا . فيبتدئ بالنكرة ويخبر بالمعرفة ، من حيث كان الغرض إنما هو ثلث أموالنا من ذى ناحية تناولناه . ويجوز أن تعتقد زيادة الفاء فإن ذلك كثير فى الشعر والقرآن . فيبدل أثمان وأقوات وما نقود ، من ثلاثة أثلاث . أى مالنا أثمان خيلنا وأقواتنا وما نقود إلى القتل . وقال ثلاثة أثلاث ولم يقل ثلاثة أقسام من قبل أن الأقسام قد تكون متساوية وغير متساوية ، فأراد صحة القسمة ، واعتدال المساهمة » .

(٢) م : « ثلاثة » ، وكلاهما صحيح . فإن العدد إذا تأخر عن المعدود جاز فيه المطابقة وعدمها . انظر حاشية الصبان على الأشمونى ، فى أوائل (باب العدد) .

(٣) التكملة من م .

(٤) هو بشامة النهشلى . الحماسية ١٤ .

(٥) صدره : * بيض مفارقنا تغلى مراجلنا *

١٦١

وقال المثَلَّم بن عَمْرٍو[١] :

١ — إِنِّى أَبَى اللهُ أَنْ أَمُوتَ وَفِى صَدْرِىَ هَمٌّ كَأَنَّهُ جَبَــلُ

يقول : يأبَى اللهُ عزّ وجلّ لِيَ الاخترام وفى نفسى هَمٌّ عَظِيمٌ لا أَسْعَى فى إمضائه وتنفيذه . ويَعْنِى بذلك دَمًا يَطْلُبُهُ ، أو حِقْدًا يَنْقُضُهُ ، أو مُنًى من عَدُوِّهِ[٢] يُدْرِكُهُ . وهذا الكلامُ وعِيدٌ وإيذانٌ بأنه مجتهدٌ فى الطَّلَب ، وراجٍ ألاَّ يَحُولَ الأجَلُ بينَهُ وبين الأمَلِ ، بِمَا عَوَّدَهُ اللهُ من الصُّنْع والظَّفَر بالمَطْلوب . والواو من قوله « وفى صَدْرِى » واوُ الحال . وموضِـع « كأنّه جبَل » صِفَةٌ للهَمِّ . والهَمُّ يجوزُ أن يَكُون مَصْدَر هَمَمْتُ بالشىء ، ويجوز أن يكون واحِدَ الهُمُوم .

٢ — يَمْنَعُنِى لَذَّةَ الشَّرَابِ وإنْ كانَ قِطَابًا كَأَنَّهُ العَسَــلُ

هذا من صِفَةِ الهمّ . يقول : يَصُدّنى ذلك الهمُّ عن التَلَذذ بالشَّراب ، وإن طاب وصار مِزَاجًا كالعَسَل يُستحلَى ولا يُتَكَرَّه . ومثله لأبى ذُؤَيْبٍ :

* فَجَاءَ بِمَزْجٍ لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ[٣] *

---

(١) التبريزى : « المثلم بن عمرو التنوخى » ، ثم قال : « تنوخ هم أولاد تيم الله بن أسد ابن وبرة » . المبهج : « تنوخ اسم للقبيلة ، يجوز أن يكون فعولا من تنخ بالمكان ؛ أى أقام به . ويجوز أن يكون تفعل من الإناخة » . وقد ذكره الآمدى فى المؤتلف ١٨١ والمرزبانى فى معجمه ١٨١ . وأنشد الآمدى هذه الأبيات ، ثم قال : « وهذه الأبيات فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى » . وتقول : إن هذه الحماسية فى بقية أشعار الهذليين ص ٢٥ منسوبة للبريق بن عياض .

(٢) م : « عدو » .

(٣) عجزه فى ديوان الهذليين (١ : ٤٢) واللسان والمقاييس (مزج ، ضحك) :

* هو الضحك إلا أنه عمل النحل *

جَعَلَ ما يُمزَج به مَزْجًا . ورواية الأصمعى « مِزْجًا » بكسر الميم . فالمِزْج كالمزاج والقِطَاب ، سَمَّاه بما يُستصلح له من ذلك أو يُفعلُ به من بَعْدُ . وإنما قال هذا لأنّ الواحد منهم إذا أُصيب بمن يَمَسُّه أو وُتِرَ فيمن يَقرُب منه ويختصُّه ، كان يَعْقِد على نفسِه نَذْرًا فى مجانبةِ بعض اللَّذَّات أو أكثرِها ، من معاقَرة الشَّراب أو مجامَعَة النِّساء أو ما يجرى مجراها ، إلى أن ينالَ المراد ، ويحصِّل المُرتاد . ويقال قَطَبْتُ الشرابَ ، أى مَزَجْتُهُ . ويُروى : « وإن كان رُضَابًا » . ويجوز أن يريد به ماء فَمِ محبوب . ويجوز أن يريد ماء مَحَلُّه فى جنسه ذلك المحلُّ من الشَّرابِ .

٣ — حتى أَرَى فارِسَ الصَّمُوتِ عَلَى أَكْسَاءِ خَيْلٍ كأنَّها الإبلُ[(١)]

حَتَّى تعلَّقَ إن شئت بقوله أَبَى الله ، وإن شئت تعلَّقَ بيمنعُنى ، والتقدير فى الوجهين : يأبَى الله موتى حتى أَرى هـذا الأمرَ ، أو يمنعنى الهمُّ الالتذاذَ بالشَّراب حتى أَراه وأُشاهِدَه . والصَّمُوت : اسمُ فَرسِـه[(٢)] . ويعنى بفارسه نفسَه . وأكساء الخيْـل : أدبارها . ويقال هو يكسُوه ويَدْبُرُه ويَذْنُبُه ، أى يكونُ فى أثرِه . وحكى الخليل أَكسأْتُهُ الخيـلَ . والمعنى : لا يكون ذلك حتى أرى نفسى تَرْكُضُ فى أدبار خيْلٍ منهزمةٍ وتَسُوقُها ، كما تُساق الإبِلُ . وقيل شبَّهَها بالإبل فى عِظَم خَلْقِها وإشرافها . والكلام على هذا يُرادُ به خيلٌ مخصوصةٌ يتوعّدها ويعيِّن عليها .

(١) التبريزى « ويروى : كأنها أبل ، بضم الهمزة والباء ، وهى جمع أبيل . والأبيل : العصا والخيل تشبه بالعصى فى ضمرها وصلابة لحمها . قال امرؤ القيس :

* كأنها هراوة منوال * » .

(٢) التبريزى : يجوز أن يكون اسم فرس ، أو اسم حى من العرب » .

٤ — لا تحسبنّى مُحَجَّلا سَبِطَ الـــسَّاقَيْنِ أَبْكِي أن يَظْلَعَ الجَمَلُ

هذا توعُّدٌ وتعريض بالمخاطَب . المحَجَّل ، يجوز أن يكون مأخُوذًا من الحَجْل الذى هو القَيْد ، ومن الحَجْل الذى هو الخَلْخَالُ ، ويجوز أن يكون من الحَجَلة . والمعنى : لا تظنَّنى إنسانًا مُتَرَفًا مُنَعَّمًا لا غَناء عِنْدَه ، ولا كفاية لديه ، ولا رأىَ يُسْتَنَد إليه ، ويعوَّل فى المهمّات عليه ، فهو فى العجز كالممنوع المُقَيَّد ، وكالمرأة المخَلخَلة ، وكالمخدَّر الملازم للحجال والفُرُشِ يجزع — لضعف نُهُوضِه ، وسقوط قُوَاهُ ، وسوء بصيرته — من ظَلْع جَمَلِهِ فَضْلًا من غيره . وقولُه « أَبْكِى أن يَظْلَعَ الجَمَل » صَرَف الكلامَ إلى الإخبار عن نفسه ، ولو قال « يبكى أن يَظْلَعَ » لَتَرَكَ الاستمرار فى صفة المحجَّل جاريًا على حَدِّهِ ، غير متحوِّل عنه ، وكان الكلام أحسَنَ فى قِرَانِ النَّظْم .

٥ — إنِّى امرُؤٌ من تَنُوخَ ناصِرُه مُحْتَمِلٌ فى الحُروب ما احتَمَلوا(١)

قوله « من تَنُوخ » أى أنْتَسِب إليها ، وأهْوَى هَوَاهَا . و« ناصِرُهُ » نَكِرَة لأن إضافته إضافة تخفيف لا إضافة تعريف ، والتَّنوين منوىٌّ فيه ، أراد : ناصرٌ له . وقوله : « ما احتملوا » أراد : ما احتملوه ، فحذَف المفعولَ لطول الصِّلَة . والمعنى : إنّى مخالطُهم وناصرٌ لهم ، وصابرٌ على ما يَصْبِرون عليه ، وناهضٌ تحت العِبءِ الذى ينهضون فيه .

(تم القسم الأول من شرح المرزوقى للحماسة)

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : ويروى ناصرهم ، أى ناصر لهم . قال : وهذا الشعر فى أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلى . وقال : إنى امرؤ من هذيل » .

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

ـــــ - ٤٢١

نشره

أحمد أمين عبد السلام هارون

القسم الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٢

وقال عبد الله بن سَبْرَةَ[1] :

١ — إذا شالَتِ الجَوْزاءُ والنَّجمُ طالِعٌ فكُلُّ مَخاضاتِ الفُراتِ مَعابِرُ

٢ — وإنِّي إذا ضَنَّ الأميرُ بإذْنِه عَلَى الإذْنِ من نَفْسِي إذا شِئتُ قادِرُ

أراد بالنَّجم الثُّرَيّا ، وأكثر ما يعترض هذه اللفظةُ فى استعمالِهم مُعَرَّفًا يُرادُ به الثُّريّا لا غير ، ألا تَرَى قول الهُذَلِيّ[2] :

فَوَرَدْن والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ الـ ضُرَباءِ خَلْفَ النَّجْمِ لا يَتَتَلَّعُ

والجوزاء سُمِّيت بذلك لأنّ وَسَطَها أبيض . وجَوز كلِّ شيء : وسَطُه . والوَقْتُ الذى يشير إليه يشتدّ فيه الحرّ . لذلك قال ساجِعُهُم : « إذا طلع النَّجْمُ ، فالصَّيْفُ فى حَدْم ، والعُشْبُ فى حَطْم » . فكأنّ قائلَ هذا الشعرِ استأذَنَ صاحبَهُ فى الانتقال إلى البَدْوِ فلم يأذَنْ له ، فأخَذَ يتشكَّى[3] عن مُرادِه بهذا

---

(١) عبد الله بن سبرة الحرشى ، منسوب إلى جرش ، وهو موضع باليمن . قال أبو رياش : « كان عبد الله بن سبرة هذا أحد فتاك العرب فى الإسلام ، وكان رجل من الروم يقال له سعد الطلائع يأتى صاحب الصوائف ، فيقول سعد لصاحب الصائفة : ابعث معى جندا أدلهم على عورات الروم ، فيتوغل بهم وقد جعل لهم كمينا من الروم فيقتلون ، فأكثر ، فقال يوما لصاحب الصائفة : ابعث معى رجلا من أصحابك فإنى قد عرفت غرة لهم . فانتدب عبد الله بن سبرة ومضى معه حتى انتهى إلى غيضة فقال لعبد الله : ادخل . فقال له عبد الله : أنا الدليل أم أنت ؟ فأبى وعرف عبد الله ما أراد فقتله ، وخرج عليه بطريق من بطارقتهم فاختلف هو وعبد الله ضربتين فضربه عبد الله فقتله ، وضربه الرومى فقطع إصبعين له » .

(٢) هو أبو ذؤيب ، ديوان الهذليين (١ : ٦) .

(٣) م : « يتسلى » : والوجه ما فى الأصل .

الكلام ويتوجَّدُ(١) . ويقول : إذا تَنَاهَى الحَرُّ وارتفعت الجوزاء فى أوّل الليل إلى كَبِد السماء ، وطَلَع الثريَّا عند السَّحَر ، فكلُّ مَخاضةٍ من جوانب الفُرَات مَعْبَرٌ لى أهرُبُ فيه ؛ لأنّ نُضُوبَ الماء ونقصانَه يكون فى ذلك الوَقتِ . وقوله « والنَّجْم طالعٌ » لو وَلِيَه « إذا » فقيل إذا النجم طالعٌ ، لم يَصْلُحْ ؛ لأنّ الجملةَ التى يُبَيَّن بها إذَا لا بُدّ فيها من فِعلٍ ، لما يتضمّن من معنى الشَّرْط والجزاء . تقول آتيك إذا زيدٌ يَأمُرُ(٢) . ولو قلتَ آتيكَ إذا زيدٌ أميرٌ لم يَصْلُح ؛ لكنّه لما انعطَفَ على قوله « شالَتِ الجَوْزاء » حَسُنَ حَمْلاً على المعنَى ، كأنّه قيل : وطَلَع النجمُ . وهذا إذا كان الواو فيه للعطف ، ويجوز أن يُجْعَلَ الواوُ واو الحال ، يُرِيدُ إذا شالَتِ الجوزاء فى حال طُلُوع النجم . والعاملُ فى « إذا » ما دَلّ عليه قولُه : « فكلُّ مخاضات الفُرات معابر » . وقولُه : « وإنى إذا ضَنَّ الأميرُ » ، يقول : إذا تمنَّع الأميرُ من الإذْنِ لى ، وصدَّنى الوقتُ عن مُرادى ، ولم أقْدِر على جَوازِ المَسالح والمَرَاصِد ، لكونها مشحونةً بالمُرْتَبِين(٣) فيها ، انتظرتُ غَيْضَ الماء وجَزْرَه فى الفُرَاتِ ، وإمكانَ المخاضاتِ من العُبُور والذَّهابِ ، فحينئذ آذَنُ لنَفْسى وأهرُبُ . وإنما قال ذلك لأنّ المَشارعَ لا تُضْبَطُ كما تُضْبَطُ الجُسُورُ ومَضايقُ الطُّرُق .

١٦٣

وقال الربيع بن زيادٍ العبسى(٤) :

١ – حَرَّقَ قَيْسٌ علىَّ البلا دَ حتَّى إذا اضطَرَمَتْ أجْذَمَا

(١) يقال توجد فلان أمر كذا ، إذا شكاه ، وهم لا يتوجدون سهر ليلهم : لا يشكون ما مسهم من مشقته . م : « ويتوعد » .

(٢) يقال أمر كفرح وكرم ، أى صار أميرا . (٣) تسهيل المرتبئين .

(٤) الربيع بن زياد العبسى : أحد الكملة . انظر ما سبق فى حواشى الحماسية ١٥٨ فى القسم الأول .

يقول : ألْهَبَ قيس بن زهير البلادَ علىَّ ناراً تتوهَّجُ ، فلماَّ استعَرَتْ وتأجَّجَتْ هرَب وتركَنى أصْطلِى بها وإنما قال هذا لأنّ قيسًا ترك أرض العَرَب وانتقل إلى عُمَان بعد إثارة الفِتَن واهتياجِ الشر ، فى سَبْق داحس . والإجذام : الإسراعُ فى السَّيْر، وجعلَه مَثلاً لانزوائه ونَفْضِه اليَدَ مما كانَ لابَسَه وتولاّهُ من إيقاد نار الحرْب بين الفريقين .

٢ — جَنِيّةُ حَرْبٍ جَنَاها فما تفُرِّجَ عنـه وما أسْـلِمَا

جَنِيٌّ : فَعِيلٌ فى معنَى مفعول ، لـكنَّه أَلْحَقَ الهاء به لأنّه جعلَهُ اسماً ، كما أُلحق بالبَنِيَّة وهى الـكعبة ، وبالذَّبيحة والنطيحة . وهذا اعتدادٌ على قَيْسٍ بما جَنَاهُ[1] ، وتحمُّدٌ بما أتاهُ ، وامتنانٌ بأنه لمْ يقعُد عن نُصْرَتِه ، ولم يخْذُلْهُ وقت حاجته ، ولم يُخَلِّه للأعداء وقت إقامَتِه ، ولا تَرَكَ النيَابةَ عنه واعتناقَ الأمرِ بعد غيبته ، بل نهَضَ فى الشرّ والقتال ما اتّصَلَ نُهوضُه ، وتفرَّدَ بالدِّفاع عنه عند فُتُورِهِ ونُفورِهِ . وقوله « فما تفُرِّجَ عنه » ، أى ما تفُرِّقَ عنه ولا تُكُشِّفَ .

٣ — غَدَاةَ مَرَرْتَ بآلِ الرِّبا بِ تَعْجَلُ بالرَّكْضِ أنْ تُلْجِمَا

أقبَلَ يخاطِبُ بعد ما كان يُخبِرُ ، على عادتهم فى تصاريف كلامهم ، وقولُه « غَدَاةَ مَرَرْتَ » ظَرْفٌ لما دَلَّ عليه أجْذَمَا . أى هَربتَ فى ذلك الوقت والأوان . و « تُعْجَلُ » فى موضِـع الحال . والمعنى : اجتَزت بآل هذه المرأةِ مُسْتَعْجَلاً برَكْضِ الأعْداءِ[2] فى أثرِكَ ، حتى لم تَتَّسِع لإلجام دابّتِكَ ، ولم تأمَنْ رَيْثَ إصْلَاحِ أمْرِكَ ، والتهيُّؤ لنجاتك . وقولُه « أن تُلْجِمَ » فى موضع النَصب مِن تُعْجَلُ ، وكان الواجب أن يَقُولَ تُعْجَلُ بالرَّكْضِ عن أن تُلْجِمَ ، فحذَفَ

(١) م : « فيما جناه » .
(٢) م والتبريزى : « تركض الأعداء » .

الجارّ ووصَل الفِعل فعَمِل . وفى القرآن : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى ﴾ .

٤ — وكُنَّا فوارِسَ يَوْمِ الهَرِيـ ـرِ إِذْ مالَ سَرْجُكَ فاسْتَقْدَما[1]

يومُ الهَرِيرِ معروف[2] . وإنما قال كنا فُرسانَ هذا اليوم ، لِمَا كان عُرِفَ من جميل بلائهم ، وحُسْنِ ثباتهم فيه ووفائهم ، وليذكِّرَ بتبريزهم حين نكصُوا على أعقابِهم ، وقصَّرُوا عن شأوِهم . وذِكْرُ مَيْلِ السَّرْجِ مَثَلٌ ، وقولُ جرير يَشْهَدُ لذلِك ويَكْشِفُه ، حين قال :

قُلْ للجَبَانِ إذا تأخَّرَ سَرْجُـهُ هَلْ أنتَ من شَرَكِ المنيَّةِ نَاجِ

والمراد اضطرابُ الأمرِ وفَشَلُ الرأى وتمكُّنُ الخوف والدَّهَشِ من المنهزم ، ونزولُه عما يَهُمُّ بركوبه . وفى طريقته قول الآخر :

لاَ تَجْعَلُونَا إِلَى مَوْلَى يَحُلُّ بِنَا عَقْدَ الحِزَامِ إِذَا مَا لِبْدُهُ مَالاَ

وكما جَعَلَ الحزامَ مَثَلاً لتدارُكِ الأمرِ وتلافِى فاسِدِه على الوجه الذى تَرَاهُ ، جَعَلَ تَرْكَ شَدِّ الحزام عند ما يَطْرُق أو يَنُوبُ مَثَلاً للتحَزُّم والتجمُّع قبل نُزول الخطْبِ ، حتَّى إذا بَدَتْ أَعْنَاقُهُ لا يحتاج إلى استئنافِ شىء لتَمام أُهْبتِه . وعلى ذلك قولُ امرئِ القَيْس :

أَقْصِرْ إِلَيْكَ من الوَعِيـدِ فإنّنى مِمّا أُلاَقى لا أَشُـدُّ حِزامِى

فتأمَّلْ ما فتَحْنَا مُبْهَمَهُ تَنَلْ كلّ فائدةٍ ، وتَظْفَرْ بكلِّ غنيمة . ويقال : استَقْدَمَ بمعنى تَقَدَّم ، وفى ضِدّه استأخر بمعنى تأخَّرَ . والمعنى : كنا فُرسانَ هذه الوقعةِ فى هذا اليوم المشهور ، حين كُنتَ للشَّرِّ مُمْورًا ، وعلى شَفَا البَلاءِ مُوفيًا .

---

(١) التبريزى : « فكنا » .

(٢) انظر الأغانى (١١ : ٥٥) ومعجم البلدان فى رسمه .

٥ — عَطَفْنَا وَرَاءَكَ أَفْرَاسَنَا وَقَدْ أَسْلَمَ الشَّفَتَانِ الفَمَا

يقول : تَعَطَّفْنا عليك فى ذلك الوقت ، ودافَعْنا دونك ، وقد كَشَرَت الأسنانُ وأسلمتها الشفاه ، تَقَلُّصًا عَنْهَا ويُبوسةً حادِثةً فيها . وذِكْرُ الفمِ كناية عن الأسنان ؛ كما يُقالُ فَضَّ اللهُ فاهُ . ويقال فى هذا المعنى ذَبَّتْ الشِّفَاهُ[1] . ومِثْلُهُ قولُ عَنْتَرَةَ :

* إذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الفَمِ[2] *

والواو من قَوْلِه قد أسْلَمَ الشفتان واو الحال . والاستعارة بإسلام الشفتين فى نهاية الحُسْن .

٦ — إذَا نَفَرَتْ من بَيَاضِ السُّيُو فِ قُلْنَا لَهَا أَقْدِمِي مُقْدَمَا

يقولُ : إذا جَبُنَتْ خَيْلُنَا وحادَتْ عن تلألُؤ السيوف وبريق الشَّمس وشُعَاعِها فى السِّلاح ، وهَرِير الأبطال وتداعيها ، أكْرَهْنَاهَا على الإقدام . وذِكْرُ القَوْلِ ها هنا كنايةٌ عن الفعل ، وهذا كما يقال قال برأسِه كذا ، إذا حَرَّكه ، وقال بسَوْطِه ، إذا أشار به . والمُقْدَم والإقدامُ بمعنًى . وحقيقة الكلام إذا نَفَرَتْ قَدَّمْناها تقديما .

١٦٤

وقال الشَّنْفَرَى[3] :

١ — لا تَقْبُرُونِي إنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عليكُمْ ولكن أبْشِرِي أُمَّ عامِرِ

(١) ذبت : ذبلت وجفت من العطش أو غيره .

(٢) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى *

(٣) الشنفرى : شاعر جاهلى من بنى الإواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث . انظر أخباره فى الأغانى (٢١ : ٨٧) . والشنفرى اسمه ، وقيل لقب له ، ومعناه العظيم الشفة . وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد الثلاثة العدائين .

يقال : قَبَرْتُ الإنسانَ ، إذا دفنْتَه ؛ وأقبَرْتَه إذا جعلْتَ له مَوْضع قَبْرٍ. وفى القرآن : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فأقْبَرَهُ ﴾ . والشّاعر كأنّهُ نبّهَ بهذا الكلام على أنّه مِمّنْ يُقتَل ويُترَك بالعَرَاء لا يَرْثى له شَقيق ، ولا يرثيه[1] نسيبٌ ولا رفيقٌ ، فيأتيه عَوَافِى السباع والطّير . فخاطَبَ أصْحابَهُ وقال : لا تدفنونى إنّ دَفْنِى مُحَرّمٌ عليكم ، يريهم استغناءه عنهم حيًّا وميّتاً ، ورِفْعَةَ نفسِه عن الاستنامَةِ إليهم والاعتماد عليهم ، وذهابَه عنهم فِعلَ المجانِبِ لهم ، البعيد منهم . ثم قال « ولـكن أبشِرى أمّ عامر » ، أى ولـكِنِ الضّبُع تأكُلُ لحمى فأبشِرى أمّ عامرٍ ، جَعَلَهُ كما هُوَ لَقَبُ الضّبُع[2] . وموضِعُه من الإعراب مبتدأ والخبر محذوفٌ ، وهو يأكلنى وتتولّى أمْرِى ونحوُهُ . وهذا فى أنّه جُملةٌ جُعِلَتْ لقَباً وفى أنّ شَرْطَها أن تُحْـكى ، كتأبط شرًّا وما أشبهه . وإنما جُعِلت لقَباً لها لأنّ العادةَ فى اصطياد الضّبُع أن يُقصَدَ وِجارُها ويُحْفَرَ وهى تتأخّر شيئاً شيئاً . والصائدُ يقول : أم عامرٍ ليست ها هنا ؟ أبشِرِى أُمّ عامرٍ بشَاء هَزْلَى ، وجَرادٍ عَظْلَى ؛ خامِرِى أمّ عامرٍ ليست ها هنا ؟ فلا يزالُ يَحْفِرُ الوِجارَ ، ويكرِّر هذا الكلامَ ؛ والضّبُع تتأخّر حتّى تبلُغَ أقْصَى وجارِها فتخرجَ حينئذٍ بأغْلَظِ عُنُفٍ . ولمّا كان الأمْرُ [على هذا[3]] فى اصطيادها لقبَها ببعض ما تُخاطَبُ به فى تلكَ الحال ، فكأنّهُ قال : لا تَقْرَبونى إذا مِتُّ فقد حَرّمْتُ دَفْنى عليكم ، ولـكِنّ الذى يُقالُ لَهُ أبشِرى أمّ عامرٍ ولىُّ أمْرِى دونَـكم . فهذا وَجْهٌ حَسَنٌ إليه يَذْهَبُ الحُذّاق من أصحاب المعانى . وحكى سيبويه عن الخليل فى قول الأخطل :

ولقد أبيت من الفتاةِ بمعزلٍ ... فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا محرومُ

(١) كذا فى م . وفى الأصل : « ولا يرثه » .

(٢) الصواب « كنية الضبع » .

(٣) التكملة من م .

أنه قال أبيت الذى يقال له لا حَرَجٌ ، فحَكَى . ثم قال : يقوّيه فى ذلك قول الأخْطلِ :

على حينِ أنْ كانتْ عُقَيْلٌ وشائطًا وكانتْ كِلاَبٌ خامِرِى أمَّ عامِرِ[١]

لأنه أراد كانت كِلاَبٌ التى يقال لها خامِرِى أمَّ عامِر ، فحكى ذلك الكلام وكَنَى به عن الضَّبُع . ويحتمل أن يكون البيت على كلامَين ، كأنّه قال : لا تدفنونى ، مخاطِباً أصحابه ورفقاءهُ ، وليس يُرِيدُ نَهْيَهم عن ذلك ؛ ولكن يريد كَشْفَ حَالِهِ لهم ، وبيانَ عاقِبَةِ أمْرِه فيهم . ثم أقبَلَ على الضَّبُع فقال : أبْشِرِى يا أمّ عامِرٍ ، فإنَّكِ تأكُلِينَ مِنِّى . ويكونُ هذا فى تحويل الكلام عن شىء إلى آخر ، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يوسُفُ أعْرِضْ عن هذا واستَغْفِرِى لذَنْبكِ إنَّكِ كُنْتِ من الخاطئين ﴾ ، فاعْلَمْ ذلك تنتفعْ به إن شاء الله . ويقال بَشَّرْتُه فأبْشَرَ ، كما يُقال فَطَّرْتُه فأفْطَر . ويقال بَشَرْتُه بالتخفيف بمعنى بَشَّرْتُهُ ، فاستَبْشَر . وحُكِىَ أبْشَرْتُه أيضًا .

٣ ـ إذا احْتَمَلُوا رَأْسِى وفى الرأسِ أكْثَرِى وغُودِرَ عندَ المُلْتَقَى ثَمَّ سائِرِى

إذا ظَرْفٌ لقَوْلِهِ تَقْبُرُونى ، أو لِمَا دَلّ عليه اللَّفْظُ والحال ، وقد جُعِل خَبَراً للمبتدأ الذى بَعْدَ لَكِن ، وهو قَوْلُهُ أبشرى أمّ عامرٍ[٢] مَن يأكُلُنِى أو يَتوَلَّى أمْرِى . ويجوز أن يكون ظَرْفاً لقَوْلِهِ أبْشِرِى فى القَوْلِ الثّانِى . وإنما قَالَ « وفى الرَّأسِ أكْثَرِى » لأنَّ الحواسَّ خَمْسٌ ، وأرْبَعٌ منها فى الرأسِ : البَصَرُ للمرئيات ، والأذن للمسموعات ، والأنف للمشمومات ، والفَمُ للمَذُوقات . وقد اعتَرَض به بين المعطوفِ والمعطوف عليه ، وساغَ ذلك لأنَّه يُسَدِّدُ المعنى المطلوب

(١) الوشائظ : الدخلاء فى القوم ليسوا من صميمهم . والبيت فى اللسان (وشظ) .

(٢) أى الذى يقال له أبشرى أم عامر هو الذى يأكلنى أو يتولى أمرى . انظر ما سبق فى ص ٤٨٨ س ١٤ — ١٧ .

ويؤكِّدُه . وقولُه « وغُودِرَ عند المُلتَقَى ثَمَّ سائرِى » ، يروى بفتح الثاء ويكون ظرفا وإشارة إلى المعركة ومزدَحَمِ الناس . والتقدير وغُودِرَ ثَمَّ سائرِى حيث التقَى القَوْمُ بعد أن حُمِلَ رأسُه لشُهرَته ، أو ليُعْلَمَ به إتيانُ القَتْلِ عليه . ويُروى « ثُمَّ » بضم الثاء ويكون حرفَ العطف عُطِفَ به سائرِى على المُضْمَر فى غُودِرَ ، والمعنى غودِرَ رأسُهُ ثُمَّ سائرُهُ حَيْثُ التَقَى القَوْمُ للنِّظارة . والأولى أجْود . وإنَّما ضَعُفَت هذه لأنّ عَطفَ الظاهر على المضمر المرفوع ضعيفٌ حَتَّى يُؤَكَّدَ . وتأكِيدُه : وغودِرَ هو عند الملتَقَى ثُمَّ سائرُهُ . ويجوز أن يكونَ سائرى فى موضِع النَّصْب معطوفاً على رأسى ، كأنّه احتملوا رأسَه ثم سائرَهُ ، فيكون أقْرَبَ . وكان الشَّنْفَرَى أحَدَ الخُلَعاء الذين تبَرّأ عشائرُهم منهم وأسْلمُوا بجرائرهم ، ولهذا قال فى نَفْسِه :

طَرِيدُ جِنَاياتٍ تيَاسَرْنَ لَحْمَهُ   عَقِيرَتُهُ لأَيِّها حَنَّ أوَّلُ[1]

ومن أجْلِ ذلك كَشَفَ القِناعَ مَع قومه ، وأخذ يتفادى منهم ويقول : لا تَقْبُرُونى إن قبرى مُحَرَّمٌ عليكم . فإن قيل : أين جوابُ إذا ؟ قلتَ : إنْ جملتَه ظَرْفاً لقولِه لا تقبرونى فذاكَ جوابُه ، وكذلك إن جملتَه ظَرْفاً للخبر المقدّر . والسائر : الباقى من الشىء ، وهو من السُّؤْر ، وأسْأَرْتُ فى الإناء .

٣ – هُنَالِكَ لا أرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنى   سَجِيسَ اللَّيالى مُبْسَلاً بالجرائرِ

أشار بقوله « هنالك » إلى الوقت الذى يتناهى فيه الأَمَد ، ويدنُو فيه الأجَل ، لا إلى الوَقْتِ الآنى بَعْدَ القتل ، وهو ظَرْفٌ لِلاَ أرْجُو . والمعنى : فى ذلك الوقت لا أطمع فى حياةٍ سارَّةٍ لى ، وأنا مخذولٌ مُسْلَمٌ بجرائرى فى القبائل ، لا يرَى إلا شامِتٌ بى ، أو طالبٌ للانتقام منّى . وقولُه « سَجِيسَ الليالى » يُرادُ

(١) البيت من لاميته التى يقال لها « لامية العرب » .

به امتدادُه وسلاسَتُه فى الاتصال وهو اسم الفاعِلِ من سَجُسَ[1] . وقد أحْكَمْنا القولَ فيه فى كتابِنا الأزمنة[2] . وهو ظَرْفٌ لقولِهِ مُبْسَلاً بالجرائر . وانتصب مُبْسَلاً على الحال . والجرائر : جَمْع الجريرة . وأُبْسِلوا : أُسْلِمُوا . وفى القرآن ﴿ أُلٰئِكَ الذين أُبْسِلُوا كَسَبُوا ﴾ .

١٦٥

وقال تأبَّطَ شرًّا :

١ ــ وَقالوا لها لا تَنْكِحِيهِ فإنّه ... لِأَوَّلِ نَصْلٍ أَنْ يُلاَقِيَ مَجْمَعَا

كان تأبَّطَ شرًّا خطَبَ امرأة عبسية ، فأرادت إجابته وَوَعَدَتْ مُناكَحَتَهُ ، فلما جاءها أظهرَتِ الزُّهْدَ ، وأخلَفَتِ الوَعْدَ ، واعتلَّت بأنَّ الرغْبَةَ فى شَرَفِهِ وفَضْلِهِ كما كانت لـكنَّهُ قيل لها ما تَصْنَعِين برجُلٍ يُقْتَل عَنْكِ قريباً ، لأنّ له فى كل حَيّ جناية ، وعنده لـكلّ إنسانٍ طائلة ، فتبْقَيْنَ أيِّمًا ! فانصرف تأبَّط شرًّا وقال هذه الأبيات .

وقولُه « أن تُلاَقِيَ » يجوز أن يكون موضِعُهُ رَفْعًا بالابتداء ، وخَبَرُهُ لأوَّلِ نَصْلٍ ، والجملة فى موضِع خبر إنّ . [والتقديرُ : إنّ[4]] تأبَّطَ شرًّا مُلاقاتُهُ مَجْمَعًا لأوَّلِ نَصْلٍ يُجرَّدُ . ويجوز أن يكون « يُلاقى » فى موضِع النصبِ على أن يكون بَدَلاً من الهاء فى « إنّه » ، كأنّه قال إنّ ملاقاتَهُ مَجْمَعًا لأوّلِ نَصْل . والهاء فى فإنّهُ يجوز أن يكون لتأبَّطَ شرًّا ، وهو الأجود فى الوجهين . ويجوز أن

(١) ابن جنى : « يقال سجس الماء إذا فسد وتغير . ومنه عندى قولهم : لا أكلمك سجيس الدهر ، أى امتداده . والتقاؤهما أن الشيء إذا طالت مدته فى غالب الأمر تغير وفسد ، كأنه قال : لا أكلمك إلى آخر المدة التى يتغير فيها الدهر » .

(٢) الأزمنة والأمكنة (١ : ٢٩٣) . وهذا نص صريح فى أن المرزوقى ألف شرح الحماسة بعد تأليفه كتاب الأزمنة .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ .

(٤) التكملة من م .

يكون الأمر والشأن فى الوجه الأوَّل ، ويكون تفسيرُه الجملة . ويجوز أن يكون فى موضع الظَّرْف ، أىْ زَمَنَ أن يُلاقِىَ مَجْمَعًا . والمعنى هو لأوّلِ نَصْلٍ إذا لاقى مَجْمَعًا ، أى يُقْتَلُ بأوّلِ نَصْلٍ يُعمَل[1] فى ذلك الوقت . ويُرْوى « أن يُلاقِىَ مَصْرَعا » ، والمَصْرَع يجوز أن يكون مَصْدَرًا ، ومكانًا ، وزمانًا . وانتصابه يجوز أن يكون على أنه مفعول يُلاقِىَ ويجوز أن يكون مفعولُ يُلاقى محذوفًا ويكون مَصْرَعًا فى موضع الحال ؛ كأنه قال أن تلاقِيَه ذا مَصْرَعٍ ، أى مصروعًا ، فحَذف المُضافَ .

٢ ـ فَلَمْ تَرَ مِنْ رأيٍ فَتيلًا وحاذَرَتْ تَأَيُّمَهَا من لَابِسِ اللَّيْلِ أَرْوَعَا

يقول : لم ترَ هذه المرأة من الرأى لمَّا قَبِلَتْ مَشُورة الناسِ وتَمنَّعَتْ من مناكحتى مايوازى فَتيلًا ، أى ما يغنى غناء فتيل . وقد حَذِرَت بَقاءها أيِّمًا من رَجُلٍ رَكَّابِ اللَّيل لا يفارقه فِيمَا يَهُمُّه ، فكأنَّه لبأسِهِ ذَكِىُّ القَلْبِ شَهْمٌ . والقتيل والنَّقِير والقِطْمِير يُضْرَبُ المَثَلُ بها فى حَقَارَةِ الشيء . والأَرْوَعُ يكون الحديدَ القَلْب المَرَوَّعَ الفؤاد ، ويكون الجميلَ . وقولُه « وحاذَرَتْ » فى موضع الحال والأجْوَد أن يُضْمَرَ معها « قَدْ » أىْ لم تَرَ فَتيلا من الرأى مُحاذِرة .

٣ ـ قَليلُ غِرَارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّه دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُسَفَّمَا

هذا من صفة لابِس الليل . فإن قيل : ما معنى قليل غِرَارِ النَّوْم ؟ وإذا[2] كان الغِرارُ القليلَ من النَّوم ، بدِلالة قولهم ما نَوْمُهُ إلا غِرَارًا[3] ، فكيف جاز أن تقول قليل غرار النوم ، وأنت لا تقولُ هو قليلُ قليلِ النوم ؟ قلتَ : يجوز أن يُرادَ بالقليل النَّفْى لا إثباتُ شيء منه ، والمعنى : لا ينَامُ الغِرَارَ فكيف

(١) يعمل ، من الإعمال لا من العمل . وفى م : « يعمد » .
(٢) فى الأصل : « وإنما » ، صوابه فى م .
(٣) م : « إلا غرار » بالرفع ، وهو الأصوب . وقد أنشدوا فى الشاذ :
وما الدهر إلا منجنونا بأهله وما صاحب الحاجات إلا معذبا

ما فَوْقَهُ ؟ ويجوز أن يكون المعنَى نومُه قَليلُ ما يقِلُّ من النَّوْم ، أى نَوْمُه قليلُ القليل ، يريدُ به أنَّهُ مُسَهَّدٌ ، وأن أ كبَرَ(١) ما يَهتمّ له طلبُ دَمِ الثأر ، أو ملاقاةُ كَمِيّ مُسَفَّعِ الوَجْهِ ، لدَوَامِ تَبذُّلِه للسَّمائم ، وتَسيارِه فى الهَوَاجِر . والكَمِىُّ : الذى يَكْمِى شَجَاعتَهُ لوقتِ الحاجة إليه ، وقيل هو الذى يَتكَمَّى فى سِلاحِه ، وقوله « أوْ يَلْقَى » أَنْ مُضْمَرَةٌ بين أَوْ والفِعْل ، ولولا ذلك لم يَجُزْ عَطْفُ الفِعل على الاسم ، لاختلافهما . وإذا أُضْمِرَ « أنْ » يَصيرُ حرفُ العطفِ ناسقًا اسمًا على اسم ، والتقدير : أَكْبَرُ هَمِّه دَمُ الثأر أو لقاء كَمِيّ . ومثل هذا قولُه تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ ، والتقدير : أو أن يرسل رسولا ، حتى يكون أنْ مع الفِعْل فى تقدير مَصْدَر مَنْسُوق على قَوْله وَحْيًا ، إذ قد امْتَنَعَ أن يُحْمَلَ على أن يُكلِّمَ .

٤ — يُعَاصِمُهُ كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمُهُ وما ضَرْبُهُ هَامَ العِدَى لِيُشَجَّمَا(٢)

يجوز أن يكون قولُه « يعاصِمُه » صفة لكَمِيًّا مُسَفَّعا ؛ لأنَّ مِثْلَهُ من الأفعَالِ يكون صِفَةً للنَّكِرَةِ وحَالاً للمعرفة ، ويكون الثناء على خَصْمِهِ الذى هَمُّه ملاقَاتُهُ ، كالثَّنَاء عليه . ويجوز أن يكون راجعًا إلى الأوَّل ، وداخِلاً فى صفاتِهِ فيَتْبَعَ قوله قليلُ غِرَارِ النوم . ومعنى يعاصِمُهُ : يقاتله . وأصله الضَّرْبُ بالسَّيف والرَّمْىُ . ويقال مُصَع بذنَبِهِ ، إذا حرَّكَهُ . ومَصَعَ الطائر بذَرْقِهِ ، إذا رَمَى به .

---

(١) كذا فى م وهو الأوثق . وفى الأصل : « أكثر » .

(٢) التبريزى : « ويروى : كلٌّ يُشَجِّعُ يومَه

ويروى : كلٌّ يشجِّعُ نَفْسَه

ومن روى : كل يشجع قومه بالنصب فالمعنى راجع إلى ما ذكرناه أيضاً ، لأن شجاعته فى نفسه شجاعة قومه ، فكأنه بإقدامه فى الحروب كسب لقومه ذكر الشجاعة فيهم ، ونسبها إليهم »

وقولُهُ « كلٌّ » أى كلُّ واحدٍ من الناس ، فَأَفْرَدَ وهو فى النِّيَّة مضافٌ . ومعنى البيت : إنَّ كلَّ مَن قاتَلَ هذا الرَّجُل قاتلَهُ طَمَعًا فى أن يَنْسُبَه قَوْمُه إلى الشَّجاعة ، وليتبجَّح به عند أقرانِه[1] ، ويذهب به صِيتُه فى الناس . وليس قَتْلُهُ للشُّجعان وضربُهُ هامَ الأعْدَاء لمثل ذلك ، لـكنه طَبْعٌ منه ، وجَرْىٌ على عادته . وقوله « يُشَجِّع قومُه » أى لأن يشجعه قومه ، والمفعول محذوف بدلالة قوله[2] :

* أَلاَ أيُّهذا الزَّاجرِى أَحْضُرَ الوَغَى *

يُرِيدُ أن أحْضُر ، يدلُّ على هذا ما بَعْدَه ، وهو :

* وأن أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أَنْت مُخْلِدِى *

٥ – قَلِيلُ ادِّخارِ الزَّادِ إلاَّ تَعِـلَّةً فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والْتَصَقَ المِعَا

قولُه « إلا تعِلَّةً » من عَلَّلْتُهُ بكذا ، فهو كالتَّقدمة من قَدَّمْتُ . والشَّراسيف : مَقَاطُّ الأضْلاع[3] ، ولا ينشُز إلاَّ للهُزَالِ . وذِكْرُ القِلَّةِ هاهنا مقصودٌ به إلى النَّفْى لا غير ، بدلالة مجىء الاستثناء بعده ، وإذا كان كذلك لم يثبت القَلِيلُ به . والمعنى : ما يَذْخَرُ من الزَّادِ إلا قدراً يَتعلَّل به ، فقد أثَّرَ الطَّوَى فيه حتى هُزِل ، فترَى رءوس أضلاعه شاخصةً ، وأمعاءه بجنبِه ملتصقة ، لقِلَّةِ طُعْمِه ، واتِّصال ممارسته للشَّدائد . وعلى هذا قول الله عزّ وجل : ﴿ قليلاً ما تُؤْمِنُونَ ﴾ و ﴿ قليلاً ما تَذَكَّرُون ﴾ .

٦ – يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْنَهُ ويُصْبِحُ لا يَحْمِى لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

قوله « يبيت بمغنى الوحش » ، أى استمرّت هذه الحالة به ، واتصلت منه

(١) التبجح : الفخر . (٢) هو طرفة ، فى معلقته المشهورة .
(٣) مقاط : جمع مقط . وفى الأصل : « مقابل » ، تحريف . وفى م : « مقط »

ودامت ، لأن الأماكن سواه ضاقتْ عنه ، ومجامع الإنس تكرَّهَتْهُ فَلَفَظَتْهُ ، فألِفَ القِفار ولزِمَ مرابِع الوحش ومساكنَها ، حتى أنِسَتْ به وسكَنتْ إليه ، وعَدَّتْهُ واحداً منها ، وصار هو أيضاً على تعاقب الزمان وتصرُّفِ الأحوال لا يَحْمِي من أجْلها مَرْعى ، ولا يُراعِي من مَرَادِها مأْوًى ، لأن هِمّته مصروفةٌ إلى غَيْرِهَا ، ونفسِه مَشْغُولةٌ بسواها ، فلا نَفرتُها مِنْهُ تَقْبِضُها عنه ، ولا صَيْدُهُ لها يَحْمِلُهَا من همه . ومِثلُ هذا قول الآخر[1] :

عَلامَ تَرَى لَيْلَى تُعَذِّبُ بالمُنَى ... أخا قَفْرَةٍ قدكان بالغُول يأنسُ[2]

وأَضْحَى صَدِيقَ الذِّئب بَعْدَ عَدَاوَةٍ ... وبغْضٍ وربَّتْهُ القِفَارُ الأَمالسُ[3]

٧ ـ على غِرّةٍ أَوْ جَهْرَةٍ من مُكانِسٍ ... أطَالَ نِزَالَ القَوْمِ حتّى تَسَعْسَعَا[4]

تَعلَّقَ قولُه « عَلَى » بقولِه « لا يَحْمِي » . والمعنَى : لا يحافِظُ لها ولا يترقبُها ، لا على غَفْلةٍ منها واغترارٍ منه إياها ، ولا بمجاهَرةٍ لها ولا مكاشفة دونَها ، بل أطالَ مزاولةَ الغارات ومُنازلةَ الكُماة مُنْذُ تَرَعْرَعَ ، إلى أن وَلَّى شبابُهُ وتَسَعْسَع . وهذه إشارةٌ إلى ما تنقّل فيه على تغيُّر الأحوال ومُضِيّ الأوقات ، من اكتساب العداوات وإيقاع الوقَعات ، وتهييج الغارات . وقوله « تَسَعْسَعَ » من قولِكَ تَسَعْسَعَ الليلُ أو النهار ، إذا أدْبَرَ . وفي الحديث : « تَسَعْسَعَ الشَّهرُ » .

---

(١) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، أو عبيد بن ربيعة التميمى . انظر الحيوان (٦ : ١٦٨) وحماسة البحترى ٤١١ .

(٢) الحيوان : « أخا قفرات كان بالذئب » .

(٣) فى الحيوان :

وصار خليل الغول بعد عداوة ... صفيا وربته القفار البسابس

(٤) رواية التبريزى : « أو نهزه من مكانس » . وفى الأصل : « نزاع القوم » والتفسير بعده يقتضى ما أثبتنا من م والتبريزى . وقد أشار التبريزى أيضا إلى رواية : « تشعشعا » ، قال : « من قولهم رجل شعشاع ، أى حلو خفيف ، أى صار لبقا بالنزال مليح الطعان والضراب ، لطول عادته لذلك » .

والمُكانِس : المُلازِم للكِناس . ويقال كَنَسَ الظّبيُ فهو كانسٌ ، إذا أوى إلى كِناسِه . قال لبيد :

تسلُب الكانسَ لم يؤرَ بها ... شُعْبَةُ السّاقِ إذا الظلُّ عَقَلْ[1]

ويُقالُ للكِناس المَكْنَسُ . تقال : ظَبْيٌ كَنِسٌ[2] ، إذا لَزِمَ كِناسَهُ .

٨ — ومَنْ يُغْرَ بالأعْدَاءِ لا بُدَّ أنّهُ ... سَيَلْقَى بهم من مَصْرَعِ الموت مَصْرَعَا[3]

قوله « لا بُدَّ » يجرى مَجْرى لا مَحالَةَ ، وهو من البَدَد مصدر الأبَدّ ، وهو سَعَةُ مابين اليَدِ والجَنْبِ ، كأنّ المراد لا سَعَةَ فى ذلك ولا تَجَوُّز . وكان الواجب أن يقول : لا بُدّ من أنّهُ سَيَلْقَى ، فحَذَفَ مِنْ . فإذا قُلتَ : لا بُدّ من كذا ، فانتصاب بُدّ بلاَ ، وخبَرُه من كذا . ولم يتعلّق مِنْ ببُدّ كما تَعلّق بخَيْر من قولك لا خَيْرَ منه لك ، لأنه لو كان كذلك لنُوِّنَ بُدٌّ ولم يَجُزْ غَيْرُهُ : يقولُ : من أُولِعَ بمنابذة الأعداء ، وغَرِى بمضارّتهم لا بُدّ أن يَلْقَى بهم يوْما من الأيّام مَصْرَعاً من مَصارع الموت ، لأنّه كما يَرَى فيهم يرَى بهم . ويقال : غَرِىَ بكذا وأُغْرِى به ، وقد رُوِى « يَغْرَ » بفتح الياء ، و « يُغْرَ » بضمّها . والمَصْرَعُ هاهنا مَصْدَرٌ ، وقد يكون فى غير هذا اسماً للمكان والزّمان . وعلى طريقة هذا البيت المَثَلُ السائر : « من يرَ يوْمًا يُرَ به » . وجواب الجزاء فى ضمن قوله لا بُدّ أنه سَيَلْقَى ، والتقدير من يَغْرَ بالأعداء فهو سيَلْقَى بهم مَصْرَعَ الموت ، لا بُدّ من ذلك .

٩ — رَأَيْنَ فتًى لاصَيْدُ وَحْشٍ يُهِمُّهُ ... فلَوْ صافَحَتْ إنْسًا لصافَحْنَهُ مَعَا

---

(١) فى الأصل : « يورا » ، وفى م : « يورما » ، والوجه ما أثبتنا ، وهى إحدى روايتى البيت ، كما فى اللسان (وأر) . ويروى : « لم يوأر » ، وهى رواية الديوان ١١ طبع ١٨٨١ .

(٢) كذا فى النسختين . والمعروف « كانس » .

(٣) فى الأصل : « من مصرع القوم » ، صوابه فى م والتبريزى .

رَجَع إلى ذِكر الوحش بعد أن اعترض بين الكلام فيها بقوله : « أطالَ نِزال القوم » ، و بقولِهِ « ومن يُغر بالأعداء » . وهو يريدُ أن يبيّنَ سَبَبَ أُنسِها به ، وزوالَ نِفارها منه بأشْقَى مما قدَّمَه . فيقول : رَأَتِ الوَحْشُ به فتًى صَيْدَ الوَحْشِ مما ليس يَخطُر ببال ، ولا يَعُدُّه من جملة الأشغال . فلو مَكَّنَتْ من نفسِها إنسًا لمكَّنَتْ هذا . فقولُه « لا صيْدُ وَحْشٍ يُهِمُّه » من صفةِ الفتى ، ونَفَى بقوله لا الفِعْلَ ، فلذلك لم يكرّر لا مرّتين كما تقولُ لا عَبْدٌ لك ولا جارية . وإذا كان كذلك فقد أَضْمَرَ بعدَ لا فِعلاً ، وجعَل الصيد يرتفع به ، ويكون الفِعل الظاهر بعدَهُ تفسيراً ، كأنّه قال لا يُهِمُّه صيدُ وَحْشٍ يُهِمُّه . والمصافحةُ أصلُها فى مماسّة صَفحة إحدى اليدينِ للأُخرى عند السلام ، فاستعارها للتمكين والاستسلام . وقولُه « مَعًا » فى موضِع الحال ، أى مجتمِعةً ومصطحِبةً . والفائدة فى ذكر الإتيان بلفظةٍ تُفيد العموم ، فكأنّ المراد الوحشُ على اختلاف أجناسِها .

١٠ — ولكنّ أربابَ المَخَاضِ يَشُقُّهُمْ إذا اقتَفَروهُ واحدًا أو مُشيَّعَا

١١ — وإنّى وإنْ عُمِّرْتُ أَعْلَمُ أنّنى سَأَلْقَى سِنَانَ المَوْتِ يَبرُقُ أَصْلَعَا

قولُه « المَخَاض » هى النُّوق الحوامِلُ ، وهو اسمٌ صِيغ للجماعة منها ، ولا واحِدَ لها من لَفْظِها ، وإنما خَصَّها لأنّ التنافُسَ فيها أكثر ، وأربابَها بها أشَحّ . والشاعرُ تَرَكَ قِصّةً إلى قِصّةٍ ، فكأنّه قال : لا يُهِمُّه طِلَابُ الوَحْشِ ، ولكن يُهِمُّه قصْد أرباب الإبِل فى أموالِهم ، فهو يؤذيهم ويفزّعهم ، ويُضْنيهم إذا تتبَّعُوا أثَرَهُ . وقد أغار عليهم واستاق إبلَهم مُنفرِدًا عن أصحابه ، أو محتفلاً بهم مُمانَاً بتشييعهم . وهذا بيانُ ما قدَّمَه فى قولِهِ « أطالَ نِزال القوْم حتى تَسَعْسَعا » .

وانتَصَبَ واحداً على الحال، والعاملُ فيه اقتفروه، أى منفرداً. ويقال اقتفرتُ للوحش[1] إذا تتبعتَ أثرَهُ. ومعنى يَشُفُّهُمْ، يهزلهم ويكدّ عيشهم. ومشيّعا: معه شيعةٌ. يريد أنه لا يبالى كيف سقط عليهم وأنه يشُفُّهم على كل حالٍ.

وقولُه « وإنى وإنْ عُمِّرت » بيانُ قولِه « ومن يُغْرَ بالأعداء »، كما أنّ قوله « رَأَيْنَ فتًى » بيان قولِه « يبيتُ بمَغْنَى الوَحْش حتى أَلِفْنَهُ »، لأنه فسَّرَ كلَّ بيْتٍ من الأبيات الثلاثة ببيتٍ. فيقول: أنا وإن أُطِيلَ عُمْرِى، ومُدَّ من نفسِى بما يَلْحَقُنى من واقِيَةِ الله تعالى على ما أجترِحُهُ وأختاضُه[2]، أتيقَّنُ أنى سألقَى أَجَلى، وأُوَافِى مَصْرَعِى إذا دَنا الحِينُ المعلوم، بالحَيْنِ المحتوم، وتَرَاءى سِنَانُ الموتِ لى بارِزاً بارِقاً، أى السِّنان الذى يكون به الموتُ، فلا أختارُ لنفسى إلاّ ما لا يكسِبنى عاراً. وفى الكلام مع هذا الذى ذكرناهُ التَّسَلِّى التامّ، والرِّضا بالمقدور. وجواب الشرط فى قوله أعلَمُ أنّى، وهو على إرادة الفاء، ويجوز على نِيَّةِ التقديم والتأخير.

١٦٦

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَس[3]:

١ — دَعَوْتُ بَنِى قَيْسٍ إلَىّ فَشَمَّرَتْ خَنَاذِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ[4]

يقول: استغثت بهؤلاء القَوْمِ وندبْتُهُم إلى نُصْرَتى والدِّفاع دونى، فخفّتْ لى رجالٌ كأنّهم فحولٌ ممتدَّةُ القاماتِ، مبسوطة الأيدى بالضَّرب والطَّعن.

(١) فى الأصل: « الرجل »، صوابه فى م والتبريزى.
(٢) كذا فى م. وفى الأصل: « وأعتاصه ».
(٣) فى الحيوان (١: ١٣٤): « بعض القيسيين من قيس بن ثعلبة ». وفى البيان (٢: ١١): « قول القيسى ».
(٤) دعوت بنى قيس، هذه رواية الأصل وم والتبريزى. وفى الحيوان والبيان: « دعوت بنى سعد ».

ويجوز أن يريد بالطُّول الاقتدار والغَلَبة ، كما يُقالُ فى السَّلاطةِ : هو طويل اللِّسان والخناذيذ : الـكِرام من الخيل ، فاستَعارَها للـكِرام من الرِّجال كما يُستعار القُرُوم المَصَاعِبُ لهم . ومن زَعَمَ أنّ الخناذيذ : الخِصْيَان أو الفحولة ، فقولُه بعيدٌ عن الصواب ؛ يَشْهَدُ لما ذكرناهُ من أنّهُ الـكِرامُ قولُ الشاعِر(١) :

* وَخَنَاذِيذَ خِصْيَةً وَفُحُولاَ(٢) *

والطِّوال ، يكون جَمْعَ طويل وطُوَالٍ جميعا . ومفعول شَمَّرَتْ محذوف ، والمُراد ، رفَعَتْ ذُيُولَهَا ، وتهيّأت مجتمعة ومتخفّفة للقِتال . وكما قيل هم طِوَال الأيْدِى والسواعِد فى الجرِىء المُقْدِم ، المُسْتَعْلِى المُقْتَدِر ، قيل فى السخاء : هم بُسُطُ الأيْدِى والأكُفِّ ، وقيل هو شديد السَّاعِدِ للقوِىِّ الجَلْد .

٢- إذَا مَا قُلُوبُ القَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً   من المَوْتِ أرْسَوْا بالنُّفُوسِ المَوَاجِدِ

انتصب مخافَةً على أنه مفعولٌ له . وجواب إذا « أرسوْا » . والمعنَى : إذا تمكّن الرُّعْبُ من القُلوبِ والصُّدور حتّى طاشتْ [له(٣)] الألباب ، وطارَتْ له الأفئدة ، ثَبتَ هؤلاء القَوْم فى مواقفِ التّدافُع والتحارُب بنفوس كريمةٍ لا تُغْضِى على قَذى ، ولا تصبِرُ على أذًى ، فهى آبِيَةٌ للدَّنيّات ، صابِرةٌ عند النّائبات . وقوله «أرْسَوْا» مفعولُه محذوف ، كأنّه قَالَ أرْسَوْا قُلُوبَهُمْ بالنُّفوس الـكريمة . ويجوز أن يكون الباء من بالنفوس زائدةً للتأكيد(٤) ، كما قال :

---

(١) هو النابغة الذبيانى ، كما حقق ابن برى . ويروى لخفاف بن عبد قيس البرجمى - اللسان (خنذ) . وفى الحيوان (١ : ١٣٣) أنه خفاف بن ندبة .

(٢) صدره :   * وبراذين كابيات وأتنا *

(٣) هذه من م .

(٤) وقال ابن جنى فى التنبيه : « يجوز أن تكون الباء هاهنا حالا من الضمير فى أرسوا ، أى أرسوا ونفوسهم معهم ، كقولك خرج بثيابه ، أى وثيابه عليه » .

* سُودُ المَحَاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ(١) *

والمعنى أرْسَوُا النُّفوس ، أى أثبتوها إثْبَاتاً لا تَحَلحُلَ معه ولا تموُّج . على هذا قولهم : الجبال الرّاسيات ، وهو راسِى الدَّعائم . والمَوَاجِدُ : جَمْعُ مَاجِدَةٍ ، وأصْلُه الكَثْرَةُ ، يقال أمجدتُ الدَّابَّةَ العَلَفَ ، إذا أكثرْتَهُ لها .

١٦٧

وقال سَعْدُ بن مَالِكٍ(٢)

١ – يا بُوسَ للحَرْبِ الَّتى وَضَعَتْ أرَاهِطَ فاسْتَرَاحُوا

اللام من قوله «يا بُوسَ للحرب» دَخَلَتْ لتأكيد الإضافة فى هذا الموضِع ، وهى إضافةٌ لا تخصِّص ولا تُعَرِّف . وهذه اللام لا تجىء على هذا الحدِّ إلا فى بابَيْنِ : أحدهما بَابُ النَّفْى بلاَ ، وذلِكَ مِنْهُ فى قولِكَ لا غُلاَمَىْ لك ولا أبَالَكَ وما أشْبهَهما ، والثانى بابُ النداء فى قولِك يابُوس للحرب ، وإنّما المعنى يابوس الحرب . ألا تَرَى أنّه لو لم يُرِدِ الإضافَةَ لنوَّنَ يابوسَ فى النّصب ، لكونه نكرةً ، أو كان يجعله مَعْرِفَةً مبنيَّةً على الضمِّ . وقد أتى الشاعر فى بابِ النَّفْيِ على أصْلِهِ فى الإضافَةِ فقال :

(١) البيت يروى لشاعرين متعاصرين ، أحدهما الراعى النميرى ، والآخر القتال الكلابى . انظر الخزانة (٣ : ٦٦٩ – ٦٧٧) . وصدر البيت :

* هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٢) هو سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، جد طرفة بن العبد ، كما ذكر التبريزى . وهذه الحماسية يقولها سعد يعرض فيها بالحارث بن عباد ، وكان قد عرف باعتزال الحرب ومجانبتها ، ولم يستجب إلى خوض غمارها فى آخر الأمر إلا ما رواه أبو رياش ، ومؤداه أن ابن أخيه واسمه بجير بن عمرو بن عباد – عرض له مهلهل على غرة فقتله وقال له : بؤ بشسع نعل كليب ! فقيل للحارث بن عباد : إن ابن أخيك قد قتل دية لشسع نعل كليب ، فلم يهتج لذلك

أبِالموتِ الذى لا بُدَّ أنِّى مُلاقٍ لا أباكِ تخوِّفينى[١]

والذى يَدُلُّ على أنّ هذه الإضافة لا تخصِّص أنَّ لا قد عَمِلَ معها ، وهو لا يَعْمَلُ إلاّ فى النّكِرات . ومَعْنى البيتِ أنَّهُ على وَجْه التعجُّب دَعَا بُوسَ الحَرْب التى حَطَّتْ أراهِط وأذَلَّتْهُم حتى استسلموا للأعداء ، وألِفوا وضْعَ الحَرْب[٢] ، وحالفوا الراحة ، وآثَرُوا السلامَةَ . وهذا الكلامُ فيه مع القَصْد إلى التعجُّب تَهَكُّمٌ وتعبيرٌ ؛ كأنّه أراد : ما أبْأَسَ الحَرْبَ التى فَعَلَتْ ذلك . وقوله « فاستراحوا » فيه تهكُّمٌ وبيانٌ لاستغنائهم ذلك[٣] ، ومَيْلِهم إليه ؛ كأنّهم عَدُّوا نَفْضَ اليَدِ من مجاذبةِ الأعْدَاء ومراقبتهم والاحترازِ من مكايدهم ، لظهور عجزهم ، وتصوُّرِهم بصورَةِ مَن لا يُحتَفَلُ لَهُ ، ولا يُستظهر عليه ، ولا يُتَّقى مِنْه — سَلامَةً ورَاحَةً ، وإن كان سُقُوطاً ومهانَةً . وكل ذلك لخروجهم عن مَلَكَةِ العِزّةِ ، واطّراحِهم قِناع الحَمِيَّةِ . وأراهِطُ جَمْعٌ ، يقال رَهْطٌ وأَرْهُطٌ وأراهِطُ . والرَّهْطُ يَقَعُ على ما دون العشرة — ولذلك جاز أن يُضَافَ ما دون العَشَرَةِ من أسماء الآحاد إليه — وفارَقَ الخَيْلَ والغَنَم والإبِل[٤] .

٢ — والحَرْبُ لا يَبْقَى لِجَا حِمِهَا التَّخَيُّـــلُ والمِرَاحُ

— وتريث حتى يتحقق من الخبر بنفسه ، وأرسل إليه المهلهل : إنى إنما قتلته بشسع نعل كليب ! فجمع قومه وأعد للحرب عدتها ، وكان يوم التحالق بين قومه بكر بن وائل وإخوتهم تغلب . وانظر العقد (٥ : ٢٢٠ — ٢٢١) .

(١) البيت لأبى حية النميرى ، كما فى اللسان (أبى) .

(٢) أى ترك الحرب .

(٣) م : « بيان الاستغناء منهم لذلك » .

(٤) أشبع التبريزى الكلام على : « وضعت أراهط » قال : « وليس الوضع هاهنا ضد الرفع ، وإنما المراد أنها تركتهم فلم تكلفهم القتال فيها . وإنما يعنى سعد بن مالك الحارث بن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب . وقد روى أن الحارث لما حارب مع بنى بكر بعد قتل بجير قال : أترانى ممن وضعته الحرب ؟ فهذا يدل على النصب . ومن رفع أراهط فالمعنى يابؤس للحرب التى وضعتها أراهط . وهذا اللفظ هو الأصل لأن قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحربُ بنى فلان مجاز واتساع » .

يقال : جَحَمَتِ النارُ فهى جاحِمَةٌ ، إذا اضطرمَتْ ؛ ومنه الجحيم . وهذا الكلام جارٍ مَجْرى ما قَبْلَهُ ، وفيه إزْراءٌ بالذين ذَكَرَهُمْ ، وإيهامٌ بأنّهم كانوا أصحابَ خُيَلاءَ وبَطَرٍ ، ومرَاحٍ ونَزَقٍ ، فلم تَثْبُتْ أقْدامُهُمْ عند اللِّقاء ، ولا صَبَرَتْ أنفُسُهُمْ أوانَ الكِفَاح ، فقال مُعَرِّضاً : لا يبقى لنار الحرب كبرياءُ المتكبِّرين ، ولا نشاط المَرِحين ، بل يستبدلون بهما اللِّين والكسل ، والانخزال والفشَل ، والصبر على الامتهان ، والاستسلام عند الامتحان . وقوله «لا يبقى لجاحمها التخيُّل» يجوز أن يريدَ به صاحبَ التخيّل ، فحذَفَ المضاف وأقام المُضَاف إليه مقامه ، وحينئذٍ يكون البَدَلُ فى إلاّ الفتَى — وهو أوّل البيت الذى يليه منه ، وَجْهَ الكلام ومختارَهُ ؛ لأنَّ الثانىَ يكونُ من الجنس الأوّل ، وفى الوجه الأوّل لا يكون من جِنْسه ، والاختيار فى المستثنى بعده النَّصْبُ .

٣ — إلاَّ الفَتَى الصَّبَّارُ فى النَّجَدَاتِ والفَرَسُ الوَقاحُ

قوله « إلاّ الفتى » ارتفع على أنه بَدَلٌ من التخيُّلُ ، وهذا لُغَةُ تميم ، ولُغة سائر العَرَب النَّصْبُ فيما كان استثناءً خارِجاً وإن كان جائياً بعد النَّفى ، لأن كونَهُ ليس من الأوّل يُبعِّدُ البَدَلَ فيه . والنَّصْبُ كان جائزاً على كُلِّ وَجْهٍ . والنَّجَدَاتُ : الشَّدائد . والصَّبْرُ أصْلُه الحَبْسُ ، وفَعَّالٌ بناء المبالغة ، ولا يجوز أن يكون اسمَ الفاعل من صَبَّرَ ، لأن اسم الفاعِل من صَبَّرَ مُصَبِّرٌ . يقول : لكن [لا] يَبْقَى لمُلابَسة الحربِ والصَّبْرِ على شدائدها [إلاَّ الفتى[1]] الحَسَنُ الثَّباتِ فى الكرائه ، والفَرَسُ الصُّلْبَةُ على الجِرَاء . ويقالُ فَرَسٌ وَقَاحٌ ، وحافِرٌ وقاحٌ ، وهو وَقِحُ الوَجْهِ ؛ ومصدره القِحَةُ .

(١) التكملة من م .

٤ — والنَّثْرَةُ الحَصْدَاءُ والْـ ... بَيْضُ المُكَلَّلُ والرِّماحُ

عَدَّدَ الآلاتِ التى يحتاج إليها الفتى الصَّبَّارُ فى النَّجَدَاتِ عند مِرَاسِ الحرب، ودِفاعِ الشَّرِّ. فالنَّثْرَةُ: الدِّرْعُ الواسِعَةُ المُحْكَمَةُ السَّرْدِ، ويُقال فيها النَّثْلَةُ باللام أيضاً. والحَصْدَاءُ: الجَدْلاءُ، ومَصْدَرُهُ الحَصْدُ. يقال حَصِدَ يَحْصَدُ حَصَداً، وأَحْصَدْتُهُ وهو مُحْصَدٌ. يقال ذلك فى الأوتادِ والحِبالِ والدُّروعِ إذا أُحْكِمَتْ وفُتِلَتْ. ويُقالُ هو حَصِيدٌ ومُسْتَحْصِدٌ أيضاً. وقولُه «البَيْضُ المُكَلَّلُ» يَعْنِي بالمسامير، كأنَّها غُشِّيَتْ وسُمِّرت. والمعنى إنما يَبْقَى على صِلاءِ الحَرْبِ ومزاولتِها مَنْ كانَ فى نَفْسِهِ يَرْجِعُ إلى قُوَّةٍ وجَلَدٍ، ومن صَبْرِهِ يَعْتَمِدُ على أَبْلَغِ أَمَدٍ، ومن سِلَاحِهِ يَثِقُ بأَتَمِّ عُدَدٍ. ولم يَصِفِ الرِّماحَ، ويَعْنِى أقومَها لا محالة.

٥ — والكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ إذْ ... كُرِهَ التَّقَدُّمُ والنِّطَاحُ

بَيَّنَ ما يَحتاج إليه الصَّبَّارُ من الأفْعَالِ فى الحَرْب، كما بَيَّنَ الآلاتِ التى من شَرْطِهِ (استصحابُها[1]) فكأنَّه قال: ويَبْقَى لِجاحِمِها الكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ فى وَقْتٍ يُكْرَهُ فيه الإقْدَامُ والتقدُّمُ، والنِّطَاحُ والتَّجَرُّدُ. وبعضهم يروى هذا البيت فى غير هذا المَوضِعِ[2]، والصواب هذا الترتيب. وجَعَلَ النِّطاحَ بين الكِباشِ مَثَلاً للمُبالَطَة بين الفرسان.

٦ — وتَسَاقَطَ التَّنْوَاطُ والـ ... ذَّنَبَاتُ إذْ جُهِدَ الفِضَاحُ[3]

هذا ينعطف على قوله وضَعَتْ أراهط فاستراحوا. يقول: وتَسَاقَطَ الدُّخلاء

(١) هذه من م.

(٢) أى يرويه بعد البيت التالى، وممن فعل ذلك التبريز.

(٣) التبريزى: «وتساقط الأوشاظ» ثم أشار إلى رواية «التنواط». ولم يفسر الأوشاظ صريحا. وفى اللسان: والوشيظ: التابع والحلف، والجمع أوشاظ».

والهُجَناء الذين نِيطوا بصميم العرَب فلم يكونوا منهم . والتنواطُ مَصْدَرٌ فى الأصل ، كالتَّرداد والتَّكرار ؛ وكأنّ المُراد ذَوُو التَّنواط ؛ فحُذِف المُضَافُ وأُقيم المضاف إليه مَقَامَهُ . ويجوز أن يكون وُصِفَ به كما يوصَفُ بالمصادِر . وذَكر بعضُهم أنّ التَّنواطَ ما يُعَلَّقُ على الفرَس من إداوةٍ وغيرِها ؛ لأنّ كلّ ذلك قد نِيطَ به ، ثم أُطْلِق تشبيهاً على الدُّخلاء . وقد استُعْمِلَ هذه اللفظةُ فى الدَّعِيّ ، فقيل : هو مَنُوطٌ . وقال الشّاعر[1] :

وأنْتَ دَعِيٌّ نِيطَ فى آلِ هاشِمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

فعلى هذا يجوز أن يريد بِذوى التَّنواط الأدْعياء . وقوله الذّنَبَاتُ ، يريدُ التُّبّاع والعُسَفَاء . ويقال الذَّنائب والأذناب أيضاً . وكما قيل هذا تشبيها بِذُنابة الوادى[2] ، قيل فى الرؤساء الذَّوائب ، لأنّهم الأعْلَوْن . وذكر بعضُهم أنَّ الذَّنَبَاتِ لا يُقال فى النّاس ، وإنّما يُقال لهم أذناب ، ثم أنشد :

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غَيْرُهُمُ ومن يُسَوِّى بأنفِ الناقةِ الذّنَبا[3]

ومن حيث جاز الأذنابُ واستعارتُها جاز استعارةُ الذَّنَبَةِ والذُّنَابَةِ والذَّنائب والذَّنَبات ، ولا فَصْل . وقولُه « إذ جُهِد الفِضاح » معناه بُلِغ بالفضيحة جَهْدُهَا ولم يُرْضَ بالعَفْوِ منها . وفى الوقت الذى أشار إليه ، لا يَثْبُتُ إلَّا من يَرْجِعُ إلى كَرَمٍ مُتَنَاهٍ ، وحِرْصٍ على المحافظة على الشّرفِ بالغٍ .

٧ — كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِها وَبَدَا من الشَّرِّ الصُّرَاحُ

أخذ يقتصُّ ما جرَى عليهم . وقولُه « كَشَفت لهم عن ساقِها » مَثَلٌ يُضرَبُ لشدّة الحرب ، وإنّما أهلُها فى ذلك الوقت يكشفون عن الساق ، فجعل الفِعل

(١) هو حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث . ديوانه ١٦٠ واللسان (نوط) .
(٢) الذنابة بضم الذال وتكسر أيضاً .
(٣) البيت للحطيئة . ديوانه ص ٦ .

لها ، والمُراد انكشفت الحرب لهم عن تَشَمُّرِ أهلِها واشتدادها . وقد قليل : الساق اسمٌ للشدّة ، وفُسِّر عليه قولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ فقيل : المعنى يوم يكشَفُ عن شِدّة . وكذلك كشفت الحربُ عن ساقِها ، معناهُ أَبْرَزَتْ عن شِدَّتِها . وقولُه « وبدا من الشَّرِّ الصُّرَاح » أى الخالص الذى لا يمتزج به خَيْرٌ ولا يُرْجَى بَعدهُ صَلاحٌ . ويقال : صَرِيحٌ وصُرَاحٌ ، كما يقال طَوِيلٌ وطُوَالٌ ، وعريضٌ وعُراضٌ . ويقال : صَرَّحَتِ الخمرةُ ، إذا انكشفت عنها زُبدتُها .

٨ — فالهَمُّ بيضاتُ الخدو رِ هُنَـاكَ لا النَّعَمُ المُرَاحُ

أَقْبَلَ يَصفُ ما امتُحِنوا به فى الحُرَمِ إذا تُرِكَ حَديثُ المَالِ والبَلَاء فى النُّفُوس . وقولُه « فالهَمُّ بيضاتُ الخُدُورِ » يجوز أن يُرَادَ به ما يُهْتَمُّ له فى ذلك الوَقْتِ : الحُرَمُ والنِّساء المُخَدَّرَاتُ اللاتى كأنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكنونٌ صيانةً وجَمالًا ، لا الإبلُ المُرَاحةُ من مَرَاعِيها . كأنه سَمَّى مايُهتَمُّ له هَمًّا . ويجوز أن يكون المعنى ما يُهَمُّ به : النِّساء لا الإبل . والمراد أنّهم كانوا يغتنمون سِبَاءَ النِّساء وإلحاقَ العارِ بسببهنّ ، لا اغتنام الأمْوَال . وتُشَبَّهُ المرأةُ بالبيض لتملُّسِهاوزَوال الحجوم عنها . وقال الخليل : بَيْضَةُ الخِدْرِ هى الجارية المُخَدَّرة الجميلة . وإنما قال المُرَاحُ لأنّ النَّعَم مُذَكَّرٌ . ويقال سَرَحْتُ الماشيةَ بالغَدَاةِ ، وأرَحتُها بالعَشِيَّة .

٩ — بِئْسَ الخَلَائفُ بَعْدَنَا أوْلاد يَشْكُرَ واللِّقَاحُ

أولاد يَشْكر ، هم من جملة من وضَعَتْهُ الحربُ . فيقول : إذا خَلَّفنا من لا دِفاع به من الرِّجال والأموال ، فَبِئس الخلائف بعدنا . جعلَ أولاد يشكرَ كاللِّقاح — وهى الإبل بها لَبَنٌ — فى حاجتِها إلى من يَذُبُّ عنها ، ويُحامِي عليها . ورواه بعضُهم : « واللقاح » بفتح اللام ، وهم بنو حنيفة ، وكانوا لا يَدِينُون للمُلُوكِ . ويكونُ الكلامُ على هذا تهكُّمًا .

١٠ — مَنْ صَدَّ عَنْ نيرانِها فأنا ابنُ قَيْسٍ لا بَرَاحُ(١)

يقول : مَن أحْجَمَ عن الحَرْبِ وكَرِهَ الاصطلاءَ بنارِها والصَّبر على بلواها ، وعَجَزَ عن الثبات فى وجُوهِ أبنائِها ، فأنا ابن قَيْسٍ لا بَرَاحَ لى فيها ولا انحراف . ومعنى « فأنا ابن قَيْسٍ » فأنا المشهور بأبيه ، المستَغْنِي عن تطويل نَسَبِه . فقولُه لا بَرَاح ، الوَجْهُ فيه النَّصْبُ ، ولكنَّ الضرورة دَعَتْهُ إلى رَفْعِها . وقال سيبويه : جَعَلَ لا كَلَيْسَ هاهنا فرفَعَ به النَّكِرة ، وجعل الخبر مُضْمَراً . ومِثْله :

* بِيَ الجَحِيمَ حِينَ لا مُسْتَصْرَخُ(٢) *

كأنهما قالا : حين ليس عندى مُستصرَخٌ ولا بَرَاحٌ عندى فى الحَرْب .

---

(١) هذا آخر المقطوعة عند المرزوقى . وروى التبريزى بعده خمسة أبيات . وهى :

١٠ — صبراً بنى قيسٍ لها حتّى تُريحوا أو تُراحُوا

١١ — إنّ المُوائلَ خوفَها يَعتاقُه الأجلُ المتاحُ

١٢ — هيهات حال الموتُ دُو نَ الفوتِ وانتُضِيَ السِّلاحُ

١٣ — كيف الحياةُ إذا خَلَت مِنّا الظواهرُ والبِطاحُ

١٤ — أين الأعِزّةُ والأسِنّةُ عند ذلك والسّماحُ

وقال فى شرح البيت الأول : « أى اصبروا لهذه الحرب حتى تقتلوا أعداءكم فتريحوهم من شدتها أو يقتلوكم فيريحوكم من ذلك » . وفى شرح الثانى : « الموائل : الذى يطلب الموئل . خوفها أى خوف الحرب . ونصب الخوف بالموائل . ويعتاقه ، أى يشغله الأجل عن النجاء فيقع فيما يكره منها . والمتاح : المقدر . وهو كما يقال : لا ينفع مما هو واقع التوقى » . وقال فى شرح الثالث : « أراد أن الموت قد حال دون أن يفوت الرجل فيذهب عن هذه الحروب منهزما . يريد أنه ليس إلا القتل أو الغلب » . وفى شرح الرابع : « الظواهر : أعالى الأودية والبطاح : بطونها . وهو من نوادر الجمع ، واحدها أبطح وبطحاء » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ١٤ . وقبله ، وهو أول الأرجوزة :

* والله لولا أن تحش الطبخ *

وهذا يقِلُّ فى الشِّعر ولا يَكْثُرُ . وجعل غيرُهُ بَرَاحُ مبتدأً والخبرَ مُضمَرًا ؛ وإنما يَحْسُنُ ذلك إذا تكرَّر ، كقول القائل : لا دِرْهَمٌ لى ولا دينارٌ ، ولا عَبْدٌ لى ولا أَمَةٌ . إلاّ أنهُ جُوِّزَ للشاعر الرَّفْعُ فى النكِرَة بعد لا وإن لم يكرِّرْ ، لأنّ أصْـلَ ما يُنْفَى بلا الرفع ، فكأنه من باب ردِّ الشىء إلى أصله . ويقال ما بَرِحْتُ من مكان كذا ، أى ما زُلْتُ بَرَاحًا وبرُوحًا . وما بَرِحْتُ أفعَلُ كذا بَرَاحًا ، أى أقمتَ على فِعلِهِ ، مثل ما زِلتُ أفعَله . والبَرَاحُ الأوَّلُ فى لمكان ، والبَرَاحُ الثانى فى الزَّمان ، ولا بُدَّ له من خَبَر .

١٦٨

قال جَحْدَرٌ ، وهو رَبيعةُ بنُ ضُبَيْعَةَ[1] :

١ — قد يَتِمَتْ بِنْتِي وَآمَتْ كَنَّتِي

٢ — وشَعِثَت بَعْدَ ادِّهانٍ جُمَّتِي[2]

٣ — رُدُّوا عَلَىَّ الخَيْلَ إنْ أَلَمَّتِ

٤ — إنْ لم أُناجِزْها فَجُزُّوا لِمَّتِي

٥ — قد عَلِمَتْ والِدَةٌ ما ضَمَّتِ

٦ — ما لَفَّفَتْ فى خِرَقٍ وَشَمَّتِ[3]

٧ — إذا الـكُماةُ بالـكُماةِ ٱلْتَفَّتِ[4]

(١) جحدر ، قال ابن جنى فى المبهج : « هو الجعد القصير من الناس ، وهو صفة منقولة » . وجحدر هو ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن ضبيعة ، كما ذكر التبريزى .

(٢) م : « بعد الدهان » . التبريزى : « بعد الرهان » وهذه الأخيرة محرفة .

(٣) قال التبريزى : « ويروى : ولففت » .

(٤) بعده عند التبريزى :

* أَمُخدَجٌ فى الحربِ أم أَتمتِ *

هذا توجعٌ وتحسُّرٌ. والمرادُ إنى قد استَقْتَلْتُ، وكانت هذه الأمور من اليُتْمِ والأَيْمَةِ والتشعُّث قد اتفقتْ وَوَقعت. وإنما قال هذا لأنه كان قد سِيم في يوْمِ تَحْلاَقِ اللِّمَمِ أن يَحْلِقَ الشَّعَر، إذ كانوا جعلوا ذلك شِعارًا لهم[(١)]، وهذا اليومَ من أيام بَكْرٍ وتَغْلِب[(٢)]. وكان جَحْدَرٌ هذا حَسَنَ اللِّمَّة غَزِلاً، متبجِّحًا بجماله وَوَفْرَتِه عند النِّساء، فسأل — لكراهته ما سامُوهُ — الإعفاءَ منه، منتظرين ما يكون من بلائه، وتشهير نفسِه بين الصَّفَّيْن بعلامةٍ تُميِّزه وآثار تُشرِّفُه، وحَمَلاتٍ على الأعداء تدُلُّ على غَنَائه، ومقاماتٍ تَشهَدُ بوفائه؛ فإنْ لم يَفِ بذلك حينئذٍ تُجَزُّ لِمَّتُه عُقوبةً وتنكيلاً، ففي جَزِّ اللِّمَّة إذلالٌ؛ ولذلك كان يُفعَل بالأسير عند المَنِّ عليه. ثمّ ذكَر ما نشأ عليه وتُفُرِّسَ فيه[(٣)] من وَقتِ الولادةِ إلى الإيفاع، من الغَنَاء والكِفاية، والذَّكاء والشَّهامة، فقال: قد عَلِمَتْ والدتى أىَّ ولَدٍ تَضُمُّه إلى نَفسها بى، وأىّ إنسانٍ تلفُّ فى القُمُطِ حين لَفَّتْنِى، وأىَّ فارسٍ تَشُمُّه بشَمِّى، إذا تراكَمَتِ الاهوالُ، وتداعت الأَبطال، وضاقَ الكَرُّ والمَجَالُ، وتلاحَقَتِ الرِّجالُ بالرِّجال، فهذا سبب توطينِه النفسَ على القَتْل، [ووجْه الشَّرْطِ فى مناجزة الخيل[(٤)]]. وقوله «يَتِمَتْ» مصدرُه اليُتْمُ. قال الدُّرَيْدِىُّ: اليَتيم الفَرْدُ، لذلك سُمِّىَ الذى يموتُ أَحدُ والديه

---

(١) كانت بكر بن وائل — وهم قوم جحدر — قد حلقت رءوسها استبسالا للموت، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم. وكان الحارث بن عباد قد اقترح يوم تحلاق اللمم أن يشترك النساء فى هذه الحرب، وأن تحمل كل امرأة إداوة من ماء تتقلدها، وهراوة تمسكها، فإذا مرت المرأة على صريع قد حلق رأسه عرفته فسقته من الماء ونعشته، وإذا مرت على صريع لم يحلق رأسه ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه. وكما حلقت بكر رءوسها قطعت ثمار سياطها — وهى عذباتها — وذلك رأفة بالخيـل أن تعقر أو يؤثر بها أثر قبيح عند شدة القتال، والذى أشار بذلك هو عامر بن تيم اللات بن ثعلبة، فسمى لذلك «مقطع الجذم».

(٢) م: «من وقعات بكر وتغلب».

(٣) م: «وتقدس فيه»، تحريف.

(٤) هذه التكملة من م.

يتيمًا ، كأنه أُفْرِدَ ، وقيل اليتيم فى الناس من الأبِ والأمِّ ، ومن البهائم من الأمِّ .
وقولُه « آمَتْ » مَصْدَرُه الأَيْمَةُ والأُيُومُ . والأَيِّمُ : التى لا زَوْجَ لها .
والكَنَّةُ ، قال الخليل : هى امرأةُ الأخِ أو الابن . ويَشْهَدُ لما قالَهُ قول الشاعر[1] :

هِيَ ما كَنَّتِي وتَزْ عُمُ أنِّى لها حَمُو[2]

ويَعْنِي جَحْدَرٌ بالكَنَّةِ امرأةَ نفسه ، كأنه من حيث كانت كَنَّةَ قومِهِ أضافَها إلى نَفْسِه .

والشَّعَثُ والشُّعُوثة : اغبرارُ الشَّعَرِ وتلبُّدُه .

وقولُه « رُدُّوا علىَّ الخيْلَ » يريدُ اصرفوا وُجُوهَا إلىّ .

والمناجَزَةُ : المعالجةُ بالقِتال[3] ، ومنه إنجازُ الوَعْدِ ، ونَجَزَ الشىء .

وقوله « ما لَفَّتْ فى خِرَقٍ » بَدَلٌ من قولِهِ ما ضَمَّتْ ، والتكرار على هذا الوجه تفخيمٌ للقِصَّة .

---

(١) هو فقيد ثقيف ، كما فى اللسان (حما) .

(٢) من مجزو الخفيف . وقبله فى اللسان وشرح التبريزى :

أيها الركب سلموا واربعوا كى تكلموا
وتقضوا لبانة وتحيوا وتغنموا
خرجت مزنة من الـ بحر ريا تجمجم

وقد روى التبريزى قصة لهذا الشعر استمان فيها الحارث بن كلدة طبيب العرب بوسائل العلاج النفسى .

(٣) كذا فى النسختين . والوجه : « المعاجلة » . وفى اللسان : « وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا فى ذلك » .

١٦٩

وقال شَمّاسُ بن أَسْوَدَ[(١)] :

١ – أغَرَّكَ يومًا أن يُقالَ ابن دَارِمٍ   ونُقْصَى كما يُقْصَى من البَرْكِ أجْرَبُ

لفظُهُ لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى التوبيخ والتقريع . ويقالُ غَرَّهُ ، إذا غَشَّهُ وخَتَرَهُ[(٢)] بما يَجِبُ السكونُ إليه والإيمان به . ويقال : ما غَرَّكَ مِنِّى ، أىْ لِمَ وثِقْتَ بى ؟ وما غَرَّكَ بى ، أى لم اجتَرَأْتَ علىَّ ؟ وماغَرَّكَ عنِّى ، أى لم غَفَلْتَ عنى ؟ فيقول : اغتَرَرْتَ بقولِ النـاس فِيكَ هو ابنُ دارِمٍ وإن أُخِّرَ مَنزِلَتُكَ ، وأقْصِيتَ فى نفسِك كما يُقْصَى البَعير الجَرِبُ من البَرْكِ مَخافةَ الإعداء ، وكان حُـكْمُ مِثْلِكَ ألاّ يُقْنِعَه فَخامةُ الذِّكْر مع سقوط القَدْر ، ولا يَسْكُن من الناس إلى تسميتهم إياهُ بأحَبِّ أسمائه إليه وهذا فِعْلُهم به . قولُه « ابنُ دارِمٍ » يجوز أن يكون مبتدأً وخَبَرُهُ محذوفٌ ، وأن يكون خـبرًا والمبتدأ محذوف ، والمُضْمَر فى الوجهين أنتَ أو هو . ويقال بَعيرٌ جَرِبٌ وأجْرَبُ ، والبَرْكُ : جمع بارِكٍ ، كتاجِرٍ وتَجْرٍ .

٢ – قَضَى فيكُم نَوْسٌ بما الحَقُّ غيرُهُ   كذلكَ يَخْزُوكَ العزيزُ المُدَرَّبُ[(٣)]

---

(١) التبريزى : « شماس من الفرس الشموس ، وإنما يريدون أنه أبى عزيز . وهذا أشبه من اليوم الشامس ، وإن كان ذلك جائزاً » . وقد نسبه التبريزى فقال : « شماس بن أسود الطهوى » . وذكر أنه يقول الشعر لحرى بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم . وكان قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد قد أخذ بكرا من إبل عمرو بن عمران ، جار حرى بن ضمرة ، فانتقم له حرى بأن أخذ من إبل قيس بن حسان ثلاثين بعيرا ، فانطلق قيس إلى أخواله بنى مجاشع يستعديهم ، فمشوا إلى بنى نهشل وطلبوا أن يرد إليه جرى الإبل ، فلم يقبل ، فطلبوا منهم خلعه فخلعوه ، وأخذه بنو مجاشع فضربوه وأخذوا منه أكثر مما أخذه .

(٢) ختره : غشه وخدعه . وفى م : « خبره » .

(٣) التبريزى : « قيس » بدل « نوس » ، وقال : « روى أبو هلال : قضى فيكم نوس » .

نَوْسٌ هذا المذكور كان له جارٌ ، واهتَضَمَهُ ابن دارِمٍ واستاق مالَهُ ، فلما جاء الصريخُ نَوْسًا ذهَبَ فى أثَر ابن دارِمٍ وارتَجَع مالَ جارِهِ منه ، وسَلَبُه ما صَحِبَه من مالِ نفسِهِ ، وأبانَ يَدَهُ منه بضَرْبةٍ تناوَلَهُ بها ، فلهذا قال : حَكَمَ فيكم نَوْسٌ عند الانتقام لجارِهِ منكم بحكومةٍ جائرة خارجةٍ عن الاقتصاد إلى الاشتطاط . ثم قال « كذلك يَخْزُوك » أى يَسُوسُكَ الرجُلُ الجَلْدُ العزيزُ المجَرَّبُ . وهذا الكلام ، أعنِى كذلك يَخْزُوك ، يَجْرِى مَجْرَى الالتفات ، كأنّهُ التفتَ إلى غيرِهم نخاطَبَهُم مُبَكِّتًا لهم ومُقَرِّعًا بذلك . ولا يمتنع أن يكون صَرَفَ الكلام عن خِطاب الجماعة وأقبَلَ يخاطِبُ الواحد . ويقال خَزَاهُ يَخْزُوهُ ، إذا كَفَّهُ عن المكروه وحَبَسهُ على مُرِّ المُرَادِ . قال لبيد :

* واُخْزُها بالبِرِّ للهِ الأجَلّْ[1] *

٣ ــ فأَدِّ إلىقَيْسِ بن حَسَّانَ ذَوْدَهُ   وما نِيلَ مِنْكَ التَّمْرُ أوْ هُوَ أطْيَبُ

يُخَاطِبُ ابن دَارِمٍ متوعِّدًا ومُعَيِّرًا ، ويقول : اخْرُجْ مما فى ذِمَّتِك من ذَوْدِ قيس بن حَسّان إليه ، وحَالُك إذا رُمْتَ ظُلْمَ غيرِك أنَّ ما يُنالُ مِنْكَ كالتَّمرِ فى الحَلَاوَةِ أو أطْيَبُ . والمعنى : إنَّ تعرُّضَك لأخْذِ مالِ قريبٍ منك أو بعيدٍ عنكَ ، معَ ضَعْفِ المُنَّةِ فى سُقُوط العِزّة[2] ، لا يُجْدِى عليك نَفعًا ، ولا يَسُوقُ إليك غُنْمًا ، فازْهَدْ فيما عِندكَ له ، ورُدَّهُ قَبلَ أنْ تَستَوْبِلَ عاقِبَتَهُ ، وتَستَوخِمَ مَغَبَّتَهُ . والواوُ من قَوْلِهِ « وما نِيلَ » ، واو الحالِ ، كأنّه قال أدِّهِ وأنتَ إذا أُكِلتَ مُسْتَطابٌ . وقَوْلُه « أوهو أطيب » أى أطْيَبُ من التَّمْر .

(١) صدره فى ديوان لبيد ١٢ طبع ١٨٨١ والمقاييس واللسان (خزا) :

* غير أن لا تكذبنها فى التق *

(٢) م : « وبسقوط العزة » .

والحَذْفُ من الخَبَر جائزٌ ، وقد مَضَى مِثْلُهُ . وأَوْ هى أَوِ الإباحَة ، وقد نُقِل إلى الخبَر .

٤ — فإلّا تَصِلْ رِحْمَ ابنِ عَمْرو بنِ مَرْثَدٍ ‏ ‏ ‏ يُعَلِّمْكَ وَصْلَ الرِّحْمِ عَضْبٌ مُجَرِّبُ

يقول : إنْ لم تَصِلْ رَحِمكَ مُخْتَارًا لَهُ ، ومُعَفِّيًا أثَرَ العُقوق به ، ومُزِيلًا عن نفسك سِمَةَ الجاهل الذى يَدْخُل فيما لا يُمْكِنُهُ الخروج منه ، والآكلِ ما لا يَقدِرُ على استمرائه ، عَلّمَكَ صِلَةَ الرّحِمِ والخروجَ من العُقُوق ، سَيْفٌ قاطِعٌ لا يُبْقِى عليك ولا يَألُو تأديبك . وفى طريقته السّائرة قَوْلُهم : « الطَّعْنُ يَظْأَرُ[1] » ، ومن الشِّعرِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

ومن يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فإنّه ‏ ‏ ‏ مُطِيعُ العَوَالِى رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

١٧٠

وقال حُجْر بْنُ خَالد[2] :

١ — وَجَدْنَا أَبانَا حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَهُ ‏ ‏ ‏ وأَعْيَا رِجالاً آخَرِينَ مَطَالِعُهْ

قَوْلُه « حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَه » فى موضع المفعول الثانى لوجَدَ ، لأنّه بمعنى عَلِمَ . والبيت لا يَحُلُّ ولكن يُحَلُّ فيه ، لكنّهُ رَمَى بالكلام على السَّعَةِ والمجاز ، لأنَّ المعنى لا يَخْتَلُّ . ويقولون : فُلانٌ عَالِى المكان ، لأنّه إذا عَلاَ مكانُه فقد عَلاَ هو . وقال الآخر :

* وحَلَّتْ بيُوتى فى يَفَاعٍ مُمَنَّعِ *

فيقول : عَلِمْنَا بالاختبار[3] فى طِلاَبِ العُلُوّ ، والاجتهاد فى مَنَالِ أقصَى

---

(١) أى يعطف على الصلح . ويروى : « الطعن يظئره » . انظر مقاييس اللغة (ظأر) .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١٨ من القسم الأول .

(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « بالاختيار » .

السُّمُوّ ، تَمَكَّنَ بَيْتُ أبينا من ذِرْوَةِ المجد والشَّرَفِ ، فَمَحَلُّه فائتٌ لا يُلْحَقُ ، ومَطْلَعُهُ مُعْجِزٌ لا يُمكِن ، إذْ كان مَدَاهُ الغايةَ التى ليس وراءها مُسْتَشْرَفٌ لناظِرٍ ، ولا مَنَالٌ للاحِقٍ .

٢ — فَمَنْ يَسْعَ مِنَّا لا يَنَلْ مِثْلَ سَعْيِهِ ولكن مَتَى ما يَرْتَحِلْ فهو تابِعُهْ

يَقُولُ : من طَلَبَ نَيْلَ مَكَانِهِ ، أو الارتقاء إلى درجتِهِ ، بسَعْيٍ يَتَكَلَّفُهُ ويَجْهَدُ فيه نَفْسَهُ ، وقَفَ دُونَهُ وقَعَدَ به طَوْقُه ، وكان أقْصَى غايَتِهِ بعد استفراغ مجهودِهِ ، أن يكون تابعاً له ، وواطِئاً عَقِبَه ؛ فأمّا مُسَامَاتُه[1] فى مَدَارِجِهِ ، أو مُسامَتَتُه فى مَطَالِعِهِ ، فلا سبيل إليه ، ولا مَطْمَع فيه .

وقد سَلَكَ الأعْشَى هذا المَسْلَكَ فقال :

* كُلٌّ سَيَرْضَى بأنْ يُلْقَى له تَبَعَا[2] *

وذِكر الارتحالِ حَسَنٌ فى الاستعلاء[3] مع ذكر السَّعْى . وقد قيل : « لولا السَّعْىُ لم تكن المَسَاعِى » .

٣ — يَسُودُ ثِنَانَا مَنْ سِوَانا وبَدْؤُنَا يَسُودُ مَعَدًّا كُلَّهَا ما تُدَافِعُه[4]

الثِّنَى : مَنْ دون الرئيس ، لكنه يَلِيهِ فى الرُّتْبَة . والبَدْء : السَّيِّدُ غَيْرُ مُدَافَعٍ عن أوّليّة سيادتِهِ ، فكأن المراد بهما الأول فى الرِّياسة والثانى . وأصْلُه من

(١) م : « مساواته » .

(٢) صدره فى الديوان ٨٦ : * تلقى له سادة الأقوام تابعة *

(٣) م : « الاستعارة » . ولكل وجه .

(٤) يروون أن حجر بن خالد لما أنشد هذا البيت رفع عمرو بن كلثوم التغلبى يده فلطمه فى حضرة الملك ، فغضب الملك وقام ابن كلثوم ، فلما كان الليل دخل حجر على عمرو قبته فلطمه فنادى : ياللتغلب ! فامتلأت الأرض خيلا ، ثم نادى مناد من فوق قصر الملك : يا حجر بن خالد ، إنى لك جار ! فتصدعت خيل التغالبة . وأنشأ حجر مديحا فى الملك ، رواه التبريزى والجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٩) ، أوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد * كفعل أبى قابوس حزما ونائلا

ثَنَيْتُ الشَّىْءَ . وفى حديث النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « لا ثِنَى فى الصَّدَقَةِ » . والمَعْنَى أنَّها لا تؤخَذُ فى السَّنة مرّتَيْنِ . ويقالُ ثَنَيْتُ الشَّىء ثَنْياً ، ثم يُسَمَّى المَثْنِىُّ ثِنْياً وما ثُنِىَ به هو أيضًا ثِنْياً . وعلى هذا الضِّعْفُ ، يُقَالُ ضَعَفْتُ الشىء مُخَفَّفًا فى معنى ضاعَفْتُ ضَعْفاً ، ثم يُسَمَّى المَضْعُوف ضِعْفاً بالكسر ، والمَضْعُوف بِهِ ضِعْفاً أيضًا . قال لبيد :

* وَعَالَيْنَ مَضْعُوفاً وفَرْداً سُمُوطُهُ[1] *

والبَدْء : العَظْم المنفصل مما عليه من اللَّحْمِ ، كأنَّه من هذا . قال :

* أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ أَبْدَاءَ الجُزُرْ[2] *

ومعنى البيت : المغمور فينا إذا حَصَلَ فى غيرنا سادَهُم وعَلاَهُم ، والرَّئيس منَّا تُسَلَّمُ له الرِّياسة على قبائلِ مَعَدٍّ كُلِّها ، غيرَ مُعارَضٍ فيها ، ولا مُدافَعٍ [عنها[3]] .

٤ — ونَحْنُ الذين لا يُرَوَّعُ جارُنا وبَعْضُهُمُ للغَدْرِ صُمٌّ مَسَامِعُهْ

يَصِفُ عِزَّهم ومنعتَهم ، وعَهْدَهم ووفاءَهم ، وأنَّ المُجَاوِرَ لهم ، والمعتَصِم بحَبْلِهِم ، يَبْقَى آمناً معهُم غيرَ مذعورٍ ، وموفورًا غيرَ مسلوبٍ . ثم قال مُعَرِّضاً بغيره : وبَعضُ الناس لما يستَعْمِلُه من الغَدرِ ، ويشْتَهِرُ به من تضييع الذِّمار ، ولكونه مُنطوِيًا فيما يأتيه على الإصرارِ ، يُصِمُّ مَسامِعَهُ عن ذِكر العار ، فلا يُبالى بذَمِّ الناسِ له ، ولا يَأْنَفُ من تهجينهم أفعالَهُ . وفى طريقته قول الآخر[4] :

(١) عجزه : * جمان ومرجان يشك المفاصلا *

(٢) لطرفة فى ديوانه ٧٣ واللسان (يسر ، بدأ) . وصدره :

* وهم أيسار لقمان إذا *

(٣) هذه من م .

(٤) أنشد الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٣٣) البيتين التاليين مع ثالث بعدهما ، وروى عن أبى عبيدة أنها من الشوارد التى لا أرباب لها . وانظر عيون الأخبار (٢ : ٢٩) وديوان المعانى (١ : ١٨٢) وأمالى القالى (٣ : ٨٣) وخزانة الأدب (٣ : ٦٦٠) والصناعتين ١٠٣ ومحاضرات الراغب (١ : ١٥٠) .

إنْ يَجْبُنُوا أوْ يَغْدِرُوا أوْ يَبْخَلوا لا يَحْفِلوا
يَغْدُوا عليك مُرَجَّلِينَ كأنَّهُمْ لم يَفْعَلوا[1]

وكان وجه الكلام أن يقولَ لا يُرَوِّعُ جارُهم ، حتى يرجعَ من الصِّلَةِ إلى الموصول الذِّكْرُ ؛ لكنهُ لما كان المقصودُ بقوله نحنُ والذين شيئاً واحداً لم يُبالِ برُجوع الضمير إلى كلٍّ واحدٍ منهما . وقد مَضَى مِثله

٥ — نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْباعِ والنَّدَى وبَعْضُهُمْ تَغْلِي بذَمٍّ مَنَاقِعُه[2]

الدَّهْدَقَةُ : الصَّوْتُ[3] . والبَضْعُ : القَطْعُ . أي نتولَّى ذلك كَرَمًا مِنَّا على اعتِسافٍ وسوءِ تَأَتٍّ : ويجوز أن يكون البَضْعُ جمعَ بَضْعَةٍ[4] فيكون المعنى : إنَّا نُقَلِّبُها في القُدُور ، فلِعِظَمِها يُسْمَعُ لها في التقلُّبِ صوتٌ . والمَناقِع : جمع المَنْقَعِ والمِنْقَعَةِ ، وهي القُدُور الصِّغَار ، وقيل هي الأتوار[5] الصغيرة . وقيل المَناقِعُ واحِدُها ، وأصلُه ما يُنْقَعُ فيه الشيء ، فاستعارَه للقُدُورِ . فأمّا قولُهُم مُنْقَعُ البُرَمُ فقد قيل فيه ما ذَكَرْنا وغيرُهُ . وقد رُوِيَ مِنْقَعُ البرَمِ ، بكسر الميم ، وفُسِّرَ على وعاء القِدْر[6] وذِكْرُ الباعِ مَثَلٌ ، والمراد الكَرَمُ . فعلى الطريقة الأولى يكون معنى البيت : يُسْمَعُ لقَطْعِ اللِّحَام بأيدينا دَهْدَقةٌ ، لِقِلَّةِ رِفْقنا فيه وسوءِ حِذْقِنا به ، كما قال الآخر[7] :

---

(١) بعده : كأني براقش كل يو * م لونه يتخيل
(٢) التبريزي : « ومن روى : الباغ ، بالغين منقوطة أراد الباغي ، فحذف الياء » .
(٣) التبريزي : « ندهدق : نغلي . والدهدقة : الصوت » .
(٤) البضعة بالفتح ، قال في اللسان : « وأخواتها بالكسر مثل القطعة ، والفلذة ، والفدرة ، والكسفة ، والخرقة ، وغير ذلك مما لا يحصى » .
(٥) التور بفتح التاء : إناء من صفر أو حجارة كالإجانة .
(٦) هذا ما في م . وفي الأصل : « دعاء القدر » .
(٧) هو شقران مولى سلامان . انظر الحماسية ٦٩٨ وشروح سقط الزند ٥٩١ . وعند الجاحظ في البيان (٣ : ٣٠٩) أنه ثروان مولى بني عذرة .

جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصِيبون مَفْصِلاً ولا يأكُلونَ اللَّحْمَ إلاّ تَخَذُّمَا[1]

على الطريقة الثانية يكون المعنى : تَغْلى قُدُورُنا بِقِدَرِ اللَّحم ، فإذا قلَّبناها فيها إقامةً لخدمة الضَّيْفِ ، واكتِساباً للحَمْد ، ورَغْبَةً فى ابتناء المَجْدِ ، تَقَلَّبَتْ ولها صَوْتٌ ، لِعِظَمِها واتِّساع قدورها[2] . وبعضُ الناس — وهذا تعريضٌ بالغَيْرِ — تَغْلِي قدورُه التى كأنَّها مناقِعُ فى الصِّغَرِ بذمٍّ الناس له . فقولُه «بذمٍّ» فى موضِع الحالِ ، تقديره : تَغْلِي مذمومةً .

٦ — ويَحْلُبُ ضِرْسَ الضَّيْفِ فينا إذا شَتَا سَدِيفَ السَّنَامِ تَشْتَرِيهِ أصابِعُهْ

يُرْوَى «ضِرْسُ الضَّيْفِ» بالرفع على أن يكون فاعلاً ، وسديفَ بالنَّصْبِ على أن يكون مفعولاً ، وهو الجَيِّدُ . وبعضهم يَنْصِبُ الضِّرْسَ ويرفعُ سَديفَ السَّنَامِ ، والمعنى لا يَلْتَبِس فى الوجْهَيْن . يقول : وإذا اشتدَّ الزَّمان ، وأسْنَتَ الناسُ ، فإنَّ الضيفَ فينا يأكلُ سَدِيفَ السَّنَام ، من الإبِلِ السِّمان ، على ما تختاره أصابِعُهُ فى الجِفَانِ . والسَّدِيفُ : قِطَعُ السَّنَامِ . وقيل هو شَحْمُ السَّنَامِ . ومعنى إذا شَتَا ، إذا أمْحَل . وذِكْرُ الحَلَبِ كنايةٌ عن الأَكْلِ . والمعنى : إنّا لا نَرْضَى بِنَحْرِ الكسيرات المهزولات ، بل نَعْتَبِطُ خِيارَ الإبلِ وكرائمها عند حُلول الضِّيفان . وتَشْتَرِيهِ : تختارُه ، يقالُ استَشْرَيتُ[3] الشىء أيضاً . والسَّرِيُّ : الخِيَارُ من كلِّ شىء . وموضِعُ تَشْتَرِيه نَصْبٌ على الحال

---

(١) التخذم : قطع اللحم بالسكين . فى الأصل : « تجذما » وفى م : « تخدما » كلاهما محرف عما أثبتنا . يقول : هم سادة نشئوا على السيادة ، وعودوا أن يكونوا مخدومين لا خادمين ، فليس لهم بصر بجزر الإبل وتفصيل أعضائها . والعرب تعد الجهل بجزر الإبل مدحا والمعرفة به ذما . انظر شروح سقط الزند .

(٢) م : « قدورنا » . والمؤدى واحد .

(٣) فى الأصل : « استريت » ، والوجه ، ما أثبتنا من م .

للسَّديفِ ، والعاملُ فيه يَحْلُبُ ، كأنه قال تَحْلُبُهُ الضِّرْسُ[١] مختارًا بالأصابع .

٧ – مَنَعْنَا حِمَانا واستباحَتْ رِمَاحُنَا حِمَى كلِّ قَوْمٍ مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ[٢]

يقول : إذا أَحْمَيْنَا[٣] مكانًا ذَبَبْنَا أعداءنا عنه ، ولا يَجْسُرُ أحدٌ منهم على دخولِهِ ، ومتى شئنا استبحنا أَحْمِيَةَ الناس لعزِّنا وفَضْلِ قُوَّتِنا ، ولاستسلام القبائل لنا ، وإن كانت الأحميةُ مستجيرةَ المراتع . وقولُه « مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ » الهاء يرجع إلى حِمَى كل قَوْمٍ ، والمعنى الحِمَى الذى قد استجار مراتعُه بالمتنِعِ القوىِّ ، وتعزَّزَ بالظَّهْرِ الظَّهِيرِ . وهذا إشارةٌ إلى إيلاف الجِوَار ، كأنها تَجْمَعُ بين جِوَارَيْنِ فى حَيِّها وحَىِّ غيرها ، تَستظهِرُ بأحَدِهما على الآخَرِ . وجَعَلَ الفِعْلَ للمراتع مجازاً ، أى تَسْتَبِيحُ الحِمَى الذى هذا صِفَتُه . ويجوز أن يكون أراد الحِمَى الذى قد أدخَلَ على قَوْمِه[٤] الضعفاء من الأجانب فى الجِوَار . ويقالُ : استجار ، إذا تَضَمَّنَ الإجارَةَ وطَلَبَ من غيره المجاورة ، واستجار أيضاً إذا طَلَبَ أن يُدْخَلَ فى الجِوَار ويُحَامَى عليه . ويقالُ استَجَرْتُ فُلانًا وبفلانٍ ، والمفعول محذوف .

---

(١) الضرس مذكر ، ويؤنث كما ورد هنا . وأنكر الأصمعى تأنيثه ، وقال فى قول دكين : * ففقئت عين وطنت ضرس *

« إنما هو : وطن الضرس ، فلم يفهه الذى سمعه » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية « مستحير » بالحاء المهملة ، قال : وكأنه يريد التفاف العشب من الكثرة وفرط الحماية له » .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : « حمينا » ، وهما لغتان . وفى إصلاح المنطق ٢٥٣ : « حميت المكان وأحميته : جعلته حمى لا يقرب ومنعت الناس منه » .

(٤) فى النسختين « عن قومه » .

١٧١

وقال أيضاً :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَلِيَّاءُ بنُ عَمْرو ... بذى لَوْنَيْنِ مُخْتَلِفِ الفَعَالِ[1]

وصَفَهُ بأنه ثابتُ القَدَم بحُسْنِ الوفاء ، محافظٌ على الذمار ، باقٍ على طريقةٍ واحدةٍ فى الشِّدَّة واللَّيان . فيقول : وبقائك ما هُوَ بذى لَوْنَيْن[2] يخالفُ باطِنُه ظاهِرَه ، ولا يوافِقُ مَقالُهُ فَعَالَهُ ، يتنقَّل فى الأهواء ، ويَتلوَّن تلوُّن الأوفاقات ، فهو على أن يُجيبَ كلَّ ناعِقٍ ، ويَتْبَعَ كلَّ قائدٍ وسائقٍ ، إنْ ضَمِنَ لم يَفِ ، وإن وَعَدَ لم يُنْجِز .

٢ — غداةَ أتاهُ جَبّارٌ بإدٍّ ... مُعَضِّلَةٍ وحَادَ عن القِتَالِ[3]

جَبَّارٌ : رجل . والإدّ : المُنْكَر من الأمْر الشديدُ . وفى القرآن : ﴿ لقد جِئْتُمْ شيئاً إدًّا ﴾ . وقد أُفْرِدَ هاهنا عن موصوفِهِ فأُجْرِىَ مَجْرَى أسماء الدَّواهِى . والمُعَضِّلَةُ : الداهيةُ العَسِرَةُ الضَّيِّقَةُ . ومنه قولُهُمْ : هو عُضْلَةٌ من العُضَل ، وداء عُضَالٌ : الذى غَلَبَ وأعْيَا . وقوله « غداةَ أتاهُ » ظَرْفٌ للفِعْلِ الذى دَلَّ عليه قولُه « بذى لونين مختلِف الفَعَال » ، كأنه جَلَبَ عليه هذا الرَّجُلُ أمراً مُنْكَراً ، ضيِّقاً عَسِرًا ، ثم خَلَّاه يَصْلَى بنارِه ويقاسى مَكْرُوهه ، ويُماصِعُ خُصَمَاءَهُ فيه ويجاذبهم ، وهَرَبَ هو .

---

(١) وكذا رواية ابن جنى . وانفرد التبريزى برواية : « أَلياء بن عبد » .

(٢) م : بذى وجهين » .

(٣) التبريزى « ويروى : غداةَ أتاه جَبّارٌ بعبدٍ مُغَفِّلَهُ . ومعناه أن جباراً جاءه بعبد مغفله ، كأنه يستغفله ، وحاد هو عن القتال لقتله ألياء . ويروى جبّار بن عَبدٍ مغفَّله . كأنه استغفله لما أتى جبار ألياء » .

٣ — فَفَضَّ مَجَامِعَ الكَتِفَيْنِ مِنْهُ   بأَبْيَضَ ما يُغَبُّ عن الصِّقَالِ

الفَضُّ : الكَسْرُ والتَّفريق ، ويقال انفضّ القَوْمُ ، إذا تفرَّقوا . يقول : فَصَلَ مَجْمَعَ كَتِفَيه بضربةٍ من سَيْفٍ يُحادَثُ بالصَّقْلِ ، ولا يتغافَلُ عَنْهُ . والإغبابُ : أن تَرِدَ الإبلُ الماءَ غِبًّا . ويقالُ أغَبَّ القَوْم ، إذا صارت إبلهم كذلك . وليس يريدُ بِنَفْى الإغْباب أن يَدُلَّ على صَقْلِ السَّيْفِ كلَّ يَوْم ؛ ولكنَّ المُرَاد أنه لا يُهْمِلُ صقلَهُ زَمانًا ممتداً ؛ إذ كان صاحِبُهُ يستعمِلُه كل يوم . وعلى هذا ذِكْرُ الغِبّ فى المَثَل السائر : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

٤ — فَلَوْ أَنَّا شَهِدْناكُمْ نَصَرْنَا   بذى لَجَبٍ أَزَبَّ من العَوَالِى

يقول : لو حَضَرْناكم لنَصَرْناكم وجاهَدْنا معكم بجَيْشٍ لَهُ جَلَبَةٌ وصوتٌ ، أزبّ لكثرة الرِّماح فيه . أى تُشْبه كَثْرةُ الرماح فيه والتفافُها كَثْرَةَ شعر الأَزَبِّ . وهذا على طريق الاستعارة ، لأنَّ أَصْلَ الزَّبَب فى الشَّعر . وفى المَثَل : « كلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ » ، يعنى البعير الكثير الشَّعر على الوجه والعُثْنُون ، لأن ما حَوَالَىْ عَيْنَيْهِ من الشعر يُخَيِّلُ إليه المَناظِرَ على خلاف ما تكون عليه فينفِر . والعوالى : جمع عالية ، ويُرَاد بها جِنْسٌ من الرماح .

٥ — وَلَكِنّا نأينَا واكْتَفَيْتُم   ولا يَنْأَى الحَفِىُّ عن السُّؤَال

يُرْوَى « واكْتَفَيْنَا » . يقول : بَعُدْنَا عنكم فاستقللتُم بأنفسكم واستغنيتم عَمَّنْ يعاضِدُكم فى كلِّ ما يدهَمُكم ، فلم تدعُكم حاجَة إلى مجاورتنا ، ولا ألجأتكم الضَّرورة إلى التكَثُّر بنا . والرَّجُل اللطيف البارُّ بصاحِبِه لا يَبْعُدُ عن تَنَسُّم الأخبار واستنشائها لمن يُهِمُّهُ أمْرُهُ ، وإن بَعُدَ بنَفْسِهِ ومكانه . ومن رَوَى « واكْتَفَيْنَا » كان المعنى اكْتَفَيْنَا فى البُعْدِ عَنكُم فلم نَحْتَجْ إليكم . والقَصْدُ

فى الرِّوايتين أنه لم يَكُنْ بإحدى الجنبتين افتقارٌ إلى الأخرى ، فصار ذلك سَبَباً فى التنائى ، وعُذْرًا بيِّنًا[1] فى التَّأخُّرِ عن المعاوَنَةِ والمكانَفَة . ودلَّ بقوله : « ولا يَنأى الحَفِيُّ » على أنّ القُلُوبَ فى التَّعطُّفِ والخُلوص ، على ما يُوجِبه الوِدَادُ ولم يغَيِّرْهَا البعاد . ويقال فلانٌ حَفِيٌّ بفلان ظاهِرُ الحِفْوَةَ ، أى البِرّ .

١٧٢

وَقالَ حَسَّانُ بنُ عُلْبَةَ[2] :

١ ــ إذَا كُنْتَ مِنْ سَعْدٍ وأمُّكَ مِنْهُمُ غَرِيباً فلا يَغْرُرْكَ خَالُكَ من سَعْدِ

يقول : إذا كنتَ بعيداً عن وطَنِك وذَوِيك من قبَل أبيكَ ، وحاصِلاً فى بنى خالِك ، ضَارباً فيهم بسهمِ الخُؤُولةِ ، لكَوْنِ أمِّك منهم ، فلا تَغْتَرَّ بهم ، ولا تَعتمد على قرابتك فيهم ، فإنَّ التشابُكَ الموثوقَ به المُسْتَصْلَحَ لإعْدَادِه ، إذا كان الالتحام بالأُبُوَّةِ لا بالأُمُومَةِ . فأما الخؤولة فمُشَابِهَةٌ للغُرْبَةِ ، بعيدةٌ من القُرْبَى والقُرْبةِ ، والمكانَفَةِ والنُّصْرَةِ . وهذا المعنى قد كَشَفَهُ غيرُهُ فقال :

بَنُونَا بَنُو أبنائِنَا وبنَاتُنَا بَنُوهُنَّ أبناء الرِّجالِ الأباعِدِ[3]

(١) فى الأصل وم والتيمورية : « بيننا » .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى فى كتابيه : « غسان بن وعلة » . وقال التبريزى فيه : « أحد بنى مرة بن عباد » وفى محاضرات الراغب (١ : ١٧٧) : « حسان بن وعلة » . ونسب الجاحظ الشعر فى الحيوان (٣ : ١٣٧) إلى النمر بن تولب . قال ابن جنى : « غسان : علم مرتجل . ويجوز أن يكون من أحد شيئين إما من قولهم فلان غس ، أى ضعيف . . . فإن كان من الغس فهو فعلان ، وإن كان من الغسن وهو خصل العرف فهو فعال . وينبغى أن يكون فعلانا لامتناعهم من صرفه » .

(٣) قال العينى : « هذا البيت استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر ، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء فى الميراث ، والفقهاء كذلك فى الوصية ، وأهل المعانى والبيان فى التشبيه . ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله » . وفى الخزانة (١ : ٢١٣ ــ ٢١٤) أن قائله الفرزدق .

قَوْلُهُ « فى سَعْدٍ » يجوز أن يكونَ خَـبَراً ، ويُجْعَلَ غريبا مُنْتَصِباً على الحالِ ، ويكونُ العاملُ فيه كُنْتُ ، أو العاملَ فى الظّرف . ويجوز أن يُجعل فى سَعْدٍ لَغْواً ، ويُجْعَلَ غريبا خَـبَر كان . وقولُه « فلا يَغرُرْكَ » جَعَل النَّهْىَ فى اللفظ للخال ، والمعنى لا تغترَّ بخالك من سَعْدٍ ، لأنَّ المَنهِىَّ هو المُخاطَب . ومِثْل هذا قولهم : لا أرَينَّك هاهنا . وقول الآخَر[1] :

* إنَّ الرِّياضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشّيبِ[2] *

٢ ــ فإنَّ ابْنَ أُخْتِ القَوْمِ مُصْغًى إناؤُهُ   إذَا لم يُزَاحِمْ خَالَهُ بأبٍ جَـلْدِ

يقول : ابن أخت القوم منحوس الحظّ ، منقوص الشِّرْب ، مُمَال الإناء والحوْضِ مَتَى لم تنجده أُبُوَّةٌ يَشْتَدُّ بها أمومته ، وعُمومَةٌ يتأيَّدُ بها خؤولتُه[3] . وهذه الأمثال مضروبةٌ للهضيمة تَلْحَقُ فلا يتحرَّكُ لدَفْعِها الأخوال وإن كان بين ظهرانَيْهم ، ولأنَّ الحميَّةَ إنما يَبعثها تراقُدُ بنى الأعمام ، أو المنتسبين إلى الآباء ، وَجَواب إذا لم يُزاحِم مُقَدَّمٌ ، وهو ظَرْفٌ لإصغَاء الإناء . واستعارة الإناء هاهنا كما قال زهير :

ومَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ   يُهَـدَّمْ ومَن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

ومن هذه الطريقة قولُه :

يا جَفْنَةً كَنَضِيحِ الحوضِ قد كُفِئَتْ   بِثَنْيِ صِفِّينَ يعـلو فوقَها القتَرُ

وإنْ كان فى الـكَفْءِ ما لَيْسَ فى الإصْغاء ، فاعلَمْهُ .

---

(١) هو الجميح الأسدى . المفضليات (١ : ٣٢) .

(٢) فى الأصل : « لا تنضيك » ، وصوابه فى م والمفضليات والخزانة (٤ : ٢٩٦) . صدره : * ولو أصابت لقالت وهى صادقة *

(٣) م : « تشيد » و « تؤيد » بدل « يشتد » و « يتأيد » .

١٧٣

وقال بَعْضُ بنى جُهَيْنَةَ(١) :

١ — ألا هَلْ أتى الأنصارَ أنّ ابنَ بَحْدَلٍ حُمَيْداً شَفَى كَلْباً فَقَرّتْ عُيُونُها(٢)

هذا الاستفهامُ طريقُهُ طريق التمنِّى وإظهارِ المَيْلِ إلى أن يكونَ الأنصارُ شَرِكُوهُ فى العِلْمِ بالحالة التى يقتصُّها . ويجوز أن يكون أخْرَجَ الكلام على هذا لِيُبْلَغُوا . فيقول : هل تَأدَّى خَبَرُ حُمَيْد بن بَحْدَلٍ فيما كان من نَصرِهِ كَلْباً على قَيْسٍ ، وإقرارِهِ عُيُونَهُم منهم ، وشفائه قُلوبَهم مما كان تَدَاخَلَها من عَدَاوَتِهِم ، واهتاج فيها من نار حُقُودِهِم .

٢ — وأنْزَلَ قَيْسًا بالهوان ولم تَكُنْ لِتُقْلِعَ إلاّ عِنْدَ أمْرٍ يُهِينُها

يقول : وأحَلَّ حُمَيْدٌ قبيلةَ قَيْسٍ بمَحَلِّ الذُّلِّ والامتهان ، والهَضْمِ والهَوَان ، حتّى كَفُّوا عن مجاذَبةِ كَلْبٍ والتعرُّض لهم بالسّوء . ثم قال : ولم تكُنْ قَيسٌ تَنزَجِر وتَرتدِع إلاّ عند ما يُسقِطُها ، ويُنْزِلها بدار الرَّغْمِ ويُسْخِطُها ، لفَرْطِ لجاجِها ، وتأبِّيها وجِماحِها . واللامُ من « لِتُقْلِعَ » لام الجحُود .

(١) المبهج : « فى وقعة لكلب مع فزارة . جهينة اسم مرتجل من الجهن ، وهو غلظ الوجه ،وكأنه تحقير جهنة أو نحوها . والفزارة :أم الببر » . وفزارة، بنو ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . وكلب ، بنو وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . وجهينة ، بنو زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

(٢) التبريزى : « ويروى : الأشراف . والأمصار » لما كانت فتنة ابن الزبير ، وكان عبد الملك بن مروان يقاتل مصعب بن الزبير ، وكانت قيس زبيرية ، كان أبناء القيسيات من بنى أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما تفعل بهم قيس فى البدو والحضر ، فبحث خالد ابن يزيد بن معاوية عن رجل من الكلبيين ليمحو ذلك العار ، فانتدب لذلك حميد بن بحدل خال يزيد بن معاوية ، وكتب له خالد بن يزيد عهدا على لسان عبد الملك بن مروان بأخذ الصدقة من قيس حتى يتمكن من النكاية . وقد استغل حميد هذا السلطان فأوغل فى النكاية بقيس — ولا سيما ببنى فزارة — إيغالا سجله هذا الشعر .

٣ — فَقَدْ تُرِكَتْ قَتْلَى حُمَيْدِ بن بَحْدَلٍ كثيراً ضَوَاحِيها قليلاً دَفِينها[١]

هذا بيانٌ لِمَا حَلَّ بقَيْسٍ . يقولُ : تُرِكت القَتْلَى الذين أبادهُم حُميد ابن بَحْدَل بالعَرَاء ، فقد كَثُر بوارزُهم للشمس ، وقلَّ دفائنهم فى الأرض . وإنما يُفظِّمُ بما يَصِفُ ما دُفِعَ إليه قَيْسٌ وابتُلِيَ به . والضَّوَاحِي : جمع ضاحِيَةٍ ، وهى الظَّواهِرُ ، والفعل منه ضَحِيَ يَضْحَى عند الكوفيين ، ولُغَةٌ أخرى ضَحَى يَضحَى ، وهذا أَفْصَحُ . وفى القرآن : ﴿ وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى ﴾ . وأضافَ قَتْلَى إلى حُميد لأنه المُوقِعُ بهم ، القاتِل لهم .

٤ — فإنّا وكَلْبًا كاليَدَيْنِ مَتَى تقع شِمالُكَ فى الهيجا تُعِنْكَ يمينُها

هذا الكلامُ تحَمُّد[٢] وتنبيه على أنّ ما يجمعهم وكَلْبًا فى نهاية القوّةِ والاستحكام ، فلا يَعرِضُ فيه فُتُورٌ ، ولا يتسلَّطُ عليه كَلَّةٌ ولا قُصُورٌ ، فهم كاليدين إذا دُفِعت إحداها إلى شِدَّةٍ أعانتها الأخرى . وجعَل الفُضْلى من اليدين — وهى اليمين — مَثَلاً لأنفسهم .

١٧٤

وقال المُنَخَّلُ اليَشْكُرِىُّ[٣] :

١ — إن كنتِ عاذِلَتِى فَسِيرِى نحوَ العِرَاقِ ولا تَحُورِى[٤]

---

(١) التبريزى : «قوله قليلا ، لم يرد أن القليل منهم دفنوا ، أراد أنه لم يدفن منهم أحد . ومثله :
قليلا على ظاهر المطيــة ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر » .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « تحمل » .

(٣) هو المنخل بن مسعود بن عامر بن ربيعة بن عمرو اليشكرى . وهو قديم جاهلى . وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند ، وكان يتهم بامرأته أيضاً ، كما كان يتهم بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر . وكان للنعمان منها ولدان كان الناس يقولون إنهما من المنخل . ولما قال النابغة قصيدته فى وصف المتجردة قال المنخل : ما يعرف هذا إلا من جرب . فكانت تلك السعاية سبباً فى هرب النابغة ولحاقه بآل جفنة الغسانيين . انظر الأغانى (١٨ : ١٥٢ — ١٥٦) والمؤلف ١٧٨ والشعراء ٣٦٤ — ٣٦٦ .

(٤) التبريزى : « إنما قال ذلك لأن للنعمان بن المنذر كان يكرمه ويقربه ، ودار النعمان بالحيرة ، والحيرة من العراق » .

يَسْتَعْفِى من لؤمِها وتفريطها فى تبذير المال وإتلافه ، وترْك الادّخار منه ليومِه وغدِه ؛ فيقولُ : إن كان دَأْبُكِ إدمانَ عَذْلِى ، والاستمرارَ فى توبيخى ، ففارقينى وخُذِى طريقَ العراق لا رَدَّكِ الله . قولُه « لا تَحُورى » دُعاءٌ عليها ، من قولِكَ حارَ أى رَجَع . ومنه قولُ الناس : « نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْرِ » ، لأنّ النقصان تَراجُع . ويجوز أن يكون « سِيرى » دُعاء أيضاً ، كأنه قال فَسَيَّرَكِ الله ولا رَدَّكِ !

٢ ــ لا تَسْألِى عن جُلِّ مَا لِى وانظُرى كَرَمِى وخِيرِى[1]

قال الخليلُ : الخِيرُ : الهيْئَةُ . يقولُ : اترُكى البحثَ والفَحْص عن ذخائرى ومَعاظِمِ مالى ، ولكن [اعلَمى[2]] شَرَفى وكَرَمِى وحُسْنَ هَيْئتى وخُلُقِى . وقولُه « وانظُرى » معناه واعلمى . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ يُسَاقُونَ إِلَى الموْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ، أى يَعْلَمون ذلك ويتيقّنُونه . والعَربُ تضع عِبارات طُرُق العِلْمِ فى موْضِع العِلْم . يقولون : سَمِعْتُ كذا ، بمعنى عَلِمْتُه . وعلى هذا قولُنا : سَمِعَ اللهُ لمن حَمِده . ويقولون : ذُقْتُ الشيء بمعنى عَلِمْتُه وخَبَرْتُه . ويقال : شَمِمْتُ رائحة الفَضْل من فُلانٍ ، أى عَلِمْتُه .

٣ ــ وفَوَارِسٍ كأُوَارِ حَــرِّ النارِ أَحْلاسِ الذُّكُورِ

يقولُ : ورُبَّ فُرْسانٍ يشتعِلون ليْلاً ونهارًا ، ذكاءً وحَمِيَّةً ، وبأْسًا ونَجْدَةً ، اشتعالَ النار ، ويلزمون ظهور الذُّكُور من الدوابِّ اللزومَ الشديد ، إذ كان ذلك شأنَهم ودأبَهم . وجَواب رُبَّ منتظَر . وقولُه « كأُوَارِ حَرِّ النار » ، الأُوَار : التوهُّج والالتهاب ، ولهذا أضافَه إلى الحَرّ . ويقال وأَرَتِ النارُ ، إذا

(١) فى الأصل : « واسألى كرمى » . والتفسير بعده يقتضى ما أثبتنا من م والتبريزى .
(٢) التكملة من م .

توهَّجَتْ ، ومنه الإرَةُ . وإذا كان كذلك فالأصلُ فى أُوَارٍ وُؤَارٌ ، فإما أن يكون قد قُلب ، فقدم الهمزة ، وإما أن يكون لُيِّنَ الهمزة ثم أُبْدِلَ من الواو المضمومة التى هى فاء الفِعْل هَمْزَةً ، كما فُعِل فى وُقِّتَ إذا قيل أُقِّتَ ، فصار أُوَارًا . وقوله « أحْلاسِ الذكور » ، الحِلْس : كل شىء وَلِىَ الظَّهْرَ تحت الرَّحْل . وحَكَى ثَعْلَبُ عن ابن الأعرابىّ أنّ الأحلاسَ البُسُطُ ، واحِدُها حِلْسٌ ، قال : ومنه الخبر : « إذا ظَهَرَت الفِتَنُ فكُنْ حِلْسَ بيْتِك » . وأَنْشَدَ :

نَوَّمْتُ عَنْهُنَّ غُلامًا جِبْسَا وقد تَغَطَّى فَرْوَةً وحِلْسَا

ومنه استَحْلَسَ الأرضُ بالنباتِ ، والأرضُ بالظلام . ولما أدَّى الحِلْسُ معنى اللزوم صَحّ الوَصْفُ به . وعلى هذا أسماء الأجناس إذا ضُمِّنَتْ مَعانِىَ الأفعال .

٤– شَدُّوا دَوَابِرَ بَيْضِهِمْ فى كلِّ مُحْكَمَةِ القَتِيرِ

٥– واسْتَلأَمُوا وتَلَبَّبُوا إنَّ التَّلَبُّبَ للمُغِيرِ

قوله « شَدُّوا دوابِرَ » ، هو جَوَابُ رُبَّ . والمعنى : رُبَّ فرسانٍ هذا صفتهم استَعَدُّوا . والمعنى استَعَدّوا مَعِى أوْ لِى مغيرينَ أو مُدَافِعِينَ ، بأن شَدُّوا مآخير المَغافِرِ فى جيوب دُرُوعٍ مُحْكَمَةٍ رءوسِ المسامير ، ضَيِّقَةِ السَّرْدِ . والدوابر ، واحِدَتُها دابِرَةٌ وهى المآخير ، وتُستعمل أيضًا فى الحوافر والمخالب . ومنه قَطَعَ الله دابِرَتَهم ، لأنّ سِباعَ الطُّيُور إذا قُطِعَتْ دوابِرُها تَعَطَّلت عن الكَسْب . و « اسْتَلأَموا » ، أى لَبِسُوا اللُّؤَم ، وهى جَمْعُ لأْمَةٍ . وفَعْلَةٌ وفُعَلٌ قليل ، ومِثْلُهُ نَوْبَةٌ ونُوَب . وهى من الملاءمة المطلوبة فى نَظْمِ الحلَق وسَرْدِها . ولمَّا كان الواو العاطفة لا تُوجِبُ شيئًا من الترتيب لم يبال بتأخير واسْتَلأَمُوا ، وإن كان لُبس الدُّروع مُقَدَّمًا على لُبْسِ البَيْض ، وشدُّوا دوابِرَها

فيها. وقولُه « إنّ التَلبُّبَ للمُغِير » يجْرِى مَجْرَى الالتفات. والتَلبُّب: التحَزُّم، وقيل هو الانتطاق والتَّجَرُّد. ويمكن الاستشهاد بهذا على أنّ الفَوارِسَ المَوْصوفين كانوا مُغيرين.

٦ـ وعلى الجِيادِ المُضْمَرا تِ فَوَارِسٌ مِثْلُ الصُّقُورِ

الواو من قوله « وعلى الجياد المُضْمَرَات فوَارِسٌ » واوُ الحال، كأنّه قال. شَدُّوا دوابِرَ بَيْضِهِم والحال ذا. يُرِيدُ: رُبَّ فُرْسَانٍ تَشَمَّرُوا واستَعَدُّوا مَعِى للغَارَةِ أو الدِّفاعِ المغيرين، وبإزائنا خَيْلٌ هكذا. يقول. وعلى الجيادِ العِتاقِ المُسَوَّمَةِ المصنوعة، فُرْسَانٌ كأنَّهم فى حِدَّةِ نَظَرِهم وارتفاع ناظِرِهم وطموحهم، صُقُورٌ فى حَالِ ما تُخَلَّى للصَّيْدِ. وسَمِعْتُ من يَقُولُ. إنّ جوَاب ربَّ لم يَجِىءْ بَعْد، وإنما أعَادَ ذِكْرَ الجياد لتباعُد رُبَّ عنه بما حَالَ بينهما، وجوابُه أقْرَرْتُ عَيْنِى من أولئك. وهذا البيت لم يَدخُل فى الاختيار، أعْنِى أقْرَرْتُ عَيْنِى[2].

٧ـ وإذا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ بجَوانبِ البيتِ الكَبِيرِ

٨ـ أَلْفَيْتَنِى هَشَّ اليَدَيْـــنِ بِمَرْىِ قِدْحِى أوْ شَجِيرِى

أخذ يتبجَّحُ بالسَّخَاء والتَكَرُّم، كما يتبجَّحُ بالثَّبات والتشجُّع. وهذه الفصولُ تفسيرُ قولِه « وانْظُرى كَرَمِى وخِيرِى ». فيقول. وإذا تقابَلَتِ الرِّيَاحُ أوانَ الشِّتاء، ووقتَ الجَدْبِ والإمحال، حتَّى زَعْزَعَتْ جوَانبَ البيت العظيم

---

(١) بعده عند التبريزى:

يخرجْنَ من خَلَل الغبــا رِ يَجِفْنَ بالنَّعَمِ الكثيرِ

أقررتُ عيــنى من أولـ ئكَ والفوائحِ بالعبــيرِ

وقال: « يقال وجف يجف، إذا أسرع، وجيفا. وأوجف إيجافا كذلك ».

(٢) نص التبريزى: « وليس فى المختار، وهو يروى بعد قوله: يخرجن ».

الكُسور والأركان ، ألفيتنى هكذا . ويُقالُ بَيْتٌ كَسِيرٌ إذا كانَ عَظِيمَ الكِسْر ، كما يُقال رَجُلٌ جَسِيمٌ بدينٌ ، إذا كان عظيم الجسم والبدَن . وكَسْرُ البَيْتِ وكِسْرُهُ بالفَتح والكَسْرِ : جانبُه . وتفسير الكِسْر على هذا أبلغ وأحسَنُ من أن يُحْمَل فى مَعنى المُهَدَّم والمكسور . وعلى مابه فقَدْ يُفَسَّرُ عليه . وقوله « أَلْفَيْتَنِي » جوابُ إذا . يَقُولُ : تَجِدُنى فى ذلك الوقت خفيفَ اليد بمَسْحِ القِدَاح ، وعند حُضُور الأَيْسَار ، نَشِيطاً فى إجالتها ، حريصاً على فَوْزِها وتحمُّلِ الكُلَف فى إدارَتِهَا . وقوله « أو شَجِيرى » الشجير : الغريب . ويقال : نَزَلَ بينهم شجيراً ، أى غريبا . وإنما يَعْنِى قِدْحاً يَتَبَرَّكُ به ، فيستعار من الغَيْر ، فإذا أجالَهُ الياسِرُ مع قِدَاحِه كان كالشَّجير فيما بينها والدَّخِيل . والهَشّ الخفيف . ويُقال استَهَشَّنِي الشيء ، أى استخَفَّنِي . ومنه هُوَ يَهَشُّ إلى إخوانه .

٩– ولقد دَخَلْتُ على الفَتَا ةِ الخِدْرَ فى اليومِ المَطِيرِ

١٠– الكاعِبِ الحَسْناء تَرْ فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحَرِيرِ

ذكر أنَّ أوقاتَهُ منقسمةٌ(١) بين الجِدّ والهَزْل ، وأموالَهُ(٢) متوزَّعةٌ بين لوازم الحقوق ، ولواحِق الفُضول ، فيقول : ولقد أَعطيتُ الصِّبَى حَقَّهُ ، وأقمتُ للهوَى رَسْمَه ، وسَعيتُ فى البَطَالةِ أوقاتَها وأعطيتُ الخسارَةَ مَقاودَها ، فدخلتُ على الفتاةِ المخدَّرةِ فى أطيب أوقاتِ اللذّة ، وهو ما أشار إليه بقوله « فى اليوم المطير » . ثمَّ وَصَفَ الفتاة فقال : كانت ناهِدَةَ الثَّديين ، حَسَنَةَ الخِلْقة ، موفَّرَةَ الحظّ من النِّعْمَةِ والنَّعْمَة ، فهى تتبختر فى مَلابس الحرير [المتلوّنة على أجناسها المختلفة ، والدِّمَقْس : الحرير(٣)] الأبيض ، ولهذا قال امرؤ القَيْس -

(١) م : « مقتسمة » .
(٢) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « وأقواله » .
(٣) هذه التكلة من م .

* وشَحْمٍ كهُدّابِ الدِّمَقْسِ المُفتَّلِ *

وإذا كان كذلك فقولُه « وفى الحرير » ينصرف إلى سائر الألوان ، ويشتمل على جميع الأجناس ، فكأنَّهُ قال : ترْفُل فى أجناس الحرير ، الأبيضِ منها وغيرِ الأبيض يُريدُ أنّ مَعارِضَها من تلك الأجناس .

١١– فدَفَعْتُها فتَدَافَعَتْ مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

١٢– ولَثِمْتُها فتنفَّسَتْ كتَنَفُّسِ الظَّبْيِ العَقِيرِ(٢)

قوله « فتدافعت » هو مطاوَعةُ دافَعت ، ومُطاوَعةُ دفَعت اندفَعَتْ ، إلاّ أنه يوضَعُ كلٌّ موضِعَ صاحبه . فيقول : هززتُها لمُساعَدَنى ، وبَعَثْتُها لتَسعَى مَعِى فانبعثت وأسمَحَتْ وهى تمشى مَشْىَ القَطَاةِ إذا وَقَعتْ على الغدير ، ومَشَت نحو الماء . وهذه المِشْيَةُ فيما يقال أحْسَنُ المَشْى ، لأَمْنِها وسرورِها بالورود ، وعُجْبِها بالخَلاء ، وانتَصب « مَشْىَ » على أنه مَصْدَرٌ من غير لَفْظِه لأن معنى تدافَعَتْ مَشَت ، والقَصْدُ إلى التشبيه لأنّ المعنى مَشَتْ مِشْيَةً تُشْبِه تلك المِشْيَةَ . وسيبويه يُضْمِر فى مثل هذا الموضِعِ فِعْلاً من لَفْظِ المَصْدر إنْ وَجَدَهُ ، وإلاّ قَدَّرَه ، ويَجْعَلُ الظاهر دليلاً عليه . وقولُه « ولثمتها(٣) » يُرِيدُ . وقبَّلْتُها فتنفّست . ومنه اللثام ، لأنّه فى الفم كالّلِثام فى الأنفِ . والمعنى أنّى لَثِمْتُها فلَحِقَها من ذلك تَعب ، فتنفّست له تنفُّساً كتنفُّس الظَّبْى إذا عُقِر . ويقال إنه فى تلك الحالة يتنفَّسُ تنفُّسًا ممتدًّا طويلا ؛ فشَبَّهَ تنهُّدَها به . ويُروى . « كتنفُّسِ الظَّبْى

(١) صدره : * فظل العذارى يرتمين بلحمها *

(٢) هذه رواية م . وهى ما يتساوق مع التفسير التالى . وفى الأصل : « البهير » . وهى رواية كتلك . على أن الرواية التى اعتمدها التبريزى فى متن الحماسة : « الغرير » ونبه على الروايتين الأخريين ، فهن ثلاث روايات .

(٣) فى الأصل : « فلثمتها » وهو مخالف لنص البيت . والوجه ما أثبتنا من م .

«البَهِير» ، والمعنى قريبٌ ، لأنّ البُهْر : النَّفَس العالى . وفى طريقة قوله « ولثمتها فتنفَّسَت » قولُ طَرَفَةَ العَبْدِىّ[1] :

تَحْسِبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً يا لَقَوْمٍ للشَّبابِ الُمسبَكِرّ

لأنّ المعنى فى الموضعين التنبيهُ على تناهى الموصوف فى النّعمة والرِّقّة .

١٣ — فَدَنَت وقالت يا مُنَخَّلُ ما بجسمِكَ مِن حَرُورِ[2]

١٤ — ما شَفَّ جسمى غيرُ حُبِّكِ فاهْدَئِى عَنّى وسِيرِى

١٥ — وأحِبُّها وتُحِبُّنِى ويُحِبُّ ناقتَها بَعِيرِى[3]

---

(١) كذا جاءت نسبة طرفة فى النسختين ، ولعله سهو ، فإن المعروف فى نسبة طرفة « البكرى » لا « العبدى » . على أن الكلمة ساقطة من التيمورية .

(٢) التبريزى : « ويروى : من غرور ، وقيل هو قلة اللحم » .

(٣) روى التبريزى بعده خمسة أبيات ، ضمن تفسير الأول منها بيتا سادسا لم يرو فى الحماسة وهى :

١٦ — ولقد شربتُ من المدا مةِ بالصَّغيرِ وبالكبيرِ

١٧ — فإذا انتشيتُ فإنّنِى ربُّ الخورنقِ والسَّدير

١٨ — وإذا صحَوتُ فإنّنى ربُّ الشُّوَيهةِ والبعيرِ

١٩ — يا هندُ مَن لمتيَّمٍ يا هندُ للعانى الأسيرِ

٢٠ — يعكُفنَ مثلَ أساود التَّنُّومِ لم تُعكَفْ بزورِ

وقال فى تفسير البيت ١٦ : « يعنى بصغير ماله وكبيره ، ولم يرد إناء صغيرا وإناء كبيرا . والذى يحقق هذا قوله :

وشربتُ بالخَيلِ الإنا ثِ وبالمطهَّمةِ الذُّكورِ

وهذا مثل قول الآخر :

شربت بقيراط وأسكرت صحبتى ورحت ولى عند التجار حساب

قيراط : اسم ناقته . وقيل : أراد بالصغير الدرهم ، وبالكبير الدينار » .

ثم فسر البيت ١٩ بقوله : « هى هند بنت المنذر بن ماء السماء ، وهى عمة النعمان =

قوله « فَدَنَتْ » أراد به دُنُوَّ الشفقة ، والتقرّبَ بحُسْنِ العَطْفَة ، لا قُرْبَ المَسافةِ . والمعنى : تأمَّلَتْ تغيُّرَ لونى ونُحولى ، فاعتقدتْ أنَّهُ من مُلازمَة تَبذُّل ، ومُقاساةِ تَعَمُّلِ ، فأعارتْنِي شفقتها وقالَتْ : ما الذى بجسمك من حَرُورٍ ، أى من أثَرِ الحَرُور . وقد اختُلِف فى السَّموم والحَرُور ، فمنهم من جَعَل السَّمُوم بالنَّهار والحَرُور بالليل ، ومنهم من يقول على العَكْسِ مما ذكرتُ . وقال الخليل : السَّمُوم الرِّيح الحارّة ، لَيْلاً هَبَّتْ أو نهاراً . والحَرُور : حَرُّ الشمس . وقوله « ما شَفَّ جِسْمى » يقول : أجَبْتُها مُبطِلاً اعتقادَها ، ومُكذِّباً ظنَّها ، وراجِعاً بالعَتْبِ عليها ، وقلتُ : ما أنْحَلَ جِسْمِى ولا أثَّرَ فى لَوْنى إلا حبُّك ، فاسْكُنِي عنِّى وسيرى . ومعنى سيرى هَوِّنى عليك الأمْرَ . وعلى نَحْوٍ من هذا يُحْمَلُ قول الله تعالى : ﴿ وانطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ إذْ لم يَكُن [ثَمَّ[١]] مَشْيٌ ولا انطلاقٌ . ويجوز أن يكون سِيرِى أمْرًا بالسَّير ، فقد قال فيما تقدم :

— ابن المنذر ، وكان المنخل يتهم بالمتجردة امرأة النعمان ، وكانت فاجرة ، وكانت ولدت له غلامين يقال إنهما ابنا المنخل . فذكر بعض من يحدث أن النعمان كان له يوم يركب فيه فيطيل ، وله إبان يعرف فيه مجيئه ، وأن المنخل كان يأتيها فيكون عندها حتى إذا جاء النعمان أخرجته ، فجاءها ذات يوم وقد ركب النعمان ، فلاعبته بقيد جعلته فى رجله ورجلها ، فهما على حالهما تلك إذ دخل النعمان قبل إبانه الذى كان يجىء فيه ، فوجدهما على حالهما ، فأخذه فدفعه إلى عكب صاحب سجنه – رجل من لخم ، صاحب الفرات – ليعذبه » .

وقال فى تفسير البيت ٢٠ : « يقع فى بعض النسخ . يجوز أن يكون فى صفة النساء ، فيكون من قولهم . عكفت المرأة شعرها وعكّفته ، أى ألزمت بعضه بعضا وجعلته ضفائر . وإذا كان كذلك احتمل أساود التنوم وجهين : أحدهما أن يكون أراد هذا الشجر لأنه يسود كله ، والآخر يريد بالأساود جمع الأسود من الحيات ، لأن غدائر النساء تشبه بها . هذا إذا وقع هذا البيت عند وصفه النساء ، وإن وقع عند وصفه الخيل فمعناه أن الخيل تجىء بالفوارس فكأنها تمكفها كعكف الشعر ، وهى يعنى مذكرات ، فهو محمول على الجماعات ، ويكون قد وصف الرجال بالأساود من الحيات ، لأن الرجل قد يوصف بأنه كالحية ، إذا كان شجاعا يخشى الشر » .

(١) هذه من م والتيمورية .

فَدَفَعْتُها فتــدافعَتْ مَشْىَ القَطَاةِ إلى الغَدِيرِ

وقوله : وأحبُّها وتُحِبُّنى ، هو بيان تَطَاوُلِ الألفة بينهما ، وتَواصُلِ الصُّحبة فى أيامهما ، حتى صارَت لامتداد الملازمةِ كما حَصَلَ التحابُّ بينهما حَصَلَ التألُّف بين بعيريهما ، فإذا اتَّفَقَ التباعُدُ والافتراق ، وتَسَلَّطَ على كلٍّ واحدٍ منهما الاشتياق ، أقبلَ البعيران يتحابّانِ ، ويتجاذبان الوَجْدَ والنزاع كما يفعل المتحابان .

١٧٥

وقال بَاعِثُ بن صُرَيْمٍ (١) :

١ — سَائِلْ أُسَيِّدَ هَلْ ثَأَرْتُ بوائِلٍ أمْ هَلْ شَفَيْتُ النَّفسَ من بَلْبَالِها

٢ — إذْ أرْسَلُونِى مَائحًا بِدِلائِهِمْ فَمَلأْتُهـا عَلَقًا إلى أَسْبَالِها

أُسَيِّدُ أراد به قبيلةً (٢) ، ولما مَنَعَهُ الصَّرْف . وهـذا الاستشهاد هو تصويرٌ للحال وتَطَرُّقٌ إلى الإخبار . وإنَّما يفتخر بأنَّه قَتَلَ قاتِلَ وائل ، وأدرك ثأره ، لمَّا اعتَمَدَ فى طَلَبِ دَمِهِ ، واعتَقَدَ أنَّ إدراكَ شفاءِ النفوس من جهتِه وبِهِ . والبَلْبَالُ : الحُزن . وقوله « أمْ هل » الاستفهام بأمْ دون هَلْ ، لأنَّ أمْ هذه هى المنقطعة ، ولا يجوز أن يكون (٣) العاطفةَ . لأن تِلكَ تَجِىءُ عَدِيلَةَ الألف . وقوله « شَفَيْتُ النَّفسَ » يجوز أن يريدَ به نَفْسَهُ ، ويجوز أن يُرِيدَ به الكثرةَ والجِنْس ، كأنَّهُ يريد أنه شَفَى للموتورِين فيه ، وأزَالَ ما خَامَرَهم من لَذْعِ المصيبة ، وألَمِ الفجيعة . وقولُه « إذْ أرسلونى » إذْ ظَرْفٌ لقوله ثَأَرْت ،

(١) شاعر جاهلى ، ساق التبريزى نسبه : باعث بن صريم بن تميم بن ثعلبة بن عبر ابن حبيب بن كعب بن يشكر . وانظر ما سيأتى من خبره فى الشرح .

(٢) هم أسيد بن عمرو بن تميم . الاشتقاق ١٢٣ والمعارف ٣٧ ومختلف القبائل ومؤتلفها ٤٥ .

(٣) كذا بالياء فى النسخ بالنظر إلى الحرف . ونحوه كثير فى كلام المرزوقى .

أو لقولِه شَفَيْتُ . والمائح : الذى يدخُل البئرَ فيملأُ الدَّلْوَ عند قلّة الماء فيها ، والحاجةِ إلى الغَرْف من قَعرِها . وإنّما جَعَلَ نَفْسَهُ مائحًا لينبِّه على أنّ طلبَ دمِ الواترِين كان متعسِّرًا متعذِّرًا ، كما أنَّ الاستقاء على الوجه الذى ذَكَرَهُ يكونُ شاقًّا مُتْعِبا . فهذا وَجْه عُدوله عن المَتْح إلى المَيْح . وقوله « فملأتها عَلَقًا إلى أسْبالِها » ، انتصبَ عَلَقًا على التمييز . وأسبالُها : أعاليها ، ومثلُه[(١)] الأَصْبار ، وسَبَلَةُ الرَّجُل منه . واختار بعضُهم أن يرويه « إلى إسبالِها » بكسر الهمزة ، مصدرأَسْبَلَ، وليس بشيء . والمعنى: ملأتُ دِلاءهم من دمِ واترِيهم[(٢)] . وجعَلَ[(٣)] لهم دلاءً لاشتراكهم فى الدم وطلبِه ، ولنيابتِه عن كُلّ أوليائه . ولما استعارَ الدِّلاء والمَيْح لما ذكرته كَنَى عن فِعْلِه وتصرُّفه بالمَلْء .

وذكر بعضُهم أنّ وائلاً المقتول هو وائل بن صُرَيم الغُبَرِى أخو باعِثٍ الشاعِر ، وله قِصّةٌ . وهى أنّ عمْرو بن هِنْدٍ بَعَثَهُ ساعِيًا على بنى تميم ، فكان جالِسًا على شَفِيرِ بِئْرٍ يَجْمَع الصَّدَقَات[(٤)] ، فدفعوا فى صَدْرِه وأسْقَطُوهُ فى البئر ، ثم رَجَمُوه بالحجارةِ حتّى قَتَلُوه ، وأخذوا يرتجزون على طريق التهكُّمِ والاستهزاء :

* يأيُّها المائحُ دَلْوِى دُونَكا[(٥)] *

فاتَّصَلَ خَبَرُهُ بأخيه باعِثٍ ، فَسَارَ فى بنى غُبَرَ وآلَى أنّه لا يُمْسِكُ عن مقاتلتهم حتّى يملأَ دَلْوًا من دماء بنى تميم ! فَفَعل[(٦)] ، حتّى كانت المرأة تقولُ :

(١) فى الأصل والتيمورية : « ومنه » ، صوابه فى م .
(٢) م : « واترهم » .
(٣) هذا الصواب من م . وفى الأصل : « وجعلت » .
(٤) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « لجمع الصدقات » .
(٥) البيت من شواهد الخزانة (٣ : ١٥ – ١٨) . وروى البغدادى عن ابن الشجرى فى أماليه أن الرجز لرؤبة . وبعده :

* إنى رأيت الناس يحمدونكا *

(٦) التبريزى : « فقتل ثمانين رجلا وأسر جماعة وقتل رجلا منهم يقال له قمامة فذبحه حتى ألقى دلوه فخرجت ملأى دما » .

« تَعِسْتِ غُبَّرَ ، ولا سُقِّيتِ المَطَر ، ولا لُقِّيتِ الظَّفَر [(١)] » . قال : فهذا معنى « إذْ أرسَلُونى مائحًا بدلائهم » ، وهذا حَسَنٌ ، والأوّل محمولٌ على طُرُقِهِم وعاداتهم . ومثله قول الآخَر :

تَمخَضتُ بِدَلْوِهِ حتّى تَحَسَّى ... ذَنُوبَ الشَّرِّ مِلأَى أو قُرابا

٣ ـ إنّى ومَنْ سَمكَ السَّماءَ مكانَها ... والبَدْرَ لَيْلةَ نِصْفِها وهِلالَها

٤ ـ آليْتُ أثقَفُ منهم ذا لِحْيَةٍ ... أبداً فتنظُرُ عَيْنُه فى مالِها

أقسَمَ بمن سمك السماء ، وهو الله عزّ وجلّ . ومعنى سَمَكَ رَفَع ، ومنه سُمِّىَ عَمُودُ البيت المِسْماكَ . وجواب القَسَم فى آليْتُ أثقَفُ ، وهو خَبَرُ إنّ أيضًا . وقوله « ليلةَ نِصفِها » أضاف النِّصف إلى السماء لمّا كان استكمال البَدْرِ عند انتصاف الشهر فى السَّماء ، فلاجتماعهما فى ظهور البَدْرِ كاملاً فى السماء ساغَتِ الإضافَةُ بينهما ، على عادتهم فى إضافة الشىء إلى الشَّىء لأدْنى مناسبَةٍ تَحْصُل بينهما . وعلى هذا قول الآخر :

* ضَــوْءُ بَرْقٍ ووابِلُهْ *

إذْ كان أضافَ الوابِلَ إلى البَرْق لاصطحابهما . وأبعَدُ منه قول الآخر :

نَحْنُ صَبَحْنا عامِراً فى دارِها ... عَشِــيَّةَ الهِلاَل أو سِرارِها [(٢)]

وأضافَ السِّرَار إلى العشيَّة لاعتقاده أنّ استمرار القَمَر فى العشيّات ، كما أنّ طُلُوعَهُ فيها . وعلى هذا الكلام فى إضافَةِ قولِهِ « وهِلالها » وإن كان إضافة الهِلاَل إلى السماء أبْيَنَ أمْرًا ، وأقْرَبَ مُتصَوَّراً . فالتقدير ليلةَ كمالِهِ فى نِصفِ الشَّهْرِ ، وليله إهْلاَلِهِ . و « مكانَها » انتَصَبَ على الظَرْف ، والمَعْنَى حَلَفتُ بالله

(١) بعده عند التبريزى : « وعدمت النفر » .

(٢) بين الشطرين فى المقاييس (سر) واللسان (سرر) :

* جردا تعادى طرفى نهارها *

الذى رفعَ السماء فى مكانِها بلا عَمَدٍ — وجَعَل البَدْرَ فيها كامِلاً عند انتصاف الشَّهْرِ ، وهِلالاً عند أوّلِه فى لَيلتَيْهما — إنِّى لا أُثقَفُ من هؤلاءِ القَوْمِ مُلتَحِياً أَبَدًا ناظِراً عينُه فى مَالِه ، وراجِعًا من مَقْصِدِه إلى أَهْلِه ودَارِه . أى إذا ثَقِفْتُه قَتَلْتُه حتَّى لم تَنْظر عَيْنُهُ فى ماله ، ولم يستقرّ بعده فى دارِه وقَرَارِه . وقَوْلُه « أُثقَفُ » هو الجواب ، وحُذِف مَعَهُ لا لأنّه أَمِنَ التباسه بالواجِب ، إذْ لَوْ أراد الواجِب لَقَالَ لأُثقفَنَّ ، فلما كانت صيغةَ الواجِب بما يَلزَمُها من اللام وإحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة لم يُبَالِ بحذْف حَرْف النَّفْى . ومِثْلُه قول الآخر[1] :

فقلت يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قاعِداً ولِن ضَرَبوا . . . . . .[2]

لأن المُرَاد لا أَبْرَحُ . فإن قيل : إذا كان القَسَم يتناول ما ذَكَرتَ من قوله لا أُثقَفُ فما معنى قوله آلَيْتُ ؟ وهل يَصِحُّ أن يُقالَ إنى حَلَفْتُ واللهِ لا أفعل كذا ؟ قُلتَ إنّ قولَهُ آلَيْتُ دَخَلَ مؤكِّداً للقَسَمِ على أحَدِ وجهين : (أحدُهُما) أنَّه لمّا تطاول الكلام باليمين وبَعُدَ ما بَيْنَ إنّ وخبرِه ذكر آلَيْتُ ، ثم أتى بما هُوَ الجواب ، ليكون كالمُعِيدِ لليمين ، والمُجَدِّدِ لما خافَ من دروس رَسْمِها . و (الثانى) أنَّه لما كان آلَيتُ لو اكْتَفَى به مُغْنِيًا عن ذِكْرِ المُقْسَمِ بهِ صار كتَكرار اليمين ، فجَرَى مَجْرَى قولِه [لو قال[3]] واللهِ واللهِ ، وما أَشْبَهَهُ . فأما قَوْلُه « فتنظر عينُه فى مالِها » فلفظُه لَفظُ الجواب ، والمعنى معنى الحال ، والصِّفةِ للنَّكِرةِ التى قَبْلَه ، كأنه قال : لا أَظْفَرُ أبدًا بذى لحيةٍ إلاَّ لم تَنْظُر عينُه فى مَالِه . ومِثْلُهُ من أبياتِ الكتاب[4] قولُ الفرزدق :

---

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ٥٨ .

(٢) ولِن ضربوا ، لم ترد فى م . والمشهور فى رواية العجز :

* ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى *

(٣) هذه من م .

(٤) كتاب سيبويه (١ : ٤٢٠) والخزانة (٣ : ٦٠٧) .

وما قامَ مِنَّـــا قائمٌ فى نَدِيِّنَا فينطبقُ إلا بالذى هو أَعْرَفُ

لأنّ المعنى ناطِقاً . فإن قيل : هَلْ يجوز أن يكونَ جَوَاباً ؟ قُلتَ لا ، وذاك أنّ المَعْنَى يَفْسُدُ ويَنْعَكِسُ ، لأنّ التقدير حينئذٍ يكون لا أثقفه ، فكيف يَنْظُرُ ؟ أى لَوْ ثَقِفْتُهُ لَنظَرَ ، لأنّ فى وَجْهِ الجواب يَتعَلّقُ وقوعُ الثانى بوُقُوعِ الأول ، ويمتنع بامتِناعه ، وفى هذا خروجٌ عمَّا يَقْصِدُهُ المتَــكَلِّمُ . ومثْلُه فى باب الواو :

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْلَهُ [عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم[(١)]]

لأنّ المعنى آتِياً مِثْلَهُ .

٥ ــ وخِمَارِ غَانِيَةٍ عَقَدتُ برأْسِها أُصُلاً وكان مُنَشَّرًا بِشِمالِها[(٢)]

تبَجَّحَ فى هذا البيت بأنه يغيث المذعورين فيُؤْمِنُهم . والغانيةُ : التى تَسْتَغْنِى بجمالِها عن الحلْى ، وقد مَضَى القَوْلُ مُسْتَقْصًى فيه . ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ تبَرَّجَت متبرِّزَةً من خِدْرِها حَاسِرَةَ الرأس ، مُطَارَةَ القِناع ، منشورةَ الخِمار ، لِمَا استولَى عليها من الخوفِ ، وامتَلَـكَها من الرَّوْع والغارةِ الطالِعَة ، والخيل العَادِيَة ، حتَّى كأنَّ خِمارَها طُولَ نهارِها منشورٌ على شِمالِها ، وهى لا تَشْعُرُ أنِّى أنا آمَنْتُها وحَفِظْتُ عليها صِيانَةَ نَفْسِها[(٣)] ، رددْت إليها عازِبَ عقلِهَا حتَّى اختَمَرت وأَمِنَتْ ما كانت تقْلَقُ لها ، وستَرَتْ وَجْهَهَا . وإنَّما قال أُصُـــلاً ، لأنَّ الغارة كأنَّها وَقَعتْ أوّل النهار ، ولُحُوقُه للإغاثة والتَدَارُكِ بعَقِبها ، فَحَصَل الأمْنَ عَشِيَّةً . وفى طريقته لعنترة :

---

(١) التكملة من م . والبيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر شرح شواهد المغنى ١٩٤ . ويروى بعض أبيات القصيدة للمتوكل الليثى . حماسة البحترى ١٧٣ .

(٢) التبريزى : « يقول : إنها سبيت فلحقها عشيا بعد أن يئست لأن الغارة تكون بالغداة ، فلما رأته اطمأنت فلاثت خمارها برأسها . ومعلوم أن باعثاً لم يل عقد الخمار ، وإنما كان السبب فى أن عقدت المرأة » .

(٣) م والتيمورية : « وأذكرتها صيانة نفسها » .

ومُرْقِصَةٍ دَفَعْتُ الخيْلَ عَنها وقد هَمَّتْ بإلقاء الزمامِ(١)

٦ – وعَقِيلَةٍ يَسْعَى عَلَيْها قَيِّمٌ مُتَغَطْرِسٌ أبْدَيْتُ عن خَلْخالِها

لما قَدَّم فى البيت الأوّل قدّم أتى فى الثانى بما يُضادُّه، ليُرِىَ أنّه كما يَدْفَعُ الشَّرَّ والبَلاَء يوقِعُه أيضاً، حتَّى يَكُونَ جامعاً للضَّرِّ والنفع، كافياً فى الدِّفاع والوِقَاع، فيقولُ: ورُبَّ كريمة حَىٍّ، بَعْلُها أو ذو مَحْرَمِها القائمُ بأمْرِها متكَبِّرٌ أنِفٌ، يرَى صيانتَها عن التَّكَشُّفِ دِيناً، وحِفْظَها عن التبذُّل كَرماً، أنا أخرَجْتُها من خِدْرِها، وأحْوَجْتُها إلى العَدْوِ وطَلَب التَّمَلُّسِ(٢) مُشَمِّرَةً عن ساقِها، مُبْدِيَةً خَلْخالَها، مُذِيلَةً مَصُونَها. أى كما آمَنْتُ خَوَّفْتُ، وكما سَكَّنْتُ أقْلَقْتُ.

٧ – وكَتِيبَةٍ سُفْعِ الوُجُوهِ بَوَاسِلٍ كالأُسْدِ حِينَ تَذُبُّ عَنْ أشْبالِها

٨ – قَدْ قُدْتُ أوَّلَ عُنْفُوانِ رَعِيلِها فلَفَفْتُها بكَتِيبةٍ أمْثالِها

يَذْكر أنه يَجْمَع بين الجيشين العظيمين مدبِّراً لهُمَا، ومُرْسلاً أحدَهما على الآخَر، وأنه على ذاك يكون المتقدِّمَ والمشاهِدَ، والمُرَتِّبَ والمُصادِمَ. فيقولُ: رُبَّ كتيبةٍ قد تعَوَّدَتِ الغاراتِ والصَّبْرَ على الإبْعَادِ فيها، فاسْوَدَّتْ ألوانُها بما تقاسيه من التَّعَب، وتُدِيمُ لُبْسَهُ من الأسلحة، وكأنها فى بأسها ونَجْدَتِها، وما تأوِى إليه من قُوَّتِها وشِدَّتها، الأُسْدُ إذا ذَبَّتْ عن جِرائِها، ودفَعَتْ عن خِيسِها(٣)، أنا قُدْتُ أوائلها فخَلَطْتُها بأمْثالِها، وقابَلْتُها بنظائرها من أولى العَدَدِ والعُدَّة، والجَلَد والشِّدّة. فإن قيل: لِمَ قال « أوّلَ عُنْفُوان رعيلِها » والعُنْفُوان هو

(١) هذا ما فى م والتيمورية. وفى الأصل: « ومرفضة ».

(٢) هذا الصواب من التيمورية. والتملس: التملص والتفلت. وفى الأصل: « التماسر » وفى م: « التلمس » كلاهما محرف.

(٣) الخيس، بكسر الخاء: أجمة الأسد. وهذا الصواب من التيمورية. وفى الأصل وم: « جنسها ».

الأوّل ، على ذلك قولهم فَعَلْتُ كذَا فى عُنْفُوَانِ الشَّباب ؟ قلتَ : كأنَّهُ أراد قُدتُ سوابِقَ أوائِلِها ؛ فأضافَ الأوّلَ إلى العُنفُوان لذلك . وكما قاد الأوائل والسّوابقَ فقد قاد الأواخِرَ واللَّوَاحِق ، ولـكن جَعَلَ القَوْدَ لِمَنْ وَلِيَه ، وجَعَل ما بَعدهم كالتّابِـع . يُرِيدُ أنّهُ تَقَدَّمَ وَوَطِئَ عقبهُ الأعيانُ والأفراد ، ثم احتَفَّ بهم غيرهم . وحقيقة العنفوان اعتَنَفتُ الشيء ، أى استأنفتُهُ . والرَّعيلُ من الخيل والرِّماح : أوائِلُها . وقَوْلُه « بكتيبةٍ أمثالِها » ، لَوْ قال مِثلِها لجاز ، ولـكنّه جَمع على معنَى طوائف الـكتيبة ، لاختلافها .

١٧٦

وقال الفِنْدُ الزِّمّانىّ[١] :

١ — يا طَعْنَةً ما شَيْخٍ كبيرٍ يَفَـنٍ بالِ

٢ — تُقيم المأْتَمَ الأعْلَى على جُهْـدٍ وإعْوَالِ

ما مِنْ قولِهِ « ما شَيْخٍ » زائدةٌ ، أراد طَعْنةَ شَيْخٍ ، وهذا اللفظ لفظ النداء ، والمعنَى معنى التعجُّب والتفخيم ، كأنه أراد : ما أهْوَلَها من طعْنَةٍ ، ويالها من طَعْنةٍ بدَرَتْ من شيخ كبيرِ السِّنِّ ، فانِى القُوَى ، بالِى الجسم . واليَفَنُ : الشيخُ الهرِم . [قال الأعشى[٢]] :

وما إنْ أرَى الموت فيما خَـلاَ يُغادِرُ من شارِخٍ أو يَفَنْ

ويجوز فى قولِهِ يا طَعْنَةً ما شيخٍ ، أن يكونَ المُنادَى محذوفاً ، فيكون التنبيه بـ « يا » متناولاً غير الطعنة ، وينتصب على هذا طَعْنَةً بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه أراد : يا قَوْمِ أَذكرُ طَعْنةَ شيخٍ . كما قال :

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية الثانية بالقسم الأول .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

فياشاعِرًا لا شاعِرَ اليومَ مِثْلُهُ   جريرٌ ولـكنْ فى كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ(١)

وقولُه « تُقِيمُ المأْتَمَ الأعْلَى » من وَصْفِ الطعنَةِ ، فكأنّه كان تناوَلَ بها رئيسًا ، فلذلك وَصَفَ المأتمَ بالأعْلَى . والمأتمُ أصْلُهُ أن يَقَعَ على النساء يجتمعْن فى الخير والشرّ ، واشتقاقُه من الأَتْمِ ، وهو الضَّمُّ والجَمْع ، ومنه الأَتُومُ وهى [المرأة(٢)] التى صارَ مَسْلَكاها مَسْلَكًا واحدًا ، وأراد بالمأتَمِ هنا الاجتماع للرَّزِيئة ، وهو ببِنْيتِهِ مَصْدَرٌ وُصِفَ به . ويجوز أن يُرادَ به أَهْلُ المأتَمِ ، فحُذِفَ المُضَاف كما يقال جاء المَجْلِسُ ، والمُرادُ أهلُ المجلس . وقوله « الأعْلَى » يرادُ به الأفظع شأنًا . وَوَصَفَ الطعنة بأنها تقيمُ الجَمْع على مُجاهَدَةٍ وبَلاَء ، وإسرافٍ فى الصِّياح والعُوَاء ، أى تُدِيمُ ذلك لهُ . والعَوِيل والعَوْلَةُ : صوتُ الصَّدْر .

٣ ــ ولولا نَبلُ عَوْضَ فى   خُضُمَّاتى وَأَوْصَــالى(٣)

٤ ــ لَطَاعَنْتُ صُدُورَ الخَيْـلِ   طَعْنًا ليس بالآلى

يعتذِرُ من رِضا نفْسِه بتلك الطعنة الواحدة . وعَوْضُ اسمٌ للدهرِ معرفةٌ مبنىٌّ ، وكما يُبْنَى على الفتح فقد يُبنى على الضمّ ، والضمُّ فيه حكاه الـكوفيّون(٤) . ويقال لا أفعلُه عَوْضَ العائضين . وإنما بُنِى لتضمُّنِه معنى الالِفِ واللام والخُضُمَّةُ : ما غَلُظَ من الساعد والذِّرَاع ، ويُبْدَلُ من ميمه الباء ، فيقالُ خُضُبَّةٌ . وقد رُوِى هذا البيت ، وهو :

(١) البيت للصلتان العبدى . انظر الخزانة (١ : ٣٠٤ – ٣٠٨) .

(٢) هذه من م والتيمورية .

(٣) وقع فى متن التبريزى : « فى حظباى » لكنه فى التفسير يفسر « خضماتى » ثم يعقب على ذلك بالتنبيه على رواية « حظباى » . التبريزى : « وقوله حظباى ، أى جسمى . ويقال إن الحظبى عرق فى الظهر » .

(٤) ويروى بالكسر أيضاً كما فى اللسان . وكلمة « عوض » فى متن البيت ضبطت فى الأصل والتيمورية بالفتح ، وبكسرتين تغييراً لأجل الشعر فى م . والفتح أعلى لغة فى اللغات الثلاث .

يُذرِى بأرْعاشٍ يَمِينَ المُؤْتَلِي خُضُمَّةَ الذِّراعِ هَذَّ المُخْتَلِي(١)

بالميم من « خُضُمَّةَ » والباءِ جميعاً . ويعنى بنَبْل الدهر تأثيره فى مفاصل الشيوخ . وعلى هذا قول الآخر :

رَمَتْنِى بَنَاتُ الدهرِ من حيثُ لا أرَى فكيفَ بمَنْ يُرْمَى وليس برَامِ(٢)

ومعنى البيت الأوّل : لولا رَمَيَاتُ الدهر فى مَفاصِلى ومجامعِ أعضائى ، ومُسْتَغْلَظِ عَضُدى وذِراعى ، لكان تأثيرى وبلائى فى الحرْبِ أكثر مما كان ، ولشَفَعْتُ تلك الطعنةَ ولم أترُكْها وِتْرًا . وقولُه « لطاعَنْتُ صُـدُورَ الخيْلِ » أراد بالخيل الفُرسان أى لولا ما قَدَّمْتُ من العُذْرِ لدافَعْتُ بالطَّعْنِ أوائلَ الخيْل ، طعناً لا تقصيرَ فيه ولا قُصُورَ . وخَصَّ الأوائل منهم لتقدُّمِه . ويجوز أن يُرِيدَ بالصدور الرؤساء والأكابر . وهم يتبجَّحُون بمجاذَبة العِلْيَة . ألا تَرَى قول الآخر(٣) :

من عَهْـدِ عادٍ كان معروفاً لنا أسْرُ المُـلوك وقَتْلُها وقِتَالُها

وكما استعملوا الصُّـدُورَ فى الأماثل والجِلَّةِ استَعملوا فى الأراذِل والسَّفِلَةِ الأعجازَ . وهذا كما قالوا : الرُّءوس والأذناب ، وكما قال :

* ومن يُسَوِّى بأنْفِ الناقةِ الذَّنبَا(٤) *

---

(١) للعجاج فى ديوانه ٥٢ – ٥٣ واللسان (خضم) . والهذ : سرعة القطع . وفى النسختين واللسان : « هذا » ، صوابه فى الديوان والتيمورية . وفى اللسان : « المختلا » تحريف .

(٢) البيت لعمرو بن قميئة . المعمرين ٦٢ ، ٨٩ ومعجم المرزبانى ٢٠٠ والخزانة (١ : ٣٣٨) . والمقاييس (٢ : ٣٠٦) . وفى الأصل : « ويمشى بنات » ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة .

(٣) هو بشامة بن حزن . انظر الحماسية ١٣٤ .

(٤) البيت من مشهور شعر الحطيئة . وصدره :

* قوم هم الأنف والأذناب غيرهم *

يقال : أَلَوْتُ فى الأمرِ آلُو ، أى قَصّرتُ . وجَعَل التقصير للطَّعنِ على المَجاز .

٥ — تَرَى الخَيْلَ على آثا رِ مُهْرِى فى السَّنَا العالى[1]

٦ — ولا تُبقِى صُرُوفُ الدَّهْـ ـرِ إنسانًا على حالِ

قوله « على آثار مُهْرِى » موضِعُهُ نصبٌ على الحال ، والمعنى تابعين لى . و « فى السَّنَا » فى موضِع المفعول الثانى لِتَرَى ، ومَعنى فى السَّنَا قال بعضهم : النُّورُ العالى : يُريد به بريقَ السِّلاح ، كأنهم يقدِّمونه ويتَّقُون به . وهذا مَعْنًى ، وأجْوَدُ منه وأعلى أن يكون المعنى : تَرَى الفُرسانَ إذا تَبِعَتْ أثَرِى ووطِئَتْ عَقِبِى ، فى مَجْدٍ عالٍ قاهِرٍ ، له نورٌ يستضاء به . ويكون هذا فى طريقة بيت الأعشى :

* كلٌّ سَيَرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعَا[2] *

وشَرْحُهُ بأنهم يَرْضَوْن برياستى عليهم ، ويَعُدُّون اتّباعهم لمراسِمِى ، واحتذاءهم لآثارى مما يَعلو به سَنَاهُم ، ويَسمو به عُلاهُم . وقوله « ولا تُبقِى صُرُوفُ الدَّهْرِ » تَسْلِيَةٌ لنفسِه فيما صار إليه من ضَعْفٍ بعد قُوَّةٍ ، وهَرَمٍ بعد شَبِيبَةٍ ، حتى رَضِيَ بأدْنَى المنزلَتَيْن فى مُمَارسةِ الحرْب ، ووقفَ عندأقْصرِ السَّعْيَيْنِ فى مُلابَسَةِ الضَّرْبِ والطَّعْنِ . وقولُه « على حال » فى موضع الصِّفَةِ لإنسانًا ، وتَعَلَّق عَلَى بمُضمَر ، كأنّه قال : لا تُبْقِى حوادِثُ الدَّهْرِ إنسانًا قائمًا ، أو ثابتًا على حالٍ ، بل تُبدِّلُ وتُحوِّلُ ، وكما تُعطِى تَرْتَجِعُ .

---

(١) التبريزى : « ويروى : فى الثبا العالى . والأصل العالية ، ولكن ذكره على اللفظ لأن ثبا مثل زلم ، وهى جمع ثبة وهى الجماعة . وقال بعضهم : الثبا هاهنا : مجالس الأشراف » .

(٢) صدره فى ديوان الأعشى ٨٦ :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

٧ — تَفَتَّيْتُ بِهَا إِذْ كَرِهَ الشِّكَّةَ أَمْثَالِى[(١)]

٨ — كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهَاءِ رِيعَتْ بَعْدَ إِجْفَالِ

الشِّكَّةُ : ما يُلْبَسُ من السِّلاح ، وقد شَكَّ الرَّجُلُ فى السِّلاح ، إذا لَبِسَهُ يَشُكُّ شَكًّا ، وهو شَاكٌّ . يقول : تَكَلَّفْتُ بهذه الطَّعْنَةِ وإحداثِها فِعْلَ الفِتْيَانِ وأبلَيْتُ بها بلاءَ الشُّبَّان ، فى وَقْتٍ يَكرَهُ فيه حَمْلَ السِّلاح أمثالِى من الرِّجال الشُّيُوخ ، فكيف استعمالُها . ومِثْلُ تفتَّيْتُ : تَشَجَّعْتُ وتَكَيَّسْتُ . وقوله « كجيبِ الدِّفِنْس » شَبَّهَ اتِّساعَ الطَّعْنَةِ وسُرْعةَ خروج الدّم منها باتِّساع جيبِ المرأة الحمقاء ، ونَزْوِها فى رَوْعِهَا ، واضطرابِها فى متخرِّق قميصها . والدِّفْنِسُ : الحمْقَاء . والوَرْهَاء : المتساقِطةُ العقْل ، الضعيفة التَّماسُك ، ومعنى ريعَتْ أُفْزِعَتْ بَعْدَ استعجالٍ فى العَدْوِ ، وإسراعٍ فى السَّعْى . وخَصَّ جَيْبَ الوَرْهَاءِ لأنَّ عَادَةَ مِثْلِهَا أن تُخْرِجَ اليَدَ مِنْه ، فيتّسعَ [خَرقُه[(٢)]] وجعَلَها مُرَوَّعة لتَنْدَفِعَ فى الإجفال وتَنْزُوَ . والإجفَالُ والجَفلُ واحدٌ ، وكلُّ هاربٍ من شىءٍ مُسْرِعٍ مُجْفِلٌ وجَافِلٌ . ومنه جَاء جُفَالَةٌ من النّاس ، أى جماعةٌ كثيرةٌ مُسْرِعَةٌ . ويُشْبِه هذا قولَ الآخر[(٣)] :

مُسْتَنَّةٍ سَنَنَ الفَلُوِّ مُرِشَّةٍ تَنْفِى التُّرَاب بقاحِزٍ مُعْرَورِفِ[(٤)]

لأنَّ نَزْو الدَّمِ من الطّعنةِ شَبَّهَهُ هذا بنَزْوِ المُهرِ واستِنانِه ، كما شَبَّهَهُ ذلك

(١) التبريزى : « ويروى : الشَّكة — أى بالفتح — وعنى بها طعنة انتظم بها رجلين على فرس فى حرب البسوس » .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) واللسان (رشش ، قحز ، عرف) .

(٤) فى الأصل : « مغرورق » ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة .

بِعَدْوِ المجنونةِ عَنْ ذُعْرٍ. وقد سَلَكَ آخَرُ هذا المَسْلَكَ فقال فى معنى هذا ولفظه :

كَجَيْبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهَا ءِ رِيعَتْ وهى تَسْتَفْلِى(١)

ومَعْنَى تَسْتَفْلِى تَطْلُبُ فَلْىَ شَعَرِهَا ، وقد أَخْرَجَتْ يَدَها من جيبها فذُعِرَتْ فى تلك الحالة ، فلم تَصْبِرْ لتَرُدَّ اليَدَ إلى جَوْفِها ، ولم تَرْفُق بجَيْبِها فمزَّقَتْهُ ووسَّعَتْهُ . وهذا كأنَّهُ لَمَّا قَصَدَ بَيَانَ سَعَةِ الطَّعنةِ جعل التَّشبيهَ بالجَيْبِ فى حَالةِ إخْراج الحمقاء يَدَهَا منه مُسْتَفْلِيَةً ، فزادَ على الأوَّل هذه الزِّيادة الغامضة المَأْخَذِ اللَّطيفةَ الموقِـع ، وإن كان قَوْلُه « بَعْدَ إجْفَالِ » قد اختَصَّ بما اختَصَّ . ويُشْبِهُ هذا فى الزِّيادة على المعنى وقد استقرَّ قولَ امرئ القيس :

أَوْ تَيْسِ أَظْبٍ بِبَطْنِ وَادٍ يَعْـدُو وقد أُفْرِدَ الغَزَالُ

لأنَّه زاد فيه إفرادَ الغَزال ، فدَلَّ على شِدَّة الخوف وخِفَّة العَدْوِ . فأمَّا قولُ أوْسٍ :

وفى صَـدْرِهِ مِثْلُ جَيْبِ الفَتَا ةِ تَفْهَقُ حِينًا وحينًا تهِـرّ

فهْوَ وإنْ زادَ التقسيمُ قاصِرٌ عَنْهُمَا .

١٧٧

وقال رَبِيعَة بنُ مَقْرُوم(٢) :

١ – أخُوكَ أخُوكَ مَنْ يَدْنو وتَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَإنْ دُعِىَ اسـتجابَا

قولُه أخُوكَ مبتدأٌ ، وكرّرَهُ على وجْهِ التأكيد(٣) ، ومن يَدْنو فى موضـع

(١) للفند الزمانى ، أو امرئ القيس بن عابس الكندى . اللسان (دفنس)

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية التاسعة .

(٣) ابن جنى : « وإن شئت جعلت الثانى خبراً عن الأول . . . ثم أبدل من يدنو وترجو مودته ، من أخوك الثانى » .

الخبرِ . ومعنى البيت : مُخالِصُكَ فى الأُخُوَّةِ والوُدِّ من يُقَرِّبُ مَكَانَهُ مِنْكَ[1] ، ويَحْسُنُ شَفَقَتُهُ عَلَيْكَ ، وتَطْمَعُ فى إثْمَار ودِّه لكَ ، وإن استغنت[2] به لمُلِمَّةٍ تنزل ، أو نائبَةٍ تَطْرُقُ ، أغاثَكَ باذِلاً مَقْدُورَهُ فى نُصْرَتِهِ لكَ . ويجوز أن يكونَ قوله ، « من يَدْنو » أراد بِهِ قُرْبَ النُّصْحِ والشَّفَقَةِ ، لا تقَارُبَ الدَّارِ والمسافةِ ، كما يُقال فلانٌ أَدْنى إليك من فُلانٍ .

٢ — إذَا حَارَبْتَ حَارَبَ من تُعَادِى وزَادَ سِلَاحُه مِنْكَ اقْتِرَابا

يجوز أن يكونَ هذا الكلام مُتَّصِلًا بما قَبْلَهُ ، والضمير فى حارَبَ لأُخُوكَ ومن تُعَادِى فى مَوْضِعِ المفعول من حَارَبْتَ ، ويكونُ المعنَى : إذا حاربْتَ من تُعَادِى حَارَبَ هذا المُوَاخِى لكَ معكَ ، وزادَ نُصْرتَهُ وعُدَّتَه منك قُرْبًا ما دُمْتَ مُحاربًا . ويجوز أن يكون مُنْقَطِعًا مما قَبْلَهُ ، ويكونَ مَثَلًا مَضْرُوبًا ، فيقول : إذا كاشَفْتَ عَدُوَّكَ وأَبْدَيْتَ صَفحةَ ما تُضمِرهُ من السُّوءِ لَهُ بَعَثَه ذلك على مكاشَفَتِكَ ، وازدادَ عُدَّتُهُ من الكَيْدِ وغَيْرِهِ مِنْكَ دُنُوًّا . وإذا جَامَلْتَهُ وداجَيْتَه بَقِيَ على ما ينطوى عليه مِساتِرًا لا مُجاهِراً .

٣ — وكُنْتُ إذا قَرِينِى جاذَبَتْهُ حِبَالِى مات أو تَبِعَ الجِذَابا

هذا مِثْلُ قَوْلُ عمرو بن كُلْثُوم :

مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنا بحَبْلٍ نَجُذُّ الحَبْلَ أو نَقِصُ القَرِينا

وجعل الجِذاب للحِبال على المجاز . وقوله أو تَبِعَ الجِذابَ» يريدُ أو انجذَب وتَرَكَ الطِّمَاح والإباء . ومعنى البيت : إذا جاذَبَنِي قرينٌ لِي حَبْلًا بيني وبينَهُ ،

(١) نظر له التبريزى بقول الأعشى :

فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

(٢) م : « استعنت » .

فإمّا أنْ ينقطع دون شأوِى فى الجذَاب فيَهلِكَ ، وإما أن يَتَّبِعَ صاغراً فينقادَ .
وخبرُ كان فى إذا أو جوَابِه .

٤ — فإنْ أهْلِكْ فذِى حَنَقٍ لَظَاهُ   عَلَىَّ يَكادُ يلْتَهِبُ الْتِهَابا[1]

هذا الـكلامُ تَسَلٍّ عن العَيْش بعْدَ قضاء حاجَتِهِ ، وإدراكِ ثأره ، وإرغام عَدُوِّهِ ، ولولا ما تيسَّرَ له من ذلك وتَسَهَّلَ لـكان لا يَسهُلُ عليه انقطاعُ العُمْرِ ، ولو مَاتَ مَاتَ بغُصَّةٍ . فيقول : إن أمُتْ فرُبَّ رجلٍ ذى غيظٍ وغضبٍ تكادُ نار عداوتِهِ تتوقّدُ توقُّدًا ، أنا فعلْتُ به كذا . وقولُه «لظَاهُ» فى موضع المبتدأ ، و « يكاد يلتَهِبُ » فى مَوْضِعِ الخبَرَ ، والجملة فى موضِعِ الصفة لذى حَنَقٍ ، والجرّ ذى حَنَقٍ بإضمار رُبَّ ، والمجرور برُبَّ يَقَع موصوفاً فى الأكثر وجواب رُبَّ فيما بعده ، والفاء من قوْلِهِ « فذِى حَنَقٍ » مع ما بَعْدَهُ جوابُ الجزاء . فإن قيلَ : إنّ الفاء فى جوَاب الجزاء إنّمَا يجىء إذا خَالَفَ الُجملةُ التى تكونُ جزاءَ الجملةَ التى تكون شرْطاً بأن تكون مبتدأً وخبَراً ، فكيف يكون تقديرُهُما بعد الفاء هاهنا ؟ قُلتَ : يكون التقدير : إنْ أهْلِكْ فالأمْرُ والشَّأنُ

---

(١) ابن جنى : « ذى مجرورة برب مضمرة ، أى فرب ذى حنق ، وحذفها للعلم بموضعها كقول الآخر :

رسم دار وقفت فى طلله   كدت أقضى الغداة من جلله

أى رب رسم دار . وهذا يدفع قول أبى العباس أن الواو فى نحو قوله :

* وبلد تحسبه مكسوحا *

هى التى جرت بلد لمـا خلفت رب وكانت عوضاً منها . ألا ترى أنه قال : فذى حنق ، أى فرب ذى حنق . ولا يقول أحد إن الفاء عوض من رب . وكذلك قول الهذلى :

فحور قد لهوت بهن عين   نواعم فى المروط وفى الرياط

وقال الآخر :

* بل بلد ملء الفجاج قتمه *

ولا أحد يدعى أن بل عوض من رب . فإذا صح هذا وثبت فى الفاء وبل كانت الواو محمولة على حكمه » .

رُبَّ ذِى حَنَقٍ بهذه الصِّفَةِ فَمَلْتُ به كذا . فقوله « رُبَّ ذِى حَنَق » خَبَرٌ للمبتدأ الذى أظهرناه .

٥ — مَخَضْتُ بِدَلْوِهِ حتَّى تَحَسَّى ذَنُوبَ الشَّرِّ مَلْأَى أَو قِرَابا[(١)]

هذا جوابُ رُبَّ . فيقولُ : رُبَّ إنسانٍ هكذا ، أنا حَرَّكْتُ بِدلوِه التى أدْلاها فى الأمْرِ الذى خُضْنا فيه ، حَتَّى ملأتُها . وجَعَل الدَّلْوَ كنايةً عن السَّبب الذى جاذَبَهُ فيه ، والطَّمَعِ الذى جرَّأه عليه ، قال : فَتحَسَّى دَلْوَ الشَّرِّ مملوءةً أو قريبةً من الامتلاء . وقُرابُ المَلْءِ : أن يُقاربَ الامتلاء ، ويقال قِرَابٌ بكسر القاف وقُرَابٌ بضمّها . والمعنى : جَعَلْتُ شِرْبَهُ من الشَّرِّ شِرْباً مُرْوِيا .

وقد استعمل أبو تمّام الدَّلْوَ على الطَّريقة التى اسْتَعْمَلَها ربيعةُ فقال :

أَلْقَوْا دِلَاءً فى بُحُورِكَ أَسْلَمَتْ تَرِعَاتِها الأَكْرَابُ والأَوْذامُ[(٢)]

واسْتَعْمَلَ غيره دَلَوْتُ فى معنى الاستخراج فقال :

---

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات ، وهى :

٦ — بمثلِى فاشهَدِ النَّجوَى وعالِنْ بِىَ الأعداءَ والقومَ الغضابا

٧ — فإن المُوعِدِىَّ يرونَ دونِى أُسودَ خَفِيَّــةَ الغُلْبَ الرِّقابا

٨ — كأنَّ على سواعِدِهنَّ وَرْساً عَلاَ لونَ الأشاجعِ أو خضــابا

وقال فى تفسير الأول : « أى جاهر بمثلى الأعــداء وكاشفهم ليكفوا عنك ، فمثلى يصلح لدفع المكاره ، وكشف النوائب » . وقال فى تفسير الثانى : « يريد الغلب رقابا ، وانتصابه على التشبيه بالضارب الرجل » . قال فى الثالث : « أى كأن على سواعد هذه الأسود الورس أو الخضاب ، من كثرة ما افترست الفرائس . والأشاجع : عروق ظاهر الكف ، والواحد أشجع » .

(٢) الترعات : الممتلئات . وفى الأصل وديوان أبى تمام ٢٨١ : «نزعاتها» ، تحريف . وفى الأصل : « والأوذاما » ، صوابه فى م والتيمورية والديوان . والبيت من قصيدة له فى مدح المأمون ، مطلعها :

دمن ألم بها فقال سـلام كم حل عقدة صبره الإلمام

فقد جَعَلْتُ إذا ما حاجتى نَزَلَتْ بباب دارِكَ أَدْلُوها بأقوامِ[١]

فـكأنَّ المُراد أنَّ هذا المُعادِىَ الممتلئَ غيظًا لَمَّا أَلقَى دَلْوَه يَسْتَقِى بها الماء من بِئْرِىَ مَلَأْتُهَا شَرًّا وجعلتُه سُقْيَاه[٢] .

١٧٨

وقال سَلْمَى بن رَبِيعَة[٣] :

١ — حَلَّتْ تماضِرُ غَرْبَةً فاحْتَلَّتِ فَلْجًا وأَهْلُكَ باللِّوَى فالحَلَّتِ[٤]

تُمَاضِرُ : امرأتُه وكانت قد فارَقَتْهُ عاتبةً عليه فى استهلاكِهِ المال ، وتَعرِيضِه النَّفسَ للمَعَاطِب فلحِقَتْ بقومِها ، وأَخَذَ هو يَتَلَهَّفُ عليها ويتحسَّرُ فى أثَرِها وأثَرِ أولاده منها ، فيقول : نَزَلَتْ هذه المرأةُ بعيدةً منكَ ، فاحْتَلَّتْ فَلْجًا وأَهْلُكَ نازِلونَ بين هذين الموضعين . وهذا الكلام تَوَجُّعٌ . وفَلْجٌ على طريقِ البَصْرَةِ ، والحلَّة : مَوْضِعٌ من الحَزْنِ ببلادِ ضَبَّةَ ، واللوَى: رَمْلٌ متَّصِلٌ به

(١) البيت لهمام الرقاشى ، كما فى البيان (٢ : ٣١٦/٣ : ٣٠٢/٤ : ٦٥) برواية : « حتى جعلت » .

(٢) فى الأصل : « أو جعلتها معناه » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) سلمى ، بفتح السين والميم ، كذا فى الأصل والتيمورية ، وورد مهمل الضبط فى م . وكذلك ضبطه القالى فى الأمالى (١ : ٨٢) وكذا ضبط فى نوادر أبى زيد ١٢٠ قال : « وقال سلمان بن بيعة الضبى ، أو سلمى » قال أبو الحسن : هكذا وقع فى كتابى : سَلْمَى ، وحفظى سُلْمِىّ » . وقال البكرى فى اللآلى ٢٦٧ : « هكذا رواه أبو على : سَلْمى ، ولم يختلف الرواة أنه سُلْمِىّ . وهو سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر ، من بنى ضبة ، شاعر جاهلى » . التبريزى وابن جنى فى التنبيه : « من بنى السيد بن ضبة » . والأبيات فى الخزانة (٣ : ٤٠٢) ونوادر أبى زيد والأمالى . ونسبها الأصمعى فى الأصمعيات ١٨ لعلباء بن أرقم . ويفهم من صنيع الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٧٤) أنها لعمرو بن قميئة .

(٤) كذا رسمت بالتاء المبسوطة فى الأصل والتبريزى ومعظم المراجع . وكتبت فى م والتيمورية بالتاء المفردة ورسم إلى جوارها تاء مبسوطة . وضبطت فى م والنوادر والتنبيه لابن جنى بكسر الحاء .

رَقيقٌ. وبين المواضع الذى ذَكَرها تَباعُدٌ. إن قيل لِمَ قالَ حَلّتْ، ثم قال احتَلّتْ، وهلاّ اكتفَى بأحدِهما؟ قُلتَ: نبَّهَ بالأوّل أنّها اختارَتِ البُعْدَ مِنهُ والتغرُّب(١) عنه، وبالثانى الاستقرار، فكأنّهُ قالَ: نَزَلتْ فى هذه الغَرْبَةِ فاستوطَنَتْ فَلْجًا. وفَلَجٌ بفتح اللام: مَوْضعٌ. وفَلْج بسكون اللام: ماءٌ.

٢ — وكأنَّ فى العينَيْنِ حَبَّ قَرَنفُلٍ   أَوْ سُنْبُلاً كُحِلَتْ به فانْهَلَّتِ

يقول: أَلِفَتُ البكاء لتباعُدِها، فساعدتِ العَيْنان وجادتا(٢) بإسالَةِ دَمْعِهما غزيراً متحلِّبا، واكِفاً مُنْهَمِلاً، فكأنّ فى عَيْنَىَّ أحَدَ هذين المهيِّجَيْنِ الحاليين للعيونِ. وقَوله «كُحِلَتْ» إخْبارٌ عن إحدى العَيْنَيْنِ، وسَاغَ ذلك لما فى العِلْمِ من أنّ حالتَيْهما لا تفترقان. وعلى العَكْسِ من هذا قول امرئ القَيْس:

وعَيْنٌ لَهَا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ   شُقَّتْ مآقيهما من أُخرْ(٣)

لأن امرأ القيس وَحَّدَ فى الابتداء ثم ثَنّى عند رَدّ الضّمِير، على أنّهُ متى اجتمع شيئان فى أمْرٍ لا يفترقان فيه اجتزِى بذِكْرِ أحَدِهما عن الآخَر. وفى طريقة هذا البيت قَول ابن هَرْمة:

وكأنّمَا اشْتَمَلَتْ مَوَاقِى عَيْنِهِ   يَوْمَ الفِراقِ على يَبِيسِ الحِمْخِمِ(٤)

٣ — زَعَمَتْ تُمَاضِرُ أنّنى إمَّا أَمُتْ   يَسْدُدْ أُبَيْنُوهَا الأَصَاغِرُ خَلَّتِى

زَعَمَ يترَدّدُ بين الشّكّ واليقين، وهاهنا يريدُ بِهِ الظَنّ. وأنّنِى مع الجَزَاء

(١) هذا الصواب من م والتيمورية. وفى الأصل: «والتقرب».
(٢) فى الأصل: «وجالتا»، صوابه فى م والتيمورية.
(٣) كذا فى النسخ، على الخرم فى أول العجز. ورواية الديوان ١٦ والتبريزى: «فشقت» على الإتمام.
(٤) المواقى: جمع الماق، وهى لغة فى موق العين، وهو حرفها الذى يلى الأنف. وفى م: «مآق» وهذه جمع مؤق ومأق. اللسان (مأق).

والجواب نائبٌ عن مفعولَيْه . يقول : ظَنَّتْ هذه المرأةُ أنَّهُ إن نزَل بى حادِث قضاءِ الله عزّ وجلّ ، سَدّ مكانى ورَمّ ما يتشعَّثُ من حَالِهَا بِزَوالِي أبناؤها الأصاغِرُ . ويريد بهذا الكلام التَوَصُّلَ إلى الإبانة عن محلّه ، وأنه لا يُغْنِي غَناءهُ من النّاسِ إلاّ القليل . وقَوْلُه « أُبَيْنُوها » تصغير أبناء مقصوراً عند أصحابنا البصريِّين[1] ، وهو اسمٌ صيغ للجَمْع كأرْوَى[2] ، وأثْأَب[3] ، وأَضْحًى[4] فهو على أفْعَل بفتح العين . وعند الكوفيين هو تصغير أَبْنٍ ، مِثْلُ أَدْلٍ على أفْعُلٍ بضم العين . ويقال : سَدّ فُلانٌ مَسدّ فلانٍ ، وسَدّ خَلّتَه ، وناب مَنابَهُ ، وشَغَل [مكانَه[5]] بمَعْنًى . فإن قيل : كيف سَاغَ أن يقول يَسْدُدْ خَلَّتِي ، وإذا مات لم تَكُنْ له خَلّةٌ . قُلتَ : أضافَهَا إلى نَفسه لمّا كان يَسُدُّها أيّامَ حياته ، فكأنّه قال : الخلّة التى كنت أسُدُّها . وهذا من إضافة الشَّيء إلى الشيء على المعتاد فيهما . ومثله قولهم : شِهاب القَذْفِ ، فأضيفَ الشِّهاب إلى القَذْفِ لمّا كان من رَمْى الرامى . ووجوهُ الإضافاتِ واسعةٌ كثيرة ، وكذلك متعلَّقاتُها[6] .

٤ – تَرِبَتْ يَدَاكِ وهَلْ رأيْتِ لقومِهِ مِثْلِي عَلَى يُسْرِى وحِينَ تَعِلَّتِي

أقبلَ عليها يوبِّخُها ويخطِّئُ رأيَها ، ويكذِّب ظنَّها ، ويقبِّح اختيارها ، فى إفاتة نفسها الحظَّ منه ، ويدعو عليها بالفَقْر والبَأْساء ، والخيبة فى الرَّجاء ، فيقول :

(١) ابن جنى : « ذهب سيبويه إلى أن الواحد المكسر من هذا الجمع أبنى على وزن أفعل مفتوح العين ، بوزن أعمى ، ثم حقر فصار أبين كأعيم ، ثم جمع بالواو والنون » ، وساق بعد ذلك كلاماً مسهباً .

(٢) الأروى : اسم جمع الأروية ، وهى الأنثى من الوعول . قال ابن برى : « أروى تنون ولا تنون . فمن نونها احتمل أن يكون أفعلا مثل أرنب ... وأما أروى فيمن لا ينون فوزنها فعلى » .

(٣) الأثأب : جمع أثأبة ، وهو ضرب من عظام الشجر .

(٤) أضحى هذه بالتنوين : جمع أضحاة ، وهى لغة فى الضحية .

(٥) التكملة من م والتيمورية .

(٦) وكذلك متعلقاتها ، ساقطة من م .

صار فى يَدِكِ التُّراب ، وهل رأيت لقومِه مَن يُماثلنى فى حالَتَى السَّرَّاء والضرَّاء واليُسر والعُسر ، والغِنَى والفَقْر ، حتَّى تُمَلِّقى منكِ رجاءكِ فىَّ بغيرى إذا أخليْتُ مكانى . وتَرِب يُستعمل فى الفَقْر والخيبة لا غير ، وأتْرَب يُستعمل فى الغِنَى والفَقْر جميعاً ، فإذا أُريدَ به الغِنَى فالمعنى صار له من المال بِعَدَدِ التُراب ، وإذا أريد به الفَقر فالمعنى صار فى التُراب ، كما يُقال أَسْهَلَ إذا صَارَ فى السَّهْلِ . وقد يجوز أن يكون مثل أقلّ ، والمعنَى : صار مالُكِ قليلاً من المالِ . وأضاقَ : صارَ فى حالِ ضِيقٍ . وقوله « حِين تَعِلَّتِى » المعنَى وحين اعتَمدتُ على إقامة العلّة بحصول الفقر . وعلى هذا قوله :

* قليلُ ادّخارِ المالِ إلّا تَعِلَّةً *

أى قَدْرَ ما يُقامُ به العِلّةُ . وقولُه « لقَوْمِهِ » أضمر قبل الذِّكْر ، لأنَّ الكلام يحتمل نِيَّة التقديم ونيَّة التأخير .

٥ — رَجُلاً إذا ما النائباتُ غَشِينَهُ أَكْفَى لمُعْضِلَةٍ وإنْ هِىَ جَلَّتِ

انتَصبَ « رَجُلاً » على أنّه بدلٌ من مِثْلِى ، كأنه قال : هل رَأَيْتِ لقومِهِ رَجُلاً أَكْفَى للشدائد وإن عَظُمَتْ عند طُروق النَّوائب وغِشْيان الحوادِث مِنِّى . فحذفَ مِنِّى لأنَّ المُراد مفهومٌ . ويُرْوَى « أَكْفَى لمُعْضِلَةٍ » وهى الدَّاهيةُ الشديدة ، يقال أَعْضَلَ الأَمْرُ إذا اشتدَّ . يُرْوَى « لمُضْلِعَةٍ » وهى التى تَضُمُّ الاضلاعَ بالزَّفَرَاتِ وتَنَفُّسِ الصُّعَداء حتى تكادُ تَحْطِمُها .

٦ — ومُنَاخِ نَازِلَةٍ كَفَيْتُ وفارِسٍ نَهِلَتْ قَنَاتِى من مَطَاهُ وعَلَّتِ

أخذ يُعَدِّدُ ما كانت كفايتُهُ مقسومةً فيه ، ومصروفةً إليه . وقوله « ومُناخِ » مَصْدرُ أنَخْتُ . وكَفَيْتُ يتعدّى إلى مفعولين وقد حذفَهُمَا ، كأنّه قال : كَفيتُه

العشيرةَ . يقولُ : وربَّ نازلةٍ أناخَتْ ، أنا دَفَعْتُ الشرَّ فيها[١] ، وكفَيْتُ قَوْمى الاهتمامَ بها ؛ وربَّ فارسٍ سقيتُ رمحى من دم ظهره العَلَلَ بعد النَّهل . وخَصَّ الظَّهر ليُعْلَمَ أنه قد وَلّى وأَدْبَرَ[٢] .

٧ــ وإذَا العَذَارَى بالدُّخَانِ تقَنَّعَتْ واسْتَعْجَلَتْ نَصْبَ القُدُورِ فمَلَّتِ

أَقْبَلَ يَعُدُّ خِصالَ الخيرِ المجموعَةَ فيه ، بعد أن نَبَّهَ على أنه لا يَقُومُ مَقَامَهُ أَحَدٌ ، فكيف من طَمِعَ[٣] فى نيابَتِهِ عنه بعدهُ . والعذارى : جمع عَذْرَاء ، وأصلُه العَذَارِىُّ بتشديد الياء ، فالياء الأولى مُبْدَلَةٌ من المَدَّةِ قَبلَ الهمزة ، كما تُبْدَلُ فى سِرْبَالٍ إذا قُلْتَ سرابيلَ ، فلما انقلبت المَدَّة ياء لانكسار ما قبلها وكان الأصلُ فى همزة التأنيث ألفا عادَ إلى أَصْلِهَا لزوال الأَلف قَبْلها ، فأبْدِلَ مِنْهُ ياء ثم أُدْغِمَ الأولى فى الثانية فقيل عذارِىُّ ، وكذلك فى صحراء صحارِىُّ ، ثم حُذِفَتْ إحدى الياءين تخفيفاً فقيل عَذَارِى وصَحَارِى ، ثم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقَلَبَت ألِفاً فقيل عذارَى وصحارَى . ويقال : عَذَرَ المرأة وأعْذَرَهَا ، إذا ذَهب بعُذْرَتها ، وهو أبو عُذْرِهَا وأبو عُذْرَتِها . فيقول الشاعِرُ : وإذا أبكار النِّساء صَبَرَتْ على دُخانِ النّار حتّى صار كالقِناع لوجهها ، لتأثير البَرْد فيها ، ولم تَصبِرْ على إدراك القُدُور بعد تهيئتها ونَصْبها ، فَشَوَت فى المَلَّةِ قَدْرَ ما تُعَلِّلُ به نَفْسَها من اللحم ، لتمكُّن الحاجةِ والضُرِّ منها ، ولإجداب الزَّمان واشتداد السَّنةِ على أهلها أحسَنْتُ . وجوابُ إذا فى البيت بَعْدَه . وخَصَّ العَذَارَى بالذِّكْرِ لفَرْط حيائهنَّ وشِدَّة انقباضهن ، ولتصوُّنِهِنَّ عن كثيرٍ مما يَتَبَذَّل فيه

(١) م والتيمورية : « أنا دفعت شرها » .

(٢) م والتيمورية : « أنه أدبر عنه وولى » .

(٣) م والتيمورية : « طمعت » .

غيرُهُنَّ . وجعل نَصْبَ القُدُورِ مفعول استَعْجَلَتْ على المجازِ والسَّعَةِ . ويجوز أن يكون المرادُ استعجلَتْ غيرَها بنصب القُدُورِ وفى نَصْبِها ، فحَذَف .

٨— دَارَتْ بأرزاقِ العُفَاةِ مَغَالِقٌ بِيَدَىَّ من قَمَعِ العِشَارِ الجِلَّةِ

قولُه « أرزاق العُفَاة » كلامٌ شريفٌ ، وتقدير البيت : دارَتْ بيدىَّ مغالِقُ بأرزاق العُفاة من قَمَعِ العشار الجِلَّةِ ، فَفَصَلَ بالفاعِلِ بين الأرزاق وبَيْنَ من قَمَعِ العِشار . والعُفَاة : جمع العافِى ، والجمعُ على فُعَلَةٍ يَختصُّ بالمُعْتَلّ دون الصحيح . يقول : وإذا صَارَ الزَّمَانُ كذا دَارَتِ القِداحُ فى المَيْسِرِ بِيَدَىَّ لإقامة أرزاق الطُّلَّابِ من أسنِمَةِ النوقِ المَسَانّ الكبار الحوامل ، التى قَرُبَ عهدها بوضْع الحمل ، وكلُّ ذلك يُضَنُّ بها ، ويُتَنافَسُ فيها ، وإنما سُمِّيت القِداح مَغَالِقَ لأن الجُزُر تَغْلَقُ عندها وتَهلِكُ بها . والقَمع : قِطَعُ السَّنام ، الواحدةُ قَمَعَةٌ : والقَمِيعُ : ما فوق السَّنَاسِنِ من السَّنَام . وبعيرٌ قَمِعٌ : عظيمُ القَمَع . ويقال سَنَامٌ قَمِعٌ ، أى عَظيمٌ قد تمكَّنَ فيه الشَّحْمُ . والعِشارُ : جَمْع عُشَراء ، وهى التى قد أتى عليها من حَمْلِها عَشْرَةُ أشْهُرٍ ، وتستصحِب هذا الاسم فتُسَمَّى به بعدَ وضعها الحملَ بأشهرٍ . كأنَّهُ نبَّهَ على أنه يَعتَبِطُ صِحاحَ الإبل وخِيَارَها ، لا كسيرَها وهَزلاها .

٩— ولقد رَأَيْتُ ثَأَى العَشِيرَةِ بيْنَها وكَفَيْتُ جانِيَها اللّتَيَّا والّتى

الثَّأَى : الفَسادُ . يقالُ ثَأَى الجُرْحُ يَثْأَى ثَأَى . والرَّأْبُ : الشَّعبُ والإصلاح . يقول : وكما ظَهَرَ غَنَائى فى تلك الأبواب فلقد سَعَيْتُ فى إصلاح ذات البَيْنِ من العَشِيرةِ ، ورَدِّ التعطُّف الذاهب عنها إليها ، ولَمِّ شَعَثِها ، وضَمِّ نَشَرِها ، وكَفَيْتُ مَنْ جَنَى منها الجنايةَ الصَّغيرةَ والكبيرة ، بالمال والنَّفس ، والجاهِ والعِزّ . وقولُه « جانِيها » إن فتحْتَ الياء كان واحداً وإن أدّى معنى

الجمع ، وإن سَكَّنت الياء جاز أن يكون جَمعا سالما وأن يكونَ واحداً قد حُذِفَ فتحتُها . وقولُه « اللَّتَيَّا » تصغير التى ، فجعلهما اسمين للكبيرة من الدَّواهى والصغيرة ، ولهذا استغنَيَا عن الصِّلةِ وانتقلا عن كونهما وُصْلَتَيْن . ويذهبُ بعضُهم إلى أنّ صلتيهما محذوفتان لدلالة الحال عليهما .

١٠ — وصَفَحْتُ عن ذى جَهْلِها ورَفَدْتُها نُصْحى ولمْ تُصِبِ العَشِيرةَ زَلَّتى

١١ — وكَفَيْتُ مَوْلاىَ الأَحَمَّ جَرِيرَتى وحَبَسْتُ سائمتى على ذى الخَلَّةِ

قوله « وصَفَحتُ عن ذى جَهْلِها » ، يصِفُ نفسَه بالحِلْم معهم ، وكَظْمِ الغيظ فيهم ، ومَنعِ سُفهائهم . يقول : وعَفَوْتُ عن جاهِلِها فلم أُوَاخِذْهُ بما بَدَرَ منه من هَفوةٍ أو زَلَّةٍ ، ثم بَذَلتُ نُصْحى لعشيرتى ، وحَسَّنْتُ لهم عِشرَتى مِقدَارَ جُهدِى ، ولم أُجرَّ عليهم جَرِيرتى ، ولم أُوسِعْهم زَلاَّتى . وقد أَلَمّ فى هذا بقول الآخَر(١) :

* إذا المَرْءُ لم يحمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها *

وفى طريقته قول الآخر :

ولو شاء قومى كان حِلْمِىَ فيهِمُ وكان على جُهَّالِ أعدائهم جَهْلِى

وقوله « وكَفَيْتُ موْلاىَ الأحَمَّ جريرتى » ، أى لم يؤاخَذُوا بجرائرى ، بل كنْتُ المُدَاوِى لها والخارجَ منها . ويروَى : « الأحَمَّ إضاقَتى » فيكون مِثْلَ قوْلِ الآخر(٢) :

أبُو مالِكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ على نفْسِهِ ومُشِيعٌ غِنَاهْ

(١) هو السموءل بن عاديا . الحماسية ١٥ .
(٢) عجزه : * فليس إلى حسن الثناء سبيل *
(٣) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .

والشاعرُ يقول : وكما لم يَشْمَل أباعِدَ ذَوِىَّ رَهْطِى زَلاَّتى ، كذلك لم يَنَلْ الأدَانِىَ جِنَاياتى ؛ ثم إذا نِلْتُ خيراً أشْرَكْتُ ذوِى الحاجةِ منهم فيه وحَبَسْتُ مالى الرّاعِيَةَ عليهم ، حتى لا يَتميَّزُوا عنِّى فى التصرُّف والتناول . وقوْلُه « الأحَمّ » ، يريد الأخَصَّ والأَمَسّ ، وهو أفعَلُ من الحَمِيم ، ولهذا قال الشاعر وإن كان فى ضِدّ هذا المعْنَى :

* ومَوْلاكَ الأحَمُّ لهُ سُعَارُ(١) *

أى لَهَبُ الجُوع ، ومنه قولهم : كيفَ السّامّةُ والحامّةُ .

١٧٩

وقال أُبَىُّ بن رَبِيعَةَ(٢) :

١ — وخَيْلٍ تلافَيْتُ رَيْعانَها بِعِجْلِزَةٍ جَمْزَى المُدَّخَرْ

رَيْعان كُلِّ شَىْء : أوَّلُه ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فى الشَّباب والخَيْل . والرَّيْعُ فَضْلُ كلِّ شىء ، ومِنه رَيعُ الحِنْطة إذا زَكَتْ ، ورَيْعُ الدُّروع : فُضُولُ أكمامِها على الأنامِل . والعِجْلِزَةُ : الفرس الشديدة الخَلْق ، ورُبَّمَا وُصِفَتْ به النّاقةُ . وبعضُهم يَحْكِى فيها : عَجْلَزَةٌ ، بفتح العين واللام . يقُول : رُبَّ خيلٍ مُغِيرَةٍ تَدَارَكْتُ أوائِلَها طارِداً للوَسَائق ، وأنا على فَرَسٍ صُلْبَةٍ تَجْمُزُ فيما تَدَّخِرُ من جَرْيِها . ومن عَادَةِ عِتاق الخَيْل أن تُبْقِىَ من عَدْوِها بقيَّةً لوقت الحاجة إليها ، فمتى استُحِثَّتْ بعد الكَدّ والعمَل أعْطَتْهَا . ولذلك قال كَلْحَبَةُ العُرَيْنِىُّ :

---

(١) صدره فى اللسان (سعر) :

* تسمنها بأخثر حلبتيها *

(٢) التبريزى : « أبى بن سلمى بن ربيعة بن زبان الضبى » وقد سبقت ترجمة أبيه فى الحماسية السابقة .

فَأَدْرَكَ إِبْقَاءَ العَرَادَةِ ظَلْعُهَا وقَدْ جَعَلَتْنِي من حَزِيمَةَ إِصْبَعَا[1]

فقوله إبقاء العَرادة كقوله هاهنا « المُدَّخَرْ » . وجَمَزَى مِثْلُهُ وكَرَى وهو صِفَةٌ . وجَعَل الجَمْزَ لِمَذخورِ الجرْى على المجاز ، لأنّ الجمْزَ ومَذْخُورَ الجرْى جميعا للفَرس . والحقيقة أنها تَجْمِزُ فى مُدَّخَر الجرْى . وليس هذا كقولهم هو حَسَنُ الوجه ، وكريمُ الأب ، إذا كانَ الحُسْنُ والكَرَمُ فى الحقيقة للأبِ والوَجْهِ ، ولكن هو كما يُقالُ فُلَانٌ ثَبْتُ الغَدَر ، نَزِقُ المَجالِ ، قَمُوصُ الخَبَارِ ، وما أَشْبَهَهُ .

٢ – جَمُومِ الجِراء إِذَا عُورِقبَتْ وإِنْ نُوزِقَتْ بَرَّزَتْ بالحُضُرْ

يقال بِئْرٌ جَمُومٌ ، إذا كان ماؤها ينقطع ويَعود سريعاً . ومعنى قوله « جَمُومِ الجِرَاء إذا عُورِقبَتْ » أى جَرْيُهُ يمتدُّ ولا ينقطع إن طُلِبَ عَقْبُها لمسابقتها[2] فيه ، فكأنَّه لا آخِرَ لجَرْيِهَا ، كالبئر الجَمُوم . و « إن نُوزِقَتْ » أى إن غُولِبَتْ فيما يُسْتَنْزَقُ من سيرِها سَبَقَتْ بِعَدْوِها . وكما سُمِّيَ آخرُ الجرْى العَقْبَ سُمِّيَ آخرُ الشهر به ، فقيل جِئْتُ فى عَقْبِ الشَّهر ، إذا جئْتَ بعد ما مَضَى ، وجئْتَ فى عَقْبِه وعَقِبِه ، إذا جئْتَ وقد بقيَتْ منه بقيّةٌ . ويُقالُ : عاقَبْتُ الفَرَسَ ونازَقْتُهُ ، كما يُقالُ طَاوَلْتُ زَيْدًا وفاضَلْتُهُ ، وذلك إذا غالَبْتَهُ فى الطَّوْلِ والفَضْل . ومعنى بَرَّزَتْ : تقَدَّمَتْ . والحُضْرُ : العَدوُ . ويُروى « عُورِفيَتْ[3] » أى إنْ طُلِبَ عَفْوُها ، وليس بجيِّدِ . ألا تَرَى أنَّه قيل : « أوّلُ الجرْى نَزْقَةٌ ، وآخِرُهُ عَقْبَةٌ » .

---

(١) فى الأصل : « من جريمة » صوابه فى م والتيمورية و المفضليات (١ : ٣٠) .

(٢) م : والتيمورية « بمسابقتها » .

(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .

٣ – سَبُوحٍ إذا اعتَزَمَتْ في العِنانِ مَرُوحٍ مُلَمْلَمَةٍ كالحجَرْ[١]

أراد بها أنها تَسْبَحُ فِي جريها إذا اعتزَمَتْ في العِنانِ ، أي انتَحَتْ في العَدْوِ وهي مُلجَمَةٌ كثيرة النَّشاط ، مجتمعةُ الخَلْقِ صُلْبَةٌ كأنها حَجَرٌ . والاعتزام : لُزُوم القَصْدِ في الحُضْرِ وغيرِه وتَرْكُ الانثناء . وقد اعتَزَمْتُ الطريق . ويقال اعْتَزَمَ الفَرَسُ على الجَرْيِ إذا مَرَّ جامحاً . وقولُهُ « في العِنان » في موضع الحال ، كما يُقال : جاء فُلانٌ في جُبَّةٍ ، أي وعليه جُبَّةٌ . واللَّمْلَمَةُ : جَمْعُكَ الشيء ، وهو مِثْل اللَّمِّ في المعنى وإن لم يَكُنْ من لفظِهِ عندنا . ورواه بَعْضُهُم « إذا اعتَرَمَتْ[٢] » بالراء غير مُعْجَمةٍ ، وجَعَلَهُ من العُرَام ؛ وليس بشيء .

٤ – دُفِعْنَ على نَعَمٍ بالبِرَا قِ مِنْ حَيْثُ أَفْضَى به ذُو شَمِرْ

هذا جَوَابُ رُبَّ إذا جَعَلْتَ قوله « تلاقَيْتُ رَيْعَانَهَا » من صِفَةِ « وخَيْلٍ » حَمْلاً على ما يجيء عليه المجرور برُبَّ في الأكثر ، من لُزوم الوَصْفِ له ؛ وقد جاء غير موصوفٍ وإن قَلَّ . وعلى هذا يكون تلاقَيْتُ الجوابَ ودُفِعْنَ من صِفَةِ الخَيْلِ . والمعنى دُفِعَتْ هذه الخيلُ وأُرسِلَتْ على إبلٍ واقفةٍ بالبِرَاق من حيث أدّاهُ إلى الفضاء ذُو شَمِرٍ ، وهو مكانٌ[٣] . قولُه « أفْضَى به » الضميرُ للنَّعَم ، وهو يُذَكَّرُ ، يُقال هذا نَعَمٌ واردٌ . والبِرَاق : جمع بُرْقَةٍ ، وهو موضع فيه حجارةٌ بيضٌ وسُودٌ ؛ ومثلُه جَبَلٌ أبْرَق . أي لمّا حَصَل بالفضاء تُلُقِّيَتْ[٤] بالخَيْل وشُنَّتِ الغَارة عليه .

---

(١) ضبطت الكلمات بالرفع في الأصل على القطع ، وبالجر على الإتباع في م والتيمورية .

(٢) رواية التبريزي : « إذا اعترضت » .

(٣) ذكره البكري في معجم ما استعجم . وروى البيت وأخطأ في نسبته إلى سلمى ابن ربيعة .

(٤) كذا في النسختين . وفي التيمورية : « فلقيت » .

٥ — فَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا لَطَارَتْ ولكِنَّهُ لم يَطِرْ

رَجَعَ إلى صِفَةِ الفَرَس لمّا رَكَضها في إثْرِ الخيلِ المُغِيرَةِ على النَّعَم الذي وصَفَه، يقول: لو أنَّ ذوات الحوافر[1] جُعِل في قدرتِها الطَّيرانُ بآلةٍ تخصُّها لطارَتْ هذه الفَرَس، وكانت الأَوْلَى بذلك، لما فيها من النَّجابة والعِتق، ولكنَّ الطَّيَران خُصَّ به ذو الجَنَاح.

٦ — فَمَا سَوْذَنِيقٌ على مَرْبَإٍ خَفِيفُ الفُؤَادِ حَدِيدُ النَّظَرْ

٧ — رَأَى أَرْنَبًا سَنَحَتْ بالفضاء فبادَرَها وَلَجَاتِ الخَمَرْ

يقولُ: ما شَاهِينٌ واقِعٌ على مَحْرَسَةٍ ذَكِيٌّ شَهْمُ النَّفْس، بَعيدُ النَّظَر حَدِيدُ العَيْن، سريعُ الإدْراك، رأى أَرْنبًا سَنَحتْ. ومعنى سَنَحَتْ عَرَضَتْ، يُقالُ منه سَنَحَت الحاجةُ. والأَرْنَبُ: الأُنْثَى من الأرانِب. والذَّكَرُ خُزَزٌ. والكلام بعدُ مشغولٌ بصفة السَّوْذَنِيقِ. أي رأى أرنبًا اتَّفَقَتْ بالعَرَاء واعترضَتْ فسابقها إلى مَداخِل الخَمَر، ثم رَجَع عليها في طريقِها لئلاّ تفوتَهُ — بأسْرَعَ من فَرَسِي. والوَلَجَاتُ: جَمْعُ وَلَجَةٍ، وهي موضِع الوُلُوج، وموضِع وَلَجَاتِ نَصْبٌ على أن يكونَ مفعولَ بادَرَهَا. والخَمَر: ما وَارَاكَ من الشَّجر[2]. ويقال: بادرْتُ مَكانَ كَذَا، وإلى مَكانِ كذا.

٨ — بأَسْرَعَ مِنْهَا ولا مِنْزَعٌ يُقَمِّصُهُ رَكْضُـهُ بالوَتَرْ

قولُه «بأسْرَعَ» خَبَرُ «ما». يقولُ: ما سَوْذَنيقٌ هذا وصفُه بأسرعَ من فَرَسي، ولا سَهْمٌ ينزِّيه رَكْضُ الوَتَرِ به. والمِنْزَعُ: السَّهْمُ. ويقالُ: نَزَعْتُ في القَوسِ نَزْعًا، وانتزَعْتُ له بِمِنْزَعٍ، ونَزَعْتُ، أيْ بسَهْمٍ. وفي المَثَلِ:

(١) في الأصل: «الجناح» صوابه في م. وفي التيمورية: «الحافر».

(٢) م والتيمورية: «من شجر».

« عَادَ السَّهْمُ إلى النَّزَعَةِ » فى معنى رَجَعَ الحَقُّ إلى أَهْلِهِ . ويُقَمِّصُ ، أى يُحَرِّكُ . ويُقالُ قَمَّصَ البَحْرُ بالسفينة ، إذا حَرَّكَها بالمَوْج ، حتَّى كأنَّهَا بَعِيرٌ يَقْمِصُ . قال :

* يُقَمِّصُ بالبُوصِيِّ مُعْرَوْرِفٌ وَرْدُ[١] *

وإنما جَعَلَ الرَّكْضَ للوَتَرِ لأنه هو الذى يَزُجُّ بالسَّهم ويَدْفَعُه فكأنَّهُ يركُضُه[٢] ، وهذا يُشْبِهُ القَلْبَ لأنَّ الرَّكْضَ للوَتَر وقد جَعَلَهُ للسَّهم ، فهو كقولِ الآخَرِ :

* ما أَمْسَكَ الحَبْلَ حَافِرُهْ *

وما أَشْبَهَهُ . ويُمْكِنُ أن يُتْرَكَ على ظاهِرِه ، فيجعل السَّهْمَ راكِضاً من حيثُ كان راكِباً للوَتَر . والرَّكْض : تحريك الفارِس رِجلَيه على الفَرَس عند الاستحْثَاثِ ، وإذا كان كذلك فكأنَّ السهمَ هو الذى يركُضُ الوَتَرَ وإن كان الحفزُ للوَتَر .

١٨٠

وقال زَيْد الفَوَارِس[٣] :

١ — تَأَلَّى ابنُ أَوْسٍ حَلْفَةً لِيَرُدَّنِى عَلَى نِسْوَةٍ كَأَنَّهُنَّ مَفَائِدُ

(١) للحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* وهند أتى من دونها ذو غوارب *

(٢) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « يرفضه » .

(٣) شاعر جاهلى . وهو زيد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبى ، كما هو عند التبريزى . ذكره الآمدى فى المؤتلف ، ولم يرفع نسبه . وله ذكر فى يوم بزاخة ، وشهد يوم النقا نتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه وهو فارسهم ، ولهذا قيل له زيد الفوارس ، وكان يقال له أيضاً « فارس الرباب » ، ويقال له « الرديم » أيضاً ، لأنه كان إذا وقف فى الحرب ردم ناحيته ، أى سدها . انظر الخزانة (١ : ٥١٧) وبلوغ الأرب للآلوسى (٢ : ١٢٧ — ١٣٨ ، ١٨٩) .

آلَى الرَّجُل وائتَلَى وتَأَلَّى بمَعْنًى واحد . وهذه الأبنية من الأَلِيّةِ ، وهى اليمين . و« حَلْفَةً » انتَصَبَ على أنّه مَصْدَرٌ من غير لَفظِهِ . وقَوْلُهُ « لَيَرُدُّنِى » يُرْوَى بفتح اللام وضَمِّ الدَّالِ ، على أن يَكُونَ اللامُ لامَ اليمين . وذَكَرَ سيبَوَيْهِ أنّ لامَ القَسَم يَلزَمُهَا إحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة ، وقال أيضًا : وقد يُحذَفُ النُّونُ فى الشِّعْرِ . وهـذا المَوْضِـعُ بالروايَةِ الثانية جاء على ما سَوَّغَهُ . وقد جاء أعْجَبُ من هذا وأبْعَدُ فى الاستعمال ، وهى حَذْفُ اللامِ وإثبات النون . قال :

وقَتيلُ مُرّةَ أثأَرَنّ فإنهُ فِرْغٌ وإنّ أخاهُمُ لم يُقصَدِ(١)

والمَفائد : جمع المِفْأَد ، وهى المَساعير والسَّفافيدُ . والفَأْدُ فى اللغةِ : التحريك ، وقيل إنّ الفؤادَ منه اشتُقّ ، لأنه يَنبِضُ . ومعنى البيت : حَلَفَ الرجُلُ حَلْفَةً ليأْسِرَنّى ثم يَمُنّ علىّ فيَرُدُّنى على نِسْوَةٍ كأنّهُنّ مساعير ، لاحتراقهن وَجْداً بى وغَمًّا علىّ ، ففَعَلْتُ أنا به مِثْلَ ما هَمَّ به فِىّ . وقد قيل : إنّ ابن أوْسٍ كانَ مأسوراً فحَلَفَ أنه يُنَجّيه زَيْدُ الفَوَارِسِ ويَفُكُّ أَسْرَه ، ويَرُدُّه على نِساءٍ هُنّ من الوَجْدِ به بهذا المَحَلِّ ، فاقتصّ ابنُ أوْسٍ قِصَّتَه فيما كان يرجوه من جِهتِه . ثم ذَكَر أنه كان عنـد الظّنِّ به ، وأنه حَقّق أمَلَهُ . ويمكن الاستشهادُ للخبرَيْنِ والمعنَيَيْن على اختلافهما ممّا يَشْتَمِلُ عليه الأبياتُ التى بعدَهُ . وقد قيل فى الوَجْهِ الأوّل أنه أرادَ بالنِّسوةِ حُرَمَ ابنِ أوسٍ ، وأنه شبّهَهُنّ بالسفافيد لسوء أحوالِهِنّ ، وتأثير الضُّرِّ والجَهْدِ فيهن ، وعلى هـذا يكون هَجْوًا وتعييرًا لابن أوْسٍ ، وأنّ أهْلَهُ وأولادَهُ من الفَقْرِ بهذا المَحَلِّ . فأمّا من رَوَى « لِيَرُدَّنِى » فالمعنى حَلَفَ

(١) البيت لعامر بن الطفيل فى ديوانه ١٤٥ ، وهو من شواهد الخزانة (٤ : ٢١٦) . وقتيل ، يروى بالأوجه الثلاثة . وقتيل مرة هو أخوه حنظلة بن الطفيل ، كما فى شرح الديوان . ويروى « فرع » بفتح الفاء وآخره عين مهملة .

لهذا الأمر، وجوابُ القَسَم يكون محذوفاً مقدَّرًا، ويُستدَلُّ عليه بما ذَكَرَهُ.
وقال بعض المتقدِّمين: تقولُ حَلَفَ ليَفْعَلَنّ، فإذا حَذَفْتَ النون كسَرْتَ اللامَ وأعمَلْتَها إعمالَ لام كَيْ، والمَوْضِعُ موضِعُ القَسَم والمعنى مَعْناه. وأنشدَ:

إذا قُلْتُ قَدْنِى قال باللهِ حَلْفَةً   لِتُغْنِيَ عَنِّى ذا إنائِكَ أَجْمَعا[1]

وقيل مِثل تألَّى ليَرُدَّنى: أرادَ ليفعَلَ كذا. وفى القرآن: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِمْ ﴾، كأنّ الفِعْلَ دَلّ على المَصْدَر، واللام مع الاسم المجرور به فى موضِعِ الخبَر لذلك المصدَر المبتدإ، كأنه إرادتى كذا.

٢ — قَصَرْتُ له مِنْ صَدْرِ شَوْلَةَ إنّما   يُنَجِّى من الموْتِ الكريمُ المُاجِدُ

أخذ يَذْكُرُ أنه كَذَبَ نفسَه فيما حدَّثَها به، وأنه استعمَلَ البَغْيَ فنُصِرَ عليه، فقال: قَصَرْتُ عليه فَرَسِى شَوْلَةَ وأمَرْتُه، لأنّ الكريمَ يُنَجِّى نفسَه، ويُنْهِضُ حِيلَتَهُ إذا جَدّ جِدُّهُ[2] وكاد عَدوُّه يَغلِبُه وتعلو عليه يدُهُ. هذا إذا جعلت ابن أَوْسٍ هو الذى حَدَّثَ نفسَه وأكدّ طَمَعَه ويمينَهُ بأنه سَيَأْسِرُ الشاعرُ. فأمّا إذا جعلْتَ ابن أَوْسٍ أسيراً وراجيًا أنه سيفُكُّ زَيْدُ الفوارسِ إسارَهُ، ويحُلُّ عِقالَه، فالمعنى فى « قَصَرْتُ له من صَدْرِ شَوْلَةَ » أنه بيَّنَ كيف حقَّقَ رجاءه، ومن أين يوصَلُ إلى تخليصه. وفى قوله « إنما يُنَجِّى من الموتِ الكريمُ » أنه خَلّصَ نفسَه لمّا عَلّقَ الرّجاءَ به، وجعَلَ يَحلِفُ أنّ خَلاصَهُ بسَعْيِه وتعطُّفِه، لأنه بعَثَه ذلك على أن يكون عند ظَنِّه به.

٣ — دَعانِي ابنُ مَرْهُوبٍ عَلَى شَنْءِ بَيْنِنا   فَقُلْتُ له إنّ الرِّماحَ مَصايِدُ

حَوَّل كلامَهُ إلى قِصَّةٍ أُخرَى فقال: استغاثَ بى هذا الرَّجُلُ على ما بيننا من عَداوةٍ وبَغْضاء، فأجَبْتُهُ بعد أن هَوَّنْتُ عليه ما خافهُ أوّلاً، وصَغَّرْتُ فى

---

(١) من قصيدة لحريث بن عناب، فى مجالس ثعلب ٦٠٤–٦٠٧، والخزانة (٤: ٥٨٣).
(٢) فى الأصل: « جاء جده »، صوابه فى م والتيمورية.

هاجِبه ما أكبَرَهُ ثانياً ، وبَيَّنْتُ أن الرِّماحَ حبائلُ الرِّجال الكرام فى الحَرْبِ ومصايِدُهُم ، فلا تُبَالِ بالمَوْتِ إذا كانَ على وجْهٍ لا يتعَقَّبُهُ عارٌ ، ولا يصحَبُهُ هوان . وكما جَعَلَ هذا الشّاعر الرُّمْحَ آلةً فى صَيْدِ الأبطالِ ، جَعَلَ غيرُهُ الصَّيْدَ له لا به ، فقال :

وإنِّى لَمِنْ قَوْمٍ تَصِيد رِماحُهُمْ غَداةَ الصَّباحِ ذا الحُدُورةِ والحَرْدِ

وقوله « على شَنْء بَيْنِنَا » فى موضع الحال ، يقال شنِئْتُهُ أشْنَؤُهُ شَنْئًا ومَشْنَأةً وشَنَآنا .

٤ ــ وقُلتُ لَهُ كُنْ شِمَالِى فإنّنى سأكْفِيكَ إنْ ذَادَ المَنِيَّةَ ذَائِدُ

يقول : تَعَطَّفْتُ عليه وأخَذْتُ بالفضل مَعَهُ بعد استنصاره ، وإظهارِ حاجَتِهِ وإذْعَانِهِ ، ورسَمْتُ له السكَوْنَ فى الجانب الأيسرِ مِنِّى ، واثقاً بِحسنِ مُحافظتِى ، وجميل مُدَافعتِى ، ومُعْتَمِداً من جِهَتِى على أنى سأكفيه المحذورَ إن دَفَعَ الموتَ دافعٌ . والمُرَادُ : إنْ فَعَلَ أحَدٌ من الناسِ مالا يُطَاقُ من دفعِ المحتومِ فَعَلْتُهُ أنا مَعَكَ ، اعتناء بأمْرِكَ ، وإيثاراً لصيانتك ، وتحَرِّياً للمحاماةِ عليكَ . وإنَّمَا قال « كُنْ عن شِمالِى » لأنّه موضعُ المُعَانِ المَنْصُورِ ، واليمينُ مَوْضِعُ النَّاصِرِ . يقالُ : أنا على يمينك وعن يمينك ، أىْ ناصِرُكَ .

١٨١

وقال الوَقَّادُ بْنُ المُنْذِرِ (١) :

١ ــ لَقَدْ عَلِمَتْ عَوْذٌ وبُهْثَةُ أنّنى بِوَادِى حُمَامٍ لا أُحَاوِلُ مَغْنَمَا

(١) كذا فى النسخ . وعند التبريزى وابن جنى : « الرُّقاد بن المنذر بن ضرار الضبى » . قال ابن جنى : « هذا فى الأصل مصدر قد يرقد رقاداً ، ودخول اللام عليه وهو علم يمكن فيه حال الصفة كالحارث والطفيل . وهذا إنما هو على جريان المصدر صفة نحو قولهم هذا رجل رقاد ، أى راقد ، كقولهم هذا رجل عدل ، أى عادل » . والظاهر أنه شاعر جاهلى .

بُهْثَةُ من سُلَيْمٍ ، بَطْنٌ مِنهم ، والبُهْثَةُ فى اللغةِ : وَلَدُ البَغِيِّ . والبَهْثُ البِشْرُ وحُسْنُ اللِّقاء . والُحمامُ ، بضَمِّ الحاء : حُمَّى الإبل والدَّوابّ . وفى طريقةِ هذا البيت قولُ عنترة :

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَــةَ أَنَّنِى   أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِند المَغْنَمِ

المعنى : واللهِ قد عَلِمَ هاتانِ القبيلتان أنى فى هذه الوَقْعَةِ الوَاقِعَةِ بهذا الوادِى لم أشْتغِلْ باجترار المَنَافع(١) ، واحتواء المغانِم ، وإنما قَصرتُ سعيِي على طَلَبِ الثَّار ، وإدراك الأوتار .

٢ — ولكنَّ أصحابِى الَّذِينَ لَقِيتُهُمْ   تَمَادَوْا سِرَاعًا واتَّقَوْا بابن أَزْنَمَا

أرادَ بالأصحاب من لاقاهُ من الأعْدَاء . ومعنى تَمَادَوْا سِرَاعًا : تبادَرُوا مُسْرِعين وتسابَقُوا ، وهذا من العَدْوِ . ويجوز أن يَكُونَ من عَادَى بَيْنَهُما ، أى وَالَى ، فيكون المعنى تَوَالَوْا . ومن هذا قولُهم : تَعَادَى القومُ ، أى مات بعضهم فى إثْرِ البَعضِ . وقوله « واتّقَوا بابن أَزْنَمَا » ، يريدُ جَعَلُوهُ بيْنِي وبَيْنَهُم ، وهذا الرجل الذى استَجَنُّوا به كأنّه كانَ مِدْرَهَ الكتيبة . وإنّما ثَبَتَ فى وجهِ القومِ يَشْغَلُهم لِيَسْلَمَ أصحابه ، ويأخُذُوا المُهْلَةَ فى الفِرار . وفى الحديث : « كُنَّا إذا احمَرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنَا برَسُولِ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ » .

٣ — فرَكَّبْتُ فيهِ إذْ عَرَفْتُ مَكَانَهُ   بِمُنْقَطَعِ الطَّرْفاءِ لَدْنًا مُقَوَّمَا

يقول : طعنتُه لمَّا عرَفْتُ مَحَلَّهُ من أصحابِه ، وموضِعَهُ من البَلَاءِ والمُحَامَاةِ فيهم ، برمحٍ لَيِّنٍ مُثَقَّفٍ ، عند مُنقطَعِ الطَّرْفاءِ . والطَّرْفاء : شجرٌ . ومُنْقَطَعُه : المكان الذى يَخْلُو منه على اتِّصالِهِ بمنابته . وقال الأصمعِيُّ : واحِدُ الطَّرفاءِ طَرَفَةٌ

(١) فى الأصل : « باحتراز » ، صوابه فى م والتيمورية .

كَقَصَبَةٍ وقَصْبَاء . والباء من قوله « بِمُنقطَعٍ » يتعلَّقُ بقوله « رَكَّبْتُ » على ما فَسَّرْناهُ . وكان لا يمتنع أن يكون معنى قوله عَرَفْتُ مكانَهُ ، عَرَفْتُ مَوضِعَهُ ومَقَامَهُ ، لأنَّ الرئيس يَخْفِى مكانَهُ ويُخْمِل نفسَه كثيرا ، وحينئذٍ يتعلَّقُ الباء من قوله بِمنقَطَعِ الطَّرْفاء بقوله مكانَهُ ، ولكنَّ قولَهُ « واتَّقَوْا بابن أزنَمَا » يَأْبى إلَّا القَوْلَ الأوَّل .

٤ — وَلَوْ أَنَّ رُمْحِى لم يَخُنِّى انكِسَارُهُ جَعَلْتُ لَهُ صَالِحِى القَوْمِ توءَمَا[1]

نِسْبَةُ الخيانة إلى الرُّمحِ لَمَّا انكَسر كَنِسْبةِ العَجْزِ إلى الحبلِ إذا لم يَصِلْ ، من قَوْلِهِمْ حَبْلٌ عاجِزٌ . والتَّوْءمُ ، زِنَتُهُ فَوْعَلٌ ، واشتقاقه من الوَأْمِ ، والتاء فيه مبدلَةٌ من الواو ، وكأنَّ الوَلَدَ واءَمَ فى الإتيان غيرَه ، أى وافق . وكا توسَّعوا فيه هاهنا فأُخرِج إلى باب غير باب الولد والوِلادة ، تُوُسِّعَ فيه فى قوله :

قالت لنا ودَمْعُها تُؤَامُ كالدُّرِّ إذْ أَسْلَمَهُ النِّظامُ[2]

وقد أحكمتُ القولَ فيه وفى تصريفه وجَمْعِهِ فى شَرْحِ كتاب الفَصِيح . فيقول : لولا أنَّ رُمْحِى خانَنِى حين أَعْمَلْتُه فى هذا الرَّجُل فانكسر ، لجعلتُ له نَظِيرًا من أشرافِ القَومِ وزُعمائهم حتَّى يصير معه كتَوْءَمَيْنِ . وخَصَّ الصَّالحِينَ منهم لأنَّهم يتبجَّحُون بقتل الملوك والرُّؤساء . فإن قيل : لِمَ ذَمَّ الإجْرَارَ فى الطَّعْنِ وهم يحمدونَهُ حتَّى عَدَّ انكسارَ الرُّمْحِ خيانةً منه ؟ قالَ : الإجرار فِعْل الطاعن ، وهو محمودٌ ، وإنما ذَمَّ من الرُّمْحِ ضَعْفَهُ وقِلَّةَ ثباتِه فى العمل ؛ وليس ذلك من الإجْرارِ فى شىء .

(١) التبريزى : « من صالح القوم »
(٢) الرجز فى إصلاح المنطق ٣٤٥ واللسان (تأم) بدون نسبة .

٥ — ولَوْ أن فى يُمْنَى الكَتِيبَةِ شَدَّتى إذَا قَامَت العَوْجاءُ تبْعَثُ مأْتَمَا

كأنه خَفِى عليه مكانُ واتره فلم يَعلَمْ أهو فى المَيْمَنَةِ أم فى المَيْسَرَة ، فأخَذَ يتلهَّفُ على ما فاتَهُ منه . والشَّدَّةُ : الحَمْلَة ، فيقول : لو اتفقتْ حَمْلَتِى فى يُمْنَاهَا بدَلاً من يُسْرَاهَا ، لقَامَتْ أُمُّهُ وقد ثَكِلَتْهُ تَهِيجُ المَأْتَم ، وتَبْعَثُ على النَّوْحِ عليه النَّوائح ، ولكنْ ذَهابُ مَقامِه عن عِلْمِى هو الذى نَجَّاهُ منِّى . وجَعَلَها عَوْجَاءَ إمَّا على طريق السَّبِّ ، كما قال :

كَمْ عَمَّةٍ لكَ يا جَرِيرُ وخَالَةٍ فَدْعَاءُ قد حَلَبَتْ علىَّ عِشَارِى[1]

فيكون العَوَجُ فى تِلك لتفاوُت خِلْقَتِها ، وزوالها عن سَنَنِ الاستقامة ، كالفَدَعِ فى هَذِه . وإما أن يكونَ أراد أنَّها مَضْرُورةٌ مَجْهُودَةٌ مُعْوَجَّةُ الوَجْهِ ، مهزولَةٌ . وإمَّا أن يكونَ العَوْجاء لَقَبًا لهَا ، والمَأْتَم : أصْلُهُ فى الضَّمِّ والجمع .

١٨٢

وقال أيضاً :

١ — إذَا المُهْرَةُ الشَّقْرَاءُ أَرْكَبَ ظَهْرُهَا فَشَبَّ الإلٰهُ الحَرْبَ بينَ القَبَائِلِ

رُوِى « أَرْكَبَ ظَهْرُها » . ويقال أَرْكَبَ المُهْرُ ، إذا حان أن يُرْكَب واستُصْلِحَ الإسراج والإلجام . وجَعَلَ الفِعلَ للظَّهرِ على التَّوسُّع إذ كانَ موضعَ الرُّكوب ، ويكونُ أَرْكَب كما يُقالُ أجَزَّ الخضرُ ، وأَحْصَدَ الزَّرْعُ . ويُرْوَى : « أَدْرَكَ ظَهْرُها » المَعْنَى بَلَغَ حَدَّ الرُّكوبِ والانتفاع به ، وهذا كما يُقالُ أَدْرَكَ الثَّمَرُ ، إذا أمْكَنَ الانتفاعُ به . فيقولُ : إذا بَلَغَ فَرَسِى هذا الحَدَّ فَهَيَّجَ اللهُ نارَ الحرب ، وأقامَ سُوقَ التَّغَاوُر بين القبائلِ ، حتَّى أتوصَّلَ بها إلى ما كنتُ

(١) البيت للفرزدق يهجو جريراً ، فى ديوانه ٤٥١ .

أَرِيدُه وأنتَظِرُه . وارتفاعُ المُهْرَةِ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ بعد إذا ، يكونُ الظاهرُ تفسيرَهُ .

٢ ــ وَأَوْقَدَ نَاراً بينهم بِضِرَامِهَا لَهَا وَهَجٌ للمُصْطَلِي غَيْرُ طَائِلِ

هذا من جملة الدُّعاء . والكلامُ يَدُلُّ على استعجالِه بحصول الحالة المُتَمنَّاة فيقول : وأَجِّج بينهم نار الشَّرِّ بما يلهبُها حتَّى يصيرَ لها وَهَجٌ لا خَيْرَ فيه لمن يدنو منه ويَصْطَلِي به . وخَصَّ الضِّرام لأنَّهُ يُسْرِعُ ذَهابُ النّار فيه فيعلو لَهَبُها . إن قِيلَ : لِمَ كَرَّر طلبَ اتِّقاد النّار فى البيت الأوّل والثانى ؟ قلتَ : الأوّلُ أراد به نارَ الحربِ ، والثانى أراد به نار الخلافِ والشَّرِّ المُنْتَتِج عن النَّمائم والوِشايات ، حتَّى أنَّ من دَخَلَ فيهم طَالِباً لإيقاعِ صُلْحٍ وصَلاحٍ بينهم لم يَقْدِرْ على إزالَتِه ، وكان خَلِيقاً بأن يَشْقَى شقاوَتَهُمْ ، ويدخُلَ مَداخلَهُم . وقد مَرَّ القَوْلُ فى طائلٍ ، وأنّه من الطَّولِ . ويقال : ما حَلِيتُ من هذا الأمرِ بطائلٍ .

٣ ــ إِذَا حَمَلَتْنِي والسِّلاحَ مُشِيحَةٌ إلى الرَّوْعِ لَمْ أُصْبِحْ على سِلْمٍ وائِلِ

المُشِيحُ والشائحُ والشَّيِحُ واحِدٌ . قال :

* مُشِيحٌ فَوْقَ شَيْحَانٍ(١) *

يعنى رَجلاً على فرَسٍ . وقال :

* وشَايَحْتَ قَبْلَ القَوْمِ إنَّكَ شِيحُ(٢) *

فيقُولُ : إذا جَالَ تَحْتِي وعليَّ سِلاحِي قاصداً إلى الحرب فَرَسٌ جادَّةٌ ، لم أُصَالِحْ وائِلاً ، ولم أرْضَ منها إلّا بالشِّفاء والاشتفاء . والمُشَايَحَةُ : المُحاذَرَة . والمُشِيحُ : الحازِمُ .

---

(١) عجزه فى اللسان (شيح) :

* يدر كأنه كلب *

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١١٦) واللسان (شيح) . وصدره :

* بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

٤ – فِدًى لِفَتًى أَلْقَى إِلَيَّ بِرَأْسِهَا ... تِلَادِي وأَهْلِي من صَدِيقٍ وجَامِلِ

قولُه « أَلْقَى إلَيَّ برأسها » أى وَهَبَها لِي ومكَّنَني من قيادِها بنَفْسِي . وذِكْرُ الرأس كما يُقالُ : هو يَرْتَبِط كذا رَأْساً وكذا ظهراً . وذِكْرُ الإلْقاء كما يُقالُ : أَلْقَى إليه مقاليدَ الأمور . والمعنى : أَفْدِي بِمالِي القَدِيم وأَهْلِي المُصادِقِين فَتًى مكَّنَنِي من هذه المُهْرَةِ وملَّكَنِيها . وقوله « من صَدِيقٍ وجامِلٍ » دخلَ مِن علَى طريق التبيين ، فالصَّدِيقُ تفسيرُ الاهْلِ ، والجامِلُ تفسيرُ التِّلاد . وكأَنَّ هذا الرجُلَ ينتظر إمكانَ الفُرصَةِ من أعدائِه ليَنتهزها فى وقته ، ويَتَمَنَّى اهتياجَ الشَّرِّ فى النّاسِ وتداعِي القبائِل بالاوتارِ ، وتناهُضَهُم للقِتال عند تكامُلِ عُدَّته ليجدَ طريقاً إلى مكاشَفَةِ مَن يُرِيدُ مُكاشَفَتَه ، وتسبُّباً إلى إدراك ما يُرِيدُ إدراكَهُ ، فلهذا علَّقَ الدُّعاء بإركاب المُهْرِ ، وأجَّلَ الزَّمَانَ فى ابتغاء المطلوبِ . وخَصَّ الصَّدِيقَ من أقاربه وذَوِيهِ لأنَّ النَّفْسَ أَضَنُّ بهم ، كما خَصَّ الجامِلَ وهو ذكورُ الإبل وإناثها لأنَّها هى المالُ المُختارُ من الأزواج الثَّمانية . ويُروَى : « من صَدِيق وحَامِلٍ » بالحاء ، فيكون من تفسير الاهْلِ خاصَّةً ، كأنَّهُ يُرِيدُ وأَهْلِي من مُصادِقٍ لى وبَارٍّ بى . ويقال : حَمَلَهُ على كذا مَرْكَباً ، إذا أعطاهُ . كأنّه قال : كُلُّ من حَمَلَنِي على فرسٍ من أهلي فهو فداءٌ لمن حَمَلَنِي على هذا المُهْرِ ؛ لأنَّهُ يَقَعُ دونَهُ فى القَدْرِ والمكانةِ .

١٨٣

وقال شَمْعَلَةُ بنُ الأَخْضَرِ (١) :

١ – ويَوْمَ شَقِيقَةِ الحَسَنَيْنِ لاقَتْ ... بَنُو شَيْبَانَ آجالاً قِصَارا

(١) هو شمعلة بن الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار الضبى . شاعر فارس وأبوه الأخضر أحد سادات ضبة وفرسانها وشعرائها . المؤتلف ١٤١ . والأبيات التالية رواها الآمدى فى كتابه .

الشقيقةُ : رملةٌ تُشَقُّ من مَعاظِمِ الرَّمْل ، وهى فى الأصل صفةٌ فجُعِلَتْ اسمًا وأُلْحِقَ به الهاء . وقد قيل فيها إنها رَمْلةٌ بين رَمْلَتَيْن ، والحَسَنانِ قيل هُما رَمْلَتانِ ببلاد بنى تَمِيمٍ ، وقيل حَسَنٌ كَثِيبٌ ضُمَّ إليه قِطْعَةُ أَرْضٍ تقرُبُ منه فقيل حَسَنانِ ، كقولهم الكوفَتان والحيرَتان . وهذه الأبيات فى مقتل بِسْطامِ ابن قيْسٍ ، قِيلَتْ عَلَى طريق التَّشَفِّى وإظهار الشَّماتة . يُرِيدُ : لاقَى بنو شَيْبانَ يومَ اجتماعِنا بهذا المكان آجالاً غير مُمتَدَّةٍ ، متقاصِرَةً عن الغايةِ التى كانت آمالُهم تَنزِعُ إليها ، ويَمِدُّهم اغترارُهم بها .

٢ — شَكَكْنا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ صِماخَىْ كَبْشِهِم حتى استدارَا(١)

الشَّكُّ : النَّظْم . يقول : انتَظَمْنا بالرِّمَاحِ والخيْلُ مُنحرِفَةٌ للطعن صِماخَىْ رئيسِهم — يَعْنِى بِسطامًا — حتى دِيرَ به فسَقَط . وكان بِسطامٌ أغارَ فى بنى شَيبان على بنى ضَبَّةَ ، واستاقَ إِبِلَها ، وكان رجالُ الحىِّ غائبين ، فلمَّا أَحَسُّوا بذلك رَكِبُوا إِثْرَهُ ، فلما لَحِقُوه أَخذَ بِسطامٌ يُعرقِبُ الإبِلَ ، فقالوا : يا بِسطام ما هذا السَّفَهُ ، إمّا أن تكونَ لنا أو لك ! ثم أُصِيبَ صِمَاخه — والصِّماخُ هو الخَرْقُ الباطِنُ الذى يُفْضِى إلى الرَّأْسِ — وقاتِلُ بِسطامٍ هو عاصِم ابن خليفة الضَّبِّىُّ ، ويقال إنه كان مضعوفاً ، وفى ذلك اليوم رَأتْهُ أُمُّهُ يَسُنُّ سِنَانَ رُمحِهِ فقالت : ما تُرِيدُ بهذا ؟ قال : أُرِيدُ أن أَقتلَ به بِسطاما ! فقالت الأُمُّ متعجِّبَةً ومُستنكِرةً : « اُسْتُ أُمِّكَ أَضيَقُ من ذاكَ ! » . وحُكِىَ أنه أَدْرَكَ الإسلام وأَسْلَمَ ، فكان إذا وَرَدَ بابَ عمر رضىَ اللهُ عنه يقول: عاصِمُ بن

(١) بين هذا البيت وتاليه عند الآمدى :

تَرَى الشَّقْراء تَرْفُل فى سَلاها وقد صار الدِّماء لها إزارا

كما رفَلَتْ وطاف بها العَذارَى فتـــاةُ الحىِّ بُردا مستعارا

خليفة ، قاتلُ بسطامِ بنِ قيْسٍ بالباب ! مُفتخِرًا . ومعنى « استدارَ » ، أخذهُ دُوارُ الموْتِ . وقوله « شككْنا بالرِّماح » والشكُّ كان من واحدٍ منهم وبرُمْحٍ ، على عادتِهم فى نسبة الفِعل إلى القبيل وإن كان من أحدِهم ، لاشتراكِهِم فى الرِّضا به ، وتجمُّعِهِم لإيقاعِه . على ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ فعقَرُوا الناقَةَ ﴾ وما أشبهه .

٣ — فخَرَّ على الألاءةِ لَمْ يُوَسَّدْ   وقَدْ كان الدِّماءُ له خِمارا

الألاءة : شجرةٌ حسنة المَرْأى ، قبيحةُ المُختبَر ، ولهذا شُبِّه به كلُّ مَن قصُرَ مَخبَرُه عن مَنْظَرِه . قال :

فإنَّكُمُ ومَدْحَكُمُ بُجَيْرًا   أبا لَجَإٍ كما امتُدِحَ الألاءُ[1]

يَرَاهُ الناسُ أخضَرَ من بعيدٍ   وتَمنَعُه المَرارَةُ والإباءُ

ومعنى خَرَّ على الالاءةِ ، أى مالَ عليها لمَّا أُصِيبَ . والمرادُ بالبيتِ : سَقَطَ بِسطامٌ لمَّا طُعِنَ على الألاءةِ وهو غيرُ مُوَسَّدٍ ، قد غُشِّيَ رَأْسُه ووجْهُه بالدم . قوله « لم يُوَسَّد » فى موْضِع الحال ، وهو بَيانٌ لِكوْنِه مقتولاً ، وأنَّ خُرُورَهُ كان لذلك . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ خرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وما أشْبَهَهُ . والخَمَرُ والخِمَارُ : كلُّ ما غطَّاكَ .

١٨٤

وقال حُسَيْلُ بن سَجِيح[2] :

١ — لَقَدْ عَلِمَ الحىُّ المُصبَّحُ أنَّنى   غَدَاةَ لَقِينا بالشُّرَيْفِ الأحامِسَا

يقول : صَبَّحتُهُ مُشدَّدًا ومُخفَّفًا ، إذا قصدتَه للغارة صباحا . وفى المَثَل :

(١) لبشر بن أبى خازم ، كما فى اللسان (ألا) .

(٢) التبريزى : « حسيل بن سجيح الضبى » . وحسيل بالتصغير كما فى النسخ والمبهج وشرح التبريزى . وأما سجيح فضبط فى النسخ بفتح السين ، وفى المبهج وشرح التبريزى بهيئة التصغير . قال التبريزى : « كان بنو ضبة انتجعوا أرض بنى عامر بالشريف ، فطلبتهم بنو عامر ، فسار حسيل فى أخريات بنى ضبة فمنع بنى عامر من النيل منهم » .

« صَبَحْنَاهُمْ فغَدَوْا شَأْمَةً[1] »

والأَحَامِسُ لَقَبٌ لبنى عامر ، وجُمِعَ جمعَ الأسماء وإن كان صفةً فى الأصل فهو كالأَبْطَح والأَجْدَلِ وأشباههما ؛ وقد تَقَدَّمَ القولُ فيه . والشاعر يقول : تيقَّنَ الحيُّ المُغَارُ عليهم صَبَاحاً أنى غداةَ لَقِينا بَنى عامرٍ بالشُّرَيف — وهو مَوْضِعٌ بِنَجْدٍ ، وكذلك الشَّرَفُ — أَبْلَيْتُ . وهذا الكلامُ منه استشهادٌ بمن دَافَعَ عنهم . وخَبَرُ أنّ فيما بَعْدَهُ ، وهو قولُه « جَعَلْتُ لَبَانَ الجَوْنِ » . وغداةَ لَقِينا ظَرْفٌ له . فإن قيل : هَلاَّ جعلته ظَرْفاً لعَلِمَ أو لِلَقِينا ؛ قلتَ : لا يجوز أن يَكُونَ ظَرْفاً لعَلِمَ ، لأنّه إذا جُعِلَ كذلك صار أجنبياً مما دَخَلَ فى صِلةِ أنّ ، وحائلاً بينه وبين خَبَرِه ، والفَصْلُ بين الموصول وما فى صلته بالأجنبى منه غير جائز . ولا يجوز أن يكون ظَرْفاً لِلَقِينا ، لأنه مضافٌ إليه ، والمُضاف لا يجوز أن يكون عامِلاً فى المُضَاف .

٢ — جَعَلْتُ لَبَانَ الجَوْنِ للقَوْمِ غَايَةً   من الطَّعْنِ حتى آضَ أَحْمَرَ وَارِسَا[2]

جَعلتُ ها هنا تعدى إلى مفعولين لأنه بمعنى صَيَّرْتُ . واللَّبانُ : الصَّدر من الفَرَس . والوَرْسُ : صِبْغٌ أحمرُ معروف . وثَوْبٌ وَرِسٌ ووارِسٌ . وأَوْرَسَ الرِّمْثُ ، إذا اصفَرَّ ثَمَرُه ، فهو وارِسٌ ، وهو أحد الحروف التى جاءت على أفعل فهو فاعِلٌ ؛ ولا يقال مُورِسٌ . ورُبَّما[3] فُسِّرَ الوَرْسُ على الزَّعْفران . يقول : ثَبَتُّ فى وجوه القوم فصيَّرْتُ صَدْرَ فَرَسى للطَّعْنِ ومَوقِعاً ، حتى صار لسَيَلان الدّمِ عليه أحمرَ كالوَرْس .

---

(١) المثل عند الميدانى (١ : ٣٦٧) .

(٢) التبريزى : « وروى ، غابة . أى صار كالأجمة من كثرة ما انكسر من الرماح فيه » .

(٣) فى الأصل : « وإنما » صوابه فى م والتيمورية .

٣ — وأَرْهَبْتُ أُولَى القَوْمِ حَتَّى تَنَهْنَهُوا كَمَا ذُدتَ يَوْمَ الوِرْدِ هِيماً خَوامِسَا

يقول: خَوَّفْتُ أوائلَهم حتى كَفُّوا وتَنكَّسُوا، كما تَكُفُّ إبلا عِطاشاً وردَتْ لِخِمْسٍ، فازْدَحَمَتْ على الماء يَوْمَ الوُرُودِ. والهِيم: التى بها الهُيَام، وهو داء يصحبه العطش الشديدُ. جعلَ أوائلهم تتبادَر وتزدَحم حرصاً على القِتال، مبادرة الهيم وازدحامها على الماء وَرَدَتْ لِخِمْسٍ. وهذا التَّشبيه من باب التصوير، وقد تَقَدَّمَ القَوْلُ فى شَرْحِهِ. وقوله: «تَنَهْنَهُوا كما ذُدتَ» يجوز أن يكون أراد حتَّى ذُدْتُهُمْ كما ذَدت، فوضَع تَنَهْنهوا بدله ودالاًّ عليه. ويجوز أن يكون أراد: كما نَهْنَهْتَ يَوْمَ الوِرْدِ إذا ذُدتَ هِيما، فوضع ذُدتَ موضعَهُ. ويجوز أن يكون المراد: أرْهَبْتُهُم كما أرهبتَ، فوضع ذُدت مَوْضِعَ أرْهَبْتَ، وهذا أقرب.

٤ — بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَاحٍ كُعُوبُهُ وذِى رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القَوانِسَا

٥ — وَبَيْضاءَ من نَسْجِ ابْنِ دَاوُدَ نَثْرَةٍ تَخَيَّرْتُها يَوْمَ اللِّقَاءِ المَلابِسَا

الباء من قوله «بمُطَّرِدٍ» تعلَّقَ بقوله أرْهَبْتُ. فيقول: خَوَّفْتُهُم بالبُرُوزِ لهم، ومعالَنَةِ ذوى الحِشمةِ بالتَّنَكُّرِ معهم، والشَّدِّ عليهم برُمحٍ مَسَوًّى لَيِّنٍ صحيح الكُعُوبِ والأنابيب، وسيفٍ ذى ماء، قاطِعٍ نافِذٍ فى القَوَانِس، لا يَنْبُو ولا يرْتَدِع. ومعنَى الاطِّراد فى الرُّمْحِ تَقَوُّمُه وتَوافُقُ أنابيبه عند الهَزِّ. والقَوَانِس: أعْلَى البَيْضِ؛ وقَوْنَسُ الفَرَسِ منه، وهو العَظْمُ الذى تحتَهُ العُصفوران. هكذا قال أبو عبيدة. وقال الأصمعىُّ: هو والعُصْفُورَانِ سَوَاء، والقَدُّ: القَطْعُ طُولاً، فإنْ كان عَرْضاً فهو القَط. وقولُه «وبيضاء من نسجِ ابن داوُدَ» فإنَّهُ عَنَى به دِرْعاً، والمُرادُ تَعْدَادُ عُدَّتِهِ واحداً واحداً. أى أرهبتُهُمْ بدِرْعٍ نقيَّة اللَّون من الصَّدَأ داوُدِيَّةٍ واسِعَةٍ، اختَرْتُها من الملابِس يومَ

اللقاء . وإنّما قال « من نَسْجِ ابن دَاوُد » كما قال الآخر[١] :

* ونَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاءَ ذائلِ[٢] *

وللعَرَبِ عادةٌ معروفَةٌ فى إقامَةِ الأبِ مَقامَ الابنِ ، والابنِ مَقَامَ الأَبِ ، وتسميةِ الشَّىء باسم غيره إذا كان من سَبَبِه . والأعلامُ لا يدخُلها المجازُ ، ولكن تُستَعارُ إذا حَصل بها القصدُ وأُمِنَ معها اللبْسُ عند الذِّكر . وانتَصبَ الملابِس على المفعول ، لأنّ الفِعلَ بعد انحذافِ حرفِ الجرّ منه وَصلَ إليه فنصبه . وأصْلَها تخيّرتُها يومَ اللّقاء من الملابِس . ومثله قولُه تعالى : ﴿ واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِميقاتِنا ﴾ . والمُرادُ : اختار موسى من قومه ، ومثلُ هذا من الحذف لا ينقاس .

٦— وحِرْمِيَّةٍ مَنسُوبَةٍ وسَلَاجِمٍ   خِفَافٍ تَرَى عَنْ حَدِّهَا السّمّ قالِسا

يريدُ : وبقَوْسٍ مُتَّخذَة من شَجَر الحِرْم[٣] ، لها نَسَبٌ لجودَتِها وعِتْقِ نجارِها ، حتّى يُقالُ فيها : مَلَكَها فلانٌ ، وورثَها فلانٌ ، واتخذَها فلان ، وهى القَوْس التى من شأنها كَيْتَ وكَيْتَ ، وبنِصالٍ طِوَالٍ خِفافٍ تَقْلِسُ حُدُودُها السّمّ وتَرْشَحُهُ ، لأنّها أُنهِيَتْ به وشُرِّبَتْهُ . والقَلْسُ : القَىْء ، يقالُ قَلَس قَلْسا ، ثم يقال للدَّسْعَةِ تخرجُ إلى الفمِ القَلَسُ ، بتحريك اللام . والسَّلَاجِمُ : الطِّوال ، وأرادَ بها النَّبْلَ كما هِىَ ، ويقال حِرْمٌ وحَرَمٌ . وانتصَبَ قالِسًا على الحال للسّمّ ، كأنّه قال : تَرَى السّمّ ذَا قَلْسٍ ، أى مَمْجُوجا بِهِ مُلقًى من جوانِبِ حُدودِها .

---

(١) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ٦٤ واللسان (قضض ، ذيل) .

(٢) صدره : * وكل صموت نثلة تبعية *

(٣) ياقوت : الحرم : أحد الحرمين ، وهما واديان ينبتان السدر والسلم يصبان فى بطن الليث فى أرض اليمن .

٧ ـ فَمَا زِلْتُ حَتَّى جَنَّنِي اللَّيْلُ عَنْهُمُ أُطَـرِّفُ عَنِّى فَارِساً ثم فارِساً

يُرْوَى « أطرِّف فُرْسَانًا وأُلْحِقُ فارِسا » . يقول : لم أزَلْ بياض ذلك اليوم أدفعُ فى جوانبِ مَجالِى وأطْرَافِ أرْضِى ، الفارسَ بعد الفارسِ ، إلى أن تَغَشَّانى الظَّلامُ فَحالَ بينى وبينهم ، وسترَ كلاًّ مِنَّا عَنْ صَاحِبِه . ومَعْنَى أطرِّفُ أجْعَلُهُ منِّى فى طرَف ، وموضِعُهُ من الإعْرَاب نَصْبٌ على أن يكون خَبَرَ ما زال . وأراد بقولهِ « فَارِساً ثم فارساً » المداومةَ والاتِّصال . أى لم أَفْتُرْ عَنْ دِفاعِهِمْ وقتًا واحِداً بعد وَاحِدٍ . وهذا كما يُقال : جاءنى بنو تميم واحداً فواحداً ، أى تَوَالَوْا أفْرَاداً . ومن رَوَى « أطَرِّفُ فُرْسَانًا وأُلْحِقُ فارِساً » فالمعنى أسُوقُ فُرسانًا وأذُودهُمْ عَنِّى ، وقد أُلْحِقَ فى الطَّرْدِ الواحد بعدَ الواحد فأصيبُه .

٨ ـ ولا يَحْمَدُ القَوْمُ الـكِرَامُ أخاهُمُ الْـمَتِيدَ السِّلاحِ عَنْهُمُ أَنْ يُمارِسَا

هذا الـكلاَمُ تَبَرُّؤٌ من التحَمُّد بمـا فَعَلَ إلى الناس ، وتَرْكٌ للتَّبَجُّح بالدِّفاع حينَ دافع ، وإظهـارٌ لأنَّ مَذْهَبَ الـكرام ذلك وأنّ الواجِب فى اعتقادِهم ألَّا يُحْمَدَ الواحدُ منهم إذا قاتلَ دُونَهم ، أو مارسَ الشِّدَّةَ فيهم ولَهُمْ ، مَتَى كان تامَّ السِّلاحِ ، مُزَاحَ العِلَلِ ، إذْ كان ذلك دَأْبَهُم ودينَهُمْ ، وإذْ كان سبيلُه فيما يأتيه كمن يُؤَدِّى الفَرضَ الذى لا يحتمل التَّضجيع ، والحَتْمَ الذى لا يَسُوغُ التجوُّز فيه والتأويلُ . وقوله « عَنْهُم » يَتَعَلَّق بالعتِيدِ السِلَاح ، ولا يجوز أن يَتعلَّق بيمارِس ، لأنَّه لو كان كذلك لـكانَ فى صِلَةِ أَنْ ، فلم يَجُزْ تَقَدُّمُهُ عليه . ويكونُ المعنى : أخاهُمُ المُعِدَّ السِّلَاح عنهم ، النائِبَ مَنابَهُمْ . ومعنى أخاهُمْ الواحِد منهم ، كما يقالُ : يا أخا بَكْرٍ أو تَميمٍ .

١٨٥

وقال مُحْرِزُ بن المُكَعْبِرِ(١) :

١ – نَجَّى ابنَ نُعْمَانَ عَوْفًا من أَسِنَّتِنَا إيغَالُهُ الرَّكْضَ لمَّا شَالَتِ الْجِذَمِ

قال الخليلُ : الإيغالُ : الإمعانُ في السَّيْرِ مع دُخُولٍ فيما بين جبالٍ أو في أرضِ العَدُوِّ . وقال غيره : هو الإسراعُ في إبْعَادٍ . يقولُ : أنقَذَ هذا الرَّجُلَ من رماحِنا استعجالُهُ فرسَهُ ، واستحثاثُه بالرَّكْضِ إيَّاهُ ، لَمَّا رُفِعَتْ بَقَايَا السَّوْط تُخَوَّفُ بها الخَيْلُ ، ويُسْتَدَرُّ منها العَدْوُ . وهذه إشارةٌ إلى وقت الانهزام وجِدِّ الطَّالبين في اللَّحاقِ . والرَّكْضُ ينتصبُ على أنَّه مفعولٌ من الإيغال ، كَمَا يُقَالُ أَبْعَدَ السَّيْرَ ، وأَسْرَعَ السَّيْرَ . ويجوز أن يكون مصدراً موضِعِ الحال ، كأنَّه قال إيغَالُه راكِضًا . وأَدْخِلَ الألف واللام على حَدِّ دخولِهما في قوله :

* فأَرْسَلَهَا العِرَاكَ(٢) *

و : * أَوْرَدَهَا التَّقريبَ والشَّدَّ مَنهَلا *

وما أشبهه . وجِذْمُ كلِّ شيء : أَصْلُه ؛ يقالُ جذَمْتُ الشَّيء ، إذا قطعتَهُ . والجِذْمَةُ : القِطْعةُ من الحَبْل وغيرِهِ .

---

(١) هو محرز بن المكعبر الضبي ، من ولد بكر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن سعد ابن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر . قال الأنبارى : « ولم يلحق يوم الكلاب » وفي العقد في يوم الكلاب الثاني : « وقال محرز بن المكعبر الضبي ولم يشهدها » . والمكعبر ضبط في أصول شرح المفضليات بكسر الباء ، ويؤيده ما في اللسان : ويقال كعبره بالسيف ، أي قطعه . ومنه سمي المكعبر الضبي ، لأنه ضرب قوماً بالسيف » . وأجاز التبريزى تبعاً لابن جني فتح الباء وكسرها منه . وانظر المفضلية رقم ٦٠ .

(٢) قطعة من بيت للبيد في ديوانه ١٢١ واللسان والمقاييس (عرك) . وهو بتمامه :

فأوردها العراك ولم يذدها ولم يشفق على نغص الدخال

٢ — حتَّى أَتَى عَلَمَ الدَّهْنَا يُوَاعِسُهُ وَاللهُ يَعْلَمُ بالصَّمَّانِ ما جَشِمُوا

الدَّهْنَا ببلاد تَميم . وقال الخليلُ : الدَّهْنَا موضعُ رَمْلٍ كُلُّه ، والنَّسَبُ إليه دَهنَاوِيٌّ . ومعنَى يُواعِسُه يَسيرُ فى وعْسَائِه ، وهى الرَّملةُ اللَّيِّنَةُ ، والسَّير فيها يَصْعُب . ويقالُ : وَعَسْتُ المكانَ وَعسًا ، إذا وَطِئْتَهُ وطْأً شديدًا ، ويُسَمَّى الأَثَر الوَعْسَ . وسُمِّىَ ضربٌ مِن سَيْرِ الإبل المُوَاعَسَةَ من هذا . وحقيقةُ قَوْله « يُوَاعِسُهُ » يُوَاعِسُ إليه أو فيه ، أى يَمُدُّ سَيْرَهُ إليه وفيه . والصَّمَّانُ : الأرضُ الصُّلْبَةُ ، واحِدَتُهُ صَمَّانَةٌ ، وموضِعُ ما من قَوْلِهِ ما جَشِمُوا نَصْبٌ على المفعول مِن جَشِموا ، فيقول : أوغَلَ الرَّكْضَ حتّى بَلَغَ جِبالَ الدَّهْنَا ، مُوَاعِسًا فى رَمْلِهِ ، واللهُ يَعْلَمُ أىّ شىء تَكَلَّفَهُ هو وأصحابُه من السَّير فى الصَّمَّان . وموضِعُ يواعِسُهُ نَصْبٌ على الحال ، ويجوز أن يكون مَوْضِعُ ما مِنْ قَوْلِهِ ما جَشِمُوا نصْبًا على المفعول من فِعْلٍ دَلَّ عليه ، واللهُ أعْلَمُ . ومثلُهُ فى القرآن : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِه[1] ﴾ . وقد تقَدَّم القول فيه .

٣ — حتَّى انتَهَوْا لِمِياهِ الجَوْفِ ظاهِرَةً مَا لَمْ تَسِرْ قَبْلَهُمْ عَادٌ ولا إِرَمُ[2]

الجَوْفُ وادٍ . وظاهِرَةً انتَصَبَ على أنّه ظَرْفٌ ، ويقال : وَرَدَ الماءَ ظاهِرَةً ، إذ وَرَدَ نِصفَ النَّهار ؛ واشتقاقُه من الظَّهيرة . وأظْهَرْنَا : صِرنا فى الظَّهيرة : وقد جُعِل اسْمًا لهذا الظِّمْء . وقوله « ما لَمْ يَسِرْ » أراد سيرًا لم يَسِرْهُ قَبْلَهُمْ أحدٌ ، أو انتهاءً لم يقدر عليه إنسانٌ . وعلى هذا يكونُ ما فى موضع

(١) هذا ما فى م والتيمورية ، وهو الوجه . انظر ما سبق فى ص ٤٤١ س ١٢ . وبدلها فى الأصل : « هو أعلم بمن يضل عن سبيله » .

(٢) وضعت نقطتان فوق الحرف الأول من « يسر » ونقطتان تحته ليقرأ بالتاء والياء ، وذلك فى نسخة الأصل . وأما فى م والتيمورية والتبريزى فالرواية « تسر » بالتاء . التبريزى : « أبو هلال : عاد وإرم واحد فجعلهما اثنين . وظاهرة ، أى مظهرة . ويجوز أن يجعل ظاهرة حالا للمياه » .

النَّصب على أنه مصدرٌ مما دَلّ عليه حتَّى انتَهَوْا ، وتلخيص الكلام : حتَّى ساروا إلى مياهِ هذا الوادِى نِصفَ النَّهارِ سَيْرًا لم يَسِرْ مِثْلَهُ واحِدَةٌ من هاتين الأمَتَين ، والمعنى أنَّهُم حَمَلَهم الرُّعْبُ الذى تَدَاخلَهم ، والاجتهادُ فى الخلاص من الهزيمة المستولية عليهم ، على أن يقطعوا ما بين المكانَيْن المذكورين فى يَوْمٍ وليلةٍ ، لأنَّهم كانوا فى اليوم الأوّل بالصَّمان ، وفى اليَوْم الثانى بالدَّهْنَا ، وذلك شاقٌّ مُسْتَبْعَدٌ وُقُوعُه .

١٨٦

وقال عامرُ بن شَقِيق(١) :

١ — فإنَّكِ لو رَأيتِ ولَنْ تَرَيه أكفَّ القَوْمِ تخرقُ بالقَنِينَا(٢)

يخاطِبُ امرأةً مُعَظِّمًا للشأن الذى مُنُوا به ، ومُهَوِّلاً للأمرِ الذى دُفِعُوا إليه ، فيقول : لو رأيتِ ولا أراكِ الله مِثْلَه مَشهدَ القومِ وأكُفُّهُم تُخْرَقُ بالرِّماح لرَأيتِ أمرًا هائلاً . وجوابُ لو محذوفٌ ، كما يقال : لو رأيتَ زيدًا وفى يده السَّيف . وقد مرَّ القولُ فى أنّ تبقيَةَ الإبْهام فى مثل هذا المكان بترك الجواب أبلغ فى الإفهام . وقوله « ولَنْ تَرَيْهِ » دعاء ، وأكثرُ ما يقعُ الدُّعاء يقع بلا ، وبِلَنْ يجىء قليلاً ، تقولُ : لن يُبارِكَ اللهُ فى كذا وتريدُ الدعاء ، كما تقولُ لا بارَكَ الله . وفسَّرَ قُطرُبٌ قولَ الله تعالى : ﴿ رَبِّ بما أنْعَمْتَ عَلَىَّ فلَنْ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « عامر بن شقيق الضبى » . التبريزى : « عامر بن شقيق ، من بنى كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك » .

(٢) روى التبريزى قبل هذا البيت :

أَلاَ حَلَّتْ هنيدةُ بطنَ قَوٍّ بأقواعِ المَصامة فالعُيُونا

وقال : « قو : موضع . وأقواع : جمع قاع . والمصامة : موضع » . ونبه التبريزى على أنه يروى : « تخرق بالقلنا » ، وهو جمع قلة .

أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ على أنّهُ دعاء . ويجوز أن يكون قوله « وأَنْ تَرَيْنِهِ » إخبارًا بأنها وقد فاتَها رؤية ذلك فيما مضى لا ترى مثله في المستأنَفِ فظاعةً وشَناعةً ، وأنّ الخَطْبَ بلَغَ حَدًّا خَرَجَ به عن المعتاد المستجاز . وقوله « تُخْرَقُ بالقُنينا » أي تُثْقَب ، ومنه خَرَقْتُ الأرضَ واخترقتُها ، وريحٌ خَرِيقٌ . ويُروَى : « تَخْرُقُ » بفتح التاء وضمّ الراء ، وله وجهان : أحدُهما أن يكون من الخُرْقِ : ضدّ الرِّفق ، كأنّ الأكُفَّ كانت تَخْرُقُ في الطّعْن ولا ترْفُقُ ، لشدّة الأمر ؛ وهذا حَسَنٌ . والثاني : أن يكون من الخَرْقِ ، كأنها تُشَقِّقُ بالطعنِ مُلتئِم الأحوالِ ومتواصِلَها وتُمَزِّقُها ، كما قال : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ . وهذا الوجه أغرَبُ ويكون المفعولُ محذوفًا ، لأنّ الكلام يدُلّ عليه . ومن روى « تُخْرَقُ » فالمعنى تُنْظَمُ . وإن جعلتَ الفِعْل للفاعل فروَيتَ « تَخْرُقُ » جاز أيضًا على أن يكون المفعولُ محذوفًا ، والمرادُ كأنها تَنْظِمُ مطعونين في شَدّةٍ وحَمْلَةٍ . والقُنين : جمعٌ سالمٌ ، وهو نادرٌ ، وأكثر ما يجىء مِثلُه في المنقوص كظُبَةٍ وظُبِين ، وثُبَةٍ وثُبين ، كأنّه يجعل هذا البناء في جَمْعِه جَبْرًا له[1] مما نُقِصَ منه . ويجىء أيضًا كثيرًا في أسماء الدّواهي ، كالذَّرَبين ، والأَقْوَرِين ، والفِتَكْرِين[2] ؛ كأنه بلَغَ بها رتبةَ الناطقين تهويلاً . وقد حُكِيَ كسر القاف من القِنين وحينئذ يكونُ كعَصًا وعِصِيّ ، ويكونُ وَزْنُه فُعُولاً والنونُ بدلٌ من لام الفِعْل . ويُحمَلُ على هذا الوجه سِنِينَ في جَمْع سَنَةٍ .

٢ — بذِى فِرْقَيْن يومَ بَنُو حُبَيْبٍ نُيُوبَهُمُ علينا يَحْرُقُونا

قوله « بذى فرقين » يجوز أن يتعلّق بقوله لو رأيتِ ، ويجوز أن يتعلق بقوله تُخْرَقُ بالقُنين ، كذلك قولُه « يومَ بنو حُبَيْبٍ » يجوز أن يكون ظرفًا

---

(١) م والتيمورية : « جبرانا له » . (٢) الفتكرين ، بكسر الفاء وضمها .

لـكلّ واحدٍ من الفِعلين لأنهما ظَرْفان : أحدهما للمكان والآخر للزمان . وأضاف اليومَ إلى الـكلمة التى بعدَهُ لأنّ الأزمنة تضافُ إلى الجُمَل من الابتداء والخبر ، والفِعل والفاعل ، تبييناً لها . ويقال : هو يَحرِقُ أنيابَه ، إذا حَكَّ بعضَها ببعضٍ تهديداً . ويقالُ أيضاً : هو يَحرُقُ عليه الأُرَّم ، ويعلُكُ علىَّ الأرّم ، أى يصرِفُ بأنيابه تغيُّظا . وحَـكَى فيه الازّم بالزاء أيضاً . والأزْمُ : العضُّ . ويقالُ حرَقَه بالمِبرَدِ ، إذا بَرَدَه . وحَـكَى أبو حاتم : فُلانٌ يَحرُق نابُه علىَّ ، برفع الناب . قال : لأنه هو الذى يَحرُقُ . وبيتُ زهير[1] يَشهَدُ لذلك . وأنشد :

أَبَى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يَحرِقُ نابُهُ عليه فأَفضَى والسُّيوفُ مَعاقِلُه

٣ — كَفَاكِ النَّأْىُ مِمَّنْ لَمْ تَرَيْهِ ورَجَّيْتِ العَــــواقِبَ لِلبَنِينا

كأنه وَكَلَها إلى الاعتبار بعد ما فاتَها من مشاهدة الحال ، ودَعاها إلى الاستدلال ، والاكتفاء فيه بمـا آل إليه أمرُها فى أعِزَّتِه مع غَيبَتِهم عنها . فيقول : أغناكِ بُعْدُكِ إذا نَظَرْتِ واعتَبرتِ عن الاستكشاف والسؤال ، وإنْ تَلهَّفْتِ لمـا تُدرِكيه من مساقِطِهم ، ولم تُشارِفيه من مصارِعهم ، وحالُكِ أنَّكِ عَلَّقْتِ رَجاءكِ بالأولادِ ، وبأن يُحْسِنَ اللهُ العُقْبَى لهم إذا بلغوا طَلَبَ الأوتار ، ورأَوا السعىَ فى دَرَكِ الثار ، وقَطَعتِ طمعَكِ فى الآباء ومَلَـكَكِ اليأسُ منهم . وقولهُ « ورَجَّيْتِ » قد مَعَهُ مُضمرةٌ ، لأنّ المـاضى بتقدير قد معه يقع موقع الحال . وضَعَّفَ عينَه للتـكثير ، كأنها كانت تـكرِّر الرّجاء وتُجَدِّدُه مع كلّ حادثةٍ ، وعند كل مُهِمّة .

---

(١) م : « وبيت النابغة » . وليس كذلك . والبيت الثانى فى ديوان زهير ١٤٣ .

١٨٧

وقال أبو ثُمَامَةَ بن عارِمٍ[1] :

١ — رَدَدْتُ لِضَبَّةَ أمْوَاهَها وكادَتْ بِلادُهُمُ تُسْتَلَبْ

يقول : اعتَنَيتُ بضَبّةَ ، فأعَنْتُها على مُجاذِبِها ومُنازِعِها، وحَفِظْتُ لها وعليها مياهَها وبلادَها ، ومراعِيَها ومَرادَها ، بعد أن شارَفوا التسليم والاستسلام ، والمُلايَنَةَ والانقياد ، حتى كادوا يُغلَبون عليها ، ويُمنَعُون من حقوقِهم فيها ، لما يَظهرُ على صفحات أحوالهم من التخاذُلِ ، ويَبنُون أمورَهم عليه في التهاوُنِ والتَّواكُل .

٢ — بِكَرِّ المَطِيِّ وإنْعَابِهِ وبالكُورِ أرْكَبُهُ والقَتَبْ

الباء من قوله « بكَرِّ » تَعلَّقَ برَدَدتُ . ويُرْوَى : « بكَرِّى المَطِيَّ » ؛ وساغ الوجهان لأنّ المصدر يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل . ومُرادُه أن يُبَيِّن كَيفَ كانت نيابَتُهُ عنهم ، ومُدافعته دُونهم ، وكيفَ جاذَبَ أعداءَهُم وجادَلَ عنهم ، حتى تَوَصَّلَ إلى قمعهم ، ونزع أيديهم عمَّا أنشَبُوهَا فيه من أملاكهم ، وردِّهم دونَ ما سَوَّغُوهُ من اهتضامهم . والقَتَبُ أخَفُّ من الكُور . وإنّما ذكَر هذه المراكب ليُبَيِّنَ تَطاوُلَ الأَمَدِ بينه وبينهم ، وتَحَمُّلَ أنواعِ المشاقِّ اللاحقة في نزاعهم ، وليدُلَّ على كثرة مناقلاتهم[2] ، واختلافِ التَّرَدُّدِ في مجالسهم وأماكنِهِمْ .

---

(١) التبريزى : « أبو ثمامة بن عازب الضبى » . ثم قال : « وقيل ابن عارم ، وقيل ابن غارب » .

(٢) هذا ما في م . وفي الأصل : « ملاقاتهم » . وفي التيمورية : « مناولاتهم » وهذه محرفة عما في م .

٣ — أُخَاصِمُهُمْ مَرَّةً قائِمًا وأَجْثُو إذا ما جَثَوْا للرُّكَبْ

انتصبَ قائمًا على الحال ؛ ونبَّهَ بما أوْرَدَهُ على امتداد المجاذبَةِ ، وتكرُّرِ المُحاجَّةِ ، وعلى اختلاف الهيئات وتغيُّرِ الأوقات ، وكلُّ ذلك بحسب اشتداد سَوْرَة الخصام ولينها ؛ وأنَّهُ تَكَفَّلَ بالأمر معهم تَكَفُّلَ من تَعَيَّنَ عليه الفَرضُ في مُرَادَّتِهِمْ ، فابتذَلَ نفسَهُ معهم ، ووطَّنها على مُصابرَتهم[1] ، فإن قاموا قامَ معهم ، وإن بركوا باراهمُ في بُرُوكِهِمْ ، لئلاَّ يكونَ مُخِلاًّ بِمِعْرَضٍ يخرجون فيه ، أو تاركاً لشيء من نَصَبِهم . ويقال : جَثَا لرُكْبَتِهِ ، إذا سَقَطَ .

٤ — وإنْ مَنْطِقٌ زَلَّ عن صَاحِبِي تَعَقَّبْتُ آخَرَ ذا مُعْتَقَبْ[2]

فَصَلَ بَيْنَ إنْ والفِعْل بقوله « مَنْطِقٌ » ، ولو ظَهَرَ تأثيرهُ بالجزم لم يَجُزْ ذلك فيه . وارتفعَ بِفِعْلٍ هذا الظاهر تفسيرُهُ . فإن قيل : فإنْ في أيِّ الفعلَيْنِ عَمِل ؟ وهل تَقُولُ إنَّهُ عَمِل فيهما جميعاً ؟ قُلْتَ : أمَّا عمله فيهما فغير سائغ ، لأنَّ أداةً واحدةً لا تَجْزِمُ شرطين في حالةٍ واحدةٍ ، لكنَّ الفِعْل المُضْمَرَ لما لم يَظهر صار في حُكم ما لم يُعتدَّ به ، وإن كان الاسمُ يرتفع به ، حتى صار التقدير : وإن زَلَّ مَنطِقٌ زَلَّ عن صاحبي . وقد رُوِي « تعقَّبْتُ » و « تَعَرْقَبْتُ » ، ومعنى تعقَّبْتُ تتبَّعْتُ وطَلَبْتُ عَقْبَه ؛ ومثله اعتقَبْتُ . وقيل المُعتقَبُ أَخْذُ عُقْبَةِ الشيء ، وهي آخِرُهُ . ومعنى تَعرقَبْتُ : عَدَلْتُ عنه وأخَذْتُ في غيرِه . ويقال تعرقبتُ الفَرَسَ ، إذا رَكِبْتَها من خَلْفِها . وعراقيبُ الأمور : التباساتُها وطَلَبُ الحِيَل والحُجَج فيها ، وأنشدْتُ :

---

(١) في الأصل والتيمورية : « مصايرهم » ، صوابه في م .

(٢) التبريزي : « ومن روى : معتتب ، جعله من العتبة وهي الدرجة ، أي آخذ في طريق فيه درج أعتتب فيها حتى أغلب . أي آخذ بحجة بعد حجة ، كما يرتقي في الدرجة عتبة بعد عتبة » .

فلا يَغْدَنْكَ عُرْقوبٌ للأيٍ إذا لم يُعْطِكَ النَّصَفَ الخَصِيمُ[١]

والمعنى : لا يَغْدَنْكَ حِيلَةٌ لالتواء خَصْمٍ عليك . وقال آخرُ :

* إذا حَبَا قُفٌّ له تَعَرْقَبَا *

أى عَدَلَ عنه فالتوى . ومِثْلُ تعقبتُ فى إفادَتِه طَلَبْتُ عَقْبَهُ وعُقباهُ : تفقدْتُ الشيءَ وتَعَهَّدْتُه ؛ لأن المعنى طلبتُ فَقْدَهُ وعَهْدَه ، أى نَظَرْتُ هل فقدتُه وهل بَقِيَ على عَهدِه . ومعنى البيت : إن بَدَرَتْ من واحدٍ منهم كلمةٌ لم يوفَّقْ فيها للصواب ، أو خِفْتُ عَوْدَها بغيرِ صَلاحٍ عَدَلْتُ عنها وطَلَبْتُ مكانَها أُخرى ذاتَ مُتتبَّعٍ ، فأَعقَبْتُها بها .

٥ — أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوَةٍ فكيفَ الفِرارُ إذا ما اقترَبْ

قولُه فى « رِخْوَةٍ » أى تَرَاخِيه . وهو رِخْوٌ ، أى مُسترْخٍ . كأنه أرادَ : أهرُبُ منه ما لم يتشدَّدْ . ونَبَّه بهذا الكلام على أنه يَتفادَى من الشَّرِّ ما أمكن ، وأنه لا يَستعمِلُ البَغْيَ ولا يبتدئُ الخَصْمَ ، فإن جاء منه ما لا مَعدِلَ عن اقتحامِه ورُكوب البلوَى فيه ، ولا مُعَوَّلَ إلا على الصّبرِ على شدائدِهِ وتَوَسُّط الأَذَى العارض له خاصَّةً[٢] مُتلقِّيًا لمكارِهِه بِمُدّته ، مُجاذِبًا للمعازِعِين بأقصَى ما فى طوقِه وقوّتِه ، إلى أن يتحصَّلَ له الفَلَجُ والظَّفَرُ ، أو يَتحصَّنَ عن لَوْمِ اللائمين بما يُقيمُه من العُذْرِ فى المُجاهدةِ والتثبُّت . ومثلُه قول هُدْبَةَ ابن خَشْرَم :

ولا أَتَمَنَّى الشَّرَّ والشَّرُّ تارِكى ولكنْ متى أُحْمَل على الشَّرِّ أَرْكَبِ

---

(١) رواية اللسان (عرقب) : « لوأى » بدل « للأى »

(٢) فى جميع النسخ : « خاصة » ، تحريف .

١٨٨

وقَالَ أَبُو ثُمامَةَ أَيْضًا :

١ ــ قُلتُ لمُحْرِزٍ لما التَقَيْنا تَنَكَّبْ لا يُقطِّرْكَ الزِّحَامُ

نَكَّبَ وتنَكَّبَ بمعنًى واحدٍ . ويقول هو أنكبُ عن الحقِّ ، ومنه الرِّيح النَّكْباء ، لعُدولها عن مهابِّ الرِّياح الأربع . وهذا الكلام تهكُّمٌ واستهزاء ، كأنَّه يرميه بأنه لم يُباشِر الشَّدائد ، ولم يُدفَع إلى مضايِق المجامع . فيقول : انحرِفْ مُتماسِكاً لا يُسقِطْك تزاحمُ الناس . والتَّقطير : الإلقاء على أحد القُطْرين ، وهما الجانبان ، وكأنَّه يَخاف عليه أن يُداس بالقوائم ، كما يُخاف على الصِّبيان والنِّساء ، لقلّة غَنائه ، وضَعْف ثباته . وهذا فى بابه أبْلَغ ما مَرَّ بى . وفى طريقته قول حَجْلِ بن نَضْلَةَ :

جاء شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ إنّ بنى عَمِّك فيهِمْ رِمَاحْ

وقول سَبْرَةَ بن عَمْرٍو الفَقْعَسِىّ :

لاَ شىءَ يَعْدِلُهَا ولكنْ دُونَها خَرْطُ القَتادِ تَهاب شوكَتَها اليَدُ

وفى هذا تعريضٌ أيضًا . ومن التَّعريض ما أنشدتُه عن اليَزِيدى [قال(١)] : أنشدنى الأصمعىُّ :

فَدَعْ شَوْكَ السَّيَال فلا تَطَأْهُ وخُضْ إنْ خُضْتَ ماء غير غَمْرِ

وقول الآخر :

فأرْضَكَ أرْضَكَ إنْ تأتِنا تَنَمْ نَوْمةً ليس فيها حُلُمْ

(١) هذه من م والتيمورية .

٢ ـ أَتَسْأَلُ السَّوِيَّةَ وَسْطَ زَيْدٍ ... أَلَا إِنَّ السَّوِيَّةَ أَنْ تُضَامُوا

يُخاطِبُهُ مُقَرِّرًا ومتوعِّدًا . والتقرير بألف الاستفهام ولا حرفَ نفيٍ مَعَهُ يكون فيما لا يُثْبَتُ ولا يُسْتَجَازُ كَوْنُهُ . والسَّوِيَّةُ : الإِنْصَافُ ؛ وهى من الاستِوَاءِ كالجَرِيعةِ والدَّنِيَّةِ والخطيئة . وزَيْدٌ : قَبِيلةُ المُخاطَب . فيقول على وجه الإنكار والهُزْء : أتَسْأَلُ إنصافَكَ وأنت وسطَ رَهطِك وفيما بين عشيرتك ومحلِّ عِزِّكَ . ثم قال : إنَّ من السَّوِيَّةِ اهتضامَكُمْ وضَيْمَكُم ، وهذا من باب إبدالِ الشىء من الشَّىء . كقول الآخر[1] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[2] *

والضَّرْبُ لا يكون تحيَّةً . والمعنى : أنَّهم يُعْطَون بَدَلَ الإنصافِ الظُّلْمَ ، لأنَّهم لا يَستحقُّون غيرَهُ ، ولأنَّ النَّصَفَةَ لا تُصْلِحُهُم ولا توافِقُهُم .

٣ ـ فَجَارُكَ عند بَيْتِكَ لَحْمُ ظَبْيٍ ... وجَارِى عِنْدَ بَيْتِى لا يُرَامُ

يَصِفُهُم بسُوءِ الوفاء ، وقلَّة المحافظة على عَقْدِ الجِوار ، فيقول : جارُكَ كالصَّيْدِ لمن يَطْلُبُهُ ، وبعَرَضِ الأكل والاستباحة لمن يريدُهُ ، وهذا وهو فى فنائكَ ، وغيرُ مُفَارِقٍ لدارِكَ ، لضَعْفِ حِشمتك[3] وسقوطِ هِمَّتِكَ ، واستخفاف النّاس لِمَدْرِكَ ووزنِكَ ؛ وجَارِى لا يُطْلَبُ ولا يُطْمَعُ فيه لتَحَصُّنِ مكانِهِ فى فِنائى ، وتعزُّزِهِ بى ، ما دَامَ مُتَمَسِّكاً بحَبْلِى ، أو مُعْتَصِماً بحِلْفِى . وإنما قال ذلك لأنَّ النِّزاع بينهما كان بسبب جارٍ . وإضافَةَ اللَّحْمِ إلى الظَّبْى فى نهاية الموافقة للمعنى الذى يَقْصِدُهُ ، والغَرَضِ الذى كان يَرْمِيه . وقد جاء اللَّحْمُ غَيْرَ مُضَافٍ إلى اسم الصَّيد فى الكناية عن الذُّلِّ والاهتضام . على هذا قَوْلُهُم : هُوَ

(١) هو عمر بن معديكرب الزبيدى . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « جسمك » .

لَحْمٌ مُوَضَّعٌ ، وهو لَحْمٌ على وَضَمٍ . وقد استُعْمِل الشَّحْمُ فى مثل ذلك ، على هذا قولُه :

* لِمَنْ كُنْتُ فيهِ شَحْمَهُ وأطايبُهْ *

وقولُ الآخر :

فَلَا تَحْسَبَنِّى يا ابْنَ أَزْنَمَ شَحْمَةً تَزَرَّدَهَا طَاهِى شِوَاءٍ مُلَهْوَجِ

وقد قال آخر سالكاً هذه الطريقة فى الكناية :

* ولَسْتُ خَلَاةً لِمَنْ أَوْعَدَنْ(١) *

وقالوا فى الذَّلِيلِ : هو قَفْعٌ ، وهو قَفْعٌ بِقَرْقَرٍ ، وهو بَيْضَةُ البَلَدِ .

١٨٩

وقال عبدُ الله بن عَنَمَةَ(٢)

١ — أَبْلِغْ بَنِى الحارثِ المَرْجُوَّ نَصْرُهُمْ والدَّهْرُ يُحْدِثُ بَعْدَ المِرَّةِ الحَالَا

قَوْلُهُ « والدَّهْرُ يُحْدِثُ » اعتِرَاضٌ حَصَلَ بينَ أَبْلِغْ بنى الحرثِ وبين مفعولِه الثانى : وهو قَوْلُه ، « إِنَّا تَرَكْنا فَلَمْ نَأْخُذْ بِهِ بَدَلَا » .

ومِثْلُهُ مِمَّا قد دَخَلَ الاعتِراضُ بينَهُ وبين المفعول قول أبى النَّجْمِ :

وبُدِّلَتْ والدَّهْـــرُ ذو تبَدُّلِ هَيْفًا دَبُوراً بالصَّبَا والشَّمْأَلِ

وفى القرآن قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بينَكُمْ وَبَيْنَهُ

(١) للأعشى فى ديوانه ص ٢٢ . وصدره :

* وحولى بكر وأشياعها *

(٢) التبريزى : « عبد الله بن عنمة الضبى ، وهو من بنى غيظ بن السيد » . وعبد الله هذا من شعراء المفضليات ، له المفضلية ١١٤ ، ١١٥ . وهو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر . هكذا ساق البغدادى نسبه فى الخزانة (٣ : ٥٨٠) ولعل فيما ذكر البغدادى خطأ أو نقصاً . وهو شاعر إسلامى مخضرم شهد القادسية . انظر الإصابة ٦٣٣٤ .

مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً ﴾ ، لأنَّ قولَهُ يا ليتني معفولُ لِيَقُولَنَّ ، وكأنْ لم يَكُن اعتِرَاضٌ . وكذلك الدَّهْرُ ذو تبدُّلٍ اعتِراضٌ .

وقولُه « المَرْجُوَّ نَصْرُهُمْ » فيه تَغْيِيرٌ وتَقْرِيعٌ كما أنه[1] في قولِهِ « والدهرُ يُحْدِثُ بعد المِرَّةِ الحالَا » هُزُوٌ وسُخْرِيٌّ. وهؤلاء القوم كانوا تركوا عشيرتَهم وانتقلوا عنهم لِلَوْثَةٍ حَصَلَتْ بينهم إلى بني الحارث طَمَعًا في نَيْلِ مَا يَفُوتُهُمْ مِنْهُمْ من جِهَتِهم ، فلمَّا لم يجدوهم عند الظَّنِّ بِهِمْ تَنَدَّمُوا ، فأخذَ هذا الشاعرُ منهم يَرْمِي بهذا الكلام مُعَيِّرًا ومُتَلَهِّفاً ، فيقولُ : أبلِغْ هؤلاءِ القَومَ الذين رُجِيَ مَعُونَتُهم وطُمِعَ في نُصْرَتِهِم وذَبِّهم — والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ وتَلَوُّنٍ ، فيتعقَّبُ فيه الشِّدَّةَ لِينٌ ، والقُوَّةَ ضَعْفٌ ، والعِزَّةَ ذُلٌّ — رِسالتِي إليهم . وإنما تُبُيِّنَ من قولِه الحالَ ، وإن كان واحِدَ الأحْوال ، الضَّعْفُ ، والمعنى الذي ذَكَرْتُهُ لقولِهِ يُحْدِثُ بَعْدَ المِرَّةِ . وحَكَى بَعضُهم أنّ هذا كما يُقال تركْتُهُ بحالٍ ، للمُشْرِف على الشَّرِّ أو الهلاكِ ، والمراد بِحالٍ سَوْءٍ ، فكذلك هنا يُريدُ والدَّهْرُ يُحْدِثُ الحالَةَ المُنْكَرَةَ بعد المِرَّة . وقيل أيضاً الحال : التُّرابُ اللَّيِّنُ والحَمْأَةُ ، فاسْتِعَارَهُ للضَّعْفِ واللِّينِ .

٢ — إنَّا تَرَكْنا فلَمْ نَأْخُذْ بِهِ بَدَلَا   عِزًّا عَزِيزاً وَأَعْمَاماً وَأَخْوَالَا

يَقُولُ : أدِّ إليهم أنَّا بمُفَارَقَةِ قَوْمِنا تَرَكْنا أقاربَ من جهة الآباء والأمّهات ، متناصِرَةً على دِفاعِ حوادثِ الدَّهرِ متعاوِنَةً ، وظَهْراً ظَهِيراً ، وعِزًّا مُتَناهِياً قَوِيًّا ، ولم نَعْتَضْ مِنْهُمْ ما فيه طائلٌ . قولُه « وأعْمَاماً وأخْوَالاً » أي تركناهم وهم من البِرِّ والشفَقَة على ما يكونُ عليه الأعْمَامُ والأخْوَال ، وفيما يُرْجَى من الوُفُورِ بهم والتَّأيُّدِ بمكانِهِمْ . وقولُه « عِزًّا عزيزاً » ، من شأنِهِم أن يَشْتَقُّوا

(١) في النسخ « أن » ، ولا يستقيم إعراب العبارة .

من لَفْظ الشيء الذي يُرِيدُون المُبالغةَ في وصفِه بِناءً يُتْبِعُونَهُ به تأكيداً وتنبيهاً على تناهِيه في مَعْناهُ . على ذلك قولُهُمْ : ظِلٌّ ظَلِيلٌ ، وداهِيَةٌ دَهْيَاء ، وشِعْرٌ شاعِرٌ .

٣ — قد كُنتُ آخُذُ حَقِّي غَيْرَ مُهْتَضَمٍ وَسْطَ الرِّبَابِ إِذَا الوادِي بِهِم سَالاَ

هذا الكلامُ توجُّعٌ وتَلَهُّفٌ في إِثْرِ ما فَاتَهُ من قومِهِ ، بما حَصَل من فسادِ ذاتِ بينهم ، حتّى صاروا إلى التَّبايُن ، والتمايُز بالأبدانِ والتهاجُر . فيقول : كُنْتُ أتقاضَى بحُقُوقي بين ظَهْرَانَيْهم فأقتضيها وأستوفيها غير مهضومٍ ولا مَهِينٍ إذا جاءوا مُحْتَفِلِينَ تمتلىءُ منهم الطُّرُق والفِجَاجُ ، وتَسِيلُ بهم المَذانِبُ والتِّلاعُ . ومِثْلُ قولِهِ « إذا الوادى بِهِم سَالاَ » قولُ الآخَرِ[1] :

* وسَالَتْ بأعْنَاقِ المَطِيِّ الأَباطِحُ[2] *

٤ — لاتَجْعَلُونَا إلى مَوْلًى يَحُلُّ بِنَا عَقْدَ الحِزَامِ إذا ما لِبْدُهُ مَالاَ

المَوْلَى في البيتِ : النَّاصِرُ أو الوَلِيُّ لاغَيْرُ . وكأنّه أقْبَلَ على قومِهِ يستعطِفُهُم ، ويشكُو إليهم ما لَاقوهُ من غيرِهِم . فيقولُ : تَلَافَوْا أمْرَنَا ولا تَكِلُوهُ إلى ناصِرٍ يُؤْثِرُ صلاحَ حالِهِ وإنْ فَسَدَ حالُنَا ، ويَرُومُ انتعاشَهُ وإن سَقَطْنَا ، ويُسَوِّى لِبْدَهُ إذا اعْوَجَّ وزَالَ عن مَقَرِّه بِنا . وهذا تَعْرِيضٌ لمن كانوا انتقلوا إليهم . كأنهم كانوا يُهِمُّهم ما يختصُّ بأنفُسِهِمْ ، ثم لا يَحْفِلُونَ بما يَخْتَلُّ من شأنِ هؤلاءِ أو يَنْحَلُّ من عَقْدِهِم .

وفي هذه الطريقة قول الآخر :

(١) هو كثير عزة ، أو يزيد بن الطثرية ، او عقبة بن كعب بن زهير . معاهد التنصيص في (شواهد الاستعارة) .

(٢) صدره : * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

وكُنَّا فَوارِسَ يَوْمَ الهَرِيرِ إذا مَالَ مَرْجُكَ فاسْتَقْدَمَا[1]

وأفْصَحُ من هذا قول ابنِ أحمر :

فَإمَّا زَالَ مَرْجٌ عَنْ مَعَدٍّ وأَجْدِرْ بالحوادِثِ أَنْ تَكُونَا

١٩٠

وقال ابن عَنَمَةَ أيْضًا :

١ — مَا إنْ تَرَى السِّيدُ زَيْدًا فى نُفُوسِهِمُ كَمَا يَرَاهُ بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوبُ[2]

السِّيدُ : قَبِيلَة ، وكذلك كُوزٌ ومَرْهُوبٌ . وقولُه « ما إنْ » إنْ زِيدَتْ لتأكيد النَّفْى . وذَكَرَ سِيبَوَيْهِ أنَّ ما الحجازيَّةَ إذا قُرِنَ بإنْ هذه يَبطل عملُه ، يقولُ : بنو السِّيدِ لا يَقْسِمُونَ لِزَيدٍ من التعظيم ، ولا يُوجِبُونَ له فى نُفُوسِهم من الحُرْمَةِ والتَّبْجيل ، ما يُوجِبُهُ ويقْسِمُهُ بَنُو كُوز ومَرْهُوبٌ . والضَّميرُ على هذا من قوله « فى نُفُوسِهِم » يكونُ للسِّيدِ . ولا يمتنـعُ أن يكونَ الضَّميرُ لِزَيدٍ لأنَّه قَبيلةٌ أيْضًا . وهذا كَمَا يُقَالُ : لَكَ فى نَفْسِكَ حَقٌّ ومَنزلَةٌ . كأنَّ زَيْدًا كان له إذا راجع نَفْسَهُ من التَّوجيهِ والإدْلال ، والتَّخَصُّص والاعتزاز فى بنى كوزٍ ومَرْهُوبٍ ، ما لا يكادُ يَجِدُهُ فى بنى السِّيد .

٢ — إنْ تَسْأَلُوا الحَقَّ نُعْطِ الحَقَّ سائِلَهُ والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيفُ مَقْرُوبُ

يقول : إنْ وقَفْتُم عندما يَثبت من حَقِّـكم ، ورضيتم بمـا لا نَجْحَدُهُ من واجبِكم ، ولم يُخَيَّلْ [إليكم[3]] أنَّ طَلَبَ ما فَوْقَهُ أعْوَدُ عليكم ، خَرَجْنا معه

(١) للربيع بن زياد العبسى . الحماسية ١٦٣ .

(٢) هذه الأبيات هى المفضلية رقم ١١٥ . وانظر الخزانة (٣ : ٥٧٦ — ٥٨٠) .

(٣) التكملة من م والتيمورية .

إليكم من غيرِ إباء ولا امتناعٍ ، ولا اهتِيَاجِ حَرْبٍ أو إعْمَالِ سِلَاحٍ . وقولُه « والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ » أى مشدودةٌ فى الحقائبِ ، لأنه أرادَ بالدِّرْعِ الجِنْس . والاحتقاب والاستحقاب : شَدُّ الحقيبة من خَلْفٍ . وكذلك قولهُ « والسَّيْفُ مَقْرُوبُ » أى متروكةٌ فى قُرُبِها ؛ لأنه أرادَ السُّيُوف . ويقال : قَرَبْتُ السَّيْفَ وأقربْتُهُ ، وغَمَدتُه وأغْمَدتُه . وقال أبو زيدٍ : القِرَابُ : غِشاء يكون السَّيفُ مُغْمَداً فيه . واحتَجَّ بقوله :

يَا رَبَّةَ البَيْتِ قُومِي غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّي إليكِ رِحَالَ القَومِ والقُرُبا[(١)]

٣ — وإنْ أَبَيْتُمْ فإنَّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الخَسْفَ إنَّ السَّمَّ مَشْرُوبُ[(٢)]

يقول : إنْ عدوتُمْ طَوْرَكُمْ ، وتجاوزتُم فى الطَّلب حَقَّكُم إلى ما ليس لكُمْ ، فإنَّ أنفتَنَا تمنعُ من احتمالِكُم ، والتزام شهوتِكُمْ ، وحَمِيَّتَنَا تأبى الرِّضَا بالتَّحكُّم ، والصَّبرَ على الاقتسار والتهَضُّم ، فلا نَطْعَمُ الخَسْفَ وإن شَرِبنا السَّمَّ . والخَسْفُ : أن يحمِّلكَ إنسانٌ ما تكْرَهُهُ . ومن الصَّنعة الحسنةِ مقابَلَته الطَّعْمَ بالشُّرْب ، واستعارتُه إيَّاهما فى تَجرُّع الغُصَّةِ ، وتوطين النَّفسِ على المَشَقَّة ، عند إزالة المَذَلَّةِ ، وردّ الكريهة . والأُنُفُ : جمع أَنُوفٍ . والمَعْشَرُ : الجماعة أمرُهُم واحِدٌ ، ويقال : جاء القَوْمُ مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرةً عَشَرةً .

٤ — فَازْجُرْ حِمَارَكَ لا يَرْتَعْ بِرَوْضَتِنَا إذاً يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ[(٣)]

هذا مَثَلٌ . والمعنى : انقَبِضْ عَنِ التَعَرُّض لنا ، والدُّخول فى حُرْمتِنا ،

---

(١) لمرة بن محكان . الحماسية ٦٧٥ .

(٢) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

(٣) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « إنما معنى قوله ازجر حمارك ، يعنى به فرس زيد الفوارس ، واسمه عرقوب ، فكنى عنه بالحمار على سبيل التهكم والهزء . وقوله : وقيد العير مكروب ، أى إنهم يعقرونه ، والعقر أضيق القيود » ، وانظر لإعراب هذا البيت الخزانة (٣ : ٥٧٦) وسيبويه (١ : ٤١١) .

ورَعْيِ سَوَامِك روضَتنا؛ فإنَّكَ إن لم تَفْعَلْ ذلكَ ذَمَمْتَ عاقبةَ أمرِك، وعُدْتَ خَاسِرَ الصَّفْقَةِ وخيمَ الرَّتْعَةِ. جَعَلَ إرسالَ الحِمارِ في حِماهُمْ كِنايةً عن التَّحكُّكِ بهم، والتَّعرُّضِ لمساءَتِهِم. ولا حِمَارَ ثَمَّ ولا رَوْضَ[1]. وقال ابن الأعرابيّ: أراد اكْفُفْ لِسانَكَ. قولُه « إذاً » قال سيبويه: هو جوابٌ وجزاءٌ، فالابتداء الذي هو جَزَاؤُه محذوفٌ مُستَدَلٌّ عليه مما في كلامِهِ، كأنَّهُ قال فإنَّهُ إن رَتَعَ رَجَعَ إليك وقد ضُيِّقَ قَيدُهُ، أي مُلِئَ قَيدُهُ فَتلاً حتى لا يَمشِيَ إلاَّ بِتَعَبٍ، كأنَّهُ يُضْرَبُ أو يُسْتَعْمَلُ حتى يَرِمَ جِسْمُه ويؤدِّيَ الوَجَعَ منه إلى موضِعِ حافِرِه فيضيق عليه القَيْدُ.

٥ ــ إنْ تَدْعُ زَيْدٌ بَنِي ذُهْلٍ لِمَغْضَبَةٍ نَغْضَبْ لِزُرْعَةَ إنَّ الفَضْلَ مَحْسُوبُ

يقول: إن غَضِبَ بنو ذُهْلٍ لِزَيْدٍ وامتَعَضُوا من ضَيْمٍ يَرْكَبُها، وأغاثُوها إذا استجارَتْهم، غَضِبْنَا لِزُرْعَةَ، وانتقَمْنا له ممَّن يهتضِمُهُ، إنّ الفَضْلَ معدود. فالمعنى: إنَّه لا فَضْلَ لكم علينا فقد عددنا مالَكم، فلم نَجِدْ زيادةً لكم، ولا استظهارًا يوجِبُ لكم التَّعَلِّيَ والتَّغلُّب. وإذا كان الأمر بيننا على التساوي فلا استبداد ولا احتكام. ويُرْوَى: « إنّ القِبْصَ مَحْسُوبُ[2] »، وهو العَدَدُ الكثير، ويكون الكلام مَثَلاً. ويقال إنَّهم لفي قِبْصِ العَدَدِ وفي قِبْصِ الحصَى، أي في أكثر ما يُستطاع عَدَدُهُ من كَثْرَتِهِ، والمُرادُ: إنّ الأعداد الكثيرة تُضْبَطُ وتُحْصَرُ، فكيفَ ما بيننا من تَفاوُتٍ[3] وتفاضُلٍ، أو تَسَاوٍ وتعادُلٍ.

٦ ــ ولا يَكُونَنْ كَمُجْرَى دَاحِسٍ لَكُمُ في غَطَفَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ عُرْقُوبُ

كان التَّنازُعُ بينهم في رِهانٍ وقَعَ على عُرْقُوبٍ، وهو فَرَسٌ لهم. فيقول:

---

(١) انظر ما سبق في الحواشي. (٢) وهذه هي رواية المفضليات.
(٣) في جميع النسخ: « تقارب ».

لا يكُونَنْ جرْىُ عُرْقوبٍ عليكم فى الشُّؤم كجَرْىِ داحسٍ فى غَطَفان غَدَاةَ شِعْب الحَيْسِ. فقوله «عُرْقوب» ارتفع على أنَّهُ اسمُ لا يكونَن، وقد حَذَف المُضافَ وأقامَ المضافَ إليه مَقامَه، لأنّ المراد: ولا يكونَنْ مَجْرَى عُرْقوبٍ كمَجْرَى داحسٍ. وقولُه «غَدَاةَ الشِّعب» ظَرْفٌ لقوله كمَجْرَى. وجعَل النَّهْىَ فى اللَّفظ لعُرْقوبٍ وهو فى المعنى لهم. حَذَرَهُم استعمالَ اللَّجاج لئلاّ يتأدَّى الأمرُ إلى مثل ما تأدَّى فى رِهانِ داحسٍ والغَبْراء. ومِثْلُ هذا من النَّهْى قولهم: لا أرَيَنَّكَ هاهنا.

١٩١

وقال الأخْضَر بن هُبَيْرَةَ[1]:

١ – ألاَ أيُّهذَا النابحُ السِّيدَ إنَّنى   على نَأْيِها مُسْتَبْسِلٌ من ورائها[2]

وَصْفُ أىٍّ بذا غيرُ جارٍ على سَنَن ما يُجْلَبُ له الصِّفاتُ، لأنّ الصِّفةَ شرحُ الكلامِ وتبيينُه، ومُزيلُ اللَّبْسِ عنهُ، وإذا كانَ أىٌّ وذا مُبهمَيْنِ فالانشراح غيرحاصلٍ بهما، لكنَّهُ لمّا كان المُعوَّل على ما يَتْبَعهُ من المُعرَّفِ بالألف واللام صار ذا كأنّه لا اعتدادَ به فى الشَّرح. فيقول: أيها المتعرِّض لبنى السِّيدِ والمُتنقِّصُ لهم، والناحِتُ أَثْلتَهم، إننى على بُعْدِها مِنِّى مُدافعٌ عنها وذابٌّ، مع تغيُّبهم دُونها، قضاءً لحقِّ الشَّرَفِ، وذَهابًا مع النَّصَفةِ. ويقال بَسَلَ واستَبْسَلَ وتَبَسَّلَ بمعْنًى. وقال الخليل: استَبْسَلَ الرَّجُل، إذا وَطَّنَ نفسَه على الموت

---

(١) هو الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار بن عمرو بن مالك بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة، والمقطوعة رواها التبريزى لولده الفضل بن الأخضر، ثم نقل عن أبى هلال أنها للأخضر، وانظر للأخضر المؤتلف ٣٤.

(٢) التبريزى عن أبى هلال: «من عادة كلاب الأعراب أن تنبح السحاب لأنه يؤذيها بمطره، وإذا رأت القمر ظنته قطعة سحاب فنبحته أيضاً، وليست تضره، فجعل هذا مثلا للذى ينال من الشريف، ويقع فيه ولا يضره».

واستَيْقَنَ به[١] . وقد استعار أبو ذُؤَيبٍ النُّبَاحَ للتعرُّضِ والإيذاء ، كما فعل هذا ، فقال :

ولا هَرَّها كَلْبِي لِيُبْعِدَ نَفْرَها ولو نَبَحَتْنِي بالشَّكَاةِ كِلابُها

وقولُه « على نَأيِها » موضِعُه نَصْبٌ على الحال ، لأنّ المعنى أستبسِلُ من ورائها بعيدةً .

٢ ـــ دَعِ السَّيِّدَ إنَّ السَّيِّدَ كانَتْ قَبِيلَةً تُقَاتِلُ يَوْمَ الرَّوْعِ دون نِسَائِهَا

يقول : اترُكْ ذكر هؤلاء القَوْم ولا تَطْلُبْ عَيْبهم ، فإنّها قبيلةٌ ذاتُ أنَفٍ وإباء ، فما لَحِقَهم منذ كانوا عارٌ فى حُرْمَةٍ ، ولا أصابَهُم سِبَاءٌ عند غارة ، بل كانت تَحْفَظُ على عِلَّاتِها نِسَاءها ، وتَبْتَذِلُ عند الفَزع مَصُوناتِ نُفُوسها ، وهذا تَعْرِيضٌ بالمُخَاطَبِين وأنّهم بخلاف ذلك .

٣ ـــ عَلَى ذَاكَ وَدُّوا أنَّنِى فِى رَكِيَّةٍ تُجَذُّ قُوَى أشْبَابِها دُونَ مَائِهَا

ذَاكَ من مِثْل هذا الموضع لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤَنَّثُ[٢] ، ويُشار به إلى المُقْتَصِّ من الحال . يقول : وعلى ما ذَكرتُه فيهم ، ومَعَ مُحافَظتِي على ما يَجِبُ عَلَيَّ لهم ، ليسوا إلىَّ بأوِدّاء ، بل يتمنّون أنى فى بئرٍ تُقْطَع طاقاتُ حِبالها دونَ الوصول إلى مائِها لبُعْدِ قَعْرِهَا . وهذا الكلام إعلامٌ بأن تَعَصُّبه لهم ، ليس عن مُصادقةٍ بينهم توجب إعارةِ الشَّهادة فيهم ، أو مواخاةً تؤلِّفُهُم وتَعْطِفُ أواصِرَهُم عليهم ، لـكنّه رأى حَقًّا فقاله ، وتَحَمَّل صِدْقًا فأدّاهُ . وقوله «دون مائها» فى موضع الحالِ لأنّ دونَ للقاصر عن الشّىء . والتقدير : تُجَذُّ القُوَى قاصِرةً عن الماء .

---

(١) فى الأصل : « إذا وطن على الموت واستيقن » والتكلتان من م والتيمورية .

(٢) الحق أن هــذا أحد المذاهب فى استعمال كاف الخطاب المصاحبة لأسماء الإشارة ، ومنهم من يستعملها استعمال الكاف الاسمية فتطابق أحوال المخاطب من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦) وشرح المفصل (٣ : ١٣٥) .

١٩٢

وقالَ سِنانُ بن الفَحلِ[١] :

١ — وقالُوا قَدْ جُنِنْتَ فَقُلْتُ كَلَّا ... وَرَبِّى ما جُنِنْتُ ولا انْتَشَيْتُ[٢]

كانَ الواجِبُ أن يَقُول قالُوا جُنِنْتَ أو سَكِرْتَ ، فاكتَفَى بذكرأحدِهِما لأنَّ النفى الذى يَتعقَّبُ فى الجوابِ يَنْظِمهما . ومِثْلُ هذا قول الآخر[٣] :

فَمَا أَدْرِى إذا يمَّمْتُ وَجْهاً ... أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُما يَلِينِى

لأنَّ المُرادَ أُريدُ الخيرَ وأتجنَّبُ الشَّرَّ أيُّهُمَا يلينى ، فاكتفَى بذكر أحَدِهما لأنَّ ما بعده يُبَيِّنُهُمَا : ولِكَلاَّ موضعان : أحدُهما أن يكون للرَّدْعِ والزَّجْرِ ، وحينئذ يصحُّ الاكتفاء به والوَقْفُ عليه . والثانى أن يكون للتنبيه كأَلاَ ، وحينئذ يحتاج ما بَعْدَهُ إلى ما يتم به . وسيبويه قَصَرَ تفسيره على أنَّه للرَّدْع والزَّجر . والشَّاعرُ أراد قال النَّاس فِيَّ لمّا أظهرتُ إنكارى ، وتشدّدت فى إبائى ، وتَحَفظْتُ عند ما عُرِضَ وجُشِّمَ ، واستنكَفتُ مِمَّا سِيمَ وكُلِّفَ : إنّه قد جُنَّ أو سَكِر . فزَجَرْتُهم وردعتهم ، وحَلَفتُ بالله نافياً لما نُسِبْتُ إليه ووُسِمتُ به من الجنون والسُّكر جميعاً . ثم أخَذَ يبيِّنُ كيف استَنكَرَ ما دُفِع إليه ، واشمأزَّ مِمَّا عُرِض عليه حتى قيل فيه ما قيل . والانتشاء والنَّشْوَةُ : [السُّكر[٤]]

---

(١) التبريزى : « سنان بن الفحل أخو بنى أم الكهف ، من طيئ » . وفى الخزانة (٢ : ٥١٣) : « سنان بن الفحل شاعر إسلامى فى الدولة المروانية » .

(٢) الخزانة : « قال أمين الدين الطبرسى فى شرح الحماسة : قد عيب على أبى تمام إيراد مثل هذه الأبيات فى باب الحماسة ، والبكاء على الظلم ضعف وعجز . والوجه فيه أن بكاءه كان لمطالبتهم ما ليس لهم ولا سبيل له على الاعتناف والمغالبة فعل أهل الجاهلية ؛ إذ لا يراقب دين ولا يرهب سلطان » .

(٣) هو المثقب العبدى . المفضليات (٢ : ٩٢) .

(٤) التكملة من م والتيمورية .

٢ ـ ولكنّى ظُلِمْتُ فكدتُ أبْكِى   من الظُّلْمِ المُبيَّنِ أو بَكَيْتُ

لكن استدراكٌ بعدَ نفيٍ. وهذا الكلامُ بيانُ ما أنكرَ منهُ حتّى قيل إنّه جُنَّ. وذكَر البكاء ليُرِيَ أنفتَهُ وامتعاضَهُ، وإنكارَهُ لِمَا أُريدَ ظُلْمُهُ فيه واغتياظَه. فأمّا العَربُ فإنّها تَنْسُبُ أنفسَها إلى القَساوةِ، وتُعَيِّرُ من يبكى لذلك. [قال مهلهل(١)]:

يُبْكَى علينا ولا نَبْكى على أحَدٍ   لَنَحْنُ أغْلَظُ أكبادًا من الإبلِ

يقول: لكنْ عُرِضَ عَلَيَّ ضَيْمٌ لم آنفْه، واستنْزِلتُ عن حَقٍّ لى طَالَ مُلازَمتِي له، فشارَفْتُ البكاء أو بَكَيْتُ. كل ذلك لاستنكافى ممّا نَدَبُونى إليه وتعجُّبِي مِمّا راوَدُونى عليه.

٣ ـ فإنَّ الماءَ ماءُ أبِي وجَدِّي   وبِئْرِى ذو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

صَرَّح بما أُريدَ غَصْبُه عليه فقال: هو ماءٌ موروثٌ عن الرسلافِ وحِمًى معروفٌ بى وبهم، سَلَّمَهُ النّاسُ لنا على مَرِّ الأيَّام، وبِئْرٌ تَوَلَّيْتُ استحْداثَها وحَفْرَها وطَيَّها. وقوله « ذو حَفَرْتُ » ذو لُغةٌ طائيّةٌ فى معنى الذى. يقولون: هذا ذُو قال ذلك، ورأيتُ ذُو قال ذَلكَ، ومررتُ بِذُو قال ذلك، فيَحتاجُ من الصِّلَةِ إلى مِثْلِ ما يحتاجُ إليه الذى، لكنّها تَقعُ فى لُغتِهِم للمُذكَّرِ والمؤنّث ولهذا صَلَحَ أن يقولَ « وبِئْرِى ذو حَفَرْتُ »، والبِئْرُ مؤنَّثةٌ.

٤ ـ وقبْلَكَ رُبَّ خَصْمٍ قد تَمالَوْا   عَلَيَّ فما هَلِعْتُ ولاَ دَعَوْتُ

نَبَّهَ على حُسْنِ ثَباتِه فى وجْه الخصوم، وتَمرُّنِه بمجاذبتهم قديمًا وحديثًا، وتحكُّكِه بهم على احتفالٍ منهم فى مناوأتِه سالفًا وآنفًا، فيقول: وقد بُلِيتُ قبلكَ بقوم لُدٍّ تألَّبُوا علىَّ وتعاوَنوا، فلم أجْزَعْ لِمَا مُنِيتُ بِهِمْ جَزَعًا فاحشًا،

(١) التكملة من م والتيمورية.

ولا استنصرتُ عليهم غيرى عند دِفاعِهم استنصارًا مكروهًا . والهَلَعُ : أفحشُ الجزَع . وتَمَالَوْا ، هو تفاعَلُوا من قولِهم هو مَلِئٌ بكذا . فإن قيل : كيف قال هَلِعْتُ ، وقد قال فيما قبلَهُ : « فكِدْتُ أبكى من الظُّلْمِ المُبَيِّن أو بَكَيْتُ » وهل الهَلَعُ إلا البكاء والجزَع ؟ قلتَ : إنّ الهَلَع هو الجزَع الفاحش الذى يظهر فيه الخضوعُ والانقياد ، فهذا هو الذى انتضَح منه(١) ، وزَعَمَ أنه لا يَظْهر عليه . والبكاء الذى ذَكر أنه شارَفَه أو كاد يشارِفُه قد بَيَّنّا أنه كان منه على طريق الاستنكاف والامتِعاض ؛ فإذا كان كذلك فإنّه لم يكُنْ عن تخشُّعٍ وتذلُّلٍ ، ولا انقيادٍ واستسلامٍ ، وسَلِمَ الكلامُ من التناقُض والفَساد .

٥ — ولكِنِّى نَصَبْتُ لَهُمْ جَبِينِى وَأَلَّةَ فارِسٍ حتى قَرَيْتُ

يقول : ولكنّى صَبَرْتُ لهم ، وانتَصَبْتُ فى وجوههم ، وهَيَّأْتُ عُدَّتى وسِلاحى لدفعِهم ، دارئًا فى نُحُورِهم ، مُحَلِّئًا لهم عن وُرُودِهم ، فِعْلَ الفارسِ الذابِّ المانع يوم الحِفاظ ، [حتّى(٢)] خلَّصتُ من غَصْبِهم حَقِّى ، وقَرَيْتُ الماءَ من دُونِهم فى حوضِى . والأَلَّةُ : الحربة ، وجمعها إلالٌ ، وأصْلُه البَرِيقُ واللَّمَعانُ . والقَرْىُ : الجَمْعُ .

١٩٣

وقال جابر بن حَرِيشٍ

١ — ولقد أرَانا يا سُمَىَّ بحائلٍ نَرْعَى القُرِىَّ فكامِسًا فالأصْفَرَا

(١) انتضح من الأمر ، بالضاد المعجمة : أظهر البراءة منه ، وفى جميع النسخ : « انتصح » تحريف .
(٢) التكملة من م والتيمورية .
(٣) الظاهر أنه شاعر طائى .

٢ـ فالجِزْعُ بَيْنَ ضُبَاعَةٍ فرُصَافَةٍ فَعُوَارِضٍ جَوَّ البَسَابِسِ مُقْفِرا[١]

٣ـ لاأَرْضَ أَكْثَرُ مِنكَ بَيْضَ نعامةٍ ومَذانِبًا تَنْدَى ورَوْضًا أَخْضَرَا[٢]

٤ـ ومُبَيِّنًا يَحْمِى الصِّوَارَ كأَنَّهُ مُتَخَمِّطٌ قَطِمٌ إذا ما بَرْبَرَا[٣]

٥ـ إذْ لا يَخَافُ حُدُوجَنا قَذَفَ النَّوَى قَبْلَ الفَسَادِ إقامَةً وتَدَيُّرَا

قولُه « أرَانَا » حكايةُ الحال ، وما يستمِرُّ ويتَّصل من الأفعال إذا أُرِيدَ فيه الإخبارُ عن الماضِى قد يُؤتى بلفظِ المُستقْبَل فيُوضَع مَوْضِعَ بناء الماضِى . على ذلك قَوْلُه :

ولقَدْ أَمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّنِى فمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِى[٤]

أَلَا تَرى أنه قال أمُرُّ ، ثم قال فمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ . كذلك هذا قال ولقد أرَانَا ، ثم جاء فى آخِرِ الأبيات فقال : إذ لا يَخَافُ حُدُوجَنَا قَذَفَ النَّوَى . فإنْ قيل : كيف جاز أن يقول أرانى وأرانا ، وأنت لا تَقُولُ أَضْرِبُنا ولا أضرِبُنِى؟ قلتَ : أفعَالُ الشَّكِّ واليقين يجوز ذلك فيها وإن امتنَع فى غَيْرِها ، لأنَّ تأثيراتِها فى المفعول الثانى من المفعولَين ، إذْ كان الشَّكُّ واليقين يتعلَّقان به لا بالأوّل ، فصار لذلك المفعول الأوّل كأنّه غير الثانى ، وكاللغو الذى لا تأثيرَ لَهُ فى حُصُولِ الفائدة ، فجرَى الثَّانى من الأوّل لذلك مَجْرَى الأجنبِىّ . وإذا قُلْتَ أضْرِبُنِى أو أَضْرِبُنا لم يَصِرْ أحَدُ الضّميرين كالأجنبِىّ من الأوّل لا لفظًا ولا مَعْنًى ، والمُعتادُ فى الفاعِل والمَفعول مغايَرةُ الثّانى للأوّل ، فلما كانَ الأمْرُ على ذلك لم

(١) التبريزى : « ويروى : رضافة ، بالضاد منقوطة » وأشار أيضاً إلى رواية : « حو البسابس » ، قال : « والحو : جمع أحوى ، وهو الأسود ، والمراد به النبت » .

(٢) م : « لا روض » .

(٣) التبريزى : « ويروى : مغببا ، أى ثوراً له غبب » . م : « يحمى الصوار » .

(٤) لرجل من بنى سلول ، كما فى الخزانة (١ : ١٧٣) .

يَجُزْ فيه ما جاز فى الأوّل . يُبَيِّنُ هذا أنّك لو قُلْتَ ضَرَبْتُ نَفْسى أو أضْرِبُهُ نَفْسى لَصَلُحَ ، للتَّغايُرِ الحاصِلِ فى اللّفظ ، فاعْلَمْهُ .

وقولُه حائل : اسم وادٍ . والقَرِيُّ : مجرى الماء إلى الرَّوضةِ ، وكَامِسٌ والأصْفَرُ : مكانانِ . وضُبَاعَةُ ورُصَافَةُ : جَبَلان ، وكذلك عُوَارِضُ[1] . وجَوُّ البَسابِسِ أى داخِلِ البَسابِسِ ، وهى المفاوز الواسعة الخالية . والجَوُّ : الهَواء بين السَّماء والأرْضِ أيضاً . والمُقْفِرُ : الصائرُ فى القَفْرِ ، وهو المكان الخالِى . وانْتَصَبَ جَوٌّ على الظَّرْفِ ، ومُقْفِراً على الحال .

ومعنى الأبيات : كُنّا نَرَى أنفسَنا يا سُمَيَّةَ بهذا الوادى ، ونحن ننتقل فى هذه المراتع التى ذكرتُها ، ونَتَحَوَّلُ[2] بين هذه المناجع التى عدَدتها الحاصلةِ [فى] جَوِّ الأرضِينَ المستوية ، وفى أثناء الأرضين المُقْفِرة ، ولا أرضَ أكْثرَ خِصْبًا من أرضِكِ وخَيْرًا ، وأندى مذانِبَ وتِلاعًا ، وأحْوَى لبيضِ النَّعام ، وأجمعُ لخضر الرياض التى يستوطِنها الوحوش من البقر وغيرِها ؛ وثَوْرُهَا يحفظ قطيعَهُ وكأنه لنشاطه إذا جَأَرَ فحلٌ متفضِّبٌ أيّامَ أمِنّا عادِيَةَ النَّوَى . وبائقة الدَّهر والأذَى ، ولم تخفْ نِسَاؤُنَا من تَرَامِى الفُرْبَةِ ، وتقاذُفِ الشُّقَّةِ ، ولم يَقَع بين العشائر حَرْبُ الفَساد ، وضرر التَّهاجُر والبِعاد ، ونحن مُتَدَيِّرُون ومقيمون ، وفى أنواع النِّعْمَةِ والنَّعْمَةِ متردّدون ، ولدار السّلامة والخفض مستوطنون .

وهذا الكلام تَحَسُّرٌ فى إثْرِ أيّام السَّلامَةِ ، وتَشَكٍّ من أيام الفِتْنة .

وقولُه « إذْ لا يَخافُ » ظرفٌ لقولِهِ ولقد أرانا . وقولُه « قَبْلَ الفَسَادِ » بَدَلٌ منه ، والمَذانِبُ : مسايلُ المياه . ومَعنَى « أكْثَرُ منكِ بَيْضَ نَعامَةٍ » أكْثَرُ من أرضِك ، فحذَف المُضاف ، وانتَصَبَ « بَيْضَ » على التمييز . وقولُه

---

(١) التبريزى : « وعوارض : جبل عليه قبر حاتم الطائى » .

(٢) نتحول ، الحاء المهملة فى جميع النسخ .

« ومذانبًا » انتَصَبَ على أنّه معطوفٌ على بيض نَعامَةٍ ، وتَنْدَى فى موضع الصـفة المذانب ، أى نَدِيّة ، وكذلك « ورَوْضًا » و « معيَّنًا » . المُعَيَّنُ : الثَّور الـكبير العين ، والصِّوَار : القطيع ، واشتقاقه من صُرْتُه أى قطعتُه . والحُدُوج : المراكب ، ونَسَبَ الخوفَ إليها مجازاً ، لأنَّ المرادَ بها النِّساء ، وقوله « متخمِّطٌ » شَبَّهَ الثَّور بفحلٍ له سَوْرَةٌ وجَلَبَةٌ ، لاهتياجِه وغَضَبِه ، ومنه قيل للبحر إذا التَطَمَتْ أمواجُه : هو يَخِطُ التَّيَّار . والقَطِمُ : الهائج . وبَرْبَرَ : صَوَّت . وقَذْفُ النَّوَى : رَمْيُه . وقوله « قَبْلَ الفَسَادِ » يريدُ قبلَ حربِ الفَسَادِ ، وإنَّما سُمِّيت بهذا الاسم لأنَّ بَعْضَهم كان يَشربُ فى قِحْفِ رأسِ صاحبِه إذا قَتَلَه ، ويَخصِفُ نَعلَهُ بأذُنِه ، إظهاراً للتَّشفِّى . وانتَصَبَ « إقامةً على أنّه مصدر لِعلّةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، فتقدير الأوّل : لا تَخافُ قَذْفَ النَّوَى لإقامَتِنا وتديُّرنا ، وتقدير الثانى : لا تخافُه مقيمين ومتديِّرين . ويقال ما بالدار دَيَّارٌ ، ودارِيٌّ ، ومنه قوله :

* لَبِثْ قليلًا يَلحَقِ الدارِيُّونْ[1]

والأصل فى تَدَيَّرَ الواو ولـكنَّه بَنَوْهُ على دَيَّارٍ ، لإلْفِهِم له بكثرة تَرَدُّدِه فى كلامهم .

١٩٤

وقال إياس بن مَالكٍ[2] :

١ — سَمَوْنا إلى جَيْشِ الحَرُورِيِّ بَعْدَمَا   تَناذَرَهُ أعْرَابُهُم والمُهَـاجِرُ

(١) الرجز فى المقاييس واللسان (دور) . وقد فسر الدارى بأنه رب النعم والمال ، سمى بذلك لأنه مقيم فى داره .

(٢) هو إياس بن مالك بن عبد الله بن خيبرى المعنى الطائى ، شاعر من شعراء صدر —

يقولُ : سَمَتْ أبصارُنا ونفوسُنا ، وارتفعتْ هِمّاتُنا إلى محارَبةِ الحَرُورِيّةِ — وهم فِرقَةٌ من الخوارج — بعد اشتداد شَوْكتِهم وتكاثُفِ عُدّتِهم ، وحين تَحَامَى جَيشَهم بادِى الناس وحاضِرُهمْ ، حَذِرَ ناحيَتَهم وقَصْدَهم عربُهم ومُهاجِرُهُم . وأراد بالمهاجِرِ من تَرَكَ البَدْوَ وانتقَلَ إلى الأمْصارِ .

٢— بِجَمْعٍ تَظَلُّ الأُكْمُ ساجِدَةً لهم وأعْلامُ سَلْمَى والهِضَابُ النَّوادِرُ[1]

الباء من قوله « بِجَمعٍ » تعلّقَ بِسَمَوْنا ، يُرِيد قَصَدناهم بِجيشٍ كَثيفٍ يلحِقُ الحَزْنَ بالسَّهل ، ويُسوِّى الهِضابَ بالأرض إذا سارَ عليها لِكثْرته . وهذا كما قالَ الآخر :

* تَرَى الأُكْمَ مِنهُ سُجَّداً للحوافرِ[2] *

وأصل السُّجود الخُضوع ، كأنها تَصيرُ لها تُرَاباً . والأُكْمُ : جَمْعٌ ، يقالُ أَكَمَةٌ وأَكَمٌ ، وإكَامٌ وأُكْمٌ[3] . وسَلْمَى : أحدُ جبلَىْ طَيِّئٍ . والهِضابُ : جمعُ هَضْبَةٍ ، وهى ما انبسَط على الأرضِ من الجبال . والنَّوادرُ : المرتفعةُ ، وكلُّ شيء زالَ عن مكانِهِ فقد نَدَرَ ؛ ومنه نَوَادِرُ الكلام . وجَعلَ لسَلْمَى أعلاماً لامتدادِهِ واتِّصال جبالٍ به .

٣— فَلَمّا ادَّرَكْناهُمْ وقد قَلَّصَتْ بِهِمْ إلى الحَىِّ خُوصٌ كالحَنِىِّ ضَوامِرُ

ادَّرَكَ : افْتَعلَ من الإدراك ، وهو فى معنى أدْرَكَ . وقَلَّصَتْ : ارتفعتْ .

— الإسلام . وكان من خبر الشعر أن جيشاً لنجدة الحرورى عليهم رجل يقال له أبو عمرو كان يغير على العرب ، وفعل ذلك ببنى أسد وطيىء حتى مر ببنى معن ففعلوا ذلك بهم ومضوا ، ثم إن بنى معن تذامروا ، وحرض بعضهم بعضاً على القتال ، وأقبلوا فى أثرهم ومعهم كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم فأخرجوه واستقبلوا القبلة وحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فذلك حيث يقول إياس هذه الأبيات . وقد زعموا أن قائل هذه الأبيات مروان بن عبد الله ابن حى . والأبيات ٥ — ٧ فى اللسان (قدر) منسوبة إلى إياس .

(١) م والتيمورية والتبريزى : « ساجدة له » .

(٢) أنشد هذا العجز فى اللسان (سجد) .

(٣) يقال بضم الكاف وسكونها .

وقد كُنِيَ عن طول القوائم بالتَّقايص فقيل فى وصفِ الفَرَس مُقَلَّصٌ ، والمُرادُ ذلك . ويقال للمُشَمِّر : هو مُقَلِّصٌ أسفَلِ السِّربالِ ، كما قيل هو مَشقوقُ ذيل القميصِ . والحَنِيُّ : القِسِيُّ ، سُمِّيتْ بذلك لانحنائها ؛ فهو فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، فيقولُ : حين لَحِقناهُمْ كانت خَفَّتْ بهم وشَمَّرَتْ إلى الحىِّ خَيلٌ غائرةُ العيونِ ، لاحِقةُ البطونِ ، كأنَّها فى ارتِفاع جنوبها قِسِيٌّ مَأْطورَةٌ . ولمّا يقتضى جَوَاباً ، وهو فيما يجىء من بَعْدُ . والواو من قَوْلِهِ « وقَدْ قَلَّصَتْ بهم » واو الحال .

٤ – أَنَخْنَا إليهِمْ مِثْلَهُنَّ وزَادُنَا جِيادُ السُّيُوفِ والرِّماحُ الخَوَاطِرُ

يجوز أن يكون معنى إليهم عندهم ، فقد حُكِيَ : لا تَذْكُرْ فُلاناً إلىّ بسوء ، أى عندى . ويجوز أن يكون معناه الانتهاء ، ويكون المراد : أَنَخْنَا إلى فِنائهم وبإزائهم . وأَنَخْنَا هو جوابُ لَمّا . يقول : لمّا أدركناهم ثمّ سامَيْنا جَيشَهم بمثلِهِ عَدَداً وعُدَّةً ، وجازَيناهم بأشباههم فُرساناً ورَجّالةً ، وزادُنا سُيُوفٌ مُنْتَخَلَةٌ[1] ورِمَاحٌ لَدْنَةٌ مُثقَّفةٌ . وإنَّما قال « أنَخْنا » لِمَا استمرّت به عادتُهم من ركوبِ الإبِلِ وقَوْدِ الخَيْلِ إلى المُغارِ ، إبقاءً عليها ، وإعداداً لوقت الحاجة إليها . والخواطِرِ من الخطْر ، وأصلُه التحرُّك .

٥ – كِلاَ ثِقلَيْنا طامِعٌ بغَنِيمةٍ وقد قَدَّرَ الرحمٰن مَا هُوَ قَادِرُ

« كِلاَ ثِقلَيْنَا » أى كلُّ واحدٍ من جماعَتَينا . والثَّقَلُ : الجماعة . والثَّقَلان : الجِنُّ والإنْس . وقال الخليلُ : ثَقَلُ الرَّجُلِ : حَشَمُه ومتاعه . وقوله « بغَنِيمةٍ » ، أى بسبب غنيمةٍ . والمعنى : كلُّ واحدٍ من الغارَيْنِ[2] طَمِعَ فى اغتنام صاحِبه ،

(١) فى الأصل : « متنحلة » وفى م : « منتحلة » ، صوابه ما أثبتنا من التيمورية . والمنتخلة : المختارة ، ومنه قول يزيد بن عمرو بن الصعق ، فى اللسان (فرش) :

نعلوهم بقضب منتخله لم تعد أن أفرش عنها الصقله

(٢) الغار : الجمع الكثير من الناس ، وقيل الجيش الكثير . ومنه قول الأحنف : « وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس » .

أى يَعدُّه غنيمةً ، لِثِقَتِه ببأسه ونَجْدَتِه . والله عزّ وجلّ قد قدَّرَ مِن الإظفار وإعطاء الفَلَج والغَلَبَةِ ما قدَّرَه ، لا رادَّ لحُكمه ، ولا مُعقِّب لأمرِه . ويقال قَدَرتُ من التَّقدير ، قَدْراً وقَدَراً . و «ما هو قادِرُ» إن شئتَ جعلتَ ما موصولاً بمعنى الذى ، وإن شئتَ جعلتَه موصوفاً بمعنى شيئاً . وعلى الوجهين وجَبَ أن يَقُولَ ما هو قادِرُهُ ، فحَذَفَ الضَّمير تخفيفا .

٦— فلم أرَ يَوْمًا كان أكْثرَ سَالِبًا ومُسْتَلَبًا سِرْبالَه لا يُنَاكِرُ

قوله « كان أكثرَ سالباً » من صِفَةِ اليومِ ، والمُفضَّل محذوفُ الذِّكر ، كأنه قال مِن ذلك اليَوْم . وانتَصبَ « سرباله » على أنه مفعول ثانٍ من مُسْتَلَباً . و « لا يُناكِرُ » فى موضع الصِّفة له ، كأنَّه قال وأكثرَ مستلَباً ذا صفتُه . ومعنى لا يناكِر : لا يَقْدَر على الامتناع . يُقالُ ناكَرَنِى ، أى دافَعَنِى ومانَعَنِى . يقول : ما رأيتُ يوماً حَصلَ فيه من السَّالِبِينَ والمسلوبِينَ مثلَ ما اجتمع فى ذلك اليوم ولا وقْعَةً أظهَرَ حالاً وأكْشَفَ أمراً فى قُوَّةِ غالِبِها وضَعْفِ مغلوبِها ، واستسلام المقهور المسلوب واستعلاء القاهر السالب ، من تلك الوقْعَة .

٧ — وأكْثرَ مِنّا يافِعًا يَبْتَغِى العُلَى يُضارِبُ قِرْنًا دارِعًا وهو حاسِرُ

فى هذا أيضاً حَذْفٌ وإيجازٌ كما كان فى البيت الأوّل ، كأنه قال : ولم أرَ قَوْمًا كان أكثرَ شابًّا يطْلُبُ الصِّيتَ والذِّكر ، ويعِفُّ عن الغنيمة فى الرَّوْع ، فيضارِبُ نَظِيراً له فى البأس مستلئماً ، وهو ينازِلُهُ حاسِراً متجرِّداً — من قَوِمنا . وقولُه «وهو حاسِرُ» حالٌ للمُضمَرِ فى يُضارِب ، ويُضارِب ويبتغى جميعاً صفتان لقولِه يافِعاً ، وعلى هذا قد حَذَف حَرْف العطف من قولِهِ يُضارِبُ ، لأنّ الجُمَلَ حقُّها إذا وُصِفَ بها النَّكِرات أن يُنْسَقَ بعضُها على بعض بحرف

العطف . ويجوز أن يكون يُضارِبُ فى موضِع الحال مما فى يبتغى . واليافع : الشابُّ المُتناهِى الشَّبابِ ، والفِعْل منه أيْفَع الغُلامُ وتيَفَّع . وبابُ يَفَع مقصورٌ على الارتفاع والإشراف فى الجَبَل والأرضِ وغيرهما . ويقالُ غُلامٌ يَفَاعٌ ويَفَعَةٌ ويافِعٌ ، ولا يُقالُ مُوفِعٌ . وجَعَلَ القِرْنَ دَارِعاً وصاحِبَه حاسِراً ، تفضيلاً له عليه . وقد يوصَفُ الممدوح بلبس الدِّرْع ويُرادُ به حَزَامَتُه وتحرُّزُه ، كما يُوصَفُ بضِدِّه ويُرادُ وجُرْأته .

٨ — فَمَا كَلَّتِ الأيدى ولا انْأَطَرَ القَنَا ولا عَثَرَتْ مِنَّا الجُدودُ العَوَاثِرُ

نَبَّهَ بهذا الكلام على تَساعُد أحوالِهم فيما تردَّدوا فيه ، وتَناصُرِ أسبابهم عندما لابَسوه ونَهَضُوا له . وإمكانُ الفُرَصِ فيما يُقرِّب التمكُّنَ من العَدُوِّ ، وارتفاعُ العِلَل من مُوجِبات القَهْرِ والعُلُوّ . فيقول : قَوِيَتْ أيدى المقاتلين منّا فلم يَمَسَّها لُغُوبٌ ، وَوَفَتِ الأسلحة بمواعيدها من البقاء فلم يَخُنْ رُمْحٌ [منها[1]] بانكسارٍ وفُتورٍ ، ولا سَيفٌ بنُبُوٍّ وكُلُول ، ولا خَذَلَتْنا جدودُنَا فمالَتْ إلى تَعَثُّرٍ أو سُقوطٍ . وإذا توازرت هذه الأسبابُ وتعاوَنَتْ ، فحصَل الجِدّ والجَدّ ، وانزاحت العِلَلُ فى الدَّواعى والآلات ، كان الكَمالُ فى نَيْلِ المُرادِ . وقوله « انأطر » فى معنى انعطف وتَثَنَّى . يُقال أطَرْتُه فانأطَرَ ، ومنه إطار[2] الباب والمُنْخُل . وقولُه « ولا عَثَرَتْ منا الجُدُود العواثر » ، مثل قول الآخرِ[3] :

* ولا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[4] *

لأنه لم يُثْبِتْ لأنفسِهم جدوداً من شأنها أن تَزِلَّ وتَعثُرَ ثمَّ نَفَى ذلك عنها

---

(١) هذه من م والتيمورية .

(٢) فى الأصل : « إطارات » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .

(٣) هو ابن أحمر . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .

(٤) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *

فى ذلك اليوم ، بل أراد أنّهم لا جدودَ لهم بهذه الصفة ، كما أنّ الشاعر الآخَرَ أراد لا ضَبَّ فينجحر . ومعنى الكلام : كان الغَلَبُ لنا وتعثَّرت جدودُ غيرِنا .

١٩٥

وقال الأَخْرَمُ السِّنْبِسى[1] :

١ — أَلاَ إِنَّ قُرْطاً على آلَةٍ ‏ ‏ ‏ أَلاَ إِنَّنِى كَيْدَهُ ما أَكِيدُ[2]

يقال : فلانٌ لى على حالةٍ وعلى آلةٍ ، إذا تَنَكَّرَ وتغيَّرَ عما كان يُعْهَدُ عليه من قَبْلُ . وهذا يجرى مجرَى الكِنايات . ويُقال أيضاً : حَصَلَ فُلاَنٌ لنا على لَوْنٍ ، يُرَادُ على لون مذمومٍ . فيقول : إنّ هذا الرجل تحوَّلَ عما كان يجرى عليه مَعِى ، إلى أمْرٍ أُنْكِرُهُ ولا أعْرِفُهُ ، ألاَ إنّنى أكيدُ كَيْدَهُ ، أى أقابِلُ كَيْدَهُ لى بِكَيدٍ مثله . وما زائدةٌ ، وتلخيصُه : أكيدُه كَيْداً يُماثل كَيْدَه لى . وهذا كما يُقال ضربَهُ ضَرْبَ غريبةِ الإبل . والمعنى : أقتدِى به فيما تنطوى لى عليه ويعامِلُنِى به ، لا أبتدئه بمَساءةٍ ، ولا أعاجِلُهُ بمَكْرٍ وخِيَانةٍ ، بل أُقَلِّدُه البَغْىَ ، وأنتظر من جِهَتِهِ الحؤولَ والنَّكْثَ ، ثم أجازيه كَيْلَ الصَّاع بالصَّاع .

٢ — بَعِيدُ الوَلاء بَعِيدُ المَحَـ ‏ ‏ ‏ ـلِّ مَنْ يَنْأَ عَنْكَ فذاكَ السَّعِيدُ

يَذُمُّ قُرْطاً فيقول : هو بعيدُ النُّصْرَةِ والمُوَالاة ، أى بطيئها ، بعيد الدار والمَسْكَن ؛ يعنى تنائيها . ثم قال : مَن بَعُدَ عنك فقد سَعِدَ جَدُّهُ . نَقَلَ الكلامَ عن الإخبارِ إلى الخِطَابِ على عادَتِهِم فى افتنانهم ، وكأنّه التفت إليه يُرِيه الزَّهادة

(١) الأخرم ، بالخاء المعجمة بعدها راء مهملة . وفى الأصل والتيمورية : « الأحزم » ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى . التبريزى : « قال أبو هلال : إن سنبس امرأة عمرو بن الغوث ابن طيىء ولدت له ثعل ونبهان ، فهم ينسبون بها » وفى القاموس إن سنبس بن معاوية بن جرول ، أبو حى من طيىء .

(٢) التبريزى : « قرط : رجل من سنبس » .

فى مجاوَرَتِه ، والاستغناء عن معونَتِه ، واكتفاءهم بأنفسهم دونه ، فقال ذلك بعد ما أخَذَ فى وصفه .

٣ – وعِزٌّ المَحَلِّ لَنا بَائِنٌ بَنَاهُ الإِلٰـهُ ومَجْـدٌ تَليدُ

الهاء من قولِهِ « بَنَاهُ الإِلٰـهُ » يجوز أن يكون للعزّ ، ويجوز أن يكون للمحلّ . فإذا جعلته للعِزّ فالأَجْوَد أن ينعطف مَجْدٌ على الإلـه ، كأنّ العِزّ حَصَل للمَحَلّ بالله تعالى وبمجْدِ الآباء . وإذا جَعَلْتَهُ للمحلّ يجوز أن يَرْتفِع ومَجْدٌ بالابتداء ، ويكونُ الكلام مُنْقطِعاً والخبرُ محذوفاً ، كأنّه قالَ : ولنا مَجْدٌ تليدٌ . وبناهُ الإلٰهُ فى موضع الحال للمحلّ ، والأجود أن يُضْمر مَعَهُ قَدْ . وإنما يفتخر بأنّ بلادهم حصينَةٌ ، وديارهم عزيزةٌ . وذلك أن بِلاد طَيِّئٍ يكتَنِفها جبلاهُمُ أجأٌ وسَلْمَى ، فلا تَسْتَطْرِقُهم الغَارَات ، ولا تهجُم عليهم سوابق الفَلَتات والنَّزَوات . فيقول : عِزُّنا فى دارِنا ظاهِرٌ للناس غيرُ خافٍ ، آثَرَنَا الله تَعَالَى به ، ولنَا مَجْدٌ مُتَوَارَثٌ . وأصْلُ المَجْدِ الـكَثْرةُ . والتَّالِدُ والتَّليد : القديم .

٤ – ومَأْثُرَةِ المَجْدِ كانَتْ لَنَا وأَوْرَثَنَاهَا أَبُونا لَبِيـدُ[١]

مَأْثُرَةٌ : مَفْعُلَةٌ من أَثَرْتُ الحديثَ ، إذا رَفَعْتَه ونَسَبْتَهُ . يريد : أنّ العِزّ اجتمع لهم مُـكْتَسَباً وموروثاً ، وتالداً وطرِيفاً ، ومُخَوَّلاً من عند الله تَعَالَى تَخْوِيلاً ، فلهم بذلك صِيتٌ فى النّاس يُؤْثر ، وذِكْرٌ على مَرِّ الأيّام يُخَلد ، وثناء يَتَّصِل ولا ينقطِع ، وسَنَاء يستمرّ ولا يَقِفُ ، كما كان لأبيهم لَبِيد .

٥ – لَنَا بَاحَةٌ ضَبِسٌ نَابُهَا يَهُونُ على حَامِيَهْا الوَعِيـدُ

البَاحَةُ: السَّاحةُ . والضَّبِسُ : الشديد . ويقال هوضَبِسٌ شَرِسٌ ، فى الحريص

(١) هو لبيد بن ضبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء . نهاية الأرب (٢ : ٣٠٠) والأغانى (١٤ : ٩٠) .

الشديد . والنّابُ : سيِّد القوم . وأراد بالحاميَيْن جَبَلَىْ طَيِّئٍ[١] ، والضميرُ منها يعودُ إلى السَّاحةِ . ويجوز أن يريدَ بالناب واحد الأنياب ، وجَعَلَهُ مَثَلاً للشِّدَّة . وذكَرَ الباحةَ والمُرَادُ أهلَها ، كما قال الآخر[٢] :

وإنْ مُقْرَمٌ مِنّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تَخَمَّطَ فِينَا نَابُ آخَرَ مُقْرَمِ

يقول : لنا ساحةُ دارٍ رئيسُها والمُدافِعُ عَنْها شَكِسُ الخُلق ، شديد الإباء على الأعداء ، يَهُونُ وعيدُ المتوعِّدين على النّازلين فى جوانب جَبَلَيْها ، المانِعَيْن مِنْهَا . وقوْله « على حامِيَيْها » حذَف المُضاف وأقام المضاف إليه مقامَهُ .

٦ – بها قُضُبٌ هِنْدُوانِيَّةٌ وعِيصٌ تَزَاءَرُ فيه الأسودُ

٧ – ثمانُونَ ألفًا ولم أُحْصِهِمْ وقد بَلَغَتْ رَجْمَهَا أو تزيدُ

نَبَّهَ بهذا الكلام على أنّ ديارَهُم تَحْوِى العَدَدَ والعُدَّة ، فرجالُهم أسُودٌ فى مَأسَدَتِها تَزْئِرُ فيها[٣] ، وسلاحهم الهِنْدُوانيّةُ يستعملونها[٤] . والعِيصُ : الأصل الكريم ، ومَنَابتُ كرائم الأشجار الملتفّة ، ومنه قولُهم « أعْياصُ قُرَيشٍ » لكِرامِهِم وقوله « ثمانُونَ ألفًا » هو تبيين كَمِّيّة ما أشار إليه ، وتفصيلُ ثَروتِهم بعد الإجمال ، فقال : هو ثمانون ألفًا ، ولستُ أقول هذا عن إحصاء وعَدٍّ ، أو ضَبْطٍ بعد حَصْرٍ ، لكنّهُ رَجْمٌ مِنّى وحَدْسٌ ، فهم يَبْلُغونه أو يزيدون عليه . وتحقيق قولِه « لم أُحْصِها » ، لم أَضْبِط كَثْرَتَها . والحَصَاةُ تُستعمل فى الكَثْرة والعَقْلِ . وقَوْله « وقد بَلَغَتْ رَجْمَها » ، أى رَجْمِى لها ، أُضِيفَ المَصْدر إلى المفعول .

---

(١) التبريزى : « وقيل حامياها : جانباها الأمنعان منها مثل حوامى الحصن ، وهى البروج . وقيل : حامياها : الخيل والسلاح » .

(٢) هو أوس بن حجر . ديوانه ص ٢٧ .

(٣) يقال هذا للفعل من باب ضرب ومنع وسمع .

(٤) الهندوانية بضم الهاء وكسرها ، مع ضم الدال : منسوبة إلى الهند على غير قياس .

١٩٦

وقال عبد الرحمن المَعْنِىُّ[(١)] :

١ — قد قَارَعَتْ مَعْنٌ قِرَاعاً صُلْبَا
٢ — قِرَاعَ قَوْمٍ يُحسِنُونَ الضَّرْبَا
٣ — تَرَى مع الرَّوْعِ الغُلامَ الشَّطْبَا
٤ — إذا أَحَسَّ وَجَعًا أو كَرْبَا
٥ — دَنَا فما يَزْدَادُ إلا قُرْبَا
٦ — تَمَرُّسَ الجَرْباءِ لاقَتْ جُرْبَا

أصلُ القَرْعِ الضَّربُ على الشَّىء الصُّلب . ومَعْنٌ : قَبيلة . يريدُ أنَّها ضَارَبَتْ أعداءَها ضِرَاباً شَدِيداً ، ودافعَتْهُمْ دِفاعاً مَرْضِيًّا ، ضِرَابَ قَوْمٍ لهم نِيقةٌ[(٢)] حسنةٌ فى القتال ، وأخْذَةٌ عجيبةٌ فى اللِّقاء ، يهتدُون للغِلاَب والاعتلاء أحسنَ اهتداء ، ويتأَتَّوْن للقِراع من أقْرَب غايةٍ وإلى أبعدِ انتهاء ؛ تَرَى عند اهتياج الفَزَعِ الغلامَ التامَّ القامةِ منهم ، القليلَ اللَّحم ، المطاولَ عند مبارزة الخصم متى أدْرَكَ وَجَعًا ، أو أحَسَّ شِدَّةً وضيقاً ، يُقْدِم ولا يُحْجِمْ ، بل يزْدَاد على حَدِّ الجِذَاب مُصَادَمَة ، وعلى طول المِرَاس مكافَحةً ومكافَّةً ، فيَحتكّ بالأبطالِ فى المواقِف احتكاكَ الإبل الجَرْبَى فى المعاطِن .

(١) شاعر إسلامى ، قال هذه الأرجوزة فى لقاء بنى معن الحرورية ، كما نص التبريزى . وانظر أول الحماسية السابقة . التبريزى : « قال أبو هلال : هذا الشاعر يعرف بمرقس — بفتح الميم والقاف ، والسين غير معجمة — أحد بنى معن بن عتود ، ثم أحد بنى حى بن معن » .

(٢) النيقة ، بالكسر : اسم من التنوق بمعنى التأنق . وهو التجود والمبالغة .

قوله « تَرَى مع الرَّوْع » أى عند حصول الرَّوع لا يتأخَّر عنه ، فهو معه يَقُومُ بقيامه ، ويهتاج باهتياجه .

وقوله « إذا أحسَّ » ظَرْفٌ لقولِهِ دَنَا . وانتصَبَ « تَحَكُّك[1] » على أنّه مَصْدَرٌ من فِعْلٍ دَلَّ عليه قولُه « فما يزدادُ إلاّ قُرْبا » .

وقوله « لاقَتْ جَرْبَى » يجوز أن يكون جمعَ أجْرب وجَرِبٍ كأَحْمَقَ وحَمِقٍ وحمقَى . ويجوز أن يكون مقصوراً من جَرْباء ، والشاعِر أن يَقْصُرَ الممدود . أى تَحَكُّكَ الجَرْباء لاقَتْ جَرباء مِثلَها . ويجوز أن يُرْوى « جُرْبًا » بضمّ الجيم ، فيكون كأَسْوَدَ وسُودٍ ، وأقلَفَ وقُلْف .

١٩٧

وقال عبيدُ بن مَاوِيَّة[2] :

١ — أَلا حيِّ لَيْلَى وأَطْلالَهَا ورَمْلَةَ رَيًّا وأَجْبَـــــالَهَا

يخاطبُ نَفسَهُ مُظهِراً التَّجلُّد ، ومتبجِّحًا بأنَّ الشدائد لا تُنْسِيه الأحِبَّةَ ولا تَفْتَاقُه عن التَّسليم عليها ، والوقوف على منازِلِها ومساءلتها[3] ، وأنَّهُ مَتَى مُنِىَ بها أهمَّهُ أمرُها أشدَّ مما كان قبلُ ، ولم يَلْهَ عَنْها ؛ فيقول : سَلِّمْ عَلى هذه المرأة وعلى ديارها ، وعلى رِمَالِ رَيًّا والجبال المحيطة بها ، وإن طَرَقَكَ من الحوادِثِ ما يَشْغَلُ عن مِثْله .

٢ — وأَنعِمْ بِما أَرْسَلَتْ بالَهَا ونَالَ التَّحِيَّةَ مَنْ نالَهَا

قوله « بما أرْسَلَتْ » أى بَدَلاً مما أرْسَلَتْ . وما مع الفِعْل فى تقدير مصدر ، يعنى بإرْسَالِها . وتقول العَرَبُ : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ منه ، وهذا لك من ذاك

---

(١) كذا فى جميع النسخ . والوجه « تمرس » كما هو نص الشعر فى جميعها .

(٢) عبيد ، ضبط بفتح العين وكسر الباء فى الأصل . وضبط بالتصغير فى م والتبريزى .

(٣) هذه الكلمة من م والتيمورية .

فى معناه . وعلى هذا قول الشّاعر[١] .

لَيْتَ لنَا من مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ على الطَّهَيَانِ

أى عِوَضاً من ماء زَمْزَم . والبَالُ والخَلَدُ يُستعملان على طريقة واحدة ، يقولون : وَقَعَ فى خَلَدِى كذا ، وسَقَطَ على بالى وخَطَر بِبَالِى . والمعنى : قل أنعمَ الله بالَهَا ، جوَاباً لتحيّتها ، وجزَاء على مُرَاسلتها . وقولُه «ونَالَ التحيّة مَنْ نالها» يحتمل وجهين . يجوز أن يكون المعنى : وأصاب المُلكَ من أصابَ هذه المرأة . وهذا الكلام تفخيمٌ لشأن المرأة وتعظيم لخطبها . ويقال نِلْتُ كذا أنالُ نيلاً . والتَّحِيَّةُ : المُلكُ ، ومنه التحيات لله . وقيل فى قول الشاعر[٢] :

ولَـكُلُّ ما نالَ الفتى قد نِلتُهُ إلا التَّحيّهْ

إنَّه أراد به تحيّة المَلِك ، وهو قولهم فى مخاطبته : أبيتَ اللَّعْن ، والمَعنَى معنًى واحدٌ . ويجوز أن يكون نال بمَعْنى أنَالَ . قال أبو زيد : يقال نُلْتُه أنُولُه[٣] نَوْلاً ونَوَالاً ، أى أعْطَيْتُهُ . وعلى هذا يكون الكلامُ [دعاء . والمعنى : أنالَ اللهُ التَّحِيَّةَ[٤]] من أنَالَ هذه المرأةَ تحيّتى . كأنَّه يدعو نَفْسها إلى إهداء التحيّة إليها على بُعدِها . وفى الوجه الأوّل يجوز أن تكون المرأة قريبةً .

٣ – فإنِّى لَذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ إذَا رَكِبَتْ حَالَةٌ حَالَهَا

المِرَّة : القُوّة والفَتْل ، ومنه قولُهم : استمرَّت مَرِيرَتُه ، واستمرَّ عِذَارُه ، فى الإباء والتَّمنُّع . ولم يَرْضَ بأن جعَل لِنَفسِهِ مِرَّةً حتّى وصفَها بأنها مُرَّةٌ ، يعنى فى فم ذائقِها ، وعند تجربة مُزَاوِلها . وهذ التَّجنيس حَسَنُ المَوْرِدِ . والضميرُ من

(١) هو الأحول الكندى ، أو يعلى بن الأحول . انظر اللسان (مطا ، طهى) ومعجم البلدان (طهيان) والخزانة (٢ : ٤٠٤) وشروح سقط الزند ٤٠ .

(٢) هو زهير بن جناب الكلبى . انظر المعمرين ٢٦ .

(٣) فى الأصل والتيمورية : « أنله » صوابه فى م .

(٤) التكملة من م والتيمورية .

قوله « حالَهَا » يعودُ إلى الحالة ، كأنَّهُ أضافَهُ إليها لما كانت تليها ، وجعلَها مَركوبَها . فيقول : افعَلْ ذلك واصرِفْ همَّك إليها ، وإلى الدُّعاء لها ، وطَلَب السُّقْيا لديارها ، ولا تُبالِ بما يَعِنُّ ويَعْرِض من مزاحمة عَدُوّ ، أو مراغمة حَسودٍ ، فإنِّي لَذُو قُوّة لا تَستَخْلِبها الفِرقُ المُنابِذَةُ ، إذا تراكمت الأمورُ ، وتراكبت الأحوالُ والوجوهُ ، فخَفِيتْ مواردُها ومَصادِرُها ، والتَبَسَتْ فُصُولُها ووُصولُها .

٤ — أُقَدِّمُ بالزَّجْرِ قَبْلَ الوَعِيدِ لِتَنْهَى القبائلُ جُهّالَها

يجوز أن يكون أقَدِّم بمعنى أتقدَّم ، ويكون الباء من « بالزَّجْرِ » في موضعه . ومثله نَبَّهَ بمعنى تَنَبَّهَ ، ووَجَّهَ بمعنى توجَّه ، ونَكَّبَ بمعنى تَنَكَّبَ . ويجوز أن يكون قَدَّم ضِدَّ أَخَّرَ ، ووجَبَ أن يَقُولَ : أُقَدِّم الزَّجْرَ ، فجَعَلَ الباء زائدةً للتأكيد ، كما جاء في قولِهِ : ﴿ تُنْبِتُ[1] بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ ﴾ لذلك . ومثلُه قول الشاعر[2] :

* سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[3] *

ومعنى البيت : أزجُرُ المُتعرِّض لى قبلَ أن أتوعَّده ، وأعظُه بالنَّهْيِ والتحذير قبل تخشين الجانب له ، لكي يَنْهى حُكماء القبائل سُفهاءها ، وليكون مِنّى تَدرُّجٌ في مؤاخذَتِهم ؛ فابْتَدِئُ بالزَّجْرِ ، ثم أرْتَقِي إلى الوعيدِ ، ثم إلى الإيقاع .

---

(١) هذا رسم نسخة الأصل والتيمورية . وهى مهملة الضبط فى م . وهذه القراءة هى التى يصح الاستشهاد بها على زيادة الباء ، وهى قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو ، وسلام ، وسهل ، ورويس ، والجحدرى . وقرأ الجمهور : « تنبت » بفتح التاء وضم الباء . انظر تفسير أبى حيان .

(٢) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٣) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

٥ — وقافيـةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنانِ ... تَبْقَى ويَذْهَبُ من قَالَهَا

٦ — تجودتُ فى مَجْلِسٍ واحدٍ ... قِرَاها وتِسْعِينَ أمْثَـــالَهَا

القافية : آخر البيت المشتمل على ما يجب على الشّاعر مراعاته وإعادتُه فى كل بيتٍ ، سُمّى بذلك لأنّه يَقْفُو ما قَبْلَهُ . وهم يُسَمُّون البيت بأسْرِه قافيـةً ، لاشتماله على القافية ، والقصيدةَ بأبياتها قافية ، لاشتمالها على الأبيات المقفّاة . وهذا توسّعٌ منهم ، كما يسمُّون القصيدة كلمةً ؛ والحقيقةُ ما قدَّمْتُه . والأَوْلَى بهذا الشاعر عِندى أن يريد بالقافية البيت ، لأنَّ نَظْم تسعين بيتاً غيرُ مستنكَر فى العُرف والعادةِ من المقتدرين ، المجيدين المُفْلِقين ، ذوى البَدائه العجيبة ، والخواطر السَّريعة ، ولو أرادَ القصيدة لبَعُدَ عن المعتاد . فيقول : رُبَّ قافيـةٍ تَنفُذُ نَفاذَ السِّنان ، وتَرْويه لجودَتِها[1] الرّواةُ فلا تَخْلَق على مَرّ الأيّام ، ولا تُبْليه[2] السِّنُونَ والأعوام ، بل تَبْقَى مع اللّيل والنّهار بقاء الظُّلَم والأنوار ، وإنْ دَرَج قارِضُها ، ومَضَى مُنْشِئُها ، أنا تجوَّدْتُها فى مَجْلِسٍ واحدٍ مع تسعينَ من نظائرها . يريدُ أنَّه لسانُ قومِه ، ومِذْرَه عشيرَتِهِ . ومعنَى تجوّدتُ : اخترتُ عند الجمع جَيِّدَها . وهذا كما يقال : تَنقَّيْتُ الشيء وتخيَّرْتُه . وقوله « وتسعين » أراد مع تسعين ، فيكونُ انتصابُه على أنّه مفعول معه كقولِه تعالى : ﴿ فأجْمِعُوا أمْرَكُم وشركاءَكُمْ ﴾ ، لأنَّ المرادَ مع شركائكم . ويجوز أن تكون الواو عاطفةً منه ، كأنّه قال : قِرَاها وقِرَى تسعين تُماثِلُها . وقِرَى يجوز أو يكونَ من قَرَيْتُ الماء فى الحوضِ ، ويجوز أن يكون من قَرَوْتُ الأرْضَ إذا تَتَبَّعْتَه . ويجوز أن يَكُون القِرَى ما يُطْعَمُ الضَّيْف ، فاستعاره كما قال :

(١) فى الأصل : « وترويه بجودتها » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .
(٢) كذا فى جميع النسخ . وكأن المرزوقى أجرى الضمير مرة على الشعر ومرة على القصيدة .

* قِرَى الهَمِّ إذا ضافَ الزَّمَاعَ *

كأنَّ القوافىَ لمّا تواردَتْ أحسَنَ القيام بها ، وجَوَّدَ القِرَى لها .

١٩٨

وقال ابن رَالانَ السِّنْبِسِىُّ(١) :

١ — لمّا رَأتْ مَعْشَرًا قَلَّتْ حَمُولتُهُمْ قالت سُعَادُ أهذا مالُكُمْ بَجَلاَ

الحمولة : الإبل التى يُحْمَلُ عليها . والحُمُولة بالضم : الأحمال . يقول : حين رأتْ هذه المرأةُ فَقْرَنا وقِلّةَ إبلنا قالت مُنْكِرةً ومُتَعَجِّبةً : أهذا مالُكم فحَسْب . و « بَجَلاَ » فى موضع الحال ، والمعنى أهذا مالُكم مَكْتَفًى به . والأصلُ فى بَجَلْ البناء على السكون ، ودَعَتِ الضرورةُ إلى تحريكه فحرَّكَه بالفتح ، وكان الواجب إذا حُرِّكَ الكَسْرَ فيه . ومثْلُه قول الآخر(٢) :

* ونَعَمْ إن قُلْتُمُ نَعَمَا(٣) *

لأنَّ نَعَمْ أيضاً مبنىٌّ على السُّكون فحُرِّكَ آخره للضرورة بالفتح كما تَرَى . وقد يُضافُ بَجَلْ لكونِه اسمًا كما يضافُ قد إذا كان بمعنى حَسْب . قال :

* بَجَلِى الآنَ من العَيْشِ بَجَلْ(٤) *

(١) رالان بترك الهمز فى النسخ . وهو جابر بن رالان ، سبقت له الحماسية ٩٥ ص ٣٢٤ .

(٢) هو الطائى الكبير ، كما ذكر ابن جنى فى التنبيه ، يعنى بالكبير أبا تمام . والبيت التالى فى ديوانه ٣٠٥ .

(٣) تمامه :

تقول إن قلتم لا لا مسلمة لأمركم ونعم إن قلتم نعما

وقبله :

فخروا بنى مصعب فالمكرمات بكم عادت رعانا وكانت قبلكم أكما

(٤) للبيد ، كما فى اللسان والمقاييس (بجل) . وصدره :

* فمتى أهلك فلا أحفله *

وفى قَدْ جاء :

* قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى[(١)] *

والمال عندهُم الإبل ، ولهذا يطلِقُون فيقولون : المالُ فى الرِّعى[(٢)] ، لاشتهار لفظة المال عندهم بها .

٢ — إمَّا تَرَى مالَنَا أضحَى به خَلَلٌ فقد يكونُ قديمًا يَرْتُقُ الخَلَلاَ

الخَلَلُ الأوّل النَّقْصُ ، والخَلَلُ الثانى الفُرْجَةُ بين الشيئين حتى يصحّ الرَّتْق معه . وفى الكلام اختصارٌ ، لأنّ المعنى أجْبَنَاها بأنْ قُلنا : إن كُنْتِ تَرَيْنَ اختلالَ حالنا وانتقاصَ مالنا ، وظهورَ الفاقة والفَقْرِ على [صفحات[(٣)]] ظواهرِنا ، فقديمًا كان يُسَدُّ الخَلَلُ بمالِنا ، وتُرْتَقُ الفُتُوقُ بها ، وتُرَدُّ عاديةُ الشَّرّ بتفريقها . وقوله « فقد يكون » جعَلَ اللَّفظ مستقبلاً وإن أراد المُضِيّ ، لاستمرار الحال على طريقةٍ واحدة ؛ وقد مَضَى مِثلُهُ . ويجوز أن يكون حَكَى الحالَ ، كقوله تعالى : ﴿ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ ﴾ .

٣ — قد يَعْلَمُ القومُ أنَّا يَوْمَ نَجْدَتِهِم لا نَتَّقِى بالكَمِىّ الحارِدِ الأَسَلاَ

قولُه « قد يعلمُ القومُ » الكلامُ فى استعمال لفظ المستقبل هو على ما قدمناه فى قوله « فقد يكون قديما » من البيت الذى قبله . فيقول : قد اشتَهَر من شأنِنا يومَ البأسِ والشِّدَّة ، ووقتَ احتماء الوطيس والتهاب النّائرةِ ، أنّا لا نُحْجِم فنَتَّقِى رِماحَ الأعداء بالشُّجعان ، ولكن غيرُنا يتّقى بنا فنتقدَّم إذا تأخّر ، ونستبسلُ

(١) لحميد الأرقط . الخزانة (٢ : ٤٥٣) . والخبيبان هما عبد الله ومصعب ابنا الزبير . وهو تغليب سماعى ، إذ أن عبد الله بن الزبير يكنى أبا خبيب باسم ولده . ويروى : « الخبيبين بصيغة الجمع كالأشعرين ، يراد به عبد الله بن الزبير وأصحابه .

(٢) الرعى ، فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يرعى .

(٣) هذه من م والتيمورية .

إذا تحرَّز . والحارد : المجتمِعُ الخَلْقِ الشَّدِيدُ المَهِيبُ ، الذى يُحْسَبُ من عِزِّه غَضْبانَ .

٤– لكنْ ترَى رَجُلاً فى إثْرِهِ رجُلٌ   قد غادَرَا رَجُلاً بالقَاعِ مُنْجَدِلاَ

هذا تصويرٌ لما أثْبَتَ من أفْعالِهم فى الإقْدام ، لمَّا نَفَى عن أنفُسِهم الإحجامَ ، فيقُولُ مُخاطِباً واحداً من النّاسِ : لكنّا نتهافت ونتتابع[1] حِرْصًا على القتالِ ، حتّى ترَانا من بين طاردٍ وقاتِلٍ ، وكارٍّ وفارٍّ ، وطالبٍ ومطلوبٍ . وقد ترَكا صريعاً ساقطاً على الأرض ، كأنَّ أحدهما صَرَعَ قَتيلاً والآخر يَتْبعه ليقالَ منه . ويجوز أن يكون معنى « قد غادَرَا » قد غادر كلُّ واحدٍ منهما رَجُلاً مصروعًا ، كما يقال : كَسَانَا الأمير حُلَّةً ، والمعنى كسا كلَّ واحدٍ منّا . وكقول الله تعالى : ﴿ فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً ﴾ . وفى هذه الطريقة قول الآخر[2] :

وهَلْ غَمَرَاتُ الموتِ إلاّ نِزَالُكَ الـ   ـكَمِىَّ على لحم الكَمِىِّ المُقطَّرِ

والقاعُ : المستوِى من الأرض . والمُنْجَدِلُ : المصروع . والجَدَالَةُ : الأرضُ ، كأنَّ معنَى جَدَلْتُهُ : أصَبْتُ الجَدَالَةَ به .

١٩٩

وقال قَبِيصَةُ بن النَّصْرَانِىّ الجَرْمِى[3] :

١– لَمْ أرَ خَيْلاً مِثْلَهَا يَوْمَ أدْرَكَتْ   بَنِى شَمَجَى خَلْفَ اللُّهَيْمِ على ظَهْرِ[4]

أراد بالخَيْلِ الفُرسان لا الأفراس ، كما رُوِى : « يا خيلَ اللهِ ارْكَبِى » .

(١) كذا فى جميع النسخ بالباء .
(٢) هو شريح بن قرواش العبسى . الحماسية ١٤٠ .
(٣) التبريزى : « قبيصة بن النصرانى الجرمى من طيىء » .
(٤) شمجى ، بفتحات ، من بنى الغوث بن طيىء . الاشتقاق ٢٣٥ .

وقَوْلُهُ « على ظَهْر » فى موضع الصِّفةِ لقوله « خَيْلاً » ، كأنّه قال لم أَرَ فُرْسانًا تُماثِلُها على ظَهْرٍ يومَ أدرَكَتْ هذه القبيلة خَلْفَ هـذا الجَبَل . وقوله « على ظَهْر » يحتمل وجهين : أحَدُهما أن يكون المعنَى لم أر خَيْلاً على ظَهْرِ الأرض ، كما جاء فى التّنزيل : ﴿ ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . والثانى أن يكون المعنَى : لم أَرَ خَيْلاً على ظهور الدّوابّ ، لـكنّه قَصَد الجِنْس فَوَحَّدَ كما يُقال هو يَرْتبط كذا رأساً من الدوابّ ، وكذا ظَهْرًا منها . وذكَرَ بعضُهم أنّ ظَهْرًا اسم ماء ، كأنّه قال خَلْفَ هذا الجبل على هذا الماء . وهذا إذا ثَبَت يُسَلَّمُ للسّماع . وذكَرَ بعضُ أصحابِ المعانى أنّ قَوْله « على ظَهْرٍ » يجوز أن يكون فى موضع الحال للمُضمَر فى أدركَت ، أى يومَ أدركَتْهُمْ قاهِرَةً لَهُمْ ، وعلى قَهْرٍ وغَلبةٍ فيهم ؛ من قولك ظَهَرتُ على فلانٍ ظُهوراً وظَهْرًا . وفى القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ .

٢ – أَبَرَّ بأيْمانٍ وأَجْرَأَ مُقْدَمًا   وأَنقَضَ مِنَّا لِلّذِى كان من وِتْرِ

ولمّا أراد بالخيلِ أصحابَهُ وفُرْسانَ جَيْشِه ساغَ أن يقولَ « وأَنْقَضَ مِنَّا » . ويشبه هذا ما يجىء من صلة الذى فى مثل قولِه :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ والوَجْهُ سَمَّتْهُ . وبابُ[2] الصِّلاتِ والصِّفات تتداخل وتتشابه . فيقولُ : لم أَرَ أَوْفَى بالنذور والأقسامِ إذا عَقَدْناها والتزمناها ، وأجرأَ إقداماً وثباتاً فى وجوه الأعداء إذا ناصَبْناها وكاشَفْناها ، وأسْعَى فى نَقْضِ الأوتار وإدراكِ الذحولِ بعد إبْرامِها وتَعَقُّدِها مِنَّا . ونَقْضُ الوِتْر هو حَلُّ عَقْدِهِ باشتفاء

(١) لعلى بن طالب ، كما سبق فى ص ٤٠٧ وحواشى ص ١١٠ .
(٢) كذا فى جميع النسخ ، وهو جائز فى العربية .

النَّفْسِ من الواتر الذى يُبْرِمُه . وكان الشَّريفُ الأَنِفُ منهم إذا أُصِيبَ وَوُتِر يَنْذُرُ أنَّهُ لا يَشْرَبُ خَمْرًا ولا يَقْرَب امرأةً ، أو لا يَغْسل رأسًا ، وما يَجْرِى هذا المَجْرَى مما يَكْرُثُ النَّفْسَ إذا أَخَلَّتْ به ، حَتَّى ينَال الوِتْرَ . لهذا قال امرؤ القيس بعد تأثيرِهِ فى بنى أَسَدٍ ونَيْلِهِ مُنَى النَّفْسِ فيهم :

حَلَّتْ لِىَ الخَمْرُ وكُنْتُ امرأً عَنْ شُرْبِهَا فى شُغُلٍ شَاغِلِ
فالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْمًا من الله ولاَ وَاغِلِ

فأمَّا قَوْلُ الأَعْشَى :

فَأَظْعَنْتَ وِتْرَكَ فى دَارِهِمْ وَوِتْرُكَ من قَبلِهِم لم يُقِمْ(١)

فهو فى طريقةِ قوله نَقَضْتُ الوِتْرَ منه .

٣ ـ عَشِيَّةَ قَطَّعْنَا قرائِنَ بَيْنِنَا بأسْيَافِنَا والشاهِدُونَ بَنُو بَدْرِ

أضافَ القرائنَ إلى بيننا لأنَّه جعَلهُ اسماً ونقله من باب الظُّروف . وعلى هذا قراءةُ من قرأ : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ(٢) ﴾ بالرَّفع ، والمعنى وَصْلُكمْ . ولكَ أن تروِىَ « قرائنَ بَيْنَنَا » فلا تُضِيفَ وتَترُكَ بيننا فى بابه ظَرْفاً ، كما قد قُرِئَ : ﴿ لقد تقَطَّعَ بينَكُمْ ﴾ بالنَّصب . وَيَعْنِى بالقَرَائنِ الأرْحامَ والأواصِر . وانتَصبَ « عَشِيَّةَ » على أنَّهُ بَدَلٌ من قَوْلِهِ « يَوْمَ أدركْتُ بنى شَمَجَى » فيقول : لم أرَ خيلاً تماثِلُها عَشِيَّة أرسلْنا دوابَّنا على أعدائِنا ، وأَوْقَفْنَا أَنْفُسَنَا عليهم ، فقطعنا باستعمال السّيوف الوُصَلَ الجامعةَ لنا ، والأسبابَ النّاظمة لشَتاتِنا ، وبنو بَدْر حاضِرُونَ لَنَا ، ومتوسِّطُون لما نُثيرُهُ بَيْنَنَا ، والمشاهدون لبَلائنا ، والمصدِّقُون لِمَا نَدَّعِيه من فِعلِنا .

---

(١) فى الديوان ص ٣٠ :

فأظعنت وترك من دارهم ووترك فى دارهم لم يقم

(٢) هذه هى قراءة جمهور القراء . وقرأ نافع والكسائى وحفص : « بينكم » بالفتح على البناء أو على النصب . تفسير أبى حيان (٤ : ١٨٢) فى سورة الأنعام .

٤ – فَأَصْبَحْتُ قَدْ حَلَّتْ يَمِينِي وأدْرَكَتْ بَنُو ثُعَلٍ تَبْلِي ورَاجَعَنِي شِعْرِي

يقولُ : أتى عَلَيَّ الصَّبَاحُ ثَانِيَ ذلك اليوم ، وقد حَلَّ نَذْرِي ، وأدْرَكَ قَوْمِي ذَحْلِي ، وانْطَلَق بالفخر لِسانِي ، فصِرْتُ خَفِيفَ الظَّهْرِ بعد أن كُنتُ مُثْقَلا بِعِبْءِ الوِتْرِ ، وكانَ الشِّعْرُ هَاجَرَنى وفارقَنى مُدَّةَ السَّعْى فى نَيْلِ المطلوب من إمكان فُرْصَةٍ أنتَهِزُها ، ثم رَاجَعَنِي . وهذا ضِدُّ قولِ الآخرِ(١) :

فَلَوْ أنَّ قَوْمِي أنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّماح أَجَرَّتِ

٢٠٠

وقال أَدْهَمُ بن أبي الزَّعْرَاء(٢) :

١ – قد صَبَّحَتْ مَعْنٌ بِجَمْعٍ ذِي لَجَبْ

٢ – قَيْسًا وعُبْدَانَهُمْ بالمُنْتَهَبْ

٣ – وأَسَدًا بِغَارَةٍ ذَاتِ حَدَبْ

٤ – رَجْرَاجَةٍ لم تكُ مِمَّا يُؤْتَشَبْ

٥ – إلاَّ صَمِيماً عَرَبًا إلَى عَرَبْ

٦ – تَبْكِي عَوَالِيهِمْ إذا لم تَخْتَضِبْ

٧ – من ثُغَرِ اللَّبَّاتِ يَوْمًا والحُجُبْ

---

(١) هو عمرو بن معديكرب . الحماسية ٢٩ .

(٢) شاعر طائى معنى من شعراء مخضرمى الدولتين : وأبوه سويد بن مسعود بن جعفر بن عبد الله بن طاريف بن حبى بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن معتود . المؤتلف ٣١ . يقول هذه الحماسية فى وقعة « المنتهب » ، وهى قرية فى طرف سلمى أحد جبل طيىء كانت عندها وقعة بين طيىء وحلفائهم بنى بدر بن فزارة بقيادة معدان بن عبيد بن عدى ، وبين قيس وأسد بقيادة أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهزم القيسيون أقبح هزيمة .

يُرْوَى : « الألبابِ » .

قوله «قدصَبَّحَتْ مَعْنٌ بجَمْعٍ »، الجَمْعُ : المُجتمعون: والجُمَّاعُ : المُتفرِّقُونَ . ومَعْنَى صَبَّحَتْ ، أى أَتَتْ قَيْسًا صَبَاحاً بكَتيبةٍ لهَا جَلَبَةٌ وصَوْتٌ ، لـكَثْرتِها . والعُبْدَانُ يُكْسَرُ أولُه ويُضَمُّ ، وهو جمعُ عَبْـدٍ ، يُقَالُ عَبْدٌ وأَعْبُدٌ وعَبِيدٌ وعِبَادٌ وعِبِدَّى ومَعْبُودَاء وعُبُدٌ ، فَعِبْدَانٌ جمع عَبِيدٍ . والمُنْتَهَبُ ، قيل هو اسْمُ مكانٍ ، ويجوز أن يكونَ المرادُ به الانتهاب أو مَوْضِـع الانتهاب . ومعنى البيت أَغَارَتْ هذه القبيلةُ وقصدتْ بجَيْش عظيمٍ ، بنى قَيْسٍ وعَبِيدَهُمْ بهذا المَوْضِـع . ويَعْنِى بالعَبِيدِ الرُّعَاةَ والعُسَفَاء الذين يكونونَ مع الإبِل . كأنَّهُم فى أَخْوِيَتِهِمْ ، وفى مَوْضِـعٍ كانَتْ أَمْوَالُهُمْ حاضِرَةً ، غير عَازِبَة ولا غائبَةٍ .

وقولُه « وأَسَداً بغَارَةٍ » ، يَقُولُ : وصَبَّحَتْ أَسَداً بخَيْلٍ ذاتِ اعتلاء ومَوَجَانٍ ، تَتدافَعُ فى سَيْرِها ولاتستقيم ، لـكَثْرتِها ، ولم يكونوا أَشَابَاتٍ وفِرقاً جُمِعتْ من شىء إلى شىْء . وقوله « ذاتِ حَدَبْ » يجوز أن يكونَ مصدر الأحْدَبِ ، ويكون وَصَفَ الغارةَ بالحَدَبِ كما قيلَ آلَةٌ حَدْبَاء ، وَعِزَّةٌ قَعْسَاء ، كأنَّهُ يَنْبُو ظَهْرُهَا عَمَّنْ يُرِيدُ رُكُوبَهَا واقتسارها . ويجوزأن يراد به الارتفاع والـكَثْرة . وقال الخليلُ : الحَدَبُ حَدُورٌ فى صَبَبٍ ، يعنى العَقَبَةَ . قال : ومعه حَدَبُ الرِّيحِ وحَدَبُ الرَّمْلِ . وفى القُرآن : ﴿ وهُم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . فأمّا قوله « بغَارَةٍ » فالعَرَبُ تُسَمِّى الخَيْلَ غَارَةً لأنَّها مِنْ قِبَلِها تَـكُون ، وهذا من باب تسميَةِ الشىء بمـا يكونُ من سببه . والغَارُ بلا هاء يستعملُ فى الجمع الـكثير ، وفى الحديث : « ما ظَنُّكَ بِرَجُلٍ جَمَعَ بَيْنَ هٰذَيْن الغَارَيْن[1] » .

وقولُه : « رَجْرَاجَةٍ » يقال كَتِيبَةٌ رَجراجةٌ ، أى تَضْطرِبُ وتَمُوجُ من

---

(١) فى اللسان (غور) : « ومنه قول الأحنف فى انصراف الزبير عن وقعة الجمل : وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس ثم تركهم وذهب » .

كثرتِها . وامرأةٌ رَجْرَاجَةٌ ، أى تترَجرَجُ من بُدْنِها ونَعمَتها[1] . وقولُه « مما يؤتَشَبْ » يقال أَشَبْتُهُ وائتشبْتُهُ ، أى جَمَعْتُهُ من وجُوهٍ مختلفة لا خَيْرَ فيها . وأصل الأَشَبِ الالتِفافُ . ويقال غَيْضَةٌ أَشِبَةٌ . وتَوَسَّعُوا فيه فقالوا : عِنْد فُلاَنٍ أُشَابَةٌ من المال ، أى مِمَّا كَسَبَهُ من الحرَام وما لا خَيْرَ فيه .

وقولُه « إلاّ صميماً » ، يقال هو من صميم قَوْمِهِ ، إذا كان من خالصتهم ومَحْضِ أصلِهم ؛ ومنه قَوْلُهم : صميمُ الرَّأْس والسّاق ، للعظْم الذى به قِوَامُ العُضو ، وتوسَّعُوا فقالوا : جَاء فى صميم الصَّيف أو الشِّتاء . وانتَصَب صميماً على أنَّه استثناء خَارِجٌ . وجَعَلَ قَوْلَه « عَرَباً إلى عَرَبْ » بَدَلاً منه . ومعنى إلى عَرَبْ : مع عَرَبْ ، كما يقولون : هذا إلى ذاكَ .

وقولُه « تَبـكِى عَوَالِيهِمْ إذا لم تَخْتَضِبْ » فعاليـةُ الرُّمْح وغيره أعْلاَهُ ، وقيل العاليـةُ القَنَاةُ المستقيمة . وقَوْلُهُ « إذا لم تَخْتَضِبْ » يقال خَضَبَ الرّجُلُ شَعْرَهُ ، واختَضَبَ . ولا يُذكَرُ الشَّعَرُ معه ، وقد يكون اختَضَبَ فى مطاوعة خَضَبَ . ومعنى البيت : لـكنّهم كانُوا خُلَّصًا عَرَباً مع عَرَبٍ ، عَوَّدُوا رِمَاحَهم أن تُسْقَى دِمَاءَ الصُّدُور والقُلوب ، فإذا انقَطَعَ شِرْبُها عنها تَبـكِى تَحَسُّرًا عليه ، وَوَجْداً به . وهذا مَثَل .

ويَعْنِى بثُغَرِ اللَّبّاتِ : هَزَمَاتِ التَّرَاقِى وحُجُبَ الأفئدة . ويقالُ لَبَبٌ ولَبَّةٌ ، ولذلك رُوِىَ : « مِنْ ثُغَرِ الألباب » و « اللبات » . والمعنى أنهم بُصَرَاء بالطَّعْنِ فلا يصيبون إلاّ المَقْتَل .

---

(١) البدن ، بضم الباء وفتحها : البدانة ، وهى السمن والجسامة .

٢٠١

وقالَ بُرْجُ بْنُ مُسْهِرٍ الطائِيُّ[١] :

١ — إِلَى اللهِ أَشْكُو مِنْ خَليلٍ أَوَدُّهُ ثَلاَثَ خِلاَلٍ كُلُّهَا لِيَ غَائِضُ

جَعَلَ شَكْوَاهُ إلى الله عزّ وجلّ ، ليأسه من معونة المخلوقين فيما يتألَّمُ منه ويتضَجَّرُ به . يقولُ : أشكُو ثلاثَ خِلاَلٍ من صديقٍ لى أَميلُ إليهِ ، وأُخْلِصُ الوُدَّ له ، وكُلُّ واحِدة من تلكَ الخِلاَل يَهْزِلُنِي ويَنْقُصُ من لحمى ، ويَكْسِرُ من نشاطِى . ويُقَالُ غَاضَ المَاءُ وغِضْتُه أنا ، وفى القرآن : ﴿ وغِيضَ الماءُ ﴾ فهى من باب فَعَلْتُ الشَّيءَ فَفَعَل[٢] . قال الشَّاعر :

* فلا رَاكِدٌ يَجْرِى ولا هو غَائِضُ *

٢ — فمِنهنَّ أَلاَّ تَجْمَعُ الدَّهرَ تَلْعَةٌ بُيوتًا لَنا يا تَلْعَ سَيْلُكِ غامِضُ

يجوز أن يُرْوَى « تجمَع » بالنَّصْبِ والرّفع ، فإذا نصبْتَ فلأَنَّ أَنْ قَبْلَهُ هى الناصيةُ للفِعْل ، وإذا رُفع فأَنْ تكونُ مُخَفَّفَةً من الثقيلة ، أرادَ أنّه لا تَجْمَعُ ، والهاءُ ضميرُ الأمرِ والشأنِ . ومِثْلُه فى القرآن : ﴿ أفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إليهم قَوْلاً ﴾ ، قُرِئَ يرجع بالرّفع والنَّصْب ، حَمْلاً على الوجهين المذكورين . والتَّلْعَةُ : أرضٌ مرتفعةٌ يتردَّدُ فيها السَّيْلُ إلى بطن الوادى . ويقال : فُلانٌ لا يوثَقُ

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ . قال أبو رياش : «كان سبب هذه الأبيات أن البرج بن مسهر بن جُلاس بن الأرت الطائى — واسم الأرت خالد — كان هو وعمه أبوجابر يشربان ، وكانت امرأة أبى جابر جالسة ، فانتشى البرج فقبلها ، ثم رأى عمه وقد رآه فاستحيا وكف وقال : « ياعمى غلبنى الشراب ! قال : أو لم أرك حين رأيتنى كففت واستحييب ، ولو كان الشراب غلبك لم تستحى ! اذهب فوالله لاتجمعنى وإياك محلة ولا غزوة ، ولا نجتمع فى بلد ، ولا أكلمك أبداً . فقال هذه الأبيات » .

(٢) هذا . وقال ابن جنى فى التنبيه : « أى ناقص لى ونائل منى . من غضت الماء أى نقصته . وقيل فى غائض : إنه أراد غائظ فأبدل الظاء ضادا .

بَسَيْلٍ تَلْعَته ، إذا كانَ غيرَ صَدُوقٍ فى أخبارِه . وبابُ التّامِ كله يدُورُ على الإشرافِ والارتفاع . وقولُه « يا تَلْعَ سَيْلُكِ غامِضُ » يسمِّى نُقّادُ الكلام مثلَه التفاتاً ، فهو مثلُ قول جرير فيما حُكِى عن الأصمعىّ :

مَتَى كانَ الخيامُ بذى طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أَيَّتُها الخِيَامُ

وصَلَح ترخيمُ تَلْعَةٍ وإن كانَ نكِرة ، لأنه قَصَدَ بها فى النِّدَاء إلى واحدةٍ بعينِها . ومعنى البيت : من تلك الخِلالِ التى أتألمُ منها أنِّى وإيّاهُ لا نَجْمعُ طول الدّهرِ فى مكانٍ ، ولا يَحوى بُيوتَنا تَلْعَةٌ من التِّلاع . ثم التَفَتَ مُظْهِرًا التَّضَجُّر ، ومُبْدِيًا ، التوجُّع إلى التَّلْعَةِ ، فقال : لا جرى فيكِ سَيْلٌ ، ولا ظَهَرَ بِكِ خِصْبٌ ، ولا سُقِىَ لَكِ عَهْدٌ . وهذا كأنّه للموضِع الذى لا يتّفق له مع صديقِهِ المذكورِ فيه التقاءٌ على قُرْبِه وجَوازِ كون ذلك فيه ذَنْبًا ، فأقبلَ يدْعو عليه تَضَجُّرًا به . ومن عادة الناس النَّظَرَ فى الدِّيار وما يَسْنَحُ فيها من اجتماع الأحِبَّةِ أو افتراقِهم ، وانتظام شَمْلِهم فيها أو انبتاته . وقد وَرَدَ الخبرُ بمثل ذلك أيضاً .

٣— ومنهنَّ ألاَّ أستطيعَ كلامَهُ ولا وُدَّهُ حتّى يَزُولَ عُوارِضُ

يجوز أن يُرْوَى « أستطيعُ » بالرّفع والنَّصْب على ما تقدّم فى البيت قبله . وقولُه « ولا وُدَّهُ » إنْ قيل كيف قال لا أستطيعُ وُدَّهُ ، وقد قال فى البيت الأول من خَليلٍ أَوَدُّهُ ، فأثبتَ الوُدَّ ؟ قلتَ : إنما يعنى لا أستطيعُ مُقْتَضَى وُدِّهِ ومُوجبَهُ ، فَحذَفَ المضاف . وقوله « حتى يَزولَ عُوارِضُ » ، معناهُ حتى كان ما لا يكونُ . والمرادُ بالبيت : ومن تلك الخِلال ما عَرَضَ بينى وبينه من إعراضٍ مُتَّصِلٍ وهَجْرٍ دائم ، فلا أقْدِرُ على مفاوَضَتِهِ فيما يَعِنُّ من خيْرٍ وشَرٍّ ، ولا أُطِيقُ مُباثَّتَهُ ما يَنتقِل فيه من محبوبٍ أو مكروهٍ ، ولا أستطيعُ مُوادَّتَه

ومخالَصَته بحسب الأحوال المتشابكة بيننا ، ما ثبَتَ عُوارِضٌ —وهو جَبَلٌ— ودامَ للدَّهْرِ مُتَّصَلٌ .

٤ —ومِنْهنَّ ألا يَجْمَعَ الغَزْوُ بيْنَنَا وفى الغَزْوِ ما يُلْقَى العَدُوُّ المُبَاغِضُ

وَجْهُ جَوَازِ الرَّفع فى يَجْمَعُ والنَصْب على ما تقدَّم . وقد رَتَّبَ الشّاعرُ فى هذه الأبيات مسبِّبات المَودّة ونتائجها ، وما يوجِبُه غِرَاسُ المِقَةِ وآثارُها ، أحسنَ تَرْتيبٍ ، فابتدأ عند ذكر انتفائها وامتناعها بتعذُّر الاجتماع بالأبدان فى المجالِسِ والمَحَالِّ ، لأنّهُ الأوّل والأصْلُ فى انعقادِ الوِداد ، ثم أتْبعَهُ بما يَصْحَبُ الاجتماعَ للتألُّفِ ، حتَّى لا يَنْفكَّ منه من التَّوانُسِ والتّساؤل ، والمُخالقَةِ والإلْطَافِ ، لأنَّه تِلْوُ الأوّل وثانيه . ثم أردفَ المقدّمتين بنتيجتهما من التّعاوُنِ والتّساعُد ، والاهتمام والشَّفقة عند ما يَحْدُثُ ويتجدّد من صغيرٍ وكبيرٍ ، ومَرْدودٍ ومقبولٍ ، فيقولُ : ومن تلك الأحوال أنَّ التّشارُكَ فى جَوالب الدّهر بيننا رُفِضَ ، والتألُّبَ على الأعداء من مقاصِدِنا سَقَطَ ، فلا يُؤلِّفُ بيننا مراعاةُ عزٍّ ، ولا عمارةُ وُدٍّ ، ولا يَنْظِم نوانا اجتِذابُ مَحْمِدَةٍ ، ولا دِفاعُ مَظْلِمَةٍ . ثم قال : « وفى الغَزْوِ ما يُلقَى العَدُوُّ » ما صِلَةٌ ، والمعنَى : وفى العِزِّ يُحتاج إلى الصَّديقِ المُخالِص ، إذْ كان إنَّمَا يُلْقَى فيه العَدُوُّ المُبَاغِض . فهذا وَجْهٌ . ويجوز أن يكون المعنى : وفى الغَزْوِ قد يُلقَى العَدُوُّ المُباغِضُ فكيف الصديقُ المُوادّ . والأول أشْبَهُ وأجودُ .

٥ — ويَتْرُكُ ذا البأوِ الشَّديدِ كأنَّهُ من الذُّلِّ والبَغضاء شَهْباءُ مَاخِضُ

أخَذَ يُبيِّنُ مَسَاسَ الحاجة فى الغزْوِ إلى ائتلاف الأوِدّاء ، وتعاوُنِ الأشدّاء ، فيقول : وإذ كان الغزوُ يَتْرُكُ المتَكبِّر الذاهبَ بنفسه مذاهِبَ ذَوِى الجَبْرِيَّةِ والعِزِّ ، وكأنَّهُ مما لَزِمَهُ من الذُّلِّ والبُغْضِ للخلاف والحرْب ، وتَنَاسِى الاعتلاء والقَهْرِ ، ناقةٌ شَهْباءُ أثَّرَ وجعُ الوِلادة فيها فضَعُفَتْ وسَقَطَتْ . وإنما

خَصَّ الشَّهباء بالذِّكر لأنّها أنعَمُ الإبِلِ وأرقّها ، وأقلّها صبراً وأضعفُها .

والمَخَاضُ : وجع الوِلادة ، ويستعمل فى أنواع الحيوان . والطّلْقُ لا يكونُ إلّا فى النِّساء .

٦ — فَسَائِلْ هَدَاكَ اللهُ أىَّ بَنِى أبٍ   من النَّاسِ يَسْعَى سَعْيَنَا و يُقَارِضُ

أخذ يستعطِفُ الصّديق الذى شكاهُ ، ويستميلُ بِقَلبه ، فقال : سَلْ أرشَدَكَ اللهُ للخَيْرِ وصِلَةَ الرَّحِمِ ، وعَدَلَ بك عن سبيل الضلال والقطيعة : أىُّ قَوْمٍ من النّاسِ يسعَى فى مَنْع قُوَى التّشَابُك من الانبتات ، وصَونِ عُرَى التّواصُلِ عن الانفصام ، سَعْيَنَا ؛ أو يُقارِضُ ذوى القرابات ، وإخوانَ الوداد والمصافاةِ ، فى حالَتَى السَّرّاء والضَّرّاء ، مُقَارَضَتَنَا ؛ ثم توفَّرْ علينا بمثل ما يقتضيه الخِبرةُ والمَعْرِفَةُ ، وعلى ما يَبْعَثُ عليه البَحْث والمُسَاءلة .

٧ — نُقَارِضُكَ الأَمْوَالَ والوُدَّ بَيْنَنَا   كأنَّ القُلُوبَ رَاضَهَا لكَ رَائضُ

فى الكلام إلْمَامٌ بالعَتْبِ[1] ، وإظهارٌ للاستجفاء ؛ لأنّه أخذ يُبَيِّنُ تمامَ ميلهم إليه ، وحُسْنَ احتمالهم منه ، وأنَّهم على جفائهِ لا يمنعونهُ مَالاً ، ولا يَمْذُقُونَ لَهُ وُدًّا ، وكأنَّ قلوبَهُم جُبِلَتْ على حُبِّه ، وأُشرِبَتْ مودّتَهُ ، فمتَى رَامتْ سَلْوَةً أو نُبُوًّا أُدِيرت إلى عادته[2] الأُولَى ، وعُطِفَتْ على مَحَبَّتِهِ القُدْمَى .

٨ — كَفَى بالقُبُورِ صارِماً لو رَعَيْتَهُ   ولكِنَّ ما أعْلَنْتَ بادٍ وخافِضُ

قوله « بالقبور » فى موضع الرفع على أن يكون فاعِلَ كَفَى ، وانتَصَب « صارِماً » على الحال أو التمييز . ولما كان القَصْدُ بذِكْر القُبُور إلى ما يُؤَدِّى

(١) م : « بالعيب » .
(٢) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « إعادته » .

إليها ، وهو الأجَلُ المضروب ، صَلَحَ أن يقولَ « صارِماً لو رَعيْتَهُ » . ويقالُ رَعيْتُ النُّجُومَ وراعيْتُها ، إذا راقَبْتها . وقولُه « وخافضُ » أراد به مُنْخَفِضٌ لـكنه أخرَجَهُ مَخْرَجَ النسبة كأنه قال وذو خَفْضٍ[1] . يقول : لو انتظرتَ الموتَ ، وصَبَرْتَ على المُجاملة مُدّةَ العَيْشِ ، لـكان يكفيك عند حُصُولِهِ ما تعَجَّلْتَه من الصُّرْمِ ، ولـكنّ ما أظهَرتَهُ من البُغْضِ تمـكّنَ من نَفسِك وقلبِكَ ، واستولَى على فِعْلِك وقولك فلمْ تَملِكْ معهُ صَبْرًا ، ولم تُطِقْ بما يجمعنا رِفْقًا ، فهو باطنٌ ظاهرٌ ، مُسَرٌّ مُعلَنٌ . وإنما قال هذا لأنّ الإنسان قد يُظْهِرُ خِلافَ ما يَنطوى عليه أو دُونه ، ما دامَ يَملِكُ زِمامَ تجَمُّلِهِ وتَستّرِه ، وصارَ الغَلَبةُ لِعَقْلِهِ وإرادته . فإذا كان ما يَنْبَعُ منه عن مَعِينٍ[2] فى القَلْبِ كَنِينٍ ، وعريقٍ مَكِين ، قد امتلَكَ النَّفْسَ وغَلَبَ المُسْـكَةَ والصَّبْرَ ، فذلك النِّهايةُ لا يُقْدَرُ على سَتْرِه ، ولا يُهْتَدَى إلى دفعِه . وفى القرآن ما فيه هذا المعنى قولُه تعالى : ﴿ قد بَدَتِ البَغْضاءُ من أفْواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدورُهُمْ أكْبَرُ ﴾ .

٢٠٢

وقال قَبِيصة بن النَّصرانىّ[3] :

١ — ألم تَرَ أنّ الوَرْدَ عَرَّدَ صَدْرُهُ وحادَ عن الدَّعْوَى وضَوْءِ البَوارِقِ[4]

---

(١) ساق التبريزى هذه العبارة بدون نسبة على غالب عادته ، ثم قال : « هكذا ذكره بعضهم . والجيد ما ذكره أبو العلاء ، وهو أنه لم يذكر خافضا مقابلا به قوله باد ، ولكنه خبر معطوف على خبر ، كما يقال إن فلاناً مكرم لك وكثير المال . يريد : إن هذا الذى بدا منك خافض لنا عند الناس ، أى ناقص منزلتنا فى الشرف والعز » .

(٢) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « معبى » ، محرف .

(٣) سبقت له الحماسية ١٩٩ . لكن ذكر أبو محمد الأعرابى أن هذه الأبيات للأعرج المعنى . وكان من قصة الشعر أن الأعرج المعنى حاد به فرسه يوم قتلت بنو جديلة سبعة إخوة له يوم ناصفة ، وهو قوله :

وأخرجنى من فتية لم أرد لهم فراقا وهم فى مأزق متضايق

(٤) التبريزى : « ورُوى : عَـزّ بصدره . وهو أجود الروايتين » .

التَّعريدُ : تَرْكُ القَصدِ وسُرعةُ الانهزام(١) . والمُرَادُ بالدَّعْوَى قولُ الكُمَاةِ مَن يُبارِزُ ! وخُذْها وأنا فلانٌ ! وأنا الذى من شأنِهِ كذا ! وأشْباهَه . والبَوَارِقُ ، جمع بارِقَةٍ : السُّيوف وسائر الأسلحة .

وقائل هذه الأبيات يعتذر من إحْجَامٍ اتَّفَق ، وتأخُّرٍ عن الزَّحْفِ ظَهَرَ للناسِ من فِعْلِهِ ، فأخَذَ يُوَرِّكُ بالذَّنبِ على فَرَسِهِ(٢) ، وإنّ نَفْرَتَهُ كانت السَّببَ فى نُكُوصه ، فقال على طريق التَّلَهُّف والتَّوجُّع : أما تَعلم أن فَرَسِي الوَرْدَ انحرَف عن القَصْدِ صَدْرُه ، وتَوَلَّى إلى غير الوجهة التى أُريدَها وجهُهُ ، لنُفُورِهِ عن تداعى الأبطال ، ونُكُوِاهِ عن لمعانِ السُّيوف والرِّماح .

٢ــ وأَخْرَجَنِى من فِتْيَةٍ لم أُرِدْ لَهُمْ فِرَاقًا وهُمْ فى مَأْزِقٍ مُتَضَايِقِ

قوله « وأخْرَجَنى » معطوفٌ على ما اعتلَّ بهِ من نُفُور الفَرَس ، ومَعْدُودٌ فيما أَمَّهُ من جِنايتِه عليه . والواو من قوله « وهم فى مَأْزِق » واوُ الحال ، والأزْقُ : الضِّيقُ فى الحربِ ، ومأْزِقٌ مَفْعِلٌ منه . وقال «مُتَضَايِق» لأنّ ضِيقَ المَكَرِّ فى المعارِكِ يحصلُ شيئاً بعد شىء . فيقولُ : فرَّقَ بينى وبين فِتْيان أحْبَبْتُ السكونَ معهم ، وأوْجَبْتُ على نفسى مُمَالأَتَهم ومساعدتَهم ، فى وقتٍ كُنتُ خَليقاً بالثَّباتِ معَهُم ، وإظهار البلاء فى نُصْرتهم ، وكانوا مدفوعين منه إلى ضَنْكِ مَجالٍ مِثْلِي يُستَدْعَى له ، ويُسْتَنْهضُ للإعانةِ(٣) فيه .

٣ــ وعَضَّ على فَأْسِ اللِّجامِ وعَزَّنِى عَلَى أَمْرِهِ إذْ رَدَّ أَهْلُ الحَقَائقِ

هذا بيانُ جِماحِ فرسِهِ وتأبِّيه عليه ، فيقولُ : رَكِبَ رأسَهُ وغَلبنِي على أمْرِه ،

---

(١) التبريزى : « وقوله عرد صدره ، أى عرد هو ، كما تقول ولى وجهه . والتعريد : العدو ، ومنه سميت العرادة لأنها ترمى بالحجر المرمى البعيد » .

(٢) فى اللسان : « ورك فلان ذنبه على غير توريكا ، إذا أضافه إليه وقرفه به » .

(٣) م : « للإغاثة » .

فلمّا كرّ أهلُ الحقائق لم أقدِرْ على الكرِّ معهم(١) ، ولا مَلَكْتُ رَدَّ فرَسِى مع رَدِّهم . وأهْلُ الحقائق هم الذين يَبْلُغُونَ فيما يَلُونَهُ ما يَحِقُّ ويَجِبُ . ويُقالُ حَقَّقْتُ العقدةَ ، إذا شَدَدْتَها .

٤ ــ فقُلْتُ لَهُ لمَّا بَلَوْتُ بَلاءَهُ وأنَّى بِمَتْعٍ من خليلٍ مُفَارِقِ

يُروى : « وأَبْنَا تَمَتَّعْ » . وله ، الضمير للفرَس . كأنَّه كان يخاطبه متحسِّراً ويُبَاثُّه مُتَلَهِّفا ، ويقول بعد أن مُنِيَ منه بما مُنِيَ ، وابْتُلِيَ من نَفْرَتِهِ وركوب رأسِهِ بما ابْتُلِيَ : من أيْنَ لِي الاستمتاع من خليل فَارَقْتُه ، وكيفَ أساعِدُهُ وأتحمَّلُ عنه ثِقلاً وقد باعدتُ بينى وبينَه . فقولُهُ « وأنى بِمَتْعٍ » فى موضع المفعول لِقُلْتُ . ويقالُ مَتَعَ بكذا واستَمتَع ، ومَتَّعَهُ الله به وأمْتَعَهُ . ومن رَوَى : « وأَبْنَا تَمَتَّعْ » يدخل وأَبْنَا فى جملة ما اتَّصَلَ بلمَّا ، ويكون المعنَى : ولمّا بَلَوْتُ بلاءَهُ وأكْرَهَنِى على مرادِه ، فانْصَرفْنَا من مَقْصَدِنَا ، قُلْتُ له مُقَرِّعاً ومُتوجِّعاً : الآنَ تَمَتَّعْ من أجلِ خليل بَعَّدتَ بينى وبينه . كأنَ تفَجُّعَهُ امتدَّ أوّلا وآخِراً ، وقبل الأوبةِ وبَعْدَها وجوابُ لمّا فى الوجهين قوله فقلتُ بما اتصَلَ به .

٥ ــ أُحَدِّثُ مَنْ لاقَيْتُ يَوْماً بَلاءَهُ وهُمْ يَحْسِبُونَ أنَّنِى غَيْرُ صادِقِ

يقال حَدَّثْتُهُ كذا وبكذا ، فيُحْمَلُ على خَبَّرْتُهُ كذا وبكذا ، ونَبَّأْتُهُ كذا وبكذا . قال الهُذَلِيُّ :

* ولكن خَبِّرُوا قَوْمِى بَلائِى *

وقال الآخر :

* وأُنْبِئْتُهُ أنَّ الفِرَارَ خَزَايَةٌ *

يقولُ : أبثُ فى النّاسِ قِصَّتِي وقصة فَرَسِى ، وأُخْبِرُ كُلَّ من لاقَيْتُهُ بجنايتِهِ

(١) التبريزى : « ولم أقدر على الكر إذ رد أهل الحقائق خيلهم إلى القنا طاعنة إذ عصانى »

علَىّ وبَلائِهِ مَعِى ، وهم بحَسَدهِم وسوء رأيهم يُوَجِّهُون الظِّنّةَ إلىّ ، ويُسَلِّطُون التُّهمَةَ علىّ ، فأنا بَيْن تكذيبٍ وتعييرٍ معهم وفيهم .

٢٠٣

وقال أيضاً[١] :

١ – هَاجِرَتِى يا ابنَةَ آلِ سَعْدِ

٢ – أأَنْ حَلَبْتُ لِقْحَةً لِلْوَرْدِ

يُرْوَى « هَاجَرْتِنِى » على الخطَاب ، والكلامُ به ظاهر الاستقامَة . ويُرْوَى « هَاجِرَتِى » ، والمعنى أنتِ هاجِرَتِى[٢] . وقال « يا ابنةَ آلِ سَعْد » يجوز أن يريد يا ابنة سعد فزادَ الآلَ كما يُزادُ لَفْظَةُ حَىّ وذُو . ومِثْلُه قول الآخر ، أنْشَدَهُ ابن الأعرابىّ :

إنّ ابْنَ آلِ ضِرَار حِينَ أنْدُبُهُ زَيْدًا سَعَى لِىَ سَعْياً غيرَ مَكْفُورِ

أراد إنّ ابن ضِرار . وهذا بابٌ واسِعٌ مُخْتَلِفٌ . ويجوز أن يكون جَعَلَها ابنةَ الآلِ إعظاماً لها ، كما يقال يا ابنة القوم ، وقد تقدم القول فى الآل وحَقِيقَتِهِ . واللِّقْحَةُ : النّاقةُ الحَلُوب ؛ ويُوصَف به ، لا يُقالُ ناقَةٌ لِقْحةٌ ، بل يَجرِى مجرى الأسماء . يقولُ : صَارَمْتِنِى أيّتُها المرأةُ حين آثَرْتُ فَرَسِى الوَرْدَ بِابَنِ لَقُوحِى ، فَأَخْرَجَ قولَه « أأنْ حَلَبْتُ » مَخْرَجَ التّقريعِ والتّوبيخ ، وإن كان لَفْظُهُ لفظَ الاستفهام ، لأنّ المُرادَ به : ألِأَنْ حَلَبْتُ ، أى ألِهذَا الشّأْنِ كان مِنْكَ الهِجْرانُ لِى .

٣ – جَهِلْتِ من عِنَانِهِ المُمْتَدِّ

٤ – ونَظَرِى فى عِطْفِهِ الأَلَدِّ

(١) كذا فى نسخة الأصل والتبريزى . وفى م : وقال خفاف بن ندبة » .
(٢) كذا . والأوفق أن يكون المعنى : ياهاجرتى .

٥ – إِذَا جِيادُ الخَيْلِ جاءَتْ تَرْدِى

٦ – مَمْلُوءَةً من غَضَبٍ وحَرْدِ

قولُه « جَهِلْتِ من عِنَانِهِ » يجوز على مذهب أبى الحسن الأخفش أن يكون زاد « مِنْ » فى الواجبِ ، أراد جَهِلْتِ عِنَانَهُ ، ويكونُ قولُه ، « ونَظَرِى » فى موضع النَّصْبِ عَطْفًا عليه إن شِئْتَ . ومِمَّا حكاهُ من الحجَّةِ لَهُ القولُ بعضِهم : « قَدْ كَانَ من مَطَرٍ » ، « قد كان من شَىْءٍ فَخَلِّ عَنِّى » . وعلى مذهب سيبويه يكون فيه وَجْهَان : أحدُهما أن يكونَ الكلامُ مَحْمُولًا على المعنَى ، لأنَّ الجهلَ نَفْىُ العِلْمِ ، كأنّه قال بَدَلَ جَهِلْتِ : ما عَلِمْتِ وما عَرَفْتِ . والثانى أن يكون حَذَف مفعول جَهِلْتِ كأنَّهُ قال جهلْتِ من عِنَانِه الطَّويلِ مَدْلُولَه من العِتْقِ والنَّجابة ، لأنَّ الذى جهِلْتِهُ ذلك ، إذْ كان امتدادُ عُنُقِه يُدْرَكُ مُشَاهَدَةً . والشَّاعِرُ أقبلَ يُبَيِّنُ عُذْرَهَا فيما أنكرتْه وعذْرَ نفسِهِ تَفَقُّدِهِ فرسَهُ فقال : جهِلْتِ ما أَعْرِفُهُ من كرمِهِ ونَجابَتِهِ ، وما أتبيَّنُه وأستدِلُّ عليه من امتداد عنُقه ولجاج جانبِه ، واعتِرَاضِه فى مَشْيِهِ ، فلذلك استَعْظَمْتْ إيثارِى إيَّاه . وذَكَرَ العِنانَ والقَصْدُ العُنُق لأنَّ طولَه بطولها ، واللَّدَدُ أصلُهُ فى الخصومَةِ ، يقال خَصْمٌ ألَدُّ . وقوله « إذاجِيادُ الخَيْلِ » إذا ظرفٌ لما دَلَّ عليه قولُه « فى عِطْفِهِ الألَدِّ » . وقوله « تَرْدِى » فى موضع الحال ، والعامل فيه جاءت . والرَّدَيان : ضَرْبٌ من المشى . قولُه « مملوءةً » فى موضع الحال ، والعامل فيه تَرْدِى . والحَرْدُ : القَصْد ، وفى القرآن : ﴿ عَلَى حَرْدٍ قادرِينَ ﴾ ، أى على جِدٍّ من أمْرِهم ، والمعنى : إذا جاءت الخيلُ العِتاقُ قد حَمِيَتْ ونَشِطَتْ فامتلأَتْ غَضَبًا ، وصار مَشْيُها رَدَيانًا ، كان فى عِطْفِ هذا لَدَدٌ واعتراضٌ ، وفى مَشْيِه

اقتسار والتواء. والعِطْفُ من كل شيء: جانِبُهُ من لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكه. ويقال: ثَنَى عِطْفَهُ، إذا أعْرَضَ وجفَا.

٢٠٤

وقال آخر[١]:

١ — لَعَمْرُ أَخِيكَ لا يَنْفَكُّ مِنَّا أَخُو ثِقَةٍ يُعَاشُ به مَتِينُ[٢]

قوله «لَعَمْر أخيك» يجوز أن يُريدَ بأخيك نَفْسَهُ، كأنّه قال لَعَمْرِى. وجَعَلَ نَفْسَه أخاهُ على طريق الاستعطاف وتلطيف الحالِ. ويجوز أن يَكُونَ المُخاطَبُ كانَ لَهُ أخٌ يَعِزُّ عليه ويُقْسِمُ بحياتِه، فاقتدى به في ذلك إعظاماً لهُ وللمُقْسَمِ بِهِ. ولَعَمْرُ مُبْتَدَأٌ وخَبَرُهُ محذوفٌ، كأنَّهُ قال لَعَمْرُ أخِيكَ قَسَمى أو ما أُقْسِمُ به. ومعنى لا يَنفَكُّ: لا يَزَالُ. والمَتِينُ: كلُّ صُلْبٍ شديدٍ، والمصدرُ المَتانةُ، وماتَنْتُ الرَّجُلَ مُمَاتَنَةً، إذا حاكَيْتَهُ ففَعَلْتَ مثل ما يفعله من الشِّدَّة. يقولُ: وبقاءِ أخيكَ لا يزال منَّا أخٌ يوثَقُ بوُدِّهِ، ويُحْسَنُ الظَّنَّ بنيابتِه، ويُعَاشُ به وفى ظِلِّهِ، جَلْدٌ قَوِيٌّ عزيز.

٢ — مُفِيدٌ مُهْلِكٌ ولِزَازُ خَصْمٍ على المِيزانِ ذُو زِنَةٍ رَزِينُ[٣]

قوله «مُفِيدٌ مُهْلِكٌ» مثل قول الآخر:

* مُفِيدٌ مُفِيتٌ[٤] *

ويكون أفادَ متعدِّيًا إلى مفعولين، وقد حَذَفَهُما، وكذلك مُفِيتٌ. ويجوز

---

(١) التبريزى: «وقال أيضاً». فتكون الحماسية على هذا لقبيصة بن النصرانى.

(٢) رواه التبريزى: «لعمر أبيك»، ثم قال: إذا روى لعمر أخيك فإنه يجوز أن يريد بأخيه نفسه». (٣) هذا البيت وشرحه الذى يليه ساقط من م.

(٤) لكعب بن سعد الغنوى فى أمالى القالى (٢: ١٤٨). وتمامه:

مفيد مفيت المائدات معود لفعل الندى والمكرمات كسوب

أن يكون أفاد بمعنى استفاد ، فيكون معنى مُفِيدٌ مُهْلِكٌ : كَسُوبٌ بالغَزْوِ مِنْفاقٌ . والأوّل أصْلَحُ فى هذا . وقوله « لِزَازُ خَصْمٍ » لِزَازٌ كالسِّنادِ والعِمَاد وما أشبههما . واللَّزُّ أصله اللُّزوم والثَّباتُ . على ذلك قولُهم لِزَازُ الباب[1] . ثم توسَّعوا فقيل هو مِلَزٌّ فى الخصومة ولِزَازٌ ؛ وهو مُلَزَّزُ الخَلْقِ ، أى مُجْتَمِعُه . يقول : يفيدُ أولياءهُ الخيرَ والغُنْمَ ويُهلِكُ أعداءهُ ، ثم يَلزَمُ خَصْمَهُ فلا يفارقه أو يَغْلِبَه . وإذا وُزِنَ بغيرِه رَجَحَ عليه فى السَّبْرِ والاختبار ، فإذا استُخِفَّ ذلك كان هو وقورًا رزينًا . ويقال رزينٌ بَيِّنُ الرَّزانة ، وامرأةٌ رَزَانٌ .

٣ ــ يَزِيدُ نَبَالَةً عن كلِّ شيء ونافِلَةً وبعضُ القَوْمِ دُونُ

نَبالةً مصدر نَبُل . والنَّافِلةُ : الفَضْل . ودونَ ، حقيقتُه القاصِرُ عن الشيء . ويقال هو دُونَكَ فى الحَسَب على التوسُّع ، هذا إذا كان ظَرْفًا . ويقال هو دونٌ فى الرِّجال ، وما هو بدونٍ ، فيُجْعَلُ اسمًا ، والذى فى البيت هو على هذا . يقولُ : ومع اجتماع هذه الخِصال فيه مَرْوٌ ونُبْلٌ ، وحَمِيَّةٌ وعِزٌّ ، فيَفْضُلُ على كلِّ نَبيلٍ ، ويَعلُو على كلِّ ذى شأنٍ نَبيهٍ ، وبعضُ القَوْم ساقِطٌ قاصِرٌ ، متأخِّرٌ ناقِصٌ .

٢٠٥

وقال خُفَافُ بن نُدْبَةَ[2] :

١ ــ أَعَبّاسُ إنّ الذى بيْنَنَا أَبَى أن يجاوِزَهُ أَرْبَعُ

المخاطَبُ عَبّاس بن مِرْدَاس ، ومراد الشاعر أن يقول : يا عَبّاسُ ، إنّ

(١) هى الخشبة التى يلز بها .

(٢) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى . وأمه ندبة سوداء وإليها ينسب =

الحُرُمات الأربع التى تجمعنى وإياك ، مَنَعَت أن يتخطّاها ما بيننا من الشرّ ، فهو يَقِفُ دونها ، ويَقْصُرُ عن تجاوُزِها . وظاهِرُ الكلام فيه قَلْبٌ ، لأنه جعَلَ الفعلَ الذى هو المجاوزة للأربع ، والأربع هى الآبِيَةُ من أن يجاوِزَها ما حَدَثَ بينهما . وصَلَحَ ذلك لأنّ المراد لا يَلتبسُ من الكلام . وعلى هذا قول الآخر :

* كما أسْلَمَتْ وحْشِيّةٌ وَهَقَا *

لأنّ الوَهَقَ يُسْلِمُ الوَحْشِيّةَ . ويمكن أن يقال : إذا تَعَدَّى أحدُ الشيئين صاحِبَهُ فقد صار الآخَرُ كأنّهُ تعدّاهُ ، وإذا كان كذلك ساغَ أن يُجعَل لكلّ واحد منهما المجاوزةُ .

٢ ـ عَلائقُ مِنْ حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلِّ والنَّسَبُ الأرْفَعُ
٣ ـ وأنّ ثَنِيَّةَ رَأْسِ الهِجَا ءِ بَيْنى وبَيْنَكَ لا تُطْلَعُ

هذا تفسير الخِصَالِ الأربع التى أجْمَلَها . والعلائق ، جمع عِلاقة ، وهو ما يُتَعلَّق به من الشَّىء أو يُعلَّقُ به الشىء . وقوله « من حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلِّ » ، فالحَسَبُ : الشَّرَف . والإلُّ : العَهْدُ . ومعنى داخلٍ مَعَهُ ، أى مختلطٌ به . والنَّسَبُ الأرفَع يجوز أن يكون يَعْنِى به النَّسَبَ من قِبَل الأب ، لأنّه أرفع النسبين ، ويجوز أن يَعنىَ النسبَ الرفع العَلِىّ . وقد حَصَل إلى هذه الغاية

= وهى بفتح النون وضمها . وهو أحد غربان العرب ، ثانيهم عنترة ، وثالثهم السليك بن السلكة كل منهم أمه سوداء . وهو ابن عم خنساء بنت عمرو بن الشريد ، ويكنى أبا خراشة ، وله يقول عباس بن مرداس :

أبا خراشة أما كنت ذا نفر فإن قومى لم تأكلهم الضبع

وقد أسلم خفاف وبقى إلى زمان عمر . انظر الإصابة ، وأسد الغابة ، والأغانى (١٦ : ١٣٤ ـ ١٣٩) والخزانة (٢ : ٤٧٠ ـ ٤٧٥) والاشتقاق ١٧٢ ، ١٨٨ والشعر والشعراء ٣٠٠ .

من العلائق ثلاثٌ : حَسَبٌ، ونَسَبٌ ، وعَهْدٌ بينهما ، والعلاقة الباقية هى مذ كورةٌ فى البيت الذى يليه ، وهو قوله :

وأنّ ثَنيّةَ رَأْسِ الهِجا ء بينى وبينَكَ لا تُطْلَعُ

كأنّهما كانا تعاقَدَا أن لا يهجو أحدُهما صاحِبَهُ ، لا يذكُرَهُ فى الشِّعرِ فاحشًا أثلتهُ . وجعَل لرأس الهجاء عَقَبَةً تَثْنِي بشُقَّتها من يريدُ قطْعَها . ويقال طَلَعَ الثَّنِيّةَ واطَّلَعَها ، إذا أشْرَفَ عليها . فإن قيل : وما الفَصل بين الحَسَب والنَّسَب ؟ قلت : إنّ الحَسَب ما يُعَدّ من الخِصَال الكريمة ، وتَرَى الحسيبَ يوجِبُ للحسيب ويَعْرِفُ له بحَسَبه مَحَلًّا وقَدْرًا ، وإنْ لم يكُن بينهما قُرْبَى ولا قرابةٌ . والنَّسَبُ يريد به الرَّحِم والقرابة . فإنْ قيل : فما معنى الإلّ ، وما الفَرْقُ بينه وبين الخَصْلَةِ الرابعة ، وهى التعاقُدُ على تركِ الهجاء واطِّراحه ؟ قلتَ : الإلُّ : العَهدُ ، بذلك فَسّرَهُ أبو عُبيدةَ فى قولِهِ تعالى : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ ولاَ ذِمَّةً ﴾ . كأنهما كانا تواثقَا على أن لا يُدَبِّرَ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ، ولا يَسْعَى فى نَصْب المكايد له — فهذا ميثاقٌ بينهما — ثم اتفقا أيضًا على أن لا يتهاجَيا . وإذا كان كذلك فالفصل بين الأمرين ظاهر ، كما ظهر بين الحَسَب والنَّسَب .

٤ — وأَبغِضْ إلىّ بإتْيانِها إذا أنا لم أُنْسَها أُدْفَعُ(١)

قولُه «وأبغِضْ إلىّ بإتْيانِها» استُعِيرَ فيه بناء الأمر للخَبَر ، لأنّ معناه التعجُّب والتعجّب خَبَرٌ ، وهم يستعيرون المبانى للمعانى ، كما يستعيرون الجُمَل والمفردات . وهذا كما يُستَعارُ بناء الخَبَرِ للأمر كقوله : ﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ . وموضع بإتيانها رَفْعٌ على أنّه فاعلٌ ، كأنه قال بَغُضَ إتيانُها إلىّ جِدًّا . يقول : ما أَبغَضَ

(١) التبريزى : «لم آتها» .

إتيان عَقَبةِ الهجاء واطّلاعها إلىَّ ، لأنى أربأ بنفسى عنه وقَدْرى ، وأصونُ منه دينى وعِرْضى ، وأتناءى فعْلَ ذلك فلا يكون من همِّى . ولو لم أترُكْها تأثُّمًا وتكرُّمًا ثم أردتُ مناقضتك ومقاذعَتك ، لـكان ما تعاقدْنا عليه من تَرْكِه يدفعُنى عنه ، ويمنعُنى منه . فإذا ظَرْفٌ لقولِه أُدْفَعُ[1] .

٢٠٦

وقال بعضُ اللُّصوصِ من طَيِّءٍ[2] :

١ – ولما أنْ رأيتُ ابنَىْ شُمَيْطٍ بسِكَّةِ طَيِّءٍ والبابُ دُونى

٢ – تجلَّلتُ العَصَا وعلمتُ أنِّى رَهينُ مُخَيِّسٍ إنْ أدرَكونى

الشِّعرُ لبعض المتلصِّصة ، وكان أُنهِيَ حالُه إلى أمير المؤمنين علىٍّ عليه السلام وهو بالـكوفة ، فوجَّه فى طَلَبِه ابنَىْ شُمَيْطَ ، فأحسَّ بذلك وركِبَ فرَسَه

(١) روى التبريزى بعد هذه الحماسية مقطوعة أخرى لمعبد بن علقمة ونصها :

غُيِّبْتُ عن قَتل الُحتات وليتنى شهدتُ حُتاتًا حينَ ضُرِّج بالدمِ
وفى الـكفِّ منى صارمٌ ذو حقيقةٍ متى ما يُقدِّمْ فى الضريبة يُقدمِ
فيعـلمَ حيًّا مالكٍ ولفيفُها بأنْ لستُ عن قتل الُحتاتِ بمجرمِ
فقل لزهير إن شتمتَ سَرَاتَنا فلسنا بشتَّامين للمتشتِّمِ
ولـكننا نأبى الظُّلامَ ونعتصى بكلِّ رقيق الشفرتين مصمِّمِ
وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأيُنا ونشتمُ بالأفعال لا بالتكلمِ
وإن التَّمادى فى الذى كان بيننا بكفَّيك فاستأخِرْ له أو تقدَّمِ

وقد روى ابن جنى فى التنبيه منها البيت الأول .

(٢) هو شبيب بن عمرو بن كريب الطائى ، كان يصيب الطريق فى خلافة على بن أبى طالب ، فبعث إليه أحمر بن شميط العجلى وأخاه فى فوارس ، فأحس شبيب بذلك ، وركب فرسه العصا فنجا به . انظر البيان (٣ : ٨٥) وشرح التبريزى للحماسة .

العَصَا فنَجَا به ، وذكر قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات . وقولُه « والبابُ دونى » يعنى بابَ البَلَد والَمسالِح[1] . وقولُه « تَجَلَّتْ العَصَا » جوابُ لمَّا ، أى رَكِبْتُهُ على جُلِّهِ ولم أتلوَّمْ لإسراجِهِ ، خوفاً على نَفْسِى ، وعِلْمًا أنِّى إن توقَّفت أُودِعْتُ السجن مُرْتَهنًا بما كسَبَتْ يَدِى . و « مُخَيَّسٌ » : اسمُ سِجْنٍ بناهُ أمير المؤمنين عليه السلام . والتَّخْيِيسُ : التذليل ، وأصْلُهُ فى الكدِّ . على هذا قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنى قد أذِنْتُ لهم ... يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ

ويقال فى الشتم : خُيِّسَ أنفُه فيما يكره ، كما يقالُ أُرْغِمَ أنفُهُ .

٣ – ولَوْ أنِّى لَبِثْتُ لهم قليلاً ... لَجَرُّونى إلى شَيْخٍ بَطِينِ[2]

٤ – شَديدِ مَجامِعِ الكَتِفَيْنِ باقٍ ... على الحَدَثانِ مُخْتَلِفِ الشُّئُونِ[3]

قوله « قليلا » يجوز أن يكون ظَرْفاً ، يريد زماناً قليلا ، ويجوز أن يكون صفةً لَمصْدَرٍ محذوفٍ ، يريدُ لَبثًا قليلا . فيقول : لم أتمكَّث للطالبين لمّا عرَفْتُ الحال ، ولم أتباطأ معرِّجًا على إعداد شىء ، ولو ظَفِروا بى لجرُّونى إلى حضرةِ رجلٍ عظيمِ البطنِ شيخٍ ، وذلك صفةُ أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد رُوِى عن النبيّ صلوات الله عليه فى عِظَمِ بَطْنه أنه قال : « هو لكثرة عِلمِه » . وقوله « شديدِ مجامعِ الكتفيْن » من صفتِه إلى آخر البيت . يريد أنه شديد الظَّهر ، قوىّ المَتْن ، مجتمع الخَلْقِ ، وذلك خِلْقَةُ الأسد . وقوله « باقٍ على الحَدَثان » يعنى صَبْرَهُ فى حوادث الدَّهر ، وانتصابه فى وجوه بُغاة الجَوْر ، لا يأخُذُه فى

(١) م : « أو المسالح » .

(٢) رواية الجاحظ :

ولو أنظرتهم شيئاً قليلا ... لساقونى إلى شيخ بطين

(٤) رواية الجاحظ : « شديد مجالز الكتفين صلب »

طالب الحقِّ وإمضائه لومةُ لائم ، واعتراضُ مُمانعٍ(١) ، ولا يَلفِتُه عن هَدْيه وسَنَنِه كراهةُ كارهٍ ، وقَعْدَةُ خاذلٍ . وقوله « مختلفِ الشئون » يعنى طرائقه فى زُهدِه وعِلمِه وورَعِه ، وبأسِه وإقدامِه فى ذات الله ، وجُبْنِه عن محارِم الله ، وتعفُّفِه عن احتجاز المطامع ، وابتناء المصانع ، مع قلّة الاحتفال باكتساب رِضا خَلقِه ، إذا أدّاهُ إلى سَخَط ربِّه ، إلى ما لا يكاد يجتمع إلا فى مِثلِه ، ويطولُ الكلامُ بعدِّه وضَبْطِه . وفى هذه الطريقة وإن اختَلَف الوَصْفان والموصوفان قول الآخر(٢) :

قليلُ التَّشَكِّى للمُهِمِّ يُصيبُهُ كثيرُ الهَوَى شَتَّى النَّوَى والمَسالِكِ

٢٠٧

وقال حُرَيْثُ بن عَنَّابٍ(٣) :

١ — لَمَّا رأيتُ العبْدَ نَبْهانَ تارِكى بِلَمَّاعةٍ فيها الحوادثُ تَخطِرُ

٢ — نُصِرْتُ بمَنْصُورٍ وبابْنَىْ مُعَرِّضٍ وسَعْدٍ وجَبّارٍ بل اللهُ يَنْصُرُ

٣ — ولله أعطانى المَوَدَّةَ مِنهُمُ وثَبَّتَ ساقى بعد ما كِدتُ أعْثُرُ

لمّا عَلَمٌ للظّرْفِ ، وهو لوقوع الشىء لوقوع غيره ، وجوابُهُ نُصِرْتُ . وأراد بنى نَبْهانَ فذَكَرَ الجدَّ والمرادُ القومُ ، وسَمّى نَبْهانَ العَبْدَ تهْجيناً له ، ورَمْيًا إياهُ باللؤْم . واللَّمّاعة : المَفازَةُ يلمَعُ فيها السَّرابُ . وجعَلَها مَخُوفةً لا تؤمن فيها نوائب الدَّهرِ ، وحوادث الموتِ . ومعنى تَخْطِرُ تَحْدُثُ وتعترض . ويقال رُمْحٌ خَطّارٌ ، أى شديد الاهتزاز ، ومنه خَطَرانُ الفَحْلِ بذَنبِه عند الصِّيال .

(١) فى الأصل والتيمورية : « وإعراض ممانع » وفى م : « وإغراض اعتراض ممانع » ، والوجه ما أثبتنا .

(٢) هو تأبط شراً . انظر الحماسية ص ١٣ ص ٩٤ .

(٣) سبقت ترجمه فى الحماسية ٦٩ ص ٢٥٥ .

فيقول : لمّا وجدتُهم متخلِّفين عنّى وتاركين لى بمفازةٍ هذه صفتُها ، استنصرتُ غيرَهم فنصرنى اللهُ بالأقوام الذين ذكرتُهم . ولا يمتنع أن يكون الطّاعة كناية عن الأمر الشديدِ والداهية المُنكَرة . ويكون قولُه « تارِكى بطَمّاعةٍ » كما يقالُ تركتُه بحالة سَوْء ، وبآخِرِ رَمَق ، وما يجرى مَجراهُ . وقولُه « فيها الحوادثُ تَخْطِرُ » جَعَلَه مَثلاً لما لم يكن يأمَنُهُ من فنون الحوادث ، وصُروف المَتالف . ثم أخذ يشكر الله على ما عَطَفَ عليه من مَيْلِ الأقوام الذين أغاثُوه ، وثَنَى إليه من نَصْرِهم ، وعلى تثبيت قدمه بعد ما كادت تَزِلُّ به ، وتلافيه بحُسْنِ الاستمساك ، عند ما ظَنَّ من إشراف الهلاك .

٤ ــ إذا رَكِبَ النّاسُ الطريقَ رأيتَهُمْ لهُمْ قائدٌ أعمَى وآخَرُ مُبْصِرُ

الضمير من قوله « لهم قائد » يجوز أن يكون لناصِريه ، وهم الذين سَمّاهم ، ويكون الكلام مَدْحاً وما بعد هذا البيت يتلوه فى ذلك ويَتْبَع . ويجوز أن يكون لخاذِليه بنى نَبْهان ، ويكون الكلام ذَمّاً ، وما بعده يطّرِدُ معه ويذهب. ووجه المدح أن يكون المراد بقولِه « إذا رَكِبَ النّاسُ الطريقَ » إذا انتَوى النّاس نِيأتهم ، فسلكوا فى مَناجِعهم ومَزالِفهم[1] ، ومتصرّفاتهم ومَعاقِلِهم ، طرائقَهمُ الآمنة ، رأيتَ هؤلاء القومَ لعزِّهم ومَنَعَتِهِمْ يسيِّرُهم اللّيلُ والنّهار ، ويقودُهم الظُّلَمُ والأنوارُ ، لا يحذرون مَنِيعاً ، ولا يخافون مُغِيراً ، ولا ينأى عنهم استِباحةُ حِمًى ، ولا يَعرِض لهم حيثُما توجّهُوا أذًى . فالقائد الأعمى هو اللّيل ، والآخَر للبصير هو النّهار . ووجه الذمّ أنّهم لجهلهم وسوء تأتّيهم ، إذا أبصرَ النّاسُ مَراشِدَهُم واستَبصَروا فيما يُقدِمُون عليه أو يُحْجِمون عنه وجدتَ هؤلاء القومَ يستَضيئون برأيِ كلِّ أحدٍ ، ويستشيرون كلَّ ذى نِحْلَةٍ ومَذْهَب ، فيُرشِدُهم جماعة ويُغوِيهم آخرون ، على حسب اختلاف الآراءِ والمقاصِد ، لا بصيرةَ

(١) المزالف : القرى التى بين الريف والبر .

تُمْسِكُهم ، ولا عزيمةَ تَغلِبهم وتَجْذِبهم ، فهم تَبَعٌ لـكلِّ ناعِقٍ ، وجوابٌ لـكل نادِبٍ .

٥ — لهم مَنْطِقانِ يَفرَقُ الناسُ مِنهُمَا   ولَحْنانِ مَعْرُوفٌ وآخَرُ مُنْكَرُ

إذا جُعِل الـكلامُ مَدحاً على ما قدَّمْتُهُ ورتّبتُه يكون معنى « لهم مَنْطِقان » أنَّهم خطباء شعراء ، فالنّاسُ يرْهَبُون نَظْمهم ونثْرَهم ، ويهابونَ ألسنَتهم وأقوالَهم في مجالِسِ المُلوكِ ، وأنديةِ الاحتفال . ومعنى « ولَحنان معروفٌ وآخَرُ مُنْكَرُ » أنَّ لهم اصطناعاً لمُوالِيهم فلَحْنُهم فيه لحن معروفٌ حَسَنٌ مَرْجُوٌّ ، واستئصالاً لمُعادِيهم فلحنُهم فيه لحن مُنْكَرٌ مَخُوفٌ . وفي طريقة هذا الوجه قول نُصَيْب :

يُحَيَّونَ بسَّامِينَ طَوراً وتارةً   يُحَيَّونَ عَبّاسِينَ شُوسَ الحواجِبِ

واللَّحْنُ : المَعاريض ، وفي القرآن : ﴿ وَلَتَعْرِفنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ ﴾. وأصله العُدول والميلُ عن الظاهر . وإذا جُعِلَ ذمًّا لأولئك القَوْم يكون المعنى أنَّهم ذوو وجوهٍ في لقاء النَّاس مختلفةٍ ، وأقوالٍ غيرِ صادقةٍ ، فلكل منهم مَنْطِقان : أحدُهما في التقوُّل والتملُّق ، والآخر في البُهْتِ والتخرُّص ، عرَفهما النّاسُ فهم يَفْرَقون منهما . ولهم تعريضان بعْدَهما : أحدُهما يَعْتَادُونَهُ عند نكْثِ العهود ونقض العُقود ، وقد عرَفه الناس فهو مشهور من أفعالهم ؛ والآخر يتعاطَوْنَه عند إعمال حيلةٍ ، وإمضاء غِيلَةٍ ، فهو خافٍ بَعْدُ مَنْكُور .

٦ — لـكلِّ بني عَمْرِو بنِ عَوْفٍ رِباعَةٌ   وخَيْرُهمُ في الخير والشَّرِّ بُحْتُرُ

قوله « لـكل بني عمرو بن عَوْف رِباعَةٌ » ، أي لـكلٍّ واحد منهم أمرٌ مستقيمٌ ، وتدبيرٌ مرضيٌ(١) ، وأفضَلُهُمْ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء بُحْتُرُ بن عَتُود .

---

(١) كذا في م والتيمورية والتبريزي . وفي الأصل : « مضى » أي مضىء .

ويُقال : ما فى بنى فلانٍ أحدٌ يَضْبِط رِباعَتَهم[1] غيرُ فُلانٍ ، أى أمْرَهم وشأنَهم . والناس على رَبِعاتِهم[2] ورِبَاعَتِهم ، أى على استقامتهم . وحُكِيَ : تركْناهم على سَكِنَاتِهِم ورَبِعاتِهم ، أى على حالتِهم الحسنة . ولا يُقال ذلك فى غير الحَسَن . وحُكِيَ أيضاً : هو على رِبَاعَةِ قَوْمِه ، وهو ذُو رِبَاعةِ قومه ، أى سيِّدهم ومُدَبِّرُهم . فعلى هذا يجوز أن يكون المعنى لكلِّهم ذو رِبَاعةٍ ، فحذَفَ المُضافَ . ويؤيِّد هذا قَوْلُه « وخيْرهمُ فى الخير والشَّرِّ بُحْتُرُ » . وقد حُكى[3] فى هذه الأبيات معان غريبةٌ فتفَهَّمْها[4] .

٢٠٨

وقال أَبانُ بن عَبْدَةَ [بن العَيَّار[5]]

١ – إذا الدِّينُ أَوْدَى بالفَسَادِ فَقُلْ له يَدَعْنَا وَرَأْسًا من مَعَدٍّ نُصَادِمُهْ

الدِّين يجوز أن يرادَ به الطاعة والائتلاف هاهنا . ومعنى أَوْدَى بالفساد : هَلَكَ بفسادِ ذات البَيْنِ . ويجوز أن يرادَ به دينُ الإسلام ، ومعنى أَوْدَى بالفَسادِ أوقَعَ[6] بما ظَهَر من وُلاةِ الأمر ، جعلوا الخلافة مُلْكاً ، وفَىْءَ المسلمين مِلْكاً . وقيل أراد بالفَسادِ الحربَ المعروفةَ بحرب الفَسَاد ، وسُمِّيت بذلك لتناهِي الشَّرِّ والحِقدِ بين أهْلِها ، ويقالُ إنّ الواحد منهم كان يَخْصِفُ نَعْلَهُ بأُذُنِ مقتولِهِ ويشرب الماء فى قِحْفِ رأسِهِ . ويكونُ المرادُ بالدِّين فى هذا الوجه ائتلافَ

---

(١) الرباعة ، بفتح الراء وتكسر .

(٢) الربعة ، بالتحريك ، وبفتح فكسر ، وبكسر ففتح .

(٣) م والتيمورية : « جرى » .

(٤) التبريزى : « وقال ابن الخياط : يقول : لكل هؤلاء أمر وشأن ، وخيرهم بحتر ، ولا يصلح للرياسة والسياسة ، لأنه لئيم دنىء » .

(٥) التكلة من التيمورية . وذكر التبريزى أنه فى إحدى النسخ « أبان بن عبيدة » ثم قال : « عبدة بن عيار ابن مسعود بن جابر بن عمرو بن جزء » .

(٦) كذا فى جميع النسخ .

العشيرة ، لأنّ هذه الحرْبَ كانت فى أحياء طَيِّئ . والرَّأسُ : الجماعة الكثيرة . قال :

وَرَأْسِ أعْداءٍ شَــدِيدٍ أَضَمُهْ سِرْنَا إليه إذْ غَزَانَا أعْظَمُهْ(١)

وقولُه « نُصَادِمُه » أى نُدَافعُه ونُصَاكُّه . فيقول : إذا ارتفعت دعوةُ الاتِّفاق والائتلاف من بين العشائر ، وبَطَلت طاعةُ بعضهم للبَعْضِ ، وسَقَط التعاوُنُ والتجمُّع [منهم(٢)] بما يعُمُّهُم من المُبَايِنة ، ويَظهَرُ فيهم من أثر العُقُوق والمُشَاقَّةِ ، فقُلْ له ليتركْنا وجَيْشًا عظيما من قبائل مَعَدٍّ نُدَافِعُه ونحارِبُه . وإذا كان بيننا التَّوازُر والتألُّف لم نُبالِ بقبائل مَعَدٍّ كلِّها . قولُه « نُصَادِمُه » فى موضِع الحال ، أى مُصادِمِين له . وقولُه « يَدَعْنا » إن شئتَ قلتَ انجزَم بلامِ الأمر وقد حُذِف ، كأنّه قال : قل له ليدَعْنا . وإن شئتَ قلت انجزَمَ على أن يكونَ جوابَ أمرٍ محذوفٍ ، كأنَّه قال : قُلْ له دَعْهُمْ يَدَعْنا . وعلى هذا قولُه عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لِعِبَادِى الذينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ، كأنَّه قال قل لهم افعَلُوا يَفعَلوا .

٢ ــ بِبِيضٍ خِفَافٍ مُرْهَفاتٍ قواطِعٍ لداوُدَ فيها أَثْرُهُ وخواتِمُهْ

الباء من قوله « بِبِيضٍ » تعلَّقَ بنُصَادِمُه من البيت الأوّل . ويعنى بها السُّيوف . وجعلها خِفَافًا لسُرْعةِ الضاربين بها فى إعمالها . والمُرْهَفاتُ : المُرَقَّقاتُ الحدِّ ، المَوَاضِى فى الضَّرائبِ . وقال : لداوُدَ فيها خواتِمُ ، يريدُ عِتْقَها . وداوُد عليه السلام إنَّمَا سَرَدَ الدُّروعَ لمّا ليَّنَ اللهُ الحديدَ له مُعجِزةً لا السُّيوف ، لكن القَصْد إلى العِتْق والقِدَم ، لا إلى الطَّبْع والعَمَل . وقيل فيه إنَّهُ قَدَّرَ أنّ الأمْرَ

(١) الرجز للعجاج فى ديوانه ٦٤ .

(٢) هذه من م والتيمورية .

فى نسبة السُّيوف والدُّروع إلى داود على سَوَاء، لجهْلِهِ. والأثْرُ: فِرِنْدُ السَّيْف. وذِكْرُ الخواتِم مَثَلٌ، أى هى مما اتُّخِذَ فى أيامِه، واستُعمل تحت خواتِمِه.

٣– وَزُرْقٍ كَسَتْهَا رِيشَهَا مَضْرَحِيَّةٌ أَثِيثٌ خَوَافِى رِيشِهَا وقَوَادِمُهْ

٤– بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ بِيَثْرِبَ أُخْرَاهُ وبالشَّأْمِ قَادِمُهْ(١)

يَعْنِى بالزُّرْقِ نِصالاً مجلُوَّةً قُذِّذَتْ بريش صَقْرٍ. والمَضْرَحِىُّ: الكريمُ من الصُّقور، وقيل هو ما طال جَناحاهُ منها؛ وتُوُسِّع فيه فقيل للسَّيِّد السَّرِىِّ هو مَضْرَحِىٌّ. وقال «كَسَتْهَا رِيشَهَا مَضْرَحِيَّةٌ» على المجازِ، لمَّا كان القُذَذُ من جناحِها. وجَعَل فى القَوَادِمِ — وهى كبار الرِّيش — وفى الخوافى — وهى صغارُه — أثاثةً وجُثُولةً، نفْيًا للحَرَقِ(٢) والفَسادِ عنها. وذكَّرَ أثيثًا لأنَّه أجرِىَ مَجْرَى الفعل، وتأنيثُ الخَوَافى ليس بحقيقىّ. وقولُه «بجيشٍ تضِلُّ البُلْقُ فى حَجَراتِه» يصفه بالكثرة — ألا تَرَى أنَّه جعَلَ له حَجَراتٍ، وهى النَّواحى، واحدَتُها حَجْرةٌ. وفى المَثَل «يَرْبِضُ حَجْرةً ويَرْتَعِى وسَطًا» — وأنَّ البُلْقَ من الخَيْل على شُهرتِها إذا ضَلَّتْ عن أربابها فذهَبَتْ فى جوانِبه لم يُهْتَدَ إليها. وقولُه «بيَثْرِبَ أُخراهُ» يعنى مدينةَ الرسولِ عليه السلام. يريدُ أنَّ جَيْشَهُ يأخُذُ من الأرْضِ، لكثْرتِه، ما بين المدينةِ إلى الشأمِ.

٥– إذا نحن سِرْنا بين شَرْقٍ ومَغْرِبٍ تَحَرَّكَ يَقْظانُ التُّرابِ ونائِمُهْ

لم يَرْضَ بما انتهَى إليه من الوصفِ فى كَثْرَتِه، فزاد وقال: إذا سِرنا بين مشارقِ الأرض ومغارِبها طَبَّقْنا الأرضَ بكَثْرتِنا، فتزلزلَ لنا الطريقُ المسلوكةُ وغير المسلوكة. واليَقْظانُ: ما وُطِئَ بالأرجل وسُلِك، فكأنَّ تُرابَهُ

---

(١) كلمة «الشأم» كذا وردت بالهمز فى الأصل فقط.

(٢) الحرق، بالتحريك: النسل والتقطع.

مُنْتَبِهٌ . والنائم : الذى لم يُوطَأْ ولم يُسْلَك ، فكأنّ تُرابَهُ نائمٌ . وقد أحسن ما شاء فى الاستعارة ، والطِّباقِ بالنَّوم واليقظة . فأمّا قول زهير :

يُهَدُّ لَهُ ما دُونَ رملَةِ عالجٍ ومَنْ أهْلُهُ بالغَوْرِ زَالَتْ زَلازِلُه(١)

فقد حَسَّنَه التقسيم وإن كان شَأْوُه مقصورًا عن شَأْوِ هذا .

٢٠٩

وقال أُنَيْفُ بنُ حَكِيمٍ النَّبْهانىّ(٢) :

١ــ جَمَعْنا لهم من حىِّ عَوْفٍ ومالكٍ كتائبَ يُرْدِى الْمُقْرِفِينَ نَكالُها

٢ــ لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْل فاللِّوَى وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيسٍ رِعالُها

قولُه « من حىّ عَوْفٍ ومالكٍ » أراد من حَيَّىْ عوفٍ ومالكٍ فاكتفى بالتوحيد عن التثنية . ومثل هذا الاكتفاء قوله فى البيت الثانى « وقد جاوَزَت حَيَّىْ جَدِيسٍ رِعالُها » لأنّ المراد حيَّىْ طَسْمٍ وجَديسٍ فاكتَفَى بذكر أحدِهما عن الآخر ، لتجاورهما فى الذِّكر ، واشتهارهما فى العُرْف . وقوله « يُرْدِى المُقْرِفِين نَكالُها » فالإقرافُ : هُجْنَةٌ تَلْحَقُ من قِبَل الفَحْل . وخَصَّهُم بالذِّكر لأنهم عنده لا يأنَفُون من التقصير فى الحرب والنُّكول ، ولا يمتعضون من الانهزام والنُّكوصِ ، فالبلاء إليهم أسبقُ ، والنَّكالُ فيهم أبْسَط . وقوله « لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى » رتَّبَ النَّسَق بالفاء لما يُفيدُه من التعقيب بلا مُهْلَةٍ . وفى الأمرِ العامّ يُقطَعُ الحَزْنُ — وهو ما غَلُظَ من الأرض — إلى ما سَهُلَ

---

(١) ديوان زهير ١٤٤ .

(٢) هذه الحماسية تكرار للحماسية رقم ٣٣ ص ١٦٩ مع تخالف يسير فى الرواية . وهذا سهو من أبى تمام . ومن عجب أن التبريزى لم يتنبه أيضا إلى ذلك . وقد سبق اسم الشاعر « أنيف بن حكيم » . لكن ما ورد هنا فى جميع النسخ يطابق ما فى التبريزى .

من الرَّمْل ، و يُقْطَعُ الرَّمْلُ إلى اللِّوَى ، وهو مُنْتَرَقُه . وقوله « وقد جاوَزَت حَيَّىْ جديس » فإنه يعنى بلاد حَيَّىْ طَسْمٍ وجديسَ ، فحَذفَ المُضافَ . والرِّعال : جمع الرَّعْلَةِ والرَّعيل ، وهما الجماعة المتقدِّمة من الجيش . والمراد أنهم لكثرتهم شَغَلوا ما بين هذه المواضع . ومثْلُه ما تقدَّم من قولِه :

* بيَثْرِبَ أُخْراهُ وبالشَّأْمِ قادِمُهْ(١) *

٣ ـ وتَحْتَ نُحُورِ الخَيْلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ   تُتَاحُ لِغرَّاتِ القُلُوبِ نِبالُهَا

الحَرْشَفُ : الجماعة من الرَّجَّالة . ويقال راجِلٌ ورَجْلٌ ورَجْلَةٌ ورَجَّالَةٌ للمُشاةِ على أرجُلِهِم . وصَفَهم بأنَّ فيهم رُمَاةً وأنهم عند التَّعْبِيَةِ تَتَقدَّم الرَّجَّالة الرُّماة ، وخَلْفهم الفُرسان كالسَّنَدِ لهم والإيادِ(٢) ، يمنعونهم مما يُشَرِّدُهُمْ أو يُغيِّر نَظْمَهم ؛ ثم وَصَفَهُم بأنَّ نبالَهم تُقَدَّر للقلوب الغارَّة ، لأنَّهم حُذَّاقٌ يصيبون المَقاتل . ومَعْنَى « تُتَاحُ » تُهَيَّأُ . ويُقالُ تَاحَ يَتُوحُ ويَتيحُ ، لغتان . وأتاحَ الله له كذا . والغِرَّاتُ : جمع غِرَّة ، يقال جاريةٌ غِرَّةٌ : غَرِيرةٌ . ويُرْوَى « لِحَبَّاتِ القُلُوبِ » ، والمعنى ظاهر .

٤ ـ أَبَى لَهُمُ أنْ يَعْرِفوا الضَّيْمَ أنَّهُمْ   بَنُو ناتِقٍ كانت كثيراً عِيالُهَا

يقول : مَنَعَ لَهُمُ التزام الضَّيْمِ والرِّضَا بالدَّنيَّة وفُورُ عَدَدِهِم ، وذلك أنَّ العِزَّةَ فى الكثرة . ويقال نَتَقَتِ المرأة والنَّاقَةُ فهى تَنْتُقُ نُتُوقاً ، وهى كثرة الوَلَد سُرْعَةُ الحَمْلِ . وذَكَر العِيالَ استعارةً فى الأولاد ، واحِدُها عَيِّلٌ ، يقال عنده كذا عَيِّلًا . ويقال عَيِّلٌ وعَيَائِلُ ، وهو مُعِيلٌ مُعَيَّلٌ ، أى كثير العيال . وفاعِلُ أَبَى قولُه « أنَّهُمْ بَنُو ناتقٍ » ، وأنْ يَعْرِفوا فى مَوْضِع وباقى الأبيات قد تقدَّم بتفسيره(٣) .

(١) انظر الحماسية السابقة . (٢) الإيادة : ما يؤيد به الشىء ويقوى .
(٣) انظر ماسبق فى الحماسية ٣٣ ص ١٧١ — ١٧٣ .

٢١٠

وقال الكَرَوَّسُ بن زَيْدٍ[1] :

١ — رَأَتْنِي ومِنْ لُبْسِي المَشِيبُ فأمَّلَتْ غَنَائِي فكُونِي آمِلاً خَيْرَ آمِلِ[2]

يقول : رأتنى هذه القبيلة، وقد قنّعنى المشيب بخماره ، وَنَجّذَنى الدَّهرُ بأحداثه ومصائبه[3] ، فعلّقت رَجاءَها بغَنائى وكفايتى ، وشدّت أزرَها لمّا تفرّست فى نَظَرى وشهامتى ، فتوّيتُ أمَلَها ، وأكّدتُ طمعَها ، وقُلْتُ : كُونى آمِلاً خَيْرَ آمِلِ . وهذا الكلام يجوز أن يكون معناهُ دُومى على أمَلكِ وكُونى خَيْرَ آمِلٍ ، فأصدّقُ ظَنّكِ وأحقّقُ طمعَكِ . ويجوز أن يكون دعاء لها ، كأنّه قال : جعَلَكِ الله خَيرَ آمِلٍ . وخير الآمِلين مَن يُبلّغُهُ الله مَأمُولَهُ ، ويُنيلهُ طَلِبَتَه وسُولَه . وإنّما قال « كونى آمِلاً » ولم يَقُلْ آملةً ، لأنّ المُرادَ كُونِى حَيًّا آمِلاً ، فلم يقصدْ قَصْدَها .

٢ — لَئِنْ فَرِحَتْ بِي مَعْقِلٌ عِنْدَ شَيْبَتِي لَقَدْ فَرِحَتْ بِي بينَ أيْدِي القَوابِلِ

٣ — أَهَلَّ به لمّا اسْتَهَلَّ بِصَوْتِهِ حِسَانُ الوُجُوهِ لَيِّنَاتُ الأنامِلِ

يقول : إن كانت هذه القبيلة سُرّتْ بى عند كِبَرَتِى[4] ، واستِكْمالِ رَأْبِى

---

(١) شاعر إسلامى طائى . والكروس : الضخم الرأس : وهو الكروس بن زيد بن الأجذم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومانه بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيئ . قال يخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم ، وهو على المدينة :

قضى بيننا مروان أمس قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا

فلو كنت بالأرض الفضاء لعفتها ولكن أنت أبوابه من ورائيا

وهو أول من جاء بخبر الحرة الكوفة . وفيه يقول عبد الله بن الزبير الأسدى :

لعمرى لقد جاء الكروس كاظما على نبإ للمؤمنين وجيع

انظر المؤتلف ٢٧١ ومعجم المرزبانى ٣٥٦ وشرح التبريزى .

(٢) م : « غناى » .

(٣) م والتيمورية : « ومصايره »

(٤) م : « كبر » . وفى التيمورية « كربتى » ، وهذه الأخيرة محرفة .

وتَجْرِبَتِى ، فَحُقَّ لَهَا ذلك ، فقد استبْشَرَتْ بى عند وِلادتى ، وحِينَ هُنِّئَتْ بِقَدْمَتى . والقوابلُ : جمعُ القابِلَةِ ، وهى التى تقبَلُ الوَلَدَ عند الوِلادة . واللام من قوله « لَئِنْ » دَخَلَتْ مُوطِّئَةً للقَسَمِ ، وجَوَابُ القَسَمِ المَنوِىّ « لَقَدْ فَرِحَتْ » . وهذا خِلافُ قول الآخر[1] :

وهُنِّئَ بى قَوْمِى وَمَا إنْ هَنَأْتُهُمْ وأَصْبَحْتُ فى قَوْمِى ولَيْسُوا بمَنْبِتِى[2]

وقولُه « أَهَلَّ به لَمَّا استَهَلَّ بصَوْتِهِ » نَقَلَ اللفظَ إلى الغَيْبَةِ بعد أن كان فى حديث نَفْسِهِ ، على عَادَتِهِم فى تصاريفِهِم . يقول : تَبَاشَرَتْ نساءُ الحىِّ عند ميلادِى ، فرَفَعْنَ أصواتَهنَّ بالشكر لله والثَّناء عليه ، كما يُهِلُّ المُلَبِّى فى الحج ، والنَّاظِرُ إلى الهِلالِ ، حين وقَعْتُ عن أمّى[3] ، واستَهْلَلْتُ ببُكائى . وإنّما وصَفَ النِّساء بحُسْنِ الوُجوه ولِين الأبدان ، ليدلَّ على أنّهن ربائبُ نِعْمَةٍ وذواتُ نَعْمَةٍ ، لم يُقاسِينَ شَقاءَ عَيْشٍ ، ولم يَكْتَسِينَ جلابِيبَ فَقْرٍ .

٢١١

وقال قَوَّالٌ[4] :

١ — قُولاَ لِهَذَا المَرْءِ ذو جَاءَ سَاعِيًا هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفِىَّ الفَرَائِضُ

قوله « ذو جاء ساعِيًا » ذو بمعنى الذى ، وهى لفظةٌ طائيّةٌ تَجِىءُ بهذه الصُّورة فى كل حالٍ ولا تُغَيَّرُ . وقوله « هَلُمَّ » لهم فيه طريقان : منهم

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضلية رقم ٢٠ .

(٢) رواية المفضليات « وهنئ بى قوم » و « وأصبحت فى قوم » . وهى الرواية الصحيحة ؛ لأنه يريد بهؤلاء القوم بنى سلامان بن مفرج الذين أسروه . والمثبت : الأصل ، ويقع مصحفاً فى بعض الروايات : « بمنبتى » .

(٣) م : « من أمى » .

(٤) التبريزى : « قوال الطائى » . وهو شاعر إسلامى أدرك الدولة العباسية . وقد قال هذه الأبيات فى ساع جاء يطلب إبل الصدقة ، وهو أمية بن الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . انظر الخزانة (٢ : ٢٩٦) وما سبق فى ترجمة أدهم بن أبى الزعراء . الحماسية ٢٠٠ .

من يجعله اسمًا للفِعْل فلا يغيِّرُهُ عن حاله في المؤنّث والتثنية والجمع ، وهم أهل الحجاز . وفى القرآن : ﴿ والقائلينَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا ﴾ . ومنهم من يجعله هاء التنبيه وقد رُكِّبَ مع لُمَّ وهو فِعْلٌ ، فيثنّيه ويجمَعُه ويؤنِّثُه . وعلى الطريقتين جميعًا يكون ميمه مفتوحة ولا يُجْرِيه مَجْرَى رُدَّ وزُرَّ ، فيُكسَرُ آخرُه ويُضَمُّ وإن كان فِعْلاً ، وذلك لأنّ التركيب قد غيَّرَهُ فسُلِب بعضَ أحكامه . ومعنى البيت : أبلِغا المرءَ الذى جاء والِيًا للصَّدَقات ومُستوفيًا لها : أَقبِلْ وتَعَالَ ، فإنّ الذى تُعْطَى بَدَلاً من الفرائضِ السَّيْفُ . وهذا فى جَعْلِه المَشْرَفِيَّ هو الفرائضَ مجازًا ، كما قال الآخر(١) :

* تَحِيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ(٢) *

والفرائضُ : الأسنان التى تَصْلُحُ لأن تؤخَذَ فى الصَّدَقاتِ . والمَشْرَفِيّ : السَّيْفُ نُسِب إلى المشارف : قُرًى لهم كانت تُطْبَعُ السُّيوفَ فيها . وقد حُكِيَ فى المَرْءِ « الامْرُؤُ » وقد بقى ألفُ الوَصْل مع دخول الألف واللام ، إلاّ أنّه قليل .

٢ – وإنّ لنا حَمْضاً من الموتِ مُنْقَعًا   وإنّكَ مُخْتَلٌّ فهل أنت حامِضُ

العربُ تقولُ : « الخُلَّةُ خُبْزُ الإبل والحَمْضُ فاكِهَتُها » . ومعنى مُنقَعًا ثابتًا ، يقالُ « أَنقِـعْ له الشَّرَّ حتى يَسْأَمَ » أى أدِمْهُ . والمُختَلُّ : راعِى الخُلَّةِ ، وكانت الإبلُ إذا بَشِمَت الخُلَّةَ(٣) وسئمَتْه حتى اتَّخَمَتْ منه ، نَقَلوها إلى الحَمْضِ لتَشْتَهِيَ الخُلَّةَ ثانيًا . وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لهذا الساعى . يقول : إنّكَ

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره :   * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « شبمت » ، تحريف . والمعروف فى « بشم » أن يتعدى بالحرف ، يقال بشم من الطعام ، أى اتخم منه ، وأبشمه الطعام .

مَلِلْتَ العافية والسلامة ، فهلُمَّ إلى البَلاء والشَّرِّ من الوِلاية .

٣— أظُنُّكَ دُونَ المالِ ذُو جِئْتَ تَبْتَغِى سَتَلْقاكَ بِيضٌ للنُّفوسِ قوابِضُ

قوله « دُونَ المال » تعلّق بأظنُّك ، ولا يجوز أن يتعلق بقوله جئتَ ، ولا تبتغى ، لأن « ذو » يطلب من الصِّلة ما يطلبه « الذى » وإذا كان كذلك فما فى صِلَتِه لا يعمل فيما قَبْلَهُ . وقال « ذو جئتَ » وكان الأجوَدُ أن يقول : ذو جاء يبتغى(١) ، لأنه أُجرِى مُجْرى الذى ، فكما جُوِّزَ أن يقال أنت الذى فعلْتَ كذا ، و :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ(٢) *

جُوِّز فى ذو أيضاً ، لأنَّ المُرادَ به المُخاطَب . والمالُ فى الأكثر يطلقونه على الإبل ، على هذا قَوْلُهُمْ : المال فى الرِّعْيِ . والشَّاعِرُ قَصْدُه فى الكلام إلى التهكم والسُّخرِيّة ، وقد خَلَطَ به التوعُّد والاستهانة ، لذلك قال أظُنُّكَ . وقوله «ذو جئتَ» فى موضع المفعول الثانى(٣) وتبتغى فى موضع الحال ، ومفعولُهُ حُذِفَ . والمعنى أحْسِبُكَ الذى جاء دون المال تبتغى صَدَقاتِهِ ، سَتَرَى ما أُعِدَّ لك من سُيُوفٍ تنتزع الأرواحَ والمُهَج . فإن قيل : كيف استجاز تكرير معنًى واحدٍ فى بيتين على تقارُب بينهما ، وهَلاَّ اكتَفَى بقوله « هَلُمَّ فإنَّ المشرفىَّ الفرائضُ » ؟ قلتَ : إنّ قولَهُ أظُنُّكَ دون المال ذو جِئْتَ تبتغى ، بما دَخَلَهُ من التهكُّم والوعيد ، وتكشَّفَ فيه من الغَرَض المقصود ، صار كأنَّهُ أدَّى غير ما أداهُ قولُهُ « هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفىَّ الفرائضُ » . ومثله قول عيقمة بن عَبَدَةَ :

---

(١) لسنا ندرى كيف يكون هذا أجود ، أو كيف يصح . فإنه إنما يصح إذا كان « ذو » مفعولا ثانياً لأظنك ، فتكون العبارة : أظنك ذو جاء يبتغى . وليس كذلك ، بل هو صفة للفظ « المال » . وأما المفعول الثانى لأظن فهو جملة « ستلقاك » . فهذه زلة من زلات أبى على .

(٢) لعلى بن أبى طالب . انظر ٤٠٧ ، ٦١١ وحواشى ١١٥ .

(٣) هذا ما فهمه المرزوقى . والصواب أنه صفة للمال ، كما سبق التنبيه .

فإنْ تَسْألونى بالنساء فإننى بَصِيرٌ بأدواء النِّساء طَبِيبُ
إذا شابَ رَأسُ المرء أو قلَّ مَالُه فلَيْسَ له فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حيثُ علِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبابِ عِندهُنَّ عجيبُ

ألا تَرَى أنّه لم يَرَ المَعْنَى متكرِّراً فى البيتين، لما كان أحدُهما يشتمل من الاستيفاء والبيان على ما لم يشتمل عليه الآخَرُ.

٢١٢

وقال وَضَّاحُ بن إسماعيل(١) :

١ – صَبَا قَلْبِى ومَالَ إليْكِ مَيْلَا وأرَّقَنِى خَيَالُكِ يا أُثَيْلَا
٢ – يَمَانِيَةٌ تُلِمُّ بنا فتُبْدِى دَقِيقَ مَحَاسِنٍ وتُكِنُّ غَيْلَا

يقالُ صَبَا قَلْبِى يَصبُو صَبْوًا وصُبُوًّا. والصَّبْوةُ: جَهْلُ الفُتُوَّة. يقولُ: أسْهَرَنِى خَيَالُكِ، وانعدلَ قَلبِى عن وَجهِه وطِيَّتِه، ذَهاباً فيكِ، ومَيْلاً إليك. ثمَّ أخذ يصف الخيال فقال: هى تأتينى من ناحية اليمن، فتزورُ زيارةً خفيفةً لا لَبْثَ مَعَها ولا تَمَكُّثَ فأتَمَتَّعَ بها، وتُبْدِى لى فى إلمامها ما دَقَّ من محاسنِها كالعين والأنفِ والأسنان والفَم، وتَسْتُرُ ما جَلَّ منها كالمِعْصَم والساعد والساق

---

(١) وضاح: لقب غلب عليه لجماله وبهائه، ويقال له أيضاً «وضاح اليمن». وفى الأغانى: «كان وضاح اليمن، والمقنع الكندى، وأبو زبيد الطائى يردون مواسم العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفا من العين وحذرا على أنفسهم من النساء، لجمالهم». واسمه عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبى جمد، وهو من شعراء الدولة الأموية. ويزعم الرواة أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان – وهى زوجة الوليد بن عبد الملك – كانت تعشقه وأنها أرسلت إليه وإلى كثير فى حجة لها أن ينسبا بها، فأما كثير فهاب ذلك وامتنع، وأما وضاح فنسب بها، فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله.

وهذه الحماسية التى يقولها وضاح هى من إحدى القصائد التى مدح بها الوليد بن عبد الملك قبل أن يجفوه الوليد. الأغانى (٦: ٣٠ – ٤٤).

والفَخِذ ، فأسْهَرَ . كأنّه رآها فى المنام على ما كان يراها فى اليقظة خَرَادَةً[1] وحَيَاء . ويقال مِعْصَمٌ غَيْلٌ ، وساعِدٌ غَيْلٌ ، أى ممتلئٌ من اللّحم غليظ . والمحاسنُ قيل لا واحد لها ، ومثْلُه فى ذلك المَسَاوى والمذاكير . وقال الخليل : واحدُها مَحْسِنٌ ، وهى المواضِعُ الحَسَنَةُ . يقال : امرأةٌ كثيرة المحاسن .

٣ ــ ذَرِينى ما أَمْنَ بنَاتِ نَعْشٍ من الطَّيْفِ الذى يَنْتَابُ لَيْلاً[2]

يستعفِى من خيالِها لاشتِغال قلْبِه بالغزْو . والاستعفاء فى الحقيقة من الحُبِّ الذى يصوِّرُها فى فكْرِه حتى يَحْلُمَ بها . وقوله « ما أَمْنَ » الضميرُ للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكْر ، ولكنّ المرادَ مفهومٌ . وموضِعُ « ما أَمْنَ » نَصْبٌ على الظّرْف ، أى مُدَّةَ أَمْنِها ، لأنّ ما مع الفِعْلِ فى تقدير مصدرٍ حُذِف اسم الزّمانِ معه . وبنات نَعْشٍ من الكواكب الشاميّة ، وكان غَزْوُه نحوَ الروم . والمعنى : أعفينى من الصِّبا واللهو ، وشُغْل القَلْب بالحُبِّ والعِشق ، ما دمتُ فى هذا الوجه ، وقاصدًا نحو الغَزْو . وليْلاً ، انتصَبَ على الظّرف ، كأنّه كان يسير النهار ، فإذا نزَلَ ليلاً ونامَ أرّقهُ الخيال . وروَى بعضُهم : « يَأْنابُ ليلاً » وهو يفتَعِلُ من الأَوْبِ ؛ ويَنْتابُ أَوْجَه فى النَّقْدِ وأحْسَن .

٤ ــ ولكنْ إنْ أَرَدْتِ فهيِّجِينَا إذا رَمَقَتْ بأعيُنِها سُهَيْلاَ

يقولُ : إن أردتِ تشويقَنا إليكِ ، وتذكيرَنا بك ، فليكن عند مُنصرَفِنا من الغَزْو ، وقُفُولِنا من هذا الصُّقْع ، وحين تَنظُرُ خَيلُنا إلى سُهَيْل . وإنما قال ذلك لأنَّ سُهيْلاً من الكواكب اليمانِيَة . لذلك قال عمر بن أبى ربيعة :

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ[3]

(١) المعروف أخردت إخراداً ، بمعنى استحييت .

(٢) التبريزى : « ما أمنت » ولكن فى شرحه « ما أمن » كما هنا .

(٣) هذا تورية منه . والثريا هذه هى الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبة عمر . وسهيل هذا ، هو سهيل بن عبد العزيز . الأغانى (١ : ٩٠) .

هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ ومُهَيْلٌ إذا استقلَّ يمانِ

ومثل قول وَضَّاحٍ ما قاله المتلمس ، وهو :

فَلتَترُكَنَّهُمُ بليلِ ناقتى تَدَعُ السِّماكَ وتقتدى بالفرقدِ(١)

والسِّماكُ من قِبَل المَشرِق ، والفرقَدُ من قِبَل الشام .

٥ — فإنَّكَ لو رأيتَ الخَيْلَ تَعْدُو عَوَابِسَ يتَّخِذْنَ النَّقْعَ ذَيْلَا

٦ — رَأَيْتَ على مُتُونِ الخَيْلِ جِنًّا تُفيدُ مَغَانِمًا وتُفِيتُ نَيْلَا

يَصِفُ الغَزْوَ وملاقاةَ العدوّ ، وأنّه لا يحتمل التَّصابى والتبطُّل ، ولا يَصلُح للمُشتَغِلِ به التشوُّقُ والتغزُّل ، فيقول : لو رأيتَ الدَّوابَّ عاديةً بفُرسانها وقد تكلَّحَتْ لاشتداد الحال عليها ، وسحَبت ذَيْلاً من الغُبار لتَناهِى شَدِّها ، لرَأَيتها كأَنّ عليها جِنًّا لا رِجالاً ، تستفيدُ المغانم من أعدائها . وتُفيتُهم نَيلَ شىءٍ منها . وهذا كما قيل « يَسْبِقُ إن طُلِبَ ، ويَلْحَقُ إن طَلَبَ » ، ويَشْهَدُ لأفادَ وأنّه يكون بمعنى استفاد قولُ الآخر(٢) :

فلا أنا منه ما أفاد ذوُو الغِنَى أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ما عِندِى

٢١٣

وقال آخر(٣) :

١ — لا قُوَّتِى قُوَّةُ الرّاعى قَلائصَهُ يَأْوِى فيأوِى الكَلْبُ(٤) والرُّبَعُ

٢ — ولا العَسِيفَ الذى يَشْتَدُّ عُقْبَتَهُ حتى يَبيتَ وباقِى نَعْلِهِ قِطَعُ

(١) فى ديوان المتلمس ٦ مخطوطة الشنقيطى : « تذر السماك وتهتدى » .

(٢) هو بشار ، أو ابن الخياط ، أو أبو العريان . سمط اللآلئ ٣١٠ . وقبله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

(٣) لم يعرفه شراح الحماسة . وهو وضاح اليمن ، صاحب الحماسية السابقة . انظر الحيوان (١ : ٢٦٥) وشروح سقط الزند ٢٠٦ .

(٤) رواية الجاحظ : « الراعى ركائبه » .

أخَذَ أبو تَمَّام هذا المأخَذَ فى قوله :

والصَّبْرُ بالأرواح يُعْرَفُ فَضْلُهُ صَبْرُ المُلوكِ وليْسَ بالأجْسَادِ

يقولُ : ليس غَنَائى فى الأمور وكِفايتى غَناءَ الرُّعاة الذين سَعْيُهم وكَدُّهم مقصوران على ضمِّ القِلَاصِ وحِفْظِهَا فى مَرَاعيها عند سَرْحِها وإراحَتِها ، فإذا أَوَى إلى مَوْضِعٍ أَوَى إليهِ كَلْبُهُ الذى يَحْرُسُ به ورُبَعُهُ . والرُّبَعُ : ما نُتِجَ فى الربيع . وقولُه « ولا العَسِيفِ » انعطف على الرّاعى . يُرِيدُ : ولا قوَّتِى قُوَّةَ العسيفِ . فالعسيف : الأجيرُ والعبد المستَهانُ به ، المُمْتَهن فى العمل . يقال : كم أعسِفُ عليك ، أى كم أعْمَلُ لك . وقولُه « يشتَدُّ عُقْبَتَهُ » انتصب عقبتَهُ على الظَّرف ، أى وقت عقْبته ، كأنه يعاقب الرُّكوبَ غيرَه . يقال هما يتعاقبان للرُّكوب بينهما ، أو الأمْرُ يَرْكب هذا عُقْبَةً وهذا عُقْبَةً . والعُقْبَةُ قيل فَرْسخان . ويَشْتَدُّ : يَفْتَعِلُ من الشَّدّ : العَدْوِ . وبعضُهم يرويه « تَشْتَدُّ عُقْبَتُه[1] » بالرَّفع ، ويجعل تَشْتَدُّ من الشِّدَّةِ ، أى تشتَدُّ عُقْبَتُهُ عليه ، والصوابُ ما قدَّمْتُه . والمعنى : ولا غَنَائى أيضاً غَنَاء الأجير الذى يَعْدو عُقْبَتِهِ ووقْتَ عُقبتِهِ ، وليس يريدُ أنَّ له عُقْبَةً فيترُكها ويَعْدو ، لكن المعنى إذا كان لغيره نوْبَةٌ فى الرُّكوب لمعاقبتِهِ صاحبَه ، فنوْبَتُه الشَّدُّ والخِدْمَةُ حتى يأتِىَ عليه المساء وقد تَقَطَّعَ ما بَقِىَ عليه من حذائه . وقولُه «وباقى نَعْلِهِ قِطَعُ» فى مَوْضِعِ خبرَ يَبِيتُ ، تقديرُه : حتّى يبيتَ مُنْقَطِعَ باقى النعل .

٣ – لا يَحْمِلُ العَبْدُ فينا فَوْقَ طاقَتِهِ ونَحْنُ نَحْمِلُ ما لا تَحْمِلُ القَلَعُ

يقول : العَبْدُ المُسْتَخْدَمُ فينا لا نُكَلِّفُه إلّا دون ما يُطِيقُه ، إبقاء عليه ، وتَرْكاً لاستنفاد وُسْعِه ، ونحن نحتمل من مَشاقِّ الأمور ، ومُثقِلات الأعباء

(١) وهى رواية الجاحظ أيضا .

ما لا تُطيقه الجبال . والقَلَعُ : جمع قَلَعةٍ ، وهى الهضابُ العِظام ، وبها سُمِّى الحِصْن المبْنىّ على الجبل قَلَعةً(١) . ويقال أقْلَعَ فلانٌ قِلاعاً(٢) ، إذا بناها ؛ وبها سُمِّيَت السَّحابُ العِظام قَلَعاً أيضاً .

٤ — مِنَّا الأَناةُ وبعْضُ القَوْمِ يَحْسَبُنَا   أنَّا بِطاءٌ ، وفى إبْطَائِنــا سَرَعُ

الأناةُ : الرِّفْقُ . يقول : نَستأنى فى الأمور فِعْل الحازِم ذى الرأى السَّديد ، والتأمُّل اللطيف ، الذى يَنْظُر فيما له وعليه ، فيَدرِى كيف يُورِدُ ويُصْدِرُ ، ويُبْرِمُ وينقُض ، ولا نَتَهَجَّمُ فيما نزاوله فِعلَ العَجُولِ الأخرق الذى لا يتتبَّع العواقب ، ولا يتجنَّب المقابِح ، فلا يُبالى أيًّا يأخُذُ ويَدَع . وكثيرٌ من الناس يظُنُّ بنا تباطؤًا فى المهِمَّات وتثاقُلا ، والذى يَعُدُّونَهُ بُطْئاً فهو سرعةٌ ، لأنّا نَترُكُ كلَّ ما تتولاَّه مفروغاً منه مُحكَماً ، لا تفاوُت فيه فيحْتَاجُ إلى استئناف تَدبُّر ، واستحداثِ نَظَر وتتبُّع .

٢١٤

وقال عَمْرو بنُ مِخلاةَ الكلبى(٣) :

١ — ويَوْمٍ تَرَى الرَّاياتِ فيه كأنَّها   حَوَائمُ طَيْرٍ مُستديرٌ وواقِـعُ

---

(١) يقال هذا بفتح اللام وإسكانها .

(٢) هذا ما فى الأصل والتيمورية . ونحوه فى التبريزى : « ويقال أقلع فلان قلعة إذا بناها » لكن فى م : « إقلاعا » . وفى اللسان : « وأقلعوا بهذه البلاد إقلاعا بنوها فجعلوها كالقلعة » .

(٣) التبريزى : « الكلابى » ، والصواب أنه كلبى ، من بنى تيم اللات بن رفيدة ابن كلب . الطبرى (٧ : ٤٢) والاشتقاق ٣١٤ والأغانى (١٧ : ١١٢) . ويقال له « ابن مخلاة الحمار » أيضا ، و « ابن مخلى » . وهو شاعر إسلامى جزرى ، كما ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٤١ . وكان مداحا لبنى مروان . والشعر يقوله فى يوم مرج راهط وكان ذلك سنة ٦٥ . انظر معجم البلدان والأغانى (٩ : ٣٥ / ١٠ : ١٥٣ / ١٤ : ١١٦ ، ٢١٨ / ١٧ : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ / ١٩ : ١٠٩) والميدانى (٢ : ٣٦٧) وكتب التاريخ فى حوادث سنة ٦٥ . وأبيات هذه المقطوعة روى منها أبو الفرج ١ ، ٣ ، ٥ ، وزاد بيتين أحدهما بعد الأول ، وهو :

مضى أربع بعد اللقاء وأربع   وبالمرج باق من دم القوم ناقع

٢ـ أَصَابَتْ رِمَاحُ القَوْمِ بِشْرًا وثابِتاً ... وحَزْناً وكلٌّ للعشـيرة فاجِـعُ(١)

٣ـ طَعَنَّا زياداً فى أَسْتِهِ وهو مُدْبِرٌ ... وثَوْرٌ أصابَتْهُ السيوفُ القواطِـعُ(٢)

٤ـ وأَدْرَكَ هَمَّاماً بأبْيَضَ صَارِمٍ ... فَتًى من بنِى عَمْرٍو طُوَالٌ مُشَايِـعُ(٣)

٥ـ وقد شَهِدَ الصَّفَّينِ عَمْرو بن مُحْرِزٍ ... فَضَاقَ عليه المَرْج والمَرْجُ وَاسِـعُ(٤)

الرايات : الأعلام . والحوائم : جمع حائمة ، وهى العِطَاشُ من الطُّيور تَحُومُ حَولَ الماء . وحَوَمَاتها : دورانُها ؛ فكثُر استعمالُه حتَّى صار كلُّ عطشانَ حائما . ويُرْوَى : «عَوَاطفُ طَيْرٍ» . وقوله « مستديرٌ وواقعٌ » بدلٌ من حوائم ، وجَعَلَ الرَّاياتِ بعضُها جائلٌ فى الجوِّ دائرٌ ، وبعضُها ساقطٌ ، لأنَّ المنهزمين تسقط أعلامهم فتنخفض ، والظَّافِرين تَثْبُتُ أعْلَامُهم فتَخْفُقُ . وقولُه « وكلٌّ للعشيرة فاجِـعُ » ، أى كل واحدٍ من المذكورين رئيسُ عشيرةٍ قد فُجِعوا به . والشَّاعر يَذْكُرُ وقْعَةَ المَرْجِ مَرْجِ رَاهِطٍ — وراهِطٌ رَجُلٌ من قُضَاعَةَ فى الجاهليّة الأولى — واجتَمَع به المَرْوانيَّةُ ، وهم الذين دَعَوْا إلى مَروانَ بنِ الحَكَم ، وهم كلبٌ وعَبْسٌ وغيرهُم من قبائل اليمن . والزبيريّة ، وهم الذين دَعَوْا إلى ابن الزُّبَيْر ،

ـ والآخر بعد الثالث ، وهو :

ونجى حبيشا ملهب ذو علالة ... وقد جذ من يمنى يديه الأصابع

وروى المرزبانى البيت الخامس من هذه الحماسية فقط ، وزاد بعده :

فلن ينصب القيسى للناس راية ... من الدهر إلا وهو خزيان خاشع

(١) فى الأصل : « بالعشيرة » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .

(٢) هو زياد بن عمرو العقيلى ، كما ذكر التبريزى ، وكما سيأتى . وأما ثور فهو ثور ابن يزيد السلمى ، كما ذكر الطبرى . وروى المرزبانى : « وهو هارب » .

(٣) التبريزى : « عمرو بن محرز من أشجع » وقال أيضاً : « ووضع طوال مع مشايع ردىء فى صنعة الكلام ، لأن الطوال ليس من المشايعة بقريب » .

(٤) الصفين ، مثنى صف ، كما نص التبريزى ، وهى تطابق رواية م والتيمورية . وفى الأصل : « الصفين » بكسر الصاد والفاء المشددة ، على أنها صفين المكان المشهور . قال التبريزى : « وهو تصحيف » .

وهم قَيْسٌ ومن تَبِعَهُم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فكانت الدَّبْرة[١] على القَيْسيّة ورئيسُهم زُفَر بن الحارِث ، ومعهُم الضَّحَّاكُ بن قَيْسٍ . ولهذا قال الشّاعر :

فَمَنْ يَكُ قد لاقى من المَرْجِ غِبْطَةً   فكان لقَيْسٍ فيه خاصٍ وجادِعُ[٢]

وقوله «طعنّا زيادًا فى اسْتِه» ، فهو زياد بن عمرو العُقَيْلى. وقوله «وهو مدبر» أى مُوَلٍّ منهزِمٌ . ويجوز أن يكون من الإدبار ، لتَرْكِه الرّأىَ حتّى بُلِىَ بما بُلِىَ . وعمرو بن مُحْرِزٍ من أشْجَعَ[٣] . وقال : ضَاقَ عليه المَرْجُ على سَعَتِه ، لأنّه كان مَغْلُوبًا مَطْلوبًا . ويقالُ ضَاقَ بفُلانٍ الفَضَاءُ . والمُشَايِع : المُقَوِّى لأصحابه المُتابع لهم . وجَعَلَه طُوَالاً لأنّهم يستحبُّون تمام الخَلْق ، وامتدادَ القامة . وقولُه « وثَوْرٌ أصابَتْهُ السُّيُوفُ القواطِعُ » ، رفَعَ ثوْرًا لأنّ الفِعْلَ بعْدَهُ شُغِلَ عنه ، وإن نَصَبَهُ طَلبًا للمطابقة إذ كان فى الجملة التى قَبْلَه منصوبٌ كان أحْسَنَ .

٢١٥

وقال زُفَرُ بن الحارِث[٤] :

١ – أفِى اللهِ أمّا بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ   فيَحْيَا وأمّا ابن الزُّبَيْرِ فيُقْتَلُ

كان معاويةُ بن أبى سفيان لمّا جعل ابنَه يزيدَ ولىَّ عَهْدِهِ بايعَهُ النّاسُ

---

(١) الدبرة ، بالفتح : العاقبة السيئة ، أى الهزيمة . فى الأصل : « الدعوة » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٢) جعل التبريزى هذا البيت من أبيات هذه الحماسية . لكن نسخ المرزوقى تجعلها من الشواهد فحسب ، ولذلك لم يعلق عليه بشىء من التفسير أو التوضيح . والذى أوجب هذا اللبس عند التبريزى موافقة هـذا البيت لسائر الأبيات فى الوزن والروى والموضوع . والخاصى : قاطع الخصية . والجادع : قاطع الأنف أو الأذن ونحوهما . والمراد بذلك الإذلال والقهر .

(٣) فى الأصل : « من أشجع الناس » وكلمة « الناس » مقحمة ، والصواب فى م والتيمورية . وذكر التبريزى من أولاده زياد بن عمرو بن محرز الأشجعى . وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٨ .

إلّا الحىّ[1] من قَيْسٍ ، فإنّهم قالوا : والله ، مَا نبَايِعُ ابنَ الكلبيَّةِ — وذاك أنّ أمّ يزيدَ مَيْسُونُ بنتُ مالكِ بن بَحْدَلٍ الكلبيّ — فصار فى نفس يزيدَ لقيسٍ ذلك ضِغْنًا وحقدًا ، وابتدأ الشرُّ بينهم وبينِ بنى أميّة ، فلما هلك يزيدُ استُخلِفَ ابنُهُ معاويةُ بن يزيد ، وأمُّه كلبيَّةٌ أيضاً ، وصار حسَّان بن مالكِ بن بَحْدَلٍ أخو مَيْسُونَ وخالُ يزيد بن معاويةَ كالمالكِ للأمرِ ، فكانت خلافته أيامًا قليلةً ، وتَحرّكت فتِنْةُ ابن الزُّبير ، فاضطرب حسّانُ بن مالكٍ فى الأمرِ اضطرابا شديدا ، وصار يدعو النّاسَ إلى نفسه تارةً وإلى من يختارونه من بنى أميّةَ أخرى ، حتّى قال الشّاعر :

وما النَّاسُ إلّا بِحْدَلِىٌّ على الهوَى وإلّا زُبَيرِىٌّ عَصَى فَتزَبَّرَا

إلى أن وقع الاختيارُ على مروانَ بنِ الحكم ، فلمّا قام بالدّعوة صارت البَحدَليَّةُ معه ، فسُمُّوا مَرْوانيّة ، وصار السّبب فى حرب قيسٍ وتَغلِب أنْ صارت قَيْسٌ زُبَيْرِيَّةً وتغْلِبُ مروانيَّة ، فيقول زُفَرُ بن الحارث وهو رئيس قَيس « أفِي الله » يريدُ : أفى ذاتِ الله ومَرضِيِّ حكمِهِ أن يُطْلَبَ حياةُ ابن بَحْدَل والمتعصِّبَةِ لبنى أُميّة ومَروانَ وعبدِ الملك ابنِه ، ويُطْلَبَ قتلَ عبد الله بن الزُّبير مع فَضْلِهِ وشرفِهِ وسابِقتِهِ . وهذا الكلامُ تَقريعٌ للنّاس وإكبارٌ للأمرِ . وقوله « أمَّا بَحْدَلٌ » حُكْمُ أمَّا أن يَنقطع عما قَبله ، ولهذا عُدَّ من حروف الابتداء ، ولأنه يتَضَمّن معنَى الجزاء والجزاء له صَدْرُ الكلام ، إذا كان كذلك فكأنه قال : أفى الله هذه القصّةُ وهذا الأمْرُ والشّأن . وقوله « فيَحْيَا » فأخبر عن أحد الاسمين لمّا عُلِمَ أنّ صاحِبَهُ فى مِثلِ حالِهِ . وفى القرآن : ﴿ واللهُ وَرَسُولُه أَحَقُّ أن يُرْضُوه ﴾ .

---

(١) وكذا فى م والتيمورية . وعند التبريزى حيث نقل كلام المرزوقى بدون نسبة : « إلا هذا الحى » .

٢— كَذَبْتُم وَبَيْتِ اللهِ لا تَقْتُلُونَهُ وَلَمّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

إنّما قال «كَذبتم» لأنّ الذى أنكره منهم وقرّعهم عليه كان خبرًا . ويجوز أن يكون المعنى : كَذَبْتُمْ أنفسَكم حين حدَّثتموها بما لا يَتِمُّ لكم . وقولُه «لا تَقْتُلُونَهُ ولمّا يَكُنْ يَوْمٌ» ، يقول : لا تقدِرون قبل أن يكون لنا عليكم يَوْمٌ مشهورٌ على قَتْله ، وإذا عَجَزْتُم قَبْلَهُ فَفِى مستقبلِ الزّمانِ بَعْدَهُ أنتُم أعْجَز ، وعن أُمْنِيَّتكم وتَرْجِيم ظَنِّكم أَبْعَد .

٣— ولَمّا يَكُنْ للمَشْرَفِيَّةِ فَوْقَكُمْ شُعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمْسِ حِينَ تَرَجَّلُ

قَرْنُ الشّمس : أوّل ما ظهَرَ منها . والترجُّل ، قالوا : إذا ارتفعت الضُّحَى وانبسطت الشّمس ولم يشتدَّ حَرُّها فذاك الترجُّل . وقال ابن الأعرابىّ : التَرَجُّل قَبْلَ المُتُوع ، والمُتُوع قبل انتصاف النّهار ، وأنشد لمُزرِّدٍ :

فأصْبَحَ كالدِّهقانِ لَمَّا بَدَا لهُ من الشَّمسِ إشراقٌ ولمّا تَرَجَّلِ

بيّنَ بالشّرط الثانى غَرَضَهُ فى تعجيزهم ، وأنَّ الذى يريدونَهُ من قَتْلِهِ لا يتمُّ أبداً لهم ، ولا يَدْخُلُ تحت مَقدورهم[1] .

٢١٦

وقال حَسَّانُ بن الجَعْدِ[2] :

١ — أَبْلِغْ بَنِى خَازِمٍ أَنّى مفارِقُهُم وقائلٌ لجمالى غُدْوَةً بِينِى

٢ — إنّى امْرُؤٌ غَرِضٌ من كل مَنْزِلَةٍ لا شِدّتِى تُبْتَغَى فِيها ولا لِينِى

---

(١) هذا ما توقعه الشاعر ، ولكن أتت الأقدار بخلاف ما قدر ، فقد لقى عبد الله ابن الزبير حتفه بيد الحجاج ، إذ أسره وصلبه بمنى منكوسا سنة ٧٣ .

(٢) شاعر إسلامى كما يتضح من ذكر علاقته بعبد الله بن خازم . وكان عبد الله بن خازم أميراً لخراسان ، ولى إمرتها لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته ، فأمره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك ٧٢ .

هذا الشَّاعر خرجَ إلى عبد الله بن خازم راغبا فى جواره والكَوْنِ فى جماعته فلم يُحْمِدْهُ وانْصَرَفَ عنه ، وقال : لِيُبْلَغْ هذا الرَّجلُ وذَوُوه أنّى مرتَحِلٌ ونافِضٌ يَدِى منه ، وحامِلٌ إبِلِى على مُفارَقة أرضِهِ ، ومُظْهِرٌ الزُّهْدَ فى صُحبتِه ، لأنِّى أجتوِى كُلَّ مَنْزِلَةٍ لا تَمَسُّ حاجتُها إلى كَوْنِى بها ، وأنتوِى البُعْدَ عن كل جَنْبَةٍ لا تشتد رغبتُها فى إقامَتِى فيها ، كما أنِّى أضجرُ بِجِوارِ كُلِّ من اعتَقَدَ الغِنَى عن رأيِى وغَنائِى ، وخشونتى ولينى . ويقال : غَرِضْتُ من كذا ، إذا مَلِلْتَه ؛ وغَرِضْتُ إلى كذا ، إذا اشتقتَهُ . فهو كما يقال رَغِبْتُ فيه ورغِبْتُ عنه .

٢١٧

وقال القَتَّالُ الكِلابِىُّ(١) :

١ ــ إذَا هَمَّ هَمًّا لم يَرَ الليلَ غُمَّةً عَلَيْهِ ولم تَصْعُبْ عليه المراكِبُ(٢)

يصفه بالإقدام والتَّشمير ، وحُسن النَّفاذِ فى الأمور ، وأنه متى ما وَقَعَ فى نَفسِهِ أمرٌ فهَمَّ به اقتَعَدَ الليلَ ولم يَعُدَّه حائلا دون مُراده ولا مانِعاً عن قَصْدِه ومرَادِه ، حتى يَصِيرَ رُكُوبُهُ غُمَّةً ، وما يتَصَوَّرُ من هَوْلِه شِدَّةً تَدْفَعُ فى الصَّدْرِ ، وتُحَلِّئُ عن الوِرْد ، ولم يَشُقَّ عليه المراكب ، ولا يُسْتَكْرهُ فيه المصاعب . ويقال : هو فى غُمَّةٍ من أمْرِهِ ، أى حَيْرةٍ وظُلْمَةٍ . وأصل الغَمِّ(٣) التَّغطية .

٢ ــ قَرَى الهَمَّ إذْ ضَافَ الزَّماعَ فأصبحَتْ منازِلُهُ تَعْتَسُّ فيها الثَّعالِبُ

يقول : يجْعلُ قِرَى همِّهِ إذا اعتراه ، النَّفاذَ والعزيمة ، والإجماعَ فيه

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٢ ص ٢٠١ .
(٢) هذا ما فى م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : «ولم يصعب» .
(٣) هذا الصواب من م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : «الغمة» .

والضَّريبة ، فترى مَنازِلَه تستبدلُ بسُكّانِها وَحْشاً تعتَسُّ فيها ، ويَعتاضُ هو من الدَّعَةِ والخفضِ تعباً يمتطيه ، ودءوباً يستمرُّ فيه . والاعتساسُ : الاختلاف باللّيل . ويقال : عَسَّ واعتَسَّ ، ومنه أُخِذَ العَسَسُ . وفى المَثَل الجارِى « كَلْبٌ عَسَّ خَيْرٌ من أسَدٍ رَبضَ » .

٣ ــ جَليدٌ كريمٌ خِيمُهُ وطِبَاعُهُ عَلَى خَيْرِ ما تُبْنَى عليه الضَّرائِبُ

يُقالُ هُوَ جَلْدٌ وجليدٌ بمعنًى . والخِيمُ : الطبيعةُ ؛ وقال أبو عُبيدة : أصلُه فارسىٌّ مُعرّب . والطِّباعُ : ما طُبِـع عليه الإنسان فى مَأْكلِه ومَشْرَبِهِ وسائر أحوالِه . والضَّرائبُ : جمعُ الضَّريبة ، وهى الخليقةُ . ويُقالُ : ليس لفلانٍ ضَرِيبٌ ، أى شبيه ، وهو كريمُ الضَّرِيبةِ . فيقول : قوىُّ الجأشِ ، مَرضِىُّ الطَّبيعة ، وقد جُبِلَ فى كلِّ ما يُستَكشَفُ من أُمورِه على أحسنِ ما تُجْبَلُ عليه النُّفُوس والأخلاق .

٤ ــ إذا جاعَ لم يَفرَحْ بأَكْلةِ سَاعَةٍ ولم يَبْتَئِسْ من فَقْدِها وهو سَاغِبُ

أحْسَنَ حاتمُ طيِّئٍ فى هذه الطَّريقة حين قال :

غَنِينَا زَمانًا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فــكلتاهُما يَسقِى بكأسَيْهِما الدَّهرُ[(١)]

فَمـا زَادَنَا بَغْياً على ذِى قَرابَةٍ غِنَانا ولا أزْرَى بأحْسَابِنا الفَقْرُ[(٢)]

والشّاعرُ يَصِفُ كَرَمَ نفسه وحُسْنَ صَبرِهِ على تَقَلُّب الأحوال ، فالشَّبعةُ لا تُطْغيه ، والجَوْعةُ لا تُؤْيِسهُ فتُرْدِيه . والسَّغَب : الجوع . وأضافَ الأكْلةَ إلى سَاعَةٍ تَقْصِيراً بها وإزراءً ، وإن كانَ ذلك وَقتاً لهَا . وقولُه « من فَقْدِها »

---

(١) روى البيت فى بيتين من ديوان حاتم ١١٩ . وهما :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى كما الدهر فى أيامه العسر واليسر

لبسنا صروف الدهر ليناً وغلظة وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

(٢) فى الديوان : « فما زادنا بأوا » والبأو : الفخر والكبر .

يريدُ من فَقْدِ لها ، والمَصْدرُ يضافُ إلى الفاعل والمفعول جميعاً ، على هذا قَوْلُه تعالى : ﴿ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ ﴾ .

٥ — يَرَى أنّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا ولا يَرَى إذا كان يُسْرٌ أنّهُ الدَّهْرَ لازِبُ[١]

يُستحسَنُ لبشّار فى هذه الطريقة قوله ، بل قد صار مَثَلاً :

خَلِيلَيَّ إنّ العُسْرَ سوفَ يُفِيقُ وإنّ يَسَارًا فى غَـدٍ لَحَقِيقُ
وما أنا إلاّ كالزّمانِ ، إذا صَحَا صَحَوْتُ ، وإنْ ماقَ الزّمانُ أَمُوقُ

يقولُ : يَعْلَمُ أنّ أسبابَ الدُّنيا وتصاريفَها مبنيّةٌ على التّغيُّر والتبدُّل ، فالعُسْر واليُسْر يتعاقبان ولا يَلازَمان ، فمتى استَغْنَى كَرُمَ ولم يَبْطَرْ ، عِلْمًا بأنّه يَفْنَى فلا يبقى ، وإذا افتقر عَفَّ ولم ييأس ، ثِقةً بأنه يزولُ ولا يدوم . وقولُه « يَرَى » من البيت يجرى مَجرَاه من قولِهِ تعالى : ﴿ إنّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ ، لأنّه بمعنى يظنونه ، وليس كذلك فى قوله ﴿ ونَرَاهُ قَرِيباً ﴾ لأنه بمعنى نعْلَمُهُ . وقد يُستعمَلُ العِلمُ فى موضعِ الظّنِّ أيضاً ، لذلك قال :

وأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بالظّنِّ أنّهُ إذَا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذَليلُ[٢]

٢١٨

وقال أَوْسُ بن حَبْنَاءَ[٣] :

١ — إذا المَرْءُ أَوْلاكَ الهَوَانَ فأَوْلِهِ هَوَانًا وإن كانت قريبًا أَوَاصِرُهْ[٤]

---

(١) هذه رواية الأصل والتبريزى . وفى م : «إذا كان يسرا» ، والتيمورية : «إذا كان عسراً» .

(٢) لطرفة فى ديوانه ٥٢ والشعر والشعراء ١٤٧ . ونسب فى اللسان (حصى) إلى كعب بن سعد الغنوى .

(٣) الظاهر أنه شاعر إسلامى ، ولعله أخو المغيرة بن حبناء الشاعر الإسلامي ، الذى ترجم له البغدادى فى الخزانة (٣ : ٦٠١) . وذكر : أن « حبناء » أم المغيرة ، شهر بالنسبة إليها واسم أبيه حبين بن عمرو بن ربيعة الحنظلى التيمى ، لكن صاحب القاموس لم يذكره فى إخوة المغيرة . قال : « والحبناء : الضخمة البطن ، وأم المغيرة ، ويزيد ، وصخر ، الشعراء . وأبوهم عمرو بن ربيعة » .

(٤) روى الجاحظ هذه الأبيات فى البيان (٢ : ٣٥٧ / ٣ : ٦١) بدون نسبة .

حقيقة أَوْلاكَ كذا : جعَلَهُ مما يَليكَ ، لـكنه اشتهَرَ فى الإحسانِ ، وقد يُستعمَلُ فى الإساءة ، كما فعَلَهُ هذا الشاعر . ومثله بَشَّرْتُهُ فى معنى تَناوُلِه الشَّرَّ ، وإن كان اشتهارُه فى الخير . ألا ترَى قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . يقول : قابِلْ مُعامِلَكَ بمثل ما يَرْصُدُه لكَ ، فإنّ الأفعالَ بين الناس قُرُوضٌ ، وشَرْطُ القُرُوض الوفاء بها ، والخروج من ذِممِها ، فمَنْ أهانَكَ فأَهِنْهُ وإن قَرُبَتْ عَوَاطِفُ أرْحامِهِ ، وشوابِكُ أسبابه ، ولا تُوجِبْ له إلاّ مِثْلَ ما يوجِبُهُ لك . ويقال : بيني وبينَه آصِرَةٌ ، أى عاطفةٌ ، والأَصْرُ : العَطْفُ . وقوله « قريبًا » خبر كان ، وقدَّمَه على اسمه ولم يؤنثه لأنّه أراد النسبةَ فلم يَبْنِهِ على الفِعْل . ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

٢ – فإنْ أنتَ لم تَقْدِرْ عَلَى أن تُهِينَهُ فَذَرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنت قادِرُهْ

يقول : إنْ أعجزَكَ مكافأتُهُ على إساءته إليك ، وأعْوَزَكَ إنالَتُه مثلَ ما يُنيلُكَ فى الحال ، فأَنْظِرْه إلى الوقت المساعد لك من مستقبَل أيامِك ، وانتظرْ نوبتَك من الدّهر ، فإذا أمكنَتْك الفُرصةُ فانتهِزْها . وقوله « إلى اليوم الذى أنت قادِرُهْ » أراد أنت قادرٌ فيه ، فقدَّر الظّرفَ تقديرَ المفعول الصحيح لأنّ الظَّرفَ إذا أُضيف إليه يخرج من أن يكون ظَرْفًا كما يخرج منه إذا دَخَل عليه حرف الجرّ . على هذا قولُهم :

* يا سارِقَ اللَّيلةِ أهلَ الدارْ[1] *

وقوله :

* طَبَّاخِ ساعاتِ الـكَرَى زادَ الـكَسِلْ[2] *

(١) الخزانة : (١ : ٤٨٥) وسيبويه (١ : ٨٩) ، ولم ينسب فيهما .

(٢) مجالس ثعلب ١٥٢ والخزانة (٢ : ١٧٢) وسيبويه (١ : ٩٠) والكامل ١١٣ ليبسك . وقد نسب فى الكامل إلى الشماخ بن ضرار ، والصواب أنه لجبار بن جزء وهو ابن أخى الشماخ ، كما ذكر البغدادى . وقد ساق قصة الرجز مفصلة .

٣ — وقارِبْ إذا ما لم تكُنْ لكَ حِيلةٌ   وصَمِّمْ إذاَ أيقَنتَ أنكَ عاقِرُهْ

يقول : اجْرِ مع الدّهر فى تصرُّفِه وتلوُّنه ، ودارِ عدوَّك وجامِلْه إن أعياكَ مكايَلَتُه ومحاسبَتُه ، فإذا انقضَتْ أيّامُه وتيسَّرَ لك بعد مُداجاتِكَ له عَقْرُه وإهلاكُه فاثبُتْ فى الأَزْم عليه ، والانتقام منه ، ثباتَ السَّيف القاطع فى ضريبتِه ، وإيّاكَ والغَفْلةَ عنه بعد إيقاظِك إيّاه ، واللِّينَ معه وقد خَشَّنْتَه .

٢١٩

وقال آخر[١] :

١ — إنى إذا ما القَوْمُ كانوا أنْجِيَهْ[٢]

٢ — واضطَرَبَ القومُ اضطرابَ الأرْشِيَهْ[٣]

٣ — وشُــدَّ فَوْقَ بعضِهِمْ بالأَرْوِيَهْ

٤ — هُنَاكِ أَوْصِينِى ولا تُوصِى بِيَهْ

قوله « إنى إذا ما القوم » خبر إنّ فى قوله « أوْصينى ولا تُوصِى بِيَهْ » . والمعنى : إنى أهْلٌ لأنْ يوصَى إلىّ حينئذ فى غيرى ، ولا يُوصَى غيرى بى . فتَبُيِّنَ هذا من الكلام وإن كانَ على لفظ الأمر والنَّهْى . وعلى هذا قول القائل زَيْدٌ قمْ إليه ، أى هو أهلٌ لأن تقُومَ إليه . فبهذا التقدير وأمثالِه جاز أن يقع الأمر موضع الخبَر . وأنشد أبو زَيْدٍ :

---

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى ، كما فى اللسان (نجا) . وسحيم شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية أربعين سنة وفى الإسلام ستين سنة . انظر الخزانة (١ : ١٢٣ — ١٣٠) وابن سلام ١٢٩ والاشتقاق ١٣٨ والإصابة .

(٢) روى أيضا : « أنحيه » كما فى اللسان (نحا) ، وفسره بقوله : « أى انتحوا عن عمل يعملونه » .

(٣) ويروى أيضاً : « واختلف القوم اختلاف » ، و « والتبس القوم التباس » و « واختلف القول » . انظر اللسان (٢٠ : ١٨٠) .

وكُونى بالمكارِمِ ذكِّرينى ودَلِّى دَلَّ ماجِدَةٍ صَنَاعِ(١)

وقال : أراد كونى تُذَكِّرينى ، فوضع ذكِّرينى موضع تذكِّرينى . ومرجِعُ هذا الذى قالَه إلى مثل ما بَيَّنَّاه . وكما أنَّ خبر إنّ فيما بيّناه فكذلك جواب إذا ، فافْهَمْه . وما من قوله « ما القومُ » زائدةٌ . وأنْجِيَةٌ : جَمْع نَجِيٍّ ، والنَّجِىُّ يقع للواحد والجمع . وفى القرآن : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ . ومعنى كانوا أنجيةً ، أى صاروا فِرَقاً لِمَا حَزَبَهم من الشَّرّ ، ودهِمَهم من الخوف ، يتناجَوْن ويتشاوَرُون .

وقوله « واضطربَ القَوْمُ » أى أخَذَهُم القيامُ والقعود ، وفارَقَهم القَرَارُ والهُدُوّ ، فأقبَلَ بعضُهم يمشى إلى بعضٍ ، متعاونينَ فى التهيُّؤ والارتحال ، ومتساعِدِين على التيسُّر للانتقال . فَشبَّهَ مَيَلانَهم وتَرَجُّحَهم فى اختلافهم ، بترجُّح الأرشِيَة عند الاستقاء عليها من الآبار البعيدة القَعْر ، ومَيَلانِها .

وقولُه « وشُدَّ فوق بعضهم بالأرْوِيَهْ » ، يعنى أنَّهم ركِبُوا الليل وداوَموا السَّير ، فَغَلبَ النُّعاس على طائفةٍ منهم حتَّى خِيفَ عليهم السُّقُوط ، لضعف استمساكهم ، فشُدَّت الحِبالُ فوقَهُم . والأرْوِية : جمع الرِّواء وهو الحبل الذى يُرْوَى به ، أى يُسْتَقَى . ومنه قيل الرَّاوية ، ويجوز أن يكون الاضطراب الذى ذكره لاتِّصال التَّسيار وغلبةِ النوم ، للإخْلال بالنُّزول والقرارِ أيضاً . وصَرْفُه إلى الأول أحسن .

وقولُه « هُنَاكِ أوْصِينِى » هُنَاكِ يُشَارُ به إلى الزَّمان والمكان معاً ، وموضِعُه نصْبٌ على الظَّرف ، والكاف منه كاف الخطاب ، والعامِل فيه أوصينى . والمعنى : فى ذلك الوقت يوجَد الغَنَاء والكِفايةُ عندى ، ويحصُل الصَّبْرُ والمداومةُ منِّى ،

(١) لرجل جاهلى من بنى نهشل . نوادر أبى زيد ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٨ . وقبله :
ألا يا أم فارع لا تلومى على شىء رفعت به سماعى

فاجعلى وصاتَكِ إلىَّ لا بى ، واعتمدى علىَّ لا على غيرى . وقال بعضُ القدماء : معنى كانوا أنْجِيَهْ ، يريد قوماً نامُوا على رواحِلِهِم فرأوا فى منامِهِم كأنَّهم يتناجَوْن . والصواب عندى ما قدَّمته .

٢٢٠

وقال المُتَلَمِّسُ(١) :

١ ــ أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ رَهْنُ مَنِيَّةٍ صَرِيعٌ لِعَافِى الطَّيْرِ أَوْ سَوْفَ يُرْمَسُ

٢ ــ فَلَا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مَخَافَةَ مِيتَةٍ وَمُوتَنْ بِهَا حُرًّا وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ

قال هذا فيما كان بين ضُبَيْعَةَ وبكْرِ بن وائل ، ومعنى ألَمْ تَرَ اعْلَمْ . يقولُ : الإنسانُ مُرْتَهَنٌ بأجَلِهِ ، فإمّا أن يموت حَتْفَ أنفِه فيُدفَن ، وإما أن يُقتَل فى معركةٍ فيُترَكَ لعَوافِى السِّباع والطَّير . وجَعَلَ « رَهْنُ مَنِيَّةٍ » و « صَرِيعٌ لِعَافِى الطَّيْر » جميعا خبرَيْن لأنَّ ، ثمَّ أتى بأوِ الإباحةِ . ويجوز أن ينتصبَ صريعٌ على الحال ، وفى رفعِهِ وجْهٌ آخر ، وهو أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه هو صَريعٌ . وإن جَعَلتَ أو التى تكون للشَّكِّ يكون الـكلامُ مبنيًّا على اليقين ثم يَعترض فيه الشَّكّ . والأصلح فى مثل هذا أن يُجْعَل بإمَّا ، ليكونَ بِنْيَةُ الـكلامِ على الشّكّ ، إذْ كانَ واحِدٌ من الأمرين لا يُتَيَقَّن .

وقولُه « فلا تَقْبَلَنْ ضَيْماً » يقول : ادْفَعْ عن نفسِكَ خُطَّةَ الضَّيْمِ والهَضِيمة ،

---

(١) التبريزى : « واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد » . وهو من بنى ضبيعة ، وأخواله بنو يشكر . وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة ، وهو الذى كتب له إلى عامل البحرين بهم طرفة بمثله ، ويروون أنه دفع صحيفته إلى غلام بالحيرة ليقرأه ففطن لما أريدا به ، فألقى بها فى الحيرة ونجا بنفسه . والمتلمس من أشعر المقلين فى الجاهلية . انظر الأغانى (٢١ : ١٢٥ ــ ١٢٧) والخزانة (١ : ٤٤٦/٣ : ٧٣) والشعر والشعراء ١٣١ ــ ١٣٦ .

ولا تلتزم العَارَ والدَّنيَّةَ ، إشفاقاً من المنِيَّة . وانتَصَبَ « مخافةَ » على أنه مفعولٌ له . وقولُه « وموتَنْ بها » ، الضمير من بها يرجع إلى المخافة ، أى مُتْ بتلك المخافة حُرًّا لم يَستعبدْكَ الخصْم ، ولم يَستوطِئك الظُّلم ، وجلْدُكَ نقيٌّ من العيبِ ، سليمٌ من العار والشَّيْنِ . ويُرْوَى « واحْيَنْ بها حُرًّا وجلْدُكَ أمْلَسُ » والرواية الأولى أحْسَنُ ، ويكون «واحينْ» أمراً بالحياةِ وقد أدخل عليه النُّونَ الخفيفة . ومعنى يُرْمَسُ : يُدْفن . والرَّمْس : الدَّفْن . والرِّياح الروامس منه ، وتوسَّعُوا فى الدَّفن فقيل ارْمُسْ هذا الحديث ، كما يقال ادْفِن . وعافى الطَّير : ما يَعترِى منه . ويقال فلانٌ كثير العافية والعفاةِ ، ويُرادُ الزُّوَّار والمُجْتَدُونَ .

٣— فَمِنْ طَلَبِ الأوْتَارِ ما حَزَّ أنْفَهُ قَصِيرٌ وخاضَ المَوْتَ بالسَّيفِ بَيْهَسُ

٤— نَعَامَةُ لمَّا صَرَّعَ القَوْمُ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ فى أثْوابِهِ كيفَ يَلْبَسُ

قصيرٌ : صاحب جَذِيمة الأبرَش . وقصّة جذيمة وزبّاء الرُّوميةِ مشهورة . وإنَّ قصيراً تَوَصَّلَ بأنْ جَدَع أنفَ نفسِه ، إلى أن استَخْدَمَتْه زَبّاء ثم استخلصتْه حتى تمكَّن فأدركَ ثأرَهُ منها . وَبيْهَسٌ هو الذى يلقبُ نَعَامَة ، وهو رَجلٌ من بنى غُراب بن فَزارة ، وكان يُحَمَّق ، فقُتِل له سبعةُ إخوة فجعل يَلبَسُ القميصَ مكان السَّراويل ، والسَّراويلَ مكان القميص ، فإذا سُئِل عن ذلك قال :

البَسْ لِكلِّ عيشةٍ لَبُوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها[1]

فتوَصَّل بما صَوَّرَه من حاله عند الناس إلى أن طَلَب بدماء إخوتِه . وحديثُه مشهور أيضاً . وكلام المتلمّس بَعْثٌ وتحضيضٌ على دفع الضَّيْم ، وركوبِ الإباء من التزام العار ، فلذلك أخذ يذكُرُ بحال من استُضْعِف . فلم يَزَلْ يحتالُ حتّى أدرَكَ مَباغِيَهُ من أعدائه .

---

(١) يروى أيضاً : « لكل حالة » ، وهى رواية التبريزى .

وقوله : « ما حَزَّ أنفَهُ » ما زائدة . وارتفع « نَعَامَةُ » على أنه بَدَلٌ من قوله يَبْهَسُ . وموضِع « كيفَ » نَصْبٌ على أنَّه مفعول تَبيَّنَ ، والعامِلُ في كيفَ يَلْبَسُ تَبيَّنَ . كأنَّه قال : تبيَّن في أثوابه يَلْبَسُ أيَّ لِبْسَةٍ .

٥ — وما الناسُ إلا ما رأَوْا وتحدَّثوا وما العجزُ إلا أن يُضَاموا فيَجْلِسُوا[1]

قولُه « ما رأَوْا » ما مع الفعل في تقدير مصدرٍ ، كأنَّه قال : وما النَّاس إلاّ رُؤيةٌ وتَحدُّث ، أي اعتبار بالمشاهدة أو بما يُرْوَى من أخبار الأممِ البائدة ؛ فهو كقولك : ما زيدٌ إلا أكلٌ وشُرْب ، فيكون إمّا على حَذْف المضاف ، كأنَّه قال : ما زيدٌ إلا ذُو أكْلٍ وشُرْبٍ ؛ وإما أن يكون لكثرتهما منه ، ووَلوعه بهما ، كأنَّه نَفْسُ الأكل والشُّرب . فيقول : ما الناس إلا ذَوُو الاعتبار بما يشاهدونَهُ أو يسمعونَهُ من أخبار أسلافِهم ، فيتيقَّنونَ بأنه لا بُدَّ من الفناء ، فلا ينبغي لأحد أن يحتمل ضَيْماً أو يصْبِر على مكروه ، وما العجزُ إلا أن يُظْلَمُوا ويُسَامُوا الخسفَ فيرضَوْا به ، وينطَوُوا عليه كاظمين وساكنين . ويجوز أن يريد بقوله « وما الناس » وما حَزْمُ الناس ، فحذف المضاف ، ويكون حينئذ ما رأوا في موضع الظَّرف ، كأنه أراد : ما حَزْمُهم إلاّ مدَّةَ رؤيتهم وتحدُّثهم ، أي إذا اعتبَروا بالأمرين ، ويكون هذا في باب الإخبار كقولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، على تقدير حدوثُ الهلال أو طُلُوعُه اللّيلةَ . ويكون الدَّلالة على هذا الوجه أنه طابَقَهُ بقوله « وما العجز » .

٦ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ الجَوْنَ أَصْبَحَ راسِيًا تُطِيفُ به الأيّامُ ما يتأيَّس

الجَوْنُ : حِصْنُ اليمامةِ ، ويُقال إنه من مصانِع طَسْمٍ وجَدِيسَ . فيقول : لا تُوعِدُونا فإنَّ حصنَنا حصينٌ لا يُوصَلُ إليه ، ولا يُستباح حِماه . ومعنَى « تُطِيف

(١) التبريزي : قال أبو هلال : الرواية الجيدة ما رواه أبو عمرو :

وما البأس إلا حمل نفس على السرى وما العجز إلا نومة وتشمس

به الأيَّامُ » تُلِمُّ به الأحداث وتنُوبه النَّوائب فلا يُطيعُ . وقولُه « لا يتأيَّس » أى لا يلِين . وأنشد الأصمَعِىّ :

إنْ نَكُ جُلْمُودَ صَخْرٍ لا أُؤَيِّسُهُ أُوقِدْ عليـــه فأَحْمِيه فينصدعُ[1]

ومَوْضِـع « تُطيفُ به الأيّام » نصْبٌ إن شئتَ على الصفة ، وإن شئتَ على أنَّهُ خبَرٌ بعْدَ خبَرٍ . وموضع « ما يتأيَّس » نصبٌ على الحال ، والعـامل فيه تطِيفُ .

٧ – عَصَى تُبَّعًا أزْمانَ أَهْلـكَتِ القُرَى يُطَانُ عليه بالصفيـحِ ويُكَاسُ

يُرْوَى :

... أيّامَ أَهْلـكَتِ القُـــرَى يُطَانُ على صُمّ الصفيح ويُـكَاسُ[2]

يقول : إنّ تُبَّعًا لمـا غزا القرى والمدنَ لم يصل اليمامة للحصن . وذِكْرُه العصيانَ كما قال غيرُه . « تمَرد مارِد وعَزَّ الأبْلَقُ[3] » . وقوله « يُطَانُ عليـه بالصَّفيح » أى يُجعَل بدل طِينِه فى الإصلاح والعمارة الـكِلْس بالحجارة . ويجوز أن يكون « بالصفيح » فى موضِـع الحال ، أى يُطانُ ويُكَاسُ بصفائحِهِ ، أى وهو مبنىٌّ الحجارة .

٨ – هَلُمَّ إليها قد أُثِيرَتْ زُرُوعُها وعادَتْ عليها المَنْجَنُونَ تَـكَدَّسُ

يُخاطِبُ النُّعمان . و « إليها » أى إلى اليمامة . وهذا الكلام تهكُّمٌ وسخرية . يقول : إنْ قدَرْتَ عليها فاقصِـدْها فإنها أخصَبُ ما يكون ، مُزدَرَعُها مُثارٌ

---

(١) نسب فى اللسان (٥ : ١٣٣) إلى عباس بن مرداس . وهو فى المخصص (١٠ : ٩٥) بدون نسبة . وانظر مقاييس اللغة (أيس) .

(٢) التبريزى : « ويروى : يطان على مثل الصفيح » .

(٣) قائله الزباء نفسها ، وكانت قصدت ماردا – وهو حصن دومة الجندل ، والأبلق – وهو حصن للسموأل بن عاديا بأن تيماء ، فلم تقدر عليهما ، فقالت هذا القول ، فصار مثلا . مجمع الأمثال (١ : ١١٣) .

ودالِيَتُها تدور . ومعنى « تكدَّسُ » يركَبُ بعضُها بعضاً فى الدَّوَران . ويُستعملُ فى سَـير الدَّوابِّ وغيرِها . وقال ابن الأعرابىّ : التكَدُّس أن يُحرِّكَ مَنكِبَيه إذا مَشَى . وقال الأصمَعىّ . هى من مَشْى القِصار الغِلاظ . ويقال كَدَسَ به الأرضَ إذا ضَرَبَها به . وأُنشِدت :

وخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدارِعِيـــــنَ نازَلْتَ بالسَّيفِ أبْطالَها[1]

وروى بعضهم : «قدأُبيِنَتْ زُروعها[1]» . والإبانة : الإثارة . وقوله «هَلُمَّ إليها » كما يقال أقبِلْ إليها . وقد مضى القولُ فى هَلُمَّ[1] .

٩ — وذاكَ أوانُ العِرْضِ حَىَّ ذُبَابُهُ زَنَابِيرُهُ والأزرَقُ المُتَلَمِّسُ

ويُروى « جُنَّ ذُبَابُهُ » أى كثُر ونَشِط . والعِرضُ : وادٍ من أودية اليمامة ، فلَكَ أن تَجُرّهُ بإضافة الأوانِ إليه وهو مرفوعٌ ، ولكَ أن تَنصِبَ الأوانَ فترفَعَ العِرْض بالابتداء ، واسم الزمان يضاف إلى الجمل من الابتداء والخبر ، والفِعْل والفاعِل ، وكأنّه قال : وهذا الذى ذكرتُ هو فى هـذا الأوانِ . وقوله « حَىَّ ذُبابُه » أى عاشَ بالخِصْب فيه . و« زنابيرُه » يرتفع على أنه بَدلٌ من الذُّباب . وذُبابُ الرَّوضِ قد تُسمَّى الزَّنابير . وقوله « والأزرق المتلمِّس » إشارة إلى جنسٍ آخرَ غيرِ الأوّل ، وهو ما كان أخضَرَ ضَخمًا . والمتلمِّس : الطالب ، ويقال إنّه سُمِّىَ المتلمِّسَ بهذا البيت ، واسمه جرير بن عبد العُزّى[4] .

١٠ — يكونُ نَذيرٌ مِن ورائِىَ جُنَّةً ويَنْصُرُنِى منهمْ جُلَىٌّ وأحمَسُ

١١ — وجَمْعَ بنى قُرّانَ فاعرِضْ عليهمُ فإنْ يَقْبَلوا هاتا التى نحنُ نُوبَسُ

(١) البيت للخنساء . ديوانها ص ٧٥ طبع ١٨٨٨ .

(١) اللسان : « هلموا إليه قد أبينت زروعه » .

(٣) انظر البيت الأول من الحماسية ٢١١ .

(٤) أو ابن عبد المسيح ، كما سبق فى ترجمته .

قوله « يكونُ نذيرٌ » قيل فيه هو نذير بن بُهْثَةَ بن وَهْب بن حَرْب . وقيل أراد بالنَّذير المُنذِر . والمعنى : إنى أرْصُد لهم من يُنذِرُنى بهم فيخبرُنى بمجيئهم إذا همُّوا به ، فأتّقِي وأستجنُّ وأتحرَّزُ . وجُلَىٌّ وأحْمَسُ من ضُبَيْعة بن ربيعة بن نِزَار يقول : وإذا جاء وقت التَّجاذُب والتدافُع قام بنَصرى هذان البَطْنانِ . وقوله « وجَمْعَ بنى قُرّانَ » النَّصْب فيه على إضمار فعل ، كأنّه قال : سُمْ جَمْعَ بنى قُرّان ، ويكون الفعل الظاهر تفسير المضمر ؛ والرَّفع على الابتداء . ومعنى البيت : أجْرُونا مجرى نُظرائنا فإنّا نَرْضَى بهم قُدْوةً ، واعرِضوا ما تَسُومونَنا على بنى قُرّان ، فإنْ وجدتموهم يتلقَّونه بالقَبول ، ويوطِّنون أنفسَهم عليه ، فلنا بهم أُسوةٌ ، وإلاّ فالامتناع منه واجبٌ . وقوله « هاتا التى نحنُ نُوبَسُ » أى هذه الخُطّة التى نُكْرَه عليها . والأَبْس : القَهر . وقال ابنُ الأعرابىّ : أبَسْتُ الرَّجلَ ، إذ لقيتَه بما يَكره ؛ وأبَسْتُ منه ، إذا وضَعْتَ منه باستخفافٍ به وإهانةٍ له . وجواب الجزاء لم يجئْ بَعْدُ .

١٢ — فإنْ يُقْبِلُوا بالوُدِّ نُقْبِلْ بِمِثْلِهِ وإلّا فإنّا نحنُ آبَى وأَشْمَسُ

١٣ — وإن يَكُ عَنّا فى حُبَيْبٍ تَثَاقُلٌ فَقَدْ كانَ مِنّا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ

قوله « فإن يُقْبِلُوا بالوُدّ » أعاد به الشَّرْط ، وذلك أنّه قال فى البيت الذى قبله « فإن يَقْبَلُوا هاتا التى نحن نُوبَسُ » ، ولم يأتِ للشَّرط بجوابٍ ، ثم قال « فإن يَقْبَلُوا بالوُدِّ نُقْبِلْ بمِثْلِهِ » ، فاكتفَى بجوابٍ واحد لاشتماله على ما يكون جوابًا لهما ، فكأنه قال : إن قَبِلُوا ما نُوبَسُ نَقْبَل مِثْلَه ، وإن أقْبَلُوا بعد ذلك وادِّينَ ووامِقِين أقبلنا بمِثْله ، وإلّا فنحن أشدُّ إباءً ، وأبلغُ شِماسًا ، وأحمَى أنفا وأعزُّ جانبا ، والشِّماس : الامتناع ، ومنه شِماسُ الدّابَّة ، وهو أن لا يُمْكِنَ من الإسراج والإلجام . وكانت بنو ضُبَيْعَةَ حلفاءَ لبنى ذُهْل بن ثَعلبةَ بن عُكابَةَ ،

فوقعَ بينهم نزاعٌ ، فما تبهم المُتلمِّسُ . وقولُه « وإنْ يك منَّا فى حُبَيْبٍ تثاقُلٌ » فإنّه أراد حُبَيِّب فخفّف ، وهو حُبَيِّبُ بن كعب بن يشكر بن بكر بن وائل . يقول : إنْ تكاسَلَ بنو حُبَيِّب عن طلب دمائنا ، وتثاقلوا عن إدراك ثأرنا ، فقد كان منا من يدأبُ ويَسهرُ ، فَلا يرَى(١) تعريسًا وتلوُّمًا وتعريجًا فى ذلك . والمِقْنَبُ : زُهاء ثلاثمائةٍ من الخيل . والتعريس : نزولٌ فى آخر الليل .

٢٢١

وقال سَعْدُ بنُ ناشِبٍ(٢) :

١ — تفنّدُنى فيمَا ترَى مِنْ شَرَاسَتِى وشِدَةِ نَفْسِى أُمُّ سَعْدٍ وما تَدْرِى

٢ — فَقُلْتُ لها إنّ الحَلِيمَ وإنْ حَلَا لَيُلْفَى عَلَى حَالٍ أَمَرَّ من الصَّبْرِ(٣)

تُفَنِّدُنى أى تُجَهِّلنى . والفَنَد : إنكارُ العَقْل من هَرَمٍ . يقال شَيخٌ مُفَنَّدٌ . وفى القرآن : ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ ، أى تَجهلونى ، وفُسِّر على تُكذِّبونى أيضا . والشَّراسةُ : صُعوبةُ الخُلُقِ وخُشونة الجانب . فيقول : تُعَيِّبُنِى(٤) هذه المرأةُ على ما ترَى من عُسرِ الخُلُقِ وإباءِ النَّفْسِ وفَظاظَةِ القَلْب ، جاهلةً بأحوال الرِّجال ، والفَصْل بين أوقاتِ الجِدّ والهزل ، والشِّدّة واللِّيان ، فأجَبتُها وقلتُ : إنّ الرَّجُل الحليم وإن لانَ عِطفُه وسَهُل خُلقُه فقد يُوجَدُ فى وقتِ الغِلظة وعند حالةِ القسوةِ أمَرَّ مَرارةً من الصَّبرِ ، وأشدَّ صلابةً من الحَجَر . وقولُه « وما تَدْرِى » فى موضع الحال . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر(٥) :

---

(١) م : « ترى » . والمعنى يتجه بكل منهما .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠ ص ٦٧ .

(٣) التبريزى : « إن الكريم » . وقد أشير فى هامش الأصل إلى أنه كذلك فى نسخة .

(٤) م : « تفتننى » ، التيمورية : « تعتبنى » .

(٥) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

وإنِّى لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلاَوَتِى ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اقشعرّتِ

٣— وفى اللِّينِ ضَعْفٌ والشَّراسةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لا يُهَبْ يُحْمَلْ على مَرْكَبٍ وَعْرِ

الواو من قولِهِ « والشَّرَاسَةُ » عاطفَةٌ لجُمْلةٍ على جُملةٍ ، ولا يجوز أن يُجَرَّ الشَّراسةُ على أن يكون معطوفاً على فى اللِّين ، لما فيهِ من العطف على عامِلَين بحرْفٍ واحدٍ[1] . ومعنى البيت أنَّ من استَلاَن جانِبُه فى كلِّ حالٍ استُضْعِفَ واهتُضِم ، ومن استُخْشِنَ خُلُقُه هِيبَ وتُحُومِى .

٤— وَمَا بِى عَلَى مَنْ لاَنَ لِى من فَظَاظَةٍ ولـكنَّنِى فَظٌّ أَبِىٌّ على القَسْرِ

فى هذه الطَّريقة قول الآخر[2] :

أبِىٌّ لما آبَى سريعٌ مَبَاءَتِى إلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِى فى مَسَرَّتِى

يقولُ : أَضعُ كلَّ واحدٍ من الفظاظة والسُّهولة ، والشَّراسة والسَّلاسةِ ، فى موضِعِه ، وأستعملُه مع من يستحقُّه ، فمن جَرَى معى وانقاد لى لِنْتُ له ، وقابَلْتُه بمثل فِعْلِه ، ومَن تأبَّى علىَّ وطلَبَ منِّى متابَعتَه والجَرىَ مع هَواه أَبَيْتُ عليه ، وخالَفْتُه فيما يبتغيه . والقَسْر : القَهر على الـكُرْه ، ويقال قَسَرْتُه واقْتَسَرْتُه ، ومنه قيل للأسد قَسْوَرَةٌ .

٥— أُقِيمُ صَغَا ذِى المَيْلِ حَتَّى أُرِدَّهُ وأَخْطِمُهُ حتَّى يَعُودَ إلى القَدْرِ

٦— فإنْ تَعْذُلِينِى تَعْذُلِى بِى مُرَزَّأً كَرِيمَ نَثَا الإعْسَارِ مُشْتَرَكَ اليُسْرِ

(١) أى العطف على معمولى عاملين بحرف واحد . والمسألة خلافية . قالوا : إذا لم يكن أحد العاملين حرف جر فإنه لا يجيز العطف نحوى إلا الأخفش ، وإذا كان أحدهما حرف جر مؤخراً نحو زيد فى الدار والحجرة عمرو ، أو وعمرو الحجرة فإنه لا يجيز العطف إلا الأخفش أيضاً . وإن كان حرف جر مقدماً ، كما فى نص هذا البيت فإن المنع مذهب سيبويه ، وبه قال المبرد وابن السراج وهشام ، وقد أجاز الأخفش هـذا العطف ، وبه قال الكسائى والفراء والزجاج . انظر آخر باب العطف عند الأشمونى .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفصليات (١ : ١١٠) .

قوله « أقيمُ صَغَا ذِى المَيْل » ، تبجّجَ فيه بأنه عارفٌ بأسرار الرِّجال ، لطيفُ التوَصُّل إلى إنزالهم مَنازِلَهم ، بصيرٌ بمداواة أدوائهم ، لا يَترُكُهم سُدًى ، ولا يُخَلِّيهم أهمالا . والصَّغَا : المَيْل والاعوجاج ، يقال صَغَا فؤاده يَصْغَى ويَصْغو ، أى مالَ . وصِغْوُكَ مع فلانٍ ، أى مَيْلُكَ . يقول : مَن مالَ عَنَّا فإنى أقوِّم اعوجاجَه بما يُحوِج إليه من قولٍ وفِعلٍ ، حتَّى أرُدَّه إلى ما أريدُه ، فإن تبيَّنْتُ فيه تعدِّيًا لِطَورِه ، وذهابًا عن حَقِّه وحَدِّه ، زَمَمْتُه بزمامِ مثلِه حتَّى يَرْجِعَ إلى مَرْتبتِه وقَدْرِه . وقولُه « فإن تَعْذُلِينِى » يصِفُ نَفسَهُ بأنَّه سَمْحٌ معطاء ، لا يُكَفُّ عن البَذْل ، ولا يُرَدُّ عن الإعطاء والجود ، على تلوُّن الزَّمان به ، وتَغيُّر الأحْوَالِ عليه . والمُرَزَّأ : المُصابُ فى مَالِهِ كثيراً . وقولُه « تَعْذُلِى بى مُرَزَّأً » ، أى رجلاً مرزَّأً ، وذلك الرَّجلُ هُوَ هو كما يقال : لقيتُ بزيدٍ الأسدَ(١) . والنَّثا : الخبَر ، ويُستعمل فى الخير والشَّرّ ، والثناء لا يستعمل إلاَّ فى الخير ، يقول : إن لُمتِنى على ما هو دَأْبى من الإفضال ، لُمتِ بى رجلا لا يفكِّرُ فى عُقَب الدَّهْرِ ، وكُروره بالغِنَى والفقْر ، فإن نَابَهُ العُسرُ حَسُنَ بلاؤه وكَرُمتْ أخبارُه فيه ، وإن نالَه اليُسْر أشرَكَ الأقاربَ والأجانبَ فى نَفْعه ، فعَمَّتْ فواضلُهُ لديهم .

وقد أكثر الشُّعراء فى هذا المعنى . فمن ذلك قَوْلُ الشَّمَرْدَل :

وَصُولٌ إذا اسْتَغْنَى وإن كان مُقْتِرًا ... من المالِ لم تُحْفِ الصَّديقَ مسائِلُهْ

وقولُ المَرَّار :

إذا افتقَرَ المَرَّارُ لم يُرَ فَقْـرُهُ ... وإن أيسَرَ المَرَّارُ أيسر صاحِبُهْ

وأحسَنُ من الجميع قول الآخَر :

إذا افتقَرُوا عَضُّوا على الفَقْرِ حِسْبَةً ... وإنْ أيْسَرُوا عادُوا سِرَاعًا إلى الفَقْرِ

(١) وهذا ما يسميه البلاغيون « التجريد » .

٧ — إذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ وصَمَّمَ تَصْمِيمَ السُّرَيْجِيِّ ذِى الأَثْر

يذكُر من نفسِه الصَّرامةَ والنَّفاذ ، وفَصْلَ الأمور ، والصَّبر على ممارسَة الخطوب . يقول : إذا عَزَمَ على الأمر كان جميعَ الرأى ، يَجعلُ المهمومَ به نَصْبَ عَيْنَيه ، حتَّى يَخرُجَ منه ، ونَفَذَ نَفاذ السَّيف الخَذِم لا يَتوقَّف فى الضَّريبة ، ولا يَكْهَم . والسُّرَيْجِيُّ : منسوبٌ ، ويجوز أن يكونَ وُصِف بذلك لكثرةِ مائه ورونقه ، حتَّى كأنَّ فيه سراجاً ؛ ومنه قيل : سَرَّجَ الله أمْرَك ، أى حَسَّنَه ونَوَّرَه . والتَّصميم : المُضِىُّ فى الأمر ، ويقال صَمَّمَ فى عَضَّته ، إذا نَيَّبَ . قال :

فأطْرَقَ إطْرَاقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى مَسَاغاً لِنابَيْهِ الشُّجَاعُ لَصَمَّما[1]

والأَثْر : الفِرِنْدُ والماء ، ويقال أُثْرٌ بالضمّ .

٢٢٢

وقال أيضاً :

١ — لا تُوعِدَنَّا يا بِلاَلُ فإنَّنا وإنْ نَحْنُ لم نَشْقُقْ عَصَا الدِّينِ أَحْرَارُ

يُخاطب بهذا الكلام بِلالاً الخارجىّ ، ويعيِّره خروجَه من طاعة السُّلطان وشَقَّه عَصَا الإسلام ، فيقول : اترُكْ تَوعُّدَنا فإنّا وإن لم نُفرِّقِ الجماعةَ تفريقَك ، ولم نُخالِف المسلمين مخالفَتَك فإنّ فينا كَرَماً وإباءً يحميِنا من الانهضام ، ويحرِّم علينا الصَّبرَ على المَذَلّة والعار ، فلا طريق لك إلى تَمَلُّكِنا والتحكُّم فينا . وقال الخليلُ قولُهم شَقَّ عَصَا المسلمين ، العَصَا : الاجتماع والائتلاف . والأجودُ عِندى أن يكونَ مَثَلاً كما يُقَالُ للرَّفيق الحَسَنِ السِّياسة : هو لَيِّنُ العَصَا ، وفى ضِدِّه :

---

(١) للمتلمس فى ديوانه ٢ نسخة الشنقيطى . ويروى : « لناباه » شاهداً على إلزام الألف . شرح الأشمونى (١ : ٧٩) .

هو صُلْبُ العَصا ، وكقولِهم : قَشَرْتُ له العصا ، إذا أبَنتَ له ما فى نفسِك ، وكما قيل : « عصا الجبان أطْوَل » . وقال بعضهم(١) يصف الخوارج :

رَجَوْا بالشِّقاق الأَكلَ خَضْماً فقَدْ رَضُوا أخيراً من اُكلِ الخَضْمِ أن يأكلوا قَضْما

فأتى بالشِّقاق وأصلُه من شقِّ العصا .

٢ — وإنّ لنا إمّا خَشِيناكَ مَذْهَبًا إلى حَيْثُ لانَخْشاكَ والدَّهْرُ أطْوارُ

يتَوَعَّدُه بأنّه إن أعياهُ مُقارَّتُهُ ولم يَفِ(٢) بمدافعتِهِ ، فارَقَ أرضَهُ وتَرَبَّصَ به ما لا يُؤمَن من تغير الزمان ، وتحوُّل الأحوال ، لأنّ فى سَعةِ الأرض مَذهبًا له ، وفى التباعُد عنه راحةً تُؤْمِنه . وقد أومأ بقولِهِ « والدَّهْرُ أطوارُ » إلى تصاريف الزمان ، وتلوُّنِه بالخير تارةً وبالشرِّ أُخْرَى . ويقال الناسُ أطوارٌ ، أى أخيافٌ على حالاتٍ شتَّى . وفى القرآن : ﴿وقد خَلَقَكُم أطْوارًا﴾ . وقوله « إلى حيث لا نخشاك » أجرى حيث مجرَى الأسماء ، وجعَل لا نخشاك من تمامه ، وحذف الضمير منه تخفيفاً ، كأنّه قال إلى حيث لانخشاك فيه ، أى إلى مكانِ الأَمْنِ منك . ويروى « فإنّ لنا عنكم مَزَاحًا ومَذهبًا » . والمَزاحُ : المَبْعَدُ ، يقال : زاحَ عَنِّى .

٣ — فلا تَحْمِلَنَّا بَعْدَ سَمْعٍ وطاعةٍ على غايةٍ فيها الشِّقاقُ أوِ العارُ

يقول : لا تُلْجِئْنا بعد انقيادِنا لك فى كثير من الأمور ، ودخولِنا تحت هَوَاكَ ، وتلَقِّينا بالسَّمْع والطاعةِ أمْرَكَ ، إلى غايةٍ تُضَيِّقُ نِطاقَ صَبْرِنا ، وتُعَجِّزُ طاقتَنا وجُهْدَنا ، فتُفْضِى بنا الحالُ إلى أحد شيئين ، إمّا مُشاقّتِك ومجاهَدَتِك ، وركوبِ كلِّ صعبٍ وذَلولٍ فى الخروج عنك وعليك ، وإمّا الرِّضا بالدَّنيّة

(١) هو أيمن بن خريم الأسدى ، يذكر أهل العراق حين ظهر عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير . اللسان (خضم ، قضم) . والرواية فى اللسان : « القضما » .

(٢) م : « ولم يقف » .

والدُّخولِ تحت العار والمضيمة ، فلا حظّ لنا ولك فى واحدةٍ منهما . وقد مَضَى القولُ فى الشِّقاقِ وأصلِه . ويقالُ هو يُشاقُّهم خِلافاً وعِناداً .

٤ — فإنّا إذا ما الحَرْبُ ألْقَت قِناعَها بِها حِينَ يجفُـوها بَنُوها لَأَبرارُ

قوله « إذا » ظرفٌ لخبر إنّ ، وهو أبرارُ . وكذلك قوله « حين يجفُوها » ، والتقدير : إنّا لأبرارٌ بالحربِ إذا ألقت قِناعَها وجفَاها أبناؤها . وقوله « ألقت قِناعَها » مَثَلٌ . يريد : إذا اشتدَّت فتكشَّفَت ، وزالت المساترَة بين أولادِها فتبرَّجت ، فى أقبح زِيِّها وأفظع صورتها . وتشبيه الحربِ فى ابتدائها بالفَتِيَّةِ المُخَدَّرَةِ وتَسَتُّرِها ، وعند تفاقُمِها بالعجوز واطِّراحها لقناعِها ، مشهور فى عاداتِهم وطرائقِهم . وبِرُّ أبنائها بها : صبْرُهم على حَرِّها ، وتهييجهم لنارِها . وجفاؤهم بها أن يكونوا على الضِّدّ من ذلك .

٥ — ولَسْنَا بِمُحْتَلِّينَ دَارَ هَضِيمَةٍ مَخَافَةَ مَوْتٍ إنْ بِنَا نَبَتِ الدّارُ

هذا خِلافُ قول الآخَر :

إذا ارتحلوا عن دَارِ ضَيْمٍ تَعاذَلُوا عَلَيْهَا وردُّوا وَفْدَهم يَسْتَقِيلُهَا[1]

وانتصب « مَخَافة » على أنّه مفعولٌ له ، والهَضِيمة والمَضِيمةُ واحد .

٢٢٣

وقالَ قُرَادُ بن عَبَّادٍ[2] :

١ — إذَا المَرْءُ لم يَغْضَبْ لهُ حِينَ يَغْضَبُ فَوَارِسُ إنْ قِيلَ ارْكَبُوا المَوْتَ يَرْكَبُوا[3]

---

(١) لعميرة بن جعل . المفضلية ٦٣ . وأنشده الجاحظ فى البيان (٢ : ٣٤٧) .

(٢) التبريزى : قال أبو هلال : هكذا فى الأصل ، وهو خطأ ، وإنما هو قراد بن العيار بن محرز بن خالد بن أرقم بن قسيم بن ناشرة بن سيار بن رزام ، وأبوه العيار أحد شياطين العرب » . ويؤيد ما قال أبو هلال أن الآمدى فى المؤتلف ١٥٩ ذكر أباه « العيار » ثم قال : « وكان ابنه قراد بن العيار شاعراً منكراً شريراً بذىء اللسان ، وعمر دهراً طويلا ، وهلك فى ولاية محمد بن سليمان الأولى وقد بلغ من السن أكثر من مائة سنة » . وانظر معجم المرزبانى ٣٢٨ .

(٣) الآمدى : « معاشر » بدل « فوارس » .

٢ – ولم يَحْبُهُ بالنَّصْرِ قَوْمٌ أعِزَّةٌ مَقَاحِيمُ فى الأمر الذى يُتَهَيَّبُ
٣ – تَهَضَّمَهُ أدْنَى العَـدُوِّ ولم يَزَلْ وإن كان عِضًا بالظُّلامَةِ يُضْرَبُ

يُخْبِر بأنّ عِزّ الرجلِ بعشيرته، واعتلاءهُ بذويه وأقاربه، فإذا لم يتغضَّبْ له فُرسانٌ يَسخَطُون لسُخطِه ويمتَعِضُون من دُخول الضَّيم عليه، فيركبُونَ حَدَّ الموْت فى هواه، ويقتحمون الشَّدائد فى نُصرتِه، تَجاسَرَ عليه أضعفُ أعدائه، وأدْنَى مُخالفيه، وإن كان فى نَفْسه منكراً دَاهِيَةً لا يُطاقُ، ولم يَزَلْ مَضروباً بالظُّلْمِ والمضيمة، مقهوراً بالإزراء والمَضِيمةِ، وإن كان لا يُؤتَى من حَدٍّ ومضاء. والعِضُّ: السيِّئُ الخُلُق، والمُنْكَرُ الشّديد اللِّسان. ويقالُ هو عِضُّ مالٍ وعِضُّ سَفَرٍ وقِتَال، إذا كان حَسَنَ الغَنَاء فى جميعها. وجوابُ «إذا المرء» قولُه «تَهَضَّمَهُ»، وهو العاملُ فيـه. والمقاحِيم: جمع المِقْحام، وهو الذى يَخُوضُ قُحْمَةَ الشيء، أى معظَمَه. ومعنى تهضَّمَه كَسَرَهُ وأذَلَّه. والحِباء: عطاء بلا مَنٍّ ولا جزاء. ويقالُ: حبَاهُ اللهُ بكذا، وحباهُ كذا أيضاً. وخبرُ لم يَزَلْ «يُضرَبُ»، وفى الجملة جوابُ «وإن كان عِضًّا».

٤ – فَآخِ لِحالِ السِّلْمِ مَنْ شئتَ واعْلَمَنْ بأنّ سِوَى مَوْلاكَ فى الحَرْب أجْنَبُ
٥ – ومَوْلاكَ مَوْلاكَ الذى إنْ دَعَوْتَهُ أجابَكَ طَوْعاً والدِّماءُ تَصَبَّبُ
٦ – فلا تَخْذُلِ المَوْلَى وإنْ كانَ ظالماً فإنّ بِهِ تُثْأَى الأمُورُ وتُرْأَبُ

يحثُّه على استصلاح [بنى[1]] الأعمام، وينبـه على أنهم المعتَمَدون فى الشَّدائد، فيقول: وَالِ لأيّام السلامة وأحوال المُوَادَعةِ والمُسالَمَة من شئت، وإن لم يَجْمَعْك وإيّاه نَسبٌ ولا سَبَبٌ، عالِماً بأنّه لا يَصلُح للحرب ومجاذبة الأعداء إلّا قريبٌ، وأنّ من سِوَاهُ فيها غَريب. وقولُه «ومولاك مولاك»

(١) التكملة من م والتيمورية.

تَلافَى به تحقيقَ ما قدَّمهُ، وتأكيدَ ما أطلقه، ونَفَى عنه تَسلُّطَ المجاز والاتّساع. فيقول: مولاكَ فى الحقيقة هو ابن عمِّك الذى إن استغثْتَ به أَبْعَدَ ما كان منك أغاثكَ عن حُنُوٍّ وشفقة، وإن دَعوتَهُ والكَلْمُ يَقطُر وحبلُ الأُلفةِ يَنقطع، أجابَكَ لا بتصنُّعٍ وتعمُّلٍ، فأمّا من وَلاؤه بالاسم دون المعنى، أو يكون مداجِيًا لك يُجامِلُك بالغِشّ وينطوِى لك على الضِّغْنِ، يخذلُك أحْوجَ ما كنتَ إليه، ويَبْعُدُ عنك أقربَ ما كُنْتَ فيه، فلا معتَمَدَ عليه، ولا استنامةَ إليه. وانتصب « طَوْعًا » لأنّه مصدرٌ فى موضع الحال. ومثل هذا قولُ الآخر:

أخُوكَ الذى إن تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وإنْ تَغضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ

وقوله « ولا تَخذُلِ المَوْلى وإن كان ظالما » يجوز أن يكون المعنى: لا تَخْذُلْه وإن كان ظالِمًا لك، ويجوز أن يكونَ على منهاجِ ما جاء فى الخبر: « انْصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مَظْلُومًا ». يقول: طالِبْ نفسَكَ لمولاكَ بمثْلِ ما تُطالِبُ به مولاكَ لنفسك، وَانصُرْهُ على كل حال.

وفى مثل طريقة البيتين الأوَّلَين من هذه المقطوعة قولُ الآخَرِ[1]:

وَمَنْ لا يَكُنْ ذا ناصِرٍ يَوْمَ حَقِّهِ يُغَلَّبْ عليه ذو النَّصِيرِ ويُضْهَدِ
وفى كثرة الأيدى لِذِى الظُّلْمِ زاجِرٌ إذا خَطَرَتْ أيْدى الرِّجال بمشهدِ

ومعنى « به تُنْأَى الأمور وتُرْأَبُ » يريد بالمولى تُصْلَحُ الأمور وتُفسَدُ. ويقال: رأَبْتُ الثَّأْى، كما يقال رَفَعْتُ الخرْق.

(١) هو عدى بن زيد العبادى. حماسة البحترى ١٥٤.

٢٢٤

وقال زاهرٌ أبو كِرامٍ التَّيْمِيُّ[١] :

١ - للهِ تَيْمٌ أىُّ رُمْحِ طِرَادِ   لاقَى الحِمَامُ به وتَصْلِ جِلَادِ

قوله « لله تَيْمٌ » ، تيمٌ : رجلٌ من بنى يَشْكر ، بارزَ أبا كِرامٍ فقتَلَه ، وكان أحدَ الفُرسان ، فأخذ أبو كِرَامٍ يُقيم أمرَه ويعظِّم شأنه ، لأنّ ثناءه عليه وإكبارَه لمكانه راجعٌ إليه ، إذ صار قَتِيلَه . واللام من « للهِ تَيْمٌ » دخلَت للتخصيص ، والتعجُّبُ دخَلَ فى الكلام أيضاً بقوله « أىُّ رُمْحِ طِراد » . وعلى هذا قولُهم : للهِ دَرُّه . وهذا التخصيص باللام يجرى مجرى الإضافة فى قولِهم : بَيْتُ الله ، وكعبةُ الله ، وإن كانت الأشياء كلُّها لله . وقوله « أىُّ رُمْحِ طِرادِ لاقَى الحِمامَ به » الضميرُ فى به لتَيْمٍ ، والمعنى : لاقَى الموتَ بتَيْمٍ أىُّ رُمْحِ مُطارَدَةٍ ، وأىُّ نَصْلِ مُجالدةٍ ، كأنّه كان رُمحًا ونَصلا ، ومِحَشَّ حربٍ . ويجوز أن يكون المراد : لاقى الموتَ به أىُّ سلاحٍ وعُدّة ، وأىُّ مقاتلٍ وبطل . ولك أن ترفع « الحِمام » ، والمعنى : لاقى الموتُ بتيم أىَّ رمح وأىَّ رامح ، وأىَّ سيفٍ وأىَّ سائف . ودلَّ على صاحب السيف والرُّمح قوله « ومِحَشِّ حربٍ » فى البيت الثانى .

٢ - ومِحَشَّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتعرِّضٍ   للمَوْتِ غيرِ مُعَرِّدٍ حَيَّادِ

يقالُ : حَشَشْتُ النارَ ، إذا جمعتَ الحطَبَ إليها وهيَّجْتها . كأنه جعله آلةً فى حَشِّ نار الحرب ، لأنّ المِفْعَل والمِفْعال للآلات . والتَّعريدُ : تَرْكُ القَصدِ وسرعةُ الانهزام . والحَيّادُ : الذى يَحيدُ عن موضع القتال كثيرًا . يريدُ أنّه

(١) أبو كرام ، كذا ضبط فى النسخ بكسر الكاف وتخفيف الراء . و « التيمى » نسبة إلى تيم . وعند التبريزى « أبو كَرّام التميمى » ، ثم قال : « ويروى : كِدام » .

يُقدِم ولا يُحجِم . وانعطف « ومِحَشّ حربٍ » على « ونَصْلِ جِلاَدِ » .

٣ — كاللَّيْثِ لا يَثْنِيهِ عن إقْدامِهِ ... خَوْفُ الرَّدَى وقَعاقِعُ الإيعادِ

٤ — مَذِلٌ بمُهْجَتِهِ إذا ما كَذَّبَتْ ... خَوْفَ المَنِيَّةِ نَجْـدَةُ الأنْجَادِ

يقول : هو فى بأسِـهِ وإقدامِهِ ، مِثلُ اللَّيث لا يَصرفه عن الوجهِ الذى يَؤُمُّهُ ، والأمرِ الذى يَهِمُّه ، ما يستشعِرُه الجَبَانُ من خوفِ الموت ، وقعقعة الوعيد . والقعقعةُ : صوتُ الجِلْدِ اليابس والبَـكْرَةِ ؛ وتوسَّعُوا فيه فقالوا : هالَ فلاناً قعقعةُ الوعيدِ . وقالوا : تقعقعَتْ مَفاصِلُه أيضاً .

وقولُه: «مَذِلٌ بمهجته» كأنَّه يَطُولُ تعرُّضُه للشَّدائد ، ويدومُ ابتذالُه لما يَجِبُ صَونُه من كرائم النَّفس ، فِعلَ مَن ضَجِرَ بمهجتِهِ فاستقتل ، واستطابَ الموتَ فتَعَجَّلَ . ويقال : مَذِلَ بسرِّه ، إذا باح به . والمُهْجَةُ : خالِصةُ النَّفس ، ومنه الأُمْهُجَانُ فى اللَّبَن[1] . وانتصبَ « خَوْفَ المَنِيَّةِ » على أنَّه مفعول له ، وإذا ما كَذَّبَتْ نَجْدَةُ الأنْجَادِ ، ظرفٌ لقوله مَذِل ، والمعنى : إذا خانت شِدَّةُ الأشِدّاء ، ولم تَفِ بما تَعِدُ شجاعَةُ الشُّجْعَان ، لاستفحال الشّأن ، فإنَّ هذا الرَّجلَ كان يمذُلُ بمهجتِه ، فـكأَنَّه يميلُ إلى انقطاع العُمر . والأنجادُ : جمع النَّجِد . والنَّجْدَةُ : البأسُ . ويقال : هو صادِقُ البأس ، كما قيل كاذب البأس .

٥ — سَاقَيْتُهُ كأْسَ الرَّدَى بأسِنَّةٍ ... ذُلُقٍ مُؤَلَّلَةِ الشِّفَارِ حِدَادِ

٦ — فطَعَنْتُهُ والخَيْلُ فى رَهَجِ الْوَغَى ... نَجْلاءَ تَنْضَحُ مِثْلَ لَوْنِ الجادِى

أخذ يقتصُّ كيف قتَلَ تيماً . والمُسَاقاة تكون من اثنين ، ولذلك قال :

(١) يقال . لبن أمهجان ، إذا سكنت رغوته وخلص ولم يختر .

« بأسِنَّةٍ ذُلُقٍ » فجمعَ ، وإنَّما كان سِنانانِ من رُمحَين . ويجوز أن يكونَ جَمَعَ لأنَّه أراد الزُّجَّ والسِّنانَ من كلٍّ واحدٍ منهما . والذُّلُق : المُحَدَّدَةُ . وذَلَقُ كل شيء : حَدُّهُ ، ومنه قيل ذَلِيقُ اللِّسانِ . والمُوَلَّلَةُ أيضا : المحدَّدة . والشِّفارُ ، أصلُه أن يستعمل فى السِّكِّين العريض . وكما جَعَلَ هذا الشَّفرةَ للرُّمح جعلهُ غيرُه للسَّيف فقال :

ويَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ من أن تَضيمَهُ إذا لم يَكُنْ عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ[1]

وقوله « فَطَعَنتهُ والخَيْلُ » الواو واو الحال ، والرَّهَجُ : الغبارُ . وقوله : « نجلاء » أراد طَعَنْتُهُ طعنةً نَجْلاء أى واسعة ، تَنْضَحُ أى تَرُشُّ . والنَّضحُ بالحاء غير معجمة يستعمل فيما رَقَّ ، وبالخاء معجمَةً فيما غَلُظَ . وقولُه « مثلَ لونِ الجادِى » يعني به دمًا ، أى لَوْنُهُ مثلُ لونِ الزَّعفران .

٧ – فكأنما كانَتْ يَدِى مِنْ حَتْفِهِ لما انْثَنَيْتُ لَهُ على مِيعَادِ

٨ – فهَوَى وجائشُها يَفُورُ بمُزْبِدٍ من جَوْفِهِ مُتَدارِكِ الإزْبادِ[2]

قوله « فكأنما كانت يدَى من حَتْفِهِ » يريدُ أنه سقط لأوّلِ طعنةٍ ، فكانت نفسُه فيها ، لأنها كانت جائفةً نافذةً إلى المقتل ، فكأنَّ بين حَيْنِهِ وبين يدِى لمَّا أمَلْتُها للطَّعن مَوْعِدَةً أُنجِزَت ، وخطفةً اختُطِفَت . وقولُه « فهَوَى وجائشُها يَفُور » يريدُ : سَقَطَ وما يَجِيشُ من نَجِيعِهِ يَسِيلُ وقد علاه الزَّبَدُ لكثرته وقوّته ، فهو يمورُ ولا يَرْقأُ ولا يهدأ . ومعنَى « متدارِكِ الإزْباد » أى متتابِعِهِ ، أى إزْبادُه لا ينقطِعُ .

(١) البيت لمعن بن أوس . ديوانه ٣٧ ليبسك وأمالى القالى (٣ : ٢١٩) .
(٢) التبريزى : « متتابع الإزباد » .

٢٢٥

وقال عَمرُو القَنَا[1] :

١ ـ القائِلِينَ إذا هُمْ بالقَنَا خَرَجُوا   مِنْ غَمْرَةِ المَوْتِ في حَوْماتِها عُودُوا

الحَوْماتُ : جمع حومَةٍ ، وهى فى الأصل أكثر موضِعٍ فى البَحر ماء ، وكذلك فى الحوض ، فاستعارها لشدّة الحرب . وإنّما يَصِفُ حِرصَهُم على القِتال ، وأنّه لَا يلحقُهُم السآمَةُ فيه والمَلال ، فمتى خرجُوا من غَمْرةِ مَنيَّةٍ ، وحَومةٍ كريهة ، مطاردينَ الأعداء ، دَعَتْهُم أنفُسُهم إلى أن يتنادَوْا : عُودُوا ، فلا شِفاء نِلْنَا ، ولا بَوَاء من الأعداء أصَبْنَا . وقولُه « بالقَنَا خَرَجُوا » أى خَرَجوا ومعهم القَنا. وعُودُوا فى مَوْضِعِ المفعول من القائلين ، وهو حكايةُ ما قالوا .

٢ ـ عَادُوا فَسَادُوا كِرَاماً لاتنَابِلَةٌ   عنـد اللِّقاء ولا رُعْشٌ رَعَادِيدُ

قوله « لا تنابِلَةٌ عند اللِّقاء » مثلُه قول الهُذَلى[2] :

قد ظَلْتُ فيها مَعِى شُعْثٌ كأنهمُ   إذا يُشَبُّ سَعِيرُ الحرب أرمَاحُ

يَقُولُ : عادوا لاتّفاق آرائِهِم واجتماع كلماتِهم ، وهم كِرامٌ للموافقةِ ، شِدادُ المُناصبةِ ، لايتضاءلون عند اللِّقاء ، ولا يتقاصرُون فى جَهدِ البلاء ، ولايرتَعِشُونَ فى الدِّفاع ، ولايتخاضعون أوانَ الامتناع . والتنابلةُ : جمع التِّنبالِ ، وهو القصيرُ . والرَّعاديد : جمع رِعدِيدٍ ، وهو الذى لا يتماسكُ جُبنًا وضَعفَ قلب .

٣ ـ لاقَوْمَ أكْرَمُ منهم يَوْمَ قالَ لَهُمْ   مُحَرِّضُ المَوْتِ عن أحْسَابِكُمْ ذُودُوا

---

(١) فى هامش التيمورية : « وهو أحد الفوارس الخوارج مع قطرى » . وانظر خبر حربه مع المهلب وابنه حبيب فى تاريخ الطبرى ، فى حوادث سنة ٦٥ . وهو غير عمرو القنا الجاهلى الذى ذكره لقيط بن يعمر فى قوله :

كمالك بن قنان أو كصاحبه   عمرو القنا يوم لاقى الحارثين معا

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٥٠) .

دخل تحتَ قولِهِ « أَكْرَمُ مِنْهُمْ » كلُّ خصلةٍ محمودةٍ ، لأنّه إذا تناهى كَرَمُهم إذا دَعا الدّاعِي وقتَ التحريض : أنِ ادفعُوا عن أحسابِكُم ، فقد حصَّلُوا كُلَّ مَنقَبةٍ شريفة ، وطَلَعُوا على كلِّ ثَنِيَّةٍ من ثَنايا المجدِ مُنيفة ، واكتَسَبُوا من الأُحدوثَةِ الجميلة بما يظهرُ من بَلائِهم ما يَقصُرُ عنهُ كلُّ أُكرومةٍ نبيهةٍ .

٢٢٦

وقال الفرزدق(١) :

١ — إنْ تُنْصِفُونا يالَ مَرْوانَ نَقْتَرِبْ ... إلَيْكُمْ وإلّا فأْذَنُوا بِبِعَادِ

يقولُ : إنْ حملتُمونا(٢) فى مجاورتِنا لَكُم على السَّوَاء ، وتركتُم(٣) البَغْىَ عَلَيْنَا والعَلاء ، اختلطنا بكم ، وطلبنا موافقتَكُمْ ، وإلا فاعلمُوا أنَّ البِعادَ منكم هَمُّنا وهِمَّتُنا ؛ لأنّه إذا لم يكن لنا صَبْرٌ على الاهتضام ، ولا طريقٌ إلى الانتقام ، فلا ثالثَ لهما إلّا الانتقال . ويقال أذِنْتُ بكذا ، إذا عَلِمتَ به فاستعددتَ له ؛ وآذَنَنِي فُلانٌ ؛ ومنه الأَذان بالصلاة ، والفعل منه أذَّنَ .

٢ — فإنَّ لَنا عَنكُمْ مَزَاحًا ومَذْهَبًا ... بِعِيسٍ إلى رِيحِ الفَلاةِ صَوَادِ(٤)

قولُه « مَزَاحًا » هو من زَاحَ يَزِيحُ ، إذا ذَهبَ ؛ ومنه أزَحْتُ العِلّةَ . والكلامُ خارجٌ على أنّه تفسير البِعادِ الذى ذَكره وبيَانُهُ . يقولُ : إن سُمْتُمُونا خَسْفًا ، وأذقتُمونا فى وِلايتِكُمْ عَسْفًا ، فإنّ لنا عنكم فى الأرضِ مَبْعَدًا ومُنتأى ،

(١) شهرة الفرزدق تغنى عن ترجمته . ولا يكاد مرجع من مراجع التراجم الأدبية يخلو منها . وذكر ياقوت فى معجم البلدان (٣ : ٣٠٤) أن الأبيات للبرج بن خنزير التميمى وكان الحجاج قد ألزمه البعث إلى المهلب لقتال الأزارقة ، فهرب منه إلى الشام . وذكر المبرد فى الكامل ٢٩٠ أن الأبيات لمالك بن الريب المازنى ، قالها حين هرب من الحجاج .

(٢) فى الأصل : « إن حكمتمونا » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) فى الأصل : « وتركتمونا » ، صوابه فى م والتمورية .

(٤) رواية ياقوت : « مزاحا ومزحلا » .

بإبلٍ بيضٍ كِرامٍ ، أَلِفَتِ المفاوزَ ، فهى للتَّلَكُّؤِ[(١)] عنها نوازِعُ دونها ، عَوَاطِشُ إلى ريحها . والصَّوَادِى : جمع صادِيَةٍ ؛ والصَّدَى : العَطَش .

٣— مُخَيسَةٍ بُزْلٍ تَخَايَلُ فى البُرَى   سَوَارٍ على طُولِ الفَلَاةِ غَوَادِ

التَّخْيِيس : حَبْس الإبل على الكدِّ والعَمَل ؛ ومنه قول النابغة :

* وخَيِّسِ الجِنَّ إنِّى قد أَذِنْتُ لَهُمْ[(٢)] *

أى احبِسْهُم واستعمِلْهُم ، وإنّما وَصَف العِيسَ ليُرِىَ أنَّهُ متمكِّنٌ من مُرادِه فى التَّباعُدِ ، مستظْهِرٌ فى العُدَّةِ للسَّفَر إنِ اضْطُرَّ إليه . وجعَلَها بُزْلاً لتكونَ متناهيةً فى القُوَّةِ . وقوله « تَخَايَلُ فى البُرَى » أى تختال فى سَيرِها وهى مُبْرَاةٌ تُطِيقُ وَصْلَ السَّيْر بالسُّرَى ، على امتداد الشُّقَّةِ وطول الوِجهةِ . وقوله « فى البُرَى » فى موضع النَّصب على الحال .

٤—وفى الأرضِ عن ذى الجَوْرِ مَنْأًى ومَذهبٌ   وكلُّ بلادٍ أُوطِنَتْ كبِلادى

أظهر فى الكلام طِيبَ نَفْسه على السَّفر ، وسُلُوَّه عن بلدِه وموطنِه ، فقال : فى الأرض الواسعة مُذْتَزَحٌ ومتوَجَّه عن الجائرين ، وكلُّ مكانٍ اتخذته[(٣)] وطناً كان كمَسْقَطِ رأسى ، ومقرِّ نَشْئِى ، إذ لا قَرابةَ بين الدِّيار وسكّانها ولا مُشاكَلَة ، وإنما يُختارُ منها ما كان إلى السلامةِ أقرب ، وللعِزِّ أجلَب ، ومن المهانةِ والذُّلِّ أبعد .

٥— وماذا عسَى الحَجَّاجُ يَبْلُغُ جَهْدَهُ   إذا نحنُ خَلَّفْنا حَفِيرَ زِيادِ[(٤)]

كان شَكْوُه من الحجّاج بن يوسف ، وتأذِّيه بسوء معاملتِه ، فأخذ يَستهينُ

---

(١) م والتيمورية : « للتأخر » .

(٢) عجزه :   * يبنون تدمر بالصفاح والعمد *

(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « أعدته » .

(٤) جهده ، بالنصب فى الأصل ، وبالرفع فى م والتيمورية والتبريزى .

به . يقولُ : إذا خرجْتُ من مَلَكَتِه ، وفارقْتُ أرضِى[1] مملكتِه ، وتباعدتُ عن حَومةِ سُلطانِه ، ودارِ أمرِه ونَهْيِه ، وخَلَّفتُ ورائى حَفيرَ زياد بن أبيه ، الذى هو حدُّ عمَلِه ، فماذا تَراهُ يَقْدِر عليه منِّى ، أو يستطيعُ اختيارَه من إيذائى وقَصْدى . وعسى من أفعال المقاربة ، والفِعْلُ بعده يَصْحبه أنْ فى الكلام . وفى القرآن : ﴿ وعسَى أنْ تَكْرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ﴾ . إلا أنه فى الشِّعر قد يشبِه تكادُ ، وهو نظيرُه فى أنه من أفعال المقاربةِ ، فيُنزَعُ منه أنْ ، لأنَّ الفِعْلَ بعد كاد يكون بغيرِ أنْ . ومثله فى ذلك قول الآخر :

* عَسَى اللهُ يُغْنِي عن تِلَادِ ابن قادِرِ *

ويَعْنِي بحفيرِ زيادٍ نَهَرًا كان احتفَرَهُ زياد .

٦ـ فبِاُسْتِ أبى الحجّاجِ واُسْتِ عَجُوزِهِ عُتَيِّدَ بَهْمٍ تَرْتَعِي بِوِهادِ

قوله « بِاُسْتِ أبى الحجّاج » قال أبو زيد : القَصْدُ بمثل هذا القول أن يبيِّنَ أنه يتجاسَرُ على ذِكر السَّوْءةِ منه . والباء من قوله « بِاُسْتِ » متعلقةٌ بمُضمَرٍ ، كأنه لَحِقَ بِاسْتِ والِدَيه كلُّ خِزْيةٍ وعارٍ ، ومَنقَصةٍ وشَنار . وقوله « عُتَيِّدَ بَهْمٍ » انتصبَ على الشَّتْمِ والاختصاص ، والعاملُ فيه فعل مضمرٌ ، كأنه قال : أعْنِي وأَذْكُرُ . وجَعْلُه بهذا الاسم أشهَرُ وأعرَفُ منه بالعَلَمِ له ، والاسم الذى سُمِّيَ به . وهذا هو الغَرَض فى كلِّ ما يُنْصَبُ على المدح أو الذَّمّ ، ولذلك كان أبلَغَ من الصفات التابعةِ لموصوفِها فى المعنى ، إذ كانت الصِّفة تجىء لشرح الاسم وإزالة اللَّبْسِ عنه ، وبابُ المَدْح والذَّمّ يجىء للتنويه والرَّفع

(١) أرضى جمع أرض مضافا إلى ما بعده ، وأصله أرضون . وهـذا ما فى الأصل والتيمورية . وفى م : « أرض » .

أو النَّهجين والحَطّ . والعُتَيِّد : تصغير عَتُود ، وهو ما رَعَى وقَوِىَ من أولادِ الغَنَم . والبَهْم : صغارُ أولادِ الغنم . وقولُه « تَرْتَعِى » موضِعُه جرٌّ على أنه صفةٌ لقولِه بَهْم . والوِهاد : ضِدُّ النِّجَاد . والمعنى : أنّه فى القِلةِ والخِسَّة رئيسُ أشباهٍ له هذا صِفَتُهُم فيما يَنالونه من دُنْياهُم ، فهو فيهم كعَتُودٍ من بَهْمٍ ذلك صفتُها .

٧ ــ فلولا بنو مَرْوَانَ كانَ ابنُ يوسُفٍ كما كانَ عَبْدًا من عَبِيدِ إيَادِ[1]

يقولُ : لولا تقدُّم الحجّاج ببنى مروان ، واستعمالُهم إيّاه ، وجَذْبُهُم بِضَبْعِه ورَفْعُهم خَسِيسَتَه ، وإيطاؤهم الناسَ عَقِبَهُ لـكان حديثاً كما كان قديماً ذليلاً مَهِيناً حقيراً ، قَمِيًّا بين أمثالٍ له من إيَادٍ .

٢٢٧

وقال آخر :

١ ــ قد عَلِمَ المسْتَأْخِرُونَ فى الوَهَلْ

٢ ــ إذا السُّيُوف عُرِّيَتْ من الخِلَلْ

٣ ــ أنَّ الفِرارَ لا يَزِيدُ فى الأَجَلْ

يقال استأخَرَ بمعنى تأخّر ، كما يقال استقدَمَ بمعنى تقدَّم . والوَهَل : الفَزَع .

---

(١) روى بعده التبريزى :

زَمانَ هو العبـــدُ المقِرُّ بذلّةٍ يُراوِح صِبْيانَ القُرَى ويُغادِى

وقال فى تفسيره : « قال ذلك لأن الحجاج كان معلما بالطائف . وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر »

ثم قال : « وكان الحجاج فى صغره يسمى كليباً » .

والخِلَلُ : بَطائن جُفونِ السَّيف ، والواحدة خِلّة ، والمراد بها هاهنا الجُفون . وقوله « أنّ الفِرار » سَدَّ مسدَّ مفعولَىْ عَلِمَ . يقولُ : بانَ وظهر للّذين يتأخّرون عن الدِّفاع ، ويتحامَوْنَ المِصَاع ، مستشعرِين أنّ الإحجام يَقِيهم[1] ويُبْقِيهم ، وظانّينَ أنّ الفِرارَ من الزُّحُوف إذا انتُضِيَتِ السيوفُ يزيد فى أعمارهم — أنّ الحذَر لا يُغنى من القدَر ، وأنّ الهرَب لا يزيدُ فى الأَجَل . وهذا كلامُ مَن ابتذَلَ نفْسَه فسَلِمَ وصار يُعيِّرُ من كان بخلافِه .

٢٢٨

وقال شِبْلٌ الفَزارىّ[2]

وحارَبَهُ بنُو أخيهِ فقتَلَهُم

١ ـ أيا لَهْفَى عَلَى مَنْ كُنْتُ أدْعُو فيَكْفِينِى وساعِدُهُ الشَّدِيدُ[3]

يَتندّم على ما أُجرِى إليه وجرّهُ القدرُ فيهم وفيه ، ويتذمَّمُ من نِكايتِه فى ذويه ويتحزَّنُ على ما فاتَهُ من تَلافيه ، ويتلهّفُ من فِقدانِه إيّاهم على فاقَتِه إليهم ، فقال : يا حَسْرَتاهُ على مَن كانَ مَفزَعِى فى النّوائب ، ومُعتمَدِى فى الشّدائد ، أستنصِرُهم فينصرونَنِى ، وأستكفيهم فتحصُلُ منهم كفايتى ، والقُوّةُ لهم وبهم ، والنُّصرَةُ مجتلَبَةٌ من جهتهم . وقوله « وساعِدُهُ » الواو واو الحال ، أى يَكفِينِى بقُوّةٍ وشِدّةِ بأس .

٢ ـ وما عَنْ ذِلّةٍ غُلِبُوا ، ولكنْ كَذاكَ الأُسْدُ تَفْرِسُها الأُسُودُ

بَيَّنَ أنهم لم يُؤْتَوْا مِن ضَعفٍ ، ولم يُنكَبُوا عن وَهْن ، ولكنّ الأشدّاء إذا

---

(١) فى الأصل : « يفنيهم » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٢) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « شبيل » بالتصغير .

(٣) التبريزى : « بساعده . أى يكفينى الشديد بساعده » .

تلاقَوْا متدافِعِينَ ومتجاذبين ، فلا بُدَّ من حُصُولِ الغَلَبِ فى أَحَدِ جانبَيهم ، واحتجانِ القَهرِ لأقربِ طائفتيهم . على ذلك الأسودُ تَـكْسِرُها الأسُود . وقوله : « كذاكَ الأُسْدُ » الأُسْدُ مرتفع بالابتداء ، ونَفْرِسُها الأسود فى موضع الخبر ، وكذاك فى موضع الحال ، والتقدير : ولـكنّ الأُسْدَ تَفْرِسُهاَ الأُسدُ كذلك ، أى أمثالاً لِمَنْ قَتَلَتْ ، ويجوز أن يكون أشار بذلك إلى الغَلبِ ، لأنّ غُلِبُوا يَدُلّ عليه ، ويجوز أن يكون ذلك خبراً مقدَّماً للأُسد ، وتَفرِسُها فى موضع الحال . والتقدير : ولـكن كأمثالهم الأُسدُ إذا فرسَتْها الأُسد ، ومثل هذا قول الآخر :

قَوْمُنَا بَعْضُهُمْ يُقَتِّلُ بَعْضًا لا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحدِيدُ

ومن الأمثال : « النّبع يَقْرَعُ بعضُه بعضاً » .

٣ — فَلَوْلَا أَنَّهمْ سَبَقَتْ إليهمْ سوابِقُ نَبْلِنَا وهُمُ بَعِيدُ

٤ — لَحَاسَوْنا حِيَاضَ المَوْتِ حَتَّى تطايَرَ من جوانِبِنا شَرِيدُ

هذا الـكلام اعترافٌ منه بقُوَّتِهِم وغَنَائِهِم فى الحرب واستقلالِهِم ، فيقول : لولا أنَّا رَشَقْناهُم بالنَّبْلِ على بُعدِهِم عنا ، وقَبلَ تمـكنهم منّا ، لـكان الإتيانُ عليهم متعذِّرًا ، والفَرَاغُ من مُنَاوشتهم متصعِّباً ، لما فيهم من الثَّباتِ فى الدِّفاع والصَّبرِ على الوِقَاع ، ولأنَّهم كانوا يُساقُوننا المَوتَ من حِياضِه إلى أن يتفرّقَ عنا ، ويذهبَ مِن جوانبنا كلُّ مختلِطٍ بِنَا ، يَأْساً منَّا ، ونفوراً من حالنا ، لما يستشنِعُه من جهْدِ بلائنا ، ويُبْشِمُهُ من عَسَرِ لِزامِنا ، لـكنّهم شُغِلوا بما دَهَمَهم من ذلك . وقولُه « وهُمُ بعيد » بعيدٌ مِثْلُ الصَّدِيقِ والرَّسول ، فى أنّه يَقَعُ للواحدِ والجمع . وقولُه « شرِيدُ » يُرادُ به الـكَثْرة ، وإنْ كان لفظُهُ واحداً . وقوله : « لَحَاسَوْنَا حِيَاضَ الموتِ » فيه توسُّعٌ ، لأنّ المَعْنَى ما فى الحِيَاض .

٢٢٩

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءةِ[١] :

١— ألا أيُّها البَاغِى البِرَازَ تقَرَّبَنْ أُسَاقِكَ بالمَوْتِ الذُّعَافَ المُقَشَّبَا

يخاطِبُ من طَلَبَ مبارزتَهُ . ومعنى « تقَرَّبَنْ » أقبِلْ وهَلُمَّ . وقوله أساقِكَ بالموت الذُّعافَ » يجوز أن يكون معناه أسَاقِكَ بسبب الموتِ ، ويجوز أن يكون على القَلْب أراد أساقِكَ الموتَ بالذُّعافِ ، والمعنَى بأن أفعَلَ بك ما يقوم مَقامَ سَقْىِ الذُّعاف . ويَدُلُّ على هذا الوَجْه قوله فيما بَعْد : « فمَا فى تساقِى المَوْتِ فى الحرْبِ سُبَّةٌ » . والذُّعاف : سَمٌّ ساعةٍ ، ويقال طعامٌ مَذْعُوفٌ . ومَوْتٌ ذُعافٌ أى وَحِىٌّ . والمُقَشَّبُ : الذى قد خُلِط به أدوِيَةٌ تُقَوِّيه وتهيِّجه . وأصل القَشْب : الخلْط ، حتّى قيل رَجُلٌ مُقَشَّبٌ ، أى مخلوط الحسَب باللُّؤم .

٢— فما فى تَسَاقِى المَوْتِ فى الحَرْبِ سُبَّةٌ على شَارِبِيه فاسْقِنِى منه واشْرَبَا[٢]

التَّساقى : أن يَسقِىَ بعضُهم بعضًا ، ولا يصحّ الأمرُ منه لواحِدٍ ، ولا يَتعدَّى إليه . ومن هذا الوجه خالَفَ تفاعَلَ ، وإن لم يَكُنْ فعلُهما إلاَّ من اثنين فصاعِدًا . ألا تَرَى أنّكَ تقولُ يا زَيدُ ضارِبْ عَمْرًا ، ولا تقول تَضَارَبْهُ . والمرادُ بالكلام إظهار طِيب النَّفْس بالموت ، والتَّسَلِّى عن الحياةِ ، وأنّه لا يَدخلُ العارُ على من شَرِبَ كأسَ الرَّدَى ، ولا مَنْقَصَةَ على مُتَنَازِعِيها[٣] ، فهاتِها وخُذْها .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠ ص ١٣٦ . وقد ضبط فى النسخ هنا بسكون الطاء والصواب فتحها كما سبق .

(٢) التيمورية : « على ساقييه » وفى هامشها إشارة إلى الرواية الأخرى .

(٣) كذا فى م والتيمورية ، وفى الأصل : « منازعيها » .

٢٣٠

وقال دَرّاجٌ حين طُعِن :

١ – شُدِّى عَلَىَّ العَصْبَ أُمَّ كَهْمَسْ
٢ – ولا تَهُـلْكِ أَذْرُعٌ وأَرْؤُسْ
٣ – مُقَطَّمـاتٌ ورِقَابٌ خُنَّسْ
٤ – فإنَّما نحن غَـدَاةَ الأَنْحُسْ
٥ – هِيمٌ بهِيمٍ طُلِيَتْ تَمَرَّسْ

يقوّى قلبَها على أَسْوِ جراحِه ، وإحكام شدِّ عصائِبِه ، ويقولُ : لا يَهُولَنَّكِ ما تَرَيْنَ من أذرُعٍ مُفصَّلةٍ ، وأروُسٍ مقطَّمةٍ ، ورقابٍ مُقَصَّرَةٍ ، فإن المَوْتَ يأتى لِحِينِهِ وأوانِهِ ، وقدْرِهِ وميقاتِه ، ولا يقرِّبُهُ شِدَّةُ الجِلادِ ، ولا فَظَاعَةُ الجِراحِ ، واعْلَمِى أنَّ الذى أدَّانا إلى ما تشاهدينَهُ تَنَاهِى العداواتِ والضَّغائن ، وانطواء الصدور على الحَزَازَات والسَّخَائم ، وأنَّ كُلًّا منّا كان يَكظِمُ غيظَهُ ، ويكتُمُ حِقدَهُ ، انتظارًا لِعُقَبِ الأيَّام ، وفُرَصِ الإمهال ، فلمّا جَمَعنا القَدَرُ لغداةِ الأَنحُس ، كُنَّا كإبِلٍ جَرْبى طُلِيَتْ بالهِنَاءِ لاقتْ مِثْلَها فتحاكَّتْ متلذِّذةً ، وتدافعت متشفِّية . الهِيمُ : الإبلُ العِطاش ، وإذا كانت جَرْبَى قد عَطِشَتْ وطُلِيَتْ كان حُمَّاها أزيَدَ ، وكَربُها أفظَعَ ، وتحـكُّكُها أشدَّ . والخُنَّس : جمع خانس ، كشاهدٍ وشُهَّدٍ . والخُنوس : الانقباض والانخفاض . والباء من قوله « بِهِيمٍ » يَتعَلَّقُ بتَمَرَّس ، وتمَرَّس صِفَةُ الهِيم الأوّل ، وطُلِيت صفةٌ للثّانى .

٢٣١

وقال الأَرَقَطُ بن دِعْبِلٍ[(١)] بن كلبٍ العنبرىُّ :

١ ـ إنِّى ونَجْمًا يَوْمَ أَبْرَقِ مَازِنٍ عَلَى كَثْرَةِ الأَيْدِى لَمُؤْتسيانِ[(٢)]

لَقِيَ هذا الرّجلُ وابنُه قومًا لُصوصًا فقاتلاهم وظفِرا بهم ، فأخذ يقتصُّ الحالَ . ونَجْمٌ : اسمُ ابنِه . يقول : إنّى وابنى نَجْمًا فى يومِ الالتقاء مع المتلصّصة بأبْرَقِ مازِنٍ ـ والأبْرَق مكانٌ فيه حجارةٌ سُودٌ وبيضٌ ، ومنه جَبَلٌ أبْرَقُ ، إذا كان طاقاتُه ذاتَ لونَيْنِ سَوادٍ وبَياضٍ ـ على كثرتِهم وقِلَّتِنا ، لمؤتَسِيَان ، أى يُوَاسِى كلٌّ منا صاحبَهُ على أمرِه ، ويساعِدُه على مِراسِه . وقوله « على كثرة الأيدى » فى موضع الحال .

٢ ـ يَلُوذُ أَمَامِى لَوْذَةً بِلَبَانِهِ وتُرْهِبُ عَنَّا نَبْعَةٌ ويَمَانِ

الضمير فى قوله يَلُوذُ لنَجْمٍ ابنِه ، والباء فى بلبانِهِ يتعلّق بيلوذُ ، ولا يجوز أن يتعلّق بقولِه لَوْذَةً ، لأن الفعل والمصدر إذا اجتمعا فالفعل بالعَمَل أولَى . والهاء ضمير الفَرَس ، ولم يَجْرِ ذِكْرُه ، ولكن المرادَ مفهومٌ ، وكان الأرقطُ فارسًا على ما يدلُّ الكلامُ عليه ، والابنُ راجِلًا . وكان لياذُه من حَرِّ الوِقاع فى الوقت بَعدَ الوقتِ بأبيه ، على عادة مُزاوِلِى الحروب فى تَسانُد الرَّجّالة إلى الفُرسان ، ثم قال « وتُرْهِبُ عَنَّا نَبْعَةٌ ويَمَانٍ » تنبيها على عُدَّتِهما واستظهارِهما بسلاحِهما . ويَعنِى بالنَّبْعةِ قَوسا .

٣ ـ ونَغْشَى فَنُغْشَى ثُمَّ نُرْمَى فَنَرْتَمِى وَنَضْرِبُ ضَرْبًا ليس فيه تَوَانِ

يقول : نَحْمِلُ عليهم فيحملون علينا ، ثم يَرْمُوننا من بَعْدُ فنرميهم . كأنَّهم

(١) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « رعبل » .

(٢) أنشده ياقوت هذا البيت فى (أبرق مازن) مسبوقا بقوله : « وقال الأرقط » .

طارَدُوا أوّلاً ثم ناضَلوا وأخَّرُوا الجِلَاد . فقال : ونَضْرِبُ ضَرْباً لا فتورَ فيه ولا تقصير ، وهذا كما قال الآخر[1] :

* عَنّا طِعَانٌ وضَرْبٌ غيرُ تَذْبِيبِ[2] *

فالتَّذبِيبُ المنْفِيُّ كالتَّوانى .

٢٣٢

وقال وَدّاكُ بن نُمَيْلٍ المـازِنى[3] :

١ — نَفْسِى فِدَاءٌ لبنى مازِنٍ مِن شُمُسٍ فى الحَرْبِ أَبطالِ

يقول : أَفْدِى من كلِّ سوءٍ بنفسى بنى مازِنٍ ، من فُرسانٍ يَنفِرون من الضَّيْم ، ويَشْمُسون إذا التَقَوْا مع الأعداء فى الحرب ، شِمَاساً لا يُحْصِلُهُم[4] على طَمَعٍ مُتِيح ، ولا يؤدِّيهم إلى يَأْسٍ مُرِيح ، بل يتردّدون فى الجِذاب ، فلا يزالون معهم على مِرَاسِ إتعابٍ لا يَنقطع ، ولِزامِ شَرٍّ لا يُقْلِع ، وهكذا يكونُ شُمُوس الخيْل فى الإباء والانقياد . وقال لقيطٌ[5] فبيّنَ المعنى وأوضحَه :

جَرَّتْ لِمَا بَيْنَنا حَبْلَ الشَّمُوسِ فلا يأْساً مُبِيناً نَرَى منها ولا طَمَعَا

وفى طريقة بيت وَدّاك قولُ عبد الرحمن بن حَسّان :

وإنِّى من قومٍ كِرَامٍ يَزِيدُهم شِمَاساً وصَبْرًا شِدَّةُ الحَدَثانِ

---

(١) هو سلامة بن جندل . المفضليات (١ : ١٢٠) .

(٢) صدره : * همت معد بنا هما ننهنهها *

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٧ ص ١٢٧ . وكذا تكررت « نميل » هنا بالنون . وانظر ما سبق . وعند التبريزى : « ثميل » بالثاء .

(٤) هذا ضبط م . وضبط فى الأصل : « يحصلهم » بفتح الحاء وتشديد الصاد ، وكلاهما مما لم يرد فى المعاجم .

(٥) لقيط بن يعمر الإيادى . وقصيدته أول مختارات ابن الشجرى .

٢ — هِيمٌ إلى المَوْتِ إذا خُيِّروا بَيْنَ تِبَـاعاتٍ وتَقيالِ

الهِيمُ : العِطاش ، والتِّباعةُ والتَّبِعَةُ بمعنًى . يقول : إذا خُيِّرَ بنو مازنٍ فيما يزاوِلُونه بين الصبر على القِتال وبين الرِّضا فيما يَلحَقُهم معه تَبِعَاتُ العارِ ، وُجِدُوا يُؤثِرُونَ فَوْتَ الرُّوحِ على الْتِزام الهَضْمِ ، إيثارَ العطشانِ للماء .

٣ — حَمَوْا حِمَاهُمْ وسَمَا بَيْتُهُمْ في باذِخاتِ الشَّرَفِ العالى

يقول : مَنَعوا حِمَاهُم ممن يُرِيدُ دُخولَه ، ويرومُ إباحَتَهُ ، فَسَلِمَ على مَرِّ الأيّام ، وصار بيتُهم من يَفَاعِ الشرف العالى فى أعلى مَنزِلةٍ ، فلا يَرْتَقِي إليه هِمّةُ حاسد ، ولا يَنالُه أُمنِيَّةُ مُنازِعٍ . والباذِخ : الجَبَل الطويل ؛ ومنه البَذَخ الكِبْر .

٢٣٣

وقال سَوّارٌ(١) :

١ — أَجَنُوبُ إنَّكِ لو رأيْتِ فَوَارِسى بالسِّيفِ حِينَ تبادَرَ الأشرارُ

٢ — سَعَةَ الطَّرِيقِ مَخافةَ أن يُؤسَرُوا والخَيْـلُ يَتْبَعُهُمْ وهُمْ فُرّارُ

هذا الكلام تلهُّف وتحسُّر ، وإخبار بحُسْنِ بَلائِه وبلاء فُرسانِهِ فيما مُنُوا به وتحمُّدٌ . فيقول : لو شاهَدْتِ فُرسانى يا جَنُوبُ بالسِّيف — وهو شاطئ البَحْر — حين تَسابق شِرَارُ الرِّجال وجُبناؤهم إلى مُتَّسَع الطريق ، خارجِينَ من مَنافِذِ المَضِيقِ ، خوفاً من الإسارِ ، هائمين على وجوهِهم ، والخيْلُ فى طَلَبِهِم وهم يستغيثون بى عند احمِرارِ البَاسِ ، واشتدادِ المِرَاس ، على عادتِهم مَعِى فى الكرائِهِ ، لرأيْتِ أمراً مُنْكَراً . حَذَفَ جواب الأمر ، وإبهامُ الحال فى مثل

(١) سبقت ترجمة سوار بن المضرب فى الحماسية ١٨ ص ١٣٠ .

هذا الكلام أبلغُ من بيانها ، وقد مضى القولُ فى مثله ، فيما تقدَّم . وسَمْتَ الطريق : مفعولُ تبادَرَ ، ومَخافةَ انتصَبَ على أنه مفعولٌ له ، وأنْ يُؤسَرُوا مفعولٌ من للمَخافةِ .

٣ — يَدْعُونَ سَوَّارًا إذا احْمَرَّ القَنَا ولكلِّ يَوْمِ كَرِيهةٍ سَوَّارُ

احمرارُ القَنا إنَّما يكونُ من الدَّمِ السّائل عليه ، لكثرةِ الطَّعْنِ . وقد قيلَ : موتٌ أحْمَرُ ، ومَنِيَّةٌ حمراء ، يُرَادُ الشِّدَّةُ ، حَتَّى قِيلَ سَنةٌ حمراء ، وقالوا : « الحُسْنُ أحْمَرُ » أى يُتَجَشَّمُ فى طَلَبِ الجمال الشَّدائدُ . وقوله « ولكلِّ يَوْمِ كريهةٍ سَوَّارُ » أراد أن يُبيِّنَ أنَّ ذلك دَأْبُهم عند الكريهةِ فى دُعائى ودأبى فى الإجابةِ ، وأنه لم يَكُنْ بِدْعًا منهمْ ومِنِّى ولا نُكْرا .

٢٣٤

وقالَ أبُو حَزَابَةَ[١] [التميمىُّ] :

١ — مَنْ كانَ أحْجَمَ أوخامَتْ حقيقَتُه عِنْدَ الحِفاظِ فلم يُقْدِمْ على القُحَمِ

٢ — فعُقْبَةُ بْنُ زُهَيْرٍ يومَ نازَلَهُ جَمْعٌ مِنَ التُّرْكِ لم يُحْجِمْ ولم يَخِمِ

هذا الكلام يجرى مجرى التعريض لما يَشْتمل عليه من التعيير . وقوله « فَعُقْبَةُ » مبتدا وخَبَرُهُ لم يُحْجِمْ . فيقول : من كان كَفَّ فى اللِّقاء عن الإقدام وقْتَ الحاجة ، وأغْنَى نفسَهُ من الاقتحام أوانَ المحافظة ، راضيًا بالقُصُورِ والتقصير ، والانخزال والفتور ، أوْ سقطتْ هِمَّته ، وتَخَتَّرَت حقيقَتُه[٢] ، فلم تَبْعَثْهُ أنفَةٌ ، ولم

(١) اسمه الوليد بن حنيفة ، وأحد بنى ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . شاعر من شعراء الدولة الأموية بدوى ، حضر وسكن البصرة ثم اكتتب فى الديوان ، وضرب عليه البعث إلى سجستان فكان بها مدة ، وعاد إلى البصرة ، وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك ، قال أبو الفرج : وأظنه قتل معه . الأغانى (١٩ : ١٥٢) التبريزى : « وقال أخو حزابة ، أو ابن حزابة » . والتكملة بعده من التيمورية .

(٢) التختر : التفتر والاسترخاء . فى الأصل : « وتحيرت » ، صوابه فى م والتيمورية .

يهيِّجْه امتعاضٌ وأَبِيَّةٌ، فعُقبةُ بن زهيرٍ يومَ مُنازَلتِه للأتراك لم يتوقَّف في المُدافعة، ولم يتلبَّثْ فيها دون أبعدِ الغاية. والإحجامُ: ضِدُّ الإقدام. وقد مَضَى القَوْلُ في موضوعِه. وحقيقةُ الرَّجُل: ما يَحِقُّ عليه الدَّفعُ عنه من ذَوِيهِ وحَسَبه، كما أنَّ حقيقةَ الأمر ما يُتَيَقَّنُ من وُجُوبِهِ. واستعارةُ النَّومِ فيها حَسَنٌ، فهو كما يُقال نامَ الثَّوْبُ إذا أَخْلَق. وقُحَمُ الأمور والطُّرُق: ما صَعُبَ منها. وقوله «لم يَخِمِ» يقال خام عن قِرْنِه، إذا نَكَلَ ونَكَصَ على عَقِبه. ويقالُ أيضا: خَامَ في مكيدَتِهِ يَخِيمُ، إذا لم يَظفرْ فيها بخَيرٍ. وقولُه «فعُقْبةُ» جَوابُ من كان أحْجَمَ.

٣ — مُشَمِّرٌ للمَنَايا عَنْ شَوَاهُ إذا ما الْوَغْدُ أَسْبَلَ ثَوْبَيْهِ على القَدَمِ

يقول: كَشَفَ في المُجاهَدةِ عن ساقِه، وتَشَمَّرَ للبَلاءِ عند سِياقِه، إذا الدَّنِيُّ من الرِّجال أرخَى ذَيلَه، فلا يَتَشَمَّرُ لتَلَقِّي المُهِمّة، وتَغَشَّى غِطاءَ عَجْزِه، فلا ينبعثُ لِدفعِ المُلِمَّة، ولا يتحرَّكُ لِمَنْعِ المَظْلِمَه. والشَّوَى: الأطراف. والوَغْد من قولك: وَغَدْتُ القومَ، إذا خدمتَهم. وقوله «إذا ما الوَغْد» ما زائدة، وإذا ظَرْفٌ لما دَلَّ عليه قوله «مُشَمِّرٌ» وهو جوابه. وفي خِلاف قولِه قولُ الآخَر[1]:

وكُنتُ إذا جَارِي دعَا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

٤ — خَاضَ الرَّدَى في العِدَى قِدْمًا بِمُنْصُلِهِ والخَيْلُ تَعْلُكُ ثِنْيَ المَوْتِ بِاللُّجُمِ

يقول: دَخَل قديمًا في مكاشَفَةِ أعدائِهِ الهلاكَ بسيفه، لا يَنْقَبِضُ ولا يُحجِمُ، والخَيْلُ عَوَاضٌّ على لُجُمِها، تعلُكُها في أثناء الموت. والعَلْكُ: المَضغ، ويقال: في لِسانه عَوْلَكٌ، أي يَمْضَغُه[2]. فعَلَى هذا يكون «ثِنْيَ المَوْتِ»

(١) هو أبو جندب الهذلي. اللسان (نصف)، وقد سبق في ص ٢٩.

(٢) في الأصل «مضغة» تحريف، صوابه في التيمورية. وفي القاموس أن العولك لجلجة في اللسان. وفي مقاييس اللغة: «ويقولون: في لسانه عولك، إذا كان يمضغه ويعلكه».

ظرفا ، كما يقال جعلتهُ ثِنَى كذا . ويجوز أن يكونَ مفعولًا من تَعْلُكُ . ويقال : ثَنَيْتُ الشَّىء ثَنْيا ، ثم يُسمَّى المَثْنِيُّ ثِنْيا . ويكونُ « باللُّجُم » فى موضع الحال ، كأنَّه قال : والخيل تَمضُغُ مُثَنَّى الموتِ ، أى مضاعَفَه ، مُلْجَمة . وهذا حَسَنٌ . وبعضُهم رَوَى « والخَيْلَ تَعْلُكُ ثِنَّ الموت » ، والثِّنُّ : حُطامُ اليَبَسِ ، والمختار ما قدَّمْتُه . وفى هذه الطَّريقة قول الآخر :

خُضْنَا إليهِ الموتَ فى أَيْمَانِنا حُمْرُ الشِّفَارِ جُفُونُهُنَّ الأَرْؤُسُ

٥ — وهُمْ مِئُونَ أُلُوفًا وَهْوَ فى نَفَرٍ شُمِّ العَرَانِينِ ضَرَّابِينَ لِلْبُهَمِ

يقولُ : وَاقَعَ الأعداء ونَاجزَهم ، على كثرة عددهم ، وهو فى رِجالٍ كِرامٍ يَسْتَنْكِفُونَ من تَقبُّل العار ، قَتَّالِينَ لبُهَمِ الرِّجال . وقوله « مِئُون » جمع مائة وهى من الأسماء المنقوصة إذْ كانت لامُها محذوفةً ، بدلالة قولهم : أَمْأَيْتُ ، ولذلك جُمِعَ على السَّلامة . وإنَّما أشار إلى جِنْس التُّرْك كُلِّهِ فعَدَّهُمْ أعداءه ، لا أنَّه حَارَبَ مِئِينَ أُلوفًا منهم . والبُهَمُ : جمع بُهْمَةٍ ، وهم الشُّجعان الذين لا يُدْرَى كيف يُؤْتَونَ ، لاستِبهامِ أحوالِهم .

٢٣٥

وقال أَوْسُ بن ثَعْلَبَة[١] :

١ — جَذَّامُ حَبْلِ الْهَوَى مَاضٍ إذا جَمَعَتْ هَوَاجِسُ الهَمِّ بعدَ النَّوْمِ تَعْتَرِكُ

يَصِفُه بالنَّفاذ فى الأمور ، واجتماع الرَّأى فى الخطوب ، والمُضِىِّ فيما يَعرِضُ ،

(١) هو أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة . وكان سيد قومه وأحد فرسان بكر بن وائل بخراسان ، وولى خراسان أيام الدولة الأموية . وهو صاحب « قصر أوس » ، وفيه يقول ابن أبى عيينة :

فيا حسن ذاك القصر قصراً ونزهة ويا فيح سهل غير وعر ولا ضنك
كأن قصور القوم ينظرن حوله إلى ملك موف على قنة الملك =

وتَرْكِ التَّباطؤ عَمَّا يَعِنُّ ويحدُث ، وأنَّهُ لا يمنعه من ركوبِ الأسفار وتجشُّمِ المشاقِّ ما يَدفَعُ فى صَدرِ العَزمِ ، ويَثْنِى من حَدِّ القَصْدِ ، بل يقطَع علائق الهوَى ، ويُبْعِدُ عن نفسِه عوائقَ المُنَى ، فيمضِى قُدُماً إذا أقبلَتْ عوارِضُ الهموم باللَّيل ، تتردَّدُ بين القلبِ والخاطر ، وتجولُ بين الفِعْل والفاعل . والجَذْمُ : القَطعُ . وحَبْلُ الهوَى : الوُصلَةُ التى بينهُ وبينَ النفس . وعَكَرَ واعتَكَرَ : عَطَفَ . [والهاجس : ما وَقعَ فى خَلَدك . وأنشد :

فطأطأْتُ النَّعامةَ من قريبٍ وقد وقَّرتُ هاجِسَها بهجسِى[1]

النَّعامة : اسم فرسه[2]] .

٢ ــ وَمَا تجهَّمَنِى لَيْلٌ ولا بَلَدٌ ولا تَكَاءدَنِى عن حَاجَتِى سَفَرٌ

قوله « وما تجهَّمَنِى لَيلٌ » فيه قَلْبٌ ؛ لأنَّ المعنى : ما تجهَّمْتُ ليلاً ولا بلداً . ويقال تجهَّمْتُ فُلاناً ولِفُلانٍ ، إذا استقبلتَه بوَجهٍ كريهٍ . وأسَدٌ جَهْمُ الوَجهِ . فيقول : لا أتَكرَّهُ زَمناً ، ولا أستصعِبُ مَركَباً ، ولا أستبعِدُ بَلَداً إذا سَنَحَ أمرٌ أوجبَ نُهوضاً ، أو سفرٌ اقتضى لِبُعدِه صبراً جميلًا . ويقال تكاءدَنِى كذا ، وتَصعَّدنِى كذا ، إذا شقَّ عليك .

٢٣٦

وقال آخر[3] :

١ ــ أقولُ وسَيْفِى فى مَفَارِقِ أغْلَبٍ وقَدْ خَرَّ كالجِذْعِ السَّحُوقِ المُشَذَّبِ

مفعول « أقولُ » أول البيت الذى بعدَه ، وهو قولُه « بكَ الوَجْبَةُ » .

= وهو زوج أم الظباء السدوسية ، التى اشترت بشار بن برد بدينارين ثم أعتقته . معجم البلدان (٧ : ٩٩) والأغانى (٣ : ٢١) .

(١) أنشده فى اللسان (هجس) .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) التبريزى : « وقال آخر وقد أوقعت مازن بقوم من بنى عجل فقتلوا منهم ، فعدت بنو عجل على جار لبنى مازن فقتلوه » .

وقال « فى مَفَارِقِ » لأنَّهُ جمعَهُ على ما حَوْلَه ، كما يقال:بَعيرٌ ضَخْمُ العَثَانِين ، كأنَّهُ جَعَلَ كُلَّ قِطعةٍ مِمَّا يلِي المَفْرِقَ مفرِقا فجمَعه . ومعنى خَرَّ سَقَطَ ، ومصدرُه الخرور . والسَّحُوق من النَّخل والحُمُر : الطويل . يقال : أتانٌ سَحُوقٌ ، نَخلةٌ سَحوق . يقول : لمّا تمَكَّنْتُ من أغلَبَ قَنَّعتُه بسَيْفِى فسَقَط ، فقُلتُ متشفِّيا ومُسْتَهينًا : أناخَتِ الوَجْبةُ بِكَ لا بمن كُنتَ تطلُبه لها[1] ، وهذا كما يقال : لليدين وللفَمِ . وقوله « كالجِذْعِ » فى موضع الحال ، والعامل فيه خَرَّ ، وتشبيهُهُ إيَّاهُ بالجِذْع من قديم التَّشبيه ، وفى القرآن : ﴿ كأنَّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَة[2] ﴾ . وجَعَلهُ مُشَذَّبًا ليكون طولُه أظهرَ .

٢ــ بِكَ الوَجْبَةُ العُظْمَى أنَاخَتْ ولمْ تُنِخْ بِشُعْبَةَ فابْعَدْ من صَرِيعٍ مُلَحَّبِ

أراد بالوَجبةِ العُظْمَى المنِيَّةَ . وفى القرآن : ﴿ فإذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها ﴾ . أى نَزَل بك المكروه الأعظم ، والبلاء الأفظع ، لا بِشُعْبَة . كأنَّ هذا المصروعَ كان يَتوَعَّدُ شُعْبَةَ بالقتلِ ، أو يريدُه له ويتمنَّاه ، فما ائتَمرَهُ[3] به أصابه وحَقَّ عليه . وقوله « فابعد » دُعاء عليه على طريق الاستهانَة بما حَلَّ به . والمُلَحَّبُ : المذلَّلُ ، ومنه طريقٌ لاحِبٌ أى واضحٌ . ويجوز أن يكون معنى مُلَحَّبٌ مجروحٌ مُقطَّع يقالُ لَحَبْتُ اللَّحم إذا قطَعتَهُ طولا .

٣ــ سَقَاهُ الرَّدَى سَيْفٌ إذا سُلَّ أومضَتْ إليه ثَنَايَا المَوْتِ من كُلِّ مَرْقَبِ

هذا مثل قول تأبَّط شرًّا .

إذَا هَزَّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نواجِذُ أفْوَاهِ المَنَايَا الضَّوَاحِكِ[4]

وإن كان هذا أبْلغ ؛ جَعَل ضَحِكَ الموتِ تألُّقَ السَّيْفِ إذا جُرِّدَ من

(١) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « تظلمه لها » .
(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة . وفى الآية ٢٠ من سورة القمر : « كأنهم أعجاز نخل منقعر » .
(٣) ائتمر به : هم به .
(٤) البيت ٨ من الحماسية ١٣ .

الغمدِ مَرُوراً به ، وفلانٌ جعَلَهُ إلى المضروب به ثِقَةً بكونِه له . ويقالُ أَوْمَضَ وَوَمَضَ ، إذا لَمعَ . ورواه بعضهم : « أَوْمَضَتْ إليه منَايَا الموْتِ » ، وهو تصحيف .

٤ــ وَيَاعِجْلُ عِجْلَ القاتِلِينَ بِذَحْلِهِمْ غَرِيباً لَدَيْنَا من قبـائلِ يَحْصُبِ[(١)]

٥ــ جَنَيْتُمْ وجُرْتُمْ إذْ أَخَذْتُمْ بحقِّكُمْ زَعَمْتُمْ غريباً مُرْمِلًا غيرَ مُذْنبِ[(٢)]

قولُه « عِجْلَ القاتلين » هو إضافةُ البعضِ إلى الكلّ ، وكرّره توكيداً . ولكَ أن تضُمَّ عِجْلَ الأوّل وتَنصِبَ الثانى على البدلِ ، أو على عَطْفِ البيَان . وبَنُو عِجْلٍ كانوا مَوْتُورِينَ بما ارتكب منهم قبيلةُ الشّاعر ، وهم بَنُو مازِنٍ ، فَلَمْ يطلُبُوا ذَحلَهُمْ من وجهِهِ ، ولا أدرَكوا الثّأر من كاسِبه ، لكنهم أخذوا غريباً كان جاوَرَ بنى مازن فقتلوه ، فقال هذا الشّاعر فى مخاطبتهم معيِّراً ، وهازئاً متهكِّماً : يا عِجْلَ القاتلين بوترهم غريباً كان عندنا من بنى يَحْصُبَ ، لم يَسْعَ فى اكتساب الثّأر الذى تدّعونَه ، ولا أعْمَلَ فيه يدَهُ وسِنانَه حتّى جَنَيْتُم وعَدَلْتُم عن طريقِ الرّشاد ، إذ أخذتم بحقكم — على زُعمِكُم — غيرَ واترِكم . فقوله « إذْ أخذتُم بحقكم زَعَمْتُم » يجوز أن يُضَعِّف بالزَّعْم دعواهُم الحقَّ المشارَ إليه ، ويجوز أن يضعِّفَ ما توَهَّموه من دَرَكِ الثّأر بمـا فعلوه . ويجوز أن يضعِّف الأمرينِ جميعاً ، وهو الأشبه . فإن قيل : أين مفعولا زعمتم ، وكيف ساغ حذفهما ؟ قلت : الحذفُ هنا كالحذفِ فى قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُون ﴾ . وكالحذفِ فى قول الكُميت :

بأىِّ كتابٍ أَمْ بأيَّةِ سُنَّةٍ ترى حُبَّهُمْ عاراً عليك وتَحْسَبُ[(٣)]

(١) التبريزى : « فيا عجل » .

(٢) التبريزى : « غريباً زعمتم » .

(٣) كذا فى جميع النسخ ، وعند التبريزى كذلك . ومشهور الرواية كما فى الهاشميات ٣٨ : « عاراً على » .

فكما حُذِفَ مفعولا تَحْسِبُ في بيت الكُمَيت ، ومفعولا تزعمون في الآية ، كذلك حذف مفعولا زعمتم من هذا البيت ، ويكون التقدير : إذْ أخذتم بحقِّكم — زَعَمْتُمُوه مأخوذاً — رجُلاً هذا صِفتُه ، وبحقِّكم زعمتموه ثانيا ، فحذَف ذِكْرَ الحقِّ لِمَا تقدَّمَ من ذِكرِه ، ولمّا حذف المفعول الأوّل جاز حذفُ الثاني ، وهذا كما يُحذَف المبتدأ والخبر من مسألة الكتاب(١) ، وهي متى ظننت أو قُلْتَ زيْدًا مُنطَلِقاً . إذا أعملتَ الفِعلَ الأوّلَ ساغ ذلك ، لأنّ الفعل الثاني نقيضُهما ، وقد حصلَ في الكلام ذِكرُهما . فاعلَمْه . والمُرْمِل : الفقير .

٦ — وما قَتْلُ جارٍ غائبٍ عن نَصيرِه لطالبِ أوتارٍ بمَسْلَكِ مَطْلَبِ

٧ — فلَمْ تُدْرِكوا ذَحْلاً ولم تَذْهَبوا بما فعلْتُمْ بنى عِجْلٍ إلى وجْهِ مَذْهَبِ(٢)

يقول : الوِتْرُ مقيمٌ في موضعِه ثابتٌ على حاله ، لم تُزِيلوه ولم تُظْعِنوه عن مَحَلِّه ، لأنّ قَتْلَ جارٍ للواتر غائبٍ عن نُصّارِه ، بعيدٍ عن أرضه وديارِه ، لطالبِ الثأر ليس بطريقٍ يؤدّيه إلى نيلِ مُرادٍ ، ولا بسببٍ يوصِلُه إلى اشتفاء من داء ، فأنتم لم تُصِيبوا نُجْحًا في فعلكم ، ولا سَلِمتم فيما أتيتم من عارٍ يَلحقكم .

٨ — ولكِنّكم خِفْتُم أسِنَّةَ مازِنٍ فنكَّبْتُم عنها إلى غَيْرِ مَنْكِبِ

٩ — وقد ذُقْتُمُونا مَرّةً بعد مَرّةٍ وعِلْمُ بَيَانِ المَرْءِ عِنْدَ المُجرِّبِ

يقال نَكَّبَ بمعنى تنكَّب ، ومثله قَدَّمَ بمعنى تَقدَّم ؛ ومعناه انحرَفَ . ويقال هو أنكَبُ عن الحق ومِنكابٌ عنه ، إذا جانبَه فيصيرُ منه في شِقّ . يقول : هِبتُم أعداءكم عندما هَمَمتم به من طَلب وِتركم ، واستشعرتم منهم جُبنًا ، فحذِرْتُموهم ، ثم عَدَلتم عنهم إلى غيرِ مَعدِلٍ فقَبُحَتْ صورتُكم ، واخترتمْ ذلك

(١) كتاب سيبويه (١ : ٤١) . ونصه : « وقد يجوز ضربت وضربني زيدا ، لأن بعضهم قد يقول : متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً . والوجه متى رأيت أو قلت زيد منطلق » .
(٢) كذا في م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تدركوا ثأرا » .

لأنكمْ خَبَرتمونا حالةً بعد أُخرى ، والمَرْء يَتبيَّنُ الشىء ، ويَعرِف الخَصْمَ عند تجربته .

٢٣٧

وقال بغثر بن لَقيطٍ الأسدىّ(١) :

١ – أمَّا حكيمٌ فالتَمَسْتُ دِماغَهُ ومَقِيلَ هامَتِهِ بحَدِّ المُنْصُلِ

٢ – وإذا حُمِلْتُ على الكَريهةِ لَمْ أقلْ بَعْدَ العزيمةِ ليْتَنى لَمْ أفعَلِ

قولُه « أمَّا » يتضمَّن معنى الجزاء ، وأكثرُ ما يجىء مكرَّرًا ، وقد جاء هنا غير مكرّر . فيقول : مهما كان من شىء فقد طَلَبْتُ دِماغَ هذا الرجُلِ بسيفى ، فأصَبْتُهُ غير مُتندِّمٍ على ما فعَلْتُ ، ولا متذمِّمٍ منه ، لأنى إذا حُمِلْتُ على خُطَّةٍ صعبةٍ فوطَّنْتُ نفسى عليها ، وقرَّرْتُ عزمى فى تجشُّمِها لم أقُلْ بعد الدخول فيها والخروج منها بِوُدِّى ألاّ أكونَ لابَسْتُها . وأراد بالمَقِيلِ المَقرَّ . والهامَةُ : رأس كلِّ حيوان ، والجميع الهام . والمُنْصُلُ ، من أسماء السيف . ويقال : مالَهُ عزيمةٌ أى لا يَثْبُتُ على ما يَعزِم عليه . ورأيُهُ ذو عَزيمٍ . والعَزْمُ : توطين النَّفس على المراد .

٢٣٨

وقال رجلٌ من بنى نمير(٢) :

١ – أنا ابْنُ الرّابعينَ مِنَ آلِ عَمْرٍو وفُرْسانِ المَنابِرِ من جَنَابِ(٣)

٢ – نُعَرِّض للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا وَجُوهًا لا تُعَرَّضُ للسِّبابِ

(١) ذكر فى القاموس (بغثر) أنه شاعر جاهلى .

(٢) نسب المبرد فى الكامل ٦٧ لبيسك بيتين شبيهين بالأول والثانى إلى القتال الكلابى .

(٣) رواية المبرد للبيتين الشبيهين :

أنا ابن الأكرمين بنى قشير وأخوالى الكرام بنو كلاب

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

٣ ــ فآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ وأَخْوَالى سَرَاةُ بنى كِلابِ

يفتخرُ بأنّ آباءه رؤساء خطباء . والرابعُ : الرئيس الذى كان يأخُذُ رُبع الغنيمة فى الغَزْو . ويقالُ رَبَعَ فُلانٌ فى الجاهليّة وخَمَسَ فى الإسلام . وذكر عَمْراً وجَنَاباً ليُرِىَ أنه كريم الطَّرَفين ، يدلّ على هذا قولُه فيما بَعْدَه :

فآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ وأخوالى سراةُ بنى كِلاب[1]

وقولُه « نُعرِّض للطِّعان إذا التَقَيْنا » يَصِفُ تكرُّمَهم وتصوُّنَهم فى السّلم ، وتبذُّلَهم فى الحرب . ويُشْبِهُ هذا قولُ الراعى :

وَيَبتذِلُ النَّفسَ المصُونَةَ نفْسَهُ إذا ما رأى حَقًّا عليه ابتذالَهَا[2]

وقول الآخر[3] :

نُعرِّضُ للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا وُجُوهاً لا تُعرَّضُ لِلطِّامِ

وسَرَاةُ القومِ : خِيارُهم . وقال الخليلُ : السَّرْوُ : سخاء فى مُرُوَّةٍ . وفَعَلَةٌ فى جمع المعتلّ نادرٌ ، لأنه يختصّ بالصحيح ، نحو الفَجَرَة والكَفَرة ، وبإزائه من المعتلّ فُعَلَةٌ نحو قُضَاةٍ وغُزَاة .

٢٣٩

وقال الهُذْلُول بن كَعْبٍ العَنْبرىّ[4] :

حين رأته امرأتُه يَطْحَن للأضياف ، فقالت : أهذا بعلى[5] ؟!

(١) نمير وكلاب أخوان ، أبوهما عامر بن صعصعة ، فأبناؤهما أبناء عمومة .

(٢) سبق البيت بدون نسبة فى الحماسية ٢١ .

(٣) هو الحريش بن هلال القريعى . انظر الحماسية ٢١ .

(٤) ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٩١ وقال : « ويقال الذهلول » ، أى بتقديم الذال .

(٥) المبرد فى الكامل ٢٣ : « ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابى من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم وكان مملكا ، فنزل به أضياف فقام إلى الرحا فطحن لهم ، فرت به زوجته فى نسوة فقالت لهن : أهذا بعلى ؟ أ فأعلم بذلك فقال ... » . مملكا ، من الإملاك ، وهو عقد النكاح .

١ ــ تَقُولُ وَدَقَّتْ صَدْرَها بيمينها أَبَعْلِيَ هذا بالرَّحَا المتَقَاعِسُ[١]

حَكى ما قالته امرأتُه وهى تدقُّ صَدْرَها بيمينها ، مستنكرةً لما رأتْهُ من طَحنِه لضيفِهِ ، ومستفظِعَةً لما شاهَدَتْ من تَخَفُّفِهِ وتبذُّلِهِ ، وهو قوله : أبَعْلِي هذا المتقاعِسُ بالرَّحَا . فإنها استشنَعت هيئَتَه وامتهانَه نفسَه فيما يُمتَهَن فيه الخدم[٢] ، ويأنَفُ من تولِّيه ذَوُو[٣] الرَّزانة والعِزّة . وإنّما ابتدأ كلامَه بتقول لأنَّ القولَ يُحْكَى به ما كان كلاماً ، ويُعْمَلُ فيما كان قولاً . والمُتقاعِسُ : بناء لما يُفعل تكلُّفا . على هذا قولهُم تَخَازَرَ وتَعَامَى . والقَعَسُ : دخول الظَّهْرِ وخروج الصَّدر . وقوله « أبَعْلِي » موضعُه رفعٌ بالابتداء ، والألف لفظُه لفظ الاستفهام ، ومعناه الإنكار والتقريع . وقولُه « هذا » يكون فى موضع الخبر ، والمتقاعِسُ يتْبعه على أنّه عَطْف البيان له . وإن شئتَ جعلْتَ هذا صفةً لبَعْلِي والمتقاعِسُ خَبراً . وقولُه « بالرَّحا » لا يجوز أن يتعلق بالمتقاعس ، لأنَّه فى تعلُّقِه به يصير من صِلَة الألف واللام ، وما فى الصِّلَةِ لا يتقدَّم على الموصول ، ولكن تجعلُه تبييناً وتتصوَّرُ « المتقاعِسُ » اسماً تامًّا ، ويصيرُ موقعُ بالرَّحا بعده موقعَ بِكَ بَعْدَ مَرْحبًا ، ولكَ بعْد سَقْياً وحَمْداً . وإذا كان كذلك جاز تقديمُه عليه ، كما جاز أن تقول : بِكَ مَرْحَبًا ، ولكَ سَقْيًا . وللمازنىّ فى مثل هذا طريقةٌ أخرى : وهو أن يجعل الألف واللام من المتقاعِس للتعريف فَقَطْ ، ولا يؤدّى معنى الذى ، كما تَقُولُ نِعْمَ القائمُ زَيْدٌ ، وبئْسَ الرَّجُل عَمْرو ، وإذا كان كذلك لم يحتجْ إلى الصلة ،

---

(١) التبريزى والمبرد : « تقول وصكت » . وعند التبريزى أيضاً « نحرها » موضع « صدرها » .

(٢) كذا فى م والتيمورية وفى الأصل : « يمتّهن الخدم » .

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ذو » بالإفراد .

لمجاز وقوع بالرّحا مُتَقدِّماً عليه ومؤخَّراً بعده. وموقعُ الجملة التى حكاها من كلام للمرأة نَصْبٌ على أنه مفعول لتقول. فأمّا ما يَعمل فى لفظِه «قالَ» ومتصرِّفاته فهو ما يكونُ قولاً ووصفاً للجُمَل، كقولِك قلتَ حقًّا أو باطِلاً، أو قُلتَ صدقاً أو كذِباً وما أشْبَهَهُ. والبعلُ يقالُ للرَّجُل والمرأة، وقيل بَعْلَةٌ أيضاً، والفعلُ منه بَعُلَ بَعَالَةً وبُعُولَةً. والبِعالُ: ملاعبَةُ الرجلِ أَهْلَهُ. ويقال بنو فلانٍ لا يُبَاعِلُون، أى لا يُتزَوَّج إليهم ولا يُزَوِّجونَ.

٢ ــ فَقُلْتُ لَهَا لا تَعْجَلِي وتَبيَّنِي بَلاَئى إذا التفَّتْ عَلَيَّ الفوارِسُ

حَكَى ما جَعَلَهُ جَواباً للمرأة: كما حَكَى كلامَها، وهو قولُه «لاتَعْجَلِي» مع ما يَتْبَعُه. ومعنى البيت: لا تُسرِعِي إنكارَكِ، بل تثبَّتِي فى حكمِك، وتبيَّنِي بَرَاعَتِي فى فعالِي، وغَنَائى عند الشدائد وبلائى، إذا اجتمع عَلَيَّ فى حَوْمةِ الحربِ الفُرسانُ، وأحاط فى مَضايقِها بِيَ الأقرانُ، فإنَّ نَجْدَةَ الأبطالِ تظهر فى مثل تلك الحال. واعْلَمِي أنَّ مايُستنكَفُ منه هو التَّخلُّف عن الكِفاح، والرِّضا عن النَّفْس بما لا يَجْعَلُه الكريمُ منه بِبالٍ، فأمّا خِدمةُ الضَّيفِ وامتهانُ النَّفْسِ فى الاحتفال له، فمقبولٌ من أخلاقِ الكِرام، محمودٌ عند تجاربِ الرِّجال.

وقُدِّمَ القَوْلُ فى شذوذ فوارِسَ وحُكْمِه(١).

٣ ــ أَلَسْتُ أَرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ وفيه سِنانٌ ذُو غِرارَيْنِ يابِسُ(٢)

أقبلَ يُقَرِّر المرأةَ على زَكِيِّ أفعالِه، ورضِيِّ أخلاقِه. وألف الاستفهام إذا

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٩ ــ ٤٠.

(٢) هذه رواية جميع النسخ والكامل ومعجم المرزبانى. وانفرد التبريزى برواية «نائس» ولكنه فى الشرح اعترف بالرواية الأولى ضمناً قال: «ويقولون حديد يابس، وبارد، يعنون الصلب. والنائس: المضطرب». وقد روى فى اللسان (ردع) هذا البيت برواية «نائس» منسوباً إلى نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى.

اتَّصَلَ بحرف النفى تقرَّر به فيما كان واجباً واقعاً ، وإذا انفَرَدَ عن حرفِ النَّفى تقرَّر به فيما كان منفيًّا مدفوعاً . يقول القائل مقرِّراً : أفعَلْتُ هذا ؟ إذا لم يكن فَعَلَهُ فأنكَرَهُ . وألم أفعلْ كذا ؟ إذا كان قد أتاه واكتسبَهُ . والقِرْنُ : النَّظير فى البأس . وموضِع « يركَبُ رَدْعَه » [نصب على الحال ، أى راكباً رَدْعَه[١]] . والرَّدْع : الدَّفْع والكَفُّ . وتحقيق الكلام : أدفعُ القِرن وقد رَكِبَ رَدْعِي إيَّاه فَسَقطَ . وقال الخليلُ : رَكِبَ رَدْعَهُ ورَدِيعَهُ[٢] ، أى خرَّ صريعاً لوَجْهِهِ . وذِكْرُ الرُّكوبِ مَثَلٌ . ويجوز أن يكونَ المُرادُ بالرَّدْع ما تلطَّخ به من الدَّم ؛ ويقال ثَوْبٌ مَرْدوع ، إذا كان قد لُطِخَ بالزعفران[٣] أو غيرِه . وذكر بعضُ أصحاب المعانِي أنَّ معنى « ركبَ رَدْعَهُ » أى إذا كُفَّ لم يَرْتدِعْ ومَضَى لوجهِه ، كأنَّهُ يتلَقَّى الرَّدْع بالرُّكوب . وقال أبو العباس المُبرِّد : « هو مِن ارتدَعَ السَّهْمُ ، إذا رَجعَ النَّصْلُ فى سِنْخِهِ متجاوزاً[٤] » . قال : « ويقال رَكِبَ البعيرُ رَدْعَهُ ، إذا سَقَط فدخل عُنُقُه فى جَوْفِهِ . ومنه ارتدَعَ فلانٌ عن دينِه[٥] » . والذى قاله تحصيلُه ما أوردتُه وكشفتُهُ . وقولُه « وفيه سِنَانٌ » يريدُ أنه مطعونٌ بسِنانٍ ذى حَدَّين صُلبٍ . وموضع « وفيه » موضع الحال ، والعامِلُ فيه يركَبُ ، كما أن يركَبُ فى موضع الحالِ والعامِلُ فيه أرُدّ .

٤ ـ وأَحْتَمِلُ الأَوْقَ الثَّقِيلَ وأمْتَرِى خُلُوفَ المَنَايَا حِينَ فَرَّ المُغَامِسُ

قولُه « وأحْتَمِلُ » ينعطف على خَبر ليس ، وهو أرُدُّ ، ويكون من جُملةِ

(١) التكملة من م والتيمورية .
(٢) لم يذكر فى اللسان والقاموس بهذا المعنى ، وذكر بدله فى القاموس الرداع ، كغ اب .
(٣) م والتيمورية : « إذا كان به لطخ من الزعفران » .
(٤) نص الكامل ٢٣ - ٢٤ عند تفسير هـذا البيت : « إذا رجع النصل متأخراً فى السنخ » .
(٥) هذه الجملة الأخيرة لم ترد فى الكامل .

ما قرَّرها به[1] . والأَوْقُ : الثِّقلُ . ومعنى « أمْتَرِى » أى أمْسَحُ . والحُلُوفُ : جمع الحِلْف ، وهو ما يَقْبِضُ عليه الحالبُ . وقولُه « حينَ فَرَّ المُعَامِسُ » يُرْوَى « المُغَامِسُ » بالغين معجمةً . فمعنى « المُعَامِس » بالعين الذى يدخُل فى الشّدائد ويُدْخِلُ غيرَهُ فيها . ويقالُ : يَوْمٌ عَمَاسٌ ، أى شديدٌ . ويكون المُعَامِسُ كقولهم المُغَامِر ، وهو الذى يَدْخُل فى الغَمَرَاتِ ويُدْخِلُ غيره فيها . وقال بعضهم : العَمَاسُ : الحربُ الشّديدة وكلُّ ما لا يُقامُ لهُ . ويجوز أن يكون المُعَامِسُ من قولهم عَمَسْتُ الأمْرَ ، أى أخفَيْتُه . ورجلٌ عَمُوسٌ : يتعَسَّفُ الأشياء بجَهْلِه . فيكون المعنى : الذى يَرْكَبُ رَأْسَهُ ولا يُبالِى أُصِيبَ أو أصابَ . ومعنى « المُغَامِس » بالغين معجمةً : الذى ينغمس فى الشّرّ والبلاء ، ويَغمِسُ غيرَهُ فيهما . ومعنى البيتِ : ألَستُ المُتحمِّلَ للأعباء الثقيلة ، والمُستخرِجَ من ضُروع المنايا وأخْلاَفِها الشّرَّ ، فى الوقت الذى يَزِلُّ فيه المُعامِسُ أو المُغَامِس ، فلا يَثْبُت . وجعلَ مَرْىَ الحُلوفِ مثلاً لتهييج الشّرّ ، واستدرار الموت ، كأنّه يستزيدُ من البلاء ولا يَمَلُّهُ ، إذا لم يَثْبُتْ له من ذلك صفَتُه .

٥ – وأَقْرِى الهُمُومَ الطّارقاتِ حَزَامَةً إذا كَثُرَتْ للطّارِقاتِ الوَساوِس

يقالُ : قَرَيتُ الضّيفَ ، إذا أحسنتَ إليه وأعددتَ له قِراهُ . يقول : ألستُ أقرِى طوارقَ الهمِّ ، وعوائقَ البثِّ ، حَزْمًا ورأيًا ، وجلدًا ونفاذًا ، إذا ازدَحمتِ الوساوِسُ على القُلوب ، واعتلجت بناتُ الصُّدور ، فارتبكت الآراء ، وذَهبَ من الرِّجال الغَناء .

٦ – إذا خامَ أقوامٌ تقَحَّمْتُ غَمْرَةً يَهابُ حُمَيّاها الألَدُّ المُداعِسُ[2]

---

(١) كذا فى م والتيمورية على الصواب . وفى الأصل : « من جملة أقررها به » .

(٢) رواية المبرد :

إذا هاب أقوام تجشمت هول ما يهاب حيـاه الألد المداعس

خامَ عن قِرْنِه يَخِيمُ : هابَ الإقدامَ عليه . ويقال خامَ الرَّجلُ ، إذا رَجَعَ عليه كيدُه ، فضَرَّهُ ؛ فيجرى مجرى خابَ وإن كان يختصّ بالكيد . فيقولُ : إذا ضَعُفَ الأقوامُ عن التدبير ، وعَيُّوا بالأمور فلم يعرِفوا مصادِرَها ومواردَها ، توسَّطْتُ قُحْمَةَ كلِّ شَرٍّ يهابُ سَوْرَتَها الرَّجُلُ الخصيمُ اللَّجُوج ، المُدَافِعُ للأقران . قوله « حُمَيّاها » مُصغَّر لا مُكَبَّر له . والدَّعْس : الطعن والدَّفع وشدَّة الوَطْء . ويقال : طريقٌ مِدْعاس ، أى مُذَلَّلٌ .

٧ — لَعَمْرُ أبيكِ الخيرِ إنِّى لَخادِمٌ لضَيْفِى وإنِّى إن رَكِبْتُ لَفَارِسُ

قوله « لعَمْرُ أبيكِ » استعطافٌ لها ، إذ أقسمَ بحياةِ أبيها لِمَا جرى فى العادة من إعظام المُقْسَمِ به ؛ وإكبارِ موقِعِه . والعَمْرُ والعُمْرُ لغتان ، ولا يُستعمل فى القَسَم إلاّ بفتح العين . وإضافَة الأبِ إلى الخيرِ ، كما يقالُ هو فَتَى صِدْقٍ ، وهو رجلُ كَرَمٍ . وقولُه « إنِّى لخادِمٌ لضَيْفى » اعترافٌ بما عَدَّتْهُ ذنبًا ، وبيانُ أنّ التَّبجُّح فيما أنكرته ، وأنّ التوفُّر على الضَّيفِ وإكرامَه فى قِرَانِ الفروسيَّة ، ومن الخصال المحمودة .

٨ — وإنِّى لأَشْرِى الحَمْدَ أبغِى رَبَاحَهُ وأَتْرُكُ قِرْنِى وهْوَ خزيان ناعِسُ

هذا من جملة ما أقسمَ عليه ، فيقول : إنى لأشترى الحمدَ طالبًا رِبْحَه ، ومُجتَنِيًا [ثمرَهُ . و(١)] ثمرَةُ الإحسانِ الشُّكْرُ ، ويجابُ الشُّكْرُ الثَّناء الجميل والأحدوثَةَ الحَسَنَةَ من كلِّ من يسمعُ بالصَّنيع . ولمّا استعملَ الشِّرَى فى اكتساب الحمدِ مجازيًّا للمعنى ، استعمل الرِّبْح فيما يَتَسَبَّبُ منه وينتَج . على ما يُتَعَوَّدُ فى المتاجِرِ ، ويُتطلَّبُ من البياعات . وقوله « وأتركُ قِرْنى وهْوَ خَزيانُ » أى أهينُه وأكسِرُه ، حتّى يَبقَى مُطرِقًا خَجِلًا مغضوضَ الطَّرْفِ

---

(١) التكلة من م والتيمورية .

مُتَنَدِّمًا ، كَمَنْ غَلَبَه النُّعاسُ . وقيل « ناعِسُ » المرادُ به أنه مُشرِفٌ على الموتِ . قال : ويقال طَعَنْتُ صاحبى فأنمتُه ، أى قَتلتُه . وطعنتُ صاحبى فأنعشتُه ، أى رَنَّحْتُه . والرَّباحُ : مصدرٌ كالرِّبْح . ويقال للفائز بالخيرِ : هو رَابِحُ الصَّفْقة .

٢٤٠

وقالت كَنْزَةُ أمُّ شَمْلَةَ بن بُرْدٍ المِنْقَرِىّ[1] :

١ — إنْ يَكُ ظَنِّى صَادِقًا وهْوَ صَادِقى بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهمْ بها مَحْبِسًا أَزْلَا

قد مضى الكلام فى خذف النُّون من « يَكُ » فى غير موضع . ومرادُ كَنْزَةَ من الكلام أن تجعلَ التَّقَصِّىَ فى مجاهَدَةِ القَوْمِ ، وبُلوغَ أبعدِ الغاياتِ فى طَلَبِ الثأر من ابنها ببِالٍ ، فأقبلَتْ تقولُ : ظَنِّى بابنى كَيْتَ وكيتَ ، مذكِّرة ومُوصِيَةً . والذى زعَمتْ أنه فى ظنها ، ومن أحاديثِ نَفْسها ، هو ما تقترحُه على ابنِها ، وتتمَنَّى أن يحتفظ به من وَصَاتِها . وقولُها « وهو » يجوز أن يكون للظَّنِّ ، والمعنى : إن كنتُ ألمعِيًّا[2] ، فظنِّى بشَمْلَةَ يَصْدُقُنى لا مَحالةَ ، فإنه يفعَلُ كذا . والباء من قولها « بِشَمْلَةَ » يجوز أن يكون متعلقًا بصادِق ، أى وهو يَصْدُقُنى بسبب شَمْلَةَ ، وإن شئْتَ يَتعلَّقُ بظَنِّى . ويجوز أن يكونَ « هو » ضمير ابنِه[3] شَمْلَةَ ، والمعنى : وهو فيما أتفرَّسُه فيه وأعتقِدُه من غَنَائه ، يَصْدُقُنى — ويكون « بشَمْلَةَ » تبيينًا لا صِلَةً ، كما يكونُ بكَ بعدَ مَرْحَبًا تبيينًا — بِحَبْسِ القَوْمِ بتلك المعركة

---

(١) التبريزى « من ولد قيس ، وكانت أمة لبنى منقر اشتراها برد » . ويعنى بقيس قيس بن عاصم المنقرى . وقيس بن عاصم صحابى مخضرم .

(٢) الوجه : « إن كنت ألمعية » . ولكن المرزوقى قصد جنس « الشاعر » .

(٣) الوجه : « ابنها » أيضاً .

مَحْبِسًا ضيِّقًا . ويقال أزَلُوا مالَهم يأزِلُونَها[1] أزْلاً ، إذا حبسُوها فى المرعَى ، مخافةَ الأعداءِ عليها . فالأَزْلُ مَصدرٌ وُصف به .

٢ — فَيَاشَمْلَ شَمِّرْ واطْلُبِ القَوْمَ بالّذى أُصِبْتَ ولا تَقْبَلْ قِصَاصًا ولا عَقْلَا

هذا يدل على ما قدّمناه فى البيت قَبْلَه ، فإنّها رجَعَتْ إلى مخاطبَةِ ابنها بعد ما ذَكَرت هواجِسَ ظُنونِها ، وجَرَّدَتِ القولَ له بمُرادِها منه ، وأَمَرَتْهُ بالتّشمير فى طلب القوم كلِّهم بمَن أُصيبَ به ، واطِّراحِ التقصيرِ فيما جُعِلَ له من سلطانه فى حقه ، وبأن لا يَقْبَل الدِّيَةَ وإن غَالَوْا بها ، ولا يَرْضَى بالقِصاص منهم وإن مُكِّنُوا من الجانى عليه أيضاً ، بل يَعُمُّ القومَ كلَّهم بالقتل ، فإنه حينئذ يكون مدرِكاً تَبْلَه ، وناقِضًا وِتْرَهُ ، وقاضياً حقَّ صاحبه . والقِصَاصُ : أَخْذ الشيء بالشيء ، وأصلُه من القَصِّ : القَطْع .

١٢٤

وقالت أيْضًا :

١ — لَهْفِى عَلَى القَوْمِ الذين تَجَمَّعُوا بِذِى السِّيدِ لم يَلقَوْا عليًّا ولا عَمْرَا

٢ — فإن يَكُ ظَنِّى صَادِقًا وهو صَادِقِى بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهُمْ بها مَحْبِسًا وَعْرَا

قد تَقَدَّمَ القولُ فى لَهْفِى ، وما يجوز فيه من نِيّة الإفراد والإضافة[2] .

وإنّما تَحَسَّرتِ الشّاعرةُ على مافات عَلِيًّا وعَمْرًا من مُلاقاة القوم المجتمعين بذى السِّيد المتخلِّفين للقِتال . وإنما تلهّفَتْ لِمَا كانت تؤمِّل من تأثيرهما فيهم . وموضع « لم يَلقَوْا » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه تجمّعوا . ثم قالت كالمستدرِك برَجائِه . إن كنتُ صادِقَةَ الظّنِّ بابنى شَمْلَةَ — وهو يَصدُقُنى

(١) كذا فى جميع النسخ ، استعمل المال استعمال الإبل .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٤٤ .

لا محالة — فإنَّه يحبِسُ القومَ بتلك المعركة مَحْبِسًا صَعْبًا . تُرِيدُ أنَّ ما فات المذكورَيْنِ سيتلافاه ، فيما يَعِدُها به ظَنُّها وأمَلُها فيه . والقولُ فى « إن يَكُ ظنى صادقا » على ما تَقَدَّم . والصِّدْقُ والكذِب أصلهما فى الكلام ، وتُوُسِّعَ فيهما فقيلَ بَرْدٌ صادِقٌ ، والفَجْر الصادق والكاذب ، وهو فَتَى صِدْق ، وصَدَقُوهم القِتالَ . ويقالُ : طريقٌ وعْرٌ : بيِّن الوُعورة والوَعارة ، أى غليظٌ . وقد تَوَعَّرَ وَوَعَرَ .

٢٤٢

وقال شُبْرُمَةُ بن الطُّفَيْل(١) :

١ – لَعَمْرِى لَرِيمٌ عند باب ابْنِ مُحْرِزٍ ... أَغَنُّ عليه اليَارَقَان مَشُوفُ(٢)

٢ – أَحَبُّ إلَيْنا من بُيُوتٍ عِمادُها ... سُيُوفٌ وأَرْمَاحٌ لهُنَّ حَفِيفُ(٣)

الأصل فى الرِّئْم : الظَّبْىُ الخالص البياض . وهذا الكلام يَخُصّ به الشاعرُ واحدًا مُعَيَّنًا كان يُقَصِّرُ فى طلبِ الوِتْر ، ويشتغل عنه بالصِّبا واللَّهْوِ ، ويؤثِرُ المُقامَ بأطيَبِ المنزلَيْنِ من البَدْو والحَضَر ، لا يُهِمُّه إلا الرَّقاعةُ والخَلاعةُ ، خاليتَيْن من التَّعَب والنَّصَب ، فأخذ يُعَرِّضُ به ويقول على وجه التهكم والسُّخريةِ منه : وبقائى ، لَلِقاءُ امرأةٍ كأنَّها ظَبْيَةٌ مَسكنُها فى جوارِ هذا الرَّجُل فى صَوْتِها غُنَّـةٌ ، مُحلاّةٍ بيارَقَيْنِ ، مَجْلوّةِ الوَجْه ، أَحَبُّ إلينا من

(١) لم نعثر له على ترجمة . ولكن « ابن محرز » الذى ذكره ، من مشهورى المغنين أيام الدولة العباسية . وهو مسلم بن محرز ، مولى بنى مخزوم . الأغانى (١ : ١٤٥ – ١٤٧) .

(٢) فى اللسان (يق) : « لعمرى لظبى » .

(٣) التبريزى واللسان : « أحب إليكم » . والكلام تهكم كما سيأتى فى التفسير .

الأُوِيّ إلى بيوتٍ مستحدَثةٍ بُنِيَتْ على عَمَدٍ مُتَّخذةٍ من رِماحٍ وسُيوفٍ . وهذه البيوت للغُزاة والمتصيِّدة أكثرَ ما تكونُ . ألا ترى قول امرئ القيس بعد فراغِه من الصيد :

ورُحْنا إلى بَيْتٍ بعَلْياء عَرْدَحٍ سَماوَتُهُ من أتحميّ مُشَرْعَبِ
وأوْتادُهُ ماذِيّةٌ وَعِمادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ فيها أسِنَّةُ قَعضَبِ (١)

وفى هذه الطريقة قول الآخَر :

واللهِ لَلنَّوْمُ على الديباجِ على الحشايا وسريرِ العاجِ
مع الفَتاةِ الطَّفْلَةِ المِغْناجِ أهْوَنُ يا عَمْرُو من الإدلاجِ
وزَفَراتِ البازِلِ العَجْعاجِ (٢)

وقوله « مَشُوفُ » من الشَّوْفِ ، وهو التَّجْلية ، يقال تَشَوَّفَتِ المرأة ، إذا تزيَّنَتْ وطَرَّت (٣) ، وشُفْتُها وهى مَشُوفة (٤) . وقوله « لهُنّ حَفِيف » ، فالحفيفُ : صوتُ طَيَرانِ الطائر وصوت الرَّمْيَة .

٣ — أقولُ لِفِتْيانٍ ضِرارٌ أبُوّهُمُ ونحن بصَحْراء الطِّعانِ وُقوفُ
٤ — أقيمُوا صُدورَ الخَيْلِ إنّ نفُوسَكم لِميقاتِ يوْمٍ ما لهُنّ خُلُوفُ

قوله « أقيموا صدور الخَيْلِ » فى موضع المفعول لأقُولُ ، والواو من قوله

---

(١) قعضب : رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .

(٢) أنشد هذا الرجز الإسكافى فى مبادئ اللغة ٤٨ والتبريزى فى شرحه .

(٣) كذا على الصواب فى م . وطرت : صارت طريرة . والطرير : ذو الرواء والمنظر . وفى الأصل والتيمورية : « وظهرت » .

(٤) لم يفسر المرزوقى « اليارق » . قال التبريزى : « فارسى معرب ، أصله ياره ، وهو السوار » . وقيده استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى بأنه سوار عريض : (Broad bracelet) .

« ونحن بصحراء الطِّعان » واو الحال . ويقال أقَمْتُه فقام بمعنى قوَّمْته فتقوَّم ، فيَتعَدَّى . وأقمت بالمكان إذا ثبتَّ فيه إقامةً ، وأقَمْتُ من المكان إذا ارتحلْتَ عنه . قال امرؤ القيس :

* وفيمن أقامَ من الحيِّ هِرٌّ[1] *

فأما قول الشاعر :

أقولُ لأمِّ زِنْباعٍ أَقِيمى صُدورَ الخَيْلِ شَطْرَ بنى تَمِيمِ

فمعناه اقْصِدى وتوجَّهى بِعِيسِكِ نحوَهُم . والشاعر أخذ يُبيِّن ما يأخُذ به نفسَه من حَثِّ القومِ على القتال ، وتشجيعهم على اقتحامِ الأهوال ، ويُرِى أنه مع تقصير مَن قدَّم التعريض به ، وعَلَّقَ التقريعَ بإهماله وتعذيره ، وعيَّره اشتغالَه بما لا يشتغلُ الموتورُ به ، لا يدَع أن يقولَ مُحَضِّضاً لهؤلاء الفتيان وقد وَقَعوا فى مَيدانِ الطِّعانِ وعَرْصَةِ الطِّراد : اثبُتوا فى وجوهِ أعدائكم ، وانصِبوا صدورَ خيلكم لهم ، واستَبدِلوا بالانحراف تقحُّمًا ، وبالازوِرارِ تهجُّمًا ، ودَعُوا الذَّهابَ إلى ما يأمرُكم به الفَشَل ، ويدعوكم إليه التهاوُن والكَسَل ، مستشعِرين الخوفَ من الموتِ ، فإنّ لكلّ نفسٍ أَجلا لا يؤخِّره الإحجامُ والنُّكوصُ ، ولا يقدِّمه الإقدام والنُّهوضُ . وقوله « ما لَهُنّ خُلوف » ، أى ليس للنُّفوس تخلُّف عن الأمد المسمَّى ، ولا تراجُعٌ عن الحَيْنِ المُوحَّى . والميقاتُ يُستعمل فى الزّمانِ والمكانِ ، لأنّ الوقتَ الحدُّ . ألا ترى أنهم يقولون ميقاتُ أهلِ المشرِق ، يريدون الموضِع الذى يُقبَلُ له الحجّ إذا ابتُدِئ بالمسير إليه منه .

---

(١) عجزه : * أم الظاعنون بها فى الشطر *

٢٤٣

وقال قَبِيصةُ بن جابرٍ[١] :

١ — بِثِنْيَيْ هِضَيمٍ جَدٌّ نَمَانِي بَطِيًّا بالمحـــاولةِ احتِيَالى[٢]

رواه بعضهم « بُنَيَّيْ هَيْصَمٍ هو جَد تُمَانى » و « أوجدتمانى » ، وليس بشيء ، لأنه يصير المعنى : يا بُنَيَّيْ هَيْصَمٍ أوجدتُمانى بطىء الحيلة بالمحلولة ؟ يريد : إنى سريعُ الحيلة . وهذا كلامٌ مُشَبَّجٌ مُخْتَلٌّ[٣] . وعلى روايتنا يقول : سَمَا بيَ جَدٌّ عالٍ بِثِنْيَيْ هذا المكان . والثِّنْيُ : ما انثَنَى من الوادى ، أى انعطَف . ويقالُ : ثَنَيْتُه ثَنْيًا ، ثم يُسمَّى المثنىُّ ثِنْيًا ، وما ثُنِيَ به أيضاً ثِنْيًا . على هذا قولُ طَرَفَةَ :

* لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[٤] *

وقوله « بَطِيًّا بالمحاولة احتيالى » انتَصَب بَطِيًّا على الحال ، فالعامل فيه نَمَانِي . و « احتيالى » فى موضع الرَّفع على أنه فاعِل بَطِىء ، وقد أضافَ

---

(١) هو أبو العلاء قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن عميرة الأسدى الكوفى ، له إدراك وصحب عمر بن الخطاب ، وهو من فقهاء أهل الكوفة ، وكان أخا معاوية من الرضاع ، سأله معاوية يوما عن الوليد بن عقبة : ما كان شأنك وشأن الوليد ؟ قال : خيرا يا أمير المؤمنين فى أول وصل الرحم وأحسن الكلام ، فلا تسأان عن الشكر وحسن الثناء ، ثم غضب على الناس وغضبوا عليه وكنا منهم ، فإما ظالمون فنستغفر الله ، وإما مظلومون فغفر الله له ، وخذ فى غير هذا يا أمير المؤمنين فإن الحديث ينسى القديم . قال : ولم ؟ فوالله لقد أحسن السيرة وبسط الخير وكف الشر . قال : فأنت أقدر على ذلك يا أمير المؤمنين منه فافعل . قال : اسكت لأسكت . فسكت وسكت القوم . قال له : مالك لا تتحدث ؟ قال : نهيتنى عما كنت أحب فسكت عما أكره . الإصابة ٧٢٧٠ والأغانى (٤ : ١٨٥) .

(٢) رواية الأصل هذه نص عليها التبريزى فى شرحه ، وهى رواية ياقوت فى معجم البلدان (٨ : ٤٦٨) . ورواية م والتبريزى : « بُنَيَّيْ هَيصَمٍ هوَجَدْتُمانِي » ، ورواية التيمورية : « بثنيى هضيم هوجدتمانى » .

(٣) المشبج ، من التشبيج ، وهو التخليط .

(٤) صدره : * لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى *

المصدرَ إلى المفعول ، لأنّ المعنى : يبطؤُ احتيالُ الناس علىّ إذا حاوَلوهُ والمعنى يتعذّر وقوعُ ذلك منهم ، لفَرْطِ حَزامتى ، واستحكام تجربتى . ومثل هذه الإضافة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بعد ظُلْمِهِ ﴾ ، لأنّ المعنى بعد ظُلم الظالم له . هضِيمٌ : فَعِيلٌ من الهَضْمِ ، مِثل حِذْيَمٍ ، وهو اسمٌ لمكانٍ ضَيِّقٍ . وقيل فَرَسٌ أهْضمُ ، إذا كان ضَيِّقَ الجَوْف .

٢ – وعاجَمْتُ الأُمورَ وعاجَمَتْنى كأنّى كنتُ فى الأُمَمِ الخَـوالى

العَجْمُ : العَضّ فى الأصل ، ويستعمل فى الامتحان ، لأن الناظر فى الشىء هل هو صُلْبٌ أو لا يَعْجُمُه و يَعَضُّ عليه . ويقال عَجَمتْنى الخطوب ، أى ابتليتُ بها . وفيما حُكِىَ عن الحجّاج[١] : « إنّ أمير المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ فعَجَمَ عِيدَانَها عُودًا عُودًا » . وإنما استُعمِل فى معاناة الشدائد ومزاولتها كما استُعمِل المحاكّة والاحتكاك فيها . فيقول : إنى مُجرَّبٌ مُدرَّبٌ ، زاوَلتُ النَّوائب ، وعارَكتُ الأهوال والعجائب ، فلَزِمتُها ولزِمَتْنى ، وأزَمْتُ بها وأزَمَت بى ، وصِرتُ لطول تجَارِبى وامتداد أيّامِ مُحاكّتى نِقَابًا مُحدَّثًا[٢] ، أبلُغُ بظَنّى ما يَبلُغُ غيرى بمشاهدتِهِ . هذا على قُرب مِيلادى ، وحَداثةِ سِنّى ، حتى كأنى كنتُ فى الأمم الماضين ، وأحدَ الرّجال المعمَّرين ، فأدرِكُ الشىء قبل حصولِهِ ، وأتصوَّرُه ولم يَجِئْ بصورةٍ ما فُرِغ منه وقُضِىَ ، فظَنّى عِيَانٌ ، ويومى دهرٌ .

٣ – فلَسْنَا من بَنِى جَدّاءَ بِكْرٍ ولكِنّا بَنُو جِـدٍّ النِّقَالِ

الجَدّاء : المقطوعة الثّدى . والبِكْر : الباقية على حالتها الأولى . ويقال

---

(١) انظر البيان (٢ : ٣٠٩) والكامل ٢١٥ والعقد (٤ : ١١٩) والطبرى (٧ : ٢٩٠) وصبح الأعشى (١ : ٢١٨) وعيون الأخبار (٢ : ٢٤٣) وابن الأثير (٤ : ١٥٦) .

(٢) النقاب ، بالكسر : العلامة الفطن المبحث . والمحدث ، بفتح الدال المشددة : الملهم الصادق الظن .

رَحِمٌ جَدّاء ، إذا كانت غير موصولة . والشاعر جعَل الجَدّاء البِكْر كِناية عن الضَّعيفة الشَّرِّ ، القليلة الأهْلِ ، على عادتهم فى جَعْلِ النِّتاجِ لها ، والوِلادِ والرَّضاع والفِطام إذا فَظَّعوا حالها[1] . فيقول : لسنا أبناء الحرب القليلة الدَّرّ ، اليسيرة الأذى والشّرّ ، التى لم يتكثَّر موقِدُوها ، ولم يتشمَّر لها خُطّابُها ومُوَلِّدُوها ولكِنّا بنو المُناقَلاتِ الشديدة الهِياج ، والوَقَعاتِ الصَّعبة المِراس ، التى كثُر ذَرْؤُها ، وتكرَّر القِتال حالاً بعدَ حالٍ من أهليها . وقولُه « بَنُو جِدِّ النِّقال » يريد : بنو النِّقال البليغ المتناهى ، الذى لا مُساهَلةَ فيه ولا مُياسَرة . ويجوز أن يكون المعنى : لسنا أصحابَ حرب بِكْرٍ ، ولكنّا بنو حربٍ عَوانٍ . كأنه جَعَلَ النِّقال فى الوِلاد .

وقد اضطرب بعضُ المفسِّرين فى هذا البيت ، فأتى بما يَمُجُّه السّمْع ، ولا يَعيهِ القلب ، فقال : المعنى لسنا بعُقمٍ لم يكثُر أولادُنا ، بل فينا الكثرةُ والعِزّ . وقولُه « بَنُو جِدِّ النِّقال » يعنى به المُناقَلة فى الكلام ، يريدُ أنهم خُطباء . قال : فالمِصراع الثانى ليس من الأول فى شىء ، وإذا كان كذلك فكأنّ أبا تمّامٍ ذَكَر البيت على رداءته ليُتَجَنَّب قولُ مِثلِه ، ولينبِّه على المُترذِّلِ منه ، كما نبَّهَ على المختار المستحسَن بغيره .

وهذا القائلُ لم يَرْضَ بذَهابِهِ عن الصواب ، حتّى ظنَّ بأبى تمّامٍ ما لم يخطُرْ له ببالٍ .

٤ – تفَرَّى بَيْضُهَا عَنَّا فَكُنَّا بَنِى الأجْلَادِ مِنْهَا والرِّمَالِ[2]

تبجّح فيما مضى بما أعطاه الله من الظَّفَر بالأعداء ، وتوحَّدَه به من الفطنة والذّكاء ، والنّكارة والدّهاء ، وبحسن الصَّبر على مدارسة العَوصاء ، ومداوَسة

---

(١) فى جميع النسخ : « قطعوا حالها » . (٢) م : « بنى الأجبال » .

الغَمّاء ، وبمجانبة الهيِّن من الحروب ، واقتحام أصعب الخطوب . وأقبلَ الآن يفتخر بالكثرة ، إذ كان العزّ فيها ، فقال : «تفرّى بَيضُها عنا» . والضمير في بيضها للأرض ، كما يقال : مِن الأرض خُلِقْنا وإليها عَوْدُنا . وفي القرآن : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا . أحياءً وأمواتًا ﴾ . وساغَ ذلك وإن لم يجْرِ لها ذِكْرٌ لمّا لم يَلْتَبِس ، لدلالة الكلام عليه . والمعنى : تشقَّقَ بيضُ الأرض عنّا ، فنحن بنو حُزُونِها وسهولها . وإنما يعنى كثرتَهُم واتّساعَ ديارِهم ، إذ كان الأرضُ لا تنقسم إلّا إليها . والأجْلَاد : جمع الجَلَد ، وهو الصُّلْب من الأرض ، وذِكْر البَيْض مَثَلٌ ، وقد تقدّم القولُ في بيضةِ البَلَد .

٥ ــ لَنَا الحِصْنَانِ من أجَاٍ وسَلْمَى وشَرْقِيّاهُما غَيْرَ انْتِحَالِ

٦ ــ وتَيْمَاءُ الّتى مِنْ عَهْدِ عَادٍ حَمَيْنَاهَا بأطْرَافِ العَوَالِى

هذا كالبيان لما تقدّم ، والكشفِ عما أجْمَل ، لأنه أتْبَعَ ما وَصف من أخلاقهم وعزّهم ، بتحصُّن بلادهم وتمنُّع جبالِهم ، فقال : لنا جبلا طيِّئٍ أجأٌ وسَلْمَى ، ونواحى الشّرقِ منهما ، دعْوَى صحيحةً لا يضعِّفُها انتحالٌ ، ولا يُوهِّنها كِذَابٌ . ويقال انتحلتُ الشّىء ، إذا ادّعيتَه ولم يكن من شانِكَ . على هذا قال الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القَوَا فِ بَعدَ المَشيبِ كَفَى ذاكَ عارا[1]

ونُحِلَ الشّاعرُ قصيدةً ، إذا رُوِيت عنه ولم تكن من قِبلِه . وانتصب « غير » على أنّه مصدر أكّدَ به ما قبله ، وعلى قولهم : هذا زيد حقًّا ، وغيرَ شَكٍّ . وقولُه « وتيماء » أراد ولنا تيماءُ التى هذا صفتُها وحَظُّها من عِنايتِنا بها .

(١) ديوان الأعشى ٤١ واللسان المقاييس (نحل) . والقواف ، هى القوافى ، مثل ما جاء فى قول الله : (وجفان كالجواب) ، أى كالجوابى . وفى الديوان : « فما أنا أم ما انتحالى القواف » .

وهى بلدةٌ بناحية يَثرِب . وقولُه « من عَهْدِ عادٍ » جَعل مِنْ بدل مُنذُ ، لأنّ مُنذ فى الأزمنة بمنزلة مِنْ فى الأمكنة ، فهو فى موضع الظّرف ، والعامل فيه حميناها . وقد ذكر امرؤ القَيْس [تيماء[1]] فقال :

وتَيماءَ لم يَترُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُجُمًا إلا مَشِيداً بجَنْدَلِ[2]

٢٢٤

وقال سالم بن وابِصَةَ[3] :

١ — عليك بالقَصْدِ فيما أنتَ فاعِلُه ... إنّ التَّخَلُّقَ يأتى دونَهُ الخُلُقُ

قوله « عليكَ » ممـا أُغْرِىَ به وحُضِّضَ ، وصار بذلك من أسماء الأفعال . ويقال عليك كذا وعليك بكذا . والمعنى الزَمْه وخُذْ نفسَكَ به . والقَصدُ : واسطة الأمور ، فما تعدّاه سَرَفٌ وما انحطّ عنه قصورٌ . ولذلك قيل لمن ليس بجَسيمٍ ولا ضئيلٍ ، وليس بقصيرٍ ولا طويلٍ : هو قَصْدٌ ومقتصِدٌ . ومعنى البيت : عليكَ باستقامة الطريقة وملازَمة الأعدَلِ فى القضيّة مما تُلابِسهُ وتفعلُه ، واترُكْ تكلفَ ما ليس من شيمتك وسجيّتك ، فإنك إن تجشمتَهُ صابِرًا على البَلوَى فيه نَزَعَتْ نفسُكَ قريبًا عنه ، وعُدْتَ إلى مذهبِك الأوّل فلحقك الذمُّ له .

٢ — ومَوْقِفٍ مِثلِ حَدِّ السَّيفِ قمتُ به ... أَحْمِى الذِّمارَ وتَرْمِينى بِهِ الحَدَقُ

يقال للمكان النّابى بصاحِبه ولا يمكنه الاستقرارُ به تشبيهًا : هو مثل حَدِّ

---

(١) التكملة من م والتيمورية .

(٢) الأجم، بالجيم: الحصن . والرواية المشهورة: «ولا أطمًا» والأطم كالأجم وزناً ومعنى .

(٣) سالم بن وابصة بن معبد الأسدى : شاعر فارس من شعراء عبد الملك بن مروان ، وهو تابعى كان غلاما شابا فى خلافة عثمان ، وأبوه وابصة صحابى جليل ، وفد على الرسول سنة تسع . الإصابة ٣٠٤٤ ، ٩٠٨٦ والمؤتلف ١٩٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٤٣ . ونسبة الشعر إلى سالم هى كذلك فى المؤتلف ونوادر أبى زيد ١٩١ والبيان (١ : ٢٣٣) . ونسب فى الحيوان (٣ : ١٢٧) والعقد (٢ : ٢٤) وزهر الآداب (١ : ٧٧) والشعراء ٥٥٧ إلى العرجى . ونسب فى حماسة البحترى ٣٥٨ إلى ذى الإصبع . وبدون نسبة فى مجالس ثعلب ٣٠٠ .

السيف ، وكقَرْنِ الأعْفَرِ ، وحدّ السّنان . وذِمارُ الرّجُل : ما يجب عليه حفظُه . ورجُلٌ ذِمِرٌ[1] وذَمِيرٌ ، إذا كان مُنكَراً داهيةً . ويقال ذَمَرْتُ الرجُلَ إذا حَضَضْتَه ، وتذامَرَ القومُ فى كذا إذا تَحَاضُّوا . والمعنى : رُبَّ مكانٍ ضيّقٍ دقيق ، لا تَثبُتُ عليه الأقدامُ ، أنا قمتُ به حامياً لما يَحِقُّ علىَّ حِمَايتُه ، والعيونُ ترمُقُنى والنُّفوسُ تتطلّع إلَى ما يكونُ منِّى ، وتتنسّم أخبارى فيه وبَلائى . وقولُه « وترمينى به الحَدَقُ » جعل الفعلَ على التوسُّع للحَدَق ، وإنما هو للناظرين بها . ألا تَرى أنه يقالُ رمانى القومُ بأبصارِهم . وموضع « أحمِى الذِّمارَ » موضعُ الحال .

٣ – فما زَلِقْتُ ولا أبْلَيْتُ فاحشةً إذا الرّجالُ على أمثالِها زَلِقُوا[2]

يقول : استقَمتُ فى فعلى ، وتثبّتُّ فى موقِفى ، ولم أتعثر فيما صرّفتُ القولَ فيه ، ولم أتزلّقْ عندما حاضَرتُ به ودافعتُ عنه ، ولم أقدِم على ما يُعَدُّ سَقْطَةً منّى أو يَشينُنى ، إذا تُحُدِّثَ به عنّى فى وقتٍ تكثُر زَلاّتُ الرّجالِ فى مطالعة أمثالِه من المواقف ، وتَبْطُل دعاوِيهم المتقدِّمة لما يَظهرُ من عجزهم ، وسُوء استمساكهم[3] . وجوابُ إذا فيما تقدّم . والمعنى : إذا زَلِقَ الرّجالُ فى أمثالِه من المقامات ثَبتُّ أنا .

٢٤٥

وقال آخر[4] :

١ – إنْ أكُ قَصْدًا فى الرّجال فإنّنى إذَا حَلَّ أمرٌ سَاحَتِى لَجسيمُ

(١) ويقال أيضاً ذمر بفتح فكسر ، وذمر بكسرتين مع تشديد الراء .

(٢) يقال أبلاه جهده ونائله ، إذا أداه إليه . ورواية التبريزى : « ولا أبديت فاحشة » .

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ونبو استمساكهم » .

(٤) لم يرو التبريزى هذه الحماسية ذات البيت الواحد . والبيت فى عيون الأخبار (٤ : ٥٤) مع نسبته إلى « أوفى بن موله » ، ولعل صوابه « أوفى بن موألة » فهو المعروف فى أعلامهم .

قد تقدّم القول فى حذف النون من أكُ . ومعنى البيت إن كان فى خِلقتى اقتصادٌ فلم أبلغ غايات الجِسام ، فإن غَنائى فى النوائب إذا نابت ، واهتدائى لوجوه الخروج منها إذا حَزَبَتْ ، يَحْكُمان لى بجزالة الرأى وجَسامةِ النفس ؛ لأنّ الرجُل بقلبه ولسانِه ، لا بجسْمِه وجثمانِه . وفى هذه الطريقة قولُه :

إذا كنتُ فى القومِ الطِّوال أصَبْتُهُمْ ... بِعارِفَةٍ حتى يُقالَ طَويلُ(١)

والسّاحَةُ : فضاء بين دور الحىّ ، وكما قيل على التوسُّع نزَلَ بساحَتِهِ أمرٌ ، قيل أيضاً نزَلَتْ بعَقْوتِهِ خُطُوبٌ .

٢٤٦

وقال عامرُ بن الطفَيْل(٢) :

١ ــ قَضَى اللهُ فى بعضِ المكارِهِ لِلفَتَى ... برُشْدٍ وفى بَعْضِ الهَوَى ما يُحاذِرُ

٢ ــ ألَمْ تَعْلَمى أنّى إذا الإلْفُ قادَنِى ... إلى الجوْرِ لا أنْقادُ والإلفُ جائرُ

معنى هذا يماثل قول الله تعالى : ﴿ عَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خيرٌ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهُوَ شرٌّ لكُمْ ﴾ . وفى مثله قال غيره :

كم فَرْحةٍ مَطْوِيّةٍ ... لكَ تحتَ أثْناء النّوائبْ
ومَساءةٍ قد أقبلَتْ ... من حَيْثُ تُنْتَظَرُ المَواهِبْ

ويقال قَضَاهُ وقَضَى به . وقولُه «وفى بعض الهوى» أراد به : وقَضَى له فى بعض المَحابِّ ما يُحاذِر ؛ فوضع الهوى موضع المَحابِّ لأنّ كلّ محبوبٍ يصحَبُه الهوى ، كما أنّ قولَه «ما يحاذِرُ» موضوعٌ موضِع الغَوايةِ لكونِهِ فى مقابلة

(١) سيأتى البيت فى حماسية فى (باب الأدب) منسوبة إلى أحد الفزاريين . وأنشده الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٤٤) بدون نسبة . والتبريزى : «وصلتهم بعارفة» : الجاحظ : «فضلتهم» .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٧ .

الرُّشْدِ ، إذْ كان الغَيُّ مِن حقّه أن يُحاذَرُ . وقوله « ألم تَعْلَمى » تنبيهٌ على مكانِه من الرَّأْى ، وأنَّ ظنَّه يقومُ مقامَ عِيانِ غيرِه . وألف الاستفهام إذا اقترن بحرف النَّفى يقرِّرُ به فيما يَجِبُ ويَحِقُّ ، فيقولُ : أمَا عرفْتِ من دأْبى وطبيعتى ، أنّى لا أتّبع الغَير ، ولا أنقادُ لما يُجانِبُ العدلَ ، فمتى سامَنِى أليفى مطاوعتَهُ فيما لا أستوفِقُه أبَيتُ عليه ، وتركْتُه وما يختارُ من الاعتساف وركوب الجورِ والضَّلالِ . وكان يجب أن يقول : لا أنقادُ وهو جائرٌ ، فوضَع الظاهر موضع المضمَر .

٢٤٧

غزا مُجَمِّعُ بن هِلالٍ

ابن خالدِ بن مالكِ بن هلال بن الحارث بن تَيم الله[١] ، يريدُ بنى سَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ ، فلم يَغْنَم ورجَعَ من غَزاتِه تلك ، فمرَّ بماءٍ لبنى تَيمٍ عليه ناسٌ من مُجاشِعٍ ، فقَتل فيهم وأَسر ، فقال فى ذلك :

١ — إنْ أُمْسِ ما شَيْخاً كبيرًا فطالَ ما ‏ ‏ ‏ عَمِرْتُ ولكن لا أرَى العُمْرَ يَنْفَعُ

قوله « ما شيخاً » ، ما زائدة للتأكيد . يقول : إن صرتُ شيخاً طاعناً فى السِّنّ ، ضارِعًا لنائبة الدهر ، مُهدِفًا لِسهامِه ، مُقرَّعًا بلياليه وأيّامِه ، فحقٌّ ذلك واجبٌ ، لأنّ من يَعِشْ يَكْبَر ومن يكبر يهْرَم ، وطولُ العمر لا يُجْدِى إذا كان مؤدّاهُ إلى الضَّعف ، وقُصاراه الموت . وقوله « طال ما عَمِرْتُ » يجوز أن يكون ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، ويكون حينئذ حرفاً عند سيبويه ، والتقدير :

(١) زاد السجستانى بعده فى المعمرين ٣٢ : « بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على ابن بكر بن وائل . وذكر السجستانى أنه عاش مائة سنة وتسع عشرة سنة فقال هذا الشعر . وانظر الخزانة (٤ : ٣٦٠ – ٣٦١) .

فقد طال عمرى . وعلى هذا يُكتَبُ طال مُنفصِلاً من ما . ويجوز أن يكون ما كافّةً للفعل عن العمل ، ومُخرِجًا له من بابِه ، ولذلك جاز وقوع الفِعل بعدَهُ ، وإن كان الفِعْلُ لا يدخُل على الفِعْل ، وعلى ذلك يُكتب طالَ متصلاً بما لأنّه منه ومن تمامه . ومعنى عَمِرْت : بَقِيتُ وحَيِيتُ . والعُمْر ، قال الخليل : هو الحياةُ والبقاء ، ومنه لَعَمْرُ الله . وقولُ الشاعر[1] :

وعَمِرْتُ حَرْسًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ للنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

يشهد لذلك . وقولُه « لا أرى العُمْرَ » أراد اتّصال العمر وطولَهُ ، فحذف المضاف وأقامَ المضاف إليه مقامَه . وذكر بعضهم أنّ أبا تمّام أخطأ فى قولِهِ :

ما لِامرئٍ خاضَ فى بَحْرِ الهوَى عُمُرٌ إلاّ وللبَيْنِ منه السَّهْلُ والجَبَلُ

لأنّ العُمْرَ اسمُ مُدّةِ الحياة بأسرِها لا يتبعّض ، فكما لا يُقال ما لزيْدٍ رأسٌ إلاّ وفيه شَجّةٌ ، كذلك لا يقالُ ما له عُمْرٌ إلاّ وهو قصير . قال : وليس قولهم : ما لَهُ عَيْشٌ إلاّ مُنغَّصٌ ، ولا حياةٌ إلاّ مكدَّرةٌ ، مثلَ قولك ما لَهُ عُمْرٌ إلاّ قصير . لو قُلْتَه ، لأنّ عيشَ الإنسان ليس هو مُدّة حياتِه بأسرِها . ألا تَرَى أنك تقولُ : كان عَيْشِى بالعِراق طيِّبًا ، وكانت حياتى[2] بمصرَ لذيذةً ، ولا تقول كان عُمْرى . والذى قالَهُ هذا المعترض على أبى تمّام يبطِله ما حكيتُه عن الخليل فى تفسير العُمْر ، والبيتُ الذى أنشدتُه . ألا تَرَى أنّ قوله « عَمِرْتُ حَرْسًا قبلَ مَجْرَى دَاحِسٍ » يقتضى تبعيضَ عمره ، إذْ كان ما بعدَهُ من عُمْرِه قد أفْرَدَه عما قَبْلَه ، وإذا كان الأمر على هذا جاز أن يقال : كان عُمْرى قبلَ مَجْرَى داحِسٍ أطيَبَ من عُمْرى بعدَه . وفى القرآن : ﴿فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا﴾ أى بعض عُمْرى ، فحذف المضاف .

---

(١) هو لبيد ، كما فى المعمرين ٦٣ .

(٢) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « وكان عيشى » .

٢ — مَضَتْ مِائَةٌ من مَوْلِدِى فَنَضَوْتُها وخَمْسٌ تِبَاعٌ بَعْدَ ذاكَ وأَرْبَعُ[١]

هذا تفصيلٌ لما أجملَه من كِبْرَتِه . يقول : أتت عَلَىَّ مائة سنةٍ من ميلادى فألفيتُها[٢] ورائى ، كأنِّى لبِسْتُها ثم خَلَعْتُها واستتبعتُ بعدَها تِسعًا توالتْ ، فلِى عُذر فى ضَعفٍ يَظهر ، أو كَسَلٍ يَلحق ، إذ كنتُ غابرَ لِدَاتٍ فَنَوْا ، ومتمرِّقَ أعوامٍ بادَ أهلُها فنُسُوا . قولُه « فنضيْتُها » يُرْوَى « فنضوتُها » . ويقال نضَا ثَوْبَه يَنْضُو ويَنْضِى إذا نَزَعَه ، لغتان . على هذا قول امرئ القيس :

* فجئتُ وقد نضَتْ لنَوْمٍ ثيابَها[٣] *

ويقال نَضَى سيفَه وانتضَى بمعنًى . وقوله « بعد ذاكَ » إن قيل لِمَ لَمْ يَقُلْ بعد تلك ، والإشارةُ إلى قوله مائةٌ ؟ قلت : لم يُراعِ تأنيثَ المذكورِ وتذكيرَه ، بل أراد ما ذكرتُ . على ذلك قول ذى الرُّمَّة :

ومَيَّةُ أَحْسَنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا وسالِفَةً وأَحْسَنُهُ قَذَالاَ

ألا ترَى أنه لم يَقُلْ وأحسنُهما . وقولُه « وخَمْسٌ تِباعٌ » يقال تَبِعَ تِباعًا ، فهو مصدرٌ وُصِفَ به . ويقال أيضًا رميتُه بسهمين تِباعًا ، أى وِلاءً ، وتابَعَ بينهما فلانٌ تِباعًا .

٣ — وخَيْلٍ كأَسْرَابِ القَطَا قد وَزَعْتُها لَهَا سَبَلٌ فيه المَنِيَّةُ تَلْمَعُ[٤]

تذكَّر بما كان منه عند تعالِى سِنِّه وتناهِى عُمرِه ، ما كان منه فى رَيْعان شبابه ، وعند استكمالِ قوَّتِهِ وترامِى الأحداثِ به ، فيقولُ : رُبَّ خيلٍ تمتد

---

(١) رواية المعمرين : « وعشر وخمس بعد ذاك » . وهذا يوافق ما زعموا أنه عاش ١١٩ سنة .

(٢) فألفيتها ، بالفين المعجمة ، كذا وردت فى جميع النسخ . وفى الخزانة حيث نقل عن المرزوقى « فألفيتها » بالفاء . ولعلها « فألقيتها » .

(٣) عجزه : * لدى الستر إلا لبسة المتفضل *

(٤) السجستانى : « فيارب خيل كالقطا »

وتتوالَى مبادِرةً إلى المُلتَقَى ، وتسترسل استرسالَ فِرَق القَطا عند اندفاعها للوِرْد ، أنا بعثتُها وهَيَّجتُها ، ولها عَارِضٌ يمطر بالموتِ ويَلمعُ . والسَّبَل : المَطَر . ورواه بعضهم : « لها أَسَلٌ » وهى الرِّماح . وقولُه « قد وَزَعْتُها » يجوز أن يكون معناهُ كَفَفْتُها عن التعجُّل ، ويجوز أن يكون قسَّمتُها للتعبئة أو الغـارة ، لأنه يُقال وزَعْتُ الشىء ووزَّعتُه جميعاً ؛ وعنـده أوزاعٌ من الناس ، أى فِرَقٌ ، وعلى الوجهين فتدبيرُها كان إليه . وقولُه « قد وَزَعْتها » من صفة الخيل ، لأنّ جواب رُبَّ فيما بعدَهُ ، ولها سَبَلٌ فى مَوْضع الحال . وقولُه « فيه المنيّة » من صفة السَّبَل ، ويَلمَعُ فى موضع الحال للمنيّة ، والعامل ما يدلُّ عليه الظرف .

٤ – شَهِدتُ وغُنْمٍ قد حَوَيْتُ ولذّةٍ أَتَيْتُ وماذا العَيْشُ إلّا التَمتُّعُ[(١)]

قوله « شهدتُ » جواب ربّ ، فيقول : رُبَّ خيلٍ على هذه الصِّفة حَضَرتها مُدَبِّراً لها ، وربَّ غنيمةٍ تَغَنَّمْتُها وتولَّيتُ قسمتها ، ورُبَّ لذّةٍ أتيتها ونِلتُ مَنالى منها . ثم أقبلَ كالمتلفِّت إلى غيرِه ، فقال : وما العَيْشُ إلا التمتّع بهذه الأشياء . ارتفع « العَيْشُ » على أنّه عطفُ البيان لِذَا ، لأنه جَعل العيش كالحاضر ، فأشار به إليه وإن كان القصدُ إلى الجنسِ . والتمتع : الانتفاع بالشىء زماناً طويلا . ومنه مَتَع النَّهارُ : ارتفع ، واستمتعتُ وامْتَتَعتُ وتمتَّعت بمعنًى .

٥ – وعائِرَةٍ يَوْم الهُيَيْمَا رَأَيْتُها وقَدْ ضَمَّها من دَاخل الخِلْبِ مَجْزَعُ[(٢)]

يقول : ورب امرأةٍ فى هذا اليوم لتمكُّن الخوفِ منها ، وتملُّكِ الجزَعِ قلبها ، رأيتُها تَعثُرُ لوجهها ولا تستقيم فى مشيها ، مخافةَ السِّباء لهـا ، وقد ضَمَّها مَجْزَعٌ ، أى استولَى عليها الحزنُ والقلَقُ ، حتى صار يضمُّها إليه ولا يدعُها لغيرِه .

---

(١) السجستانى : « أصبت وماذا العيش إلا تمتع » .

(٢) ياقوت : « الهييما : اسم موضع كانت فيه وقعة لبنى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، على بنى مجاشع » . وأنشد هذا البيت والبيتين ٧ ، ٨ .

وقولُه « من داخِلِ الخِلْبِ » بَيَّنَ به منشأَ الجزَع ومقرَّه ، والخِلْبُ : حجاب القَلبِ ، ومنه قولهم : خَلَبَتِ المرأةُ فلاناً ، أى أصابت خِلْبَه بلطفِها وخَدعَتْهُ ، خَلْباً . ثم يقال : هو خِلْبُ نساء ، كما يقال هو زِيرُ نساء . وهذا على طريقتهم فى النَّمْضِ والنِّقض وما أشبههُ .

٦ – لَهاغَلَلٌ فى الصَّدْرِ لَيْسَ ببارِحٍ شَجًى نَشِبٌ والعَيْنُ بالماءِ تَدْمَعُ

يجوز أن يكون قولُه « لها غَلَلٌ » فى موضع الجرِّ على أن يكون صفةً لعاثِرَةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع المفعول الثانى لقولِهِ رأيتُها : وأصل الغَلَلِ هو الماء يَجرى بين الشجر ، فاستعاره لما تداخلَها من الشَّجَى . وقال الخليل : الغَلَلُ : تغلغُل الماء بين الشجر . والغَلْغَلةُ : سُرْعة السير ؛ ومنه رسالةٌ مُغَلغَلةٌ أى محمولة من بلَد إلى بلَدٍ . ورواه بعضهم[1] « لها غُلَلٌ » بضمِّ الغين ، جمع غُلَّةٍ . ولو كان كذا لقال ليست ببارِحَةٍ[2] . ومعنى « ليس ببارحٍ » أى ليس بزائلٍ ، وموضع قوله « شجًى نَشِبٌ » رفعٌ على البدل من غَلَل . ويريدُ فلانٌ أنَّه عَلِقَ به كما ينشَبُ الصَّيدُ فى الحِبالة . وفى الكلام المروىّ : نَشِبَ فلانٌ مَنْشَبَ سَوء ، أى وَقَعَ فيما لا يتخلّص منه . وقولُه « والعين بالماء تَدْمَعُ » فى موضع الحال ، ولابُدَّ من الواو فيه ليتعلّق بذى الحال . والعامل فيه قولُه شَجًى نَشِبٌ . ولو كان فى الجُمْلةِ ضمير لكنتَ فى دخول الواو وسقوطه بالخيار ، إذْ كان الضمير يُعَلِّقُ من الحال ما يُعلِّقُه الواو .

٧ – تقولُ وقدأفرَدْتُهامن حَليلِها تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَنِى يا مُجَمِّعُ

قوله « تقول » جواب رُبَّ . والمُرادُ : رُبَّ عاثِرة هذه صفتُها فى يوم الهَيْجاَ

---

(١) هو أبو هلال كما نص التبريزى .

(٢) التبريزى بعد أن ساق هذه الرواية « ليس ببارح ، أى بارحة ، فذكر لأن المؤنث غير حقيقى » .

قالت لى بعد أن سَبَيْتُها وفرّقتُ بينها وبين زَوجها بالقتل سقَطْتَ لوجهك ، ولاانتعَشْتَ من عَثْرتِك يا مُجَمِّع ، ولحقكَ الانكسار والنَّكْس كما ألحقتَهُما بى. وسُمِّى الزّوجُ حليلا والمرأة حليلةً لأنّ كلَّ واحدٍ منهما يَحُلُّ مع صاحبه .

٨ ــ فَقُلْتُ لَهَا بَلْ تَعْسَ أُخْتِ مُجَاشِعٍ وقَوْمِكِ حَتَّى خَدُّكِ اليَوْمَ أَضْرَعُ

يقول : أجَبْتها بأن قلت بل التَّعْسُ لك ولقومِك حين ضَيَّعُوكِ ، وفعلوا ما أدّى وبالُه إلى أن صار خَدُّك اليومَ ضارعاً ، وجدُّك سافلاً . وقوله « بل تَعْسَ أختِ مجاشعٍ » تَدَارَكَ بِبَلْ دعاءها عليه فنقَلَهُ إليها ، لأنّ بلْ للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثانى . وأجْرَى تَعْساً فى الإضافةِ مَجرى وَيْكَ ، وذاك أنّ المصادر التى قد اشتُقّ الأفعال منها إذا دُعِىَ بها تُستعملُ باللام لا غير ، تقول : تَبٌّ لزيدٍ وخُسْرٌ لعمرٍو . وما لم يُشتَقّ الفعلُ منه وهو وَيْلٌ وَوَيْحٌ وَوَيْسٌ إذا كان معها اللام رُفِعتْ وصارت باللام جُمَلا ، وإذا أُفْرِدَت عن اللام أُضِيفَتْ ونُصبت. تقولُ وَيْلٌ لزيدٍ وَوَيْحٌ لعمْرٍو فترفع ، وويلَ زَيْدٍ وويْحَ عمْرٍو فتنصِبُ. وهذا الشاعر قال : « بل تَعْسَ أُخْتِ مُجَاشع » فأجراه مَجرى وَيْلَ الفِعْلُ يُشتقّ منه . ومُجَاشع : قبيلة . فقال أُخْتَ مجاشع كما يقالُ يا أخا بَكْرٍ ويا أخا تميمٍ ، و « أَضْرَعُ » بمعنى ضَارِعٍ . ويُقال خَدُّهُ ضَارِعٌ ، وجَنْبُهُ ضَارِعٌ . والضَّراعة : الاستِفالُ فى خضوعٍ . قال الهذلىّ[1] :

* لشانِئِكَ الضَّرَاعَةُ والكُلُولُ[2] *

٩ ــ عَبَأْتُ له رُمْحًا طويلا وألَّةً كأنَّ قَبَسٌ يُعْلَى بها حين تُشْرَعُ

أخذ يبيّن كيف تمكّن من قَتْل زوجها ، وماذا أعدَّ من السلاح له . ويقال :

(١) هو ساعدة بن جؤية . ديوان الهذليين (١ : ٢١١) .
(٢) صدره : * ألا قالت أمامة إذ رأتنى *

عَبَأتُ الخيلَ وعَبَّأْتَها ، إذا هيَّأْتَها للحرب ، وعَبَّيْتها أيضاً . وعَبَأْتُ الطِّيبَ والمَتاعَ لا غير . والمراد : هَيَّأتُ له رُمحًا طويلا ، وسِنَانًا لَمّاعًا بَرّاقًا ، كأنما يُغْلَى به نار إذا أُشْرِعَ للطَّعن . والأَلَّةُ : تُستعمل في الحربة وتشتهر بها . وأصل الأليل البريق . والمراد بها هاهنا السِّنانُ كما ذكرت . وقولُه « كأنْ قَبَس » يجوز فيه الرَّفع والنصب والجرّ ، فإذا رفَعْتَ فعَلَى الضمير ، يريدُ كأنها قَبَس يُغْلَى بها حين أُشْرِعَتْ . والقَبَسُ : النار . ومن نَصَبَ فلأنَّه أعملَ كأنّ مُخفَّفةً عملَها مثقَّلة . يريدُ : كأنّ قبسًا يُغلَى بها ، ويكون الخَبَرُ يُغلَى بها . ومن جرَّ فقال كأنْ قبسٍ ، جعل أنْ زائدة وأعملَ الكافَ كما زِيدَ في قولِهِ : لمّا أن جاء زَيْدٌ أعطيْتُه ، وفي قولِهِ : واللهِ أنْ لو جِئْتَني لأكرمْتُكَ ، يريد واللهِ لو جئتَني .

١٠ — وكائنْ تَرَكْتُ مِن كَريمة مَعْشَرٍ عليها الخُمُوشُ ذاتَ حُزْنٍ تفجَّعُ

نبَّه بهذا الكلام على أنّ ما حكاهُ من حديث العاثِرَةِ يوم الهُيَيْما ، واقتصَّه من شأن بَغلِها ، لم يكنْ بِدْعًا منه ولا عَجَبًا ، بل ذلك دَأْبُه مع أمثالِها قَبلها وبَعدَها . وقولُه « وكائنْ » لغةٌ في كأيِّنْ ، وهما جميعًا بمعنى كَمْ ، وهو للتكثير . فيقول : وكم امرأةٍ كانت كريمةَ عشيرتِها تركتُها وهي تَخْمِشُ وجهَها ، وتتفجَّعُ جزَعًا على قَيِّمِها من بَعْلٍ أو أخٍ أو ابن . والمعنى : كان ذلك منِّي كثيرًا . وقولُه « عليها الخُمُوش » الخَمْشُ في الوجه وفي سائر البَدَن مثل الخَدْش . ومعنى عليها رَكِبَها وعلاها[1] كما يقال على فُلانٍ دَيْنٌ أى رَكِبَهُ وعَلاه .

---

(١) هذا ما في م والتيمورية . وفي الأصل : «ومعنى عليها ومعنى علاها» . والكلام من مبدأ « كم ، وهو للتكثير » إلى « في ضده » من شرح البيت الأول من الحماسية التالية ساقط من م .

٢٤٨

وقال الأَخْنَسُ بن شهاب[1] :

١ — فَمَنْ يَكُ أَمْسَى فى بِلَادٍ مُقَامُهُ يُسَائِلُ أَطْلَالاً لَهَا لا تُجَاوِبُ[2]

يُرْوَى « فى بلادٍ مُقَامُه » والمُراد: من أَمْسَى مُقَامُه فى بلادٍ مسائلاً أطلالاً لتلك البلاد. فمُقامه اسمُ أَمسَى، وخبره فى بلادٍ. ويُرْوَى « بلادِ مُقَامَةٍ » على الإضافة، ويكون اسم أَمْسَى ضميرَ « مَنْ » المُستكنَّ فيه. والمُقَامَةُ : الإِقَامَةُ ، والمرادُ : مَن أَمسى فى بلادِ إقامةٍ ، أى بلاد مُستصلَحةٍ للإقامة مستوطَنَةٍ. و « يُسائلُ » على الرِّوايتين فى موضع الحال. وكما يُقال هو بَلَدُ مُقامةٍ ، يقالُ فى ضِدِّه هو بَلَدُ قُلْعَةٍ. والبِلادُ : جمع بَلَدٍ ، وهو القِطْعة من الأرض اختُطَّ فيها أو لم يختطّ. يشهد لهذا قول الراجز :

* قد تَرَكَ البَرْنِئُ فاهُ بَلَدَا *

أى لا أسنانَ فيه. وقولُ الآخر[3] :

عَرَفَ الدِّيارَ توهُّمًا فاعتادَها من بَعْدِ ما شَمِلَ البِلَى أَبْلَادَها

ومعنى البيت : مَن كان الوقوفُ على ديار الأحبّة من همِّه ، فأَمْسَى مُقامُه فى بلادٍ مُسائلاً أطلالاً فيها لا تجاوِبُه ، فأَمرِى كَيْتَ وكَيْتَ[4]. وجواب الجزاء فيما بعده. وقد مرَّ القول فى حذف النون من يَكُ.

---

(١) هو الأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن غنم بن حزابة بن الحارث ابن نمير بن أسامة بن بكر بن معاوية بن تغلب بن وائل. وهو فارس « العصا » ، والعصا فرسه. وانظر الاشتقاق ٢٠٣ والأمالى (٣ : ١٨٥) ، وهو شاعر جاهلى قبل الإسلام بدهر. شرح الأنبارى للمفضليات ٤١٠ والخزانة (٣ : ١٦٩). وقصيدة هذه المقطوعة برقم ٤١ فى المفضليات.

(٢) هذا البيت لم يروه المفضل. (٣) هو عدى بن الرقاع. اللسان (بلد).

(٤) الكلام بعده إلى أول شرح البيتين الأخيرين من الحماسية ٢٤٩ ساقط من م. ومن هنا تبدأ المعارضة على نسخة (لاله لى) التى أشرنا إليها بالرمز (ل).

٢ — فَلابْنَـةِ حِطَّانَ بنِ قَيْسٍ مَنازِلٌ كَمَا نَمَّقَ العُنْوَانَ فى الرِّقِّ كاتِبُ(١)

الفاء مع ما بعدَهُ إلى صدر البيت الذى يليه جواب الجزاء ، كأنّه قال : فلهذه المرأة منازِلُ أنا وقفْتُ بها ، وقضَيْتُ حَقَّ الهوَى فيها . والمعنى : مَن كان الوقوف على الدِّيار من دينِهِ فى الهوى ومذهبِه ، حتّى صار يُسائل ما لا يُجيب ، فَلِي فى الوقوف على ديار ابنةِ حِطّانَ ما يزيدُ على كل مذهبٍ ، ويَفِى على كل عادةٍ . وقولُه « كما نَمَّقَ العُنوانَ » من صفةِ المنازل ، ويروى « العُنيانَ » و « العُلْوانِ » . فأما العُلْوان فهو فُعْوال من عَلَنَ الأمرُ ، أى ظهر . وأمّا عُنوانٌ فهو فُعْوالٌ أيضاً من عَنَّ له كذا ، أى عَرَضَ . وأمّا عُنْيان فهو فُعْلانٌ من عَنَاهُ كذا يَعْنِيه . وفى هذا القدر من الكلام فى هذا الموضـع كفايةٌ إذ كُنّا قد بَسَطْنا القولَ فى شرح كتاب الفصيح . وكان الواجب أن يقول كعُنْوانٍ نمَّقَه كاتبٌ ، وتشبيه آثار الديار بالـكتابة مألوفٌ فى طرائقهم ، لـكنّه طوَّلَ الكلامَ تحقيقاً للتشبيه ، فصار ظاهِرُه كأنه شَبَّه الآثارَ بتنميقِ الـكاتب خَطَّه إذا عَنْوَنَ كتابًا . ومثله قول الهُذَلىّ(٢) :

هَبَطْنَ بَطْنَ رُهَاطٍ واعْتَصَبْنَ كما يَسْقِى الْجُذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضّاحُ

ألا تَرى أنّ المرادَ تشبيه الإبل وقد دخلَتْ فى السَّراب بجُذوع نَخْلٍ مسقيّةٍ فى أصولها الماء ، فجاء ظاهِرُه كأنَّه شبَّه الإبل بسَقْى النَّضَّاح للجذوع ؛ لأنّ معنى كما يَسْقِى كَسَقْى ، كما أنّ معنَى كما نَمَّقَ كتنميق .

٣ — وَقَفْتُ بها أبكِي وأُشْعَرُ سُخْنَةً كما اعتادَ محْمُومًا بخَيْبَرَ صالِبُ(٣)

(١) المفضليات : « لابنة حطان بن عوف » .

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٣) بعده عند التبريزى ، ولم يرو فى المفضليات :

خليلَىَّ عُوجا من نَجَاءِ شِمِلَّةٍ عليها فتًى كالسَّيف أروعُ شاحبُ

يقول : وقفتُ بهذه الأطلال مقيما بها رَسْمَ من ثبتَ عَهْدُه فى الهوَى ، ولم يغيّره تقاذُفُ الأحبّة والنَّوى ، ومظهِرًا التلهُّف والتحسُّر فى إثْر ما تقادَمَ من أيّام الوصال بالبُكا ، وقد أَبْطَنتُ جَوًى اعتادنى منه حُمّى سَخُنَت منها بَشَرَتى ، وحُمَّت لها روحى ومُهجتى ، كما يعتاد الصالبُ — وهى الحُمَّى التى معها صُداع — محمومًا بخَيبر . وإنما قال ذلك لأنّ خيبر مَحَمّة ، وحُمّاها موصوفة بالشدّة . ويقال فى المثل : « صالبٍ أشدُّ من نافضٍك » . وحكى الأصمعىّ أنّ أعرابيًّا ثقُلَت عليه مُؤَنُ عيالِه لكثرتِهم ، فحدّثته نفسُه بأنه لو نَقَلَهم إلى خَيبر لنَقَصَهم وباؤُه ، وأثّر فيهم بالتقليل صالبُه ، وأَوْرَدَهم خَيبر ، وأنشأ يقول :

وَيحَكِ حُمَّى خَيبرَ استَعِدِّى هاكِ عِيالى فاذْهَبِى وجِدِّى
وباكِرِى بصالبٍ ووِردِ أعانَكِ اللهُ على ذا الجُندِ

فحُمُّوا بأجمعِهم وسَلِموا ، ثمّ تَلِفَ هو من بينهم .

وقوله « وأشْعَرُ سُخْنَةً » يُروى بضم السين وكسرها . فالسُّخْنةُ كالحُمْرة ، والسِّخْنةُ كالجِلسةِ . ومعنى أُشْعَرُ جُعِل شِعارى . والشِّعار : ما يَلِى الجسدَ من الثياب ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل أُشْعِرَ قلبى هَمًّا . ويقال شَعَرْتُ المرأةَ ، أى نِمْتُ معها فى شِعارِها .

٤ — خَلِيلاَى هَوْجاءُ النَّجَاءِ شِمِلَّةٌ وذُو شُطَبٍ لا يَجْتَوِيهِ المُصاحِبُ

مَوْضِعُ قولِهِ « خليلاى » مع خَبَرِه نَصْبٌ على الحال من قولِهِ « وقَفْتُ بها » ، واستُغْنِىَ بالضمير فيه عن إدخال الواو العاطفة لأنه يُعلِّقُ من الحال بالأوّل ما يعلّقه الواو . ومعنى قوله « هَوْجاءُ النَّجَاءِ » ناقةٌ فى نَجائها وسرعة مَرِّها هَوَجٌ واضطراب . ويقال نجاءٌ أَهْوَجُ ، كما يقالُ عَدْوٌ والِهٌ[1] . وقد

(١) من شواهده قول تأبط شراً فى المفضلية الأولى :

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى بواله من قبيص الشد غيداق

تجاوزوا هذا الحدّ حتى قالوا غبارٌ مجنونٌ ، وزِمامٌ سَفِيه . والشّمِلّةُ : الخفيفة . وقوله « وذو شُطَبٍ » أراد به سيفاً ذا طرائق . « لا يجتويه » أى لا يكرَهُه متحمِّلُه لجودتِه . وهذا الكلام إشارةٌ إلى أنّ أصحابَه خذَلوه ولم يروا مساعَدتَه فى الوقوف على الدار .

٥ــ وقد عِشْتُ دَهْرًا والغُوَاةُ صَحَابتى ... أُلئكَ خُلْصانى الذين أصاحِبُ

٦ــ قَرِينَةَ مَن أَسْـفَى وقُلِّدَ حَبْلَهُ ... وحاذَرَ جَرّاهُ الصَّديقُ الأقاربُ[1]

يذكر ماتعاطاه من البَطالةِ أيّامَ صِباه ، فيقول : بقيت زماناً فيما مَضَى من عُمرى طويلا مُتباعِدَ الأطرافِ ، والذين أصاحبُهم وأوثِرُ معاشرتَهم أهلُ الغَوايةِ ، وأربابُ البَطالةِ والخَسارة ، لا أُواخِى غيرَهم ، ولا أُصالِحُ سِواهم . والصَّحابةُ مصدرٌ فى الأصل [وَصفَ به الخُلْصان أيضاً مصدرٌ كالكُفران والشُّكرانِ فى الأصل[2]] ، ولذلك صَلَحَ أن يَقع للواحد والجميع . يقالُ فلانٌ خالِصَتى وخُلْصانى ، إذا خَلَصَت مَودّتُه . قال :

* وعاش صافيةً لله وخُلْصانا *

ويقال : هؤلاء خُلصانى ، أى أخِلاّئى . وقوله « الذين أُصاحِبُ » أراد أُصاحِبُهم ، وحذفَ الضميرَ استطالةَ الاسم بصلَتِه . وقوله « قرينةَ من أَسْفَى » فالقرينة أُلحِقَتِ الهاء به لأنه جُعِل اسماً ، فهو كالبَنِيّةِ والذّبيحةِ . ومعنى أَسْفَى : دخَلَ فى السَّفَاء . والسَّفَاء ممدود : السَّفَهُ ، والرَّجُل سَفِيٌّ . ومعنى « قُلِّدَ حَبْلَهُ » خُلِّىَ واختيارَه ، وأصلُه فى البعيرِ إذا أُرسِلَ فى المرعَى وجُعِل زِمامُه على عُنقِه لِيتصرّف كما يشاء ، ثم نُقِل إلى من وُعِظ كثيراً حتى أُهمِل أمرُه تبرُّماً به . ويقال أيضاً : أُلقِىَ حبلُه على غاربِه ، فى هذا المعنى . ومعنى « وحاذَرَ جَرّاه

(١) هذا البيت لم يرد فى المفضليات . (٢) التكلة من ل والتيمورية .

الصـديقُ الأقاربُ » ، أى تبرّءوا منه خوفاً من جرائِره التى يَجنيها عليهم . وكانوا يُسمُّون مِثلَه الْخَلِيع . وعلى هذا قولُ الشّنفرَى فى صفة نفسه :

طَرِيدُ جِناياتٍ تَياسَرْنَ لَحْمَه عَقِـيرتُه لَايّا بما حَنَّ أَوّلُ

ومعنى تَياسَرْن [لحمه(١)] اقتَسَمْنَ « لحمَهُ » من الميسِر(٢) . وهذا من فصيح الـكلام . والصديق يوصَفُ به الواحدُ والجمع . والبيت الثانى شَرْحٌ لقولهِ « والغُواةُ صحابتى » ، ويُفيدُ من نهايات الغَيِّ ما لا يُستفاد من ظاهِرِه ومُطْلَقِه .

٧ — فأَدَّيْتُ عَنِّى ما استَعَرتُ من الصِّبَا فلِلمال عِنـدى اليومَ راعٍ وكاسِبُ

٨ — تَرَى رائداتِ الْخَيْلِ حَوْلَ بُيُوتِنا كَمِعْزَى الْحِجَازِ أَعْوَزَتْها الزَّرائبُ

يقول : رفَضْتُ الآنَ ما كنت أقصُرُ وقتى عليه ، وأصرِف همى إليه ، من سُلوكِ طرائق الجهل ، والجرىِ فى ميادين اللَّهو ، واستَبْصَرْتُ حتَّى عَرفتُ من الرَّشاد ما حَمَلنى على رَدِّ مستعار الغىّ ، واطِّراحِ(٣) مستعادِ البُطْل ، فصِرْتُ أحفظ من المال ما كنتُ أضيِّعه ، وأصْحبُ من الحزم ما صِرْتُ أخلِّفُه ، وأجمع من العُدّة للحوادث ما بَقِيتُ أُهمِله وأفرِّقه . وقوله « أدّيتُ عَنّى » حَقَّق بدخول عن أنَّ المُؤدِّى وجبَ عليه . ألا ترَى أنَّه لو قال أدّيتُ كذا من دون عن لجاز أن يكون لنفسِه أدَّى ما أدَّى ، ولجاز أن يكون لغيره . ولأنّ معنَى أدّيت عنّى نَحَّيْتُ عن نفسى . وقوله « فلِلمال عندى اليومَ راعٍ وكاسب » نَبَّهَ به على أنَّه جامعٌ لَهُ وحافظٌ . ولم يُشِرْ بقوله « اليومَ » إلى وقتٍ مُعيَّنٍ ، لأنه أراد حاضِرَ الأزمان ومؤتنَفَها . فأما قولُه « ترَى رائدات الخَيْل » فالرَّائدات

(١) التكلة من ل .

(٢) كذلك فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « من اليسر » .

(٣) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « واطراد » .

المختلفات ، ومنه المَثَل : « الرّائد لا يَكْذِبُ أهْلَهُ » . والمُراد أنّ الذى يرتبطونه من المال ويقتنونَهُ الخيلُ ، لا الإبل والغنم ، وأنّها تختلف فيما بين بيوتهم لكثرتها ، لأنّهم غزّاءون وأربابُ غاراتٍ ، فخيولهم مربوطةٌ بالأفنية لئلا تبعُدَ عنهم أوانَ الحاجة لِقَصْدٍ أو مَتْع ؛ وهى فى اختلافها وكثرتها وتردُّدِها بين البيوت كمِعْزَى الحجازِ وقد ضاق عنها محابِسُها ومرابِضُها . وقوله « كمِعْزى الحجاز » فى موضع الحال من تَرَى ، وأعْوَزَتْها فى موضع الحالِ مما دَلَّ عليه الكاف من قوله كمِعْزَى . والأجود أن يُضْمرَ معها قد ليقْرُبَ بناء الماضى من الحال . والتقدير تراها مشابِهَةً لمعزى الحجاز وقد عَدِمَتْ محابسَها ، فهى تَرُودُ . وفى هذه الطريقة قول سَلَمة بن الخُرْشُب :

يَسُدُّون أبوابَ القِبَاب بضُمَّرٍ إلى عُنَنٍ مستوثِقات الأواصرِ

والزَّرْب والزَّريبةُ واحد ، ويقال أعْوَزَهُ الدَّهرُ : أفْقَرَهُ . وأعوزَ الرّجُل : ساءت حالُه .

٩ ـ فَيُغْبَقْنَ أحْلَابًا ويُصْبَحْنَ مِثْلَها فهُنَّ من التَّعْدَاء قُبٌّ شَوَازِبُ

يُقَالُ غَبَقْتُهُ إذا سَقيتَهُ غَبُوقًا ، وصَبَحتُه إذا سقَيْتَهُ صَبُوحًا . والصَّبُوح والغَبُوق : يُشرَب بالغـداةِ والعشىّ ، لأنّهما كالفَطُور والذَّرُور والسَّحُور . فيجوز أن يريدَ أنها تُعدَى فى القرّتين[1] ، ويكون « أحلابًا » بمعنى أشْوَاطٍ وأطلاقٍ . يقال احلُبْ فرسك قَرْنًا أو قرنَين ، واحْلُبْها أحْلَابًا وحَلَباتٍ . ويشهدُ لهذا قولُه « فهُنَّ من التَّعْدَاءِ قُبٌّ شوازِبُ » . وتحقيق الكلام أنه جُعِـل صَبُوحُهُنَّ وغَبُوقُهُنَّ أن أُعدِيَتْ فى أوّل النَّهار وآخرِه لتَضْمُرَ ، كما قال أبو تمّـام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجـامُ[2] *

---

(١) القرتان : الغداة والعشى ، وذلك لمـا فيهما من البرد .

(٢) صدره : * بسواهم لحق الأياطل شزب *

وكما قال غيرُه(١) :

* فإنّ المُندّى رِحْلةٌ فرُكوبُ(٢) *

والتَّنديةُ : أن تُرْعى فى الورْد بعد السَّقى شيئاً ليُعرَض عليها الماء ثانيةً . ويجوز أن يريد أنّها تُسقى اللبنَ غُدُوًّا وعِشيًّا ، كما قالَ :

* نُطْعِمها اللّحْمَ إذا عَزَّ الشّجرْ(٣) *

يريدُ باللّحْمِ اللبن ، وكما قال الآخر(٤)

* يُعْطَى دَوَاءَ قَفِيٍّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ(٥) *

ويكونُ الأحلابُ جمعَ حَلَب ، مصدر حَلَبْتُ ، والمراد به المَحلوبُ لجمعه لاختلافها . ويكون قولُه « فهُنَّ من التَّعداء » كلاماً مستأنفًا ، والمعنى أنَّها تُضَنَّمُ وتُضَمَّرُ ، فتُتَفَقدُ بكلِّ ما يُصلِحُها ويُقوِّيها ويعوِّدُها الجِرَاءَ . والقُبُّ : جمع أقَبَّ وقَبَّاء . والشَّوازب : الضَّوامر .

١٠ ـ فوارِسُها من تَغْلِبَ ابنَـةِ وائلٍ حُمَاةٌ كُماةٌ لَيْسَ فيهم أشائِبُ

قوله « من تَغْلِبَ ابْنَـةِ وائلٍ » أخْبرَ به أنَّهم لم يتكَثَّرُوا بغيرهم ، فليس فيهم خُلطاء من سواهم ولا غُرَباء ، وإنما هُم من أصلٍ واحد . وهذا كما قال سَلَمَة ابن الخُرْشُبِ .

وأمْسَوْا حِلَالًا ما يُفرِّقُ بَيْنَهُمْ على كلِّ ماءٍ بَيْنَ فَيْدَ وساجِرِ

وهو خلاف قول الآخر وهو يهجو :

---

(١) هو علقمة بن عبدة الفحل . المفضلية ١١٩ .

(٢) صدره : * تراد على دمن الحياض فإن تعف *

(٣) أنشده فى اللسان (لحم) . وأنشد بعده :

* والخيل فى إطعامها اللحم ضرر *

(٤) هو سلامة بن جندل السعدى . المفضلية ٢٢ .

(٥) صدره : * ليس بأسى ولا أقنى ولا سغل *

ولمّـا أن رأيتُ بنى جُوَيْنٍ جُلُوسًـا ليس بينهم جَلِيسُ[1]
إذا ما قُلْتُ أيُّهُــمُ لِأَىّ تشابَهَتِ المناكِبُ والرُّءوسُ

لأنّ هذا يصف أهل بَيْتٍ بأنّهم لا يُرَى فيهم نديم ولا مُعَاشِرٌ ، ولا يَغْشَى فِناءَهم جليسٌ ولا مُخالِطٌ ، ولا يَقصِدُهُم عافٍ ولا مُجْتَدٍ ، ولا يَؤُمُّهُمْ راحٍ ولا مُعْتَفٍ ، إنَّما اكْتَفَى كُلٌّ منهم بصاحبه ، وانفردَ كلُّ ذى بَيْتٍ بِنَسِيبِه . وعلى هذا الذى فسّرنا يكون « من تَغلِبَ ابنَةِ وائلٍ » خَبَراً ، وحُمَاةٌ خبرًا ثانيا . والتقدير : فوارسُها تغلبيُّون حُماةٌ . ويجوز أن يكون من تَغلِبَ ابنةِ وائلٍ فى موضع الحال ، وحُماةٌ الخبر ، والتقدير : فوارِسُها وهم من بنى تَغلِبَ حُماة . وحُمَاةٌ : جمع حامٍ . وكُماةٌ : جمع كَمِىٍّ . وهذا البناء من الجموع لا يكون إلّا فى المعتلّ . والأشائبُ : جَمْعُ أشَابَةٍ ، وهم الذين جُمِعُوا من شىء إلى شىء ، على رداءةٍ فيهم وهُجنةٍ تَشُوبُهم .

١١ــ فهُمْ يَضرِبُونَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ على وجْهِهِ من الدِّماء سبائبُ
١٢ــ وإن قَصُرَتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطَانا إلى أعْـدائِنا فَنُضارِبُ

وصَفَهم بأنّهم يطلبون الرُّؤساء فى الحربِ بالقتل والنِّكاية ، دونَ الأوساط والعَجَزَة والسُّقّاطِ ، فهو كقولِ الآخَر[2] :

من عَهْــدِ عادٍ كانَ معروفًا لنـا أسْرُ المُــلُوكِ وقَتْلُها وقِتالُها

وقوله « يَبْرُقُ بَيْضُه » فى موضع الحال من يَضربون ، و « على وجهه من الدِّماء سبائبُ » فى موضع الحال أيضا من قولِه يَبْرُق بيضه . والسَّبائبُ :

(١) فى الأصل : « بنى جرين » وأثبتنا ما فى ل والتيمورية .
(٢) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .

الطُّرَق[(١)] ، الواحدة سَبِيبَةٌ ، وقولُه « وإن قَصُرَتْ أسيافُنا » مثل قول الآخر[(٢)] :

* نَصِلُ السُّيُوفَ إذَا قَصُرْنَ بخَطْوِنا[(٣)] *

وفى طريقته قول الآخر[(٤)] :

إذا الـكُماةُ تَنَحَّوْا أنْ ينالَهُمُ حَـدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْناها بأيدينا

١٣ ــ فلِلّهِ قَوْمٌ مِثْلُ قَوْمِي عِصَابَةً إذا حَفَلَتْ عند الْمُلُوكِ المَصَائِبُ

قوله « فللّهِ قَوْمٌ » تعجُّبٌ وتحضيضٌ . والـكلام فى مثله قد تقدّم مشروحًا[(٥)] . وانتصب « عِصَابَةً » على أنّه تمييز . ويجوز أن يكون حالاً أيضًا . وقولُه « إذا حَفَلَتْ » أى اجتمعت . وإذا ظَرْفٌ لما دلّ عليه قولُه « للّهِ قَوْمٌ مثلُ قَوْمِي » ، أى ناهِيكَ بهم من قَوْمٍ فى ذلك الوقت . والمعنى أنّه يَظْهَر من عِزّهم وفَخْرهم فى مجالس الْمُلوك ما يُسْتَحَقُّ به التعجُّبُ منهم .

١٤ ــ أرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

يصف عِزّهم وكرمَهم وعِظَم حِشْمَتهم فى قلوب مَن سواهم ، وأنّ أحدًا لا يتجاسَرُ على التعرُّض لأسبابهم ، والتبسُّط فى أحمِيَتهم ، فمالُهم وإن عَزَبَتْ فى مراعيها مَحْمِيَّةٌ ، وسُرُوبُهم آمنةٌ ، وإذا كانت الأقوامُ غيرهم يُقَيِّدُ فُحُولَها تقييدا مُقارَبًا ، وتُحْفَظُ مَرَاعيها حِفظًا مُلاحَظًا ، مخافَةَ أن تَسْرُبَ فى المَرْتَع ، وتَبعدَ عن المَجْمَع ، وتتبعَها الإناثُ فتقْرُبَ من الْمُغيرِ عليها ، وتمـكُّن الطامع

---

(١) الطرق : جمع طرقة بالضم ، مثل غرفة وغرف ، وهى الطرائق .
(٢) هو كعب بن مالك . البيان (٣ : ٢٦) .
(٣) عجزه : * قدما ونلحقها إذا لم تلحق *
(٤) هو بشامة بن حزن النهشلى . الحماسية ١٤ .
(٥) انظر ما سبق فى ص ٦٧٢ .

فيها ، رأيتنا لا نبالى بشىء من ذلك ، فَنُخَلِّيها وذَهابَها حيثُ شاءت ، وأنَّى اختلفَتْ وتصرَّفَتْ ، لأمْننا عليها ، وعلِمِنا بأنَّ عِزَّنا يحميها ويذُبُّ عنها ، ويقصُرُ الأيدىَ دونها . والساربُ : الذَّاهب فى الأرض ، حتى قيل سَرَبَ الماء وانْسرَبَ ، ومنه اشتقاق السَّرَاب .

٢٤٩

وقال العُدَيْـلُ بن الفَرْخِ العِجْلِىُّ[1] :

١ ـ ألاَ يا اسْلَمِى ذاتَ الدَّماليجِ والعِقْدِ وذاتَ الثَّنَايا الغُرِّ والفاحِمِ الجَعْدِ[2]

قوله « يا اسلَمى » يراد به يا هذه اسلمى ، فحذَفَ المنادَى . ومعنى اسلَمى : دُومى سالمةً . وانتَصبَ « ذاتَ الدَّماليج » على أنه نداء ثان ، ويجوز أن يكون انتصابُه على إضمار فِعل ، كأنه قال : أذكُرُ ذاتَ الدماليج . وهذا يَجرى مَجرى الـكناية لمَّا كَرِه التَّنبيه على اسمِها . والدماليج : جمع الدُّمْلوج ، وهى المِعضَد . وقال الخليل : يقال دَمَلَجتُ الشىء ، إذا سَوَّيْتَ صيغتَه ، كما يُصاغ الدُّمْلُجُ . وقوله « وذاب الثنايا » كان وجْهُ الـكلام أن يقول : والثنايا الغُرّ ، لـكنّه أعاد لفظ ذات ليكونَ الخطابُ به أفخم وأجلَّ قَدْرًا ، ولشدّة اتصال المضاف

---

(١) العديل بهيئة التصغير ، بن الفرخ بفتح الفاء ، وقيده فى الخزانة (٢ : ٢٦٨) بضمها . ولقبه « العباب » كشداد ، وكان العباب كلباً له . وهو شاعر إسلامى فى الدولة المروانية ، كان قد هجا الحجاج وهرب منه إلى قيصر ملك الروم ، فبعث إليه : لترسلن به أو لأجهزن إليك خيلا يكون أولها عندك وآخرها عندى . فبعث به إليه وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . الخزانة والأغانى (٢٠ : ١١ ـ ١٩) والاشتقاق ٢٠٨ والشعر والشعراء ٣٧٥ ـ ٣٧٧ .

(٢) قال أبو رياش : ليست هذه الأبيات للعديل ، وهى قصيدة طويلة لأبى الأخيل العجلى قالها فى آخر أيام بنى أمية ، ووفد على عمر بن هبيرة الفزارى فقيل له : إن أبا الأخيل العجلى بالباب يستأذن . فقال : « إذن والله لا يأذن له غيرى » . فقام من مجلسه حتى أتاه على الباب فأخذ بيده وأقعده معه على بساطه ثم قال : أنشدنى منصفتك . فأنشده إياها ، فكساه وأعطاه ثلاثين ألفاً . المنصفة : القصيدة ينصف فيها الشاعر عدوه . انظر ما سبق فى ٤٤٠ .

بالمضاف إليه ، كأنه عَدَّهما اسمًا واحدًا لا تَحمِلَ بالحذفِ عليه . ويجرى هذا المجرى قولُه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فى صَلاَتِهِمْ خاشِعُون . والَّذِين هُمْ ﴾ ، ﴿ والذين هم ﴾ . وقول الشاعر[1] :

أما والذى أَبْكَى وأضحَكَ والذى ... أَماتَ وأَحْيَا والذى أَمْرُهُ الأَمْرُ

والعِقْد : القَلادة ، يقال عقَدتُ عَقْدًا ، ثم يُسَمَّى المعقود عِقْدًا ، فهُما كالنَّقْض والنِّقْض . والفاحم : الشَّعر الأسوَد الحسَن[2] وقد فَحَمَ فُحُومًا .

٢ — وذاتَ اللِّثاتِ الحُمِّ والعارِضِ الذى ... بهْ أَبْرَقَتْ عَمْدًا بأَبْيَضَ كالشُّهْدِ

اللِّثاتُ : مَغارِزُ الأسنان . والحُمُّ : جمع أَحَمَّ وحَمَّاء ، وهو الأسوَد من كلّ شىء . ويُرْوَى « الحُوِّ » وهو جمع أَحْوَى وحَوّاء . والحُوّةُ : حُمْرةٌ تَضرِبُ إلى سوادٍ . والعارضُ : ما يَظهرُ من الثَّغرِ عند النُّطق من الجانبين . ومعنى أبْرَقَتْ به : أطلَعَتِ البَرْقَ . والبَرْقُ : وَمِيضُ السَّحابِ أصلُه . ويقال : بَرَقَ السَّحابُ بَرقًا وبَرِيقًا ، وأبرق لغةٌ فيه ، كذلك قال الخليل . وقولُه « عَمْدًا » مصدرٌ فى موضع الحال ، أى أبرَقَتْ عامدةً . ويريدُ بالأبيض رُضابَ الفم . والتشبيه بالشُّهْدِ قُصِدَ به إلى العذوبة .

٣ — كأنّ ثَنايَاها اغتَبَقْنَ مُدامةً ... ثَوَتْ حِجَجًا فى رأسِ ذى قُنَّةٍ فَرْدِ

الاغتباق : شُرْبُ العَشِىّ ، وخَصَّهُ بالذِّكر لأنّ القصدَ إلى أنها عند السَّحَر يطيبُ نكهَتُها ، فإذا تغيَّرتِ الأفواه وخَلَفَت كانت هذه كأنها مغتبِقة خَمْرًا بقِيَت سنينَ فى رأسِ جَبلٍ انفرَد عن الجبال ورءوسِها ، بحصانتِه وتَمنُّعِه . وهذا منه إشارةٌ إلى قَلعةٍ فى قُلَّةِ جَبلٍ شاهِق ، أو قصْرٍ أو حِصْنٍ شبَّهَه بجبل هذه صِفتُه .

(١) هو أبو صخر الهذلى . أمالى القالى (١ : ١٤٩) .
(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « الشعر الأسود الأسود » ، تحريف .

٤ — لَعَمْرِى لقد مَرَّت لىَ الطَّيْرُ آنِفاً بما لم يكُنْ إذ مَرَّتِ الطيرُ مِن بُدِّ

كانَ زَجَّارًا[1] فلذلك قال ما قال. وخبرُ «لعَمْرى» محذوفٌ، كأنه قال لعمرِى قَسَمِى. ولقد جوابُ القَسَم مع ما بَعدَه. والقسمُ كما يقعُ بالمفرد يقع بالجملة. وأنثَ الطيرَ لأنه أراد الجماعة، فلذلك قال مَرَّت. وآنِفًا انتصَب على الظَّرف، والمعنى فيما ائتُنِفَ من الوقت، وإنما عافَ هذه العيافةَ التى أشار إليها فيما دار بين قومِه من الشَّرّ، وكأنّه آمَنَ بما أوجبَه مُرورُ الطيرِ فى حُلمِه، فلذلك قال بما لم يكُنْ من بُدٍّ. ومن بُدٍّ موضِعُه اسمُ لم يكُنْ، وخبرُه محذوف، لأنَّ التقدير بما لم يكن بُدٌّ من وقوعِه إذ مَرَّتِ الطيرُ. وهذا كما يقالُ ما جاءنى من رجل فى اللَّفْظِ، وإن كان التقديران مختلفين. ومعنى قولِ القائل لا بُدَّ من كذا: لا اتِّساعَ فى الاستغناء عنه. ويقال رجلٌ أبَدُّ وامرأةٌ بَدّاء، إذا تباعَدَ إحدى فخذيه عن الأخرَى، وبَدَدتُ الشيء أبُدُّه، إذا جَزَّأتَه أجزاءً فى القَسْمِ. ويقال هاتِ بِدَّتى، أى نصيبى، ومنه يقال استَبَدَّ فلانٌ بكذا إذا اختصَّ.

٥ — ظَلِلْتُ أساقِى الهَمَّ إخْوَتِىَ الأُولَى أبوهُمْ أبِى عِند المِزَاح وفى الجِدّ

يقال: ظَلّ يفعلُ كذا، إذا فعلَه نهاراً، ثم يتوسَّعُون فيه، ويجرى مَجرى صار يفعل كذا يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وإذَا بُشِّرَ أحَدُهم بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ ألا تَرَى أنَّ البِشارة بالأنثى تتَّفِقُ كلَّ وقتٍ من ليلٍ وَنهارٍ. وقولُه «أساقِى الهَمّ» يجوز أن يريدَ به الغَمّ، كأنّه كان يُبَاثُّ إخوانَه وأصفياءَه لما كان يدور عليه أمرُ عشيرته من الخِلاف المؤدِّى إلى التَّقالى والتحزُّب، وما كان يَخافُه من التَّفانِى عليهم عند التجارُب. والأُولَى فى معنى الذين، والجملة التى بعدُه من صِلَتِه. وقولُه «أبُوهُمْ أبى عند المِزَاحِ وفى الجِدّ» يجرِى مجرى التَّأكيد للأُخُوّةِ، والتَّحقيق للتَّشابُكِ، والممازجةِ بالنِّسبة، والمعنى: على كلِّ

(١) كذا فهم المرزوقى، وليس هذا بلازم.

حالٍ إذْ لا ثالِثَ لهما . ووَضَع المُزاحَ موضعَ الهَزلِ . ومثل هـذا فى معنى التَّأكيد ، وإن كان لفظُه لفظَ البدل قولهم : جاءنى بَنُو تميمٍ صغيرُهم وكبيرهم ، صريحُهُمْ وهجينُهمْ ، وما أشبَهَهُ . ويجوز أن يريدَ بالهمِّ مصدرَ هَممتُ بالشىء ، كأنّه اجتمع مع إخوتِهِ ليوافِقَهم على رَأْيٍ يَبنُونَ أمرَهم عليه مَعَ الفساد[1] الظاهر له بين ذَوِيه وفصيلته . ويروَى « المُزاح » بضم الميم فيكون اسماً ، والمِزاحُ بكسر الميم فيكون مصدرَ مازَحْتُ .

٦ — كِلاَنَا يُنادِى يا نِزَارُ وبيننا قَنًا من قَنَا الخَطِّىِّ أو من قَنَا الهِنْدِ

كِلاَ اسم مفردٌ يؤكَّد به المثنَّى ، كما أن كُلًّا اسم مُفْرَدٌ يؤكّدُ به المجموع . والمراد به هنا كلُّ واحدٍ منّا ، لذلك قال ينادى . والمعنى إنّ اعتزاء كلٍّ واحد من طائفتينا إلى أبٍ واحد ، والشَّرُّ إذا وقع بين الأقارب كان فى عُقول ساداتهم أشدَّ تأثيراً ، وأبلغَ عند الاستعمال به تحذيراً ، إذ كان مُفاسَدةُ النَّسِيبِ لنَسِيبِه أفظعَ ، وكان التَّقاطع حيث يجب التَّواصل أشنَعَ ، لأنَّ عِزَّ السَّيِّد بتابعيه ، وليس الأقارب منهم كالأجانب . وقوله « وبَيْنَنَا قَنًا من قنا الخطِّىّ » الواو واو الحال ، وقد حَذَفَ المضافَ وأقام المُضافَ إليه مَقامَه . والمراد : وبيننا اختلافُ قنًا خَطِّيّةٍ بالطّعْنِ ، أى بَلَغَ جَهْدُ البلاءِ بينهم هذا المبلغَ وانتهى إلى هـذه الحالة . وقال « من قنا الخطِّىّ » والمرادُ من قَنَا الموضع الخَطِّىّ أو المـكان ، فأقام الصِّفةَ مقامَ الموصوف[2] . يدلُّ على هذا أنّه قال بعدَهُ « أو مِن قَنا الهِنْد » . ويجب أن يكونَ القنا الأوّل وإن كان جمعَ قَناةٍ مُتَناوِلاً لما هو أقلُّ مما يتناولُه القَنا الثانى حتى يحصُلَ معنى التبعيض[3] بمِنْ . والخَطُّ : جزيرةُ

---

(١) هذا ما فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « من الفساد » .

(٢) فى التنبيه : « وإن شئت قلت : أراد من قنا الخط ، فزاد ياء النسب لغير حقيقة الإضافة ، كقولهم فى الصفة أشقر وأشقرى ، وأحمر وأحمرى » .

(٣) كذا على الصواب فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « مع التبعيض » .

عُمَان . ويقال فى الرِّماح هى الخطيّةُ ، كأنّه اسمٌ لها .

٧ — قُرُومٌ تَسَامَى من نِزَارٍ عَلَيْهِمِ مُضَاعَفَةٌ من نَسْجِ داوُدَ والسُّغْدِ(١)

القُرُوم فى الأصل : الفُحُول المَصاعبُ التى أُعفِيتْ من الحمل عليها وتُرِكَت للفحلة . ويقال أقرَمْتُ البعير فاستَقرمَ . وعنى بها ها هنا الأبطالَ الكِرام . وتَسامَى ، أى تتعالى فى التّبارى(٢) والتَّمارِى . والأصلُ فى تَسَامَى تَتَسَامَى فحُذِفَ إحْدَى التاءَينِ استثقالاً لاجتماعِهما . وقوله « من نِزَارٍ » فى موضع الصِّفةِ لقُرُوم ، والتقديرُ قرومٌ نزاريَّةٌ تَتَسامَى ، وقوله « عليهم مضاعَفَةٌ » فى موضع الحال والعاملُ فيه تَسامَى . ومعنَى المُضاعَفة : التى نُسِجت حَلْقتين حَلْقتين . و « من نَسْجِ داوُدَ » فى موضع الصِّفة للمُضاعَفةِ ، أراد مضاعَفَةً داوُديةً وسُغْدِيّةً . وارتفَعَ مُضاعَفَةٌ بالظَّرفِ فى المذهبين جميعا لوقوع الظرف فى موضع الصفة . ومثلُهُ من مسائل الكتابِ : مررْتُ برجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صائدًا به غدًا(٣) .

٨ — إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً ثَبَتُوا لنا بمُرْهَفَةٍ تُذْرِى السَّوَاعِدَ من صُعْدِ

٩ — وإنْ نَحْنُ نازَلْنَاهُمُ بصوارِمٍ رَدَوْا فى سَرابيلِ الحديدِ كما نَرْدِى

أمّا البيت الأوّل فقد ألمّ فيه بمعنى قولِ الآخر(٤) :

فلمّا قَرَعْنَا النَّبعَ بالنَّبْعِ بَعْضَهُ ببَعْضٍ أبَتْ عِيدانُه أن تَكَسَّرَا

والمُرْهَفَةُ : السُّيوفُ المُرقَّقة الحدّ ، وسيفٌ رهيفٌ ، وقد رَهُفَ رَهافَةً . ومعنى تذْرِى تُسقِطُ ، وهو فى موضع الصِّفَة لمُرْهَفَةٍ . ومعنى « مِنْ صُعْدِ » من أعْلَى . وهذا كما قال غيره :

---

(١) لم يفسر هو ولا التبريزى السغد ، وهو بضم السين ويقال بالصاد المضمومة : جيل من الناس بلادهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « فى التمادى » .

(٣) انظر كتاب سيبويه (١ : ٢٤١ — ٢٤٣) .

(٤) هو زفر بن الحارث الكلابى . الحماسية ٢٨ .

يُذرِى بإرعَاشٍ يَمينَ المُؤتَلِى خُضُمَّةَ الذِّراعِ هَـذَّ المُختَلِى

وقولُه « وإن نحن نازلناهم » فالنِّزال يأتُونَ به ويركبُونَه فى المَضايق حيث لا يَتّسع المجال للخَيْل ، وإذا كان كذلك فالبيت الأوّل من صفة الفُرسان ، والثانى من نَعتِ الرَّجّالةِ . وقوله « رَدَوْا فى سرابيل الحديدِ كَمَا نَرْدِى » ، الرَّدَيَان فى الأصْلِ عَدْو الحمار بين آريِّه ومُتَمَعَّكِهِ ، ولم يَقْصِدْ تفضيلًا لأحد الفريقين على الآخر إمَّا لقَصْدِهِ إلى الإنصاف فى اقتصاص ما يَجْرِى من الأحوال ، وإمّا لأنّ الفرقتين كانتا من أصلٍ واحدٍ جَعَلهُما على سَواء من البَلاء .

١٠ — كَفَى حَزَنًا ألاّ أزالَ أرَى القَنَا يَمُجُّ نَجِيعًا من ذِرَاعِى ومن عَضْدِى

لَكَ أن تَرْفَع « أزَالُ » على أن يكون أنّ مُخَفَّفةً من الثقيلة ، والمُرادُ أنّى لا أزال . ولك أن تَنصبَهُ على أن يكونَ أنْ هى النّاصبة للفِعل . ومَوْضِعُ أنْ لا أزَالَ على الوجهين جميعًا رَفْعٌ بكَفَى . وحَزَنًا انتَصَبَ على التّميز . والمعنى : كَفَى من حَزَنٍ أنّى لا أزال أرى الرِّماحَ تَصُبُّ دَمًا من ذِراعى ومن عَضْدِى ، أى مِن قَومٍ بهم أبْطِشُ وأعتَزُّ ، فهُمْ منِّى بمنزلة الذِّراع والعَضُد . وهذا فى الاستعارة لمَنْ يَقْوَى به الرّجُلُ ويَعتَضِدُ أبلَغُ وأشبَع وإنْ تَساوَتْ الطريقتان — من قول الآخر(١) :

فإنْ أكُ قَدْ بَرَدتُ بِهِمْ غَلِيلِى فَلَمْ أقطَعْ بِهِمْ إلّا بَنَـانِى

وقد قيل « أخُ الرَّجُلِ عَضُدُه » . والمَجُ : إخراجُ المـاء من الفم ، وتوسَّعُوا فقالوا للمَطَر : هو مُجَاجُ السَّحابِ . والنَّجيعُ : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّعَ الرَّجُل ، إذا تلطَّخَ به .

١١ — لَعَمْرِى لَئِنْ رُمْتُ الخروجَ عَلَيْهِمِ بِقَيْسٍ عَلَى قَيْسٍ وعَوْفٍ عَلَى سَعْدِ

(١) هو قيس بن زهير . الحماسية ٤٤ ص ٢٠٣ .

١٢ـ وضَيَّعتُ عَمْرًا والرِّبابَ ودارِمًا وعَدْوَانَ وَدٍّ كَيْفَ أَصْبِرُ عن وَدِّ(١)

١٣ـ لَكُنتُ كَمُهْرِيقِ الَّذِى فى سِقَائِهِ لِرَقْرَاقِ آلٍ فَوْقَ رابِيَةٍ صَلْدِ

نَبَّهَ بهذا الكلام على قُرب القَرابةِ بينهم ، وتأكُّد الالتحام فيهم ، وأنّ تَمازُجَ الأنساب ، وتواشُجَ الأسباب ، يُوجِبان أنّ طوائفَ هؤلاء الجوع كطوائف تلك ، فإنْ أخذ يطلبُ الخروج عليهم ، والنِّكاية فيهم ، احتاج أن يخرُج بقيسٍ على قيس ، وبسَعْدٍ على سعد ، لأنّ عوفًا هو ابن سعد . واحتاج أن يُراغِمَ عَمْرًا والرِّبابَ ودارِمًا وَوَدًّا ، وأن يضيِّع حظوظَهم وحقوقَهم ، ويُفيتَ نفسَه وذَوِيه مأمولَ الخيرِ من جهتهم ، والتكثُّرَ والتعزُّز بمكانهم ، وذلك أيسرُ نتائج التَّقاطع والتدابر ، والتنازُع والتنابذ ، والتجاذُب والتحارُب ؛ هذا إلى ما فيه من مجانَبةِ الرَّشاد ، والتباعُد فى طُرق الضلال والفَساد . وقوله « كيف أصبرُ عن وَدٍّ » هو الذى يُسمِّيه النُّقّادُ والبُصَراء بصنعةِ الشِّعرِ وتمييز البديع فيه « الالتفات » . كأنه لمّا ذَكر وَدًّا والخلافَ عليه ، ونفْضَ اليدِ مما يجمعه وإيّاه ، وكشْفَ الرَّأسِ بالمُماداةِ معه ، رَقَّ للرَّحِم قلبُه ، وضاق بالحال المتصوَّرةِ صدرُه ، والتفَتَ إلى من بحضرتِه فقال : كيف يكون صبرى عن مِثلِه . ثم أخذ يمثل نفسَه فيما يأتيه ، ويصوِّر نفسه إن أخذ فيه ، فقال : لَعَمْرِى إنّ صورتى إذا ركبتُ هذه الخُطّةَ مَعَهم ، ومَثَلى فيما أختارُه من مُفاسَدةِ الأقارب مع هذا التحقُّق والتَّدانى ، والاستنامة إلى آمالٍ متخيَّلةٍ فى الأجانب ، مَثَلُ رجل قد أعَدَّ ماءً فَمِه لوقتِ حاجتِه ، وهو فى مَفازةٍ متنائيةِ الأرجاء ، فترقرقَ له السَّراب من مكان يُتَوصَّل إليه بمشقَّةٍ تتكلَّف ، وزيادةِ تعبٍ تُتجشَّم ، فَصَبَّ ما قد استَصْحَبَه من الماء ، وتيقَّن النَّجاةَ به ، اغترارًا بما تَراءى له وتَظَنّاه ، وهو لا يَدرى هل يقدِرُ على الوصول إليه ، وإذا جاءه هل يجد له حقيقةً أوْ لا .

(١) رواية التبريزى : « وعمرو بن أد كيف أصبر عن أد » .

وقد ضَرب الله المَثل بالسَّراب لأعمال الكُفَّار واغترارهم بها فقال : ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُه الظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يَجِدْهُ شيئاً[1] ﴾ . والرابيَةُ : المكان المرتفع . والصَّلْد : الصُّلب الذى لا يُنبِتُ شيئاً . والرَّقْراق : ما ترَقرَقَ[2] فيما يَتَخيَّل للعين ولَمَع ، ويوصَفُ به الدَّمعُ والماء والجارية الرائقة . يدُلّ على ذلك قولُه :

* رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدَا *

ولامرئ القَيْس يصف الدمع :

* أو الدُّرِّ رَقْراقُه المُنْحَدِرْ[3] *

وقوله « لَكُنتُ كمُهْرِيق الذى » جواب القَسَم ، وبعضُهم رواه : « فكُنتُ كمُهْرِيقِ » وعلى هذا يكون الجواب محذوفاً . وقد حَمَلَ الكلام على المعنى لظُهورِ المراد منه دون اللَّفظ ، والأوّل أكشَفُ .

١٤ ـ كمُرْضِعَةٍ أوْلادَ أُخْرَى وضَيَّعَتْ   بَنِى بَطْنِها هذا الضَّلاَلُ عن القَصْدِ

يجوز أن يكونَ المُرْضِعةُ امرأةً فعَلَت ذلك فضُرِبَ المثلُ بهذا ، ويَشهدُ لذلك قولُ الآخر[4] :

كمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخرى وضَيَّعَت   بَنِيها فلم تَرْقَعْ بذلك مَرْقَعَا[5]

ويقال : النَّعامُ تفعل ذلك لسوء هدايتها ، فتترُكُ الواحدةُ منها بيضَ نفسِها

---

(١) وردت « يحسبه » فى نسخة الأصل و ل ، على قراءة كسر السين . وكسر السين فى هذا المضارع لغة أهل الحجاز ، وفتحها لغة تميم . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين حيث وقعت فى المصحف ، وقرأ باقى السبعة بكسرها . تفسير أبى حيان (٢ : ٣٢٨) .

(٢) كذا فى التيمورية . وفى سائر النسخ : « ترقق » وكتب إزاءها فى ل « ترقرق » .

(٣) صدره :   * فأسبل دمعى كفض الجمان *

(٤) هو ابن جذل الطعان الكنانى ، كما فى الحيوان (١ : ١٩٧) وحماسة البحترى ١٧٠ .

(٥) فى ثمار القلوب ٣١٣ : « فلم تحسن بما فعلت صنعا » .

وتَسُومُ فى المَرعَى ، فإذا أرادت العَودَ إليها لم تهتد ، فتجثِمُ على بيض غيرِها . ويَشهد لهذا الوجه قولُ الآخر[1] :

فإنّى وتَرْكِى نَدَى الأكرَمِينَ ... وقَدْحِى بكَفّىَ زَندًا شَحَاحَا

كتارِكةٍ بَيْضَها بالعَـــرَاء ... ومُلبِسَةٍ بَيضَ أخرَى جَنَاحا

وقوله « هذا الضَّلالُ عن القصد » يَجرِى مجرى قوله « كيف أصْبِرُ عن وَدْ[2] » ، فى أنه من باب الالتفات . ومثالهما قول جرير :

مَتَى كان الخِيَامُ بذِى طُلُوحٍ ... سُقِيتِ الغَيْثَ أيّتُها الخِيَامُ

والشاعر لم يُقدمه التشبيه الأولُ ولم يكتَفِ به ، لأنّ الثانى أدلُّ على الحال فيما يرومُ تصويرَه ، وأشبَهُ بقصّتِه إذا فعل فَعلتَه . والقَصْد : الطريق المستقيم ، وهو المقصود .

١٥ ـ فأوصِيكُمَا يا ابْنَىْ نِزَارٍ فتابِعَا ... وَصِيَّةَ مُفْضِى النُّصْحِ والصِّدْقِ والوُدِّ

١٦ ـ فلا تَعلَمَنّ الحَرْبَ فى الهامِ هَامَتِى ... ولا ترْمِيا بالنَّبلِ ويْحَكُمَا بَعْدِى[3]

جَعلَ وَصَاتَهُ شاملةً لقبائل ربيعةَ ومُضَر ، وهما ابنا نزار بن مَعَدّ ، فيقول : أبْذُل نُصْحِى لكم ، وأبسطُ وصيّتِى إيّاكم فيكم ، فتابعوها واعملوا بحسَبِها ، فإنّها ممحوضَةٌ لكم عن قَلْبِ رجلٍ سليمِ الغَيبِ ، نقِيّ الجَيْب ، صائبِ الرّأى ، صادِق الوُدّ . وقولُه « مُفْضِى النُّصْح » أى واصِلٍ نُصْحُهُ إليكم ، وصائر فى فَضَاء وسَعَةٍ . والمعنى انكشافُه وخُلوصُه . وفى القرآن : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ . وقولُه « فلا تعلَمَنّ الحَرْبَ فى الهام هَامَتِى » هذا صريحُ الوصيّة

---

(١) هو ابن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) . وانظر ثمار القلوب ٣٥٣ والدميرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .

(٢) فى البيت ١١ من هذه الحماسة .

(٣) ويروى : « فَلَا تُعْلِمُنّ الحربَ » ، كما أشار التبريزى .

التى دعا إليها ، وسامَهم ارتسامَها وحِفظَها . وجعلَ النَّهىَ لهامته ، والمُخاطَبون هم المنهيُّون ، فهو كقولك : لا أرينَّك هاهنا ، والمُراد : لا تكن هاهنا فأراك . وتحقيق قوله « فلا تَعلَمَنّ الحربَ فى الهام هامَتى » : لا تتحاربوا بعدِى فتعلمَ هامتِى بين الهام الحربَ بينَكُم ، أى عليكم بالتَّواصُل والتَّعاضُد ، وإيَّاكم والتقاطُعَ والتَّدابر ، فإنَّ ذلك يؤدِّى ضَعفَكم ، واجتراء الخصم عليكم ، إن لم يُؤدِّ إلى التَّفانى والتَّهالُك . وكانت العرب تقول : إن عِظامَ الموتَى تَصيرُ هاماً فتطيرُ وتتنسَّم أخبار الأحياء . وقوله «ولا ترْمِيَا بالنَّبلِ وبحكُما بعْدِى» ، يقول : دعوا التَّفاخُر والتنافُر ، والتَّجاذُب والتَّحارُب ، فإنّ ذلك من آكدِ أسباب التَّقالى والتهاجُر . وهم يجعلون المُناضَلة مَثَلًا للمُفاخرةِ ، على هذا قولُ لبيد :

فانتَضَلْنَا وابنُ سَلْمَى قاعِدٌ كعَتِيقِ الطَّيرِ يُغْضِى ويُجَلّْ

ثم قال :

فرَمَيْتُ القَوْمَ رِشْقًا صائبًا لَيْسَ بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعَلْ

١٧ــ أَمَا ترْهَبانِ النَّارَ فى ابْنَىْ أبيكما ولا ترْجُوانِ اللهَ فى جَنَّةِ الخُلْدِ

١٨ــ فمَا تُرْبُ أثْرَى لو جَمَعْتَ تُرابَهَا بأكْثَرَ من ابْنَىْ نِزارٍ على العَدّْ

١٩ــ هُمَا كَنَفَا الأرضِ اللَّذا لو تزَعْزَعَا تزَعْزَعَ ما بيْنَ الجُنوبِ إلى السَّدّْ

ذكَّرهم بما فى صلة الرَّحِم من الأجرِ ، وبما فى قطيعته من الإثم ، فأخذ يُرغِّبُهم ويُحذِّرُهم ، فيقولُ : أمَا تخافُونَ أن يحِقَّ عليكم العَذابُ إذا استهنتُم بالوعيدِ الوارد فى القَطيعة واستعمالِ البَغى ، وتعَرَّضْتُم لسَخَطِ الله عزّوجلّ فى تجاوُزِ مأمورِه ، وأما ترْجُونَ أن يحلّ الثَّوابُ الكريم فى الصِّلَةِ واستعطاف

أولى المحارمِ والقُرْبَةِ[(١)] ، إذا رَعَيتُمْ أمرَه ، والتزمتم حتمَهُ ، واستنجزتُم مَوعودَه . وإنّما أخرجَ الخطابَ بلفظ التثنية ، وإن كان الوعظُ مُتوجِّها إلى جميعهم ، لأنّه قال « فأُوصيكُما يا ابْنَىْ نِزارٍ » .

وقولُه « فما تُرْبُ أثْرَى » أثرى والثَّرَى يُجملان اسمين للأرضِ ، إلّا أنّ أثرَى جُعِل كالعلَمِ لها ، ولذلك لم يُصْرَف . والثَّرَى : النَّدَى . وفى المَثَل « التقَى الثَّرَيانِ » . وفُسِّرَ قوله « وما تحت الثَّرَى » على ما تحت الأرض . ويُقال : ثَرَى ثَرِىٌّ ، فيُرادُ به التُّراب النَدِىُّ . وفى الاستكثار قيل : هم أكثرُ من الثَّرَى . والشّاعر وَصفَ ابنَىْ نِزارٍ بالكثرة ، لأنّ فيها العزّ والغَلبة ، ثم لم يَرْضَ بذلك حتّى قال « هُما كَنَفَا الأرض » . ومعنى « لو جَمَعْتَ تُرَابَهَا » لو أحطتَ علماً به وضَبطتَه . ومعنى « بأكثَرَ منْ ابنَىْ نِزَارٍ على العَدّ » بأكثر منهما معدودَين ؛ فوضِع على العَدّ موضع الحال . وقَطَع همزةَ ابنَىْ نزارٍ ضرورةً ، كما قال الآخر[(٢)] :

إذَا جاوز الاثْنَيْنِ سِرٌّ فإنّهُ [بنَثٍّ وإكثار الوُشاةِ قَمِينُ][(٣)]

ويركبون هذه الضَّرورةَ فى الأكثر الأعمِّ إذا كانت الألفُ فى اسمٍ ، وذلك أنّ ألِفات الوصل بابُها الأفعال دون الأسماء حتّى يُمكِنُ حَصْرُها[(٤)] إذا لم تكن فى مصدرٍ ، فإذا كان كذلك فالمعتادُ فى ألِفات الأسماء القطع ، فعلَى ذلك يُستحسَنُ قَطعها فيها ، وإن كانت فى الوصل للضَّرورة .

وقوله « هما كَنَفَا الأرض » فالكَنَفُ : الجانبُ والنّاحيةُ . ومنه تكَنّفَهُ بَنُو فلانٍ . والمعنى أنّهم مُحدِقون بالأرض . وقولُه « اللّذَا لو تَزَعْزَعَا » حذف

---

(١) القربة ، بضم وبضمتين : القرابة ، ومثلها القرب والقربى .

(٢) هو قيس بن الخطيم . ديوانه ص ٢٨ . واللسان (نثث) .

(٣) التكملة من ل . وبدلها فى التيمورية كلمة : « البيت » . وفى الديوان : وتكثير الحديث » ، وفى اللسان : « وتكثير الوشاة » .

(٤) أى يمكن حصر ألفات الوصل فى الأسماء ، وهى الأسماء العشرة .

النون استطالةً للاسم بصلته . وعلى هذا قولُه :

أَبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا   قَتَلاَ المُلُوكَ وفَكَّكَا الأغلالا(١)

والزَّعْزعةُ : التحريك ، ومنها ريحٌ زعْزاعٌ . وقولُه « ما بين الجَنُوبِ إلى السُّدِّ » يريدُ ما بين مَهَبِّ الجَنُوبِ إلى سدِّ يأجوج . ويقال سَدٌّ وسُدٌّ لُغتان ، وقيل السَّدُّ ما يفعله الآدميون ، والسُّدُّ بالضم مالا صُنْعَ للآدمى فيه . ومُراد الشّاعر أن مِسَاكَ الأرض وجوانبها بابْنَىْ نزارٍ ، فإن تزعزعا تزلزلت الأرض . وهذا الكلامُ نهايةٌ فى بابه .

٢٠ - وإنِّى وإن عَادَيْتُهُمْ وجَفَوْتُهُمْ   لتَأْلَمُ مما عَضَّ أكبادَهم كَبْدِي

٢١ - لأنَّ أَبِي عِنْدَ الحفاظِ أبُوهُمُ   وخَالُهُمُ خَالِي وجَدُّهُمُ جَدِّي

يقولُ : أنا وإن كنتُ متنكِّرًا لهم مُستجفِيًا ، وجافيًا مَعَهم معاديًا ، ومتحامِلاً عليهم مَناصِبًا ، فللعلائق الجامعة بينى وبينهم ، والأواصرِ العاطفةِ ضميرى عليهم ، ولأنّى أرى أطرافى من السَّبَب والنَّسب تظأَرُنى وتأبَى إلَّا التَّحنُّن لهم ، وتضُمّنى فتمنع من الانحراف عنهم — يَسوؤُنى ما يَسُوؤُهم ، وأشتكى لشكواهم ، وأتألَّم مما يؤالمُهم ، وبحسب ذلك أختارُ لهم ما أختارُه لنفسى ، وأريد بهم ما أريدُ بمن لا يَتميّزُ عنّى ، فذلك هو الذى يَدعُونى إلى استصلاحِهم ، والوَصاةِ بما يُؤدّى إلى مصالحِهم ، فِعْلَ الأمَسِّ رُحْمَةً ، والأخَصِّ نُسبَةً . وكيف لا أكون كذلك ، وإذا حافَظْنا الحقوق ، وراعَينا الوسائل والحظوظ(٢) تَنَاسَقَتِ الأبُوّة بيننا والأمومة ، وتلاحَظت البُنُوّة والأخُوّة .

---

(١) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤ والخزانة (٢ : ٤٩٩ – ٥٠١) . وقد ذكر فى الخزانة خلافاً شديداً فى تعيين اسمى عميه .

(٢) فى الأصل : « والخصوص » ، صوابه فى سائر النسخ .

٢٥٠

وقالت عاتكةُ بنتُ عبد المطَّلِب[1] :

١ – سائلْ بنا فى قَوْمِنا وليَكْفِ من شَرٍّ سَماعُهْ[2]

٢ – قَيْسًا وما جَمَعوا لنا فى مَجْمعٍ باقٍ شَنَاعُهْ

هذه الأبيات تناسب ما قبلها وتؤدِّى إلى مِثْل مؤدّاها، لذلك قالت « سائلْ بنا فى قومنا» لأنّ ما تألَّمَتْ منه كان فى عشيرتها وذويها، وكأنّ الخَطْبَ كان عظيما، والشرّ كان مُستفحِلاً شديدًا، فأخذت تَبعث على التَّسآلِ[3] عنهم فى قومِهم، إذ كان البلاء لم يَعْدُهم. ويجوز أن يُريد: سائلْ بنا وعن حالِنا فيما بين قومِنا، كأنه يَدَّعِى أنّ لهم شأنًا فى قومهم ليس لغيرهم. وقولها « وليكْف من شرٍّ سماعُه» توجُّعٌ مما نالهم، واستفظاعٌ لما أجْرَوا إليه فيما أداروا أنفسَهم عليه[4]. وظاهِر لفظ الأمر للسَّماع، وهو فى الحقيقة للمخاطَب، لأنّ المراد: وا كْتَفِ إذا

---

(١) هى عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، اختلف فى إسلامها . الإصابة ٦٩٥ من قسم النساء .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : لما قتل البراض بن قيس عروة بن عتبة الجعفرى كانت قريش بعكاظ ، فاحتملوا نحو مكة ، وأتى هوازن قتل البراض عروة فأتبعوهم فأدركوهم بنخلة ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وجن عليهم الليل ، فكفت عنهم هوازن ، فقال خداش ابن زهير :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

والنبى فى ذلك الوقت عشرون سنة ولأبى طالب ستون سنة ، فقال البراض فى ذلك :

نقمت على المرء الكلابى فخره وكنت قديماً لا أقر نخارا

علوت بنصل السيف قلة رأسه فأسمع أهل الواديين جؤارا

والإشارة بعكاظ فى البيت الرابع إلى ما كان فى أيام الفجار الآخر وكلها فى عكاظ أو فى مواضع قريبة منها . وكان مصرع عروة فى أيام الفجار الآخر . انظر العقد (٥ : ٢٤٥) ، والأغانى (١٩ : ٧٥) .

(٣) هذا ما فى ل ، م والتيمورية . وفى الأصل : « التسائل » .

(٤) أداروا ، بتقديم الدال ، كما فى جميع الأصول . وقد سبق نحوه فى ص ٤٥ .

سألتَ من الشرّ بالسّماع دون العِيان ، فهو فى باب الأمر — أعْنِى ليَكْفِ — كقولهم فى باب النّهْى : لا أرَيَنَّكَ هاهنا ، إذ كان المراد : لا تكن ها هنا فأراك . فإن قيل : لِمَ نَكَّر قولَه من شرٍّ ، والذى يومئُ إليه يجب أن يكون معروفًا مشهورًا ؟ قلت : إنّ فائدة المُنَكَّرِ مثل فائدة المعرّف فى مثل هذا المكان ، ألا تَرَى أنّكَ تقول: فلانٌ يَلبسُ خَزًّا وقَزًّا ، والخزّ والقزّ ، فلا يختلف المفهوم منهما ؟ وقوله « قَيْسًا وما جَمَعُوا لنا » انتصَب قيسًا على إضمار فِعلٍ ، كأنه قال : سائل قيسًا والجيش الذى جَمَعوه لنا فى مَخْزِل أخبارُه تُتحمّل وتُنشَر على مَرِّ الأحقاب والأيّام ، وشناعتُه تُستفظَع وتُذكر فى المَشاهِد والأقوام . والشَّنَعُ والشَّناعةُ والشَّناع والشُّنُوع : قُبْح الشيء الذى يطيرُ خبرُه ويَعْلو . ومنه شَنَعَ النَّجْمُ ، إذا ارتفَع فى السماء . والشِّنَاعُ : الناقة الخفيفة . وتشنَّعَت : تَشمَّرت فى السَّير وجَدَّت . وإنما قالت « وما جَمَعوا لنا » لأنها أشارت بما إلى الجِنْس . ويجوز أن تريد : والذى جَمَعوا من أنواع المَلَامات والجرائم . وإذا فَسَدَ ذاتُ البَيْن من قومٍ أخَذوا يَتجرّمون ويعدِّدون ما لا يكونُ جِنايةً جِناية .

٣ — فيه السَّنَوّرُ والقَنَا والكَبْشُ مُلْتَمِعًا قِناعُهْ[1]

أشار بقوله « فيه السَّنَوّر » إلى ما اشتمل عليه ذلك المَشهدُ من العَدَد والعُدّة . وموضع « فيه السَّنَوّر » من الإعراب جَرٌّ على أنه صفةٌ لَمجْمَع . والمراد بالسَّنَوّر والقنا والكَبْش أجناسُها . والسَّنَوّر : الدِّرع ، وقيل هو جماعة الأسلحة والكَبْش : الرئيس . ومعنى « مُلتمِعًا قِناعُه » بارِقًا ، أى عليهم البِيضُ . وانتَصَب ملتمِعًا على الحال . ويجوز أن يُنْوَى الاستئنافُ بقولِه « والكَبْشُ » ، وحينئذ يُرْوَى « ملتمِعٌ » بالرَّفع ، فيكونُ خبرًا عنه ، وموضع الجُملة يكونُ

(١) م والتبريزى : « ملتمع » ، وهما روايتان .

نَصْبًا على الحال ، وقد سُمِّيت البيضةُ يَلْمَعًا لبريقِهِ[١] ، كما سُمِّى السَّرابُ يَلْمَعًا . وفى المثل السائر « أَكْذَبُ مَن يَلْمَع » .

٤ ــ بِعُكَاظَ يُعْشِى الناظِريـــنَ إذا هُمُ لَمَحُوا شُعَاعُهْ

٥ ــ فيـــه قَتَلْنا مالِـكًا قَسْرًا وأَسْلَمَـهُ رَعَاعُهْ

٦ ــ ومُجَــدَّلاً غادَرْنَهُ بالقاعِ تَنْهَسُهُ ضِبَاعُـهْ

قوله « بعُكَاظَ » الباء منه تَعَلَّقَ بقولِهِ فى مُجْمَعٍ ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمُلتمِعًا . وشُعاعُه يرتَفِع بيُعْشِى ، والضميرُ منهُ يجوز أن يعودَ إلى عُكاظَ لـكونِ الشُّعاع به ، ويجوز أن يعودَ إلى القِناع لأنَّ اللمعانَ له . ويقالُ أَشْعَّت الشمسُ ، أى انتَشَر شُعاعُها . ويقالُ لَمَحَهُ ببَصَرِه ولَمَحَ البصرُ ، ولَمَحَ البَرْقُ ، وبرقٌ لَمَّاحٌ . وقولها « فيه قَتَلنا مالِـكًا » الضميرُ يعود إلى المَجْمَع ، ويجوز أن يعودَ إلى عُـكَاظ . ومعنى قَتَلناه قَسْرًا ، أى قَصْدًا ، لا اتِّفاقًا . والقَسْرُ : القَهر على كُرْهٍ . ويقالُ قَسَرْتُه واقتسرتُه . وقولها « وأَسْلَمَهُ رَعاعُه » ، إشارةٌ إلى لفائفَ انضمُّوا إليه فخذَلوه ولم يَفُوا له . والرَّعاعُ : سَفِلَةُ الناس وسُقَّاطُهم . وقال الخليل : الرَّعَاعَةُ : الرَّجُل الذى لا فؤادَ له ، ومنه رَعَاعُ الناس . و « مُجَدَّلاً » انتَصَب بفعلٍ ما بعدَه تفسيرُه ، كأنّه قال : وغادَرْنَ مُجَدَّلاً غادَرْنَه . والضميرُ فى الفِعْل للخَيْل . والمُجَدَّل : المصروع على الجَدَالةِ ، وهى الأرض . والقاعُ : المُستوِى من الأرض . وموضع « تَنْهَسُه » نَصْب على الحال ، والعامل فيه غادَرن . والنَّهْس : أَخْذُ الشىء بمقدَّم فيك . ويُرْوَى : « تَنْهَشُه » بالشين معجمةً . وكان الأصمعىُّ يقول : النَّهْسُ والنَّهش سواء ، وهو أَخْذ اللَّحم بالفمِ . وخالفه

(١) كذا فى جميع النسخ ، أى لبريق البيض .

أبو زَيدٍ فقال : النَّهس بالسّين أخذُكَ الشىء بمقدَّم فيكَ . والضميرُ فى قولِهِ « ضباعُه » يعودُ إلى القاع .

٢٥١

وقال عبد القَيْس بن خُفَاف(١)

أحد بنى حنظلة بن مالك ، البُرجُمىّ(٢) :

١ — صَحَوْتُ وزايَلَنِى باطِلِى لَعَمْرُ أبيكَ زِيالاً طَوِيلاً

يقولُ : وبَقاءِ أبيكَ لقد أفقتُ من سُكْرِ البَطَالةِ ، وفارقَنى ما كنتُ أتعاطاه من الصِّبا والجَهالة ، فِراقاً ممتدًّا لا ينقطع بمُعاوَدةٍ تَعرِضُ دُونَه ، أو بمواصلةٍ تُبطلُه وتُزيلُه . فإن قيل : كيف وَصَفَ الزِّيالَ بالطُّول ؟ قلتَ : الطول فى الحقيقة لوقتِ الزِّيال لا لَهُ ، لـكنَّهُ وصَفه به على طريق التوسُّع . وهم يستعملون الطُّولَ والعَرض على ضَرْبين : أحدهما فى المُجَسَّمات ، وذلك وصْفٌ لذهابها فى الجهتين . والثانى أن يرادَ بهما الاتساع للشىء ، أو امتدادُ الوقتِ به . وهذا الوجه قد يُستعمل فى المُجسَّم وغير المُجَسم . وأكثرُ ما يُستعمل منه العَرض من دون الطُّول . على هذا قولُهم : نِعمةٌ عريضةٌ وجاهٌ عريض(٣) . وقال الله تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّموَاتُ والأَرْضُ﴾ وقال : ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ . وربما جمعوا

---

(١) شاعر جاهلى من شعراء المفضليات ، قال أبو الفرج فى الأغانى (٧ : ١٤٥) : « وأما عبد قيس بن خفاف البرجمى فإنى لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرنى به جعفر بن قدامة » ، فذكر قصة فى أنه حمل دماء عن قومه فأسلموه فيها ، وأنه أتى حاتماً الطائى ومدحه ، فحملها عنه . انظر للقصة أيضاً أمالى القالى (٣ : ٢١) ، وقد أشار إليها المرزبانى فى معجمه ٣٢٥ .

(٢) البرجمى : نسبة إلى البراجم ، وهم خمسة من أولاد حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم : عمرو ، وقيس ، وغالب ، وكلفة ، وظليم ، وتحالفوا على أن يكونوا كبراجم الأصابع فى الاجتماع . والبراجم : ما ينشز من الأصابع إذا قبضت اليد .

(٣) الأبيات هى المفضلية رقم ١١٧ .

بينهما فقد قالوا : عِشْنا زَمناً طويلاً عريضاً . والدَّهرُ العريضُ الطويلُ ، يراد به الـكمالُ والاتساع ، وقد قال كُثيِّر :

بِطَاحِيٌّ له نَسَبٌ مُصَفًّى وأَخلاقٌ لها عَرْضٌ وطُولُ

فهذا على التَّشبيه بالمُجسَّمات ، والقَصْدُ إلى السعة ، لأنَّ الأخلاقَ تُوصَفُ بالسَّعَةِ والضِّيق . وقد عِيبَ على أبى تَمّام قولُه :

* بِيَوْمٍ كَطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْضِ مِثْلِهِ [1] *

وقيل جَعَلَ للزَّمانِ عَرْضاً مع أنه لا حاجَةَ به إليه ، إذْ كانَ بِذِكْرِ الطول قد استوفَى المعنى المقصود . وهـذا من قائله ظلمٌ صريحٌ لأنه سَلَكَ مثلَ طريقةِ كُثَيِّرٍ من التَّشبيه بالمُجسَّم ، فـكما قال فى الأخلاق لها عرضٌ وطولٌ ، كذلك قال فى الزَّمان لَهُ طُولٌ كذا فى عَرْضِ مِثْلِهِ ، ولا فَصْل . وقوله « وزَايَلَنِى بَاطِلِى » قال سيبويه : يقال زايلْتُ بمعنى بارَحْتُ ، ومنه قولهم ما زالَ يفعل كذا ، لأنَّ معناهُ ما بَرِحَ ، ويقالُ زالَ الشىء من الشىء يَزِيله زَيْلاً ، إذا مَازَهُ منه ، وزالَ الشىء يَزُولُ زَوَالاً ، إذا فارَقَ . وجوَاب القَسَم مُقدَّمٌ عَلَيْهِ .

٢ — وَأَصْبَحْتُ لا نَزِقًا لِلّحاء ولا لِلْخُرومِ صَدِيقِى أَكُولَا [2]

٣ — ولا سَابِئِى كَاشِحٌ نَازِحٌ بِذَحْلٍ إذا ما طَلَبْتُ الذُّحُولَا

أجْرَى أَصْبَحْتُ مُجْرَى صِرْتُ . والنَّزِقُ : الطَّيَّاشُ الخفيف العقل . ويقال نزِقَ يَنْزَقُ نَزَقاً ، ومنه نَزَّقْتُ الفرَسَ ، إذا ضَرَبْتَهُ حتى يَنْزَق . واللِّحاء : المشاتَمَةُ . يقول : استَبْدَلْتُ من الخِفَّةِ وقَاراً ؛ ومن العجلة أناة وسُكوناً ، فلا يستخِفُّنى النَّزَقُ لِمُلاحاة الرجال ، وثَلْبِ أعراض الأصدقاء بالاغتياب . ويقال

(١) من قصيدة له فى ديوانه ٢٤٤ يمدح بها أبا المستهل الطائى . وعجزه :

* ووجدى من هذا وهذاك أطول *

(٢) المفضليات : « لا نزقا باللحاء » .

للمُغْتَاب : هو أكُولٌ لِلحُوم النَّاس ، كالسَّبُع الضَّارى . ولِلنَّمَّام : هو أضْرَبُ من مَشَى بشَفَةٍ ، من قوله عزّ وجلّ : ﴿ مَشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ . وفى القرآن : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ . وقوله « صديق » أراد به الكثرة لا الواحد .

وقولُه « ولا سَابِقِى كاشِحٌ نَازِحٌ » فالكاشِحُ : العدوُّ الباطِنُ العَداوة . والنازح : البعيد الدّار أو النَّسَب . وفى البيت يحتمل الوجهين . يقول : إذا سعيتُ فى طلب إصابةِ الأوتار ، لم يَفُتْنى العدوُّ البعيد الدار ، لأنّ المسافات لا تمنعنى عن الطَّلَبِ وإن شَقّت وثَقُلَتْ .

٤ــ وَأَصْبَحْتُ أَعْدَدتُ لِلنَّائباتِ عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلَا

٥ــ وَوَقْعَ لِسَانٍ كَحَدِّ السِّنانِ ورُمْحًا طويلَ القَنَاةِ عَسُولَا[1]

يقولُ : وصِرتُ كما استنكفت[2] من مَسَاوِى الأخلاقِ ، وأخذتُ أتعطّف على مكارِمِها ، أعددتُ أيضاً لحوادث الدّهر نَفْسًا نَقيّةً من الدَّنيّات ، رافضة المُنكَراتِ ، وسَيفًا قاطعًا مصقولًا . كأنّهُ فى وقت مساعَدَةِ الأحوالِ له وإقبالِ الزّمان عليه ، يَعلَمُ أنّ المقدورَ كما يُعْطِى يرتَجِعُ ، فيَسعَى فيما تَسلَمُ معه النَّفس ويَطِيبُ به النَّشر . وإنّما قَرَنَ بذِكْرِ العِرضِ المُعَدِّ أسلحتَهُ ليُرِىَ اكتفاءه بها إذا نابَتِ النائبات ، كما قال غيرُه[3] :

فلمّا نَأَتْ عَنَّا العشيرَةُ كُلُّها أنَخْنا فحالَفْنا السُّيُوفَ على الدَّهْرِ

فَمَا أَسْلَمَتْنا عند يومِ كريهةٍ ولا نَحْنُ أغْضَيْنا الجُفُونَ على وِتْرِ

وقولُه « ووقعَ لِسَانٍ » يجوز أن يكونَ من وقَعْتُ الحديدةَ بالمِطْرقةِ ، إذا

(١) ابن جنى فى التنبيه : « فى هذا دلالة على أن القناة غير الرمح » .

(٢) فى الأصل : « استنكف » والوجه ما أثبتنا من ل ، م والتيمورية .

(٣) هو يحيى بن منصور الحنفى ، فى الحماسية ١٠٨ ص ٣٢٦ .

ضَربتَها؛ ومنه حافِرٌ وَقِيعٌ، إذا أثَّرَت فيه الحجارة. ويجوز أن يكُونَ من وَقَعْتُ بهم وأوْقَعْت؛ ومنه وقَعاتُ الدَّهرِ ووقائعُه. يقولُ: وأعددتُ لها لِسانًا مؤثِّرًا تأثيرًا شديدًا، إذا اغترَزَ فى رِكاب القوْلِ نافذاً حديداً، نَفاذَ السِّنانِ. وهذا كما قال:

ولِسانًا صَيْرَفِيًّا صارِمًا كحُسامِ السَّيْفِ ما مَسَّ قَطَعْ[1]

وقد قيل: «المَرْءُ بأصغَرَيْهِ قلبِهِ ولسانِهِ». وإذا تَنَقَّت الأعراضُ طالت الألسنةُ. وكانت الشُّعراء والخطباء عُدَّةً للقبائل كالرِّجال والأموال، بل كان الانتفاع بمكانِهِم، والدِّفاعُ بألسنتهم أتمَّ وأكمل. وقوله «ورُمْحًا» أى وأعددتُ رُمحًا، وجعَلَه طويلَ الخَشَبَةِ لأنَّ مُستعمِلَه طويلاً أفرَسُ. والعَسُول: الشديدُ الاهتزاز؛ ومنه عَسَلانُ الذِّئب، وقولهم: عَسَلَ الدَّليلُ فى الطَّريق.

٧ — وسابِغَةً من جِيَادِ الدُّرُوعِ تَسْمَعُ للسيفِ فيها صَلِيلاَ

٨ — كمَتْنِ الغَدِيرِ زَهَتْهُ الدَّبُورُ يَجُرُّ المُدَجَّجَ منها فُضُولاَ[2]

يقول: وأعددتُ لها أيضاً دِرعًا واسعةً من خيْرِ أجناسِها، يَنْبُو عنها السيف فلا يَعملُ فيها، لاستحكامِها وجَوْدةِ سَرْدِها، إلاّ ما تَسمَعُ من صليلها عند إصابتِها به، صافيةً كأنها صَفحةُ الماءِ من غَديرٍ هَبّت عليه ريحُ الدَّبُور، فحرَّكتْهُ واستخَفَّته، فصار على ظواهِرِه حَبَابٌ يتدافَع. وإذا لَبِسها المتدجِّجُ فى السِّلاح، المستعدُّ للكِفاح، فَضَلَ عنه منها فواضِلُ يُجَرِّرُها. وهذا كما قال الآخر[3]:

* تُغَشِّى بَنَانَ المَرْءِ والكَفَّ والقَدَمْ[4] *

---

(١) البيت لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضلية ١٩٩.

(٢) رواية المفضليات: «زفته» بمعنى طردته ودفعته.

(٣) هو راشد بن شهاب اليشكرى فى المفضلية رقم ٨٦.

(٤) صدره: * مضاعفة جدلاء أو حطمية *

والقَصْدُ فى هذا إلى صفةِ الدِّرع وجودتِها . ولو قَصَدَ مَدْحَ لابِسِها لكان يجعلها صِدَارًا أو بَدَنة . على أن كُثَيِّرًا لما أنشد عبد الملك قولَه فيه :

على ابنِ أبى العاصى دِلَاصٌ حَصِينَةٌ أَجادَ المُسَدِّى سَرْدَها وأَذَالَها

قال له : قولُ الأعشى لقيس بن معديكَرِبَ أحسنُ من قولك :

وإذا تَجِىءُ كتيبةٌ ملمومةٌ خَرْساءُ يَخْشَى الذّائدُون نِهالَها

كنتَ المُقَدَّمَ غيرَ لابِسِ جُنَّةٍ بالسيفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبطالَها

فقال كُثَيِّر : يا أمير المؤمنين وصفتُك بالحزْم ، ووصَفَ الأعشى صاحبَه بالخُرْق .

ولقائلٍ أن يقول : إنّ المُبالَغَةَ فى الشِّعر أحسنُ من الاقتصاد ، والأعشى أعطَى المبالغة حَقَّها ، فهو أعذَرُ[1] ، وطريقتُه أَسْلَم .

٢٥٢

وقالت امرأةٌ من بنى عامرٍ[2] :

١ — وحَرْبٍ يَضِجُّ القومُ من نَفَيَانِها ضَجِيجَ الجِمَالِ الجِلَّةِ الدَّبِرَاتِ

انعطَفَ قوله « وحَرْبٍ » على مجرورٍ تَقَدَّمَه ، وليس على إضمار رُبَّ ، بدِلالةِ قولِها « سيَتْرُكُها قومٌ » . كأنّه غَلَب على ظنِّها لما رأت من أمارات الشرِّ بين قومِها باستعمالهم البَغْىَ ، واستيطائهم الظُّلْم ، واستبدالهم بالتَّحابِّ تباغُضًا وبالتَّعاطُف تدابُرًا ، وبالتّناصُر تخاذُلا ، وهم من جُرْثومةٍ واحدةٍ ، أنه سيَحْدُثُ فى مُؤْتنَفِ الأحوال منهم أحداثٌ ، وتَظهر على مرور الأيام لدواعى الهُلْكِ آياتٌ من كذا وكذا ، وحَرْبٍ يتشاكَوْن من اشتمالها لهم ، وتَناوُلِها بالمشارَكةِ مَنْ

(١) كذا فى ل والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « أغرز » ، وفى م : « أعذب » .
(٢) التبريزى : « وقال أبو رياش : هى من بنى قشير » .

عِدَاهم معهم ، وتجاوزُ القُرَباء بعد ذلك إلى البُعَداء فيهم . وهذا المعنى اقتضاه قوله « من نَفَيانِها » لأنّ أصلَهُ أن يُستعمَل فيما يتطاير من القَطْرِ عند سَيَلانِ الماء من أعلَى إلى أسفَل فى جوانبِ المَصَبِّ ، فشَبَّهَ ما يتدافع وينتشِرُ من أذَى الحربِ فى جوانب القومِ به . والجِلَّةُ : المَسَانُّ من الإبِل . وتَعنِى التى مع السِّنّ أضَرَّ بها الكَدُّ ، وجَهَدَها الاستعمال ، وأزْمَنَها الدَّبَرُ ، فقالت : تَضِجُّ العَشِيرةُ لما يقاسُونَه من هذا الحرب ضجيجَ تلك الإبل عند ما تُقاسِى من العمل . وهذا التشبيه الصائب المتناهِى فى الدّلالة على حالة المُشبَّه . وقد قال الراجز فى هذه الطريقة يَصِفُ حَرْبًا :

وأغْشَتِ الناسَ الضَّجاجَ الأضْجَجَا وصاحَ خاشِى شَرِّها وهَجْهَجَا[1]

٢ — سَيَتْرُكُها قَوْمٌ ويَصْلَى بحَرِّهَا بَنُو نِسْوَةٍ للثُّكْلِ مُصْطَبِرَاتِ

نَبَّهَتْ بهذا إلى استفحال الحرب التى تَوَعَّدَت بها وتفاقُمِ الخَطْبِ ، فقالت : تَضجَر بها فِرقةٌ منهم فينفُضُون الأيدىَ منها تفادياً من مُلابستِها ، ويعتزلون عنها طلباً للسَّلامة من عُقباها ، وحَذراً من امتدادِها إلى غايةٍ لا تُمْلَكُ فيها الاستِقالَةُ منها ؛ ويَصبِر فيها أُخرى ، وهم المنهمكون فى إيقاد نارها ، والاصطلاء بحرِّها ، المعنون فى إثارةِ كامِنها ، وإذاعة واقفها[2] ، الذين لا يبالُون بما يفعلونه أو يفعل بهم ، وقد تعوَّدَ الثُّكْلَ أمهاتُهم فلا يَجْزَعْنَ لقتلهم ، وألِفَ الأيِّمةَ نساؤهم فلا يحزنَّ لموتهم . ومعنى « للثُّكْلِ » أى من أجْلِه ، وهذه اللام فى هذا الموضع قد تؤدّى معنى علَى ، فاعلَمْه .

٣ — فإنْ يكُ ظَنِّى صَادِقًا وَهْوَ صَادِقِى بِكُمْ وبأحْلامٍ لَكُمْ صَفِرَاتِ

٤ — تُعِدْ فِيكُم جَزْرَ الجَزُورِ رِمَاحُنَا ويُمْسِكْنَ بالأكْبادِ مُنْكَسِرَاتِ

---

(١) من أرجوزة للعجاج فى ديوانه ص ١٠ .

(٢) كذا فى جميع النسخ . والإذاعة : الإفشاء والإظهار . ويقال أذاع به ، أى ذهب به .

قولُها « فإن يكُ ظنِّى صَادِقًا » يجرى منها مجرى التّحذير والوعيد ، وفيه بعض الاستفاءة ، لأنَّها إذا رهَّبت من القَطيعةِ وآفاتها ، فقد رَغَّبتْ فى الصلةِ وآياتها . وقد تقدَّمَ القولُ فى صادِقًا وصَادِقٍ ، وفى حَذْف النُّون من يكُ فى الجَزْم مشروحا . وقولُها « وبأحْلَام اسكم صَفِرَاتِ » ، أى لا خَيْرَ فيها ، وقد زالت المُسْكَةُ(١) عنها . ويقالُ صَفِرَ الإناء وغيرُه صُفُورًا ، وإناء صِفرٌ وصَفِرٌ . وقال الخليل : هو صَفِرٌ صَحِرٌ على الإتباع ، أى خالٍ . وقولها « تُعِدْ فيكم جَزَرَ الجزور » جواب الجزاء من قولها « فإن يك ظنّى صادقًا » ، كأنها ذكَّرتهم حالة مُنكرة تقدمتْ لهم ، فلذلك قالت : تُعِدْ فيكم . والجَزْر : القَطع . وقيل الجَزُورُ لأنها تُقْطَعُ وتُقْسَم . والجَزَرَةُ : الشاةُ تُذْبح . ويقال . تُرِكَ بَنُو فلانٍ جَزَرَ الرِّماح ، أى قُتِلُوا واجتزرَتْهم السِّباع . وجعل الإعادَةَ للرِّماح على الاتِّساع . وقوله « ويُمَسَّكن بالأكبادِ » يروى بفتح السِّين ، أى يُضْبَطْنَ ؛ ويروى بكسر السِّين : وهو ظاهرُ المعنى . وانتصب « منكسراتِ » على الحال والمُرَاد أنهُمْ يَجُرُّونَ الرُّمْحَ عند الطَّعْنِ ويصيبون المَقاتل .

٢٥٣

وقال مَعْبَد بن عَلْقَمَة(٢) :

١ — غُيِّبْتُ عن قَتْلِ الحُتَاتِ وَلَيتَنى   شَهِدْتُ حُتَاتًا يومَ ضُرِّجَ بالدَّمِ(٣)

---

(١) فى الأصل : « المسئلة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) روى التبريزى هذه الحماسية متقدمة على هذا الموضع ، أى بعد الحماسية ٢٠٥ كما سبق التنبيه فى ص ٦٢٩ . ومعبد بن علقمة ، هو معبد بن أخضر المازنى ، وأخضر زوج أمه فنسب إليه هو وأخوه عباد الذى ندبه عبيد الله بن زياد لقتال الخوارج ، وقد قتل أخوه عباد فى حربهم تلك ، فتقدم للأخذ بثأره فى جماعة من المازنيين ، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً لم ينج منهم إلا عبيدة بن هلال . وفى ذلك يقول معبد بن علقمة .

سأحمى دماء الأخضريين إنه   أبى الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

الكامل ٥٩١ — ٥٩٢ .

(٣) انظر اللآلىء ٤٤٣ . والحتات هذا ، هو الحتات بن يزيد المجاشعى وقد ذكر الجاحظ فى البيان (٢ : ٢٣٧) إلى أن بنى مازن — وهم رهط معبد — هم الذين ضربوه .

٢– وفى الكَفِّ مِنِّى صارِمٌ ذُو حَقِيقةٍ مَتَى ما يُقَدِّمْ فى الضَّرِيبةِ يُقْدِمِ
٣– فيَعْلَمَ حَيًّا مالِكٍ ولَفِيفُها بأَنْ لَسْتُ عن قَتْلِ الحُتَاتِ بمُحْرِمِ

إنما قال هذا لأنه كان يُستَبعَدُ وقوعُ قَتْلِه من جهته، إذ كان منه ذَا رحمٍ مَحرَمٍ. فجمع فى كلامه هذا بَيْن تَلَهُّفٍ على فائتةٍ، وتَمَنٍّ على شَرْط عَقَدَه بِهِ له، فيقول: أُخِّرْتُ عن قَتْلِ هذا الرَّجُل يومَ أصيبَ ولُطِّخَ بالدَّم، فذهبَتْ نفسُه فيه وتغيَّبْتُ، وكنتُ أَوَدُّ وأَتمنَّى أن أكون حاضره، ومشاهِدًا وقتَهُ وحَيْنَه، ومعى سيفٌ قاطع يَنفُذُ فى الضَّرِيبة إذا أُعمِلَ بحَقِّهِ من المَضاء وحقيقته، ويأتى على المضروبِ بحَدِّه وصرامته، فيتيقَّنَ الجيشان ومن لفه لِفَهُمُ[1] وانضاف إليهم من أوباشٍ تجمَّعُوا لهم، وقُمَاش تكثَّروا بهم، بأنّى لست عن قتلِ هذا الرَّجلِ بذاهب ولا مُمتَنِــع حتَّى كأنِّى فى حَرَمٍ. وقوله «يَوْمَ ضُرِّجَ» فهو من الضَّرَجِ[2]، وهو الحمرة. والإِضْرِيج: ضَرْبٌ من الخزّ أحمر. ويقال: ضَرَّجْتُ الثَّوبَ، إذا صبغته بالحمرة خاصَّةً، وتَضَرَّجَ الخَدُّ عند الخَجَل. وقوله «ذو حقيقةٍ» فالحقيقة ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجُوبه، وتوسَّعوا فقيل: حاققْتُ الرجلَ، إذا جاذبته حقًّا بينكما. ويقال «هو نَزِقُ الحِقاقِ»، إذا جاذَبَ فى صغار الأمور. وقولُه «بمُحْرِمٍ» يقال: أحرَمَ الرجلُ، إذا دَخل فى الحرَم، أو فى الشهر الحرَامِ. وفسَّرَ قول الرَّاعى:

* قَتَلُوا ابنَ عَفَّانَ الخَلِيفَةَ مُحْرِمًا[3] *

(١) لفهم، وردت فى الأصل، ل، م بكسر اللام، وهى صحيحة. يقال: جاء بنو فلان ومن لف لَفهم ولِفهم، بفتح اللام وكسرها، وفى لغة قليلة بضم اللام، كما فى اللسان، وقد عبر عن هذه اللغة القليلة بقوله «وإن شئت رفعت»، أى ضممت.

(٢) لم ترد هــذه الكلمة فى المعاجم المتداولة. وقد ضبطت فى نسخة الأصل بسكون الراء، وفى ل، م بفتحها.

(٣) عجزه كما فى جمهرة أشعار العرب ١٧٦ والخزانة (١ : ٥٠٣) واللسان والمقاييس (حرم): * ودعا فلم أر مثله مقتولا *

على أنهُ كان له حرمةُ الإمامةِ والبلدِ والشَّهر ، لأنهُ قُتِل رضى الله عنه فى ذى الحِجَّة . وانتصبَ « فَيَعلَمَ » على أنه جواب التَّمنّى .

٤ — فَقُلْ لِزُهَيْرٍ إن شَتَمْتَ سَرَاتَنَا فَلَسْنَا بشَتَّامِين لِلْمُتَشَتِّمِ [١]

٥ — ولٰكِنَّنَا نَأْبَى الظُّلَامَ وَنَعْتَصِى بكُلِّ رقيقِ الشَّفْرَتين مُصَمِّمِ

يقولُ : أبلِغْ هذا الرَّجُلَ أنك إن اعتمدتَ على رُكوبِ السَّفَه معنا ، وتعمَّدتَ فى مجاذبتِنا سَبَّ خِيارِنا ، وثَلْبَ أعراضِنا ، فإنّا نَرْبأُ بأنفسنا عن مجاراتِك فى هذا المَيدان ، ومكايلتِكَ بمِكيالِ السِّباب . والمتشتِّم : المُتحكِّك بالشَّتم والمتعرِّضُ له . ويصلُحُ أن يكون للجنْس فيدخُل فيه زُهَيرٌ وغيرُهُ ، ويَصْلح أن يُراد به زُهَيرٌ خاصَّةً . وقوله « ولٰكِنَّنا نأبَى الظُّلامَ » يريد : لا نرضَى بالدَّنيَّات ، ونمتنع من التزام الظُّلامات ، ونُدافع عن أحسابِنا بكلِّ سيفٍ رقيق الحدَّينِ ، نافذٍ فى الضَّريبةِ . والظُّلَامُ والظُّلَامَةُ والمَظلِمَةُ واحدٌ ، وهو ما تظَالَمَ النَّاسُ بسببها بينهم . ويروَى : « الظِّلام » بكسر الظاء ، مصدر ظالمتُه مُظالَمةً وظِلامًا . وقوله « ونَعْتصى » يُقال عَصِيتُ [بالسَّيف [١]] ، واعْتَصَيْتُ وعَصَوْتُ بالعَصَا . ومرَّ يعتصِى على العصا ، أى يتوكَّأُ عليها . والتصميم : المضىُّ فى الأمر . ويُقال صَمَّمَ فى عَضّته ، إذا نَيَّبَ .

٦ — وَتَجْهَلُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَنَشْتِمُ بالأفْعَالِ لا بالتَّكَلُّمِ [٢]

٧ — وإنَّ التَّمَادِى فى الذى كان بَيْنَنَا بكَفَّيْكَ فاسْتأخِرْ لَهُ أو تَقَدَّمِ

أفعال جُمْلةِ الإنسان تُنْسَبُ إلى جوارِحهم على المجازِ والسَّعَةِ ، فلذلك

---

(١) التكلة من سائر النسخ .

(٢) نشتم ، بكسر التاء فى جميع النسخ . ويقال أيضاً « نشتم » بضم التاء .

نَسَبَ الجَهْلَ إلى الأَيْدِى . والمعنَى أنَّ ما يُذَمُّ من أفعالِ القُلوب لا نَكتسبه بوجْهٍ ، بل فينا الرأىُ الثاقب ، والوقار الغالِب ، والأَناةُ والحِلْم ، والسَّكينة والعِلْم ؛ فأمَّا اليدُ فإذا بَطَشنا بها بطشنا جَبَّارين . أى نَحْلُم بجَهدِنا ومقدار طاقتنا فإذا أُحرِجنا فخَرجنا عن العادة كانت أفعالُ أيدينا أفعالَ الجُهَّال الذين لا رِعَةَ تَردَعُهم ، ولا رقّة تضبِطُهم . وقولُه « ونَشْتِمُ بالأفعال » ، يقول : نجعل جزاء الشَّتْم والمَنْقَصةِ والثَّلْبِ الفِعلَ لا القَول ، إذْ كان القولُ يَذهب أدراجَ الرِّياح ، والفعلُ يَبْقَى أثرُه على مرِّ الأيّام . وقولُه « إن التَّمادى فى الذى كان بيننا بكفَّيْك » تَوَعُّدٌ . يقول : أمرُ اللَّجاج والاستمرارِ فيما يزيدُ ما بيننا فسادًا أنت قادرٌ عليه ، ومتمكِّنٌ من اختياره ، فإنْ شئْتَ فتقدَّمْ فيه ، وإن شئْتَ فتأخَّرْ عنه . ويقالُ استأْخَرَ واستقدم ، وتَقدَّم وتأخَّرَ ، بمعنًى واحدٍ .

٢٥٤

وقال أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْتِ(١) :

١ — غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وعُلْتُكَ يَافِعًا ... تُعَلُّ بما أُدْنِى إليكَ وتُنْهَلُ(٢)

٢ — إذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أبِتْ ... لِشَكْوِكَ إلا سَاهِرًا أَتمَلْمَلُ

٣ — كأنِّى أنا المَطْرُوقُ دُونَكَ بالذى ... طُرِقْتَ بِهِ دُونِى وعَيْنِىَ تَهْمُلُ

(١) أمية بن أبى الصلت ، وأبو الصلت هو عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى ، شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام ولم يسلم . ولما أنشد النبى صلى الله عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان فى الجاهلية ممن نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وفى الإسلام كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ، ويرثى قتلى المشركين ، وتوفى سنة تسع من الهجرة . الإصابة والخزانة (١ : ١١٩ — ١٢٢) وابن سلام ٦٦ — ٨٦ والاشتقاق ١٨٤ والأغانى (٣ : ١٧٩ — ١٨٥ / ١٦ : ٦٩ — ٧٦) وابن قتيبة ٤٢٩ — ٤٣٣ .

(٢) هذه الحماسية اختلف فى قائلها . قال التبريزى . « وتروى لابن عبد الأعلى ، وقيل هى لأبى العباس الأعمى ، قال أبو هلال : أوردها أبو عبيدة فى أخبار العققة والبررة » . وأبو العباس الأعمى شاعر أموى ترجم له فى الأغانى (١٥ : ٥٧) . واسمه السائب بن فروخ .

اعتدَّ عليه بما تَجَشَّمه فيه بعد أن كان السَّببَ فى إبدائه وإنشائه ، وبما أَعَدَّ له وتكفَّلَ به ، من ابتداء الطُّفولة إلى انتهاء الشَّباب واستِكمال القُوَّة ، إذ كان جارِحَهُ ومربِّيَهُ[١] ، والقائم بمُؤَنِه على اختلاف سِنيه[٢] . ويقال غَذَوْتُك غَذْوًا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب . ويقالُ غلامٌ يافعٌ ويَفَاعٌ ويفَعٌ ، وقد أيفع وأصلُه الارتفاع ، ومنه اليَفَاعُ من الأرض والجَبَل . وقولُه « عُلْتُكَ » أى أنفقتُ عليك . يقول : ربَّيتُك لما وُلِدتَ ، ومنَنْتُكَ حين أيفعتَ ، وفى تلك المدّة تُسقَى العَلَلَ والنَّهَل ، وتُطْعَم الحارَّ والبارد ، وتُكْسَى اللَّيِّن والخَشِن ، كُلُّ ذلك مما أَجمعُه لك ، وأُدْنِيه منك ، وبعدَ أن أَقِيَك من المَحاذر ، وأحفظك دونَ المَتالف ، شفقةً عليك ، واهتماما بشأنِك ، فلِئن طرقَتْكَ ليلةٌ بشَكَاةٍ تؤْذِيك ، أو عارضٍ يُضْنِيك ، سهرتُ طولَ تلك اللّيلة لا أهدأ قَلَقا ، ولا أستَنهِضُ لدَفعِ ما أجدُه سَكَنًا[٣] ، ولا أستلِينُ مِهادًا ، ولا أثنِي لمقرِّ رأسي وِسادًا ، بل أتلوَّى وأضطربُ ، وأتملمَلُ على فِراشي وأتقلَّبُ ، حتَّى كأنِّى المختصُّ بما اشْكاكَ ، والمَدْهِيُّ بما دَهاكَ ، لا يَجِفُّ مَدْمَعِى ، ولا يَوْطُؤُ مضجعى . وقولُه « تَعَلُّ بما أُدْنِي » يجوز أن يكونَ موضع تُعَلُّ صِفَةً لقولِه يافعًا ، أى مَعْلُولاً ؛ ويجوز أن يكونَ خبر مبتدإٍ محذوف كأنه قال : وأنت تُعَلُّ وتُنْهَلُ بما أُدْنِيهِ . وقوله « لم أَبِتْ لِشَكْوِكَ » فالشَّكْوُ والشَّكوَى والشَّكَاةُ واحدٌ . والتَّملمُل : القلق وتركُ الهُدُوّ . ويُرْوَى « تُعلُّ بما أجْنِي عليكَ » والمعنى أجْنِي لَكَ ـ وهذا كما يقالُ : سَعَى فلانٌ على ذَوِيهِ ، إذا سَعَى لهم فى مصالِحهم : ويقالُ جَنَى الثَّمَرَ يَجْنِي جَنْيًا وجِنايةً . قال الأخطلُ :

* دَانِي الجِنايَةِ مُونِعُ الأَثْمارِ[٤] *

(١) الجارح : الكاسب . (٢) فى نسخة الأصل : « سنة » .

(٣) السكن : كل ما سكنت إليه واطمأننت ، من أهل وغيره .

(٤) صدره فى ديوان الأخطل ٧٧ :

* وكأن ظعن الحى حائش قرية *

٤ ـ فَلَمَّا بَلَغْتَ السِّنَّ والغَايَةَ التى إليها مَدَى ما كنتُ فيكَ أُؤَمِّلُ

٥ ـ جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وغِلْظَةً كأنَّكَ أنتَ المُنْعِمُ المُتَفَضِّـلُ

يقول : فلمَّا تَكامَل منك الشَّبابُ ، وتَعَلَّقَتْ بك الآمالُ ، وبلغتَ المدَى المنتظَر للانتفاع بك ، والاستظهار بمكانك ، والاضطلاع بكِفايَتِك ، وصَلَحْتَ لأَنْ تكونَ عُدَّةً وعَددًا ، وبأسًا مَخُوفًا ، وطَمَعًا مَرجُوًّا ، أقبلتَ تُجازِيني بإحْسانى إساءةً ، وبما استَلَنْتَ من جانِبي غِلْظَةً ، وبما تَرَفْرَفَ عليك من رحمتى ورِقَّتِى نُبُوًّا وقَسوةً ، حتَّى كأنَّ ما سالَ عليك من نِعمتى[(١)] كان لَكَ ، وما أَسْبَلَ عليك من فَضْلِي وإفضالِي كان منك ؛ لا مُراجعةَ فى الأوَّل تَرُدُّكَ ، ولا مُلاحَظَةَ لعُقبالك تَنِيهِ بِكَ .

والجَبْهُ : مقابَلةُ الإنسان بما يَكرهه .

٦ ـ فَلَيْتَكَ إذ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي فَعَلْتَ كما الجارُ المجاوِرُ يَفْعَلُ[(٢)]

٧ ـ تَراهُ مُعِـدًّا للخِلافِ كأنَّه بِرَدٍّ على أهلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ

يقول : وَدِدْتُ أنك إذ لم تُنزِلْنِي إكبارَ الآباءِ ، ولم تَرْعَ منِّى حقوقَ الوِلادِ والإنشاءِ سِرْتَ معى بسيرةِ المُجاوِرِ لجارِه ، والمُرافِقِ لرفيقِه ؛ فإنَّ ذلك إذا عُدَّ دَرَجاتُ المَبَارِّ ، ومُدَّت علائقُ التَّحابِّ ، وتُؤُمِّلَ ذِمَمُ القرابةِ ، وحُرَمُ الصداقة ، أضعفُ الأواخى ، وأدْوَنُ المَراقِي . ثم أخَذَ يُنبِّه على سُوءِ اختياره ، وتَمادِي لَجَاجِه ، وتَناهِي جهلِه والتوائه ، فقال : « تراه مُعِدًّا للخِلاف » أى جعَلَ الخِلافَ على ذوِي الرأى وأرباب العقـلِ ، وأولى الحَزامةِ والحلم ، عُدَّةً

(١) ل والتيمورية : « نعمى » .

(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه :

وسَمَّيتَنِى باسمِ المُفَنَّدِ رأيُه وفى رأيِكَ التَّفْنيدُ لو كنتَ تعقِلُ

فكأنه وكِلَ بردِّ صوابهم . واستقباح المحسَّنِ عندهم . فإن قيل : بماذا دخل هذه الأبياتُ وما يتلوها — وهو فى معناها — فى باب الحماسة ؟ قلتَ : دخلتْ فيه بالمشاكلة التى بيْنها وبين ما تقدّمها من الأبيات ، المُنْبئة عن المُفاسَدة بين العشائر ، وما يتولّدُ فيها من الإحَنِ والضغائن ، المُنْسِيَةِ للتَّوَاشُج والتّناسُب ، المُنْشِئةِ لهتكِ المَحارم ، المبيحةِ لسفْكِ الدِّماء وقَطْعِ العِصَم ؛ إذ كان عُقوقُ البنين للآباء ، وتناسِي الحُرَم ، فيه مثلُ ذلك . وهو ظاهرٌ بيِّنٌ .

٢٥٥

وقالت امرأةٌ من بنى هِزّان[١]

يقال لها « أمُّ ثَوَاب » فى ابنٍ لها عقَّها :

١ — رَبَّيْتُهُ وهو مِثْلُ الفَرْخِ أعْظَمُه ... أمُّ الطَّعَامِ تَرَى فى جِلْدِهِ زَغَبَا
٢ — حتى إذا آضَ كالفُحَّالِ شَذَّبَهُ ... أبَّارُهُ ونَفَى عن مَتْنِهِ الكَرَبَا
٣ — أنشَا يُمَزِّقُ أثوابى يؤدِّبُنى ... أبَعْدَ شَيْبِى عندى تبتغى الأدَبَا[٢]

يقال ربَبْتُه وربَّيْتُه بمعنًى . ومعنى البيت : كانَ ابنى حين ولدتُه فى ضَعْفِه وصِغَرِه ، وتَساقُطِ قوّته ، وتَخَلْخُلِ بِنْيَتِه ، ورَخاوة مفاصله ، كفَرْخِ القَطاة ولم يَستبدِلْ بعدُ بزَغَبِه شَكِيرًا ، ولا بانحلال عَقْدِه تماسُكاً ، فأقبلتُ أربِّيه وأعظَمُ شيءٍ فيه بطنُه ، وأرقِّيه فى مَدارجِ النَّشْءِ والترشيح وهو لا يميِّز ما ينفعه مما يضرُّه ، متردِّدًا فى الأحوال التى تَجْرى إليه ، وتتغيَّرُ عليه ، بين صيانةٍ كاملةٍ ، وشفقةٍ بارعةٍ ، وحِفظٍ مُتَّصِلٍ ، وإشفاقٍ مُطَّرِدٍ . وتَسْمِيَتُه البَطْنَ

(١) هم بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة الفرس بن معد بن عدنان . الاشتقاق ١٩٤ .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « أبعد ستين » .

بأُمِّ الطَّعام ، كما قيل للجِلدة الرقيقة المُلْبَسةِ الدِّماغَ أُمُّ الدِّماغ ، وكما سُمِّيَ المَجَرَّةُ أُمَّ النُّجوم ، وكلُّ ذلك لما فى المضاف والمضاف إليه من الانضمام والاحتواء . وقد سَمَّى الشَّنْفَرى تأبَّطَ شرًّا بأمِّ عِيالٍ ، فقال :

وأُمِّ عِيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهم إذا أطعمَتْهم أوْتَحَتْ وأقَلَّتِ

لِمَا كان يَجمع من أمرِ أصحابه ويتكفَّل به لهم ويُدَبِّرُه . وقولها « حتى إذا آضَ كالفُحّالِ » حتى وُضِعَ للغايةِ ، وأُضيفَ إلى إذا وما بعده من الْجُملة التى انشَرَحَ إذا بها . والمعنى إلى هذا الوقت . وموضع « كالفُحّالِ » نَصْبٌ على الحال[1] . يقول : لم أَزَلْ أجرِى معه فى تربيته وتفقُّدِه ، إلى أن استكمَل شَبابُه ، وبَرَعَ نَباتُه ، وامتدَّ قَوامُه ، فصار كفحلِ النَّخْل وقد قطَعَ مُتعهِّدُه منه شَذَبَه[2] ، وأَلْقَى عن ظهره كَرَبَه ، ليَكمُلَ طولُه ، ويتِمَّ غِراسُه . والكَرَب : أُصول الأعذاق تُترَكُ كالأوتادِ ليُرْتَقَى بها فى النَّخْل . والفُحّال : فَحْل النَّخل خاصةً ، ولا يقال لغير فَحْلِها فُحّال . والأبّارُ والمُؤَبِّر : المُلقِّحُ للنخْل . والفُحّال لا يُؤَبَّر ، ولكن لمّا كان يُؤَبَّرُ به النَّخْل أضاف الأَبّار إلى ضميره ، على عادتهم فى إضافةِ الشىء إلى غيرِه لأدْنى تعلُّق بينهما . ألا تَرَى إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أَجَلُهُمْ ﴾ وفى موضعٍ آخر: ﴿ فإنَّ أَجَلَ الله ﴾ . ومعنى آضَ ، قال الخليل : الأيضُ صَيرورةُ الشىء شيئاً غيرَه وتحوُّلُه عن حاله . وقولُه « أنشا يُمزِّقُ أثوابى » هو جوابُ قوله حتى إذا آضَ كالفُحّال ، وهو العاملُ فى إذا ، أعْنِى أنشأَ . ويقالُ أنْشأَ اللهُ الخَلْقَ ، ونَشَأَ فلانٌ حديثاً ، ثم يقال : أنشأ يفعل كذا ويقول كذا . يقول : لمّا بَلَغَ هذا المبلغَ ابتدأ يضربُنى ويُخَرِّقُ ثيابى ، مُرْشِدًا

---

(١) هذا مذهب لبعض النحاة . وبعضهم يراه خبراً لآض ، إذ يعدون « آض » فى الأفعال العشرة الملحقة بصار فى العمل ، وهو مذهب ابن مالك . همع الهوامع (١ : ١١٢) .

(٢) الشذب ، بالتحريك : قشر الشجر وقطعه .

ومؤدِّبًا ثم قالت وكأنها أقبلت على إنسانٍ غيرِه بحضرتِها تُخاطِبُه مُنكِرةً ومتعجِّبةً : أبَعْدَ المَشيبِ يطلُبُ تأديبي . وهذا الكلام منها كالإشارة إلى المَثَل المضروب السائر فى الأمَم : « من العَنَاء رياضةُ الهَرِمِ » ، وهو مع ذلك يجرى مجرى الالتفات .

٤ — إنّى لأُبصِرُ فى تَرْجيلِ لِمَّتِهِ وخطِّ لِحْيَتِه فى خَــدِّهِ عَجَبَا

٥ — قالت لهُ عِرْسُه يومًا لتُسْمِعَنى مَهْـلاً فإنّ لنـا فى أُمِّنا أرَبَا

٦ — ولو رَأَتْنِىَ فى نارٍ مُسَــعَّرَةٍ ثم استطاعَت لزادَت فوقَها حَطَبَا

قولها « إنى لأُبصِرُ » ، يقال أبصَرتُ الشيءَ وبصُرتُ به . والبَصَر : العَينُ ونَفاذُ القلبِ . وحُكِيَ أنّ معاوية قال لابن عبّاسٍ وقد كُفَّ بصرُه : ما لكم يا بنى هاشمٍ تُصابون بأبصاركم إذا أسنَنْتُم ؟ فقال : كما تصابون ببصائركم عنده !! والترجيل : غَسل الشَّعر ومَشْطه . وعَجَبا مفعول أُبصِرُ . ويقالُ أمرٌ عَجَبٌ وعجيبٌ وعُجابٌ ، إذا تجاوزَحدَّ العَجب . والاستعجاب : شدّة التعجُّب . تقول : أرَى بَعْد ما شاهَدتُه من طُفولتِه وضعف حَرَاكه وتنقُّل الأحوال به وقتًا بعد وقت ، ونَشْئًا بعد نَشْءٍ ، عَجَبًا فى لِمّتِه ولِحْيَتِه المختَطّة[1] . أى أتعجّب كيف تحوّلَ عن تلك الحالة إلى ما أجِدُه عليه الساعةَ . ثم قالت حاكيةً عن زوجتِه ما كانت تتفوّه به سُمْعةً ورياءً ، وتقيمُ به سُوقَها حيلةً ونِفاقًا ، إظهارًا لخلافِ ما يَنطوى عليه قلبُها ، ويَشتمل عليه ضميرُها : كُفَّ عن إيذاء أُمّنا فإنّا لا نستغنى عنها ، ولا تَتمشّى أمورُنا إلاّ بها وبحياتِها . ومعنى مَهْلاً رِفقًا لا تَعجَل . وأصل المَهْل والمَهَل السَّكينة والوقار ، ومنه الإمهال فى الدَّيْن . والأَرَب : الحاجة . ثم صَرّحت بما عَرَفَتْهُ من سوءِ نِيَّتها فيها ، وحِرْصها على

---

(١) فى الأصل : « المختلطة » ، صوابه فى م ، ل والتيمورية .

الزيادة فى مساءتها ، فقالت : تَكلَّفْتُ ذلك المقالَ منها مَلَقاً منها ومجاملة ، ولو وجدَتْني فى نارٍ مُحْرِقةٍ ثم قَدَرَت لزادت فى وَقودِها وإضرامها . ويقال . سَعَّرْتُ النارَ والشرَّ وأسعَرْتُهما ، وإنّه لَمِسْعَرُ حَرْب .

٢٥٦

وقال ابنُ السَّلْمانىّ[(١)] :

١ — لَعَمْرُكَ إنّى يومَ سَلْعٍ لَلائمٌ لِنَفْسِى ولكن ما يَرُدُّ التَّلوُّمُ

سَلْعٌ : موضعٌ أضاف اليومَ إليه تعريفاً . وحُكِىَ السَّلْعُ : شَقٌّ فى الجبل ، ومنه قيل : تَسلَّعَت رِجلُه ، إذا تَشقَّقَت . وكأنّ قولهم : هادٍ مِسْلَعٌ[(٢)] من هذا ، أى يَشُقُّ أجوازَ الفلاةِ شقًّا . واللام من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدإ محذوفٌ . ولا يجىء « عَمْرو » فى القَسَم إلا مفتوحَ العين ، وإن كان الضمُّ لُغةً فيه ، ومعناه البقاء . والتلوُّم : تكلُّف اللَّوم ، فهو كالتذمُّم . يقول : وبقائك إنى فى هذا اليوم لعاتِبٌ على نفسى ومُقرِّع لها ، ولكن ماذا يُغنِي التعتُّبُ والأمرُ فائتٌ . وقوله « ما يَرُدُّ » يجوز أن يراد به ما يَرجِعُ ، ويجوز أن يكون بمعنى ما ينفع . ويقال : هذا أرَدُّ عليك ، أى أنفعُ . وموضعُ « ما » يجوز أن يكون مفعولا ، ويجوز أن يكون مبتدأً .

٢ — أأمْكَنتُ من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلّةً أَلَهْفَى عَلَى ما فاتَ لو كنتُ أعْلَمُ

قوله « أأمْكَنْتُ » لفظه الاستفهام ، ومعناهُ التقريع والتَّوبيخ . وهذا

---

(١) شاعر إسلامى كان إبراهيم بن عربى والى اليمامة من قبل عبد الملك قد قبض عليه وحمله إلى المدينة مأسورا ، فلما مر بسلع ، وهو موضع قرب المدينة ، قال هذه الأبيات . معجم البلدان (سلع) . وابن السلمانى ، كذا ورد فى جميع النسخ ، ويعزره ما فى معجم البلدان . وعند التبريزى : « ابن السليمانى » . والسلمانى : نسبة إلى سلمان ، وهم حى من مراد ، كما فى الأنساب ٣٠٢ ب .

(٢) هو فى قول سعدى الجهنية ترثى أخاها أسعد :

سباق عادية ورأس سرية ومقاتل بطل وهاد مسلع

الكلام هو صريحُ لَوْمِه لنفسه ، فيجوز أن يكون حَذَف قبلهُ لفظةَ قائلٍ ، كأنه قال : إنّى لائمٌ لنفسى وقائلٌ أأمكنْتُ . ويجوز أن يكون استأنف عَذلَ نفسه من بَعْدُ أيضاً . وقولهُ « ضَـلَّةً » مصدر فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى فَعَلْتُ ذلك ضالًا أو لإضْلَالِى . وأصلُ الضَّلالِ الذَّهاب عن القصد . ويقال ضَـلِلْتُ مكانى ، بكسر اللام وفتحها ، إذا لم تهتدِ إليه وأضْلَلتُ بعيرى ، إذا شَرَدَ فذهَبَ عنك . وقولُه « ألَهْـفِى على ما فات » تحسُّرٌ وتأسُّفٌ ، وهو كلامٌ مستقلٌ بنفسه . وقولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » تندُّمٌ على ما قَصَّر فيه من النَّظر والفحصِ ، والـكشفِ عن عُقْبَى الأمْرِ . وأعْلَمُ مفعولُه محذوف ، وهو بمعنى أعرِف ، فيـكتفِى بمفعول واحد ، كأنَّه أراد : لو كنتُ أعْلَمُ مَغَيَّبَه[1] . وجواب لو محذوفٌ ، أى لو علمْتُ ما تندَّمْتُ ولا شَقِيتُ ، وهذه اللفظةُ هِجِّيرَى كلِّ متوانٍ فى الشَّىء حتّى يفوتَه أو يُـكابِدَ المـكروهَ فيه . والبيت على ثلاثة فصولٍ ، كُلُّ فصلٍ منها ينفردُ بمبناه ولا يفتقر إلى سـواهُ . فالأوّل قوله « أأمْكَنْت من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلَّةً » كأنه يستنكر ما اتّفق منه ضَلالاً ، فأخذ يستفهم تقريعًا وعِتابًا . والثانى « ألَهْـفِى على ما فاتَ » ، وقد تقدم القول فى إعراب « ألَهْـفِى[2] » . والثالث قولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » أى لو علمْتُ لتحزَّمت .

٣ـ لَوَ انَّ صُدورَ الأمْرِ يَبْدُونَ للفتَى كأعْقَابِهِ لم تُلْفِهِ يَتَنَــدَّمُ

هذا مَعذرةٌ فيما سَهَا عنه ومَسْلاةٌ عمَّا بُلِىَ به [فتحزَّنَ له[3]] . وقولُه « لو أنَّ صدورَ الأمر » ، هو حذف المضاف ، والمراد : لو أنَّ مؤدِّيات صدورِ الأمرِ ومسبَّباته تظهر للفتَى كما تَظهر له عند أعجازه ، لم تَرَهُ نادمًا على فائتٍ ،

---

(١) ل والتيمورية : « مغبته » ، أى عاقبته . وما فى سائر النسخ أقوم .
(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٤ ص ٤٤ .
(٣) التكملة من م ، ل ، وفى التيمورية : « فتحرز له » .

ولا جازعًا إثْرَ هالِكٍ . وفى طريقته قولُ ابنِ الرُّقَيَّات :

فى مُقبِلِ الأمرِ تشبيهٌ ومُدبِرُهُ كأنما فيه بالليل المصابيحُ

٤ — لَعَمْرِى لقد كانت فِجاجٌ عَرِيضَةٌ وليلٌ سُخامِىُّ الجناحَيْنِ أدْهَمُ

٥ — إذِ الأرضُ لم تجْهَلْ علىَّ فُرُوجُها وإذْ لِىَ عن دارِ الهَوانِ مُراغَمُ(١)

هذا تذكُّرٌ لموارد تَخلصِه من الأمر الذى أُزَّ به ، والبلاء الذى استأسَرَ له ، وتحسُّرٌ فى عُدولِه عن مَدارجِ الحزمِ فيه ، وانتهاز الفُرصَةِ فى الممكن منه ، اغترارًا بما لم يَجُز السُّكون إليه ، وانتظارًا لما لم يَصلح الاعتماد عليه ، حتَّى يتمكَّنَ طالبُه من مُراده فيه ، وانسدَّتِ الطُّرقات بينه وبين ما يرومه من بُعدٍ عنه ، واحترازٍ منه ؛ فقال متهافِتًا : لعَمْرِى لقد كانت لى سُبلٌ واسعةٌ يمكننى سلوكُها ، لا مُدافِعَ دونها ولا ممانع ، وليلٌ أسودُ الطَّرفين مظلم ، يستُرنى إذا ركبْتُه ، ويُساعدُنى على مجانبة ما أحذَرُهُ ، لا مُجاذبَ عنه ولا مُنازعَ . وكانَ من قولِه « لقد كانَتْ فِجاجٌ » هو كانَ التَّامةُ المستغنيةُ عن الخبر . وقولُه « وليلٌ سُخامىٌّ » فالسُّخَامُ : الأسود ، كأنَّه يريدُ سِرَارَ الشَّهر ؛ ومنه سَخَّمَ اللهُ وجهَه ، أى سَوَّدَهُ . والسُّخامِىُّ المنسوبُ ، فى معناهُ ، ومثلُه الدَّوَّارى والدَّوَّارُ من قولِه :

* والدَّهْرُ بالإنسانِ دَوَّارِىٌّ(٢) *

ويجوز أن يريدَ بالسُّخَامِىِّ الجناحَين ، اللِّينَ وقِلَّةَ الآفاتِ فى جوانبه ؛ فإنَّ السُّخام الرِّيشُ اللَّيِّن تحت الجناح ، لأنَّ قوله أدْهم قد دلَّ على الظُّلْمة .

وقولُه « إذِ الأرض » إذْ لما مَضَى ، وقد شُرِح بالجملة التى أُضِيفَ إليها

(١) ابن جنى : « قوافى هذه القطعة كلها مجردة غير مؤسسة ، إلا مراغم هذه ، فقد ساند إذن . وقد استقصيت هذا فى كتاب المعرب فى تفسير قوافى أبى الحسن » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ٦٦ واللسان والمقاييس (دور) .

ومعنى « لم تَجْهَل علىَّ فروجُها »(١) ، أى ثُغُورُها ومواضعُ المخافة منها كانت علىَّ مَعالِمَ لا مَجاهِلِ ، فأدرِى كيف آتِيها ، وأنفُذُ فى قَطْعِها والخروج منها ، لا أتَهيَّبُ ولا أتحيَّرُ . ويقال جَهِلَ فُلانٌ عَلَى ، إذا شَقَّ عليك ، قال الشاعر(٢) :

جَهْلًا عَلَى وجُبْنًا عَنْ عَدُوِّهِمِ   لَبِئْسَتِ الخَلَّتَانِ الجَهْلُ والجُبْنُ

وقولُه « وإذْ لىَ عن دار الهوان مُرَاغَمُ » الأصل فى المراغمة الهِجرانُ ، يقال فلانٌ يُرَاغِمُ أهلَهُ أيّامًا ثم يرجع . وفى القرآن : ﴿ يَجِدْ فى الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ ، أى مُتَّسعًا لهجرته .

٦ـ فَلَوْشِيتُ إذْ بالأمْرِ يُسْرٌ لقَلَّصَتْ   بِرَحْلِىَ فَتْـلَاءُ الذِّراعَيْنِ عَيْهَمُ

٧ـ عليها دليـلٌ بالبلادِ نَهارَهُ   وباللَّيلِ لا يُخْطِى لَهَا القَصْدَ مَنْسِمُ(٣)

يُخْبِر عن نفسِه بأنَّه إنَّما أُتِىَ من تقصيره وتهاونِه فيما وَجب من جِدِّه وتشميره ، فيقول : لو أردتُ حين كان الخطبُ أيسرَ ، وأسباب المَنْع أقصر ، لَخَفَّتْ بى وشمَّرت فى الانتقال عن دار المَذَلَّةِ والهَوَان ، ناقَةٌ فى ذراعيها فَتَلٌ . والفَتَلُ هو تباعُد المِرفَقَين عن الزَّور ، لئلا يصيرَ حازًّا ولا نا كِتًا ولا ضاغِطًا . والعَيْهَمُ والعَيْهَمَةُ : النَّاقة الماضيةُ ، وكذلك العيهامَةُ ؛ وقيل هى الطَّويلة العُنُق ، الضَّخمةُ الرَّأس ، وذلك محمودٌ فى صفاتها . وقولُه « عليها دَليلٌ بالبِلاد » فإنَّه يَعنِى به نفسَه . وبالبلاد أراد بِه فى البِلاد ، كما يُقال فلانٌ بالبَصْرة وفى البصرة . ويجوز أن يكون أجْرَى قولَه « دليلٌ » مجرَى عارفٍ وعالم ، فلذلك أَتَى بالباء . وقولُه « وبالليل لا يُخْطِى لها القَصْدَ مَنْسِمُ » ، أى لِبَصَرِه لا يخطئ

(١) يرى التبريزى أن هذا التعبير من باب القلب ، وينظر له بقوله تعالى : « فعميت عليهم الأنباء » ، أى هم عموا عنها .
(٢) هو قعنب بن أم صاحب ، من حماسية ستأتى فى باب الهجاء .
(٣) التبريزى : « دليل بالفلاة » .

مَنْسِمُ بَعِيرِه فَيَزِيغُ عن القَصْدِ . وهذا وإن جَعَله من صفة البعير فالمُراد به أنَّهُ [هادٍ(١)] خِرِّيتٌ . والدَّليلُ أصلُه فاعلُ الدَّلالةِ ، فهو كالدَّالّ ، وقد تُوُسِّعَ فيه . والبَلَدُ : الأرضُ وإن لم تُخْتَطّ .

٢٥٧

وقال آخر :

١ ــ أعْدَدْتُ بيضاءَ للحُروبِ ومَصْـــقُولَ الغِرارَيْنِ يَفْصِمُ الحَلَقا

٢ ــ وفَارِجًا نَبْعَـةً ومِلْءَ جَفِيـــرٍ من نِصَـــالٍ تَخَالُها وَرِقَا(٢)

٣ ــ أرْيَحِيًّا عَضْبًا وذا خُصَلٍ مُخْلَوْلِقَ المَتْنِ ســـابِحًا تَئِقا(٣)

٤ ــ يَملأُ عَيْنَيْكَ بالفِناءِ ويُرْ ضِيكَ عِقَابًا إن شئتَ أو نَزَقا

تبجّح فى هذه الأبيات بهمّته فى جَمْع آلَتِه ليوم حاجتِه ، فأخذ يَذْكُرُ الشىءَ بعد الشىء من عُدَّتِه وعَتَادِه ، على مايَسَّرَهُ له مَرُّ الأيام فى جِدِّه وجِهادِه ، فقال : هَيأْتُ لملاقاة الأبطال ومناوَشَةِ الرّجال دِرْعًا لم يَشِنْها صَـدأ ، ولم يَعِبْها فى السَّرْدِ خَلَلٌ ، وسيفًا مسنُونَ الحَدَّيْن ، مصقول الصفحتين ، يقْطَعُ البَيْض ويَفْصِلُ الحَلَقَ . والفَصْمُ : الكسر بلا بينونة ، والقَصْمُ : الكسر مع بينونة .

وقوله « وفارِجًا » أى وأعددتُ فارِجًا ، وهو القوْسُ المتباعدة(٤) الوَتَر عن الكبد ، وكذلك الفُرُجُ . وقوله « نبعةً » أى هى قضيبٌ وليست بشِقَّةٍ .

---

(١) التكملة من ل ، م والتيمورية .

(٢) كذا وردت ورقا بكسر الراء فى جميع النسخ . وقد قيدها الإمام المرزوقى فى الشرح بمعنى الفضة . لكن التبريزى رواها « ورقا » بفتح الراء . وفسرها بقوله : « والورق يريدون ورق الحواء ، وهو يشبه النصال المشاقص ، وهى العراض التى فى وسط كل نصل منها عير » . والحواء ، كرمان : نبت يشبه لون الذئب ، كما فى اللسان .

(٣) التبريزى : « سابقاتئقا » .

(٤) كذا فى م ، ل . وفى الأصل والتيمورية : « المتباعد » ، والقوس يذكر ويؤنث .

والنَّبعُ أجوَدُ شَجَرٍ يُتخذُ منه القسيّ العربيّةُ ، وجعَلَه صفةً لأنه ضمَّنَه معنى الصفات . وعلى هذا أسماء الأجناس ، كقولك هذا خاتَمٌ حديدٌ ، متى وَصَفْتَ بها تَضَمَّنَ معنى فِعْل . وقوله « ومِلْءُ جَفِيرٍ » المِلْءُ : القَدْرُ الذى يُملأُ به الظَّرف ، والمَلْءُ بالفتح المصدر . والجفير : كِنانةُ النَّبْل إذا كانت واسعة من خَشَبٍ ، والجَفْرُ فى البئر منه . وقوله « من نِصالٍ » أراد بها نِبالا رُكِّبَتْ فيها نصالٌ بيض تتَلألأ فتُحْسَبُ فِضَّة[1] .

وقوله « وأرِيحيًّا عَضْبًا » يعنى رجلاً يَرتاحُ للنَّفاذ فى الأمور الصِّعاب والمَضاءِ ويَهتزُّ ، والمراد به نفسُه[2] . والعَضْب : القاطع . وقد مرّ القولُ فى تصرُّفِه[3] . وقوله « وذا خُصَلٍ » يعنى به فَرَسًا له خُصَلٌ من الشَّعر مُخلَوْلَقَ المَتْن ، أى مصنوعاً أملسَ المَتنِ شديدَ المَلاسةِ ، لأنّ مُفْعَوْعِلاً من أبنية المبالغةِ . على هذا قولهم اعشَوْشَبَتِ الأرض فهى معشوشِبةٌ . والتَّئِقُ : الممتلئُ نشاطا . وقوله « يَملأُ عينيكَ بالفِناء » ، فى طريقته قولُ الآخر[4] :

يَزِينُ البَيْتَ مَرْبُوطاً ويَشْفِي قَرَمَ الرَّكْبِ

والعِقَابُ : جمع العَقْبِ ، وهو الجَرْىُ بعد الجرى . وقال الخليل : إذا كان للفَرَس جَمامٌ بعدانقطاع الجَرْى قيل : عِقابٌ . والنَّزَقُ : الخِفَّة والعَجَلة ويقال

(١) انظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) كذا فهم المرزوقى ، وهو معنى بعيد . والأوفق ما ذكره التبريزى نقلا عن أبى العلاء المعرى ، قال : يجوز أن يكون صفة السيف بأريحى لأنه يهتز فكأنه يرتاح للضرب . وقد جاء فى شعر صخر الغى ما يدل على أنهم نسبوا السيوف إلى « أريح » وذلك قوله :

وصارم أخلصت خشيبته أبيض مهو فى متنه ربد
فلوت عنه سيوف أريح إذ باء بكفى ولم أكد أجد

قوله باء بكفى ، صارت كفى له مباءة أى مأوى . ولم أكد أجد لعزته . وخشيبته : طبيعته وهو رقيق . وأريح : قرية بالشام .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٦٠ ، ١٤٢ .

(٤) هو عقبة بن سابق الجرمى ، كما فى الخيل لأبى عبيدة ١٦٠ .

نَزَفْتُ الفَرَس ، إذا ضربتَه حتى يَنْزَفُ . ومعنى « يملأ عينيكَ » ، أى يشغلُهما محاسِنُها[1] حتى لا تَتَّسِع لغيرها .

٢٥٨

وقال قتادة بن مَسْلَمة الحَنفِىّ[2] :

١ — بَكَرَتْ علَىَّ من السَّفَاهِ تَلُومُنى سَفَهًا تُعَجِّزُ بَعْلَهَا وتَلُومُ

البيتُ على كلامين ، وذلك أنَّ المِصْراع الأول إخبارٌ عن زوْجتِه بسوء عشرتها[3] ، وتوجيهها العَتْبَ عليه فى غير كُنْهِه ؛ والمصراعُ الثانى رُجوعٌ منه عليها فيما أنكَرَتْ ، وردٌّ للعَتْبِ إليها لمّا تجرّمَت . وقال « تَلُومُنى » فى الصَّدرِ وفى العَجُز « تُعَجِّزُ بَعْلَها » وهما واحدٌ ، على عادتهم فى تصريفهم الكلام عند الأمْنِ من الالتباس ، فيقول : ابتكَرَتْ علَىَّ تلومُنى وتَنْسُبُنِى إلى العَجز ، من السَّفَاهِ ، أى مما تصوّرَتْه سَفَاهًا من أحوالى . ثم أخذ يَجْبَهُها ويُسَفِّهُ قولها وفعلَها فقال : سَفَهًا تُعجِّزُ بعلَها[4] ، أى تَعجيزُها لى وتقريعُها إيّاى لسَفَهِها ، وجَهْلِها بموارد الأمور ومصادرها . والسَّفَهُ والسَّفَاهُ والسّفاهةُ : الخفّةُ والاضطراب . ويقال : تَسَفَّهت الرِّيحُ الغُصونَ ، إذا حرّكَتْها . والبُكورُ ، أصلُه الابتداء ، ولذلك قيل لأوّل النّهار بُكْرَة . وتَلُومُنى فى موضع الحال ، والعاملُ فيه بَكَرَتْ . وانتصَبَ سَفَهًا على أنه مفعولٌ له وقد قُدِّمَ . والبَعْلُ ، أصله النِّكاح ، ولذلك

---

(١) الوجه : « محاسنه » ، لأن النعت السابق كله لمذكر .

(٢) قتادة بن مسلمة الحنفى ، شاعر جاهلى ، هو الذى أجار الحارث بن ظالم المرى حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب : وخرج مستجيرا بالقبائل محتمياً بها وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم :

قتادة الخير نالتنى حذيته وكان قدما إلى الخيرات طلاعا

انظر الأغانى (١٠ : ٢٤ — ٢٦) .

(٣) فى الأصل : « بعشيرته » ، صوابه فى ل ، م .

(٤) ابن جنى : « أراد تعجزنى فوضع الظاهر موضع ضمير المتكلم » .

قيل للمرأة بَعلةٌ أيضاً ، وقد ابتَعَلَتْ وتَبَعَّلَت ، أى أطاعَت زوْجها .

٢ ـ لمّا رأتني قد رُزِيتُ فَوَارِسى وبَدَتْ بجِسْمى نَهْكَةٌ وكُلومُ

جوابُ لمّا تقدّمَ ، وهو بكرَتْ عليّ . كأنّ هذا الشاعرَ لاقَى هو أعداءهُ ومُنابِذِيه ، بأصحابِه ومعاونيه ، فكانت الدَّبْرَةُ عليه وعليهم ، فجُرِحَ هو وقُتِل أولئك ، فعَدّت امرأتُه تلك الفَعلةَ منه وما اتّفَقَ عليه سَفَهًا وذَنْبًا يستحقُّ لها اللَّوم ، فطَفِقت باكرةً عليه تُعَجِّزه وتؤنّبُه . والنَّهْكة : التأثير ، يقال بانَتْ عليه نَهْكةُ العِلّةِ والمصيبةِ . ومعنى رُزِيتُ : أُصِبْتُ بهم . وتقدُّمُ القولِ فى مجيء الفَوارِس جَمْعًا لصفات المذَكَّر يُغْنِي عن إعادته[1] .

٣ ـ ما كُنْتُ أوّلَ مَن أصابَ بنَكْبَةٍ دَهْرٌ وَحَيٌّ باسِلُونَ صَمِيمُ

قوله « من أصاب » نَكِرةٌ تُفيدُ الكثرة ، والمُراد أوّلَ إنسانٍ أصابَه بنَكبةٍ دهرٌ . وهذا على عادتهم فى نسبة الحوادث إلى الدهر ، كما قال بعضُهم[2] :

يا دَهْرُ قد أكثَرْتَ فَجْعَتَنا بسَرَاتِنا وَوَقَرْت فى العَظْمِ

فأمّا تنكيرُه الدّهر فقد حُكى عن أبى زيدٍ وأبى عبيدةَ ويونُس أنّ الدهرَ والزّمان والزّمن والحين ، يقعُ على محدودٍ وغير محدود ، وعلى عُمر الدُّنيا من أوّله إلى آخره . وقال الخليلُ : الأبَدُ الدّهر الممدود ، ويُجعَل اسمًا للنازلة . ويقال : دَهْرٌ من الدّهر ، لبَعْضه ، كما يقال حِينٌ من الدهر . وقد اشتُق منه فقيل : إنها لَدَاهِرةُ الطُّولِ ، أى طويلةٌ جدًّا . والشاعر أراد بما قاله التجلُّد للشامت والتسلِّيَ من المُصاب ، وأن يُظهر لمن ألْقَى السّمْعَ جَهلَ امرأتِه وعُدولها

---

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٣ ص ٣٩ .

(٢) هو الأعشى . ملحقات ديوانه ٢٥٨ واللسان (وقر) والمقاييس (دهر) .

عن الصواب . وقوله « وحَىٌّ باسِلُون صَمِيمُ » ، فالبُسول : عُبوسة الشجاعة والغضَب . ويقال بَسُل واستَبْسَل . والصَّميم : خالِصة الشىء وما به قَوَامُه ؛ ومنه قيل صميم الصَّيف والشتاء . ويقال للرَّجُل : هو من صميم قومِه ، أى من مَحْضِ أصلِهم . ويوصَف بالصَّميم الواحدُ والجميع[1] .

٤ – قاتَلْتُهُم حتَّى تَكافَأَ جَمْعُهُمْ والخَيلُ فى سَبَل الدِّماءِ تَعُومُ

معنى تكافأ جمعهم : انكفَؤُوا فهزموا . وهذا من الكَفْء : قَلْبكَ الشىء لوجْهِه . ومنه كفأتُ الإناء ، إذا قَلَبتَه . ويجوز أن يكون من الكُفْء : النَّظيرِ والمِثْل ، ويكون المعنى تكافَؤُوا فى مُدافَعتى ومُقاوَمتى ، أى تَساوَوْا حتى لم يَفضل أحدٌ منهم على الآخر [فى ذلك[2]] . وعلى هذا ماروِى فى الخبر : « المُسلمون تتكافأ دِماؤهم » . والسَّبَلُ : ما سال من المَطَر والدَّم ، ومنه أسْبَلَ السِّتْرَ والإزار ، إذا أرخاهُما . ومعنى تَعُومُ : تَسْبَح ؛ ويُسَمَّى الفَرَسُ عَوَّامًا لسَبْحِها فى الجَرْى . وعلى التشبيه قالوا : النُّجوم تعُومُ فى الفَلَك . ومراد الشاعر اقتصاصُ الحال ، وأنّه قد أدَّى ما كان إليه من المجاهدة ، فلا تَبِعَةَ عليه .

٥ – إذْ تَتَّقِى بِسَرَاةِ آلِ مُقَاعِسٍ حَذَرَ الأَسِنَّةِ والسُّيُوفِ تَمِيمُ[3]

قوله « إذ تتّقِى » ظرفٌ لقوله تعُوم . والاتّقاء : أن تجعل بينك وبين محذورِك شيئًا يَقِيك . والسَّرَاةُ : جمع سَرِىّ[4] ، والفعلُ منه سَرَا يَسْرُو ، ولم يجئْ فى المعتلّ فَعَلَةٌ فى الجمع إلّا هذا ؛ لأنّ هذا البناء يختصُّ بالصَّحيح ،

---

(١) كذا فى الأصل والتبريزى . وفى سائر النسخ : « والجمع » .
(٢) لم ترد فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٣) التبريزى : « حَدَّ الأسِنَّة » .
(٤) قالوا : جاء على غير قياس ولا يعرف غيره أن يجمع فعيل على فعلة ، والقياس سراة بالضم مثل قضاة . ويقول سيبويه : إنه اسم للجمع ، وليس جمعا .

نحو فَسَقَةٍ وكَتَبة ، فهو بإزاء فُعَلةٍ من المعتلّ نحو قُضاةٍ ورُماةٍ . وانتصبَ « حَذَرَ الأَسِنَّةِ » على أنّه مفعولٌ له ، وتميمٌ يرتفعُ بفعلهم ، وهو تَتَّقِي ، والتقدير : إذ تَتَّقِي وحين تَتَّقِي بِسَرَاةِ هؤلاء القوم تميمٌ حذَرًا من الأَسِنَّةِ والسُّيوفِ .

٦ – لم أَلْقَ قَبْلَهُمُ فَوَارِسَ مِثْلَهُمْ أَحْمَى وهُنَّ هَوَازِمٌ وهَـزِيمُ

يجوز أن يكون عَنَى بالفَوارس أصحابَه الذين فُجِعَ بهم ، فبيَّنَ أنّهم لم يُؤْتَوا فيما مُنُوا به من ضَفَفٍ[1] وفَشَلٍ ، ولا من تقصير وكَسَل ، بل حامَوْا عن أحْسابهم جَهْدَهُمْ ، ودافعُوا عن أعراضهم طاقتَهم ، حتّى لم يُبقُوا غايةً يتعلّقُ بها حُسْنُ المحافَظة إلا أشرفوا عليها ، وراموا بجَهْدِ الممارسةِ تجاوُزَها . ويكونُ في وصفِ أصحابِه بهذه الصِّفَةِ على الحدّ الذي عليه في وصف نَفْسِه بقوله « قاتَلتُهُمْ حتَّى تكافأَ جَمْعُهُم » وبقوله « يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ بطَعْنَةِ فَيْصَلٍ » . وإنّما تَكلَّفَ كلَّ ذلك ليُقيمَ عُذرَ نفسه وعذرَهُم فيما اتَّفَق عليهم ، وليُرِيَ أنَّ ما لَزِمه وإيَّاهُم قد أدَّى بتَمامِه ، وإنْ حالَ محتومُ القدَر بينهم وبين النَّجاح . ويجوز أن يكون المراد بهم فُرسانَ الأعداء ، ويكونُ ثَناؤُه عليهم على عادتهم في الرَّفْع من الخصمِ عند اقتصاص الأحوال ، ونِسبَتِه فيما تجاذَبُوهُ إلى الغَناءِ والاستقلال ، وكَمالِ الشِّدّة والاضطلاع ، ليكونَ صُورتُه غالِبًا ومغلوبًا أحسنَ ، والاعتدادُ بمجاراتِه ومجاذبته أَوْفَرَ وأَبْلَغ . فأمّا قولُه « أَحْمَى » فالمُراد به أَحْمَى منهم ، فحَذَفَ . وهذا الحَذْفُ من أفْعَلَ الذي يَتِمُّ بمِنْ يجوزُ إذا وَقَعَ خبَرًا لا صِفَةً ، وقد تَقَدَّم القَوْلُ فيه . أي لم أَلْقَ فُرسانًا مِثلَهم قبلَهم هم أَحْمَى منهم هازمين ومهزومين . وقولُه « وهُنَّ هَوَازِمٌ » الواو واو الحال ، والضميرُ منه لِفِرَقٍ

---

(١) هذا ما انفرد به نسخة الأصل . والضفف ، بالتحريك : الضعف ، كما في القاموس ، وفي سائر النسخ : « ضعف » .

الخيلِ وطوائفِها ، ولهـذا قال هَوازمٌ ، لَمَّا كان فواعِلَ يختصُّ بجمع المؤنث إلا فى الأحرف المعدودة عنـد الـكلام فى فوارس(١) . ومثل هوازم قولُهم الخوارج — لأنَّ المراد به الفِرَقُ — وما أنشدَناهُ أبو علىٍّ النحويُّ الفارسىُّ رحمه الله ، للقُطامىِّ :

فوارسُ بالرِّماح كأنَّ فيها شَوَاطِنَ ينتزِعن بها انتزاعا

قال : وجاء فى شعره أيضاً :

* ما ينَامُ سَوَافِرُهُ(٢) *

ثم قال : لا يمتنع أن يكون سَوَافِرُ جمع سَافِرٍ الذى هو المصدر ، كما قال الآخر :

* فقد رأى الراءون غيْرَ البُطَّلِ *

فجَمع باطلا على البُطَّلِ ، والباطل مصدرٌ ، تقول قد قلتَ باطلاً كما تقولُ قد قلتَ حقًّا . فأما قوله « وهو هَزِيمُ » فهو فعيل بمعنى مفعول ، والمُراد به الكثرة لا الواحد ، كأنّه قال وهُنَّ من بينِ هازمةٍ ومهزومةٍ .

٧ – لَمَّا التَقَى الصَّفَّانِ واختَلَفَ القَنَا والخَيْلُ فى رَهَجِ الغُبار أُزُومُ(٣)

٨ – فى النَّقع سَاهِمَةُ الوُجُوهِ عَوَابِسٌ وبِهِنَّ من دَعْسِ الرِّماحِ كُلُومُ(٤)

٩ – يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ بطَعْنَةِ فَيصَلٍ فهَوَى لحُرِّ الوَجْهِ وَهْوَ ذَمِيمُ(٥)

لَمَّا هذه عَلَمٌ للظَّرف، وهو لوقوع الشىء لوقوع غيره ، وجوابُهُ يجىء من بَعْدُ ،

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٣ ص ٣٩ .

(٢) البيت بتمامه كما فى ديوان القطامى ٢٢ :

تعارض براق المتون مرقعا رضيض الحصى ليست تنام سوافره

(٣) م والتبريزى : « فى نقع العجاج أزوم » .

(٤) م : « والقوم ساهمة الوجوه » .

(٥) التبريزى : « دميم » بالدال المهملة .

وهو قولُه « يَمَّمتُ كَبشَهُمُ » . فيقول : لمَّا تواقَفَ الفئتان فى مَصَافِّهم ، واشتجرت الرِّماحُ بالطَّعن بينهم ، والدوابُّ عَوَاضٌّ على لُجُمها فى القَتام السَّاطع ، متغيِّرةُ الألوان لاشتداد الشَّرِّ اللازم ، كوالِحُ الوجوهِ لما يَقع بها من الطَّعن الدَّراك ، والدَّفعِ بالرِّماح ، قصدتُ رئيسَهم بطَعنةِ رَجُلٍ يقضى الأمرَ ، ويَفصِل العُمْرَ ، فسقَط لوجهه وهو مذءومٌ لعُتُوِّه وبَغيه . وقوله « أُزُومُ » جمع آزِمٍ ، والأزْم : الإمساكُ والعَضُّ ، وكُنِيَ به عن الحِمْية فقيل : « نِعمَ الدَّواء الأَزْمُ » .

وقوله « فى النَّقْع » الأجود أن يكون مصدرَ نَقَع الشَّرُّ والصوتُ والموتُ ، إذا كثُر وارتفع ، وأن يُعدَلَ به عن الغُبار ، لأنَّه قال : فى رَهَج الغُبار . ومعنى رهَج الغبار : ما أُثير من الغبار . وقولُه « ساهِمَةَ الوجوه » السُّهوم : تغيُّر اللونِ مع هُزَلٍ ويُبُوسٍ . والدَّعْسُ : الطَّعنُ وشِدَّةُ الوطء . ويقال طريقٌ مِدعَاسٌ ، أى مُذَلَّلٌ ؛ ورَجُلٌ مِدْعَسٌ شديد الطَّعن .

وقولُه « فهَوَى لحُرِّ الوجه » فالحُرُّ من كل شىء أعتَقُه ، وقال الخليلُ : حُرُّ الوجه : ما بَدا من الوَجنةِ . حُرَّةُ الذِّفْرَى : موضع مَجَال القُرْط[1] .

١٠ – ومَعِى أُسُودٌ من حَنيفةَ فى الوَغَى   لِلْبَيْضِ فوق رءوسِهِمْ تَسْوِيمُ

١١ – قَومٌ إذا لَبِسُوا الحديدَ كأنَّهُمْ   فى البَيْضِ والحَلَقِ الدِّلاصِ نُجُومُ

١٢ – فَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرحَلَنَّ بغَزْوَةٍ   نَحْوَ الغَنَائِمِ أو يَموتَ كَرِيمُ

قولُه « من حنيفَةَ » فى موضع الصِّلة لأُسودٍ ، وفى الوَغَى ظرفٌ لما دَلَّ عليه قولُه أُسودٌ ، وتقديره معى رجالٌ يشابهون الأُسُودَ شجاعة وإقدامًا فى الحرب حنفيُّون . والوَغَى أصلُه الجَلَبَةُ والصَّوتُ ، ثم صار كالاسم للحَرْب . وقولُه :

(١) هذا أحد قولين ، والآخر أنها صفة ، يقال هى حرة الذفرى ، أى حسنة الذفرى أسيلتها . والذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

« للبَيْض فوق رءوسهم تسويم » ، فالتَّسويم : العلامة والتأثير ، ومنه قولهم : الخَيْل المُسَوَّمةُ ؛ وكلّ ذلك من السِّيما : العَلامة ، ويقال السِّيمِيا . ومعناه أنّهم لِطول لُبْسِهِم للبيض ، ودَوام مُمارستهم للحرب ، قد انحَسَر الشَّعْرُ عن جوانب رءوسهم . ويشبه هذا المصراع قول الآخر(١) :

قَدْ حَصَّتِ البيضةُ رأسِى فَمَا أَطعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجاع

وقول أبى تَمّام الطائى :

عَبُوسٌ كَسَا أبطالَهُ كُلّ قَوْنَسٍ يُرَى المرء منه وهو أفْرَعُ أنْزَعُ(٢)

وقولُه « قومٌ إذا لبِسُوا الحديد » ارتفع قَوْمٌ على أنه بَدَلٌ من قوله أسُودٌ . ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدإٍ محذوف كأنه قال : هم قَوْمٌ . وإنما يَصِفُهم بأنهم مشاهيرُ بحسن البلاء ، متميِّزون عن الفُرسان إذا حَضَرُوا الوَقَعات ، بعلاماتهم ومعارِضِهم التى عُرِفوا بها وفيها ، فلا يخفى آياتُهم إذا تَدَجَّجُوا ، ولا يلتبسُ أحوالُهُم متى تَطَلّعُوا ، بل كأنّهم النُّجومُ فى المناظِر والقُلوب . وجعل الحديد كناية عن أنواع الأسلحة . والدِّلاصُ : اللَّيِّنة الملساء ، يقال دِرعٌ دِلاصٌ ودَلِيصٌ ، ودُروعٌ دُلُصٌ . وقال الخليل : ربّما جاء دِلَاصٌ فى صفة الجَمْع .

وقوله « فلئِن بقيتُ لأَرْحَلَنّ بغَزْوَةٍ » اللام من لئن موطِّئةٌ للقسم ، ولَأَرحلنّ جوابُه(٣) . وقولُه « نحو الغنائم » ظرفٌ لِأَرحَلَنّ . ورواه بعضُهم :

---

(١) هو أبو قيس بن أبى الأسلت الأنصارى . المفضلية ٧٥ .

(٢) أى إن بيض الحديد يخفى شعر الفرسان ، فن كان منهم طويل الشعر بدا كأنه أنزع منحسر الشعر . وفى نسخة الأصل : « يرى الموت » وفى الديوان ١٩١ : « ترى الموت » : وكلاهما محرف عما أثبتنا من سائر النسخ .

(٣) ابن جنى : « لأرحلن إنما هو جواب حلف محذوف ، أى أقسم لأرحلن . واللام فى لئن زائدة وموطئة للام الجواب ، وليست بواجبة . ألا ترى إلى قول الله سبحانه : وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . وصار القسم وجوابه عوضا عن جواب الشرط ، أى إن أبق أرحل » .

« تَحوِى الغنائمَ » ، ويكونُ صفةً لغَزْوَةٍ ، أى حاويةٍ للغنائم . وقوله « أو يموتَ كريمُ » أو بَدَلٌ من إلّا ، ويموتَ ينتصِب بأن مُضْمَرَةً ، كأنّه قال إلّا أن يموتَ كريمُ . ويَعْنِى بالكريم نَفْسَهُ . وفى طريقته قولُ لبيد :

* أو يَرتبطْ بَعْضَ النُّفوس حِمَامُها[1] *

٢٥٩

وقال رجلٌ من بنى يَشْكُر[2] :

١ — أَلَا أَبْلِغْ بنى ذُهْلٍ رَسُولاً وخُصَّ إلى سَرَاةِ بَنِى النِّطاحِ[3]

٢ — بأنَّا قد قَتَلْنا بالمُثَنَّى عُبَيْدَةَ منكمُ وأبا الجُلاحِ

٣ — فإن تَرْضَوْا فإنّا قد رَضِينا وإن تأبَوْا فأطرافُ الرِّماحِ

٤ — مُقوَّمَةٌ وبِيضٌ مُرْهَفَاتٌ تُتِرُّ جَماجِمًا وبَنَانَ راحِ

قولُه « رَسولاً » أراد رسالةً . وقوله « وخُصَّ إلى سَراة بَنى النِّطاح » أى تَوَصَّلْ إلى أن تَخُصَّهم بأدائها . والسَّراةُ تقدَّم القولُ فيه[4] .

وقوله « بأنّا قد قتَلْنا » الباء زائدةٌ للتأكيد ، وموضع بأنّا نَصْبٌ على أنه بدلٌ من رسولا . ومثله أَعْلِمْ بكذا ، يريدُ أُبلِغْ خيارَ هؤلاء القوم وأماثِلَهم أنّا قتلنا بدلَ الواحد الذى قتلتموه منّا اثنين منكم ، فإن رَضِيتم فرِضانا مع رضاكم ، وإن أبيتُم وتسخَّطتم حاكمنا كم إلى ظُبَى السُّيوف وقد أُرهِفتْ ، وإلى أسنّةِ

(١) صدره : * تراك أمكنة إذا لم أرضها *

(٢) زاد التبريزى : « فيما كان بينهم وبين ذهل »

(٣) م : « وخص بها » ، أى بالرسالة . وأشار التبريزى إلى رواية : « وخص به » ، أى بالقول . ورواية التبريزى : « بنى البطاح » بالباء المضمومة ، وفسره بقوله : « البطاح مالك بن عامر بن ذهل بن ثعلبة »

(٤) فى البيت ٥ من الحماسية ٢٥٨ ص ٧٦٧ .

الرِّماح وقد قُوِّمت . وهذا الكلام اعتلاء واقتدار ، وتوعُّدٌ واستكبار . والفاء من قوله « فأطرافُ » بما بعدها جوابُ الجزاء ، وارتفَع أطرافُ بالابتداء ، وخبَرُه محذوف ، كأنه قال : فأطرافُ الرماح وبِيضُ السيوف بيننا . وتَتِرُّ فى موضع الصِّفة للبِيض ، ومعناه تَسقِط . والمُرهَفات : المُرقَّقات الحدّ . والرّاح : جمع راحة .

١٦٠

وقال جُرَيبَةُ بن الأشْيَم الفَقْعَسىّ(١) :

١ — فِدًى لفَوَارسِ المُعْلِمِيـ ... ـنَ تحتَ العَجاجَةِ خالى وعَمّ

(١) هو جريبة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دثار بن فقعس بن طريف الأسدى ثم الفقعسى . قال الآمدى : كان أحد شياطين بنى أسد وشعرائها فى الجاهلية ، ثم أسلم فقال :

بدلت دينا بعد دين قد قدم ... كنت من الدين كأنى فى حلم
يا قيم الدين أقمنا نستقم ... فإن أصادف مأثماً فلم ألم

الإصابة ١٢٨٠ والمؤتلف ٧٧ . وأخوه مطير بن الأشيم . وروى التبريزى من سبب الشعر ونسبته أن النعمان بن بجير العجلى كان قد غزا بنى فقعس ورئيسهم أهبان بن عرفطة ، فلما بصر بنو فقعس بالخيل قالوا : هذه عير عليها تمر . فابتدرتها خيلهم ، فلحق بهم جريبة بن الأشيم ويكنى أبا سعد ، فلما رآهم رجع واقتتل القوم فقتل أهبان ، قتله الحصف بن معبد العجلى ، وقال فى ذلك هذه الحماسية . فتزعم هذه الرواية أن أبا تمام أخطأ فى نسبة الشعر إلى جريبة ، وإنما هى للحصف ، وليس لجريبة علاقة بهذا الأمر إلا أنه حضر الوقعة وفر منها وقال :

قالوا أبا سعد ألم تعرفهم ... ثكلت جريبة أمه من يعرف
والله ما منوا على وإنما ... منت على شراف إذ تتحرف

شراف : اسم فرسه . وذكر التبريزى رواية أخرى تنسب الشعر إلى سبرة بن عمرو ، وهو فقعسى تقدمت له الحماسية رقم ٦٠ . يقوله مناقضة لشاعر عجلى قال شعرا فى حرب شنتها بنو فقعس على بنى عجل . ثم ذكر رواية ثالثة عن أبى محمد الأعرابى ، تؤيد أن الشعر لجريبة . قال : كان من قصة هذا الشعر أن سلهباً وأبا سلهب ، من بنى ضبيعة بن عجل ، سارا فى جمع من بكر بن وائل بطلبان ، وخرجت بنو فقعس فى غزى لهم أيضاً يطلبون الغنائم ، فالتقى الجمعان ولا يريد منهم واحد صاحبه . فلما التقوا صاح بنو فقعس : نزال نزال ! فلم ينزلوا وقاتلوا على الخيل ، فشد فروة بن مرثد الفقعسى على أبى سلهب العجلى فاختلفا ضربتين ، فكلاهما قتل صاحبه ، وهزمتهم بنو فقعس وقتلوا منهم . فقال فى ذلك جريبة .

٢ — هُمُ كَشَفوا عَيْبَةَ العائبِين مِنَ العارِ أَوْجُهُهُمْ كالْحُمَمْ[1]

حَمِدَهم لما ظَهَرَ من وفائهم وبلائهم ، ففدّاهم وأثنى عليهم . والمُعْلِم : الذى شَهَرَ نفسَه فى الحرب بعلامةٍ لكَىْ إذا أَبْلَى عُرِفَ بها[2] . والعَجَاجُ : الغُبار ، وكذلك العَجَاجةُ . ويقال لفّ عجاجتَه على بنى فلانٍ ، إذا أغارَ عليهم . وقوله « خالى » فى موضع الرّفع ، لأنه خبر المبتدأ . وقوله « هُمُ كشَفوا عَيْبَةَ العائبين » العَيْبَةُ : شِبه الخريطة من الأَدَم . وهذا مَثَل ، أى أظهروا من عَيْبِ مَن كان يَطلبُ عيبَهم ما كان خافيًا ، وكذَّبوهم فيما كانوا يختلقونه ويتنفّقونه به ، فكأنّهم كشَفوا عِيابَهم المنطويةَ على عيوبهم ، فاسودّت وجوهُهم بما غَشِيَها من العار حتى صارت كالْحُمِم . ويقالُ : « فلانٌ عَيْبةُ عُيوبٍ ، ومِذنَبُ ذُنوب » . ويقال : عابَ المتاعُ وغيرُه ، إذا صار ذا عَيبٍ ؛ وعِبْتُهُ أنا ، أى جعَلتُ فيه عيْبًا . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ فأَرَدْتُ أن أَعِيبَها ﴾ . والحُمَم : الفَحْم . ويقال جارِيَةٌ حُمَمَةٌ ، أى سوداء .

٣ — إذا الخيلُ صاحَتْ صِياحَ النُّسورِ حَزَزْنا شَرَاسِيفَها بالجِــذَمْ

يقول : إذا ضَجّتِ الخيلُ من الطّعنِ الواقع على نُحُورِها ، وهَمّت بالازْوِرار أكرهناها على الصبر والتقدُّم . ومثله قول خِداش بن زُهير :

يَصِيحُون مِثلَ صِيَاحِ النُّسو رِ من أَسَلٍ وارِدٍ صادِرِ

(١) نبه التبريزى على هذه الرواية ، وروايته فى الصلب : « غيبة الغائبين » . ثم قال : « ومن روى غيبة الغائبين أراد : من قتل منهم فى عار تسود منه وجوههم أدرك هؤلاء القوم ثأرهم فغسلوا ذلك العار عنهم ، فكأنهم بذلك حفظوا عهد من غاب عنهم . قال أبو هلال : والوجه الأول — أى عيبة العائبين — أجود ، لقوله كشفوا ولم يقل حفظوا » .

(٢) كذا وردت العبارة فى جمع النسخ . ولها وجه فى العربية يخرج على حذف المنصوب بكى ، فيكون تقدير الكلام : لكى يعرف ، إذا أبلى عرف بها . قال صاحب التصريح فى الكلام على (كى) : « فإن ادعوا — أى الكوفيون — أن حذف المنصوب وبقاء ناصبه قد ثبت فى صحيح البخارى فى تفسير : وجوه يومئذ ناضرة : كيما فيعود ، أى كيما يسجد . قلنا : إن ثبت حذف يسجد فهو غريب لا يقاس عليه » . فالحذف هنا على مذهب ضعيف ،

ومعنى حَزَزْنا قَطَعْنا. والشَّراسيف : مَنَاطُ الأضلاع : والجِذَم : السِّياط . وقوله « صاحَتْ صِياحَ النسور » ، يريدُ صاحت صياحًا يُشْبِه صياحَ النسور[1] . وإذا ظرفٌ لقوله حَزَزْنا .

٤ ــ إذا الدَّهْرُ عَضَّتْكَ أنيابُهُ لَدَى الشَّرِّ فَأْزَمْ به ما أَزَمْ

هذا مَثَلٌ ، والذى أشار إليه بالأنياب نُوَبُ الدَّهرِ وحوادِثُه . وقوله « فأْزِمْ به » أى اعْضَض به ، والمعنى صابِرْهُ . والتوسُّع فى الأَزْمِ والعَضِّ على طريقةٍ[2] ، يقال : هذا عَضيضى وأنا عَضيضُه ، أى نتشاكس فى الأمر[3] . وإنى لَعِضاضُ عيشٍ ، أى صَبورٌ على شدّته . و « ما أَزَمْ » ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسمُ الزَّمان محذوفٌ معه ، فهو فى موضع الظَّرف[4] . والمعنى : اعضَضْ به مُدّةَ عَضِّه بك . ورواهُ بعضُهم : « فارْزُمْ له ما رَزَم » ، والمعنى : اثبُتْ له ما ثَبت لك . وإنما قال « فأْزِمْ به » طلبًا للمطابقةِ والموافقةِ[5] . على هذا قوله تعالى : ﴿ فمن اعتَدَى عليْكُم فاعتَدُوا عليْهِ ﴾ ، والثانى ليس باعتداء ، بل هو جزاؤه . وجوابُ إذا قوله « فأْزِمْ به » وهو العامل فيه .

٥ ــ ولا تُلْفَ فى شَرِّهِ هائبًا كأنَّكَ فيــه مُسِرُّ السَّقَمْ

فى شرِّه ، أى فى سرِّ الدَّهر . يقول : لا تُوجَدَنَّ فيما تُدْفَعُ إليه وتُمتَحَن به من نوائب الدَّهر خائفًا متهيِّبًا مستشعِرًا لليأس من النَّجاح ، وانقلابِ الأمر

(١) التبريزى : « صياح النسور ، أى أصواتاً قصيرة ... وقال أبو هلال : يقول إنها قد عودت ترك الصهيل فى الغزو ، فإذا صاحت صياح النسور لأمر يعرض لها ــ وهو صوت واحد ضربناها بالسياط ، لنذكر العادة » .

(٢) العضيض فسر فى اللسان بأنه القرن ، وفى القاموس بأنه القرين .

(٣) أى على طريقة واحدة .

(٤) هو ما يعبر عنه الإعرابيون بقولهم : ما مصدرية ظرفية .

(٥) هو ما يسميه البلاغيون المشاكلة .

إلى الخير والصَّلاح ، فتكونَ بمنزلةِ مَن به داءٌ عُضالٌ لَزِمَهُ ، فأعياه مُداواتُه حتى يئسَ من إقلاعه وذهابِه ، فجعل يَكتُمه ويُخفِي أثرَه ، وهو خائفٌ مما يتعقبُه . ورواه بعضُهم : « مُشِرُّ السَّقَمْ » . أى مُظهِرُه . وهذا كما رُوِىَ بيتُ امرئ القيس :

* لو يُشِرُّونَ مَقْتَلِي(١) *

وأُنشِدَ فيه :

* وحتَّى أُشِرَّتْ بالأَكُفِّ المصاحِفُ(٢) *

ومعناه تَتْغَتَمُّ لما تُقاسِيه ، وتخافُ نُزولَ أمثالِهِ ، فتنخزِل وتنقطع ، فِعْلَ الوَصِبِ المريضِ إذا اشتكى مما به .

٦ ـ عَرَضْنا نَزَالِ فلم يَنزِلوا وكانت نَزالِ عليهم أطَمّْ

يقول : عَرَضْنا عليهم المُنازَلة فقُلْنا نَزالِ ، لمّا ضاقَ مجالُ الخيلِ عن الطِّراد ، فتكرَّهوه ولم يَنشَطوا له . وكانت هذه العَرْضةُ بهذه اللَّفظة أشدَّ عليهم وأغلبَ لهم من كلِّ ما تقدَّم من ألفاظ التَّداعى والتَّجاذب . وقد تقدَّم فى لفظةِ نَزَالِ وبنائه وتأنيثِه وحقيقته ما فيه كفايةٌ(٣) . ومعنى « أطَمّ » يقالُ طَمَّ البحرُ ، إذا غَلَبَ سائر البحور . والطَّامَّة : الخَصْلةُ التى تَطُمُّ على ما سِواها . وفى القرآن : ﴿ فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكُبْرَى ﴾ ، يرادُ به القيامة .

٧ ـ وقد شَبَّهوا العِيرَ أفراسَنا فقد وجَدُوا مَيْرَها ذا بَشَمْ(٤)

(١) والرواية المعروفة « لو يسرون » بالسين المهملة . وهو بتمامه :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى

(٢) لكعب بن جعيل ، أو الحصين بن الحمام المرى ، يذكر يوم صفين . وصدره :

* فما برحوا حتى رأى الله صبرهم *

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ٩ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٤) يروى أيضاً : « ذا شبم » قال أبورياش : الشبم البرد ومعناه صادفوا الموت : =

العِير : الإبل عليها المِيرَةُ وغيرُها . وقال بعضهم : هو من قولهم : عارَ الشىء : ذَهَبَ ، يَعِيرُ ، وهى جماعات السَّفْر ، ووزنه فُعْل ، جمع عائر ، كعائذ وعُوذ ، إلّا أنّ العين كُسِرت لتدُلَّ على الياء[1] . والمَيْر : مصدر مارَهُم يَمِيرُهم ، إذا نقَل إليهم المِيرَة . والمعنى : لجهلهم بخصمهم ، وثِقَتِهم بأنفُسِهم وتمكُّن البَغْيِ من اختيارِهم ونظرِهم ، عدُّونا غنيمةً تُغْتَنَمُ ، وإبِلًا بأحمالِها تُساقُ وتُقْتَسَمُ ، فقد استَوْبَلوا عاقبةَ غنيمتهم وذاقوا وخامَةَ مِيرتهم . والبَشَم : الثِّقَل ، يقالُ بَشِمْتُ من الطّعام ، وبَغِرتُ من الماء .

٢٦١

وقال آخر[2] :

١ — أتانى عن أبى أَنَسٍ وَعِيدٌ فَسُلَّ لِغَيْظَةِ الضحّاكِ جِسْمِى[3]

٢ — ولم أَعْصِ الأميرَ ولم أُرِبْهُ ولم أَسبِقْ أبا أَنَسٍ بِوَغْمِ[4]

هذه الأبيات إنما خَتَم بها الباب وإن لم تكن منه على عادته ، فى إتْباع المعنى بضدِّه كثيرًا . والأغلبُ فى الظنِّ بقائلها أن يكون قَصَد بها الهُزْء والتملُّحَ . وفى طريقتها قول الآخر[5] :

— والموت بارد ، والسم بارد . ومنه قول خداش بن زهير :

بين الأميلح والطرفاء تشدخهم زرق الأسنة فى أطرافها شبم

(١) هذا تصريف نادر لكلمة « العير » .

(٢) فى معجم البلدان (٣ : ٤٧٤) « قال الأسدى » . التبريزى : « وقال شقيق ابن سليك الأسدى » وهوشاعر إسلامى ، يقول هذا الشعر معتذراً إلى الضحاك . وهو أبو أنس الضحاك بن قيس بن خالد الشيبانى الفهرى . شهد صفين مع معاوية ، وغلب على دمشق ، ودعا إلى بيعة ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه . وقتل بمرج راهط سنة ٦٥ . الإصابة ٤١٦٤ وتهذيب التهذيب .

(٣) التبريزى : « تغيض الضحاك » صوابه « تغيظ » ، كما فى معجم البلدان .

(٤) التبريزى : « الأمير هو الضحاك بن قيس الفهرى صاحب المرج » .

(٥) هو أبو دلامة ، كما فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والأغانى (٩ : ١١٩ — ١٢٠) .

إنى أَعُوذُ بِرَوْحٍ أن يُقَرِّبَنِى إلى القِتال فيَخْزَى بى بنو أَسَدِ[1]
إنّ المُهَلَّبَ حُبَّ الموتِ أورثَكُم ولم أَرِثْ نَجْدَةً فى الحَرْبِ عن أَحَدِ[2]
إنّ الدُّنُوَّ من الأعداء تَعْلَمُه مما يُفَرِّقُ بين الرُّوحِ والجَسَدِ

ولبعضهم :

باتَتْ تُسَخِّفُنِى هِنْدٌ وقد عَلِمَتْ أنّ الشَّجاعةَ مَقْرُونٌ بها العَطَبُ[3]
يا هِنْدُ لا والذى حَجَّ الحَجِيجُ لهُ ما يشتَهِى الموتَ عندى من له أَدَبُ[4]
للحَرْبِ قومٌ أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ إذا دَعَتْهُمْ إلى أهوالِها وثَبُوا[5]
ولستُ منهم ولا أرضَى فَعالَهُمُ ما القَتْلُ يُعْجِبُنِى منهم ولا السَّلَبُ

وأبلغُ منه قول الآخر :

اثنانِ منَّا يغلِبانِ واحِدَا إذا تعاوَنَا وكان راقِدَا

فأما قولُه « فسُلَّ لغَيْظَةِ الضَّحاكِ » فالضَّحّاكُ اسم أبى أَنَسٍ . ومعنى سُلَّ : ذابَ ، كجِسْمِ من به السُّلاَلُ ، وهو داء معروف . وقال « غَيْظة » لأنه أراد المرَّةَ الواحدة ، وهذه الهاء تدخُل فى المصادرِ على اختلافِها لهذا المعنى كالضَّرْبةِ والخَرْجَةِ والإلمامة والاستخراجَة . وقولُه « ولم أَرِبْهُ » يُرْوَى بفتح الهمزة

(١) روح هذا ، هو روح بن حاتم المهلبى ، وكان أبو دلامة قد شهد معه الحرب فقال له روح : تقدم وقاتل . الأغانى : « إلى البراز » .

(٢) وكذا فى الأغانى وشرح التبريزى . وفى م ، ل والتيمورية وعيون الأخبار : « ورثكم » .

(٣) الأبيات فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والعقد (١ : ١٦٦) وفى ل والتيمورية وعيون الأخبار والعقد : « تشجعنى » . وأشير فى هامش ل إلى رواية « تسخفنى » ولم تنص المعاجم على « التسخيف » فإن صحت كانت بمعنى النسبة إلى السخف وهو الضعف .

(٤) فى العيون : « لا والذى حجت الأنصار كعبته » . وفى العقد : « لا والذى منع الأبصار رؤيته » . وفى العيون : « من له أرب » أى من له عقل . وفى حواشى ل : « أرب بالراء محتمل أيضاً ، أى عقل » .

(٥) العيون : « إلى حوبائها » ، العقد : « إلى نيرانها » .

وضمّها ؛ والفرقُ بينهما أنه يقالُ رابَهُ الدَّهْرُ إذا قَصَدَهُ بِرَيْبِهِ وحَوادِثِه ؛ وأرابَهُ : أتاه بِرِيبة . والوَغْمُ : التِّرَةُ والذَّحْل .

٣ – ولكنَّ البُعُوثَ جَرَتْ علَيْنَا   فصِرنا بين تَطْويحٍ وغُرْمِ[١]

٤ – وخافَتْ من جِبالِ السُّغْدِ نَفْسِى   وَخافَتْ من جِبالِ خُوارَزْمِ[٢]

قولُه « ولكنّ البُعوث جَرَتْ علينا » يقالُ ضُرِبَ البَعْثُ على الُجنْدِ ، وأُجْرِىَ البَعْثُ عليهم ، أى بُعِثُوا إلى العَدُوّ . وجَمَعَه فقال البُعُوث ، لاختلافِه وتكرُّرِه . وهذا كما يُجْمَع الضَّرْب على الضُّروبِ والفَنُّ على الفُنون . والتَّطويحُ : والتَّبعيدُ فى الأرضِ ، والحَمْل على ركوبِ المهالِك . ويقال طُوِّحُوا وطُيِّحُوا جميعًا .

٥ – وقارَعْتُ البُعُوثَ وقارَعُونِى   فَفَازَ بِضَجْعَةٍ فى الحىِّ سَهْمِى[٣]

٦ – فأَعْطَيْتُ الجِعالَةَ مُسْتَمِيتًا   خَفِيفَ الحاذِ من فِتْيانِ جَرْمِ

قولُه « قارَعْتُ البُعُوثَ » يريدُ به ساهمتُهُم ، والقُرْعَةُ الاسم . ويقال : هو قَرِيعِى أى مُقارِعِى ، كما يُقالُ هو خَصِيمِى . وقولُه « البُعُوثَ » أراد أصحاب البُعُوث ، فحذفَ المضاف . ويجوز أن يكون سَمَّى المبعوثَ بَعْثًا ثمّ جمَعَه ، وهذا على عادتِهم فى الوصف باسم الحدَث . وقولُه « فاز بِضَجْعَةٍ فى الحَىِّ سَهْمِى » أى خَرَجَ[٤] قِدحِى باضطجاعى وراحَتِى . ويقال رَجُلٌ ضُجُعِىٌّ بضم الضاد

---

(١) التبريزى : « جنت علينا » ويبدو أنه تحريف فى النسخة ، لأنه ذكر فى التفسير : « ضرب البعث على الجند ، وأجرى البعث عليهم » .

(٢) التبريزى : « ويروى خواء رزم »

(٣) التبريزى وياقوت : « وقارعتنى » .

(٤) فى الأصل : « ضرج » ، صوابه فى سائر النسخ .

وكسرها ، وضُجَعَةٌ ، للعاجز اللازم مَنزِلَهُ ، ومنه قيل للنُّجوم الثَّوابتِ الضَّواجعُ . وقولُه « أعْطَيْتُ الجِعَالة » ، يريدُ أعطَيتُ الرِّشوةَ لنائبٍ عَنِّى من بنى جَزْمٍ ، خفيفِ الحال فقير ، رَضِىَ بالموت وعرَّض بنفسِه له ، لاسَعَدَ بالرَّاحةِ والسَّلامة ، ويَشقَى هو بالتَّعبِ والهَلَكة(١) . ويقال : فلانٌ خفيفُ الحاذ ، أى الحالِ والمَؤُونة ؛ وهما بحاذٍ واحد ، أى بحالٍ واحد .

تَمَّ بَابُ الحماسة ، بحمد الله الذى هو وليُّ الحمد(٢)

---

(١) ذكر التبريزى أنه عنى بالمستميت حطان بن خفاف بن زهير بن عبد الله بن رمح ابن عرعرة بن نهار .

(٢) فى نسخة ل : « تم باب الحماسة بحمد الله وحسن توفيقه فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

باب المراثي

بابُ المَراثِي

١٦٢

قالَ أبو خِراشٍ الهُذَلِيُّ[1] :

١ — حَمِدتُ إلٰهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إذْ نَجَا ‏ ‏ ‏ ‏ خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ من بَعْضِ

خِرَاشٌ : مصدر خارشْتُه ، أو جمع خَرْشٍ ، وهو الأثر كالخدش ؛ ومنه تَخَارَشَ الكلابُ : مَزَّقَ بعضُها بعضا . والخِراش : سِمَةٌ مستطيلةٌ كاللَّذْعة الخفيَّة ، ويقال بَعيرٌ مخروشٌ . والمِخْرَشُ : اسمٌ لما يُؤثَّرُ به ، خشبةً كان أو غيرها . فأمّا أبو خُرَاشَةَ من بيت الكِتاب[2] :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمّا أَنْتَ ذا نَفَرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ فإنَّ قَوْمِيَ لم تَأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ[3]

فقد رُوِي بضمّ الخاء وكسرها ، فخُراشَةٌ يجوز أن يكونَ من خَرَشَ لعِيالِه ، أي كَسَبَ ، ويكونُ من باب عُمَالَةٍ وعُجَالَةٍ وصُبَابَةٍ وما أشبهها . وخِرَاشَةٌ منه من باب وِلايَةٍ ونِكابةٍ[4] وما أشبهَهُما .

---

(١) هو خويلد بن مرة ، أحد بني قرد بن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ونزل به قوم من اليمن حجاج ، واضطروه أن يستقي لهم تحت الليل ، فنهشته حية في طريقه ، ثم سقاهم وأطعمهم ولم يعلمهم بما أصابه ، فأصبح وهو في الموت ، فلم يبرحوا حتى دفنوه ، فلما بلغ عمر غضب شديداً ، وقال : لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف يمان أبداً . انظر الأغاني (٢١ : ٤٧ — ٤٨) والإصابة والاستيعاب وأسد الغابة واللآلئ ٢١٦ — ٢١٧ والخزانة (١ : ٢١١ — ٢١٢) والاشتقاق ١١٠ والشعر والشعراء ٦٤٦ — ٦٤٨ .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٨) وانظر الخزانة (٢ : ٨٠) .

(٣) البيت للعباس بن مرداس . وأبو خراشة هذا هو خفاف بن ندبة الصحابي الشاعر .

(٤) في جميع الأصول : « نكاية » بالياء ، وهو تحريف ، صوابه « نكابة » بالباء وهي مصدر نكب على قومه ينكب نكابة ، أي صار منكباً لهم وعريفا ، والنكابة كالنقابة وزناً ومعنى .

وأبُو خِراشٍ هذا كان خِراشٌ ابنُه وعُرْوَةُ أخُوهُ، اصطحَبَا فى مُتَصَرَّفٍ لهما[1] فأسَرَهُما بَطنان من ثُمالَة : بنو رِزَامٍ وبنو بَلَّالٍ[2]، وكانوا موتورِينَ، فاختلفُوا فى الإبقاء عليهما وقتلِهما، فمال بنو بَلَّالٍ إلى قتلهما، وتفاقَمَ الأمر بينهما فى ذلك إلى أن صار يُؤدِّى إلى المقاتَلةِ، فتفرَّد أولئك بعُرْوَةَ فقتلوه، وتفرَّد هؤلاء بخِراشٍ فَخلا به واحِدٌ منهم متنهزًا للفُرصةِ فى الإسداءِ إليه، فقال له : كَيْفَ دِلِّيلاكَ[3]؟ قال : قَطَاةٌ[4]! فألقَى عليه رداءَهُ وقال : انْجُهْ. فمرَّ لِطِيَّتِهِ، فلما انحرفوا للنَّظَرِ فى أمرِه قال لَهم مُمسِكُه : إنَّهُ أفلَتَ! فطرَدوه فأعياهُمْ، فلما رَجَعَ خِرَاشٌ إلى أبيه وخَبَّرَهُ بما جَرَى على عُرْوَةَ، وبما اتَّفَقَ من صاحِبِهِ فى بابه، اقتَصَّ قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات.

وقد حُكِىَ فيما رُوِىَ عن الأصمعىّ وأبى عُبيدةَ أنَّهما قالا : لا نَعرِفُ مَن مَدَحَ مَن لا يَعرِفه غيرَ أبى خِراشٍ. وقد سَلَكَ من شُعراء الإسلام مَسلَكَهُ أبو نُواسٍ فى أبيات أوَّلُها :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وأدْلَجُوا ... بها أثَرٌ منهم جَدِيدٌ ودَارِسُ

مَسَاحِبُ من جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرَى ... وأضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِىٌّ ويَابِسُ

ولم أدْرِ مَنْ هُمْ غيرَ ما شَهِدَتْ لهم ... بشرقِىِّ ساباطَ الدِّيارُ البَسَابِسُ

ومَرَّ بى أبياتٌ لبَعْضِ الأغْفَالِ فيها :

سَقْيًا لَهُمْ فِتْيَةً تَدْمَى سُيُوفُهُمُ ... لا عِلْمَ لِى غَيْرَ أنَّ القَوْمَ أحْرَارُ

---

(١) كذا فيما عدا الأصل. وفى الأصل : « منصرف » بالنون.

(٢) بنو بلال، بفتح الباء وتشديد اللام، كما فى الخزانة (٢ : ٤٥٩) عند ذكر هذه القصة نقلا عن الأغانى (٢١ : ٤٣).

(٣) الدليل : الدلالة والعلم بها، وهى الدليل الهادى أيضاً. وقال المبرد : « وقوله كيف دليلاك، فهى كثرة الدلالة. والفعيلى إنما تستعمل فى الكثرة، يقال : القتيتى لكثرة النميمة. ويقال : الهجيرى لكثرة الكلمة المترددة على لسان الرجل ».

(٤) عنى أنه فى دلالته وهدايته كالقطاة، ويضرب بها المثل فى هدايتها إلى الماء.

فهذا ما رواه الناسُ

وقد حَكَى أبو العبّاس فى الكامل[١]: أنّ خِرَاشًا كان فى القِدِّ مأسورًا، وأنّ آسِرَهُ نَزَلَ به ضيفٌ فقام يحتَشِدُ له، فنظر[٢] ذلك الضيفُ إلى خِراشٍ وكان مُلْقًى وراء البيت، فسأَلَهُ عن حالِهِ ونَسَبِه فشرَحَ له قِصّتَهُ وانتَسَبَ، فقطَعَ إسارَهُ وخَلّاهُ، فلما رجع ربُّ البيت قال: أسِيرى أسِيرى!! وأراد السَّعْىَ فى أثَرِه، فوتَّرَ قَوْسَه وحَلَفَ أنه إن تبِعَه رماهُ.

وقد ذُكِرَ أنّ مُلْقِىَ الرِّداء كان مُجتازًا بعُروَةَ، فرآه بادِىَ العَورَةِ مصروعًا، ففعَلَ ذلك به[٣]. فهذا قِصّتُه على الاختلاف فيه.

وقولُه «حَمِدْتُ إلٰهى» رُوِى: «حَمِدْتُ الإلٰه»، وقَلّ ما يقع فى الاستعمال الإلٰه معرّفًا باللام[٤]، وقد أتَى به على أصلِهِ، إذ كانت العادة جرَتْ باستعمال لفظة الله بدلَه، حتى جَرَى مجرى الألقاب فى أن يكون مقدّمًا وسائر الصّفاتِ تَتْبعه. ومعنى اللفظة: الذى تَحِقُّ له العبادةُ. والحمد يَجرِى مَجرَى الشكر، إلّا أنه يُستعمل فى مُسْدِى الإحسانِ، وفى مَن رُضِيَتْ أفعالُه وإن لم يكن منه إحسان، فيقال: حَمِدْتُ فلانًا على اصطناعِه لى، وحَمَدْتُه على بَراعتِه وفَضْلِه؛ والشكر لا يُستعمَل إلا فيمن يكون منه إسداء معروفٍ وأخْذٌ بإحسان. والمعنى

(١) الكامل ٣٣٧ ليبسك.

(٢) فى الأصل: «فنزل»، صوابه فى سائر النسخ وشرح التبريزى.

(٣) كان العرب كذلك يفعلون، يمر الرجل بالقتيل فيلقى عليه ثوبه يستره به. انظر المفضلية ٦٧ وقول متمم بن نويرة فى البيت الثانى منها:

لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

(٤) ومن هذا القليل قول أمية بن أبى الصلت:

له ما رأت عين البصير وفوقه ... سماء الإله فوق سبع سمائيا

سيبويه (٢ : ٥٩) والخزانة (١ : ١١٨). وقد سبق أيضاً قول عمرو بن كلثوم فى الحماسية ١٦٠:

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا ... على هالك أو أن نضج من القتل

أشكرُ اللهَ بعد ما اتَّفقَ مِن قتـل عُرْوة ، على تخلُّصِ خِراش ، وبعضُ الشرِّ أخفُّ من الآخر . كأنه تصوَّرَ قتلَهما جميعاً لو اتفقَ ، فرأى قتلَ أحدِهما أهون . وهذا الكلام ، أعنى « وبعض الشرّ أهونُ من بعض » رَمَى به مَرمَى الأمثال . فإن قال قائلٌ : ليس فى الشرِّ هَيِّن ، وأفعَلُ هذا يُستعمل فى مُشتركِين فى صفةٍ زاد أحدُهما على الآخر ؛ لا تقولُ : زَيدٌ أفضَـلُ من عمرٍو ، إلاّ وقد اشترَكا فى الفَضْل ، فـكيف جاز أن يقولَ : وبعض الشرِّ أهوَنُ من بعض ، ولا هَيِّنَ فى الشرّ ؟ قلت : إنّ للشرّ مراتبَ ودرجاتٍ ، فإذا جئتَ إلى آحادِها ، وقد تصوَّرْتَ جُمَلَها ، ورُتبَ الآحادِ فيها ، وجدتَ كلَّ نوع منها بمُضامّتِه للغير له حالٌ فى الخِفَّةِ أو الثِّقَل ، وإذا كان كذلك فلا يمتنع أن يُوصَفَ شىءٌ منه بأنَّهُ أهْوَنُ من غَيره . ولا يُشْبِه هذا قولَهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحسَنُ مَقِيلاً ﴾ ؛ لأنك إذا تصوَّرتَ حالَ أهل الجنَّة مع أهل النّار لم تجِد ثَمّ مراتبَ متقاربةً يَترقَّى الواصفُ فى دَرَجها ، ويتصوَّر اشتراكَهم فيها ، إذ لم يكن ثَمّ مشارَكةٌ البتَّةَ بوجهٍ من الوُجوه . فالجامع بين الآية وبين هذا وأشباهِهِ خارجٌ عن الطَّريقة . والصَّوابُ أن يقالَ فى الآية : إنَّ المعنى : أصحابُ الجنَّةِ يومئذٍ أحسَنُ حالاً وأعظمُ شأناً ، وأعلَى درجةً ومكاناً ، وخيرٌ مستقرٌّ وأفضلُ مَقِيلا ، من أن يُشَبَّهَ بشىء ، أو يُحَدّ بوصفٍ ، فحُذِف منه ما حُذِف . وعلى هذا يُحمَلُ قول المسلمين : اللهُ أكبرُ ، وما رُوِىَ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه لمّا سَمِعَ الكُفّار يقولون : أعْلُ هُبَل ! قال : « اللهُ أعْلَى وأجَلّ ! » .

٢ — فواللهِ ما أنسَى قَتِيلا رُزِيتُهُ بجانبِ قُوسَى ما مَشَيت عَلَى الأرضِ (١)

(١) قوسى ضبطت فى الأصول والتبريزى كذا فى أصل ديوان الهذليين (٢ : ١٥٨) بضم القاف ، وضبطت فى القاموس وشرحه وكذا فى معجم البلدان عند إنشاد هذه الأبيات بفتح القاف ، قال ياقوت : « يجوز أن يكون فعلى من القوس بالضم وهو معبد الراهب ، أو من القوس وهو الزمان الصعب ، أو من الأقوس وهو الرحل المشرف . قيل : بلد بالسراة » .

تَعَلَّقَ الباء من قولِهِ « بجانب » بقتيلا ، كأنَّهُ قال : ما أنسَى قتيلاً بجانب قَوسى رُزِيته . وموضع رُزيته وبجانب قوسى جميعاً صِفَة للقتيل ؛ وقد دَخلَهُ بعضُ الاختصاص بذكرهما . وقولُه « ما مَشَيْتُ » ما مع الفعل فى تقدير مصدر حُذِفَ اسمُ الزَّمان معه ، كأنَّه قال : مُدَّةَ مَشْيِي على الأرض . وفى الكلام نيَّةُ الشَّرْطِ والجزاء ، كأنَّه قال : لا أَنْسَى قتيلاً رُزِيته إنْ مَشَيتُ على الأرض ، ومعناه إنْ بَقيتُ حيًّا ، فلذلك وقع الماضى فيه فى موضع المستقبلِ ، لأنّ « ما مَشَيْتُ على الأرض » فى موضع ما أمشى على الأرض ، وإنْ أمْشِ على الأرض . فأمَّا تذكُّرُهُ له أبداً فالوجه أن يكون عامًّا فيما يتعلق بالمتوفَّى وبمن يَرْثيه ، كأنَّه لا يَنْسَى أخلاقَهُ وطيبَ العيشِ معَه ، ولا الامتناع بمكانه وشدّةَ الفاقة إلى حياته ، فلا يَنْسَى ما يلزمه فى قضاءِ ذِمامه وطَلَبِ دمه ، ومكافأةِ أعدائِهِ وقاتِليه ، إلى غير ذلك . يَشهد لهذا الذى قُلناه ما يجيء كثيراً فى هذا الباب من قولهم « هَوَّنَ وَجْدِى أننى لم أُقَصِّرْ كذا » و « يذكِّرنى من فلانٍ كذا » ، وما يجرى هذا المجرى ، ويجوز أن يكون قال : لا أنْساهُ ، تعظيما المصيبة به ، وتفظيعاً للحال المعترِضَةِ فيه ، وعلى عادة قولِ النَّاس عند النازلة الهائِلة ، والنائبة الـكاربة : لا يُنْسِينِى هذا شىء ، وهو نَصْبَ عَيْنِى إلى أن أموتَ ، والمعنى : لا يُرَى أعظم منه .

٣ ــ على أنَّهَا تَعفُو الـكُلُومُ وإنَّمَا نُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإنْ جَلَّ ما يمضى

مثله قول الأحوص :

إنَّ القـــديم وإن جَلّت رزيئته يَنضُو فيُنسَى ويبقى الحادث الأُنُفُ

وقوله « على أنَّها تعفو الـكلوم » يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : لا أنسى قتيلا رُزِئْتُهُ مُدّة حَياتى . يكشف هذا أنِ موضع « على أنَّها تعفو الـكلومُ » من الإعراب نصبٌ على الحال ، والعامِل فيه

ما أنسَى قتيلا . وهذا كما تقول : ما أَتْرُكُ حَقَّ فُلَانٍ عَلَى ظَالِمٍ بِى ، كأنّ التقدير أؤدِّيه ظالماً ، فعلى المثال الذى ذكرنا يجىء ما أنسَى قتيلا رزِئْتُه على عفاء الكلوم ، أى أذكُره عافِياً كَلْمى كسائر الكلوم. ويعنى بالـكَلْمِ : الحَزَّةَ عند ابتداء الفَجْعة . وإنّما قال هذا لأنّ الإنسانَ بكونه مُهْدِفاً للأحداث ، غَرضاً للمصائب والأرزاء ، موزَّع الحال بين ما يتجدَّدُ له أو يَبْلَى ، مُقَسَّم الصبر فى أثناء ذلك على ما يَحْدُثُ أو يَتَوَلَّى ، فلذلك قال « نُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإن جَلَّ ما يَمْضى » فهذا بيانُ كونِ الـكلام اعتذاراً . وقوله « على أنّها » الضمير للقصّة ، وخبر أنّ الجملةُ بعدها ، ولو قال : على أنّه لجاز وكان الضمير للشأن والأمر . والمرادُ : على أنّ القصة إذا اقتصَّت ، والصُّورةَ إذا تُحُقِّقت ، أنّ الجروح تعفو ، وإنما الجَزَعُ للأقربِ منها فالأقرب يتسلَّط فيهلو . وهذا كما سئل بعضهم : ما أشدُّ الأدواء ؟ فقال : ما يَحْضُرك ، وإن بَرَّحَ بكَ ما غابَ ! ويقال عَفَا الشَّىء ، إذا دَرَس عَفَاء وعفُوًّا ، وتَعَفَّى أيضاً ، وعَفَته الرِّيح ، وعفا الشَّىء : كثُرَ عُفُوًّا وعفْوَتُه . قال أبو زيد : يقال عَفوتُ صُوفَ الشّاةِ ، إذا أخذته ، وعفوتُه إذا وفَّرْتَه ، فهو من الأضداد . وأبلغ ممّا قاله قولُ الآخر(١) :

فلم تُنسِنِى أَوْفَى المصيباتُ بَعْـدَهُ ولـكِنَّ نَكْء القَرحِ بالقَرحِ أَوْجَعُ

٤ — ولَمْ أدرِ مَنْ أَلْقَى عليه رِداءَهُ ولـكنَّهُ قد سُلَّ عن مَاجِدٍ مَحْضِ(٢)

ويجوز أن يكون « من » بمعنى الذى فيكون فى موضع المفعول ، « وألقَى عليه رداءَهُ » صِلتُه ، ويجوز أن يكون [مَنْ(٣)] استفهاماً مبتدأً وألقى عليه رداءه فى موضع الخبر ، ويكون الجملة فى موضع المفعول لـ « لَمْ أدرِ » . وتحقيق

---

(١) هو مسعود أخو ذى الرمة يرثى ابن عمه أوفى بن دلهم . انظر تحقيق هذا مسهباً فى حواشى البيان (٢ : ١٩٢) .

(٢) كذا رواية الأصل والديوان . لكن فى سائر النسخ والتبريزى : « على أنه قد سل » .

(٣) التكملة مما عدا الأصل .

الـكلام : لم أدر ما يقتضى هذا السُّؤال ، لأنّ الذى خَفِىَ عليه ذاتُ المُلقِى واسمُه لا فِعله . وموضع « على أنه » نَصْبٌ فى موضع الحال ، كأنَّه قال : أدريه مَسلولًا من ماجدٍ مَحض . ويروى : « سِوَى أنه قد سُلّ » ويكون موضع سِوَى من الإعراب نَصْبًا على أنَّه استثناء خارجٌ ، ألا ترَى أنه يتأتَّى أن يُجعَلَ مكانَهُ لَـكِنْ ، والتقدير : لا أعرِف اسمَهُ ونَسَبَهُ ، إلّا أنَّه وَلَدُ كريمٍ بما ظَهر من فعله . والمستثنى قد انقطَعَ عن الأوّل ، ألا ترَى أنه قد عَرَفَهُ بدِلالته وإن لم يعرف نفسَهُ وذاتَهُ . ومعنى البيت : ولا أعلم الذى اهتدى لهذه المـكرُمة فى بابِ ابنى خِراش ، ولـكنَّه كريم الأصل شريفُ الفَرع ، مؤثِرٌ لفعل الصَّنيعةِ كيف اتَّفقتْ ، لا يُراعِى وُجوبَها ولا زَكاءها . وأصل المَجْدِ الـكثرة ، يُقال أمجدتُ الدابةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له . وأراد بالمحض صَفاءَ النَسَب .

٥ ــ ولم يَكُ مَثلوجَ الفؤادِ مُهَبَّجًا أَضَاعَ الشَّبابَ فى الرَّبِيلَةِ والخَفْضِ

قوله « ولم يك » حذف النون من يَكُنْ لـكثرة الاستعمال لهذه اللفظة ، ومضارعةِ النون لحروف المدِّ واللين ، وقد مَضَى مثلُه . وقولُه « مثلوجَ الفؤادِ » أى باردَ الفؤاد غير ذكىٍّ ولا حَدِيدٍ . والمُهَبَّج : المتورِّم ، يقال هَبَّجَهُ بالعصَا فَهَبِج وتَهَبَّجَ ، إذا ضربَهُ بها فانتفخ وتورَّم . والرَّبِيلة ، أصلُها الرُّطوبة والسِّمَنُ . يقال : رجلٌ رَبِلٌ ، وبئرٌ ذاتُ رَبَالَةٍ ، إذا كانت ناجمةَ الماء فى الماشية تَسْمَنُ عليه . والرَّبْلُ : ما تَفَطَّرَ من الورق فى آخر الصَّيف بِبَرْدِ اللَّيل . يقال : هُمْ يتربَّلُون . والرِّيبال من أسماء الأسد إذا لم يُهْمَز ، يجوز أن يكون فِيعَالًا من هذا ، لتَربُّلِه وعِظَمِه . والخَفْض : الدَّعَةُ وتركُ السَّفَر . ومعنى البيت : أنه رَجَعَ إلى صفة عُروةَ فقال : كان ذَكِيَّ الفؤاد شَهْمًا ، نافذاً فى الأمور حىَّ القَلْب ، لا آفةَ به فيتورَّمَ جِلْدُه أو يتغيَّرَ لونُه ، ولم يكن ممَّن ضَيَّعَ شبابَهَ فى التَّوَدُّع

وصَلاحِ البدَن ، حتّى كانَ يَتْرُكُ السّفرَ واكتسابَ الأُحدوثة بما يمتَهِنُ فيه النّفس ، ويتعرّض من أجلِه لِلتّلَف .

٦ـ ولـكِنَّهُ قد نَازَعَتْهُ مَجَاوِعٌ ‏ ‏ على أنهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ النَّهْضِ (١)

لـكِنْ المخفَّفَةُ استدراكٌ بعد نَفْى ، والمشدَّدةُ وإن كان للتحقيق فيه معناه . فلمّا نَفَى عنه ما قدَّمَهُ فى البيت الذى قبله (٢) ، استدرَكَ على نفسِه إثباتَ ما يَتضمَّن هذا البيتُ له . ويروى « ولـكنه قد لَوَّحَتْهُ مخامِصٌ » ، ومعنى لوَّحَتْهُ غيَّرَتْه ، والمخامصُ : جمع مَخْمَصَةٍ ، وهى خَلاء البطن من الطَّعام جُوعًا . وفى الحديث : « تَغدُ الطَّيرُ خِماصاً وتروحُ بِطَاناً » . والمجاوِع مثل المَخَامِص . والخصال التى تَحمِل النُّفوسَ على الصَّبر على الجوع والخَمَاصَةِ مَخَامِصُ ومَجاوِعُ . فيقول : كما انتَفَى عنه تلك الأوصافُ الذَّميمة جاذبَتْهُ فى مساعيه ومتصرَّفاته لمباغِيه الشريفة ومطالبِهِ مجاوِعُ أو مَخامصُ ، يريدُ خِصالاً تُجَوِّعُ فيها النفس وتُفْطَمُ فيها عن لذيذ الطُّعْمِ ؛ وهو ذو قُوَّةٍ ، إذا نَهَض فى الأمور صَدَق فيها ، ولم يكذِبْ فِعْلَ مَن يأتى الشىء تعذيراً أو رِياءً . وقولُه « صَادِقُ النَّهْضِ » جَعَل الصدقَ للنَّهْضِ وإن كان الفِعلان له ولذلك كان نكرةً تقديره : ذو مِرّة صادقٌ نَهضَتُه ، وأصل النُّهوض البَرَاح من الأرض ، ومنه النَّاهض : الفَرخ الذى وَفَرَ جناحاه فنَهضَ للطَّيَرَان .

(١) الديوان : « قد نازعته مخامص » .

(٢) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « الذى يليه » ، أى التى يليه هذا ، فالمعنى يستقيم بكل منهما .

٢٦٣

وقال عَبْدَةُ بنُ الطَّبِيبِ(١) :

١ ــ عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قَيسَ بنَ عاصِمٍ ورَحْمَتُهُ ما شاء أنْ يَتَرَحَّمَا

حيّاه بقوله : « عليك سلام اللهِ ورحمته » وهكذا تحيّةُ الموتى ، بتقديم عليك ، والمعنى : عليك من الله السَّلامَةُ ! وسلامَتُهُ وقد ماتَ ، في توفُّر الرَّحمة عليه لذلك قال « ما شاء أن يَترَحَّما » ، فاستدام له التحيّة بقوله : ما شاء أن يترحّم ؛ لأن الترحم من الله دائمٌ ، لاتّصال رحمته في خلقه ، فكأنه قال : توفَّرَتْ عليك الرَّحمةُ ما شاء أن يترحّم . وقوله « ما شاء » ما مع الفعل في تقدير مصدر ، وهو في موضع الظَّرف ، والمصادرُ يُحذف معها أسماء الزَّمان كثيراً ، فالتقدير : مُدَّة مشيئته للرَّحمة . والسلامُ من أسماء الله تعالَى ، مصدرٌ في الأصل ، والمُراد به ذو السَّلامة . وليس في أسمائه تعالى ما هو مصدرٌ إلا هذا ، وقولُهُم إله ، والباقي كُلُّه صفاتٌ . وقوله « قيسَ ابنَ عاصمٍ » هو على لغة من لا يُنوِّن في غير النداء(٢) ، ومن ينوِّن يقول قَيْسُ فيبنيه على الضَّمّ .

---

(١) التبريزى : « عبدة واحدة العبد ، وهو نبت ، وهو من بنى عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم » . وعبدة هذا بسكون الباء ، وأما علقمة بن عبدة الفحل فبفتحها . والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله بن عبد نهم بن جشم . وعبدة شاعر مقل مجيد ، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ، وشهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنة ١٣ . وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا الفرس بالمدائن . وكان عبدة أسود ، وهو من لصوص الرباب . انظر الإصابة والأغاني (١٨ : ١٦٣ ــ ١٦٤) واللآلئ ٦٩ ــ ٧٠ والشعر والشعراء ٧٠٥ .

(٢) أي لا ينون الأعلام الموصوفة بالأبناء المضافة إلى الأعلام ، وهي اللغة الغالبة . وفي غير الغالب أن ينون ، فيقول في غير النداء : رحم الله قيساً ابن عاصم . والمعروف عند النحويين أن التنوين إنما يكون في الضرورة لا في الاختيار ، وذلك كقول الراجز :

جارية من قيس بن ثعلبة تزوجت شيخاً غليظ الرقبه

انظر همع الهوامع (١ : ١٧٦) والتصريح (٢ : ١٧٠) .

٢ــ تَحِيَّةَ من غَادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى إذا زَار عن شَحْطٍ بِلَادَكَ سَلَّمَا(١)

انتَصَبَ « تحيَّةَ » على المصدر مما دلّ عليه قولُه عليك سلامُ الله ، كأنَّه قال : أُحيِّيك تحيَّةَ من غَادَرْتَهُ . و « من غادرته يجوز أن يكون مَنْ معرفةً فى موضع الذى وغادرتَهُ من صلته ، ويجوز أن يكون نَـكِرةً فى موضع إنسان كأنه قال: تحية إنسان هكذا ، فيكون غادرتَهُ صفة لَهُ . وانتَصَبَ « غَرَض الرَّدَى » على الحال ، وهو فى موضع النَّـكِرة وإن كان مُضافاً إلى ما فيه الألف واللام ، لأنّ غَرضَ يَتَضمَّن معْنى الصِّفة ، كأنه قال غادرته منصُوباً للرَّدَى وهَدَفاً له . وقولُه « إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سَلَّما » يجوز أن يكون فى موضع الصِّفة لغرضَ الرَّدى أو حالا له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال إذا جَعلتَ مَنْ معرفَةً ، ويجوز أن يكون فى موضع البَدل من غادرتَهُ إذاجعلتَهُ صِلَةً . وقولُه «عن شَحْطٍ » أراد بعد شحط أى بُعدٍ . يقال : شَحَط يَشْحَطُ شَحْطاً وشُحُوطاً . وكأنَّهُ أشار به إلى بُعد المزار والعَهْد جميعا . وقوله « سَلَّما » جوابُ إذا . ومعنى البيت : أحيِّيك تحيَّةَ الرَّجلِ الذى غادرتَهُ غَرَضَ الرَّدَى ، أو تحيَّةَ إنسانٍ هكذا ، على التقديرين . أى تركْتَهُ مُهْدِفا للمهالك والمعاطِب ، وبمَدْرَجَةِ الآفات والنَّوائب ، أشدَّ ما كان حاجة إليك ، لاناصِرَ له ولا مُلتجأً ، ولا مُستغاثَ ولا مُعتمدَ ، وإذا أراد قضاء

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : عرض الردى بالغين معجمة ، أى هدف الردى صباح مساء . وهذه صفة لجميع الناس ، وليس فيه تخصيص لأحد . والجيد عرض الردى ، بالعين غير معجمة ، من قولهم : فلان بعرض الأمر ، أى بحيث يناله ولا يخطئه . وإذا كان كذلك عاش عيشة نكدة لتوقعه له ، لأنه بصدده . أى جعله هذا الميت معرضاً للأعداء ينالونه كيف يريدون . وقال النمرى : يروى بالعين وبالغين ، فقال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل :

أعيتك حمر الوحش أن تصطادها فعبأت رحلك للحمار الآهل

ذكر نبذاً من الحروف ، وأعرض عن تفسير قوله إذا زاد عن شحط بلادك سلماً . ومعنى ذلك أن قيس بن عاصم كان كثير الإفضال على عبدة بن الطبيب فآلى عبدة ألا يخرج فى سفر إلا بدأ بتوديعه ، وإذا قدم منه بدأ بزيارته والتسليم عليه ، فكان ذلك دأبه فى حياته ، وفى زيارة قبره بعد وفاته » .

حقَّك ، أو زيارتَكَ للتسلِّى بك ، فقطع المسافةَ بينه وبينك لم يَرْزَأْك شيئاً إلاَّ تسليًا عليك . وهذا الكلام تصريح باليأس منه ، وإظهارٌ للحاجة إليه .

٣ ـ فما كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلكُ واحِدٍ ولكنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهدَّمَا[١]

يجوز أن يروَى « هُلْك » بالنَّصب والرفع ، فإذا نصبْتَ كان هُلكه فى موضع البَدَل من قَيسٍ وهُلك ينتصب على أنه خبر كان كأنَّه قال : فما كان هُلكُ قيس هلك واحد من الناس ، بل مات بموته خَلْقٌ كثير ، وتقوَّضَ بِبِنْيَتِه وعزِّهِ بنيانٌ رفيع . وإذا رفعتَهُ كان هلكه فى موضع المبتدأ ، وهُلك واحدٍ فى موضع الخبر ، والجملةُ فى موضع النَّصب على أنَّه خَبَرُ كان . ويُشبه هذا البيتَ قولُ امرئ القيس :

فَلَوْ أنَّها نفسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ تُساقِطُ أنفُسَا

إذا رَوَيْتَ « تُساقِطُ » بضمِّ التاء[٢] . ومثلُهُمَا وإن أغمضَ قولُ الهُذَلىِّ[٣] :

مُطَأْطَأَة لم يُنبِطُوها وإنَّها لَيَرْضَى بِها فُرَّاطُها أمَّ وَاحِدِ

لأنَّ المعنى أنَّ الفُرَّاط لما حَفَرُوا القبر رضُوا بأن يضعوا فيه واحدًا ، فإذا هم يدفنون بدَفنِهِ خَلْقًا كثيراً .

وصَلَحَ قوله « ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدَّما » فى مقابلةِ « فما كان قَيْسُ هُلكه » لمعناهُ الموافق له ، وذلك أنَّ البُنيان وتهدُّمَه لم يكن إلاَّ لموت أربابه .

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل . وقال ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ، ماله نظير فى الجاهلية ولا الإسلام .

(٢) الرواية الأخرى : « تَسَاقَطُ » ، أى تتساقط .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١٢٣) .

٢٦٤

وقال هشامٌ أخو ذى الرُّمَّة[١] :

١ – تعزَّيْتُ عن أَوْفَى بِغَيْلانَ بَعْدَهُ عَزَاءً وجَفْنُ العَيْنِ مَلآنُ مُتْرَعُ

هِشامٌ هذا فُجِع بأخيه أوْفَى ، وأتَى عليه زمانٌ مقاسيًا لآلام الفجيعة به ، ثم أُصيبَ بعده بغَيلان — وهو ذو الرُّمّة — فيقول : تسليْتُ عن الرزيئة بأوْفَى أخى ، بعد أن أُصِبْتُ بغيلانَ عَقِيبَهُ ، وجَفنُ عينى مملوء دمعًا ، عزَاء . وانتَصَب « عَزَاء » على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع التعزِّى ، والفِعل من العَزاء عَزِىَ[٢] وعَزِىَ جميعًا ، أى صَبَرَ . ويقال : هو حَسَنُ العِزْوَةِ ، أى العَزاء ، وبناء تَعزَّى بناء تكلُّفٍ . والواو من قوله « وجَفنُ العين » واو الحال ، والعامل فى موضع الجملة تعزَّيْتُ . وفائدة اقتران هذه الحال بما قبلهُ هو أن يتبيَّن به ضَعْفُ العَزاء المشار إليه ؛ لأنَّ العَزاء المتكلَّفَ إذا صَحِبَهُ البُكاء لم يكن عزاء فى الحقيقة ، ولا يمتنع أن يكون الجملة التى هى « وجَفْنُ العَيْن ملآنُ » فى موضع الصِّفة لعزاء ، لأنك إذا قلتَ رأيتُ رجلاً ومعه غُلامُه ، معناه رجلاً بهذه الصفة ، فكذلك يكون المرادُ عزاء بهذه الصفة وهى أن يصحبَه البُكاء . ولا يجوز أن يكون العاملُ فى موضع قوله « وجَفْنُ العين » عزاء إذا جعلتَه حالاً ؛ لأنّ الاعتماد على الفِعل ، وعزاء معمولُه ، وللصدرُ وقد تَبِع الفِعلَ معمولاً له

(١) التبريزى : « وقال هشام بن عقبة العدوى أخو ذى الرمة يرثى أوفى بن دلهم ، وذا الرمة غيلان . وقال أبو هلال : كان لذى الرمة ثلاثة إخوة : أوفى ، وهشام ، وجرفاس ، وكانوا يقولون الشعر ، فغلب ذو الرمة على شعرهم » . وفى الشعراء ٥١٠ أن إخوته أوفى وهشام ومسعود ، فمات أوفى ثم مات بعده ذو الرمة ، فقال مسعود هذا الشعر فى رثائهما . وفى الأغانى (١٦ : ١٠٧) أن هذا الشعر لمسعود أخى ذى الرمة يرثى به أخاه ذا الرمة وابن عمه أوفى بن دلهم .

(٢) رسمت فى ل والتيمورية « عزا » بالألف . والذى فى المعاجم المتداولة « عزى » كفرح فقط .

يؤكِّدُه لا يعملُ فى غيره عملَه ، ولا فِعلَ معه . وقولُه « مُتْرَعُ » أراد الامتلاء وزيادةً ، وهو الانصباب . يقال أَتْرَعْتُ الإناء ، إذا ملأتَه مَلْأً يَضِيقُ عمّا يحويه حتى يَنصبَّ منه . ويقال تَرِعَ الإناء وأُتْرِعَ بما فيه . والمُتَتَرِّع : المتسرِّع إلى الشرّ المقتحم فيه ، منه . وجَعل الامتلاء للجفن لأنه يُمْسِكُ الدَّمع ، وأصل الجفن الحبْس ، لذلك قيل لِقراب السيف : جَفْن .

٢ــ نَعَى الرَّكْبُ أَوْفَى حينَ آبَتْ رِكَابُهُم لَعَمْرى لقد جاءوا بشَرٍّ فأَوْجَعُوا

٣ــ نَعَوْا باسِقَ الأفعالِ لا يَخْلُفُونَهُ تَكادُ الجِبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ

أَتبَعَ ما تقدَّم باقتصاص نعيِّ الرُّكْبان لأَوْفَى ، كأنه أراد أن يَذكر ابتداء المُصاب به ليتبيَّن كيف توفَّرَ الجزَعُ عليه ، وكيف انصرف ما انصرَفَ منه إلى ما تعقَّبَهُ من المُصاب الثانى ، فيقول : ذكَر الرُّكبانُ مَوْتَ أَوْفَى عند إيابهم ، ولَعَمْرى لقد ذكروا شَرًّا عظيما ، وأوجعوا قلبًا سليمًا . وقولُه « نَعَوْا باسِقَ الأفعال » أعاد ذِكر النَّعِيِّ تفظيعًا للشأن . ويقالُ نَعَى نَعْيًا ونَعِيًّا ونُعْيانًا ، أى خَبَّر بالموت . وقولهم : نَعاءِ فلانًا ، لفظةٌ يَشْهَرُون بها موتَ الرئيس . ومعنى « باسِقَ الأفعال لا يخلُفونَه » أنهم ذكروا موتَ رجلٍ علىِّ الشأن ، شريفِ الأفعال ، رفيع الحِكمة ، هم بأجمعهم لا يقُومون مَقامَه فيما كان يتولاّه فى الحىِّ من الإحسان إليهم ، والتحمل عنهم ، وبَسْطِ الخير فيهم ، والبُسُوقُ فى الأفعال ، وهو فى الأصل الطُّول والاستكمال ، ويجوز أن يكونَ إشارةً إلى أنه لا يُدرَكُ غايتها ، فكلُّ فعلٍ يقع من غيره إذا قِيس إلى ما يأتيه يتَّضِعُ دونَه ، ويَنحطُّ عن رتبته ، فلا يعلو عُلُوَّهُ ، ولا يَكمُلُ كمالَه . وعلى هذا قولهم : فلانٌ رفيع الفَعَال علىُّ المَقال . ويجوز أن يُريدَ بالبُسُوقِ امتدادَ الصِّيت بها ، وصُعودَها فى دَرَج تقبُّل الله تعالى إيّاها إلى السماء . وهذا كما يقال : قولُك هذا يَرتقِى إلى الملإِ الأعلى . وهذا الشِّعر إسلامىٌّ ، فلا يمتنع أن يشيرَ فيه إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ :

﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه ﴾ . وقولُه « تَكادُ الجبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ » مُنقطعٌ مما قَبلَهُ ويجرى مجرى الالتفات ، لأنَّهُ لمّا قال « نعَوْا بَاسِقَ الأفعال لا يَخْلُفونهُ » كأنَّه أقْبَلَ على مَن حَولَه فقال : تَكادُ الجبال الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ ، ويكونَ الضَّمير من قوله منه يَرجِعُ إلى النَّعِيِّ ، ودَلَّ عليه قوله نعَوْا . وهذا كما يقالُ : مَن حَمِدَ الله تعالَى كان خيرًا له ، أى كان الحمدُ خيْرًا له . والمُرَادُ بالصُّمِّ الصِلاب كأنَّه لا خُروق فى أثنائِها ولا تَخَلْخلٍ .

٤ ـ خَوَى المَسْجِدُ المَعمورُ بَعدَ ابنِ دَلهَمٍ وأَمْسَى بأوْفَى قَوْمُه قد تَضَعْضَعُوا

ابن دلهَمٍ كان السبب فى عمارة المسجد الذى أشار إليه ، فلمَّا مضى لسبيلِهِ صار المسجِدُ خاليًا إذ كان هو المُرَاعِيَ والمُتَفَقِّدَ لصَلاح أمره . وأوفى — يعنى الذى يَرثيه — كان قِوامُ أمرِ عشيرته به ، وانتظامُ شئونهم بمكانِه ، فلما ثُلَّ عَرْشُهُ وأُصِيبوا به اضطَربت أحوالُهم ، واتَّضعت رُتُباتُهم ، فصاروا بعدَهُ كالمسجد المعمور بعد ابن دَلهمٍ . أراد أن يشبه تضعضع القوم بموت أوفى ، بخراب المسجد بموت ابن دلهم فلم يَأْتِ بلفظ التَّشبيه إذ كان معناهُ من الكلام مفهوما . والضَّعضعةُ : الخضوع والتَّذلُّلُ .

٥ ـ فلَمْ تُنْسِنِى أوْفَى المُصِيباتُ بَعْدَهُ ولَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

القَرْحُ والقُرْح لُغتان فى عَضِّ السلاح وما يَجرَحُ فى الجسَد . ويقال إنَّهُ لَقَرِحٌ قَرِيحٌ ، وقَرِحَ قَلبُه من الحُزنِ . ونبَّهَ بهذا الكلام على أنَّ الجزعَ بأوْفَى لم يُزِلْه ما تَعقَّبهُ من المصائب ، ولكنَّه زادهُ اشتِدادًا ، ثم شَبَّهَهُ بالقَرْحِ وهو الجُرْح ، وقد جَلَبَ وَيَبِس ، إذا نُكِئَ وقُرِحَ ثانيًا ، أى أُدْمِى وقُشِرَتْ جُلْبَتُه كما أنَّ القَرْحَ إذا فُعِلَ به ذلك كان إيجاعُه أشدَّ وأبلغ ، فالهَلَع بموت أوفى وقد أُمِدَّ بمُصابٍ آخر يكون أتمَّ وأكمل . وقوله « أوجع » موضوعٌ موضِعَ أشدّ إيجاعًا .

فإن قيل : كيف صَلَحَ ذلك ، وأَفْعَلُ الذى للمبالغة والتَّفضيل يَتبَع ما أفْعَلَه وكذلك أَفعِلْ به ، وفِعْل التعجُّب يجب أن يكون من الثلاثى لا غيرُ : فَعَل وفَعُل وفَعِلَ ، وأَوْجَعَنِى ليس منها ؟ قُلتَ : ذلك سائغٌ على مذهب سيبويه ، إذ كان عنده أنَّ فعل التعجُّب يكون من الثُّلاثىّ ومما كان على أفْعَلَ خاصَّة ، على ذلك حُكِىَ قولُهم : ما أعطاه للمال ، وما آتاه للخَير ، وإنما هما من الإيتاء والإعطاء ، لا من الأَتْىِ والعَطاء ، وكذلك قولُهم : ما أسداه للمعروف ، وذلك لكثرة وجوه الشَّبَه بين فَعَل وأَفْعَل ، ألا ترَى أنَّهما يتَّفقان فى معنًى ، وأنّه يُقالُ فى مفعولهما مفعولٌ ، وفى فاعلهما فاعل ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يقع فى مطاوَعة الآخَر ، إلى غير هذا من الشَّبَه . وكان أبو العباس المُبَرِّد[1] يقول : ذلك جائزٌ على حذف الزّوائد ، يعنى بناء التعجُّب من أفْعَل ويشبِّهه بقول الشّاعر[2] :

* يَكْشِفُ عن جِمَامِهِ دَلْوُ الدَّالْ[3] *

وقوله : * ومَهْمَهٍ هَالِكِ مَنْ تعَرَّجا[4] *

ويقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ . ويُجوِّز مثلَ هذا فى كل ما كان أصله ثلاثيًا على أىِّ بناء حَصَل . وكان يَتْبع مذهبَ الأخفش فى ذلك ، فاعلَمْه[5] .

---

(١) تتفق نسخ الأصول على ضبطه بهذا الضبط حيثما ورد .

(٢) هو العجاج . ملحقات ديوانه ٨٦ واللسان (دلا) .

(٣) رواية الديوان وسائر النسخ : « عن جماته » . والجمات : جمع جمة ، وهى المكان الذى يجتمع فيه ماء البئر ، والجمام ، بكسر الجيم هى كذلك جمع جمة . والشاهد فيه استعمال الدالى بمعنى المدلى . وقد رسم فى الأصل « الدالى » ، وهو تحريف . إذ أن أرجوزة العجاج هذه مقيدة بالسكون غير مطلقة بحركة .

(٤) وهذا الشطر أيضاً للعجاج فى ديوانه ٩ واللسان (هلك) .

(٥) كلمة « فاعلمه » انفردت بها نسخة الأصل .

٢٦٥

وقال مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ يرثى مالكًا أخاهُ(١) :

١ — لَقَدْ لَامَنِي عند القُبُورِ على البُكَا رفيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ

٢ — فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رأيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدَّوَانِكِ

٣ — فقلتُ له إن الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي فهـذا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

يقول : استَسرَفَ رفيقي بكائى عند القُبور ، واستفْظَعَ سَيَلان الدُّموع من عَيْنِي فقال مُوَبِّخًا : أمِنْ أجل قَبْرٍ لكَ بين اللِّوَى فالدَّوانِكِ تبكى عند كلِّ قَبْرٍ تَراهُ ؟ فأجبته بأنّ الحزنَ يُهَيِّجُ الحزْنَ فاتركنى ، فكلُّ قبرٍ أنتهي إليه يذكِّرنى قبرَ مالكٍ ، إذْ ليس لى فى قبر مالكٍ إلا مِثْلُ مالِى فى القُبور كلِّها .

(١) روى التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن هذا الشعر ليس لمتمم بن نويرة ، بل هو لابن جذل الطعان الفراسى ، من بنى كنانة ، يرثى أخاه مالكا . وأول الأبيات :

ثنى الحزن أرمام غشينا بمنشد ورملة قرى عن يمين الشنابك
فأسعدت أبكى مالكاً وكأنه بجثوته بينى وبين الشوابك
ولا صاحبى لم يبك بالناس ضاحك سلى وبالك شجوذ غير ضاحك
وقال أتبكى كان رمس رأيته لرمس مقيم بالملا والدوانك
فقلت له إن الشجا يبعث البكا فدعنى فهذا كله قبر مالك
ألم تره فينـا يقسم ماله وتأوى إليه مرملات الضرائك
فآخـر آيات مناخ مطيـة ورحل علافى على متن حارك
فلمـا استوى كالبدر بين شعوبه وأمت بهاديها فجـاج المهالك
بعينى قطامى تأوب مرقبا فبات به كأنه عـين فارك
أطفنا به نستحفظ الله نفسه نقول له مصاحباً غير هالك

ومتمم بن نويرة ، وأخوه مالك ، شاعران صحابيان من بنى ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وقد قتل « مالك فى حرب الردة ، قتله خالد بن الوليد فى ظروف مبهمة اختلف الرواة فيها ، فبعضهم يقول إنه قتله مرتدا ، وبعضهم يقول إنه أخطأ فى قتله . واستتبع ذلك اختلافهم فى تزوج خالد لامرأة مالك ، أو تسريه لها ثم ردها على أخيه متمم . وقد حقق ذلك الأستاذ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقال نشر بالمقتطف أغسطس سنة ١٩٤٥ وبالهدى النبوى شعبان سنة ١٣٦٤ . وانظر الإصابة ٧٦٩٠ ، ٧٧١١ والشعراء ٢٩٦ — ٢٩٩ والأغانى (١٤ : ٦٣ — ٦٩) . وقد ساق التبريزى أيضاً خبر مقتله مفصلا .

يُرِيدُ أنّ أسبابَ الْحُزْنِ ومهيِّجاتِه تتشابَهُ ، فكلٌّ منها يَقُومُ مَقَامَ الآخر ولا سِيَّما وقد توافقت فى الجنسيَّة . وقولُه « لتَذرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ » أى من أجله ، بعدَ قولِهِ « على البُكا » ، فيه من الفائدة المتجدِّدة التنبيهُ على إجابة الدُّموع له ، وانصبابِها بحَسَب مرادِه ، حتَّى لا جُودَ من الحِجَاج[1] فى شىء من الأوقات ، ولا تَوَقُّفَ من السَّيَلان فى حالٍ من الحالات ، وليس كلُّ باكٍ بهذه الصِّفَة . فكأنَّه لامَهُ على البكاء من أجل ما استَنكَره من إجابة الدُّموع السائلة له ، إذ كان ذلك بالضَّرر عليه أعْوَدَ ، وإلى بُطلان العَينِ بمكانه أدْعَى . وقال « السوافِك » والسَّفْكُ صَبُّ الدَّمِ والدَّمعِ ، فوصَفَ الدموعَ بها لأنّها جمع سافِكَةٍ ، والمرادُ ذواتُ السَّفْكِ . والسَّفْكُ أيضا : نَثْرُ الكلام . ويقال : رجلٌ سَفَّاكٌ للدِّماء ، وسَفَّاكٌ بالكلامِ ، أى يُثِيرُ الكلامَ ويَصُبُّ الدِّماء .

وقولُه « بين اللِّوَى فالدَّوانِك[2] » اكْتَفَى بَيْنَ باللِّوى ، وهو مُسْتَرَقُّ الرَّمْل لوقوعه على أماكنَ مختلفة ، ولمّا اكتفَى به جاز أن يَترتَّبَ عليه فالدَّوانِك . ولو رُوى « والدَّوانِك » كان جائزًا ، إلَّا أنّ اللِّوى حينئذ لا يُتصوَّرُ شمولُه لبِقاعٍ كما يُتصور فى أسماء الجموع شمولُها للكثير ، نحو القَومِ والرَّهطِ والعشيرة .

والشَّجَا : الُحزْن . يقالُ شَجاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا ، فَشَجِيَ يَشْجَى شَجًا . ومعنى يَبعَثُ يُهَيِّجُ ويُثِيرُ . على هذا قولُكَ بَعَثْتُه من مَنامِه ، والبَعْثُ فى الُجنْدِ . وقولُه « فهذا كلُّه قبر مالِك » أشار بهذا إلى الجِنْس كما هو ، كأنه أراد جنس القُبور ؛ يدُلُّ عليه إتْباعُه إيّاهُ بما يُفيدُ العُمومَ ، وهو قولُه كلُّه . ويقال

(١) حجاج العين بكسر الحاء ، هو العظم المستدير حولها .

(٢) رواه التبريزى : « بين اللوى فالدكادك » . وقال : « وذكر بعضهم أن اللوى هاهنا يقع على أماكن مختلفة . ولأجل ذلك جاز أن يترتب عليه فالدكادك . وإذا روى : فالدوانك ، لا يتصور وقوع اللوى على أماكن مختلفة ، والدوانك علم لموضع » .

ذَرَفَتْ عينُهُ ذَرْفاً وذَرَفاناً وذَرِيفاً . فأما قولُه « تَذْراف » فهو من باب ما تُكَثِّر فيه المصدرَ من فَعلتُ وتُلْحِقُه الزّوائدَ وتبنيه بناء آخر على غير ما يجب للفِعل ، قَصْداً إلى المبالغة والتكثير . وقولُه « الدّوانك » عَلَمٌ لموضِعٍ . [ودَنَك(١)] فيما أظنُّه مُهمَلٌ .

ومالكُ بن نُوَيْرَةَ قُتل فى الرِّدّة أيامَ أبى بكرٍ رضى الله عنه .

٢٦٦

وقال أبو عطاءِ السِّنْدىّ(٢) :

١ – ألاَ إنّ عَيْناً لم تَجُدْ يومَ واسِطٍ عليك بِجارِى دَمْعِها لَجَمُودُ

٢ – عَشِيّةَ قامَ النائحاتُ وشُقِّقَتْ جُيُوبٌ بأيْدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ

افتتح كلامَه بألاَ ، ثم أخذ يعظِّم أمرَ الفجيعة ، ويبيّن موقِعَها من النُّفوس ، وشدّةَ تأثيرها فى القلوب ، واشتراكَ الناسُ كافّةً فى الجزَع لها ، والهَلَع عليها ، فقال : إنّ عَيْناً لم تَتَسَخَّ بدمعِها الجارى على هذا المرثىّ يومَ واسطٍ لَجَمُودُ الحِجَاجِ على المصائب(٣) ، شديدةُ البُخْلِ بما فى شئونِها من الذخائر . والجمود : ضِدُّ الذّوْب ، واستعمالُه فى الدّمْع مجاز .

---

(١) ليست فى نسخة الأصل ، وهى فى سائر النسخ .

(٢) هو أبو عطاء أفلح بن يسار السندى ، مولى بنى أسد ، شاعر من مخضرمى الدولتين وكان فيه عجمة . وكان من شيعة بنى أمية ، توفى عقب أيام المنصور . الأغانى (١٦ : ٧٨ – ٨٤) والمرزبانى ٤٨٠ ، واللآلئ ٦٠٢ – ٦٠٣ والعينى (١ : ٥٦٠ – ٥٦١) والخزانة (٤ : ١٧٠) . والشعراء ٧٤٢ – ٧٤٦ . وهذه المرثية يقولها فى مقتل يزيد بن عمر بن هبيرة ، قتله المنصور بواسط سنة ١٣٢ . الطبرى (٩ : ١٤٦) وابن خلكان (٢ : ٣٦٩) واللآلئ ٦٠٢ . وذكر التبريزى أنه قتله غدراً بعد أن آمنه ، فلما حمل رأسه إليه قال للحرسى : أترى إلى طينة رأسه ! ما أعظمها ! فقال الحرسى : طينة إيمانه أعظم من طينة رأسه ! !

(٣) سبق مثل هذا التعبير فى الصفحة السابقة س ٤ .

وقولُه « عشيّةَ قام النائحـات » بدلٌ من قولِه « يومَ واسطٍ » ، وأسماء الزّمان تُضاف إلى الأفعال ، وهو توقيتٌ وتحـديدٌ ، إلاّ أنّ فيه بياناً لتفظيع الشان . وعلى هذا ضَبْطُهم لمدَى الأوقات فى ترتيب النوائب ، والتنبيه على ما يتقدّم من الأحداث أو يتأخر . ومعنى قيام النائحات ، تهيُّؤُها للنَّوْح . وعلى هذا قولهم : قامتِ السيوف ، وقولُه تعالى : ﴿ إذا قُمْتُم إلى الصَّلاة ﴾ . وأصلُ التَّناوُح : التقابُل ، يقال فى الجبَلَين المتقابلين : هما يتناوَحان . وقولُه « شُقِّقَتْ جُيُوبٌ بأيدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ » فالمأتَم : النِّساء يجتمعن فى الخير والشرّ ، وأصلُه من الأَتْم ، وهو التقاء المَسلَكين ، ومنه أيضاً الأَتُومُ فى صفة النِّساء . وهذا الكلام وإن كان اقتصاصَ حالٍ ففيه دِلالةٌ على تمَكُّنِ الجزَع بالمُصابِ من كافَّةِ النَّاس ، وتناهيهم فيما يُستدلّ به على شدّةِ تأثيره فيهم .

٣ــ فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِنَاء فرُبَّمَا أقَامَ بِهِ بَعْـدَ الوُفود وُفُودُ

٤ــ فإنَّكَ لم تَبعُدْ على مُتَعَهِّدٍ بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّراب بَعِيدُ

الروايةُ المختارة : « وربّما أقامَ به بعد الوفودِ وُفودُ » : بالواو ، وذلك أن الشَّرْطَ فى قوله « فإن تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناءِ » جوابه فإنَّك لم تَبعُدْ ، ويصيرُ : « وربّما أقامَ » بيان الحالِ فيما تقدَّم من رِياستِهِ وقْتَ تَوَفُّر الناس على قَصْده وزيارته . والمعنى : إنْ مُتَّ وصرتَ مهجور الساحةِ مرفوضَ الخدمة ــ وربّما كانت الوفود فيما مَضَى من حياتِكَ تَزدحمُ على بابِكَ ، وتتلاقى فى فنائك ــ فإنَّك السَّاعةَ لم تَبعُد على مَن يتعهَّـدُك ، ويرى قضاء حقِّك ، وإقامةَ الرَّسم فى واجبِك ، ثم قال مستدركا على نفْسِه : بلى كلُّ من تحت التراب فقَدْ بَعُدَ عن ذلك كلِّه . ويعنى بالوفودِ طُلّابَ الحاجات والمؤدِّين لواجبات الشُّكر ، إذ كان فى حياتِه المقصودَ والمشارَ إليه ، والمُصْطَنِـعَ لطوائف الناس بما يتفرّقُ من إحسانه فيهم .

وقوله « على مُتَعَهِّدِ » يريدُ متتبِّعَ المعهود بالحفظ لها ، ومَنعها من الضَّياع والدُّروس . وكما يُقالُ : تَعهَّدتُ الشَّىء إذا تأمَّلتَهُ هل بَقِىَ على ما عهدتَه ، يقال : تفقَّدتُ الشَّىء إذا تأمَّلتَهُ هل لِحقَهُ فقودٌ أمْ لا . وإذا رَوَيْتَ « فربما أقام به بعد الوُفود وفُود » ، وجملته جزاء للشرط ، يَصيرُ « فإنَّكَ لم تَبعُد » استئنافُ كلامٍ ، ويكون الفاء رابطَةً لجملةٍ على جُملةٍ ، والمعنى : إنْ هُجِرَ فناؤك السَّاعةَ لموتك فربَّما كان مَألفًا للوُفُود أيّامَ حياتِك . وفى طريقته قولُ الآخر :

فقد كان يَخشاكَ الكَمِيُّ ويَتَّقِى أذاكَ ويَرجُو نَفعَكَ المتضعضِعُ

فإن قِيلَ : الشّرط والجزاء لا يصِحّانِ إلا فيما كان مستقبلا ؛ ألا ترَى أنّه لا يجوز أن يقول القائل : إن خرجْتَ أمس أعطيتُك فيه دِرْهمًا ؛ لأنّ الوقت وقد انقضى لا يصحُّ تعليق الشّرط والجزاء به ، وإنما يُعلَّقان أبدًا بما يُستأنف من الزّمان ، حتّى يصحَّ من الفاعِل إيقاعُ فعله به واستحقاقُه الجزاء عليه . قلتَ : إنّ الأمر فى الشّرط على ما ذكرتَ إلّا فى لفظ كانَ ، لأنّهم جوّزوا أن يقولَ القائل: إن كُنتَ خرجْتَ أمْسِ إلى موضع كذا أعطيتُك اليومَ كذا ، والمعنى إن ثَبَتَ فى علمى وقوعُ الخروج منك أمْسِ . وجوّزوا هذا فى لفظة كانَ لقوّتهِ فى العبارة عن الأحداث ، فأمّا الجزاء فلا يجوز فيه مثلُ هذا لا بلفظةِ كان ولا بغيره . ويمتنع أن يُقال : إن تجئنى اليوم أعطيتُك أمْسِ ، على أن تكون العطيّةُ سَلَفًا فى جزائه على فِعلِه . فإن قيل : كيف جاز أن تقولَ على هذا « فربَّما أقامَ » وأقام بناء ماضٍ ؟ قُلتَ : إنّ الجواب فى قولِه « فربَّما » ليس بالفِعل ، وإنّما هو بجملةٍ من مبتدإٍ وخبرٍ ، كأنّه قال : ففناؤك ربّما أقامَ به بعد الوُفودِ وُفُودٌ فيما مَضَى . والفاء فى جواب الجزاء إنما تُجلَبُ إذا كان الجزاء غير موافِقٍ للشّرط ، وهو أن يكون مبتدأً وخبرًا ، لا فِعْلاً وفاعِلاً ، وإذا كان كذلك فقدْ

سَلِمَ اللَّفظُ وصار المعنى : إن أمسَى فِناؤك مهجُورًا السَّاعةَ فرُبَّما كان مألوفًا من قبل . والعَربُ تقول : هذا بذَاكَ . أى عِوَضٌ من ذاك . فأما وقوع الماضى بعد إنْ فلأنّ إن يَنقُله بكونه شرطًا إلى المستقبل ، وهذا كما يَنقُلُ « لَمْ » بناء المستقبَل إلى الماضى . وهذا ظاهِرٌ .

٢٦٧

وقال آخر :

١ ـ لو كان حَوضَ حِمارٍ ما شَرِبْتَ به إلاّ بإذنِ حمارٍ آخِرَ الأَبَدِ (١)

حِمَارٌ اسمُ أخيه ، وكان فى حياته يتعزَّزُ به فلا يعترِض عليه أحدٌ فيما يفعله ، ولا يَطْمع إنسانٌ فى اهتضام جانبِه وقَصْدِه فيما يختصُّه ، فلما أُصيبَ به استُلِين جانبُه ، واستُبيح حريمُه ، حتى إنه جَبَى ماءً فى حوضٍ ليسقِيَ إبلَه منه ، فجاء من زاحَمَهُ فيه واستَبدَّ به دونه ، فقال متلهِّفاً : لو كان هذا الحوضُ حوض حمارٍ أخى ما جَسَرْتَ على شُربِ مائه ، ولا على امتهانه فيه ، بل كنتَ تستأذنه ثم تُقْدِم عليه . وقوله « آخِرَ الأَبَدِ » يتعلقُ بقوله « ما شَرِبْتَ به » . فأما تكريره لفظةَ حمارٍ فهم يفعلون ذلك فى الأعلام وما يَجرِى مجراها ، وفى أسماء الأجناس ، ويكونُ القصدُ إلى التعظيم فى التكرير . على ذلك قولُه تعالى :

(١) أنشد ياقوت هذه الحماسية فى رسم (حوض حمار) ، وقال : « قيل حمار اسم رجل ضعيف ، وكانوا يتمثلون بضعفه . وقيل بل أراد الحمار بنفسه . يقول : لو كان حوضى حوض حمار ما شربت منه إلا بإذن الحمار ، لضعفك وذلتك وقلتك ، ولكان الحمار أعز منك ، ولكنك وجدت حوضى حوض رجل أهلك الدهر قومه ونظراءه فطمعت فيه ، فليس ما فعلته دليلا على عزك ، ولكنه دليل على ضعفى . كأنه يعرض قومه بذلك » .

﴿ رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[١] ﴾ وقولُ الشاعرِ[٢] :

لا أرَى الموْتَ يَسْبِقُ الموتَ شَيْءٌ ... نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفَقِيرَا

وقد قيل إنّ حِمارًا المذكور اسم رَجُلٍ كان يُضرَب به المثل فى الذُّل ، فلذلك ذكره . ولا يجوزُ أن يُرادَ به واحدٌ من الحُمُر ، لأنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يقولَ فى الثانى إلا بإذن الحمار ؛ لأن النَّكِرةَ إذا أُعيد ذِكرُها يجب تعريفُه بالألف واللام إشارةً إليه . على هذا كُتِبَ فى أواخِرِ الكُتبِ وقد قُدِّمَ فى أوائِلها : سَلامٌ عليك : والسلامُ عليك .

٢ـ لكنَّهُ حَوْضُ منْ أُودِى بإخْوتِهِ ... رَيْبُ الزَّمانِ فأمْسَى بَيضَةَ البَلَدِ

هذا الكلام فيه تنبيهٌ إلى شِدَّة فاقته إلى من يَذُبُّ عنه ، وتأكُّدِ جَزَعِه لما فاتَه من الصِّيانةِ بإخوتِه ، فيقول : لكنه حوضُ رَجلٍ فرّق الدهرُ بينه وبين من كان يَعتزُّ به ، ويَدفعُ الظلمَ والمضيمةَ عن نفسِه بمكانِه ، فأمسى لا ناصرَ له ، ولا دافِعَ دونَه ، كبَيضةِ البلد . وقد قيل فى بيضة البلد : إنه أراد بَيضَ النَّعام ، لأنها سيِّئة الهِداية ، فتَضَعُ بيضَها فى موضع ، ثم تَتركه ضَلالاً عنه فتَضِيع، وربما تذهَبُ وتَحضُن بيضَ غيرِها تظنُّ أنها بيضُها . وقد ضُرِبَ المَثلُ بها فقيل :

كتارِكةٍ بيْضَها بالعَراء ... ومُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخرى جَناحا[٣]

وقد قيل : إنّ بيضةَ البَلَدِ هى الكَمْأَةُ البيضاء تنشَقُّ عنها الأرض — وهى

(١) قرأ ابن كثير وحفص « رسالته » بالتوحيد ، وباقى السبعة « رسالاته » على الجمع . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٧) .

(٢) هو عدى بن زيد العبادى ، أو ابنه سوادة ، الخزانة (١ : ١٨٣) وكتاب سيبويه (١ : ٣٠) .

(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) وانظر ثمار القلوب ٣٥٣ ، والدميرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .

الفَقْع — فتَطَؤُه الماشيَةُ ، وتَنقُرُه العافية[1] ، ولذلك قيلَ : « أذلُّ من فَقْعٍ بقاعٍ » . وكما ضُرِبَ المثلُ ببيضة البلد في الذُّلّ ضُرِبَ المثلُ بها في العِزّ أيضاً . وقد مَضَى ذكرها . وأنشدني بعضُهم لأخت عَمرِو بن عَبْدِ وَدٍّ[2] ترثى أخاها ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قاتِلَه :

لو كان قاتِلُ عَمرٍو غيرَ قاتِلِهِ بَكَيْتُه ما أقامَ الرُّوحُ في جَسَدِي

لكنَّ قاتِلَهُ مَن لا يُعابُ به وكان يُدعى قديمًا بيضةَ البَلَدِ

والمراد إذا مُدِح أنه لا نظيرَ لها ، ولا أُختَ معها ، فالنَّعامةُ تُطِيفُ بها إشفاقًا عليها . ومما يُحتجُّ به في الذَّمّ قولُ الآخَر :

إنّ أبا نَضْلَةَ لَيْسَ من أحَدْ ضَلَّ أباه فهو بيضةُ البَلَدْ

وبَيضةُ الإسلام : جماعتهم . ويقال تفرَّى بيضةُ الأرض عن بنى فُلانٍ ، إذا تناسَلوا وكثُروا . وبيضة الخدر قد تقدَّمَ القولُ فيه[3] .

٣ـ لو كانَ يُشْكَى إلى الأمواتِ مالَقِيَ الـ أحياء بَعْدَهُمُ من شِدَّةِ الكَمَدِ

٤ـ ثم اشتَكيتُ لأشكانِي وساكِنُه قَبْرٌ بِسِنْجَارَ أو قَبْرٌ على قَهَدِ

قَصْدُه إلى بيانِ بِرِّ أخيه به أيّامَ حياتِهِ ، فقال : لو جرَت العادةُ بتكلُّف الأحياء الشَّكوى إلى الأموات ، وإنهاءِ ما يقاسونه من الجزَع فيهم ، ومن النَّوائب بفقدهم وبَعْدَهُم[4] ، ثم كان يَنفع ذلك أو يُثمِر إصغاء وإجابةً ،

---

(١) العافية : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير . انظر ص ٨٢٣ س ٢ .

(٢) كذا على الصواب في ل والتيمورية . وفى الأصل : « عمرو بن معديكرب » وفى م : « عمرو بن ود » كلاهما محرف . وكان مقتل عمرو بن عبد ود فى غزوة الخندق ، قتله على عليه السلام ، وقتل كذلك ابنه حسل بن عمرو . السيرة ٦٩٩ – ٧٠٠ جوتنجن . وود بفتح الواو : صنم لهم ، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم .

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٦٧ ص ٥٠٥ .

(٤) كذا ورد ضبطها فى جميع النسخ .

وجريتُ أنا على عادتهم في مُبَاثَّةِ أخي، والإفاضةِ في الشَّكْوِ إليه، لأرضاني وأزال شكوايَ.

وقوله «أشكاني» يقال شَكوتُه فأشكاني، كما يقال طَلبتُ منه كذا فأطْلَبَنِي، وعَتَبْتُ عليه فأعتَبَنِي. وقوله «وساكنُه قبرٌ بِسنجارَ أو قَبْرٌ على قَهَدِ»، قدَّمَ المعطوفَ وهو ساكنُه على المعطوفِ عليه، وهو قبرٌ بسنجار. ومثله قوله:

* عَلَيْكِ ورحمةُ الله السلامُ(١) *

وإنما يَحسُن هذا إذا كان العاملُ مُقدَّماً، وهو في الفعل والفاعل أكثرُ منه في المفعول، فأمّا المجرور فلا يجوز ذلك فيه، لا يجوز أن تقولَ مَررتُ وعَمْرٍو بزيْدٍ إذ كان فيه تقدُّم المعطوف على المعطوف عليه وعلى العامل فيه. والكَمَدُ: حُزنٌ وهَمٌّ لا يُستطاعُ إمضاؤُه، وقال الدُّرَيْدِيّ: هو مَرَضُ القَلْبِ من الحزن. يقال كَمِدَ يكمَد كَمَدًا، ورأيته كامِدَ الوجهِ وكَمِدَ الوجه، إذا بان به أثرُ الكَمَد؛ وأكمَدَهُ الحزن إكمادًا.

٢٦٨

وقال رَجلٌ من خَثْعَمَ(٢):

١ — نَهِلَ الزَّمانُ وعَلَّ غيرَ مُصَرِّدِ   مِن آلِ عَتَّابٍ وآلِ الأسْوَدِ

(١) البيت لا يعرف قائله، وقيل: هو للأحوص. الخزانة (١: ١٩٢) وصدره:

* ألا يا نخلة من ذات عرق *

(٢) ابن جنى في المبهج ٣٩: وخثعم اسم قبيلة غير مصروف. وهو في الأصل اسم بعير. والخثعمة: تلطخ الجسد بالدم. ويقال: إنما سميت بذلك لأنهم نحروا بعيراً فتلطخوا بدمه وتحالفوا. فخثعم على هذا في الأصل ماض كدحرج، نقل فسميت القبيلة به. ويجوز أن يكون مصدراً حذفت منه الهاء عند النقل، وأصله خثعمة». وخثعم هو أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن —

٢ — من كُلِّ فَيَّاضِ اليَدَيْنِ إذا غَدَتْ   نَكْبَاءُ تُلْوِى بالكَنِيفِ المُوصَدِ

النَّهَلُ : الشُّرْبُ الأوّل . والعَلَلُ : الشُّرب الثانى . والتَّصريد : تقليل الشُّرب ؛ يقالُ إناءٌ مُصَرَّدٌ ، إذا كان مايحويه دُونَ الرِّىِّ ، ويقالُ صَرَّدَ عَطَاءَهُ إذا نَزَّرهُ . وقَصْد الشَّاعِرِ إلى بيان تأثير الزَّمان فى الذين ذكرهم حالاً بعد حالٍ ، ووقتاً بعد وقتٍ ، وأنَّهُ استوفَى منهم ماأراد دَفعةً بعد أُخرى ، وثانيةً بعد أُولى ، غَيْرَ مُقَلِّلٍ ولا مُطَفِّف .

وقوله « من كلِّ فيّاض اليدين » بدلٌ من قوله « من آل عتّاب » ، وقد أعادَ العاملَ فيه ، وهذا يكثُر فى المجرور . على هذا قولُ الله تعالَى : ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ ألا ترَى أنه أعاد اللام كما أعادَ هذا الشَّاعر مِنْ . وهذا التكرير تأكيدٌ للإبدال ، وتنبيهٌ على أنّ الثانىَ من الأوّل . والفيّاض : الكثير السَّيلان ، وهو بناء المُبالَغة . والنَّكباء : ريحٌ تنكَّبتْ عن مَهابِّ الرِّياح الأربع . وإذا كَثُرت النَّكْباواتُ واشتدَّ هُبُوبُها شَمِلَ القَحط : ويقال: إنَّهُ لَمِنكابٌ عن الحقِّ ، أى كثير العُدول عنه ، والأنكب البعير كأنّهُ يمشى فى شِقّ ، ومعنى تُلْوِى : تذهب به . والكَنِيف : الحظيرةُ من الشَّجر ؛ والمُوصَدُ : الذى جُعِلَ له إصادٌ إحكاماً له ، والإصادُ : عَتَبةُ الباب ، والجميع الأُصُدُ . وفُسِّرَ قولُه عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أى مُطْبَقَةٌ . ويُهْمَزُ ولا يهمز . وقيل : الوصيد الفِناء . والمعنَى أنَّ الزَّمانَ ألحَّ عليهم ، وتناولَ منهم الأفضلَ فالأفضلَ تَناولاً لا تقليلَ فيه ولا تعذير ، فَذَهَبَ منهم بكلِّ رَجُلٍ

— قحطان . نهاية الأرب (٢ : ٣١١ وما قبلها) . على أن البيت الرابع من هذه الحماسية نسبه ياقوت فى رسم (البقيع) إلى عمرو بن النعمان البياضى ، فى أبيات أخرى قالها يرثى قومه ، وكانوا قد دخلوا حديقة من حدائقهم فى بعض حروبهم ، وأغلقوا بابها عليهم ثم اقتتلوا ، فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضاً . ونسب الجاحظ هذا البيت الرابع أيضاً إلى حارثة بن بدر ، فى البيان (٣ : ٢١٩ ، ٣٣٦) . والبياضى : نسبة إلى بياضة بن عامر بن زريق بن عبد بن حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج . نهاية الأرب (٢ : ٣١١) .

سَخِيٍّ واسعِ المعروف إذا اشتدّ الزَّمانُ وأَسنَتَ النّاس. وقول الجَعْدىّ:

سأَلَتْنِي عن أُناسٍ هَلَكُوا ... شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأَكَلْ[1]

ليس مما قالَهُ فى شىء، وإنما يريدُ مَرَّ عليهم دهرٌ مديد وزمانٌ طويل، فشَرِبَ النَّاسُ بعدهم وأَكلُوا ونَسوا أولئك. وهذا مثل.

٣ — فاليَوْمَ أَضْحَوْا للمَنُونِ وَسِيقَةً ... من رائحٍ عَجِلٍ وآخَرَ مُغْتَدِ

٤ — خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غَيْرَ مُدافَعٍ ... ومِنَ الشَّقاءِ تفَرُّدِى بالسُّؤدَدِ[2]

قولُه «فاليَوْمَ» أشار به إلى الزَّمانِ الحاضر المُتَّصل بما بعده، غيرَ محصورٍ بنهاية، ولا مضبوطٍ بذِكرِ غاية، وهذا كما يُقال: فُلانٌ بالأمسِ كان يفعلُ كذا وهو اليومَ رئيسُ بَلَدٍ. فذِكرُ الأمسِ واليومِ لاتّصال الوقتين، وتقريب المَدَى بين الماضى منهما والحاضر. والوسِيقَةُ: الطَّرِيدةُ. ونَبَّهَ بهذا الكلامِ على أنّ الدَّهر بَعْدُ جارٍ على عادتِه المستأنَفةِ معهم فى الأخْذ منهم، والذّهابِ بهم. وقَوْلُه «من رائحٍ عَجِلٍ وآخَرَ مُغْتَدِ» بيانٌ لذَهاب الواحد منهم فى إثْرِ الآخَر. والعَجِلُ: المستعجِل. ويقال عَجِلٌ بكسر الجيم وعَجُلٌ، ومثلُه العَجْلان.

وقوله «خَلَتِ الدِّيار فسُدْتُ غَيْرَ مدافَعٍ» يُروى «غير مُسَوَّدِ[3]».

---

(١) وكذا جاءت نسبته فى أمالى المرتضى (١ : ٦٦) واللسان (١٣ : ٢٢) ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٢٨) إلى دهمان النهرى.

(٢) كذا فى التيمورية، وهو ما يقتضيه التفسير ما بعده. وفى سائر النسخ: «مسود».

(٣) مسود، كذا وردت فى جميع النسخ بالتنوين فى هذا التفسير وفى متن الأصل، ل، م. وهو جار على مذهب من لا يعترف بالتصريع إلا فى أول بيت من القصيدة. والحق أن التصريع جائز فى كل بيت. قال ابن رشيق فى العمدة (١ : ١١٥): «وقد كثر استعمالهم هذا حتى صرعوا فى غير موضع تصريع، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة».

ومعنى « خَلَتِ الدِّيار » ماتَ الرُّؤساء الذين لكل واحد منهم بَيتٌ ودارٌ يُنسَبُ إليه ، ويُتَبَجَّحُ به . وإذا رَويتَ « غير مُدَافِعٍ » يكون حالًا ، كأنه سادَم ولا مُنازعَ له ولا مُتأبِّىَ عليه . وإذا رويت « غيرَ مُسَوَّدِ » جاز أن يكون غير مفعولاً من سُدتُ ، فيكونَ مثل قول الآخر :

وَضَعَ الدَّهْرُ عليهم بَرْكَهُ ... فأراه لم يُغادِرْ غيْرَ فَلّْ

فيكون المعنى : سُدتُ مَن لا يَصلُح أن يُنسبَ إلى السِّيادة فى حال ؛ لأنَّ مَن استُصلِحَ لها ، أو ذُكِرَ فى عِدَاد الرُّؤساء إذا عُدُّوا ، ماتوا وبادُوا . وجاز أن يكون حالاً ، ويكون المعنى سُدتُ قبلَ أوانِ سِيادتِى ، أى سدتُ ولم أُسَوَّد بعدُ . وقولُه « ومن الشَّقاء تفرُّدِى بالسُّودَدِ » ، يؤكد المعنى الذى ذكرناه أوّلًا فى غيْرَ مُسَوَّد ، وإنما شَقِىَ بزُعمِهِ لأنّه فُجِعَ برؤساء عشيرته ، وفى ذاك ضَعفُهُ وتراجُع رِياسته .

٢٦٩

وقال محمَّدُ بن بَشِيرٍ الخارِجىُّ[(١)] :

١— نِعْمَ الفَتَى فَجَعَتْ به إخوانَهُ ... يَوْمَ البَقيعِ حَوَادِثُ الأيامِ

٢— سَهْلُ الفِناء إذا حَلَلْتَ بِبابِهِ ... طَلْقُ اليَدَيْنِ مُؤَدَّبُ الخُدّامِ

(١) هو أبو سليمان محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل الخارجى ، نسبة إلى بنى خارجة ابن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية ، وكان منقطعا إلى أبى عبيدة بن عبد الله بن ربيعة القرشى ، وإلى يزيد بن الحسين وابنه الحسن . وقد رثى أبا عبيدة بقصيدة رائية فى الأغانى . وكان يبدو فى أكثر زمانه ، يقيم فى بوادى المدينة فلا يكاد يحضر مع الناس . الأغانى (١٤ : ١٤٢ — ١٥٥) والخزانة (٤ : ٣٧) . قال التبريزى : « فى نسخة : يسير الخارجى ، وفيها يسير فعيل من اليسر ، وبشير هو الوجه » .

٣ — وإذا رأيتَ شقيقَهُ وصديقَهُ لم تَدْرِ أيُّهمَا ذَوُو الأرْحامِ(١)

المحمود : الذى يَطلبه نِعْمَ بالاختصاص من بين جنسه محذوفٌ ، كأنه قال نِعْمَ الفتَى فَتًى فَجَعتْ به إخوانَه . والضمير من قوله «به» عائدٌ إلى المحذوف ، والجملة من الفعل والفاعل قد خَصَّصتْه حتّى صار كالمعرفة . ومثلُه قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ ﴾ كأنه قال : نعم العبدُ أيوب . والحذف فى مثل هذا المكان يصلحُ إذا كان المحمود مشهورَ الشّأن ، معلوماً أمرُه من القرائن فى الكلام . وارتفع « حوادثُ » بفعِلها وفِعلُها فَجَعتْ ، وذكر الإخوان تنبيهٌ على من آخاهُ من الأجانب والقرائب جميعاً .

وقوله « سَهْلُ الفناء » ارتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ، وجعل فِناءه للزُّوّار والجندينَ والعُفاةِ سَهلا ، وذلك مَثلٌ لكثرة إحسانِه إليهم ، وحُسنِ توفُّرِه عليهم . ومعنى « مؤدِّب الخُدّام » تنبيهٌ على اقتدائهمْ بمولاهم فى تَفَقُّد الوُرّاد وإكرامِهم ، والمبالغة فى التخفُّف لهم والسّعى فى مصالِحهم .

وقوله « وإذا رأيت شقيقهُ وصديقَهُ » فالشقيق إشارة إلى إخوان الوِلادِ(٢) ومن جرَى مَجراهم ، ممن شاركه فى نَسَبِه حتى كأنه شُقّ منه . والصديق إشارةٌ إلى إخوان المودّة ومَنْ ضَرَب بسهمٍ فى الانصباب إليه ، والاعتزاء إلى جَنبتِهِ والاعتماد عليه . ثم قال « لم تَدْرِ أيهما ذوُو الأرحام » تنبيها على تساويهما فى المحلّ عنده ، وشُمول حُسن التّفقُّد لهم ، حتى تَرَى كلاًّ منهم يُدِلُّ بمثلِ إدلال صاحبِه ، لا تمايُزَ ولا تبايُن . وفى طريقته قوله :

فما زال بى إكرامُهم واقتفاؤهم وإلطافُهم حتّى حسِبْتُهُمُ أهلِى(٣)

---

(١) التبريزى : « صديقه وشقيقه » .

(٢) هكذا وردت فيما عدا الأصل . وفى الأصل : « الولادة » وهما بمعنى واحد .

(٣) البيت لبكير بن الأخنس ، كما سبق فى حواشى ص ٣٠٣ ، وهو من أبيات الحماسة .

وأشار بقولِهِ : « شقيقَةُ وصديقَةُ » إلى الجنسين ، وفائدتهما الكثرة لا الوَحدة . ألا ترَى أنَّهُ قال : لم تدر أيُّهما ذوُو الأرحام ، أى أيُّ الجنسين .

٢٧٠

وقال أيضاً :

١ — طَلَبْتُ فَلَمْ أُدْرِكْ بوجْهِي وليتني قَعَدتُ فلم أبْغِ النَّدَى بَعْدَ سائبِ

قوله « بوجهى » تعلّقَ الباءُ منه بطَلَبْتُ ، والمعنى ببَذْلِ وجهى ، كأنَّه تَوَلَّى الطَّلبَ بنفسه ، وابتَذلَ وجهَه وجاهَه فيه ، فلم يُدرِكْ المطلوب . ومفعول « طَلبْتُ » محذوف دَلَّ عليه قوله « فلم أبْغِ النَّدَى » والتَّقدير : طلبْتُ بعد سائبِ النَّدَى ببذْلِ وجهى فلم أنَلْهُ ، وليتنى قعَدتُ فلم أبْغِهِ ، ولا يمتنع أن يتعلّق الباء من قوله بوجهى بأدْرِكْ ، وهو المختار عند أصحابنا البصريِّين ، ويكون التقدير : طلبْتُ النَّدَى فلم أُدْرِكْه ببَذلِ وجهى . وقوله « بعد سائب » يجوز أن يكونَ العامل فيه طَلبتُ وكلُّ واحدٍ من الأفعال المجتمعة ، وهى : طلبْتُ وأُدرِكُ وقَعَدتُ ولم أبْغِ . والمعنى : بعد موت سائب .

٢ — ولو لَجَأَ العَافِى إلى رَحْلِ سائبٍ ثَوَى غَيْرَ قالٍ أو غَدَا غَيْرَ خائِبِ

ألَمَّ فى هذا البيت بقول الآخر(١) :

حتى يكونَ عزيزًا من نُفوسِهِمُ أو أن يبينَ جميعًا وهو مُختارُ

لأن معنَى « من نفوسِهم » مقيما فيهم ، وكالواحِد منهم . يقول : ولو التجأ العُفاةُ هاربين من الزَّمان ، ونَكَد الحدَثَان ، إلى فِناء هذا المرثىّ ، أقاموا مُكَرَّمين معظَّمين ، لا يجتوُونهُ ولا يُبغِضونَهُ ما داموا مقيمين ، وإذا أرادوا

(١) هو يزيد بن حمان الكونى ، من الحماسية ٩٣ ص ٣٠١ .

الانصرافَ عنه اغتدَوْا غيرَ محرومِينَ ولا يائسين . وانتصَبَ « غَيْرَ » على الحال وأشار بالعافى إلى الجنْس ؛ ويقال عَفَاهُ واعتَفاهُ ، إذا طَلَب مَعروفَه ، فأعفاهُ أى أعطاهُ . ومنه عافية السِّباع والطَّير .

٣ ــ أَقُولُ ومايَدْرِى أُناسٌ غَدَوْا به إلى اللَّحْدِ ماذا أَدْرَجُوا فى السَّبَائبِ

موضع « ماذا أَدْرَجُوا » نَصْبٌ على أنَّه مفعولٌ لأقولُ ، ويجوز أن يكون ما مَعَ ذا بمنزلةِ اسمٍ واحدٍ وأدرجوا فى موضع الخبر ، ويجوز أن يكون ما وحدَهُ اسماً وذَا خَبرُه بمنزلة الذى وأدرجوا من تمامِه . والمعنى : أقول متلهِّفاً فِعْلَ مَن أعياهُ الأمر فالتحَفَ باليأس ، وتَعلَّلَ بكلمة الحسرةِ بعد الفوات : أىُّ رَجُلٍ أُدرِجَ فى الكَفَنِ والغادونَ به إلى الألحادِ لا يعلمون . وهذا تفظيعٌ للشَّأن ، وتعظيم لحادثِ الرُّزْء ، وقولُه « أُناسٌ » أشار به إلى الجماعة والطَّائفة ، والألف فيه زائدة بدلالة قولهم أَنَسٌ وأَنَاسِىُّ وإنسٌ . وإذا كان كذلك فقولُه ناسٌ منه أيضاً ، والألف زائدة ، وفاء الفِعْل محذوفة . ومن ذَهَبَ إلى أنَّ لفظةَ الناس ليست من أُناسٍ فى شىء ، وأنّ الألفَ فيه منقلبةٌ عن حرفٍ أصلىّ فقد أخطأ . والسبائب : جمع سِبِيبةٍ ، وهى الثوبُ الأبيَضُ ، العمائمُ وغيرها . وكذلك السِّبُّ . قال الشاعر[1] :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفَرا[2] *

٤ ــ وكُلُّ امرِىءٍ يَوْمًا سَيَرْكَبُ كارِهاً على النَّعْشِ أَعْنَاقَ العِدَى والأقارِبِ

العِدَى : الغُرباء ، وانتصبَ كارهاً على الحال من سَيَرْكَب ، وموضع على

---

(١) هو المخبل السعدى . إصلاح المنطق ٤١١ واللسان (سبب ، حجج) . وأنشد البيت فى البيان (٣ : ٩٧) بدون نسبة .

(٢) صدره : * وأشهد من عوف حلولا كثيرة *

النَّعْشِ منصوبٌ على الحال مِمّا في قوله كارِهًا ، ويجوز أن يكون صفة لـكارِهٍ ، كأنَّه قال : يركَبُ كارهًا حاصلاً على النَّعْشِ أعناقَ العِدَى يومًا ما . وقال الخليل : قومٌ عِدًى : بُعُدٌ عنك وغُرباء ويقال قومٌ أعداء أيضًا بهذا المعنى . والعِدَى : البُعْد نفسُه .

٢٧١

وقال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة(١) :

١ — نَصَحْتُ لعارضٍ وأصحابِ عارضٍ ورَهْطِ بنى السَّوْدَاءِ والقَوْمُ شُهَّدِى(٢)

٢ — فقلت لهم ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُم فى الفارِسِىِّ المُسَرَّدِ

يقال نَصَحْتُه ونَصَحْتُ له ، نُصْحًا ونَصِيحةً ونَصَاحةً ونَصَاحِيَةً ، وهو ناصِحُ الجَيْبِ ، أى ناصحُ الصَّدْرِ . وقوله « والقَوْمُ شُهَّدِى » فائدتُه أنَّهم

---

(١) دريد بن الصمة بن الحارث بن بكر ، من بنى جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن من فخذ منهم يقال لهم بنو غزية . ودريد تحقير أدرد على الترخيم . والأدرد : الذى كبر حتى سقطت أسنانه فصار يعض على درده . والصمة : الشجاع ، وهو لقب لأبيه ، واسمه معاوية . ودريد شاعر شجاع فارس من ذوى الرأى فى الجاهلية . وشهد يوم حنين مع هوازن وهو شيخ كبير . وقال :

يا ليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع

وقتل دريد يومئذ فيمن قتل من المشركين . المعمرين ٢١ — ٢٢ والاشتقاق ١٧٧ — ١٧٨ والأغانى (٩ : ٢ — ١٩) واللآلى ٣٩ — ٤٠ والمؤتلف ١١٤ والخزانة (٤ : ٤٤٢ — ٤٤٧ / ٣ : ٤٦١ — ٤٦٢) والسيرة ٨٤١ — ٨٤٢ جوتنجن والشعراء ٧٢٥ — ٧٢٩ .

(٢) أبيات هذه الحماسية ، هى من الأصمعية رقم ٢٨ (طبع المعارف) ، وكان من خبر الشعر ما رواه التبريزى أن عبد الله — وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد ، كان يسمى عارضا ، وعبد الله ، وخالدا ، وكان يكنى أبا أوفى ، وأبا ذفافة ، وأبا فرعان — كان عبد الله هذا أسود إخوته ، فغزا ببنى جشم وبنى نصر لبنى معاوية بن بكر بن هوازن ، وغنم مالا عظيما ، بمنعرج اللوى ، فمنعه دريد عن اللبث وقال إن غطفان ليست بغافلة عنا ! فحلف أنه لا يريم حتى يقسم ، فلحقت بهم عبس وفزارة وأشجع ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . وهو قوله : « فجئت إليه والرماح تنوشه » .

كانوا له حاضرين ومضطرِّين من كلامِه وإشارتِه وبَذْلِه النُّصْح لهم، إلى ما كان أدّى إليه مراسلتُهم فى ذلك وهم غائبون، إذْ كان يَبِينُ لهم منه ما كان يَبِين وقتَ الحضور.

وقوله «ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ» يجوز أن يكون معناه: ظُنُّوا كلَّ ظَنٍّ قبيحٍ بهم إذا غزَوكم فى أرضكم وعَقَر ديارَكم[1]. ويجوز أن يكون معنى ظُنُّوا أيقِنوا، لأن الظَّنَّ يستعمل فى معنى اليقين. على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿الذين يَظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

وقولُه «سَرَاتُهم»، يعنى به رؤساءهم وخيارَهم، وقد مضى القولُ فى بنائه[2]. والفارسىّ المُسرَّد، يَعنى به الدُّروع. والسَّرد: تتابُع الشىء، كأنه أراد فى الدُّروع تتابُعَ الحلَقِ فى النَّسجِ. لذلك قيل فى الأشهر الحُرُم: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وواحِدٌ فَرْدٌ. وقال الخليل: السَّرْدُ: اسمٌ جامعٌ للدُّروع وما أشبهَها من عَمَل الحلَقِ، لأنه يُسْرَدُ فيُثْقَب طرَفَا كلِّ حَلْقةٍ بالمِسمار، وفى القرآن: ﴿وقَدِّرْ فى السَّرْدِ﴾، أى اجعلْ المساميرَ على قَدْر خُروق الحلَق، لا يَغلظِ المسمارُ فيتخرق، أو يَدِقُّ فيَقْلَقَ. ومعنى البيتين: بذَلتُ نُصْحى لهؤلاء القومِ بلسانى وقوْلى فيما صَلَحَ فيه التخاطُبُ، وبإشارتى وتعريضى، وهم لى حاضرون يَسْمَعون ويعُون، وقلتُ لهم: إنّ الأعداء لكم مترصِّدون، وإليكم قاصدون، وعَدَدهم وعُدَدهم تامّة، فوسِّعوا مجالَ الظَّنِّ السَّيِّئ بهم إذا تمكّنوا منكم، أو أيقِنوا بقَصْدِهم، على الطريقتين اللّتين بيّنّا.

٣ — فلمّا عَصَونى كنتُ منهم وقد أرَى غوايَتَهُم وأنّنى غيرُ مُهْتَدِ

(١) اتفقت النسخ على ضبط «عقر» بالفتح، وهو يقال بالضم والفتح، الضم لغة الحجاز، والفتح لغة نجد. وعقر الدار: أصلها أو وسطها.

(٢) انظر البيت ٥ من الحماسية ٢٥٨ ص ٧٦٧.

لمّا عَلَمٌ للظّرف ، وهو لوُقوع الشيء لوقوع غيرِه ، فيقول : لما أصرُّوا على ما كانوا عليه ، واطّرحوا نُصْحى ومَشُورتى عليهم ، تَبِعتُ رأيَهم ولم أتفرَّدْ عنهم[١] وأنا أرى جَهلَهُم ، وأتصوّر عاقبةَ لَجاجِهم ، وأنى ضالٌّ عن الطّريق عادِلٌ عن الصّواب فى اتّباعى لهم ، لكنّى لم أستَصْلِحْ لنفسى الخروجَ منهم ، والتّباعُدَ عنهم . وقوله « كُنتُ منهم » مِنْ هذه تُفيدُ تبيينَ الوِفاق وتَرْكِ الخلاف ، وأنّ الشّأنينِ واحِدٌ لا تمايزَ بينهم ولا تبايُن . وهم يقولونَ فى النّفىِ أيضًا . لستُ مِنْكَ ، أى انقطَع ما بيننا ، فلا خِلاط ولا اشتراك . على هذا قول الشاعر[٢] :

* فإنّى لَسْتُ منكَ ولستَ مِنّى[٣] *

فأمّا قولهم : أنتَ منّى فرسخان ، قال[٤] شيخُنا أبو علىّ [الفارسىُّ رحمه الله[٥]] هذا كلامُ الذّليل مع المُستذِلّ ، والمعنى : أنتَ فى هِدايتى مَدَى الفَرسَخين . وإلى غايتهما ، وقد خالَفَ هذه الطريقة حُصَين[٦] بن المُنذِر فقال :

أَمَرْتُكَ أمْرًا حازِمًا فعَصَيْتَنِى فأصْبَحْتَ مَسلوبَ الإمارَةِ نادِمًا
فما أنا بالباكِى عَلَيْكَ صَبابةً وما أنا بالدّاعى لِتَرْجِعَ سالما

٤ ــ أمَرْتُهُمُ أمْرِى بمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلّا ضُحَى الغَدِ

قوله « أمرى » يجوز أن يُريدَ المأمورَ به ، ويكون الأصل : أمرتُهُمْ

(١) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « ولم أنفرد عنهم » .
(٢) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ص ٧٩ .
(٣) صدره : * إذا حاولت فى أسد فجوراً *
(٤) كذا سقطت فاء الجواب فى جميع النسخ ، على ما جاء فى قول الله : « وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » .
(٥) هذه التكملة ليست فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٦) كذا ورد فى النسخ بالصاد المهملة ، وصوابه بالضاد المعجمة ، انظر المؤتلف ٨٨ والخزانة (٢ : ٨٩ ــ ٩٠) والطبرى (٦ : ١٨) وتهذيب التهذيب .

بأمْرِى ، فحذَف الجارّ ووصل الفعلُ بنفسه . ويجوز أن يكون مصدرَ أمَرتُ ، وجاء به لتأكيد الفعل . وقولُه « بمنعَرَج اللِّوَى » تحديدٌ وتوقيتٌ ، وبيانُ أنّ ذلك كان من همِّه حتى اختارَ له الموضع الذى كان أوفقَ عندَهُ ، والوَقتَ الذى كان أعْوَدَ عليهم فيما أمرَهم به . واللِّوَى : مُسترَقُّ الرّمل . ومُنعَرَج : منعطَف . وقوله « فلم يستبينوا الرُّشد » أى لم يتبيّنوه فى الحال حتى جاء الوقتُ المقدَّر له . وذِكْر الغَدِ يَكثُر فيما يتَراخى من عواقب الأمور إذا أحيلَ عليه البيانُ والظُّهور فيه . والمعنى : فى المستأنَفِ من الوقتِ . وهذا زاد عليه «ضُحَى» لأنه من النهار أضوأ ، فكأنّ المعنى : لم يبِنْ لهم ما دعوتُهم إليه إلّا فى الوقتِ الذى لا لَبْسَ فيه ولا اعتراضَ شَكّ . ومِثلُه قولُ المتلمِّس :

عَصَانى فَلَمْ يَلْقَ الرَّشَادَ وإنّما ... يُبَيِّنُ عن أمرِ الغَوِىِّ عواقِبُهْ

٥ — وهَلْ أنَا إلَّا من غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غَزِيّةُ أَرْشُدِ[1]

يُقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ رَشَدًا ورشَادًا ، ورشَدَ يَرْشُدُ ؛ فلَكَ أن تضمّ الشِّين من ترشد وأن تفتحها . وقوله « هل أنا » هو فى مذهب النّفى وإن كان استفهامًا ولذلك تبِعَهُ إلّا ، كأنّهُ قال : ما أنا إلّا من غَزِيّةَ فى حالَتَىِ الغىّ والرّشاد ، فإن عدَلُوا عن الصّواب عدلتُ معهم ، وإن اقتحموه اقتحمت بهم . وغَزِيّةُ هو رهطُه . فإن قيل : إنّهُ كرّر معنًى واحدًا فى هذه الأبيات مرّتَيْنِ ، لأنّ قولَهُ « إن غَوَتْ غَوَيْتُ » قد اشتَمل عليه « كُنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأنّى غير مُهتَد » . قلتُ : فى الأوّل اقتصّ الحالَ التى دارَ عليها معهم ، وفى الأمرِ بقيّةٌ ، وللنُّصْحِ تَوَجُّهٌ ، وأنّهُ اجتهَد فى رَدِّهم إلى ما هو أردُّ عليهم وأنفعُ لهم ، فلما عَصَوْه فى ذلك أمسكَ عنهم جاريًا فى الطَّريق الذى يسلكونَهُ وإن عَلِمَ

(١) غزية ، بفتح الغين . ابن دريد فى الاشتقاق ١٧٧ : « ومن قبائل بنى جشم بنو غزية . والغزية فعيلة من الغزو . والغزى : الجماعة من القوم يغزون » .

الخطأ فيه . وقولُه « وهل أنا إلّا من غزيّةَ » بيانٌ لِمَا دُفِعُوا إليه بعد تبيُّن الرّشاد لهم ، وابتُلُوا به من مقاساة سُوء العاقبة لسوء اختيارِهم ، فقال : وما أنا إلا شَرِيكٌ لهم فيما أثمرَ لهم جهلُهم وغَوايتُهم كما كنتُ شريكاً لهم لو رَشِدُوا فيما كان يثمِرُ لهم رشادُهم . فهو فى الأوّل ذَكَرَ اتّباعَه لهم بعدَ النُّصح ناظرًا من وراءِ رأيه ما يُدفعون إليه ويُمتَحنون به ، وفى الثّانى ذكر انغماسَهم معهم فيما أعقَبَ لهم اختيارُهم ، وأنَّهُ شَقِىَ بمثل ما شَقُوا به فى عُقْبَى جهلهم أو بأشَدَّ منه ، وإذا كان كذلك اختلَفَ الحالتان والاتّباعان . ثمّ أخذَ يبيِّنُ مِحنتَهُ ، فقال :

٦ــ تَنَادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخيلُ فارِسًا فقُلْتُ أَعَبْدُ اللهِ ذلكُمُ الرَّدِى

٧ــ فَجِئْتُ إليه والرِّماحُ تَنُوشُهُ كوَقْعِ الصَّيَاصِى فى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

يعنى بالخيل الفُرْسان . يقول : نادَى بعضهم بعضًا : أسْقَطَتِ الخيلُ فارِسًا ! فقلتُ : أعبدُ الله ذلكم السَّاقط الهالك ، وإنما دَعاهُ إلى هذا القولِ أمران : أحدهما سوء ظَنِّ الشقيق ؛ والثانى أنَّه عَلِمَ إقدامَه فى الحرب ، وابتذالَهُ النّفسَ وتعرُّضَه للحَتفِ ، فدعاهُ الشَّفقةُ والإشفاقُ إلى قَصْدِهِ لوقايتِه بنفسه ، فلحِقَهُ والرِّماحُ تتناولُه وتَقَعُ فيه وقْعَ الصَّياصِى ، وهى خشبةُ الحائك فى نَسْجه الممدود إذا أرادَ تمييز طاقاتِ السَّدَى بعضِها من بعض ، وكأنَّهُ سُمِّيتْ بذلك تشبيهاً بصِيصِيَة الدِّيك وهما مِخلَبانِ فى ساقه ، وبِصيصية الثَّوْر ، وهو قَرْنُه . وقوله « أعبدُ الله » ، وقد سماه مَعْبَدًا أيضا ، وهم يفعلون كثيرًا فى الأعلام مِثلَ ذلك . ألا تَرَى حالَهُم فى سليمان ، وأنهم يُسمُّونه مَرّةً سُلَيْماً ومَرّةً سَلّامًا(١)

---

(١) هو مماثل لما نصنعه فى عصرنا هذا من تغيير بعض الأسماء للتدليل ونحوه . ومن شواهده قول الأسود بن يعفر :

ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود أبى سلام

وقول الآخر[(١)] :

* صَبَوْتَ أَبَا ذِيبٍ وأنتَ كَبيرُ[(٢)] *

يعني أبا ذؤيب . وقوله : « تَنُوشُه » من النَّوشِ . والظَّبيةُ تَنُوشُ الأراكَ وتتناشه ، أى تتناولُه ، وفي القرآن : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

٨ - وكنتُ كذاتِ البَوِّ رِيعَتْ فأقبلَتْ إلى جَلَدٍ من مَسكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ[(٣)]

بَيَّنَ ماذا أدركَ من أخيه لما أرادَ وقايتَه والذبَّ عنه فقال : كنتُ كناقةٍ لها ولدٌ فأُفزِعَتْ فيه لما تباعَدَتْ عنه في مَرعاها ، فأقبلَتْ نحوَه ، فإذا هو بجَلَدٍ مُقطَّعٍ ، وشِلوٍ مُبدَّد . كأنَّه انتهى إلى أخيه ، وقد فُرِغَ مِن قَتلِه ومُزِّقَ كلَّ مُمزَّق . والبَوُّ ، أصله جِلدُ فَصيلٍ يُحشَى تِبنًا لتَدِرَّ عليه ، فاستعاره للولد . وكذلك الجَلَدُ هو ما جُلِدَ من المسلوخ وأُلبِسَ غيرَه لتشَمَّه أمُّ المسلوخ فتدِرَّ عليه . والمَسْكُ : الجلد ، لأنه يُمسِك ما وراءه من اللَّحم والعَظم . والسَّقْبُ : الذَّكَر من أولاد الإبل ؛ وناقةٌ مِسقابٌ ، إذا وَلدت الذُّكرانَ كثيرا .

٩ - فطاعنْتُ عنهُ الخَيْلَ حتَّى تبدَّدَتْ وحتَّى عَلَانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَد

١٠ - قِتالَ امرِئٍ آسى أخاهُ بنفْسِهِ ويَعْلَمُ أَنَّ المَرْءَ غيرُ مُخَلَّدِ

يقول : دافَعتُ الخيلَ — يعني الفُرسانَ — عنه حتَّى انكشفوا ، وإلى أن جُرِحتُ فسالَ الدَّمُ عَلَيَّ ، وكان ذلك منِّي دِفاعَ رجلٍ جعلَ نَفسَه إسْوَةَ أخيه ، واختارَ لها مثلَ ما سِيقَ إليه ، عالمًا بأنَّ المرءَ لا يَبقَى ، بل مآلُه إلى الفَناء ، وأنَّ استقتالَه ليلحقَ بأخيه خيرٌ له من أن يَبقَى بَعده فيَشقَى بالجزَع له وفيه .

— وكما قالوا فيه « سلام » قالوا فيه أيضاً « سليم » . ومنه قول النابغة في ديوانه ٦٤ :

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قضاء ذائل

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي . ديوان الهذليين (١ : ١٣٧) .

(٢) صدره : * ديار التي قالت غداة لقيتها *

(٣) انفردت نسخة الأصل برواية : « فكنت كذات » .

ويقال : هو يَأْتَسِي بفُلانٍ ، أى رَضِيَ لنفسه ما رَضِيَ ذاك لنفسه . والمُوَاساةُ والتأَسِّى والائتساء واحد . وقوله : « حَتَّى عَلَانِى حَالِكُ اللون أَسْوَدُ » ، فيه إقواء ، وكثيرٌ من العلماء يُهوِّنون الأمرَ فى الإقواء ولا يَعُدُّونه عيباً قبيحا . وحُكِيَ عن الأخفشِ أنّه قال : ما أنشدَتْنى العربُ قصيدةً سَلِمَتْ من الإقواء طالت أو قَصُرَت . ويُرْوَى : « وحتَّى علانى حالكٌ لوْنُ أَسْوَدِ » ، والضَّعفُ فيه ظاهر . ألا ترَى أنّه قال حَالِكٌ وهو الشَّدِيدُ السواد ، ثمّ قال لَوْنُ أَسْوَدِ . وفى إضافةِ لون إلى أسْوَدَ ما لا يُرْتَضَى . وأجْوَدُ من هذا أن يُروى : حالكُ اللّون أسْوَدِى » وهو يريد أسودِيٌّ ، كما قيل فى الأحمر الأحْمَرِىُّ ، وفى الدّوّار دَوَّارِىٌّ ، ثمّ خُفِّفت ياء النسبة بحذف أحدِها ، وهو الأوّل ، وجعل الثانى صِلَة .

١١ ــ فإنْ يَكُ عبدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ فَمَا كان وَقافاً ولا طائشَ اليَدِ

قوله « خَلَّى مكانَهُ » أى مَضَى لسبيله . والوَقَّافُ : الجبان المتوقِّفُ فيما يَعِنُّ له عَجْزًا وضعفَ قلب . ويقال : وَقَّافَةٌ أيضاً ، والهاء للمبالغة ، والطائشُ : الخفيف ، ومنه الطَّيَّاشُ . ويقال : هو طائشُ السَّهم ، إذا عَدَلَ سهمُه عن الهَدَف ولم يَقْصِدْ قَصدَه ؛ ثم يقال : هو طائشُ اليَدِ ، إذا كان فيما يتولّاهُ من الأعمال كذلك . يقول : إنْ كان عبد الله تُوُفِّيَ وخَلَّى ما كان يَسدُّه بنفسه وغَنائه من أمرِ العشيرة وسياستهم ، فلقدْ كان مِقدامًا صائبَ الرّأى ، حليمًا فيما يأتيه ، لا يَطِيشُ زَهواً ، ولا يُؤْثِرُ على الصّواب شيئا .

١٢ ــ كَمِيشُ الإزارِ خارِجٌ نِصفُ سَاقِهِ بَعِيدٌ من الآفاتِ طَلّاعُ أَنْجُدِ

الكَمْشُ والكَمِيشُ : الخفيف السّريعُ الحركة . يقال : انكَمِشْ فى حاجتِك ، أى تَخفَّفْ وأسرِع . وأضافَ الكَمِيشَ إلى الإزار على المجاز كما يُقالُ : عفيف الحُجْزةِ ، ونَقِيُّ الجيب . وقوله « خارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ » يصفه

بالتَّشمُّر . وقد قيل : هو عَارِى الظُّنوب ، فى هذا المعنى . قال :

* عَارِى الظَّنَابِيبِ مُمْتَدٌّ نواشِرُهُ[(١)] *

وقد يُرَادُ بهذا قِلَّة اللَّحْم والهُزال . وقوله « بعيدٌ من الآفاتِ » يريدُ أنّه لا داء به ولا غائلةَ ، فهو سليمُ الأعضاء متين القُوَى . ومعنى « طَلَاعُ أَنْجُد » أنّه يَتصعَّدُ فى دَرَج السُّموّ . ويقال طَلَّاعُ أنجِدَةٍ أيضًا ، قال :

* طَلَّاعِ أَنْجِدَةٍ فى كَشْحِهِ هَضَمُ[(٢)] *

فأنجِدَةٌ جَمْعُ نِجَادٍ ، ونِجادٌ جَمْعُ نَجدٍ . فأما أنجُدٌ ، فالأصلُ أن يكون لأدْنَى العَدد وقد استُعير للكثير ، لأنّه كفَلْسٍ وأفلُس . وهم كما يضعون بناء القليل للكثير والكثيرِ للقليل فى أصلِ الوَضْع ، يَستعيرون بناء القليل للكثيرِ وإنْ كان بناء الكثير قد استُعمل أيضا . يكشف هذا أيضا أنّهم يقولون : رَسَنٌ وأرسَانٌ ، فوضعوه للكثير وإن كان فى الأصلِ للقليل ؛ وقالوا دِرهَمٌ ودَرَاهِم فوضَعُوهُ للقليل . وقال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ يريدُ أهلَ الجنّة . فوَضَعَ الغُرُفَاتِ موضع الغُرَف على الاستعارة .

١٣ — قليلُ التَّشَكِّى للمُصِيباتِ حافِظٌ من اليَوْمِ أعْقابَ الأحاديثِ فى غَدِ

يريدُ بقوله « قليلُ » نَفْىَ أنواعِ التشكِّى كلِّها عنه . على هذا قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقولُهم : قَلَّ رجلٌ يقول ذاك ، وأَقَلُّ رجلٍ يقولُ ذاك . والمعنى : أنّه لا يتألَّمُ للنَّوائب تنزلُ بساحته ، والمصائبِ تتجدَّد عليه

---

(١) البيت لتأبط شرا فى القصيدة الأولى من المفضليات وعجزه :

* مدلاج أدهم واهى الماء غساق *

(٢) البيت لزياد بن منقذ ، وهو المعروف بالمرار العدوى . وصدره فى اللسان (نجد) :

* يغدو أمامهم فى كل مربأة *

من أبيات أولها :

كم فيهم من فتى حلو شمائله جم الرماد إذا ما أخمد البرم

فى ذويه وعشيرته ، وأنَّه يحفظ من يومه ما يتعقَّبُ أفعالَه من أحاديثِ النَّاسِ فى غَده ، فهو نقىُّ الأفعالِ من العُيُوبِ ، طيِّبُ الأخبار فى أفواه الناس ، صَبورٌ على العَزَّاء .

١٤ ــ تَرَاهُ خَمِيصَ البَطْنِ والزَّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ وَيَغْدُو فى القَمِيصِ المُقَدَّدِ

مِثلُ المصراع الأوَّل قولُ الآخر(١) :

* يابِسُ الجَنْبَيْنِ من غَيْرِ بُوسٍ(٢) *

يَصِفه بقِلَّة الطُّعْم مع اتِّساع الحال ، وطاعَةِ الزاد ، فيقولُ : تَرَى بطنَهُ منطويًا والزَّادُ مُعَدٌّ ، لأنَّه يُؤْثِر به غيرَه على نفسه ، ولأنَّه لا نَهْمَةَ ثَمَّ ولا حِرصَ على عِمارة البَدن ، ولا على استسراء الثِّياب ، فهو يَغدو فى القميص المُمَزَّق ، إذْ كان يبتذِلُ نَفسَه فيما كان يَكْسِبُه فَخْرًا وعُلُوًّا(٣) . ويقال : عَتُدَ فهو عَتِيدٌ عَتادًا ، وأعتَدْتُه أنا . ومنه سُمِّىَ العتيدةُ التى يكونُ فيها الطِّيبُ ، والعَتَدُ بفتح التاء وكسرها : الفَرس المُعدُّ للمهمَّات من الطَّلب والهرب وغيرِهما ، الذَّكرُ والأنثى فيه سواء .

١٥ ــ وإنْ مَسَّهُ الإقْوَاءُ والجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحًا وإتْلافًا لِمَا كانَ فى اليَدِ

يقول : وإن انفَّق عليه إعسارٌ ونَفادُ زاد ، وجَهدٌ من نكد الزَّمان وإعوازٌ زادَه سخاءً وإتلافًا للمال ، جَرْيًا على عاداتِه التى أَلِفَها ، لا يَهْضِمُهُ ضُرٌّ ، ولا يَلِينُهُ فقر . ويقال : أَقْوَى الرَّجلُ ، إذا نَفِدَ زادُه . ويقال : زادَ الشىءُ ضِدُّ نقَص ، وزدته أنا فازداد . وفى طريقته قولُ الآخر :

قَدْ جَعَلَ اللهُ فِيــكَ قَلْبًا يَأْبَى على الشُّغْلِ أن يَضِيقَا

(١) هو تأبط شراً ، من الحماسية ٢٧٣ .

(٢) عجزه : * وندى الكفين شهم مدل *

(٣) يكسبه ، ضبط فى جميع النسخ بفتح الياء ، يقال أكسبه مالا ، وكسبه أيضاً .

١٦ — صَبَا ما صَبَا حتّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فلمّا عَلَاهُ قال للباطِلِ ابْعَدِ

يجوز أن يكون صبا الأوّل من الصِّبا واللّهو ، وصَبَا الثانى من الصَّباء بمعنى الفَتَاء ، فيكون المعنى : تعاطَى اللّهوَ والصِّبا ما دامَ صبيًّا ، فلما اكتهلَ وظَهر فى رأسه الشَّيبُ فاشتَغل نحَّى الباطِلَ عن نفسِه زُهدًا فيه ، ورجوعًا إلى الحقِّ ، ورغبةً فيما يَكسِبُه الأحدوثَةَ الجميلةَ من أبوابِ الصَّلاحِ والجِدِّ . ويجوز أن يكون المعنى : تعاطَى الصِّبا ماتعاطاه إلى أن علاهُ المَشيبُ ، فيسقط التجنيس من البيت ، وهو يَحْسُن به . وما صَبَا فى موضع الظَّرف على الوجهين جميعًا ، أى مُدَّةَ الأمرين . وحتّى للغاية . وقوله « ابعَد » مِن بَعِدَ يَبْعَدُ ، إذا هَلَكَ . ولو أرادَ البُعد لقالَ ابعُدْ ، بضمّ العين . وجَرَى أبو نُواسٍ فى هذه الطريقة لمّا قال :

قَدْ عَذَّبَ الحُبُّ هذا القَلْبَ ما صَلَحَا فَلَا تَعُدَّنَّ ذَنبًا أن يُقالَ صَحَا

١٧ — وطَيَّبَ نَفْسِى أَنَّنِى لم أَقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى

أَنَّنِى فى موضع الفاعِل لطيَّبَ ، وليس القصدُ إلى أنَّه لم يَقُل له كَذَبْتَ قَطُّ ، وإنما المُرادُ أنّى لم أَجْفُهُ بأدْوَنِ ألفاظ الجفاء . على ذلك قولُ الله تعالَى فى الوَصَاةِ بالوالدين وتنزيهِهما عن قبائح القولِ والفِعل : ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ فأفٍّ الأصلُ فى صيانتِهما عن الخَنا وفُحْشِ القولِ ، والنَّهْر الأصل فى تَركِ إيذائهما بالفِعْلِ والزَّجرِ . فيقولُ : سَلَّانى طاعتى له واحتشامى منه مُدَّةَ حَياتِه ، وإعظامى إيّاهُ فى القول عند مخاطبتِه ، والفِعْلِ وقتَ مجالَسته ولَدَى مُعاملتِه . وأشار إلى القول بقولِه « لم أَقُلْ له كَذَبْتَ » وإلى الفعلِ بقوله « ولم أَبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى » . والمعنى لم أبخَل بملك يدِى عليه ، فحذف عليه كما يُحذَفُ المفعول إذا دلّ عليه الكلام .

٢٧٢

وقال أيضا :

١ — تقولُ ألاَ تَبْكِي أخاكَ وقد أرَى مَكَانَ البُكَا لكِنْ بُنِيتُ عَلَى الصَّبْرِ
٢ — فقلتُ أعبدَ اللهِ أَبْكِي أمِ الَّذِي لَهُ الجَدَثُ الأَعْلَى قَتِيلَ أَبِي بَكْرِ [١]

يقول : اجتمعَتْ علىَّ المصائب والرَّزايا فاقتسمتْنى ، فإذا دُعِيتُ إلى البُكاء على أخى ، أرَى البُكاء يَحِقُّ له لِفاقتى إلى حياتِه ، وتكامُلِ فَضله فى نفسه ، لكنِّى وُجِدتُ صبورًا إذْ كانت عليه بِنْيَتِى ، وإذ صار دَيْدَنى ودأْبِى وقولُه « مكانَ البُكا » بيانُ استحقاقِ أخيه البكاء عليه . وقد قَصَرَ البكاء ، وللشّاعرِ أن يَقْصُرَ الممدود باتفاقٍ من المذهبَين . وفى طريقته قول الآخر [٢] :

ولو شِئتُ أن أبْكِي بُكاً لبَكَيْتُه عليكَ ولكن ساحةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ [٣]

وقوله « فقلتُ أعبد الله أبكِي » ، كَشْفٌ به [عن [٤]] تَوالِى الرَّزايا ، وأنَّ جَلَدَه متوزَّعٌ فيها ، فكأنه قال : إلى مَن أصرِف البُكا ، ومَن أخُصُّ به أعبدَ الله أم المَدفونَ فى القَبرِ الأعلَى قتيلَ أبى بكر بن كِلاَبٍ . وقوله « الأعلى » يريد الأشرَف ، ويجوز أن يُرِيدَ الأعلَى فى مكانِه وموضِعِه . والجَدَثُ : القبر ، وكذلك الجدَف ، وجمعه الأجداث . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ . وانتَصَبَ عبد اللهِ بأبْكِى ، وقتيلَ على البدَلِ من الذى .

---

(١) فى الأغانى (٩ : ٢) : « وكان لدريد إخوة ، وهم عبد الله الذى قتلته غطفان ، وعبد يغوث قتله بنو مرة ، وقيس قتله بنو أبى بكر بن كلاب ، وخالد قتله بنو الحارث بن كعب » .

(٢) هو إسحاق بن حسان الخريمى . معاهد التنصيص (١ : ٨٤) .

(٣) يروى : « أن أبكى دما » .

(٤) هذه من م ، ل والتيمورية .

٣ — وعَبْدُ يَغُوثَ تَحْجُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وعَزَّ المُصابَ جَثْوُ قَبْرٍ على قَبْرِ

نَبَّهَ بقوله « تَحْجُل الطّيرُ حَولَه » على أنه تُرِكَ بالعَراء ، وعوافِي الطّير تأكله ، فلم يُدْفن ، وإنما قال تَحْجُل إشارةً إلى امتلاء حواصلها وثِقَلها ، فهي تحجُل حَوْله[١] ولا تَطيرُ . والحَجْل : مَشْيُ المُقيَّد ، وتوثُّب الإنسان على إحدى رجليه وقد رَفعَ الأُخرى . ونَزَوانُ الغُراب حَجْله . وهذا الكلام تلهفٌ وتحزُّن . وقولُه « وعبدُ يغوثَ » وإن استأنفَ الكلامَ به فهو في المعنَى معطوف على ما قبلَه ، كأنه قال : أيُّهُمْ أبْكِي وقد كَثُروا . وقولُه « وعَزَّ المُصابُ » يُرْوَى المُصابُ بالرَّفع ويُراد بالمُصابِ المصيبة ، ويرتفع « جَثْوُ » على أنّه بدلٌ منه ، ويكون مفعولُ عَزَّ محذوفًا ، كأنّه قال : وعَزَّ الشاعِرَ المصيبةُ جَثْوُ قبرٍ على قبر . وإذا رَوَيتَ « وعَزَّ المصابَ » بالنّصب ، يكون المُصابُ الشّاعر ، وجَثْوُ قبرٍ هو الفاعل ، والمعنى غَلَبهُ تَوالِي المصائب عليه . وقولُه « جَثْوُ قَبْرٍ عَلَى قَبْرٍ » أي حصول الواحد في إثْر الواحد . ويقال : جَثا لِرُكْبَته ، وفي القرآن : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جُثِيًّا[٢] ﴾ ، أي لازمينَ لِرُكَبِهم لا يستطيعون القيام . واستعمالُ الجُثُوِّ مجاز هنا ؛ لأنّ القبر لا يَجثو . والجُثْوةُ من التُّرابِ وغيره : ما جُمِعَ ، وبه سُمِّي القبر جُثوة . وروى بعضهم : « حَثْوُ قبرٍ على قبرٍ » فجَعل الحَثْوَ للقبر ، وإنما يُحْثَى عليه[٣] ، كما قال :

---

(١) هذا ما في التيمورية وفي سائر النسخ « حولها » .

(٢) وردت الآية بهذه القراءة في جميع النسخ ، وهي قراءة جمهور القراء ما عدا حمزة والكسائي . وكذلك يقرءون « عتياً » و « صلياً » كلها عندهم بضم أوائلها . وأما حمزة والكسائي فيقرآن بكسر أوائلها . تفسير أبي حيان (٦ : ٢٠٨) .

(٣) كذا فهم المرزوقي ، أما ابن جني فقد قال في التنبيه : « حثو قبر على قبر ، أي حثو قبر عقيب حثو قبر . فعلى هذا صفة لحثو ، كقولك ولد له عشرون ولداً رأساً على رأس ، أي تابعاً وتالياً » .

* وما مِنْ قِلًى يُحْثَى عليه من التُّرْبِ *

وروَى بعضهم « وعزَّى » والمعنَى سَلَّى المُصابَ ، أى نفسَه ، من البُكاء والتحزُّن ، توالى الأرزاء عليه ؛ فإنه تمرَّن بها ، فصار يصبِرُ عليها . ويكونُ فى هذا مُلِمًّا بمعنى قول الآخر(١) :

فقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِى على النَّأْيِ تَنطَوِى وعَيْنِى عَلَى فَقْدِ الصـــديقِ تَنَامُ

٤ — أَبَى القَتْلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ إنَّهُمْ أَبَوْا غَيْرَهُ والقَدْرُ يَجْرِى إلى القَدْرِ

يقولُ : لم يَرضَ القتلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ لأنّهم الكرامُ ، والدّهر يأْبَى فى الاختيار أن يكونَ حظه من غيرهم ، كما أنّ آلَ صِمَّةَ لم يرضَوْا من أحداثِ الزَّمان فيهم إلَّا بالقتل ، إذْ كان ذلك عندهم أحسنَ المِيتات وأكرمَها وقولُه « أبى القتلُ إلّا آلَ صِمَّةَ يُشبهه قولُ الآخَر(٢) :

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى عَقِيـــلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقولُه « إنّهم أبَوْا غيرَهُ » يشبِهُهُ قولُ الآخر(٣) :

* وما ماتَ مِنَّا مَيِّتٌ حَتْفَ أنفِهِ(٤) *

وقولُه « والقَدْر يجرى إلى القَدْرِ » يريد كما قُدِّرُوا للقتل قُدِّرَ القتلُ لهم ، لأنّهم بما اجتمَع فيهم من الخِصال الشَّريفة التى يختارها الدَّهرُ لنوائبه ، كأنّهم خُلِقوا للدَّهرِ ولتأثيرِه الذى هو القتل ، لأنّ القتلَ لما كان أشرف أسباب الحَتْف عندهم فأحَبُّوهُ ومالوا إليه ، صاروا لذلك كأنّ القَتْل خُلِق لهم .

(١) هو عبد الصمد بن المعذل ، أو الحسين بن مطير ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٧٧ ص ٢٧٣ .

(٢) هو طرفة بن العبد ، فى معلقته .

(٣) هو السموأل ، كما سبق فى الحماسية ١٥ .

(٤) عجزه : * ولا طل منا حيث كان قتيل *

٥ — فإمّا تَرَيْنَا لا تَزَالُ دِماؤُنا لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بها آخِرَ الدَّهْرِ

٦ — فإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ ونُلْحِمُهُ حِينًا ولَيْسَ بِذِى نُكْرِ

جواب إمّا أوّلُ البيت الذى يليه ، وهو فإنّا . والفاء من فإنّا رابطةٌ ما بعدها بما قَبلها ، ولا تَزَالُ دماؤنا إلى آخر البيت فى موضع المفعول لتَرَيْنَا ، ولَدَى واترٍ لفظه واحدٌ والمُراد به الكثرة . وآخِرَ الدَّهْرِ : ظرفٌ ، والعاملُ فيه « لا تزالُ دماؤنا » لأنّ المعنى إمّا تَرَيْنَا لا تزال دماؤنا أبَدَ الدّهر لدَى واترين يَسعَون بها . ولا يجوز أن يكون العاملُ فيه يَسْعَى بها ، لأنّ فيه إيهامًا أنهم لا ينالُون الوِتْر من الواترين سريعًا ، ولكنّهم يَسعَونَ بدمائهم أبَدَ الدّهر . وهذا الكلامُ كالاعتذار من كثرة القتلِ فيهم ، فيقول : إن اتّصلَ القتلُ فينا حتّى نَرَى دماءنا أبَدَ الدّهر لدى واترين ، فإنّا لحبِّنا للقتل طُعْمَةُ السُّيوفِ حقًّا غيرَ ذى إنكارٍ ولا امتراء ، وكما تتطعَّمُ مِنّا فإنّا نُطْعِمُها أيضًا مِن غيرنا ، فنَجعل أعداءنا لُحمَةً لها غيرَ ذى شكٍّ ولا رِيبةٍ . وقولُه « غير نكيرةٍ » انتصَب على المصدر وأكثرُ ما يُستعمل نَكيرٌ بغير الهاء فالنُّكر والنَّكير ، كالعُذْرِ والعَذِيرِ والعُذْرَى . ومثلُ هذا المصدر يؤكِّدُ به الكلام الذى قبله ، ويجرى مجرى حَقًّا وما أشبههُ . ويجوز أن يكون الهاء من النَّكيرة للمبالغة(١) . وقولُه « ونُلحمُه حينًا » فالحِينُ اسمٌ للزمان المتّصل ، فكأنّه قال : ونُلْحِمُهُ فيما يتّصلُ من الأوقات . وليس يُريدُ حينًا من الأحيان . وإن رُوِى « غير نكيرِهِ » على أن يكون الضميرُ منه يَعودُ إلى السَّيفِ كأنّه قال : غَيْرَ منكورٍ له ، فيجعَلُه حالًا لِلَّحم ، فليس بجيِّد ؛ لأنّ القَصدَ إلى تأكيد الكلام بهذا المصدر ؛ فكما أنّ

---

(١) زاد ابن جنى رأياً آخر انفرد به ، وهو قوله : « يجوز أن يكون غير هذا ، وهو أن يريد به النكرة التى هى ضد المعرفة ، ثم أشبع كسرة الكاف فأنشأ عنها ياء ، مثلها فى الصياريف والمطافيل » .

فى آخر البيت قولَه « وليس بذى نُـكرِ » تأكيدٌ لمـا قبلَه ، كذلك يجب أن يكون غيرَ نَـكيرَةٍ هكذا ، ليتقابل الصَّدْرُ والعَجزُ على حَدٍّ واحدٍ من التَّأكيد وحصول هاء التأنيث فى نَـكيرةٍ لا يجب أن يُنكر ، كما لا يُنكَرُ فى قولهم نكرةٌ ومعرفةٌ ، وكما لا يُنكَرُ الألف فى آخر ذِكرَى وعُذْرَى .

٧ — يُغَارُ عَلَيْنَا واتِرِين فَيُشْتَفَى   بِنَا إنْ أُصِبْنَا أو نُغِيرُ عَلَى وِتْرِ

نَبَّهَ بقوله « فَيُشْتَفَى بنا » أنّهم الثَّأرُ المُنِيمُ ، فإذا أصيبت دماؤهم كان فيها للأعداء الشِّفاء . وانتصبَ على الحال من الضمير فى علينا . وقولُه « أو نُغيرُ على وترِ » ، يريدُ على وترٍ لنـا عندهم ، فكأنه قال : أو نُغيرُ على واترين لنـا . وقد سَلكَ الأعشى هذه الطَّريقَة ، فلم يُوَفِّ القِسمةَ حقَّها كما فعل هذا ؛ لأنّه قال :

فأظعنتَ وِترَكَ من دارِهم   ووترُكَ مِنْ قَبلِهم لم يُقِمْ

والمعنى أزعجتَ الوِترَ الذى كان لك عندهم من دارهم ، على عادتِك مع سائر الناس من قَبْلُ فى إدراكِ الثَّأرِ سريعًا ؛ لأنّ قوله « ووِترُكَ من قَبلهم لم يُقِمْ » إشارةٌ إلى أنه لا يُمِهلُ ولا يُهمِلُ فوِترُه لا يَتَلَوَّمُ عند الأعداء .

٨ — قَسَمْنَا بِذاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنا   فَمَا يَنقَضِى إلّا ونَحْنُ عَلَى شَطْرِ

أشار بقوله « ذاك » إلى ما تقدَّم ذِكرُه من تردُّدِه فى مجاذَبة الأعداء طالبينَ مرّةً ، ومطلوبين أخرَى . وانتصب « شَطرَين » على المصدر ، كأنه قال : قسَمنا الدَّهر قسمين . ويجوز أن يكون حالًا على معنَى قسَمناهُ مختلفًا ؛ فوقَع الاسمُ موقعَ الصِّفَةِ لمَّا تضمَّن معناهُ ، كما تقول : طَرحْتُ متاعِى بعضَه فَوْقَ بَعْضٍ ، كأنكَ قلتَ متفرِّقًا . والمراد : جَعلنا أوقاتَ الدَّهر بيننا وبين أعدائنا مقسومَةً قسمين ، فتراها لا ينقضى شىءٌ منها إلا ونحن فيه على أحَدِ

الحدَّين . إمَّا أن تكونَ لنا الكَرَّةُ عليهم فنُدال منهم . وإما أن تكونَ لهم الجولةُ علينا فيُنالَ مِنَّا .

٢٧٣

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا[(١)] :

وذُكِرَ أنه لخَلَفٍ الأحمرِ ، وهو الصَّحيح[(٢)] .

١ — إنَّ بالشِّعْبِ الذى دُونَ سَلْعٍ   لَقَتِيلًا دَمُهُ ما يُطَلُّ

يجوز أن يكون ذكر الشِّعبَ الموصوفَ لأنَّ قبر ذلك القَتيلِ كان فيه ، ويجوز أن يكون ذَكَره لأنَّه قتِل عندَهُ ، وهو فى اللُّغة ما انفرج بين جبلين ونحوهما . والسَّلعُ بفتح السين وكسرِها : شَقٌّ فى الجَبَل ، ومنه سَلَفتَ رأسَه ، أى شققته . وقولهم هادٍ مِسْلَعٌ[(٣)] ، أى يَشقُّ أجوازَ الفلاة . وقوله « دَمُه ما يُطَلُّ » من صفة القتيل ، والمعنى أنِّى فى طَلَبِ ثأره ، فدَمُه لا يَذهب هَدَرًا . والطَّلُّ : مَطْلُ الدَّم والدِّية وإبطالُهما . وقال :

* أزُهَيرُ ليسَ أبوكَ بالمطلُولِ *

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ ص ٧٤ .

(٢) وعبارة التبريزى مطابقة لهذه ، وزاد : « وقيل : قال ابن أخت تأبط شراً . قال النمرى : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها :

* جل حتى دق فيه الأجل *

فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل : ليس بعشك فادرجى . ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظاً ومعنى . وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى . قال : مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلعاً ، وهو بالمدينة ، وأين تأبط شراً من سلع . وإنما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان . وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن حيان

* من يقتل القرن ويروى الندمان * » .

والقصيدة فى المعتمد (٣ : ٢٩٨ — ٣٠٠) طبع لجنة التأليف ، بزيادة بعض أبيات وخلاف فى الرواية .

(٣) انظر ما سبق فى حواشى حماسية ابن السلمانى ص ٧٥٩ .

٢ ــ خَلَّفَ العِبْءَ عَلَيّ وَوَلّى أنا بالعِبْءِ لَهُ مُسْتَقِلُّ[1]

أراد بالعبء طَلَبَ دَمِه والنَّيلَ من عَدُوِّه . وقوله «أنا بالعِبْءِ له مستَقِلٌّ» تحقيقٌ للوعد بإدراك الثّأر ، وإظهارُ اقتدارٍ على النِّكاية فى الأعداء . وقوله « لَهُ » أى من أجل المرثى ، وإنّما سُمِّىَ الثِّقْلُ عِبْئًا لأنّه من عَبَأت للتاعَ أعبؤُه عَبئًا ، ثم يُسمَّى المَتاعُ عِبْئًا ، فهو كالنَّقضِ والنِّقْض . وكثُر استعماله حتّى تسمَّحُوا به فيما يدخُل من الثِّقل على القَلب ولا يُحمَلُ على الظهر .

٣ ــ ووَرَاءَ الثّأرِ مِنّى ابنُ أُختٍ مَصِـعٌ عُقْـدَتُهُ ما تُحَلُّ

أعطَى فيما اجتَمَعَ من الوصف التّرتيبَ حقّهُ ، وذلك لأنّه اجتَمَع مفردٌ وجُملةٌ فى صفةِ « ابن أُختٍ » فقَدَّم المُفرد على الجملة ، وهذا وجهُ الكلامِ وحقُّه ؛ لأنّ الجملة إنّما وُصِفَ بها لوقوعها موقع المُفرد ، فإذا صاحَبها مفرد كان الأَولى تقديمَه ، وإذا كان كذلك فعُقْدتُه ارتَفع بالابتداء ، وما تُحلُّ خَبرُه . والمَصِـع : الشّديد المقاتَلة الثّابتُ فيها . ويعنى بوراء هاهنا الخلفَ ، وإن كان يصلُح للقُدّام . وفى هذا الكلام ضَربٌ من الوعيد ، كأنّه يجرى مجرى قولِ القائل : الله من ورائِكَ . ويُريدُ : وفى طَلَب الثأر من جهتى ابن أُختٍ هذه صِفَتُهُ ، ويعنى به نفسَهُ . ويجرى هذا المجرى قول الشّنفَرَى :

همت وهَمّتْ وابتدرنا وأسدلت وشَمَّر منِّى فارطٌ مُتَمهِّـلُ

والفارط المتمهِّل هو الشّنفرَى . وقوله « عُقدَتُه ما تُحَلُّ » يجوز أن يريد ما يَعقِده برأيه أو يُحْكمه لا يُنقَضُ . ويجوز أن يريدَ به قُوَّتَه وجلادته ، وتكون العُقدةُ راجعةً إلى استحكام خَلْقِه وصَبرِه فى الشّدائد .

(١) فى العقد : « قذف العبء » .

٤ — مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتاً كما أَطْ رَقَ أَفْعَى يَنْفِثُ السَّمَّ صِلُّ[1]

شَبَّهَ نفسَهُ فى إطراقِهِ وسكونه ، منتظراً لفرصةٍ ينتهزها فى إدراك ثأره بالحيّة ، وأنّه فى إمساكه يرشَحُ بالموتِ لعدُوِّه كما أن الحيّة إذا أطرقَ نَفثَ بالسّم . والرَّشح كالعرَق ، والنَّفث ، كالقَذْف . والصِّلُّ من صفة الأفعى ، ويُوصف به الداهية وكلُّ خبيث ، يقالُ : هو صِلُّ إصلالٍ ، كما يقالُ داهيةُ دَوَاهٍ . وأسماءالحيّات وصفاتُها تُستعارفى الدّواهى كثيرا . والأفعى مؤنثة، وذكرُها الأُفْعُوانُ . وقال الخليل : الأفعى حَيّةٌ قصيرةٌ عريضةُ الرأس . وينوّن فيقال أفعًى ، وبعض طيِّئٍ يقلِبُ ألِفَهُ واوًا فيقول أفعَوْ[2] ، وبعض قيسٍ يقلبها ياء فيقول أفعَىْ . ومنه تفعّى فلانٌ ، إذا ساء خُلُقُهُ . وقال سيبويه : صَرْفُه أكثر وأجود . ويصلح للذّكر والأنثى . والأُفعُوان الذّكر لا غير .

٥ — خَبَرٌ ما نابَنا مُصْمَئِــلٌّ جَلَّ حتّى دَقَّ فيــه الأجَلُّ[3]

٦ — بَزَّنِى الدَّهْرُ وكانَ غَشُومًا بأبِىٍّ جــارُهُ ما يُذَلُّ[4]

يعنى بالخبر نعىَّ المتوفَّى ؛ وقد استعظَمَهُ وجعلَهُ داهيــةً منكَرةً حتّى علا شأنُه وجَلّ عن أن يُضْبَط بوصفٍ ، أو يُحَدَّ بنعت ، فلذلك قال « جَل حتّى دَقّ فيه الأجَلُّ » . ويقال داهيةٌ مُصْمَئِلّةٌ ، إذا اشتدّت . والأجَلُّ تأنيثه الجُلَّى ، والألف واللام فيه بدلٌ من الإضافة النّائبة عن مِن فى قولهم : هو أجَلُّ

---

(١) التبريزى والعقد « يرشح سما » .

(٢) هكذا ضبطت فى ل هى و « أفعى » التالية بسكون آخرها . وكذلك وردت « أفعو » ساكنة الواو فى اللسان (فعا) فى حديث ابن عباس : « لا بأس بقتله الأفعو ، ولا بأس بقتل الحدو » ، ثم قال : « ومنهم من يقلب الألف ياء فى الوقف ، وبعضهم يشدد الواو والياء » .

(٣) مصمئل ، وردت بعدم التنوين فى الأصل ، وبالتنوين فى سائر النسخ . وانظر ما سبق فى حواشى ٨٠٧ .

(٤) كذا ضبطت فى ل . وكتب فوق الكلمة « معا » ، لتقرأ بالقراءتين .

من كذا، ومعناه الجليل . وقولُه « بَزّنى الدّهرُ » أى غلبنى واستلبنى . وقوله « بأبِىّ » الباء دخلَتْ للتّأكيد زائدةً ، كأنّه قال : بَزّنى الدّهرُ أبِيًّا . ومثلُه قول الآخر(١) :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرأْنَ بالسُّوَرِ(٢) *

ويجوز أن يكون عَدّى بَزّنِى بالباء لمّا كان معناه فَجَعَنى ، ويكونَ من باب ما عُدِّى بالمعنى دون اللّفظ ، كقوله :

إذَا تَغَنّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِى ولو تعزّيْتُ عَنْها أمَّ عمّـــارِ(٣)

وقولُه « جارُه ما يُذَلّ » من صفة الأبِىّ . والأبىُّ المتصعِّبُ المتمنِّع . والغَشْمُ : الظُّلم والقَهر. وقوله « وكان غَشُومًا » يعنى به الدّهر ، وهو اعتراضٌ بين الفاعل والمفعول ، ومثلُه يتأكّد به الكلام . وقوله « يذلُّ » يُروى بفتح الياء ، ويُذَلُّ على ما لم يُسَمّ فاعلُه ، والمعني ظاهر ، وصَفَه بأنّه كان عزيز الجار محمِىّ الفِناء ، وأنّه كان له عُدّةً على الدّهر ، وسلاحًا معه فاستلبَه منه .

٧ــ شامِسٌ فى القُرِّ حتى إذا ما ذَكَتِ الشِّعْرَى فبَردٌ وظِلُّ

٨ــ يابِسُ الجَنْبَينِ مِنْ غَيْرِ بُوسٍ ونَدِىُّ الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلُّ

وصفَه بأنّه كان يُنتَفع به فى كُلِّ حالٍ وزمان ، ، وأنه كان غِياثًا للناس فى حالَتِي السَّرّاء والضَّرّاء ، فكانَ الشّمسَ عند البَرد ، والظِّلَّ عند الحرّ . يقال : ذَكَتِ النّارُ تذْكو ، وأذكيتها ، وكذلك أذكيْتُ الحرْبَ . ونوءُ الشِّعرَى

---

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى . انظر حواشى صفحة ٣٨٣ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) أى ذكرنى أم عمار . والبيت للنابغة الذبيانى فى معلقته برواية أبى زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ .

بشدّة الحرّ يجىء . ويقال للشّمس ذُكاء من ذلك . وقد جاء مثل هــذا فى النّسيب ، يقول ابنُ الرُّقيّات :

سُخْنَةٌ فى الشتاء باردةُ الصَّيْـــفِ هِلاَلٌ فى اللَّيْلةِ الظَّلْماء

والمعنى أنّها للضَّجيع فى الصَّيْف هكذا ، وفى الشتاء هكذا . وقد أتى الأعشى بهذين المعنيين فى بيتين ، وابنُ الرُّقيّات أتى بهما مع ثالثٍ لهما فى بيت واحد . وبيتُ الأعشى :

وَتَبْرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ العَــــرُو سِ بالصَّيْفِ رقرقْتَ فيه العبيرا[١]

وتَسْخُنُ ليـــــلةَ لا يستطيـ عُ أنْ ينبِـحَ الـكلبُ إلّا هَرِيرَا[٢]

وأما قوله « يابسُ الجنبين من غير بُوسٍ » يريدُ[٣] أنه يُؤْثِرُ بالزّاد غيرَه على نفسِه . وعادتُهم التمدُّحُ بالهُزال ، فهو كقول الآخر[٤] :

تراهُ خميصَ البطْنِ والزّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ ويغدُو فى القَمِيص الُمقَدَّدِ

وقولُه « ندِىُّ الـكفّين » ، أراد أنّه سخِىٌّ . ويقال : هو يتندّى على أصحابه ، أى يتسخّى . والشّهم : الذّكىُّ الحديد ، ومنه قيل للقُنفُذ الشّيهم . والُمدِلُّ هو الواثق بنفسه وبآلاته وعُدّتِه .

٩ ــ ظاعِنٌ بالَحزْمِ حتّى إذا ما حَلَّ حَلَّ الَحزْمُ حَيْث يَحُلُّ

١٠ ــ غَيْثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى وإذا يَسْـــطُو فلَيْثٌ أَبَلُّ

وصَفَه بأنه مستعمِلٌ للحزم وآخِذٌ به ، ظاعنًا كان أو مقيما . وأشاد بقوله

(١) انفردت نسخة الأصل برواية : « عبيرا » .

(٢) اتفقت النسخ على ضبط « ينبح » بكسر الباء ، وهما لغتان ، يقال بكسر الباء وضمها .

(٣) كذا جاء جواب « أما » بدون الفاء ، وانظر ما سبق فى حواشى صفحة ٨١٤ .

(٤) دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧١ .

« ظاعِنٌ » إلى غزَواته ، وأسفاره وغاراته ؛ وبقوله « حَلَّ الحزْمُ حَيْثُ يَحُلُّ » إلى شدَّةِ حذره فى إقامته ، ودوام اتِّقائه من الأعداء حتّى لا ينسام ولا يَغفُل عنهم . وقولُه « غيثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى » وصَفه بأنّ منافعه تامّةٌ للخَلْق. والمُزنة : السَّحابةُ البيضاء . والغامر : الشَّاملُ جدواه وعطيَّتُه . وقوله « وإذا يسطو فليثٌ أبَلٌّ » ، الأبَلُّ : الفاجر المصمِّمُ الماضى على وجهه ، لا يُبالِى ما لَقِىَ . والمراد أنّه فى الإحسان بالغٌ أقصى الغايات ، وعند السَّطوة على الأعداء كاللّيث الكثير الإفساد ، الشّديد النكاية . والسَّطْوُ : البَسْط على الإنسان تقهرَهُ مِن فوق . ويقال : سطا عليه وسطا بِهِ . وقال الخليل : سُمِّى الفَرسُ ساطيًا لأنّه يسطو على سائر الخيل ، فيقوم على رجليه ويرفع يدَيه .

١١ — مُسْبِلٌ فى الحىِّ أحْوَى رِفَلٌّ وإذا يَغزُو فسِمْعٌ أزَلُّ

١٢ — ولهُ طَعْمَانِ : أرْىٌ وشَرْىٌ وكِلاَ الطَّعمَينِ قدْ ذَاقَ كلُّ

مفعول « مُسْبِلٌ » محذوفٌ . وصفَهُ بأنّه فى الحىّ — والحالُ سلامةٌ — يُسْبِلُ إزارَه خُيَلاءَ وكِبْرًا ، ويتبختر ذاهِبًا فى التُّرْفةِ إلى أرفع الدَّرجة[1] ، وأنّه ذا غزَا فهو كالسِّمْع ، وهو الوَلدُ بين الذِّئب والضَّبُع ، وهو أخبَث السِّباع وأعداها . والزَّلَلُ : خِفَّةُ العَجُز ، وذلك خِلقتُه[2] .

وقولُه « وله طَعمان أرْىٌ وشَرْىٌ » يريدُ به أنّه للمُوالِينَ كالأرْى — ويراد به العَسَلُ وإن كان فى الأصل عَملَ النَّحل — وللمُعادينَ كالشَّرْى ، وهو الحنظَلُ .

(١) التبريزى : « والوجه الآخر فى مسبل أن يكون عاملا فى أحوى ، ويراد به مسبلا شعراً أحوى ، أى أسود ؛ لأنهم كانوا يوفرون لممهم . ويصفو الشاب بحسن اللمة . . . . ويدل على توفيرهم الشعور أنهم كانوا إذا أسروا الفارس من المذكورين جزوا ناصيته ليفتخروا بذلك » .

(٢) التبريزى : « والأزل : الأرسح ، وهو الممسوح العجز . وهم يصفون الرجل بذلك ويكرهونه للمرأة » .

ثم قال : وكِلاَ الطّعمين قد ذاق كُلٌّ ، أى كلٌّ واحدٍ من الطّعمين قد ذاقهُ كلٌّ واحدٍ من قَبيلَي الأعداء والأولياء . ومفعول ذاقَ محذوفٌ إذا جعلتَ كِلاَ مبتدأ ، كأنّه قال : قد ذَاقَهُ كلٌّ . والأجودُ أن تجعلَ كِلاَ مفعولَ ذاق ولا تجعلَه مبتدأ . ومثله : زيدًا ضرَبْتُ ألا ترَى أنّه يُختار على : زَيْدٌ ضَرَبْتُ . وكِلاَ اسمٌ موحّدٌ يؤكّدُ به المثنَّى ، كما أنّ كُلًّا اسمٌ مُوحّدٌ يؤكّدُ به الجمعُ . وهو مقصورٌ كَمِعًى ، وألفه منقلبةٌ عن واو ، وهذا مذهبُ أصحابنا البَصريِّين ، والكوفيُّون عندَهم أنّه اسمٌ مثنًّى .

١٣ - يَرْكَبُ الهَوْلَ وَحِيداً وَلا يَصْـ ... ـحَبُـهُ إلّا اليَمانِى الأَفَلّْ

هذا كقولِ الآخرِ [1] :

يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسِى بغَيرِها ... جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالِكِ

والمعنى: أنه لايتكثَّرُ بالأصحاب إذا همَّ باقتحامِ أمرٍ عظيمٍ ، وهَولٍ شديدٍ ، بل يتفرّدُ فيه مستصحبًا سيفَهُ الأفلّ ، وهو الذى قد كَثُر فُلولُه بكثرة الاستعمال . وانتَصَبَ « وحيداً » على الحال . وقولُه « ولا يَصْحَبُهُ » انعطفَ عليه ، وهو صِفَةٌ للوحيد [2] وتأكيدٌ للوَحدَةِ [3] .

١٤ - وفُتُوٍّ هَجَّرُوا ثمَّ أسْرَوْا ... لَيْلَهُمْ حتّى إذا انْجَابَ حَلُّوا

---

(١) هو تأبط شرا . الحماسية ١٣ ص ٩٥ .

(٢) أى صفة معنوية لا نحوية ، على أن الوجه أن تكون الجملة حالية مؤكدة معطوفة على الحال قبلها .

(٣) كذا وردت هذه اللفظة بفتح الواو فى جميع النسخ ، وهو رد على من أنكر صحة هذا الضبط . ويؤيد صحته ما ورد فى اللسان (٤ : ٤٦٢) : « وحكى سيبويه الوحدة فى معنى التوحد » ، وقد ضبطت بفتح الواو .

١٥ — كُلُّ ماضٍ قَدْ تردَّى بماضٍ كَسَنَا البَرْقِ إذَا ما يُسَلْ[(١)]

فُتُوٌّ: جمع فتًى، ولام فتًى ياء بدلالة قولهم فِتْيانٌ، لكنَّه بناهُ على مصدره وهو الفُتُوَّةُ، وهذا المصدرُ إنَّما جاء على هذا عِوَضا مِن حملِ بناتِ الواو على الياء كثير، فكأنَّهم أرادوا أن يحملوا ماهو من الياء على الواو أيضاً، وهو شاذٌّ[(٢)]. ومعنى هَجَّرُوا: ساروا فى الهاجرة. ويقال: جُبتُ الظَّلامَ واجتبْتُه فانجابَ. وجُبْتُ المفازةَ: قطعتُها. يريدُ أنَّهم وصَلُوا السَّير بالسُّرَى، فلمَّا انكشفَ الظَّلامُ نزلوا. وقد اشتمل هذا الكلامُ على جواب رُبَّ؛ لأنَّ قولَه حَلُّوا — وهو جوابُ إذا انجابَ — صار جَوَابًا لِرُبَّ أيضاً. ويقال: سَرَى وأسرَى بمعنًى واحِد. وقولُه «كل ماضٍ قد تَرَدَّى بماضٍ» يريدُ أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء الفِتيان نافِذٌ فى الأعمال والغَزَوَاتِ، وقد تقلَّدَ سيفاً نافذًا فى الضَّريبات، وإذا انتُزِع من غِمده لَمَعَ التماعَ البرق. ويقال: ارتدَى بسيفه وتردَّى واعتَطفَ به، ويسمَّى السَّيفُ الرِّداءَ والعِطافَ.

١٦ — فاحْتَسَوْا أنفَاسَ نَوْمٍ فَلَمَّا ثَمِلُوا رُعْتَهُمْ فاشْمَعَلُّوا[(٣)]

قوله «رُعْتَهُمْ» جواب لمَّا، ومعنى اشمعَلُّوا اجَدُّوا فى المُضِىّ. ويقال رجلٌ

---

(١) روى بعده التبريزى:

فادَّركنا الثَّأرَ منهمْ ولَمَّا يَنْجُ مِلْحَيَّينِ إلَّا الأقَلُّ

(٢) أما ابن جنى فيرى أن واوه قد تكون أصلية فلا شذوذ، قال فى التنبيه: «فتو طريف التصريف، وذلك أن لامه بدلالة قوله سبحانه: ودخل معه السجن فتيان. وفعول إذا كان مكسراً ولامه واو قلبت إلى الياء، وذلك نحو عصى ودلى وحقى. فأما أن تكون ياء ثم تقلب فى التكسير واوا فقلب القضية ونقض الطريقة. غير أن هذا متخرج على مذهب أبى الحسن الأخفش، وذلك أنه يذهب إلى أن لام فتى يصلح أن يكون واواً وأن يكون ياء، ولا قاطع عليه فى فتية ولا فتيان، لأن له أن يقول إنه كصبية وصبيان».

(٣) رواية التبريزى: «فلما هوموا».

مُشْمَعِلٌّ ، أي جادٌّ خفيف . والمعنى أنّهم ساروا يومَهم وليلتَهم ، وكلٌّ يرجِعُ من نفسه وسلاحِه إلى ما يُرتَضَى ويُعتَدُّ به ، ثم نزلوا وهوّموا ، وناموا نومةً خفيفةً مثل حَسْوِ الطّير ماء الثَّمَد ، تمشَّت فى يَقَظتهم بقدر بيبها فى عُروقهم ، ومزاولتها لخفوتهم وسكونهم ، فلما صارُوا منها كالسُّكارى أنبهتَهُمْ وبعثَهُمْ للارتحال ، نخفُّوا وأطاعوا . ودَلَّ بهذا الكلام على أنّ المَرثِىّ كان رئيسَهم ومدبِّرَهم ، على زيادة غَنائه وذكائه ، وشهامته ومضائه ، وأنّه لما بعثَهُمْ جَدُّوا وخَفُّوا غيرَ مُتوقِّفين فى أمره ، ولا مُمتَلِّين على رأيه .

١٧ ـ فَلَئِنْ فَلّتْ هُذَيْلٌ شَبَاهُ لَبِمَا كانَ هُذَيْلًا يَفُلُّ

١٨ ـ وبِمَا أَبْرَكَهُمْ فى مُنَاخٍ جَعْجَعٍ يَنْقَبُ فيه الأَظَلُّ[1]

يقولُ : إن كان هُذَيلٌ قد تمكّنتْ منه فكَسَرت حدَّه وأتعسَتْ جَدَّه ، فهو بما كان يؤثِّرُ من قَبْلُ فى هذيل فيطأُ حريمَها ، ويُكْثِرُ قتيلَها . والعربُ تقول : هذا بذاك ، أى هو عِوَضٌ منه . واللام من قوله « لئن » موطِّئة لقَسَمٍ مضمَرٍ ، والتى فى قوله « لبما » جوابُ ذلك القسم . والشَّباةُ حَدُّ الشَّىء . ويقال : أشْبَى الرَّجلُ ، إذا أتى بأولادٍ نجباء يصيرُ له بهم حَدٌّ حديدٌ كشَبَا الأسِنّة . ويقال أيضاً : أشْبَيْتُ الرجل ، أى وجدت له شباة . حكاه أبو عمرو . ويجوز أن يكون « شَبْوَةُ » وهو اسم العقرب ، من الشَّبا ، لإبرتها .

وقوله « وبما أبْرَكَهُم » معطوفٌ على لَبِمَا كانَ . والجَعْجَعُ : مُنَاخُ سَوْء ،

(١) التبريزى : « وبما أبركها » برجوع الضمير إلى القبيلة . وقد روى التبريزى بعده بيتاً آخر ، هو :

وبِمَا صَبّحها فى ذَرَاها مِنه بَعْدَ القَتْلِ نَهْبٌ وَشَلُّ

الذرى ، بالفتح : الكنف والناحية . والشل : الطرد .

وهو الأرض الغليظة . والأَظَلُّ : باطِنُ خُفِّ البعير . ومعنى[(١)] يَنْقَبُ أى يَحْفَى . والُمراد : وربما كانَ ينالُ منهم ويحملهم فيه على المراكب الصَّعبة ، ويُنزلهم له بالمنازل الحَزْنة ، التى تؤثِّر فى أنفسهم وأموالِهم . وهم يحملون مثلَ هذا الكلام كنايةً عن التأثير القبيح . ويشبهه قول الآخر[(٢)] :

مَنْ يَذُقِ الحَرْبَ يجِدْ طَعْمَهَا مُرًّا وتُبرِكْهُ بجعجـــاعِ

وقول الآخر[(٣)] :

لقد حَمَلَتْ قَيْسَ بنَ عَيْلَانَ حَرْبُنَا عَلَى يابِسِ السِّيساءِ مُحْدَوْدِبِ الظَّهرِ

وقول الآخر[(٤)] :

وحَمَلْنَاهُمُ عَلَى حَزْنِ ثَهْلَا نَ شِلَالًا ودُمِّىَ الأنْسَاءُ

١٩ – صَلِيَتْ مِنِّى هُذَيْلٌ بِخِرْقٍ لا يَمَلُّ الشَّرَّ حــتّى يَمَلُّوا

٢٠ – يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ حتّى إذا ما نَهِلَتْ كانَ لَهَا مِنْــهُ عَلُّ[(٥)]

يقول : ابتُلِيَتْ هُذيلٌ من جهتى برَجُلٍ كريمٍ يتخرَّقُ فى العُرفِ مع الأولياء ، وبالنُّكْرِ مع الأعداء ، لا يفترُ عن النِّكاية فيهم ، وعن الإغارة عليهم ما دام لهم ثباتٌ وكانَ للجزاء عليهم مَحِلٌ . وقولُه « حتى يملُّوا » يريدُ حتَّى يملُّوه ، وليس المراد قعودَهم عن مكافأتِهِ ، ومتاركتَهم لهَيْجِه ، وإنَّما يريدُ أنه لا يَكُفُّ عن الإيقاع بهم ، ولا يُمْسِك عن التَّأثير فيهم ، حتَّى يَبْشَمُوا الشَّرَّ[(٦)] وحتَّى لا تَبقى فيهم قُوةٌ ولا نُهوضٌ فيُراصِدُوا أو يُبارِكدوا .

---

(١) فى الأصل : « ومنه » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) هو أبو قيس بن الأسلت . المفضلية ٧٥ .

(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) . وقد سبق فى ص ٤١٣ .

(٤) هو الحارث بن حلزة اليشكرى ، فى معلقته .

(٥) روى التبريزى بعده البيتين ٢٣ ، ٢٤ ثم ٢١ ، ٢٢ .

(٦) انظر ما سبق من التحقيق فى الحاشية ٣ من الصفحة ٦٤١ .

وقولُه « يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ » يريدُ الإبانةَ عن الحال التى أشار إليها من دوام الحربِ ، وبَسْطِ القتل ، فيقول : يُرَوِّى الرُّمحَ من دمائهم بالسَّقْيَةِ الأولى ، فإذا ما رَوِيَتْ[1] لم يُرضِه ذلك حتَّى يُعقِّبَه بعَلِه من السَّقية الثانية . والمعنى اتِّصالُ الوَقَعات ، وامتدادُ البلاء منه فى صَبِّ الغارات . والصَّعدةُ : القناة تَنبتُ مستويةً ، وجمعُها صَعَدَاتٌ بفتح العين ، لأنها اسم . ثمَّ قيلَ فى المرأة المستوية القامة ، والأتانِ الطَّويلةِ : صَعْدَةٌ ، وهى وصفٌ لهما ، ويُجمع حينئذٍ على صَعْدَاتٍ بسكون العين ، لكونها صفةً .

وقولُه « صَلِيَتْ منِّى هُذَيلٌ بخِرْقٍ » ، مثل قولِه من قَبْلُ : « وَوَراء الثَّأر منى ابنُ أختٍ » فى أنّ الخِرْق هو هو لا غيرُه[2] . ويُقالُ صَلِيتُ بكذا أى ابتُليتُ به ومُنِيتُ ، وأصلُه من صِلاءِ النَّار ، يقالُ صَلِيتُ أصلَى صِلاءً ، واصطَلَيتُ أصطلى اصطلاء .

٢١ــ تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيلٍ وَتَرَى الذِّئبَ لها يَسْتَهِلُّ

٢٢ــ وعِتَاقُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلُّ[3]

استعارَ الضَّحِكَ للضَّبُع ، والاستهلالَ للذِّئب . وأصل التهلُّل والاستهلال فى الفَرَح والصِّياح ، والمراد رَغَدُ العَيش لهما ، واتِّصال طُعْمِهما باتِّصال قَتلِه فى هذيل . وليس قولُ من قال معنى تَضْحَكُ : تَحيضُ ، بشىء . وقوله « وعتاقُ الطَّير تَهفُو بِطَانًا » مثل قول الآخر[4] فيما تقدم :

* وعبد يغُوث تَحجُلُ الطَّيرُ حَوْلَه[5] *

---

(١) أى الرماح المفهومة من الرمح .

(٢) هذا فى سائر النسخ . وفى الأصل : « لا غير » .

(٣) التبريزى : « تغدو بطاناً » ، ثم نبه على رواية : « تهفو » .

(٤) هو دريد بن الصمة ، فى الحماسية ٢٧٢ .

(٥) عجزه : * وعز المصاب حثو قبر على قبر *

ويَعنى بالعِتاق آكلةَ اللُّحمان وعافِيَةَ الجِيف منها . وقوله « تَهفُو بطاناً » أى إنّها قد زوَّرَتْ[١] ، وامتلأتْ حواصلُها فثقُلت ، فإذا طارَتْ تخطَّتهم فى الطَّيرانِ فلا ترتفع فى الجوِّ ، بل تُسِفُّ لثِقَلِها . وبِطانٌ : جمع بَطِينٍ . وتهفو : تطيرُ ؛ يقال : هَفَتِ الصُّوفةُ فى الهواء ، أى ارتفعت . قال الخليلُ : ويقال لرَفارِف الفُسطاط إذا تحرَّكَتْ : تهفُو بها الرِّيح . ثم تُوُسِّع فيه ، فيقال : هَفَا الظَّليمُ ، وهفا قلبُ فلانٍ فى إثْرِ كذا .

٢٣— حَلَّتِ الخَمْرُ وكانَتْ حَرامًا وبِلَأْيٍ ما أَلَمَّتْ تَحِلُّ[٢]

٢٤— فاسْقِنِيها يا سَوَادَ بْنَ عمرٍو إنَّ جِسْمِي بَعْدَ خالِي لَخَلُّ

هذا على عادتهم فى تحريم الخمر وما يجرى مجراها فى وَلُوع النَّفس به والمَيْلِ إليه إذا قُتِلَ لهم قَتيلٌ ، حتَّى يُدرِكُوا ثأرَهُ ، أو حَزَبهم أمرٌ عظيم يحتاجُون فيه إلى مُناهضةٍ ومزاولة . وربَّما كانوا يحرِّمون على أنفسِهم تنظيفَ البَدن والأخذَ من الشَّعر وما شاكَلَهُ ، وذلك على حَسب مَيل الطِّباع وإيثار فَطْم النَّفس عن الشَّيء الذى لا مَترَكَ له عندَها . والقَصدُ فى جميعه حَبْسُ النَّفس عن المطلوب وتذكيرُها بالمفقود ، لئلَّا تتناساهُ أو تتشاغَل عنه[٣] . فيقول : أدركتُ الثَّأرَ فحلَّت الخَمْرُ بعد أن كانت مُحرَّمةً بالنَّذر علىَّ ، وبجَهدٍ ألمَّتْ حَلالًا ، إشارةٌ منه إلى ما قاساهُ فى طَلَب دَمِه . ومعنى بِلَأْيٍ : بعد جَهد وبجَهد . على ذلك قولُه :

* فلأْيًا بِلأْيٍ ما حَمَلْنَا غُلامَنا[٤] *

(١) أبو زيد : زور الطائر تزويراً ، إذا ارتفعت حوصلته .

(٢) سبق التنبيه على أن التبريزى روى هذا البيت وتاليه بين البيتين ٢٠ ، ٢١ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « لئلا يتناساه أو يتشاغل عنه » .

(٤) لامرئ القيس فى ديوانه ٨٤ . وعجزه :

* على ظهر محبوك السراة محنب *

وفى هذه الطريقة لامرئ القيس :

حَلَّتْ لِيَ الخَمْرُ وكُنْتُ امرَأً عَنْ شُرْبِها فى شُغُلٍ شَاغِلِ

وقول الآخر[1] :

فيا لَيْلَ إنّ الغِسْلَ ما دُمْتُ أيِّمًا عَلَيَّ حَرَامٌ لا يَمسُّنِيَ الغِسْلُ

وقولُه « ما ألَمّت » يجوز أن يكون ما صِلةً ، ويجوز أن يكون مع الفعل بعدَهُ فى تقدير المصدر . يريدُ : وبِلأْيٍ ألَمّتْ حَلَالًا . والإلمامُ أصلُه فى الزِّيارة الخفيفة ، وتُوُسِّع فيه فأُجْرِيَ مجرى حَصَلَتْ عندى . وقوله :

فاسقِنِيها ياسَوَادَ بنَ عمرٍو إنّ جِسمى بعد خالى لَخَلٌّ

أظهر التشوّقَ بما نالَهُ من الأعداء حتّى دَعَا مَن خاطَبَهُ إلى ما كان يتشوَّفه مِن سَقْيِه له ، كما أظهرَ التوجُّعَ لفقده مَن أُصِيبَ به بقوله « إنّ جِسْمِي بَعْدَ خالِي لَخلٌّ » . والخلّ : المهزول . وقوله « يا سوادَ بن عمرٍو » جَعَل سَوَادَ — وقد رَخَّمَهُ عن سوادَةَ — بمنزِلة ما جاء تامًّا ولم يُحْذَفْ منه شيء فجعل سواد وابن بمنزلةِ شيء واحد ، وبَناهُ على الفَتح . فالفتحة فى ابنَ للإعراب ، والفتحةُ فى سوادَ للبناء . ولك أن تَروِيه : « يا سَوَادُ بنَ عمرٍو » والضَّمَّةُ فيه ضَمّة المنادى المفرد ، فيكون كقولك : يا زَيْدَ بنَ عَمْرو ويا زيدُ بنَ عمرٍو ، فاعْلَمْه .

---

(١) هو عبد الرحمن بن دارة . إصلاح المنطق ٦ – ٧ واللسان (غسل) .

٢٧٤

وقالَ سُوَيْدُ المَرَاثِدِ الحارثىّ[١] :

١— لَعَمْرِى لَقَدْ نَادَى بأرْفَعِ صَوْتِهِ نَعِىُّ سُوَيْدٍ أَنَّ فارِسَكُمْ هَوَى[٢]

٢— أجَلْ صَادِقًا والقائلَ الفاعِلَ الذى إذا قال قولًا أَنْبَطَ المـاءَ فى الثَّرَى

يُرْوَى : « أنَّ صاحِبَكم هَوَى » ، ومعنى صاحبكم رئيسُكم ، كما أنّ معنى فارِسَكم أفْرَسُكم ، ولهذا أقسم وعَظَّمَ الحالَ فى نعىِّ النَّاعِى حتَّى جَعَلَهُ يُنادِى بأرفع صوتِهِ فِعلَ النَّادِبِ المتحسِّر ، ثم صَدَّقَه فى ثنائِه وخَبَرِه فقال : أجَلْ صادِقًا أى قلتَ صَادِقًا . وأجَلْ هو لتحقيق الإخبار ، كأنَّه لمَّا قال : إنّ صاحِبَكم أو فارِسَكم سوى ، قال : أجل أنت مُصَدَّقٌ ، ثم زاده ثناءً فقال : وإنّ القائلَ الفاعل الذى إذا قال قولًا أنْبَطَ المـاءَ فى الثَّرى . وقولُه « أنّ » صاحبَكم ، أراد بأنّ صاحِبَكم ، فحذف الباءَ وَوَصَلَ الفِعل . وانتصب « صادِقًا » على الحال ، والعامِلُ فيه ما دلّ عليه الكلامُ من معنى قلتَ . و « القائلَ الفاعِلَ » عطفَهُ على صاحبكم ، ويجوز أن ترفَعَهُ ، كأنَّهُ قال : وهو القائل الفاعِل ؛ والنَّصب أحْسَنُ

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « سويد الحارثى » فقط . التبريزى : « وقال سويد المراثد : الحارثى . أبو هلال : ويقال سويد المراثى . سويد تصغير أسود على الترخيم . والمراثد : جمع مرثد ، وهو فى الأصل مصدر رثدت المتاع بعضه فوق بعض ، أى نضدته » . وقد سبق فى الحماسية ١٦ عن البرق ذكر « سويد بن صميع المرثدى ، من بنى الحارث » . فهذا قول ثالث فى تسميته . انظر البيان (٢ : ١٨٦) وحواشيه . والأبيات رواها المبرد فى الكامل ٧٢٧ ليبسك منسوبة إلى أعرابى .

(٢) كذا فى سائر النسخ والتبريزى . وفى الأصل : « ان صاحبكم » ، وسيأتى أنها رواية أخرى . ويبدو أن صواب رواية البيت هو ما رواه المبرد فى الكامل : « نعى حيى » فيكون اسم المرثى حييا ، إذ أن سويدا اسم الشاعر ، وأن مطابقة اسمه لاسم المرثى على رواية المرزوقى والتبريزى أمر بعيد الاحتمال .

وأجود ، ومعنى أَنْبَطَ الماء فى الثَّرى : وَصلَ القولَ بالفعلِ الجالب للخير ، وقَرَّبَ الغَناء من العَناء اللاحق فى الأمْرِ ، وهو بعد ذلك مَثَلٌ لِتحقيق قولِه ، وصِلَةِ النَّجاز بوعْدِه . ومعنى أَنبَطَ الماء : أخرجه . ويقال نَبَطَ أيضا ، فإن قيل : هل يجوز أن يكون التَّصديق منه للنَّاعِى فى قوله « هَوَى » لا غَيْر لأنّه هو الخبَر ، ويكون هذا كما قال دريد[1] : « أعبْدُ الله ذلكم الرَّدِى » جوابا لقولِه « أردتِ الخيلُ فارساً » ؟ قلتَ لا يجوز ذلك ، بدلالة قوله « والقائلَ الفاعلَ الذى » ، لأنّ هذا العطف لا يكون إلَّا على « صاحبَكم » . فكأنه صدَّقه فى الأمرين جميعا ، وزادهُ مِن بعدُ ما زاده[2] . وكذلك قول دريد ، لا يمتنع أن يثْبِتَ الفروسيَّة له مع الإرداء أيضاً فى استثباته إيَّاهم لمَّا قالوا : أردتِ الخيلُ فارِسًا .

٣ ــ فَتى قَبلُ لم تُعنِسِ السِّنُّ وَجْهَهُ ... سِوَى خُلْسَةٍ فى الرَّأسِ كالبَرْقِ فى الدُّجَى[3]

وصفَهُ بأنه مُقْتَبَل الشَّباب لم يَمسَّه أوائل الكِبَر ، وأنّ السِّنّ لم تَنقُص رونقَ شبابه ، ولم تُرَنِّق ماء بشرته ، فهو طَلْق الوجهِ غيرُ عابس . والعُبُوس : ظهور الغضب فى الوجه . ويقال منه : يومٌ عَبُوسٌ ، أى شديد . وقوله « سِوَى خُلسَةٍ فى الرَّأس » استثناء منقطِعٌ ، ويَعنِى أنَّه ظَهرَ من الشَّيبِ فى رأسه شُعلةٌ ،

(١) انظر البيت ٦ من الحماسية ٢٧١ .

(٢) هذا ما فى سائر النسخ . وفى الأصل : « وزاد من بعد ما زاد » .

(٣) فى جميع النسخ : «لم تعبس» بالباء ، وصوابه بالنون ، كما فى رواية التبريزى واللسان (عنس) وكامل المبرد . ونبه صاحب اللسان أن رواية المبرد « تَغْنَسْ » . وقال : « قال الأزهرى : وهو أجود » ، أى أجود من رواية تُعْنِس . وأنشد فى اللسان نظيرهُ لأبى ضب الهذلى :

فتى قبل لم يعنس الشيب رأسه ... سوى خيط فى النور أشرقن فى الدجى

ورواية عجزه عند المبرد : « سوى وضح فى الرأس » .

فهو كالبرقِ يلمعُ فى سوادِ اللَّيل . والخُلْسَةُ : بياضٌ فى سوادٍ ، وقد أَخْلَسَ رأسُه ، وشَعَرٌ خليس ، ومنه قيل للمولود بين الأسود والبيضاء ، والأبيضِ والسَّوداء : خِلَاسِىٌّ .

٤— أشَارَتْ لَهُ الحربُ العَوَانُ فجاءها يُقَعْقِعُ بالأقرابِ أوّلَ منْ أَتَى

٥— ولَمْ يَجْنِها لكنْ جَنَاهَا وَلِيُّهُ فآسَى وآداهُ فكانَ كمَنْ جَنَى

قولُه « أشارت له الحربُ العَوَانُ » كأنهُ لم يَصبر إلى أنْ دُعِىَ ، ولكن حين اهتاجت الحربُ جاءها ، فكأنَّ الحربَ أشارتْ إليه . والعَوانُ : الحرب التى قُوتِل فيها مرّةً بعد أخرى ، تشبيهاً بالعَوانِ من النِّساء ، وهى النَّصَف . والفعل منه عَوَّنَتْ وعانَتْ . وقوله « يُقَعْقِعُ بالأقرابِ » يجوز أن يكون المعنى جاءها ولخواصرِه قعقعةٌ ، أى صوتٌ ، لشدّة عَدْوِه وحِرصِه . وقد يُسمَعُ من جوفِ العادِى العَجِل وصَدرِه النَّهيمُ والصَّوتُ الشَّديد ، إذا استُعجِل[1] فى الإدراك ويجوز أن يكون القعقعةُ التى ذَكَرَها من السِّلاح الذى كان عليه . وقوله « أوّلَ مَن أتى » يجوز أن يكون مَنْ نكرةً ، كأنَّه قال : أولَ فارسٍ طَلَع ، فيكون أَتَى صفةً له ؛ ويجوز أن يكون معرفةً وأَتَى صلةً له ، كأنه قال : أوّلَ الآتين ، ويكون « مَنْ » مُوحَّدَ اللَّفظ مجموعَ المعنى . وانتصَبَ أوّلَ على الحال فى الوجهين جميعاً ، والعامل فيه جاءها أو يُقعقِع . وقوله « ولم يَجْنِها لكن جناها وليُّه » يُحقق ما قلناهُ من أنه لم ينتظر الاستغاثة ، ولكن لمّا طَلعتْ له أمارات امتحان وليِّه آسَاه بنَفْسه ، وأعداهُ على مِحنَتِه ، فكان كالجانى وإن لم يكن منه جنايةٌ ، بَذْلَ اجتهادٍ وسُرعةَ إنجاد . فالبيت الأوّل كما قال الآخر[2] :

قومٌ إذا الشَّرُّ أبدَى ناجذَيهِ لهمْ طارُوا إليه زَرَافاتٍ ووُحْدَانا

---

(١) هذا ضبط ل ، م ، وضبط فى الأصل بالبناء للفاعل .

(٢) هو قريط بن أنيف ، أو أبو الغول الطهوى . الحماسية الأولى ص ٢٧ .

والبيت الثانى كقول الآخر(١) :

وإنّى لا أزالُ أخا حروبٍ إذا لم أَجْنِ كنتُ مِجَنَّ جانِ

وقوله « آداه » أصلُه أعداه ، والألف الثانية همزة أُبدِلَت من العين فى الأصل ، والمعنى أعانَهُ . ويجوز أن يكون مِن الأداة ، أى جَعل له أداةَ الحربِ وعُدَّتَها . وأنشد الأصمعىُّ قولَ الأسود بن يَعْفُر :

ما بَعْدَ زيدٍ فى فَتاةٍ فُرِّقُوا قَتْلًا وسَبْيًا بعد حُسْنِ تآدِ(٢)

وقال : معناه بعد أخْذ الدهر أداتَه .

٢٧٥

وقال رجل من بنى نَصرِ بن قُعَيْنٍ(٣) :

١ — أَبلِغْ قبائلَ جَعْفَرٍ إن جِئتَها ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ(٤)

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ ص ١٣٢ .

(٢) جاء فى شرح المفضلية ٤٤ : «كان المنذر بن ماء السماء خطب ابن امرأة تدعى أم كهف ، من بنى زيد بن مالك بن حنظلة ، فأبوا أن يزوجوه إياها ، فغزاهم وأجلاهم من بلادهم وقتلهم » .

(٣) بنو نصر بن قعين ، بطن من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . المعارف ٣٠ . وقعين يجوز أن يكون تصغير أقعن ، من القعن ، وهو قصر فى الأنف فاحش. وهذا الرجل هو ربيعة – بضم الراء وفتح الباء وتشديد الياء المكسورة – بن عبيدة بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين . قال أبو محمد الأعرابى : ليس فى العرب ربيعة غيره . وهو أبو ذؤاب الأسدى . وكان ولده ذؤاب قتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى يوم خو ، وأسرت بنو يربوع فى ذلك اليوم ذؤابا ، أسره الربيع بن عتيبة بن الحارث وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، فأتى ربيعة الربيع وافتدى ولده ذؤابا بشىء معلوم يؤديه فى سوق عكاظ ، فلما دخلت الأشهر الحرم وافى ربيعة بالإبل الموسم وتخلف الربيع بن عتيبة لشغل عرض له يواف بالأسير ، فقدر ربيعة أن الربيع علم بأنه قاتل أبيه فقتله ، فرثاه بهذه الأبيات وسارت عنه وبلغت يربوعا ، فعلموا أن ذؤابا قاتل عتيبة فأقادوه به . انظر الحيوان (٣ ، ٢٤٦) ، وشرح التبريزى للحماسة ، وأمالى القالى (٢ : ٧٢ – ٧٣) والمؤتلف ١٢٥ .

(٤) قال التبريزى : « قبائل جعفر ، يعنى جعفر بن ثعلبة بن يربوع ، رهط عتيبة » . ورواية الأمالى : « قبائل جعفر مخوصة » .

٢ — أَنَّ الهَوَادَةَ والمَوَدَّةَ بيننا خَلَقٌ كسَحْقِ اليُمْنَةِ المُنْجَابِ

قولُه « ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ » يجرى مجرى الصفة فى شرح الاسم الذى أراده وإزالة اللَّبسِ عنه . والهَوادةُ : الُحرمة والذِّمام والصُّلح . والُمهاودة : الُموادَعَةُ . وتَهوَّدتُ إلى فُلانٍ تهوُّدًا ، أى توسَّلْتُ إليه بوسيلة ؛ من قولهم : بيننا هوادةٌ ؛ ومنه هَوَّدَ الرجلُ إذا مشَى مَشْيًا ساكنا . فيقول : أَبْلِــغْ هؤلاء القومَ إن زُرتَهُمْ أنّ أسباب الصُّلح والمودّة ، والذِّمام والُحرمة ، قد خَلُقَتْ بينى وبينهم ، وتغيَّرت عما عُهِدَتْ ، فهى تزدادُ على مَرِّ الأيّام دروسًا وهُمودًا كخَلَقِ البُرود المنشقِّ ، تزيدُه الأيّام بِلًى وانسحاقًا ، فلا تماسُكَ فيها ، ولا رجاء لصلاحها وعَودها إلى ما كانت . والثَّوبُ السَّحْقُ وُصِفَ بالمصدر ، كأنّ البِلَى سَحَقَهُ . واليُمْنَةُ : ضربٌ من بُرود اليَمَنِ . والُمنجاب : المنشَقّ . وهذا الكلام وعيدٌ ، ويشتمل على أنّ الطَّمع من رجوع الأمر إلى ما كان زائلٌ ، وأنّ الفسادَ فى ذاتِ بينِهِمْ مُتظاهِر ، لا يَقبلُ إصلاحًا ، ولا يَلْقَى مُزاوِلوهُ فَلَاحا . وقولُه « أنّ الموادَةَ » فى موضع نصبٍ على أنّه مفعول ثانٍ لأبلِــغْ .

٣ — أَذُؤَابُ إنّى لَمْ أَهَبْكَ ولم أَقُمْ للبَيْعِ عند تَحضُّرِ الأَجْلَابِ[1]

يُرْوَى « لم أَهَبْكَ » من الهِبَة ، أى لم أسمَحْ بدمِك كما يتواهَبُ النَّاسُ الشَّىء بينهم ، وحكى ابنُ الأعرابىّ : وَهَبنى اللهُ فِداءَك . ومنه قولُهم : هَبْهُ كذا ، أى احْسَبْهُ . ويُرْوَى : « لم أُهِنْكَ » ، أى لم أتغافَلْ عن طلَب دَمِك استهانةً بكَ . وقولُه « ولم أَقُمْ للبَيْع عند تحضُّرِ الأجلاب » ، يريدُ : إنِّى لم أجد الدِّيَةَ ، فكنت بائعًا لدمِك كما يُباع الجَلَبُ من الأموال ، إذا سِيقت

---

(١) انفردت نسخة الأصل برواية « لم أهنك » . وفى المؤتلف :

أذؤاب إنى لم أبعك ولم أهب بعكاظ حيث تجمع الأجــلاب

إلى الحضَر. ولم يُرِدْ بقوله «لم أَقُمْ» القيامَ الذى هو ضدُّ الجلوس، إنما المُراد لم أترشّح ولم أتهيّأ. على ذلك قولُه عزّ وجلّ: ﴿إذا قُمْتُمْ إلَى الصَّلَاةِ﴾.

٤ – إنْ يَقْتُلوكَ فقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ   بعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ(١)

٥ – بأَشَدِّهِمْ كَلَبًا عَلَى أعدائِهِمْ   وأَعَزِّهِمْ فَقْدًا عَلَى الأَصْحابِ(٢)

الثَّلُّ: الهَدْمُ؛ ويقال ثُلَّ عَرش فلانٍ، إذا تضعضعَتْ حالُه واتّضَع عزُّه قال الأصمعىّ: وربما قيل ثُلَّ عُرْشُه، وإذا أُريد به القَتْلُ فليس إلّا بضمّ العين. قال ذو الرمة:

* وقد ثَلَّ عُرْشَيْهِ الحُسامُ المُذَكَّرُ(٣) *

والعُرْشان: لحتان مستطيلتان من جانبيِ العُنُق، وفيهما الأخدعان. وقولُه «إن يقتُلوكَ» وقد كانوا قتَلوه يريدُ إنْ تبجّحُوا بقتلك وصاروا يفرحون به، فقد أثّرْتَ فى عِزِّهم، وهدمت أساس مَجدِهم بما نِلتَ مِن رئيسهم عُتَيبة ابنِ الحارث. وقوله «بأشدِّهم كَلَبًا» جعله بدلًا من قوله بعتيبة، وقد أعاد حرف الجرّ فيه، وقد مضَى مثلُه(٤)، وذكرنا الشاهدَ فيه من قوله تعالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ ومعنى أشدِّهم كَلَبًا أشدُّهم تأثيراً ونكايةً فى الأعداء. ومن كلام الحسَن: «إنّ الدُّنيا

(١) الأمالى: «فقد هتكت بيوتهم».

(٢) انفردت نسخة الأصل والتبريزى بهذه الرواية. وفى المؤتلف وسائر النسخ: «على أعدائه». وفى الأمالى:

بأحبهم فقدا إلى أعدائهم   وأشدهم فقدا على الأصحاب

وقال القالى: ويروى:

بأشدهم أوقا على أعدائهم   وأجلهم رزءاً على الأصحاب

(٣) صدره فى ديوان ذى الرمة ١٣٦ واللسان والمجمل والمقاييس (عرش):

* وعبد يغوث تحجل الطير حوله *

(٤) انظر البيت الثانى من الحماسية ٢٦٨.

لما فُتِحت على أهلها كَلِبُوا عليها أشدّ الكَلَب»، أى حَرَصُوا أشدّ الحرص. ويقال: دَهرٌ كَلِبٌ، أى مُلِحٌّ على أهله بما يسوؤهم. وقولهم كَلْبٌ كَلِبٌ يأكل لحومَ النّاس فيأخُذُه منه شِبْه جنون. وقولُه «وأعزَّهم فقداً على الأصحاب» يريدُ وأشدّهم، ومنه استعزّ اللّحمُ، إذا صَلُبَ؛ وَيعِزُّ علىّ أن أرى كذا، أى حَقّ واشتدّ. ويقولون: أتحبُّنى؟ فيقالُ: لعزّ ما، أى لَحَقّ ما.

٢٧٦

وقال الحُرَيثُ بنُ زيدِ الخَيْل(١)

١ – ألا بكَرَ النّاعِى بأوْسِ بن خالدٍ ... أخِى الشَّتْوَةِ الغَبْراء والزَّمَنِ المَحْلِ(٢)

٢ – فإنْ تَقْتُلُوا بالغَدْرِ أوْسًا فإنّنى ... تركْتُ أبا سُفْيَانَ مُلْتزِمَ الرَّجْلِ(٣)

---

(١) فى جميع النسخ: «الحرث بن زيد الخيل»، وإنما هو «الحريث» بالتصغير كما فى التبريزى والأغانى (١٦: ٥٦)، والإصابة ١٦٧٣ والشعر والشعراء ٢٣٤. وفى الإصابة والشعر والشعراء أنه كان لزيد الخيل ولدان: مكنف وحريث، أسلما وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد. ومما يؤكد تصحيح اسمه ما أنشده ابن حجر له:

أنا حريث وابن زيد الخيل ... ولست بالنكس ولا الزميل

وأنشد له الواقدى فى الردة أشعاراً منها:

ألا أبلغ بنى أسد رسولا ... وهذا الحى من غطفان قِيلى

بأن طليحة الكذاب أمسى ... عدو الله حاد عن السبيل

وقد قتله عبيد الله بن الحر الجعفرى مبارزة فى حرب كانت بينهما من قبل مصعب بن الزبير. وابيات الحماسية هذه فى الأغانى والشعر والشعراء.

(٢) قال أبو رياش: كان سبب هذه الأبيات أن عمر بن الخطاب بعث رجلا يكنى أبا سفيان ليس بالهاشمى ولا الأموى – إلى البادية يستقرئهم، فمن لم يقرأ شيئاً – أى شيئاً من القرآن – ضربه، فانتهى إلى بنى نبهان، فاستقرأ أوس بن خالد بن عمرو، ابن عم لزيد الخيل، فلم يقرأ شيئاً فضربه فمات من ضربته، فقامت ابنته وأم أوس تندبانه، فأقبل حريث بن زيد الخيل حتى دخل على أبى سفيان فقتله وأصحابه وقال هذه الأبيات. وزاد أبو الفرج فى روايته عن أبى عمرو، أنه هرب إلى الشام. وذكر أبو الفرج أيضاً أنه أوس بن خالد بن زيد.

(٣) الأغانى: «فإن يقتلوا أوساً عزيزاً».

أبو سفيان مُصدِّقٌ ورد حَيَّهُمْ لاستيفاء الصَّدَقة عليهم، فاتَّهمَ أوسَ بن خالد بأنه سَتَر بعضَ مالِه طمعًا فيما يلزمه من الصَّدَقة فيه، واقتطاعًا من الواجِب عليه، فأخذَهُ أبو سفيان يضربُهُ، وارتَقى ما بينهما إلى أن أدّى إلى قَتْلِه، فصاحت أمُّ أوسٍ فأغاثَها قائل هذه الأبيات، ورَمَى أبا سفيانٍ بسهم نَفَذَ فيه فقتله.

وقولُه «بَكَر النَّاعِى»، يجوز أن يكون معناه ابتدأ بنعاهُ لأنَّ البُكور أصلُه ذلك، ولذلك قيل فى أوّل النَّهار: بُكرةٌ. ويجوز أن يكون بمعنى جاء بُكرةً. فيقول: ابتكر المُخبِر بقتل أوسِ بن خالد ملجأِ الضُّعفاء، وثِمَالِ الأيتام، فى الشَّتْوَةِ الغَبراء، القليلة الأمطار، الشديدة الإمحال. والمَحْلُ: يُبْسُ الأرض. ويقال زَمَنٌ ماحِلٌ ومَحْلٌ، وقد أمْحَلَ النّاسُ إذا أسنَتُوا. وقوله «فإن يقتلوا بالغَدْرِ أوْسًا» يريدُ أنَّ أبا سفيان هذا كان انطوَى على غِلٍّ لأوْسٍ، وعداوةٍ كامنةٍ له، فتوصَّلَ بما ادّعَى من خيانتِه فى مالِ الصَّدقة إلى ضربِه وقتلِه، لذلك قال: «إن تقتلوا بالغَدْرِ». وقوله «فإنّى تركْتُ أبا سفيان ملتزِمَ الرَّحْل»، يريد: إنِّى اتَّأرتُ من أبى سفيانَ وجعلتُه ملتزِمًا لرحله لا حَرَاكَ به، أى قتلتُهُ بدلًا من صاحِبِه.

٣ ــ فلا تَجْزَعِى يا أمَّ أوْسٍ فإنّهُ تُصِيبُ المَنَايَا كُلَّ حَافٍ وذِى نَعْلِ[(١)]

أخَذَ بعد اقتصاص الحال يُسَلِّى أمَّ أوسٍ عن ابنها، ويطيِّبُ قَلْبَها، ويعرِّفها أنّ الموتَ طريقٌ يَسْلُكه الناس على اختلاف طبقاتِهم، وأنّه لا مَحِيدَ عنه ولا مَعْدِل. وحَسُنَ ذلك منه لأنّه كان قد أدْرَكَ الثَّأرَ لها، وشَفَى نفسَها من داء مصيبتها، فأقبل يَبْرُدُ[(٢)] غليلَها بَوعظِه، زيادةً فى الاهتمام لها والتوفُّر عليها.

(١) فيما عدا الأصل: «تصيب المنايا». وفى الأغانى: «يلاق المنايا».

(٢) هذا ضبط جميع النسخ. يقال برد الطعام وبرده، بالتضعيف، وأبرده.

وكان يجب أن يقول : كل ذى حَقٍ وذى نَعلٍ ، أو كُلّ حَافٍ وناعِلٍ ، لكنّه لمـا وجَدَ اسم الفاعل يَنوبُ مَنابَ ذى كذا ، لم يُبالِ أن يكون أحدُهما بذى. وهذا يُبيِّن ما يسلكه أصحابنا البصريّون فى مثل قولهم : طالقٌ وحائضٌ ، أنّه على طريق النِّسبة وَفى معنى ذاتِ طَلاقٍ وذاتِ حيض ، ويؤكِّد صحّته .

٤ — قتلنا بقتلانا من القومِ عُصْبَةً كِرَامًا ولَمْ نأكُلْ بِهِم حَشَفَ النَّخلِ [١]

٥ — ولولا الأُسَى ماعِشتُ فى النّاسِ بَعْدَهُ ولـكن إذا ما شئتُ جاوَبَنى مِثْلِى [٢]

فى هذا الكلام دِلالةٌ على استفحال الشرِّ بينهم حتّى قُتِلَ من الجانبين عِدَّة ، لذلك قال : قتلنا بدل قتلانا من القوم عصبة يرجعُون إلى كَرَم . والعُصبَةُ : العَشرةُ من الرِّجال ، وقيل ما بين العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العِصابة من النّاس والطّير والخيل . وهذا تنبيهٌ على أن الثأر الذى أدركه منهم كان مُنيمًا ، والاشتفاء من دائه بِهِ كان مُجيبًا . وقولُه « ولم نأكُلْ بهم حَشَفَ النّخل » يريدُ : لم نشتغِلْ عن طلب دمهم بالأكل . وذِكر الحشَفِ إزراء بذلك الطّعام لو صُرِفت النّفوسُ إليه مع تَضايُق الوقت فى طلب الدّم . ويجوز أن يريدَ : لم نأخذ ديتَهم . وجَعَل التّمرَ حَشفًا كما قال غيرُه [٣] .

ولا تأخُذُوا منهمْ إفالًا وأبكُرًا وأُترَكَ فى بيتٍ بصَعدَةَ مُظلِمِ

والإفالُ والأبكرُ لا تُؤخَذانِ فى الدِّية [٤] ، ولكنْ حَقَّرَ أمرَها . وقولُه : « ولولا الأُسَى ما عِشْتُ فى النّاس بعده » يريدُ لولا التصبُّر والتأسِّى والاقتداء بهم فى المصائب ، لقتلتُ نفسى ولم أعِشْ بَعْدَه — يعنى بعد أوسٍ — فى النّاس ،

---

(١) الأغانى ، « أصبنا به من خيرة القوم سبعة » و « ولم نأكل به » .

(٢) فى الشعراء ، « فى الناس ساعة » و « ساعدنى مثلى » .

(٣) هو كبشة أخت عمرو بن معديكرب . الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ .

(٤) فى الأصل : « لا تؤخذ إلا فى الدية » ، صوابه فى سائر النسخ .

ولــكنْ متى شئتُ وجدتُ لنفسى نظائرَ ممّن فقدوا أعِزَّتَهم . ويُشبه هذا قولُ الخنساء:

ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى ... على إخوانِهمْ لقتلتُ نَفْسِى

وقوله « ما عشْتُ فى الناس بعده » جواب لولا ، ونابت عن خبر المبتدأ وهو الأسى ، كأنّه قال : لولا الأسى مانعٌ لى ما عشتُ فى النّاس بعدَه . وقد تَقدم القولُ فى لولا ، وفيما يقع فيه[1] .

٢٧٧

وقال البَرَاء بن رِبْعِىّ الفَقْعَسىّ[2] :

١ ــ أَبَعْدَ بَنِى أُمِّى الذين تتابَعُوا ... أُرَجِّى الحياةَ أَم منَ الموتِ أَجزَعُ

قولُه « أبَعْدَ » لفظُه لفظُ الاستفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . والاستفهامُ يَطلُبُ الفِعْلَ . فيقول : أُرَجِّى الحياةَ أم أجزَعُ من الموت بعد إخْوانى الذين انقرضوا وذهب الواحدُ فى إثْر الواحدِ فدرجوا . والمعنى : ماذا يجوز أن يكونَ منِّى : أيحسُنُ الطَّمعُ فى الحياة بعدَهم ، أم الجزعُ من الموتِ عَقِبَ الفَجْع بهم . وأم هذه يجوز أن يكون أوْ بدلها ، لأنها المنقطعة . ألا تَرَى أنّ التى تكون عديلةَ الألفِ فى العطف مِن شرطِها أن يكون أحدُ الأمرين اللَّذَيْن يَسألُ عنهما المستفهمُ قد وقَع عنده إلّا أنه لا يَدْرى أيُّهما هو . يقول القائل : أرأيتَ زيدًا أم عمرًا ، وهو لا يشكُّ أنّ أحدهما رآه ، إلا أنه لا يدرى أيُّهما هو . والذى فى البيت ليس كذلك فتأمَّله .

(١) انظر ما سبق فى ص ٤٦٦ فى الحماسية ١٥٧ .

(٢) التبريزى : « وقال أبو حبال البراء بن ربعى الفقعسى . البراء فى اسم رجل يجوز أن يكون مأخوذاً من قولهم : أنا براء منك ، أى برىء ، أو من قولهم لآخر ليلة من الشهر ليلة البراء ... والربعى : ما نتج فى أيام الربيع ، ويكنى به عن ولد الرجل فى شبابه ... قال أبو هلال : أبو حبال هكذا رويناه فى الأصل ، وهو تصحيف ، وإنما هو أبو الحناك بالنون والكاف » . وقد ذكره صاحب المؤتلف ٨٦ وصاحب القاموس فى (حنك) .

٢ — ثمانيةٌ كانوا ذُؤَابَةَ قومِهِمْ بِهِمْ كُنتُ أُعطِى ما أشاءُ وأَمْنَعُ[1]

٣ — أولئكَ إخْوَانُ الصَّفاءِ رُزِيتُهُمْ وما الكَفُّ إلّا إصبعٌ ثُمَّ إصْبَعُ

ذكر أن إخوانَهُ كانوا ثمانيةً ، وأنّهم كانوا رؤساءَ قومِهم ، وأنّه بعِزِّهم ومكانِهم مِن قبيلتِهم كان يدفَعُ عن نفسه ما يشاء ، ويَقبَل لها ما يشاء . وفى قولِه « كنتُ أعطِى ما أشاء » حَذْفٌ ، ولو أتى على حدِّه لكان : كنتُ أعطى ما أشاء إعطاءَهُ وأمنَعُ ما أشاء مَنعَه . والمفاعيل تُحذَفُ كثيرًا لأنّ القرائن تدل عليها . وإنما قال « ذؤابة قومهم » ولم يقل ذوائب قومهم ، لأنّه عدَّهم شيئًا واحدًا ، لتناصُرِهم واتّفاق أهوائهم . والذُّؤابةُ : اسمٌ فى الأصل ، وقد وُصِفَ به ، وكما قيل هو ذؤابةُ قومِهِ ، وهم ذوائبُ قومِهِ ، قالوا فى الضِّدّ منه : هو ذُنابة قومه ، وهم ذَنائب قومه . وقولُه « أولئك إخوان الصَّفاء » نَبَّهَ به على زوال الخلافِ وسقوط المِرَاء من بينهم ، وعلى خُلُوص نِيَّة كلِّ واحدٍ منهم مع صاحبه ، حتى كانَ ما يجمعهم تَصافِيا بلا كَدَرٍ ، وتوافُقًا بلا حَسَدٍ ، وأنّهم كانوا فى التّعاوُن والتّظاهُر كالكفِّ الواحدة ، فكلٌّ واحدٍ منهم كالإصبع من تلك الكفّ ، فلما تُخُرِّموا ومَاتَ الواحدُ بعد الواحد ، صارت الكفُّ تتراجَعُ بنُقصان أصابِعها حتّى صارت لا تغنى فى البَطْشِ بِها ، ولا تَعمَلُ عند القبض والبسط عَمَلَها .

٤ — لَعَمْرُكَ إنّى بالخليلِ الذى لَهُ عَلَىَّ دَلَالٌ وَاجِبٌ لَمُفَجَّعُ

٥ — وَإنّى بالمَوْلَى الّذِى لَيْسَ نَافِعِى ولا ضائِرِى فِقدانُهُ لَمُمَتَّعُ

أقسم بأنّه مُفَجَّعٌ بمن تعزُّ حياتُه ويكرُم مقامُه ، حتّى يَرَى لنفسه تدَلُّلَا

(١) المؤتلف : « من أشاء » .

واجباً عليه، وتمكُّنا مكيناً منه؛ ومُمتَّعٌ بمن لا رغبةَ له في العيش معه، فليس في بقائه نَفْعٌ له ولا في ذهابِهِ ضررٌ عليه، وكان الواجب أن يقول: ليس نافعي حياتُه أو وجدانه، حتّى يكونَ في مُقابلةِ قوله «ولا ضائرى فِقدانُه» إلّا أنّه لمّا ضاقَ نطاقُ البيت عنه لم يُبالِ بالاقتصار على نافِعِي، إذ كان المرادُ بها مفهوماً، وإذْ كان ضميرُه في ليس يقومُ مقامَ حياتِهِ لو أتَى به. وسَمّى مَن اشتدَّت فاقتُه إلى حياته خليلًا لاختصاصِ مكانِهِ من قلبِه، وعلى عادَتِهم في تسمية المعتَمَد عليه خليلًا، حتّى سمَّوا الفرَسَ والسَّيف خليلًا. قال يعني الفرَسَ:

. . . . وأتَّقي بهادِيهِ إنِّي للخليلِ وَصُولُ[1]

وقال الآخر في السيف:

* ما سَدَّ كَفِّي خَلِيلُها[2] *

وسمَّى القبيلَ الثّاني مَوْلَى إشارةً إلى أبناء عمِّه الذين لا غَناء عندهم، ولا انتفاع له بمكانهم.

٢٧٨

وقال مُطيع بن إياسٍ، في يحيي بن زياد[3]:

١– يا أَهْلِ ابكُوا لِقَلْبِيَ القَرِحِ وللدُّمُوعِ السَّواكِبِ السُّفُحِ

(١) البيت لأبي الأبيض العبسي، سبق في الحماسية ١٥٧. وصدره:
* أقيه بنفسي في الحروب وأتقي *

(٢) سبق في ص ٤٦٩: «ما شد» بالشين المعجمة. والبيت بتمامه:
وإني كما قالت نوار إن اجتلت على رجل ما شد كفي خليلها

(٣) مطيع بن إياس بن أبي سلمة الليثي الكناني، من مخضرمي الدولتين، كان ظريفاً خليعاً متهما بالزندقة، ولد ونشأ بالكوفة. وأخباره مسهبة في الأغاني (١٢: ٧٥–١٠٣) وأمالي المرتضى (١: ٩٨)، ولسان الميزان (٦: ٥١–٥٢). وكان يحيى بن زياد الحارثي صديقاً له هو وحماد الراوية، وحماد عجرد، وعمارة بن حمزة، وآخرون، كلهم ظريف متهم بالزندقة. انظر الحيوان (٤: ٤٤٧–٤٤٨). وكان المنصور يعجب بهذه الحماسية. الأغاني (١٢: ٨٢).

٢— راحُوا بِيَحْيَى ولو تطاوِعُنِي الْ أَقدارُ لم تَبْتَكِرْ ولم تَرُحِ[1]

لم يَرْضَ بتجرُّدِه لتلقِّى الأمر الذى دَهِمَه، وبتفرُّدِه فى الجزَع للخَطْبِ المُلِمّ به حتى طَلَبَ من ذويه وعشيرته إسعادَهُ فى البُكاء لما نابَهُ فأقرَحَ قَلْبَهُ، وأسالَ دمعَهُ. وإنما فَعَلَ ذلك لأنَّه يَعُدُّ التعاوُنَ فيه والتَّشاركَ، أدلَّ على تجليل الفجيعة له؛ والائتساء والتَّساوىَ، أجْلَبَ للتخفيف ممَّا به. ألَا ترَى أنّ الله تعالى يقولُ فى أصحابِ النار: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾، فأيأسَهم من أن يكون اشتراكُهُم فى العذاب يسلِّيهم أو يرجِعُ بضربٍ من النَّفع عليهم، على العادة فى دار الدُّنيا. وقولُه «قلبِىَ القَرِحِ» يقال. أقرَحَهُ الهمُّ فقَرِحَ وهو قَرِحٌ قريحٌ. وقيل فى القَرْح هو البَثْر إذا ترامَى إلى فساد. وقوله «السَّواكب» جمع ساكِبة، ووُصِفَ الدُّموعُ به على معنى ذات سُكوبٍ، كما قيل عَيْشٌ ناصِبٌ، أى ذو نَصَبٍ على النِّسبة. والسُّفُح: جمع سَفوح، والسَّكْبُ والسَّفْحُ يراد بهما الصَّبّ إلّا أنّ السّفحَ أبلغُ من السَّكْب، لذلك ارتقَى من السَّواكب إليه. وحكَى الخليل أنّ أهل المدينة يقولون: اسكُبْ على يَدِى. ويقال رجُل سَفّاحٌ للدِّماء، ولم يُقَل سَكّابٌ، لأنّ السَّكب لا يبلغُ حدَّ السَّفح.

وقولُه «راحوا بيحيى ولو تطاوِعُنى الأقدار»، يقول مُنَبِّهًا على مَساسِ الفاقة إلى بقائه، وغلبة اليأس من الاعتياض منه: راحوا ولو أطاعنى القَدَرُ ما فُجِعنا بفراقه، فكان لا يبتكر لا غاديًا ولا رائحًا. ومن رَوَى بالتاء «لم تبتكر» جعل الفعلَ منسوبًا إلى الأقدار يريدُ: لم تبتكر الأقدار ولم تَرُحْ به وأنا راض.

(١) ل: «لم يبتكر ولم يرح» بالياء، وهذه هى الرواية التى تتلاءم مع مفهوم التفسير فيما بعد.

وإنّما قال « بَكُّوا » لأنّ فَعَّلَ يفيد التكثير من الفاعلين . وتكرير الفعل من واحدٍ حالًا بعد حال .

٣ — ياخيرَ من يَحْسُنُ البكاء لَهُ الـ يَومَ ومن كان أمْسِ للمِدَحِ

٤ — قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرورِ وقد أُدِيلَ مَكْرُوهُنا من الفَرحِ

إنما ناداهُ لقوله « قد ظَفِرَ الحُزْن بالسُّرور » ، كأنَّه يريدُ إعلامَه تأثيرَ المُصابِ فيهم ، وأنّهم قد استبدلُوا بعدَه بالسُّرور حُزناً دائما ، وبالفَرَحِ مكروهًا راتبًا . و « مَنْ » نَكِرة . وقوله « يَحْسُن البكاء له اليَوْمَ » صفة له ، فيقول : يا خيرَ إنسان كان المدحُ فيما مضَى من الزّمان أوْلَى به ، والبكاء عليه فى الحال والاستقبال أحقّ لَهُ ، قد تأدّى حالُنا بَعدك إلى أن أَبدلَنا القدَرُ بالفرح تَرَحًا مُتّصلاً ، وبالمحبوب مكروهًا لازما .

ومعنى ظَفِرَ الحُزْنُ بالسرور وأُدِيلَ مكروهُنا ، أنّ الغَابَ لهما حتى لاثَباتَ للسرور والفَرَح معهما ، ولا انتِياش منهما[1] . يبيّن ذلك أنه قال « وقد أُدِيلَ مكروهُنا » أى جُعِل له على الفرح دَولةٌ . وقوله « من الفَرَح » يريد من المفروح به ، وهو المحبوب ؛ لأنه كما طابَقَ الحُزْنَ بالسرور فى الصدر ، طابَقَ المكروهَ بالمحبوب فى العَجُز . وهذا كما يقال : لا يسرُّنى بهذا الأمر فرَحٌ ومفروحٌ به ومُفرِحٌ . والوصفُ بالمصدر ووضْعُه موضع الفاعل والمفعول مشهورٌ . وقد خرج فى هذا الكلام جوابُ سائلٍ يقول : ما الفرق بين السرور والفرح ؟ وكيف أتى بهما وهما بمعنًى واحد ؟

(١) الانتياش : الاستنقاذ ، يقال انتاشه ، أى استنقذه واستدركه وأخذه من مهوته .

٢٧٩

وقال مُطيعٌ أيضاً[١] :

١— قلتُ لِحَنّانَةٍ دَلُوحٍ تَسُحُّ من وابلٍ سَحُوحِ
٢— أَيِّ الضَّريحَ الذى أُسمِّى ثم استَهِلِّى على الضَّريحِ
٣— ليس من العَدْلِ أن تَشِحِّى على فتًى ليس بالشَّحيحِ[٢]

أراد أن يدعوَ للقبر بالسُّقيا فجعَل بدلَ الدعاء سؤالاً وتمنِّيا ، لأنّ طريقةَ الجميع واحدةٌ فقال : قلتُ لسابةٍ فيها رعدٌ ، فكأنّها كانت تَحِنُّ برعدها إلى شىء كحَنِين الناقة إلى وطنها أو وَلدِها . دَلُوح ، أى ثقيلة . يقال : مَرَّ البعيرُ يَدْلَحُ بحِملِهِ ، أى يمشى متثاقلاً . والسَّحابةُ تَدْلَحُ من كثرة مائها . تَسُحُّ أى تَصُبُّ . وابلٌ : مطرٌ ضخمُ القَطرِ . سَحُوح : كثير الانصبابِ شديدُهُ : إن قيل : كيف جعَلَ السَّحَّ مرّة للحنّانة ومرّة للوابل ، والوابل يكون مصبوباً لاصابًّا ، وما فائدة مِن فى قوله « من وابلٍ سَحُوح » فإنّ المرادَ به الكثرة ، وهم يجعلون ، إذا قصدوا إلى المبالغة ، الفِعلَ الواقعَ بالشّىء له . ألا ترَى أنهم يقولون : مَوتٌ مائتٌ ، وشِعرٌ شاعرٌ . وهذا كما قالوا : سيلٌ مُفعَمٌ ، والسيلُ

---

(١) كذا نسبه أبو تمام . وفى الأغانى (١٣ : ٧٩) أن الشعر لحماد عجرد يرثى الأسود ابن خلف ، وكان يعاشره ولا يكادان يفترقان . ومما يجدر ذكره هنا أن حماد عجرد كان معاصراً لمطاع بن إياس وصديقاً مواصلا له . وقد روى أبو الفرج بعد البيت الأول :

جاءت علينا ، لها رباب بواكف هاطل نضوج

وبعد الثانى ، وهو مما يؤيد نسبته إلى حماد عجرد فى رثائه للأسود :

على صدى « أسود » الموارى فى اللحد والترب والصفيح
فاسقيه ريا وأوطنيه ثم اغتدى بعده وروحى
اغدى بسقياه فأصبحيه ثم اغبقيه مع الصبوح

وكلمة الصبوح ، هى فى الأصل « الكسوح » .

(٢) فى الأغانى : « على امرئ » .

لا يُملأ إنما يُملأ به الشيء . وإذا كان كذلك فالسَّحُّ من الحَنّانَةِ حقيقةٌ ، والسَّحُّ من الوابل مجاز ، والمرادُ به ما ذكرنا . على أنه لا يمتنع أن يكون سَحَّ من باب فَعَلْتُه ففعَل ؛ فقد حَكَى الخليلُ : سَحَّ المطرُ والدَّمعُ ، وقال : هو شدَّة انصبابِهما . ويقال من السَّحِّ : فَرَسٌ مِسَحٌّ ، أى يَصُبّ العَدْوَ . وأرضٌ سَحَاحٌ[1] ، أى تسيل من مَطَرٍ يسير .

وقوله « أُسمِّى الضَّريحُ الذى أُسمِّى » يريدُ الذى أنُصُّ عليه وأبيِّنه بذكر اسم صاحبه ، إذ لم يكن للضريح اسمٌ يتميزّ به عن القبور ، فكأَنّ بيانَ الكلام : أُسمِّى صاحبَه ، فحذفَ المضاف وهو صاحبٌ ، ثم أقام المُضافَ إليه مقامَه ، فجاء أسمِّيه ، ثم حذف المفعول من الصلة لطولها فبقىَ أسمِّى . ومعنى استَهِلِّى : صُبِّى . ويقال هَلَّ السحابُ بالمطرِ واستَهَلَّ وانهلَّ المطرُ انهلالاً . والأهاليلُ : الأمطار الشديدةُ الانصباب[2] . ويجوز أن يكون لمّا وصفَ السحابةَ بالحنّانة لرَعدِها كنَى عن المطر بالاستهلال ، لأنّه كالحنين ، وهو رفعُ الصوت بالتلبية وغيرها ، فيكون الحنين والاستهلال للرّعد والمطر كالسؤال والجواب . فأما قولُه « على الضريح » فتكراره تنبيهٌ على عِظَمِ شأنه وفَظاعة الفَجْع به . والتفخم بالتكرير يحصُل كثيراً . والضَّريح : القبر بلا لَحد ، وهو فَعيل بمعنى مفعول ، لأنه يقال ضَرَحوا له ضريحاً . وقال الدُّريدىّ : سمّى ضريحاً لأنه انضَرح عن جَالَىِ القبر[3] ، أى اندفَع فصار فى وسَطِه . وقولُه :

ليس من العدل أن تَشِحِّى على فتًى ليس بالشَّحيحِ

يريد : ليس من الإنصاف البُخْلُ بمائك وصَوْبِك على فتًى كان لا يَبخل

(١) لم ترد هذه الكلمة فى المعاجم المتداولة .

(٢) قيل لا واحد للأهاليل ، وقيل واحدها هلال والجمع سماعى .

(٣) الجالان : الجانبان ، يقال جال وجول وجهل ، وهو الجانب والناحية .

بماله، وما يُجتدَى منه فى جاهِه وحالِه. وهذا ظاهر. وفى طريقته قول أبى تمّام:

وكيف احتمالى للغُيوثِ صَنيعةً ... بإسقائها قبرًا وفى لَحدِهِ البَحْرُ

٢٨٠

وقال الأشْجَعُ السُّلَمىّ[١]:

١ — مَضَى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبقَ مَشرِقٌ ... ولا مَغرِبٌ إلّا لهُ فيه مادِحُ[٢]

يقول: فُجِعَ الناسُ بابن سعيدٍ حين كَمَل وبَرَع وشمِل نفعُه فعَمّ حتى لم يَبقَ بُقعةٌ من جوانب الشرق والغرب إلا وتَرَى فيها شاكراً لنعَمِه، حامداً لفَعالِه، مادحًا لفرط إحسانِه. وإنما يَعظُم الرُّزْء باستكمال فضائل المرثِىّ، وشمول فواضِله.

٢ — وما كنتُ أدرِى مافواضِلُ كَفِّهِ ... على الناسِ حَتّى غيَّبَتْهُ الصَّفائحُ

قوله «ما فواضِلُ كفِّهِ» استفهامٌ، وموضع الجملة من الإعراب أنه مفعولُ أدرِى وقد عُلِّق عنه، والمعنى: ما أدرى ما يقتضى هـذا السؤالُ. والفواضِلُ: جمع فاضلة، وهو اسمٌ لما يَفضُل من نَدَى كَفِّهِ فيتجاوزُها إلى

(١) هو أشجع بن عمرو السلمى، من ولد الشريد بن مطرود السلمى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر من شعراء الدولة العباسية، نشأ بالبصرة وقال الشعر وأجاد وعد فى الفحول، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر معدود، فلما نجم أشجع وأجاد افتخرت به قيس. ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر خاصة وأصفاه مدحه فأعجب به ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضاً فأثرى وحسنت حاله. الشعراء ٨٥٧ — ٨٦١، والأغانى (١٧: ٣٠ — ٥١) وتاريخ بغداد (٧: ٤٥) ومعاهد التنصيص (٢: ١٣٣) والموشح ٢٩٥ وقال التبريزى: «قال أبو هلال: كان البحترى يقول: إنه يخلى. ومعنى الإخلاء أن يأتى بألفاظ حسنة ليس تحتها كبير معنى».

(٢) الأبيات رواها القالى فى أماليه (٢: ١١٨) والحصرى فى زهر الآداب (٣: ٢٠٩) وروى صاحب العقد (٣: ٢٨٧) بعض أبيات هـذه الحماسية منسوبة إلى منصور النمرى.

الناس . ويجوز أن يكون فاضلةٌ مصدرًا بمعنى فَضْلٍ أو إفضالٍ ، فيكون كالعافيةِ والقائمِ من قولهم قُمْ قائمًا ، والباليَةُ من قولهم ما أباليه باليَةً[1] ، ثُمّ لاختلافه جَمَعَهُ . والمصادرُ تُجمع إذا اختلفت ؛ على ذلك قولهم العُـلوم والعُقولُ وما أشبههما . وإذا جُعِل كذلك يكون قد عدَّى فواضِلَ وهو جمعٌ مكسَّرٌ إلى قوله على الناس . وحَصَل من هذا الكلام أنّ قوله « على الناس » يتعلّقُ بفواضل على وجهين : أحدهما أن يكون فواضل جمع فاضلة ، وهو اسم للفاعل ، والثانى أن يكونْ فواضل جمع فاضلة ، وهو مصدرٌ ، وتعدِّى مثلِه ليس بكثير .

وقوله « حتى غَيَّبَتْهُ الصفائح » معناه إلى أن غَيَّبَتْهُ الصفائح . والصفائح : أحجار عِراضٌ سُقِّف بها قبرُه . يقول : لم أتبيَّنْ مقادير إحسانه عند الناس ، ومَبالغَ أياديه لديهم ، وفنونَ برِّهِ بهم ، وانصبابَ مِنَنِه إليهم ، لاختلاف مواقعها ، ولخفاء كثيرٍ منها على حَسَب قُصودِه فى الإفضال ، ولتبايُن مَواضِع الصنيعة فى التفصيل والإجمال ، إلى أن خَلَّى مكانَه فظهرت الفاقةُ على متحمِّلى نِعَمِه ، وتَظاهرَ الحمد والثَّناء من الـكافّة على اختلاف منازِلهم وتباعُدِ مظانّهم ، فحينئذ بان لى كثرتُها وتوفُّرها .

٣ — فأصْبَحَ فى لَحْدٍ من الأرضِ مَيِّتًا وكانَتْ به حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ[2]

قوله « فى لَحْدٍ » موضعه نصبٌ على أن يكون خبر أصبح ، وانتَصَبَ « ميِّتا » على الحال ، وكذلك قوله « حيًّا » انتصبَ على الحال . ولا يجوز أن يكون « لَحدٍ » فى موضع الحال ومَيِّتا خبر أصْبَحَ ، لأنّ مَيِّتا من الصَّدْر فى مقابَلة حَيًّا من العَجُز ، ولا يكون ذلك إلا حالاً ، فكذلك يجب أن يكون

(١) المعروف « البالة » مخفف البالية .
(٢) الأمالى : « وكانت له حيا » .

ميِّتا ، وإلَّا اختلفَا وفَسد المعنى . يقول : أصبحَ وهو ميِّتٌ يتّسع له لَحدٌ من الأرض ، وكانت الصَّحاصِـحُ تَضِيقُ عنه وهو حَىٌّ . فيجوز أن تكون تَضِيقُ عن جُيوشِه وأصحابه الذين كانوا يَحيَونَ بحياته ، ويَسطُون على الدَّهر بعِزَّته ، ويجوز أن يُريد بالضِّيق ما كان يَبُثُّ من إحسانه ، ويَنْتَشِر من جَدْواه فى أهل الأرض ويشمَلُهم من المنافِـع بمكانه وجاهه ، فيكون التَّقدير أنَّها لو جُسِّمتْ لكانت الصَّحاصِـحُ تضيق عنه . والصَّحصح والصَّحصَحان : الأرضُون المستوية الواسعة . وفى طريقته للبحترى :

كانوا ثَلاثةَ أبحُرٍ أفضَى بها   وَلَعُ المَنُونِ إلى ثلاثةِ أقْبرِ

٤ ـ سَأَبْـكِيكَ ما فَاضَتْ دُموعِى فإنْ تَغِضْ   فحَسْبُكَ مِنِّى ما تُجِنُّ الجَوانِـحُ[1]

ضَمِن له دوامَ البُكاء ما دامت الدُّموع تُجِيبُه وتُساعده ، فإنْ تَجزَت ونقَصتْ عن المُراد ، وانقطعت أوان الحاجة ، فـكافِيهِ منـه ما تشتمل عليه جوانِحُه ، ويتضمَّنُه صدرُه وفؤاده . وقولُه « ما فاضت » فى موضع الظَّرف ، أى مُدّةَ فَيضِها . وقولُه « حَسْبُكَ » مبتدأ وخَبَرُهُ « ما تُجِنُّ » . وقد يتمّ حَسْبُك بنفسه فلا يحتاجُ إلى خَبرٍ ، فيُقالُ حسبك ، وحينئذٍ[2] يتضمّن معنى الأمر ، كأنّه يرادُ به اكتَفِ ، ولذلك يستقلُّ الكلامُ به . ويقال : غاض الماء وغِضْتُه . والجوانح : الضُّلوع ، سمِّيت بذلك لانحنائها . والجُنُوح : المَيْل .

٥ ـ وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ   ولا بسرورٍ بعد مَوْتِكَ فارِحُ[3]

قولُه « ما أنا من رُزءٍ » تبرُّؤٌ من الجزَع على الرُّزء ، أى لستُ له بصاحِبِ

---

(١) هذا البيت لم يروه القالى . وفى زهر الآداب : « ما تكن الجوانح » .

(٢) هذا ما فى سائر النسخ . وفى الأصل : « حقيقته » .

(٣) زهر الآداب : « بعد ما مات » .

وإن جَلّ الفادِحُ ، كما أنّى لستُ بمَسْرُورٍ به وإن عَظُم بفارِحٍ . والمعنى : أنّ المنايا والعطايا تساوت أقدارها عندى بعدك ، لأنك كنتَ المرجُوَّ عندى والمَخُوفَ عليه لدَىّ ، فلما فاتَنى القدرُ بك أمِنْتُ من الجَزَع لحادثِ شَرٍّ ، ويئستُ من الفرح لنائبِ خيرٍ . ولو قال بَدَلَ جازِعٍ وفارِحٍ : جَزِعٍ وفَرِحٍ ، كان أفصَحَ وأكثر ، لأنّ فَعِلَ إذا كان غير متعدٍّ فالأجود والأقيس فى مصدرِه[1] فَعَلٌ ، وفى اسم الفاعل فَعِلٌ ، وإذا كان متعدِّياً فبابُه فاعِلٌ . وقد قيل فى المريض مارِضٌ ، وفى السّليم سالِمٌ ، لأنّ البابين يتداخَلان . وقوله « ولا بمسرورٍ » أى ولا بذى سُرورٍ فحذف المُضاف وأقام المُضاف إليه مقامَه .

٦ــ كأنْ لَمْ يَمُتْ حَىٌّ سِوَاكَ ولم تَقُم ... على أحَدٍ إلاّ عليكَ النوائحُ[2]

٧ــ لَئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المَراثِى وذِكْرُها ... لقد حَسُنَتْ من قَبْلُ فيك المدائحُ

قوله « كأنْ » مخفّف كأنّ ، واسمه مُضمرٌ ، أراد كأنّ الأمر أو الشأن لم يَمُتْ حَىٌّ سواكَ . والخطْبُ إذا وَقَع مستغرباً كان تأثيرُه أشدَّ ، ونَكْؤه أوجع منه ، إذا أُلِفَ وُقوعُه ، وتُمُرِّن بتكرُّره . فيقول : إنّ المُصيبةَ عَظُم تأثيرُها فى النُّفوس ، فكأنّ موتَك بِدْعُ فَعَلاتِ الدهر ، وكأنّ النِّياحةَ لم تَقُم على مَن سواك ، إذْ كانت طوائفُ النّاس على تبايُنِهم وتباعُدِ أقطارهم ، واختلاف هممهم وأوطارِهم ، تَشَارَكوا فى الجَزَع لكَ ، وتشابَهُوا فى استعظام الأمر والخطْب بك ، فكأنّهم لم يَرَوْا مفقوداً ، ولا قامت النّوائح فيهم عند بكائهم هالكًا .

وقوله « لئن حَسُنَتْ فيك المَراثى وذِكرُها » مثلُه قولُ الآخَر[3] :

---

(١) فى جميع النسخ : « فى مصدرها » .

(٢) رواية زهر الآداب : « كأن لم يمت حى سواه ولم يقم على أحد إلا عليه » .

(٣) هو مطيع بن إياس . البيت الثالث من الحماسية ٢٧٨ ص ٨٥٣ .

يا خيرَ مَن يحسُنُ البكاءُ له الـ يَوْمَ ومَن كانَ أمسِ لِلمدَحِ

وقد تقدّم القولُ فى لام لَئِن واليمينِ المضمَرة فى الكلام[1] . والجواب لقد حَسُنَتْ ، وقوله حَسُنَتْ فى موضع تَحْسُنُ ، لأنّ حرف الشّرط نقل الُمضِىّ إلى الاستقبال ، وجوابُ الشّرط بالفاء هاهنا وقد حُذف كأنّه قال : إن يحسن الرّثاء لك وفيك ، الآنَ وفى مستقبَلِ الزّمان ، فَلَلْمدائحُ فيما مضى كانت حسنةً فيك .

٢٨١

وقال يَحيَى بنُ زِيادٍ[2] :

١ – نَعى ناعِيَا عَمرٍو بِلَيْلٍ فَأَسْمَعَا فَرَاعَا فُؤاداً لا يَزَالُ مُرَوَّعا[3]

يقول : خبّرَ النّاعيان بموتِ عَمرٍو ليلًا ، فأبلَغا الخبر وهو فظيع مُنكَر ، وفزّعا قلباً لا يزالُ مُفزّعًا . وإنما قال بليلٍ لأنّهما لم يصبِرَا إلى مجىء النهار استعظاماً للخَطْب ؛ لأنّ اللّيل لمّا كان أخفى للويلِ صار سَعْىُ الناعيينِ فيه أدلّ على استفحال الرُّزء . وقوله « أَسْمَعَا » حَذَف مفعولَيه لأنّ المراد أَسْمَعا النّاسَ نَعِيَّهُ ، وهو بتجرُّد من المفعول يُستعمل فى المكروه كثيراً ، ولأنه إذا أطلق

---

(١) منها البيت ١٧ من الحماسية ٢٧٣ .

(٢) هو أبو الفضل يحيى بن زياد الحارثى ، قال التبريزى : « وهو خال أبى العباس السفاح » . وهو خطأ ، والصواب أن أباه زيادا هو خال أبى السفاح . قال المرزبانى فى معجمه ٤٩٧ : « يحيى بن زياد بن عبيد الله بن عبد المدان – وهو عمرو – بن الديان – هو يزيد – ابن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب . وزياد بن عبيد الله خال أبى العباس السفاح ، وقلده المدينة فى خلافته . ويحيى يكنى أبا الفضل » . وأنشد المرزبانى البيت الأول والثالث من هذه المرثية .

وكان يحيى معاصراً لمطيع بن إياس ، وقد سبق ذكره فى الحماسية ٢٧٨ التى يرثيه بها مطيع بن إياس . وقد سجل مطيع أن يحيى كان خطيباً أديباً ، وذلك فى مرثية له فى الأمالى (١ : ٢٧٠) :

ما للذى غالك أن تحير جوابا أيها المصقع الخطيب الأديب

(٣) المرزبانى : « كان قدما مروعا » .

مُبهَمًا فالإطلاق فى مثل هذا المكان أبلغُ ، وإنما قال « مُرَوَّعًا » إيذانًا بأن ذلك الرَّوع ثبت فى القلب حتى لا إفاقة منه . ويجوز أن يريدَ أنه مرَزَّأٌ فى الكِرام ، فهو الدَّهرَ قَلِقٌ لا يسكن ، وحَذِرٌ لا يأمن .

٢– وما دَنِسَ الثَّوبُ الذى زَوَّدوكَهُ وإن خانَهُ رَيْبُ البِلَى فتَقَطَّعا

الدَّنَسُ : لَطْخُ الوسَخ ونحوِه حتى فى الأخلاق . يقال : هو دَنِسُ المروءةِ ، وقد دَنِسَ عِرضُهُ . ونَبَّهَ بهذا الكلام على أنّ زاد المُتوفَّى من الدنيا كَفَنُه ، وأنّ ما كُفِّن فيه المتوفَّى يَبْقَى طاهِراً لطهارة نفسه وعُنصُرِه ، وأنّه كان يجبُ بقاؤه جديداً لا يؤثِّر فيه البِلى ، ولا تَسبِقُ إليه الُخلوقةُ ، وأنّ تأثيرَ رَيبِ الدَّهرِ فيه بالتقطيع خِيانَةٌ منه . وكل هذا تعظيمٌ للمرثىّ ، وأنّ حالَهُ بخلاف أحوال غيره حَيًّا وميِّتا . ومعنى « خانَهُ رَيْبُ البِلَى » أى نزول البلى ، قال أبو عُبيدة : يقال رابَ عليه الدَّهْرُ ، أى نَزَلَ[1] .

٣– دَفَعْنا بِكَ الأَيَّامَ حَتى إذا أتَتْ تُرِيدُكَ لم نَسْطِعْ لها عَنْكَ مَدفَعا

يجوز أن يريد بالأيَّام نوائبَ الأيام وأحداثَها فحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامَهُ ، ويجوز أن يريدَ الأيَّام أنفُس الأحداث ، فسمَّاها أيامًا كما تُسَمَّى الوَقَعاتُ بها ، وكما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاس ﴾ . ومعنى « حتى إذا أتَتْ تُرِيدُكَ » موضع تُريدُكَ نصبٌ على الحال ، أى مُريدةً لك . وفائدة حتى الغايةُ : كأنّه قال : دافَعْنا الأيامَ بك وبمكانك إلى وقت مجيئها مُريدةً لكَ ، فحينئذٍ لم تقدِر على دفاعها . وقوله « لم نَسْطِع » أراد نستطع فحذفَ منه تخفيفًا لكثرته فى الكلام . يقال اسطاع يَسْطيع ، بمعنى استطاع

(١) هذا نص لغوى نادر .

يستطيع ؛ وقد حكى أَسطَاعَ بفتح الهمزة يُسطِيعُ بضم الياء ، وليس هذا من الأول لأنّ هذا في معنى أطَاعَ .

٤ – مَضَى فمضَتْ عنِّي به كُلُّ لَذّةٍ   تَقَرُّ بها عَيْنَايَ فانْقَطَعَا مَعَا

يقول : مَضَى عَمْرٌو لسبيله فانقطعت عنِّي لذّات الدنيا ، وفارقتْني بفراقه ، فانقطَعا مجتمعَيْن ومصطحبين . وموضع « تَقَرُّ بها عيناىَ » جرٌّ على أن يكون صفةً للذّةٍ ، أى كلُّ لَذّةٍ تبرُدُ لها عيناى لها وتُسَرُّ نفسى بحصولها . وقوله « مَعا » فى موضع الحال . وقوله تَقَرُّ بها عيناى ، قيل هو من القَرارِ ، وقيل هو من القُرّ : البَرْد . وهذا أقرب لأنّه يقال فى ضدّه : سَخُنت عينه ، وهو سُخْنة العَين[1] .

٥ – مَضَى صَاحِبِي واستَقْبَلَ الدَّهْرُ صَرْعَتِي   ولا بُدَّ أن ألقَى حِمَامِي فأُصْرَعا

هذا فى طريقة قوله :

فغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ   وإخالُ أنِّى لاحِقٌ مُستَتْبَعُ[2]

ومعنى « استقبل الدَّهرُ صرعتى » توطينٌ للنّفس على أنها بمَدرَجة الدَّهر ، فهو ينتظر إيقاعه بها وكأن قَدْ . ومعنى استَقبَلَ الدَّهرُ صرعتى ، أى إماتَتِي ، كما يقال « لِكلِّ جَنبٍ مَصْرَعُ[3] » . ومعنى « لا بد » : لا محالة ، وهو من البَدَد : الاتِّساع والتفريج . كأنّه تضايَقَ الأمرُ فيه فلا اتِّساعَ معه ، ويقال : لا بد من أن يكون كذا ، ولا بدَّ أن يكون كذا ، و « أنْ » يُحذف حرف الجرّ معه كثيرا .

---

(١) السخنة ، بالضم : مصدر ، كالسخونة .

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ٢) والمفضليات (٢ : ٢٢١) وجمهرة أشعار العرب ١٢٨ ، والخزانة (١ : ٢٠٢) وشواهد المغنى ٩٢ .

(٣) من قول أبى ذؤيب الهذلى ، قبل البيت السابق :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم   فتخرموا ولكل جنب مصرع

٢٨٢

وقالَ ابنُ المقفَّعِ[١] يرْثِي يحيى بنَ زيادٍ[٢] :

١ ــ رُزِئْنا أبا عمرٍو ولا حَيَّ مِثْلَهُ ... فَلِلّهِ رَيْبُ الحادِثاتِ بِمَنْ وَقَعْ[٣]

يقول : أُصِبْنَا بأبى عمرو ، وهو مفقودُ النَّظير ، معدومُ الشَّبيه . فموضع « ولا حَيَّ مثلَهُ » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه رُزِئنا . ثمَّ قال على وجه التعجُّب : لله رَيبُ الدهر بأيِّ رجل وقَع . فقولُه « بمَنْ وقع » منقطَع مما قبله وإن كانْ فاعلُ وقع الضميرَ العائدَ إلى الرَّيب المستكنَّ ، لأنَّ قوله « لله ريبُ الحادثات » كلام مستقلٌّ بنفسه فيما يُفيد من إكبار الشَّانِ وتفظيع الحال . وإضافةُ الشَّىء إلى الله عزَّ وجلَّ تفخيمٌ وتعظيم ، على ذلك قولهم : بَيتُ الله ــ وإن كانَ المساجدُ لله[٤] ــ ولله درُّه . وقوله « بمن وقع » مستقلٌّ بنفسه أيضاً وفيه استعجاب من أن يكون الدّهر يَعرِض لمثله أو يَهُمَّ به مَعَ فخامة أمرِه ، وجلالةِ نفسه . ولو قال : وبمن وقع ، فزاد واوًا ، لـكان أ كشَفَ فى المعنى

---

(١) هو عبد الله بن المقفع ، من أشهر كتاب العربية ، فارسى الأصل ، ولد مجوسيا فى العراق ، وأسلم على يد عيسى بن على عم السفاح ، وولى كتابة الديوان للمنصور العباسى . واتهم بالزندقة فقتله فى البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبى . والمقفع : لقب أبيه واسمه داذويه ، وكان الحجاج قد ولاه خراج فارس فأخذ الأموال فعذبه فتقفعت يده . وقال ابن مكى : الصواب المقفع بكسر الفاء ، لأنه كان يعمل القفاع : جمع قفعة بالفتح ، وهو شىء يعمل من الخوص شبيه بالزنبيل لا عروة له . أخبار الحكماء للقفطى ١٤٨ وابن خلكان (١ : ١٤٩ ــ ١٥١) فى أثناء ترجمة الحسين بن منصور الحلاج ، والفهرست ١١٨ وخزانة الأدب (٣ : ٤٥٩) وأمالى المرتضى (١ : ٩٣) .

(٢) التبريزى : « وقيل يرثى ابن أبى العوجاء عبد الكريم » .

(٣) مثله ، جاءت روايتها بالنصب فى جميع النسخ ، وكذا التبريزى ، على أن تكون صفة لحى ، والخبر مقدر . وقال السيوطى فى همع الهوامع (١ : ١٤٦) : « حذف خبر هذا الباب ــ يعنى باب لا ــ غالب فى لغة الحجاز ملتزم فى لغة تميم وطيىء ، فلم يلفظوا به أصلا » .

(٤) أى خصصت الكعبة باسم « بيت الله » تشريفا لها وإن كان كل مسجد لله . وفى القرآن الكريم « وأن المساجد لله » . وفى نص التبريزى : « وإن كانت المساجد كلها لله » .

المرادِ به[١] . ولا يمتنع أن يكون بمن وقع فى موضع الحال ، كأنه قال : لله رَيْبُ الحادثات واقِعًا بمن وَقَعَ ، ومؤثِّرًا مُوجِعا ، ويكون حالا للرَّيب ، والعامل فيه ما دلَّ عليه لله ريبُ الحادثات .

٢ — فإن تَكُ قد فارَقتَنا وتركتَنا ذَوِى خَلَّةٍ ما فى انْسِدادٍ لها طَمَعْ

٣ — فقد جرَّ نفعًا فَقْدُنا لكَ أَنَّنا أَمِنَّا على كلِّ الرَّزايا مِنَ الجَزَعْ

حذْف النون من تَكُ قد تقدَّمَ القولُ فيه . والمعنى إن فارقْتنا والوَهْىُ بك لا يُرقَع ، والخَلَّةُ بك لا تُسَدُّ ، وحديثُ النَّفس بالطَّمع فيك لا يَخطُر بالقلب ولا يَجولُ فى الفِكر ، فقد جَلَبَ إلينا فَقْدُك نفعًا ، وهو أمْنُنا من تسلُّط الجزَع علينا لرزيئةٍ مستأنفةٍ ، أو نَكبةٍ معترِضة ، إذْ كان خَوفُنا عليك ، وحذَرُنا فيك . وقوله « ما فى انسدادٍ لها طمع » فى موضع الجرّ ، لأنّه صفةٌ لخلّةٍ . يريدُ ما لنا طَمَعٌ فى انسدادٍ من أجلها وبَعْدَها يحصُل . وجوابُ إن تَكُ ، الفاء مع ما بَعدها من قوله « فقد جرَّ نفعًا » ، وإنما جُلبَ الفاء لمخالفة الجزاء للشَّرط بكونه مبتدأ وخبرا ، والمبتدأ محذوف كأنّه قال : والأمر والشّان قد جر فقدُنا لك نفعًا . وقوله « إنّنا أمِنّا » إذا كسرتَ الهمزة من إنّ يكون على الاستئناف ، ويكون جملة الكلام تفسيرًا للنَّفع المستَجَدّ له ، وإذا رويت « أنَّنا » بفتح الهمزة يكون بمعنى لأنّنا أمِنّا ، فيكون الكلام بيانا لعلّةِ حصول النَّفع . ويجوز أن يكون موضع أنّنا نصبًا على البدل من نَفْعًا .

وقولُه « على كلّ الرزايا » ، على تعلّق بقوله أمِنّا ، يقال هو آمِنٌ على كذا ، وقد أمِنتُ على مالى عند فلانٍ من امتداد الأيدى إليه ، أى لا تمتدّ ، كذلك أمِنّا على كل الرزايا من الجزع ، أى لا نَجْزع . وأتى بلفظة العموم فيه ،

---

(١) هذا ما فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « المراد منه » .

وهو كُلٌّ ، إيذاناً بتساوِى الخطوب عنده ، وانحطاطِها عن درجة المُصاب به وفيه ، حتى لا جَزَع يتجدَّدُ بعدَه لحادثٍ يحدُثُ ولا يجوز أن يتعلّق قوله «على كلّ الرزايا» بقوله : من الجزع ، لأنه لو كان كذلك لكان فى صلته ، والصِّلة لا تتقدّم على الموصول .

٢٨٣

وقال بعضُ بنى أسدٍ :

١ — بَـكِّى على قَتْلَى العِدَانِ فإنَّهُمْ   طالت إقامتُهُمْ ببطْنِ بَرَامِ [(١)]

٢ — كانوا على الأعداء نارَ مُحَرِّقٍ   ولقوْمِهِمْ حَرَمًا من الأَحْرامِ

يخاطب امرأةً والنساء كُلُّهنّ عندهُ تلك المرأة ، فيقول : أكثِرى البُكاء على المقتولين بهذا المكان — وقيل العِدَانُ [(٢)] ساحل من سواحل البحر — والمدفونين ببطن بَرامٍ ، فقد طالت إقامتُهم . والمراد أنّ اليأس منهم قد حصَلَ وقَوِىَ ، وأنّ غيبتَهم اتّصلَتْ فرُفِعت الأطماعُ من عَودِهم والاجتماع معهم . ثم أخذ يصفُهم فقال : كانوا على المنابِذين والمخالِفين كنار هذا الملك ، لا تُبقى ولا تَذَر — ومحرِّق هو عمرو بن هِند ، وكان نَذَرَ أن يُحْرِق مائةَ نفس ، ففعل ، فضُرِبَ المثلُ بناره — وكانوا لقومهم حَرَمًا من الأحرام ، لا مخافةَ فيهم ولا هضيمة . يريدُ أنّ قومَهم يأمَنون نزولَ النوائب بهم فى فنائهم ، فكانوا كمن

(١) العدان ، بالكسر فى جميع النسخ ، ما عدا م والتبريزى ، فهى فيهما بالفتح ، وقد أنشد ياقوت هذه الحماسية فى (عدان) بعد أن قال : «عدان النهر بالفتح : ضفته» . والعدان بالفتح هى عند التبريزى قبيلة من قبائل أسد . قال : «العدان من بنى أسد ثم من بنى نصر ابن قعين ، وأصل العدان فى اللغة ساحل من السواحل . وبرام وخزام ببلاد بنى عامر» . وقال ابن منظور فى اللسان (عدن) : «والعدان قبيلة من أسد» . ثم أنشد هذا البيت .

(٢) اتفقت النسخ على ضبطها هنا بكسر العين .

حَصَل فى الحرَم ، وأن أعداءهُمْ كانوا يحترقون بنكايتهم فيهم ، فكانوا عليهم كنار هذا الملك .

وقوله « مُحَرِّق » وإن كان صفةً فى الأصل ، فصار بالاشتهار فى رجُلٍ واحدٍ كالعَلَم له . وعلى هذا جاء فى قوله :

* عليهنّ فتيانٌ كساهُم مُحَرِّقٌ (١) *

وقوله :

* إليك ابنَ ماءِ المُزْنِ وابنَ مُحَرِّقِ (٢) *

وقولُه « حَرَمًا من الأحرام » نكَّرهُ لاختلاف الأحرام . وهى حَرَم الله تعالى بمكة والشام ، وحَرَمُ الرسول عليه السلام بالمدينة .

٣ – لا تَهلِكى جَزَعًا فإنِّى واثقٌ برِماحِنا وعَواقِبِ الأيّامِ

هذا الكلام تسليةٌ لها وإن كان أمَرَها بالبكاء ، وإيذانٌ أنه سيُدرك الثأر ، فهو ينتظر عُقَب الأيام وانتهاز الفُرص . ونَبَّه بقولِه « واثقٌ برماحِنا » على الغَناء عندهم ، وأنّ العناية متوفِّرةٌ من جهتهم . وانتصب « جَزَعًا » على أنه مصدرٌ لعلّةٍ ، ولا يمتنع أن يكون فى موضع الحال يُريدُ جازعةً ، وهذا الجزع الذى نهاها عنه ليس يريدُ به الُحزنَ لفقدِه ، وإنما يُريدُ الحزنَ لسلامة الواتر على مرّ الأيام لا غيرُ . ألا ترى أنه قال : فإنى واثقٌ برماحنا . وقولُه « عواقبِ الأيام » يُشيرُ فيه إلى تغيُّر الزمانِ واختلاف الحدَثان ، وأن الدّهرَ

(١) للحصين بن الحمام . الحماسية ١٣٣ ص ٣٨٩ . وعجزه :

* وكان إذا يكسو أجاد وأكرما *

(٢) ابن ماء المنذر ، عنى به النعمان بن المنذر بن ماء السماء . ونحوه ما ورد فى شروح سقط الزند ١٣٩٨ من قول سعيد بن أنيس يخاطب النعمان :

إليك ابن ماء المزن أقبلت بعدما مضى لى سبع من دخولى على أهلى

كما يُعطى يَرتجع . وكما يولِّى ينتزع ، فغِيَرُه لا تؤمَن ، وأحداثُه على حالةٍ واحدة لا تقِفُ(١) .

٢٨٤

وقال آخر :

١ — نَعَى لى أبا المِقْدَامِ فاسودَّ مَنْظَرِى ... من الأرضِ واستَكَّتْ علىَّ المَسامعُ

٢ — وأقبلَ ماءُ العَيْنِ من كلِّ زَفْرَةٍ ... إذا وَرَدَتْ لَمْ تَستَطِعْها الأضالِعُ

يقول : خَبَّر الناعى بموت أبى المِقدام فدِيرَ بى ، وأصبحَتِ الدنيا مُظلمةً فى عينى ، وأوْرَثَ خبرُه صَمَماً فى أذُنى ، فلا الأذُن تأذَنُ للكلام على ما كانت تعملُ ، ولا العين تُدرِكُ المرئيّات إدراكَها مِن قَبل ، كلُّ ذلك لتأثير نَعِيِّهِ فى الحواسّ التى هى طُرُق العلوم وتَبيُّنِ المشاهَدات . وبعد ذلك أقبل الدَّمعُ يَسِيلُ فى إثر زَفَراتٍ اتصلَتْ وتعاقبَتْ ، وكل واحدةٍ منها لامتلاء الصدر بها كادَتِ الضلوع تستقيم لورودِها . والزَّفرة : أن يَتردَّد النَّفَس فى الصدر ثم يمتلئَ منه ويَزفِرَ به ، أى يَرْمِي . وقد أومأ أبو تمّام إلى هذا المعنى وإن يصرِّح تصريحَه فى قوله :

وما للدّارِ إلاَّ كلَّ سَمْحٍ ... بأدمُعِهِ وأضـــلعِهِ سَخِىِّ(٢)

فأمّا أبو عُبادة ففى قوله :

ووراءهم صُـــعَداءُ أنفاسٍ إذا ... ذُكِرَ الفراقُ أقمْنَ عُوجَ الأضْلُعِ(٣)

قد بالَغَ فى الإبانة كلَّ المبالغة . وقوله « استكَّتْ علىَّ المَسامعُ » فالمَسامع :

---

(١) روى التبريزى بعد البيت الأخير من هذه الحماسية :

عاداتُ طَىِّ فى بنِي أسَدٍ لَهُمْ ... رِىُّ القَنا وخضابُ كلِّ حُسامِ

(٢) ديوانه ص ٢٤٣ . (٣) البحترى ص ١٠٠ .

جمع المِسْمَع بكسر الميم ، وهو الأذُن . والمَسْمَع ، بفتح الميم : موضع السَّماع وقوله « استكَّت » من قولهم بئر سَكُوكٌ ، إذا كانت ضيِّقة الخَرْق . فإذا أريد الصَّمَمُ وقيل استكَّت أذُنُه فحقيقته ضاقَ صِمَاخُها ، وهو الخَرْق الباطنُ المُفضِى إلى الرَّأس .

٢٨٥

وقال آخر :

١ ـ قد كان قَبلَكَ أقوامٌ فُجِعْتُ بهم خَلَّى لنا هُلْكُهمْ سَمْعًا وأبْصَارَا(١)

٢ ـ أنت الذى لَمْ يَدَعْ سَمْعًا ولا بَصَرًا إلاَّ شَفًا فأمَرَّ العيشُ إمرارا

قوله « فُجِعْتُ بهم » الجملة فى موضع الصِّفة لقوله أقوامٌ . وخَلَّى لنا هُلْكُهم ، فى موضع خبر كان . والمعنى : قد فُجِعْتُ فيما مضى من الزمان بأقوامٍ جزِعْتُ لهم بل هَلِعْتُ ، وأقمتُ الرَّسمَ فى البكاء عليهم بل أسرفْتُ ، فبقَّى التَّفجُّع بهلاكهم لى ولمن تبِعَنى واقتدَى بى ، السَّمعَ والبصرَ بعدَهم ، فزجَّينا الوقتَ مستمتِعِين بما سَلِمَ من حواسِّنا ، وعائشِين مَعَ الناس فى باقى عُمرِنا ؛ فلما أُصِبْنا بك استَنفدْت قوانا ، واستنزَلْتَنا عن ذخائر صبرِنا ، فبَطَلت طرائق العُلوم مِنَّا ، وتناهَت فى العَجْز عنا حواملُنا إلاَّ شَفًا ، فطالت شِقْوتنا ، وأمرَّ عَيْشُنا . والشَّفَا : الباقى من الشىء القليل . ويقال : ما بَقِىَ من النهار إلا شَفًا ، أى مقدارُ ما بين الليل والنهار حين غَرَبت الشمس .

وقوله « لم يَدَعْ » بالياء ، هو أقيَسُ الرِّوايتين ؛ لأن الصِّلَة جاءت على حَدِّها مع الموصول . وإذا رويتَه بالتاء فعلى الخطاب ، وساغَ لأنَّ المخاطَب

---

(١) التبريزى : « لنا فقدهم » .

والذى مرجعهما إلى شىء واحد، وقد مضى مثله[1]، فاعلَمْه. وقال المازنىُّ: لولا كثرة مجيئه لردَدْتُه. ومثله:

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمّى حَيْدَرَهْ[2] *

وقال سَمْعًا وأبصارًا لأنّ السمعَ اسمُ الجِنس، فهو كالجمع.

٢٨٦

وقال نَهْشَلُ بنُ حَرِّىٍّ[3]:

١ – بنَفْسِى خَليلَاىَ اللَّذانِ تَبرَّضَا   دُموعِى حتى أَسْرَعَ الحُزْنُ فى عَقْلى[4]

تعلّق الباء من «بنفسى» بفعلٍ مضمرٍ دلَّ عليه جَلِيَّةُ الحال، وقرينة الكلام، كأنه قال: أفدى بنفسى مَن أخَاله. ومعنى «تبرّضا» أفنيا دُموعى شيئًا فشيئًا، وقليلاً قليلاً؛ لأنّ التبرُّض التبلُّغُ والتطلُّب من هاهُنا وهاهُنا. وماء بَرْضٌ، أى قليل. وبَرَضَ لى من مالِهِ بَرْضًا، إذا أعطاك القليل. قال:

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٥، ٤٠٧.

(٢) لعلى بن أبى طالب، كما سبق فى حواشى الموضعين السابقين.

(٣) اقتصرت نسخ المرزوقى على هذه النسبة. ونص التبريزى: «وقال الشمردل بن شريك، أو نهشل بن حرى». والنسبة إلى الشمردل هى الصواب، فقد روى أبو الفرج فى الأغانى أنه كان له أخ يدعى قدامة جاءه نعيه فى يوم، ثم تلاه نعى أخيه وائل بعده بثلاثة أيام فرثاهما بالقصيدة التى منها البيت الأول من هذه الحماسية. انظر الأغانى (١٢: ١١٢ – ١١٣).

وأما نهشل الذى تنسب إليه هذه المرثية خطأ فهو نهشل بن حرى – كلفظ المنسوب إلى الحر بالفتح – بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم. شاعر شريف مخضرم بقى إلى أيام معاوية، وكان مع على فى حروبه، وقتل أخوه مالك بصفين وهو يومئذ رئيس بنى حنظلة، فرثاه نهشل بمراث كثيرة. وجده ضمرة بن ضمرة كان اسمه شقة بن ضمرة، فسماه النعمان ضمرة باسم أبيه، إعجابا به، بعد أن قال فيه المثل السائر: تسمع بالمعيدى لا أن تراه! ابن سلام ١٣٠ والاشتقاق ١٥٠ والأغانى (٨: ١٥٣ – ١١/١٥٤: ١٣٤) والخزانة (١: ١٤٧ – ١٥٢) والإصابة والشعر والشعراء ٦١٩ – ٦٢١ ووقعة صفين ٢٩٩ – ٣٠٢.

(٤) صدره فى الأغانى: * سبيل خليل اللذين تبرضا *

لَعَمْرُكَ إنَّنى وطِلاَبَ سَلْمَى لكالمتبرِّض الثَّمْدَ الظَّنُونا[١]

والمعنى فدَيْتُ بنفسى صديقىَّ اللذين نَضَبَ فى البكاء لهما دموعى، وتأدَّى إلىَّ الحزنُ[٢] إلى أن عَمِل فى عقلى فأزالَه، فدَمعى وصَبرى مستنفَدان لتأثير الفجيعة بهما. وجَمَل الفعل فى تبرُّضا للخليلين، وحَقُّ الكلام تبرَّض الحزنُ لهما والبكاء عليهما دموعى، إلى أن أسرعا فى عَقْلى فصار والِهًا.

٢ — ولولا الأُسَى ماعِشْتُ فى الناسِ بعدَهُ ولكن إذا ما شِئْتُ أسعَدَنى مِثلى[٣]

قوله « ما عشْتُ فى الناس » أى مع الناس ومختلطاً بهم، فموضعُ فى الناس نَصْبٌ على الحال، والكلام جواب لولا، وخبر المبتدأ الذى هو الأُسَى محذوفٌ استُغنِى عنه بجواب لولا، والمعنى لولا أنَّ لى بالناس أُسوةً فى مصائبهم، فأورثَنى ذاكَ تماسكاً وصَبرًا، لقتلتُ نفسى فلم أعِشْ ساعةً من عمرى، ولكن متى شئْتُ وجدتُ لنفسى أقرانًا إنْ دعوْتُهم أجابونى، وإن استسعدتهم أسعَدونى. والإسعادُ، قال الخليل: يُستعمل [فى المساعَدة[٤]] على البكاء خاصّةً، ومثله:

ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى على إخوانهم لقتلتُ نَفْسِى[٥]

٢٨٧

وقال أيضاً[٦]:

١ — أغرُّ كمِصباحِ الدُّجُنَّةِ يَتَّقِى قَذَى الزَّادِ حتى يُستَفادَ أطايِبُه[٧]

(١) أنشده فى المقاييس (برص) واللسان (ثمد) بدون نسبة.

(٢) فيما عدا نسخة الأصل: « وتأدى الحزن ».

(٣) التبريزى: « فى الناس ساعة ».

(٤) هذه من سائر النسخ، وهى ساقطة من نسخة الأصل.

(٥) البيت للخنساء. ديوانها ص ٥٠.

(٦) زاد التبريزى: « والمرثى مالك بن حرى أخو نهشل: ويكنى أبا ماجد، قتل بصفين مع على، وكان شجاعا ». وانظر بعض مراثيه فى وقعة صفين ٢٩٩ — ٣٠٢.

(٧) التبريزى: « حتى تستفاد ».

الدُّجُنَّة : الظُّلمة ؛ وليلةٌ مِدْجَانٌ . والدَّجْن : إلباس الغَيم ؛ ويقال : هو يَومُ دَجْنٍ . وأراد بقوله « أغرّ » إنّه كريمٌ نقِيُّ العِرض أبيضُ الطَّلعة ، فكأنه فى تلألُؤِه ونُور وجهه وتهلُّله مصباحُ الظَّلام . ومعنى « يتّقى الزّادَ » أنّه يزهد فى خبائث الزّاد وما يشين أخْذُهُ وتَطَعُّمُه ، إلى أن يستفيد الطيِّبات منه . ويُشيرُ بقَذَى الزّاد إلى ما يُبنَى عليه غَدرٌ أو غُلول ، أو مَخَانةٌ[1] أو ابتذالٌ . ويُشِيرُ بالطيِّبِ إلى ما كان من حِلِّه ووجهه ، لا عارَ فى اكتسابه ، ولا بِذْلة فى احتجانه[2] . وبعض الناس[3] روَى : قَدَى الزّاد » ، والقدَى : الرائحة الطيِّبة ، يقال قِدْرٌ قَدِيَةٌ ، إذا كانت طيِّبة الرائحة . كأنّ المراد عنده : لا يتشمَّمُ الزادَ ورائحته حتى يتيقّنه طيِّباً . والأوّلُ الأصحُّ والأجود ، وذلك أنّه أراد بالقَذَى الخبيثَ ، وقد طابَقَ الطيِّبَ به ، كما قال الآخر[4] :

* وما كان زادى بالخبيث كما زَعَمْ[5] *

وذِكْر القدَى مستَبعدٌ هاهنا ، ولا فائدة فى إبقائه له ، ويغلِبُ فى ظَنِّى أنّه تصحيف .

٣ — وهَوَّنَ وَجْدِى عن خَليلِيَ أنّني إذا شِيتُ لاقَيتُ امْرأً مات صاحِبُهْ

---

(١) أى ما يكسبه بهذه الطرق الخبيثة . والمخانة : الخيانة . وفى الأصل : « مخافة » ، صوابه فى ل . وهذه العبارة ساقطة من م . وفى ل : « غدرا أو غلولا أو مخانة أو ابتذالا » بالنصب ، وله وجهه .

(٢) كذا على الصواب فى ل ، م والتيمورية . والاحتجان : الجمع والاكتساب . وفى نسخة الأصل : « فى احتجابه » ، وليس بصواب وإن كان موافقا للسجع .

(٣) هو ابن جنى فى التنبيه . وقال : « لام القدا واو ، وهو رائحة الطعام . يدلك على ذلك ما حكاه أبو زيد قداوة الطعام » .

(٤) هو راشد بن شهاب اليشكرى . المفضلية ٨٦ .

(٥) صدره : * ولكن أنباء أتتنى عن امرئ *

٣ – أَخٌ ماجِدٌ لم يُخْزِنى يَوْمَ مَشْهَدٍ كما سَيْفُ عَمْرٍو لم تَخُنْهُ مضارِبُهْ

يقول : خَفَّفَ وجدى بخليلى لمّا أصِبتُ به انتسائى بغيرى من النّاس ، لأنى متى شئت لاقيتُ مَن امتُحِن بمثل مِحنتى . ثم قال « أخٌ ماجِدٌ » أى خليلى وصاحبى أخٌ ماجد ، لم يُهِنِّى يوم حَفلٍ ولم يَخذُلْنى عند احتشادٍ وجَمعٍ ، ولا جَلَبَ علىّ فى مَشهدٍ من المشاهد ما أستحيِى منه أو أُخزَى له ، بل كان لى عند ما أدعوه له مُجيباً ، وفى الشَّدائد عوناً وظَهيرا ، لا يتغيَّبُ عنى ولا يَفتُرُ معى ، كصَمْصَامةِ عَمْرٍو[1] ، له نفاذٌ حيث أعمَلَه ، ومضاءٌ عند ما يَهُزُّهُ ، لا يَخُونُ ولا يرتدُّ ، فكذلك كان صاحبى . وارتفَعَ قوله أخٌ ماجِدٌ على أنه خَبَرُ مبتدإٍ مضمرٍ . وقوله « كما سيفُ عَمْرٍو » لو رويتَ « كما سَيْفِ عَمْرٍو » لجاز ، تجعَلُ ما صلةً وينجرُّ السّيف بالكاف . ومثله قوله :

كَما العَظْمِ الكسيرِ يُهاضُ حَتَّى يَبِتَّ وإنَّما بدأ انصِدَاعا[2]

تَجُرُّ العظمَ بالكاف ، وإن رفَعْتَهُ كان مبتدأً ، وكذلك إذا رفَعْتَ سَيْفُ ، ويكون ما من قَوْلِهِ ما الكافّة ، ويكون مثل ما من قوله عزّ وجلّ : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا لو كانوا مُسلِمين[3] ﴾ . والضمير من قوله « لم يخُنْه » يرجع إلى عَمْرو ، ويجوز أن يرجع إلى السيف أيضاً .

---

(١) التبريزى : « وكان سيف عمرو لا ينبو ، فاستوهبه عمر بن الخطاب فوهبه له ، فقيل لعمر إنه غيره وإنه ضن بالصمصامة ، فذكر عمر ذلك فغضب عمرو بن معديكرب وقال : إنما أعطيتك السيف لا الساعد ! » . وفى اللسان (صمم) أنه أهداه لسعيد بن العاص .

(٢) البيت للقطامى فى ديوانه ص ٣٧ من قصيدة يمدح بها زفر بن الحارث .

(٣) الآية الثالثة من سورة الحجر . و « ربما » قال أبو حيان : « لم تقع فى القرآن إلا فى هذه السورة على كثرة وقوعها فى لسان العرب » . وقال : « وقرأ عاصم ونافع : ربما ، بتخفيف الباء ، وباقى السبعة بتشديدها ، وعن أبى عمرو الوجهان . وقرأ طلحة بن مصرف وزيد بن على : ربّتما بزيادة تاء » . وقد جاءت « ربما » فى الأصل و ل ، م بتشديد الباء .

٢٨٨

وقال أَسْوَدُ بنُ زَمَعَةَ(١) :

١— أتَبْكِي أنْ يَضِلَّ لها بَعِيرٌ ويَمنعُها من النَّوْمِ السُّهودُ

٢— فلا تَبكِي عَلَى بَكْرٍ ولكنْ على بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجُدودُ

٣— ألا قَد سادَ بَعْدَهُمُ رِجالٌ ولولا يَوْمُ بَدْرٍ لم يَسُودُوا

كان السبب فى قول الأسود هذا الشعر أنّ قريشًا كانت حَرّمَتِ البُكاء على أنفسهم لقَتْلَى بدر ، لئلّا يَشمَتَ النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابُه بهم ، وكان الأسود قد فُجِع بابنه زَمَعَةَ ، إذ كان من قَتلَى ذلك اليوم ، فاقتدَى بالنّاس فى ترك البُكاء عليه ، فاتّفق أنْ كانت له مَشْرَبَةٌ(٢) فتنزّه ومضى إليها فسمع بكاء امرأةٍ فقال لأصحابه(٣) : انظُروا فإنْ [كانَ(٤)] البكاء قد حُلِّلَ ،

(١) كذا على الصواب فى سائر النسخ . وفى الأصل : « سويد » ، تحريف . التبريزى « وقال الأسود بن زمعة بن المطلب بن نوفل يرثى ابنه زمعة بن الأسود وقتل يوم بدر مع قريش مشركا . وفى نسخة : المطلب بن أسد بن عبد العزى » . على أن الصواب أنه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وهو الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » . السيرة ٢٧٢ . والصواب فى ابن زمعة : « أبو زمعة » وزمعة ولده .

(٢) المشربة : أرض لينة لا يزال فيها نبت أخضر ريان . وهى بفتح الراء وضمها كما فى القاموس . وقد ضبطت فى ل بضم الراء .

(٣) السيرة ٤٦١ — ٤٦٢ : « إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النحيب ، هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة — يعنى زمعة — فإن جوفى قد احترق . قال : فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فذاك حين يقول الأسود : » وأنشد هذه الحماسية ، وزاد فيها بين الثانى والثالث :

على بدر سراة بنى هصيص ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى جميعاً وما لأبى حكيمة من نديد

(٤) التكملة من ل ، م .

حتَّى نبكىَ نحنُ أيضًا زَمَعة ، فَرُجِـعَ إليه وقيل : إنَّه بكاء امرأةٍ ضَلَّ لها بَعيرٌ . فقال هذا الشِّعرَ مُنْـكِرًا لبكائها ومستعظِما .

وقوله « أتَبْـكِى أن يَضِلَّ » لفظُه لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى الإنـكار . وقوله أن يَضِلَّ : أراد مِنْ أن يَضِلَّ ، وهم يحذفون حرف الجرِّ مِن أنْ كثيرًا . والسُّهودُ : امتناعُ النَّوم ؛ ورَجُلٌ مُسَهَّدٌ ، إذا كانَ قليل النوم . ولم يَرْضَ بأنْ أنْـكَرَ البكاء عليها ، وتَرْكَ النَّوْمِ لِفقدان بعيرها ، حتَّى نَهاها فقال :

فلا تَبْـكِى على بَـكْرٍ ولـكن على بَدْرٍ تقاصَرَت الجُدُودُ

يُريدُ أنَّ الذى يجب البكاء له ما جَرَى على رؤساء قريشٍ وأرباب الجدودِ فيهم ببَدْرٍ ، وأنَّ الحَيْفَ العظيم والخُسران المبينَ والغَبْنَ الشَّديدَ فى ذاك ، لا فى ضَلَالِ بكْرٍ . وبَدْرٌ : اسم بِئرٍ اتَّفقت الوقْعةُ عندها . وقولُه « تقاصَرَتِ الجدُود » من فصيح الكلام ، وهو تفاعُلٌ من القُصورِ والعجز ، لا القِصَر الذى هو ضِدُّ الطول ، كأنَّها تبارَتْ فى القُصور ، يَدُلُّ على ذلك أنه يُقالُ قَصَرْتُ كذا على كذا ، إذا حَبَستَهُ عليه ومنَعتَهُ من الذَّهابِ عنه حتَّى صار كالعاجز عن غيرِهِ . ويقال أيضا قَصرتُه على كذا ، إذا رَدَدْتَهُ دون ما أراد . ومنه القَصْرُ فى الصَّلاةِ . ويقال تقاصَرَتْ إلى فُلانٍ نَفْسُهُ ذُلًّا . وقَصرَ السَّهمُ عن الهَدَف فهو قاصِرٌ . ولا يمتنع — وإن كان الأوّل هو الوجْهُ — أن يُجعَل من القِصَر ، ويكونَ ضِدَّ تطاوَلَت ، ويكون عَلَى موضوعًا موضع الباء ، كما يقال : هم على ماءِ كذا وهم بماء كذا .

وقولُه « ألَا قد سَادَ بَعْدَهُمُ رِجالٌ » يريدُ أنَّ أهلَ السِّيادة انقرضوا وبادوا فى ذلك اليوم ، فعادَتْ إلى مَن لا يستحقُّها ولم يَـكُن لها بأهْلٍ[1] . ومثل

---

(١) التبريزى فى تفسير هذا البيت : « يعرض بأبى سفيان بن حرب ؛ لأنه رأس قريشاً لما قتلت أشرافهم » .

هذا وإنْ كانَ أغمَضَ منه قولُ الآخر :

* وَأَلْحَقْنا المَوَالِيَ بالصَّمِيمِ *

٢٨٩

وقال الأسَدِىّ

وخَبَرُه فى مُنادَمَتِهِ معروف(١) :

١ ـ خَلِيلَىَّ هُبَّا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُما أَجِدَّ كُمَا لا تَقْضِيَانِ كَرَاكُما

قوله « طال ما » يجوز أن يكون ما الكافّة وقد رُكِّبَ مع طال تركيباً واحِداً حتّى صارا مَعًا كالشىء الواحد . ويجوز أن يكون ما منفصلًا من طال ، ويكون مع الفعل الذى بعده فى تقدير المصدر ، كأنه قال : طال رقُودُكُمَا . فإذا كُتِبَ المُرَكَّبُ مع ما يجب أن يُوصَلَ أحدُهما بالآخر ، وإذا كُتِبَ الثانى يُفصَلُ بين طالَ وبين مَا . و« أجِدَّ كُمَا » انتصَب على المصدر ، ذكره سيبويه فى باب ما ينتصب من المصادر توكيداً لما قبله(٢) . قال : ومثله فى الاستفهام :

---

(١) التبريزى : « وذكروا أن رجلين من بنى أسد خرجا إلى أصبهان ، فآخيا دهقانا بها فى موضع يقال له راوند ، فمات أحدهما وغبر الآخر ، والدهقان ينادمان قبره ، يشربان كأسين ويصبان على قبره كأسا . فمات الدهقان فكان الأسدى ينادم قبريهما ويترنم بهذا الشعر ، وكان يشرب قدحا ويصب على قبريهما قدحين » . وروى أبو الفرج روايات فى نسبة هذه الأبيات إلى قس بن ساعدة ، أو عيسى بن قدامة الأسدى ، أو الحزين بن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة ، أو أحد الكوفيين الذين وجههم الحجاج إلى الديلم ، وكل هذه الروايات تشترك فى حديث الخمر والمنادمة ، إلا الرواية الأولى التى تمثل قسا وقد ابتنى مسجداً بين قبر أخويه يعبد فيه الله . الأغانى (١٤ : ٤٠ ــ ٤٢) . ونسب الشعر فى معجم البلدان (رواند) ومعجم ما استعجم (خزاق) إلى الأسدى ، وحكيا القصة التى رواها التبريزى ثم قال ياقوت : وقال بعضهم : إن هذا الشعر لقس بن ساعدة فى خليلين له كانا وماتا . وقال آخرون : هذا الشعر لنصر بن غالب يرثى به أوس بن خالد وأنس بن خالد . وقد سبق ذكر أوس بن خالد فى الحماسية ٢٧٦ . وانظر الخزانة (١ : ٢٦١ ــ ٢٦٨) .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٨٩ ــ ١٩٠) .

أجِدَّكَ لا تفعَل كذا ، كأنه قال أجِدًّا . غيرَ أنّه لا يُستعمل إلّا مُضافًا ، فهو يجرى في التأكيد مَجرَى حَقًّا . وفي الإضافة : جِهْدَكَ ، ومَعاذَ الله ، والمعنى : أتجملان فِعلَكُما جِدًّا . وقوله « لا تقضيان كَرَاكُما » كأنه لما اتّصل رقادُهما ودلّ على حالَيهما في امتدادِه قولُه هُبّا ، وقولُه طالَما قد رقدتُما ، جَعلَ النّفيَ بلا ، ليدلّ على اتِّصاله في الاستقبال ، وأنّ سؤالَه عمّا يجيء لا عمّا هو فيه . ولو جُعِلَ بَدَلَ « لا » ما ، كان للحال . ومعنى البيت : يا خليلَيَّ انتبِها فقد امتدَّ رقادُكما . وأتَجِدّان جِدًّا كما في أنّ كَراكُما بَعدُ لا مُنتهَى له ولا انقضاء ، بل يتّصل ويدوم . وقوله « طالما قد رقدتما » يُكتفَى به إذا كان المتقدِّم من الكلام يشتمل على ما قد استُطيل . وعلى ذلك عَزَّ ما ، وشَدَّ ما .

٢ ـ أَلَمْ تَعلَمَا مَا لِي بِرَاوَنْدَ كُلِّها ... ولا بِخُزَاقٍ من صَدِيقٍ سِواكُما[1]

قوله « ألم » هو لم أُدخل عليه ألف الاستفهام ، والاستفهام كالنّفي في أنه غير موجَب ، ونفيُ النّفي إيجاب ، فلذلك قُرِّرَ بأَلَمْ فيما كان واجبًا واقِعًا ، لأنّه يتضمَّن من التّحقيق والتّثبيت في التّقرير ، وتأكيدِ المُقرَّر على المُخاطَب ، مثلَ ما يتضمَّنه القَسَمُ لو أُتِيَ به بدلَه ؛ لذلك عقَّبه بما يُعقَّبُ به القسم ، وهو ما النّافية . وقد تَقدَّم القولُ[2] في قول القائل : الله يَعلَمُ ويَعلَمُ الله ، والله يَشهدُ ؛ أنّ جميعَ ذلك يُستعمل استعمالَ الأيمان . وكذلك قول القائل :

ولقــد علمْتُ لتأتِيَنَّ مَنِيَّةٌ ... ما بَعدَها خَوفٌ عَلَيَّ ولا عَدَم

فقولُه « ولقــد علمْتُ » جارٍ مجرى اليمين فيما ذكرتُ من التّأكيد ، لولا

---

(١) في رواية لأبي الفرج :

ألم تعلما أني بسمعان مفرد ... ومالي فيه من حبيب سواكما

وأنشده ياقوت في رسم (سمعان) برواية أبي تمام مع تغيير « رواند » إلى « سمعان » وذكر أن سمعان جبل في ديار بني تميم . ثم ذكر أن « سمعان » اسم رجل نسب إليه عدة أديرة .

(٢) انظر ما سبق في ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

ذلك لما عُقِّبَ بما يكونُ جوابَ اليمين . وقولُه « ألم تَعلما » أصله تَعلَمانِ ، ودخلت ألم للتَّقرير . وقوله « مالى بِراوَنْد » فى موضع المفعول لتَعلَمانِ ، لأن تَعلَمَ ها هنا فى موضع تَعرِف ، كقوله تعالى : ﴿ ولَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ ﴾ ، وكذلك : لقد عَلِمتُ لَتأتِيَنَّ ، أصله لتأتِينَّ ودخلت عَلِمْتُ لِيُؤكِّدَ بها ، لأنَّك أخرجْتَ الكلامَ بها من أن يكونَ على سبيلِ التظنِّى أو من خبَرِ مُخبِرٍ فيكون إحالةً عليه . واللام من « لتأتينَّ » له الصَّدر ، فيمنَع علمت من العمل ، وإذا كان كذلك كان موضع لتأتينَّ نَصْباً على أنَّه مفعول عَلِمْتُ ، وعلِمْتُ بمعنى عَرَفْتُ . وقوله « من صَدِيقٍ » فى موضع الرَّفع على أن يكون اسم ما . وفائدة من الاستغراق ، و « سوا كما » فى موضع غير ، وهو صفةٌ لصديق . والكلام هو استبطاء فى استمرارِ رُقادِهما عنه ، وغفلتهما مما هو بسبيله ، وباطنه تَلَهُّف وتوجُّعٌ .

٣ – أُقِيمُ عَلَى قَبرَيكُما لستُ بارِحًا   طُوالَ اللَّيالى أو يُجِيبَ صَدَا كُما[1]

٤ – أُصُبُّ على قبرَيكُما مِنْ مُدامَةٍ   فإن لم تَذُوقاها أُبَلِّ ثَرا كُمَا[2]

يقول : أَصِلُ مُقامى على قبريكما باتِّصال اللَّيالى ودوامِها ، ولا أبرح إلا أن يجيبَنى صدا كما . وقوله « لست بارحًا » فى موضع الحال ، كأنَّه أراد : أقيمُ مُلازماً أبداً . وطَوالَ انتصب على الظَّرف ، والعامل فيه يجوز أن يكون بارِحًا ، ويجوز أن يكون أُقيمُ . فأمَّا قوله « أو يُجيبَ » فأو بدلٌ من إلى ، والفعل بعده انتصب بأنْ مُضمَرة . والعربُ تقول : عظام الموتى تصير أصداء وهاما ، لذلك قال : أو يجيب صدا كما .

---

(١) فى رواية بالأغانى : « مقيم على قبريكما » .

(٢) فى رواية بالأغانى : « فإلا تذوقا أرو منها » .

وقوله « أصُبُّ على قبريكما من مُدامة » مِنْ أفاد التّبعيض ، وموضع من مُدامَةٍ نصبٌ على أنّه مفعول أصُبُّ ، والمعنى أجرِيكما فى المنادَمة والشُّرب مجراكُما وأنتُما حَيّان ، فإذا عادت النّوبة إليكما أصُبُّ ما نابكما من المُدامة على قبريكما ، لأنّه إن لم يَبُلّ ريقَكما رطّب قبريكما . وقوله « أبُلّ » يجوز أن تبْنِيه على الفتح والضمّ والكسر ، لأنك تُدْغم وإن كان مُعْرَباً ، فيلتقى بنقل الحركة عن العين إلى الفاء ساكنان ، ثم يُبنى على الكسر لأنّه أصلٌ فى التقاء السّاكنَين ، أو على الفتح لخفّته ، أو على الضمّ للإتباع . ولا خِلاف فى إدغام المُعْرَب من كلّ العرب ، فأمّا المبنىُّ فبَعْضٌ يُظْهِر التّضعيفَ فيه فيقول : ارْدُد ، وبعضٌ يقول رُدَّ فيُدغِم وإن كان مبنيًّا ، إلّا أنّ الأصل فى الإدغام للمعرب ، ثم حُمِل المبنىُّ عليه فاعلَمْه .

٥ — وأبْكيكما حَتّى المَماتِ وما الذى يَرُدُّ على ذِى عَوْلَةٍ أَنْ بَكاكُما(١)

قوله « وما الذى يردُّ على ذى عَوْلةٍ » يجرى مجرى الالتفات . وقوله « إن بكاكما » إذا فتَحت الهمزة يكون موضعُه من الإعراب الرفع على أن يكون فاعل يَردّ ، لأنّ أنْ مع الفعل فى تقدير المَصْدر ، وإن رَوَيْت إن بكسر الهمزة كان شَرطا وجوابُه يدلُّ عليه ماتقدّمه ، وفاعل يَرُدُّ ما يدلّ عليه أبكيكما من مصدرِه ، كأنّه قال : وما الذى يردّ البكاء على ذى عَوْلَةٍ إن بكاكُما . على ذلك قولهم : « مَنْ كذَب كان شرًّا له ، ومن صَدَق كان خيرًا له » يريدون كان الكذبُ شرًّا له والصِّدق خيراً له . والمعنى : أبكيكما ما اتّصلَ عمرى . ثم قال كالملتفت إليهما على طريق اليأس : وما يُغنى البكاء عن المُعْوِل إن بَكاكُما . فقوله « ما » استفهام ومعناه للإنكار . والعويل : صوت الصّدر ، ومنه العَوْلة ، وقد أعْوَلَتِ المرأةُ .

(١) فى رواية بالأغانى : « سأبكيكما طول الحياة » .

٢٩٠

وقالَ عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ الرَّحيمِ الحارِثيّ[١] :

١ — إنّى لأربابِ القُبورِ لَغابِطٌ ... لسُكْنَى سَعيدٍ بينَ أهلِ المَقابِرِ

٢ — وإنّى لَمفجُوعٌ بِهِ إذْ تكاثَرَتْ ... عُدَاتِى ولم أهْتِفْ سِواهُ بناصِرِ

قولُه « سُكْنَى » أن تُسْكِنَ إنسانًا منزلًا بلا كِراء ، والمنزل سَكَنٌ ومَسْكَنٌ ؛ وهو مصدر كعُذْرَى وبُشْرَى . ومعنى البيت : إنّى أغبط الموتى لحصول سعيدٍ فيما بينهم ، فإنّ الجمال الذى كانَ للأحياء بمُقامه فيهم كأنّه انتقلَ إلى الأموات عنهم ؛ وإنّى لمتبيِّنٌ تأثيرَ الفَجْع به ، وشِدّةَ فاقتى إليه ، إذا تَزاحَمَ الأعداء وتبالَغُوا فى قَصْدِى ، ولا يكون لى من أستَنْصِرُه عليهم غيره . وقوله « سِواه » فى موضع النَّصب على أنَّه استثناء مقدَّمٌ . ويقالُ هَتَفَ هَتْفًا وهُتَافًا . والهَتْفُ : الصَّوت الشديد ، وقوسٌ هَتَفَى ، والحمامُ تَهْتِفُ . وهَتَفَ به وصاح به ، إذا دعَاهُ .

٣ — فكنتُ كمَغْلُوبٍ على نَصْلِ سَيْفِهِ ... وقد حَزَّ فيــه نَصْلُ حَرّانَ ثائرِ

النَّصل : اسمُ حديدةِ السَّيف ، لذلك صَلَح إضافتُه إلى سيفِهِ وإن كان قد يُستعمل استعمالَ السّيف . ألا تَرَى أنَّه قال : وقد حَزَّ فيه نَصل حَرّان . يقولُ : كان عُدّتى على الدهر وسلاحى على أعدائى ، فلما فَقَدْتُهُ والأعداء بالمِرصادِ لى ، صِرْتُ كان غُلِبَ على سَيْفِهِ وسيفُ عَدوّه قد خَرَجَ عليه كطالب ثأرٍ وكبدُه حرّى ، لشدّةِ عداوَتِهِ واستحكام غيظه يَعملُ فيه ، ويَنْفُذُ فى الضَّريبة منه ،

---

(١) التبريزى : « يكنى أبا الوليد ، وهو شامى كلامى شاعر » . وكلمة « كلامى » محرفة ، صوابها « كَلاعى » بفتح الكاف . قال السمعانى فى الأنساب (٤٨٢ ا) : « هذه النسبة إلى قبيلة يقال لها كلاع نزلت الشام ، وأكثرهم نزل حمص » .

والمراد : كنتُ كمن غُلِبَ على عُدّته أشدَّ ما كان حاجةً إليها ، وحين تمكّنَ العدوُّ وهو تامُّ الآلة ، مَكِينُ القُوى فى المنازَلة .

٤ – أتيناهُ زُوّارًا فأمْجَدَنا قِرًى من البَثِّ والداء الدَّخِيلِ المُخامِرِ

٥ – وأُبْنَا بزَرْعٍ قد نَمَا فى صدورنا من الوَجْدِ يُسْقَى بالدُّموعِ البَوادِرِ

يقول : جئناه زائرين فوسَّعَ قِرانَا من الحُزْن والداء المتمكِّن من القلب ، المُخامِرِ له . والمُخامِرُ مأخوذٌ من الخَمَر ، وهو ما واراكَ من الشَّجَر وغيره . وإذا كان كذلك فهو أبلغ من قوله الدَّخيل ، لأنه يُفِيدُ فى الموصوف فائدةً أكثرَ من الدُّخول ، إذ كان المرادُ به دبيبَهُ فى أثناء القَلب وأطباقِهِ ، وذَهابَه فى أجزائه وأضعافِه ، وليس فى الدَّخيل هذا المعنى . ويقال أمجَدْتُ الدّابّةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له .

وقوله « وأُبْنا بزرعٍ قد نما فى صدورنا » نبَّه بهذا الكلام على أنَّ حُزْنَه يزيد على مَرِّ الأيام ، فهو كالزَّرع النامى ، وأنَّ سُقياه الدُّموع . ومعنى البوادر المُستبِقَةُ لكثرتها وغَلَبتها . وأصل الزَّرع الإنبات . والزُّرعةُ : البَذْر . لذلك قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُون ﴾ . وازدرع ، إذا زَرَع أو أَمَرَ به لنفسِه خاصّةً . ويقال : زُرِع لفلانٍ بعدَ شقاء ، إذا أصابَ مالاً بعد الحاجة . فإن قيل : كيف قال « أمجَدَنَا قِرًى » والمَيِّتُ لا يعمل شيئًا ؟ قلتَ : لمّا جعله مَزُورًا أقام له قِرًى لزائره على عادته وهو حيٌّ . وهذا المعنى من كلامه أبينُ وأظهر من كلام عَبْدَةَ بنِ الطّبيبِ لمّا قال :

* إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلّمَا(١) *

---

(١) من الحماسية ٢٦٣ . وصدره :

* تحية من غادرته غرض الردى *

٦– ولمّا حضَرْنا لاقتسام تُراثِهِ   أصبْنا عَظِيماتِ اللُّهَى والمآثِرِ

٧– وأسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوابِهِ   فأبلِغْ به من ناطقٍ لم يُحاوِرِ

اللُّهَى: أفضَلُ العطايا وأجزلُها، والواحدة لُهْيَةٌ ولُهوَةٌ؛ ومنه اللُّهْوَةُ التى تُلقَى فى الرَّحَى. يقول: لمّا اجتمَعْنا لنقتسم تركتَه فيما بيننا لم نَجِدْ له إلَّا ما كسَبَه عطاياه من المآثر الكريمة. فأضاف عظيمات إلى اللُّهَى والمآثر جميعاً، وهى جمع مأثُرَةٍ، وهى ما يُؤْثَر من المحامد والمعالى ويُذكَر. ويجوز أن يُريد بالعظيمات المفاخر التى ادَّخَرها له اللُّهَى، ويكون اللُّهَى حينئذ الأموال الكثيرة. ويجوز أن يكون المراد بالمآثر الأعلاقَ الثمينة، والنَّفائسَ الكريمة، التى فرّقها فى حياتِه، وآثر غيرَه بها. وقوله «وأسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوابِهِ» أى مَرْجوع جوابِه، كما قال غيرُه[1]: «اسألِ الأرض، أينَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لَم تُجِبْكَ حِواراً أجابتْك اعتبارًا»؛ وكما قال الآخر[2]:

* وعَظَتْكَ أجداثٌ صُمتْ[3] *

ومثله:

وكانت فى حياتِكَ لِى عِظَاتٌ   فأنْتَ اليومَ أوعظُ منك حَيًّا[4]

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان. الحيوان (١ : ٣٥). وانظر البيان (١ : ٨١) وعيون الأخبار (٢ : ١٨٢).

(٢) هو أبو العتاهية. ديوانه ٥٢.

(٣) عجزه: * ونعتك أزمنة خفت *

(٤) البيت من مشهور شعر أبى العتاهية، فى رثاء صديقه على بن ثابت. انظر البيان (١ : ٤٠٧ – ٤٠٨) والأغانى (٣ : ١٤٢). وذكر الجاحظ أن أبا العتاهية أخذ هذا المعنى من قول أحد الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: «الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس». انظر أيضاً البيان (١ : ٨١) لنسبة هذا القول الأخير.

٢٩١

وقالت امرأةٌ من بنى شَيبان(١) :

١ــ وقالوا ماجِدًا مِنكُم قتَلْنَا كذاكَ الرُّمْحُ يَكْلَفُ بالكريمِ

٢ــ بِعَيْنِ أُباغَ قَاسَمْنَا المَنَايا فكان قَسِيمُها خَيْرَ القَسِيمِ

انتَصَب « ماجِداً » على معنى أنه مفعول مُقدَّم ، ومنكم فى موضع الصِّفة له . وموضع ماجِداً منكم قتَلْنا الجملة موضع المفعول لقوله قالوا . وقوله « كذاك الرُّمْحُ » جوابٌ لهذا الابتداء ، كأنَّه قال : فأجيبوا : الرُّمْحُ يَكلَفُ بالكريم كذلك ، فأشير بذاكَ إلى الخبر الذى اقتصُّوه . والكاف من كذاك كاف الخطاب لا موضعَ له من الإعراب . وتلخيص الكلام : الرُّمْح يَكْلَفُ بالكرام كَلَفًا مثلَ ذلك الكاف . والعامل فى كذاك يَكْلَفُ . والمعنى : تنَادَوا : قتَلْنا ماجِداً منكم ؛ فأجيبوا: الرُّمح يعشَقُ الكرامَ ويُولَعُ بهم مِثلَ ذلك . وأكثر ما يجىء الجواب فى إِثْر السُّؤال من واحدٍ فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ . وقد أَلَمَّ فى هذا البيت بقول طرَفة :

أرَى المَوتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصطفِى عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقولُه « بعَيْنِ أُبَاغَ قاسَمْنَا المَنَايا » مثلُه قول الآخر :

* وقاسَمَنِي دَهْرِى بَنِىَّ بشَطرِهِ *

---

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « هذا الشعر لبنت فروة بن مسعود ، ترثى فروة وقيسا ابنى مسعود بن عامر بن عمر بن أبى ربيعة ، وقتلا مع المنذر ذى القرنين يوم عين أباغ يوم قتل المنذر ، وكان الذى قتل المنذر شمر بن عمرو الحنفى وكان مع الحارث بن أبى شمر الغسانى . وهو المنذر بن امرئ القيس ، وأمه ماء السماء النمرية » . وقال ياقوت فى (أباغ) : « وقالت ابنة فروة بن مسعود ترثى أباها ، وكان قد قتل بعين أباغ : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام وكانت منازل إياد بن نزار . وكان عندها فى الجاهلية يوم بين ملوك الشام الغساسنة وملوك الحيرة اللخميين ، وفيها قتل المنذر اللخمى » .

كأنَّه كانَ للمَنَايا نصيبٌ فيهم فقاسَمَتْهم على نصيبها فوقَعَ إليها خَيْرُ النَّصيبَين . والمعنى : اختارَتْ منهم الأمثلَ فالأمثل ، وغَادرَتِ الفَلَّ منهمْ والمُسترذَل . وقوله قَسِيمُ يكون فى معنى مقسوم ، وقد يكون القسيمُ المُقاسِم ، وليس هذا موضِعَه . ولك أن ترْوِى « قاسَمْنَا المَنايَا » بسكون الميم ، ويكون المنايا فى موضع المفعول ، ولك أن تفتح الميم وتجعل المنايا فاعلةً ؛ والمعنى فيهما مُتقارِبٌ . وكانت الوقعةُ بعين أُباغ ، فلذلك خَصَّه بالذِّكر ، وقاسَمَ يقتضى مفعولاً آخر ، كأنَّه قال : قاسَمْنَا المنايا النَّاسَ أو الأصحاب . وقولُه « قَسِيمُها » . كقولك نصيبُها . وخَيْرُ القَسِيم كقولك خَير الأنصِباء . وأنشد ابنُ الأعرابىِّ فى هذه الطَّريقة :

إذا ما المَنَايا قاسَمَتْ بابنِ مِسحَلٍ ... أخًا واحِدٍ لم يَرْضَ نِصْفًا قَسِيمُها

فآبَ بلا قَسْمٍ وآبَتْ بقَسْـمِها ... إلى قَسْمِهِ لاقَتْ قَسِيما يَضِيمُها

كأنَّه كانَ للمنايا نصيبٌ فى أخيه ، فقاسَمَتْهُ وأخذت نصيبه إلى نصيبها ، وآبَ هو بلا نصيب . ثم دَعَا على المنيَّةِ[1] فقال : قيَّضَ الله لهَا قَسِيمًا يظلمها كما ظلمَتْنى .

٢٩٢

وقال عُقَيُّ بنُ مَالِكٍ[2] :

١ — أعَدَّاءَمَنْ لليَعْمَلَاتِ على الوَجَى ... وأضيافِ لَيْلٍ بَيَّتُوا لِنُزُولِ

٢ — أعَدَّاءَ ما لِلعَيشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ ... ولا لخَليـــلٍ بَهْجَةٌ بِخَلِيلِ

(١) فى الأصل : « الموت » ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) التبريزى : « عقى بن مالك العقيلى » ، ولم أعثر له على ترجمة .

٣ — أَعَدَّاءِ ما وَجْدِى عليكَ بِهَيِّنٍ ولا الصَّبْرُ إن أُعْطِيتُه بجميلِ

ناداه مُسائِلًا له على طريق التوجُّع[1] : مَنْ خَلَّفْتَ بعدَكَ للوُرَّاد ، وعلى مَن اعتمدتَ فى تفقُّد الأضياف . واليَعْمَلات : النُّوقُ السِّراعُ . والوَجَى هو الحَفَى . وقال الخليل : اليَعْمَلة لا يُوصفُ بها إلا النُّوق . وقال أبو سعيدٍ : يقالُ للجَمَل يَعْمَلٌ ، اسمٌ له من العَمَل ، كما يقال يَعْمَلَةٌ ، وأنشد :

إذْ لا أزالُ على أقتادِ ناجيةٍ ، صَهْباءَ يَعْمَلَةٍ أو يَعْمَلٍ جَمَلِ

أراد أو جملٍ يَعمَل . وموضع « على الوَجَى » نَصْبٌ على الحال ، كأنَّ فِناءَه وداره كان مألفًا للعُفاةِ ومَجمَعًا للأضياف ، فإذا أرادوا مَن يؤويهم لم يؤثروا تطلُّبا على قصده ، ولم يجِدُوا تَطَلُّعًا وتوفُّرًا إلّا مِن عندِه ، فقال على طريق التحسُّر : مَنْ يُؤْوِى الأضيافَ وقد بَهرهم السَّعىُ وأتعبهم الطَّلَب غيرُك ، ومن يُنزِل السَّفر وقد أكلَّهُم التَعَبُ وأملَّهم الدأْبُ حتّى حَفيت رواحلُهم ، وحتّى يَبيِّتُوا لنزولٍ ، مَيلًا إلى نَيلِ راحتهم . ويقال بَيَّتَ الأمرَ ، إذا دبَّره بالليلِ . وكلُّ رأيٍ أجْلَتَهُ بليلٍ فهو مُبيَّت . وماء بَيُّوتٌ ، إذا باتَ ليلةً فى الإناء . وبَيَّتُّ القومَ ، إذا أوقعتَ بهم ليلًا . ويقالُ للهَمِّ : هو بَيُّوتٌ ، وللصَّقِيع بَيُّوت .

وقوله « أعَدّاءِ ما للعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ » يصفُه فيه بأنّه كان ببليغ لُطفِه وجميل خُلُقِه ، وسهولة جانبه ورَحابة جنَابِه ، يَطيبُ العيشُ معه على ما يعترضُ فيه من مساءةٍ أو مَسرَّةٍ ، إذْ كان يَتحمَّل الأعباء عمن يجاوِرُه[2] ، ويُخَفِّفُ ظهرَ مَن ينصَبُّ إليه ، أو يَتسبَّب بقرابةٍ لديه ، أو يتوكَّلُ لمُخالَّةٍ عليه ، فكانَ لذيذُ الحياة يوجَدُ عنده ، وصَفْوُ البقاء يَحصُلُ معه . وقوله « ولا خليل بهجَةٌ بخليل » يعنى أنَّ النَّاسَ وقد رأَوا مآل أمرِكَ إلى الفَناء ، وانقطاعَ السُّرور عنهم

---

(١) فى الأصل : « على ظهر التوجع » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « يتحاوره » ، صوابه فى سائر النسخ .

بعد النَّماء ، صار لا يبتهج بعضُهم ببعضٍ ، فلا يَسْكُن الصَّديقُ إلى صديقه ، ولا القريبُ مع قريبِه ، لغَلَبَة اليأسِ من الخير ، وارتفاع الطَّمع من الفَرَج .

وقوله « أعدَّاء ما وَجْدِى عليكَ بِهيِّنٍ » كرَّر مُناداتَهُ دِلالةً منه على لُزومِ التَّوجُّع ، وتنبيهاً على حُصُولِ العَنَاء والاشتكاء بعد التَّودُّع . ثم قال : ليس جَزَعى عليكَ بخفيف ، ولا وَجدى عليك بطفيف ، ولا صَبْرِى لو حَصَلَ بجميل ، لأنَّ الصَّبرَ على فَقدِكَ منكَر ، وهَوْنَ الوَجد وخفَّته مُستفظَع ، فليس لنا إلّا الاستمرار فيما نحن بسبيله من اللهَفِ والحسرة والاستسلام للشَّقاء والهَلَكة .

٢٩٣

وقال أيضاً :

١ – كأنِّىَ والعَدَّاء لم نَسْرِ ليلةً ولم نُزْجِ أنضاءً لهنَّ ذميلُ

٢ – ولم نُلْقِ رَحْلَيْنا ببيداءَ بَلْقَعٍ ولم نَرْمِ جَوْزَ اللَّيلِ حيثُ يَميلُ

أدخل الألف واللام فى هذه المقطوعة على العَدَّاء لأنه صِفةٌ فى الأصل ، فهو كالحسَنِ والعبَّاس وما أشبههما ، فإذا أتَيْتَ به ولا ألفَ ولامَ فيه فلأنَّك جعلتَهُ عَلَماً ، فصار معرفةً بالعَلَميَّة ، وإذا أدخلْتَ الألف واللام عليه فإنَّك راعيتَ حالَه وهو صفةٌ ثم جعلتها نفسَ المُسمَّى وأدخلت الألف واللام عليه . فعَلَى الأوّل لا يفيدُ الاسم [فى[1]] المُسمَّى شيئاً أكثرَ من تمييزه عن غيره ، وعلى الثانى أفاد معنى الوصفيّة فيه مع التمييز ، فصار كالصفات الغالبة الجارية مَجْرى الألقاب فى التخصيص .

وقوله « كأنِّىَ والعَدَّاء لم نَسْرِ ليلةً » يريد أنَّ الشىء إذا انقطعَ فكأنه

(١) هذه من ل ، م والتيمورية .

لم يكن . والمعنى أنّى وقد فقدتُه فكأنّى وإيّاه لم نصطحب فى قَطْع مسافة ، ولم نشترك فى سَوقِ أنضاء من الإبلِ لتحمُّل كُلفةٍ ، أو صبرٍ على مشقّةٍ . ونبَّه بهذا الكلام على تبذُّله – كان – فيما يَكسِبه الأُحدوثةَ الجميلة ، وإن تكلَّف فيه الأثقالَ العظيمة . والذَّميل : إسراع السَّير . والأنضاء : جمع النِّضْو . وقال الدُّرَيديّ : يقالُ : ذَمَلَت الناقةُ ذَميلاً وذَمَلاناً ، وهو ضَربٌ من السَّير أعلى من العَنَقِ ، وناقةٌ ذَمولٌ . والإزْجاء : السَّوْق .

وقوله «ولم نُلقِ رحْلَيْنا» لو قال رحالنا لكونهما اثنين من اثنين ، لجرى مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ كان أَدْخَلَ فى الاستعمال ، لكنّه أتى به على الأصل . والبَيْداء : المَفازةُ . والبَلْقَع : القَفر الخالى . والمعنى على ما تقدم فى البيت الذى قبلَهُ ، من الصبر على الشدائد .

وقوله « ولم نَرْمِ جَوْز الليل حيثُ يَميلُ » أراد حيث يميلُ الليلُ . وحيث هذا ظرفُ زمانٍ . يريد فكأنّا لم نَرْمِ بأنفسنا جَوْزَ اللّيل وقتَ ميلِه . يشيرُ إلى جُنوحِه وإشرافِه على تَهَوُّرِه ، لأنَّ ميلَه على ذلك يكون . ومما جاء فيه وهو للزّمان دون المكان عندَ أبى الحسن الأخفَش قولُه :

للفتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ حيثُ تَهْدِى ساقَهُ قَدَمُهْ[1]

لأنّ المعنى : للفتى عقلٌ يعيش به مُدّةَ سعيِه وحياتِه ؛ ونُهوضِه بساقِه فى أمرِه . ويجوز أن يكون حيثُ ظرفاً لمكانٍ ، ويكون المعنى : إنّا نعتسف الطريقَ لحيثُ مالَ الليلُ مِلنا معه . ويجوز أن يكون فاعل يميل ما دلّ عليه « ولم نَرمِ » من المصدرِ ، ويكون المعنى حيثُ يميلُ الرَّمْىُ ويذهَبُ فيه .

---

(١) لطرفة فى ديوانه ١٩ .

٢٩٤

وقال أبو الحَجْناء[١] :

١ ـ أَضْحَتْ جِيَادُ ابن قَعْقاعٍ مُقَسَّمَةً   فى الأَقْرَبِينَ بِلَا مَنٍّ ولا ثَمَنِ

٢ ـ وَرَّثْتَهُمْ فَتَسَلَّوا عنك إذ وَرِثوا   وما وَرِثْتُكَ غَيْرَ الهمِّ والحَزَنِ[٢]

القَعْقَاع والقَعْقَعَانِيُّ : الذى إذا مَشَى سُمِع لمفاصله تَقَعْقُع . وأراد بالأقربين وُرَّاثَه ، وبالجِياد خيلَه . فيقول : أضحتْ خيلُه مُفرَّقةً فى وُرَّاثِه ، وهم لا يعتدُّون له بها ولا يبتاعونها ، فتكونَ له المِنَّةُ أو الثَّمن . ثم قال : ورَّثتَهم فَنَسُوكَ اشتغالًا بالإرث ، وتسلِّياً عنك بالمال ، وأنا باقٍ على ما كنتُ عليه من التَّحزُّنِ والاهتمام لا إرثَ لى غيرُهما . وهذا كلامُ متأسِّفٍ ومستنكِرٍ من أقاربه ما يَراهم عليه من نِسيانه والسُّرور بما فازوا به من ماله . والسُّلُوُّ : طِيب النَّفس عن الشىء . وفى تَسَلَّى من التَّكلُّف ما ليس فى سَلَاهُ .

٢٩٥

وقال آخر :

١ ـ لَنِعْمَ الفَتَى أَضْحَى بأَكْنافِ حَائِلٍ   غَدَاةَ الوَغَى أُكْلَ الرُّدَيْنيَّةِ السُّمْرِ

٢ ـ لَعَمرِى لَقَدْ أُرْدِيتَ غَيْرَ مُزَلَّجٍ   ولا مُغْلِقٍ بَابَ السَّماحَةِ بالعُذْرِ

٣ ـ سأَبكِيكَ لا مُسْتَبْقِياً فَيضَ عَبْرةٍ   ولا طَالِباً بالصَّبْرِ عاقِبةَ الصَّبْرِ

---

(١) هو أبو الحجناء نصيب الأصغر ، مولى المهدى ، أقطعه المهدى ضيعة بالسواد ، وعمر بعده ، ومدح الرشيد والفضل بن يحيى . وكان شيبة بن الوليد العبسى وأخوه ثمامة يبرانه ، وكانا من وجوه قواد المهدى ، فلما مات شيبة دخل نصيب على ثمامة وهو يفرق خيل شيبة على الناس ، فأمر له بفرس ، فأبى أن يقبله وبكى ثم قال :

يا شيبة الخير إما كنت لى شجناً   آليت بعدك لا أبكى على شجن

ثم البيتين اللذين أنشدهما أبو تمام هنا ، فجعل ثمامة ومن هو عنده حاضر من أهله وإخوانه يبكون . الأغانى (٢٠ : ٢٨) .

(٢) الأغانى : « فتعزوا عنك » .

المحمود محذوفٌ ، كأنَّه قال : نِعمَ الفَتَى فتًى أضحَى وانتصَبَ « أُكْلَ » على أنَّه خبر أضحى ، وبأكنافِ حائلٍ ظَرفُ مكانٍ . وغداةَ الوَغَى ظرف زمانٍ ، وتَعلَّقا جميعاً بأضحى . ويجوز أن يُجعَلَ بأكناف حائلٍ الخبر ، وينتصب أُكْلَ على الحال . ولا يمتنع أن ينتصب غداةَ بما دلَّ عليه بأكنافِ حائلٍ من الفعل المضمرِ . ويجوز أن يكون العاملُ فيه أُكْلَ ، لأنَّه ليس بمصدر فلا يعمل ما في صلته فيما قبله . والأُكْل : الطُّعْمُ ، وإضافته إلى الرُّدينيّة لم تُفِدْ فيه اختصاصًا . ألا تَرَى أنَّ فائدتَه وهو مضافٌ مثلُ فائدته لو نُوِّنَ فقيل أُكْلًا للرُّدينيّة . ومثلُه قَيْد الأوابِد وما أشبهه . ومعنى البيت : محمودٌ في الفِتيان فَتًى حصَل بجانب هذا الوادى غداةَ الحربِ طُعْماً للرُّدينيّة السُّمْر . وأصل الوَغَى الجَلَبةُ والصَّوت . واللام مِنْ « لَنِعْمَ » جوابُ قَسمٍ مضمر .

وقولُه « لعمرى لقد أرْدِيتَ غيرَ مُزَاَّجٍ » أقبل عليه يخاطِبُه بعدَ أن كان يخبرُ عنه ، على عادتهم فى افتنانهم فى الكلام ، وكأنَّ الخطاب أدلُّ على التحسُّر والتَّوجُّع من الإخبار ، ولذلك عَدَلَ إليه . واللام فى لَعَمْرِى لام الابتداء . وخبر المبتدأ محذوف ، كأنَّه قالِ : لعمرى قَسَمِى . واللام من لَقَدْ جوابُ اليمين ، والمعنى : وبقائى لقد أهلكتَ غيرَ ضعيفٍ ولا جَبَانٍ وقتَ المُدافَعةِ والمُمانعة فتُضيِّعَ محفوظاً ، ولا متشدِّداً على تزاحُمِ المجتَدِين والسُّؤَّالِ ، بإقامة المعاذير والعِلَّات ، فتُغلِقَ للسماحة بابًا مفتوحا .

وقوله « سأبكيك لا مستبقيًا فَيضَ عَبرةٍ » يريدُ أنَّ بُكاءَهُ يتَّصلُ إلى أن يستنفد موادَّ دَمعِه ، وأنه لا يَطلُبُ بتكلُّف الصَّبر ما يتعقَّبه من التَّسلِّى . فقوله « بالصبر » أراد بتكلُّفِ الصَّبر ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه ، وذاك أنَّ الإنسانَ إذا تَصبَّرَ فيما يَدهَمُه مُدّةً ، وتَماسَكَ به بُرهةً ، أدَّاهُ مرورُ الأوقات إلى أن يَتَسَلَّى ؛ فعاقِبَةُ الصَّبر هو التَّسلِّى ، فإذا تسلَّى عادَ طَمَعُه فيما يُرجَى ،

وحَذرُهُ ممّا يُخْشَى ، إلى ما كان أو أشدَّ ، وذلك حالُ مَن لا هَمَّ له .

٢٩٦

وقال خَلَفُ بن خَلِيفة(١) :

١ ـ أعاتِبُ نَفْسِي أن تَبَسَّمْتُ خالِياً وقد يَضْحَكُ المَوْتُورُ وهو حَزِينُ

انتصب خالِياً على الحال من أعاتِبُ . وأن تبسَّمْتُ بفتح الهمزة معناه لأنْ تبسمتُ ، ومن أجل تبسُّمِي . ولك أن تكسر الهمزة من إنْ فيكون شرطاً ويكونُ جوابُه ما دَلَّ عليه أُعاتِبُ نفسي . والمعنى : إذا خَلَوْتُ بنفسي أبْسُطُ العَتْبَ عليها لما يتفقُ منها في المَلأ من مُتابَعةِ النّاسِ على تصرُّفهم في المُؤانَسة والمضاحَكة ، وطَلَبِ موافقتِهم عند المفاكهة والمحادثة . هذا وليس ذاك لداعيةِ سُرورٍ ، ولا لباعثةِ ابتهاجٍ وحُبورٍ . ثم قال « وقد يَضحكُ الموتورُ وهو حَزِينُ » يريد أنَّ الموتور وإنْ تناهَى حزنُه ، واشتَدَّ قَلقُه وبَثُّه ، فقد يضحك قَطْعًا لشماتةِ شامتٍ ، وتَجَلُّداً مع عَدُوٍّ مكافِحٍ ، أو جرياً على عادةٍ ، أو استمراراً في إقامة موافقةٍ ، ولا يُعَدُّ ذلك منه إخلالاً بواجب الهلَع ، ولا إغفالاً للوازِمِ الجَزَع ، والضَّحكُ أبلغُ من التَّبَسُّم ، فكذلك أنا وإن تَبَسَّمْتُ اضْرُبٍ من تلك الضُّروبِ ، فَطَلَبُ الوِترِ والقيام بسُنَّةِ الحزنِ نَصْبُ عَيْنِي ، وأهمُّ الأُمُورِ إليّ .

٢ ـ وبالدَّيْرِ أشْجَانِي وكَمْ من شَجٍ لَهُ دُوَيْنَ المُصَلَّى بالبَقِيعِ شُجُونُ

٣ ـ رُبَى حَوْلَها أمثالُها إن أتيتَها قَرَيْنَكَ أشْجَاناً وهُنَّ سُكُونُ

٤ ـ كذا الهَجْرُ أنّا لم يَضِحْ لكَ أمْرُنا ولَمْ يأْتِنا عَمّا لديْكَ يَقِينُ

---

(١) كان يقال له « الأقطع » ، لأنه قطعت يده في سرقة فاستعاض عنها بأصابع من جلود ، وكان من معاصري جرير والفرزدق . وفيه يقول الفرزدق :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لنقب جدار أو لطر الدراهم

وقد عده الجاحظ من شعراء المولدين المطبوعين في البيان (١ : ٥٠) والشعر والشعراء ٦٩٢ ـ ٦٩٥ .

الأشجان : جمع الشَّجَن ، وهو الحزن ، وفى أدنى العدد ، والشُّجون جمعه الكثير . وقوله « رُبى حولها أمثالها » موضعه رفع على أنه بدل من قوله شُجون . ويعنى بها القبور المسنَّمة . وحولها أمثالها صفة للرُّبى . وما أشار إليه من المماثلة يعنى فى الصُّورة والفَناء جميعا . وقد ألمَّ فى هذا بقول الآخر[(١)] :

فقلت له إنَّ الشَّجَا يبعث الشَّجَا فَدَعْنِي فهــذا كُلُّهُ قَبرُ مالكِ

وإنَّما يريد أنَّ قبور أحبَّته بالدَّير وقبور أحبَّة مَن يأتسى بهم من المفجوعين ببَقيع الغَرقَد ، لأنَّ أولئك ماتوا حَتْفَ أنفِهم وفى أماكنهم ، فدفنوا فى مقابرهم ، وأصحابُ الشَّاعر قُتِلوا وتَغَرَّبوا فدُفِنُوا ثَمَّ . والكلامُ توجُّعٌ وتلهُّف . وقوله « دُوَيْنَ المصلَّى » تحديدٌ للمقبُرة ، وتقريبٌ لها من المصلَّى ، لذلك قال دُوينَ فصغَّر دُونَ . وعلى ذلك تصغيرهم لقُبَيْلٍ وبُعَيدٍ وفُوَيق . وقوله « إن أتيتَها قرينَك أشجانا » مثل قول الآخر[(٢)] :

أتيناهُ زُوَّارًا فأمجَــدَنا قِرًى من البثِّ والدَّاءِ الدَّخيلِ المخامِرِ

وأضاف إليه معنى البيت الآخر بقوله « وهنَّ سكون » وهو « وأسمعنا بالصَّمتِ رَجع جوابه[(٣)] » . وقولِه « كذا الهجر » يجوز أن يُشير بذا إلى ما قدَّمه ، ويجوز أن يكون وضع حرفَ الإشارة والمشارُ إليه يجيء من بعدُ على طريق التَّفسير له ، والتَّرجمة منه . والمراد ما بيننا من استعجام الأخبار ، وذَهاب الالتقاء والاجتماع ، على اتِّصال التَّزاور إذا فُعِلَ ، أشبهُ شيء بالهِجران ؛ وذلك ما لم يدخل بيننا فى شيء من الأوقات والأحوال . وهذا تحسُّرٌ آخر جديد ، وتلهُّف شديد .

(١) هو متمم بن نويرة . الحماسية ٢٦٥ ص ٧٩٧ .
(٢) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . الحماسية ٢٩٠ ص ٨٨١ .
(٣) صدر البيت ٧ من الحماسية ٢٩٠ . وعجزه :
* فأبلغ به من ناطق لم يحاور *

٢٩٧

وقال عبدُ الله بنُ ثَعْلَبَةَ الحَنَفِيُّ[١] :

١ — لِكلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائِهِم ... فَهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبُورُ تَزِيدُ

٢ — وما إنْ يَزالُ رَسْمُ دارٍ قَدَ اَخْلَقَتْ ... وَبَيْتٌ لِمَيْتٍ بالفِناءِ جَدِيدُ[٢]

٣ — هُمُ جِيرَةُ الأحياءِ أمَّا جِوَارُهُم ... فَدَانٍ وأمَّا المُلْتَقَى فَبَعِيدُ[٣]

يقول على وجه التحزُّن والتفجُّع والتوجُّع : تساوت أحوالُ النّاس فى مقاساة البلاء ، ومعاناة الشّقاء ، لا تفاضل فيما بينهم ولا تمايز ، يَرَون مصارعَهم بأفنيتهم ، وجنودَ الموت والفناء متسلِّطةً على طوائفهم ، تَخترمُ الواحدَ بعد الواحد منهم بلا حياء ولا رِقبة ، ولا استبقاء ولا رِعَة ، وقد رَضُوا بحكمه وأخذِه ، واختياره وقَسْمه ، فعَسْفُه عندهم رِفق ، وبطشُه رحمةٌ وعدل ، يَرَون فِرَقَ أحيائِهم[٤] على مُرور الأيّام إلى تراجُعٍ وتناقُص ، ومصيرَ مَصانِعهم ومساكِنِهم قريبًا إلى البِلى والتعطُّل ، ويجدُون عَددَ الأموات إلى تزايُدٍ وتكاثُر ، ومقابِرَهم إلى عِمارةٍ وتوافُر . هذا وقد التزموا ما يَجرِى عليهم التزامًا ، لا سُخطَ فيهم ولا إنكار ، ولا كراهةَ ولا مَلال ؛ فلا المجاورةُ بين الفريقين تنقطع ، ولا المهاجرة ترتفع ، ولا الأحوالُ تتبدَّل ، ولا العادةُ فى جميعها تتغيَّر ؛

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣ : ٢٩٠) فى الطبقة السادسة من أهل البصرة ، وكان معاصراً لسفيان بن عيينة . وروى له ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٣٩٥) وكذا ابن الجوزى قوله : « تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !! » . وروى له ابن الجوزى هذه الأبيات فى صفوة الصفوة .

(٢) صفة الصفوة : « دار حى قد اخربت » .

(٣) صفة الصفوة . « هم جيرة الأموات » .

(٤) هذا ما فى ل ، م . وفى الأصل « أحيابهم » . وفى التيمورية : « أحبائهم » .

فنى كل قبيلةٍ حدوثُ مصيبةٍ ، ونزولُ باية ؛ وفى كل مَجْمَعةٍ تأثيرُ فجيعةٍ ، ونكايةُ منيّة . فبماذا نستمسك ونعتصم من الفناء ، وعلى ماذا نعوِّل ونعتمد فى الرَّخاء ، وكيف رضِينا بتدانٍ يُبْطله فناء ، وتجاوُرٍ بُنِيَ على تدابُر ، وأنَّى يستقيم البناء والتَّشييد ، لمن مَلَّـكَهُ النّفادُ والتَّشتيت ، ومتى يحصل السُّلُوّ لمن هو مُرتَهَنٌ بتجديد الفُقود .

٢٩٨

وقال آخر :

١ — لا يُبْعِدِ اللهُ إخوانًا لَنا ذَهَبُوا أفناهُمُ حَـدَثانُ الدّهرِ والأبَدُ

٢ — نَمُدُّهُمْ كلَّ يَومٍ من بَقِيَّتِنا ولا يَؤُوبُ إلينا منهمُ أحَـــدُ

معنى لا يُبعِدِ الله لا يهلك الله . يقال بَعِدَ الرّجلُ إذا هلَك . فإن قيل : كيف قال لا يُبْعِد اللهُ وقد عقَّبه بقوله أفناهُم حَدَثان الدهر والأبد ، وهل الهلاك إلّا الفناء ؟ قلتَ : هذه اللّفظةُ جرت العادةُ فى استعمالها عند المصائب ، وليس فيه طلبٌ ولا سؤال ، وإنَّما هو تنبيهٌ على شدَّة الحاجة إلى المفقود ، وتناهِي الجزَعِ فى الفَجْع به . ألا تَرَى أنَّ الآخَر[1] قال :

يقولُونَ لا تَبْعَـدْ وهم يَدْفِنُونَنِي وأين مكانُ البُعـدِ إلّا مكانيا

وأشار بقوله « حَدَثان الدّهرِ » إلى النّوائب والنّـكبات ، وبقوله الأبدُ إلى نَفْس الدّهر ؛ لأنَّ مَن سلِم من الآفات أدّاهُ مرورُ الأيّام واللّيالى إلى الفَناء والهَرَم . أمَا سمِعتَ قولَ القائل :

وَدَعَوْتُ رَبِّى بالسَّلَامَةِ جاهِدًا لِيُصِحَّنِى فإذا السّلامةُ داء[2]

(١) هو مالك بن الريب . جمهرة أشعار العرب ١٤٤ والخزانة (١ : ٣١٩) .

(٢) نسبه المبرد فى الكامل ١٢٥ لبعض شعراء الجاهلية . وقبله كما فى الكامل وشروح سقط الزند ٣٠٨ :

كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء

والأموات على اختلافهم لا يخرجون من هذين الحكمين . وقوله « نُمِدُّهُمْ كَلَّ يومٍ من بقيَّتنا » مثل قوله :

* فهم يَنقصون والقبور تَزِيدُ(١) *

إلا أنَّه زاد على ما قاله ، حين قال : « ولا يؤوب إلينا منهمُ أحد » . ويجوز أن يُرِيد بقوله « مِن بقيَّتنا » من خيارنا . يقال : فلانٌ من بقية قومه ، أى من خيارهم . ويكون مثلَ قوله :

* أرَى الدَّهرَ يعتامُ الكرامَ ويَصطفِي(٢) *

٢٩٩

وقال الغَطَمَّشُ الضَّبِّيّ(٣) :

١ — إلى اللهِ أشكُو لا إلى النَّاسِ أنَّني أرَى الأرضَ تبقَى والأخلَّاءُ تذهبُ

٢ — أخِلَّاءِ لو غَيرُ الحِمامِ أصابَكُمْ عَتَبْتُ ولكن ما على المَوْتِ مَعْتَبُ(٤)

صَرَفَ شكواهُ عن النَّاس إلى الله عزَّ وجلَّ ، يأسًا مِن معُونتهم ، وإشكاءِ يَحصُل مِن جهتهم ، ولأنَّ الله تعالى هو الذى أجرى المقاديرَ بما يَتألَّمُ منه ، مِن بقاء الأرض وفَناء الأصدقاء . ثم قال « أخِلاءِ لو غَيرُ الحِمام أصابكم » ، كأنَّه أقبلَ على الذَّاهبين معتذِرًا إليهم من استسلامه للحكم الجارى عليهم ،

(١) عجز البيت الأول من الحماسية السابقة .

(٢) لطرفة بن العبد فى معلقته . وعجزه :

* عقيلة مال الفاحش المتشدد *

(٣) ابن جنى فى المنهج : « الغطمشة : أخذ الشيء قهراً . قالوا : ومنه اشتق الغطمش فى اسم رجل ، فهو على هذا اسم مرتجل . وقالوا : الغطمش : الرجل الكليل البصر ، فهو على هذا منقول من الصفة » .

(٤) كذا فى سائر النسخ والتبريزى ، وهو ما يناسب التفسير التالى . ورسم فى الأصل : « أخلاى » .

ومن عَجْزِ قُواه عن نُصرتهم فيما أصابَهم فقال : لو كان القاصدُ لكم غيرَ الموت لتسخَّطتُ الحالَ ولم يكن منِّى بها رِضًا ، ولكنْ ما على الموت طريقٌ للعَتْب ، ولا فيه لى رَجاءٌ لإعتابٍ ، ورُجُوعٌ باعتذار . وقوله « أخِلَّاءِ » يُرْوَى « أخِلَّایَ » على قَصر الممدود . والأجود أن يُترك مَدُّه على حالها[(١)] ، وتُحذف الياء من آخره فى النِّداء ، لأنَّ الكسرةَ تدلُّ عليه . وقد ألمَّ بقولهِ :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيبِهـــا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ[(٢)]

٣٠٠

وقال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ[(٣)] :

١ـ هَلْ أَنتَ ابْنَ لَيْلَى إن نَظَرْتُكَ رائِحٌ ... مَعَ الرَّكْبِ أَو غادٍ غَداةَ غَدٍ مَعِى

٢ـ وقَفْتُ على قَبْرِ ابنِ لَيْلَى فلَمْ يَكُنْ ... وُقوفِى عليه غَيْرَ مَبْكًى ومَجْزَعِ

٣ـ عَنِ الدَّهْرِ فاصْفَحْ إنَّه غيرُ مُعْتِبٍ ... وفى غيرِ مَن قد وَارَتِ الأرضُ فاطمَعِ

خاطَبَ المرثِىَّ متلهِّفًا على مفارقته ، ومتحسِّرًا فى إثْرِ الفائتِ منه ، فقال : هل تَرُوحُ مع رُكبان الإبلِ إن انتظرناك ، وهل تغدو غداةَ غدٍ معى إن أقمتُ لك . وهذا تحزُّنٌ وإظهارُ يأسٍ ، وبيانُ انقطاعِ ما بينهم من التألُّف والاجتماع ، والتَّعاون والاصطحاب . ومن روى « غداتَئِذٍ » فالمُرادُ غداةَ إذِ الأمرُ كذا ،

(١) هذا ما فى التيمورية . وفى الأصل : « على حالته » وفى سائر النسخ : « على حاله » .

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١) ، وهو مطلع المفضلية ١٢٦ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ . وروى التبريزى من سبب الشعر أنه كان مات له ابن ، فأقام على قبره حولا يأتيه كل غداة فيقول : ياعمر ، إن أقمت إلى المساء فهل أنت رائح معى ؟! ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك ثم ينصرف . فلما كان رأس الحول تمثل بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

لحذف الجملة التى أضيف إذْ إليها لينشَرِح بها ، لـكون المراد مفهوما ، ثمّ أتى بالتنوين عِوَضًا من الجملة المحذوفة ليستقلّ إذْ به .

وقولُه :

وقفت على قبر ابن ليلى فلم يكن ... وقوفى عليه غيرَ مبكًى ومجزَعِ

مثل ما تقدّم من قول الآخر(١) :

رُبًى حَوْلَهَا أمثالُهَا إنْ أتيتَها ... قَرَيْنَكَ أشجانًا ....(٢)

وقول الآخر(٣) :

أتيناه زُوّارًا فأمجَدَنا قِرًى ... من البثّ والدّاء الدّخيلِ المُخامِرِ

وقوله « عن الدهر فاصفَحْ » رَجَع إلى نفسه وأقبل يُشيرُ عليها بالرّضا بالمقدور ، وترك التكلُّف للعَتْب على الدّهر فى ارتجاع الموهوب ، إذ كان ذلك لا يؤدِّى إلى زَجْرٍ وارعواء ، ولا إلى تَلافٍ(٤) من جهته أو إعتابٍ . وقوله « وفى غير من قد وارت الأرضُ فاطمعِ » تصويرٌ لليأس من المدفون ، وأنه لا طَمَعَ فى إيابه إذْ لم يكن حالُه كغيبة الغائبين .

وكلُّ ما فيه من غريب وتصريف قد مَرّ القولُ فيه .

٣٠١

وقال آخرُ فى أخٍ له مات بعد أخٍ :

١ ـ كأنّى وصَيْفِيًّا خَلِيلَىَّ لم نَقُلْ ... لِمُوقِدِ نارٍ آخِرَ الليلِ أَوْقِدِ(٥)

٢ ـ فلو أنَّها إحْدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ... ولـكنْ يَدِى بانَتْ على إثْرِها يَدِى

(١) هو خلف بن خليفة ، فى الحماسية ٢٩٦ .

(٢) تمامة : « وهن سكون » .

(٣) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . فى الحماسية ٢٩٠ .

(٤) التلافى : التدارك . وفى نسخة الأصل : « ائتلاف » .

(٥) هنا تنتهى نسخة دار الكتب المصرية التى رمزنا إليها بالرمز « م » .

٣ ــ فأقْسَمْتُ لا آسَى على إثْرِ هالِكٍ قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هالِكٍ قَدِى

يقول : لمّا انقطع ما بينى وبين أخى صَنْوِىّ بالموت صِرتُ كأنْ لم يجمعْنى وإيّاه أُخُوّةٌ ووِصال ، ولا وِلادة ولِبان ، فلم نترافَدْ على ابتناء مَكْرُمَةٍ ، وإيقاد نارٍ لطارقِ ليلٍ ، وطالبِ قِرًى وضِيافة ، ولم نتعاونْ على إقامةِ مروءةٍ وإسداء عارِفة . ثم قال « فلو أنّها إحدى يدىّ رُزِيتُها » . وموضع إحدى مبتدأ ورُزِيتها فى موضع الخبر . والشّاعر إنّما يريد بيانَ تَوالِى المصائب عندَه وعليه ، وتفاقُمِ الخَطْب لديه فقال : لو أُصِبْتُ بإحدى يدَىّ لكان فى الباقية بعضُ الاجتزاء والاستغناء ، ولكنْ تَبِعَتِ الأولى الثانيةُ ، فأدّى فَقْدُهما إلى انقطاع الحياة ، وافتقادِ العُدّة فى الآلات . وحذف جَواب لَوْ لأنّ المراد مفهوم ، فهو كما تقول : لو رأيتَنى وأنت شابٌّ ، ولو رأيتَ زيدًا وفى يده السّيف ؛ لأنّ المعنى لرأيتَ الأمر بخلافه . والضمير فى قوله « فلو أنها » يجوز أن يكون للقصّة ، ويجوز أن يكون للمصيبة ، كأنّه قال : فلو أنّ القصّة والشّان إحدى يدىّ رُزِيتُها .

وقوله « فأقسمتُ لا آسَى على إثْرِ هالك » معناه حلفتُ لا أتحزّنُ لفَقْدِ هالك بعد هذا تتجدّد ، لأنّ حَذَرى كان عليهما ، وخَوْفى كان مِن فقدهما ، كما كان رجائى فيهما ، وطمعى مُعلَّقًا بحياتهما .

وقوله « قَدِى الآن » معناه حَسْبى . وقد تُزادُ النون عليه ليَسْلَم السكون فى داله ، إذ كان مبنيًا عليه ، فيقال قَدْنى ، وإن جعلتَ قد غير مضاف فى الموضعين جاز . ويجوز تحريك الدال فى الأول لالتقاء الساكنين ، وفى الثانى لأنّ كلّ ساكنٍ وَقَعَ رَوِيًّا يجوز إطلاقُه بالكسر . قال حُجّة فى زيادة النون وحذفه :

* قَدْنِىَ من نصر الخُبَيْبَيْنِ قَدِى[1] *

(١) الرجز لحميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) .

فأَتى بالوجهين جميعاً . وقوله « الآن » موضعه نصب على الظرف ، ولا يجيء إلاَّ بالألف واللام ومبنيًّا معه . « ومِن وَجدِ » موضعه رفع على أنه خبر المبتدأ الذى هو قَدِى . وكَرَّر قدى على طريق التأكد ، والثانى مبتدأ مثل الأول وخبره مضمر وهو مثل ما ظَهَر وصار خبرَ الأوّل . ومعنى الآنَ أنه اسمٌ للزَّمان الحاضر : وقال بعضهم : هو الزَّمان الذى هو آخر ما مضى وأوّل ما يأتى من الأزمنة ، وإنما بُنِي لأنها وقعت فى أوّل أحوالها بالألف واللام . وحُكم الأسماء أن تكون شائعةً منكورةً فى الجنس ثم يدخُل عليها ما يعرِّفها من إضافةٍ وألفٍ ولامٍ ، نخالف الآنَ سائرَ أخواتها بوقوعه معرفةً فى أوّل الأحوال ، ثم لزم مع ذلك موضِعًا واحداً ، لأنَّ لزومَها فى هذه الحالة لموضِعِه قد ألحقه بشبه الحروف ، إذ كان حُكم الحروف لزومَها لمواضعها فى أوّليّتها لا يزولُ عنها ، فبُنِيَ لذلك ، واختيرت الفتحة لخفّتها .

٣٠٢

وقال آخر :

١ ــ هَوَى أُبنِى مِنْ عُلَى شَرَفٍ   يَهُولُ عُقَابَه صَعَــدُهْ

٢ ــ هَوَى مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ   فَزَلَّتْ رِجْـــلُهُ وَيَدهْ

يقول : سقط أُبنِي من أعلى جبلٍ يَهُولُ الارتقاء إليه والصُّمودُ فيه عِقبانَه ، لسُموقه وارتفاعه . أى إذا همّت العُقاب بالطَّيَران إلى قُلّته تداخلَها منه هَوْلٌ وهَيبةٌ . وهذا تهويل وتفظيع للشأن . وأعادَ قولَه « هَوَى » تحسُّرًا وتوجُّعًا . والمرقبةُ هو للحَرَسَةُ . والعُلَى هو الأعلى . ويقال صَعِدَ يَصْعَدُ صُعودًا وصَعَدًا وصُعُدًا[1] .

(١) ل : « وصعداء » ولم تعرف المعاجم إلا الصعود ، والصعد بضمتين ، ذكرت الأخيرة فى اللسان .

وهَوَى مصدره الهَوِىُّ والهُوِىُّ بالفتح والضم ، وقد تقدَّمَ القول فيه(١) .
والأُهوِيَّة : البئرُ ، وما بين أعلى الجبل إلى مستقَرٍّ بطن الوادى . وقيل الهاوية :
كلُّ مَهْواةٍ لا يُدرَكُ قَعرُها . وقوله « يَهُولُ عُقابَهُ صَعَدُه » فى موضع الصِّفة
للشَّرَف . ومعنى زَلَّتْ رجله ، أى انخلعت وبانت منه .

٣ ـ فـــلا أُمٌّ فتَبْكِيه ولا أُخْتٌ فتَفْتَقِـــدُهْ

لم يجعل فتبكيه ولا فتفتقده جواباً للنَّفى ، لأنَّ الجواب يكون منصوباً ،
لـكنَّه عطَفَ على ما قبله ، وهو عَطفُ جملةٍ على جملة . ومثله فى القرآن :
﴿ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُون﴾ ، لأنَّ المعنى لا يُؤذن لهم ولا يعتذرون . وكذلك
هذا ، معناه لا أُمَّ له فلا تبكيه ، إلاَّ أنَّ الجملة المعطوفة مما فى القرآن موافقةٌ للجملة
المعطوفِ عليها ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما متركِّبةٌ من فعل وفاعل ، والتى عُطِفَ
عليها هى من ابتداء وخبَر . والجُمل الخبرَّية إذا اختلفت مثلَ هذا الاختلاف
يَسُوغ عطف بعضها على بعضٍ ، ألا تَرَى أن الله تعالى يقول : ﴿سَوَاءٌ عليكمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صامِتُونَ﴾ ، فعطف أنتم صامتون وهو ابتداء وخبَرٌ ، على
ما قبله وهو فعل وفاعل ، لأنَّ المعنى لا يختلِف ، بل يصير كأنَّه قال : أدَعَوتموهم
أم صَمَتُّم . وقد جاء على العكس من هذا ، لأن الشاعر يقول :

* أَمُوفٍ بأدْراعِ ابنِ طَيْبَةَ أم تُذَمْ(٢) *

فعطف تُذَمُّ ، وهو من فعل وفاعل بأمْ على مُوف وهو ابتداء وخبر ، لأنَّ
المعنى أأنت مُوف محمودٌ أم غادرٌ مذموم . والكلام فى لا أُختٌ فتفتقده على

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ١٢ ص ٩١ .
(٢) فى الأصل : « بأدراع إم » تحريف ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ل :
« ظبية » صوابه فى نسخة الأصل والتيمورية والمفضليات (٢ : ١٠٩) ، وهذا عجز بيت
لراشد بن شهاب اليشكرى . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

ذلك ، كأنه قال لا أُختٌ له فلا تفتقدُه . وقال الخليل : تفقَّدت أمر كذا : تعهَّدته ، وافتقدته : لم أره هلا كاً وغَيبةً .

٤ ــ هَوَى عن صَخْرَةٍ صَلْدٍ فَفُتَّتْ تحتَها كَبِـــدُهْ[1]

٥ ــ أُلامُ على تبَـكيه وأَلْمُسُه فلا أَجِـــدُهْ

٦ ــ وكيفَ يُلامُ مَحزونٌ كـبيرٌ فاتَهُ وَلَدُهْ

أعاد قوله « هَوَى » استفظاعاً وتحسُّرًا . وعَدَّى هَوَى هاهنا بعَنْ لأنه أجراه مجرى زَلّ وما أشبهه . والصَّلْدُ : ما لا يُنبِت شيئاً من الحجارة . ومن الأرَضِين . ومنه أصْلَدَ الزَّنْدُ ، إذا لم يَخرُج منه النارُ ولم يكن ورِيًّا . ومعنى قوله « فُتَّت تحتها كبِدُه » تقطّعت كبده لمّا حَصَل على الأرض . ويُشير بالصخرة إلى المَرقَبة .

وقوله :

ألام على تبَكّيه وألمُسُه فلا أجِدُهْ

معناه أنّ الناس يستسرفون اتصالَ بكائى عليه ، ودوامَ التحسُّرِ فى إثره ، والحاجةُ إليه تدعونى إلى طَلَبه فلا أظفَر به ، فعند كل طَلَبٍ يحصُل يأسٌ ، ويتعقّب ذلك اليأسَ منِّى بكاءٌ وتحزُّن . وقولُه « ألمُسُه » بمعنى ألتمسه . واللَّمْس والمَسّ يتقاربان فى معنى الطَّلب والالتماس . ألا ترَى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَديدًا وشُهُبًا ﴾ ، وأنّ مُسترِقةَ السَّمع لم يلمُسوا السماء ولا طلبوا ذلك منها ، وإنما تراقَوْا للسَّمع ليسترِقوا السَّمع

(١) التبريزى : « ففرث تحتها » . والتفريث . والتفتيت . قال التبريزى : « وقال أبو العلاء : إذا روى ففزت تحتها كبده ، فهو من قولهم أفززته أى أزعجته . . . كأنه يريد أن كبده زالت من موضعها . وبعض الناس ينشد : ففتت . ومنهم من يقول : ففرت ، يريد فريت من تفرى الأديم ، ويحمله على لغة طيئ ، يقولون : المرأة دعت ، أى دعيت » .

لا غير . وإذا كان كذلك فمعنى لَمَسَ التمس وطَلَبَ . وكذلك قولُ الشاعر[1] :

مَسِسْنا من الآباءِ شيئاً وكُلُّنا إلى حَسَبٍ فى قومه غيرِ واضعِ

معنى مَسِسْنا منه طلبنا وفتَّشنا ونظرنا ، وليس هو من المَسِّ باليد فى شىء . ويَدُلُّ على أن معنى قوله ألمُسُه أطلبه أنه عَقَّبه بقوله فلا أجده ؛ وهذا ظاهر .

وقوله :

وكيف يُلام محزون كبيرٌ فَاتَهُ ولدُهْ

يريد : كيف يُلام على البكاء والتوجُّع محزونٌ قد مَسَّهُ الكِبَرُ ، ومَن كان أعَدَّه لحياته ومماته ، واعتدَّه للنيابة عنه فى عِياله ومعاشِه ، قد فاتَه حتَّى لا طمع فى إيابٍ له ، ولا فى مَعُونَةٍ من جهتِه وإن استغاثَ به .

٣٠٣

وقال آخر :

١ ــ إذا مَادَعَوْتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ والبُكا أجَابَ البُكا طَوْعًا ولم يُجِبِ الصَّبْرُ

٢ ــ فإنْ ينقَطِعْ منك الرَّجاءُ فإنَّه سَيَبْقَى عليكَ الحُزْنُ ما بَقِيَ الدهرُ

يقول : إذا ميَّلتُ الرأىَ بين حَمْل النَّفس على الاستمرار فى الجَزَع ، والذَّهاب فى الهَلَع ، وبين ضبطه وإمساكه والأخذ بالصَّبر فيه ، ثمَّ استدعَيتُ الصَّبرَ من جانب والبكاءَ من جانب ، وجدتُ البكاءَ يستجيب سريعاً من غير تباطؤٍ واستكراه ، ووجدت الصَّبرَ يَخذُل ويتأخَّر ، فلا يكون منه دنوٌّ ولا مساعَدة . وهذا الكلام تلهُّفٌ وتوجُّع . ثم أقبَلَ على المرثىِّ فقال : إن كان الأملُ فيك منقطعاً ، والرَّجاء من إيابك متأخِّراً مستبعَداً ، فإنَّ الحزنَ يبقى

(١) هو يزيد بن الحكم . الحماسية ٥٨ ص ٢٣٢ .

عليك ويتّصل باتّصال الأبد ، لا يَفتُر ولا يتغيّرُ . وقولُه « طَوْعًا » مصدرٌ في موضع الحال ، أراد : أجابَ طائعاً غير مُجْبَر .

٣٠٤

وقال النّابغة يرثى أخًا له من أمّه[1] :

١ــ لا يَهنِئِ النّاسَ ما يَرْعَوْنَ من كَلَإٍ وما يَسُوقُون من أَهْلٍ ومِنْ مَالِ

٢ــ بعد ابنِ عاتِكَةَ الثّاوِى عَلَى أَبَوَى أَمْسَى ببلدةِ لا عَمٍّ ولا خالِ[2]

دعاهُ الضَّجَرُ بموت من أُصِيبَ به إلى أنْ دَعَا على النّاس كافّةً بأن لا يهنئَهم اللهُ ما يرعَونهُ من حِمًى ، وما يَحُوزونه من مالٍ ولُهًى ، ويسوقون من أهلٍ ووَلَدٍ ، ويجمعونَهُ من عَتادٍ وذخيرة . وهذا يدلُّ على شماتةٍ من قومٍ حصلتْ عليه حين فُجِــعَ بأخيه ، فيجوز أن يكون النّاسُ وإن كان لفظُه عامًّا يختصُّ[3] بمن مُنِى بعداوته ، وابتُلى بشَماتَتِه . فقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ إنّه كان رجلا واحداً . ولا يمتنع أن يكون اعتَقَد فى النّاس كافّةً أنهم نظَروا بعين الحاسدِينَ إليه أيّامَ حياته ، لحُسْن توفُّره ، وكمالِ بَراعته . وهذا شأنُ مَن أُعجِبَ بشىء أُوتِيَه ، فلمّا فَقَده ظنّهم شَمِتوا به ، وأدركوا مُراداً لهم فى فقدِه ، لا اختصاصَ فيه ولا تبايُن ، فعمّهم بالدُّعاء عليهم .

---

(١) ل : « ورزئ أخا له من أمه » . التبريزى : « يرثى أخاه من أمه . وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعى » . والأبيات ليست فى ديوانه المطبوع فى خمسة دواوين ، بل فى طبع بيروت ١٣٤٧ ص ٩١ . وأنشدها ثعلب فى المجالس ١٣٨ وياقوت فى معجم البلدان (أبوى) . واسم أخيه هذا « حصار » كما فى ديوان النابغة .

(٢) روى التبريزى : « على أمر » . وقال : « ويروى الثاوى على أبوى ، وهو موضع فيه قبره . وذو أمر : موضع بعينه » قال ياقوت : « أمر : موضع بالشام » . وقال فى أبوى أيضاً : « اسم موضع أو جبل بالشام » . ورواية ياقوت وثعلب : « أضحى ببلدة » .

(٣) هذا ما فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « عاما تعريضا » .

وقوله « بعد ابن عاتكةَ » نسبه إلى أمِّه تنبيهاً على أنّ الجامعَ بينهما كانت الأمومة. وقوله « الثاوى على أبَوَى » يَدُلُّ على أنّ قبره كان به. وقوله « ببلدة لا عمٍّ ولا خال » نبّه به على تبايُنِه عن بلاده وأقاربه، وأنّه مات فى غُربة.

٣ ــ سَهْلُ الخليقَــةِ مَشّاءٌ بأَقْدُحِه إلى ذَوَاتِ الذُّرَى حَمّــالُ أثقالِ

٤ ــ حَسْبُ الخليلَيْن نَأْىُ الأرضِ بينهما هذا عليها وهذا تحتَهَا بالِ[1]

وصَفَهُ بأنه كان سهلَ الجانب حسنَ الخُلُق، جميلَ التعطُّف أوانَ القَحطِ والجَدْبِ على الفُقراء والمساكين، ضَروباً بقِداحِه على الإبل السِّمان ذواتِ الأسنِمَة الكبيرة، إذا حَضر الأيسار، لشدّة الزّمان؛ وأنّه كان يَدخُل تحت الأعباء الثقيلة فيحمِلُها على جاهِه ومالِه لذويه، والعُفاةِ الراجين له.

وقولُه « حَسْبُ الخليلين نأىُ الأرضِ بينهما »، يعنى بالخليلين نفسَه والمفقودَ، فيقول: حَسْبُنا من البُعد وإن كان التّدانِى بالجِوار حاصلا أن صاحبِى تحتَ التُّراب يَبْلَى، وأنِّى على ظهرِها أمشى وأحيا. وقوله « هذا عليها وهذا تحتها » أشار إلى كلِّ واحدٍ منهما بما يُشارُ به إلى الحاضر، تنبيهاً على التّجاورِ والتّدانى فى الدِّيار، وأنَّ البُعدَ إنّما كان فى تَعذُّر الوِصال، وسقوط التّزاوُر والالتقاء.

٣٠٥

وقال مُوَيْلِكٌ المزمومُ يرثى امرأته:

١ ــ أُمْرُرْ على الجَدَثِ الذى حَلَّتْ به أُمُّ العَــلاء فنَادِهَا لو تَسمعُ

٢ ــ أنَّى حَلَلْتِ وكُنتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ بَلَدًا يَمُرُّ به الشُّجاعُ فيَفزَعُ

(١) ثعلب فى المجالس: «أخذ الناس كلهم هذا المعنى من النابغة. يعنى حسب الخليلين».

٣ ــ صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِن مفقودةٍ إذ لا يلائمُكِ المكانُ البَلْقعُ

يخاطِبُ نفسه ويبعثُها على زيارة المفقودة والتسليمِ عليها ، قضاءً لحقِّها ، وتجديداً للعهد بها ، فقال : أمْرُرْ على القبر الذى دُفنت فيه ، وسَلِّمْ عليها إن كانت تَسْمَعُ . وهذا توجُّع وتلهُّف . ويُروى « فحيِّها هل تَسْمَعُ » ، والفرق بين لو هنا وبين هل ، أنَّ « لو » فائدته الشَّرط هاهنا ، والكلام به كلام مَن غلَبَ القنوطُ عليه من إدْراكِها تحيَّةَ مَن زارها ؛ و « هل » من حيث كان للاستفهام يصير الكلامُ به كأنّه كلامُ راجٍ أو طامعٍ فى سَماعها . ويكون المعنى : حيِّها وانظر هلْ تسمع .

وقوله « أنَّى حَلَلتِ » معنى أنَّى كيف ومِن أين . وفَروقٌ بناء المبالَغة ، وازدادَ تناهيًا بدخول هاء المبالغةِ عليه . فيقول مخاطبًا لها : كيف تأتَّى منك الاستيطانُ والنُّزول فى قَفْرٍ إذا مرَّ به الرجلُ القويُّ القلبِ تَداخَلَهُ رُعْبٌ ، واستولى عليه قلقٌ وذُعر ، وعهدى بِكِ وكنتِ أضعفَ الناس قلباً وأشدَّهم مِن ذِكر المحاذر استيحاشاً . وقوله « كنتِ جِدَّ فروقةٍ » ، كقولك كنتِ فروقةً جدًّا لا هزلاً ، وحقًّا لا باطلا . والبَلَد : القطعة من الأرض اختُطَّ أو لم يُختَطّ .

وقوله « صلى عليك اللهُ » فالصلاة من الله تعالى الرَّحمة ، كأنَّه يئس منها فأقبلَ يترحَّم عليها ، فيقول : إنَّكِ فى شَبابِكِ وقربِ ميلادك ، وكمالِكِ فى خصال أمثالِكِ ، لم يَلِقْ بك فِقدان ، ولا كان لوقت مجيء الموتِ بطلبك منِّى انتظار ، ثم كنتِ من التُّرْفَةِ والنَّعمة ، ومساعدة القدَر لك ، بحيثُ لا يوافقُك الانتقالُ إلى القَفْر ، والتوحُّش عن الأهل .

وهذه الأبيات غايةٌ فيما يُحدِّث به المفجوع نفسَه .

٤ ــ فلقد تركْتِ صَغيرةً مَرْحومةً لمْ تَدْرِ ما جَزَعٌ عَلَيْكِ فتَجزَعُ

٥ – فَقَدَتْ شَمائلَ مِنْ لِزامِكَ حُلْوَةً فتَبيتُ تُسْهِرُ أهلَها وتُفجِّعُ[١]

٦ – فإذا سَمِعتُ أنينَها فى لَيلِها طَفِقَتْ عَلَيْكَ شُؤونُ عَيْنِى تَدْمَعُ[٢]

قوله « لم تَدْرِ ما جَزَعٌ عليك فتجزع » لم يجعَـلْ « فتجزعُ » جوابًا ولا عطفًا على ما قبله ، وليس اللّفظ على واحدٍ منهما ولا المعنى ، وإنما قوله « فتجزعُ » منوِيٌّ به الاستئناف ، كأنّه أراد أنها مِن صِغَرها لا تعرف المُصيبةَ ولا الجزَعَ لها ، وهى على حالها لا تجزع ، لأنّ ما تأتيه من الضَّجَر والبُكاء ، وتَتركه من النَّوم والقَرار ، فِعلُ الجازعين ، وغايةُ الفاقدين . وفى كتاب الله عزّ وجلّ قوله : ﴿ إنْ تُبْـدُوا ما فى أنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاء[٣] ﴾ ، لك أن ترفع فيغفرُ على نيّة الابتداء ، كأنّه قال : فهو يغفرُ لمن يشاء . ومثلُ هذا كثيرٌ فى القرآن والشِّعر . على ذلك قولُه :

فما هو إلاّ أن أراها فُجاءةً فأُبهَتُ حتى ما أكادُ أجيبُ[٤]

يُرفع « أبهتُ » على الابتداء والاستئناف .

وقوله « فقَدتْ شمائلَ » ، يريد الأخلاقَ والشَّكْلَ[٥] وجميلَ المخالَطَة . وقال الخليلُ : الشِّمالُ : خَليقة الرجُل وطبيعته ، وجمعه شمائل . وأنشد :

همُ قومى وقد أنكرتُ منهمْ شمائلَ بُدِّلوها من شِمالى[٦]

---

(١) ل والتيمورية : « تسهد أهلها » ، بالدال .

(٢) التبريزى : « وإذا سمعت » .

(٣) قراءة الرفع هذه هى قراءة ابن عامر وعاصم ويزيد ويعقوب وسهل ، وقرأ باقى السبعة بالجزم عطفاً على الجواب ، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيوة بالنصب على إضمار أن ، فينسبك منها مع بعدها مصدر مرفوع معطوف على مصـدر متوهم من يحاسبكم ، تقديره يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب . وقراءة رابعة ، قرأ الجعفى وخلاد وطلحة بن مصرف « يغفر » بالجزم ولا فاء قبله ، ويروى أنها كذلك فى مصحف عبد الله . تفسير أبى حيان (١ : ٣٦٠ – ٣٦١) .

(٤) البيت لعروة بن حزم العذرى ، ويروى أيضاً لكثير عزة . الخزانة (٣ : ٦١٨) وحماسة ابن الشجرى ١٥٣ .

(٥) الشكل ، بالكسر : الدل .

(٦) البيت للبيد فى ديوانه ١٣٨ واللسان (شمل)

فيقول : كانت اعتادتْ منكِ توفُّراً ومداراةً وحُسنَ خُلق ، ولينَ عِطفٍ وكرمَ مخالَطَة ، وإيناسًا فى مجاملة ، فلما انقطع عنها جميعُ ذلك بالفراقِ باتت لا تنام ولا تُنيم ، بل تَفَجُّعٌ وتَوَجُّعٌ ، ومهما أدركَتْ شكواها وبكاءها أقبلَتْ مفاصلُ رأسى تَسمح بالدَّمع فأبكِى عليكِ ولهَا . ومعنى « طفِقَت عليك شُؤونُ عينى » كقولك : أقبلَت تفعل كذا ، وجعلَت تقولُ كذا .

٣٠٦

وقال حَفصُ بن الأحنفِ الكنانى[1]

١ ـ لا يَبعَدَنَّ ربيعةُ بن مُكَدَّمٍ وَسَقَى الغوادِى قبرَهُ بذَنُوبِ[2]

٢ ـ نَفَرَتْ قَلُوصِى مِن حجارةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ اليَدَيْنِ وَهُوبِ

قوله « لا يبعَدنّ » لفظُه لفظُ الدُّعاء ، والكلام فيه على ما تقدَّم . وكما قيل : بُعْدًا له وسُحقًا لم يُقَلْ مِن بَعِدَ بَعَدًا إذا هَلَكَ بَعَدًا له ، وكان استعمالُ هذا فى الدُّعاء أقربَ فلم يجئْ . ومعنى « وسَقَى الغوادِى قبرَه بذَنوبٍ » أنه دَعا

(١) التيمورية : « بن الأخيف » . قال التبريزى : « ويروى لحسان » . وقال أيضاً : « ويروى : الأخيف ، وهو الصحيح ... وقال أبو العلاء : حفص مأخوذ من قولهم ازبيل من جلود : الحفص ، وقد قيل إن ولد الأسد يسمى حفصا . وحفص بن الأخيف يختلف فى لفظه ، فيقال الأحنف ، من حنف الرجل ، وهو أن تقبل إحدى الرجلين على الأخرى ، وقيل الحنف أن يمشى الإنسان على ظاهر قدميه . . . . ويروى : الأخنف ، بالخاء والنون ، وهو أن يكون أحد جانبى الجسم مخالفاً الآخر . ومن روى الأجنف فهو من الجنف ، أى الميل والظلم » .

(٢) كان من خبر هذا الشعر أن نبيشة بن حبيب خرج فى فرسان من بنى سليم ، فلقوا ربيعة بن مكدم ، فظل يقاتلهم حتى حمل عليه نبيشة فطعنه ، فاستمر يقاتلهم وهو مطعون قد عصب طعنته ، فلما وجد الموت اتكأ على رمحه ، وأقبل السلميون وهم يحجمون عنه يخالونه حيا وهو قد فارق الحياة ، فرمى أحدهم فرسه فندر عنها ميتاً ، ودفن على رأس ثنية غزال فكان لا يمر به أحد من العرب إلا عقر عليه دابة أو بعيرا ، حتى مر به كرز بن خالد وهو شيخ كبير ، فقال : لا أعقر ناقتى ولكن أرثيه مكان ذلك ، ويقال بل عمرو بن شقيق الفهرى . ويقال حفص ابن الأحنف العامرى .

له بالسُّقيا . والغَوادى هى السَّحابات التى تنشأ غُدوَةً . والذَّنوب : الدَّلو بما فيه من الماء ، قال :

* له ذَنوبٌ ولنا ذنوبُ[1] *

وربَّما جُعِلَ الذَّنوب الحظَّ والنصيب ، كما قال :

* وحُقَّ لشَأسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ[2] *

وفى القرآن : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ . وفى البيت الذى نحن فيه يحتمل الوجهين .

وقوله « نَفَرَتْ قَلوصِي مِن حجارةِ حَرَّةٍ » فإنَّه كان اجتازَ بقبرِ ربيعةَ وقد نُضِدَ عليه حجارةٌ سُود ، فنفرتْ قَلوصُه ، فأخذَ يقتصُّ ما كان اتَّفق ويُنكِره . وقوله « بُنِيتْ على طَلْقِ اليدَين » من صفة الحجارة . ومعنى طلق اليدين أنه سَخيٌّ بَذّالٌ يُطلِق يدَيه بالمعروف . والوَهُوب : الكثير الهبات .

٣ ــ لا تَنفِرِى يا ناقَ مِنْهُ فإنَّهُ شَرَّابُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحُرُوبِ[3]
٤ ــ لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لَتَرَكْتُهَا تَحْبُو على العُرْقُوبِ[4]

جَعل نِفارَ ناقته كأنّه كانَ من المدفون ، فنهاها عن ذلك ، ثم أخَذَ يصفُه بالكرم والشّجاعة ، والتقدُّم فى الشُّربِ والبَطَالةِ . والمِسعر : الذى كأنَّه آلةٌ فى إيقاد نار الحرب .

وقوله « لولا السِّفار » كانت[5] العادة فى العرب أنّ الواحد منهم إذا اجتازَ

(١) فى اللسان (ذنب) :
لها ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب
(٢) لعلقمة بن عبدة فى المفضليات (٢ : ١٩٦) . وصدره :
* وفى كل حى قد خبطت بنعمة *
(٣) التبريزى : « شريب خمر » ، وفى الأصل كتب تحت « شراب » : « شريب » إشارة إلى أنها رواية أخرى .
(٤) فى الأصل : « لتركتها تكبو » ، صوابه فى ل والتيمورية والتبريزى .
(٥) بعده سقط فى التيمورية ينتهى قبيل الحماسية ٣٢٣ ، وسننبه على نهايته بعد .

بقبرٍ كريمٍ كان مأوًى للأضياف ، ومقيمًا لقِراهم ، ينحَر راحلتَه ويُطعِمها النّاسَ إذا أعوزَ الزّادُ ولم يتّسع ، يفعل ذلك نيابةً عنه ، إلّا أن يمنَع مانِعٌ من بُعْد السَّفر وتناهى المشَقّة وما يجرى مَجراه ، فقال هذا الشّاعرُ معتذرًا من إبقائه على راحلتِه ، لمّا خفّ الزّادُ الذى كان معه ، وعَجْز عن الصَّحْب على بُعد المسافة وطُول المشقّة ومِسَاس الحاجة . ومعنى « لتركتُها تحبو على العُرقوب » أى لعَرْقَبْتُها . والحَبو : ما يفعله الصبىُّ من الزّحف قبل القيام ، ويفعله البعيرُ وهو يريد المَشْى . ومنه الحابى من السِّهام ، وهو الذى يسقُط ثم يَزْحَف إلى الهَدَف . ويقال : حبا للخَمسينَ ، أى لم يبلغْها وقد دنا منها ؛ وهو من فصيح الكلام . والخَرْق : المكان الواسع تتخرّق فيه الرّيح . والمَهْمَهُ : الأملَسُ الواسعُ .

٣٠٧

وقال آخر :

١ — أجارِىَ ما أزدادُ إلّا صَبابَةً عَلَيْكَ ولا تزدادُ إلّا تنائيا[1]

٢ — أجارِىَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميّتٍ فَدَيْتُكَ مَسْرُورًا بِنَفْسِى ومَاليا

الصَّبابة : الوَجْد والمحبّة ، والفعل منه صَبِبْتُ بكسر الباء أَصَبُّ . ورجُلٌ صَبٌّ ، وامرأةٌ صَبّة . وقوله « أجارى » ، ليس بندبة[2] ، لأنّ المندوبَ لا يكون إلا بيا ووَا ، لـكنّه على العادة والرّسم ناداه ورخّمَه . يقول : لا أزداد على مُرور الأيّام وتصرُّفِ الأوقاتِ إلا شَوْقًا إليك ، ووَلُوعًا بك ، وقوّةَ أسفٍ عليك ، إذْ لم يكن حالى حالَ المتحسِّر فى إثْرِ فائتٍ ، والرّافع طمعَه من لقاءِ مائت ، فيُعْقِبه الفوات يأسًا ، ويُورثه ما يشاهده مِن حال الفناء تناسيًا أو تسليًا ؛ وأنت

(١) ل والتبريزى : « عليك وما تزداد » .

(٢) فى الأصل : « ليس يندبه » وأثبتنا ما فى ل والتبريزى .

لا تزداد إلَّا تناهيًا فى الانقطاع ، وتنائيا فى الهجرة والإعراض . فقوله « تنائيا » لم يُرِدْ تباعُدَ الأجرام وتراخِىَ المَزَار ؛ لأنَّ تجاورَ الدِّيارِ وتصاقُبَها كان باقيًا على ما كان فى الأصل .

وقوله « أجارِىَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميِّت » ، يريد : لو كان السَّبيل إلى التَّفادى بين الأحياء والأموات مسلوكاً ، وقَبولُ الأبدال عند الاستعراض والدُّعاء مُجابًا إليه مألوفا ، لكنتُ السابقَ إليه ، والجاعِلَ فى فدائكَ النَّفسَ والمال ، وأنا مغتبطٌ بذلك ومغتنمٌ له ، لكن لا مانع لما طُلِب ، ولا مَعْدِلَ عما حُتِم .

٣ــ وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُمَلَّاكَ حِقْبَةً فحَالَ قَضَاءُ اللهِ دُونَ رجائيا

٤ــ أَلَا لِيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إنَّمَا عَلَيْكَ مِنَ الأَقْدارِ كانَ حِذَارِيَا

قوله « أنْ أُملَّاكَ » يقال مُلِّيتُ فلاناً فتَمَلَّيْتُه ، أى جُعِلَ لى أن أعيش معه مُلاوةً فيبقى لى ممتَّعًا به . والمَلَوانِ : اللَّيل والنَّهار ، من هذا[1] . يقول : كنت أرجو أن أُمتَّعَ بحياتك حِقبةً ــ وقال الخليل : الحِقبة زمانٌ من الدهر لا وقتَ له ، والجميع الأحقاب والحِقَبُ والحُقُبُ مثلُه ــ فحجز بينى وبين مرادى القدرُ الذى لا يُملَك معه إلَّا الاستسلام له .

وقوله : « ألا لِيَمُتْ مَن شاء بعدك » مثل قول الآخر :

* فآليت لا آسى على إثرِ هالِكٍ[2] *

وقول الآخر[3] :

* أمِنَّا على كلِّ الرَّزايا من الجَزَعْ[4] *

(١) أصرح منه قول ابن جنى فى التنبيه : « ولام أملاك واو ، وهو من الملوين ، وهما الليل والنهار » .

(٢) البيت الثالث من الحماسية ٣٩١ . وعجزه :

* قدى الآن من وجدى على هالك قدى *

(٣) هو عبد الله بن المقفع . الحماسية ٢٨٢ .

(٤) صدره : * فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا *

٣٠٨

وقالت فاطمةُ بنت الأحْجَمِ الخُزَاعيَّة[١] :

١ — يا عَيْنِ بَكِّى عند كُلِّ صَبَاحِ ⁂ جُودِى بأربعَــــةٍ على الجَرَّاحِ

قوله « بَكِّى » يجوز أن يريدَ به أكثِرِى البكاء ، ويجوز أن يريدَ كرِّرِى البكاء ، لأنَّ تضعيف العين إذا لم يكن للتَّعدية مثل كَرَّمَ — لأنَّه كأكرمَ لا فرقَ بينهما ، يكون للتكثير أو التكرير ، وذلك كقولك ضَرَّب وقَتَّل . وإنَّما قال « عند كلِّ صَباحٍ » لأنَّه يريد اجعَلِى مَبْدَأَ نَهَارِكِ لذلك ، أو لأنَّه يريد كانَ وقتَ نكايته فى الأعداء ، وشنِّ الغارات على المنابِذين ، فاجعلى بإزاء فِعلِهِ حينئذٍ البكاء عليه السَّاعةَ . وقوله « جودى بأربعة » أراد بالأربعة قبائلَ الرَّأْس . والدَّمعُ يخرج من الشؤون . فأراد : جودى بدَمعكِ كلِّه . ولا تدَّخِرى منه شيئا . وقوله « يا عينِ » حذف الياءَ لوقوعها موقعَ ما يُحذف فى النداء وهو التنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلّ عليه . وبابُ النِّداء بابُ حذفٍ وإيجاز .

٢ — قد كُنْتَ لِى جَبَلًا أَلُوذُ بِظِلِّهِ ⁂ فَتَرَكْتَنِى أَضْحَى بأَجْرَدَ ضَاحِ

أقبلَ يخاطب المرثىَّ على عادتهم فى الانتقال عن الإخبار إلى الخطاب ، وعن الخطاب إلى الإخبار ، تفنناً واقتداراً . فيقول : كنتَ لى جبلَ عِزٍّ ، آوِى إليك فى الشَّدائد ، وأعوِّل على حسن دِفاعك فى النَّوائب ، وأستكِنُّ بظلِّك ،

---

(١) كان والدها الأحجم — ابن دندنة — ويقال « الأجحم » أيضاً — أحد سادات العرب . وزوجته هى خالدة بنت هاشم بن عبد مناف . وقال السكرى : الشعر لليلى بنت يزيد ابن الصعق ، ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف بن كعب ، وقال الأخفش : إنه لامرأة من كندة ترثى زوجها الجراح . انظر أمالى القالى (٢ : ١ — ٢) والتنبيه ص ٨٧ . وقد ذكر القالى أن عائشة رضى الله عنها تمثلت بهذه الأبيات بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأتحصّن بتمنُّعك ، فغادرتنى بارزاً للآفات ، ومعرّضاً للحوادث والنّكايات[١] .
لا مَعْقِل لى مما يَدهَم ، ولا مَلاذَ عند ما يهجُم . والضّاحى : البارز للشّمس ،
والفعل منه ضَحِىَ يَضْحَى ؛ وقد أتى بهما فى البيت . والأجرد : الأملَسُ .
يَضْرِبُ[٢] ذلك مثلًا لكونه مُنْوِرًا لا واقِىَ له ولا ساتر ، ولا مُحامِىَ
ولا مدافِع .

٣– قد كنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عِشْتَ لِى أَمْشِى البَرَازَ وكنتَ أنتَ جَنَاحِى

٤– فَاليَوْمَ أَخْضَعُ للذَّلِيلِ وأتّقِى منه وأَدْفَعُ ظالِمِى بالراحِ

قوله « قد كنتُ ذاتَ حَمِيّة » يقال حَمِيتُ من الشّىء أَحْمَى حَمِيّةً ، أى
أنِفْتُ وغضبت . ورجل حَمِىُّ الأنف : لا يحتمل الضيم ، وحَمِىَ أنفَه من كذا .
والمعنى : كنتُ فى حياتك آنَفُ مما أُسَامُ من الضّيم فأتسخَّطُه ، وتتّسع المقدرةُ
لدَفعِه والإباء منه ، والآنَ صار بدلَ ذلك السُّخْطِ الرّضا ، وبإزاء ذلك الانتقامِ
الاستسلام . و « ما عشت » فى موضع الظّرف ، أراد مُدَّةَ عيشِك لى . وقوله
« أمشِى البَرَازَ » البرازُ : المكان الفضاء من الأرض . وإذا خرج إنسانٌ إلى
ذلك الموضع قيل بَرَّز . ومن هذا قولهم : بَرَّز على أقرانِه ، أى صار فى البَرَاز
ظُهوراً عليهم واقتداراً . وكما تصرّفوا فى هذا على ما ترَى تصرّفوا فى الظّاهِرة ،
وهى الضّاحيةُ العالية ، فقيل : ظَهَرَ فلانٌ على فُلانٍ ، أى علاهُ ، وأظهرهُ اللهُ
عليه[٣] ، وفى القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ﴾ . وأصلُه أمشِى فى البَرَاز ،
فحذَف الجارَّ ووصَلَ الفعلُ فعَمِل . والمعنى : كنتُ لا أستتر ولا أكتتم[٤] تهيُّباً
وتخوُّفاً من شىء . وقوله « وكنتُ أنتَ جَناحى » فالجناح من الطّائر والإنسان :

(١) ل : « والنكبات » .
(٢) ل : « وضرب » .
(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وأظهره ما فيه عليه » .
(٤) ل : « ولا أكتمن » .

يداهُ . والمعنى : كنتُ أطير بقوَّتِك، وأنهض فى الأمور بصَوْلتِك ، وأبطِشُ بالأعداء بيدك وأيْدِكَ .

وقوله « فاليومَ أَخْضَعُ للذَّليل » أراد باليوم متَّصِلَ وقتِهِ من الحال والاستقبال ، والمعنى : صرتُ من طلَب السَّلامة على الدَّهرِ وأهلِهِ بحيث يَطْمَعُ فىَّ الذَّليل ، ويَستلينُ جانبى المَهِين ، فأتقِّى ذا الشَّوكة ومَن لا شوكة له ، وأحذَرُ مَن يُخشَى كَيدُه ومَن لا كيد له . وقوله « وأدفَعُ ظالمى بالرَّاح » يريد أدفعُه بألْيَنِ ما أجدُ السَّبيلَ إليه ، لا خشونةَ لى فى قولى(١) ولا مزاحمةَ فى رُكنى ، ولا اعتراضَ شديداً منِّى فى اهتضامِهِ لى ، ولا محاجَّةَ قوِيَّةً على جِدَالِهِ إيَّاى ، فِعْلَ مَن لا حَدَّ له ولا حديدةَ ، ولا عُدَدَ ولا عَتيدة ، ولا حِمَى ولا حَمِيَّة .

٥ – وإذا دَعَتْ قُمْرِيَّةٌ شَجَنًا لها يومًا على فَنَنٍ دَعَوْتُ صَباحى(٢)

٦ – وأغُضُّ من بَصَرِى وأعلَمُ أنَّهُ قَدْ بانَ حَدُّ فَوارِسى ورِماحى

قولُه « وإذا دَعتْ قمرية شجناً » كلامٌ أُخرِجَ على ما فى اعتقادهم من بُكاء الحمام ، فيقول : إذا ناحت حمامةٌ على غُصْنٍ وهى تدعو حُزْنَها ليهتاجَ بكاؤها ويمتدَّ صوتها ، فإنى أُشْجَى لصوتها وأُجاوبُها داعياً صَباحى ، أى قائلاً : واصباحاه !

وقولُه « وأغضُّ مِن بَصَرِى » غَضُّ الطَّرْفِ مِن فعلِ الذليل المنخزل ، كما

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لا خشونة فى قوله » .

(٢) ورد هذا البيت عند التبريزى متأخرا عن تاليه ، وهو الأوفق . وقال البكرى فى التنبيه على الأمالى ص ٨٧ : وأخبرنى غير واحد عن أبى العلاء المعرى – رحمه الله – أنه كان يرد هذه الرواية ويقول إنها تصحيف ، وكان ينشده : « وإذا دعت قمرية شجبا لها » بكسر الجيم وبالباء بعدها ، يعنى فرخها الهالك ، وهو الهديل . والشجب : الهلاك ، والشجب : الهالك . وأخلق بهذا القول أن يكون صحيحا ، والحق أحق أن يتبع » .

أن طُموحَهُ فعلُ العزيز الناظرِ من فوق . فيقول : إنى عارفٌ بمقدارى بعدَكَ ، ومتيقِّن نكوصى وسقوطَ حشمتى بذَهابِك ، وكَلَّةَ[1] حَدِّى وحدَّ أصحابى لفقدانك ، فأغمِّض عينى فى كثيرٍ مما يجرى علىّ وألابِسُه ، مخافةَ أن أرى ما هو أكبرُ منه . وقولُه « وأعلم أنَّه » الضمير ضمير الأمر والشأن . يريدُ : وأعلم أنَّ الأمرَ انفلالُ فُرسانى ، وتفلُّلُ أسِنَّة رماحى . وهذا مَثلٌ لسقوط القُوَى واستعلاء العِدَى ، وذهاب العُدَّة وتراجُع المِدَّة . ولا يمتنع أن يريد بحدّ فوارسى نفسَ المفقود ، جعله لفُرسانه حَدًّا إذا كان مقدامَهم ومِدرَهَهم ، ولرماحِهِ سنانًا إذ كانت تعمل بقوّته ، وتنفُذ بصرامته .

٣٠٩

وقال آخر[2] :

١ـ إخوتِى لا تَبْعَدُوا أَبَدًا وَبَلَى واللهِ قد بَعِدُوا
٢ـ لو تملَّتْهُمْ عَشِيرَتُهُمْ لاقتِناء العِزِّ أَو وَلَدُوا[3]
٣ـ هانَ مِنْ بَعْضِ الرَّزِيئَةِ أَو هانَ مِن بَعْضِ الذى أَجِدُ
٤ـ كلُّ ما حَىٍّ وإنْ أَمِرُوا وَارِدُو الحَوْضِ الذى وَرَدوا[4]

لك أن تروى « إخوَتى » و « إخوَتا » . فمن روى « إخوتى » فإنّه يسكِّن الياء وأصله الحركة ، لكونه علامة الضمير متطرّفًا على حَرْفٍ واحدٍ

(١) الكلة بالكسر : مصدر كل السيف ونحوه كلا وكلة وكلالة وكلولة وكلولا ، إذا لم يقطع .
(٢) كذا ورد فى ل . وعند التبريزى : « وقالت أيضا » ، أى فاطمة بنت الأحجم . وقد ذكرها ابن جنى صريحة فى التنبيه : « وقالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية » .
(٣) هذه رواية ل وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « أوولدوا » ، وبهذه الرواية الأخيرة وردت فى نسخة الأصل والتبريزى . ومقتضى عبارة الشرح أولوية رواية ل .

فوجب تقويتُه بالتحريك كما كان سبيل أختَيه الكافِ والهاء لو وقَعا موقِعَه، لكنَّهم آثروا الفتحة لخفّتها، ويدلّ على أنّ الأصل الفتحة أنه لو كان ما قبلَه ساكناً كان لا يجيء إلّا مفتوحا. وذلك قولك رَحَایَ وعَصَایَ، إلّا أنّه لمّا كان باب النِّداء باب حذفٍ وإيجاز، لكثرة استعمالهم له، سَكّنوا الياء. ومَن قال «إخوتا» فرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة، فانقلبت الياء ألفاً. على ذلك قولهم باديةٌ وباداةٌ، وناصِيَةٌ وناصاةٌ، وقولك يأباها وأنت تريد بأبى هما. وقوله «لا تَبعَدوا» قد تقدّم القول فيه(١). فأمّا استدراكه لقوله «وبَلَى والله قد بَعِدوا» فإنه تنبيهٌ منه على أنّ لا تبعَدوا وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فهو جارٍ على غير أصلِه، وأنّه إنما هو تحسُّرٌ وتوجُّع.

وقوله «لو تَمَلّتْهُمْ عشيرتُهم»، يريد: لو بَقُوا معهم مُلاوَةً من الدّهر ممتَّعين بهم، ومقتنين العزَّ بمكانهم أو أولادُهم بَقُوا معهم فتربَّوا في حُجورهم، وتأدَّبُوا بسياستهم، واحتَبَوْا بأردية السِّيادةِ في أفنيتهم ومحافِلهم — لهانَ بعضُ الرزيئة. ولك أن تروى «أو ولدوا» على أن يكون فعلًا وواوُ الضمير بعد حرف الروىّ تُجعَل وصلًا، ويكون المعنى: لو أعقَبُوا وخلَّفوا أولاداً يَرِثونَ مجدَهم ويُحيُون أسماءهم، ويعَمُرون مَعالِيَ آبائهم بعدهم. وجواب لو أوّل البيت الذى يليه، وهو «هان من بعض الرزيئة» ومعناه: لو قُضِى الأمرُ على ذلك لخفَّ بعضُ ما على النّاس لهم ومن أجلهم، أو خفَّ بعضُ الذى أجدُه أنا من الاكتئاب والاهتمام بفوتهم. وقوله «من بعض الرزيئة» الأخفش يجيز زيادة «مِن» في الواجب، فعلى طريقته يكون المعنى هان بعضُ الرزيئة. وسيبويه يمتَنِع من زيادة من إلّا فيما ليس بواجبٍ، كالاستفهام والنّفى. فعلى طريقته يكون المعنى: كانَ ابتداء المهوَّنِ بعضَ الرزيئة أو من بعض الرزيئة.

(١) انظر الحماسية ٢٩٨ ص ٨٩٢، و ٣٠٦ ص ٩٠٥.

وقوله « كلُّ ما حيٍّ » ما زائدة ، ويجوز أن يريد بالحيِّ القبيلة . ومعنى أَمِرُوا كَثُروا . يقال أَمِرَ الشَّىء وآمَرَه الله له[1] . ويجوز أن يريد بالحيِّ ضدَّ الميّت ، ويكونَ الضمير من أَمِروا عائداً إلى لفظ كلّ . فيقول : كل قبيلة وإنْ تناسَلوا وتكاثروا فمآلُ أمرِهم إلى مثلِ ما آل أمرُ إخوتى ، ومَورِدُهم من الذَّهاب والفَناء مثلُ مَوردهم ، إذ كان الموتُ لا معدِلَ عنه ، ولا مَنْجَى لأحدٍ منه . وجواب الشَّرط فى قوله وإن أَمِروا دلّ عليه قوله « وارِدُو الحوضِ الذى وردوا » ، والضمير العائد من الصِّلة إلى الموصول محذوف ، كأنه قال : الذى وردوه ، لأنّهم استطالوا الاسم بصِلتِه .

٣١٠

وقالت امرأةٌ أخرى[2] :

١ — طافَ يَبْغِى نَجْوَةً مِنْ هَلاكٍ فهلَكْ[3]

٢ — لَيْتَ شِعرِى ضَلَّةً أىُّ شىءٍ قتَلَكْ

النَّجاة والنَّجوة : ما ارتفع من الأرض حتَّى لا يصلَ إليه السَّيلُ ولا يبلغَه . قال :

فمَنْ بنَجْوَتِهِ كمن بعَقْوَتِهِ والمستكِنُّ كمَنْ يمشى بقِرواحِ[4]

فجعله هاهنا مثَلًا لما كان يطابه مِن وجه الخلاصِ من الآفات . وكأنّ هذا

(١) كلمة « له » ليست فى ل .

(٢) التبريزى : ويروى أنها لأم تأبط شراً ، ويقال لأم السليك بن السلكة » . ورجح التبريزى أن الشعر لأم السليك بن السلكة بخبر طويل ساقه فى شرحه . وفى العقد (٣ : ٢٦١) : « خرج أعرابى هارباً من الطاعون فبينما هو سائر إذ لدغته حية فمات ، فقال أبوه يرثيه » .

(٣) هذا وزن نادر من أوزان الشعر . قال التبريزى : « من مشطور المديد والقافية متراكب . قال أبو العلاء : هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن مسعدة . وذكره الزجاج وجعله سابعا للرمل . وقد يحتمل أن يكون مشطوراً للمديد » .

(٤) لأوس بن حجر فى ديوانه ص ٤ ليبسك ، أو عبيد بن الأبرص . اللسان (قرح) .

المرثىّ كان استشعر خوفاً من الموت فأخذ يتنقّل فى البلاد والبِقاع ويتطلّب موضعاً يبعِّده من الآفات ، فبقى يتردَّد فى ذلك ويتحيَّر ، فإذا الهلاك قد فاجأه من حيث لا يحتسب ولا يرتقب . وإنَّما نكَّر من هلاكٍ لأنّه جعلَ كلَّ نوعٍ منه هلاكاً ، ولم يَدْرِ ماذا يصيبُه .

وقوله « ليت شِعْرى » موضع شعرى نصبٌ فى معنى عِلمى . ويقال شَعَرْت شِعْرةً كما يقال فَطَنت فِطنة ، إلَّا أنّه لا يستعمل مع ليت إلّا وقد حُذِف الهاء منه . وقوله « أىُّ شيء قتلك » الجملة كما هى فى موضع نصب ، لأنّها نابَت عن مفعوليه . وخبر ليت مضمَر لا نجده إلَّا كذلك ، فهو يُشبِه خبرَ المبتدأ بعد لولا إذا قلت لولا زيد لخرجت ، لأن لَخرجتُ جوابُ لولا . وخبر المبتدأ محذوف لا يجىء إلَّا على ذلك . واستغناء ليت بمفعولَىْ شِعرى عن خبره ، كاستغناء المبتدأ بعد لولا بجوابه عن خبره . و « ضَلّةً » ، انتصبَ على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر . وهذا الضَّلال يجوز أن يكون لنفسه فيما استَبهَمَ عليها من حال المتوفى ، كأنّه ضَلَّ عن العلم ضَلّةً ، ويجوز أن يكون للمتوفَّى نفسِه ، كأنّه عَدَّ غيبتَه وخفاء أمره ضلالا له ، والمعنى : تمنيت أنّى أعلم أىُّ شىء أهلكك ، وهذا لضلالى عن معرفة حالِك ، وذَهابى عن العلم به . هذا على الأول ، وعلى الثّانى يكون المعنى : ما الذى قتلك حتّى ضلِلْتَ هذا الضَّلالَ .

فإنْ قيل : خبر ليت كيف يجىء فى التّقدير وإنْ لم يظهر فى الاستعمال ؟ قلتَ : تقديره ليت شعرى واقعٌ أىُّ شىء قتَلَك ، أى ليتنى علمت أو وقَعَ عِلمى بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، لأنَّ الذى تمنّاه هو ما كان جوابَه لا نفسُ السُّؤال .

٣ - أمَرِيضٌ لم تُعَدْ أم عَـــدُوٌّ خَتَلَكْ[١]

---

(١) بعده عند التبريزى :

أم تَوَلَّى بك ما غالَ فى الدّهرِ السُّلَكْ

السلك ، كصرد : فرخ القطا ، وقيل فرخ الحجل .

٤ ـ كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكْ
٥ ـ والمنايا رَصَدٌ للفَتَى حَيْثُ سَلَكْ(١)
٦ ـ أىُّ شىءٍ حَسَنٍ لِفَتًى لَمْ يَكُ لَكْ

قوله « أمريض لم تُعَد » هو إعلام منها بأنَّه تغيَّبَ نخفِىَ أمرُه فيما أصابه حتَّى لم يبِنْ له أثر ، ولا لمرضه نبأ . وهو يجرى مجرى البيانِ لقولها « أىُّ شىء قتلك » فتقول : أمريضٌ كنتَ فى غربةٍ ووطنٍ وَحشةٍ ، فمتَّ حتفَ أنفِك لا يعُودك مُشفِق ، ولا يتفقَّدك ممرِّض ، أو اغتالكَ عدوّ فتوصَّلَ إلى الغِيلة فى بابك بإعمال الخَتْل والحِيلة . ويروى : « أو رصيدٌ خَتَلَكْ » ، والمعنى : أو خَدَعك عن حياتك مَنْ كان بالمرصاد لكَ من أعدائك . وقال الخليل : الخَتْلُ : تَخادُعٌ عن غفلة .

وقوله :

كلُّ شىءٍ قاتلٌ حين تَلقَى أجلَكْ

تريد الإخبارَ عن استواءِ أسبابِ الموت فى الأخذ والظَّفَر ، إذا دنا الأجَل . وأنَّ كلَّ سببٍ ينُوب مَنابَ الآخَر إذا انتهت المُدَّة .

وقوله :

والمنايا رصَدٌ للفَتَى حيثُ سلَكْ

تُريد به أنَّ البِقاعَ والتحوُّلَ(٢) فيها لا يغنى ؛ لأنَّ حُكمَ الله تعالى يبحَثُ وينقِّب عن المطلوب حيث كان ، فالموتُ رصَدٌ للفتى حيثُ استطرَقَ وأنَّى توجَّه .

(١) روى التبريزى هذا البيت وبعده البيت السادس ثم الخامس .
(٢) كذا بالحاء المهملة فى جميع النسخ . يقال حال الرحل وتحول من موضع إلى موضع : أى انتقل .

وبعضهم يرويه : « والمنايا رُصَّد » كأنَّه جمع الرَّاصد لـكون المنايا جمعا . والأوّلُ أفصح وأجود .

وقوله :

أيُّ شيء حسنٍ لفتًى لم يَكُ لَكْ

يصفُه ببراعته وتكامُلِ محاسنه ، واستتمام آلات الرِّياسة فيه ، فكأنه لا يُستحسَن من الفِتيانِ شيء خَلقا ولا خُلقًا إلَّا وقد كان حصَلَ له ، واجتمع فيه . وقد تقدّم القول فى حذف النُّون من لم يك .

٧ – سأعزِّى النَّفسَ إذْ لم تُجِبْ مَنْ سَأَلَكْ

٨ – إنَّ أمرًا فادِحًا عَنْ جوابِى شَغَلَكْ

٩ – طالما قد نِلْتَ فى غيرِ كدٍّ أمَلَكْ[1]

قوله « سأعزِّى النَّفس » أى سأصبِّرها ، إذْ كنتَ مع السَّائلين – وإن اختلفوا – على حَدٍّ واحدٍ فى ترك مجاوبتهم ، فعَمَمْتَ ولم تَخُصَّ . وهذا التعزِّى الذى أشار إليه ليس لتَسَلٍّ عن المفقود ، ولا لِتَنَاسٍ منه ، ولـكنّه[2] طِيبُ النَّفس بتَشارُكِ النّاسِ فى إمساكه عن إجابتهم .

وقوله : « إنَّ أمرًا فادِحًا » اكتسب أمرٌ وهو نكرةٌ من النَّعت الذى تَبِعه بعضَ الاختصاص ، فلذلك صلَح الابتداء به حتَّى دخل إنّ عليه . ألا ترى

---

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد البيت الرابع ، ثم روى بعدهما الثامن فالسابع ، ثم بيتين لم يروهما المرزوقى ، وهما :

ليتَ قَلبِى ساعةً صَبْرَه عنكَ مَلَكْ

ليتَ نفْسِى قُدِّمَتْ للمنايا بَدَلَكْ

(٢) بعدها فى الأصل كلمة « مهما » ، وهى مقحمة .

أنّ فائدته مع إبهامه كاملةٌ فى المراد ، والمعنى : إنّ عظيمًا من الأمور صَرَفَكَ عن رَسْمِكَ ودأْبك فى مباسَطَتى ومُباثَّتى . ولأنَّ الكلامَ قد يُحْمَل على المعنى فيما يُستفاد منه ، فكأنَّه قال : ما صرَفك وشغَلك عن جوابى إلّا أمرٌ عظيم فادح ؛ إذ كانت العادةُ قَدُمَتْ منك فى حُسْن التوفُّر[1] علىّ والإقبالِ ، لتوَجُّه خطابى نحوَكَ .

وقوله :

طالما قد نلت فى غَـيْرِ كَدٍّ أَمَلْ

إيذانٌ بأنّه نال من الدُّنيا كثيرًا من إرادته وأمانيه ، حينَ هبَّت أرواحُه ، وساعدَتْه أيامُه وحالاتُه ، وأنَّه طالما كان يتحصّل له المَباغِى بلا كدٍّ لإقبال الدُّنيا عليه ، ويتسهَّلُ له المَطَالب لاقتران المناجح بما لديه أو إليه ، وفى ذلك بعضُ التَّسلِّى للجازعين له ، والمتوجِّعين لفَنائه .

وقد تقدم القول فى لفظةِ طالما وبينت معناه وهجاءه فى الكتاب[2] :

٣١١

وقال العُجَيْرُ السَّلُولِى[3] :

١ — تَرَكْنا أبا الأضياف فى لَيْلَةِ الصَّبَا بِمَرٍّ ومِرْدَى كُلِّ خَصْمٍ يُجادِلُهْ[4]

(١) فى الأصل : « التوفير » ، والوجه ما فى سائر النسخ .

(٢) انظر الحماسية ٢٨٩ ص ٨٧٥ .

(٣) العجير لقب له ، واسمه عمير بن عبد الله بن كعب بن عبيدة بن جابر بن عمرو بن سلول ، وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة غلبت عليهم أمهم فسموا بها . والعجير شاعر مقل إسلامى من شعراء الدولة الأموية . الأغانى (١١ : ١٤٦ — ١٥٣) والخزانة (٢ : ٣٠٩) ، والمؤتلف ١٦٦ . وكان يكنى أبا الفرزدق باسم ولد له . والمؤتلف ومعجم المرزبانى ٢٣٢ . كما كان يكنى أبا الفيل فيما قال البغدادى . وقد ذكر المرزبانى حفيده عمرو بن الفرزدق بن العجير فى الشعراء .

(٤) تلتبس بعض أبيات قصيدة هذه الحماسية بأبيات الشمردل بن شريك ، التى رواها أبو الفرج فى الأغانى (١٢ : ١١٣ — ١١٤) .

يُروى « تركنا أبا الحجْناء » وهو فيما أظنُّه كُنْية المرثىّ . وجعله أبا الأضياف لتوفُّره عليهم ، ولأنّ داره كانت مثواهم . وهم يقولون : فلانٌ أبو مثوايَ ، وفى المرأة : أمُّ مثوايَ ، لمَنْ قَرَاهم . وأشار بليلة الصَّبَا[(١)] إلى ليلةٍ بعينها[(٢)] اتَّفق فيها على هذا الرَّجل بمَرّ ، وهو موضعٌ ، اجتماعُ الخصوم حولَه[(٣)] . والمِرْدَى : صخرةٌ يُكسَر بها النَّوى ؛ هذا أصله ، ثم يقال فلانٌ مِردَى الخصوم ، أى يرمَون به فيَكسِرُهم . وقوله « كلّ خَصْم » أراد بالخصم الكثرة ، كأنَّه حضَرَه من كلّ قبيلٍ من مُخالفيه مِردًى لهم يجادِلُه عنهم ويجاذبه . وقوله « بمَرّ » منَعَه من الصَّرف لأنَّه جعله مؤنَّثًا معرفة ، ولو ذكَّره لصرفه . والواو من قوله « ومردى كلّ خصم » واو الحال[(٤)] . والصَّبا : ريحٌ تستقبل القبلة ؛ والفعل منهُ صَبَا يصبو . وأضاف الليلة إلى الصَّبا تعريفًا وتخصيصا ، كأنَّه كان للصَّبا شأنٌ فى تلك اللَّيلة .

٢ — تركْنا فتًى قَدْ أيْقَنَ الجوعُ أنّه إذا ما ثَوَى فى أَرْحُلِ القومِ قاتِلُهْ

— وانظر بعض أبيات العجير فى معجم البلدان (مر) وأمالى القالى (١ : ٢٧٥) . وذكروا أن العجير كان له ابن عم يدعى « جابر بن زيد » ، وكان كريماً مفضالا ، قال فيه العجير :

إن ابن عمى لابن زيد وإنه لبلال أيدى جلة الشول بالدم

فكان إذا سمع بأضياف عند العجير لم يدعهم حتى يأتى بجزور كوماء فيطعن فى لبتها عند بيته ، فيبيتون فى شواء وقدير . وكان الناس يقولون له : مالك لا تكثر إبلك ؟ ! فيقول : إن العجير لم تدعها تكثر ! ! ثم سافر ابن زيد فات بمكان يقال له « مر » ، فرثاه العجير بهذا الشعر . الأغانى ومعجم البلدان .

(١) رواية أبى الفرج : « فى كل شتوة » ، ورواية ياقوت : « فى ليلة الدجى » .

(٢) الحق أنها ليست ليلة بعينها ، وأن الإطعام عند هبوب الصبا هو غاية الكرم ، وذلك لما يصاحبها من الجدب . وكان لبيد فى الجاهلية قد آلى ألا تهب صبا إلا أطعم . الأغانى (١٤ : ٩٤) . وانظر (مطاعم الريح) فى بلوغ الأرب (١ : ٩١ — ٩٢) .

(٣) كذا نرى المرزوقى . والحق أن « مر » موضع مات فيه ودفن .

(٤) وبذا تكون جملة « يجادله » خبراً لكلمة « مردى » ، وهذا تفسير ضعيف . والأوفق فيما نرى ، أن تكون كلمة « مردى » معطوفة على « أبا الأضياف » و « يجادله » فى موضع الصفة لخصم . فيكون قد نعته بالكرم وقوة العارضة .

يقول : تركنا فى ذلك المكان فتًى كان ربيعاً للفقراء ، ومألفاً للأضياف . وإذا اشتدّ الزمان وأسْنَت النّاسُ تيقّن الجدبُ والقحطُ أنّه لا يُقارُّه ، بل يَقتله بما يُفيضه على النّاس من إحسانه ، ويَشملُهم من تَفقُّدِهِ وبرِّه . وقوله «قد أيقَنَ الجوع» إلى آخر البيت ، من صفة الفتى ، وفى طريقته قول الآخر[1] :

يُقاتِل جُوعَهمْ بمكلَّلاتٍ   من الفُرْنِيِّ يَرعَبُها الجميلُ[2]

وقوله « إذا ما ثَوَى » ظرفٌ لقاتله .

٣ — فتًى قُدَّ قَدَّ السَّيفِ لا متضائلٌ   ولا رَهِلٌ لَبّاتُه وأَباجِلُهْ

معنى « قُدَّ قَدَّ السيف » أنه فى مضائه ونفاذه كالسيف . والقَدّ : القطع طُولاً . ويقال : هو حَسَن القَدِّ ، أى التقطيع ؛ وهو على قدِّه ، أى على قَدرِه . وهو يقتَدُّ الأمورَ بالسيف ، إذا دبَّرها بالسيف . ومعنى لا مُتضائل : لا مُتخاشع . والضُّؤولة : الدِّقّة ، يقال : هو ضئيل الجسم . والرَّهِل : المُسترخِي اللّحمِ[3] من السِّمن . يقال : فرسٌ رَهِلُ الصدر . واللَّبّات : جمع اللَّبّة ، وهو الصدر ؛ وجَمعه على ما حَوْلَه ، أو جعَل كلَّ قطعةٍ لَبّة . والأباجل : جمع أَبْجَل ، وهو عِرقٌ فى الساق ، والمعنى أنه ليس بكثير اللَّحم على الصدر غليظِ الساق . وهم يتمدّحون بالهُزال ويذُمّون السِّمَن . ويُروى « وبآدِله » ، وهو ما بين العنُق والتَّرقُوة . ومعنى البيت : أنه فى قدّ السيف ومَضائه ، لا يَشينُه تخاضُعٌ ، ولا هو سمينٌ مسترخِي اللّحم على الصدر ولا على ما حولَه . ولا متضائل ، ارتفع متضائل

(١) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٤١) واللسان (جمل) . وانظر إصلاح المنطق ٣٠٠ .

(٢) هذا تنظير المرزوقى ، أما التبريزى فقد نظر له بقول القائل :

هم المطعمون سديف السنا   م والقاتلو الليلة البارده

(٣) فى نسخة الأصل : « المسترخى من اللحم » ، وأثبتنا ما فى سائر النسخ .

على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : لا هو متضائل . ولبّاته ارتفع بفعله ، وفعله رَهِلٌ .

٤ — إذا جَدَّ عند الجِدِّ أرضاكَ جِدُّه وذُو باطِلٍ إن شئتَ ألهاكَ باطِلُهْ

٥ — يَسُرُّكَ مظلومًا ويُرضيك ظالمًا وكلُّ الذى حَمّلتَهُ فهوَ حامِلُهْ[1]

يصفُه بأنه كان مُستَصْلَحًا للهَزلِ والجِدِّ ، فإن جَدَّ حَسُن جِدُّه وتناهَى الرِّضا به والاستحسانُ له ، وإن هَزَلَ ألهَى هزلُه على اقتصادٍ فيه واستطابة له ، لأنه أخذ من مَكارم الأخلاق بأوفر النَّصيب ، فهو ينخرِط فى كلِّ سِلك ، ويدخُل فى كلِّ شأنٍ وأمر .

وقوله « يسرّكَ مظلومًا » انتصب مظلومًا على الحال . يقول : إن اهتُضِمتَ انتقَمَ لك من ظالمك ، وإن اهتضمت أنت غيرك لم يَبعد عن نُصرتك . وهذا على طريقتهم فى قولهم : « انصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا[2] » . وقوله « وكلُّ الذى حَمّلتَه فهو حاملُه » يصفُه برَحابة الصدر والأخذِ فى كلِّ ما يُدعَى إليه بالصبر ، وأنه يتحمل الأعباء الثقيلةَ عن ذَويهِ والمنتسِبين إليه ، لا يَضْجَر بما يحُلُّ بفِنائه ، ولا يتسخَّط أمرًا يُقترحُ عليه ، أو يُستَنهَض إليه .

---

(١) روى التبريزى : بعده :

إذا نزلَ الأضيافُ كان عَذَوَّرًا على الحىِّ حتّى تَستَقِلَّ مَراجِلُه

العذور : السيئ الخلق ، كأنه يحتاج إلى أن يعتذر لسوء ما يفعل ، ومعناه أنه يسىء خلقه على خدمه وأصحابه ، لأنه يريد أن يعجل قرى الأضياف .

(٢) حديث حسن ، رواه الدارمى وابن عساكر . الجامع الصغير رقم ٢٧٣٩ .

٣١٢

وقال أبو الحَجْناء[١] :

١ — أعاذِلَ مَنْ يُرزأْ كَحَجْناءَ لايَزَلْ كئيبًا ويَزْهَدْ بَعْدَهُ فى العَوَاقِبِ

يقول : ياعاذِلةُ ، مَن يُصَبْ بمثل من أُصِبْتُ به يتّصلِ اكتئابُه ، ويَدُمْ زُهدُه فى عواقب أطهار النِّساء ومباشرتهن[٢] عِلمًا بأنَّ مثل ذلك الولد لا يُعتاض منه. وحَجناء : ابنُه . كأنَّ عاذلةً آذته بتكرير الوَصاة عليه وإدامةِ الوعظ له ، وأنَّ ما يأتيه من التفجُّع مُستَسرَفٌ ومُستقبَحٌ ، لخروجه[٣] عن العادات ، فأقبل يجيبها ويذكر عُذرَه لها . وقد صرح غيره[٤] بهذا المعنى فقال :

أفبَعْـدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ترجو النِّساء عواقِبَ الأطهارِ

٢ — حَبِيبًا إلى الفِتيانِ صُحْبَةُ مِثْلِهِ إذَا شانَ أصحابَ الرِّحالِ الحقائبُ

انتصب حَبيبًا على الحال للضمير فى قوله « بعده » . وصُحبةُ ارتفع على أنّه قامَ مَقام فاعل حبيبًا . ويروى « حبيبٌ إلى الفِتيان » فيكون خبرًا مقدَّمًا ، والمبتدأ صحبة مثله . وجواب إذا ما يدلُّ عليه صدر البيت ، كأنه قال : إذا بَخِل أصحابُ الرِّحال بالزاد فشانَهم امتلاءُ حقائبهم وقلّةُ إنفاقهم منها ، فى ذلك الوقت

(١) التبريزى : « أبو الحجناء مولى بنى أسد » . وأبو الحجناء هذا غير أبى الحجناء نصيب الذى تقدمت ترجمته فى الحماسية ٢٩٤ . فتلك الحجناء ابنة نصيب ، وفيها يقول :

لقد أصبحت حجناء تبكى لوالد بدورة عين قل عنه غناؤها

والحجناء فى هذه الحماسية اسم رجل هو ولد الشاعر ، وهى تسمية نادرة .

(٢) وقد تابع التبريزى المرزوقى فى هـذا الفهم متأثرين بالشاهد الذى سيأتى فى نهاية تفسير هذا البيت . والأوفق أن يكون المراد عواقب الأيام والدهر .

(٣) فى نسخة الأصل : « بخروجه » .

(٤) هو الربيع بن زياد ، اللسان (قرى) وشروح سقط الزند ١١٤٦ . والبيت فى العمدة (١ : ٩٤) بدون نسبة .

يَستحِبُّ الفِتيانُ صحبةَ مثلِ ابنى حَجناء ، لحُسْنِ توفُّره ، ورَحابة صدره ، وكرم سِحابته ، وجميل تفقّدِه لأصحابه . وإنما قال « صحبةُ مثلِه » ولم يقل صحبتَه ، إجلالاً له ، وصيانةً لاسمه ، لا إثباتاً لنظيرٍ له[1] . وعلى هذا قولهم : مِثلُ فلانٍ لا يُوازَى ، ومثلُك لا يَفعل كذا . وفى القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ .

٣ ـ نِظَامُ أُناسٍ كان يَجْمَعُ شَمْلَهُمْ ويَصْدَعُ عنهم عادِياتِ النَّوائبِ[2]

يريد أن داره كان مجمَعًا لأُناسٍ هو يَنظِم شَمْلهم ، ويؤلِّف جمعَهم ، فإنْ حَزَبهم من النَّوائب عادياتُها فرَّقها عنهم ، وإن حَلَّ بِفِنائهم من أثقال الزمان ما ينهظُهم[3] آساهُم وتحمَّل عنهم . وقوله « عادياتِ » يجوز أن يكون من العَدَاء الظُّلْم ؛ يقال عَدا يعدو عُدُوًّا[4] وعَدَاءً وعُدْواناً . ويجوز أن يكون من العَدْو ، يريد مسرعاتِ النَّوائب وصادماتها . ومعنى يَصدَع يُفرِّق ، ومنه تصدَّعت الأرضُ بفلانٍ ، إذا تغيَّب فارًّا .

٤ ـ وجَرَّبْتُ ما جَرَّبْتُ منه فَسَرَّنى ولا يَكشِفُ الفِتْيانَ غيرُ التَّجارِبِ

يريد أن ينبّه على أنَّ ما وصفه به لا عن تقليدٍ أو شكٍّ والتباس ، ولا عن تخمينٍ أو حَدْسٍ وقياس ، بل عن تجريب واستكشاف على مرّ الأيام . فيقول : لم أرضَ منه بعَفْوِ أفعالِه وما يختاره فى مقاصِدِه ، بل أخذْتُ أستدرجُه وأتعرَّف غَوْرَ[5] مقالِه وفعاله بالسَّبر والنَّظَر ، فلم أرَ إلاّ ما سَرَّ وآنَسَ ، وزاد فى العلم به فأبهَج . وقوله « ولا يَكشِفُ الفتيانَ غيرُ التَّجارب » ، يشبه الالتفات ،

(١) هذا ما فى ل . وفى نسخة الأصل : « لا إثبات النظير له » .

(٢) هذه رواية الأصل . وفى ل ، « يجمع بيننا » . وكتب فوقها : « بينهم » . ورواية التبريزى « بينهم » .

(٣) كذا على الصواب فى ل . وفى نسخة الأصل : يتحفظهم » .

(٤) وعدوا أيضاً ، بفتح العين وسكون الدال .

(٥) هذا ما فى ل . وفى نسخة الأصل « غرر » .

كأنه أقبلَ بعد ما خبَّر ، على إنسانٍ فقال : إنَّ الفتيان تتشابَهُ ظواهرُ أمورهم ، ولم يخبرْك عنهم مثلُ مجرِّب . ولهذا قيل فى المثل السائر :

تَرَى الفِتيانَ كالنَّخْــلِ وما يُدْرِيكَ ما الدَّخلُ[1]

٥ — بَعيدُ الرِّضا لا يبتغى ودَّ مُدْبِرٍ ولاَ يَتَصَدَّى للضَّــغِينَ المُغاضِبِ

قوله « بعيد الرِّضا » يريد أنه ليس بسريع الفَيئة إذا سَخِطَ ، لكنه يَعْرُكُ أذَى مُجاذِبِه ومجاوِره بجَنْبه ، ويصبر ما أمكن ، فإذا أظهرَ النكيرَ[2] ، وتلقَّى ما يزاوله بالضَّجَر الشديد ، لم يُرْضِه أدنى المعاذير فِعْلَ مَن لا حَمِيَّة له ولا عزيمة . وقوله « لا يبتغى وُدَّ مُدْبِرٍ » وَصَفه بأنه آخِذٌ بالعَزْم إذا أُحوِجَ إليه ، غيرُ راغبٍ فى الزَّاهد فيه . وهذا كما يقال : فلانٌ وَصَّالٌ صَرُوم .

وقولُه « ولا يتصدَّى للضغين المغاضب » معنى يتصدى أن ينظر إليه نظرَ غيرِ محتفلٍ به ، وكالمعْرِض عنه ، حتى يخرجَه ذلك إلى ما يطلبه . يريد أنه لا يتعرَّض لعدوِّه والمضطغن عليه ، بل يتركه ينطوى على ما فى صدره من غِلٍّ وعداوة ، ولا يُخرجه[3] إلى مبادرةٍ ومكاشَفة ، بل يجرى على المداجاة معه ، منتظراً ما يكون منه ، ومحاذِراً ما يُتَّقى من جهته . وهذا كما قال الآخر[4] :

* أفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[5] *

---

(١) البيت لعثمة بنت مطرود البجلية ، كما فى أمثال الميدانى (١ : ١٢٣) . وقد ضمنته ابنة الخس شعراً لها فى البيان (١ : ٢٢٠) واللسان (١٨ : ١٧٩ — ١٨٠) .

(٢) النكير : الإنكار ، وفى الأصل : « النكيرة » وأثبتنا ما فى سائر النسخ . انظر للفظ « النكيرة » ما مضى فى الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٣) ل : « يحرجه » بالحاء المهملة .

(٤) هو أبو ثمامة بن عارم . الحماسية ١٨٧ ص ٥٧٩ .

(٥) سبق برواية : « رخوة » . وعجزه :

* فكيف الفرار إذا ما اقترب *

وقد ألمّ بقول الآخر[1] :

إذا حارَبْتَ حارَبَ من تُعادِى وزاد سِــلاحُه منك اقترابا

٦ ــ وكنتُ إذا ماخِفتُ أمرًا جَنَيْتُه يُخَفِّضُ جَأْشى ضَبْنُك المتراعِبُ[2]

يصفه بحُسن المدافعة عن متسبِّبٍ إليه ، ومبالَغة النُّصرة لمن أَوَى إلى جَنْبَتِه ، فيقول : إذا خفتُ جريرةً ارتكبتُها ثم لُذْت بفنائك ، واعتمدتُ تعصُّبَك ، سكَّن من جأشى وأزال قلقى قَبْضُك الواسع ، ودَفْعك المحامِى ، وذبُّك المبالِغ[3] . وقوله « المتراغب » يُروى بالغين معجمة وبالعَيْن ، فإذا روى بالغين معجمة فهو من الرَّغابة . ويقال : وادٍ رَغيبٌ ، وحَوض رغيب ، أى واسع ؛ ورجلٌ رَغيبُ البطن ، أى أكُول . ومن روَى بالعين غير معجمة فهو من قولهم سيل راعِبٌ : يملأ الوادى . ومنه حِسْىٌ متراعِب . أى واسعٌ لا يملؤه شىء . ومعنى يخفِّض جأشى يسكِّن نفسى . ويقال : هو رابط الجأش ، أى قوىُّ النفس ؛ وخافِض الجأش ، أى ساكنه . والخفض : ضدّ الرفع . والتخفيض : مَدُّك رأسَ البعير إلى الأرض . والضَّبْث : القبض الشديد ، ومنه يقال : ناقةٌ ضَبوثٌ ، أى سمينة لا يُشَك فى سِمَنِها ، كأنه فعول فى معنى مفعولة ، أى حيث ضُبِثَ منها باليد مَلأت الكفَّ لحمًا .

٣١٣

وقال آخر :

١ ــ إذا ماامرُؤٌ أثنَى بآلاءِ ميِّتٍ فلا يُبْعِدِ اللهُ الوليدَ بنَ أدْهَمَا

---

(١) هو ربيعة بن مقروم . الحماسية ١٧٧ ص ٥٤٣ .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « ضبناك المتراغب » . والضبن ، بالكسر : الكنف والناحية .

(٣) ل : « البالغ » .

٢ – فما كان مِفْراحًا إذا الخيرُ مَسَّهُ ولاَ كانَ مَنَّانًا إذَا هوَ أَنْعَمَا[١]
٣ – لَعَمْرُكَ ما وَارَى التُّرابُ فَعالَهُ ولـكنَّما وَارَى ثِيَـابًا وأَعْظُمَا

الآلاء : النِّعَم ، واحدها إلَى . ويعني بها صنائعَهُ ومِنَنَهُ عند الناس . فيقول : إذا ذَكر مُنعَمٌ عليه إحسانَ المنعِم عليه ، وأياديَه لديه ، فشَـكَر ثمَّ تجاوزَ الشكر إلى الثَّناء فأفرط ، فلا أبعَدَ اللهُ هذا الرجل . وهذا الكلامُ وإن كان دعاءً فى موضعه الذى استعمل فيه أبلَغُ من كلِّ ثناء ، وأزيَدُ من كلِّ تقريظ وإطراء . ولذلك اقتصَر عليه ولم يخلِط به غيره .

وقوله « فما كان مِفْراحًا إذا الخير مَسَّه » يصفُه بأنه لايُطْغيه الغِنى فيَكْسِبُه كِبْرًا وبَأْوًا ، بل يزدادُ تواضعًا فيما ينالُه ، وتودُّدًا إلى الناس على اتِّساع حاله ، حتى يُشْرِكَهم فى خيره . وقوله « ولا كان مَنَّانًا إذا هو أنعما » يصـفُه بأنه لا يُكدِّر نعمهُ عند غيرِه بالمنِّ والأذى ، بل يتناساها حتى يكون فى صورة من لم يُسْدِ ولم يصطنِـع .

وقوله « لعمرك ما وارى التُّرابُ فَعاله » يريد أنّ مكارمَه لم تَمُت بموته ، ولم تُدفَن فى قبره ، بل هى منشورةٌ فى النَّاس لا تُنسَى ، ومأثورةٌ لا تُلغَى ، فهى على مرِّ الأيَّام تزداد جِدَّةً ، وعند النَّاس طَرَاءةً ، لأنَّها تُذكَر وتُتلَى ، ولأنَّ ما سُيِّر فيه من الشِّعر والمدائح تُقرأ وتُروَى . وقوله « ولـكنَّما وارى ثيابًا وأعظُما » الفعل للتُّراب ، وهذه إشارةٌ إلى الـكفَن ونفس المتوَفَّى ، وفيه من إظهار التوجُّع ما كفَى وأغنى .

(١) روى التبريزى بين هذا البيت وماليه :

ونادَى المنادِى أوّلَ الليلِ باسمِهِ إذا أجْحَرَ الليلُ البخيلَ المذمَّما

أجحره : ألزمه بيته فلم يبرز لضيف أو طارق ليل .

٣١٤

وقال أبو الشَّغْب العبسى[١]

فى خالد بن عبدالله[٢] ، وهو أسيرٌ فى يدَىْ يوسُفَ بنِ عُمَر :

١ – ألَا إنّ خيرَ النَّاسِ حَيًّا وهالِكاً   أسيرُ ثَقِيفٍ عِنْدهُمْ فى السَّلاسلِ[٣]

قوله « حَيًّا وهالكا » يجوز أن ينتصب على الحال والعامل فيه ما دلَّ عليه خير الناس ، ويكون الكلام ثناء على المخبرَ عنه بخير النَّاس ، ويجوز أن ينتصب على التمييز ، وحينئذٍ يكون تفصيلاً للنَّاس ، كأنّه قال : إنّ خير الناس من الأحياء والأموات أسيرُ ثَقيف . وقوله « عندهم » يجوز أن يكون فى موضع الحال ، ومعناه حاضراً لهم وقريباً منهم ، ويكون العامل فيه ما دلَّ عليه أسير ثَقيف ، ويكون فائدة الكلام أنّه كان يجوز أن يكون أسيراً لهم ولم يكن عندهم ، فأفاد أنّه أسيرُهم وحاصِلٌ بحضرتهم . وكذلك قوله « فى السَّلاسل » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويكونَ العامل فيه ما عمل فى الظَّرف ، فيكون تقديره بحضرتهم مقيَّدًا ، ويجوز أن يكون العامل فى عندَهم ما دلَّ عليه قوله فى السَّلاسل من الفعل .

---

(١) أبو الشغب العبسى : شاعر من شعراء الدولة الأموية ، واسمه عكرشة ، كما سيأتى فى الحماسية ٣٦٣ التى يرثى بها ابنه شغباً ، وكما فى أمالى القالى (٢ : ٨٨) .

(٢) هو خالد بن عبد الله القسرى ، كان والياً على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد بن عبد الله كان أيضاً والياً على خراسان ، وكان بدء ولايتهما سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . وهذه الحماسية ليست من مراثى الأموات ولكنها تمجيد من أبى الشغب لخالد وتنويه به ، فهى من مراثى الأحياء . يقال : رثيت للحى رثيا ومرثاة ، أى توجعت له ورققت . وكان من خبر خالد أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما ولى الخلافة – وأمه أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفى ، كما فى التنبيه والإشراف – دفع بخالد إلى يوسف ابن عمر عامله على العراق ، فحمله إلى الكوفة وعذبه حتى قتله ، وذلك فى سنة ١٢٦ – تاريخ الطبرى .

(٣) رواية الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٣٦) :

ألا إن خير الناس قد تعلمونه   أسير ثقيف موثقاً فى السلاسل

٢ — لَعَمْرِى لقد عَمَّرتُم السِّجْنَ خالِدًا ‏ وأَوْطَأْتُمُوه وَطْأَةَ المتَثَاقِلِ[1]

هذا الكلام تفظيعٌ للأمر الذى رَكبوه، وإعلامٌ منه بأنهم أتَوْا قبيحا من الأمر منكراً، عمَّ وبالُه النّاسَ وظهر تأثيرُه فيهم. فهذا فائدة اليمين وجوابُها. وقوله «عَمَّرتم» أى أدمتم سَجْنَه وأطلتم حَبْسَه، كأنّهم جعلوا خالداً للسِّجن عُمْرَهُ. والعُمْر: السِّنُونَ والحين، ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[2]﴾. وقوله «وأوطأتموه وطأةَ المتثاقِل» يجوز أن يكون وطأة مصدرا من أوطأتموه وإن لم يكن من لفظه، وهذا كما يُجعَل العطاء موضعَ الإعطاء، والجابَة موضع الإجابة. والمفعول الثانى محذوف، كأنّه قال: أوطأتموه السِّجنَ أو الأرضَ إيطاء المتثاقِل، أى أثقلتموه. ويجوز أنْ يريد: أوطأتموه فوطِئَ وطأة المتثاقل أى يَفعَل فعلَ المتثاقل وإن لم يكن معه تثاقُل، هو يطأ عَقِبَه.

٣١٥

وقال مُهَلْهِلٌ[3]:

١ — نُبِّئتُ أنّ النّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ ‏ واستَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيبُ المجلِسُ

---

(١) فى ل: «لئن عمرتم» وكتب فوقها: «خ: لقد»، أى هى كذلك فى نسخة. ورواية البيان: «لئن أعمرتم». ورواية التبريزى تطابق رواية ل والبيان. وروى بعده التبريزى:

لقــد كان يَبنِى المَكرُماتِ لقومِه ‏ ويُعطِى اللُّهَى فى كُلِّ خَيرٍ وباطلِ

فإن تسجُنوا القَسْرِىَّ لا تسجُنوا اسمَهُ ‏ ولا تسجُنوا مَعــرُوفَه فى القبائلِ

ورواهما الجاحظ، لكن روى الأول على هذا الوجه:

لقــد كان نَهّاضا بكل ملمّــة ‏ ومُعطِى اللُّهَى غمراً كثيرَ النوافلِ

(٢) العمر، بضمتين: لغة فى العمر بضمة واحدة. وبالأخيرة انفرد الأعمش. تفسير أبى حيان (٥: ١٣٣).

(٣) اسمه عدى بن ربيعة، وقالوا: سمى مهلهلا لأنه أول من أرق الشعر وهلهله. وهو أخو كليب بن وائل الذى هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب، وهو كذلك خال امرئ القيس =

٣ — وَتَكَلَّمُوا فِى أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ   لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا

كان كليبُ وائلٍ لا تُوقد معَ نارِه للضِّيفانِ نارٌ فى أحمائه ، وفيما يَقرُب مِن منازلِه وأوطانه ، بل يتفرَّد بذلك لا مبارِىَ له ولا مشارِكَ ؛ وكان إذا حَضَرَ مجلسَهُ النّاسُ لا يجسرُ أحدٌ أن يُجاذِبَ غيرَه أو يفاخرَه أو يسابَّه ، إعظامًا لِقَدْرِه وإجلالًا لشأنِه وأمْرِه ، فيقول على وجه التحسُّر : خُبِّرْتُ أنَّ نِيرانَ الضِّيافة بعدَكَ أُوقِدَتْ لسُقوط احتشامك ، وأنَّ أهلَ المجلس تنازَعُوا الكلامَ بَعدكَ وتَجاذَبوه ، حتَّى صار بعضُهم يسبُّ البعضَ ويصكُّ فى وجهه الكلامَ القبيح ، لا رِقْبَةَ تَردَعُهم ، ولا حِشمةَ تدفَعُهم .

وقوله « وتكلّموا فى أمرِ كلِّ عظيمةٍ » ، يريد أنَّ الكلامَ منهم فيما يَدهَمهم من النُّؤَب[1] نُهَبَى ، لأنَّهم صاروا سُدًى لا يَبين التّابعُ من المتبوع فيها ، ولا الرئيس من المرءوس ، حتَّى صار تدبيرُ العظيمة بينهم فوضَى فضًا ، يتناهبون إدارةَ الكلام فى دفعها ، ويتجاذبون إجالةَ الرَّأى فى رفعها ، ولو كنتَ حاضرَهم ما جَسَرُوا أن يتقدَّموا بين يديك بارتجالِ خطاب ، أو رَجْعِ جواب . ويقال :

= وجد عمرو بن كلثوم . الأغانى (٤ : ١٣٩ — ١٥١) والخزانة (١ : ٣٠٠ — ٣٠٤) والمرزبانى ٢٤٨ واللآلى ٢٦ — ٢٧ ، ١١١ — ١١٢ والشعراء ٢٥٦ — ٢٥٩ . وكان من خبر مقتل كليب أن كليباً بلغ من بغيه أنه كان يحمى من المرعى مدى صوت كلب فيختص به ، حتى قالت العرب « أعز من كليب وائل » . وكان قد تزوج جليلة بنت مرة ، وأخوها جساس بن مرة كان له خالة تسمى « البسوس » جاورته ولها ناقة يقال لها « سراب » فرت إبل كليب بسراب وهى معقولة بفناء البسوس ، فلما رأت الإبل نازعت عقالها وتبعت إبل كليب ، فلما رآها رمى ضرعها فنفرت حتى بركت بفناء صاحبتها فبرزت صارخة تصيح : وا ذلاه ! فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك ! فر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقتله . انظر الخزانة والعقد فى (أيام العرب) والأغانى .

[1] النؤب ، كذا وردت مهموزة فى الأصل ، فيكون من همز المعتل . وفى اللسان : « والنائبة : النازلة ، وهى النوائب والنوب ، الأخيرة نادرة » .

كَلَّمْتُه فما نَبَس ، أى لم يتكلَّمْ بحرف ، وما سمعتُ للقول نَبْسةً ولا زَجْمةً .
وقوله « اسنبّ » يقتضى اثنين فصاعدًا ، وإنَّما نمّ بالمجاسِ ، لأنّ المراد به أهلُ المجلس ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَلِ ٱلْقَرْيَةَ[1] ﴾ ، وقولِ العرب : بنو فلان يَطؤُهم الطَّريق .

٣١٦

وقال آخر :

١ــ لَقَدْماتَ بالبَيْضاءِ مِنْ جانِبِ الحِمَى   فَتًى كان زَينًا للمواكِبِ والشَّرْبِ
٢ــ تَظَلُّ بناتُ العَمِّ والخالِ حَوْلَهُ   صَوَادِيَ لا يَرْوَيْنَ بالباردِ العَذْبِ
٣ــ يَهِلْنَ عَلَيْهِ بالأكُفِّ مِنَ الثَّرَى   وما مِنْ قِلًى يُحْثَى عليه من التُّرْبِ

الحِمَى : اسمٌ للموضع الذى فيه الماء والكلأُ وقد دُفِع عنه النَّاس[2] .
ويقال : أحميت المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وقوله « بالبيضاء مِن جانب الحِمَى » توقيتٌ المكان الذى وقع فيه الحادثة ، وذلك إعظامٌ لخطبها ، وتفظيعٌ لشأنها .
وقوله « كانَ زَيْنًا للمواكب والشَّرب » يصفه بالرِّياسة ، وأنَّه كان يَزين المواكب خَلفَه من حيث يستحقُّ التعظيمَ والتَّقديمَ والاتِّباع ؛ لم يَرِثْ ذلك فيهم عن كَلَالةٍ[3] ، فهو كما قال الأعشى :

---

(١) هذه قراءة ابن كثير والكسائى وخلف ، وذلك بنقل حركة الهمزة إلى السين ثم حذفها فى أمر المخاطب إذا تقدمه واو أو فاء ، وسائر القراء بإثبات الهمزة فى ذلك . فإن لم يتقدمه ذلك فالكل متفقون على النقل نحو سل بنى إسرائيل ، وإن كان لغائب فالكل بالهمزة نحو وليسألوا ما أنفقوا ، إلا حمزة وقفاً . تفسير أبى حيان (٣ : ٢٣٦) وإتحاف فضلاء البشر ١٨٩ .

(٢) عينه ياقوت فى رسم (البيضاء) بأنه حمى الزبدة ، قال : « والبيضاء : موضع بقربه حمى الربذة » ، وذلك حيث أنشد هذه الحماسية .

(٣) الكلالة : كل ما لم يكن من النسب لحا .

* كُلٌّ سَيَرضَى بأن يُلقَى له تبَعاَ(١) *

وقوله « والشُّرب » يريد أنَّ مَن نادمَهُ واختلط بأهل مجالسِه زانه ذلك ولم يَشِنه ، لِمَا سُلِّمَ له من الاعتلاء والفَضل ، والسَّابقة فى الرِّيَاسة والطَّول .

وقوله « تظلُّ بنات العمّ والخال حوله صوادِىَ » أراد أنَّ غليلَهنَّ وحَمْىَ أكبادِهنَّ لا يزولِ بالبارد العذب من الماء ، إذْ لم يكن ذلك عن عطشٍ ، ولكن كان لِمَا اهتاجَ فى صدورهنَّ من بوارح التوجُّع ، ولواذع الغموم والتفجُّع ، حتَّى كُوِيت أكبادُهن بمواسمها ، واحترقتْ أحشاؤهنَّ من لفح نَوَائرها .

وقولُه « يَهلن عليه بالأكفِّ من الثَّرى » يريد أنَّ النوائح لما هِلْن التُّرابَ عليه لم يَفعان ذلك عن بُغض وإهانة ، ولكن إظهاراً لما أفضَى إليه أحوالُهنَّ من السقوط فى الترابِ والالتزاقِ به ، ولِمَا شمِلهنَّ من الصَّغار والابتذال بموته . ويقال : هِلتُ الترابَ وغيرَه أهِيلُه هَيْلاً . وفى الحديث : « أتَكيلون أم تَهيلون ؟ قالوا : نَهيل . قال : فَكيلوا ولا تَهيلوا(٢) » وحثَوتُه أحثُوه حَثْوًا . والصَّوادى : العِطاش ، والفعل منه صَدِىَ يَصْدَى صَدًى .

٣١٧

وقالت جارية

ماتت أمُّها فأضرَّت بها رَابَّتُها(٣) :

١ - ولوْ يَأتِى رَسُولى أمَّ سَعْدٍ أتى أُمِّى ومَنْ يَعنْيِهِ حاجِى

---

(١) كذا ورد نصه فى جميع النسخ . وانظر ما سبق من بيان الرواية فيه ص ١٢١ .

(٢) نصه فى اللسان (هيل) : « وفى الحديث : أن قوما شكوا إليه سرعة فناء طعامهم ، فقالوا : أتكيلون أم تهيلون ؟ فقالوا : نهيل . فقال : كيلوا ولا تهيلوا ؛ فإن البركة فى الكيل . وذكر قبله : « الجوهرى : هلت الدقيق فى الجراب : صببته من غير كيل » .

(٣) الرابة : امرأة الأب . التبريزى : « فأضرت بها امرأة أبيها » .

٢ - ولكنْ قد أتى مَنْ بَيْنَ وُدِّى ... وبيْنَ فُؤادِهِ غَلَقُ الرِّتاجِ

٣ - ومَن لم يُؤذِه أَلَمٌ برأسى ... وما الرُّعانُ إلّا بالنِّتاجِ

كأنها لما ناكدَتْها رابَّتُها ، ولجّت فى إهانتها والإضرارِ بها ، راسلت أباها تُطلِعه على ما تقاسى منها ، وتستمدُّ التعصُّب لها رجاء أن يزجرَها ، فلم ترَ مِن عطفِه عليها ما يُرضيها ، ولا مِن إنكاره فيها ما يَردَعُها ، فلمّا استمرت الحالُ بها على طريقةٍ واحدة اقتصَّتْها شاكية فقالت : لو وَرَدتْ رسالتى على والدٍ ومَن يُهمُّه أمرى لاقتَضَتْها الشفقةُ الاعتناء بشأنى ، وعطَفَتْها الأمومةُ على ما أقترِحُه من حاجى ، ولكن قد وَرَدتْ على من صُرِف ودُّه عنِّى ، وحيل بينه وبين الحُنوِّ علىّ ، فانسدَّت طُرُق الأمل فيه ، وأُغلقت أبوابُ الخير مِن جهته ، فلا اهتزازَ لمأرُبة ، ولا انبعاثَ لدفع مَضرَّة ، ولا توجُّعَ لشكوَى تَظهر ، ولا تَرَحُّمَ لبلْوَى تُذكر . وما ذلك إلّا لأنّ علائق الوِداد تستحكم بالنِّتاج ، ومعاقدَ الإشفاق تتوثّق بالوِلادِ ، فبهذا انفصلت الأُبُوّة عن الأمومة ، وضعفت الأسبابُ إلّا عن الرَّضاع والحَضانة .

وقولُه « وما الرُّئمان إلا بالنِّتاج » فيه بعضُ ما فى المثل السائر ، وهو « ابنُكِ مَن دَمَّى عَقِبَيْك » . يريد من قمتِ عنه وقد ولدْتِه . وفى المثل الآخر : « ابنُكَ ابنُ بُوحِكَ[1] » أى الناشئُ فى باحة دارِكَ . والباحَة : عَرْصة الدار ، وجمعها بُوح . والرِّئمان : العطف ، يقال رئمتُه أرأمُه رَأْمًا ورِئمانًا ، ثم يسمَّى الولد رأْمًا ، وهو المرءوم . قال أبو ذُؤَيب :

كعُوذِ المُعَطَّف أحزَى لها ... بمَصْدَرَةِ الماء رَأْمٌ رَذِىّ[2]

(١) الميدانى : « يقال البوح النفس ، فإن صح هذا فيجوز كسر الكافين وفتحهما . ويقال البوح الذكر ، فعلى هذا لا يجوز الكسر » .

(٢) ديوان الهذليين (١ : ٦٦) .

٣١٨

وقالت أمّ الصريح الكِنديّة :

١ — هَوَتْ أُمُّهم ماذا بِهِمْ يومَ صُرِّعوا بجَيْشانَ مِنْ أسبابِ مَجْدٍ تَصَرَّما[1]

٢ — أَبَوْا أن يَفِرُّوا والقَنا في نُحُورِهِم ولم يَرْتَقُوا مِن خَشْيَةِ الموتِ سُلَّما[2]

٣ — ولو أَنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أَعِزَّةً ولكنْ رأَوْا صبراً على الموتِ أكْرَما[3]

قوله « هَوَت أُمُّهم » أى هلكت . والمَهْواةُ والهُوَّة والهاوية والأُهْوِيَّةُ والهُوَّاءَة على فُعَّالةٍ بمعنًى ، وهو ما بين أعلى الجبل أو البئر إلى المستقَرّ . وفى القرآن : ﴿ فأُمُّه هاويةٌ ﴾ ، قيل هى اسمٌ لجهنّم ، أى هى مأواهم كما تُؤوى الأمُّ الولدَ ، وقيل هى من هَوَت أُمُّهم ، وهذه اللفظة تُستعمل عند الداهيةِ يُشرِف عليها الإنسانُ أو يقعُ فيها ، وفيها معنى للتعجُّب والاستفهام . على ذلك قوله :

هَوَتْ أُمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غاديا وماذا يؤدِّى الليلُ حينَ يؤوبُ[4]

وعلى الأوّل قول الآخر[5] :

* كنتَ كمَن تَهْوِى به الهاويهْ[6] *

وقيل : هوَت أُمُّهم ، معناه أمُّ رءوسهم هاوية فى الهُوّة أو فى النار . وتلخيص البيت هَوَت أُمُّهم أى شىء تصَرَّم بهم من أسباب المجد يوم صُرِّعوا

---

(١) جيشان : مخلاف باليمن . وقد أنشد هذه الأبيات ياقوت فى رسمه .

(٢) ياقوت : « فى صدورهم » .

(٣) التبريزى : « فلو أنهم »

(٤) البيت لكعب بن سعد الغنوى فى اللسان (هوا) وأمالى القالى (٢ : ١٥٠) ، والخزانة (٤ : ٣٧٣ — ٣٧٥) .

(٥) هو عمرو بن ملقط الطائى . اللسان (هوا) .

(٦) صدره : * يا عمرو لو نالتك أرماحنا *

بجَيْشان ، وهو عَلَمُ البقعة[1] اتَّفقت الوقعةُ بهم فيها . وماذا إن شئت جعلتَ ما اسماً مبتدأً وذا خبره ، وإن شئت جعلتَ ما مع ذا اسماً واحداً ويكون مبتدأً وتصَرَّم فى موضع خبره . وهذا الكلام مخرجه على الاستفظاع والتعجُّب .

وقوله «أبَوْا أن يَفرّوا» يصف ثباتَهم فى وجه البلاء ، وصَبْرَهم على الطِّعان والوِقاع . والواو من قوله « والقَنَا فى نُحُورهم » واو الحال ؛ أى امتنعوا من الإحجام والنُّكوص فلم يطلُبوا وجهَ المَهرَب ، ولا سلكوا طُرقَ المَخْلَص ، مع الإمكان والتمكُّن ، وتمهُّد المَعذِرة عند الناس فيما يأتونه والتنصُّل ، ومع العِلم باستظهار الأعداء عليهم ، وقُعود العجز عن الوفاء بهم .

ثم قال « ولو أنهم فرُّوا لكانوا أعزَّة » أى لو تأخَّروا وكَفوا لما لحقهم ذُلٌّ فيه ولا غضاضة ؛ ولا تَسلَّطَ على عِزِّهم نقيصةٌ وحَقارة ، ولكن وجَدوا الصبرَ على الموت ، والاستقتالَ بعد اللِّاناء أكرمَ فى الأُحدوثة ، وأنفَى للعار والمَذَمّة .

٣١٩

وقال الحسين بن مُطَيْر[2] .

١ – ألِمَّا عَلَى مَعْنٍ وقُولاَ لِقَبْرِه ... سَقَتْكَ الغوادِى مَرْبعًا ثم مَرْبعَا[3]

٢ – فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أوَّلُ حُفْرَةٍ ... من الأرض خُطَّت للسَّماحةِ مَضْجَعَا[4]

---

(١) ل : « علم لبقعة » .

(٢) هو الحسين بن مطير بن مكمل ، مولى لبنى أسد بن خزيمة ثم لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد . وهو من مخضرمى الدولتين ، شاعر مقدم فى القصيد والرجز فصيح ، قد مدح بنى أمية وبنى العباس ، وكان زيه وكلامه يشبه مذاهب الأعراب وأهل البادية . الأغانى (١٤ : ١١٠ – ١١٤) والخزانة (٢ : ٤٨٥ – ٤٨٨) . وعند ابن النديم ٢٣٠ أن شعره نحو مائة ورقة . والأبيات فى الأغانى والخزانة والقالى (١ : ٢٧٥) .

(٣) الأغانى والخزانة : « ألما بمعن ثم قولا لقبره » .

(٤) الأغانى والخزانة : « كنت أول حفرة » .

يخاطب صاحبَين له ، يسألهما زيارة قبرِ معن وإبلاغَه عنه أنه مقيمٌ على ما هو دأبه ووُكده من طلب السُّقيا له ، فواصَلَ اللهُ ذلك لك من السُّحُب التي تنشأ غُدوَةً ، ربيعًا[1] بعد ربيع . والمعنى : دامت النَّضارة والطَّراوة . وإنما خَصَّ الغوادىَ لأنَّ المرادَ حصولُه له غداةَ كلِّ يوم . وقوله « مَرْبَعًا » يجوز أن يكون ظرفًا ، ويكون أن يكون مفعولا ، ويكون المربع والربيع المطرَ نفسَه . قال الخليل : وقد يسمَّى الوسميُّ ربيعًا . ويكون المعنى : سَقَتْك مطرًا الغوادى بعد مطر . ويجوز أن يكون مصدرًا من قولهم رُبِعَت الأرضُ ، إذا أصابَها الرَّبيع ، فكأنه قال : رَبَعَتْكَ الغوادى مَرْبَعًا بعد مَرْبَعٍ ، أى سقتك الغوادِى سقيًا بعد سقى .

وقوله :

* فيا قبر معنٍ أنت أوّلُ حفرةٍ *

يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون مثلَ قول الآخر[2] :

كأن لم يَمُتْ حَىٌّ سِوَاكَ ولم تَقُمْ   على أحَدٍ إلّا عليكَ النوائحُ

ويكون الكلام تفظيماً للحال ، وتنبيهاً على أنّ ما وقع لم تجرِ العادةُ بمثله ، فهو مُستبدَعٌ لِعِظَم موقعِه فى النّفوس ، حتى كأنه لم يُرَ قبرٌ قبلَه دُفِن فيه كريم . والآخر أن يكون المعنى : أنتَ أول حَفيرة استُحدِثَتْ لتُوارَى فيها السَّماحة والسَّخاء والمروءة ، فتصيرَ مضجعاً لها ، ويكون المعنى أنّ السَّماحةَ ماتت بموتِ مَعْنٍ ودفنتْ بدفنه ، وأنت أوّلُ خُطّةٍ اختُطَّت للسَّماحة نفسِها . وقوله « مضجعاً » انتصَبَ على الحال .

(١) ل : « وربيعا » .

(٢) هو أشجع السلمى . الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٩ .

٣— ويا قَبْرَ مَعْنٍ كيف وارَيْتَ جُودَهُ   وقد كان منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا

٤— بَلَى قدوَسِعْتَ الْجودَوالْجودُمَيِّتٌ   ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا

كرَّرَ مناداةَ القبر توجُّعاً وتحسُّرًا ، ثم أخذ يتعجَّب ويقول مُنكراً : كيف سَتَرتَ جوده ، وقد كان مِلْئًا للبرِّ والبحر معًا . وفى طريقته قولُ الآخرِ(١) :

عَجبًا لأربعِ أذْرُعٍ فى خَمْسَةٍ   فى جوفها جَبَلٌ أشَمُّ كَبيرُ

فإن قيل : لم قال مُتْرَعًا فوحَّدَ والإخبار عن البرّ والبحر جميعاً ؟ قلتَ : يجوز أن يكون إنما وَحَّد لأنَّه نَوَى التَّقديم والتأخير ، كأنه قال : وقد كان منه البَرُّ مُترعًا والبحر ، أى والبحر أيضاً مُترع ، فيرتفع البحرُ بالابتداء ، واكتفى بالإخبار عن الأوّل إذ كان المعطوف كالمعطوف عليه . ومثله :

* فإنِّى وقَيَّارًا لغريبُ(٢) *

يريد : إنِّى لغريبٌ بها وقيار أيضاً غريب ، وهو اسم فرسِهِ . ويجوز أن يكون لمَّا علم أنَّ المعطوفَ حكمُه حكم المعطوف عليه اكتفَى بالإخبار عن أحدها ، ثِقَةً بأنَّ الثَّانى عُلِم أنه فى حكمه . ومثله :

رَمانِى بأمرٍ كنتُ منه ووالدى   بريئًا ومن أجْلِ الطَّوِىّ رَمانى(٣)

(١) هو عبد الله بن أيوب التيمى . الحماسية ٣٢٧ .

(٢) لضابئ بن الحارث البرجمى . الخزانة (٤ : ٣٢٣) والإنصاف ٦٥ وسيبويه (١ : ٣٨) ونوادر أبى زيد ٢٠ والكامل ١٨١ ليبسك والشعراء ٣١١ . وصدره :

• فمن يك أمسى بالمدينة رحله •

(٣) البيت لابن أحمر ، وقيل للأزرق بن طرفة بن العمرد الفراصى ، كما فى اللسان (جول) . ويروى : «ومن جول الطوى» ، كما فى شرح التبريزى واللسان والمقاييس (جول) ، ورواية المرزوقى هنا هى الصحيحة ، قال ابن برى : لأن الشاعر كان بينه وبين خصمه حكومة فى بئر ، فقال خصمه إنه لص ابن لص ، فقال هذا الشعر . وبعد البيت :

دعانى لصا فى لصوص وما دعا   بها والدى فيما مضى رجلان

* بَلَى قد وسعت الجود والجود ميت *

بلى جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنَفى نحو قولك ألَمْ ، أليس ، وما أشبههما . وهذا الشَّاعر لما قال متعجِّباً من مخاطبة القبر ومُنكِراً : كيف واريتَ جودَه على كثْرته ووفورِه ، وشموله لأقطار البرِّ والبحر ، صار بما اعتَبر وشاهدَ من الحال كأنَّ القبرَ قال له : ألم أسَعْهُ ، ألم أوارِه ، ألم أتضمَّنْه على ما به ؟ فقال مصدِّقاً له ، ومتلهِّفاً : بلى قد وسعتَه واشتملتَ عليه وهو ميّت ، ولو كان حَيًّا لضِقْتَ عنه حتى تنقطع وتنشق[1] ، والصَّدع : الشَّقُّ فى الشىء الصُّلب . وصدَعْتُ الفَلاةَ والنَّهرَ قَطَعْتُهما .

٥ — فَتًى عِيشَ فى مَعرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كما كان بَعدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتعا

٦ — ولمامَضَى مَعْنٌ مَضَى الجودُ فانقضى وأَصْبَحَ عِرْنِينُ المَكَارِمِ أجْدَعَا[2]

قوله « فتًى عِيشَ فى معروفه » موضعه نصبٌ على المدح والاختصاص ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنَّه قال : أذْكُرُ فتًى هذا صفته . ويجوز أن يكون موضعه رفعاً على الاستئناف ، ويكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنَّه قال : هو فتًى ، أو مَن أؤَبِّنه فتًى ، وقوله « عِيشَ فى معروفه بعد موته » يجوز أن يكون أراد مَن استغنَى به وبمعروفه من المتَّصلين به ، والمنقطعين إليه ، والراجين له . ويجوز أن يكون أراد من عاش من وُقوفه وحبائِسِه بعدَه ، ويجوز أن يريد أنَّه علَّمَ النَّاسَ الجودَ والكرم ، فمِن مُقتدٍ به آخِذٍ أخْذَهُ ، ومُسْتَنّ بسُنَّته سالكٍ مسلكه ، فما يفعله هؤلاء صار كأنَّه هو الفاعل له . ثمَّ شبَّهه بالغيث يصوبُ فيُحيِي العبادَ ثم

---

(١) ل : « وتنشقق » .

(٢) وكذا رواية التبريزى . وفى أمالى القالى (١ : ٢٧٥) : « وانقضى » . وروى موضعه فى الأغانى والخزانة :

أبى ذكرَ معن أن تموت فعاله وإن كان قد لاقى حماماً ومصرعا

يعيشُ النّاسُ فى آثاره بَعد انقطاعهِ ومُضيِّه . وقوله « كما كان بعد السَّيل مجراه » ارتفع مجراه بكان ، وكان الحكمُ أن يَلِيَهُ فلم يَسُغْ لأنَّ الضمير فيه يرجع إلى السَّيل وقد تَقَدَّم عليه ، والإضمار قبل الذِّكر أو ما يجرى مجراه لا يجوز ، فامتنع ردُّه إلى رتبته من وَلْيِ العاملِ له ، لشيء يرجع إلى الضمير المتَّصل به لا لشيء يرجع إليه . وتلخيص الكلام : كما كان مَجرى السيل مرتفعاً بعده .

وقوله « ولَمَّا مَضَى مَفْنٌ » لَمّا يجئ لوقوع الشيء لوقوع غيره ، وهو علمٌ للظَّرف . فيقول : حينَ مضى مَفْنٌ لسبيله وانقطعت حياتُه ، فُقِد الجود وانمحت آثاره ، فأصبحت المكارم ذَليلةً إذْ مات من يَرُبُّها ويَعمُرها ، كمن جُدِع أنفُه مُثلةً وعقوبة ، وإرغاماً وإهانة . ويقال فى المثل : « مِنِّى أنفى وإن كان أجدَع » . والعِرْنين : ما ارتفعَ من الأنف والأرض ، وأوائلُ الشيء ، وأشراف القومِ وسادتُهم ، وكما ضُرِب المثل بجَدْع الأنف فى الإذلال ، ضُرِب بصلم الأذن فيه لذلك . قال :

* فمَشُّوا بآذان النَّعام المُصَلَّمِ(١) *

٣٢٠

وقال آخر :

١ ــ ما ذا أجَالَ وثيرةُ بن سِماكٍ ‍ ‍ ‍ ‍ من دَمْعِ باكيةٍ عليه وباكِ(٢)

٢ ــ ذَهَبَ الذى كانت مُعَلَّقةً به ‍ ‍ ‍ ‍ حَدَقُ العُناةِ وأنفُسُ الهُلَّاكِ

---

(١) لكبشة أخت عمرو بن معديكرب فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨ . وصدره :

* فإن أنتم لم تثأروا واتديتم *

(٢) التبريزى : « قال أبو العلاء يروى : وثيرة بالثاء . . . . ويروى : وتيرة . . . ويروى وُبَيْرَة ومَزِيرة ، ويرى : أحال ، وأجال ، وأسال . فأجال من جولان الدمع ، وأحال بالحاء : صب » . ورواية القالى (١ : ٢٧٦) : « ماذا أحال وثيرة » .

يقول على وجه التعجُّب وإكبارِ الأمر : أىُّ دمع أراقه وتيرةُ بن سِماكٍ من عَينٍ باكية عليه وباكٍ . يريد أنَّ المصيبةَ به أثَّرت فى جماهير النَّاس وطوائفِ الخلق ، وأنَّهم لم يملـكوا فيما دَهِمهم إلّا البكاء إطفاء لنار الوجد ، وإراحةً من تعب القلب[1] ، وماذا يُغنى العَويل ، وهو الرَّاحةُ المطلوبةُ من البكاء إذا حَقَّت الحقيقةُ ، إلّا زيادةٌ فى اللَّوعة وإنجادٌ للمصيبة . وقد تقدم القول فى ماذا ، وشرَحْنا أمره[2] .

وقوله : « ذهب الذى كانت معلَّقةً به » يريد أنه كان يَفُك الأُسَراء ، ويُنعش الفقراء ، حتَّى أن مَن ابتُلِى بأسرٍ ، أو رُمِىَ بفقر ، فإنَّه لم يُعَدّ لفـكِّه ولم يُرْجَ لجبرِه غيرُه ، فأعيُنهم كانت ممتدَّةً إليه ، وآمالُهم كانت معلَّقةً به ، وإذ قد مَضى لسبيله ، وانتقل إلى جوارِ من هو أحقُّ به ، فقد استَبْدَلوا بالطمع خيبةً ، ومن التعزُّز ذِلّة ، وبَقُوا فى ملَـكةٍ مِحَنِهم لا انفكاكَ لهم منها ، ولا ارتياشَ[3] من سقطاتها .

٣٢١

وقال أشجعُ بن عَمرٍو السُّلَمىُّ[4] :

١ – أنعَى فَتَى الجُودِ إلى الجُودِ ما مِثْلُ مَن أنعَى بموجودِ

---

(١) ل : « القلوب » .

(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٢٧٠ ص ٨١١ و ٣١٨ ص ٩٣٤ .

(٣) كذا وردت فى النسختين . يقال ارتاش : حسنت حاله . والوجه « انتياش » . والانتياش والاستنقاذ والاستدراك .

(٤) زاد التبريزى : « فى محمد بن منصور بن زياد » . ونسبة الشعر إلى أشجع هى كذلك فى الشعر والشعراء ٨٥٩ وقد رواها ابن قتيبة سبعة أبيات . لكن الجاحظ فى البيان (٣ : ١٢٣) بتحقيقنا قد نسبه إلى أبى الشيص . وترجمة أشجع مضت فى الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٦ .

٢ ـ أنعَى فتًى مَصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بقيَّـةَ المـاء من العُـودِ[1]

قوله « أنعى فتى الجود » إنما أضافه إلى الجود إيذاناً بأن الجودَ كان يمتلكه فهو فَتاه . أو يريد أنّ الجود كان يتبجّح بكَوْنِ هذا الرّجلِ من أسرته وأصحابه ، لأنه كان يتَفَتَّى فى الجود ؛ وهذا كما يقال : فلانٌ فَتَى الحرب ، وكما قيل : « لا فَتَى إلا علىٌّ فى الوَغَى » . فيقول : إنَّه الآن وقد مضَى لسبيله فإنّى أنعاه إليه ، لنَتَشارك فى فَقده والجزع عليه . ثم قال : « مامثل من أنعَى بموجود » ، وهذا يشبهُ الالتفات ، كأنه أقبلَ على إنسانٍ فقال : أذكرُ موتَ مَن كان معدومَ النَّظير ، قليلَ الشبيه ، فلا الجود يجدُ من يخلُفه ويُبلى ذِكرَه ، ويقوم بأوَده فيقيمُه فيقال هو فتى الجود ، ولا نحن نعتاضُ منه مَن يجمعُ شملها ، ويَجبُر كَسْرنا ، ويسدُّ مَفاقِرَنا إذا أضرَّ الزمان بنا .

وقوله « أنعى فتًى مَصَّ الثَّرى بعده » ، يريد : تغيَّرت الأرض عما كانت عليه ، فيبِست أشجارُها واغبرَّت ساحاتها[2] بموت هذا المرثىّ ، فالدُّنيا مُدْبِرة ، والأقطار مُقشعِرّة ، والبؤس للبَئِيس مُعانِق ، والخير بتوابعه من النَّدى والتطوُّل والخِصْب والترطُّب مُفارِق .

---

(١) أنشد بعده التبريزى ، وكذا أنشد ابن جنى البيت الأول من البيتين التاليين :

وانثلَمَ المجـدُ بهِ ثُلمةً جانبُها ليس بمسـدودِ
فالآنَ تُخْشى عَثَراتُ النَّدَى وصَولةُ البُخلِ على الجـودِ

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « ساحتها » .

٣٢٢

وقال عبدُ الله بن الزَّبِيرِ الأسدىّ[١] :

١ ـ رَمَى الحَدَثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ ... بِمِقْـدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا[٢]

٢ ـ فرَدَّ شُعورَهُنَّ السُّـودَ بِيضاً ... ورَدَّ وُجوهَهنَّ البِيضَ سُودَا[٣]

السُّمود : الغَفلة عن الشَّىء وذَهابُ القلب عنه . ويقال للمأخوذ عن الشَّىء : ٱتْرُكْ سُمودَكَ . وفى القرآن : ﴿ وأنتُمْ سامِدُون ﴾ ، أى ساهون لاهون . وقوله « رَمَى الحَدَثانُ نِسوةَ آلِ حرب بمقدارٍ » فيه ما يجرى مجرى القَلْب ، لأنّه لو قال رمى المقدار نسوةَ آل حَرْبٍ بحَدَثانٍ ، لكان أقربَ فى المعتاد ، وأجْرَى على طريق الدِّين . فيقول : جرَّ المقاديرُ على نسوةِ آل حَرْبٍ نَوْبَةً من نوائب الدهرِ أثَّرَتْ فى عقولهنّ ، حتى غَفَلْن عن أسباب الدِّين والدُّنيا كلِّها ، وحتى

(١) هو عبد الله بن الزبير بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، والزبير هذا بفتح الزاى وكسر الموحدة . وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ومن شيعتهم والمتعصب لهم ، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فمن عليه ووصله ، فمدحه وأكثر من مدحه وانقطع إليه ، ولم يزل معه حتى قتل مصعب ، وعمى هو بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك . الأغانى (١٣ : ٣١ – ٤٧) ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠٨ – ١١٠) والخزانة (١ : ٢٤٥ – ٢٤٦) . ولم يذكره الصفدى فى نكت الهميان .

(٢) نسبت الأبيات فى زهر الآداب (٢ : ٧) إلى ابن الزبير أيضاً . وفى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) إلى فضالة بن شريك ، وفى أمالى القالى (٣ : ١١٥) إلى الكميت بن معروف . وانظر اللسان (سمد) والأضداد لابن الأنبارى ٣٦ . ورواية ثعلب : « آل صخر » . وفى اللسان : « بأمر قد سمدن » . وفى عيون الأخبار : « بفادحة سمدن » .

(٣) روى بعدهما التبريزى :

فإنَّكَ لو رأيتَ بكاءَ هِندٍ ... ورَملةَ إذْ تَصُكَّانِ الخُدودا

سمِعتَ بكاءَ باكيةٍ وباكٍ ... أبانَ الدهرُ واحدَها الفَقِيدا

شيَّبتهنّ ولَفَحَت وجوهَهنّ(١) ، فردّت السُّودَ من شعورهنّ بيضا ، والبيضَ من وجوههن سُودا .

وهذا كما حُكى عن العُريان بن الهيثم(٢) ، لمّا سأله عبدُ الملك عن حاله ، فقال : « ابيضّ منِّى ما كنتُ أحِبُّ أن يسودّ ، واسودّ منى ما كنت أحبُّ أن يبيضّ » فى كلامٍ طويل . ثم قال :

وكنتُ شَبابى أبيضَ اللونِ زاهرًا فصرتُ بُعَيْدَ الشَّيبِ أسْوَدَ حالكا

٣٢٣

وقال مُسْلِمُ بن الوليدِ(٣) وماتت امرأتُه :

١ — حَنِينٌ ويأسٌ كيف يجتمعانِ مَقِيلاهُما فى القَلْبِ مُخْتلِفانِ

٢ — غَدَتْ والثّرَى أوْلَى بها مِن وَلِيِّها إلى مَنزِلٍ ناءٍ لِعَيْنِكَ دَانِ

٣ — فلا وجْدَ حتّى تَنزِفَ العينُ ماءها وتَعترفَ الأحشاءُ للخَفَقانِ

هذا الكلام شَكْوٌ من حالِه فيمن أُصيب به ، فيقول : اليأس حاصلٌ منها إذ كان غائبُ الموتِ لا إيابَ له ، والشّوقُ إليها غالبٌ حتى كأنِّى ما فقدتُها ؛

(١) إلى هنا ينتهى سقط التيمورية الذى بدأ فى ص ٩٠٦ .

(٢) وكذا فى عيون الأخبار (٢ : ٣٢١) . وفى البيان (١ : ٢/٣٩٩ : ٦٩) أنه « الهيثم بن الأسود بن العريان » .

(٣) مسلم بن الوليد الأنصارى ، الملقب صريع الغوانى ، من شعراء الدولة العباسية ، مولده ومنشؤه بالكوفة . وهو أول من أشاع البديع فى شعره ، وتبعه فى ذلك أبو تمام . وكان مسلم مداحاً جل مدائحه فى يزيد بن مزيد ، وداود بن يزيد ، والبرامكة ، وصافا للشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى . قال ابن قتيبة : ولى بريد جرجان فى خلافة المأمون ، فلم يزل بها حتى مات . الشعر والشعراء ٨٠٨ — ٨١٩ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠ — ١٥) وتاريخ بغداد (١٣ : ٩٦ — ٩٨) وملحق الجزء الخامس من الأغانى المطبوع مع ديوانه فى ليدن ١٨٧٥ .

فيا عجبا كيف اجتمَعَ مع اليأس رجاء مع اختلاف مقرّهما فى القلب ، ومع تَنافيهما عند التحصيل والكَشْف ، وهل يكونُ الإنسان فيما اعتِيدَ وعُرِف من أحوال الأزمان مُبْتَلًى بأسباب الخيبة من الشّىء ، ومتردِّدًا معها بين علائق الطمع فيه . والمَقيلُ الموضع من قِلتُ . وفى القرآن : ﴿ أصحابُ الجنَّةِ يومئذ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحسَنُ مَقِيلاً ﴾ .

وقوله « غَدَتْ والثَّرى أولَى بها من وليِّها » تحسُّر ، فيقول : ابتَكرَتْ وهى فى مَلَكة الثُّراب دون ملكة وليِّها ، فالثَّرى صار أولى بها . والانتقالُ من بين الأحْيَاء إلى الأموات أحقُّ وأوجبُ فى أمرها . وقوله « إلى منزل ناء لعينك دانِ » مثلُ قول الآخر[1] :

. . . أمَّا جِـوَارُهمْ فدانٍ وأمَّا الملتقَى فبعيد[2]

وقد أَلَمَّ فى قوله « غَدَتْ والثَّرى أولَى بها » بقول الآخَر[3] :

صلَّى الإلهُ عليكِ مِن مَفقودَةٍ إذْ لا يلائمُكِ المكانُ البَلْقَعُ

وقوله « فلا وجدَ حتى تَنزِف العينُ ماءها » يريد به : لا وجد يُعتَدُّ به إذا ذُكِر المَلَم على مثله حتى تستنفدَ العينُ دمعَها ، لاتِّصال البكاء بها ، وحتى تستمرّ الأحشاء فى خفَقان القلب فتذلّ له وتصبرَ عليه ، حتى يصير عادةً وسجيّةً ويقال : عَرَفَ فلانٌ لكذا واعترَف له ، إذا صَبَر فيه واعتاده . على ذلك قوله :

* على عارفاتٍ للقاء عَوَابِسٍ[4] *

ويقال نَزَفتُ البئرَ وأنزَفتُها جميعاً ، قال العجّاج :

---

(١) هو عبد الله بن ثعلبة الحنفى ، فى الحماسية ٢٩٧ ص ٨٩١ .

(٢) أوله : « هم جيرة الأحياء » .

(٣) هو مويلك المزموم ، فى الحماسية ٣٠٥ ص ٩٠٣ .

(٤) للنابغة فى ديوانه ٥ . وعجز :

* بهن كلوم بين دام وجالب *

* وأنزفَ العَبْرةَ من لاقى العِبَرْ *

وفى المثل « أجْبَنُ من المنزوفِ ضَرِطًا » .

وقوله « لا وَجْدَ » خبرهُ محذوف ، كأنّه قال : لا وجد حاصلٌ أو موجود .

والخفقانُ فى القلبِ والجناح : الاضطراب ، ومنه خَفْقُ البُنُودِ والأعلام ، حتّى سُمِّى الأعْلَامُ خوافِقَ . قال :

لقد تركتْ عفراءُ قلبى كأنّه جَناحُ عُقَابٍ دائمُ الخفَقانِ[1]

٣٢٤

وقال مُسْلِمٌ أيضاً[2] :

١ ــ قَبْرٌ بحُلْوَانَ استَسَرَّ ضَرِيحُه خَطَرًا تَقاصَرُ دُونَه الأخطارُ

٢ ــ نَفِضَتْ بِكَ الأحْلَاسُ نَفْضَ إقامةٍ واسْتَرْجَعَتْ نُزَّاعَها الأمْصارُ

قوله « استسرّ » بمعنى أسَرَّ ، ومثله استعجب بمعنى عَجِبَ . وأكثر ما ترَى استسرّ يكون فى معنى استَخْفَى وتوارَى . على ذلك قولهم فى آخِرِ الشهر استَسَرَّ القمرُ ليلةً أو ليلتين ، فهو من السِّرَار ، وهو آخِرُ يومٍ فى الشَّهر ، والخَطَر : ارتفاع المكانةِ والحالِ فى الشَّرف ، ثم يقال فى الشَّريف : هو عظيم الخَطَر . والضَّريح ، أصله القَبر يُشَقّ وسطُه ولا يُلحَد . وارتفع « قبر » بالابتداء لأنّه بصفته وهو بحلوان قرُبَ من المعارف ؛ واستَسَرَّ فى موضع الخبر . والمعنى : قبر بهذا المكان اشتمَلَ جوفُه على عظيمٍ من العظماء ، رفيعِ المكانةِ جليلِ الخطر ، يتقاصر عنه كلُّ عظيمٍ جليل . وقوله « خطَرا » أراد ذا خطر ، فحذَف المضاف ،

(١) البيت لعروة بن حزام فى ديوانه مخطوطة الشنقيطى ، وأمالى القالى (٣ : ١٦٢) .

(٢) يقولها فى رثاء يزيد بن مزيد . ديوان مسلم ٢٣٨ والبيان (٣ : ١٤١ ، ٢٦٠) وأمالى القالى (١ : ٢٧٦) .

وكذلك الأخطار ، أراد ذَوُو الأخطار . وقوله « تقاصَرُ » يجوز أن يكون من القصور : العجزِ ، أى تعجِزُ أن تبلغ مَحَلَّه الأخطار . ويجوز أن يكون ضدَّ تطاوَل فيكون من القِصَر .

وقوله « نُفِضت بك الأحلاسُ نَفْضَ إقامَةٍ » يريد أنّ العُفاة قعدوا عن الاجتداء بعد موتِكَ يأسًا ممن يُطمَع فيه ، أو يُرْجَى خيرُه ، فنَفَضوا أحلاسَ رواحِلِهم نَفْضَ مَن يقيم فى بلاده ويطَّرِح التَّرحال . وقوله « استرجَعَتْ نُزَّاعَها الأمصارُ » معناه أنّ مَن كان على بابه انصرفوا إلى أوطانهم نافضين أيديَهم ممَّن يتعطَّف عليهم ، أو يصطنِعُهم وينظُر لهم ، فكأنَّهم كانوا ودائعَ الأمصار عندهُ مدَّةَ مُقامِهم ببابه فارتجَعَتْهُم . والنُّزّاع : جمع نازِع ، وهو البعيد والغريب جميعا ، وكذلك النَّزيع والجميع النزائع . ويجوز أن يكون مِن نَزَعْتُ إليه نِزَاعًا ، أى حَنَنْتُ . فيقول : المقيمُ فى موضِعه رَفَضَ التَّرحالَ ، والمسافر عاد إلى مَقَرِّه يأسًا مِن كَسب المال .

٣ – فاذهبْ كما ذَهَبَتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ أثْنَى عليها السَّهْلُ والأوْعَارُ

٤ – سَلَكَتْ بِكَ العَرَبُ السَّبِيلَ إلى العُلَى حَتَّى إذا سَبَقَ الرَّدَى بِكَ حارُوا

يقول : اذهب لوَجْهِك وآلاؤكَ منشورةٌ ، وصنائعُك محمودةٌ مشكورة ، وآثارك كآثار السُّحبِ وقد أغاثت النّاسَ بأمطارها ، فإذا أقْلَعَتْ تَرَى أهلَ السهلِ والوَعر يُثْنون عليها . والغوادى : السَّحابات التى تنشأ غُدْوَةً ، وكأنّه أراد أقطاعًا منها ، وأضافها إلى المُزْنة لأنّها منها تجمّعت فكَمَلَتْ مُزنةً . ويجوز أن يكون المراد بالغوادى أمطارًا تَصُوب غدوةً ، وأضافها إلى المزنة .

وقوله « سلكت بك العَرَبُ السَّبِيلَ إلى العلى » يريد أنّك هادِى العربِ ودليلُهم فى اكتساب المعالى وابتداء المكارم ، فأنت قائدهم وهم يطَوُون عَقِبَك ،

ويقتدُون بكَ ، حتّى إذا فقدوا إرشادَكَ تحيّروا فلم يهتدوا ، وضلّوا فلم يَرشُدوا . ومعنى « سَبَقَ الرَّدَى بك » كأنّهم كانوا يتشبّثون به ويَلزَمونه حافظين بقاءهُ فجاء الرَّدَى يطلبُه ويختاره ، فانتهزَ الفُرصةَ فى السَّبق به واجتذابِه من أيديهم ، والفوز به من دونهم . ومفعول سَبَقَ محذوف ، كأنّه قال سبقَهم الرَّدَى[1] بك .

٣٢٥

وقال حَنَشٌ[2] فى يعقوبَ بنِ داود :

١ — يعقوبُ لاتَبْعَدْ وجُنِّبْتَ الرَّدَى   فَلَنَبْكِيَنَّ زَمَانَكَ الرَّطْبَ الثَّرَى

٢ — وَلئِنْ تَعَهَّدَكَ البلاءُ بنفسه   فلقِيتَهُ إنَّ الكريمَ لَيُبْتَلَى

لم يَرضَ بالجرىِ على عادة النَّاس فى قولهم عند المصاب : لا تَبْعَدْ ، حتَّى زاد عليه « وجُنِّبتَ الرَّدَى » ليكون الكلامُ أدلَّ على التوجُّع ، وأوفَى بالتَّنبيه على حاجة النّاسِ إلى بقاء المتوفَّى . وقوله « فَلَنَبكِيَنَّ زمانَكَ الرَّطبَ الثَّرَى » يشير فيه إلى إحسانه الضَّافى ، ومعروفِه الواسع الوافى ، وأنَّه كان للناس كالحَيَا يُحيِى الأرضَ وسُكَّانَها ، فكانَ ثَرى الأرضِ به رطْبا ، وزمانُه خِصبا . وفيه إلمام بقوله :

(١) هنا تنتهى النسخة التيمورية . وتستمر المقابلة بين نسختين : الأصل ، ل .

(٢) وكذا فى ل . وعند التبريزى : « أبو حنش الهلالى » ، وهو الصواب . قال التبريزى : « قال أبو هلال : قال دعبل : اسمه خضير بن قيس النميرى . بصرى ، كان يحفظ القرآن ، وعاش مائة سنة ، وصحب يعقوب وزير المهدى ، فلما حبسه المهدى ونال منه ما نال . قال . . . » . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ عند ذكر دواوين بعض الشعراء : « أبو حنش النميرى ثلاثون ورقة » . وكان كما ذكر أبو الفرج فى الأغانى (١٨ : ٧٤) على صلة بأبى محمد اليزيدى ، قال له يوماً يا أبا محمد : قل أبياتاً قافيتها على هاءين . فقال أبياتاً منها :

أبلغ حضيراً عنى أبا حنش   عائرة نحوه أوجهها

وردت حضيراً فى الأغانى بالحاء المهملة . ومما يجدر ذكره أن الأبيات ليست رثاء فى ميت ، بل هى رثاء لحى ، كما سبق نظيره فى الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

* اذهَبْ كما ذهبَتْ غوادِى مُزْنَةٍ[1] *

وقوله « ولئن تعهَّدَك البلاء بنفسه » أفاد قوله « بنفسه » إكبارَ الأمرِ وتفظيعَ الشَّانِ فى موته وفقْدانه، كأنَّ البلاء لم يرضَ فى الذَّهابِ به بأن يعتمِد على نائبيهِ ورسُلِه، بل جاءه بنفسه. وقوله « إنَّ الكريمَ ليبتلى » تَسْلِيَةٌ[2]. ومعنى « تعهَّدَك » أى نَظَر هل أنتَ على ماعَهِدَك ليَرى فيك رأيَه. وفى الكلام إلمامٌ بقول الآخر[3]:

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطفِى عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المتشدِّدِ

ويعنى بالبلاء الموتَ، وقد يكون فى غير هذا الموضِع النِّعمةَ والاختبار. ومنه قوله تعالى: ﴿ لِيَبْتَلِيَ اللهُ ﴾، أى يَمتحِن. وقوله « لئن » اللام موطِّئة للقسم، وهو مضمر وجوابه « إنَّ الكريمَ ليبتلى ».

٣ــ وأرى رجالاً يَنْهَسُونَكَ بَعْدَما أغْنَيْتَهمْ مِن فاقةٍ كلَّ الغِنَى

٤ــ لو أنَّ خَيْرَكَ كان شرًّا كُلُّهُ عِندَ الّذِينَ عَدَوْا عليكَ لَمَا عَدَا

معنى ينهسونك يغتابونك، وأصل النَّهس فى العظْم إذا عُرِقَ ما عليه من اللَّحم. وانتصب « كلَّ الغِنى » على المصدر، ووضع الغنى موضع الإغناء على عادتِهم فى وضع الاسم موضعَ المصدر. والمعنى: أرى مَن أحسنتَ إليه وأنعشتَه وبعد الفاقةِ أغنيتَه، يتنقَّصك ويغتابُك، سوء محافَظةٍ منهم، ولدناءةِ أصلهم ولؤم عِرقهم.

ثم قال: لو أنَّ خيرك عندهم كان كلُّه شرًّا لما جاوز فعلُهم بك، ومكافأتُهم لك، ما تراه. ومعنى « عَدَوْا عليك » ظلموك. ومعنى « لَمَا عدا » لَمَا جاوز

---

(١) من الحماسية ٣٢٤ لمسلم بن الوليد. والنص هناك: « فاذهب ». وعجزه:
* أثنى عليها السهل والأوعار *

(٢) هذا ما فى ل. وفى الأصل: « يسليه ».

(٣) هو طرفة بن العبد، فى معلقته.

ويقال عدا عليه عَدْوا وعُدُوًّا وعَدَاء وعِدْوانا . وارتفع « كلُّه » على التوكيد للمضمر فى كان ، ويجوز أن يكون اسم كان . وفى قوله « لَمَا عدا » ضمير للشرّ ، ومفعوله محذوف ، كأنه قال : لَمَا جاوز الشَّرُّ ، أى جزاء الشَّرّ ، ما يأتونه فى نقيصتك والوضع منك . والكلام تحسُّرٌ وتَشَكٍّ من متحمِّلى صنائع المفقود ، وذمٌّ للدّهر وأهله .

٣٢٦

وقالت صَفِيَّةُ الباهليّة[١] :

١ ـ كُنَّا كغُصْنَيْنِ فى جُرْثُومةٍ سَمَقَا ... حِيناً بأحْسَنِ ما تَسْمُو له الشَّجَرُ[٢]

٢ ـ حَتَّى إذا قيلَ قد طالَت فُروعُهُما ... فطابَ فَيْئُاهُما واستُنْظِرَ الثَّمَرُ[٣]

قوله «سمقا» أى طالا فى كال . والجُرثومة : الأصل فيقول : كنا كغُصْنَيْنِ خَرجا من أصلٍ واحد فنَميا وطالا ، واستكملا زماناً ، وبقيا يزدادانِ على أحسنِ ما تزداد له الأشجار ، حتَّى إذا فرّعا ، وآتتْ أغصانُهما وبرّعا ، وكثر ورقُهما ، واستُطيب ظلُّهما ، وصارا يُنتظر ثمرها ، وقَفَ الأمرُ بهما دونَ الغايةِ المرجوّةِ فيهما ، ودُعِيَ أحدهما مقدَّما على الآخر للمحتوم لهما . والفَرع من كلِّ شىء : ما تفرّع منه فى أعلاه . الفىء من الظّلّ : ما فاء من جانبٍ إلى جانب . ومعنى استُنظِر انتُظِر . ورواه بعضهم : « واستُنضِر الثّمر » ، أى وجد ناضراً غضًّا . والأوّل أحسن .

---

(١) هى إحدى الأعرابيات . وذكر ابن عبد ربه فى العقد (٣ : ٢٧٧) أن الأبيات رثاء لزوجها ، وذلك فى باب (من رثت زوجها) ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) أنها رثاء لأختها .

(٢) العقد : « بسمقا » ، عيون الأخبار : « سموا حيناً على خير ما ينمى » ، التبريزى : « ما يسمو » .

(٣) العقد وعيون الأخبار : « وطاب قنواهما » .

٣ – أَخْنَى عَلَى واحدٍ رَيْبُ الزَّمانِ وما يُبْقِي الزَّمانُ على شيءٍ وما يَذَرُ[١]
٤ – كُنّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ يَجْلُو الدُّجَى فهَوَى مِن بَيْنِها القمرُ[٢]

قوله « أخنى » جواب إذا من قوله « حتى إذا قيل قد طالت فروعهما » ، وقوله « وما يُبقى الزَّمان » اعتراض حَصَلَ بين ما قبله وما بعدَه من القصّة ، مؤكِّدٌ له . فيقول : لمَّا بلغ الأمرُ بنا ذلك المبلغَ أناخ حَدَثانُ الدّهرِ على أحدها فأتلفه وأفسده ، والزَّمانُ هذا دأبُه ، لا يَسلَمُ عليه شيءٌ ، بل يرتجعُ كما يُعطى ، ويَسلبُ كما يَهَب .

ثم قال : « كُنَّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ » ، وهذا تشبيه ثانٍ ، كأنها فى الأوّل – وهو كُنّا كغُصْنين – شَبَّهتْ نفسَها وصاحبَها بغُصنَين ، وفى الثّانى شبَّهتِ العشيرةَ كلَّها والمتوفَّى فيها ، بنجوم ليلٍ أحدقَتْ بقمرٍ استضاء ظلامُ اللَّيلِ بنُورِه فسقط ذلك القمرُ من وسطها فعادَ اللَّيلُ كما كان .

وهذا الكلام فيه تفضيلٌ المتوفّى على ذَوِيه كلِّهم ، فإنَّهم كانوا يَستكشِفون ظُلمة حوادثِ الدَّهرِ من جهته ومكانِه ، فلمَّا فارقَهم عادَ الشَّرُّ جَذَعًا[٣] ، والضِّياءُ حِندِسا .

---

(١) انفرد ابن قتيبة برواية « على واحدى » و « لا يبقى » و « لا يذر » .

(٢) ابن قتيبة : « وسطنا قمر . . . من بيننا » . وقال : ومن هذا أخذ الطائى – يعنى أبا تمام – قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

انظر ديوان أبى تمام ٣٦٩ .

(٣) عاد جذعا ، أى جديداً كما بدأ ، وأصل الجذع من الدواب والأنعام الصغير السن قبل أن يثنى بسنة ، وهو أول ما يستطاع ركوبه والانتفاع به .

٣٢٧

وقال التَّيمىّ[١] فى منصورِ بنِ زِيَاد[٢] :

١ ــ لَهفِى عليك لِلَهْفَةٍ مِنْ خائفٍ　　يَبْغِى جِوَارَكَ حِينَ لَيْسَ مُجِيرُ

« لَهفى » مبتدأ ، وهو لَهفُ مضاف إلى ضمير النَّفس ، ففرّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفا . ولو رُوى لَهفِى عَلَيْكَ ، لجاز ، ويكون جاريًا على أصله . و « عليك » فى موضع الخبر . واللام من لِلَهفةٍ متعلّقٌ بما دلّ عليه لَهفَى . فيقول : لى عليك حسرةٌ شديدةٌ من أجلِ حسرةِ رجلٍ نابَهُ من حوادثِ الدَّهرِ ما اختَشَى لهفطلب جِوَارَكَ ، والاستعاذةَ بِفِنائك ، وقتَ لامجيرَ له ثم لا يَجِدُك . وقوله « حينَ ليس مجير » ظرفٌ لِيَبغِى ، ويبغِى فى موضع الصِّفة لخائف . وخبر ليس محذوف ، كأنَّه قال : حينَ ليس مجيرٌ فى الدُّنيا ، أو ينعَشُه ، أو ما أشبه ذلك . وأضاف حينَ إلى ليس فبناهُ لأنَّ المضافَ إليه غيرُ متمكِّن ، فاكتسب البناء من جهته ، فالفتحة فى حينَ فتحةُ بناء . ولا يمتنع أن يكون فتحةَ إعراب ، كأنَّه أجرى حينَ على سلامته ولم يعتدَّ بالإضافة فيه .

٢ ــ أمَّا القبُورُ فإنّهنّ أوَانِسٌ　　بجِوَارِ قَبْرِكَ والدِّيارُ قُبورُ

٣ ــ عَمَّتْ فوَاضِلُهُ فعَمَّ هَلاَكُهُ　　فالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مأجُورُ

---

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : هو عبد الله بن أيوب ، ويكنى أبا محمد ، عربى من أهل اليمامة ، فصيح كلامى . وقال الفضل بن سهل لأبى سهل الخطاب الأزدى : من أشعر من بقى ؟ قال : مسلم . قال : لا ، بل التيمى . ومن مشهور قوله :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة　　وإن عظموا للفضل إلا ضائع
ترى عظماء الناس للفضل خشعاً　　إذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة　　وكل رفيع عنده متواضع »

(٢) منصور بن زياد : أحد وجوه الدولة العباسية ، وكان ابنه محمد بن منصور كاتباً للبرامكة ، الشعراء ٨٣٠ .

يقول : فارقْتَ الأحياء وفى كلِّ فِرقةٍ من فِرَقهم غَمٌّ شامل ، وزفرةٌ متَّصلة ، فاختلَطْتَ بالأموات ، فالأُنس الذى كان فى الأحياء انتقلَ بانتقالك إلى الأموات ، فديارُ الأحياء ذاتُ وَحْشةٍ ونُفُور ، فهى كالقُبورِ لِمَا حصَل فيها من الفجْع بك ، وفارَقَها من نَسيم الرَّوْح والرَّاحةِ بفراقك . وقبورُ الأموات ذواتُ أُنْس وقَرارٍ بمجاورتها لقبرك ، ولما يَغدُو ويروح إليها من زُوّارِك .

وقوله « عَمَّتْ فواضِله فعَمّ هلاكُه » يريد أنَّ إحسانَه عَمَّ الخلْق ، وصنائعَه شمِلتْهم ، فبحسب ذلك عمَّتْهم الفجيعةُ به ، فالنَّاسُ كلُّهم مُصابون مأجورون ، قد استوت أقدامُهم وتناسَبَتْ أحوالُهم فيما نالَهُمْ من الحسرة فيك ، وأضرَّ بهم من الخلَلِ الواقِـع فى عَيْشهم بك .

٤ ــ يُثْنِي عَلَيْكَ لِسَانُ مَنْ لَمْ تُولِهِ خَيْرًا لأَنَّكَ بالثَّناء جَـدِيرُ

٥ ــ رَدَّتْ صَنَائعُهُ إليه حياتَهُ فـكأَنَّهُ من نَشْرِهَا منشور

يقول : عَرَف النَّاسُ على اختلافهم وتبايُنِ أوطانهم ، فضلَكَ وفواضلَك ، فاتفَّقت ألسنتُهم فى الثَّناء عليك والحمدِ لك ، فمَنْ لم تُسْدِ إليه خيراً منك ، ولم تُشركه فى النِّعمة عِندك ، صار مقتدياً بغيرِه فى إطرائكَ ومدحِك ، وتقريظِك وتزكِيَتك ، لأنَّك عندهم كلِّهم جديرٌ بذلك ، لا لمـكافأةٍ على إحسانك ، وَلا لشكرٍ وجَبَ عليهم فى تحمُّل أفضالِك .

وقوله « رَدَّت صنائعُهُ إليه حياتَهُ » ، يقول : تذاكَرَ النَّاسُ بعوارِفك لديهم ، ونشروا محامدَك فيهم ، فـكأنَّك حىٌّ لم يُوارِكَ قبر ، ولم يَفُزْ بك موت . ويقال أنشر اللهُ الموتَى ونَشَرهم جميعاً . وأَنْشَرَ أفصح . وقوله « من نَشْرِها » أى من نَشْر النَّاس لها ، فأضيف المصدر إلى المفعول .

٦ ــ فالنَّاسُ مأتَمُهُمْ عَلَيْهِ واحِدٌ فى كلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفِـيرُ

٧ – عَجَباً لأرْبَعِ أذْرُعٍ فى خَمْسَةٍ   فِى جَوْفِهَا جَبَلٌ أشَمُّ كَبِيرُ

أصل المأتم النِّساء يجتمِعْنَ فى الخير والشَّرّ ، وجعله هاهنا المصيبةَ نفسَها . والرَّنين : الصَّوت . والرَّنَّة الفَعْلَةُ منه . وانتصب « عَجَباً » على المصدر ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنَّه قال : عجِبْتُ عَجَباً . وإنَّما قال أربَع أذرع ، لأنَّ الذِّراع مؤنثة ، وفى خمسة لأنَّه أراد الأشبار . والشِّبْر مذكَّر . ويشبه هذا قوله :

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجُودَ والجودُ ميِّتٌ   ولَوْ كان حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعا[1]

والجبل الأشَمُّ : الطَّويل الرَّأْس . ويقال عِزٌّ أشمُّ ، يراد به الارتفاع .

٣٢٨

وقال نَهارُ بنُ تَوسِعَةَ[2] يَرْثِى أخاه :

١ – عِتْبَانُ قد كُنتُ امرأً لِىَ جانِبٌ   حَتَّى رُزِئتُكَ والجُدُودُ تَضَعْضَعُ

٢ – قد كنتُ أشْوَسَ فى المَقامَةِ سادِراً   فنظَرْتُ قَصْدِى واستَقامَ الأخْدَعُ

يقول : يا عِتْبان ، كنتُ رجلاً كان لى ملاذٌ ألوذ به ، وجانبٌ أستنِم إليه ، وأتعزَّز بعزِّه ، إلى أن فقدتُك ، والجُدود تنحطّ بعد الارتفاع ، وتعوجُّ عَقِيب الاستواء . فقوله « والجدود تضعضع » اعتراضٌ ، لأنَّ قوله « كنتُ أشْوَسَ » متَّصل بما قَبلَه . والشَّوَس هو النَّظَر فى اعتراضٍ كنظر الغَضْبانِ والكارهِ للشَّىء

(١) للحسين بن مطير ، فى الحماسية ٣١٩ .

(٢) نهار بن توسعة بن تميم بن عرفجة بن عمرو بن حنتم بن عدى بن الحارث بن تيم الله ابن ثعلبة ، أحد شعراء بكر بن وائل هو وأبوه توسعة . وهو شاعر أموى . قال التبريزى : « وكان أشعر بكرى بخراسان » . وهو القائل ليزيد بن المهلب :

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها   وكل باب من الخيرات مفتوح

فاستبدلت « قتبا » جعدا أنامله   كأنما وجهه بالخل منضـوح

يعنى قتيبة بن مسلم . المؤتلف ١٩٣ .

المعرضِ عنه والمُقَامة : المجلس . والسَّادر : الذاهب عن الشَّيء ترفُّعاً عنه . ويقال أتى فلانٌ أمْرَه سادراً ، إذا جاءه من غير جهتِه . والسَّدَر : ظُلمة تَغشَى العين ، وكأنَّ السادر منه . وقوله «فنظرتُ قَصدِى» أراد نظرت حيثُ أقصِدُ ، ومكانَ قَصدِى . وإعرابه يجوز أن يكون نصبا على الظَّرف ، وقد حُذف اسم المكان معه ، ويجوز أن يكون مصدراً ، كأنه قال : فنظرت أقصِد قَصدِى ، أى قاصداً قصدى فدلَّ المصدرُ على اللَّفظ بالفعل ، والواقعُ موقع الحال هو الفعل . ومعنى البيت : قد كنتُ بما فى نفسى من الكِبْر والتعلِّى على النَّاس أنظرُ إلى أهل المجلس نظرَ المعترِض عليهم ، المعرِض عنهم المستَهين بهم ، المأخوذِ عن قصدى فيهم عجباً واستغناء ، فلما فقدتُك زالت تلك الخُنزُوانة عنى ، واستقام عنقى من الصَّوَر العارض له ، كما اعتدل نظرِى فزال عنه الشَّوَس الذى كان فيه .

ويُستحسن لأوس بن حَجرٍ قوله :

* تَشَاوَسْ يزيدُ إنَّنِى مَنْ تَأَمَّلُ[(١)] *

٣- وفَقَدتُ إخْوَانِى الَّذِينَ بعَيْشِهِمْ   قد كنتُ أُعْطِى ما أشاء وأَمْنَعُ[(٢)]

خاطب عِتبانَ فيما تقدم ، وشكا بَثَّهُ إليه ، على عادة النَّاس فى إظهار التلهُّف عند مخاطبة المفقود ، والجرىِ فى مباثَّته على عادتهم معه فى حياته . وفى الثَّانى أخبَرَ عن نفسه بأنَّه مُرَزَّأٌ فى إخوانه . كأنَّ المصائبَ كانت متوافيةً إليه ، ملحَّة فى تكرير الفجائع عليه ، فإخوانُه تفانَوْا واحداً بعد واحد ، وتدانَوْا فى التَّتابُع سَنَدا بعد سند ، فقال : ورُزئت إخوانى الذين كنت أعطِى ما أشاء

(١) لم يرو فى ديوان أوس بن حجر . وأنشده فى مجالس ثعلب ١٥٥ والإنصاف ٣٤٤ . ورواية ثعلب : « تشاوس قليلا » وابن الأنبارى : « تشاوس رويداً » . وصدره فيهما :

* يقلب عينيه كما لأخافه *

(٢) سبق نظيره فى الحماسية ٢٧٧ فى قول البراء بن ربعى :

ثمانية كانوا ذؤابة قومهم   بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع

إعطاءه ، وأمنع ما أشاء منعه ، مدّة عيشهم ، وزمنَ بقائهم . ويقال : عشت عَيْشاً ومَعاشا . والمَعيش والمَعيشة والمَعاش . اسمُ ما يُعاش به . ويقال هو عائشٌ أي حاله حسنة .

٤ — فلِمَن أَقولُ إذا تُلِمُّ مُلِمّـةٌ أَرِنِي بِرأيك أم إلى مَنْ أَفْزَعُ

٥ — فليأتينَّ عليـكَ يومٌ مرّةً يُبْـكَى عليك مُقَنَّعًا لا تَسْمَعُ(١)

قوله « فلِمَنْ أقولُ إذا تلمُّ ملمة » كلامُ من سلبه القَدَر إخوانَه ، وقصَّ جناحه فأعياهُ طيرانُه(٢) ، فمتى طرقَهُ حادثٌ أو ألمّ بساحته من الدّهر نائبٌ لم يكنْ له مَن يرجعُ إليه مستشيراً ، أو يقتبس من نور رأيِه مستضيئاً ، ولا وجدَ مَن يستدفِـع به البلاء أو يستَعْدِيه على مهتضِمِه ، فيصرِفُ بقوّته عن نفسه العَداء فيبقى أسِير الغِيَر ، وقيذَ الفكر(٣) . ومعنى « أرِنِي برأيك » أرشِدْني برأيك ، واهدِني بنظَرِك . وقد حذف المفعول الثاني لقوله أرنى ، والمراد أرِني الصّوابَ أو وجْه الأمرِ برأيك . ويقال : رأيْتُ الشّيء بعيني رُؤْيةً ورأيا ، ورأيته بقلبي رأيا لا غير . فأمّا قولُ زُهير :

فقال أميرى ما تَرَى رَأْيَ ما تَرَى أنَخْتِلُه عن نفسه أم نُصَاوِلُه(٤)

فالمراد به ما تَرَى رأيَ أيِّ الأمرين ترى . فما ترى سؤالٌ عن جُملة الرّأى ورَأْيَ ما تَرَى سؤالٌ على طريق التّفصيل ، وقد بيّنه بقوله أنختله أم نصاوله . وقوله « إلى مَن أفزع » يقال فَزِعت إلى فلان أفزع ، إذا التجأتَ إليه ؛ وهو

(١) أخذه من قول متمم بن نويرة فى البيت ٤٥ من المفضلية ٩ .
(٢) فى نسخة الأصل : « فأعيا طيرانه » ، وأثبتنا ما فى ل .
(٣) كذا فى النسختين . والوقيذ : المغشى عليه ، والذى يضرب حتى يشرف على الموت . وقذ ، فهو موقوذ ووقيذ .
(٤) رواية الديوان ١٣٢ : « ما ترى رأى ما نرى » . وفى شرحه : « أميره : الذى يؤامره . ما ترى رأى ما نرى فى الصيد ، أى قد رأينا كذا وكذا فما ترى فيه » .

لنا مَفْزَع ، أى نفزَعُ إليه . وفى ضدِّه يقال : هو لنا مَفزعةٌ ، أى نفزع منه . ويَستوِى فيه الواحد والتثنية والجمع ، والمذكَّر والمؤنث .

وقوله « فلَيأتينّ عليك يومٌ مَرّةً » خِطابٌ لنفسه . وقد ألمّ بقول الآخر[1] :

* وإخالُ أنّى لاحِقٌ مُستَتْبَعُ[2] *

يريد أن أجَله قد قرُبَ ولا بقاء للرُّوح على ما يمارسه ويزاولُه . وأشاد بقوله « يومٌ » إلى وقت النّازلة . ويقال فعل كذا مَرًّا ومَرَّيْن كما تقول مرّةً ومرتين ، و « مقنّعا » انتصب على الحال من قوله « يُبكَى عليك » ومعناه مُسَجًّى مستور الوجه . ولا تَسمع فى موضع الصِّفة لقوله مقنّعا ، أى مقنعا غير سامع عَولةَ الباكِى . و « ليأتينّ » جواب يَمينٍ مضمرة ، ويُبكَى عليك فى موضع الصِّفة ليومٌ ، أى يومٌ يُبكَى عليك فيه ، أو يُبكاهُ عليك إن قدّرته تقدير المفعول به . ومثله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ، وقد مرّ القول فيه[3] .

٣٢٩

وقال يزيد بن عَمْرٍو الطائى[4] :

١ — أصابَ الغَليلُ عَبرتِى فأسالَها   وعادَ احتمامُ ليلـــتى فأطالَها

٢ — ألاَ مَن رأى قومى كأنّ رِجالَهُمْ   نَخِيلٌ أتاها عاضدٌ فأمالَها[5]

الغَليل : حرارةُ الجَوف ، يقال به غُلّة . والاحتمام : القَلَق والانزعاج ، يقال أحَمّنى الأمرُ إحماما . والعاضد : قاطع النَّخْل ، والذى يُقطَع به يقال له

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢) ، والمفضليات (٢ : ٢٢١) .

(٢) صدره : * فغبرت بعدهم بعيش ناصب *

(٣) انظر ما مضى فى ص ٣٣ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) التبريزى : « من رأى قوما » . وقال : « قال أبو العلاء : إذا رويت : أتاها عاصف فأمالها ، فهى من عصف الريح » .

المُعْضَد . فيقول : تناهَى حَمْىُ جَوفى وغُلّة كَبِدى ، فأَسَلتُ دمعى إطفاءً لنائرتها ، وعاد قاقُ ليلتى ، وطار النَّومُ عنّى فطال له ليلتى . وقوله « احتمام ليلتى » أضاف الاحتمامَ إلى ليلته لكونِهِ فيها ، ولاجتماع الوساوس عليه ، لتَفرُّدِه عما يشتغل به . ويروى : « احتمامى ليلتى » ، ويكون ليلتى فى موضع الظَّرف ، يريد احتمامى فى ليلتى . وإنما قال احتمامُ ليلتى لما كان تقدَّمَ من مصائبه فى عشيرته .

وقوله « ألاَ مَن رأى قومى » لفظه استفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . وقد يأتون به على الخطاب هل رأيتَ قومى ؟ كأنّ هذه الرُّؤْيةَ مستنكَرة فهو يَستثبِت . وقوله « كأن رجالَهم نَخيلٌ » شبَّههم وقد صُرِعوا بنخيلٍ معضودة . وهذا التشبيه ورَد مثلُه فى القرآن ، فى قوله تعالى : ﴿ كأنَّهُمْ أعجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ﴾ . وجملةُ المعنى كأنه يُنكِر أن يكون قومُه بهذه الصِّفة ، فقال مستثبتاً على طريق التحسُّر : مَن رأى قومى مَقتَّلين مُصرَّعين كأنّ فُرسانَهم نخيلٌ قَصَدها عاضدٌ فأمالها . وفائدة أمالَها ، على فصاحته فى هذا الموضع ، تصويرُ حالة الرِّجال حِينَ تُرِكوا بالعَرَاء كيف تُرِكوا .

٣ – أُدَفِّنُ قَتلاها وآسُو جِراحَها وأَعلَمُ أن لا زَيْغَ عمَّا مُنَى لها

٤ – وقائلةٍ مَنْ أَمَّها طالَ ليلُهُ يزيدُ بن عمْرٍو أَمَّها واهتَدَى لها

وَصف حالتَه وما مُنى به فى ذَوِيه وعشيرته ، وكيف تولَّى من المقتولين دفنَهم ، ومن المجروحين أَسْوهم ، لأنه إذا احتاج إلى تولِّى ذلك منهم كان أشقَى له وأعودَ بالكَمَد عليه . وقوله « وأعلَمُ أن لا زَيْغَ عما مُنَى لها » رِضاً معه بمحتوم القضاء ، وإظهارٌ للتصبُّر فى البلاء ، وتحسُّر على ما فاتَه من القوم فى حالتَى الشِّدَّة والرَّخاء . ومُنَى لها ، يعنى قدِّر لها ، وأصله مُنِيَ ، فأَخرجه على لغتِهِ ، لأنهم يفرُّون من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والزَّيْغ :

الميل والانحراف . وقوله « أن لا زَيْغَ » أن فيه مخففة من الثقيلة ، أراد أنّه لا زَيْغَ . والضمير فى أنّه للأمر والشأن ، ولا زيغ فى موضع خبر أنْ .

وقوله « وقائلةٍ مَنْ أمَّها » مَن فى موضع المبتدأ ، وطال ليله فى موضع الخبر ، كأنه قال : الذى أمّها طال ليلُه . ويزيد بن عمرو مبتدأ آخر وأمَّها فى موضع الخبر ، وهو استئناف كلامٍ منقطع عما قبله . ويعنى بيزيد بن عمرٍو نفسَه .

وروى الأثرم هذه الأبياتَ عنْ أبى عُبيدةَ للنابغة الذُّبيانىّ ، وأثبتَها فى ديوانه وقد غيّر أبياتَه ترتيباً ولفظا ، وقال : إنما هو زياد بن عمرو؛ لأنّ اسم النابغة زياد[1] ، وزعم أنّه قالها فى وقعة طَيِّئٍ يومَ «شَرَاف[2]» ، غزاهم حِصن بن حُذَيفة ومعه النابغة ، فالتقوا بشَرَاف . والناسِبون كالكلبىّ والشَّيبانىّ واليَربوعىّ والأصمعىّ ، ذكروا أنّ النابغة هو زياد بن معاوية بن جابر بن ضِباب بن يربوع ابن غَيْظ بن مُرّة . وأبو تمّامٍ نسبها إلى يزيد بن عمرٍو الطائىّ . وفى ألفاظ هذه الأبياتِ على ماروا أبو تمّامٍ شاهدُ صدقٍ على أنّه ليزيد لاللنابغة. والله أعلم .

ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ قالت متوجِّعةً متحسّرة : من قَصَد هؤلاء المقتولين ، ووُفِّق فى الاهتداء فقد أُطيلَ ليلُه ، لأنه يرِدُ منهم على ما يَجْرح القلب ويُطيلُ السَّهرَ . ثم قال يزيدُ بن عمرٍو : أنا الشقىُّ الذى أَمَّها واهتدى لها ، مجيباً للقائلة . وفائدة اهتدى أنَّ الموضع الذى قتُلوا فيه كان كالملتَبِس عليهم ، فصار هو الطَّالبَ له ، والمهتَدِىَ إليه ، والمنبِّه عليه . وانجرّ « وقائلةٍ » بإضمار ربَّ ، وجوابه مَنْ أمَّها ، والجملة فى موضع المفعول لقائلة . وقد تعرّى قائلة من صفةٍ لها ، وأكثر ما يجىء المجرور برُبَّ يجىء موصوفا .

---

(١) انظر الحيوان (٥ : ٥٥٥) حيث أنشد الجاحظ البيت منسوبا إلى النابغة برواية :

وقائلة من أمها واهتدى لها … زياد بن عمرو أمها واهتدى لها

(٢) يقال بالبناء على الكسر كقطام ، وبالإعراب مع التنوين وعدمه . معجم ما استعجم .

٣٣٠

وقال قَسَامُ بن رَوَاحَةَ السِّنْبِسىّ[١] :

١ — لَبِئسَ نصيبُ القوم من أَخَوَيْهِمُ طِرادُ الحواشى واستراقُ النَّواضِحِ

٢ — وما زال من قتلَى رَزَاحٍ بِعَالِجٍ دَمٌ ناقِعٌ أو جاسِدٌ غيرُ مَاصِحِ

أخويهم يريد صاحبيهم . والعرب تقول : يأخا بكرٍ ، يريد[٢] واحداً من بنى بكر . والحواشى : صغار الإبل ورُذالُها . والنَّواضح : التى يُستقى عليها الماء ، واحدتها ناضحة . وسُمّيت بذلك لأنّه جُعِل الفعلُ لها كأنَّها هى التى تنضح الزّراعاتِ والنَّخيل . وهم يسمُّون الأكّار النَّضَّاح . على ذلك قول الهُذَلىّ[٣] :

هَبَطْنَ بطنَ رُهَاطٍ واعتَصَبْنَ كما يَسقِى الجذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضَّاحُ

فيقول : مذمومٌ فى أنصباءِ القومِ مِن صاحبَين لهم يُقتلانِ طردُ الإبلِ وسَوقُها ، وسرقة البُعران التى يُستَقَى عليها . وإنما جعل الطّرائدَ حواشىَ الإبلِ ونواضحها إزراءً بها ، كما قالت كَبْشَةُ أختُ عمرو بن مَعدِيكرِبَ :

* ولا تأخُذوا مِنهمْ إفالًا وأبْكُرَا[٤] *

يعنى فى الدِّيَة . وهذا تعريضٌ بمن وجَب عليه أن يُهِمّه طلبُ دمِ صاحبِهم

---

(١) التبريزى وابن جنى : « قسامة » بالتاء . وقد ورد برواية المرزوقى فى المؤتلف ٢٢٧ ، والمرزبانى ٣٤٠ حيث رويا أبيات هذه الحماسية ، أى « قسام » . لكن البغدادى فى الخزانة : (٤ : ٨٨) قال : وهو فى بعض نسخ الحماسة قسام بن رواحة ، وفى بعض آخر منها قسامة بزيادة الهاء . ثم نقل نسبه من جمهرة الأنساب : قسامة الشاعر بن رواحة بن جل بن حق ابن ربيعة بن عبد رضا بن ود بن ود بن معن بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء . قال البغدادى : « ولم أر فى نسبه لاسنبسا ولا عنبسا » وهو شاعر جاهلى .

(٢) كذا فى النسختين ، أى يريد القائل .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٤) من الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ . وعجزه :

* وأترك فى بيت بصعدة مظلم *

فاقتصر من الأعداء على الغارة عليهم، وسَرِقة الإبل منهم. وفيه هُزُؤٌ أيضاً، وبَعْثٌ على طلب الدَّم.

وقوله «وما زالَ مِنْ قَتْلَى رِزَاح بعالجٍ دَمٌ ناقع» فالنَّاقع: الثَّابت، مصدره النُّقوع. والماصحُ، قال الخليل: هو الرَّاسخ فى الثرى، وهو هاهنا الذَّليل، والدارس. يقال مصَحتِ الدَّار إذا دَرَست، ومَصح الظِّلُّ، إذا قَصُر. قال الأعشى:

* إذا الآلُ مَصَح[1] *

وهذا الكلام تذكيرٌ بدماء قتلاهم. ورملُ عالجٍ: موضعٌ معروف. ورِزَاح: قبيلة. فيقول: ولا يزال من مقتولِى هذه القبيلة بهذا المكان دمٌ ثابت، أو يابسٌ غير زائل. والمعنى أنَّ دماءهم بحالها ما لم يثأروا بهم؛ لأنَّ غَسْلَ تلك الدِّماء إنما يكون بما يُصَبُّ من دماء أعدائهم.

٣ — دَعَا الطَّيْرَ حَتَّى أَقبلَتْ مِنْ ضَرِيَّةٍ دَوَاعى دَمٍ مُهْرَاقُهُ غيرُ بَارِحِ[2]

لم يَرْضَ بما ذكره فى البيت المتقدِّم من التَّذكير بدماء المقتولين حتَّى بَسطَ القولَ فيه وجَنَّحه بأن قال: دعا دواعى دمائهم طيورَ الأماكِن النَّائيةِ والجبالِ المُطِلَّةِ، حتى أقبلَتْ من ضَرِيَّة — وهو اسم بلادٍ تشتمل على جبالٍ — عَوَافى سباعِها وطيورِها تَستدِلُّ بها، فوقعت عليها تأكل من جِيَفِها. ويجوز أن يريد بالدَّواعى الرِّياحَ الذَّاهبة فى الأقطار. وقوله «مُهراقُهُ غيرُ بارح» أى هو مصبوبٌ موضعَه لم يَحُل ولم يَزُلْ. وأعاد المعنى تفظيعاً، ويجوز أن يريد بقوله «مهراقُه» الموضعَ المصبوبَ فيه الدَّم، كأنَّه يستشهد به فقال: هو غير بارح. وقال مُهراقُهُ والأصل

(١) البيت بتمامه فى ديوانه الأعشى ١٦١:

ولقد أجذم حبلى عامداً بعفرناة إذا الآل مصح

(٢) فى المؤتلف: «غير نازح».

مُهراقٌ فيه . وإنما قلنا هذا ليكون بين هذا وبين قوله « دم ناقع أو جاسد غير ماصِـح » فصْل . والكلامُ يشتمل على ما يُطرِّى المصيبة ويهيِّج الفجيعة ، ويصوِّر مَصرعَ القوم بما يأتيه من عوافى الطَّير . وفيه بعثٌ شديد وحضٌّ بليغٌ على طلب الدّم .

٤ — عَسَى طَيِّئٌ مِنْ طَيِّئٍ بَعْدَ هذِهِ سَتُطفِى غُلاَّتِ الـكُلَى والجوانِـحِ

عسى لفظه وُضِعت للتَّرجّى والتأميل ، إلاَّ أنَّها تؤْذِن بأنّ الفعل مستقبَلٌ مطموع فيه ، فيجب أن يُستأنَى له ، وإن كانت من أفعال المقاربة . وبهذا يَبين عن لفظة « كاد » لأنّ كاد لمشارفة الفعل فهو يلى الفعل بنفسه تقول كاد زَيْدٌ يفعل كذا ، وعسى يَحُولُ بينه وبين الفعل أنْ ، يدُلُّك على هذا أنَّه قال « سَتُطفِئ غُلاَّت الـكُلَى والجوانح » . لمّا كان من شَرط عسى أن يجىء بعده أنْ إيذاناً بالاستقبال جَعَل هذا بدل أنْ السِّينَ ، لأنَّه أشهر فى الدّلالة على الاستقبال ، وإنَّما قال « عسى طيِّئٌ من طيِّئٍ » لأنَّ الجذاب الذى أشار إليه والقتالَ ، كان بينَ بطنَينِ منهما . وقوله « بعد هذه » أشار إلى الحالة الحاضرة ، الجامعةِ لكلِّ ما ذَكره . والجوانح : جمع جانحة ، وهى الضُّلوع القِصار . والمعنى: المطموع فيه من أولياء الدَّم أن يَطلبُوا الثَّأر فى المستقبل ، وإن كانوا أخَّروه إلى هذه الغاية ، فتسكنَ نفوسٌ وتَبرُدَ قلوب . وقد آلَمَ بهذا الكلام كل الإيلام ، لِمَا خَتَم به كلامَه المتقدِّم .

وأبلغ من هذا قول الآخر ، وهو فى طريقته :

وإنى لَرَاجِيكُم على بُطْءِ سعيِكمْ كما فى بطونِ الحاملاتِ رَجاء

٣٣١

وقال سُليمان بن قَتَّةَ العَدَوِى[1] :

١ – مَرَرْتُ على أبياتِ آلِ مُحمَّدٍ فلم أَرَها أمثالَها يومَ حُلَّتِ

٢ – فلا يُبْعِدُ اللهُ الدِّيارَ وأهْلَها وإنْ أصبحَتْ منهم برغْمِى تخلَّتِ

الآلُ عند أصحابنا البصريِّين والأهلُ واحد ، ويدلُّ على ذلك أن تصغير الآل أُهَيْل ، كما أنّ تصغير الأهل أُهَيْل . وأخبرنا الفرّاء عن الكسائى أنه قال : سمعت أعرابيًّا فصيحا يقول : أَهْلٌ وأُهَيْـلٌ ، وآلٌ وأُوَيْلٌ ، قال أبو العبّاس ثعلب : فقد صار أصلين لمعنيين ، لا كما قال أهل البصرة ؛ وحكى أبو عُمَر الزّاهدُ عن ثعلبٍ أنّ الأهل القَرابة ، كان لها تابعٌ أو لم يكن ، والآل : القرابة بتابِعِها . قال : ولهذا أجودُ الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وأفضلُها : اللهمّ صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد : وقد ورد فيه التوقيف . رُوى أن أمير المؤمنين عليه السلام سأل النبىّ صلوات الله عليه : كيف الصلاة عليك؟ قال : « قولوا اللهمّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد » .

وقوله « فلم أرها أمثالَها يومَ حُلَّتِ » ، يريد أنها قد ظهر عليها من آثار الفَجْع والمصيبة ما صارت له وحْشاً ، فحالُها فى ظهور الجزَع عليها ليست كحالها فى السُّرور أيّامَ حَلُّوها . فهو مثل قول الآخر :

بَكَتْ دارُهم من فَقْدِهم فتهلّت دُموعى فأىَّ الجازعَينِ أَلُومُ

---

(١) ذكره ابن قتيبة فى مقدمة الشعراء ٦ باسم « سليمان بن قتة التيمى المحدث » . وفى حواشى بعض أصوله : « ابن قتة هذا عدوى ، وهو أول من رثى آهل البيت » . وذكره الطبرى فى تاريخه (٨ : ٢٤٨) باسم « سليمان بن قتة مولى بنى تيم بن مرة » وذكر أنه كان صديقاً لأسد بن عبد الله القسرى الذى توفى سنة ١٢٠ . وروى له أبو الفرج شعراً فى (١٧ : ١٦٥) . وذكر التبريزى أن البرقى روى هذه المقطوعة لأبى رمح الخزاعى .

أمُستعبِرٌ يَبكِى من الهُونِ والبِلَى   أمَ آخَرُ يبكى شَجْوَه ويَهِيمُ

وقد سلك محمّد بن وُهَيْبٍ مثلَ هذا فى مديحةٍ فى المأمون أوّلها :

طَلَلانِ طال عليهما الأمَدُ   دَرَسَا فلا عَلَمٌ ولا نَضَدُ[1]

لَبِسَا البِلَى فكأنّما وَجَدَا   بَعْدَ الأحبّةِ مثلَ ما أجِدُ

وسلك أبو تمّام هذا المسلكَ فزاد عليهم كلّهم ، لأنّه قال :

قد أقسمَ الرَّبعُ أنّ البَيْنَ فاضِحُهُ   أنْ لم تَحُلّ به عَفراء عن عُفُرِ

وقوله « فلا يُبعِدِ الله الدِّيارَ وأهلها » فيه دلالةٌ على أنّه جعل الدار وحالَها كالمفقودِين وأحوالهم ، إذ كانت لفظة لا تَبْعَدْ ولا يُبعِدِ الله يستعمَل فى الفائت . وقوله « وإن أصبحَتْ منهم برَغْمِى تخلّتِ » تحسُّرٌ على أهل الدار والدار جميعًا .

٣– ألاَ إنّ قَتلَى الطَّفِّ من آلِ هاشمٍ   أذَلّتْ رِقَابَ المسلمِينَ فَذَلّتِ

٤– وكانوا غِياثًا ثم أضحَوْا رزيّةً   ألاَ عَظُمَتْ تلكَ الرّزايا وجَلّتِ

قَتلَى الطفّ[2] : الحسينُ ومن مَعَه من ذويه عليه السلام . وقوله « أذلّت رقابَ المسلمين فذلّت » كأنّها لما أذِلّتْ ، بأن بُغِيَ لعِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدِه عليه السلامُ الغوائلُ ، واستُحِلّ منهم المحارمُ ، ونِيلَ منهم ما كان محظوراً من غيرهم من المسلمين ، فكيف منهم ، وقُهِروا على حقوقهم واستُبيحت دماؤهم وحُرَمهم — التزمَتْ رقابُهم ذلك الذّلّ فأقرّتْ به وخضعت ، ولبستْه لِبسةَ مَن كان ذلك نصيبَه من مواليه ، فصاروا كالراضِين [به[3]] وإن لم يكن ذلك رِضاً . وقوله « وكانوا غياثاً » يريد أنهم كانوا للمسلمين غَوْثاً

(١) من أبيات فى الأغانى (١٧ : ١٤٧ – ١٤٨) .

(٢) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية .

(٣) هذه من ل .

عندما يَنزِل بهم فلا يرجون لمُلِمِّهم ديناً ودُنيا غيرهم ، فلمّا نِيلَ منهم ما نيل صاروا رزيئةً لهم كلِّهم ، لأنَّه بحَسَب رجائهم كان فيهم ، وعلى مقدار مكانتهم من قلوبهم صار نوازِلُ الغمِّ تَنـكِي فيهم ، وفواقِرُ الرُّزْءِ تكسِر ظهورَهم .

وقولُه « ألا عَظُمَت تلك الرَّزايا وجَلَّتِ » التفات ، كأنّه أقبلَ مُسْكِبرًا ومُستفظِعًا على مَن حوله فقال : ما أعظَمَ هذه الرزايا وما أجلَّها ، لقد بلَغَت مَبلَغاً شنيعًا ، وافترّت عن البلايا افترارًا قبيحًا ، فيالَها ما أنكاها وأقرَحها .

٣٣٢

وقالت قُتَيْلَةُ بنتُ النَّضْر بن الحارث(١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل أباها صَبراً(٢) :

١ ــ يا رَاكِباً إنّ الأُثَيْـلَ مَظِنَّةٌ مِن صُبْحِ خامِسَةٍ وأنْتَ مُوَفَّقُ(٣)

الأُثيل : موضعٌ كان فيه قبر النَّضر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم تأذَّى به فقتله صَبْرًا ، وكان من جملة أذاه أنه كان يقرأ الـكتبَ في أخبار العجَم على

(١) كذا في الإصابة ٨٨٤ من قسم النساء ومعجم البلدان (الأثيل) وحماسة البحتري ٤٣٤ والعمدة (١ : ٣٠) . قال البحتري : « وكانت حازمة ذات رأى وجمال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتزوجها حتى كان من أبيها ما كان » . وذكر ابن إسحاق في السيرة ٣٥٩ وأبو الفرج (١ : ٩) والحصرى (١ : ٢٧) أنها « قتيلة بنت الحارث » فهي على هذا القول أخت النضر لا بنته . وقال أبو الفرج في الأغاني : « فيقال إن شعرها أكرم شعر موتور وأعفه وأكفه وأحلمه » .

(٢) هذا على القول بأنها بنت النضر . وأما على القول الآخر فإنها أخته . ومهما يكن فإن مقتل النضر بن الحارث كان يوم مرجعَ النبي صلى الله عليه وسلم من بدر ، أمر عليا أن يضرب عنقه صبراً ، وهو بالصفراء .

(٣) نسب الجاحظ هذه الأبيات إلى ليلى بنت النضر في البيان (٤ : ٤٣) وذكر أنها عرضت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته » .

العرب ، ويقول : محمّدٌ يأتيكم بأخبار عادٍ وثمود ، وأنا منبّئكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة . يريد بذلك القَدْح في نُبُوّته ، وأنّه إنْ جاز أن يكون ذلك نبيًّا لإتيانه بِقصص الأمم السّالفة فإنّي وقد أتيت بمثلها رسولٌ أيضاً . وذكر ابنُ عبّاسٍ في قوله تعالى : ﴿ ومِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيث ﴾ ، أنّها نزلت في النّضر بن الحارث الدّاريّ[1] ، وكان يشترى كتبَ الأعاجم فارسَ والرُّوم ، وكُتُبَ أهلِ الحيرة ، فيحدِّث بها أهلَ مكّة ، وإذا سمِع القرآنَ أعْرَض واستهزأ به . وقُتَيلةُ ابنتُه لمّا جاءت إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنشدَته هذه الأبياتَ رَقَّ لها النبيُّ صلّى الله عليه وسلم وبكى . وقال : « لو جئتِني من قبلُ لعفَوْت عنه » ، ثم قال : « لا يُقتَلُ قرشيٌّ بعد هذا صَبراً » . فأمّا قولها « يا راكباً » فإنها دَعَتْ واحِداً من الرُّكبان غيرَ معيَّنٍ ، فكلُّ من كان يجيبها منهم كان هو المدعوّ . والمَظِنّةُ : المنزِل المَعْلَم . وقولها « من صبحِ خامِسَةٍ » تريد من صبح ليلة خامسةٍ لليلة التي تبتدئ في السَّير منها إلى الأثيْل وأنتَ على الطَّريق غيرُ عادلٍ منها . وإنما تُريدُ أن تقول : إذا كان ابتداء السّير من موضعها يكون انتهاؤه في أُثَيْل من سَيْرٍ يحصُل في صباح ليلةٍ خامسة لليلتها . ومن قولهم[2] : إذا خَرجْت عن مكانِ كذا فموضعُ كذا مَنزِلٌ قَمِنٌ منك ضَحْوَةَ غَدٍ ، وموضعُ كذا مظِنّةٌ من عشيّة يوم كذا . وعلى هذا الوجه قولُ الآخر :

يَسِطُ البيوتَ لِكى يَكونَ مَظِنّةً   من حَيْثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُستَرفِدِ

وإن كان الأوّل في الزّمان وهذا في المكان .

---

(١) ذكر في الإصابة ٨٧٠٥ أنه النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار القرشي العبدري .

(٢) ل : « ومن كلامهم » .

٢ – بَلِّغْ به مَيْتًا فإنّ تَحِيَّةً ما إنْ تَزالُ بها الرَّكائبُ تَخْفِقُ
٣ – مِنِّى إليه وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَت لِمَائِحِها وأُخْرَى تَخْنُقُ

هذا هو الرِّسالةُ التى تُرِيدُ أن تُحمِّلها الراكبَ، تريد: يا راكبًا بَلِّغ بهذا المكان، إذا أتيته، مقبوراً فيه تحيّتى، فإنّ التّحيات أبداً تخفِق بها الرَّكائب وتُبلّغ أربابها. والخَفْقُ. الاضطراب. ومفعول بَلِّغ الثّانى محذوف، لأنّ قولها «فإنّ تحيَّةً» يدلُّ عليه.

وقولُها «منِّى إليه» يتعلّق بفعلٍ مضمَر قد دَلّ عليه بَلِّغْ، كأنّه قال: أوصِلْ إليه منى تحيَّة، وأدِّ منِّى تحية، لأنّ جميعَ ذلك معناه بلِّغْه عنِّى. وقولها «وعبرةً مسفوحَةً» معطوف على المفعول المضمَر الذى أظهرته. والمسفوحة: المصبوبة. وقولها: «جادت لمائحِها» أى أجابت داعِيَها وساعدت مُستَقِيها. وقولُها «وأخرى تَخْنُقُ» معطوف على عَبْرَةً، كأنّها قالت: وأدِّ إليه أيضا عبرةً قد خنقَتْنى وهى فى الطّريق لم تُوجَد. وهذا الكلام يشتمل على اقتصاصِ حالِها، وعلى ما فى نفسها من الحسَرات وآلام الفجيعة. والرَّكائب: جمع رَكوبة، وهى مفردةٌ عن الموصوف، لا يقال ناقة رَكوبة، وكذلك حَلوبة وقَتوبَةٌ. وقولها «جادت لمائحها» فى موضع الصِّفة لعبرة، كما أنّ تخنُق فى موضع الصِّفة الأخرى. والمعنى: بلِّغْه عنِّى تحيَّة وأعلِمه من حالى بكاءٍ يتّصلُ ولا ينقطع، ودمعاً يُساعِد ولا يَخذُل، فمن سائلٍ مَسفوحٍ، ومن خانقٍ مَدفوعٍ. وجادت من الجَوْدِ. ولك أن تَروِى «لماتِحِها» و«لمَائحها». والمائح أبلغ، لأنّ المَتْح الاستقاء، والمَيْح أن تَدخلَ البئرُ ليملأ الدّلوُ إذا قلّ الماء. والذى يدلُّ على قلّة الدَّمع والجهدِ فى إسالته يكون أجودَ فى الرواية.

٤ – فلَيَسْمَعَنّ النَّضرُ إن نادَيْتَهُ إن كان يَسْمَعُ مَيِّتٌ أو يَنْطِقُ

قولها « إن نادَيْتَهُ » شَرْطٌ وجوابه ما دَلَّ عليه ليسمَعَنّ ، وكذلك قولها « إن كان يسمَعُ ميِّت » شرط ثان وجوابه يدلُّ عليه ليسمَعَنَّ . وترتيب الكلام إذا جاء على وجهه . إن ناديتَ النَّضر وقد أتيتَه عنِّي فليسمعنَّ نداءكَ وليُجيبنَّكَ إن كان الميِّت يسمع أو ينطِق . وقولُها « ليسمعنَّ » جواب يمين مضمرة ودَلَّ على ليجيبَنَّك أيضاً ، لأنَّ مَن صحّ فيه السَّمع إذا دُعِيَ صَحّ منه الجواب . وقد يقول الإنسانُ وقد سُئل شيئاً : السَّمْعُ والطَّاعة ، والمفهوم فيه : إنِّى أجيبُك إلى ملتمَسك . ويريد به الفعلَ لا سماعَ سؤالِه من دونِ الفعل .

٥ – ظَلَّتْ سُيُوفُ بنِى أبيهِ تَنُوشُهُ ... لِلّهِ أرحامٌ هُناكَ تَشَــقَّقُ

٦ – أمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَجْلُ نَجيبةٍ ... مِنْ قومِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

٧ – ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ ورُبَّما ... مَنَّ الفَتَى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

٨ – والنَّضْرُ أقْرَبُ مَنْ أصَبْتَ وسيلةً ... وأحَقُّهم إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ

قولها « ظَلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه » تحسُّرٌ منها لما جَرَى على أبيها[1] ، تريد : صارت سيوفُ إخوانه تتناولُه بعد أن كانت تَذُبُّ عنه ، وتَضَعُ منه بعد أن كانت ترفعُه ، وتبتذل حُرُماتِه بعد أن كانت تصونُها . ثم قالت كالمستعطِفة والمتعجِّبة . لله أرحامٌ وقراباتٌ فى ذلك المكان قُطِعَت أسبابها ، وهُتِكت أستارُها .

وقولها « هناك » ظرف ، والكاف كاف الخطاب ، ويُشار به إلى مكانٍ مُتَراخٍ . وإذا قيل هنالك فزِيد فيه اللامُ كان آكَدَ ، والمشار إليه أبعد . والعامل فى « هناك » تَشَقَّقُ ، وهو فى موضع الصِّفة للأرحام . واللام من قولِهِ « لله » لام التعجُّب . وهم إذا عظَّموا شيئاً نسَبوه إليه تفخيماً لأمره جلَّ شأنه .

(١) الكلام بعد « هناك تشقق » ساقط من ل ، وسننبه على نهاية هذا السقط .

وقولها « أمحمدٌ » نوَّنت المنادَى المفردَ المعرفةَ ضرورةً ، ولو رُدَّ إلى أصله فقيل أمُحمَّدُ لجاز . وسيبويه يختار تركَه على البناء فى هذا المكان وإن نوَّنه للضرورة ، لمشابهة البناء فى هذا المكان الإعراب[1] . ولذلك جاز حمل الصفة عليه . ومثل هذا قول الآخر[2] :

لا نَسَبَ اليَوْمَ ولا خُلَّةً اتَّسَعَ الخَرْقُ على الرّاقعِ

فنوّن خَلّة ، والفتح فيه للبناء ، لأنّه مبنىٌّ كمنصوب . وبعضهم روى : « أمحمدُ هاأنت نَجْلُ نَجِيبة » ، فأدخل ها التنبيهِ على الجملة وقد تعرّت من حرف الإشارة . وقد جاء مثلُه . قال النابغة :

ها إنَّها عِذْرَةٌ إلا تكن نَفَعَتْ فإنّ صاحبَها قد تاهَ فى البَلَدِ

والواو من « ولأنت » عاطفة للجملة ومفيدةٌ معنى الحال ، وكذلك الواو من قوله « والفحلُ فحلٌ مُعرِق » . والمعنى : أنت كريمُ الطرفين مُعِمٌّ مُخْوَلٌ . ويقال : هو عريقٌ فى الكرم ، إذا كان متناهياً فيه . وإنما نادته فى هذا البيت واستعطفَتْه مقرِّظة ومُثْنية والمدعُوُّ له قولها : ما ضَرَّكَ لو مَننت . وهذا الكلام فيه اعترافٌ بالذّنب ، والتزامٌ للذِّمة والمِنّة فى العفو لوحصل . فتقول : أىُّ شىء كان يضرُّك لو عفوتَ والفتى وإن كان مُغْضَبًا مُضْجَرًا ، منطوياً على حَنَقٍ وعداوةٍ ، قد يَمُنّ ويعفو . هذا إذا جعلت ما استفهاما . ويجوز أن تجعل ما نافية والاستفهام فى مثل هذا الكلام يفيد معنى النفى . وإنما قالت « ربّما » لأنّ الحالة التى أشارت إليها بقولها « المَغيظ المحنَق » يقل فيها المَنّ ، ورُبَّ للقليل .

---

(١) التبريزى : « إذا نون المنادى العلم فسيبويه يختار رفعه ، وهو مذهب عيسى بن عمر والخليل بن أحمد . وكان أبو عمرو بن العلاء ينصب » . ومثل هذا الكلام عند ابن جنى فى التنبيه .

(٢) هو أنس بن العباس بن مرداس ، أو أبو عامر جد العباس بن مرداس . العينى (٢ : ٣٥٢) .

وقولها « والنَّضر أقربُ مَن أصبتَ وسيلةً » تذكيرٌ منها بما يجمع النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وإيّاه من القُربَى والقرابة . وإنما يَدُلُّ بذلك على وجه الاستحقاق للصَّفح عن الخيانة ، لما يُدِلُّ به من الأسباب المتواشِجة ، والأرحام المتشابكة . وقولها « وأحقُّهم إن كان عِتقٌ يُعتَق » أرادت : وأحقُّهم بأن يُعتَق إن كان عتقٌ ، أى إن وقَع عِتق ، فحَذَف الباء ، وحروف الجرّ مع أن تُلغَى كثيراً ، ثم حَذَف أنْ ورفَع الفعل ، فهو كقوله :

ألا أيُّهٰذا الزاجرى أحضرُ الوَغَى وأنْ أشهَدَ اللَّذّاتِ هل أنت مُخْلِدِى[1]

يدلُّ على أنّ أنْ من أحضُر محذوفٌ أنه عطف عليه بأن فقال : « وأن أشهدَ اللّذّات » . وجواب الشرط ، وهو « إن كان عِتقٌ » ، ما يدلُّ عليه « وأحقُّهم » و « أقرب مَن أصَبْتَ » . وكان هذه كان التامّة فلهذا استغنت عن الخبر . والمعنى : والنَّضر أقرب الأُسراء الذين أسرتَهم إليك ، وأحقُّهم بالعِتق إن وقع فِكاكٌ وعِتق .

٣٣٣

وقال النّابغة الجَعْدىّ[2] :

١ ـ فتًى كانَ يُدْنِيهِ الغِنَى من صَدِيقِهِ إذا ما هو استغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ[3]

---

(١) لطرفة بن العبد ، فى معلقته .

(٢) هو عبد الله بن قيس ، من بنى جعدة بن كعب بن ربيعة ، ويكنى أبا ليلى . وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام . ويقال إنه كان أقدم من النابغة الذبيانى . الذبيانى نادم النعمان ، وهذا نادم أباه . قالوا : ومات بأصبهان وهو ابن مائتين وعشرين سنة . الشعراء ٢٤٧ — ٢٥٥ والمعمرين ٦٤ — ٦٦ وابن سلام ٢٦ — ٢٨ والأغانى (٤ : ١٢٧ — ١٣٩) والخزانة (١ : ٥٠٩ — ٥١٥) والمؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٢١ والموشح ٦٤ — ٦٧ ، واللآلئ ٢٤٧ والاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة .

(٣) كذا ورد هذا البيت . والحق أنه للأبيرد الرياحى كما فى الكامل ١٢٣ ليبسك . ولم يرو التبريزى هذه الحماسية .

هذا مثلُ قول الهُذَلىّ(١) :

أبو مالك قاصِرٌ فقــرَهُ على نَفسِهِ ومُشيعٌ غِنــاء

وأحسن منهما قول الآخر :

إذا افتقَروا عضُّوا على الفقرِ حِسبةً وإن أيْسَرُوا عادُوا سراعًا إلى الفقرِ

٣٣٤

وقال أيضًا :

١ ـ فَتَى كانَ فيهِ ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فيــه ما يَسُوءُ الأعاديا

٢ ـ فَتَى كَمَلَتْ خَيراتُه غَيْرَ أنَّهُ جَوَادٌ فلا يُبقِي من المـال باقِيَا(٢)

لمّا قال : « كان فيه ما يَسُرُّ صديقه » وعَلِمَ أنَّ فى النَّاس مَن يَجمع الخيرَ خالصاً من دون الشَّرِّ خشِيَ أنَّه إنْ سكَتَ على هذه الجملة ظُنَّ به القُصُورُ عن التَّمام ، والوُقوفُ دونَ الكمال ، فلا يكون فيه النِّكايةُ فى الأعداء والإساءة إليهم ، وإذلالُهم وإرغامُهم . ثمَّ وصَفَه بأن قال « على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا » وهذا هو النِّهاية فى الكمال ؛ لأنَّه إذا عَرَف لأوليائه ما يُوجِب عليه التوفُّرَ عليهم ، وجَميلَ التفقُّد لهم ، وعَرَف لأعدائه ما يُوجب التنقصَ منهم وإذلالَهم ، كان فى ذلك أكملُ الكمال .

وقوله « فَتَى كَمَلت خيراتُه غير أنَّه جواد » هذا استثناء فى نهاية الحُسْن ، فهو كالتأكيد لأوّلِ الكلام ؛ لأنَّ كونَه جوادًا لا يكون عيبًا فيُخرجَه من قوله « كَمَلت خيراتُه » ، لكنّه إذا كان عَيبُه المستثنى من الخَيْراتِ الجودَ الذى

---

(١) هو المتنخل . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .

(٢) البيتان من قصيدة رثى بها النابغة الجعدى أخاه ، وروى البغدادى فى الخزانة (٢ : ١٢ ـ ١٣) بعض أبياتها .

هو مُؤْثَرٌ عند الله تعالى وعند النّاس ، لخصاله المحمودة الباقية ماذا ترى تكون . فهو استثناء منقطع من الأوّل ، كأنّه قال : كملت خيراته لكنّه جواد . وإذا تأمّلتَ وجدت البيتَ الثّانىَ مثلَ البيت الأوّل ، فى أنّه أتبَعَ ثناء بثناء ، وأردَفَ مديحاً بمديح ، فعجُزُ كلٍّ واحدٍ منهما يؤكّدُ صدرَه ، ويزيده مُبالغةَ معنًى وتظاهُرَ مبدأ ومُنتهًى . ومثلُهما بيت النابغة :

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سُيوفَهمْ　　بِهِنّ فُلُولٌ مِن قِراعِ الكتائبِ

وموضع قوله « فتى » فى البيتين جميعا نصبٌ على الاختصاص ، كأنه قال أذكُرُ فتًى هذه صفتُه . ولا يمتنع أن يكون موضعه رفعًا على أن يكون خبر مبتدأ محذوف . فإنْ قيل : ما موضع « على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا » من الإعراب ؟ قلتَ : هو يجرى وإن كان جمعًا بين صفتين متضادّتين على أنّ الثانيةَ كالحال للأولَى ، كأنّه قال : فيه ما يسرُّ صديقه مركّبا على ما يسوء الأعاديا . وقوله « فما يُبقِى من المال باقيا » تأكيد للجود . وانتصاب « باقيا » يجوز أن يكون على المفعول ، ويجوز أن يكون على المصدر ، وقد وضعَه موضع الإبقاء . ومثلُه :

* كَفَى بالنّأيِ من أسماء كافِ(١) *

وضع كافٍ موضع كفاية ، وهو مصدرٌ منصوب ، لكنّه حذف فتحة الإعراب من آخره وإن كانت الفتحة مستخَفّةً ، على طريقة مَنْ قال :

* كأنّ أيديهنّ بالقاعِ القرِقْ(٢) *

---

(١) البيت لبشر بن أبى خازم فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) الرجز فى اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

٣٣٥

وقال[١] :

١ ـ وأىَّ فتًى ودَّعتُ يومَ طُوَيْلِعٍ عشيَّةَ سلَّمْنا عليه وسلَّمَا

٢ ـ رَمَى بصدورِ العِيسِ مُنخرَقَ الصَّبا فلَمْ يَدْرِ خَلْقٌ بعدَها أيْنَ يمَّمَا

٣ ـ فيا جازِىَ الفِتْيانِ بالنِّعَمِ اجْزِهِ بنُعْمَاهُ نُعْمَى واعْفُ إن كان أظْلَمَا[٢]

انتصب « أيَّ » بودَّعتُ ، والكلام فيه تعجُّبٌ على طريق التفخيم للشأن ، والتعظيم للأمر . وانتصب « عشيَّةَ » على البَدَل من يوم ، والمعنى : ما أجلَّ شأنَ فتًى ودَّعْناه عشيَّةَ شيَّعناه مِن يوم طُويلِع ، وقَضَينا فيما بيننا وبينه بَعْدُ حقَّ التوديع ، بأن سلَّمنا عليه وسلَّم هو علينا ، أى قلنا : أصْحَبَكَ اللهُ السلامةَ ، وحفِظَك حيثُ كنتَ ! وقال لنا مثلَ ذلك . وهذا كأنَّه كان تثنيةً للوَدَاع حينئذ ، وتَذكرةً مِن بَعْدُ من الشاعر . وإرسالُ القَول فيه تحسُّرٌ وتوجُّع . وقوله « وسلَّما » يريد وسلَّم علينا ، فحذَفَ علينا ويجوز أن يكون أراد بودَّعتُ الوَدَاعَ الذى لاتلاقِىَ بعده . ألاَ تَرَى أنه يقال للمُفارق : غَيْرَ مُوَدَّعٍ ! أى جعَلَ الله بعده التقاء . وقد كشَفَ عن هذا المعنى طَرَفةُ حيث يقول :

قِفِى وَدِّعينا اليومَ يا ابنةَ مالكٍ وعُوجِى علينا مِن صُدورِ جِمالِكِ

قِفِى لا يكُنْ هذا تَعِلَّةَ ساعةٍ لِبَيْنٍ ولا ذا حَظَّنا من نَوالِكِ

فإذا جعلتَ ودَّعتُ على هذا ، انفَصلَ معناه عن معنى سلَّمنا عليه وسلَّما . وهذا ظاهر .

---

(١) يفهم من هذا الصنيع أن الشعر للنابغة الجعدى . وفى التبريزى : « وقال آخر » فيكون غيره . وأنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجم البلدان (٦ : ٧٣) .

(٢) أظلما ، هذه الرواية التى يقتضيها الشرح . وقد كتبت بخط مخالف لخط الأصل : « مجرما » وهذه الأخيرة هى رواية التبريزى ، قال التبريزى بعدها : ويروى إن كان أظلما » .

وقوله « رَمَى بصدور العِيس منخَرَق الصَّبَا » يريدُ أنه توجَّهَ فى المَفَازة حيث تنْخرِق الرِّيحُ ، ورَمَى بصُدور رَوَاحِلِه نحوها ، فلم يُعرَف له بعد ذلك خَبَرٌ ولا أثر . وقوله « أين يَمَّما » موضعُ الجملة من الإعراب نصبٌ على أنَّه مفعول لم يَدْرِ ، كأنه قال : لم يَدْرِ خَاقٌ ما يقتضى هذا السُّؤال . وهذا الكلامُ نهايةٌ فيما يثيره الجَزَعُ من المشفِقِ القَلِق ، ويَدُور فى شكوَى المتولِّه الحَدِب ، لأنه إذا لم يمكنْه الرُّجوعُ إلى شىء بعد جولةِ الوداع والافتراق ، إلاَّ إلى صَدْمة اليأس والاكتئاب ، فذاكَ أجلب لِلَوَاذِعِ الرَّزيئة ، وأجمعُ لبوارح الشَّكِيَّة .

وقولُه « فيا جازِىَ الفِتيان بالنِّعَم اجزِهِ » دعاء له ، والمعنى أحْسِن إليه بَدَل إحسانه إلى خَلْقِكَ ، وجَزَاء على إنعامه فى عبادِكَ ، وتجاوَزْ عن سيِّئاته فيما كان فيه ظالما ، وعن الحقِّ والنِّصْف عادِلا . وقوله « كان أظلما » أى كان ظالما . وأفعلُ بمعنى فاعلٍ جاء كثيراً . ومثله :

* فتلك سبيلٌ لستَ فيها بأوحَدِ(١) *

وجعل فى الثانى شرطا لأنَّه قال « واعفُ إن كان » وفى الأوَّل لم يأتِ بمثله ليدلَّ على سلامة طريقته من الجَوْر والاهتضام ، وبراءةِ ساحته فى غالب ظنِّه ممَّا يستحق به العقابَ والانتقام . والكلام وإن كان فيه دعاء فهو تحسُّرٌ وتوجُّع . وإنما قلتُ هذا لأنَّ استعمالَ الدُّعاء بعقبِ ما ذكر طريقٌ فى إظهار الخيبة لا يكاد يعفِّيها تعاوُر الأحوالِ بالسَّلوة ، ولا يحوِّل عن سلوكها تعاقُبُ الأزمانِ بالمساءةِ والمَسَرَّة .

(١) سبق إنشاده وتخريجه فى ص ١٠١ . وصدره :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

٣٣٦

وقال شَبيب بن عَوَانة[١] :

١ – لِتَبْكِ النساءُ المُعْوِلاتُ بِعَوْلَةٍ أبا حُجُرٍ قامَتْ عليه النوائحُ
٢ – عَقِيلَةُ دَلّاهُ لِلَحْدِ ضريحِهِ وأثوابُهُ يَبرُقْن والخِمْسُ مَائحُ
٣ – خِدَبٌّ يَضِيقُ السَّرجُ عنه كأنّما يَمُدُّ رِكَابَيْهِ من الطُّول ماتِحُ

لِتَبْكِ النساء أمرٌ من فعلٍ يدلُّ على الحال . ألا ترى أنَّه وصَف النِّساء المأمورات بأنّهن مُعْوِلات . والأمر وإن كان فى الأكثر يُبْنَى على المستقبل يصحُّ أن يبنى على ما للحال ، ويراد به الاستدامة والاستمرار فى الفعل . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . وقوله « بعَوْلَةٍ » تَعلَّق الباء منه بلِتَبْكِ ، والمراد أن يكون بكاء المُعْوِلات أبا حُجُرٍ بزيادة عَوْلَةٍ . المُعْوِلات : الصَّائحات ، والاسم العَويل . و« قامت عليه النَّوائح » فى موضع الحال وقد مضمَرة ، كأنَّه قال : لتَبْكِه النِّساء فقد ماتَ والنوائحُ يَنُحْنَ عليه . وهذا كلُّه تفظيع للرَّزيئة ، وتنبيهٌ على وجوب البكاء له ، وأنّ الزِّيادة فى العَوْلات عليه مُسَوَّغَةٌ ، لأنّ فَقْدَ اسمِه غير مُشَاهَدٍ من قبلُ ولا مُعتادٍ .

وقوله «عقيلةُ دَلّاهُ» اقتصاصُ حالِ التجهيز والدَّفن ، وأنَّها وقعت بمرأى منه ومسمَع ، فشَقِي بمزاولَتها ، وكَمِدَ لمشاهدتها . وأراد بالأثواب أكفانَه ، فجعلها تبرُق لبياضها . والمائح أصله الذى يدخل البئرَ فيغرف الماء فى الدِّلاء إذا قلَّ الماء . وهاهنا أراد الذى يدخل القَبرَ فينظفه ويُصلح ما يجب إصلاحه منه . ودَلّى ، أصلُه الإرسال ، وتوسَّعُوا فيه فقيل : دَلّاه بغُرور ، إذا خدعَه . وتدلَّى

---

(١) العوانة : النخلة الطويلة ، أو دابة دون القنفذ ، وبها سمى الرجل .

على كذا بالحِيَل . فيقول : عقيلةُ هو الذى أرسلَه لَلحْد القبر ، وأكفانُه لبياضها ونظافتها تَلْمَعُ ، والخِمسُ هو الذى تَوَلَّى من القبر ما تَوَلَّى . وسَوْق كلٍّ هذا تفجُّع وتألُّم ، وتذكُّر لما سَخِنت له العين ، وأُحرِقت له الكبد .

وقوله « خِدَبٌّ » هو الكامل الخَلْق التامُّ الأعضاء ، القوىّ السوىّ . لذلك قال « يضيق السَّرجُ عنه » وقوله « كأنَّما يَمُدُّ ركابَيْه » وصفه بامتداد القامة وطول البادَّيْنِ[1] . ويُحمد من الفارس ذلك . وقوله « كان ماتِحًا » أى مُسْتَقِيًا ، يَمُدُّ ركابَيْه من بئرٍ لطولها . والخِدَبُّ : الطويل . يقال : إنَّ فى ذلك لَخَدَبًا أى طولًا . وبعيرٌ خِدَبٌّ : ضَخْمٌ شديد .

٣٣٧

وقال[2] :

١ – أبا خالدٍ ما كان أدهَى مُصيبةً أَصابت مَعَدًّا يومَ أَصبحْتَ ثاويا

٢ – لعَمْرِى لَئِنْ سُرَّ الأعادِى وأَظهَروا شَماتًا لقد سُرُّوا برَبْعِك خاليا

٣ – فإنْ تَكُ أَفنَتهُ اللَّيالِى فأوشَكَتْ فإنَّ له ذِكْرًا سيُفْنِى اللَّياليا

خاطب المرثىّ فقال متلهِّفًا : ما أعظمَ مصيبةً أصيبت بها قبائلُ مَعَدٍّ يومَ فُجِعَتْ بك فأصبحتَ مقيمًا فى مكانٍ لا تَبرَحُ منه . يُشيرُ إلى القبرِ . ويقال : ثَوَى بالمكان وأَثْوَى جميعا . وقوله « أدهَى » يقال دَهاه كذا يَدْهاهُ دَهْيًا ودَهْوًا ، إذا أثَّر فيه تأثيراً شديدا وداهِيَةٌ دَهْياء ودهواء . والدَّاهية : المنكَر من الأمر . فيقول : إنّ المصيبةَ بك ما أعظَمَها وأنكرها ، فيا لَمَعَدٍّ فقد بُلِيَتْ بها .

وقوله « لعمرى » مبتدأ وخبره محذوف ، و « لئنْ سُرَّ » شَرْطٌ ، واللام

(١) البادان : مثنى باد ، وهو باطن الفخذ .

(٢) التبريزى : « وقال آخر » .

موطِّئةٌ للقَسَم ، وجواب لعمرى لقد مرُّوا ، وجواب الشَّرط ما دلَّ عليه هذا الجواب . والمعنى : وبقائى لئن كان الأعادى مسرورين بموتك ، شامتين بذويك وعشيرتك لفقدهم لك ، فقد وقعت الشَّماتةُ فى وقتها وحِينها ، ووافام السُّرور لحادثِ أمرٍ عَظُم موقعُه ، لأنَّهم مرُّوا بربعكَ خاليا . والمعنى : أنَّ ما كان ممدودا على ذويك وأوليائك من نطاق الاعتزاز بمكانك ، والاعتلاء بجَدِّك وجدُوه قاصراً زائلا منقطعا . وانتصب « خاليا » على الحال . وقوله « فإنْ يكُ أفنَتْه اللَّيالى فأوشكت » معنى أوشكت . أسرعَتْ . كأنَّه استقصرَ مدّةَ بقائه . ويجوز أن يكون استقصَرَ مدّةَ علّته . والكلام فى حذف النُّون من إن تكُ فقد تقدَّمَ فى مواضعَ . وقوله « فإنَّ له ذكرًا سيُفنى الليالى » يريد : إنْ كان عمرُه قد انقطَعَ فإنَّ ذكرَه متَّصلٌ بالأبد ، لا تفنيه الأيّام ولا تقطعُه الآماد ، بل هو يُفنى الأيّام والآماد . ووشْكُ البين : سرعةُ القطِيعة . وتقول : لَوَشْكَانَ ذا ، كما تقول : لعَجْلان ما كان كذا . ومثله قوله :

فإن تسجُنوا القسرىَّ لا تسجُنوا اسمَهُ ... ولا تسجُنوا معروفَه فى القبائلِ (١)

٣٣٨

وقالت امرأةٌ من كِندة :

١ ــ لا تُخبِرُوا الناسَ إلاّ أنَّ سيِّدَكُم ... أسلَمْتُموهُ ولو قاتَلْتُمُ امتَنَعا

٢ ــ أنعَى فتًى لم تَذُرَّ الشَّمسُ طالعةً ... يومًا من الدَّهرِ إلاّ ضَرَّ أوْ نَفَعا

قوله « لا تُخبِرُوا الناسَ إلاّ » تهكُّم وسُخريّة ، يشُوبُه تعيير شديد . أى قد ارتكبتم أمراً عظيما بتسليمكم سيِّدَكم ، فاستُرُوا أمرَكم ولا تُنَبِّئوا الناسَ به . وهذا مخاطبةٌ لقومٍ خذَلوا رئيسَهم ولم يثبُتوا معه ، حتى قُتل . فيقول :

(١) البيت ٤ من الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٨ .

لو ثبتوا وتابعوا الدافَعَ عن نفسِه وعنهم. وقوله « إلاّ أنّ سيِّدكم » إلاّ بمعنى غير، فهو منقطعٌ مما قبله. وهذا الاستثناء من المعنى، كأنه قال: سَلِمْتم إلاّ أنّ سيِّدَكم أسلمتُم.

وقولها « أنعَى فتًى لم تذرُّ الشمسُ طالعةً » انتصب طالعةً على الحال المؤكِّد لما قَبلَه. والكوفيُّون يقولون فى مثله: انتصب على القطع. وكما أنّ الحال يجىء مؤكِّداً لما قبلَه تجىء الصِّفةُ أيضاً مؤكِّدة لما قبلَها. ومثال الحال: رأيتُه فى الحمّام عريانًا، فعريان حالٌ مؤكِّدة. ومثال الصفة أن تقول: فعلتُ كذا أَمسِ الدّابرَ. وذُرُور الشمس: انتشارُها فى الجوّ. والمعنى: أذكرُ موتَ فتًى لم تطلُع الشمسُ يومًا من أيّام الدّهرِ عليه إلاّ وهو ضارٌّ لأعدائه نالكٍ فيهم، أو نافعٌ لأوليائه مُسْدٍ إليهم. وفى هذا ذهبَ إلى مثل ما قاله عدىّ:

إذا أنتَ لم تنفعْ بوُدِّكَ أهلَه ولم تَنْكِ بالبُوسَى عدوَّك فابعَدِ

٣٣٩

وقالت امرأةٌ من بنى أَسَدٍ:

١ — خَليلَىَّ عُوجَا إنَّها حاجَةٌ لِيا على قَبْرِ أُهْبانٍ سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ

تخاطب صاحبين لها تسألها التعريجَ على قبرِ أهبان زائرَينِ له، ومجدِّدَينِ العهدَ به. وقوله « سقته الرّواعد » دعاءٌ للقبر بالسُّقيا. والرّواعد: السّحاب التى فيها الرّعد. وقولها « إنها حاجة لنا » حَشْوٌ واعتراض، وقد وقع موقعًا حسنًا، وفيه استعطافٌ للمخاطَبَيْنِ واستلطافٌ فيما تُكلِّفهما. ويقال: ما عند فلانٍ تعويج عليهم، أى تعريج. وعُجْنا بالمكان أشدَّ العِياجِ والعَوْجِ، أى عطَفْنا.

٢ — فَنِعْمَ الفَتَى كلُّ الفتى كان بَيْنَهُ وبين المُرَجَّى نَفْنَفٌ مُتباعِدُ

قولها « كلُّ الفتَى » مفيدٌ للتأكيد، وجامعٌ أسبابَ الفتوّة كلَّها

الموصوف ، فكأنها قالت : تَمَّ الفتى التامُّ الفتوّة حتى لم يغادِرْ شيئاً من علائقها وأسبابها . وقولها « كان بينه وبين المُزَجَّى » ، والمُزَجَّى : الضَّعيف ، كأنه يُزَجِّى الوقتُ فى الاعتداد به بين الفتيان . ويجوز أن يكون سمِّى الضعيفُ مُزَجًّى لتأخُّره وحاجتِهم إلى تزجيته واستحثاثه فيما يَعِنّ . وهذا كما قيل « المركَّب » فى الضعيف الفروسيّة . والنَّفنف : المَهواة بين الجبلَين ، والأرضُ بين الأرضَين . وهذا كما يقال : بين هذا وبين كذا بَوْنٌ بعيد . فتقول : بين هذا الفتى وبين من يُزَجَّى فى الفتيان مَهواةٌ بعيدة ، حتى لا التقاء ولا تدانِىَ .

٣ ـ إذا انتضَلَ القومُ الأحاديثَ لم يكُنْ عَيِيًّا ولا عِبئًا على مَن يُقاعِدُ[1]

أصل الانتضال والنِّضال فى الرِّماء ، ثم يستعمَل توسُّعا فى المفاخَرة وقتَ المنافرة ، ومُجاثاة الخُصوم لدى المناقَرة[2] . ألا ترَى لبيداً يقول :

فانتضَلْنا وابنُ سَلْمَى قاعدٌ كعَتيقِ الطَّيْرِ يُغضِى ويُجَلّْ

ثم قال :

فرمَيْتُ القومَ رِشْقاً صائبًا ليس بالعُصْل ولا بالمُفْتَعَلْ

فيقول : إذا تجاذَبَ القومُ أطرافَ السَّمَر والأخبار ، وتنازَعوا قَصَص الفُرسان والأيّام ، ودَسُّوا فى أثناء المسارَّة روائعَ التبجُّح والمكاثَرة ، لم يكن حاجزاً فيما بينهم فَدْمًا ، ولاضعيفَ التصرُّف بكيًّا ، ولا كان ثقيلاً على جُلسائه ، سَيِّئَ العِشْرة[3] لخلطائه ، بل كان حسن المجلِس معهم ، مُستحلَى المنادَمة بينهم ، خفيفَ الوطْأة عليهم .

ومن روى : « ولا ربًّا على من يقاعد » فإنه يُريد : لا متكبِّرًا على جليسه فِعلَ ذى المَلَكة والسُّلطان ؛ والآخِذِ على مُصطنِعِه بالاعتلاءِ والامتنان .

---

(١) التبريزى : « ولا ربا » . وقال : « ويروى : عبثاً ... ويروى : لغبا ، أى ضعيفاً » .

(٢) المنافرة ، بالفاء : المفاخرة ، كأنها من كثرة النفر بمعنى العشيرة . وبالقاف : المنازعة ومراجعة الكلام .

(٣) فى الأصل : « العشيرة » ، تحريف .

٣٤٠

وقال كَعْبُ بن زُهَيْرٍ[1] :

١ ــ لقــد وَلَّى أَلِيَّتَهُ جُوَىٌّ مَعاشِرَ غيْرَ مَطْلُولٍ أَخُوها[2]

كان جُوَىٌّ على ما دلَّ عليه الكلامُ حلَفَ في وجوه نا كِبِيه والعازِمين على قتله ، أنهم لا يستمرئون فِعلَهم ذلك ، وأن عشيرتَه وأصحابَه سيطلبون دمَه ويُدرِكون ثأره ، فكانوا عند ظنِّه بهم من غير إهمال ولا تضجيع . فيقول : جَعَل جُوَىٌّ وِلايةَ يمينه التي أقسم بها إلى معاشرَ لا يُبطَل دمُ صاحبهم ولا يُهدَر ، بل لا ينامون ولا يُنِيمون حتى ينالوا الوِتْر . وقوله « غير مطلول أخوها » أي دم أخيها ، فحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامه . قال :

دماؤهم ليس لهـا طالب مطلولةٌ مثلُ دمِ العُذْرَهْ

وقال :

تلـكُمْ هُرِيرةُ لا تجفُّ دموعها أَهُرَيْرَ ليس أبوكِ بالمطلولِ

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، من شعراء الصحابة ، نشأ في بيت كلهم شعراء ، فأبوه وجده ، وعمتاه سلمى والخنساء غير المشهورة ، وخال أبيه بشامة بن الغدير ، وابنا عمته صخر والخنساء المشهورة ، وأخوه بجير وولده عقبة وحفيده العوام ، كلهم شعراء . أسلم بعد الفتح ، وعفا عنه الرسول وآمنه بعد كان قد أهدر دمه ، وكساه البردة . انظر كتاب الصحابة والأغاني (١٥ : ١٤٢ ــ ١٤٣) والشعراء ١٠٤ ــ ١٠٧ ومعجم المرزباني ٣٤٢ والخزانة (٤ : ١١) .

(٢) جوى هذا هو جوى بن عائذ ، من مزينة . وكانت مزينة حلفاء الأوس ، فمر جوى على الأوس والخزرج وهم يقتتلون فدخل في الأوس فأصيب جوى ، فمر به ثابت الخزرجي والد حسان ، وقال له : لقد دخلت في قوم يحمونك ! فقال جوى وهو يجود بنفسه : أعطى الله عهداً ليقتلن بي منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج . وثارت مزينة ، فأعملت القتل في الخزرج فقتل منهم عدة . شرح السكري لديوان كعب ٢٠٩ ــ ٢١١ وشرح التبريزي للحماسة ــ

أى لا يُنسَى دمُه ولا يُبطَل ديتهُ . والأَلِيَّةُ : اليمين ، وجمعها ألايا . والفعل منه آلَيْتُ أُولِى إيلاءً ، وائتلَى . وفى بعض اللغات يقال الأَلْوَةُ .

٢ – فإن تَهْلِكْ جُوَىٌّ فإنّ حَرْبًا كظَنِّك كان بَعْدَكَ مُوقِدُوها

خاطَب بعد أن أخبر على طريق التَّسلية ، فيقول : إن ذَهَبْتَ لما دُعِيتَ له فإنّ الذين شَبُّوا نارَ الحرب بعدَكَ فى التقاضى بك كانوا كما ظننتَهم ، وعند أَمَلِكَ فيهم . فقوله « موقدوها » ارتفع بكان ، وكظنِّك فى موضع خبر كان وقد تقدّم ، والجملة أعنى كان موقدوها بعدك كظنّك خبر إن ، واسم إنّ وهو حَرْبًا نكرةٌ غير موصوفة أيضا ، وساغ ذلك لمّا كان المراد بها مفهوما معلوما . ويجوز أن يُجعل قوله « كظنِّك كان بعدكَ موقدوها » من صفة حَرْبًا ، ويُجعل خبر إنّ محذوفا ، كأنّه قال : إنّ حربا هذه صفتُها وقعَتْ . وبيتُ الأعشى حجّةٌ فى الوجهين جميعًا . وهو :

إنَّ مَحَــلًّا وإنَّ مُرْتَحَلَا وإنّ فى السَّفْرِ إذْ مَضَى مَهَلَا

ألا ترى أنّ معناه إنّ لنا مَحَلًّا وإنّ لنا مرتحلًا ، فحذف الخبر ، ومَحَلٌّ ومرتَحَلٌ نكرتان .

٣ – وما ساءت ظنونُكَ يومَ تُولِى بأرماحٍ وَفَى لك مُشرِعُوها

٤ – ولو بلَغَ القتيلَ فَعالُ قَوْمٍ لسَرَّكَ من سيوفِكَ مُنْتَضُوها(١)

٥ – كأنكَ كنتَ تعلَمُ يومَ بُزَّتْ ثِيابُك ما سَيَلْقَى سالبُوها(٢)

---

(١) بعده عند التبريزى ، وهو فى الديوان بعد البيت التالى :

لِنَذْرِكَ والنُّذُورُ لها وَفاءٌ إذا بلغَ الحَزَايَةَ بالِغُوهَا

(١) بعده عند التبريزى :

فما عُتِرَ الظِّباءُ بحَىِّ كَعْبٍ ولا الخمسونَ قصَّرَ طالبُوها

صَبَحْنَ الخَزْرَجِيَّةَ مُرْهَفاتٍ أبانَ ذَوِى أَرُومَتِهَا ذَوُوهَا

قوله « وما شاءت ظنونك » تشكُّرٌ للعشيرة وإن كان لفظُه إعلامَ جُوَيّ ما كان منهم وثناء عليهم ، فيقول : لقد حَسُنَ ظنُّك بأرماحٍ وفى لك مهيِّئوها ومُعْلوها يوم حَلِفك ، فلا جَرَمَ أنَّهم صَدَّقوا ظنَّك بهم ، وحقَّقوا اعتقادَك فيهم ، وجدُّوا فى طلب الأمر وانكمشوا ، حتَّى بَرَّتْ يمينُك ، وطابت نفوسُ أوِدَّائك والمفجوعينَ بك . وجعل الباء من قوله « بأرماحٍ » متعلِّقا بقوله ظنونك ، وإنَّما الظَّنّ كان بأربابها ، مجازًا واتِّساعا .

وقوله « ولو بلغ القتيلَ فَعالُ قومٍ » يريد لو أمكن إبلاغُ المقتولين ما يفعله الأحياء بعدَهم لقُمْتُ فى ذلك وقَعدتُ ، علمًا بأنّ ما أتاه قومُكَ إذا تأدَّى إليك سَرَّكَ وقوعُه وحمِدتَهم له . ويقال : نَضَا سيفَه وانتضاه ، إذا جَرَّدَهُ من غمده . وقال « من سيوفك » وأضافها إليه لمَّا كان أربابُها من أسبابه ، وما للسَّبب مثل ما للمسبَّب .

وقوله « كأنَّك كنت تعلم يوم بُزَّتْ ثيابك » أراد بالثِّياب السِّلاحَ ، وهذا كما يُقال له البَزُّ . قال الهُذليّ[1] :

* فوُقِّرَ بزٌّ ما هنالِكَ ضائعُ[2] *

يعنى به السَّيف ، ومعنى وُقِّرَ وُقِّعَ وَقَراتٌ وهَزَماتٌ فيه . ويقال بَزَّه كذا وابتزَّه . وفى المثل : « مَن عَزَّ بَزَّ » ، أى من غَلَب سَلَب . وقال الدُّريدىّ : البَزُّ السِّلاح ، يدخل فيه الدِّرع والمِغْفَرُ والسَّيف . وجعل تَعلَمَ بمعنى تعرف ، لذلك اكتفَى بمفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . و « ما سيلقى » ما بمعنى الذى ، وما بعده من صلته ، وحذَف المفعولَ من سَيَلقى

(١) هو قيس بن عيزارة . ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) ، وانظر ما سيأتى فى الحماسية ٣٤٥ ص ٩٨٨ .

(٢) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

استطالةً للاسم بصلته، أراد ما سيلقاه، ويعني بذلك ما يصيبهم في مكافأةِ فعلِهم، وعند الانتقام منهم.

٣٤١

وقال آخر:

١ ــ نَعَى النّاعِي الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ تَنْعَى فَتَى أَهْلِ الحجازِ وأهْلِ نَجْدِ

٢ ــ خَفِيفَ الحاذِ نَسَّالَ الفَيافِي وعَبْدًا للصَّحابةِ غيْرَ عَبْدِ

يقول: خبَّرَ الناعي بموت الزُّبير، فقلت معظِّما لشأنه، ومفخِّما للتأثير بمكانه: إنكَ تذكر موتَ قريعِ أهلِ الحجاز وأهل نجد ومختارِهم، ومَن لا تحقُّ الفتوَّة بالاتِّفاق إلا له. وقوله «خفيف الحاذِ» وصفه بخفّة العجُز وقلّة اللّحم على الفخِذ، وذلك مستحبٌّ من الفُرسان. قال الخليل: الحاذَان: أدبارُ الفخِذين، والآحاذ الجميع[1]. وقيل هو الظَّهر. والحاذُ في غير هذا المكان: الحال والمؤُونة. وقوله «نَسّال الفيافي» أراد نَسّالٌ في الفيافي، فأجراه مجرى قَطّاع الفيافي. والنسَلان: مِشية الذِّئب إذا أعنَقَ وأسرع. ويقال: نَسَل الماشي، إذا أسرع. وفي القرآن: ﴿ فإذا هُم مِنَ الأجْدَاث إلى رَبِّهم يَنْسِلون ﴾ أي يُسْرِعون.

وقوله «عَبْدًا للصَّحابة غيرَ عَبْدِ» يصفه بكرم الصِّحاب، وحُسن التوفُّر على الرِّفاق. والصَّحابة مصدر في الأصل، يقال أحسَنَ الله صَحَابتك، ثم استُعمِل صفةً، وقَوِيَ في الوصفيَّة حتى جرَى مَجرى الأسماء، وتفرَّد عن الموصوف به. وكذلك قولهم صاحبٌ اسم الفاعل من صَحِبَ، تفرُّدُه بنفسه، قَوِيَ حتى كأنَّه ليس بمشتقٍّ من صَحِبَ، لا يكاد يقال هو صاحِبٌ زَيْدًا كما

(١) المعروف في جمعه «أحواذ»، كما في اللسان.

يقال هو ضاربٌ زيداً . ومعنى « غير عَبْـدٍ » نَفْىٌ لذُلِّ العبوديّة ، لأنّ قوله «عبداً للصحابة» أراد كرم الخُلُق وسهولةَ الجانب ، وتحمُّلَ الأعباء عن رفقائه . وقد ألمّ فى هذا بقول الآخر(١) :

* طَبّاخِ ساعاتِ الـكَرَى زادَ الـكَسِلْ *

٣٤٢

وقال رُقَيبَة الجَرْمىّ ، من طيٍّ :

١ــأقولُ وفى الأكفانِ أبيضُ ماجِدٌ   كغُصْنِ الأَراكِ وجْهُـهُ حِينَ وسَّما

٢ــأحقًّا عِبَادَ الله أنْ لَسْتُ رائيًا   رِفاعَـةَ طُولَ الدَّهرِ إلاَّ تَوَهُّما

مفعول « أقول » هى جملة البيت الذى يليه ، والواو من قوله : « وفى الأكفان أبيضُ ماجد » واو الحال ، و « كغصن الأراك » فى موضع الصِّفة لأبيض . شبَّه امتدادَ قامتِه به . و « وجهُه » على هذا يكون مبتدأً وخبره حين وسّما ، والجملة فى موضع الصِّفة لمـا قبله . وظروف الأزمنة لا تتضمَّن الأشخاص والجُثَث ، لا تقول زيدٌ اليوم ، ولـكن هذا مثل قولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، فكما جازَ هذا لأنَّ المراد طُلوع الهلال اللَّيلة ، كذلك قوله « وجهُه حين وسّما » لأن المعنى : بَقُولُ وجْهِه(٢) حين وَسَّمَ . ومعنى وسّمَ : خَرَج قليلاً ، وحقيقتُه أنّه بمعنى توسَّم ، كما أنّ وجَّهَ بمعنى توجّه ، ونَبَّه بمعنى تنبّه ، وقدَّم بمعنى تقدَّم . ويقال لوَّن الغلامُ(٣) ، وطَرَّ ، ووَسَّم ، وبَقَل بالتخفيف ، فى معنًى واحد . وأجاز أبو حاتمٍ بَقَّل بالتَّشديد ورواه الأصمعىّ ولم يُجِزْهُ غيره . والمعنى : أقول

(١) هو الشماخ ، أو جبار بن جزء أخى الشماخ ، أو أبو النجم ، أو ابن المعتز . الخزانة (٢ : ١٧٣ بولاق) و (٤ : ١٧٧ سلفية) .

(٢) بقول الوجه : خروج شعره . وفى الأصل : « يقول وجهه » ، تحريف .

(٣) استعمال مجازى لم يرد فى المعاجم المتداولة .

متلهِّفا وقد كُفِّن بمرأى منِّى ثَمَّ شابٌّ مجتمِعٌ كريمٌ شريفٌ حسن الطَّأْة[1] ، كأنه غُصن من الأراكِ ووجهُه قد وَسَمَ حديثا . والمعنى : اغتُبِط ولم يُمتَّع بشبابه ، ولا أُمْهِل لاستكماله واكتهاله . فأقول : حقًّا عبادَ الله ما أرى .

وقد ألمّ فى هذا المعنى بقول النّابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نفوسُهم[2] *

كأنه يكذِّب المشاهدة كما كذَّب النابغة الإخبار . وكلُّ ذلك لاستفظاع الحال ، واستعظام الأمرِ والخطْب . فأمّا قوله « أحقًّا » انتصبَ[3] عند سيبويه على الظَّرف ، كأنّه أفى الحقّ ذلك . فإن قيل : كيف جاز أن يكون ظرفًا ؟ قلتَ لمَّا رآهم يقولون : أفى حقٍّ كذا ، أو أفى الحقِّ كذا ، جعله إذا نصبوه على تلك الطّريقة ، قال :

أفِى حَــقٍّ مُواساتِى أخاكُمْ بمالى ثمّ يَظلِمُــنى السَّرِيسُ[4]

وقال :

أفى الحقِّ أنِّى مُغْرَمٌ بِكِ هائمٌ وأنَّكِ لا خَلٌّ هَوَاكِ ولا خَمْرُ

وقوله « أن لستُ رائيا » أنْ مخفّفة من الثقيلة . والمعنى أفى الحقِّ لستُ رائيًا هذا الفتى إلا متوهِّما أبَدَ الدّهر . وقوله « توهُّما » مصدر فى موضع الحال .

---

(١) الطأة بفتح الطاء : الحال اللينة . قال الكميت :

أغشى المكاره أحياناً ويحملنى منه على طأة والدهر ذو نوب

(٢) عجزه كما فى شروح سقط الزند ٢٦٢ ، ٨١٣ :

* فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٣) جرى فى حذف فاء الجواب على مثل ما جرى عليه فى ص ٨١٤ . وهو جائز على قلة .

(٤) لأبى زبيد الطائى ، كما فى اللسان (سرس) . والسريس : العنين ، أو الذى لا يولد له .

وفائدة قوله « عبادَ الله » أنّه رجع فيما كان لا يؤمِن به ولا يسكُن إليه شناعةً وقباحة ، إلى النّاس كافةً يستثبتُهم ويستَفتيهم .

٣— فأُقسِمُ ما جَشَّمْتُهُ من مُهِمَّةٍ تَؤُود كِرَامَ القَوْمِ إلا تجشَّمَا[1]

٤— ولا قُلتُ مَهْلًا وهو غَضبانُ قد غَلَا مِن الغَيظ وسْطَ القَومِ إلاّ تَبَسَّما

يصِفُ رضاه وحُسنَ طاعتِه له ، وقُوّةَ نهضته بكلّ ما يُحَمِّلُه من الأثقال المتعِبة ، والآراب المثقِلة ، ودوامَ صبرِه على جميع ما يُكلِّفُه من المهمّات الشاقّة على كرام النّاس الباهظةِ ، إلى ما كان يُوجِب له ويعظِّم قدرَ كلامِه ، فقال : ولم أقل له رفقاً إذا احتمَى غيظاً إلّا سكَنَ وحَسُنت فَيئتُه ، وكَرُمت عَطفتُه ، حتّى بَدَا لِيَ مَضحَكُه ، وتهلَّلتْ فى لُقيايَ غُرّتُه . هذا ومجلسُه مشهود ، والأقوامُ حولَه قعود ، فلا يتداخله نَخْوة ، ولا تأخُذه بالإباء والتشدُّد عزّة . وهذا كلُّه تنبيهٌ على تَعالِي لوعتِه ، وتَغالِي حُرْقته وفَجْعته .

٣٤٣

وقال آخر :

١— ألاَ لاَ فَتى بعدَ ابنِ نَاشِرَةَ الفَتَى ولا عُرْفَ إلّا قد تَوَلّى فأدْبَرَا

٢— فَتًى حَنْظَلِيٌّ ما تَزالُ رِكابُهُ تجودُ بمعروفٍ وتُنكِرُ مُنْكَرَا

٣— لَحَى اللهُ قوماً أسْلَمُوكَ وجَرَّدُوا عَنَاجِيجَ أعطَتْهَا يَمِينُك ضُمَّرَا

حذف الخبر من قوله « لا فَتى » و «لا عُرْفَ» جميعا ، كأنّه قال : لا فتى فى الدنيا بعدَ ذهابه ، ولا عُرْفَ موجودٌ بعد تَوَلّي عُرْفه . وفى وصفه المرثيَّ

(١) التبريزى : « من ملمة » .

بالفتى كأنّه جَمع له الفضائلَ كلَّها ، كما أنَّ نفيه العُرفَ كأنّه نَفَى به المحامد كلَّها ؛ لأنَّ من شرط الفتوّة أن يَدخل تحتَها خِصالُ الخير ، كما أنَّ العُرف والمعروف يدخل تحتَه كلُّ ما عُرِف فى الإحسان والصَّلاح . ولك أن تنوِّن « لا فتًى » وإن كان الأوّل أشرفَ فى المعنى وأبلغ ، فيكون فى موضع الرَّفع بالابتداء ، وكذلك لا عُرْف ترفعه وتنوّنه ، لأنّك تلقى حركة الهمزة من إلّا وهى كسرة على التَّنوين . والفصل بين الرَّفع والنَّصب أنَّ النَّصب يفيد الاستغراق ، كأنَّه نفى قليلَ الجِنس وكثيرَه ، إذا كان جوابَ هل مِن فتًى ، ومن عُرْفٍ ؟ والرَّفع لا يكون فيه الاستغراق ، لكونه جوابَ هل فتًى وهل عُرْفٌ[(١)] ، فلا يمتنع أن يكون السُّؤال عن واحدٍ من الجنس ويكون الجوابُ على حدِّه . وقوله « ما تزال ركابه » من صفة فتًى ، و « تجود بمعروف » خبر ما تزال .

وارتفع « فتًى حنظليٌّ » على أنه خبر مبتدأٍ محذوف ، ولو نصبه على المدح والاختصاص لجاز ، وقصْدُه إلى أنّه أمّارٌ بالمعروف ، ونهّاءٌ عن المنكر ، ولا يَرضى بذلك فيما يليه من البلاد ، بل ترى الرُّكبان تطوف به ، فيأتيهما فى الأباعد مثلَ ما يأتيهما فى الأقارب[(٢)] . وقوله « ركابه » أراد أصحاب رِكابه يعنى رسله .

وقوله « لَحَى الله قوما أسلموك » تصريحٌ بأنَّ أصحابَه خذلوه وتقاعدوا عن نُصْرته حتَّى تمكّن منه الأعداء فقتلوه . وقوله « جرّدوا عناجيج أعطَتْها يمينُك ضُمَّرا » بيانٌ لأن الخيل التى جرّدُوها للرَّكض فى الهرَب ممَّا سمحت به يدُه ، فلم يُراعُوا ذِمّة ، ولم يحافِظوا حُرمة ، ولا راجعوا أنفُسَهم فيما تُنتِجه الأُحدوثة ، وتسير به الرَّكبُ من سيِّئ القالَة . والعناجيج : الخيل الطِّوال ،

---

(١) فى الأصل : « هل من فتى ومن عرف » .

(٢) فى الأصل : « فتأتيهما ... ما تأتيهما ... » .

واحدها عُنجوج . ومعنى « لَحَى الله » يجوز أن يكون من اللَّحاء : السّبّ والذمّ . ويجوز أن يكون من اللَّحْى : القَشْر . وكيف جعلتَه فهو دعاء عليهم، تسويدًا لوُجوهِهم، وإلحاقًا للعارِ بهم، وتقبيحًا لفعلهم، وجزاءً على صُنعهم. وفائدة قوله « ضُمّرا » أنّهم لم يُؤتَوْا من عُدّةٍ ولا عَدَدٍ، وإنّما أُتُوا من عجزِهم وجُبنِهم، وسوءِ نيّاتِهم، وسُقوطِ همّتهم .

٣٤٤

وقال آخر :

١ ـ أضْحَى أبو القاسمِ الثّاوِى ببَلْقَعَةٍ تَسْفِي الرِّياحُ عليهِ مِنْ سَوافيها[1]

قوله « أضحى » هاهنا لاتصال الوقت، والباء من قوله ببلقعة تعلق بالثاوى، وخبر أضحى تَسفى الرِّياح عليه، والكلام توجُّعٌ وتحسُّرٌ بأنّه استَبدَلَ بمَجالسِه الفضاء، ومن نُدَمائه وخلطائه الخَلاء، ومن رفيع دَسْتِه ونَبيه فَرْشِه التُّراب، والرِّياح السَّوافى تأتى بها إليه، وتجمعه عليه[2]. والسَّفا والسافياء : التُّراب . ويقال سَفَت الريحُ التُّرابَ وغيرَه تَسفيه سَفْيًا، والريح سافية، والجميع السَّوافى، للترابِ والوَرَق واليَبيس . وقيل السافياء : الريح تحمل ترابًا كثيرًا تهجُم به على الناس . والسَّفَا : اسم ما تسفيه . والبَلقَع : المكان الخالى .

٢ ـ هَبَّتْ وقد عَلِمَتْ أنْ لا هُبُوبَ به وقد تكون حَسيرًا إذْ يُباريها

يقول : هبّت الرياحُ عليه رافعةً الحشمةَ فى ابتذالها إيّاه، عالمةً أنه لا هبوبَ

---

(١) أولها عند التبريزى :

كانت خُزاعةُ مِلْءَ الأرضِ ما اتَّسَعَتْ فقَصَّ مَرُّ اللّيالى منْ حَواشِيها

(٢) جعل ضمير التراب مرة مؤنثاً وأخرى مذكراً .

لريح دَولته ، ولا نَفاذَ لأمره ، ولا استقامةَ لصولته ، وقد كانت إذا همَّت بمباراته تقف حَسيرًا بهيرًا لا انخراقَ لها ، ولا تَجرَّ لذيلها . وقوله « أن لا هُبوبَ » أن مخفَّفة من الثَّقيلة ، كأنَّه قال : أنَّه لا هبوب به . والضَّمير للأمر والشأن ، وإن شئتَ كان المرثىّ . ولا هبوب فى موضع خبر أنّ ، والجملة سَدَّت مَسَدّ مفعولى عَلِمَتْ .

٣ ــ أَضْحَى قِرًى للمَنَايا رَهْنَ بلْقَعَةٍ   وقد يكونُ غَــدَاةَ الرَّوْعِ يَقْرِيها

يقول : صار طُعمةً للمنايا هذا المفقودُ ومرتَهنًا فى قبره ، لا انفكاكَ له ولا دِفاعَ به ، وقد كان وهو حَىٌّ غداةَ الرَّوع يَقرِى المنايا من لحوم الأعادى ، ويجعلهم قِراها وطُعْمها . ويقارب هذا قولَ الآخر(١) :

وإنَّا لَنَحْمُ السَّيفَ غَيْرَ نكيرةٍ   ونُلْحِمُهُ حيناً وليس بذى نُــكْرِ

٣٤٥

وقال عَقيل بن عُلَّفة(٢) :

١ ــ لِتَغْدُ المَنايا حيثُ شاءتْ فإنَّها   مُحَلَّلةٌ بعدَ الفتى ابنِ عَقِيــلِ

٢ ــ فتًى كان مَوْلاهُ يَحُلُّ بنَجْوَةٍ   فَحَــلَّ الموالِى بَعْدَهُ بمَسِيلِ

٣ ــ طَويلُ نِجَادِ السيفِ وَهْمٌ كأنَّما   تَصُولُ إذا استَنْجدتَه بقَبيلِ

كأنَّه أذِنَ لأنواع الموت أن تَبتكر حيث شاءت ، وتَنالَ من الناس مَن أرادت ، فقد حلَّ لها ذلك بعد أخْذها الفتى ابنَ عقيل ، لأنَّه هو الذى كان

(١) هو دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . وساق التبريزى نسبه : « عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية بن ضباب بن خابر بن يربوع بن غيظ بن مرة » . والأبيات يقولها فى رثاء والده علفة بن عقيل ، وهو ولده الأكبر . الأغانى (١١ : ٨٨) .

يُخشى عليه منها ، ويُرتجى يومُه وغدُه ، وإذ قد أصيب الناسُ به فلا خطَرَ على المنايا ، ولا خوفَ من الرزايا . ويقال : حَللتُه من كذا تحايلاً ، إذا أطلقتَه له .

وقوله « كان مولاه يحُلُّ بنَجْوةٍ » فالنجوة : اسم المكان المرتفِع ، والجميع النِّجاء . وقيل هو اسمٌ لما إذا أوَيْتَ إليه نَجَوْتَ من محذورك . وقد دخَل تحت قوله « مولاه » ابنُ العمِّ وكلُّ مَن ينتسب إليه بوَلاء . ألا تَرَى أنَّه لما أعاد ذِكره قال : « فحَلَّ الموالي بعدَهُ بمَسِيل » . وإنما قال ذلك لأنَّهم كانوا بأجمعهم يتعزَّزون به ويستظهِرون على الدَّهر بحياته ، فلما أُصيبوا به تمكَّنت الأقدارُ من التأثير فيهم ، وتسلَّقت الآفاتُ من كلِّ جانبٍ عليهم ، وصاروا بمنزلة من نزَلَ في مسيلٍ من الأرض فلعبت السُّيول به ، وتهجَّمت نُؤَبُ[1] الزَّمان عليه ، وقد كان من قبلُ في يَفَاعٍ لا يرتفع إليه الأَتِيُّ وإن طَمَا ، ولا يرتقي إليه الأبيُّ وإن استَعلَى .

وقوله « طويل نجاد السيف » وصَفه بامتداد القامة ، وهذا كما أنَّ الفرسَ إذا وُصِف بطول الخَدِّ قيل : هو طويل العِذَار . ومثله قول أبي نُواس .

سَبْطُ البَنَان إذا احتَبَى بنجادِهِ غَمرَ الجماجمَ والسِّماطُ قِيامُ

وهذا المعنى مضادٌّ لما وَصَف به بعضهم[2] تأبَّط شرًّا ، وكان يلقَّب بالشَّعْل ، فسَلَبَ بزَّ قتيلٍ له وتقلَّدَ سيفَه ، وكان القتيل حَسَنَ الشَّطَاط ، وتأبَّطَ شرًّا قصيرَ القامة ، فطال عليه حمائلَ السيفِ المسلوبِ وانجرَّ على الأرض ، فقال فيه :

فويلُمِّ بَزٍّ جرَّ شَعْلٌ عَلَى الحَصَى فوُقِّر بزٌّ ما هنالك ضائعُ

أراد بالبَزِّ السيف ، ومعنى وُقِّر وُقِّع فيه وَقَراتٌ وهَزَمات ، لتأثير الحصَى

(١) وكذا وردت هنا كلمة « نؤب » بالهمزة . انظر ما مضى في ص ٩١٩ .

(٢) هو قيس بن عيزارة . انظر حواشي الحماسية ٣٤٠ ص ٩٨٠ .

فيها . وجعل البزَّ ضائعاً لِمَا لبسه غيرُ صاحبِه . فأمَّا قوله « يصول إذا استنجدته بقبيل » فإنَّه يصفه بغنائه إذا استُغيثَ به وكمالِ آلاته ، حتى صار المستنصِر له والمستغيث به ، إذا أجابه واحتضره ، كأنَّه أجابه قَبيلٌ لا رجُل . والوَهْمُ : العظيم التامُّ الخَلْق . ويقال : جَملٌ وهمٌ ، وهو القويُّ العظيم المنقاد ، المطيعُ لصاحبه .

٣٤٦

وقال مُسافِعٌ العَبْسيّ[(١)] :

١ — أبعد بنى عَمْرٍو أُسَرُّ بمُقْبِلٍ ... من العَيْشِ أوْ آسَى على إثْرِ مُدْبِرِ

٢ — وليسَ وَرَاءَ الشيء شيءٌ يَرُدُّهُ ... عليكَ إذا وَلَّى سِوَى الصَّبْرِ فاصْبِرِ

قوله « أبعد بنى عمرو أُسَرُّ بمقبلٍ » كأنَّه قال منكِرًا مستقبِحًا . يريدُ أُسَرُّ بعد أن فُجِعت بهؤلاء القوم بقدَرٍ يساعدُ ، أو عيشٍ يُقبِل ، أو زمانٍ يُطاوِع ، أو أحزَنُ فى إثر فائتٍ ، أو أجزع لتولِّى مُدْبِر . والمعنى : أنَّ السُّرور كان يتصل بحياتهم ، والغَمَّ كان يُحذَر مخافةَ أن يكون فيهم ، وإذا قد مضَوْا لسبيلهم فلا شىء من أعراض الدنيا يَلحق له حبورٌ إذا نِيل ، ولا شىء من أعلاق المُنَى يُحزَنُ له إذا أُفيتَ .

وقوله « وليس وراء الشيء شيء يردُّه عليك » أى[(٢)] يَرجِعه إليك . فالاعتصام بحَبل الصَّبر هو الأَوْلَى ؛ والأحبّ دِيناً ودُنيا ، فاصبِر . وقوله « سِوَى الصبر » موضعُه من الإعراب استثناء خارج ، لأنَّ الصبر ليس من الشيء الرّادّ الفائتَ فى شىء ، فقد انقطع مما قبله .

---

(١) هو مسافع بن حذيفة العبسى ، كما فى شرح التبريزى . قال البغدادى فى الخزانة (٢ : ٣٦٠) : « وهو شاعر فارس من شعراء الجاهلية » .

(٢) فى الأصل : « أو » .

٣ — سلامٌ بنى عمرٍو على حيثُ هامُكُمْ جَمَالَ النَّدِىِّ والقَنَا والسَّنَوَّرِ
٤ — أُولاكَ بَنُو خيرٍ وشَرٍّ كِلَيْهِما جَمِيعًا ومعروفٍ أَلَمَّ ومُنْكَرِ

لما استسلم للجزع وما اعتاده من الهَلَع، وصبَّر نفسَه مسلّيًا، وتتبع أثر المصيبة معفيًا، حيَّاهم فقال: عليكم التَّحِيَّةُ من اللهِ يا بنى عَمرٍو حيث قرّت هامكم. و «هامكم» ترتفع بالابتداء وخبره محذوف، كأنه قال: حيث هامكم حاصلة موجودة. والجملة أضيف إليها حيث لينشرح بها، لأن حيث يقتضى جملتين، فهى فى الأمكنة مثل حينَ فى الأزمنة. ثم قال «جمالَ النَّدِى» أى أذكرُ جمالَ المجلس يومَ الحفل، وزَيْنَ السِّلاح غداةَ الروع، فانتصبَ جمالَ على الاختصاص والمدح[1]. وذَكَر الهامَ على عادةِ العرب، فى زعمهم أنَّ عظامَ الموتَى تصير هامةً تطير. والنَّدِىُّ والنَّادى: المجلِسُ. ويقال: نَدَاهُمُ المجلسُ، أى جَمَعَهم، فانتَدَوْه.

وقوله «أولاك بنو خيرٍ وشرٍّ كليهما» إيذان منه بأنّهم كانوا مستصلَحين لكلِّ ما يعنُّ ويحدُثُ من السَّرَّاء والضَّرَّاء، فكانوا بنى الخير لاستدرار المنافع من مالهم وجاههم، وبنى الشَّرِّ لاستدفاع البلايا ببأسِهم. وكانوا يُسْعِدون مواليَهم ببِرِّهم وتفقدهم، ويُشْقُون مُعَادِيَهم بجَدِّهم وسطوتهم. وقوله «كليهما جميعا» انجرَّ كليهما على البدل من خيرٍ وشرٍّ، ولا يجوز أن يكون توكيدًا لهما، لأنَّ توكيد ما لا يُعرَف لا فائدةَ فيه. والكوفيُّون يجوِّزون توكيدَ ما يَدخله التَّجزئةُ من النَّكرات، يقولون: قرأت كتابًا كلَّه، وأكلتُ رغيفًا كلَّه، على التوكيد. وأصحابنا البصريُّون يجيزون الكلامَ بمثل هذا، ولكنهم يمتنعون من إجراء الآخِر على الأوّل على طريق التأكيد ويجعلونه بدلًا، كأنه قال بنو كِلاَ الخيرِ

(١) وقال التبريزى إنه منصوب على النداء.

والشرّ. وانتصب « جميعا » على الحال. وكِلَا يضاف إلى المثنّى، إلّا أنّ المعطوفَ والمعطوف عليه والحرف العاطفَ الواوَ بمنزلة المثنّى وفائدة قوله « معروف ألمّ ومنكَر » أنْ يُصْرَفَا إلى النّوازل الملمّة والحوادث الطّارئة، فيكون الخير والشر مقصورين على أفعالها، فلذلك قال « ومعروفِ ألمّ ومنكر » ليتَمَيَّزَ ما يكون من فعلهما عما يحدُث من غير فِعلهما.

٣٤٧

وقال الربيعُ بن زيادٍ العَبْسىّ[1]

فى مالكِ بن زُهيرٍ العبسِىّ :

١ — إنِّى أرِقْتُ فلم أُغَمِّضْ حَارِ ‏ ‏ ‏ مِنْ سَيِّئْ النَّبأ الجَلِيلِ السَّارى[2]

٢ — مِنْ مِثْلِهِ تُمْسِي النِّسَاء حَوَاسِرًا ‏ ‏ ‏ وتَقُومُ مُعْوِلَةً مع الأسْحَارِ

يقول: لمّا تساقطَ الخبرُ الموجِــع السّارى بليلٍ، العظيمُ فى شأنه، الفظيع عند وُقوعِه إلىّ، سهرتُ فلم أغمِّض يا حار. كأنّه ذكرَ ابتداء حاله لا ابتداء نَعِيِّه. والأرَق: السَّهَر. ويقال غمَّضتُ عينى بالتشديد، وغَمَضْتُها، واغتمضْتُ. وأضاف السَّيِّئ إلى النَّبأ لأنه جعل النَّبأ للجِنْس، فهو كإضافة البعض إلى الــكلّ.

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٦٣ ص ٤٨٤.

(٢) كان من خبر هذه الأبيات فيما روى التبريزى أن مالك بن زهير العبسى كان متزوجاً فى بنى فزارة، فبعث إليه أخوه قيس حين قتل ندبة بن حذيفة أن اخرج عنهم ليلا. فبعث إليه مالك: مالى إلى بنى بدر من ذنب، وإنما ذنبك عليك، وما أنا بتارك منزلى لما أحدثت أنت. وغبر مالك فى بنى فزارة دهراً، ثم غدرت به فزارة، وجه إليه حذيفة من يقتله فقتلوه، وكان الربيع مجاوراً لحذيفة، فجاء إليه وقال: يا حذيفة سيرنى فإنى جاركم، فسيره ثلاث ليال، فقال حمل لحذيفة: بئس ما صنعت، قتلت مالكا وخليت حبل الربيع، والله ليضرمنها عليك ناراً فدونك الرجل قبل أن يفوتك ولا أحسبك تدركه. ثم إن الربيع جمع بنى عبس للقاء بنى فزارة، وجرت بسبب هذا حروب فيما بينهم.

ويقال : أساء ما صنعَ ، فهو سيّئ ، وساءنى الشَّىءُ مَسَاءةً ، وسُؤْتنى بما فعلتَ مَساءةً ومَسَائية . ويقال السَّيِّئ والسَّيِّئة والسُّوءى . والسيِّئة كالخطيئة ، وهو بإزاء الحسنة ، والسُّوءى بإزاء الحسنى . والسُّوء : الاسمُ الجامعُ للآفات والأدواء .

وقوله « من مثله تُمسِي النِّساء حواسرا » أى يأتى عليهنّ المَساء وقد طَرحْنَ خُمُرَهنّ فهنّ كاشفات الرءوس ، مسبِلات الشُّعور ، لا يَكتسِينَ ولا يستَترن ، ويقُمْن مع السَّحَر صائحاتٍ عائداتٍ إلى عادتهنّ من النِّياحة والبكاء . وقيل الإمساء من الظُّهر إلى المغرب ، وقيل بل إلى نِصف اللَّيل من الإمساء . ورَوَى بعضهم : « تَمْشِي النِّساء » أى يمشين متبرِّزات لا يدفعهُنّ عن ذلك حشمةٌ ولا يَحجزهنّ رِقْبَةٌ . والأوّل أجوَدُ ، حتّى يكون المساء فى مقابَلة الصَّباح ، ويكونَ الشّاعرُ قد ذكر طَرَفَىِ النَّهار من أوقاتهنّ .

٣ — أفبَعْدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيرٍ تَرْجُو النِّساءُ عواقِبَ الأطهارِ[١]

٤ — ما إنْ أرَى فى قَتْلِه لِذَوِى القُوَى إلَّا المَطِىَّ تُشَدُّ بالأكوارِ[٢]

هذا فيه ما فى قول الأخطل :

قوم إذا حارَبُوا شَدُّوا مآزِرَهمْ دونَ النِّساءِ ولوْ باتَتْ بأطْهَارِ

وإلى هذا أشار أبو تمامٍ فى قوله :

لَبَّيْتَ صَوْتًا زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له كأسَ الكَرَى ورُضَابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

وقوله « أفبعد » لفظه لفظ الاستفهام ، والاستفهامُ يطلب الفِعل ، فكأنّه قال : أترجو النِّساء عواقبَ الأطهار بعد مقتل مالك ؟ وهو ينكر أن يكون ذلك

---

(١) أنشد ابن رشيق هذا البيت فى العمدة (١ : ٩٤) شاهدا على ما سماه الخليل « الإقعاد » وهو هنا حذف نون متفاعلن وإسكان ما قبله فى آخر تفعيله من الشطر الأول ، وهو ما يسميه المتأخرون « القطع » . وانظر شروح سقط الزند ١١٤٦ .

(٢) التبريزى : لذوى النهى » .

أو يُستجازَ وقوعُه . والمراد بعواقب الأطهار مراجعةُ البُعولة إلى مضاجَعة النِّساء بعقِبِ أطهارهنّ والتمتُّع بهنّ . والمعنى أنّ الأمر أفظَعُ من أن يُتوَهَّمَ ذلك ، والخطْبَ فى المصاب به أنكَى فى القُلوبِ والنُّفوسِ من أن يُتذكَّرَ لذّاتٌ ، أو يُتحدَّثَ بتناسُلٍ ووِلادات . وقوله « ابن زُهَيْرِ » جعل عَروض الضَّرب الثانى من الكامل مقطوعة[1] ، ولو قال « زُهَيْرِ » لاستقام له وكان يكون متفاعِلُنْ . وهم يُدْخِلون على الأعلام التَّغييرَ كثيرًا ، لكنّه مال إلى هذا وجعله فَعِلاتُنْ . وقد فَعَلَ فى أوّل المقطوعةِ مثلَ ذلك ، لكنّه فى ذلك أعذَر لأنّه جعلَها مصرَّعَة ، ولم يرضَ بأن جعله فَعِلاتُنْ حتَّى سكّنَ العين منه وجعله مَفْعُولُنْ ، ويسمَّى مقطوعا مُضْمَرًا . وفَعَلَ أيضا مثلَه فى قوله :

* ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفَا *

والعُذر فيه كالعُذر فى قوله « أفبعد مقتل مالِك بن زُهَيْرِ » ولو قال « عَذوفةً » لاستقام له . وربَّما مالوا إلى المُزاحَفِ من غير ضرورةٍ . على ذلك قول المُتَنخِّلُ فى الطائيّة :

أبِيتُ على مَعَارٍ فاخِرات   بِهِنّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِبَاطِ[2]

رَوَوا أنّ كلَّ العرب ترويه « مَعَارٍ فاخرات » بالتنوين ، وإنَّما هو من الضرب الأوّل من العَروض الأولى من الوافِرِ : مُفاعَلَتُنْ مفاعَلَتُن فَعُولُنْ ، فجعل مُفاعلتن الثانى مفاعيلن بالعَصْب ، وهو فى زِحاف هذا البحرِ جائز ، لكنّه لو رُوِى « مَعَارِىَ » بفتح الياء لسَلِم ، ولم يفعل . وقوله « ما إن أرى فى قتله لذِوى القُوَى »

(١) أى جعل العروض التى ضربها الثانى مقطوع مقطوعة مثله . وهذه العروض أصلها العروض التامة .

(٢) ديوان الهذليين (٢ : ٢٠) : « على معارى » .

أضاف المصدرَ إلى المفعول والمراد فى قتلهم لمالك ، ويعنى بذوى القُوَى ذوى الرَّأى والفِعْل[١] ، والعدد والعُدّة ، فيقول : لا أرى لمن كان هكذا من أولياء دمِه وطُلّاب ثأره ، إلّا امتطاء الإبل وتَجنيبَ الُخيول ، وركوبَ كلِّ صعب وذَلول ، إلى أن يُنالَ من العدوّ مثلُ ما ناله منهم ، فإنّ فى ركوب الجِدّ مساعدةً من الجَدّ ، ولن ترى العزمَ أضرخ بالفعلِ إلا وثَمّ مطاوَعَةٌ من القَدَر . وقوله « تُشَدُّ بالأكوار » يريد تُشَدُّ الأكوار عليها ، فرَمَى بالكلام .

٥ — ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفًا ... يَقْذِفْنَ بالمُهَرَاتِ والأمْهارِ

٦ — ومَسَاعِرًا صَدَأُ الحديدِ عليهِمُ ... فكأنّما تُطْلَى الوُجوهُ بِقَارِ

عَطَف قوله « ومجنَّباتٍ » على « إلاّ المطى » والمراد أرى لهم أعدادَهم مطايا مرحولة ، وخيلاً مجنوبة . وكذا كانت عادتُهم فى مَقْصَدِهم الغارات ، وركوبِهم إلى الوَقَعات ، أن يركبوا الإبلَ ويجنّبوا الخيلَ إلى أن ينتهوا إلى موضع الغارة ، أو ملتقَى القومِ للمحارَبة ، فحينئذ يُنيخون الإبل ويركبون الخيلَ وهى وادعةٌ لم يلحقْها كبير[٢] تعب ، ولم يتماسكها سآمةُ ضَجَر ، فيُعمِلونها كما يحبُّون .

وهذا كما قال النابغةُ يصف خيلَ عمرِو بن هندٍ :

مُقَرَّنَةً بالأُدْمِ والعِيسِ كالقَطَا ... عليها الخُبُورُ مُحْقَباتُ المَرَاجِلِ[٣]

ويَقذِفْن بالأولاد فى كلِّ مَنزِلٍ ... تَشَحَّطُ فى أسلائها كالوصائلِ

ومعنى « ما يذقن عَذُوفًا » أى أدنى ما يُؤكَل . وقال الخليل : يستعمل فى الطعام والشراب . ويقال : ما ذُقْتُ عَذْفًا ولا عَذُوفًا ولا عَذُوفةً ولا عَذَافًا[٤] .

(١) كذا فى النسختين ، ومعناه صحيح .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كثير » بالثاء .

(٣) الخبور : جمع خبر ، بالفتح ، وهى المزادة العظيمة .

(٤) ضبط فى النسختين بفتح العين . وفى اللسان بضمها ، وفى مادة (عدف) مهملة الدال فى اللسان والقاموس : « عداف » بضم العين .

أى ذَوَاقاً . والفعل منه قد يُبنَى فيقال تمذَّقْتُ عَذُوقةً . وقوله « بالمُهَرَات والأمهار » أى لما يلحقهنّ من الكلال ، والتحامل عليه فى طىِّ المنازل بها والتّرحال والمَساعِر : جمع المِسعر ، وهو كأنه آلةٌ فى إسعارِ نار الحرب وإيقادها . وإنما قال « صدأُ الحديد عليهم » لاتّصال لُبسهم الدُّروع[1] ، و « كأنما تُطلَى الوجوهُ بقارِ » لأنّ المراد أنّ السَّموم والحَرور قد لَفَحَت وجوهَهم ، وغيَّرتْ ألوانَهم، لأنّهم تعوّدوا قَصْدَ الغارات ، وقَطْع المشاقّ . وجعَلَ الخيلَ كالفُرسان والفُرسانَ كالخيل فى الصَّبر والثّبات .

٧ – مَن كان مسرورًا بمقتلِ مالكٍ فليأتِ ساحَتَنا بوَجْهِ نَهارِ[2]

٨ – يَجِدِ النِّساء حواسِرًا يَنْدُبْنَهُ يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بالأسحارِ

كانت العادة مستمرّةً مستحكِمةً فيهم ، أنّهم لا يَنْدُبون القتيل أو يُدرَكَ ثأره . فيقول : مَن كان فرحاً بمقتل مالك ، شامتاً بأوليائه ، فلينزِعْ ملابسَ المسرّة وليطَّرِحْ أردية الشّماتة ، فقد أُدرِكت الأثآرُ وأُريقت الدِّماء ، وشُفيت الأدواء ، وليحضُرْ ساحتَنا فى أوّل النهار ، ليرى أنّ ما كان مُحرّماً من الرّثاء قد حَلّ ، وأن الحَظْر الواقعَ ببكائه قد رُفِع ، ويجدَ النساء مكشوفاتِ الرءوس يَذكُرنه بما كان من فضائله ، ويندُبْنه بأشهر أوصافِه ، وأعلى مراتِبه ومَحالّه ، فإنّ ذلك متّصلٌ من فعلهنّ غيرَ منقطعٍ فى أطراف الليل والنهار ، والآصالِ والأسحار ، وبعضهم يرويه :

* مَن كان محزوناً بمقتل مالكٍ *

والمراد الموالُون ، كما كان المراد بالأوّل المنابِذين . وأكثرُ من رأيناه كان

(١) ل : « للدروع » .

(٢) هذه أوجه من رواية التبريزى : « فليأت نسوتنا » .

يروى « فليأتِ نسوتَنا » ورأيت الأستاذَ الرئيسَ أبا الفضل ابنَ العميد يقول : « إنى لأتعجَّب من أبى تمَّام مع تكلُّفه رَمَّ جوانبِ ما يختاره من الأبيات[1] ، وغَسْلِه من دَرَن بَشِعِ الألفاظ ، كيف ترك تأمُّلَ قولِه فليأتِ نسوتَنا . وهذه لفظةٌ شنيعة . وكيف ذهَبَ عليه تأمُّلُ قولِه :

قلتُ لقومٍ فى الكَنيفِ تروَّحوا عشيَّةَ بِتنا عندما وَانَ رُزَّحِ[2]
تنالوا الغِنَى أو تبلغُوا بنفوسِكم إلى مُستَراحٍ من حِمامٍ مُبَرِّحِ

حتى جمع بين كنيف ومستراحٍ فى بيتين . وتأمَّلْ أمثال ما ذكره وبيَّنه من شرائط الاختيار » .

٩ – قد كُنَّ يَخبأْنَ الوُجوهَ تَستُّرًا فاليومَ قد أَبْرَزْنَ للنُّظَّارِ[3]
١٠ – يَضرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلَى فَتًى عَفِّ الشَّمائلِ طَيِّبِ الأخبار

يصفهنَّ بأنهن ابتذَلْن أنفسَهنَّ للمصيبة وقد كان من قبلُ سِترُ الصيانة مُسْبَلًا عليهن ، لا يُظهِرنَ المَعارِيَ من الوجوه وسائرِ الأعضاء لأحدٍ من الناس ، لتستُّرهنَّ وارتفاعِ محالِّهنَّ ومناصبِهنَّ عن التبرُّز والتبرُّج ، إذ كُنَّ بيضاتِ خُدورٍ وربَّاتِ حِجالٍ وستور . وقولُه « فاليوم قد أبرَزْنَ للنُّظَّار » يريد الوجوه . وهُنَّ وإن رَمَيْنَ قِناعَهنَّ ، وأظهَرْنَ مُحيَّاهُنَّ فإنَّ أحدًا لا يَطمَع فى الدُّنُوِّ منهنَّ ، والنظر إليهنَّ ، فيخرجَ إلى حدِّ المنكَر . وقوله « يَضرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلَى فتًى » يريد ما يَنَلْن من أنفسهنَّ بالضرب والإهانة ، إجلالاً للرَّزيئة ، واقتداءً للمرثِى[4] . والعَفُّ : العفيف ، ومصدره العِفَّة والعَفاف . والشمائل : خَليقة الرَّجل

(١) انظر ما مضى فى ١٣ – ١٤ ، ٨٤ .
(٢) من الحماسية ١٥٦ ص ٤٦٤ – ٤٦٥ .
(٣) التبريزى : « حين برزن » . ويروى : « حين بدون » . انظر شروح سقط الزند ٥٢ والمزهر للسيوطى (٢ : ٣٦٤) فى (معرفة التصحيف والتحريف) .
(٤) هذا هو الوجه . وفى الأصل : « اقتداء بالمرثى » ، ل : « واقتداء بالمرثى » .

وطبيعتُهُ ، واحِدِها شِمال . وقوله « طيِّب الأخبار » أى حديثُه حسنٌ فى الناس لا يُؤْبَن بدنيّةٍ ، ولا يُومَمُ بنقيصة .

٣٤٨

وقال كعبُ بن زُهير[1] :

١ – لَعَمْرُكَ ما خَشِيتُ عَلَى أُبَىٍّ   مَصَارِعَ بَيْنَ قَوٍّ فالسُّلِىِّ[2]

٢ – ولٰكِنِّى خَشِيتُ عَلَى أُبَىٍّ   جَرِيرَةَ رُمْحِهِ فى كلِّ حَىِّ

٣ – من الفِتْيانِ مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ   وأَمَّارٌ بإِرْشَـــادٍ وَغَىِّ

٤ – أَلاَ لَهْفَ الأرامِلِ واليَتَامَى   ولَهْفَ الباكياتِ على أُبَىِّ

قوله « لعمرك » مبتدأ وخبره مضمر ، وفيه معنى اليمين ، وجوابها ما خشيت . فكأنَّ هذا المتوفَّى مضَى لسبيله لعارضٍ عَرَض له بين قَوٍّ والسُّلِىِّ . وإنما قال « مَصارع » لأنَّه جعل كلَّ قطعةٍ مما بين هذين الموضعين كالمَصرَع لواحدٍ من الناس . فيقول توجُّعًا : وبقائكَ ما خشِيتُ على هذا الرجلِ أن يُصرَع بين هذين الموضعين ، ولٰكنِّى كنت أخشى عليه جرائره فى الأحياء ، وتِراتِه فى القبائل . وعلى ما يدلُّ عليه كلامُه كان مات هذا المرثىُّ حَتْفَ أنفِه ، فلهذا قال : لم أختَشِ عليه القدر بين هذين المكانين ما خشِيتُ عليه من جرائر رُمحِهِ فى الأحياء .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٤٠ ص ٩٧٨ .

(٢) الأبيات الثلاثة الأولى فى معجم البلدان (السلى) ، والأول والثانى فى محاضرات الراغب (٢ : ٣٠٨) واللسان (سلا) والجمهرة (١ : ١٧٣) . والأول فى معجم ما استعجم (السلى) والثانى فى الجمهرة (١ : ٦٥) . قال ابن دريد : « أنشده ابن الأعرابى فى كتاب المراثى لامرأة ترثى أباها . والأبيات كلها فى الكامل ٧٢٥ ليبسك مع خلاف فى الرواية والترتيب قال المبرد : « فهذا الشعر من أجلِّ أشعار العرب ، ينبىء صاحبه أن تقديره فى المرثى أن تكون منيته قتلا ، ويتأسف من موته حتف أنفه » .

وقوله « من الفتيان مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ » تعلَّقَ من بمحذوف ، كأنه قال : كان من بين الفِتيان سهلَ الخُلُق ، وطيء الجانب . والمُحْلَوْلى هو الذى تَناهَى حلاوَتُه . قال الخليل : افعَوْعَل : بناء للمبالغة . على ذلك قولهم اعشَوْشَبَ المكانُ ، إذا تَناهَى عُشْبُه ؛ واحْلَوْلَى ، إذا تناهى حلاوته . والمُمِرّ : الذى صار مُرًّا . وليس هذا من قولهم : ما أَمَرّ وما أَحْلَى ، لأن ذلك معناه ما أتى بحُـلوٍ ولا مُرٍّ ، ولـكن يجب أن يكون من أمَرّ الشىء فهو مُمِرٌّ ، وفى بعض اللغات مَرٌّ . قال :

* لئن مَرَّ فى كِرمانَ لَيلِي لَطالَمَا(١) *

حتى يكونَ مثلَ محلولٍ . وقوله « أمّارٌ بإرشادٍ وغىٍّ » وضَع إرشاداً موضع رشادٍ ، ألا ترى أنه قال وغىٍّ . وهم كما يستعيرون الاسم للمصدر يستعيرون المصدر للاسم ، وكما يوضع العطاء موضع الإعطاء فى قول القطامىّ :

* وبعد عطائك المـائة الرِّتاعا(٢) *

يضعون الإعطاء موضع العَطاء . فعلى هذا وضع الإرشاد موضع الرَّشاد . [وإذا كان كذلك فيجب أن يكون إرشاد هذا لا يتعدَّى ، لوقوعه موقع الرَّشاد(٣)] . وقوله « ألا لَهفَى الأراملِ واليتامى » الصدر من البيت تحسُّرٌ لما أصاب الفقراء واليتامى بعد موته ، إذ لم يكن فى الدهر مَن يُؤْويهم أو يُمونهم . والأرامل : جمع أَرْمَل ، وهذه الصفة يشترك فيها المؤنَّث والمذكَّر ، واشتقاقُه من أرمَلَ القوم ، إذا نفِدَتْ نفقاتُهم ، وحقيقته صاروا من الفقر فى الرَّمْل ، كما يقال أَتْرَبَ الرجلُ(٤) . والشهادةُ فى اشتراك الرجلِ والمرأة فى هذه الصفة قولُ جرير :

(١) البيت للطرماح فى ملحقات ديوانه ١٣٥ واللسان (مرر) . وعجزه :

* حلا بين شطى بابل فالمضيح *

(٢) ويروى : « الرباعا » . وصدره فى ديوان القطامى ٤١ :

* أكفراً بعـد رد الموت عنى *

(٣) التكملة من ل . (٤) إذا قل ماله ، ويقال أيضاً لمن اغتنى .

هٰذِى الأراملُ قد قضَّيتُ حاجتَها فمن لحاجـةِ هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ

وقوله « ولَهفَ الباكيات على أُبىّ » هذا العجُز تحشُرٌ للمتعلّقين بحَبْله ، والرّاجين ليومه وغده ، والواصلين سبَبَهم بسببه دون أولئك ، فتكريره اللّفظ يشتمل على هذا المعنى .

٣٤٩

وقال[١] :

١ — فى بَعْضِ تَطْوَافِ ابن طُعْ مَةَ آمِنًا لاقَى حِمَامَهْ

٢ — وَصَدًا لَهُ مِنْ خلفِهِ يَفْتَرُهُ لا بل أَمامَهْ[٢]

٣ — غُرَّ امرُؤٌ منَّتْـهُ نَفْ سٌ أن تَدُومَ له السَّلامَهْ

٤ — هيهـاتَ أَعْيا الأوَّلِيـ نَ دَوَاءُ دَائِكَ يا دِعامَهْ

قوله « فى بعض تَطواف ابن طعمة » قد أبرز اسمَه ، يقول : يا دعامة . فهو دِعامة بن طُعمة . وتَطواف : بناء لما يَشُوبُه فى الوقوع أدنى تكلُّف . فكأنَّ هذا الرجل كان جَوّالةً ، فاتّفق عليه أن مات آمَنَ ما كان ، فأخذ يقتصُّ حالَه ويتحزّنُ له ، وجعل التَّطْواف للجنس ، وأضاف البعضَ إليه . وانتصب « آمنًا »

(١) يفهم من هذا الصنيع أن هذه المقطوعة لكعب بن زهير أيضاً . لكن فى رواية التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) رواه ابن جنى والتبريزى : « رصداً له من خلفه » . وقال ابن جنى : « لك فى من هذه أوجه : إن شئت علقتها بنفس رصد ، وإن شئت جعلتها صفة له فعلقتها حينئذ بمحذوف ، وإن شئت علقتها بنفس يفتره ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل فى تفتره . ولا يجوز أن يكون حالا من الهاء ، لا فى له ولا فى تفتره ، لأن الإنسان لا يكون من وراء نفسه ، فالمعنى إذن يدفعه » .

على الحال مِنْ لاقَى حِمَامَه ، وإذا كان العامل فى ذى الحال فِعْلا جاز تقديم الحال عليه .

وقولُه « وصَدَا له » خَفِيَ عليه كيف اتَّفق مصرعه . ومعنى صَدَا له دعاه . ويجوز أن يكون فَعَل بمعنى تفعَّل ، كأنّ صدا بمعنى تصدَّى له قائداً . والتصدِّى تعرُّضٌ يختلط بازورارٍ وإعراض . على ذلك قوله تعالى : ﴿فأَنت لَهُ تَصَدَّى﴾ . يقول : تصدَّى له الحَيْنُ سائقاً له يأتيه على غِرَّة ، بل تصدى قائداً لا سائقاً . كأنّه لما خَفِيَ عليه مِن أين أَتَى لم يَقطع الكلامَ على وجهٍ واحد ، بل تداركَ وانتقل وهو بعد شاكٌّ ، ولكن كأنّه أومأ إلى جِماع الطُّرُق . وقوله :

غُرَّ امرُؤٌ منَّتْه نَفْـ ـسٌ أن تدوم له السلامه

معنى غُرَّ خُدِع على وَجْهٍ له فى الاستنامة إليه غَرَرٌ . ويقال : ما غَرَّك بفلانٍ ؟ أى لِمَ اجترأتَ عليه وكان الوجه أن لا تجترئ . على ذلك قوله تعالى : ﴿ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ﴾ . ويقال : مَن غَرَّك من فلان ؟ أى مَن الذى جَذَبك عنه وحالَ بينك وبينه ، وكان الوجه أن تكون مُقبلاً عليه . ويقال : ما غرَّك من فلانٍ ؟ أى لم وثِقتَ به وكان الحُكم أن لا تثق به . فأما قوله « منَّته نفسٌ » فإنما نكَّرهُ لغرضٍ ما(١) ، وهو أنّ لكلِّ رجلٍ فيما يهُمُّ به أو يرجوه أو يخافه نَفْسَين : نفسٌ تبعثه عليه ، ونفس تصرِفه عنه ، فلهذا قال : منَّته نفسٌ أن تدوم له السلامة ، أى غرّت تلك النَّفس امرأً جَعَلت من أمانيه دوامَ السلامة . يشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

شاوَرَ نَفْسَيْ طمعٍ وخَيبةٍ تقول هاتى : لا ، وهاتيك : بَلَى

ثم قال :

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فإنها نكرة لغرض ما » .

فشجّعته نفس حِرْصٍ طَمِعتْ وحذّرته نفسُـه الأخرى الرّدَى

وقوله :

هيهات أعْيَـا الأوّلِيـن دواء دائكَ يا دِعامه

أراد بالأوّلين الأممَ السالفة ، وقد أعجزَهم دواء الموت . وقوله « هيهات » استبعادٌ لوقوع ما تقدّم ذِكرُه ، وهو أن تدومَ [له[١]] السّلامة . وهيهات : اسمٌ للفعل وهو بَعُدَ ، وفاعله ما دلّ عليه ما قبلَه ، وكأنّه قال : بَعُـد ذاك أن يكون . على هذا قولُه :

فهيهاتَ هيهات العقيقُ ومَن به وهيهات خِلٌ بالعَقيق تُواصِلُه[٢]

٣٥٠

وقال غُوَيّةُ بن سُلْمِيّ بن رَبيعة[٣] :

١ — ألاَ نادَتْ أُمامةُ باحْتِمَالِ لِتَحْزُنَنى فلا بِكِ ما أُبالى

٢ — فَسِيرِى ما بَدَا لَكِ أوْ أَقِيمِى فأيًّا مَا أَتَيْتِ فَعَنْ تَقَالِ

يقول : أظهرت هذه المرأةُ من نفسها ارتحالاً عنّى لتجلِبَ علىّ حُزناً وغمًّا ، ونادت بالفِراق وكثرتْه على ألسنة الناس . ثم انصرَفَ عن الإخبار عنها وأقبلَ عليها يخاطبُها فقال : لا بِكِ ما أبالى . وهذه اليمين فيها تهكّم وسُخريّة ، لأنّ مَن

(١) هذه من ل .

(٢) البيت لجرير ، فى ديوانه ٤٧٩ ومقاييس اللغة (عق) واللسان (هيه) . ورواية الديوان « فأيهات أيهات . . . وأيهات » . وتواصله ، بالتاء كذا جاءت أيضاً فى رواية الديوان ، وفى المقاييس : « نوصله » بالنون ، وفى اللسان : « نحاوله » .

(٣) ابن جنى : « يجوز أن يكون تحقير غاوية ، ويجوز أن يكون تحقير غية بعد التسمية بها » . وفى معجم المرزبانى ٣٠٧ — ٣٠٨ : « عوية ، ويقال غوية بغين معجمة ، وهو عوية ابن سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر بن ثعلبة الضبى ، من بنى ثعلبة بن ذؤيب ، جاهلى » .

يُحِلُّ من قلبه امرأةً محلّها لا يجعلها أهلاً للإقسام بها. فقولك لا بِكِ، كقولك لا بالله. وما أبالي جوابُ القسم. وقيل: أراد لا بِكِ أبالي، أي لا أبالي بكِ، ويكون ما صلةً، ولا قَسَمَ في هذا الكلام على هذا. ورُوى «فآ بَكِ ما أبالي» فيكون دعاء عليها. ومعنى آ بَكِ: أبْعَدَكِ الله، والشاهد في ذلك قوله:

وخَبَّرْتَنِى يا قلبُ أنّكَ ذو نُهًى بلَيْلَى فَذُقْ ما كنت قبلُ تقولُ[١]
فآ بَكِ هَلاّ والليالِي بغِرّةٍ تُلِمُّ وفى الأيّام عَنكَ غُفُولُ[٢]

فإذا رويت لا بِكِ فالبيت على كلامين، لأنّ لا بِكِ ينفصل عما قبله، ويصير ما أبالي متّصلاً به لأنه جوابه. وإذا رويتَ «آ بَكِ» فالكلام على فصولٍ ثلاثة. فالفصل الأوّل أنها أرادت أن تُدْخِلَ عليه جَزَعاً بالفراق، فكأنه أقبل قُبْلَها[٣] ودعا عليها، ويكون الدعاء حشواً حَسَناً، وما أبالي كلاماً آخر، وينفصل ما أبالي عن الدعاء وعن الأوّل.

وقوله «فسيرِى ما بدا لك أو أقيمى» استهانَ بها وبفراقها، فخَيَّرَها بين السّير ما بدا لها وأرادته، وبين الإقامة، ثمّ قال: فأىَّ الأمرَينِ اخترتِ فمَن تقالٍ لى إيّاه. وإنّما قال تقَالٍ ولم يقل قِلًى، لأنّ فى التّقالى زيادةَ معنى، وهو أن يحدُثَ الفعلُ شيئاً بعد شىء. على ذلك قولُه تداعَى البِناء وما أشبهَهَ. وقوله «فأيًّا ما أتيتِ» أيًّا انتصَب بأتيتِ، وما صلة، ومن شرط أىّ أن يجىء مضافاً،

(١) فى أساس البلاغة: «أنك ذو عرى».
(٢) فى مقاييس اللغة (أدب): «تزور» بدل «تلم». وفيه أيضاً: «شغول». وأنشده فى اللسان وأساس البلاغة (أدب) برواية «غفول»، ونسب فى أساس البلاغة إلى رجل من بنى عقيل.
(٣) القبل، بالضم: الوجه. الجوهرى: «وقولهم إذا أقبل قبلك، أى أقصد قصدك وأتوجه نحوك».

فأفرده هنا لمّا كان المضافُ إليه معلومًا . على ذلك قوله تعالى : ﴿ أيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾ . ألا ترى أنَّ المعنى أىَّ الأسماء تدعوا . ولمّا كان السَّيرُ منها أحبَّ إليه علَّقَهُ بما وَسَّعَ أمَدَهُ فقال : ما بَدَا لَكِ ، ولم يشترط فى الإقامة شيئًا . وقوله « فمن تقالٍ » ، عن تقتضى فِعلًا مضمرا ، كأنَّه قال : أىَّ الأمرين أتيتِ أتيتِ عن تقالٍ منِّى ، فحذَفَ الثّانىَ ، لأنَّ الأوّل يدلُّ عليه . وحذَفَ منِّى أيضًا لأنَّ فى الكلام عليه دليلًا . وما بدا لك فى موضع الظَّرف . وبدا هذا من البُدُوّ : الظُّهور ، وليس من البَدَاء : التحوُّل ، لأنَّ المعنى سِيرى مدّةَ ظُهور السَّير فى رأيك . ففاعل بدا السَّيرُ ، ودلَّ عليه سِيرى لأنَّ الفعلَ يدلُّ على مصدرِهِ كما أنَّ المصدرَ يدلُّ على فِعلِهِ .

٣ – فكَيْفَ تَرُوعُنِى امرأةٌ ببَيْنٍ ... حَيَاتِى بَعْدَ فارسِ ذى طَلَالِ(١)

٤ – وبَعْدَ أبى ربيعةَ عبدِ عَمْرٍو ... ومَسْعُودٍ وبعـــد أبى هِلالِ

٥ – أصابَتْهُمْ حَمِيدِينَ المَنَايا ... فِدَى عَمِّى لِمُصْبَحِهِمْ وخالِى

٦ – أولئكَ لو جَزِعْتُ لهم لَكَانُوا ... أعزَّ عَلَىَّ مِنْ أهـــلِى ومالِى

أخذ يتعجب من نفسه وممَّن يظن به أنَّه يقف موقف من يُفزِعه امرأةٌ بفراق ، فقال : كيف يكون ذلك مُدَّةَ حياتى بعد أن فُجِعْتُ بفارسِ هذا الفَرَس . وذو طَلَالٍ كان اسْمَ فرسه ، و « حياتى » انتصب على الظَّرف ، أى مُدَّةَ حياتى ؛ لأنّه حُذف اسم الزَّمان معه . ثمّ عدَّد بعدَ ذكرِ هذا الفارسِ مَن فُجِع به من عشيرته حالًا بعد حال ، ووقتًا بعد وقت ، ذكر أبا ربيعة ومسعودًا وأبا هلال ، وهؤلاء كانوا حُماةَ العشيرة وفُرسانَ الكتيبة ، فلهذا خصَّهم

(١) ل والتبريزى : « وكيف » .

بالذِّكر وشَهَرَ نفسَه بالتوجُّع لهم . ولو كانوا على غير هذه الصِّفة لما استحسن لنفسِه الاعتدادَ بهم فى الحالة التى ذكرها .

وقوله « أصابتهم حَميدينَ المنايا » حميدين انتصب على الحال ، يريد أنَّ أيامهم سَلِمَتْ من شَوْبِ العَار ، وقَباحة الذِّكر ، وأنهم أُصِيبوا وهم مشكورونَ محمودونَ بلسان القريب والبعيد ، والأجنبيِّ والنسيب . وقوله « فِدًى عَمِّى لمُصبَحِهم وخالى » كلامٌ منقطع ممّا قبله ، وهو كالالتفات . كأنَّه أقبلَ عَلى مُخاطَبٍ فقال : أفدى مُمساهُم ومصبَحَهُم بأطرافِ العمومةِ والخؤولة . وذَكَرَ المُصْبَح وكأنَّ المُمْسَى معه منويٌّ ، لأنَّ طرفَىِ النَّهار مذكوران فى الغارة والضِّيافة وما يشبههما من الإساءة والإحسان . وقيل الممسى يتّصل بأوّل حد الليل ، وكذلك المُصبَح يبتدئ من أوّل حدِّ النَّهار . وقيل إنَّ الممسى يستحقُّه الوقت إلى أن ينقضى شطر من الليل ، وكذلك المصبح يستحقُّ إلى أن ينقضى شِطرٌ من النهار . والغَرض فى التَّفدية التى تبرّع بها هو إظهار اليَأس والتفجُّع فى إثر أوقاتهم وأفعالهم فيها .

وقوله «أولئك لو جَزِعتُ لهم لكانوا» إقرارٌ بأنه لم يوفِّ الجزعَ فيهم حقَّه ، ولو وَفَّى لكان ذلك يُوجِب عليه الزُّهدَ فى العشيرةِ والأهلِ والمال ، وسائرِ ما يطيب العيشُ به وله . فالشَّرط الذى ذكره ليس هو شرطًا فيما يوجبه التوجُّعُ فى كونهم عزيزاً ، لأنَّهم أعزّاء عليه فى كلِّ حال ، وإنَّما هو شرطٌ فيما يوجبه التوجُّع للمتوفَّى لو تُكلِّف على وجهِه وكُنْهِه ، لكأنه قال : لو أُعطيتُ الجزعَ حُكمَهُ لكان حالى حينئذ بخلاف حالى السَّاعة ، ولكانَ لى عذرٌ فى ذلك ، لأنَّهم أعزُّ علىَّ من أهلى ومالى ، لكنِّى تركتُ ذلك اقتداءً بالنَّاس فى جزَعهم لمُصابهم . فذكر السبب فى أنّ ما يُظهِر منه ليس يعُدُّه شيئًا مُغْنيا مع

ما يستحقُّونه[1] . وهم يكتفون بذكر السَّبب عن المسبَّب وبذكر المسبَّب عن السبب كثيرا .

٣٥١

وقال قُرَادُ بن غُوَيَّة[2] :

١ — ألاَ لَيْتَ شِعْرِى ما يَقُولَنْ مُخَارِقٌ   إذا جَاوَبَ الهَامَ الْمُصَيِّحَ هَامَتِى[3]

٢ — ودُلِّيتُ فى زَوْرَاءَ يُسْفَى تُرَابُهَا   علىَّ طَوِيلًا فى ثَرَاها إقامتى

تقدَّمَ القولُ فى ليت شعرى وأنَّ خبر ليت يُحذَفُ أبدا كما يُحذف خبر المبتدأ بعد لولا ، وأنَّ شعرى بمعنى عِلْمى ، ويصير ما بعده سادًّا مَسَدَّ مفعولَيه كما يسدُّ جواب لولا مَسَدَّ خبر المبتدأ بعده . وإنَّما تمنَّى أن يعلَمَ موقعَ مُصابه من مخارقٍ على حسنِ تربيته له ، وحميد تعطُّفه عليه ، وميله مدَّةَ عيشِه إليه . وكيف يَجزع له ويقلَق لفِراقه إذا حَدَثَ به قضاء الله ودخل فى جُملة الأموات ، وجاوَبَ صداه أصداءهم . وهذا على عادتهم فيما كانوا يقولونه من أنَّ عظام الموتَى تصير أصداءً وهامًا ؛ حتَّى قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم : « لا عَدْوَى ولا هَامَةَ ولا صَفَر » . ويقال صاح يصيح ، فإذا أريد المبالغةُ قالوا صَيَّحَ . ويقال : سمِعت الصَّيحة فى الغارة وما أشبهَها ، وسمِعت الصائحة ، فى صَيْحة المناحة . وقوله « ما يقولَنْ مخارق » أدخل النُّون الخفيفة لتُؤْذِن بالاستقبال ، وموضع التونين

---

(١) ابن جنى فى التنبيه : « هم على كل حال أعز عليه من أهله وماله ، فما وجه هذا الشرط ، ومن صحة الشرط أن يكون مما يتسلط عليه ؟ والجواب أنه ذكر السبب فاكتفى به من المسبب ، فكأنه قال ، لو جزعت لهم لكنت معذوراً فى ذلك لأنهم أعز على من أهلى ومالى » .

(٢) سبقت ترجمة أبيه فى الحماسية السابقة .

(٣) التبريزى : « ويروى : المصبح ، بالباء » .

الخفيفة والثقيلةِ الاستفهامُ وكلُّ ما ليس بواجب، وإذا ظرفٌ ليقولنّ، وجاوب جملةٌ مضاف إليها وشرح إذا بها.

وقوله «ودُلِّيتُ فى زَوْرَاء يُسْفَى ترابُها» أى أدخِلتُ فأُرسلْتُ فى حُفرةٍ معوجّة، يعنى اللحد، وقوله «يسفى ترابُها علىّ» أى يُهال ترابُها عليه إذا دفن فيها. وقد مضى القول فى السّافياء والسّوافى[1]، إلا أنّه يقال سَفَت الرِّيح التُّراب سَفْياً، ثم قالوا: سَفِى الترابُ يَسفِى، والتُّراب سافٍ، وهو من باب فَعَلَ وفَعَلْتُه. وقال بعضهم: كان يجب أن يقال فى التُّراب مسفىٌّ فقيل سافٍ، كقولهم عيشة راضية وإنما هى مرضيّة. وقال الخليل: السَّفا: اسمُ ما تَسفيه الرِّيح من التُّراب وغيره. وطويلا: انتصبَ على الحال، والعامل فيه دُلِّيتُ، وإقامتى فى موضع الرّفع على أنّه فاعل طويلاً. والمقبور هكذا مُقامُه فى الثَّرى. وهذا اقتصاصُ حالِه عند ما تمنَّى معرفتَهُ من جهة مخارِقِ إذا حصلَتْ له من التلهُّف والتوجُّع. ثم استمرّ فى ذكر الحال فقال:

٣ — وقالُوا ألَا لا يَبْعَدَنّ اِخْتِيالُهُ وصَولَتُهُ إذا القُـرُومُ تَسامَتِ

٤ — وما البُعدُ إلّا أنْ يكونَ مُغَيَّباً عَنِ النَّـاسِ مِنِّى نَجْدَتى وقَسامَتِى[2]

يريد: وقال الناس مكبراً[3] ما يقع بى، ومظهراً الفجيعة لى: لا يبعدن اختيالُه وصَولتُه، يعنى كِبْره وحميَّته، وبأسَه وبطشه، إذا حصَلَ بين الصَّفَّين، فتدافعت فُحولةُ الرِّجال، وتزاحمت أركانُهم فى القتال أو الجدال. وقد تقدم

(١) انظر ما مضى فى ص ٩٨٦.

(٢) ل: «وبسالتى» وفى هامشها: «ويروى وقسامتى». التبريزى: «وقسامتى» ثم قال: «ويروى: وبسالتى».

(٣) كذا فى النسختين.

القول فى لا يَبعَدنّ وما أشبَهَه[١] . والقُرم : جمع القَروم ، وهو الفَحْلُ أُقْرِمَ ، أى تُرِكَ حَتَّى استقْرَم ، وهو المُكْرم لا يُحمَل عليه شىء ، وإنَّما يُترَك للفِحْلة . ويقال قَرْمٌ ومُقْرَمٌ . على ذلك قولُه :

إذا مُقْرَمٌ مِنَّا ذرَا حَدُّ نابِهِ تَخَمَّطَ فينا نابُ آخَرَ مُقْرَمِ[٢]

ومعنى تسامَتْ تبارَتْ فى السُّمُوّ ذِكراً وحالا .

وقوله « وما البُعد إلا أن يكون مغيّبا » يقول : إنّ الانتفاعَ بهذا القول إعظاماً للرُّزْء ليس يقع ، لأنّ البُعد كل البعد فى الموت ، الذى يتغيَّبُ به عن النَّاسِ ما شَمِلهم من معونتى ومَفُوثتى ، وإحسانى وإفضالى ، ويقال رجل نَجدٌ[٣] ، وهوظاهر النَّجْدة . ورجل قَسِيمٌ وسيم : ظاهر القَسَامة والوَسامة . كأنَّه أراد بالقَسَامة ما قُسِمَ فى الخَلْق من طَوْله . وكذلك قولهم : رجل مقسَّم الوجهِ ، يرجع إلى هذا ، لأن المعنى ما قُسِمَ فى أعضائه من الحُسْن ، فكلُّ عضوٍ يَمُتُّ بمِثل ماتَّةِ صاحبِه . والقَسامة : الجماعة يَشهدون على الشَّىء ويُقسِمون مع الشَّهادة .

٥ — أيَبْكِى كما لو ماتَ قَبْلِى بَكَيْتُه ويَشْكُرُ لى بَذْلِى له وكَرامَتِى[٤]

٦ — وكنتُ له عَمًّا لطيفاً ووالِداً رَؤُوفاً وأُمًّا مهَّدَتْ فأنامَتِ

(١) انظر ما مضى فى ص ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٢) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان والمقاييس (قرم ، ذرا) وكذا اللسان (خمط) .

(٣) بالفتح ، وبفتح فضم ، وبفتح فكسر ، ثلاث لغات .

(٤) رواه ابن جنى فى التنبيه : « ويشكرنى » ، وقال : « يجوز أن يكون أراد : على بذلى ، فحذف حرف الجر فنصبه بالفعل قبله ، على ما تقدم . ويجوز أن يكون بذلى بدلا من ضمير المتكلم ، أى يشكر بذلى . وإنما يجوز البدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب إذا كان بدل البعض أو بدل الاشتمال ، نحو عجبت منك عقلك ، وضربتك رأسك . ومن أبيات الكتاب :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفيتنى حلمى مضاعا » .

قوله « أيبكى » هو بيانُ ما تمنّى معرفتَه من أحوال مُخَارِقٍ عند مفارقتِه له، فقال : ليتنى علمتُ هل يوفِّى الجزَعَ حقَّه ، كما لو أصِبتُ به كنت أوَفّيه ، ويَرْثِى لى بمثل ما كنت أرثيه ؛ وهل يشكر آلائى لدَيه ، وإقبالى عليه ، وإحسانى إليه مدة حياتى أمْ لا . فحذف لا لأن المراد مفهومٌ ، أنّه يريد أيكون ذلك أم لا . وعلى ذلك قول القائل : ليتنى علمتُ أزَيْدٌ فى الدار — إذا سكتَّ عليه ، فلا بد من أن تريد أم لا .

وقوله « وكنت له عمًّا لطيفا » ، أى كنتُ جمَعت له مدّة عمرى وما اطّرد فى نفسى ، بين حَدَب الآباء وشفقتِهم ، ولُطف العمومةِ وتوفُّرِهم ، وتفقُّد الأمّهات وإشبالهنّ(١) . والمعنى : كنتُ أتنقّل له فى الأحوال بين ما يأتيه العمُّ فى وقتِ لُطفِه أو يأتيه الوالد وقتَ رأفتِه ، أو الأمُّ وقتَ تربيتِها ولُطفها . وقد سارت هذه اللفظة ، وهى « أمٌّ مَهّدَتْ فأنامت » مثلاً فيما يُنشَر من إحسان الغير إلى الغير . ويقال : ما امتَهَد فلانٌ عندى مَهْدَ ذلك ، أى ما وَطَّدَ لنفسه . وقد أخرج فى مِعرَضٍ آخرَ فقيل :

* كما مَهّدَتْ للبَعْلِ حسناء عاقِرُ(٢) *

وروى بعضهم : « ويَشْكُرُنى بذلى له وكرامتى » على أن يكون بَذلى بدلاً من المضمر فى يَشكُرُنى .

---

(١) الإشبال : التعطف والمعونة .

(٢) البيت لدريد بن الصمة ، كما فى الحيوان (٧ : ٣٧ — ٣٨) أو معقر بن حمار لبارق ، كما فى الأغانى (١٠ : ٤٥) والمزهر (٢ : ٣٤٨) . وصدره :

* لها ناهض فى الوكر قد مهدت له *

٣٥٢

وقال مِسْجَاحُ بْنُ سِبَاعٍ[1] :

١ — لَقَدْ طَوَّفْتُ فى الآفاقِ حَتَّى ... بَلِيتُ وقد أَنَى لى لَوْ أَبِيدُ
٢ — وأَفْنَانِى ولا يَفْنَى نَهَارٌ ... ولَيْلٌ كُلَّما يَمْضِى يَعُودُ
٣ — وشَهْرٌ مُسْتَهَلٌّ بَعْدَ شَهْرٍ ... وحَوْلٌ بَعْدَهُ حَوْلٌ جَدِيدُ
٤ — وَمَفْقُودٌ عَزِيزُ الفَقْدِ تَأْتِى ... مَنِيَّتُهُ وَمَأْمُولٌ وَلِيدُ

يقول : جُلْتُ فى نواحِى الأرضِ شرقِها وغَرْبِها ، عافياً وطالباً بما يُطلَب به مثلِى المالَ والجاه ، والعِزَّ والفخر ، إلى أن مَسَّنِىَ الكِبَرُ ، وتسلَّط علىَّ البِلَى والهَرَمُ ، وضَعُفَ الأملُ فى البقاء بحسب قُوَّةِ الخوف من الفَنَاء ، فقد آن لى أن أَلحقَ السابقين إنْ قُدِّر لى ذلك . وقوله « أَنَى لى » يقال أَنَى وآن بمعنًى ، وفاعله ما دلَّ عليه لو أَبيدُ ، والمعنى أَنَى لى البُيودُ إن كُتِبَ وقُضِىَ عَلَىَّ .

وقوله « وأفنانى ولا يَفْنَى نهارٌ » جَمَع بين فِعلَين ، على قوله نهار ، لكنَّه أَعمَلَ الثَّانِىَ ، وهو المختار . والمراد : أثَّر فىَّ قُوَاىَ مُضِىُّ نهارٍ لا يتقضَّى ، وتجدُّدُ ليلٍ لا يتصرَّم ، بل كلما يمضى واحدٌ عادَ بدلَهُ آخَرُ ، وكذلك أفنانى ، أى أَفْنَى جِدَّتى وغَنَائى ، شهر ينسلخ بعد استهلاله ، إلى وقت استكماله ، وسَنَةٌ يتبعها مثلُها ، فلا يُعرَف قضاؤها . ثمّ ما يلحقُنى فى أثناء تلك اللَّيالى والأيّام ، والسِّنينَ

---

(١) المرزبانى فى معجمه ٤٦٩ : « المسجاح — ويقال المسحاج — بن سباع بن خالد ابن الحارث بن قيس بن نصر بن عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة . جاهلى » . وأنشد له هذه الأبيات . وذكره السجستانى فى المعمرين ٧٦ وأنه عاش حتى هرم ومل الحياة . وأنشد له أيضاً هذه الأبيات ، ولكنه أسقط اسم أبيه « سباع » وزاد « ذهل » بين « عائذة » و « مالك » . وفى الاشتقاق ١٢١ : « ومنهم مسحاج بن سباع ، كان من المعمرين . ومسحاج مفعال من السحج ، والسحج : قشرك الشىء » .

والأعوام ، مِنْ فَقْدِ من أعتمدُه ليومي وغدِى ، وخِلافتى بعد موتى وأستكفِلُه وَلَدِى ، وأسترعِيهِ هَمَلِي . هذا مع كماله فى فضله ، وبَرَاعته وطَوْلِهِ ، والإشادة بالتّنويه إليه من كل جانب ، والشهادةِ له بالتبريز من كلِّ فاضل . ومِن ولادةِ طفلٍ يعلّق الرّجاء بنَشْئِه ، وتُجْمَع أسباب الطَّمع فى حياته ، ويُشغَلُ الوقتُ بتربيتِه والتّرفرُفِ عليه عِوَضاً مما كان له من كاسبه وكافِلِهِ ، ورحمةً لبقائه بَعْدَ مَن كان يعزُّ عليه ، وعَقِب مَن هنِّئَ فيه فلم يَهْنَأْهُ .

وإذا تأمَّل الناظرُ ما اقتصَّه هذا الشاعرُ فى هذه الأبيات على قِلّتها ، من امتحانه بالكَبْرة والسِّنّ ، وتَراجُعِ القوة بمآخذِ الدّهر ، ومع التّجْوال فى البُلْدَان ، ومُقاساة الشّقاء فى الحلّ والتّرحال ، والتنقُّلِ فى الأحوال ، ثم مرُورِ الأيّام وكُرُورِها بما لا يَسُرُّ عليه ، إلى أن رَفَع الطّمعَ عما كان تجمعُه يدُه ونفَضَ اليدَ مما كان يشدُّه قَبْضُه ، ثم المُصابِ فى الكامل البارع ، وتعليق الرّجاء بالطِّفْل الدارج — وجدَ عَيشَه على العكس مما وصفه امرؤ القيس فى قوله :

ألاَ انعمْ صَبَاحًا أيُّها الطَّلَلُ البالِي ... وهل يَنْعَمَنْ مَن كان فى العُصُرِ الخالى
وهل يَنْعَمَنْ مَن كان أقْرَبُ عَهدِهِ ... ثلاثينَ شهراً أو ثلاثةَ أحوالِ (١)
وهل يَنْعَمَنْ إلاّ خلىٌّ مُخَلَّدٌ ... قليلُ الهُمُومِ ما يبيتُ بأوجالِ

فتأمّلها فإنّها عجيبة .

---

(١) رواية ديوان امرئ القيس ٥٠ : « فى ثلاثة أحوال » .

[خاتمة الجزء فى نسخة الأصل]

تم الجزء الأوّل من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمّام الطائى ، المعروف بكتاب الحماسة .

يتلوه فى الجزء الثانى إن شاء الله تعالى : « وقال حران[1] بن عمرو بن عَبْد مَناةَ يرثى زيدَ الفوارس وغيرَه من أبناء عمه :

تبكى على بكر شربتُ به سفهًا تَبكّيها على بكرِ
هَلاَّ على زَيد الفوارس زَيْـــدِ اللّاتِ أو هَلاَّ على عمرِو
تَبكِين لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أَوْ هَلاَّ على سَلمَىْ بَنِى نَصْرِ[2] »

---

(١) كذا فى الأصل . وانظر ما سيأتى فى تحقيقه .

(٢) فى نهاية هذا الجزء من نسخة الأصل هذا النص :

قد وقف هذا الكتاب الجليل والأثر الجميل ، والدة السلطان الأعظم ، والخاقان المفخم ، السلطان عبد المجيد خان أدام الله أيام وعمر دولته إلى آخر الدوران . أعنى بها حضرت بزم عالم سلطان ، علية الشان ، جعل الله سعى الواقفة مشكوراً ، وجزاءها جزاء موفوراً ، لسنة ست وستين ومائتين وألف ١٢٦٦ .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

شرح ديوان الحماسة

لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

۰۰۰ — ٤٢١

نشره

أحمد أمين　　عبد السلام هارون

القسم الثالث

الطبعة الثانية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م

الجزء الثانى

من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمام الطائى
المعروف بكتاب الحماسة

صـــنعة

الشيخ الإمام أبى على أحمد بن محمد بن الحسن
المرزوقى الإصفهانى

٠٠٠ — ٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

٣٥٣

وقال حَرَّان بن عَمْرو بن عَبْدِ مَنَاةَ[١] ،

يرثى زيد الفوارس[٢] وغيرَه من أبناء عُمومته :

١ — تَبْكِى على بَكْرٍ شربتُ بِهِ سَفَهًا تَبَكِّيها عَلَى بَكْرِ

٢ — هَلَّا عَلَى زيدِ الفَوارسِ زَيْـ ـدِ اللَّاتِ أو هَلَّا على عَمْرِو

٣ — تَبْكِين لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أَوْ هَلَّا على سَلَفَىْ بنى نَصْرِ

هذه امرأة ضايقَت الشَّاعر — وهى من بطائنه[٣] — فى بَكْرٍ باعَهُ واشترى بثَمَنه خَمرًا ، فبكت ، فأخذ يذكُر حالها ويُنكر بكاءها ، فقال : تبكى هذه المرأةُ على بَكرٍ شربتُ به ، أى شربتُ خمرًا سبَأْتُ بثمنه . ويروى « شَرَيْتُ به » ، ويكون أظهر .

ثم قال ، بعد أن أخبَرَ عنها بما أخبر ، كالمتلفِّت إلى إنسانٍ بحضرته : سَفَهًا تبكِّيها على بَكر . فانتصب سفهًا على المصدر ، وهو المفعول له . وتبكِّيها فى موضع رفعٍ بالابتداء ، وعَلَى بكر فى موضع الخبر ، أى لسفهها فَعلَتْ ذلك ، لأنَّه لم يبلغ

---

(١) كذا ورد اسمه فى النسختين . وفى المبهج ٤٦ والتبريزى : « حزاز بن عمرو ، أخو بنى عبد مناة » . وقال ابن جنى : « حزاز : جمع حزازة ، وهى هبرية الرأس ، وهو ما ينتثر منه كالنخالة إذا سرحته » . ويبدو أنه شاعر جاهلى .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٠ ص ٥٥٧ .

(٣) جمع بطانة . وفى ل : « بطانته » .

من قدر بَكْرٍ ما تكلّفْتَهُ . ولو روى : سَفَهٌ تبكّيها على بكر ، فجُعِل التبكّىَ هو السّفه لم يمتنع ، وكان خبرًا مقدّمًا ، وعلى بكرٍ يكون لغوا .

وقوله « هَلّا على زيدِ الفوارس » إلى آخر البيت ، هَلاّ حرف تحضيض وهو يطلب الفِعل ، وذلك الفعل هو تبكين . يخاطبها ، أى هَلّا تبكين على هؤلاء الجبال التى انهدّت ، والبُحورِ التى غاضت بزيد الفوارس أو عمرو . ثمّ دعا عليها فقال : لا أرقأ اللهُ دمعَك ، أمْ هلّا تبكين على سَلَفَىْ بنى نصر . وإنّما ثنّى السَّلَف لأنّه أراد العمومة والخُؤولة .

٤ — خَلَّوْا عَلَىَّ الدَّهْرَ بعدَهُمُ فبَقِيتُ كالمنصـــوبِ للدَّهْرِ

٥ — إنَّ الرَّزيئَــة ما أُولَاكَ إذا هَـزَّ الْمَخَالِـعُ أقدُحَ اليَسْرِ(١)

٦ — أهْلُ الْحُلُومِ إذا الحلومُ هَفَتْ والعُرْفِ فى الأقوامِ والنُّـكْرِ

يقول : مضوْا لسبيلهم ، وانتقلوا إلى جوارِ مَنْ هو أملكُ بهم ، وتركوا أعباءَ الدَّهرِ على ظهرى ، فهى تثقُل علىّ وتعرِّضنى لنوائبه وأحداثه ، فأنا كالغرض المنصوب له ، ليس لى من يتحمَّل عنّى ، ولا من يؤازِرُنى أو يشدُّ أزرى . ومعنى « خَلَّوْا علىّ الدّهر » أى صرتُ فريسةً للدّهر ، فكأنّهم هم الذين أغرَوْه بى لمّا ذهبوا عنّى وأفردونى . وهذه اللّفظةُ تُستعمَل فى إغراء الجوارح على الصَّيد .

وقوله « إنَّ الرزيئة ما أُولاكَ » إلى آخر البيت ، يريد : المصيبة كلُّ المصيبةِ هم أُولاكَ إذا اشتدَّ الزّمان وأَسْنَتَ النّاس ، واحتِيج إلى مجامِـع الأيسارِ ، لإصلاح أمر الفقراء والأيتام ، فلم يُوجَدْ من يُرجَع إليه أو يُعتَمَدُ على إفضالِه وتفقدِه . وقوله « ما أولاكَ » ما صِلةٌ . ومعنى هَزَّ أجالَ . والمخالِـعُ : المقامر .

(١) التبريزى : « هر » بالراء المهملة . وقال : « ورواية من روى هر بالراء أجود من رواية من روى : هز ، لأنها أبلغ فى المدح » .

والخَلَعةُ : القِمار . وقيل إنّما سُمّىَ مخالِعاً لأنّه هو المولع باليَسْر ، فهو الذى يَخلع مالَ غيره وينخلع هو أيضاً من ماله ، مُنافسةً وحِرصا على الميسِر واكتساب الحمد فيه وله . وقوله « إذَا هزّ » هو ظرف لما دل عليه « ما أولاك » . يريد أنّ الرَّزيئة افتقارُ النّاس إلى أولئك فى مثل هذا الوقت فلا يُنالون . وقوله « أهل الحلوم إذا الحلوم هَفَت » يصفُهم بالرّزانة فيقول : إذا دَهِمَ من الأمر ما تهفو فيه العُقول وتزِلُّ فيه الأقدام ، فهؤلاء لأصالة آرائهم يثبتون عند المزاولة ، ويُداوون الأمورَ بدوائها من غير طَيشٍ ولا سَفَهٍ ، ولا تجاوُزِ حَدٍّ وعَنَت . وقوله « والعُرْف فى الأقوام » أراد : وهم أهل العُرْف والنُّكر فى الأقوام . يعنى أنّهم يُنزلون الأقوامَ منازِلَهم من المُوالاة والمُداجاة ، فمن دَاجَى كان له النُّكر منهم ، ومن وَالَى كان له العُرْف .

٣٥٤

وقال زُوَيْفِر(١) بن الحارث بن ضِرار :

١ — ألَمْ تَرَ أنّى يومَ فارقْتُ مُؤْثِرًا أتانى صَرِيحُ الموت لو أنّهُ قَتَل(٢)

يروَى « صريخُ الموت » بالخاء المعجمة « لو أنه قَبِل » بالباء . ومعنى ألم ترَ : اعلَمْ ذلك . ألا ترى قولَه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ . والنبى عليه السلام لم يَرَ ذلك . فيقول : اعلمْ أنى يوم فارقتُ هذا الرجلَ وَرَدَ علىّ ما يجرى مَجرى الموت الصريح الخالص لو أنه قتلَنى وأتَى علىّ ، ولكنّ القدرَ ثبَّتَ قدمى فى الأحياء ، فلم يُخَلِّنى للموت . ومن روَى « صريخ » بالخاء و « قَبِل » بالباء فالمراد : أتانى داعى الموت . والصَّريخ يكون المستغيثَ

(١) التبريزى : « زويهر » .

(٢) صريح ، كتبت فى الأصل لتقرأ بالمهملة والمعجمة ، مقرونة بكلمة « معاً » .

والمُغيث جميعاً ، والمراد أتانى داعى الموت لو أنّه قَبِلنى لكُنتُ لا أمتنع من إجابته لمّا استدعَى ، وإغاثته لمّا استغاث ، لكنه لمّا بَقّانى ولم يأخذْنى فكأنّه لم يقبلنى .

٢ – وكانت عَلَيْنا عِرْسُهُ مِثْلَ يوْمِهِ غَدَاة غَدَت مِنَّا يُقادُ بها الْجَمَلْ

تقدير البيت إذا أُزيلَ ما فيه من هُجْنة التقديم والتأخير : وكانت علينا عِرْسُه غداةَ غَدَت منّا يُقادُ بها الجمل مثلَ يومِه . والمعنى : كانت مفارقةَ عِرْسُه لنا غداةَ انتقالِها عنّا ، وقد حُمِّلت الجِمالُ وقِيدَ بها ظعينتُها مثلَ يوم فقده ، أى كان ذلك اليومُ مثل ذلك اليوم . كأنّهم كانوا أَلِفُوا من مُقامِها أيّامَ عِدَّتها أُنْسًا بها ، وببقاء دارها على ما كانت تُعْهَدُ من قبل ، فلمّا رأت من التنقُّل ما رأت ، وخَلَت الديارُ منها ومن أسبابها وتغيَّرت ، عادت المصيبةُ على أحيائها جَذَعاً ، والشَّرُّ مستفحِلاً .

٣ – وكان عَمِيدَنا وبَيْضَةَ بيتِنا فكلُّ الذى لاقيتُ من بَعْدِه جَلَلْ[1]

أى كان رئيسَنا والمصمودَ بالحاجات فينا ، وأصلَ بيتِنا وأساسَ فخرِنا . وقد تقدم القول فى بيضة البلد[2] ، وأنه يُستعمَل فى المدح والذم . فأما بيضة الخِدر وبيضة البيت فلا يستعملان إلاّ فى المدح . وقد صيغ من البيضة هذا فعلٌ ، حكى ابن الأعرابىّ قال : يقال اجتاحوهم وابتاضوهم ، إذا استأصلوهم . وقوله « فكل الذى لاقيت من بَعدِه جَلَل » أى صغيرٌ هيِّنٌ فى جَنب ما لاقيناه فيه . والجلل يُستعمَل فى الصغير والكبير . وقال بعضهم : المراد ببيضة البلد أنّه المعروف الموضِع ، المرجوعُ[3] إليه فى كلِّ مُهِمّ ، كما يرجع صاحبُ الأُدحِىّ إلى

(١) فى الأصل : « الذى حملت » ، صوابه فى ل والتبريزى .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٥٠٥ ، ٨٠٤ .
(٣) فى الأصل : « للرجوع » ، صوابه فى ل .

أُدحيِّهِ[1] كيف توجَّه فى المرعى، وأنَّى انتجَعَ ورَعَى. والأجود أن يكون المراد به وقد أضيف إلى البيت، وهو بيت الفخر والعِز، أنه الأصلُ والجُرثومة، كما حكى عن أبى بكر رضى الله عنه أنَّه قال: «نحنُ عِتْرةُ رسول الله التى خَرَجَ منها، وبَيضتُه التى تفقَّأَتْ عنه».

٣٥٥

وقال ابن عَنَمة الضَّبِّىُّ[2]

فى مَقتلِ بِسطامَ بنِ قَيْس[3]:

١ ــ لِأُمِّ الأرضِ وَيْلٌ ما أَجَنَّت بحيثُ أضرَّ بالحَسَنِ السَّبيلُ

يعظِّم شأنَ الأرض كيف ترشَّحَت لستر[4] بِسطامَ فيها، ومن أين صارت يتَّسع بطنُها له ميِّتاً وهى تضيق عن أفعاله وذِكْرِه حيًّا. وقال الأصمعى فى تفسير وَيْلٍ إنه قُبُوحٌ[5]. ولك أن تقول «لِإِمِّ» فتُتبِع حركة الهمزة حركة اللام. وارتفع وَيْلٌ بالابتداء وإن كان نكرة، لأنه عُلِم أنه دعاء، فحصل به مثلُ فائدة المعارف. ومعنى «لِامِّ الأرض وَيلٌ» ثبَتَ لأُمِّ الأرض ويل، فهو فى لفظ ما وقع. وقوله «ما أجنّت» ما استفهام، وموضعه مفعول أجَنّت. يقول:

(١) هذا ما فى ل وهو الأوفق، وفى الأصل: «أدحيته»، والأدحى والأدحية والأدحوة، كلها بمعنى، وهو مبيض النعام فى الرمل.

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٩ ص ٥٨٢.

(٣) هو أبو الصهباء بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى. شروح سقط الزند ١٩٧٢، وقال ابن دريد فى الاشتقاق ٢١٥: «وبسطام اسم فارسى، وبسطام أحد الفرسان الثلاثة المذكورين: عامر بن الطفيل، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وبسطام هذا». التبريزى: «قتله عاصم بن خليفة: وكان ابن عنمة مجاورا فى بنى شيبان، فخاف على نفسه لما تتل بسطام، فرثاه يستميل بذلك بنى شيبان، وهو من بنى السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة». وعاصم ابن خليفة ضبى.

(٤) فى الأصل: «لسير»، صوابه فى ل.

(٥) يقال قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحا، أى أقصاه وباعده.

سَتَرَتْ رجلاً وأيَّ رجل ، أى سترَتْ جليلاً من الأملاك رفيعَ بناءِ العِز ، واسعَ باعِ الفخر . وقوله « بحيثُ أضَرَّ » جعل حيثُ اسماً . ومعنى أضَرَّ : دنا . والحَسَن : جَبَلٌ(١) . والمعنى بمكانٍ أضرّ السَّبيلُ بالحَسَن فيه ، أو أضرَّ السبيلُ بالحَسَن ، حتى نكونَ مثَّلناه على المذهبين جميعاً .

٢ ـ نُقَسِّم مالَه فينا ونَدْعُو   أبا الصَّهْبَاء إذ جَنَحَ الأَصيلُ

يقول : نقسِّم فواضلَ ما عندنا من غنائمِ غَزَواته وما بَقّاه ولم يَقسِم فينا لوقتٍ يختاره له ، فبقِيَ بعده . وفى اقتسام تلك الأموال ما يهيِّج الحَسَرات ، لأوقات الغارة فى البُكُرات . ثم قال « وندعو أبا الصَّهباء إذ جَنَح الأصيل » يُشير إلى وقت الأضياف ، وأن الحىَّ فى ذلك الوقت يصير ضجَّةً واحدة ، تلهُّفاً فى إثر الفائت ، وتذكراً له ، وتوجعاً لما فُقِدَ من المستأنَف من تلك الرُّسوم واستمرارها . ومعنى ندعوه نندُبه ونقول : وابِسطاماه ! وإنَّما قال « مالَه » لأنَّ ما اجتمع بسعيه وحَدِّه ، وبأسِه وسَطوته ، كان له . ومعنى جَنَح مال . والأصيل العشيَّة . وأبو الصَّهباء : كنية بسطام .

٣ ـ أَجِدَّكَ لن تَراه ولَنْ تَرَاه   تَخُبُّ به عُذافِرَةٌ ذَمُولُ(٢)

ألمَّ فى هذا بقول النابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تَأْبَى نفوسُهُم(٣) *

كأنه لشدة الأمر عليه يكذِّب المشاهدة ويدع التَّصديق بها فى الوقت

(١) ياقوت : « الحسنان . . . . : كثيبان معروفان فى بلاد بنى ضبة ، يقال لأحدهما الحسن ، وللآخر الحسين » .

(٢) التبريزى : « لا تراه ولن تراه » ، ثم ذكر رواية المرزوقى .

(٣) يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ . وعجزه فى ٨١٣ ، ٢٦٢ :

* وكيف يحصن والجبال جنوح *

بعد الوقت ، إما استعظاماً للحال ، وإما لآفةٍ تلحق العقلَ ، وضعفٍ يتخلَّل التحصيل ، فكأنه بعد ما اقتصَّ من الحال ما اقتصَّ ، وشَرَح من الفَجْع ماشَرَح عاودَتْه تلك الحالة وعادته ، فأقبَلَ على نفسه يستثبتها وقال : أعلى جِدٍّ منك ، وأتَجِدُّ جِدَّكَ ، أنَّك فى مستقبل الأوقات لا تراه متمكِّنا منه قريباً ، على عادتك فى حال الأمن معه ، ولا تراه أيضاً من بعيدٍ فى الغَزْو وتسير به الخَبَبَ راحلةٌ قوية خفيفة .

وقد ظهر بما ذكرتُه فائدةُ تكرار حرف النفى فى كلامه ، لأنَّ لن نَفْىُ قول القائل أسيفعل كذا زيد؟ فيقول : لن يفعل . فقوله لن تراه نفْى الرُّؤْية فى حال السِّلم ، ولن تراه نفيٌ لها فى حال الغَزْو . وتخُبُّ به فى موضع الحال .

٤ ـ حَقِيبةُ رَحْلِهَا بَدَنٌ وسَرْجٌ تُعَارِضُها مُرَبَّبَةٌ دَؤُولُ[(١)]

٥ ـ إلى ميعادِ أرعَنَ مُكْفَهِرٍّ تُضَمَّن فى جوانِبها الخُيولُ[(٢)]

يقول : تَخُبُّ به ناقة بهذه الصِّفة وقد شُدَّ فى الحقيبة التى ارتَدَفها درعٌ قَدْرُ ما يستر البدن ، وسَرجٌ لِمَا جُنِب معه من فرسٍ تعارض هذه النَّاقةَ فى السَّير ؛ وهى لعزِّها وكرمها على رَبِّها[(٣)] ، رُبَّت فى البيوت ولم تُتْرَكْ هَمَلًا ، وسيرها الذميل . ويقال ربَبْتُهُ وربّبته بالتشديد بمعنى . والدَّألانُ : ضربٌ من السَّير . والاحتقاب : شَدُّ الحقيبة مِن خَلْف ، وكذلك الاستحقاب .

وقوله : « إلى ميعادِ أرعَنَ » يعنى به جيشاً كأنه رَعْنُ جَبَلٍ . وقيل : جيشٌ

(١) فى النسختين : « دؤول » بنقطة فوق الدال ونقطة تحتها مقرونة بكلمة « معاً » . لتقرأ بالإعجام والإهمال ، واقتصر التبريزى على رواية الدال المهملة .

(٢) فى الأصل : « فى جوانبه » ، وهى مطابقة لرواية التبريزى فى الصلب ، لكن التفسير هنا يقتضى ترجيح ما أثبتنا من ل وتفسير التبريزى .

(٣) فى الأصل : « أنها » صوابه فى ل .

أرعن : له فُضُول . والرَّعْن : أنف يتقدَّم من الجبل ، والجميع الرِّعان والرُّعون . مكْفَهِرٌّ ، أى مرتفعٌ عالٍ . وقوله « تُضَمَّنُ فى جوانبها الخيول » أى تُقْرَن الخيلُ بالإبلِ فى جوانبها ، إذْ كان لكلِّ رجلٍ راحلةٌ وفرَسٌ يقودُه معه . ومثل هذا قولُه :

* خَصَفْنَ بآثارِ المَطِىِّ الحوافرا[1] *

يقول : تسير به راحلةٌ معها جَنِيبَةٌ ، إلى ميعادِ أرعَنَ ، أى جيش كثيرٍ ضُمِّنَ جوانبُ رواحلها الُخيول . ويروى : «تُضَمَّر فى جوانبها » بالراء ، والمعنى تُصْنَعُ الخيولُ وتُعدَى فى القَرَّتينِ[2] فى جوانبها . والمراد أنّ فُرسانَ هذه الكتيبة دأبُهم ذلك .

٦ـ لَكَ المِرْبَاعُ منها والصَّفَايا وحُكْمُكَ والنَّشِيطةُ والفُضولُ

أقبَلَ يخاطِبُ المرثىَّ بعد الإخبار ، على عادتِهم فى الكلام .

وقال أبو عبيدة : كان رئيسُ القَوم فى الجاهليّة إذا غزا بهم فغَنِمَ أخَذَ من جماعةِ الغنيمة ومن الأسرَى والسَّبىِ على أصحابه المِرباعَ ، وهو الرُّبع ، فلذلك قال « لكَ المِرباعُ منها » فصار هذا الرُّبع الذى كان فى الجاهليّة للرَّئيس فى الإسلام خُمْسًا . وكان له الصَّفِىُّ : واحد الصَّفايا مِن جماعةِ الغنائم والأسلاب والكُراعِ قبل القِسْمة ، وهو أن يصطفِىَ لنفسه شيئًا : جاريةً أو سيفًا أو فَرَسًا أو ماشاء ، وبقى الصفىُّ على حالِه فى الإسلام : اصطفى النبىُّ صلى الله عليه وسلم سيفَ مُنَبِّه ابن الحجّاج ذا الفَقَار يومَ بدر ، واصطفى جُوَيرِيَةَ بنتَ الحارث من بنى المُصْطَلِق

(١) البيت لمقاس العائذى ، كما فى اللسان (خصف) . وهو أول المفضلية ٨٥ . وصدره :

* أولى فأولى يا امرأ القيس بعد ما *

(٢) القرتان : الغداة والعشى .

يومَ المُرَيْسِيع ، فجعَلَ صَدُقَتَها[١] عِتقَها وتزوَّجَ بها ، واصطفى صَفيَّةَ بنت حُيَيّ ففعَل ذلك بها .

وقال أبو عُبَيدة : وكان له النَّقيعة أيضاً ، وهو بعير ينحَره قبلَ القِسمة فيُطْعِمُه الناسَ كذلك . قال :

إنَّا لنضرِبُ بالسُّيوف رءوسَهم ضَرْبَ القُدَارِ نقيعةَ القُدَّامِ[٢]

قال : وسَقَط فى الإسلام النَّقيعة .

قال : وله حُكمُه ، وهو أن يبارِزَ الفارسُ فارساً قبلَ التقاء الجيشَين فيقتُله ويأخُذُ سَلَبَه . والحُكم فيه إلى الرئيس ، إن شاء نفَّله وإن شاء رَدَّه إلى جُملة المَغنَم . وهذا باقٍ فى الإسلام .

وله أيضاً « النَّشيطة » وهو ما انتُشِط من الغنائم ولم يُوجِفوا عليه بخيلٍ ولا رِكابٍ . فبقيت فى الإسلام . وفَدَكُ[٣] مِن ذلك ، لم يُوجِفوا عليه فكان للنبيِّ صلى الله عليه وسلم خاصَّةً .

قال : وكان للرَّئيس البَسيطة[٤] ، وبعضهم يُسمِّيها البِسْط[٥] ، وهى الناقةُ

---

(١) كذا ضبطت فى النسختين . والصدقة بالفتح ، والضم ، وبفتحتين ، وبضمتين ، وبفتح فضم ، كلها بمعنى واحد ، وهو المهر ، كالصداق بفتح الصاد وكسرها .

(٢) البيت لمهلهل ، كما فى اللسان (قدر ، نقع ، قدم) .

(٣) كان ذلك فى السنة السابعة ، لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر قذف الله الرعب فى قلوب أهل فدك حين بلغهم ما حل بأهل خيبر ، فبعثوا يصالحون على النصف من فدك ، فقبل منهم ذلك . السيرة ٧٧٦ — ٧٧٧ . وفدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٤) الذى فى المعاجم المتداولة لفظ « البسوط » ، ولم ينص فيها كذلك على المعنى الذى ذكره أبو عبيدة فيها وفى البسط .

(٥) فى الأصل : « وبعضهم قال البسيط » ، صوابه فى ل ، وقد ضبطت فيه بكسر الباء ، وهى تقال بالكسر والضم وبضمتين .

أو الحِجْرُ معها ولدُها ، فتُجعل هى وولدها فى رُبْع الرئيس ولا يُعتَدُّ عليه بالوَلَد . وقال : وسقَطَ البسيطةُ فى الإسلام .

وكان له « الفُضُول » وهو ما فَضَل بعد القِسمة ويَعجِز عن عَدَد الغُزاة ، أوْ لا يتناوله القَسْمُ ، وهذا سَقَطَ أيضاً فى الإسلام . قال أبو عبيدة : غيرَ أنى حُدِّثت عن مجاهد أنّه قال فى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلونك عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلّهِ والرسُولِ ﴾ ، قال : هو ما شَذَّ من الغنائم ، كالفضول . وقيل إنّها منسوخة .

٧ ــ أفاتتهُ بنو زيدِ بنِ عَمْرٍو ولا يُوفِى بِبِسْطامٍ قَبيلُ

٨ ــ فخَر على الأَلاءَةِ لم يُوَسَّدْ كأنَ جبينَه سَيفٌ صَقِيلُ(١)

قوله « أفاتته » فات يتعدَّى إلى مفعول . تقول : فاتَنى الشىء ، فإذا أَدخَلْتَ عليه حرفَ التَّعدية تعدَّى إلى مفعولين . فإذا كان كذلك فأحدُ المفعولين محذوف ، كأنه قال : أفاتت الناسَ بنو زيدِ بن عمرٍو بِسطامًا ، أى الانتفاعَ بِبِسطام . وقوله « ولا يُوفِى ببسطامٍ قبيل » بالياء يروى ، والمعنى لا يُوفِى بدمه قَبِيلٌ ، كأنَّ القبيلةَ بأَسرِها مطالَبون بدمه ووافُون به إذا أُتِىَ بهم كلِّهم . وهذه الرِّوايةُ أقرب إلى ما يدلُّ عليه صدرُ البيت وأشبه . ويروى « قتيلُ » بالتاء ، ويكون الكلامُ تحسُّرًا ، والمعنى لا يُوفِى بدَمِ بِسطامٍ دمُ قتيل . ويقال وَفَى وأوفَى بمعنًى واحد .

وقوله « نخرٌ على الألاءَة » ، [معناه(٢)] سقط . والألاءة : شجرة ولم يُوَسَّد ، يستعملونه كثيراً فى القتيل ، وليس ذلك لأنَّ القتلَى بعضُهم يوسَّدون . وقد يقال « وُسِّــد فلانٌ يَمينَه فى ضريحه » ، وهذا أيضاً مثَلٌ ؛ لأنَّ الميِّت

(١) التبريزى : « وخر » .
(٢) هذه من ل ، وقبلها فى ل كلمة مطموسة أيضاً .

لا يوسَّد يمينَه ، وإنما يُرادُ : تجافِى المكانُ به فى حالتَىِ الدَّفن والقتل . وقوله « كأنّ جبينَه سيفٌ صقيل » يريد وجهَه وإشراقَ لونِه .

٣٥٦

وقال الهُذْلولُ بن هُبَيْرَة(١) :

١ – أَلِكْنِي وفِرْ لابنِ الغُرَيْرَةِ عِرْضَهُ ... إلى خالدٍ مِن آلِ سَلمَى بنِ جَنْدَلِ

٢ – فما أبتَغِى فى مالكٍ بَعْدَ دارمٍ ... ولا أبتَغِى فى دارمٍ بَعْدَ نَهْشَلِ

٣ – وما أَبتَغِى فى نَهشَلٍ بَعْدَ جَنْدَلٍ ... إذَا ما دَعا الدَّاعِى لأمرٍ مُجَلَّلِ

٤ – وما أبتَغى فى جَنْدَلٍ بَعْدَ خالدٍ ... لِطَارِقِ لَيلٍ أوْ لِعَانٍ مُكَبَّلِ

قوله « أَلِكْنِي » أى أعنِّى على أداء أُلُوكَتى ، وهى الرِّسالة . وقد تقدَّم القولُ فى هذه اللفظة ؛ وأن أصلها آلِكْنى ، فقُلِبَ وقُدِّم اللام على الهمزة فصار أَلْئِكْنِي ، ثم حُذفت الهمزة استخفافاً وألقيت حركتها على اللام فصار أَلِكْنِي .

وقولُه « وفِرْ لابن الغُرَيرة عِرضَه » معناه اترُكْ عِرضَه وافرًا . يقال وَفَرْتُهُ أفِرُهُ وَفرًا ، وهو موفور . والمراد : خُصَّ برسالتى خالداً واترُكْ ابن

(١) كذا ورد فى النسختين . وعند التبريزى : « الهذيل بن هبيرة أحد بنى حرقة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب » . قال ابن دريد فى الاشتقاق ٢٠٣ : « ومن رجالهم الهذيل بن هبيرة ، قد رأسهم فى الجاهلية ، وكان جراراً للجيوش » . وكان من خبر الأبيات فيما روى التبريزى ، أن الهذيل أغار على بنى كوز وهاجر من بنى ضبة ، فأصاب ثلاثين امرأة أطلق سراحهن ، إلا منصورة بنت شقيق أخت عامر بن شقيق ، واحتمل بها حتى أتى أرض قومه ، فخرج أخوها وزوجها لاستنقاذها ، فتمكنا من ذلك بعد لأى ، ثم إن الهذيل تبعتها نفسه فأغار ثانية على بنى ضبة فاستصرخ بنو ضبة ببنى سعد بن زيد مناة فالتقوا وقتل من بنى تغلب ناس وهزموا أسوأ هزيمة ، ووقع ابن الهذيل – واسمه مشول – أسيراً ، أسره عبد الله وعبد الحارث ابنا ناشرة . ثم أتاهم الهذيل فى ابنه وطلب من ابن الغريرة – وهو أحد جندل بن نهشل – أن يفادى ابنه أو يمن عليه ، فوعده أن يفعل ، فلما طال عليه ذلك قال هذه الأبيات ، فأتى خالداً فأنشده ، فأعطى ابن ناشرة مائة من الإبل وأطلقه للهذيل .

الغريزة جانباً ، لا تذكر له قبيحاً ولا تولِهِ مكروهاً . والرِّسالة ابتداؤها : « فما أبتغى فى مالك » . والشاعر رتّب أفخاذاً وبطوناً ، وذكر أنّ كل واحدٍ منها كان له رئيسٌ يدور أمرُه عليه ، ويعتصم بأمره فى الملمّات . وأنه بعد افتقادِ ذلك فيهم فلا طائلَ ولا خيرَ عند واحدٍ منهم . ألا تَراه قال : فما أبتغى فى بنى مالكٍ بعد خُروج بنى دارمٍ منهم ، وما أبتَغى فى بنى دارمٍ بعد خروج بنى نهشل منهم ، وما أبتغى فى بنى نهشلٍ إذا صَرَخ الصارخُ لأمرٍ عظيمٍ بعد خروج جَندلٍ منهم ، وما أبتَغى فى بنى جندلٍ لِسَارٍ يسرى بليلٍ يطلُب الضِّيافة ، أو أسيرٍ مكبَّل يطلُب مَن يفكُّ أسْرَهُ بعد افتقادِ خالد . كأنه [كان[1]] يأخذ بعضُهم بما يتماسك به البعضُ الآخر ، وذلك البعضُ يتماسَك بآخرَ إلى آخِر القصة . وهذا على ما رتّبَه فى نهاية الحُسن . وقوله « أمرٌ مُجَلَّلٌ » أى معظَّم . والكَبْلُ : القَيْد ، ورجُلٌ مكبَّلٌ .

٣٥٧

وقال إياسُ بنُ الأَرَتِّ[2] :

١ — وَلَمَّا رأيتُ الصُّبْحَ أقبَلَ وَجْهُهُ دَعَوْتُ أبا أَوْسٍ فَمَا إنْ تَكَلَّمَا

٢ — وَكَانَ فِرَاقٌ مِنْ أخٍ لَكَ ناصحٍ وكانَ كثيرَ الشَّرِّ للخيرِ تَوْءَمَا

---

(١) هذه من ل .

(٢) ذكره ابن دريد فى الاشتقاق ٢٣٠ فى رجال طيئ ، من بنى شمجى . وفى القاموس (رتب) : « وإياس بن الأرت كريم شاعر » . وأنشد له الجاحظ شعراً فى الحيوان (٤ : ٣٥٩) . ابن جنى فى المبهج : « هو مصدر أسته أؤوسه أوسا ، إذا أعطيته . وظنه السكرى مصدر أيست من كذا ، وليس كذلك ، ولا لأيست مصدر ، لأنه مقلوب من يئست ، ولو كان له مصدر لم يكن كذلك مقلوباً ، ولكان أيضاً تعتل فاؤه وعينه ، فيقال إست وآآس . والأرت : الذى فى لسانه عجلة ، والأنثى رتاء » . ونظير إست آآس : هبت أهاب . التبريزى : « وقال أبو العلاء : الأرت : الذى فى لسانه حبسة ، وهى الرتة . واسم الأرت خالد » .

لمّا عَلَمٌ للظَّرف، وهو لتوقُّع الشيء لوقوع غيره، ولذلك احتاجَ إلى الجواب، وجوابه هنا دَعَوْتُ. فيقولُ: لمّا دنا الصُّبح وأقبلَ وجهه يَنفلِقُ ويُقبِل، دعوتُ هذا الرَّجلَ — يعنى المرثىَّ — فما أجاب. وإنَّما خصَّ وقتَ تَنَسُّم[1] الصُّبح، لأنَّ المريض يخفّ فيه، فكأنّه على عادته فى تمريضِهِ، وتعرُّف خَبره، وتحدُّبه عليه فى العارض له، دَعاه فوجده ثقيلاً، لا يُجيب ولا ينطلق لسانُه، فتيقَّنَ منه قُربَ المفارقةِ، والبِعادَ بعدَ المقارَبة، فلذلك قال: «وحانَ فراقٌ من أخٍ لك ناصح». ومعنى حانَ: قَرُب. والنَّصاحة: صَفاء الوُدِّ، وخُلوصُ العقيدةِ من الغِلّ. وقوله «وكان كثيرَ الشَّرّ» يعنى مع منابذيه ومُشاقِّيه. ولن يكمل الفتى حتى يكون مُستصلَحًا للخير والشّرّ، فيُحِلّ النَّاسَ مَحالَّهم، ويوفِّيَهم مُستَحقّاتِهم، إنْ خيرا فخيرا، وإنْ شرًّا فشرًّا.

وقد عَمِلَ لطيفةً فى الصفة الثانية فقال «للخير توءما» فجعَلَ الخير وُلِد معه فنشأ[2] بنشئه. يقال: غلامٌ توءم، للذى وُلِدَ معه غيره. وأتأمت المرأةُ فهى مُتئِمٌ. واشتقاقه من الوَأْم، والتاء فيه بدلٌ من الواو، كالتاء فى تُكَأةٍ وما أشبَهها، والجمع تُؤَامٌ، وفُعالٌ[3] فى الجمع قليل. كأنّ الولدَ وامِ غيره فى الإتيان، أى وافقَ. وفى المثل: «لولا الوِئامُ هلَكَ اللّئام[4]». وقد استقصيتُ القولَ فيه فى شرح كتاب الفصيح.

٣ — تتابع قِرْوَاشُ بن لَيلَى وعامِرٌ وكانَ السُّرورُ يومَ ذاكَ مُدَمْدَمَا[5]

---

(١) كذا فى ل. وفى الأصل: «تبسم». (٢) ل: «ينشأ».

(٣) فى الأصل: «ويقال»، صوابه فى ل. وقد اختلف اللغويون والنحاة القدماء فى صيغة فعال، هل هى جمع أو اسم جمع. وقد صنع الأديب جبران النحاس بحثاً عنوانه «صيغة فعال ليست جمعاً» طع فى الإسكندرية سنة ١٩٤٧ بمطبعة البصير. وانظر ليس فى كلام العرب لابن خالويه ص ٢٣.

(٤) انظر تحقيقه مسهباً فى حواشى مقاييس اللغة (٦ : ٨٠).

(٥) كذا فى ل. وفى الأصل: «ما خص للبعض».

يريد : أنّهم قد تداعَوْا فى الذَّهاب ، وَتقاطرُوا فى الموت ، فمات الواحدُ بعَقِبِ الواحد ، كأنَّهم دُعُوا بلسانٍ واحد فأجابوا ، وكان السرور يوم ماتَ مُلقًى مُهلكا غير باقٍ ، لأنّ كلَّ مَن سمِع بموتِهِ أخذَ قسطًا من الجزع له فخَفِيَ سرورُ النّاس وظهَرَ جزعُهم . وقوله « يومَ ماتَ » يعنى أبا أوس . هذا من باب ما خُصَّ البعضُ بشىء من دون الجملة ، فأُعيد ذكره . والدَّمدمة : الإهلاك والاستئصال . وفى القرآن : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ ﴾ . ويروى : « وكان السُّرُورُ يومَ ذاكَ مُذَمَّمًا(١) » :

٤ – هَمَمْتُ بِأنْ لا أَطْعَمَ الدَّهرَ بَعْدَهُمْ   حَيَاةً فكانَ الصَّبْرُ أبقَى وَأَكْرَمَا

قوله : « بأن لا أطعمَ الدهرَ بعدهم » انتصب أطعم بأن ، ولو رُفع لجاز على أن يكون أنْ مخففة من الثَّقيلة ، ويكون اسمه مضمراً ، والفعل مع ما بعده خبرٌ كأنّه قال : هممت بأنى لا أطعمُ حياةً بعدهم ، أى كنت وطَّنْتُ نفسى على الزُّهد فى الحياة ، وجعلتُ قَتْلَ نفسى من همِّى ، ثم نظرت فكان الائتساء بالناس فى مصائبهم ، والصَّبْرُ على مقاساة البلاء معَهم ، أبقَى فى الذِّكر ، وأحسنَ فى الأُحدوثة ، وأكرمَ عند عدِّ الأفعال وعَرضها على العُقول . وروى : « أتقى » بالتاء المعجمة ، والمعنى أوْقَى ، لأن التاء مُبدلةٌ من الواو ، أى أصْون للدِّين والعِرض .

٣٥٨

وقال قَبِيصة بن النّصرانىّ الجرمىّ(٢)

١ – ألا يا عيْنُ فاحتَفِلى وَبَكِّى   عَلَى قَرْمٍ لِرَيْبِ الدَّهرِ كافِ

(١) كذا على الصواب فى ل . وفى الأصل : « مدمدما » . وروى التبريزى رواية ثالثة « مدمما » بالدال المهملة ، وقال : « مدمم من دممت الشىء ، إذا طليته وغطيته » .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٩٩ ص ٦١٠ .

٢ ــ وما للعينِ لا تبْكي لِحَوْطٍ وزيدٍ وابنِ عمِّهما ذُفافِ

٣ ــ وعَبْدِ اللهِ يا لَهْفِي عليه وما يَخْفَى بزيدٍ مَنَاةَ خافِ

٤ ــ وجدْنا أهْوَنَ الأموالِ هُلْكاً وجَدِّكَ ما نَصَبْتَ له الأثافِي

يقول : يا عينِ جاءَ وقتُ البكاء فتهيَّئِي له ، واجْمَعِي دموعَكِ ثم فرِّقيها ، ولا مَساغ لتقصير ، ولا مَجالَ لتعذير . والحافِلُ من الغنَمِ : التي جَمعت اللَّبَنَ في ضَرعها . ومعنى بَكِّي : أكثِري البكاءَ أو كرِّريه(١) . والقَرْمُ : الكريم من الرجال ، وأصله في الفحول ، وكذلك المُقْرَم ، وقد تقدَّم ذكرُه(٢) .

وقولُه « لِرَيْبِ الدَّهرِ كافِ » قد حذف أحد مفعولَى كَفَى ، كأنَّه كافٍ الناسَ ريبَ الدَّهر ، أي ما رابَ من أحداثه .

ثم عَدَّدَ مَن فُجِع به من أعِزَّته فوجبَ البكاءُ له ، ليُعلَمَ عظيمُ شقائه وما أصيب به في أوِدَّائه .

وقوله « يا لَهْفَى عليه » يجوز أن يكون المُنَادَى محذوفاً كأنَّه قال : وعبدِ اللهِ لَهْفَى عليه يا قوم . ويجوز أن يكونَ نادَى اللَّهْفَ ليُرِى عظيمَ حسرته ، وكمالَ شِقوته في فَجْعَتِه .

وقولُه « وما يَخْفَى بزيدِ مَنَاةَ خافِ » ، يجوز أن يكون موضعه رفعاً على أنَّه يرتفع بيخفى ، فكأنَّه قال : ما يخفى خافٍ بزيد ، أي زيدُ مناة لا يخفى ، لأن الخافي هو زيد ، وهذا كما تقول : لقيتُ بزيدٍ أسدًا . ويجوز أن يكون قوله « بزيد » هو الفاعل والباء فيه مثل الباء في قول الله تعالى : ﴿ وكَفَى باللهِ

(١) ل : « وكرريه » .

(٢) انظر ما مضى في ص ١٠٠٦ .

شَهِيدًا ﴾ . والمعنى ما يخفى زيدُ مَناةَ خفاءً ، وخافٍ فى موضع خفاء ، لـكنَّه لم ينصبه كما لم يُنْصَب قوله :

* كأنَّ أيدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ[١] *

ومثله :

* كفَى بالنَّأْيِ مِن أسماءَ كافِ[٢] *

وقمتُ قائما ، وعُذْت بالله عائذا[٣] . وقد مضى مثله .

وقولُه « وجَدْنا أهونَ الأموال هُلْـكًا » كأنَّه نبَّه[٤] به على ما كانوا يُقيمونه من الضِّيافة ، ويُنفقونه من الأموال فى العُفاة وأبواب البرِّ والإحسان ، وأنّ أهونَ الأموالِ هَلاكاً على نفوس الـكرام وأخفَّها فى الصُّدور والقلوب ما وُقِف على الأضياف ، وصُرِف إلى مآكلهم ، وكذلك مَن أشبه الأضياف . وانتَصَب « هُلْكا » على التمييز . ومعنى « وجَدِّك » وحقِّ جَدِّك .

وقولُه « ما نَصَبْتَ له الأثافى » فى موضع المفعول الثانى لوجدنا . والأثافى ، واحدتها أُثْفِيَّةٌ . ويقال : ثفَّيت القِدر وأثْفيتها . فأُثْفيَّةٌ أُفعولة . ومن قال أثفّتُها فأُثْفِيّة عندى فُعْليّة ؛ لأن الهمزة أصليّة . من ذلك قول النابغة :

* وإنْ تَأَثَّفَكَ الأعداء بالرِّفَدِ[٥] *

---

(١) سبق قريباً فى ص ٩٧٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ .

(٢) سبق مع قرينه فى ص ٩٧٠ كما مضى فى ص ٢٩٤ . وهو لبشر بن أبى خازم . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

والشاهد فيهما ترك إعراب المعتل المنصوب .

(٣) يعنى وضع اسم الفاعل موضع المصدر .

(٤) ل : « ينبه » .

(٥) صدره فى الديوان ٢٦ :

* لا تقذفنى بركن لا كفاء له *

٣٥٩

وقال أَبو صَعْتَرَةَ البولانى[1] :

١ ـ زُكَيرَةُ وابنا أُمِّهِ الهَمُّ والمُنَى وفى الصَّدْرِ منهم كُلَّما غِبْتُ هاجِسُ

٢ ـ أَوَدُّهُمْ وُدًّا إذا خامَرَ الحَشَا أضاءَ على الأضلاعِ والليلُ دامِسُ

٣ ـ بنى رَجُلٍ لو كان حَيًّا أعانَنى على ضَرِّ أعدائى الذينَ أُمارِسُ[2]

يعنى بزُكَيرَةَ وأخويهِ أولادَ أخيه ، وكان تُوُفِّىَ والدُهم فصارَ هو كافِلَهم . فيقول : هم الذين أهتمُّ لهم ، وأتمنَّى خيرَهم وبقاءَهم ، وأَقصُرُ همِّى على ماتستقيم به أحوالُهم ، وتستتِبُّ له أمورُهم ، ومَتى[3] غبتُ عنهم كان فى صدرى هاجسٌ من الفكرِ فيهم ، وسانحٌ من التوفُّر عليهم ، يحُولانِ بينى وبين الذَّهاب عنهم؛ فجسمى غائبٌ عنهم ، وهوَاىَ حاضرُهم . فهذه التى أشار إليها نتائجُ العِناية بهم ، ومسبَّبات الرِّعاية فى النِّيابة عن أخيه فيهم . ثم أخَذَ يذكر ما غَرَسَه الحبُّ فى قلبه لهم ، ورعاه صدرُه من التحنُّن والشَّفَقة فى بابهم ، فقال : أَوَدُّهم وُدًّا إذا خالَطَ الحشا فى ظُلْمة الليل أضاء على الأضلاع . وإنما قال هذا لأنّ الشيء إذا أشرَقَ بالليل وعند التباس الظَّلام ، فهو بالنهار أَوْلى بالأشراق . فكأنَّ المعنى أنّ طلائعَ حبِّهم فى مكامِنِ صدره مضيئةُ الأرجاء ، نيِّرة الأكنافِ ، فى كلِّ حالٍ ووقت .

وقولُه « بنى رجلٍ » يعنى أخاه ، كأنّه ذكَر ما يقتضيه فى أمرهم بما يأتيه ،

---

(١) عبارة الإنشاد مطموسة فى نسخة الأصل . وفى ل : « أبو صميرة » ، صوابه فى التبريزى وشروح سقط الزند ١٢٤٣ حيث أنشد البيت الثانى ، والقاموس (صعتر) . وبولان ، بالفتح : حى من طيىء .

(٢) التبريزى : « بنو رجل » .

(٣) فى الأصل : « ومعنى » ، صوابه فى ل .

فأشارَ إلى الدّواعى القائمةِ بينه وبين أولادِ الأخ ، فقال : أذ كُرُ بنى رجلٍ لو كان فى جُملة الأحياء لأعاننى على الأعداء ، وأنصفَنى من الزّمان ، ودفع عنى مِن مضرّاتهم ومُنا كَداتهم مايخفُّ معه ظَهرى ، ويقوَى فيه نُهوضى وجذابى .

٣٦٠

وقال الغَطَمَّشُ[1] :

من بنى شَقِرَةَ بن كعب بن ثَعْلبة[2] :

١ — ألاَ رُبَّ من يغتابُنى وَدَّ أَنَّنى أبوهُ الذى يُدْعَى إليــه ويُنْسَبُ
٢ — على رِشْدَةٍ من أُمِّهِ أو لِغَيَّةٍ فيَغْلِبَها فَحْلٌ على النَّسْلِ مُنْجِبُ

قولُه « مَن يغتابنى » مَن نكرة ويغتابنى فى موضع الصِّفة له ، و« وَدَّ أَنَّى » جواب رُبَّ . فيقول : رُبَّ إنسانٍ يأ كلُ لحمى بظهر الغَيب ويتنقَّصنى ، ومع ذلك يتمنَّى أن أ كون أباه الذى يُسَمَّى به ويُنْسَبُ إليه ، وإنما يبعثُه على ذلك الحسدُ والبَغْضاء .

وقوله « على رِشدةٍ من أمِّهِ أو لغَيَّة » فإنّ على يتعلَّق بقوله أننى أبوه ، كأنّه يريد : وَدَّ أبُوّتى سواء كان ولدَ حلالٍ أوحرام . والرِّشْدة : اسم الهيئة فى الرَّشاد . والغَيَّةُ : الفَعلة الواحدة من الغىّ . وهكذا يُختار أن يقال هو لرِشْدة بكسر الراء ، ولغَيَّةٍ بفتح الغين . وقوله « فيغلبَها » نصب جواب التمنى بالفاء ، والعامل فيه أنْ مضمرة . وهذا شرح الغَيَّة ، كأنّه قال: تمنَّى أن يكون ولدى على رِشدةٍ ، أوْ يغلبَها فحلٌ منجِب على النَّسل فتأتى به لغَيَّةٍ . وأراد بالفحل المنجِب نفسَه ،

(١) سبقت له الحماسية ٢٩٩ ص ٨٩٣ .
(٢) التبريزى : « بن ثعلبة بن سعد بن ضبة » . وقد كرر أبو تمام فى هذه الحماسية البيتين ٤ ، ٥ وهما بيتا الحماسية ٢٩٩ . وقد سبق نظير هذا التكرار فى الحماسية ٢٣ حيث كررت فى رقم ٢٠٩ .

ويعنى بيغلبُها على النَّسل غلبةَ الشَّبَه ليبرِّئَه من هُجْنتِها . وإذا قال القائل ودِدْت أنِّي أجيئك فتكرمَنى ، فقوله فتكرمَنى انتصب ولم يعطف على أجيئك ، لمخالفة آخر الكلام أوَّلَه ، وذلك أنَّ قوله أننى أجيئك متمنًّى غيرُ واجب ، وفتُكْرِمَنى ليس من التمنِّى[1] بل هو واجبٌ ، فلمَّا خالفَه نوَى بالأوَّل الاسمَ ، وأضمر بعد الفاء أنْ ، لتكون الفاء عاطفةً لاسمٍ على اسم ، فكأنَّه قال : ودِدْتُ مجيئى إليك فإكرامَك لى . وكذلك إذا قال : ألاَ ماء فأشْرَبَه ، يراد : لو كان لى ماء لشربتُه ، تقديره : ألا ماءَ فشربَه .

٣ — فبالخيرِ لا بالشَّرِّ فارْجُ مَوَدَّتِى وأىُّ امرِئٍ يُقْتالُ منه التَّرَهُّبُ

كأنَّه أقبَلَ على هذا المغتابِ له ، الناحتِ أثلته ، المداجي له بعداوةٍ كامنةٍ مستحكِمة فى الصدرِ فقال له : هذه المودّةُ التى تُظهِرها من نفسك لى ، أرْجُ انتفاعَكَ بالخير لا بالشَّرّ ، لأنك إن فعلتَ غير ذلك فإنما تحتاج إلى إصلاحِهِ من نفسك[2] ، فأما إذا كانت المودةُ صافيةً ، والعقيدةُ خالصة ، فإنّ صاحبَها لا يرجو بها إلاّ خيراً ، وكيف يرجو غيرَه من ثماره وهو يغرِس الخيرَ لا الشَّرَّ . وقولُه « أرْجُ مودَّتى » أى ارْجُ مودَّتَكَ لى ، والمصدر يُضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل . وقولُه «أىُّ امرِىء يُقتالُ منه الترهُّب» فمعنى يُقتال يُحتكَم ، وهو يُفْتَعَلُ من القول ، يريد أىُّ رجلٍ يُحتكَم عليه ومنهُ الترهُّب ، التخوّف ، وتَرْكُ السُّكون والأمَنةِ إليه . أى كيف يُطاب وُدُّه على الرَّهبةِ منه .

٤ — أقولُ وقد فاضَتْ بعينَىَّ عَبرةٌ أَرَى الأرضَ تبقَى والأخِلاَّءُ تذهَبُ

---

(١) ل : « من المتمنى » .

(٢) كذا وردت العبارة فى النسختين .

٥ — أخِلاَّءِ لو غَيْرُ الحِمَامِ أصابَكُم ... عَتَبْتُ ولكنْ ما عَلَى الدَّهرِ مَعْتَبُ

قولُه « وقد فاضت بعينىَّ عبرة » اعتراض بين الفِعل ومعموله . وقولُه « أرى الأرض تبقَى » متَّصل بقوله « وقد فاضت بعينىّ عبرة » ، وهو من جملة الاعتراض . ومفعول أقولُ البيت الثانى . فيريدُ : أقول وقد اتَّصل البكاء منِّى ، وسالت العَبَرَاتُ من عينِى ، إذْ كنتُ أرى الأرضَ باقية ، والإخوان الخُلَّص ذاهبة ، وأنا لا أملِكُ شيئاً : أخِلاَّىَ إنى مَغيظٌ مغلوب ، مأخوذٌ عن عَزَائى لِمَا أتاه الدَّهر ، ولكنى إذا أفكَرتُ[1] وكان سببَ اخترامِكم الموتُ الذى تتساوى فيه الأقدامُ فلا يُبقِى على شريفٍ ولا وضيع ، ولا صغير ولا كبير ، صَدَّنى ذلك عن العَتْب ، لأنَّ الموتَ لا مَعْتَب عليه ؛ ولو كان الجانى فيكم ، والسالبُ لكم غير الموت لعتبْت على الدهر ، وقلتُ وأكثرتُ فى موضع القول ، وانتصَفْت وأسرفت فى موضع الفِعل . ويقال عَتَبْتُه فأعْتَبَ ، أى لُمتُه فأرضَى . ويروى « أخِلاّىَ » بالقصر وإثبات ياء الإضافة ، و « أخِلاّء » بالمدّ وحذف ياء الإضافة ، وهذا أجوَد .

٣٦١

وقالت امرأة[2] :

١ — ألاَ فاقِصرِى من دَمْعِ عَيْنيكِ لَنْ تَرَىْ ... أبًا مثْلُه تَنْمِى إليه المَفاخِرُ

---

(١) ل : « فكرت » . والإفكار والتفكير بمعنى .

(٢) قال أبو رياش : « والذى عندى أن هذه الأبيات لمحمد بن بشير ، أحد بنى الخارجية ، يرثى بها أبا عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب » . وأبو عبيدة هذا والد هند أم محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن ، وجده زمعة كان أحد « أزواد الركب » . فذكر أبو رياش أن عبد الله بن حسن دعاه فقال ! إن هذا قد جزعت على أبيها فقل أبياتاً تسليها بهن عنه . فقال : قد قلت ، فقال : قم فادخل . فدخل إليها وهو معه فقال :

٢ — وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صَوَادِقُ إذْ يَنْدُبْنَه وقَواصِرُ

تقول متسلِّيةً ورافعةً الطَّمعَ من أن يكون الجزعُ يَرُدّ فائتاً ، فقالت كُفّى من دمع عينيك ، ونَهْنِهِى عَبَراتِك ، فإنَّكِ لن تَرَىْ مَن تعتاضينَه من أبيكِ الذى كان إليه ينتمى المَفاخر . ومعنى « تَنْمى إليه المَفاخر » أنه غاية المَفاخر ، فهى إليه تنتمى . ويُرْوَى : « ينمو إليه المُفاخِرُ » بضم الميم ، والمعنى يَرتقى إليه المُفاخر إذا نافَرَ خَصمَه وجاذَبَه .

وقولها « وقد عَلِمَ الأقوامُ أنّ بناتِه صوادِقُ » استشهدَتْ بطوائفِ الأقوام على اختلافها ، وذكرت أنَّهم قد عَلِموا أنّ بناتِ هذا المتوفَّى فيما يندُبْن به أباهنّ ويذكرنه من فضائله وإفضاله ، آتياتٌ بالصِّدقِ غيرِ الكذب ، وعاجزاتٌ عن بلوغ الغاية التى يستحقُّها أبوهنّ المرثىّ ، فإنّ القول لا يُحيط بحدِّه ، والوصف لا يَنظِم كُنهَه حَقِّه .

٣٦٢

وقال آخر (١) :

١ — سَقَى جَدَثاً وارَى أرِيبَ بنَ عَسْعَسٍ مِنَ العَيْنِ غَيْثٌ يَسْبِقُ الرَّعدَ وابله

= إذا ما ابن زاد الركب لم يمس بائتا قفا صفر لم يقرب الفرش واتر
فقومى اضربى يا هند عينيك لن ترى أبا مثله تنمى إليه المفاخر
وكنت إذا ما شئت سميت والداً يزين كما زان اليدين الأساور
وقد علم الأقوام أن بناته صوادق إذ يندبنه وقواصر

فقامت فصاحت هى وجواريها وجعل يصيح معهن ، فقال له عبد الله : يا عدو الله دعوتك تعزيها فهيجتها على البكاء . فقال : وبما كنت عسى أن أعزى بنت [ابن] زاد الركب ، من يعزينى أنا عنه ، لا والله لا أعزى عنه ولكنى آمر بالحزن عليه وأحض على ذلك .

(١) التبريزى : « وقال القلاخ . قال أبو هلال : فى الشعراء ثلاثة يقال لهم القلاخ . أحدهم القلاخ الراجز بن حزن بن جناب بن منقر ، القائل :

* أنا القلاخ بن جناب بن جلا *

=

٢ ــ مُلِثٌّ إذا أَلْقَى بأَرْضٍ بَعَاعَهُ تَغَمَّدَ سَهْلَ الأرضِ منه مَسَايِلُهْ

دَعَا لقبر المرثىّ بالسُّقيا ، وهو أريبُ بن عَسْعَس . ومعنى « من العين » من السَّحابات التى تنشأُ من عين القِبلة[١] وهى أَغْزَر ، فلذلك خَصَّها . وقوله « يسبق الرَّعدَ وابله » يطلُب به الكثرة . والوابل : المطر الضَّخْم القَطْر ، وإذا سبَقَ المطرُ الرعدَ كان النَّوءُ أغزر .

وقوله « مُلِثٌّ » لم يرض بأن يكون سُقياه عارضاً ، ولكن جعل الغيث مُلِثًّا ، وهو [بمعنى[٢]] مقيم . وقولُه « إذا ألقى بأرضٍ بَعَاعَه » يريد إذا جاء مطرُه على أرضٍ فوضَع أثقالَه بها امتلأت الوِهاد ، وتغمَّدت المسايل بطونَ الأباطح السهلة . والبَعَاعُ : الثِّقْل ، والجَهَاز . يقال : بَعَّ السَّحابُ بَعًّا وبَعَاعًا ، إذا ألحَّ بمكانٍ فألقى بَعَاعَه فيه .

٣ ــ فما مِن فتًى كُنَّا من الناسِ واحدًا به نَبتَغِى منهم عميدًا نُبادِلُهْ

٤ ــ ليومِ حِفَاظٍ أو لدَفْعِ كَرِيهةٍ إذَا عَىَّ بالحِمْل المعضِّل حامِلُهْ

قولُه « فما من فتًى » بيتٌ فيه تقديم وتأخير ، وتلخيصُه مُبيَّناً مُعاداً كلُّ شىءٍ إلى موضعه : ما مِنْ فتًى من الناس كُنَّا نبتغى به واحداً منهم عميداً نبادله[٣] . فعلى هذا قوله « من الناس » مِن صفة الفتى ، وبه يعود الضمير إلى الفتى . والمعنى : كُنَّا بسببه نبتغى واحداً منهم — أى من الناس — عميداً ، من صفة

= والآخر القلاخ بن زيد أحد بنى عمرو بن مالك ، وهو القائل :

ولا يستوى يا زيد درج ومجمر وصدر سنان فى الحروب محرب

والقلاخ العنبرى ، ذكره دعبل فى شعراء البصرة . وهذا هو : قلاخ بن حزن » . وانظر المؤتلف ١٦٨ والاشتقاق ١٥٣ واللآلئ ٦٤٧ والشعراء ٦٨٨ .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « من السحاب التى تنشأ عن القبلة » ، وفيه تحريف .

(٢) بمثلها يلتئم الكلام .

(٣) انظر معاهد التنصيص (١ : ١٦) . وهو فى تعقيده شبيه بقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه

الواحد ، لأنَّا جعلنا واحداً مفعولا لنبتغى . نُبادلُه ، أى نُبادِل به الناسَ ، فحذَف الجارّ وقال نبادله . على هذا قول عارقٍ الطائىّ :

* وليس من الفَوتِ الذى هو سابقُه[(١)] *

أى سابقٌ به . وخبر ما محذوف ، كأنّه قال : ما فتًى ذا صفته بموجودٍ فى الدنيا ، وما أشبهه .

وقوله « ليوم حِفاظِ » اللام تعلّق بقوله نبادله ،[أى نُبادِل[(٢)]] به لهذا الشأن ، وهو أن يحافظ على حسبِهِ محافظةَ الكرام ، أو يدافعَ الكرائهَ والشدائدَ لدى الجدَلِ والخِصام ، فى وقتٍ من الزَّمان يعزُّ مِن العَشير مَن يكفيه الهضيمة ، وترى الناهضَ بالأثقال لتَضاعُفِ المُؤَن والبلايا يَعيا بما يحمِله فيعدُّه داءً عُضَالا . وأصل العضل : المَنْع والتضييق . ويقال عَضَلت المرأةَ وعَضَّلْتُها ، إذا منَعْتَها من التَّزويج . وعَضَّلَت ، إذا عَسُرَ وِلادُها[(٣)] .

٥ — وذِى تُدْرَإٍ مَا للّيْثُ فى أصْلِ غابَةٍ بأشْجَعَ مِنْهُ عند قِرْنٍ يُنازِلُهْ[(٤)]

٦ — قَبَضْتَ عَلَيهِ الكَفَّ حَتَّى تُقيدَهُ وحَتَّى يَفِى للحقِّ أخْضَعَ كاهلُهْ

قوله « وذى تُدْرَإٍ » الواو عاطفة ، وانجرّ ذى بإضمار رُبَّ . وتُدْرأٌ : تُفْعَل من الدَّرْء ، وهو الدَّفعُ بشِدّة . فيقول : رُبَّ رجلٍ هكذا ما الأسدُ فى خِدره بأقوى قلباً منه نظيرٍ له فى بأسه وشِدّته ينازلُه . فقوله « ما الليث » إلى آخر البيت ، من صفة ذى تُدْرَإٍ . والغابة : الأجمة . وإنَّما قال « فى أصل غابةٍ »

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « من الموت » من حماسية تأتى فى الرابع . وصدره :
* إلى المنذر الخير بن هند تروده *

(٢) التكملة من ل .

(٣) الولاد : الولادة . وفى الأصل : « ولدها » ، صوابه فى ل .

(٤) التبريزى : « فى أصل غابه » .

إشارة إلى دخولِه وتمكُّنِه من غايَتِها . والمنازَلة إنما تكون عند تضايُقِ المجال، وتَداني [أطراف[1]] موضع الالتقاء ، عن الإقدام والإحجام .

وقولُهُ « قبضْتَ عليه الكفَّ » يقول : جمعتَ عليه قبضَتَك فمنعتَه عن الانفصال عند الخروج من إسارِكَ ، حتى أمكنَكَ من الاقتياد منه ، وحتى عاد كاهلُه خاضعاً للحق راضياً به . والخطاب بجميع هذا للمرثىّ . وإنما يصفُه بحُسْن الثَّبات فى معاركة الخُصوم ومزاولتهم ، وأنَّه باقى الصَّبرِ فى استيفاء الحقوق عليهم . وقوله « كاهلُه » يجوز أن يرتفع بقوله يَفِى[2] . ويجوز أن يرتفع على البَدَل من المضمر فى يَفِى ، وحينئذ يحتمل ضميراً لذى تُدرإٍ . وأخضعَ ينتصب على الحال فى الوجهين جميعاً ، ويجوز أن يرتفع أخضَعَ فيكون خبرًا مُقَدَّما ، وكاهِلُه يكون مبتدأ . والأخْضَع : الذى فى عنقُه انخفاضٌ وتطأْطؤ .

٧ ـ فتًى كان يَسْتَحْيِي ويَعْلَمُ أنه سَيَلْحَقُ بالمَوْتَى ويُذْكَرُ نائلُهْ

[راجَعَ الإخبارَ عنه ثانياً[3]] فيقول : هو فَتًى كان الحياء يملِكُه فلا يتعاطَى ما يقبُح فى الأحدوثة ، ولا يَسمعُ منكَراً إلَّا ألْغاه ، ولا رأى مستشنَعاً إلَّا رفضَه وأقصاه ، ليطيبَ مَسْمَعُ ما يُرْوَى عنه ، ومنظرُه فيما يُشاهَدُ منه . وقوله « ويعلم أنَّه سيلحق بالموتى » يقول : تيقَّن أن الخلودَ لا مطمعَ فيه ، فإنَّ الذى له من المال ما يقدِّمه لِمَثُوبة ، وادِّخاراً لأُكرومة ، إذا تُحُدِّث عنه بها كان ذِكرُه حيًّا وإن كان الشَّخص فينا مغيَّبا .

---

(١) التكملة من ل .

(٢) ابن جنى : « أراد يفىء ، أى يرجع ، فحذف الهمزة البتة ، كما حكى عنهم : جا يجى ، وسا يسو » .

(٣) التكملة من ل .

٣٦٣

وقال الضَّبِّىُّ :

١ ــ أأُبَىَّ لا تبعَدْ وليس بخــالدٍ حَىٌّ ومن تُصِبِ المَنُونُ بعيدُ
٢ ــ أأُبَىَّ إن تُصْبِحْ رَهِينَ قرارةٍ زَلْجِ الجوانبِ قعرُها مَلحودُ(١)
٣ ــ فلرُبَّ مكروبٍ كَرَرْتَ وراءَهُ فمَنَعتَه وبنو أبيــــهِ شُهُودُ
٤ ــ أنفًا ومَحْمِيَةً وأنَّك ذائدٌ إذْ لا يكادُ أخُو الحفاظِ يَذُودُ
٥ ــ ولرُبَّ عانٍ قد فَكَكْتَ وسائلٍ أعطيْتَهُ فغَدَا وأنتَ حميــدُ
٦ ــ يُثْنِى عليكَ وأنتَ أهْلُ ثنائه ولديْكَ إمَّا يَسْتَزِدْكَ مَزِيدُ

البيت الأول يشتمل على أنواع ثلاثة من الكلام: فقوله «لا تَبْعَدْ» ما يُندب [به(٢)] الموتَى على إظهارِ الفاقة إلى حياته ، وقد مرَّ القول فيه(٣) . وقوله « وليس بخالدٍ حَىٌّ » تسَلٍّ(٤) وإيمانٌ بمحتوم القدَر ، وأنَّ ذلك يوجب على المُصاب الصَّبرَ والائتساء بفِرَق الخلق . وقوله « ومَن تُصبِ المَنُونُ(٥) بعيد »

---

(١) التبريزى : « زلخ » . والزلخ ، بالفتح : الدحض المزلة ، وهو وصف بالمصدر . ويقال مكان زلخ أيضاً بفتح فكسر . وكتبت فى ل لتقرأ « زلج » و « زلخ » بنقطة فى الأعلى وأخرى فى وسط الجيم ، وهما بمعنى .

(٢) هذه من ل .

(٣) انظر ما مضى فى ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٤) فى الأصل : « تشك » ، صوابه فى ل .

(٥) التبريزى : « قال أبو العلاء : قوله ومن تصب المنون جزم بمن ، ولم يأت للشرط بالجواب . وهذا على إرادة الفاء ، كأنه قال : ومن تصب المنون فهو بعيد . ومثله :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

أراد : فالله يشكرها . ومثله قول أبى ذؤيب :

فقلت تحمل فوق طوقك إنها مطبعة من يأتها لا يضيرها » .

تبرُّؤٌ من الجرى على عادة الناس فى المصائب واعتراف بأن الموت يبعد الالتقاء بين الأحياء والأموات ، فلا تزاوُرَ ولا تواصُل ، ولا تخاطُب ولا تكاتُب . فكلُّ هذا تحسُّرٌ وتوجُّعٌ .

وقوله « أَأُبَيُّ إن تُصْبِـحْ رهين قرارةٍ » جواب الشَّرط أوّل البيتِ الذى يليه ، وهو قوله « فلربَّ مكروبٍ » . والمعنى : إنْ خلَّيتَ مكانَك من الدُّنيا وصِرْتَ مرهوناً فى قرارة قبرٍ زَلِقِ الجوانب ، صريعُه لا يُنعَشُ ، ورهينُه لا يُفَكّ ، وأسيرُه لا يُتَخلَّص بمَنٍّ ولا فِداء ، ولَزِيمُه لا يَتملَّسُ[(١)] لوقتٍ وعِدَادٍ ، فلربما فعلت كذا وكذا . وقوله « قعرُها ملحود » ، تصويرٌ للقبر بلحده .

وقوله « فلرُبَّ مكروبٍ كررتَ وراءه » يريد : رُبَّ مُضيَّقٍ عليه أسْلَمه بنو أبيه لمَّا امتُحن به حتى تمكَّن العدوُّ منه ، أنتَ تعطَّفتَ عليه ، وصرفت عنايتك إليه ، نخففت ثِقْلَه ، وألقيت عنه وِزرَه ، ودفعتَ من فَوْرتِهِ[(٢)] دونَهُ ، ومواليه من بنى الأعمام وغيرِهم حضورٌ لا يَرعَون له إلاًّ ، ولا يحفظون له عهـداً .

وقوله « أنَفَاً ومَحْمِيَةً » انتصب على [أنه[(٣)]] مفعول له ، وما بعده معطوفٌ عليه وفى معناه ، كأنه ذكر العِلّةَ الموجِبة لما أتاهُ فقال : فعلتَ ذلك حَمِيّةً وأنفةً ، وأنَّ عادتَك المدافَعةُ عن كلِّ مَن يتعلّق بحبلك ، أو يتمسّكُ بعُروَةٍ من عُرَى عنايتك ، غريبًا كان أو نسيبًا ؛ وهذا تفعله فى وقتٍ يزهدُ

---

(١) التملص والتفلت . فى الأصل : « التمكس » ، صوابه فى ل .

(٢) المألوف فى التعبير « من فوره » أى قبل أن يسكن . لكنه أراد المرة من الفور .

(٣) التكملة من ل .

الناس فى الإحسان ، لشدَّةِ الزمان ، ويُرَى المُحافظ ممسكاً والمُرَاعِى مُهمَلا .

وقوله «ولَرُبَّ عانٍ قد فككت» فالعانى : الأسير ، وأصله مِن عنا يعنو ، إذا خَضَع . على ذلك قولُه تعالى : ﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَىِّ القَيُّومِ﴾ . فيقول : رُبَّ مأسورٍ أخرجتَه من ضِيق الإسارِ إلى سَعَة الأَمانِ ، فأطلقْتَ كَبْلَهُ ، ونزعتَ غُلَّه ؛ ورُبَّ سائلٍ اجتدَاك فأَغنيتَه ، وعن التَّجوال أقعدتَه ، فانصرفَ عنكَ وهو يُثنِى عليك ويتشكَّر[1] نِعمتك ؛ وقد استحققتَ عليه ذلك بما أسديتَه إليه ، ولو عادَ إليك لوجد مَعاداً لا ضَجَر منك يلحقُه ، ولا سآمةَ فيك تمجُّه ، وإن استزادَ زِدتَه ، لا يُمنَع من موجود ، ولا يُحالُ على مفقود .

٣٦٤

وقال عِكْرِشَةُ أبو الشَّغْبِ[2]

يَرْثِى ابنَه شَغْبًا :

١ – قد كان شَغْبٌ لوَ أنّ اللهَ عَمَّرَهُ ... عِزًّا تُزَادُ بِهِ فى عِزِّها مُضَرُ

٢ – فارَقتُ شَغْبًا وقد قوِّسْتُ مِن كِبَرٍ ... لبِئْسَتِ الخَلَّتانِ : الثُّكلُ والكِبَرُ

يعظِّمُ شأنَ ابنِه ، وذلك أنه كان قد برع فى فضله ، وورد أبوابَ الملوكِ فقبِلته العيونُ والقلوبُ نَباهةً وحَلاوةً ، وتوجُّهاً وتقدُّمًا . فقال : لو أنَّ القضاء أَمهَلَ ابنى شَغْبًا ولم يُعاجِلْه[3] عن استكماله ، وعن الاستمتاع بما توحَّد به من فضائله ، لكان بقاؤه عِزًّا مُستجَدًّا لقبائلِ مُضَر كلِّها ، تُضِيفُهُ إلى عزِّها ، وتتبجَّح باستقرارها .

---

(١) هذا ما فى ل . والتشكر : الشكر . وفى الأصل : «ويشكر» .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

(٣) فى الأصل : «يعالجه» ، صوابه فى ل .

وقوله « فارقْت شَغْبًا » عاد إلى ما يخصُّ نفسَه من الفَجْع بموته ، والجزع لفراقه ، فقال : فارقْته والكِبَرُ قد صالحنى ، وحَنَى ظهرى ، وانتقصَ جَلَدِى ، وأوهَنَ قُواى ، ولا أملَ فى إدراكِ مِثلِه ، ولا استقلالَ بالنُّهوض بأعباء أهله . ثم قال متحسِّرًا : بئست الخلَّتان المجتمِعتان لى : ثُكلُ مَن لا يُعتاض منه أبدَ الدَّهر ، والكِبَرُ المقصِّر للأمل ، المقرِّب ليوم الأجَل .

٣٦٥

وقال آخر يرثى ابنَه :

١ ــ لله دَرُّ الدَّافنيك عَشيَّةً أَمَا راعَهُمْ فى القَبْرِ مَثْواكَ أَمْرَدَا

٢ ــ مُجاوِرَ قومٍ لا تَزاوُرَ بينَهُمْ ومَن زارَهم فى دارِهم زار هُمَّدا

قوله «لله دَرُّ الدَّافنيك » ، فدَرٌّ ، وإن كان فى الأصل مصدراً فقد لزِمَ هذا الموضعَ وجرى الكلمةُ به لكثرةِ الاستعمال مَجرى : للهِ خَيْرُك ، فلا يَعمل فى ظرفٍ ولا فى حالٍ ؛ ولا فى شىءٍ مما يعمل فيه أمثالُه من المصادر . فيقول على وجه التعجُّب مِن الذين تولَّوْا دفْنَه فى عشيَّةِ يومِه : لله دَرُّهم ، أَمَا أفزَعَهم مُقامُك فى القبرِ على استقبال شَبابِكَ ، ونضارة غُصنِكَ وقُرْبِ ميلادِك ، حين لم تجتمع نفسُك ، ولا توجَّه وَجْهُك . وفى طريقته قولُ الآخر[(١)] :

أَيَا شَجَرَ الخابورِ مالكَ مُورِقًا كأنك لم تَحزن على ابنِ طريفِ[(٢)]

(١) هو الفارعة ، أو فاطمة ، أو ليلى بنت طريف ، أخت الوليد بن طريف . حماسة البحترى ٤٣٥ ووفيات الأعيان فى ترجمة الوليد بن طريف .

(٢) أنشد القالى أربعة أبيات من قصيدة البيت فى الأمالى (٢ : ٢٧٤) وفى العقد (٣ : ٢٧٩) ستة أبيات منها ، على حين أنشد ابن خلكان القصيدة بأجمعها .

وأبلغ منهما قول الآخر[١] :

أبَعْـدَ قَتيلٍ بالمدينة أظلمَتْ   به الأرضُ تهتزُّ العِضاهُ بأسْوُقِ

وانتَصَب « أمرد » على الحال ، وأصل التمرُّد التملُّس والانجراد . يقال : صَخرةٌ مَرداء ، إذا لم يَنبُت عليها شيء .

وقوله « مُجاورَ قومٍ لا تَزاوُرَ بينهم » هذا حالُ الأموات فيما بينهم ، يتجاورون ولا يتزاوَرُون ، ومَن زارهم من الأحياء منّا انصرَفَ عنهم بالخَيبة ، والزِّيادةِ فى الغُمَّة والحَسرة . والهُمَّد : جمع هامد ، وهو الميِّت ؛ وأصله من هُمُود النار . ويقال للثَّوب إذا بَلِىَ : قد هَمَد .

٣٦٦

وقال لبيد[٢] :

١ — لَعمرِى لئن كان المُخَبِّرُ صادقاً   لقد رُزِئَتْ فى حادثِ الدهرِ جَعْفَرُ[٣]

٢ — أخاً لِىَ أمّا كلَّ شىءٍ سألتُه   فيُعطِى وأمّا كلُّ ذَنْبٍ فيَغفِرُ

يرثى بهذا أربدَ أخاه . وقوله « إن كان المخبِّر صادقاً » فهو قد عَلِمَ صِدقَ الحديث ، لـكنَّه لاستعظامه للنَّبأ ، وفخامة أمر المتوفَّى فى النفوس وعِندَه ، يَرجع على المخبِّر بالتكذيب ، ويُدْخل الشَّكَّ على المشهود والمسموع ، كما قال الآخر[٤] :

---

(١) هو الشماخ بن ضرار . وسيأتى فى الحماسية ٣٨٨ .

(٢) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر العامرى ، الشاعر المشهور ، وأحد مخضرمى الجاهلية والإسلام . ابن سلام ٤٨ والشعراء ٢٣١ — ٢٤٣ والأغانى (١٤ : ٩٠ — ٩٨) والخزانة (١ : ٣٣٤ — ٣٣٩) وطبقات ابن سعد (٦ : ٢٠) وأسد الغابة والإصابة والاستيعاب .

(٣) الأبيات فى ديوان لبيد ٣ طبع ١٨٨١ .

(٤) هو النابغة يرثى حصن بن حذيفة بن بدر ، كما فى شروح سقط الزند ٨١٣ .

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نُفوسُهم[١] *

واللام من « لَعَمْرِى » لام الابتداء ، ومن قوله « لئن » هى الموطِّئة للقسم ، ومن قوله « لقد » هى جواب القسم .

والمعنى : وبقائى لئن ورَدَ هذا الخبرُ من صادقٍ برىء من الحسد والتزيُّد مؤَدٍّ لما تحققه سماعًا أو عِيانًا . لقد أصيبت قبيلةُ جعفر بن كلابٍ فيما حدث من رَيْب الدهر بمَرْزِئةٍ عظيمة فظيعة .

وقوله « أخًا لى » انتصب عن « رُزِئَتْ جعفر ، أى رُزِئَتْ شقيقًا لى هذا صفتُه ، وهو أنَّ سماحَتَهُ وتكرُّمَه كانا يبعثانِه على بذلِ كلِّ حَسنة تُقتَرَح عليه ، وأنّ سلاستَه وسُهولتَه تَدْعوانِه إلى التَّجافى عن كلّ سيِّئة تَبدُرُ إليه .

٣٦٧

وقالت زينب بنت[٢] الطَّثْرِيَّة[٣] ترثى أخاها :

١ — أَرَى الأَثلَ مِنْ بطنِ العقيقِ مجاوِرِى مُقيمًا وقد غالَتْ يَزيدَ غوَائلُهْ[٤]

الأَثْلُ : شجر . وإنما قالت ما قالت منكِرةً ومستوحِشة ، إذ كان الحكمُ

---

(١) عجزه : * فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٢) كلمة « بنت » ساقطة من النسختين .

(٣) الطثرية أمها ، وهى من الطثر ، بالفتح : حى من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وهى ترثى بهذه الأبيات أخاها يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، وكان يزيد جميلا شريفاً متلافا ، توفى سنة ١٢٦ . وروى أبو الفرج فى الأغانى (٧ : ١١٦) أن الأبيات لأم يزيد ، وهى من الأزد . قال : ويقال إنها لوحشية الجرمية .

(٤) الأبيات فى حماسة البحترى ٤٣٣ والبيان للجاحظ (١ : ٢١٦) والأغانى وأمالى القالى (٢ : ٨٥) . والبيتان ٢ ، ٣ من هذه المقطوعة قد رويا فيما مضى فى الحماسية ٣١١ للعجير السلولى . قال القالى : « وفيها أبيات تروى للعجير السلولى ولها » .

عندها أن تتغيَّر الأمورُ عن مقارِّها لموت أخيها، فتتحوّلَ الأحوالُ وتتبدَّلَ الأبدال، وتتخشَّع الجِبالُ، وتتقلَّع الأشجار؛ فلمَّا جرَى الأمرُ بخلافه أخبرَتْ متوجِّعة ومتحسِّرَة، فقالت: إنَّ بطنَ العقيقِ ومنابتَ أَثلِه بما تحويه أرى مقيما في جِوارى على ما كان عليه، وأخى يزيدُ قد دَعاهُ محتومُ القضاء فذهَبَ به غوائلُه. ويقال: غالته الغوائل، أى أهلكَتْه المُهْلكات، وهذا كما يقال: عَلِقَتْ به العَلُوقُ. وانتصب «مقيما» على أنَّه مفعول ثانٍ لأرى، ومُجاورى في موضع الجرّ على أنَّه صفة لبطن العقيق.

٢ ـ فَتًى قُدَّ قَدَّ السيفِ لا متضائلٌ ... ولا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وَأَبَاجِلُهْ[(١)]

وصَفه بأنَّه في خِلقة السيف تجرُّدًا واقتضاباً، وعلى خُلُقه مضاءً ونفاذاً. وقوله «لامتضائلٌ» يريد أنَّه شهمٌ حيُّ النَّفْس والقلبِ، جرىءُ المُقْدَم، لا يتخاشَعُ لشىء ولا يتماوَتُ على حَدَث. والضُّؤولة، أصلُه الدِّقَّة. والرَّهِل: المُسترخى. يصفُه بقِلَّةِ اللَّحْم على الصَّدر والسَّاق. والأباجل: جمع أَبْجَل، وهو عِرْقٌ[(٢)]. وذَكَرَ الأباجِل وهو يريد مواضعها. وجَمَعه كما يقال هو ضَخم العثانين، كأنَّه أراد ما حَولَه.

٣ ـ إذا نزَلَ الأضيافُ كانَ عَذَوَّرَا ... عَلَى الحَىِّ حتَّى تستقلَّ مراجِلُهْ

العَذَوَّرُ: السَّيِّئُ الخلُق، القليلُ الصَّبر فيما يطلبُه ويُهَمُّ به. وإذا ظرفٌ لقوله «كان عَذَوَّرَا». وصفَه بأنَّه يجمع الحىّ لأمره فيُطَاعُ، لسيادته وجَلَالة محلِّه، وأنَّه إذا نزلَ به الأضيافُ قام بنفسه في إقامة القِرَى لهم، غيرَ معتمدٍ على أحدٍ فيه، وأنَّه يعرِض له وفى خُلُقه عَجَلَةٌ يركبها، وتشدُّد في الأمر والنَّهْى على جماعة الحىّ به يصرِّفُها، حتَّى تُنصَبُ المراجل، وتُهيَّأ المطاعم؛ فإذا ارتفع

(١) التبريزى: «وبآدله»، وهى رواية البحترى والقالى أيضاً.
(٢) هو عرق فى باطن الذراع، أو هو عرق غليظ فى الرجل.

ذاكَ على مُرَادِهِ عاد إلى خُلُقِهِ الأوّل . والمراجل : جمع مِرْجَل ، وهى القِدْر العظيمة النُّحاسية ، واستقلالُها : انتصابُها على الأثافىّ . وحتَّى تَسْتقلّ ، أراد لتستقل وكى تستقلّ . أى كان عَذَوَّرًا لذلك الشأن .

٤ — مَضَى ووَرِثْنَاهُ دَرِيسَ مُفَاضَةٍ وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا طَوِيلًا حَمَائِلُهْ

يقول : أجاب دَاعِيَهُ فمضى لوجهه ، وورِثْنَاهُ دَرِيس مُفَاضَة . فانتصب دريسَ على أنّه مفعول ثانٍ . ويقال : ورِثْتُه كذا وورثتُ منه كذا . فعلى هذه اللُّغة كان أصله وَرِثنا منه ، فحَذَفَ الجارّ ، ووصل الفعلَ فعمِل . والدَّريس : الخَلَق من الدِّرع وغيره ، لأنَّه كأنّه فعيلٌ بمعنى مفعول . والجمع الدِّرْسان . والمُفاضة : الدِّرْع الواسعة . وأبيض ، أى وسيفًا أبيضَ . وجعله طويلَ الحمائل لطول قَوَامِه . والمعنى أنَّه أنفقَ مالَهُ فى ما ادَّخَر له أجْرًا ، ونَشَرَ لهُ حَمْدًا وشُكرا ، فلم يكن إرْثُهُ إلَّا ما ذَكَر من السِّلاح .

٥ — وقد كان يُرْوِى المشرفىَّ بكفِّه ويَبلُغُ أقصَى حَجْرَةِ الحىِّ نائلُهْ[1]

وصَفه بأنّه كان غزّاءً شديدَ النكايةِ فى الأعداء ، فكان يُعطِى السيفَ حقَّه إذا أعمَلَه ، ويُرويه من دِماء مُشاقِّيهِ ومُنابِذِيه إذا جرَّده ، ويبلغُ أبعد ناحيةِ الحىّ عطاياه . وإنما قالت « يُروى المشرفىَّ بكفِّه » لأنها تريد أنَّ نهضتَه فى ذلك بنفسه خاصّةً من غير اعتمادٍ على حميم أو غريب ؛ لأنه كان لا يجرُّ الجرائرَ على ذويه ثم يتركهم لها ، ولكن كلُّ ما أتاه أو تجشَّمَه فبنفسه لا بغيره .

٦ — كريمٌ إذا لاقيتَهُ متبسِّمًا وإمّا تَوَلَّى أَشْعَثُ الرَّأْسِ جافلُهْ

قولها « كريم » ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أرادت : هو كريم إذا لاقيتَه متبسِّما . فانتصب « متبسِّما » على الحال . وجواب إذا يدلّ عليه كريم .

(١) هذا البيت وتاليه وتفسيرهما ساقط من نسخة الأصل ، وإثباتهما مع تفسيرهما من ل .

فتقول : إذا لقيتَه راضياً ساكناً متبسِّما لاقيتَ منه طَلْعَةَ الكرام وأفعالَهم ، وإن أعرضَ عنك وولَّى وجدتَه أغبرَ الرأس كثير الشعر ، لا يهمُّه أمرُ نفسِه فى اللِّباس والطَّعام ، وإنَّما به الغزْوُ والسَّعْى فى إصلاح أمر العشيرة ، وما يَكسِبُه الجمالَ والشَّرف .

وقولها « أشعث الرأس » أى اغبرَّ شعرُه وتلبَّد . والفعل منه شَعِثَ شَعَثاً وشُعوثةً ، وهو أشعثُ وشَعِث . وقولها « جافله » من قولهم : أخذتُ جُفْلةً من الصوف ، أى جُزَّةً منه . وفى كلامٍ لهم عن الضائنة : « أُجَزُّ جُفَالًا[1] » . ويقال : جافل ، ومُجْفِل .

٧ — إذا القومُ أَمُّوا بيتَه فهو عامِدٌ ... لِأَحْسَنِ ما ظَنُّــوا به فهو فاعِلُهْ

يجوز أن يريد بالقوم رجالَ الحىِّ خاصَّة ، ويجوز أن يريد به طوائفَ الرِّجال ، ويكونَ المرادُ به الكثرة . وإنمـا وصفَتْهُ بأنه مدبِّر العشيرة عند ما يَدهَمهم ، والمشيرُ عليهم فيما يَحْزُبُهم ، فإذا قَصَدوا حضرتَه قائلينَ ما نأمرُ وكيف نَصْنع ؟ أرشَدَهم وهَداهم ، وتحمَّل عنهم ما يَثقُل عليهم . ثمَّ بعدَ ذلك تعَمَّدَ إلى أحسنِ ظنونهم به فيأتيه معهم لا متبرِّمًا ولا مُتكرِّهًا ، بل باسطاً من آمالهم ، وجامعاً الحسنَ[2] فى كل بابٍ لهم .

٨ — ترَى جَازِرَيْهِ يُرْعَدانِ ونارُهُ ... عَلَيْها عَدَامِيــلُ الهَشِيمِ وصامِلُهْ

٩ — يَجُرّانِ ثِنْيًا خَيْرُها عَظْمُ جارةٍ ... بصيراً بها لم تَعْـدُ عنها مَشاغِلُهْ[3]

(١) هو مما وضعوه على لسانها . وفى اللسان : « أولد رخالا ، وأحلب كثباً ثقالا ، وأجز جفالا ، ولم تر مثلى مالا » . قوله جفالا ، أى أجز بمرة واحدة ، وذلك أن الضائنة إذا جزت فليس يسقط من صوفها إلى الأرض شىء حتى يجز كله ويسقط أجمع .

(٢) ل : « الحسنى » .

(٣) التبريزى : « عظم جاره » .

جعلتْ له جازرَيْنِ على عادتهم فى جعلهم أصحابَ المِهَنِ فيهم اثنين اثنين ، كالبائن والمُسْتَعْلِى فى الحَلَب ، والماتح والقابل فى الاستقاء . وجَعلَهما يُرْعَدَانِ لشدّة البرد ، وإنما تَعنِى وقتَ الجَدْبِ وعند إمحالِ الناس . والعدَاميل : العَتيق من الخشب الغليظ ، واحدها عُدْمُولٌ على القياس وعُدْمُلِيٌّ . والصاملُ : اليابس . والمعنى : إذا اشتدَّ الزّمانُ وشَمِلَ القَحْطُ واشتدَّ البرد ، كان له جازِرَان ينحران ، ونارُه عظيمةٌ وَقودها من الحطب الغِلاظ العُتُق ؛ وترى العُفاةَ والمَضْرُورِين(١) بالفِناء نازلين ، وذَوِى الحاجة من جوانب الحىِّ يَعْتَرُّون ، وهو يقتَسِم فيها ما يُرضيهم .

وقولُها « يَجرُّان ثِنْيًا » يعنى الجازِرين . والثِّنْى : التى ولدت بطنَيْن ، وهى مما يُضَنُّ بها . وقولها « خَيرُها » تريدُ : خيرُ أبدائها ومفاصلِها البَدْء الذى يُجعل لجارةٍ له قد عَرَفها ، فهو بصيرٌ بها وبحالها . وليست تعنى جارةً بعينها ، إنما المراد الكثرة ، فالجاراتُ على ذلك لا تتخطّاها أشغالُه المزدحمة ، ولا يغُضُّ العنايةَ بها الأسبابُ المتراكمة ، بل قد وصَّى بها وبأمثالِها فيُتفقَّدْنَ بأوفر الأنصباء عند قسمة الجزور . وقالت « بصيراً بها » والفعل للمرثىِّ ، فجرى على غَير من هوله ، لأنه تبع الجارة ، وإذا كان كذلك فالواجب كان عليها أن تظهر ضميره فتقول بصيراً بها هو ، لأن اسم الفاعِل والصفة المشبّهة إذا جرَى واحدٌ منهما على ما قبلَه صفةً أو صِلةً أو حالا أو خبراً لم يَحتمل الضمير كما يحتمله الفعل ، لِضَعفه وانحطاطِ منزلته . وأكثرُ أصحابنا على أنه لا بدَّ من ذلك ، حتى أن أبا الحسنِ كان يلحِّن الكلامَ إذا لم يَجرِ على هذ السَّنَن . والكوفيّون وبعض أصحابنا يُجوِّزون تركَ إظهاره . وهذه الشاعرةُ دعتْها الضرورةُ إلى وَضْع المتصل موضعَ المنفصِل ، فتَركت التغيير . وقولها « لم تَعْدُ

(١) المضرور : الذى أصابه الضر . فى الأصل . « المصرودين » صوابه فى ل .

عنها » أى لم تَصرِف . يقال : عَدَت بيننا عَوَادٍ ، أى صَرَفَتْ صوارف .

٣٦٨

وقال أبو حكيمٍ المُرِّىّ[1] :

١ ــ وكنتُ أُرَجِّى من حَكيمٍ قِيامَهُ ... علىّ إذا ما النَّعْشُ زَالَ ارتدانيا

٢ ــ فَقُدِّمَ قَبْلى نَعْشُه فارتَدَيْتُهُ ... فياوِيحَ نَفْسِى من رِداءٍ عَلَانيا

النعش : شَبيهٌ بالمِحَفَّة ، كان يُحمَل عليه الملكُ إذا مرض ؛ ثمّ كثُر حتّى سُمّى النَّعشُ الذى فيه الميِّت نَعْشاً . يقول : كنتُ أؤمِّل فى حكيمٍ ابنى أن يُمْهَل وينفَّس مِن عمره ، فيقومَ علىّ إذا مُتُّ ، ويرتَدِىَ نَعْشِى إذا حُمِلْتُ ، ثمّ بعد ذلك يَقضِى فيما أخلِّفه عليه ، وأعتمد على كفايته وخلافتِه ، فخابَ أملى وكَذَبنى ظنِّى ، وقُدِّمَ قبلى ، فارتديت أنا نعشَه ، فوا بلاءَ نفسى مِن رداءٍ علانى بنعشِه . وقوله « ارتدانيا » تفسيرٌ لقيامه عليه[2] . وقد وَضَع الماضىَ موقع المستقبل ؛ أى يرتدينى فى ذلك الوقت . ولو ساقَ الكلامَ على تلاؤمٍ لقال : قيامَهُ علىّ وارتداءَه إيّاىَ إذا ما النَّعش زال ارتدانيا ، أى يرتدينى ، فيكون إذا ما النَّعش زَال ظرفاً ، وارتدانى مفعول أُرَجِّى . أىْ أرجوه يرتدينى إذا ما النَّعش زال .

---

(١) قال التبريزى : وكان أبو حكيم قد قال :

يقر بعينى وهو يقصر مدتى ... مرور الليالى أن يشب حكيم

مخافة أن يغتالنى الموت دونه ... ويغشى بيوت الحى وهو يتيم

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « على » .

٣٦٩

وقال مُنْقِذٌ الهِلَالِىُّ[1] :

١ – الدَّهْرُ لَاءَمَ بين أُلْفَتِنَا ... وكذاكَ فرَّق بيننا الدَّهْرُ

٢ – وكذاكَ يَفْعَلُ فى تَصَرُّفِهِ ... والدَّهْرُ لَيْسَ يَنَالُهُ وِتْرُ

نَسَبَ ما اتَّفق عليه وعلى مُحِبِّيه إلى الدَّهر، فقال: الدَّهر جَمَّع بيننا وسوَّى أُلفتنا، فلمَّا أراد كُلٌّ منَّا أن يفرحَ بصاحبِهِ كما يَهواهُ، ويتمتَّعَ به ويتملاَّه، فرَّق بيننا وشتَّت شملنا، فعاد ما كُنا نأمُلُه من التَّملِّى والاستمتاع تبايُناً وتوجُّعاً[1].

ومعنى وكذاك فرَّق بيننا: ومثلُ ذاك. وأشار إلى ما دلَّ عليه لاءَمَ من التَّأليف. يريد: وكتأليفه فرَّق أيضاً. وكرَّر لفظ الدَّهر تفخيماً. وموضع كذاك نصبٌ على الحال مِن فرَّق بيننا. وقوله «وكذاك يفعل فى تصرُّفه» يريد أَن الدهر فى مصارفه فعَّال لمثل ما فَعَلَ بنا، يهَبُ ويَرتجع، ويؤلِّف ويفرِّق، ولا يترك شيئاً على حاله إلَّا رَيْثَ ما يُسَلِّطُ عليه التَّغيير. وقوله «والدهر ليس يناله وِتْرٌ» يريدُ أنَّهُ يَتِرُ غيرَه فلا يُوتَر، ويَنكِى فلا يُجازَى، فليس معَه إلاّ الاستسلامُ لحكمه، والرِّضا بمحتومه. وهذا الذى جعلَه للدَّهر، الفاعلُ له القادرُ على كلِّ شىء، تعالى عن الأشباه.

٣ – كُنْتُ الضَّنِينَ بمَنْ أُصِبْتُ بهِ ... فَسَلَوْتُ حينَ تقادَمَ الأَمْرُ

٤ – ولَخَيْرُ حظِّكَ فى المُصِيبةِ أَنْ ... يَلْقاكَ عِنْدَ نُزُولِها الصَّبْرُ

---

(١) هو منقذ بن عبد الرحمن بن زياد الهلالى. قال المرزبانى فى المعجم ٤٠٤: «بصرى خليع ماجن، متهم فى دينه، يرمى بالزندقة، كان فى صدر الدولة العباسية». وأنشد له هذه الأبيات ما عدا الثانى منها. وكان من أصحاب والبة ومطيع وبشار وابن المقفع وأبان. الأغانى (١٦ : ١٤٣).

قوله « كنتُ الضَّنينَ » تشكٍّ[1] من الفِراق الواقع بينه وبين مَن يَرثيه، وإظهارٌ لضنِّه كانَ به، وتنافُسه فيه. فيقول: كنت لا أصْبِرُ عنه، وأعُدُّ الأوقاتَ التي لا أراه فيها كَثُلْمَةٍ في العَيش، ونَقيصةٍ من زَاكى الحظّ، إذْ كنتُ لا أرى طِيبَ العيش إلاّ معه، ولا أعرِف طعمَ الحياة إلا في صُحبته فلما افترقْنا وتقادَمَ العهد بيننا سَلَوْتُ عنه، حتَّى كأنّنى لم يَجمعْنى وإيَّاه حالٌ. وهذا الكلامُ منه استقصارٌ لجزعه، واعترافٌ بأنَّه لم يَفْعَل كُنْهَ الواجبِ عليه عند الرَّزِيئة.

وقوله: « والخيْرُ حَظِّك » يريد: خير أنصبائك فيما تُصاب به وتَعنو له، أن يتلقاكَ الصَّبرُ عندالصَّدمة الأولى لتصونَ به دينكَ ونفسك وعقلك؛ لأنَّ المرجع إليه، فألاّ يتسلى الإنسانُ تَسَلِّيَ البهائم أحسَنُ. وفي هذه الطريقة قول الخُرَيْمىّ:

وإنِّى وإن أظهرتُ صَبْرًا وحِسْبَةً ... وصانَعْتُ أعدائى عليكَ لَمُوجَعُ

ولو شيتُ أنأ بْكى دَمًا لبَكَيْتُهُ ... عليك ولكن ساحةُ الصَّبرِ أوسَعُ

٣٧٠

وقالت ابنةُ ضِرَارِ الضبّيّة[2]

تَرْثى أخاها قَبيصَةَ بن ضِرَار[3]:

١ ــ لا تَبْعَدَنَّ وكُلُّ شَىءٍ ذاهِبٌ ... زَيْنَ المجالِسِ والنَّدِىِّ قَبيصا

«لا تبعدن» لفظة قد مَرَّ القولُ فيها فيما تقدَّم[4]. وقوله «وكلُّ شىء ذاهِبٌ»

---

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل: « تسل ».

(٢) التبريزى: « مية ابنة صرار الضبية ».

(٣) كان قبيصة بن ضرار أحد فرسان ضبة. وكان قد شهد الكلاب الثانى حين اجتمعت مذحج لقتال تميم، فهزمتهم تميم وقتلوا قائدهم عبد يغوث بن صلاءة. وكان هذا الكلاب قبل الإسلام بقليل. الأغانى (١٥ : ٧٠ ــ ٧٢)

(٤) انظر ص ٨٩٢، ٩٠٥.

تَسَلِّ . كأنّها قالت متوجِّعةً : لا تَبْعَد ، ثم عَقَّبْته(١) بالتَّسلِّي فقالت : وكل حيٍّ منا ميِّتٌ ، وكلُّ أمرٍ فينا متغيِّر يا زينَ المجالس والنَّدِيِّ يا قبيصة . وقولها « وكلُّ شيءٍ ذاهب » اعتراض بين المنادى وبين الدُّعاء له . والجمل المعترضة بين أنواع الكَلِم تفيد فيها التَّأكيدَ وتحقيقَ معانيها . وقولها « زينَ المجالسِ والنَّدِيّ » ، إنَّما ذكرتهما وهما واحد لأنّها أرادت بالمجالس مجالسَه خاصةً إذا قُصِدَ لإنزال الحاجاتِ به ، واستخراج المطالب منه ، وأرادت بالندِيِّ نادىَ الحيّ . وانتَصَبَ قبيصةُ على أنّه عَطف البيان ليا زَيْن . ويجوز أن يكون على تكرير النِّداء وقد رَخَّمه ، فكأنّه قال : يا زينَ المجالس يا قبيصة .

٢— يَطْوِى إذا ما الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ بَطْنًا من الزّادِ الخَبيثِ خَمِيصَا

يصفُه بقِلَّةِ الشَّرَه ، وأنّه لا يرغَب من أعراض الدُّنيا إلا فيما يزِين ولا يَشِينُ ، ويُستطاب ولا يُستخبَث . وقوله « إذا ما الشُّحُّ أَبْهَمَ قُفْلَهُ » ، يريدُ إذا اشتدّ الزمان فصار كلُّ مالكٍ لشيءٍ يبخَل به حتّى لا يمكنَ انتزاعُه منه . وإذا رَوَيْتَ « أُبْهِمَ قُفْلُه » على ما لم يسمَّ فاعله ، فالمعنى أحكم أمرُه وجُعِل كالفَرض الذى لا يحتمل التجوُّز . وإذا رويت « أَبْهَمَ قُفْلَه » جعَل الفعل للشُّحّ ، كأنّ له قُفلا يُبهِمه . وإبهامُه : أن يَجعلَه على وجهٍ لا يُدرَى كيف يُفتَح . فيقول : هذا الرّجُل يطوى بطنًا له صغيراً مضطمِراً من الزّاد السَّيِّءِ ، إذا تملّك البخلُ النّاسَ لشِدَّة الزّمان ، فجعلهم كذلك .

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « علقته » .

٣٧١

وقال عِكْرِشَةُ الضَّبِّيُّ[١] يرثى بَنِيه :

١ – سَقَى اللهُ أَجْدَاثًا ورائى تركْتُها بحاضِرِ قِنَّسْرِينَ من سَبَلِ القَطْرِ[٢]

٢ – مَضَوْا لا يريدون الرَّوَاحَ وغالَهُم من الدَّهْرِ أسبابٌ جَرَيْنَ على قَدْرِ[٣]

الأجداث : القبور ، وكذلك الأجداف بالفاء . ويعنى بالأجداث قبورَ بنيه . ودعَا لها بالسُّقيا وجعل موضعَها بحاضر قنّسْرين ، إجلالاً لها وتنبيهاً عليها . وقوله « من سَبَلِ القَطْر » مفعول ثان لسَقَى الله . والمعنى : سقى اللهُ هذه القبورَ التى وصفْتُها من ماء السَّحاب ما سالَ على عَجَلةٍ وبشِدّة . وخَصَّ ذلك لأنّها أعذبُ المياه عندهم . والقَصْد فى طَلَب السُّقيا لها أن تبقَى عهودُها غَضّةً محميّةً من الدُّروس ، طريّةً لا يتسلَّط عليها ما يُزيل جِدَّتَها ونضارَتَها . ألا تَرى أنّه لمّا أراد ضدَّ ذلك قال :

* فلا سَقَاهُنّ إلّا النَّار تضطرمُ[٤] *

وقوله « مضوا لا يُريدون الرَّواح » يريدُ : ساروا لا يعرّجون على شىء ، فلا يريدون لُبثاً ولا مُقاما ، بل استُعجلوا فتعجَّلوا ، وأهلَكهم مِن أحداث

(١) التبريزى : « عكرشة العبسى » ، وهو الصواب ، وهو أبو الشغب العبسى الذى ترجم فى ص ٩٢٧ .

(٢) البيت ١ ، ٢ ، ٥ فى مجالس ثعلب ٢٤٢ . والبيت ٥ وقبله بيت آخر لم يروه أبو تمام فى اللآلى ٤٢٨ . وهذا البيت هو :

غطارفة زهر مضوا لسبيلهم ألهفى على تلك الغطارفة الزهر

ورواية ثعلب : « فتيانا ورائى تركتهم » .

(٣) ثعلب : « ثووا » .

(٤) صدره كما سبق فى ص ١٠١ :

* إذا سقى الله أرضاً صوب غادية *

الدّهر أسبابٌ جاءت على قدَرٍ ، فكأنّهم كما دُعوا أجابوا ، وكما تهيّئوا أُخِذوا ، لا تَلوّمَ ولا اختلاف ، ولا قُصور[١] ولا امتناع .

٣ــولو يَستطيعونَ الرّواحَ تَروّحوا ... مَعِى وغَدَوا فى المُصْبِحِين على ظَهْرِ

يقول : ولو قَدَروا فيما هَمُّوا به من سَيرِهم على النُّزولِ رَوَاحًا لتروّحوا معى ، ولغَدَوا[٢] فى صباح اليوم الثانى على ظهر الأرض ولم يَصِيروا مع الأموات فى بطنها مأخوذِينَ عن حظوظهم ، لـكنّهم استمرّوا فى المفارقة فِعْلَ مَن لا يملكُ إلّا ذاك ، ولا اختيارَ له فيما يركبه .

وهذا الكلامُ منه توجُّعٌ وتحسُّر ، حين أُتُوا من حيثُ لم يَشعُروا ، وطُولِبوا بما لا رَجعةَ فيه ولا استبقاء وإن استُنظِروا .

٤ ــلَعمرِى لقد وارَتْ وضَمّتْ قُبورُهم ... أَكُفًّا شِدَادَ القَبْضِ بالأَسَلِ السُّمْرِ

٥ ــيُذَكِّرُنيهمْ كلُّ خَيْرٍ رأيتُه ... وشَرٍّ فما أَنفَكُّ مِنْهم عَلَى ذُكرِ

يقول : وبقائى ، لقد اشتملت قبورُهم على فُرسانٍ شُجْعانٍ[٣] يملِكون بالطّعن أَكُفًّا شدادَ القَبْض على الرِّماح . وإنما قال « وارَتْ وضَمّتْ » لأنّ المُوارِيَ هو السّاتِر ، وساتِرُ الشّىءِ يكون ضامنًا وغير ضامن[٤] . وإنّما أرادأن يجعل القبور مُواريةً وضامنة ، فلذلك جمع بينَ اللّفظين . ثم عقّبَ هذا بأن قال : يذكّرُنيهم الأمورُ التى أَنتهى إليها على اختلافها ، فإنّها لا تخلو من أن تكون نافعَةً أو ضارة ؛ فإن كانت نافعةً كانت خيراً ، وكانت عَمَلَهُ

(١) فى الأصل : « تصور » ، صوابه فى ل .
(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وأخذوا » .
(٣) ضبطت فى الأصل بضم الشين، وفى ل بكسرها . وهذه اللغة الأخيرة حكاها اللحيانى .
(٤) اتفقت النسختان فى التعبير عن الضام بالضامن ، ومعناهما متقارب .

دِيمةً[(١)] مع مَن يتسبَّب إليه بحُرمة ، أو يُدلِ بآصِرةٍ . وإن كانت ضارَّة كانت شَرًّا ، وهو الذى يَشْقَى به من يُشاقُّه ويعانِدُه ، حتَّى لا يُخْلِيه منه أو من تَرَقِّيه[(٢)] ساعةً ، فلا أزال ذاكراً له بما أعتَبِرُه من أمور الدُّنيا وأحوالها ، وأنتهى إليه فأتأمَّلُه من مسبَّباته فى طوائف النَّاس بعده . ويقال : ما انفكَّ يفعل كذا ، بمعنى ما زال . والذُّكْر ، بضم الذال ، يكون بالقلب ؛ والذِّكر بكسر الذال ، يكون باللِّسان .

٣٧٢

وقال رجلٌ من بنى أسَدٍ[(٣)] ،

يرثى أخاه وكان مَرِض فى غُربة ، فسأل الخروجَ به هرَبًا من موضعه ، فماتَ فى الطريق :

١ – أبْعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرارَ فما جاوَزْتَ حَيْثُ انتهَى بك القَدَرُ

٢ – لو كان يُنْجِى من الرَّدَى حَذَرٌ نَجَّاكَ مِمَّا أَصابَكَ الحَذَرُ

يُروى : «أبعطتَ»، والإبعاط والإبعاد متقاربان . فالإبعاط : الإسراع فى السَّير . ويقال : أبعطتُ من الأمر ، إذا أبيتَه وهَرَبْتَ منه . ويُرْوَى : « أسرعْتَ من يومك الفِرار » والأوّل أشهر وأجود ، لأن مِن يتعلَّق فيها بأبعدتَ .

(١) أى دائما : وفى حديث عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان عمله ديمة » ، شبهته بالديمة من المطر فى الدوام .

(٢) كذا فى النسختين . والترقى : التدرج ، وليس من الحتمى أن تكون « ترقبه » .

(٣) التبريزى : « ويقال إنها لابن كناسة » . وقد نسبه كذلك ابن خلكان فى ترجمة حماد الراوية ، وذكر أن محمد بن كناسة يرثى حماداً الراوية بهذا الشعر . وسبقه بهذه النسبة ابن النديم فى الفهرست ١٣٥ . أما الجاحظ فى البيان (١ : ٢٥٧) فأتى بذلك مبهماً ، إذ قال : « وقال بعض الشعراء فى بعض العلماء » . والبيت الرابع من هذه المقطوعة ينطق بتصحيح هذه النسبة .

والمعنى : فَرَرتَ مِن أجلكَ فِرَاراً بعيداً . ومعنى « من يومك » من آخر أَمَدِك . وإذا رويت « أسرعت » احتجت إلى إضمار فعلٍ يتعلّق به من ، ولا يجوز تعلّقُه بأسرعتَ ، ولا بالفرار لأنه يكون من صلته وقدْ قُدِّم عليه . وقوله « فما جاوزتَ حيث انتهى بك القَدَرُ » يريد أنَّ الحذر لا يُغنى من القَدَر ، وأنَّك وإن تحزّمتَ(١) فى تغيير الأماكن تبَاعُدًا من المحذور ، وتنقَّلتَ فى المنازل هَرَباً من القدر المحتوم ، فما وجدتَ فيه واقيةً لنفسك ، ولا جاوزتَ الوقتَ المُرْصَدَ لحينك . وجعل قوله « حيث انتهى » اسماً ، فهو فى موضع المفعولِ لجاوزت . ومثلُه فى القرآن : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ(٢) ﴾ . ومن مَحْكِيِّ كلامِهم وفصيحه : « هى أحسنُ الناس حيث نظر ناظرٌ » ، يعنى وجهها .

وقوله : « لو كان يُنجِى » جواب لو قولُه « نجاك » . والمعنى : إنَّكَ لم تُؤتَ من تضجيعٍ وقَعَ منك ، أو إغفالٍ اعترض دون طالبك ؛ فلو كان يخلِّص من الموتِ توَقٍّ لوقاك ما أخذت به نفسك من الحَذَر الشَّديد ، والهرب البعيد ؛ ولكن هو الموت الذى لا منجًى منه ولا مَهرَب عنه . وكلُّ هذا النوع توجُّعٌ وتحسُّر ، واعترافٌ بالقصور والعجز لَدَى مُبْرَم القضية .

٣ – يَرْحمُكَ اللهُ من أخى ثقةٍ لم يَكُ فى صَفْوِ وُدِّهِ كَدَرُ

٤ – فهكذا يَذهبُ الزّمانُ ويَفْـ نَى العِـلْمُ فيه ويَدْرُسُ الأَثَرُ

قوله « يرحمك الله » استِسلام . والرَّحمة من الله : الإحسانُ والعفو . ومعنى

(١) التحزم : اتخاذ الحزم . وهذه رواية ل . وفى الأصل : « حرمت » وهذه محرفة من « حزمت » .

(٢) هذه هى قراءة جمهور السبعة ، وقرأ ابن كثير وحفص : « رسالته » بالتوحيد. انظر ما سبق فى حواشى ١٤١ ، وكذلك ص ٥٧٣ .

« من أخي ثقةٍ » دخل مِنْ للتّبيين ، أى من أخٍ يُوثَق بودّه ، ويُؤْمَن غِلُّه ووبَالَ حَسَدِه ، وإذا صَافَى الوِداد وافَقَ باطنُه ظاهِرَه ، ولم يك ذا وجهين يُعطيك حَضْرَتُهُ خِلاف ما يُعطيك غَيبَتُه .

وقوله « فهكذا يَذهَبُ الزّمان » يريد أنّ ما رآه وأصابَه ليس بمستبدَعٍ من حَدَثَان الدهر ونوائبه ، بل استمراره قديماً وحديثاً على وجهٍ واحد ينقرضُ أهلُه كما أتاه ، ويفنى فيه كلُّ معلومٍ حَوَاه ، ويدرُس كلُّ أثرٍ اقتفاه ووَعاه . وهذا الكلامُ إظهارُ اليأسِ من المفقود ، وتضعيفُ الطّمع فى بقاء الموجود .

٣٧٣

وقالت أمُّ قَيْسٍ الضَّبِّيَّة :

١ ـ مَنْ للخُصُوم إذاجَدَّ الضَّجاجُ بهم　　بعد ابن سَعْدٍ ومن للضُّمَّرِ القُودِ

قوله « إذا جَدَّ الضجاج بهم » أى صار ضَجاجُهم جِدًّا . ويقال : ضَجَّ يضجُّ ضجيجاً ، والاسم الضَّجاج ، قال العجّاج يصف حرباً :

وأغْشتِ النّاسَ الضَّجاجَ الأضْجَجَا　　وصاح خَاشِي شرِّها وهَجهَجا(1)

وقوله « مَن للخصوم » لفظه استفهام ، والمعنى التوجع والاستفظاع . فيقول : مَن يَفصِل بين الخُصوم إذا اشتدَّ بهم النِّزاع ، وطال الجِدالُ والدفاع ، فاحتِيجَ إلى من يردُّ الجامح ، ويُلين الكامح ، حتّى إذا رجع كلٌّ منهم إلى ما يقرب مَسْمَعه ، ولا يبعد عن الفَحص مُستنزعه ، أنفذ قضيَّتَه فقطعها ، لا يلفتهم عن القَبول مراجعةٌ ، ولا تَخلِجُهم عن الالتزام مماتَنةٌ ومدافَعة بعد ابن سعد . ومَن للضمَّر القود بعده ، أى مَن أصحابُ الخيلِ المضمَّرة . وتريد : من يدفعُهم عن اشتطاطِهم إذا جاءوا

(١) سبق فى ص ٧٤٩ .

واترِينَ أو موتورين . ويجوز أن تريد أنَّه كان غزا بها فمَنْ لها بعده . والضمَّر : جمع ضامر . والقُودُ : الطِّوال الأعناق .

٢ — ومَشْهَدٍ قد كَفَيْتَ الغائبين به   فى مَجْمَعٍ من نَواصِى الناس مَشْهُودِ

٣ — فرَّجْتَهُ بلسانٍ غيرِ مُلتَبِسٍ   عِنْــدَ الحِفاظِ وقَلبٍ غيرِ مَزْءودِ

يقول : ورُبَّ مشهدٍ عظيمِ الشأن يُسأَلُ عن حال حاضرِيه ، ويُستمع إلى ما يُنْشَر عنه من حِجاجِ منافريه ، تكلَّمتَ فيه عن نفسِكَ ونُبْتَ عن الغائبينَ من مُعْتَلِقِي حَبْلِكَ ، واليومُ يومٌ مشهود ، ورؤساء الناسِ وأماثلُهم فيه شهود ؛ ثم كَشَفْتَ الغُمَّة ، وأثبتَّ الُحجّةَ بكلامٍ فصيحٍ لا يلتبس ، وجدالٍ راجحٍ لا يُخِيل ولا يَغتمِض ، وقلبٍ ثابت لا يرتَدِع إذا استُنهِض ، ولا يَنتكِس إذا استُقدِم . وقوله « نواصى الناس » أى أشرافهم والمقدَّمين منهم . وهذا كما وَصفُوا بالذَّوائب ، يقال : فلانٌ ذُؤابةُ قومِه ، وناصيةُ عشيرتِه . وقوله « بلسانٍ غيرِ ملتبس » يريد بكلام . وفى القرآن : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن رسولٍ إلا بلِسانِ قوْمِهِ ﴾ ، وتُسمَّى الرِّسالةُ لساناً . وقال :

* إنِّى أَتَتْنِى لِسَانٌ لا أُسَرُّ بها(١) *

وقوله « غير مَزْءود » فالزُّؤْد(٢) : الذُّعْر ، والفِعل منه زُئِد فهو مزءود . وقوله « عند الحِفاظ » أى فعلت ذلك كلَّه عند المحافظة على الشَّرَف ، والاحتماء من عار الهَضِيمة والعَنَتِ .

٤ — إذا قَنَاةُ امرئٍ أَزْرَى بها خَوَرٌ   هَزَّ ابنُ سَعْدٍ قَنَاةَ صُلْبــةَ العُودِ

(١) لأعشى باهلة ، يرثى المنتشر بن وهب الباهلى ، من قصيدة فى الخزانة (١ : ٩٢ — ٩٧) ، وهذا البيت أولها . وعجزه :

* من علو لا عجب منها ولا سخر *

(٢) يقال بضمة وبضمتين ، ومثله الزأد ، بالفتح والتحريك .

ذِكر القناة مَثلٌ للإباء والامتناع ، وأنّ المُكْرَه(١) لا يُخرِج منهم الخضوعَ والانقياد . ألاَ ترى قول سُحَيْم بن وَثِيلٍ :

وإنَّ قَنَاتَنَا مَشِظٌ شَظَاهَا   شَدِيدٌ مَدُّهَا عُنُقَ القَرِينِ

ويقال : مَشِظَتْ يدُه تَمشَظُ مَشَظاً . والشَّظِيَّة والشَّظا من العصا كاللِّيطَة منها ، تَدخُل فى اليد فتَمْشَظُ منها . ومثل هذا قولُ عمرو بن كُلْثوم :

عَشَوْزَنَةً إذا غُمِزَتْ أَرَنَّتْ   تَشُجُّ قَفَا المثقِّفِ والجَبِينَا

وقال أيضاً :

وإنَّ قَنَاتَنَا يا عَمْرُو أَعْيَتْ   على الأعداءِ قَبْلَكَ أن تَلِينَا

وزاد الآخَر عليهم فقال :

ولَنَا قَنَاةٌ من رُدَيْنَةَ صَدْقَةٌ   زَوْراءُ حامِلُها كذلك أَزْوَرُ

٣٧٤

وقال الجَعْدِىُّ(٢) :

١ — أَلَمْ تَعْلَمِى أَنِّى رُزِئْتُ مُحارِباً   فَمَا لَكِ مِنْهُ اليومَ شىءٌ ولا لِيَا(٣)

٢ — ومن قَبْلِهِ ماقَدْ رُزِئْتُ بُوَحْوَحٍ   وكان ابْنَ أُمِّى والخليلَ المصافِيَا

يخاطب صاحبتَه أُمَّ مُحارِبٍ ، ومحاربٌ ابنُه . وقوله « ألم تعلمى » ظاهره تقرير ، وإنما هو تحسُّرٌ وتوجُّعٌ . لذلك قال : « فما لكِ منه اليومَ شىءٌ ولا ليا » أى قد فُجِعْنا به فأصبحنا خِلْوًا من الاستمتاع بحياته ، والانتفاعِ بمكانه . ثم

(١) ل : « الكره » .

(٢) هو النابغة الجعدى . سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٣٣ ص ٩٦٨ .

(٣) البيتان ٣ ، ٤ سبقا فى الحماسية ٣٣٤ ص ٩٦٩ ، فيكون مما كرره أبو تمام فى الاختيار . انظر مثيله فى الحماسية ٣٣ كررت فى ٢٠٩ ، و ٢٩٩ كررت فى ٣٦٠ .

ذكر أنه قد فُجِــع قبله بأخيه أيضاً ، وكان نسيباً قريباً ، وصديقاً مُصافياً حَبيباً .

٣ — فَتًى كَمَلَتْ خيراتُه غــيرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فما يُبْقِي من المالِ باقِيَا

٤ — فَتًى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقَهُ على أنّ فيه ما يَسُــوء الأعادِيَا

قوله « فتًى كملت خيراته » يجوز أن يكون فتًى فى موضــع النَّصب على المدح والاختصاص ، أى أَذْكُرُ فتًى هذه صفتُه . ويجوز أن يكون فى موضع رفعٍ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو فتًى . وقوله « غير أنه جَوَادٌ » استثناء منقطع ، وقد تقدم الــكلام فى مثله ، وأن من كان عيبُه والمستثنَى مِن خصاله المحمودة ما يُذكَرُ بعد غير فناهيك به رَجُلاً كاملا . وقوله « فتًى تَمَّ فيه ما يسرُّ صديقه » مثله ، وقد تقدَّم فى مواضِــعَ وشرَحْناه .

٣٧٥

وقال رَجُلٌ من بَنِى هِلالٍ (١)

يَرْثِى ابن عَمٍّ لَهُ :

١ — أَبَعْدَ الذى بالنَّعْفِ من آلِ مَاعِزٍ يُرَجِّى بمَرّانَ القِرَى ابنُ سَبِيلِ

٢ — لقد كان لِلسَّارِينَ أىَّ مُعَرَّسٍ وقد كان للغادِينَ أىَّ مَقِيلِ

٣ — بَنِى المُحْصَنَاتِ الغُرِّ من آل مَالِكٍ يُرَبِّينَ أولاداً لِخَيرِ خَلِيلِ

يقولُ على وجه الإنكار : أَيُرَجِّى ابنُ السبيلِ القِرَى بمَرّانَ بعدَ المدفون بالنَّعفِ من آل ماعِزٍ . أى لا يكون ذلك ، لأنَّ من كان يشمَلُ خيرُه (٢) ويُرْتَجَى النُّزولُ به مُكْرَمًا ضيفُه قد مات . والنَّعْفُ : ما ناعَفَكَ من الجَبَل ،

(١) كذا عند التبريزى ، ول . وفى الأصل : « من بنى هذيل » .
(٢) كذا فى ل . وفى نسخة الأصل : « يشتمل » .

أى استقبلك ، وقيل : هو ما انحدَرَ عن السَّفْح وغَلُظَ ، فكان فيه صَعودٌ وهَبوطٌ . ذكره الدريدىُّ ، قال : وجمعُه نِعافٌ .

وقولُه « لقد كانَ للسَّارِينَ » جوابُ قَسَم محذوف . والتَّعرِيس : النُّزول عند الصُّبح . والمَقِيل : موضع القَيلولة ، فيقول : مَن أسرى ليلةً ثم طلب من ينزلُ به ، كانَ هذا الرَّجلُ مَعرَّساً له كريماً ، وأىَّ مُعَرَّسٍ . وهذا الكلام فيه تعجُّبٌ وتفخيم . وكذلك مَن ارتحل غُدُوًّا ثمَّ أرادَ الرَّواحَ كان فِناؤه له مَقيلاً طَيِّباً وأىَّ مَقِيلٍ .

وقوله « بَنِي المُحْصَنَاتِ » جَمَع إلى ذِكْرِهِ ذِكرَ إخوته ، فقال : أذكُرُ قوماً كرامَ الأطراف ، أمَّهاتهن من الحَصَانةِ والطَّهارة فى أعلى مَحَلّ ، وأبعدِ رُتبة ، ويَرْبُبْنَ[1] أولادًا لبعولٍ لا يُوازَى بهم ، عُلوَّ مَنصِبٍ ، وزكاء مَنْسِبٍ ، وتقدُّماً فى الشَّرف والإفضال ، وبَراعةً فى جميع الأحوال .

٣٧٦

وقال كَبِدُ الحَصَاةِ العِجلىُّ[2] :

١ — أَلَا هَلَكَ المُكَسَّرُ يَالَ بَكْرٍ ... فأَوْدَى البَاعُ والحَسَبُ التَّلِيدُ

٢ — أَلَا هَلَكَ المُكَسَّرُ فاستراحَتْ ... حَوافِي الخَيل والحىُّ الحَرِيدُ

---

(١) ل : « ويربين » .

(٢) يرثى يزيد بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار ، ولقبه « المكسر » . وقد ضبط بكسر السين المشددة عند التبريزى ، وبفتحها فى الأصل ، ل . والمكسر هو الذى يقول يوم ذى قار :

أنا ابن سيار على شكيمه ... من فر منكم فر عن نديمه

وجاره وفر عن حريمه ... إن الشراك قد من أديمه

وكانت طائفة من طيىء أغارت على بكر بن وائل فأخذوا منهم أخائذ ، فأغار المكسر على طيىء فاكتسح أموالهم وأصاب منهم سبايا ، فأغار زيد الخيل على بنى تيم الله بن ثعلبة ، وقال :

إذا عركت عجل بنا ذنب غيرنا ... عركنا بتيم الله ذنب بنى عجل

افتتح كلامه بألاَ ، ثمَّ أخذ يُعظِّم الخَطْبَ ويفظِّع الشَّأن ، فقال : مات هذا الرّجلُ فمات بموته الـكرَمُ العميم ، والشَّرف الصميم .

وقول « يالَ بَكرٍ » استغاثة ممَّا دهاه . وقد مرّ القولُ فى هذه اللامِ والفَصلُ بينها وبين لام التعجُّب من قولك يالَبَـكْرٍ . ومعنى أَوْدَى : هَلكَ . والباعُ هاهنا الـكَرَمُ . ويقال : باعَ الرَّجُل يبُوعُ بَوْعاً ، إذا مَدَّ باعه ، وتَبوَّعَ . وكذلك تَبوَّعَ البعير ، إذا مَدَّ ضَبْعَهُ . والحَسَبُ : الشَّرَف ، وأصله من الحِساب ، لأنَّ الحسيبَ يَعُدُّ لنفسه مآ ثر فتلك المآثر حَسَبٌ . كما يقال نَفَضْتُ نَفْضًا ، ثم يسمَّى المنفوضُ نَفَضًا . والتَّليد والتَّالد : ضدُّ الطَّرِيفِ والطَّارف . والتِّلاد : ما وُلِدَ عندك من مالِك . قالوا : وأصلُ هذه التَّاء الواو .

وقوله « ألاَ هَلَكَ المـكسَّرُ » كرَّره لتفظيع الأمر . ومعنى « استراحت حَوَافى الخيل » وصفه بأنَّه يُبْعِد الغَزْو فلا يبقى على الخَيل وإن حَفِيت ، فلمَّا مَضَى نالت الرَّاحةَ وتودَّعَتْ . وقال « حَوَافِى الخيل » على أن يصفَها بما كان آل أمرُها إليه بعد الغَزْو . وكذلك قوله « الحَىُّ الحريدُ » ، هو المنفرِد والمتباعد عن غيره . كأنَّه لا يَسْلَمُ عليه وإن حَذِر وتباعَد . ويقال : كوكبٌ حَرِيدٌ ، إذا طَلَعَ فى أُفُق السَّماء متنحِّياً عن الـكواكب . ورجلٌ حَرِيدُ المحَلِّ ، إذا لم يُخَالِطِ النَّاس ولم ينزلْ معهم . وقال :

* أمَّا بكلِّ كوكب حَرِيدِ(١) *

وقال آخر(٢) :

* حَرِيدَ المحَلِّ غَوِيًّا غَيُورَا(٣) *

---

(١) لذى الرمة ، كما فى ديونه ١٥٧ واللسان (حرد) .

(٢) هو الأعشى . ديوانه ٦٨ واللسان (حرد) .

(٣) صدره : * إذا نزل الحى حل الجحيش *

٣٧٧

وقال ابنُ أُهبانَ الفقعَسى (١)

يرثى أخاه :

١ ـ عَلَى مِثْلِ هَمّامٍ تَشُقُّ جُيُوبَهَا وتُعْلِنُ بالنَّوْحِ النِّسَاءُ الفـــواقِدُ

٢ ـ فَتَى الحىِّ أَنْ تَلقاه فى الحىِّ أو يُرَى سِوَى الحىّ أو ضَمَّ الرّجَالَ المَشاهِدُ

يقول : عَظُم الرُّزء بموت همَّامٍ فلا مخبأً للجزَع ولا مصطَبَر، ولا إسْرَارَ للالتياع ولا مُدَّخَر . وأنَّى يكون للسَّامع به مَعْدِلٌ إلى التجمُّل والتجلُّدِ ، وقد فُقِدَ به مَن يُستباح فى نُدْبته كلُّ محظور ، ويُستَجاز فى الرثاء له كلُّ مَذكور ، فلا مَنْعَ مِن شق الُجيوب ، وصَدْع الأكباد والقُلوب ، وإعلان النِّياحة ، وامتداد المآتم فى الإعوال إلى كل غاية . وقوله « على مِثل هَمَّامٍ » يذكر المِثْلَ والمقصودُ نفسه لا غَيْرُ صيانة له ونزاهة . على ذلك قولُ القائل : مثلُك لا يَحْسُن به كذا معناه : أنت لا يَحْسُن بهِ ذلك ؛ ولكنَّ الغرض ما ذكرتُه ، وقوله « بالنَّوحِ » يراد به مصدر ناحَ . وقد يُراد بهِ فى غير هذا المكان النِّساء النائحات .

وقوله « فَتَى الحىِّ أن تلقاه » جعلَ له الفتوَّة والرّياسـةَ مسلّمةً له فى كلّ حال ، وعلى كلّ وجه . ألاَ ترَى أنه قال : هو الفتى بينَ رجالِ الحىّ وعند لقائك إيَّاه فيهم . فمعنى أنْ تلقاه ، هو الفتَى لأنْ تلقاه فى الحىّ ، ووقتَ تلقاه فى الحىّ . وقوله « أو يُرَى سِوَى الحىّ » أى فى مكانٍ آخَر وفى قومٍ آخَرين .

(١) كلمة « الفقعسى » من ل والتبريزى .

بدلاً من الحيّ. لأنك إذا قلت: عندى رجل سِوَى زَيْدٍ، معناه: عندى رجلٌ مكانَ زيد، وبدلاً من زيد.

وقوله «أو ضَمّ الرّجالَ المَشاهِدُ» معناه وهو الفتى إذا حصَلَتْ وفودُ القبائلِ وألسنتُهم ورؤساؤهم فى مَجامع الملوك الأعاظم، ومَشاهد السادة الأكابر. وقوله «أو ضمّ» محمولٌ على المعنى. يريد: وهو الفتى لأن ضَمّ الرّجال. والقِسمةُ بما رتَّبه قد استوفت الأحوالَ كلَّها.

٣— إذا نازَعَ القومَ الأحاديثَ لم يكُنْ عَيِيًّا ولا عِبْئًا على مَن يُقاعِدُ

٤— طويلُ نِجادِ السيفِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ خَمِيصاً وجادِيهِ على الزّادِ حامِدُ

وصفَه بالبَراعة وتمامِ الآلة، وأنه سَهلُ الخُلُق، سهل الجانب، يباسِطُ منازِعَهُ فى الأحاديث ويطاوِلُه، لا عِيٌّ يقصِّرُ حديثَه، ولا كِبْرَ يُنَفِّرُ قَعيده، فهو طيِّب المجلِس، خفيفُ الملتزَم، وإذا تأمَّلت خِلقتَه كان حسَنَ القَوام، تامَّ الجِسم، طويلَ حمائل السيف. هذا فى الحيّ ما أقام، وفى السَّفَر تراه يُؤْثِر غيرَه بالزاد، فبَطنُه خميص، ومُجْتَدِيه والمعوِّلُ عليه حامدٌ له شكور. وأبلَغُ مِن قوله «طويل نِجَاد السيف» قول مُسْلِمٍ:

يَطُولُ مع الرُّمْحِ الرُّدَيْنِيّ قامةً وَيَقْصُرُ عنه طولُ كلِّ نِجَادِ

٣٧٨

وقال ابنُ عمّارٍ الأسَدِيُّ يرثى ابنَه:

١ — ظَلِلتُ بجِسْرِ سابُورٍ مُقِيمًا يُؤَرِّقُنِي أَنِينُكَ يا مَعِينُ[1]

(١) رواه التبريزى: «بخُسْرِ سابور» وقال: «خسر سابور: من بلاد العجم نسب إلى خسر وسابور، وهما ملكان من الفرس. ويصحف هذا فيقال جسر سابور». وفى معجم البلدان: «خسرو سابور. والعامة تقول خسابور: قرية معروفة قرب واسط بينهما فراسخ، معروفة بجودة الرمان».

٢ — وناموا عَنْكَ واستيقَظْتَ حتَّى دَعاكَ الموتُ وانقطعَ الأَنِينُ

أصل الظُّلول المُكْث فى النهار ، ولكنه يُتوسَّع فيه فيُجعل للأوقات كلِّها . على ذلك قولُه تعالى : ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ وذلك لا يختصُّ بالنهار دونَ الليل . وهذا الكلامُ اقتصاصُ حالِهِ معه فى تمريضه ، وتوليِّه منه ما تفرَّد به ، وفيه التشكِّى مما قاساه وتجرَّعَ الغُصَص عنه ، فيقول : بَقِيتُ مقيما بذلك المكانِ يُسهِرنى تألُّمُك وأنينُك ، ونامَ كلُّ مَن صحبتُه[1] فاستيقظتُ أنا متجرِّدًا فيك ، ومتحمِّلا ما أمكن تحمُّلُهُ عنك ، إلى أن أجَبْتَ داعيَك ، وأطلقتَ من أَسْر الانتظار ناعيَك ، فانقطعَ الأنين ، وجَدَّ منِّى لفقدك العَويل .

٣٧٩

وقال أبو وهبٍ العبسى[2] يرثى ابنَه :

١ — أرابِعَ مَهْلاً بَعْضَ هذا وأَجْمِلِي ففى اليأسِ ناهٍ والعَزَاءُ جَمِيــلُ

٢ — فإنَّ الذى تبكِينَ قد حالَ دُونَه تُرابٌ وزَوراءُ المَقامِ دَحُولُ

سلك فيما قاله مسلكَ أوسِ بن حَجَرٍ ، حين قال :

أَيَّتُها النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إنَّ الذى تحـذَرينَ قد وَقَعَا

والمرأةُ المخاطَبة فيما نظنُّ[3] أمُّ المَرْثِيّ . وقوله « مهلاً بعضَ هذا » انتصب بعضَ بإضمار فعل ، كأنه قال : رِفْقاً كُفِّى بعضَ ما تأتينه ، وأحسِنِى العَزاء ، ففى اليأس ممَّن قد مضَى ناهٍ لكِ عن الإسراف فى الجَزَع ، والإفراطِ فى الالتياع

(١) ل : « صحبنا » .
(٢) التبريزى : « وقال طريف بن أبى وهب العبسى » .
(٣) ل : « فيما أظن » .

والهَلَع ؛ والصبرُ جميلٌ كيفَ كان ، فإنَّ مَن تبكينه حجَزَ بينه وبيننا تُرابٌ مَهِيلٌ ، ولَحْدٌ قَعِيرٌ ، وحفرةٌ معوجَّة ، وهُوَّةٌ مَهُولة ، فلا طَمَع فى الالتقاء ، ولا فى الرُّجوع والانكفاء .

وقوله « وزَوراء المَقَام » أى معوجَّة الموضع الذى يُقام فيه منها . وقوله دَحُولُ ، يقال بئر دَحُولٌ ، أى ذاتُ تَلجُّفٍ .

٣ — نَحَاهُ لِلَحْدٍ زِبرقَانٌ وحارِثٌ وفى الأرضِ للأقوامِ قَبْلَكِ غُولُ

٤ — فأىُّ فتًى واروْهُ ثُمّتَ أقبلَتْ أكُفُّهُمُ تَحْثِى مَعًا وتَهِيلُ[1]

اللَّحد : ما حُفِر فى عُرْض القبر . ويقال لَحَدتُ القبرَ وألْحَدْتُه ، وقبرٌ ملحود ومُلْحَدٌ ولاحِدٌ ، أى ذو لَحْدٍ . يقول : وَلَّاهُ لِلَحْدِ قبرِه هذان الرَّجُلان ، والعادةُ مستمرّةٌ فى فَناء الأُمَم السالفة قبلَنا ؛ لأنَّ الأرض لا تخلو مما يَغتالُ الأحياء ويُهلكُهم . والغُولُ : الهَلَكة ، ويقال : غالَهُ الموت . وقال الشاعر :

وما مِيتَةٌ إنْ مِتُّها غيرَ عاجزٍ بعَارٍ إذا ما غالتِ النَّفسَ غُولُها

والكلام فيه تأسٍّ وتَعزٍّ ، بعد أن اقتصَّ دفنَه ومَن تولَّى ذلك منه .

ثمَّ قالَ على وجه التعجُّب : أىُّ فتًى غيَّبُوهُ ودفنوه ؟! يعظِّم أمرَهُ ويُفخِّم شأنه . وقوله « ثُمَّتَ أقبلَت » التَّاء من ثُمّتَ علامة التَّأنيث ، وهو تأنيث الخصْلَة . وكما تتَّصل هذه العلامةُ بالاسم نحو امرئٍ وامرأةٍ ، وبالصفة نحو قائمٍ وقائمة ، تتَّصل بالفعل ، والاسمُ والفعل هما موضعُها ، إلاَّ أنَّها فى الاسم يُبْدَل منها الهاء فى الوقف ، وينتقل الإعرابُ عن آخر الاسم إليها . وفى الفعل يُسكَّن إلّا أن يُلاقِيَهُ ساكنٌ آخر ، ويكون تاءً فى الوصل والوقْف جميعاً . وفى الحرف

(١) التبريزى : « وأى فتى واروه » .

يقلُّ دخولُه ، وإذا دَخَل حُرِّك بالفتح ، نحو رُبَّتَ وثُمَّتَ ، وتبقى تاءً فى كلِّ حال .

وقوله « تَحْثِي مَعاً » انتصب معاً على الحال . والحَثْىُ : أن ترفع يدَك بالتُّراب أو غيرِه فتفرِّقَه فى الجوّ . قال :

الْحُصْـــنُ أَدْنَى لو تَأَيْيتِــه مِنْ حَثْيِكِ التُّرْبَ على الرَّاكِب[1]

والحاثِياء : تُراب يجمعُه اليربوع ، مِن هذا . والهَيْلُ : أن تَجْرُفَهُ من غير أن تَرفَع اليَدَ به . ويقال : هِلْتُ التُّرابَ وأَهَلْتُه . وفى المَثَل « مُحْسِنَةٌ فَهِيلِى[2] » ويقال : « جاء بالهَيْل والهَيْلُمَانِ[3] » أى بالشَّىء الكثير ، ويجوز أن يكون من هذا ، لأنَّ المعنى جاءَ بما اجتمع هَيْلاً لا كَيْلاً .

وفى الطريقة التى سَلَكها مِن اقتصاص الحال فى الدَّفْن والحَثْى ، قد أحسَنَ مَن قال :

ألم تَرَنِى أبنِى على اللَّيث بيتَه وأَحْثِى عليه التُّرْبَ لا أتَخَشَّعُ
كأنِّى أُدَلِّى فى الحَفِيرةِ باسِلاً عَقيراً ينوءُ لِلقيامِ ويُصْرَعُ
تَخَالُ بَقَايَا الرُّوحِ فيه ، لقُرْبِهِ بِعَهْدِ الحياةِ ، وهو مَيْتٌ مُقَنَّعُ

ألا تَراه كيف صَوَّرَ التَّهَيُّبَ منه والإعظامَ له فى تلك الحالة .

٥ — وظَلَّتْ بِيَ الأرضُ الفضاءُ كأنَّما تَصَعَّدُ بى أركانُهــا وتَجُولُ

---

(١) ل : « لو تأييته » . ويروى : « من حثوك الترب » . انظر المقاييس (٢ : ١٣٧).

(٢) قال الميدانى : « أصله أن امرأة كانت تفرغ طعاما من وعاء رجل فى وعائها ، فجاء الرجل فدهشت ، فأقبلت تفرغ من وعائها فى وعائه ، فقال لها : ما تصنعين ؟ قالت : أهيل من هذا فى هذا ، فقال لها : محسنة — أى أنت محسنة — فهيلى . ويروى : محسنة ، بالنصب على الحال ، أى هيلى محسنة . ويجوز أن ينصب على معنى أراك محسنة . يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً » .

(٣) « الهيلمان » بفتح اللام وضمها .

٦ – وشَدَّ إلىَّ الطَّرْفَ مَن كان طَرْفُه بعَهْدِ عُبيــد الله وَهْوَ كَلِيلُ

يقول: دِيرَ بى لَمَّا شاهدتُ من أمره ما أنكرت، واسودَّت الأرضُ فى عينى فصارت عَلَى سَعتِها كأنَّما جُمِعت جوانبها، فأُصَعِّدُ فيها وهى تَجُولُ فلا تَهْدأ، وتدور فلا تَقِرُّ.

وقوله «وشَدَّ إلىَّ الطَّرفَ» أى نظرَ إلىَّ بشِدَّةٍ وتحديق. وفى الحديث: قيل لأبى محذورة[1] وشَدّ أَذَانَهُ: «أمَا خَشيتَ أن تنشقَّ مُرَيْطَاؤك[2]». ويقال: شَدَدْنا على يدِ فلان وشددنا يَدَهُ، أى قوّيناه. والطَّرْفُ: تحريك الجَفن فى النَّظر. يقول[3]: شَخَص بصرُه فما يَطرِفُ. وقوله «من كانَ طَرْفُه» كانَ هذه هى التَّامَّة. والمعنى مَن وقع طَرْفُه وحدَثَ طرفُه فى زمن عُبيد الله وبعهده وهو كليلٌ، يريد: مَن كان لا يملأُ عينَه منِّى فى حياته تَهَيُّبًا صارَ ينظرُ إلىَّ شَزْرًا ونظراً شديداً. وإنَّما قوّاه تَجاسُرُه وما حَدَث له وفى تقديره، من مُنَّةٍ استَجَدَّها[4]، وقُوَّةٍ عاوَدَتْهُ واسْتَظْهَرَ بها. وقولُه «وهو كليلُ»، الواو واو الحال.

٧ – لَئِنْ كانَ عبدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ على حِينِ شَيْبِى بالشَّبابِ بَدِيلُ[5]

(١) هو أبو محذورة المؤذن، واسمه أوس – أو سمرة – بن مِعْيَر. علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأذان بالجعرانة. توفى سنة ٥٩ وقيل سنة ٧٩، الإصابة ١٠٠٨ من باب الكنى. والذى قال له هذا القول هو عمر بن الخطاب، كما فى اللسان (مرط).

(٢) المريطاء: ما بين السرة إلى العانة.

(٣) كذا فى ل. وفى الأصل: «يقال».

(٤) المنة، بالضم: القوة.

(٥) التبريزى: «قوله على حين شيبى. قال أبو هلال: لا يجوز إلا الخفض فى حين، لأن الذى أضفت إليه حين معرب، فإن أضفته إلى الفعل جاز الفتح والكسر. أما الكسر، فلأنه مجرور وهو اسم منصرف، وأما الفتح فلإضافتك إياه إلى شىء غير معرب، فبنيته على الفتح لأن المضاف والمضاف إليه شىء واحد فبنيته لذلك». وهذا المذهب مذهب البصريين، وذاك أنهم يوجبون الإعراب فى الظروف المبهمة إذا أضيفت إلى جملة صدرها معرب. وأما الكوفيون فيرون الإعراب فى ذلك راجحاً والبناء مرجوحاً. انظر همع الهوامع (١: ٢١٨).

٨ — لقد بَقِيَتْ مِنِّى قناةٌ صَلِيبَةٌ   وإنْ مَسَّ جِلْدِى نَهْكَةٌ وذُبُولُ
٩ — وما حالَةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُها   إلى حالَةٍ أخرى وسوفَ تَزُولُ

اللام من « لَئِن » موطِّئة للقَسَم المضمَر، وجوابُه « لقد بَقِيَت » . وخلّى مكانَه، أى ترَكَ مكانَه من العُيون والقُلوب خاليا . ويجوز أن يريدَ تركَ مكانَه من دنياه لمَنْ شاء . على حينِ شَيْبِى ، أى فى وقتٍ استبدلتُ بالشَّباب شَيباً ، وبالقوَّة ضعفاً ، لقد بَقِىَ منِّى إباءٌ شديد ، ولَجاجٌ على مَنْ يقصِد اهتضامى بليغ ؛ فقَناتى صُلبَةٌ على غامِزِهَا ، ممتنِعةٌ على مُثَقِّفِها ، وإن كانت المصيبةُ نالت منِّى فنَحَل جِسْمى ، وذَبُلَ جِلدى ، وحالَ لَوْنى ، وتحوَّلَ عمّا كان عليه أمرى وشأنى . وقد تقدَّم القولُ فى القَناة وطريقتِهم فى استعارتها وجَعْلِها مثلا . وقوله « وما حالَةٌ إلا سَتُصْرَفُ حَالُهَا » يُرِيدُ : وما خُطَّةٌ إلا ستَحُولُ صورتُها إلى صورةٍ أخرى ما بقيت وأُمْهِلَتْ ، ثمَّ مِن بَعْدُ سوفَ تزُول فلا تَبْقَى ، وتحُولُ عن المعهود فتَفْنَى . والمعنى : إنَّ شيئاً من أسباب الدُّنيا وأعراضها لا يدوم على حَدٍّ ، ولا يستمرُّ على طريق ووجه ، لكن يتسلَّط عليه التغيُّر والتبدُّل ، فيزداد عمَّا يكون عليه ، أو يتراجع هذا إذا سَلِم ، ومِن بعدُ سوف يكون مُغَيِّره مُهلِكَهُ ، ومدبِّرُهُ مُدمِّرَهُ .

٣٨٠

وأنشد أيضاً[١] :

١ — وقاسَمَنِى دَهْرِى بَنِىَّ بِشَطْرِهِ   فلَمَّا تقَضَّى شَطْرُهُ عادَ فى شَطْرِى[٢]

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال العتبى » . والعتبى هذا هو محمد ابن عبد الله ، من آل عتبة بن أبى سفيان ، أديب أخبارى من أهل البصرة ، له شعر جيد وتصانيف حسان . قال ابن النديم : « كان العتبى وأبوه سيدين أديبين فصيحين » . توفى سنة ٢٢٨ . ابن النديم ١٧٦ .

(٢) التبريزى : « بنى مشاطراً » .

٢ — أَلاَ لَيْتَ أُمِّى لم تَلِدْنى و لَيْتَنِى ... سَبَقْتُكَ إِذْ كُنَّا إلى غايةٍ نَجْرِى

كانت رواية الناس بُرهةً « وقاسَمَنى دهرى بَنِىَّ بشَطرِهِ » مضافا ، « فلما تقضَّى شَطْرُه » بالضاد ، وارتفاع الشَّطر به ، فجاء شيخٌ لنا فرواه :

« بِشِطْرَةٍ * فلما تقصَّى شَطْرَهُ »

وكان يقول : هذه ضالَّةٌ أنا وجدتُها ، وهو مِمّا حكاه أبو زيد من قولهم : بنو فلانٍ شِطْرَةٌ ، إذا كان ذكورُهم بعدد إناثِهم . يريد : ناصَفَنى . ومعنى « تَقَصَّى شَطْرَهُ » بلغ أقصاه واستوفاه . والذى أختارُه أن يُروى « بِشَطْرِهِ » على الإضافة . ومن الظاهر أن تَقصَّى أحسَنُ من تَقَضَّى فى اللَّفظ ، وأبلَغُ فى المعنى . ومعنى بشَطرِهِ كأنَّ الدَّهرَ ادَّعَى أنَّه قَسِيمُهُ فى بَنِيهِ وأنَّ له منهم الشَّطْر ، وهو النِّصف ، فقاسمه على ذلك ، فلمَّا استوفى حَظَّه أقبَلَ يأخذ من نصيبه الذى كان أقرَّ له به ، وساهَمَهُ عليه . وإنّما اخترتُ بشَطْرِهِ على « شِطْرَةٍ » ، لأنَّ شِطْرَةً لم يُستعمَل فى الأنصباء والسَّهْم ، والشَّطْر فى النِّصف معروفٌ ومستعمَل ، ومنه شاة شَطُورٌ ، إذا يَبِسَ أَحَدُ ضَرْعَيها . وكذلك قولهم : حَلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَهُ ، إذا جَرَّبَ الأمور ، وأصله من الحَلَب ، أى حَلَبَ شَطْرًا من الخَيْرِ وشَطْرًا من الشَّرِّ ، حتَّى تبصَّر وعَرَفَ مواضعَ النَّجاة من مواضع العطب والهَلَكَةِ .

وقوله « ألاَ ليت أُمِّى لم تَلِدْنى » تمنَّى السلامَةَ بأن كان لا يُخلَقُ ولا يُختَرع فينجو من الابتلاء ، وملابَسة أنواع البلاء ، والتردُّدِ بينَ السعادة والشقاء ؛ وتمنَّى بعد أن أُوجِد وخُلِق ألاَّ يكون فاقِدَهُ والمُعَزَّى فيه ، بل كان السابقَ له والمقدَّمَ عليه ، سيَّما[1] وهما جاريانِ إلى غايةٍ من العطبِ لا مَحِيصَ عنها ، ولا مَفرَّ منها .

---

(١) كلمة « سيما » ساقطة من ل .

٣– وكنتُ به أُكْنَى فأصبحتُ كلَّما كُنيتُ به فاضَتْ دُموعى على نَحْرِى
٤– وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العِدَى فأصبحتُ لا يخشَوْنَ نابى ولا ظُفْرِى

جَرَى على افتنانهم فى تحويل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب، وصَرفِه عن العموم إلى تخصيص بعضهم بالذِّكر. ألاَ ترى أنه أخبَرَ فى قوله «وقاسمنى دَهْرِى بَنِيَّ» ثم قال «ليتنى سبقتُك» فرجع إلى خطابِ واحدٍ منهم، ثم قال «وكنتُ به أُكنَى» فأخبَرَ به عن أحدِ بنيه. والمعنى: كنت اكتنيتُ به حُبًّا لذِكره واسمِهِ، وتفاؤلاً ببقائه ودوامِه، فبقى الاسمُ والشخص مفقودٌ، فلا جَرَمَ أنِّى متى كُنيتُ به تجدَّد لى حُزنٌ أفاضَ عَبْرَتى، وأغاض ماء عِيشتى.

وقوله «وقد كنتُ ذا نابٍ وظُفر على العِدَى» يُريد: إنِّى كنتُ تامَّ السِّلاح بهم، موفور العَدَد والعُدَدِ بمكانِهم، مخشىَّ الجانِب، لا يُطْمَعُ فى استنزالى عن حُجَّةٍ أركبُها، أو شُبهةٍ أتعلَّقُ بها. وذِكْر النابِ والظُّفر مَثَلٌ ضرَبَه لسلاحه وآلاته التى كان يدفع الخصومَ بها، ويقهر الأعداء باستعمالها.

وقوله «لا يخشَوْن نابى ولا ظُفرى» يريد لا نابَ لى بعدهم ولا ظُفْر فيُخْشَى. فهو مِثْل:

* ولا ترَى الضَّبَّ بها ينْجَحِرْ[1] *

١٣٨

وأنشد لامرأة ترثى أباها:

١– إذا ما دَعَا الداعى عليًّا وجدتُنِى أُرَاعُ كما رَاعَ العَجُولَ مُهيبُ
٢– وكم من سَمِيٍّ ليسَ مثلَ سميِّهِ وإنْ كانَ يُدْعَى باسمه فيُجيبُ

(١) البيت لابن أحمر، كما سبق فى حواشى ١٢٠، ٢٤٠، ٥٩٩. وصدره:
* لا تفزع الأرنب أهوالها *

يقول : متى فَزِعَ أُذنى دعاء داعٍ باسمٍ ولدى أُذعَر وأَقلق ، كما يَذعَر الثَّـكَلى مُهيبٌ ، وهو الداعى . والثَّـكَلى تَفزع لأدنى صيحةٍ تَرْهَقُها ، أو فَزْعةٍ تَصْدِمُ قلبَها . ويجوز أن يريدَ بالعَجُول ناقةً فقدَتْ ولدَها بنحرٍ أو موتٍ ، فهى فى حنينِها تَنفِر مِن أخفض إهابة ، وأدنى بَعْثٍ وإزعاجةٍ . ويقال لأمثالها من النُّوق : المعاجيلُ أيضاً . ووجدُهنَّ يَزيد على كلِّ وَجْدٍ . لذلك قال :

فما وَجْدُ أَظْآرٍ ثلاثٍ رَوائمٍ رَأَيْنَ مَجَرًّا من حُوارٍ ومَصْرَعا[1]
يُذَكِّرْنَ ذا البَثِّ الحَزِينَ بِبَثِّهِ إذا حَنَّت الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعا
بأَوْجَدَ مِنِّى . . . .[2]

وقوله « وكم من سمىّ » يقول : ليس التوافُق فى الأسماء مما يوجب التَّعادلَ والتَّشابُهَ فى المسمَّيات ، لأنَّ الأعلامَ لا تُفيدُ فى المسمَّيْن شيئاً ، لـكنَّ التَّشابه إنما يكون بالأوصاف الحاصلة ، والمعانى المتماثلة . وإذا كان كذلك فالتشاركُ فى الأسماء وإن حصلَتْ به الإجابةُ عند الدُّعاء لا يوجِب تقارُبَ المسمَّيْنَ ولا تباعُدَهم .

٣٨٢
وقال رجلٌ من كَلْب[3] :

١ — لَحَى اللهُ دَهْرًا شَرُّهُ قَبلَ خَيْرِهِ وَوَجْدًا بصَيْفِيٍّ أَنَى بَعْدَ مَعْبَدِ

(١) الأبيات لمتمم بن نويرة فى رثاء أخيه مالك ، من قصيدة فى المفضليات رقم ٦٧ ، وأنشدها المبرد فى الكامل ٧٥٦ – ٧٥٧ ليبسك .
(٢) البيت بتمامه :
بأوجد منى يوم قام بمالك مناد بصير بالفراق فأسمعا
(٣) سبق البيت الثالث والرابع من هذه الحماسية فى الحماسية ٣٠١ ص ٨٩٥ – ٨٩٦ . وقد سبق التنبيه على مثل لهذا التكرار فى الحماسية ٣٦٦ .

٢ – بَقِيَّةُ إخوانى أَتَى الدَّهْرُ دُونَهُمْ ... فما جَزَعِى أم كَيفَ عَنْهُمْ تجلُّدِى
٣ – فلو أنَّها إحـدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ... ولـكنْ يَدِى بَانَتْ على إثْرِها يَدِى
٤ – فآليتُ أَسَى بَعْدَهُمْ إثْرَ هَالِكٍ ... قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هَالكٍ قَدِى[1]

لَحَى اللهُ : دعاءٌ على الدَّهر الذى وصفه ، وقد تقدَّمَ القولُ فى حقيقته . ومعنى « شَرُّه قَبْلَ خَيْرِهِ » أى ما كان يُخْتَشَى من شرِّه فى الأحِبّة سبَقَ ما كان يُرتَجَى مِن خيره بهم . ثمّ دعا على وَجْدٍ تَعجَّلَ له بصيفىٍّ بعد وجدٍ تقدَّمَ فى مَعبد ، كأنه كان لا يأمَن مِن أحداث الدهر فيما حُبِىَ وأُنعِمَ عليه فى إخوةٍ كرامٍ تناسَقُوا فى الوِلاد والوِداد ، وتقابلوا فى جَوازِ تعليق الرَّجاء بهمْ عند الحفاظ ، فيَخاف . وعلى ذلك كان يَغلبُ فى نفسه وعلى قلبه سلامتُهم وبقاؤهم ، حُسنَ ظنٍّ بالواهب ، وشِدَّةَ طمعٍ فى الموهوب ، فيسكن ولا يهاب . فلمَّا جرى الأمرُ على خلافِ ما ظَنَّ زَعمَ أنَّ شرَّ الدَّهرِ سبقَ خيرَه ، فدعا عليه . وقوله « ووَجداً بصيفىٍّ » ، يقول : ولَحَى أيضاً جزَعاً تجدَّدَ بصيفىٍّ بعد مَعْبَدٍ . وهذا تبرُّمٌ منه بما قاسَى من الدَّهر ، وكابَدَ من جزَع بعد جزَع . وفيه إشارة إلى معنى قولِ الآخر[2] :

* نُوَكَّلُ بالأَدْنَى وإن جَلَّ ما يَمْضِى[3] *

وقوله « بقيَّةُ إخوانى » يجوز أن يكون المرادُ به خيارَ إخوانى ، كما يقال : فلانٌ من بقيّةِ الناس . ويجوز أن يريدَ به أنَّه كان فى إخوانه وُفورٌ ففَقَد منهم عِدَّةً ، وجعلَ يأنَس ببقيَّتهم ، فأتَى الدَّهرُ عليهم أيضاً . وقوله « فما جَزَعِى أم كيفَ عنهمْ تجلُّدى » كأنَّه كان لا يَعتدُّ بالجزعِ الواقع لهم ومِن أجلِهم ، لقُصوره عن الواجب ، ووقوعِه دونَ اللازم ، ولا يَطمع مِن نفسه فى مُسْكةٍ

(١) فيما سبق : « فأقسمت لا آسى على إثر هالك »
(٢) هو أبو خراش الهذلى . انظر الحماسية ٢٦٢ ص ٨٧٦ .
(٣) صدره : * على أنها تعفو الكلوم وإنما *

يتعلّقها ، أو سلوةٍ يتكلَّفها ، إذ كان الخطبُ أعظمَ ، والرُّزءُ أملَكَ .

وقوله « فلو أنَّها إحدى يدىَّ رُزِيتُها » جواب لو محذوف ، يريد : لو أُصِبْتُ ببعضهم لسَهُل ما تعذَّر أو خفَّ ما ثقُل ، ولكنهم تجاوبوا للدَّعوة ، وتتابعوا فى النُّقلة ، ففدحتِ المُصيبة ، وجلَّت الرَّزيئة[1] .

وقوله « فآليتُ آسى بعدهم » يريدُ : حلفت لا آسَى بعدهم فى إثرِ هالك ، فحذف لا ولم يخَفِ التباسَه بالواجب ، إذْ كان للواجب صِيغةٌ مفردة باللَّام وإحدى النُّونين الثَّقيلة أو الخفيفة ، وقد مرَّ مثله . والمعنى أنَّ خوفى كان فيهم ، وإذْ قد أُصِبْتُ بهم فإنِّى لا أجْزَعُ لفائتٍ ، فحسبى على الهُلاَّك ما بى حَسْبى . وقال « قَدِى » ولو قال : قَدْنى ، فأتى بنون العماد ليَسْلم سكونُ قَدْ ، لجاز . قال الشَّاعر[2] :

* قَدْنِىَ من نصر الخُبَيْبَيْنِ قَدِى *

فأتى بهما جميعاً .

وقوله « إثرَ هالك » انتصبَ على الظَّرف .

٣٨٣

وأنشدنى لأعرابىّ[3] :

١ ـ لَحَى اللهُ دَهْرًا شَرُّه قَبْلَ خَيْرِهِ تَقَاضَى فلم يُحْسِنْ إلينا التَّقاضيا

٢ ـ فتًى كان لا يَطْوِى على البُخْلِ نَفْسَهُ إذا ائتَمَرَتْ نَفْسَاهُ فى السِّرِّ خاليا

قد مرَّ القولُ فى بيان الدُّعاء على الدَّهر وشرحِه ، وفى معنى « شرُّه قبل

(١) ما سبق من شرح البيت فى ص ٨٩٦ أقوى وأشمل مما هنا .

(٢) هو حميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) . وقد سبق فى ٨٩٦ .

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وأنشد لابن الأعرابى » ، وهو تحريف . وعند التبريزى : « وقال أعرابى » .

خيره[١] » فأمّا قوله « تقاضَى فلم يحسِنْ إليما التّقاضيا » فالمعنى طالبنَا بردِّ ما منحنا فلم يُحْسِنْ فى التقاضى ، لإسرافه فى الفعل ، واستعجالِه فى الرّدّ ، واعتسافِه فى الأخذ ، ولأنَّ العَوارِىَّ قد ترْتَجَعُ ، والمَنائحَ قد تُسْتَرَدّ ، على وجْه لا يُخَلُّ فيه بالإجمال ، ولا يُفْسَدُ بِهِ ما تقدّم من الإفضال .

وقوله « فتًى كان لا يَطوِى على البُخل نفسَه » يريد أنّه إذا اجتـداه المُجتَدِى لا يَرَى لنفسه أن تطوِى على البُخل والإمساك ، والضَّنِّ بما فى يده عليه ، إذا ائتمرت نفساه ، أى تشاوَرَتْ فيما بينه وبينهما ، فأقبلَتْ واحدةٌ تأمُرُ بالبَذْل ، والأخرى تُشير بالإمساك . ففى ذلك الوقتِ يصمِّم على ترك الائتمار للآمِرِ بالبُخل ويَخرُج من طاعته إلى العطاء والبذل . والائتمار : التّشاوُر هاهنا . فأمّا قوله :

* ويَعدُو على المرء ما يأتَمِرْ[٢] *

فالمراد به ما يجعله من أمره وهمه ، فيقول : إذا ائتمر المرء لغيره ماليس برشاد فإنه يعدو عليه فيهلكه . وهذا كما قيل : من حَفَر مَهْوَاةً وقع فيها .

٣٨٤

وقال الأُبَيْرِد اليَرْبُوعِىُّ[٣] :

١ — ولمّا نَعَى الناعِى يَزِيدَ تَغَوَّلَتْ بِىَ الأرضُ فَرْطَ الحزنِ وانقطعَ الظَّهْرُ[٤]

(١) انظر الحماسية السابقة .

(٢) لامرئ القيس فى ديوانه ٣ . وصدره :

* أحار بن عمرو كأنى خمر *

(٣) هو الأبيرد بن المعذر بن عبد بن قيس بن عتاب بن هرمى بن رياح بن يربوع بن مالك ابن حنظلة التميمى . شاعر بدوى من شعراء صدر الإسلام وأول دولة بنى أمية . الأغانى (١٢ : ٩ — ١٥) .

(٤) يزيد ، كذا وردت فى النسختين . والصواب « بريدا » كما فى الأغانى ورواية التبريزى . وبريد هذا هو أخو الأبيرد ، كما فى شرح التبريزى والأغانى ، وأمالى القالى (٣ : ٢) وتنبيه البكرى ٦٦ .

يقول : لمّا خبّر المخبّر بموت يزيدَ تلوّنت الأوضُ فى عينى فابيضّت تارةً واسودّتْ أخرى ، لشِدَّة حُزنى ، وانقطعَ ظهرى ، وتساقطت قُواىَ ، وقوله « تغوّلت » اشتقاقُه من الغُول . وهم يعتقدون فى هذا القبيل من الجنِّ أنّهم يتصوّرون بما شاءوا من الصُّوَر . ويقال : غَوّلَتْهم الغُولُ وتغوّلَتْهم ، إذا توَهّتْهم . وانتصب « فرطَ الحزن » على أنّه مفعول له . والكلام تَسَلٍّ مِن غِيَرِ الدّهر وتأثير المصيبة فيه ، حتّى انكسر قناةُ ظهرِه ، واختلَّ ما كان قويمًا من أمرِه .

٢ — عَساكِرُ تَغْشَى النَّفسَ حتّى كأنّنى أَخُو سَكْرةٍ دارَتْ بهامَتِه الخَمْرُ(١)

العساكر : جمع عَسْكَرَةٍ ، وهى الشِّدَّة . قال :

* ظَلَّ فى عَسْكَرَةٍ من حُبِّها(٢) *

فيقولُ : غَشِيَتْ نفسى أنواعُ البلاء ، فزالَ عقلى لها ، حتّى صرتُ كأنّى سكرانُ دبّت الخمرُ فى عَقْلِه ودِماغه ، حتى دارت هامتُه ، وزال تماسُكُه وقوّتُه . ولك أن تروِى : « دارَتْ بهامَتِىَ الخمر » لأنّه لمّا كان أخو السَّكرَة نَفْسَه جاز أنْ يُجْعَل الضَّميرُ الراجع إليه ضميرَ نفسه . وهم يفعلون فى الصِّفات والصِّلات هذا . على ذلك قولُه :

* أنا الذى سَمّتْنِ أُمّى حَيْدَرَهْ(٣) *

ولم يقل أمُّه ، وإن كان وجهَ الكلام . وإن رويتَ « دارت بهامته الخمرُ » فهو الصّواب المختار .

---

(١) فى الأمالى : « أخو نشوة » .

(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٦٥ واللسان (عسكر) . وعجزه :

* ونأت شحط مزار المدكر *

(٣) لعلى بن أبى طالب ، كما سبق فى حواشى ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

٣ــ فتًى إنْ هوَ استغنَى تخرَّقَ فى الغِنَى وإن قلَّ مالٌ لم يَضَعْ مَتْنَه الفقرُ[١]

٤ــ فتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِى ذِمامَهُ إذا نزَل الأضيافُ أو تُنْحَرَ الجُزْرُ

البيت الأول يشبهه قولُ الهذلى[٢] :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقرَهُ على نفسِهِ ومُشِيعٌ غِناهُ

وقوله « تخَرَّقَ فى الغنى » أى تكرَّمَ فى غِناه وتوسَّع . وهو تفعَّلَ من الخِرْق : الكريم من الرِّجال ، الذى يتخرَّق بالمعروف .

وقوله « وإن قلَّ مالٌ » أراد مالُه . ومعنى « لم يَضَع مَتْنَه الفقر » أى لم يورِثْهُ إقلالُه تخضُّعاً وتخشُّعاً حتَّى تطأطأ ظهرُه وانخفضَ شخصُه . وإن رويت « وإن قلّ مالاً » بالنَّصب جاز ، ويكون فاعِلُ قلَّ ما استكنَّ فيه من ضمير الفتَى ، وانتصب مالاً على التمييز ، كقوله عزّ وجلّ : ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ .

وقوله « فتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِى ذِمَامَهُ » يريدُ إذا نزل الأضيافُ به لا يَعُدُّ اللَّبَن قاضياً ذِمامَ قِراهم ، ولا كافياً فيما يجبُ عليه لهم ، حتى ينحَرَ جُزرَه ، ويوسِّع مطاعِمَهُ . وقوله « أو تُنْحَرَ » أو بدَلٌ من إلاّ ، وانتصب الفعل بإضمار أنْ[٣] .

---

(١) القالى : « وإن كان فقر لم يؤد متنه الفقر » . الأغانى : « فإن قلَّ مالا لم يؤد متنه » . وبين هذا البيت وتاليه عند التبريزى :

وَسَامَى جَسِيماتِ الأمورِ فنالَها على العُسْرِ حتَّى أدْرَكَ العُسرَ اليُسْرُ

(٢) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) . وقد سبق هذا البيت فى ٥٥٢ .

(٣) أنشد التبريزى بعده هذا البيت :

أحقًّا عِبَادَ اللهِ أنْ لستُ لاقياً بُرَيداً طَوَالَ الدَّهْرِ ما لألأَ العُفْرُ

وقال : العفر الظباء التى تعلو بياضها حمرة . ولألأ الظبى : حرك ذنبه . ومنه تلألأ البرق ، إذا تحرك . ولما استعملوا ذلك فى البرق وكان مع إضاءة اشتقوا منه اسم اللؤلؤ .

٣٨٥

وأنشد لِسَلَمَةَ الجُعْفِىّ يرثى أخاه لأمِّه[1] :

١— أقولُ لنفسى فى الخلاءِ أَلُومُها لَكِ الوَيلُ ما هذا التَّجَلُّدُ والصبرُ

٢— ألم تَعْلَمى أن لَسْتُ ما عِشْتُ لاقِيًا أخِى إذْ أتَى من دُونِ أوصالِهِ القَبْرُ

يقول : إنّى أتسخَّط ما أقيمُه من الهَلَع فيمن أُصبْتُ به ، حتى أرجعَ إلى نفسى إذا خَلَوْتُ بها باللَّوم والتَّعنيف ، وأقولَ حَلَّ[2] بكِ الويلُ ، ما الذى يَظْهرُ منك من تكلُّف الجَلَد والصبر فيما بُليتُ به . أمَا علمتِ أنّى مدَّةَ عيشى لا أُلاقِ أخى وقد حَجَزَ بينى وبينه الثَّرَى ؟ !

وقوله « ألومُها » فى موضع الحال ، « ولكِ الويلُ » فى موضع المفعول لأقول ، و « ما هذا التجلُّد » استفهامٌ على طريق التقريع والتوبيخ . وارتَفَع التجلُّد على أنه عطف البيان . وقوله « ألم تعلمى » تقرير فيما هو واجب ، لأنّ حرف الاستفهام قد ضامَّهُ حَرفُ النَّفى ، والاستفهام غيرُ واجب فهو كالنَّفى ، ونفى النَّفى إيجاب .

وقوله « أن لَسْتُ » أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، واسمه يجوز أن يكون ضمير الرّجل ، أراد أنِّى لستُ ، ويجوز أن يكون ضمير الأمر والشأن . و« ما عشت » فى موضع الظَّرف . و« لاقيا » خبر ليس . و« إذ أتى » ظرفٌ له . والأوصال :

---

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع بن مالك بن كعب بن سعد بن عوف بن جريم بن جعفىّ . وجعفى : حى من مذحج نزل الكوفة . وكان ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث عنه . الإصابة ٣٣٩٨ . وذكر ابن حجر أنه يرثى أخاه شقيقه قيس بن يزيد . وذكر القالى فى الأمالى (٢ : ٧٣) أنه أخوه لأمه كما قال أبو تمام ، واسمه عنده : « قيس بن سلمة » ، وصحح البكرى فى التنبيه ٩٧ أن أخاه لأمه هو « مسلمة بن مغراء » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « جل » بالجيم المعجمة .

جمع وَصْلٍ ، وهو اسمٌ للأعضاء المتَّصلِ بعضُها ببعض . ويقال : وِصْلٌ ووَصل ، بالفتح والكسر .

٣ــ وكنتُ أرَى كالموْتِ من بينِ ليلةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

٤ــ وهَوّنَ وَجْدِى أنَّنى سوفَ أغتَدِى على إثره يوماً وإن نُفِّسَ العُمْرُ

قوله « كالموت » جعل الكاف وحدَه اسماً . وكان أبو العبّاس يتبع أبا الحسنِ الأخفشَ فى جواز وُقوعه اسماً فى غير الضّرورة ، وأنشَدَ :

أتَنْتَهُونَ ولن يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَهلِكُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ[1]

ويجعل الكاف فى موضع فاعل يَنْهى . وسيبويه لا يَرَى ذلك إلاّ فى الضرورة ، كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يمتنع أن يكون « كالموت » صفةً لموصوف محذوف ، كأنه قال : وكنتُ أرى شيئاً أو أمراً مثلَ الموت .

وقوله « مِن بين ليلةٍ » مِن دَخَل للتبيين[2] ، والمعنى : كنتُ أَعُدُّ مفارقتى له فى ليلةٍ كالموت ، أو أقاسى مثلَ الموت مِن أجلِ مفارقةِ ليلةٍ منه ، فكيف يكون حالى وقد فرّق بينى وبينه بَيْنٌ موْعِدُ الالتقاء بعدَه يومُ القيامة . ومثل قوله « من بين ليلةٍ » قوله تعالى : ﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوْثَانِ ﴾ . ولك أن تجعل مِن بين ، فى موضع المفعول لأرى ، وتجعل مِن زائدةً على طريقة الأخفَش فى جواز دخوله زيادةً فى الواجب ، فيكون التّقدير : كنتُ أرى بينَ ليلةٍ ، أى فراقَ ليلةٍ ، كالموْت . فيكون كالموت فى موضع المفعول الثانى . وقوله « كان ميعاده » وَضَع الماضى موضعَ المستقبل أى يكون ميعاده ، والهاء يرجع إلى البَين ، كأنه وعَدَهُ الزّوالَ والالتقاءَ معه مِن بعده فى يوم الحشْر .

وقوله « وهوّن وَجْدِى أنّى » موضع أننى رَفْعٌ ، لأنه فاعل هَوّن

(١) البيت للأعشى من لاميته المشهورة . ديوانه ص ٤٨ .

(٢) فى الأصل : « للتنوين » . صوابه فى ل .

والمعنى : خَفَّفَ وجْدِى وقَلَقِى أننى ذاهب فى إثْرِه ، ومُخْلٍ مكانى فى الدنيا بَعْدَه يوماً ، وإن أُطِيل عُمْرِى ، ونُفِّسَ فى أَجَلِى .

٥ — فتًى كان يُعْطِى السَّيفَ فى الرَّوْعِ حَقَّهُ إذا ثَوَّبَ الداعى وتَشْقَى به الجُزْرُ

٦ — فتًى كان يُدْنِيه الغِنَى مِن صَدِيقِهِ إذا ما هو استَغْنَى ويُبْعِدُه الفَقْرُ

يريد أنّ المرثىَّ كان إذا حضر الوَغَى تصوَّر للسيف عليه حَقًّا ، فجاهَد نفسَه فى توفير ذلك الحقِّ عليه إذا أعاد الداعى وكرّر : يال فلان !! مراراً . والتَّثويب فى الأذان معروف . وقوله « وتَشْقَى به الجُزْر » يريد وقتَ نُزول الأضياف ، وأنه كان لا يُرْضيه أقربُ المنازل فى نُزْل الضَّيف[1] ، بل كان يرتقى إلى أعلاها .

وهذا المعنى قد مضى قريباً ، وكذلك البيت الثانى قد مضى مثلُه[2] . ومعنى يُدْنِيه الغِنَى من صديقه أنَّه كان يَعُدُّ التفرُّد بالغِنَى لُؤْماً ، وكان يُشْرِك أصدقاءه فيه ، كما يَعُدُّ فى حال الإضافَة والفَقر ملابَسَةَ الأصدقاء كالتَّعرُّض لخيرهم ، فيَبْعُدُ عنهم .

٣٨٦

وقالت عَمْرَةُ الخَثْعميّة ، ترثى ابنَيها :

١ — لقَدْ زَعَمُوا أنِّى جَزِعْتُ عليهما وهَلْ جَزَعٌ أَنْ قلتُ : وا بأباهما

الزَّعْم يُستعمَل كثيراً فيما لا حقيقةَ له ، لذلك قالت فيما حكَتْ عن القوم : زعموا . كأنَّها لما استَشْرف[3] النّاسُ جزَعَها وهَلَعَها ، فتذاكروا أمْرَها فيما بينهم أظهرَت الإنكارَ والتَّكذيبَ فيما توهَّموه ، فقالت : وهل جزَعٌ أنْ قلت وا بأباهما ،

---

(١) النزل بضمة وبضمتين : ما يهيأ للضيف أن ينزل عليه .

(٢) انظر الحماسية السابقة .

(٣) فى النسختين : « استشرف » بالشين المعجمة بعد التاء ، والوجه ما أثبت .

ترى أنَّ ما تكلّفته من التَّوجُّع لهما على قدر قول القائل : وا بأباهما . ولفظةُ « وا » تألُّم وتَشَكٍّ ، وهى حَرْفٌ للنُّدْبة . و « بأباهما » أرادت : بأبى هما ، ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبَتْ ألفاً . على ذلك قولهم : بادَاةٌ وناصَاةٌ ، فى باديةٍ وناصيةٍ . وقولها « وهل جَزَعٌ » ارتفع جزَعٌ على أنّه خبرٌ مُقدّم ، و « أَنْ قلتُ » فى موضع المبتدأ ، تقديره هل جزَعٌ قولى وا بأباهما ، وارتفع هما من وا بأباهما على المبتدأ ، وبأبا خبره . هذا على طريقة سيبويه ، وعلى مذهب الأخفش يرتفع بالظَّرف . ورواه بعضهم : « بأنا هما » ، أى أفديهما بنَفْسى وأنا هو ضمير المرفوع ، وقد وقع موقعَ المجرور ، وكقولهم : هو كَأَنَا ، وأنا كَهُوَ .

٣ ـ هُما أَخَوَا فى الحَرْبِ مَنْ لا أَخَا لَهُ إذا خَافَ يَوْمًا نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا

ألمَّتْ فى هذا بقوله(١) :

* إذا لم أجْنِ كنتُ مِجَنَّ جَانِ(٢) *

تقول : كانا يَنْصُران مَن لا ناصر له من القوم إذا خَشِىَ نَبوة من نَبَوات الدهر يَوْماً فاستغاثَ بهما . وقولها « أخوَا فى الحرب مَن لا أخا لَهُ » فَصَلَتْ فيه بين المضاف إليه والمضاف بالظرف ، فلذلك حذفتِ النون من أَخوانِ ، فهو كقوله :

كأنَّ أصواتَ مِنْ إيغالِهِنَّ بنا أَوَاخِرِ المَيْسِ أصواتُ الفراريجِ(٣)

ففَصَل بقوله « من إيغالهن بنا » . وقولُها « مَن لا أخَا له » نَوَتِ الإضافة ثم أدخلت اللام تأكيداً للإضافة التى قصَدَتْها ، لذلك أثبتت الألفَ من

---

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ ص ١٣٣ .

(٢) صدره : * وأنى لا أزال أخا حروب *

(٣) البيت لذى الرمة فى ديوانه ٧٦ واللسان (نقض) . ويروى : « إنقاض الفراريج » .

لا أخا ، لأنّ هذه الألفَ لا تثبُت إلاّ فى الإضافة إذ كان فى الإفراد يُقالُ أخٌ . وخَبَرَ لا محذوف كأنها قالت : لا أخا موجودٌ أو فى الدنيا . ولو قالت : لا أخَ له ، لكان له خَبراً للا ، على قولهم : لا أبَ لك ، ولا أبَا لك . وإنما قلت أدخَلَتِ اللامَ لتوكيد الإضافة التى قصدَتْها ، لأن الإضافةَ غيرُ معتدٍّ بها هنا ، فلا تُعَرِّفُ الأخَ ، واللام تُبْطِلُ الإضافةَ فى الأصل . وهذه اللام لا تدخل إلاّ فى بابَيْنِ : أحدهما باب النفى ، وهو ما نحن فيه ، والثانى باب النِّداء فى مثل قولهم :

* يا بُوسَ للحَرْبِ(١) *

لأنّ المراد : يا بُوسَ الحربِ .

٣ — هُمَا يَلبَسانِ المَجْدَ أحْسَنَ لِبْسَةٍ شَحِيحانِ ما اسطَاعَا عليهِ كِلاهُما

وصفتهما بأنهما يكتسبان المجد ويستمتعان به أحسنَ استمتاعٍ وأجملَ اكتساب ، وأنهما يَضَنَّان به حيثُ ظهر وطلَع فلا يترُكانِه لأحدٍ ما داما يستطيعان كَسبَه والفوزَ به . وانتصب « أحسنَ لِبْسة » على أنه مصدر . وارتفع « شحيحان » على أنه خبر مقدم ، والمبتدأ « كلاهما » ، و « ما اسطاعا » فى موضع الظَّرف واسم الزَّمان محذوف معه . واسطاعَ منقوص عن استطاع . وتقدير الكلام : كلاهما شحيحان به ما اسطاعا عليه ، أى ما قدَرا عليه . ومعنى « يلبسان المجد » ، أى يتملَّيانِه ويُمتَّعانِ به . قال :

لبِسْتُ أبِى حتّى تملَّيْتُ عيشَه وَبلَّيْتُ أعمامى وبلَّيتُ خاليا

٤ — شِهابانِ مِنَّا أُوقِدَا ثُمّ أُخْمِدَا وكانَ سَناً لِلْمُدْلِجِينَ سَنَاهُما

ارتفع « شهابان » على أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لكونه موصوفاً بمِنّا .

(١) قطعة من بيت فى الحماسية ١٦٧ . وهو بتمامه :
يا بوس للحرب التى وضعت أراهط فاستراحوا

وأُوقِدَا فى موضع الخبر . والمعنى : أنهما لم يُمْهَلاَ للتّمام والكمال ، بل كانا كنارين أُوقِدَتا ثم أُنْبعتا بالإخماد . والكلام توجُّعٌ وتلهُّف . وقولها « وكانَ سَنًا للمدلجين سَناهما » تريد نارهما الموقَدَةَ للضِّيفان وللطُّرّاق بالليل ، وأنهم كانوا يستضيئون بها فيرِدُون فناءه مستمسكِين أرماقَهم به ، ومتخلِّصين من سلطان البَرد والجوع وشُقة السَّفرِ إليه . ولا يمتنع أن يرتفع شِهابان على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هما شهابان .

٥ — إذا نزَلَا الأرضَ المَخُوفَ بها الرَّدَى   يُخَفِّضُ من جأشَيْهِمَا مُنْصُلَاهُمَا

تصفهما بالصبر فى دار الحِفاظ ، وأنَّهما إذا نزلا مكاناً مَخُوفاً لا يُؤْمن الردَى فيه يُسكِّن من قلقهما سيفاهما . وهذا فيه إعلامٌ بأنَّهما كانا لا يعتمدان فى الشِّدة تنزل بساحتهما على غيرهما ، وأنَّهما كانا يتحمَّلان الأثقالَ بأنفسهما ، فلا صاحب لهما يُتَّكَل عليه ، ولا مُعين يُسْكَن إليه ، إلاَّ السيف . فهو كقول الآخر[(١)] :

* ولم يَرْضَ إلا قائمَ السيف صاحبا[(٢)] *

٦ — إذا استَغْنَيا حَبَّ الجَميعُ إليهما   ولم يَنْأَ عن نَفْعِ الصَّـديقِ غِناهُما

تقول : وإذا نالا الغِنَى وسَاعَدها الحالُ حَبَّبَ جماعةَ الحىِّ والمتعلّقين[(٣)] بحبلهما ، فازداد توفرًا عليهم ، وتفقدا لهم ، ولم يَبْعُد غناهما من انتفاع الغرباء والأجانب ، ومن يتسبَّب بودٍّ وصداقة إليهما . فقولها « حَبَّ الجميع إليهما » مقصورٌ على النَّسب ، وآخر البيت مصروف إلى الصَّديق الغريب . وسَاغَ أن يُرَاد بالجميع الحىُّ كلُّهم لاجتماعهم حولَه . والجميع والجمع : المجتمِعون . والجُمَّاع : المتفرِّقون . قال :

(١) هو سعد بن ناشب . الحماسية ١٠ ص ٧٤ .
(٢) صدره : * ولم يستشر فى أمره غير نفسه *
(٣) ل : « والمتعلقين » .

* من بين جَمْعٍ غَيْرِ جُمَّاعِ (١) *

٨— إذا افتقَرا لم يَجْثُما خَشْيَةَ الرَّدَى　　ولم يَخْشَ رُزْءًا منهما مَوْلَيَاهُمَا

تريد أنَّهما إذا مسَّهما الفقر، وضاقَ بهما الأمر، لم يَلزما بيوتَهما تاركَينِ للغزوِ والتَّجوال فى طلب المال، خَوْفاً من الهَلاك، ومَيْلاً إلى الرَّاحة عن التَّسيار لكنَّهما يَسْعيان للاكتساب، ويتحمَّلان من المشاقِّ ما ينالان به مُنَاهُمَا، أو يقيمان به العُذْر [عند(٢)] مَن رَاعَى أحوالَهما. وقولها «ولم يَخْشَ رُزءًا منهما مولياهما» تريد أنَّهما لا يستحملان مَوْلَيَيْهما عِبْئًا من فقرهما، ولم يَضَعا أنفسَهما فى موضع الارتزاء منهما، وجَبْرِ الحالِ بمالهما ويَسارِهما. وهذا كقول الآخر(٣):

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقــرَه　　على نفسه [ومشيعٌ غِناه(٤)]

وقولُها «لم يجثُما» مِن جَثْم الطائر. وهم يُسَمُّون مَن رَضِيَ بفقره وصار لبيته كبعض أحلاسه: الضاجع والضُّجْعِيّ(٥)؛ لأنَّ الضَّجْعَةَ خَفْضُ العيش. وإلى هذا المعنى يشير القائلُ فى ذمِّه قوماً:

أولئكَ مَعْشَرٌ كبناتِ نَعْشٍ　　ضواجِــعُ لا تَسيرُ مع النُّجومِ(٦)

يُرْوَى: «رَوَاكد». وانتَصَب خشيةَ الرَّدَى على أنَّه مفعول له. وقولها «مولياهما» ليس يراد به التَّثنية، بل المراد به الكثرة. وعلى ذلك قولهم: لبَّيْك وسَعْدَيك.

(١) لأبى قيس بن الأسلت الأنصارى فى المفضلية ٧٥. وصدره:
* حتى تجلت ولنــا غاية *

(٢) التكملة من ل.

(٣) هو المتنخل الهذلى. ديوان الهذليين (٢ : ٣٠).

(٤) التكملة من ل وديوان الهذليين.

(٥) بضم الضاد وكسرها.

(٦) انظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقى ٣٧٢. وفى اللسان (ضجع):
أولاك قبائل كبنات نعش　　ضواجع لا يغرن مع النجوم

٨ – لَقَدْ سَاءَنى أَنْ عَنَّسَتْ زَوجتاهما ✻ وأَنْ عُرِّيَتْ بَعْدَ الوَجَى فَرَساهُما

٩ – ولَنْ يَلْبَثَ العَرْشان يُسْتَلُّ منهما ✻ خِيارُ الأواسى أن يَميلَ غَماهُمَا

يقال : عَنَسَتِ المرأة وعنَّست بالتشديد ، إذا قعدتْ بعد بلوغ النِّكاح أعواماً لا تُنْكِح . ويستعمل فى الرَّجُل أيضاً . قال :

✻ حتَّى أَنْتَ أَشْمَطُ عَانِسُ ✻

كأنَّهما كانا تزوَّجا بامرأتين ولم يحوِّلاها(1) ، ولمّا اتَّفق عليهما ما اتَّفق بقِيَتا على حالها زُهْداً فى النِّكاح بَعْدَهما ، وعِلْماً بألاّ اعتياضَ منهما . فتقول : زاد ذلك فى مَسَاءَتى ، وزاد فيها أيضاً تَعْرِيَةٌ من الإسراج والإلجام ، بعد أن كانا يُستعمَلان على ما يَعترِضُ لهما من الحَقّ فى غَزْو الأعداء وغيره . وإنَّما ساءها ما حَصَل من الأمَنَةِ فى الجوانب التى كانا يقصدان ويُوقعان بها بعد الرِّقبة الشَّديدة ، وما عُلِمَ(2) أنَّهم وجَدُوه ولَزِموه من الشَّماتة وإظهار الفَرَح والمسرّة .

وقولُها : « لَن يلبثَ العَرشانِ » جعلَتْ لكلِّ واحدٍ عَرْشاً به كان يثبت ويقوم ، فيقول : العَرش إنما بقاؤه بعُمُده ، فإذا انتُزِع خيارُها منه فلَنْ يلبثَ أن يميل سَقفُه فَيسقُط . وهذا مَثَلٌ ضربَتْهُ لعِزِّ ذويهما ، وإذْ قد مَضَيا فيُوشِك أن يتثَلَّمَ وينخفض . والأواسى : جمع آسِيَة ، وهى الأساطين . والغِماء ، بكسر العين والمدّ : سَقف البيت . والغَمَا بالفتح والقصر لغة .

---

(1) كذا وردت هـذه الكلمة فى النسختين وعند التبريزى ، ولم يتضح لى مما المراد بالتحويل .

(2) ل : « وما علمت » .

٣٨٧

وقال الآخر :

١ ـ صَلَّى الإِلٰهُ على صَفِيٍّ مُدركٍ يومَ الحسابِ ومَجْمعِ الأشهادِ

٢ ـ نِعمَ الفَتَى زَعَمَ الرفيقُ وجارُهُ وإذا تَصَبْصَبَ آخِرُ الأزوادِ

يُرْوَى : « ومَجْمَعِ الأشهاد » تجرُّه وتعطفه على الحساب ، ويكون مَجْمَعُ في معنى جَمْعٍ . ويُرْوَى « ومجمعَ » بالنصب ، ويكون ظرفَ مكانٍ ومعطوفاً على يومَ الحساب . والصَّلاة من الله تعالى : الرَّحمة . والمراد : رَحِمَ اللهُ مُدْرِكاً صفيًّا في الودّ ، رحمةً تأتي مِن وَرَاءِ ذنوبِه ، وتُعَفِّي على سَوَابِق فَرَطاتِه يومَ القيامة ، إذا حَضَرَ الشُّهودُ ووُضِعَ الحسابُ على تَحَاكُمِ الخصوم ، وقامَ الجزاء من الثَّواب والعِقاب على المطيعين والعُصاة .

وقوله : « نعم الفتى » الممدوح محذوف ، كأنَّه قال نِعمَ الفتى مدرِكٌ . قال : وليست هذه الشَّهادة مِنِّي ومن جهتي ، ولا من جملةِ مَدْحِي ، على عادة الناس في تأبين الهُلّاك ، ولكنَّها مما أدَّاه وكثَّره رفقاؤه في السَّفَر ، وجِيرانُه في الحَضَر ؛ فهي حكايةُ ألسنتهم ، ومُؤَدَّاة قضيَّتهم . وقوله « وإذا تَصَبْصَبَ آخرُ الأزواد » معنى تصبصب قَرُبَ من النَّفاد . يريد : ونِعْمَ الفتى هو في ذلك الوقت ، لأنَّه يؤْثِر غيرَه بالطُّعْم على نفسِه . وتلخيص الكلام : نِعم الفتى مُدْرِكٌ في المُرَافقةِ والمجاورَة ، وعند نفادِ الزَّاد . والأشهادُ : جمع الشُّهود . واكتفَى زَعَمَ بالفاعل في اللفظ ، لأنَّ مفعوليه دَلَّ الكلام عليهما .

٣ ـ وإذا الرِّكابُ تَروَّحَتْ ثم اغْتَدَتْ حَتَّى المَقِيلِ فلم تَعُجْ لِحِيَادِ

يريد : ونعم الفتى هو إذا وَصلت الرِّكابُ السَّيرَ بالسُّرَى ، فلم تَعطِفْ لانحرافٍ وازورار ، ولم تعرِّج لإصلاح شأن ، لكنَّها استمرَّتْ وجَدَّتْ لِمَا أَزْعَجَهم وبَعَثَهم على استدامة التَّشمير ، وتعجيل الحركةِ وتَرْك التَّقصير ، وطىّ المنازل ، واستقصار المَرَاحل . ومعنى ترَوَّحَتْ راحتْ . والرَّوَاحُ : العَشِىُّ . وراحَت الإبلُ رَوَاحًا . والإراحة : رَدُّ الإبلِ عَشِيًّا من المَرْعَى . يقال : سَرَحْتُها بالغَداة[1] وأَرَحْتُها بالعشىّ . ومعنى اغتدَتْ حَتَّى المقيلِ : سارت غُدُوًّا إلى وقت القيلولة . أىْ كانَ فى هذه الحالةِ يأتى بما يستحقُّ به المَدْح من أصحابِه ورُفقائه ، لكرمِ صَحَابتِه ، وحسن رِفَاقته . ومعنى « لم تَعُجْ » لم تَعْطِف . يقال : عاجَ عَوْجًا وعِيَاجا . والحِيَاد : الإعراض عن السَّير للنُّزولِ . والفعل منه حَادَ . ويقال : مالكَ عن هذا مَحِيدٌ وحَيَدَانٌ وحِيَادٌ .

٤ ــ حَثُّوا الرِّكابَ تَؤُوبُها أنضاؤها فَزَهَا الرِّكابَ مغنِّيانِ وحادِ[2]

٥ ــ لَمَّا رأَوْهُم لم يُحِسُّوا مُدْرِكاً وَضَعُوا أناملَهم على الأكبادِ

وصَفَ وُرَّاد فِنائه بعد فَنائه ، وزُوَّارَ قبرِه طلباً لِحِبائه ، فيقول : استعجلوا رواحلَهم وحضُّوها على قَصْدِه والوصول إلى بابِه ، ومهازيلُها التى قد أثَّر بُعْدُ الشُّقَّة فيها فأنضاها ، تؤوبُ إليها إذا نزلت ، أى تسير النهار كلَّه حتى يتصل سيرُها بالليل ، طلباً للتَّلاحُقِ معها ، فاستخَفَّها ونَشَّطَها مغنِّيانِ بالحُداء ، وسائقٌ يحدوها ، حتى وصلوا ، فلمّا رأوا أنفسَهم قد فَقَدَتْ مُدْرِكاً ، يعنى المرثىّ ، أمسَكوا على أكبادهم خوفاً من تصدُّعها ، إذْ لو أدركوه حيًّا لم يكن بينهم وبين الغِنَى إلا ما لا يُعَدّ حاجزاً ولا مانِعاً .

---

(١) سرحت الماشية تسرح سرحا ومسروحا ، وسرحتها أنا سرحا ، يتعدى ولا يتعدى .
(٢) التبريزى : « تؤمها أنضاؤها » . قال : « ويروى : تؤودها »

إن قيل: لِمَ جاز لمَّا رأوهم، والفاعلون هم المفعولون، وأنت لا تقول ضَرَبْتُنى ولا ضَرَبْتَك، بل تأتى بدل ضمير المنصوب بالنّفس، تقول: ضربتُ نفسى وضربتَ نفسَك؟ قلتَ: إنّ أفعالَ الشكِّ واليقينِ جُوِّز فيها ذلك. تقول: حسِبْتُنى ورأيتَكَ وعلمتُنى، لمخالفتها سائرَ الأفعال فى دخولها على المبتدأ والخبر.

وقوله «تؤوبها أنضاؤها» فى موضع الحال من الرِّكاب.

٣٨٨

وقال الشَّمَّاخ(١)

فى عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه(٢):

١ ـ جزَى اللهُ خيْرًا من أَميرٍ وبارَكَتْ ... يَدُ اللهِ فى ذاكَ الأديمِ الممزَّقِ(٣)

٢ ـ فمَنْ يسْعَ أوْ يرْكَبْ جَناحَىْ نعامَةٍ ... ليُدْرِكَ مَا قدَّمْتَ بالأَمْسِ يُسْبَقِ

يقول: جزَاه الله عن الرَّعيَّة خيراً من بين الأُمراء، وباركتْ نعمةُ الله ـ تعالى جَدُّهُ وإحسانُهُ ـ فى أديمِهِ الممزَّق، يعنى جلدَ عُمَرَ رضى الله عنه، حينَ طعنه أبو لؤلؤة فتَى المُغيرةِ بْنُ شُعْبَة. وأصل البَرَكة النَّماء والثَّبات. ومنه بَرَكَ البعيرُ بُرُوكاً. وبَرَاكاء القِتال: حيث يَبْترِكون، أى يجْثُون على رُكَبهم.

(١) هو معقل بن ضرار بن سنان بن أمية بن عمرو بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة ابن سعد بن ذبيان. والشماخ لقب له. والشماخ مخضرم ممن أدرك الجاهلية والإسلام. وهو أحد من هجا عشيرته وأضيافه ومن عليهم بالقرى. الأغانى (٨ : ٩٧ ـ ١٠٤) والمؤتلف ١٣٨ واللآلئ ٥٨ ـ ٥٩ والخزانة (١ : ٥٢٦) والشعراء ٢٧٤ والاشتقاق ١٧٤، وكتب الصحابة.

(٢) يزعمون أن الجن ناحت على عمر قبل أن يقتل بهذه الأبيات. الأغانى. وقال التبريزى: «وقال أبو رياش: الذى عندى أنه لمزرد أخيه. وقال أبو محمد الأعرابى: هو لجزء ابن ضرار أخيه». وقد نسبها الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٦٤) إلى مزرد بن ضرار.

(٣) البيان: «عليك السلام من إمام». الأغانى: «عليك سلام من أمير».

وقوله : « فمن يَسْعَ » يريد أنَّ شأوَه فى الإيالة واستِصلاح الرَّعيَّة وتفقُّد مصالِحِهم لا يُدْرَك ، فمن أرادَ بلوغه والارتقاء إلى غايته بقِىَ حسيراً مسبوقاً ولو ركبَ جَنَاح النعامة . يريد : لو أسرع إسراعها . وقوله « بالأمس » ذَكَرَه على طريق تقريبِ الأمَد . وقوله « يُسْبَق » هو جوابُ الجزاء .

٣ — قَضَيْتَ أموراً ثم غادَرْتَ بَعْدَها بوَائِجَ فى أكمامِها لم تفتقِ(١)

يقول : أحكمتَ أموراً بصائب نظرِك ، وجميلِ رأيك ، وحسن تألُّهِكَ(٢) ثم أُعْجِلْتَ فتركتَ بعدها دواهِىَ وخُطوباً عظيمة ، هى فى أغطيتها لم تظْهَر ولم يُكشَف عنها . والفَتْق : ضدُّ الرَّتْق ، وكلُّ متَّصلٍ مُسْتوٍ رَتْقٌ ، فإذا انفصَلَ وانكشف فهو فَتْقٌ . والبوائج : الدَّواهى العامَّــة . ويقال : بَاجَهُم الشَّرُّ ، أى عَمَّهم . قال الشاعر :

* فبَجْته وأهْلَهُ بشَرٍّ *

والأكمام : الأغطية ، منه كِمُّ الثمرة . ويقال : لــكلِّ شجرة مُثمِرَةٍ كِمٌّ وهو بُرْعُومَتُها .

٤ — أبَعْدَ قَتيلٍ بالمدينةِ أظْلَمَتْ له الأرضُ تَهتَزُّ العِضَاهُ بأسْؤُقِ

قوله « أبعد قتيلٍ » لفظه استفهام ، ومعناه التفظيع والإنكار . وحرف الاستفهام يطلُب الفعل ، فكأنّه قال : أتهتزُّ العِضَاهُ على أسؤُقِها بعد قتيل بالمدينة أظلمتْ له الأرض . هذا عَجَبٌ .

وقوله « أظلَمَتْ له الأرض من صفة قتيل . والمعنى أن حصولَ هذا الأمرِ

(١) البيان : « بوائق فى أكمامها » . والبائقة : الداهية .
(٢) التأله : التنسك والتعبد .

وجَرَيانَه على ما كان مُنكَرٌ فظيع ، بَعدَ ما اتَّفق على قتيلٍ هذا صفتُه .
والعضاهُ : شجرٌ ، واحدتها عِضَةٌ . قال :

* ومن عِضَةٍ ما يَنْبُتَنَّ شَكيرُها[1] *

وقد مضى القول في مثل هذا البيت . ويشبهه قول الآخر[2] :

أيَا شَجَر الخابُورِ ما لَكَ مُورِقًا كأنكَ لم تَحْزَنْ على ابن طَرِيفِ

٥ ــ تَظَلُّ الحَصَانُ البِكْرُ يُلْقِي جنينَها نَثَا خَبَرٍ فوْق المَطِيِّ مُعَلَّقِ

٦ ــ وما كنتُ أَخْشَى أن تكون وفاتُه بكَفَّىْ سَبَنْتَى أزرقِ العَيْنِ مُطْرِقِ

الحَصَان : العفيفة وقد أحصنَتْ وحَصُنَتْ . والبِكر : التي حَمَلَتْ أوّلَ حَمْلِها ، فهي بِكرٌ والولد بِكرٌ والأب بِكرٌ . والنَّثَا ، يستعمل في الخير والشّر . يقال : نَثَوْتُ الكلامَ أنثُوهُ نَثْوًا ، إذا أظهرْتَهُ . فيقول : ترى الحامِلَ يُسْقِطُ حَمْلَها ما يُنْثَى من خَبَرٍ سار به الرُّكبان ، وتقاذفته الأقطار ، استفظاعاً لوقوعه ، واستشعاراً لكلِّ بلاء وخوف منه .

وقوله «وما كنتُ أخشى» يقول : إنِّي وإنْ لم آمن الحَدَثانَ عليه ، وصرتُ أرقبُ جميعَ أسباب الرَّدَى فيه حتّى ظننتُ ظُنُونَ المشفِقَات ، مستدفِعًا للآفات عنه ، فإنَّه لم يَخْطُر ببالى أن يكون في جلالتِه وارتفاع مَحَلِّه يُرديه عَبْدٌ جَسُورٌ لئيمٌ جَرِىء ، أزرق العين ، مسترخى الأجفان . وإنما حَلَّى قاتِلَهُ بهذه الحِلْيَة تنبيهاً على حقارته في نفسه وجنسه ؛ وذَمًّا لأصلِه وفرعه ، وإعلاماً بأنَّ الصَّغير من الرِّجال يجْنِى الكبيرَ من الأمور ، وأنَّ ما لا يَقَعُ في الوهم استبعاداً لكونه ، يشاهده الإنسان أقربَ من كلِّ قريب ، ثم لا يملك إلا استغرابَه وقضاءَ العجَبِ

---

(١) انظر اللسان (شكر) وشروح سقط الزند ١٥١١ .

(٢) هو ليلى بنت طريف ، كما في حماسة ابن الشجري ٨٩ وحماسة البحتري ٤٣٥ . وقيل إن الشعر للفارعة بنت طريف . والمرثى بهذه القصيدة هو الوليد بن طريف الشاري . وقد روى ابن خلكان في ترجمته القصيدة كاملة ، وهي نادرة .

منه والتزامَ الجزع فيه . والسَّبَنْتَى والسَّبَنْدَى ، أصله فى النمِر ، ويُستعمَل فى الجرىء المُقْدِم . وقال الدُّريدى : المُطْرِقُ : الغليظ الجفن الثَّقيلُه .

٣٨٩

وقال صَخْرُ بن عَمْرٍو(١) أخو الخنْسَاء :

١ — وقالوا ألا تَهْجُو فوارِسَ هَاشِمٍ ومَالِي وإهْـداءَ الخنَا ثمّ مَالِيَا

٢ — أبَى الهُجْرَ أنّى قدأصابوا كريمتى وأنْ لَيْسَ إهداءُ الخنَا من شِمَالِيَا(٢)

يريد : قال النّاسُ باعثِين لى على هِجاء مَن أصابنى فى أخى معاوية ونَحتِ أثْلَتِهم ، وذكر أعراضِهم : ألا تنتقمُ منهم بالقَول إلى أن يتسهَّلَ الفِعل فتذكُرَ معايبهم ، وتكشِف عن مستور مَخازيهم ، ومجهولِ مقابحهم ومساويهم؟ فأجبتهم وقلت : مالى وذكرَ القبيح وإهداءَ الفواحشِ ثمّ مالى ؟ أما تعلمون أنّ ما بينى وبينهم أقْذَعُ من الهِجَاء ، وأنّ جزاءَ مَن أصاب كريمتى أفظَعُ من الإهجار ، وأنه ليس قولُ القبيح وتنقُّصُ النّاس من عادتى وطبيعتى ، إذْ كنتُ أرَبأُ بقدرى عن الوقوف موقفَ المتسابين والطّاعنينَ فى الأنساب والأعراض . وقوله « ومالى وإهداءَ الخنا » انتصَب إهداء بفعلٍ مُضمَرٍ ، وتكريره لِمَالِي دلالةٌ على استقباحه لما بُعِث عليه ، ودُعِيَ إليه . والخنَا هو الفُحْشُ ، كأنه قال : مالِي أُلابِسُ الخنَا وأتكلَّفُه . وقوله « أصابوا كريمتى » فالكريمة أُخرِجَ إخراجَ

---

(١) هو صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد ، من أشراف بنى سليم ، أخو الخنساء الشاعرة الصحابية ، وقد مات قبلها فرثته رثاء صادقا ، وضرب بحزنها عليه المثل ، ويبدو أنه مات قبل الإسلام . وفى ذلك تقول الخنساء : كنت أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار . انظر ترجمته مع الخنساء فى الأغانى (١٣ : ١٢٩ — ١٤٠) والخزانة (١ : ٢٠٧ — ٢١١) والشعراء ٣٠١ — ٣٠٦ .

(٢) التبريزى : « أبى الهجو » .

المصادر . وعلى ذلك ما رُوِىَ على النبىِّ صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكُمْ كريمةُ قومٍ فأكرِمُوه[١] » .

ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة . وقوله « وأنْ ليسَ إهْدَاء الخنَا » أن مخفَّفة من الثّقيلة ، واسمُه مضمَر ، والجملة التى بعدَه فى موضع الخبر ، وموضع أن رَفْعٌ بكونه معطوفاً على أنّى قد أصابوا ، وأنِّى فاعلُ أبَى الهُجْرَ .

٣ — إذَا ماامْرُؤٌ أهْدَى لميْتٍ تَحِيَّةً فَحَيَّاكَ رَبُّ النّاسِ عَنِّى مُعَاوِيَا

٤ — لَنِعْمَ الفتَى أدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ إذا رَاحَ فَحْلُ الشَّوْلِ أَحْدَبَ عَارِيَا[٢]

يقول : إذا رَجُلٌ حَيًّا مَيِّتاً فتولّى الله تعالَى عنِّى تحيَّتَك يا معاوية . والتَّحيَّة من الله تعالى : الإكرام والإحسان ، والتفضُّلُ عليه بما هو أهلُه .

وقوله « لنعم الفتى » المحمود بهذا الكلام محذوف ، كأنه قال : لنعم الفتى الذى ذا صفته . وقوله « أدَّى ابنُ صِرْمَةَ بَزَّهُ » أرَادَ سلاحَهُ وسَلَبَهُ . وقوله « إذا راح » ظرفٌ لما دلّ عليه نِعم الفَتَى . أى يُحمَدُ فى هذا الوقت إذا اشتدَّ الزَّمان وأجدَبَت الأرضُ ، وانصرَفَ فَحْلُ الشَّوْلِ من مَرْعاهُ عارِياً من اللَّحم مهزولاً ، لكثرة أفضالِهِ ، وحُسْنِ تفقُّده واتِّصالِ برِّه بمن يجمَعُه إليه نَسبٌ أو سببٌ . والشَّوْل : النُّوق القليلة الألبان ، واحدتها شائلة . وابن صِرْمَةَ المذكورُ يجوز أن يكون القاتلَ لمعاوية أو المعينَ عليه .

٥ — وطَيَّبَ نَفْسِى أنَّنى لم أقُلْ لَهُ كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ عليه بماليَا

٦ — وذى إخْوَةٍ قَطَّعْتُ أقْرَانَ بَيْنِهِم كَمَا تَرَكُونى واحِداً لا أخاليَا

(١) هو حديث أنه أكرم جرير بن عبد الله لما ورد عليه ، فبسط له رداءه وعممه بيده وقال : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه » .

(٢) بعده عند التبريزى :

إذا ذُكِرَ الإخوانُ رَقرقتُ عَبرةً وحيَّيتُ رَمْساً عند لِيَّةَ ثاويَا

تَسَلّى فيما أوجَعَه من الرُّزْء بأن لم يكن جفَاهُ وهو حَىٌّ قولا ولا فِعْلاً ، ثم تسَلّى أيضاً بأنَّه كما فُرِّق بينه وبين إخوته وتُرِكَ فريداً وحيدا ، قد تولّى مِثلَ ذلك من مُعَاديه ، فرُبَّ إخوَةٍ متناصِرينَ صارت كَلِمتهم واحدةً ، وأهواؤُهم متَّفِقة ، وهم فى تألُّفهم وتشابههم ، وتلاؤمهم وترافُدِهم ، كالحَلْقة المُفْرغة لا يُدْرَى أين رأسُها ، أنا قطعتُ علائق بينهم ، ووُصَلَ نظامهم ، فتفرّقوا وتفاقَدُوا حتى صاروا فى التشتُّت مثلا ، كما كانوا فى التجمُّع مَثَلا . وهذا بإزاء ما فُعِلَ بى ، وفى مُقَابَلَةِ ما نيلَ منّى . والدَّهرُ تاراتٌ ، و « مَنْ يَرَ يَوْماً يُرَ به » . وقد مرّ القول فى قوله « لا أخاليَا » . وانتصب « واحداً » على الحال من تركونى ، ولا أخاليا صفة له ، كأنه قال : تركونى وحيداً فريداً . وقوله « أقرانَ بينهم » أى وُصَلَ بينهم . وأصل الأقران الحبالُ ، والواحد قَرَنٌ . يريدُ : إنِّى قطَّعْتُ الأسبابَ الجامعة بينهم بقتلهم وتفريقِهم . و « بين » جعلَهُ اسماً . وفى القرآن : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ ﴾ .

٣٩٠

وقالت أختُ المُقَصَّص[١] :

١ — ياطُولَ يَوْمِي بالقَلِيبِ فلم تَكدْ شَمْسُ الظَّهيرة تُتَّقَى بحِجابِ

(١) اسمها « ميسون » كما ذكر التبريزى . وروى من خبر هذه الأبيات أن المقصص أخا بنى الصموت ، من بنى عبد الله بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، خرج فى أيام فتنة ابن الزبير يصدق من مر به من الناس ، حتى أتى بنى قنفذ من بنى سليم ، بناحية هضب القليب ، فصدقهم ، ثم بعث إلى هلال أخى بنى سمال بن عوف : أن ابعث إلى بابنتك . فقال هلال : إن كان تزويجا فليأتنا فإنه كفء . قال : إنما أردت أن تمشط رءوسنا وتتحدث معنا . فضرب هلال الرسول ، فركب المقصص فى فرسان ثلاثة حتى هجم على الحى ، فثاروا إليه ، وكان فى الذين ثاروا إليه مع هلال فتيان من بنى قنفذ ، يقال لأحدهما المستوضح وللآخر الحسن بن الأسود ، فناوشوه قليلا . ثم إن المقصص حمل على هلال فخاف هلال أن يطعنه وليس معه سلاح ، فوجد =

٢ ـ ومُرجِّمٍ عَنْكَ الظُّنونَ رأيتَهُ ورآكَ قبلَ تأمُّـلِ المُرْتابِ

قوله « يا طُوَل يومى » لفظه نداء، ومعناه تعجُّبٌ واشتكاء، وإنَّما استطالَهُ لأنَّه كان يومَ نَحْسٍ ومكروه. فيقول: يومى بالقَلِيب امتدَّ وطال حتَّى كادت الشمس لا تحتجب عن الأبصار بحجابها المعلوم؛ فياله مِن يومٍ ما أطوَله. والقليب: موضع(1). وأضاف الشَّمسَ إلى الظَّهيرة كأنَّه لما قامَ قائمُ الظَّهيرة وقفَتْ حيرَى فلم تكنْ تَجنحُ إلى المَغِيب، ولا كانت تسير فتَهوِى للغُروب.

وقوله « ومرجِّمٍ عنكَ الظُّنون » وصَفَه بأنَّ الآفاق على بُعدها كانت قريبةً عليه لِمَا أيَّدَ [به] من العَزم وتَسهَّلَ له وفى نفسه مِن وُعورة السَّير، فيقول: ربَّ مُكاشحٍ لك كان على تنائيه عنك، وتحزُّمه معك، واستظهاره بإبعاد الدَّارِ منك، يرجِّم الظَّنَّ فيك، ويُوَسْوِس إليه ما يَعرِفه من إبعادك فى الغَزْو، وقلَّة احتفالك فيما تركبه بلواحق التَّعَب، وعَوارضِ الخطَر ــ أنَّك تَقصِده وتُوقِع به آمَنَ ما كان منك، وهو فى وَسْواسِهِ لم يحدِّثْ نفسَه بتأمُّلِ ما وَقَع فى خَلَده، ولا بالكشف عمَّا ارتاب له، إذْ أنتَ أتيتَه من حيثُ لا يحتَسِبُه، واستَبَحْتَ حريمَهُ، واستَغنمتَ مالَه. وقوله « قَبلَ تأمُّل المرتابِ » يجوز أن يريد به قبل تأمُّلِه، فيكون المرتاب هو المُرَجِّم المكاشِح. ويجوز أن يكونَ جعَلَه مثلًا.

= أثفية مرتزة فى الرماد فاقتلعها ورماه بها، فركب ردعه ومات، وانهزم أصحابه ومروا على جعدة بن عبد الله، أخى بنى غيظ بن مالك، فقتلوه فقال هلال:

أعددت للهيجا ويوم المشهد وللأحاديث التى بعد الغد

* مستوضحاً والحسن بن الأسود *

فركب أولياء المقصص حين هدأت الفتنة إلى الحجاج فذكروا أمر صاحبهم وأمر الغيظى، فأهدر دم المقصص وأقادهم بالغيظى، فقالت أخت المقصص هذه الأبيات.

(1) فى معجم البلدان: « هضب القليب بنجد. والهضب: جبال صغار. والقليب فى وسط هذا الموضع يقال له: ذات الإصاد، وهو من أسمائها. وعنده جرى داحس والغبراء ».

وقد ألمّ بهذا المعنى أبو تمّام فى قوله :

أنشرَتْ لكَ الآفاقَ عَزْمَةُ هِمَّةٍ جُبِلَتْ على أنَّ المَسِيرَ مُقَامُ

٣ ـ فَأَفأْتَ أُدْمًا كالهِضابِ وجامِلًا قَدْ عُدْنَ مِثْلَ علائِفِ المِقْصَابِ (١)

٤ ـ لَكُمُ المُقَصَّصُ لا لَنَا إن أنْتُمُ لم تَأْتِكُمْ خَيْلٌ ذوو أَحْسَابِ

يقول : غَزَوْتَهُ فجعلتَ مالَه فَيئًا وغنيمةً : نُوقًا كالجبال سِمانًا ، وذكورةً عِظامًا ضِخَامًا ، عُدْنَ كالّتى يسمِّنُها الجزّار للنّحر .

وقوله : « لكُم المقصّص لا لنا » يقول : إنْ لم تأتكم خيلٌ إذا طلبوا الثّأر طلبوه عن امتعاضٍ وشدةِ أنفَة ، وجِدٍّ فى الأمر واجتهادٍ ، فِعْلَ الحسيبِ الكريم الذى لا يغمِّض على قَذًى ، ولا يصبر فيما يحق له على أذًى ، فأنتم أولياء دَمِهِ مِن دوننا ، والمالكون له سوانا . وقد تَرَكْناهُ لكم ، وفُزتم بما أصبتموه ، واستمرأتم ما طَعِمتموه . وقوله « أفأْت » من الفىء : الغنيمة ، لا من الفىء الرُّجوع . والجامل موحَّدُ اللّفظ مَصُوغٌ للجمع ، ويراد به الإبل ، لكنّه مشتقٌّ من لفظ الجمل ، كالباقِرِ من البَقَر . والعلائف : جمع العَلوفة ، وهو ما يسمَّن فى البيوت . ويقال : شاةٌ مُعَلَّفَةٌ ، أى مسمَّنةٌ . والمِقصابُ ، بناؤه بناءُ ما يكون آلة ، فهو كالمفتاح ، لا بناءَ ما يكون للحِرْفة والمزاوَلة . والواجب أن يكون « القَصَّاب » ، وهو من القَصْب : القَطعِ والفَصْل ، لأنّه يقصِّب الشّاةَ أى يقطِّعها .

(١) رواية التبريزى : « المقضاب » ، وقال فى تفسيره : « المقضاب : المزرعة التى تنبت القضب ، وهو القت . فأرادت أنهم امن لخصب فى روضة مستكة كاستكاك نبات القضب . وقيل : المقضاب شبه منجل . تريد كأنها علائف سمنت للنحر . والمقضاب أيضاً : الرجل الكثير القطع . والقضاب : الذى صناعته ذلك . فإذا روى القضاب فمعناه مثل علائف الذى ينحرهن كثيراً . ومن روى المقصاب بالصاد نسبه إلى القصب . ويحتمل أن يكون المقصاب : الموضع الكثير القصب ، كما أن المعشاب الموضع الكثير العشب » .

٥ ـ وأبُو اليَتَامَى يَنْبُتُونَ بِبَابِهِ نَبْتَ الفِراخِ بِمُكْلِئٍ مِعْشَابِ[1]

٦ ـ فَكِهٌ إلى جَنْبِ الخِوانِ إذا غَدَتْ نَكْبَاءُ تَقْلَعُ ثابِتَ الأَطْنَابِ

قوله « وأبو اليتامى » أى كان يكفُلهم وَيمُولهم ، ويُشفِق عليهم ويتحدَّب ، حتَّى كأنَّه أبوهم . وارتفع « أبو » كأنَّه خبر ابتداءٍ محذوف كأنَّها قالت : وهو لليتامى أبٌ . ومعنى « ينبتون ببابه » يُروى « فناءه » ، وانتصابُه على أنَّه أخرجَه إلى باب الظُّروف ، كما فُعِلَ ذلك بمَقْعَدَ القابلة ، ومَنَاطَ الثريَّا وما أشبههما . والمعنى أنَّهم يتربَّون فى فنائه ويتنعَّمون ، تَرَبِّيَ فِراخِ الطَّير بمكانٍ كثيرِ العُشْب والكلأ . ويقال : أَكْلَا الموضعُ ، إذا صار ذا كَلإٍ وعُشْب . والمِعشاب : الكثير العُشْب .

وقوله « فَكِهٌ إلى جَنْب الخِوان » فالفَكِه : الكثير المِزاح واللِّعْب[2] ، تأنيساً للضَّيف وبَسْطاً منه ، كما قال الآخر[3] :

* أُحَدِّثُهُ إنّ الحديثَ من القِرَى[4] *

وقوله « إذا غَدَتْ » ظَرْفٌ للفَكِه . يريد : يفاكه الضَّيف عند الأكل بمُلَح الكلام ، كى يستأنسَ ويتَّسِع الوقتُ له فيستوفِيَ . وإلى من قوله « إلى جنب الخوان » تعلَّق بفعلٍ مضمَر دلَّ عليه فَكِهٌ ، كأنَّه مع قُرب الخِوان يَفْكَهُ . و « إذا غَدَتْ نكباء » يريد وقت البَرْدِ وهبوبِ الرِّيح الباردةِ المزعزِعة للبُيوت ، القالعةِ لأوتادها وحبالِها . وأطناب البيوت : حبالها . ومنه إطنابَةُ الحُزَم والقِسىّ . والجميعُ الأطانيب . قال :

---

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه .
(٢) اتفقت النسختان فى هذا الضبط .
(٣) هو عتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سيأتى فى القسم الرابع من الحماسة .
(٤) عجزه : * وتعلم نفسى أنه سوف يهجع *

* يَرْكُضْنَ قد قَلِقَتْ عَقْدُ الأطانيب[١] *

٣٩١

وقالت عَمْرَةُ بنتُ مِرداسٍ[٢] ترثى أخاها عبَّاساً:

١ ــ أَعَيْنَىَّ لم أختِلْكُما بخيانةٍ أبَى الدَّهْرُ والأيَّامُ أن تتَصَبَّرا

٢ ــ وما كُنْتُ أخشى أن أكون كأنَّنى بَعِيرٌ إذا يُنْعَى أُخَىَّ تَحَسَّرَا

٣ ــ تَرَى الخصمَ زُوراً عن أُخَىَّ مَهابَةً وليسَ الجليسُ عَنْ أُخَىَّ بأَزْوَرَا

تقول: يا عينىَّ لا أقول إنكما لم تجْزَعا ولم تذرِفا، ولم تخلطا بدمعٍ دماً، فأكونَ قد خدعتُكما بخيانةٍ استعملتُها معكما. وكيف لا تكونان كذلك والأيّامُ والليالى امتنعَتْ عليكما أن تتصبّرا فيها، إذْ كانت حمَّلتكما من أعباء الرزيّة ما استنفدَ وُسْعَكُمَا، واستغرق طوقَكُما، حتى نُزِفَتْ دموعُكما، وتوقّفت عن الإِجابة شُؤُونكما، فما بَقِى منكما إلاّ شفاً.

وقولها: «وما كنتُ أخشى» يقول: كنتُ قبل هذه الرَّزيئة واثقاً بقوّتى وصبرى، ومُسكَتِى وعقلى، حتى لا أخشى ــ إذا أخْطرتُ ببالِى أحداثَ الدّهر وتأثيرَها فى الأحبّة والأهل ــ سوءَ احتمالٍ فيها، وضعف مُنَّةٍ عنها، إلى أن نُعِىَ أُخَىّ فورَدَ له على نفسى ما أبدلنى بالتَّماسُك تهالُكا، وبالتثبّت تساقُطا، حتى صرتُ كأنّى بعير أُلِحَّ عليه فتحسَّرَ ورزَح، وعُقِل فى مَبْرَكِه بالعجْز فما بَرِح.

(١) البيت لسلامة بن جندل، ولم يرو فى ديوانه ولا فى المفضليات. لكن نسب فى الأساس إلى النابغة، ومع ذلك لم يرد فى ديوان النابغة فى قصيدته التى على هذا الروى. وصدره فى اللسان:

* حتى استغثن بأهل الملح ضاحية *

(٢) سبقت ترجمة أخيها فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣.

وقولها « ترَى الخصْمَ زُورًا » جعلت الخَصْمَ للجمع فلذلك قالت زُوراً . والمصدرُ إذا وُصِفَ به بُقِّيَ على حالِه فلم يُثَنَّ ولم يُجمَع . وقد قيل : خَصمان وخُصُوم ، لمَّا غلبت عليه الوصفيّة وكثُر فى الاستعمال أُجرِىَ عليه حكمُ الصِّفة . والمعنى : ترَى مُنابِذِى أُخَىَّ منحرِفين عنه وعن كلِّ متَّصلٍ به ، مسالِمِين له ولمن أَعلَقَ حبلَه بحبله ، إعظامًا له وتهيُّبًا ، وإكباراً وتخوُّفاً . وترى جُلَسَاءَه ونُدماءَه مباسِطِين له ومستأنسين به ، لا يتداخَلُهم منه رُعْبٌ ، ولا يقبضهم عنه تجبُّرٌ وكِبر . والخَتْلُ : المَكْر . وقال الخليل : هو تَخَادُعٌ عن غَفلةٍ . وإنما قال الدَّهر والأيّام ، لأنَّه أرادَ بالأيّام الأحداثَ . وهذا كما قيل للوقعات : الأيّام . وإنما صَغَّرت الأخَ لتلطيف المحلّ . هذا على قولهم صُدَيِّقِي . والتحسُّر : الضعف عن الإعياء . ويقال : الحَسْر والحُسُور أيضاً . وحَسَرَتِ النّاقةُ فهى حسيرٌ والجمع الحَسْرَى . ولك أن تروى : « أُخَيِّ » وهو الأصل ، و « أُخَيّ » فتحذفَ ياءً استثقالاً لاجتماع الياءات ، وتبنيه على الفتح لأنَّه أخفُّ الحركات . وانتصَب « مهابةً » لأنَّه مفعول له .

٣٩٢

وقالت رَيطةُ بنتُ عاصمٍ :

١ – وقَفْتُ فأبكَتْنِى بدارِ عَشِيرَتِى ... على رُزْئِهِنَّ البَاكياتُ الحَوَاسِرُ

٢ – غَدَوْا كسُيوفِ الهِنْدِ وُرَّادَ حَوْمَةٍ ... من المَوْتِ أعْيَا وِرْدُهُنَّ المَصَادِرُ

٣ – فوارِسُ حامَوْا عن حريمٍ وحافَظُوا ... بِدَارِ المنَايا والقَنَا مُتَشَاجِرُ[1]

٤ – ولو أنَّ سَلْمَى نالَهَا مِثْلُ رُزْئِنَا ... لَهُدَّتْ ولكن تَحْمِلُ الرُّزْءَ عَامِرُ

تقول : دعانى ما أُصِبْتُ به فى عشيرتى إلى الوُقوف بدارهم ، فشجِيتُ

(١) التبريزى : « عن حريمى » .

بِشَجَى النِّساء النَّوادب الحواسر، حتَّى بكيتُ لبكائهنَّ على حادثِ الرُّزء، واقتفرت آثارَهن فى الهَلَع والُحزْن.

وقولها «غَدَوْا كسيوف الهِند» أخذَتْ تصفُ حالَ عشيرتها فقالت: ابتكروا وهم فى خِلَقهم وتجرُّدهم، وصَفائهم ونفاذهم، كسُيوف الهِند، فوَرَدُوا حَومةً من الموت أعجزَهم الصَّدَر عنها. والحومة: مُعظَم الحربِ وغيرِها. وحومة البحر: أكثَرُ موضعٍ منه ماء، وكذلك حَومة الحوض. ويقال: حامَ الطائرُ على الماء يَحُومُ حَوْمًا، إذا دارَ عليه فى الطَّيَران.

وقولها «فَوارِسُ حامَوا عن حريمٍ» وصَفَتْهم بأنَّهم حَفِظوا ماوجَبَ عليهم حِفظُه من حُرَمِهم. وفى المثل: «لا بُقْيَا للحَمِيّة بعد الحُرَام» أى عند الُحرْمة، والُحرمة: ما لا يَحِلُّ لك انتهاكه، وكذلك المَحَارم، واحدتها مَحْرَمَةٌ. قال:

* ومَحْرَماتٌ هَتْكُهَا بُجْرِىُّ[1] *

ومن ذلك قيل: حَرِيم الدَّار، لِمَا كان من حقِّها.

وقولها «وحافَظوا بِدَارِ المَنَايا» أى ثبَتوا فى دار الِحفاظ، ودافَعُوا وصبروا، ولم ينتقلوا عنها طلباً للسَّلامة، وحِرْصاً على نَيل الِخصب والأَمَنَةِ.

وفى هذه الطريقة قولُ الآخر[2]:

وتَحُلُّ فى دارِ الِحفاظِ بُيُوتُنَا   زمَنًا ويَظْعَنُ غَيْرُنا للأَمْرَعِ

وقولها «والقَنا مُتَشاجِر» الواو منه واو الحال. وأشار بذلك إلى قيام الحرب

---

(١) البيت للعجاج فى ديوانه ٦٨. وقبله:

* وجارة البيت لها حجرى *

(٢) هو الحادرة الذبيانى. المفضلية ٨.

بينهم ، وانتصابِ الشَّرِّ فيهم ، وأنَّ للطَّعن تلاحُقاً كما أنَّ للقنا فى الاختلاف تداخُلا .

وقولها « ولو أنَّ سَلمَى » فسَلمَى : أحدُ جبلَىْ طيِّئ . والمعنى : لو أنَّ ما نَزل بنا من الرُّزء مثلُه نَزَلَ بهذا الجبلِ لانهدَّ ، ولكنَّ الإنسانَ صَبورٌ شديد ، يتحمل كلَّ ما حُمِّل ؛ وإنْ ضُوعِفَ على وُسْعِهِ وثُقِّل . وعامرٌ : قبيلتُهم .

٣٩٣

وقالت عاتِكةُ بنت زيد بن نُفَيل[(١)] :

١ – آلَيْتُ لا تَنفكُّ عينِى حَزينَةً عَلَيْكَ ولا ينفكّ جِلدِىَ أَغْبَرَا

٢ – فَلِلّهِ عَيْنَا من رَأَى مِثْلَهُ فَتًى أَكَرَّ وأَحْمَى فى الهِياجِ وأصْبَرَا

٣ – إذا أُشْرِعَتْ فيه الأَسِنَّةُ خَاضَها إلى المَوت حَتّى يَتْرُكَ الموتَ أَحْمَرَا

روى بعضُهم أنّ عليًّا عليه السلام استأذَنَ عمر رضى الله عنه فى مُكالمة عاتكةَ بنتِ زيدٍ ، وهى يومئذٍ زوجته ، فقال عمر رضى الله عنه : لا غَيْرَةَ منكَ يا أبا الحسن ! فقال علىٌّ عليه السلام مازحاً : آنتِ القائلة :

آليْتُ لا تنفكُّ عينِى قَريرةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدِى أصفَرا[(٢)]

---

(١) هى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية ، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة . وقد أسقط المرزوقى هنا اسم جدها « عمرو » . وهى صحابية كانت زوج عبد الله بن أبى بكر الصديق ، ثم عزم عليه أبوه أن يطلقها لما شغلته عن مغازيه ، فطلقها ثم تبعتها نفسه ، فسمعه أبوه يوما يقول :

ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها من غير جرم تطلق

فرق له أبوه وأذن له فارتجعها ، ثم لما كان حصار الطائف أصابه سهم فكان فيه هلاكه ، فمات بالمدينة فرثته بهذه الأبيات . ثم تزوجها زيد بن الخطاب فاستشهد باليمامة ، ثم تزوجها عمر ، فاستشهد فرثته بأبيات ستأتى فى الحماسية ٣٩٦ . انظر الإصابة ٦٩٢ من قسم النساء ، ونوادر المخطوطات ٦١ .

(٢) أصفر ، من استعمال الطيب والخلوق . وهو كناية عن السرور واطراح الحزن .

فقالت : لم أقُلْ كذا . وعاودَتْ حُزنها وجزَعها . ومعنى « لا تنفك » لا تزال .

وقولها « فَلِلّه عَيْنَا » تعجُّبٌ ، وهى فى تعظيم الشَّىء ينسُبونه إلى الله عزّ وجلّ ، وإن كانت الأشياء كلُّها له تعالى وفى مَلَكته .

وقولها « أكرّ » أى أكثرَ كرًّا . و « أحْمَى » يجوز أن يكون من الحماية ويجوز أن يكون من الحَمِيَّة . والمعنى : لِلّه عينَا رجلٍ رأَى فتًى مثلَه أكرَّ منه وأحْمَى . وقولها « من » نكرةٌ تريد رجلاً أو إنسانا . و « رأى مثله » صفة لِمَنْ . وقولها « إذا أشْرِعَتْ فيه الأسنَّة » ، تريد : فى الهِياج . ويجوز أن تريد فى المرثىّ ، أى قِبَلَهُ . والهياج يجوز أن يكون مصدر هائج ، ويجوز أن يكون جمع هَيْجٍ ، والمراد به الحربُ وقد هاجت . فتُريد : إذا هُيِّئَت الرِّماحُ لطعنةٍ اقتحمَها وتلقَّاها ، لا يَحيد عنها حتَّى يَخُوضَ الموتَ بها ، فيتركَه أحمر ، أى شديداً .

ويقال : مِيتةٌ حمراء ، وسَنَةٌ حمراء ، وسِنُونَ حَمْرَاوات . ويقولون : « الحُسْنُ أحمر » ، أى طلَبُ الجمال تُتجَشَّم فيه المشاقّ .

٣٩٤

وقالت امرأةٌ من طيِّئ :

١ — تَأَوَّبَ عَيْنِى نُصْبُها واكتئابُها ورَجَّيْتُ نَفْسًا رَاثَ عَنْها إيابُها

٢ — أُعَلِّلُ نَفْسِى بالمُرَجَّمِ غَيْبُهُ وكَاذَبْتُهَا حَتَّى أبانَ كِذابُها

أصل التأوُّب والتّأويب : سَيْرُ النَّهار كلّه حتَّى يتَّصلَ باللَّيل . وقد فسَّر ابن الأعرابىّ قولَ النابغة :

* وليس الذى يَتلو النُّجومَ بآيِبِ(١) *

(١) صدره : * تطاول حتى قلت ليس بمنقض *

على أنّه من هذا لا من الأَوبة الرُّجوع . والنُّصْب ، من قولهم أنْصَبَه المرضُ والحزْنُ ، إذا أثَّر فيه . قال :

* تَعنَّاكَ نُصْبٌ من أُمَيْمَةَ مُنْصِبُ *

وقال الدُّريدى : يقال نَصَبَهُ أيضاً . والاكتئاب : الحُزْن . والمعنى أنَّه نابَ عينى ، وواظبَ عليها من السَّهرِ والكآبة والهمِّ النَّاصب ، ما أثَّر فيها ، وعلَّقتْ رجائى بنفسٍ غائبةٍ عنِّى قد استَعجمَتْ أخبارُها علىَّ ، فأبطأَ رجوعها إلىّ .

وقولها « أعلِّل نفسى بالمرجَّم غَيْبُه » تريد : أُزَجِّى وقتى وأُرضى نفسِى بظَنٍّ مَرْجُومٍ وأملٍ مرجُوّ ، وحديثٍ مؤلَّف ، وتمنٍّ مُزَخرَف فيما لا حقيقةَ يعتمد عليها ، ولا أَمارة يتأكَّد الطَّمع فيها . ويقال : رَجَمَ الرَّجُلُ بالغيب ، إذا تكلَّم بما لا يَعلم .

وقولها « وكاذَبتُها حتَّى أبانَ كِذابُها » أى استعملتُ ملفَّقَ الأحاديث ومُموَّهَ الأباطيلِ معها ، إلى أنْ بَرِح الخفاء ، وانكشَفَ عن جانيَّة الأمرِ الغِطاء ، وتَعلَّى رُغْوة الكذب عن مصدوقَةِ الخَبَر . والمكاذَبة تكون من اثنين ، كأنَّه كان يكذِّب نفسه فتَقتريهِ(٢) وتزيد عليه .

٣ — فَلَهْفِى عليكَ ابنَ الأَشَدِّ لبُهْمَةٍ أفزَّ الكُمَاةَ طَعْنُها وضِرَابُها(١)

٤ — مَتَى يَدْعُهُ الدَّاعى إليه فإنَّهُ سَمِيعٌ إذَا الآذان صَمَّ جَوابُها

٥ — هو الأبيضُ الوَضّاحُ لو رُمِيَتْ به ضَوَاحٍ من الرَّيَّان زَالَتْ هِضَابُها

تتلهَّفُ على ما فاتَ عشيرتَه منه مِن حسن الدِّفاع ، والثَّباتِ فى وجه الشُّجاع الذى لا يُدْرَى كيف يُدْفَع ، وأنَّى يؤْتَى ويُقدَعُ ، وقد طَرَدَ الشُّجْعان وطَرَّقهم

(١) التبريزى : « أفر الكماة » بالراء المهملة ، قال : « ويروى أفز الكماة بالزاى » ثم قال : « وأفر الكماة — يعنى بالراء — طردهم » .

(٢) تقتريه : تتبعه . وفى النسختين : « فتغتر به » .

ذُعْرًا، شِدَّةُ مُطاعَنَتِه، وقُوَّةُ مضارَبَته. وقال الخليل: أفزَّهُ: أفزَعَه. واستفزُّوه: أخرَجوه من دارِه وخَدعوه حتّى ألقَوْه فى الجهل. وفى القرآن: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ من الأَرْضِ لِيُخرِجُوكَ مِنْها﴾. والبُهمة تقع على الواحد والجماعة، وهاهنا هى للواحد، بدلالة قولها «متى يَدْعُه الدَّاعِى إليه» فلم تقل إليهم، فأمَّا قولها «طعنُها وضِرابُها» فالضَّمير جاء فيه على لفظ البُهْمة.

ومعنى «متى يَدعُه الدَّاعى إليه»، أنَّه إذا دَعا الدّاعى لمُبارَزَة هذه البُهمة ومنازَلتِه، فإنَّه كانَ يَسمع ويُجِيب، فى وقتٍ تستَكُّ فيه المسامع لشدَّة الأمر، وإلباس الخوف. وجعل الصَّمَم للجواب مجازاً، وإنما تَصَمّ الآذانُ عن السَّماع فينقطعُ الجواب.

وقولها «هو الأبيضُ الوَضَّاح» تريد خُلوصَ النَّسَب وزَكاءَ المَنصِب، واشتهار الذِّكر فى الأُفق.

وقولها «لو رُمِيَتْ به ضَواحٍ» تريد نَفاذَه وحُسنَ خُروجِه ممَّا يَدخُل فيه وشدَّةَ صَدمَتِه(١) للأمور، ولَجاجَه فى إبرامها. فيقول: لو رُمِيَتْ بَوارِزُ هذا الجبل به لزَعْزَعَها، وهَدَّ جوانبَها.

٣٩٥

وقالت العَوراء ابنةُ سُبَيْع:

١ ــ أَبْكى لعَبدِ اللهِ إذْ حُشَّتْ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نارُه

٢ ــ طَيَّانَ طاوِى الكَشْحِ لا يُرْخَى لمُظْلِمَةٍ إزارُه

٣ ــ يَعْصِى البَخِيلَ إذا أرا دَ المَجْدَ مَخْلُوعًا عِذارُه

(١) كذا على الصواب فى ل. وفى الأصل: «مذمته».

تريد أنها إذا تذكَّرتْ حالَ المرثيّ فيما كان تَجرى أمورُه عليه، ويأخُذُ نفسَه به، عاوَدَها البكاء والنَّحيب. ومعنى «حُشَّتْ نارُه» ضُمَّ ما تفرَّقَ من الحَطَب إليها وأوقِدت. وإنما تريدُ نارَ الضيافة.

ومعنى «طَيَّانَ» صغير البَطْن، مهضومُ الجنبَيْنِ، قليلُ الطُّعْم. وقولها «طاوِى الكَشْح» أى يَمضِى فى الأمور لوَجهِه لا يُعرِّج على شىء ولا يَنْثنِى. ويقال: انطوَى كَشحاً، فيصير من باب تصبَّبَ عَرَقاً. قال:

* أخٌ قد طوَى كَشحاً وأبَّ لِيَذْهَبا[1] *

وقولها «لا يُرخَى لمُظلمةٍ إزارُه» تريد أنه إذا نابَتْه النَّوائبُ تجرَّدَ لها وفيها وهو مشمَّرُ الإزار، مقلَّص الذَّيل، فداوَاها بدوائها، ونهض فيها نَهْضَ المقتدِر عليها، الفاصِلِ لها.

وقولُها «يَعصِى البخيل» تقول: وإذا أراد اكتسابَ المجد أهانَ مالَه للفُقراء والعُفاة، وفى إصلاح أمرِ العشيرة، وعَصَى المُشيرَ عليه بالإمساكِ والبُخل، نخلَعَ رِبقةَ طاعتِه، وعذارَ احتشامِه.

٣٩٦

وَقالت عاتكة بنت زيد[2]:

١ – مَنْ لِنَفْسٍ عادَها أحزانُها   وَلِعَيْنٍ شَفَّها طُولُ السَّهَدْ[3]

---

(١) كلمة «أخ» ساقطة من ل. وكلمة «قد» ساقطة من الأصل. وإثباتهما من مجموع النصين ومن ديوان الأعشى ٨٩ ومقاييس اللغة واللسان والجمهرة. وصدره:

* صرمت ولم أصرمكم وكصارم *

(٢) سبقت ترجمتها فى الحماسية ٣٩٣ ص ١١٠٢.

(٣) ضبطت فى النسختين وكذا عند التبريزى «السهد» بضمتين، والأوفق لمراعاة الشعر أن تضبط بفتحتين، وهى لغة فى الأول.

٢ – جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانِهِ رحمةُ اللهِ على ذاكَ الجَسَدْ

٣ – فيهِ تفجيعٌ لِمولًى غارمٍ لمْ يَدَعْهُ اللهُ يَمشى بِسَبَدْ

قولها « مَن انفسٍ » توجُّعٌ وتَشَكٍّ واستغاثة . وعادَها ، أى اعتادَها . قال :

* عادَ قلبى من اللطيفة عِيدُ *

والمعنى مَن يُؤْمِن نفساً مما اعتادَها من الأحزان ، واجتمَع عليها فى رُزْئِها من الأوصاب والآلام ، ومَنْ لعينٍ آذاها طُولُ الأرَق ، ودَوامُ السَّهَر .

وقولها « جَسَدٌ لُفِّفَ فى أكفانه » لُفِّفَ بما بعده صفة للجسَد ، ورحمة الله بما بعده ، اعتراضٌ بين الأوصاف ، لأنّ قولها « فيه تفجيع » صفةٌ أيضا . والكلام تحسُّر وتلهُّف . فتقول : رحمَ اللهُ جَسَدًا جُهِّز بما يُجَهَّز به الموتى ، وفُجِع به مواليه الذين كانوا يعيشون فى فِنائه ، فإذا لَحِقَ أحدَهم غُرْمٌ وقد ضاقت حالُه عن احتمالِه وَسَّعَ له فى جَنابِه ، وأعانَه على دهره بمالِه . وقولها « لم يدعهُ الله يَمشِى بَسَبَد » تريد أفقَره فلم يُبقِ له شيئاً . ويقال : « ما لَه سَبَدٌ ولا لَبَد » ، فالسَّبَد : الشَّعَر ، واللَّبَد : الصوف .

٣٩٧

وقالت امرأةٌ من بنى الحارث[١] :

١ – فارسٌ ما غادَرُوه مُلْحَمًا غَيْرَ زُمَّيْلٍ ولا نِكسٍ وَكَلْ[٢]

(١) من بنى الحارث بن كعب ، كما فى الخزانة (٥ : ٥٢٢) وأمالى ابن الشجرى (١ : ١٨٧ ، ٣٣٣) .

(٢) ويروى أيضا كما فى الخزانة : « فارساً » ، بالنصب : قال ابن الشجرى : « الرواية نصب فارس بمضمر يفسره الظاهر . وما صلة ، والمفسر من لفظ المفسر ، لأن المفسر متعد بنفسه إلى ضمير المنصوب ، ولكن لو تعدى بحرف جر أضمرت له من معناه دون لفظه ، كقولك : أزيداً مررت به ، التقدير : أجزت زيداً . لأنك إن أضمرت مررت أضمرت الجار ، وذلك مما لا يجوز . فالتقدير إذن : غادروا فارساً . ويجوز رفع فارس بالابتداء والجملة التى هى=

٢ — لو يَشَا طارَ به ذو مَيْعَةٍ   لاحِقُ الآطالِ نَهْدٌ ذو خُصَلْ[1]

٣ — غيرَ أنّ البَأْسَ منهُ شِيمَةٌ   وصُروفُ الدَّهرِ تَجرى بالأَجَلْ

قولها « فارسٌ ما غادروه » ماصلة ، والكلام فيه تفخيمٌ لأمر المرثىّ وتعظيمٌ لشأنه . تريد : تركوا فارساً رفيعَ المحل مُلحَمًا ، أى طُعمةً لِعَوافِى السِّباع والطير . قال :

* قد أُلحَمَتْنِى المَنَايَا السَّبْعَ والرَّخَمَا *

وقولها « غيرَ زُمَّيل » فالزُّمَّيل والزمَّال والزمِّل : الضعيف ، كأنه زُمِّل فى العَجز كما يُزَمَّلُ الرَّجلُ فى الثَّوب . وقولها « ولا نِكس وَكَلْ » فالنِّكس : المقصِّر عن غاية النَّجدة والكرامة ، وأصله فى السِّهام ، وهو الذى انكسَرَ فجُعِل أسفلُه أعلاه ، فلا يزال ضعيفاً . والوَكَل : الجَبان الذى يتَّكل على غيرِه فيضيِّع أمرَه .

وقولها « طارَ بِهِ ذو مَيعةٍ » حَكى الحالَ ، والمراد لو شاء أنجاهُ فرسٌ له ذو نشاط . وقال الخليل : مَيعة الحُضْر والنَّشاط : أولُهما وجِدَّتهما . وقولها « لاحِقُ الآطالِ » تريد : ضامرَ الجنبَين . نَهْدٌ ، أى غليظٌ . ذو خُصَلٍ ، أى من الشَّعَر .

وقولها « غيرَ أنَّ البأسَ منه شِيمة » : تقول ثبَتَ ولم يرَ لنفسه الانقباضَ والإحجام ، لأنَّ الصَّبرَ فى الشِّدَّةِ والبأسِ عادةٌ منه وطبيعة ، ولأن صُرُوف

= غادروه وصف له ، وغير زميل خبره ولا موضع من الإعراب فى وجه النصب للجملة التى هى غادروه ، لأنها مفسرة فحكمها حكم الجملة المفسرة . وحسن رفعه وإن كان نكرة لأنه تخصص بالصفة . واذا نصبته نصبت غير زميل وصفاً له . ويجوز أن يكون وصفاً للحال التى هى ملحماً » .

(١) لو يشأ ، ضبطت فى ل بالجزم ، وهى رواية وشاهد فى أن « لو » قد تجزم الفعل . انظر الخزانة وأمالى ابن الشجرى .

الدَّهرِ تجرى إلى النفوس بآجالها ، ولكل حَيٍّ وقتٌ من يومٍ معلوم ، فإذا انتهى العُمر به إلى ذلك الوقتِ انقطعَ .

٣٩٨

وقال جَريرٌ ، يرثى قيسَ بن ضِرَارٍ (١) :

١ — وبَاكِيَةٍ من نَأْيِ قَيْسٍ وقد نَأَتْ ... بقَيْسٍ نَوَى بينٍ طويلٍ بِعَادُها

٢ — أظنُّ انهِمالَ الدَّمْعِ ليس بمُنْتَهٍ ... عن العينِ حتَّى يَضْمَحِلَّ سوادُها

٣ — وحُقَّ لقيْسٍ أن يُباحَ له الحِمَى ... وأن تُعْقَرَ الوَجْناءُ إن خَفَّ زَادُها

قوله « وباكيةٍ من نأيِ قيسٍ » ألَمَّ فيه بقول الآخر (٢) :

وكنتُ أَرَى كالموْتِ من بينِ ليلةٍ ... فكيفَ ببَيْنٍ كان ميعادَه الحَشْرُ

فيقول : رُبَّ امرأةٍ باكية لبُعدِ قيس عن مقرِّ عزِّه ، ومَسكَنِ نخرِه ، ونأيُ قيسٍ الساعةَ لمُنتوًى بُعدُه طويل . والنَّوَى : وِجهة القَوم التى ينوونها ، وهى مؤنّثة . وأضاف النَّوَى إلى البَين — وهو الفِراق — لأن الغرضَ فى تلك النَّوَى كان مفارقةَ الأحياء ، والتنقُّلَ إلى دار القرار ، فالبَينُ سبَبُها ومقتضيها . وارتفع « بعادُها » بطويلٍ ، والضمير منها يعود إلى النوى . والواو من قوله « وقد نأت » واو الحال .

وقوله « أظنُّ انهمالَ الدَّمع » يريد أن أوقاتَ البكاء متَّصلة ، وآمادَ سيلان الدُّموع غيرُ منقطِعة ، والعين وشُؤونَها لا تثبت لذلك ولا تَقوَى به ، فلا شكَّ

---

(١) التبريزى : « قيس بن ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة » . وهذه المرثية آخر المراثى عند المرزوقى ، لكن التبريزى روى بعدها ثلاث مرات ، سنثبتها فى الحواشى فى نهاية هذا الباب .

(٢) هو سلمة الجعفى . وقد مضى فى الحماسية ٣٨٥ ص ١٠٨١ .

أنّ سوادَها يَبطُل . وذلك أنّ مسبّباتِ الأشياء إنما تقوى وتدومُ بقوّةِ أسبابِها ومقتَضِياتها ، فما دامَ سببُ البكاء — وهو الحزنُ والهلَع — يملِك الباكىَ ويقودُ زِمامَه ، فالدَّمع سائل ذارف ، وسوادُ العين مُشْفٍ على البُطُول هالك[١] .

وقوله « وحُقّ لقيسٍ أن يُباحَ له الْحِمَى » الأصل فى الحِمَى الماء والكلأ ، ولمّا كان العزيزُ منهم يَستبيح الأحميةَ ويحفظُ حِمَى نفسِه ويمنعُ منه كلَّ أحد ، ، وإذا قال أحمَيْتُ هذا المكانَ ، أى جعلته حِمًى ، كان يُتجَنَّب ويُتَحامَى إجلالاً وخوفاً منه — استُعير من بَعْدُ للقلب وما يمتلك منه الحبُّ أو الحزنُ أو غيرهما وما لا يُمتَلك منه ، فيصير كأنّه حِمَى العقل . فيقول : حُقّ لقيسٍ والمصابِ به أن يُباحَ له من القلوب ما كان حِمًى ، فلا ينزلَ به غمٌّ ، ولا يمتلكه سرور ، أى حُقّ للجزَع به أن يَبلغ من القلب حدًّا لم يبلغْ منه شىء . وقد أخرجوا هذا المعنى فى مَعارضَ لأنه معنًى صحيح حكيم شريف ، فقال كُثيِّر فى الحُبِّ يصف امرأة :

أباحَتْ حِمًى لم يَرْعه الناس قبلها وحَلّتْ تِلاعاً لم تكنْ قبلُ حُلّتِ

يريد : بلغَتْ من القلب هذا المبلغ .

وأخذَه منه عبدُ الله بن الصِّمَّةِ القُشَيرىّ ، فقال :

فَحَلّتْ مَحَلاًّ لم يكُنْ حُلَّ قَبْلَها وهانَتْ مَرَاقِيها لِرَيّا وذَلَّتِ

وأخذه أبو نُواسٍ فقال :

مُباحةٌ ساحةُ القُلوبِ لهُ يَرْتَعُ فيها أطايبَ الثَّمَرِ[٢]

وأخرجه على وجهٍ آخر فقال ينْفِى[٣] :

(١) يقال : بطل يبطل بطلا ، بالضم ، وبطولا ، وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً .
(٢) ل : « يرتع منها » .
(٣) هذه الكلمة من ل .

بِصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِضْ ماؤُهُ ولم تَخُضْـهُ أعيُنُ النَّاسِ(١)

فنَقَل إلى الخدِّ وغَمَضَ كما ترى .

وقال آخر يصف ناقة :

* حمراءُ منها ضَخمةُ المـكانِ(٢) *

يريد عظيمة المـكانِ من القلب . ذكره الأصمعى . يريد أنها محببة . وقد قيل فيه غير هذا .

وقولُه : « وأن تُعقَر الوجناء أِن خَفَّ زادُها » كان الواحد منهم إذا مرَّ بقبر رئيسٍ وهو فى صُحبةٍ أحبَّ أن ينوب عن المقبور فى الضيافة ، فإذا لم يساعدْه من الطعام ما يَدْعو الناسَ إليه عقَرَ ناقتَه ؛ إكراماً له . لذلك قال « وأن تُعقَر الوجناء إنْ خَفَّ زادُها » . والوجْناء : الناقة الصُّلبة ، أُخِذ من الوجين ، وهو الأرض الصُّلبة . فمن رَوَى « أنْ خَفَّ زادُها » بفتح الهمزة ، فالمراد لِأنْ خَفَّ زادُها . ومن رَوَى « إنْ خَفَّ » بكسر الهمزة فهى للشرط . وقد اعتذر بعضُهم(٣) من ترك ذلك فقال :

لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لَتَرَكتُها تَحْبُو على العُرقوبِ

يعنى ناقته .

وقد حكى ابنُ الأعرابى حكايةً مليحة ، قال : كان رجلٌ يُواصِلُ امرأة فخرج فى سفرٍ له وعاد وقد استَبْدَلَتْ به ، فأتاها لِعادته(٤) ، فقالت :

أَلم تَرَ أنّ المـاء بُدِّلَ حاضِرًا وأن شِعابَ القَلْبِ بَعْدَكَ حُلَّتِ

(١) تخضه ، بالياء فى الأصل ، وبالتاء فى ل .

(٢) الرجز لابن ميادة ، كما فى أمالى القالى (٣ : ٢٠٢) . وانظر مجالس ثعلب ٥٠٦ .

(٣) هو حفص بن الأحنف الكنانى . سبق فى الحماسية ٣٠٦ ص ٩٠٦ .

(٤) لعادته ، باللام ، كما فى الأصل و ل والتبريزى .

فأجابها :

فإنْ تَكُ حُلَّتْ فالشِّعابُ كثيرةٌ وقد نَهِلَتْ منها قَلُوصى وعَلَّتِ

تم باب المراثى بحسنِ توفيقِ الله وجَميلِ صُنْعه ، وله على تواتُرِ نِعَمِه ، وتتابع أياديهِ ، أجزَلُ الحمد[1] .

---

(١) بعده فى ل : « وأكثر الشكر ، وعلى النبى المصطفى ، محمد المجتبى خير الورى ، أوفى صلواته ، وأنمى بركاته ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم » .

هذا . وقد روى التبريزى بعد هذه المقطوعة ثلاث مقطوعات أخرى آثرنا إثباتها هنا ، وهى :

وقال آخر :

إنَّ المَساءَةَ للمسرَّةِ موعدٌ أُخْتَانِ رَهْنٌ للعشيَّةِ أَوْ غَدِ

فإذا سمعْتَ بهالكٍ فتيقَّـنَنْ أنَّ السَّبيلَ سَبيلُه وتَزَوَّدِ

وقال آخر يرثى أخاه :

أَخٌ وَأَبٌ بَرٌّ وَأُمٌّ شَفيقةٌ تَفَرَّقَ فى الأبرارِ ما هُوَ جامعهُ

سَلوتُ به عن كلِّ من كان قبلَهُ وأذهلَنِى عن كلِّ ما هو تابعُه

وقال آخر يرثى ابنه :

ذهبتَ عَلَى حِينَ أَعْجَبْتَنِى وَوَلَّى الشَّبَابُ وجاء الـكِبَرْ

فإنْ أبكِ أبكِ على فاجعٍ وإنْ يكُ صَبْرٌ فمثلِى صَـبَرْ

بَابُ الأَدَبِ

بابُ الأدَبْ

٣٩٩

قال مِسْكينٌ الدارِمِيّ[1] :

١ — وفِتْيانِ صِدْقٍ لَسْتُ مُطْلِعَ بَعْضِهم ... عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غيرَ أَنِّى جِمَاعُها

قوله : « وفتيانِ صِدْقٍ » أضافَ الفتيانَ إلى الصِّدق ، كما يقال فِتيانُ خير . والمعنى أنَّهم يصدُقون فى الوَدّ ولا يخونون . وقال الخليل : يُقال رَجُلُ سَوء وإذا عرَّفتَ قلتَ الرَّجل السَّوء ، ولم تُضِفْ ، بل تجعلُه نعتاً . وتقول : عَمَل سَوءٍ وعَمَل السَّوء ، وقولُ صِدْقٍ وقول الصِّدق ، ورجل صِدقٍ ، ولا تَقُل الرَّجل الصِّدْق ، لأنَّ الرجل ليس من الصِّدْق.

فيقولُ : رُبَّ فِتيانٍ هكذا استنامُوا إلىّ واستودَعونى أسرارَهم، فكنتُ أنا نِظامَها لا يَفوتُنى من خَبيئاتِ صُدورهم شىء ، ثمَّ أفرَدْتُ كلاًّ منهم بالوفاء له ، وكِتمانِ ما أودَعَنى من سِرِّه ، ولا أُطْلِعُ بعضَهم على ما يَستكتِمنى البعضُ الآخَر ، بل أصونُه من الإذاعة ، وأَحْفَظُهُ من النَّشر بالطَّىّ والصِّيانة . وذاك لأنَّ حِفظَ السِّرّ يجرى مَجرى أداءِ الأمانات ، فهو فى الدِّين والدُّنيا مأخوذٌ به ومبعوثٌ عليه . وقوله « جِمَاعُهَا » ، هو كما يقال نِظامٌ، لأنَّ النِّظام اسمٌ لما يُنظَمُ به الشّىء فهو كالوِثاق والرِّباط . وكذلك الجِماعُ : اسمٌ لما يُجمَعُ به الشَّىء . والضمير من

---

(١) مسكين لقب له ، واسمه ربيعة بن أنيف الدارمى ، شاعر إسلامى هاجى الفرزدق ثم كافه ، وكان له أثر ظاهر فى ترشيح يزيد بن معاوية للخلافة . انظر ترجمته فى الأغانى (١٨ : ٦٨ — ٧٢) والخزانة (١ : ٤٦٥ — ٤٧٠) واللآلى ١٨٦ — ١٨٧ ومعجم الأدباء (٤ : ٢٠٤ — ٢٠٦) مرجليوث ، والشعر والشعراء ٥٢٩ — ٥٣٠ .

جِماعُها يرجع إلى الفِتْيان ، ويجوز أن يرجعَ إلى ما دلَّ عليه الكلام من ذِكر الأسرار . وانتصب « غَيْرَ » على أنّه استثناء منقطِع .

٢ — لِكُلِّ أمرئٍ شِعْبٌ من القَلبِ فارِغٌ   وموضِعُ نَجْوَى لا يُرَامُ اطِّلاعُها

٣ — يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلادِ وسِرُّهُمْ   إلى صَخْرةٍ أَعْيَا الرِّجالَ انصداعُها

قوله « لكلّ امرئٍ » يريد لكلّ رجلٍ منهم جانبٌ من القلب ، وشِقٌّ قد فُرِّغَ له وخُصَّ بموضع سرِّه ونجواه ، لا يُطلَبُ الاطِّلاع عليه والكشف عنه ، لما عُرِف من محافظتي ووفائي . والنَّجْوَى يجرى على أحكام المصادر : الدَّعوى ، والعَدْوَى ، وألِفُه للتأنيث ، ويوصفُ به الأمر المكتوم . ويقال : نَجَوتُه فهو نجيٌّ (١) . وقد وُصِفَ بالنَّجْوَى والنَّجِىّ الواحد والجمع . [وفى(٢)] القرآن : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ، و ﴿ إذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ ، و ﴿ ما يَكُون مِنْ نَجْوَى ثَلاثةٍ ﴾ . ويقال : تَنَاجَوْا وانْتَجَوْا .

وقوله « يَظَلُّونَ شَتَّى فى البِلاد » يريد أنهم يُفارِقونَهُ فيتغيَّبون فى أقطار الأرض ، وسِرُّهُمْ مكتوم مُحصَّن ، كأنّه أُودِع صَخْرَةً أعْجَزَ الرجالَ صَدْعُها . ويقال : شَتَّ الأمرُ شَتًّا وشَتاتاً ، وهو شَتِيتٌ وشَتٌّ ، وهم أشتاتٌ وشَتَّى . فأشتاتٌ جمع شَتٍّ ، وشَتَّى : جمع شَتِيتٍ . ويُروى « أعيا الجبالَ اتِّضاعُها » . والمعنى أنّ هذه الصَّخرةَ لإشرافِها وثبوتها فى موضِعِها لو رام الجبالُ حَطَّها لأعجزها ذلك . وقوله « إلى صخرة » أى مضمومٌ إلى صخرة . فتعلّق إلى بفعل مضمَر دلَّ عليه الكلام .

(١) ل : « نجيى » .
(٢) التكملة من ل .

٤٠٠

وقال يحيى بن زياد [1] :

١ — لَمّا رَأَيْتُ الشَّيبَ لاحَ بياضُهُ ... بمَفْرِقِ رأسِي قلتُ للشَّيبِ مَرْحَبا [2]

٢ — ولو خِفْتُ أَنِّي إنْ كَففتُ تحيّتِي ... تَنَكّبَ عَنِّي رُمْتُ أن يتنكّبا

٣ — ولكن إذا ماحلَّ كُرْهٌ فسامَحَتْ ... به النّفسُ يوماً كان للكُرهِ أَذْهَبا

قوله « لمّا رأيتُ الشيب » لمّا عَلَمٌ للظّرف ، وهو لوقوع الشّيء لوقوع غيره . وجوابه « قلتُ للشَّيب مَرْحَبا » . وكان الواجب أن يقول : قلتُ له مَرْحباً ولكنّهم يكرِّرون الأعلامَ وأسماءَ الأجناس كثيراً ، والقَصد بالتّكرير التّفخيم . والمعنى : لمّا وجَدت الشَّيبَ اشتعَل رأسِي ببياضه ، طيّبتُ نفسى بطُلوعه وقلتُ له : أتيتَ رُحباً وسَعَةً . وقولُه « مَرْحَباً » انتصَب على المصدر . ويقال : رَحُبَتْ بلادُكَ رُحباً ورَحَابَةً . وحُكى رَحِبَتْ بلادُك بكسر الحاء تَرْحَبُ رُحْباً . والرَّحْبَةُ والرَّحَبَة ، واحدٌ وهما ساحةُ المسجدِ .

وقوله « ولو خِفْتُ » يريد بخِفْت رجَوت ، وهم يَضَعون كلَّ واحدٍ من الرّجاء والخَوفِ موضعَ الآخَر . ألَا ترى قوله تعالى : ﴿ إنّهم كانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً ﴾ ، أى لا يخافون . وقول الآخر ، وهو الهذَليّ : « يَرْجُونَ لَسْعَهُ [3] » . يعنى النَّحل . فيقول : لو رجوتُ أنِّى إذا تكرّهتُ الشَّيب وتسخَّطتُه ،

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٨١ ص ٨٦٠ .

(٢) كذا جاء البيت بالخرم فى النسختين ، وجاء تاما فى التبريزى : « ولما رأيت الشيب» .

(٣) كذا فى النسختين . والمعروف كما عند التبريزى : « لم يرج لسعها » . وهذا قطعة من بيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١٤٣) ، وهو بتمامه :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفها فى بيت نوب عواسل

وكفَفت عن إظهار الرِّضا به والسُّرورِ لطَلْعتِه فارقَنى وانحرَفَ عنِّى ، لَرُمْت ذلك ، ولـكنْ إذا حلّ ما يكرهه فطاوعَتْ نفسُه به ، وتلقَّاه بالصَّبر عليه ، كانَ ذلك أعْوَنَ على زَوال الـكَراهة فيه ، وإلَّا اجتمعَ وجهانِ ممـا يشُق نُزولُه به ، واغتمامُه له . وقوله « فسامَحَتْ به النَّفس » أى ساهَلَتْ . ومنه قيل : عُودٌ سَمْحٌ أى لا أُبَنَ فيه[1] . ومما يَجرِى مَجرَى المَثَل : « إذا لم تجد عِزًّا فسمِّحْ » أى لِنْ وهِنْ . وقولُه « كان للـكُره أذْهَبا » كان الحُـكْمُ أن يقول أشـدّ إذهاباً ، لأنّ الفعل منه ليس بثلاثىٍّ . ولـكنْ على طريقة سيبويه يجىء أن يُبنَى فِعل التعجُّب مما كان على أفعَلَ أيضاً ، وإن كان البابُ على الثُّلاثىّ . وقد يمكن أن يقال : إنَّما قال « أَذْهَبا » على حذف الزَّوائد . ألا ترى قولَه :

فإنَّا وَجَدْنا العِرضَ أفقَرَ ساعةً إلى الصَّوْنِ من بُرْدٍ يمانٍ مُسَهَّمِ[2]

والفعل لم يجئْ إلَّا افتقَرَ ، فكأنَّه نَوَى حذفَ الزَّوائد وردّه إلى فقُرَ ، وعليه جاء « فقيرٌ » وإن لم يُستعمَل الفعل .

وقوله « ولـكن إذا » لـكنْ جاء فى هذا المـكان لتَرك قِصَّةٍ إلى قصَّةٍ ، وهى إذا جاءت عاطفةً كانت لاستدراكٍ بعد النَّفى . وجواب « لو » فى قوله : لو خِفْتُ « رُمْتُ أن يتنكبا » ، وجواب إذا من قوله « إذا ما حَلّ كرهٌ » : « كان للـكُره أذهَبا » . ويوماً انتصَبَ على الظَّرف ، والعامل فيه حَلّ ، واسم كانَ ما دلّ عليه قولُه سامحت ، كأنَّه قال : كانَ المسامحةُ أذهَبَ للـكره .

---

(١) الأبن : جمع أبنة ، بالضم ، وهى العقدة فى العود ، والعيب .

(٢) البيت لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان (سهم) ، والرواية فيهما : « أحوج ساعة » .

٤٠١

وقال المرّار بن سعيد(١) :

١ ـ إذا شئت يَوْماً أن تَسُودَ عَشِيرَةً فبالحِلْمِ سُـــدْ لا بالتَّسَرُّعِ والشَّتْمِ
٢ ـ ولَلْحِلْمُ خَيْرٌ فاعْلَمَنَّ مَغَبَّـــةً مِنَ الجَهْلِ إلّا أن تَشَمَّسَ مِنْ ظُلْمِ

جواب وقوله « إذا شئت » قوله فبالحلم . والمعنى أنَّ السِّيادة لهـا آلاتٌ ، وإليها مَرَاقٍ ودرجات ، فمَنْ أتاها من وَجهِها ومأتاها تَمَّتْ له ؛ وذاك أنَّ منها استعمالَ الحِلْمِ ، وتركَ التعجُّل ، وكَظْمَ الغيظِ ، وتسهيلَ الجانبِ ، والاحتمالَ فى النَّفس والمال والجاه ، إلى غير ذلك ممَّا يطولُ ذِكرُه . فمَنْ صبرَ فى طلب الرِّياسة وحُصول سيادةِ العشيرة ، على هذه الخصال ، فهو حقيقٌ بإدراكها ، فإنْ أخذَ يُخَشِّنُ جانبَه ويقطِّب وجهه ، ويغلِّظ كلامَه ، ويوسِّعُ غيظَه ويُفظِّظ قلبَه ، ويعجِّل الطَّاعةَ له ، نفرت العشيرةُ منه ، وبانوا عنه . لذلك قال مَنْ قال :

فإنْ كنتَ سيِّدَنا سُـدتَنا وإن كنتَ للخالِ فاذهبْ فَخَلْ(٢)

وقوله « ولَلحِلمُ خيرٌ فاعلَمَنَّ مغبّةً » انتَصب مغبّةً على التمييز . وقوله « فاعلمنَّ » حَشْوٌ . فإن قيل : كيف اختِيرَ هذا البيتُ بهذا الحَشْو ، والمتكلمُ إذا استَعملَ فى كلامِهِ مع المخاطب اعلَمْ واسمَعْ وما يجرى مجراها ، عُدّ ذلك منه عِيًّا ؟ قلتَ : إنَّ هذه اللَّفظةَ فى هذا المـكان مُحتاجٌ إليها فى عُمدة المعنى المقصود ،

---

(١) هو المرار بن سعيد بن حبيب الفقعسى الأسدى ، وهو من مخضرمى الدولتين ، وقيل : إنه لم يدرك الدولة العباسية : الأغانى (٩ : ١٥١ ـ ١٥٤) والخزانة (٢ : ١٩٣ ـ ١٩٧) والمؤتلف ١٧٦ والمرزبانى ٤٠٨ ـ ١٠٩ والشعر والشعراء ٦٨٠ ـ ٦٨٣ .

(٢) البيت ٤ من الحماسية ٦٧ ص ٢٥٢ .

وإنَّ ما أشرْتَ إليه إنَّما يكون زوائدَ وفُضولًا لا يُحتاج إليه ، فإذا وَصَل المتكلم بها كلامَه مستعيناً بها عُدَّ منه خطَلًا وعيًّا ، وهو فى هذا المكانِ وصَّاه بالفِكر فيما أوردَه والتبيُّنِ له ، وبمعرفةِ الحِلْم ووقتِه حتَّى يَدْرِىَ كيف يأخذُ به . فقوله : فاعلمنَّ ، فاعرِفنَّ ، ومفعوله محذوف ، والمراد فاعلمنَّ الحِلْمَ ومغبَّتَه ، فأطلَقَ . رجع فيما أشار به مطلقاً ، واستثنى فى كلامه فقال : إلَّا أن تَنْفِرَ من ظُلْمٍ يَركبُك ، وهضيمةٍ تَنالُك ؛ فإنَّ الجهلَ فى ذلك الوقتِ أرجحُ فى الاختيار من الحِلْم ، إذ كان صَدْمُ الشَّرِّ بالشَّرِّ أقرب ، ودفعُ الجهلِ بالجهل أحْلَمَ . ويقال : غَبَّت الأمور ، إذا صارتْ إلى أواخرها . وإنَّ لهذا الأمرِ لَمَغَبَّةً محمودة ، أى عاقبة . وقوله « تَشَمَّسَ » ، يقال إنَّه لَذُو شِماسٍ شديد ، إذا كان عَسِرًا . وشَمَس لى فلانٌ إذا تنكَّرَ وهمَّ بالشَّرِّ .

٤٠٢

وقال عِصامُ بنُ عُبيدِ الله[1] :

١ — أَبْلِغْ أبا مِسْمَعٍ عَنِّى مُغَلْغَلَةً ... وفى العِتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ

٢ — أَدْخَلْتَ قَبْلِىَ قَوْمًا لم يَكُنْ لَهُمُ ... فى الحقِّ أن يَدْخُلُوا الأبوابَ قُدَّامِى[2]

قوله « مغلغلة » أى رسالةً يُغلغِلها إلى صاحبها . وهو من قولهم : تغلغل الماء ، إذا دخَلَ بين الأشجار ، وغلغلتُه أنا[3] . وقال الدُّريدىُّ : الغَلغلة : دُخول الشىء فى الشىء . وقال الخليل : الغَلغلة : سُرعة السَّير . يقال تَغلغَلوا ومَضَوْا . ورسالةٌ مُغلغَلة : محمولة من بلدٍ إلى بلد . وقوله « وفى العِتاب حياةٌ

(١) التبريزى : « عصام بن عبيد الزمانى » . على أن الأبيات رواها الجاحظ فى البيان (٢ : ٣/٣١٦ : ٣٠٢/٤ : ٨٥) منسوبة إلى همام الرقاشى .

(٢) الجاحظ : « أن يلجوا الأبواب » .

(٣) فى الأصل : « وغلغله إياه » ، صوابه فى ل .

بين َ أقوام » اعتراضٌ ، وقد مرَّ القول فى فائدة الاعتراضات . والمعنى أنَّهم ما داموا يتعاتَبُون فإنَّ نيَّاتِهم تُعاوِد الصَّلاحَ وتُرَاجِعه ، وإذا ارتفع العتابُ من بينهم انطوتْ صدورُهم عن الإحَن والضغائن ، وظهَرَ الشَّرُّ على صَفَحات أقوالهم وأفعالهم ، فاهتاجت الحَمِيّات ، وأنتجت مِن سُوء عقائدهم البَلِيّات . وفى طريقته قال أبو تمّام :

* إن الدَّمَ المُغْتَرَّ يحرسُهُ الدَّمُ[1] *

وقال غيره : « القَتْلُ أقَلُّ للقَتْل »[2] . فأمّا قولُ الله تعالى : ﴿ ولَكُمْ فى القِصَاصِ حياةٌ ﴾ فإنَّ بلاغةَ القرآنِ لا تُدانيها بلاغةٌ ، وكلّ كلامٍ وإن علا ينحطُّ دونه . والرِّسالة قولُه : أدْخلْتَ قبلِىَ قوماً . والمعنى أنَّك قدّمْتَ علَىَّ فى الإذن والدُّخول قومًا لم يكن من حقِّهم أنْ يتقدّموا علىَّ إذا ورَدْنا الأبواب ، ولا بلَغَتْ من محالِّهم ورُتَبهم أن تُرفَع على ما يُقسم لى فى مجالس الكِبار . وقوله « أنْ يَدخُلوا الأبوابَ » حقُّه عند سيبويه أن يقال أنْ يدْخُلوا فى الأبواب ، يجعلُه مما يتعدَّى فى الأصل بحرف الجرّ ثم يُحذف الجارُّ من اللفظ تخفيفاً . ومسألة الكتاب[3] : دخلْتُ البيتَ . وغيرهُ يذهب إلى أنّه مما يتعدّى تارةً بنفسه وتارة بحرف الجرّ ، وفى أنّهم يقولون دخلت فى الأمر فيُعدّى بفى لا غير ، وأنّ ضدّه وهو خرجت يتعدّى بحرف الجر ، بيانٌ لصحّةِ قولِ سيبويه .

---

(١) فى الأصل : « المغنى » ، صوابه فى ل . والمغتر ، بالغين المعجمة : الغافل . وفى ديوان أبى تمام ٢٧٤ : « المعتر » بالعين المهملة . وصدر البيت :

* وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم *

وقبل البيت بيت سائر ، وهو :

فقسا لتزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحياناً على من يرحم

(٢) كذا فى النسختين . ويروى : « القتل أنفى للقتل » .

(٣) أى كتاب سيبويه .

٣– لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كنتُ أَكرمَهُمْ مَيْتًا وأبعَدَهمْ مِن منزلِ الذّامِ[١]

٤– فقَدْ جَعَلْتُ إذا ما حاجتى نَزَلَتْ ببابِ دَارِكَ أَدْلُوها بأقوامِ[٢]

[قوله[٣]] : « لو عُدّ قبرٌ وقبرٌ » المراد به والأصل فيه : لو عُدَّت القبورُ قبراً قبراً ، إلَّا أنّه اختصر الكلامَ وحذَفَ القبورَ ورفَعَ قبراً على أن يقوم مقامَ الفاعل ، فلما رفعه وأزالَهُ عن سَنَن الحالِ فى نحو قولهم : بِعْتُ الشّاء شاةً شاة ، وقَبَضْتُ المالَ دِرهماً درهما ، وصُمت رمضان يوماً يوما ، ردَّ حرفَ العطف ، وإنما قلتُ هذا لأنَّه من مواضع العطف ، لكنّهم اتَّسَعُوا فى الحال لعلم المخاطب . وقال سيبويه : إنّ الغالب على هذا البابِ كلِّه أن يكون انتصابُه من إحدى الجهتين : الحالِ أو الظَّرف ، لأنّ الاتِّساع منهم على هذا الحدِّ والجواز لم يكنْ إلَّا فيهما . والظَّرفُ كقوله : لقيتُه يومَ يومَ ، وصباحَ مساء ، وما جانسهما . قال : والإفراد فى هذا الباب لا يجوز حمايةً على المعنى الذى يتضمَّنه التَّكرار .

وإن قيل : هل يجوز على مابيَّنتَ : لو عُدَّت القبورُ قبر وقبر ، على البدل ، وكذلك يُبيّن حسابُه باب وباب ؟ قلتَ : لا يجوز ذلك ، لأن القصدَ والغرضَ من الكلام ، وقد أُجرِىَ على ما تقدَّم ، التفصيلُ والتتابع ، ومن الإبدال على ما ذكرتَ لا يتبيَّن ذلك . ومع ذِكر القبور يُحذَف الواو من الاسمين المترجِمين عن الحال بعدَه . لا يجوز بعتُ الشاء شاةً وشاةً ؛ فكذلك هذا ، على أن بابَىِ الحالِ والظَّرف يحتملان من التوسُّع ما يَضيق عنه أكثرُ أبواب الإعراب

(١) البيان : « كنت أكرمهم قبراً » .
(٢) البيان : « إذا ما حاجة عرضت » .
(٣) التكملة من ل .

وَيَعجِز ، وإذا كان كذلك لم يجزْ تجاوزُهما بالاتِّساع فيهما إلى غيرهما . ألاَ ترى أنه لو قال : لو عُدَّ قبرانِ كنتُ أكرمَهما مَيْتاً ، لم يجُزْ ، ولم يتبيَّن منه ذلك المعنى ، وإن كان المعطوف والمعطوف عليه إذا قلت جاءنى رجلٌ ورجلٌ بمثابة جاءنى رجلان .

ومعنى البيت : لو عُدَّتِ القُبورُ مُنوَّعةً مفصَّلة — وإنما يعنى أسلافَ مَن قُدِّمَ عليه فى الإذن والدُّخول خؤولةً وعمومة — لكنتُ أكرمَهم أباً ، وأشرفَهم بيوتاً . فكَنَى عن البيت والمَنصِب بقوله « وأبعدَهم من منزل الذَّامِ » أى من منزل العَيب ، لأنَّ الذَّامَ والذَّمَّ بمعنًى . يقال : ذامَه يَذيمُه ، كما يقال ذَمَّه يَذُمُّه ، وحيث يحصُل العيبُ يحصُل الذّمُّ ، أُظْهِر أو لم يُظْهَرْ .

وقوله « فقد جَعَلْتُ إذا ما حاجَتِي نَزَاَتْ » يريد بجَعَلْت طَفِقْت وأقبلت . يقال : جعَلَ يفعل كذا . والمعنى : أنِّى قعدتُ عنك وتركتُ زيارتَك ، وإذا اتَّفق ما لا بدَّ لى منك ومن مَعُونتك من حاجةٍ أو عارضِ سببٍ فإنِّى معتمدٌ على غيرى فى التَّنجُّز والاستسعاف . ومعنى « أدلوها » من قولك دلَوت الدَّلوَ ، إذا أخرجتَها من البئر ، أى أتسبَّب بغيرى ، وأصونُ من التبذُّل عِرضِى .

٤٠٣

وقال شَبِيبُ بن البَرْصَاء (١) :

١ — وإنِّى لَتَرَّاكُ الضَّغِينةِ قَدْ بَدَا ثَرَاها مِنَ المَوْلَى فَمَا أَستَثِيرُها (٢)

٢ — مَخافَةَ أَنْ تَجْنِى عَلَىَّ وإنَّما يَهِيجُ كَبِيراتِ الأُمورِ صَغيرُها

---

(١) هو شبيب بن يزيد بن جمرة المرى . والبرصاء أمه . وشبيب شاعر إسلامى بدوى من شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى عقيل بن علفة . الأغانى (١١ : ٨٩ – ٩٤) .

(٢) التبريزى : « فلا أستثيرها » .

يقول: إنِّى أصابرُ مُوَالِىّ وأحتملُ أذاهم، وأعفِّى على فَرَطاتهم ما وجدتُ سبيلًا إلى الصَّبر، فأتركُ ضَغائنهم تبدو أوائلُها، وتظهر مَخايلها، ولا أكشفُ عنها ولا أطلب ثَوَرانَها، مخافةَ أنْ يَستفحِلَ الشّرُّ ويرجعَ الصَّغيرُ منه كبيراً، وسهلُه عسيراً؛ فإنّ أوائلَ الأمور كلِّها ضعيفةٌ ضيِّقة، فإذا اتّفقَ لها مَن يَهيجُها ويَزيد فى موادِّها قوِيَتْ واتّسعت. والتَّرّاك: بناء المبالغة، وهو الكثير التَّرك للشّىء، وليس هو باسم الفاعل من تَرَك. والضَّغينة والضَّغَن والضِّغْن[1] واحد، وهى الحقد والعَداوة. ويقال: ضَغِن علىّ واضطَغَن. وقال الخليل: الضِّغن فى الدّابّة: عَسَرهُ والتواؤُه. ودابّةٌ ضَغِنَةٌ، إذا نَزَعتْ إلى وطنِها. والثَّرَى: النَّدَى، والفعل منه ثَرِى. والمراد به هاهنا ما يُستدَلُّ به على كامن الحِقْد. ويقال: ثار الأرنبُ من موضِعِها، واستثَرتُها أنا.

وقوله «مخافةَ» انتصَبَ على أنّه مفعول له، و«أن تَجْنِى» فى موضع المفعول منها، وقد أضافها إليه. وقوله «صغيرها» يراد به الكَثْرة، أى صغائرها.

٣ — لَعَمْرِى لَقَدْ أشْرَفْتُ يَوْمَ عُنَيْزَةٍ على رَغْبةٍ لو شَدَّ نَفْسِى مَرِيرُها

٤ — تَبَيَّنُ أعقابُ الأُمورِ إذا مَضَتْ وتُقبِلُ أشباهًا عَليك صُدُورُها

قوله «على رغبة» أى على مرغوبٍ فيه، كأنّه كان ظَهَرَ له من الفُرَص فى صاحبه ما لَو انتهزَها ولم يَغفُل عنها لكان فيها الاشتفاء منه، ودَرَكُ المطلوب فى بابه، فلمَّا لمْ يفعلْ وأصرَّ صاحبُه على مَسَاءته أخذ يتحسَّر. وقوله «لو شَدَّ نفسى مريرُها» يريد: لو قوّى نفسى عَزِيمُها، وحصيفُ رأيِها. والمَرِير: المُمَرّ المحكم. ووُصِفَ الحبل به لذلك. ويقال: استمَرَّ مريرُ فلانٍ، إذا استحكَمَ رأيُه واستحصَفَ. وعُنيزة: مَوضع[2].

(١) هذه الكلمة ساقطة من ل.

(٢) موضع بين البصرة ومكة، كما فى معجم البلدان.

وقوله « تَبيّنُ أعقابُ الأمور إذا مضتْ » مثلُه قول القطاميّ :

ولا يَعْلَمُ الغيب امرؤٌ قبل ما يَرَى ولا الأمْرَ حَتَّى تَسْتَبِين دوابِرُه

وأكشفُ منه قول حُميدِ بن ثور :

أُشَبِّهُ غِبَّ الأَمْرِ ما دَامَ مُقْبِلاً ولـكنَّما تِبْيَانُهُ فى التَّدَبُّرِ(١)

وأعقاب الأمور : أواخرها . ويروى : « تبيّنُ أدبار الأمور إذا انقضتْ » يُراد به تَتبيَّنُ . وانتصب « أشباها » على الحال .

٥ — إذا افتخَرتْ سَعْدُ بنُ ذُبيانَ لم تَجِدْ سِوَى ما ابتَنَيْنَا ما يَعُدُّ فَخُورُها

٦ — ألم تَرَ أنَّا نُورُ قَوٍّ وإنّما يُبيِّنُ فى الظَّلْماءِ للناسِ نورُها

يقول : مَفاخِرُ سعدٍ ومَبانى مكارمِها على ما أسَّسه قديمًا ، وعَمَّره حديثًا ، فمتى استُعرِضَتِ المساعِى فى منافرة الخُصوم لم تجدْ بنو سعدٍ مايعتمده فَخُورُها ، ويُكاثِرُ به خَصِيمُها ، إلاّ ما شيَّدناه على مرِّ الأيام ، وتعاقُبِ الأحوال . فقوله « سوى ما ابتنينا » استثناء مقدَّم . و« ما » يعد فى موضع مفعول لم تجد .

وقوله « ألم تَرَ » تقرير لمن تصوَّره مخاطَباً فيقول : أمَا علمت أنَّا لأهلِ قوٍّ(٢) بمنزلة النُّور للأبصار ، فهم بنا يهتدون ، وبمعالمنا يقتدون ، ولمراسمنا يقتفرون(٣) ، وبسدا رأْينا يستضيئون ، ولولا ذلك لكانوا يتوقَّفون(٤) فى مَرَاشدهم فلا يَقضُون ، ويتحيَّرون فى آرائهم(٥) فلا يَمضُون ، كما أن الناسَ لولا ما يُمِدُّ به النورُ أبصارَهم فى رَواكدِ الظُّلَم حتى يتبيَّنوا المرئيّات ، ويتميَّزوا أشباحَ المدركات على حقائقها ، لوقَفوا حَيارَى لا يتقدّمون ولا يتأخَّرون .

(١) البيت لم يرو فى ديوان حميد ، ولا فى ملحقات ديوانه .
(٢) قو : منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة .
(٣) الاقتفار : التتبع ، وأصله فى تتبع الأثر .
(٤) ل : « يتوقعون » ، صوابه فى نسخة الأصل .
(٥) فى الأصل : « مراشدهم » ، صوابه فى ل .

ومفعول « يُبيِّن » محذوف ، والضمير من نورُها يعود إلى الظَّلماء لما كان يتعقّبها . وهم يُضِيفون الشيء إلى الشيء لأدنى تناسُب بينهما .

٤٠٤

وقال مَعْن بن أَوْس(١) :

١ — لَعَمْرُكَ ما أَدْرِى وإنِّى لَأَوْجَلُ   على أيِّنا تَعــــدُو المنِيَّةُ أَوَّلُ

لعمرك مبتدأ ، وخبره مضمر ، وفيه معنى القسم ، وقد تُقُصِّىَ القولُ فيه . وقوله « إنِّى لأوجَلُ » ممـا جاء فيه أَفعَلُ ولا فَعْلاءَ له ، كأنَّهم استغنَوا عن وَجْلاء بوَجلِةٍ . ويقال : وَجِلتُ أَوْجَلُ وآجَلُ وَجَلًا ، وهو وَجِل وأَوْجَلُ . وقلبى من كذا أوجَلُ وأَوْجَر ، بمعنًى . ويروى : « تَعدُو المنيَّة » و « تغدو » ومعناهما ظاهر . وأوّلُ ، بُنِى على الضمّ ، كما فُعِــلَ ذلك بقَبْلُ وبَعْدُ ، وذاك أنّه لمّـا كان أصله أفعلَ الذى يتمُّ بمن ، وأُضيف مِن بعد ، وجُعل الإضافةُ فيه بدلا مِن من ، والمضاف إليه من تمامه ثم حَذف المضاف إليه لِعلِم المخاطَب به ، وجُعل فى نفسه غايةً ، وكان معرفةً كما كان قبلُ وبعد كذلك وجَبَ أن يُبنَى كما بُنيا . وموضعه نصبٌ على الظَّرْف . ومعنى البيت : وبقائك ما أعلم أيُّنا

(١) معن بن أوس : شاعر فحل من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، له مدائح فى جماعة من الصحابة ، وعمر إلى زمان ابن الزبير ، وهو القائل له : « لعن الله ناقة حملتنى إليك » . الإصابة ٨٤٤٥ والأغانى (١٠ : ١٥٦) . وفى الأغانى (١٠ : ١٦٢ — ١٦٣) أن القائل هو عبد الله بن فضالة . وفى الخزانة (٢ : ١٠٠) أن قائلها عبد الله بن الزبير الأسدى ، وكذا فى زهر الآداب (٢ : ١٦٤ — ١٦٥) . وانظر العقد (٦ : ١٧٦) . وروى التبريزى من سبب الشــعر أن معن بن أوس كان له صديق وكان معن متزوجاً بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبداً . فأنشأ معن يقول يستعطف قلبه عليه ، ويسترقه له . وفى الأبيات ما يدل على القصة ، وهو قوله :

فلا تغضبن أن تستعار ظعينة   وترسل أخرى كل ذلك يفعل

يكون المقدَّمَ فى عَدْوِ الموت عليه ، وانتهاء الأجل إليه[١] ، وإنِّى لخائفٌ مترقِّب. فموضع « على أيِّنا » نصب لأنَّه مفعول ما أدرى ، والذى لا يدريه هو مقتضَى هذا السُّؤال . وقوله « إنِّى لأوجل » اعتراض .

٢ — وإنِّى أَخُوكَ الدَّائمُ العَهْدِ لم أَحُلْ إنْ أَبْزَاكَ خَصْمٌ أو نَبا بِكَ مَنْزِلُ[٢]

٣ — أُحارِبُ مَن حاربتَ مِن ذِى عداوةٍ وأَحْبِسُ مالى إن غَرِمتَ فَأَعْقِلُ

يقول : إنِّى وَدِيدُكَ الذى يدومُ عهدُه ، ويتّصل على تقلُّب الأحوالِ وتبدُّلِ الأبدال ، ولا يَحُول [إن تَطاوَلَ[٣]] عليك خصم ، أو بطَشَ بك عدوّ ، أو ضاق عنك منزل ، فاحتجتَ إلى التحوُّل عنه والاستبدال به . وقال الخليل : يقال أبْزَيْتُ بفلانٍ ، إذا بَطَشتَ به وقَهرتَه . وحكى الدُّريدىُّ : بَزَاه يبزوه بزواً ، إذا قهرَه . وأنشد :

جارِى ومولاىَ لا يُبْزَى حريمُهُما وصاحبى من دَواء السِّرِّ مُصْطَحَبُ[٤]

ويُبزَى يكون مستقبَل بُزِىَ وأُبْزِى جميعاً . والله أعلم . ويجوز أن يكون أبزى منقولاً بالألف عن بَزِى يَبزَى بَزًى فهو أَبْزَى ، وامرأة بَزْواءُ ؛ وهو دُخول الظهر وخُروج البطْن . ويكون المعنى : إن خَفَض منك خَصْمٌ ، أو طأطأ من إشرافك عَدُوٌّ ، وحمَّلك من الثِّقْل ما يَبزَى له ظهرُك ، فلا تُطيق الثَّباتَ تحته ، والنهوض به .

وقوله « أحاربُ من حاربْتَ » هو تفسيرُ دوامِ عهده وثباتِ ودِّه . والمعنى تجدُنى ذابًّا عنك واقعاً معك ، أرصد الشَّرَّ لأعدائك ، وأدافعهم دونك ، وإن

(١) ل : « به » .

(٢) التبريزى : « لم أخن » ، ونبه فى شرحه على الرواية هنا .

(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .

(٤) مصطحب ، بالحاء المهملة المفتوحة . وفى اللسان (بزا) : « مُصْطَخِب » ، بالخاء المعجمة المكسورة .

أصابك غُرْمٌ حَبَسْتُ مالى عليك ، واحتملت فيه الثِّقل عنك . وكان الواجب أن يقول : فأعقِلُ عنك ، لأنه يقال عَقَلْتُه إذا أعطيتَ دِيَتَه ، وعقلتُ عنه إذا غرِمت ما لَزِمه فى ديته . وقال الخليل : الغُرْم لزوم نائبةٍ فى مالٍ من غير جناية . والمالُ إذا أُطلق يراد به الإبل . ويجوز أن يكون معنى فأعقِلُ : أشدُّها بعُقُلِها بفنائك ، لتدفعها فى غَرامتِك .

٤ — كأنك تَشْفِى منكَ داءً مَسَاءَتِى وسُخْطِى وما فى رَيْثَتِى ما تعجَّلُ[(١)]

قوله « مساءتى » يريد مساءتَك إلىَّ ، وكذلك « سُخْطى » يريد سُخطَك علىَّ ، فأضافهما إلى المفعول . ويُقال : مساءة ومسائِيَة . والسُّخط والسَّخَط لغتان ، ومثله السُّقْم والسَّقَم ، والعُدْم والعَدَم ، وهو نقيضُ الرِّضا . ويقال : سخِطْتُه وتسخَّطته ، إذا لم تَرْضَ به ، وإن كان فى التفعُّل فضلُ تكلُّف . ومعنى البيت أنك تستمرُّ فى إساءتك إلىَّ وسُخطِك علىّ ، حتى كأنّ بك داءً ذاك شفاؤه ، وما تطلبُه من عَجَلتى لا تجدُه فى بطئى ، أى ما تقدِّره يتعجَّلُ لك من المكاشَفة بينى وبينك ، واستثارةِ الحِقد الكامِن فيك ، لا يحصُل لك منِّى متباطئاً أيضاً . والمعنى أنِّى أصابِرُك وأترُكك على مداجاتك .

٥ — وإنْ سُؤْتَنى يومًا صَفَحْتُ إلى غَدٍ لِيُعْقِبَ يومًا منك آخَرُ مُقْبِلُ

٦ — ستَقْطَعُ فى الدُّنيا إذا ما قطعْتَنى يمينَك فانظُرْ أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ

قوله « وإنْ سؤتَنى يومًا » يقال : سُؤت فلانًا ، وسؤت [له[(٢)]] وجهَه

---

(١) ترتيب سائر القصيدة عند التبريزى يخالف ترتيب المرزوقى . فالتبريزى يروى هذا البيت بعد البيت الخامس ، ويروى التبريزى بعد الخامس بيتاً لم يروه المرزوقى . وهو :

وإنِّى على أشياء منك تريبنى قديمًا لذو صفح على ذاك مُجمِلُ

ثم يروى بعده البيت السادس فالسابع إلى آخر المقطوعة .

(٢) هذه من ل .

مَساءةً ومسائيةَ . والمعنى : أنِّى لا أؤاخِذك بما يظهر من مَساءتك ، بل أقابلُه بصفحٍ جميلٍ عنك ، انتظاراً لفيئةٍ تَظهرُ منك فى مُقتَبَل أمرِكَ ، ومراجعةٍ تعفى على قبيحِك ، فإن لم يتَّفقْ منك عُقبَى حسنةٌ تُنسِى زَلاّتك ، بل تُتابِع بين مسبّبات القطيعةِ وموجِباتها بما تُظهرهُ من الجَفاء والعُقوق فيما يجمعنى وإياكَ ، فإنك تقطعُ أخاً هو فى مُظاهرتِك ، والانطواءِ على مساعدتك ، والدُّخول تحت طاعتك فى كلّ ما يعِنُّ ويعرض لك ، بمنزلةِ يَدِكَ اليمنى ، فانظُرْ مِن بَعْدُ مَن تعتاضُ منه ، وعلى مَن تعوِّل إذا صارمته . وانتصب « أىَّ كَفٍّ » بـ « تَبدَّل » . وقوله « ليعقِبَ يومًا منك آخر » يجوز أن يكون مِن قولهم أعقب هذا ذاكَ ، أى صار مكانَه ، ويكون المعنى : ليصيرَ مكانَ يومٍ من أيّامك مذمومٍ يومٌ آخرُ منها مقبلٌ محمود . وهذا حسن . ويجوز أن يكون أعقَبَ غيرَ متعدٍّ ، ويكون من أعقب الأمرُ عُقباناً وعُقْبَى ، أى صار له عاقبة . ويرتفع « آخرُ » بيعُقب ، ويكون قوله يومًا منك ظرفاً . والمعنى : ليصير ما يُقبل من أمرِك يومًا ذا عاقبةٍ محمودة . ويجوز أن يكون من أُعْقِبَ فلانٌ عزًّا ، أى أُبدِل ، ويكون المعنى : ليُعقِبَنا يومًا منك محموداً أمرٌ آخرُ مؤتَنَفٌ . ورأيت من يرويه : « ليَعْقُبَ يومًا منك آخَرُ » بفتح الياء ، ويكون من قولهم عَقَبَ فلانٌ فلاناً إذا خلَفه ، وهما عَقيبان ، وقد اعتَقبا وتعاقَبا . ويكون المعنى : ليَخلُفَ يومًا منك يومٌ آخرُ مقبِل .

٧ — وفى الناسِ إن رَثَّتْ حبالُكَ واصِلٌ ... وفى الأرضِ عَن دار القِلَى مُتحَوَّلُ

٨ — إذا أنْتَ لم تُنصِفْ أخاكَ وجدتَهُ ... على شَرَفِ الهِجرانِ إن كان يَعقِلُ

٩ — ويركَبُ حدَّ السيفِ مِن أن تَضيمَهُ ... إذا لم يكُن عن شَفْرةِ السَّيفِ مَزحَلُ

قوله « وفى الناس إن رثَّتْ حبالُك واصل » إظهارٌ للزُّهد فى وِداده إذا

لم يستقمْ معه . ويقال : رثَّ الثَّوب يَرِثُّ رُثُوثاً ورَثاثةً . وقال أبو زيدٍ وأبو عبيدة : رَثَّ المتاعُ وأرَثَّ جميعاً . وأنشد لعَدِيٍّ[1] :

* أَرَثَّ جديدُ الوَصْلِ من أُمِّ مَعْبَدِ[2] *

وفي طريقة ما قالَه قولُ لبيد :

واحْبُ المُجَامِلَ بالجَزيلِ وصُرْمُهُ   باقٍ إذَا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُها[3]

وقولُ أوس :

وإن قالَ لي ماذا تَرى يستشيرني   يَجِدْني ابن عَمٍّ مِخْلَطَ الأمرِ مِزْيَلا

فيقول : إذا رغبتَ عن مواصلتي ، وتقَطَّعَت حبالُ الوُدِّ بيني وبينَك ففي الناس واصلٌ غيرُك ، وإذا نَبَا بي جِوارُك ، وضاقَ عنّي أرضُك وديارُك ففي جوانب الأرض سَعة ومَرْحل عنك ، سيَّما والتحوُّل عن دار البُغْض والنُبُوِّ لي عادةٌ أعتادُها ، وسُنَّةٌ أسيرُها ولا أعدِلُ عنها . واعلم أنَّك إذا لم تُعطِ أخاك النَّصَفة ولم توفِّرْ حقوقَه متوخِّياً المعدِلة ، ولم يوجِبْ له عليك مِثلَ ما تُوجِبه لنفسك عليه ، ألفيتَه هاجراً لك ، مشارفاً قطيعتَك ، مُستبدلاً بك وبمؤاخاتك إن كانت به مُسْكَةٌ ، أو يمتلكه عقلٌ ومعرفة ، ثم لا يُبالي أن يركب من الأمور ما يقطعه تقطيعَ حدِّ السيف ويؤثِّر تأثيرَه فيه ، مخافة أن يَدخلَ عليه ضَيْمٌ ، أو يلحقَه عارٌ واهتضام ، متى لم يجد عن رُكوبه مَبْعَداً ومَعْدِلاً . وكما قال هذا « دار القِلَى » قال غيره[4] :

---

(١) كذا . والصواب أنه دريد الصمة ، كما في اللسان (رثث) . وقصيدة دريد هـذه في الأصمعيات ٢٣ ليبسك وجمهرة أشعار العرب ١١٧ .

(٢) عجزه كما في المراجع السابقة ومقاييس اللغة (عقب) :

* بعاقبة وأخلفت كل موعد *

(٣) كذا جاءت الرواية في النسختين ، وضلعت بمعنى مالت . والرواية المعروفة في المعلقات « ظلعت » بالظاء .

(٤) هو عبد قيس بن خفاف البرجمي . البيت ٩ من المفضلية ١١٦ والأصمعية ٨٧ طبع المعارف ، وشواهد العيني (٢ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣) وشواهد المغني ٩٥ وحماسة البحتري ١٧٩ .

* دارُ الهَوانِ لمن رآها دارَه(١) *

وقوله « مِن أن تضيمه » معناه بدلاً مِن أن تضيمَه . ويجوز أن يريدَ بركوب السَّيف الصَّبرَ على الحربِ والموت . وشفرة السَّيف : حدُّه . والشُّفير : حرفُ كلّ شيء ، منه .

١٠ـ وكنتُ إذا ما صاحِبٌ رَامَ ظِنَّتى وبَدَّل سُوءًا بالذى كُنتُ أفعَلُ

١١ـ قَلَبْتُ لهُ ظَهرَ المِجَنِّ فلم أَدُمْ على ذاكَ إلاَّ رَيْثَ ما أتحوَّلُ

١٢ـ إذا انصَرَفَتْ نَفْسِى عن الشىء لم تكَدْ إليه بوجْهٍ آخِرَ الدَّهرِ تُقْبِلُ

يقول : وإذا رأيتُ صاحبي يتجنَّى على ويتجرَّم ، ويتطلَّب علىّ ما يُنْتج ظِنّةً ويولِّدُ تُهْمة(٢) ، وطَفِق يقبِّح آثارِى ، ويبدِّل حسناتى ، اتَّخذتُه عدوًّا ، وقلبتُ له ظَهرَ التُّرس متَّقياً منه ، ومُدَافِعًا له ، ولم أدُمْ على تلك الحال المتقدِّمة معَهُ إلاّ قدرَ ما أتحوّل ، وبُطْء ما أتنقّل . فقوله « رَامَ ظِنَّتى » أى رام ارتفاع التُّهْمة علىَّ . وقوله « بالذى كُنتُ أفعل » أى أفعلُه ، فحذف الضَّميرَ استطالةً لصِلة الذى .

وقوله « إذا انصرفَتْ نفسى » يريد أنِّى أمُدُّ نفَسَ التصبُّر ما أمكن ، فإذا أعجزَتْنى الحالُ العارضةُ عن الاحتمال انصرفتُ مالكاً عِنانى ، ثم لا يَثنينى على ما أعرضت [عنه](٣) شيء أبَدَ الدَّهر . « وقوله بوجهٍ » الباء تعلّق بقوله تُقبل أى لم تكدْ تُقْبِل إليه بوجهٍ من الوجوه ، وعلى لون من الألوان .

(١) عجزه : * أفراحل عنها كمن لم يرحل *
(٢) جاء فى اللسان (وهم) : « التهمة فعلة من الوهم ، والتاء بدل من الواو ، وقد تفتح الهاء » .
(٣) هذه من ل .

٤٠٥

وقال عَمْرو بن قَمِيّةَ(١) :

١— يا لَهفَ نَفْسِي على الشباب ولم   أَفْقِدْ بِهِ إذْ فَقَدْتُه أَمَما
٢— إذْ أسحَبُ الرَّيْطَ والمُروطَ إلى   أَدْنَى تِجَارِي وأَنْفُضُ اللِّمَمَا
٣— لا تَغْبِطِ المرءَ أنْ يقالَ له   أضْحَى فلانٌ لعُمرِه حَكَمَا(٢)
٤— إنْ سَرَّهُ طولُ عَيْشِهِ فَلَقَدْ   أضْحَى على الوَجْهِ طُولُ ما سَلِمَا

يتحسَّر على ما فاته من الشَّباب وحُسنِ أيَّامه ، ونَضارة العَيش به ، فقال : يا حسرةَ نفسِي على متقضِّي الشَّباب ومتولِّيه ، فإنَّ ما فاتنى منه لم أفارقْ به أمراً قريبا ، وشيئاً هيِّنا ، لكنِّي فقدت به صِحَّة بدنى ، ورَوعةَ وجهى ، وطيبَ عَيشى ، وقُوَّةَ رُوحى ، حين كنت أجُرُّ رَيطتى (وهو الإزار الذى ليس بملفَّق) ومُروطى (وهو جمع مِرْط ، وهو مِلحَفَة يُؤتزَر بها) إلى أقرب الخمَّارين إلىَّ وأنفُضُ شعَرَ رأسى إعجاباً به ، واستحساناً له ، وطرباً يُداخِلُنى فى جميع أسبابى معه . ثمّ قال مُزْرِيًا بالشَّيب وبما يكتسِبه المرء إذا علاه ، مِن إكبار النَّاس له ، وتقديمِهم فى المجالس إيَّاه ، ومن الرُّجوع إلى قولِهِ ، واستشارتِهم فيما يعِنُّ من الخطوبِ رأيَه ، فقال : لا تَغبطنَّ الرَّجلَ ولا ترْمُقنَّ ولا تجعلَنَّ(٣) مُحَسَّدًا إذا

---

(١) قميَّة : مسهل قميئة. وقميئة أمه ، وهو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل ، وهو جاهلى أقدم من امرئ القيس ، ولقيه امرؤ القيس فى آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر لما توجه إليه ، فمات معه فى طريقه ، وسمته العرب عمراً الضائع ، لموته فى غربة وفى غير أرب ولا مطلب . الأغانى (١٦ : ١٥٨ — ٦٠) والخزانة (٢ : ٢٤٧ — ٢٥٠) والمعمرين ٨٩ والمؤتلف ١٦٨ والشعراء ٣٣٦ — ٣٣٨ .

(٢) ل : « لا يغبط المرء » بالبناء للمفعول . التبريزى : « أضحى فلان لسنه » .

(٣) ل : «لا يغبطن الرجل ولا يرمقن ولا يجعلن» بالياء والبناء للمفعول .

قِيلَ فيه : صار فلان حَكَمًا فى عشيرتِهِ لكثرة تجاربه ، وامتدادِ عُمره ، ودوام مُزاوَلته للأمور ، واتّصال لقائه للنّاس وممارسته لهم وفيهم ، لأنَّهُ إن سَرّه امتداد عُمْره ، وتنفُّسُ عَيشه فلقد ظَهَرَ فى نفسه من ضعفٍ وانحناء ، وعلى وجهِه من ذُبولٍ وسُهوم إلى غيرِها مما يدلُّ على طولِ سَلامتِه التى هى الدّاء الذى لا دواءَ له . ومثل هذا قول الشاعر(١) :

* وَحَسْبُكَ دَاءً أن تَصِحَّ وتَسْلَمَا(٢) *

وقول الآخر(٣) :

فَدَعوتُ رَبّى بالسَّلامة جاهِداً ليُصِحَّنى فإذا السَّلامةُ داء

وقوله « أن يقال له » أراد لا يُغبَط لأنْ يقال له ، ومن أجل أن يقال له .
وقوله « أدنى تجارِى(٤) » إظهارٌ لغلُوِّه فى سِباءِ الخمر وسَرفِه ، ثم تبجُّح بإضافتهم إلى نفسه .

٤٠٦

وقال إياسُ بن القائف(٥) :

١ – يُقيم الرِّجالُ الأغنياء بأرضِهِمْ وتَرْمِى النَّوَى بالمُقْتِرِين المَرَاميا(٦)

(١) هو حميد بن ثور الهلالى . ديوانه ٧ والبيان (١ : ١٥٣) والحيوان (٦ : ٥٠٣) .
(٢) صدره : * أرى بصرى قد رابنى بعد صحة *
(٣) من شعراء الجاهلية ، كما فى الكامل ١٢٥ ليبسك .
(٤) كذا ورد تفسير هذه الكلمة هنا مع أنها فى البيت السابق ، فيبدو أن المرزوقى أضافها مؤخراً .
(٥) التبريزى : « هو من قاف يقوف إذا اتبع ، مثل يقفو . قال الشاعر :
كذبت عليكم لا تزال تقوفنى كما قاف وآثار الوسيقة قائف
وجمعه قافة ، ومن ذلك قيل للقوم الذين ينظرون إلى الولد فيحكمون من أبوه : القافة ، لأنهم يتبعون الشبه فى الأعضاء » .
(٦) التبريزى : « تقيم الرجال » .

يفضّل الغِنَى على الفَقر ويبعثُه على طلبه وارتياده . فقال : تَرَى المُوسِرِين يتودَّعون ، وتطول إقامتُهم فى دُورهم وأرَضيهم يُمتَّعون ، والفقراء تراهم ترتمى بهم البُلدانُ النّائية ، وتَقذِف النَّوَى بهم المَقاذِف البعيدة ، والمهالكَ المُستصعَبة ، فلا يهدؤون ولا يَقرّون . والنَّوى : وِجهةُ القوم التى يَنوُونَها . والمَرامى : جمع مَرمًى ، وهو المكانُ لا غَيْرُ هُنا ، لأنّه قابَلَ الأغنياء بالمُقْتِرين ، وأرضَ الأغنياء بمرامى الفُقَراء ، لأنّهم لا تَدْنُو بهم دارٌ أبدا ، فمجالُ تَسيارِهم لكَسْبِهم وتصرُّفهم كدُور أولئك لهم . ومَفْعَلٌ يكون اسماً للحدَثِ ، وزَمانِه ، ومكانِه .

٢ — فأكرِمْ أخاكَ الدَّهْرَ ما دُمْتُما مَعاً كَفَى بالمَماتِ فُرْقَةً وتنائيا

٣ — إذا زُرْتُ أرْضاً بعدطُولِ اجتنابها فَقَدْتُ صديقى والبلادُ كما هِيَا

يقول : أحسِنْ صُحبَةَ أخيك وصاحبك . وتناوَلْه بالإكرام طُولَ الدَّهرِ ومُدّةَ العمر ، فإن المنايا كفَتْك مفرِّقةً ومبعِّدةً . وقوله «الدَّهرَ» انتصب على الظرف ، وما دمتما انتصب على أنه بدل من الدّهر . وانتصب « معاً » على أنّه خبر ما دمتما . ومعنى ما دُمْتُما مَعًا : مدّةَ بقائِكما ودوامِكما مجتمِعَين . وقوله « كفَى بالمنايا » موضع بالمنايا رفعٌ على أنّه فاعلُ كَفَى . وانتَصَبَ « فُرْقَةً » على التمييز ، أو يكون فى موضع الحال ، كأنه قال : كفى بفُرقة المنايا فُرقةً . والتقدير : كفى فُرقَةً بالمنايا مِن فُرقةٍ ، أو كَفَى المنايا مفرِّقة ومتنائية .

وقوله « إذا زُرتُ أرضا بعد طُول اجتنابها » هذا الكلام توجُّعٌ وتشكٍّ من نوائب الدّهر . يقول : أرى الإخوانَ تَخترِمُهم المنايا فهم يتفاقَدون ، وبلادُهم وأُروضهم على ما كانت عليه ، فمتى زُرْتُ مكاناً بَعد طول العهد به وجدتُ أصدقائى مفقودين ، وأماكنهم كما كانت . وقد تقدَّم القول فى إعراب « كما هِيَا[1] » . وقوله صديقى يرادُ به الكثرةُ لا الواحد .

(١) انظر الحماسية ٦٢ ص ٢٤٣ .

٤٠٧

وقال ربيعة بن مَقْروم(١) :

١ – وكَمْ مِن حامِلٍ لى ضَبَّ ضِغْنٍ بَعيدٍ قَلْبُهُ حلْوِ اللِّسانِ

٢ – ولو أنِّى أشاءُ نَقَمْتُ منه بِشَغْبٍ أو لِسانٍ تَيِّحَانِ

كَمْ لفظةٌ وُضِعَت للتَّكثير، كما أن رُبَّ وُضعَ للتَّقليل ، إلا أنَّه اسم ورُبَّ حرف وله موضعان : الاستفهام ، والخبر ، وهو من باب الخبر هنا . والضَّبّ : الحِقْد . قال :

فما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْنِى وتُخْرِجُ مِنْ مَكامِنِها ضِبابى(٢)

وأضافه إلى الضِّغْن لأنّ الضِّغن العسَر، فكأنَّه حِقْدُ عَسَرٍ ولجاجٍ. فيقول : كثيرٌ من الرِّجال يحملون لى الضَّغائن ، ويُسِرُّون لى البغضاء ، وقد حلا مَنطِقُهم لى جَرْياً على سُنَّتهم فى المداجاة ، وبَعُدَ قلبهم منِّى استمراراً فى طريق الشَّنآن لى والمعاداة ، ولو شِئت لانتقمتُ منه بالفعل أو بالقول ، فإن لسانى عِرِّيضٌ ويَدِى عالية ، يتأتَّى له مكافأةُ كلِّ النّاس على مقدار فعلِهِ ، وبمثل ما ينطوى لى من خيرٍ أو شرّ . ويقال : نَقَمت عليه أى أنكرت عليه فِعْلَه ، ونَقَمت منه بمعنى انتقمت . ونَقَم ونَقِم لغتان . والتَّيِّحان لا يُكسر ياؤه ، وقد مضى القولُ فيه(٣) .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٩ ص ٦١ ، وساق نسبه التبريزى : ربيعة بن مقروم ابن خالد بن عمرو بن غيظ بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة .

(٢) ويروى : « من مضابئها » . والبيت لكثير عزة ، كما فى الحيوان (٤ : ٢٥٠ ، ٦/٣٠٣ : ١٠١) والموشح ١٤٣ والصناعتين ٧٢ وزهر الآداب (٢ : ٦٣) وابن سلام ١٢٥ ليدن ١٨٥ مصر .

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٨ ص ١٣١ – ١٣٢ .

٣ – ولـكِنِّى وَصَلتُ الحبـلَ منِّى مُواصَلَةً بحَبــلِ أبِى بَيانِ
٤ – وَضَمْرَةَ إنّ ضَمْرَةَ خَيْرُ جَارٍ عَلِقْتُ لَهُ بأسبابٍ مِتَانِ
٥ – هِجَانُ الحىِّ كالذَّهَبِ المُصَفَّى صَبيحةَ دِيمَةٍ يَجْنِيــهِ جَانِ

قوله « ولـكنِّى وَصَلْتُ الحبل منِّى » يقول : أبقَيت على من يعادينى ولم أعَجِّلْ مؤاخذتَه بإساءته وإصراره . وتمـاديه فيما أكرهه ولجاجِه ، لأنِّى قد واصلتُ أبا بيانٍ وعَلَّقْتُ حَبْلِى بحبـله ؛ وكذلك احتَشَمْتُ ضَمْرَةَ لأنه خيرُ جار ، ، وقد استحكمَتْ بينى وبينه أواصرُ حفظُها عن القطيعة واجبٌ ، ولأن العِصَم المَتينة التى تجمعُنا تُلزِمنى الوقوفَ فيما يكرهانِه ، وتَركَ ما لا يؤمننى استيحاشَهما ، وهما مع ذلك كرامُ الحىّ لا غائلة لهما ، ولا شُـبهةَ فى مصافاتهما وحُسنِ عقيدتهما ، فما وُدُّهما إلّا كإبريز الذَّهَب المصفَّى ، وما يَظهر من مَعادن الذَّهب صبيحةَ مَطْرَةٍ تكشف عن عُروق الذَّهب ، فيجتنيه المُجتنون ، أى يلتقطه الملتقِطون . وهذا الذى وَصَفه يقال إنّها تكثُر فى نواحى اليَمَن واليمامة ، وتسمَّى تلك المعادن معادن اللّقط ، فإذا مُطِرتْ وانكشَفت الهَبَوات والغُبار عن وُجوه حجارتها يظهَرُ من عروق الذهب فى صفائحها مثلُ ما وصفه أو أحسن .

وقوله « هِجان الحىّ » ارتفعَ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هم هِجان الحىّ . وهِجانٌ جَمعٌ ، وواحده هِجَانٌ أيضاً ، لأن فعيلا وفِعالًا يشتركان فى الجمع كثيراً ؛ فهِجَانٌ جاء من هِجَانٍ واحداً كظِراف من ظريف . وقوله « كالذّهب » فى موضع الحال ، وكذلك قوله « يَجْنيهِ جان » حال من الذَّهب المصفى . وقوله «مواصلةً » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الحال ، أى مُواصلا ، ويجوز أن يكون موضوعاً موضعَ صِلةٍ فيكونَ مصدراً من غير لفظه ، مثل قوله تعالى : ﴿وَاللهُ أنبَتَـكُمْ مِنَ الأرضِ نَباتاً﴾ : وقوله « يجنيه جان » وضَعَه موضع يَلقطه .

٤٠٨

وقال سَلْمُ بنُ ربيعة(١) :

١— إنّ شِــواءً ونَشْوَةً وخَبَبَ البَــازِلِ الأَمُونِ
٢— يُجْشِمُها المرءُ فى الهَوَى مَسافَةَ الغــائطِ البَطِينِ
٣— والبيضَ يَرْفُلْنَ كالدُّمَى فى الرَّيْطِ وَالْمُذْهَبِ المَصُونِ
٤— والـكُثْرَ والخَفْضَ آمِنًا وشِرَعَ المِزْهَـرِ الحَنُونِ
٥— مِن لَذَّة العَيْش والفتى للدَّهرِ والدَّهرُ ذُو فنونِ
٦— واليُسْر كالعُسْر والغِنَى كالعُـدْمِ والحَىُّ لِلمَنُـونِ

هذه المقطوعة خارجةٌ عن البحور التى وضعها الخليل بن أحمد ، وأقرب ما يقال فيها أنها تجىء على السادس من البسيط(٢) ، وليس هذا موضعاً لبسط الكلام فيه .

والنَّشْوة : الخَمْر والسُّكْر(٣) . والخَبَبُ والخَبِيب : ضَرْبٌ من السَّير . والبازِلُ : التى قد استـكمَل لها تِسعُ سنين فتناهى قُوَّتُها . والأَمُون : الموثَّقَةُ الخَلْقِ . وخبر إنّ فى قوله « من لذّة العيش » .

وقوله « يُجْشِمُها المرءُ » من صفة البازل ، والمعنى يكلِّفها صاحبُها قطعَ المسافةِ البعيدة فيما يهواه . والمَسافة مأخوذةٌ من السَّوف ، وهو الشَّمّ . وكان الدَّليلُ إذا اشتَبَهَ عليه الطَّريق يفعلُ ذلك . والغائطُ : المطمئنُّ من الأرض . والبَطِين : الواسع الغامض .

(١) كذا فى النسختين ، وصوابه كما فى التبريزى : « سلمى بن ربيعة » . انظر ما سبق من التحقيق فى حواشى ص ٥٤٦ .
(٢) يعنى ما يسمى مخلع البسيط .
(٣) الخمر ، هنا : مصدر خمر الرجل خمراً ، فهو مخمور .

وقوله « والبيض يَرْفُلْنَ كالدُّمَى » يعنى به النِّساء . ويَرْفُلْن : يَتَبختَرن فى الرَّيْطِ ، وهى المُلاءة الواسعة[1] . والمُذهَبُ المَصُون ؛ يُراد به الثِّياب الفاخرة المطرَّزة بالذَّهب . وتَعلَّق فى من قوله « فى الرَّيط » بيَرْفُلن ، وكالدُّمَى فى موضع الحال . والمعنى : والنِّساء البيضَ يتبختَرنَ فى المَصونات من الثِّياب الكريماتِ وهنَّ مُشبِهاتٌ للصُّوَر .

والكُثر انعطَفَ على البيض، كما أنّ البيض انعطف على « وخَبَبَ البازلِ الأَمُون » . والمراد بالكُثرِ كثرةُ المالِ ومساعدةُ الحال ، وضِدُّه القُلُّ . وقال الخليل: كُثْر الشَّيء : أكثَرُه ، وكذلك قُلُّه أقلُّه . والخَفضْ : التَّودُّع . وانتصب « آمِناً » على الحال ، وانعطف « وشِرَعَ » على الخفض . فيقول : إنَّ لذَّات الدُّنيا من مأكولٍ ومشروب وملبوسٍ ، ومركوب وقد استعمَلَه صاحبُه فيما يهواه ، وكَلَّفَه قطْعَ المسافاتِ فيما تدعوه إليه نفسُه ، والنِّساءَ البيضَ بالصِّفة التى ذكَرها ، والغِنى والرَّاحةَ فى الأمن والملاهِى ، جميعَ ذلك مِن لذَّة العيش . وقوله « وشِرَعِ المِزْهَر » أى الأوتار ، واحِدُها شِرْعَةٌ . والمِزْهَر : العُود . والحَنُون : يُريد به الصَّيِّتَ مِن الحنين ، فكأنّه أشار إلى المِزْهَر منقوراً يَنْقُره المُلْهِى[2] . فانظرْ فإنّه جَمع كلَّ ما يلتذ به النَّفْس ، وجعلَها تامَّةً بما قُرِن به من حال الأمْن ، لأنّ جميعَ ذلك إذا عَرِى من الأَمن لم يُستطَب ولم يُستَمرأ .

ثم قال : « والفَتَى للدَّهرِ والدَّهرُ ذو فنونٍ » الواو واو الحال ، وذو فنون أى ضروبٍ . يريد : أنّ كلَّ ذلك مما يلتذُّ العائش به ، لكنّ الفَتى مُهَدَّفٌ للدهر ، والدَّهر ذو تاراتٍ : كما يَهَبُ يرتجِع ، وكما يُسَلِّم يُعِلّ ، وكما يُوَدِّع يُتْعِب ، وكما يُصَفِّى يكدِّر . وبعد ذلك قال :

(١) كذا فى النسختين . والوجه « الملاء الواسعة » إذ أن « الريط » جمع لا مفرد .
(٢) الملهى : المشتغل بسماع الغناء .

واليُسْرُ كالعُسْرِ والغـنى   كالعُدْمِ والحىُّ للمَنُـونِ

يريد أنّ شيئاً من هذه الأحوالِ لا يدومُ إلّا ريثَ ما يُسلَّط عليه القواطعُ والمغيِّرات ، فاليَسَار إذا حَصَل كالإعسار ، فى أنّ واحداً منهما لا يبقَى ، وغِنَى النفس كفقرها ، ثم انتهاء كلِّ ذلك للحىّ منا إلى المَوتِ الذى لا غاية وراءه ، وليس يُتخَلَّص منه بحيلةٍ تَنفُذ ، أو رويّة تُعمَل .

٤٠٩

وقال آخر[(١)] :

١ — وأنت امرؤٌ إمَّا ائتمنْتُك خالياً   فَخُنْتَ وإمَّا قُلْتَ قولاً بلا عِلْمِ

٢ — فأنتَ مِن الأمرِ الذى كان بَيْنَنا   بمنزلةٍ بينَ الخيانةِ والإثمِ[(٢)]

يقول : أنت رجلٌ إمّا وثِقتُ بك فى شىءٍ يُحتاج إلى أداء الأمانة فيه ، وقد خلَوت معك وأظهرت السُّكونَ إليك فخنتَنى ، وإمّا أستَنيمُ إلى ناحيتك فى الخير فكذَبتَ علىّ ، وخبَّرت بما لا علمَ لك به ، فأنت مما بينى وبينك واقفٌ فى محلٍّ بَيْنَ الخيانة فيما ائتُمِنْتَ فيه . والإثمِ فيما رجَعَ إليك فى الكشف عنه . وقوله « ائتمنتك » هو افتعل من الأمانة ، ولك أن تخفف الهمزة وتُبدلَ منها ياء ، ولك أن تعوِّض من الهمزة تاءً فتُدغِمَه فى التاءِ التى بعدها فتقول : اتَّمَنْتُكَ .

---

(١) التبريزى : « هو عبد الله بن همام السلولى من بنى مرة بن صعصعة ، من قيس عيلان . وبنى مرة يعرفون ببنى سلول ، وسلول أمهم ، وهى بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، وكان عبد الله مكيناً عند آل مروان ، وهو الذى بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية فى قوله :

تعزوا يا بنى حرب بصبر   فمن هذا الذى يرجو الخلودا

خلافة ربكم حاموا عليها   ولا ترموا بها الغرض البعيدا

تلقفها يزيد عن أبيه   فخذها يا معاوى عن يزيدا »

وقد روى القالى فى الأمالى (٢ : ٤٦) هذين البيتين وقصتهما .

(٢) رواية الأمالى : « فأبت » بالباء . وذكر محققه أنها فى نسخة : « فأنت » . والمعنى على كل صحيح .

وخالياً انتصَبَ على الحال ، وذو الحال يجوز أن يكون الشّاعرَ . والمعنى : جعلتُك موضعاً للأمانةِ وقد خلوتُ بك لئلاّ يتجاوزَنا السِّرُّ الذى أودعتُك . ويجوز أن يكون حالاً للمخاطَب ، والمعنى منفردا .

وروى أنّ رجلًا أتى عُبيدَ الله بن زيادٍ فأخبرَه أنّ عبـدَ الله بن همّامٍ السَّلولىَّ سَبَّهُ وأسرف جِهاراً ، لا حِشمةَ تردَعُه ، ولا رِقْبَةٌ تمنعُه . فأرسـل عُبيدُ الله إلى ابن همامٍ واستحضَرَه ليقابلَه بالرَّجُل ، ويَتَبيَّنَ مِن حضورهما صِحَّةَ الخبر ، فأتاه ابن همَّامٍ ، فلما استقرَّ به المجلسُ قال عُبيدُ الله : يا ابنَ همام ، إنّ هذا يَزعُم أنّك قلتَ كذا وكذا . فأقبلَ ابنُ همام على الرجُل وخاطبَه بقوله : « أنت امرؤٌ إمّا ائتمنتُك خاليا » . . . البيتين .

فإن قيل : ما موضعُ « إمّا ائتمنتُك » من الإعراب ؟ قلت : هو فى موضع الرَّفْع على أن يكون صـفةً لامرئ . وإمَّا هذه هى التى تُعَدّ فى حروف العطف ، والـكلام خبرٌ . يريد : أنتَ رجلٌ لا تخلو مما تَصِلُكَ به وجهى من أحد الأمرين اللذين أذكرهما . فهو كما تقول : أنت رجلٌ إمّا صالحٌ وإما طالح . وقوله « فخُنْتَ » انعطف على ائتمنتك ، كأنه قال : أنت رجلٌ إما مؤتَمَن نخائنٌ ، وإما قائلٌ قولاً لا عِلمَ لك به . وقوله « وإمَّا » الواو هى العاطفة . وإمَّا كأَوْ فى أنه لأحد الأمرين ، إلاّ أنّ « أوْ » يُبنَى الـكلامُ فيه على اليقين ، ثم يَعترِض ما يخرُج به عنه ؛ و « إمّا » يُبنَى الكلام فيه على عين اليقين . ولهذا الذى قلناه قال حُذّاقُ أصحابنا : إنه ليسَ من حروف العطف ، وكيف يكونُ منها وهو يجىء قبلَ ما يُعطَف عليه أو مع حَرف العطف . تقول : رأيتُ إمّا زيداً وإمّا عَمْراً . فإمّا الأولى سابقٌ المعطوفَ عليه وهو زيد ، وإمّا الثانية معها الواو العاطفة .

وقوله « فأنتَ من الأمر الذى كان بيننا » مبتدأٌ وخبره « بمنزلة » ، وبينَ الخيانة صفةٌ المنزلة . والمعنى : أنت مِمَّا[1] بيننا فى موقف يُشقِى بك إما على الخيانة فيما ائْتُمِنْتَ فيه ، وإما على الإثم فيما تُستشهَدُ فيه ، فتقولُ بما لا عِلْمَ لك به .

٤١٠

وقال شَبيبُ بنُ البَرصاء[2] :

١ — قلتُ لِغَلَاّقٍ بِعِرْنانَ ما تَرَى   فما كاد لى عن ظَهْرِ واضحةٍ يُبْدِى

عِرْنانُ : اسم وادٍ[3] . وقوله « عنْ ظهر واضحة » يجوز أن يريد عن ظهر خَصلة بيِّنة والمراد : لمّا استشرتُه وقد حصَلْنا بعِرنان ارتبَكَ فلم يكَدْ يَكشِف لى عمَّا يصح المرادُ به ، ويمكن الاعتمادُ عليه . ويجوز أن يريد بالواضحة السِّنَّ . والمعنى : لم يكَدْ يتهلَّلُ أو يكشِف عن أسنانه به ضاحكا أو كاشراً . ويكون استعمال الواضحة كما قال طرَفة :

كلُّ خليلٍ كنتُ عاهدتُهُ   لا تَرَكَ اللهُ له واضِحَهْ

وقوله « تبسَّمَ كُرْهًا » يدلُّ على الوجه الثانى .

٢ — تبسَّمَ كُرْهًا واستَبَنْتُ الذى به   من الحَزَنِ البادِى ومن شِدّةِ الوَجْدِ

٣ — إذا المرء أعرَاهُ الصديقُ بَدَا لَهُ   بأرْضِ الأعادى بعضُ ألوانها الرُّبْدِ

انتصب كُرْهًا على أنه مصدرٌ فى موضع الحال . يقول : بَسَمَ لى كارهاً فتبيَّنْتُ الذى به من حُزْنٍ ظهَرَ عليه ، ومن وَجْدٍ استكنَّ فى قلبه . ويقال استبنْتُ وتبيَّنْتُ بمعنًى واحد . وبَسَمَ وابتسم وتبسَّم بمعنًى واحد ، إلاّ أنّ فى

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٠٣ ص ١١٢٣ .

(٣) وعن السكونى أنه جبل بين تيماء وجبلى طيئ . معجم البلدان .

تبسَّم زيادةَ معنى التكلف ، كأنه تكلَّف منه ما تكلَّف على كراهيَة .

وقوله « إذَا المرء أعراه الصديق » يريد به : إذا الرجُل خذَلَه صديقُه وقَعَد عن نُصرته ، وترَكه بالعَراء ، فى أرضِ الأعداء ، بدا لَهُ من ألوان الأرض إذا اسودَّت بعضُها . وهذا التفصيل والتبعيض دلَّ على أنّ اسودادَ الأرض يكون من وجوهٍ عِدّة ، وللحالة التى أشار إليها ما يختصُّ بها ، ويجب أن يكون أشدَّها . وهذا لأنّ ما يَرِد على النفس من المكاره مَراتبُ ، فاسوِداد الأرضِ عليه لها على حسَبِ مقاديرِها فى أنفُسها .

٤١١

وقال سالم بن وابِصَة[1] :

١ ـ أُحِبُّ الفتَى يَنفِى الفواحِشَ سَمْعُه كأنّ به عن كلِّ فاحشــةٍ وَقْرَا

٢ ـ سَليمُ دَوَاعِى الصَّدْرِ لاباسطٌ أذًى ولا مانعٌ خيْرًا ولا قائلٌ هُجْرَا[2]

يقول : أُحِبُّ من أخلاق الفتى أن يكون متكرِّمًا إذا طرقَ أُذنَه ذِكرُ الفواحش ، فلا يَعِيها ولا يجعلها من نفسه ببالٍ ، حتى كأنّ به صَمَمًا عن أنواع الفواحِش كلها .

وقوله « سَليمُ دَواعِى الصدر » ، ارتفع سليمُ لأنه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنه قال : هو سليم ، ويكون ما بعدَه صفاتٍ له . ويريد بالدواعى ما يتعلق بالأغيار منه لا ما يخصُّه فى نفسه . ألا تَرَى أنه فسَّره بقوله « لا باسطٌ أذًى ولا

(١) التبريزى : « سالم بن وابصة الأسدى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ . والأبيات فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٤) .

(٢) التبريزى : « لا باسطاً ... ولا مانعاً ... ولا قائلا » . ومثله القالى ، لكن روايته فى آخر البيت : « ولا ناطقا هجرا » .

مانعٌ خيرًا ولا قائلٌ هُجْرًا » وكلُّ ذلك للغَيْرِ لا للنفس . ويَكشِفُ هذا أنه إذا بَسَطَ أسبابَ الأذى عادَ الضَّرر منها على المتأذِّى لا عليه . وإذا مَنَع خيرَه كذلك عاد الضرر على المنتفِع به وعلى هذا إذا قال هُجْرًا . والهُجْر : الفُحْش . ويقال : أهْجَرَ الرجُل ، إذا أتَى به . وقد كان من فلانٍ هاجرةٌ . على ذلك قوله :

* إذا ما شِيتَ نالَكَ هاجِرَاتى[1] *

ولك أن تنصِبَ « سليمَ » بما بعده ، فيكون فى موضع الحال ، وما يتبعه صفات له ، وهو لا باسطاً أذًى ولا مانِعاً خَيْرًا ولا قائلا هُجْرا .

٣ – إذا ما أتَتْ من صاحبٍ لكَ زَلَّةٌ   فَكُنْ أَنْتَ مُحْتالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرَا[2]

٤ – غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حاجَةٍ   فإن زَادَ شيئاً عادَ ذَاكَ الغِنَى فَقْرَا[3]

يقول واعظا ومُهذِّبًا : إذا اتَّفَقَتْ من صديق لك زَلَّةٌ ، أو وُقوفٌ موقفَ تُهمة ، فحَسِّنْ أمره فى ذلك واحمله على ضُروبٍ ممَّا يَبْسُطُ عُذْرَهُ فيه ، بل كنْ أنتَ المحتالَ لعُذْرِه ، فلا تُحْوِجْه إلى تكلُّف الاعتذار .

وقوله « غِنَى النَّفس ما يكفيك من سَدِّ حاجةٍ » يقول : خُذْ من دنياك ما تسدُّ به فقرَكَ ، فإنَّ غِنَى النفس ما يضمَن الكفاية ، فإن زاد قليلا عاد ذلك بزيادتك فيه الفقر ، وذاك أنَّ الدواعىَ إنما تكثُر وتتوسع بتوسُّع الأسبابِ وكثرتِها ، وما يَفْضُل عن الكفاية يمتُّ كلُّ جزءٍ منه بمَاتَّةٍ صاحبِه فلا يكاد يكتفى ببعضه

---

(١) عجزه فى اللسان (هجر) :

* ولم أعمل بهن إليك ساقى *

(٢) قبله عند التبريزى : ولم يروه القالى :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرَّمًا   أديبًا ظريفاً عاقلا ماجداً حُرَّا

(٣) التبريزى : « ما يكفيك من سد خلة » . القالى : « ما يكفيه من سد خلة وإن زاد » .

إلاَّ وما عَدَاهُ يَمُتُّ بمثل ماتِّه . وإذا صار الأمر على ذلك فكلُّ منزلةٍ ينتهى إليها طلبُ الفَضل تدعوه إلى ما فوقَها ، فيبقَى أبداً مُتْعَبًا فقيراً . وقوله « فإن زادَ ، شيئاً » انتصَبَ شيئاً على المصدر ، لأنَّه واقعٌ موقعَ زيادة . وزاد هاهنا بمعنى ازداد ، فلا يتعدّى . وانتصب فقراً على الحال .

٤١٢

وقال آخر (١) :

١ ـ وكَمْ مِنْ لئيمٍ وَدَّ أنى شَتَمْتُه   وإنْ كانَ شَتْمِى فيه صَابٌ وَعَلْقَمُ

٢ ـ ولَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا   أَضَرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

اللَّئيم : الذى اجتمَعَ فيه خصالٌ مذمومةٌ فى نفسه وأبويه . فيقول : كم من رجل دنىّ النفسِ والأصلِ ، يتمنى أن أَتَّخذه نظيراً لى أكايله وزناً بوزن ، وأكافيه لفظاً بلفظ ، وإن كان فى هَجْوى له وشتِمى إيَّاه ما يَجرى مَجرَى الصَّاب والعَلقم فى المرارة . والصَّابُ : شجرةٌ لها لبنٌ فإذا أصاب العينَ حلَبَها . والعَلقم : الحنظَل . وقال الخليل : يقال : عَلْقَمَ الحنظلُ ، إذا اشتدَّت مرارته .

ثم قال : لَإمساكى عن مُشاتَمة اللِّئام آخِذاً بالكَرم ، أَصْوَنُ لِعِرْضى ، وأَعْوَدُ عليهم بالضررِ من كلِّ ذمٍّ وهَجْو . وانتصب « تكرُّما » على أنه

---

(١) التبريزى : « وقال المؤمَّل بن أُمَيل المحاربى » . والمؤمل ، كذا ضبط بالميم المشددة المفتوحة عند التبريزى . وهو المؤمل بن أميل بن أسيد المحاربى ، نسبة إلى محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر كوفى من مخضرمى شعراء الدولتين ، وكانت شهرته فى العباسية أكثر ، لأنه كان من الجند المرتزقة معهم . وانقطع إلى المهدى فى حياة أبيه . وكان يهوى امرأة من أهل الحيرة يقال لها هند ، وفيها يقول قصيدته المشهورة :

شف المؤمل يوم الحيرة النظر   ليت المؤمل لم يخلق له بصر

فيقال إنه رأى فى منامه رجلا أدخل إصبعه فى عينيه وقال : هذا ما تمنيت . فأصبح أعمى . الأغانى (١٩ : ١٤٧) ومعجم الأدباء (٧ : ١٩٥ مرجليوث) والخزانة (٣ : ٥٢٣) ونكت الهميان ٢٩٩ وسمط اللآلى ٥٢٤ .

مصدرٌ فى موضع الحال ، أى متكرما ، ويجوز أن يكون مفعولاً له ، أى للتكرُّم .

٤١٣

وقال عَقِيلُ بنُ عُلَّفَةَ(١) :

١ـ وَلِلدّهْرِ أَثْوابٌ فَكُنْ فى ثِيابِهِ ... كَلِبْسَتِهِ يَوْمًا أَجَدَّ وَأَخْلَقَا

٢ـ وكُنْ أَكْيَسَ الكَيْسَى إذا كُنْتَ فِيهِمُ ... وإنْ كنتَ فى الحَمْقَى فكُنْ أنتَ أَحْمَقَا

ذِكر الأثواب مثَل ، وإنَّما يُريد تلوُّنَ الدهرِ بأهله ، وتصرُّفَه بأحداثه وتاراته وغيرِه . واللِّبْسَةُ : اسمُ حالة اللابس . أى البَسْ ثيابه لبستَه مُجِدًّا أوْ مُخلِقًا ، وإنْ أَجَدَّ أَوْ أَخْلَقَ ، لأنَّ الحالَ يتضمن معنى الجزاء . والقصدُ إلى توصيَة المخاطَب بأن يطلبَ موافقةَ النَّاسِ فى دهرهم ، ويتخلَّقَ بأخلاقهم . ومعنى أَجَدَّ : جعَلَ ثوبَه جديداً . وكذلك أخلَقَ الثَّوبُ نفسُه فهو مُخْلِق ؛ وهذا أشهَرُ من الأوّل . وقد قيل فى الدعاء لِلاَبسِ الجديد : « أَبْلِ وَأَجْدِدْ » يراد به فِعْلُ مثلِهِ فى المستأنف ، واتِّصالُ عمره . وقد صرَّح عن المعنى فيما بَعْدَه ، لأنّه قال : وكنْ أَكيسَ الكَيْسَى إذا كنتَ فيهم . والمعنى : تكيَّسْ مع الأكياس ، بل اجتهدْ أن تفوقَهم فى كَيْسهم وإن ابتليت بحَمْقَى فتحامَقْ معهم . وقوله « كن أنتَ » أنتَ توكيدٌ للمضمر فى كنْ . و« أحمقا » يجوز ألاّ يريد به أفْعَلَ الذى يتمُّ بمِنْ ويكون المعنى تحامَقْ . ويجوز أن يكون أفعلَ الذى يتمُّ بمِنْ ، وقد حذف منه مِنْ لأنَّه خَبَرٌ فجاز ذلك فيه . ويَدُلّ على هذا أنه قال : كنْ أكيسَ الكَيْسَى . وقد قيل : ما أحْمَقَهُ ، لأنه ليس من الخَلْقِ فى شىء . ألا ترى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . التبريزى : « وقال عقيل بن علفة المرى ، مرة بن عوف بن سعد بن بغيض . ويصحف بابن علقة . وعلقة تيمى لم يعرف اسمه ونسبه » .

أنّ صاحبه يُوَبَّخ على ما يأتيه منه . فأمّا قوله « الحَمْقَى » فَفَعْلَى جَمْعٌ فيما يكون بلاءً وزَمانةً . على ذلك الجرحى والمَرْضَى ، فشُبِّهت الحماقة به ، ثمّ حُمِلَ الكَيْسى عليه ، لأنّهم يَحملون النّقيض على النّقيض كثيراً .

٤١٤

وقال بعضُ الفَزَارِيِّين :

١ — أُكْنِيهِ حِينَ أُنادِيهِ لِأُكْرِمَهُ ولا أُلَقِّبُهُ والسَّوْءَةَ اللَّقَبَا[١]

٢ — كذاكَ أُدِّبْتُ حتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إنِّي وَجَدْتُ مِلَاكَ الشِّيمةِ الأَدَبَا

يصف حُسنَ عِشرته لصاحبه وجليسه ، ومؤاخذةَ نفسِه بصيانته وإكرامه فيقول : إذا خاطبتُه خاطبتُه بأحبِّ أسمائه إليه ، وهو الكُنْيَةُ ، وأعْدِلُ عن نَبَزِه ولَقَبِه[٢] ؛ لأني على هذا أُدِّبْتُ ، حتَّى به تَطَبَّعْتُ ، فصار خُلُقاً ثانياً لي وإن كان أصله تخلُّقا ؛ إني وجدت الأدب مِلاكَ الأخلاق . والمِلاك : اسمٌ لما يُمْلَكُ به الشيء ، فهو كالرِّباط والنِّظام وما أشبههما . وقوله «ولا أُلقِّبه والسَّوءة اللَّقبا» بنصب السوءة ، فتنصب اللَّقَب من أُلقِّبُ ، وينتصب السَّوءةَ على أنَّه مفعول معه ، فيكون من باب : جاء البَرْدُ والطَّيالِسَةَ . والتَّقدير : لا أُلقِّبه اللَّقب مع السَّوءة . ويجرى هذا المجرى قولُه تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، لأنّ المعنى مع شركائكم . ويكون المراد : لا أجمعُ بين اللقب وما يسوءه من فُحش الكلام . فهذا وجهٌ للنصب . ويجوز أن يكون انتصاب السَّوءة على

(١) يروى : « والسوءة اللقب » على الابتداء والخبر ، كما يروى تاليه « ملاك الشيمة الأدب » ، على جعل الجملة مفعولا ثانياً لوجدت ، ومفعوله الأول ضمير الشأن المحذوف ، أو على أن « وجدت » معلق عن العمل فى اللفظ بلام الابتداء المقدرة ، والجملة بعدها من المبتدأ والخبر سدت مسد مفعولى وجد . انظر الخزانة (٤ : ٥ — ٧) .

(٢) النبز ، بالتحريك : اللقب ، وجمعه أنباز .

المعنى ، كأنَّه قال : ولا آتى السَّوءة ، فعمل فيه معنى لا ألقبه ، فيكون على هذا من باب :

يا ليتَ بعلَكِ قد غدا   متقلِّدًا سيفاً ورُمْحَا(١)

و :   * عَلَفْتُها تِبنًا وماءً بارداً(٢) *

ويجوز أن يكون السَّوءة مفعولاً به ، وقد عمل ما قبل الواو فيه ، كما تقول : ما زلتُ وزيداً حتَّى فَعَل كذا ، أى ما زِلتُ بزيدٍ حتَّى فعل . وتقدير الباب فى هذه أَكْشَفُ من تقدير مَعَ وإنْ تقارَبَ معنياهُما ، كأنَّه قال : لا ألقبه اللقبَ بالسَّوءة . ويقال : سمَّيته كذا وبكذا ، ولقَّبته كذا وبكذا . قال الله تعالى : ﴿ ولا تنَابَزُوا بالألقَابِ ﴾ . وإن رُفع فارتفاعه يجوز أن يكون بالابتداء ويكون الخبر مضمَرًا ، كأنَّه قال : والسَّوءةُ ذاك ، يعنى إنْ لقَّبته فالفحش فيه(٣) . ويجوز أن يكون مبتدأً وخبره اللَّقَبا ، ويكون مَصدرًا كالجَمَزَى والوَكَرَى وما أشبهُهما . والمراد : والفحش استعمال اللَّقب معه ، ويكون تفظيعاً للأمر لو فَعل . ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه قال : لا ألقِّبه اللقبَ ، وهو السَّوءة . وهذا أقربُ . والسَّوءة : الفَعَلَةُ القبيحة . قال الشَّاعر :

(١) ويروى : «يا ليت زوجك» . ويروى : «ياليت بعلك فى الوغى» . والبيت لعبد الله بن الزبعرى كما فى حواشى ابن القوطية على الكامل ١٨٩ . وانظر الكامل ٢٠٩ ، ٤٠٣ وأمالى المرتضى (٤ : ١٧٠) والإنصاف لابن الأنبارى ٣٥٧ ، وأمالى ابن الشجرى (٢ : ٣٢١) والخزانة (١ : ٣٣٠) والمخصص (١ : ١٣٦ / ١٤ : ٢٣٢) .

(٢) أى وسقيتها ماء بارداً . والبيت لم يعرف قائله . وهو عند العينى (٤ : ١٨١) والمرتضى (٤ : ١٧٠) وابن الشجرى (٢ : ٣٢١) وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٣١٤ والخزانة (١ : ٣٣٠ ، ٤٩٩) . قال البغدادى : « وأورد له العلامة الشيرازى ، والفاضل اليمنى ، صدراً وجعل المذكور عجزاً هكذا :

لما حططت الرحل عنها واردا   علفتها تبناً وماء باردا

وجعله غيرهما صدراً وأورد عجزاً هكذا :

علفتها تبناً وماء بارداً   حتى شتت همالة عيناها » .

(٣) كذا فى ل ، وفى الأصل : « به » .

(٤) هو أبو زبيد الطائى ، كما فى مقاييس اللغة واللسان (سوأ) .

* يا لَقَوْمِ للسَّوءةِ السَّوْآءِ[1] *

ويسمَّى الفَرْج السَّوْءَةَ ، لقبحه . وفى القرآن : ﴿ فبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما ﴾ .
ويقال : سَوْءةً لِفلانٍ[2] ! دعاءٌ عليه .

٤١٥

وقال رجلٌ من بنى قُرَيع[3] :

١ — مَتَى ما يَرَ النَّاسُ الغنيَّ وجارُه فقيرٌ يَقُولُوا عاجزٌ وجَليدُ

٢ — ولَيسَ الغِنَى والفَقْرُ مِنْ حيلةِ الفَتَى ولكن أَحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدودُ

أخرج هذا الكلام مخرج الإنكارِ لما تعوَّدَه النَّاس فى الحكم على الأغنياء والفُقراء . فيقول : مِمَّا يَقضِى به النّاسُ على الغنىِّ وإلى جنبه فقيرٌ ، أنْ يقولوا : هذا من عَجْزِه أُتِىَ ، وهذا لجلادَتِه أُغْنِىَ . وهذا خطأٌ ، لأنَّ الغنَى والفقرَ مما قَدَّر الله تعالى وأَجْرَى به قَسْمَه فى خلْقه ، وليس المعتمَد فيه على احتيالهم ، وسَعيهم واجتهادهم ، لكنها جدود وحظوظ دُرِّجوا عليها ، وخُلِقوا لها ، على ما عَرَفَ الله تعالى من صالح خَلْقه .

وجوابُ « متى ما يَرَ » قوله « يقولوا » . وارتفع عاجزٌ على أنَّه خبر مبتدإ محذوف ، كأنَّه : هذانِ عاجزٌ وجليدُ .

٣ — إذَا المَرءُ أعْيَتْهُ المُرُوءةُ ناشِئاً فَمَطْلَبُها كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدُ[4]

---

(١) صدره : * لم يهب حرمة النديم وحقت *

(٢) فى الأصل : « سوءة فلان » ، صوابه فى ل ، واللسان (سوأ ٩١) .

(٣) هو المعلوط السعدى القريعى ، كما فى عيون الأخبار (٣ : ١٨٩) . وقريع ، من بنى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . الاشتقاق ١٥٥ ، ١٥٠ . وقد صرح به ابن جنى فى التنبيه حيث قال : « قال المعلوط بن بدل القريعى : إذا المرء أعيته » ، وأنشد البيت الثالث .

(٤) ابن جنى : « أعيته السيادة » .

٤ — وكائِنْ رَأَيْنَا مِنْ غَنِيٍّ مُذَمَّمٍ وصُعْلوكِ قومٍ ماتَ وهو حَمِيدُ

قوله « إذا المرء أَعْيَتْهُ » بعثٌ وتحضيض على النُّهوض فى طلب المعالى فى ابتداء النّشء، وحين كان فى القُوّة فَضلَةٌ، وفى العمر مُهلَةٌ، حتى تتلاقَى أوائلُ عُمره وأواخرُه فى طلب الرِّياسة، وإقامة المروءة، وأنَّه إن دافعَ بما عليه فى ذلك وماطَلَ انتظاراً لأحوالٍ تجتمع [له[1]]، فاكتهلَ ولمَّا تساعدْه تلك الأحوال فإنَّه يتعذّر عليه طلبُها، ويشتدُّ عليه إدراكها. وانتصب « ناشئاً » على الحال، والعامل فيه أَعْيَتْهُ. ويقال: فَتًى ناشئٌ، أى شابٌّ. قال الخليل: ولا يوصف به الجارية. والنَّاشئة: أوّلُ الوقت[2]، من هذا. وينتصب « كَهْلًا » على الحال أيضاً، والعامل فيه مطلبُها، لأنَّ المعنى مطلبُه لها وهو كهلٌ، فالمصدر مضافٌ إلى المفعول، أو مطلبه لها إذا كان كَهْلًا، ومثله: هذا تَمرًا أطيبُ منه بُسرًا.

وقوله « وكائنْ رأَيْنا » كائنْ بمعنى كمْ. وكأنَّه أخذ يفضِّل الفقرَ إذا جرى صاحبُه فى محمود الطَّرائق من التجمُّل، والاكتفاء والتَّعفُّف، على الغِنَى وصاحبُه يَبْطَر، ويطغَى ويأشَر، ثم لا يؤدِّى حقَّ النِّعمة عليه، فقال: كم من غَنِيٍّ ساعدَتْه الدُّنيا والأقدار، ثم أصبح مذمَّمًا حينَ لم يلتزمْ شُروطَ محمودِ الغِنى، وكم من فقيرِ قوم لما جَرى فى مَيدان العَفَاف والتجمُّل، والرِّضا بمالِه والتشكُّر، مات وهو حميدُ الطريقة، رضىُّ السَّريرة. والصُّعلوك: الفقير. ويقال: صعلَكْتُه، أى ذهبتُ بمالِه كلِّه.

---

(١) التكملة من ل.

(٢) أى فى نحو قوله تعالى: « إن ناشئة الليل ».

٤١٦

وقال بعضهم[١]:

١ — وأَضْحَتْ أمورُ الناسِ يَغْشَيْنَ عَالِمًا ... بما يُتَّقَى منها وما يُتَعَمَّـدُ

٢ — جديرٌ بأَلّا أَسْتَكِينَ ولا أَرَى ... إذَا الأمرُ وَلَّى مُدْبِرًا أَتَبَـلَّدُ

قوله « يغشَين عالماً » أى يغشين منِّى عالماً ، لأن العالِم هو هو ، فحذف منِّى. والمعنى : إنِّى باشَرت الأمورَ العظيمة ، ولابَست الخطوبَ الجليلة ، فصرتُ بِطُولِ تجربتى ، واتِّصال ممارستى ، عالما من أمور الناس إذا وردتْ أخبارها[٢] علىّ بما يُتحامى منها ويُحذَر ، وما يُتمنَّى منها فيُطلب . فلا جَرَم أنِّى خليقٌ بألا أَضرعَ عند نوائب الدَّهر ولا أخضع ، ولا أُرَى إذا فاتَنى أمرٌ أتحسَّرُ فى إثْره وقد وَلّى ، وأَضربُ بَلْدَةَ إحدى كفّىَّ بالأخرى[٣] ، توجُّعاً وتلهُّفا ، إذا كنتُ واثقاً بأنَّ الأمور يملِكها التغيُّر ، وأن الفائت يُتلافَى ، فلا يدومُ شىءٌ على حالٍ إلا ريثَ ما يتسلَّط عليه انتقال .

وقال الدُّريدى : تبلَّدَ الرَّجلُ ، إذا تحيّر فى أمره فأقبل يضرب بَلْدَةَ نحره بيده . وبَلْدةُ النَّحر : الثُّغرة وما حوَاليها . وقال الخليل : التبلُّد : نقيض التجلُّد وهو استكانةٌ وخُضوع . وبَلُدالرجل ، إذا انكسَرَ[٤] فى العمل وضَعُفَ .

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) ل : « أخبارهم » .

(٣) البلدة ، بالفتح : راحة الكف .

(٤) كذا فى ل ، وفى الأصل : « إذا نكس » .

٤١٧

وقال آخر :

١ — وإنَّكَ لا تَدْرِى إذا جاءَ سائلٌ ... أأنتَ بما تُعطيهِ أم هُوَ أَسْعَــد

٢ — عَسى سائلٌ ذُو حاجةٍ إن منعتَهُ ... من اليوم سُؤلًا أن يكونَ له غَدُ

٣ — وفى كثْرَةِ الأيدِى لِذِى الجهْلِ زاجرٌ ... ولَلْحِلْمُ أبقَى لِلرِّجالِ وأعْــوَدُ

هذه الأبياتُ تشبه قولَ الآخَر :

وأكرِمْ كريمًا إن أتاكَ لحاجةٍ ... لعاقبــةٍ إن العِضَاهَ تَرَوَّحُ(٢)

وقول الآخر(٣) :

لا تُهِينَ الفَقِيرَ علّكَ أنْ ... تَركعَ يومًا والدَّهرُ قد رَفَعهْ

وقوله « أأنت بما تعطيه أم هو أسعدُ » تقديره أأنت أسعد بما تُعطيه أم هُوَ . وأمْ هذه هى المتّصلة المعادِلة لألف الاستفهام ، فانعطَف هو به على أنت . وقد يجىء الخبرُ فى مثله مكرَّرًا ، كقول الشاعر(٣) :

باتَ يقاسِى أمْرَهُ أمُبرَمُه ... أَعْصَمُهُ أم السَّحيلُ أعْصَمُهْ

فيكون التّكرار فيه على طريق التأكيد . ويجرى « بين » هذا المجرى فى نحو قولهم : بينَ زيد وبين عمْرٍو خلاف ، ولو لم يكرَّرْ بينَ لكانَ الوجهَ . والشَّاعر يقول : إذا زارَكَ سائلٌ فتوفرْ عليه ، وليِّنْ قولك وجانبك له ، فإنك لا تعلم أأنت أسعدُ بما يناله منك أم هو ، واعلمْ أنَّ المحتاجَ إليك إن منعتَه سُؤْلَهُ وطَلِبتَه فهو حقيقٌ بأن ينال ما منعته فى غده . وقوله « أن يكون له غَدٌ » فى

(١) تروح النبت والشجر : طال . اللسان (٣ : ٢٩٤) .

(٢) هو الأضبط بن قريع السعدى . البيان (٣ : ٣٤١) والمعمرين ٨ ومجالس ثعلب ٤٨٠ والأمالى (١ : ١٠٧) والأغانى (١٦ : ١٥٤) وحماسة ابن الشجرى ١٣٧ والخزانة (٤ : ٥٨٩) والمثل السائر (١ : ٢٦٠) .

(٣) هو الراجز العجاج . ديوانه ٦٤ .

موضع خبر عَسى ، والضمير من له يعود إلى السَّائل ، والمعنى : عساه إن منعتَه سؤلَه من يومٍ كان عليه ، أن يكون غدُ ذلك اليوم له ، ولهذا قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتِلْكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النّاسِ ﴾ ، فغَدٌ يرتفع بيكون ، وله فى موضع الخبر .

وقوله « وفى كثرة الأيدِى لِذِى الجهل زاجِرٌ » يريد استَبقْ إخوانَك وذَوِيك ، واعلم أنّ فى التكاثُر بهم مَزْجَرةً للجاهل ، ولتعاوُنِ أيديهم مدفَعةً لأذَى المغلَّب الخامل . ومع ذلك فالحِلم أبقى شأنًا وأمرًا للرجال ، وأردُّ عليهم وأنفعُ لهم . وهذه الوَصاةُ اشتملَتْ على أمرين : أحدُهما اكتسابُ مودّات الإخوان لكى يكونوا إذا احتِيجَ إليهم عَونًا . والثانى استعمالُ الحِلم مع الأعداء ، والجرىُ معهم على حدٍّ لا يُخرجهم إلى المكاشفة ، ولا يُحْوِجُهم إلى خرق الهَيْبة . وقوله « من اليوم سُولا » ، يقال : أُعطِيَ فلانٌ سُولَه ، فيهمز ولا يهمز .

٤١٨

وقال آخر :

١ ــ إيَّاكَ والأمرَ الذى إن توسَّعَتْ مَدَاخِلُه ضاقَتْ عليك المصادِرُ[١]

٢ ــ فما حَسَنٌ أن يَعذِرَ المرءُ نفسَه وليس له من سائرِ الناسِ عاذِرُ

انتصب « والأمرَ » بفعلٍ مضمر . وإيّاك ناب عن أحذِّرك ، فكأنه قال : أحذِّرُك أن تُلابِسَ الأمر الذى إن توسَّعَتْ موالِجُه ضاقت عليك مخارجُهُ . والمعنى : تأمّلْ كلّ ما تُلابسه ، واعرِفْ أواخرَه وإن اشْتَبَهتْ ، كما تَعرفُ أوائلَهُ وإن تَبيَّنَتْ ، لأنه يَقبُح بالمرء أن يكون فيما يقتحِمُه عند نفسه معذوراً ، وعند الناسِ مَلومًا .

---

(١) التبريزى : « إن توسعت موارده ».

وقوله « فما حسنٌ أن يَعذِر المرء نفسه » فى إعراب « أن يَعذِرَ » وُجوهٌ : أحدهَا أن يرتفع بالابتداء وخبره متقدّم عليه ، وهو حسنٌ ، لأنّ ما النافية إذا قُدّم خبرهُ على اسمه يبطُل عمله . ويجوز أن يكون موضعه رفْعًا بفِعله وفعلُه حسنٌ ، ويرتفع حسنٌ بالابتداء ، ويستغنى بفاعِلِه عن خبره ، وجاز الابتداء بحسَنٍ وإن كان نكرةً لاعتماده على حرف النفى . والمعنى : ما يحسُنُ عذرُ المرءِ نفسَه فيما يتولاّه وليس له من الناس عاذِرٌ . ويجوز أن يرتفع « أن يَعذِر » بأنّه خبر المبتدإ الذى هو حسَنٌ ، وهذا أضعَفُ الوجوه . ويُرْوَى: « إن توسَّعَتْ موارِدُه ضاقت عليك المصادرُ » . وقوله « من سائرِ الناس » أى من باقى الناس ، وهو من السُّؤْر . ومَن وضَعَه موضع الجميع فقد أخطأ .

٤١٩

وقال العباس بن مِرداس(١) :

١ — تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزْدَريهِ وفى أثوابِهِ أسـدٌ مَزيرُ(٢)

٢ — ويُعْجِبُـكَ الطَّريرُ فتَبْتَليهِ فيُخْلِفُ ظَنّكَ الرَّجُلُ الطَّريرُ

ينبِّه بهذا الكلام على أنّ الرجال ليسوا بجُزُرٍ يُطلَب عِظَمُها وسِمَنُها ، لأنّ المرء بأصغريه : قلبه ولسانه . فيقول : تَرَى الرَّجلَ النحيفَ المهزولَ الدَّقيق ، فتستحقرُه لضؤولته ، وإذا فتَّشت عنه واستشفَفْتَ ما وراء ظاهِره وجدتَه أسداً مزيراً . والمَزيرُ هو الجَلْدُ الخفيف النافذ فى الأمور . ويُروَى : « يَزيرُ » وليس بجيِّدٍ من طريق المعنى ، فكأنّ أصله يَزْئرُ فنُقلت الحركةُ إلى الزاء وأُبدِل من الهمزة ياء ، كما يقال المَرَاةُ والكَماةُ ، فى المرأة والكَمْأة . وإنما ضَعُف من طريق

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ . قال التبريزى : « وقال أبورياش : هذا الشعر لمعاوية بن مالك معود الحكماء الكلابى » .

(٢) التبريزى : « ويروى : مرير ، أى قوى القلب شديده » .

المعنى لأنّ تشبيهه إيّاه بالأسد لا فائدةَ لذكر الزّئير معه ، إذ لا تدومُ حالُه على ذلك . ووجهُه على ضَعْفِه أن يكون مَوْرِدُ « يَزْئِرُ » تأكيداً للتشبيه ، كما يُستعارُ صفةُ المشبَّهِ به للمشبَّه وإن كان حصولُه لو حصَلَ ذمًّا فيه ، تأكيداً للتشبيه. على ذلك قوله :

* أزَلُّ إنْ قِيدَ وإنْ قادَ نَصَبْ *

والزَّلَلُ من صِفة الذئب . ومثله قول الآخر(١) :

* صَكَّاء ذِعْلِبَةٍ إذا استدبرتَها(٢) *

والصَّكك من صِفة النّعام .

وقوله « فيُعجبك الطَّرير » فالطرير : الشابُّ الناعم ذو الكِدْنة . فيقول : ويتّفق فى الرجال مَن يُعجبك خِلْقتُه ، فإذا بلوْتَهُ وامتحنتَ أخلاقَه وجدتَه لا يصدِّق ظنَّك فيه ، بل يُخلِف ويُخالِف فى كل ماتعتمِد عليه ، أو تَتكِلُه إليه .

٣ — فما عِظَمُ الرِّجال لهم بفَخْرٍ ولكن فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وخِيرُ

٤ — ضِعافُ الطّيرِ أطوَلُها جُسُومًا ولم تَطُلِ البُزَاةُ ولا الصُّقورُ

٥ — بِغَاثُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا وأُمُّ الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ(٣)

صَرَّح عن الغرض المقصود فيما تقدَّم فقال : إنما يُحمَد من المرء كرمُه وفضلُه وكثرة محاسِنِه وخِيرُه ، وكلُّ ذلك يرجِعُ إلى الأخلاق لا إلى الخِلَق ، فلا اعتبار بالعِظَم ، ولا فَخْرَ فى البَسْطَة إذا حَصَلَتْ فى الجسم خاصّةً من دون العلم . ثم أخذ يمثّل فقال : تَرَى الطير ضعافُها كالكراكيّ وطيورُ الماء أطولُها جُسوماً ، وأمَدُّها أعناقاً وسُوقاً ، ثم كرائمُها كالبُزاة والصُّقور ، وهى تَصِيد

(١) هو المسيب بن علس . المفضلية ١١ .

(٢) عجزه : * حرج إذا استقبلتها هلواع *

(٣) نسب هذا البيت فى اللسان (قلت) إلى كثير عزة . والبغاث بتثليث الباء .

ما وزنُه يتضاعَف على وزنها . وما طولُه وعَرضه يتزايَدُ على طولها وعرضِها ، ثم بغاثُها وهى صغارُها ومصطادها أكثَر فِراخاً وأوسع نَسْلًا ، وأمُّ الصقر قليلة الفراخ مِقلاتٌ لا يَبقَى لها أيضاً ما تُفَرِّخه . وانتصب « جُسوماً » و« وفِراخاً » على التميز . والمِقلاتُ : مِفعال من القَلَت ، وهو الهلاك . والنَّزُور : القليلة الأولاد ، من النَّزْر ، وهو القليل .

٦ — لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لُبٍّ فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعيرُ

٧ — يُصَرِّفُه الصبيُّ لـكلِّ وَجْهٍ ويَحْبِسُه على الخَسْفِ الجَرِيرُ(١)

٨ — وتَضْرِبه الوَليدةُ بالهَرَاوَى فلا غِيَرٌ لَدَيْهِ ولا نَـكِيرُ

لمّا ضَرَبَ المَثَل بذوات الأجنحة والماشيةِ على رجلين ، عادَ يذكر من ذوات الأربع مثلَ ذلك فقال : ترى البعير مع عِظَمه وقُوّته ، وصبره على النُّهوض بالأعباء الثقيلة ، والأحمال العظيمة ، لمّا لمْ يَصْحَبْ عِظَمه اللُّبُّ ، وقُوّتَه التميز ، لم يستغْنِ بما أُعْطِى من ذلك ، بل تراه مسخَّراً لأنْ يُدِيرَه الصبيُّ على وجهٍ من وجوه التذليل ، ويَحبِسَه زِمامُه على كل خَسْفٍ وهَضْمٍ ، حتى أن الوليدةَ تضربُه أوجَعَ الضرب ، فلا إنكارَ منه ولا ذَهابَ عنه ، ولا تغييرَ إليه ولا نكير لَدَيه .

وقوله « الهَرَاوَى » جمع هِرَاوَةٍ ، ووزنُه فعائل هَرَائى ، لأنّ فَعيلة وفِعالة يشتركان فى هذا البناء من التكسير ، تقول : صحيفةٌ وصحائف ، ورسالة ورسائل ، إلا أنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فصار هَرَاءا ، فاجتمع همزةٌ وألفان فكأنه قد اجتمع ثلاثُ ألفات أو ثلاث همزات ، فأبدلوا من الهمزة واواً فصار هَرَاوَى . فإن قيل : هَلَّا أبدلْتَ منه الياء ، كما فعلتَه فى مطايا وما أشبهَها ؟

(١) التبريزى : « بكل وجه » .

قلتَ : أرادوا أن يَظهَرَ فى الجمع الواوُ كما ظهر فى الواحد ليتميَّز بنات الياء عن بنات الواو .

٩ — فإنْ أكُ فى شِرَارِكُمُ قليلاً ‏ فإنِّى فى خيارِكُمُ كثير

يقول : إنْ كَثَرَنِى شرارُكم وأراذلُكم ، لوفور عددِهم وكونى واحداً فيهم ، فإنى أكْثُر خيارَكم وأغلبُهم لقلّتهم وكثرتى ، وذلك أنى أنُوب عن جماعةٍ إذا عُدَّ الأخايرُ . ويجوز أن يريد أنه لا خيارَ لكم ، فأنا وإنْ كنتُ واحداً من حيثُ العدد ، كثيرٌ إذَا طُلِبَ الخيار منكم ، إذْ لم يكن لكم خيار .

وقد مَضَى القول فى غير موضع فى حذف النون من لم أكُ وإن أكُ .

٤٢٠

وقال بعضهم :

١ — أعَاذِلَ ما عُمْرِى وهَلْ لِى وقد أتَتْ ‏ لِدَاتى على خَمْسٍ وستِّين من عُمْرِى

٢ — رأيتُ أخَا الدُّنيا وإن كان خافضاً ‏ أخَا سَفَرٍ يُسْرَى به وهو لا يدرى

٣ — مُقِيمينَ فى دَارٍ نَرُوحُ ونغتدى ‏ بلا أُهْبَةِ الثَّاوِى المقيمِ ولا السَّفْرِ

وقوله « ما عمرى » استفهامٌ على طريق التَّحقير والاستقلال ، فكأنَّ العاذلةَ كانت عتبَتْ عليه فى تبذيرٍ وإنفاق ، وخوَّفته العواقبَ وما تؤدِّى إليه باتّفاق ، فأخذ يُجيبُها ويقول : يا عاذلةُ ، أىُّ شَىْءٍ عَمْرِى ، وكيف يدوم بقائى حتَّى أُخوَّفَ بالفقر ، وهل لى عُمْرٌ وأقرانى يَعُدُّون خمساً وستين سنة . ثم أخذ يَذُمُّ الحريصَ على الدنيا وأعراضها ، ويَقُصُّ ما تَستَوِى فيه أقدامُ الخلائق من إرصاد الفَناء لها فقال : رأيتُ صاحبَ الدنيا وإن كان متودِّعاً مقيما ، كالمسافرِ يُسار به وهو لا يعلم ؛ وذلك لأنَّ له أجَلاً يُسَاق إليه ، ومُنْتَهًى من العمر يحال عليه ، فالأيام تأخذ

منه ، وتنقص من عمره ، فهو كالمسافر وقد انتوى نِيّةً فما يقطعه من المسافة يُقرِّبه من مَقْصَده ، ويُعجِّل وصولَه إلى أمده .

وقوله « مقيمين فى دارٍ » انتصب على الحال من قوله « أخا الدنيا » ، لأنَّه أراد به الكثرة ، فهو كأسماء الأجناس . وقال : « نَروح ونَغتدى » لأنه من إخوان الدُّنيا ، فأدخل نفسه فيهم . وقوله « بلا أُهْبةِ الثّاوى المقيمِ ولا السَّفْرِ » يريد : لا نأمُل البَقاءَ فى هذه الدنيا ، ولا نأمَن الفَناء ، فلسنا كالثَّاوى فنتأهَّبَ أهبتَه ، ولا كالمسافر فنُعِدَّ عُدَّتَه . وأراد بالثّاوى المقيم الكثرةَ لا الواحد . وقد تقدَّم القَول فى حقيقة العُمْر(١) .

٤٢١

وقال بعضُهم(٢) :

١ — لا تَعترِضْ فى الأمرِ تُكفَى شُؤونَه ... ولا تَنْصَحَنْ إلَّا لِمَنْ هُوَ قابِلُهْ

٢ — ولا تَخْذُلِ المَوْلَى إذا ما مُلِمَّةٌ ... ألَمَّتْ ونازِلْ فى الوَغَى مَنْ يُنازِلُهْ(٣)

يوصِى مخاطَبَه بأن يُعرِضَ عن الأمر الذى لا يَعنيه ، ويترُكَ الاعتراضَ فيه ، وألاَّ يتنصَّحَ إلاَّ لِمَنْ يرجو قبول(٤) النُّصح منه ، وبألاَّ يخذُلَ ابنَ عمِّه إذا

(١) كذا وردت هذه العبارة فى هذا الموضع ، وحقها أن تكون تعليقا على البيت الأول لا الأخير .

(٢) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، كما فى مجموعة المعانى ١٤ . وعبيد بن أيوب : أحد بنى العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جنى جناية فطلبه السلطان وأباح دمه : فهرب فى مجاهل الأرض وأبعد ، لشدة الخوف . وكان يخبر فى شعره أنه يرافق الغول والسعلاة ، ويبايت الذئاب والأفاعى ، ويأكل مع الظباء والوحش . الشعر والشعراء ٧٥٨ واللآلئ ٣٨٣ .

(٣) بعده عند التبريزى ومجموعة المعانى :

ولا تَحرم المولى الكريم فإنه ... أخوك ولا تدرى لعلك سائله

(٤) فى الأصل : « تبرك » ، صوابه فى م .

نزلت به نازلة ، بل يُنازِل مَن ينازله ، ويناوئ مَن يناوئه . وهذا على طريقتهم في قولهم : « انصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً » . وأصل الوغَى هو الجلَبة والصَّوت . وقوله « في الأمر تُكفى شؤونَه » يريد تُكفى أسبابَه وجوانبه . والضمير من « قابِلُه » لما دلَّ عليه قوله لا تَنْصَحَنْ ، وهو النُّصح .

٤٢٢

وقال مَنظور بن سُحَيم[(١)] :

١ – ولَسْتُ بهاجٍ في القِرى أهْلَ مَنْزِلٍ ... على زَادِهم أبْكي وأُبْكي البَواكيا

٢ – فإمَّا كِرَامٌ مُوسِرُونَ أَتيتُهُمْ ... فحَسْبِيَ مِنْ ذِي عِندَهُمْ ما كفانيا[(٢)]

٣ – وإمَّا كِرَامٌ مُعْسِرُونَ عَذَرْتُهُمْ ... وإمَّا لِئامٌ فادَّكرتُ حَيَائيا

يصف نفسَه بالتعفُّف عن المطامع الدنيَّة ، والمطاعم الذَّميمة ، فيقول : لا أهجو بسَبَبِ القِرَى ، وهو ما يُقدَّم إلى الضَّيف ، ولا أشكو أهلَ دارٍ فأبكي على ما يفوتُني مِن زادهم وأُبكي غيرى معى . وقوله «أَبكي وأُبكي البواكيا» لا بُكاءَ ثَمَّ ، وإنَّما أرادَ تفظيع التأسُّف . فيريد : لا آسَفُ لما أرى من الحِرمان أسفَ مَن يَبكي ويُبكي غيرَه تهالُكاً على مالِ غيره ، وتوجُّعاً لشدَّة نَهْمته .

وقوله « فإمَّا كِرامٌ » فصَلَ بين حرف الجزاء والفِعل بقوله كرام ، فارتفع بفعلٍ مضمر دَلَّ عليه الفعل الذى بعده ، كأنَّه قال : فإما يُقْصَدْ كِرامٌ موسرون أتيتُهم . وقوله «فحسبي» في موضع الابتداء ، و « ما كفاني » في موضع الخبر ،

---

(١) منظور بن سحيم الفقعسي الكوفي ، إسلامي ، ذكره المرزباني في معجمه ٣٧٤ – ٣٧٥ . وفي الإصابة ٨٤٦٣ : « منظور بن سحيم بن نوفل بن نضلة بن الأشتر ابن جحوان بن فقعس الأسدي الفقعسي ، ذكره المرزباني في معجم الشعراء ، وقال إنه مخضرم » .

(٢) التبريزي والمرزباني : « من ذو عندهم » .

والفاء مع ما بعدَه جواب الشرط . وقوله « مِن ذِى عندَهم » أراد من عندهم . والعرب تقول : هذا ذو زَيْدٍ ، يريدون : هذا زَيْدٌ . وهذا من إضافة المُسمَّى إلى الاسم . قال الكُمَيت :

* إليكم ذَوِى آلِ النَّبِىِّ تَطَلَّعَتْ[1] *

يريد يا أصحاب ذا الاسم . وقال الأعشى :

فكذَّبوها بما قالَتْ فصَبَّحَهُمْ ذو آلِ حَسَّانَ يُزْجِى الموتَ والشِّرَعا

أى العسكر الذى يقال له آل حسّان .

ويروى : « مِن ذو عِندَهم » ويكون ذو بمعنى الذى ، وعندهم فى صلته ، وذو هذه طائيّة . والمعنى : لا يخلو مَن أقْصِدُهُ وأنزلُ بهِ من وجوه : إمَّا أن يكونوا قوماً يرجعون إلى كَرَمٍ ويَسَار ، فيتوفَّرون علىَّ حَسَبَ مايقتضيه كَرَمُهم وأَكتفِى مِن الذى عندهم لى بما يَكفينى ، وإمَّا أن يكونوا كِراماً مُضِيقينَ[2] أثَّر الدهر فيهم، فأعذِرَهم لإضاقتهم ، وعلى بحالهم . فقوله « وإمَّا كرام معسرون » بيانُه : وإمَّا قُصِدَ كرامٌ مُضِيقُون عذرتُهم فى تقصيرهم ، وإمَّا أن يكونوا قوماً لئاماً فى أخلاقهم دناءةٌ ، وفى أعراقهم نَذَالة ، فتذكَّرتُ حيائى وصيانَتى لنفسى ، فلم أبذلْ لهم وجهى ، ولم أبتذلْ بتَقاضيهم مُطالبَتهم جاهى .

٤ — وعِرْضِىَ أبْقَى ما ادَّخَرْتُ ذَخِيرَةً وبَطْنِىَ أَطْوِيهِ كَطَىِّ رِدَائيا

قوله « أبقَى ما ادّخرتُ » ما فى موضع الجرّ ، كأنّه قال : عِرْضِى أبقى شىء أدَّخره ذخيرة ، أى اكتسبه ذخيرة . فعلى هذا ينتصب « ذخيرة » على الحال

(١) عجزه كما فى الهاشميات ٣٩ :
* نوازع من قلبى ظماء وألبب *

(٢) مضيقين ، بالقاف من الإضاقة ، وهى العسر . وفى الأصل : « مضيفين » بالفاء صوابه فى ل .

المؤكِّدة لما قبله . وادَّخَر : افتعَلَ من الذُّخر لكنه أُبدل من التاء دالاً فأدغم الدَّال فيه ، فلك أن تقول ادَّخر ولك أن تقول اذَّخَر .

وهذا الكلام بيانُ ما يأخذ به نفسَه من الصيانة والقَناعة ، وسُلوكِ طرائق الانقباض عمَّا يَشِين ولا يَزِين من الانبساط إلى اللئام . فكأنه قال : أُبَقِّ على عِرضِى ، لأنَّه أعزُّ الذخائر لى ، وأَطوِى بطنى عن المآكل المُردِية كما أطوى ردائى ، إذْ كان التَّزهُّد فيما يُخزِى أولَى عِندى .

٤٢٣

وقال سالمُ بنُ وابصة[1] :

١ — ونَيْرَبٍ مِن مَوالى السَّوءِ ذى حَسَدٍ يَقتاتُ لَحْمِى وما يَشْفِيهِ من قَرَمِ

٢ — داوَيتُ صَدْرًا طويلا غِمْرُه حَقِداً منهُ وقَلَّمْتُ أظفارًا بِلاَ جَلَمِ

النَّيرب : النميمة والعداوة وقوله « ونَيرب » أراد وذى نيرب ، والمصدر وما يجرى مَجراه إذا وُصِفَ به إمَّا أن يكون على حذف المضاف ، وإما أن يُجعَل الموصوفُ نفسَ الحدَثِ لكثرة وُقوعه منه . فيقول رُبَّ ذى نيرب حَسودٍ من موالى السَّوء ، يَغتابُنى بظَهر الغَيب ، ويأكل لحمى ولا يَشفيه ذلك من قَرَمٍ . والقَرَم : شَهوة اللحم . والمعنى أنه لا يَكفيه ما يتناول منِّى وإن كان لا يألو جُهداً فى ثَلْبِى . وجواب رُبَّ قوله « داويت » من البيت الثانى . ويقتات : يفتعل من القُوت ، وهو فِعل المطاوَعة . ويقال : قاتَه كذا فاقتاته .

ومعنى « داويتُ صدراً طويلا غِمْرُه » أى صابرتُه على مُداجاته وانطوائه على حقدى ، فدفعتُ شرَّه عن نفسى بطول مداواتى ، وفَلَلت حدَّه بترك

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٤٤ ص ٧١٠ .

مكاشَفتِه حتّى لم يجد إلى إثارة كامِن غِمْرِه طريقاً ، فاحتاج إلى الإمساك عن أذاتى ، لدوام تمسُّكى بمجاملته شاء أو أبى . وقوله حَقِداً هو اسم الفاعل من حَقِد ، وهو لغةٌ فى حَقَد . يقال حَقَد يَحقِد فهو حَقُود ، وحَقِد يَحقَدُ فهو حَقِدٌ .

٣ — بالحَزْمِ والخِيرِ أُسْدِيه وأُلْحِمُه تَقْوَى الإلٰه وما لَمْ يَرْعَ من رَحِمِى[(١)]

٤ — فأصبحَتْ قوسُه دُونى مُوَتَّرَةً يَرْمِى عَدُوِّى جِهارًا غَيْرَ مُكْتَتِمِ

الباء من قوله « بالحزم » تعلّق بقلّمتُ أو داويتُ من البيت المتقدّم . والخِيرُ : الكَرَم ، وقيل : هو الهيئة والطبيعة ، يقال : هو كريم الخِيم والخِير جميعاً . وقوله « أُسْدِيه وأُلحِمه » خبرانِ لُفَّ أحدُهما بالآخر . فقوله « تقوى الإلٰه » يرجع إلى أُسديه ، و « ما لم يَرْعَ من رَحِمِى » رجع إلى أُلْحِمُه . والمعنى : داويتُ صدرَه أى مكنونَ صدرِه ، وقلَّمْتُ ظُفرَه باستعمال الحزم والخِير معه ، ثم جعلتُ تقوَى الله تعالى سَدَى ما بينى وبينه ، وألحمْتُه رعايةَ ما ضَيَّعَه من الرَّحِم ، فلا جَرَمَ أنه كفَّ من شأوِ شرِّه وغَرْب عداوته ، وأقبَلَ فى الظاهر يُعادى من يُعادينى ، فقوسُه الآن موتَّرةٌ دونى يرمى منها أعدائى بأسهم النُّصرةِ . ، مجاهَرةً لا مكاتَمةً .

٥ — إنّ من الحِلْمِ ذُلاًّ أنتَ عارفُه والحِلْمُ عن قُدْرَةٍ فضلٌ من الكَرَم

نبَّهَ بهذا الكلام على أن تَحلُّمَهُ عن أدانيه كان عن قُدْرَةٍ لا عن عجز ونَقيصة ، ولو شاء لانتقَمَ منهم . وأنه لم يُكسِبْه إمساكه عن مجاذبتهم ذُلاًّ ، ولو كان يُفضِى به الحالُ إلى ذلك لما فعَلَ ، فتحلُّمه كرَم ، وإبقاؤه على ما يَجمعه وإيّاهم من قُربَى وقرابةٍ تُقًى وتفضُّل . وقوله « فضلٌ من الكرم » يريد أنه نوعٌ من الفضل يُعَدّ فى خصال الكَرَم . ومثل هذا قول الآخر :

(١) التبريزى : « من رحم » .

جَهُولٌ إذا أزْرَى التَّحَلُّمَ بالفَـتَى ... حَلِيمٌ إذا أزرى بذى الحَسَبِ الجهلُ

٤٢٤

وقال بعضهم :

وأُعْرِضُ عن مَطاعِمَ قد أَرَاها ... فأتْرُكُها وفى بَطْنِى انطِوَاءُ

فلا وأَبِيكَ ما فى العَيْشِ خَـيْرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذَهَبَ الحَيَـاءُ[(١)]

يماثل هذا قول الآخر :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه ... حتى أنال بِهِ كريمَ المَطْعَمِ[(٢)]

قوله « وأَظَلُّه » يريد أظلُّ عليه ، فحذف حرف الجر ، كما قال :

* لولا الأُسَى لَقَضانِى[(٣)] *

أى لقضى علىّ .

٤٢٥

وقال نافعُ بن سعدٍ الطائى :

١ – ألمْ تَعْلَمِى أنِّى إذا النَّفْسُ أشْرَفَتْ ... على طَمَعٍ لَمْ أنسَ أنْ أتَـكَرَّما

٢ – ولَسْتُ بلوّامٍ على الأمرِ بَعْدَما ... يَفوتُ ولـكنْ عَلَّ أن أتقدَّما

(١) بعده عند التبريزى :

يَعِيشُ المرءُ ما استحيا بخَيرٍ ... ويبقَى العُودُ ما بَقِىَ اللِّحاءُ

(٢) المعروف فى الرواية : « كريم المأكل » . وهذه الرواية المعروفة فى بيت عنترة ، فى اللسان (ظلل) وديوان عنترة ١١٩ . وانظر مقاييس اللغة (٣ : ٤٣٠) .

(٣) البيت لأعرابى من بنى كلاب ، كما فى الكامل ٢١ ليبسك واللسان (غرض ، قضى) . وصدره :

* تحن فتبدى ما بها من صبابة *

يقول : أمَا علمتِ من أخلاقى الكفَّ عن كثيرٍ من المَبَاغى الجالبة لقالَة الناس وتصرُّفهم فى الحكم عليه وله ، وأنّى إذا أمكننى الفوزُ بالمطامع القريبة والمآكلِ الهنيئة ، فأشرفتُ منها على تحصيلها لم أنسَ أخذَ النّفس بالنظر فيها ، واستعمالَ الكرَم فى تركِ ما يَجمع علىّ عاراً منها . وقوله « على طَمَعٍ » أى على مطموع فيه ، ومنه قيل لأرزاق الجند : أطماعهم .

وقوله « ولَسْتُ بلوّامٍ » يقول : إذا فاتنى أمرٌ لا أرجِعُ على نَفْسى باللّوم الكثير تحسُّرًا فى إثرهم ، لكننى حقيقٌ أن أتقدّم فى تحصيله قبلَ فواته إن كان مما يُهِمّ . وقوله « ولكنْ عَلّ » هو أصل لَعَلّ ، وهو حرفٌ موضوعٌ للطمع والإشفاق ، واسمه مضمر كأنه قال ولكن لعلنى أن أتقدم . وهو يجىء بأنْ وبغير أن ، فإذا كان معه أن أفاد فائدة عَسَى ، وإذا جاء بغير أن كان الفعل أقرب وقوعاً ، لأنّ أنْ للاستقبال ، ولعلّ وإنْ كان حرفاً يُعدّ مع أفعال المقاربة وهى عسى وكاد . ولَوّام بناء المبالغة ، وليس بمبنِيّ على لَوَّم لأن المبنى عليه هو مُلَوِّمٌ .

٤٢٦

وقال بعض بنى أسد[(١)] :

١ ــ إنّى لأستغنِى فما أبْطَرُ الغِنَى ... وأَعْرِضُ مَيْسورِى على مُبْتَغِى قَرْضِى

٢ ــ وأُعْسِرُ أحيانًا فتَشْتَدُّ عُسْرَتِى ... فأُدْرِكُ مَيْسورَ الغِنَى ومعى عِرْضِى

٣ ــ وما نالَها حتى تجلَّت وأسفرَتْ ... أخُو ثِقَةٍ منِّى بقَرْضٍ ولا فَرْضِ[(٢)]

(١) هو الحكم بن عبدل الأسدى ، كما فى أمالى القالى (٢ : ٢٦٠) ، وقال : « اجتمع الشعراء بباب الحجاج وفيهم الحكم بن عبدل الأسدى ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، إنما شعر هذا فى الفأر وما أشبهه . قال : ما يقول هؤلاء يا ابن عبدل ؟ قال : اسمع أيها الأمير . قال : هات . فأنشده » . وروى هذه القصيدة .

(٢) روى بعده التبريزى :

وأبذُلُ مَعروفى وتصفو خليقتِى ... إذا كَدِرتْ أخلاقُ كلّ فتًى محض

يعدّد فى هذه الأبيات عاداته فى حالتى الغِنى والفقر، فقال: إنّى أنالُ الغِنى فلا يَكسِبنى أشَرًا ولا بَطَرًا، لكنى أشكر الواهبَ وأبقَى على حالتى الأولى، بل[1] يقرّبنى ما أناله من المتّصلين بى، والمنضمّين إلىّ بسبب من الأسباب، فأعرِضُ ما يتيسر لى على طُلّاب قرضى، وأشرِكُ مَن يمتُّ إلىّ فى الخير المُتاح. وقد يتعقَّب الإيسارَ إعسارٌ فى الوقت بعد الوقت، فأصبرُ وإن اشتدَّ عُسْرى، وأُسْبِلُ على نفسى جَناحَ[2] تحمُّلى وتعفُّفى حتى أدركَ ميسورَ الغِنَى ونفسى معى، لم أبتذِلْها ولم أدنِّسْها بتعريضٍ أو تصريح لمُفضِلٍ أطلُب بهما عنده مَطْمَعا، وأجتلب مرغَبا.

وقوله: «وما نالها» يريد وما نال تلك العُسرة أخٌ لى يُوثَقُ بودّه لا بعاريَّة ولا بعطيَّة، إلى أن انكشفَتْ وفارقت.

وقوله «أبْطَرُ الغِنى» معناه أبطَرُ فى الغنى حتَّى أذهبَ عن سَنَنَ الشُّكر فأتجاوزَه وأخلِّفَه ورائى، غَمْطًا للنِّعمة، أو جهلا بحقِّ الصَّنيعة. وقال الله تعالى: ﴿وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعيشَتَها﴾. وقوله «أعرِضُ ميسورى» وضَعَه بلفظ المفعول للمصدر، يريد اليُسر. ومثله ماله معقولٌ. وضدّه حُمِل عليه وهو العُسر، فقيل معسور. وإنما قال «ومعى عِرضى» لأنّه إذا صانَه عن القبائح ولم يُسلِّطْ عليه من يتملّكه بهِبَة أو صلَة، فكأنَّه معه لم يفارقْه. ولو أجراه على غير هذا لكان مفارقًا له، وداخلاً فى مَلَكة غيره.

٤ — ولكنَّهُ سَيْبُ الإلهِ ورِحْلَتِي وشَدِّى حَيازِيمَ المَطِيَّةِ بالغَرْضِ

الهاء من قوله «ولكنّه» يعود إلى ميسور الغنى. واستدرك النّفى من قوله «ما نالها حتَّى تجلَّت» بقوله لكنّ، يريد: لكنّ الغنى المتجدِّد، وهو عطيَّة

(١) فى الأصل: «فلو»، صوابه فى ل.
(٢) فى الأصل: «جزاء»، صوابه فى ل.

الله تبارك وتعالى ، وتقلُّبي وارتحالى ، وشدى حيازيمَ المطايا بالغُروض . كأنّه ذكَرَ الأسباب التى يسَّرت له الغِنى ، وأنّها لم تخرُجْ من تفضُّل الله تعالى واجتهاده . وقوله « المطيَّة » أراد بها الجنْس ، لذلك قال « حيازيم » وجمعها . والسَّيْب : العَطاء والمعروف ، وكثُر فى الاستعمال حتَّى سُمِّى الكنوزُ سُيُوباً ، وقيل لما تخرجه المعادِن سُيوب . والغَرْضُ والغُرْضَة : البِطان ، وهو للبعير بمنزلة الحِزام للدَّابَّة . والمَعْرِض منه كالمَحْزِم .

٥ — وأستَنْقِذُ المَوْلى من الأمْرِ بَعدما يَزِلُّ كما زَلَّ البَعِيرُ عن الدَّحْضِ

٦ — وأمْنَحُه مالِى ووُدِّى ونُصْرتى وإن كانَ محنيَّ الضُّلوع على بُغْضى(١)

يقول : إنِّى أتعطَّف على أبناء عمِّى ، فأُخلِّصهم من الشَّدائد ، وآخُذ بأضباعهم إذا زلّتْ أقدامُهم ، فأُقيمُهم بعد أن كانت زلَّتهم كزلّة البعير عن المَزْلَقَة . وإنَّما خصَّ البعير لأنَّ سقطتَه أفظع وأسرَعُ فى المَزالّ . يقال : مكانٌ دَحْضٌ ومَدْحَضَةٌ . ودَحَضَتْ رِجلُ البعير ، إذا زَلِقَتْ . قال :

* وحِدْتُ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ(٢) *

---

(١) بعده عند التبريزى :

ويغمرُه حِلمى ولو شئت نالَه قوارعُ تَبرِى العظمَ عن كَلِمٍ مَضِّ

وأَقضِى على نفسى إذا الأمرُ نابنى وفى الناسِ من يُقضَى عليه ولا يَقضِى

ولستُ بذى وجهين فيمن عرفتُه ولا البخلُ فاعلم من سمائى ولا أرضى

وإنى لسهلٌ ما تغيِّرُ شيمتى صُروفُ ليالِى الدهر بالفَتْل والنَّقْض

(٢) البيت لطرفة فى ديوانه ٤٨ واللسان (دحض) . وصدره فى الديوان :

* أبا منذر رمت الوفاء فهبته *

وفى اللسان :

* رديت ونجى اليشكرى حذاره *

ومنه : ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ أى لا تثبت . ودَحضت الشَّمسُ عن كَبِد السماء : زالَتْ .

وقوله « وأمنحه مالى » يريد : أنّى بعد استنقاذى إيّاه أتوفَّر عليه ببذل المال ، وإخلاصِ الود ، وتقريب النُّصرة ، وإن كان منطوياً على العَداوة والبغضاء .

وقوله « محنيّ الضُّلوع » أى معطوفَها . ويقال : حَنَيْتُ الشىء وحنَوْته حَنْياً وحَنْوًا ، فهو مَحْنِيٌّ .

٤٢٧

وقال حاتِمٌ الطَّائى(١) :

١ — وما أنَا بالسَّاعِى بِفَضْل زِمَامِها ... لِتَشْرَبَ مَاءَ الحَوْضِ قَبْلَ الرَّكائِبِ (٢)

٢ — وما أنَا بِالطَّاوِى حَقِيبةَ رَحْلِها ... لِأَبْعَثَها خِفًّا وأترُكَ صاحِبِى (٣)

يقول : لا أجتذب إلى نفسى الفضلَ مع خلطائى وشركائى فى الشُّربِ وغيرِه فلا أتسرّع فى الوُرود مستعجِلاً براحلتى لتشرب ماء الحَوضِ قبل وُرود ركائبهم . ومعنى قوله « بالسَّاعِى بفضل زمامِها » السَّابقُ بما أُعْطِى راحلتى مِن زمامِها .

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى . وكان من شعراء الجاهلية ، وبه كان يضرب المثل فى الجود ، وأخباره فى ذلك كثيرة مشهورة . انظر الأغانى (١٦ : ٩٢ — ١٠٥) وشرح شواهد المغنى ٧٥ والخزانة (١ : ٤٩٤ — ٤٩٥) والشعراء ١٩٣ — ٢٠٣ . والبيتان من أبيات فى ديوانه ١١٨ .

(٢) فى الديوان : « ما فى الحوض » .

(٣) فى الديوان : « لأركبها خفا » . وبعده عند التبريزى :

إذا كنتَ ربًّا للقلوص فلا تدَعْ ... رفيقَك يمشى خلفَها غير راكبِ

أنِخْها فأردفْه فإنْ حملتْكما ... فذاكَ وإن كان العقابُ فعاقِبِ

العقاب : أن يتناوب المسافران الدابة يركب كل منهما عقبته . والعقبة ، بالضم : النوبة .

وهذا مثَل . والرّكائب : جَمْع رَكوبٍ ، وهو اسمٌ يجمَعُ ما يُرْكَب ، ويقال : رَكُوبة ، فهى كالحلوبة والحَمُولة ، وتقع للواحد والجمع .

وقوله « وما أنا بالطّاوِى حقيبةَ رحلِها » ، يقول : وإذا كان لى رفيقٌ فى السّفَر وسّعت جَنَابى له ، ولا أتركُه يمشِى وقد خفَّفْت حقيبةَ رحلِ ناقتى طلباً للإبقاء عليها ، ولكنِّى أردِفه أو أُرْكِبُه . والحقيبة : ما يُشَدُّ خلفَ الرّحْلِ . قال :

* والبرُّ خيْرُ حَقيبةِ الرّحْلِ (١) *

والفعل منه احتقَبَ واستَحقَب . واستُعير فقيل : احتقَب إثْماً . قال :

فاليومَ فاشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً من الله ولا واغِــلِ (٢)

٤٢٨

وقال آخر :

١ — وإنِّى لَأَنْسَى عِنْدَ كلِّ حَفِيظَةٍ إذَا قِيلَ مَوْلَاكَ ، احتمالَ الضغائِنِ

٢ — وإنْ كانَ مَوْلًى ليسَ فيما يَنُوبُنِى مِنَ الأمرِ بالـكافِى ولا بِالمُعَاوِنِ

يصف نفسَه بأنَّ الحقد ليس من طَبْعه ولا عادته ، فيقول : إنِّى أُشفِقُ على مَوَالِىَّ حتَّى إذا اتَّفق لواحدٍ ما يحتاج منى إلى مَعونةٍ نَسِيت سيِّئته ، ولم أحتمِلْ فى صدرى له ضِغْنهُ ، فأخَذْتُ بيده وأعنتُه على دهره ، وإنْ كانَ فيما ينوبُنى ليس بكافٍ لى ولا مُعين ، إذ كنتُ أوجِبُ له بكونه مَوْلًى ما يُنْسِى تباغُضَه وجفاءَه . والحَفيظة : الخصْلة يُحفَظُ لها الإنسانُ ، أى يُغضَب . ويقال : « أهلُ

---

(١) البيت لامرئ القيس بن حجر ، كما فى الشعراء ٦١ .

(٢) وهذا أيضا لامرئ القيس فى ديوانه ١٥٠ . ويروى : « فاليوم أسقى » . ويروى أيضاً : « فاليوم أشرب » ببناء الفعل على السكون ، أو بتقدير علامة الإعراب . انظر الخزانة (٣ : ٥٣٠ — ٥٣٢) .

الحفائظ أهل الحِفاظ » ، لأنَّهم يُحامونَ من وراء إخوانهم . وانتصب « احتمالَ » بِأنْسى . والضَّغائن : جمع الضَّغينة ، وقد مرَّ ذِكرُها .

٤٢٩

وقال آخر[1] :

وإنِّى لَعَفٌّ عن مَطَاعِمَ جَمَّةٍ   إذا زَيَّنَ الفَحشاءَ للنَّاسِ جُوعُها

قد مضى له نظائر .

٤٣٠

وقال آخر :

١ — ومَوْلًى جَفَتْ عَنْهُ المَوالى كأنَّهُ   مِنَ البُوسِ مَطْلِىٌّ به القَارُ أَجْرَبُ

٢ — رَئِمْتُ إذا لم ترأمِ البازِلُ ابنَها   ولم يَكُ فيها للمُبِسِّينَ مَحْلَبُ

يقول : رُبَّ ابنِ عمٍّ زهِد أقاربُه فى الإحسان إليه فاطَّرحوه وانثَنَوْا عن الفِكر فيهِ والتوفُّر عليه ، نُبُوًّا عنه وعن اصطناعه ، فأثَّر فيه البؤس ، وأحاطَ بجوانبه الشَّقاء والضَّرّ ، حتى صار كالبعير الجرِب وقد طُلِىَ بالقار ، هيئةً ولوناً ، وضُؤولةً وانخزِالا ، وتباعداً عن الناس وتجافياً ، أنا عَطَفْتُ عليه ، وأشركتُه فيما وهَبَ الله لى فى وقتٍ من الزَّمان لا يُؤْوِى[2] أحدٌ من أهله غيرَه ، لِشُمول القَحط ، وغَلَبة الضُّرّ والفَقر ، حتى أنّ النُّوقَ تؤْثِر التباعُدَ عن أهلها فلا ترأمُها ، وترَى الذين يُبِسّون بذوات الألبان عند الحَلَب ، لا يَجِدُون فى ضَرعها خيراً . ويقال : بَسَّ بالناقة وأبَسَّ ، إذا دَعاها للحَلَب . ومن أمثالهم : « لا أفعلُ

(١) هذه الحماسية ذات البيت الواحد لم يروها التبريزى .
(٢) فى الأصل : « يروى » ، صوابه فى ل .

كذا ما أَبَسَّ عَبْدٌ بناقةٍ[1] » ، أى دعاها للحلَب . ويقال : رَئِمَتِ الناقةُ رِئْمانا ، إذا عطفَتْ .

٤٣١

وقال عروة بن الورد[2] :

١ — دَعِينى أُطَوِّفْ فى البِلادِ لَعَلَّنى أُفِيدُ غِنًى فيه لِذِى الحقِّ مَحْمَلُ

٢ — أليسَ عظيمًا أنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ وليسَ علينا فى الحقوقِ مُعَوَّلُ

يُخاطب عاذلةً له فيما همَّ به من التَّرحال فى طلَب المال ، فقال : اترُكينى وما أختارُه من التَّجوال ، والتنقُّل فى البُلدان ، طمَعاً فى خيرٍ أستفيدُه ، وغِنًى أستجدُّه ، لكىْ إذا نابَنا ذو حَقٍّ وجَدَ على مالِنا مَحْمَلا ، وعلينا فى التزام واجِبِه مُتَّكَلاً ؛ لأنَّ مَن جالَ نال ، ومن قَرَع باباً وجَدَ وُلُوجاً ، وأوَّلُ دَرَجِ الحِرمان الوقوفُ عند أدنى الهِمَّتين ، وآخرها الرِّضا بأَوْدَعِ العَيشَين .

وقوله « أليس عظيما » يريد تقريرها على فَظاعةِ الفقر والفاقَة ، وقَباحة إمساكِ الناس عن تعليق الرَّجاء بهم والطَّاعة ، فقال : ألا تستعظم[3] أن تَنُوبَ الحيَّ نائبةٌ فلا يُعوِّلون علينا فى الاحتمال عنهم ، ولا يرتجون منّا تعطُّفاً عليهم ، لاتِّضاع حالِنا ، وتأكُّد اليأْسِ من نَيلنا . وقوله «أُفيد» بمعنى أستفيد . وأليس يقرِّر به فى الواجب الواقعِ ، وأن تُلِمَّ فى موضع الرَّفع بليس .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « بناقته » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ ص ١٢١ . والبيتان فى ديوانه ١٠٦ .

(٣) هذا على الالتفات . والوجه « ألا تستعظمين » .

٤٣٢

وقال آخر :

تَثَاقَلْتُ إلا عن يَدٍ أستَفيدُها   وخُلَّةِ ذي وُدٍّ أشُدُّ به أَزرِى

هذا في طريقةِ ما تقدَّم . والمعنى : أنِّي أتباطأ عن المطالب والمَباغى كلّها إلا إذا اتفق مَصنعٌ عند حُرٍّ ، فإني أتسرّع إليه ، وأتخفَّف في تحصيله ، مخافةَ أن يفوز به غيري ، لأن اعتقاد المِنَن في أعناق الرِّجال أعُدُّه غنيمةً تُغْتَنَم ، وفائدةً تُدَّخَر ؛ وإلاَّ صَداقةَ أخٍ وَديدٍ أعتمدُها في مدافعةِ شرّ ، ولاشتدادِ أزْرٍ ، فإني أجمعُ يَدِى عليها ، ولا أصبرُ على المزاحمة فيها . ويقال : شَدَّ فُلانٌ أزْرَه ، إذا شد مَعقِدَ إزارِه . ويقال : آزَرَه على أمره ، إذا ظاهرَهُ وعاونَه عليه .

٤٣٣

وقال عبدُ الله بن الزَّبِير[1] :

١ ــ لا أحسِبُ الشَّرَّ جاراً لا يُفارِقُنى   وَلاَ أَحُزُّ على ما فاتَنى الْوَدَجا

٢ ــ وما نَزَلْتُ مِن المكروهِ مَنْزِلَةً   إلاَّ وَثِقْتُ بأن أَلْقَى لها فَرَجا

يصف حُسنَ ثقتِه بربِّه ، وجميلَ ظنِّه بتفضُّله ، وأنه قد جرَّب وتبصَّر ، وعَرَف من أعقاب الأمور ما جعله لا يَذِلُّ لنائبة ، ولا يتخشَّع لنازلة ، فلا يظنُّ الشَّر إذا بُلِيَ به ضربةَ لازِمٍ[2] لا يُخالِف ، وجارَ سَوءٍ لا يُفارِق . قال : وإذا فاتَنى أمرٌ وإن جَلَّ لا أَهلِك أسًى في إثْرِه ، ولا أقتلُ نفسى جَزَعًا

---

(١) التبريزى : « عبد الله بن الزبير الأسدى » . وقد سبقت ترجمته في الحماسية ٣٢٢ ص ٩٤١ .

(٢) ل : « ضربة لازب » ، وهما سيان .

لَفوته ، ولا أَنزِلُ من مَظانِّ المكارِه منزلةً إلاّ وثقتى بتلَقِّى الفرَج وتعجُّله على أقرب مسافةٍ منى . والوَدَجان : عِرْقانِ يقطعُهما الذابح . ويقال : وَدَجْتُ الدّابةَ ، إذا أصبْتَ وَدَجَها .

٤٣٤

وقال مالكُ بن حَزِيم[1] :

١ — أُنْبِيتُ والأيّامُ ذاتُ تجارِبٍ ... وتُبْدِى لكَ الأيّامُ ما لَسْتَ تَعْلَمُ

٢ — بأنَّ ثَراءَ المَالِ يَنْفَعُ ربَّهُ ... ويُثْنِى عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٣ — وأنَّ قَلِيلَ المالِ للمرءِ مُفْسِدٌ ... يَحُزُّ كما حَزَّ القطيعُ المُحَرَّمُ

٤ — يَرَى دَرَجاتِ المَجْدِ لا يَسْتَطِيعُها ... ويَقْعُدُ وَسْطَ القومِ لا يتكلَّمُ

قوله « والأيّامُ ذاتُ تجارب » اعتراضٌ وقعَ بين أُنْبيت ومفعولَيه ، وهما فى قوله « بأنّ ثَراء المال ينفع ربه » لأنَّ أنْبيت ونُبِّيت وأخواتها كلٌّ واحدةٍ منها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . وقوله « وتُبدِى لك الأيّامُ » اعتراضٌ ثانٍ وإن عُطِفَ على ما قبْلَهُ . والمعنى أنَّ الأيّامَ واللّيالىَ تفيد أربابَها تجاربَ بما يحدُث فيها من الحوادث ، ويتحوّل من الأحوال ، وتُعْلِمهم بما ينكشف عنها ويشتمِل

---

(١) هذا ما فى الأصل . وفى ل : « خريم » . وفى شرح التبريزى والقاموس (حرم) ونوادر أبى زيد ٩٦ وأمالى القالى (٢ : ١٢٣) : « حريم » ، وهو مظهر من مظاهر اختلاف الرواة فى اسمه . وفى سمط اللآلئ ٧٤٨ : « واختلف فى مالك بن حريم الهمدانى ... فقال ابن النحاس : قال لى نفطويه : هو مالك بن خزيم بالزاى . قال : وقرأت على أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فى بيت أنشده له : مالك بن خريم بالخاء المضمومة المعجمة والراء المهملة المفتوحة . . . . وكذلك كان محمد بن يزيد يقول مالك بن خريم . وقال الهمدانى : هو مالك حريم » . ومالك بن حزيم : شاعر جاهلى إسلامى : كما فى اللآلئ . وهو مالك بن حزيم بن مالك بن حزيم بن دالان الهمدانى .

عليها من غوامض الأمور وخفيّاتها ، ما لا يَخطُرُ لهم ببال ، ولا يؤدّيه إليهم رَسْمٌ ولا مِثالٌ . فيقول : أُخْبِرْتُ والأيّام هذه حالها أنّ كَثرةَ المال ، والتّوسُّع في الحال ، يَرجِعان بالنّفع على صاحبهما فيصوِّرانه بصورة المشكور والمحمود ، وإن كان عند التّحقيق والتحصيل مشكوًّا مذموما ؛ وأنّ في قِلّة المال مَفْسَدةً لحالِ المُقِلّ وجاهِهِ ونفسه ، حتّى يبريَه ويقطعه بَرْيَ السّوط الجديد الذي لم يليَّن بَعْدُ ، المضروبَ به ، فتراه يَبخَعُ نفسَه ، ويتخشَّع لِلاَقيهِ والنّاظرِ إليه ، ويلزَم السُّكوتَ في نادي الحيِّ فلا يَنبِسُ تَماوُتًا وتصاغراً ، إذْ كان قد عَلِمَ من نفسه أنّه لا يستطيع التّرقّيَ في مدارج الفَضْل والإفضال ، وأنّه تَقْعُدُ الحالُ به عن النُّهوض بما ينهض به أماثلُ الرِّجال ، فهو يُسَلِّم الأمرَ لهم ، ويَبرأ من التّدبير إليهم .

وقوله « بأنّ ثراء المال » تعلّق بأُنبيت بأنّ الأمر كذا وأنّ الأمر كذا . والقَطيع : السَّوْط . والمُحرَّم : الذي لم يُمرَّن بَعْدُ .

٤٣٥

وقال محمد بن بَشِير (١) :

١ — لَأَنْ أُزَجِّيَ عِنْدَ العُرْيِ بالخَلَقِ وأَجْتَزِي من كَثيرِ الزّادِ بالعُلَقِ

٢ — خَيْرٌ وأَكْرَمُ لي من أَنْ أَرَى مِنَنًا خَوَالدًا لِلِئام النّاسِ في عُنُقِي (٢)

يصِفُ رضاهُ بيسير الحظّ من الدُّنيا ، وعَفافَهُ عن كثير ما يَسْتَغْنِي عنه فيتوقَّى ، فيقول : لَأَنْ أتبلَّغ عند التّعرِّي باكتساء الخَلَق ، وأكتفي من الزّاد الكثير بما يمكن به سدُّ الفاقة — أصْوَنُ لي وأَرَدُّ عليّ من أن أرى مِننًا معقودة في عُنُقي ، مُثْقِلةً لظَهري ، باقيةً على أعقاب الزمان لِلئامِ الناسِ عندي . والعُلَق :

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ .
(٢) التبريزي : « مننا معقودة » .

جمع العُلْقَة ، وهى اليسير من الشىء يُتَبَلَّغُ به ويَعتَلِقُه المحتاجُ إليه . ويجوز أن يكون من عَلِق يَعْلَقُ، إذا رَعَى . ومنه الحديث : « إنَّ أرواحَ الشُّهداء لَتَعْلَقُ فى الجنة » وتكون العُلْقة كالغُرفة والطُّعْمة وما أشبههما . وقوله «لأن أزجِّىَ» اللام لام الابتداء ، وأن أزجِّى مبتدأ وخبره قوله «خَيْرٌ وأكرمُ بى » .

٣ – إنِّى وإنْ قَصُرَتْ عن هِمَّتِي جِدَتى   وكانَ مَالِيَ لا يَقْوَى على خُلُقِى

٤ – لَتَارِكٌ كلَّ أمْرٍ كانَ يُلزِمُنِي   عَارًا ويُشْرِعُنى فى المَنْهَلِ الرَّنِقِ

نَبَّهَ على تمام الظَّلَف والعفاف إذا أَخَذَ به الإنسان ، فيقول : أنا وإنْ عَجَزَتْ غُنْيَتِي عمَّا توجبه همَّتى ، وكان فى حالى قُصُورٌ عما يدعو إليه خلُقى ، مُعْرِضٌ عن كلِّ أمْرٍ إذا نلتُه رجع منه عارٌ علىَّ أُذْكَرُ به ، ويوردُنى مشارعَ الكدر ، فإذا صدَرْتُ عنها لم أتهنَّأْ بشربى منها . ولك أنْ تروى : « فى مَنْهَل الرَّنَق » فيكون المنهل مُضافاً إلى المصدر ، ولك أن تَرْوِى : « فى المَنْهل الرَّنِق » بكسر النون فيكون صفةً له . والمَنْهَل : موضع النَّهَل . والناهِلُ : العَطْشان ، والرَّيَّان جميعاً . والوُجْدُ والجِدَةُ : مصدر وَجدتُ ، فى المال . ويقال : شَرَعت فى الماء ، إذا خُضْتَ . وأَشْرَعَنِى فيه فلانٌ وشرَّعنى أيضاً . وفى المثل : « أَهْوَنُ الوِرْدِ التَّشْرِيعُ » .

٤٣٦

وقال أيضاً :

١ – ماذا يُكَلِّفُكَ الرَّوْحَاتِ والدُّلَجَا   البرَّ طَوْرًا وطَوْرًا تركبُ اللُّجَجَا

٢ – كَمْ من فتًى قَصُرَتْ فى الرِّزْقِ خُطْوَتُهُ   أَلْفَيْتَهُ بِسِهَامِ الرِّزْقِ قد فَلَجَا

قوله « ماذا » لفظةُ استفهام ، والمعنى الإنكار ، ويجوز أن يكون «ما» مع

ذا بمنزلة اسمٍ واحد مبتدأ ، ويكلّفك خبره . ويجوز أن يكون وَحْدَهُ اسماً ، وذا فى موضع الخبَر ، ويكلِّفك من صلته ؛ كأنه قال فى الأوّل : أىّ شىء يكلِّفك ، وفى الثانى : ما الذى يكلفك السَّيرَ فى اللَّيل والنَّهار متَّصلا ، لا تفتُر تركَب البرَّ تارةً ، والبحرَ أخرى . والرَّوْحات : جمع الرَّوْحة ، وهو يريد به السَّيرَ رَواحاً . والدَّلَجُ والدُّلجة : السَّير بالليل . وقوله « طَوْراً » انتصَبَ على الظَّرف ، والبرّ انتصبَ بفعلٍ مضمَر دلَّ عليه الفعلُ الذى بعده . واشتقاق الطَّوْرِ من قولهم : لا أطور به ، ومن طَوَار الدَّار ، وهو ما كان ممتدًّا معها .

وقوله « كم من فتًى » أفاد كَم التَّكثيرَ ، والكلام خبر ، والمراد : كثيرٌ من الفِتيانِ تَوَدَّعوا فى منازلهم ، وقَصُرَت خُطُواتهم للسَّعى فى طلَب أرزاقهم ، أُلْفُوا قد نالُوا ما غَلَبوا به الجِدَّ فى الطَّلَب ، المتعبَ نفسه فى التَّنقُّل . ومعنى فَلَجَ : غلَبَ . وسهام الرِّزْقِ ، يراد بها قِداح الرِّزق ، كأنَّه فاز لَمّا خرجَ له عند الإجالة بما غلَبَ به مُقامِرَهُ ومُزَاحِمَهُ . ويجوز أن يريدَ بسهام الرِّزق ما حُظَّ له من الحظّ ، وأُسهِمَ له وقُسِمَ فى الرِّزق .

٣ — إنَّ الأمورَ إذا انْسَدَّتْ مَسالِكُها   فالصَّبْرُ يفتُقُ منها كلَّ ما ارتَتَجا

٤ — لا تيأسَنَّ وإن طالَتْ مُطالَبةٌ   إذا استعَنْتَ بصبرٍ أن ترَى فرَجا

يقول : اسْتَعِنْ بالصَّبرِ فى كلِّ ما تزَاوِله وتراوِده[1] ، فإنَّ الأمورَ إذا انسدَّت طرقُها ، وأعيَت الحِيَلُ فى تحصيلها ، فإنَّ الصَّبرَ يسهِّلُ مدارجَها ، ويوسِّع مَوالِجَها ، ويَفتَح ما انغلقَ منها ، ويَفْتُق ما ارتَتَق من أسبابها ، ولا يتسلَّطنَّ عليك من اليأس ما يفتِّر عزمَك ، أو يقصِّرُ سَعيَك ، وإنْ دامَتْ مطالبتُك ، واتَّصلَتْ مواظبتك . واعتقدْ أنَّ الفرجَ يتلقَّاك ، والنُّجحَ بأقرب

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وترادفه » .

المنازِلِ منك ؛ فإنَّكَ إذا فَعلتَ ذلك فُزْتَ بكلِّ ما تَرومُهُ ، وتَعجَّلَ لك كلُّ ما تهواه . وقوله « أن ترى » فى موضع المفعول من تيأسَنَّ . وقوله « فالصبر يَفْتُق» جواب إذا ، وخبر إنّ الأمور فى الشرط والجواب . ويقال رتَجْتُ الباب وأَرْتَجْتُه ، إذا أغلَقْتَهُ ، وباب مُرْتَجٌ ومَرْتُوجٌ . والرِّتَاجُ : البابُ نفسُه .

٥ — أَخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أنْ يَحظَى بحاجَتِهِ ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلأَبوابِ أن يَلِجَا

٦ — أَبْصِرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عن غِرَّةٍ زَلِجَا(١)

يقول : إنَّ مُدْمِنَ الصَّبْرِ فى الأمور ، ومُلازِمَ التثبُّتِ والتلوُّم عندالخطوب(٢) حقيقٌ بأن يظفر بطَلِبَته ، وبنجاحِ السَّعى فى مَرَامِه وبِغْيَتِه(٣) . كما أنَّ من أدام قَرْعَ أبوابِ مَداخله ، وغَمْزَ مفاصلَ آرابِه ، حقيقٌ بوُلوجِه ووصوله ، ومَعرفةِ مُتيح ما يرجوه ومُرِيحِه .

ثم قال : وإذا سعيتَ فى أمْرٍ فاعرفْ مواطئَ قَدَمِكَ قبل أن تعْلوَها ، ومواقعَ خَطوِك قبل أن تعدُوَها ، واقسِمْها بين نظَرِكَ واختبارك(٤) ، وتحقيقك وحَدْسِك ؛ فإنَّ مَن ركِبَ مَزْلَقةً عن غِرَّةٍ وغَفلة ، يُوشِك أن يسقُط ليديهِ وفمِه ، وتزلَّ به قدمُه إلى قَرار هَلَكته وحَينه . والزَّلَجُ : السُّرعة فى المشْى والسُّقوطِ وغيرِه . وفرسٌ زَلُوجٌ : سريع السير . وكذلك يقال قِدْحٌ زَلُوجٌ . ومزلاج الباب : الخشبةُ التى يُغلقُ بها .

(١) التبريزى : « قدر لرجلك » . وبعده عنده :

ولا يَغُرَّنْكَ صَفوٌ أنتَ شاربُهُ فرُبَّما كان بالتَّكدير ممتزجا

(٢) التلوم : الانتظار والتلبث .

(٣) البغية ، بضم الباء وكسرها . وضبطت فى النسختين بالكسر .

(٤) ل : « واختيارك » .

٤٣٧

وقال آخر[١]:

١ ـ لَجِجْنَا ولَجَّتْ هَذِهِ فى التَّغَضُّبِ وشَـدِّ الحجابِ بَيْنَنَا والتنقُّبِ[٢]

٢ ـ تَلُومُ على مَالٍ شَفَانِى مَكانُهُ إلَيْكِ فَلُومى ما بَدَا لَكِ واغْضَبِى

كانَ هذا الشَّاعرَ اطَّلَع من أحوال أيتام أخيه على ما ساءه وأَنِفَ منه ، ثمّ دعاه التَّحنُّن والإشفاقُ ممَّا يتداولُه الناسُ فى مجالسهم من أحاديث البِرّ والعُقوق ، وتصرُّفهم فى صَرْف المَقْتِ إلى مستحقِّه ، والحمدِ إلى مكتسِبه، إلى أنْ أمرَ عَبْدَيْهِ الرَّاعيينِ بإراحة ما رَدًّا إلى فنائه مِنْ مَسارح إبلِه عليهم[٣] ، فاغتاظَتِ امرأتُه من ذلكَ وأنكرَتْ فِعلَه ، وخوَّفَتْه فى أثناء ملامها بالفقر وهجرَتْه ، فأخذ يقتصُّ ما كان منها ومنه فقال: تمادَت امرأتى فى الغَضَب والهجران ، واللَّوم والاحتجاب ، وكلُّ ذلك منها فى مَالٍ شفانى موضعُهُ الذى وضعتُه فيه ، ومَصْرِفُهُ الذى صرفْتُه إليه . ثُمَّ أقبل عليها مستهيناً بها وبفِعلِها فقال : إليكِ فلومى ما بد لَكِ . والمعنى : اجمعِى أمرَكِ ، واستمرِّى فى عَتْبِكِ وغضَبِك ما بدَالك ، فانَّ الرَّشادَ فيما آثرتُه ، والصَّلاحَ فى قِرَانِ ما اخترتُه . و « إليك » : اسمٌ من أسماء الأفعال هنا ، كما يكون عليك ، وعندك . ولذلك عَطَفَ عليه قوله « فلومى » . و « ما بدالك » فى موضع الظَّرف . وقد تقدَّمَ القولُ فى أمثاله .

---

(١) هو حجية بن المضرب . وفى التبريزى : « وحدث ابن كناسة أن حجية ابن المضرب كان جالساً بفناء بيته ، فخرجت جارية بقعب فيه لبن ، فقال لها : أين تريدين بالقعب ؟ فقالت : بنى أخيك اليتامى فوجم وأراح راعياه إبله ، فقال : اصفقاها نحو بنى أخى ، ثم دخل منزله فعاتبته امرأته فقال . . . » .

(٢) التبريزى : « ولط الحجاب دوننا والتنقب » .

(٣) كتب بجوارها فى ل بخط دقيق : « يعنى بنى أخيه » .

٣ ـ رأَيْتُ اليَتَامَى لا تَسُدُّ فُقُورَهُمْ هَدَايَا لَهُمْ فى كل قَعْبٍ مُشَعَّبِ (١)
٤ ـ فقُلْتُ لِعَبْدَيْنَا أَرِيحَا عَلَيْهِمُ سأَجْعَلُ بَيْتِى مِثْلَ آخَرَ مُعْزِبِ
٥ ـ عِيَالِى أَحَقُّ أن يَنَالُوا خَصاصَةً وأن يَشْرَبُوا رَنْقًا إلى حين مَكْسَبِى (٢)

يعنى باليتامى أولاد أخيه المتوفَّى . يريد : رأيتهم لا تَسدّ مَفاقرَهم ولا تقيمُ مُخْتَلَّ أحوالهم ، تُحفٌ تُوجَّه إليهم ، وهدايا تُحْمَلُ نحوهم فى قِعابٍ مشعوبةٍ . يشير بذلك إلى ما كانت امرأتُه تتولاَّه وتأتيه من بِرِّهم وتفقُّدهم قبل ذلك . وفى قوله : « هدَايا لهم فى كلِّ قعب مُشَعَّبِ » إزراءٌ بصنيعها ، وبالألبان المنقولة إليهم وظُروفِها . وجَمع الفقُورَ لاختلاف وجوهها .

وقوله « فقلتُ لِعَبْدَيْنا » يَعنى راعِيَيه اللَّذين أُمِرا بِسَوْق الإبل المردودة من المراعى إلى فِناء أولاد أخيه . وإنّما ثَنَّى على عادتهم فى تثنية مزاوِلِى أعمالهم ، كالبائن والمستعلِى فى الحَلَب وما أشبههما . وقوله : « سأجعلُ بيتى مثلَ آخر » ، يريد مثل بيتٍ آخرَ وقد عَزَبتْ إبله وتباعدَتْ ، فإنّ عيالى ولهم كاسبٌ مثلِى أحقُّ بمزاوَلة الفقْر ، ورَثاثة العيش ، والصَّبْرِ على المَشْرَب الرَّنق ، إلى أن أكْسِبَ ما تعودُ به حالهم إلى ما ألِفُوهُ من الخِصْبِ والسَّعة ، والخَفْض والدعَة . ويقال : أَعْزَبَ الرَّجلُ ، إذا عَزَبَتْ عنه إبلُه فى المرعَى .

٦ ـ ذَكرتُ بِهِمْ عِظامَ مَنْ لَوْ أَتيتُه حَرِيباً لآسانِى لَدَى كلِّ مَركَبِ (٣)
٧ ـ أَخُوكَ الَّذِى إنْ تدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وإن تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ (٤)

(١) ل : « لايسد » . (٢) التبريزى :

بَنِيَّ أَحَقُّ أَن يَنالوا سَغَابةً وَأَن يشربوا رنقاً لدَى كلِّ مَشرب

(٣) التبريزى : « ويروى : حبوت بها قبر امرئ لو أتيته » .
(٤) التبريزى :

أخى والذى إنْ أدعُه لمُلِمَّةٍ يُجِبْنِى وإن أغضَبْ إلى السَّيف يَغضبِ

قال أبو رياش : وفيها :

فلا تحسَبِينِى بُلْدُماً إن نكَحْتِهِ ولكنّنى حُجَيَّة بن المُضَرَّب

يقول : تذَكَّرتُ بهؤلاء الأولادِ أباهم الذى لو أتيتَه محزوناً مسلوباً ، ومُتعَباً بأعباء الفقر مَبْهوراً ، لضمّنى إلى صدره ، وشمِلَنى تضاعيفُ برِّه ، وجعلنى إسوةَ نفسِه فى كلِّ ما أركبُهُ ، والمُسْعَفَ بِطَلِبَته عند جميع ما أخطُبُه ، لأنَّ الأخ الكامل الأخوّة هو الذى يشدّ أزرَك ، ويحمِى ظهرَك ، وإن دعوْتَه لنائبةٍ تنوبُ أجابَكَ سريعاً ، وإن أعمَلْتَ سيفَكَ أعمَلَ سيفَه معه حثيثا .

٤٣٨

وقال المُقَنَّعُ الكِنْدِىُّ(١) :

١ — يُعاتِبُنى فى الدَّيْنِ قَوْمِى وَإنَّما ... دُيُونِىَ فى أشْيَاء تَكسِبُهُمْ حَمْدَا

٢ — أَسُدُّ به ما قد أَخَلُّوا وَضَيَّعُوا ... ثُغورَ حُقوقٍ ما أطاقُوا لها سَدَّا

٣ — وفى جَفْنَةٍ ما يُغْلَقُ البابُ دُونَها ... مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مدفَّقةٍ ثُرْدَا

٤ — وفى فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ جَعَلْتُه ... حِجابًا لِبَيْتِى ثم أَخْدَمْتُهُ عَبْدَا

كأنَّ قومَه ينعَون عليه(٢) سَرَفه فى الإنفاق ، وتخرُّقَهُ فى الإفضال ، وتجاوُزَه ما تُساعِدُه به حالُه وتتَّسعُ له ذاتُ يدِه إلى الاستقراض ، وبذلِ الوجه فى الادِّيان(٣) ، فقال : كثُرتْ لائمتُهم فيما يركَبُنى من الدُّيون ، وإنما هى مصروفةٌ فى وجوهٍ مُؤَنُها علىَّ ، وجمالُها لهم ، وقضاؤها فى أنفسِها يَلزَمُنى ،

(١) اسمه محمد بن ظفر بن عميرة . وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، وكان له محل كبير وشرف ومروءة وسؤدد فى عشيرته . ويزعم المؤرخون أن العلة فى لزومه القناع ما كان يخاف على نفسه من العين ، فقد كان أحسن الناس وجهاً ، وأمدهم قامة ، وأكملهم خلقاً ، فكان إذا سفر أصابته أعين الناس فيمرض ويلحقه عنت . الأغانى (١٥ : ١٥١) والشعراء ٧١٥ — ٧١٦ واللآلئ ٦١٥ — ٦١٦ .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : «كان قوم يعيبون عليه» .

(٣) الادّيان ، افتعال من الدين .

ومحامدُها موفَّرة عليهم . ثمَّ أخذَ يعدِّد فقال : من تلك الوجوهِ أنَّ ما يَنُوبُ من الحقوق فيُخِلّون بها ويضيِّعونها عجزاً عن الوفاء بواجبها ، أنا أسُدُّ ثغورَها ، وأُقيم فروضَها .

ومنها : أنّ لى دارَ ضيافة قُدورُها مُشْبَعة موفورة ، وجفانُها معَدَّة منصوبة ، لا يُمنَع منها طالبُها ولا يُحجب عنها رائدها ، فلُحانُها كالأكاليل على رءوسها ، وثرائدها قد نُمِّق تدقيقُها .

ومنها : أنّ بفنائى فرساً مربوطاً قد أُعِدَّ للمِهمّات ، على عادةِ أمثالى من الأكابر والرؤساء . ولكَرمِه وما يتوفّر عليه من إكرامى إيَّاه قد صار كالحِجاب لباب بيتى ، وقد شَغَلتُ بخدمته عَبْدًا يتفقَّده بمرأًى منِّى ، لا أُهمِلُه ولا أغفُل عنه .

قوله : « مدفَّقةٍ » أى مملوءة . والأحسن أن يُروى معه : « ثُرْداً » بضم الثاء . ويروى « مدفَّقةً ثَرْدَا » بفتح الثاء . والمراد مثرَّدةٍ ثَرْداً دقيقاً . والنَّهْد : الجسيم المُشْرِفُ من الخيل .

٥ـ وَإن الذّى بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي ... وَبَيْنَ بَنِي عَمِّى لَمختلفٌ جِدًّا[1]

٦ـ فإنْ يَأْكلوا لَحمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإنْ هَدَمُوا مَجْدِى بنيتُ لهم مَجْدَا[2]

٧ـ وَإنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ ... وَإنْ هُمْ هَوُوا غَيِّي هَوِيتُ لهمْ رشْدَا

٨ـ وَإن زجروا طَيرى بنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لهمْ طَيْرًا تَمُرُّ بهم سَعْدَا[3]

ذكر بعد ما عَدَّد معاذيره[4] فيما أنكروه عليه ، أنّ إخوتَه وأبناء عمِّه

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فإن » .

(٢) التبريزى : « فإن أكلوا » .

(٣) كذا فى ل والأصل . وعند التبريزى : « وإن زجروا طيراً » .

(٤) ل : « معاذره » . والثلب : العيب . والإذالة : الإهانة .

يحسدونه ويأتمرون العداوةَ والغَوايةَ له ، وهو يُصابِرُهم ويُجامِلُهُم ، ويتغابَى معهم ، فقال : إنَّ مابينى وبينهم فى طرَفَىْ نقيض ، وعلى لونٍ من الخلاف عجيب ؛ فإنهم إن اغتابُونى وتطعَّموا لحمى أمسكْتُ عنهم ، وتركْتُ أعراضهم موفورة ، لم يتخوَّنْها منِّى إذالةٌ ولا ثَلْب[1] ، وأعراقهم محفوظة لم يتحيَّفْها تحامُلٌ ولا غَضٌّ . وإن سَعوْا فى نَقْضِ ما أبرمْتُه من مَسْعاةٍ كريمةٍ ، وهدْمِ ما أسَّستُه من خُطَّةِ مَجْدٍ عليَّةٍ ، جازيتُهم بابتناء شَرَفٍ لهم مستحدَث ، وإعلاءِ شأنٍ لهم مستأنَف . وإن أهْملوا غَيبى فلم يُراعُوهُ بحُسنِ الدِّفاع عنه ، وإسباغِ ثَوبِ المحاماة عليه حَفِظت أنا غيبَهم ، وأرصَدْت الغوائل لمن اغتالهم . وإن أحبُّوا لِىَ الغوايَةَ ، والتَّسكُّع فى الضَّلالة والبَطالة ، اخترتُ لهم المَراشِد ، وهويت فى مَباغيهم المَناجح . وإن تمنَّوْا لِىَ المَنْحَسَة ، وزَجروا من بَوارح الطّير وسوانحها فى المشأمة ، جعَلْت عِيافتى لهم فيما يَمُرُّ بى منها المَسْعَدة والطِّيَرَةَ الحميدة . وقوله : « سَعْدًا » صفة لطيْرًا .

٩ ـــ وَلا أَحمِلُ الحِقْدَ القَديمَ عَلَيْهِمُ ‌‌ ‌ وَلَيْسَ رَئيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

١٠ ـــ لهمْ جُلُّ مَالِى إن تَتابَعَ لِى غِنًى ‌ ‌ وَإن قَلَّ مَالِى لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا

١١ ـــ وَإِنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ مادامَ نازِلًا ‌ ‌ وَما شِيمةٌ لِى غَيْرَها تُشْبِهُ العَبْدَا

أثبت لنفسه الرِّياسةَ عليهم فى هذا البيت . والمعنى أنّه متى استعطَفوه عطَفَ عليهم ، وإن استقالوه[2] أقالَهم وأسرَع الفَيئةَ لهم ، غيرَ حاملٍ الضِّغْنَ واللَّجاجَ معهم ، ولا معتقِدًا انتهازَ الفرُص فيهم ، لِمَا اكتَمَن من عَوادِى الحقد عليهم .

وقوله : « وليس رئيس القَوم من يحمل الحقدا » يجرى مجرى الالتفات ، كأنه أقبلَ على مخاطَبٍ فقال : إنِّى لا أتجمَّل[3] بترك مؤاخذتهم ، واطِّراح الحقد

(١) التخون : التنقص .

(٢) ل : « وإذا استقالوه » .

(٣) ل : « لا أتحمد » .

فى مساوَقتهم ، فإنّ الرَّئيسَ يُحِبُّ لتَبَعِهِ ذلك عليه فى شروط الرِّياسة . وقوله : « لهم جلُّ مالى » يريد إنْ توَاصَلَ الغِنَى لى أشركتُهُمْ فى مُعظَمه ، من غير امتنانٍ ولا تكدير ، وإن تحيَّفَ مالى حادثٌ يُلِمُّ ، أو عارضٌ يحدُثُ، لم أنتظِرْ من جهتهم مَعونة ، ولا كلّفتُهم فيما يخفّ أو يثقُل مؤونة .

وقوله « وإنّى لعَبْد الضَّيف » أراد أن يبيِّن ما عنده للغريب الطارق[1] ، والضَّيف النازل ، بعد أن شَرَح حالَه مع مواليه ، وخِصالَه فى مُرافَقةِ ذويه ، فقال : وأبْلُغُ فى خِدمة الضُّيوف مَبالغَ العبيد فيها . ثمَّ أكّد ما حكاه بقوله « وما شِيمةٌ لى غَيْرَها تُشبِه العبدا » ، فانتصبَ « غيرَ » على أنَّه مستثنى مقدَّم؛ وذاك لأنَّه لما حالَ بين الموصوف والصِّفة ، وهما شيمةٌ وتُشْبه ، وتقدَّمَ على الوصف صار كأنَّه تقدَّمَ على الموصوف ، لأنَّ الصِّفة والموصوفَ بمنزلةِ شىء واحد . وقوله « تشبه العبدا » يريد : تُشبِه شِيَمَ العبد[2]، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامه .

فليَتأمَّل النَّاظرُ فى هذا الباب وفى مثلِ هذه الأبيات ، وتصرُّفِ قائلها فيها بلا اعتساف ولا تكلُّف ، وسلامَة ألفاظها ، وصِحَّة معانيها ، فهو عَفْوُ الطَّبْع ، وصَفْو القَرْض .

٤٣٩

وقال رجلٌ من الفَزَاريِّين :

١ — إلَّا يَكُنْ عَظْمِى طَوِيلًا فإنَّنِى   لَهُ بالخِصَالِ الصَّالحاتِ وَصُولُ

٢ — وَلَاخَيْرَ فى حُسْنِ الجُسُومِ وَنُبْلِهَا   إذا لم تَزِنْ حُسْنَ الجسوم عُقُولُ

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الطائف » .

(٢) ل : « العبيد » .

٣— إذا كنتُ فى القَوم الطِّوالِ أصَبْتُهُم بعارفةٍ حَتَّى يُقالَ طَوِيل[(١)]

يقول : إن لم يكنْ فى طولى امتداد ، ولا فى خلْقى بَسْطة وكمال ، فإنّى لا أزالُ أَصِلُ نَقْصَ جسمى ، وأمُدُّ قِصَر قامتى بما أتولّاه من الأفعال الكريمة ، وأختاره من الخصال الحميدة ، حتَّى أمْحُوَ سِمَةَ الإزراء عن نفسى . ومَنْ أُوتِيَ الفضلَ فى خُلُقه ونَفْسه ، وعاداته وشِيَمه ، خيرٌ ممَّن أُوتِىَ العِظَم فى خَلْقه ، والبَراعةَ فى جسمه ، فلا فضيلةَ لمن حسُنَ وجهُهُ ونبُل منظرُه ، إذا لم يزيِّنْه عقلٌ وافر ، ومَخبرٌ رائق . ومتى حَصَلْتُ بين أقوامٍ طِوال القامات ، قابلْتُ طُولَهم بطَوْلِ يدى فِيهم ، وأنَلْتهم معروفى حتَّى عظُمْتُ فى أعينهم ، وامتلأتْ من حبِّهم لى ومَيلِهم إلىَّ قلوبُهم ، فأنساهُم طولُ باعى بالعطيَّة قِصَر قامتى بين قاماتهم . وقوله « حتَّى يُقالَ طَويل » ارتفع طويل على أنه خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : هو طويل . أى يُسلِّمون له فضيلةَ الطُّول عندهم .

٤— وكم قَدْ رأَينا مِنْ فُروعٍ كثيرةٍ تَموتُ إذا لم تُحْيِهِنَّ أُصُولُ

٥— ولم أرَ كالمعروفِ أمَّا مَذَاقُه فَحُلْوٌ وأما وَجْهُهُ فجَميلُ

هذا مثلٌ ضرَبَهُ للخصال المجتمِعة فى الإنسان ، لا تُعَدُّ فضائلَ إلَّا إذا اقترنَتْ بخصالٍ أُخَر ، وهى كالأصول لها . ومثالُ ذلك ما قدَّمَه من ذِكر عَبَالة الخَلْق[(٢)] إذا عَرِيَتْ من نَباهة الخُلُق ، وما شاكَلَها من صباحة الوَجْه إذا خَلَتْ من صحابة العَقْل . ثم قال : ولم أر شيئاً كإسداء المعروف وبثِّ العطاء والإحسان ، فإنَّ مَن ذاقَه استحْلاه ، ومن رآه استحسنَه وارتضاه . وهذا تأكيدُ ما ذكر من قوله : « أصبتهم بعارفة حتَّى يقال طويل » .

---

(١) التبريزى : « علوتهم بعارفة » .

(٢) العبالة ، بتثقيل اللام ، وتخفيفها لغة عن اللحيانى ، وهى الثقل .

٤٤٠

وقال عبدُ الله بن معاوية [١] :

١ — أرَى نَفْسِي تَتُوقُ إلى أُمورٍ ‏ ‏ وَيَقْصُرُ دُون مَبْلَغِهِنَّ مَالِي

٢ — فَنَفْسى لا تُطاوِعُنى ببُخْلٍ ‏ ‏ ومالِي لا يبلِّغُنى فَعَالِي

قد مضى له أمثال [٢] ، ومعناه ظاهر ، ويروى : « لا يَقومُ له فَعالى » .

٤٤١

وقال مُضَرِّس بن رِبْعِيّ [٣] :

١ — إنَّا لَنَصفحُ عَنْ مَجاهِلِ قومِنَا ‏ ‏ وَنُقِيمُ سَالِفَةَ العَدُوِّ الأَصْيَدِ

٢ — ومَتَى نَخَفْ يَوْمًا فَسَادَ عشيرةٍ ‏ ‏ نُصْلِحْ وإنْ نَرَ صَالِحًا لا نُفْسِدِ

يصفُ صفاءَ نيّتهم لقومهم ، وأنّهم يسلُكون معهم طرائقَ ما يعود على المَسُودِ بالصَّلاح ، وعلى السَّائد باستكمال الرِّياسةِ والارتفاع ، فقال : إذا جَهِلوا علينا صَفَحْنا عنهم ، وأبقَيْنا على الحال بيننا وبينهم ، واستفأْنا إقامتهم ورَجعتَهم . كلُّ ذلك لئلا ينفِرُوا فيزدادَ ما بيننا وبينهم تَفاقُمًا . فأمَّا الأَعـداء فإنَّا نَـكسِرهم ونستلُّ عنهم كِبرَهم وخُنزُوانَتهم ، ونلين أعناقَهم حتَّى ينقادوا على

---

(١) التبريزى : « عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر » . وهو عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان من فتيان بنى هاشم وأجوادهم وشعرائهم . وكان يرمى بالزندقة ، وخرج بالكوفة فى آخر أيام مروان بن محمد ، ثم انتقل عنها إلى الجبل ثم خراسان ، فأخذه أبو مسلم فقتله . الأغانى (١١ : ٦٣ — ٧٤) .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « مضى أمثالها » .

(٣) هو مضرس بن ربعى بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس ابن طريف بن عمرو بن قعين الأسدى . شاعر محسن متمكن ، كان معاصرا للفرزدق . المؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٩٠ .

ضِغْنٍ منهم . والسَّالفة : صفحة العنق . والصَّيَد : مَيَلٌ فى العُنق من الـكِبْر كما ما يكون الصَّعَر فى الخَدّ ، وكما أنَّ الصَّادَ يستعمل فى النَّاظر .

وقوله : «ومتى نَخَفْ يوماً فسادَ عشيرة» يريد : إنَّا نَسعَى فى إصلاح ذاتِ بينهم ، ولا ندعُهم يتدابرون ويتضاغَنُون ؛ لأنَّ عِزَّ الرَّجل بعشيرته . ثم إن رأيناهم على حَدٍّ من الصَّلاح زِدْنا فى قُوَّة نِيَّاتهم ، وحملناهُمْ على ما يزدادونَ به استقامةً واستمراراً .

٣ — وإذا نَمَوْا صُعُدًا فَلَيْسَ عَلَيْهِمُ مِنَّا الخَبَالُ ولا نُفُوسُ الحُسَّدِ

٤ — ونُعِينُ فاعِلَنَا على ما نَابَهُ حَتَّى نُيَسِّرَه لِفِعلِ السَّيِّدِ

يقول : وإذا ارتقَوا فى درجات العِزّ وتبوَّءوا منازلَ الفضْل ، لم نحسُدْهم ، ولم نضيِّقْ عليهم طرائقَ مقاصدهم ، فيورثهم ذلك خبْلاً[1] وفتوراً . والسَّاعِي منهم إذا جدَّ فى إقامةِ ما يَنوبُه من الحقوق أعنَّاهُ على إتمام ما يشيِّدُه ، والزِّيادةِ فيما يؤيِّده ، حتَّى نَبْلُغ به فِعَل السَّيِّد ، علماً بأنَّ رفعتهم لنا ، وجمالَهم جمالُنا .

٥ — ونُجِيبُ دَاعِيَةَ الصَّبَاحِ بِثائِبٍ عَجِلِ الرُّكوبِ لِدَعْوَةِ المُسْتَنْجِدِ

٦ — فَنفُلُّ شوكَتَها ونَفْثَأُ حَمْيَها حَتَّى تَبُوخَ وحَمْيُنَا لم يَبْرُدِ

٧ — ونُحِلُّ فى دار الحِفاظِ بُيُوتَنَا رَتْعَ الجَمَائلِ فى الدَّرِينِ الأسوَدِ[2]

قوله « ونُجيب داعيةَ الصَّبَاح » ، يريد : وإن استعانَ بنا من أُغِيرَ عليه صَبَاحًا من ذى مَحْرَمٍ أو جارٍ ، أو متسبِّبٍ بإلٍّ وقرابة ، أجَبْناه سريعاً بجيش سريعِ الرُّكوب لدعوة المُستصرِخ ، فنكسِرُ شَوكةَ المُغيرين ، ونُخمِد نائرتَهم ونسكِّن حُمّاهم حتَّى تبرُدَ ، وحُمَّانا لم تَسكُنْ ولم تَبرُدْ[3] . وجَعَل الشَّوكةَ كنايةً عن

---

(١) ل : « خبالا » .

(٢) ل ، التبريزى : « وتحُلُّ فى دار الحفاظ بيوتُنا » .

(٣) فى النسختين : « يبرد » و « يسكن » .

السِّلاح والقُوَّة جميعاً. وقوله « نفثاً » هو من فَثَأتُ القِدرَ ، إذا سكَّنتَ غليانَها. وقوله « حتى تبُوخَ » يقال : باخَتِ النَّارُ إذا طَفِئت .

ومعنى « ونُحِلُّ[(1)] فى دار الحفاظ بيوتَنا » نَصْبِرُ فى دار المحافَظَة على الشَّرف إذا اشتدَّ الزَّمان ، وإذا قَصَدَ غيرُنا للخِصْب أو طلَب الانتجاع أقمنا مُرْتِعين فى الدَّرِينِ مالَنا ، ولا نمكِّن أعداءنا من أرضنا وحِمانا . والدَّرين : اليابس من الكلأ القديمُ العَهد. وجعله أسودَ لفسادِهِ وطولِ قِدَمه . ويروى « وتَحُلُّ[(2)] فى دار الحفاظ بيوتُنا » . وانتَصَب « رتْعَ الجمائلِ » على أنه مصدر فى موضع الحال . ومثله قول الآخر[(3)]:

ونُحِلُّ فى دارِ الحِفاظِ بُيُوتَنَا ... زَمَنًا ويَظْعَنُ غَيْرُنَا للأَمْرَعِ[(4)]

٤٤٢

وقال المتوكِّلُ اللَّيْثِيّ[(5)]:

١ ـ إنِّى إذا ما الخليلُ أَحْدَثَ لِى ... صَرْمًا ومَلَّ الصَّفاءَ أو قَطَعَا

٢ ـ لا أَحْتَسِى مَاءَهُ على رَنَقٍ ... ولا يَرَانِي لبَيْنِهِ جَزِعَا

يقولُ : إذا اعوجَّ صديقٌ لى والْتَوَى ، وطلبَ الخِلافَ علىّ فأحدث لى نُبُوًّا وجَفاء ، وتبرَّمَ من مُصافاتى فأقبلَ يتجنّى علىّ ، فإنِّى لا أرومُ منه العَودَ ، ولا أَعرِضُ عليه الرُّجوعَ ، بل أصارِحُه ولا أتجرَّع ماءَ الوُدِّ بينى وبينَه على

(١) ل : « وتحل » .
(٢) ل : « ونحل » بالنون .
(٣) هو الحادرة الذبيانى . المفضلية ٨ .
(٤) ل : « وتحل » . المفضليات : « ونقيم فى دار الحفاظ » .
(٥) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل بن وهب بن عمرو بن لقيط الكنانى ، وكان يكنى أبا جهمة . وكان على عهد معاوية وابنه يزيد ، ومدحهما . الأغانى (١١ : ٣٧ ـ ٤١) والمؤتلف ١٧٩ ومعجم المرزبانى ٤١٠ .

كدَر فأحتملُ مكروهه ، ولا أظهرُ جَزَعًا لاستحداثِ فِراقٍ منه ، أو تنكُّرٍ ينطوى عليه فأُخْبِتُ له[١] ، لأنِّى وَصَّالٌ صَروم ، أصافى مَن يُصافينى ، وأجامل من يُجاملنى ، وأداجى من يداجينى .

٣ — أهْجُرُهُ ثم تَنْقَضِى غُبَرُ الْـ ‏ ‏ هِجْرانِ عنِّى ولم أقُلْ قَذَعا[٢]

٤ — احْذَرْ وِصالَ اللَّئيمِ إنَّ لَهُ ‏ ‏ عَضْهًا إذا حَبْلُ وَصْلِهِ انْقطَعَا

الغُبَر[٣] : البقايا ، واحدتها غُبْرَة . ويقال : تغبَّرَت الناقةَ ، إذا احتلبت غُبْرَتها . وغُبَّرُ الليل : مآخيره . قال :

فيا صُبْحُ كَمِّشْ غُبَّرَ الليل مُصْعِدًا ‏ ‏ بِبَمٍّ ونَبِّهْ ذا العِفاءِ المُوَشَّحِ[٤]

والقَذَع والقَذيعة : الفُحْشُ . يقال : قَذَعْتُه ، إذا رميتَه بالقَذَع . وأقذَعَ الرَّجُل : أتى بالفُحش . وكلامٌ قَذِع . ويُتوسَّع فيه فيقال للقَذَرِ : القَذَع ، حتّى يقال : قَذِعَ ثوبَه بالبول وغيره . يقول : أقطعُ الملائقَ بينى وبينهفأنصرف عنه هاجراً ، وتنقضى[٥] مُدَّة الهجران عنَّا ولم أعتِبْه ولا قلتُ فيه فُحْشاً ، ولا ذكَرْتُه بزَلَّةٍ كانت منه .

ثم قال : احْذَرْ مُواصلةَ اللئيم ومؤاخاتَه ، لأنّه إذا انقطع حَبْلُ وَصْله ، وانصَرَم ما يَجْمعك وإيّاه من ودٍّ يتكذَّبُ عليك ، ويَخْلُق من الإفك فيك ما لم تكتسِبْه لا بيدك ولا لسانِك ، وهذا كأنَّه لمَّا نَفى عن نفسه فى البيت الأوّل ما نفى بيَّنَ فى البيت الثّانى أنَّه لا يفعل ذلك ، لكونه من فِعل اللئام . والعَضْه : ذِكر القبيح كَذِباً وزوراً . ويقال : عَضَهْتُه ، إذا رميتَه بالزُّور . وأعْضَهَ الرَّجل

(١) أخبت ، الإخبات : التواضع والاطمئنان .

(٢) التبريزى : « ثم ينقضى غبَّر الهجران » .

(٣) كذا وردت مضبوطة فى النسختين فى متن البيت وشرحه .

(٤) البيت للطرماح فى ديوانه ٦٩ والحيوان (٢ : ٢٥٤ ، ٣٤٦ / ٧ : ٥٩) واللسان (وشح) .

(٥) ل : « وتنقضى » .

أتَى بالعَضيهة ، وهى الإفْك . ومن كلامهم : يا لَلعَضيهة ! ويا للأَفِيكة !

٤٤٣

وقال بعضُهم[1] :

١ — خَلِيليَّ بَيْنَ السَّلْسَلَيْنِ لو اَنَّنِي بِنَعْفِ اللِّوَى أَنكرتُ ما قُلْتُما لِيَا[2]

٢ — ولـكِنَّنى لَمْ أَنْسَ ما قالَ صاحِبى نَصِيبَكَ مِن ذُلٍّ إذا كُنتَ خالِيَا[3]

النَّعْف : ما ناعَفَك ، أى عارضك من الجبل أو المكانِ المرتفع . واللِّوَى : مُستَرَقُّ الرمل . وجواب لو « أنكرْتُ » ، وكأنَّ نعفَ اللِّوَى كانَ أرضَه وديارَه ، فيقول : لو كنتُ فى أرضى ومعى عشيرتى وأهلى ، ثم سُمْتُمانى ما سُمْتُمانى لأنكرتُه ولم أقبلْه ، ولـكنّنى لم أذهبْ عما وصّانى به صاحبى من قوله : الزمْ نصيبَك من الذُّلِّ إذا كنتَ فى دار غُربة ، ومتباعدا عن نُصَّارِكَ والمشفِقين عليك . وانتَصَبَ « نصيبَك » بإضمار فعل .

٤٤٤

وقال قيس بن الخطيم[4] :

١ — وما بَعْضُ الإقامةِ فى دِيارٍ يُهانُ بها الفَتَى إلّا بَلاءُ

٢ — وَبَعْضُ خلائقِ الأقوامِ داءٌ كداءِ البَطْنِ لَيْسَ له دَوَاءُ

---

(١) هو قتادة بن خرجة الثعلبى ، من بنى عجب بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان . انظر البيان (٣ : ٢٤٩) . والبيتان وردا فى معجم البلدان فى رسم (السلسلين) بدون نسبة أيضاً .

(٢) فى البيان : « بهبر اللوى » .

(٣) وكذا روايته فى المعجم . وفى البيان : « إذا كنت نائيا » .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦ ص ١٨٣ .

٣ — يُرِيدُ المرءُ أَنْ يُعطَى مُنَاهُ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا ما يشـــاءُ

٤ — وكلُّ شَدِيدةٍ نزلَتْ بحَيٍّ سَيَأْتى بَعْدَ شِـــدَّتِها رَخاءُ

قوله « وما بعضُ الإقامة » إنّما بعَّضها لأنَّه أشار إلى الإقامةِ التى أوائلها تَنْزَاحُ معها العِلَل، ويَسهُل فى اختيارها الانفصال والترحُّل، وأواخرُها تتغيَّر بما يَعرِض فيها حتَّى يشقَّ لها التلوُّمُ والتَّلبُّث. وارتفع « بَلَاء » لأنَّه خبر المبتدإ، وهو بعضُ الإقامة، و « يُهانُ بها الفتى » فى موضع الصِّفة لقوله فى ديارٍ. فيقول : إذا أمكَنَ الارتحالُ عن دار الهوان، ولا دافِعَ ولا مانعَ يُوجبان الصَّبر فالإقامة بها بلاء، ويجبُ على الحرِّ طلبُ الانفكاك منه، ورَوْمُ الخَلَاص من أذاه.

وقوله « وبعضُ خلائق الأقوامِ » يريد أنّ بعضَ ما يتخلَّق به النّاسُ يتعذَّر مفارَقتُه ومُداواةُ إزالته، فهو كالدَّاء الذى يكون بالإنسان وقد استصحبَه من بَطْنِ أُمِّه. يريد أنّ ما اعتادَه الإنسانُ من الأخلاقِ يَصِيرُ إذا أتت الأيَّامُ عليه، وقوِىَ الإلْفُ له، كالخِلْقة أو ما يجرى مَجراها.

وقوله « يريد المرء أن يُعطَى مناه »، معناه أنّ الإنسانَ يتمنَّى أن يحصُلَ له[1] ما يتعلَّقُ به شهوتُه، ويرتادُه هواه وإرادتُه، ويَمنعُ اللهُ تبارَكَ وتعالى إلَّا ما يكون بمشيئته، ويعرفُه مِن مَصالح خليقته.

وقوله « وكلُّ شديدة » يريد أنَّ الشَّىءَ لا يدوم على حال، فالشَّدائد إذا نزَلَتْ يتعقَّبها الخيرُ ورَخاء العيش وسَعَته، لأنَّ لكلِّ أمرٍ أمدًا يُمَدُّ له الوقت، فإذا تناهَى انقطَع.

٥ — ولا يُعْطَى الحَريصُ غِنًى لِحرصٍ وقد يَنْمِى إلى الجود الثَّراءُ[2]

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل : « يجعل له ».

(٢) ل : « فلا يعطى ». التبريزى : « على الجود ».

٦ – غِنَىُ النَّفْسِ ما عَمِرَتْ غِنًى ... وَفَقْرُ النفسِ ما عَمِرَتْ شَقاء

٧ – وَليس بنافِعٍ ذا البُخْلِ مالٌ ... وَلا مُزْرٍ بصاحِبه السَّخاء

٨ – وَبَعْضُ الداءِ مُلتَمَسٌ شِفاهُ ... وداءُ النُّوكِ ليسَ له شِفاء

قوله « ولا[1] يُعطَى الحريص » يريد أنَّ حِرصَ الإنسان فى طلب الغِنى لا يُجدى عليه نفعا ، ولا يقرِّب منه بعيدًا ، لأنَّ ميسِّر اليُسر والغِنى هو مَن له الخَلْق والأمر ، وإليه الإبرامُ والنَّقض .

وقوله « وقد ينَمِى إلى الجود » يريد أنَّ الثَروَة والكُثْرَ هما ينمِيان مع الجود . وإنَّما يقدح بهذا الكلامِ فى البُخل والإمساك ، وأنَّ زيادةَ المال وبقاءه لا يحصُلان لهما وبهما . وقوله « إلى الجود » إلى بمعنى مع . تقول : هذا إلى ذاك .

وقوله « غِنىُ النَّفْس ما عمرت غنىً » ، يريد أنَّ غِنَى النفس خيرٌ من كَثرة المال ؛ لأنَّ مَن كان راضياً بماله ، غنيًّا عن غيره بما يحصُل فى يده ، تراه باكتفائه أغنَى المُوسِرين ، وفقيرُ النفس وإن ساعدَه المالُ ، وأطاعه القَدَر يزدادُ على مَرِّ الأيام وزيادةِ الحال ، حِرصاً ونَهْمَةً وشَقاء .

وقوله « وليس بنافع ذا البخل مال » ، يريد أنَّ البخيل لا يَنتفع بماله ، لأنه يجمَعُهُ ويتركُه لغيره ، والسَّخاء لا يُقصِّر بصاحبه ، بل يَرفَع منه ، ويَكسِبه الحمدَ والأحدوثة الجميلة .

وقوله « وبَعضُ الدّاء ملتمَسٌ شِفاه » ، جعلَ الدّاءَ للجنس فناب عن الجمع فقال : بعضها يُعرف شفاؤه فيُطلَب إزالته ، وداء الحُمْق لا شفاءَ له ، ولا محِيد

(١) ل : « فلا » .

لصاحبه عنه . وقوله « شِفاه » قَصر الممدود ، وهذا لا خلافَ فى جوازِه على المذهبَين .

٤٤٥

وقال يزيد بن الحَكَم[1] :

١ — يا بَدْرُ والأمثالُ يَضْ ... رِبُها لِذِى اللُّبِّ الحَكِيمْ

٢ — دُمْ لِلْخَلِيلِ بوُدِّهِ ... ما خَيْرُ وُدٍّ لا يدومْ

قوله « والأمثالُ يَضربُها » اعتراض دخَلَ بين قوله « يابدر » ، وبين دُمْ للخليل من البيت الثانى ، ونبَّهَ بهذا الاعتراض على أنَّ وصيَّتَه وصيةُ حكيم ، وأنَّ اللَّبيبَ العاقلَ يأخُذُ بها ويتأدَّب .

ومعنى قوله « دُمْ للخَليل بوُدِّه » أى بودِّكَ له ، فأضافه إلى المفعول ، والمصدر كما يضاف إلى الفاعل يُضاف إلى المفعول . وقوله « ما خير وُدٍّ » استفهامٌ على طريق الاستثباتِ والقَصدِ إلى النَّفْى . والمعنى : أنَّ الوِداد إذا لم يَصْفُ ولم يَدُمْ فلا خيرَ فيه . وقوله « لا يدوم » صفة لودٍّ . تلخيصه : أىُّ شىء خيرُ وُدٍّ غيرِ دائم .

---

(١) التبريزى « ... يعظ ابنه بدرا » . وهو يزيد بن الحكم بن أبى العاص صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . مر الفرزدق يوماً به وهو ينشد فى المجلس شعراً فقال : من هذا الذى ينشد شعراً كأنه من أشعارنا ؟ فقالوا : يزيد بن الحكم . فقال : نعم أشهد بالله أن عمتى ولدته . ودعاه الحجاج يوماً فولاه كورة فارس ودفع إليه عهده بها ، ثم أنشده بعض شعره فألفاه يفخر بأبيه ، فنفس عليه ذلك واسترد العهد منه ، فخرج يزيد مغاضباً ولحق بسليمان ابن عبد الملك فمدحه ، فأعجبه ذلك وقال له سليمان : كم كان أجرى لك لعمالة فارس ؟ قال : عشرين ألفاً . قال : فهى لك على ما دمت حياً . الأغانى (١١ : ٩٦ — ١٠١) والخزانة (١ : ١١١) .

٣ – واعرِفْ لجَارِكَ حَقَّـــهُ واَلحَقُّ يَعْرِفُه الـكَرِيمُ
٤ – واعْـلَمْ بأنَّ الضَّيْفَ يَوْ مًا سَوْفَ يَحْمَدُ أو يَلُومُ
٥ – والنّـاسُ مُبْتَنِيَانِ مَحْـ ـمُودُ البِنَايَةِ أو ذَمِـيمُ(١)

يقول : اعرِفْ حقَّ الجوارِ لمجاوِرِك ، فإنَّ الـكريم هو الذى يعرِفُ حقَّ مثله . وقوله « والحق يعرفُه » الواو واو الحال ، وهو واو الابتداء . ولو رويته بالفاء كان أجودَ ، والمعنى اعرفْ حقَّ الجار لأنَّ حقَّه تعرِفُه الـكِرام . فإذا رويتَه بالواو يكون حالاً لقوله حقّه ، كأنّه قال : اعرِفْ حقَّه معروفاً للـكرام ، وهو معروفٌ للـكرام .

وقوله « واعلَمْ بأنّ الضّيف » يقال علِمت كذا ، وبكذا . وهذه الوَصَاةُ بالضَّيف قد علَّلها بقوله «سوف يَحمَد أو يلوم » . والمعنى : أحسِنْ إليه وتفقَّدهُ ، عالماً بأنَّ نزولَه بك يَجلِبُ حمداً إنْ أحسنتَ إليه ، أو لوماً إنْ أسأتَ إليه أو قصَّرتَ فى حقه .

وقوله « محمود البناية » أتى بالبِناية غير مبنيٍّ على مذكَّر حصَلَ من قبل ، ثم أدخلَ تاء التأنيث عليه ، فهو كالثِّناية اسم الحَبْل ، والشَّقاوة والرِّعاية والغَباوة . ولو كان مبنيًّا على مذكَّر لـكان « البناءة » لأنَّ الواو والياء إذا كانا حرفَىْ إعرابٍ بعد ألفٍ زائدة تُبدَل منهما الهمزة . على ذلك : الرِّعاء والـكِساء والرِّداء والبابُ كلّه .

ومعنى البيت : أنَّ أفعالَ عقلاء النَّاس لا تَخلُو من أن تكونَ ممَّا يُستَحَقُّ به حمدٌ أو ذمٌّ ، فهم يَبنُون مبانِيَهم ، ويؤسِّسون مكاسبَهم على أحد هذين الرُّكنين ، وذلك لأنّ الأفعالَ تابعةٌ للأغراض ، وغَرضُ العاقل إليهما ينقسم ،

---

(١) فى ل ضبطت « البناية » بكسر الباء وضمها مقرونة بكلمة « معا » ، تحقيقاً للضبطين .

فانظُرْ ماذا تَجلِبُ على نفسك بما تبتنيه من فِعالك ، وتدَّخره من كَسْبك .

وارتفع « محمود » على أنه بدل من « مبتنيان » ، أو خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هما محمود البِنْية أو ذميم .

٦ — واعــــلَمْ بُنَىَّ فإنه بالعِلْمِ يَنْتَفِـعُ العليمُ

٧ — أَنَّ الأُمورَ دَقِيقُهـا مِمّا يَهِـيجُ له العَظِيمُ[1]

٨ — والتَّبْلُ مِثْلُ الدِّينِ تُقْـضاهُ وقد يلوِى الغَرِيمُ[2]

٩ — والبَغْىُ يَصْرَعُ أَهْلَه وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَخِـــيمُ

قوله « بنىّ » إن ضممتَه فهو منادًى مفرد ، وإن كسرتَه فهو منادًى مضاف وقد حذف ياء الإضافة[3] . وإذا كان ياء الإضافة فى المنادى يُحذَف فى نحو يا غلامِ لأنَّ الـكسرة تدلُّ عليه ، وهو واقعٌ موقعَ ما يُحذَف فى هذا الباب وهو التّنوين وبابُ النداء بابُ حذفٍ ، لـكثرة الاستعمال ، فهو فى بنيٍّ أولَى بالحذف ، لاجتماع الياءات والـكَسَرات . فى آخرها وقوله « فإنّه بالعـلم ينتفع العليم » الهاء ضمير الأمر والشّأن ، والجملة اعتراضٌ بين اعلَمْ ومفعولَيه . والمراد باستعمال العلم ، وذاك أنّ مَن عَلِمَ طرقَ الرّشادِ ثم لم يسلـكْها كان معرفته بها وبالاً عليه .

وقوله « إنّ الأمور » مفعول واعلم ، ودقيقها مبتدأ ومابعده خبره ، والجملة خبر إنّ . ولك أن تـكسره فتقول « إنّ » على الاستئناف ، ويكون واعلمْ معلّقًا

(١) كتبت « أن » بكسرة وفتحة لتقرأ بالروايتين .

(٢) تقضاه ، كتبت فى ل بالتاء والياء معا ، لتقرأ بالروايتين .

(٣) بنى ، كذا ضبطت فى النسختين والتبريزى . وهما الوجهان الكثيران فى العربية . لكن الأكثر فى الاستعمال المعاصر « بنىّ » بفتح الياء ، وهو استعمال صحيح وردت به قراءة عاصم فى قوله تعالى : « يا بنى اركب معنا » ، وقرأ باقى السبعة بالكسرة اجتزاء بها عن الياء . أما قراءة عاصم فهى اجتزاء بالفتحة عن الألف ، وأصلها « يا بنيا » كما فى قولهم « يا حسرتا » ويا غلاما » . التصريح (٢ : ١٧٧) وتفسير أبى حيان (٥ : ٢٢٦) .

والمعنى : أنّ الشرّ يبدؤه أصغرُه ، كما أنّ السَّيلَ أولُه مطرٌ ضعيف . وهذا الـكلامُ بَعْثٌ على النَّظَر فى ابتداءات الأمور وتصوُّرِ عواقِبها .

وقوله « والتَّبْل مثلُ الدَّين » ، التَّبل : الذَّحْل ، ومعنى يَلوِى يمْطُل ، ومصدرُه اللَّىُّ واللَّيَّانُ . وفى الحديث : « لَىُّ الواجِدِ يُحِلّ عقوبته » . وقد روى « يُلْوِى » و « يُلْوَى » فإذا رويت يُلوِى بالـكسر ، فمعناه يذهب بالحقّ ، يقال : ألوَى بالشَّىء إذا ذهبَ به ، و « يُلوَى » هو بناء ما لم يُسمّ فاعله ، لَوَى إذا مَطَل . والغَرِيم : اسمٌ لمن لَهُ الدَّين ، ولِلَّذى عليه الدَّين . وأصل الغرامة اللُّزوم ، ولِـكون كلٍّ واحد منهما ملازماً لصاحبه إلى أن ينقضىَ ما بينهما أُجرِى الاسمُ عليهما . والمعنى أنَّ الوِتْر والذَّحل كالدَّين على الواتر ، فهو بِعَرَضِ المطالبةِ به كالغريم ثَمّ ، قد يَقضِى وقد يمطُل ، فلاتـكتسبْه ، لأنّ العداواتِ وخيمةُ الأواخر ، سيِّئة المبادئ .

وقوله « والبَغْىُ يَصْرَعُ أهلَه » يقول : وإذا كان لك خَصْمٌ فى شىء فلا تستهِنْ به ، ولاتستعمل البغىَ معه ، فإنَّ من بُغِىَ عليه بعَرَض النُّصْرَة ، والباغى بِعرض التَّلَف والهلَـكة ، ولا تَظلِمْ فإنَّ الظُّلمَ ذميمُ المرتع وبِيلُه ، وفَظيع المَسمَع قبيحُه . ويقال : ظَلَمْتُهُ ظَلْماً بفتح الظاء وهو المصدر ، وظُلما بضم الظاء وهو الاسم .

١٠ — ولقد يَكُونُ لَكَ الغَرِيـ ـبُ أَخًا وَيَقْطَعُكَ الحَمِيمُ
١١ — والمَرْءُ يُـكْرَمُ للغِنَىَ وَيُهَانُ للعَـدَمِ العَدِيمُ
١٢ — قد يُقـتِرُ الحَولُ التَّقِـــىُّ وَيُـكْثِرُ الحَمِقُ الأَثِيمُ
١٣ — يُمْـلَى لِذاكَ وَيُبْتَـلَى هٰـذا فأَيُّهُمَا المَضِيمُ

قوله « ولقد يكون » معناه أن الوفاءَ قد يكون فى الغريب إذا آخيتَه ، والخيانةَ تتفَّق من القريب إذا صافَيْتَه ، فانظُرْ لنفسك إذا اخترتَ ، ولا تَعتمد القُربَى والقَرابة ، فإنَّ المواخاةَ مبينَّةٌ على الأصول الزكيَّة ، والنُّفوس الوفيَّة ، لا على الأنساب والأسباب .

وقوله « والمرء يُكرَمُ » يقول : ادَّخرِ المالَ واسْعَ فى جمعِه ، وإيَّاك واستعمالَ التَّبذير فيه ، فإنَّ اليسيرَ منه مع حُسْن التَّدبير يتَّصل بقاؤُه ، وكرامةُ المرءِ متسبِّبة عن غِناه ، كما أنَّ هوانَه فى قِرانِ فقره . وقوله « والمرء » ارتفع بالابتداء ، وخبره يُكرَم ، وقد عُطِف على هذه الجملة جُملةٌ مخالفةٌ لها من التَّقارُب لما صَلَح ذلك . ومثله قول الآخر(١) :

* أَمُوفٍ بأدراعَ ابن ظَبْيَةَ أَمْ تُذَمْ(٢) *

على العكس من هذا قولُ الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهم أم أنتم صامِتُون ﴾ ، لأنَّ هذا عُطف فيه المبتدأُ والخبر على الفِعل والفاعل .

وقوله « قد يُقتِرُ الحَوِلُ » ، فالحَوِلُ : الكثير الحيلة . وصُحِّحَ بناؤُه ولم يُعَلَّ إخراجاً له على أصله ، وتنبيهاً أنَّ ما عُلِّلَ من نظائره كان حكمُهُ أن يجيء على هذا . ومما جاء على القياس من نظائره : رَجُلٌ مَالٌ وصاتٌ وما أشبهَ ما . وكذلك هذا كانَ يجبُ أن يقال حالٌ . والمعنى أنَّ الكثيرَ الحِيَل ، الخَرَّاجَ الوَلَّاجَ ، وهو سَدِيدٌ فى طرائقه ، قد يَفتقِرُ فيكون مُقِلًّا ، وأن المائق النَّاقِصَ فى عقله ، المكتَسِبَ بجهله ، المرتكِب للأوزارِ بحرصِهِ ، قد يستغنى هو فيكون

(١) هو راشد بن شهاب اليشكرى . انظر البيت ١١ من المفضلية ٨٦ .

(٢) ظبية ، كذا وردت فى النسختين . وفى المفضليات : « طيبة » . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

مُكْثِرًا، إذ كانت القِسَمُ والحُظوظُ لا تقِفُ على كَيْسِ المرء وخُرْقِه، ولا على تُقَاهُ وفِسْقِه.

وقوله «يُمْلَى لذاك» أشار بذاك إلى الحَمِق الأثيم، وبهذا إلى الحَوِل التَّقيّ. وقد طابق بذاك وهذا[1] فيقول: أُمْلِيَ لِذَاكَ الجاهلِ وأُرخِيَ له الحبلُ فنال ما نال، وابتُلِيَ هذا الحَوِل التَّقيّ حتّى شَقِيَ وحُرِم، فأيُّهما المظلوم. والمعنى أنَّ ذلك مِن قِسْمَةِ مَن عرف مَصالحَ خَلقه، وعَلِمَ ما يتأدَّى إليه حالُ كلٍّ واحدٍ منهم، فاختار الأحكمَ فى التّدبير، والأصلحَ للصَّغير والكبير.

١٤ – وَالمرْءُ يَبْخَلُ فى الحُقُو قِ وَلِلكَلالةِ ما يُسِيمُ
١٥ – ما بُخْلُ مَنْ هُوَ للمَنُو نِ وَرَيْبِها غَرَضٌ رَجِيمُ
١٦ – وَيَرَى القُرونَ أَمامَهُ هَمَدُوا كما هَمَدَ الهَشِيمُ

يقول: تَرَى الرجل يُسَوِّف بما يلزمُه من أداء الحقوق، فيبخلُ بإخراجه وأدائه، فيموت عمَّا يجمعه ويبخَل به، ويتركُه للكلالة. والكلالة هُم الوُرّاث وقد خَلَوْا من الوالد والولد. وأصله من تَكَلَّلَهُ النَّسَبُ، إذا أحاط به. وقيل هو من الكلالِ: الإعياء؛ كأنّ بُعْدَ النَّسَبِ أَكَلَّه. وقوله «ما يُسِيمُ» يجوز أن يكون مصدرًا، كأنَّه قال: فإسامته لماله لغيرِ لا لنَفْسِه. ويجوز أن يكون ما بمعنى الذى، وقد حذف الضَّميرَ العائد إليه من يُسِيم، كأنَّه قال: وللوَرَثة مالُه الذى يُسيمه. والإسامة: إخراج المال إلى المَرْعَى. ويقال: أَسَمْتُ البعيرَ فَسَام. ومنه السَّائمة للمالِ: الرَّاعية.

وقوله «ما بُخْلُ من هو» استفهامٌ على طريق الإنكار. فيقول: ما يُغْنِي بُخْلُ مَن هو للحوادث كالغَرَض المنصوب للرَّمْى، فإذا عَلِمَ من نفسه أنَّه غيرُ

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل: «طابق هذا وذاك».

مُخَلد ، بل هو منقولٌ من دار الفناء إلى دار البَقاء ، فلماذا يُمسِك ولا يُنْفِق ، ويَجمَع ولا يفرِّق . هذا وقد رأى الأمم الخالية قبلَه ماتوا وفَنُوا فعادوا رمياً ، كما يَهْمُدُ النباتُ فيصيرُ بعد نَضارته دَرِينًا هَشِياً ، وهو اليابس المتهشِّم الأسود لطول القِدَم . والمَنون يكون اسماً للدهر فيذكَّر ، ويُرَادُ به المنِيَّةُ فيؤنَّث . وهو من المَنّ : القطع . فلك أن تروى : « ورَيْبه » « ورَيبها » جميعاً . ومعنى « وريبِها » نزولها ، قال أبو عبيدة : رابَ عليه الدَّهرُ ، أى نَزَل . وقد يُرادُ برَيْبِ الزَّمانِ أحداثُه وَصُروفُه الرَّائبة .

١٧ ــ وَتُخَرَّبُ الدُّنْيا فَلَا   بُوسٌ يَدُومُ وَلا نعيمُ[(١)]

١٨ ــ كلُّ امرِئٍ سَتَئِيمُ مِنْـ   ـهُ العِرْسُ أَوْ مِنْها يَئِيمُ

١٩ ــ ماعِلْمُ ذِى وَلَدٍ أَيَثْـ   ـكَلُهُ أَمِ الوَلَدُ اليَتِيمُ

يقول : وإذا كانت الدُّنيا مبنيَّةً للفناء لا للبقاء ، والخراب لا للعمارة ، وكذلك أعراضُها مخلوقة للزَّوَال لا للدَّوام ، وقُرب الأَمَد فى الاستمتاع بالمُعارِ لا الإملاء ، فلماذا يَفْرَحُ الإنسان بما ينال ، ويَجزَع لما يفوت ، وكلٌّ بائدٌ غير ثابت ، ومُستَلَب غير موفَّر .

وقوله « كلُّ امرئ » ، يقول : إنّ الأليفَين فيها لا بدَّ من فِقدان أحدهما للآخر ، والبعلُ يموتُ فتَبقى العِرْس منه أيِّمًا ، لتقدُّم موتِه ، والعِرْسُ تموتُ فيبقى هو منها أيِّمًا لتقدُّمها . ويقال : رجلٌ أيِّمٌ وامرأة أيِّمٌ . وقد آمت تئيم أيْمَةً . وكذلك ذو الولدِ لا يدرى أيموتُ فيَيْتَم الولد ، أم يهلكُ الولَد فيثكل الوالد ، فإنَّ سُكّانَ الدُّنيا موعودون لآجالٍ منتَظِرة ، مدعوُّونَ لأحوالٍ مؤخَّرة .

(١) « تخرب » ضبطت فى ل لتقرأ بالتاء والياء . تخرب مخفف تتخرب ، وتخرب هو المبنى للمفعول من مضارع « خرب تخريبا » .

وقوله « ماعِلْمُ ذى ولدٍ » استفهامٌ معناه النَّفْى ، والمراد : لا يَعلَمُ الوالدُ مايكون منه ومن ولدِه فى الإمهال والاستعجال ، أى لا يَدرِى أىُّ الأمرَينِ يقع . وقد عطف قوله « أمِ الولدُ اليتيمُ » وهو جملةٌ من ابتداء وخبر على « أيَشكُلُه » وهو فعل وفاعل . وجازَ ذلك لمَا قدَّمته(١) .

٢٠ – وَالحربُ صاحِبُها الصَّلِيـ ـبُ عَلَى تَلاتِلِها العَزُومُ

٢١ – مَنْ لا يَمَلُّ ضِرَاسَها وَلَدَى الحَقِيقَـــةِ لا يَخِيمُ

٢٢ – وَاعْلَمْ بأَنَّ الحربَ لا يَسْطِيعُها المَرِحُ السَّؤُومُ

٢٣ – وَالخَيْلُ أَجْوَدُها المُنَا هِبُ عِنْـــدَ كَبَّتِها الأَزُومُ

الصَّلِيب : الصُّلب ذو الصَّلابة . والتَّلاتل : الشَّدائد ، ويقال : تَلْتَلَهُ ، إذا حرَّكه . يقول : وصاحبُ الحربِ هو الصَّبورُ على شدائدها ، القويُّ العزم فى مَصارِفها ، الحامى الشِّـكَّة(٢) على نوائبها ، فلا يَمَلُّ عِضاضَها ، ولا يَخِيمُ عند حقائقها . ومعنى يَخِيمُ : يَجْـبُن .

وقوله « مَن لا يَمَلُّ ضِرَاسَها » فى موضع الرَّفع على أن يكون بدلًا من قوله الصَّليب . والضِّرْس : العضُّ ، وأصله إصابةُ الشىء بِضِرْسِه .

ثم قال : واعلم أنّ الحرب لا يُطيقُها المَلُول النَّزِق ، العَجُول الطَّرِف(٣) ، لأنَّ مبانيَها على الصَّبر والثَّبات ، والتّدبير السَّديد ، والحذَر الشديد ، واستعمالِ الإقدامِ فى وَقته ، والإحجام لدى مُوجِبه . وقوله « لا يَسطِيعها » يريد لا يستطيعها . والماضى منه اسِطاع يَسطيع بكسر الهمزة ، وأصله استطاع ، فحذف التاء .

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٩٤ .
(٢) الشكة : السلاح . وفى ل : « السكة » .
(٣) الطرف : الذى لا يثبت على حال . وفى الأصل : « الطرق » ، صوابه فى ل .

وقوله « والخيل أجْوَدُها » يريد : خير الخيل ما يَنتهِب الأرضَ انتهاباً فى سعيه . وقال الخليل : المُناهَبة : المُباراة فى الجَرْى والحُضْر . ومعنى « عند كَبَّتها » أى حَملتها . وسُئِل رجلٌ[1] : كيف طعنتَ قتيلك ؟ قال : « طعنتُه فى الكَبَّة ، طعنةً فى السَّبَّة[2] فأنفذْتُها من اللبَّة » . وكل ما جمعتَه فقد كببتَه . ومنه كُبَّة الغَزْل . والأزُوم : العَضوض . والأزْم : العَضُّ ، وكُنِىَ به عن الاحتماء فقيل : « نِعْمَ الدَّواءُ الأزْم » ، فكأنَّه أراد بالأزْم هنا الصَّبر والثَّبات .

٤٤٦

وقال مُنْقِذُ الهِلالىّ[3] :

١ ــ أىُّ عَيْشٍ عَيشِى إذا كنتُ مِنه ... بَيْنَ حَلٍّ وبين وَشْكِ رَحِيلِ

٢ ــ كلُّ فَجٍّ مِنَ البِلادِ كأنِّى ... طالبٌ بَعْضَ أَهلِهِ بذُحُولِ

٣ ــ مَا أرَى الفَضْلَ وَالتَّكَرُّمَ إلّا ... كَفَّكَ النَّفْسَ عن طِلَابِ الفُضولِ

٤ ــ وَبَلاءٌ حَمْلُ الأيادى وأنْ تَسْـ ... ـمَعَ مَنًّا تُؤْتَى به من مُنِيلِ

قوله « أىُّ عيشٍ » استفهام مبتدأ . والمعنى الإزراء به والذَّمُّ له . « وإذا » تعلَّقَ بما دلَّ عليه عيشى . والمراد : إذا كنتُ من عَيْشى بين سفرٍ مُتواصل ، ونزولٍ وارتحال متتابِع ، ولا أنالُ دعةً ، ولا أحصِّل خَفْضاً وراحة ، فكأنه لا عيشَ لى . وقوله :

كلُّ فجٍّ من البلادِ كأنِّى ... طالبٌ بعضَ أهلِهِ بذَحولِ

(١) السائل هو النعمان بن المنذر . انظر اللسان (سبب ٤٤٠) والأغانى (١٤ : ٨٧) .

(٢) السبة : الاست . وقيل لأبى حاتم : كيف طعنه فى السبة وهو فارس ؟ فضحك وقال : انهزم فاتبعه ، فلما رهقه أكب ليأخذ بمعرفة فرسه فطعنه فى سبته .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٦٩ ص ١٠٥٢ .

قد سَلَكَ مثلَ هذا المسلكِ أبو تمّام فى قوله :

كأنّ به ضِغْنًا على كلِّ جانبٍ من الأرضِ أو شوقًا إلى كلِّ جانبِ

والمعنى : أنّى لا أقتصِرُ على قَصدٍ مُنتَوًى ، ورَمْىِ نفسى فى جانبٍ من الأرض مُرتَمًى ، ولـكنّى أتنقَّل فى أطراف الأرض وآفاقها ، وأضرِبُ فى أعراض البَسيطة وأعماقها ، كأنّى أطلب بعضَ أهلها بتِرَةٍ ، فهو فى الهربِ وأنا فى الطَّلَب .

وقوله « ما أرى الفَضْل » ينبِّه به على أنَّ سعيَه فى إصلاح عيشِه ، وتَركِ ما لا يَعنِيه من شأنه ، فقال : ليس الفضلُ والعَفاف ، وحَبْسُ النفس فيما بينك وبين الناس على التكرُّم والكَفَاف ، إلّا إذا زممْتَ نفسَك عمّا يتجاوز رمَّ الحال[1] ، ووقفْتَ عند ما يُمكن الاكتفاء به من المَعاش . فمِنَ البلاء العظيم تحمُّلُ النِّعمِ عن المُفْضِلين ، وسَمْعُك امتنانَ المُنيلين . وهذا دَأْبى فيما ألتزمُه من التّعَب ، وأحمِلُ عليه نفسى من التَّجوال فى البلاد والتّقلب . وارتفَعَ « بَلاءٌ » على أنّه خبر مقدم ، والمبتدأ حَمْل الأيادى . وقوله « تُؤْتَى به » من صفة المَنّ .

٤٤٧

وقال محمد بن أبى شِحَاذ[2] :

١ — إذا أنت أُعطيتَ الغنى ثم لم تَجُدْ بفَضْل الغِنَى أُلفيتَ مالَكَ حامِدُ

٢ — إذا أنْتَ لم تَعرُكْ بجَنْبِكَ بعضَ ما يَريبُ من الأَدْنَى رَمَاكَ الأباعِدُ

(١) رم الحال : إصلاحها . وفى الأصل : « مر الحال » ، وأثبت ما فى ل .

(٢) التبريزى : « محمد بن أبى شحاذ الضبى » . أبو الفتح : شحاذ علم غير منقول . قال : وأجيز مع هذا أن يكون فى الأصل مصدر شاحذنى يشاحذنى شحاذا ، إذا راسلك وضاهاك فى شحذ السيف ونحوه . وفى القاموس : « ومحمد بن أبى شحاذ ككتاب شاعر ضبى » .

قوله «إذا أنت» جوابه أُلفِيت ، وهو الفعل الواقع فيه ، لأنّ إذا بتضمُّنه للجزاءِ يطلبُ جواباً ويكون ظرفاً له ، فيقول : إذا نِلتَ اليسار والغِنَى، ومُكِّنْتَ من أطماع الدُّنيا فملكتَها ، ثم لم تَسَخَّ بما يفضُل من وُجْدِك ، وُجِدْتَ لا يُثْنِي عليك حامد ، ولا يَحفَظ غيبَك ذائد ، وفى الثّناء الباقى على الدّهر خَلَفٌ من نفَادِ العُمر ، فإنْ لم تكتَسِبْه بما تناله لحِقَك الذّمُّ ممّن ألحاظُهم سِهام ، وألفاظهم سِمام .

وقوله « إذا أنت لم تَعرُكْ » جوابه رماك الأباعد . وكما بعث فى البيت الأول على الإفضالِ وذمِّ الإمساك مع القدرة ، بعَثَ فى هذا البيتِ على مُصابَرة العشيرة واستبقائهم ، وتَركِ مؤاخَذَتهم بما يتّفق من هَفَواتهم ، وتَدقيقِ محاسَبَتِهم على بَدَوَاتهمْ وزَلّاتهم . فقال : لا يُؤْمِنْكَ إقبالُ الدُّنيا عليك إدْبارَها عنك ، ولا دَولَةٌ لك من إدالةٍ منك . واعلَمْ أنَّك إذا لم تَعفُ عما يَرِيبك من أدانيك ، ولم تَحتمِلْه فى عفوك وحلمك ، اجترأ عليك الأباعدُ فرمَوْك بما لا صَبْرَ لك عليه مِن أذاهم ومكروههم . ويقال : عرَكتُ كذا بجَنْبِي، أى احتملته وجملتُه منّى بظَهر . والعَرك والدَّلك بمعنًى واحد . وقال : « بعض ما يَرِيب من الأدنى » ، إشارةً إلى ما يكون فيه على الحلم مَحمِل . لأنّه ليس كلُّ ما يَرِيب يُعَدُّ التجافِى عنه حَسَنًا .

٣ــإذا الحِلْمُ لم يَغلِبْ لَكَ الجَهْلَ لم تَزَلْ عليكَ بُرُوقٌ جَمَّةٌ وَرَوَاعِدُ

٤ــإذ العَزْمُ لم يَفْرُجْ لَكَ الشَّكَّ لم تَزَلْ جَنِيبًا كما اُسْتَتْلَى الجَنِيبَةَ قَائِدُ

قوله « إذا الحلم » جوابه لم تزل ، فيقول : تَحَلَّمْ فى كثيرٍ ممّا يعروك ويطرُقك ، وانظُرْ أن تكونَ لك الغَلَبَةُ على جهلك ، والتَّمَلُّك لاحتدادك وصَوْلِك ، فإنَّكَ إن لم تستعمل الأناةَ فى مقارضاتك ، وتَسَرَّعْتَ إلى المكافأة على ما يظهر لك ، ولم تضنّ بمن بلوتَه فعرفتَ مذاهبَه ، وخَبَرْتَ خلائقَه ، وصار

مستَمَدُّ رأيكَ ومُشْتَكَى حُزْنِكَ لم تنتفعْ بغيره ، واجتمعَتْ عليك البُرُوقُ والرواعدُ ممَّن تعده لك وعليك . وهذا مثلٌ لأنواع الأذَى والمكروه ، والتوعُّد بضروبِ القولِ ، وفنون الفعل .

وقوله « إذا العزْمُ لم يَفرُج » جوابه لم تزلْ جنيباً . والمعنى : انظُرْ لنفسك فيما تُشْرِف عليه طالباً للحزْم ثم اعزِمْ ، ودعِ التَّشكُّكَ والتلوُّم فيما يُرِيكَ رَأْيُكَ وإلاَّ بقيتَ تابعاً لغيرك ، متوقِّفاً فيما يمسُّك ، كما يَستَتْبِع قائدُ الخيل مجنوباً له . وهذا بَعْثٌ على اقتحام الأمور ، واستعمال الاستبداد فيها بَعْدَ النَّظَر والتحزُّم في الظَّاهر ، وترْكِ التعرّج[1] على قولِ مانعٍ ، أو دَفْعِ مُزَاحِمٍ ، أو مذكِّر بعاقبة . كما وصَّى في البيت الذى قبلَه بالرفْق في الأمور التى تَكسِب العداوات ، واستعمال الصَّبر فيما يَجْلِب الضَّغائن ويُهيِّجُ التِّرات .

٥ — وقلَّ غناءً عنْكَ مَالٌ جَمَعْتَه إذا كانَ مِيراثًا وواراكَ لاحِدُ[2]

٦ — تَجلَّلتَ عارًا لاَ يَزَالُ يَشُبُّهُ سِبَابُ الرِّجالِ نَثْرُهُمْ والقصائدُ[3]

المراد بذكر القِلَّة هاهنا النَّفيُ ، لا إثباتُ شيء قليل . وانتصب «غَنَاءً» على الحال ، أى مُغْنِيًا عنك . فيقول : لا يُغْنى عنك مالٌ تجمعُه إذا ذهبتَ عنه وتركته لورثَتِكَ ، فإنّ ما تملكُهُ هو ما تُنْفِقُهُ أيامَ حياتِكَ ، وتَصْرِفُهُ فيما يَدّخِرُ لك أجراً ، أو يَكْسِبَ لك حَمْدا ، فأمَّا إذا ستَرَكَ من يُلْحِدُ قبرَك ، فما تَتْرُكه لغيرك لا حظَّ لك فيه ولا نصيب ، بل تَكْتَسى عاراً منه لا يزال يُوقِدُ نارَه ، [ويَرْفَعُ في المحافل ذِكْرَه سِبَابُ الرِّجال ، من النَّثْر تارةً[4]] ، ومن النظم

(١) ل : « التعريج » .
(٢) التبريزى : « إذا صار ميراثاً » .
(٣) انظر الكلام على هذا البيت فى اللآلئ ٤٢٩ .
(٤) هذه التكملة من ل .

أخرى ، لأنّ الباخلَ مذمومٌ بكلّ لسانٍ حيًّا وميّتاً ، وفى كل زمان موجوداً ومفقوداً ، ثم تراه كالجانى على كلّ مَنْ يعرفه ، فهم يذُمُّونه بظَهْرِ الغيب ، ويَقْذَعُونه فى الحُضور ، فلا يزال مسبوباً ، مأكولَ اللّحم مدحورا .

٤٤٨

وقال[(١)] :

١ ـ وَيْلُمِّ لذّاتِ الشَّباب مَعيشَةً … مَعَ الكُثْرِ يُعْطَاهُ الفَتى المُتْلِفُ النَّدِى

٢ ـ وقد يَعْقِلُ القُلُّ الفتى دُونَ هَمِّهِ … وقد كانَ لولا القُلُّ طَلاّعَ أَنْجُدِ

لفظةُ « وَيل » إذا أضيفت بغير اللام فالوجه فيها النَّصب ، تقول : ويلَ زيد ، والمعنى ألزَمَ اللهُ زيداً وَيْلاً ، فإذا أُضِيفت باللام فقيل : ويلٌ لزيد ، فحكمه أن يُرْفعَ فيصير مع ما بعده جملةً ، ابتُدِئ بها وهى نكرةٌ لأنّ معنى الدُّعاء منه مفهوم . والمعنى : الويل ثابتٌ لزيد . كأنَّه عدَّه مُحصَّلًا له ، كما يقال : رَحِمَ اللهُ زيداً ! فيُجعلُ اللّفظُ خبرًا . وإذا كان حُكم وَيْلٍ هذا وقد ارتفَع فى قوله « وَيْلُمِّ لَذّاتِ الشَّباب » فمن الظاهر أنّ أصلَه وَيْلٌ لأمّ لَذّات الشَّباب ، فحذف من أمّ الهمزة ، واللام من ويلٍ ، وقد أُتِى حركةَ الهمزة على اللام الجارّة ، فصار وَيْلُمِّ . وقيل : وَيْلِمِّ ، كما قيل : ﴿ الحمدُ للهِ ﴾ و﴿ الحمدِ للهِ ﴾ إتْباعًا لإحدى الحركتين الأخرى ، وقصدُه إلى مَدْح الشَّباب وحَمْدِ لذّاته بينَ لذّات المَعاش

(١) يفهم منه أن البيتين لمحمد بن أبى شحاذ . لكن قال التبريزى : « وقال آخر » . وفى الخزانة (١ : ٥٦٣) : « ونسبهما الأعلم الشنتمرى فى حماسته لحميد بن سجار الضبى » . ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن أبى شحاذ يقال له « حميد » أيضا . وكلمة « سجار » محرفة من شحاذ . انظر حواشى اللآلى ٤٢٩ . ونسبهما البغدادى أيضا إلى علقمة الفحل . وهما فى ديوانه ١٣٥ . ونسبا فى اللسان (قلل) إلى خالد بن علقمة الدارمى ؛ وفى (نجد) إلى حميد بن أبى شحاذ الضبى .

وقد طاع لصاحبه الكُثْرُ، وهو كثرةُ المال، فاجتمع الغِنَى والشَّبابُ له وهو سَخِيٌّ مبذِّرٌ فيما يكسبُه ذِكْرًا جميلا، وصِيتاً عالياً. ثم قال: وقد يَحْبِسُ قِلَّةُ المال صاحِبَهُ دونَ ما يهتمُّ له أو يُهتمُّ به. وقد كان لولا إضاقَتُه وقِلَّةُ ذاتِ يده طَلّابًا للتَّرقِّى فى درجات الفَضْل والإفضال، طَلّاعًا على عَوالى الرُّتَب فى النِّهايات. وانتصب «معيشة» على التمييز.

٤٤٩

وقالت حُرْقةُ بنت النُّعمان(١):

١ — بَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحنُ مِنْهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ(٢)

٢ — فأُفٍّ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُها تَقَلَّبُ تاراتٍ بِنا وتَصَرَّفُ

بينا: كلمةٌ تُسْتَعمَل فى المفاجآت، وهى من ظروف الزَّمان. وقد يقال بينما؛ كأنَّهمْ أرادوا أن يَصلوه بدلًا ممَّا كان يُضاف إليه من قبلُ بما أو بالألف. والمراد: بينَ الأزمنة التى تجرى علينا ونحن نَسُوسُ النَّاسَ ونُدبِّر أمرَهم بما نُريدُ، وطاعتُنا واجبةٌ، وأحكامُنا نافذة، إذا الأمرُ انقلبَ فاتَّضعت الأحوال، وتسلَّطت الأبدال. وصرنا سُوقةً نخدُم النَّاس. والنّاصف فى اللغة: الخادِم. والسُّوقة: مَنْ دونَ المَلِك. ومعنى «والأمر أمرُنا»، أى لا يدَ فوق أيدينا.

---

(١) هى حرقة بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن نمارة بن لخم. المؤتلف ١٠٣. التبريزى: «وحرقة هذه وأخوها حرق ابنا النعمان، وفيهما يقول الشاعر:

نقسم بالله نسلم الحلقه ولا حريقا وأخته حرقه»

ومثله فى اللسان لكن جعل اسم أخيها «حريق» كما فى نص الشعر. ونبه التبريزى على أن الشاعر فتح لام «الحلقة» لضرورة الشعر.

(٢) كذا فى النسختين. وفى التبريزى والمؤتلف واللسان (نصف): «إذا نحن فيهم».

والعامل فى بينا ما دلَّ عليه قولها « إذا نحنُ منهم سُوقة » . وإذا هذه ظرفُ مكان ، وهى للمفاجأة ، وقد تقدَّم القولُ فيه .

وقوله « فأفٍّ » فيه لغات عدَّة ، يفتح ويكسر ويضم ، وينوَّن فى كلٍّ ذلك ويُترَك التنوينُ فيه . وهو اسمٌ من أسماء الفعل ، وأسماء الفعل أكثرُ ما تقع فى الأمر والنّهى ، وفى باب الخبر تقع قليلا ، فمنها أُفٍّ هذه ، ووَاهًا ، وهَيْهات وأحرفٌ أُخَر . ومعنى أفٍّ التَّحقير . كأنَّه قال : حَقارةً لِدُنيا نعيمُها يزول ، وحالها لا يدوم ، بل تَقَلَّبُ بأهلها وتتحوَّل ، وتتصرَّفُ بطُلّابها وتتبدَّل . فمن فتح أفَّ فلخفَّة الفتحة ، ومن كسر فلالتقاء السَّاكنَين ؛ لأنَّ الكسر فيه أولَى ، ومن ضمَّ فلإتباع الضَّمة الضمَّة . والتَّنوين فيه أمارة للتَّنكير ، وتركُ التنوين أمارةٌ للتعريف .

وقال الحكَم بن عَبْدَل[1] :

١ — أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الكريمُ مِن الـ ... رِّزْقِ بنفسي وأُجْمِلُ الطَّلَبَا

٢ — وأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِيَّ ولا ... أَجْهَدُ أخلافَ غيرِهَا حَلَبَا[2]

(١) هو الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، وكان هجاء خبيث اللسان من شعراء الدولة الأموية ، ومنزله ومنشؤه الكوفة . وكان أعرج لا تفارقه العصا ، فترك الوقوف بأبواب الملوك ، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة ، وفى ذلك يقول يحيى بن نوفل :

عصا حكم فى الدار أول داخل ... ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهذى لعمر الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ... ويرغب فى المرضاة منها ويرهب

الأغانى (٢ : ١٤٤ — ١٥٣) والمؤتلف ١٦١ .

(٢) التبريزى : « أخلاف غيرها » ، ثم قال : « ويروى : الصفوف .... والصفوف : التى يصف لها إناءان فتملؤهما . ومن روى الصفى فمعناه الغزيرة . وبعض الناس ينشد : =

يقول : مَطالبى من الدُّنيا ومَرَاغِبى على حدٍّ من استعمال الكرَم والتعفُّف ، لا يزرى بى نظرُ النَّاظرِ إلىَّ ، لأنِّى إذا طَلبتُ أجملت ، وإذا سُدَّت مَفاقِرى اكتفيت(١) ، ثمَّ لا أعوِّل فيما أزاوله إلا على نفسى ، مُتَّهِمًا سَعْىَ غيرى ، وكلُّ ذلك أبقَى على مراعاة العَفاف والكَفاف .

وقوله : « وأحلب الثَّرَّةَ الصَّفىّ » يقول : أعلِّق طَمَعى بمَنْ إذا استُدِرَّ حَلَبُه كان غزيرا ، لأنِّى لا أسِفُّ للمطامع الدَّنيَّة ، ولا أضَعُ نفسى فى المواضع الخسيسة . والثَّرَّة : الغزيرة . ويقال : عينٌ ثرثارٌ(٢) ، إذا كانت كثيرة الماء . والصَّفىّ : الجامع بين مِحْلَبَين فى حَلْبة . وقوله « ولا أجْهَدُ أخلافَ غُبْرِها حلبا » انتصب الحَلَبُ على أنَّه مصدرٌ فى موضع الحال . والمعنى : أنِّى لا أطلُبُ الزَّهيد الحقير القَدْر ، ولا أستدرُّ البَكى القليلَ الدَّرِّ . والحَلَب قد يراد به المصدر ، وقد يراد به المحلوب .

٣ — إنى رأيتُ الفتى الكريمَ إذا رَغَّبْتَه فى صَنيعةٍ رغِبَا

٤ — والعَبْدُ لا يطْلُبُ العَلاءَ ولا يُعطيكَ شيئاً إلَّا إذا رَهِبَا

٥ — مثلُ الحِمارِ المُوَقَّعِ السَّوْءِ لا يُحْسِنُ مَشْيًا إلَّا إذا ضُرِبَا

قوله « إنى رأيتُ الفتى الكريم » يقول : إنّ من تكرُمُ عروقُه وتزكو أصولُه ، إذا دعوتَه إلى اصطناع صَنيعة ، وهززتَه لابتغاء مكرُمة ، أجابَكَ

— أخلاف غيرها ، يذهب إلى الغُبر الذى هو بقية اللبن . وقد يجوز مثل ذلك إلا أن الكلام يكون كالمقلوب ، لأنه أراد : ولا أجهد غير أخلافها . ومن روى : أخلاف غيرها فروايته أحسن . يريد أنه لا يحلب إلا ثرة ، كأنه يصف نفسه بطلب الرزق فى مظانه ، ورغبته إلى الكرام ، وإعراضه عن اللئام » .

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، لا واحد لها . وقد يجوز أن يكون جمع مفقر . وأنشد :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

(٢) كذا وقعت فى النسختين بدون التاء . وفى اللسان والقاموس : « ثرثارة » و « ثرارة » .

حريصاً على استغنامه وترَى الدَّنِيَّ الخسيسَ الهِمَّة والنفس لا يطلبُ ارتفاعًا ولا يَكسِب ادِّخارًا ، ولا يُسمِح بشيءٍ إلَّا عن رهبةٍ ، فِعْلَ مَن لا يبتغى فى مَصارِفه حمدًا ، ولا يَقْتَنِي ليومِه وغَدِه خِلًّا ، فهو كالحمار السَّوء ، الذى بظهرِه آثارُ دَبَر وقد ذُلل فى العَمل ، لا يُجِيب إلَّا إذا استُحِثَّ حتّى يُضْرَبَ ، بلادةً منه وكَسَلا . وقوله « لا يُحْسِن » موضعه من الإعراب نصب على الحال . وارتفع « مثل » على أنه خبر مبتدأ مضمر .

وقوله « مثل الحمار الموقَّع » يجوز أن يُرادَ منه الذى فى ظهره أثر الإكاف أو الدَّبَر ، ويجوز أن يُرادَ به المذلَّل ، كما يقال : طريقٌ موقَّع . ويجوز أن يكون من وَقَعْتُ الحديدةَ ، إذا ضَرَبتها بالمِيقَعة ، كأنه لبلادته يُضرَب كثيراً .

٦ — ولَمْ أَجِدْ عُرْوَةَ الخلائقِ إلاَّ الدِّينَ لمَّا اعتَبَرتُ والحَسَبَا

٧ — قد يُرْزَقُ الخافِضُ المقيمُ وما شَدَّ بعَنْسٍ رَحْلاً ولاَ قَتَبا

٨ — ويُحْرَمُ المالَ ذُو المَطِيَّةِ والرَّحْلِ وَمَنْ لاَ يَزَالُ مُغْتَرِبا

قوله « لم أجد » يريد أنَّ مِسَاكَ الخلائقِ الشريفة ، ووثائق عُرَاها ، إنما هى إذا اعتبره المعتبِر فى الدِّين وعِمارته ، وفى الشَّرف وتحصيله . كأنه جعَلَ طلبَ الحسَب للدُّنيا وأسبابِها والاعتلاءِ فيها ، وجعَلَ الدِّين للآخرةِ وتقديمِ ما يفوز به مِن رضا الله عزّ وجلّ ، والثوابِ الجسيم .

وقوله « قد يُرزَق الخافضُ المقيم » سلك فيه مسلك الآخر[1] فى قوله :

ماذا يُكلِّفك الرَّوْحاتِ والدُّلجا البَرَّ طَوْرًا وطوْرًا تركَبُ اللُّجَجا

البيتين ، وقد تقدَّما .

والخافض : الوادع الذى لم يُحدِّث نفسَه بتجْوالٍ وارتحال . فيقولُ : قد

(١) هو محمد بن بشير . الحماسية ٤٣٦ ص ١١٧٣ .

ينالُ الرِّزقَ الواسعَ مَن لا يُؤْثِر على الإقامة فى وطنه شيئاً ، وقد ترَى قاطع الشُّقَّة البعيدة ، وصاحبَ الرَّحْل والمطيَّة ، الصابرَ على الغُربة ، محرومًا مضيَّقَ العَيش، مكدود العُمر . والرَّحْل : مَرْكَب البعير؛ والرِّحالةُ نحوُه؛ وهو السَّرج أيضاً . والقتَب : إكافُ الجَمَل ، كذا ذكره الخليـل . وقوله « ذو المطِيَّة والرَّحْل » ، الرَّحل : مصدر رَحَلْتُ البعيرَ ، إذا شدَدتَ عليه الرَّحْلَ .

٤٥١

وقال آخر :

١ — يأيُّها العـامُ الذى قد رابَنِي ... أنتَ الفِــداء لِذِكْرِ عامٍ أَوَّلا
٢ — أنتَ الفِداء لذكْرِ عامٍ لم يَكُنْ ... نَحْسًا ولاَ بَيْنَ الأَحِبَّـةِ زَيَّلا

يفضِّل أيَّامَه الماضية على أيَّامه الحاضرة ، فقال كالمخاطِب لها : أيُّهـا العام الذى قد أتى بما يَرِيبنى ، جَعَلَكَ اللهُ فداءً لعامٍ أوَّلَ مِن عامِى ، تقضَّى بما سرَّنى .

وقوله « عامٍ أَوَّلَا » ممـا أَلِفَ فيه كثرة الاستعمال ، فوُصِف بصفةٍ لم توصف به نظائرُه ، اعتماداً على التَّعارف . والمراد بهذا أنه لم يقل شهرٌ أوّل ولا حَوْلٌ أوّل ، ولا سنةٌ أولى ، وإنما خُصّ هو بذلك لـكثرة الاستعمال ، ولأنّ دَلالة الحال وتعارُف المتكلّمين به سوّغ الحذف والإجراء على ما أُلِف فيه .

وقوله « أنت الفداء » يريد تكرير الدُّعاء على التضجُّر بحاضرِ وقتِه وعامِه ، والتنبيه على ما رابَه منه . فيقول : جعَلك الله فداءً لذكرِ عامٍ لم يَعُدْ بمَنْحَسةٍ ، ولا حَـكَمَ بين الأحبَّة بفُرقة . وإنما قال « لذكرِ عامٍ » لأنّ العام وقد تقضَّى لا يصحُّ فيه التَّفْدية . والنَّحس : ضِدُّ السَّعد ، وقد وُصِفَ به الغَبْرَةُ والأمرُ المظلم . وفى القرآن : ﴿ فى أيَّامٍ نحِسَاتٍ ﴾ . ويقال : رجل مُنَحَّسٌ أى محزون .

٤٥٢

وقال الفَرَزْدَق[١] :

١ ـ إذا ما الدَّهْرُ جَرَّ على أُناسٍ   حَوَادِثَهُ أَنَاخَ بآخَرِينا
٢ ـ فقُلْ للشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا   سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لَقِينا

يقول : إذا صُروف الدَّهرِ أناخَتْ على قومٍ بإزالة نِعَمِهم ، وتكديرِ عَيشهم ، فجرّت عليهم أذيالَ الشَّرِّ والتَّغيير ، ودَرَسَتْ آثارَهم ومَحت دِوَلَهم[٢] ، تراها تنتقل إلى آخَرين ، لأنَّها كما تَهَبُ ترتجع ، وكما تُولِي تَستلِب .

ثم قال : قل لمن شَمِت بنا فيما رأى من أثرِ الزَّمان فينا : انتبهوا من رَقدتكم واصْحُوا من شَماتتكم ، فستَلقَوْن كما لقينا ، وتُمتَحنون كما امتُحِنّا ؛ لأنّ حَياتَنا وجميع ما في أيدينا عَوَارٍ ، والعَوارِي تُستَرَدُّ وإنْ طالت المُهلة .

---

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٢٢٦ ص ٦٧٦ .
(٢) الدول ، كذا وردت فى النسختين بكسر ففتح ، وهى و « الدول » بضم ففتح : جمع الدولة .

٤٥٣

وقال الصَّلَتَانُ العَبدىُّ[1] :

١ ــ أَشَابَ الصغيرَ وأفنى الـكبيرَ ... كَرُّ اللَّيالِى ومَرُّ العَشِى[2]

٢ ــ إذا لَيْلَةٌ هَرَّمَتْ يَوْمَهَا ... أَتَى بعد ذلك يَوْمٌ فَتِى

٣ ــ نَرُوحُ ونَغْدُو لحاجاتِنا ... وحاجَةُ من عَاشَ لا تَنْقَضِى

ذكر فى هذه الأبيات ما تَدور عليه دوائرُ الأيّام ، وصروفُ الأزمان ، وأنّها لا تقف عند غايةٍ ، ولا تَعرف فيما تجرِى فيه مَقرَّ نهاية ، وأنَّ مِن عادتها تغيير الأمور ، وفى تقضِّيها وقضاياها تحويلَ الأحوال ، فقال : إنَّ كُرور الأيّام ، ومُرورَ اللّيالى والأوقات ، تراها تجعل الصَّغير كبيراً ، والـكبير حقيرا ، وتجعل الطِّفلَ شابًّا ، والشَّيخ فانياً ، فـكلَّما خَلُقت جِدَّةُ يومٍ جاء بعدَها يومٌ آخر فَتِيٌّ جديد ، ونحن فيها ندأب فى حاجاتنا ، فلا نحن نَملُّ ، ولا حاجاتنا تَفنَى أو تقِلُّ ، ولا الوقتُ بنا يقف ، ولا واحدٌ منا يَنْتَظِرُ أو يَتوقَّف ، إذ كان ذُو العيش مآربُه متَّصلة ، كما أنَّ أوقاتَه دائرةٌ متتابعة .

---

(١) كذا ورد فى نسخ الحماسة . وفى الحيوان (٣ : ٤٧٧) : « وقال الصلتان السعدى ، وهو غير الصلتان العبدى » ، ثم أنشد الأبيات . لكن ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٢٩ « الصلتان العبدى » ، ثم قال : « وله القصيدة التى يوصى فيها ابنه ، وهى طويلة حسنة كثيرة الأمثال » . وأنشد الأبيات . والصلتان لقب لعدة شعراء أحدهم الصلتان الفهمى . قال الآمدى فى المؤتلف ١٤٥ : « لست أعرفه فى شعرائهم ، وأظنه متأخراً » . وثانيهم الصلتان العبدى أحد بنى محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ، وهو الذى قضى بين جرير والفرزدق فى قصة مشهورة ، واسمه قثم بن خبية . قال الآمدى : « شاعر مشهور خبيث » . والثالث الصلتان الضبى ، قال الآمدى : « ولست أعرفه فى شعراء بنى ضبة ، وأظنه متأخراً » . والرابع « الصلتان السعدى » الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان . انظر أيضاً الخزانة (١ : ٣٠٨) والشعراء ٤٧٥ ــ ٤٧٩ واللآلئ ٧٦٦ .

(٢) وكذا وردت الرواية فى الشعراء . وفى سائر المراجع والتبريزى : « كر الغداة » .

معنى هرَّمت يومها : ضَعَّفته مُسْلِمًا للزَّوال . ويقال : هو ابن هَرْمةِ أبيه ، كما يقال : هو ابن عِجْزة أبيه ، لآخِرِ الأولاد ، كأنَّه من الهَرَم . والهَرْمَى من الخَشَب : مالا دُخانَ له ، لعِتْقِه وذهاب قُوَّته . والفَتِيُّ مصدره الفَتَاء ، وضدّه الذَّكِيّ . ويقال : فَتَاء فُلانٍ كَذَكاءِ فُلانٍ وكتَذكِيَة فلان .

٤ — تَموتُ مع المرء حاجاتُه ويبقَى له حاجَةٌ ما بَقِى[1]

٥ — إذا قُلتَ يَوْمًا لمن قد تَرى أَرُونِى السَّرِىَّ أَرَوْكَ الغَنِى[2]

يقول : تموت مع المرء حاجاتُه . يريد أنَّ المرء ما دام حيًّا فمآربُه وشهواتُه تتجدَّد تَجدُّدَ[3] الأوقات ، وأمانيِهِ تتَّصل ما اتَّصَلَ عمره ، فإذا جاء أجله وتناهى أمَدُه ، انتهت مآربُه ، ووقفَتْ مطالبه .

وقوله « إذا قلت يوماً لمن قد ترى » يريد : وإن سألتَ كلَّ مَن تقعُ عينُك عليه من المميِّزين ، عن سَراة الرِّجال وكِرامهم ، أحالُوا على المُثْرِين وإن ضعُفَت رغباتُهم فى اكتساب الخير ، واستجلاب الحمدِ . والسَّرْوُ : سخاء فى مُروَّةٍ . ويقال : سَرُوَ الرجل يَسْرُو ، وهو سَرِىٌّ من قوم سَرَاةٍ . وكأنَّ هذا سلَكَ مسلكَ الآخر[4] حين قال :

وأنَّ ثَرَاءَ المالِ يَنْفَعُ رَبَّهُ ويُثْنِى عليه الحَمْدَ وهو مُذَمَّمُ

٦ — ألم تَرَ لُقْمانَ أوصَى بنيهِ وأوصيْتُ عَمْراً ونِعْمَ الوَصِى[5]

٧ — بُنَىَّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجالِ فكُنْ عِنْدَ سِرِّكَ خَبَّ النَّجِى[6]

(١) فى التبريزى وسائر المراجع : « وتبقى له » بالتاء .
(٢) وكذا فى التبريزى والشعراء والخزانة . وفى الحيوان : « يوما لدى معشر » .
(٣) ل : « بتجدد » .
(٤) هو مالك بن حزيم الهمدانى . الحماسية ٤٣٤ ص ١١٧١ .
(٥) التبريزى : « فنعم الوصى » . المرزبانى : « أوصى ابنه » .
(٦) انظر ما سبق فى الحماسية ٤٤٥ ص ١١٩٢ .

٨ ـ وسِرُّكَ ما كانَ عندَ أمْرِئٍ وسِرُّ الثَّـلاثَةِ غيرُ الْخَـفِى[١]

معنى « ألم تر » : اعلم . ويريد التنبيهَ على أنّ له فى وَصاتِهِ ابنَه اقتداء بالحكماء قبلَه ، فكما ساغ لُقمانُ أن يوصِى ابنَه ساغ للصَّلَتَانِ أن يُوصِى عَمْرًا ولده . والمحمود فى قوله « نعم الوصى » محذوف ، كأنه قال : ونعم الوصِى هو . وهذا ترغيبٌ منه لعمروٍ فى الاحتذاء بما يَرْسُمُ له . وقوله « بنىَّ بدا خِبُّ نَجْوَى الرِّجال » ، فالخِبُّ : المكر بكسر الخاء ، والخَبّ بفتحها : المكّار . ومثله رجلٌ صَبٌّ . والنجوى : مصدر ، وهو يستعمل فيما يَتحدَّث فيه اثنانِ على طريق السَّتر[٢] والكتمان . فيقول : إذا ناجيتَ صاحباً لك فكن خَبًّا فيما تُودِعه من سِرِّك ، فإن نَجْوَى الرِّجال إذا بدا خِبُّها ، ومكرَ أربابها فيها ، عادت وبالاً وفضيحة . والنَّجِىُّ يقع على الواحد والجمع ، وكذلك النَّجْوَى . وفى القرآن ﴿ إذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ .

وقوله « وسِرُّك ما كان عند امرئٍ » ذهب فيه مذهبَ مَن قال :

إذا جاوز الاثنَـيْنِ سِرٌّ فإنَّهُ ببَثٍّ وتـكثير الوُشاةِ قَمِينُ[٣]

وقد قيل فى « الاثنين » من هذا البيت أراد به الشَّفتَين . وكأنَّ من فسَّر هذا التفسير يريد : لا تُفْشِ سِرَّك إلى أحَد .

آخر باب الأدب ، والحمدُ لله وحده ، والصلاة على نبيه محمد وآله بَعْدَه .

---

(١) بعده عند التبريزى :

كما الصَّمْتُ أَدْنَى لِبَعْضِ الرَّشَادِ فبَعْضُ التَّـكَلُّمِ أَدْنَى لِغِى

(٢) ل : « السر » .

(٣) ل : « بنث » بالنون . والبيت لقيس بن الخطيم فى ديوانه ١٨ . وفى الديوان : « بنشر » .

بابُ النَّسِيبِ

بابُ النَّسيبِ (١)

٤٥٤

وقال الصِّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشَيرىّ (٢) :

١ — حَنَنْتَ إلى رَيَّا ونفسُكَ باعدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وشَعْبَا كُما مَعَا

٢ — فما حَسَنٌ أن تأتِيَ الأمْرَ طائِعًا وتَجْزَعَ أن دَاعِي الصَّبَابةِ أسْمَعا

الحنين : تألُّم من الشَّوق وتشكٍّ . وريَّا : اسمُ امرأةٍ (٣) . فإن قيل : هَلَّا قيل رَوَّى ، لأنَّ فَعْلَى إذا جاء اسماً من بنات الياء يقلب ياؤه واوًا ، على هذا الفَتوَى والشَّروَى والتَّقوى والبَقوى ؟ قلت : إنه سمِّى به منقولاً عن الصِّفة ، وفَعْلَى صفةً يصحّ فيه الياء ، على هذا قولهم : خَزْيَا وصَدْيا ورَيَّا كأنه تأنيث رَيَّان فى الأصل ، كما يقال عطشان وعطشى ، ثم نُقل من باب الصِّفات إلى باب

(١) التبريزى : « النسيب : ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وإنما الغزل الاستهتار بمودات النساء والصبوة إليهن . والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » .

(٢) هو الصمة بن عبد الله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، شاعر إسلامى بدوى مقل ، من شعراء الدولة الأموية ، ولجده قرة بن هبيرة صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ووفادة . وكان من خبر الشعر ما روى التبريزى وأبو الفرج فى الأغانى (٥ : ١٢٧) وياقوت فى (البشر) والسيوطى فى شرح الشواهد ٧٩ : أن الصمة خطب ابنة عمه إلى أبيها ، فقال : لا أزوجكها إلا على كذا وكذا من الإبل (فى رواية التبريزى أنها خمسون) . فذهب إلى أبيه فأعلمه بذلك ، وشكا إليه ما يجد بها ، فساق الإبل عنه إلى أخيه ، فلما جاء بها عدها عمه فوجدها تنقص بعيراً ، فقال : لا آخذها إلا كاملة ، فغضب أبوه وحلف لايزيده على ما جاء به شيئاً ، ورجع إلى الصمة فقال له : ما وراءك ؟ فأخبره ، فقال : تالله ما رأيت قط ألأم منكما جميعاً . وإنى لألأم إن أقمت بينكما . ثم ركب ناقته ورحل إلى ثغر من ثغور الشام فلقى الخليفة فكلمه ، فأعجب به وفرض له فرضاً ، وألحقه بالفرسان ، فأقام به حتى مات . وفى ذلك يقول هذا الشعر . والأبيات عند القالى (١ : ١٩٠ — ١٩٢) .

(٣) هى ابنة عمه التى أراد الزواج بها .

النَّسِيبة بها فتركَ على بنائه . وقوله « ونفسُك باعَدَت » الواو واو الحال ، وهى للابتداء ، ومعنى باعَدَت بَعَّدَتْ ، وهو كما يقال ضَاعَفَتْ وضَعَّفَتْ . وفى القرآن : ﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أسفارنا ﴾ ،

والمَزَار : اسمُ مكان الزِّيارة . والشعب . شَعْب الحىّ ، يقال : التأمَ شَعْبُهم ، أى اجتمعوا بعد تفرُّق ، وشَتَّ شَعْبُهم ، إذا افترقُوا بعد تجمُّع . وقوله « وشعبا كما معا » الواو واو الحال أيضاً ، والعامل فى « ونفسُك باعَدَتْ » حَذَفْتَ ، وفى قوله : « وشعبا كما » باعدت . ومعنى قوله : « معا » مجتمعان ومصطحبان ، وموضعه خبر المبتدأ .

وقوله « فما حَسَنٌ أن تأتىَ الأمرَ طائعاً » فى حَسَنٍ وجوهٌ : يجوز أن يكون مبتدأً ، وجاز الابتداء به وهو نكرةٌ لاعتماده على حرف النفى ، و « أنْ تأتىَ » فى موضع الفاعل لَحَسَنٌ ، واستَغْنَى بفاعله عن خَبَرِه ، والتقدير : ما يَحْسُن إتيانك الأمرَ طائعا . وانتصب طائعا على الحال من أن تأتى . ويجوز أن يرتفع حسنٌ على أنه خبر مقدَّم ، وأن تأتى فى موضع المبتدإ . ويجوز أن يرتفع حسنٌ بالابتداء وأن تأتى فى موضع الخبر ، وهذا أضعف الوجوه لكون المبتدإ نكرةً والخبر معرفة . وقوله « وتجزع أَن دَاعِى الصَّبابة » أنْ مخففة من أنَّ الثقيلة ، والمراد : وتجزع مِنْ أنَّ داعىَ الصَّبابة أسمَعَكَ صوته ودعاك .

ومعنى البيتين : شكوتَ شَوْقَك إلى هذه المرأة ، وأنت آثرْتَ البُعدَ عنها بعد أن كان حَيَّا كُما مجتمعين ، وليس بجميلٍ اختيارُك الأمرَ طائعاً غيرَ مُكْرَه . وجزعك بعده ، لأنَّ داعىَ الشَّوق والعائد منه إليك أسمَعَك وحَرَّكَ منك .

٣ — قِفَا وَدِّعَا نَجْدًا وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى وَقَلَّ لِنَجْدٍ عِنْدَنا أَنْ يُوَدَّعَا

٤ — وليسَت عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا

يخاطب صاحبينَ له يستوقفُهما ويكلِّفهما توديعَ نجدٍ معه والنَّازلِ بالحمى منه . ثمَّ استأنَفَ فقال ملتفتاً : ويقِلُّ لنجدٍ وساكنه التَّوديعُ منَّا ، لأن حقَّهما أعظم

من ذلك ، ولـكنّا لا نَقْدِر على غيره . والحِمَى : موضعٌ فيه ماءٌ وكلأٌ يُمنع منه الناس . ويقال : أحمَيْتُ المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وحكى ابنُ الأعرابيّ أنهم يقولون للمكان وقد أُبطِلَ وأُبيحَ ولم يُحْمَ : بَهْرَجٌ . وأنشد :

فَخُيِّرَتْ بَيْنَ حِمًى وبَهْرَجِ ما بينَ أجْرَاذٍ إلى وادِى الشَّجِى(١)

وقوله « أن يُوَدَّعا » فى موضع الفاعل لقلَّ .

ومعنى قوله « وليسَتْ عشيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ » أنك وإن أفرطتَ فى الجزَع ، فإنَّ أوقاتَ المواصَلة بالحِمَى مع أحبابك لا تكاد تعُود ، ولـكنْ أدِمِ البكاءَ لها ، مع التوجُّع فى إثْرِها ، تجِدْ فيه راحةً . وفى هذا إلمام بقولِ الآخر :

فقُلْتُ له إنّ البُكاءَ لَرَاحةٌ به يَشتفِى مَن ظَنَّ ألاّ تلاقيا

وقوله « تدمعا » جواب الأمر . ولو قال تدمعان ، لـكان حالاً للعينَين .

٥ ــ ولمّا رأيتُ البِشْرَ أعرضَ دُونَنَا وحالَتْ بَنَاتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعَا(٢)

٦ ــ بَكَتْ عَيْنِىَ الْيُمْنَى فلما زَجَرْتُها عن الْجَهْلِ بَعْدَ الْحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا(٣)

البِشْر : جبل(٤) . وأعرض دُونَنا : أبدى عُرْضَه . وحالت : تحرَّكَتْ . يقال : استَحَلْتُ الشَّخصَ ، إذا نظرتَ هل يتحرَّك . ومنه لا حَوْلَ ولا قوّةَ إلاّ بالله ! والمعنى : لمّا تباعَدْنا عن نَجْدٍ ؛ وحجَزَ بيننا وبينه البِشْر ، تحركَتْ بناتُ الشوق نوازعَ كثيرةَ الحنين ، مظهِرةً ضَعف الصَّبر . وجواب لما قوله « بكتْ عَيْنِىَ اليُمْنَى » . وأراد ببناتِ الشَّوق مسبِّباته . وهذا كما قال الآخر(٥) :

يَضُمُّ إلىَّ اللَّيلُ أطفالَ حُبِّها كما ضَمَّ أزْرَارَ القميصِ البنائقُ

(١) أجراذ : موضع بنجد .

(٢) الأمالى والأغانى : « وجالت » بالجيم .

(٣) التبريزى والأمالى : « بكت عينى اليسرى » .

(٤) جبل فى أطراف نجد من جهه الشام .

(٥) هو المجنون ، كما فى اللسان (بنق) .

فأطفالُ الحبِّ كبنات الشوق . والنُّزَّع ، الأشهر فيه أن يكون جمعَ نازع بمعنى كافٍّ ، فوضَعَها موضعَ نوازِع، واللفظتان المتواخيَتان لكونهما من أصلٍ واحد يُستعار ما لإحداهما للأخرى . وإنما قال « بكَتْ عينىَ اليُمنى » لأنه كان أعور ممتَّعا بعينِه اليُسرَى(١) . والعَين العَوراء لا تَدْمَع . فيقول : بكَتْ عينىَ الصحيحة ؛ فاجتهَدْتُ فى زَجْرِها عن تَعاطِى الجهل بعد أنْ كنتُ تحلمتُ وتركْتُ الصِّبَى ، فلما تكلفتُ ذاك لها أقبلَتِ العوراء تَدْمعُ معها وتبكى . ونبَّه بهذا على عِصْيان النفس والقَلب ، وقِلَّة ائتمارِهما له ، وأنهما إذا زُجِرا ورُدَّا عن مَواردِها زادا على المُنكَر منهما .

٧— تَلفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى وجَدْتُنى وَجِعْتُ من الإصغاءِ لِيتاً وأخْدَعا

٨— وأذكُرُ أيَّامَ الحِمَى ثم أنْثَنِى على كَبِدِى من خَشْيَةٍ أن تَصَدَّعا

يقول : أخَذْتُ فى مَسيرى لمَّا أبصَرْتُ حالَ نفسى فى تأثير الصَّبابة فيها ، ملتَفِتاً إلى ماخلَّفْتُه من الحيِّ وأرضِ نجدٍ ، حتى وجدتُنى وجِعَ اللِّيتِ — وهو عِرقٌ فيها — لطُولِ إصغائى ، ودوام التفاتى ؛ كلُّ ذلك تحسُّرًا فى إثْرِ الفائت من أحبابى وديارِها ، وتذكُّراً لطِيب أوقاتى مَعَهم فيها . وقد قيل فيه : إنَّ مِن رُموزِهم أنّ مَن خَرَج من بلدٍ فالتفتَ وراءَه رجَعَ إلى ذلك البلد . وأنشد فيه أبياتٌ منها قولُه :

عِيلَ صَبْرِى بالثَّعْلَبِيَّةِ لمّا طال ليلى ومَلَّنى قُرَنائى(٢)
كلَّما سارت المطايا بنا مِيلاً تنفَّسْتُ والتفتُّ ورائى

(١) كناية عن أن عينه اليسرى هى العوراء . جاء فى الكنايات للثعالبى ص ٣٦س ٥ : « ويكنى عن الأعور بالممتع » .

(٢) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « بالتغلبية » تحريف . والثعلبية : منزله من منازل طريق مكة من الكوفة ، قالوا : نسبت إلى ثعلبة بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء .

قالوا : التفتَ لكي يُقضَى له الرُّجوع ، لكونه عاشقاً .

وانتَصَب « لِيتاً » لأنه تمييز ، وهذا من باب ما نُقِل الفعلُ عنه ، كأنَّ الأصل : وَجِعَ لِيتى وأخدَعِى ، فلما شُغِل الفعلُ عنهما بضميره أشبَهَا المفعولَ فنصبهما . ومثله : تصبَّبْتُ عرَقاً ، وقرِرْتُ به عَيْناً .

وقوله « وأذكرُ أيّامَ الحِمَى ثم أنثنى » يقول : وأتذكَّرُ أوقاتى بالحِمَى لَمَّا كانَ من أسباب الوصال تَساعُد ، وبينَ دُورِنا ودُور الأحبة تقارُبٌ ، وللتَّراسُل إمكان ، ومع الحبيبِ فى الوقتِ بعدَ الوقتِ تلاقٍ واجتماع ، ثم أنعَطِفُ على كبدى وأقبِضُ عليها مخافةَ تشقُّقِها ، وخُروجِها من مواضعها ، شوقاً إلى أمثالها ، وحسرة فى إثْرِ منقطَعها .

وقد ذكر هذه الأبياتَ أبو عبدِ الله المفجّعُ رحمه الله ، فى حدِّ الغزَل من كتابه المعروف بالتَّرجمان ، فذكر بيتين منها فى (باب الصَّبابة) ، وهما :

* حننتَ إلى ريَّا ونفسُك باعدَتْ *

و : * فما حسنٌ أن تأتى الأمرَ طائعاً *

وقال فى تفسيرها[1] : « يقول : الحربُ بينَك وبين قومِك تمنعُك مِن قُربها ولقائها » . وذكَرَ مع البيتين قولَ عنترة :

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأقتُلُ قومَها زَعْمًا لعَمْرُ أبيك ليس بمَزْعَمِ

ثم جاء إلى (باب الحنين) ، فذكر ما فى الأبيات ،

* وأذكرُ أيّامَ الحمى *

و : * وليسَتْ عَشِيّاتُ الحمَى برواجعٍ *

و : * بكَتْ عَيْنِىَ اليُمنَى *

---

(١) نقل هذا النص موجزا التبريزى فى شرحه للحماسة . وما هنا أوفى وأتم .

الأبيات ، وقال فى تفسيرها : هذا كانَ مجاوراً لأحبابه وهم منتجعُون بجُنُوب الحِمَى[١] فنشأَتْ عينٌ — والعينُ : سحابةٌ تجىء من ناحية القبلة — فنشأَتْ مِنْ عَنْ يسارِ القبلة ، فارتاعَ لذلك ، وخَشِىَ الفرْقَةَ إذا اتّصَل الغيث ، فذلك معنى قوله : بكَتْ عَيْنِي اليُسْرَى[٢] ، كناية عن السحاب . وجهلُهَا : كثرةُ مَطرها . وجعَلَ ارتياعَه منها زجراً لها . ثم نشأَتْ أُخرى مِنْ عَن يمينِ القِبْلة ، فأيقَنَ حينئذٍ بالفراق . فذلك معنى قوله : أسْبَلَتَا معا . ثم قال معترفاً بالبَيْن : خلِّ عينَيك تدمَعا ، يعنى السّحابتَين . وقال جرير :

إنَّ السَّوَارِىَ والغَوادِىَ غَادرَتْ   لِلرِّيحِ مُنْخَرَقاً بها ومَجَالا » .

هذا كلامُه فى كتابه ، وقد حكَيْنَاه على ما أورده لا زيادةَ فيه ولا نُقصان . وأظنُّ أنّه تذكّرَ أبياتاً غيرَ هذِه ، ثمّ تصرّف فى تفسيرها وذكَرَ هذه الأبيات فى أثناءِ تفسيرِ ما ذكَرَه ، ولم يأْتِ بها . وقد أحسَنْتُ الظَّنَّ مُستطرِفاً فِعلَه . والله أعلم .

٤٥٥

وقال آخر[٣] :

١ — ونُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بشَفاعةٍ   إلَىَّ فهلَّا نَفْسُ لَيْـلَى شَفِيعُهَا

٢ — أأَكْرَمُ مِنْ لَيْلَى عَلَىَّ فتَبْتَغِى   به الجاهَ أَمْ كنتُ امرَأً لا أُطيعُها

نُبِّئَ يحتاج إلى ثلاثةِ مفاعيل ، وقد حصَلَتْ إلى قوله «أرسَلَتْ بشفاعةٍ إلىَّ» .

---

(١) جنوب ، ضبطت بضم الجيم فى النسختين . والجنوب : جمع جنب ، بمعنى الناحية.

(٢) يفهم من هذا أن رواية المفجع : « بكت عينى اليسرى » ، كما روى التبريزى والقالى . انظر ما سبق فى ص ١٢١٧ .

(٣) هو الصمة بن عبد الله القشيرى صاحب المقطوعة السابقة . أو هو عبد الله بن الدمينة صاحب المقطوعة اللاحقة ، وقيل : هو المجنون . انظر شرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٩ .

وقوله « هَلّا نَفْسَ ليلى » هلَّا : حرفُ تحضيض ، وهو يطلُب الفعل ، وقد وَقَع فى البيت بعده جملةٌ من مبتدإ وخبَر . وفارق « هَلّا » هذه أختَها « لولا » فى قوله :

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أفضَلَ مَجدِكُمْ بَنِى ضَوْطَرَى لولا الـكَمِىَّ المقنعا(١)

وذاك لأنّ تأثيرَ الفعلِ بالنصب بعد لولا من البيت دلَّ عليه ، فأمْرُه فى إضمار الفِعْل بعده قوىّ . وهذا لم يَصْلُحْ له أن يَنصِب النفْسَ بعد هَلّا ، فكانَ يجئُ التقديرُ : فهَلَّا أرسلَتْ نَفْسَها شَفِيعَها ؛ لأنَّ القوافىَ مرفوعةٌ ، فجَعَلَ ما بعده مبتدأً لمَّا لم يتأتَّ له ما تأتَّى لذاك(٢) . وقد يفعلون هذا فى الحروف المختصَّة بالأفعال إذا كان فى الكلام دَلالةٌ على المضمر من الفِعل . ألا تَرَى أنْ لوْ يَطلُب الفعل . ثمَّ جاء قولُه تعالى : ﴿ قُلْ لو أَنْتُم تَمْلِـكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَـكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ ﴾ . وعلى ذلك جاء إنْ الجازمةُ الدَّالَّة على الشرط فى وُقوع الاسمِ بعدَه ، وإنْ كان يطلُب الفعلَ عاملاً فيه بالْجَزم ، وذلك نحو : إنْ زيدٌ أتانى أكرمْتُه . وقول الشاعر(٣) :

* إنْ ذو لُوثةٍ لانا(٤) *

وما أشبَهَهُ . فإن قيل : هَلَّا جعلتَ المضمرَ بعد هَلَّا فعلا رافعاً فيرتفعُ النفسُ به لا بالابتداء ، كما يُفعَل ذلك فى : إن زيدٌ أتانِى أكرمته ، فيصير هلَّا

---

(١) هو جرير ، من قصيدة يهجو بها الفرزدق . الخزانة (١ : ٤٦١ — ٤٦٢) .
(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لما يتأت لذلك » ، تحريف ونقص .
(٣) هو قريط بن أنيف . انظر ص ٢٢ ، ٢٥ .
(٤) البيت بتمامه :
إذاً لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

فى ذلك أجْرَى فى بابِه من أن يكون ارتفاعُه بالابتداء ؟ قلتَ : إنَّ قولَك إن زيدٌ أتانِى أكرمتُه ، ارتفع زيدٌ بفِعلٍ هذا الظَّاهرُ تفسيرُه ، وأكرمتُه جوابُ إنْ ، فساغَ فيه ما لم يسُغْ هاهنا ، لأنه ليس هاهنا شىء يكون تفسيراً لذلك الفعل . وإنَّما جاء بدَلَ الفِعل المفسِّر شفيعُها ، ويكون خبراً لا غير ، وإذا كان كذلك لم يُمْكِنْ حَملُ هذا عليه .

ومعنى البيت : خُبِّرتُ أنَّ ليلَى أرسلَتْ إلىَّ ذا الشَّفاعةِ[1] فى بابها ، تَطالَب به جاهاً عندى ، مستكفية[2] عن ذِكرِها فى الشِّعْر وعن إتيانها وما يَجرِى مَجراه . ثم قال : هَلَّا جعلَتْ نفْسَها شفيعاً . فقوله « بشَفاعةٍ » حذف المضاف وأقام المضافَ إليه مَقامه ، الفعلُ الذى يقتضيه هَلَّا دلَّ عليه شفيعُها ، لو قال : هَلَّا نَفْسُها شفيعُها — لـكان أقربَ فى الاستعمال ، إلاَّ أنه قَصَدَ إلى التَّفخيم بتكرير اسمها .

ثم قال : « أأكرمُ مِنْ ليلَى علىَّ » ، فأتَى بلفظ الاستفهام ، والمراد التَّقْريع والإنكار ، كأنَّه أنـكَرَ منها استعانَتَها بالغَير عليه ، وطَلَبَ الشَّفيع فيما أرادت لَدَيه . وقوله « فتبتغِى » فى موضع النصب على أن يكون جوابَ الاستفهام بالفاء . وقوله « أم كنت » هى أم المتَّصله ، كأنَّه قال : أىَّ هذين توهمْتْ : طلبُ إنسانٍ أكرَمَ علىَّ منها ، أم اتِّهامُها لطاعتى لها . وخبر « أكرم علىّ » محذوفٌ ، كأنَّه قال : أأكرمُ منها موجود ، [أو[3]] فى الدُّنيا .

(١) ل : « ذا شفاعة » .
(٢) ل : « مستكفة » .
(٣) التكملة من ل .

٤٥٦

وقال آخر(١) :

١ ـ أَمَا يَستَفِيقُ القَلبُ إلاَّ انبرَى لَهُ تَوَهُّمُ صَيفٍ من سُعادَ ومَرْبَعِ
٢ ـ أُخَادِعُ عَن أطلالِها العينَ إنَّهُ مَتى تَعْرِفِ الأطلالَ عينُكَ تَدْمَعِ
٣ ـ عَهِدتُ بها وَحْشًا عليها براقِعٌ وهذِى وُحُوشٌ أصبحَتْ لم تَبرقَعِ

استفاق وأفاق بمعنى صحا . وانبرَى : تعرَّض . وأراد بالصَّيف المَصِيف . وقوله « من سعاد » أراد من دار سُعادَ وأرَضِيها(٢) . و « أمَا » هى ما النافية أُدخِل عليها ألفُ الاستفهام تقريرًا أو إنكارا . والمراد : لا يحدِّث القلبُ بالسُّلُوِّ والإفاقة ممَّا تداخَلَه من علائق حبِّ هذه المرأة ، وتشبَّثَ به فألْهَاهُ عن كلِّ شىء ، إلاَّ اعترضَ له تذكُّرُ مَصيفٍ ومَرْبع من أرَضِيها(٢) بعد التوهُّم . كأنه كان يَقِفُ على منازلها فيتوهَّمُها بآياتها وعلاماتها ، ثم يَعرِفُها . وأكثرُ ما يذكرون التَّوهُّمَ فى الدِّيار يعقِّبونه بالعِرفان دونَ العلم . وهذا أحدُ ما نَفْصِل به بين العِلْم والمعرفة ، ولهذا وأشباهِه نمتنع من أن نصِفَ اللهَ تعالى بأنَّه عارفٌ . لذلك ، قال زهير :

---

(١) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « وقال ابن الدمينة » . والأبيات فى ديوان ابن الدمينة ٢٥ . والدمينة أمه ، وهى الدمينة بنت حذيفة السلولية ، وهوعبد الله بن عبيد ، أحد بنى عامر بن تيم الله بن مبشر بن أكلب بن ربيعة بن عفرس بن خلف بن أفتل ، وهو خثعم بن أنمار . وابن الدمينة : شاعر إسلامى رقيق النسيب ، اختار له أبو تمام فى هذه الحماسة ست مقطوعات ، وكفى ذلك شاهداً على منزلته . انظر الأغانى (١٥ : ١٤٤ ـ ١٥٠) واللآلئ ١٣٦ والشعراء ٧٠٩ . وقد طبع ديوانه فى مصر سنة ١٣٣٧ بتحقيق محمد الهاشمى البغدادى .

(٢) كذا فى ل بالجمع . وفى الأصل : « بأرضها » بالإفراد .

(٣) صدره : * وقفت بها من بعد عشرين حجة *

* فَلَأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ[1] *

وأشباهُه كثير .

وقوله « توهُّمُ صيفٍ » حقيقته أنَّه حذف المضافَ وأقام المضافَ إليه مقامه ، كأنَّه قال : توهُّمُ موضعِ صيفِنا ، فيكون الصَّيف مصدر صِفْنَا بالمكان نَصِيفُ به صَيْفًا . وقوله « مربع » يجوز أن يكونَ اسمَ المكان .

وقوله « أخادِعُ عن أطلالها العيْنَ » يريد أنِّى إذا وقفتُ على آثارِ دارِها[3] وجوانبِ مَحَلِّها رُمْتُ خَدْعَ النَّفسِ والعَين عن تأمُّلها ، تفادياً مما يتسلَّط من الوَجد بها ، ويتجدَّدُ لى من الصَّبابة نحوَها . ولئلَّا أتذكَّرَ بما أتفرَّسُ فيها أحوالى قِبَلَها ، لأنَّ العينَ إذا عرفَتْها وَكَفَتْ بالدَّمع ، والنَّفسَ إذا تبيَّنَتْها أُشقِيت بالوجد .

وقوله « عهِدتُ بها وحْشًا » هذا تحسّرٌ فيما رأى الدَّارَ عليه من الاستبدال وُحوشًا ، فقال : عهِدتُ بها نساءً مبرقَعة — يشير بذلك إلى عَفافها وقلَّةِ تبرُّجها — كالوحشِ كالاً وحُسنًا ، ونفُورًا عن الرِّيَب ، وأرى الآنَ وُحوشًا تختلِفُ فيها غير مبرقعة . وفى هذه الطَّريقة قول الآخَر :

يَعِزُّ علىَّ أن يُرَى عِوَضَ الدُّمَى بحافاته هَامٌ وبُومٌ وهِجرِسُ[2]

وقوله « عليها براقع » صفةٌ للوحش ، وكذلك « أصبحت لم تبرقع » .

٤٥٧

وقال آخر :

١ — فيارَبِّ إن أَهْلِكْ ولم تُرْوِ هامتِى بلَيلَى أَمُتْ لا قبرَ أَعطَشُ من قبرِى

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ديارها » .

(٢) الهجرس : ولد الثعلب.

٢ ـ وإن أكُ عن ليلَى سَلَوتُ فإنّما تَسلّيْتُ عن يَأسٍ ولم أَسْلُ من صَبْرِ [1]
٣ ـ وإن يَكُ عن ليلَى غِنَى وتجلُّدٌ فرُبَّ غِنَى نَفْس قريبٍ من الفقْرِ

حذف الياء من « يا رب » لوقوعها موقعَ ما يحدث فى باب النِّداء ، البتّة ، وهو التنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلُّ عليه ، ولإنَّ بابَ النداء بابُ حذْفٍ وإيجاز ، لكثرةِ تردُّدِه فى الكلام ، وقوله « أَمُتْ » جوابُ الشَّرط . وقوله « لا قَبْرَ أعطَشُ مِن قبرى » الجملةُ فى موضع الحال . وقد رُوِى : « تَرْوَ » بفتح التاء ويكون الفعل للهامة ، « وتُرْوِ » بضم التَّاء والفعل لله عزَّ وجلَّ . فيقول متألِّما من بَرْح الصَّبابة ، وعَطَش الاشتياق ، ومتشكِّيا إلى الله تعالى : يا ربِّ إن مُتُّ ولم أَنَلْ شِفاءً من دائى ، وريًّا من عطَشِى إلى هذه المرأة مُتُّ ولا قبرَ لعاشقٍ أشدُّ عطشاً من قبرى . وإنما قال : لم ترو هامتى ، لأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ عظامَ الموتى تصير هاماً فتطير . والأصلح فى هذا المكان أن يكون جَعَلَ نفسَه مُقتَتَلاً لحبِّها . ومعنى « ترو هامَتِى » لم تَطلُبْ دمى من قاتلى ، تبقَ هامتى أعطش من كل هامٍ . وكانوا يقولون : إنّه يَخرُج من رأس المقتولِ هامةٌ فتصيح وتقول : اسقونى اسقونى ! إلى أن يُدرَك ثأره .

وإنما آثَرْتُ هذا لتوحيده هامة . والرِّوايتان فى تُرْوِ وتَرْوِ معنياهما ظاهران .

وقوله « وإن أَكُ عن ليلى سَلَوْتُ » قد تقدَّم القول فى حذف النون من أكن . وجواب الشَّرط قوله « فإنَّما » بما بعده والمعنى : إنْ أكُ فى الظَّاهر حَصَلَ لى سُلُوٌّ عنها لمن يتأمَّلُ حالى ، فإنَّما تكلَّفتُ ما ظنّ منّى سلوًّا لغَلَبةِ اليأس منها علىّ ، فأمّا نَفْسى فهى كما كانت ، ذَهاباً فيها ووُلوعاً بها . وقوله

(١) التبريزى : « عن صبر » .

« سلوت » معناه طِبْت نفساً . وتسلّيت معناه تكلّفت ذلك ، والتّفعُّل لا يكون إلا عن تكلُّفٍ فى أكثرِ الأحوال ، وكذلك التّفاعُل ، فأتى بسلَوْت بناءً على ظنِّهم واعتقادهم ، وتسلّيت بناء على حاله .

وقوله « وإن يَكُ عَنْ ليلى غِنًى » يريد : وإنْ كان ظاهرُ أمرى أنّى استغنيت عنها بخلوّ قلبى من حبِّها ، أو أنِّى أتجلّد للوهْن العارض فى الاشتياق إليها ، فرُبَّ غِنَي نفسٍ يَقْرب من الفقر. والمعنى أنّ باطن أمرِى بخلاف ظاهرِه . وإنما يُتصوَّر منِّى غِنًى يقرُب من الفقر إذا حَصَل وتُؤُمِّل . ومن روى « أمرَّ من الفقر » فالمعنى ظاهر والفاء من فربَّ بما بعده جواب للشَّرط . وفائدة ربَّ التقليل ، كأنه استقلّ الحالاتِ التى تشبه حالَه ، فلذلك أتى برُبَّ .

٤٥٨

وقال آخر :

١ ــ يومَ ارْتَحَلْتُ برَحْلِي قَبلَ بَرْذَعَتِي ... والعَقْلُ مُتّلَهٌ والقلبُ مشغولُ

٢ ــ ثم انصرَفْتُ إلى نِضوِى لأبْعَثَهُ ... إثْرَ الحُدُوجِ الغَوادِي وهو معقولُ

انتصب « يومَ » بإضمار فعل ، كأنَّه أراد : أذكرُ يومَ هذا الأمر والشّأن . وأضاف اليومَ إلى الفعل تشهيراً له وتعظيماً لما اتّفق فيه ، وذلك أنّه باغَتَه حديثُ الفراق وما همّ به المُجتمِعون معه فى النُّجعة من الارتحال ، فلمّا ورَدَ عليه ما لم يحسَبْه ولم يحدِّثْ نفسَه به توَلَّهَ وخُولط ، حتّى صارَ لا يدرِى ماذا يأتى عند ما همّ به من تشييعهم ، والتهيُّؤ للكَونِ معهم ، فقال : أذكرُ يومَ أقبلْتُ أضَعُ الرَّحلَ على الناقة قَبل البَرْذَعة ، وعقلى فاسدٌ وقلبي مشغولٌ بما دَهَمه من الحال . وقوله «مُتَّله» هو مُفْتعِل من الوله ، وأصله مُوْتَلِهٌ ، فأُبدل من الواو تاء كما تقول

فى اتَّقى واتَّجه وما أشبههما ، ثم أَدغَم إحدى التاءين فى الأخرى . ويروى : « مختَبَلٌ » والخَبْل : الفسَاد .

وقوله « ثم انصرفت إلى نِضوى » تتميم لبيان حالِه فيما انعكس عليه من قَصْدِه ، وفَسَد من همِّه ، فقال : ثُمَّ رجعتُ إلى بَعيرى لأقيمَه فى إثْر الظّعائن الباكرة ، وهو مشدودٌ بعِقاله لم أحُلَّه . وهذا غايةُ ما يقالُ فى انحلال العُقْدة ، واسترخاء المُسْكة ، وسُوء الضَّبط وانقلاب القَلْب . ومعنى أبعثه أهيِّجه . والنِّضْو : البعير المهزول . والحُدوج : مراكب النِّساء الظاعنة . وانتصب إثْر على الظَّرف .

وقد سلكَ أبو تمَّامٍ هذا المسلكَ فقال :

أَصَـمَّنِى سِرُّهمْ أيّامَ فُرقتهم هل كنتَ تَعرِفُ سرًّا يُورِث الصَّمَما
نأَوْا فظلَّتْ لوَشْـكِ البَين مُقلتُه تَنْدَى نَجِيعاً ويَنْدَى جسمُه سَقَما[1]
أَظَلَّه البـــــين حتَّى إنَّهُ رجلٌ لو ماتَ من شُغْلِهِ بالبَين ما عَلِما

٤٥٩

وقال جِران العَودِ[2] :

١ — أيا كبِدًا كادتْ عَشِيَّةَ غُرَّبٍ من الشَّوقِ إثْرَ الظَّاعِنينَ تَصدَّعُ
٢ — عَشيَّةَ ما فِيمَنْ أقامَ بِغُرَّبٍ مُقامٌ ولا فِيمَن مَضَى مُتسرَّعُ

---

(١) فى الأصل : « ويبدى جسمه » ، صوابه فى ل وديوان أبى تمام ٣٠٢ .

(٢) التبريزى : « العود : المسن . والجران : باطن عنق البعير والدابة . ويقال : إن الشاعر سمى بذلك لقوله :

خذا حذرا يا جارتى فإننى رأيت جران العود قد كاد يصلح

واسمه عامر بن الحارث . وقال أبو رياش : هى لذى الرمة » . وفى القاموس (جرن) : « وجران العود شاعر نميرى واسمه عامر بن الحارث ، لا المستورد ، وغلط الجوهرى » .

يروى « يَا كَبِدَا » والمراد يا كبدِى على الإضافة ، ففرَّ من الـكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فانقلبت ألفا . ويروى « يا كبدًا » والمراد به كبده وإنْ نكَّرها ، بدلالة أنَّه وصَفها بقوله « كادت عشِيَّةَ غُرَّبٍ من الشوق » ... البيت . وهذه الصفة لم تحصلْ إلاَّ لها . والمراد أنَّه تألَّمَ ممـا دهَمَه من أمر الفراق بعد الاجتماع الحاصلِ فى مواضع الانتجاع ، وكأنَّ المجتمِعين تحزَّبُوا حِزبَين ، ارتحل أحدُهما وصاحِبَتُه معهم ، وأقام أحدُهما بالتهيُّؤ والاستعداد وهو فيهم ، فالمتقدِّمون ليس فيهم متسرَّع ، لانتظارِهم المتخلِّفين ، والمتخلِّفون لا مُقامَ لهم لاستعجالهم اللَّحاقَ بهم . فشَـكَا الحالةَ الواقعة فى أثناءِ ذلك ، وهو مع ذلك يحِنٌّ ويشتاق . وغُرَّبٌ : موضع(١) . وأضاف العشيَّة إليه تخصيصاً . وفصل بين كاد وبين الفعل الذى تناوله بالظَّرْف على ما اتَّصل به . و « إثْرَ » انتصبَ على الظَّرف من الشَّوق ، و « عشيَّةَ » من البيت الثانى بدلٌ من العشِيَّة الأولى . وكما أضافَ الاولَى إلى غُرَّب تبيينًا أضافَ الثانية إلى قوله « ما فيمن أقام بِغُرَّب » تبيينا ، وهما عشيَّةٌ واحدةٌ وإن اختلف مبيِّنُهما .

٤٦٠

وقال الحُسَين بن مُطَيْرٍ(٢) :

١ — لقد كُنْتُ جَلْدًا قَبْلَ أن تُوقِدَ النَّوَى على كَبِدِى نارًا بطيئًا خُمودُها(٣)

---

(١) فى معجم البلدان : « ماء بنجد ثم بالشريف من مياه بنى نمير » . ثم أنشد هذين البيتين .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ . وفى الأغانى (١٤ . ١١٣) عن التوزى قال : قلت لأبى عبيدة : ما تقول فى شعر الحسين بن مطير ؟ فقال : والله لوددت أن الشعراء قاربته فى قوله : مخصرة الأوساط » وأنشد هذا البيت والذى بعده . وقد ساق أبو على القالى أبيات الحسين بن مطير هذه فى الأمالى (١ : ١٦٥) كاملة .

(٣) بين هذا البيت وتاليه عند القالى :

ولو تركت نار الهوى لتضرمت ولكن شوقا كل يوم يزيدها

٢ — وقد كُنتُ أرجُو أنْ تموتَ صَبابتي إذا قَدُمَتْ أيَّامُها وعُهودُها

يقول : كنتُ قوىَّ النَّفس ، ثابتَ القَلْب ، راجحَ العَقْل ، صبوراً فى الشَّدائد ، قبلَ أن بُليتُ بفراق الأحبَّة ، فلمَّا أوقدَتْ نِيَّتُهم التى انتوَوْها نارَ الصَّبابةِ على كَبِدى فأبطأَ سكونُها ضَعُفْت عن الثَّبات لها ، وظهَرَ عجزى عن تحمُّلِ أعبائها ، وقد كنتُ أؤمِّلُ إذا أتتَ الأيَّامُ على ما أُقاسيه ، واستمرَّت النَّفسُ فى التَّأَلُّم تارةً وفى التصبُّر أخرى ، أن يَتنقَّص ذلك صبابتى ، وأنَّ قِدَمَ الأيَّام وانمحاء العهود يؤثِّر فى تسكين نائرتها ، ويُبطِل ما تسلَّطَ علىَّ من أذاها ومكروهِها . وقوله « إذا قَدُمت » ظرفٌ لتموت صابتى .

٣ — فقَدْ جَعلَتْ فى حَبَّةِ القلبِ والحشا عِهادَ الهوَى تُولَى بشَوْقٍ يُعِيدُها[1]

يريد أنَّ ما كانَ يرجُوه من سُكونِ صبابته قد ازدادَ ، لأنَّها صَيَّرت فى حبَّة القلب وأحشائه أمطار الهوى ، تُجَدَّدُ وتُتْبَعُ بوَلِىٍّ من الشوق يردُّها كما كانت ، وانتصب « عِهادَ » على أنَّه مفعول أوَّلُ لجعلَتْ . وتُولَى بشوق فى موضع المفعول الثانى ، ويُعيدها فى موضع الصفة للشَّوق . ومعنى « تُولَى » تُمطَر الوَلىَّ . والوَلِىُّ المَطْرة الثانية لأن الأولى منها تسمَّى الوَسْمىّ . والعِهاد : جمع العَهْد ، وهو المطَر الذى يجىءولِمَا تَقَدَّمَه عهدٌ باقٍ لم يَذهب . وحَبَّة القلب هى العَلَقة السوداء فى جوفه . ويروى « عِهادُ الهوَى — بالرَّفع — يُولَى — بالياء — بشوق يَعيدُها ، بالباء[2] » ، فيكون معنى جَعلَتْ طَفِقَتْ وأقبلت ، ويكون غيرَ متعدٍّ ، ويرتفع عهاد بجعلت ، وبعيدَها يقوم مقام فاعل يُولَى . فيكون المعنى : فقد طفقت أوائلُ هواها يُمطَرُ أَبْعَدُها بشوقٍ يجدِّدها .

---

(١) بعده فى الأمالى :

لمرتجة الأطراف هيف خصورها عذاب ثناياها عجاف قيودها

(٢) التبريزى : « وثعلب يروى : بعيدها » .

٤ — بِسُودٍ نَوَاصِيها وحُمْرٍ أكُفُّها وصُفْرٍ تَرَاقِيها وبِيضٍ خُدودُها

٥ — مُخَصَّرَةِ الأوساطِ زانَتْ عُقُودَهَا بأحسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عُقُودُها

٦ — يُمَنِّينَنَا حتَّى تَرِفَّ قلوبُنا رَفِيفَ الخُزَامَى بات طَلٌّ يَجُودُها[1]

الباء من قوله « بسودٍ نَواصيها » يجوز أن يتعلّق بقوله تموت صَبابتى ، ويجوز أن يتعلق بجملَتْ إذا ارتفع عِهَادُ الهَوى به يريد : جملَتِ العهادُ تفعل هذا بسببِ نِساءٍ هكذا . وإنّما جاز أن يجمع سُودٌ وحمرٌ وغيرها وإن ارتفع ما بعدها بها ، لأنَّ هذه الجموعَ لها نظائرُ فى هذه الأسماء المفردة[2] ، ولو كانت جموعَ سلامة أو مالا نظيرَ له فى الواحد لما جازَ جمعُه . تقول : مررت برجالٍ ظِرافٍ آباؤهم . ولو قلت : ظَريفِين آباؤهم ، لم يجز .

وقوله « مُخَصَّرة الأوساط » يريد أنَّها دقيقةُ الخصور ، غيرُ واسعة الجنوب وأن قلائدها وحليَّها تـكتسب من التزيُّن بها إذا عُلِّقت عليها ، أكثرَ ممـا تـكتَسِبه منها إذا تحلَّت بها .

وقوله « يمنِّينَنا » يصف لَطافتهنَّ فى مواعيدهن ، وتقريبَهنَّ أمرَ الوِصال بينه وبينهنّ ، وأنَّها لا تزالُ تُمَنِّى وتَضمن من حُسْن الإجابة ما يَصير للقلوب به بريقٌ ونضارةٌ ، كبريقِ الخُزَامى إذا بقى ليَلتَه يُطَلُّ بالجَوْدِ ، والرَّفيف كثرةُ الماء فى النَّبات ونَضارتُها . ومعنى « حتَّى ترِفَّ » إلى أن ترِفّ .

---

(١) بعده فى الأمالى :

وفيهن مقلاق الوشاح كأنها مهاة بتربان طويل عقودها

قال أبو على : « يريد موضع العقود ، وهو العنق » .

(٢) ل : « فى الأسماء المفردة » .

٤٦١

وقال أبو صَخْرٍ الهُذَلىّ[١] :

١ـ أمَا والَّذِى أبْكَى وأضْحَكَ والَّذِى   أمَاتَ وَأحْيَا والَّذِي أمْرُهُ الأمْرُ
٢ـ لَقَدْ تَرَكَتْنِي أحْسُدُ الوَحْشَ أنْ أرَى   ألِيفَينِ منها لا يَرُوعُهُمَا الذُّعْرُ[٢]

تكريره للذى ليس بتكثير للأقسام ، لأن اليمينَ يمينٌ واحدةٌ بدلالةِ أن لها جوابا واحداً ، ولو كانت أيماناً مختلفة لوجَبَ أن يكون لها أجوبةٌ مختلفة ، وفائدة التَّكرير التَّفخيمُ والتَّهويل . وعلى هذا إذا قال القائل : واللهِ واللهِ لقد كان كذا ، فاليمين واحدة . وما فى القرآن من قوله : ﴿ واللَّيلِ إذَا يَغْشَى . والنَّهارِ إذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ مِثْلُه . على أن ما فى البيتِ من اختلاف الأفعالِ الدَّاخلة فى الصِّلات جَعَلَ الكلامَ أحسنَ ، والتَّفخيم أبلغ . وجواب القسم « لَقَدْ تَرَكَتْنِي » ، وفاعل تركتنى ضميرُ المرأة المستكنُّ فيه . والمعنى : أنى إذا تأملتُ الوحوشَ وهى تأتلف فى مراعيها ومُتصرَّفاتها اثنين اثنين ، لا يُفزِّعها رقيبٌ ، ولا يَدْخُل فيما بينها تَنْفير ، حَسَدْتُها وتمنَّيْتُ أن تكون حالتى مع صاحبتى كحالها فى الآفها .

وقوله « أحسدُ الوَحش » فى موضع الحال ، وأنْ أرى ، فى موضع البَدَل من الوحش . وقوله « لا يَروعُهما » فى موضع الصِّفة لأليفين ، لأن أَرَى من رؤية العين ، ويكتفى بمفعولٍ واحد ، وهو أليفَين .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠٩ ص ٣٢٧ . وقصيدة أبى صخر رواها القالى فى أماليه (١ : ١٤٨ — ١٥٠) .
(٢) القالى : « وقد تركتنى أغبط الوحش » .

٣ ــ فياحُبَّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليلةٍ ويا سَلْوَةَ العُشَّاق مَوعدُكِ الحَشْرُ(١)

٤ ــ عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدّهْرِ بينى وبَيْنَها فلَمَّا انقضَى ما بيننا سَكَنَ الدَّهْرُ

تجلَّدَ فى الهوَى وادَّعَى اللَّذاذةَ به ، حتَّى استزادَ من أجزاء الجوَى الحاصلِ له ، وهو داء الجَوْف ، ما يَتضاعَفُ بتجدُّد الأوقات ، واستَبعَد التَّسلِّىَ منها حتَّى جَعَل الموعدَ بينهما يومَ النَّشْر . وهذا غايةُ التَّفتِّى فى الهوى ، والتَّصبُّرِ على الرَّدَى .

وقوله « عجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهر » يجوز أن يريد به سُرعةَ تقضِّى الأوقات مُدَّةَ الوصال بينهما ، وأنَّه لَمَّا انقضَى الوَصلُ عادَ الدَّهرُ إلى حالته فى السُّكون. وهذا على عادَتهم فى استقصار أيَّامِ السرور واللَّهو ، واستطالةِ أيَّامِ الفراق والهَجْر . ويجوز أن يريدَ بسَعْى الدهر سِعايةَ أهل الدَّهر وإيقادَهم نارَ الشَّرِّ بينهما بالنمائم والوِشايات ، وأنه لمـا فَتَرتْ أسواقُهم بالتَّهاجُر الواقع مِنهُما ، وارتفع مُرادُهم فيما طلَبوه من الفَساد بينهما ، سكنوا . وكما أرادَ بسَعْى الدَّهر سَعْىَ أهِلِ الدَّهر ، كذلك أراد بسُكون الدَّهر سُكونَ أهل الدَّهر .

٤٦٢

وقال(٢) :

١ ــ بيَدِ الّذى شَعَفَ الفُؤادَ بكم تَفريجُ ما أَلْقَى من الْهَمِّ(٣)

٢ ــ ويُقِرُّ عَيْنِى وهى نازِحَةٌ ما لا يُقِرُّ بعَيْنِ ذِى الحِلْمِ

(١) كتب فى الأصل تحت كلمة « العشاق » : « الأيام » . ورواية التبريزى والقالى : « ويا سلوة الأيام » .

(٢) أى أبو صخر الهذلى . والأبيات بهذه النسبة فى الأغانى (٢٠ : ١٤٧ ــ ١٤٨)

(٣) الأغانى . « فرج الذى ألقى » . كما أن الرواية فيها « شغف » بالغين المعجمة .

الذى شَعَفَ القلب به من زعمه هو الله تعالى . ومعنى شعف الفؤاد : أصاب شَعَفَتَهُ . وشَعَفَةُ كلِّ شىء أعلاه . وقوله « بكم » أراد بحُبِّكم ، ويقال : فلانٌ مشعوف بكذا ، إذا شُغِل قلبُه به وأُصيبَ . وارتفع «تفريج» بالابتداء ، وخبَره بيد الذى ، على طريقة سيبَوَيْه ، وعلى مذهبِ أبى الحسن الأخفَش ارتفع تفريج بالظَّرف ، والمعنى : بيدِ الله الذى ابتلانى بكم ، وشَغَلَ قلبِى بحُبِّكم ، كَشْفُ ما أُقاسيه من الهَمِّ . وهذا للشّاعر فى الهَوَى على الضِّدِّ ممن تقدَّمَ ذِكرُه ، لأنّ شكواه فى نهاية القُوّة والعُلُوّ ، كما أنّ التِذاذَ ذاكَ فى نهاية الجِدَّةِ والغُلُوّ .

وقوله « ويُقِرُّ عينى وهى نازحةٌ » يريدُ أنّه يسرّه فيها على بُعدها منه مالا يُسَرُّ به عاقل . وإنّما نَبَّهَ بهذا على شِدَّة تمنُّعِها ، وعلى قُوّة يأسِه منها ، حتّى أنه مع البِعاد إذا أخطر بباله شيئاً من أحوالها التى يُشاركه فيها ، عَدَّهُ مَرزِئةً منها(1) ، واستمتاعًا بها . وقد شَرَحَ ذلك فيما بعده . وقد روى بعضهم : « بعَين ذى الحُلْم » بضم الحاء ، وليس بشَىء .

٣ – إنِّى أَرَى وأظُنُّ أن سَتَرَى   وَضَحَ النَّهارِ وعالِىَ النَّجْمِ

لك أن تروى « أنِّى » وتجعله فى موضع الرفع بدلاً من « مالا يُقِرُّ » ؛ ولك أن تكسر إنّ ، كأنّك تستأنف شَرْحَ ماقدَّم ، وتفصِّلُ ماأُجْمِل . ويكون المعنى : يُقِرُّ عَينى أنّى أرى بياضَ النَّهار وعالى الكواكب باللَّيل ، وهو أضوَؤُها وأعلَنُها(2) ، وأظنُّ أنَّها تُشارِكُنى فى رؤيتها ، فأفرحُ بذلك ، وهذا ممّا لا يَفرح به عاقل ، ولا يَعتَدُّهُ لذَّةً . ويُروى والمعنى ما بيَّنتُه ، على غير هذا ، وهو :

إنّ الذى سأظُنُّ أنْ سَتَرَى   وضَحُ النهار وعالِىُ النَّجْمِ

فيرتفع وضَحُ على أن يكون خبر إنّ ، وأتى بعالىُ النَّجم على أصلِهِ فضم

(1) رزأه مرزئة : أصاب منه خيرا .
(2) ل : «وأغلبها» .

الياء منها . والمعنى ذلك المعنى ، إلاّ أنّه زاد الظَّنّ تراخياً بإدخال السِّين عليه .
ويُروَى :

إنّى أرَى وأظنُّ أن سَتَرَى وضَحَ النَّهار عَوَالِيَ النَّجم[1]

فينتَصِب وضحَ على الظّرف ، وعَوالىَ على أنّه مفعول أرى . والمعنى : أرى الكواكبَ ظُهراً ، فيما أقاسيهِ من بَرْحِ الهوى ، وأظنُّ أنها ستُمتحن فى حُبِّها لى بمثل ما امتُحِنتُ فى حبِّى لها ، وأنّ أسبابَ الهوى تُفارقنى وتعود إليها ، فَترَى مثلَ ما أرى ، فأفرحُ بذلك وتَطيبُ له نَفْسى ، وهذا مما لا يَفرحُ به عاقل .

٥ ــ ولَلَيْلَةٌ مِنْها تعودُ لنـا فى غَيْرِ ما رَفَثٍ ولا إثْمِ
٦ ــ أَشهَى إلى نفْسِي ولو نَزَحَتْ مما مَلَـكْتُ ومن بنى سَهْمِ

نبَّهَ بهذا الكلام على تهالكه فى هواها ، وتَناهِى صبابته بها ، وأنّ اليَسيرَ إذا عاد عليه منها عَدَّه كثيراً . وقد أظهَرَ العَفافَ فى بَلواه ، وأنّه يتمنَّى ما يتمنَّى فيها حلالًا لا حراما ، فيقول : ولَليلةٌ من أوقاتها تحصُلُ لنا فى غير فُحْشٍ تُذْكَرُ به ، أو إثمٍ تكتسبُه ، ألذُّ إلى نَفْسِى وأَطْيَبُ فى قلبِى من مِلْـكِى كلِّه ، ومن عشيرتى بأسْرِهم .

وقوله « أشهى إلى نفسى » فى موضع المبتدأ ، وهو ولليلةٌ منها . وقوله ولو نَزحتْ شرطٌ فيما تمنَّى حصوله ، وقد فصل بها بين أشهى إلى نفسى و بين ماملكتُ أى وإن بَعُدت تلك الليلة فعادت إلى أولَى أحوالها فى التَّمنُّع علىَّ والتفصِّى منى .

٧ ــ قد كان صُرْمٌ فى المَمات لنا فعَجِلْتِ قَبْلَ المَوْتِ بالصُّرْمِ
٨ ــ ولمَا بَقِيت لَيَبْقَيَنَّ جوًى بَيْنَ الجوانحِ مُضرِعٌ جِسْمِى

(١) هى رواية التبريزى ، لكن آخر البيت عنده : « وعالى النجم » .

٩ — فَتَعَلَّمِى أنْ قد كَلِفْتُ بكم ثُمَّ افعلِى ما شِئتِ عن عِلْمِ

عاد إلى مخاطبتها ، بعد أن تألم ممـا تألم ، فقال يعتب عليها :

قد كان لنـا فى الموت قطيعةٌ وافتراق ، لـكنَّكِ لم تصبرى إلى حِينِ وُقوعه ، ولم تنتظرى نُزولَه ، فتعجَّلتِ الصُّرْمَ قبل الموت ، فلا جَرَمَ أنَّ بينَ جوانحى داءً يبقى مُدَّةَ بقائى فيها ، ويُذِيبُ جِسمى ، ويَكسِفُ بالى .

وقوله « ولَمَا بقيتُ » أدخَلَ اللام الموطِّئة للقسم على ما بقيتُ ، وهو مصدرٌ فى موضع الظَّرف ، لِمَا يتضمَّن من معنى الشَّرط . وقوله « لَيبقَيَنَّ جوًى » جوابُ القسم المضمر ، والكلام كأنَّه : لئنْ بقيتُ ليبقَين جَوًى ؛ لأنَّ المعنى : ولَمُدَّةَ بقائى ليبقين جَوًى . فمحصول الكلام يعود إلى ذلك .

وقوله « فتَعَلَّمِى أنْ قد كَلِفت بكم » يضعون تَعَلَّمْ موضعَ اعلمْ ، إلاَّ أنَّ المخاطبَ ليس له فى الجواب أن يقول تعلمْتُ ، لـكن يقول : علمتُ . والمعنى : اعلَمِى كَلَفِى بكم ، وانحطاطى فى هواكم ، وكُنْهَ ما أقاسيه فى حُبِّـكم ، ثمَّ آثِرِى فى بابى ما أردتِ بعد عِلمك بالحال ، لأنَّ الذى أطلبُه رضاكِ ، ثمَّ لا أبالِى بمـا يَلحقُنى من بقاءٍ أو فناء ، أو سَرَّاء أوْ ضَرَّاء .

٤٦٣

وقال آخر(١) :

١ — إنَّ التى زَعَمَتْ فؤادَك مَلَّهَا خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها

٢ — بَيْضاء باكَرَهَا النَّعِيمُ فصاغَها بَلَباقَةٍ فأدقَّهـــا وأَجَلَّهَا

يقول : إن المرأةَ التى ادَّعتْ عليكَ مَلَالَ قلبك منها ، وإعراضَكَ عنها ،

(١) وكذا وردت الأبيات بدون نسبة فى أمالى القالى (١ : ١٥٦) . وعند التبريزى : « وقال آخر . قال أبو رياش : هى لابن أذينة » وابن أذينة هذا هو عروة بن أذينة .

ونِيَّتَك فى استبدالك بها ، خُلِقَتْ هَوًى لك كما خُلِقْتَ أنتَ هوًى لها .
والمعنى أنَّ دَعواها تَجَنٍّ منها ، وتسخُّطٌ لما يظهر من شَغَفك بها ، وهى لك
لا انفكاكَ لقلبك مِن عشقها ، كما تدَّعى أنَّها لك بهذه المنزلةِ ، فأنتَ تهواها
كما أنَّ تلك تهواكَ ، لا مِرْيَةَ فى ذلك ولا شَكَّ .

وقوله « بيضاء باكَرَها النعيم » يريدُ أنَّها نشأت فى النِّعمة والنَّعمة ، وأنَّ
خَفضَ العيش ربّاها وحَسَّن خَلْقَها بِحِذْقٍ ولباقة ، فجعَلَ محاسنَها مرتَّبةً بين
ما يُستَحَبُّ دِقَّتُها ، وبين ما يُستَحبُّ فخامتُها . ومعنى « باكرها » سَبَق إليها
فى أوّل أحوالها ؛ لأنَّ البكور : اسمٌ لابتداء الشىء ؛ على ذلك باكورةُ الربيع .
واللباقة : الحِذْق ؛ يقال : هو لَبِقٌ ولَبِيقٌ ، أى حاذق . ومعنى أدقّها وأجلّها :
أتى بها دقيقةً جليلة ، فمَا يُستَحَبُّ دِقّتها منها مثلُ الأنف والعين والثَّغر
والخَصر جعلها دقيقةً ، وما يُستَحَبُّ جَلالتُها منها مثل الساق والفَخِذ والعَجُز
والصَّدْر جعَلَها جليلة . وهذا كما قال الآخر[(١)] :

فدَقَّتْ وجلَّتْ واسبكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسنِ جُنَّتِ

وكما قال :

يمَانيَةٌ تُلِمُّ بنا فتُبْدِي دَقيقَ محاسِنٍ وتُكِنُّ غَيْلَا[(٢)]

٣ ــ حَجَبَتْ تَحيَّتَها فقلتُ لِصاحِبى ما كانَ أَكْثَرَها لَنَا وأقلَّهَا

٤ ــ وإذا وَجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ شَفَعَ الضَّميرُ لها إلىَّ فَسَلَّهَا[(٣)]

كأنّها لمّا لامَتْه فى مَلالِهِ وظُهور التسلّى منه ، هجرَتْهُ وأقبلتْ لا تَقبلُ
تحيَّة[(٤)] ولا تَردّ جوابَها . فيقول : لمّا أعرضَتْ وتحجَّبَتْ عن رسُلى ، وأظهرت

(١) هو الشنفرى . البيت ١٢ من المفضلية ٢٠ .
(٢) البيت لوضاح اليمن . سبق فى ص ٦٤٣ .
(٣) التبريزى : « شفع الضمير إلى الفؤاد » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « تحية » .

اطِّرَاحَ وُدِّي ، قلتُ متأسِّفًا ومتعجبًا : ما كان أكثَرها لنا حينَ كانت متوفِّرة علينا وما أقلَّها لنا السَّاعةَ وقد زَهِدَتْ فينا هذا الزُّهدَ المُسْرِف ، وضَجِرَتْ بنا الضجَرَ المُفْرِط . والذى استكثَره واستقلَّه هو نَيلها ومَيْلها . هذا إذا جعلتَ الضمير من « أكثرها » و « أقلها » راجعاً إلى المرأة ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى التحيَّة ، والمراد : ما كان أكثرها لنا لو حصَلَتْ ، إذْ كان فيه مِسَاكُ أرْمَاقنا ، وحياةُ قلوبنا . وما كان أقَلَّها فى نفسها . وهذا كما قال الآخر :

إنّ ما قَلّ منكِ يَكثُرُ عندى ... وكثيرٌ ممّن يُحبُّ القليـــلُ

وقوله « وإذا وجدتُ لها وساوس سلوة » يبيِّن به استحكامَ حُبّها فى قلبه ، وأنه كلّما تداخلَهُ ضَجَرٌ بدَلَالِها وتأبِّيها ، حدَّثَ نفسَه بالتَّسلِّى عنها والتَّصبُّر دونَها ، أقبلَتْ دَواعِى المَيل إليها ، والأسبابُ المتسلِّطة على قلبه والمشتملةُ على لُبِّه ، ولها تَشَفُّعٌ وتعَصُّب ، فنزعتْ ما خَطَر ، بالبال من ذلك ، وصارت شوافعُ الضّمير أغلب على تدبيره ، وأملَكَ لمتصرّفاتِه ، حتّى يصير الحكْمُ لها ، والغَلَبُ لقضاياها . وفى طريقته قول كثيِّر :

أُريدُ لأنْسَى ذِكْرَها فكأنَّمَا ... تمَثَّلُ لِى لَيْلَى بكُلِّ سـبيلِ

٤٦٤

وقال آخر :

١ ـ أمَا والّذِى حَجَّتْ له العيسُ وَارْتمَى ... لِمَرْضاتِه شُـعْثٌ طوِيلٌ ذَمِيلُهَا

٢ ـ لَئِنْ نائباتُ الدّهرِ يَوْمًا أَدَلْنَ لِى ... على أُمِّ عَمْرٍو دَولةً لا أُقِيلُها

افتتح كلامه بأمَا ، ثمّ أقسمَ بالله ، لأنّ الذى قصَدَت العِيسُ بيتَه ، وطلبتِ الحُجَّاج الغُبْرُ الوجوهِ الطِّوالُ الذميل مَرْضاتَه ، هو الله تباركَ وتعالى .

واللام من « لئن » هى الموطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم « لا أُقِيلُها » . والمعنى : والله لَئِن جَعَلَتْ نوائبُ الدَّهر لى دَولةً على أمِّ عَمْرٍو لَعَدَدْتُ ذلك ذنباً لا أقيلُها منه . فالضمير من لا أقيلها يرجع إلى النائبات ، كأنَّ لذَّته كان فى الهوى ، وأن يكون لتلك عليه البَسطةُ فى الأمر ، والتمكُّن[1] من التصريف فيما يَسُوءهُ أو يسرُّه ، فإذا تغيَّر الأمرُ عن ذلك عَدَّهُ شَقاءً وَضرراً فادحاً . وهذا الوجه حسن . ويجوز أن يكون الضّمير يعود إلى المرأة ، فيكون المعنى : إنِّى إنْ صارت لى اليَدُ عليها ، وجَعلتُ أَمْلكُ من أمرها مثلَ ما تَملكُ من أمرى جازيتُها حينئذٍ بما تعاملُنى به كَيْلَ الصَّاع بالصَّاع ، وتركتُها لا أنعشُها من صَرعتها ، ولا أُقيلها عَثْرَتها . وهذا المعنى إذا قايسته إلى ما تقدَّم ذكرُه كان منحطًّا عنه ، وواقماً دونه ، وفيه إظهارُ العجزِ عن مكابَدة الصَّبابة ، والتَّصريحُ بسوء المَلَكَة . ومثل هذه الطريقةِ لا يرتضيها أربابُ الهوى ، والحُكَّام على مُدَّعِى العشقِ ولهم . ومعنى « أدلْتنى » جعلنَ لى دولةً . ويُروَى : أَدَرْنَ لى » فينتصب دولة على أنَّه مفعول به . والدَّائرات كالدائلات لا فَصْل . ومَنْ روى « أَدَلْنَ لى » انتصب دولةً على أنَّه مصدر ، فيكون موضوعاً موضعَ الإدالة . ويقال : أدالك اللهُ من عَدُوِّك ، أى جَعَل لك عليه دَولةً .

٤٦٥

وقال آخر :

١ ــ وكُنتَ إذا أرسلتَ طَرْفَكَ رائِدًا ... لقلبك يَوْماً أتْبَعَتْكَ المناظِرُ

٢ ــ رأيتَ الذى لا كُلُّهُ أنتَ قادِرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ[2]

(١) ل : والتمكين » .

(٢) ل : « الذى ما كله » .

الرَّائد : الذى يتقدَّم القومَ فيطلبُ لهم الماء والكلأ ، ولذلك قيل فى المثل : « لا يكذِبُ الرَّائدُ أهلَه » لأنَّه إن كذَبَهُمْ هَلَكَ معهم . فيقول : إنك إذا جعلتَ عينَك رائدًا لقلبكَ تطلُب له مَصبّ هواه ، ومقرَّ لهوه وصِباه ، أتعبَتْكَ مناظرُها فى مَطالبك ، وأوقعتْك مواردُها فى أشقِّ مكارهك ؛ وذلك أنها تهجم بالقلب فى ارتياده لها على ما لا يصبِر فى بعضه على فراقه مع مهيِّجات اشتياقه ، ولا يقدرُ على السُّلُوّ عن جميعه مع تذكر غرائب الحسن منه ، فهو الدَّهرَ ممتحَنٌ ببلوَى ما لا يَقدر على كلِّه ، ولا يصبرُ عن بعضه . والجناية فيهما للعين ، لكونها قائداً للفؤاد إلى الرَّدَى وسائقاً ، وهادياً لدواعى الحبِّ إليه وحاديا .

وقد ألمَّ بهذا المعنى أبو تمَّام حيث يقول :

لم تَطْلُعِ الشمسُ المضيئةُ مُذْ رَأَتْ عَيْنِي خِلَالَ الخِدْرِ شَمْسًا تَغْرُبُ
لَأُعَذِّبَنَّ جُفُـونَ عَيْنِي إنَّما بجُفُونِ عينى حلَّ ما أتعذَّبُ(١)

وأبين من هذا قول الآخر :

أَلَا إنما العينانِ للقلبِ رائدٌ فما تَأْلَفُ العَيْنَانِ فالقلب يَأْلَفُ

وقوله « رائداً » انتصَب على الحال ، وجواب إذا أرسلت « أتعَبَتْكَ المناظر » . وقد حَصَل خبر كنت فيه ومعه . وقوله « رأيت الذى » تفصيلٌ لما أجْمَلَهُ قوله « أتعبتْك المناظر » .

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « حال ما أتعذب » .

٤٦٦

وقال الصِّمَّةُ بنُ عبدِ الله القُشَيْرِيّ[١] :

١ – أقولُ لصاحِبي والعيسُ تَهوِي بِنا بَيْنَ الْمُنِيفَـــةِ فالضِّمارِ[٢]

٢ – تَمَتَّعْ من شَمِيمِ عَرَارِ نَجدٍ فَما بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

العَيَسُ: بياضٌ في ظُلْمة خفيّة . والعرب تجعلُه في الإبل العِراب خاصَّة . والمُنِيفَةُ : موضعٌ ، أو هَضْبَة مرتفعة[٣] . ومنه : أنافَ على كذا ، أى أشْرَفَ ، وقولهم : مائةٌ ونَيِّفٌ . والضِّمارُ : مكانٌ أو وَادٍ منخفضٌ يُضْمِرُ السَّائرَ فيه ، لذلك قال الأعشى :

تَرانَا إذا أضمرَتْكَ البِلَا دَ نُجْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرَّحِمْ

ومنه قيل للعِدَة المُسَوَّفَةِ : الضِّمار ، وقيل لما لا يُرْجَى رُجُوعُهُ من المال : الضِّمار . قال :

* وعَيْنُه كالـكالِئُ الضِّمارِ[٤] *

يذمُّه بأنّ حاضرَه كغائبه . يقول : إنِّي أُجارِي رفيقي وأُباثُه قِصَّتَنا ، والرَّوَاحِلُ تُسرِعُ بين هذين الموضعين ، وأقولُ في أثناء ذلك متلهفاً : استمتِعْ بشمِّ عَرار نجد ، فإنّا نَعدَمُهُ إذا أَمْسَيْنا بخروجنا من أَرْضِ نجدٍ ومنابتِه .

(١) التبريزي : « وقال آخر » . « الصمة هذا غير والد دريد . وقد سبقت ترجمة الصمة ابن عبد الله في المقطوعة ٤٥٤ ص ١٢١٥ .

(٢) اللآلئ ١٤٠ : « تخدى » . والأبيات في زهر الآداب (٣ : ١٠٣) ومعجم البلدان (الضمار ، المنيفة) بدون نسبة . ونسبت في معاهد التنصيص (٢ : ٨٥) للصمة ، ثم قال : وقيل : الأبيات لجعدة بن معاوية بن حزم العقيلي » . وفي الوساطة ص ٣٤ ستة أبيات منها بلا غزو .

(٣) في معجم البلدان أنه ماء لتميم على فلج ، بين نجد واليمامة .

(٤) انظر مقاييس اللغة (٥ : ١٣٢) .

والشَّميمُ : مصدر ، وأكثر ما يجيء فعيلٌ مصدرًا فى الأصوات ، كالصَّهيل والشَّحِيج ؛ ومثله العَذيرُ والنَّكيرُ . ويقال : تَمَتَّعْتُ بكذا ومن كذا . والعَرَار : بقلَةٌ صفراء ناعمةٌ طيِّبة الرِّيح ، والواحدة عَرَارَةٌ . قال الخليل : العَرَارَةُ البهَارَةُ البرِّيّة ، وقيل هو شجر . وقد شُبِّه لونُ المرأةِ بها . قال الأعشى :

بَيْضَاء صَحْوَتِهَا وصف رَاء العشيَّةَ كالعَرَارَهْ

وقولُه « مِن عِرارٍ » مِن لاستغراق الجِنس ، وموضع « من عرار » رفع على أن يكون اسمَ ما . والواو من قوله « والعيس تهوى بنا » واو الحال ، وموضع « تَمَتَّعْ من شَميمٍ » نصبٌ لأنّه مفعول أقولُ . وقوله « بين المُنيفة فالضِّمار » أجود الروايتين « بين المُنيفة والضِّمار » ، لأنّ بينَ يدخُل لشيئين يتباين أحدُهما عن الآخَرِ فصاعداً ، وإذا كان كذلك لا يكتفى بقوله المُنيفة فيُرتّب عليه الضمار بالفاء العاطفة ، اللهمَّ إلا أن تجعلَ بين الأجزاء « المنيفة » فتصير المنيفة كاسم الجمع ، نحو القوم والعَشِيرة وما أشبههما . وعلى هذا حُمِل قولُ امرئ القيس :

* بين الدَّخُول فحَوْمَلِ(١) *

وكان الأصمعى يردُّه ويرويه بالواو .

٣ ــ أَلَا يا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وريَّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطَارِ(٢)

٤ ــ وأَهْلُكَ إذْ يَحُلُّ الحَىُّ نَجدًا وأنتَ على زمانك غَيْرُ زَارِ

٥ ــ شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وما شَعَرْنَا بأنصافٍ لهنّ ولا سِرَارِ(٣)

---

(١) البيت أول معلقة امرئ القيس . وهو بتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٢) ل والتبريزى : « بعد القطار » .

(٣) ضبطت السين بالفتح والكسر فى الأصل والتبريزى . وسيأتى فى التفسير أن الأفصح الفتح .

ألَا : حرفٌ لافتتاح الـكلام ، والمنادَى فى يا حبَّذا محذوف كأنه قال يا قوم أو يا ناس ، حَبَّذا نفحات نجد . وارتفع نفحاتُ بالابتداء ، وخبرُه حبَّذا ، كأنه قال : محبوبٌ فى الأشياء نَفَحَاتُ نَجْدٍ ، وهو تَضَوُّعُ الرِّياح بالنَّسيم الطيب . ويقال : له نفحةٌ طيِّبة وخبيثة . وقوله « رَيًّا روضِهِ » يراد بها الرَّائحة هنا . وارتفع قوله « وأهلُك » عَطْفًا على ورَيّا ، وهما جميعاً معطوفانِ على « نفحاتُ » وكأنَّه قال : وحبَّذا أزمانُ أهلِكَ حينَ كانوا نازلين بنجدٍ وأنت راضٍ مِن الزَّمان ، لمساعدته إيّاك بما تهواه وتريده ، فلا تَعِيبُه ولا تَشكوه . ويقال : زَرَيْتُ عليه ، إذا عِبْتَ عليه ؛ وَأَزْرَيْتُ به ، إذا قَصَّرْتَ به . وقوله « وأنت » الواو واو الحال ، وارتفع « شهورٌ » على أنّه مبتدأ ، وهو تفسير الزَّمان الذى حَمِدَهُ وتلهَّفَ على انقضائه . وقوله « ينقضين » خبره . ويجوز أن يرتفع شهور على أنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، وما ينقضين حينئذ يكون صفةً له . وقوله « وما شَعَرْنَا » أى ما عَلِمْنَا . يقال : شِعْرَةً وشِعْرًا . ومنه الشِّعْر . يقال : شَعَرَ الرَّجُلُ ، إذا قال الشِّعر ، فَشَعِر بكسر العين أى صار شاعِراً . وسَرَارُ الشَّهر : آخِرُه ؛ لأن القمرَ يَسْتَسِرُّ فيه . وقد حُـكِيَ كسر السين فيه ، وليس بكثير . والمعنى : يا قومِ ، محبوبٌ فيما تقضَّى نسيمُ أرواح نجدٍ وروائح رياضِه عقبَ إتيان المطَرِ عليه ، وهزِّ الريح لنباتها . ومحبوبٌ أيضاً زمان أهلِكَ وإقامَتُهم بنجدٍ ، حينَ كنتَ تشكُر وقتَك وترتضيه ، إذْ كانت شهورُه وأيّامُه تنقضى وأنتَ لا تشعُر بأنصافها ، ولا بأوائلها وأواخِرها ، لاشتغالِك بلهوك ، وذَهابك فى غَفلتك . وهم يَستقصِرُون أيّامَ السَّلامة والسَّعادة ومواصلةِ الأحبَّة ، وعندَ طاعهِ الدَّهرِ والأقدارِ لهم ، كما يستطيلون ما كان على خِلافه من الشُّهور والأعوام .

٤٦٧

وقال آخر :

١ــ ومما شَجَانى أنَّها يومَ أعْرَضَتْ   تولَّتْ وماءُ العينِ فى الجفن حائرُ
٢ــ فلمَّا أعادَتْ مِن بعيد بنظرةٍ   إلىّ التفاتًا أسْلَمَتْه المحاجِرُ

يقول مُلِمًّا بالمعنى الذى شرحه أبو تمّام حين قال :

لأودِّعنَّكَ ثُمّ تَدْمَعُ مُقْلَتِى   إنّ الدُّمُوعَ هى الوَداعُ الثانى

يقول: ومما حزننى وصار نَصْبَ عَيْنى وحِلْفَ قلبى[1] تُذَكِّرُنيهِ الأحوالُ فلا أنساه، وتمثِّله لناظرى الأوقات فلا أتغاباه، أنّ صاحبتى يومَ الفِراق عند الوَداع أعرضَتْ لى ودَمْعُها يترقرق فى جَفْنِ عينها ويتحيَّر، لامتلائها به، إلّا أنّها كانت تَحبِسه فلا تُسيله، فلمّا أعادت التفاتَها إلىّ بعد إعراضها عنّى، بنظرة جَدَّدَتْها، أسلمتْ محاجرُ عينِها مااجتمع فيها من الدَّمع، فتحَدَّرَ فى مدامعها؛ لأنّ ذلك كوداعٍ ثانٍ منها، وكمُتْعةٍ مَتَّعَتْنى بها وزيادةٍ زادٍ فى الحب زوّدتْنيها. وقوله «أنّها» مبتدأ و «مما شجانى» خبره. ويقال: شجاه يشجوه شَجْواً فشَجِىَ يَشْجَى؛ فهو شَجٍ. وحار الماء والدَّمع، إذا تحيَّرَ فى موضعه وقد ملأه فلا موضعَ له. وقوله «أعْرَضَتْ»: أبْدَتْ عُرْضَها. وخبر أنّ تولَّتْ.

وقوله «فلما أعادت» يجوز أن يكون التفاتًا مفعولَ أعادَت، وموضع بنظرةٍ حالاً، كأنّه قال: لما أعادت التفاتَها ناظرةً من بعيدٍ إلىَّ أسلمَتْه. وجواب لمّا «أسلمَتْه»، وإلىّ تعلق بنظرةٍ. ولا يجوز أن يتعلق بالتفاتا، لأنّه إذا جُعِل

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « خلف قلبى » .

كذلك يكون صلةَ المصدرِ وقد قُدِّمت على الموصول . ويجوز أن يكون بنظرةٍ في موضع المفعول لأعادت ، والباء إن شئتَ جعلتَها زائدة ، وإن شئتَ جعلتَها مؤكِّدة ، كما جاء في قول الآخر[١] :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[٢] *

ويصير « التفاتاً » مصدراً في موضع الحال ، والتقدير : لما أعادت نَظرَتَها من بعيدٍ إليَّ ملتفِتةً أسلمَتْه . والهاء من أسلمَتْهُ للدَّمع كما قدمْتُه والمَحَاجر : جَمْع المَحْجِرِ ، وهو ما يبدو من نِقاب المرأة إذا تنقَّبت . والكَيَّةُ حَولَ العينَين[٣] يقال لها : التَّحجير . ويقال : حَجَّرَ القمرُ ، إذا استدار حوله خط رقيق .

٤٦٨

وقال آخر :

١ ــ ولَمَّا رأيتُ الكاشِحِين تَتَبَّعوا هَوَانَا وأبدَوْا دُونَنا نظَرًا شَزْرَا

٢ ــ جَعلتُ ومابى من جَفاءٍ ولا قِلًى أزورُكمْ يَوْماً وأهجُرُكمْ شَهْرَا

الكَشحُ : ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع ، والكاشح : العدوّ الباطن العداوة . ويقال : هو بيِّن الكَشاحة والمكاشحة : ويقال : طَوَى فلانٌ كَشْحَهُ على كذا ، إذا استمرَّ عليه . وهذا كلامُ مُبْقٍ على المحبوب ، كارِهٍ لانتشار القَالَةِ فيهما ، مختارٍ لاستتار الهوى بينهما . فيقول : لما رأيتُ الوشاةَ يتتبَّعون أحوالَنا بالنَّميمة وإفشاء أسرارنا ، وأخذوا ينظُرُون إلينا نظَرَ الأعداء بتحديقٍ شديد ،

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى . انظر ما سبق فى حواشى ٣٨٣ ، ٥٠٠ ، ٦٠٦ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) ل : « العين » .

واستكشافٍ لما خَفِيَ من أمرنا بليغ، أقبلتُ أحترزُ وأقصِّر أشواطهم فيما يَنْتَحونه من مَساءتنا، والقعودِ والقيام بذكرنا، فأتأخَّرُ عن زيارتكم شهراً وأوافيكم يَوْمًا؛ هذا ولا أقصِدُ جفاءً ولا أُضمر بغضاً، وإنَّما بي مُضيُّ أيَّامنا بالسَّلامة منهم، وردُّ كيدِهم في نحورهم، ولئلّا يجدوا مَقالا فيُركِّبون عليه قصصاً وأنباءً.

وقوله «نظراً شزْراً» يقال: هو يَشْزِرُ الطّرفَ إليَّ، إذا نظَرَ نظراً منكَراً يتبين فيه العَداوة. قال أوس(١):

إذْ يَشْزِرُونَ إليَّ الطرفَ عن عُرُضٍ كأنّ أعينَهُمْ من بِغْضَتِي عُورُ

وقوله «جعلتُ» لا يحتاج إلى مفعول لأنَّه في معنى طَفِقْتُ وأقبلتُ. وانتَصب يوماً وشهراً على الظَّرف، و«تتبَّعوا هوانًا» في موضع المفعول الثاني لرأيت.

٤٦٩

وقال بعض القرشيِّين(٢):

١— بَيْنَمَا نحنُ بالبَلاكِثِ فالقا عِ سِراعًا والعِيسُ تَهْوِي هَوِيًّا(٣)

٢— خَطَرَتْ خَطْرَةٌ على القَلْبِ مِنْ ذِكْ راكِ وَهْنًا فما استطعتُ مُضِيًّا

٣— قلتُ لبَّيكِ إذْ دعاني لكِ الشَّو قُ وللحادِيَيْنِ كُرَّا المَطِيَّا(٤)

---

(١) أوس بن حجر. ديوانه ص ٩.

(٢) التبريزي: «وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة، خرج إلى الشام، فلما كان ببعض الطريق ذكر امرأته صالحة بنت أبي عبيدة بن المنذر بن الزبير، وكان شديد الحب لها، فضرب وجوه رواحله إلى المدينة وقال: بينما نحن بالبلاكث. فلما رأت رجوعه من أجلها وسمعت الشعر قالت لا جرم والله لا أستأثر عليك بشيء! فشاطرته مالها، وكانت تضن عليه بمالها». وأنشد ياقوت في (البلاكث) بيتاً لكثير، ثم قال: «وقال أيضاً»، وأنشد الأبيات، فهي عنده منسوبة لكثير.

(٣) ابن جني في التنبيه: «في بلاكث بالقاع».

(٤) التبريزي وياقوت: «حثا المطيا».

قد تقدَّم القول فى « بينا » و « بينما » جميعاً[١] ، وأنَّهما يستعملان فى المفاجأة . وانتصب « سراعا » على الحال ، لأنَّه جعل بالبلا كث مستقرًّا . والواو من قوله « والعيسُ » واو الابتداء وهو للحال أيضاً .

وقوله « خطرَتْ خطرةٌ »[٢] هى الحالة التى فاجأَتْهم . وانتصَب «وَهْنًا» على الظرف ، ومعناه بعد ساعةٍ من الليل . وقوله « خطرت خطرة » ، يقال : خَطَرَ ببالى خُطُوراً ، وخطَرَ البعيرُ بذنبه خطَرَاناً . ويقال : سَنَح لى سانح ، وهجس هاجسٌ ، وخَطَرَ خاطِرٌ . وكأنه أجرى خطرَتْ خَطَرةٌ مجرى قوله : دعَتْ دَعْوَةٌ من ذكراك ، لقوله : « قلت لبَيكِ إذْ دَعانى لكِ الشَّوْقُ » . والشاعر وَصَفَ ما هو عليه من طاعة الهوى ، وأنَّه فى مَلَكته ، إذا دعاه أجابَ حتَّى لا يقدرُ إلَّا على ذلك . فيريد : بينما نحنُ بهذين الموضعين نسيرُ مُسرِعين ، والرَّواحلُ تهْوِى بنا فى أثنائهما ومعاطفهما ، وتقطع المسافة بينهما ، خطرَتْ ذِكرةٌ ببالى ، وقد مضى من اللَّيل ساعةٌ ، فتحيَّرتُ حتَّى لم أقدِرْ على التوجُّه فِى المقصِد الذى كنتُ أؤمُّه ، وحتَّى لم أملك إلَّا إجابةَ داعِى الشَّوق إليك بالتَّلبيةِ والوقوفِ له ، وبعدَ ذلك قلتُ للحادَيين : انصَرِفَا واعطِفا برؤوس مَطيِّكما ، فقد مَنَع ما طاعَتُهُ أوجبُ ، ودفعَ فى صدورنا مَنْ أمْرُه أنفَذُ .

وقد تقدَّم الفرق بين الهوَىّ والهُوِىّ[٣] .

وقوله « بالبلاكث فالقاع » رتَّبَ القاعَ على البلاكث بالفاء العاطفة ، كأنه ارتقَى منها إليها ، ويجوز أن البلاكث اسم لبقاعٍ مختلفة ؛ لأن بناءه بناء الجمع .

وقوله « لبَّيْك » هو من ألَبّ بالمكان ، إذا أقامَ ؛ إلاَّ أنَّه لا ينصرِف كما أنَّ سبحان الله لا ينصرف . والكلمة مُثنَّاة عند سيبويه ، والمراد عنده إقامةٌ

(١) انظر ما مضى فى الحماسية ٤٤٩ ص ١٢٠٣ .
(٢) الكلام بعده إلى « خطرت خطرة » التالية : ساقط من ل .
(٣) انظر ما سبق فى ص ٩١ .

للدَّاعى تتبعها إقامة ودوامٌ على طاعتِه ومتابعته . ويُقرَن بها سَعْدَيْك ، المعنى : مساعدةٌ بعد مساعدة واستمرارٌ على مشايعته . وحصلَ التَّكثير والاتِّصال فيه بالتثنية ، كما حصل بالتَّكرير فى قولك : ادخُلوا الأوَّلَ فالأوَّل . قال سيبويه : أخبرنا أبو الخطَّاب أنَّه يُقال للمُداوِمِ على الشَّىءِ لا يُقلِع عنه ولا يفارقُه : قد ألبَّ عليه . أنشد للتثنيه فيه قولَ الشَّاعر :

دَعَوْتُ لِمَا نابَنِي مِسْوَرًا ... فَلَبَّى فَلَبَّىْ يَدَىْ مِسْوَرِ (١)

هكذا روايتُه وإنشاده عن العرب بهذا اللَّفظ . وحُكى أيضًا عن بعضهم : لَبِّ بالكسر ، يجعله صوتًا مثل غاقِ . وعند يُونُس أنَّه موحَّد لَبَّى ، وانقلبَ ألفُه ياءً كما انقلب فى عَلَى وَلدَى عند الإضافة إلى مضمر . وعلى مذهبه يجب أن يكون « فلبَّى يدَى » كما أنَّ عَلَى وإلى وَلدَى إذا أضيفت إلى الظَّاهر لا يتغيَّر ألفها . تقول : على زيدٍ وإلى عَمْرٍو .

٤٧٠

وقال آخر (٢) :

١ — اسْتَبْقِ دَمْعَكَ لا يُودِ البكاءُ بِهِ ... واكْفُفْ مدامعَ من عينيك تَسْتَبِقِ

---

(١) البيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . سيبويه (١ : ١٧٦) ، والخزانة (١ : ٢٦٨) .

(٢) التبريزى : « وقال ابن هرمة » . وهو إبراهيم بن على بن سلمة بن هرمة الفهرى ، كان من الشعراء المعاصرين لجرير . وكان الأصمعى يقول : ختم الشعر بابن هرمة ، وحكم الخضرى ، وابن ميادة ، وطفيل الكنانى ، ودكين العذرى . وفى الأغانى (٤ : ١١٣) : « ولد ابن هرمة سنة تسعين وأنشد أبا جعفر المنصور قصيدته التى يقول فيها :

إن الغوانى قد أعرضن مقلية ... لما رمى هدف الخمسين ميلادى

ثم عمر بعدها مدة طويلة » . وقد ذكر ابن جنى فى المبهج ٥٥ أن مأخذ هرمة من الهرم ، بالفتح ، وهو ضرب من النبت . وانظر الخزانة (١ : ٢٠٣ — ٢٠٤) واللآلى ٣٩٨ والشعراء ٢٧٩ — ٣١٧ .

٢ — لَيس الشؤُون وإن جادَتْ بباقيةٍ ولا الجفُونُ على هـذَا ولا الحدَقُ

قوله « لا يُودِ البكاء به » يجوز أن يكون جوابَ الأمر ، ويجوز أن يكون نَهْياً وهو أحسَنُ وإنْ لم يكن معه حرفُ العطف ، وذلك لأنَّه قد ذكر بعده « واكفُفْ مدامعَ من عينَيْك » ولم يأت له بجواب ، كأنَّه أمرَه باستبقاء الدَّمع ، ونهاه عن التَّهالُك فى البُـكاء فيفسِدَ عليه آلتَه . ثمَّ أمرَه بكفِّ المدامع وهى تستبق . وإذا كان الـكلام نَهْياً بعد أمرٍ وأمراً بعد نَهْيٍ ، كان أبلغ . ومعنى أوْدَى بكذا أهلكه . والاستِباق فى المدامع مجازٌ ؛ لأنَّ الذى استَبَق فى التحدُّر هو الدَّمع . والمَدْمَعُ : مَجْرى الدَّمع ، ولا يمتنع أن يكون المدمع اسماً للحدثِ الذى هو السَّيَلانُ ، كأنَّه موضوعٌ موضعَ الدَّمع ، وهو مصدر دمعَتْ ، ويكون المراد به أيضاً العينَ الذى هو الجارى ؛ لأنَّ الاستباق لا يصحُّ إلا فيه .

وقوله « ليس الشُّؤون وإن جادتْ بباقيةٍ » يريد : أنَّك إنْ أدمْتَ البُكاء استهلَكْتَ منابِعَ الدَّمع ومجاريَها ، وأطباقَ العين وحماليقَها ؛ لأنَّ شيئاً من هذه الآلات وإن سمَحتْ بالإجابة مدَّةً لا يدوم على فِعْلِك ، ولا يقوم لتكاليفك . وقوله « على هذا » أشار بهذا إلى فعلِه ، وعلى تعلُّق بباقيةٍ ، وهو مضمَرٌ دلَّ عليه الباقية المذكورة ، كأنَّه قال : ولا الُجفُونُ باقيةٌ على هذا ، وجعل « لا » من قوله والجفونُ بدلاً من ليس ، والجَفْن فى اللغة : المَنعُ والحَبْس ؛ لذلك سُمِّى غلاف السَّيف الجَفْنَ .

٤٧١

وقال آخر :

١ — قد كنتُ أَعلُو الُحبَّ حيناً فلم يزَلْ بِىَ النَّقْضُ والإبرامُ حتَّى عَـلَانيا

يقول : بقِيتُ أزاوِلُ الحبَّ وأجاذبُه ، وهو معى متردِّدٌ بين أن أعلوَه تارةً

فأدفعه عن نفسي بَجُهدي ، وبين أن يعلونى فيغلبنى على مُرادى ، ويأخذ مَقرَّه من فؤادى ، فلم نزَلْ بين النَّقض والإمرار ، أنقُض عليه وهو يُمِرُّ ، وينقُضُ علىّ وأنا أُمِرّ ، إلى أن صار الغَلَبُ له .

وهذا الذى أشار إليه حالةُ الحبّ إذا لم يكن عن اعتراضٍ . لذلك قال أبو تمام :

هَوَى كان خَلْسًا إنّ من أبْرَح الهوَى هَوَى جُلْتَ فى أفيائه وهو جائلُ(١)

كأنَّه يُريد المحبوبَ فيفكِّر فى محاسنه حالًا بعد حالٍ ، ووقتًا بعد وقت ، ويستحليها(٢) شيئًا بعد شيء ، إلى أن يصيرَ لها فى قلبه قادحٌ ونازعٌ ، فيدفَعُه عن نفسه بأن يزيِّف تلك المحاسنَ ، ويتفاسى وَيَدْرَأُ فى صدر ذلك القادِح من الهوى ويتأبَّى(٣) ، فكلَّما قَدَّرَ أنَّه قد تخلَّى عاوَدَه الوسواس جَذَعًا ، فلا يزالُ بين القَبول والامتناع ، والتَّماسُك والانهيار ، ومدافَعةِ الدَّاء بالدَّواء ، إلى أن يصيرَ الغَلَب للهوى .

والمعترِضُ من الهوى هو الذى يقعُ عن أوّل وَهْله ، فيَسبِى القلبَ فى دَفعةٍ واحدة ، إلّا أنَّ تركَه أسرع ، كما أنَّ أَخْذَه أسرع . على ذلك قول الأعشى :

* عُلِّقْتُهَا عَرَضًا(٤) *

وما يَجرِى مجراه . وهم يشبِّهُون مثل هذا الهوى بنارٍ تُوقَد بضِرامٍ أو بعَرْفَج وما يجرى مَجراه ، فترتفعُ سريعًا وترجِــعُ سريعًا . وأنشد ابنُ الأعرابىّ بيتًا

---

(١) فى الديوان ٢٥٦ :
هوى كان خلساً إن من أحسن الهوى هوى جلت فى أفيائه وهو خامل
(٢) ل : « ويستحليها » .
(٣) ل : « ويتأبى » .
(٤) البيت بتمامه :
علقتها عرضاً وعلقت رجــلا غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

فى قسمة [الهوى][1] زعم أنّه لا ثانىَ له ، وأنّ قائلَه لا يُعرف وهو :

ثلاثَةُ أحبــــابٍ فَحُبٌّ عَلَاقَةٌ وحُبٌّ تِمِلّاقٌ وحبٌّ هو القَتْلُ[2]

يعنى ما يكون من تعمُّل وطول تأمّل .

٢ — ولم أرَ مِثْلَيْنَا خَلِيلَىْ جِنَابَةٍ أَشَدَّ على رَغْمِ العَدُوِّ تَصَافِيَا

نبَّه بهذا الكلام على أنها مع المجانَبة واستعمال الحذَر ، واستدفاعِ شَرِّ الرُّقباء والحافظين بترك الوُرود والصَّدَر ، وإكسادِ سُوق الوُشاة والنَّمّامين بإخماد نائرة الخَبَر ، يُصافِى كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه ، حتَّى لا خلَلَ فى الهوى ولا فساد ، ولا استزادةَ فى الحبِّ ولا عِتاب ، ولا تَسَلُّطَ تُهْمَةٍ[3] لعارضِ تسَلٍّ[4] وحُؤُولٍ عن عَهد .

وإنّما قال « على رَغْم العدوّ » استهانةً بهم . وهو من الرّغام : التُّراب . وإذا قيل : أرغم الله أنفَه فالمعنى أذلَّه اللهُ وأسخَطَه . وانتصب « تصافيا » على التمييز . وقوله « خليلَىْ جَنابَة » انتصب على أنّه بدلٌ مِن مثلَيْنا ، وأشدَّ مفعولٌ ثانٍ لأَرَى .

٣ — خَلِيلَيْنِ لا نَرْجُو لقاءً ولا تَرَى خليلين إلّا يَرْجُوانِ التَّلَاقِيَا

ذكَرَ أنّ اليأسَ قد استقرَّ فى قلبِ كلِّ واحدٍ منهما من مُلاقاةِ صاحبه والتَّصافى بينهما هو أنَّ ذلك من كمال البلاء ، إذ لا يُوجَد خليلانِ غيرُهما إلا وهُما على شفَا الرَّجاء فى الاجتماع ، وقوّةٍ من الطمع فى الالتقاء والاستمتاع ، واليأسُ لذى

(١) التكملة من ل .

(٢) كذا ضبط البيت فى النسختين ، ويصح أن يقرأ بالإضافة ، بجر « علاقة » و « تملاق » . وانظر مجالس ٢٩ . وفى إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه ص ٨١ ، قال ثعلب : ومثله :

ثلاثة أبيات فبيت أحبه وبيتان ليسا من هواى ولا شكلى

(٣) ل : « بهمة » .

(٤) فى الأصل : « تشك » صوابه فى ل .

أشار إليه كأنَّه لارتفاع منزلةِ المحبوب عن منزلته : أوْ لـكثرة أوليائه وقُوَّة عشيرته أو لعفافِه وتألُّهه ، وما يجرى مجراها .

٤٧٢

وقال آخر[١] :

١ ــ وكلُّ مُصيباتِ الزّمانِ رأيتُها سِوَى فُرقة الأحبابِ هيِّنةُ الخَطْبِ[٢]

موضع « سِوى فُرقةِ الأحباب » نصب على أنه مستثنى مقدم ، لأن تقدُّمه على صفة المستثنى منه كتقدُّمه عليه نفسه . ومعنى البيت ظاهر .

٤٧٣

وقال الحُسَيْن بن مُطَيْر[٣] :

١ ــ فَيَا عَجَبًا لِلنَّاس يَستشرِفُونَنِى كأنْ لم يرَوْا بَعْدِى مُحِبًّا وَلا قَبْلِى

قوله « يستشرفوننى » أى ينظرون إلَىَّ ، وتطمحُ أبصارُهم نحوِى . ويودُّون أنِّى على شَرَف من الأرض ، لأ كون معرَّضًا لهم .

والشَّاعر أخذ يتعجّب من أحوال الناس فيما رأوهُ عليه ، واستطرافِهِمْ لحالته فى حُبِّه ، واستشرافِهِم لما يشاهدونه عليه ، حتى كأنَّهُ بِدْعٌ من الحوادث لم يُشاهَد مثله ، ولم يقع فى تقدير أحدٍ جوازُ صورته ، فقال : يا عجبا للنَّاس فى حال استشرافهم لى ، واستطلاعهم من جهتى ما أنا عليه ، وإفراطِهم فى التعجُّب ممَّا يجدوننى مبتلًى به ، ومرهونًا له كأنهم لم يُشاهِدوا قبلَ مشاهدتهم لى ، ولا بعد

(١) هو قيس بن ذريح ، صاحب لبنى . انظر مجالس ثعلب ٢٨٥ ــ ٢٨٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٨٣ والأغانى (٨ : ١١٢) .

(٢) رواية ثعلب والسيوطى عنه :

وكل ملمات الدهور وجدتها سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وفى الأغانى : « وكل ملمات الزمان وجدتها » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤ .

مشاهدتهم لى محبًّا، وكأنّ الحبَّ شىء أنا ابتدعتُه[١]، وكأنّ مسبّباته لم تُوجَد قطُّ إلا فىّ. وليس الأمر كذلك، لأنّ الدُّنيا وأهلها إذا تُؤُمِّلت أحوالُهم فيها لم يُعْوِزْ تقديرًا أو تحصيلا مَنْ حاله حال مِثْلِى فيه زائدًا على ما أنا عليه، أو قاصراً عنه. هذا إذا جعلت « لم يَرَوْا » بمعنى لم يشاهدوا. فإن جعلته بمعنى لم يعلموا كان المعنى أكشَفَ وأبْين، إلّا أنّه يكون بمعنى يعرف، ويكتفى بمفعول واحد. وقوله « بعدى » أى بعد رؤيتهم لى، فحذَف المضاف، وكذلك قوله « ولا قبلى » يريد ولا قبل رؤيتهم لى. وقوله « يا عجبًا » يجوز أن يكون منادى مضافا، ويجوز أن يكون مفرداً، وقد تقدَّم القول فيه وفى أشباهه.

٢— يقولونَ لى اصْرِمْ يرجعِ العقلُ كلُّه وصُرْمُ حَبيبِ النَّفْسِ أذهبُ للعَقْلِ

يقول: يُشيرُ الناس علىّ بالتسلِّى عنها، والأخْذِ فى مصارمتها، وأخْذ النَّفس على الانفكاك منها، فإنّ فى ذلك بزُعمهم إذا تدرَّجتُ فيه مراجعةَ العقل كاملا، وانتزاعَ رِبقة الذُّلِّ عاجِلًا. وإذا تأمَّلْتُ حالى فى قَبول ما يشيرون به، ورُكوبِ الجِدِّ فى قطيعتها، والحيلولة بين النفس ومُرادها فيها، وجدتُ ذلك أدعَى إلى زوال العقل كلِّه، وإن كان الباقى منه شُفافةً، وأجْلَبَ لهلاك النَّفس، وحرج الصدر، وإن كنتُ عائشاً بصُبابَةٍ. وقوله « أذهبُ للعَقْل » قد تقدّم القول فى أن سيبويه يجوِّز بناء فعل التعجُّب بعد الثُّلاثىّ ممّا كان على أفعَلَ خاصة، فإذا جاز ذلك فبناء التَّفضيل يتبعه.

٣— ويا عَجبًا مِنْ حُبِّ مَنْ هو قاتِلِى كأنِّىَ أجزيهِ المودَّةَ مِنْ قَتْلِى

تَعجَّبَ من حالِ نفسِه فى مقاساةِ[٢] ما يقاسِى منها، وبقائه[٣] على حُبِّها

(١) ل: « أبدعته ».
(٢) ل: « مقاساته ».
(٣) هذا ما فى ل. وفى الأصل: « ويمانيه ».

فيقول : إنِّى أُدَاوم اعتقادَ الجميلِ لها ، وقيامَ القلبِ بعمارة الهوى فيها ، حتَّى كأنِّى أُجازيها على قتلها إيّاىَ بأن أزيدَ فى وُدِّها وإخلاص العقيدة لها . وقوله « من قتلى » أراد من قتلها لى . والمصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل ، وكذلك قوله « مِن حبّ من هو قاتلى » أى من حبِّى من هو قاتلى ، لأنَّ مَنْ فى موضع المفعول . وقوله « يا عجبا » يجوز أن يكون الألف بدلاً من ياء الإضافة ويجوز أن يكون ألفَ النُّدبة وزيدت ليمتدَّ الصَّوت به ، ويكون يا عجب منادًى مفردا ، وامتداد الصوت يدلُّ على عِظَم البَليَّة ، وتفخيم أمر العجيبة .

٤ – ومِنْ بَيِّنَاتِ الْحُبِّ أَنْ كَانَ أَهْلُهَا أَحَبَّ إلى قلبِي وعَيْنَىَّ مِن أَهْلِي

يقول : ومِن آيات حبِّى البيِّنة ، وشواهدِه الصَّادقة ، على تكامله لها ، وتناهيهِ فى استحكامها ، أنِّى أُوثِر أهلها على أهلى ، وأنَّ رتبتَهم فى العَينِ والقَلب أعلَى من رُتبة عشيرتى عندى . وقد خَلَّصَ هذا المعنى عَنترةُ حيث قال :

عُلِّقْتُها عَرَضًا وأقتُلُ قَومَها زَعَمًا لعمرُ أبيكَ ليسَ بمَزْعَمِ (١)

لأنَّ فى قضيَّة الهوَى والعقل أنَّ حبَّها مع عداوةِ أهلها ليس بمتَّسِقٍ ولا متسبِّبٍ ، بل يُنافِى كلُّ واحدٍ صاحبه (٢) ، وأنَّ الواجبَ أنَّها إذا كَرُمت عليه فكلُّ متسبِّبٍ إليها بسبب ، ومنتسبٍ [بنسبٍ (٣)] ، يجب أن يكون مؤثَرا عنده ، مبجَّلا فى حكمه .

وأبينُ من ذلك كلِّه قولُ الآخر :

وأُقْسِمُ لو أنِّى أرَى نسبًا لها ذِئابَ الفَلَا حُبَّتْ إلىَّ ذئابها (٤)

(١) الزعم ، بالتحريك وبالفتح : الطمع . وهذا البيت شاهده .
(٢) ل : « بل ينافى صاحبه » . (٣) التكملة من ل .
(٤) سيأتى هذا البيت فى الحماسية ٥٣١ .

وقوله « أن كان أهلُها » أن مخففة من الثَّقيلة ، أراد أنّه كان أهلُها ، والهاء من أنّه ضمير الأمر والشأن ، وقد تقدَّم مثلُه . وموضع أنْ بما بعده رفعٌ بالابتداء وخبره قوله ومن بيِّنات الحبّ .

٤٧٤

وقال عمر بن أبي ربيعة[١] :

١ — ولَمّا تفاوَضْنا الحديثَ وَأسْفَرَتْ ... وُجُوهٌ زَهاهَا الحُسْنُ أن تَتَقَنَّعا[٢]

٢ — فقُلْتُ لمُطْرِيهِنَّ وَيْحَكَ إنَّمَا ... ضَرَرْتَ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعاً فَتَنْفَعا[٣]

قوله « لمّا » يحتاج إلى جوابٍ ، لأنّه لوُقوع الشيء لوقوع غيره ، إذا كان عَلَماً للظرف ، فيقول : لَمّا تفازعْنا الحديثَ ، واندفعنا فيه ، وأشرقَتْ وجوهٌ تَلألأَ نوراً ، استخفّ أربابَها الحُسْنُ الجائل في جوانبها ، ومَنَعها من أن يستُرها بقناعٍ عُجْباً بها ، والتذاذاً بخَوْضِ عيونِ الناسِ في محاسنها ، قلتُ للمُثْنِي عليهنّ : إنَّ ثناءَك يَضُرُّنا ، لتنبيهك على كثيرٍ ممَّا لعلَّه يخفَى عليهنّ من دقائق الجمال .

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، أحد شعراء الغزل في صدر الإسلام والدولة الأموية ، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ ونفاه عمر بن عبد العزيز إلى « دهلك » لما شاع غزله وتعرضه للنساء ومنهن سكينة ، وابنة لعبد الملك ابن مروان ، ثم غزا في البحر ، فأحرقت السفينة التي كان فيها فاحترق ، وذلك في سنة ٩٣ . الأغاني (١ : ٢٨ ـ ٩٤) والخزانة (١ : ٢٣٨ — ٢٤٠) ، ووفيات الأعيان والشعر والشعراء ٥٣٥ ـ ٥٤٠ .

(٢) بعده عند التبريزي :

تبالَهْنَ بالعِرفان لمّا عرفنني ... وقُلنَ امرؤٌ باغٍ أكلَّ وأوضعا

وقرَّبن أسبابَ الهوَى لمتيَّمٍ ... يقيس ذراعاً كلَّما قِسْنَ إصبَعا

(٣) في الديوان ٣٣ وأمالي القالي (٢ : ٤٩) : « لمطهرين بالحسن » . وفي الأصل : « ويلك إنما » ، والتفسير يقتضي ما أثبت من ل والتبريزي .

ولطائف الكمال . إذْ كان ذلك يَزيد في الإعجاب بأنفسهن ، ويُكسِب[1] الكِبرَ في أخلاقهنّ ، فهل تقدرُ بَدَلَ ذلك على ما ينفَعُنا معهنّ . وجواب لمّا إن شئتَ جعلتَه « فقلتُ » على أن يكون الفاء زائدة ، وإن شئتَ جعلته محذوفا ، كأنّه قال : لمّا فعلنا ذلك كلَّه توانَسْنَا ، أو ما يجرى مجراه . وقد تقدّم القول في أنّ لو ولمّا وحتّى يُحْذَف أجوبتُها ، ويكون إبهامُها لِحَذْفها أبلغَ في المعنى . ويقال : أطْرَى فلانٌ فُلانًا ، إذا مدحَه بأحسنِ ما قَدَرَ عليه . وقوله « تسطيع » منقوص عن تستطيع . وويحٌ ، قال الأصمعي : هو ترحُّمٌ ، فإذا أضيف بغير اللام يُنْصَبُ ، ويكون العامل فيه فِعْلاً مضمرا ، كأنه قال : ألزمَه الله وَيحًا ، وانتصَبَ فتنفَعَا بأنْ مضمرة ، وهو جوابُ الاستفهام . ومعنى « زَهَاهَا الحسنُ » استخفّها ويقال : زَهَتِ الأمواجُ السَّفينةَ والرِّياحُ النَّباتَ . وقوله « أن تتقنّعا » أراد من أن تتقنعا ، وهم يحذفون الجارّ مع أنْ كثيرا .

٤٧٥

وقال أبو الرُّبَيس التَّغْلِبيّ[2] :

١ — هل تُبْلِغَنِّي أمَّ حَرْبٍ وتَقْذِفَنْ على طَرَبٍ بَيُوتَ هَمٍّ أقاتِلُهْ

٢ — مُبِينَةُ عِتقٍ حُسْنَ خَدٍّ ومِرْفَقًا به جَنَفٌ أنْ يَعْرُكَ الدَّفَّ شاغِلُهْ

قولُهُ « على طَرَبٍ » يجوز أن يتعلّقَ بتبغانّي ، ويجوز أن يتعلّق بوتقذفَنْ ،

---

(١) كذا في ل . وفي الأصل : « ويكتسب » .

(٢) كذا في النسختين واللسان (ربس) ونص على أنه « من شعراء تغلب » . وصوابه « الثعلبي » كما عند التبريزي ، وقال : « من ثعلبة بن سعد بن ذبيان » ، وهو يطابق ما في التكملة للصغاني . وفي القاموس : « وأبو الربيس عباد بن طهمة الثعلبي » ، وفي تاج العروس أنه يقال أيضاً « طهفة » ، وهو شاعر إسلامي ، كما ذكر البغدادي في الخزانة (٢ : ٥٣٤) نقلا عن ابن ماكولا . وذكر البغدادي في رواية أخرى أنه أبو الربيس عباد بن عباس بن عوف ابن عبد الله بن أسد بن ناشب بن سيد بن رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

والفعلان جميعا على قوله «مُبينةُ عِتقٍ» وهى ناقةٌ. والاختيارُ عند أصحابنا البصريِّين أنْ يرتفع بالأقرب، وهو تَقذِفَنْ، ويجوز أن يرتفع بتُبلغنى، وعلى هذا: جاءنى وأكرمنى زيدٌ. والطَّرَب: خِفَّةٌ تَلحَقُ لنشاطٍ وجَذَلٍ، واهتمامٍ وجزع. وبُيوت هَمٍّ، فَعُول من قولك: بات يبيت. كأنَّه هَمٌّ جاءه ليلاً فلازَمَه. وعلى هذا قيل فى الصَّقيع: البَيُّوت. وانتصب «حُسْنَ خدٍّ» على التمييز. والجَنَف: المَيَل. ورجُلٌ أجنفُ: فى خَلْقه مَيَلٌ، وقيل: هو الطَّويل المنحنِى. والعَرْك: الدَّلك والغَمْز. وقوله «به جَنَفٌ» فى موضع النَّصب، لأنَّه صفة لمرفَق. و«شاغله» صفةٌ لجنَفٍ. وإضافتُه على طريق التَّخفيف، فهو نكرة والتنوين مَنوىٌّ، كأنَّه شاغلٌ له. ويريد بقوله «به جَنَفٌ» أنَّ المِرفَق متباعدٌ عن الزَّوْر، لأنَّ الناقة فَتْلاء؛ ولولا بُعدُه [عنه[1]] لكان يكون ناكتاً أو حازًّا أو ضاغطاً، أو ناقراً[2] وذلك عيبٌ يمنع من إدامة السَّير. فيقول على وجه التَّمنِّى: هل أرانِى راكبَ ناقةٍ توصِّلنى إلى هذه المرأة، نشيطةٍ طَرِبَة، وتَطْرَحُ عنِّى ثِقلَ هَمٍّ أزاولُه وأدافعُه، وهى تُلازِمنى باللَّيل ولا تُفارقنى. وهذه النَّاقة لها شواهدُ تُوجِبُ عِتقَها وكَرَمها، من حُسْنِ الخَدِّ والمِرفَق المتجانِفِ عن الزَّوْر.

٣— مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ رَبُّها بِسُلَّمِ غَرْزٍ فى مُنَاخٍ تُعَاجِلُهْ

هذا يرجعُ إلى صفة النَّاقة، والمراد أنَّها ذكيَّة الفُؤاد، شَهْمة النفس، فكأن بها لنَشاطها وذكائها جُنوناً أطارَ قلبَها، وأزال مُسْكتَها. وقوله «إنْ ثَنَى الرِّجلَ ربُّها» جوابُ الشَّرْط فيه قوله «تُعاجله» وأصله تُعاجِلُهْ، اللام

(١) التكملة من ل.

(٢) الناكت: أن ينحرف المرفق حتى يقع فى الجنب فيؤثر، فإذا حز فيه قيل له حاز، فاذا خرقه فذلك الضاغط.

ساكنة للجَزْمِ ، ولكنّه نُقِلَ إليها حركة الهاء ، وهو ضمير يرجع إلى «ربَّها» .
ومثله قولُ طَرَفة :

* لو أُطيعُ النَّفسَ لم أَرِمْهْ[1] *

يريد : لم أرِمْهُ ، فنقل . والمعنى أنّها لخفّتها وحِدّتها ، متى همّ صاحبُها برُكوبها فثنى رجلَها ، أى غطف بغَرْزِها الذى هو كالسُّلَّمِ ، وهو الرِّكاب ، عاجلَتْه فنهضتْ به قبل تمكُّنِهِ مِن رُكوبها ، واستقراره على ظَهْرها .

وقد سلك هذا المسلكَ ذُو الرُّمَّة فى البائية التى أوّلُها :

* ما بال عينك منها الماء يَنسكِبُ[2] *

حُدِّثْتُ عن الكِسْرَوى علىّ بن مَهدىٍّ الإصفهانىّ[3] عن شيوخه ، أنّ ذا الرُّمَّة أَنشد هذه القصيدةَ كُثَيِّرَ عزّةَ ، فلما انتهى إلى قوله :

* حتّى إذا ما استوى فى غَرْزِها تَثِبُ .[4] *

قال له : أهلكتَ واللهِ راكبَها ، هلّا قلتَ كما قال الرّاعى :

تَرَاها إذا قُمتَ فى غَرْزِها كمِثلِ السَّفينةِ أو أَوْقَرُ

فهذا ما رُوِىَ لنا . وقد ذكر الرّاعى فى موضع آخر فقال :

وكأنّ رَيِّضَها إذا يا سَرْتَها كانَتْ مُعَاوِدَةَ الرَّحيلِ ذَلُولَا

وحُكِى لى أنّ سعيدَ بن سَلْمٍ الباهلىّ ، قال : قرأنا هذه القصيدة على الأصمعى من شعر الراعى ، فلما انتهينا إلى البيتِ رواه :

* وكأنّ رِيِّضَها إذا باشرْتَها *

(١) صدره فى ديوان طرفة ١٦ :
* حابسى رسم وقفت به *

(٢) عجزه : * كأنه من كلى مفرية سرب *

(٣) ل : « الأصبهانى » ، وإصبهان تقال بالباء وبالفاء ، وبفتح الهمزة وكسرها .

(٤) صدره : * تصغى إذا شدها بالكور جانحة *

فقلت : ما معنى « باشرتَها » ؟ قال : ركبْتَها ، من المباشَرة . فسألنا ذلك أبا عبيدةَ عنه ، فقال : صحَّف واللهِ ، إنَّما هو « إذا ياسرتَها » أى لم أعازَّها ولم أقتسِرْها . ومثله قوله .

إذا يُوسِرَتْ كانت وقُورًا أديبَةً   وتَحْسِبُها إنَ عُوسِرَت لم تُؤَدَّبِ

٤ — يُبارِى بها القُودَ النَّوافِخَ فى البُرَى   قليلُ النُّزولِ أَغْيَدُ الخَلْقِ عاطِلُهْ

٥ — مُرَاجِعُ نَجْدٍ بعد فِرْكٍ وبِغضَةٍ   مُطَلِّقُ بُصْرَى أَصْمَعُ القَلْبِ جافِلُهْ

يقول : يعارِض بهذه الرَّاحلةِ التى وصفتُها رواحلَ طِوالَ الأعناق ، تنفُخُ فى بُرَاها لنشاطها ، رجلٌ قليلُ النُّزول عنها ، ناعمُ الخَلْقِ عاطله ، يعنى نفسه ، أى أنَّهُ يَجِدُّ فى السير ويُدِيمُه . وقوله : « مُرَاجِعُ نَجْدٍ » أى أنه بعد أنْ فارَقَ نَجْدًا وأبغضه لخلوِّه من حبيبه يريدُ أن يراجعهَ وينتقل عن بُصْرَى — وهى قرية بالشَّأم تُطْبَعُ فيها السُّيوف البُصرية — ويخلِّيها . ومعنى أصْمَعُ القَلْب : حَديدُه . جافلهُ ، أى مُسرِعُهُ . ويقال : أجفلَ الظليمُ وجَفَلَ ، إذا نشرَ جناحيه ومرَّ يعدُو ، وكلُّ هاربٍ من شىءٍ فقد أجفل عنه . والظليم مُجفِلٌ وجافلٌ جميعاً . وذكر المراجعة والتطليق ، واستعارةٌ للانتقال والتخلية .

وقد فَعَلَ أبو تمام مثل هذا فقال :

* فيها وطَلَّقْتُ السُّرور ثلاثا[1] *

إلا أنّ ما قاله هذا الشَّاعرُ أحسَن ، حينَ زاوَجَ التَّطليق بالمراجعة . وقوله « نوافخُ فى البُرَى » النوافخ : المتنفسات نفخاً لنشاطها . والبُرَى : الحَلَقُ التى فى أنوفها . وقوله » أَغْيَدُ الخَلْقِ » أى منثنيه ، وعاطلُه أى يعطِّله من التَّرُّفه ، ويَفطِمه عن النَّعمة . وكل مُهمَل متروك فهو معطَّل وعاطل .

(١) صدره فى ديوانه ٦٦ ،
* أرض خلعت اللهو خَلعى خاتمى *

٤٧٦

وقال عبدُ الله بن عَجْلانَ النَّهدىّ[١] :

١ — وحُقَّةِ مِسْكٍ مِنْ نِساءٍ لَبِسْتُها شَبابى وكأسٍ باكَرَتْنى شَمُولُها
٢ — جديدةُ سِربالِ الشبابِ كأنَّها سَقِيَّةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْها غُيُولُها

قوله « وحُقَّةِ مِسْكٍ » كنايةٌ عن امرأةٍ جعلَها لِطيبِ رَيَّاها كظرف مِسْكٍ . ومعنى « لبستها » تمتَّعت بها . وقال ابنُ أحمر :

لبِسْتُ أبى حتى تملَّيْتُ عَيْشَهُ وبَلَّيْتُ أعمامى وبَلَّيْتُ خاليا

وموضع قوله « شبابى » نصب على الظَّرف . والمعنى زَمنَ شَبابى ، ومُدَّةَ شبابى . والمصادر تُحذَف منها أسماء الزمان كثيراً . وقوله « وكأسٍ » انعطف على قوله « وحُقَّةِ مِسْكٍ » والعامل فيها رُبَّ ، والواو واو العطف ، وليست بنائبة عن رُبَّ ، بدَلالة أنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يُدخَلَ الحرفُ العاطف عليه ، فيقال ووحُقَّةِ مِسْكٍ . والشَّمُول : الخمرة التى لها عَصْفةٌ كعَصْفةِ الشَّمال . وقد قيل : هى التى تشتمل على العقل فتَملِكه وتَذهَبُ به .

وقوله « جديدة سربال الشباب » أدخل الهاء على جديدة ، والأكثر أن يقال : مِلحفةٌ جديدٌ . وطريقة سيبويه فيه أنه صفة مذكَّرة تبعت مؤنَّثا ، ويُنْوَى فى ذلك المؤنَّثِ ما يكون لفظُه مذكَّراً ، كأنه يَنوِى بالملحفة إزاراً ، وما يجرى هذا المجرى . وبعضُهم يذهبُ إلى أنه فعيلٌ فى معنى فاعل ، فلحِقَه الهاء

---

(١) هو عبد الله بن العجلان بن عبد الأحب بن عامر بن كعب بن صباح بن نهد بن زيد ابن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، شاعر جاهلى ، أحد المتيمين من الشعراء ومن قتله الحب منهم ، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم على ذلك ، فتزوجت زوجا غيره فمات أسفاً عليها . الأغانى (١٩ : ١٠٢ — ١٠٥) والشعراء ٦٩٦ وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٧٦ — ٧٨ .

قياساً ، فهو كظريفٍ وظريفة ، لأن الفعلَ منه جَدَّ الثَّوبُ يجِدُّ جِدَّةً . وبعضهم ذَهَبَ إلى أنّه فعيل فى معنى مفعول ، كأنّ ناسجها جَدَّها قريباً ، أى قَطَعها ، فلهذا يُستنكَر إلحاقُ الهاء به . ومعنى « جديدة سربال الشباب » أنها فى عُنفُوان شبابها ، وأنّ عليها غَضارةَ الحدوث ، ونَضارة النَّشء ، فكأنّها سَقِيَّةُ بَرْدِيٍّ . والسَّقِيَّةُ فى معنى مَسْقِيَّة ، جعلها اسماً ، فهى كالبَنِيَّة واللقيطة . وشبَّهها بها لزيادة خِلْقتها وحُسن بِنْيتها . ألاَ تَرى أنه قال : « نمتْها غُيُولُها » . والغُيُول : جمع الغَيْل ، وهو الماء الذى يجرى بين الأشجار . وقال الدُّريدىّ : الغَيْل : الماء الذى بين الحجارة فى بطن وادٍ . والغِيلُ ، بكسر الغين : الماء يجرى بين الأشجار ، وربما سَمَّوا الشجرَ الملتفّ غِيلاً . ويُشبه هذا قول الآخر[1] :

بَرْدِيَّةٌ سَبَقَ النعيمُ بها أَقْرانَها وغَلاَ بِها عَظْمُ

وفى طريقته قولُ الآخر[2] :

لم تَلْتَفِتْ لِلِدَاتِها ومَضَتْ على غُلَوَائِها

وإنما يكون ذلك من نتائج الترفهِ ، ولوائح النِّعمة . وقد ظهر معنى البيتين بما ذكرتُه ، لأنه تبجَّحَ بتعاطِيه الصِّبَا واللَّهو ، وشُربِ الخمر مدّةَ الصِّبا [وأيّامَ الشباب[3]] .

٣ — ومُخْمَلةٍ باللَّحم مِن دُونِ ثَوْبِها تَطُولُ القِصَارُ والطِّوالُ تَطُولُها[4]

٤ — كأنّ دِمَقْسًا أو فُروعَ غمامةٍ على مَتْنِها حيثُ استقرَّ جَدِيلُها[5]

---

(١) هو المخبل السعدى . المفضلية ٢١ .

(٢) هو ابن قيس الرقيات . اللسان (غلا) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى : « ويروى : فروع عمامة ، بعين غير معجمة ، وهو أشبه بالدمقس » .

(٥) بعده عند التبريزى :

قوله « ومُخْمَلةٍ » من جملة صفاتها وإن عطفْتَها بالواو ، فعلى هذا لك أن تقول : مررتُ برجلٍ فاضلٍ عاقلٍ أديب ، وأن تقول : برجُلٍ فاضلٍ وعاقلٍ وأديب .

ومعنى « ومُخْملةٍ » أنّ أعضاءها تساوَتْ فى رُكوب اللَّحم إيّاها ، وظُهورِ السِّمَن والبُدْنِ عليها ، فكأن اللَّحم جُعِل خَمْلاً لها . وفائدة « من دونِ ثَوْبها » أنها مِلْء دِرعِها ، فهى سمينةُ المُعرّى . وإلى هذا أشار الأعشى فى قوله :

* صِفْرُ الوشاحِ ومِلْء الدِّرع بَهْكنَةٌ[1] *

وقوله « تَطُولُ القِصارَ » يريد أنها رَبْعةٌ ، فإذا حَصَلْت فى القِصار طالَتْهُنّ ، وإذا حصلت فى الطِّوال طُلْنَها يُشير إلى التَّوسُّط الذى هو المختار فى كل عَقْل ، ولذلك قيل : « خَير الأمور أوساطها » ولأنّ الغُلُوّ والإفراط مذمومان ، كما أن القُصُور والتَّفريط مذمومان . و « تطول » فى البيت مُعَدًّى ، لأنه بمعنى تَغْلِبُ فى الطول ، فهو من طاولْتُه فطُلْتُه .

وقوله « كأنّ دِمَقْسًا أو فروع غَمامةٍ » الدِّمَقْس[2] : الحرير الأبيض . وفروع الغَمامة ، أشار إلى أطرافها وجوانبها والشمس تحتها ، لأن تلك الأطرافَ بشُعاع الشمس تُشْرِق أبداً . والمعنَى أنها ليِّنة المَجَسِّ برّاقة اللون ، كأنَّ الحريرَ وأطراف غمامةٍ استكنَّت الشمسُ تحتَها على مَتْنِها . وقوله « حيثُ استقرَّ جديلُها » تخصيصٌ لما عمَّهُ قولُه « على مَتْنِها » . والجديل ، هو الوِشاح ، وما تشدُّه المرأة فى حَقْوها من الأَدَم المضفور . وليس هذا من عادات العرب . وإذا

= وأبيضَ منقوفٍ وزقٍّ وقينةٍ وصهباءَ فى بيضاء بادٍ حجولُها
إذا صُبَّ فى الرّاوُوق منها تضوّعَتْ كميتٌ يلَذُّ الشاربين قليلُها

(١) عجزه : * إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل *

(٢) هو معرب « دمسه » الفارسية . استينجاس ٥٣٥ والألفاظ الفارسية ٦٦ . وانظر حواشى تهذيب الصحاح للزنجانى (دمقس) .

كان من لونَين فهو البَرِيمُ . وهذا يُشَدّ فى أحْقِ الصِّبيان يُدفَعُ به العين .

٤٧٧

وقال عبد الله بن الدُّمَينة الخَثْعَمىّ(١) :

١ — ولمّا لحَقْنا بالحُمولِ ودُونَها خَميصُ الحشَا تُوهِى القميصَ عَوَاتِقُهْ

٢ — قليلُ قَذَى العينين نَعْلَمُ أنه هو الموتُ إن لم تُلْوَ عَنّا بَوَائِقُهْ(٢)

قوله «ولمّا لحقنا» جوابه مادلّ عليه البيتُ الثالث، وهو «عَرَضْنا». وأراد بالحمولِ الظَّعائنَ وأثقالَها . وقوله «ودونها خميص الحشا» يريد قيِّمَهنّ . فيقول : لمّا دعانا الشوقُ إلى اللُّحوق بالظّعائن بعد تشييعنا لها ، وإلى تجديد العهد بها ، فأدر كناها ودونها رجُلٌ قليلُ اللحم على بَدَنه ، لطيفُ طيِّ البطْن ، مديدُ القامة ، حتى إنَّ عواتقَه ، وهى النَّواحى من عاتِقَى الإنسان ، تكاد أن تُوهِىَ قميصه . وهذا مما تتمدّح به العرب ، لأنّ السُّمْنَة(٣) عندهم مذمومة .

وقد كشَفَ عن هذا المعنى قولُ الآخر :

فتًى لا يُرَى قَدُّ القميصِ بخَصره ولكنّما تَفرِى الفرِىَّ مناكِبُهْ

وقوله «قليل قَذَى العينَين» يصف امتعاضَه وقلّةَ صبرِه على دَرَن العار(٥) .

---

(١) التبريزى : «هذا البيت قد تكلم عليه النمرى ، لأن فيه خلافا لما قبله ، إذ كان البيت المتقدم فى صفة امرأة ، وهذا البيت يجب أن يكون فى صفة ناقة ، ولا شك أنه قد سقط منه شىء يصله بما قبله . ولم يذكر ذلك أحد منهم ، وإنما يريد أنها ترفع ذنبها إلى متنها» .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٣) التبريزى : «يُعلم أنه هو الموت إن لم تصر عنا» . وهى رواية الديوان ٤٣ . يقال : صريت الشىء ، إذا قطعته ومنعته .

(٤) كأنه جعل «السمنة» اسما للسمن ، والمعروف فى المعاجم ، أن السمنة بالضم : دواء يتخذ للسمن .

(٥) هذا ما رآه المرزوقى ، وأجود منه قول التبريزى : «يصفه بحدة النظر ، وأنه ليس بعينه غمص ، فهو أحد لنظره» .

ويقال : فلانٌ لا يُغْضِى على قَذًى ، إذا لم يحتملْ ضَيماً . وقوله « نعلم أنّه هو الموت » يصفه بشِدّة الحميَّة عند غضبه . وأنَّ نارَه لا يُصطَلَى [بها[1]] إذا غار على حُرَمِهِ . والمعنى أنَّا مع تعرُّضِنا له نَحذَره مخافةَ أن يَحْمَى ، لتحقُّقنا أن شرَّه لا يُقامُ له إذا سطا . والبوائِق : جمع بائقة ، وهى الخَصْلَة المنكَرة فى شُمولِها ، فيقال : باقَتْهُم بائقةٌ . والبُوقة . الدَّفْعَـةُ الشَّديدة من المَطَر ، منه . قال رؤبة .

* من بَاكِرِ الوَسْمِىِّ نَضَّاحِ البُوَق[2] *

وقو « تُلْوَ عنَّا » أى تُصْرَف . ويرى « تُلْقَ عنَّا » من الإلقاء .

٣ ـ عَرَضْنَا فسلَّمْنا فسَلَّمَ كارِهاً ... علينا وتَبريحٌ من الغيظِ خانِقُهْ[3]

٤ ـ فسايَرْتُه مِقْدارَ مِيلٍ ولَيْتَنى ... بكُرْهِى له ما دام حيًّا أرافِقُهْ[4]

يقول : لمَّا لحِقْنا بالظَّعائن عَرَضْنا لَهُنّ ، وسَلَّمْنا على قيِّمهن والحامى دونهن ، فأجابنا جوابَ الـكاره لنا ، والمنكِرِ لتسليمنا ، قد خَنَقَهُ غَيْظٌ مُبرِّحٌ . ويقال : لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به . وانتَصَب « كارِهاً » على الحال . والتَّبريح : التَّشديد . ويقال : بَرَّح بى كذا وكذا ، ومنه قول الأعشى :

* أبْرَحْتَ رَبًّا وأبْرَحْتَ جارَا[5] *

---

(١) التكلة من ل .

(٢) نضاح ، بالحاء المهملة فى الأصل واللسان . وفى ل والديوان ١٠٥ : « نضاخ » بالخاء المعجمة ، وهما سيبان .

(٣) الديوان : « وقفنا فسلمنا » . التبريزى : « الرواية التى عليها الناس : من الغيظ . وفى شعر ابن الدمينة : الغنظ ، الذى يراد به أشد الكرب . يقال غنظه غنظاً . قال الشاعر :

إذا غنظونا ظالمين أعانهم ... على غنظهم مَنٌّ من الله واسع »

ابن جنى فى التنبيه : « هذا من نحو تسمية الثواب باسم العمل ، نحو قول الله سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ... فكذلك قوله فسلمنا فسلم ، أى فرد السلام . والأول فى العرف والاستعمال مسلم ، والثانى راد » .

(٤) الديوان :

فسايرته ميلين يا ليت أننى ... على سخطه حتى الممات أرافقه

(٥) صدره : * تقول ابنتى حين جد الرحيل *

ويقال : هو فى بَرْحٍ من الشَّوق بَارِح . وقوله « خانِقُه » يريدُ أنَّه امتلأ صدرُه من الغَيظ فارتَقَى إلى ما هو فوقَه حتَّى خنقه .

وقوله « فسايرتُه مقدارَ مِيلٍ » انتصب مقدارَ على الظَّرف . ومعنى سايرْتُه صاحَبْتُه فى السَّير ، ثم قال : وليتنى أرافقه ما دامَ حَيًّا ، على كُرْهٍ منِّى ، لأنه استطاب صحبتَه لما له من اللذاذة[1] فى النظَر إليهن ، واستكرهَ السكونَ معه لما يخاف على نَفْسه منه ، إلا أنَّه غلَّبَ الالتذاذَ . و « وما دام حَيًّا » انتصب على الظرف ، و « أرافقه » فى موضع خبر ليت . وقوله « بكُرهى له » نصب على الحال ، والعامل فيه أرافقه .

٥ — فلمَّا رأتْ أنْ لا وِصَالَ وأنهُ مَدَى الصُّرْمِ مَضروبٌ علينا سُرَادِقُه[2]

٦ — رَمَتْنِي بِطَرْفٍ لَوْ كَمِيًّا رَمَتْ به لَبُلَّ نَجِيعًا نَحْرُهُ وَبَنائقُهْ

٧ — وَلَمْحٍ بِعَيْنَيها كأنّ وَمِيضَهُ وميضُ الحَيا تُهْدَى لِنَجْدٍ شقائقُهْ

قوله « أنْ لا وصال » أنْ فيه مخففَة من أنّ الثقيلة ، يريد أنه لا وصال . ألا تَرَى أنه عَطَفَ عليه « وأنه مَدَى الصُّرْم » . ووصال انتَصب بِلَا ، وخبره محذوف ، كأنه قال : لا وِصَالَ بيننا . والجملة فى موضع خبر أن ، والضمير فى أنه الأولى والثانية ضمير الأمر والشّأن . وقوله « مَدَى الصُّرم » فى موضع الابتداء ، و « مضروب علينا » خَبَرُه . وسرادِقُه ارتفع بمضروبٍ ، لأنه قام مقام الفاعل .

وقوله « رَمَتْنِي بطَرْفٍ » جوابُ لمّا . كأنه لمَّا تأمَّلَتْ حالَهُ فى مُسايرته ، وضيقَ الوقت عن مجاذَبته ، لِمَا كان يَحُول بينهما من مراقبته ، ثمّ رأتْ تغيُّظَ

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « اللذه » .

(٢) الديوان : « فلما رأت ألا جواب وإنما » .

الرقيب وكراهيتَه[1] ، مع معرفتها بنتائج ضَجرِه ، نظرتْ إلى الشاعر نظرَ إنكارٍ استدلَّ منه على ضلالِهِ فيما يأتيه ، وسوءِ توفيقه فيما يُلحُّ فيه ، فكأنَّه رمته بسَهْمٍ لو لم يكن نَظَرًا ، بل كان سَهْمًا رُمِيَ به شُجاعٌ فى معركةٍ ، لأصيبَ مقلُه ، فكان يبتلُّ نحرُه وبنائق قميصه نجيعا . والنجيع : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّع به ، أى تلطَّخَ .

وقوله « والمحِ بعينيها » انعطَفَ على قوله بطَرْفٍ . واللَّمْح : النَّظَر ، ويستعمل فى البَرق والبصَر . وكذلك الطرفُ هو النَّظر [هنا[2]] ، كأن الرَّمىَ بالطرْفِ كان إنكارًا منها . واللمح بالعينين مُواعَدةٌ وتوحِيَةٌ بجميلٍ بعد تعذُّر المطلوب : والوَمْض والوميض : اللَّمْع . وأومضَتْ له فلانةُ بعينها ، إذا بَرَقتْ . لذلك شبَّهَ وميضَ لَمْحِها بوميض الحَيَا ، وهو الغيث المُحْيِى للأرضِ وأهلها وقد هُدِيَتْ أى أُرشِدَتْ شقائقه ، وهى قِطَعُ سحابِهِ ، لنجد . كأنَّه جعَلَها قاتِلَةً فى رميها ، مُحْيِيَةً بلمْحها . والشَّقيقة : البَرْقةُ إذا استطارت فى عُرْض السحاب وتكشَّفت أيضاً .

---

(١) ل : « وكراهته » .
(٢) التكملة من ل .

٤٧٨

وقال أبو الطَّمَحان القَينىّ[1] :

١ — أَلَا عَلِّلَانى قَبْلَ صَدْحِ النَّوائحِ ... وقبلَ ارتقاءِ النَّفسِ فَوقَ الجوانحِ[2]

٢ — وقَبل غَدٍ يا لَهفَ نَفْسِى على غَدٍ ... إذا رَاحَ أصحابِى ولستُ برائحِ

يُرْوَى « يا لَهْفَ نفسِىَ من غَدٍ » . والصَّدْحُ : شِدَّة صوت الدِّيكِ والغرابِ وغيرهما . والصَّيْدَحِىُّ : الشَّديد الصَّوت . والجوانح : ضُلوعُ الصَّدر . وارتقاء النَّفسِ فوقَها ، كما يقال : بلغتْ نفسُه التراقى . فيقول : عَلِّلانى بالمقترَح عليكما قبل أن أموتَ فتقومَ النَّوائحُ علىَّ يندُبْنَنى ، وقبل ميقاتِ أَجَلِى . وأوانِ تخلُّفى عن أصحابى وقد راحُوا عنِّى ، لنُزول القَدَرِ المقدور بى .

فإن قيل : كيف قدَّم ذكر صَدْح النَّوائح على ذكر الموت ، وإنَّما يكون بعده ؟ قلت : إن العطفَ بالواو لا يوجب ترتيباً . ألا ترَى أن الله تعالى قال : ﴿ واسْجُدِى واركَعِى ﴾ ، والرُّكوع قبلَ السُّجود فى ترتيب أفعال الصلاة .

وقوله « إذا راح أصحابى » يجوز أن يكون إذا فى موضع الخبر بدلًا من غَدٍ ،

---

(١) الطمحان ، بالتحريك : فعلان من طمح بأنفه ، إذا تكبر . وأبو الطمحان هو حنظلة بن الشرق ، أو ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر بن شيع الله بن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام فأسلم ، ولم ير النبى صلى الله عليه وسلم . وكان معروفا بالفسق ، قيل له : ما أدنى ذنوبك ؟ قال : ليلة الدير . قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بديرانية فأكلت عندها طفيشلا بلحم خنزير ، وشربت من خمرها ، وزنيت بها وسرقت كساءها ومضيت . ويذكرون أنه عمر مائتى سنة . وفى الشعراء أيضاً أبو الطمحان الأسدى كان فى زمن يوسف ابن عمر ، وأبو الطمحان النهشلى ، وأبو الطمحان الطائى . الخزانة (٣ : ٤٢٦) وشرح التبريزى للحماسة ، والإصابة ٢٠٠٧ والمعمرين ٥٧ والمؤتلف ١٤٩ والاشتقاق ٣١٧ واللآلى ٣٣٢ والأغانى (١١ : ١٢٥ — ١٢٨) والشعراء ٣٤٨ .

(٢) التبريزى : « قبل نوح النوائح » ، ثم قال : « ويروى : قبل صدح الصوادح » .

والبدل إذا جاء مؤكِّدًا للمُبدَل منه ومفصِّلًا جُملَه قد لا يستغنِي عن المُبدَل منه، وإذا كان كذلك فليس لأحدٍ أن يقول: من شرط البدل أن يُلقَى المبدلُ منه ويُجعلَ هو مكانه. وإذا كان كذلك لم يجُزْ أن يَلِيَ إذا العامِلَ فى غَدٍ، وهو «على» أو «من» فى الرِّوايتين جميعاً. على أنّ أبا العباس قد جوّز وقوعَ إذا فى موضع المجرور والمرفوع. ويجوز أن يكون نصباً بَدَلًا من موضع «من غَدٍ» أو «على غَدٍ» العامل والمعمول فيه جميعا، لأنَّ موضعهما نصبٌ على المفعول مما دلّ عليه قولُه يا لهف نفسى، وهو: أتلهّف من غَدٍ.

وإنّما جاز أن يُودعَ البيتين باب النسيب لرقّتهما ولأنَّ المتعلّل به كان لذّةً من اللَّذّات. وهذا عادته فى أبواب اختياره(١).

٤٧٩

آخر:

١ ــ هَلِ الوجْدُ إلّا أنَّ قَلْبِيَ لَوْدَنَا ... مِنَ الجَمْرِ قِيدَ الرُّمْحِ لاحْتَرَق الجَمْرُ

٢ ــ أفِي الحقِ أنِّى مُغْـرمٌ بكِ هائمٌ ... وأنَّكِ لا خَلٌّ هَــوَاكِ ولا خَمْرُ

٣ ــ فإنْ كُنتُ مَطبوباً فلازِلتُ هكذا ... وإن كنتُ مَسْحُوراً فلا بَرَأ السِّحْرُ

قوله: هل الوجد» استفهامٌ لفظه ومعناه النّفى، بدلالة وقوع إلاّ بعده، كأنّه قال: ما الوجد، أو ليس الوجد إلاّ هذا الذى بى، وهو أنّ قلبى لو قَرُب من الجَمرحتّى لا يكونَ بينهما إلاّ قدرُ رمح لغَلَبَ نارُه نارَ الجمر، وكان الجمرُ يحترق. وقوله «الوجد» مبتدأ وخبره إلاّ مع ما بعده. وانتصب «قِيدَ الرُّمْح» على الظّرف. ويقال: بينى وبينَه قابُ قوسٍ، وقِيدُ رُمْحٍ، وغَلْوَةُ سَهْمٍ. وحَكَى

(١) كذا فى ل. وفى الأصل: «وهو عادته فى باب اختياره».

بعضُ أهل التَّفسير فى قوله تعالى : ﴿ فـكانَ قابَ قَوسَين ﴾ أنَّ لكلِّ قوس قابَيْن ، وهو ما بين المَقْبِض والسِّيَة . وأهلُ اللُّغة على ما قدَّمتُه .

وقوله « أفى الحقِّ أنِّى مُغرَمٌ بكِ هائمٌ » فالمغرم : الذى قد لزِمَه الحُبّ يُقال : حُبُّه غَرَامٌ ، أى لا تفَصِّىَ منه . ومنه عذابٌ غَرَامٌ . والهائم : المتحيِّر . والهُيَام كالجنون من العِشق ، ومنه المُهَيَّم : الذى يَهذِى بالشىء ويُكْثِرُ ذِكْرَه . والمعنى أنه لا يدخُل فى الحقّ ووُجوهِه ، وأنواع قِسَمِه . أن يكون حُبِّى لكِ غَراما ، وحُبُّك لا يرجع إلى معلوم ، ولا يَحصُل على حَدٍّ محصور . ويقال : ما هو بخَلٍّ ولا خَمْرٍ ، والمعنى أنه ليس بشىء يَخْلُصُ ويَتبيَّن .

وقوله « فإن كنتُ مَطْبوبًا » فالطِّبُّ : السِّحر والعلم جميعاً . وهو طَبٌّ ، أى عليم . وفى الحديث : «حينَ طُبَّ» أى سُحِر . وهو مطبوبٌ ، أى مسحور . ومعنى البيت : إن كان الذى بى وأقاسِيه داءً معلوماً يُعرفُ دواؤه ، فلا فارقَنى فأنِّى ألتذُّ به — وهذا هو الفِتْيانيَّةُ فى الهوى ، والتجلُّد على البلاء — وإن كنتُ مسحورا ، يريد وإن كان الذى بى لا يُعلَمُ ما هو ، وأَعْيا الوقوفُ عليه الأطبّاء ، والعلماءَ بالأدواء ، حتى يُسَلَّمَ للسِّحْرِ فلا فارقَنى أيضاً . وإنما قال هذا من عادة العامّة ، لأنهم كذا يعتقدون فى الأوصاب والعِلَل . ولا يجوز أن يكون معنى مطبوباً مسحوراً ، لأنه يصير الصدرُ والعَجُز لمعنًى واحد .

٤٨٠

آخر :

١ — تَشَكَّى المُحِبُّونَ الصَّبابةَ ليتَنى تحمَّلتُ ما يَلْقَوْنَ من بينهم وَحْدِى

٢ — وكانت لنفسِى لذّةُ الحُبِّ كلُّها فلم يَلْقَها قَبْلى مُحِبٌّ ولا بَعْدِى[1]

(١) التبريزى : « فكانت » .

هذا كلامُ مَن تجلَّدَ فى الهوى وادَّعَى التلذُّذ به وإن برَّحَ به وأثَّر فيه ، فيقول[1] : شكا المحبُّون جنايةَ الصَّبابة عليهم ، وجريرةَ العشق لديهم ، وبودِّى أَنِّى[2] تحمَّلتُ أعباءها كُلَّها وحدى ، وخَلَص للصَّبر فيها ولها عَفوى وجهدى ، وكانت نفسى تنالُ لذَّةَ مجموعها ومفرَّقِها ، وتنفردُ بمكابَدَة مجهولها ومعرَّفها[3] ، فأفوزَ بادِّعائها ، وتسقطَ المشاركةُ بينى وبين أربابها ممَّن سبَقَنِي لتقدُّم زمانِه ، أو تأخَّرَ عنِّي لتأخرِ ميلادِه .

٤٨١

وقال شُبرُمةُ بن الطُّفَيل[4] :

١ — ويَومٍ شديدِ الحَرِّ قَصَّرَ طُولَهُ ... دَمُ الزِّقِّ عَنَّا واصطكاكُ المَزَاهِرِ[5]

٢ — لَدُنْ غُدْوَةً حتَّى أَرُوحَ، وصُحْبَتِي ... عُصَاةٌ على الناهِينَ شُمُّ المَفَاخِرِ

٣ — كأنَّ أباريقَ الشَّمُولِ عَشِيَّةً ... إوزٌّ بأعْلَى الطَّفِّ عُوجُ الحَنَاجِرِ

قوله « ويومٍ » انجرَّ بإضمار رُبَّ ، وجوابُه قَصَّر طُولَه . يقولُ : رُبَّ يَوْمٍ من أيام الصَّيف شديد الحرّ ، جعل طولَه قصيرًا ، ما اشتغَلْناَ به فيه من الشُّرب والقَصْفِ . وأرادَ بدم الزِّقّ الخمر . واصطكاكُ المزاهر: مُدافَعة أوتار البَرْبَط بعضها لبَعْض بالضَّرب . ويقال : ازدَهر الرَّجُل ، إذا فَرِح . فيجوز أن يكون العود سُمِّى مِزهراً منه .

---

(١) فى الأصل : « فيكون » ، صوابه فى ل .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أن » .

(٣) هذا ما فى ل ، وهو الموافق لموسيقى الفاصلة ، وفى الأصل : « ومعروفها » .

(٤) الشبرمة: واحدة الشبرم ، وهو نبت حار يحدر الطبيعة . ولم نعثر لشبرمة على ترجمة . على أن الأبيات نسبت فى الحيوان (٦ : ١٧٩) وثمار القلوب ٥٠٢ إلى ابن الطثرية

(٥) التبريزى والجاحظ والثعالبى واللآلئ ٩٣٨ : « واصطفاق المزاهر » . وقد أشار التبريزى إلى رواية « واصطكاك » .

وقوله « لَدُنْ غُدْوَةً » انتصب غُدوةً عن النون من لَدُن[١] ، ولا ينتصب به غيره ، فهو شاذٌّ . والمعنى : باكَرْنا الشُّرب ، فلمَّا رُحْنا كان أصحابى قد سَكِرُوا واكتَسَبوا كِبْرًا ونُبْلًا ، وذَهَابًا عَمَّا يُشِيرُ به النَّاهِى والمسدِّد[٢] .

وقوله « كأنَّ أباريق الشَّمُول عشيَّةً » شَبَّهَ أوانىَ الخَمْر وقد فُرِّغَتْ وأُميلت بطيورِ ماء اجتمعت عشيَّةً بأعلى السَّاحل[٣] ، معوجّة الحناجر والحلوق .

وأدخَل هذه القطعةَ فى باب النَّسيب لرقّتها ودَلالتها على اللَّهو والخَسارة .

٤٨٢

وقال جابرُ بنُ ثَعلبٍ الجَرْمىّ[٤] :

١ — ومُسْتَخْبِرٍ عن سِرِّ رَيَّا رَدَدْتُهُ بِعَمْيَاءَ من رَيَّا بِغَيْرِ يَقِينِ
٢ — فقالَ انتصِحْنِى إنّنى لكَ ناصِحٌ وما أنَا إنْ خَبَّرْتُهُ بأمِينِ

يروى : « انتصحْنى إنِّى ذو أمانةٍ » ، وهذا فى كتمانِ سرِّ المحبوب ، والمحافظةِ على الذِّمام والحُرَم . يقول : رُبَّ مُسْتَدرِجٍ لى فيما بين رَيَّا وبينى ، طالبٍ للوقوفِ على المكتوم من أمرها وأمرى[٥] ، رددتُه عن نفسى بقصَّةٍ عمياءَ لا يُهتَدى فيها لمطلوب ، ولا يُرجَع فيها إلى يقين ، فلمَّا لم يُمكنه إنزالى عمَّا حاولَه قال انتصِحْنى ، أى أَدْخِلْنِى فى أمْرِكَ ، وأَجْرِنى مَجْرَى نُصَحائك ، إنِّى أمينٌ لا دَغَل فى همّتى ، ولا خيانةَ فى شأنى ، ولو خبَّرتُه بما التمَسَ ، وأطْلَعتُه على

---

(١) الأوضح منه ما ذكر التبريزى : « بنصب غدوة مع لدن ، تشبه النون منها بنون عشرين » ، يريد أن غدوة تنصب على شبه التمييز .

(٢) المسدد : الذى يوجه نحو السداد والصواب . وفى الأصل : « والمشدد » صوابه فى ل .

(٣) أى ساحل الفرات . وفى معجم البلدان : « والطف طف الفرات ، أى الشاطئ » .

(٤) كذا فى النسختين ، وهو المطابق لما مضى فى ص ٣٠٤ . وعند التبريزى : « جابر ابن الثعلب الجرمى ، من طيئ » . ويقال أيضاً « ابن ثعلبة » . انظر حواشى ٢١٥ .

(٥) كذا فى ل . وفى الأصل : « فيما بينى وبين ريا ، طلب الوقف من أمرها وأمرى » .

ما استشرح ، كنتُ أنا غيرَ أمينٍ ، فكيف أصير معه مؤتمناً ، وذاك أني إنْ بُحْتُ بِسرِّها فقد ضَيَّعتُ أمانتَها ، والسرُّ إذا جاوزَ اثنينِ خرجَ من أن يكون سِرًّا . ومثل هذا قولُ جرير :

ولقد تَسَقَّطَنِي الوُشاةُ فصادَفُوا حَصِرًا بسرِّكِ يا أُمَيْمَ ضَنِينَا

٤٨٣

وقال نَفْر بن قَيْسٍ(١) ، وبنو نَفْرٍ رَهطُ الطِّرِمَّاح :

١ — ألا قالت بُهَيْشَةُ ما لِنَفْرٍ أراه غَيَّرتْ مِنْهُ الدُّهورُ(٢)

٢ — وأنْتِ كذاكِ قد غُيِّرتِ بَعْدِى وكُنتِ كأنَّكِ الشِّعْرَى العَبُورُ

كأنَّ المرأةَ ازدرته وأنكرتْ شُحوبَه وهُزالَه ، وتغيُّرَه عما عهدَتْه ، فصَرفَتْ ذلك إلى أنَّه من مقتَضَياتِ الكِبَرَ ، ومسبِّبات القَشَفِ(٣) ، وقالت مستفهِمَةً : ما لِنَفْرٍ ، أرَى الأيَّام أثَّرَتْ فيه ، والأحداثَ أضْنَتْه وهَزَلَتْه ، فأجابها مِن طريق إنكارها وقال : إنْ كان ذلك من عُقَبِ الأيام فإنها لم تَغفُلْ عنكِ ولم تُهْمِلْ تغييرَكِ أيضاً ، فما أنكرْتِهِ منِّى موجودٌ فيكِ وظاهرٌ على سَحْنَتِكِ(٤) ولونكِ ، فقد كنتِ كالشِّعرَى العبور إشراقا وتلألؤا ، وقد حلتِ وتغيّرتِ .

و « العَبُور » قيل فيه : هو من عَبَرْتُ النَّهرَ ، إذا جُزتَه . وقيل : بل هو من عَبَّرْتُ به ، إذا شَقَقتَ عليه(٥) ، كأنَّها إذا طلعَتْ تُعبِّرُ المالَ الرّاعِيَةَ بحَرِّها ،

---

(١) هو الجد الثانى للطرماح ، إذ هو الطرماح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رضا بن مالك بن أبان بن عمرو بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ . وكان الطرماح نفسه يلقب « أبا نفر » . انظر ما مضى من ترجمته فى ص ٢٢٧ .

(٢) التبريزى : « بهيسة » بالسين المهملة ، وهما روايتان صحيحتان . انظر اللسان : (بهس ، بهش) حيث ذكر هاتين الروايتين .

(٣) القشف : يبس العيش وضيقه وسوء الحال .

(٤) فى الأصل : « سجيتك » ، صوابه فى ل .

(٥) فى القاموس : « وعبر به الأمر تعبيرا : اشتد عليه . وعبرت به : أهلكته » .

وإذا سَقَطَت فببَرَدها . وقوله : وأنتِ كذاك » ، الكاف الأولى للتَّشبيه ، و « ذا » أشار به إلى ما أنكرَتْ منه ، والكاف الأخيرة للخطاب ولا موضعَ له من الإعراب ، فهو حرف .

٤٨٤

وقال بُرجُ بن مُسْهِرٍ (١) :

١ – وَنَدْمَانٍ يَزِيد الكَأسَ طِيباً سَقَيْتُ إذا تعرَّضَتِ النُّجومُ (٢)

٢ – رَفَعتُ برأسِهِ وكشَفْتُ عَنْهُ بمُعْرَقَةٍ مَلامـةَ مَن يَلُومُ (٣)

النَّدمَان والنَّديم : مَن يُنادِمُك على الشَّراب ، ومثله فى البناء سَلْمَانُ وسَلِيمٌ ، وحَمْدَانُ وحَمِيدٌ ، ورحمٰن ورحيمٌ . ومعنى « يزيد الكأس طِيباً » أى بِحُسْن عِشرته ، وأدبِ مجالَسته يزداد شُرب المدام وإدارةُ الكأس معه لذّة . والمعنى : رُبَّ نَديمٍ على ما وصفْتُه سقيْتُه إذا تَعرَّضت النُّجوم ، أى أبدت عُرُضَها للغُيوب . ويقال : تعرَّضْتُ الجبَلَ ، أى أخذتُ يميناً وشِمالاً فيه ، ولم أحتَمْ فى الصُّعود . قال :

تعرَّضى مَدَارِجًا وسُـــومى تعرُّضَ الجوزاءِ للنُّجـومِ (٤)

ومعنى قوله « رفعتُ برأسه » أنبهتُه من مَنامه ، وأزلتُ عنه ما كان يُداخِلُه

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ ص ٣٥٩ .

(٢) التبريزى واللسان (عرق) : « إذا تغورت » ، ثم قال التبريزى فى التفسير : « إذا تعرضت النجوم ، أى أبدت عرضها للمغيب » . ورواية المؤتلف ٦٢ تطابق رواية المرزوقى .

(٣) أنشده فى اللسان والمقاييس (عرق) . ورواية المقاييس : « أخذت برأسه » .

(٤) الرجز لعبد الله ذى البجادين المزنى دليل رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر اللسان (درج) . وأنشده فى المقاييس (درج) بدون نسبة . وبعده :

* هذا أبو القاسم فاستقيمى *

من الغَمِّ بلوم اللائمين إيَّاهُ على معاطاة الشُّرْبِ وإدمانِه اللهو ، بأن سقيتهُ مُعْرَقةً — وهى الصِّرْف من الخمر ، وقيل هى القليلة المِزاج . ويقال : تعرَّقْتُ الخمرةَ ، إذا مزَجْتَها . وأعرقه الساقى ، إذا سقاه مُعْرَقاً . وقوله « إذا تعرَّضت النجوم » يشير به إلى الاصطباح .

٣ — فلمَّا أنْ تَنَشَّى قامَ خِرْقٌ مِن الفِتْيانِ مُخْتَلَقٌ هَضُــومُ[1]

٤ — إلى وَجْناءَ ناوِيَةٍ فـكاسَتْ وَهَى العُرْقوبُ منها والصَّــميمُ

انتَشَى ونَشَى وتَنَشَّى بمعنى سَـكِر . والنَّشوة : السُّـكر . وأراد بالخِرْق نفسَه ، وهو الـكريم المتخرِّق بالمعروف . والمُخْتَلَق : التامّ الخَلق . والهَضُوم ، قال الأصمعى : هو المِنفاق فى الشتاء . وقال غيره : هو الـكريم المِفضال ، كأنه يَهضِم مالَه بأن يُخرِجَ منه أكثرَ من الواجبِ فيه . والوجناء ، هى الناقة الغليظة الوَجنتَين . وقيل بل هى الصُّلبة ، مأخوذٌ من الوَجين ، وهى الأرض الغليظة . قال الخليل : وقَلَّ ما يقال للجمَل أوْجَنُ . والنَّاوية : السمينة .

وقوله «فكاسَتْ» اختَصرَ الـكلام ، والمراد فعرقَبها فكاست . والـكَوْس : المشْى على ثلاثِ قوائم . وأراد بالصميم العُضوَ الذى به القِوَام ؛ يقال : هذا صَميمُ الوظيف ، وصميم الرَّأس . والعُرْقوب : عَقَبٌ[2] موتَّرٌ خلفَ الـكعبين فُوَيْقَ العَقِبِ من الإنسان وبين مَفصِل الوظيف والساق من ذوات الأربع . وعرْقَبْتُهُ : قطعت عُرقوبَهُ . وقوله « وهَى العُرقوب » إظهارٌ للعلة فى كَوْسِها . والوَهْى : الشَّقُّ والخَرْقُ . وفى المثل : « غادَرَ وَهْيَةً لا تُرْقَع » ، أى فَتْقَةً

(١) روى التبريزى أيضا : « مختلق » بكسر اللام ، وفسره بأنه الكريم الأخلاق .

(٢) الذى فى اللسان : « عصب » . والعقب ، بالقاف وبوزن العصب أيضاً ، هو عصب المتنين والساقين والوظيفين ، يختلط باللحم ، يمشق منه مشقا ويهذب وينقى من اللحم ويسوى منه الوتر .

لا يُطاق إصلاحُها ورَتْقُها. والمعنى: لمّا أُقيم رسم الاصطباح، وانتشى النَّدمانُ، قام هو إلى ناقةٍ بهذه الصفة فعرقبَها.

٥ — كَهاةٍ شارِفٍ كانت لِشَيْخٍ ... لَهُ خُلُقٌ يحاذِرُهُ الغَرِيمُ(١)

٦ — فأَشْبَعَ شَرْبَهُ وجَرَى عليْهِمْ ... بِإبْرِيقَينِ كأْسُهُمَا رَذُومُ(٢)

٧ — تَراها فى الإناءِ لها حُمَيَّا ... كُمَيْتاً مثلَ ما فقَعَ الأَدِيمُ(٣)

٨ — تُرَنِّحُ شَرْبَها حتى تَراهُمْ ... كأنَّ القومَ تَنْزِفُهُمْ كُلُومُ

الكَهاةُ: الناقة الضخمة كادت تدخل فى السنّ، وكذلك الكَنْهاة. والشارِفُ: المسنّة. وقوله «كانت لِشَيْخٍ» كان الكريمُ منهم المِحْسانُ إلى عشيرته، المِفْضالُ على رفقائه ونُدَمائه، يتعمَّد إذا نَحَر لهم فى الشُّرب وعند السكر، أن يفعلَ ذلك فى غير مِلْكه، يَسْتامُ(٤) مالِكَ الجَزُور بها أغلَى الأثمان فيغرمُه، ويَعُدُّ ذلك الغُرْم غُنْمًا، والصبرَ على سوء خُلُقِه وإنكاره التبسط فى مِلْكه بغير إذنه كَرَمًا. لذلك قال: «لهُ خُلُقٌ يحاذِرُه الغريم»، يريد البُخْل منه والاستقصاء.

وقد سلك هذا المسلك طَرَفَةُ فقال وَوَفَّى المعنَى حَقَّهُ، وكأنه صَبَّ فى قالَب هذا الشاعر:

وبَرْكٍ هُجُودٍ قد أثارت مَخَافتى ... نَوَادِيَها أَمْشِى بعَضْبٍ مُجَرَّدِ(٥)

---

(١) لم يرو الآمدى هذا البيت.

(٢) التبريزى: «وسعى عليهم»، ثم أشار إلى الرواية الأخرى.

(٣) الآمدى: «ويروى: نقع الأديم، أى روى. ويقال: أرجوان ناقع، وهو الذى قد روى من الصبغ. فأما فقع فمعناه أحمر، ولذلك قيل: أحمر فقاعى».

(٤) ل: «ليستام».

(٥) البرك: الإبل الكثيرة الباركة. النوادى: القواصى منها. العضب: السيف القاطع.

فمرّتْ كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ ... عَقِيلةُ شَيْخٍ كالوَبيلِ أَلَنْدَدِ(١)
يقول وقد تَرَّ الوظيفُ وساقُها ... أَلَسْتَ تَرَى أن قد أتيتَ بمُؤيِدِ(٢)
وقال ألاَ ماذا تَرَوْنَ بشاربٍ ... شَديدٍ علينا بَغْيُهُ مُتعمِّدِ
فقال ذَرُوهُ إنَّما نَفْعُها لَهُ ... وإلاَّ تَكُفُّوا قاصِيَ البَرْكِ يَزْدَدِ
فظَلَّ الإماءُ يمتَلِلْنَ حُوَارَها ... ويُسْعَى علينا بالسَّديفِ المُسَرْهَدِ(٣)

قوله « فأشبع شَرْبه » يعني من الناقة المعقورة . وجعل الجاريَ عليهم بأبريقَين والكأس مَلأى تقطُر ؛ لأنّ شُرْبَهم كان بِداراً . ثم وَصَف الخمرة فقال : لها سَوْرَةٌ شديدةٌ ، وللونها حُمْرة متناهية . ومعنى فقَع : حَسُنَ وصفَا ويقال : أحمرُ فاقعٌ . ويُروى : « مثل ما نَصَع » والمراد خَلَصَ . والحُمَيَّا مصغَّرٌ لا مكبَّر له ، وقد تقدَّمَ القولُ في بنائه . وكُمَيْت : مصغر مرخَّم ، والمراد به تكبيره ، وهو أكْمَتُ ، لذلك جُمع على كُمْتٍ . ومثله فَرَسٌ وَرْدٌ ، ثم قيل خَيْلٌ وُرْدٌ ، لأنه أُريد به أفعَلُ . ومما جاء مصغَّراً قولهم كُمَيْتٌ ، وهو طائرٌ ، وجُمَيل(٤) ، والثُّرَيَّا ، والغُبَيراء ، والمُرَيطاء ، واللُّجَيْن ، وهُنَيْدَةُ .

وقوله « تُرَنِّحُ شَرْبهم » أي لشدَّتها تُزِيلُ قُواهم، فكأنهم أُسارَى نُزِفَتْ دماؤهم . ويقال : ضربته حتى رَنَّحْتُه ، أي غُشِي عليه .

٩ — فقُمْنا والرِّكَابُ مُخَيَّسَاتٌ ... إلى قَتْلِ المَرافِقِ وَهْيَ كُومُ(٥)

---

(١) الخيف ، بالفتح : جلد ضرع الناقة . العقيلة : كريمة المال . الوبيل : العصا الضخمة . والألندد واليلندد : الشديد الخصومة .

(٢) تر : سقط . المؤيد : الداهية العظيمة الشديدة .

(٣) يمتللن ، الامتلال : جعل الشيء في الملة ، وهي الجمر والرماد الحار . وفي النسختين : « يمتلكن » ، تحريف . والحوار : ولد الناقة . السديف : قطع السنام . المسرهد : السمين ، أو المقطع قطعاً . (٤) في اللسان : « سيبويه : الجميل البلبل ، لا يتكلم به إلا مصغرا » .

(٥) هذا البيت وتاليه لم يروهما الآمدي .

١٠– كأنّا والرِّحالَ على صِوَارٍ برَمْلِ خُزَاقَ أسْلَمَهُ الصَّرِيمُ

يُرْوَى « محبّسات » أى معقولاتٌ مُناخةٌ بالفِناء ، وهو الوجه . ورَوَى بعضهم : « مخيَّسات » أى مذلَّلاتٌ ، لكى إذا رُكِبَتْ للّهو[1] ، وفى حالة السُّكر كما فعلهُ هؤلاء ، لم تَعْسِفْ برُكبانها ، ولم تأتِ العِرَضْنة فى سيرها . والفُتْل : جمع أَفْتَلَ وفَتلاء ، وهى البعيدة المِرفَق عن الزَّوْر . والكُومُ : العظام الأسنِمة . وقال الخليل . الكَوَمُ ، العِظَم فى كلِّ شىء . وقوله « كأنّا والرِّحالَ » شبَّهَ ركائبهم بقطيعٍ من البَقَر بالرَّمْل المذكور ، أسلمَهَ الصَّريمُ إلى الصَّيَّادين والكلاب ، فخفَّتْ وَعدَت . والصَّريمُ استعمِل فى الصبح والليل جميعاً ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينصرمُ عن صاحبِهِ وقتَ السَّحَر . وإنما ركبوا بعدَ الاصطباح للتنزُّه أو فى بَطَالةِ حَضْرَتِهم[2] .

١١– فَبِتْنَا بين ذاك وبين مِسْكٍ فَيَا عَجَبَا لعَيْشٍ لو يَدُومُ

١٢– وفِينَا مُسْمِعَاتٌ عند شَرْبٍ وغِزْلانٌ يُعَدُّ لها الحَمِيمُ[3]

تبجَّحَ بأنهم نالوا أكثرَ أنواعِ اللّذّات ، من شُرْبٍ وقَصْفٍ ،[وتنزُّه[4]] ولَهْوٍ ، ومعاشرةٍ وطَرَبٍ ، وتَسَخٍّ وإفضال ، وَتَنَدٍّ على الندماء وإكرامٍ ، وتَترُّفٍ وتَعطُّر ، وتمتُّع بالنساء وتغزُّل . وقوله « فيا عجبا » إنَّما تعجَّبَ من استمرار الوقت بمثلِ العيش الذى وَصَف ، وكيف سَمَحَ الزمانُ به ثم غَفَل عنه حتَّى اتّصَل . والمُسْمِعات : المغنِّيات . والسِّماعُ : الغِناء . وذَكَرَ الحميمَ لتنعُّمهنّ ، ولأنَّ بلادهن كانت صُرُوداً[5] . وعلى هذا قال عمرو بن كلثوم :

---

(١) سبق نحو هذا التعبير فى ص ١١٦٩ س ٩ « لكى إذا نابنا ذو حق » .

(٢) البطالة : اتباع اللهو والجهالة .

(٣) هذا البيت لم يروه الآمدى .

(٤) هذه من ل .

(٥) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع من الجبال ، وهو أبردها .

مُشَعْشَعَةً كأنّ الحصَّ فيها إذا ما الماء خالطَها سَخِينَا

قال ابن الأعرابيّ : سخيناً حال بمعنى مُسَخَّنٍ ، لأنَّ البَرْدَ اقتضاهم بذلك الماء .

وقوله « فبِتْنَا بين ذاك » يريد أنَّ حاضر وقتِهم كانَ على ذلك ثم تغيَّرَ .

١٣ — نُطَوِّفُ ما نُطَوِّف ثم يَأوِى ذَوُو الأموالِ مِنَّا والعَدِيمُ

١٤ — إلى حُفَرٍ أَسافِلُهُنَّ جُوفٌ وأعلاهُنّ صُفَّاحٌ مُقِيمُ

يقول : يُكْثِرُ الواحدُ منا التَّطوافَ على اللَّذّات ، والتَّجوالَ فى الأطراف لطلب البَطَالة ، وليس مآل الجميع مُقْتِرنا وغنيِّنا إلاَّ إلى حُفَرٍ ، يعنى بها القُبورَ . ثمَّ وَصَفَها بأنها جُوفُ الأسافلِ لِلُحُودِها ، وأنَّ أعاليَها نُصِبَتْ عليها حجارةٌ عِراضٌ كالسُّقُوف لها ، وهى دائمة على هذهِ أبدًا .

وقوله « نُطوِّف ما نُطوِّف » أى مدَّةَ تَطوافنا . ويقال : أَوَى إليه كذا أُوِيًّا .

٤٨٥

وقال إياسُ بن الأرَتّ[١] :

١ — هَلُمَّ خَليلى والغَوَايةُ قد تُصْبِى هَلُمَّ نُحَىِّ المُنْتَشِينَ من الشَّرْبِ

٢ — نُسَلِّ مَلَامَاتِ الرِّجالِ برَيَّةٍ ونَفِرِ شُرُورَ اليَوْمِ باللَّهوِ واللَّعبِ

قوله « والغواية قد تُصْبِى » اعتراض ، وكرَّر هلمَّ على طريق التَّأكيد . والفائدةُ فى هذا الاعتراض تحقيقُ القِصَّة المدعوِّ إليها .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ٢٠٢٨ . التبريزى : « إياس بن الأرت الطائى » .

وللعرب فى « هلمّ » طريقتان: منهم من يُجْرِيه مجرى أسماءِ الأفعال ، وحينئذ يقع للواحد والجمع والمؤنّث والمذكَّر على حالةٍ واحدة ، والقرآنُ نزَلَ به ، لأنّه قال تعالَى ذكره : ﴿يقولونَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنا﴾ . ومنهم مَنْ يجعل أصلها ها التَّنبيهِ ضُمَّ إليه لُمَّ ، وهو فِعْلٌ ، جعِلا معاً كالشَّىء الواحد ، فيثنّيه ويجمعه ويؤنّثه . وكان الفَرّاء يقول : هو هَلْ أُمَّ تركّبا معاً . وليس لِهَلْ فى الكلام إلّا موضعان : أحدهما — وهو الأكثر — أن يكون لِلاستفهام ؛ ولا معنى للاستفهام ها هنا . والثّانى : أن يكون بمعنى قَدْ ، على ذلك فُسِّرَ قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسان ﴾ ، وليس لمعنى قَدْ فى هذا مَدْخَلٌ . وإذا كان كذلك فما قاله فاسدٌ .

وقوله «والغواية قد تُصْبِى» يريدُ أنَّ الغَىَّ يدعو صاحبَه إلى أمورٍ كثيرةٍ مختلفة ، وقد يحمله على الصِّبا واللّهو فى الوقتِ بعدَ الوقت . وطلَبَ من صاحبه مساعدتَه على تحيّتِه للشَّرْب[1] ، والدُّخول فى جُملتهم ، وتسلِيَة النُّفوس عن مَلاماتِ مَن يدعُو إلى الرَّشاد ، ويَحمِلُ على سُلوك طُرق الصَّلاح والسَّداد[2] ، بشُرْبِ رَيَّةٍ ، وهى الكأس الممتلئة خمرًا ، وقَطْعِ وقتِ الشَّرِّ والغَمِّ باللّهو واللعب .

وقوله « نُسَلِّ » فى موضع الجزم ، لأنّه جوابُ الأمر . و « نَفْرِ » ، معطوف عليه . ويقال : فَرَيْتُ الأدِيمَ ، إذا قطعتَهُ على جهة الصَّلاح ، وأَفْرَيْتَه إذا قطعتَه للفَساد .

٣ — إذا ما تَراخَتْ ساعَةٌ فاجعَلَنَّها لِخَيْرٍ فإنَّ الدَّهْرَ أعْصَلُ ذُو شَغْبِ

٤ — فإنْ يَكُ خَيْرٌ أو يكُنْ بعْضُ راحَةٍ فإنَّكَ لاقٍ مِن غُمُومٍ ومن كَرْبِ

قوله : « إذا ما تراخت ساعة فاجعلنّها » فى طريقته ما أنشده ابنُ الأعرابىّ :

إذا كانَ يَوْمٌ صالِحٌ فاقبلَنَّهُ فأنتَ على يَوْمِ الشَّقاوَةِ قادِرُ

(١) ل : « تحية الشرب » .

(٢) ل : « الرشاد والسداد » .

وقوله « فإنَّ الدَّهرِ أَعْصَلُ » ، العَصَلُ : اعوجاج الأنياب. قال الخليل : ولا يقال أعصلُ إلَّا لكل معوجٍّ فيه صَلابةٌ وكَزَازة . والمعنى : أنَّ ما يَعَضُّ عليه الدَّهرُ لا يمكن انتزاعُه منه ، كما لا يمكنُ انتزاع الشَّىء من الناب التى فيها عَصَلٌ . والشَّغْبُ : تهييج الشَّرّ . ويقالُ : رَجُلٌ مُشْغَبٌ .

وقوله « فإنْ يكُ خيرٌ أو يكنْ بعضُ راحةٍ » ، يريد أنَّ الدهر لا تصفُو أحوالُه من الكَدَر ، ولا عطاياه من التَّعبِ والأذى ، فلا تُعِنْه على نَفْسِك ، واجتهدْ فى إصلاح ما يُفسِده ، وإلقاء ما يَشُقُّ منه . وقوله « فإنَّك لاقٍ مِن غُمومٍ » من زائدة على مذهب الأخفَش ، كأنَّه قال : إنَّك لاقٍ غُموماً . وسيبويه لا يَرَى زيادةَ « مِنْ » فى الواجب ، فطريقته فى مِثله أنَّه صفةٌ لمحذوف ، كأنَّه قال : إنك لاقٍ ما شئت من غُمومٍ .

٤٨٦

وقال آخر :

١ — أُحِبُّ الأَرضَ تسكُنُها سُلَيْمَى ... وإنْ كانَتْ تَوَارَثُها الجُدُوبُ

٢ — وما دَهْرِى بحُبِّ تُرابِ أرْضٍ ... ولكِنْ مَنْ يَحُلُّ بها حَبيبُ

يذكر حنينَه إلى محلِّ سُلَيمى ومكانِها ، ومَيلَه وإن كانَ قفرًا[1] متردِّدا فى الجدوبة متناهِياً أقطارُه فى اليُبوسة ، وأنَّ ذلك عَزَّ عليه لكونها به ، فأمَّا حُبُّ الأَرَضِينَ مجرَّدةً فليس من دأبه وعادتِه .

وقوله « وما دَهرِى بحبِّ تُرَاب أرضٍ » جعلَ الحُبَّ للدَّهر على طريقتهم فى قولهم : نهارُه صائم ، وليلُه قائم . والمعنى : ليس حُبُّ الأرضِين مِنِّى بِعادةٍ فى

(١) فى الأصل : « فقيراً » ، صوابه فى ل .

دهرى ، وقوله « ولـكنْ مَن يحلُّ بها حبيب » يشبه قولَ الآخر :

ألا يا بَيْتُ بالعليـــاء بَيْتُ ولَوْلَا حُبُّ أهلِكَ ما أَتَيْتُ[(١)]

يريد أنّ البيوت فى الموضع الذى جئت منه قد كَثُرَتْ ، ولـكنّى قصدْتُك لحبِّ أهلك . وقوله « توارَثُها » أى تتوارثُهَا . فحذف إحدى التاءين استثقالا . وقد مضَى مثلُه .

٣ – أعَاذِلَ لو شَرِبْتِ الخَمْرَ حَتَّى يَـكُونَ لِـكُلِّ أَنمُـلَةٍ دبيبُ

٤ – إذَنْ لَعَذَرْتِنِي وعَلِمْتِ أنِّى بِمَا أَتْلَفْتُ مَنْ مالى مُصيبُ[(٢)]

كأن عاذلةً أفرطَتْ فى لومِهِ على ما يُدمِنهُ من الشُّرب ، ويَذهَب فيه من طُرُق اللّهو ، فقال لها : لو شربتِ الخمرَ فأخذَتْ منك ، ودبَّت فى عُروقكِ ومَفاصِلِك ، وجَمعت السارَّ لكِ ، وكشفَت أنواعَ الغَمِّ عنكِ ، لعَرَفتِ من لَذَّاتها ومَنافعها ، وحُدوث الطَّرَب والجذَل فى النُّفوس لها ، واستمتاع الرُّوح بنَشوتها وقُوَاها ، ما يَبعثُكِ على بَسْط عُذرِى فى الوَلُوع بها ، والثَّبات على هواها . ولعلِمتِ أنِّي راكب ثَبَجَ الصَّواب ، وغيرُ عادلٍ عن الواجب فى إنفاق المال . معنى « لِمَا أتلفْتُ » أى من أجل إتْلافِي . ويُروَى : « بما أتلفْتُ » والمعنى أنِّي مصيبٌ بسبِبه ومِن أجْله .

---

(١) أنشده فى اللسان (بيت) شاهداً على أن البيت فيه بمعنى المرأة .

(٢) ل : « لما أتلفت » ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « بما أتلفت » .

٤٨٧

وقال أبو صَعْتَرة البَوْلانى[١] :

١ — فَمَا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تقاذَفَتْ ... به حِسَنُ الجودِيِّ واللَّيلُ دَامِسُ[٢]

٢ — فلمَّا أقرَّتْهُ اللِّصاب تنفَّسَتْ ... شَمَالٌ لأعْلَى مائِهِ فهو قارِسُ[٣]

٤ — بأطْيَبَ مِنْ فِيها وما ذُقْتُ طَعْمَهُ ... ولٰكِنَّنِي فيما تَرَى العَيْنُ فارِسُ

قوله « حِسَنُ الجُودىّ » رواه البَرْقىّ : « به حُزَنُ الجُودىّ » ، وكثيرٌ من الناس يرويه : « به جَنْبتَا الجُودىِّ » . وقيل فى « حِسَنِ الجُودىّ » : إنّه قطعةٌ متَّصلة بالجُودى ، والجُودىّ : جبل . وقال صاحب العين : حِسَنُ : اسم رملٍ لبنى سعد[٤] . وذكر البَرْقىّ أن الحَزْنَةَ والحَزْنَ من الأرض والدَّوابّ : ما فيه خُشونه ، والفعل منه حَزُنَ حُزونةً ، ورجل حَزِنٌ : شَرِسٌ ، وقومٌ حُزُنٌ . ومن روى : « به جَنْبتَا الوادى » فالمراد به الـكَنَفُ والنَّاحية . وبعضُهم استدلَّ على أنّ قولَ النَّاس : فُلانٌ فى جَنَبَةِ فُلانٍ ليس بشىء ، وإنما الصواب فى جَنْبةِ فُلاَنٍ ، بسكون النون ، استدلالاً بهذا البيت .

وقد روى الأصمعىّ :

* والنَّاسُ فى جَنْبٍ وكُنّا جَنْباَ *

فيقول : ما ماءٌ اجتمع من حَبِّ مُزْنٍ — وهو البَرَدُ ، لأنّ المُزْنَ اسمٌ يجمع

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٣٣ . وهذه المقطوعة من بحر المقطوعة ورويها ، فلعلهما من قصيدة واحدة .

(٢) هذا ما فى ل وياقوت (٢ : ٢٧٩) ، وفى الأصل : « جنبتا الجودى » .

(٣) ل : « لأعلى متنه » .

(٤) ياقوت : « حسن ها هنا : جمع حسنة ، وهى مجارى الماء » . وضبطت الحسن فيه بكسر ففتح كما فى النسختين هنا ، وضبط فى اللسان بفتحتين فى الجمع والمفرد .

(٥) فى اللسان : « الأصمعى : الحزن : الجبال الغلاظ ، الواحدة حزنة — أى بالضم — مثل صبرة وصبر » .

أنواعَ السحاب ، فهو كالغَيْم — ترامَتْ به جوانبُ هذا الجبلِ واللَّيلُ مظلمٌ إلى أنْ زالَ رَنَقُه ، وانقطَع كَدَرُه . وخبر « ما » قوله « بأطيب » . ثمَّ وصَفَ الماءَ بأنه لمَّا حصَل فى القرارات بعد تقطُّعِه بنَضَد الحجارة ، وجَوانب المَذانبِ والأودية ، فزال عنه أكثرُ شَوْبِه ، هَبَّتْ عليه شَمالٌ ليِّنَةٌ فصَفَّتْهُ وبرَّدَتْه . يريدُ : ما ماء ساريةٍ بهذه الصِّفة بأعذبَ مِن رُضاب فَمِ هذه المرأةِ ، ولا أقولُ هذا عن ذَوَاقٍ واختبار ، ولكن عن صِدقِ فِراسةٍ ، واعتبارِ مُشاهَدة .

وفى طريقته قول الآخر(١) :

يا أطْيَبَ النّاسِ رِيقاً غَيْرَ مُخْتَبَرٍ إلّا شهادَةَ أطرافِ المَساويكِ

واللِّصاب : جمع لِصْب ، وهو شقوقٌ فى الجبل . والقارس : البارد . وقوله « فارس » أراد به المتفرِّس . ويقال : هو فارس على الخَيل بَيِّن الفُروسَة(٢) ، وإذا كان يَتفرَّس فى الأشياء ويُحْسِن النَّظرَ فيها قاتَ : هو فارسٌ بيّن الفِراسة . والدَّامِس : المُظْلِم ، ويقال : دَمَس ، أى أظلَمَ ؛ وأتيتُه دَمَسَ الظَّلام .

٤٨٨

وقال الحارث بن خالدِ المخزومى(٣) :

١ ــ إنِّى وَمَا نَحَرُوا غداةَ مِنًى عِنْدَ الجِمَارِ تَؤُودُها العُقُلُ

٢ ــ لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنِها سِفْلاً وَأَصْبَحَ سِفْلُها يَعْلُو

---

(١) هو بشار بن برد . أمالى القالى (١ : ٢٢٨) والأغانى (١٨ : ١٩٢) .

(٢) ل . « الفروسية » ، وهما سيان .

(٣) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن كعب بن لؤى بن غالب : وهو أحد شعراء قريش المعدودين الغزالين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة لا يتجاوز الغزل إلى المديح والهجاء ، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب ، وولاه عبد الملك بن مروان مكة . الأغانى (١٨ : ٩٧ – ١١١) .

٣ ـ لعَرَفْتُ مَغْنَاها لِمَا ضَمِنَتْ   مِنِّى الضُّلوعُ لأهلِها قَبْلُ

أقسَمَ بالقرابين التى ينحرها الحجيج عند المُحَصَّب غداةَ مِنًى وهى معقولة أنَّه لو غُيِّرت ديارُ هذه المرأةِ عن خِططها المعهودة ، ورسومها المشهورة ، حتى جُعِلَت أعاليها أسافلَها ، وأسافلُها أعاليَها لعَرفَ مغناها المختصَّ بها ، ومَثْواها الجامعَ لأسبابها لما انطوَتْ عليه مَحانى ضُلوعِهِ من وُدِّ أهلِها أيامَ مواصلتِها[1] ، حتى كان لا يلتبس عليه شىءٌ منها . ومعنى « تَؤُودُها » تثقلها . وجواب اليمين « لعرفت » . والمغْـنَى : المنزِل . ويقال : غنينا بمكان كذا نَغنَى به غِنًى . وجواب « لو بُدِّلَتْ » ماهو جوابُ القسَم ، وهو لعَرفْتُ .

٤٨٩

آخر[2] :

١ ـ مَرِيضَاتُ أَوْبَاتِ التَّهَادِى كأنَّها   تَخَافُ على أحشائِها أن تَقَطَّعا[3]

٢ ـ تَسِيبُ انسِيابَ الأَيْمِ أخْصَرَهُ النَّدَى   فَرَفَّعَ من أعطافه ما تَرَفَّعا[4]

التَّهادِى : المَشْى بينَ اثنين ؛ يقال : رأيتُه يُهادَى بين اثنَين ويَتَهادَى . يصفها بالنَّعمة والرِّقَّة وضعف الحركة ، لِثقَل رِدْفها ، ودِقَّة خَصرِها ، وتَرْفتها المتملِّكة لأعضائها وحواملها ، فيقول : إذا تهادَتْ بين اثنين فعطَفات حركاتها مريضة ، ونَهَضات اندفاعها بطيئة ، فكأنَّها تجذِب أعاليَها أسافِلَها ، تخاف على

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ود أهلها لها ومواصلتها » .

(٢) هو رجل من بنى سعد ، كما فى محاضرات الراغب (٢ : ١٣٩) . والبيتان رويا أيضاً فى الحيوان (٤ : ٢٥٩) ومجموعة المعانى ٢٥٩ .

(٣) الحيوان : « مريضة أثناء التهادى كأنما » .

(٤) فى الأصل : « من أعطافها » ، صوابه فى ل والتبريزى وسائر المراجع ، لكن فى الحيوان : « يرفع من أعطافه » .

خصرها التَّقطُّعَ إن تبسَّطَتْ في المشي ، أو تسرَّعَتْ في القصد .

وقوله « تسيب انسيابَ الأين » فالأينُ : الجانُّ من الحَيَّات . ويروى « الأيم » أيضاً ، وهي الحيَّة . والحَيَّةُ لا تصبر على البرد ، لأنه إذا أثر فيها يبِسَ جِرمُها فتكسَّرَت . فيقول : هي تنسابُ أي تتدافَعُ في مشيها تَدَافُعَ الحية وقد أثَّر فيها النَّدَى فخَصِرَت وأخذَتْ من جرمها وأعطافِها ما أطاعها وأمكنها . كأنّ الحية وقد خَصِرَت شَقَّ عليها ما ينالُها من خَصَر النَّدَى وبَردِه ، فهي في انسيابها تجَافَى[1] عن الأرض جُهدَها . ويقال : ساب وانساب بمعنًى واحد . وفي القرآن : ﴿وَلاَ سَائِبَةٍ﴾ . قال الدُّرَيديّ : ساب الماء ، إذا جرَى .

٤٩٠

آخر :

١ — أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها مَسَّ البُطُونِ وأن تَمَسّ ظُهورَا[2]

٢ — وإذا الرِّياحُ مع العَشِيّ تناوَحَت نَبَّهْنَ حاسدةً وهِجْنَ غَيُورَا

لفَّ في البيت الأول الخبرَين لفًّا ، ثم رمَى بتفسيرهما جملةً ، ثقةً بأنّ السامع لكلامه يرُدُّ إلى كلٍّ مالَهُ ، وذلك لأنه قال « أبتِ الرّوادف والثُّدِيّ لقمصها » ، فجمع بين ما يكون خَلْفًا وقُدَّامًا من الرِّدْف والثّدى . وهو يريد أن يصفَها بأنها ناهدةُ الثَّديين ، دقيقةُ الخصر ، لطيفةُ البَطْن ، وأنها عظيمةُ الكَفَل والرِّدْف ، فالثُّدِيُّ تمنع القُمصَ أن تلتصِق ببطنها ، والرِّدْف يمنعُها أن تلتصق بظهرها ، فبيَّنَ في التفسير في عجز البيت ما لفَّه في صَدره كما ترى .

وقوله « وإذا الرِّياحُ مع العشيّ تناوحت » ، يريد : وإذا دَنت الأُصُلُ

---

(١) ل : « تتجافى » .

(٢) البيتان في أمالي القالي (١ : ٢٣) .

وهَبَّت رياحُ الصيف ، فتقابلت ريحانِ كالشمال والجَنُوب ، أو الصَّبا والدَّبور ، وابتردت هذه ، التصقَ مِن درعها ببطنها وظهرِها ما كان يمنعُه ثديُها وردفُها قبل هُبوبها ، وظَهَر من محاسنها ما ينبِّه الحاسدَ ويهيِّج الغيور ، لأنّ ما خَفِيَ منها ظَهَر للعيون والمَناظر ، فالغيور يَكرَه ، والحاسد يتنبَّه . وقوله « وأن تَمَسَّ » جاز انعطافُه على « مَسَّ البطون » لِكونِ العامل والمعمول فيه فى موضعِه ومعناه . والبطونُ فى موضع المفعول ، لأن المصدر يُضاف إلى المفعول كما يُضاف إلى الفاعل . والبطون مع لفظ مسّ ، كظهورًا مع أن تمسّ .

٤٩١

وقال بكرُ بن النَّطّاح (١) :

١ – بيْضَاء تسحَبُ من قيامٍ فَرْعَها ... وتَغيب فِيهِ وهو وَحْفٌ أَسْحَمُ

٢ – فكأَنَّها فيه نَهارٌ ساطِعٌ ... وكأنَّه ليلٌ عليها مُظْلِمُ

وصف شعرها بالطول ، وكثرة الأصول ، فإذا قامت سحبَتْه ، وإذا أرسلته

(١) شاعر حنفى من بنى حنيفة بن لجيم ، أو عجلى من عجل بن لجيم وهما أخوان . وكان بكر بن النطاح صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر عن ذلك ، فجعله أبو دلف من الجند وجعل له رزقا سلطانيا ، وكان شجاعاً بطلا فارساً ، شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام ، وكان الرشيد قد غضب عليه فاختفى ، ولم يظهر حتى مات الرشيد ، فلما مات ظهر . وهو القائل :

أكذب طرفى عنك فى كل ما أرى ... وأسمع أذنى منك ما ليس تسمع

فلا كبدى تبلى ولا بك رحمة ... ولا عنك إقصار ولا فيك مطمع

وهو مما غنى به قديماً وحديثاً . غنته فى عصرنا « أم كلثوم » . والقائل فى غلام نصرانى كان يجن به :

يا من إذا درس الإنجيل ظل له ... قلب التقى عن القرآن منصرفا

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى ... كما تعانق لام الكاتب الألفا

الأغانى (١٧ : ١٥٣ – ١٦١) .

سترَها فتغيب فيه ، وهو مع ذلك شديد السَّواد ، مسترسِـلٌ فى جُعُودةٍ واردٌ فى جُثُولة ، فكأَنها لشدّة بياضها إذا تغشّاها ، نهارٌ يَسْطع من خَلَل الظَّلام ، وكأنّ شعَرها لشدّة سوادِه عليها ، ليلٌ مظلم تغَشَّى بياضَ نهاره[1] .

٤٩٢

آخر :

١ ــ تأمَّلتُها مُغْتَرَّةً فكأَنَّما رأيتْ بها من سُنَّةِ البَدرِ مَطْلَعَا

٢ ــ إذا ماملَأْتُ العينَ منها مَلأْتُها من الدّمعِ حتى أُنزِفَ الدّمعَ أَجْمَعا

يقول : نظرتُ إليها على غرّةٍ منها اختلستُها ، وغَفلةٍ ترصَّدْتُها ، فكأنني رأيتُ بها بدرًا طالعا . وسُنَّة البدر ، أراد وجهَه . ويقال : اغترَّ فلانٌ ، إذا فوجِئ عن غِرّة .

وقوله « إذا ما ملأت العين منها ملأتُها من الدمع » يقول : إذا تزوَّدَتْ عيني من حُسْنِها فنظرَتْ فى أعطافها ، امتلأتْ متحيِّرةً من جمالها ، كما يتحيَّر ظرفُ الماء إذا امتلأَ منه . وإنما قال « ملأتُها من الدمع » لأنه كان ينقطع[2] وُصَلُ تحمُّله ، وتنحلُّ[3] عُقَد تجلُّده ، وجْدًا بها ، وتحسُّرًا فيها . والذى يدلّ على أنّ نظرَه لم يكن عن اتِّفاق أنه قال : تأمَّلتُها مُغتَرَّةً ، ومعنى « أُنزف الدمع » أُفْنيه كلَّه . يقال : نزَفْتُ الماء وأنزفته بمعنًى واحد .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل « يغشى » .

(٢) ل : « يتقطع » .

(٣) ل : « يتحلل » .

٤٩٣

وقال كثيِّر (١) :

١ — ودِدْتُ وما تُغْنِى الوِدَادةُ أنَّنى بمـا فى ضميرِ الحاجبيَّـــةِ عالِمُ
٢ — فإنْ كانَ خيْرًا سَرَّنِى وعلِمتُه وإنْ كانَ شرًّا لم تَلُمْنِى اللَّوائمُ

يقول : تمنَّيتُ أننَّى عالمٌ بمـا ينطوى عليه قلبُ هذه المرأة لى ، وما ينفع التمنِّى إذا لم يُساعِد القَدَر . وقوله « وما يغنى الوِدَادة » اعتراضٌ بين ودِدت ومفعوله ، وهو أنَّنى . ويقال : وددتُ وَدادَةً ووِدادة ، بفتح الواو وكسرها . وقوله « فإن كان خيراً » يريد : فإن كان ما تضمره لى ودًّا صافياً ، وميلاً ناصحاً (٢) سرَّنى ذلك وسكنتُ إليه ، فلا يذهبُ ما أتكلَّفَه فى هواها باطلاً ، وإن كانَ ما تُضمره وتنطوى عليه اعتراضاً خالصاً ، وجفاءً مُرًّا ، قتلتُ نفسى وأرحتُها من لَوم اللائمات . وقوله « وعلمته » اكتفى بمفعول واحدٍ لأنَّه بمعنى عرفته .

٣ — وما ذكَرتْكِ النَّفسُ إلَّا تفرَّقَتْ فريقَين منها عاذِرٌ لى ولائمُ (٣)

يقول : ما أخطَرتُها ببالى على ما أُقاسى فيها ، ويُوافينى من اطِّراحها وزُهدها

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن أبى جمعة الخزاعى ، صاحب عزة ، وأحد فحول شعراء الإسلام . وكان غالياً فى التشيع معروفاً بالحمق ، وكان من أتيه الناس وأذهبهم بنفسه . وكان المسور بن عبد الملك يقول فيه : « ما ضر من يروى شعر كثير وجميل ألا تكون عنده مغنيتان مطربتان » . توفى كثير سنة ١٠٥ . الأغانى (٨ : ٢٥ — ٤٢) والشعراء ٤٨٠ — ٤٩٩ وابن سلام ١٢١ — ١٢٥ والاشتقاق ٢٨٠ والمؤتلف ١٦٩ والمرزبانى ٣٥٠ ، والخزانة (٢ : ٣٧٦ — ٣٨٣) وابن خلكان ، ومعاهد التنصيص .

(٢) هذا فى ل . وفى الأصل : « نافعاً » .

(٣) بعده عند التبريزى :

فريقٌ أبَى أنْ يقبلَ الضَّيْمَ عَنوةً وآخرُ منها قابلُ الضَّيم راغِمُ

إلاَّ تفرَّقَتْ نفسى فريقين : ففريق يَعذِرُنى ويقول : إنَّ مثلها فى كمالها وظَرفها وحَسَبها ومَنصبها ، وشرفها وسَرْوِها ، يَصْبِرُ على كل أذًى يَعرِض فى اكتسابها ويُعْتَلق على جميع عِلاَّتها ، احتفالاً باسمها فى العُشَّاق ، وتكثُّرًا بمكانها بين ذوى الأهواء . وفريقٌ يلومنى ويقول : إنَّك جاهِلٌ بمالَكَ وعليكَ ، مبتذِلُ الرُّوح فى هوًى من لا يُشفِقُ عليك ولا يرفق بك ، ولا يرجع إلى شىء مما تُؤْثره ، وإن امتدَّ مَدَى ذهابِها عنك . وهذا قالَه على عادةِ النَّاس فيما يَهُمُّون ، وتَرَدُّدِهم بين ما يقوِّى العزمَ عليه وبين ما يضعِفه ، فجعَلَ كلَّ واحدٍ منهما كأنَّه نفْسٌ على حِيالها .

٤٩٤

وقال أيضاً :

١ — وأنتِ التى حَبَّبْتِ شَغْبًا إلى بَدًا إلىَّ وأوطانى بلادٌ سِوَاهما(١)

٢ — وحَلَّتْ بهذا حَلَّةً ثم أصبَحَتْ بهذا فطابَ الواديانِ كلاهُما

خاطبَها فى البيت الأوَّل مُعْتَدًّا عليها بأنَّه كما آثرَها على أهلِه وعشيرتِه ، آثرَ بلادَها على بلاده ، فذكر [طرفَىْ مَحالِّها فقال : أحبُّ لك وفيك شَغْبًا إلى بَدًا ، وبلادِى(٢)] بلادٌ غيرها . ثمَّ أخبر عنها فى البيت الثانى فقال : ونزَلَتْ بهذا — يشير إلى شَغْبٍ — نَزْلةً ، ثم أصبحَتْ ببَدًا ، ففاح الواديانِ وتضوَّعا بريَّاها . ومثله قولُ الآخر :

---

(١) بعده عند التبريزى :

إذا ذَرَفَتْ عيناىَ أعتلُّ بالقَذَى وعَزَّةُ لو يدرى الطَّبيبُ قَذَاهُما

(٢) التكملة من ل .

استَوْدَعَتْ نَشْرَهَا الرِّيَاضَ فما تَزْدادُ إلاَّ طِيبًا على القِدَمِ

ومثله أيضاً :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمَانَ أن مَشَتْ به زَيْنَبٌ فى نِسْوَةٍ خَفِرَاتِ[1]

٤٩٥

وقال نُصَيْب[2] :

١ — لقد هَتَفَتْ فى جِنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ على فَنَنٍ وَهْنًا وإِنِّى لنائِمُ[3]

٢ — كذبْتُ وبيتِ اللهِ لو كنتُ عاشقاً لَمَا سبَقَتْنى بالبُكاء الحمائِمُ

هتَفَت : صاحَت . فى جُنح الليل[4] ، أى فيما مالَ من الليل . والفَنَن : الغُصْن . وَهْناً : بعد ساعةٍ من الليل . يقول : جَدَّدَتْ لى حمامةٌ بتغريدِها وَجدًا

---

(١) البيت لعبد الله بن نمير الثقفى ، كما فى اللسان (ضوع) وإصلاح المنطق ٢٨٧ . ويروى : « عطرات » .

(٢) هو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان ، كان شاعراً فحلا مقدما فى النسيب والمديح ، ونصيب هذا هو نصيب الأكبر ، القائل فى عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامره

وأما نصيب الأصغر فهو شاعر عباسى مولى المهدى ، اشتراه فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره قال : والله ما هو بدون نصيب مولى بنى مروان . فأعتقه وزوجه أمة له يقال لها جعفرة ، وكناه أبا الحجناء ، وأقطعه ضيعة بالسواد ، وعمر بعده الأغانى (١ : ١٢٥ — ١٤٥ و ٢٠ : ٢٥ — ٣٤) وابن سلام ١٤١ وياقوت (٧ : ٢١٢ — ٢١٦) والعينى (١ : ٥٣٧ — ٥٣٨) والشعراء ٣٧١ — ٣٧٤ .

(٣) بين هذا البيت وتاليه فى ديوان الحماسة بشرح الشيخ الدلجمونى :

فقلت اعتذاراً عِنْدَ ذاكَ وإنّنى لنفسىَ مما قد رأَتْه للائمُ

أأَزْعُم أنِّى هائم ذو صبابةٍ بِسُعْدَى ولا أبكى وتبكى الحمائمُ

وهذان البيتان لم يروهما التبريزى ولا المرزوقى ، فهما ليسا من صلب الحماسة ، على أن بيتى الحماسة هذين نسبا فى الأغانى (٢ : ٨) إلى المجنون ، ورواية أولهما :

لقد غردت فى جنح ليل حمامة على إلفها تبكى وإنى لنائم

(٤) الجنح بالضم والكسر ، وقد ضبط فى النسختين والتبريزى بالكسر فقط .

وصبابةً . وهى على غُصْنٍ فيما مالَ من الليل ، وإنى لساكنٌ نائمٌ ، ولو كنتُ عاشقاً وحقِّ بيتِ اللهِ لَمَا سبقتْنى الحمائم بالبُكاء ، لكنى كاذبٌ فى دعوايَ متزيِّدٌ . وهذا كلامٌ مستقصِرٍ فيما هو عليه ، مستزيدٍ لنفسه فيما يُجرِى إليه ، يصوِّرها بصورةِ المتشبِّع بما ليس فيه . وهذه الطريقة زائدةٌ على طريقة الملتذِّ بالهوى . وقوله « لَمَا سبقَتْنى » ، على عادتهم فيما يعتقدون من شَجْوِ الحمام . لذلك قال أبو تمام :

لا تَشْجَيَنَّ لها فإنَّ بكاءها ... ضَحِكٌ وإنَّ بُكاءكَ استغرامُ

وسلَكَ مسلكَ نُصَيْبٍ عدىُّ بنُ الرِّقاع فيما أظنُّ فقال :

فلَوْ قبلَ مَبْكاها بكيتُ صبابةً ... بِلُبْنَى شَفَيتُ النفس قبل التندُّمِ(١)

ولكنْ بكتْ قبلى فهاجَ لِيَ البُكَا ... بُكاها فقلتُ الفضلُ للمتقدِّمِ

وقوله « لَمَا سبقَتْنى بالبكاء الحمائم » اشتمَلَ على جواب اليمين ، وعلى جواب لو .

٤٩٦

وقال الشَّماطِيطُ الغَطَفانى(٢) :

١ — أَرَارَ اللهُ مُخَّكِ فى السُّلامَى ... إلَى مَنْ بالحَنِينِ تشوَّقينا(٣)

(١) فى الكامل ٥٠٤ ليبسك : « بسعدى شفيت » .

(٢) ذكر فى الأغانى (٢ : ٨٦) أن « شماطيط » كان معاصراً لابن ميادة . وأنشد له فى الأغانى واللسان (شمط) :

أنا شماطيط الذى حدثت به ... متى أنبه للغداء أنتبه

حتى يقال شره ولست به

وهذه الحماسية جاءت عند التبريزى غير منسوبة ، ونص إنشاده : « وقال آخر » .

(٣) التبريزى :

أرار الله نقيك فى السلامى ... على من بالحنين تعولينا

٢ — فإنِّى مِثْلُ ما تَجِدِينَ وَجْدِى ولكنِّى أَمِرٌّ وتُعْلِنِينا

٣ — وبى مِثْلُ الذى بكِ غير أنِّى أُجَالُ عن العِقالِ وتُعْقَلِينا

قوله : « أرارَ اللهُ » يخاطب ناقتَه ووجدَها تحنُّ فقال داعياً عليها : جعَلَ اللهُ مُخَّكِ رِيراً . والرِّير : الرَّقيق من المخّ . والقَصْدُ فى الدُّعاء إلى أن يجعلَها الله نِضْواً مهزولا ، وخَصَّ السُّلامَى لأنَّها والعينَ آخرُ ما يبقَى فيه المخُّ عند الهُزال . لذلك قال الشَّاعر (١) :

لا يَشتَكِينَ ألَماً ما أنقَيْنْ ما دامَ مُخٌّ فى السُّلامَى أو عَيْنْ

وقوله : « إلى مَن بالحَنِينِ تشوِّقينا » ، يجوز أن يكون إنكارًا منه على النَّاقة فى حنينها ، ويجوز أن يريدَ تفخيمَ شأنِ المشتاق إليه ، كأنَّه قال : تشوِّقيننى بحنينِك إلى إنسانٍ وأىِّ إنسان ، ويكون « مَنْ » اسماً نكرةً ، ويكون الكلام خَبرًا ، وفى الأوَّل يكون استفهاماً . وإنَّما أنكرَ ضَجَراً بها ، لأنَّه لم يدْرِ أحنينها إلى ولدٍ أو وطن أو صاحب .

وقوله : « فإنِّى مثلُ ما تجدِينَ » يجوز أن يكون « وجدى » فى موضع النَّصب ، على أن يكون بدلاً من المضمر فى إنِّى ، ويكون مثلُ فى موضع خبر إنَّ ، فكأنَّه قال : إنَّ وَجدِى مثلُ ما تجدين ، ويجوز أن يكون وجدى فى موضع الرَّفع على الابتداء ، ومثْلُ خَبَرٌ له مقدَّم ، والجملة فى موضع خبر إنّ ، كأنه قال : إنِّى وجدى مثلُ ما تجدين .

وقوله : « ولكنِّى أمِرٌّ وتُعلِنينا » يريد إنَّ عقلى يُمسِكنى ، وإن كان وَجدى مثل وَجْدِكِ وبَرْحِى مثل بَرْحِكِ ، عَن إظهار التألُّم ، وفى القلب ما فيه ، وأنت تُعلِنِينُ وتَصيحين .

وقوله : « وبى مثلُ الذى بكِ » يقول : إنّ نِزاعى مثلُ نِزاعك ، ولكنى

(١) هو الراجز أبو ميمون النضر بن سلمة ، كما فى اللسان (نقى) . والرجز فى صفة خيل .

يُؤْمَنُ منّى أن أهيمَ على وجهى ، إذْ كنتُ أضبِطُ نفسى بما أُعطِيتُ من تمييزى وإبقائى ، وأنت تُعقَلِينَ مخافَةَ أن تَندّى على وجهكِ ، إذْ لا مُسكَةَ بكِ ، ولا رِقبَةَ لكِ ، ولا حياءَ يردَعُكِ ، ولا رِعَةَ تُمْسِككِ .

٤٩٧

وقال[(١)] :

١ — ولَمّا أَبَى إلّا جِماحاً فؤادُه ولم يَسْلُ عن لَيْلَى بمالٍ ولا أهْـلِ

٢ — تَسَلَّى بأُخْرَى غيرِها فإذا الّتِي تَسَلَّى بهـــا تُغْرِى بلَيلَى ولا تُسْلِى

يقول : لمّا عَصَى قلبه وتأبَّى إلّا جِماحاً فى لَجاجته ، وخُروجا عن طاعته ، ولم تنصرفْ نفسُه عن ليلَى شُغلاً بتثمير مال ، وترقيح عيش ، ولا بإرضاءِ أهلٍ واستصلاحِ عشيرة ، أخذَ يطلبُ السُّلُوَّ عنها فى مُواصلةِ غيرِها من النِّساء وشَغْل القلبِ بحبِّها دونها ، فإذا الّتى طلبَ التَّسلِّيَ بها تبعثُ على الرُّجوع إلى لَيلى ، وتحضُّ على تَرك الإيثار عليها ، لأنَّه يَظهرُ من زيادات محاسنها ، وأنواع ما تَوحَّدت به من فضائلها ، ما يدعُو إلى التشبُّث بها ، وعِمارةِ هواها . وجواب لمّا أبى « تَسَلَّى » . والجِماح من قولهم : جَمَحَ الفَرَسُ ، إذا جرى جَرْياً غالِباً لراكبه . وقوله « فإذا التى تَسلَّى بها » إذا هى هذه التى للمفاجأة ، ومن الظروف المكانيّة لا الزَّمانية ، وما بعده مبتدأ وخبر ، فإنَّه لم يُجعَل مستقرًّا .

٤٩٨

آخر[(٢)] :

١ — عَجِبْتُ لِبُرْئِى مِنْكِ يا عَزَّ بَعْدَمَا عَمِرْتُ زماناً منكِ غَيْرَ صَحيـحِ

---

(١) التبريزى : « وقال آخر » .

(٢) التبريزى : « وقال آخر ، وهو كثير » .

٢— فإنْ كانَ بُرْءُ النَّفْسِ لِى منْكِ راحةً فقد بَرِئَتْ إنْ كان ذاكَ مُرِيحِى
٣— تجَلَّى غِطَاءُ الرَّأْسِ عَنِّى ولم يَكَدْ غِطاءُ فؤادِى ينْجَلِى لِسَرِيحِ

يقول: قضيتُ العجبَ من انصراف قلبى عنكِ، وبُرْئى من الدَّاء فيك، بعد ما بقيت زماناً مبتلَى النَّفس فى هواكِ، عليلَ القَلبِ بوجدك، مُبَرَّحاً بى حبُّكِ؛ فإنْ كان برء النَّفس يُعْقِبُ لى راحةً منكِ وفى هواكِ فقد بَرِئَتْ والرَّاحة منتظَرَةٌ، إن كانتْ من نتائجِهِ ومسبَّباته. ثم قال «تجلَّى غطاء الرَّأس» يريد شِبْتُ واستَبْدَلْتُ بلون رأسِى وسوادِ شعرى لوناً آخرَ حديثاً، فكأنَّ المتقدِّم كان كالغطاء على رأسى، تكشّف بالتَّأنِّى[1]، ولم يكَدْ ما تغشَّى قلبى من حُبِّكِ ينكشف بالهُوَيْنَى.

فإنْ قيل: فى ظاهر هذا الكلامِ تناقُضٌ، لأنَّ القائلَ إذا قال كِدْتُ أفعلُ كذا معناه شافَهْتُ فِعْلَهُ وشارفتُه، ولا يكون قد فعلَهُ؛ وإذا قال: لم يكد فُلَانٌ يفعلُ كذا، معناه يَقْرُب وقوعُ ذلك منه. فإذا كان كذلك فقد نَفَى عن نفسِه ما أثبتَه بقوله «تَجَلَّى غطاء الرَّأس»، لقوله: ولم يكَدْ غطاء فؤادى ينجلى لسريح؟ قلتَ: لو أمسك عندَ قوله «ولم يكدْ غطاء فؤادى ينجلِى» لكان الأمرُ على ماقلتَ، لكنَّه لما قال «لسريح» بَيَّن أنَّه لم يَكُنْ عن سهولة وبعجلةٍ، وقِلَّة تَعَبٍ ومشقَّةٍ، فنَفْيُه فى الحقيقة لقِلَّة التَّعب والسُّهولة لا للانجلاء، وإذ كان كذلك يكونُ الغطاء قد انجَلَى عن القلب، لكنَّه انجلَى بعد طُولِ مزاولةِ نَصَبٍ، ومقاساةِ كَمَدٍ، وعن شدَّةِ تفاقُمٍ، وبَلاءٍ مُلَازِمٍ. ويقال فى الدُّعاء للمرأةِ إذا طُلِقت عند الوِلادة: اللَّهمَّ اجعلْه سَهْلاً سَرْحاً. فالسَّراح والتَّسريح والسَّريح كلُّها فى طريقٍ واحد، وهو السُّهولة والعجَلة. ويقال: سَرَّحَهَ اللهُ

(١) ل: «بالثانى».

تعالى للخَير ، أى وفَّقَهُ له وعَجَّله . وفى المثل : « السَّرَاحُ من النَّجَاح » .

٤٩٩

وقال عُرْوَةُ بنُ أُذَيْنَةَ(١) :

١ — إلفَانِ يَعنِيهِما للبَيْنِ فُرْقَتُهُ ولا يَملاَّنِ طُولَ الدَّهرِ ما اجتَمَعَا(٢)

٢ — مُستقبِلانِ نَشَاصاً من شَبابِهِم إذا دَعَا دَعْوَةً داعِي الهَوَى سَمِعا

٣ — لا يُعْجَبَانِ بقولِ الناسِ عن عُرُضٍ ويُعْجَبَانِ بِمَا قالا وما صَنَعَا

البين يقع على وجوهٍ : أحدها أن يكون مصدرَ بان يَبين بَيْناً وبينونة . والثانى أن يكون ظرفاً ، تقول : بين القوم كذا ، وهو لشيئين يتبايَنُ أحدُهما عن الآخَر فصاعدا . والثالث أنْ يفيد معنى الوَصْلِ ، على ذلك قولُه تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُم ﴾ . ألا تَرَى أنَّ معناه تَقَطَّعَ وصلُكم ، ولا يصحُّ أن يكون المراد تقطَّع افتراقُكم ، لفساد المعنى . وعلى هذا قولهم : سَعَى فلانٌ لإصلاح ذاتِ البين من عشيرته ، لأنَّ المراد إصلاحُ الوصل لا الافتراق . والذى فى البيت هو الثالث ، لأنَّ المعنى : هما متحابّان قد أَلِفَ كلٌّ منهما صاحبَه ، والذى يُهِمُّهما ويَعنِيهما للوَصل ما يُخشَى تعقُّبه له من الفُرقة ، لخوفهما منها وفكرُهما فيها ، ولا يكتسبان

(١) هو عروة بن أذينة — وأذينة لقب لأبيه واسمه يحيى — بن مالك بن الحارث بن عمرو بن عبد الله الليثى الكنانى ، فقيه محدث ، وشاعر غزل مقدم من شعراء أهل المدينة ، روى عنه مالك بن أنس وعبيد الله بن عمر العدوى ، وكان محمد وفد على هشام بن عبد الملك ، ووقفت عليه سكينة بنت الحسين ومعها جوار لها فقالت له : أنت القائل كذا وكذا ، وأنشدت أبياتا من النسيب فقال لها : نعم . فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم قط . الأغانى (٢١ : ١٠٥ — ١١١) ، وابن خلكان فى ترجمة سكينة بنت الحسين ، والمؤتلف ٥٤ والشعراء ٥٦٠ — ٥٦٦ .

(٢) التبريزى : « تعنيهما » .

مَلَالاً من اتِّصال الاجتماع طُول الدهر . [فقوله «طولَ الدهر» يجوز أن يكون مفعول يملاَّن ، أي لا يملاَّن تطاوُلَ الوقت إذا اجتمعا ، ومدَّةَ اجتماعهما . ويجوز أن يكون طول الدهر ظرفاً ، وما اجتمعا مفعول يملاّن ، أي لا يملاّن الاجتماع طول الدَّهر[١]]. وقوله «مستقبلان نَشَاصاً» فالنَّشَاص أصلُه السَّحاب إذا ارتفعَ من قِبَل العَين حِينَ[٢] ينْشأ ويَعلو ، فاستُعير هنا لما يُقْتَبَلُ من الشَّباب وأيَّام الصِّبا واللَّهو . كأنَّه يمطرُهُما النَّشاطَ والسُّرور كما يمطِرُ السَّحابُ الغيثَ . وجعَلَ ذلك فيهما بحيثُ يسمعان قريبا دُعاءَ مُنَادِي اللَّهو ويحيِّيانه ؛ لأنّ الوقت وقتُ التَّصابى والبَطَالَة . وإلى هذا أشارَ أبو نُواسٍ في قوله :

قَدْ عَذَّبَ الحُبُّ هذا القلبَ ما صَلَحَا   فَلَا تَعُدَّنَّ ذَنْباً أن يُقالَ صَحَا

وقولُه « لا يُعْجَبَان بقَول النَّاس عن عُرُضٍ » هو من قولهم : نَظَرْتُ إليه عن عُرُضٍ ، أى عن ناحية . والمعنى أنَّه لا يُعجِبُهما من مَقال الناس وفَعَالهم شيءٌ ، ولا يأْخذ قلبَهُما وعينَيهما[٣] حديث ولا إبلاغٌ ممَّن كان عن ناحيةٍ وشِقٍّ ، لكنَّ الحُسنَ عندهما فيما يتفاوضانِه أو يتقارضانه ، والإعجاب يتعلَّق بما يصنعانِه ويؤْثِرانه[٤] ؛ إذْ كان كلُّ واحدٍ منهما قد صار فى مَلَكَةِ هَوَى صاحبه ، وفى رِفاق قَبِيلِهِ[٥] ، فلا يُبصِرُ إلاَّ بعَينه ، ولا يَسْمَعُ إلاّ بأذُنه .

(١) التكملة من ل .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « حتى » .
(٣) ل : « وعينهما » .
(٤) كذا فى ل . وفى الأصل : « ويورثانه » .
(٥) ل : « ميله » . والرفاق : مصدر رافق مرافقة ، وهو أيضا حبل للدابة يشد من الوظيف إلى العضد .

٥٠٠

وقال[١] :

١ ــ ولَمَّا بَدَا لى منكِ مَيْلٌ مع العِدَى ... سِوَاىَ ولم يَحْدُثْ سِوَاكِ بَدِيلُ
٢ ــ صَدَدتُ كما صَدَّ الرَّمِيُّ تطاولَتْ ... به مُدَّةُ الأيَّامِ وهْوَ قَتِيلُ

قال سيبويه : معنى سِوَى بَدَلَ ومكانَ تقول . عندى رَجُلٌ سِوَى زَيْدٍ ، معناه وكانَ زيد وبَدل زيد ، وعلى ما فَسَّرَهُ يكون معنى البيت : ولمَّا بدا لى مَيْلُكِ مع الأعداء بَدَلَ مَيْلِكِ إلىَّ ومكانَ مَيلكِ ، ولم يَحْدُثْ لى بَدِيلٌ مكانَكِ وعِوَضاً منك أعرضْتُ عنك إعراضَ الرمىِّ من الصَّيد المصابِ بسهم الصَّيَّاد ، وهو قتيلُه ، لأنَّ الإصابةَ عَمِلتْ عَمَلَها ، لـكنَّ المدَّةَ تطاولَتْ به ، فهو رهينٌ بإصابته . يريد : صددتُ عنكِ صدودَ يأسٍ لا صدودَ مَقْلِيةٍ ، وأنا أعلم أنَّ هواكِ قاتِلِى كهذا المرمىِّ الذى لا يُشَكُّ فى كونه قتيلاً وإن طال نَفَسُ مُهْلَتِه ، ومُدَّ من أَمَد منيَّته .

٥٠١

وقال آخر :

١ ــ أَحُبًّا على حُبٍّ وأنتِ بَخِيلَةٌ ... وقد زَعَمُوا أن لا يُحَبُّ بَخِيلُ
٢ ــ بَلَى والذى حَجَّ المُلَبُّونَ بَيْتَهُ ... ويَشْفِى الهوَى بالنَّيْلِ وهو قَلِيلُ
٣ ــ وإنَّ بِنَا لو تَعلمِين لغُلَّةً ... إليك كما بالحائمات غَلِيلُ

الألف من قوله « أَحُبًّا » لفظُه الاستفهام ومعناه التَّوبيخ . وانتصَبَ حُبًّا

(١) التبريزى : « وقال آخر » .
(٢) ضبطت « يحب » فى ل بالنصب والرفع مشفوعة بكلمة « معا » نصا على الروايتين .

بإضمار فِعْلٍ ، كأنّه قال : أتجمعين عَلَىَّ حُبًّا على حُبٍّ ، أو أتزيدينني حبًّا بعد حُبٍّ ، مع بُخلِك وإيثارِ زهدِك ، وعند النَّاس وفى أحكامِهم واعتقادهم أنَّ البخيلَ لا يكون محبوباً . كأنَّه عاتَبَها وقرَّعَها من أمر الذى بينهما ، وأنَّهما من أجْلِه فى طرَفَىْ نقيض ، وفى لونٍ من العِشْق طريف(١) ، وذلك أنَّ معاملتَها له معاملةُ من لا يتندَّى عليه ولا يرحمُه ، ولا يتسخَّى بشىء له ، وأنَّ جذْبَهَا إيَّاهُ فى الهوَى جَذْبُ مَن لا يكتفى معه بعفوه حتَّى يجهدَهُ ويزيدَه وجداً على وَجْدٍ ، وألَمًا بعد ألَمٍ . قال : هذا حَالِى معك ، وفى زَعَماتِ النَّاس أنَّ القلوبَ جُبِلَتْ على حُبِّ المحسنين الباذلين ، لا المسيئين الباخِلين ، ثمَّ استدرك فقال : بلى واللهِ المحجوجِ بيتُه ، المعظَّمِ حَرمُه ، المُداوِى من داءِ الهوى باليسير الخفيف من النَّيْل ، إنَّ البخيل ليُحبّ . ودلّ على المُقسَمِ له بقوله « وإنّ بنا لو تعلمين لغُلَّةً » وهى حرارةُ العطَش ، كما يكون غُلَّةُ الحائمات ، وهى الطُّيور التى تحوم على الماء وتدور من شِدَّة العطَش ثمّ تقعُ عليه ، وقد تكون العِطاشَ أنفسَها .

وقوله « وأنت بخيلَةٌ » الواو واو الحال . وقوله « ألاَّ يُحَبّ » إن شئت جعلت أن النَّاصبة للفعل فنصبْتَ يُحَبَّ به ، وإن شئتَ جعلتَه المخفَّفةَ من الثَّقيلة فيرتفع يُحَبُّ ، يريد أنَّه لا يُحَبُّ . ثم قال : بَلَى ، وهو جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنفْى . على ذلك قولُ الله عزّ وجل : ﴿ ألستُ بِربِّكُمْ قالُوا بَلَى ﴾ . كأنَّه قيل له مُستفهَماً منه : أيحَبُّ البَخيلُ المُمسِكُ ؟ فقال : بَلَى وأقسِمُ أيضاً ، تأكيدا .

والحجُّ : القصد . والنَّيلُ : مصدر نِلْتُه أنالُه . وقوله « لو تعلمين » كالعُذْر لها ، وقد أقامه مستعطِفاً ، يُصَوِّرُها بأنَّها لو علِمَتْ ما به كانت لا تستجيزُ ما يجرِى عليه .

---

(١) كذا فى ل . وفى الأصل : « ظريف » .

٥٠٢

وقال آخر :

١ ـ إذا كنتَ لا يُسْليكَ عَنْ مَنْ تَوَدُّهُ تَنَاءٍ ولا يَشفِيكَ طُولُ تلاقِ

٢ ـ فهل أنتَ إلاَّ مُستعيرٌ حُشَاشَةً لِمُهْجَةِ نَفْسٍ آذَنَتْ بِفِرَاقِ

يخاطبُ نفسَه متوجِّعًا لها ، ومستوحِشًا من الحالة التى مُنِىَ بها ، فيقول : إذا لم تستوفِقْ مع من تحبُّه التباعُدَ عنه ، وأَخْذَ النَّفْس بالتفصِّى منه ، لِيُورِثَك سُلُوًّا دونه ، ولم يقرِّب شفاءَك من الدَّاء فيه طولُ الاجتماع معه ، واتِّصالُ التردُّد منه ، والمريض فى العُرْف والعادة إذا اشتكى من دواءٍ عُولِجَ به نُقِلَ إلى ما يُضَادُّهُ ، فإنْ لم يُغْنِ سُلِّمَ لعلّته ، فكذلك أنتَ إذا لم ينفعْك فيما تقاسيه لا التَّنائى ولا التَّدانِى ، فما ذاك إلاَّ غَرَامٌ ، وما أنتَ فيه إلّا مستعيرُ حشَاشَةٍ ، وهى رُوح القَلْبِ ، ورمَقٌ من حياة النَّفس وقد آذنَتْ بالمفارقة . والمُهْجة : خالِصَةُ النَّفس ؛ ومنه لَبَنٌ أُمْهُجَانٌ .

٥٠٣

وقال عبدُ الله بن الدُّمَيْنَة(١) :

١ ـ أَلاَ يا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ من نَجْدِ فقد زادنى مَسْرَاكِ وَجْدًا على وجدِ(٢)

٢ ـ أَأَنْ هتفَتْ وَرْقاءُ فى رَوْنَقِ الضُّحَى على فَنَنٍ غَضِّ النَّباتِ من الرَّنْدِ

٣ ـ بَكَيْتَ كما يَبْكى الوَليدُ ولم تَزَلْ جَلِيدًا وأبديْتَ الذى لم تكُنْ تُبْدِى

الصَّبا : القَبول . يقال : صَبَتِ الرِّيح تَصْبُوا صُبُوًّا . ومتى هِجتِ ، أى متى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) التبريزى : « لقد زادنى » .

ثُرْتِ واهتَجْتِ . يقال : هاجَ الفَحْلُ والرِّيحُ هِيَاجًا . وهم يخاطبون الرِّيحَ والبَرْقَ إذا كانا من نحوِ أرضِ المحبوب . فيقول : متى اهتَجْتِ من أرضِى نَجْدٍ[1] فقد زادنى سَيْرُكِ شوقًا ، وجَدَّدَ لى هُبُوبُكِ على ما كنتُ أكابِدُه من الوَجْدِ وَجْدًا .

وقوله « أأَنْ هتَفَتْ » يخاطبُ نفسَه مبكِّتًا فيقول . ألأَنْ صاحت حمامةٌ ورقاء فى أوَّل الضحى واقِعةٌ على غُصنٍ غَضٍّ من شجر الرَّنْد بكَيْتَ بكاءَ الصَّبىِّ إذا أعياه مطلوبُه ، وأظهَرتَ العجزَ عمَّا حُمِّلتَه ، وعَهْدُ الناسِ بك فيما مضى من أيّامك ولم تزَلْ ثابتَ القَدَمِ فيما ينوبُك ، دائمَ الصبرِ على بلواكَ ، إنَّ هذا منكَر .

٤ ــ وقد زَعموا أنَّ المُحِبَّ إذا دَنَا ... يَمَلُّ وأنَّ النَّأْىَ يَشْفِى من الوَجْدِ

٥ ــ بكُلٍّ تَدَاوَيْنا فلم يَشْفِ ما بِنَا ... على ذاكَ قُرْبُ الدَّارِ خيرٌ من البُعْدِ

٦ ــ على أنَّ قُرْبَ الدارِ ليس بنافعٍ ... إذا كان مَن تهواهُ ليس بذى ودٍّ[2]

يقول : زعم الناسُ أنَّ الاستكثارَ من المحبوب والتَّدانىَ منه يُكسِب المحِبَّ مَلالاً ، وأن الاستقلال من زيارته والتَّنائىَ عن محلِّه ودارِه يُنتج له سُلُوًّا ، فداويتُ بكلٍّ واحدٍ من ذلك فلم ينجَع ؛ إلاَّ أنه على الأحوال كلِّها وجدتُ قُرْبَ الدار منه خيراً من بعدها عنه ، لِمَا تُوَسوِس به النفسُ فى الوقتِ بعد الوقت من طَمَعٍ فيه ، ولتَطَلع المجاورين له ، وتجدُّدِ الحديث عنه ، إلى كثير مما يُعْدَم فى البِعاد . ثمَّ رَجَع فيما أعْطَى فقال : علىَ أنَّ تقارُبَ الدِّيار لا يكاد

(١) هذا ما فى ل ، على الجمع ، وفى الأصل : « أرض نجد » .

(٢) هذا ما فى ل ، وهو ما يتساوق مع الشرح ، وفى الأصل والتبريزى : « ليس بذى عهد » .

ينفع إذا كان المحبوب لا وُدَّ له ، ولا مَيْلَ له . ويُرْوَى : « ليس بذى عهد » ، أى لا يبقَى على ما عُهِد عليه .

٥٠٤

آخر :

١ ــ إذا ما شئتْ أن تَسْلَى خليلاً   فأكثِرْ دونَهُ عَـدَدَ الليالى

٢ ــ فما سُلِّى خَليلَكَ مِثْلُ نَأْيٍ   ولا بَلِّى جَـدِيدَكَ كابتذالِ

معناهما ظاهرٌ بما تقدَّم ، ويقال : سَلِيتُ ، بمعنى سلوت . قال :

* لو أَشربُ السُّلوانَ ما سَلِيتُ [1] *

٥٠٥

وقال آخر :

١ ــ أَلاَ طَرَقَتْنا آخِرَ الليلِ زينبُ   عليكِ سَــلامٌ هَلْ لِمَا فاتَ مَطْلَبُ

٢ ــ وقالت تَجَنَّبْنا ولا تَقْرَبَنَّنا   فَـكيفَ وأنتم حاجَتى أَتَجَنَّبُ

يقول : أتَتْنا هذه المرأةُ سَحَرًا فقلتُ مسلِّما عليها : عليكِ سلامُ الله هل لما فاتَ من أيَّام الوِصال والإقبال على الإحسان مَطلبٌ لى فأسأله [2] . فقالت لى مجيبةً : جانِبْنا ولا تَدْنُوَنَّ منَّا . فقلتُ : أنَّى يكونُ منى مجانبةٌ وأنتم فى الدنيا حاجتى ومُناىَ ، ولا اختيارَ مع الضرورة ، كما أنه لا غنَى عن الفاقة . هذا هو ظاهرُ الكلام . وقد رأيتُ من يفسِّره على أن المراد بآخر الليل آخرُ أيَّامِ

(١) لرؤبة فى ديوانه ٢٥ واللسان (سلا) .

(٢) كلمة « الإحسان » ليست فى ل .

الشباب . وكان يَروِى : « عليكَ سلامٌ » بفتح الكاف ، ويجعل الخطاب والتسليم من المرأة للرَّجل ، ويقول : إنما حَيَّتْهُ بتحيَّة الموتى لتولِّى أيّامه ، وتناهِى عُمْرِه ، وقولُها « هل لِمَا فات مَطْلب » من كلامها معاتبةٌ ، كأنها أنكرَت التعرُّضَ لها وقد فاتَه دالّةُ الشَّباب ، وشَفاعةُ النَّضارة والاقتبال . والأَوْلَى ما قدَّمْتُه .

٣ ــ يقولون هَلْ بعد الثَّلاثين مَلْعَبٌ فقلتُ وَهَلْ قَبْلَ الثَّلاثين مَلْعَب (١)

٤ ــ لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيبِ إِنْ كنتُ كُلَّمَا بَدَتْ شَيْبَةٌ يَعْرَى من اللَّهْوِ مَرْكَبُ

المضمَر فى « يقولون » المتعصِّبون للمرأة والنَّاس . يريد : عيَّرونى بتعاطِى الصِّبا واللَّهْوِ واللعب ، بعد تَقَضِّى الثلاثين من أيَّام عمرى فقالوا : هل بعد الثَّلاثين ملعب ، أى لا ينبغى اللَّهوُ لمثلك . فقلت لهم : وهل قبلَ الثَّلاثين ذلك . والمعنى أنَّ مَن عَدَّ ما دون الثلاثين فهو فى عداد الصِّبيان ، لا يعرف اللّذات ، ولا يصلُح للبَطالات . ويجوز أن يكون المراد : وهل تَسهَّلَ لى قبل الثَّلاثين شىءٌ مِنْ مَبَاغِى اللَّهو واللّعب فيُذكَرَ منِّى طلبى إيّاه بعده .

وقوله : « لقد جَلَّ خَطبُ الشَّيب » لقد جوابُ يمين مضمَرة ، ولك أن تروى « أنْ كنتُ كلَّما » والمعنى لأن كنتُ كلَّما . ولك أن تكسِر الهمزة فتكون إنْ المفيدة للشَّرط ، والمراد : إن كنتُ كلّما بَدَت فى رأسى لُمْعَةٌ من الشَّيب يلزم منها أن أعرِّىَ مَرْكَباً من مراكب اللَّهو ، فلقد عظُمَ خَطْبُ الشَّيبِ ، ويكون جوابُ إنْ فى قوله « لقد جَلَّ خَطْبُ الشَّيب » ، وكلَّما فى موضع الظَّرف .

(١) البيت وتاليه فى عيون الأخبار (٤ : ٥٣) .

٥٠٦

وقال كُثَيِّر[1] :

١ — وَأَدْنَيْتِنِي حَتَّى إذا ما فَتَنْتِنِي بِقولٍ يحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطِحِ[2]

٢ — تَنَاهَيْتِ عَنِّي حينَ لَا لِيَ حِيلَةٌ وغادَرْتِ ماغادَرْتِ بينَ الجوانِحِ[3]

يقولُ : توفَّرتِ عَلَيَّ ولَطَفْتِ لِيَ المقالَ والفعال ، على تَطَلُّقٍ من وجهكِ ، وهَشاشةٍ ظاهرةٍ منكِ ، حتى أوقَعْتِنِي فى حِبالتك ، وخَبَّبْتِ[4] قلبى بكلامٍ يقرِّب البعيد ، ويسهِّل العسير ، ويُؤْنس النافر ، ويُطْمِع اليائس ، فلمَّا استكملَ مرادُكِ فىَّ ضممتِ أطرافَكِ إليك ، وقبضتِ ما انبسَط من أمَلى فيك . والعُصْم : جمع أَعْصَمَ وعَصماء ، وهى الوُعول الجبليَّة التى فى قوائمها بياض . وجواب « إذا » تناهيتِ عَنِّى . والمعنى : بعد ما كَسَبْتِنِي خَبالاً ، وجَلَبْتِ على عقلى وقلبى فساداً ، كَففتِ عنِّى ، وتباعدتِ منِّى وقتَ أعْيَتْنِي الحِيلُ فى الانفكاك ، وتأبَّى تمازُجُ الهوَى وتلاصُقُه من الانسلاخ ، وتركْتِ بين جوانحى ما تركتِ من وجدٍ متصل ، وحزن دائم .

فإن قيل : إنَّ كثيِّرا عَلَمٌ فى النَّسيب ، فلِمَ لم يرضَ بإظهار التَّوجُّع من المعامَلة ، والتَّألُّم من التهاجر والقطيعة ، حتَّى اعتدَّ على صاحبته ذنباً . ونَسَبَ إليها

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٣ ص ١٢٨٧ . والبيتان نسبا فى الأغانى (٢ : ١٤) إلى المجنون .

(٢) التبريزى : « إذا ما ملكتنى » . وفى الأمالى (٢ : ٢٢٨) : « إذا ما استبيتنى » والأغانى (٢ : ١٤) : « إذا ما سبيتنى » .

(٣) القالى : « توليت عنى حين لا لى مذهب » . الأغانى : « تناءيت عنى » « وخلفت ما خلفت » .

(٤) خببت ، من التخبيب ، وهو الخدع . وفى الأصل : « خيبت » صوابه فى ل .

خِيانة ووِزْرًا ؛ لأنَّ الذى وَصَفَ من افتتانها فى افتتان الرِّجال ليس من شأن العفائف ؟ قلتَ : إنَّ كثيِّرا لم يصِفْ صاحبتَه إلاّ بصفة العفائف . ألم تسمع قول الآخر :

بَرَزْنَ عفَافًا واحْتَجَبْنَ تَسَتُّرًا ... وشِبْنَ بقولِ الحقِّ منهنَّ باطِلُ
فذُو الحِلْمِ مُرتابٌ وذو الجهلِ طامِـعٌ ... وهُنَّ عن الفحشاء حِيدٌ نَوَاكِلُ
كَوَاسٍ عَوَارٍ ، صامتاتٌ نواطِقٌ ... بِعَفِّ الـكلام ، باذلاتٌ بواخِلُ

فتأمَّلْ ما قالَه فإنَّه غايةٌ فى استقامة الطَّريقة ، وإن هَلَـكَتْ نفوسٌ ، وخُبِّلت عقول .

وحُدِّثت عن أبى حاتمٍ عن الأصمعىّ عن أبى عمرو بن العلاء ، عن راويةِ كثيِّر[1] قال : كنتُ مع جرير وهو يريد الشَّام ، فطَرِب فقال : أنشِدْنى لأخى بنى مُلَيْحٍ[2] ، يعنى كثيِّرا ، فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله : وأدنيتنى حتى إذا ما فتنتِنى ، الأبيات ، قال جرير : لولا أنه لا يَحسنُ بشيخ مثلى النخير لنخرت حتى يسمع هشام على سريره .

٥٠٧

وقال آخر :

١ـ تعرَّضْنَ مَرْمَى الصَّيْدِ ثم رَمَيْنَنَا ... مِنَ النَّبْلِ لا بالطَّائشاتِ الخَوَاطِفِ
٢ـ ضعائفُ يقْتُلْنَ الرِّجالَ بلا دَمٍ ... فيا عَجَبَـا للقاتلاتِ الضَّعائفِ
٣ـ ولِلعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلادِ ولم يَقُدْ ... هَوَى النَّفْسِ شىءٌ كاقتياد الطَّرائف[3]

قوله « مَرْمَى الصيد » ، موضعه نصبٌ على الظرف ، أى تعرَّضْن لنا وبيننا

(١) وكذا فى أمالى القالى (٢ : ٢٢٨) بدون تعيين له .
(٢) مليح ، كزبير : حى من خزاعة . القاموس (ملح) ، ونهاية الأرب (٢ : ٣١٨) .
(٣) البيت فى الحيوان (١ : ١٧٠) .

وبينهنَّ غَلْوَةُ سَهْمٍ ، فِعلَ المتعرِّض للصَّيد إذا أراد رَمْيَهُ . ويُرَاد بالصَّيد المَصِيد ، كما يُرادُ بالخلق المَخْلُوقُ . وقوله « ثُمَّ رمينَنا من النبل » ، يريد : ثمَّ نظَرْنَ إلينا وعَرَضْنَ محاسنَهنَّ علينا ، وتلك نبالُهنَّ التى لا تخِفّ فتعْدِلَ ، ولا تَخْطَف فتَقصُرَ . والخاطِفُ من السِّهام : الذى يقعُ على الأرض ثم يحبو إلى الهَدَف كأنَّه يخطَفُ من الأرض شيئاً . والطَّائش : الخفيف الذى لا يستقيم ؛ ومنه الطَّيْش والطَّيَّاش ، كأنه يُرَى لخفته عادلا عن سواء السبيل . ومفعول رمينَنا الثانى محذوف كأنَّه قال : رميننا لا بالطَّائشات ، ولكن بالصَّائبات النَّاقرات . والنَّاقر : الذى يَنْقُر الهدَف .

وقوله «ضعائف يَقْتُلن الرِّجال بلا دَمٍ» يريد بلا تِرَةٍ وذَحْلٍ . والضَّعف الذى أشار إليه يريد فى الخِلقة والخُلُق ، أى يقتُلْن الرِّجال وإن ضَعُفْن عن جِذابهم كَيْدًا وفِعْلا . ثم قال : يا عَجَبًا لمن يقتل القوىَّ على ضعفه . ويا عجبا يجوز أن يكون على طريق النُّدبة ، ويكون منادًى مفردًا أُلحق به الألف ليمتدَّ به الصَّوت ، ويدلَّ على فرط الشَّكْو . ويجوز أن يكون مُنادًى مُضافًا ففرَّ من الكسرة وبعدها ياءٌ فانقلبت ألفا . واللام من قوله « للقاتلات » هى التى تفسَّر بأنَّها لام العِلَّة ، كأنَّه عَلَّلَ تعجُّبَه بقوله للقاتلات ، فارتفع ضعائف على أنَّه خبر مبتدإ محذوف .

وقوله « وللعَيْنِ مَلْهًى فى التِّلاد» ، يُريد أن للعين لهوًا وراحةً إذا نظرَتْ فى التِّلاد الرَّائق المعجِب — والتِّلاد : ما قدُم مِلْكُهُ — ولم يَجْذِب هوَى النَّفس شىءٌ كما يجذبُه الطَّرائف ، وهى المستحدثات ، وهذا كما يقال : « لكلِّ جديدٍ لذَّة » وما أشبَهه . وقاد واقتادَ بمعنًى واحد ، والمَلْهَى كما يجوز أن يراد به الحَدَث ، وهو اللَّهو ، يجوز أن يُراد به موضع الحدَث ووقتُه .

٥٠٨

وقال آخر :(١)

١ ــ لَئِن كان يُهْدَى بَرْدُ أنيابها العُلَى لَأَفْقَرَ مِنِّى إنّنى لفقيرُ

قوله «يُهْدَى» يجوز أن يكون من الإهداء الإتحاف، ويجوز أن يكون من الهِدَاء الزِّفاف. وقوله «أنيابها العُلَى» يرادُ به الشَّريفةُ العالية الشّأن. ويجوز أن يُراد بالعُلَى الأَعالِي من الأسنان، لأنها موضع القُبل. ويعنى ببَرْد الأسنان عُذوبةَ الرُّضاب عند المذاق. وقوله «إننى لفقيرٌ» فعيل بناء المبالغة، ولا سيَّما إذا أُطْلِق إطلاقاً، فلا يقال فقيرٌ إلى كذا وكذا فيُخصَّص. والمعنى: إن كان يتربَّص بمتَّسِق مَضْحَكِها، وواضح مُقَبَّلِها، وطيِّب رُضابها، وبَرْدِ أسنانها، لمن هو أفقرُ منِّى إليها، فإنّى الفقيرُ مطلقاً. والمعنى: لاغايةَ وراءَ فقرى. ومما يَجرى مجرى فقيرٍ إذا أُطْلِق، قولُهم سقيم. ألا ترى قول الآخر(٢):

لئن لَبَنُ المِعْزَى بماءِ مُوَيْسِلٍ بَغانِيَ داءٌ إننى لَسَقيمُ(٣)

يريد المتناهى فى السَّقَمِ حتى لا غايةَ وراءه. وأفقَرُ، كأنه بُنِى على فقُر المرفوضِ فى الاستعمال. وإنما قلت هذا لأنّ فقيراً كان حُكْمُه أن يكون فعله على فَقُر، ولم يجئْ منه إلاَّ افتقر. وشرْط فعل التعجُّب وما يتبعُه من بناء التفضيل أن لا يجىءَ إلاَّ من الثُّلاثىِّ فى الأكثر، وما كان على أفعل خاصَّةً، وإذا كان كذلك فأفقَرُ لا يصحُّ أن يكون مبنيًّا على افتقر ولكن على فَقُر؛

(١) هو عبد الله بن الدمينة. ديوانه ٢٥ ــ ٢٦.

(٢) هو واقد بن الغطريف الطائى، أو زيادة بن بحدل الطربى الطائى، كما فى معجم البلدان (٨ : ٢٠٣).

(٣) قبله: يقولون لاتشرب نسيئاً فإنه إذا كنت محموما عليك وخيم

فهذا طريق . ولك أن تقول : بُنِيَ منه على حذف الزَّوائد ، كما جاء : ريحٌ لاقِحٌ والمراد مُلْقِحٌ ، وما أشبهه .

٢ — فما أكثَرَ الأخبارَ أن قد تزَوَّجَتْ فَهَلْ يَأْتِيَنِّي بالطَّلاقِ بَشِيرُ

قوله « أن قد تزوَّجَت » ، أراد : بأن قد تزوّجت . وحذفُ الجارِّ مع أنْ كثير ، وموضعه من الإعراب مفعول من قوله الأخبار . والأخبار : جمع خَبَر ، ووضَع خَبَرًا موضع الإخبار ، كما يوضع الطاعة موضع الإطاعة ، ثم عدّاه وهو مجموع ، ومثله :

* مَواعيدَ عُرْقُوبٍ أخاهُ بيَثْرِبِ[1] *

ألا تراه أنه انتصَب أخاه عن جَمعٍ وهو مواعيد . ومعنى البيت : كثُرَ في أفواه الناس الإخبارُ بتزوُّجها ، واشتغالِها ببعلها عن غيرِه ، فهل يأتيَنِّي مبشِّرٌ بتطليقها . وهذا ليس باستفهامٍ وإنما هو تمنٍّ .

٥٠٩

وقال آخر[2] :

١ — يُقِرُّ بعيني أن أرى رَمْلَةَ الغَضَى إذا ما بَدَت يومًا لعَيْنِي قِلالُها[3]

---

(١) البيت للأشجعي ، كما في أمثال الميداني (مواعيد عرقوب) . وصدره :

* وعدت وكان الخلف منك سجية *

وأنشد في الأغاني (١٥ : ١٤٤) للشماخ :

وواعدني ما لا أحاول نفعه مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وعرقوب هذا رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله ، فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة فقال : دعها حتى تصير بلحاً . فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً . فلما زهت قال : دعها حتى تصير رطباً . فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً . فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها ولم يعط أخاه شيئاً . أمثال الميداني .

(٢) هو أحد الأعراب ، كما في معجم البلدان (٦ : ٢٩٥) .

(٣) في معجم البلدان : « إذا ظهرت يوماً » .

٣ـ ولستُ وإنْ أحببْتُ مَن يَسكُنُ الغَضَى بِأوَّلِ رَاجٍ حاجــةً لاَ ينالُها

أضاف الرَّملةَ إلى الغضى تشهيراً لها . وقوله « يُقِرّ بعيني » ، هــذه الباء تزاد كثيراً مع أقَرّ ، والأصل يُقِرّ عَيني ، وزيدت الباء تأكيداً . تقول قَرّت عيني وأقرّها الله . وقوله « أن أرى » في موضع الفاعل ليُقِر ، والمراد : إذا بَدَت يوماً لعيني قِلالُ الغضى — وهو جمع القُلَّة وهي أعلَى الجبل — فقُرَّةُ عيني في أن أرى رمالَها أيضاً وبَطْحاواتها . ثم قال على طريق اليأس من ذلك : ولستُ بأوّلِ مَن رجا مؤمّلا . وائتمر مُقَدَّرًا ، ثم لم يحصُل منهما على طائل . يريد : ولا غَرْوَ إن كنتُ أحببتُ سُكّانَ الغضى أن يكون هذا حالي معهم . كأنه كان بين أهل الغضى وبين قومِه عداوةٌ ، أو حالةٌ مانعة من المزاوَرةِ والمواصــلة ، فلذلك قال ما قال .

٥١٠

وقال آخر[(١)] :

١ — سَلِي البانةَ الغَنَّاء بالأجرعِ الذي به البانُ هل حَيَّيْتُ أطلالَ دَارِكِ[(٢)]

٢ — وهل قمتُ في أظلالهنّ عَشِيَّةً مقامَ أخِي البأساءِ واخترتُ ذَلِكِ[(٣)]

(١) هو عبد الله بن الدمينة . والأبيات من قصيدة في ديوانه ١٥ — ١٦ مطلعها :

قفي يا أميم القلب نقض لبانة ونشكُ الهوى ثم افعلي ما بدا لك

(٢) التبريزي : « البانة الغيناء » ثم ذكر الرواية الأخرى .

(٣) بين هذا البيت وتاليه أربعة أبيات عند التبريزي ، وهي :

وهل هَمَلَت عيناىَ في الدار غُدوةً بدمعٍ كنظمِ اللُّؤلؤِ المتهالِكِ

أرَى الناسَ يَرجُون الرَّبيعَ وإنَّما ربيعي الذي أرجُو نوالُ وصالِكِ

أرى الناسَ يخشَوْنَ السِّنينَ وإنما سِنِيَّ التي أخشَى صُرُوفُ احتمالِكِ

لئن ساءني أنْ نلتِني بمساءةٍ لقد سرَّني أني خَطَرْتُ ببالِكِ

٣ — ليَهْنِكِ إمساكى بكَفِّى على الحَشا ... ورَقْرَاقُ عينى رَهْبَةً من زِيالِكِ

سَلِي ، أصلُه اسألى فحُذِف الهمزةُ تخفيفاً وأُبقيَت حركتُها على السِّين فصار اِسَلِي ، ثم استُغنى عن همزة الوصل لتحرُّك ما بعدها فحُذفت فصارت سَـلِي . وهذا كما تقول فى الأحمر إذا خفَّفْته : لَحْمَر. ومن قال اَلَحْمَر يقول : اِسَلِي فيبْقِي ألفَ الوصل . ويروَى : « البانَةَ الغيناء » والغَنَّاء : الملتفَّة الكثيرة الورق والأغصان ، فإذا ضربتْها الريح غَنَّت[1] . وهذا كما قال الآخر :

لِلثَّرَى تحتَها سُبَاتٌ وللمـا ... ءِ خريرٌ وللغُصون غِناء

والأجرع من الأماكن : السَّهل المختلِط بالرمل. والغَيناء، هى العظيمة الواسعة ، من قولهم غان عليه كذا إذا سَتَرَ ، وبه سُمِّىَ السَّحاب الغَيْن . وإنما قال « الذى به البانُ » لأنه كان منبِتَه . واستشهَدَ بالبان على أنه هل قَضَى حَقَّ منزلِ الأحبَّة لمَّا وقف عليه ، وهل حَيَّا أطلالَه تحيَّةَ المتقرِّب إليها ، والقاضى لوازمَها ، وهل قامَ فى أظلال البانِ بها مَقامَ الضَّرير البائس ، والكسير الرّازِح ، تذلُّلاً لها ، وتلوُّماً بها ؛ وهل ذلك كلُّه عن اختيارٍ وقصدٍ أو كما اتَّفق .

ثم قال « ليَهْنِك إمساكى » كأنَّه لمَّا وقَفَ على الدار وتذكَّرَ العُهودَ فتصوَّر له ما كان دَرسَ من آياتِ هواه ، وتَجدَّدَ ما أخاقَ منها ، خشِىَ على كَبِدِه التصدُّعَ فأَمسَكَ بكفِّه على حَشَاهُ ، تثبيتاً لها وتقويةً ، وبَكَى فترقرَقَ الدمعُ فى عينِه ثم سالَ . فقال هَنَّاكَ الله ذلك كلَّه منى . وانتَصَب رَهْبَةً لأنه

---

(١) فى هامشة ل : « حاشية قال السيد الإمام أبو الرضا رحمه الله : رحم الله أبا على ، غلط غلطة ، وكيف يكون الغناء من الغناء فى شىء ، وهذا من غ ن ن ، وذاك من غ ن ى . إنما هو من قولهم شجرة غناء كثيرة الأوراق ، وواد أغنّ أى كثير العشب تألفه الـ [ذبان] وفى أصواته غنة . فأما الغناء فبعيد منه » .

مفعول له . وهذا من باب التجلُّد فى الهوَى . والزِّيَال : مصدر زايَلَ . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر :

يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إلى رَبِّهِ يَدْعُو وفَوْقَ الكَبِدِ اليُسْرَى

٥١١

وقال آخر :

١ــ تَمَتَّعْ بها ما ساعَفَتْكَ ولا تَكُن عَلَيكَ شَجًى فى الصَّدرِ حِينَ تَبِينُ[1]

٢ــ وإنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللِّيانَ فإنَّها لِغيرِكَ مِن خُلَّانِها سَتَلِينُ[2]

٣ــ وإنْ حَلَفَتْ لا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَها فَليسَ لمخضوبِ البَنَانِ يَمِينُ

يصف النِّساء وأخلاقهنَّ فى الانقياد والتأبِّى إذا رُووِدْنَ ، واستعمالهنَّ الوفاء من بَعْدِ غَدْرِهِنَّ[3] ، ويُوصِى باستبقاء المقارَبة معهنَّ ، وتَركِ تدقيق محاسَبتهنَّ ، والرِّضا بالميسور من مصافاتهنَّ ، فيقول : عليك فى الاستمتاع بهنَّ مدَّةَ انقيادهنَّ لك ، وإسعافهنَّ بالمراد من جهتهنَّ ، لا يَشْجُوَنَّك تنكُّرُهنَّ لك ، وبينونتهنَّ إذا عَدَلْنَ عنك ، واعلمْ أنَّ الواحدةَ منهنَّ إذا لانَتْ لك فهى بعَرَضٍ أن تلينَ لغيرك ، فلا تعتمدْ عليهنَّ وإن حَلَفَتْ لك أنَّها تفِي وتَبْقَى على عهدها معك ، واعلَمْ أنه لا يمينَ لمثلها يُستَوثَق بها ، أو يُستَنَامُ إليها ، وفى طريقته قولُ بَشَّار :

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَبَّأَةٍ قَولٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحا

عُسْرُ النِّساءِ إلى مُيَاسَرةٍ والصَّعْبُ يُمكِنُ بعدَما جَمَحا

---

(١) التبريزى : « فى الحلق » .

(٢) ل : « فإن هى » .

(٣) فى النسختين : « من بعد وغدرهن » ، والوجه ما أثبتنا .

٥١٢

وقال العباس بن مرداس[1] :

١— قَليلةُ لَحْمِ النَّـاظِرَيْنَ يَزِينُها شبابٌ ومخفوضٌ من العيش بارِدُ
٢— أرادَتْ لِتَنْتاشَ الرِّواقَ فلم تَقُمْ إليـهِ ولـكن طَأْطَأَتْهُ الوَلَائِدُ
٣— تَناهَى إلى لَهْوِ الحديثِ كأنَّها أخُو سَقْطَةٍ قد أسْلَمَتْهُ العَوائدُ

الناظِران : عِرْقان في مَدمَع العينين : يصفها بأنَّها ليست بجَهمةِ الوجه ، لـكنَّها أَسيلةُ الخدَّين ، ويزينُها شبابٌ مُقْتَبَلٌ ، ورفاهَةٌ من العيش ودَعَةٌ ، ويقال : عيش خَفْضٌ ، وخَفَضْتُ عيشَه فهو مخفوض . والبارد : الثَّابت . ويقال : بَرَدَ لى على فُلانٍ حَقٌّ ، أى ثَبَتَ .

وقوله « أرادَتْ لتنتاشَ الرِّواق » فالانتياش : التَّناوُل . يصفُها بأنَّها مخدَّمة لا تَبتذِلُ نفسَها فى مِهْنَةٍ ، ولا فى عَارِضِ خِدْمَةٍ ، حتَّى أنَّها إذا أرادت تناوُلَ رِواق البيت — والرِّواق : ما مُدَّ مع البيت من سِتارَةٍ — لم تُترَكْ والقيامَ إليه ، ولـكن قدَّمته الولائد[2] ، وأَمْلَتْهُ لها حتَّى نظرت إلى ما وراءه ، فإذا كانَتْ فى مثل هذا تُوَدَّعُ وتُـكْفَى ، فما هو أثقَلُ منه أبْعدُ من استعمالها فيه . والطَّأطأة : خَفْض الرَّأسِ وغيرِه عن الاشتراف . ويقال للفارس إذا ضَبطَ فرسَه بفخذَيه ثم حرَّكَه للحُضْر : طأطأ فرسه .

وقوله « تَناهَى إلى لَهو الحديث » أراد أنَّها تنصبُّ من كلِّ أحوالها إلى اللَّهو ، وتنتهى إليه ، إذْ كان ما عدا اللَّهو قد كُفِيَتْ ، فهى مُنَعَّمَةٌ لا تتعلَّل

---

(١) عبارة الإنشاد هذه ساقطة من ل . وعند التبريزى : « وقال آخر ، وقيل هو عتيبة ابن مرداس » ، وقد سبقت ترجمة العباس فى الحماسية ١٤٩ ص ٤٣٣ .
(٢) ل : « قربته الولائد » .

إلاَّ باللَّعب والهَزْل ، فكأنَّها عليلٌ يُترَفْرَف عليه ويُشْفَقُ ، حتَّى يُترَكَ لا يُهِمُّه شيء ، ولا يَشغله شأن ، يعنى أنَّها فى توفُّرها على الحديث والملاهى على نَعْمتها وكَسَلها ، كذلك العليلِ فى توفُّرِه على مقاساته ما به .

٥١٣

آخر[1] :

١ – ولو أنّ ليلَى الأَخْيَلِيّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ ودونِى تُرْبَةٌ وصفائحُ[2]

٢ – لسلّمْتُ تسليمَ البشاشة أَوْزَقَا إليها صَدًى من داخل القبر صائحُ[3]

٣ – وأُغْبَطُ مِنْ لَيْلَى بما لا أَنالُهُ أَلاَ كُلُّ ما قرّت به العَينُ صالِحُ

يقول : لو أنّ هذه المرأة سلَّمَتْ علىّ وقدْ مُتُّ فحال بينى وبينها صفائح القبر ، وثَرَى اللَّحد ، لتسرَّعْتُ إلى جوابها ، وقابلْتُ سلامَها بِبَشَاشةٍ منّى لها وطلاقةِ وجه ، لتلقِّيها وإجابتها . فإنْ حصل مَنْعٌ دون المراد صاح إليها صَدًى لى من داخل قبرى بَدَل جوابٍ منِّى . وهذا على اعتقادهم كانَ ، أنَّ عِظام الموتى تصير هاماً وأصْداءً .

وقوله « وأُغبَط من ليلَى » يقول : إنِّى مَرْموق ومحسود منذُ عُرِفتُ بلَيلَى وإنْ لم أَنَلْ منها مطلوبا ، ولا حَصَّلْتُ من الشَّقاء بها طائلاً . ثم قال : « ألاَ كلُّ

(١) هو توبة بن الحمير ، كما صرح التبريزى . والأبيات بهذه النسبة فى الحيوان (٢ : ٢٩٩) وأمالى القالى (١ : ١٩٧) والأغانى (١٠ : ٧٧) . وهو توبة بن الحمير بن حزم ابن كعب بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ، من شعراء الدولة الأموية ، وأحد عشاق العرب . الأغانى (١٠ : ٦٣ – ٧٩) والاشتقاق ١٨٢ والمؤتلف ٦٨ ، ٩٣ والخزانة (٣ : ٣١ – ٣٤) والعينى (١ : ٥٦٩ – ٥٧١) واللآلئ ١١٩ – ١٢٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ والأمالى (١ : ٨٦ – ٨٩) وفوات الوفيات والشعراء ٤١٢ – ٤١٥ .

(٢) الحيوان : « جندل وصفائح » .

(٣) التبريزى ، والجاحظ ، والقالى والأصبهانى : « من جانب القبر » .

ما قَرَّت به العَينُ صالح » يريد أنى قريرُ العينِ بأنْ أذكَرَ بها وتُعرَّفَ بى دون طُلَّابِها ، وهذا القَدْرُ نافعٌ وإنْ تجرَّدَ ممَّا سِواه .

٥١٤

وقال آخر :

١ — فإنْ تَمنَعُوا لَيْلَى وحُسْنَ حَدِيثِها فَلَنْ تَمْنَعُوا منِّى البُكَا والقَوافيا

٢ — فهلَّا مَنَعتُمْ إذ مَنَعتُم حَدِيثَها خَيالاً يُوافِينى على النَّأْىِ هَادِيا

يقول : إن حُلْتُم بينى وبين ليلى ومنازعتِها الكلام ، والتأنُّسِ بحديثها ، وحَبْسِ النَّفْس على التزوُّد منها ومن مغازَلتِها ، فإنَّكم لا تقدرون على ما أنا بصددِه من البكاء لها وَجْدًا فيها ، ومن قَرْض الشِّعر فى النَّسيب بها ؛ وإذْ قد مَنعتم حديثَها والدُّنوَّ منها ، فهلَّا حبَستمْ عنِّى خيالاً عارفاً بالطَّريق على البُعد بينى وبينها ، حسَنَ الاهتداء إلى حيثُ ذهَبْتُ عنها ، يزورنى فى المنام فيُطرِّى من الشَّوق ما أخْلَقَ ، ويُعيدُ من الهَوَى ما دَرَس . وهذا الكلامُ تحسيرٌ لهم ، وتشهيرٌ بمكايدتهم[(١)] ، وتذكيرٌ بما يسوؤهم ، وإعلامٌ أنَّ العهدَ بينهما مَرْعِىٌّ ، والهوَى مِمّا يَقْدَح فيه من الجانبَين محفوظ ، بدَلالة أنَّه لو استجفاها لامتنع خيالُها ، لزوالِ نَومه ، وذَهاب هُدوِّه . ألا ترى الآخر يقول :

وكان يَزُورنى منهُ خيالٌ فلمَّا أنْ جَفَا مَنعَ الخَيالا

(١) ل : « لمكايدتهم » .

٥١٥

وقال نُصَيْب(١) :

١ — كأنَّ القَلْبَ لَيلةَ قِيلَ يُغْدَى بلَيْلَى العامِرِيَّةِ أو يُرَاحُ
٢ — قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذِبُه وقد عَلِقَ الجَناحُ(٢)

يقول : لمَّا أحسستُ باللَّيلة التى رُسِمَتْ بوقوع الفِراق فى صبيحتها ، أو فى وقت الرَّواح من غَدِها ، وتصوَّرْتُ أنَّ المتواعَدَ به حَقٌّ ، والمتحَدَّث به واقع ، صار قلبِى فى الخفقان والاضطراب كقطاةٍ وقعَتْ فى شركٍ يحبِسُها ، فبقِيتْ ليلتَها تجاذبُه والجناح عَلِقٌ لا مُتَخَلَّصَ له ، نَشِبٌ لا مُتَنَزَّع منه(٣) ، وكمِثْل ذلك قلبى قَلِقٌ فى حَشَاهُ ، غَلِقٌ عند بَلْواه .

وارتفع قطاةٌ على أنَّه خبر كأنَّ ، وعَزَّها(٤) فى موضع الصِّفة لقطاة ، يريد غَلَبها . وانتَصَبَ « ليلةَ » على الظَّرف ممَّا دلَّ عليه « كأنَّ القَلبَ » من التَّشبيه ، ولا يجوز أن يكونَ ظرفاً بقِيلَ ، لأنَّه بما بعده مضافٌ إليه ، والمضاف إليه لا يَعمل

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ . على أن الشعر نسب إلى المجنون فى الأغانى (٢ : ٣ ، ١٤) والأمالى (٢ : ٦١) والموشح ٢٥٠ . وهذه النسبة أقرب إلى الصواب . ونسب فى ديوان المعانى (١ : ٢٧٠) إلى قيس بن ذريح .

(٢) بعده عند التبريزى :

لها فرخانِ قد تُرِكا بوكرٍ فعُشُّهما تصفِّقه الرِّياحُ
إذا سمِعا هُبوبَ الرِّيح نَصَّا وقد أَودَى به القَدَرُ المتاحُ
فلا فى اللَّيل نالتْ ما تُرَجِّى ولا فى الصُّبح كان لها براحُ

نصا ، أى نصبا أعناقهما .

(٣) ل : « لا منتزع منه » .

(٤) فى الحيوان (٥ : ٥٧٧) : « غرها » بمعنى خدعها .

فى المضاف . وقوله « تُجاذِبه » والمفاعلة تكون فى الأكثر من اثنين ، فلأنّه جَعَلَ مَنْعَ الشَّرَكِ للقطاةِ من التخلُّص جذباً منه .

٥١٦

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِيّ[(١)] :

١ — رَمَتْنِي وسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَها ونحنُ بأكنافِ الحِجازِ رميمُ[(٢)]

٢ — فلو أنَّها لمّا رَمَتْنِي رَمَيْتُها ولكِنَّ عَهْدِي بالنِّضالِ[(٣)] قديمُ

رَميمُ : اسم المرأة ، وارتفع لأنّها فاعلةٌ ، وقد بُنِى على رَمَتْنِي . وأراد بِسِتْرِ اللهِ الإسلامَ . فيقول : نظرتْ إلىَّ رميمُ ، فكأنها رمَتْنى بسهمٍ ، ونحن مقيمون بأكناف الحِجاز ، والإسلامُ حاجزٌ بينى وبينها ، يمنع من مُغازلتها ومراودَتها . ومثل هذا قول الهُذَلِيّ[(٤)] .

فليسَ كعهدِ الدّارِ يا أمَّ مَالِكٍ ولكنْ أحاطَتْ بالرِّقاب السَّلاسلُ
وعادَ الفتى كالكهلِ ليس بقائلٍ سِوَى الحقِّ شيئاً واستَراحَ العواذِلُ[(٥)]

كَنَى عن الإسلام فى مَنْعِهِ عن القبائح وأنواع الفُحْش والظُّلم بالسَّلاسل فى الأغلال المحيطةِ بالأيدى والأعناق .

---

(١) هو الهيثم بن الربيع بن زرارة بن كثير بن جناب بن كعب بن مالك بن عامر بن نمير ابن عامر بن صعصعة ، شاعر راجز من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، ومدح الخلفاء فيهما جميعا ، وكان يسكن البصرة ، وكان أهوج جبانا بخيلا كذابا معروفا بذلك أجمع . قال ذات يوم : عنّ لى ظبى فرميته فراغ عن سهمى ، فعارضه والله ذلك السهم ، ثم راغ فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبارات . الأغانى (١٥ : ٦١ — ٦٢) والخزانة (٤ : ٢٨٣ — ٢٨٥) والمؤتلف ١٠٣ واللآلئ ٢٤٤ والشعراء ٧٤٩ — ٧٥٠ .

(٢) الأبيات بهذه النسبة فى الكامل ١٩ ليبسك وبدون نسبة فى الحيوان (٣ : ٤٩) والبيان (١ : ٦٨ / ٣ : ٣٢٤) . ويروى : « عشية آرام الكناس » .

(٣) يروى بينه وبين سابقه :

رميمُ التى قالت لجارات بيتها ضمنتُ لكم ألا يزالُ يهيمُ

(٤) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٥٠) والأغانى (٢١ : ٤١) .

(٥) فى الديوان : « سوى العدل شيئا فاستراح » .

وقوله « فلو أنها لمّا رمَتنى رميتُها » جواب لو محذوف ، والمراد لو تعرّضتُ لها وقابلتُها فى عَرْض محاسِنِها بمثل ما يكون للشُّبّان بمنزلة الشُّفعاء عند النِّساء ، لحَقَّ الأمرُ وكانَ القدْرُ يجرى إلى القَدْر[١] ، ولكنى قد شِخْت وكبرت ، فعهدى بمفاضلة النساء قديم .

٥١٧

وقال آخر[٢] :

١ — أَسِجْنًا وقَيْدًا واشتياقًا وعَبْرَةً ... ونَأْىَ حَبيبٍ إنَّ ذا لعظيمُ[٣]

٢ — وإنّ امرأً دامَتْ مَوَاثيقُ عَهدِهِ ... على كلِّ ما قاسَيْتَه لكريمُ[٤]

انتصَبَ « سِجْنًا » بإضمار فعل ، كأنَّه قال : أتجمَعُ علىَّ حَبْسًا وتقييدا ، واشتياقًا إلى حبيب وبكاءً ، مع بُعْدٍ بينى وبينه ، إنَّ ذلك أمرٌ منكر فظيع ، يتضايق نِطاقُ الصَّبر عن احتماله والبقاءِ معه ، وأشار بذا إلى اجتماع هذه الأشياء عليه ، ونبَّهَ على عجزه فى احتمالِها لولا كرمُ عِرْقه ، واستحكام عقْدِه . ألا ترَى أنّه تَحَمَّدَ بحاله ، واعتدَّ على حبيبه بقاءَه على العهد له . ودوامَ وُدِّهِ على اجتماع هذه الأحوال عليه ، فقال : إنَّ امرأً دامت مواثيقُ عهده ، يريد : إنَّ رجلا ثَبَتَ على أوَّلِيَّةِ شأنه ، ومبادىء مَواثيقه ، مع ما يقاسيه من تزاحُمِ هذه البلايا على قلبه ، لَكريمُ العَهدِ ، نبيهُ الشأن ، وثيق العقيدة .

---

(١) كذا ضبط فى النسختين . والقدر ، بسكون الدال لغة فى القدر بفتحها . وأنشد :

كل شىء حتى أخيك متاع ... وبقدر تفرق واجتماع

(٢) هو أحد الأعراب كما هو فى البيان (٤ : ٦٢) . ونسب فى الحيوان (٦ : ١٥٩) إلى بعض اللصوص .

(٣) الحيوان : « أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب » . البيان : « أقيدا وسجنا واغترابا وفرقة وذكر حبيب » .

(٤) التبريزى : « على مثل ما قاسيته » . البيان : « على كل ما لاقيته » . الحيوان : « على عشر ما بى إنه » .

ويُروى : « أَسِجْنٌ وقيدٌ » بالرفع ، والمراد : أتجتمع هذه الأشياء على طريق التَّفظيع والتَّهويل .

٥١٨

وقال آخر(١) :

١ — رَعاكِ ضَمانُ اللهِ يا أُمَّ مالكٍ ولَلّهُ أن يَشفيكِ أَغْنَى وأوْسَعُ(٢)

٢ — يُذَكِّرُنيكِ الخيرُ والشرُّ والذى أخافُ وأرجُو والذى أتوَقَّعُ

أشار بقوله « ضمانُ الله » إلى ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ ادْعُونى أَستَجِبْ لكُمْ ﴾ ، فقال : أنا أدعو بأن يَشفِيَكِ اللهُ عزّ وجلّ(٣) يا أُمَّ مالك ، وقد ضمِنَ الإجابةَ للداعى فرَعاكِ ضَمانُه . ثم قال : وَلَلّهُ بأَنْ يَشفِيَكِ ، فحذف حرف الجرِّ ، والجارُّ يُحذف مع أنْ كثيراً ، لأنّ حَذْفَهُ أظهرُ غَناءً وأوسع قدرةً . ونبَّهَ بهذا الكلام أنه فى كِلتِهِ الأمرَ إلى الله تعالى الغنىِّ القادر اعتَمَد على ما لا بُدَّ من وقوعه .

وقوله « يذكّرنيك الخير والشر » يريد أنه لا ينساها فى شىء من الأحوال والأوقات ، فما يتقلَّبُ فيه من خيرٍ باكرٍ ، أو شرٍّ طارق ، فهو يذكِّره ، وكذلك ما يخاف وقوعَه أو يرجوه ، ولم يَصِرْ منهما على يقين يذكِّرُه أيضاً ، وكذلك ما صار منه على يقين ، فهو يتوقّعُه ، يذكِّرُ أيضاً . وإذا تأمَّلتَ حوادِثَ الدهر وجدتَها لا تنقسم إلا إلى قسمته ، لأنها لا تخلو من أن تكون محبوبةً أو مكروهة ، أو واقعة أو منتظَرَة ، أو مَخُوفةً أو مرجُوَّةً .

---

(١) هو أعرابى من هذيل كما فى الحيوان (٧ : ١٤٨) . وفى البيان (٣ : ٣٣٠) : « وقال أعرابى » .

(٢) فى نسخة فيض الله من البيان : « أرعى وأوسع » .

(٣) ل : « جل جلاله » .

٥١٩

وقال الحكم الخُضْرِىّ (١) :

١ ـ تساهَمَ ثَوْباها فَفِى الدِّرْعِ رادَةٌ   وفى المِرْطِ لَفَّاوَانِ رِدْفُهما عَبْلُ
٢ ـ فوَاللهِ ما أدرِى أَزِيدَتْ مَلاَحَةً   وحُسْناً على النِّسوانِ أم ليس لى عَقْلُ

معنى تَساهَمَ تقاسَمَ ، ولذلك قيل : سُهْمَـةُ فُلاَنٍ من هذا كذا ، أى قسمته ونصيبه . ويجوز أن يكون أصله من السِّهام : القِداح التى تُجَالُ بين الخصوم إذا تقارَعوا ليستبدَّ كلٌّ بما يخرُج له لقِسمته وبِدَّتِه . وفى القرآن : ﴿ فَسَاهَمَ فَكانَ من المُدْحَضِينَ ﴾ ، فكأنه استعار ـ وإن كان أصلُه ما ذكرت ـ للتقاسُم ، إذ كان يُفْعَل للقَسْم وما يشبهه لا غير ، فيقول : انقسَمَ جسمُ هذه المرأةِ بين دِرْعِها وإزارِها ، ففى دِرعها بَدَنٌ ناعمٌ وخَصْرٌ دَقيقٌ ، وفى مِرْطِها فَخِذَانِ غليظتان عليهما رِدْفٌ ضخم .

وقوله « فوالله ما أدرى » يريد أنَّ الخِيْرَةَ قد مَلَـكَتْه فى أمرها ، لِمَا يَرَى من مَيْل قلبه إليها ، وشدَّة افتتانه بها ، فهو لا يَدرِى أَزِيدتْ حُسْناً ومَلاَحةً على نساء الدُّنيا كلِّها ، أم هو فائلُ الرَّأْى فى الاختيار ، مَخبُول العَقل فى الاعتبار ، ضَعيف التبصُّر ، فى الارتياد والتخيُّر . والرادَةُ والرُّؤْدة : الناعمة . واللَّفَّاء : الـكثيرة اللحم . والعَبْلُ : الضخم ، ومصدره العَبالَةَ .

---

(١) هو الحكم بن معمر بن قنبر بن جحاش بن سلمة بن ثعلبة بن مالك بن طريف بن محارب . وكان مالك بن طريف شديد الأدمة ، وكذلك خرج ولده ، فسموا الخضر ، وهم خضر محارب . وهو شاعر إسلامى ، كان معاصراً لابن ميادة ، وكان بينهما مهاجاة . الأغانى (٢ : ٩٤) واللآلى ١٦ ومعجم الأدباء (١٠ : ٢٤٠ – ٢٤٥) .

٥٢٠

آخر :

١ ــ أَأَرُوحُ ولم أُحْدِثْ لِلَيْلَى زِيارةً   لَبِئْسَ إذاً راعِى المَوَدَّةِ والوَصْلِ
٢ ــ تُرَابٌ لِأَهْلِى لا ولا نِعْمَةٌ لهم   لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أَهْلِى

كأنَّ مَن صَحِبَهُ مِن أهلِه استعجلوه عن زيارة ليلى ، فيقول مُنكِرًا ومفظِّعا : أأروحُ من غير أن أقضىَ حَقَّها ، أو أجدِّد الإلمامَ بها ، لبئس راعِى المَوَدَّةِ والمواصلةِ أنا . حذف المذمومَ ببئس لأنَّ المراد مفهوم ، ومثله فى القرآن : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، والمعنى : نِعْمَ العبد أيُّوب ، فحذفَ الممدوح بنِعْمَ ، لكون المراد مفهوما . وإذاً جوابٌ وجزاء ، وكأنَّه حَشاَ بِه الكلام ليُعْلَمَ أَنَّ مايقولُه جوابٌ لما سِيمَ . واللام من « لَبِئس » لام الابتداء ، وارتفع راعِى المودة به .

وقوله « تُرَابٌ لأهلى » دعاء عليهم ، وتحقيرٌ لهم ، واستخفافٌ بهم . وجاز الابتداء بقوله « تُرابٌ » وهو نَكِرة ، لأنَّ معنى الدعاء منه مفهوم . ومثله قوله :

* فَتُرْبٌ لأفواهِ الوُشاةِ وَجَنْدَلُ *

والمراد فى الدُّعاءِ طلبُ الذُّلّ لهم .

وقوله « لا ولا نعمةٌ لهم » يجوز أن يكون المنفى بلا الأولى حُذِف لما دلَّ عليه الكلام ، فكأنَّه قال : لأهله التُّراب لاعِزٌّ لهم ولا نِعمة . ويجوز أن يكون « لا » رَدًّا لِماَ عرضوا عليه . وهذا كما يقال للإنسان . افعلْ لفُلانٍ كذا وكذا ، فيقول : لا ولا كرامَةَ ، أى لا أفعلُ ذلك ولا أُكْرِمُ من يَسُومُنِيه . وقوله « لَشَدَّ إذاً ما قد تَعَبَّدَنى أهلى » تَعَبَّدَهُ واستعبدَه بمعنًى واحد ، أى استذلّه . و« لَشَدَّ ما » هو كما يقال : لعَزَّ ما . والمعنى الإنكارُ فيما عُرِضَ عليه ودُعِىَ إليه ، وأنهم تجاوَزُوا كلَّ حَدٍّ فى امتهانِه حين عَرَضوا عليه مثلَ ذلك . وهذا الكلامُ

مُشْتَمِلٌ على الخِلاف وقلّة الاحتفال . ويجوز أن يُجرَى شَدَّ ما ، مَجْرَى نِعْمَ وبِئْسَ .

٥٢١

وقال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِيُّ (١) :

١ — أَأَتْرُكُ لَيْلَى لَيْسَ بيني وبينَها سِوَى ليلةٍ إنِّى إذًا لَصَبُورُ

قوله « أَأَتْرُكُ » لفظه لفظُ الاستفهام والمعنى معنى الإنكار ، كأنَّه أنكرَ مِن نفسه أن يَترُكَ التَّعريج على ليلى وبينهما مسيرةُ ليلةٍ ، فقال : أُأخِلُّ بزيارتها وأداءِ واجبها مع قُربِ المسافة بيني وبينها ؟ إنِّي إذاً لَمتَنَاهٍ في الصَّبر عن الأحباب، كَسُولٌ عن البِرِّ بذوى الأذِمَّة والأسباب (٢) . وإنما قال هذا باعثًا لِصَحْبِه على مُسَاعَدَته ، وطالبا منهم تمكينَه من مراده . لذلك قال :

٢ — هَبُونى امرأً مِنكُمْ أَضَلَّ بعيرَهُ لَهُ ذِمَّةٌ إنَّ الذِّمامَ كبيرُ

٣ — ولَلصَّاحِبُ المتروكُ أعظَمُ حُرْمَةً على صَاحِبٍ مِنْ أنْ يَضِلَّ بَعِيرُ

٤ — عَفَا اللهُ عن ليلَى الغَداةَ فإنَّها إذَا وَلِيَتْ حكْمًا علَىَّ تَجُورُ

قوله « هَبُونى » معناه احسبونى واجعلونى ، وهو يتعدَّى إلى مفعولين . وحكى ابنُ الأعرابيّ : وَهَبني الله فداءَكَ بمعنى جعلني فداءك . وقوله « أَضَلَّ بعيرَهُ » يقال في الشيء الزَّائلِ عن مكانه إذا فُقِدَ : أضْلَلْتُهُ ، فإن ثَبَتَ في مكانه

---

(١) هو وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيحة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، كان رجلا جميلا شاعراً ، وكانت له جمة يرسلها فتضرب منكبيه ، وكان عفيفاً ، وقال الشعر في آخر خلافة علي بن أبي طالب ، ومدح معاوية وعبد الله ابن الزبير ، وكان ابن الزبير قد ولاه بعض أعمال اليمن . الأغاني (٦ : ١٤٩ — ١٦٥) والاشتقاق ٨١ والمؤتلف ١١٧ والشعراء ٥٩٦ — ٥٩٩ .

(٢) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحرمة والحق والعهد .

ولم يُهْتَدَ إليه قيل: ضَالَّتُهُ. وقوله «إن الذِّمَامَ كبير» كالالتفات، وقوله «أضل بعيرَهُ» فى موضع الصِّفة لامْرأً، وكذلك «له ذِمَّةٌ» صفةٌ أخرى. ومعنى منكم مِن خاصَّتكم وبطانتكم، وهو يُفيد معنى الوصف أيضاً والمعنى: أَجْرُونى مَجرى رَجُلٍ منكم نَدَّ لَهُ بعير، وله ذِمام الصُّحبةِ والنَّسَب والقرابة، فإنَّ للذِّمام حَقَّه، وحُرمةُ المرَافقةِ كبيرة، ودَعونى أَقْضِ من حَقِّ ليلى واجبَه، ولا تستعجلونى فى ذلك ولا تمنعونِى عنه، ثم قال: فإنكم إذا تركتمونى ولم توفِّرونى على ما أهُمُّ به فيما يختصُّ بى لها، كنتم تركتم رفيقاً لكم وضيَّعتُموه أشدَّ ما كان حاجَةً إليكم، والرَّفيقُ أعظم حُرمة فى صاحبه المتروكِ من ضَلَالِ بعيرٍ. يُريدُ: وإذا عُدَّ تَرْكُ الاستيناء[1] بمن أراد نِشْدَانَ ضَالَّته، تجوُّزا فى المحافَظة، وتعدِّيا فى حُكم المرافقة كان مثلُ ذلك إذا فُعِلَ مع مَن يَرُوم تجديدَ العهد برُوحه، والاستبْقاء على لُبِّه، أعظمَ فى الجناية، وأقبحَ فى الأحدوثة.

وقوله «عفَا الله عن ليلى الغَدَاة» تَشَكٍّ وتألُّمٌ من سوء معاملتها وأنها متى حُكِّمَتْ فيه وفيما يتعلق به جارَتْ ولم تُنصِف. وهذا الكلام منه إيذانٌ بأنها تستعظم الصَّغير إذا وَقَع منه، بل تَعُدُّه كبيرةً وتُغَلِّظ العقوبةَ عليها، والمؤاخذةَ بها.

٥٢٢

وقال آخر:

١ — أآخِرُ شىءٍ أنتِ فى كلِّ هَجْعةٍ وأوَّل شَىء أنتِ عِند هُبُوبِى

٢ — مَزِيدُكِ عِندى أنْ أَفيكِ مِن الرَّدَى وَوُدٌّ كَماء المُزْنِ غَيْرُ مَشُوبِ

قوله «فى كل هجعة» العامل فيه أآخر، وكذلك «عند هبوبى» العامل فيه أوَّل شىء. يقول: لا أخلو مِن ذكركِ ساعةً؛ لأنِّى إنْ نِمتُ كان خيالُك

(١) هو مصدر استأنى، أى تأنى، ولم يعجل.

سميرى مدَّةَ هجوعى، وإنْ أُوقِظْتُ كنتُ لزيمَ ذكراكِ مُدَّةَ يقَظتى ، فأنتِ فى النَّوم آخرُ شىءٍ لى ، ولا فاصلَ بينَ الحالَين . ثم قال : والذى يَزِيدكِ من عندى ألَّا أشهِّرَ بك ، ولا أبوحَ بسرِّكِ ، ولا أعلنَ النَّسيبَ باسمكِ ، إذْ كان فى جميعه تنفيرُكِ ، وتعريضُكِ للرَّدى : فضيحتِكِ ، فأنا أقيكِ من ذلك ، وأنا أُصْفى لكِ الوُدَّ حتى لا يشركك فى قلبى أحد ، فيصير ثاوى الود مشوبا ، وصافِىَ الهوى مكدَّرا ويجوز أن يكون المرادُ : مَزيدُكِ عندى أنْ أدعوَ اللهَ تعالى بالصِّيانةِ لك ، وتوفيرِ الحياطةِ عليك من كلِّ ما تكرهينه ، أو يؤدِّى إلى شَيْنِك فيما ترومينه .

والذى يشهدلقوله «من الرَّدَى» وأنَّ المرادَ به الفضيحة قولُ امرئ القيس :

صرفتُ الهوَى عنهنَّ مِن خَشْيةِ الرَّدَى ولستُ بمقِلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ

ألَا ترى أنَّه كان ملكاً لا يَخاف معارِضاً له فيما يَتعاطى من اللَّهو ، ويختارُه من الصِّبا والبَطالة مع مَن كان وفيمن اتفق ، فكيف ما يتعدَّاه مِن طلب الغوائل له ، لكنَّه عدَّ انتشارَ الحديث فيه ، وقيامَ النَّاس وقعودَهم بذكرِه هلاكا وعَطَبا .

وقوله «أن أقيك» فى موضع خبر المبتدإ وهو مزيدك ، وانعطف عليه قوله « وودٌّ كماءِ المُزْن » .

٥٢٣

وقال آخر :

١ ــ ما أَنصَفَتْ ذَلْفاءُ أمَّا دُنُوُّها فَهجْرٌ وأمَّا نأْيُها فيَشُوقُ
٢ ــ تَباعَدُ ممَّنْ واصَلَتْ فكأنَّها لآخَرَ ممَّنْ لا تَوَدُّ صَديقُ[1]

(١) التبريزى : « وكأنها » .

يقول : جارَتْ هذه المرأةُ علىَّ فى حُكم الهوَى ولم تُنْصِفْ ، لأنِّى إنْ طلبتُ التّدانىَ منها هجرَتْنى واطَّرَحتنى ، وإن رُمتُ التّنائى منها شوّقتْنى وهاجتنى ، وإذا كانت مِن مُواصِلِها مُتباعِدة ، ولمُوادِّها مُهاجِرة ، فكأنَّها تصادِقُ مُعادِيَها ، وتُخالص مُنابِذَها من دون مُواصِلِها ومقارِبها ، وهذا عَجَبٌ من مثلها .

وقوله « أمّا دنوُّها فهجْرٌ » المعنى أمّا فى دنوِّها فتهجُر . ألاَ ترى أنّه قال « وأمّا نَأْيُها فيَشُوق » كأنّه : وأمّا فى نأيها فتشوق . إلاَّ أنه جُعلَ فعلُها منسوباً إلى دُنُوِّها و نَأْيها .

٥٢٤

وقال عبدُ الرحمن الزُّهرىّ[١] :

١ — وَلَمَّا نَزَلْنا منزِلًا طَلَّهُ النَّدَى ... أنيقاً وبُستاناً من النَّوْرِ حاليا[٢]

٢ — أجَدَّ لنا طِيبُ المكانِ وحُسْنُهُ ... مُنًى فتمَنَّيْنا فكنتِ الأمانيا

جواب « لمّا » قوله أجدَّ لنا . فيقول : لمّا خرجنا إلى ظاهر محالِّنا متنزِّهين ، ونزَلْنا موضِعاً رياضُه رَكِبها الطَّلُّ باللّيل ، فتناثرَ عنها القَطرُ بالغُدُوات ، ونَباتُه شَرِقَتْ بالرِّيّ بعد الشمس ، وضاحكت الشَّمسَ بعد الشُّروق ؛ وبساتينَ تحلَّت بالأزاهير ، وتحفَّتْ مِن بركَة الله بآثار الصُّنع ، دَعَتْنا نفوسُنا إلى أن نتذكَّر لطيب المكان ، ومُساعَدة الوقتِ والزّمان ، ما يَكمُل به السُّرور ،

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الزبيرى » . وعند التبريزى : « أبو بكر بن عبد الرحمن الزهرى » . وقد سبق لأبى بكر الحماسية ٤٦٩ ص ١٢٤٥ . وأبوه عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن زهرة بن كلاب . وكان جده المسور ممن أدرك الإسلام صغيراً وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . الإصابة ٧٩٨٧ .

(٢) روى التبريزى قبل هذه المقطوعة مقطوعة أخرى لحفص العليمى ، وستأتى مقطوعة حفص العليمى هذا بعد المقطوعة رقم ٥٣٦ .

ونتمنَّى ما إليه تتناهى فى الاقتراح العُيونُ والقُلوب ، فوجدْنا الأمانىَ كلَّها لاتتعلق إلاَّ بك ، ولا تحومُ فيما تُجال فيه وتُراوَد عنه إلاَّ عليك ، ذهاباً فيك وشَعَفاً بك .

ويقال : طُلَّتِ الأرضُ فهى مطلولةٌ . والأنيق : المُعجِب . ويقال : حَلِىَ بكذا ، وتحلى بكذا .

٥٢٥

وقال مَعْدَانُ بن مُضَرِّبٍ (١) :

١ ــ إنْ كان ما بُلِّغْتِ عنِّى فلامَنِى   صَدِيقى وشَلَّتْ مِن يدَىَّ الأَنامِلُ

٢ ــ وكَفَّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا فى ردائِه   وصادَفَ حَوْطًا من أعادِىَّ قاتِلُ

قد مضى تفسيره فى باب الحماسة .

٥٢٦

وقال آخر :

١ ــ صَفَا وُدُّ ليلَى ما صفا لم نُطِعْ به   عدوًّا ولم نَسمع به قِيلَ صاحِبِ

٢ ــ فلمَّا تولَّى وُدُّ ليلَى لجانِبٍ   وقومٍ تَوَلَّيْنا لقــومٍ وجانِبِ

٣ ــ وكلُّ خَليلٍ بَعْدَ ليلَى يَخَافُنى   على الغَدْرِ أو يَرْضَى بوُدٍّ مُقارِبِ

---

(١) الذى فى معجم المرزبانى ٤٠٧ : « معدان بن جواس الكندى السكونى » . قال : له حلف فى ربيعة ، مخضرم نزل الكوفة ، وكان نصرانياً فأسلم فى أيام عمر بن الخطاب ، وقام الزبير بن العوام رضى الله عنه بأمره فدحه . وهو القائل :

ورثت أبا حوط حجية شعره   وأورثنى شعر السكون المضرب

أبو حوط هو حجية بن المضرب ، فخر بهما . ثم أنشد له المرزبانى بيتى الحماسة هذين . وقد نسبه أبو تمام هنا إلى أحد أجداده ، ونسبته فى الإصابة ٨٤٣٥ : معدان بن جواس بن فروة بن سلمة بن المنذر بن المضرب بن معاوية .

سلك فى هذا مسلكَ ذى الرُّمَّة حين قال :

فَيَا مَىَّ هل يُجْزَى بُكاىَ بمِثْلِهِ   مِراراً وأنفاسى إليكِ الزوافِرُ

وقد زَيَّفَ النُّقَّاد هذا وقالوا : ذُو الهوى لا يستدعِى مِمَّن يهواه المكافأةَ على ما يتحمله فيه ، وقد عاب ابنُ أبى عَتيقٍ على كثيّر قوله :

ولستُ براضٍ مِن خليلِى بنائلٍ   قلـيلٍ ولا راضٍ له بقليلِ

وقال : هذا كلام مُكافٍ لا كلامُ مُحِب . فقوله « وُدُّ ليلَى » يجوز أن يكون الودُّ مضافاً إلى المفعول، والمراد ودُّنا لليلى ، فينتصب موضع قوله « ما صفا » لكونه ظرفاً ، والمعنى : صفا ودُّنا لليلى مدَّةَ بقائه خالصا مما يَشُوبُهُ ويُفسِده من طاعة عدوٍ لها ، وإصغاءٍ إلى قِيلِ ناصحٍ يتنصَّحُ فيها . ويجوز أن يكون المراد : صفا وُدُّنا لليلى مدة صفاءِ وُدِّها لنا ، لحميناه من قَدْح الأعداء فيه ، والإصغاء إلى قِيل اللائمين وعَتْبِهم له . ويدل على هذا التفسير قوله مِن بَعْدُ :

فلما تولَّى وُدُّ ليـــلَى لجانبٍ   وقومٍ تولَّينا لقومٍ وجانبِ

فإن قيل : كيف زعمتَ أنَّ المعنى ما صفا وُدُّها لنا ، وقد ذكرت أنّ الوُدَّ مضاف إلى المفعول ؟ قلت : إنّ المضمر فى الثانى هو ودّ ليلى ، والمصدر كما يضاف إلى المفعول يضاف إلى الفاعل أيضاً ، واللفظ لفظ واحد . وإذا كان كذلك صلَح أن يُنوَى فى قوله « ما صفا » عوْدُ الضمير إلى ودّ ليلَى ، ويكون ليلى فاعلة لأنّ اللفظ ذلك اللفظ ، فيكون التقدير : صفا ودّ ليلَى ما صفا ودُّ ليلى . والمعنى : صفا وُدُّنا لليلى ما صفا وُدُّها لنا ، أى صافيناها ما دامت تُصافِينا . ويجوز أن يكون ودّ ليلى أضاف الودّ إلى ليلى ، وهى الفاعلة ، لكنَّه حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، والمراد : صفا جَزاء ودِّ ليلىمنَّا ما صفا هو فى نفسه لنا . وقد رُوِى : لم نُطِـع بها عدوًّا » فيعود الضمير إليها ، وكذلك « ولم

نَسمع بها » . وإذا رويت « به » يعودُ الضمير إلى الوُدّ .

وقوله « فلمّا تولّى ودّ لبلى » يريد : وُدّ ليلى لنا . والمعنى : لمّا مالت إلى جَنَبَةٍ غير جَنَبَتِي ، وقومٍ غير قومى ، نَفَضْتُ يدى من الاعتماد عليها ، وأخليتُ قلبى من هواها ، وصرفتُ نفسى إلى جَنَبَةٍ أخرى غيرِ جَنَبَتِها ، وطائفةٍ أخرى غير طائفتها ، لأنى كما أصل أقطع ، وكما أُخالِط أُزايل ، ولستُ ممّن يقتل نفسَه فى إثْر مَن لا يُريدنى إذا تولّى عنى . وقوله « تولى » يجوز أن يكون من التولّى الإعراض والذّهاب ، ويجوز أن يكون من الولاء والطاعة .

وقوله « وكلُّ خَليلٍ بعدَ لبلَى يخافنى » يريد أنّ الناسَ لمّا رأَوْا وَلُوعى بليلى ، وصفاءَ عقيدتى فى المَيل إليها والبَقاء على العهد معها ، ثم رأَوْا بعده انصرافى عنها فى أقرب المُدَد ، ولأدنى السبب ، صار كلُّ خليلٍ فيما بينى وبينَه يخافُنى على الغَدر ، ويتّهمنى فى الوُدّ ، فلا يطلبُ منّى التّناهىَ فيما يجمعنى وإيّاه ، خوفاً من الإعراض عنه ، أو يرضَى معى ومِن جهتى بودٍّ قريب لا سَرَف فيه ولا اشتِطاط .

٥٢٧

وقال آخر :

١ – ألاَ ليتَ شِعْرِى هل أَبِيتَنَّ ليلةً وذِكْرُكِ لا يَسْرِى إلَىَّ كما يَسْرِى

٢ – وهل يَدَعُ الواشونَ إفسادَ بينِنا وحَفْرًا لنا العاثورَ من حيث لا نَدْرِى

هذا كلامُ مُتبرِّمٍ بالهوَى ، مستقيلٍ من الوشاة وإفسادِهم ، متفادٍ من تحريشهم وألْبهم ، متمنٍّ أن تنقطع أسبابُ الهوى ، وتنقلع أغراسُ الوُدّ .

وقوله « ليت شعرى » موضع شعرى نَصْبٌ لأنه اسم ليت . وقوله « هل

أبيتنَّ ليلةً » سَدَّ مَسدّ مفعولَىْ شِعرى ، لأنّ معناه عِلْمى ، ويتعدَّى تعدِّيَه ، وخبر ليت مضمَر لا يظهر . والتقدير : ليت علمى واقعٌ ، وما يجرِى مَجراه والمعنى : أتمنَّى أن أعلمَ هل أبقى أنا ليلةً من ليالِى الدهر وخَيالُكِ لا يسرِى إلىَّ كما يَسرِى الساعةَ ، وهل أرى نفسى سليمةً من رَمْى الوشاة وطَلَبهم إفسادَ ما بينى وبينَكِ ، وحَفرِ المُغَوَّاةِ لنا(١) إذا غِبْنا عنهم من حيث لا نَشعر ولا ندرى فنتَّقِيَه ونَحْذَرَه .

فإن قيل : كيف جاز أن يُكنَى عن الخيال بالذِّكر حتى قال : « وذِكرُكِ لا يَسْرِى إلىَّ »؟ قلت : إنّ الخيالَ فى المنام لا يكونُ إلا عن التذكُّر فى اليقظة ، يَشْهَدُ لذلك قولُ أبى تمَّامٍ الطائىّ .

نَمْ فما زارَكَ الخيالُ ولكنَّـــك بالفكرِ زُرْتَ طَيْفَ الخَيالِ

وهذا ظاهرٌ وعليه مَبانى وصف الخيال .

والعاثور : مَصيدةٌ للبهائم ، ويُجعل اسماً المتالف ، وهو فاعُولٌ من العِثار والعُثور ، وكذلك(٢) استُعير للنَّقص فى الحسَب ، لأن صاحبَه يَعثُرُ به عن غاية السابق . وانتصَب قوله « العاثور » من المصدر المنوَّن وهو حَفرًا ، وأقوى ما يكونُ المصدر فى العمل إذا كان منوَّنًا ، إذ كان شَبَه الفعلِ فيه أقوى .

وقال بعضُ أصحاب المعانى : إنما يتمنَّى أن يملِكَها على حدٍّ يُسْقِط تَسَوُّقَ المفسدين فيه(٣) ، ويأمَن التَّبِعةَ معه ، ويرتفع العشق والهوى مِن بينهما .

---

(١) المغواة : حفرة كالزبية تحتفر للأسد .

(٢) ل : « ولذلك » .

(٣) التسوق ، بالسين المهملة فى النسختين ، وأصله من تسوق القوم ، إذا باعوا واشتروا .

٥٢٨

آخر :

١ ــ إنْ كان هذا منْكِ حقًّا فإنَّنى مُداوِى الذى بَينى وبينكِ بالهَجْرِ
٢ ــ ومُنْصَرِفٌ عَنْكِ انصرافَ ابنِ حُرَّةٍ طَوَى وُدَّه والطَّىُّ أبقَى من النَّشْرِ

يقول : إن كان هذا الذى يظهرُ منك موافقاً لما يَبْطُن، وهذا الإعراضُ عن جَفاء وقِلًى لا دلالٍ وهوًى ، فإنى سأداوِى ما بينى وبينكِ بالتهاجر ، وقاعدٌ عنك قعودَ حُرٍّ لا يَصْبِرُ على الجَفاء والتدابُر ، ولا يَرضَى مِن وَديدِه بالمَذَقة دون الصَّفاء ، فأطوِى وُدِّى معه وأصونُه عن النَّشر ، لأنَّ الطَّىَّ أوقى فيه ، وصِيانتَه عن الابتذال أوعَى له[١] .

وإنما قال : « ابن حُرَّةٍ » والقَصد إلى الكريم من الرِّجال ، الذى يَصُون نفسَه ونفسَ صاحبه فلا يُوحِش مع التهاجُر، ولا يُفحِش على التَّنكُّر والتباغض ، لكنَّه يَلزم المجاملةَ والمُساتَرةَ فى كلِّ حال ، لأنّ الأمَّ إذا كانت متملَّكةً تَبِعها الولد فى الرِّقّ ، فيحصُل الرِّقّ والهُجْنةُ معاً ، ومتى كانت الأمُّ حُرَّةً لم يَتْبِع الولدُ أباه فى الرِّقِّ وإن كان عبداً مملوكا ، ولكنه يكون هجيناً غيرَ عربىٍّ خالِص .

٥٢٩

آخر[٢] :

١ ــ وفى الجِيرَةِ الغادِينَ مِن بطْنِ وَجْرَةٍ غزالٌ كَحيلُ المُقْلَتَيْنِ رَبيبُ[٣]

---

(١) ل : « أرعى له » .
(٢) هو بعض الأعراب ، كما فى معجم البلدان (٨ : ٤٠١) .
(٣) ياقوت : « أحم المقلتين » . وبطن وجرة : منزل لأهل البصرة إلى مكة ، بينه وبين مكة مرحلتان .

٢ ــ فلا تَحْسِبِي أنَّ الغريبَ الذى نَأَى ولـكنَّ مَن تَنأَيْنَ عنهُ غريبُ

كان شَغَبَا الشاعر وصديقتِه مجتمعَين ببطن وَجْرةَ زمانًا ، فوقعت الأُلفة بينهما ثم افترقوا ، فقال متأسِّفًا فى إثْرِها ، ومتلهِّفًا لما فاتَه من الاجتماع بينهما : وفى الخلطاءِ الباكرين من هذا المكان امرأةٌ كأنها غزالٌ مكحَّل العينَين مُرَبَّبٌ فى البيوت ، منعمٌ بالاقتناء ، ملَكَ قلبى . ثم قال مخاطبًا لها : لا تظُنِّى أنّ الغريبَ مَن بَعُد عن سَكَنه ، ونأَى عن إلْفه ووطنِه ، ولـكنّ الغريبَ هو من تَبعُدين عنه وفى يدِكِ قيادُه ، فعلَى البُعْد تَجْذِبينَه ، ومِن مرادِه تمنعينه ، وقد ضاق عنه مكانُه حتى صار فيه كمن نأَى عن أهله ، وحصل فى غير أرضِهِ[1] ومنزله .

٥٣٠

وقال آخر :

١ ــ بنفْسِى وأهلِى مَنْ إذا عَرَّضوا له ببَعْضِ الأذَى لم يَدْرِ كيفَ يُجِيبُ[2]

٢ ــ ولم يعتذِرْ عُذْرَ البَرِىءِ ولم تَزَلْ به سَكْتةٌ حَتَّى يقالَ مُرِيبُ

تعلَّقَ الباء من قوله « بنفسى » بفعلٍ مضمَر ، كأنَّه قال : أفْدِى بنفسى وعشيرتى إنسانًا ــ ويعنى به محبوبَه ــ إذا اجتمَعَ عليه اللُّوَّام ، وتصرَّفوا فى فُنون الغضِّ منه والعَتْبِ عليه ، فآذَوْا قلبَه وضيَّقوا صدرَه ، ارتبَكَ فى الجواب وحار ، ولم يدر لغَرَارته بماذا يُجيب ، ولسوء اهتدائه بوجوه الحِيَل كيف يتخلَّص ، فلا عُذْرُه عُذْرُ مَن لا جنايةَ له ، ولا سكوتُه سكوتُ مَن لا احتفالَ بهم

(١) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « أهله » .

(٢) عرضوا ، بالتشديد ، هو ضبط الأصل والتبريزى . وفى ل : « عرضوا » بتخفيف الراء .

جمعه، فهو فى إطراقِه وخُفوتِه[1] إذا قَضِيَّتُهم نفذَتْ فيه بأنّه مُرِيب، مرتكِب، ولما رُمِيَ به مُكتسِب، استدلالًا بسكوته على الذّنب، وبإمساكِه عن إقامة المعاذير على صِحّة القَرْفِ.

٥٣١

وقال آخر:

١ — أرَى كُلَّ أرضٍ دَمّنَتْها، وإن مَضَتْ لها حِجَجٌ، يَزْدادُ طِيباً تُرَابُها

٢ — ألمْ تَعْلَمَنْ يارَبِّ أنْ رُبَّ دَعْوَةٍ دَعَوْتُكَ فيها مُخْلِصاً لو أجابُها

يقول: أرَى كلَّ مكانٍ أقامَتْ فيه هذه المرأةُ زَمَناً فأثَّرتْ فيه أثراً يزداد على استمرار السِّنينَ والأحقابِ تُرابُهُ طِيباً، وإن لم يكنْ لإقامتها أوانٌ ممتدٌّ وزمانٌ متّصل، فقوله «يزدادُ» فى موضع المفعول الثّانى لأرى. ودمَّنَتْها: فِعْلٌ مبنيٌّ من الدِّمْنةِ: أثرِ الدّار وما سُوِّد بالرَّماد وغيرِه، فكأنَّ معنى دَمَّنَتْها أثّرَت فيها بالإقامة. وانتصَب «طيباً» على التَّمييز، وقد نُقِل الفعل عنهُ لأنَّ الأصل يزداد طيبُ ترابها، فجُعِل الفعلُ للتُّراب فأشبه «طيباً» المفعول. وعلى هذا: قَرِرْت به عَيْناً.

فإن قيل: هل فى هذا دَلالَةٌ على صِحّةِ قولِ المُخالِفِ لسيبويهِ فى جواز تقديم التَّمييز إذا كان العامل فيه فِعْلًا، وهل يُفْصَل بين هذا البيتِ وبين ما استدلُّوا به من قول الآخَرِ[2]:

* وما كان نَفْساً بالفِراق تَطِيبُ[3] *

(١) هذا ما فى ل. والخفوت: سكون الصوت. وفى الأصل: «وحتوقه» تحريف.

(٢) هو المخبل السعدى، أو أعشى همدان. شواهد العينى (٣: ٢٣٥).

(٣) صدره: * أتهجر ليلى للفراق حبيبها *.

قلتَ : لا دَلالة فى هذا الذى نحنُ فيه وإن كان البيتُ الذى أوردتَه أَمْـكَنَ التَّعلُّق به ، حتّى ذَكَر أصحابُ سيبويه أنّ الرِّواية على غيره ، وهو :

* وما كان نفسى بالفِراق تَطِيبُ *

وذلك أن « طِيباً » لم يُقدَّم على العامل وهو الفعل ، وإنَّما قُدِّم على ما صار فاعلا ، وإذا كان كذلك لم يصحَّ الاحتجاج به له ، لأنَّ الموضعَ المختلَفَ فيه هو جوازُ تقدُّمِه على العامل فيه وامتناعُه منه لا غير ، فأمّا مادام واقعاً بعد الفعل فلا مُستدَلّ به على موضع الخلاف .

وقوله « ألم تعلمَنْ يا رَبِّ أن رُبَّ دَعْوَةٍ » ، أنْ مخفَّفة من أنَّ الثَّقيلة ، والتقدير: أنَّه ربَّ دعوةٍ. وفى رُبَّ لغات : إحداها التَّخفيف(1) . وكأنه يتضرَّع فى هذا الـكلام إلى خالقِهِ ومَن يستغيث به فيما يُقاسيه ، ويقرِّر فى الدُّعاء عليه أنَّه قد ضِمنَ الاستجابة فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَـكُمْ ﴾ فقال : إنَّك تعلم يارب أنِّى قد أخلصت دُعاءَك فى أوقاتٍ كثيرة لطَلِبَتِي لو اقترنَ بالدُّعاء إجابةٌ وإسعاف ، وضَمانُك الأصحُّ الأوفَى ، فاستَجِبْ . وفيه أيضاً ما يَجرِي مَجرى الاستزادة إذا توجَّه إلى غيره تعالى . وانتصب « مخلصاً » على الحال . وقوله « لو أُجَابُها » يريدُ به لو أُجابُ فيها .

٣ ــ وأُقْسِمُ لوْ أنِّى أَرَى نَسَباً لَهَا ... ذِئابَ الفَلاَ حُبَّتْ إلىَّ ذئابُها

٤ ــ لَعَمْرُ أبى ليلَى لَئِنْ هى أصبَحَتْ ... بِوَادِى القُرَى ما ضَرَّ غَيرى اغترابُها

قوله « أقسم » جملةٌ تنوب عن اليمين ، والجواب « حُبَّت إلىَّ ذئابها » متعلِّقًا بالشَّرط المذكور ، وهو أن تكون مناسبة . وجواب لو هو ما صار جواباً

(١) فى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف ، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها ، فهذه اثنتا عشرة ، والضم والفتح مع إسكان البـاء ، وضم الحرفين مع التشديد ، ومع التخفيف ، فهذه أربعة أخرى ، تكون كلها ست عشرة لغة .

لليمين ، وكذا يقع الشَّرط والجزاء بعدها . تقول : والله لئن جئتَنى لأكرمنَّك .
ويُروَى : « حَبَّتْ » بفتح الحاء والأصل حَبُبَت ، وفَعُل فى المضعّف قليل .
ويروى « حُبَّت » بضم الحاء ، وهو بناء لما لم يُسَمَّ فاعله . ويقال : حَبَبْتُه فهو محبوب ، لغة فى أحبَبْتُه .

وقوله « لَعَمْرُ أبى ليلَى » إقسامه بأبيها تعظيمٌ لها ، وتنبيهٌ على مَحلِّه من قلبه ، وأنَّه منصبٌّ إلى مَن يجمعه وإيّاها عُلْقَةٌ وإن ضَعُفت ، فكيف أبوها والمختصُّ بها . وفى هذا زيادةٌ على ما قاله الآخَر(١) ، وهو :

ومِن بيِّناتِ الحبِّ أنْ كان أهلُها أحبَّ إلى قلبى وعينى مِن أهلى(٢)

واللام من « لئن » موطِّئة للقَسَم ، وجواب القَسَم ما ضَرَّ ، والمعنى : إنْ عادتْ هذه المرأةُ إلى موضِعِها من وادى القُرَى لم يضُرَّ غيرى البُعدُ منها ، والاغترابُ عنها . وقوله « اغترابها » يريد اغترابى عنها ، ويجوز أن يُريدَ تباعُدَها .

٥٣٢

وقال آخر :

١ ـ لَعَمْرُكَ ماميعادُ عيْنَيْكَ والبُكَا بِدَارَاءَ إلا أنْ تَهُبَّ جَنُوبُ(٣)
٢ ـ أُعاشِرُ فى دَارَاءَ مَنْ لا أُحِبُّه وبِالرَّمْلِ مَهْجُورٌ إلَىَّ حبيبُ(٤)

(١) هو الحسين بن مطير . الحماسية ٤٧٣ ص ١٢٥٣ .
(٢) ضبطت نون « عينى » فى ل بالفتح والكسر لتقرأ بالتثنية والإفراد ، مشفوعة بكلمة « معا » تحقيقا للضبطين .
(٣) أنشد ياقوت فى معجم البلدان هذه الأبيات فى رسم (داراء) بعد أن ذكر أن « داراء » من نواحى البحرين . ثم قال : « وهذا موضع استصعب علينا معرفته ، وكثر تفتيشنا إياه ، وظنه شارحو الحماسة دارا التى ببلاد الجزيرة ، فغلطوا ، حتى وجده الوزير الصاحب الأكرم جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القفطى ، أطال الله بقاءه ، بخط أبى عبد الله المرزبانى فيما كتبه عن الحسن بن عليل العنزى ، فأفادناه » .
(٤) ياقوت : « من لا أوده » . وستأتى هذه الرواية فى الشرح .

٣ — إذا هَبَّ عُلْوِىُّ الرِّياحِ وَجَدْتُنِى كأنِّى لِعُلْوِىِّ الرِّياحِ نَسِيبُ

يقول : وبَقائِكَ ما الموعدُ بين البُكاء وأنت بداراءَ إلاَّ عندَ هُبوب الجنوب ، وإنَّما قال هذا لأنَّ الجنوبَ كان مهبُّها مِن أرضِ صاحبته ، فعلى هذا التَّأويل يكون « والبكا » فى موضع الجرِّ عطفاً على عينَيك . ولا يمتنعُ أن يكونَ المرادُ . ما ميعاد عينَيك مع البكا بهذا المكانِ إلاَّ إذا هبَّت الجنوب ؛ فيكون مفعولاً معه . وإنَّما قال ذلك لأنَّها تُهْدِى إليه أَرِيجَتَها[1] ، أو يعتقد أنَّها رسولُها ، فتُجدِّد ذكرها ، وتطرِّى الوجدَ بها ، فيبكِى شوقاً إليها . وقال الخليل : الميعاد لا يكون إلا وقتاً أو موضعا . وإذا كان كذلك فالميعاد مبتدأ وخبره أن تَهُبَّ ، والمراد وقت هبوبها ، حتَّى يكون الآخِر هو الأوَّل ، إلاَّ أنه حذَفَ المضاف .

وقوله « أعاشِرُ فى دَاراءَ مَن لا أودُّه » شَكْوٌ من الدَّهر حين جَمَع بينه فى داراءَ وبينَ من لا هَوَى له معه ، وفرَّقَ بينه وبين محبوبِه فجعله بالرَّمل .

وقوله « إذا هَبَّ عُلْوِىُّ الرِّياح » يريدُ : إذا هبَّت الرِّيح من نحو عاليةِ نَجْد ، فكأنِّى[2] يجمعنى وإيَّاها نسبٌ ، لاهتزازِى لها ، وارتياحِى لهُبُوبها ، فأنا أنتظرُها ترقُّبَ المسافِرِ وقد دنا موافاتُه .

٥٣٣

آخر[3] :

١ — هَلِ الحُبُّ إلاَّ زَفْرَةٌ بعد زَفْرَةٍ وَحَرٌّ على الأحشاء ليسَ له بَرْدُ

(١) كذا فى النسختين والتبريزى . والأريجة مثل الأريج : الريح الطيبة ، والجمع الأرائج .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل « وكان » .

(٣) هو عبد الله بن الدمينة . ديوانه ٢٦ .

٣ — وفيضُ دُمُوعِ العَينِ يا مَىّ كُلّمَا بَدَا عَلَمٌ من أرضكمْ لم يكُنْ يَبْدُو (١)

الاستفهام هنا فى معنى النَّفى ، كأنه حاجَّته صاحبتُه أو إنسانٌ لائمٌ أو غيرُهما ، فيما يدَّعيه من الُحبّ ، فقال رادًّا عليه حين كذَّبه فى دعواه : ما الحبُّ إلّا تتابُعُ الزَّفَراتِ تحسُّرا ، والتهابُ تَوَجُّدٍ (٢) فى الحشَا لا يتعقَّبه ابتراد ، وسيلانُ دَمْعٍ من العَين لا يُرقِئُه انقطاعٌ ، فى كلِّ وقتٍ ظهرَ فى مَرْأى العينِ له جبَلٌ من أعلامِ أرضكمْ لم يكن يَبدو من قَبلُ ، وجميعُ ذلك أعتادُهُ من نفسى ، ويُدرِكُه من يتأمَّلُ حالى ، وتصدِّقه المشاهدةُ منِّى .

٥٣٤

وقال ابنُ مَيَّادَةَ (٣) :

١ — كأنّ فُؤادِى فى يَدٍ ضَبَثَتْ بِهِ مُحَاذَرَةً أن يَقْضِبَ الحَبْلَ قَاضِبُهْ

٢ — وأُشْفِقُ مِن وَشْكِ الفِراقِ وإنّنى أظُنُّ لَمَحْمُولٌ عليه فرَاكِبُه

الضَّبْثُ : القَبْضُ على الشَّىء ؛ ومنه ناقةٌ ضَبُوثٌ ، أى لا يُشَكّ فى سِمَنها إذا ضُبِثَ على سَنامِها . وانتصَب « مُحَاذَرَةً » لأنَّه مفعول له ، وموضع « أن يقضب » نصبٌ من محاذرةً . فيقول : كأنَّ قلبى يُعصَر بقبْضٍ قابضٍ عليه ، لخوفى من أنْ يَقطع الوصلَ قاطعُه من البَيْن ، ومع ذلك أخافُ من وقوعِه سريعاً لقوَّة الأمارات ، وتتابُعِ المحذِّرات المنذِرات . وإنما قال « أظنُّ لمحمولٌ

(١) فى الديوان : « غروب العين بالدمع كلما » .
(٢) ل : « يوجد » .
(٣) هو الرماح بن أبرد . وميادة أمه وكانت أم ولد ، وهو من بنى مرة بن عوف ابن سعد بن ذبيان ، وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين ، وكان ممن مدح المنصور ، ومات فى صدر خلافته . الأغانى (٢ : ٨٥ — ١١٦) والخزانة (١ : ٧٦ — ٧٧) والمؤتلف ١٧٤ والاشتقاق ١٧٥ .

عليه ، والظَّنُّ بمعنى اليقين ، فهو مِثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ . وقوله «لمحمول عليه» إيذانٌ بأنه ليسَ يقعُ عن اتِّفاق معَه أو مشاركةٍ في تدبيره . وأظنُّ مفعولُه الأوّل ، والثانى مستدَلٌّ عليه ، لأنَّ المراد ذلك فى ظَنِّى أو عِلمى ، فهو مُلغًى . والقَضْبُ : القطع ، ومنه سيفٌ مِقْضَبٌ وقَضَّابٌ . ووشْكُ الفِراق : سُرعة القطيعة . ويقال أوشك هذا أن يكون ، أى أسْرَعَ .

٣ — فواللهِ ما أدرِى أيَغلِبُنِى الهوَى　　إذا جَدَّ جِدُّ البَيْنِ أم أنا غالِبُهْ

٤ — فإنْ أستَطِعْ أَغْلِبْ وإن يَغْلِبِ الهوى　　فمِثلُ الذى لاقيتُ يُغلَبُ صاحِبُهْ

يقول : شارفتُ فِراقَ الأحبّة بالدلائل اللائحة ، وأحلف بالله ما أعلمُ من حالى إذا وَقَع ، أأَجْزع أم أصبر .

وقوله « إذا جَدَّ جِدُّ البَين » يجوز أن يكون المراد : إذا ازدادَ جِدُّه جِدًّا ، كأنه يَظهر من جَلِيَّةِ أمرِه ما يَزُولُ اللَّبْسُ والشُّبهة معه . ويجوز أن يريد : إذا صار هَزْله جِدًّا ، فسمّاه بما يؤول إليه ، كما يقال : خرجَت خوارجُه ، وريعَ رَوْعُه . والمراد أنه التبس عليه إذا باغتَهُ الفراقُ حالُه معه ، فلا يَدرِى أىُّ الأمرينِ يَقع : أيَغلِبُه الهوى فَيسلُبُهُ التجمُّلَ ، ويُلابِسُهُ التهتُّك ، أم يَغلِبُ بدوام مُسْكَتِه وكمال تثبُّتِه الهوَى فيستمرّ حالُ السلامة به . ثم قال كالمتسلِّى والمنقاد لحاتمةِ الكائنة : فإن أَطَقْتُ وكان فى مقدورى — إذا اجتهدتُ — غلَبُ الهوى فهو المراد ؛ وإن جرَى القَدَرُ بخلافِه فمِثلُ ما أقاسيه يَغلِبُ مُعانِيَه ، ويجتذبه إلى ما يكرهه ، وعُذْرُه لائحٌ .

٥٣٥

وقال آخر :

١ ـ فيا أهلَ ليلَى أكثَرَ اللهُ فيكمُ مِنَ أمثالِها حتَّى تَجودُوا بها لِيا[١]

٢ ـ فما مَسَّ جَنْبِي الأرضَ إلاَّ ذَكرْتُها وإلاَّ وَجدتُ رِيحَها في ثِيابِيا

بنَى الـكلامَ على أنَّ عشيرَتَها والمالِكِين أمرَها إنما ضَنُّوا[٢] بها لأنها معدومةُ النظير فيهم ، وأقبَلَ يَستعطِفُهم ويدعو لهم بأن يُكثِر اللهُ أمثالَها وأشباهَها فيهم ، حتَّى يتركوا المنافسةَ ، وتحتمل قلوبُهم الجُودَ له بها .

وقوله « فما مَسَّ جنبي الأرضَ إلاَّ ذكرتها » يريد : ما اضطجعتُ للمَنامِ خالياً بنفسي إلاَّ امتنَعَ النَّومُ فقام ذِكرُها مَقامَ خيالِها ، ثمَّ صِرْتُ من الشَّوقِ والتَّحقِّي أتصوَّرُها معي ، وأجِدُ رائحتَها في ثيابي . وهذا المعنى هو مخالفٌ لمعنى الأُنْس بالخيال .

٥٣٦

وقال آخر :

١ ـ تقولُ العِدَى لابارَكَ اللهُ في العِدَى قَدَ اقْصَرَ عَنْ لَيْلَى ورَثَّتْ وسائلُهْ[٣]

٢ ـ ولو أصْبَحتْ لَيْلَى تَدِبُّ على العَصَا لكانَ هَوَى ليلَى حديثاً أوائلُهْ

يُروى : « وراثت وسائله » . المراد بالعِدَى الوُشاةُ المُفسدون . وأصل

(١) أشير في هامشة ل إلى رواية أخرى في نسخة ، وهي « كثر الله فيكم شبهها بليلي كي تجودوا » .

(٢) في الأصل : « متوا بها » ، صوابه في ل .

(٣) التبريزي : « يقول » .

البَرَكة الثَّباتُ مقترناً بالنَّماء ومنه مَبْرَكُ الإبل ، وبَرَاكاء القِتال . ويقال : أقصرَ عن الشَّيء ، إذا كفَّ عنه وهو يقدر عليه ؛ وقَصَرعَنْه ، إذا عَجَز ؛ وقصَّر ، إذا فرَّط . يقول : ادَّعى الوُشاةُ أنِّى قد كَفَفت عن ليلى وزَال وَلوعى بها ، وأنَّ وسائلى لدَيها قد أُخْلِقَتْ وتقطَّعتْ ، فلا بارَكَ اللهُ فيهم فإنَّهم ادَّعَوا باطلا ، واختلقوا إفكاً ، ومُرادُهم إفسادُ قلبِها علىّ ، وصرفُها عن الانطواء على الجميل لى وفىّ . ثمَّ ذكَرَ ما دلَّ به على بقائه على العَهد ، واستمراره فى عِمارة الوُدّ ، وعلى بُطلانِ قولِهم فيما صَنَّفوه ، وبَهْتِهم وتَمويههم فيما نَسَبوه إليه ووضَعوه ، فقال : لو شاختْ ليلى حتَّى يصير مَشْيُها دبيباً وهى متوكِّئة على عُكّاز ، لكان هواها فى قلبى جديداً أوائلُه ، شديدا أركانه وقواعده .

٥٣٧

وقال حَفصُ بنُ عُلَيم [1] :

١ — أقولُ لحِلمِى لاتَزَعْنِى عن الصِّبَا ... ولِلشَّيْبِ لا تَذْعَرْ عَلَىَّ الغوانيا [2]

٢ — طَلَبْتُ الهَوَى الغَوْرِىَّ حَتَّى بَلَغْتُه ... وسَيَّرْتُ فى نَجْدِيِّهِ ما كَفَانِيا

يصف انهماكَه فى البَطالة ، وتَماديَه فى الغَواية ، والتذاذَه للصِّبا واللَّهوِ والخَسارة فقال : أقولُ لِحلمِى : تباطَأْ عنِّى ، ولا تعاجلْنى فتكفَّنى عما أهواهُ وقَصِّرْتُ شغلى عليه ؛ وللشيب : تَراخَ ولا تُبادِر فتَرُوعَ النِّساءَ وتنفِّرَ . وهذا الكلامُ وإن كان ظاهرُه تلطُّفا وسؤالًا فإنَّه يَجرى مَجرى التَّمنِّى فى استدامة ما كانَ يَشتهيه ، ويُوزَعُ به .

وقوله « طلبْتُ الهوى الغَوْرِىّ » يريد : تفنَّنتُ فى الهوى فأنجدَ بى طَوْراً ،

(١) التبريزى : « حفص العليمى ، من جناب من كلب ، ويقال هم قريش كلاب » .
(٢) سبق التنبيه على ترتيب هذه الحماسية عند التبريزى فى ص ١٣٢٢ .

وغار بى طَوراً ، إلى أن تناهيتُ ، وبلغتُ أقصى الغايات فوقَفْت . وموضع «ما» من قوله « ما كفانيا » نصبٌ على المصدر من سَيَّرت ، يريد : سيَّرت فى نجديِّه سيراً كفانيا . ومعنى سَيَّرْتُ أكْثَرْتُ السَّيرَ وكرّرتُه . والغَوانِى من النِّساء : اللانى تَستغنِى بجمالها عن التحلِّى . وقيل : الغانية : التى تستغنى بزَوْجِها عن الرِّجال .

٣ — فيا ربِّ إن لم تَقْضِها لِى فلا تَدَعْ   قَذُورَ لهم واقْبِض قَذُورَ كما هِيا[1]

٤ — ويا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقِها   قَضَى بين كلِّ اثنينِ ألاّ تلاَقيا

البيت الأول دلَّ به على ضِيقِ صدرِه بحاله ، وشِدّةِ ضَنِّه بصاحبته ، فدعا ربَّه أن يَقبِض قذورَ إليه إن لم يقدّر بينهما مُرافأَة والتحاماً ، ويتوفَّاها بالموت ليأمَنَ أن يملك أمْرَها غيرَه . وهذا يدلُّ على شِدَّةِ غَيرةٍ فيه ، ومُضايَقةٍ للنَّاس كافّة فى شىءٍ يتمناه ثم يَقْصُر عنه . فأمَّا قوله « كما هيا » فموضعه من الإعراب نصبٌ على الحال ، وما من قوله « كما » يجوز أن يكون بمعنى الذى ويكون هى خَبَراً لمبتدإ محذوف ، كأنَّه قال : كالذى هُوَ هِىَ . ويجوز أن يكون ما كافَّةً للكافِ عن عمل الجرّ ويكون هى فى موضع المبتدإ والخبر محذوف ، والمعنى : اقبِضْها كما هى عليه .

والبيت الثانى وهو «يا ليتَ أنَّ اللهَ إنْ لم أُلاقها » دلَّ به على حسدٍ شديد منه ، وقِلَّة رضاً بمساعَدة القدَر فى شىءٍ يَحرُم المشاركةُ فيه . وقوله « يا ليت » يريد : يا قوم ِ ليت ، والمنادى محذوف ، والكلام بعده تمَنٍّ فى ألا يحصُلَ الاجتماعُ بين متحابَّين إن لم يُرْزَقْ مثلَه فى صديقِه . وقوله « ألّا تلاقيا » أن فيه مخففة من الثَّقيلة ، والمعنى أنَّه لا تلاقِىَ لنا ، فخبر لا محذوف ، والجملة فى موضع خبر

(١) قذور : اسم صاحبته . والقذور من النساء : التى تتنزه عن الأقذار . وهى أيضاً المتنحية عن الرجال .

أنَّ ، والضمير المقدَّر ضمير الأمر والشأن ، وخبر أنَّ الله « قَضَى » وقد حصل في الجملة جوابُ الشرط ، وهو إن لم ألاقها ، وخبرُ ليتَ .

٥٣٨

وقال آخر :

١— وقَفْتُ لِلَيْلَى بالمَلا بَعْدَ حِقْبَةٍ بِمَنْزِلةٍ فانهلَّتِ العَينُ تَدْمَعُ(١)

٢— وأتْبَعُ لَيْلَى حيثُ سارَتْ وَوَدَّعَتْ وما النَّاسُ إلا آلِفٌ ومُوَدِّعُ

٣— كأنَّ زِماماً في الفؤادِ مُعَلَّقاً تَقُودُ بِهِ حَيْثُ استَمَرَّتْ فأَتْبَعُ

يقول : وقَفتُ مِن أجلِ ليلَى ومن أجل مَنازِلها بالمَلَا ، بعد زمانٍ مُمْتَدّ ، ودهرٍ متَّصل ، فتَجدَّد لى من الوَجد ما هيَّج لى بكاءً ، وطَرَّى لى عُهوداً(٢) فإنى أسيرُ هواها ، وتَبيعُ البَلْوَى فيها ، فقلْبِي معها حيث ظَعَنَت وأقامت . وقوله « وَدَّعَتْ » معناه تَوَدَّعَتْ . ثم قال : « وما النَّاس إلا آلِفٌ ومودِّع » يريد أنّ النّاسَ من بينِ آلِفٍ لها لكونه مسافراً معها ومُرافقاً لها في طريقها ، أو منصرِفٍ عنها بعد توديعها وتشييعها ، وأنا على خلافِهم كلِّهم ، لأنِّى ملازِمُها فى كلِّ حالٍ .

وقد كشَفَ عن هذا الغَرَضِ بما بَيَّنه في قوله :

كأنّ زِماماً فى الفُؤاد مُعلَّقاً تَقُودُ به حيث استمرّتْ فأتبعُ

يريد طاعة قلبِه وانقيادَه لها . ومِثْلُ « وَدَّعَتْ » و « مُوَدِّع » يُسَمَّى التَّجنيس الناقص .

---

(١) الملا : موضع بعينه ، كما ذكر ياقوت .

(٢) فى الأصل : « مجهودا » ، صوابه فى ل .

٥٣٩

وقال وَرْدٌ الجَعْدِيُّ[١] :

١ — خليلىَّ عُوجَا بارَكَ اللهُ فيكُما وإن لم تكُنْ هِندٌ لأرْضِكُما قَصْدَا

٢ — وقُولا لها ليسَ الضَّلالُ أجارَنا ولكنَّنا جُرْنا لِنَلقاكُمُ عَمْدا[٢]

يخاطب خليلَين له متلطِّفاً لهما ، وسائلاً تعويجَها على ديار هند وإن لم تكن مُسامِتةً لقصدهما ، وأن يبلِّغاها إذا التقَيا معها أنّا تعمَّدْنا زيارتَكِ طلباً لقضاء ذِمامك ، وتجديداً للعهد بك ، ولم يكن العدولُ إليكِ عن ضَلالٍ مَلَكَ قيادَنا ، وصَرَفنا عن وجهِ رشادِنا ، ليقع الاعتدادُ منها بتحرِّينا وفِعلِنا .

٥٤٠

وقال[٣] :

١ — وما فى الخلقِ أشقَى مِن مُحِبٍّ وإنْ وَجدَ الهوَى حُلْوَ المَذاقِ

٢ — ترَاه باكياً فى كلِّ حِينٍ مَخافَةَ فُرْقَةٍ أوْ لاشتياقِ

٣ — فيبكى إن نَأَوْا شَوْقاً إليهم ويَبْكِى إن دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ

٤ — فتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّنائِى وتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِندَ التَّلاقِى

وَفَّى هذه الأبياتَ حقَّ القِسمة ، وأقامَ شَرْطَ المقسُومِ على حَدِّه المألوف من التَّجرِبة . فيقول : ليس فيمن خَلَقَه الله من البَشَر أوفَى شقاءً ، وأعظمُ بلاءً من

---

(١) هو ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة ، شاعر جاهلى ، وهو الذى قتل شراحيل ابن الأصهب الجعفى ، فى حديث طويل رواه أبو الفرج فى الأغانى (٤ : ١٣٣ — ١٣٤) . وذكر فى الأغانى (١٠ : ١٢٢) أن الأبيات للمرقش الأكبر .

(٢) الأغانى « أجازنا . . . . جزنا » ، بالزاى فيهما .

(٣) التبريزى : « وقال آخر ، قال أبو رياش : هى مولدة » .

المحِبّ ، وإن استحْلَى ذَواق الحبِّ واستلانَ جَسَّه ، إذ كنتَ تجدُه كلَّ وقتٍ متألِّماً من حاله ، ضَجِرًا بعَيشه ؛ وذلك أنه لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يكون مجتمِعاً مع محبوبه فيخافَ الافتراق ، أو يكونَ بعيداً منه فيكدُّه الاشتياق ، ولا حالةَ ثالثةَ للاجتماع والافتراق ، وهو سَخِينُ العينِ فى كلٍّ منهما ، قليلُ التودُّع فى عَقِبهما .

وقوله « وإن وجَدَ الهوَى » جواب الشَّرْط منه فى قوله « ما فى الخَلقِ أشقَى من مُحب » . وقوله « شوقاً إليهم » انتصَب على أنه مفعول له وكذلك قوله « خوفَ الفِراق » و « مخافةَ فُرقةٍ » . ألاَ تَرَى أنه عطَف عليه « أو لاشتياق » فجعل حرف الجرّ فيه اللام .

٥٤١

وقال ابنُ الطَّثْرِيَّة(١) :

١ ـ عُقَيْلِيَّةٌ أمّا مَلاَثُ إزارِها ... فَدِعْصٌ وأمّا خَصْرُها فبَتِيلُ

٢ ـ تَقَيَّظُ أكنافَ الحِمَى ويُظِلُّها ... بِنَعْمانَ من وادِى الأَراكِ مَقِيلُ

المَلاَث : الموضع الذى يُدَارُ به الشىء . ويقال : لُثْتُ على رأسى العِمامةَ لوثاً . ومنه قوله :

* كانوا مَلاَوِيثَ فاحتاجَ الصَّدِيقُ لهم(٢) *

(١) هو يزيد بن سلمة بن سمرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر ، والطثرية أمه ، وهى من الطثر ، بالفتح : حى من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » ، وضبطها صاحب القاموس بالتحريك . وكان يزيد جميلا وسيما شريفا متلافا ، توفى سنة ١٢٦ . وكان من شعراء بنى أمية مقدما عندهم . الأغانى (٧ : ١٠٤ – ١١٧) وابن سلام ١٥٠ – ١٥٢ وابن خلكان (٢ : ٣٩٥ – ٣٩٩) ومعجم الأدباء (٧ : ٢٩٩ – ٣٠٠) والشعراء ٣٩٢ – ٣٩٣ وحواشى الحيوان (٦ : ١٣٧) .

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوانه ٤٤ واللسان (لوث) . وعجزه :

* فقد البلاد ، إذا ما تمحل ، المطرا *

أى كانوا الذين يُدارُ بهم، ويُطاف عليهم، ويُرْجَى خيرُهم. والمراد بالمَلاَث هاهنا العَجُز. وشبَّهها بالدِّعص، وهو الرَّمل المجتمع، لكثرة اللَّحم عليها واكتنازه. والبتيل: الهضيم الدَّقيق، وأصل البَتْل القَطْع، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وتَبَتَّلْ إليه تَبْتيلاً ﴾. وصَفَ المرأة بالنَّعمة والنِّعْمَة، ومطاوعة الخير لها والسَّعَة، فيقول: هى دقيقة الخَصْر، قليلة العَجُز، وهى فى فصول سَنَتِها تنْتقِل فى المواضع الطيِّبة المُخْصِبَة، لا تُكابد ضِيقاً ولا تُعانى جَهْداً. وتَقَيَّظُ بالمكان: أقامَ قيظَه فيه[1]. ونَعمان: وادى الأراك. وأصل تَقَيَّظُ تَتَقَيَّظُ، فحذف إحدى التاءين.

٣— أليسَ قليلاً نَظْرَةٌ إن نَظَرتُها ... إليكِ، وكَلاَّ، ليس مِنْكِ قليلُ

٤— فياخُلَّةَ النفسِ التى ليسَ دُونَها ... لنا مِنْ أَخِلاَّءِ الصَّفاءِ خَليلُ

٥— ويا مَن كَتَمْنَا حُبَّهُ لم يُطَعْ به ... عَدُوٌّ ولم يُؤْمَنْ عَلَيْه دَخيلُ

٦— أَمَامِن مكانٍ أَشتَكى غَرْبَةَ النَّوَى ... وخَوْفَ العِدَى فيه إليكِ سَبيلُ

قوله «أليس» يقرِّر به فى الواجب الثابت، وكذلك أَلَمْ وأَلاَ؛ وذلك أنّ حرف الاستفهام يُضارع حرف النَّفى، ونفى النَّفى إيجاب، فإذا قال القائل: ألم أحسنْ إليك؟ يجب أن يكون قد أحسَنَ، فتقريرُه به فيما قد وقع وثَبَت. وفى القرآن: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾. فكأنه قال مُدِلاً بما يُقاسيه فيها، ويتحمَّله مِن أجلها: أليس قليلاً نظرةٌ مِنْكِ إذا حَصَلَتْ لى. ثم استدرَكَ على نفسه راجعاً فيما أطلقه، وناقضاً لما اعتقدَه، فقال: «كلاَّ» — وهو حرفُ رَدْعٍ ونَفْى — لا قليلَ منكِ. ومثلى هذا قول الآخر:

هَلْ إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ ... فيُرَوَّى الظَّما ويُشْفَى الغَليلُ

إنَّ ما قَلَّ منكِ يكثُر عندى ... وكثيرٌ ممن يُحَبُّ القليلُ

(١) فى النسختين: «فيه».

فقوله « القليل » مبتدأ ، و « كثير ممن يحب » خَبَرُه .

وقوله « فياخُلَّةَ النفس » فى هذا الكلام اعتدادٌ فى المناداة بما يتوخّاه معها ، فيقول : يا صديقةَ النفس التى تفرّدَت بمِلْكها واجتذبتْها من أيدى خُطّابها ففازت بها ، فليس لنا خليلٌ ممن يُصافِى المودّة من دُونِها(١) ، ويا مَن ستَرْنا حُبَّه عن الناس كافّةً ، صيانةً له عن الانتشار والابتذال ، فلم نُطِعْ فيه واشياً فيَفْسُد ذاتُ بينِنا ولا مُضَرِّباً(٢) ، ولم نأمن عليه دخيلَه يُزاحِمُه فى حِمَاه فيصير موضعُه مشتَرَكاً ، أمَا عندكِ مَقامٌ لى فيه إليك سبيل أشتكى غَرْبَةَ النَّوَى ، وخَوفَ العِدى . فالمنادى له قوله « أمَا مِن مقامٍ أشتكى » .

٧ — فَدَيْتُكِ أعدائى كثيرٌ وشُقَّتِي بَعيدٌ وأشْياعِى لديكِ قليلُ
٨ — وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعِلَّةٍ فَأَفنيتُ عِلاَّتي فكيفَ أقُولُ
٩ — فما كلَّ يومٍ لى بأرضِكِ حاجةٌ ولاَ كلَّ يوْمٍ لى إلَيكِ رَسُولُ(٣)

الشُّقَّةُ : بُعْدُ مسيرِ أرضٍ إلى أرض بعيدة ، وإنّما لم يقل بعيدة ، لأنّ فعيلاً كثيراً ما يقع للمؤنّث والمذكّر على حالةٍ واحدة ، حَمْلاً على النَّسب أو على فَعُول . يقول : تفديك نفسى ، فى أعدائى بحضرتك وفى الطريق إليك كثرةٌ ، وفى المسير بينى وبينَك بُعْدٌ ومشقة ، وفى النُّصّار لى بحضرتِك قِلّة ، وكنتُ متى جئتُك من قَبْل ، ولم تبلُغ الحالُ منّا هذا المبلغَ ، أُقيم مَعذِرةً وأنصِب لفِعلى علّة . وقد كَثُر ذلك مِنّى حتّى فَنِيَت المعاذيرُ والعِلَل ، فلا أدرِى ماذا أقول ، ومن أين

(١) فى الأصل : « من ذويها » ، صوابه فى ل .
(٢) التضريب : الإغراء بين القوم .
(٣) بعده عند التبريزى :

صحائفُ عِندِى للعتابِ طَويتُها ستُنْشَرُ يوماً والعتابُ طويلُ
فلا تحمِلِى ذنبى وأنتِ ضعيفةٌ فحمل دمى يوم الحسابِ ثقيلُ

أتوصَّل ، بأىِّ شىء أتبلَّغ ، وعلى ماذا أعوِّل ، ومع ذلك فالحاجاتُ بأرْضِك لا تكادُ تعرِض كلَّ يوم فتذْكَر ، والرُّسل لا توجد فتتقاطر ، فإذا تُؤمِّل حالى فإنِّى حبيسٌ على المكاره ، أسيرٌ فى أيدى النَّوائب ، ضيِّق المجال والشَّأْوِ فى الزِّيادة ، موفورُ الحظِّ من الأسباب الصادَّة ، عظيمُ المِحنة فيما اجتمَع علىَّ من أنواع البَلاء ، وموانِع القَضاء . وقوله « فكيف أقولُ » ، يريد : كيف أقول ما أقولُه ، فحذَف المفعول ، ويجوز أن يكون المراد بأقول أتكلَّم ، فيستغنى عن المفعول ، كقول الآخَر[1] :

بحاجَةِ نَفْسٍ لم تقُلْ فى جَوَابِها ... فتُبلِغُ عُذْرًا والمَقالَةُ تُعْذِرُ

أى لم تتكلَّمْ فى جوابها .

٥٤٢

وقال آخر :

١ ـــ أبَعْدَ الَّذِى قد لَجَّ تَتَّخذِيَنِنى ... عَدُوًّا وقد جَرَّعْتِنِى السَّمَّ مُنْقَعا

٢ ـــ وشَفَّعْتِ مَن يَبْغِى عَلَىَّ ولم أكُنْ ... لِأَرْجِعَ مَنْ يبغِى عَلَيْكِ مُشَفَّعا

ألف الاستفهام تطلب الفعل ، وإن كان المراد به هنا التَّقريع[2] والمعنى : أتتَّخذيننى عدوًّا بعد ما لَجَّ من الحبِّ فيكِ والهوَى ، وغَلَبَ من عِصْيان القلب والأسَى ، وبعد أن سقيتِنى جُرَع السمِّ المُنْقَع ، وأذَقْتِنى مرارةَ المنع الجامد ، فوجَدتِنى صابراً على الأذَى ، مُنْصَبًّا إليك بنوازِع الصِّبا ، لا يُخلى وِرْدَه وإن حُلِّئَ ، ولا يكدِّر صفاءَ وُدِّه وإن دُوفِع . والمُنقَع : المُثبَت ، يقال : « أنقِعْ له الشَّرَّ حتَّى يسأم » .

---

(١) هو عمر بن أبى ربيعة . ديوانه ٢ .

(٢) فى الأصل : « هذا التعريج » ، صوابه فى ل .

وقوله « وشفَّعت مَن يبغِى علىَّ » أى رددتِ الباغى علىَّ مُشَفَّعا بما جاء له فى معناى وطلبه ، وبقيتُ أنا لا أقبل نُصْحَ النُّصَّاحِ ، ولا أصدِّق قولَ الوُشاة ، ولا أُوَحِّى الشَّفيع عنِّى مُنْجِحًا ، ولا أصْرِف الباغىَ عليكَ مظفَّرا .

٣ – فقالت وما هَمَّتْ برَجْع جوابِنَا ... بَلَ اُنْتَ أبَيْتَ الدَّهرَ إلا تَضَرُّعا

٤ – فقلتُ لَهَا ما كُنتُ أوّلَ ذِى هَوًى ... تَحَمَّلَ حِمْلاً فَادِحًا فَتَوَجَّعا

يقول : أجابتنى بعد أن كانت فى صورةِ مَن لا يَعبأ بما يُبدأ به فلا يُجيب ، ولا يرِقُّ لمن يَشكو إليه فيستجيب : بل أنتَ تأبَى إلاَّ ضَرَاعَةً وتوَجُّعاً ، وانخزالا وتألماً . هذا عادتك والمألوفُ من طرائقك ، فإلى متى هذه الشَّكوى ، وأنَّى يكون منِّى فى مقابلة عَتْبِكَ المُعْتِبَ ؟ فقلتُ فى جوابها : ما أنا بِبِدْع فى الهوَى ، ولست بأوّل مَن حُمِّلَ ما لا يطيقه ، أو ثقُل عليه ما كُلِّفَهُ فتشكَّى . والفَادِح : المُثقِل . يقال : دينٌ فَادِحٌ ، وقد فَدَحَهُ الدَّين . والتَّضرُّع : التَّصاغُر والتَّذلُّل . يقال : رجلٌ ضَرَعٌ وضارِعٌ وقومٌ ضَرَع . ويقال : خَدُّه ضَارِعٌ ، وجَنْبُه ضَارِعٌ .

٥٤٣

وقال آخر[(١)] :

١ – أبَى القَلْبُ إلَّا أُمَّ عَمْرٍو وحُبُّهَا ... عَجُوزاً ومن يُحْبِبْ عَجُوزًا يُفَنَّدِ

٢ – كَسَحْقِ اليمانى قد تقادَمَ عَهْدُه ... ورُقْعَتُه ما شِئْتَ فى العينِ واليَدِ[(٢)]

(١) التبريزى : « وهو أبو الأسود الدؤلى » . وهو أبو الأسود ظالم بن عمرو ، الذى ينسب إليه وضع النحو ، شهد مع على بن أبى طالب صفين ، وولى البصرة لابن عباس ، ومات بها وقد أسنَّ ، سنة ٦٩ فى الطاعون الجارف . وهو يعد فى الشعراء ، والتابعين ، والمحدثين ، والبخلاء ، والمفاليج ، والنحويين . انظر مصادر ترجمته مسهبة فى الجزء الأول من إنباه الرواة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٣ .

(٢) التبريزى : « كثوب اليمانى » : وأشار إلى الرواية الأخرى .

انتصب « عَجُوزًا » على الحال . والتَّفنيد : التَّوبيخ . والسَّحْقُ : الخلَق من الثِّياب الذى قد انسحق وانجرد ، وأضافه إلى اليمانى إضافةَ البعضِ إلى الكلّ . هذا إذا جَعَلْتَ اليمانى البُرْدَ . ولك أن تجعلَه التَّاجرَ صاحب البُرْد ، فيكون الإضافةُ إليه . والمعنى : أَبَى قلبى إلاَّ هذه المرأةَ وحُبَّه لها فى حال تعجيزها ، ومَن صَرَفَ وُدَّه إلى العجائز وُبِّخ ، لكنَّها فى النِّساء كخَلَق البُرد اليمانى فى الثياب ، وقد قَدُمَ عهده ، أى معهودُه[1] ، وإذا مَسِسْتَه أو نظرتَ إليه وجدتَ رقعته زائدةً على كلِّ رقعة دِقَّةً ومتانَةً ، ومنظرَه راجحًا على كلِّ منظرٍ حُسْنًا وجَوْدَةً ، وكذلك منظرُ أمِّ عَمْرٍو ومُخْتَبَرُها . وقوله «وحُبَّها» أضاف المصدر إلى المفعول . وقوله « ما شئت » يريد ما شئته ، فحذَف المفعول من الصِّلة تخفيفًا . وقوله « فى العين » يريدُ فى النَّظر . و « فى اليد » يريد عند اللَّمْس .

٥٤٤

وقال آخر[2] :

١ — هَجَرْتُكِ أَيَّامًا بذى الغَمْرِ إنَّنِى ... على هَجْرِ أيامٍ بذى الغَمْرِ نادِمُ[3]

٢ — وإنِّى وذَاكِ الهَجْرَ لو تَعْلَمِينَه ... كعازِبَةٍ عَنْ طِفْلِهَا وهى رَائِمُ

الكلام اعتذارٌ من إخلاله بزيارتها ، وهِجرانه لها لعارِض عَرَضَ بذى الغَمْر ، ثم أظهرَ تندُّمَه على ذلك ، وأنَّه مُدَّةَ هَجْرِه فى وَجْدِه بها وشفقته عليها وتشوُّقه لها ، كأمٍّ حِيلَ بينها وبين طِفْلِها ، وهى بعيدةٌ عنه بنفسها ، ورِئْمانها — أى عَطْفُها — متوفِّرٌ عليه . قال : وكذلك كنتُ فى انقطاعى بالنَّفْسِ ،

(١) ويصح أن يراد بالعهد الزمان .
(٢) هو عبدالله بن الدمينة ، المترجم فى ١٢٢٣ . وانظر ديوانه ص ١٩ .
(٣) فى الديوان : « أيامى » .

وتَوَفُّرِى بالقلب . شَبَّهَ نَفْسَهُ بالعازِبة ، وللمهجورةَ بالطِّفل .

فإنْ قيل : إنّما قال : وإنّى وذاكِ الهجرَ ، فيقتضى كلامُه أن يكون التَّشبيه متناوِلاً لَهُ ولهجره ؟ قلتَ : يجوز أن يريد إنّى معَ ذاكِ الهجر ، وهذا كما يقال : إن الرِّجال وأعضادَها ، أى مقرونان ؛ وإنَّ النِّساء وأعجازها ، أى مقرونان ، لأنَّ المراد مع أعضادها ومع أعجازها .

ويجوز أن يكون أراد بالهجر المهجور ، لأن المصدر يوصَفُ به ؛ ويجوز أن يكون ذكر الهَجْرَ لَمَّا كان من سَبَبها ، والمراد تلك . وقوله « لو تعلمينه » الضمير منه يعود إلى الهَجْر ، والمراد ما ذكرتُه . والعازبة : البعيدة . ويقال : عزب عنه عَقْلُه . والعازِبُ أيضاً ، الكلأُ البعيدُ المطلب .

٥٤٥

وقال آخر :

١ ــ ما أَحْدَثَ النَّأْىُ الُمفرِّقُ بيننا   سُلُوًّا ولا طَولُ اجتماعٍ تقَالِيا

٢ ــ خَلِيلَىَّ إلاَّ تَبْكِيَا لِىَ أَسْتَعِنْ   خَلِيلاً إذا أنفيْتُ دَمْعِى بَكى لِيا

٣ ــ كأنْ لم يَكُنْ بَيْنٌ إذا كان بَعْدَهُ   تلاَقٍ ولكنْ لا إخالُ تلاَقيا

قوله «ما أَحْدَثَ النَّأْىُ» يصف أن الوجد الذى به قد صار غَرَامًا ، فلا البُعد منها يُحْدِثُ سُلُوًّا عنها ، ولا الاجتماعُ معها يُوجِبُ مَلاَلاً منها ، لكنه فى الحالتين جميعاً على حَدٍّ واحد من تبَارِيحِ الهوَى . ثم أقبل على صاحبين له يُخَالُّهُمَا فطلب منهما إسعادَه فى البكاء ، وأنَّهما متى لم يُسْعِفاَ لَهُ بمطلوبِهِ استعان بغيرهما ، حتَّى إذا نَزَف دمعه بَكى له نائبا عنه .

وقوله « كأن لم يكن بَيْنٌ » شَبَّهَ البَيْنَ إذا تعقَّبه المواصلةُ أو الاجتماع

بما لم يكن ، لكنّه زعَمَ أنّه يائِسٌ لا يَظُنُّ تَسَهُّلَ التَّلاقى بينه وبين محبوبِهِ واقعاً . وقوله « ولا طول اجتماع » ارتفع بفعلٍ مُضْمَر ، كأنه قال : أحدثَ طولُ اجتماعٍ .

وقوله « خليلىَّ إلاّ تبكيا لِىَ » تألُّم وتَشَكٍّ من زمانه ، حين لم يكن له مَن يساعده فى شدَّةٍ أو رخاء ، ويتحمل عنه ثِقلاً فِى مَسَرَّةٍ أو مَضَرَّة .

وقوله « كأن لم يَكُنْ » كان هذه هى التّامَّة ، والمراد : كأن لم يَقَعْ بَيْنٌ . وكأنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، وَقَع على محذوفٍ ، كأنّه قال : كأنّ الأمرَ والشّأن لم يكن بَيْنٌ إذا حصل بعده التقاء . وقوله « لا إخالُ تلاقيا » المفعول الثانى محذوف كأنه قال : لا أحسب تلاقيا بعده . وساغَ ذلك لتقدُّم ذكره ، فهو فى حُكْم الملفوظ به .

٥٤٦

وقال جَمِيلٌ(١)

وقد حارَبَ الفخِذ الَّذِين منهم بُثَينة :

١ – تَفرَّقَ أهلانَا بثَيْنَ فِنهمُ ... فريقٌ أقامَ واستقَلَّ فريقُ
٢ – فلو كنتُ خَوّارًا لقدباحَ مِيسَمِى ... ولكنَّنى صُلْبُ القَناةِ عَتِيقُ
٣ – كأنْ لم نحارِبْ يا بُثَيْنَ لَوْ أنّها ... تَكَشَّفُ غُمَّاها وأنتِ صديقُ

قوله « أهلانا » أراد شعبيهما . وقال الخليل : أهل الرّجل : أخصُّ الناس به . وأهل البيت : سُكانه . وأهل الإسلام : مَن يدين به . وبُثَيْنُ : نِداء

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ . وانظر قصة الخلاف بين جميل وقوم بثينة فى الأغانى (٧ : ٨٨) .

مفردٌ مرخَّمٌ . وقوله فمنهم فريق أقام ، تفصيل لما أجمله فى تفرّق . وإنما افترقوا حتّى ارتحَلَ قومٌ وأقام قومٌ للخلاف الواقع كان بينهما .

وقوله « فلو كنتُ خوَّارًا » تنبيه على كراهتِه لما حدَث ، وإظهارٌ أنَّ ميلَه مع أهل بُثَينة ، فقال : لو كنتُ ضعيفَ المُسْكَةِ مُنْحَلَّ العُقدة ، لكان مِيسَمى وقد بَاخَ ، أى زالت حرارته ، وسكنَتْ حَمْيَتُه ، بما أقاسيه وأشاهدُهُ حالاً بعد حال ، مِن عوارض الدّهرِ ونوائبِ الزمانْ ، ولكنّنى عتيق النَّبْع ، صليب القناة . وهذا مثلٌ ضربَه لإبائه ، وبقائه على طريقةٍ واحدة فى العهد والوفاء . ثمّ اعتذر بعد ذلك فقال : « كأن لم نُحارب يا بُثَين » يريدُ أنَّ جميعَ ما يجرى عليه يخفُّ ويهونُ إذا بقيَتْ له على مافارقها عليه ، وتعاقَدا له ، حتّى كأنَّه لم يقع تجاذُبٌ[1] بين الحيَّيْن ، ولا تحارُبٌ بين الأهلَيْن ، إذا انكشفت[2] الغيايَةُ الحاصلة ، وارتفعت العَمَاية الرَّاكدة ، وتلك باقيةٌ على المصافاة . ويقال : باخت النّار بَوْخا وبُؤُوخا ، إذا خَمدَت . والغُمَّى ، هى الخصْلة المُظلِمة . ولك أن تروى « تكشَّفُ » بالرفع ، يريد تتكشَّفُ ، فحُذفت إحدى التاءين استثقالا لاجتماعهما . وإنّما عدَل عن الإدغام إلى الحذف ؛ لأنَّه كان يحتاج عند الإدغام لسُكون أوّلِ الحرفين ، إلى جلب ألفِ الوصل ، وألفُ الوصل لا تدخل على الفعل المضارع . ولك أن تروى « تَكشَّفَ » على أن يكون التاء للماضى . وجواب لو فى قوله كأن لم نحارب ، والواو من « وأنت » واو الحال . وذكَّر « صديق » لأنَّ المراد ذات صداقة ، ولو قال صديقة لجاز . قال :

إذِ النَّاسُ ناسٌ والزمانُ بغِرَّةٍ ... وإذْ أُمُّ عَمَّارٍ صَدِيقٌ مُسَاعِفُ[3]

(١) فى الأصل : « تحارب » ، صوابه فى ل .

(٢) ل : « تكشفت » .

(٣) يفهم من صنيع اللسان (سعف) أن البيت لأوس بن حجر ، وليس فى ديوانه فى القصيدة التى على هذا الروى ، وانظر نوادر المخطوطات ١ : ١٥٩ .

٥٤٧

وقال آخر :

١ — شَيَّبَ أَيَّامُ الفِراقِ مَفارِقِي وأَنْشَزْنَ نفسى فوقَ حيثُ تَكُونُ

يقول : أثَّرَتْ أيامُ الفِراقِ فىَّ فأبْدَلتني بالشَّباب مَشِيباً ، وبالجِدَّةِ والقُوَّةِ خُلُوقَةً ووَهْناً شديداً ، وأزعجَتْ نفسى من مَقرّها فارتفعت من مركزها إلى ما فوقها ، فالشَّيب وإن جاء قبلَ حِينه يُؤذِنني باقتراب المَهَل ، ونُشوزُ النَّفس يَبْشُرنى[1] بدنُوِّ الأجَل . هذا إلى ما أُعانيه من حوادث الفِراق ، ولوَاذع الاشتياق . وقوله « فوقَ حيثُ تكون » جعل حيث اسماً وأضاف فوق إليه . وحيثُ فى الأمكنة[2] بمنزلة حين فى الأزمنة . ولذلك احتاجَ إلى جملتين . « وتكون » : مستقبَلُ كان التَّامَّة ، ومعناه يَقَعُ ويَحْصُلُ . ويقال للرَّجُل إذا تزحّف عن مجلسه فارتفع فُويقَ[3] ذلك : نَشَزَ نُشُوزًا ، وأنشزته إنشازا . وقوله «أيّامُ الفراقِ مَفارِقِى» يسمّى التَّجنيس الناقص . وفَرْقُ الرأس ومَفْرِقُه واحد .

٢ — وقد لانَ أيّامُ اللِّوَى ثُمَّ لم يَكَدْ مِنَ العَيْشِ شىءٌ بَعْدَهُنّ يَلِينُ
٣ — يَقُولُونَ ما أبلاكَ والمالُ غامِرٌ عليكَ وضاحِى الجِلْد منكَ كَنِينُ[4]
٤ — فقلتُ لهم لا تَعْذُلُونِىَ وانظُرُوا إلى النَّازِعِ المَقْصُورِ كيفَ يكونُ

جعل أيامَهُ باللِّوَى إذْ كان فيه اجتماعٌ مع الأحبة ، ومُساعَفَةٌ من المقدار والأقضية . ثم تعقَّبَ بزَعْمِهِ ما صَعُبَ منها وخَشُنَ ، لما حَدَثَ من البِعاد فيه

(١) يبشرنى ، من البشر ، بمعنى التبشير ، وهذا على التهكم ، كما فى قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » . وفى الأصل : « ينشرنى » ، وصوابه فى ل بهذا الضبط .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « الأماكن » .
(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فوق » .
(٤) التبريزى : « غامر لديك » .

فاستنكَرَ ، فلم يَستوفِقْ بعدها شيئاً من الأوقات ، ولا ارتَضَى حالاً من الأحوال ، لتعسُّرِ العَيش ، ونَكَد الفِراق .

وقوله : « يقولون ما أبلاكَ والمالُ غامِرٌ » يريد أنَّ النَّاسَ مُتعجِّبون من شأني وأمرِى ، مستنكِرون ما يشاهدون من حُؤُولي وضُمْرِى ، فيرجعون بالسُّؤَال علىَّ ، ويقولون : ما الذى بَلَّاكَ ، وهزَلَكَ وأنضاكَ ، وفى مالِكَ وُفُورٌ ، والضَّاحِى من جلدِكَ بالكُسوة مَسْتُورٌ ، فلا تَبذُّلَ للحَرُور اعتراكَ ، ولا إضاقة فى المعاش تَغَشَّاكَ . قال : فأجبتهم بأنِ اصرِفُوا عنّى العَتْبَ والمَلام ، واعتَبِرُوا حالى بالنَّظَر إلى البعير الحانِّ إلى وَطَنٍ ، مع أنه أغلَظُ ما خَلَقَهُ اللهُ كَبِدًا ، وأَثبَتُ على الشدائد نَفْسا وجَلَدا ، كيف يضجّ ، ولو خُلِّىَ كيف يهيم على وجهه وَيندّ . واعلموا أنَّ ما يبلغ به تلك الحالةَ من النِّزاع على ما به من العُجمة والغباوة ، حقيقٌ بأن يُكْمِدَ مثلى ما تُوُحِّدْتُ به من التَّمييز والتَّحصيل[1] ، والفرق بين أَحْنَاء الأمور وأنحائها .

وقد أخذ أبو تَمَّامٍ هذا المعنى فنقَلَه إلى الدَّار وقد خَلَتْ من السُّكَّان فقال :

إن شئْتَ ألَّا تَرَى صَبْرًا لمُصْطَبِرٍ فانظرْ عَلَى أىّ حالٍ أصْبَحَ الطَّلَلُ[2]

٥٤٨

وقال أبو دَهْبَلٍ الْجُمَحِى[3] :

١ — أقولُ والرَّكْبُ قَدْ مالَتْ عَمائِمُهُمْ وقَدْ سَقَى القَومَ كَأسَ النَّعْسَةِ السَّهَرُ

(١) يقال : توحده الله بعصمته ، أى عصمه ولم يكله إلى غيره . اللسان (وحد ٤٦٦) .

(٢) ديوان أبي تمام ٢٢٦ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩ . التبريزى : « وقال أبو محمد الأعرابي : ليس قوله ياليت أني بأثوابي لأبي دهبل ، إنما وقع فى ديوانه مع ثلاثة أبيات أخر ، والصحيح أنها لمحمد بن بشير الخارجي ؛ وهذا البيت لايكاد يعرف معناه البتة إلا بالأبيات التى تتقدمه ، وهى :

٢ ــ يا لَيْتَ أَنِّي بِأَثوابي ورَاحِلَتِي عَبْدٌ لأَهْلِكِ هذا الشَّهْرَ مُؤْتَجَرُ

أول البيت الثاني ، وهو « يا ليتَ أنّي بأثوابي » في موضع المفعول لأقول. والواو من قوله « والرَّكْبُ » واو الابتداء ، وهو الحال . وقوله « وقد مَالَتْ عمائمهم » يريدُ لغَلَبةِ النوم عليهم ، ومجاهدة السَّير والسرَى فيهم ، ومزاوَلتِهم السَّهرَ ، حتَّى كأنَّهم سَقَاهُم كؤوس النُّعاس فسَكِروا ، والمعنى أنِّي أقول ، على معاناةِ هذه الأحوال : بِوَدِّي أني مُسْتَعْبَدٌ لأهلِك طُول الشَّهرِ الذى نحن فيه « مؤتجَرٌ بِكُسوتي وزادى وراحلتي ،لا أُكلِّفهم مَؤونة ، ولا أُحمِّلهم مَرزِئة ، كلُّ ذلك رغبةً في التقرُّب إليكِ ، والاستسعاد بخدمةِ أهلك ، والفَوز بالتَّعريج على مَحَلِّكِ ومرتَحَلك . وقوله « ياليت » ، المنادَى محذوف ، كأنَّه قال : يا قوم يا ليت أنِّي .

٣ ــ إن كان ذا قدراً يُعطيكِ نافلَةً مِنَّا ويَحْرِمُنا ، ما أنْصَفَ القَدَرُ

٤ ــ جِنِّيَّةٌ أَوْ لَهَا جِنٌّ يُعلِّمُها رَمْيَ القُلوبِ بِسَهْمٍ ما لَهُ وَتَرُ(١)

جواب الشَّرط في قوله « ما أنصف القَدَر » على إرادة الفاء . وقوله « يعطيكِ نافلةً » في موضع الصِّفة لقَدَرًا . وأشار بـ « ذا » إلى ما بينه وبين محبوبه . والمعنى : إنْ كان ما يُرَى بيننا ويُشاهَدُ قدَرًا قدَّره الله تعالى ، يُعطيكِ منّا ماتَستغنِمينَه وتستفضلينه ، ثمَّ يمنعُنا مثلَ ذلك منكِ فلا يُوجِبُه لنا ، فما أعطانا النَّصَفَةَ في القضيَّة ، ولا سار بالسِّيرة المحمودة(٢) في الحكومة .

= يا أحسن الناس إلا أن نائلها قدما لمن يرتجى معروفها عسر
وإنما دلها سحر تصيد به وإنما قلبها للمشتكى حجر
هل تذكرين ولما أنس عهدكم وقد يدوم لعهد الخلة الذكر
قولي وركبك قد مالت عمائمهم وقد سقاهم بكأس النومة السفر

(١) التبريزى : « بقوس مالها وتر » ، وهذه الرواية أجود .
(٢) ل : « بالسير المحمودة » .

وقوله « جنّيّةٌ » يريدُ أنَّ فِعْلَها مُبايِنٌ لفعلِ الإنسِ ، وكذلك شكلُها وحُسنها ، فإمّا أنْ تكون من الجنِّ ، أو لها من الجنِّ من يُعلِّمها افتتانَ العقول ، واختبالَ الأفئدةِ في الصُّدور . وقوله « بسهمٍ ماله وتَرٌ » ، يريد سهماً لا يُنزِّبه الوترُ على القِسِيّ ، بل تهيِّئه مُقَلُ العُيون ، ونَواظِر الفُتون ، لإصابة حبَّات القُلوب ، وانتظام غِرّات النُّفوس .

٥٤٩

وقال تَوْبَةُ بن المُضَرِّس(١)

١ — يقول أُناسٌ لا يَضيرُكَ نَأْيُها بَلَى كُلُّ ما شَفَّ النُّفُوسَ يَضِيرُها

٢ — أليسَ يَضِيرُ العينَ أن تَرِدَ البُكا ويُمْنَعَ منها نَوْمُهَا وسُرُورُها(٢)

يقال : ضارَهُ يَضِيرُهُ ، في معنى ضرّه يضُرّه . وشَفَّ النفوسَ ، أي آذاها وأذابَها . والمعنى : أنَّ النَّاسَ يطيِّبون قلبي ويَرُومون بحاجّتِهم لي تسليتي ، ويقولون إنَّ بُعدَها لا يُورِثك خَبالا ، ولا يَكسِبك ضرراً ووبالا ، بل يُعقِبك سلوةً ، ويُبدِّلك من التأنُّس بالاجتماع معها نَفْرَةً ، فأثبتُّ ما نَفَوْه ، وأبطلتُ ما أَلِفوه(٣) ، وقلت : بَلَى كلُّ ما يُذيب النَّفسَ ويَهزِلُها ، ويسلبُها القرارَ ويُقلقُها ، فهو عائدٌ بأكملِ الضَّررِ عليها ، ثمَّ رَددتُهم إلى الشَّاهد مستدلاً بها ،

(١) عند التبريزي : « توبة بن الحمير » ، وقد سبقت ترجمته في الحماسية ٥١٣ ص ١٣١١ . وأما توبة بن المضرس فهو توبة بن المضرس بن عبد الله بن عباد بن محرث بن سعد بن حزام بن سعد بن مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر محسن ، قتل أخواه فجزع عليهما جزعاً شديداً ، وكان لايزال يبكيهما ، فطلب إليه الأحنف بن قيس أن يكف ، فأبى ؛ فسماه « الخنّوت » ، وهو الذي يمنعه الغيظ أو البكاء عن الكلام . المؤتلف ٦٨ — ٦٩ .

(٢) « ترد » هي رواية الأصل . وفي ل والتبريزي : « أن تكثر » ، وأشير في هامشة ل إلى أنها في نسخة « ترد » .

(٣) هذا ما في ل ؛ وفي الأصل : « ألفوه » ، وقد أشير إلى هذه الرواية الأخيرة في هامشة ل .

فقلتُ : أليس العين إذا أُدِيم البكاء بها ، ومُنِـعَ النّومُ وما يُلتَذُّ به من مَسارح اللّهو والسُّرور منها، يضرُّها ذلك ؟ كذلك النَّفسُ إذا جُمِـع عليها مالا تهواه ، وفُرِّق بينها وبين ما تلتذُّه وترضاه .

٥٥٠

وقال ابن أبى دُباكِلٍ الخزَاعِيُّ(١) :

١ — يطولُ اليَومُ لا أَلقَاكِ فيهِ وحَوْلٌ نَلتقِي فيه قَصِيرُ(٢)

٢ — وقالوا لا يَضِيرُكَ نَأْىُ شَهْرٍ فقلتُ لصاحِبِى فتى يَضِيرُ(٣)

يقول : إنّ السَّنَة الـكاملةَ إذا اتَّصَل الالتقاء بيننا فيها ، أستقصِرُها وأحرِصُ على الاستزادةِ منها ، التذاذاً بها وبُعْدًا من المَلاَل لها ، وإنّ اليوم الواحِد إذا حيل بينى وبينك فيه أستطِيلُه تقالياً له ، وتفادياً منه ، وكراهيةً لامتداده والنَّاسُ يقولون لى : إنّ الشَّهرَ لا يَجْلُبُ عليك ضَرَرًا ، فقلت لصاحبى : فمتى يضير إذاً ؟ استبعاداً للأجل المضروب . ويروى : « لصاحبىَّ فمن يضير » . والمعنى : إذا لم يَضُرَّنى القَطْع عمَّا لم أرتوِ منه فمن المضرور إذاً .

---

(١) التبريزى : « دباكل علم مرتجل ، وليس منقولا من جنس » . وفى القاموس : « وابن أبى دباكل ، بالضم : شاعر خزاعى » . واسمه سليمان بن أبى دباكل ، كما فى الأغانى (٧ : ١٨/٢٩ : ١٩٥) شاعر أموى ، كان معاصراً للأحوص ، وقد صنع قصيدته التى يقول فى أولها :

يا بيت خنساء الذى أتجنب ذهب الشباب وحبها لايذهب

فقال الأحوص فى عروضها :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

(٢) ل : « وشهر نلتقى » . التبريزى : « ويوم نلتقى » . وقد روى التبريزى هذا البيت بعد تاليه هنا .

(٣) ل والتبريزى : « فمن يضير » ، وهما روايتان نص عليهما فى الشرح .

٥٥١

وقال عُبَيْد الله بن عَبد الله بن عُتْبَةَ(١) :

١ – شَقَقْتِ القَلْبَ ثم ذَرَرْتِ فيه هَـــوَاكِ فَلِيمَ فالْتَامَ الفُطُورُ(٢)
٢– تَغَلْغَلَ حيثُ لم يَبْلُغْ شَرَابٌ وَلا حُزْنٌ ولم يَبْلُغْ سُرُورُ

يصف استحكامَ أمْرِ الهوى وشدَّةَ تسلُّطِه على قلبه وتمكُّنِه من عَقله ، فيقول : شَقَقْتِ قلبي ، وجعلتِ هَوَاكِ ذَرُوراً فيه ، فرسَخ فى جوانبه بعد أن دَبَّ فى مسامِّه وموالجِه ، ثم جَمعتِ فُتُوقَه حتى الْتَأَمَتْ شقوقُه ، فتوصَّلَ الهوى منه إلى حيث أعجزَ كلَّ سرورٍ وحزن . والمعنى أنَّ الهوى مَلَكَ مجامعَ قلبي فأحْمَى منــه ما كان مُحَرَّماً على غيره . وقوله « لِيمَ » أصله الهمز فأُبْدِلَ من همزته ياءٌ وانكَسَرَ اللام لها . والتَّغلْغُل : التَّوصُّل على مقاساةِ تَعَبٍ وشِدَّةٍ . ولا يُقال لمن توَصَّلَ والمذهب سَهلٌ : تَغَلْغَلَ . ويُقالُ : ذَرَّ الشَّيء ، إذا فَرَّقَهُ ؛ وذَرَّ الحبَّ فى الأرض . وقوله « التام الفطور » ، أراد الفطور منه ، فحذَف تخفيفاً ، لأنَّ المرادَ معلوم . والفَطْر : الشَّقُّ ، ومنه تفطَّرَ الورق .

---

(١) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى التابعى ، وعم أبيه هو عبد الله ابن مسعود . كان عالما ثقة فقيها ، كبير الحديث والعلم ، شاعراً . قال ابن عبد البر : كان أحد الفقهاء العشرة ثم السبعة الذين يدور عليهم الفتوى ، وكان عالما فاضلا مقدماً فى الفقه ، تقياً شاعراً محسناً ، لم يكن بعد الصحابة إلى يومنا فيما علمت فقيه أشعر منه ، ولا شاعر أفقه منه ؛ وكان له زوجة يقال لها « عثمة » فعتب عليها فى بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ، منها هذا الشعر ؛ وأوله عند ثعلب فى مجالسه ٢٨٤ :

تغلغــل حب عثمة فى فؤادى فباديه مع الخــافى يسير

وانظر الأغانى (٨ : ٩٣) ومجموعة المعانى ١٦٢ . وتوفى عبيد الله سنة ٩٨ . تهذيب التهذيب .

(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه البيت الذى ذكر فى الحاشية السابقة ، فهى عنده ثلاثة أبيات .

٥٥٢

وقال ابن مَيَّادَةَ[1] :

١ – وما أَنْسَ مِلْ أَشياءِ لا أَنْسَ قولَهَا ‏ وَأَدْمُعُهَا يُذْرِينَ حَشْوَ المَكاحِلِ

٢ – تَمَتَّعْ بِذَا اليَوْمِ القَصِيرِ فَإِنَّهُ ‏ رَهِينٌ بأَيَّامِ الشُّهُورِ الأَطَاوِلِ

انجزم « أنسَ » بما ، وما موضعه نصب على المفعول من أَنْسَ . والمعنى : إن أنسَ شيئاً من الأشياء لا أنسَ قولها . فلا أَنْسَ انجزَمَ على أنَّه جوابُ الشَّرط وقوله « مِلْ أَشْيَاءِ » أصله من الأشياء ، وجعل الحذْف بَدَلاً من الإدغام لمَّا تعذَّر إتيانه فى المتقارِبين ، وقد مرّ مثلُه[2] مستقصى . وقوله « يُذْرِينَ » يريد يُسْقِطن حَشْوَ المكاحِلِ . أراد أنها كَحْلاء ، فكأن الدَّمعَ حين ذَرَفَ صَحِبه الكحل .

وقوله « تمتَّعْ بذا اليومِ القصير » موضعُه من الإعراب نصبٌ على أنَّه مفعولٌ من قولها ، أى لا أنسَ قولها ، وقد شافَهَنَا الفِراق من يومِ التوديع والتَّشييع وهى تبكى : تمتَّع بيومِكَ القصير[3] لكونه يومَ اجتماع ، فإنَّه مرتَهَنٌ[4] من الشُّهور الطَّويلة ، لكونها أيامَ التَّباين ؛ أى مثل هذا اليومِ لا يُفكُّ من الارتهان ، ولا يَحصُل إلاَّ بعد تَقضِّى تلك الأيام المستطالة .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٣٤ ص ١٣٣٣ .

(٢) ل : « ذكره » .

(٣) ل : «بذا اليوم القصير» ، وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة : « بيومك القصير » .

(٤) ل : « رهين » ، وأشير فى هامشها إلى الرواية الأخرى .

٥٥٣

وقال محمد بن بَشِير[(١)] :

١ ــ بَيْضَاءُ آنِسَةُ الحَدِيثِ كأنّها قَمَرٌ تَوَسَّطَ جِنْحَ لَيْلٍ مُبْرِدِ
٢ ــ مَوْسُومَةٌ بالحُسْنِ ذاتُ حَوَاسِدٍ إنّ الحِسَانَ مَظِنَّةٌ لِلحُسَّدِ
٣ ــ وتَرَى مَدَامِعَها تُرَقْرِقُ مُقْلَةً سَوداءَ تَرْغَبُ عن سَوادِ الإثْمِدِ

وصفَ المرأةَ بإشراق اللّون . ومعنى « آنِسة » ذاتُ أُنْس ، لأنَّ الحديثَ يُؤْنِسُ ولا يَأْنَسُ ، كقولهم : همٌّ نَاصِبٌ ، والمراد مُنْصِبٌ . ثمَّ شبَّهها بقمرٍ توسَّط السَّماءَ فيما جنَح مِن ليلٍ كان فيه غَيْمٌ وبرد . والقمرُ إذا خَرجَ من حَلَك الغمام فى ليلةٍ مَطيرة كانَ أضوأَ وأحسَن . ويجوز أن يكون قوله « لَيْل مُبْرِد » يُرَادُ به ليلٌ ذو بَرْدٍ أو بَرَدٍ ، ويكون من باب أشْمَلْنَا ، أى دخَلْنا فى الشَّمال ، وأشْتَيْنا ، أى دخَلْنا فى الشِّتاء . ويُقال : بُرِدَت الأرضُ ، إذا مُطِرت البَرَدَ ، فهى مبرودةٌ . وأبْرَدْنا ، أى دخَلْنا فى البَرَدِ أو البَرْد ، وكذلك قوله شُمِلْنَا : أصابتنا ريح الشَّمال ، وأشمَلْنا : دخَلْنا فى الشَّمال . وقال الخليل : يقال أبْرَدَ القومُ ، إذا صارُوا فى وقت القُرِّ فى آخر النهار . والأَبْرَدان : طَرَفَا النَّهار . وقال الشَّاعر[(٢)] :

إذا الأَرْطَى تَوَسَّدَ أَبْرَدَيْهِ خُدُودُ جَوَازِئٍ بالرَّمْلِ عِينِ

يصف بقرةً وحشيَّةً بأنَّها تتوسَّدُ غصُون الأرْطَى التى تَلِى الغَرْبَ بالغَداة ،

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ . وعند التبريزى : « وقال آخر » . وقد نسب الشعر إلى محمد بن بشير أيضاً فى الأغانى (١٤ : ١٤٧ ــ ١٤٨) ، ونسبه فى الأغانى (٢ : ١١) إلى مجنون ليلى .

(٢) هو الشماخ بن ضرار . ديوانه ٩٤ واللسان (جزأ) .

فإذا دارت الشمس دارت معها إلى ناحية الشَّرق ، فتوسَّدَت الغُصونَ التي مالت الشَّمسُ عنها .

وقوله « موسومةٌ بالحسن » يريد أنه جُعِلَ سِيماها الحسنَ ، فهي ممسوحةٌ به موسومةٌ . وأصل السِّمَة العلامة ، ومنه السِّيما . ومعنى « ذاتُ حواسِدِ » أي مَن يراها مِن النَّاس يَحسُدها ، لأنّ الحِسَان مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ . وهكذا كما يُقال : إنَّ الحسَد يتبع النِّعَم .

وقوله « وترى مدامعَها ترقرِقُ مُقْلَةً » فالمدامع مَسَايل الدَّمع من القبائل في الرَّأس . ومعنى « ترقرِقُ مقلةً » أي ترقرِقُ الدَّمعَ في مقلةٍ . والرَّقراق : الدَّمع الذي يترقرق في العَين ولا يسيل . قال :

* أو الدُّرِّ رَقْرَاقُهُ المُنْحَدِرْ[1] *

والمعنى أنّها كَحْلاء ، وأنّ الدَّمع يتجمّع في مُقْلَةٍ لها مُستغنيةٍ عن سَواد الكحل ، لكَحَلِها .

٥٥٤

وقال آخر[2] :

١ـ صَفْرَاءُ من بَقَرِ الجِوَاءِ كأنّما ... تَرَكَ الحَيَاءُ بها رُدَاعَ سَقِيمِ

٢ـ مِنْ مُحْذِيَاتِ أخي الهَوَى جُرَعَ الأسَى ... بدَلالِ غانيـةٍ ومُقْلَةِ رِيمِ

٣ـ وقَصِيرةِ الأيَّامِ وَدَّ جَلِيسُها ... لَوْ دَامَ مَجْلِسُها بفَقْدِ حَمِيمِ

وصفها بأنّها دُرِّيَّة اللون ، وأنّ فيها مَشابهَ من بَقَر الجِواء ، وأنّها حَيِيَّةٌ

(١) لامرىء القيس في ديوانه ٧ . وصدره :

* فأسبل دمعي كفض الجمان *

(٢) هو مجنون ليلى قيس بن معاذ . اللسان (ردع) .

قليلة الحركات لنعمتها ، قليلةُ الـكلام لفَرط حيائها ، فكأنّ بها نُـكْسَ سَقَمٍ لما أَلِفَتْهُ من الـكسَل . وقال الخليل : الرّدْع والرُّدَاع : النُّـكْس ؛ ورجُلٌ مَردوع . وقيل : الرُّداع : الوجع فى الجسَد . فأما قول الأعشَى :

بيضاء ضَحْوَتَها وصَفرا ء العَشِيَّةِ كالعَرَارَهْ

فجعل لها لونَين : بياضاً فى أوّل النهار ، وصُفرةً فى آخره حتى لونها لَوْنُ العَرَار . وإنّما يُريدُ أنّها تَقِيلُ فيمتدُّ النَّومُ بها إلى آخرِ النّهار ، والقائم من نَومِه أبداً يكون متغيِّر اللون . ومثل قوله « تركَ الحياء بها رُدَاعَ سقيم » قولُ الآخر(١) :

كأنَّ لهَا فى الأَرضِ نِسْياً تَقُصُّهُ على أَمِّهَا وإن تُـكلِّمْك تبْلَتِ

وقوله « مِن مُحْذِياتِ أخِى الهوى » يريدُ أنها من النساء اللاتى تَسقِى الشُّبّانَ وأربابَ الهوى جُرَعَ الأسى ، يريد أنها تَفتِنهم بمحاسنها ، ثم لا تُنيلهم شيئا ، وهى الحُذْيَا والحِذْوَةُ . والأسى : الحُزْن .

وقوله « بدَلالِ غانيةٍ » تعلق الباء منه بمُحْذِياتٍ . والغانية : التى تَستغنِى بجَمالها عن الحُلِىّ . والرِيمُ : الظبْىُ الخالص البَيَاض . والمعنى أنها تفتنه بعينِها وكلامِها وغُنْجِها .

وقوله « وقَصيرةِ الأيام » يريد أنها لا تُمَلّ ، فالأيام فى مُلازَمتها قصيرة ، حتى أنَّ مُجَالِسَها يودُّ أن يدوم مجلسها له وإنْ فقدَ أقاربه . والقَصـدُ إلى أنها طيِّبة الحديث ، مُؤنِسة المجلس ، مُصَرِّفة المُلازم فى أصنافِ المَلاذّ حتى يَنسَى كلّ شىء غيرَها ، ويَبْشَمَ جميعَ المَناظر سِواها .

وقوله « بفَقْدِ حميم » الباء فيه يُفيد معنى العِوَض ، فهو كما يقال : هذا لك بكذا ، أى عِوَضاً منه .

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات ١٠٩ .

٥٥٥

وقال آخر :

١ــ ونارٍ كسَحْرِ العَوْدِ يرْفَعُ ضَوْءها مَعَ اللَّيلِ هَبَّاتُ الرِّياحِ الصَّوَارِدُ[١]

٢ــ أصُدُّ بأيدِى العَيسِ عن قَصْدِ أهلِها وَقَلبى إليها بالمُوَدَّةِ قاصِدُ

شبَّه النارَ فى حُمرتها وتصاعُدها بسَحْر العَود . والسَّحْر : الرِّئةُ وما تعلَّق بالحُلقوم . ويقال لمن نزَتْ به البِطْنة : انتفخ سَحْرُه ؛ كما يقال : عدا طَوْرَه . وأكثرُ ما يقال ذلك لمن جَبُن عن شىء . والعَوْد : الجمل المُسِنّ ؛ وقد عوَّدَ ، أى نَيَّبَ ، والجميع العِوَدَةُ ، وفى لغةٍ : العِيَدَةُ . ويستعمل العَوْد فى السُّؤْدَدُ القديم ، والطريق العادىّ .

وقوله « يرفع ضوءها » يريد أنَّ هَبَّاتِ الرياح الباردة تُهيِّجها ، فكأنها ترفَع من ضوئها فى ظَلام الليل ومعَه . والصَّوارد : البوارد ، وهى من صفة الهبَّات .

وقوله « أصُدُّ بأيدى العِيس » جواب رُبَّ .

ويشبه البيتَ الثانىَ قولُ الآخَر[٢] :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِدَى وبهِ الفؤادُ مُوكَّلُ

ومثل البيت الأوَّل قولُه :

تَنوَّرْتُها مِن أذرعاتٍ وأهلُها بيَثْرِبَ أدنَى دارِها نَظَرٌ عالِ[٣]

---

(١) التبريزى : « ترفع ضوءها » . وانظر الحيوان (٥ : ٦٣) وكتاب الزهرة للأصفهانى ٢٣٥ .

(٢) هو الأحوص بن محمد الأنصارى . الأغانى (١٨ : ١٧٥ ، ١٩٦) ، وذكر أبو الفرج أنه عارض بقصيدته قصيدة سليمان بن أبى دباكل وسطا عليها ، ومطلع قصيدة سليمان :

يا بيت خنساء الذى أتجنب ذهب الشباب وحبها لا يذهب

(٣) البيت لامرئ القيس فى ديوانه ٥٦ .

وهذا منهم على التشوُّق والتحفِّي. ألاَ إنهم كانوا يتعلَّلون بما كان مِن نحوِ أرضِ الحبيب.

٥٥٦

وقال الحُسَين بن مُطَير[1]:

١ - وكنتُ أذودُ العَيْنَ أن تَرِدَ البُكا ... فقد وَرَدَتْ ما كنتُ عنهُ أذُودُها

٢ - خَلِيلَيَّ ما بالعَيْشِ عَتْبٌ لوَ أنَّنا ... وَجَدْنا لِأيَّامِ الحِمَى مَن يُعيدُها

يقول: كنتُ أُصبِّر النفسَ فيما رِكبَها وثَقُل عليها من الوجْد، وأحبِسُ العينَ مما ترومُه من البُكاء، فقد عِيلَ الصبر، وتسلَّط الحزن، وغَلَب البكاء، فقد وردَت عيني الموردَ الذى كنتُ أُحلِّئها منه، وأذودها عنه.

وقوله «خليلَيَّ ما بالعيش عَتْبٌ» رواه بعضهم: «ما بالعيش عَيْبٌ». وذِكر العَتْب أحسن هاهنا. والمراد أنَّه لا معتَبةَ على العَيش، لأنَّ صفاءه بأن تتَّصل له أيَّامٌ كأيَّام الحِمَى، فلو وجَدْنا مَن يعيدُ أمثالها فساعد فيها قُرْب المَزار، وإمكانُ الوِصال، لطاب وصَفَا كما كان من قبل فلا ذَنْبَ للعَيش، إنما الذنب لما يكدِّره ويَشحَنُه بالمكاره.

٥٥٧

وقال آخر[2]:

١ - ولِي نظرةٌ بَعْدَ الصُّدُودِ مِن الجَوَى ... كنَظْرَةِ ثَكْلَى قد أُصِيبَ وليدُها

٢ - هَلِ اللهُ عافٍ عن ذنوبٍ تَسَلَّفَتْ ... أَوِ اللهُ إن لم يَعْفُ عنها مُعِيدُها[3]

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤.
(٢) كذا فى النسختين. أما التبريزى فقد جعل المقطوعتين مقطوعة واحدة.
(٣) التبريزى: «أم الله إن لم يعف عنها يعيدها».

يقول : قَذِيَتْ عيني بما حصَلَ من صُدود الحبيب ، فلى نظرةٌ بعدَه لِجَوَى القلبِ والجَوْف ، كنظرةِ أمّ أُصيبَتْ بوليدِها فثَـكِلَتْه . ثم قال متمنِّيًا : هل يعفو اللهُ عمَّا سلفَ لنا من ذنوبٍ ، أو يعيدُ لنا تسهيلَ أمثالِها والتمـكينَ من اقترافِ مُشابِهِها إن ضاقَ عفوُه عنها . وهذا كلامُ من حَرِجَ صدرُه بمستقبَل أمرِه ، وامتلأَ قلبُه من التأسُّف فى إثْرِ مُستدبَرِه .

٥٥٨

وقال سَوَّار بن المُضرِّب [١] :

١ — يأيُّها القَلْبُ هل تَنهاكَ موعِظةٌ ... أو يُحْدِثَنْ لك طُولُ الدَّهرِ نِسْيانا [٢]

٢ — إنى سأَسْتُرُ ما ذو العَقْلِ سائِرُهُ ... مِن حاجةٍ وأُمِيتُ السِّرَّ كِتْمانا

عتَب على قَلْبه فى عصيانه له ، واطِّراحه مواعظَه ، ووَلُوعِه المستمرِّ على تطاوُل الدَّهر ، وتقادُم الأمر ، وقال : هل ليِّنَ الوعظُ منك أو أحدَثَ مواصلةُ الأيام واستمرارُها نسياناً لك ، فتكفَّ عما يُكرَه منك ، أو تقبَل بعض ما تُدْعَى إليه من رُشْدِكَ .

وقوله « أو يُحْدِثَنْ » زاد النونَ الخفيفة فى المعطوف من غير أن حصَلَ فى المعطوف عليه ، وهو « يَنهاك » مثلُه ؛ وساغ ذلك لأنهم أَلِفوا زيادةَ إحدى النُّونين فيما ليس بواجبٍ من الأفعال ، فكأنه قدَّرَ أن الأوَّلَ حصل فيه النونُ فزادَ فى الثانية ، لتوهُّم مثلِه فى الأولى ، واستمرار العادةِ بزيادته . وهذا كما عُطِف فى بيت امرئ القيس :

---

(١) التبريزى : « المضرب » بالراء المشددة المفتوحة ، وقد مضت ترجمته فى الحماسية ١٨ ص ١٣٠ .

(٢) فى نسخة الأصل : « طول الليل » ، صوابه من ل والتبريزى .

فظَلَّ طُهاةُ اللَّحمِ مِن بينِ مُنْضِجٍ صَفيفَ شِوَاءٍ أو قَدِيرٍ مُعَجَّلِ

قوله أو قديرٍ معجَّلٍ، وهو مجرور، على صفيف شِواء وهو منصوب، لنِيَّتِه حذفَ التنوين، وجعَلَ الإضافة بدلاً منه فى مُنْضِج.

وقوله «إنى سأستُر ما ذو العقل ساترُه»، وصَفَ نفسَه بحُسْن التماسُك فيما يأتيه، واستعمالِ العقل فى سَتْر ما يجب إخفاؤه من حاجاته، وضَبْطِه للسِّرِّ، وقوّة كتمانه، حتى يصير السِّرُّ كالميِّت الذى لا أثَرَ له. ويُشير بذلك كلِّه إلى دَوام وفائه، واتصال عَهده، وكتْمِ ما يجرى بينه وبين محبوبه. وانتصَب «كتمانًا» لأنه مفعول له، ويجوز أن يكون فى موضع الحال، كأنه قال: كاتمًا له.

٣ــ وحاجةٍ دُونَ أخرَى قد سَنَحْتُ لها جعَلْتُها لِلَّتى أخفيْتُ عُنْوَانا(١)

٤ــ إنِّى كأنِّى أرَى مَن لا حَيَاءَ لَهُ ولاَ أمانَةَ بين الناسِ عُرْيانا(٢)

يريد: رُبَّ حاجةٍ عَرَضْتُ لها وأظهرتُها وفى النفس خِلافُها، لأنى جعلتُ المُظهَرَ فى التوصُّل به إلى المضمَر كعُنوان الكتاب الذى يَظهَرُ وما يَنطوى عليه الكتابُ مستور. يصف نفسَه بالذَّكاء وجَودة الفِطنة، وحُسن التأتِّى، والاهتداءِ فيما يرومُه للحِيَل اللطيفة. وكلُّ ذلك لئلاَّ يَقِفُ موقفًا يوجِّه إليه الظنونَ السَّيِّئة، ويَجلِب عليه القالةَ المُنكَرة.

والعُنوان يجوز أن يكون فُعْوَالاً مِن عَنَّ لِىَ الشىء، إذا اعترَضَ؛ ويجوز أن يكون فُعْلاَنًا من عَناه كذا. وفيه لغاتٌ وكلامٌ طويلٌ أتيتُ عليه فى (شَرْح الفصيح).

(١) التبريزى: «قد سنحت بها».

(٢) التبريزى: «وسط القوم عريانا».

وقوله « إنّي كأنّي أرى مَن لا حياء له » يريدُ : مَن خَلَعَ رِبقَةَ الحياء ، واطَّرَحَ حِشمةَ الناس ، وعرَّضَ الأمانةَ للضَّياع ، والمروءة للزَّوال ، فحُكْمُهُ حُكْمُ مَنْ أظهر عَوْرَته ، وهتك لماثبيه سِتره ، ورَضِىَ بما نِيلَ منه ، وتُحُيِّفَ من عِرْضه ودِينه .

٥٥٩

وقال آخر (١) :

١ — أهَابُكِ إجْلالاً وما بِكِ قُدْرَةٌ عَلَيَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

٢ — وما هَجَرَتْكِ النَّفسُ أنَّكِ عِنْدَهَا قَلِيلٌ ولكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُهَا

انتَصَبَ « إجلالا » لأنّه مفعول له ، جعَله علّةً في تهيُّبه لها . ويجوز أن يكون في موضع الحال ، فيقول : أحتَشِمُك بظَهر العيب ، وأخافُكِ ليس لاقتدارِ سلطانىّ منك علىّ ، وامتلاكِ لضَرِّى ونفعى في يديك ، ولكن رَفعاً منك ، وإكباراً لقَدْرِك ، ولأنّ العَين تمتلئُ ممّن تحبُّه استكباراً . واستعظاما ، لأنّه يحمَدها . والضمير من « حبيبُها » للعين » ، وإن جَعَلْتَها للمرأة ، أى ما تحبُّه وترضاه يملأ العين ، جاز . والمِلْءُ : القدر الذى يمتلئُ منه الشَّيء ؛ والمَلْء ، بفتح الميم : مصدر مَلأتُ .

وقوله « وما هَجَرَتْكِ النَّفسُ » يريد أنَّ الإخلال بالزِّيارة ؛ والتَّأَخُّر عن إقامة العادة ليس لزُهدٍ ولا لاستقلال للحال ، وإزراء بالحق، ولكنْ قَلّ حظِّى منكِ، ودام إعراضُكِ عنِّى ، فرُمْتُ رِضَاكِ في البُعد عنك ، وتَرْكِ التَّثاقُل عليك

وقوله « مِلْءُ عَيْنٍ » جاز الابتداء به وإن كان نَكِرَةً لحصول الفائدة في تعليق الخبر .

(١) هو نصيب : كما في سمط اللآلئ ٤٠١ .

٥٦٠

وقال ابنُ الدُّمَيْنَة(١) :

١ — ألا لا أرى وادِى المياهِ يُثِيبُ ... ولا النَّفْسَ عَنْ وَادِى المياه تَطِيبُ(٢)

٢ — أُحِبُّ هُبُوطَ الوَادِيَيْنِ وإنَّنِي ... لَمُشْتَهَرٌ بالوادِيَيْنِ غَرِيبُ

قوله « يُثيبُ » أى يجعَلُ لى ثَوابا ، ويَقسِم لى لتوفُّرى عليه رِدْءا ونَفْعا . ويجوز أن يكون من قولهم : بئرٌ لها ثائب ، إذا كان ماؤُها ينقطع أحيانا ثم يعود ؛ فيكون أثابَ بمعنى صار لها ثائبٌ ، كأنَّ الوادىَ كانَ اتَّفقَ فيه مواصَلَةٌ بينَه وبين محبوبِه ثمَّ انقطَع ، فكانَ لا يَثُوبُ خَيْرُه . وهذا الذى قُلْناه فى أثابَ ذَكَرَه أبو زيد . ويجوز أن يكون ذِكْرُ الوادِى كالكناية عنها ، فيقول : ليست تَسْلُو نَفْسى عن وادى المياه وما يتَّصل به وعن أحبَّتِى فيهما ، وأراه لا يُوجِبُ لى مثلَ ما أوجِبُه ، ولا يَرْضَخُ لى جَزَاءً على ما أتحمَّله ، وأنا أُحِبُّ النُّزول بالوادِيَين والانتعاشَ بزيارتهما ، لكنِّى مُشْتَهَرٌ بهما غريبٌ لا ناصِرَ لى فيهما ، فأحتاجُ أن أُحاذِرَ الرُّقباء خَوْفا على نفسى ، وتفاديًا مما يلحَقُ صاحِبِى من المكروه والإعنات بسببى .

٣ — أحَقًّا عِبَادَ اللهِ أنْ لَسْتُ وارِداً ... ولا صادراً إلاّ علىَّ رَقِيبُ

٤ — ولا زائراً فَرْداً ولا فى جماعَةٍ ... من الناس إلا قِيلَ أنتَ مُرِيبُ

هذا شَرْحٌ للاشتهار الذى أجْمَلَهُ ، والاغتراب الذى اشتكى منه . وقوله « أحقًّا » فى موضع الظَّرف ، كأنه قال : أفى حَقٍّ . « وأنْ لَسْتُ » أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، وموضعُه بما بعده موضعُ الابتداء ، وأحقًّا فى موضع الخبر . وقوله

---

(١) عبد الله بن الدمينة ، سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ .

(٢) ديوان ابن الدمينة ٧ — ١٤ .

« فَرْداً » انتصَب على الحال ، والعامل ما دلّ عليه « ولا زائراً » من الفعل ، فيقول : أفى حَقّ يا عبادَ الله أنِّى لا أرِدُ الوادِيَين ، يعنى وادىَ المِياه ، وما ذَكَرَه فيما بعد من ذكر الكثيب الفرد ، ولا أصدُرُ عنهما إلا وعلىَّ رقيبٌ محافِظٌ ، يَعُدُّ لحظاتى وأنفاسى ، ويتأمل قُصُودى وإراداتى ، ولا أزورها منفرداً ولا فى صحابة إلا وسُلِّطَت علىَّ التُّهم ، ونُسِبْتُ فيما أتعاطاه إلىَّ الرِّيَب ، حتى ضاق علىَّ المجال ، وأظلَمَ لى المَسْرَحُ والمَطَاف .

وقوله « إلاَّ قيل » فى موضع الحال ، أى لا أزورها إلاَّ مَقُولاً فيه ذلك .

وموضع « أنت مريبُ » الجملة رفعٌ على أنه قام مقام فاعل قيل .

٥ — وهل رِيبةٌ فى أن تَحِنَّ نَجِيبةٌ إلَى إلْفِها أو أن يَحِنَّ نَجِيبُ

٦ — وإنَّ الكَثِيبَ الفَرْدَ مِن جانبِ الحِمَى إلىَّ وإن لم آتِهِ لحبيبُ

قوله « هل رِيبةٌ » لفظه استفهام ومعناه النفى ، فيقول : لا رِيبةَ فى حنين أحد المتألِّفَين الكريمَىِ العهد إلى الآخر ، ولا استنكارَ فيما تنطوى عليه النفس من الهوى والوُدِّ ، ولا محاسبةَ فيما يوجب المتحابّان ويؤْثِرانه من المُصَافاةِ على البعد ، وإنّ موضعَ الحبيب من جانب الحِمَى قلبِى مُوَكَّلٌ به وإن لم أزُرْهُ ، إذ كان مجانبتى إياه ، وتأخُّرى عنه ، لإبقائى على الحال بينى وبين مَن أحتشِمُه ، ولإيثارى صيانتَه من تحدُّث الوُشاة فيه ، لا لغيره .

٧ — لَكِ اللهُ إنِّى واصِلٌ ما وَصَلْتِنى ومُثْنٍ بما أولَيتِنِى ومُثِيبُ (١)

٨ — فلا تترُكِى نفسى شَعاعاً فإنَّها مِن الوجدِ قد كادَت عليكِ تذوبُ

٩ — وإنِّى لأستحيِيكِ حَتَّى كأنَّما علَىَّ بِظَهْرِ الغَيبِ مِنكِ رَقِيبُ

(١) بين هذا البيت وتاليه عند التبريزى :

وآخِذُ ما أعطيتِ عَفواً وإننى لأَزْوَرُ عَمَّا تكرهين هَيُوبُ

قوله « لكِ الله » يجوز أن يكون دعاء لها، والمعنى: إحسان الله لك، وحفظه مشتمِلٌ عليك. ويجوز أن يكون قَسَما، كما يقال أُعطِيكَ اللهَ، وجوابه إنى واصلٌ. وكأنه أقسَمَ لها أو دَعا لها بأنه يَبقَى على العهد لها مُدَّةَ دوامِ مواصلتها وبقائها على المصافاة والإيثار له، وأنه يوجِبُ مِن إعظامها والثناء عليها، ومكافأتها بالحسنى فيما تُسدى إليه وتُوليه ما ينتفى عنه سِمَةُ التقصير والإقصار. وَوَجهُ الدُّعاء لها استعطافُها وترقيقُ قلبها، ويكونُ كالتشبيب من السائل.

وقوله « فلا تفرَّقى نفسى شَعاعا » فالشَّعاع: المنتشر، وكذلك الشعُّ والفعل منه شَعَّ. ويقال: تطايَرَ القومُ شَعاعًا، أى متفرِّقين. فيقول: احفظِى نفسى عن الانتشار والزَّوال، فإنها شارفَت الذَّوبَ والسَّيَلانَ وَجْدًا بك، وشافهَتِ التَّلَفَ والبَوار شَوْقًا إليكِ. ثم قال: وإنى مستحيِي منك على البُعد، إعظاماً لكِ، وتهيُّباً منكِ، حتى كأنَّ لكِ رقيباً معى فى كلِّ حال، فأتعفَّف عن المنكَرات، وأتنزَّه عن ذميم المقالات، فكُونى لى على ما توجِبُه صورتى، وتقتضيه قصَّتى. ومثل هذا قولُ الآخر[1]:

وإنى لأستحيِي فُطَيْمَةَ طاوِياً ... خَمِيصاً وأستحيِي فُطَيمة طاعِما
وإنى لأستحييكِ والخرْقُ بيننا ... مخافَةَ أن تَلْقَىْ أخًا لِيَ لائما[2]

٥٦١

وقال آخر:

١ ـ تَحَمَّلَ أصحابى ولم يَجِدُوا وَجْدِى ... وللناسِ أشجانٌ وَلِي شَجَنٌ وَحْدِى
٢ ـ أُحبُّكُمُ ما دُمْتُ حَيًّا فإنْ أمُتْ ... فوا كَبِدَا مِمن يحبُّكُمُ بَعْدِى

(١) هو المرقش الأصغر. المفضليات ٢٤٦ طبعة المعارف الثانية.
(٢) فى المفضليات: « صارما ».

الشَّجَن : الحاجة ، والجميع الأشجان والشجون . قال :

* والنَّفسُ شَتَّى شُجُونُها (١) *

وموضع « وَحْدى » نصبٌ على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع الإيحاد (٢) .

يقول : ارتحلَ أصحابى ولم ينلهم من الوجْد ما نالنى ، وفى نفوس الناس حاجاتٌ وقد أوحَدْتُ نفسى بحاجةٍ إيحاداً . ثم أقبَلَ على المحبوب مفسِّرًا لشجَنِه الذى تفرَّد به ، فقال : أحبُّكم مدةَ حياتى ، وإذا مِتُّ فوا كبدَا ممن يلى حبَّكم بَعدى . وهذا تحسُّر فى إثر مايفوته من الهوَى إذا فارق الدنيا . ويُرْوَى : « مَن ذا يحبُّكم بَعدى » .

وقد عيب الشاعر بهذا فقيل : لم يَرْضَ بأن جعَلَ لها مُحِبًّا حتى صار يتحزَّن له . وقال بعضُ أصحاب المعانى : فى هذا ظُلمٌ للشاعر ، وذلك أنّ غرضَه فى التماسه مُحِبًّا لها إشادةُ ذكرها ، وإعلاء قدرِها ، وتشهيرُها عند الناسِ حتى يصيرَ لها الجاهُ عند السلاطين . قال : وكثيرٌ من نِساء العرب طَلَبْنَ التشبيب من الشعراء مع العِفَّة ، كعَزَّةَ ، وليلى ، ومَيَّةَ . والخلفاء بنى أُمَيَّةَ وأقرانِها من الأمَراء معهنَّ محاورات .

ويُرْوَى عن بعض السَّلَف الصالحين (٣) أنه حجَّ ، فلما قَضَى نُسُكَه قال لصاحبٍ له : هلمَّ نتمّم حَجَّنا ! ألم تَسْمَع قول ذى الرُّمّة :

تَمامُ الحجِّ أن تَقِفَ المَطَايا   على خَرْقاء واضِعَةَ اللِّثامِ

---

(١) وكذا استشهد بهذه القطعة ابن فارس فى المقاييس (شجن) . والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ذكرتك حيث استأمن الوحش والتقت   رفاق به والنفس شتى شجونها

(٢) انظر الكلام على « وحده » و « وحدى » بتفصيل فى شرح الأشمونى وحاشية الصبان (باب الحال) .

(٣) هو الضبعى ، أو محمد بن الحجاج الأسدى ، أو الحجاج الأسدى . الأغانى (١٦ : ١١٩ ، ٢٠/١٢٠ : ١٤٠ – ١٤١) .

والطريقة فى نُصْرَتِهِ وتحسينِ قولِهِ ما قدَّمْتُه .

وأشنع من هذا قول الآخر (١) :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإن أَمُتْ ... أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَن يَهِيمُ بها بَعْدِى

وقد قيل فى هذا أيضاً : إنه لو قال :

* فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِى خُلَّةٍ بَعْدِى *

لكان صوابًا ، سالما مما يهجّنه .

٥٦٢

أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىّ (٢) :

١ ــ رَمَتْهُ أَناةٌ مِنْ رَبِيعةِ عَامِرٍ ... رَقُودُ الضُّحَى فى مَأْتَمٍ أَىِّ مَأْتَمِ (٣)

٢ ــ فَجَاءَ كَخُوطِ البَانِ لا مُتتابِعٌ ... ولكنْ بِسِيمَا ذِى وَقَارٍ ومِيسَمِ

أَناةٌ أصله وَنَاةٌ ، لأنَّه من الوَنَى : الفتور والكسل .

والواو المفتوحة لم تُبْدل منها الهمزة إلاّ فى أحرف قليلة ، وهى «أَناة» فى صفة المرأة الثَّقيلة الناعمة ؛ و «أَحَدٌ» صفةً واسماً للعدد ؛ وماجاء فى الحديث من قولهم (٤) : «أىُّ مَالٍ أُدِّيَتْ زَكاتُه فقد ذهبَت أَبَلَتُه» ، يُرادُ وبالُه . وقال أبو زيد : الأَبَلَةُ فى الطعام أصله الوَبَلَة . ويقال : «أَجَمْتُ أُجُوماً» فى وجَمْتُ . فهذه الأحرفُ جاءت على ما ترى .

---

(١) هو النمر بن تولب ، كما فى الأغانى (١٩ : ١٥٩ ، ١٦٠) ، قال أبو الفرج : «والناس يروون هذا البيت لنصيب ، وهو خطأ» . انظر أيضاً الأغانى (١١ : ١٨) .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤١٦ ص ١٣١٤ .

(٣) التبريزى : «نؤوم الضحى» .

(٤) هو حديث يحيى بن يعمر ، كما فى اللسان (أبل) .

وقوله « رقود الضُّحى » وصَفها بالتَّرْفة، وأنّها مَكْفِيَّةُ الخِدْمة، فهى تَنام القَيلولة. وهذا كما قال امرُؤُ القيس:

* نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنتطِقْ عن تَفَضُّلِ (١) *

والمأتم: النِّساء يجتمِعْن فى الخَيْر والشر. يقول: نظرَتْ إلى هذا الرجل امرأةٌ طلعتْ عليه فى جُملةِ نساء، مُتْرَفَةٌ منعَّمةٌ سمينةٌ، تنام عن شؤونها أوقاتَ الضُّحى، لأنَّ لها مَن يكفيها كلَّ ما تهتمُّ له ففتنَتْه، ثم اقتصَّ كيف نَصبت الحِبالةَ له، ومن أين وقع فيها حتَّى اصطادته، فقال: جاء الرَّجُلُ وكأنَّه غُصن بانٍ لحسن شَطاطِه وطَراءةِ شبابه، لا مُتَهافتٌ فى مشيه وتصرُّفه، ولا خفيفٌ طائشٌ فى ورُوده وصدَره، ولكن بعلامةِ ذى سكونٍ، وميسمِ ذى صلاح وهُدُوٍ. والتَّتايُع يُوصَف به الحيرانُ والسَّكرانُ إذا رمَى بنفْسه. وتتايعَ البعيرُ فى مِشيته، إذا حرَّك ألواحَه حتَّى كأنَّه يتفكَّك. والمأتَم أصله من الأَتْم، وهو أن تلتقى الخُرْزتان فتصيرا واحدة. وموضع « كَخُوطٍ » نَصبٌ على الحال من جاء. والخُوط: الغُصن الناعم لِسَنَةٍ. وقوله «لا متتايع» ارتفعَ لأنَّه خبر مبتدإٍ محذوف، كأنَّه قال: لا هو متتايع. وقوله «ولكن» استدراكٌ بعد نفى، أى جاء غير متتايعٍ ولكن بهذه السِّيما.

٣ ــ فَقُلْنَ لها سِرًّا فَدَيْناكِ لا يَرُحْ صَحِيحًا وإنْ لم تَقْتُليه فألمِمِى

٤ ــ فألقَتْ قِناعًا دُونَه الشَّمسُ واتَّقَتْ بأحْسنِ مَوصُولَينِ: كَفٍّ ومِعْصَمِ

٥ ــ وقالتْ فلمَّا أفْرَغَتْ فى فؤادِهِ وعينَيه مِنْها السِّحْرَ قُلْنَ له قُمِ

قوله « سِرًّا » يجوز أن يكون مصدراً فى موضع الأمر، كأنَّه قال سَارِّيه مُسَارَّةً، فوضَع السِّرَّ موضع المُسارَّة، ويكون على هذا قوله « لا يرحْ » جوابَ

(١) صدره: * وتضحى فتيت المسك فوق فراشها *

الأمر الذى دلَّ عليه سِرًّا . ويجوز أن يكون سرًّا مصدراً فى موضع الحال ، ويكون لا يَرُح مجزوماً بلا النّهى . وجَعلَ النَّهىَ فى اللّفظ للرَّجل والمرأةُ هى المنهيّةُ ، كما يقال : لا أرَينَّكَ هنا . والمعنى : لا تكن هناك فأراك ، والمراد : لا تَدَعِيه يروحُ صحيحاً . يقول : قالت النِّساء المحتَفَّةُ بالأناة المذكورة لها : أشيرى إليه فى السِّرِّ إشارةً تَفتِنه ، واعرِضى عليهِ محاسنك ما يُخبِّل قلبَه بعدَ تعرُّضه لنا فى سَمْته ووَقاره حتَّى لا يروحَ عنَّا صحيحاً ، وإن لم تُبالِغِى فى استغوائه وفَتْلِه عن رشادِه ، وإهلاكِه ، فكونى منه على أوفَى محلٍّ . فائتمرَتْ لهنّ وألقتْ قِناعًا وراءه الشَّمس ، أى وجْهٌ إشراقه كإشراق الشمس ، فعرضَت وجهَها ثمَّ سترتْه فأبدتْ كفَّها ومِعصَمَها — وهو موضع السوار من يدها — أيضاً ، وتكلَّمَتْ بكلامٍ كالمنكِرةِ من نفْسها ما اتَّفقَ عليها ، والمستحيِيَة المتذمِّمة مِن حالِها ، فلمَّا عَلِمَ النِّساء أنَّها أفرغَتْ فى فؤادِه بالكلام ، وفى عينَيه بالكفِّ والوجهِ السِّحر أى صبّت — قلنَ للشَّابِّ المتعرِّض : قمْ عنَّا فابْك لِماَ نابَكَ[1] وأنت لا تعلم . والسِّحر : إخراجُ الشَّىء فى أحسن مَعارِضه حَتَّى يَفتِن ، لذلك قيل للرَّائق المُعجِب : هو السِّحر الحلال . يقال : سَحَرْتُ الفِضَّة ، إذا طلَّيْتَها بالذَّهب .

إن قيل : أين مفعولُ قالت ؟ قلتَ : إنَّه هنا فى معنى تكلَّمَتْ ، فاستغنَى عن المفعول ، ومثله قولُ عمرَ بنِ أبى ربيعة :

* لحاجَةِ نَفْسٍ لم تَقُلْ فى جوابها[2] *

أى لم تتكلَّمْ .

---

(١) فى النسختين : « فإنك لما بك » . التبريزى : « ويروى : قلن له انعم ، على القلب أى احزن وتوجد من العشق » .

(٢) عجزه : * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر *

٦ ـ فَوَدَّ بِجَدْعِ الأَنْفِ لوأنَّ صَحْبَهُ تَنَادَوْا وقَالُوا فى المُناخِ لَهُ نَمِ

يقول : انصرَفَ عنهنّ وهو يتمنَّى أن جُدِعَ أنفُه فى وقتٍ ما هَمَّ بالخُروج إليهنّ ، ويمنعُه أصحابُه من التعرُّضِ لهنّ ، وقالوا له : نَمْ فى المُناخ ولا تبرحْ ، ويجوز أن يكون معناه : وَدَّ أن يتركه صحبُه ويقولوا له : نَمْ فى المُناخ ولا تَتْبَعْنَا ، وأنَّ أنفَهُ قطِع . والباء من قوله « بجَدْع » هو الذى يُفيد معنى العِوَض . تقول : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ من ذاك .

وقوله « تنادَوْا » يجوز أن يكون معناه تجمَّعوا ، من النَّدِىّ وهو المجلس ؛ ويجوز أن يكون من النِّداء ، أى تَدَاعَوْا وقالوا له ذلك .

٥٦٣

وقال آخر(١) :

١ ـ نَظَرْتُ كأنّى مِن وَرَاءِ زُجاجةٍ إلى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبابةِ أَنْظرُ

٢ ـ فعيناىَ طَوْرًا تغرَقانِ مِنَ البُكاَ فأَعْشَى وحِينًا تَحْسِرَانِ فأُبْصِرُ

يقول : وقفتُ بدارِ الأحبَّةِ فتوهمتُ آياتِها ، ثم عرفتُها فتمثَّل لى مَن كان بها ، وتَطَرَّى ما كان دار بينى وبينَها ، فاغرَوْرَقَتْ عيناىَ من الدَّمع تحسُّرًا وتوجُّعًا ، وبقيتُ إذا نظرتُ إلى الدَّار كأنى أنظرُ مِن وراء زُجاجةٍ فلا أتبيَّنُ الآثارَ ، وإذا انهملَتَا بما فيهما عُدْتُ فى صِحَّة الإدراك بهما إلى ما كنتُ عليه من قبل . وقد مرَّ القول فى حقيقة النَّظر .

فأمَّا « تحسِران » فيجوز أن يكون من قولهم : حَسَرَ البحرُ ، إذا نَضَبَ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « وهو أبو حية » . وهـذه النسبة أيضا فى اللآلئ ٢٦٥ وأمالى المرتضى (٢ : ١٠٣) . ونسبت فى زهر الآداب (٤ : ٨٢) إلى المجنون . وللبيت الأول قصة فى الأغانى (٢١ : ١٠٣) .

الماء عن ساحله ؛ ويجوز أن يكون من حَسَرْتُ القِناع ، ويكون على هذا مفعوله محذوفاً . والأوّل أحسن . ومن الثانى قولهم : امرأةٌ حسنةُ المَحَاسِر ، كما يقال حسنة المَعارِى . وتلخيص البيت الأوّل : كأنّى من فَرط الصّبابة أنظرُ إلى الدّار من وراء زُجاجة . والطَّوْر : التّارة . ويقال : النّاسُ أطوارٌ ، أى على أحوالٍ شَتَّى .

٥٦٤

وقال آخر(١) :

١ — فمَا شَنَّتا خَرْقَاءَ وَاهِيَةِ الـكُلَى ... سَـقَى بِهِما ساقٍ فلَمْ يَتَبَلَّلَا(٢)

٢ — بأَضْيَعَ مِنْ عَيْنَيْكَ لِلدَّمْعِ كُلَّمَا ... توَهَّمْتَ رَبْعًا أَوْ تَذَكَّرْتَ مَنْزِلَا

الخرقاء : التى لا رِفقَ لها فى الأعمال ولا بَصيرة . والشَّنَّةُ ، أراد بها هنا الدَّلوَ الخَلَق ، وهى السِّقَاء البالى فى الأصل . ويقال : لِقَطَرَانِ الماء من الشَّنَّة شيئاً بعد شىء : الشَّنِينُ ، ثم يُستعمَل فى الدّمع . قال :

* يا مَنْ لدمعٍ دائمِ الشَّنِينِ(٣) *

ولم يرضَ بأنْ جَعَل الدَّلوَ خَلَقًا حتّى جعلَها لامرأةٍ لا تُحسن عملًا من خَرْزٍ وغيره ، فكانت تُصلِحها ، ثمّ جعلَ سَقْىَ الإبلِ بها قبل تَهلُّلها وانسداد خُرَزِها وثُقَبِها . فيقول : ما دَلْوَانِ هذه صفتُهما بأشدَّ إضاعةً للماء من عينيكَ للدّمع كلما توهّمتَ دارَ الحبيبِ وهى مأهولة ، أو تذكَّرْتَ منزلًا من منازل سفرِها وهى منتجِعَة .

(١) هو غيلان ذو الرمة كما فى أمالى القالى (١ : ٢٠٨) وزهر الآداب (٤ : ٨٢) واللسان (١٩ : ١١٦) وملحقات ديوان ذى الرمة ٦٧١ . وانظر مجالس ثعلب ٤١٣ .

(٢) التبريزى : « وما شنتا خرقاء واهيتا الكلى » . ويروى : « ولما تبللا » .

(٣) أنشده فى المقاييس (٣ : ١٧٦) واللسان (شنن) .

وقوله « بأضيعَ مِنْ عَيْنَيْكَ » كان الواجبُ أن يقول : بأشدَّ إضاعةً للدَّمع ، فجاء به على حَذْفِ الزَّوائد ، أو على طريقةِ سيبويهِ فى جواز بناء التعجُّب مما كان على أفعَل ممَّا زاد على الثُّلاثىّ خاصَّة .

٥٦٥

وقال أبو الشِّيص[1] :

١ ــ وقفَ الهوَى بى حَيْثُ أنتِ فليسَ لِى مُتأَخَّرٌ عنــــه ولا مُتقدَّمُ

٢ ــ أجِدُ المَلامَةَ فى هواكِ لذيذةً حُبّـاً لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

يقول : حَبَسنى الهوى فى الموضعِ الذى تستقرِّين فيه فألزَمُه ولا أفارقُه ، فأنا مَعَكِ مقيمةً وظاعنةً ، لا أعْدِلُ عنكِ ولا أميل إلى سواكِ ، ومَن لامَنى فيك أستلِذ لَومَه محبَّةً لذكرك ، ووَجداً باسمِك ، فليستمرَّ اللائمون فى أقوالهم ، ولتَدُم عِظاتُهم علىَّ وإنكارُهم ، فإنَّهم لا يجدون منِّى اتِّباعًا ولا رُجوعا ، ولا مَلالاً فىَّ ولا قُصورا . وقوله « حُبًّا لذكرك » انتصَب لأنَّه مفعول له ، وبيانٌ لعلَّة لذَّته ، بما يجلِب على غيره ضَجراً ، وهو اللَّوم .

ومثل هذا قولُ الآخر[2] :

* وأسألُ عنها الرَّكْبَ عهدُهُمُ عَهْدِى[3] *

يريد ، أنَّه يستلِذُّ ذكرَها .

وقوله « حيث أنت » خبر المبتدإ وهو أنتِ محذوف ، كأنَّه قال : حيثُ

---

(١) اسمه محمد بن عبدالله بن رزين . وأصل معنى الشيص : الردى من التمر . وهو ابن عم دعبل الشاعر ، كان فى زمن الرشيد معاصراً لأبى نواس ، وعمى فى آخر عمره . وله مراث فى عينيه قبل ذهابهما وبعده . توفى سنة ١٩٦ . الأغانى (١٥ : ١٠٤ ــ ١٠٨) ونكت الهميان ٢٥٧ ــ ٢٥٨ والشعراء ٨٢٠ ــ ٨٢٥ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٤٢) .

(٢) هو ابن هرم الكلابى ، كما سيأتى فى المقطوعة ٥٨٨ .

(٣) صدره : * وأستخبر الأخبار من نحو أرضها *

أنتِ واقفةٌ ، لأنّ « حيثُ » فى الأمكنةِ بمنزلة حينَ فى الأزمنة ، فى حاجَتِه إلى جملتين ، والمتأخَّر والمتقدَّم بمنزلة التَّأخُّر والتقدُّم ، فهما مصدران .

٣—أشْبَهْتِ أعْدَائى فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ إذْ صارَ حَظِّىَ مِنْكِ حَظِّىَ مِنْهُمُ(١)

٤—واهَنْتِنِى فأهَنْتُ نَفْسِىَ صاغِرًا مامن يَهُونُ عَلَيْكِ مِمَّنْ أُكْرِمُ(٢)

يقول : وافقتِ فى مواصلتى أعدائى أخْذًا فيما أكرهه وأتسخَّطه ، وذَهابًا عما أُحِبُّه وأرضاه ، ولأنّ حظِّى منكِ فيما أرومُهُ يماثل حظِّى من أعدائى فيما أسومُهم فأُشْرِبَ قلبى حُبَّهم ، وانْصَبَّ إلى جانبهم الميلُ معهم لمشابهتِكِ لهم ، ومماثلةِ فَعَالِكِ لفَعالهم ، وأذللتِنى فأذللتُ نفسى على صُغْرٍ مِنِّى ، اقتداءً بكِ ، ومجانبةً للخلاف عليك ، ولأنى لا أرى كرامةَ من تَرَيْنَ هوانَه ، ولا إرضاءَ مَن ترين إسْخَاطَه . وانتصب « صاغِرًا » على الحال من أهَنْتُ . وقوله « ممَّن أُكْرِمُ » العائد إلى الموصول محذوف ، كأنَّه قال : ممن أُكرمُهم . وقوله « حَظِّىَ منهم » يريد به التَّشبيه ، كأنّه قال : كحظّى منهم ، ومنك فى موضع الحال ، وكذلك منهم .

٥٦٦

وقال آخر :

١ — ولا غَرْوَ إلاّ ما يُخَبِّرُ سالِمٌ بأنّ بَنِى أسْتاهِها نَذَرُوا دَمِى(٣)

٢ — ومالِىَ مِن ذَنْبٍ إليهِمْ عَلِمْتُهُ سِوَى أننى قد قلتُ ياسَرْحةُ اسْلَمِى

٣—نعَمْ فاسْلَمِى ثم اسلمى ثُمَّتَ اسلمى ثَلاثَ تحيَّاتٍ وإن لم تَكَلَّمِى

(١) ل والتبريزى : « إذ كان حظى » .

(٢) فى الأصل : « يا من يهون عليك » ، صوابه من ل والتبريزى . و « ما » فى قوله « ما من » هى النافية .

(٣) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « لا غرو » بالخرم

معنى « لاغَرْوَ » لاعَجَب ، وخبر لا محذوف ، كأنه قال : لاغَرْوَ فى الدنيا ، أو موجود . وموضع « ما يخبِّر » رفعٌ على أنه بدل من موضع لا غروَ . وإنما قال « بنى أستاهِها » لأنه يريد أنهم مخروُّونَ لا مولودون . فيقولُ متهانفاً[1] : لا عَجَب إلا ما يُخَبِّرُ به سالمٌ ، بأنَّ سُقَّاطها والذين لا عُقولَ لهم فيها ، قالوا : للهِ علينا سَفكُ دَمِه . ثم قال : هذا اعتقادُهم وأقوالُهم ؛ ولا جناية لى عليهم ، ولا ذَنْبَ منِّى أهتدى إليه فيهم سِوَى قولى : يا سَرْحةُ أدامَ اللهُ لكِ السلامة — وكان جَعَل « سرحة » ، [وهى شجرةٌ[2]] ، كناية عن امرأةٍ فيهم — نعَمْ قد قلتُ وأقولُه مكرَّرًا : أَسلمى أَسلمى . يُغايِظُهم ويُناكِدهم بهذا المقال .

وقوله « سوى أنَّى » موضعه من الإعراب استثناء خارج . و« ياسرحةُ » إذا ضممتَهُ فالضَّمّة الأصل فى استعمال المنادَى المفرد المعرفة ، وإذا فتحتَه فلاعتيادهم الترخيم فى مناداة ما فى آخره هاء التأنيث ، أتمُّوه ونوَوا الترخيم فجعلوا حركتَه حركةَ المُرَخَّم منه . وهى الفتحة .

وقوله « نعم » وإن كان فى الأصل حرفاً يُوجَبُ به ويُجابُ فى الاستفهام المحض فقد يُتَوَصَّلُ به إلى بَسْط الكلام وصِلَتِه . وقوله « ثلاث تحياتٍ » انتصب على المصدر من فعلٍ دلَّ عليه قوله اسلَمى ، كأنه قال : أحيِّى ثلاث تحيَّاتٍ ، وإن لم ترْجِعى الجوابَ إلىَّ . والسَّرْحُ من العِضاه ، ويكون دَوْحه مِحْلالاً يَحُلُّ الناس تحتَها فى الصَّيف . وقال الفرّاء : كلُّ شجرةٍ لا شوكَ فيها فهى سَرْحةٌ ، ذهَبَ إلى السَّرح ، وهو السَّهل .

وقال ابن هَرْمَةَ وكنى بها عن امرأةٍ :

سَقَى السَّرْحَةَ المِحْلالَ دُونَ سُوَيْقَةٍ نِجَــاءُ الثريا مرْتِعنًا هُطُولُها

(١) التهانف : التضاحك ، والضحك بالسخرية . وفى الأصل : « متهاتفا » تحريف .
(٢) التكملة من ل .

وقد تسمى المرأة « سَرْحَةً » .

٥٦٧

وقال خُلَيْدٌ مَوْلى العبّاسِ بن محمد[١] :

١ — أَمَا والرّاقِصاتُ بذاتِ عِرْقٍ ... وَمَنْ صَلَّى بِنَعْمانِ الأَراكِ

٢ — لَقَدْ أَضْمَرْتُ حُبَّكِ فِي فُؤَادِي ... وَما أَضْمَرْتُ حُبًّا مِن سِوَاكِ

٣ — أَرَيْتِ الآمِرِيكِ بِصُرْمِ حَبْلِي ... مُرِيهِمْ فى أَحِبَّتِهِمْ بذاكِ[٢]

٤ — فإِنْ هُمْ طَاوَعُوكِ فَطَاوِعِيهِمْ ... وإِنْ عاصَوْكِ فاعْصِي مَنْ عَصَاكِ

أقسمَ بالحجيج وبرواحلهم التى ترقُص بهم فى السير متوجِّهين بوادى عرفة وذاتِ عِرْقٍ إلى بيتِ الله عزّ وجلّ . وأضافَ نَعمانَ إلى الأراك لِكثرتِها بها . وجواب اليمين قوله « لقد أضمرتُ حُبَّكِ » . والمعنى أنه أقسَمَ أنَّ وُدَّهُ لها مكتومٌ انطوَى عليه قلبُه ، وخالصٌ فيها قد أَكنَّهُ ضميرُه لا يُشارِكها فيه عَديل ، ولا يُجاذِبُها بسببه قَسيمٌ ، وإنّما يتحمَّدُ عليها بحِفْظ السِّرَار ، وتخليص العقيدة ، وشَغْل القلبِ والعقلِ بعِمارة الهوَى لها . ثم أقبل عليها فقال يخاطبها : أعلمتِ الذين يُشيرون عليك بقَطيعتى والتنكُّر لى ، وجَدَّ الأسباب والمواثيق بينى وبينَكِ ؟ كُرِّى عليهم مستدرجةً لهم ، وعاجمةً تنصُّحَهم ، وأْمُرِيهم فى أحبَّتهم بمثل ما أمروكِ فىّ ، فإن وجدْتِهم سامعين لكِ ، وصائرين إلى القَبول منك ، فَخُذى أنتِ أيضاً مأْخَذَهم ، والتزمى طاعتَهم . وإن وجدتِهم متأبِّين عليكِ مخالفين لك ، فاعصِى مَن عصاكِ ، ودَعِى الاستنامةَ إلى رأْى مَن لا يَرَى لك

---

(١) التبريزى : « مولى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » .

(٢) ل والتبريزى : « أطعت الآمريك » .

مثلَ ما يراه لنفسه . وكان الواجبُ فى قضيّةِ سِياق الكلام أن يقول : وإن عاصَوْكِ فعاصيهم ؛ فعَدَل عن الإتيان بالضمير إلى ذِكر الظاهر ، ليبيِّن فيه ما يُشَنِّع به عليهم ، وليُظهِر السَّببَ المُوجِبَ للإغراء بهم ، والانصرافِ عن رأيهم . ولو قال : فاعصيهم لم يَبِنْ ذلك فيه .

وقوله « أَرَيْتِ » أصله أرأيتِ ، حذفَ الهمزةَ منه حذفاً كما حُذِفَ فى يَرَى ، وتَرَى ، ونَرَى .

٥٦٨

وقال أبو القَمْقام الأسدىّ :

١ — إقرَأْ عَلَى الوَشَلِ السَّلامَ وقُلْ لهُ ... كلُّ المَشَارِبِ مُذْ هُجِرْتَ ذَمِيمُ (١)

٢ — سَقْياً لِظِلِّكَ بالعَشِىِّ وبالضُّحَى ... وَلِبَرْدِ مائكَ والْمِيَاهُ حَمِيمُ

٣ — لوكنتُ أَمْلِكُ مَنْعَ مائكَ لم يَذُقْ ... ما فى قِلاتِكَ ما حَيِيتُ لَئِيمُ

الوَشَلُ هاهنا : ماء معروف فى أرضِ محبوبِه . وقال الدُّرَيدىّ : الوَشَلُ : موضعٌ معروف بعينِه . والوَشَل : الماء القليلُ يترقرقُ على وجه الأرض . وقال صاحبُ العين : الوَشَلُ مُحرَّكٌ : الماء القليل يتحلَّب من صَخرةٍ أو جبلٍ ، يقطُر منه قليلاً قليلا . والواشل : القاطر ، يقال : جَبَلٌ وَاشِلٌ : يقطُر منه الماء . والشاعر أهدَى إليه التحية ، وراسَلَهُ أنَّ المَشارِبَ كلَّها مذمومةٌ عنده منذُ تحوَّلَ عنه وتَرَكَ وُرُوده . ثم دَعا لِظِلِّه بالسُّقيا فقال : سَقْيًا لِظِلِّك بالعشىِّ وبالضُّحى . والظلُّ يكون للشجرةِ وغيرِها بالغداة ، والفَىْء بالعشىِّ ، فكان فى الواجب أن

(١) ياقوت : « الجوهرى : وشل اسم جبل عظيم بناحية تهامة » . وأنشد ياقوت بين هذا البيت وتاليه :

جبل يزيد على الجبال إذا بدا ... بين الربائع والجثوم مقيم
تسرى الصبا فتبيت فى أكنافه ... ويبيت فيه من الجنوب نسيم

يقول : سَقْيًا لظلِّك بالغَداة ، ولفَيْئِك بالعشىّ . ألا ترى قولَ الآخر [١] :

فلاَ الظلَّ من بَرْدِ الضُّحى نستطيعه ولا الفَيْءَ من بَرْدِ العشىِّ نَذُوقُ [٢]

إلاّ أنه سَمّى الفَيْءَ ظِلاًّ لتشابُهِهما فى مَنظَر العَين والغَناء [٣] . فلما تساوَيَا وأجرَى عليهما معاً لفظةَ الظِّلّ ، وكان الواوُ يفيد الجمعَ من دون التّرتيب — لم يُبَالِ أن يقولَ بالعشىّ وبالضُّحى ، فيقدِّم بالعشىّ ، وإنْ كان الظِّلُّ أليَقَ بأن يليق بالضُّحَى لو جُرِّد . ولم يُشْبِهْ هذا قولَ القائل : فُلاَنٌ أشْعَرُ الجِنّ والإنس ، لتركِه فيما تقدَّمَه من المعطوف والمعطوف عليه طلبَ المطابقة والموافَقة . ألا ترَى أنّ الوجه فى هذا أن يقال : فلانٌ أشعر الإنس والجنِّ ليصحَّ لفظ الأوّل ، ويُضاف أشعرُ إلى ما هو بعضُه ثمّ يجىء الثانى ؛ وأنّ قولَك : سَقْياً لِظلِّكَ وقد نويْتَ إجراءَ الظِّلّ للفىء أيضاً صار حكمُه حكمَ اللّفظة الموضوعة لشيئين ، فإذا كانَ كذلك فأيُّهما أوْلَيتَهُ من العشىّ والضُّحى فقد وَقَعَ إلى جَنْب ما يطابقُه ويوافقه .

فإن قيل : لو سُلِّمَ لك ماتقوله وتدّعيه من الاستعارة لَمَا سَلِمَ الكلامُ المتنازَعُ من أنّه جاء على غير حَدِّه ؛ وذاك أنّ الظِّلّ يكون فى الضُّحى حقيقة وفى العشىِّ مجازاً ، وإجراء الكلام على حَدِّه أن يُقدَّم ما يكون حقيقةً على المجاز . قلتَ : إنّ الظلّ فيما حكاه الخليل ضدُّ الضِّحّ ، ويقال : أفاءَ الظِلُّ وتفيَّأ . وفى القرآن : ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُه عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائل [٤] ﴾ ، فهو ظلٌّ قبلَ التفيُّؤ وبعدَه ،

---

(١) هو حميد بن ثور . ديوانه ٤٠ .

(٢) يروى : « تستطيعه » و « تذوق » بالتاء فيهما ، على التجريد . وقبله :

حمى ظلها شكس الخليقة خائف عليها عُرام الطائفين شفوق

(٣) الأصل : « الفناء » ، صوابه فى ل . والغناء ، بالفتح : الفائدة والنفع والكفاية .

(٤) قرأ أبو عمرو ويعقوب واليزيدى : « تتفيأ ظلاله » ، وباقى القراء : « يتفيأ » ، بالتذكير ، لأن تأنيثه مجازى . إتحاف فضلاء البشر . ٢٧٨ فى سورة النحل .

وإنّما نَسْخُه للشّمس هو الذى صار به فَيْئاً ، وإذا كان كذلك لم يكُنْ من باب ما يكون حقيقةً فى شىء ، ومجازاً فى آخر . وهذا بيِّنٌ .

وقوله « والمياه حميم » فالواو فيه للابتداء ، وهو واو الحال .

وقوله « لو كنت أملك مَنْعَ مائك » جوابُ لو » هو قوله « لم يَذُق » . وهذا الكلامُ فيه إظهارُ الضَّنانة بالماء المذكور ، واستمرارُه فى الحسَد إلى كلّ حَدٍّ معلوم بسببِه ، حتّى كان بزعْمِهِ يمنع عنه اللِّئامَ مدّةَ حياته ، ويعنى به أربابَهُ فيما أظنُّه ، لأنّهم أعداؤُه . والقِلاتُ : جَمْع القَلْت ، وهى حُفرةٌ فى الجبل يَستنقِعُ فيها ماء المطر .

٥٦٩

وقال ابن الدُّمَيْنَة(١)

وقد كتب بها إلى أُمامة(٢) :

١ — وأنْتِ الّتى كَلّفْتِنِى دَلَجَ السُّرَى وَجُونُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُـومُ

٢ — وأنْتِ الّتِى قَطّعتِ قَلْبِى حَزَازَةً وقَرّفْتِ قَرْحَ القلبِ وَهْوَ كَلِيمُ(٣)

٣ — وأنتِ الّتِى أحْفَظْتِ قَومِى فكُلُّهُمْ بَعِيدُ الرِّضا دانِى الصُّدودِ كَظِيمُ(٤)

قوله « دَلَجَ السُّرَى » ، فالسُّرَى : سير اللَّيل ، والدَّلَج : السَّير فى بعض اللَّيل . ويقال : سار دُلْجَةً ، أى ساعةً من أوّل الليل ، فلذلك أضافَ الدَّلَج إلى السُّرَى ، فجَرى مجرَى إضافة البعضِ إلى الكُلّ . والشّاعر يمدِّد عليها ما ناله

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٦ ص ١٢٢٣ . والشعر فى ديوانه ٣٦ — ٣٧ والحيوان (٣ : ٥٥) والأغانى (١٥ : ١٤٨) ومعاهد التنصيص (١ : ٥٨) .

(٢) هذه العبارة لم يذكرها التبريزى .

(٣) يروى : « وقرحت » . و « فهو كليم » .

(٤) الحيوان : « أسخطت قومى » .

حالًا بعد حالٍ من ضُروب المشقّات والمَتَالِف فيها ، فيقول : تحمّلتُ فيكِ كلّ عظيمةٍ وبليّة ، فأنتِ التى كلّفتِنى السُّرَى والسَّير ، وركوبَ الخَطَر بالليل والطّيورُ ساكنةٌ فى عِشَشَتِها[1] لم تبرح ، وأنتِ التى قطّعْتِ جوانحى ، وصَدّعْتِ جوانب كِبدى حَزازةً بدوام تمنُّعك وتشدُّدِك ، واتّصال جفائك واطّراحِك — والحزازة : وجعٌ فى القَلْب — فنكأتِ الكَلْمَ مِن قلبى قبل اندماله ، وقَشَرتِ جُلبتَه عند صلاحه والتئامه ، فأراه أبداً دامىَ الظّاهر فاسدَ الباطن ؛ وأنتِ التى أغضَبْتِ علىّ مَعْشَرِى ، وأفسدت علىّ رَهْطِى وأعِزّتى ، فكلُّ واحدٍ منهم إذا خُبِر واستُكشِف بعيدُ الرِّضا عنّى ، قريبُ الهجران لى ، ممتلئ الصَّدر من بُغضى ، يكظِم غيظَه تجمُّلا ، ويُسِرُّ نُكْرَهُ تصبُّرا .

وقوله « جُون القَطَا » ، جمع جُونيّة . قال :

* جُونيّةٌ كحصاةِ القَسْمِ *

وهذا كما يقال عَرَبىٌّ وعَرَبٌ ، وهذا الجمع كالجمع الذى ليس بينه وبين واحده فى اللفظ إلاّ طرح الهاء نحو تَمْرَةٍ وتَمْرٍ وما أشبهه . وجُثُومٌ : جمع جاثم . وجَثَم الطائرُ ، إذا ألصَق صدرَه بالأرض ، ويستعمل فى السَّبُع وغيره ، ومنه الجُثمان لجسم الإنسان . وقال الأصمعىُّ : الجُثْمان الشّخص ، والجُسْمان الجِسم . والجَلْهَةُ : ما استقبلك من الوادى . ومعنى قَرَّفْتِ : قَشَرْتِ ولم يكنْ بَرَأَ . ويقال : كَظَمَ غيظَه ، إذا جرَعه . وكَظَمَ البعيرُ جِرَّتَهُ ، إذا ابتلعها . والكَظَم[2] : مخرَج النَّفَس . ويقال للمحزون : إنّه لمكظومٌ وكظيم .

---

(١) جمع عش ، ومثله عشوش وأعشاش . وفى الأصل : « عششها » .

(٢) بالتحريك ، وجمعه أكظام ، ومنه حديث النخعى : « له التوبة ما لم يؤخذ بكظمه » أى عند خروج نفسه ، وانقطاع نفسه .

٥٧٠

فأجابَته أُمامَةُ(١) :

١ ــ وأنتَ الَّذِى أَخْلَفْتَنِى مَا وَعَدْتَنِى   وأشْمَتَّ بى مَن كانَ فيكَ يَلُومُ

٢ ــ وأبرزتَنِى للنَّاسِ ثمَّ تركْتَنِى   لهمْ غَرَضاً أُرْمى وأنتَ سَلِيمُ

٣ ــ فلوأنَّ قولاً يَكْلِمُ الجِسْمَ قد بَدَا   بجِسْمِيَ مِن قَوْلِ الوُشاةِ كُلُومُ

أخذَت تقابلُه بمثل الذى ابتدأها ، وتعدِّد من جناياته عليها كِفاءَ ما عدَّده وعَصَب به رأسها ، فقالت : إن ما ارتكبتَه منِّى أشنعُ ، وما حمَلتَه وقتاً بعد وقت أفظعُ ، لأنك الذى نكَثْتَ عهودى ، ونقَضْتَ مواعيدى ، وأشمتَّ بى كلَّ ناصحٍ فيك ، وصدَّقْتَ مقالَ كلِّ لائمٍ بسببك ، فظنُونى بك مكذَّبة ، وظُنون النُّصَّاح واللُّوَّام مصدَّقَةٌ ؛ ثم جعَلْتَنِى مُضغةً فى أفواهِ الناس ، وأُكْلَةً لجامِعِهِم ، يتملَّون بحديثى ، ويتبلَّغون عند أعدائى بقِصَّتى ، فقد صِرْتُ كالغرَض المنصوب لكلِّ قِدح مَبْرِيٍّ ، والعَلَمِ المقصود لكلِّ مَشَّاءٍ بنميمٍ ، يُغْرَى بى من كان لى سَلْماً ، ويَرِقُّ لى مَن آلَ لى حَرْبًا ، وأنت سليمٌ من المكاره ، بعيدٌ عن المتاعب ، تعزُك بجنبِكَ ما يمسُّنى ، وتتَّقى بقِلَّةِ الاكتراث ما يُنْضِجُنى ؛ لأنّ نارَ الوشاية اعتمادُها بالإحراق فى النساء أبلَغُ منه فى الرِّجال ، وعارُ الشَّناعة ألصَقُ بجوانبهنَّ منه بجوانب أمثالِكَ ، فلو أن كلامًا كَلَمَ جسْماً لبدَتْ بجسمى نُدُوبٌ ومَنافِذُ وجُروح بأنياب المُغتابين ، ونبال الرُّماة المُراصدين .

وقد عُدِل فى هذه الأبيات وفيما تقدَّمَها فى صِلاَتِ الذى والتى عن الإخبار

---

(١) التبريزى : « على وزنها ورويها » . وفى الأغانى « أميمة » ، وأنها التى قالت هنا الشعر فى بادئ الأمر ثم أجابها هو بالمقطوعة السابقة ، ثم تزوجها بعد ذلك وقتل وهى عنده . والشعر فى المراجع المتقدمة والبيان (٣ : ٣٧٠) .

إلى الخِطاب ، وقد مضى القولُ فى جوازه مشروحًا[1] ، وبيَّنَّا كيف ساغ تَعَرِّى الصِّلة من الضمير العائد إلى الموصول .

٥٧١

وقال المَعْلوط الأَسدىّ[2] :

١ – إنّ الظَّعائنَ يومَ حَزْمِ سُوَيْقَةٍ ... أَبْكَيْنَ عند فِراقِهِنّ عُيُونا[3]

٢ – غَيَّضْنَ مِن عَبَراتِهِنَّ وَقُلْنَ لى ... ماذَا لَقِيتَ من الهوَى ولَقِينا[4]

٣ – بل لو يُساعِدُنا الغَيُورُ بدارِهِ ... يومًا لقد ماتَ الهوَى وحَيِينا[5]

الظَّعينة : المرأة ، لأنها تظعَن إذا ظَعَن زوجُها ، أى تَشخَص . وقيل : الظعينة : الجمل لذى تركَبُه ، سُمِّيَتْ به كما قيل للمَزَادَةِ راوية . والحَزْم : ما غَلُظ من الأرض . وإنما وصفَ حالهنَّ عند التوديع ووقتَ الفِراق ، فيقول : إنَّهنّ بَكَين وأبْكَيْنَ ، وبجَهْدٍ منهن كففْن الدموع ، وخفَّضْن ما علا من النَّشيج ، ثم قُلن متحسِّرات : أىَّ شىء لقيتَ أنت وقاسيتَ من أحداث الهوَى وأسبابه ، وقاسينا نحن ، ولو ساعَدَنا الغَيُورُ وَدانانا بدارِه يوماً لقضينا من أوطارنا ما تحيا به نفوسُنا وقلوبُنا ، ويموت له كَلَفُنا وهوانا .

---

(١) انظر ما مضى فى ص ١١٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠٧ ، ٦١١ ، ٦٤٢ .

(٢) التبريزى : « المعلوط بن بدل السعدى » ، وهو الصواب . والمعلوط بن بدل القريعى ثم السعدى شاعر إسلامى ، كما فى اللآلى ٤٣٤ . ويروى أبو الفرج فى الأغانى (١٥ : ٦٥) وابن قتيبة فى الشعراء ١٢ أن جريراً سطا على بيتى المعلوط وأدخلهما فى شعره . ورويا الأول :

إن الذى غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك ما يزال معينا

(٣) التبريزى : « يوم جو سريقة » .

(٤) فى الأغانى عن عبد المطلب بن عبد العزيز قال : أنشدت أبا السائب قول جرير هذا ، فقال : يا ابن أخى ، أتدرى ما التغييض ؟ قلت : لا . قال : هكذا . وأشار بإصبعه إلى جفنه كأنه يأخذ الدمع ثم ينضحه .

(٥) التبريزى : « بل يساعفنا » ، و « بدارة » .

وذِكْرُ موتِ الهوى كما قال الآخر :

فلما الْتَقَى الحيَّانِ أُلقِيت العصا   وماتَ الهوَى لمّا أُصيبت مقاتِلُهْ

وقوله « غَيَّضْنَ » أى قلَّلن . ويقال : هذا من ذاك غَيْضٌ من فَيْضٍ ، أى قليلٌ من كثيرٍ . والمعنى مَسَحْنَهُ بأصابِعِهنّ تَسَتُّرًا .

وأخذ ذو الرُّمَّة هذا فقال :

ولمّا تلاقيْنَا جَرَتْ من عُيُونِنَا   دُموعٌ وَزَعْنَا غَرْبَها بالأصابِعِ

ونلنا سِقَاطًا(١) من حديثٍ كأنَّهُ   جَنَى النَّحْلِ ممزوجًا بماءِ الوقائعِ

ومعنى « يساعِفنا الغَيُورُ بدارِه » يقارِبنا بمحلِّه . والإسعافُ : قضاء الحاجة وإدناؤها . ولك أن تجعل « ماذا » بمنزلة اسمٍ واحد ، فينتصب بلقِيتَ : ولك أن تجعل ذا بمعنى الذى ، ويكون ضميره العائد من الصلة محذوفًا ، كأنه قال : لقيته ولقيناه .

٥٧٢

وقال جميلٌ(٢) :

١ — وماذا عَسَى الواشُونَ أن يتحدَّثوا   سِوَى أن يقولوا إنّنى لكِ وامِقُ(٣)

٢ — نَعَمْ صَدَقَ الواشُونَ أنتِ كريمةٌ   علينا وإن لم تَصْفُ مِنْكِ الخلائقُ(٤)

ماذا فى موضع المبتدإ ، كأنه قال : أىُّ حديثٍ عسى الواشوان يتحدّثونه سوى قولهم : إننى لكِ مُحِبٌّ . فهو كقولك : أىُّ ضَرْبٍ عسى زيدٌ أن يضربه ،

(١) فى الأصل : « وبتنا سقاطا » ، صوابه فى ل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .

(٣) التبريزى : « عاشق » .

(٤) التبريزى : « أنت حبيبة إلى » .

وسبيلُه سبيل المصدر والمضافِ إلى المصدر إذا ابتُدِئَ بهما . ولا يجوز أن ينتصب بيتحدَّثوا ، لأنه فى صلة أنْ ، فلا يعمل فيما قبل الموصوف ، ولا يجوز أن يكون ذا منه بمنزلة الذى ، لأنَّ عسى لا يصلح لـكونه غيرَ واجب أن يقع صلة له ، وكذلك أخواتُ عسَى . ألاَ ترَى أنَّ الاستفهامَ والنّفىَ وأخواتِهما لا يَقَعْن صِلاتٍ ، إذ كانت الصِّلاتُ إنما تكون من الجُمَل الخبرية الواجبة والمعنى أنهم لا يَقدِرون فى وِشايتهم على أكثرَ مِن قَطْع القول بأنى لكِ محبٌّ وعاشق . ثم أوجبَ بنعَمْ فقال : قد صَدَقوا فيما ادَّعوا ولفَّقوا ، أنتِ تـكرُمين علينا وإن لم يَعُدْ علينا منكِ خير ، ولا صادَفنا من إحسانك صَفاءٌ ولِينٌ . كأنَّه يُبرِّئُ ساحتَها ، ويُرِى أنَّ ميلَه وهواه لا يَشِينُها مع سلامة طريقتها ، واستحكام عَفَافِها .

٥٧٣

وقال آخر :(١)

١ ــ وإذَا عَتَبْتِ عَلَيَّ بِتُّ كأنَّنى بالَّليْلِ مُخْتَلَسُ الرُّقَادِ سَــلِيمُ
٢ ــ ولقد أردتُ الصبرَ عنْكِ فعاقَنى عَلَقٌ بقَلْبى مِنْ هَوَاكِ قَدِيمُ
٣ ــ يَبْقَى على حَدَثِ الزَّمانِ ورَيْبِهِ وعلى جَفَــائكِ إنَّهُ لَـكَرِيمُ

يقول : اليسيرُ من إنكارِكِ ولَوْمكِ يَعظُم عندى ويَصْعُب علىَّ ، حتى أبقَى له ليلتى ساهِرًا مؤرَّقًا ، وسادِمًا قَلِقًا ، كأنى لَديغُ حَيَّةٍ ، أو مُسْلَمٌ لِعارِضِ علَّة . ولقد رُمْتُ التَّسلِّىَ عنك ، والتصبُّرَ منك ، فدفَعنى عن المراد ما عَلِقَ بقلبى من هواكِ قديمًا ومَلَكَ قِيادِى لكِ ، حتى لا أجدُ دونكِ منصرَفًا ومحيدًا . ثم وَصَفَ العَلَق اللازم له ، والحُبَّ الغالب عليه فقال : إنه يبقى على تغيُّر الزَّمان ،

(١) التبريزى : « قال أبو رياش : هى لابن الدمينة » .

وتلوُّن الحَدَثان ، فلا يَعرِضُ له فُتُورٌ ولا نكوص ؛ وعلى ما يتجدَّد عليه في كل حالٍ من جفاءٍ فيكَ شديد ، وإعراضٍ أليم ، فلا يُبدِّله قصورٌ ولا نُبُوٌّ ؛ إنَّ هذا العَلَقَ لـكريم المَحْتِد ، مُحْـكَم العَقْدِ ، ثابت الأَساس والبِناء ، مقدَّم الذِّكر في صُحُف الوِداد والصفا .

وهذا الـكلام ، أعني قوله « إنه لـكريمُ » يسمَّى الالتفات .

٥٧٤

وقال آخر (١) :

١ ــ أَلِمْ على دِمَنٍ تقادمَ عَهْدُها بالجِزْعِ واستَلَبَ ٱلزَّمانُ جَمالَها

٢ ــ رَسْمٌ لِقَاتِلَةِ الغَرَانِقِ ما بِهِ إلاَّ الوُحوشُ خَلَتْ له وخَـلاَ لَها

٣ ــ ظَلَّتْ تُسَـائِلُ بالمتيَّمِ أهلَهُ وَهِيَ ٱلَّتِي فَعَلَتْ بِهِ أفعالَها

الإلمـام : الزِّيارة الخفيفة . يُخاطِب صاحبًا له ويسأله مساعَدَتَه في زيارة دار أحبَّتِه ، فقال : زرْ آثار دارٍ متقادمةِ العَهد بسُكَّانها ، مسلوبةِ الْجَمال لتأثير نوائب الزَّمان فيها ، بالجِزْعِ ــ وهو منعطَف الوادي . وروى بعضهم : « جَلاَ لها » ، ويُكره هذا لما حكاه الأصمعي من أنه لا يقال الْجَلاَل إلا في الله تعالى ، ولأنه وإنْ جاء في غيره عزّ وجلّ فهو قليلٌ في العرف والاستعمال .

وقوله « رسمٌ لقاتلة الغَرَانق » ابتداء كلام ، أي هو رسمُ دارٍ لامرأةٍ كانت تَصيد الغَرانِق وتَقتَتِلُهُم بالْحُبّ . والغُرانِق : الشابُّ الناعم الْحَسَن ، بضم

(١) التبريزي : « قال أبو رياش : هي لعمرو بن الأيهم ، وقيل الأصم » . وعمرو بن الأيهم بن أفلت التغلبي شاعر نصراني إسلامي ، ويقال إن اسمه « عمير » . وقيل للأخطل وهو يموت : على من تخلف قومك ؟ قال على العميرين . يريد القطامي عمير بن شييم ، وعمير بن الأيهم . اللآلئ ١٨٤ .

الغين ، وجمعه الغَرانِق بفتحها ومثلها العُراعِر والعَراعِر [١] ، والجُوالِق والجَوالِق. وقد استبدلَتْ بأهلها وُحُوشاً فهى خاليةٌ لها ، وهى راتعةٌ فيها ، لا تَعدِلُ عنها .

وقوله « ظَلّتْ تُسائل » أى تبقى نهارَها تسأل عشيرةَ العاشق عنه وعن استهتاره وعلّتِه ، وهى أعرف الناس بأخباره ، إذ كانت المتولّية لفتنته وخَبالِه . والمتيّم : المعبَّد [٢] ؛ يقال : تيَّمه الحب ، أى عبَّدَه واستعبده . وقوله « خَلَتْ له » فى موضع الصّفة للرسم .

٥٧٥

وقال آخر :

١ ــ ومابَرِحَ الواشُونَ حتَّى ارْتمَوْا بنا ... وحتَّى قُلوبٌ عن قُلوبٍ صوادِفُ

٢ ــ وحتَّى رأَيْنا أحسَنَ الوَصْلِ بيننا ... مُسَاكَتَةً لاَ يَقْرِفُ الشَّرَّ قارِفُ

قد تقدم القول فى « ما برح » وأنه فى معنى ما زال . فيقول : لم ينفكَّ السُّعاة عن الوِشاية والتقاط الأحاديث للنميمة ، واستدراج المختلطِينَ بنا ، واستشفاف المتبلِّغين بأخبارنا وأخبارِ غيرنا ، حتى فرّقوا بيننا ، فأقبلوا يَرْمِي بعضُها [٣] بعضاً بمَصَاير أمورنا ، وحتى صَدَفَتِ القلوب ، فمالَ كلٌّ من عشيرتنا إلى الاستبدال بموضعه ، والانتقالِ عن جوار صاحِبه ، وإلى أن رأَيْنا أحسنَ المواصلةِ بيننا ملازمةَ السكوت ، واطّراحَ الإيحاء والرُّموز ، توقِّياً من فُرقةٍ تتوجَّه ، وتَفادِياً من تُهمة تَتسلّط . هذا إذا رَوَيْتَ « لا يقرفُ » بضم الفاء . ويروى « لا يَقْرِفِ » بكسر الفاء ، ويكون فى موضع الجزم جواباً للأمر الذى يدلُّ عليه قوله مُسَاكتةً ، لأنه فى هذا الوجه مصدرٌ فى معنى الأمر . والجملةُ فى موضع

(١) العراعر : بضم العين الأولى : السيد ، والجمع عراعر ، بالفتح .
(٢) ل : « المتعبد » .
(٣) هذا ما فى ل : وفى الأصل : « بعضنا » تحريف .

النَّصب على أن يكون مفعولاً ثانياً لقوله رأينا . والمساكتةُ لا تكون مواصَلة تُجْعل بدلاً منها . ويكون هذا مثل قول الآخر[١] :

* تحيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[٢] *

ويكون المعنى : رأينا أحسنَ المواصَلة بيننا تَواصِيَنا بأن ساكِتُوا الأحبَّةَ ومن يختلف بيننا وبينهم ، لا يقرفِ الشَّرَّ قارفُه . وفى الوجه الأوّل يكون مساكَتةً مفعولا ثانياً . والمعنى سُكوتاً من الجانبين ، أى كِفافاً لا يتولَّد منه قَرْفٌ ولا تُهمة ، ويكون قوله « لا يقرِفُ الشرّ » تفسيراً للمساكتة ، وبياناً لاختيارهم لها . ويروى « صوارِفُ » بالراء ، والمعنى قُلوبٌ تصرف الودَّ بما تأتيه وتستعمله عن القلوب الأُخَر .

٥٧٦

وقال آخر :

١ ــ فإن تَرْجِعِ الأيَّامُ بَيْنِى وَبَيْنَهَا   بِذِى الأَثْلِ صَيْفاً مِثْلَ صيفى ومَرْبَعى

٢ ــ أَشُدَّ بأعناقِ النَّوَى بَعْدَ هٰذِهِ   مَرَائِرَ إنْ جاذَبْتَهَا لَمْ تَقَطَّعِ

« رَجَعَ » هذا مُعَدًّى ، لأنه بمعنى رَدَّ . يقال : رجَعْتُه رَجْعًا فرَجَعَ رُجوعاً . و « صيفًا » انتصب على المفعول من قوله « ترجِعُ » . وكان الواجِبُ أن يقول : صيْفاً ومَرْبَعًا مثل صيْفى ومَرْبَعى ، أو يقول : بذى الأثْلِ صيفى ومَرْبَعى ، أى أيَّامًا كأيَّامِها ، فلمَّا لم يلتبس المرادُ قال : صيفاً مثل صيفى ومَرْبَعى .

---

(١) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره :   * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله «أَشُدَّ بأعناق النَّوَى» أشد فى موضع الجزْم، لأنه جواب الشرط. ولك أن تضمَّ الدالَ منه إتباعاً للضمَّةِ الضمةَ، وأن تكسرها لالتقاء الساكنين، وأن تفتحها، لأنَّ الفتحةَ أخفُّ الحركات. والمعنى إن ردَّت الأيامُ الدائرة بينى وبينها ربيعًا مثل مربعى، وصيفاً مثل مصيفى معها، استظهَرْتُ على النَّوَى بأن أوثِّق أواخيَّها، وأُمِرَّ حبالَها التى أربطها بها، حتى إن جاذبتَها قاوَمَتْكَ فلم تتقطَّع. وهذا مثَل. والمراد أنِّى أُحكِمُ أسبابَ التألُّف والتجمُّع بما يؤمَنُ معه تعقُّبُ الآراء بالمزايلة والافتراق.

٥٧٧

وقال كُلثوم بن صَعْب (١):

١ – دَعَا داعيَا بَيْنٍ فمَنْ كان باكيًا مَعِى مِن فراقِ الحىِّ فليأْتِنى غَـدَا
٢ – فليتَ غَدًا يومٌ سِواهُ وما بَقَى مِن الدَّهرِ ليلٌ يَحْبِسُ الناسَ سَرْمَدَا (٢)
٣ – لِتَبْكِ غَرَانِيقُ الشَّبابِ فإنَّنى إخالُ غَدًا من فُرْقَةِ الحىِّ مَوْعِدَا

كان شَعْباها متجاورَين فى النُّجْعَة، فلما تقضَّى أيَّامُها وهمُّوا بالانصراف إلى المَزَالف (٣) وجوانب القرى، دعا داعِى الفراق فى كل شَعب منهما، وبعثُوا على التهيُّؤ، لذلك ثَنَّى فقال: داعِيَا بَيْنٍ». وقوله « فمن كان باكيًا». يريد: فمن آلمهُ ما أَحسَّ به من النوى، وأزعجَه ما عُزِم عليه من شَقِّ عصا

---

(١) قال المرزبانى فى معجمه ٣٥١ : « ذكره أبو تمام فى حماسته ولم ينسبه » . ثم أنشد هذه الأبيات بهذه الرواية . وضبط « بقى » بفتح القاف يشير إلى أنه طائى . ولأبى تمام ولوع بالاختيار للطائيين .

(٢) ضبطت « بقى » فى ل بفتح القاف وكسرها ، مقرونة بكلمة « معاً » ، إشارة إلى الروايتين .

(٣) المزالف : البلاد التى بين البر والريف .

الهوى ، وأراد إسعادى على البُكاء فليَحضُرنى غدًا ، فإنه اليومُ الموعود والمشهَد المشهود .

وقوله « فليتَ غدًا يومٌ سِواهُ وما بَقَى » ، يقول : يُودِّى أن يكونَ بَدَلَ يوم غدٍ يومٌ آخر غيره ، تفاديًا مما يَجرِى ويَحدُث ، وليتَ بدلَ اللَّيلة الحائلة بيننا وبين غدٍ ما بَقِىَ من الدهر كله ، لحبسَ الناسَ عن التزايُل والافتراق دائما . « وما بَقَى » لغةُ طيِّئٍ ، كأنهم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة ، فانقلبت الياء ألفاً .

وقوله « لتَبْكِ غَرانيق الشباب » فالغرانيق جمع ، واحدها غُرانِق . وقال الخليل : يقال : شَبابٌ غُرانِق . وأنشد :

ألا إنَّ تَطْلابَ الصِّبا منكِ زَلَّةٌ وقد فاتَ رَيْعانُ الشبابِ الغُرَانِقُ[1]

وقال أيضاً : الغُرنُوق : الشابُّ الأبيض الجميل ، والجمع غَرانيق . ومراد الشاعر : لتَبْكِ من استَصلحَ للصِّبا من الشُّبّان وأرباب الهوَى ، [فإنَّ غدا فيما أظنُّ أو أتيقّن يومُ مواعَدة الحىِّ بالزِّيال][2] . وانتصب سرمداً على الظروف ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف ، كأنه قال : حَبْسًا سَرْمَدًا .

٥٧٨

وقال زياد بن حَمَل[4] ، وقيل زياد بن منقذ :

١ – حَبَّذَا أنتِ يا صَنْعاءُ مِنْ بَلَدٍ ولا شَعُوبُ هَوًى مِنِّى ولا نُقُمُ

(١) رواه الأزهرى : « ألا إن تطلابى لمثلك زلة » . اللسان (غرنق) .

(٢) ل : « لتبك كل مستصلح للصبا » ، وتبك بالتاء فيهما .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى . « زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث » ، وفى اللآلئ ٧٠ : « أحد بنى العدوية ، وهم من بنى تميم » . وقد اضطرب الرواة فى نسبة هذه الأبيات وفى نسبة من تنسب إليه الأبيات أيضاً . انظر حواشى سمط اللآلئ والأغانى (٩ : ١٥٤) وزهر الآداب (٤ : ١٩٥) ومعجم البلدان (أشى ، الأميلح ، صنعاء) .

٢ — ولَنْ أُحِبَّ بِلادًا قَدْ رأيتُ بها عَنْسًا ولا بَلَدًا حَلَّتْ به قُدُمُ

صنعاء : مدينةُ اليَمَن . وشَعوب ونُقُم : موضعان باليمن . وعَنْسٌ وقُدُم : حَيَّان من اليمن . وقوله « لا حبَّذَا أنتِ » ذا أُشيرَ به إلى لفظة الشيء ، والتقدير : لا محبوبَ فى الأشياء أنتِ يا صنعاء من بينِ البلاد ، وكما أنتِ لستِ بمحبوب إلىّ ، فكذلك شَعوب ونُقُم ليسا بهوًى منِّى ، أى لا أهواهما ولا أحِنُّ إليهما .

وقوله « ولن أُحِبَّ بلادًا » يريدُ : ولن أحبَّ أيضاً منازلَ هذين الحيَّيْن . كأنّه كرِه المواضعَ بأهلها فاجتواها وذمَّها . وقوله « بلادًا قد رأيتُ بها عَنْسًا » ضَمّ إلى لفظةِ بلادٍ من الصِّفة ما يخصِّصها .

وقوله « حَبَّذا » حَبَّ فِعْلٌ ، والأصل فيه حَبُبَ ، وذا أُشيرَ به إلى الشَّيء ، ولذلك وقع المذكَّر والمؤنَّث على حالةٍ واحدة فقلتَ : حبَّذا زيدٌ ، وحبَّذا هندٌ ؛ لأنَّ لفظة الشيء يشمَل المذكَّرَ والمؤنَّث ، والواحدَ والجمع . فهو كـ « ما » ، وُضِع للجنس .

٣ — إذَا سَقَى اللهُ أَرضًا صَوْبَ غَادِيةٍ فلا سَقَاهُنَّ إلا النَّارَ تَضْـطَرِمُ

لمَّا كان القصـدُ فى الدُّعاء بالسُّقيا بقاءَ المدعوّ له على نضارتِه ، والزِّيادةَ فى طَرَاوته ، واستمرارَ الأيَّام به سالماً ، ممَّا يؤثر فى عُنفوان حُسْنه ، أو يغيِّر رونَقَ مائه ، جَعَل عند الدُّعاء على المذموم عنده السُّقْيا بالنَّار ، لكون النَّار ضدًّا الماء ومميتاً لما يُحييه . فيقول : إذا أطالَ اللهُ تعالى جَدُّه تنعيمَ أرضٍ بما يُقيم من خِصْبِها ، ويُديمُ من رَفاغَتِها ورفاهَتِها ، بتأتِّى الأمطارِ عليها ، وتبكيرِ الغوادى نحوَها ، فلا سَقَى هذه الدِّيارَ إلاّ نارًا يهيِّجُ ضِرامُها ، ويؤجِّج لهبُها وسُعارُها ، لتُبيدَ خيرَها ، وتُفيتَ حُسْنَها وزَهْرَتَها . وقوله «تضطرم» فى موضع الحال للنَّار.

٤ — وحَبَّذَا حِينَ تُمْسِى الرِّيحُ بَارِدَةً وادِى أُشَىٍّ وفِتْيَانٌ بِهِ هُضُمُ

٥ — الوَاسِـعُونَ إذا ما جَرَّ غيرُهُمُ على العَشِيرةِ والكَافُونَ ما جَرَمُوا

٦ — والمُطْعِمُونَ إذا هبَّتْ شـآميَةً وبَاكَرَ الحىَّ مِنْ صُرَّادِها صِرَمُ

قوله « وحبَّذا حين تمسِى الرِّيحُ باردةً » ، جعلَ ما نَفَاه من الحبّ والحمد عمَّا قدَّم ذكرَه من البُلدان ثابتاً لوادى أُشَىٍّ وأهلِهِ ، ونَبَّه على أنَّهم فى أوان الجذبِ والقَحْطِ يُشرِكون غيرَهم من العشيرة فى خيرهم ، ويَستنفِدُون الأموالَ التى يُتنافَسُ فيها فيما يَجْلِبُ الحمدَ ، ويَبُثّ النَّشْر ، إذا هبَّت الريحُ باردةً ، واقشعرت البلاد هامدة ، حتَّى يصيرَ وُسْعُهُم مبذولاً لهم يتوسَّعون فيه إذا جَرَّ غيرُهم الجرائرَ على عشيرته ، وذَوِى لُحمته ، ثمَّ مَن اكتَسب جريمةً منهم تكفَّلوا باستنقاذِه منها ، وأفاءوا ظلَّ الحماية والصِّيانة عليه فيها .

وقوله « وَالمطعِمُون » حذف مفعولَهُ ، وإنّما يصِفُهم بأنَّهم يُقيمون القِرَى للأضياف إذا هبَّت الريح شَمالاً ، وغادَى الحىَّ السحائبُ الباردة طوائفَ وفرقا . وقوله « هُضُم » جمع هَضُوم ، وهو المِنفاق فى الشِّتاء . وقوله « هبَّتْ شآميَةً » انتصب على الحال . وقوله « الواسعون » مأخوذ من الوُسْع وهو الطَّاقة ، ويقال : لا يَسَعُكَ كذا ، أى لستَ منه فى سَعَةٍ . والصِّرَمُ ، أصله فى أقطاع الإبل ، فاستعاره .

٧ — وشَتْوَةٍ فَلَّوا أنيابَ لَزْبَتِهَا عَنْهُمْ إذا كَلَحَتْ أنيابُهَا الأُزُمُ

٨ — حَتَّى انجَلَى حَدُّها عَنْهُمْ وجارُهُمُ بنَجْوَةٍ من حِـذَارِ الشَّرِّ مُعْتَصِمُ

فلُّوا : كسروا . واللَّزْبَة : السَّنة المُجْدِبة ، وجعل الأنيابَ مَثَلاً لشدائدها . والكُلوح : بُدُوّ الأسنان عند العُبوس . والأُزُم : جمع أَزُوم ، وهى العَوَاضُّ ، وقوله «وجارُهُم بنجوةٍ» أى عِزٍّ ومَنَعَةٍ . والنَّجوةُ : المرتفِعة من الأرض لا يبلُغها السَّيل ، فضرَبه مثلاً للمَلاذِ الذى أووْا إليه فى فِنائهم حِذَارًا من الشّرّ ، فيقول : رُبَّ شَتْوَةٍ دفعوا أذاها ومعرَّتها عن العشيرة أشدَّ ما كانت ، بما قاموا به من

إصلاح أمورهم، وإزالة ضررِها عنهم، إلى أن انكشفَ حدُّها عنهم، وجارهم معتصِمٌ فيهم بأحمى مكانٍ، وأمنع عِزٍ ومَلَاذ.

٩ — هُمُ البُحورُ عطَاءً حِينَ تسألُهم وفى اللِّقــاء إذا تَلْقَى بِهِمْ بُهَمُ

١٠ — وهُمْ إذَ الخَيْلُ حَالُوا فى كَوَاثِبِها فَوَارِسُ الخيلِ لا مِيلٌ ولا قَزَمُ

انتصب «عطاء» على التمييز، ويجوز أن يكون مفعولاً له. وارتَفع «بُهَم» بالابتداء، وخبَرُه فى اللقاء، ومفعول تَلْقَى محذوف، كأنَّه قال: إذا تَلْقَى بهم الأعداء. والبُهَم: جمعُ بُهْمَةٍ، وهو الشُّجاع الذى لا يُدرَى كيف يُؤْتَى له، لاستبهام شأنِه وتناهى شجاعتِه. والمعنى: هم البُحُور إذا اجتدام المُجْتَدِى، لكثرة عطائهم، أى لا يَنفَد عطاؤُهم على كثرة الاجتداء، كما لا يَنفَد ماء البحر على كثرة الوُرَّاد، وهم بُهَمٌ فى اللِّقاء إذا لقيتَ بهم الأعداء، وإذا ركبَ الفُرسانُ الخيلَ وثَبَتُوا فى كواثبها — والكاثِبة: قُدَّامُ المَنْسِج منها — ففُرسانها لالئامٌ ضعافٌ صغارُ الأجسام، ولاماثلون عن وجوه الأعداء. والمِيلُ: جمع أمْيَل، وهو الذى يُعْرِض عن وجه الكَتِيبة عند الطِّعان، وقيل: هو الذى لا يَثبُت على ظهر الدَّابّة. ويقال: حَالَ فى ظَهْرِ دابَّته، إذا ركبها. وارتفع مِيلٌ على أن يكون معطوفاً على فوارس الخيل. ويجوز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوف، كأنَّه قال: لاهُمْ مِيلٌ ولا قَزَمٌ. وقد مضى القول فى فوارسَ وشذوذِه[(١)].

١١ — لم أَلْقَ بَعْدَهُمُ حَيًّا فأَخْبُرَهُمْ إلَّا يزيدُهم حُبًّـــا إلَىَّ هُمُ

١٢ — كم فِيهم مِنْ فَتًى حُلْوٍ شمائلُهُ جَمِّ الرَّمادِ إذا ما أَخْمَدَ البَرَمُ[(١)]

يقول: لم أخالِطْ بعد فراقى لهم حَيًّا من الأحياء فخبَرْتُهم إلَّا وازدادوا فى عينى ورَجَحوا، إذا قِسْتُهم بمَن سواهم فى قياسى ونظَرى، كمالَ آلةٍ وتناهِىَ رياسةٍ

---

(١) انظر ص ٣٩ — ٤٠ .

وتوفُّراً على من ينتابُهم من مُتَحَرِّم بذِمَّة[1]، أو مُدِلّ بقَرابة. وارتفع «هم» الأخير بيزيد، وقد وضع الضَّميرَ المنفصلَ موضع المتَّصل لأنَّه كان الوجهُ أن يقول: إلاَّ يزيدونَهُمْ حُبًّا إلىَّ. وهذا كما يُوضع الظَّاهر موضعَ المضمر والمضمر موضع الظاهر إذا أُمِنَ الالتباس. وانتَصَبَ «فأخبُرَهم» لأنَّه جواب النَّفى بالفاء، والعامل أنْ مضمَرةً بين الفاء والفعل.

وقوله «كم فيهمُ من فَتًى حُلْوٍ شمائلُهُ» فكم للتكثير، وموضعه رفْع بالابتداء وخبره من فَتًى. ومعنى «جَمِّ الرَّمادِ» أى كثير الأضياف، لأنَّ الرماد إنَّما يكثُر بحَسَب اتِّساع ضِيافته، وكثرة غاشيته. والبَرَم: الذى لا يدخُل مع القوم فى الميسر، ومفعول أَحْمَدَ محذوف، والمراد ما أَحْمَدَ البَرَمُ النَّارَ لبُخله ولشدَّة الزمان ونَكَده. فجعل الفتى حلوَ الشَّمائل، وهى الطبائع؛ لأنَّ الضِّيافة إنما تَكْرُمُ وتَشْرُفُ بحُسن خُلُق المُضِيفِ وخِفَّته فى الخدمة، وملاطفتِه لضيوفه، وتحفِّيه وبِرِّه بهم.

١٣ ــ تُحِبُّ زَوْجَاتُ أقْوَامٍ حَلاَئلَهُ إذا الأُنُوفُ امْتَرَى مكنونَها الشَّبَمُ

وَصَفَ النساءَ منهم بحُسن التوفُّر على أشباههنَّ، وكمال التفقُّد بما يُهدين إليهنَّ إذا قلَّت الهدايا واشتدَّ الزَّمان، وبلغ البردُ حَدًّا يستخرج مكنونَ الأنوف من الرُّعام[2] فيقول: زوجات الأبرام ومن يشبههم مِن ذوى الحاجة، أو المتنعين من المَيسر، يُحْبِبْنَ أزواجَ هؤلاء الفتيان إذا أمحَلَ الزمانُ واشتَدَّ القَحط والجَدْب، لحسن تعطفهنَّ عليهنَّ، وصَرْفِ العناية وجميل التفقُّد إليهنَّ. وامترَى: استخرجَ. والشَّبَم: البرد. وأراد بالمكنون المُخاط. والحلائل: النِّساء المتزوجات

(١) فى النسختين: «يخدمه»، وليس بشىء.
(٢) الرعام، بالضم: المخاط. وفى النسختين: «الرعال»، تحريف.

سُمِّين بذلك لأنَّها تُحَالُّ أزواجها ، أى تنزل معها ؛ والواحدة حليلة وفعيلة بمعنى مُفاعلة ، كقَعِيدةٍ ، وجَلِيسة .

١٤ — تَرَى الأَرَامِلَ والهُلَّاكَ تَتْبَعُهُ   يَسْتَنُّ مِنْـهُ عَلَيهِمْ وابِلٌ رَزِمُ
١٥ — كأنَّ أصحابَهُ بالقَفْرِ يَمْطُرُهُمْ   مِنْ مُسْتَحِيرٍ غَزِيرٍ صَوْبُهُ دِيَمُ

الأرامل : جمع الأرمَلِ والأرْمَلة ، لأنَّه يقع الذّكر والأنثى ، وهم الذين قد انقطع زادُهم وضاقت الأحوال بهم . والهُلَّاك ، هم الفقراء الذين أشْرَفُوا على الهلاك ، وإنما قال « تتبعه » لأنَّهم كانوا يتفيَّئُون بظلّه ، ويعيشون فى أفنيته من خَيْرِه . وقوله « يَسْتَنُّ منه عليهم وابلٌ » مَثَلٌ لما كان يَنْصَبُّ عليهم ويجرى ويدومُ ، من إحسانِه لهم ، لأنَّ الحيا يُحْيِى الأرض ، كما أنَّ معروفَ هؤلاء كان يحييهم . والرَّذِم : السَّائل . ومعنى : يستنُّ ينصبُّ . سَنَنْتُ الماء وأسننته بمعنًى . والوابل : المطر الضَّخم القطر .

وقوله « كأنَّ أصحابَه بالقَطْرِ يَمْطُرُهم » يريد أنَّهم فى دُورهم ومَحَالِّهم ذلك فِعلُهم مع عشيرتهم ، ومع رُوَّادِهم ومؤمِّليهم ، فإذا سافَرُوا ترى الصَّحابة فى المكان الخالى يمطُرهم من نوالِهِ ما يجرى مَجرى الصَّوْبِ من سحابٍ متحيِّرٍ ممتلئٍ ماءً ، غزيرِ النَّوء ، دائمِ السَّيل . والدِّيَم : جمع دِيمة ، وهى المطر يدومُ بسكون ، والمُسْتَحِيرُ والمتحيِّر . بمعنًى واحد . وهذا التَّحيُّر إنَّما هو كناية عن الامتلاء . ويقال : استحار شبابُه .

١٦ — غَمْرُ النَّدَى لا يَبِيتُ الحَقُّ يَثْمُدُهُ   إلاَّ غدَا وهو سَامِي الطَّرْفِ يَبْتَسِمُ
١٧ — إلى المَكَارِمِ يَبْنِيهَا ويَعْمُرُهَا   حتَّى يَنَالَ أُمورًا دُونَهَا قُحَمُ

الغَمر : الواسع العطاء . ومعنى يَثْمُدُهُ يكثر عليه حتَّى يُفْنِيَ ما عنده . والماء المثمود : المزدحَم عليه حتَّى يَنْزُرَ نَزْرًا . وقوله « وهو سامى الطَّرْفِ » ،

أى لا يَكسِبه امتدادُ العَطاء منه ، ودوامُ الإحسان ، غضاضةَ طَرْفٍ وانكسار نشاطٍ ، بل يُرَى بعَقِبه ضَحُوكا عالىَ النظر . وقوله : « لا يبيتُ الحقُّ يثْمُده إلا غدًا » ، يشتمِلُ على معنى الشّرط والجزاء ، أى كلّما باتَ الحقُّ يثمد ما عنده غدا سامِىَ الطَّرْف مبتسما .

وقوله « يَبْنيها ويعمرها » فى موضع الحال ، أى بانياً عامِرًا . وقوله « إلى المكارم » اتّصل « إلى » بقوله « إلاَّ غَدَا » . والقُحَم : الشدائد ، واحدتها قُحْمَة ، والمعنى أنّه بذّالٌ سَخِىٌّ جمُّ المعروف ، لا يبيت تورُّدُ الحقوقِ نحوَه يستغرق ما لَه إلَّا ابتكَرَ وهو ضحّاكٌ عالِى النظر إلى ابتناء المكارم ، جرياً على العادة وإلْفًا لها ، وهو يعمرُها ويصلُ جوانبها بأمثالها حتّى يُصِيبَ أموراً تَحُولُ بينها وبين من يُريد[(١)] نَيلَها والوصولَ إليها شدائدُ وتكاليف . وقُحَمُ الطَّريق : ما صَعُبَ منها ، وفى الحديث : « إنَّ للخصومة قُحَمًا » ، أى يتقحَّم على المهالك .

١٨ – تَشْقَى بِهِ كُلُّ مِرْبَاعٍ مُوَدَّعةٍ　　عَرْفَاءَ يَشْتُو عليها تَامِكٌ سَنِمُ

١٩ – تَرَى الجِفانَ من الشِّيزَى مُكَلَّلَةً　　قُدَّامَهُ زَانَها التَّشْرِيفُ وَالْكَرَمُ

٢٠ – يَنُوبُها النَّاسُ أَفْوَاجاً إذا نَهِلوا　　عَلُّوا كما عَلَّ بعد النَّهلَةِ النَّعَمُ

المِرْباع : النّاقة التى من شأنها أن تضعَ ولدها فى الرَّبيع ، وهى المحمود من النّتاج ، ولذلك قال :

* أفلَحَ من كان له رِبْعِيُّونْ[(٢)] *

ومِرْباع : بناء المبالغة . والمودَّعَةُ : المكرَّمَةُ الموفَّرَةُ على التّناسل لا تُعمل

(١) فى الأصل : « يريك » ، صوابه فى ل .

(٢) لأكثم بن صيفى ، أو سعد بن مالك بن ضبيعة ، اللسان (صيف) .

ولا تُحَمَّل. والعَرفاء: التي لِسِمَنها صار لها كالعُرْف . والتَّامك : السَّنام المشْرِف . والسَّنِمُ : العالى ، ويقال : بعيرٌ سَنِمٌ ، أى مشرف السَّنام ، والمعنى : تَبْقَى شَتْوَتَها سمينةً لا يغيِّرها الجَدْبُ والقَحْط ، وإنما قال « تشقَى به » ، وهو يريد الفتَى لأنَّ المراد لا يَنْحَرُ من الجُزُر إلاَّ ما يُتنافَسُ فيه مثلِ ناقةٍ هذه صفتُها .

وقوله « تَرَى الجِفان من الشِّيزَى مكلَّلةً » ، يريد أنَّ الجفانَ المعدَّةَ للأضياف عليها كالأكاليل من فِدَرِ اللَّحم[1] ، وقد زيَّنها كَرَمٌ بارع ، وتشريف فاخر ، وهذا بما يَستعمِله من الألطاف والتأنيس مع الأضياف ، ومن توفُّرِ خِدمة الخدم عليهم ، ولكمال بهاء المجلس وكونه مشحوناً بما يَرُوقُ ويُعجِب .

وقوله « ينُوبُها » أى ينتابُونَها طائفةً بعد طائفةٍ ، وفَوْجاً بعد فَوْجٍ ، فإذا تناوَلوا النَّهلَ رجَعوا فأعقبوه العَلَلَ ، كما يَفعل ذلك النَّعَمُ عند وروده الماء . وانتَصَب « أفواجا » على الحال . والنَّعَم يقع على الأزواج الثَّمانية ، والغالب عليها الإبل .

٢١ – زارت رُوَيْقَةُ شُعْثاً بعدما هجَعُوا   لَدَى نَوَاحِلَ فى أرساغِها الخَدَمُ
٢٢ – وقمتُ للزَّوْرِ مُرْتاعاً وأرَّقَنِى   فقلتُ أهْىَ سَرَتْ أم عادَنِى حُلُمُ[2]
٢٣ – وكانَ عَهدى بها والمَشْىُ يَبْهَظُها   مِن القَريبِ ومنها النَّوْمُ والسَّأَمُ

يصف الخيال فيقول : زارت خيالُ هذه المرأةِ قومًا غُبْرًا ، أنضاءَ مُرْهًا[3] ، بعد ما ناموا عند إبلٍ ضوامرَ مهازيل ، شُدَّت فى أرساغها سُيورُ القِدّ ، لشدَّة سيرها وتأثير الكلال فيها ، فقمت من مَضجَعى للطَّيفِ الزائر خائفاً ، وطار النومُ عنِّى ، وأخذني القَلَقُ ، ووساوِس النفس والزَّمَعُ ، فميَّلْتُ الفكرَ بين شيئين

(١) الفدر ، بالفاء : جمع فدرة ، بالكسر ، وهى القطعة المجتمعة من اللحم . وفى النسختين : « قدر اللحم » ، تحريف . (٢) التبريزى : « فأرقنى » .
(٣) جمع أمره ومرهاء ، وهو من فسدت عينه لترك الكحل .

أحدُها زيارتُها بنفسها ، والثانى حُلم نائمٍ اعتادَنى فأرانيها ، وصِرْتُ أُراجِعُ نفسى وأقول : كيف يجوز مجيئُها ، وكنتُ أُعهدها وقطعُ المسافةِ القريبة كانت تتكلَّفه بشِقِّ النَّفس ، وتحمُّل الثِّقل والكدِّ . هذا والغالب عليها المَلالُ مما يُتعِبُ وإن خَفَّ ، وطَلَبُ الراحةِ بالنوم ليسيرِ الخطبِ منها ببالٍ ولو قَلَّ . وانتَصَبَ « مرتاعاً » على الحال .

وقوله « أم عادَنى حُلُمُ » أم هذه هى المعادِلة ، والمعنى أىُّ هٰذين الأمرين كان . وقوله « أَهْىَ سَرَت » أسكن الهاء من هى مع ألف الاستفهام ، لأنَّهُ أجراها مَجرى واوِ العطف وفائه ، فكما يسكُن معها لأنها لا تقوم بنفسها ولا تستقلُّ كذلك أُسكِن مع الألف . ومعنى يَبْهَظُها : يَثْقُلُ عليها ويشقّ .

وقوله : والمشى يَبْهَظُها » خبر كان فيه . وقوله : « وكان عهدى بها » الواو واو الحال من قوله أَهْىَ سَرَتْ .

٢٤ – وبالتَّكاليفِ تأْتِى بَيْتَ جارتِها تَمْشِى الهُوَيْنَا وما تَبدُو لَهَا قَدَمُ

٢٥ – سُودٌ ذوائبُها بِيضٌ ترائبُها دُرْمٌ مَرَافِقُها فى خَلْقِها عَمَمُ

يقول : ومِمَّا عهِدتُها عليه أنَّها كانت تأتى بيتَ جارتها قضاءً لذِمامٍ ، أو أداءً لواجبِ حَقٍّ ، بَعد الجُهْد والشدّة ، ومداوَرة النَّفْس على أدنَى الكُلْفة والمشقّة ، ومِشْيَتُها الهُوَيْنَا ، أى على رِفْقٍ لا استعجالَ فيها ولا تهافتَ ، ولا تَقاذف فى أعضائها ولا تتابُع ، ولذَيلها على الأرض سحبٌ وجرٌّ ، فقدَمُها لا تبدو ، ووقارُها المتسبِّب من كِبرها وعُجْبها لا يهفُو . والهُوَيْنا : تصغير الهُوْنَى والهُونَى : تأنيث الأهوَن ، وموضعها من الإعراب نصبٌ على المصدر . وقوله « تمشى الهُوَيْنا » فى ضمنه ما يُوصَفُ به مثلها من التُّرْفة وفَرْط الحياء ، كما قال :

كأنَّ لها فى الأرضِ نِسْياً تَقُصُّه على أَمِّها وإن تُكَلِّمْك تَبْلَتِ[1]

(١) البيت للشنفرى الأزدى فى المفضليات ١٠٩ .

وقوله « سُودٌ ذوائبها » يصفُها بأنَّها فى عنفوان شبابها ، ففرْعُها أسود ، وصدرُها بما حواليه أبيض ، ومرافقُها لا حجمَ لها لكثرة لحمِها ، وخَلقها تامٌّ لاستكمالها .

٢٦ ــ رُوَيْقَ إنِّى وما حَجَّ الْحَجيجُ له وما أَهَلَّ بجَنْبَىْ نَخْلَةَ الحُرُمُ

قوله « وما حَجَّ الحجيج له » يجوز أن يكون ما بمعنى الذى ، كأنه أقسمَ بالبيت الذى حجَّ إليه الحجّاج ، وبإهلال الحُرُم ، وهو رَفعُ الصوت بالتلبية ، بجنْبَىْ نخلة ، وهو مكانٌ بقُرب مدينة الرسول عليه السلام يقال له بَطْنُ نَخْلَةَ .

ويجوز أن يكون ما موضوعاً موضع مِن ، على ما حكى أبو زيد من قولهم : « سبحان ما سَبَّح الرعد بحمده » ، ويكون الله تعالى المُقْسَمَ به .

وقوله «ما أَهَلَّ » يراد به وما أهلَّ له ، فحذف له لتقدم ذِكره وطُول الكلام به . ويجوز أن يكون «ما حجَّ» فى موضع المصدر، كأنه أقسمَ بحَجّهم وإهلالهم ، ويكون الضميرمن له يعود إلى الله تعالى وإن لم يَجْرِ ذِكره ، لأن المراد مفهوم ، أى حَجُّوا له إقامةً لطاعته ، وابتغاء لمرضاته . وجواب القَسم فى قوله « لم ينسنى » . ويقال : أحْرم الرجلُ بالحجّ فهو مُحْرِمٌ ، وقومٌ حرام وحُرُمٌ ومُحْرِمون .

٢٧ ــ لم يُنسِنِى ذِكرَكُم مُذلم أُلاقِكُمُ عَيْشٌ سَلَوْتُ به عنكم ولا قِدَمُ

٢٨ ــ ولم تُشارِكْكِ عِنْدِى بَعْدُ غانيةٌ لا والذى أصبحَتْ عِندى له نِعَمُ[1]

حلَفَ بما حلف أنه لم يَشغله عن ذِكرهم منذُ حصل الفِرق بينهم ، لا عيشٌ استطابَه لمساعَدة الزمان له بما سَرَّه فتسلَّى عنهم ، ولا تَمَلِّى ما كان يستجدُّه كلَّ وقتٍ من الوجدِ بهم وتَذكار عهودهم تقادُمُ أيّامٍ فتناساهم ، ولا شاركها فى

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « ولم يشاركك » .

مُستوطَن هواها ومقرٌ حبِّه لها امرأةٌ غانية، فتضايق عنها حِماها. ثم ثنَّى اليمينَ توكيداً فقال: لا والله الذى أصبحَتْ له عنـدى نِعَمٌ مقابلتُها بالشكر واجبةٌ لِلأَمر كما قلت، فحذف لأن المراد مفهوم.

وقوله «لم يُنسِنى ذِكرَكم» يُجاب اليمين من حروف النَّفى بما، ولكنه اضطُرَّ فوضع لم يُنسِى موضع ما أنسانى. ولا يمتنع أن ينفرِد القَسَم الأوّل به جواباً، ويكون جواب القَسَم الثانى: ولم تشاركاك[1] عنـدى، لأنه خبرٌ ثانٍ، فقدَّم المُقسَم له على المُقسم به، كما تقول: ما فعلته والله.

٢٩ ـ مَتَى أمُرُّ على الشَّقْراءِ مُعتَسِفاً خَـلَّ النَّقا بمَرُوحٍ لَحْمُها زِيَمُ

٣٠ ـ والوشْمَ قدخَرَجَتْ منهاوقابَلَها من الثَّنايا التى لم أقْلِهـا بَرَمُ[2]

قوله «متى أمُرُّ» استبعاد واستعجال بما يتمنَّاه من العَوْدِ إلى هذه الأماكن التى ذكرها. ورواه بعضهم «حتى أمُرَّ»، ويتعلق حتى بقوله «لا والذى أصبحتْ عندى له نِعَم» أى حصَلت له نِعَمٌ عندى كى أمُرَّ، لأن لِحَتَّى موضعين، والفعل بعدها منصوب: أحدهما أن يكون بمعنى لأنْ وكىْ، والثانى أن يكون بمعنى إلى أن، تقول: جئتُك حتى تُكرِمَنى، والمعنى لأن تُكرِمَنى، وكى تكرمنى. وتقول: انتظرْ حتى تخرج، والمعنى إلى أن تخرج. والشَّقراء، قال الأصمعى: يعنى فرسَـهُ، وعلى هذا يكون الشقراء والمَرُوح فرساً واحداً. والباء من «بمَرُوح» يتعلق بقوله معتسِفاً، وعلى الشقراء بأَمُرُّ، ويكون فى موضع الحال، أى راكباً الشقراء. وانتصب معتسِفاً على الحال. والاعتساف: الأخذ

(١) فى نسخة الأصل: «ولم يشاركاك».

(٢) التبريزى: «خرجت منه». والوشم ضبطت فى نسخة الأصل بفتح الميم وكسرها مصحوبة بكلمة «معاً».

على غيرِ هدايةٍ ولا دِراية . ويقال : فلان يتعسّف الناس ، أى يأخُذهم بغَير الحقّ . والخَلّ : الطَّريق فى الرَّمل . والنَّقا : الرمل . والمَرُوح : النَّشيط . ومعنى زِيَمٌ : متفرّق . ووَشْم وبَرَمٌ : موضعان . والثَّنايا : العِقاب . ويروى : « من العِقاب التى لم أقْلِها ثُرَمُ » ، وهى جمع ثُرْمَةٍ ، وهى صدعٌ يكون فى الثَّنيَّة . ومنه قولهم : فلانٌ أثْرَمُ ، إذا سقط بعضُ ثناياه فصارت بينهما فُرْجَةٌ . ولم أقْلِها : لم أُبغضْها . وقد قيل فى الشقراء : إنه موضع أو هضبة . وانعطف « الوَشْمِ » عليه ، وبمَرُوحٍ حينئذ يتعلق الباء منه بحَتَّى أُمُرٌ . وعلى الوجه الأوّل تنصب الوَشْمَ وتَعطِف على خَلّ النَّقا .

٣١ — ياليتَ شِعْرِىَ عن جَنْبَىْ مُكَشَّحَةٍ وحيثُ يُبْنَى من الْحِنَّاءةِ الأُطُمُ(١)
٣٢ — عَن الأَشاءةِ هل زالَتْ مَخارِمُها وهَلْ تَغيَّرَ مِنْ آرامِها إرَمُ
٣٣ — وجَنَّةٍ ما يَذُمُّ الدّهرَ حاضِرُها جَبّارُها بالنَّدَى والْحَمْلِ مُحْتَزِمُ

قوله « يا ليت شعرى » يا حرف النداء ، والمنادى محذوف . وهذا الكلام تحسُّر فى إثْرِ ما فاته من أمرِ الأَرَضِينَ المذكورة . وشِعرى اسم ليت ، وخبره محذوف لا يظهر البتّة ، ومفعولا شعرى قوله « هل زالت مخارمها » .

وقوله « عن جَنْبَىْ مكَشَّحةٍ » بيان ما تمنَّى عِلمَه ، وفى أىِّ جانبٍ هو . ويُروى : « عن جِزْعَىْ مكشَّحةٍ وحَوْثُ » . والجِزْع : جانب الوادى . ومكشَّحة : أرض . وحَوْثُ لغة فى حيث ، لأن فيه أربع لغات : حَيْثُ ، وحَيْثَ ، وحَوْثُ ، وحَوْثَ . فالضمُّ تشبيها له بالغايات قبلُ وبَعد ، والفتحة لخفَّته . والحِنَّاءة : أرض . والأُطُم : الحِصْن وكلُّ بناء مرتفع ، والجمع آطام .

وقوله « عن الأشاءة » ، فإن كان الأشاءةُ موضعاً وبعضَ ما يقع عليه

(١) التبريزى : « تبنى » .

مكشّحةٌ فإنه بدلٌ مِن عن جنبَىْ مكشّحة ، وقد أُعيد حرفُ الجرّ معه . وإن كان النَّخلةَ فإنه يجوز أن يريد بَقْعتَها ، فحذفَ المضافَ وأقام المضاف إليه مقامَه . ولا يمتنع أن يكون أراد : وعن الأشاءة ، فحَذَف العاطف كما تقول : رأيت زيداً ، عَمرًا ، خالداً . وأنشدنا أبو علىّ الفارسىُّ :

كيف أصبحتَ كيف أمسيتَ ممَّا ... يزرعُ الحُبَّ فى فؤادِ الـكريمِ (١)

فيقول : ليت علمى كان واقعاً بأحوال هذه المواضع ، وهل هى باقيةٌ على ما عهِدتها من قبل ، أو هل تغيّرَتْ أعلامُها وزالت مَخارِمُها . وإنما يدُلُّ على حَنينه إليها ، وتأسُّفه على البُعد عنها .

وقوله « وجَنَّةٍ » يريد وعن جنَّةٍ حاضِرُها يَرضَى عن الدَّهر ويَحمَدُه ، فلا يتسخَّط أيَّامَه ، ولا يذمُّ عوارضَه . والجَبّار من النَّخْل : ما فاتَ اليدَ طُولا .

وقوله « بالنَّدَى والحَمْل محتزِم » تنبيهٌ على الخِصب فيها ، وعلى غَضارةِ عيشِ سكَّانها . والاحتزام كالالتفاف (٢) ، ويُروى « جَبّارُها بالندى والخَيْرِ » .

٣٤— فيها عَقائلُ أمثالُ الدُّمَى خُرُدٌ ... لم يَغْذُهُنَّ شَـقا عَيشٍ ولا يُتُمُ (٣)

٣٥— ينتابُهُنَّ كِرَامٌ ما يذُمُّهُمُ ... جارٌ غريبٌ ولا يُؤذَى لهم حَشَمُ

٣٦— مُخَدَّمونَ ثِقالٌ فى مَجالِسِهم ... وفى الرِّحالِ إذا صاحَبتَهم خَدَمُ (٤)

قوله « فيها » أى فى الجنَّة . عقائل ، أى نساء كريمات ، كأنهُنَّ الصُّوَر المنقوشة حُسْناً ، منعَّماتٌ لم تمسَّهن فاقةٌ وفقر ، ولا جُهِدْنَ بأيّامٍ أدبرَتْ عنهنّ ،

(١) فى باب العطف من شرح الأشمونى الألفية : « مما يغرس الود » .

(٢) فى النسختين : « كالالتفات » ، تحريف . وعند التبريزى : « والاحتزام : الالتفاف » .

(٣) ضبطت فى التبريزى « يتم » بالتحريك ، وهى لغات ، يقال يتم بضم الياء وفتحها وبالتحريك . القاموس ، واللسان . وتحريك التاء بالضم هنا للشعر .

(٤) يقتضى شرح التبريزى أن يضبط « خدم » بضمتين . إذ قال : « خدم ، وهو جمع خدوم ، ليقابل مخدمون فى المعنى ، لأن كل واحد منهما يدل على المبالغة » .

ولا شَقِين بمعاكَدةِ عيشهنّ ، ولا أُصِبْنَ بموتِ كافِلِهنّ أو قيِّمهنّ ، عفيفات ، حيِيّات ، لا يَعرِفن منكَر الأخلاق ، ولا ما يَشِينُ من الأفعال ، فهنّ ربائب النِّعَم ، وغرائر الزَّمن ، ومُدَلَّلاتُ العشائر والسَّكَن[1] .

وقوله : « ينتابهنَّ كِرَامٌ » مَدَح الرِّجال عَطْفاً على مدحهنّ فقال : يدبّر هؤلاء النِّسوةَ رجالٌ كرامٌ أعِزَّاء ، يَحمَدُهم الجار الغريب ، لوفائهم له بالعَقْد ، وحُسْن تعطُّفهم عليه عند البلاء والجَهْد ، ويَرْضَى عنهم الخليط النَّسيب لجمال عِشرتهم ، وكَرَم أخلاقهم ، لا كِبْر فيهم ، ولا ترفُّعَ معهم ، ثمّ ترى حَشَمَهُم يسالمُهم[2] الدَّانى والقاصى ، لعِزّهم وحَمِيَّتهم ونُصرتهم ، وذَهاب صِيتهم ، وهم فى مجالسهم فى الحضَر رِزَانٌ سادةٌ يخدُمهم مَن يغشاهم ، وفى السَّفر خِفاف لِطاف يُكرمون الصَّحابة والمُرافقة ، ويخدُمون الغاشيةَ والمجاورة ، ويتحمَّلون فى أحوالهم المُؤَن المجحفة ، وفى أموالهم النُّوَب المُثقِلة . والحَشَم : خَدَم الرَّجل ومن يَحْشَمُ له ، أى يَغضَب عند النَّازلة ، ويدافع دونه لطُروق الكائنة . وقوله « ينتابُهنّ » ، يُروى : « يأتابُهُنَّ » يفتعِل من الإياب .

٣٧— بل لَيْتَ شِعْرِى مَتَى أغْدُو تُعارِضُنِى   جَرْدَاءُ سابِحَةٌ أو سَابِحٌ قُدُمُ

٣٨— نَحْوَ الأُمَيْلِحِ مِنْ سَمْنَانَ مُبْتَكِرًا   بِفِتْيَةٍ فِيهِمُ المَرَّارُ والحَكَمُ[3]

٣٩— لَيْسَتْ عَلَيهِمْ إذا يَغْدُونَ أَرْدِيَةٌ   إلاَّ جِيَادُ قِسِىِّ النَّبْعِ واللُّجُمُ

بل : حرفٌ يدخُل للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثّانى ، كأنَّه لمّا صَرَف الكلام عما كان فيه وشَغَله بغيره أتى بِبَلْ ، إيذاناً بذلك . فيقول : ليت عِلْمِى واقعٌ بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، وهو متى ابتكر من سَمْنَان نحو الأُمَيلح — وهما

---

(١) السكن : كل ما سكنت إليه واطمأنت من أهل وغيره .

(٢) فى الأصل : « يسائلهم » ، صوابه فى ل .

(٣) التبريزى وياقوت فى معجم البلدان : « أو سمنان » .

موضمان — وتُعارضنى فى السير حِجْرٌ قصيرة الشَّعر، تَسبَح فى عَدْوها، أو ذَكَرٌ سابِقٌ يسبِق أصحابَه[(١)] ويتقدَّمُها من حيث جَرَى، ومعى فِتْيانٌ فيهم هذان المذكوران، ثمّ وصفَ الفِتيانَ بأنّهم لا يُهِمُّهم إلاّ الفُروسيّةُ وركوبُ الخيل، وإعدادُ آلاتِ الحرب، والصَّيدِ والطّرد. وقوله «إلاّ جِيادُ» رَفَعَهُ والوجه الجيد النَّصب، لأنّه منقطِعٌ ممّا قبله، لكنّ بنى تميمٍ يرفعون مثلَ هذا على البدل. وهذا يُشبِه بَدلَ الغلَط، لهذا ضَعُف فى الإعراب.

والبيت يشبه قولَ لبيد:

* فُرُطٌ وِشَاحِى إذْ غدَوتُ لِجَامُها[(٢)] *

وانتصب «مبتَكِرًا» على الحال. وقِسِيٌّ مقلوب، وأصله قُوُوسٌ، ويروَى: قِياسِ النَّبع[(٣)]». والمَرّار قيل هو أخوه[(٤)]. والحكَم: ابنُ عمِّه، كذا ذكره الأصمعىّ.

٤٠ - مِن غَيرِ عُدْمٍ ولكِن مِنْ تَبذُّلِهِمْ لِلصَّيْدِ حِينَ يُصِيحُ القانِصُ اللَّحِمُ

٤١ - فَيَفْزَعونَ إلى جُرْدٍ مُسَحَّجَةٍ أَفْنَى دَوابِرَهُنَّ الرَّكْضُ والأَكَمُ[(٥)]

قوله «من غير عُدْمٍ ولكن»، تعلّق مِن بقوله «ليست عليهم إذا يغدون أرديَةٌ». والمعنى أنّ إخلالهم بلُبس الأردية واستسرائها والتّأنّق فيها، لا لفقرٍ وفاقةٍ، لكن لوَلوعهم بالصَّيد، وتبذُّلهم له فى الوقت الذى يستمع الصَّائد القَرِمُ

(١) فى الأصل: «صاحبه»، والصواب من ل.

(٢) صدره: * ولقد حميت الحى تحمل شكتى *

(٣) والقياس: أحد جموع القوس، ويقال قوس وقسى وقسى – بضم القاف وكسرها وأقواس، وقياس.

(٤) المرار العدوى شاعر إسلامى مشهور، كان معاصرا لجرير، وقد هاج الهجاء بينهما. وهو المرار بن منقذ بن عبد بن عمرو بن صدى بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم الحنظلى العدوى. انظر المفضليات ٧٢.

(٥) التبريزى: «إلى جرد مسومة».

إلى اللَّحْم إلى أصحابه ، فى اختيار مواضع الصَّيد ، وافتقارِه لقلَّته . ويُروَى : « حين يُنادِي السَّائفُ اللَّحِمُ » . قال الأصمعىّ : يريد يرتَدُون بِقِسِيِّهم ولُجُم خيلِهم إذا ابتكروا ، لا همَّ لهم غيرُه . والسَّائف : الذى يَحُوش الصَّيدَ على أصحابه[1] ، أى ينادى أصحابَه باعِثًا على الأَخْذ ، ومحذِّرًا من الفَوْتِ .

وقوله « فيَفزعون إلى جُرْدٍ مسحَّجة » أى يلتجئون إلى خيل قصيرة الشعر ، نشيطةٍ ، قد سحَجَ بعضُها بعضًا بالعضّ والاستنان . ويجوز أن يريدَ أنَّ العملَ والكدَّ سحجَها ، ألا تَرى أنَّه قال : أفنى مآخيرَ حوافرِهنّ ركضُ الفُرسان لها ، واستحثاثُهم إيَّاها ، وتأثيرُ الإكام فى حوافِرها ، لأن جَرْيَهَا كان عليها . ويقال : أَكَمةٌ وأَكَمٌ ، وإكامٌ وأُكُمٌ .

٤٢ – يَضْرَحْنَ صُمَّ الصَّفَا فى كلِّ هَاجِرَةٍ   كَمَا تَطَايَحَ عَن مِرْضَاحِهِ العَجَمُ[2]

٤٣ – يَغْدُو أمامَهُمُ فى كُلِّ مَرْبَأَةٍ   طَلاَّعُ أَنْجِدَةٍ فى كَشْحِهِ هَضَمُ[3]

أصْل الضَّرْح الرَّمْى . وإنَّما وَصفَ الخيلَ بصلابة الحوافر ، وأنَّها تكسِر ما تَطَؤُه من صِلاب الصَّفَا إذا سارتْ فى الهاجرة . ثمَّ شبَّهَ مايتطاير من حوافرها من الحصَى بما يتطاير من النَّوَى عن مِرضاحِه . والمِرضاحُ : الحجر الذى يُكسَر عليه النَّوَى أو به . ومعنى تَطَايَحَ : تطايرَ .

وقوله « يَغدو أمامهم » يعنى فى التصيُّد . والمَرْبَأَةُ : المَحْرَسَةُ . وقوله « طَلاَّعُ أَنْجِدَةٍ » جمع نَجْدٍ كَفَرْخٍ وأفْرِخَةٍ ، ولا يمتنع أن يكون أنجدةٌ جمعَ نَجَاد ، ونِجَاد جمع نَجْدٍ ، فيكون أنجِدةٌ جمع الجمع . ويقال : طَلَع الجبَل ، إذا عَلاَهُ . والهَضَم : انضمام الضُّلوع . يصفُ خفَّتَه وشهامته ، وابتذالَه نفسَه فى الصَّيد والفروسيَّة .

---

(١) لم نجد هذا اللفظ بهذا المعنى فى المعاجم المتداولة .

(٢) التبريزى : « يرضخن » ، و « مرضاخه » .

(٣) ينذو ، بالنين المعجمة ، كما فى النسختين والتبريزى .

٥٧٩

وقال عَمْرو بن ضُبَيْعَةَ الرَّقَاشِيُّ[١] :

١— تَضِيقُ جُفُونُ العَيْنِ عن عَبَرَاتِها فَتَسْفَحُها بعد التَّجَلُّدِ والصَّبْرِ

٢— وغُصَّةِ صَدْرٍ أظهَرَتْهَا فَرَفَّهَتْ حَزَازَةَ حَرٍّ في الجَوَانِحِ والصَّدْرِ

العَبْرَةُ : الدَّمعة ، وقد استعبر ، أي جرى عَبْرَتُه ، ويقال : لأُمِّه العُبْر . وأراه عُبْرَ عَيْنِه ، أي سُخْنَةَ عَيْنِهِ وما أبكاه . فيقول : تمتلئُ العين دَمْعاً حتّى تتضايقُ جفونُها عن احتباسه ، فتصُبُّها بعد تَجَلُّدٍ منها في الإخفاء ، وتَصَبُّرٍ على مدافعة البكاء .

وقوله « وغُصَّةِ صَدرٍ » يريدُ غُمَّةً اغتَصَّ بها الصَّدر فأظهرتُها ، بعد أن كانت لا تَسُوغ بتنفُّس الصُّعَداء ، فسَكَّنت تقطيع لَوْعَةٍ تمكَّنَتْ بين الجوانح والصَّدر . والحَزَازةُ : وَجَعٌ في القلب مِن أذى يُصِيبُه . والجوانح : الأضلاع القصيرة ، الواحدة جانحةٌ . وقوله : « رَفَّهَتْ » : وسَّعَتْ ؛ وعَيْشٌ رَافِهٌ .

٣— ألاَ لِيَقُلْ مَنْ شاء مَا شاء إنَّما يُلاَمُ الفَتَى فيما استَطاعَ من الأمْرِ

٤— قَضَى اللهُ حُبَّ المالِكِيّةِ فاصطَبِرْ عَلَيْهِ فقَدْ تَجرِى الأمورُ على قَدْرِ

ألاَ : افتتاحُ كلام . واللام من « ليقل » لام الغائب ، وقد يدخل في فعل الحاضر ، على ذلك ما رُوِىَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنّه قرأ : ﴿ فبِذَلك فَلْيَفرَحُوا[٢] ﴾ . وقوله «ماشاء» أراد ماشاء أن يقوله، فحذفَ المفعول ، وكذلك قوله « من شاء » محذوفُ المفعول ، أي من شاء القول ؛ فإنَّ المَلامَ يستحقه الفتى

(١) ذكره المرزباني في معجمه ٢٢٥ — ٢٢٦ وساق له هذه الأبيات .

(٢) هي قراءة أبي وابن القعقاع وابن عامر والحسن . تفسير أبي حيان (٥ : ١٧٢) ، وجمهور القراء بالتاء على الخطاب .

فيما يُطِيقه ويَدخُل تحت مقدوره ثُمَّ لا يفعلُه ، فأمَّا ما لا يطيقه فقد سقط اللَّومُ فيه عنه .

وقوله « قضَى اللهُ حُبَّ المالكيّة » ، يريد حَتَمَه اللهُ عليك وأوجبه ، فتكلفِ الصَّبرَ فيه ، فقد تَجرِى الأمورُ على قَدْرٍ ، أى على تقديرٍ ، تَضِيق السُّبلُ عن الانفكاك منه ، فلا حيلةَ فيه إلاَّ التزامُها . وهذا تسليةٌ منه لنفسه وبَعْثٌ لها على الرِّضا بما قُسِم له ، وقُضِىَ عليه .

٥٨٠

وقالت وَجِيهَةُ بنت أَوْسٍ الضَّبِّيَّة :

١ – وعاذِلةٍ تَغْدُو علىَّ تَلُومُنِي على الشَّوْقِ لم تَمْحُ الصَّبابةَ مِن قَلْبِي (١)

٢ – فما لِيَ إنْ أَحْبَبْتُ أرضَ عَشِيرتى وأبغَضْتُ طَرْفاءَ القُصَيْبَةِ مِن ذَنْبِ (٢)

تقول : رُبَّ لائمةٍ هَمُّها مقصورٌ على لومى وعَتْبى ، فيما أهواه وأميلُ إليه ، وأعِد نفسى به فتتشوَّقُه (٣) ، فلا يؤدِّى عَتْبُها إلى طائلٍ لها ، لأنَّ تَنَصُّحَها مردود ، ووعظَها مدفوع ؛ ولا إلى طائل لى ، إذ كان لا تَزداد الصَّبابةُ فى قلبي إلا تمكّناً وثباتاً ، ولا الاشتياق اللازم لى إلاّ ازدياداً ودواماً ؛ وأنا إذا أحببتُ أرضَ عشيرتى ورهطى ، ووطنَ أحِبّتى وأهلى ، ومَسْقَط رأسى ، وحيثُ حلَّ الشَّبابُ تميمتى ، وأبغضتُ القُصيبة مَنبِتَ الطَّرْفاء ، أرضاً لم أقضِ مأْرُبَةً فيها ، ولا أوجَبْتُ مذَمَّةً لها ، فلا ذنبَ لى أُلامُ فيه ، ولا جريرةَ مكتَسَبَةً فأُعْتَبَ عليها . وقوله « من ذَنْبِ » فى موضع الرَّفع ، لأنَّه اسمُ ما لى ، وجواب الجزاء من قوله

---

(١) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى (القصيبة) ، والبيت الأول برواية : وعاذلة هبت بليل تلومنى » .

(٢) القصيبة : موضع بين المدينة وخيبر .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فتتشوفه » . يقال : تشوف إلى الشيء ، أى تطلع ، وتشوق إلى الشيء : اشتاق .

« إن أَحببْتُ أرضَ عشيرتى » فى قوله « مالى من ذنب » ، وجواب رُبَّ فى قوله « لم تَمحُ الصبابةَ » .

٣ — فَلَوْ أنَّ رِيحاً أَبْلَغَتْ وَحْىَ مُرسِلٍ حَفِيٍّ ، لَنَاجَيْتُ الجَنُوبَ على النَّقْبِ
٤ — فَقُلْتُ لَهَا أدِّى إليهِمْ تَحِيَّتِى ولا تَخْلِطِيها ، طَالَ سَعْدُكِ ، بالتُّرْبِ
٥ — فإنِّى إِذَا هَبَّتْ شَمَالاً سَأَلْتُها هَلِ ازْدادَ صَدَّاحُ النُّمَيرَةِ مِنْ قُرْبِ

الوَحْى : مصدر وَحَيْتُ لك بخير، أى أَخبرت ؛ ويستعمل أَوْحَى ووَحَى فى معنى البَعث والإلهام . والإيحاء : الإيماء والإشارة . فيقول : لو أنّ ريحاً أدَّت خَبَرَ مُرْسِلٍ ، أو بَعْثَ مُلحٍّ مُنْفِذ لسارَرْتُ ريحَ الجَنوب على الطَّريق — والحَفِىُّ يكون المُلحّ ، ويكون اللَّطيفَ ، ومصدره الحِفَاية . والنَّقْب: الطَّريق فى الجَبَل — ولَقُلْتُ : يا ريحُ بلِّغيهم تحيَّتِى ، وصُونيها عن الإذالة ، وخالِطِيها بالتراب ، أطالَ الله سعادتك . وقوله «طال سَعدُكِ» دعاء لها ، وهو من الاعتراضات المستحسَنة ، ومثله قولُ الآخر :

فَمَا مَكُثْنَا دامَ الجميلُ عليكما بِثَهْلانَ إلاَّ أن تُزَمَّ الأباعِرُ[(١)]

وقول الآخر[(٢)] :

إنَّ الثَّمانينَ وبُلِّغْتَهَا قد أحوجَتْ سَمْعِى إلى تَرْجُمانْ

وقوله : فإنِّى إذا هَبَّتِ الرِّيح شَمَالاً ، انتصابه على الحال . وسَاغَ ذلك فيه لكونه صفةً لا اسماً . وعلى هذا الجَنُوب والقَبُول والدَّبور ، يجوز فى جميعها أنْ تقع أحوالاً لكونها صفاتٍ . وكأنَّ الجَنُوب كانت تَهُبُّ من نحو أرضِه مستقبِلةً لديار أحبَّته ، فلذلك جعلها رسولَه . وكانت الشَّمالُ تَهبُّ من ناحيةِ أرض حبيبه

(١) ل : « فما مكثها » . وعلماء البديع يروونه : « دام الجمال عليكما » ويجعلون فى البيت جناسا معنوياً بين الجمال بفتح الجيم وبين « الأباعر » لأن الأباعر جمال بكسر الجيم . فعدل قائل البيت ، وهو امرأة من بنى عقيل ، عن الجناس اللفظى إلى الجناس المعنوى .
(٢) هو عوف بن محلم الخزاعى . من قصيدة فى أمالى القالى (١ : ٥٠ — ٥١) .

مستقبلةً بلادَه ، فلذلك زعمَ أنَّه يسائلها عما استعجَمَ عليه من أخبارهم .

وقال ابن الأعرابىّ : مَهَبُّ الجَنوب يَمَانٍ من قِبَل اليمن ، وقلَّما تَسْرِى باللَّيل ، وهى مباركةٌ . والشمالُ شآميَةٌ ، فهى أكثر الرِّياح هبوبا ، وهى صاحبة الشِّتاء .

و « صَدَّاحُ النُّمَيْرَة » الصَّدْح : الصَّوت [1] ، يقال : صَدَحَ الدِّيك والغُرابُ ، إذا صَوَّتا . ويَعنِى جلَبةَ الصَّوتِ ونِداء داعِيهم . والمُنادِى بالرَّحيل فيهم كأنَّه ينتظرُهم لحضورِ وقت انتجاعهم ونَهضَاتهم ، وكان يتعرَّف ذلك ليستبْشِر [2] به .

٥٨١

وقال مِرْداس بن هَمَّاسٍ الطائى [3]

١ — هَوِيتُكِ حتَّى كادَ يقتُلُنِى الهَوَى ... وزُرْتُكِ حتَّى لَامَنِى كُلُّ صاحبِ

٢ — وحَتَّى رأى مِنِّى أدَانِيكِ رِقَّةً ... عَلَيْكِ وَلَوْلَا أنتِ ما لَانَ جَانِبِى [4]

٣ — ألَا حَبَّذَا لَوْمَا الحياءُ ورُبَّمَا ... مَنَحْتُ الهوَى مَا ليسَ بالمُتَقَارِبِ [5]

٤ — بأهْلِى ظِبَاءٌ مِنْ رَبيعةِ عامرٍ ... عِذَابُ الثَّنَايَا مُشْرِقَاتُ الحَقَائبِ

يقول : بلغتُ الغاية القصوى فى كلِّ ما كان فيكِ ولكِ ، فحمَّلتُ نفسى من

(١) التبريزى : « وقيل المراد بصداح النميرة الديك ، وقيل : أهلها ، وقيل : حادى إبلها ، وقيل : صداح النميرة موضع » .

(٢) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : « وكانت تتعرف ذلك لتستبشر به » . وفى الأصل : « ليستشير به » تحريف .

(٣) وكذا فى ل . وعند التبريزى : « مرداس بن همام الطائى » ، وفى معجم المرزبانى ٤٧٤ : « مرار بن مياس الطائى » ، وأنشد الأبيات ١ ، ٢ ، ٤ . وروى التبريزى عن أبى العلاء أن الأبيات نسبت إلى « مرار بن هماس » .

(٤) التبريزى والمرزبانى : « رقة عليهم » ، وأشير فى هامش ل إلى رواية التبريزى فى إحدى النسخ .

(٥) التبريزى : « ويروى : من ليس بالمتقارب » .

أعباء الهوَى وطلب التّناهى فيه ما كاد يأتى علىّ ، أعُدُّ ذلك واجباً لكِ أؤدّيه ، وفَرْضاً من حقوقكِ أقيمه وآتيه ، ثم أدْمَنْتُ الزِّيارة خادماً ، وتردَّدت فى التعرُّف والاستعطاف متقرِّباً ، حتَّى توجَّهَ إلىّ اللَّومُ من أصحابى ، واستسرفَنى فى البِرّ جيرتى وأوِدَّائى ، وإلى أنْ ظَهر لأقاربِك شفقتى عليكِ ورِقَّتى ، ووضَح ما اشتهر به أمرى عندهم وعُرِف . ولولا أنتِ لبقيتُ على ما وُجدت عليه قديماً مِن صِيانة النَّفس وإكرامها وتبعيدها[1] عن المراكب الشَّائنة المؤدية إلى ابتذالها ، فلم يَلِنْ جانبى ، ولم يَزُلْ جِماحِى وصعوبتى .

وقوله « ألَا حَبَّذَا » المحبوبُ محذوفٌ ، كما حُذِف المحمود فى قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أَوّابٌ ﴾ ، والمراد حَبِيبٌ إلىّ التّهتُّكُ فى الهوى ، وتجاوُز المألوف فيه إلى المستشنَع القبيح ، لولا الحَياء ، على أنّى ربَّما مَنَحْتُ هواىَ ما لا مَطْمَعَ فى بلوغه ودنُوّه . وهذا كما قال أبو تمّام :

غَالِى الهوَى ، مِمَّا يُرَقّصُ هَامَتِى أُرْوِيّةُ الشَّعَفِ التى لم تُسْهِلِ[2]

وقوله « بأهلى ظِباء » رجوعٌ منه إلى استلذاذ الهوَى وإظهار التجلُّدِ فيه ، فيقول : أَفدِى بأهلى نساءً من ربيعةِ عامرٍ ، عذابَ المَباسِمِ ، حِسَانَ الثغور والمَضاحك ، عظيماتِ الأكفال ، مُشْرِفَاتِ الأرداف .

والحقائب : جمع الحقيبة ، وهى عجزُ الرّجل والمرأة جميعا . ويقال : امرأةٌ نُفُجُ الحَقِيبة . والقَصْدُ بالتَّفدية فى قوله « بأهلى ظِباء » إلى صاحبته ، وإنْ كان لفظه عامًّا لها ولغيرها .

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وتبعدها » .

(٢) رواية الديوان ٢٣٣ : « غالى الهوى مما تعذب مهجتى » ، أى من أجل تعذيب أروية الشعف لمهجتى . والشعف : جمع شعفة ، وهى رءوس الجبال . لم تسهل : لم تصر إلى السهل .

٥٨٢

وقال بعضُ بنِى أَسَد[1] :

١ـ تَبِعْتُ الهَوَى يا طَيْبُ حَتَّى كأَنَّنِى ... مِنَ أَجْلِكِ مَضْرُوسُ الجَرِيرِ قَؤُودُ
٢ـ تَعَجْرَفَ دَهْرًا ثُمَّ طاوَعَ أَهلَهُ ... فَصَرَّفَهُ الرُّوَّاضُ حَيْثُ تُرِيدُ
٣ـ وإِنَّ ذِيادَ الحُبِّ عَنْكِ وقد بَدَتْ ... لِعَيْنِىَ آياتُ الهَوَى لَشَدِيدُ

يقول : أعطيتُ الهوى مَقَادَتِي فيك ، فتبعْتُه حيث جرَّنى ، لا أتمنَّعُ عليه ، ولا أَطلُب معدولاً إليه ، حتَّى صرتُ كأنَّى بعيرٌ قد عضَّهُ الجريرُ فَلاَنَ وانقادَ . والجريرُ : حَبْل مضفور من أَدَم . والضَّرْسُ : العَضُّ . والقَؤود : فعول فى معنى مفعول ، فهو كالقَتوبِ والرَّكوب ، والهمزة فيه بَدَلٌ من العين .

وقوله « تَعَجْرَفَ » ، أى أخذ غيرَ القَصْد زماناً ، لأنَّه كان صَعْبًا ثم تذَلَّلَ ودخل فى طاعة مداوِرِه ، وهذا مثلٌ ضَرَبَهُ للنَّفس فى ابتداء هواه ، وأنَّه تأبَّى عليه مُدَّة ، فتردَّدَ بين جِـدِّه وهَزْلِه ، واقتساره ولَيانِه ، حتَّى رَكِبَ منه كلَّ مَرْكَبٍ ، واستوطَأَ ظَهْرَهُ كلَّ استيطاء . فهذا معنى « وصَرَّفَه الرُّوَّاضُ حيثُ تُرِيدُ » .

وقوله « وإنَّ ذِيَادَ الحُبِّ عنك » ، يريد أنَّ دِفاع حُبِّه عنها وصَرْفَه عَسِرٌ صَعْبٌ وقد بَدَتْ آيات الهوى . والمعنى أنَّ للهَوَى عَلاَمَاتٍ حيثُ مالت بالإنسان ذهَبَ معها ، فيَعُدُّ الغَيَّ رُشْدًا ، ويَرَى التَّهالُكَ فيه حياةً ، ولو رام دَفْعَ حُبِّه عنه ، ولَىَّ نفسِه دونَه ، لتعذَّرَ وامتنع .

٤ـ وما كُلُّ ما فِى النَّفْسِ لِلنَّاسِ مُظْهَرٌ ... ولا كُلُّ ما لاَ تَستَطِيعُ تَذُودُ[2]

---

(١) الأبيات رويت فى معجم البلدان (غضور) ، وهى بلدة فيما بين المدينة إلى بلاد خزاعة .

(٢) التبريزى : « وما كل ما فى النفس لى منك مظهر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى . وروى التبريزى أيضاً : « ما لا نستطيع نذود » .

٥– وإنّى لأرجو الوصلَ منكِ كما رجا ... صَدِى الجَوْفِ مُرْتاداً كُداهُ صَلُودُ

يقول : ليس جميعُ ما يشتمل عليه صدرى ، ويشقّ فى الهوَى بتحمُّله جوانحى ، ممكناً إظهارُه ؛ ولا كلُّ ما تطيقُه النّفس ، أو لا تنهض به ، يسهُل دَفْعه ؛ فأنا أسيرُ الهوَى وتَبِيعُه ، متردِّد فى بَلواه ، لا أجِدُ منه مَخْلَصا ، ولا أستطيع عنه ملجأً ومَنَاصًا .

وقوله « وإنّى لأرجُو الوصْلَ منكِ » يقول : وعَلَى ما أصفُه من حالى فيكِ أرجو وِصالكِ رجاءَ إنسانٍ شديد العطَش ، يطلبُ الماء من موضِعٍ حَفَرَهُ فأَكْدَى ، أى بلغ كُدْيَتَهُ ، وهى حَجَرٌ يعرِض فى البئر عند الاحتفار فيمتنع قطعُه بالمعاوِل ، وجمعُها كُدًى . وهذا مَثَلٌ ، والمعنى أنّ رجائى فى خَيْرِكِ مَعَ حاجتى رجاء رَجُلٍ عطشانَ يطلُب الماء ويرجوه من بئرٍ هكذا . والصَّلود : اليابس ، ويقال للبخيل : أَصْلَدَ وصَلْدٌ وصَلُود ، تشبيهاً به ، وكذلك زَنْدٌ صَلُودٌ إذا لم يُورِ . والمرتاد : الطَّالب ، ومفعوله محذوف ، ويجوز أن يُعْنَى بالمرتاد المطلوب ، ويراد به الماء ، وقد أقام الصفة مقامَ الموصوف ، وعلى الوجه الأوّل يَنتصب على الحال .

٦– وكيفَ طِلاَبِى وَصْلَ مَنْ لَوْ سألْتُه ... قَذَى العَينِ لم يُطلِبْ وذَاكَ زَهِيدُ
٧– ومَنْ لَوْ رَأَى نَفْسِى تَسِيلُ لقَالَ لِى ... أَرَاكَ صَحِيحاً والفُؤادُ جَلِيــدُ

يصف بُخْلَها وتَمنُّعَها فيقول : كيف أستجيزُ طلبَ وصالِ إنسانٍ لو سألتُه إزالة قَذَى العينِ لم يُجْبِنى إليه ، وذاك قليل فيما يُسأل ويُلتمَس . فحذَفَ المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، كما قال الآخر[1] :

يا صَخْرُ وَرَّادَ ماءٍ قد تناذَرَهُ ... أهلُ الموارِدِ ما فى وِرْدِهِ عارُ

---

(١) هو الخنساء من قصيدة فى ديوانها . وانظر الكامل ٧٣٧ ليبسك .

يريدُ : ما فى ترك وُرودِه عارٌ ، فحذَف المضاف . ويجوز أن يريد لو سألتُه ألاَّ يُقذِىَ عينى ، كما تقول : سألت فلاناً ضربَ فلان ، أى استوهبته ضربَه لم يُطلِبْنى . ويجوز أن يريد من لو سألته تافِهاً لا خَطَر له ولا اعتدادَ به ، فضَرَبَ المثلَ بالقذَى ، والمعنى : لو سألته ما يُقذِى العين .

وقوله « مَنْ لو رأى نفسى » عَطَفَهُ على مَن لو سألتُه ، يريد : ولو رأى دَمِى يَسيلُ لقال لِقسوة قلبه علىّ : أُراكَ صحيحا لا داءَ بِكَ ولا آفة ، وقلبُه جليدٌ ، أى يرِقُّ لى ولا يرحمنى ، والمراد على هذا بالقلب قلبُ المرأة ، ويكون الواو فى « والفؤاد » واو الحال ، ويجوز أن يكون من تمام الحكاية ومن كلام المرأة ، والمعنى أنَّها تقول مع ما تَرَى من سَيَلان دمى : أرى نفسَك صحيحة ، وقلبَك ثابتاً ماضيا ، لا آفة بك ولا غائلة .

٨ — فيَأَيُّها الرِّيمُ الْمُحَلَّى لَبانُهُ بكَرْمَيْنِ كَرْمَىْ فِضَّةٍ وفَرِيدُ
٩ — أَجِدِّىَ لاأُمْسِى بِرَمَّان خالِيًا وغَضْوَرَ إِلَّا قِيلَ أَينَ تُرِيدُ[1]

كأنَّه استعطفَها وذَكَّرها اشتهارَه بها ، وتوجُّهَ التُّهَم إليه بسببها ، حتَّى ضاقَ بهذين الموضعين مَجالُه ، وتعسَّر عليه وإن تفرَّد فيهما إمساؤه .

والرِّئْمُ : الظَّبى الخالصُ البياض . والمُحَلَّى لَبانُه ، أى ترائبُه . بكَرْمَيْنِ ، أى بقِلادتين . والفَريد : الدُّرّ . واللَّبانُ : الصَّدْرُ . وقوله « وفريدُ » إن جعلتَه معطوفاً على فضةٍ يكون إقواءً ، ولك أن ترفعَه بالابتداء والخبرُ محذوف ، كأنَّه قال : وفريدٌ فيهما . ويُروَى : « كَرْمَا فضةٍ وفريدُ » ، فينعطِف الفريد على « كَرْمَا » ويكون الكلام على الاستئناف لا الإبدال ، كأنَّه قال : هما كَرْمَا فضَّةٍ وفريدٌ . وهذا أصحُّ وأجود .

(١) التبريزى : « لا أمشى » ، ثم قال : « ويروى : لا أمسى » .

وقوله « أجِدَّىَ » يريد : أعلى جِدٍّ منِّى هذا الأمر ، وهو أنِّى لا أمْسِى منفرِداً بنفسى بَرِمَّانَ وغَضْوَرَ إلاَّ قيلَ : أينَ مُرادُك . و « أجِدَّىَ » فى موضع المصدر ، والفعل العامل فيه محذوف ، وذكَر الإمساءَ والمراد الإمساء والإصباحُ جميعاً ، لـكنَّه اكتفى بذِكر أحدِهما لعلْم النّاسِ بأنّ حالَهُ فيما ذكره يستوى فيه اللَّيلِ والنَّهار .

٥٨٣

وقال رجلٌ من بنى الحارث :

١ ـ مُنًى إنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أحسَنَ المُنَى وإلَّا فَقَدْ عِشْنَا بها زَمَنًا رَغْدَا

٢ ـ أمَانِيَّ من سُعْدَى حِسَانًا كأنَّمَا سَقَتْكَ بها سُعْدَى على ظَمَإٍ بَرْدَا[1]

المُنَى : جمع مُنْيَةٍ ، وموضعها من الإعراب رَفْعٌ على أنَّه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنه قال : هى مُنًى . فيقول : هذه الخصال التى نَعِدُ بها أنفُسَنا فى هذه المرأة وتَعِدُنا بها ، لا تخلو من أن تكون صادقةً أو كاذبةً ؛ فإنْ جاءت صادقةً مُحَقَّقَةً فهى أحسنُ الأمانى وأوفقُها للنَّاس ، وإنْ كانَت كاذبةً فإنَّا نعيش بذِكْرِها منتظرين لها زمناً ممتدًّا ، وعيشاً واسِعاً رافها .

وقوله « أمَانِيَّ من سُعْدَى » نَصْبٌ بإضمار فعل ، كأنَّه قال : أذكُرُ أمانِيَّ من سُعْدَى . وكَرَّرَ لفظ سُعْدَى تلذُّذًا لاسمِها ، وقد تقدَّم القولُ فى أنَّ الأعلامَ وأسماءَ الأجناس يُفعَل بها ذلك . والمعنى : أذكرُ أمانِيَّ من هذه المرأة جميلةً تُزَجِّى أوقاتَنا ، وكأنَّ موقعها من قلوبنا موقعُ الماء البارد من ذِى الغُلَّة الصَّادِى . وقوله « زَمَنًا رَغْدَا » الرَّغْدُ : السَّعَة فى العيش . ويقال : عيش راغِدٌ ورغِيدٌ . وانتصاب رغْداً على أنَّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنَّه قال : عِشْنَا عَيْشًا رَغْدًا بها زمناً .

(١) التبريزى : « من سعدى رواء » ، مع رفع « أمانى » و « رواء » .

ولا يمتنع أن يكون صفةً لقوله زَمَناً ، كأنه قال عَيْشًا واسِعاً . وقوله « على ظمإٍ بَرْدَا » يريد ماء ذا برد .

٥٨٤

آخر (١) :

١— وخُبِّرتُ سَوداءَ القلوبِ مَرِيضةً فأقبلْتُ مِنْ أهلِي بِمِصْرَ أعودُها

٢— فواللهِ ما أدرِي إذا أنا جِئْتُها أأُبْرِئُها مِنْ دائِها أم أزيدُها

قوله « خُبِّرْتُ » تتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل ، ومريضةً للمفعول الثالث . وقوله « أعودُها » في موضع الحال من أقبَلْتُ . ويجوز أن يريد بقوله « سوداء القُلوب » أنَّها تَحُلُّ من القُلوب محلَّ السُّويداء منه ، كأنَّ القلوبَ على اختلافها

(١) هو العوام بن عقبة بن كعب بن زهير . وكان من سبب الشعر ما روى التبريزى عن أبي محمد الأعرابي أن صواب رواية البيت الأول : « سوداء الغميم » ، وأن سوداء الغميم امرأة من بنى عبد الله بن غطفان ، اسمها ليلى ولقبها سوداء ، وكانت تنزل الغميم من بلاد غطفان وكان عقبة بن كعب بن زهير ينسب بها ، ثم علقها بعده ابنه العوام بن عقبة وكلف بها ، وكانت تجد به كذلك ، فخرج إلى مصر في ميرة فبلغه أنها مريضة ، فترك ميرته وكرنحوها وأنشأ يقول :

نبيت سوداء الغميم مريضة فأقبلت من مصر إليها أعودها
فياليت شعرى هل تغير بعدنا ملاحة عينى أم يحيى وجيدها
وهل أخلقت أثوابها بعد جـدة ألا حبـذا أخلاقها وجديدها
ولم يبق يا سوداء شيء أحبه وإن بقيت أعلام أرض وبيدها
فوالله ما أدرى إذا أنا جئتهـا أأبرئها من دائها أم أزيدها
نظرت إليها نظرة ما تسرنى بها حمر أنعام البلاد وسودها
ولو أن ما أبقيت منى معلق بعود ثمام ما تأود عودها

فلم يزل يلطف حتى رأته ورآها ، فأومأت إليه أن ما جاء بك ؟ فقال : جئت عائداً حين علمت علتك . فأشارت إليه أن ارجع فإنى فى عافية . فرجع لميرته واستعز بها المرض ، فجعلت تتوله إليه حتى ماتت . فبلغه الخبر فقال :

سقى جـدثا بين الغميم وزلفة أحم الذرى واهى العزالى مطيرها

وفيها يقول :

وإن تلك سوداء الدشية فارقت فقد مات ملح الغانيات ونورها

تميل إليها وتنطوى على حبِّها . ويجوز أن يكون كان اسمها سوداء وأضافها إلى القُلوب ، كما قال ابن الدُّمَيْنَة :

قِفِي يا أُمَيْمَ القَلْبِ نَقْضِ تحِيَّـةً ونشكو الهوى ثمَّ افْعَلِي ما بَدَالَكِ

ويجوز أن يكون أراد أنَّها قاسية القلب سوداؤه ، فجمعَ القلبَ بما حوله فقال القلوب ، أو لأنَّها كأنَّ لها مع كلِّ مُتيَّم بها قلباً ، فقال القُلوب على ذلك . فيقول : نُبِّيت أنَّها تألَّمتْ لعارض عِلَةٍ ، فأقبلتُ مِن أهلى بمصرَ عائدًا لها ، ووالله أحلِفُ ما أدرى إذا حَصَلْتُ عِنْدَها أأصبر شِفاءً مما بها ، أو أزيدُ فى شكواها لتبرُّمِها بى ؛ كأنَّه ظن بها تنكُّرًا وحُؤُولًا عن العهد . وقوله « أم أزيدها » يريد : أم أزيدها داءً ، فحذف لأنَّ المرادَ مفهوم .

٥٨٥

وقال آخر :

١— إنِّى وإيَّاكِ كالصَّادِى رَأَى نَهَلاً ودُونَهُ هُوَّةٌ يَخْشَى بهـا التَّلَفا

٢— رأى بِعَيْنَيْهِ ماءً عَزَّ مَوْرِدُهُ وليسَ يَمْلِكُ دُونَ المَاءِ مُنْصَرَفا

يقول : مَثَلى ومَثَلُك فى مِسَاسِ حاجتى إليكِ ، وتناهِى رغبتى فى وَصْلِكِ والنَّيْل منك ، وفى احتجازِك عنِّى وامتناعِك منِّى ، مَثَلُ رَجُلٍ عطشانَ شاهد ماءً ، وقد حال بينه وبين وروده وَهْدَةٌ عميقَةٌ يَخشى من اقتحامِها الهلاك ، فالماء بمرأًى منه ، وقد غلَبَه المانع عنه ، ليس يقدرُ على انصرافه من دونه ، لغلبةِ العطَش عليه ، وشِدَّة الفاقة إليه ، فكذلك أنا وأنتِ . وقوله « رَأَى نَهَلاً » فى موضع الحال ، وقد مقدَّرةٌ فى الكلام ، لأنَّ رأى بناءٌ للماضى . والنَّهَلُ والمَنْهَل : الماء ، وموضع الماء . وقوله « ودونَه هُوَّةٌ » فى موضع الصِّفة للنَّهَل ، كما أنَّ عزَّ موردُه فى موضع الصِّفة للماء . وإنَّما قال « رأى بعينيه » فذكَرَ

العينَ تأكيداً للرُّؤية . ومثله قوله تعالى : ﴿ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيْه﴾ وما أشبهه .

٥٨٦

وقال آخر :

١ ــ ألَا بأَبِينـــا جَعْفَرٌ وبأُمِّنَا نَقُولُ إذَا الهَيْجَاءُ سَارَ لواؤُها

٢ ــ ولاَ عَيْبَ فيه غيْرَ ماخَوْفِ قَومِهِ على نَفْسِهِ ألَّا يطولَ بقـــاؤها

قوله « ألاَ بأبينا » ، الجملة فى موضع المفعول لقوله نقول . والباء من « بأبينا» تعلَّقَ بفعل مضمَر ، والمراد : نفدِى بأبينا وأمَّهاتنا جعفراً إذا سار الخميسُ وحَمل لواءَ الجيش قاصِدًا إلى الهَيجاء . وأضافَ اللِّواء إلى ضمير الهيجاء لحاجتها إليه .

وقوله « ولا عَيْبَ فيه » يريدُ أنَّ جعفراً برىءٌ من العُيوب إلا من مخافةِ قومِهِ على نفسه ألَّا تطول مُدَّتُها ، ولا يتنفَّس مَهَلُها . وليس ذلك بعيب ، وإنَّما يُشفِقون ممَّا ذَكرَ تنافُساً فى حياتِه ، ورغبةً فى الانتفاع به وبمكانه ، لكنَّه أراد أنَّ مَنْ ذلك مَعِيبُه ، فكيف يكون مَرضِيُّه .

فإنْ قيل : لِمَ أدخَلَ هذا فى جملة النَّسيب وليس هو منه ؟ قلتَ : لطافةُ لفظِه وحلاوةُ معناه ، ومناسبتُه بذلك للنَّسيب ، أدخلَتْهُ فى هذا الباب . وقد فَعَل لمثل هذه العلَّة مثلَ هذا فيما تقدَّم ، ونبَّهْنا عليه(١) .

٥٨٧

وقال آخر :

١ ــ وإنِّى عَلَى هِجْرَانِ بَيْتِكِ كالَّذِى رَأَى نَهَلًا رِيًّا ولَيْسَ بِناهِلِ

٢ ــ يَرَى بَرْدَ ماءٍ ذِيدَ عَنْهُ ورَوضَةً بَرُودَ الضُّحَى فَيْنَانَةً بالأَصائلِ

يقول : إنِّى على ما أجرِى عليه من تعزُّلى لبيتك ، ومهاجرَتى لفِنائك ، ولما

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٦٧ .

أتَّقي به من مكاشَفة الرُّقباء على ترصُّدهم بالمكروه لى ولك ، واختلافهم فى التقاط حديثى وحديثِك ، لكالعطشان وقد رأى ماء مُرْوِيًا كثيراً ، بارداً شَهِيًّا ، فمُنِع منه ، وشاقه(١) روضةٌ باردةَ الظِّلِّ عندالضَّحاء ، كثيرةَ الأفنان والغُصون، إذا هَبّت رياح العِشاء تحيل بينه وبينها . والنَّهَلُ : الماء . والنَّاهِل: الرَّيّان هاهنا ، ويكون العطشانَ أيضاً فى غير هذا . وذِيدَ عنه ، أى مُنِع منه . والفينانة : الكثيرة الأفنان ؛ وهو فَيْعَالٌ . والفَنَن : الغُصن . والأصائل : العشيّات .

وقوله « يرى بَرْدَ ماء » ، يقول : يرى ماءً باردا ، لأنَّ البَرد لا يُدرَك بالعَين . وإن شئتَ قلتَ : جعلَه للمبالغة فى الوصف كالمحسوس .

٥٨٨

وقال آخر :

١ ـــ فَمُرَّا على أَهْلِ الغَضَى إنَّ بالغَضَى   رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدا(٢)

٢ ـــ أَكادُ غَداةَ الجِزْعِ أُبْدِى صَبابَةً   وقَدْ كُنْتُ غَلَّابَ الهَوَى ماضِياً جَلْدا

يخاطب صاحبَينِ له يسألُهما أن يَجُوزا بأهل الغضَى ، لأنَّ فيها نساءً يترقرقُ ماء الشَّباب فيهن ، لا زَرَقَ فى عيونهنّ ولا رَمَد . ويقال : فَتًى رَقْرَاقٌ ، وفتاةٌ رقراقَةٌ ، والمراد به ابتداء الشَّباب. وذكر بعضُهم أنَّ المراد بالرَّقارق مياهٌ رقيقة ، وأنَّ الزُّرْقَ الصَّافية ، والرُّمْد المتغيِّرة الألوان ، والأوّل أقرب ، لأنَّ الرَّمَد لا يُستعمل إلَّا فى الحاسَّةِ ، ولأنَّ الفائدة فى كون مياهٍ بالغضَى على هذه الصِّفة قليلةٌ . وقَصْدُ الشَّاعر فيما كَلَّفَ صاحِبَيْهِ أن يجدِّدَا عَهْدًا بأهل الغضَى ، ويتعرَّفا من أخبار محبوبته ، ما تسكُن نفسه إليه . وفى قوله « إنَّ بالغضَى رقارق » ، إذا جعلتَ الرَّقارِق نساءً ، نَسِيبٌ بها وبصواحبها : وقوله « لا زُرقَ العُيُون » ،

(١) كذا فى النسختين ، ويعنى بها المقاربة . (٢) ل والتبريزى : « مرا » ، بالخرم .

ثبتت لهنّ كَحَلَ العيون وسلامتها من الآفات ، بنفى الأضداد عنها ، وهذا كتحديد الشَّىء بالسَّلْب .

وقولُهُ « أكاد غَدَاةَ الجِزْع » يَصِفُ ما نالَه غداةَ يومِ البَيْن ، وأنَّه مع ثباته فى الشَّدائد ، وصَبرِه على النَّوائب ، وحُسن تماسُكِهِ عن جوالِبِ الهَوَى ، يفتضحُ ويظهرُ عليه من الاكتئاب والوَجد ما يُستَدَلّ به على مستكِنَّات صبابَتِه ، وخفِيَّات أحوالِه .

٣ — فَللهِ دَرِّى أىَّ نَظْرَةِ ذِى هَوًى نَظَرْتُ وأيدِى العِيسِ قد نَكَّبتْ رَقْدَا[١]

٤ — يُقَرِّبْنَ ما قُدَّامَنَا مِنْ تَنُوفَةٍ ويَزْدَدْنَ مِمَّنْ خَلْفَهُنَّ بِنَا بُعْدَا

قوله «للهِ دَرِّى» يجرى مجرى: لله خيرى . ومن عادتهم أن ينسُبوا ما يُعجبهم إلى الله تعالى ذكره ، وإنْ كانت الأشياء كلُّها فى الحقيقة له . وقد فارقَ دَرِّى بالاستعمال على هذا الوجه المصادرَ ، فلا يَتعلَّق به شىء من متعلِّقاتها . وقوله « أىَّ نَظْرَةِ ذِى هَوًى » تعجُّب ، وانتصَبَ أىَّ بنظرتُ . وكأنَّه لمَّا صَبرَ عندما رأى من آيات الفِراق ولواذع البَين ، وصار بمرأًى منه ومَسمَع ، من التَّهيُّؤ للارتحال ، ومن تدبير عوارض السَّفَر ، عَدَّ ذلك من نظَرِه وجلَدِه شيئاً عجيبا . ومعنى « نَكَّبَتْ رَقْدَا » وهو موضع كان يجمعُهم . ويجوز أن يريدَ بذلك نظَرَهُ فى إثْرِ الظَّعائن تحسُّراً وصاحبتُه معهنّ ، كما قال الآخر[٢] :

بعينىَّ ظُعْنُ الحَىِّ لما تَحَمَّلُوا لَدَى جانبِ الأفلاجِ مِن جَنْبِ تَيمَرا

وقوله[٣] :

ولما بَدَا حَوْرَانُ فى الآلِ دُونَهَا نَظرتَ فلم تَنظُرْ بعينيكَ مَنظرا[٤]

---

(١) التبريزى : « أى نظرة ناظر » ، وأشار إلى الرواية الأخرى .

(٢) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٠ .

(٣) هو امرؤ القيس . ديوانه ٩٥ .

(٤) يروى أيضاً : « والآن دونه » .

ويكون على هذا قوله « تَنَكَّبتْ رَقْدًا » معناه انحرفن عنه وتركْنَه ، لكونه مَفرَق الطُّرق .

وقوله « يقرّبنَ ما قُدَّامَنا من تنوفةٍ » وصفَ العِيسَ بالسُّرعة . والتُّنُوفة : المَفَازة . والمراد أنَّ ما يقطعُه غيرُها في يومين تقطعُها هذه في يوم . والكلامُ تحسُّرٌ وتوجُّع ، لتباعُدِه عمَّن هواهُ معهم . ومثله قول الآخر :

إذا نحنُ قلنا وردهُنَّ ضُحَى غَدٍ تَمَطَّيْنَ حتَّى وِرْدُهُنَّ طُرُوقُ

وتعلّق الباء من قوله « بنا » بقوله يَزْددن . وبعدًا ، انتصبَ على التَّمييز .

٥٨٩

وقال ابنُ هَرِمٍ الطَّائي[1] :

١ ــ إنِّى عَلَى طُولِ التَّجنُّبِ والنَّوَى وَوَاشٍ أتاهَا بى وواشٍ بها عِنْدِى[2]

٢ ــ لأُحْسِنُ رَمَّ الوَصْلِ مِنْ أمِّ جَعفرٍ بِحُذٍّ القَوافِى والمُنَوَّقةِ الجُرْدِ

يصفُ حُسنَ تأتِّيه في عِمارة الهوى والحبِّ ، وبلوغَ لُطفِه في تَلافِي ما يخاف انقطاعَه من علائق الوصل ، وانتكاثَه من وثائق العهد ، لوِشاية واشٍ ، أو تضريب مُفْسِدٍ ، أو قَدْح ساعٍ بالنَّمائم متزيِّدٍ . فيقول : إنِّي على مُطاوَلة البِعاد ، ومعاونةِ الوُشاة بالتَّحريش والإفساد ، لأُحسِنُ عمارةَ الحال بيني وبينها ، ورمَّ ما يَسْتَرِمُّ من جوانب وِصالها ، بما أنظِمُهُ من الشِّعر ، وأُحكِمُهُ من عُقَد السِّحر في رَسائلي ، وأُرَدِّدُهُ من الرُّسُل المتوجِّهين إليها على رواحِلي . وقيل في الحُذّ : إنَّها الأبيات النافذة ، وقيل : هى الخفيفة الوزْن ، اللَّطيفة السَّبْك . وقيل : إنَّها المستقِلَّة بأنفسِها ، ويقال : بيتٌ أحَذُّ ، إذا لم يكن مُضَمَّنًا . والمُنَوَّقَة : المرُوضة

(١) التبريزى : « الكلابى » .

(٢) التبريزى : « التجنب والهوى » و « لها عندى » .

المُذَلَّة من النُّوق . كذا قال الخليل . والجُرْد : السِّرَاع . ويقال : نَجَاء أَجْرَدُ . قال الشَّاعر :

* جَذْبَ القَرِينةِ للنَّجَاء الأجْرَدِ [(1)] *

وخبر إنّ فى قوله « لَأُحْسِنُ رَمَّ الوَصلِ » .

٣ـ وأَسْتَخْبِرُ الأَخْبَارَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِها وأَسْأَلُ عَنْهَا الرَّكْبَ عَهْدُهُمُ عَهْدِى

٤ـ فإنْ ذُكِرَتْ فَاضَتْ مِنَ العَيْنِ عَبْرَةٌ عَلَى لِحْيَتِى نَثْرَ الجُمان من العِقْدِ

قوله « وأستخبِرُ الأخبارَ » ، يجوز أن يكون على حذف المُضاف وإقامة المضاف إليه مَقامه . والمراد : وأستخبر ذَوِى الأخبار من نحو أرضها . ويجوز أن يريد أُرجِعُ فيما أعرف من أخبارها فيما بينى وبينَ نفسها حالاً بعد حال ، طالباً لاستخراج زيادةٍ فيها ، ومستمتعاً بما يكون حاصلاً فيها ، فكأنِّى أستخبرُ نفسَ الخبر . وقوله « وأسأل عنها الرَّكبَ عَهْدُهم عَهْدِى » مثله قول الآخر .

* وذِكرُكِ من بينِ الحديثِ أُريدُ *

استحلاءً لاسمها ، وتلذُّذًا بذكرها .

وقوله « فإن ذُكِرَتْ » يقول : وإذا قَرَعَ سمعى ذِكرُها بكيتُ شوقًا إليها ، ووجداً بها ، فسال الدَّمعُ من عينى ، وانتثر ما غَشِىَ لِحيتى منه نَثْرَ الجُمَان من قلادةٍ لم يُتفقَّد نظامُها ، وخانَ سِلْكُها ، وتناثَرَ حبَّاتُها . وانتصب « نَثْر » على المصدر من غير لفظه ، فهو كقولك : تبسَّمَتْ وميضَ البَرْقِ . وقوله « عهدُهم عهدى » ، الجملة فى موضع الحال من أسأل .

---

(١) النجاء : السرعة . والقرينة : الناقة تشد إلى أخرى .

٥٩٠

وقال عمرو بن حكيم (١) :

١ ــ خَلِيلَيَّ أمسَى حُبُّ خَرْقَاءَ عامِدِي ... فَفِي القَلْبِ مِنْهُ وَقْرَةٌ وصُدُوعُ

٢ ــ ولو جاوَرَتْنا العامَ خَرْقاءُ لم نُبَلْ ... على جَدْبِنا ألاَّ يَصُوبَ رَبِيعُ

جعلَ « أمسَى » لاتصال الوقت . وخَرْقَاء : اسم امرأة . وقوله عامِدِي : مُمرِضي ، يقال : أيُّ شيء يَعْمِدُك ، أي يُوجِعك . والوَقْرَةُ : الهَزْمَةُ والأثَرُ . يقال : وُقِرَ الشيء ، إذا جُعِلَ فيه وَقَرَاتٌ . قال الهذليّ (٢) :

* فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالِكَ ضَائعُ (٣) *

يعنى بالبزّ سيفا .

يقول : يا خليليَّ ، إنَّ حبَّ خرقاءَ أمسى يَقْدَحُ في قلبي ، فقد صار فيه من أجله صُدُوعٌ ، وآثارٌ وشقوق ، ولو اتَّفقَ في هذا العام معها اجتماعٌ لم نُبالِ وإن أجْدَبْنَا ألاَّ يَقعَ مطر ؛ إذ كان التبرُّك بها ، والاستسعاد الشَّامِلُ بمكانها ، يقوم مقامَ كلِّ خِصْبٍ . وقوله « لم نُبَلْ » جزمَه مرَّتين لأنَّه كان نُبالِي ، فدخل الجازمُ عليه فحذَفَ له الياء فصار لم نبالِ ، ثم أسكن اللام بعد أن طلبَ تخفيفَه لكثرته في الكلام ، فالتقى ساكنان : الألف واللام ، فحُذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار لم نُبَلْ ، ومثل هذا لا ينقاس . وقوله « على جَدْبِنا » في موضع الحال ، تقديرُه مُجْدِبِين . ويقال : صاب المَطَرُ يَصُوب ، إذا وقع . والرَّبيع :

(١) التبريزى : « عمر بن حكيم » . وفى معجم المرزبانى ٢٤١ : « عمرو بن حكيم ابن معية التيمى ، من ربيعة الجوع ، إسلامى » . وأنشد له البيتين .

(٢) هو قيس بن عيزارة الهذلى . ديوان الهذليين (٣ : ٨٧) . وانظر ما سبق فى ١٤١ ، ٣٩٠ .

(٣) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

المطَار . ويقال : ما باليتُ بكذا وكذا بالةً وبالِيةً . أى لم نُبالِ بأن تنقطع الأمطارُ على ما بنا من جَدْب .

٥٩١

وقال آخر(١) :

١ — ألِمَّا عَلَى الدَّارِ الَّتِي لَوْ وَجَدْتُها بِهَــا أَهْلُهَا ما كانَ وَحْشًا مَقِيلُهَا

٢ — وإِنْ لم يَكُنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ قليـــلاً فإنِّي نافِعٌ لِي قليلُها

يأمُر صاحبَيه بزيارة دار حبيبه ، ولو كان ساعةً . وخصَّص الدار بقوله « التى لو وجدتُها بها أهلها » ، والمعنى التى لو وجدتُها مأهولةً ما كان موضعُها وَحْشًا ، أى خاليا مُوحِشًا ، لكثرة أهلِها وكثرة غواشى النَّعمَ فيها . وفى الحديث . « أنّ قريشاً قالوا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّا لأَكرمُ مُقاماً وأحسنُ مَقِيلاً » ، أى موضعا ، فأنزل الله عزَّ وجلّ : ﴿أصحابُ الجَنَّةِ﴾ — يعنى النَّبيَّ عليه السلام وأصحابَه — ﴿يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ . ويقال : باتَ فلان وَحْشاً ، أى خالى البَطْن ؛ وتوحَّشَ للدَّواء(٢) .

وقوله « وإنْ لم يكنْ إلاَّ مُعَرَّجَ ساعةٍ »(٣) ، يريدُ إلاَّ تعريجَ ساعة، وعَطْفَ ساعةٍ . ولم يرضَ بأن أضافَ المُعَرَّج إلى السَّاعة حتَّى وصفَه بقوله قليلًا ، وهذا على هذا التقدير يكون من الصفات المؤكِّدة ، لا المُفِيدة(٤) ، كما يجىء الحالُ كذلك . ولا يمتنع أن يريد تعريجا [قليلا(٥)] فى ساعةٍ ، فيكونُ الصِّفةُ مفيدة .

(١) قال أبو رياش : « البيت الثانى لذى الرمة فى قصيدته التى أولها :

* أخرقاه للبين استقلت حمولها *

والبيت الثانى بنسبته إلى ذى الرمة فى ديوانه ٥٠٥ وأمالى القالى(٣ : ٢١٦) والتنبيه لابن جنى .

(٢) يراد بالدواء المسهل . وتوحش للدواء ، إذا أخلى معدته ليكون أسهل لخروج الفضول .

(٣) فى الديوان : « فإن لم يكن إلا تعلل ساعة » .

(٤) المفيدة ، بالفاء فى النسختين والتبريزى . (٥) التكملة من ل .

وقوله « فإنّى نافِعٌ لى قليلُها » يجوز أن يرتفع قليلُها بنافِع ، ونافِعٌ خبر إنّ ، كأنّه قال : فإنّى ينفعنى قليلُها . ويجوز أن يكون قليلُها مبتدأ ونافِعٌ خَبَرٌ له مقدَّم عليه ، والجملة فى موضع خبر إنّ ، والتقدير إنى قليلها نافِعٌ لى ، وانتصَبَ مُعَرَّج على أنّه خَبَرُ لم يكن ، أراد : وإن لم يكن الإلمامُ إلاّ مُعَرَّجَ ساعَة .

٥٩٢

وقال آخر :

١ — ماذَا عَلَيْكِ إذا خُبِّرْتِنِي دَنِفًا ... رَهْنَ المَنِيَّةِ يَوْمًا أنْ تَعُودِينا(١)

٢ — أو تَجْعَلِي نُطْفَةً فى القَعْبِ بارِدَةً ... وتَغْمِسِى فَاكِ فيها ثُمَّ تَسْقِينا

قوله « دَنِفًا » أى مُشرِفًا على الهلاك ، وانتصابه على أنّه مفعول ثالث لخُبِّرَ . وقوله « ماذا عليكِ » لفظُه استفهام ومعناه تقريع وبَعْث . وانتصَب « رهنَ المنيّة » لأنه صفة لدنفا ، ومعناه فى ضمن المنية ومَلَكَتِها ، وكالرَّهْنِ عندها ، إنْ شاءت أغلَقَتْه ، وإن شاءت فَكَّتْهُ . والمراد : أىُّ شىء عليكِ من أن تعودينا ، إذا أُخْبِرْتِنى عليلًا . فقوله « عليك » يقتضى فعلا ، وذلك الفعل يَعمَل فى أن تَعُودِينا ، وقد حُذِفَ حرفُ الجرّ منه ، أى لا عارَ عليك ولا ضررَ من عِيادتنا ، ولا من مُداواتِنا بماء هذه صفته ، فهلَّا فعلْتِ . وقوله « يَوْمًا » ظَرْفٌ لخُبِّرْتِنِي . وقد تقدم القول فى « ماذا » فى مواضِع(٢) .

---

(١) دنفا ، بفتح النون وكسرها ، كما ضبطت فى النسختين مقرونة بكلمة « معا » فيهما .

(٢) انظر ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

٥٩٣

وقال جميل[١] :

١ــ بُثَيْنَةُ ما فِيها إذا ما تُبُصِّرَتْ مَعَابٌ ولا فيها إذا نُسِبَتْ أَشْبُ

٢ــ لَهَا النَّظْرَةُ الأُولَى عَلَيْهِمْ وبَسْطَةٌ وإن كُرِّتِ الأبصارُ كان لها العَقْبُ[٢]

٣ــ إذا ابتَذَلَتْ لم يُزْرِها تَرْكُ زِينَةٍ وفيها إذا ازْدَانَتْ لِذِى نِيقَةٍ حَسْبُ

تُبُصِّرَتْ ، أى استُقْصِىَ النَّظرُ إليها ، والـكشفُ عن حالها . والمَعَابُ : العَيب . والأَشْبُ : الخَلْطُ : يقول : إنَّها عند السَّبْرِ والنَّظَر ، والـكَشْف والتأمُّل ، نَقِيَّةٌ من العَيب ، بَرِيئةٌ من الشَّوْب ، فلها عند المبالغة فى البحث النَّظرة الأولى ، ولها البسطة وهى النَّظْرة الثانية ، ويعنى بها أن يُبْسَطَ التَّميزُ على ما يتجلَّى من أمْرِها ، ويُسَلَّط التنقير على كثيرٍ ممَّا يخفى من أحوالها . قال : ولها العَقْبُ أيضاً ، وهو النَّظَر بعد النَّظَر ، وفى موضعٍ آخر الجَرْى بعدَ الجرْى . والعرَبُ تقول : « النَّظرة الأولى حمقاء » فلهذا قال : لهذه المرأةِ النَّظرة الأولى ، ولها الـكَشْفَةُ الثَّانية وهى البَسْطَةُ ، ولها البَحْثَةُ الثالثة ، وهى تَعَقُّب التَّجربتين بتجربةٍ ثالثة .

وقوله « إذا ابتَذَلَتْ » يقول : إذا تَرَكَتِ التزيُّن واكتَسَت المَباذلَ لم يُقَصِّرْ بها ذلك ، وإن تزيَّنَتْ كان فيها للمتأنِّق الـكفايةُ من جميع ما يَطلُبُ فيها نَفْسًا وخَلْقاً ، ومُتَنَسَّبًا وخُلُقاً . وقوله « لم يُزْرِها » أى لم يُزْرِ بها ، يقال : زَرَيْتُ عليه وأزريتُ به ، لـكنَّه حذف الجارّ . وقوله « حَسْبُ » أى كافٍ ،

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠١ ص ٣١٤ .

(٢) التبريزى : « ويروى : لها النظرة الأولى عليهن بسطة » .

فهو مبتدأٌ . على هذا تقول : حَسْبِيَ اللهُ وحدَه[١] ، ومثل هذا قول جرير :

إذا حُلِّيَتْ فالحَلْيُ منها بمَعْقِدٍ مَليحٍ وإلاَّ لم يَشِنْها عَواطِلُه

٥٩٤

وقال الحارثىّ[٢] :

١ ــ سَلَبْتِ عِظامِى لحمَهَا فتركْتِها مُجرَّدَةً تَضْحَى إليكِ وتَخْصَرُ[٣]

٢ ــ وأخلَيْتِها مِن مُخِّها فكأنَّها قَواريرُ فى أجوافها الرِّيحُ تَصْفِرُ[٤]

يقول : أذَبْتِنِى بهواكِ ، وانحسَرَ اللحمُ من عظَامى وتعرَّت ، فهى بارزةٌ فى النَّهار للشمس ، وعند الليل للبَرد ، إذا أوَّبْتُ إليك وأسْأدْتُ . و « إليكِ » موضعه بالفعل الذى يقتضيه نصبٌ على الحال ، وإنما قال هذا لأن المهزولَ الحرُّ والبردُ إليه أسرع وأشدُّ تأثيراً فيه . ويقال : ضَحِيَ يَضْحَى ضَحًى ، أصابَه حرُّ الشمس ، ولُغةٌ : ضَحَا يَضحُو ضَحْوًا وضُحُوًّا .

وقوله « وأخليتِها من مُخِّها » ، يريد أنها أذهبت النِّقْيَ من العظامِ أيضاً ورقَّقَتْها ، فخلَت من مخها واستَشَفَّت ، فهى كالقوارير الخالية لو هبَّت الريح لصفرَت بما يتخلَّلها من الريح صفيرَها .

وقوله « فى أجوافها الرِّيح تصفِرُ » الجملة فى موضع الصِّفة للقوارير ، وموضع تَصْفِرُ نصبٌ على الحال إن جعلتَ الرِّيحَ ترتفع بالظَّرف ، وكذلك مجرّدة فى موضع الحال . ويروى : « فكأنها أنابيبُ فى أجوافها الريح » ، والأوّل أحسَنُ

---

(١) ابن جنى فى التنبيه : « ليس حسب هذه هى التى فى قولك فى الأمر : حسبك ينم الناس . تلك اسم للفعل ، أى اكتف ، ولذلك جزم ينم كما يجزم جواب الأمر . لكن حسب هنا هى التى فى قول الله تعالى : فإن حسبك الله ، أى كافيك . وأصلها جميعاً من قول الله سبحانه : عطاء حسابا ، أى كافيا » .

(٢) كذا فى النسختين والتبريزى . والأبيات منسوبة إلى المجنون فى أمالى القالى (١ : ١٦٢) .

(٣) الأمالى : « معرقة تضحى لديك » .

(٤) وكذا فى الأمالى . وعند التبريزى : « فتركتها أنابيب »

٣ــ إذا سَمِعَت بِاسْمِ الفِراقِ تَقَعْقَعَتْ مَفاصِلُها مِن هَوْلِ ما تَتَنَظَّرُ (١)

٤ــ خُذِى بِيَدِى ثم انْهَضِى بى تَبَيَّنِى بِيَ الضُّرَّ إلاَّ أنَّنِي أتَسَتَّرُ (٢)

جعل الإخبار عن العِظام ، وإن كان ما وصَفه حالاً للجملة لا لها وحدها، لقوله : سلبْتِ عظامى لحمها. والمعنى إنّ ذكرَ الفِراق يبلُغ منها هذا المبلغَ العظيم . وهى أنها لارتعادها تَتداخل مفاصلُها ويحتكُّ بعْضُها ببعض حتى تَسْمَعَ لها قعقعة ، وذلك لهَولِ ما ينتظرُه من وقوعه فى نفسِه ، واستعظامِه للخطْب وفيه وله .

وقوله « خُذِى بيدى » أراد أن يُرِيَها ما تستبعدُه من وصفِ حاله بالخَبَر مشاهَدَةً ، فقال: خُذِى بيدى مستنهِضةً لى يَبِنْ لَكِ أمرى ، ويظهرِ المكنونُ فيك من ضرِّى ، والمجلوبُ علىَّ من هُزَالِى ، والمستورُ عنكِ من سوء حالى ، وقوله « إلاَّ أنَّى أتستَّرُ » استثناء منقطع من الأول ، كأنّه أراد : لكنِّى أتستَّرُ بتجلُّدٍ أظهِرُهُ ، وبصبرٍ أتّقى الناس بهِ . وفى البيتِ طِباق بقوله تَبيَّنِي وأتَستَّرُ . وأصلُ تبيَّنِي تَتَبَيَّنِي ، فحذف إحدى التاءيْن .

تم باب النسيب ، والحمد لله على تظاهر آلائه ، وتوالى نعمائه ، والصَّلاة على سيدنا محمد وآله (٤) .

---

(١) القالى :

إذا سمعت ذكر الفِراق تقطت علائقها مما تخاف وتحذَرُ

(٢) التبريزى : « ثم ارفعى الثوب فانظرى » . وأنشد بعده هذين البيتين ولم يروهما القالى :

فما حِيلتى إنْ لم تكُنْ لكِ رحمةٌ علىَّ ولا لى عَنْكِ صبرٌ فأصبرُ

فواللهِ ما قصَّرتُ فيما أظنُّهُ رضاكِ ، ولكنِّى مُحِبٌّ مكفِّرُ

(٤) الكلام من أول « تم » إلى هنا لم يرد فى ل .

بَابُ الْهِجَاءِ

بابُ الهجاءِ [1]

٥٩٥

قال موسى بن جابر [2] :

١ — كانَتْ حَنِيفةُ لا أبالَكَ مَرَّةً عِنْـدَ اللِّقاء أسِنَّةً لا تَنْـكُل

٢ — فرأَتْ حَنِيفةُ ما رأَتْ أشياعُها والرِّيحُ أحيانًا كَذَاكَ تَحَوَّلُ

هذا الـكلام تهكُّم وسخريَّةٌ . ولا أبالكَ : بعثٌ وتحضيض ، وليس بنفى الأبوّة ، وخبر لا محذوف ، لأنَّ النيّـة فى لا أَبَالَكَ الإضافة ، ولذلك أثبتَ الألفَ فى أبَا ؛ فـكأنَّه قال لا أَبَاكَ موجودٌ أو فى الدُّنيا . وقد مضى القولُ فيه مشروحاً [3] . فيقول : كانت هذه القبيلة فيما مضى من الأيَّام ، وتَقَضَّى من المِرار ، عند لقاء الأعداءِ وفيما تباشره من الأمور والأحوال ، أسِنَّةً لا تـكبو ولا تضعُفُ ، نَفاذًا فى العَزَائم ومَضاءً ، ولا تَنْبُو ولا تقف ، كُلولاً فى الصَّرائم ونُـكولاً ، فقد عادت الآن مقتديةً بأشياعها ، وآخـذةً إخْذَهُم فى الارتداد والنُّـكوص ، والإحجام والنبوّ ؛ والرِّيح تتحوَّل أحياناً [كذلك ، مرّةً تكون شمالا ومرّةً

---

(١) التبريزى : « الهجاء هو الوقيعة فى الأنساب وغيرها ، ورمى الإنسان بالمعايب ، وأصله التسكين ، من قولهم : هجا غرثه وجوعه وأهجى ، إذا سكن . فكأنه إذا رمى الإنسان بالعيوب سكن من إشرافه . وقيل : بل معناه التفصيل ، ومنه حروف الهجاء ، وهجا فلان الكلمة ، إذا فصل حروفها . فكأن الشاعر إذا هجا غيره مزقه وفصله » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٣ ص ٣٦٣ . قال التبريزى رواية عمن يعرف العبرية « إنما سمى موسى لأنه لما رفع من بين الماء والشجر قالوا : موشى ، كأن معناه منشول ، أى نشلوه كما ينشل اللحم من القدر » . وهذا يطابق ما ورد فى سفر الخروج ٢ : ١٠ .

(٣) انظر ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

جنوبا . وقوله « كذا » موضعه من الإعراب نصبٌ على المصدر من تحوَّل . أراد : والرِّيح تتحوّل أحياناً[1]] تحوُّلا كذلك . أى كما عرفتَ .

٥٩٦

[وقال قراد بنُ حَنَشٍ الصَّارِدىّ [2]] :

١— لَقَومِىَ أَرْعَى للعُلَى مِنْ عِصَابَةٍ   من الناسِ يا حَارِ بْنَ عَمْرٍو تَسُودُها

٢— وأنتم سَماءٌ يُعجِبُ الناسَ رِزُّها   بآبِدَةٍ تُنْحِى شَـدِيدٍ وئيدُها

٣— تُقَطِّعُ أطنابَ البُيوتِ بحاصِبٍ   وأكذَبُ شىءٍ بَرْقُها ورُعُودُها

٤— فوَيْلُمِّها خَيْلاً بَهاءً وشارَةً   إذا لاقَتِ الأعداءَ لولا صُـدُودُها

يقول : لقومى أحسنُ رعايةً وتفقُّدًا ، وأوفرُ عنايةً وتكسُّبًا لأسباب العُلَى وحِفظ أواخِيِّها وموادِّها ، من طائفةٍ من الناس أنتَ تسُـوسُها وتُدبِّرُها ، وما أشبَّهُـكم فى كثرة دعاويكم وقِلّة فَعالِـكم إلاَّ بسحابةٍ تكثُرُ بُرُوقُها ورعودُها ، ويُعجِب متأمِّلَها ومستمعَها رَبابُها وهديرها ، بريحٍ تُعَدُّ آبدةً — أى أعجوبَةً أو داهيةً تبقى على الأبد — شديدةِ الخفيف ، قَطَّاعةٍ لحبال البيوت بما يجىء منها بالحَصْباء ، ثم تراها مُخْلِفةً[3] فيما وعَدَت من المطر ، فأكذَبُ شىءٍ بَرْقُها

(١) التكملة من ل .

(٢) التكملة من التبريزى وابن جنى فى التنبيه . وقال المرزبانى فى معجمه ٣٢٧ : « قراد ابن حنش بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة بن الصارد بن مرة ، جاهلى من شعراء غطفان المشهورين . وهو قليل الشعر جيده . قال أبو عبيدة : كانت غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ، ادعى الأبيات التى أولها :

إن الرزيئة لارزيئة مثلها   ما تبتغى غطفان يوم أضلت

وهم بنو الصارد بن مرة بن عوف بن غطفان . الاشتقاق ١٧٦ . قال التبريزى : الصارد : النافذ : صرد السهم يصرد صردا .

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « مخالفة » .

اللَّمَّاع ، ورغدُها النَّبَّاح . والباء من قوله « بآبدة » تعلقت بقوله « يُعجِب الناس » أى يعجب رزّها بآبدةٍ ، أى ومعها آبدةٌ .

وقوله « فَويْـلُمِّها خيلاً » انتصب خيلاً على التمييز ، وحذفت الهمزة من أمّ فى قوله « ويلُمّها » لـكثرة الاستعمال ، وليس الحذف هذا بقياس . واللَّفظة تفيد التعجُّب . و « بهاءً » انتصب على أنه مفعول له ، فيقول ساخرًا : ويلمِّها من خيل ، لـكمال بهائها ، وحسن شارتها ، عند لقاء الأعادى ، لولا انهزامُها وإعراضُها .

ورُوِى : « لَقَوْمِىَ أدْعَى للعُلَى » بالدال[1] ، والأوّل أحسن وأصوَب .

والعِصابة : الجماعة . وقوله « يا حارِ بنَ عمرو » الترخيم فى قول من يقول فى النداء يا حارث بن عمرو، فيَضُم وينوِّن فى غير النداء ، فيقول : هذا زيدٌ بنُ عمرو[2] . وأحسن منه فى قول من يقول : يا حارثَ بنَ عمرو ، فيفتح ويجعل الأول والثانى بمنزلة شىء واحد ، وذلك أنه يُخرج آخر الاسم إذا جُعِل مع الصِّفة شيئاً من أن يكون آخرًا ، والترخيم يدخل الأواخرَ لا الأوساط .

وقوله « وأنتم سماء » يُسَمُّون السحابَ سماءً ، وكذلك المطر . ألاَ ترى قوله :

---

(١) التبريزى : « المراد أكثر دعاء إلى العلى » .

(٢) هذا نص نحوى نادر . وقال ابن جنى فى التنبيه : « كان القياس ألا يجوز ترخيم الاسم الموصوف بابن ، من قبل أن العلم إذا وصف بابن فلان فقد جعلا معا كالاسم الواحد ، ولذلك قالوا يا زيد بن عمرو ، ففتحوا الأول لفتحة الثانى ، وإذا كانا كالاسم المفرد فقد حصل جزء الاسم الأول حشوا إذن لا طرفا ، وإذا كان حشوا لم يتطرق عليه حذف الترخيم . فهذا وجه قياس امتناعه ، غير أنه جاز فيه الترخيم من حيث كان الموضع موضع إيجاز واختصار ، ولذلك حذف التنوين من الأول ، فلما جاز حذف تنوينه بغير إضافة جاز أيضاً حذف آخره للترخيم » .

إذا سَقط السَّماء بأرضِ قومٍ   رَعَيْناهُ وإن كانوا غِضابا[١]

والرِّزُ والوئيد جميعاً : الصَّوت . ومعنى تُنْجِى تُقْبِل . وقوله « لولا صدودُها » جواب لولا فى صدر البيت ، وقد تقدَّم القول فى المبتدإ بعده ومجيئه بلا خبر[٢] .

٥٩٧

وقال عُمارة بن عَقِيلٍ[٣] :

١ — مَن مُبْلِغٌ عنِّى عَقِيلاً رِسالةً   فإنك من حَرْبٍ علىَّ كريمُ

٢ — ألم تَعْلَمِ الأيَّامَ إذْ أنتَ واحِدٌ   وإذْ كلُّ ذى قُرْبَى إليكَ مُلِيمُ[٤]

٣ — وإذْ لا يَقِيكَ الناسُ شيئاً تخافُه   بأَنفُسِهم إلاَّ الَّذِينَ تَضِيمُ

تمَنَّى أن يتَّفق من يبلِّغ عَقِيلا عنه رسالتَه ، فأتى بلفظ الاستفهام ، والرسالة « إنك من حَرْبٍ علىّ كريم » وما بعده . وبَنَى كلامه على الاستعطاف ، ثم أخذ فى التَّقريع . ومعنى قوله : « إنك من حربٍ علىّ كريم » إنك تكْرُم علىَّ من جملة من ينتسب إلى بنى حَرب[٥] .

---

(١) لمعود الحكماء معاوية بن مالك ، كما فى اللسان (سما) .

(٢) انظر ص ٢٨٣ .

(٣) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى : « عملس بن عقيل بن علفة » . وقد سبقت ترجمة عقيل بن علفة فى ص ٤٠٠ . وفى الأغانى (١١ : ٨٤) نسبة الأبيات إلى علفة بن عقيل بن علفة ، وعلفة بن عقيل أخو عملس بن عقيل . وأما عمارة فهو عمارة بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفى ، وكان شاعراً مقدما فصيحا ، يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء فى الدولة العباسية فيجزلون صلته ، ويمدح قوادهم فيحظى بكل فائدة . وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة . الأغانى (١٠ : ١٨٣) . ونسبة الشعر إلى عمارة نسبة خاطئة . وللأبيات قصة فى ترجمة عقيل بن علفة من الأغانى (١١ : ٨٤) .

(٤) التبريزى : « ألا تعلم الأيام » . الأغانى : « أما تذكر الأيام » و « ذميم » .

(٥) وقد تابعه التبريزى فى هذا الفهم ، وليس لعقيل بن علفة علاقة ببنى حرب . وإنما الحرب هنا المداوة والمشاكسة التى كانت مستمرة بين عقيل بن علفة وبنيه ، يعنى أنه مع ذلك يكن له إكراماً واحتراما .

وقوله « ألم تَعلم الأيامُ » تذكيرٌ له بخِذْلان عشيرته إياه ، وتفرُّدِه بما كان يقاسيه ، فيقول : أتذكر حينَ كنتَ فرداً وحيداً لا ناصر لك ، وإذْ كان كلُّ قريبٍ ونسيب لك مُليماً عندك — والمُليمُ : الذى يأتى بما يُلامُ عليه — وحين لا وَاقِيَ لك من شىءٍ تخافُه إلا الذين أنت تظلمهم الساعةَ . فقوله « إلاَّ الذين » استثناء بدل ، ويجوز أن يكون فى موضع النَّصب على الاستثناء المطلق ، والضمير العائد إلى الذين من الصِّلة محذوف ، استطالةً للاسم ، والتقدير : تَضِيمُهُم ، أى تظلمهم .

وقولُه : « ألم تعلم الأيام » ، ألم : يقرَّرُ به فيما ثبت ووقع . ويروَى « الأيامُ » بالرفع ، و « الأيامَ » بالنصب . فإذا رويتَ الأيامَ بالنَّصب يكون الخطاب لعَقِيل ، ويكون تَعْلَمُ بمعنى تعرف . والمعنى : أما عَرَفْتَ الأيامَ التى كان حالُكَ فيها ما ذكرت ، وأتَنْسَى تلك الأيام . والمراد بالأيام حوادثُ الدهر . وقوله « إذ أنت » ظرفٌ لها ، وإذا رفعتَ الأيامَ يكون المعنى : ألم تعرِف الأيامُ حالتَك وقصَّتَك — والمعنى أهلُ الأيامِ وأصحابُ الأيام — حين كنتَ كذا وكذا . فيكون الكلام على حذف المضاف .

٤ — أترْقَعُ وَهْىَ الأَبعَدِينَ ولم يَقُمْ   لِوَهْيِكَ بينَ الأقربينَ أَدِيمُ[(١)]

٥ — فأمَّا إذا عَضَّت بكَ الحربُ عَضَّةً   فإنَّكَ مَعْطُوفٌ عليكَ رَحيمُ

٦ — وأمَّا إذا آنَسْتَ أَمْناً ورِخْوَةً   فإنَّكَ لِلقُرْبَى أَلَدُّ خَصُومُ[(٢)]

وقوله[(٣)] : أترقع لفظه استفهام ، ومعناه التقريع ، فيقول : إنك تَسعَى فى

---

(١) رواية الأغانى :

تناول شأو الأبعدين ولم يقم   لشأوك بين الأقربين أديم

(٢) التبريزى : « خصيم » لكن شرحه يدل على أن الكلمة محرفة ، فهو يقول نقلا عن المرزوقى ، وإن لم يصرح كعادته : « والخصوم بناء للمبالغة ، وهو أبلغ من خصيم لأنه أشد تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين » . وانظر ما سيأتى فى الحواشى من كلام ابن جنى .

(٣) هذا ما فى ل ، وفى الأصل : « يقول » .

استعطاف الأباعد وإدنائهم ، وإصلاح الفاسد من أحوالهم ، رجاء التئام أمرك بهم ، وقد أفتَّ نفسَكَ حظَّكَ من أقاربك ، ومن تحدُّبِهِمْ عليك ، لسعيك في إفساد أحوالهم ، ونحت أثْلَتِهِم ، وتضييع غيبتهم . وهذا رأىٌ فائلٌ ، وتوفيق سيِّئٌ .

وقوله «لم يقم لوهْيك» ، يريد بالوهْى الذى يحصلُ بك وبثلبك واغتيابك . وذِكر الأديم مَثَلٌ ، أى لا يَبقَى أصلُه لتمزيقك ، ولا يثبت صِحَّتُه لتخْريقك . ويقال : فلانٌ صحيحُ الأديم ، وفلانٌ نَغِلُ الأديم . وفى المثَـل : « أَوْسَعْتَ وهْيًا فارْقَعْهُ » .

وقوله « فأمَّا إذا عَضت بكَ الحربُ عَضَّةً » يريدُ : أنك إذا نابتْك نائبة ، وأصابتك من أزَمات الزَّمان وعضَّاته أزْمة ، وألجأتك من مَصارِفِ الحرب ضَغطةٌ فإنك تستعطف عليك ذَوِيكَ وعشيرَتَك ، وتعتمد رحمتَهم لك ، وتطلب شفقتَهم والأخْذَ بالفضْل فيك . وقوله « رَحِيمُ » هو فعيلٌ فى معنى مفعول ، أى إنك معطوفٌ عليك مرحوم .

وقوله « وأمَّا إذا آنستَ » ، يقول : أمَّا إذا أَمِنتَ ووجدتَ من مَضَايقك رخاء ، ومن شَدائدكَ لِيناً ، على حسَب عادةِ الدَّهر فى تلوُّنه ، فإنَّك تَخرُج خصماً ألدَّ لهم ، تَطلب إغلاقَ الحجج عليهم ، وتسدُّ أبوابَ الخير دونهم ، وتَصرِف مَفاتحَ الرُّشْد عن وجوههم وطرُقهم ، وهذا غايةُ للُّؤم وسوء الاختيار . والألدُّ : الشَّديد الخُصومة ، العَسِر الانقياد . وهو اليَلَنْدَد والألندد . والخَصُوم : بناء المبالغة ، وهو أبلغ من خَصِيم ، لأنَّه أشدُّ تباعداً من أبنية أسماء الفاعلين[1] .

---

(١) ابن جنى : « خصوم أشد مبالغة من خصيم ، لأنها أقرب إلى الأصل الذى هو فعول ، أعنى المصدر . فإن قلت : فإذا كانت فعول أشد مبالغة من فعيل فهلا جاءت الآية بسم الله الرحمن الرحوم ؟ قيل : قد حصلت المبالغة بالرحمن ، لأن فعلان من أبنيتها . وقد قال ابن‌عباس : إنهما اسمان رقيقان من الرحمة أحدهما أرق من الآخر ، يعنى الرحيم ، فلما كانت الرحمة فى الأصل من بنى آدم رقة ولينا وكانت هنا رأفة وتعطفا ، كان فعيل أليق لها لفظا من فعول » .

٥٩٨

وقال أرطاةُ بن سُهَيَّةَ المُرِّيُّ[١] :

١ — تَمَنَّتْ وَذا كُمْ مِن سَفاهةِ رأيِها ... لِأَهْجُوَها لَمَّا هَجَتْنِي مُحَارِبُ

٢ — مَعَاذَ الإِلٰهِ ، إنَّنِي بقبيلتِي ... وَنَفْسِيَ عنْ ذاكَ المَقَامِ لَرَاغِبُ

ارتفع قوله « محارب » بفعلها وهو تمنَّت . فيقول : تمنَّتْ هذه القبيلةُ لما تحكَّكت بي وهجتني، وتشهَّت مقابلتي إيَّاها بمثلِ ما فَعَلَتْ ، وذلك لِخفَّةِ رأيِها، وتناهِي جهلها . فقوله «وذا كُم» الواو واو الابتداء ، وهي للحال ، وذا كم ابتداء ، ومن سفاهة خَبَرُه . وتلخيص البيت : تمنَّت مُحارِبٌ لما هجَتْني لأنْ أهجوها ، وذا كم مِن سفاهة رأيها . والمراد : حَدَثَتْ مُنْيَتُها لهجوى لها . ومثله :

* أريدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا[٢] *

وفى القرآن : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ[٣] ﴾ .

وقوله معاذ الإله انتصب على المصدر ، أى أعوذ بالله معاذًا من أن آتيَ ذلك ، لأنِّي أرغبُ بنفسي وأربأُ بأصلي عن الوقوف فى ذلك المقام ، وأصُون شَرَفي وأرفع عقلي عن مُساوَقتهم لفظًا بلفظ ؛ وفعلاً بِفِعل .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ .

(٢) قطعة من بيت لكثير فى أمالى القالى (٣ : ١١٩) . وهو بتمامه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لى ليلى بكل سبيل

(٣) التبريزى : « فإذا جعل تمنت من الأمانى المعروفة فالمعنى ودت أنى أهجوها لتفخر بذلك ، ويكون الفعل واقعا على مضمر محذوف ، كأنه قال : تمنت أمورا لأهجوها ، وأكثر الكلام تمنيت أن يكون كذا ، فيصل الفعل إلى أن وصلتها من غير حرف متوسط ... وإذا جعل قوله تمنت فى معنى كذبت فالمراد أنهم تكذبوا على فى الهجو لأغضب فأهجوهم » .

٥٩٩

وقال زُمَيْلٌ[1] :

١— إنِّى امرؤٌ أطوِى لمولاىَ شِرَّتِى إذا أثَّرَت فى أَخْدَعَيْكَ الأنامِلُ

٢— خُلِقتُ عَلَى خَلْقِ الرِّجال بأعْظُمٍ خِفَافٍ تَطَوَّى بينهنَّ الأنامِلُ

٣— وقَلْبٍ جَلَتْ عنه الشُّؤُونُ وإنْ تشأْ يُخَبِّرْكَ ظَهْرَ الغيبِ ما أنتَ فاعِلُ

يصف نفسَه فى البيت الأوّل بأنَّه يكفّ أذاه عن مولاه، وأنَّه إذا أجمعَ أهلُ الرَّأى على نسبة مُخاطَبه إلى الغَدر، والخِيانة والشَّرّ، فأشاروا بأصابعهم إذا وَلَّى إلى قفاه، فقالوا : هذا قفَا غادِر، فإنَّه ينطوى شِرَّتَهُ فى ذلك الوقت عن مولاهُ ومكروهَهُ، فلا يُعْنِتُ نسيبا، ولا يؤْذِى جاراً قريبا ولا غريباً.

وقوله « خُلِقْتُ على خَلْق الرِّجال » تبجَّح فى هذا البيت بأنه شَخْتٌ من الرِّجال قليلُ اللحم، مَديدُ القامة، فَخَلْقه خَلْقُ الرجال لا خلق النِّساء، فلا يشينُه سُمْنَةٌ[2] ولا فَشَلٌ، ولا يقعد به آفةٌ ولا كسل، فأعظُمُه خِفاف، ومفاصله بينها مطوّيةٌ مُحَصَّةٌ لطاف.

وقوله « وقَلْبٍ » عَطَفَه على بأَعظُمٍ، يريد : وبقَلْبٍ هَذَّبَهُ الأمور، وكشفَ عنه الطَّبعَ والرَّيْنَ مزاولةُ الشُّؤُون، فهو بتجاربه يتصوّر مالم يكنْ بصورةِ ما قد كان، ومتى شئتَ أَخبَرَكَ بخُبْرِه ومعرفته، وفَرْط شهامته وتمييزه،

(١) التبريزى وابن جنى : « وقال زميل بن أبير »، وزميل وأبير بهيئة التصغير، ويقال فى اسم أبيه أيضا « وبير » و « دبير ». وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام، أحد بنى عبد الله بن عبد مناف وهو قاتل ابن دارة فى خلافة عثمان، ويقال فيه أيضا « زميل بن أم دينار » منسوبا إلى أمه. المؤتلف والمختلف ١٢٩ والإصابة ٣٩٧٣ والخزانة (١: ٢٩٣ — ٢٩٤)، وكان بينه وبين أرطاة بن سهية مهاجاة.

(٢) المعروف فى السمنة أنها دواء السمن.

وحِدَّةِ نَظَرِه وبصيرتِهِ بما أَنتَ فاعلُه بعد الغيب . وانتصب « ظَهرَ الغيب » على الظَّرف ، و « ما أَنت » ما فيه بمعنى الذى ، وأنت فاعل من صلته ، وقد حذف حرف الجرّ معه ، كأَنَّه قال : يُخَبِّرُك بما أنت فاعله . ويقال : خَبَّرْتُه كذا وخبّرته بكذا ، وحدَّثته كذا وحدَّثته بكذا .

٤ — ولَسْتُ بِرَبْلٍ مِثْلِكَ احْتَلَمَت به عَوَانٌ نَأَتْ عَن فَحْلِها وهى حَافِلُ(١)

٥ — فجئتَ ابنَ أحلامِ النِّيام ولم تَجِدْ لِصِهْرِكَ إلاَّ نَفْسَها مَنْ تُباعِلُ(٢)

كان رواية الناس قبلنا « احتملتْ به » والصواب « احتلمت به » ، بدلالة قوله « فجئتَ ابنَ أحلام النِّيام » . والرَّبْل : السَّمين الرَّطب ، وقد تقدم ذكرُه وتصاريفه(٣) . والعَوَان : النَّصَف من النِّساء ، والفعل منه عَوَّنَتْ ، ويقال : عانَتِ البقرةُ عَوْناً ، صارت عَوَاناً . وحَرْبٌ عَوَانٌ : قُوتِل فيها مرّةً بعد أخرى فيقول : لستُ بِرَطْبٍ مُسْتَرْخٍ مِثلِكَ ، احتلمت به امرأةٌ عوان بَعُدَ عهدُها بفحلها ، وهى ممتلئة شَبَقًا ، فحملت فجاءت من احتلامها بكَ . والمعنى : أنَّه لا والدَ لكَ إلاَّ ما رَأَتْ أُمُّكَ عند شِدَّة غلمتها من احتلامها ، فأنت شرٌّ من مَجِيء لِزِنْيَةٍ . ومعنى « ولم تَجِدْ لِصِهرِكَ » أى لم تصاهِرْه فيك ، أى تخالطه . وقال الخليل : الصِّهر حُرْمَة الخَتَن . وخَتَنُ القوم : صِهرهم . وحُكِىَ عن أبى الدُّقَيْشِ(٤) : أَصْهَرَ بهم الخَتَن ، أى صار فيهم صِهْرًا . فيقول : لم تجدْ خَتَناً

(١) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « ليس لزميل ، بل هو لأرطاة بن سهية يهجو زميلا . ونظام البيت أيضا مختل ، والصواب :

ولست بربل مثلك احتلمت به عوان نأت عن بعلها وهى حائل
فجئت ابن أحلام النيام ولم يكن لبضعك إلا طهرها من تباعل »

(٢) التبريزى : « لطهرك » وقال : « أى للطهر الذى حملتك فيه . ومن روى : لظهرك ، فالمعنى للظهر الذى خرجت منه » .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٧٨٨ .

(٤) أبو الدقيش القنانى الغنوى ، أحد الأعراب الفصحاء الذين أخذت عنهم اللغة =

إلاَّ نفسَها ، إذا كان ذلك الاحتلامُ لم يتجاوزْها ، وإذْ كان مباءَلةُ النَّفس على ما وصفَه إنَّما حصلَتْ عن شبَقٍ ولزومِ ذِكرِ الجماع فى اليقظة ، وإلاَّ نفسَها : مستثنًى مقدم . وقوله « ابنَ أحلام النيام » نَصْبٌ على الحال ، لأنَّ أحلامَ النِّيام لا يتخصَّص ، فلا يصير المضافُ إليه معرفة(١) .

٦٠٠

وقال خارجةُ بنُ ضِرارٍ المُرِّىّ(٢) :

١ — أحارجَ هَلَّا إذْ سَفِهْتَ عشيرةً كَفَفْتَ لِسانَ السَّوْءِ أن يَتَدَعَّرا(٣)

٢ — وهَلْ كُنْتَ إلاَّ حَوْتكيًّا ألاقَهُ بَنُو عَمِّــه حَتَّى بَغَى وتَجَبَّرا

٣ — فإنَّكَ واستِبضاعَكَ الشِّعرَ نَحوَنا كمستَبْضِـعٍ تَمْرًا إلى أهلِ خَيْبَرا(٤)

قوله « سَفِهت عشيرةً » ، قال يونس : سَفِهَ لغةٌ فى سَفَّهَ ، وعلى هذا تنصب عشيرةً على المفعول به ، ويجوز أن يكون مما نُقِلَ عنه الفعل ، كأنه قال : سَفِهتْ عشيرتُك فنَقَل السَّفَهَ إلى نفسه فقال : سَفِهْتَ ، فأشبه عشيرةً المفعول ، فنُصِب نَصْبَ التَّمييز . وقوله « يتدعَّرُ » أى يَخْبُثُ ويفْجُر . يقال : رجلٌ داعرٌ بيِّن

= فهرست ابن النديم ٧٠ . وقال التبريزى فى شرح الحماسية ٦٠٠ : «قال الليث : قلت لأبى الدقيش : ما الدقش ؟ فقال : لا أدرى . فقلت : فما الدقيش ؟ قال : لا ، ولا هذا أدرى . قلت : فاكتنيت بما لا تدرى ما هو ؟ فقال : إنما الأسماء والكنى علامات » .

(١) أوضح منه قول ابن جنى فى التنبيه ، « فإن قلت : فإنه معرفة . قيل : لما كان مثلا لا حقيقة تحته عاد به المعنى إلى التنكير » .

(٢) التبريزى : « وفى بعض النسخ : وقال زميل لخارجة بن ضرار » . وأنشد صاحب اللسان هذه الأبيات منسوبة إلى خارجة بن ضرار المرى ، ونقل عن ابن برى أنها تروى لزميل ابن أبير يهجو خارجة . والشعر على رواية المرزوقى ينطق بأن قائله غير خارجة . ويفهم من هذا أيضاً أن « خارجة » كان معاصراً لزميل بن أبير المترجم آنفا .

(٣) التبريزى : « أخالد » وبذا تقرب نسبة الشعر إلى خارجة . وروى فى اللسان مرة : « أخالد » ومرة : « أخارج » .

(٤) التبريزى : « أرض خيبرا » .

الدَّعارة . وحُــكِي : فى خَلْقِه دَعارَّة ، فى معنَى زَعارَّةٍ ، وعلى زنته . ومنه عُود دَعِرٌ ، أى كثير الدُّخان . والحَوْتَــكِيّ : الضَّاوِى الضَّعيف . وقال الخليل : الحَوْتَكُ والحوتكيُّ : القصير الصَّغير . ومعنى ألاَقَهُ : ألْصَقَهُ وضَمَّه أبناء عَمِّه إلى أنفُسِهم ، فبغَى لمَّا رأى ذلك . واستِبضاع السِّلعة : أنْ تحمَلها بنفسك ؛ وإبضاعُها : بَعْثُها ، وكما قيل فى المَثَل : « كمستبضع تمراً إلى أهل خيبر » لـكثرة نخلِها ، قيل أيضاً « كمستبضع التَّمر إلى أهل هَجَر » ، وهذا كما قيل « كمستبضع المِلْح إلى بارِق » .

ومعنى الأبيات : هلا إذْ كنتَ سفيهَ العشيرةَ لئيمَ الفصيلة ، أمسكتَ عن الخنا والفُحْش ، وصُنتَ نفسَك ولم تعرِّضْها للهجاء المُمِضّ : هذا وما كنتَ إلاَّ حقيراً قليلا ؛ قميئاً صغيرا ، رَقَّ له أقاربُه بعد ما كانُوا ينفُونه ويتبرءون منه ، فألصقوه بأنفُسهم ، فطغَى مِن ذلك واستعلَى . وأمَا علِمتَ أنَّك وحَمْلكَ الهجاء إلينا فى النَّدَم والخُسران ، وسُوءِ العاقبة ، كَمن حَمَلَ التَّمرَ إلى خَيبر يَتْجَرُ فيه ، فرجع نادما ، وحَصَل خاسِرا .

٦٠١

عُمارَة بن عَقيل(١) :

١ ــ بَنِي مُنْقِذٍ لا آمَنَ اللهُ خَوْفَــكُم ... وزَادَكُمُ ذُلاًّ ورِقَّــةَ جانِبِ

٢ ــ فمَنْ يَرْتَجِيكُمْ بَعْدَ نَائِلَةَ الَّتِي ... دَعَتْ وَيْلَهَا لَمَّا رَأَتْ ثأْرَ غَالِبِ

٣ ــ دَعَتْهُ وفِي أثْوابِهِ مِنْ دِمَائِهــا ... خَلِيطًا دَمٍ مِنْ ثَوْبِهِ غَيْرِ ذاهِبِ

نَائلةُ : امرأةٌ زُوِّجتْ قاتلَ أبيها أو أخيها ، فجعَل عُمارة يعيِّرهم ذلك .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٩٦ ص ١٤٣٢ .

والعرب تقول : دمُ فلانٍ فى ثوبِ فلان ، إذا كان قاتلَه .

قال أوس بن حَجَرٍ :

نُبِيتُ أَنَّ دَمًا حَرَامًا نِلْتَهُ فَهَرِيقَ فى ثَوْبٍ عَلَيكَ مُحَبَّرِ

وقال الفرزدق :

تَمَشَّى حَرَامٌ بالبَقِيعِ كأنَّهـا نَشَاوَى وفى أثوابها دَمُ سَالِمِ (١)

فيقول : أبدلَكُم الله يا بَنِى مُنْقِذ بالأمن خَوْفًا لا يفارقكم ، وزادكُم على مرِّ الأيَّام ذُلاًّ وخضوعا ، ولِينَ مَجَسٍّ وسُقوطا ، فإنَّه لا يُعَلَّقُ الرَّجاء بكُم ، ولا يَستنيمُ أحدٌ إليكم ؛ بعد نائلةَ التى دَعَت بالويلاتِ لمّا رأت ثأر غالبٍ أخيها أو أبيها ، وقد ملَّكتموه أمرَها ، وجعلتموه بالتزويج قَيِّمها ، ثم قال : دَعَت نائلة الوَيْل وفى أثواب زوجِها لها خليطا دَمٍ ها دمُ أبيها أو أخيها ، بقتْلِه له ؛ والثانى دم عُذْرَتِها ، لتزوُّجه بها ، فهما لازمانِ لثَوبه لا يفارقانه . ويروى « شَرِيجَا دَمٍ » . وكلُّ لونين اجتمعا فهما شَرِيجانِ . وقوله « غير ذاهب » ، غيرُ صفةٌ لِدَمٍ ، ويروَى : « مُهَرَاقُهُ غيرُ ذاهب » ، ويكون الجملةُ صفةً لدمٍ أيضاً . وقوله « مَن يرتجيكم » استفهامٌ على طريق التَّقريع ، وفيه معنى النَّفْى ، أى لا يرجوكم أحد . ومعنى « دعت ويلَها » صاحت بالويلِ لى . وفى القرآن : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) حرام : قبيلة ، وهم بنو حرام بن سمال بن سليم بن منصور . الاشتقاق ١٨٧ والمعارف ٣٨ . والبيت من أبيات فى هجاء عبد الله بن خازم السلمى ثم الحرامى ، وكان قتل مولى لبنى يربوع بخراسان يقال له سالم . ورواية الديوان ٧٧٦ : « كأنها حبالى » .

٦٠٢

وقال طَرَفَةُ بنُ العَبْد[1] :

١ ـ وفَرَّقَ عن بَيْتَيْكَ سَعْدَ بنَ مالِكٍ وعَمْـرًا وعَوْفًا ما تَشِي وتَقُولُ
٢ ـ وأنتَ عَلَى الأَدْنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ شَـآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ
٣ ـ وأنتَ على الأَقْصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ تَذَاءَبَ منها مُرْزِغٌ وَمُسِـيلُ
٤ ـ وأَعْـلَمُ عِلْماً لَيْسَ بالظَّنِّ أنه إذا ذَلَّ مَوْلَى المرءِ فهو ذَلِيـلُ[2]

قوله « ما تشى » فى موضع الفاعل لفرَّقَ . و« ما » إن شئْتَ جعلتَه بمعنى الذى ، وصِلَتُه تَشِى ، والضمير العائد من الصِّلة إليه محذوف كأنه قال : ما تَشِيهِ وتقولُه . وإن شئتَ جعلت ما حرفاً ويكون مع الفعل فى تقدير مصدر ، ولا يحتاج إلى ضميرٍ من الصِّلة يعود إليه ، لـكونه حرفاً ، ويكون التقدير وِشايتُك وقولُك . ويعنى ببَيْتَيْك : أخوالَه وأعمامَه . فيقول : فَرَّقَ عن بيتَيْ أهلِكَ وذويكَ من قِبَل أبيك وأمِّك ما تأتيه من إبلاغاتٍ تتقوَّلُها ، ونَمائم تختلقها وتصنِّفُها : سعدَ بن مالك وعمْرًا وعَوْفًا ؛ وإنما يَعنِى بهم أفخاذًا وبطونًا كان

---

(١) طرفة بن العبد : أحد شعراء الجاهلية الذين تنسب إليهم المعلقات ، وطرفة لقب له ، واسمه عمرو . والطرفة بالتحريك : واحدة الطرفاء ، وهو الأثل . وقال طرفة الشعر صغيراً ، يروون أنه قتل وهو ابن عشرين فيقال له : ابن العشرين . وقيل : وهو ابن ست وعشرين ، وفى ذلك تقول أخته فى رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيدا ضخما

وخاله المتلمس الضبعى صاحب الصحيفة . انظر الخزانة (١ : ٤١٢ ـ ٤١٧) والشعراء ١٣٧ ـ ١٤٩ والأغانى (٢١ : ١٢١ ـ ١٣٢) .

(٢) الأبيات من قصيدة فى ديوانه ٥٠ ـ ٥٣ يهجو بها عبد عمرو بن بشر بن عمرو ابن مرثد . وأنشد بعده التبريزى :

وإنَّ لسانَ المرءِ ما لم تَكُنْ له حَصَاةٌ على عوراتِهِ لدَلِيـــلُ

ضَلْعُهم معهم(١) ، فلم يَزَلْ يَسعَى بالتحريش ، ويَمشى بالنَّميم ، حتى فرَّق جمعَهُم ، بما أوْقَع من الشرِّ فيهم .

وقوله «وأنت على الأدنى شَمالٌ عَرِيَّةٌ» فالعرِيَّة : الباردة ، ومنه قولهم : عُرَواء الحُمَّى . فيقول : أنتَ على أقاربكَ فى سوء اعتقادك لهم ، وسَوْقِك الشرَّ إليهم ، وجَرِّك الجرائر عليهم ، بمنزلة الريح الشَّمال الباردة ، المحرقةِ للوجوه ، إذا هَبَّت فى الشِّتاء ، ويُصْحبُها بَلَلٌ من المطر ، ونَدًى يُقبِّضُ الجلدَ ، ويُجفِّف المَفصل والوجه . وإنما قال شآمية ، وإن كان الشَّمال لا تهبّ إلاَّ من ناحية الشأْم تأكيداً . وللصِّفات كما تجىء مفيدةً مميِّزةً(٢) تجىء أيضاً مؤكِّدة لا تفيد فى الموصوف أكثرَ مما عُرِفَ فيه . وعلى هذا قد تجىء الأحوالُ أيضاً ، لكونها صفاتٍ فى الأصل .

وقوله « وأنت على الأقصَى صَبًا غيرُ قَرَّةٍ » يريد أنه على الأجانب فى تعطُّفه عليهم ، والانطواء على الجميل لهم ، بمنزلة ريحِ الصَّبا تَهُبُّ ولا بَرْدَ معها . وقد تذاءَبَ منها ، أى تَسهّل واضطرَبَ من أجلها . والذِّئب فيمن هَمَزَه منه اشتُقَ ، لأنه كلما طُرِدَ من جانبٍ يتسهَّلُ ويحصُل من جانبٍ آخر ، لوقاحته . والمُرْزِغُ : الذى يأتى بالرَّزَغة ، وهى الوَحَل . والمُسيل : المُذيبُ للجامد . والمعنى : أنت للأجانب بمنزلة القَبُول التى تُرْزِغُ الأرضَ فى مَهابِّها ، وتُسِيلُ التِّلاعَ ، وتَبُثُّ الخيرَ ، وتُوسِّعُ الخِصْبَ .

وقوله « وأعلم علماً ليس بالظَّنّ » لمّا كان لفظةُ العِلْم قد يُطْلَقُ على الظنِّ الغالب ، لقيامه مقام ما هو عِلْمٌ فى الحقيقة ، أكّدَ قوله وأعلَمُ بقوله ليس بالظن ، وبَيَّن بهذا الكلام الخطأَ فيما يأتيه المخاطَب ، وأنه إذا أفاتَ نفسَه حظَّه من

(١) الضلع ، بالفتح : الميل والهوى .
(١) فى الأصل : « لا مميزة » صوابه فى ل .

أقاربه وعشائره بسوء معاملته ، فإنه لا يستفيد من الأجانب ما عند الحاجة يُغني ، وإذا ذَلّ أتباعُه ولم يستبقِهم لنفسه فالذلُّ لاحقٌ له ، ومُحتَفٌّ به . وبهذا الخطاب نَعَى عليه فِعلَهُ ، وبَيَّن له سوءَ التقدير فيما اختارَهُ ، وفِعلَ الغَوَايةِ فيما اعتقَدَه واعتادَه . والضمير من قوله « إنه » للأمر والشأن ، كأنه قال : وإنّ الأمر الحقَّ إذا ذَلّ ابنُ عمِّ المرء فهو ذَليل .

٦٠٣

بُشَير بن أبي جَذيمة[١] :

١ — أَتَخْطِرُ للأشراف يا قِرْدَ حِذْيَمٍ   وهل يَسْتَعِدُّ القردُ للخَطَرَانِ[٢]

٢ — أبَى قِصَرُ الأذنابِ أن يَخطِرُوا بها   ولُؤْمُ بنى قِرْدٍ بكلِّ مكانِ[٣]

٣ — لقد سَمِنَتْ قِرْدَانُكم آلَ حِذْيَمٍ   وأحسابُكم فى الحىِّ غيرُ سِمَانِ[٤]

قوله «أتخطر» لفظه لفظ الاستفهام ، والمعنى التبكيت . ولمّا كان المخاطَب من بنى قِرْدٍ[٥] جعله قرداً فى الحقيقة . والخَطْر : أصله إشالة الذَّنَب من الفَحل عند هِياجه ومصاوَلته لفحلٍ آخر ، فاستعاره لفعلِ هؤلاء المخاطَبين لمّا حَدَّثوا أنفسَهم بمباراةِ الأشرافِ ومساجلتِهم . فيقول : أتحدِّث نفسَك على باءِك

(١) التبريزى : « بشير بن أبى بن جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة » . وهو بشير ، بهيئة التصغير ، ابن أبى جذيمة بن الحكم بن مروان بن زنباع بن جذيمة العبسى . ذكره الآمدى فى المؤتلف والمختلف ٦١ .

(٢) أنشد الجاحظ هذه الأبيات فى الحيوان (٤ : ٦٧) . ورواية هذا البيت عنده : « أتخطر للأشراف حذيم كبرة » . والكبرة بالكسر : التجبر والكبر .

(٣) التبريزى : « أن تخطروا بها » . الجاحظ : « ولؤم قرود وسط كل مكان » .

(٤) الجاحظ : « لقد سمنت قردانكم » . والقردان ، بالكسر : جمع قراد بالضم ، وهى دويبة تلزم الإبل ومعاطنها . وسئل أبو الندى عن معنى هذا البيت فقال : « كنى بالقردان هاهنا عن القمل ، أى سمنت أحسامكم ودقت أحسابكم ولؤمت . ويقال فى المثل للإنسان إذا سمن : دب قمله » .

(٥) التبريزى : « قيل : بنو قرد تبز نبزوا به » .

الضيِّق ، وذَنبكَ القصير ، بمجاذبةِ الأشراف ومخاطرتِهم ، حتى تفعلَ ما يفعله الفحل فى صِيالِه ؟ أنَّى لك ذلك ، والقِردُ لا ذَنَب له يُشاوِلُ به ويَخطِر ؟ وهذا مَثَلٌ ، وفيه مع الإزراء تهكُّم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب أن يَخطِروا بها » رجع الضمير إلى القبيلة بأسرها . وقوله «ولؤم بنى قِرد» الواو للابتداء ومفيدةٌ للحال : والمعنى اشتهارهم باللؤم حتى لا يَخفَى أمرُهم فى جوانب أرضهم ، وعند أعلام معارفهم .

وقوله « أبَى قِصَرُ الأذناب » تفسيرٌ لما أنكره بقوله : « وهل يستعدُّ القرد للخَطَران » ، وتفصيلٌ لما أبهمَه .

وقوله « لقد سَمِنَت قِعدانُكم » فالقِعدان : جمع القَعود ، وهى الناقة تُقتعَد ، أى تُركَب [1] .

وقوله « آلَ حِذْيَمٍ » إضافته لآل [2] إلى حِذْيم إضافةُ البعض إلى الكل . وكذلك فى قوله « يا قِرد حِذْيم » ، يكشف لك أنه قال : ولؤم بنى قِرد بكلِّ مكان . وإنما ينسُبُهم إلى حُسن تفقُّدهم لأموالهم ، وسوءِ إهمالهم لحسَبهم ، فقد سَمِنَت إبلُهم بحُسن رِعْيتِهم لها ، وتوفُّرهم على إصلاحها ، وترتيبِ عيشهم بتثميرها وتكثير نسلها ، وأنَّ أحسابَهم مضيَّعةٌ مهمَلة ، متروكة من التفقّد بأثرة ، لا تُرَمُّ فروعُها ، ولا تُضبط أصولُها ، ولا يُحتَفَظ بحُسْن المراعاةِ من السقوط والرُّزُوح هزيلُها .

---

(١) التبريزى : « ويقال : القعود : الذكر ، والقلوص : الأنثى من شواب الإبل . وإنما جعل قعدانهم سمينة لأنهم يؤثرونها باللبن على الضيف والجار ، فأحسابهم غير سمان لأنهم يضيعون الحقوق فلا حسب لهم يمدحون به » . وانظر ما سبق من الكلام على رواية هذا البيت وتوجيهه فى الحواشى السابقة .

(٢) ل : « للآل » .

٦٠٤

وقال أبو مُنازِلٍ[1] فى ابنه :

١ — جزَتْ رَحِمٌ بينى وبين مُنازِلٍ جزَاءً كما يَستنزِلُ الدَّيْنَ طالِبُه[2]

٢ — ترَبَّيْتُه حتّى إذا آضَ شَيْظَمًا يَكادُ يُساوِى غاربَ الفَحْلِ غارِبُه[3]

٣ — تغمَّدَ حَقِّى ظالمًا ولَوَى يَدِى لَوَى يدَهُ اللهُ الذى هو غالِبُه[4]

قوله « جزَتْ رَحِمٌ » دعاءٌ على ابنهِ مُنازل . وجعل فعل الجزاء للرَّحِم . والجازى هو الله تعالى ، لأنه السببُ فى الجزاء ، ولتكونَ الشكوَى أبلغ ، فيقول : جزَى الله مُنازِلاً على الرَّحم التى بينى وبينه وقد قطَعها ولم يقم بحقها ، جزاءً يَستوفِى له وعليه ما يَحِقّ ، كما يَستنزِل طالبُ الدَّينِ ممن عليه الدَّينُ حقَّه .

---

(١) التبريزى : « وقال فرعان بن الأعرف فى ابنه منازل » . وهو أحد بنى مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن مقاعس بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر لص مخضرم ، وله مع عمر بن الخطاب حديث فى عقوق ابنه منازل . المؤتلف ٥١ والمرزبانى ٣١٦ والإصابة ٧٠٠٩ . ولفرعان أخ يسمى « منازِل » أيضاً ، ومن عجب أن يروى له الآمدى فى المؤتلف ٥١ شعراً يذكر فيه عقوق ابنه له . لكن هذا الشعر رواه أبو رياش منسوباً إلى منازل بن فرعان بن الأعرف يشكو فيه عقوق ابنه المسمى « خليج » . فكأن هذه الأسرة ء يقة فى أن يعق الولد منهم أباه .

(٢) الأبيات فى معجم المرزبانى والإصابة . وفى معجم المرزبانى : « سواء كما يستنجز » .

(٣) المرزبانى وابن حجر : « وأطعمته حتى إذا صار » .

(٤) المرزبانى وابن حجر : « تخون مالى ظالما ولوى يدى » . وأنشد بعده التبريزى :

وكان له عِنــدى إذا جاعَ أو بكَى من الزّاد أحلى زادِنا وأطايبُه

وربَّيْتُــه حتى إذَا ما تركتُه أخا القومِ واستَغنَى عن المسح شاربُه

وجَمَّعْتُها دُهمًا جِـــلادًا كأنَّها أشاءُ نَخِيـلٍ لم تُقَطَّعْ جوانِبُه

فأخرجَنى منها سَـلِيبًا كأنَّنى حُسامٌ يَمـانٍ فارقَتْهُ مَضاربُه

أأَنْ أرعِشَت كفَّا أبيكَ وأصبحَت يَداكَ يدَىْ ليثٍ فإنّكَ ضاربُه

ثم أخذ يقتصُّ ما دار بينهما ، وما أوجب عليه الفَرض الذى ضيَّعه فقال : تربَّيْتُه طِفلاً وناشئاً ، حتى إذا صارَ شابًّا طويلَ القامة يكاد غاربُه يساوِى غارب الفحل ، أى بلغ قامتُه قامةَ الفَحْل . والغارب : مُقدَّم السَّنام . والشَّيظم : الطويل الغليظ . ويروى : « لربَّيْتُه » ، ويكون اللام جوابَ قَسَمٍ انطوَى عليه الكلام . ويقال : ربَّيْتُه وربَّبْتُه وتربَّيْتُه بمعنًى واحدٍ . حتى إذا آضَ ، أى إلى أن صار . وإذا جوابُه قولُه « تغمَّد حَقِّى » يريد : لمّا بلَغ هذا المبلغَ سَتَر حَقِّى ولم يَفِ به ، متعدِّيًا طَوْرَه ، وباخِسًا ما استوجَبْتُه عليه بالولادة والتربية ، فلمّا جاذَبْتُه بلسانى مَدَّ يدَه فلوَى يدى ، أى فتلَها وأزالَها عن حالها وهيئتها ثمّ قال داعيًا عليه : لَوَى يدَه اللهُ ، أى أشَلَّها وأبطَلَها ، وهو القادرُ على ذلك منه ، والغالب له وعليه[1] .

٦٠٥

وقال عارقٌ الطائىّ[2] :

١ ــ واللهِ لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكم ... لَـكَسا ٱلوُجوهَ غَضاضةً وهَوَانا

٢ ــ وسَلاسِلاً يُثنَيْنَ فى أعناقِـكُم ... وإذًا لَقَطَّـعَ مِنْـكم ٱلأقرَانا

٣ ــ ولَـكانَ عادَتُه على جارَاتِه ... مِسْـكا ورَيْطًا رادِعًا وجِفَـانا

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « له عليه » .

(٢) هو قيس بن جروة بن سيف بن وائلة بن عمرو بن مالك بن أمان بن ربيعة بن جرول ابن ثعل الطائى الأجئى ، نسبة إلى أجأ : أحد جبلى طيئ ، وهما أجأ وسلمى . وهو شاعر جاهلى . وعارق لقب له ، قالوا : سمى به لقوله :

لئن لم تغير بعض ما قد صنعتم ... لأنتحين للعظم ذو أنا عارقه

انظر الخزانة (٣ : ٣٣٠ ــ ٣٣١) والأغانى (١٩ : ١٢٧) والمزهر (٢ : ٤٣٨) وقال أبو رياش : ليس هذا الشعر للعارق ، إنما هو لثرملة بن شعاث الأجئى ، قاله على لسان عارق . وذكر التبريزى سبب هذه الأبيات مقارباً لما رواه المرزوقى ، ولكنه نسب هذه الأبيات النونية إلى ثرملة ، وذكر أنه قالها على لسان عارق لينجى عارقا من كيد عمرو بن المنذر .

لهذه الأبيات قصَّة طريفة ، وأنا أذكرها بما عَرَض من السَّهو فيها .

ذكر هشامٌ الكلبي أنَّ عمرو بنَ المنذر بن ماء السَّماء — وأمه هندٌ بنت الحارث المَلِك — كان عاقَد طيِّئًا ألاَّ يُغزَوْا ولا يُفاخَرُوا ، فاتَّفق أنْ غزا عمرٌو اليمامةَ فرجع مُنْفِضًا[1] ، فمرَّ بطيِّئ ، فقال زُرارة بن عُدُس : أبيتَ اللعنَ ، أصِبْ من هذا الحيِّ شيئًا . فقال : ويلك ، إنَّ لهم عَقْدًا ! قال : وإن كان ، فإنَّك لم تكتُب العَقد لهم كلِّهم . فلم يزلْ به حتَّى أصاب نسوةً وأذوادًا ، فقال فى ذلك قيسُ ابن جِرْوَة الأجئيّ :

ألاَ حَىِّ قَبْلَ البَيْنِ مَن أنتَ عاشِقُهْ ... ومَن أنتَ مُشتاقٌ إليــه وشائقُهْ

— وستجىء الأبياتُ فى هذا الباب من الاختيار من بَعْدُ ، لكن فى آخرها قولُه :

لئنْ لَمْ تُغَيِّرْ بعضَ ما قد صَنعتُمُ ... لَأَنْتَحِـيَنْ للعَظْمِ ذُو أنا عارِقُه

فلقِّب يومئذ بعارِق — فلمَّا بلغَ عمرَو بن هندٍ هذا الشعرُ قال له زُرارة : أبيتَ اللعنَ ، إنَّه لَيتوعَّدُك على انتقامه بزُعْمِه . فقال عمرٌو لتُرْمُلَة بن شُعاثٍ الأجئيّ : أيهجُونى ابنُ عمِّكَ ويتوعَّدُنى ؟ فقال : والله ما هَجَاك ، ولكنه قال :

والله لو كانَ ابنُ جَفْنَةَ جارَكُم ... ما إنْ كساكُم غَضَّـةً وَهوَانا

وسلاسِلاً يَبْرُقْنَ فى أعناقكم ... وإذًا لقطَّعَ منكمُ الأقرانا

ولكانَ عادَتُه على جِــيرانِه ... ذَهَبًا وَرَيْطًا رادِعًا وجِفَانا[2]

يعنى بابن جَفنة عمرَو بن الحارث ، وإنَّما أراد تُرْمُلَةُ أن يُقبِّح عليه[3]

(١) أنفض القوم : نفد طعامهم وزادهم . والإنفاض : المجاعة والحاجة وهلاك المال .

(٢) وكذا عند التبريزى . وفى ل : « مسكا وريطا » .

(٣) ل : « إليه » .

فَعْلَتَه ، ومع ذلك يُذهِبُ سخيمتَه على ابن عَمِّه ، فقال عمرو : والله لأقتلنّه ! فبلغَ ذلك عارِقًا فقال :

من مُبْلِغٌ عمرَو بنَ هِنْـدٍ رِسالةً إذا استَحْقَبَتْها العِيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

وستجىء من بعدُ أيضاً إن شاء الله .

قال الشيخ الإمام أبو عليّ رحمه الله :

وإذا تأمّلتَ ما اقتصصتُ ، بانَ لك أنَّ هذه الأبياتَ التى أوّلها : « والله لو كان ابنُ جَفْنَة » ، ليس بهجو لابن جفنة وإنّما هو مَدْحٌ له ، وقد عُيِّرَ بذكره عمرَو بن هند ، وأنّه لو تولّى من طيّئ ما تولاّه عمرو بن هند كان معامَلَتُه إيّاهم بخلافِ ما عامَلَهم به هو ، فتَصَوَّرَ[1] أنّها هَجْوٌ لابن جَفْنَةَ ، وجعل بدل « ما إن كسا كُم » : لـكَسَا الوجوه ، وبَدَل قوله « إذًا لقطَّع تلـكم الأقرانا » : منكم الأقرانا ، وبدل قوله « ولـكان عادَتُه على جيرانه » : على جاراته ، ومع هذه التّغييرات ليس يَخْلُصُ هَجْوًا .

قال أبو عليّ : وأنا أعودُ إلى عادَتى من تفسيرها وشرح معانيها :

قوله « غَضَّةً » فَعْلَةٌ من غَضَّ ، والغضاضة والغَضُّ : الفُتور فى الطَّرْفِ .

ونَصَب قوله « وسَلاسِلاً » على المعنى ، فهو من باب قول الآخر[2] :

يا ليتَ بَعْلَكِ قد غدَا متقلِّدًا سَيْفًا ورُمْحا

لأنَّ السَّلاسل ليس من كُسوة الوجوه ، فـكأنَّه قال : ما إن كسا كُمْ غَضَّةً ولا قلّد كم إذا غلّـكم سلاسِلَ تبرُق فى أعناقِـكم . وقوله « يُثْنَيْنَ » معناه يُعْطَفنَ ويُلْوَيْنَ . و « إذًا لقطّع تلـكُمُ الأقرانا » فالأقرانُ الحِبال ، والواحِدُ

(١) الضمير فى هذا لأبى تمام مختار الحماسة ، والتغييرات التى نص عليها المرزوقى هى تغييرات أبى تمام ، كما هى عادته ، انظر ما سبق فى مقدمة المرزوقى ص ١٤ .

(٢) هو عبد الله بن الزبعرى . الكامل ١٨٩ ليبسك . وانظر ما سبق فى حواشى ١١٤٧

قَرَنْ . وإذا رَوَيْتَ « يَبْرُقْنَ » فالمعنى ظاهر . ويشيرُ إلى ما لحقهم من جهة عَمْرو بن هِند . وقوله «إذًا» أجابَ لَوْ بإذًا كما أجابه باللام من قوله «اكسا» وبما على الأصل الأول[1] . ومعنى « لقطّع تلكم الأقرانا » أى لو كنتم مأسورين لكان يفكّم ، ويقطع تلك الحبالَ التى صارت إسارًا لكم . وإذا رُوِى « وإذًا لقطّعَ منكم الأقرانا » كان معنى البيت : يشدُّكم فى السَّلاسل ويبدّدُ جمعَكم . وقوله « ولكان عادتَهُ على جيرانه » ، يريد أنّه يفعل خلافَ ما فعله عمرُو بن هند ، لأنَّ عادتَه فى الجِيران أن يموِّلَهم ويصلَهم ، ويبرَّهم ويخلعَ عليهم ، ويَقْرِيَهم ويَمُونَهُم . وعلى الرواية الثانية يرميهِ ويقذِفه بالجارات ، ومعنى ذلك ظاهر . والرّادِع : المتغيِّر اللَّون بالطِّيب والخَلُوق . ويقال : تَرَدَّعَ بالخَلُوق ، إذا تَلَطَّخ .

٦٠٦

وقال آخر[2] :

١ — زعمتُمْ أنَّ إخوتَكم قُرَيْشٌ ... لَهمْ إلْفٌ وليسَ لكم إلَافُ

٢ — أُولئِكَ أُومِنُوا جُوعًا وخَوْفًا ... وقد جاعتْ بنو أَسَدٍ وخافُوا

يخاطب بنى أسد ويكذِّب دعواهم فى انتمائهم إلى قريش ، وتنسُّبهم بالقُربى والقرابة منهم ، فقال : ادَّعيتم أنَّ قريشًا إخوتُكم ، وسِيماءُ الكذِبِ ظاهرةٌ على هذه الدَّعوى ، لأنَّ لقريشٍ إيلافًا فى الرِّحلتين المعروفتين للتِّجارة ، وليس لكم ذا ؛ وقد آمنهم اللهُ تعالَى من الجُوع والخَوف ، وأنتم خائفون جائعون .

---

(١) أى على رواية : « ما إن كساكم غضة » .

(٢) هو مساور بن هند بن قيس بن زهير ، يهجو بنى أسد ، كما قال التبريزى ، وكما فى اللسان (ألف) . وقد سبقت ترجمة « مساور » فى الحماسية ١٤٨ ص ٤٣٠ .

وإنما يُشير إلى السُّورة المُنْزَلة : ﴿ لإيلاَفِ قُرَيْش إيلافِهِمْ . رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ ﴾ ... إلى آخرها . ويقال : أَلِفَ يَأْلَفُ إلفًا وإلاَفًا ، وآلَفَ يُولِفُ إيلافًا .

٦٠٧

وقال آخر(١) :

١ – إنْ يَسْمَعُوا رِيبَةً طارُوا بها فَرَحًا ... مِنِّى وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

٢ – صُمٌّ إذا سمعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ به ... وإن ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدهم أَذِنُوا

٣ – جَهْلاً عَلَىَّ وَجُبْنًا عن عَدُوِّهِمُ ... لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبُنُ

انتصب «فرحًا» على أنّه مفعول له ، وكان الواجب أن يقول : يطيروا بها فرحا ، لأنّه لا يجوز أن يُعملَ حرفُ الشَّرط فى الشَّرط بالجزم ويُجعَل الجوابُ فعلاً ماضياً فى الكلام ، وإن كان يجوز فى الشِّعر . ومعنى البيت الأوّل أنّهم إذا رأَوْا حسنةً كتموها ، وإذا رأوا سيِّئة أظهروها . وقوله « مِنِّى » أراد من جهتى . ومعنى « طاروا بها » أى كثّروها فى النَّاس وأذاعُوها ، ووَصَلوا القيامَ بالقعود فى نشرِها . وهذا ضدُّ ماذكَره من الدَّفْن فى قوله « وما سمعوا من صالحٍ دَفَنوا » فى المعنى .

وقوله « صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا » ارتفع صُمٌّ على أنّه خبر مبتدأ محذوف ، كأنَّه قال : هم صُمٌّ ، أى يتصامَمون عمّا أُنْسَبُ إليه من الخصال الصَّالحة . ويقال للمُعرضِ عن الشَّىء : هو أَصَمُّ عنه . على ذلك قوله :

* أَصَمُّ عما ساءهُ سَمِيعُ *

(١) هو قعنب بن أم صاحب ، وهى أمه ، واسم أبيه ضمرة ، أحد بنى عبد الله بن غطفان . وكان فى أيام الوليد بن عبد الملك . والقعنب : الصلب الشديد من كل شىء . عن شرح التبريزى ، والتنبيه لابن جنى .

قال : ومتى ذُكِرتُ بشَرٍّ أدركوه وعلِموه . ويقال : أَذِن يأذَن أَذَنًا . قال :

* بِسَماعٍ يأذَنُ الشيخُ لَهُ[1] *

ويجوز أن يكون اشتقاقه من الأذن الحاسة . وانتصَب « جهلا » لأنه مصدر لِعلَّة . ينسُبُهم إلى أنهم مع الأقارب يستعملون الجهل والحسد عليهم ومعهم ، وأنهم جبناء عن الأعداء ضعفاء عَجَزة إذا طُلِب كفايَتُهم ، لا يصلحون لدفع مكروه ، ولا لجلب محبوب . ثم سوّأ عليهم فعلَهم فقال بِئسَتِ الخصْلَتَان جهلُهم على أقاربهم ، وجُبْنُهم عن أعاديهم . وهذا تأكيد فى التعبير ، ومبالغة فى التقريع .

٦٠٨

وقال منصور بن مِسْجَاحٍ[2] :

١ — ثَأَرْتُ رِكابَ العَيرِ مِنْهُمْ بِهَجْمَةٍ ... صَفَايا ولا يُبْنَيا لمن هو ثَائِرُ[3]

٢ — من الصُّهْبِ أثْنَاءً وجُذْعًا كأنَّها ... عَذَارَى عليها شَـــارةٌ ومَعاصِرُ

قوله « رِكابَ العَيرِ » يُرْوَى « رِكاب القَوْمِ » . وأراد بالعَيرِ السَّيِّد ، وكان استِيقَ لرئيسهم إبلٌ فارتَجَعَ بدلاً منها على ما وصَفه . ومعنى « ثأَرْتُ رِكاب العَيْر » أى أدركت الثَّأر فيها منهم بأنْ أخذتُ هَجْمَةً من الإبل — وهى المائة وما داناها — غِزَارًا سمينات ، والثَّائر ليس من حقّه أن يُبْقِىَ ، والأصل فى الثائر القاتِل ، فوضَعَه موضعَ الواتِر للمنتقِم . يقال : ثأرْتُ فلانًا وثأرتُ بفُلانٍ ، إذا قتلت قاتِـلَه .

(١) لعدى بن زيد العبادى ، كما فى اللسان (أذن) . وعجزه :

* وحديث مثل ماذى مشار *

(٢) هو منصور بن مسجاح — ويقال مسحاج بتقديم الحاء على الجيم — بن سباع الضبى : شاعر جاهلى . معجم المرزبانى ٣٧٣ .

(٣) كذا فى ل والتبريزى والمرزبانى . وفى الأصل : « عنهم بهجمة » .

وقوله « من الصُّهب أثناءً وجُذْعًا » ، هذا تفسير للهَجْمَة ، وتفصيل للجملة ، يريد : من الإبل الصُّهب . والصُّهْبة : حمرةٌ يعلوها بياض . وتَعلَّقَ من بقوله هَجْمَة . وأثناء : جمع ثَنِيّ . والجُذْع : جمع جَذَع ، وهو كخُشُب وخَشَب . والحجة فى أنَّ العَيْرَ السيِّدُ قولُه :

زَعَمُوا أنَّ كلَّ مَن ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مَوَالٍ لنـــا وأنَّا الوَلاءُ[1]

وهذا أحد الوجوه التى قيل فيه . وقوله « كأنَّها عَذارَى » يعنى حُسنَها . والمَعاصِر : جمع المُعْصِر ، وهى من النِّساء التى شارفَت الإدراك والبُلوغ . قال :

* قد أَعْصَرَت أو قد دَنَا إعْصَارُها[2] *

والشَّارة : الهيئة . ويقال : رَجُلٌ شَيِّرٌ صَيِّرٌ ، من الصُّورة والشَّارة .

٣ — فإنْ نَلْقَ من سَعْدٍ هَنَاتٍ فإنَّنا نُـكاثِرُ أقوامًا بهمْ ونُفَاخِرُ[3]

٤ — لقد كانَ فيكُمْ لو وَفَيْتُمْ لجارِكُمْ لِحًى ورِقَابٌ عَرْدَةٌ ومَنَـــاخِرُ[4]

بيَّنَ أنَّ الذين أدركَ منهم ما أدركَ هم بنو سعد . وهذا الكلام تهكُّم وسُخرِيَّة . كأنَّه يريد : إنِ اتَّفَقَ من سعدٍ الزَّلَّةُ بعد الزَّلَّة ، والسَّقطة المنكَرة بعد السَّقطة ، فإنّا على ذلك نُكاثِر بهم الأعداء . ونُفاخِر بمكانِهم . ثم أقبلَ عليهم وقد نقل الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب ، فقال : لو رُمْتُمْ الوفاء لجارِكم ، ولم تَطمَعوا فى ماله لَقَرُبَ ذاك عليكم ، فإنَّ آلاتِ الوفاء مُعَدَّةٌ فيكم : لِحًى موفورةٌ ، ورِقابٌ غليظة ، ومَناخِر واسعة منتفخة .

---

(١) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته .

(٢) الرجز لمنظور بن مرثد الأسدى ، فى اللسان (عصر) . وقبله :

جارية بسفوان دارها تمشى الهوينى ساقطا خمارها

(٣) المرزبانى : « بها ونفاخر » .

(٤) بعده عند التبريزى :

فبَهْــرًا لمن غرَّت كَفالةُ منقرٍ وإنْ كان عقــدٌ بينَهمْ متظاهِرُ

٦٠٩

وقال حَوَّاسٌ الضَّبِّيُّ لامرأة[1] :

١ ــ واللهِ ما أَخْشَى حَكِيماً وَرَهْطَه ولكنَّما يخشى أباكِ حَكِيمُ[2]
٢ ــ وَجَدْتِ أباكِ تابعًا فتبِعْتِهِ وأَنتِ لِعُهَّارِ الرِّجال لَزُومُ

رَمَى المرأةَ المُخاطَبَةَ وقَذَفها بحكيم ، فقال لها مُعَيِّرًا ومُشَهِّرًا بها : إنِّى لا أخافُ صاحِبَكِ حكيماً ولا عشيرتَه ، ولا أحتشِمُهم فيكِ ، ولكنْ حكيمٌ يخشى أباكِ لاجتماعه معك على الفاحشة . ثم قال : تعاطِيكِ الفُجُورَ وِراثةٌ ، لأنَّكِ وجدتِ أباكِ فى الأُبْنَةِ تابعا لسَلَفه فيها ، فاقتديتِ به ، فهو يَطلب مَنْ يشفيه مِن دائه ، وأنتِ أيضاً شديدةُ اللِّزام للزُّناةِ والفُسَّاق ، والولَد يتقيَّل أباه[3] .

٣ ــ على كلِّ وَجْهٍ عائذِيٍّ دَمَامَةٌ يُوافِى بها الأحياءَ حِينَ تقُومُ[4]

---

(١) هو جواس بن نعيم، أحد بنى حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر ابن سعد بن ضبة . المؤتلف ٧٥ وشرح التبريزى . وهذه الأبيات يقولها ردا على أبيات قالتها امرأة من عائذة بن مالك ، وأنشدها التبريزى . وهى :

متى تلقَ جوّاسًا وإنْ كان مُحرِما يَقُلْ لك هل تَخشَى علىَّ حكيما
وما لىَ لا أخشَى عليك مجرَّبًا أخا ثقة ينعَى قتيلاً كريما
متَى تلقَه يَعدُو به الوَردُ جائلا بِشكّته تلقَ الألدَّ الغَشُوما

(٢) التبريزى : « قيل إن الصحيح من الروايات : ولكنما يهواك أنت حكيم . وعلى هذا يجعل حكيماً عاهراً ورماها به . وإذا قلت : ولكنما يخشى أباك حكيم ، فمعناه لأنه منك بسبيل » .

(٣) يتقيل أباه : ينزع إليه فى الشبه .

(٤) التبريزى : « حين يقوم » ، أى حين يقوم فى مجالس الملوك .

٤ – وَأَوْرَثَهَا شَرَّ التُّرَاثِ أَبُوهُمُ قَمَاءَةَ جِسْمٍ والرِّدَاءُ ذَمِيمُ[1]

تعدَّاها إلى فَصيلتهما بل قبيلتهما فقال: على وجه كلِّ رجلٍ من بني عائذةَ قُبحٌ وخِزْى، إذا قامت أحياء العرب في أسواقهم ومجامعهم يوافيهم به. والمعنى أنهم مشهورون باللُّؤم ودناءةِ النُّفوس، فوجوههم مسودَّة بالعار، مشوَّهة بسوء الفَعال عند القبائل، فمتى وافَوْا يوماً مجموعاً فيه الناسُ وُجدَ آثارُ الخِزىِ، وغَضاضَةُ الطَّرْف للخَزَاية، تلُوحُ على صفَحات وُجوههم. ودمامَةُ الوجوه ضربَها مثلاً لذلك.

وقوله: «وأورثها»، يريد أنَّ اللُّؤمَ فيهم وِراثة، وقد عَرَفوا ذلك من أنفسهم واعتَرفوا به، فتَرى أجسامَهم في المحافل والمَشاهِد قَميئَةً تصاغُراً وتذلُّلاً، وتقاصُرًا وتخشُّعاً. وقد ردَّاهم اللهُ برداءِ أعمالهم من الغَدْر والخيانة، والغُلول والسَّفاهة؛ فرادؤُهم مذمومٌ في الألسِنة عند الخاصَّة والعامّة. ويجوز أن يكون المراد أنّ سيماهم كالرِّداء عليهم، فهم مذمومون لها وعليها، ويُروَى: «والرُّوَاء دَميم[2]»، يعني قُبح الطّلعة. ودميمٌ: اسم الفاعل من دَمُمْتَ دَمامةً. وفعُلت في المضاعف قليل. والرُّوَاء يجوز أن يكون فُعالاً من الرُّؤْيَة، ويجوز أن يكون من الرِّيّ.

٥ – كأنَّ خُروءَ الطَّيْرِ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ إذا اجتمعتْ قَيْسٌ مَعًا وَتَمِيمُ

٦ – مَتَى تَسْأَلِ الضَبِّيَّ عَنْ شَرِّ قَوْمِهِ يَقُلْ لَكَ إنَّ العائِذِيَّ لَئِيمُ

لمَّا كان يوصَف الوَقُور المتثبِّت في الأمور إذا حَصَل مع أشباهه من أهل

(١) ل: «أورثهم» ورسم فوقها «نخ ثها» أى أنها في نسخة «أورثها». وفي التنبيه لابن جنى: «قال أبو على – يعنى الفارسى – كتبنا منذ أربعين سنة: يحتمل الرواء أمرين: أحدهما أن يكون فعالا من رأيت لأنه يدركه الناظر، غير أنه اجتمع على تخفيفه. والآخر أن يكون فعالا من الرى. قال: وذلك لأن للريان نضارة وحسنا. فقوله اجتمع على تخفيفه يدلك على أنه غير مهموز العين. ومنهم من يهمزه».

(٢) هي رواية التبريزي.

الأناة والرِّفق والرَّزانة وسكونِ الجأش فى منتدًى لهم، وتناجَوْا وتشاوروا، أو حضروا فى مجلسٍ مُحْتَشَمٍ فتجاذَبوا وتناظروا، بقولهم: كأنّ على رُءوسهم الطَّير، وهذا التشبيه إنَّما حَصَل على أنَّهم من السُّكون ومفارَقة التَّعجُّل بمنزلةِ مَنْ على رأسه طَيْرٌ فيخافُ فى تحرُّكه ذَهابَها وطيرانَها؛ ولمَّا كان هذا الشَّاعرُ يهجو بنى عائذةَ ويَهزَأ بهم، جعلَ بدل ذلك القولِ «كأنّ خُرُوءَ الطَّير فوقَ رءوسهم».
وقوله «إذا اجتمعَتْ قيسٌ معًا وتميم» بيانٌ لاختلاطهم بأهل الحَلِّ والعَقْدِ مِن وُجوه القبائل، ورُؤساء المحافل. وكان الحُكْمُ أن يقول: إذا اجتمعت قَيْسٌ وتَميمٌ معًا، فقدَّم «مَعًا» لأنَّ العاطف يُذَبِّبُهُ على موضع المعطوف.

وقوله «متى تسأل الضبّىّ عن شرِّ قومه»، يروى: «عن سِرِّ قومه»، وهو حَسَنٌ، والمعنى أنَّهم لئامٌ باعترافٍ مِن قومهم به، واتِّفاقٍ منهم عليه، لكنَّهم يُسِرُّون أمْرَهُمْ ويُخفُونه.

٦١٠

وقال مُحْرِزُ بنُ المُكَعْبِرِ الضَّبِّيُّ(١):

١ — أبلِـغْ عَدِيًّا حيثُ صارَ بها النَّوَى ... وليسَ لِدَهْـرِ الطَّالِبِينَ فَنَاءُ

٢ — كُسَالَى إذا لاقَيْتَهمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ ... يُلَهَّى به المَتْبُولُ وَهْوَ عَنَاءُ(٢)

٣ — أُخَبِّرُ مَنْ لاقَيْتُ أَنْ قَدْ وَفَيْتُمُ ... ولو شِئْتُ قال المُنَبِّئُونَ أَساءُوا

(١) يقولها لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، كما ذكر التبريزى. وقد مضت ترجمة «محرز» فى الحماسية ١٨٥ ص ٥٧٢. قال التبريزى: «كان محرز بن المكعبر جارا لبنى عدى بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم، فأغار بنو عمرو ابن كلاب على إبله فذهبوا بها، فطلب إليهم أن يسعوا له، فوعدوه أن يعملوا، فلما طال ذلك عليه ورآهم لا يصنعون شيئاً أتى المخارق والمساحق ابنى شهاب المازنيين، وهما من بنى خزاعة، فسعيا له بإبله فرداها عليه».

(٢) كسالى فى النسختين بفتح الكاف، وفى التبريزى بضمها. وهما جمعان صحيحان لكسلان.

يقولُ : أدِّ إلى بنى عَدِيّ رسالتى حيثُ استقرَّت بها النّوَى[1] بأنَّ زمنَ طُلّابِ الأوتار فيما عليهم مِن إدراك الثّأر قد اتّصَل وامتدّ ، فليس ينقطعُ لكسلهم عن السّعى فى رِدْءِ المُغَارِ عليه[2] ، واستيطائِهم مراكبَ العَجْز عن نُصْرَتِهِ ، غير مواعيدَ خاليةٍ من الفِعل يقرِّبونها ، وأقوالٍ مُزخرَفة عند الالتقاء يبذُلونها ، إذا اعتمَدها الموتور انصرفَ بها مغرورا ، فكانت عند السّامعين لها ضَلالاً وبُورًا ، وعَنَاء للقُلُوب والجوارح ، لا يُحْلَى منه بطائل ، ولا يَرْجِعُ على أحَدٍ بعائِدٍ . هذا وأنا أُحَسِّنُ أمْرَكُم ، وأقول لمن يسأل عن أخبارنا وأخباركم : إنّهم قد وفَوْا بالعَهد ، وأدَّوْا ما لزمهم من النُّصْرَةِ بحقِّ الجوار والعَقْد ، لكنْ للأمور أوقاتٌ ، وللأقضية آجالٌ وآمادٌ ، فينثنِي الذَّمُّ عنكم ، وينحطّ العارُ دونَ فِنائكم ، ولو شئت لقال السّائل والسّامع : أساءوا حين بدّلوا الخُفَارة بالإخْفَارِ ، وضَيَّعُوا الحُقوقَ بالتّقصير والإقصار : وقوله « أن قد وَفَيْتُمُ » أنْ فيه مخفّفة من الثّقيلة ، واسمه مضمَرٌ ، وهو ضمير الأمر ، والجملة فى موضع الخبر . وقوله « غَيْرَ مَنطِق » انتصَب على أنّه استثناء خارج . و « يُلَهَّى به » من لَهَوْتُ عن كذا ولَهِيتُ ، ألْهُو لَهْوًا ، وألْهَى لُهِيًّا ، إذا انصرَفْتَ عنه . والمَتْبُول : المُصاب بِذَحْلٍ وتَبْلٍ .

٤ ــ لَهُمْ رَثْيةٌ تَعْلُو صَرِيمَةَ أمْرِهِم ... وللأمْرِ يَوْمًا راحَــةٌ فَقَضَاءُ[3]

٥ ــ وإنِّى لَرَاجِيكُمْ عَلَى بُطْءِ سَعْيِكم ... كما فِى بُطونِ الحامِلاتِ رَجَاءُ

الرّثْية : الضّعف . والصّرِيمة : ما يُقطَع من العزيمة ويُجزَم إمضاؤُه بعد العقيدة ، فيقول مصوِّرا حالَهم فى التّفريط والإهمال : متى همُّوا بإنفاذِ عزائمهم وتشديد شكائمهم ، وإنجاز ما يُتَنَجَّزُ عليهم من مواعدِهم ، أو يهتمّون لرَحْضِ

(١) ل : « بهم النوى » .

(٢) الردء : العون .

(٣) التبريزى : « ريثة » بتقديم الياء . وقال فى شرحه : « ريثة : إبطاء ورثية ضعف » .

دَرَنِ العارِ عن شِيَمِهم وأخلاقهم، ولِسدِّ طريق العار[1] والتعيير عن مذاهبهم وأفعالهم، علا هَمَّهم وهِمَّتهم وَهْنٌ وفَشَل، ومَلَكَ قِيادَهم ومِقْوَدَهم ضعفٌ وكسل. ثمّ أخذ يتهكّم ويهزأ فقال: والمرء في أمرِه يَمضي يوما ويكفُّ يَوْمًا، فما يَجْبُرُ كَسْرَ التَّعَبِ إلاَّ ما يتعقَّبه من الرّاحة.

وقوله «فإنِّي لَراجيكم على بُطْء سعيكم»، يريد أنهم على تباطئهم وتأخُّر فعالهم عن مقالهم مرجوّون، كما أن الحاملات على تأخر وضعهنّ مرجُوّات، فأنا ناظرٌ في أعقاب الأمَل متى يتحقَّق.

وقوله «فقضاء» أي فقضاؤ يوماً آخر. وقوله «كما في بُطون الحاملاتِ رَجاء» أي أرجوكم مثلَ ذلك الرّجاء.

٦ — فَهلاَّ سَعَيْتُمْ سَعْيَ عُصْبَةِ مَازِنٍ وهَلْ كُفَلائِي في الوَفَاءِ سَواءُ

٧ — لَهُمْ أَذْرُعٌ بادٍ نَواشِرُ لَحْمِها وبَعضُ الرِّجالِ في الحروبِ غُثاءُ

٨ — كأنَّ دنانيرًا على قَسِماتِهم وإنْ كانَ قد شَفَّ الوُجُوهَ لِقَاءُ

هذا الكلام بعثٌ وتحضيض. وهلاّ: حرف إغراء وتحضيض. وذكر بني مازنٍ تحريكاً منهم، وليوجِعَهم بتفضيل غيرِهم عليهم. وقوله «وهل كُفَلائي»، فالكفيل: الضّامن للشيء: وهذا المصراعُ التفاتٌ، كأنّه لما هَجَّن فِعلَهم وقرّعَهم، وأطرى غيرَهم مؤثِراً عليهم. التفَتَ إلى مَن حوله فقال: وهل ضُمَنائِي مُستوُون في الوَفاء فأُجرِيَهم مُجرًى واحدا. وهذا أبلغُ من كلِّ نكير، ومن كلِّ هَجوٍ فظيع. و«سَواء» وإن كانَ في الأصل مصدرًا؛ فقد صار هنا كأسماء الفاعلين لنيابته عنها، لذلك صَحّ أن يَعمل في الظَّرفِ قبله وهو قوله «في الوفاء»، لأنَّ المصادرَ لا تعمل فيما قبلَها إلّا إذا أُمِرَ بها، كقولك: ضربًا زَيْدًا، أو إذا أُجرِيَ هذا المُجرَى[2].

(١) هذا ما في ل، وهو الموافق لما بعده. وفي الأصل: «العاب» بمعنى العيب.

(٢) ابن جني: «الظرف متعلق بسواء لا بكفلائي. ألا ترى أن معناه: وهل من يكفلني متساوون في الوفاء».

وقوله «لهم أذرُعٌ» صفةٌ للعصبة المازنيّة. وهم يتمدّحون بالهُزال. والنّواشر: عُروقُ ظاهرِ الذِّراع. وقوله «وبعضُ الرِّجال فى الحروب غُثاء»، تعويضٌ بالآخَرين، وهم بنو عدىّ. والغُثَاء: ما يعلو السَّيل من الغَثَر والزَّبَد. والمعنى: بعضُهم لا غَنَاء عنده ولا كِفاية، فتَراه كيَبيس النَّباتِ وقد احتمله الماء.

وقوله «كأنّ دنانيرًا على قِسماتهم»، القِسمات: الوُجوه، وقيل هى مَجارى الدُّموع. ويقال: وَجْهٌ مُقَسَّم، أى حسن، والقَسَامة: الحُسْن. ومرجعه إلى القِسْمة، كأنَّه مُسِحَ كلُّ جزء من الوَجه بقِسمٍ من الجمال، فتعادلت الأجزاء وحَسُنَت. وقوله «وإنْ كان قد شَفَّ الوُجوهَ لِقاء» تعريضٌ أيضاً، والمعنى أنَّ وجوهَهم تُشْرِقُ فى الحرب وتُضىء، إذا صارتْ وجوهُ غيرِهم مشفوفةً متغيِّرة. ويقال: شَفَّهُ المَرَضُ، إذا أذابَه وهزَلَه. وذِكْرُ الدَّنانير فى إثباتِ ماءِ الوجه ونَضارة الحُسْن قد جاء فى النَّسيب، ألا تَرى قوله:

النَّشْرُ مِسْـــكٌ والوجوهُ دنا نيرٌ وأطرافُ الأكُفِّ عَنَم[1]

٦١١

وقال شَمْعَلَةُ بن الأخْضَرِ[2]

١ ــ وَضَعْنا على الميزانِ كُوزًا وهاجِرًا فمالَتْ بَنُو كوزٍ بأبناءِ هاجِرِ

٢ ــ ولو مَلأتْ أعفاجَها مِن رثيثةٍ بنو هاجِرٍ مالَتْ بِهَضْبِ الأكادِرِ[3]

٣ ــ ولـكنَّما اغتَرُّوا وقد كان عندَهُم قَطِيبانِ شَتَّى مِنْ حَلِيبٍ وحازِرِ

هذا الكلامُ هُزْءٌ وسُخْرِيَّةٌ. فيقول: نظَرْنا ما بين كُوزٍ وهاجِرٍ بالمقياس

(١) البيت للمرقش الأكبر. وهو البيت ٦ من المفضلية ٥٤.

(٢) التبريزى: «وقيل: منذر بن الرقاد بن ضرار بن عمرو الضبى». وقد سبقت ترجمة «شمعلة» فى الحماسية ١٨٣ ص ٥٦٥. وأما منذر بن الرقاد فلم نعثر له على ترجمة.

(٣) ل والتبريزى: «ولو ملأت».

القائم ، والميزان الحاكم ، فوجدنا كِفَّةَ بنى كُوزٍ أرجحَ وأوزَن ، ولو عَلِمَتْ بنا وبفعلنا لملأتْ بُطُونَها من الرَّثيئة ، فزادت زِنَتُها على هِضاب الأكادر ، لكنَّها أصيبت غَفْلَتها ، وفُوجِئوا بالوَزْنِ قبل الشُّرب والامتلاء ، والتجرُّد للأمر والاستعداد ، وكانت الحالُ مُساعِدَةً ، وأنواعُ الحليبِ ممكِنةً ، وذاك أجْلَبُ لحسرتهم ، وأدعى إلى ندامتهم .

والأعفاج : الأمعاء ، والواحد عِفْجٌ(١) . ويقال : اغْتُرَّ فلانٌ ، أى أخذ على غِرَّة . والقَطيب : الممزوج . والحازرُ : الحامض . والرَّثيئة : المجموع من الحازرِ والحليب . وقد رماهم بأنَّ طعامَهم ذلك لا غير .

٦١٢

وقال قِرْوَاشُ بن حَوْطٍ الضَّبِّىُّ(٢) :

١ — نُبِّئْتُ أنَّ عِقالاً ابْنَ خُوَيْلِدٍ ... بِنِعَافِ ذِى غُذُمٍ وَأنَّ الأَعْلَما(٣)

٢ — يَنْمِى وَعِيدُهُما إِلَىَّ وَبَيْنَنَا ... شُمٌّ فَوَارِعُ مِنْ هِضابِ يَرَمْرَما

الأجود فى العَلَم وقد وُصِف بالابن أو الابنة ، إذا كانا مضافين إلى عَلَمٍ ، أو ما يجرى مجراه ، تَرْكُ التنوين فيه . وقد نوَّن هذا الشَّاعرُ عِقالاً ، وإذْ قد فعلَ ذلك فالأجود فى ابن خويلد أن يجعل بدلاً ، ويجوز أن يُجعَل صفةً على اللغة الثانية(٤) .

---

(١) العفج ، بالفتح ، وبالكسر ، وبالتحريك : وككتف .

(٢) ذكره المرزبانى فى المعجم ٣٣٩ وقال : قرواش بن حوط بن أنس بن صرمة بن زيد بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن ضبة . جاهلى » .

(٣) الأبيات ١ ، ٢ ، ٥ فى معجم البلدان (غذم) و ١ ، ٤ ، ٥ ، ٣ فى الحيوان (٦ : ٣٨٣) و ٣ ، ٤ ، ٥ فى معجم المرزبانى . التبريزى : « عذم » بالعين المهملة ، تحريف . وذو غذم : موضع من نواحى المدينة .

(٤) أضف إلى هذا ما ورد فى الحماسية ٥٩٥ ص ١٤٣١ ، وهو نص نادر .

والنِّعاف : جمع نَعْفٍ ، وهو المكان المرتفع فى اعتراضٍ ، وأعلى كلِّ شيء ؛ ومنه مَناعِفُ الجبل . والأعلم : اسم رَجُل ، وأعادَ «أَنَّ» معه توكيدًا ، والخبر قوله « يشى » ، والعامل فيه أنَّ الأولى ، لأنّ الثَّانيةَ لا يُعتَدُّ بها عامِلا وإن كانَ مؤكِّدا . ومثل هذا قولُ الُحطَيْئَة :

* إنَّ العزَاءَ وإنَّ الصبرَ قد غُلِبَا[1] *

ويكون على هذا الألف فى «غُلِبَا» ضمير المثَّنى . والشُّمُّ : الجبال المرتفعة . والفوارع : العوالى . ويَلمْلَمَ : عَلَمُ جبل[2] ، ويروَى : « يرَمْرَمُ » .

٣ — غُضَّا الوَعِيدَ فما أكونُ لِمُوعِدِى قَنَصًــا ولا أُكلاً له مُتَخَضَّما[3]

٤ — ضَبُعًا مُجَاهَرَةٍ ولَيْثَا هُدْنَةٍ وثُعَيْلِبَا خَمَــرٍ إذا ما أَظْلَمَا

٥ — لا تَسْأَما لِى من دَسِيسِ عَدَاوَةٍ أبدًا فليس بِمُشْــئِمِى أن تَسْأَمَا

يقول : أقْصِرَا إليكما من تهدُّدِكما ، فإنِّى لا أحتفل بكما ولا بوعيدكما ، ولا أُصطاد بإرعادِكما وإبراقكما ، ولا أصير مَأْكُلَةً لأحدٍ فيأْكلنى بفمه كُلِّهِ خَضْما كما يُؤكل الرَّطْب اللِّيِّن ، لا قَضْماً . ثم أَخَذَ يُعدِّد مخازيَهما فقال : عند المكاشَفة والملاقاة تَخْبُثَان وتَحْمُقان ، خُبْثَ الضَّبُع وحَماقَتَهُ ، وعند الاصطلاح والهُدُوِّ تَشْجُعان وتُقْدِمان إقدامَ الأسَد وشجاعتَه ، وفى ظلام الليل تسرقان وتحتالان على الناس ، وتُراوِغان مُرَاوَغَةَ الثَّعلب وسَرِقَتَه . والخَمرَ : ما واراك من شجر

(١) صدره فى ديوان الحطيئة ص ٥ :

* قالت أمامة لا تجزع فقلت لها *

(٢) على ليلتين من مكة .

(٣) روى بعده الجاحظ فى الحيوان .

فمتى أُلاقِكُما البِرازَ تُلاقِيا عرِكاً يفُلُّ الحدَّ شاكاً مُعْلِما

وغيره. و « إذا ما أظْلمَا » أى دَخَلَا فى الظلام. والعامِلُ فى إذا ما دَلّ على جوابه وقد تقدَّمه.

وقوله « لا تسأما » يقول: لا تَمَلاَّ مُدَاجاتى وطَلَبِ الفوائل لى فى السِّرِّ وبظهر الغَيب، فإنِّى لـكما على مِثل حالتكما لى، ولا تفتُرا عنه فإنِّى لا أفتُر ولا أَمَلّ وإن مَلِلْتما أيضاً، فإنّ مَلاَلَـكما لا يُكسِبُنِى فتورًا ولا إمساكا. والدَّسُّ: إدخالُك شيئاً تحت شىء، وهو الإخفاء(١). وفى القرآن: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ﴾ والدَّاسوس والجاسوس يتقاربان. ويُروى: « مِن رَسِيسِ عداوةٍ »، ويكون مثلَ رَسيس الحُمَّى والهوَى ورَسِّهِما، لما يبدأُ منهما. وموضع « أن تَسْأَما » من الإعراب رفعٌ على أن يكون اسمَ ليسَ، كأنّه قال: ليس بمِيئِى سآمَتُـكما فهو كقولك: ليس بمنطَلِقٍ عَمْرٌو.

٦١٣

وقال سُوَيْدُ بن مَشْنُوءٍ(٢):

١ — ذَرِى عَنْكِ مَسْمُودًا ولا تَذْكُرِنَّه إلىّ بسوءٍ واعْرِضِى لِسَبِيلِ

٢ — نَهَيْتُكِ عنه فى الزمان الذى مَضَى ولا يَنْتَهِى الغاوِى لأوّلِ قِيلِ

قوله « ذَرِى »: أى دَعِى. والأمر يُبْنَى على المستقبل، وهو يَذَر، وقد استُعمِل. فأما وَذَرَ فمِن المرفوض استعماله استغناءً عنه بتَرَك. وقوله: « لا تذكرِنّه إلىّ » كسَرَ الراء معه لأنه مخاطِبةٌ مؤنّث، والأصل تذكُرِينَنَّ، فحذف النون الأولى للجزم، ثم حذف الياء لالتقاء الساكنين، فصار تَذْكُرِنّ.

(١) هذا ما فى ل. وفى الأصل: « وهو فى خفاء ».

(٢) ذكره أبو الفرج فى الأغانى (١٦: ٣٨) فى خبر مع الحطيئة، وقال: إذ حليف بنى عدى بن جناب الكلبيين.

والمعنى : لا ينتهِينَّ ذِكرُه إلىّ ، ولا يتجاوزَنَّ ذكرُه إلىّ بسوء . فعُدِّى تَذكُرِنَّ تعديةَ تتجاوَزِنَّ إلىّ ، حَملاً على المعنى . ومما جاء على هذا قوله :

إذا تَغَنَّى الحَمَامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِي ولو تَعَزَّيْتُ عنها ، أُمَّ عَمَّارِ[1]

عَدَّى هَيَّجَنى تعديةَ ذكَّرَنى ، لأنه فى معناه . وهذا كما يحملون فى التَّعدية النَّقيضَ على النَّقيض ، كقوله :

إذا رَضِيَتْ عَلَىَّ بنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعجبنى رِضاها[2]

عَدَّى رَضِيَتْ تعدية غَضِبَتْ لأنه نقيضُه ، كما عَدَّى هَيَّجنى تعديةَ ذكَّرَنى لأنه نظيره . وكما حُكِى :

* قد قَتَل اللهُ زياداً عنِّى[3] *

عَدَّى قَتَل تعديةَ صرَف .

وقوله « نَهيْتُك عنه » ، يقول : كنت أحذِّرُكِ عنه فيما سلَفَ من الزَّمان وتقضَّى ، لكنَّ الجاهلَ لا يرتدع للزَّجْرَةِ الأولى حتَّى يُردَع مرةً بعد أخرى . وهذا مَثَلٌ ، أعنى قولهُ :

* ولا ينتهى الغاوِى لأوَّلِ قيلِ *

وقوله « واعرِضى لسبيل » أى اعرِضى إلى طريقٍ غيره ، واذكريه بسُوء . ويقال : لا تَعرِضْ عِرْضَهُ ، أى لا تذكرْه بسوء .

---

(١) للنابغة الذبيانى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ وكتاب سيبويه (١ : ١٤٤) . وقد سبق فى ٣١٥ .

(٢) للقحيف العقيلى فى الكامل ٣٤٢ ، ٤٨٨ .

(٣) للفرزدق فى ديوانه ١٨١ ، واللسان (قتل) ، قاله حين خرج من المدينة بعد موت زياد ، وكان زياد قد نفاه وآذاه ونذر قتله . وقد سبق فى ٣١٥ .

٦١٤

وقال مَعْدَان بن عُبَيْد[١] :

١— عَجِبْتُ لِعِبْدَانٍ هَجَوْنى سَفَاهَةً أَنِ اصطَبَحُوا مِنْ شاءِهِم وتَقَيَّلُوا[٢]
٢— بِجَادٌ ورَيْسَانٌ وفِهْرٌ وغالبٌ وعَوْنٌ وهِدْمٌ وابنُ صِفْوَةَ أَخْيَلُ
٣— فأمَّا الذى يُحْصِيهِم فمُكَثِّرٌ وأما الذى يُطرِيهِمُ فمُقَلِّـــلُ

يقال : عَبْدٌ وأعْبُدٌ وعِبَادٌ وعبِيدٌ وعِبِدَّى وعِبْدَانٌ ومَعْبُوداء ومَعْبَدَةٌ وعُبُدٌ. فبعضُ هذه الأسماء مِمَّا صِيغَ للجمع ، وبعضها جَمعٌ فى الحقيقة . وانتَصَب « سَفَاهَةً » لأنه مفعولٌ له . وهم يَكْنُون عن اللِّئام بالعَبِيد والعِبْدَان ، وبالقَزَم والقُزْمَان[٣] . و « أن اصْطَبَحُوا » يريد لأن اصطبَحوا ، أى شَرِبوا الصَّبُوحَ ، وهو ما يُشرب صباحا . والقَيْل ، وهو شرب نِصف النَّهار . وكما قال تقيَّلُوا ، يقال تصبَّحوا أيضاً . والمعنى عَدَوْا طَورَهم فهجَوْنى ، لأنهم رأوا بأنفسهم ما لم يعهدوه . فطغَوْا عِند الغِنَى ، وأصابوا مِن شائهم الصَّبُوح والقَيْل ، بعد أن كانوا كَلًّا على غيرهم . ثم ذكرهم بأسمائهم تخضيماً[٤] وتشنيعا . ويرتفع بجادٌ إن شئتَ على الاستئناف ، يريد : هم بِجادٌ ورَيْسانٌ ؛ وإن شئت على البَدَل من المضمرين فى قوله اصطبَحوا .

وقال مِن بَعْدُ : مَنْ يَعُدُّهم يُكثِّر لوفور عددهم ، ومن يُثنى عليهم يقلِّلُ لقلة من يستحق الثناءَ فيهم ومنهم . ويجوز أن يكون أن من قوله أن اصطبحوا أن المفسِّرة ، كأنه فسَّر لِمَ طَغَوْا فهَجَوْا .

---

(١) هو معدان بن عبيد بن عدى بن عبد الله بن خيبرى بن أفلت الطائى ثم المعنى . شرح التبريزى ومعجم المرزبانى ٤٠٧ .

(٢) ضبطت « عبدان » فى النسختين والتبريزى بكسر العين ، ويقال فيها أيضا « عبدان » بظم العين .

(٣) لم تذكر المعاجم المتداولة هذا الجمع . والمعروف أقزام : وقزامى ، وقزم بضمتين .

(٤) ل : « تخصصا » :

٦١٥

وقال يزيد بن قُنافة[(١)] :

١ — لَعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لَبِئْسَ الفَتَى المَدْعُوُّ باللَّيلِ حاتِمُ[(٢)]

٢ — غَدَاةَ أَتَى كالثَّورِ أَحْرِجَ فاتَّقَى ... بِجَبْهَتِهِ أَقتالَهُ وهو قائِمُ

٣ — كأنَّ بِصَحْرَاءِ المُرَيْطِ نَعامَةً ... تُبادِرُها جِنْحَ الظَّلامِ نَعائِمُ

٤ — أَعَارَتْكَ رِجْلَيْهَا وهَافِىَ لُبِّهَا ... وقد جُرِّدَتْ بِيضُ المُتُونِ صَوَارِمُ

قد مَضَى الكلام فى قوله لَعَمْرِى . وقوله « وما عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ » تحقيق لليمين ، وأنَّ عُمرَه ليس يَهُون عليه فيحلفَ به كاذبا . وفى الكلام إزراء بالمُخْبَرِ عنه . وقوله « المَدْعُوُّ باللَّيل » كثير من النحويِّين يذهبون فى مثلِه إلى

(١) التبريزى : « وقال يزيد بن قنافة بن عبد شمس العدوى ، من بنى عدى بن أخزم ابن أبى أخزم ، من ثعل بن عمرو بن الغوث ، رهط حاتم بن عبد الله » . وقال ابن جنى : « القنف صغر الأذنين وغلظهما ، رجل أقنف وامرأة قنفاء ، وبه سمى الرجل قنافة ، إذا كان ضخم الأذن ، ويقال : هو الطويل الجسم . فقد يجوز أن تكون الهاء فى قنافة لحقت للمبالغة ، ويجوز أن يكون أيضا لحاقها ضربا من ضروب تغيير الأعلام ، كما أن الهاء فى رواحة قد يجوز أن تكون كذلك . وقد يجوز أن يكون قنافة علما مرتجلا من غير طريق الصنعة التى ذكرت » .

(٢) قال أبو رياش : كان من خبر هذه الأبيات أنه عمد رجل من بنى السيد بن مالك ابن بكر بن سعد بن ضبة ، يقال له زيد بن ثابت ، فجاور فى طى وكانت له نعمة فيهم ، وكان جيرانه منهم بنو معن ، فقتلوه وأخذوا ماله : فبلغ ذلك بنى السيد فركبوا فيمن تبعهم من بنى ضبة حتى لقوا رجلا من طيئ فقالوا له : من أنت ؟ فكتمهم فعرفوا لغته ، فقالوا له : أنت آمن إن دللتنا على أقرب أبيات بنى معن منك . فدلهم على بنى ثور بن ود من بنى معن ، وذلك من العشى ، فقتلوهم إلا قليلا ، وانفلت منهم رجل حتى أتى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ، وهو حاتم طى ، وهو فى قبة له أدم فى دار ليس معه فيها أحد غير أهل بيت أو بيتين من بنى عدى ، فيهم يزيد بن قنافة ، وهو بمكان يقال له صحراء المريط ، فأخبره الخبر فأمر أمته أن توقد فى قبته واحتمل تحت الليل فنجا ، وبقى يزيد بن قنافة لم يعلم الخبر حتى صبحته الخيل غدوة ، وكانت امرأته لا تكلمه فدعته باسمه فأخبرته الخبر ، فثار إلى قوسه فمع بناته وابنيه وامرأته وذهب بماله . وإنما كان القوم أرادوا حاتما فأفلت . وفى ذلك يقول يزيد بن قنافة هذا الشعر هاجيا .

أنه بدل لا صفة ، لأنَّ نِعْمَ وبئس يرفعان من المَعارف ما فيه الألف واللام ودَلّ على الجنس ؛ وما يدلُّ على الجنس [لا[١]] يتأتَّى فيه الوصفيّة . والصواب عندى تجويز كونِه وصفاً ، بدلالة أنه يثنَّى ويُجمع ، فيقال : نعم الرجلان الزَّيْدَانِ ، ونعمَ الرِّجالُ الزَّيْدُون ، والتثنية والجمعُ أبعد الأشياء من أسماء الأجناس ، إلا إذا اختلفت ، فكما يجوز تثنيةُ هذا وجمُعه لدخول الاختلاف فيه ، كذلك يجب أن يجوز وَصفُه لمثل هذه العِلَّة ، ولا فَصْل . وإذا كان كذلك كان قولُه المدعُوُّ بالليل صفةً للفتَى ، كأنه قال : مذمومٌ فى الفِتيان المدعوِّين باللّيل حاتم . وهذا ظاهِرٌ .

وذَكَر اللّيلَ لشدّة الهَوْل فيه .

وقوله « غداةَ أَتَى كالثَّور » يعنى حاتما ، وإنَّما يَهزأ به . ومعنى أُحرِج : ضُيِق عليه وأُخْرِج مِن عادته فأُحوِج إلى أن يَعِيثَ . والأَقْتالُ : الأقرانُ والأعداء ، والواحد قِتْل . فيقول متهكّما : جاء كالثّور الهائج غَضَباً وحَمِيَّةً ، وقد بَانَ له من طُلاَّبِه تَرْكُ الإبقاء عليه ، فجعل بينه وبين أقرانه قَرْنيه يتّقيهم بهما ، ويَعِدُهم الشَّرَّ بإعمالها ، فهو ثابتُ القدَم متهيِّئٌ للقِتال . هذا كان حالَه فى المجىء ، فلمَّا جاء وقتُ الدِّفاع والمصادَمة ، والقِراع والمكافَحة ، انهزمَ فكأنَّ نعامَةً سابَقَها حينَ جَنَح الظَّلامُ نَعَائمُ إلى أَداحيِّها ، أعارَتْ حاتِماً رجلَيها وطائرَ قلبِها ، وهو يَعْدُو مذعوراً ، ويطلب النَّجاء مفلولا ، وقد جُرِّدت السُّيوفُ من أغمادِها ، وصار الأمر فى الطَّلب والهَرَبِ جِدًّا . وإنما قال « أعارَتْك رجلها » لأنَّه نَقَل الكلامَ عن الإخبار إلى الخطاب .

---

(١) التكملة من ل والتبريزى .

٦١٦

وقال عَارِقٌ، وهو قَيْسُ بن جِرْوَةَ الطائىّ[1] :

١ — من مُبْلِغٌ عَمْرَو بنَ هِنْدٍ رِسالَةً إذا استحقبَتْها العيسُ تُنْضَى من البُعْدِ

٢ — أَيُوعِدُنِي والرَّمْلُ بَيْنِي وبَيْنَهُ تَبَيَّنْ رُوَيْدًا ما أُمَامَةُ مِنْ هِنْدِ

٣ — ومن أَجَإٍ حَوْلِي رِعَانٌ كأنَّها قَنَابِلُ خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ

كان عمرُو بنُ هند غزَا اليمامة على ما حَكيتُ من قصته فيما تقدَّم[2] ، فأخفَقَ ورجع مُنْفِضاً . فمرَّ بطيّئٍ ، وكانوا فى ذمته بكتاب عَقْدٍ اكتتبه لهم ، وعَهْدٍ أحكمه معهم ، فقال زُرارة بن عُدُسٍ له : أبَيْتَ اللَّعنَ ، أصِبْ من هذا الحىِّ شيئاً . قال : ويلكَ إنَّ لهم عَقْدا لا يجوزُ لنا تخطِّيه . فأخذ زُرارةُ يهوِّن أمر العهد عليه ، ويحسِّن الإيقاعَ بهم ؛ فلم يزلْ يَفْتِل فى الذِّرْوَةِ والغارِب معه لشىءٍ كان فى نفسه على طيِّئٍ حتَّى أصابَ أذواداً ونساء ، فهجا عارقٌ عَمْرو ابنَ هندٍ بأبياتٍ يَعصِبُ رأسَه فيها بالغدر الذى كان منه ، فوقعت الأبياتُ إلى عمرٍو بن هند ، فتوعَّدَ عارقا وحلفَ أنَّه يقتلُه ، فاتَّصلتْ مقالتُه بعارقٍ فقال هذه الأبيات . ومعنى « استَحقبَتْها » حمَلَتْها فى الحقائبِ . وجعلَ الفِعل للعيس اتِّساعاً . ومعنى تُنْضَى : تُهْزَل ، لبُعْدِ المسافة .

وقوله « أيُوعِدُنى » استفهام على طريق التَّقريع لعمرو ، واستعظامٌ منه للأمر . والمعنى أنَّه لا يَنالُنى مع حَصانة حَبْلِى ودارى ، ولا يتمكَّن منِّى على بُعْد طُرُقى وأرضى ، فلينظرْ برفقٍ ، وليُميِّلْ بينَ أمِّه وأمِّى ، وليكن التعلى والتوعُّدُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٤ ص ١٤٤٦ .

(٢) فى الحماسية ٦٠٣ ص ١١٤٧ .

بمقدار فَضْله وقُدرته . وذِكر الأمّ إظهارٌ لقلّة للمبالاة ، وأنّه يَجْسُر على تناوُل الحُرَم منه باللّسان .

وقوله « ومن أجأ حَوْلِي رِعَان » أَجَأٌ : أحد جبلَيْهم[١] . والرِّعَانُ : جمع رِعْنٍ ، وهو أنفٌ يتقدّم من الجبل . والمرادُ بيانُ حالِ جبلَىْ طيِّئٍ فى وَثاقتهما وحَصانتهما ، وأمْنِ مَن يَنزِل بهما ، وأنَّ رِعَانَهُ كأنّها جماعاتُ خَيْلٍ أحاطت بالجبَل وأحدَقَتْ ، فهى تَذُبُّ عنها[٢] كُمْتًا ووُرْدًا[٣] . وذكَرَ القنابلَ فى التَّشبيه ، والعِزُّ بأربابها يَحصُل .

٤ــ غدَرْتَ بأمْرٍ كُنْتَ أنتَ اجتذبْتَنا إليه وبِئسَ الشِّيمَةُ الغَـدْرُ بالعَهْدِ

٥ــ وقد يَترُكُ الغَدْرَ الفَتى وطعامُه إذا هو أمْسَى جُلُّهُ من دَمِ الفَصْدِ

يُرْوَى : « أنت احتَدَيْتَنا » ، وهو افتعَل من الحدوِ : السَّوْق . واجتذبتنا ، من الجَذْب . ويُرْوَى : « أنتَ دعَوْتَنا » .

والشَّاعر يشير إلى ما كان فى يد طيِّئٍ من عقد الجِوار وكِتاب العَهْد ، فيقول : كنتَ أنتَ البانِىَ لذلك ، والمؤسِّسَ لِمنارِه ، فأبيتَ إلاَّ أن تنقُضَه ، وبئس العادةُ الغَدرُ مع العُقود ، ونكْثُ عُرَى العُهود . والفَتى قد يؤْثِرِ الإقامةَ على الوفاء مع الإضافة ، وشدّة الفاقة ، ويَطلُب اكتسابَ المحمدةِ ، وإن كان مسكينًا ذا مَتْرَبةٍ ، حتّى إذا أمسى يكون جُلُّ طعامه فَصِيدَ الدّم . ويُرْوَى : « إذا هو أمسَى حَلْبَةٌ من دَمِ الفصْدِ » ؛ والأول أحسن . ويرتفع « جُلّه » على

(١) والآخر « سلمى » .

(٢) أى عن طيئ القبيلة .

(٣) التبريزى : « وجعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .

أنه مبتدأ ثان ، والجملة خبر المبتدأ الأوّل ، وهو طعامه . وينتصب إذا من قوله « جُلهُ من دَمِ الفَصْدِ » ، لأنَّه الدالُّ على جوابِه(١) .

٦١٧

وقال آخر :

١ — لعَمْرِى وما عَمْرِى عَلَيَّ بهيِّنٍ ... لقد ساءنِى طَوْرَيْنِ فى الشِّعرِ حَاتِمُ

٢ — أيقْظَانُ فى بَغضَائِنا وهِجائِنَا ... وأنتَ عنِ المعروفِ والبرِّ نَائِمُ

٣ — بِحَسْبِكَ أنْ قدسُدْتَ أخْزَمَ كُلَّهَا ... لِكلِّ أُنَاسٍ سَادَةٌ ودَعَائِمُ

٤ — فهذا أوانُ الشعر سُلَّتْ سِهَامُهُ ... مَعَابِلُهَا والمُرْهَفَاتُ السَّلاجِمُ

أقسم بحياة نفسه ، وخبر المبتدإ محذوف ، والمراد : لعَمْرِى ما أُقْسِمُ به ؛ لأنَّ اللامَ منه لامُ الابتداء ، وجواب القَسَم لقد ساءنى . وقوله « ماعَمْرِى » اعتراض ، وقد مرَّ القول فى فائدته(٢) . والطَّوْرُ : التَّارَةُ . أى تعرَّضَ لى مرَّتين بما ساءنِى . ثم أقبل عليه فقال : أيقْظانُ ؟ والمعنى : أأنت يقظانُ ، أى مُنْتَبِهٌ فى هَجْوِنا وبُغضنا وعداوتنا ، ونائم عن الخيرِ والإحسان ، وإسداء المعروف والبرِّ والإفضال؟! ثمَّ أخذَ يهزأُ به فقال : بِحَسْبِكَ . والمراد حَسْبُكَ ، لـكنَّهم يَزيدون الباء فى المبتدإ ، نحو قولك : بِحَسْبِكَ أن تفعل كذا ، وفى الخبَر أيضاً يزيدون ، نحو قوله :

* ومَنْعُكَها بشىء يُستطاعُ(٣) *

---

(١) ابن جنى : « يصح أن ينصب إذا شىء مما قبلها ، طعامه ولا غيره ، من حيث كان الشرط لا ينصبه ما قبله ، لكن العامل ما دات عليه حلبة ، أى إذا هو أمسى يحلب له من دم الفصد . ولا يجوز أن يتعلق بحلبة ، من حيث كان مصدرا فلا تتقدم صلته عليه . يعنى أن المصدر لا يعمل فيما قبله — فإن قلت : فإن الحلبة هنا بمعنى المحلوبة واسم المفعول يتقدم عليه ما عمل فيه ، فذلك وجه مستقيم ، يجوز انتصاب إذا عليه بنفس الحلبة » .

(٢) انظر البيت الأول من الحماسية ٦١٤ ص ١٤٦٤ .

(٣) لعبيدة بن ربيعة بن قحفان ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٤٨ ص ٢٠٩ . وصدره :

* فلا تطمع أبيت اللعن فيها *

وانظر الخزانة (٢ : ٤١٣) .

أى شىء يُستطاع . وهذا أحدُ ما قِيل فيه ، وقال آخر [١] :

بِحَسْبِكَ فى القَوْمِ أن يعلموا بأنَّـك فيهم غَنِيٌّ مُضِرّْ [٢]

والمعنى : كافِيكَ أَن ترأّستَ على أَخْزَمَ ، وأَخْزمُ : رَهْطُ حاتم . ثم أَزْرَى برياسته وبهم ، فقال : ولـكلِّ طائفةٍ من طوائف النَّاس رؤساء وعَمَدٌ ، وهذا يَجرِى مَجرى الالتفات . كأنَّه بَعْـدَ ما قال ذلك التَفتَ إلى مَن حوله يؤنّسهم ويقول : ليس ذا بمُنْـكَرٍ ، فلـكلِّ قومٍ مَن يَسُوسُهُم ويدعَمُهُم .

وقوله « فهذا أوانُ الشعر سُلَّت سِهامُهُ » ، يعنى شعره . فيقول : لـكلِّ زمانٍ شَىء يظهر فيه ويَغْلِب ، وزمانُنا هذا مع قَرْضِكَ للشِّعر زمانُ الشعر ، وقد انتُزِعت سهامُه من كنانتها بعد أن نُثِرَتْ ، فجُرِّدَتْ للرَّمْى بها معابِلُها ، وهى العِرَاض ، وسَلاَجِمُها وهى الطِّوال . والمُرهَفَات : المُرَقَّقَات الحدّ . والمراد بهذا التَّنويع فنونُ الشِّعر وأساليبُه . أى أنتَ فيه ذو فنون ، والمُعَبِّل [٣] : الذى مَعَه مَعَابِلُ [٤] . وعَبَلْتُهُ : أَصَبْتُهُ بِمِعْبَلَة .

٦١٨

وقال رَجُلٌ من طَيِّئْ :

١ — إنّ امْرأً يُعْطِى الأسِنَّةَ نَحْرَهُ وَرَاءَ قُرَيْشٍ لا أَعُدُّ له عَقْـلا

٢ — يَذُمُّونَ لِى الدُّنْيا وقد ذَهَبُوا بها فما تَرَكُوا فيها لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا [٥]

---

(١) هو الأشعر الرقبان الأسدى . اللسان (ضرر) .

(٢) المضر : الذى له قطعة من الإبل أو الغنم .

(٣) وردت فى القاموس ، ولم ترد فى اللسان .

(٤) فى الأصل : « فيه معابل » ، صوابه فى ل .

(٥) مثل هذا المعنى لعبد الله بن همام السلولى ، قال يهجو العلماء فى شعر يخاطب به النعمان ابن بشير الصحابى :

وذموا لنـا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حـتى ما يدر لها ثعل

اللسان (٩ : ٤٨٤ / ١٣ : ٨٨) والأغانى (١٤ : ١١٦) . وانظر مجالس ثعلب ٥١٥ ومقاييس اللغة (٢ : ٤٠١) .

وَصَفَ الأمراءَ الذين أشار إليهم بسُوء المحافَظة، وذَهابهم عن مَعرِفة الحقوق ومراعاتها، وإنزال الموَالِينَ منازِلَهم فيها فقال: إن مَن يغترُّ بكم بعد هذا الوقتِ واعتَمَدكُم، فبذَلَ نَفْسَهُ وراءكم للمَتالف، ورَكِب في هواكم المعاطب، لا عَقْلَ له ولا رأى.

ثمَّ بَيَّنَ ما أشكاهُ مِنهم، وسوَّأ معاملتَهم فقال: يذُمُّون الدُّنيا لى، ويزهِّدوننى فيها وفى الأخذِ منها، وقد فازُوا بها حتَّى لم يُبقُّوا فيها فُضالَةً لأحَد، أى تَغبَّرُوا كلَّ مَحاوب فيها، ولم يُبقُّوا فى ضروعها شيئاً حتَّى لم يترُكوا ثُغلاً فيها. وهذا مَثَل، والثغل هو الطِّبْيُ الزائد، والسنُّ الزائدة. ويقال: ثَعِلَت سِنُّه. وشاةٌ ثَعُولٌ: لها ثُعلٌ[1]. وذكر بعضُ أهل اللُّغة أنَّ الثُّعلُول من الشَّاء: التى يُمكن أن يُحلَبَ من ثُعلِها أيضاً.

وقوله «وراء قُريش» يكون وراء بمعنى خلفَ وقُدّامَ، والأولى به هنا أن يكونَ بمعنى قُدّامَ. ومثلُه فى القرآن: ﴿وكان وراءهُم مَلِكٌ﴾.

٦١٩

وقال رُوَيْشِدٌ[2]:

١ — ومُوقِعُ تَنْطِقُ غيْرَ السَّدَادِ ... فَلاَ جِيدَ جِزْعُكِ يا مُوقِعُ

٢ — فما فَوقَ ذِلَّتِكُمْ ذِلَّةٌ ... ولا تَحتَ مَوضِعِكم مَوْضِعُ

مُوقع[3]: قبيلة. يريد أنهم يتكلَّمون بالفُحشِ وغيرِ الصَّواب، لسفهها

(١) يقال ثعل، بالضم، وبالفتح، وبالتحريك.

(٢) هو رويشد بن كثير الطائى، الذى سبقت له الحماسية ٣٢ ص ١٦٦.

(٣) موقع، بضم الميم، كما فى الأصل والتبريزى. وفى القاموس: «وموقع بالضم: قبيلة» لكن ضبطت فى ل بفتح الميم والقاف.

وسُوءِ تمييزها ، ثمّ دعَا عليها ، فقال : لا مُطِرَ جانِبُكِ وفِناءُ وادِيكِ بالجَوْدِ ، ولا أصابكم خِصْبٌ .

وقوله « فما فوق ذِلّتكم » طَابِقَ بتحتَ وفوقَ فيه ، وهو غريبٌ حَسَنٌ . يريد : لا مَرْتبةَ فى الذُّلّ أعلى من مرتبتكم ، فإنّها الغايةُ القُصوى ؛ ولا موضِعَ أشَدُّ تأخُّراً وانحطاطًا فى العزِّ من موضِعكم ، فإنّه المنزلُ الأخسُّ الأدنى . وقوله « غيرَ السَّدادِ » ، يريدُ به تَنْطِق النُّطقَ غيرَ السَّداد . ويقال : جِيدَ جَوْدًا ، فى المطر ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل :

* ومَجُودٍ مِن صُبَاباتِ الكَرَى(1) *

ويقال جِيدَ جُوَادًا(2) ، إذا عَطِش .

٦٢٠

وقال جَابِرٌ(3) :

١ — أَجِــدُّوا النِّعَالَ بأقدامِكمْ أَجِــدُّوا فَوَيْهًا لَــكُمْ جَرْوَلُ

٢ — وأبْلِــغْ سَلَامَانَ إن جِئْتَهَــا فــلا يَكُ شِبْهًــا لَهَــا المِغْزَلُ

٣ — يُــكَسِّى الأَنامَ وُيعْرِى اسْتَهُ وَيَنْسَلُّ مِن خَلْفِهِ الأَسْفَلُ

يقول : استجِدُّوا النِّعال لأقدامِكم ، أو فى أقدامكم استجدُّوها يا جَرْوَلُ ، وَيْهًا لكم . وإنّما كرَّر الأمرَ تأكيداً للقول عليهم . ويُقالُ فى الدُّعاءِ : أَبْلِ وأَجْدِدْ . وَوَيْهًا : اسْمٌ من أسماء الأفعال يُعرَى به ، ولا يجىء إلاّ مُنوّنًا ،

---

(١) البيت للبيد فى اللسان (جود) . وعجزه :

* عاطف النُّمرق صدق المبتذل *

(٢) وجودة أيضا بفتح الجيم ، وفيه قول ذى الرمة :

تعاطيه أحياناً إذا جيد جودة رضابا كطعم الزنجبيل المعسل

(٣) كذا ورد اسمه بدون نسبة .

وذاك علامةُ لتنكيره . وإنَّما قلنا هذا لأنَّ فى أسماء الأفعال ما يُنكَّر ويعرَّف . ومنه ما لا يجىء إلاَّ منكورا . ومثل وَيْهًا إيهًا ، ويُستعمَل فى الكفّ ، ووَاهًا وهو التعجُّب ، وكل ذلك يجىء منوّنةً منكَّرةً . وجَرْوَلُ : اسم رَجُل . وجعلَ أوَّلَ الكلام خِطاباً لجماعتهم ، ثم خَصَّ بالنِّداء واحداً منهم وجعله المأمور بما أراد . ألاَ ترى أنَّه قال : « وأبْلِغْ سَلامَانَ إن جئتها » . وسَلامانُ : قبيلةٌ . ومثل هذا التخصيص قول الهذلىّ[1] :

* أحْيَا أبا كُنَّ يا لَيْلَى الأمَادِيحُ[2] *

فقال : أبا كنّ ، ثم قال : يا ليلى ، وهذا التَّخصيص مثل التَّخصيص الذى فى قوله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطَى ﴾ ، وما أشبهه . وقوله « فلا يَكُ شِبْهًا لهَا المِغْزَلُ » ، لو قال لكم لساغ ، لأنَّهم يفتنّون فى مثل هذا الموضع بين الخطابِ والإخبار ؛ على هذا قولُ الله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثَاقَ بَنِى إسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ ﴾ ، قُرِئَ : ﴿ لا يَعْبُدُون ﴾ بالياء والتاء[3] فالتَّاء للخطاب ، والياء للإخبار . والرِّسالة التى يريد إبلاغَها قولُه :

* فلا يكُ شِبْهًا لها المِغزَلُ *

والمعنى لا يكوننَّ سبيلُكم سبيلَ مَن يتْبع الغَيّ ويضرُّ نفسه ، كالمِغزل الذى يُكسِّى الخلْقَ ويجعل استَه عُريان . وهذا مثَل . وكما ضُرِب المَثلُ بالمِغزل ضُرِبَ أيضاً له بالسِّراج فقيل :

ولا تَكُونَنْ ذُبَالَةً نُصِبَتْ   تُضِىء للنَّاسِ وهْىَ تَحترِقُ

فأمَّا قوله « وينسلّ من خلفِه الأسفل » ، فإنَّه كان يُرْوَى : « مِن خلفِه »

---

(١) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١١٣) . وقد سبق فى ٢٤٨ .

(٢) صدره : * لو كان مدحة حى أنشرت أحداً *

(٣) قرأ بالياء التحتية ابن كثير وحمزة والكسائى . وقرأ أبي وابن مسعود : « لا يعبدوا » ، على النهى . تفسير أبي حيان (١ : ٢٨٢) .

وليس يصحّ له معنًى . والمستقيمُ كما روينا : « مِن خَلفِه الأسفل » . وذاك أنّ المِغزلَ ينسلُّ أسفلُه بأن يُختَلم كُبَّتُه ، وهذا ظاهر . وكأنّ سَلاَمَان كانت تقتحم أهوالاً غنمُها يصيرُ لغيرها ، وغُرمُها يكونُ لها ، فلذلك جَعل المِغزل مثلاً له .

٤ — فإنّ بُجَيْرًا وأشياعَهُ كما تبحَثُ الشاةُ إذْ تذْألُ[1]

٥ — أثارَت عن الحتْفِ فاغتالَها فمَرَّ على حَلْقِها المِغْوَلُ

٦ — وآخِرُ عَهْدٍ لها مُونِقٌ غَديرٌ وجِزْعٌ لها مُبْقِلُ

قوله « كما تَبحث الشاة » محمولٌ على المعنى ، لأنّ المعنى أنّ بَحثَ بُجَيْر وأشياعِه كبَحث الشّاةِ فى ذَألاَنِها ، وهو جِنسٌ من عَدْوِها ، وذاك لأنّه يُشَبِّهُ الحدَثُ بالحدَثِ ، والذاتُ بالذّات ، وإذا كان كذلك فقوله إنّ بُجَيرًا حَذفَ المضافَ منه ، لأنّ القَصْدَ تشبيهُ البحث بالبحث . وفى المَثَل : « حَتْفَها تَحمِلُ ضانٌ بأظلافِها » ، و « كما تَبحث الشّاةُ عن مُدْيَتِها » و « لا تكنْ كالباحثِ عن الشَّفرة » ، وإنّما ينهى بهذا مَن يَجنِي على نفسه فيما يأتيه ، ويَسعَى فى إهلاكه برِجله ، فيقول : لا يكونَنّ سبيلُه سبيلَ الشّاة التى كشفت عن المُدية ، وقد استَتَرت عن الذّابح ، بظِلفها ، حتّى ذُبحت بها . ومعنى أثارت عن الحتْفِ ، أثارَتْ عن المُدْيَة ، ثمّ كان الحَتْفُ فيها . ففيه توسُّع . وهم يُقيمون السَّببَ مَقامَ المسبَّب كثيراً . واغتال : افتَعَلَ من الغَوْلِ ، وهو الهَلاك . والمِغْوَل : السِّكّين ، وقد اشتهرت بها إذا جُعِلت فى وسَط السَّوْط فصار كالغِلاف لها .

وقوله « وآخرُ عَهْدِها مُونِقٌ غديرٌ[2] » ، يعنى الشّاةَ بعد إثارتها السِّكّين .

---

(١) فى النسختين : « وأشياعها » ، صوابه عند التبريزى . قال : « بجير : اسم رجل » .

(٢) ابن جنى : « أراد أن يقول غدير مونق ، إلا أنه قدم وصف النكرة عليها فأعربها إعرابها وأبدلها منها ، كقولك : مررت بظريف رجل . ولو نصبه لأنه نكرة قدم عليها فنصب حالا منها لجاز على قولك : فيها قائماً رجل . غير أن سيبويه قال : هذا كلام أكثر ما يجىء فى الشعر وقلما يجىء فى الكلام » .

وهو إظهارُها إيَّاها . فيقول : كان آخرُ عهدها المُعْجِبُ لها روضةً قد أبقلَتْ ، وغديرًا امتلأ ماءً وكان شِبَعه ورِيه منهما ، فبَطِرت وأثارت عن حَتْفِها حتَّى هلَكت . ولك أن تروى « مُونِقٌ » بالرفع ، فيكون صفة لآخِرُ عَهْدٍ ، و « مُونِقٍ » بالجرِّ فيكون للعَهد . وجَعل الإيناق للعَهْد لأنَّ المرادَ بالعهد المعهود ، وهو المَرْعَى المُعْجِبُ . ويجوز أن يجعل المُونِقُ من صفة الغدير وقد قُدِّم عليه ، وجُعِل هو بَدَلاً منه ، ويكون التَّقدير : وآخرُ عهدٍ لها غديرٌ مونِقٌ وجِزْعٌ مُبْقِل . ويقال : أبقَلَ المكانُ فهو باقِلٌ ومُبْقِلٌ . وأَفْعَلَ فهو فاعِلٌ شاذ ليسَ بكثير .

٦٢١

وقال إياس بن الأرتّ[1] :

١ — كأنّ مَرْعَى أُمِّكُمْ إذْ بَدَتْ عقْرَبةٌ يَكُومها عُقْرُبانْ

٢ — إِكْلِيلُها زَوْلٌ وفى شَوْلِها وَخزٌ أَلِيمٌ مِثْلُ وَخزِ السِّنانْ

٣ — كلُّ عُدوٍّ يُتَّقَى مُقْبِلاً وأُمُّكُمْ سَوْرَتُها بالعِجَانْ

قوله « كأنّ مَرْعَى أمِّكم » ، يجوز أن يكون « مَرْعَى » اسماً لها ، وأمِّكم بَدَلاً منه ، ويجوز أن يكون لقَّبها الشاعر به . وسُئل الأحنف عن شيء من أمور النساء ، فقال : « الرِّجالُ جِمًى والنِّساء مَرْعًى » ، فعُدَّت من سَقَطاته . ومثل قوله « عَقْرَبة يكومُها عُقْرُبانْ » قولُ الآخر :

كالجُعَلَيْنِ رَكِبا دُحْرُوجا دَمامَةً ومنظرًا سَمِيجا

والعُقْرُبان : ذكَر العقارب . والكَوْم : السِّفادُ . وقوله « إِكليلُها زَوْلٌ »

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ١٠٢٨ .

(٢) انظر الحيوان (٢ : ٢٨٦/٤ : ٢٥٩ — ٢٦٠) .

كنى عن قرنَى العقربة بالإكليل. والزَّوْل: الخفيف الظَّريف. وقوله «وفى شولها وَخزٌ» أى فيما تَشُولُ العقربةُ من ذنَبها. وزاد الهاء فى عقربة توكيدًا للتَّأنيث. وهذا كما قالوا: جَمَل وناقة، وكبش ونعجة، ووَعِلٌ وأُرْوِيَّةٌ ألحقوا الهاءَ توكيدًا وتحقيقًا للتَّأنيث؛ ولو لم تُلْحَق لم تَحْتَج إليها. وحُكِيَ: عَجُوزةٌ. والوَخْزُ: الطَّعن الشَّديد المُوجِع. وإنما يعنى شوكَتَها إذا ضَرَبَ بها، فشبَّهَ تأثيرَها بتأثير السِّنان.

وقوله «كلُّ عَدُوٍّ يُتَّقَى مُقْبِلاً»، أراد أن يذكر السَّوْءَةَ فيها استهزاءً واستهانةً بذكرها، فقال: كلُّ عدُوٍّ يُتَّقَى شَرُّهُ إذا أقْبَلَ، وأُمُّكُمْ يُتَّقَى شرُّها إذا أدْبَرَتْ. والعِجَان يريدُ الدُّبُرَ به[1]. وهو فى الأصل ما بين الخُصْيَةِ إلى سَمِّ الدُّبُر. والسَّوْرَةُ: الوَثْبَة.

٦٢٢

وقال أدهَمُ بنُ أبى الزَّعراء[2]:

١ — بَنِي خَيْبَرِيٍّ نَهْنِهُوا من قَنَاذِعٍ أتَتْ مِنْ لَدُنْكُمْ وانظُرُوا ماشُؤُونُها[3]

٢ — فكائِنْ بها مِنْ ناشِصٍ قد علِمْتُمُ إذا نَفَرَتْ كانَتْ بَطِيئًا سُكُونُها

هذا الكلام منه توعُّدٌ واستهزاء. فيقول: يا بنى خَيبريٍّ، كُفُّوا عن أبياتِ هِجاءٍ وفَخْرٍ جاءتنا مِن عندِكم، وانظُروا كيف تُرْسِلُونَها وماذا شؤونُها حتَّى اهتاجت وجاءت. والقَنَاذِعُ، أصلُه الفُحْش. ويقال للدَّيُّوثِ القُنْذُع.

(١) ل: «يزيد به الدبر».
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠٠ ص ٦١٣.
(٣) التبريزى: «عن قناذع».

وقوله « فكائنْ » بناء كائنْ لغةٌ فى كمْ . و « بنا » أى عِندَنا . « ناشِصٌ » أصلُه فى المرأة ، يقال : نَشَصَتِ المرأةُ على زَوجها ونَشَزت ، إذا تمنَّعت . فاستعارَه للشِّعر والهجو . يريد : كم من قافيةٍ إذا نفَرَتْ كانت بطيئًا سكونَها . وهذا توعُّد ، والمراد : إنّما نُمْسِكُ عن القول ما أمكنَ ، فإذا تكلَّمْنا استمرَّ القولُ بنا فيبطؤُ سكونُنا ؛ لأنَّ للاحتمال غايةً وللسُّكون نهاية ، إذا بلَغناها فقد أقَمْنَا العُذْرَ ، وما وراء ذلك نبلغُ فيه الأقْصَى ، ولا نَرضَى بالمنزلِ الأدنَى . والكِنايةُ عن القصائد والقوافى بالهَدِىّ والعَرُوس مشهورة . وقد قيل : المراد بالنّاشِص الحرب ، وقيل : أراد به امرأةً سيِّئة الخُلُق والعِشرة ، لعُجْبها بنَفْسها . كأنَّه لمَّا جاءهم خاطبًا زهَّدَهم فى نسائهم ترفُّعًا عنهم . والصَّواب فيما بدأتُ به .

٣ — وبالحَجَلِ المَقْصُورِ حَوْلَ بُيُوتِنَا نَوَاشِئُ كَالْغِزْلانِ نُجْلٌ عُيُونُها[1]
٤ — وإنّا لَمَحْقُوقُونَ حِينَ غَضِبْتُمُ بأَيْمةِ عَبْدِ اللهِ أَنْ سَنُهِينُها[2]
٥ — فلَسْتُ لِمَنْ أُدْعَى له إن تفقّأَتْ عليْهَا دَمامِيلُ اسْتِهِ وحُبُونُها

الحَجَل : جمع حَجَلة . والمقصور : المُرسَل عليه السُّتور . والنَّواشِئُ : النِّساء الشَّوابّ . وقَصْدُ الشّاعِر إلى أن يحسِّرَهم ويقصِّرَ بشأنهم ويُهينَهُمْ حينَ عدَوْا طَوْرَهُم ، فخَطَبُوا غيرَ كُفْوِهم ، فقال : إنّ عندنا نساءً كالغِزلان فى جِيَدِها ، وبقر الوَحش فى عَيَنِها[3] ، مخدَّراتٌ فى الحِجال ، مُمَنَّعاتٌ حوالَىْ بيوتنا ، نَربأُ بأقدارِها عن مُواصَلاتِكم بهنَّ ، فتحسَّرُوا وارجِعوا عنا مقذوعين مذلَّلين ؛ فإنّا

(١) التبريزى : « خلف ظهورنا » .
(٢) التبريزى : « ويروى : حين غضبتم بلحية عبد الله » .
(٣) الجيد ، وبالتحريك : طول العنق وحسنه . والعين ، وبالتحريك أيضا : سعة العين وحسنها .

أحِقّاء حينَ غضِبتم بسبب أيمةِ عبدِ الله ، وترفَّعنا عن مناكحته ، بأنّا لا نَستعظمها بل نهوّنها(١) ، ونُقِلُّ فِكرَنا فيها . وقوله « أنْ سنُهينُها » أن مخفَّفة من الثَّقيلة . والمعنى : إنّا لمحقوقون بأنّا سنُهينُها لا مَحالة . ومثل هذا قولُ الآخر(٢) :

فما أكبَرُ الأشياء عِندِى حزَازَةً   بأنْ أُبْتَ مَزْرِيًّا عليكَ وزَارِيا

وقوله « فلست لمن أُدْعَى له » يجرى مجرى اليمين ، أى للوالد الذى أُنسَبُ إليه ، أن أُنكِحَ عبدُ الله فينا ، وتشقَّقتْ خُرَاجاتُ استِهِ عليها . وهذا الكلامُ إزراءٌ به ، واحتقارٌ له ، بذكر السَّوأة منه . وذِكرُ الدَّماميل تشنيعٌ للحال ، وأنَّ العُزْبَةَ(٣) بلغَتْ به هذا المبلغَ لزُهد النَّاس فى مُناكحتهم . وقال « دماميل » لأنّه أشبع كسرة الميم فأحدث عنها ياء . ومثله :

* نَفْىَ الدَّراهيمَ تنقادِ الصَّياريفِ(٤) *

والأصل الدَّراهم والصَّيارف .

٦٢٣

وقال حُرَيْثُ بنُ عَنَّابٍ(٥) :

١ — بَنِى ثُعَلٍ أهْلَ الخَنَا ما حديثُكُمْ   لَكُمْ مَنطِقٌ غَاوٍ ولِلنَّاسِ مَنْطِقُ

---

(١) ل : « بل نهينها » .

(٢) هو جزء بن كليب الفقعسى . والبيت فى الحماسة ٦٢ ص ٢٤٢ .

(٣) العزبة بالضم : العزوبة .

(٤) للفرزدق ، فى خزانة الأدب (٢ : ٢٥٥) وكتاب سيبويه (١ : ١٠) . والبيت جاء شاهداً على الفصل بين المتضايفين بالمفعول ، فإن أصله « نفى تنقاد الصياريف الدراهيم » ، وروى أيضا بجر الدراهيم على الإضافة ورفع تنقاد ، فيكون من إضافة المصدر إلى مفعوله . وروى أيضا برفع الدراهيم ونصب تنقاد على القلب .

(٥) سبقت ترجمته فى الحماسة ٦٩ ص ٢٥٥ . وفى النسختين : « عتاب » ، صوابه فى التبريزى .

٢ ــ كأنَّهُمُ مِعْزَى قَوَاصِعُ جِرَّةٍ   من العِيِّ أو طيْرٌ بخَفَّانَ تَنْغِقُ[١]

٣ ــ دِيَافيَّةٌ غُلْفٌ كأنَّ خَطِيبَهُم   سَرَاةَ الضُّحَى فى سَلْحِهِ يَتَمَطَّقُ[٢]

قوله « بنى ثُعَل أهلَ الخنا » يجوز أن يكون أهل الخنا انتصابُهُ على الذَّمِّ والاختصاص، كأنه قال : يا بنى ثُعَلٍ ، أَذْكُرُ أهلَ الخنا . وقوله «ما حديثكم» يريد : ما لغتكم . ويفسِّره قوله بعده « لكم منطقٌ غاوٍ وللنَّاسِ مَنطقٌ»، ينسُبُهم إلى أنَّهم نَبَطٌ، وأنَّ لغتهم ذاتُ غَوَايَة وزَيْغٍ . ويعنى بقوله «وللناس منطقٌ» العربَ . ويجوز أن يكون معنى ما حديثكم : ما شأنكُمُ المستحدَثُ وما أمْرُكم ؟ ينسبُهُم إلى أنَّهم لا قديمَ لهم ولا حديث .

وقوله « كأنَّهم مِعزَى قواصِعُ جِرَّةٍ » ، يقول : إنَّهُم لعِيِّهم إذا تكلَّموا كأنهم مِعْزَى تجترّ ، أو طيرٌ بخَفَّان[٣] تنغق . يعنى بالطَّير الغُرابَ ، ليكونَ أشأم ، والقلوب مِن ذكرها أنفَر . ويقال : قَصَع البعيرُ بجِرَّته ، إذا دَفَعَها من جَوفه .

وقوله « ديافيَّةٌ » ، دِيافٌ : أرضٌ بالشَّام . وقصده إلى أن يُخرجهم من أن يكونوا عَرَبًا ، وجَعلَهم غُلْفًا إلحاقًا لهم بالعَجَم والغُلْفَةُ والغُرْلَةُ والقُلْفَةُ تتقارب . ورجلٌ أغْرَل وأغلف وأقْلَفُ . وقوله « كأنّ خطيبَهم » أى الفصيحَ منهم ، والمُعَدَّ يومَ فِخَارِهم ، والنِّيابةِ عنهم فى نِفارِهم ، كأنَّه يتمطّق فى سَلْحِهِ . والتمطُّق : تَذَوُّقُ الشَّىء بضمٍّ إحدى الشَّفتين على الأخرى مع صوتٍ بينهما . وجعَلَهم كذلك فى سَرَاة الضُّحى ، أى إنَّهم يتباطؤون فى كلِّ حالٍ ، حتَّى لا يقوموا من فُرُشهم إلاَّ فى ذلك الوقت .

---

(١) التبريزى : « كأنكم » . و « معزى » يجوز أن ينون وألا ينون ، بجعل ألفه للإلحاق أو للتأنيث .

(٢) التبريزى : « قلف » ، بدل « غلف » .

(٣) خفان : أجمة قريبة من مسجد سعد بن أبى وقاص بالكوفة .

٦٢٤

وقال شُعَيْثٌ ، من كِنَانة[١] :

١ـ أَتَرْجو حُيَيٌّ أن تَجِيء صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وقد أَعْيَا عَلَيْكَ كِبَارُها[٢]

٢ـ إذَا النَّجْمُ وَافَى مَغْرِبَ الشَّمْسِ أَجْحِرَتْ مَقَارِى حُيَيٍ واشتكَى الغَدْرَ جَارُها

أجود الروايتين « أترجو حُيَيًّا » ، كأنّه يخاطِب إنسانًا ويلومه فى تعليقه الرّجاءَ برشادِ صِغار حُيَيّ ، وقد أعياهُ كِبارُها . والمعنى أنّهم لا يُفلِحون أبداً ، وإذا كان رؤساؤهم وأهلُ الحلِّ والعَقْد منهم معجزين فى دُعائك إيّاهم إلى الخير والصّلاح فرُذالُهم أوْلى بذلك . وإذا رويت « أترجو حُيَيٌّ » كأنّه جعل الفعلَ للقبيلة بأسرها ، أى إنّهم وحالُهم ذلك فى ضَلالٍ إذا رجَوْا مِن صغارِهم فَلاَحًا وحالُهم مع كبارهم ذلك .

وقوله « إذا النّجمُ وَافَى » أشار بالنّجم إلى الثُّريّا . وهم يقولون :

طَلَعَ النَّجمُ غُدَيَّهْ وابْتَغَى الرّاعِى شُكَيَّهْ

فهذا يكونُ فى الصّيف وعند اشتداد الحر .

و : طلع النَّجم عِشَاءْ وابتغَى الرّاعِى كِسَاءْ

---

(١) التبريزى : « وقال شعيث بن عبد الله ، وهو من كنانة بلقين ، يهجو رجلا من بلقين يقال له عقال بن هاشم . وعقال يقول فيهم :

فما كنانة فى خير بخائرة ولا كنانة فى شر بأشرار

وشعيث : تحقير شعث ، وإن شئت كان تحقير أشعث على الترخيم » .

(٢) التبريزى : « وروى أبو هلال : أترجو حيى ، قال : حيى : قبيلة : وروى غير أبى تمام هذه الأبيات لحريث بن عناب ، أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث من طيئ . وأخذ الفرزدق منه فقال :

أترجو ربيع أن تجىء صغارها بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وأخذه أيضا البعيث فقال :

أترجو كليب أن يجىء حديثها بخير وقد أعيا كليبا قديمها

فقال الفرزدق :

إذا ما قلت قافية شروداً تنحلها ابن حمراء العجان » .

وهذا يقالُ فى شِدّة البرد . فيقول : إذا طَلَع النَّجم عند غُروب الشَّمس ، — يشير إلى تَجرُّد للَحْل ، وتكشُّف الجَدْب — أُخِّرَتْ مَقَارِى هذه القبيلة وسُتِرتْ ، تفاديًا من الضِّيافة ، وهربًا من الضِّيفان . والمَقَارِى : جمع مِقْرَاةٍ ، وهى ما يُطْعَمُ فيه الضَّيفُ من الجفان . والمراد أنَّه لا مِقْرَاةَ ثَمَّ ؛ لأنَّهم فى الشِّتاء يُضِيفون ويستضيفون ، فإذا عُطِّلت جِفانُهم فى ذلك الوقتِ فلأنَّه لا قِرَى عندم ولا مَقارى . وقوله « واشتكى الغَدْرَ جارُها » ينسُبهم إلى أن إساءَتهم مقصورة على الجار ، وطمعَهم فيه وفيمن جَرَى مَجراه ؛ فعند الحاجة لا يَشْقَى بهم إلاّ جارُهم . وجواب إذا النَّجم « أُخِّرَتْ » . و « مَغْرِبَ الشَّمس » يجوز أن يكون مفعولاً ، وأن يكون اسمًا لموضع الغروب ، ويكون وَافَى من الموافاة . ويجوز أن يكون ظرفا[1] ، ويكون معنى وافَى طَلَع .

٦٢٥

وقال آخر[2] :

فما كِنانَةُ فى خَيرٍ بخائرَةٍ وما كِنانَةُ فى شَرٍّ بأَشْرَارِ

يقال : خايرْتُه فخِرته خَيْرًا . وأنا خائرُهُ ، إذا كنتَ خيْرًا منه . واستَخَرْتُ الله فخَارَ لِي . وهذه خِيرَتِى[3] ، أى التى أختارُه . والمعنى لا يَرجِعون إلى حالٍ يُعْتَدُّ بهم لها ، ويُعتَمَد بمكانهم عليها ، فلا عِندَ الخيْر وتَعدادِ أهله يفوزون بسُهْمَةٍ ، ولا فى الشَّرِّ وتَعداد أهلِه يَحصُلون على خُطّة .

---

(١) ويجوز أن يكون ظرفا ، ساقط من ل .

(٢) هو عقال بن هاشم ، كما سبق فى حواشى الحماسية السابقة . وهذا البيت لم يعده التبريزى فى عداد الحماسات ، بل ذكره استطرادا كما سبق فى النقل عنه .

(١) تقال بكسر ففتح ، وبكسر فسكون ، والأولى أفصح .

٦٢٦

وقال حُرَيْثُ بن عَنَّاب[١] :

١ — قُولاَ لصَخْرَةَ إذْ جَدَّ الهجاء بها عُوجِي علينا يُحَيِّيكِ ابْنُ عَنَّابِ
٢ — هَلاَّ نَهَيْتُمْ عُوَيْجًا من مقاذَعَتِي عَبْـدَ المَقَذِّ دَعِيًّا غيرَ صُـيَّابِ
٣ — مُسْتَحْقِبِينَ سُلَيْمَى أمَّ مُنْتَشِرٍ وابْنَ المُـكَفَّفِ رِدْفًا وابْنَ خَبَّابِ

قوله « يحيِّيكِ » ، يجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى عُوجِي محيِّيًا لك هذا ، ومثله : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ ﴾ أى وارثًا . ويجوز أن يكون فى موضع الجزم جوابًا لقوله عُوجِي ، وأجرى المُعتَلَّ مُجرَى الصحيح .

ومثله :

أَلَمْ يأتيكَ والأنباء تَنْمِي بما لاَقَتْ لَبُونُ بنى زِيَادِ[٢]

وهذا الكلام تهكُّمٌ وسخريّة . وإنما يخاطب صاحبَين له يبعثُهما[٣] على أن يبلِّغا بنى صَخْرَةَ ويبعثاها وقتَ تهيُّجها بالهجاء وكونِ تصرُّفِهم فيه جِدًّا منهم وهمًّا لهم على أن يَعطِفوا عليهم ، ليُسَلِّمَ عليهم ابنُ عَنَّابٍ ، يعنى نفسَهُ . وذِكْرُ التحية ها هنا هُزْءٌ منه . وهذا كما قال الآخر[٤] :

* تحيَّةُ بينِهِم ضَرْبٌ وَجِيعُ[٥] *

إلاَّ أنَّ هذا فى الأفعال ، وابنُ عنّاب جعلها فى الأقوال .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٩ ص ٢٥٥ .
(٢) لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، فى الخزانة (٣ : ٥٣٦) وكتاب سيبويه (١ : ١٥ — ٢ : ٥٩) .
(٣) ل : « فبعثهما » .
(٤) هو عمرو بن معديكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .
(٥) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

وقوله « هَلاَّ نَهَيْتُم » تقريعٌ ولَوْمٌ وتذكيرٌ بسُوء تأتِّيهم، وقُبْح فِعلهم. فيقول : هلاَّ كففتم عن مفاحشتي عُوَيجًا — وهو رجل منهم — وجعلَه عبدَ المَقَذِّ، أى لئيمًا ودَعِيًّا فيهم غيرَ خالص النَّسب. المقاذَعة : المفاحَشة. ويقال : أقذَعَ الرَّجُلُ، إذا أتى بفُحش. وانتصاب « عبدَ المَقَذِّ » يجوز أن يكون على البَدَل، ويجوز أن يكون على الذّم، ويجوز أن يكون على الحال. والمقذّ : مَنبِت الشَّعَر من مقدَّم الرأس ومؤخَّره. ويقال : فلانٌ عبدُ القفا، وعبدُ المَقَذّ، ويراد بالمَقَذّ القفا. وهذا كما يقال فى ضدِّه : هو حرُّ الوجه، وكريم المُحَيَّا. والصُّيَّاب : الخالصُ، كأنَّه يهجِّنه. وقال الخليل : الصُّيَّاب والصُّيَّابة : أصلُ كلِّ قوم. وقال أيضاً : الصُّيَّاب : الخِيار من كلِّ شىء[1]. وأنشد :

* يَحْتَلُّ من كِنْدَةَ فى الصُّيَّابِ *

وقوله « مستحقِبين سُليمَى »، أفْحَشَ فيه ؛ أى جئتم لمهاجاتى وقد استحقبتم هذه المرأةَ وابنَ المكفَّفِ مَعَها رِدْفًا وابنَ خَبَّابِ. كأنه يَرمِى سُليمَى بهما أو يَعُدُّهم جميعاً من مخازيه. فهذا هُزْءٌ أيضاً. أى جازيتمونى بمن هو شَيْنُكم، وجعلتم عيوبَكم بمرأًى ومَسْمَع إذا كان غيرُكم يُخْفِى أمرَه ويستُرُه. يريد : استهدفتم لى بهؤلاء. وسُليمَى كانت لها قصة. والاستحقاب : شدُّ الحقيبة من خَلف، وكذلك الاحتقاب : وكَنَى عن العَجُز بالحقيبة لذلك.

٤ — يا شَرَّ قومٍ بنى حِصْنٍ مُهاجِرَةً ومَن تعَرَّبَ منهم شَرُّ أعرَابِ

٥ — لا يَرْتَجِى الجارُ خَيْرًا فى بيوتِهِمِ ولا مَحَالَةَ مِن شَتْمٍ وألقابِ

ينسُبهم إلى أنهم شرُّ قومٍ هاجَروا إلى الأمصار أو بقوا فى البَدْو. و « بني

(١) ابن جنى : « وذلك أنها فعال من صاب يصوب ، أى اطمأن واستقر . يقولون : فلان من صيابة قومه ، أى ثابت راسى القدم فيهم . وقياسه صوابة ، غير أنهم آثروا الياء استحساناً لا وجوباً » .

حصن » يجوز أن يكون انتَصَب على النِّدَاء ، كأنه قال : يا شَرَّ قَوْمٍ يا بَنى حِصْنٍ . وانتَصَبَ « مُهاجِرَةً » على الحال ، ناداهم فى هذه الحالة . أى أنتم شرُّ قوم فى مهاجَرتكم . ومثله :

* يا بُوسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ (١) *

ويُؤَنِّسُ بوقوع الحال بعد النِّدَاء قولهم : يا زَيْدُ دعاءً حقًّا . فإذا ساغَ أن يقع المصدرُ بعدَه تأكيداً ، فكذلك الحال . قوله « ومن تَعَرَّبَ » فيه معنى التكلف ، لأنّ تفعَّلَ يجىء لذلك كثيراً . وصرَفَ الكلامَ عن السَّنَن الأول وجعله استئناف خبرٍ . ويجوز أن يكون انتَصَب بنى حصنٍ على الذّمّ والاختصاص .

وقوله « لا يَرتَجِى الجارُ » يريد أنَّ جارَهم مبتَذَلٌ فيهم ، يائسٌ من خيرهم ما دام معهم ، وملقًّى مِنْ جهتهم بالاستخفاف والتلقيب (٢) ، والشَّتم القبيح . وأجرى قوله « لا مَحَالَةَ » مَجرى قولِهم لا بُدّ ، كأنّه أراد : الجارُ لا يرجو خيراً فيهم ، ولا بُدَّ له من شَتْمٍ يُقْصَدُ به ، ولَقَبٍ يُعَرَّفُ بذكره . وقال الخليل : « يقولون فى موضع لا بُدَّ : لا محالة » . ويقال : حَالَ حَوْلاً وحِيلةً ، أى احتال .

٦٢٧

وقال آخر :

١ ـ بَنِى أَسَدٍ إلاَّ تَنَحَّوْا تَطَأْكُمُ ... مَنَاسِمُ حَتَّى تُحْطَمُوا وحَوَافِرُ

٢ ـ ومِيعادُ قومٍ إنْ أرادُوا لِقَاءنا ... مِيَــاهٌ تَحَامَتْهَا تَمِيمٌ وعامِرُ

---

(١) للنابغة الذبيانى فى ديوانه ٧١ واللسان (خلا) والشعراء ٤٢ ، ١٢٥ والخزانة (١ : ٢٨٥) . وصدره :

* قالت بنو عامر خالوا بنى أسد *

(٢) أى الرمى بالألقاب . وهذا ما فى ل . وفى الأصل : « والتقليب » ، تحريف .

٣ — وما نَامَ مَيَّاحُ البِطَاحِ ومَنْعِجٍ   ولا الرَّسِّ إلاّ وهو عَجْلَانُ سَاهِرُ

يقول : يا بنى أَسَدٍ ، خَلُّوا الطَّرِيقَ وتباعَدوا عنها ، فإنَّكم إنْ لم تفعلوا ذلك وطِئَتْكم الإبلُ والخيل فحطَمَتْكم . ينسُبهم إلى القِلَّة والضَّعف ، ويتهكَّم مع ذلك بهم .

وقوله : « وميعادُ قَومٍ » يعنى بنى أسدٍ وأنصارَهم ، والميعاد والوَعد واحد ، وإذا كان كذلك كانَ المعنى : ومَوضعُ الوعدِ لمن أراد الالتقاءَ معنا مياهٌ تتحاماها بنو تميم وبنو عامرٍ — يعنى أحيَتهم — فلا تَجسُرُ على وُرودِها وإن كثُروا . فحذَفَ المضافَ ، وهو الموضع .

وقوله « وما نام مَيَّاحُ البِطاح ومنعجٍ » ، فالمَيّاح : الذى يَميح ماءَ الركيَّة . وأراد بالبِطاح ومَنعِج والرَّسّ مواردَ الماء . والرَّسّ : البئر القديمة . جعَلَ المستقِي من هذه الآبار يَميحُ . وأراد بمَيَّاحٍ الكثرةَ ؛ لأنَّ لكلِّ موضعٍ من المواضع المذكورة ماحةً . والمَيْح : الدُّخول إلى أسفَلِ البئر ليغرفَ الماءَ فى الدِّلاء ، إذا قَلَّ الماء . والمَيْح : الاستِقاء ، يريد : مَتَحُوا أوّلاً ثمَّ ماحوا ، لكثرة الوارِدة . وإنَّما وصَفَ سُكَّانَ هذه المواضع — وهم جيشُهم — بوُفور العدد ، وأنَّ سُقَاتَهم بهذه الصِّفة من العَجَلة والسَّهر . وقوله : وما نام إلاَّ وهو عجلان ساهر ، يريدُ : نَومُهم تَرْكُ النَّوم ، والاستعجالُ فى السَّقْى . وهذا كما قال الآخر[1] :

* فإنَّ المُندَّى رِحْلَةٌ فرُكوبُ[2] *

وكقول أبى تمام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجامُ[3] *

---

(١) لعلقمة الفحل فى المفضلية ١١٩ واللسان (ندى) .

(٢) صدره :   * ترادى على دمن الحياض فإن تعف *

(٣) صدره فى ديوانه ٢٨١ :

* بسواهم لحق الأياطل شزب *

٤ـ تضــاءلتُمُ مِنَّا كما ضَمَّ شَخْصَهُ ... أمامَ البُيوتِ الخارئُ المُتَقاصِرُ

٥ـ ترى الجَوْنَ ذا الشِّمْراخِ والوَرْدَ يُبْتَغَى ... لَيالِيَ عَشْرًا وَسْطَنا وهو عائرُ(١)

قوله « تضاءلتم » أن تصاغرتم منا وانزويتم ، لفشلكم وذهاب مُنَّتكم ، كما يفعلُه المتغوِّط أمامَ البُيوت إذا استولَى عليه الخَجَل لما يريده من قضاء الحاجة ، فهو يَتقاصَرُ ويُخفِي شخصَه لئلاَّ يُرَى . وهذا التشبيه فى المُنْخزِل وقد مَسَّه الحياء والخجَل غايةً .

وقوله « ترى الجَونَ ذا الشِّمراخ » يريد به ذا الغُرّة السّائلةِ على الأنف . والشِّمراخ من الجَبَل : المُستَدِقُّ الطّويل ، على التشبيه . والعائرُ : المختلف ، والسَّهم العائرُ من هذا . يقول : إنَّا لكَثْرتِنا واتِّساع منادِحنا وأفطارنا ، لو أفْلَتَ فينا فَرسٌ أدْهَمُ ذو غُرَّةٍ سائلةٍ — وجعلَه كذلك ليكونَ أشهرَ أمْرًا وأقلَّ خفاءً — وفَرَسٌ وَرْدٌ أغرُّ أيضاً ، ثمّ طُلِبَ عَشْرَ ليالٍ فيما بيننا لما ظُفِرَ به .

٦ — ولمَّا رأيناكم لِئامًا أدِقَّةً ... وليسَ لكم مولًى من النّاسِ ناصرُ

٧ — ضَممناكُمُ مِنْ غَيرِ فَقْرٍ إليكُمُ ... كما ضَمَّتْ السّاقَ الكسيرَ الجبائرُ

وصف حالَهم القديمة معهم ، وكيفيّةَ اتِّصالِهم بهم وانعطافِهم عليهم حتّى أبطرهم ذلك ، فاستَغْصَوا عليهم ، وَوَسْوسَتْ نفوسُهم إليهم بالاستغناء عنهم ، والاكتفاء من دونهم . فيقول: لمّا رأيناكم أدنياءَ فى أنفسكم ، أدِقّاءَ فى أحوالكم لا ناصرَ لكم ، ولا مُدافعَ دونكم ، تعطَّفنا عليكم لنرفع خسيستَكم ، رحمةً لكم ، وضممناكم إلى أنفسنا من غير حاجةٍ إليكم ولا تكَثُّرٍ بكم ، لنَجبُرَ كسرَكم ، ونوفِّر نقصَكم كما تَضُمُّ العصائبُ التى يُعْصَبُ بها الكسرُ ، والجبائرُ التى يُسَوَّى بها العظمُ الكسيرَ المجبور . وهذا من التشبيه الصّائب ، والكلام المتخيَّر . والأدِقّةُ : جمع الدَّقيق ، وهو الرّجل القليل الخير . والفعل دَقَّ دِقّةً . وقال : الكسير

(١) التبريزى : « عشرا بيننا » .

والسَّاقُ مؤنثة لأنَّه فَعِيلٌ فى معنى مفعولة . وعند أصحابنا البَصريِّين هذا لا ينقاس ، بل يُتْبَع فيه المحكىُّ عنهم .

٦٢٨

وقال أبو صَعْتَرَة(١) :

١ ــ أَتَهْجُونَا وكُنَّا أَهْلَ صِدْقٍ وتَنْسَى ما حَبَــاكَ بَنُو بَرَاءِ
٢ ــ هُمُ نَتَجُوكَ تَحْتَ اللَّيلِ سَقْبًا خَبِيثَ الرِّيحِ مِن خَمْــرٍ ومَاءِ
٣ ــ وهُمْ جَهِلُوا عليكَ بغيرِ جُرْمٍ وبَلُّوا مَنْــكِبَيْكَ مِنَ الدِّماءِ

يخاطب رجلاً من عشيرتِهِ ، ويقرِّعُه على ما كان منه من ثَلْبِهِ وهَجْوِه ، فيقولُ : أتذمُّنا مع إحساننا إليك ، وكَوْننا أهلَ صدقٍ لك ، ورهطَ صفاءٍ ووِدادٍ معك ، وتَنسى ما كان منك حتى تعرَّضْتَ لبنى بَرَاء بمثلِ تعرُّضِك لنا ، وما قابَلُوكَ به من عطِيَّةٍ وحِباء ، وحُسنِ مكافأةٍ وجزاءٍ على فعلك ، وقد كان فى الحكم أن يؤدِّبك ذلك ويَرْدعك ، وينبِّهَك على رَشادِك وصَلاحك ، ويمنعَك من مُعاوَدة شِبْهِه ويقمعك . ثم أخذ يصف الحِبَاءَ الواصِلَ إليه من جهتِهم ، والجزاءَ المُعَدَّ له ، فقال : هم نَتَجُوكَ تحتَ الليل سَقْبًا ، أى ولَّدوك ليلاً سَقْبًا خبيثاً . وهو فى الأصل المذكَّر من أولاد الإبل . ويقال : أَسْقَبتِ الناقةُ وهى مِسْقابٌ . والمعنى : ضربوكَ حتى سلحْتَ شيئا منكَرًا . والذَّكَر أرْذَلُ النِّتاجَيْنِ ، فلذلك خصَّه . وقال « تحتَ اللَّيل » لأنَّ الليل أَخْفَى للوَيْل .

وقوله « وهم جَهِلوا عليك [بغير جُرم(٢)] » ، يعنى أنهم فعلوا ذلك بك ، ومن قبلِ ذلك كانوا أسلفوك ، بلا جِنايةٍ كانت منك عندهم ، ولا جريرةٍ سبقت عنك إليهم ، أنْ جرَحُوكَ حتى بلُّوا مَنْكِبَيْك من الدِّماء السائلة عليك .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٩ ص ١٠٢٣ .
(٢) التكملة من ل .

٦٢٩

وقال الطِّرِمَّاح[١] :

١ ــ إنَّ بِمَعْنٍ إنْ فَخَرْتَ لَمَفْخَرًا وفى غيرِها تُبْنَى بُيُوتُ المكارِمِ[٢]

٢ ــ مَتَى قُدْتَ يا بْنَ الحنظَلِيَّةِ عُصْبَةً مِنَ النّاسِ تَهْدِيها فِجَاجَ المَخَارِمِ[٣]

هذا الكلام هُزْءٌ وسخرِيَّة ، يقول : لك أن تفتخرَ ببنى مَعْنٍ ، فإنهم فى موضع ذاك ، لكونهم مَجْمَع الفضائل ، لكن مبانى الكَرَم تؤسَّس فى غيرهم . ثم أقبلَ عليه فقال : أخْبِرنى متى حدَّثْتَ نفسَك بأن تكون قائدَ طائفةٍ من الناس فتقدُمَهم[٤] وتَهدِيَهم الطُّرُق ، وهم يطؤون عقِبَكَ ، ويدورون على مُرادِك ؛ لقد رأيتَ ما لم تؤمِّله ، ونِلْتَ ما لم تَرْتَقِ إليه هِمَّتُك .

والفِجاجُ : الطُّرُق . والمخارِم : جمع مَخْرِم ، وهو مُنقطَع أنفِ الجبَل . وهذا مثلٌ ، أى تُصرِّفهم حيثُ أردت ، وتوجِّههم كيفَ شئت .

٣ ــ إذا ما ابْنُ جَدٍّ كانَ ناهِزَ طَيِّئٍ فإنَّ الذُّرَى قد صِرْنَ تحتَ المَنَاسِمِ

٤ ــ فَقُدْ بِزِمامٍ بَظْرَ أُمِّكَ واحْتَفِر بِأَيْرِ أبيكَ الفَسْلِ كُرَّاثَ عاسِمِ[٥]

« ابن جَدٍّ » يريدُ به صاحبَ جَدٍّ وحظٍّ فى الدنيا . فيقول : إذا اتَّفق

---

(١) التبريزى : « وقال الطرماح بن جهم السنبسى ، لنافذ بن سعد المعنى » . وهو أحد بنى سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيىء ، كما فى المؤتلف ١٤٨ . وهو غير الطرماح الشاعر المشهور ، فذاك الطرماح بن حكيم بن نفر ، الذى سبقت ترجمته فى الحماسة ٥٦ ص ٢٢٧ .

(٢) أنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجمه فى رسم (عاسم) ، وهو رمل لبنى سعد .

(٣) ياقوت : « يا ابن العنبرية » .

(٤) ل : « تتقدمهم » .

(٥) قال ياقوت : « قيل : كان أحد جديه جمالا والآخر حراثا ، فلذلك قال : فقد بزمام بظر أمك واحتفر الكراث » .

لمتقدِّم بنفسِه مجدودٍ ، لا أوَّليةَ له ، خارجيٍّ ، أن يكون ناهِزَ طيِّئٍ ، أى مِدْرَهَهُم وكبيرَهم والذى يَنْهَزُ الدَّلْوَ من البئر، أى ينزعها ، كأنَّهُ أراد : الذى يَقومُ بأمرهم عند السُّلطان ، ويتنجَّزُ عليه حاجاتِهم ومُهِمَّاتهم ، فقد انقلبَ الدهرُ ، وانحطَّ الأعالى ، وصارت الأشراف أذِلاَّء ، لأنه لا يتقدَّم الوضيعُ إلاّ بتأخر الرَّفيع . وحكى غيرُ واحدٍ من أهل اللغة أنَّه يقال : هو ناهِزُ القوم ، أى كاسِبُهم والساعى لهم .

وقوله « فَقْد بزمامٍ » استهزاءٌ وإزراءٌ بهم ، وقلَّة احتفال ، بتناوُلِ القبيح مِن ذكرهم . لذلك سمَّى السَّوءةَ من طرفيه[1] . والفَسْلُ : الرَّذْلُ . والفَشْلُ : الضعيف ، وهما روايتان . وعاسم : موضِعٌ .

٦٣٠

وقال الكَرَوَّسُ بن زَيْدٍ[2] :

١ — أَلاَ لَيْتَ حَظِّى مِنْ عطائِكَ أَنَّنى عَلِمْتُ وَراءَ الرَّمْلِ ما أنتَ صانِعُ

٢ — فقَدْ كانَ لى عَمَّا أرَى مُتَزَحْزَحٌ ومُتَّسَعٌ مِنْ جانِبِ الأرضِ واسِعُ

٣ — وهَمٌّ إذا ما الجِبْسُ قَصَّرَ هَمَّهُ طَلُوعٌ إذا أعيا الرِّجالَ المَطالِعُ[3]

يقول : تمنَّيتُ أنْ يكون الذى حَظِيتُ به من عطائِكَ لى أنِّى عَلِمْتُ وأنا وراءَ الرَّملِ ما أنت صانعُه وقد قَدِمْتُ عَلَيْك . فقوله « وراءَ الرَّمْلِ » ظرف لعلِمْتُ ، وأنَّنى علمتُ خبر ليت ، كأنَّه وَدَّ أن يكونَ بَدَلَ حَظِّه من العطاء علمُه بما يفعلُه ، فكان اختيارُه بحسبه . ولا يجوز أن يكون وراءَ الرَّمل يتعلَّق بصانع ،

---

(١) أى صرح بذكر سوءة طرفيه : أبيه وأمه .

(٢) التبريزى : « وقال الكروس بن زيد بن حصن بن مصاد بن مالك بن معقل ابن مالك » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢١٠ ص ٦٣٩ .

(٣) التبريزى : « قصر نفسه » .

لأنَّك إن جعلتَ ما موصولا فالصِّلة لا تتقدَّم هي على الموصول، ولا شيءٌ ممَّا يتعلّق بها[(١)] . وإن جعلت ما موصوفا فالصِّفة لا تتقدَّم على الموصوف ولا ما يتعلَّق بها، وإن جعلت ما استفهاماً فما بعدَ الاستفهام لا يعملُ فيما قبلَه. وإذا كان كذلك ظهرَ فسادُ تعلُّقِه به على الوجوه كلِّها، من طريق الإعراب ومن طريق المعنى[(٢)] ، فالصَّحيح ما قدّمتُه . ألاَ ترى أنَّه قال : فقد كان لى عمَّا أرى مُتزحزَحٌ ومتّسَع . والمتَزَحْزَح : المُبْعَد . أى كانَ لى جانبٌ من الأرض واسع أتزحزحُ فيه عمَّا أراه وأرِدُ عليه، وكان لى هَمٌّ طويلٌ ممتدُّ الشأوِ يذهب صُعُدًا ، إذا كان هَمُّ الجِبْس قصيراً . طَلوعٌ إلى أعالى العِزِّ وذُراهُ إذا أعجزَ الرِّجالَ مَطالِـعُ العِزّ . والجِبْس هو الثَّقيل الجافِى . أى يقصِّرهمُّ نفسه فيرضَى بالحاصِل له . وقوله « إذا ما الجِبْسَ » ظرفٌ لما دلَّ عليه هَمٌّ ، و « إذا أعيا » ظرفٌ لطَلوع . ولا يمتنع أن يكون إذا ما الجبسُ ظرفاً لطَلوع ، ويجعل إذا أعيا بدلاً منه ؛ لأنَّ المعنيين يتقاربان . والأوَّل أقربُ وأجوَد .

---

(١) أى ولا شىء مما يتعلق بالصلة يتقدم على الموصول . وفى النسختين : « ولا على شىء مما يتعلق بها » وليس بصواب . وعبارة ابن جنى فى التنبيه : « لاستحالة جواز تقديم الصلة أو شىء منها على الموصول » .

(٢) أما ابن جنى فيرى أن التعليق صحيح من جهة المعنى ويقول : التقدير ما أنت صانع وراء الرمل » . وأما التعلق من جهة الإعراب فيراه غير جائز فى الأوجه الثلاثة المتقدمة . ثم يقول : « فإذا كان المعنى عليه — أى على التعليق — وسبيل الإعراب ضيقه عنه — أى لا تحتمله فى الصناعة — أضمر له ما يتناوله مما يدل الظاهر عليه » ، فيرى أن الظاهر تفسير لعامل مقدر يشبهه . ثم قال بعد أن ذكر هذا الوجه : « ويجوز أن يكون وراء الرمل متعلقاً بنفس ، أى علمت علمت فى هذا الموضع كذا وكذا ، على صغر معناه ويجوز وجه ثالث غير هذين ، وهو أن ينصب وراء نصب المفعول به بعلمت ، أى لبتى عرفت هذا الموضع ، وتبدل منه ما أنت صانع ، أى الذى أنت صانع فيه ، كقولك : عرفت هذا الذى تجده من أمرها . ويجوز إذا أبدلت ما أنت صانع أن تجعل ما استفهاما ، كقولك : قد عرفت زيدا أبو من هو ، فتبدل أبو من هو ، من زيد ، فتصير إلى أنك كأنك قلت ، قد عرفت أبو من زيد . ويجوز أيضاً إذا جعلت وراء مفعولا به أن تجعل علمت المتعدية إلى مفعولين وتجعل ما بعدها من الاستفهام فى موضع المفعول الثانى ، كقولك علمت زيدا كم ماله » .

٦٣١

وقال وضّاح بن إسماعيل[١] :

١ — مَنْ مُبْلِغُ الحَجّاجِ عَنِّى رِسالةً ... فإنْ شِئْتَ فاقْطَعْنِى كما قُطِعَ السَّلا[٢]

٢ — وإنْ شِئْتَ أَقْبَلْنَا بمُوسَى رَمِيضَةٍ ... جَمِيعًا فَقَطَّعْنا بها عُقَدَ العُرَى[٣]

٣ — وإنْ قلتَ لا إلاَّ التَّفرُّقَ والنَّوَى ... فبُعْداً أدامَ اللهُ تَفرِقَةَ النَّوَى[٤]

٤ — فإنى أرَى فى عَيْنِكَ الجِذْعَ مُعْرِضًا ... وتَعْجَبُ أنْ أبصَرْتَ فى عَيْنِيَ القَذَى[٥]

هذه أبياتٌ ذهبَ النّاسُ مِن طريق الرِّواية والمعنى فيها مذاهبَ طريفة ، والصَّحيح ما أورِدُهُ . وذاك أنّه رتَّب ما بينَه وبين الحجّاج مراتبَ ثلاثًا ، خبَّره فيها بالشُّروط المبيّنة :

---

(١) التبريزى : « وضاح بن إسماعيل بن عبد كلال بن داود بن أبى أحمد » . والصواب « بن داذ بن أبى جمد » . كما أسلفنا فى ترجمته فى الحماسية ٢١٢ ص ٦٤٣ . يؤيد ذلك مارواه أبو الفرج فى الأغانى (٦ : ٣١) من قوله فى بنات عمه :

من بنات الـكريم داذ وفى كنـ ... ـدة ينسبن من أباة اللعن

وقوله يفتخر بجده أبى جمد :

بنى لى إسماعيل مجدا مؤثلا ... وعبد كلال بعده وأبو جمد

(٢) فى الأغانى (٦ : ٤٢) أن هذه الأبيات يقولها وضاح فى أخيه « سماعة » وقد عتب عليه فى بعض الأمور . وقد روى البيت الأول هكذا :

فن مبلغ عنى سماعة ناديا ... فإن شئت فاقطعنا كما يقطع السلى

(٣) التبريزى وابن جنى : « فاقتلنا بموسى » و « فقطعنا » بصيغة الأمر . وقال التبريزى فى تفسيره : « ونصب عقد العرى على المصدر ، أى فقطعنا تقطيع عقد العرى ، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه » . نحو هذا الكلام لابن جنى .

(٤) الأغانى :

وإن شئت صرما للتفرق والنوى ... فبعدا أدام الله تفرقة النوى

(٥) مقتبس من قول عيسى عليه السلام : « لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها » . إنجيل متى ٧ : ٣ ولو ٦ : ٤١ . وفى عيون الأخبار (٢ : ٢٧١) : « كيف تبصر القذاة فى عين أخيك ولا تبصر السارية فى عينك » .

فالشَّرْط الأول قوله « إن شئت فاقطَعْنى كما قُطِـعَ السَّـلا » وهذا يحتمل معنيين : أحدهما أن يريد إن شئتَ خُصَّني بقطيعةٍ لا وِصَالَ يتعقَّبُها ، كما أنَّ السَّلاَ ، وهو الجِلدة التى يلتفُّ فيها الولد عندَ خروجِه من بَطنِ أمِّه ، إذا قُطِـعَ عنه لم يَعُد إليه . ويجوز أن يكون المعنى : اقطَعْنِي قطيعةً لا يُرْجَى معها وَصْلٌ ؛ لأن السَّلاَ إذا انقطعَ فى بَطن الحامل لم يمكن استخراجُه ، ولا يُرجى الخَلاصُ معه . ولهذا ضُرِبَ المَثَلُ به فى الشَّدائد فقيل : « انقَطَع السَّلا فى البطن » . والمراد فى هذه القطيعةِ المذكورة أنْ تبقَى العلائقُ التى بينهما على ما حَصَلَتْ وثبتَت لا يُغيَّر منها شىء .

والشَّرْط الثانى : « وإنْ شئتَ أقبَلْنا بمُوسَى رَمِيضَةٍ » ، يقول : وإن شئتَ أخذَ كلٌّ منَّا مُوسَى محدَّدة ، فقَطَّعنا بها الأواصرَ التى بيننا . وهذا مَثَل ، والمعنى أنَّ لنا الأسبابَ التى تَوَاصَلْنَا بها فصارت مِثلَ الأنساب ، وحَلَلْنَا عُقَدَ العُرَى الوثيقةِ فيما تواشَجْنَا فيه حتى نَصيرَ كالأجانبِ لا وُصَلَ تجمعُنا ، ولا أواخِىَّ تَنظِمنا ، إلاَّ ما طَوَى البعادُ بيننَا من قُرْب الجِوار والدَّار .

والشرط الثالث : وإنْ قلتَ لا إلاَّ التفرُّقَ بالأبدان معها ، فيكونُ النَّوَى مُبَدِّدةً شملَنا ، فلا نلتقى فى شَعْبٍ ومَسْلَكٍ ، ولا نتحاذَى فى منزلٍ ومَجمعٍ ، ولا نتجاورُ فى مَحَلٍّ وَمَقَرٍّ[1] ، فإنَّا نَبعُدُ بُعْدًا كما نختار ؛ وأدامَ اللهُ تفرقةَ النَّوى بيننا ولا جَمَع ما تشتَّت منها .

ويقال : سِكِّينٌ رَمِيضٌ : حادٌّ . وكل حادٍّ رَمِيضٌ ، ومنه ارتَمَض مِن كذا ، إذا اشتدَّ عليه وأغضبَه .

وقوله « فإنِّى أرى فى عينِك الجِذع » ، يقول : إن العداوة بيننا رسخَتْ

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وسفر » .

وثبتَتْ واستحكمتْ مِن جهتِك ، فلا استبقاءَ معك ، ولا صبرَ على أَذَى مضضٍ منك ، حتَّى تعجبَ لأدنى شىءٍ يَحُول ، وتَستعظِم أصغرَ ما يحدُث ويدور ، وأنا أرَى الجِذع يعترض فى عينكِ فلا أنكر ، ولا أحاسِبُ عليه ولا أضايِق . وهذا كما يُقال فى المثل : « تُبصِرُ القَذَاةَ فى عين أخيك ، وتَدَعُ الجِذْعَ المعترضَ فى حلقِك »[1] .

٦٣٢

وقال جوّاسٌ الكَلْبىّ من بنى عَدِىِّ بن جَنَابٍ[2] :

١ – ضَرَبْنَا لَكم عن مِنْبَرِ المُلْكِ أَهْلَهُ بِجَيْرُونَ إذْ لا تَسْتَطِيعُون مِنْبَرَا

٢ – وأَيَّامَ صِدْقٍ كُلُّها قد عَلِمْتُمُ نَصَرْنَا وَيَوْمَ المرجِ نَصْرًا مُؤَزَّرَا[3]

٣ – فلا تَكْفُروا حُسْنَى مَضَتْ مِنْ بلائنا ولا تَمْنَحُونَا بَعْدَ لِينٍ تَجَبُّرَا

يخاطب بهذا الشِّعرِ بنى مروانَ ممتنًّا عليهم ، وذلك أنَّ معاويةَ بنَ أبى سفيانَ لمّا هَلك استعمل ابنَه يزيد ، فتابعَهُ النَّاسُ ما خلا بنى قيس فإنَّهم قالوا : لا نبايع ابنَ الكلبيّة ، فوقعت الحربُ بين أميَّةَ وقيس . وجَيْرون : بابٌ من أبواب دِمَشْق ، وأولئك كان مستقرُّهم بالشَّأْم . ويعنى بقوله «أهلَهُ» بنى هاشم ، وبالمُلْك الخلافة .

وقوله « إذْ لا تستطيعون مِنْبرا » ، أى ارتقاءَ مِنبرٍ وصعودَه ، فحذفَ المضافَ . والمراد : إنَّا نصرناكم فى طلَبِ أمرٍ كان لغيركم لا لكم بجَيْرُون ،

(١) أصله من كلام عيسى عليه السلام . إنجيل متى ٧ :٣ – ٤ ولوقا ٦ : ٤١ ، ٤٢ . وانظر ١٤٩٠ .

(٢) التبريزى : « وقال عمرو بن مخلاة الحمار الكلبى » . وقد سبقت ترجمة عمرو بن مخلاة الحمار فى الحماسية ٢١٤ ص ٦٤٧ . وأما جواس ، فهو جواس بن القعطل بن سويد بن الحارث بن حصن بن عدى بن جناب الكلبى . وهو شاعر إسلامى كان معاصرا لزفر بن الحارث الكلابى . المؤتلف ٧٤ .

(٣) التبريزى : « قد عرفتم » .

حين لا تَقدِرون على صُعود مِنبر ، ولا تستقيم لكم قَناةُ مُلْكٍ ونصَرْنا أيضاً[1] يوم مَرْجِ راهطٍ ، وأياماً أُخَرَ قبلَه وبعده ، صادَقْنا كم فيها ونَصرناكم نصراً قويًّا ، فلا تجحَدُوا نِعَمنا فيها ، فكُفران النِّعَم ذميم ، ولا تتكبَّرُوا علينا بعد ملاءَمتكم لنا ، فإنّ التكبُّر منكم عظيم. وقوله « حُسْنَى مضت » مصدر في معنى الإحسان ، وليست بتأنيث الأحسَن ، لأنّ تلك تلزمُه الألِف واللام .

٤ – فكَم مِن أَميرٍ قَبلَ مَرْوَانَ وَابْنِهِ ... كشَفْنا غِطاءَ الغَمِّ عنهُ فأَبْصَرَا

٥ – ومُسْتَسْلِمٍ نَفَّسْنَ عنه وقد بَدَت ... نَوَاجِـذُهُ حَتَّى أَهَلَّ وكَبَّرَا

٦ – إذا افتَخَرَ القَيسِيُّ فاذْكُرْ بَلَاءَهُ ... بِزَرّاعَةِ الضَّحَّاكِ شَرْقِيَّ جَوْبَرَا

٧ – فما كان في قيسٍ مِنِ ابْنِ حَفيظَةٍ ... يُعَدُّ ولكنْ كُلُّهُمْ نَهْبُ أشقَرَا

قوله « كم مِن أمير » أراد به معاويةَ وأشياعه . أى ذبَبْنا دونَه وأزلْنا ما كان تراكم عليه من رواكد الظُّلَم حتى أبصَرَ رُشدَهُ ، وعادت إليه بصيرتُه ، بعد أن كان تحيَّرَ في أمرِه ، والتبسَ عليه ما يتنقَّل فيه ، فلا يعرِف ما عليه ممّا له .

وقوله « ومستسلِمٍ » عطفه على « مِن أميرٍ » ، والضمير في « نَفَّسْنَ » للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكر ، ولكن عُرِف منه المراد . يريد : وكم من مُنقادٍ لما دَهِمَهُ ، مُستسلِمٍ للشَّرِّ المفاجئِ له والمحيطِ به ، نفَّسَت خيلُنا عنه بعد أن يَبِسَ ريقُه ، وتقلَّصَت شفتاه فظهرَت نواجذُه ، لما مُنِيَ به من شدَّة البلاء ، وجَهْدِ البأساء ، حتى أهلَّ ، أى رفَعَ بالحمدُ لله صوتَه ، وأظهر شكرَه ، وعظَّمَه وكبّره لما أُعقِبَ من الأمن عقِيبَ الخوف ، والسلامةِ بعد الهُلْك . ويروى : « كشَفْنا غطاءَ الموت » . ويروى : « ومُستَلحَمٍ نَفَّسْتُ عنه وقد بدَت مَقاتِلُه » والمعنى فيهما ظاهر .

(١) هذا ما في ل ، وهو الأوفق . وفي نسخة الأصل : « ونصرنا نصراً » .

وقوله « إذا افتخر القيسيُّ فاذكرْ بلاءه » ، يعــيِّرهم ما كان منهم من التقصير والقُصورِ فى ذلك الموضع . وأخرج الكلامَ مَخْرج الهُزْء ، لأنهم قصَّرُوا ولم يُبْلُوا ؛ لذلك قال : اذْكُر بلاءه . والزَّرّاعات : مواضع الزرع ، كالملاّحات . والزَّرِّيع : المَثْرِئُ الذى يُســقَى من السماء ، فكلُّ ناعم زِرِّيعٌ تشبيهاً به . وجَوْبَرُ : نَهر . وانتصَب « شرقىَّ » على الظَّرف ، يعنى ما وَلِىَ المشرِقَ منه . والضَّحاكُ[1] كان على شُرطة معاوية ، ثم صار مع ابن الزُّبير بعد موت يزيد[2] .

وفى جملة هذه الأبيات :

فلو كنتُ من قَيْسِ بن عَيْلَانَ لم أَجِد فَخَاراً ولم أعــدِلْ بأن أتقصَّرا

يقبِّح صورتهم كما ترى .

وقوله : « فما كان فى قَيْسٍ من ابنِ كَرِيهة يُعَدُّ » ويروى : « فما كان فى قيسِ بن عيلان سَيِّدٌ يُعَدُّ » ، ويَعنِى بنَهْبِ أشقرَ فرسَ طُفَيْل بن مالك ، وكان فرّاراً[3] . يقول : كأنَّما انتهبهم طفيلٌ فى ذلك اليوم . وكان اسمُ فرسِ طُفيلٍ قُرْزُلاً ، لذلك قال الآخر[4] يصف قوماً منهزِمين :

يَعْدُو بهم قُرْزُلٌ ويستمعُ النَّا سُ إليهمْ وتَخْــفِقُ اللِّمَمُ

جعل فرس كلٍّ منهم كقُرْزُلٍ لمّا هربوا .

---

(١) هو الضحاك بن قيس الفهرى ، ولد فى زمان الرسول بعد الهجرة ، وولاه معاوية الكوفة ثم عزله ، ثم ولاه دمشق ، ولما مات معاوية بن يزيد بن معاوية دعا إلى نفسه فقاتله مروان بن الحكم ، فقتل بمرج راهط سنة ٦٤ . الإصابة ١٦٤ ؛ والطبرى (٧ : ٣٧ – ٤١) .

(٢) الحق أنه كان يتظاهر بالدعوة لابن الزبير ، واستغل هذا فى استعداد أنصار ابن الزبير ليقوى بهم على محاربة مروان .

(٣) وقال ابن الكلبى : أشقر : رجل من كلب ، أصاب صندوقا فى إغارة لكلب على إياد ، فظن أن فيه خيراً كثيراً ، فإذا فيه عظام ، فضربته العرب مثلا لما لا خير فيه . وقيل : إنه أراد بالأشقر العبد . والعرب تسمى العجم «الحمراء» لأن الغالب على ألوان الفرس الصهبة . وعلى هذا معناه : كلهم نهب من لا قدرة له ولا هيبة . عن شرح التبريزى .

(٤) هو الجميح الأسدى . المفضليات ٤١ الطبعة الثانية بالمعارف .

٦٣٣

وقال جوّاسُ الكلبيُّ أيضاً :

١ — أَعَبْدَ المَلِيكِ ما شَكَرْتَ بلاءنا   فكُلْ فِي رَخاءِ الأمْنِ ما أنْتَ آكِلُ
٢ — بجابِيَةِ الجَوْلانِ لولا ابنُ بَحْدَلٍ   هَلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لِقَوْمِكَ قائِلُ

يعاتبُ عبدَ الملكِ بنَ مروان ، وذلك أنّه لما قُتِل ابنُ الزُّبير وسكنت الحربُ وصفا له الأمر : أقبلَ يتألّف قيساً وهم أعداؤه ، ويُوحِشُ بنى كَلْبٍ وهم أنصارُه ، حتّى انتهى الحالُ به إلى أن عَزَل كثيراً ممّن استعمله من كَلْبٍ على أعماله ، وجعل أبدالَهم من قيس ، فقال جَوّاسٌ : يا عبدَ الملك ، ما حَمِدتَ بلاءنا فى نُصرتِك ، ولا قابَلْتَ انقطاعَنا إليك وسعيَنا لك ببعضِ ما وجب لنا عليك ، فكُلْ من دُنْياكَ فى سَعَةِ الأَمْنِ وظلِّ الهدُوِّ ما أنتَ آكلُه ، لا مُدافِعَ لك ولا معترِضَ عليك ، فلولا ابنُ بَحْدَل وقيامُه بأَمرِكَ بجابية الجَوْلان لهلَكْتَ ولم يَنْطِقْ لقومك قائل ، أى لم يكن فيهم خليفةٌ يخطُب على مِنبرٍ فيدعو ويُدْعَى له . وتعلّق قوله « بجابية الجَوْلان » بقوله ما شَكَرْتَ بلاءنا . وهلَكْتَ جواب لولا ، وخبر المبتدأ محذوف ، وقد مرّ أمثالُه.

٣ — فلمّا عَلَوْتَ الشَّأمَ فى رأسِ باذِخٍ   مِنَ العِزِّ لاَ يَسْطِيعُهُ المتناوِلُ
٤ — نَفَحْتَ لنا سَجْلَ العَداوةِ مُعْرِضاً   كأنك مما يُحْدِثُ الدَّهرُ جاهِلُ

يقول : فلما مَلَكْتَ المطلوبَ وأدركتَ المأمول ، واستويْتَ على الشّأم فى عزٍّ باذِخٍ وجَدٍّ صاعدٍ ، لا يَقدِر على تناوُلِ مثلِه أحدٌ بأَمَلٍ أو همّة ، اطّرحْتَنا وأعرضتَ عنّا ، معطِياً سَجْلَ العداوة لنا ، كأنك جاهلٌ بالدّهر وفَعَلاته وحوادِثِه ومُلِمّاته . ومن رَوَى : « كأنكَ مما يُحْدِثُ الدهرُ » ، يريد كأنكَ مما أحدثَه الدهرُ لك من الرِّياسة جاهل . أى اغتررتَ فكأنك استحدثتَ جهالة .

ويُروَى : « كأنَّكَ عَمَّا يُحْدِثُ الدهر [غافل[1]] » فجاهلٌ يجرى مجرى غافلٍ . وهذا يجرى مَجرَى الوَعيد . أى لا تأمَنْ غيرَ الأيّام ومعاودتَك ما يَختِمُ عليك بالفقر إلينا ثانياً .

وفى هذه الطريقة ما أنشدْتُه لمحمّد بن غالب :

فتى مِسْمَعٍ أنتَ من مِسْمَعٍ بحيثُ السُّويداء والناظرانِ
مَلكْتَ فأسْجِحْ وزُعْ بالزِّمامِ وخَفْ ما يَدُور به الدائرانِ

٥ — وكنتَ إذا أشرفْتَ فى رأسِ رَامَةٍ تضاءلْتَ إنَّ الخائفَ المتضائلُ[2]
٦ — فلو طاوَعُونى يوم بُطْنانَ أسْلمَتْ لِقَيْسٍ فُرُوجٌ منكُم ومَقاتِلُ[3]

رامةُ : هضبة . يذكّره ضِيقَ أقطارِ الأرض عليه ، فيقول : إنك حينئذٍ متَى أشرفتَ فى رأسِ هذه الهضْبةِ تخاشَعْتَ وتذلّلت ، لاستشعارِك الخوفَ الشديد ، واستظهارك بالاتّقاء من أعدائك البليغ . والخائف هذا دأبُه وعادتُه . على أنهم — يعنى أصحابه — لو طاوَعونى فى هذا اليوم وقَبِلوا نُصْحى ، وعَمِلوا برأيى ، لأُسلِمَتْ لقيسٍ فُرُوجُكم ، وهى مواضع المَخَافةِ ، ومَقاتلُكم . والمعنى : كنّا نَخْذُلُكم ونُسلِمُكم حتى يتمكن القَتْلُ منكم ، وتعلوَ سِمَةُ الذُّلِّ على أحوالِكم.

وإنما قال هذا لأن القيسيَّة كانت تدعو إلى ابن الزُّبير ، وكلبٌ تدعو إلى المَرْوَانية ، وكان الناسُ يومئذٍ إنّما يُعرَفون بالبَحْدليَّة أصحاب مروان ، والزبيريّة ، وهم أنصار ابنِ الزُّبَير . لذلك قال عبدالرحمن بنُ الحكم أخو مروان :

وما الناسُ إلا بَحْدَلِيٌّ على الهُدَى وإلاّ زُبَيْرِىٌّ عَصَى فتزَبَّرا

(١) هذه الكلمة ساقطة من الأصل ، وبدلها فى ل : « جاهل » ، والوجه ما أثبتنا ، لما يقتضيه سياق الكلام .
(٢) التبريزى : « من رأس هضبة » .
(٣) التبريزى : « ويروى : أسلمت فروج نساء منكم » .
(٤) سبق البيت محرفا بدون نسبة فى ص ٦٥٠ .

٦٣٤

وقال جَوَّاسٌ أيضاً :

١ — صَبَغَتْ أُمَيَّـةُ بالدِّماءِ رِماحَنَا وطَوَتْ أُمَيَّـةُ دُونَنَـا دُنياها

٢ — أأُمَىَّ رُبَّ كَتيبةٍ مَجهُـولةٍ صِيدِ الْكُماةِ عَلَيْـكُمُ دَعْواها

٣ — كُنَّا وُلاةَ طِعَانِها وضِرَابِها حتَّى تَجلَّتْ عنْـكُمُ غُمَّـاها

يقول : استنصرَنَا أُميَّةُ ودافعَ الأعداء بنا ، وعرَّضَنا للقَتْل والقِتال ، والضِّراب والطِّعان ، حتى رَوِيَت قناتُنا من دِماء مُجاذِبيهم ، والمتكرِّهين لأيَّامهم ودِوَلِهم[1] ، فلما وضَعت الحربُ أوزارَها ، وارتفع الهَيْجُ والفِتَنُ من أنحائها ومَقاصِدِها ، استبدُّوا بِطِيِّ الدنيا وزِيِّها[2] ، والفَوز بها وبأعراضها مِن دُوننا . ثم أخذ يخاطبها فقال : يا أُميَّة[3] ، رُبَّ كتيبةٍ مجهولةِ الشان ، لم نَدْرِ كيف يُدفع فى وجهها . ولا من أين يُصرَف شَرُّها ، متكبِّرى الأبطال ، بُهَم الشُّجعان ، دعواها عليكم لا لكم ، ودفاعُها فيكم لا عنكم ، تولَّيْنا مطاعنتَها ومُكافحتَها ، وافترضْنا على أنفسنا دَفْعها. ويجوز أن يكون المرادُ بقوله «مجهولةٍ» أنَّا لا نَعرِفُها ، ولا مُجاذبةَ بيننا وبينهم ولا مُعامَلة ، فهى مجهولةٌ لنا ، اتخذنا كالأعداءِ لنا فى هَواكُم ونُصرتِكم .

فأمَّا قوله «صِيدِ الكُماة» فإنما جمع فقال صِيداً ، حَملاً على معنى الكتيبة ، ولو حَمَل على اللفظ لقال : رُبَّ كتيبةٍ صَيْداءِ الكُماةِ .

والصَّيَد يُستعمَل على وجهين : يقال : ملكٌ أَصْيَدُ ، أى متكبِّرٌ لا يلتفت

---

(١) كذا ضبطت فى النسختين بكسر ففتح . ويقال أيضا « دول » بضم ففتح ، كلاهما جمع دولة »

(٢) الطى ، بالكسر : واحد الأطواء ، وهى من الثوب والشحم طرائقه ومكاسر طيه .

(٣) ل : « أأمى » .

إلى الناس يميناً ولا شِمالاً . وحَكَى الخليل أن الصَّيَد ذُبابٌ يدخُل فى أذُن البعير فيَقلَقُ له ، فيظلُّ رافعاً رأسَه . فشُبِّه الملِكُ ذُو الزَّهْو به . فهذا وجهٌ . والوجه الآخر : أن يُرادَ بالأصيدِ الذى لا يستطيع الالتفاتَ من دائه .

وقوله : « حتى تَجَلَّتْ عنكُم غُمَّاها » ، يقال : هم مِن أمرِهم فى غُمَّاهُ ، أى فى شِدَّةٍ والتباسٍ شديدٍ عليهم . ومعنى حتى : إلى أنْ . والوُلاة : جمع الوالِى ، وهو المتولِّى للشَّىْءِ والفاعلُ له . ولا يَمتنِع أن يريدَ به المُلاَّك ، كأنهم مَلَكوا تدبيرَ الحَىّ فصاروا كالوُلاة لها وفيها .

٤ — واللهُ يَجْزِى لا أُمَيَّةُ سَعْيَنا وعُلَى شَدَدْنا بالرِّماحِ عُرَاها[1]

٥ — جئتُمْ من الحَجَرِ البعيدِ نِياطُه والشَّأْمُ تُنكِر كَهْلَها وفَتاها

٦ — إذْ أقبلَتْ قَيسٌ كأنَّ عُيونَها حَدَقُ الكِلابِ وأظهرَت سِيماها

يقول : الآنَ وقد جَحَدَت أميَّةُ نِعمتَنا عندَها ، وبَعُدَت عن الصَّلاح بكُفرانها ، فإنَّ الاعتماد على الله تعالى جَدُّه فى أن يتولَّى جزاءَ سَعْيِنا ، ويَعرِفَ لنا ما أنكرَتْه أميَّةُ من بَلائنا ، وعُلَى مَعالٍ أحكمْنا وثائقَها ، وشَدَدنا عَقْدَها وعلائقَها ، فتُوجِبَ لنا من إثابة الله عزَّ وجلَّ ما يكون فيه عِوَضٌ من كلِّ فائت .

وقوله « جئتم من الحَجَر » أراد بالحجَر الجنس . والمراد : جئتم من المكانِ الكثير الحجَر ، ومن بلاد الحجَر ، يعنى الحجاز . ومعنى « البعيدِ نياطُه » البعيد مُعلَّقُه . ويقال : نُطْتُ الشىءَ أنُوطه نِياطًا ونَوْطًا ، إذا علَّقتَه . ورَوَى بعضُهم :

(١) التبريزى : « فالله » .

« من الحجز » ، بالزاء ، وقال : يريد الحجاز . فهذا كما قيل فى تِهامة : التَّهَم . قال :

* نظرتُ والعَيْنُ مُبِينَةُ التَّهَمْ(١) *

والحاجز والحِجاز والحَجَز ، واحد . قال : وسُمِّى الحجازُ حجازاً ، لأنه يَفصِل بين الغَور والشام وبين البادية . وقوله « والشأمُ تنكِر كهلَها وفتاها » ، أى لم يكونوا من أهلِها فاستغربَتْهم . وهذا كما قال فى المقطوعة الأولى(٢) : « رُبَّ كتيبةٍ مجهولةٍ » .

وقوله « إذ أقبلَتْ قيسٌ » ، إذ ظرفٌ لقوله جئتم من الحجَر ، أى جئتم وقتَ إقبال قيس . ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله « تُنكِر كهلَها » أى تنكر فى ذلك الوقت . ويُروَى: « وتزبَّرَت قيْسٌ كأنَّ عُيونها » ، أى صار هواها زُبَيْرِيًّا.

وقوله « كأنّ عيونَها حَدَقُ الكلابِ وأظهرَت سِياها » قَصْدُه إلى الذَّمّ وإلى أنّ نظرَهم نظَرُ الكلاب ، لكنَّه جرَّد التَّشبيهَ أوّلا ، ثم قال : « وأظهرَت سِياها » أى أظهرَت سيما الكلاب فى إقبالها ، فترَكَ لفظَ التشبيه ، وصار كأنه يُخبِر عن حقيقةٍ .

٦٣٥

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ الحكَمِ(١) :

١ — لَحَا اللهُ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ إنَّها أَضَاعَتْ ثُغُورَ المُسلمينَ وَوَلَّتِ

(١) بعده فى اللسان (تهم) :

إلى سنا نار وقودها الرتم شبت بأعلى عاندين من إضم

(٢) كذا . وإنما يعنى ما ورد فى البيت الثانى من نفس هذه المقطوعة .

(٣) هو عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، شاعر إسلامى ، وهو القائل لمعاوية حين استلحق زيادا :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل الهجان
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان

٣ — فشَاوِلْ بِقَيْسٍ فى الرَّخاء ولا تَكُنْ   أخاها إذا ما المَشْرَفِيَّةُ سُلَّتِ[١]

قوله « لحا اللهُ » ، يجوز أن يكون بمعنى قشر الله ، ويجوز أن يكون بمعنى سَبَّ الله . وقوله « إِنَّها أضاعت ثُغورَ » ، يروَى بفتح الهمزة ، والمعنى لأنَّها ، ويروى بالكسر على الاستئناف . ومعنى وَلَّت انهزَمَتْ وأعرَضَتْ .

وقوله «فشاوِلْ بقَيس» ، أى خاطِرْ غيرَكَ ورافِقهم بهم فى الرَّخاء والسَّعة ، والأمن والدَّعَة ، وإياكَ والاعتمادَ عليهم ومؤاخاتَهم فى الحرب وعندَ استلال السُّيوف ؛ فإنَّهم يُسلِمُونك وينهزمون ، ويَخذُلونك ولا يَنصُرون . ويقال : شَاوَل الفَحْلَ وخاطَرَه ، إذا هايَجَه .

٦٣٦

وقال أبو الأسد[٢] فى الحسن بن رجاء[٣] :

١ — فلأَنظُرُنَّ إلى الجِبالِ وأهلِها   وإلى مَنابِرِها بِطَرْفٍ أخْزَرِ[٤]

٢ — ما زِلْتَ تَرْكَبُ كلَّ شىء قائمٍ   حَتَّى اجترأتَ على رُكوبِ المِنبَرِ

= الأغانى (١٢ : ٦٩ ط ١٣/٧٣ : ١٤٤ — ١٤٨) . وفى تاريخ الطبرى (٧ : ٤٢) أن هذه الأبيات يجيب بها زفر بن الحارث فى قوله :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل   فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل

كذبتم وبيت الله لا تقتلونه   ولما يكن يوم أغر محجل

وهى الحماسية ٢١٥ . انظر ص ٦٤٩ .

(١) التبريزى : « بقيس فى الطعان » . الطبرى : « فباه بقيس فى الرخاء » .

(٢) هو أبو الأسد نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الدينور ، وكان طيبا مليح النوادر مداحا خبيث الهجاء . الأغانى (١٢ : ١٦٧) .

(٣) التبريزى : « الحسن بن رجاء ابن أبى الضحاك » . وهو أحد ولاة الدولة العباسية كان واليا على الجبال ، وكان هذا علماً لما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك . وهو ممن مدحهم أبو تمام ومحمد بن وهيب . الأغانى (١٧ : ١٤٢) .

(٤) البيتان مع ثالث برواية أخرى فى البيان (١ : ٢٩٦) بدون نسبة .

قوله « بطرفٍ أخزر » تعلّق الباء منه بقوله فلأنظرن ، والمراد بنظرٍ يميلُ إلى ناحيةٍ ، أى نَظَرِ بُغْضٍ وشَنَآنٍ ، لكونه متوليًا لها . والمعنى : هانت فى عينى وصَغُر قدرُها عندى ، فصرتُ أتكرّهها ، وأبغض أهلَها وكُوَرَها ، ومواضعَ الدّعوة منها ، مذ صِرْتَ أميرَها ومُدبِّرها .

وقوله « ما زلتَ تركب » معناه ظاهر .

٦٣٧

وقال آخر(١) :

١ — عَجِبْتُ مِنَ السَّارِينَ والرِّيحُ قَرَّةٌ إلى ضَوْءِ نَارٍ بَيْنَ فَرْدَةَ والرَّحَى(٢)
٢ — إلى ضَوءِ نَارٍ يَشْتَوِى القِدَّ أهلُها وقَد يُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشْتَوَى
٣ — فلمَّا أتَوْنَا فاشْتَكَيْنَا إليهِمُ بَكَوْا وكِلاَ الحَيَّيْنِ مما بِهِ بَكَى
٤ — بَكَى مُعْوِزٌ مِنْ أن يُلاَمَ وطَارِقٌ يَشُدُّ من الجوعِ الإزارَ عَلَى الحَشَا

يقول : تعجَّبْتُ من العُصبة التى سرَتْ ليلاً إلى ضوء نارٍ أوقِدَتْ فى مكانٍ يتوسَّط فَردة والرَّحَى ؛ وهما موضعان . والرِّواية المستقيمة على كلّ وجهٍ : « بين فَرِدَة فالرَّحَى » وهذا هو ما كان الأصمعىُّ يُنكره فى بيت امرئ القيس ، وهو

* بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُول فحومَلِ(٣) *

وقد مرّ القولُ فيه وفى أشباهه(٤) ، وفى حكم بَينَ ومقتضاه أنَّ الاسمَ الذى

---

(١) هو الراعى ، كما ذكر التبريزى . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ . قال التبريزى : « ونزل بالراعى النميرى رجل من بنى كلاب فى ركب معه ليلا فى سنة مجدبة وقد عزبت عن الراعى إبله ، فنحر لهم ناقة من رواحلهم ، وصبحت الراعى إبله فأعطى رب الناب نابا مثلها وزادها ناقة ثنية ، فقال ... » .

(٢) التبريزى : « فالرحى » .

(٣) صدره مشهور ، حتى قيل : « أشهر من قفا نبك » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٧٩٨ ، ١٢٤١ .

يليه يجب أن يكون كاسم الجمع فى تناوُلِه أكثرَ من واحد، حتَّى يصحَّ ترتيبُ الفاء عليه فى العطف.

وقوله «والريح قرَّة» أى تهبُّ شَمالاً ببردٍ شديد. والواو منه واو الحال.

وقوله «إلى ضوء نار يَشتوِى القِدَّ أهلُها»، أبدلَ إلى ضوء نار ممَّا فى البيت الأوّلِ بإعادة حرف الجرّ معه. ويعنى ناراً لقومٍ مضرورين مجهودين لا خيرَ عندهم، ولا طعامَ بفِنائهم، مضطرِّين إلى شَىِّ القِدّ، لأنَّهم أعوزَهم ماهو خيرٌ منه. فتعجَّبَ وقد استضافَهم هؤلاء السَّارُون، ثمَّ قال: وقد يُكرَم الأضيافُ مع مجاهَدة الفقر، ومزاوَلة الضُّرّ، إذا كان المُضيفُ لطيفَ الحِيلة، رفيعَ الهمة.

ويقال: شويتُ اللَّحمَ واشتويتُه، فانشوَى هو. وحكى سيبويهِ فى بناء المطاوعة اشتوَى أيضاً. ومثله نَظَمْتُ الشيء وانتظمْتُه فانتظمَ هو.

وقوله «فلما أتونا» يقول: فلمَّا حصلُوا عندنا تباثَثْنا وتباكَينا، وكلٌّ واحدٍ من الحَيَّيْنِ شكا إلى الآخَر دهرَه وأنهَى إليه فى إضاقتِه أمرَه.

وقوله «بكى مُعْوِزٌ»، هذا بيانُ وجهِ العِلَّة فى البُكاء. يقول: بكَى فقيرٌ مخافةَ أن يُتَّهَم ولا يُصَدَّقَ ظاهرُ حالِه فيما يَنطِق به من ضُرِّه، وأن تَلحقَ به اللَّائمةُ إذا ذُكِر واجباتُ ضَيفِه؛ والضَّيفُ الطَّارقُ بكَى لِما مَسَّه من نائباتِ دهرِه، ولِمَا يَظهر من مِسَاس حاجته، ويُقيم به العُذرَ فى إلمامه، حتَّى شَدَّ حَشاهُ لخلاءِ جوفِه.

٥ — فأَلْطَفْتُ عَيْنِي هَلْ أَرَى مِنْ سَمِينَةٍ ... ووطَّنْتُ نَفسِي للغَرَامةِ والقِرَى

٦ — فأبصَرْتُها كَوْمَاءَ ذاتَ عَرِيكةٍ ... هِجَاناً مِنَ اللَّائِي تَمَتَّعْنَ بالصُّوَى

٧ — فأَوْمَأْتُ إيماءً خَفِيًّا لَحبْتَرٍ ... ولله عَيْنَا حَبْتَرٍ أَيَّما فَتَى

٨ — وقُلتُ لَهُ أَلصِق بأَيْبَسِ سَاقِها ... فإنْ يُجْبَرِ العُرْقوبُ لا يَرْقَأِ النَّسا

قوله « ألطفْتُ عَينِى » أى نظرتُ بعينى نظراً لطيفا ، هلْ أرى فى إبلِ المُستضيفِين ورواحِلِهم ناقةً سمينةً أنحرُها لهم ، وإذا رُدَّت إبلى إلى مَباءتِها أعوِّض صاحبَها خيراً منها ، وأغرَمُ من بعد ذلك له ما ارضيه به . ويقال : ألطَفْتُ أخِى بكذا ، إذا أتحفتَه بما يُعرف به بِرُّك ولُطْفُك . وألطفت الأمُّ بالولَد ، وأمٌّ لطيفةٌ ، أى أكرمَتْهُ وبرّته .

وقوله « أبصَرْتُها كوماء » ، الكوماء : الطَّويلة السَّنام الغَايظة ، وقيل : الكَوَم : العِظَم من كلِّ شىء : والعَريكة : السَّنامُ إذا عركه الحِمْل . وناقةٌ عَرُوكٌ : لم يكن فى سَنامِها إلاَّ اليَسيرُ من الشَّحم . والهِجان : الكريمة . ويقال : ناقةٌ هِجَانٌ ونُوقٌ هِجان . وقد مرَّ القولُ فى وقوعِه للواحِد والجمع على صُورةٍ[1] .
وقوله « تَمتَّعْنَ بالصُّوَى » فالصُّوَى : الأعلام والحجارة . أى رعت الحَزْن والسَّهْل . ومعنى تمتَّعْن ، أى أقمْنَ بها ويَقِين حتَّى استمتعْنَ . ويقال : مَتَّعَ الماءُ الشَّجرةَ ، إذا أنشأها . ونخلةٌ ماتعة ، أى طويلة .

ويروى :

. . . . مِن سمينـــةٍ تداركَ فِيها نَىٌّ عامَيْنِ والصَّرَى

والنَّىُّ[2] : الشَّحم . والصَّرَى : حَبسُ الإبلِ فى الرِّعْى[3] ، ومنه سمِّى الماء الذى قد طال إنقاعُه فى موضعٍ : الصَّرَى . ويُروى : « والصَّوَى » ، وهو الإحسان إليها والإبقاء عليها .

وقوله « فأومأتُ إيماءً خَفِيًّا لحبترٍ » لحبترٌ : اسم ابنِه ، وإنَّما رسم له

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٩٤ .
(٢) النى ، بفتح النون وكسرها ، وضبط فى النسختين بالفتح ، وهما لغتان فيه .
(٣) الرعى ، بالكسر : الكلأ والمرعى . وفى ل : « المرعى » .

عرْقبتَها فى السِّرّ بعد أن اختارَها مخافةَ أن يمتنع صاحبُها مما همَّ به فيها . وقوله « عيناً حَبْتَرٍ » اعتراض . وانتصب « أيَّما فَتًى » على الحال ، كأنَّه أحْمدَه حين حَسُنَتْ فطنتُه وتسرَّع إلى مُراده . ويقال : مررتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ ، فتجعله صفةً للنكرة ؛ وبزيدٍ أىَّ رجل ، فيصير حالًا المعرفة . وعلَّقَ المدحَ بعينيه ، لأنه بهما أدركَ إيماءه . وإذا عظَّموا الشَّيء نسبوا مِلْكه إلى الله عزّ وجلّ .

وقوله « ألصِقْ بأيْبَسِ ساقِها » الأيبَسُ : ما قلَّ عليه اللَّحْمُ من الساقِ وغيرِها . والسَّيفُ أعمَلُ فيه . وقوله « فإنْ يُجبَرِ العُرْقُوب » العُرقوب : عَقَبٌ مُوَتَّرٌ خلفَ الكعبين فُوَيقَ العَقِب من الإنسان ، وهو مَوصِلُ الوظيف والسَّاقِ من ذوات الأربع . والمعنى : أصِبْ ساقَها فإنَّ العُرقوبَ إن أمكن التَّلافى منه بالجبْر والعِلاج والشَّدّ ، فإنْ نَساه لا ينقطعُ الدَّم منه ، فصاحبُها يَيْئَسُ منها عند ذلك . والمعنى : اضربْها ضربةً ليس فى البُرْء منها مَطمع ، ليَرْضى صاحبُها بالتَّعويض منها ، ويستقيمَ أمرُ الضَّيف والضيافة ، وإنْ لِحَقَنا غُرمٌ فيها .

٩ — فَأَعْجَبَنِى مِنْ حَبْتَرٍ إنَّ حَبْتَرًا مَضَى غيرَ مَنْكُوبٍ ومُنْصُلَه انتَضَى
١٠ — كأنِّى وقد أشبَعْتُهُمْ مِنْ سَنامِها جَلَوْتُ غِطاءً عنْ فُؤادِىَ فانجَلَى
١١ — فبِتْنا وباتَتْ قِدْرُنا ذاتَ هِزَّةٍ لَنا قَبْلَ ما فيها شِوَاءٌ ومُصْطَلَى

قوله « غير منكوب » أى غير مدفوعٍ فى صدره . ويقال : حافرٌ منكوب ونَكيب ، إذا أثَّر فيه ما يطؤه من حَصًى أو حجر . وقوله « ومُنْصُلَه انتضى » أى جرَّدَ سيفه . وانتصب مُنصُلَه لأنه مفعول مقدَّم . وقوله « جلوتُ غطاءً » ، يقول : كنتُ مهتمًّا قلقاً ، فلما شبعوا ممَّا أعددتُ لهم وتحمَّلت من أجلهم سكنْت فكأنه كان على قلبي غطاءٌ من الغم رانَ عليه ، فانجلى وذهب .

وقوله « فبِتْنا وباتت قِدْرنا » خبر بِتْنا قوله « لنا قبلَ ما فيها شِواءٌ » ،

وشِوَاءٌ ارتفع بالابتداء . يريد : بِتْنَا لنا قَبلَ ما أُودع القِدرَ شِوَاءٌ واصطلاء بالنّار ، كأنه طال عليهم انتظار القِدْرِ ، فعُمِدَ إلى أطايب الجَزور وشُوِىَ . وقوله « ذاتَ هِزّةٍ » خبر بانت قدرنا ، أى لها هزيزٌ بالغَلَيان . ويجوز أن يريد : لِقِدر اللَّحم فيها اهتزازٌ واضطراب ، كما قال :

* قُرَشِيَّة يهتزُّ موكبها *

وهذا الذى اقتصَّه من حاله وحالهم ، بيانُ اهتمامه بأمر الضيف وحسن التأتِّى فى تفقده .

١٢ — وأَصْبَحَ رَاعِينا بُرَيْمَـةُ عِندنَا بِستِّينَ أَنْقَتْها الأَخِـلَّةُ والخَلَا

١٣ — فقلْتُ لربِّ النَّابِ خُذْهَا ثَنِيَّةً ونابٌ عَلَيْنَا مثلُ نابِكَ فى الحَيا

يقول : أصبَحْنا وراعينا بُريمةُ رَدَّ إبلَنا مِن مَرعاها ، وهى ستُّونَ قد أنقتْها — أى جعل لها نِقْيًا — الأخِلّةُ ، وهى جمع خِلال ، وهو ما اختُلَّ واجتُزَّ من العُشْب وهو أخضر . والخَلَا : الرَّطْب . وقال بعضُ أصحابِ المعانى : لا يقال أنقَتِ النّاقةُ ، إذ سمِنَت ؛ ولكنْ لمّا سَمِنَّ من الحشيش ، وكان الحشيشُ والخلا سببَ سِمَنها جَعَلَ الفعلَ لها على سعة الكلام ، والأصل أنْقَتْ هى . قال :

لا يَشتكِينَ ألمًا ما أنْقَيْنْ ما دام مُخٌّ فى سُلَامَى أو عَيْنْ[1]

وقال غيرُه : يجوز أن يكون أنقى ها هنا مُعدًّى ، ويكون على غير ما فسَّرتموه ، وهو أنه يقال : أنقيته فأنقى ، كما يقال : أمْأَيْتُ الدَّراهم فأمْأَت هى[2] . والمعنى سَمَّنْتُه وجعلتُ له نِقْيًا فسَمِنَ واحتمل .

قال البَرْقِىُّ : الرِّواية الصحيحة عندى : « أبقَتْها الأخِلَّةُ » ، أى أبقتها على البَرْد والجَدْب ، لأنَّا كَننّاها وخلّينا لها. ورواه بعضُهم : « الأجِلَّة » بالجيم .

---

(١) الرجز لأبى ميمون النضر بن سلمة ، كما فى اللسان (نقى) . وانظر مقاييس اللغة (١ : ٢٠٦) .

(٢) أى صارت مائة .

قال : ويقال : جُلٌّ وجِلاَل وأجِلَّة ، أى لم نَدَعْها ولم نُهمِلْها ، بل أَلْبَسْناها وتفقَّدناها .

وقوله « وقلتُ لربِّ الناب خُذْها ثَنِيَّةً » ، أى حَكَّمْتُ صاحبَ الناب التى عقرتُها فى أن يختار من إبلِى ثَنِيَّةً على ما يشتهيه ، وتصطفيه عينُه وتنتقيه ، وقلتُ مُضِيفاً إلى العِوَض الواجبِ له : لك علينا نابٌ مثل نابِكَ فى السِّمَن . والحيا من باب ما سُمِّىَ باسمِ غيرِه إذ كان منه بسبب . فالحيا : المطر ، لأنه يُحْيِي العِباد والبلاد ، ثم يسمَّى النبْتُ حَيًا لأنه بالمطر يكون ، ويُسمَّى الشَّحمُ حيًّا لأنه عن النَّبت يكون . وهذا البابُ كثيرٌ واسع[1] .

٦٣٨

فقال فى [ذلك[2]] خَنْزَرُ بن أَقْرَمَ[3] :

١ — بَنِى قَطَنٍ ما بالُ ناقةِ ضَيفِكم ... تَمَشَّوْنَ منها وهْىَ مُلْقًى قُتُودُها

٢ — غَدَا ضيفُكُم يَمشِى وناقةُ رَحْلِهِ ... على طُنُبِ الفَقْمَاءِ مُلْقًى قَدِيدُها

٣ — وباتَ الكِلابىُّ الذى يَبْتَغِى القِرَى ... بلَيْلةِ نَحْسٍ غابَ عنها سُعُودُها

أخذ يُسائلُهم عمَّا غيَّرهم به تهكُّماً [وسُخريَة[4]] . ومعنى الكلام الإنكار . يقول : لِمَ تتمشَّوْنَ من ناقةِ ضيفِكم ؟ وكيف استجزتم ذلك حتى صارت قد

---

(١) التكملة من ل والتبريزى ، وهذا نص على علاقة هذه الأبيات بسابقتها .

(٢) قال التبريزى فى آخر شرحه لهذه القصيدة : « وليس هذا من الهجو فى شىء ، وإنما أورده أبو تمام لما يتبعه من قصيدة خنزر بن أرقم » .

(٣) كذا فى نسخة الأصل . وفى ل والتبريزى « أرقم » وأشير فى ل إلى أنه فى نسخة « أقرم » . وخنزر ، قال التبريزى : « واسمه الحلال ، وهو أحد بنى بدر بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير . والراعى من بنى قطن بن ربيعة » ، فهما بنو عمومة . وقد سبقت ترجمة الراعى فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٤) التكملة من ل .

أُلْقِيَ قُتُودُها وهى مطبوخةٌ مأكولة ؟ والقُتُود لا واحدَ لهـا عند أصحابنا البَصريِّين . ثم قال مقبِّحاً الصورة : ابتـكَر ضيفُـكم يمشى وراحلتُه قد نُحِرَت وقُدِّدت لحومُها ، وشُمِّسَت على طُنُبِ الفَقْماء . وهذا تفظيعٌ للشأن . والطُّنُب : حبلٌ من حبال الخيمة . والفَقْماء يَعنى بها امرأةَ الراعى ، لقَّبها بذلك .

وقوله « وناقةُ رَحْلِه » ، رواها المفضَّل : « وناقةُ رِجْلِه » كأنه لمَّا قال غدًا ضيفُـكم يمشى ، قال : وناقة رجلِه ، يريد الناقة التى كانت حملت رِجله . ومن روى : « وناقةُ رَحلِه » له أن يقول : كما قال[1] : وهى مُلْقًى قُتُودُها ، قال : وناقة رَحْلِه ، أى الرَّحل المُلْقَى .

وقوله : « وباتَ الـكِلاَبىُّ » يعنى به باتَ المستضيفُ الطالبُ للقِرَى عندكم بليلةِ شؤمٍ قد فارَقَها السُّعود ، لأنكم غصبتم ناقتَه ، ولم يَنَل القِرَى عندكم .

٤ – أَمَن ينقُصُ الأضيافَ أكرمُ عادةً إذا نَزَلَ الأضيافُ أم مَن يَزيدُها

٥ – كأنَّـكُمُ إذْ قُمْتُمُ تَنْحَرُونَها بَرَاذِينُ مشـدودٌ عليها لُبُودُها

٦ – فما فَتَحَ الأقوامُ مِن بابِ سَوْءَةٍ بَنِي قَطَن إلاَّ وأنتم شُهُـودُها

يقرِّرهم على تقبيح ما كان منهم ، فيقول : خبِّرونى أىُّ العادتين أقربُ إلى الـكرم ، وأحْرَى[2] فى وَفاء الشِّيَم : أعادةُ مَن يَستنزِل الأضيافَ عن أموالهم وينقُصُ ما توفَّرَ لهم ، أم عادةُ مَن يزيدُهم ويُثمِّر حظوظَهم .

وقوله « عادةً » انتصبَ على التميز . وإذا نزلَ ظرفٌ لقوله « أمَن ينقُصُ الأضياف » . وكرَّر لفظَ الأضياف ولم يأتِ بالضمير على عادتِهم فى تكرير الأعلام والأجناس ، وقد مضَى مِثلُه .

وقوله « كأنكم إذ قمتمُ تَنحرونها بَرَاذِينُ » شبَّههم فى العَجْز والثِّقل وقِلّة

(١) ل : « لما قال » .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أجرى » بالجيم .

الغَناء ، والتباطؤ والبلادة ، بالبراذين ، وهم يضربونها مثلاً للمذموم . وجعَلها شُدَّت اللُّبودُ عليها تقبيحاً لصُوَرِها .

وقوله : « فما فَتَح الأقوام من بابِ سَوءة » ، يريد : لا يسبقُ طوائفُ الناس وفِرَقُهم إلى خَصْلةٍ مذمومة أو سَوْءة مشوَّهة منكَرة إلاّ وبنو قَطَنٍ حضُورُها ؛ أى لا يمكن الإغراب فى المخازى عليهم ، لأنّهم السابقون فى البِدَار إلى كلّ عار ، والأوّلون عند الولوج فى كل باب ، والحاضرون لكلّ نُكْرٍ وعاب .

٦٣٩

فأجابه الرّاعى[١] :

١ ــ ماذا ذكَرْتم مِن قَلوصٍ عقَرتُها بسَيْفِي وضِيفانُ الشِّتاء شُهودُها[٢]

٢ ــ فقد علِمُوا أنى وفَيْتُ لِرَبِّها فَرَاحَ على عَنْسٍ بأُخْرَى يقودُها

٣ ــ قَرَبْتُ الكِلابيّ الذى يَبتَغِى القِرَى وأمَّكَ إذ تَخْدِى إلينا قَعُودُها[٣]

الرواية الجيدة : « ماذا نكِرتم » . ويقال : نَكِرْتُ الشيءَ وأنكرتُه واستنكرته بمعنًى . فأمّا « ذكرتم » فمراده ماذا عيّرتم فذَكَرتم من ناقةٍ لغيرِى عقرتُها حين عَزَبَتْ إبلِى لضيفانِ الشِّتاء بحَضْرتهم ، وبمرأًى منهم . وقد جرى رسمُ الكرام بمثلِ ذلك إذا دَعَت الحال إليه ، موطِّنين أنفسَهم للغرامة ، وردِّ الاثنينِ بدلَ الواحد على الخصم فيه .

وقوله « فقد علموا » يستشهد بالضِّيفان فيقول : حضَروا وتيقَّنوا أنى وفَيْتُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٨٠ ص ٢٧٥ .

(٢) التبريزى : « ويروى : من كزوم عقرتها » . والكزوم : الناقة المسنة التى مشفرها الأعلى أطول من الأسفل » .

(٣) التبريزى : « يحدى إلينا » .

لربِّها بمثلِها وزدتُه أخرى ، فراح راكباً إحداها وقائداً الأخرى معها . ثم اقتصّ ما دعاه إليه فقال : قَرَيْتُ الكِلاَبِىَّ المبتَغِىَ للقِرَى وقَرَيْتُ أُمَّكَ ، يعنى أمَّ خَنْزَر بن أفرَم(١) المعيِّر المنكِر . والخَدْى : ضَرْبٌ من السَّير . والقَعُود : البَكْر إذا بلغ الإثناء ؛ والذى يَقتعِده الرّاعى فيركبُه ويَحمِل زادَه عليه قَعودٌ أيضاً . وفى ذكر الأمّ وأنه أضافَها مع الكلابىِّ بعضُ الغَضِّ والإيهام .

٤ — رَفَعْنَا لَهَا نارًا تُثَقَّبُ للقِرَى ولِقحةَ أضيافٍ طَوِيلاً رُكُودُها

٥ — إذَا أُخْلِيَتْ عُودَ الهَشِيمةِ أرزَمَتْ جَوَانِبُها حَتَّى نَبِيتَ نَذُودُها

٦ — إذَا نُصِبَتْ للطَّارِقِينَ حَسِبْتَها نَعامَةَ حِزْباء تقَاصَرَ جِيدُها

ويروى : «رفعنا لها مشبوبةً يُهتدَى بها» . ومعنى «تثقَّبُ» تُذْكَى وتضاء . وقيل : الكوكب الثاقبُ والحسَب الثاقب ، للضَّوء والتلألؤ . ومعنى «للقِرَى» لإقامة القِرى ، و « اللقحة » يراد به القِدر هاهنا ، وأصله فى النَّاقة الحَلُوب . وجعلَ ركودَها طويلاً لثِقَلها وكِبَرِها ، ولأنَّها لا تُنزَلُ(٢) إلا للغَسْل ثم تُعاد . والجَفْنةُ الرَّكود : الثَّقيلة الممتلئة .

وقوله «إذا أُخْلِيَتْ» أى جُعِل الحطَبُ لها بمنزلة الولَد ، فهو لها كالولد ، وهى له كالنَّاقة الخَلِيَّة(٣) ، وهى التى تَعطِف على ولدِها وترأمُه . والهَشِيمَةُ : اليابس من الشَّجرِ وغيره . وأَرْزَمَتْ : صاحت بغَلَيانها ، لكِبَرها ، حتَّى نَبِيتَ نُسَكِّن منها . وإذا نُصِبْتَ على الأثافى لزُوَّار الليل — يعنى الأضياف — حسبْتَها لإشرافها نعامةَ حِزْباءَ . والحِزْباء(٤) : الأرض الصُّلبة المرتفعة . شبَّهَ القِدر

(١) ل : «أرقم» ، وقد سبق التنبيه .
(٢) فى الأصل : «تترك» ، صوابه فى ل .
(٣) التبريزى : «إذا أخليت ، أى جعل الحطب لها بمنزلة الخلا للناقة فأوقد تحتها . ويروى : إذا خليت ، أى جعل الحطب لها بمنزلة الولد ، فهو لها كالولد وهى له كالناقة الخلية» .
(٤) هى جمع حزباءة .

بالنَّعامة ، لأنَّها تُكثِر رفعَ رأسِها ووضْعَه ، لجُبْنها ونُفورِها ، فكذلك القِدر ترفَعُ المَحَال وتخفضها ، لشِدَّة غليانها . وقال « تقاصَرَ جيدُها » ليتبيَّنَ وجهُ التَّشبيه منه ويصحّ . ومثله قولُ الآخر[1] :

* غضوبٌ كحيزوم النَّعامَةِ أُحمِشَتْ[2] *

٧ — تَبيتُ المَحَالُ الغُرُّ فى حَجَرَاتِها   شَكَارَى مَرَاهَا ماؤُها وحَدِيدُها

٨ — بَعَثْنَا إليها المُنْزِلَيْنِ فحَاوَلاَ   لكَىْ يُنزِلاهَا وَهْىَ حامٍ حُيُودُها

٩ — فبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجمَ فى مُسْتَحِيرَةٍ   سَرِيعٍ بأيدى الآكِلِينَ جُمُودُها[3]

المَحَال : فِقَرُ الظَّهر ، والواحدة مَحَالَة . وجعلها غُرًّا لِسِمَنِها . والحَجَرات : النَّواحى ، وجعلها شَكَارَى لامتلائها وَدَكاً . ويقال : شاةٌ شَكِرَةٌ ، إذا كانت غزيرةَ اللَّحم ، وضَرَّةٌ شَكْرَى ، أى ممتلئة . وشُكْرُ النِّعَم من ذلك ، لأنَّه به تُستدام وتُمْتَرَى الزِّيادة[4] . ويُروى : «سَكَارَى» بالسِّين غير معجمة ، والمراد مثلُ ذلك لأنَّ السُّكْر من الامتلاء يكون . ومعنى مَرَاها استخرجَ دَسَمَها . ماؤُها ، أى مرقُها . وحديدُها أى مِغْرَفَتُها .

وقوله « بعثنا إليها المُنْزِلَيْن » إنَّما ثَنَّى ليُرِىَ أنَّ الواحدَ لا يُطيقُها ولا يَنهضُ بتحريكها لِثقَلها . واللام من قوله « لكَى يَنزلاها » يجوز أن يتعلَّق بقوله بَعَثْنَا ،

(١) هو الفرزدق ، كما فى الحيوان (٤ : ٣٣٢) وما سيأتى فى الحماسية ٧٥٣ .

(٢) عجزه :   * بأجذال خشب زال عنها هشيمها *

(٣) بعده عند التبريزى :

فلمَّا سقَينا العَكيسَ تملَّأَتْ   مَذاخِرُها وارفضَّ رشحًا وريدُها

ولمَّا قَضَتْ من ذى الإناءِ لُبانةً   أرادت إلينا حاجةً لا نريدُها

والبيت الأول منهما منسوب فى اللسان (عكس) إلى أبى منظور الأسدى . والعكيس : الحليب تصب عليه الإهالة والمرق ثم يشرب .

(٤) ابن جنى فى التنبيه : « والشكر موضع زيادة اللفظ الإطناب فى حسن القول ... ومنه الشكير لصغار الورق والريش ، وذلك أنه زيادة على الجسم » .

كأنَّه قال : بَعثْنَا المُنْزِلَين إليها لكى يُنزِلاها فحاولاه ، وحذَف مفعول حاول . وكَىْ هذه هى النَّاصبة للفعل ، لذلك دخلها اللامُ الجارّة . والمحاولة : مطالَبة الأمر بالحِيَل ، ويجوز أن يتعلَّق بحاولا . والحُيُود : الجوانب ، أى إذا أراد إنزالها وفى جوانبها بَعْدُ حَمْىٌ ، استعجالاً .

وقوله : «فباتت تَعُدّ النَّجْمَ» إخبار عن أم خنزر بن أقرم[1] . والمستحيرة : المتحيِّرة لامتلائها . أى فى مرقَة أو قدرٍ قد تحيَّرت ، فهى مِنْ صَفائها وكثرة دَسَمِها ترَى فيها نُجومَ السَّماء . وقيل : شبَّه الرَّاعى النُّفَّاخات التى كانت على رأسها مِن كثرة الدَّسَم بالنُّجوم ، ويجوز أن يكون أراد أنَّ هذه القِدرَ مرتفعةُ الشَّأن ، عاليةُ الأمْر ، فأمُّه كانت تَعُدُّ النُّجومَ فيها لما أُطعِمَتْ منها كأنّها بلغت النُّجومَ فى علوِّها ، لأنّها لم ترَ مثلها قطّ[2] . وهذا هو الوجهُ عِندى ، ليكونَ قد غضَّ مِن أمِّه جزاءً على ما قاله وأنكره . وقوله « حُيُودُها » ارتفع بحامٍ ، وكذلك « جُمودُها » ارتفع بسريع . ويجوز أن يروى : « سريعٌ » بالرفع على أن يكون خبراً للمبتدإ وقد قُدِّم عليه ، والمبتدأ جُمودُها .

٦٤٠

وقال رجلٌ من بنى أَسَد :

١ — دَبَبْتَ لِلْمَجْدِ والسَّاعُونَ قد بَلَغُوا جَهْدَ النُّفُوسِ وأَلْقَوْا دونَهُ الأُزُرَا

٢ — فكَابَرُوا المَجْدَ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ وعَانَقَ المجدَ مَنْ أَوفَى ومَنْ صَبَرَا

---

(١) فى هذه اتفقت النسختان . وانظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) قال أبو محمد الأعرابى : « لا يجوز أن يكون النجم هنا إلا الثرياء وذلك أن فى البيت خبيئة لم يخرجها أبو عبد الله — يعنى النمرى — وذلك أن الثريا لا تكاد ترى فى قعر الجفنة وغيرها من الأوانى إلا أن يكون قم الرأس ، ولا يكون قم الرأس إلا فى صميم الشتاء ، ويقال حينئذ : أقمر النجم ... وقوله تعد النجم . أى لصفاء الودك فى الجفنة تعرف عدد الثريا فيها . وهذا معنى مليح ؛ وذلك أن نجوم الثريا لا تكاد يعدها إلا ذو بصر حديد ، ولذلك يقول القائل :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت يراها حديد العين سبعة أنجم » .

٣ — لا تَحْسَبِ المَجْدَ تمراً أنتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبلُغَ المَجْدَ حتّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

يقول : تباطأَ سَعْيُك المَجْدِ ، ولمّا سعيتَ كان سعيُك دبيباً وطُلّابُ المجد قد جَهَدوا أنفسَهم، وألقوا الأُزُرَ دونَه ، تخفيفاً عن أنفسهم ، وتشهيراً فى طلبهم وهذا مثل . والمراد أنَّ ما يفعله الساعى فى سَعيه إذا طلبَ شيئاً من التجرُّد والتخفُّف ليُدْرِكَ مطلوبَهُ [قد فعلوه(١)] . ثم أخذ يفصِّل مجهودَهم من بَعْدُ ، فقال : كابَرُوا المجد ، أى جاهدوه ليَبلغوه قَسْرًا لا خَتْلاً ، فمَنْ صَبَرَ وأوفَى ناله واحتواه ظافراً به ، معانِقاً له ، ومن مَلَّ وقَصَّرَ — وهم الأكثر — خاب وأخفق ورجع نادماً لاهياً عنه .

وقوله « لا تَحسَبِ المجدَ » تقريع ، والمراد : لا تظنَنَّ المجدَ يُدرَكُ بالسَّعى القصير ، واستعمال التَّعذير ، وعلى ملازَمة الرّاحة دونَ توطينِ النَّفس على الكدِّ الشديد والمجاهدة ؛ فإنَّه لن يُنالَ إلاّ بتجرُّع المراراتِ دونه ، واقتحام المعاطب بسببه . ويقال : لعِقْتُ الصَّبِرَ لَعْقاً . واسمُ ما يُلعَق هو اللَّعُوق .

٦٤١

وقال آخر :

١ — ومُستَعْجِلٍ بالحربِ والسِّلْمُ حَظُّهُ ... فلمّا استُثِيرَتْ كَلَّ عنها مَحافِرُهْ

٢ — وحاربَ فيها بامرئٍ حِينَ شَمَّرتْ ... مِنَ القوم مِعْجازٍ لئيمٍ مَكاسِرُه

٣ — فأَعطَى الَّذِى يُعطِى الذَّليلُ ولم يَكن ... له سَعْىُ صِدْقٍ قَدَّمَتْهُ أكابِرُه

يقال : استعجل بالشَّىء ، إذا طَلَبَ عجلتَه ولم يَصبِر إلى وقته وإبّاه . فيقول : ربَّ امرئٍ يُعْجِلُكَ فى هَيْجِ الحَرْبِ له ، ونَصْبِ الشرِّ بينَك وبينه ، فتراه يرتقِى فى الإيذاء والمكاشَفة إلى أعلى درجات القصْد ، وحَظُّه فى أن يُسالِمَ ،

(١) التكملة من ل .

لكنَّه بسُوء تأتّيه ونقصِ اختياره ، أبَى لنفسِه إلاَّ تمريضَها لما يَستوخِم عاقبتَه ، ويَتعجَّل شرَّه ، فلما هُيِّجت الحربُ له وأُجيب فى إثارتها ، وإيقاد نائرتها ، إلى مراده منها ، عَجَز فيها عن الإيفاء والاستيفاء ، وكلَّ عن مُباشَرة الوِرْد والصَّدر ، واستعان فيها برجلٍ رَكَّابٍ لرواحل العَجْز ، لئيم المَكسر والمَختبَر ، ضيِّقِ العَطَن والمَبْرَك ، ويعنى به نفسه ، وهذا كما يقال : لقيتَنى لقيتَ بى قِرناً باسلا . ويعنى بالقِرْن نفسَه . وقوله « حين شمَّرتْ » يريد حين كشفَت الحربُ عن ساقها ، وأبدتْ أعجازَها وهوادِيَها ، ففَعَل فِعلَ الذَّليل ، وأعطى من الانقياد ما يُعطيه الضَّعيفُ الفريد ، ولم يكن سَعْيُه سعياً مصدوقاً فيه ، ولا وقوفُه وإمساكُه إمساكاً يُعذَرُ له ، فتراه عند الأماثِل من جملة الأراذل ، وعندَ طُلاَّب الخيرمقتحِما فى الشَّرِّ . ومعنى «قَدَّمَتْهُ أكابره» أسلافُه وأماثلُ قومِه .

٦٤٢

وقال إسماعيل بن عَمَّار (١) :

١ — بَكَتْ دارُبِشْرٍشَجْوَها إذ تَبدَّلَتْ هلالَ بنَ مرزوقٍ بِبِشْرِ بن غَالبِ

٢ — وهَلْ هِيَ إلاَّ مِثْلُ عِرْسٍ تَحَوَّلَتْ على رَغْمِها ، مِنْ هاشمٍ فى مُحارِبِ (٢)

« شَجْوَها » انتصَب على أنه مفعول له ، والشاعر يفضِّل بشرًا على هلال ، ويقول : إن الدار التى كان يستوطنها بشرٌ لمّا ارتحل عنها وصار فيها بدلاً منه هلالٌ بكتْ وتحسَّرَتْ ، وحُقَّ لها ذلك ، فما هى فى استبدالها إلا كعروسٍ زُوِّجت

(١) التبريزى : « إسماعيل بن عمار الأسدى » ثم قال : « قال دعبل بن على : هى للوليد بن كعب قالها لما مات بشر بن غالب واشترى داره هلال بن مرزوق » .

وإسماعيل بن عمار الأسدى : شاعر مقل مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية . وأخباره فى الأغانى (١٠ : ١٢٨ — ١٣٥) .

(٢) التبريزى : « مثل عرس تبدلت » .

فى هاشم ، ثم انتقلت إلى محارِب . ومُحارِبٌ قبيلة فيها ضَعَةٌ وخمول ، حتى قال بعض الشُعَراء وهو يَحْلف :

* فَصَيَّرنى ربّى إذًا من مُحارِبِ *

٦٤٣

وقالت امرأةٌ قُتِلَ زوجُها[1] :

١ — مَتَى تَرِدُوا عُكاظَ تُوافِقُوها … بأسْماعٍ مَجادِعُها قِصارُ
٢ — أجيرانَ ابنِ مَيَّةَ خَبِّرُونِى … أعَيْنٌ لابنِ مَيَّةَ أم ضِمارُ
٣ — تَجَلَّلَ خِزْيَها عَوفُ بنُ كَعْبٍ … فليسَ لخَلْفِها مِنهُ اعتِذارُ
٤ — فإنَّكُمْ وما تُخْفُونَ مِنْها … كذاتِ الشَّيبِ ليسَ لها خِمارُ

عُكاظ : وادٍ للعرَب فيه سوقٌ لهم يجتمع فيها طوائفُ الناس من [جميع[2]] الأحياء ، فيتمارفون فيها ويتعلّقون بالأخبار بعد التذاكر بها والتنسُّم لها ، وبينهم المواعَدات والمقايَضات ، والإحَنُ والترات ، والمنافَراتُ والمناقَضات ، فكلُّ فِرقةٍ تتجمَّل لِلأخرى[3] وتودّ أن تسمع فيها ما ليس عندَها من حَسَنٍ وقبيح ، ومحمود

---

(١) التبريزى : « قتل زوجها فى جوار الزبرقان فلم يطلب بثأره ... وخبر هذه الأبيات أن رجلا من عبد القيس كان يقال له ابن مية ، وكان جاراً للزبرقان بن بدر ، فقتله رجل من بنى عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة فى جوار الزبرقان ، وكان الذى قتله يقال له هزان ، قتله بموضع يقال له ذو شبرمان ، فحلف الزبرقان ليقتلن هزالا . وقالت امرأته هذه الأبيات . ثم سعت بنو سعد فى القصة حتى أصلحوها وفدى ابن مية ، ثم مكثوا هنية من الزمان وخطب هزال إلى الزبرقان أخته خليدة فزوجه إياها ، فلما هاجاه المخبل نعى ذلك عليه فقال :

وأنكحت هزالا خليدة بعدما … زعمت برأس العين أنك قاتله
وأنكحته وهوى كأن عجانها … مشق إهاب أوسع السلخ ناجله
يلاعبها تحت الفراش وجاركم … بذى شبرمان لم تزيل مفاصله » .

(٢) التكملة من ل . (٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « تتحمل الأخرى » .

ومذموم ، إلى غير ذلك من الأنباء السائرة ، والأوابد العائرة[1] ، التي يُتهادى بها ، ويُستطرَف وُقوعُها ، ويُتبلَّغُ باستماعها وأدائها. فيقول : متى وردتم عُكاظ وافَيتموها أذلاّء قد اكتسيتم عاراً يُخزيكم ويُلازمكم ، فتصير كالمُثلةِ عليكم ، فكأنّ آذانكم قد استُوعِبَ صَلمُها ، عقوبةً لكم بما عاملتم به جارَكم من إحفار وإسلام ، حين[2] قُتل في جواركم ، واستُبيح مَحرُماتُه في ذِمَمكم . ثم قال مستهزِئاً ومعيِّراً : يا جيرانَ ابنِ مَيَّةَ ، أنبئوني أنُصْرَتُكم له عَيْنٌ أم ضِمَارٌ ، ووفاؤكم بما عَقدتم له حَقٌ أمْ كِذَاب . والعَينُ : ما يُحضر ويُشاهَد ، لذلك قيل في المثل : « يدَعُ العينَ ويتبَعُ الأثر » . والضِّمار : الغائب الذي لستَ منه على ثقة . قال الأعشى :

تَرانا إذا أضمَرَتْكَ البلادُ نُجْفَى وتُقطَعُ منا الرحِمْ

وقوله « تجلَّل خِزْيَها عوفُ بن كعب » ، يريد : لَبِسَ خِزْيَ هذه الغَدْرَةِ وتغطّى بذمِّها قبائلُ عَوْفِ بن كعب كلُّها لا أنتم فحسْب ، فليس لأعقابها بعدها عُذْرٌ يُقبل ، ولا تنصُّلٌ يُسمَع .

وقوله « وإنكم وما تُخْفون منها » ، يريد مَثلكم في سَترِكم أمرَها ، وتقديركم إخفاءها ، على انتشارها وذَهابها في الناس ، وعلى تغشّيكم بدَرَنِها ، واستقذار الناس لكم لوسخها ، مَثَلُ امرأة شابَ رأسُها ولا خِمار لها فتختمر ، مع مَيلها إلى أن لا يُرَى شيبُها . والمعنى : الأمرُ أظهر مِن أن يُكتم أو يُدفن.

---

(١) العائرة : السائرة .

(٢) ل : « حتى » .

٦٤٤

وقال آخر :

٥— تَوَلَّتْ قُرَيْشٌ لَذَّةَ العَيْشِ وَاتَّقَتْ بِنَا كُلَّ فَجٍّ مِنْ خُرَاسَانَ أَغْبَرَا

٦— فَلَيْتَ قُرَيْشاً أصبحَتْ ذَاتَ ليلةٍ تَعُومُ بها مَوْجًا من البحر أكْدَرَا

هذا كلامُ رَجُلٍ قد جَمَّرَهُ الوالِي[1] ، وتبرّمَ بغُربته ، وشَقِيَ بالتّباعُد عن أهله ووطنه ، فيقول : تفرَّدَ قريشٌ بالتنعُّم والتلذُّذ ، واستأثَرَ بالعيش الطّيِّب والرَّتعَةِ الهنيئة[2] ، ورمَتْ بنا مرَامِيَ مُنْكَرَةً لا راحةَ معها ، ولا طائلَ فيها ، وسَدَّتْ طُرُق المَفَاوز الغبْر التي لا تُسْلَكُ ولا تُعْبَرُ ، بينها وبين أهلِ المشرق . وبوَدِّي[3] أن تبيت قريشٌ على ليلةٍ تُفضِي بها صبيحتها إلى أنْ تَشْمَلها إلى مَوْجٍ أكدَرَ ، يجرُفُها إلى البحر ويغرّقها . وهذا مثل ، والمعنى : أتمنَّى أن تشملها بليّةٌ تُفنيها وتُرِيحُ العِباد والبلادَ منها . والكَدَر : نقيض الصَّفاء . ويقال : عيشٌ أكْدَرُ ، وقد كَدِرَ . وجعل الموجَ كذلك تهويلا ، وتكثيراً لماءِ بَحْره . وقوله « ذاتَ ليلةٍ » يريد السّاعةَ التي يكون فيها الليلةُ المطلوبة . وعلى هذا قولك : فعلْتُ كذا ذات العشاء ، يريد الساعةَ التي فيها العِشاء . والمعنى : أصبحَتْ منّا على هذه الحالة قُرَيْشٌ ، أى حصلَتْ من ليلتها على صَبَاحٍ هكذا .

(١) تجمير الجند : أن يحبسهم فى أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر .

(٢) ل : « والنعمة الهنيئة » .

(٣) كذا ضبطت بالفتح فى النسختين . والود والوداد مثلثتان ، كما فى القاموس .

٦٤٥

وقالت امرأةٌ (١) :

١ — حلفْتُ ولَمْ أكْذِبْ وإلاّ فكلُّ ما ... مَلَكْتُ لبيتِ اللهِ أُهديه حَافيَهْ

٢ — لوَ أنَّ المنايا أعْرضَتْ لاقتحَمْتُها ... مَخَافةَ فيه إنّ فَاهُ لداهيَهْ (٢)

٣ — فَمَا جِيفةُ الخنزيرِ عِندَ ابنِ مُغْربٍ ... قَتَادَةَ إلا ريحُ مِسْكٍ وغَاليَهْ

٤ — فكَيفَ اصطبارِي يا قَتَادَةُ بعدما ... شَمِمْتُ الذى مِنْ فِيكَ أُفّأَى صِماخِيَهْ

قولها « ولم أكذب » فى موضع الحال أى حلفتُ صادقةً فى خَبَرى ، وإلاّ فما أملكه لبيتِ الله — تعنى لمن حول بيت الله ، فحذَف المضافَ — أُهديه إليه بنفسى حافيةً لاحِذَاءَ لى . فقولُها «أُهْدِيه»، يجوز أن يكون فى موضع خبر المبتدأ ، كأنَّها قالت : وإلاّ فما أملكه أهدِيهِ لبيت الله حافية ، أى فى هذه الحال . ويقال : أهديتَ إلى البيتُ وللبيت هَدْياً ، إذا تقرَّبتَ فيه بقُربان . واللام من «لبيت الله» على هذا يتعلَّق بأُهْديه . ويجوز أن يكون لبيت الله خبر المبتدأ . وأُهديه إن شئتَ كان مستأنفاً ، وإن شئت كان خبراً ثانياً ، وإن شئت كان بدَلا .

وقولها « لو أنَّ المنايا أعرضَت » أى مكَّنت من النَّظر إلى عُرضِها ، أى إلى الجانب الذى تجىء منه «لاقتحمْتُها» ، أى لوقَعتُ فيها وصرت فى قُحمَتِها . وانتصب « مخافةَ فيه » على أنّه مفعول له .

وقولها « فما جِيفة الخِنزير » تُريد : ما رائحة جِيفة الخنزير إلاَّ ريحُ مِسك لأنّ الحدَث يشبَّه بالحدَث ، والعينَ بالعين .

---

(١) التبريزى : « وقالت امرأة تهجو قتادة بن مغرب اليشكرى ، وهو زوجها » . وقتادة بن مغرب : شاعر من شعراء الدولة الأموية كان معاصرا لزياد الأعجم ، وكانت بينهما مهاجاة . انظر الأغانى (١٠ : ١١٢ / ١٤ : ١٠٠ ، ١٠٣) والشعراء ٣٩٦ . ومغرب بضم الميم وسكون الغين ، ويقال بفتح الغين وكسر الراء المشددة ، كما ذكر ابن قتيبة فى الشعراء .

(٢) التبريزى : « إن فيه » ، فإن صحت كان معناها إن فى فيه .

وقولها « فكيف اصطبارى يا قتادةُ » ، يريد : كيف أتكلَّف صبْراً على مجاورتك والسكونِ معك . بعد ما بُليتُ به من بَخَرِكَ ونتْن فَمك، الذى أفسد علىّ آلةَ الشَّمِّ والسَّمع . ومعنى أثأى صِمَاخيَه ، أى أفسدَه . والصِّماخُ : ثَقْب الأذن الذى يُفضِى إلى الرَّأس . وآلة الشَّمِّ الأنفُ دونَ الأذن ، ولكن تريد أنه فَسَدَ بمجاوَرته .

٦٤٦

وقال عبد الله بن أوْفَى الْخُزاعِى[(١)] :

١ — نَكَحْتُ ابنةَ الْمُنْتَضَى نكْحَةً على الكُرْهِ ضَرَّتْ ولم تَنْفَعِ[(٢)]
٢ — ولم تُغْنِ مِن فاقةٍ مُعْدِمًا ولم تُجْدِ خيْرًا ولم تَجْمَعِ[(٣)]
٣ — مُنَجَّذَةٌ مِثْلُ كَلْبِ الهِرَاشِ إذا هَجَعَ النَّاسُ لم تَهْجَعِ
٤ — مُفَرِّقَةٌ بينَ جِيرانِها وما تَسْتَطِعْ بينهم تَقْطَعِ
٥ — بقولٍ رَأيْتُ لِما لا تَرَى وقِيلٍ سَمِعْتُ ولم تَسْمَعِ

قوله « على الكُره » فى موضع الحال من نَكَحْتُ . وقوله « ضَرَّتْ » من صفة نَكْحَة ، وكذلك ما فى البيت الثانى من الجُمَل كلٌّ فى موضع الصِّفة

---

(١) التبريزى: « فى امرأته » . ثم قال فى نهاية تفسير الأبيات : «ويقع فى بعض النسخ هذه الأبيات منسوبة إلى أبى الهندى ، قالها فى امرأته . وأول البيت :

* نكحتُ بشَهْبَيْذَقٍ نكحةً *

وشهبيذق ، ذكرت فى القاموس ، ولم تذكر فى اللسان ولا فى معجمى البلدان ، قال فى القاموس : « شهبيذق : بلد » . وعبد الله بن أوفى الخزاعى لم نعثر له على ترجمة . والأبيات ٣ ، ٧ ، ٩ فى اللسان (قعد) منسوبة إلى عبد الله .

(٢) التبريزى : « المنتصى » بالصاد المهملة . و « ولم تنفع » هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تنفع » .

(٣) ولم تغن ، كذا فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تغن » .

لها. فيقول: نكَحْتُ هذه المرأةَ مُكْرَهًا نكْحةً ضارّةً غير نافعةٍ فى شىءٍ من الوجوه، فما أغنَتْ من عُدْمٍ عديمًا، ولا أنالت خيراً، ولا جمَعَت شملاً. وحذَف مفعول «ولم تجمع»، لأنّ المراد مفهوم.

وقوله «منجِّذَة» من الناجذ، وهو ضِرْس الْحِلْمِ. والنواجذ: أربعةُ أضراس، وقال بعضهم: هى الضَّواحك، محتجًّا بحديث النبىّ صلى الله عليه وسلم «أنه ضحك حتى بدَت نواجذُه». ويقال: نَجَّذَ فلانًا الخطوبُ، إذا أحكمَتْه. وقال:

* ونَجَّذَنى مداوَرةُ الشُّؤُونِ[1] *

فيقول: إنها قد جُرِّبَتْ ومُلَّ منها ومَلَّتْ. وقوله «مثل كلب الهِرَاش» يعنى فى خَلْقها وخُلُقها. ومعنى «إذا هجع الناس لم تهجع»، يصفُها بأنها تمشى بالنَّمائم. ولذلك قال الآخر[٣]:

قومٌ إذا دَمَسَ الظلامُ عليهمُ ... حَدَجوا قَنافِذَ بالنميمةِ تَمْزَعُ

لأنّ القُنفُذَ لا ينام بالليل. فيقول: هى بوشايتها تفرِّق بين الخُلَطاء، وتُقطِّع الوُصَل والأواصرَ بينهم.

ولك أن تنصِبَ «منجذة» و «مفرقة» على الحال، ولك أن ترفعهما على الاستئناف. وقوله «وما تستطع» شرطٌ وجزاء، والمفعول محذوف، فهو كقولك: ما تُطِقْ تَفعل.

فأمّا قوله: يقولٍ رأيتُ وقيلٍ سمعتُ، فالباء تتعلق بقوله تقْطَع. والمعنى أنها تُباهِتُ وتُكابِر، وتتزيّد فى القول وتُجاهِر، فتدَّعِى مشاهدةَ ما لا تشاهدُه،

(١) لسحيم بن وثيل الرياحى فى الأصمعيات ٦ طبع المعارف.
(٢) صدره: * أخو خمسين مجتمعاً أشدى *
(٣) هو عبدة بن الطبيب، فى المفضلية ١٤٧.

وسَماعَ ما لا تدركُه. وهذا زائدٌ على ما قاله الآخر حين نَى هذه الطريقةَ ، وهو :

وليست مِن اللائى يكون حديثُها أمام بُيوتِ الحىِّ إنَّ وإنَّما(١)

ورواه بعضهم :

تقول رأيتُ لما لا تَرَى وقالت سمعتُ ولم تسمعِ

والذى رويناه أحسنُ تلاؤمًا وأقربُ .

٦ — فإنْ تَشْرَبِ الزِّقَّ لا يُرْوِها وإنْ تأكُلِ الشاةَ لا تَشْبَعِ

٧ — ولَيْسَت بتارِكَةٍ مَحْرَمًا ولو حُفَّ بالأسَلِ الشُرَّعِ(٢)

٨ — ولو صَعِدَتْ فى ذُرَى شاهِقٍ تَزِلُّ بها العُصْمُ لم تُصْرَعِ(٣)

٩ — فبِئسَت قِعادُ الفتَى وحدَها وبِئْسَت مُوَفِّيَةُ الأرْبعِ

مَحْرَمًا ، أى حَرَامًا . والحُرْمة : ما لا يَحِلُّ انتهاكُه ، وكذلك المحارم . وفى المثل « لا بُقْيَا للحَميّة بعدَ الحرام » أى عند الحُرمة . وهو ذو مَحْرَم وحُرْمةٍ فى القرابة . والشُّرَّع : جمع شارع ، ويقال : أَشرَعت الرُّمحَ قِبَلَهُ فَشَرَعَ . وصفَها بالنميمة وشِدَّة الحِرص على تناول المحرَّم ولو انتزعَتْه من بين الأسِنَّة . ثم وصفها بالتجليح(٤) ، وحُسن التنقيح(٥) ، والحِذْق فى التوصُّل إلى الممنوع ، ولو احتاجت إلى أن تترقّى فى مَصاعِد الجبال ، ومدارج الهضاب المُعْجِزة للعُصْم .

وقوله « فبِئست قِعادَ الفتَى وحْدَها » انتصب قِعادَ وموَفِّيَة على التمييز ،

(١) لحميد بن ثور ، فى ديوانه ١٨ طبع دار الكتب .

(٢) فى اللسان : « المشرع » .

(٣) بها ، أى بالذرى . وفى الأصل : « نزل به » ، وأثبتنا ما فى ل والتبريزى .

(٤) التجليح : الإقدام الشديد ، والتصميم فى الأمر والمضى .

(٥) فى اللسان : « كل ما نحيت عنه شيئاً فقد نقحته » . والتنقيح أيضاً : الإصلاح وإزالة العيوب . وهذا ما فى ل . وفى الأصل : « وحسن التقبيح » .

لأنه وإن كان معرفةً فى اللفظ ، فلا اختصاصَ فيه . ويُروَى بالرَّفع فى الموضعين . فإذا نصَبْتَ فهو كقولك : بئست رَبَّةَ البيت هِنْدٌ . وإذا رفَعْتَ فهو كقولك : بئست دارُ الكافرِ النارُ . وفى القرآن : ﴿ ولَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقين ﴾ . والمذمومة بئست فى الوجهين محذوفة . وانتَصَب «وحدَها» على المصدر . فيقول : هى مذمومة فى النساء تفرَّدت أو اجتمعت مع ثلاثٍ أُخر . والقِعادُ والقَعيدة واحدةٌ ، ويقال : ليست له قَعيدةٌ تقْعِدُه ، أى امرأة تعزِّبُه ، أى تزيل عُزْبتَه .

وحُكى أنَّ الأصمعى ألقَى على أصحابِه يومًا هذا البيت ، وهو :

واحدةٌ أعضَلَكم شأنُها فكيفَ لو قُمتَ على أرْبَعِ

[أربع[٢]] يعنى النساء .

٦٤٧

وقال بعضُ آل المهلَّب[٣] :

١ — قومٌ إذا أكلوا أخفَوْا كلامَهُمُ واستَوثَقوا مِن رِتاجِ البابِ والدارِ

٢ — لا يَقبِسُ الجارُ منهم فَضْلَ نارِهِمِ ولا تُكَفُّ يَدٌ عن حُرْمةِ الجارِ[٤]

معناها ظاهر ولا إعراب فيهما . والقَبَس : الشُّعلة من النار . والقابِس طالب النار وآخذها ، ويقال : قبَسْتُ النار واقتبستها وأقبستَها وأقبسَنيها فلان . والمِقياس نحوٌ من القَبَس . والرِّتاجُ : الغَلَق . ويقال : رتجت الباب وأرتجته .

---

(١) ابن جنى : «وذلك تعريف الجنس ، لا يخص واحداً بعينه ، فضارع بشياعه النكرة ، ولأجل ذلك ما كان أسد وهو نكرة كأسامة وهو معرفة ، وغدوة وهو معرفة كغداة وهى نكرة وكذلك ثعلت وثعالة . وهو كثير فاعرفه لطيفاً» .

(٢) التكملة من ل . وفى التنبيه لابن جنى : «أى لو تزوجت أربع نسوة» . وانظر مجالس العلماء ٣٣ وطبقا ، الزبيدى ٢١٦ والمزهر ٢ : ٣٧٩ .

(٣) اسمه عبد الله بن عبد الرحمن ، ولقبه أبو الأنواء ، كما ذكر التبريزى رواية عن دعبل .

(٤) تكف ، بالتاء فى ل والتبريزى . وفى الأصل : «يكف» بالياء .

٦٤٨

وقال آخر :

١ — كاثِرْ بِسَعْدٍ إنَّ سَعْدًا كثيرةٌ ولا تَبْغِ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً ولا نَصْرا
٢ — ولا تَدْعُ سَعْدًا للقِراعِ وخَلِّهَا إذا أَمِنَتْ وَنَعْتَها البَلَدَ القَفْرا
٣ — يَرُوعُكَ من سَعْدِ بنِ عَمْرٍو جُسُومُها وتَزْهَدُ فيها حِينَ تَقْتُلُها خُبْرا

كاثِرْ : أمرٌ من كاثرتُه ، إذا غلبتَه بالكَثْرة ، ويقال : كاثرته فكثَرته أكثُره بضم العين . وعلى هذا يجىء هذا البناء ، سواء كان مفتوحاً فى الأصل أو مضموماً أو مكسوراً ، إلاَّ أن يكون البناء معتلاً ، فإنَّه يُترك على حاله . يقال باكيته فبكيْتُه أبكيه لاغير . وذلك لئلاَّ يلتبس بنات الياء ببنات الواو . وقوله : « وَنَعْتَها البَلَدَ القَفْرَا » ، يصفُهم بالسَّلامة فى حال الأمن ، وبحُسنِ تصرفهم فى فُنون القول ، وأنَّ لهم المنظرَ الحسن دون المَخْبَرَ ، ثم لا وفاء لهم فى الذِّمم والعُقود ولا نصرةَ فى الدفاع عند الحروب . ومعنى يَروعُك يُعجبك . يريد : اعطُوا البَسْطَةَ فى الأجسام ، فإذا خَبَرْتَهمْ صَغَّرَهُمُ الخُبْر ، فأورثَكَ الزُّهدَ فيهم .

ويقال : لى بهم خُبْرٌ وخِبْرَةٌ .

٦٤٩

وقال آخر :

١ — أَعارِيبٌ ذَوُو فَخْرٍ بإفْكٍ وأَلْسِنَةٍ لِطَافٍ فى المَقَالِ
٢ — رَضُوا بِصفاتِ ماعَدِمُوهُ جَهْلاً وَحُسْنُ القَوْلِ مِنْ حُسْنِ الفَعَالِ

يقول : إنَّهم يفتخرون بمفاخِرَ مأفوكة مكذوبة(١) ، ولهم ألسنةٌ يلطِّفون بها ما

(١) مأفوكة ، من الإفك ، وهو الكذب .

ويصوِّرون الباطل من مفاخِرهم بصُورة الحق، فهم أصحابُ مَقَالٍ لا فعالٍ، وأربابُ كَذِب وزُور، لا حَقٍّ وصِدْق، ولجهلهم يرضَوْن من أنفسهم ولها بأنْ يصفُوها بما هو معدومٌ فيهم، وقَنِعُوا بحُسْن الصِّفات من أنفسهم بقولهم، وإنْ عَدِمُوا شهادةَ الأشهاد على دعواهم، اعتقاداً منهم أنَّ القولَ يغنى عن الفعل، وأن الخَبر يُكتفَى به عن الخِبرة، وأنّ الكرم فى الدَّعاوِى لا فى الحقائق.

٦٥٠

وقال مالكُ بنُ أسماء[1]:

١ــ لو كُنْتُ أُحمِلُ خمراً حِينَ زُرْتُكُمُ لَمْ يُنكِرِ الكَلْبُ أنِّى صاحِبُ الدَّارِ[2]

٢ــ لكنْ أتيْتُ وريحُ المِسْكِ تفغمنى وعَنْبَرُ الهِنْدِ مَشْبُوباً على النَّارِ[3]

٣ــ فأنكرَ الكَلْبُ رِيحِى حِينَ أبْصرَنى وكانَ يَعرِفُ رِيحَ الزِّقِّ والقَارِ

قوله «تفغمنى»، أى تسدُّ خَياشيمى وتملؤها. ويقال: الرِّيح الطيِّبة تفغَم المزكوم[4]. وقوله «مشبوبا على النَّار»، يقال: رأيتُ شَبَّةَ النَّار، أى اشتعالها، وقد شَبَبْتُها. وتوسَّعوا فيه فقالوا: فلانة يَشُبُّها فَرْعُها، إذا أظهرَ بياضَ وجهها سوادُ شعرها. وانتصب «مشبوبا» على الحال. ومعنى الأبيات ظاهرٌ.

(١) قال دعبل: بل قالها عيينة بن أسماء بن خارجة، وكان زار صديقا له فلما بلغ باب دار بينه شد عليه كلب صديقه فعضه. عن شرح التبريزى. والشعر ورد فى الحيوان (١: ٣٨٠) والبخلاء ٢٠٢ بدون نسبة معينة، وفى البيان (٣: ٣١١) لبعض الحجازيين. ومالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاروى: شاعر إسلامى غزل، وأخته هند بنت أسماء، زوج الحجاج، وهو ممن عرف بالجمال فى العرب. ترجم له الأغانى (١٦: ٤٠ — ٤٦) ومعجم المرزبانى ٣٦٤ — ٣٦٥ واللآلى ١٥ — ١٨ والشعراء ٧٥٦ — ٧٥٨.

(٢) التبريزى والجاحظ: «يوم زرتكم».

(٣) التبريزى والجاحظ: «والعنبر الورد أذكيه».

(٤) الريح بمعنى الرائحة مؤنثة.

٦٥٠

وقال آخر :

١ — هجوتُ الأدْعِياءَ فناصَبَتْني ... مَعاشِرُ خِلْتُهـــا عَرَبًا صِحَاحا

٢ — فقلتُ لَهُمْ وقَدْ نَبَحُوا طَويلاً ... عَلَيَّ فلَمْ أُجِبْ لَهُمُ نُبَاحا

٣ — أمِنْهُمْ أنتُمُ فأكُفَّ عنكُمْ ... وأدفَعَ عنكُمُ الشَّتْمَ الصُّرَاحا(١)

٤ — وإلاَّ فاحْمَدُوا رأْيِي فإنِّي ... سَأَنْفِي عَنْكُمُ التُّهَمَ القِباحا

٥ — وحَسْبُكَ تُهْمَةً ببَرِيءِ قَوْمٍ ... يَضُمُّ على أَخِي سَقَمٍ جَنَاحا

هذه الطَّريقة فى ذَمِّ الأدعياء غريبةٌ حسنةٌ جدًّا . وفيما قال أبو العَتاهية فى والِبَةَ بنِ الحُبَابِ ما هو مُستَبدَعٌ أيضا ، وهو :

ما بالُ مَن آباؤُهُ عَرَبُ الـ ... أَلْوَانِ أصْبحَ مِنْ بنِي قَيْصَر(٢)

أكَذا خُلِقْتَ أبا أُسامَةَ أمْ ... لَوَّنْتَ سَالِفَتَيْكَ بالعُصفُر(٣)

وأخذه أبو نواس(٤) فقال أيضا :

وابنُ الحُبَابِ صليبةً زَعَمُوا ... ومِنَ المُحَالِ صليبةٌ أشْقَر

ومصدر الدَّعِيِّ الدِّعوة والدِّعاوة . وناصبَتْني ، أى عادَتْني ؛ ويقال : ناصَبْتُ فلانًا الحربَ والعداوةَ ، ونصَبْنا لهم حَرْبًا . ويقال : العَرَبُ العارِبة

---

(١) فى نسخة الأصل : « فأكف عنهم » ، تحريف .

(٢) فى الأغانى (١٦ : ١٤٤) : « يحسب من بنى قيصر »

(٣) أبو أسامة : كنية والبة بن الحباب ، وفيه يقول على بن ثابت :

بكت البرية قاطبـــه ... جزعا لمصرع والبـــه

قامت لمـــوت أبى أسا ... مـــة فى الرفاق النـــادبه

وكلمة « أبا » ساقطة من الأصل ، وهى والكلمة التى بعدها ساقطتان من ل . والتحقيق يقتضى ما أثبتنا .

(٤) كذا . والبيت التالى فى الأغانى منسوب إلى أبى العتاهية مع البيتين السابقين وأبيات أخرى .

والعَرْباء ، أى الخُلَّص . والعرب المستعرِبَةُ : الذين دخلوا فيهم بَعْدُ .

وقوله « عرَبُ الألوان » مثل قولهم: سُرُوجٌ خَزُّ الصُّفَّاتِ[1] .

و « عرَبًا صِحاحا » أى صِحَاحَ الأنسابِ . والنُّباح يُستعمَل فى صَوت التَّيس عند السِّفاد ، وفى الهُدْهُد والظَّبْى . ويستعمل فى الشَّاعر على طريق الذم . ويقال : نَبَحَه ونَبَح عليه . قال الهُذَلىُّ[2] :

* ولو نبحَتْنِى بالشَّكاةِ كِلابُها[3] *

والمراد بقوله « لهُم نُباحا » : لم أُجِبْ نُباحَهم . « ولهم » تبيينٌ .

وقوله «أَمِنْهُمْ أنتمُ » فى موضع المفعول من قلتُ ، وانتصَبَ « فأَكُفَّ » بإِضمار أن ، وهو جواب الاستفهام بالفاء . والصُّرَاح : الخالصُ من كلِّ شىء ، وكذلك الصَّرِيحُ والصُّرَاحُ . ورجُلٌ صريحٌ : ضدّ هَجِينٍ ، من قومٍ صُرَحاء . وخَمْرٌ صُرَاحٌ : لم تُشَبْ بمِزاج .

وقوله « حَسْبُكَ تُهمَةً » ارتفع على الابتداء ، ويُكتفَى به لأنَّ فيه معنى الأمر ، أى اكْتَفِ . وانتصَب تُهمةً على التَّمييز ، ومعنى الأبيات ظاهر .

٦٥٢

وقال مُدْرِكٌ[4] :

١ — لقد كنتُ أَرْمِى الوَحْشَ وهْىَ بِغِرَّةٍ ... وتَسْكُنُ أحيانًا إلىَّ شَرُودُها

٢ — فقد أمكَنَتْنِى الوَحشُ مُذْ رَثَّ أَسْهُمِى ... وما ضرَّ وَحشًا قانِصٌ لا يَصِيدُها

---

(١) الصفة للسرج بمنزلة الميثرة من الرحل .

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٨٠) ، وقد سبق فى ص ٣٧٦ .

(٣) صدره : * ولا هرها كلبى ليبعد نفرها *

(٤) التبريزى: « مدرك ، أو مفلس بن حصن الفقعسى » . وفى معجم المرزبانى ٣٩١ : « مدرك أو مفلس بن حصن الفقعسى إسلامى » . قال أبو محمد الأعرابى : « وليس لواحد منهما ، وإنما هو لحماد بن المحلف — وهو الربيع — بن عبد الله ، أبو مايل اليربوعى . يقوله لبنى زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى » .

٣ — فأعرَضْتُ عن سَلْمَى وقلتُ لصاحبي سواءٌ علينا بُخْـلُ سَلْمى وَجُودُها

جعلَ الوَحشَ كنايةً عن النساء . وإنما يذكُر أيامَ شبابِه ، ووقتَ صِباه ولهوِه ، فيقول : كنت أتعرَّض للنساء وهى مغترّة وفى غَفـلَةٍ عنّى ، فأصيبُها بمحاسنى وأصطادُها . والشاردةُ منها النافِرةُ من الرِّيَب تَـسْكُنُ إلىّ وتميل نحوى وقتاً بعد وقت ، وحالاً بعد حال . هذا فيما مضَى من عمرى ، والآنَ قد شِخْتُ فسهامى قد رَثَّت ، وآلاتى كلَّت . وإنما يريد محاسنه عندهُنَّ من قبلُ ، وأنها قد بارَت ، وما كان يُنَفِّقُه عندهنّ من نفوذِ نصالِه عِند الرِّماء فيهنّ كَلت . قال : فالوَحش تُمْـكِنُنى وأنا لا أَرميها وتُـكْثِبُ لى وأنا غافلٌ دونها . ومعنى تمكننى أنّ النساء تنبسط إلىّ فلا تَنْقَبِضُ ، وتستنيم فلا تَنفِرُ لأَمْنِها من توجُّه الرِّيبة . قال : والصائد لا يَضُرُّ الوَحشَ إذا لم يَصِدْها ، يعنى نفسَه . وهذا الـكلامُ يَجرِى مَجرى الأمثال . والمعنى أنّهنّ لا يَنفِرْن منى ، وقد سَـكَنَّ إلىّ وأَمِنَّ رَمْيِى .

وقوله « فأعرَضْتُ عن سَلْمَى » ، يقول : تركتُ صاحبتى التى كنتُ أُولَعُ بها ؛ وأستلذُّ ذِكرَها ، زاهداً فيها ، وقلت لقَرِيبَى وأَلِيفى : بُخْلُها وجودُها يَستوِيانِ علىّ مع إعراضى وضعف حاجتى ، وكَلاَلِ حَـدِّى ، وعجْزِ قُدْرتى ، وتسلُّط رَثَياتِ الشَّيب علىّ(١) ، وتمـكُّنِ أبدال اللَّهو مِنّى . وقوله « سواءٌ علينا » سواء مصدرٌ فى الأصل ، وقد وُصِفَ به .

٤ — فَلاَ تَحسُدَنْ عَبْساً على ما أصَابَها وذُمَّ حَيَاةً قَد تَوَلَّى زَهِيـدُها

٥ — تَشَبَّهَ عَبسٌ هاشِمًا أَنْ تَسَرْبَلَت سَرَابِيلَ خَزٍّ أنـكَرَتْها جُـلُودُها

كان الوليد وسليمان ابنا عبد الملك أمهما عبسيَّة(٢) ، فارتفَع شأنُ بنى عَبْس

(١) الرثية : الضعف ، وانحلال الركب والمفاصل .

(٢) وكذا قال المرزبانى فى معجمه ٣٩١ . قال أبو محمد الأعرابى : « هذا غلط ، لأن أم الوليد وسليمان هى ولادة بنت خليد بن جزء بن الحارث بن زهير » .

بها ، واختلطوا بمدبّري الخلافة وسوّاس الرعيّة ، والقائمين عن المملكة . فيقول مخاطباً لصاحب له : لا تحسدنّ بني عبس على ما نالته من المُلك والرياسة ، وذُمّ زماناً ساعدها على ذلك وأهّلها له ، وحياة قد تولّى زهيدها في الشقاء بها ، ومكابدة الأوابد منهم فيها . والزهيد : القليل الخير ، ويقال : رجل زهيد وامرأة زهيدة ، وهما القليل الطعم ، يريد أنّ أمرهم خلسة من خلس الدهر ، وسينقطع منكره ويعود إلى دون ما يجب له .

وقوله « تشبّه عبس هاشماً » ، يقال : شبّهته كذا وبكذا ، وتشبّه زيد بكذا وكذا . يقول : تنعّموا بلذات الدنيا وزخارفها ، وشاركوا أرباب الخلافة وولاتها في ملابسهم التي تنكرها جلودهم ، ومطاعمهم التي لم تذقها لهواتهم ، تحدّثوا أنفسهم بأنهم أمثالهم ، ووسوس الشيطان إليهم مماثلة حالهم لأحوالهم عند الحفل ، وفي الخلوات . وقوله « أن تيسّر بلت » يريد : لأن تيسّر بلت . كأنهم لمساعدة الأحوال لهم فعلوا ما فعلوا . وإنما قال « أنكرتها جلودها » لأنها لم تعتدها من قبل . ومثله قول الآخر :

بكى الخزّ من عوفٍ وأنكر جلده ... وضجّت ضجيجاً من جذام المطارفُ

٦ — فلا تحسبنّ الخير ضربة لازبٍ ... لعبسٍ إذا ما مات عنها وليدها

٧ — فسادة عبسٍ في الحديث نساؤها ... وقادة عبسٍ في القديم عبيدها

هو ذا يسلّي صاحبه عما تداخله من الغيظ على زمان بلغ ببني عبس ما بلغ ، فيقول : لا تظننّ أنّ هذه الأمور تجري على ما تشاهدها سليمة من الحوادث ، وأنّ الدولة تمتدّ لبني عبس وتصير كالواجب لها ، بريئة من العوارف ، نقيّة من الشوائب ؛ فإنّ كلّ ذلك بعرض الزوال والتغيّر ، متى مات من تقدّموا به ، وهو الوليد بن عبد الملك .

وحُكِى عن الحُضَيْن[١] بن المُنذِر أنَّه قال لبعض بنى عَبْسٍ وقد تنازعا فى شىء: « إنَّما أنتم يا بنى عَبْسٍ بحرٍ[٢]، فإن ابتلَّ ابتللتم، وإن يَبِس يبستم » .

وقوله فسادةُ عَبسٍ نساؤُها، يعنى أمَّ الوليد والمتَّصلاتِ بها . هذا فى الحديث زَعَم . قال: وفى القديم كانوا بالعبيد، يعنى به عَنترةَ بنَ شَدّاد، لأنَّه عَبْسِىٌّ، وكان هجيناً، ولذلك قال:

إنِّى امرُؤٌ من خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً ... شَطْرِى وأَحْمِى سَائِرى بالمُنْصُلِ

وقال أيضا:

أنا الهَجِينُ عَنْتَرَهْ ... كلُّ امرِئٍ يَحْمِى حِرَهْ[٣]

أسودَهُ وأحمرَهْ

وهو أحَدُ الفُرسانِ الذين جلَّ أمرُهم، وعظُم شأنُهم .

٦٥٣

وقال آخر:

١ — أقولُ حِينَ أَرى كَعْباً ولِحْيَتَهُ ... لا بَارَكَ اللهُ فى بِضْعٍ وسِتِّينِ

٢ — مِنَ السِّنِينَ تَمَلَّاهَا بِلاَ حَسَبٍ ... ولا حَيَــاءٍ ولا قَدْرٍ ولا دِينِ

أجْرَى جمعَ السلامة فى أن أعرب آخِرَهُ مُجرى جموع التَّكسير، وقد جاء ذلك كثيراً . على هذا قولُ الآخر[٤]:

* وقد جاوزْتُ حَدَّ الأَربعينِ[٥] *

---

(١) فى النسختين: « الحصين » بالصاد المهملة، وصوابه بالمعجمة، كما فى التبريزى والمؤتلف ٨٧ وتهذيب التهذيب، والخزانة (٢ : ٨٩ — ٩٠) والقاموس (حضن) .

(٢) يعنى أن قدرهم ومنزلتهم، إنما هو بنسائهم وصهرهم فى الخلفاء .

(٣) الحر: حر المرأة . والرجز فى اللسان (حرح) .

(٤) هو سحيم بن وثيل الرياحى . الأصمعيات ٦ طبع المعارف .

(٥) صدره: * وماذا يدرى الشعراء منى *

وقوله :

* وابنُ أَبِىَ أَبِىِّ مِن أَبِيِّينِ[1] *

وقوله « من السِّنين » تعلَّق بقوله فى بِضْعٍ . والبِضْعُ مُختلفٌ فيه ، فمنهم من يقول : يتناول ما بين الثَّلاثة إلى العشرة كُلَّه ، ومنهم من يجعله متناولاً للنِّصف من ذلك . والأوَّل هو الصحيح . وقيل فى قوله : ﴿ بضعَ سِنِينَ[2] ﴾ إنَّها سبعة ، وقد حُكِىَ الفتحُ فى الباء منه أيضاً ، وأصله من القَطْع .

وقوله « تَمَلَّاها » عاش مُلَاوَتَها . والمَلاوَةُ تُكسر مِيمهُ وتُضَمّ . ومنه المَلِىُّ من الدَّهر ، وقولُهُم : تملَّيْتُ حَبِيبًا .

٦٥٤

وقال عُوَيْفُ القَوافى[3] :

١ — وماأُمُّكُمْ تَحْتَ الخَوافِقِ والقَنَا بِثَكْلَى ولا زَهْراء من نِسْوَةٍ زُهْرِ

٢ — أَلَسْتُمْ أَقَلَّ النَّاسِ عِنْدَ لِوائِهِمْ وأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ والقِدْرِ

وصفهم بأنَّهم يتصوَّنون ، فلا يبتذلون أنفسهم فى الحروب ، فأمَّهاتهم تَثْكَلهم تحتَ الأعلام إذا خفقَت ، والرِّماح إذا أُشرِعت . وقوله « ولا زهراءَ » ، أى ليست هى بكريمةٍ فى نفسها . وهذا ضدُّ قول الآخر[4] :

* أُمُّكَ بيضاء من قُضَاعَةَ[5] *

---

(١) البيت لذى الإصبع العدوانى فى المفضليات ١٦٠ طبعة المعارف الثانية . وصدره :
* إنى أبى أبى ذو محافظة *

(٢) من الآية ٤٢ فى سورة يوسف : « فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٧٢ ص ٢٦٢ .

(٤) هو ابن قيس الرقيات . ديوانه ٨٣ . وقد سبق فى ١٥٠ ، ٤١٩ .

(٥) تمامه : أمك بيضاء من قضاعة فى الـ * بيت الذى يستكن فى طنبه .

يريد بياض الكَرَم لا بياضَ اللون .

وقوله : «ألسْتم أقلَّ النّاس» ، ويقرِّرُهم على لؤمهم وتأخرهم في الحروب ، وقلّتهم عِند خَفْق البنُود ، وعند عقدها للرِّياسات ؛ وعلى أنَّهم يَكثُرون في المآدب ، ويتزاحمون على الذَّبائح . وإنّما يُقرَّر بأَلَيْس وبألَمْ وما أشبهه في الواجب ، لأنَّ الاستفهامَ كالنَّفي ، والنَّفيُ إذا دخلَ على النَّفي صار واجبا ، وقد مرَّ الكلامُ فيه فيما تقدَّم .

٦٥٥

وقال آخر :

١ — ونُبِّئتُ رُكْبانَ الطَّريقِ تَناذَرُوا ... عَقيلاً إذا حَلُّوا الذِّنابَ فَصَرْخَدا

٢ — فَتًى يَجْعَلُ المَحْضَ الصَّرِيحَ لِبَطْنِهِ ... شِعَارًا ويَقْرِى الضَّيْفَ عَضْباً مُهَنَّدا

قوله «تناذروا» ، أي أنذر بعضُهم بعضا ، وموضعه من الإعراب نصبٌ على أن يكون مفعولا ثالثاً لنُبِّئتُ . والذِّناب وصَرْخَدُ : موضعان . والمعنى أنَّ السَّفْر والسَّابلةَ والمارَّةَ قد عرَفوا عقيلا بالغَدر والخِيانة ، والطَّمعِ في مال الضَّيف والجار والحَليف ، فإذا نزَلوا هذين الموضعَين وهما مما يقارِبُ محلَّ عَقِيلٍ ومأواه ، حذَّر بعضُهم بعضاً ، وتواصَوا بالاحتراز منه ، ثم قال : هو فتًى يملأُ بطنَه من خالص المحض ، فالمحضُ شِعارُ بطنه ، يليه ويَشحَنه ويلتَبِس به ، ويُعِدُّ لقِرَى ضَيْفِه سيفاً قاطِعاً . والأصل في الشِّعار ما يَلِي الجَسَدَ من الثياب ، ثم تُوُسِّعَ فيه فقيل : أَشعرَ قلبي هَمًّا أي أبطَنَهُ . وحكى بعضُهم : هَنَّدتُ السَّيْفَ : شحذته وأحْددتُه . والمشهور نسبته إلى هِنْدٍ[1] .

(١) كذا في النسختين . وفي اللسان أيضا : «وهند : اسم بلاد» . ومن عجب أنه لم يعقد للهند رسم في معجمي البلدان .

وقد استعمَلَ القِرَى على هذا غيرُه فقال ، وهو أبو وَجْزَةَ :

ذاكَ القِرَى لا قِرَى قَوْمٍ رأيتُهُم ‏ يَقْرُونَ ضَيْفَهُم الملوَّيَةَ الجُدُدَا[1]

يعنى السِّياط .

٦٥٦

وقال آخر :

١ ــ أناخَ اللُّؤْمُ وَسْطَ بَنِي رِياحٍ ‏ مَطِيَّتَــــهُ فأقْسَمَ لا يَرِيمُ

٢ ــ كَذَلِكَ كلُّ ذِي سَفَرٍ إذا ما ‏ تَنَاهَى عِنْــــدَ غَايَتِهِ مُقِيمُ

يقال : أنَخْتُ البعير فبرك ، ولا يقال فناخَ . وهذا من باب ما استُغنى به عن غيره ، ومعنى لا يريم لا يبرح .

وقوله « كذلك » فى موضع الحال ، لأنّ « كلُّ ذى سَفَرٍ » مبتدأٌ ، ومُقِيمٌ خَبَرُهُ ، كأنه قال ، وكلُّ مسافر إذا ما انتهى إلى غايته يُلْقِي عَصَاهُ ، ويَحُطّ رَحْلَهُ . كذلك ، أى مثل إقامة اللُّؤم فيهم .

وهذا المعنى قد نقله البحترِيُّ إلى المدح فيهم :

أوَ ما رأيتَ المجدَ ألقى رحْلَهُ ‏ فى آلِ طلحةَ ثم لم يتحوّلِ[2]

٦٥٧

وقال آخر :

١ ــ إذا بَكْرِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلَاماً ‏ فَيَا لُؤْماً لِذَلِكَ مِنْ غُــــلَامِ

٢ ــ يُزَاحِمُ فى المَآدِبِ كُلَّ عَبْدٍ ‏ وَلَيْسَ لَدَى الحِفَاظِ بِذِى زِحَامِ

(١) كذا فى ل والكامل ١٠٧ ليبسك ، وهى جمع جديد . وفى الأصل : « الحددا » .

(٢) فى الأصل : « طلحة لم يتحرك » ، صوابه فى ل .

قوله « يا لُؤمًا » لفظه لفظ النّداء والمعنى معنى التعجُّب ، أى ما أشَدَّه من لؤم . ومثله : ﴿ يا حَسْرَةً على العِباد ﴾ ، وقولُ الشَّاعر(١) :

فيا شاعِراً لا شاعِرَ اليومَ مثلَهُ ... جريرٌ ولـكن فى كُلَيْبٍ تَوَاضُعُ

وقوله «يُزاحم فى المآدب » يشبه قول عُوَيف :

أَلَسْتُمْ أقلَّ النَّاسِ عند لوائِهم ... وأكثرَهُمْ عند الذَّبيحةِ والقِدْرِ(٢)

وإن كانَ زاد عليه لمَّا جَعَل مزاحمتَه على الطَّعام مع العبيد . وقوله « من غُلَامٍ » أى لذلك الغُلام من بين الغِلْمانِ . وواحد المآدِب مأدُبة(٣) ، والفِعْلُ منه أَدَيْتُ .

٦٥٨

وقال آخر :

١ ــ رِدِى ثُمَّ اشْرَبِي نَهَـلًا وعَلاً ... ولا يَغْرُرْكِ أقوالُ ابنِ ذِيبِ(٤)

٢ ــ فلو كانَ القَليبُ على لِحَاهُمْ ... لَأَسْهَـلَ وَطْؤُها شَـفَةَ القَليبِ

يشجعها على الورود والصَّدَر ، وشرب العلل بعد النَّهَـل . وعلى ألّا تحتفل بتهدُّد ابنِ ذئبٍ وإرعادِهِ وإبراقِه ، فإنّه قولٌ لا فِعلَ معه ، وقعقعةٌ لا وَقْعَ بَعْدَها . وكانَ التَّخاصُمُ فى بئر ، فلذلك قال ما قال .

وقوله « فلو كان القليب على لِحَاهم » استخفافٌ بهم وإهانة . ومعنى أَسْهل : وجدَها سهلا ، ويعنى بوطئها وَطءَ الإبل ، ولم يَجرِ لها ذكر ، ولـكنّ المرادَ مفهوم: والمعنى : كانت تَجِدُ حَرفَ البئرِ سهلاً لاحَزْناً . يقول: لو كان موضع البئر

(١) هو الصلتان العبدى . الخزانة (١ : ٣٠٤ – ٣٠٨) . وقد سبق فى ٥٣٨ .

(٢) البيت الثانى من الحماسية ٦٥٣ ص ١٥٢٩ .

(٣) المشهور فى « المأدبة » ضم الدال ، وأجاز بعضهم الفتح .

(٤) التبريزى : « ولا تغررك » .

لِجَامُهم ما جَسَروا على المنع ، ولا على التَّمانع ، ولا كان يتعقَّب ورودَها إنكارٌ ولا وَبال .

٦٥٩

وقال آخر :

١ ــ إنْ تُبغضونى فقد أسْخَنتُ أعيُنَكُمْ وقَدْ أتَيْتُ حَرَاماً ما تَظُنُّونَا[(١)]

٢ ــ وقد ضَمَمْتُ إلى الأحْشَاءِ جَارِيَةً عَذْباً مُقَبَّلُهَا مِمَّا تَصُونُونَا

يقول : لا مَلَامَ عليكم فى بَغضائكم لى ، فقد نِلْتُ منكم ما استحققتُ به ذاك . وانتَصَبَ « حراماً » على الحال من أتيتُ ، وما تظنّونا فى موضع المفعول ، والضمير العائد من الصِّلة محذوف . وقوله « مما تصونونا » ولم يَقُل مِمَّن ، لأن القَصْد إلى الجنس و « ما » للصِّفات والأجناس ولما دون النَّاطقِين . فأمّا قوله « تظنُّون » فيجوز أن يكون من غالب الظنّ ، ويجوز أن يكون من اليقين .

٦٦٠

وقال آخر :

١ ــ يا قَبَّحَ اللهُ أقواماً إذا ذُكِرُوا بَنِى عُمَيْرَةَ رَهْطَ اللُّؤْمِ والعَارِ

٢ ــ قَوْمٌ إذا خَرَجُوا مِنْ سَوْءَةٍ وَلجُوا فِى سَوْءَةٍ لم يُجِنُّوها بأسْتَارِ

المنادَى فى قوله « يا قَبَّحَ الله » محذوف ، كأنّه قال : يا قوم ، أو يا نَاسُ قبّح الله أقواما ، أى أبعدَهم الله . و « بنى عُمَيرة » انتصَبَ على البدل مِن أقواماً ، والمعنَى فى قوله « إذا ذُكِرُوا » أىَّ وقتِ ذُكِرُوا فأبعدَهُم الله . و « رَهْطَ

(١) تبغضون ، هو ما فى ل والتبريزى . وفى نسخة الأصل : « تبغضونا » .

اللُّؤم » انتصبَ على الذمّ والاختصاص ، والعامل فيه فِعلٌ مُضمَرٌ ، كأنّه قال : أذكُر رَهْطَ اللُّؤمِ .

وقوله « قومٌ » ارتفَعَ على أنّه خبر المبتدإ ، أى هم قوم إذا خَرجُوا مِن سَوءةٍ ومَخْزِيَةٍ ، أى من اكتسابهما وفِعلهما ، دخَلُوا فى مِثلِها أو أسوأَ منها وأخرى لا يتسترون فيها ولا يستَحيون منها .

٦٦١

يَهْجُو الحَضَرِىَّ ويَمْدَح البدوىّ :

وقال آخر :

١ — جَوَّابُ بَيْدَاءَ بِها عَرُوفُ[١]

٢ — لا يأكُلُ البَقْلَ ولا يَرِيفُ

٣ — ولا يُرَى فى بَيْتِهِ القَلِيفُ

٤ — إلاَّ الحَمِيتُ المُفْعَمُ المكشوفُ

٥ — للجارِ والضَّيْفِ إذا يَضِيفُ

٦ — والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَعْلُوفُ[٢]

٧ — لِلفَسْوِ فى أثْوَابِهِ شَفِيفُ

٨ — أَعْجَبُ بَيْتَيْهِ له الكَنِيفُ

٩ — أَوطَايَةٌ مُبْقِلَةٌ وسِيفُ[٣]

(١) رواه التبريزى : « عزوف »، وقال: « يقال رجل عزوف وعزوفة وعزيف » . وفى اللسان (ريف) : « غروف » ، تحريف .

(٢) التبريزى : « بطنه معلوف » .

(٣) التبريزى : « أوطانه » ، ثم قال : « ويروى : أوطاية مبقلة وريف » .

قوله « جوَّابُ بيداء » يصف به البدوى ، أى قطَّاع المَفاوز بليغ المعرفة بها . ويقال : رجل عَرُوفٌ وعَرُوفَةٌ وعَرِيفٌ ، أى عَارِفٌ . ويقال من العِرْفِ بكسر العين ، وهو الصبر : عارِفٌ وعَرُوفٌ أى صَبُورٌ ؛ فيجوز فيه الوجهان . ويُرْوَى : « جوَّابُ بيدٍ أيِّهٌ عَرُوفُ » ، والأَيِّهُ : الصَّيِّت المتيقظ الحىُّ القلبِ والنَّفس : والبِيد : جمع بيداء .

وقوله « لا يأكل البَقل » ، أى هو قَوِيٌّ صُلْبُ العُروق ، لأنَّ البقول تَرخِى الأعصاب . و « لا يريف » أى لا يدخل الحَضَر . والرِّيفُ : الخُضْرة . وقال الدُّرَيْدىّ : الرِّيف : ما قَارَبَ السَّوَادَ من أرض العرب ، والجميع أريافٌ ورُيُوف . وترَيَّفَ القومُ ورافوا : دَنَوْا من الرِّيف .

وقوله : « ولا يُرَى فى بيتِهِ القَلِيفُ » أى طعامُه طعام البدويِّين : اللبنُ والتَّمر ، لا الخُبز . وقُلَافَةُ الخُبز وقَلِيفُه : الذى يَلزَق منه بالتَّنُّور .

وقوله : « إلا الحَمِيتُ » بدلٌ من القَلِيف ، وهو نِحْىُ السَّمْن . والمُفْعَم : المملوء . وجَعَلَهُ مكشوفاً للجار والضَّيف ليدلَّ على سَخائه بما فيه ، ولا سِتْرَ عليه ولا حجابَ دونه ، فاللام مِن قوله للجَار يتعلق بالمكشوف .

وقوله « والحَضَرِىُّ مُبْطَنٌ مَملُوف » ، أى يُطيِعُه ما يأكُله ، ويَرتَع فيه فَيَنهَمُ فيه ويتجاوز حدودَ أكلِ النّاس حتَّى يصيرَ مملوفاً كما تُعلَف الدّوابُّ للسِّمَن . والمُبْطَن : المُوسَعُ البطْن . وقد بَطِن بَطَناً ، أى عَظُم بَطْنُه ، وأصابتْه البِطْنَةُ . وفى المَثَل : « البِطْنة تُذهِبُ الفِطنة » ، أى كثرةُ الأكلِ تُحدِث البَلادة . ورجلٌ بطينٌ ومِبْطَان : عظيم البَطْن . والمُبطَّن : الخَميص البطن . قال :

* فأتَتْ به حُوشَ الفؤادِ مُبَطَّنَا [1] *

(١) البيت لأبى كبير الهذلى ، كما سبق فى ص ٨٨ . وعجزه :

* سهدا إذا ما نام ليل الهوجل *

وقال مُتمّمٌ :

* فَتًى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أرْوَعَا[١] *

والشَفِيف : بَرْد ريحٍ فى نُدُوّةٍ ، واسمُ تلك الرِّيح الشَّفّانُ .

وقوله « أعْجَبُ بَيتَيْهِ » أى الذى يأكل فيه والذى يُحْدِثُ فيه . والكَنيفُ جعلَه أعجبَ إليه لكثرة اطّيافه[٢] .

والطايةُ : الأرض الفضاء الواسعة . والسِّيفُ : ساحل البحر . وأبْقَلَ المكانُ : كَثُر بَقْلُه .

٦٦٢

وقال رَبْعان :

١ — إذَا كُنْتَ عَمِّيًّا فكُنْ فقْعَ قَرْقَرٍ وإلاَّ فكُنْ إنْ شِئْتَ أيْرَ حِمَارِ[٤]

٢ — فما دَارُ عَمِّيٍّ بِدَارِ خفَارَةٍ ولا عَقْدُ عَمِّيٍّ بِعَقْدِ جِوَارِ

يعنى بالفَقْعِ الكَمْأة . ويضربُ المثل بهذا فى الذّلّ فيقال : « أذَلُّ مِنْ فَقْعٍ بِقَاعٍ » ، وذلك لأنه يَجْتَنيها من يشاء ، وأضافَهُ إلى قَرْقَرٍ منبِتِه . ويقال : قاعٌ قرقر ، أى مستوٍ . وأتى بالصِّفة لأنَّ المرادَ مفهوم ، والمعنى : إذا كنتَ عمِّيًّا فكنْ ذليلاً كالفَقْع ، أو شيئاً يُتحامَى ذكره ومنظرُه كذلك العُضو . وأخفرتُه ، إذا نقَضْتَ عهدَه . والمعنى ظاهر . وجعل لا من قوله « ولا عَقْدُ » بدلاً من ما ، ولذلك أدخَلَ الباء فى بعَقْدِ .

(١) صدره فى المفضليات ص ٢٦٥ طع المعارف :

* لقد كفن المنهال تحت ردائه *

(٢) أطاف يطاف اطيافا : تغوط وذهب إلى البراز .

(٣) التبريزى : « وقال ريمان ، ويقال ربعان » .

(٤) العمى : نسبة إلى بنى العم ، وهم بنو مرة بن مالك بن حنظلة . اللسان (عم) . وانظر الأغانى (٣ : ٧٣) .

٦٦٣

وقال آخر :

١ ـ أُرَانِى فى بَنِى حَكَمٍ غَرِيبًا على قُتُرٍ أَزُورُ ولا أُزَارُ

٢ ـ أُنَاسٌ يأكلونَ اللَّحْمَ دُونِى وتأتينى المَعَاذِرُ والقُتَار

قوله « على قُتُرٍ » أى على حرف . ويقال قُتْرٌ وقُتُرٌ . يقول : ليس فيهم تمكنٌ ، لغُربتى . والقُتُر والقُطر والحَرْف والجانب تتقارب . وقد استعمل الحرف استعمال القُتُر ، بل هو أشهر فى هذا المعنى ، وأكثرُ تصرُّفًا ، يقال : هو على حَرْفٍ من أمْرِه ، أى انحراف ، وانحرفَت بهم دُنياهم ، ومالى عن كذا مَحْرَفٌ ، أى مَصرِفٌ ومُنتَحًى . وفى القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ : وإنما وصفهم بأنّ من جاورهم يسيئون عِشرتَه ولا يرون له ما يَراه لهم مِن قضاء ذِمَامٍ ، وإيجاب حق ، بل يطَّرحونه ويُهملونه . وقوله « وتأتينى المعاذرُ » ، أراد ريح عَذِراتهم وأفنيتهم ، فحذف المضاف . « والقُتار » ، أى وتأتينى ريحُ اللحم المشوىّ . وقيل فى المعاذِر : إنها جمع مَعذِرة . والأوَّل أبلغ . والعاذر والعاذِرة والعَذِرَةُ : الحَدَث ، وقد أَعْذَرَ ، أى أحدث . ويرتفع أناسٌ على أنه خبر مبتدإٍ محذوف ، كأنَّه أراد : هم أُناس ، وقد وُصِفوا بجملتين . وقد كان يجب أن يقول : وتأتينى المعاذِر والقُتارُ منهم ، فحذف الضمير ، ويجوز أن يكون « وتأتينى » على الاستئناف .

٦٦٤

وقال آخر :

١ ـ ما إنْ فى الحَرِيش ولا عُقَيْلٍ ولا أولادِ جَعْـدَةَ مِنْ كَرِيم (١)

---

(١) كذا بالخرم فى النسختين . وفى التبريزى : « وما إن » .

٢ – ولا البُرْصِ الفِقَاحِ بَنِى نُمَيْرٍ ولا العَجْـلانِ زائِدَةِ الظَّلِيمِ
٣ – أولـئكَ مَعْشَرٌ كبَناتِ نَعْشٍ رواكِدَ لا تَسيرُ مع النُّجومِ

يعنى بزائدةِ الظَّليمِ الخفَّ ، لأنَّه لا يكون للطَّير . أى هم زيادةٌ فى النَّاس بمنزلةِ تلك الزائدة فى الظَّليم .

وقوله «أولئك معشرٌ كبناتِ نعش» ، يريد أنَّهم لا ينهضون لاكتساب مكْرُمَةٍ . ولا يقومون لاجتلاب مَنْقَبَةٍ ، فهم لا خيرَ فيهم يلازمون مضاجِعَهم كَسَلاً وقِصرَ همةٍ ، ورِضًى بأدنى الهِمَّتين وأسقطِ العيشَتَيْن . والعرب تسمِّى مَن كان كذلك ضاجِعاً وضُجْعِيًّا(١) وضُجَعَة . وبنات نعشٍ ليستْ من النُّجوم السَّيَّارة ، فلذلك شبَّهَهُ بها .

٦٦٥

وقال رجلٌ من بنى جَرْمٍ(٢) :

١ – دَلَفْتُ إلَى صَميمِكَ بالقَوافِى عَشِيَّةَ مَحْفِـلٍ فَهَتَمْتُ فاكا
٢ – وصَدَّقَ ما أقُولُ عَلَيْكَ قومٌ عَرَفْتَ أباهُمُ ونَفَـوْا أباكا

الصَّميم : الخالصُ من النَّسب والفخر . وجعل له ذلك على طريق الهُزْء ، فهو كقول الله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ . يقول : ما كان مِن حسَبِك خالصا ، ومن نسبِك صافِياً لا شَوْبَ فيه ولا لَبْسَ دونه ، أبطلتُه بقَوافىَّ ، وزيَّفتُه حينَ اختلفنا فى المَجمَعة بمرامِىَّ ، فهتمْتُ أسنانَك ، وأخرسْتُك فى دَعاوِيك . والهَتْمُ : كسر الثَّنيَّة من الأصل ، وجعَلَ الفَم كنايةً عن الأسنان .

(١) بضم الضاد وكسرها . ومثله « القعدى » بكسر القاف وضمها .
(٢) التبريزى : « وقال رجل من جرم لزياد الأعجم ، وقيل إنه لزياد الأعجم » . وستأتى ترجمة زياد الأعجم .

أى جعلتُك بحيثُ لا مَعضَّ لك ، ومَشهَدُنا مشهود[١] ، وأهل التمييز حضورٌ ، وصَدَّقَني مَن له القِدْمَةُ والسّابقة عليك ، وأنت تعرفهم وتَعرِف أوَّلِيَّتهم ، وهم ينكرون سلَفَك ، ويُبطِلون دعاوِيَك .

٦٦٦

وقال زيادٌ الأعجم[٢] :

١ — ومَنْ أنتمُ إنّا نَسينا مَنَ أنتمُ ... وريحُكُمُ مِنْ أَيِّ ريحِ الأعاصِرِ

٢ — وأنتمُ أُولَى جِئتُم مَعَ البَقْلِ والدَّبَا ... فَطارَ وهَذَا شَخْصُكُم غَيْرُ طائرِ

٣ — فلَمْ تَسْمَعُوا إلّا بِمَنْ كانَ قَبلَكُمُ ... ولم تُدرِكُوا إلَّا مَدَقَّ الحوافِرِ

قوله « إنا نسينا مَن أنتمُ » يجوز أن تجعل مَنْ استفهاما ، وقد كرَّره ، وعَلَّقَ نسينا قبله ، وإنْ لم يكن من أفعال الشَّكّ واليقين ، لأنّه أجراه مَجرى نقيضِه ، وهو عَرَفْتُ وذَكَرْتُ ؛ وهم يجرون النظير [مَجرى النَّظير[٣]] ، والنَّقيضَ مَجرى النَّقيض . وقد مرَّ له نظائر . ويجوز أن نجعل مَنْ بمعني الذى . وقد حُذِفَ صِلتُه[٤] ، كأنّه قال : إنّا نسينا الذين هم أنتم . والأوّل أَوجَهُ . ونظيرُ الأول[٥] عند أصحابنا البَصريِّين قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحْصَى لِمَا لَبِثُوا ﴾ . وفى باب الذى قوله تعالى : ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ[٦] ﴾ لأنَّ المعنى مَن

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لا يشهدنا مشهود » .

(٢) زياد الأعجم : أحد شعراء الدولة الأموية ، وقد شهد فتح إصطخر مع أبي موسى الأشعرى وطال عمره ووفد على هشام بن عبد الملك . وفى الاشتقاق ٢٠١ عند الكلام على عبد القيس : « ومنهم زياد بن سلمى الذى يقال له زياد الأعجم الشاعر » . ويقال له أيضا : زياد بن سلميان . انظر البيان (١ : ٧١) والخزانة (٤ : ١٩٣) ومعجم المرزبانى ١٣٣ والشعراء لابن قتيبة والأغانى (١٤ : ٩٨ — ١٠٥) .

(٣) التكملة من ل .

(٤) كذا فى النسختين . والمراد « حذف صدر صلته » .

(٥) فى النسختين : « الثانى » والتنظير للأول ، وهو التعليق بالاستفهام .

(٦) هذه قراءة يحيى بن يعمر ، وابن أبي إسحاق ، وهى القراءة التى يستقيم بها الاستشهاد وقراءة الجمهور : « أحسن » بفتح النون ، على أنها فعل . وقال بعض نحاة الكوفة فى =

هو أحسن . وقوله « مِن أىِّ ريحِ الأعاصر » ، والأعاصر : جمع الإعصار ، وهو الغُبار السَّاطع المستدير ، وفى المَثَل: «إنْ كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً» . وإنَّما خصَّها بالذِّكر لأنَّها تَسُوقُ غَيْثاً ، ولا تَدُرُّ سَحابا ، ولا تُلْقِحُ شَجَراً ، فضُرِب المَثَلُ بها لقلَّة الانتفاع بهم . وهذا كما قال الآخر[1] :

وأنتَ على الأدنَى شَمالٌ عَرِيَّةٌ شآمِيَةٌ تَزْوِى الوُجوهَ بَلِيلُ

وهم يجعلون الرِّيح كنايةً عن الدَّولة ، فيقال : فلانٌ هَبَّتْ له ريحٌ ، فكأنه جعل دولتهم لا تُجدى ولا تردّ نفعا ، بل تُتْوِى[2] وتجرّ شرّا ، وقوله « وأنتم أولَى جئتم » ، يريد الذين جئتم مع البَقْلِ . والمعنى أن شَرَفكم حديث .

ومثله قول الآخر :

تموتُونَ هَزْلَى فى السِّنين وأنتمُ أساريعُ تحيا كُلَّما نبتَ البَقْلُ

وقوله «فطارَ وهذا شخصُكم غير طائر تضجُّر بهم وتعجُّب من بقائهم ، وعَتْبٌ على الزمان فى استبقائهم .

وقوله «فلم تَسمعوا إلاّ بمن كان قبلكم» يريد أنَّ كلَّ من يُذكَر لكم[3] وعِنْدَكم فهو سابِقٌ لكم ، مقدَّم عليكم بالزمان والفَضْل ، فأنتم على السَّاقةِ لم تُدْرِكوا ممَّن أحْرَزَ قصباتِ السَّبْقِ إلَّا مَدَقَّ الحوافر ، ومواطئ الأقدام . جَعَلَهُمْ فَسَاكِلَ ، ومتأخِّرين عند الفضائل .

ـــ تخريجها : يصح أن يكون أحسن هذه اسما ، وهو أفعل تفضيل مجرور بالفتحة صفة للذى وإن كان نكرة ، من حيث قارب المعرفة إذ لا يدخله « أل » ، كما تقول العرب : مررت بالذى خير منك ، ولا يجوز مررت بالذى عالم . تفسير أبى حيان (٤ : ٢٥٥) .

(١) هو طرفة بن العبد ، كما سبق فى الحماسية ٦٠١ ص ١٤٤١ .

(٢) أتواه : أهلكه . وفى الأصل : «تنوى» تحريف . وفى ل : « توبى » .

(٣) فى الأصل : « من يدلكم » ، صوابه فى ل .

٦٦٧

وقال عَمْرو بنُ الهُذَيل[1]:

١ ــ نحنُ أقَمْنا أمْرَ بَكْرِ بنِ وَائِلٍ   وأنْتَ بِثَأْجٍ ما تَمِرُّ وما تُحْلِي[2]
٢ ــ وما اَسْتَوِى أحْسابُ قَوْمٍ تُوُرِّثَتْ   قديمًا وأحسابٌ نَبَتْنَ مع البَقْلِ

ثَأْجٌ: اسم ماء. وما تُمِرُّ وما تَحْلِي، أى لا تأتى بحُلْوٍ ولا مُرٍّ. يصف عَجْزَه وضَعفَه، وقُعودَه عن المعونة أوَانَ الحاجة. وقول زُهَير:

* على صِيرِ أمْرٍ ما يُمِرُّ وما يَحْلُو[3] *

فأمَرَّ فيه بمعنى صار مُرًّا. ويقال فى هذا مَرَّ أيضاً. وقولُهم فى المَثَل: «ما أمَرَّ فلانٌ وما أحْلَى» فهو مِثلُ المعنى الذى فى البيت. والمعنى: ما أتَى بحُلوٍ ولا مُرٍّ. ومرادُ الشَّاعر فى هذا البيتِ ظاهر، وهو المعنى المتقدِّم.

وقوله «وما تستوى أحسابُ قومٍ» تستوى بمعنى تُساوِى وتُمَاثِل، وقد يكون استَوَى بمعنى استعلَى. على ذلك قولهم:

* قد استَوى بِشْرٌ على العِرَاقِ[4] *

---

(١) التبريزى: «وقالى عمرو بن الهذيل العبدى. وقال أبو رياش: هى لرجل من بنى عجل». وفى معجم المرزبانى ٢٤١ «عمرو بن الهذيل الربعى». قال المرزبانى: «يقوله لأبى غسان مالك بن مسمع حين فر أيام العصبية، فنزل بأجأ حتى تجات العصبية».

(٢) المرزبانى: «لا تمر ولا تحلى». وقبله عند التبريزى:

لا تَرجُ خَيْراً عِنْدَ بابِ ابنِ مِسْمَعٍ   إذا كُنْتَ مِنْ حَيَّىْ حَنيفةَ أو عِجْلِ

(٣) ثانى بيت له من القصيدة التى مطلعها:

صحا القلب عند سلمى وقد كاد لا يسلو   وأقفر من سلمى التعانيق والثقل

وصدره: * وقد كنت من سلمى سنينا ثمانيا *

(٤) بعده فى اللسان (سوى):

* من غير سيف ودم مهراق *

٦٦٨

وقالت كَنْزَة فى مَيَّة[١] :

١ — أَلاَ حَبَّذَا أَهلُ المَلاَ غيْرَ أَنَّهُ ... إذا ذُكِرتْ مَىٌّ فلا حَبَّـذَا هِيا

٢ — عَلَى وَجْهِ مَىٍّ مَسْحَةٌ مِن مَلاَحَةٍ ... وتَحْتَ الثِّيابِ الخِزْىُ لو كانَ بادِيا

٣ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ الماءَ يَخلُفُ طَعْمُه ... وإنْ كانَ لَونُ الماءِ فى العَينِ صافيا[٢]

٤ — إذا ما أتاهُ وارِدٌ مِنْ ضَرُورَةٍ ... تَوَلَّى بأَضعافِ الذى جاء ظَامِيا

٥ — كذلِكَ مَىٌّ فى الثِّياب إذا بَدَتْ ... وأثوابُها يُخْفِينَ مِنْها المَخَازِيا

٦ — فَلَوْ أنَّ غَيْلانَ الشَّقِىَّ بَدَتْ لَهُ ... مُجَرَّدَةً يوماً لمــا قالَ ذَا ليا

٧ — كَقَولِ مَضَى مِنْهُ ولـكِنْ لَرَدَّهُ ... إلى غَيْرِ مَىٍّ أو لأَصْبَحَ سَالِيا

قوله ذا من لفظة «حبَّذا» أُشِيرَ به إلى الشَّىء ، وهو مع حَبَّ بمنزلة الرجل مِن نِعْم الرَّجل ، إلاَّ أنَّه أُجْرِى معه مَجْرَى الأمثال ، لا يغيَّرُ ولا يُفْصَلُ بينهما . والمعنى : محبوبٌ فى الأشياء أهل الملا غيْرَ مَىٍّ ، فإنَّها إذا ذُكِرتْ لا تستحقُّ مدحاً ولا اختصاصا ، ولا ثناء ولا إطراءَ ، فلا تُعْطَى هذا القولَ ، ولا تُذْكَرُ عند الدُّعاء بالسُّقيا ، ولا تَدخُل عند الحمد أو الحُبِّ فى الذِّكرى . وقولها « فلاَ حبَّذا هى » جَعَل أَلِفَ ذا على انفصالها تأسيساً ، لأنَّ الرَّوِىَّ من اسم مُضْمَرٍ وهو هِىَ .

---

(١) التبريزى : « كنزة أم شملة المنقرى فى مية صاحبة ذى الرمة . وقيل : هى لذى الرمة ، وذلك أنه كان يشبب بمية وكانت من أجمل الناس ولم تره قط ، فجعلت لله عليها أن تنحر بدنة أول ما تراه . فلما رأته وأت رجلا دميما أسود ، فقالت : واسوءتاه ! فقال ذو الرمة فيها » . وقد سبقت ترجمة « كنزة » فى الحماسية ٢٤٠ ص ٧٠١ . وفى الأغانى (١٦ : ١١٤) وأمالى الزجاجى ٥٧ أن تلك الأبيات قيلت على لسان ذى الرمة بغية الإفساد بينه وبين صاحبته . وانظر ملحقات ديوان ذى الرمة ٩٦ — ٩٧ .

(٢) التبريزى : « أبيض صافيا » .

وقولها « على وجهِ مَىّ مَسْحَةٌ » تريدُ أنّ ظاهِرَها حَسَنٌ، كأنّ اللهَ عزّ وجلّ قد مسها بالجمال مَسْحًا، ويكون أصله من المَسْحِ باليد، وقد استُعمِل فى الدُّعاء فقيل للمريض: مَسَح اللهُ ما بكَ من علّة، وقيل أيضاً: هو ممسوح الوَجه أى مستوِى الخِلقة. وقولها « وتَحتَ الثّياب الخِزْى » تريدُ أنّ ما سِوَى المعارِى منها ممّا هو مُوَارًى من بَدَنها، ومَسْتُورٌ بثيابها، قبيح. وقولها « لو كان بادياً » جواب لو مُقَدّمٌ عليه. أرادت: لو ظَهَر الخافِى منها كان خِزْياً. ثم شبَّهَتْها بالماء يتناهَى صفاؤه ولونه، ويَتراءى للنّاظر زُرْقَتُه، ويحْسَبُ عَذْباً سَلساٍلاً فإذا هو مِلْحٌ أُجاجٌ، حتّى إذا ورَدَه الوارِدُ فنظَر إليه صار كأنه يَعِدُه من نفسِه بظاهِرِه عُذُوبةً، فإذا طَعِمُهُ يُخْلِفُ ولا يَفِي، بل يُعطيه مرارةً. هذا إذا رُوِى « يُخْلِفُ » لأنّه من الخُلْف فى الوعد، وقد رُوِى « يَخْلُفُ » فيكون من الخُلُوف: التّغيُّر. وفى الحديث « خُلُوفُ فَم الصّائِم أطيَبُ عند الله مِنْ رِيح المسك» والمراد أنّ ظاهرَ هذه المرأة كظاهر هذا الماء، وباطنَها كباطِنه فكما أنّ وارد هذا الماء وقد اضطرّه العَطَشُ وساقَهُ حرارةُ الجوْف والغُلّة يَصدُر عنه وقد تضاعَفَ ظمؤه وتزايدت حرّتُه، كذلك هذه المرأةُ للكاشف عن أمرِها، والذّائق بعدَ الاغترارِ بها. وقولها « بأضعاف الذى جاء »، [تريد جاء[1]] عليه، فحذف حَرفَ الجرّ وَوَصَل الفِعلُ بنفسه، فصار جاءَهُ، ثم حَذَفَ الضّمير من الصّلة استثقالاً واستطالةً لكون أربعة أشياء شيئاً واحداً: الموصول، والفعل، والفاعل، والمفعول. ومَنْ جَوّزَ حذفَ الجار والمجرور من الصِّلة فالأمرُ عنده أقربُ. وانتصب « ظامئا » على الحال.

وقولها «فلو أنّ غيلان الشّقىّ» تعنى به ذا الرُّمّة، لأنه كان يَنسُبُ بميّة[2]، وكان يسمّيها مرّة مَيًّا ومرةً مَيّة. فتقول: لو أنّها تجرّدَت له لتبرّأ منها وتندّمَ

(١) التكملة من ل. (٢) فى الأصل: « يشبهها » صوابه فى ل.

على ما سَيَّرهُ من النَّسيب فيها . وانتَصَب « مُجَرَّدَةً » على الحال . وأشارت بذا من قولها « لما قال ذالياً » إلى مُجرَّدٍ مَيَّةَ ، أى ما حَدَّثَ نفسَه بأنه له . ويُروَى : « لما قال آلياً » وهذا يتعلَّق بما بعده . أرادت : لما قال كقوله فيما سَلَف ذاليا . وآليا ، أى مقصِّرًا عندَ نفسه فى دعواه ، ولَصَرَف تشبيبَهُ[1] إلى غيرها ، ولَتَسَلَّى من النِّساء رأسا . وزَهِد فيهنَّ استبْشاعًا لها . وآليا ، من قولك : لا آلو فى كذا ، أى لا أقصِّر ، وينتصب على الحال . وقولها : «لرَدَّهُ» ، اللام جواب يمين مضمرة . وذكر بعضهم أنَّ معنى آليًا حالفًا ، أى كان لا يُقْسِمُ بها ، وهذا خطأ ، لأنَّه كان يَجِبُ أن يكون مُولِيًا . ألا تَرَى أنَّه يقال : آليْتُ فى اليمين إيلاء . وقيل : آا : توجُّعٌ فهو كأَوْهِ ، والمعنى : لم يَقُل لما يَستجِدُّ من الزُّهد فيها آا لِى ، متأوِّهًا ومتوجِّعا ــ وهذا كما يُقال فى الأمر وقد نَـكأَ فى متولِّيه : شقاء لى ، بكاء لى ، وأشْقَى لى ، وأبكَى لى ــ وجْدًا بها ، فعلى هذا يكونُ آا لى حكايةَ صوتٍ موضعُه رفعٌ بالابتداء ، ولى خبَرُه ، والأوَّلُ أقرب عندى .

٦٦٩

وقال أبو العَتَاهِيَة[2] :

١ ــ جُزِىَ البَخِيلُ عَلَىَّ صالِحَةً عَنِّى بِخِفَّتِـهِ عَلَى ظَهْرِى
٢ ــ أَعْلَى وأَكْرَمَ عَنْ يَدَيهِ يَدِى فَعَلَتْ وَنَزَّهَ قَدْرُهُ قَدْرِى
٣ ــ وَرُزِقْتُ مِنْ جَدْوَاهُ عَافِيَةً أَلَّا يَضِيقَ بِشُكْرِهِ صَدْرِى
٤ ــ وَغَنِيتُ خِلْوًا مِنْ تَفَضُّلِهِ أَحْنُو عَلَيـهِ بِأَحسَنِ العُذْرِ
٥ ــ ما فاتَنِى خَيْرُ امرِئٍ وَضَعَتْ عَنِّى يَدَاهُ مَؤُونَةَ الشُّكْرِ

(١) ل : « نسيبه » .
(٢) لقب له ، واسمه إسماعيل بن القاسم ، شاعر عباسى منشؤه بالكوفة . وأكثر شعره فى الزهد . توفى سنة ٢٠٥ . الأغانى (٣ : ١٢٢ – ١٧٦) والشعراء ٧٦٥ – ٧٦٩ .

يقُول : جزَى اللهُ البخيلَ عَلَىَّ بمالِهِ خَصْلَةً صالحةً ، فقد خفَّ تحمُّله على ظهرى ، لسقوط مِنَّته عنِّى ، وذاك أنَّه أجلَّنى عن صنيعتِهِ ، وأكرمَ مَحَلِّى إذْ أخلاَنى من عارفتِه ، وصان قَدرِى حين لم يبتذِله لعطيَّته ، ورفَع يدى وكرَّمها حينَ لم يَشِنْها بمرزِيَّته ، فرَزَقنِى الله عافيةً من ضِيق الذَّرْع بشُكره ، والتَّطوُّق بأفضاله ، واستغنيتُ عنه خالياً من بِرِّه ، مُنْصرِفا مِن تفضُّله ، متعطِّفا عليه ببَسط عُذرِه حينَ لم يَجُدْ عَلَىَّ ، ولم يتلَقَّ إقبالى عليه بقَبوله لى .

ولمّا قال : أعلَى يدى فعَلَت ، كان الأحسنُ فى مقابلته أن يقول : وَنَزَّهَ قَدْرِى فتنزَّهَ . ويقال : فلانٌ نزيهٌ كريمٌ ، إذا كان بعيدًا من اللؤم . وقوله « ألاَّ يَضِيق » لك أن ترفعه وأن تنصبه ، فالنَّصْب على أن يكون أنْ النَّاصبة للأفعال ، والرفع على أن تكون أنْ مخفَّفة من الثَّقيلة ، ويكون اسمهُ مُضْمَرًا ، كأنَّه قال: أنَّه لا يَضِيقُ ، والجملة خَبَره . والعافيَةُ : مصدر كالعاقبة ، ومثله ما أباليه بالِيَةً ، وقم قائماً ؛ لأنَّه لا خِلاَفَ أنَّ اسم الفاعل يكون اسماً للمصدر وإن اختلفوا فى بناء المفعول . وموضع « ألاّ يضيق » نَصبٌ بكونه بدلاً من قوله عافيَةً . وانتَصَبَ « خِلْوًا » على الحال . وجملة المعنى : أنَّه لم يَفتْنِى إحسانُ رجلٍ لم يَلْزَمْنِى له شُكْرُ إفضالٍ ، ولم يجب بفعله بى عَلَىَّ اعتداد .

٦٧٠

قال ابن عَبْدَلٍ الأسدىّ(١) :

١ ــ أضْحَى عُرَاجَةُ قَدْ تَعَوَّجَ دِينُهُ ... بَعْدَ المَشِيبِ تعوُّجَ المِسْمَارِ

٢ ــ وإِذَا نَظَرْتَ إلى عُرَاجَةَ خِلْتَهُ ... فُرِجَتْ قَوَائِمُــه بأيرِ حِمَارِ

أراد أنْ يُظْهِر أنَّه يَجْسُرُ على تشبيهه بالسَّوْءة . وضَرَبَ الخنَا والفُحْش مَثَلاً

(١) سبقت ترجمة الحكم بن عبدل فى الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٤ .

له فى هجوه ، فأما المعنى فظاهر ، وإنما شَبَّهَ تعَوُّجَ دينه على كَبْرَته وسِنِّه بتعوُّج المِسمارِ فى العَمَل ، وقد عَجزَ عمَّا حُمِّل ، فإن أُكرِه على النَّفاذ انكَسَرَ ؛ وإن طُلِبَ نَزْعُهُ ليُجعَل أَقْوَى منه بَدَلَهُ تَعَسَّرَ ، فكذلك عُرَاحَةُ فى اعوجاج دِينِهِ والتوائه ، لا صَرْفُه ورَدْعُه ممكن ، ولا احتماله عليه مُسوَّغ .

٦٧١

وقال أم عمرٍو بنت وَقْدَان :

١ — إنْ أنتمُ لم تَطلُبُوا بأخِيكُمُ فَذَرُوا السِّلاحَ ووَحِّشُوا بالأَبْرَقِ
٢ — وخُذُوا المَكاحِلَ والمَجاسِدَ والبَسُوا نُقَبَ النِّساءِ فبِئْسَ رَهْطُ المُرْهَقِ
٣ — أَلهاكُمُ أنْ تطلبوا بأخيكُمُ أَكْلُ الخَزِيرِ ولَعْقُ أَجْرَدَ أَمْحَقِ

تقول : إن ضيَّعتم دمَ أخيكم ، وقعدتم عن الانتقام له ، لتقصيركم فى طلب ثأره ، فضعوا السِّلاح واطْرحوه بالأبرَق . ويقال : وَحَّشَ بثوبه وبسيفه ، إذا رَمَى به بعيداً . وفى الحديث : «وَحَّشُوا برماحهم[1]» ، أى رمَوْا بها . ويجوز أن تريد توحَّشُوا ، أى صِيرُوا مع الوَحْشِ حياءً من فعلكم ، وهاجِرُوا الناسَ وجانبُوهم . والعرب تقول : إذا أظلمَ الليلُ تأنَّسَ كلُّ وحشيّ ، وتوحَّش كلُّ إنسيّ . يريدون بتأنَّسَ استأنس ، وبتوحَّش استوحَش . ومثلُ وَحَّشَ بمعنى توحَّشَ قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ ، ونبَّه بمعنى تنبَّه . وعلى هذا يُحمَلُ قولُ امرئ القيس:

وأنَا المُنَبِّهُ بَعْدَ ما قد نَوَّموا وأنَا المُعالِنُ صَفحةَ النُّوَّامِ

لأنه إن لم يجعل منبِّه بمعنى متنبِّه يصير عجزُ البيت كصَدرِه فى أنَّهما بمعنًى

---

(١) هو من حديث على رضى الله عنه ، أنه لقى الخوارج فوحشوا برماحهم واستلوا السيوف . اللسان (وحش) . وفيه أيضاً : « ومنه الحديث : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من حديد ، فوحش به بين ظهرانى أصحابه ، فوحش الناس بخواتيمهم » .

واحد . وقال بعضهم : وحِّشوا معناه اطلبوا صَيدَ الوحش وتَقوَّتُوه . وهذا يرجع معناه إلى ما ذكرناه ؛ لأن معناه فارِقوا الناسَ والسكونَ معهم .

وخَصَّتِ الأبرقَ لأنه كان مما وَلِيَهم ، وهو المكان فيه حجارةٌ سُودٌ وبيض . ويقال : جبلٌ أبرق ، إذا كانت طاقاته سُوداً وبيضاً .

وقولُها « وخُذُوا المكاحِلَ » ، تريد : اجعَلوا بدلَ السِّلاح آلاتِ النساء : والمَجاسد : جمع المُجْسَدِ ، وهو الثَّوْبُ المُشْبَع صِبْغاً . والجِسَادُ : الزَّعفران . والنُّقَبُ : جمع نُقْبَةٍ ، وهى إزارٌ تُجعل له حُجْزَةٌ كحُجْزة السَّراويل تَلبسُه المرأة . قال :

بيضاء مثل القلْبِ[1] في نُقْبَــــةٍ وإتْبِ

والإتْب : القميص .

والمعنى : إن لم تثأروا لصاحبكم فتزيَّوا بزيِّ النساء فإنكم إناث ، وبئس رهط المُرهَق : المضيَّق عليه أنتم . وحذَفَ المذموم ببئس ، وهو أنتم ، لأن المراد مفهوم . وهذا الكلام بَعثٌ وتحضيض على طلَب الدّم ، فهو كقول أختِ عمْرٍو حين بعثَتْ عَمْراً على طلب دَمِ أخيه عبدِ الله فقالت :

فإنْ أنتمُ لم تثأرُوا بأخيكُمُ فمشُّوا بآذانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ[2]
ولا تَرِدُوا إلّا فُضولَ نِسائكم إذا ارتمَلَتْ أعقابُهنّ من الدَّمِ

وقولها « ألهاكُمُ أن تَطلُبوا » تهييج وإغراء . والخزير : حَساءٌ يُحسَى . والأجرد : الأمحق ، يرادُ به نِحْىٌ أو زِقُّ دِبْسٍ . والأمحَق : القليل ، كأنه يصير لكم مَحْقاً لا يُبارِكُ الله فيه ، وأمحَقُ من باب أفعَل الذى لا فَعْلاءَ له . واللامُ ، هو لِما فى النَّحى لا له ، فتُوُسِّعَ فيه .

---

(١) القلب ، بتثليث القاف : قلب النخلة ، وهو جمارها .

(٢) سبق البيتان فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

٦٧٢

وقالت امرأةٌ من طيءٍ[(١)] :

١ ـ فلَوْ أنَّ قَوْمِى قَتَّلَتْهُمْ عِمارةٌ   من السَّرَوَاتِ والرُّءُوسِ الذَّوائبِ[(٢)]

٢ ـ صَبَرْنا لِما يأتِى به الدَّهرُ عامِداً   ولكنَّما أثْآرُنا فى مُحاربِ

٣ ـ قَبِيلٌ لِئامٌ إنْ ظَفِرْنا عليهمُ   وإن يَغْلِبونا يُوجَدُوا شرَّ غالبِ[(٣)]

العِمارةُ : الحىُّ العظيم يُطيق الانفراد ، وقد يُفتح العين منه فيقال : العَمارةُ ، لُغةٌ . ومثله العَميرَةُ ، وقيل : هما جميعاً البطن . والسَّرَوَاتُ : الرُّؤساء . والذَّوائب : الأعالى ، وهو جمع ذُؤابة ، واستَعملوا الذنائب فى خلافه ، وهو جمعُ ذُنابةٍ ، وهما اسمانِ فى الأصل وُصِفَ بهما . وأثآرٌ : جمع الثَّأر . يقول : همُ الذين أصابونا عن ذِلّتِهم وخِسّتِهم ، فالبَلاء أعظم ، وقَرْحُ القَلبِ أوجَع ، ولو أصابنا غيرُهم كان الخَطْبُ أيسَرَ ، والصبرُ عليه أوسَع . وهذا كما يقال فى المَثَل السائر : « لو ذاتُ سِوَارٍ لطمَتْنِى » .

وقولها « قَبيلٌ لئامٌ » ، هو تفصيلُ ما أجملَهُ . وقولها « إن ظَفِرنا عليهم » عَدَّى ظَفِرنا تعديةَ عَلَوْنا ، لأنه فى معناه ، وهم يَحمِلون الضمير على الضمير . والمعنى : لا اشتفاء فى الانتقامِ منهم إذا نِيلُوا ، ولا يُنِيمون طلَّابَ الأوتارِ إذا ثأروا . وجواب الشرط ، وهو قوله إن ظَفِرنا ، متقدِّم يشتمل عليه قوله « قَبيلٌ لئامٌ » ، لأن فيه معنى الفعل .

---

(١) للتبريزى : « وهى عاصية البولانية » .

(٢) روى قبله التبريزى :

أعاصِيَ جُودِى بالدُّموع السَّوا كبِ   وبَكِّى لك الويلاتُ قتلَى مُحارِبِ

(٣) التبريزى : « إن ظهرنا » .

ومثل قولها « وإن يَغلِبونا يوجَدُوا شرَّ غالب » قولُ امرئ القيس :

* ولم يَغلبْكَ مثلُ مُغلَّبِ[1] *

إلا أنه فى النَّسيب .

٦٧٣

وقال آخر[2] :

١ — إذا ما الرِّزْقُ أحجَمَ عن كَرِيمٍ فألجأَهُ الزَّمانُ إلى زِيادِ[3]

٢ — تَلَقَّاهُ بوجهٍ مُكْفَهِرٍّ كأنَّ عليهِ أرزاقَ العِبادِ

الإحجام : النكوص عن القِرْن هيبةً له . وقد تُوسِّعَ به هنا . وضدُّه الإقدام . ويقال : نكَصَ على عَقِبَيه . والمكفهِرّ : المستقبِل بكراهةٍ وتغَضُّنِ وَجْهٍ . ويقال : سَحَابٌ مكفهِرٌّ ، إذا تراكَمَ ، ووجهٌ مكفهِرٌّ . ويُروى : « بوجهٍ مقشَعِرٍّ » ، والأصل فى الاقشعرار تقبُّض الجلد وانتصابُ الشَّعَر ، ثم يُتوسَّعُ فيه فيقال : اقشعرَّت الأرضُ والنباتُ والسَّنة . والمعنى ظاهرٌ ، وهو أنّ العافِيَ إذا وَرَدَ عليه تلقَّاه بعُبوسٍ ، كأنه اجتمع عليه لوُرود واحدٍ من الناس أرزاقُ الخَلْقِ كلِّهم . وجوابُ إذا « تلقَّاه » .

٦٧٤

وقال أبو محمدٍ اليزيديّ[4] :

١ — عَجَبًا لأحمَدَ والعجائبُ جَمَّةٌ أنَّى يَلُومُ على الزَّمانِ تبذُّلِي

---

(١) تمامه :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

(٢) التبريزى : « وقالت غيرها » .

(٣) التبريزى : « وألجأه » .

(٤) هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوى ، أبو محمد اليزيدى النحوى المقرئ اللغوى =

٢ — إنَّ العَجيبَ لِمَا أُبِثُّكَ أَمرَهُ ... مِنْ كلِّ مَثلوجِ الفؤادِ مُهَبَّلِ
٣ — وَغْدٍ يَلُوكُ لسانَهُ بلَهَاتِه ... وترَى ضَبَابةَ قَلْبِه لا تَنْجَلى
٤ — مُتَصرِّفٍ للنُّوكِ فى غُلَوَائِهِ ... زَمِرِ المُرُوءةِ جامِحٍ فى المِسْحَلِ
٥ — وإذا شَهِدْتَ به مَجَالسَ ذِى النُّهَى ... وَبَلَتْ سَحَابتُهُ بنُوكٍ مُسْهِلِ[1]
٦ — غَلَبَ الزَّمانُ بجَدِّهِ فَسَمَا به ... وَكَبَا الزمانُ لوجْهِهِ والكَلْكَلِ

قوله « والعجائبُ جَمَّةٌ » اعتراضٌ بين أحمد وقصَّته التى عَجَّبَ منها. ويقال : أَمْرٌ عَجَبٌ وعُجَابٌ وعَجِيبٌ وعاجِبٌ. وأبلغ هذه الأبنية العُجاب. وانتَصَب « عَجَبًا » على المصدر. يقول : أتعجَّبُ لأحمد كيف أنكَرَ خُلُقِى وطريقتى، حتى لامَنِى فى تبذُّلى على تنكُّرِ الأيام وتغيُّرِها، ومن أينَ استطرَفَ مارأى من حالى وقِصَّتى، ومُقتضَى الوقتِ وموجَبُ حكمه لا يَدْعُوَانِ إلى غيره. ثم أقبلَ يخاطِبُ أحمدَ بعد الإخبار عنه فقال : إنّ العَجَب ما أُطلِعك عليه وأُبائثك فيه، وأُكشِفُ لك مستورَه وخافِيَه، مِن كلِّ رجلٍ بطىءِ الفهم، ميِّت الخاطر، مَدْعُوٍّ عليه بالهبَل لثِقَله وعَجْزِه غَبِيٍّ، عَيِيٍّ، إنْ حَدَّثَ أَدار لسانَهُ فى فيه يَمضُغُ كلامَه، وإن ائْتُمِنَ خانَ، وكان ذا لونين لنفاقه، وكأنَّ قلبَه قد رِينَ عليه لما يضمِرُه من غِلٍّ، فعَلَيه لكلِّ أحدٍ ضَبَابةٌ، فلا تصفو نيَّتُه، ولا تخلُص طوِيَّتُه، متصرفٍ فى غُلَوَاءِ الحُمقِ وارتفاعِه وانتهائه، قليلِ

= مولى بنى عدى بن عبد مناة. بصرى سكن بغداد، وحدث عن أبى عمرو والخليل، وأدب أولاد يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى، ونسب إليه، ثم أدب المأمون. قال المرزبانى : « وكانت مرتبته أن يدخل إليه مع الفجر، ويصلى معه، ويدرس عليه المأمون ثلاثين آية ». وسأله مرة عن شىء فقال : لا وجعلنى الله فداك! فقال المأمون : لله درك، ما وضعت الواو فى مكان أحسن من موضعها هذا! توفى بخراسان سنة ٢٠٢. بغية الوعاة ٤١٤ — ٤١٥ ومعجم الأدباء (٢٠ : ٣٠ — ٣٢) وابن خلكان (٢ : ٢٣٠ — ٢٣٣) ومعجم المرزبانى ٤١٩ وتاريخ بغداد ٧٣٦٥.

(١) هذا ما فى ل والتبريزى. وفى الأصل : « بنوء ».

المرُوءة ، زَمِر الْحميَّة ، يركبُ رأسَه فيما يَعِنّ ، ويَغْفُل عن القَصْد فيما فيه يَجِدُّ ، ويمضى قُدُمًا فى الشرّ فلا يرتدع ، ويعلو على زاجرِه فلا يَرْجعُ ، ولا يقف وإن كُبِحَ بلجام المَنع ، ولا يَرْعَوِى وإن أُوذِن بالهُلْكِ ؛ ثمَّ إنْ حضَرْتَ به مجالِسَ الفَضْل والعَقْل ، سالَتْ سحابةُ جهله بِحُمْقٍ تلتطم أمواجهُ ، وتتدافعُ بصَوْبِهِ أركانُه ؛ وعلى ما بِهِ من النَّذالة والجهالة رُزِقَ جدًّا فحظِىَ ، وغَلَبَ على أهلِ زمانِه بما قُسِمَ له فَعَلِىَ ، وذَلَّ له الدَّهرُ فكبا لصدره ووجهه ضارعاً ، وانقاد لأمرِه ونَهيِه صاغراً ، حتى أدرك ما شاء ممتدًّا فى شأوِه ، مُشترِفاً فى شأنِه ، آخذاً قَصَب السَّبْق فى مَيدانه ، فإن تعجَّبْتَ فالعجيبُ هذا ، وإن استنكرت فالنَّكير هذا .

ويرُوَى :

غَلبَ الزَّمانُ بجدِّه وسَما به فكبَا الزَّمانُ . . . . . .

فيُجعل الفعل للزمان ويكون معنى سَمَا به رفعَه . ثم أخذ يدعو على الزَّمان فقال : سقَط لوجهه وكَلكلِه ، حين اختارَ مثلَه لإحسانه ، وهذا حَسَنٌ جدًّا . والوَغْدُ : الدَّنِئ ، مِن قولك : وغَدتُ القومَ إذا خدَمتَهم[1] . والنُّهَى : العُقول ، والواحدة نُهْيَة . والنُّوك : الُحْمق . والمِسْحَلان : حَلْقتا شَكيم اللِّجام ، والجميع المَساحل . ومعنى « على الزَّمان » ، على تصاريف الزَّمان ؛ فحَذَف المضاف .

وقوله « أُبِنْكَ أَمرَهُ » أى أجعل أمرَهُ مما تَبثُّ وتَحزَن له . والمَثلوج الفؤاد : البليد الخالى من الذَّكاء والِحدّة . واللَّوْك : المَضْغ .

---

(١) فى الأصل : « إذا دنوتهم » ، صوابه فى ل . وفى اللسان : « والوغد : خادم القوم ، وقيل الذى يخدم بطعام بطنه » .

٧ - ولقد سَمَوْتُ بِهِمَّتِي وسَمَا بها طَلَبِي المَكارِمَ بالفَعالِ الأفضَلِ

٨ - لِأنالَ مَكْرُمَةَ الحياةِ ورُبَّمَا عَثَرَ الزمانُ بذِى الدَّهاءِ الحُوَّلِ

٩ - فلئن غُلِبْتُ لَتُمْضِيَنَّ ضريبتِي كَلَبَ الزَّمانِ بعِفَّةٍ وتَجَمُّلِ

رجع إلى صفة نفسه على تنكُّر(١) الزمانِ له، فقال: إنى وإن لم تساعدْنى الحالُ، ولا يَقوم لما أنويه المالُ، فلى هِمّةٌ رفيعةٌ، ونفسٌ أَبِيَّةٌ، يسمو بهما ارتقائى فى درجاتِ الفضل، وطلبى المعالىَ بأحسن الفعل، لأعيش مكرَّمًا مَصُونًا، فلا يَفوتُنى سَلامة الدِّين والمروءة، وإن فاتَتْنى الزِّيادة فى الحال والمَقْدُرَة؛ والدَّهر قد يَعثرُ بالرّجُلِ التامّ النُّكر، المرير القُوَّة والحُوْل، لجهلِه بموضع الصَّنيعة، فإن غلَبنى على حَظِّى، وتخطّانى عند القَسْمِ إلى غيرى، فطبيعتى تُسَلِّينى وتُرْضِينى، ومعرفتى بمن عنده المالُ والعَتادُ تَصرِفُ الهمَّ عنِّى، فتَنْمحى آثار الحَدَثان، وعَرَامةُ الليالى والأيَّام(٢)، بعفافٍ أستعمِلُه، وتجمُّل ألتزِمُه، لئلاَّ يَشْمَتَ عدُوٌّ، أو يفرَحَ حَسودٌ.

تم باب الهجاء بحمد الله وعونه(٣)

والحمد لله على تظاهُرِ آلائه، والصلاة على سيِّدنا محمدٍ وآله.

[تم القسم الثالث من شرح المرزوقى للحماسة]

(١) فى الأصل: «شكو»، صوابه فى ل.
(٢) العرامة: الشدة والشراسة. وفى ل: «غرامة» تحريف.
(٣) ل: «ومنه»، وما بعده من الكلام ليس فى ل.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٦٩/٢٧٦٩

لجنة التأليف والترجمة والنشر

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

٠٠٠ — ٤٢١

نشره

أحمد أمين   عبد السلام هارون

القسم الرابع

ومعه الفهارس العامة للكتاب

الطبعة الثانية

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

باب الأضياف

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الأضياف (١)

٦٧٥

قال عُتْبة بن بُجَير الحارثىّ (٢) :

١ - ومُستنبِحٍ باتَ الصَّدَى يَسْتَتِيهُهُ   إلى كلّ صَوْتٍ فهْوَ فى الرَّحلِ جانحُ

يَعنى بالمستنبح ضيفاً أَلجأه الضلالُ عن الطريق ليلاً ، أو دَعاه ضِيقُ الوقت وَجهْد السير مُنفضاً إلى أن يتكلف نُباحَ الكلبِ وحكايته ، لتُجاوِبَه كلاب الحىّ المتوهَّم نزولُهم فى سَمتِه ووِجهته فيهتدِىَ إليهم بصِياحها ، ويَستعينَ بهم على ضُرِّه وَحَيْرَته . وهكذا كان يفعلُه الضالُّ والمقرور فى ظلام الليل . وكانوا إذا قَرُبوا من البيوت المظنونِ دنوُّها ، أو المعلوم حُلولُها ، ربما حملوا رواحِلَهم على الرُّغاء أو البُغام ، إيذاناً بأنفسهم . ولذلك جاء فى الأمثال السائرة : « كفى برُغائها مُنادِياً » . وأصله أنّ بعضَ المتعرِّضين للقِرى أرْغى ناقته فلم يُتلَقَّ بالاستنزال ، فجعل يذُمّ ، فقيل : لو ناديتَهم ليعلموا بك ؟ فقال : « كفى برُغائها منادياً » .

وقال متمِّم (٣) :

وَضيفٍ إذا أرْغَى طُروقاً بَعيرَه   وعانٍ ثوَى فى القِدِّ حتى تَكنَّعا

وقوله « باتَ الصدَى يَستَتِيهُه » ، الصدى : صوتٌ يرْجعُ إليك من الجبل أو مما يَجرى مَجراه فى ردِّ الصوت . يريد : أنه لما استَنْبحَ صَارَ الصوتُ

(١) وكذا عند ابن جنى فى التنبيه . وعند المقريزى : « باب الأضياف والمديح » .
(٢) التبريزى : «المازنى ، من بنى الحارث بن كعب» . ويبدو أن « المازنى » تحريف .
(٣) فى الأصل : « تميم » ، صوابه فى ل . وقصيدة متمم بن نويرة فى المفضليات رقم ٦٧ .

الراجعُ إليه يَحمِلُه عَلَى أن يتيهَ إلى كلِّ صوتٍ يدركُه متبيِّناً للصدى من غير الصدَى لكى يؤدِّيَه ما يَبين له إلى مطلوبه من حىّ أو ما سبيلُه سبيلُهم . وجعلَه فى الرَّحل مائلاً لغلبة النَّوم عليه ، أو لتهيُّئه لإدراك الصوت . ويقال : جَنحَ يَجنَح جُنوحاً ، إذا مال . وَمعنى « يستَتِيهه إلى كلِّ صوتٍ » جعل الفعل مضافاً إلى الصَّدى لغلبته عليه ، وَاعتقادِه فى كلِّ صوتٍ أنه هو ، فقد صار تأْهاً إليه .

٢ ـ فقلتُ لِأهْلى ما بُغامُ مَطِيَّةٍ وَسارٍ أضافَتْه الكلابُ النوابحُ

٣ ـ فقالوا غريبٌ طارقٌ طرَّحَتْ به مُتُون الفيَافِى والخُطوبُ الطَّوارِحُ

رجعَ إلى أهله فى التعرُّف لِما غشيَه لِما بُغامُ بعيرِ الطارق ، فقال سائلاً : ما بُغامُ مَطيَّةٍ . و «ما» يُستفهَم به عمّا دونَ الناطقين ، وعن صِفات الناطقين . فكأنَّه سألَ عن صِفات السارى وعما أدركه من صوت المَطيَّة . وجعل الكلابَ مُضيفةً للسارى لاستنباحه ولإجابتِها إيّاه .

وقوله «غريبٌ طارقٌ» هو بيانُ ما سأل عنه من صفة السارِى ، واكتفى بوصفه لأنَّ البغامَ وأن سُئل عنه أيضاً فهو من توابع السارى . ومعنى « طَرَّحَتْ به » رمَتْ به . ومُتُونُ الفَيافِى: جمع مَتْنٍ ، وهو ما ارتَفع وغَلُظ من الأرض . وكلُّ صلبٍ غليظٍ متينٌ . ويقال : ماتَنْتُ الرَّجُل ، إذا فعلتَ من ذلك مايفعله . ومَتَن بالمكان : أقامَ به . وقوله : طَرَّحَت به المُتُون والخطوب ، فيه دَلالةٌ قويةٌ على ضَلاله وَضُرِّه وإنفاضه . ويروَى: «طوَّحَت به» و : « الخطوبُ الطوائح » . وكَان يجب أن يقول : والخطوبُ المطوِّحات فى الجمع بالألف والتاء ، لأن اسمَ الفاعل من طَوَّحَ مُطوِّحٌ ، ولكنّه أخرجَ الطوائح على حذف الزيادة من الفعل . ومثله قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لوَاقِحَ ﴾ ، لأن أصلَه أن

يجيء على مَلاقِح أو مُلْقِحات، لكونها مُلقِحَةً للأشجار. والفعل منه ألقحَ، فأخرَجَه على حذف الزّوائد فصار لَقح ولواقح. وكذلك «الطوائح» قياسُه أن يكون إذا عُدِلَ عن الجمع بالتاء: مَطاوِحُ. وارتفع «غريبٌ» على أنه خبر مبتدإ محذوف، كأنه قال: هو غريبٌ طارقٌ. ومعنى طوّحت به: حملَته على ركوبِ المهالك. والطوائحُ: الهالك، والذاهِب الفاني. ويقال: تطاوَحْنا الأمرَ بينَنا، كما يقال تطارَحْنا.

٤ – فقمْتُ ولم أَجثِمْ مكانى ولم تَقُمْ مع النفسِ عِلّاتُ البَخيلِ الفواضحُ

٥ – ونادَيتُ شِبلاً فاستجَابَ ورُبّما ضَمِنّا قِرَى عَشرٍ لمن لانصافحُ[1]

يقول: لما بانَ لى أمرُ الضيف الطارق قمتُ من مكانى مستعجِلاً غيرَ متلوِّمٍ، حرصاً على إصلاح أمره، وتوطيد محَلِّه. ويقال: جَثَمَ مكانَهُ وفى مكانه بمعنًى. والجُثوم، أصلُه إلصاقُ الصدر بالأرض ولزومُها، ويستعمل كثيراً فى الطيّر والسِّباع. والجُثمان: الشخص منه اشتُقّ. ومعنى «لم تَقُمْ مع النفس عِلّات البَخيل» يريد أنّ نفسى لمّا تهيأَتْ للاضافة وتشمّرَتْ لم تَقُم معها العِلاتُ التى تفضَحُ أربابَها، والمعاذيرُ التى تحسِّن التفريط فى اللّوازِم عند مُستَعِدِّها. وجعل العِلاتِ تَفضح لِمَا يتعقّبها من ذميم القالة، وتضييق المَعذِرَة وتجاوُب الناسِ فى الإنكار إذا كانت العللُ كاذبةً، ووجوه التنصُّل مسودَّة.

وقوله «ونادَيْتُ شِبْلاً» يَعنى بِشِبْل ابنَه، يستعين به فيما يُقام من خدمة

(١) التبريزى: «قال أبو العلاء: أشبه ما روى فى هذا البيت: قرى عشر لمن لا نصافح، بفتح العين، أى عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحة. وبعض الناس [يرويه] بضم العين، وله وجه، أى ربما ضمنا قرى عشر أموالنا لمن لا نعرف. وقد يمكن أن يكون عشر جمع عشير، وهو الذى يعاشره من الغرباء أو يكون من عشيرته، مثل ما يقال: صديق وصُدق، وكريم وكرم. ومن روى: عسر، بالسين غير معجمة، فالمعنى أنا نقرى الضيف وإن كنا معسرين».

الضيف ، فذكر أنه استجابَ وتخفَّفَ معه . وذِكر استجاب هاهنا أحسنُ مِن أجاب ، وذاك أنّ قول القائل : دعوْتُ زَيْداً فأجابنى ، كقوله : أمرته فأطاعنى . وقوله : دعوْتُه فاستجاب لى ، أى تقبل ماقلتهُ وطاوَعنى فيه . وعلى هذا يفسِّرُ أصحابُ المعانى قوله تعالى : ﴿ فلْيَسْتَجِيبُوا لى ولْيُؤْمِنُوا بى ﴾ . وكذلك بيتُ كعب بن سعد :

وداعٍ دَعا يامَنْ يُجِيبُ إلى النّدَى فلم يَسْتَجِبهُ عنــــدَ ذاكَ مُجيبُ

أى لم يُذعِنْ لدعائه أحد . ويقال : استجبتُه واستجبتُ له . وقوله « وربّما ضَمِنّا قِرَى عَشرٍ »أى التزمنا قِرَى عَشرِ نسمَةٍ ، وَلا معرفةَ بيني وبينهم سابقةٌ ، ولا ما يوجِبُ عند الالتقاء مصافَحةً .والقصد بقوله « ضَمِنّا » إلى توطينهم النفسَ على توسيع القِرَى لمن لا حُرْمةَ له سِوَى حُرْمةِ الضِّيافة . ولا يمتنع أن يريد بقوله « قِرَى عَشرٍ » قِرَى عَشرِ ليالٍ ، وهُم إن أرادوها بأيّامها يغلِّبون التأنيث . قال سيبويه : «وتقول: سار خَمسَ عَشرَةَ من بين يوم وليلةٍ ، لأنكَ ألقيت على الليالى ، فكأنّك قلت خمس عشرة ليلة . وقوله: من بين يوْمٍ وليلةٍ ، توكيدٌ بعد ما وقعَ على الليالى ، لأنه قد عُلِم أن الأيام داخلةٌ مع الليالى . وعندهم أنَّ الليلَ قبلَ النهار ، فلهذا يؤرِّخون بها . وتقول : أعطاه خمسةَ عشرَ مِن بَين عَبدٍ وجَارية ، لا غير ، لاختلاطهما » . قال سيبويه : « وقد يجوز فى القياس خَمسةَ عشر من بين يومٍ وليلةٍ ، وليس على حدّ كلام العرب » .

وقوله « لمن لا نُصافحَ » يجوز أن يكون من المصافحة المعروفة ، وَيجوز أن يكون من صَفَحْتُ الناسَ ، أى نظرْتُ فى أحوالهم .

٦ ـ فقامَ أبو ضَيْفٍ كريمٌ كأنهُ وقد جَدّ من فرْط الفكاهةِ مازِحُ

٧ ـ إلى جِذْمِ مالٍ قد نَهكْنا سوامَهُ وأعرَاضُنا فيه بَواقٍ صَحائحُ

يعني بأبي الضيف نفسَه ، وهذا كما يقال : هو أبو مَثْوَاي ، وهي أمُّ مثواى . وجعله كالمازِح الُمفاكِه لِمَا أظهرَهُ من التطلُّق والبشاشة ، وإظهار السرور بما يأتي من توفير الضيافة والاحتفال فيه ، وإيناس الضيف والبسط منه ، مُحْتفاً بالضيافة (١) . وارتفع « مازح » على أنه خبر كأنّ . وموضع « وقد جدّ » موضعُ الحال ، كأنه قال : يُشابِهُ المازحَ من فرط الفكاهة (٢) وهو جادٌّ ، لأنه قاضي ذِمامٍ ، وباني مكارِمِ . وَيقال : فاكَهْتُه بمُلَح الكلام ، وهي الفكِيهة والفُكاهة (٣) :

وقوله «إلى جِذْمِ مالٍ» تعلّق إلى بقَامَ ، ويريد بالقيام غير الذى هو ضدُّ القُعود ، وإنما يريد به الاشتغالَ له بما يؤنِّسُه ويرحِّبُ مَنزِلَهُ ويَطيِّب قلبَه . على ذلك قوله تعالى: ﴿ إذَا قُمْتُم إلى الصَّلاة ﴾ ، لأنه لم يُرِد القيَام المضادّ للقعود ، بل أراد التهيُّؤَ والتشمُّر له . والجِذْمُ : الأصل . ومعنى « نَهِكْنَا سَوَامَه » أثّرنا في السائمة من المال بما عوّدناها من النّحر والتفريق . ويقال : نَهِكَهُ المرضُ ، إذا أضرّ به .

وقوله : «وأعراضُنا فيه بَواقٍ صحائحُ » ، أي نفوسُنا باقيةٌ على حدِّها من الظَّلَفِ والصيانة ، لم تَشِنْها الأفعالُ الذميمة ، ولا كسرتْها التكاليفُ المُبخِّلة ، فهي سليمةٌ لا آفةَ بها ، ولا عارَ يَكتنِفُها ، وإن كانت أموالنا مشفوهةً مُفرّقةً (٤) .

٨ ـ جعلناهُ دُونَ الذّم حتى كأنه إذا عُدّ مالُ الُمكثِرينَ المَنائحُ
٩ ـ لنا حَمْدُ أربابِ المِئينَ ولا يُرى إلى بيتِنا مالٌ مع الليلِ رائحُ

---

(١) ل : « بالصيانة » . (٢) ل : « الصانة » .
(٣) الفكاهة ، بالضم : الاسم ؛ وبالفتح : المصدر .
(٤) المشفوهة القليلة . وأصل المشفوه الماء تكثر عليه الشفاه فيقل .

الضمير من قوله « جعلناه » ، للمال ، أى وَقَيْنابه أنفسَنا من لَوْمِ اللائم ودَرَنِ العائب . وقوله : كأنَّه المنائحُ ، يزيد أنَّ إبِلَنا ، وَإن كانت مِلْكا لنا ، فهى كالعوارِى عندنا ، لِما يتسلط عليها بأفعالنا من النَّقْلةِ والتغييرات . والمنائح : جمع المَنِيحة وهى الناقة تُدْفع لِيُنتفعَ بلبنها ما دام بها لبنٌ ، فإذا انقطع لبنَها رُدّتْ . و « إذا عُدّ مالُ المكثِرين » ، أشار به إلى قلة مالهِ . والمكْثِرُ : صَاحِبُ الكَثير من المال ، أى ما لنا فى جَنْبِ مال المكثِرين كذلك .

وَقوله « جعلناه دُون الذمّ » ، يريدُ صيَّرناه دون الذمّ ، فعلى ذلك يحتمل أن يكون ظرفاً ، وَيجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، فيكون معنى دون الذمّ قاصراً عن الذم ، فيَبْعُدُ الذمُّ عنا وَلا يَلحَقنا ، لأنَّ مالنا يحُولُ بيننا وبين الذم .

وَمعنى « لنا حَمْدُ أرباب المِئِينَ » ، أى نكْتسب بما لنا القليل حَمْدَ أربابِ المال الكَثير ، أى الحمد الذى يكسبه أولئك هذا ولا يُرى مالٌ يَروح إلى بيتنا مع الليل لأنها على قلّتها باركةٌ بالفِناء ، معدّة للنوائب والحقوق ، ولم تبلغ مايصير منها سارحةٌ ورائحةٌ ، وباركة بالفناء وسائمة .

٦٧٦
وقال مُرّةُ بن مَحْكان (١)

١ ــ يارَبَّةَ البيْتِ قُومى غيرَ صاغرةٍ ضُمّى إليكِ رِحالَ القومِ والقُرُبا (٢)

(١) مرة بن محكان : أحد بنى سعد بن زيد مناة بن تميم ، شاعر مقل إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى عصر جرير والفرزدق فأخملا ذكره لنباهتهما فى الشعر . وكان مرة شريفا جواداً ، وهو أحد من حبس فى المناحرة والإطعام ، أنهب ماله الناس مرة فحبسه زياد لذلك فقال فى الأبيرد الرياحى :

فإن أنت عاقبت ابن محكان فى الندى فعاقب هـداك الله أعظم حاتم

الأغانى (٢٠ : ٩ ــ ١١) ومعجم المرزبانى ٣٨٣ والشعراء ٦٦٧ والاشتقاق ١٥١ . ومحكان ، بفتح الميم ، فعلان من محك . ومن عجب أن يقول المرزبانى إنه أحد اللصوص . وقال ابن قتيبة : كان مرة سيد بنى ربيع .

(٢) انظر الأغانى (٣ : ١٠٢) ، ومراجع الترجمة حيث أنشدت هذه الأبيات .

٢ – فى ليلةٍ مِن جُمَادَى ذاتِ أنديةٍ ... لا يُبصِرُ الكَلْبُ مِن ظلمائها الطُّنبا

٣ – لا يَنبحُ الكَلْبُ فيها غيرَ وَاحدةٍ ... حتى يلُفَّ على خُرْطومِهِ الذَّنبا[١]

خاطبَ امرأته، وبعثَها على القيام للاحتفاف بالنازلين من الأضياف. وقوله: «غير صاغرةٍ»، يقال: صغِرَ يَصغَرُ صَغَاراً، إذا ذلّ وهان؛ وصَغُر يَصْغُر صِغَراً: ضدّ كَبِر. والقُرُبُ: جمع قِراب، وهو جراب وَاسِعٌ يُصانُ فيه السِّلاح والثياب[٢].

وقوله «فى ليلةٍ»، إن شئت جعلتَ الجارّ متعلقا بضُمِّى، وإن شئت جعلته متعلقاً بقُومى. والأجود فى الجمع بين الفعلين فى باب الأمر أن يدخل الثانى حرف العطف، كقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُمْ فأنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وادْنُ فاكتُبْ، وما أشبهَ ذلك. وهذا قال: قومى غير صاغرةٍ ضُمِّى إليك، ولم يأت بالعاطف فيه، وهو جائز. وانتصب «غيرَ» على الحال. وجعلَ الليلةَ من ليالى جُمادَى لأنها من شهور البرد، والمراد فى ليلةٍ [من ليالى[٣]] جمادى ذاتِ أنداء وأمطار. وكانوا يجعلون شهر البرد جُمادَى وإن لم يكن جُمادى فى الحقيقة، كأنّ الأسماء وضِعَتْ فى الأصل مقسَّمة على عوارض الزمان، والحرّ والبرد، والرِّيح والمطر، وتبدُّل الفصول، ثم تغيرَت فصارت تُستعار.

وقوله «ذات أندية»، تكلَّمَ الناسُ فيه، لأنّ جمع النّدَى أنداء. قال الشاعر[٤]:

---

(١) فى كثير من المراجع وكذا عند التبريزى: «على خيشومه».

(٢) قال أبو عبيدة: «كان الضيف إذا نزل بالعرب فى الجاهلية ضموا إليهم رحله وبقى سلاحه معه لا يؤخذ خوفا من البيات، فقال مرة يخاطب امرأته: ضمى إليك رحال هؤلاء الضيفان وسلاحهم، فإنهم عندى فى عز وأمن من الغارات والبيات، فليسوا ممن يحتاج أن يبيت لابسا سلاحه». الأغانى (٢٠ : ١٠).

(٣) التكملة من ل.

(٤) هو الشماخ. ديوانه ص ٥٠.

إذا سَقط الأنداء صِينَتْ وأُشْعِرَت حَبِيراً ولم تُدْرَجْ عليها المعاوزُ

فكان أبو العباس المبرّد يقول : هو جَمْع نَدِيّ المجلس . وكان أماثلُ الناسِ وأغنياؤُهم إذا اشتدَّ الزّمانُ وجدَّ القحطُ وَالجدْب يجلسون مجالسَ يدبِّرون أمرَ الضُّعفاء ، ويفرِّقون فيها ماحصل عندهم من فضل الزّاد ، ويَنصبُون الميسِرَ ، وينحرون الجُزُر متبارين فيها ومتباهين . فيريد : فى ليلةٍ تُوجِب ذلك وتَقضى به . وقال غيرُه : هو جمع ندًى ، كأنه جمع فَعَلاً على فِعال ، ثم جمع فِعالاً على أفعِلة ، كأنه نَدًى ونِدَاء ، ثم جمع النِّدَاء على الأندية ، ككساء وأكسِية ، ورِوَاق وأرْوِقة . وقيل أيضاً : هو شاذٌّ استُعير ما الممدود للمقصور . وهم يفعلون ذلك فى المبانى كما يفعلون فى الألفاظ . قالوا : ومثلُه قَفاً وأقفيةٌ ، ورَحًى وأرْحِية . وهذا مما حكاه الكوفيُّون . وقال بعضهم : هو أفعلَةٌ بضم العين ، كأنه جمع فَعلاً على أفعُلٍ ، كما قيل زَمَنٌ وأزْمُنٌ ، فجاء نَدًى وأندٍ ، ثم ألحقَ الهاء لتأنيث الجمع ، كما تقول بعُولةٌ وحجارة ، فصار أندِيةً ، ويكون فى هذا الوجه شاذًّا أيضاً .

وقوله : « لا يُبصِر الكلبُ من ظلمائها الطُّنبا » ، وفيه مبالغةٌ فى وَصف الظلمةِ وتراكمها . والطُّنُب : حبْل البَيت . والكلب قوىُّ البصَر ، فإذا بَلغَ أمرُه إلى ما وصفه فذاك لتكامُلِ الظلام وامتدادِه . لذلك قال الآخر :

أُنَاسٌ إذا ما أنكرَ الكلبُ أهلَهُ حَمَوا جارَهم من كلِّ شَنْعاء مُعْضِلِ (١)

وقد قيل فى هذا البيت وجهٌ آخر . وموضع الجملة على الصِّفة لليلة ، فهو جرٌّ ، وساغ ذلك فيها لاحتمالها ضميرها ، وكذلك قوله « لا يَنبحُ الكلبُ فيها غير

(١) كذا فى النسختين والتبريزى . وقد سبق بتحريف آخر فى ص ٣٧٦ برواية « مظلم » وكلاهما تحريف . وصواب الرواية : « مضلع » ، كما فى الأمالى (١ : ٥٥) واللآلىء ٢١٠ ، أو : « مفظع » ، كما فى الحيوان (٢ : ٧٠) .

واحدةٍ » . وانتصب « غيرَ » على أنه مصدر ، وأراد غير نَبْحَةٍ واحدة ، ولمّا لم يجىءْ إلا مُضافاً ولم يكنْ له معنًى إلا مخالفةَ ما يضاف إليه جاز أن يجىء فاعلا ، ومفعولا ، وحالاً ، وظرفا ، ووصفاً ، واستثناءً ، ومصدراً .

وقوله : « حتَّى يَلُفَّ » انتصبَ الفعلُ بإضمار أنْ . وحتى بمعنى إلى ، كأنه قال : إلى أن يلفَّ الذنبَ على خُرطومه ، أى لا ينبح إلى أن يلفّ الذنب على خُرطومه ، أى لا ينبح إلى أن يلفّ الذنب إلا نَبحةً . ولو رفعتَ الفعلَ فقُلت : « حتى يَلُفُّ » لجازَ ذلك ، ويُراد به الحال ، والمعنى أن يكونَ الفعلُ الثانى متَّصلا بالأوّل ، أى لا ينبح إلا نبحةً فهو يلفُّ الذنَب ، وعلى هذا قولك : سِرْتُ حتى أدخُلُها ، فقَرَن السَّير بالدخول ، ومعناه أنه خرَج من السّير إلى الدخول ، إلا أنه يُخبر أنه فى حال دخولٍ ، فمعناه كمعنى الفاء إذا قلت : سِرْتُ فأنا أدخلُها ، أى هذا متّصل بهذا .

٤ — ماذا تَرَيْنَ أندْنيهم لأرْحُلِنا فى جانبِ البيْتِ أمْ نَبْنِى لَهُمْ قُببَا

٥ — لِمُرْملِ الزّادِ مَعْنِىٍّ بحاجَته مَن كانَ يَكْرَهُ ذَمًّا أو يَقِى حَسَبا

أقبل يشاورُها ويستقى الرأىَ من عندها ، ويبعثُها على تعرُّف الحال منهم فيما يوافقُهم ولا يَخرُجُ من[1] مرادِهم ورِضاهم .

وقد تقدم القول فى لفظة « ماذا » مشروحا[2] .

وتَرَيْنَ : أصله تَرْأَيين، لأنه تَفعَلين ، فُحذف الهمزة استخفافاً بعد أن أُلقِىَ حركتُها على الراء ، فصار تَرَيِينَ ثم قُلِبت الياء الأولى ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها فاجتمع ساكنان ، وحذفت الألف منهما فصار تَرَيْنَ .

والمعنى : أخبرينى بعدَ رجُوعِك إليهم ماذا نأتيهِ فى شأنهم ، وما الذى

(١) ل : « عن » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

يَرَوْنه في إقامتهم وظَعْنهم ، فإن أرادوا إطالة اللَّبْث بنَيْنا لهم قِباباً يتفرَّدون فيها ، فذاك آنس لهم ، وأبقى لِحشمتهم ، وإن أرادوا تخفيفَ اللَّبْث خلطْناهم بأنفسنا ، وأدنيناهم من رِحالنا في جوانب بيُوتنا ، لأنّ الصبر مع خِفة التلوُّم منهم على مايعترض مِن أحوالهم مُمكن .

وقوله : « لمُرْمِل الزَّاد » تعلَّق اللام بقوله : ماذا ترين ، كأنه أعاد الذِّكر فقال : وذا السؤال والاستشارةُ مِن أجلهم ، ولمكانهم . والمُرمِل : الذى قد انقطع زادُه . ويجوز أن يكون « لمرمل الزّاد » بدلا من المضمَرين في « نبنى لهم » ، وقد أعاد حرف الجرّ معه .

وقوله : « من كان يكره » موضعه رفعٌ بمَعْنِيٍّ ، كأنه قال : ذاك منى لمُنقطِعٍ به ، يعني بحاجته ، مَن كان كارهاً لذمّ الناس أو صائناً لشرفه . كأنه بيَّنَ العلَّة في العناية به .

٦ ـ وقمتُ مُستنبطِناً سَيفي وأعرَضَ لي مِثْلُ المجادِلِ كُومٌ بَرَّكتْ عُصَبا[(١)]
٧ ـ فصادَفَ السيفُ منها ساقَ مُتْلِيَةٍ جَلْسٍ فصادَفَ منه ساقُها عَطَبا
٨ ـ زَيَّافَةٍ بنتِ زَيَّافٍ مُذَكَّرَةٍ لمّا نَعَوْها لراعِي سَرْحِنا انتَحَبا

انتصب « مستبطناً » على الحال من قمتُ ، والمعنى : شَغَلتُ رَبَّةَ بيتى بما رتَّبتُ من أمرهم ، وقمتُ أنا حاملا سَيفي ومتقلِّداً له . ويقال : استبطنتُ فلاناً دونَك ، أي خاصصتهُ ، وتبطَّنت كذا : دخلتُ فيه حتى عرَفْتُ باطِنه .

وقوله : « وأعرضَ لى » أى أبْدَى عُرْضَها لى نوق كأنها قصورٌ ، كمالَ جسمٍ وبُلوغَ سِمَن . والكُومُ : جمع أكْوَمَ وكَوماء ، وهى العظام الأسنِمة . وقوله : « برَّكتْ » إنما ضَعَّفَ عين الفِعْل على التكثير أو التكرير .

(١) التبريزى « فأعرض لى » .

وجعل إبِلَهُ فِراقاً باركةً لشدّة البرد، كما قال أبو ذؤيب الهذلىّ:

وأعصوْصَبتْ بَـكَراً من حَرْجفٍ ولَها وَسْطَ الدِّيار رَذِيات مرازيحُ(١)

وانتَصَب «عُصباً» على الحال، وهو جمع عُصْبة.

وقوله: «فصادَفَ السيفُ منها ساقَ مُتْلِيةٍ» أراد: عَرْقبَ ناقةً منها. وَالمُتْلِيَةُ هى التى لها ولدٌ يتلوها، وقيل هى الحامل. والجَلْس: الصُّلْبة المشرفةُ وقيل هى الواسعةُ الأخْذ من الأرض. ومعنى: «صادَفَ منه(٢)»، أى من السيف(٣). والمعنى أنّ السيف والساق تصادما، فأبانَ السيفُ الساق منها.

والزَّيّافة، هى التى تزِيفُ فى مِشيتها وتَبختَر. جعلها بنتَ زَيّافٍ استكراماً لِعرْقها وجوهرها. والمذكَّرةُ: التى تشبه الذُّكورةَ فى خِلقتها.

وقوله: «لما نَعَوْها»، الفاعلون هم الناس ولم يجرِ لهم ذِكر، لكن المراد مفهومٌ فأضمره. أى لمّا ذكر الناسُ ما جرَى عليها لراعى مَرْجِنا، أى راعى مالِنا السارحةِ بكى بُكاءً فيه نحيبٌ وصوت، ضِنًّا بمثلها(٤)، وتحزُّناً لما فاتَ منها، ولأنّ لبنَها كان يبقى على مُحارَدة الإبل، وشدة اللَّزْبة.

وَالعطَبُ: الهلاك، ويقال: عَطِبَ البعير، إذا انكسر.

٩ ـ أَمْطَيْتُ جازِرَنا أعلى سَنَاسِنِها فصـارَ جازِرُنا من فَوْقِها قَتِبا

١٠ ـ يُنَشْنِشُ اللحمَ عنها وهْىَ باركةٌ كما تُنَشْنِشُ كفّا قاتلٍ سَلَبا

يقال: امتطيتُ البعيرَ، إذا ركبتَ مَطاهُ، وهو الظَّهر، وأمْطَيْتُهُ غيرى. وإنما يَصِفُ إشرافَ الناقة التى وصفها، فيقول: ركبَها جازِرُنا لمّا نحرَها،

(١) ديوان الهذليين (١ : ١٠٨). وبكرا بمعنى بكرة. والحرجف: الريح الشديدة.
(٢) كذا فى النسختين. والوجه «منها».
(٣) والوجه بناء على الوجه السابق أن يكون معنى «منها» من الكوم، أى تلك الإبل.
(٤) ضنا بكسر الضاد فى النسختين، وهى تقال بالكسر وبالفتح أيضا.

إذ كان أعلى سنامِها لم تصل إليه يدُه فصار منها لمَّا علاها بمكان القَتَب حتى كأنها مقتَّبَة. والسَّناسنُ: أعالى السَّنام والخارجُ مِن فَقار الظَّهر، واحدتها سِنْسنة. ومعنى يُنشنِشُ يكشِف ويفرِّق. وقيل: النشنشة معاسَرةُ الشّىء حتى تأخُذَه كما تريد. يقول: ركب مطاها لما لم يبلغ سنامَها لعظمها ولم يمكنْه أن يكشِط الجلدَ عنها، فأقبلَ يقطِّع اللحم عنها وينتزِعُه منها، فِعلَ القاتل السالب لثياب المقتول وسلاحه. وهذا تشبيهٌ حسنٌ جاء على حَقِّه. ورواه بعضهم: «كما تُنشْنِشُ كفا فاتلٍ سَلَبا»، وقال: شبَّهَ نشْنَشته بنشنشةِ فاتلِ الحبل من السَّلب، وهو نبات يخرُج على صورة الشمَع وعلى قدْره، فيُجزُّ ويُفتلُ منه الحبل. وبائعها ومتَّخذها السَّلَّاب.

هكذا حكاه أبو حنيفة الدِّينوَرىُّ. والرّواية الأولى أجوَدُ وأكثرُ مَشابِهَ

١١ ـ وقُلتُ لما غدَوْا أُوصِى قعيدَتنا غَدِّى بَنيكِ فلنْ تَلْقَيهِمِ حِقَبا

١٢ ـ أدْعى أباهمْ ولم أُقْرِفْ بأمِّهمِ وقد عَمِرْتُ ولم أعرِفْ لهم نَسبا

١٣ ـ أنا ابنُ مَحْكانَ أخوالِى بنومطرٍ أنمِى إليهم وكانوا مَعشَراً نجُبا

قوله: «لما غدَوْا» أى همُّوا بالارتحال غدُوًّا، لأنّ «لمَّا» عَلَمٌ للظَّرف. و«أوصِى» فى موضع النّصب على الحال، وتقديره: موصياً قعيدَتنا، ومفعول قلتُ قوله «غَدِّى بَنيكِ»، والمعنى بالِغِى فى تفقّد أضيافك فى هذه الغداة، فإنّ لقاءهم سيتأخَّر زماناً ممتدّا، والحِقَب: السِّنون، واحدتها حِقبةٌ، والمعنى غدِّى الإحسانَ إليهم نُهزَة تفترصينها، وزاداً من الإحسان تدّخرينها، فإنه لا يَدرِى متى تظفَرين بأمثالهم، وهل يكون فيما بَقِىَ من الزمان لهم عودةٌ إلينا

وإنما قال: «أدْعى أباهم»، لأنه يقال للمضِيف: أبو المَثْوَى، وللمضِيفة: أمُّ المثوَى.

« ولم أُقْرِف بأمِّهِم » أى لم أُتَّهم . والقِرفة : التُّهمة . ومعنى « عَمِرْتُ » : بقيت حَيًّا . وقصدُ الشاعرِ أن ينبِّه على أنَّه لاعواطف بينهم ، ولا أواصرَ تجمعُهم ، وقد التزَم ما التزمَ لهم تـكرُّما واصطناعا . ثم نبَّـهَ على طرفَيه فقال : أخوالى بنو مطر أنتمِى إليهم وهم مُنْجبون ، وأعمامى بالفضل والإفضال معروفون ، و « نَجْلُ الجَوادِ جَرْيَه يتقيَّلُ(١) » .

٦٧٧

آخر :

١ ومُسْتَنْبِحٍ قالَ الصَّدَى مثلَ قوله حَضَأْتُ لهُ ناراً لها حَطَبٌ جَزْلُ

٢ ـ فقمتُ إليه مُسرِعاً فغَنِمْتُـه مَخافةَ قومى أن يَفوزُوا به قَبلُ

٣ ـ فأوْسَعنِى حَمداً وأوسعتُـهُ قِرًى وأرْخِصْ بحَمْدٍ كان كاسِبَه الأَكلُ

قوله « ومستنبح » يريد به رجلاً ناكَدَهُ الزَّمانُ فى سفره ، أو لم تساعدْه الحال فيه على مُؤَنِه ، فاستنبح كلابَ الأحياء ليهتدىَ إليهم ، فأقبلَ الصدَى يحاكيه ، ويؤدِّى إليه مثلَ صوته . ومعنى « حضأت له ناراً » فتحتُ عينها لترتفع وتلتهب وقد أُوقِدَتْ بغلاظ الحطَب وكبارِها ، فقمت إلى الضَّيف متعجِّلا ، واستغنمت خدمتَه مُسارِعا لئلَّا أُبادَرَ إليه فيغتنمَه غيرى ، ويفوزَ به سابقاً لى . وقوله « حضأتُ له ناراً » ، جواب رب .

وانتصب « مسرعاً » على الحال ، و « مخافةَ قومى » مفعول له ، أى فعلتُ ما فعلت لهذه العلَّة فأكثرَ الضَّيفُ من إطرائى وتزكيتى ، وشُكرِى وتقريظى ، وأكثرتُ القِرى له محتفِلا ومتكـثِّرا ، ومتودِّدا ومتكـرما ، وما أرخَصَ حَمْداً جالِبُهُ أَكلٌ ، وكاسِبُه إطعام . وقوله « كان كاسِبَهُ أكل » جعل النكرة اسمَ

(١) تقيل الولد أباه : نزع إليه فى الشبه .

كان ، والمعرفةَ خبرا . والإبهامُ الحاصل من التنكير فى هذا الموضع أبلغُ فى المعنى المستفاد . ومثله قول النابغة (١) :

كأنَّ مُدامةً من بيت رَأْسٍ يكونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ

وإن شئت رويتَ : « وأرخِصْ بِحَمْدٍ كان كاسبُهُ الأكل » ؛ وأمْرُه ظاهر .

٦٧٨

آخر :

١ — تركتُ ضَأْنِى تَوَدُّ الذئبُ رَاعِيَها وأنَّهـا لا ترانى آخِرَ الأبَدِ

٢ — الذئبُ يَطْرُقُها فى الدَّهرِ وَاحدَةً وكلَّ يَوْمٍ ترانى مُدْيَةً بِيَدِى

قوله « تودُّ الذئب راعيها » ، لك أن تقول : عدّى تودّ إلى مفعولين ، ويسوِّغ ذلك فيه أنه عطف على مفعوله الأول قوله « وأنها لا ترانى آخِرَ الأبد » . ويكون التقدير لِكَشفه : وتودُّ أنها لا ترانى أبدا . ويشهد لهذا قول الآخر (٢) :

ودِدتُ وما تُغْنِى الوَدَادَةُ أنّنى بما فى ضميرِ الحاجبيّةِ عالِمُ

ألا تَرَى أنّ وقوع «أنّ» بعده يقرّب الأمر فى تعدّيه إلى مفعولين ، وأنْ يُجْرَى مجرى أفعال الشّك واليقين ، كما تقول ظننتُ أنَّ زيداً منطلِقٌ ، وأصحابُنا النحويُّون بمثل هذا الاستدلالِ حكَموا على زَعَمْتُ بأنه يتعدى إلى مفعولين . ولا يمتنع أن يكون « راعيَها » فى موضع الحال ، والمراد راعياً لها ، ويتعدى تودُّ حينئذ إلى مفعول واحد . والمعنى أنَّ ضَأْنِى تتمنَّى أن يكون مدبّرها فى الرِّعْيَةِ

(١) كذا فى النسختين . والصواب أنه حسان بن ثابت . ديوانه ص ٣ ومعجم البلدان (بيت رأس) . وبيت رأس : موضع بالشام . ويروى : « كأنَّ سبيئة » .

(٢) هو كثير عزة . الحماسية ٤٩٣ ص ١٢٨٧ .

أعدَى عَدُوٍّ لها ، وتخرج من مِلْكتى ومِلْكِى، حتى لا أراها آخر الدهر ، وذلك أن عدوّها ينفع معه الحذَر ، بل لا [يكاد(١)] يتمكن من الإضرار بها طُولَ الدهر إلا مرة وَاحدة ، وذلك لعارضِ إهمال(٢) أو اتِّفاق سَيِّىء وإغفالٍ ، أو لما هو عادةُ الزمان فى انتهاء الآماد من الإرصاد ، وهى لا تحترزُ منى إذا أردتُها وإن اجتهدَتْ ، ولا تطيق دَفْعَهَا لى وإن احتفلَتْ .

وقوله « الذئب يطرُقُها » هو بيانُ سببِ تمنيها وكشف العِلة فى تفاديها من أن تكون فى ضِمْن سياستِه(٣) لها . وانتصبَ واحدةً على الظرف ، مرة وَاحدة ، ويجوز أن يكون صفةً لمصدرٍ محذوف ، كأنّه أراد طَرْقَةً واحدةً . وقوله « وكلَّ يوم » هو ظرف لقوله « ترانى مديةٌ بيدى » ، وموضع مديةٌ بيدى نصب على الحال ، أى ترانى حاملاً مُدْيَةً لها ، ومتهيئاً بآلةِ ذبحها . وإن شئتَ رويت « مُدْية » ، ويكون بَدَلاً من المضمر فى ترانى ، وهذا البَدَل هو بدل الاشتمال ، أى تَرَى مُدْيَةً . فأما وجهُ الرفع ، فالضّمير الذى بيدى استغنى عن الواو المعلِّقة للجُمَل بما بعدها وهى صفاتٌ أو أحوال ، لأن الضمير يُعلِّق كما يُعلِّق العاطف ، وفى الوجه الثانى وهو البدلُ مثلُه قول الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشَّهْرِ الحَرام قتالٍ فيه(٤) ﴾ .

(١) التكملة من ل .
(٢) هذا ما فى ل وفى الأصل : « لعارض لإهمال » .
(٣) ل : « سياسة » .
(٤) قراءة الجر هى قراءة الجمهور . وقرأ ابن عباس والربيع والأعمش : « عن قتال فيه » بإظهار عن ، وهكذا هو فى مصحف عبد الله . وقرىء شاذا : « قتال فيه » بالرفع . وقرأ عكرمة : « قتل فيه قل قتل فيه » بغير ألف فيهما . تفسير أبى حيان (٢ : ١٤٥) .

٦٧٩

آخر (١) :

١ ـ ما أنَا بالسَّاعِي إلى أمّ عاصِمٍ لأضْرِبَها إنى إذًا لجَهُولُ (١)

٢ ـ لَكِ البيتُ إلاّ فَيْنَةً تُحْسِنينَها إذا حَانَ من ضَيْفٍ علىّ نُزُولُ

قوله « لأضربَها » اللام منها لام كى . فإن قيل : كيف يكون كذلك وفى صدر الكلام ما النافية ، ولِمَ لا يكون لام الجحود ؟ قلت : لام الجحود تقع بعدما كان وما تصرّف منه ، كقول الله تعالى : ﴿وَمَا كان اللهُ ليعذّبَهُمْ وأنتَ فيهم﴾ . وكقولك : ما كنت لأشتُمَك ، لأنه جواب قول قائل : كنت ستشتُمنى ، فأجيبَ : ما كنت لأشتُمَكَ ، ولهذا لم يظهر معه أنْ الناصبةُ للفعل وإن جاز ظهوره مع لام كى . و «إذًا» وقع لَغْوًا لافتقار ما قبلها إلى ما وَقَعَ بَعْدَها . والجهول : الكثير الجهل وبناؤُه للمبالغة (٢) . وهذا الكلام خارجٌ على سبب ، كأنه رأى إنسانًا يضرب امرأته ويحول بينها وبين تدبيرها دارَها ، فنفى عن نفسه مثلَ ذلك بعد أن اعتقد فيه أنّه يقتدى به حتى كأنه أجاب مَن قال له : أكنت لتضربَ أمَّ عاصمٍ ؟ فقال : ما أنا بالسّاعى لذلك . وبين أنّ ذلك يفعله المتناهى فى الجهل والغَباوة .

وقوله « لك البيتُ إلا فَيْنةً » حكى أبو زيد أنَّ قولهم فَينةً مما يعتقب عليه تعريفان : أحدها بالوضع ، والآخر بالألف واللام . ومثله شَعوبُ والشَّعُوب ، والمراد به المنيّة ، كما أن المراد بالفَينة الوقت . كأنه أقبلَ على امرأته فقال : إليك تدبيرُ البيت ولك الأمرَ فيه نافذا إلا وقتا تُحسِنين فيه ، وهو وقتُ حين نزولِ الضيف فيه علىّ ، لأنه من أجله يجب أن تُحسنى إليه فيه ، وتدبِّرى له لا عليه ،

---

(١) فى التنبيه لابن جنى أن اسمه « مشمت بن عبدة » .

(٢) كذا بالحرم فى النسختين . وعند التبريزى : «وما أنا بالساعى» .

(٣) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « وبناء المبالغة » .

لأنَّ البيت كأنَّه له ونحن مِن خَوَلِه : وقوله «تحسينها» قدّرالظَّرف تقدير المفعولِ الصحيح ، كما قال :

* ويوم شَـهِدناهُ (١) *

وما أَشبهه . وَروى بعضهم : « إلا فينة تَحْسَبينَها(٢) » أي تظنّين فيها أنّه لغيرك لا لك ، ويكون على هذا قد حُذف مفعولاَ يَحْسِبُ وشُغِل بضمير الفَينة. والمعنى فى ذلك : تجعلين النظرَ له والتجمُّل ، والاحتفالَ بسببه . وانتَصَب « إلا فينةً » على الاستثناء من واجب(٣) ، كأنّه قال : لكِ البيت كلّ وقت وساعةٍ إلاّ ساعةَ كذا . وهذا الاستثناء من معنى لكِ البيت ، ومما انطوى عليه فحوى الكلام . وقوله « إذا حانَ من ضَيفٍ علىَّ نُزول » موضعه نصبٌ على أنّه بدل من فَيْنَةً . وإنَّما قال إذا حان لأنّ الاستعداد والاحتشاد يتقدّمان النزول .

٦٨٠

وَقال بعضُ بنى أسد :

١ — وسَوْدَاءَ لاتُكْسَى الرِّقَاعَ نَبيلةٍ ‏ ‏ ‏ لها عِندَ قِرّاتِ العَشيَّاتِ أَزْمَل

٢ — إذا ما قَرَيْنَاهَا قِرَاهَا تضَمَّنَتْ ‏ ‏ ‏ قِرَى مَنْ عَرانا أو تزيدُ فتُفْضِلُ

---

(١) البيت بتمامه كما فى الكامل ٢١ ليبسك :

ويوم شهدناه سليماً وعامراً ‏ ‏ ‏ قليلا سوى الطعن النهال نوافله

(٢) التبريزى : « ويروى تحبسينها ، أى تتخلفين فيها عن تيسيرك طعام الضيف . قال أبو العلاء : وإذا رويت قينة احتمل وجهين : أحدهما أن يكون القينة الأمة ، أى أنت المحكمة فى البيت غير حبسك القينة عن القيام بما يجب للضيف . والآخر أن تكون القينة بمعنى الفقارة من الظهر . أى وفرى قرى الضيف عليه ولا تحبسى من الطعام شيئاً عندك فإن تقديمه إليه وهو كثير أجمل » .

(٣) هذا ما فى ل : وفى الأصل : « على استثناء واجب » .

أراد بالسّوداء قِدْرًا، و « لا تُكْسَى الرِّقاع » فى موضع الصفة لها .

وفى طريقته قول الآخر(١) :

* إذا النيرانُ أُلبِسَت القِناعا(٢) *

وجعلها مكسوّةً قناعا لأنّ الرُّقعة والرقعتين لا تكفى فى سَتْرها لِعظمها . وإنما تُستَرُ القُدورُ لشدة الزّمان، بل تُعَطَّل وترفض لضيق الأحوال، وقصور الأيدى عن المراد، مع اتّساع الغاشِيَةِ وتوردُّد الطُّلاب .

ويشبه ما ذكره من جمع الرّقاع لعظم القِدْر قول الأعشى، وقد وصف امرأةً بعظَم العَجِيزة :

* تَشُـــدُّ اللفاقَ عليها إزارًا(٣) *

أى تُلَفَّق بين ثوبين حتى يتسع إزاراً لها .

ويجوز أن يريد أنها كبيرةٌ لا يمكن سَتْرُها بالرّقاع، أو لا تستر، كما قال :

* ولا تَرَى الضب بها ينْجَحِرْ(٤) *

والمعنى لا ضَبّ هناك فينجحر .

وقوله « نبيلة » أى عظيمة الشأن، وخص قِرات العَشِيَّات لأنها وقتُ الأضياف . والمراد : لها عند العشيات القَرَّةِ أَزْمَلٌ، وهو الصوت، والمراد غليانها . وَالقَرُّ والقُرُّ وَالقِرَّةُ : البرد .

---

(١) هو أبو زياد الأعرابى الكلابى، كما سيأتى فى الحماسية ٦٩١ .

(٢) صدره : * له نار تشب على يفاع *

(٣) ديوانه ٣٨ . وصدره :

* فيارب ناعية منهم *

(٤) لعمرو بن أحمر، كما سبق فى حواشى ١٢٠، ٢٤٠، ٥٩٩، ١٠٧٣ . وصدره :

* لا تفزع الأرنب أهوالها *

وقوله « إذا ما قَرَيناهَا قِراها » ، يريد إذا ملأناها قِدَرًا وأوصالا تضمنتْ لنا الكفايةَ لمن(١) نَابَنا من حقٍّ ، وأتانا من ضَيْف ، أو تزيد عن المطلوب فتُفْضِلُ على غيرهم ممن لا يُعَد فى الوقت ولا يُذكَر : ويروى : « فتَفْضُلُ » بفتح التاء ، وهو ظاهر المعنى ، وَالأوّل أحسن . وَجعلَ المطبوخَ فى القدر قِرًى ليُطابق قوله : تضمَّنتْ قِرَى مَن عَرَانا : وعادتُهم فى طباق الألفاظ(٢) ووِفاقِها فى النظام معروفة .

٦٨١

وقال آخر(٣) :

١ — سَلِى الطارقَ المُعترَّ ياأُمَّ مَالكٍ   إذا ما أتانى بين قِدْرى وَمجزِرِى

٢ — أيُسفِرُ وَجْهِى أنه أولُ القِرَى   وأبذلُ معروفى له دُون مُنْكَرِى

الطَّارق : الآتى ليلا . وسَلِى أصله اسألِى فحذفت الهمزه وأُلقِى حركتها على السِّين ثم استُغنى عن الهمزة المجتلبة ، لتحرك السين بالفتحة ، فحذفت . والمعترُّ : المتعرِّض ولا يَسأل . يقال : عَرّهُ واعترَّاهُ بمعنًى . وفُسِّرَ فى التنزيل قوله تعالى: ﴿فكلُوا منها وأطعِموا القَانِعَ والمُعتَرَّ﴾ على ذلك ، لأنّ القانع قيل هو السائل ، والمعترّ الذى يتعرّض ولايتكلَّم . وقال الأصمعىّ : عراه واعتراه وعَرَّه واعترَّهُ إذا أتاه طالبًا لمعروفه . وقوله « إذا ما أتانى بين قدرى ومجزرى » يريد إذا أتانى فى موضع الضّيافة ودارها بين مَسْقطِ الجُزُرِ ومَنْصِب القُدور . والمعنى . سَلِى أضيافى عن أخلاقى معهم ، وكيفيةِ إكرامى لهم فى مَثْواهم ، وهل أتدرَّجُ فى

(١) كذا فى النسختين . كأنه نظر إلى قوله « وأتانا من ضيف » .

(٢) فى الأصل : « اللفظ » ، صوابه فى ل .

(٣) هو عروة بن الورد . ديوانه ٩٩ . وقد سبقت ترجمة عروة فى ص ٤٢١ . وعند التبريزى : « وقال آخر ، عروة بن الورد » ، وقد تكون زيادة ناسخ .

مدارج الخدمة وأتوصَّل بأنواع التودُّد والقُربة من ابتداء نزُولهم، إلى انتهاء ذَهابهم عنّي وخُفورِهم. وإنّما خاطب امرأةً على عادتهم فى نسبة الملامات بسبب التّبذير والإسراف والتوسُّع فى الإنفاق إليهنَّ، وإقامة الحِجاج والجِدال فى الانصباب إلى جوانب الخسارات معهنّ. ويجوز أن يكون التبجُّح عندها بما يُحْمَد من خِصاله، فلذلك خصّها بالخطاب.

وقوله «أيُسْفِرُ وجهى» فى موضع المفعول الثانى لَسلِى، وقد اكتفى به لأنّ فى الكلام إضمارَ أمْ لاَ وساغ حذفُه لما يدلُّ عليه من قرائن اللفظ والحال. وقال سيبويه: «لو قلتَ علمت أزيدٌ فى الدار لا كْتُفِيَ به من دون إضمار. ولو قلتَ: سواءٌ علىّ، أو ما أُبالى، لم يكن بُدٌّ من ذِكْر أمْ لا بعدها».

ومعنى قوله «أنه أولُ القِرى»، يريد أنّ إظهار البشاشة للضيف وتطلُّق الوجه معه، وإظهارَ السرور بقصده ومَثواه من أوائل قِراهُ. ثم الترحيبَ به وإيناسَهُ مِن بَعْدُ حتى كأن يُنتظَر كما ينتظر الغائب الآيب، ثم المبالغةَ[1] فى الإنزال وحَطِّ الأثقال، وإظهارَ سَعةِ الرحْل والمكان إلى غير ذلك — ممَّا يَبْسُطُ منه، ويُزيل الحِشمةَ والانقباض عنه؛ لذلك قال:

* وأبذل معروفى له دون منكرى *

لأنَّ قوله «معروفى» دخلَ تحتَه كلُّ محمودٍ من الأفعال والرُّسوم، كما أن قوله «دون منكرى» اشتَمَل على نَفْيِ كلِّ مذموم من الخصال والأمور. وقيل: إن المنكَر هو أن يَسألَ عن حاله ونسَبه، وقَصدِه فى سفرَه، وكيفية مأتاه حينَ نزلَ به؛ لأن جميعَ ذلك مما يجلب عليه حياء، ويُوسِعه نفوراً وإمساكاً[2]. والضمير من قوله «أنه أول القِرى» لما يدلُّ عليه قوله «أيُسْفِرُ وَجهى»، لأن

(١) فى الأصل: «ثم أعاتبه»، صوابه فى ل.
(٢) ل: «إمساكا ونفوراً».

الفعل يدلُّ على مصدره . والمراد أنَّ الإسفار أوَّلُ القِرى ، وعلى هذا قولهم : مَن كَذَب كان شراً له . وما أشبهه .

٦٨٢

آخر :

١ ـ وإنا لمشَّاؤون بين رِحالِنا إلى الضَّيف مِنَّا لاحِفٌ ومُنيمُ (١)

٢ ـ فذو الحِلم منا جاهلٌ دون ضَيفِهِ وذو الجهل مِنا عَنْ أذاهُ حَليمُ

قوله « إنا لمشَّاؤون » إبانةٌ عن حسن خِدمتهم للضيف ، وعن قُربِ مَحَطِّهِ مِن رحالهم ومَقارِّهم (٢) وقوله « منا لاحِفٌ ومنِيم » يُريد : وَمنّا مُنيم ، فحذف لأنَّ المراد مفهوم . وفى القرآن : ﴿مِنْها قائمٌ وحصيد﴾ . واللاحِف والمنيمُ إنَّما ينهضان بعد تَقَضِّى الإطعام وَالإيناس . ألا تَرَى قولَ الآخر (٣) :

أُحَدِّثُهُ إن الحديثَ من القِرَى وتَعلمُ نفسى أنه سوف يَهْجَعُ

وَقوله « فذو الحلم منّا جاهل دون ضَيفه » فى هذا البيت بعضُ ما فى قول الآخر :

* وأبذلُ معروفى له دون مُنْكَرِى (٤) *

وإنما يتجاهل الحليمُ دون ضيفه إذا أُوذِىَ عند طلب ثأرٍ من جِهَته أو تخْشِينَ جانبٍ له بكلامٍ أو فَعال .

وقوله : « وذو الجهل مِنّا عن أذاه حليمُ » ، يريد به وإنْ أخَذَ الضيفُ يؤذينا تَرى الجهول يحتمِلُه ، ويَغفر زَلَّتَه ، ولا يُطالب مؤاخذته ومكافأته .

---

(١) ل : « إنا لمشاؤون » بالخرم .

(٢) ل : « ومعارفهم » . ونراها : « ومقاريهم » .

(٣) هو عتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سيأتى فى الحماسية ٧٦٣ .

(٤) عجز البيت الثانى من الحماسية ٦٨١ . وفى الأصل : « فما بذل » صوابه فى ل .

٦٨٣

وقال ابن هَرْمَةَ (١) :

١ - أغْشَى الطريقَ بقُبَّتى ورِواقِها وأحُلُّ فى نَشْزِ الرُّبى فأُقِيمُ (٢)

٢ - إن امرأً جعَلَ الطريق لِبَيْتِهِ طُنُباً وأنكرَ حَقَّهُ لَلئيمُ

يقارب ما قاله قولُ الآخر :

يَسِطُ البيُوتَ لكى يكونَ مَظِنَّةً من حيثُ توضَعُ جَفْنةُ المُسْتَرْفِدِ (٣)

وقول الآخر (٤) :

ويأبَى الذَّمُّ لى أنى كريمٌ وأن مَحَلِّىَ القَبَلُ اليَفَاعُ (٥)

وذاك أنَّ الكِرَام ينزلون الرّوابىَ والإكام (٦) ، ويتوسَّطون الناسَ فى أيام الجدب، وعند اشتمال القحط ، لكى تهتدى إليهم السابلة والمارّة ، ويشتركَ فى خيرهم الدّانى والقاصى . واللِّئام ينزلون الأهْضامَ وبطون الأودية ، ويتفرّدون عن الناس إبقاءً على زادهم، وضِنًّا بطعامهم ، وتَفادياً من أن تُعرفَ أماكِنُهم فيكثر قَصدُ أبناء السبيل ووطْؤُهم إياهم ، وتنضمّ الطوائف والفِرق إليهم . لذلك قال المرقِّش :

* وعادَ الجميعُ نَجْعَةً للزعانِفِ (٧) *

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٧٠ ص ١٢٤٧ .

(٢) التبريزى : « ويروى : فى قلل الربى » .

(٣) سبق فى ص ٩٦٤ . وهو فى اللسان (وسط ٣٠٩) محرف .

(٤) هو ربيعة بن مقروم . البيت ٧ من المفضلية ٣٩ .

(٥) كلمة « لى » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من ل والمفضليات . والقبل ، بفتحتين : ما أستقبلك من الجبل .

(٦) ل : والآكام » . وجمع الأكمة على أكم بالتحريك، والأكم على إكام ، والإكام على أكم بضمتين ، والأكم على آكام مثل عنق وأعناق .

(٨) البيت ١٢ من المفضلية ٥٠ . وصدره :

* وكان الرفاد كل قدح مقوم *

أى تأوِى الفِرق القليلة إلى الجمْع(١)، لتعيش بعيشهم . فيقول : إنِّى أنزِلُ عَلَى الطريق وأبنى عليها قُبَّتِى ، وقد مُدَّ رِواقُها ورُفِع سَمْكُها لتمتد العيونُ إليها ، ويغشانى ذَوُو الحاجاتِ فيها . وكذلك أُحُلُّ التِّلاع والنِّشازَ تشهيرًا لمكانى ، وتعرُّضا لتعليق الآمال بى إذا اشتدّ الزمان ، وأُوثِر الخُمولَ والاندِفان . والقِبابُ يتَّخذها الرؤساء ، فلذلك خَصَّها بالذكر ، ولم يرض بذلك حتى جعل لها رواقًا ممدودا ، وموضِعاً له من الطريق مَغشيًّا موطوءًا .

ولمثل ذلك قال أبو تمام :

لولا بنو جُشَمِ بن بكرٍ فيكُمُ رُفِعَتْ خِيامُكمُ بغير قِبابِ(٢)

والنَّشَزُ : ما ارتفع من الأرض . والرُّبَى : جمع رُبْوة . ولم يَرْض بالحلول حَتى وَصلَه بالإقامة .

وقوله « إنّ امرأ جعلَ الطريق لبيته طُنُباً » ، أراد جَعَلَ الطريق موضع طُنُبِ بيتِهِ ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . ويجوز أن يكون على القَلْب ، أراد : جعل طُنُب بيته للطَّريق ، أى مما يليه ، ثم لم يقمْ بحقِّه ولم يلتزم ما يجب عليه فيه ، لَلَئيم . وإنما أعاد هذا الذكرَ تأكيداً لما يأتيه ، واعترافاً بالواجب فيه . والأطْنَاب : حبال البيوت ، قال الشاعر :

* تُقَطِّعُ أطنابَ البُيوتِ بحاصب(٣) *

وقد تُسمّى عروقُ الشجر أطناباً على التشبيه ، وهذا كما سمِّيت أذناباً وأشطانا . قال :

. . . . تستقى بأذنابها قبل استقاء ا لناجرِ

(١) ل : « الجميع » .
(٢) من قصيدة له فى ديوانه ١٨ — ٢١ يمدح فيها مالك بن طوق التغلبى .
(٣) فى الأصل : محاصبة » ، صوابه فى ل .

وقال آخر :

* أَشطانُها في عِذَابِ البَحْرِ تستبِقُ *

٦٨٤

وقال آخر (١) :

١ — ومُستَنْبِحٍ يَستكشِطُ الريحُ ثوبَهُ ليسقُطَ عنه وهو بالثوبِ مُعْصِمُ (٢)

٢ — عَوَى في سَوَادِ الليلِ بعدَ اعتسافِهِ لِيَنبحَ كَلْبٌ أو لِيفْزَعَ نُوَّمُ

كَشَطَ واستكشط بمعنًى ، فهو كعجِب واستعجب . والكَشْطُ يقارب الكَشْف . ويقال : كُشِطَ الجلدُ عن الجَزُور ، ويُستعمَل في الجزور خاصَّة كثيراً وإن أُجْرِيَ على غيره أيضاً . والجِلد يقال له الكِشاط ؛ يقال : ارفَعْ عنه كِشَاطَهُ . والمُعْصِم والمستعصم واحد ، وهو المستمسك بالشَّيء . وإنَّما أراد أن يصوِّر حال المستنبح وما هو ممنوٌّ به من البرد والريح (٣) .

وقوله «عَوَى في سَوَادِ الليل» أي نبح وصاح . وفي المثل السائر : «لَوْلَكَ عَوَيْتُ لم أعوِ (٤)» . وأصله المستنبح أجابَه الذئب . ويقال «فلانٌ ما يُعوِى ولا يُنبِح» إذا استضعف . ويقال للدَّاعي إلى الفتنة عَوَى ، تشبيهاً له بالكلب وإزراءً به ، فأمَّا قولهم للحازم : «ما يُنْهَى ولا يُعْوَى» ، فالمعنى لا يُثْنَى ولا يُرد . وعوَيتُ الشَّيءَ ولويتُه بمعنًى . والاعتساف : الأخذ في الطريق على غيرِ هداية . وإنما قال «أو لِيَفْزَعَ نُوَّمُ» لأنَّهم إذا انتبهوا لصوته أجابوه أو تقَّوه أو رفعوا النَّارَ له (٥)

---

(١) هو إبراهيم بن هرمة . البيان (٣ : ٢٠٥) . والأبيات بدون نسبة في الحيوان (١ : ٣٧٧ — ٣٧٨) .

(٢) التبريزي والحيوان : « تستكشط » .

(٣) يقال مناه بالشيء يمنوه ويمنيه ، أي ابتلاه ، فهو واوي يائي .

(٤) انظر المعمرين للسجستاني ١٤ في كلام أكثم بن صيفي .

(٥) هذا الصواب من ل . وفي الأصل : « رفعوا لنازله » .

وذلك على حَسَب مكانه منهم فى القُرب والبُعْد . وجوابُ رُبَّ : عوَى .

٣ ـ فجاوَبه مُسْتَسمِعُ الصَّوتِ للقِرَى لَهُ مَعَ إتْيَانِ المُهِبِّينَ مَطْعَمُ

٤ ـ يكادُ إذا ما أَبصَرَ الضيفَ مُقبِلاً يُكلِّمُه مِنْ حُبِّهِ وهو أَعْجَمُ

يعنى بمستسمع الصّوت : الكلب . ويقال : استسمع بمعنى سمع ، فهو كاستعجب وعجب . وإنما قال « إتيان المُهِبِّين مطعم » لسَعة عيش الكلب فيما يُنْحَرُ للضيف . والمُهِبُّون : الأضياف . ويقال : هَبّ من مَنامه ، وأهببتُه .

وقوله : « يكاد إذا ما أبصرَ الضيف مُقبِلا يكلّمه » ، أى يكاد الكلْبُ يكلم الضيف حُبًّا له إذا أقبلَ ، عَلَى عُجمته . وانتَصَب « مقبلا » على الحال ، والكلبُ ممّا يُوصَف به حُبُّه للضَّيْف ، لذلك قال الآخر :

حَبيبٌ إلى كلبِ الكريمِ مُناخُه بَغِيضٌ إلى الكَوْمَاءِ والكَلْبُ أَبْصَرُ (١)

وحبُّه للظّاعن ، لذلك قيل فى المثل : « أحبُّ أهل الكلب إليه الظّاعن »

وحبه لوقوع الآفات فى المال ، لذلك قيل فى المثل : « نعِمَ كلبٌ فى بُؤْسَى أهله (٢) » . واللام من قوله « للقرى » يجوز أن يتعلّق بقوله جاوَبه ، أى لهذه العِلّة جاوَبه ، ويجوز أن يتعلّق بقوله مستسمع الصوت .

٦٨٥

وقال سالم بن قُحْفَان (٣) :

١ ـ لا تَعذُلِينى فى العَطَاء ويَسِّرِى لكل بَعِيرٍ جاءَ طالبُه حَبْلاَ

(١) البيت من الحماسية ٧٢١ .

(٢) انظر المعمرين للسجستانى ص ١٤ .

(٣) سالم بن تحفان العنبرى ، كما عند التبريزى والقالى (٢ : ٤) واللآلىء ٦٣١ . وكان من خبر الشعر أن سالم بن تحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته : هاتى حبلا يقرن به ما أعطينا إلى بعيره ، ثم أعطاه بعيراً آخر وقال : هاتى حبلا ، ثم أعطاه ثالثاً فقال : هاتى حبلا . فقالت : ما عندى حبل . فقال : على الجمال وعليك الحبال . فرمت إليه خمارها وقالت : اجعله حبلا لبعضها . فأنشأ يقول هذه الأبيات . انظر للقصة المراجع السابقة.

٢ ــ فإنِّى لا تبكِى علىّ إفالُها إذا شبعتْ من رَوْضِ أوطانِها بَقْلاَ
٣ ــ فلَمْ أرَ مِثْلَ الإبْلِ مالاً لِمُقْتنٍ ولا مِثلَ أيّامِ العطاءِ لها سُبْلاَ (١)

كانت امرأتُه عاتبتْه وأنكرَتْ منه تبذيرَ المال ، وقلةَ الفكر فى عواقب الأمور وحاضِرِ العيال ، وقال لها اطّرحى اللّوم معى فيما تعودتُه وأجرِى عليه من البَذْل والسَّخاء ، وهيِّئى لكل بعير جاء طالبٌ له حبْلاً يقتاده به ، حتى تكونى شريكاً لى فى العطاء ومُعيناً ، واعلَمِى أنِّى إن أَبقَيْتُ على مالى وسعيت فى توفيرها وتثميرها ، وأهنتُ نفسى بإعزازها ، فإنها لاتبكى علىّ إفالُها إذا متُّ وقد طاعَ لها المرتَع من قبلُ فشبِعت من بقول الرياض ، وسمنت بالتّوديع وحسن الإرعاء ، ولا تذكُرُنى بجميل ، وَإنما يفعل ذلك من أحسنتُ إليه فى حياتى واصطفيته(٢) بإسدائى ، وآثرْته باتخاذ الأيادى إليه ، وإكمال النِّعَم عليه .

وقوله « لم أر مثل الإبل مالاً لمُقْتنٍ » فالمقتنِي : الذى يتّخذها قِنيَةً لِلنَّسل والمراد أنّها إذا لم يوجد لِلاقتناءِ خيرٌ منها ، فلا طريق تُصرف إليه أصلحُ من طُرُق (٣) الحقوق الرّاتبة فيها . وانتصب « بَقْلاً » على التمييز . وإنّما قال « لا تبكى علىّ إفالُهَا » وهى الصغار منها ، والواحد أفِيلٌ ، إزراءً بها إذْ صارت

(١) التبريزى : « أيام الحقوق » . وبعده عند التبريزى : « فأجابته امرأته :

حلفتُ يميناً يا ابنَ قحفان بالذى تكفّلَ بالأرزاق فى السهل والجبَلْ
تزالُ حِبَالٌ مُحصَدَاتٌ أُعِدُّها لها ما مَشَى منها على خُفِّه جَمَلْ
فأَعطِ ولا تبخلْ لمن جاء طالباً فعندى لها خُطمٌ وقد زاحت العلَلْ

قولها تزال ، أى ما تزال . وجاز حذفها لدلالة اليمين عليها . وزاحت بمعنى زالت . وأزحتها : أزلتها » .

(٢) ل : « واصطنعته » .

(٣) ل : « من طريق » .

إرْثاً(١) ، ولم تدخل تحت ما فرّقَه في النوائب الطّارقة ، والفُروض الواجبة(٢).

٦٨٦

وقال آخر :

١ ــ ألا تَرَيْنَ وقد قَطّعْتِني عَذَلاً ماذا من البُعدِ بين البُخْلِ وَالجُود

٢ ــ إلّا يكنْ وَرَقٌ غضّا أَرَاحُ به للمُعْتفين فإنى لَيِّنُ العُودِ

يخاطب امرأةً ويقرِّرها على ما أنكرَتْ عليه في السّخاء والبذْل ، ويُريها أنّ الصّواب فيما يختاره ويجرى عليه من اكتساب الحمْد ببذل ما تملكه يداه ، وابتناء المكْرُمات بالتخرُّق في العطاء ، فيقول : قد قَطَّعْتِني لَوْماً ، وَحَرَّقْتِني توبيخا وعَذْلا ، ومتى راجعتِ نفسكِ ، وناجيتِ عقْلكِ ، وخايرت تجربَتك عرَفتِ التفاوُتَ بين الإمساك والبذْل ، وبين التسخِّي والبُخْل ، وبان لكِ أنّ الصوابَ فيما أختارُهُ ، وعلى تغيُّر الأحوال أراجِعُه وأعتاده ، وأنّ الخطأ فيما تبعثين عليه ، وتَسُوقين إليه ثم قال : إنْ كان في مالى قصورٌ عن المراد ، وقعود عند حُضور المرتاد ، فإنّ نفسى سَمْحَةٌ مجيبة ، وَعلى ما تقصر الحالُ عنه متحسِّرة ، وسيعود عُودِى وَرِيقاً ، فحينئذ أرتاحُ للعُفاة بوَرَقٍ غَضًّا طرِيًّا ، وأُزِلُّ معروفى موفوراً هنيّا . ويقال : رِحْتُ له أراحُ ، أى ارتَحْتُ . وقيل : الأريحى أفعَلِيٌّ من هذا . وذِكر الورَق كناية عن المال الكثير في كلامهم . قال زهير :

وليسَ مانِــعَ ذى قُرْبَى ولارَحِمٍ يوما ولا مُعْدِماً من خابِطٍ وَرَقا

---

(١) ل : لرداءتها إذا صارت إرثا » .

(٢) ذكر البكرى أن البيت الثانى من القطعة مأخوذ من قول ضمرة بن ضمرة :

أرأيت إن صرخت بليل هامتى وخرجت منهـا باليـاً أثوابى

هل تخمشن إبلى على وجوهها أو تعصبن رءوسهـا بسلاب

لما استعار الورَق للمال وَصَله بالخابط تشبيهاً [١] للفظه ، وتحسيناً لكلامه ، وكذلك هذا لمَّا كَنى عن معروفه بالورَق وصلَهُ بالعُود . وإذا لانَ العودُ اهتزَّ ، وعن الاهتزاز للخير يحصل التَّندّى ويَكرُم الطَّبعُ .

٦٨٧

وقال قَيْسُ بن عاصم [٢] :

١ – إنِّي امْرُؤٌ لا يَعْترى خُلُقى دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أَفْنُ [٣]

٢ – مِن مِنقَرٍ فى بَيْتِ مَكرُمَةٍ والفَرْعُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الغُصُنُ [٤]

٣ – خُطَباءُ حِينَ يَقُومُ قائلُهُمْ بِيضُ الوُجُوهِ مَصَاقِعٌ لُسْنُ

٤ – لا يَفْطَنُونَ لعيْبِ جارِهِمُ وهُمُ لحِفْظِ جِوَارِهِ فُطُنُ [٥]

قوله « يفَنِّده » أي يفحِّشه ، والفَنَد : الفُحْش . ويقال : أفْنَدَ الرَّجلُ ، إذا أتَى بالفُحْش . والأفْنُ أصلُه فى استخراج اللَّبن من الضَّرع حتى يخلوَ منه ، ثم قيل أُفِنَ الرَّجُلُ فهو مأفون ، إذا زالَ عقله . والمعنى : إنى رجُلٌ لا يتسلَّط على خلقى ما يدنِّسه ويفحشه من تغيُّر وتبدُّل ، وتسرُّع إلى الشرّ وتلوُّن ، وزَوالٍ عن السَّنن المعهود ، وذَهابٍ فى طريقِ [٦] المأفون المَعْتوه ، ولكنَّنى أبقى

---

(١) فى الأصل : تشنيعاً » ، صوابه فى ل .

(٢) هو أبو على قيس بن عاصم بن سنان المنقرى التميمى ، شاعر فارس شجاع ، وكان سيداً فى الجاهلية والإسلام ، صحب النبي فى حياته وعاش بعده زمانا ، وهو أحد من وأد بناته فى الجاهلية بل يزعمون أنه أول من وأد . الإصابة ٧١٨٨ والأغانى (١٢ : ١٤٣ – ١٥١) . وروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار (١ : ٢٨٦) أنه أنشد الشعر التالى حينما علم أن ابن أخيه قد قتل ابنه .

(٣) فى أمالى القالى (١ : ٢٣٩) : « لا يعترى حسبي » .

(٤) التبريزى : « والغصن » . البيان (١ : ٢١٩) : « والأصل » .

(٥) فى أحد أصول البيان « وهم لحسن جواره » . وفطن يقال من باب فرح ونصر وكرم .

(٦) ل : « طرائق » .

على حالةٍ واحدة محمودة ، لا أحُول ولا أزول . ثم إننى من بنى مِنقَر فى بيت من الكَرَم قد فَرَعتُه ، والفَرْع من شأنه أن يلتفَّ بأغصانه النَّابتةِ حوله . وهذا مثلٌ ضرَبهُ للمحتفِّين به من أقاربه ، والآخِذين إخذه فى طبائعه ومَذاهبه . ثم وصَفَهم فقال : هم خطباءُ إذا قامَ قائلهم يُبينُ عن نَفْسه وعن عشيرته ، كِرَامٌ لا يسوِّد وجوهَهم عارٌ فى الأصل ، ولا شَينٌ مكتَسبٌ على وَجه الدَّهر . المَصَاقِعُ : جمع مِصقع ، وأصل الصقْع الضَّرب ، وكما وُصفَ به اللِّسان وُصف بالسَّلْقِ والصَّلْق فقيل : خطيب مِصقَع مِصْلَقٌ مِسْلَقٌ سَلاَّق . وفى القرآن : ﴿سَلَقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾ . واللُّسُن : جمع اللَّسِن . ويقال : لَسِنَ يَلْسَنُ لَسناً ، إذا تناهَى فى البَلاغة والفصاحة . ويقال لَسنتُ فلاناً ، إذا ضايقته فيما يجاذِبُه من الكلام . على هذا قوله :

* وإذا تَلْسُنُنِى ألسُنُها[(١)] *

وقوله « لا يفطُنون لعيبِ جارهم » ، يقول : هم يُلابِسون الجار على ظاهر أمره ، لا يتجسَّسون عليه ، ولا يتطلَّبون مشاينَه ومَقَابحَه ، وإن اتّفق له مايوجب عليهم حِفظَه لِعَقد الجوار فَطِنُوا له ، وحافَظُوا عليه . وإنما قال هذا لِمَا سارَ فى النَّاس وجرَى مجرى الأمثال ، من أنَّ التكرُّمَ مكيالٌ ثلُثاه حُسن الفِطنة وحِدَّة الذَّكاء فى العارضات ، وأنَّ اللؤمَ مكيالٌ ثلثاهُ الفطنة واستعمالُ التحرُّز فى الواجبات . والفُطُن : جمع فَطِنٍ ، وهو كَخشِنٍ وخُشُن .

(١) لطرفة بن العبد فى ديوانه ٦٥ طبع قازان . وعجزه :

* إننى لست بموهون فقر *

٦٨٨

وقال ابن عَنْقاءَ الفزارِىُّ[(١)] :

١ — رآنى على مابى عُمَيْلةُ فاشْتَكَى   إلى مَالِهِ حَالى أسَرَّ كَمَا جَهَرْ

٢ — دَعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم أَلُمْ   على حِينَ لا بادٍ يُرَجَّى ولا حَضَرْ[(٢)]

٣ — فقلتُ له خيرًا وأثنيتُ فعلَهُ   وأوفاكَ ما أسديتَ مَن ذَمَّ أوشكر[(٣)]

يقول : رَاعَى حالِى عُميلةُ وتأمَّلَها على ما بها ، فأنهَى رثاثتَها واختلالها إلى مالِه ، متحمِّلا الشَّكوى منها على قلبه ونفسِه ظاهراً وباطنا ، ومُسِرًّا ومُعلِنا ، لا يَشُوبه مُدَاجاةٌ ولا نِفَاقٌ ، ولا يتخلَّل فِعلَه مخاتَلةٌ ولا رِياء ، بل اعتَنَى بها على خلوص نِيَّة[(٤)] ، واهتمامٍ بإحسان مع نَقَاء طوِيَّة .

وقوله « دعانى فآسانى » ، يقول : ابتدأ فى تغيير حالى ، وإزالةِ ما مَسَّنِى

---

(١) اسمه أسيد بن عنقاء ، كما فى الصحاح (سوم) وأمالى القالى (١ : ٢٣٧) .
وكان من سبب الشعر مارواه التبريزى ، قال أبورياش: مر عميلة الفزارى على ابن عنقاء الفزارى وهو يحتش لغنمه ، وقيل يحفر عن البقل ويأكله ، فقال : يا ابن عنقاء ، وماأصارك إلى هذه الحال ؟ فقال له ابن عنقاء : تغير الزمان ، وتعذر الإخوان ، وضن أمثالك بمامعهم . فقال عميلة : لا جرم والله لاتطلع الشمس غداً إلا وأنت كأحدنا . ثم انصرف كل واحد منهما إلى أهله ، وكان عميلة غلاماً حين بقل وجهه ، فبات ابن عنقاء يتململ على فراشه لا يأخذه النوم اشتغالا بما قال له عميلة ، فقالت له امرأته : ماشأنك ؟ فأخبرها الخبر فقالت : قد خرفت فذهب عقلك حتى تعلق نفسك بكلام غلام حديث السن لا يحفل بما يجرى على لسانه . ويحكى أنه لما أصبح قالت له ابنته : لو أتيت عميلة ، فقد وعدك أن يقاسمك ماله . فقال : يابنية ، إن الفتى كان سكران ، ولا أدرى لعله لم يعقل ما قاله . فبينا هى تراجعه الكلام إذ أقبل عليهم كالليل من إبل وغنم وخيل ، وإذا عميلة قد وقف عليه فقال : يا ابن عنقاء ، اخرج إلى . فخرج إليه فقال : هذا مالى أجمع ، هلم تقتسم ، فقاسمه إياه بعيراً وبعيراً ، وفرساً وفرساً ، وشاة وشاة ، وجارية وجارية ، وغلاما وغلاما ، ثم انصرف . فقال ابن عنقاء هذه الأبيات .
ومثل هذا الخبر فى آمالى القالى .

(٢) التبريزى والقالى : « على حين لا بدو » .

(٣) القالى : « وأوفاك ما بليت » . والبيت آخر الأبيات عند التبريزى .

(٤) ل : « من خلوص نية » .

من فَقْرى من ذات نفسه ، فجبرَنى وانتاشنى ، ولو سَعَى سَعْى غيره من البُخَلاء لم يَلحقه منِّى عيب فى وقتٍ قد تساوَى النَّاسُ فى المَنْع واطِّراح الحقوق حتَّى لا ذُو البَدْوِ يُرجَّى ولا ذو الحضَر . وقوله « ولا حَضَر » حذَف المضافَ وأقام المضاف إليه مَقامه . وهذا كما يقال : الجُودُ حاتِم ، يراد جُود حاتم . وكان الوجه أن يقول : ولا حاضر ، مع ذكر البادِى ، ليكون الكلامُ أشدَّ التئاما ، أَوْ يقول : فلا بَدْوٌ يرجَّى ، مع قوله ولا حضر .

وقوله « فقلت له خيراً » ، يقول : شكرتُه على اصطناعه ، وأثنيتُ على فِعله ، وكثَّرتُ فى النَّاس ما تكلَّفه لى وتبرَّع به ونشرتُه . وقد وفَّاك حَقَّكَ فى الإسداء مَن حَمِدك ، كما وفَّاك فى المكافأة مَن أسأتَ إليه ذَمَّك . وكان وجه الكلام أن يقول : وأوفاك ما أسديت أو أسأت من ذَمّ أو شَكر ، فاقتصر على ذكر الإسداء وإن كان يستعمل فى الخير لا غَير . وأصله من السَّدَى وهو نَدَى اللَّيل خاصَّة . يقال : سَدِيَتْ ليلتُنا ، إذا كَثُر نداها ، ولا يكاد يُستعمل فى النَّهار . قال :

* فأنت النَّدَى فيما يَنُوبُك والسَّدَى *

وقيل أصله من السَّدْوِ ، وهو التَّذرُّع فى المَشْى اتِّساع الخَطْو . يقال : سَدَى البعيرُ وأسديتُه ، والأوَّل هو الصَّواب .

ومثل قوله « وَافَاكَ ما أَسْدَيْتَ مَن ذَمّ أو شَكَر » قولُ الآخر(١) :

فما أدرى إذا يَمَّمْتُ أرضاً أُريدُ الخيرَ أيُّهما يَلِينى

لأنَّ المراد أريد الخير وأجتَنِبُ الشرّ ، فاكتفى بذكر أحدِها ، ألا تَرَى أنَّه قال من بَعْدُ :

أَألخيرُ الذى أنا أَبتغيه أمِ الشَّرُّ الذى هو يَبتَغينى

(١) هو المثقب العبدى . البيت ٤٤ من المفضلية ٧٦ .

وقوله « وَأَنفيتُ فِعْلَه » أصله على فِعْلِه ، فحذف الجارّ وَوَصل الفعل بنفسه .

٤ ــ غلامٌ رماه اللهُ بالخيرِ مُقبِلاً ... له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ (١)

٥ ــ كأنَّ الثريا علِّقتْ فوق نَحْرِهِ ... وفي أنفه الشِّعْرَى وَفى خَدِّه القمرْ (٢)

٦ ــ إذا قيلتِ العوراءُ أغضَى كأنه ... ذَليلٌ بِلا ذُلٍّ ولو شاءَ لانتصرْ (٣)

قوله « رماه الله بالخير » معناه كساه الخيرَ وَمسحه به مُقبِلاً فيه لا مُدْبِرا . وقد كشف معنى الرَّمى بقوله : « له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصر » ، يريدُ ما عليه من حسن القَبول والتمكُّن من النفوس وَالقُلوب ، حتَّى إنَّ المبصرين له يجدُون راحةً في النَّظَر إليه ، فلا تَمَلُّها العُيون ، وَلا تنطبق دونها الجُفون . ومثل قوله : رماه الله بالخير في باب الاستعارَة ، قولُه تعالى : ﴿وأَلقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنى﴾ . والسِّيمياء أصله العلامة ، ومنه الخيل المُسَوَّمة . ويقال سِيماء وسِيمِيَاءُ جميعا . وانتَصَبَ « مُقبِلاً » على الحال ، وتحقيق معنى سيمياء أى قد وسمه الله تعالى بسيمياءَ حسنة مقبولة ، يلتذُّ النّاظرُ بالنَّظر إليها .

وقوله « كأنَّ الثُّريّا علّقت فوق نحره » [يريد أنّه قد غشّيَ من كل جانبٍ بما ينوِّره ، فالثريّا فوقَ نحرِه (٤)] ، والشِّعْرَى ، يعنى العَبور ، مُرْكزَةٌ فى أنفه والقمر متلألئٌ فى خدّه ، فهو نورٌ على نور .

وقوله « إذا قيلت العَوراءُ أغضى » كأنّه يصف فيه اجتواءه للخَنا والفُحش ، واطِّراحَه لقُبح القول ، ورفْضَه لأنواع الهُجر ، فمتى ذُكِرَتْ عنده فحشاءُ أطرقَ

(١) التبريزى : « بالخير يافعاً » .
(٢) ل : « علقت بجبينه » وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة : « فوق نحره » . التبريزى : « علقت بجبينه وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر » .
(٣) بعده عند التبريزى :

ولمّا رأى المجدَ استُعيرتْ ثيابُه ... تردَّى رِداءً واسع الذَّيل وائتزَرْ

(٤) التكملة من ل .

مغضياً ، عاركاً بجنبه متحلما ، فكأنه ذليلٌ لتغابيه ، وتركِ المحاسَبة فيه ، ولو شاء لانتقم . وهذا غايةُ ما يكون من حُسن الاحتمال ، ومُصابرة النّاس على أذاهم ، مع التعزُّز والاقتدار .

٦٨٩

آخر (١) :

١ ــ سَأَشْكُرُ عَمْراً إنْ تراخَتْ مَنِيَّتى أيادِىَ لم تُمنَنْ وإنْ هىَ جَلَّتِ (٢)
٢ ــ فتًى غيرُ محجوبِ الغِنى عن صَديقِه ولا مُظهِرِ الشَّكوَى إذا النّعلُ زَلَّتِ
٣ ــ رأى زَلّتى من حيثُ يخفَى مكانُها فكانت قَذَى عينَيه حتى تجلَّتِ

يقول : إنّى سأنشر آلاء عمرٍو ونِعَمَه عندى إن نُفِّس من عمرى ، وتراخت غايةُ المقدار من منيّتى ، فإنها صافية من المَنّ والأذَى على جلالتها وفخامتها . وقوله « لم تُمنن » يجوز أن يكون المراد ولم تُقطع وإن عَظُمت ، وقال ذلك لأنَّ الأيادىَ السَّنيّة لا تكاد تتناسق . ويقال : حَبْل (٣) مَنِينٌ وممنون . وفى القرآن : ﴿ لَهُمْ أجرٌ غيرُ مَمْنُون ﴾ . ويجوز أن يكون المراد به لم يُخلَط بمَنٍّ .

وقوله « فتًى غير محجوب الغِنى » ، أخَذَ يصفُه . وارتفع فتًى على أنه خبر مبتدأ

(١) هو محمد بن سعد الكاتب التيمى ، شاعر بغدادى . معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢١. وفى رسائل الجاحظ ٢٣ ساسى أنه « محمد بن سعيد » . وقيل : لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص ، فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب فقال هذا الشعر . وقيل : الشعر لعبد الله ابن الزبير الأسدى ، وأنه أتى عمرو بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلىء ١٦٦ . وقيل : لإبراهيم بن العباس الصولى . مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم ياقوت (٥ : ١٥٨ مرجليوث) وابن خلكان (٢ : ٢٤٧) . وقيل : لعمرو بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان ، وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص ، فتشفع له ، حتى ولى الحرب بالبصرة فأصاب فى ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته . شرح التبريزى .

(٢) ويروى : « ما تراخت » ، وهو أوفق .

(٣) فى الأصل : « جبل » صوابه فى ل .

محذوف ، والمعنى هو فتى يُشْرِكُ صديقَه فى غِناه مدَّةَ مساعدةِ الزَّمان له ، فإنْ تولّى الأمرُ وزلّت النَّعلُ تراه لا يتشكّى[1] ولا يتألَّم . وهذا مثل قول الآخر[2] :

أبو مالكٍ قاصرٌ فقرَه   على نفسه ومُشِيعٌ غِناهْ

ويقال فى الكناية عن نزول الشر وامتحان المرء : زَلَّت القدم به ، كما يقال : زلَّت النَّعل به .

وقوله « رأى خَلَّتى من حيث يخفَى مكانها » زائد على ما تقدَّم من قول ابن عَنْقاءَ الفَزارى[3] ، وهو :

رآنى على ما بى عُمَيْلةُ فاشتكى   إلى مالِهِ حالى أسرَّ كما جَهَرْ

وذاك لأنَّ هذا قال : « رأى خَلَّتى من حيث يَخفَى مكانها » فكأنَّه أدرك الحال ، من طريق الاستدلال ، والاهتمامِ المبعوث من جَودة التفطن ، وإن كان صاحبُه يتعفَّف عن السُّؤال ويتجمّل ، وابنُ عنقاءَ شاهدَ الحالَ عِياناً ، فاشتكى إلى ماله سرًّا وجهراً ، وقال هذا بإزاء الاشتكاء : فكانت قَذَى عينيه ، أى من حسن الاهتمام ما جعله كالدَّاء الملازم ، حتى تلافاه بالإصلاح ، وإذا كان كذلك فموضعُ الزِّيادة فى كلامه وقَصْدِه ظاهر .

٦٩٠

آخر[4] :

١ ـ إنْ أجزْ عَلْقمةَ بن سيفٍ سعيَه   لا أجزِهِ ببَلاءِ يَومٍ واحدِ

(١) هذا الصواب من ل ٨ وفى الأصل : « يتشاكى » وإنما يقال تشاكى القوم : شكا بعضهم إلى بعض .

(٢) المتنخل الهذلى . انظر ٥٢٢ ، ٩٦٩ ، ١٠٧٩ .

(٣) فى الحماسية السابقة .

(٤) هو فدكى بن أعبد البهرانى ، كما عند التبريزى واللسان (لم ٢١ ـ ٢٢) . وروى المرزبانى فى معجمه ٤٧٥ البيت الأول وتاليه منسوبين إلى المرناق الطائى . والأبيات بدون =

٢ ـ لأَحَبَّنى حُبَّ الصَّبىِّ وَرَمَّنى رَمَّ الهدِىِّ إلى الغَنِىِّ الواجِدِ

٣ ـ ولقد نَضَحْتُ مليلَتِى فتمَيَّثتْ عن آلِ عَتَّابٍ بماء باردِ[1]

يقول : إن رُمْتُ القيام بواجب سَعْىِ عَلقمةَ لى ، وأدّيتُ الفروض لِحُسْن بلائه عندى ، لم أقابِلْه على صنيعةٍ واحدة ، ولا جازيتُه لبلاءٍ نعمة فاردة ، لأنّ أياديَه عندى كثيرةٌ متظاهرة[2] ، وآلاءه لدىّ متواتِرَةٌ متناصرة ، فوالله أحبّنى كما يُحَبُّ الصبىُّ ، وأصلحَ من أمورى ما يُصْلِحُ من شأن العَروس إذا زُفَّتْ إلى المُوسِرِ الغنىّ ، فتضَاعفَ مُؤَنُها ، وتزايد التكاليفُ فى هِدائها وتحويلها . فقوله لَأحبّنى ، اللام جواب يمين مضمرة ، وإنما قال : « حُبَّ الصَّبى » لأنه يخالط بمحبّته زيادة الشفقة ، وكَفالةُ الترفرفِ عليه والمَرحَمَة .

وسئل بعضُ حُكماء العرب[3] عن أحب أولاده إليه فقال : « الصغير حتّى يكبرَ ، والغائبُ حتى يَقْدَم ، والعليل حتى يبرأ » .

وإذا تأملتَ وجدتَ حَال الغائب والعليل كحال الصَّغير فيما ذكرتُ ، فلذلك جَمَعَها فِى قَرَن الذِّكر .

وقوله : « ولقد نَضَحت مليلتى » . يريد : ولقد رششت غليلى من آلِ عتَّاب وما امتلَّه نارُ وَجدى من أحشائى وصدرى بماءٍ بارد ، فسكنَتْ وزالَ حَمِيمُها ، حتى

= نسبة فى الحيوان (٣ : ٤٦٨) والبيان (٣ : ٢٣٣) .

وكان من خبر الشعر أن فدكياً كان مجاوراً لعلقمة بن سيف العتابى ، وكان له إبل فسرقت ، سرقها حنش بن معبد أحد بنى ثعلبة بن حبيب ، فلما علم علقمة بذلك سعى فى استردادها من خاربها فلم يوفق . فأخرج هو من ماله مائة بعير وساقها إلى فدكى عوضاً ، فقال هذا الشعر يمدحه .

(١) الحيوان والبيان :

ولقد شفيت غليلتى ونقعتها من آل مسعود بماء بارد

(٢) هذا ما فى ل ، وهو الأفق . وفى الأصل : « ظاهرة » .

(٣) هو غيلان بن سلمه الثقفى ، وكان قد وفد إلى كسرى فسأله : أى ولدك أحب إليك ؟ الأغانى (١٢ : ٤٥) ومحاضرات الراغب (١ : ١٥٥) .

كأنها لم تكن . وإنما قال ذلك لأنّ آل عتّاب كانوا وتَرُوه فاشتدّ بَرْح حَمِيّته واتسع قَرْح وتْرِه ، فأعانه على إدراك الثّأر علقمةُ بن سيف ، وشَفاه من دائه . وإذا تُؤُمِّلَ ما عَدّه من أياديه لَدَيه حَصَل فيه الميل والإكرام ، والبِرّ والإنعام ، وإصلاح الحال ، والمؤاساة بالمال ، والشِّفاء من الداء ، والانتقام من الأعداء ، وذلك مالا مَزِيد عليه . ومعنى تَميّثَت تذلّلت تذوّبَت . ويقال : ميّثْتُ الشّىْء ، إذا مرَسته . والنَّضْخُ بالخاء المعجمة أبلَغُ من النَّضْح .

٦٩١

وقال أبو زيادٍ الأعرابى (١) :

١ ـ له نَارٌ تَشَبُّ بكل وَادٍ إذا النِّيرانُ أُلبِستِ القِناعا (٢)

٢ ـ ولم يَكُ أكثَرَ الفِتْيانِ مالاً ولكِنْ كَانَ أرحَبَهم ذِرَاعا

قوله « تُشَبُّ » أى تُوقَدُ ، وموضع الجملة من الإعراب رفع على أن يكون صفة لنار (٣) ، والمعنى أنّ نارَ ضيافته تُوقَد بكلِّ وادٍ يَنزل به إذا النّيران فى الآفاق سُتِرت وحُجبت عن الاستدلال بها ، مخافةَ طُرُوق الأضياف . وجواب إذا مُقدَّم عليه ، كأنه قال : إذا النّيران جُعلت كذلك فله نارٌ توقد بكلّ واد . ويجوز أن يكون أُوقِدت ناره فى جوانب محَله وفى كل وادٍ من أودية فِنائه وداره

(١) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : « الأعرابى الكلابى » . وفى نسخة الأصل : « أبو زياد الأعجمى » ، تحريف . والبيتان بدون نسبة فى الحيوان (٥ : ١٣٥) وأبو زياد: أحد الأعراب الذين كانوا يفدون من البادية . واسمه يزيد بن عبد الله بن الحر . قدم بغداد أيام المهدى حين أصابت الناس المجاعة ، ونزل قطيعة العباس بن العباس بن محمد فأقام بها أربعين سنة وبها مات . وكان شاعراً من بنى عامر بن كلاب . وله من الكتب : النوادر ، الفرق ، الإبل ، خلق الإنسان . ابن النديم ٦٧ .

(٢) التبريزى : « تشب على يفاع » ، ثم أشار إلى الرواية الأخرى .

(٣) ل . « صفة النار » .

وإذا أُخمِدَت نِيرانُ النَّاس ، فلذلك قال تُشبُّ بكلِّ واد ، وهذا يكون منه كإتمامهم الأيسار ، ونيابتهم عن غيرهم إذا عُدِم الشُّركاء .

وقوله « ولم يك أكثر الفتيان » قد تقدم الكلام في حذف النون من يكُ في غير موضع . وانتصب « مالا » على التميز ، وكذلك « ذراعا » . والمعنى : أنّ ما تحمّله وتكلّفه لم يك السببُ فيه اليسارَ ، وكثرة المال . ولكن كرمه الفائض ، وعِرْقُه الزَّاخِر(١) .

٦٩٢

وقال العَرَنْدَس
أحد بنى أبى بكر بن كلاب(٢)

١ ـــ هَينونَ لَيْنُونَ أيسارٌ ذَوُو كَرَمٍ ... سُوَّاسُ مَكرُمَةٍ أُبناءُ أيسارِ
٢ ـــ إن يُسْألوا الخيرَ يُعطوهُ وإن خُبِرُوا ... في الجَهْدِ أُدرِكَ منهم طِيبُ أخبار
٣ ـــ وإن تودَّدْتَهم لانُوا وإن شُهِمُوا ... كَشفْتَ أذْمارَ شَرٍّ غيرَ أشْرارِ

العَرَنْدَس في اللغة : الأسد العظيم ، وكذلك الجمل . ويقال : هو هَيْنٌ لَيْنٌ

(١) عرقه ، بالعين المهملة والقاف في النسختين .

(٢) عند التبريزى يمدح بنى عمرو الغنويين ، وكان أبو عبيدة إذا أنشدها يقول: « هذا والله محال ، كلابى يمدح غنويا » . قال البكرى في التنبيه ٧٣ في تعليل ذلك : « وإنما أنكر أن يكون كلابى يمدح غنويا لأن فزارة كانت قد أوقعت ببنى أبى بكر بن كلاب وجيرانهم من محارب وقعة عظيمة ، ثم أدركتهم غنى فاستنقذتهم ، فلما قتلت طيئ قيس الندامى الغنوى وقتلت عبس هريم بن سنان الغنوى ، استغاثت غنى ببنى أبى بكر ومحارب ليكافئوهم بيدهم عندهم ، فقعدوا عنهم فلم يجيبوهم فلم يزالوا بعد ذلك متدابرين » . وقيل : إن الشعر لأبى العرندس . معجم المرزبانى ٣٠٦ . وفى الكامل ٤٧ أنه عبيد بن العرندس الكلابى يصف قوماً نزل بهم . وفى الكامل أيضاً قال : قصد رجل من الشعراء ثلاثة إخوة من غنى وكانوا مقاين فامتدحهم فجعلوا له عليهم فى كل سنة ذودا ، فكان يأتى فيأخذ الذود ، ثم أنشد الشعر فى قصيدة طويلة . والأبيات بدون نسبة فى الحيوان (٢ : ٨٩) وديوان المعانى (١ : ٤١) .

وهيِّنٌ لينٌ ، والتَّشديد الأصل ، والتخفيفُ على عادتهم فى الهرب من ثِقَل التضعيف ومايجرى مجراه . والمعنى أنّهم يلزمهم السَّكينةُ والوقارُ فى مجالسهم . ويقال : جاء يمشي هَوْنًا ، وهو المصدر . والأيسار : جمع اليَسَر ، وهم الذين يجتمعون فى الميسر على الجَزورِ عند الجدْب والقَحْط ، فيجُلون القِداحَ عليها ، ثم يفرِّقونه فى الفقراء وأَرْبابِ الحاجة والضَّرَّاء . ويقال : يَسَرَ الرجل إذا أجالَ قِدْحَه ، فهو ياسرٌ ويَسَر . قال :

إذا يَسَرُوا لم يورثِ اليُسْرُ بينهم فَوَاحِشَ يُنْعَى ذِكْرُها بالمصايفِ[1]

وقال أبو ذؤيب :

فكأنّهن رِبابَةٌ وكأنه يَسَرٌ يُفِيضُ على القِداح ويَصْدَع

والمعنى أنَّهم يرجعون إلى سَجاحةِ خُلُق[2] ، وسَلاسة طبع ، موقَّرون فى مجالسهم ، متكرِّمون فى عاداتهم وشؤونهم ، متعطِّفون على الفقراء زَمَنَ الجدْب بيسرهم ، يَسُوسون المكارمَ ويَعمُرونها بعد ابتنائها ، ولا يَغْفلون عنها ؛ وأنَّ هذه الخصالَ لم يَرِثوها عن كلالَة ، وأنّ آباءهم على ذلك دَرَجُوا وتقَضَّوْا . ثم قال : إنْ « يُسألوا الخيرَ يُعطُوه » يريد أنَّهم لايتقاعدون عن البذل فى الحقوق والنَّوائب ، ولا يُحوِجُون إلى استخراج ذلك منهم بالعُنف والاستقصاء بل يُخرجون منها إلى أصحابها ، والمطالبين بها ، وإنْ جُرِّبوا عند جَهْدِ البلاء ، واشتِمال الشِّدَّة والبأساء ، وحُمِّلوا أكثر ممَّا يلزمهم، وأثْقَلَ ممَّا ينهض به حالُهم ، طابتْ أفعالهم ، وحسُنت أنباؤهم[3] ، والأحاديثُ عنهم . ومَن انْتَمَى بِتقرُّبٍ إليهم ، أو تودُّدٍ لهم ، لانُواله ، وانقادوا لما يريده من جهتهم . وإنْ أوذوا

(١) البيت للمرقش . فى المفضلية ٥٠ .
(٢) سجاحة الخلق : لينه وسهولته . وفى الأصل . « شجاعة خلق » صوابه فى ل .
(٣) هذا الصواب من ل . وهو تفسير قوله « طيب أخبار » . وفى الأصل : ابتلاؤهم .

وأُحرِجوا انكشفوا عن أذمار شَرٍّ ــ وَهو جَمْع الذِّمْر ، وهو الشديد لا يُطاق ــ وإنْ كانوا فى أنفسهم وسجاياهم غير أشرار ، إلا أنّهم إذا جُذِبوا إلى الشّرّ وأُلجِئوا زادوا على الأشرار .

وقوله « شُهمُوا » أى هُيِّجُوا . ويقال : فرسٌ شَهْمٌ ، أى حديد نشيط ذكىّ ، ومنه الشَّيهَم (١) . ويقال شُهِمَ الرجلُ ، إذا ذُعِرَ أيضاً ، ويرجع فى المعنى إلى الأوّل (٢) .

٤ ــ فِيهِمْ ومنهم يعَدُّ الخَيْرُ متَلَّدًا ... وَلا يُعَدُّ نَثَا خِزْىٍ ولا عَارِ (٣)

٥ ــ لا ينطقون على الفَحْشاء إن نَطَقُوا ... ولا يُمَارُونَ إنْ مَارَوْا بإكثارِ (٤)

٦ ــ مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ التى يسرِى بها السّارِى

وصفهم بأنّ الخير مَرْجُوٌّ من جهتهم ، ومعدودٌ فى خصالهم قديماً وحديثاً ، وسَلَفاً وخَلَفا ، ولا يُعَدّ فى أفعالهم مايُخزِى ذِكْرُهُ ، والتّحدّث به ، أو يجلب عاراً عليهم لدَى الكشف عنه والتأمل له ، وذلك لخُلوص مناقبهم عمّا يَشِينُ ولا يَزِين ، وحُسْن قُصودهم فيما يتصرَّفون فيه فيتناولونَه بالنقض والإبرام ، ثمّ إنْ تَكلَّموا فليس عَنْ فحشاء يُضمِرونها ، ولا عَنْ نكراءَ ينطوُون عليها ، فكانت الأقوال توافق الضمائر وتقفوها ، والظواهر تطابق السرائر وتتلوها ، بل يُولُون الكلمة العوراء إذا أدركوها الغُفُولَ عنها ، والإغضاءَ عَلَى القذَى فيها ، تحلُّما وترفُّعا . وإن جاذبوا غيرهم وحُمِلوا على لَجَاجٍ فى نزاعِهم رُفِتَتْ نهايةُ جدالهم ، ونكّتُوا فيما يُدلُونَ به من حِجاجهم ، فقولهم فَصْل ، وإمساكهم قَصْدٌ وعَدْل ،

(١) الشيهم : الذكر من القنافذ .

(٢) قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : « لأنه إذا تفزع بدا ذكاء قلبه » .

(٣) التبريزى والبرد : « يعد المجد » .

(٤) وكذا عند المرزبانى . وفى التبريزى : « عن الفحشاء » . وبدله عن البرد :

* لا يظعنون على العميان إن ظعنوا *

لا إكثارَ ولا إسراف ، إذْ كان مَنْ أكْثرَ أهجَر ، ومن أسْرَفَ أفحش ؛ ولأنَّ عادتَهم الاقتصادُ فيما يخافون أداءه إلى القَبيح ، والامتدادُ إلى أبعد الغايات فيما يَحسُن مَسْمَعُه عند ذَوِى التَّحصيل .

وقوله « من تَلْق منهم » ، يريد أنَّ النباهة تَشمَلُهم ، فكلٌّ منهم يَتَّسِم بسيمَا الرِّياسة ، ويتصوَّر بصُورةِ السِّيادة ، وهم فى الاشتهار والتَّميُّز عن طوائفِ النَّاس كالنُّجوم المعروفة النيِّرة ، التى يهتدى بها السابلةُ والمارّة ، ويتفقَّد المعرفةَ بها فى طُلوعها وأُفولها أُولو النِّحل والمُمارَسات .

وقوله « فيهم ومنهم يُعدّ الخير متَّلدا » يريد ما يَلزَمهم من الخصال وما يتعدّاهم . وانتصب «متّلدا» على الحال . ويقال : تَلِد وأتْلَدَ بمعنًى . والنَّثا يستعمل فى الخير والشر ، والثناء يستعمل فى الخير لا غير ، ويقال : نثا الخَبرَ ينثوه نَثْوًا .

٦٩٣

آخر :

١ ـ رَهَنْتُ يَدِى بالعَجز عن شُكر برِّه ... وما فَوقَ شُكرى للشَّكُورِ مزيدُ

٢ ـ ولو أنَّ شيئا يُستَطاعُ استطعْتُه ... ولكنَّ ما لا يستَطاعُ شَديدُ

يقول : غَمرنى بِرُّه وعَجزَّ حَوامِلى نِعَمُه ، فاعترَفْتُ بالقصور ، والقُعودِ عن الوفاء بأداء الفروض ، وجعلتُ يَدى مُرتَهَنةً بالعجز ، ولسانى معقولةً عن التصرُّف فى الشُّكر ، وإن كان لا مَزيدَ على ما أتولَّاه منه لمُبالغٍ فى الحمد ، ولا فَوقَ اجتهادى غايةٌ يَرتقى إليها فى النَّشر والثَّناء مُرْتَقٍ ؛ فإنى لم أُوتَ من تَقصير يَلْزُنى ، أو إقصاء مع قُدرةٍ يدفعنى ، ولكن لكون مِنَنه مُعجزةً غيرَ داخلةٍ تحت استطاعتى ؛ وما لا يُطاقُ تحمُّله نَيِّع ، والنُّهوضُ به عَسِرٌ شديد .

٦٩٤

وقال الحُسَيْن بن مُطَيْر[1]:

١ – له يَوْمُ بُؤسٍ فيه للنّاس أبْؤسٌ ويَوْمُ نَعِيمٍ فيه للنّاسِ أَنْعُمُ

٢ – فيَمطرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كَفِّهِ النّدَى ويَمطرُ يومَ البأس مِن كَفِّهِ الدَّمُ

٣ – ولو أنّ يومَ البأسِ خَلَّى عِقابَه على النّاسِ لم يُصبِحْ على الأرضِ مُجْرِمُ[2]

٤ – ولو أنّ يَوْمَ الجود خَلى يَمينَه على النّاسِ لم يُصبِحْ على الأرض مُعْدِمُ

يقول: أيّامُ هذا الممدوحِ مُقتَسمة بين إنعامٍ وانتقام، مِنْ إحياء وإهلاك، وإفضال وإعدام، فله يومُ بؤسٍ يَشقى بهأعداؤه، ويوم نعيمٍ يَحيا به ويَسعدُ أولياؤه، فيومُ جوده يَعمّ نداه مؤمّليه وفاتَه، ويومُ بُؤسه يَعمّ إهلاكه مُنابذيه وحُسّادَه، ولو أرادَ فى اليوم المخصوص بالانتقام أن يجعَلَ عقابَه مُخَلى يتناولُ طبقاتِ النّاس، لم يبقَ فى الأرض مجرمٌ ولا حَسودٌ يُضمِر سوءًا له، ولكن أَبَى عَفوُه إلاَّ إبقاء؛ كما أنّه لو خَلّى يومَ جوده مَنافعَ يمينه تعمّ طوائفَ الخَلْق لم يَبقَ فى الأرض فقير، ولكن أبى ذلك بُعدُه عنهم، وقُصورُ معرفته بهم.

ويجوز أن يكون المراد بقوله «لم يصبح على الأرض مجرم» أنه كان يُغْنى الخَلْق حتى لا يبقى مجرمٌ وغيرُ مجرم.

---

(١) التبريزى: «الأسدى». وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٣١٩ ص ٩٣٤.

(٢) التبريزى: «خلى عينه».

٦٩٥

وقال أبو الطَّمَحَانِ [(١)] :

١ ـــ إذا قيل أىُّ النّاسِ خيرٌ قبيلةً وأصْبرُ يوماً لا تُوارَى كواكبُهْ [(٢)]

٢ ـــ فإنَّ بَنى لَأْمِ بنِ عمْرٍو وأَرُومَةٌ سَمَتْ فَوْقَ صَعْبٍ لا تُنالُ مَرَاقِبُهْ [(٣)]

٣ ـــ أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوهُهم دُجَى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُهْ

يقول : لو عُمِّمَ النّاسُ بالسؤال عنهم فقيل أيُّهم خير أصلا وسلفاً وأيُّهم أصبر يوماً ومشهَداً تُرى كواكبُه ظُهراً ، لكان يَجيء فى جواب هذا السؤال : بنو لأم ابن عمْرو ؛ ولأنّ لهم مَنصِباً عالاشرفا باذِخا ، وعزّاً شامخا لاتُدركُ مَراقبُه ، ولا تنال مَطالعه . والغَرَض من الجملة تفضيلُهم على جميع الخَلْق . والأرومة : الأصل الثّابت الراسى . وانتصب « قبيلة » ء التمييز ، وكذلك « يوما » . ويَعنى بذكراليوم الوَقَعات والحُروب . وعلى ذلك قولهم : يوم جبَلَةَ ، ويومُ الكُلاب وماأشبههما . وقوله «لا تُوارَى كواكبه» إن شئت فتحتَ فرويتَ : « لاتَوَارى كواكبه» ، والمعنى لا تتوارى كواكبه ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً . ومعنى «لاتُوَارَى» بضم التاء لا تُستر، والأصل فى هذا ، وهو يجرى مجرى الأمثال ، يومُ حليمة ، وذلك [(٤)] أنَّه سُدَّت عين الشّمس فى ذلك الغُبار الثّائر فى الجوّ فرُئيت الكواكب ظُهراً ، فقيل : « ما يومُ حلِيمةَ بِسِرٍّ » ، وصار الأمر إلى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٧٨ ص ١٢٦٦ . وعند التبريزى : « واسمه شرقى بن حنظلة » . ونسبة الشعر إلى أبى الطمحان هى كذلك فى الكامل ٣٠ ليبسك والوساطة ١٥٩ . ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٣ : ٩٣) إلى لقيط بن زرارة .

(٢) كذا ضبط بضم التاء فى النسختين ، ويصح أن يقرأ بفتحها على حذف إحدى التاءين كما سيأتى فى الشرح .

(٣) فى الأصل « مناقبه » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٤) ل : « وذاك » .

أنْ قيل فى التوعُّد : لأُ رِينّك الـكوا كبَ ظُهْرا . وأصلُ الصّبر حبسُ النّفس على الشّرّ ، لذلك قيل : قُتِـل فلانٌ صبرا .

وقوله : «سَمَتْ فوق صَعْبٍ » ، يريد : فوقَ جبلٍ صعب يَشُقُّ الارتقاء إليه . والمَرَاقب هى المَحَارس ، واحدتها مَرْقَبة ، وكل ذلك أمثال .

وقوله « أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم » ، يريد طهارة أنفسهم ، وزَكاء أصولهم وفروعهم ، فهُم بِيضُ الوُجوه نَـيِّرُو الأحساب ، فَدُجَى ليلهم تَنـكَشِفُ مِنْ نود أحسابهم ، حتّى أن ثاقِبَـهُ يُسهِّـلُ نَظمَ الجَزْع فيه لناظمه ، وهذا مَثَلٌ أيضاً . والهاء من « ثاقبه » يعودإلى ما دلّ عليه قوله « أضاءت لهم أحسابهم » ، والثُّقوب : الإضاءة ، ويقال : نار ثاقبة ، وكوكب ثاقب ، [وحَسَبٌ ثاقب(١)] ، وقد ثَقَبَ أى اشتدّ ضوءه وتَلأْلُؤُهُ . ومعنى نظّم حمل على النـّظْم وأَقْدَرَ ، فهو بمعنى أنظم . ومثُله كَرّم وأكرم . والضمير من « ثاقِبُهُ » يدل على ظاهره صدرُ البيت ، فهو مثل قولهم : مَنْ كذَبَ كان شرًّا له ، ومن صَدَقَ كان خيراً له ، يريد كان الـكِذب وكان الصِّدق ، فـكذلك هذا ، كـأنّه قال : حتى نَظّمَ ثاقبُ حَسَبِهِم الجَزْعَ لناظِمِه .

٦٩٦

وقال آخر (٢) :

١ ــ يأيها المُتَـمَنِّى أن يَـكونَ فتًى مثلَ ابن زيدٍ لَقَدْ خَلّى لَكَ السُّبلا(٣)

(١) التـكملة من ل .

(٢) التبريزى : « وتروى لمحمد بن بشير الخارجى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٦٩ ص ٨٠٨ .

(٣) فى الأصل : « ان تـكون » ، والوجهان صحيحان .

٢ ـ اعدُدْ نظائرَ أخلاقٍ عُدِدْنَ له ... هل سَبَّ من أحدٍ أو سُبَّ أو بَخِلا(١)

يقول: يا من يَوَدُّ ويشتهى أن تكونَ فتوّتُه مثلَ فتوّة عُروة بنِ زيدِ الخيل، لقد خلَّى لك الطُّرُق فى اكتساب مناقب الفتوّة وادّخار أسبابها ومُوجباتِها، فاسعَ واطلبْ، لأنّ مَباغِيك إن قَدَرْتَ مُعرِضَةٌ لك، وغيرُ ممتنعة عليك، وسُبُلُها غير مُنْسَدَّةٍ ولا محجوبة عن ذهابِكَ واختراقك، ثم قال: هاتِ خصالك واعدُدْ نظائرَ أخلاقِه المعدودة له، وانظرْ هل أنتَ فى اشتمال الكرَم والتحاف العزّ بحيثُ لا تَسُبُّ أحدًا تَعَلّيًا وارتفاعَ منزلة، وفى نقاء الجَيْب وطهارة الأصل والفَرْع بحيثُ لا يَسبُّك أحد توقّيًا وتعفُّفًا، وهل تقِفُ موقفًا تبعد فيه وتتنزّه عن أن يُقالَ: ما بَخِلَ بما فى يده، ولا مَنَع أحداً على رجائه به، فإنّه حينئذٍ يَبِينُ لك تفاوتُ ما بينك وبينه.

٦٩٧

وقال آخر:

١ ـ لم أرَ مَعْشَرًا كبنى صُرَيْمٍ ... تَلُفُّهُمُ التهائمُ والنُّجُودُ(٢)

٢ ـ أجَلَّ جَلالةً وأعزَّ فَقْدًا ... وأقْضَى للحقوقِ وهم قُعُودُ(٣)

٣ ـ وأكْثَرَ ناشئًا مِخْرَاق حَرْبٍ ... يُعينُ على السِّيادَةِ أو يَسُودُ

---

(١) قال التبريزى: وفيها:

إن تنفق المالَ أو تَكَلَّفْ مَساعِيَه ... يصعُبْ عليك وتفعلْ دون ما فعَلا

لو يُبعَثُ الناسُ أدناهم وأبعدهم ... فى ساحةِ الأرض حتى يحرثوا الإبلا

كى يطلبوا فوق ظهرِ الأرض لم يجدوا ... مثل الذى غيّبوا فى بطنِهِ رجلا

وفى اللسان: «حرث الإبل والخيل وأحرثها: أهزلها».

(٢) الأبيات رواها القالى فى أماليه (١: ٢٣) ورواية الأول: «فلم أر هالكا كبنى صريم».

(٣) القالى: «وأقضى للأمور».

قوله « تَلُفُّهُمُ التهائمُ » أى تجمعهم ، وانتصب « جلالة » على التمييز ، وكذلك قوله « قَعْدًا » ، ولا يجوز أن يكون مصدرا ، أعنى قوله جلالةً ، لأنَّ أفعل هذا لا يؤكَّدُ بالمصدر ، فهو من باب شعرٌ شاعِرٌ وموْتٌ مائت ، لأنَّ أصلَه مأخوذ من جلالٍ جليل . وانتصب «أجلَّ» بفعلٍ مضمر ، كأنه قال: لم أرَ أجلَّ جلالةً منهم ، ولكنه اختصَر وحَذَفَ . وقوله « تَلُفُّهُمُ التَّهائم » موضعه نَصبٌ لأنَّه صفة لقوله مَعْشَرًا ، والتقدير : لم أر معشراً تلفُّهم الأغوار والأنجاد كبنى صُرَيْمٍ ، ولم أرَ أجلَّ جلالةً منهم أيضاً . وتِهامَةُ من الغَوْرِ ، بل هو أعمقُها . ثمَّ بَيَّنَ ما فَضَلَهم فيه بعد أن أبهم ، وفَصَّل ما أجمل ، فقال : هم أتمُّهم رياسةً وأفخمُهم فخامة ، وأشدُّهم على النَّاسِ قَعْداً ، وأحسنُهم فى قضاء الحقوق الواجبة عليهم أداءً ، هذا وهُم قعود . وإنما قال ذلك لأنَّ الرئيس ينفذُ أمرُه فى مَطالبه وإنْ لم يبرح مكانَه . و « أعزَّ قَعْداً » ، يريد شدَّة حاجةِ النَّاس إلى حياتهم ، لوُفور فضائلهم وإفضالهم .

وقوله « وأكثر ناشئا » يريدُ به الشابَّ المبتدئَ فى اكتساب ما يَعتَلِى به وَيَفُوق أقرانَه . وانتصاب « ناشئا » على التمييز . والمِخْرَاق : بناء الآلة ، فهو كالمِفتاح ، يريد أنَّه يتخرَّق فى الحرب ويسعى سَعياً بليغاً . وأصل المِخْراق هو ما يَتلاعبُ به الصِّبْيان مِن منديلٍ يَفتلونه ، أو زقٍّ ينفخونه ، أو ما يجرى مَجراها . وسُمِّى مِخراقاً لأنه يَخرِق الهواءَ فى استعمالهم إيَّاه لذلك قال :

* كأنَّ يدِى بالسَّيفِ مِخْرَاقُ لاعبِ (١) *

وقوله « يُعينُ على السِّيادة أو يَسُود » جمعَ بين الأمرين ، وذلك لأنَّ

(١) فى الأصل : « كأنه مخراق لاعب » صوابه فى ل . والبيت لقيس بن الخطيم فى ديوانه ١٣ ليبسك . وصدره :

* أجالدهم يوم الحديقة حاسرا *

الفضلاء إذا قسِّمُوا ودُرِّجوا فى مراتبهم فهم [من (١)] بين سَيِّدٍ يقوم بنفسه ويكمُل بخصاله ، ومِن بينِ مُعينٍ على السِّيادة يصلح لأن يكونَ تابعاً لا متبوعاً ، ومَسُودًا لا سيِّدا .

٦٩٨

وقال شُقْرانُ مولَى سَلَامان (٢) :

١ ـ لو كُنْتُ مولى قَيسِ عَيْلَانَ لم تَجِدْ   علىَّ لإنسانٍ من الناس دِرْهَمَا (٣)

٢ ـ ولـكِنَّنِي مَوْلَى قُضاعَةَ كلِّهَا   فلستُ أُبَالِي أنْ أدِينَ وتَغرَمَا

يقول : لو كان ولائى فى قيس عَيْلَانَ لاقتديتُ بهم ، واستَنَنْتُ بسنَّتهم فى الكفِّ عن الإنفاق ، وحَبْس النَّفس على شرائط الانقباض والإمساك ، فكنتُ أُرَى خفيفَ الظَّهر فى جميع ما يَعرِض ، فسيحَ الصَّدر بكل ما يَعِنُّ ويَسنح ، لم يَركبْنى دَيْنٌ فأُستَنزَل (٤) ، ولا عِبْءٌ على قلبى من مُتَقَاضٍ فأتضجَّر ، لكنْ ولائى فى قُضاعة كلِّها فأتبسَّط فى أخْذ القروض إذا استغرقَتْ مِلْكَ يمينى ، وأتوسَّعُ فى إضافة ما لغيرى إلى مالِى ثقةً بأنهم يتحملون عنِّى الأثقال إذا استحملتُهم ،

(١) هذا من ل .

(٢) التبريزى : « مولى سلامان من قضاعة . شقران علم مرتجل ، وقد يمكن أن يكون جمع أشقر كأحمر وحمران ، وأصلع وصلعان ، غير أنا لم نسمعه إلا علما ، فأما سلامان فشجر واحدته سلامانة . وأما قضاعة فعلم مرتجل ، وهو من قولك تقضع القوم ، إذا تفرقوا » . وشقران : شاعر كان معاصراً لابن ميادة من شعراء الدولتين ، وكان بينهما مهاجاة . الأغانى (٢ : ٢٠٢ ـ ١٠٤) .

وهم بنو سلامان بن سعد هذيم بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

والأبيات نسبها الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٠٩) إلى ثروان ، أو ابن ثروان مولى لبنى عذرة . وأنشدها فى (١ : ١٠٨) بدون نسبة . ووردت فى شرح سقط الزند ٩٩١ منسوبة إلى شقران .

(٣) فى البيان (١ : ١٠٨) : « على لمخلوق » .

(٤) المراد بالاستنزال المطالبة بالدين ، فى الأصل : «فيستنزل» . والأوفق ما أثبتنا من ل .

وأنَّهم يعدُّون الغَرامة غُنْماً إذا أحلَتُ عليهم (١) ، فلا أبالى كيف تخرَّقت ، وفى أى وجه من وجوه البر أنفقتُ ، وإن كانت معلومةً من لازم حقٍ أؤدِّيه ، وعارضِ مَكْرُمَةٍ أوفِّيه ، إلى كلِّ ما يكون التبجُّح به مشترَكا ، واكتسابُ الفَخر والأجْر فيه مُشتَملا .

وقوله « فلست أبالى » أصله من البلاء النعمة ، وقد تقدَّم القولُ فى شرحه وما حَصَل بالاستعمال عليه (٢) .

٣ – أولئكَ قَومى باركَ اللهُ فيهمُ على كلِّ حالٍ ما أَعَفَّ وأَكرَما (٣)

٤ – ثِقَالُ الجِفانِ والحُلومِ رَحَاهمُ رَحَى الماء يكتالُون كيلاً غَذَمْذَمَا

٥ – جُفَاةُ المَحَزِّ لايُصيبونَ مَفْصِلاً ولا يَأكلون اللَّحمَ إلَّا تَخَذُّمَا

أشار بقوله « أولئك قومى » إلى قُضاعة (٤) ، ثم أخبرَ عنهم بأنَّهم كثروا وطابوا ونَمَوا بما جعل الله من البركة فيهم ، فازدادوا . وقوله « على كلِّ حال » تَعَلَّقَ بقوله « بارك الله فيهم » ، ومَوْضعه من الإعراب نصبٌ على الحال ، أى بارك الله فيهم متحولينَ فى إبدال الدَّهر وتصاريفه من عُسْرٍ ويُسْرٍ ، وسَعَةٍ وضِيقٍ ، وقِلّة وكثرة ، وانحطاط وارتفاع . ثمَّ قال مستأنِفاً : ما أعفَّهم وأكرمَهم ، أى تمَّت عفَّتهم ، وكَمُلت أُكرومتُهم فى حالتى الإعسار والإيسار ، والإضافة والإيساع ، والإقلال والإكثار .

وقوله « ثِقال الجفان » أى هم مطاعيم فى الخِصْب والجَدْب ، فجفانُهم ثقيلة ، وأفنيتهم بالوُرّاد والطُّرّاق مأهولة معمورة ، وحلومُهم ثابتة قائمة ، لايستخفُّها

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « أحملت عليهم » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٧١ ، ٢٠١ .

(٣) البيان : « أولئك قوم » ، وأشير فى هامش نسخة فيض الله منه إلى رواية «قومى» .

(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أى قضاعة » .

جَزِع ، ولا يُطغيها فرَح ؛ وتَرَى رَحاهُم لكثرةِ غاشيَتِهم وحشَم دُورِهم ، رحى الماء ، إذْ أَبى[١] الاكتفاء بيسير الزّاد مع العدد الجمّ ، والخير الدَّرّ ، والنِّعَم الغَمْر ، وإذْ كان سائرُ الأرحاء لا يُسْتَغنَى بها ، ولا يَفِي بالمطلوب [منه[٢]] دَوَرانها ؛ ثم إذا كالُوا اكتالوا واسعاً لا استقصاءَ فيه ولا مضايقةَ ، فهو يَجرى مَجرى ما يُهالُ هَيْلاً ، أَوْ يُؤخَذ جُزافاً لا كَيْلاً . والغَذْم : الأكل بسرعة ، ومنه الغَذَمْذَم . وإنْ حضَرُوا مَقْسِمَ الجُزُرِ وتكرَّمُوا بتولّى قَسْمِها ، وَجَدْتَهم يُوسِعون الحزّ ، ويُخطِئون المَفصِل ، إذ لم يكن فِعلُ ذلك من عادتهم وطبائعهم ، لكونهم ملوكاً ، ولأنهم متى تأخّر الخدَم عنهم لم يُحسِنُوا التصرُّف فى شىء من وجوه المِهَن ، ولادَرَوا كيف تُسْلَخُ الجُزُرُ وتُقتسم الأبداء[٣] ، وإذا أكلوا اللحم على موائدهم لم يتناولوه إلا قَطْعاً بالسّكاكين ، لا نهشا بالأسنان ، إقامةً للمروءات ، وذهابا عن شنيع العادات .

وقوله « إلّا تخذُّما » انتصب تخذُّما على أنّه مصدرٌ فى موضع الحال . والخَذْم : سرعة القطع ، وفى التخذُّم زيادةُ تكلُّف . ويقال : سيف خَذُوم ومِخذَم . وقوله « يكتالون كيلا » وضع كيلا موضع الاكتيال ، كما وضع النّبات موضع الإنبات ، فى قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَنبَتَكم من الأرضِ نباتاً ﴾ .

٦٩٩

وقال أبو دَهْبلٍ الجُمَحىّ[٤] :

١ ــ إنّ البُيوتَ مَعادِنٌ فنِجارُهُ ذَهَبٌ وكلُّ بيوتِه ضَخْمُ

(١) فى النسختين : « إذ أتى » تحريف .

(٢) التكملة من ل .

(٣) الأبداء : جمع بدء ، بالفتح ، وهو النصيب من الجزور . ل : « وتنقسم » . وقال الجاحظ فى البيان : يقول : « هم ملوك ، ولهم كفاة ، فهم لا يحسنون إصابة المفاصل » .

(٤) زاد التبريزى : « قالوا : يمدح النبى صلى الله عليه وسلم » . وقد سبقت ترجمة أبى دهبل فى الحماسية ٢١: ص ١٣١٩ .

٢ ـ عُقِمَ النِّساء فما يلدْنَ شبيهَهُ إنَّ النِّساءَ بمثله عُقْمُ
٣ ـ متهلِّلٌ بِنَعَمْ ، بِلا متباعِدٌ سِيَّانِ منه الوَفْرُ والعُدْمُ
٤ ـ نزْرُ الكلامِ من الحياء تخالُهُ ضَمِناً وليس بجسمه سُقْمُ

المعادن : جمع المعدِن، وهو مِنْ عدَن بالمكان إذا أقام عدْناً وعُدُوناً ، وقيل : بل هو من قولهم عدَنْتُ الحجرَ ، إذا قلعته ، لأنَّ المعدِن يُقلَع منه ما ضُمِّن، ويُرتَجَع منه ما أودع . وفي القرآن : ﴿ جنَّات عدْن ﴾ ، أي جنات إقامة والمراد أنَّ بيوتَ النَّاس وأصولهم مختلفة المَسْبَر ، متفاوتة المَخْبَر، تتفاضَلُ تَفاضُلَ المعادن ، ونجار هذا الرَّجلِ أفضلُ النَّجرِ فهو كالذَّهب الإبريز . ويقال : هو من نَجْرٍ كريم ونِجارٍ كريم ، أي أصل كريم . وقوله « وكلُّ بيوتِه ضخم » أي [هو[1]] من أطرافه : أعمامِه وأخواله ، عظيمُ الشَّأنِ نبيهٌ . وإنما قال ضَخْمٌ لأنَّ المراد بكلٍّ الاتِّحاد ، أي كلُّ واحدٍ من بيوته . ومثْل كلّ « كِلاَ » لأنَّ كُلاًّ يراد به مرةً الجميع ومرة الاتحادُ ، وكذلك كِلاَ يُرادُ به مرّةً التّثنية ومرة الاتِّحاد . وقد ذكرت أمرها مشروحاً في غير هذا الكتاب .

وقوله « عُقِمَ النِّساء » أصل العَقْم المنع ، ويقال : عُقِمَت المرأة وعُقِمت الرَّحِمُ عُقْماً بضم العين فعَقِمَتْ ، وهي معقومة بناء على عُقِمت ، وعقيم بناءً على عَقِمتْ ، ولهذا يجمع عقيم على عُقم ، لأنَّه فعيل بمعنى فاعل ، ولم يُلحَقْ به الهاء للمؤنَّث لأنَّ المراد به النِّسبة ، فهو كقولهم طالق وحائض . ولو كان عقيم كريح وصريع في أنَّه فعيل بمعنى مفعولةٍ لوجَبَ أن يقال في الجمع عَقْمَى ، كما قيل جَرْحَى وصَرْعَى . ويقال : رجل عقيم ، وريحٌ عقيم ، والدُّنيا عقيم ، والمُلْك عَقيم .

ومعنى البيت أنَّ هذا الرجل لا شبيهَ له فَضلاً وتفضلاً ، وكمالاً وتبرُّعاً ،

(١) التكملة من ل .

لأنَّ النساء مُنِعْنَ أنْ يأتين بمثله فعقِمْن ، أى صرن كذلك .

وقوله « متهلل بنَعَمْ » ، يريد بلفظ نعم . وجعل نَعَم اسماً ، أى هو بَشٌّ طَلْقُ الوجه قريب المأخذ ، مُجِيبٌ فيما يُسأل ، وعِند كلِّ ما يُطلَبُ منه ويُقترح عليه ، بقوله نعم ، وهو متهلِّل ، أى ضاحك مستبشر . قوله « بلا متباعد » أى يتباعد عن كلِّ أحدٍ بأن يَصُكَّ فى وجهه فيما يُطلَبُ نيله منه بأنْ يقول لا ، و«لا» جعله كالاسم . فنَعَمْ لأنه اسمُ الإسعاف ، وَلا كأنَّه اسم المَنْع والدِّفاع .

وقوله « سِيَّان منه الوَفْرُ والعُدْمُ » أى مِثْلَان عنده الغِنى والفقر لايخِلُّ بالمعهود منه ، ولا يترك عادَتَه فيه .

وقوله « نَزْرُ الكلام من الحياء » ، أى هو قليلُ الكلام حتَّى كأنَّه مُلْجَمٌ لغَلَبة الحياء عليه ، وحتَّى يَظُنَّ مَن لا يعرِفُه أنَّه لِآفةٍ يترُك الكلامَ ، ولا آفةَ ثَمَّ ، إنما مانِعُه ما يمتلكه من حَياءٍ ممتزجٍ بالكرم ، ولقلَّة رضاه عن نفسه فى كلِّ ما يَرْتئيه أو يأتيه ، إذْ كانت طباعه لا ترضى عنه بشىء يبلغه ، فالحياء يُمْسِكُه ، والكَرَم يُسكِتُه ، لا تمُّدُّ منه ولاتبجُّح ، وَلا تَسَحُّبَ ولا تَعَلِّيَ .

ومثل هذا قولُ الآخر(١) :

* راحوا تخالُهُمُ مَرْضى من الكَرَمِ(٢) *

والضَّمِنُ : الزَّمِنُ ، ومصدره الضَّمانة .

---

(١) هو الشمردل . الحيوان (١ : ٩١) .

(٢) صدره * إذا جرى المسك يندى فى مفارقهم *

٧٠٠

وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّة (١):

١ – يا أَيُّها السَّدِمُ المُلَوِّى رَأْسَهُ   لِيَقُودَ من أهلِ الحِجازِ بَرِيمَا(٢)

السَّدِم والسَّادم: النَّادم الحزين، وقيل بل السادم مأخوذٌ من المِياهِ الأسدام، وهى المتغيِّرة لطول المُكث. والسَّدِم أيضاً: الفحل العظيم(٣) الهائج. والسَّدِم أيضاً: اللِّهِجُ بالشَّىء. وحكى أبو حاتم قال: قلتُ للأصمعى يوماً: إنَّك تحفظ من الرَّجَزِ مالم يحفظه أحد. فقال: «إنَّه كان هَمَّنَا وسَدَمنا». والبيت يحتمل الوجوه الثلاثة فيه. و «المُلَوِّى رأسَه» يجوز أن يكون مثلَ قول الآخر(٤):

..... غارزًا رأسه * فى سَنَةٍ(٥) .....

والمراد: كأنَّه مَلَكَهُ التحيُّر فهو يلوِّى رأسَه. وتَلوِيَة الرأسِ كما يكون من الفِكر والتحيُّرِ فقد يكون من الكِبْر والتجبّر، وقلةِ الاحتفال بالمحتضِر(٦)

(١) هى ليلى بنت عبدالله بن الرحالة بن كعب بن معاوية، ومعاوية هو الأخيل بن عبادة، من بنى عقيل بن كعب. وكانت أشعر النساء لا يقدم عليها غير الخنساء، وهى صاحبة توبة بن الحمير، وكان بينها وبين النابغة الجعدى الصحابى مهاجاة، ولها رثاء فى عثمان بن عفان. ودخلت على عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال لها: ما رأى فيك توبة حين هويك؟ قالت: ما رآه الناس فيك حين ولوك! فضحك عبد الملك. وسألت الحجاج أن يحملها إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فحملها البريد، فلما انصرفت ماتت بساوة فقبرت بها. الشعراء ٤١٢ — ٤٢٠ والخزانة (٣: ٣١ – ٣٤) وفوات الوفيات (٢: ١٧٥ — ١٧٧) والأغانى (١٠: ٧٦ — ٧٩).

(٢) كذا فى النسختين، ووجه «القِطَمّ». انظر اللسان (سلام).

(٣) فى أمالى القالى (١: ٢٤٨) أن الأصمعى كان يرويها لحميد بن ثور الهلالى. وانظر تنبيه البكرى ٧٨.

(٤) هو ابن زيابة التيمى. انظر ص ١٤٢.

(٥) قطعة من بيت هو مطلع حماسية ابن زيابة. وهو بتمامه:

نبئت عمرا غارزا رأسه   فى سنة يوعد أخواله

(٦) المحتضر: الحاضر، يقال حضره واحتضره وتحضره. وهذا ما فى ل. وفى الأصل: «بالمختصر»، تحريف.

كقوله تعالى: ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ﴾ فالنَّغضُ كالتَّلوية وإن كان النَّغضُ أقرب إلى الحقيقة.

وقولها «ليقودَ من أهل الحجاز بَريما»، فأصل البَريم خيطٌ يُفتَل من قُوًى بيضٍ وسود. ويقال: قَطيع بريم، إذا كان فيه خِلطانِ ضأنٌ ومِعزَى. وقال الدُّريديّ: كلّ لونين اجتمعا مثلَ السَّواد والبياض فهو البريم، وإنما يتخذون البريم من الخيوط ليشَدَّ في أحْقى الصِّبيان فيُدفَع به العَين. والمراد به هنا جيشٌ متفاوتون أدنياء، كالبريم وهو الخيط المُبرم من عِدّة ألوان. والقَصدُ فيما ذكرَتْه إلى الإنكار على المخاطَبِ فيما يأتيه، وتوبيخه فيما حدَّث به نفسه من قَوْدِ جيشٍ إلى عمرو بن الخليع، كما وصفَتْه.

٢ ـ أتريدُ عمرو بنَ الخليعِ ودونَهُ كعبٌ إذًا لَوَجدْتَهُ مَرْءوما

٣ ـ إنَّ الخليعَ ورَهْطَه في عامرٍ كالقَلْبِ أُلبسَ جُؤْجُؤًا وحزيما

تقول مقرِّعة ومقبِّحةً لما أنكرَتْه من مُخاطَبها ومُوبِّخة: أتقصد بما هممت به من جَمْع الجموع الحجازيّة عمرو بن الخليع وحوله بنو كعب، إذًا لوجدته معطوفًا عليه، محروسا منكَ ومن لفيفك. أما علمت أنَّ الخليعَ وعشيرته من بني عامرٍ بمكان القلبِ من النَّفس، قد التفَّ به الصَّدرُ والحزيم، وحَماهُ الحَشا والجَوفُ.

والحَزيم والمحزِم: موضع الحِزام من الصَّدر. يقال للرَّجُل إذا أُريد تشمُّرُه: شدَّ حزيمك للأمر، وحيازيمك وحَيزومك. والحَيزوم: وسط الصدر. والمعنى: أنَّ مكانه من الحَيّ مكين، ومحلَّه من جانب المنع منه والدِّفاعِ دونَه عزيز مَصون. ويقال: رأمته أرأمُه رَأما ورِئمانا. والمعنى: كيف يقعُ في نفسك نِزاعُهم، أو يتَصوَّر في وهمك غَلَبهم.

ثمَّ أخذت تحذِّر فقالت: لا تغزونَّهم ولا تستشعرنَّ ذلك فيهم.

٤ ـ لا تَغزُوَنَّ الدَّهرَ آلَ مُطَرِّفٍ لا ظالِماً أبداً ولا مَظلوما(١)

٥ ـ قومٌ رِباطُ الخيلِ وَسْطَ بيوتِهم وأسِنَّةٌ زُرْقٌ يُخَلْنَ نُجُوما

٦ ـ ومُخَرَّقٌ عنهُ القميصُ تخالُه وَسَطَ البُيوتِ مِن الحياء سقيما

٧ ـ حَتى إذا رُفِعَ اللِّواءُ رأيتَهُ تحتَ اللِّواء على الخميس زَعيما

نهته عن غَزْوِهم على كلِّ حالٍ . وانتصب « ظالما » على الحال . فيقول لا تَقصِدْهم طامعاً فيهم ومحارباً لهم ، لا منتقما ولا مبتدئا ، فإنَّك لا تُطيقهم ، إذْ كان همُّهم الغَزْو ، ومَرْبِط خيولهم وَسْطَ بيوتهم ، يضمِّرونها ويتفرَّسون على ظهورها(٢) ، ولا يأتمنون عليها في سياستها وصَنْعتها(٣) إلّا أنفسَهم ، فلا ترى إلَّا مَن يهذِّب آلتَه للحرب ويُصلِحها ، فمَركوبُه صنيع ، وسِنانُ رمحِه مَجْلوٌّ سَنين ، ونفسُه مُبتذَلَةٌ فيما يحصِّل به أُكرومةً ، لا يهمُّه مطعومٌ ولا مَلبُوسٌ . ثمَّ لفرط حيائه وتناهي كرمِه تحسبه وسطَ بيوتِ الحيِّ سقيماً ، لِقلة كَلامٍ ولين جانب ، وضَعفَ مجاذَبة ، فإذا نُصبَ لواءُ الجيش مجهَّزاً لِطَلَبِ وِتْرٍ ، وانتواء غَزو ، أوْ محاماة على وليّ ، أوْ سدِّ ثغر ، رَأيتَه مهيَّأً للزَّعامة ، معتمَداً للرِّياسة والسِّياسة ، غيرَ مزَاحَمٍ ولا مدافَع .

٧٠١

وقال آخر(٤) :

١ ـ نحنُ الأخايلُ لا يَزالُ غُلامُنا حَتَّى يَدِبَّ على العصَا مَذْكُورَا(٥)

(١) سيبويه (١ : ١١١) والعيني (٢ : ٤٩) : (لا تقربن) . واستظهر البكري في التنبيه ٧٩ أن يكون صواب الرواية : « لا ظالماً فيهم » .

(٢) يقال : هو يتفرس ، إذا كان يرى الناس أنه فارس على الخيل .

(٣) صنعة الخيل : حسن القيام عليها وتعليفها وتسمينها . في الأصل : (ومنعتها) ، صوابه في ل .

(٤) هو ليلى الأخيليــة ، كما في البيان (٣ : ٨٧) والأغاني (١٠ : ٧٦) . وفي اللسان (خيل) : « ويقال : البيت لأبيها » .

(٥) في الأغاني : « مشهوراً » .

٢ - تبكى السُّيوفُ إذا فَقَدْنَ أكُفّنَا جَزَعاً وَتَعلَمُنَا الرِّفاقُ بُحُوراً[١]

ولَنَحْنُ أوْثَقُ فى صُدورِ نِسائِكمْ مِنكمْ إذا بَكَر الصُّراخُ بُكُورا

الأخايل جمع، وهى قبيلتها. ويقال للشَّاهِينِ الأخْيَل، والجميع الأخايل فأمّا قول الشَّاعر:

* لهُ بَعْدَ إدْلاجٍ مِرَاحٌ وأخْيَلُ *

فهو الخُيَلاء، والفعل منه اختال. ومراد الشاعر: نحن المعروفون المشهورون، كما قال أبو النَّجم:

* أنا أبو النَّجم وشِعْرِى شِعْرِى *

أى أصحاب هذا الاسم النَّبيه الخطير. ولا يزال غلامُنا أى الغلامُ مِنَّا وَفينا، مِن وقتِ ترعرُعِه إلى وقت دبيبه، معتمِداً على عُكازِه، رفيعَ الذِّكْر على الشَّأن تقدُّما وتكرُّما. والسُّيوفُ إذا فَقَدتْ أيدينا بَكَتْ حنيناً إليها، وجَزعا على مايفوتُها منها. والمرافقون فى الأسفار لنا تعلمُنا بُحوراً، لِمَا يُقْسَمُ لهم من إفضالنا، ويَعُمُّهم من تفضُّلِنا، ولحسْن توفُّرِنا على الرُّوَّاد والورَّاد، ويُمْنِ صُحبتِنا على الأدانِى والبُعداء.

وقوله «وَلَنحنُ أوثَقُ فى صدور نِسائكم»، يريد أنَّهنَّ إذا صُبِّحْنَ بالغارة فارتفعَ لِما يتداخلهُنَّ من الرُّعْبِ الصُّراخُ، لأنَّهن خِفْنَ السِّباءَ وما يَلْحَقُ من العار، فقلن: واصَبَاحاه أو واسُوءَ صباحنا! واسم ذلك الصَّوت الصرخة والصُّراخ. وفى المَثَل: «لهم صَرْخَةُ الحُبْلَى».

ومعنى البيت أنَّا فى ذلك الوقتِ أوثقُ فى اعتقاد النِّساء، وفيما يشتمل عليه

(١) الأغانى:

تبكى الرماح إذا فقدن أكفنا جزعاً وتعرفنا الرفاق بحورا

ظُنُونَهُنّ ويعتمِده استنامتهنّ مِنكم ، لما عَرَفْن من ذَبِّنا وحِمَايتنا ، واشتهرنا به من غَيرتنا وحَمِيَّتنا .

٧٠٢

آخر (١) :

١ – يُشَبَّهُونَ سُيُوفًا فى صَرَائمِهم وطُول أنْضِيَةِ الأعناقِ والأمَمِ (٢)

٢ – إذا غَدَا المِسْكُ يَجرِى فى مَفارِقهم رَاحُوا تخالُهمُ مَرضى من الكَرَمِ (٣)

يقال : شَبَّهتُه كذا وبكذا ، كما يقال نصحتك ونصحت لك . والصَّرائم : العزائم ، والواحدة صريمة . وقال الخليل : الصَّريمة إحكامك الأمرَ وعزمُك عليه . وكان أصله من الصَّرْم : القطع . والأنضِيَة : جمع النَّضِيّ ؛ وهو مركّب النَّصل فى السَّيف فى الأصل ، والمراد به هنا مرَكّب الرّأس فى العنق . وَنَضِيُّ السَّهْم : قِدْحُه ، وهو ما جاوز من السَّهم الرِّيشَ إلى النَّصل . وأنشد الخليل فى ذلك :

فَمَرَّ نَضِيُّ السَّهمِ تحتَ لبَانِه وجالَ عَلى وحْشِيِّه لم يُعَتِّمِ (٤)

والأمم : جمع أُمَّة وهى القامة ؛ يقال : ما أحسنَ أُمَّته . وقوله « راحُوا تخالُهمُ مَرضَى من الكَرَم » ، أى من الحياء . وصَفَهم بالصَّرامة والنَّفاذ فى

(١) هو الشمردل بن شريك اليربوعى ، شاعر من شعراء الدولة الأموية ، كان فى زمان جرير والفرزدق . الحيوان (٣ : ٩١) والشعراء ٦٧٥ والأغانى (١٢ : ١١٦) واللسان (نضا) . والبيتان بدون نسبة فى الكامل ٣٥ ليبسك والأمالى (١ : ٢٣٨) والعقد (٦ : ٢٢٨) .

(٢) الحيوان والشعراء : « يشبهون ملوكا من تجلتهم » ، الأمالى والكامل : « فى محلتهم » . الأغانى : يشبهون قريشاً من تكلمهم » . الكامل والأغانى والعقد : « واللمم» الشعراء : « والقمم » .

(٣) الحيوان : « إذا جرى المسك يندى » . الشعراء : « إذا جرى المسك يوماً » . الكامل : « إذا بدا المسك يندى » . وفيما عدا الحماسة : « راحوا كأنهم » .

(٤) للأعشى فى ديوانه ٩٣ واللسان (نضا) .

الأمور ، فكأنّهم السيوف ؛ وبطول القوَام وحُسْن الشَّطاط ، وباستعمال العِطر وكَرَم النَّفس وشِدَّة الحياء بعد الشُّرب ، وبتمام الأبَّهة والمُروءة في مجالس الأنْس. وهذا وَإنْ لم يصرِّح به فهو متبيَّنٌ من فَحوَى: إذا غدَا المِسك راحوا وكأنّهم مرضى . على ذلك رَسْمُ الاصطباح ، وعادةُ كِرَام شُرَّاب الرَّاح .

٧٠٣

وقال آخر :

١ — فإنْ تَكُن الحوادِثُ حَرَّقتْنِي ... فلَمْ أرَ هالِكاً كابْنَيْ زيادِ

٢ — هما رُمْحانِ خَطِّيَّان كانا ... من السُّمْرِ المثقَّفة الصِّعَادِ

٣ — تُهالُ الأرض أن يَطَئَا عليها ... بمثلِهما تسالم أو تُعادِي

يقول: إن كانت نوائبُ الزَّمان أثّرتْ فيَّ وأزالت تحمُّلي بالصَّبر[1] ، وتجلُّدي لِرَيْب الدَّهر ، فإنِّي لم أر فيمن شاهدتُهم هالكاً كهذين الرَّجُلين ؛ وابنَا زيادٍ لم يكونا منه بسبيلٍ ، لا قُرْبَى ولا قرابة ، ولا آصرةَ ولا وسيلة ، فيكون الكلام تأبيناً والشِّعر مرثِيَة ؛ وإنما كان من جملة مَن تأذَّى بهم ، وساقُوا الشَّرَّ إليه بسَعيِهم ، لكنَّه شَهِدَ لهُما بما شَهِد ، مُورِداً الحق ، وتابعاً الصِّدق ، فهو بالمدْح أشبهُ منه بالمراثي ، إذْ كان الرِّثاء من شرطِهِ التوجع والتَّحزُّن وقد عُدِما هنا ، والثَّناء على العدو ثناءٌ على نفسه . ويجوز أن يكون المراد : لي بهما على فَضْلهما ونفاذِهما وتقدُّمهما ، أُسوةٌ في الرِّضا بما قُدِّر لي ، والصَّبر على ما حُكِم به عليَّ ، ولأنَّ الأرضَ لو هابت ماشياً على ظَهرِها ، لكانت تهاب هذين لما أُوتيا من قُدرة ، وأُبلغا من عِزٍّ وقوة . وشبَّههما برُمحين استواءَ خلقةٍ وامتدادَ قامة ، وسُرعة

(١) ل : « تجمل الصبر » .

نفاذٍ وحُسنَ توجه . والسُّمرةُ فى ألوان الرِّماح محمودة . والصَّعْدَةُ : القناة تنبت مستويةً . وقوله « من السُّمر المثقفة الصِّعاد » . سوَّى بينها فى التَّشبيه حتَّى لامخالفةَ ، تنبيهاً على ما يُقصَد من المبالَغة وتناهِى البراعة .

وقوله « تُهَالُ الأرضُ أن يطَئَا عليها» أى لأن يطَئَا عليها ، فحذف حرف الجر . يريد : أنّ قوَّتهما بالغة ، ومَشيَهما شديد ، والأرضَ لشدَّة وَطْئهما لها فى هَولٍ عظيم ، وزَلْزَالٍ فظيع . ويجوز أن يريد بالأرض [أهل الأرض[1]] فحذف المضاف . ثم قال : وبمثلهما تُسالِمُ أو تُعادِى ، يريد أنَّهما أهلُ الصَّلاح والفَساد والخير والشَّرّ ، والعداوة والصَّداقة . و «أو» من قوله « أو تُعادى » أو الإباحة وقد نُقِل إلى الخبر .

٧٠٤

آخر :

١ ـ كريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ فَضْلَ حيائهِ ... ويَدنُو وأطرافُ الرِّماحِ دَوَانِ[2]

٢ ـ وكالسَّيفِ إنْ لايَنْتَهُ لانَ مَسُّهُ ... وحَدَّاه إنْ خاشَنْتَهُ خَشِنانِ[3]

يصفُه بأن خصالَ الكرم قد اجتمعت فيه ، فلِتَناهِى حيائه تراه يَنكسِر طرفَه عند النَّظَر ، فِعْلَ[4] مَن عَمِل ما يُستَحيا منه ، أو لزِمَه مِنَّةُ مُنعِمٍ توالَى نِعمُه عليه ، أو قصَّرَ فى أداء واجبٍ فيخاف عَتْبَهُ فيه ؛ ولكمال حَميَّته فى الحرب يقتحم على الشَّرّ ، فلا يزدادُ والرِّماحُ شارعةٌ نحوَه إلا قُرْباً منها ، وتهجُّماً عليها .

(١) التكملة من ل .

(٢) البيتان أنشدهما الجاحظ كذلك بدون نسبة . البيان (٢ : ١٧١) . ورواية الجاحظ : « عند حيائه » .

(٣) البيان : « لان متنه » .

(٤) ل : « نظر » .

ثم هو فى طباعه أنه السيف متى لاينتَه وجدتَ اللِّينَ فى صفحتيه[1] عند مَلمَسه ، ومتى خاشَنْتَهُ وجدتَ القطعَ والخشونةَ فى حَدَّيه ومَضْرِبه .

ومثل هذا قول الآخر[2]:

ضَرْباً تَرَى منه الغُلَامَ الشَّطْبَا[3] ... إذا أَحَسَّ وجعا أو كَرْبا

دنا فما يَزْدَادُ إلاَّ قُرْبا ... تَحَكُّكَ الجَرباء لاقَتْ جُرْبا

وَقد مَرَّت مستقصًى شرحُها فى باب الحماسة .

٧٠٥

وقال العُجَيْر السَّلُولى[4]

١ ـ إنَّ ابنَ عَمِّى لَابنُ زيدٍ وإنَّهُ ... لَبَلَّالُ أيْدِى جِلَّةِ الشَّوْلِ بالدَّمِ

٢ ـ طَلُوعُ الثَّنَايا بالمطايا وسابِقٌ ... إلى غايةٍ من يبتَدِرْها يُقَدَّمِ

افتخرَ بابنِ عمه ، وبمكانِه من قرابته ، ذاكراً اسمَ أبيه ، ومكتفياً به لاشتهاره ، ثمّ وصفَه بأنّه أوانَ الجَدْب والقحط ، وعند إسنات الناس ، ووقتَ طُروق الأضياف ، يُعرقِبُ الإبلَ السِّمان فيَبلُّ أيديَها من دماء عراقيبها .

وقد أَحسن لبيدٌ كلَّ الإحسان فى قولِه لما سلكَ هذا المسلك :

مُدْمِنٌ يَجلُو بأطرافِ الذُّرَى ... دَنَسَ الأَسْؤُقِ بالعَضْبِ الأَفَلّ

وقوله « طَلُوعُ الثَّنايا بالمطايا » يريد أنَّه يعلُو العِقاب ويُشْرِفُ عليها

---

(١) ل : « صفحته » ، بالإفراد .

(٢) هو عبد الرحمن المعنى . سبق فى ص ٦٠٣ .

(٣) روايته فيما سبق :

* ترى مع الروع الغلام الشطبا *

(٤) ل : « وقال آخر ، وهو العجير السلولى » . وقد مضت ترجمة العجير فى الحماسية ٣١١ ص ٩١٨ .

مرتبئاً فيها، أو نافضاً طرق الصّيد عليها. ومثله قولهم: طَلَّاعُ مَرْقَبة، وطَلَّاعُ أَنْجِدَةٍ. إلّا أنّ هذا زادَ على ما قالوا لقوله «بالمطايا».

وقوله «وسابِق إلى غايَةٍ» مثلُه قولُ تأبَّط شرًّا:

* سبَّاقِ غاياتِ مَجْدٍ فى عشيرته(١) *

وقوله «مَن يبتدِرْها يقدِّم» فى موضع الصفة لغاية، والمعنى: من يبتدر مثلَ تلك الغاية قُدّم فى أقرانه ونُظَرائه، وسُلِّم السَّبْقُ له.

٣ — مِنَ النفَرِ المُدْلِينَ فى كُلِّ حُجَّةٍ ... بمُسْتَحْصِدٍ فى جَوْلَة الرَّأْى مُحْكَمِ

٤ — جَدِيرُونَ ألاَّ يَذْكُروكَ بِرِيبةٍ ... ولا يُغْرِمُوكَ الدهرَ ما لم تَغَرَّمِ

يقال: أدلَى بحُجّته، إذا أظهرها وقام بها؛ وأدلى رداءه فى البئر ليبتلّ، ودلّاه على كذا فتدلى. وقال الهُذَلىّ(٢):

* تَدَلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيْطَةٍ(٣) *

وتوسَّعوا فيه فقالوا: دَلَّاه بغُرُور. فيقول: هذا الرَّجُل من القومِ الذين إذا أوردُوا حُجّةً قوَّموها برأىٍ محْكَم الفتل فيما يَجُول من الرَّأى مُحْصَف. والنَّفَر يقع على مابين الثلاثة إلى العشرة، ولذلك صَلح أنْ يقال ثلاثة نَفَرٍ وأربعة نفر. ونافرةُ الرَّجُل: بنو أبيه الذين يَغضبون لغضَبه. قال:

لوْ أَنَّ حَوْلِى من عُلَيْمٍ نافِرَه ... ما غَلَبَتْنى هذه الضَّياطِرَه

وقوله «جديرون ألاَّ يذكروك بِرِيبةٍ»، يريد أنَّهم أحِقَّاء بألاّ يغتابوك إذا غِبتَ عنهم، لسلامة صُدورهم من الدَّغَل(٤) وَالغِش وَالخيانة، ولا يَقذِفوك

(١) البيت ١١ من المفضلية الأولى. وعجزه:

* مرجع الصوت هدا بين أرفاق *

(٢) هو أبو ذؤيب. ديوان الهذليين (١ : ٧٩) واللسان (سبب، خيط، وكف).

(٣) عجزه: * بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها *

(٤) الدغل، بالتحريك: الفساد. فى الأصل: «الوغل»، صوابه فى ل.

بريبة تَشينك أو يقبُح فى الأُحدوثة بها عنك ، وبألاَّ يجرُّوا عليك أبداً جريرةً يَثْقُلُ وطأتُها عليك فتحتاجُ أن تَغْرَمَ لها ما لا تَطِيبُ نفسُك به ، ولا تسمحُ بتحمُّلها فى مالكَ .

٧٠٦

ولهُ أيضاً :

١ ـ أقولُ لِعبدِ الله وَهْناً ودُونَنا مُناخُ المَطَايا مِن مِنًى فالمحصَّبُ

٢ ـ لكَ الخيرُ عَلِّلْنا بها عَلَّ ساعةً تمرُّ وسَهْوَانٌ من اللَّيل يَذْهَبُ[(١)]

٣ ـ فقامَ فأدْنَى من وِسَادِى وِسادَهُ طَوِى البطنِ ممشُوقُ الذِّرَاعين شَرْحَبُ

٤ ـ بعيدٌ من الشَّىءِ القليلِ احتفاظُه عليْكَ ومَنزورُ الرِّضا حين يَغضَبُ

٥ ـ هو الظَّفِرُ الميمونُ إنْ رَاحَ أو غَدَا به الرَّكبُ والتِّلْعَابةُ المتحبِّبُ

وَهْناً ، أى بعد ساعةٍ من الليل ؛ ومنه المَوْهِن . ومفعول أقول أوّلُ البيت الثانى ، وهو « لك الخير » ؛ وموضع « ودوننا مناخ المطايا » موضع الحال . فيقول : أخاطبُ عبدَ الله وقد تقضَّى من اللَّيل بعضُه ، ومَبركُ الإبل من مِنًى فموضعُ الجمار منه بقربٍ منّا[(٢)] : مُلِّكْت الخير ولُقِّيت السَّعادة ، عَلِّلْنا فى هذه الأرض بأحاديثك لعلَّ ساعةً تمر تَرجِع إلينا نَفْسَنا وطائفةً من الليل تمضى نطوِيها على بعض مرادنا ، ولأن التعلُّل بالأحاديث وقطعَ الأوقات به ، للنَّفس فيه راحة ، ولها به اعتبار . وقوله « وسَهْوَان[(٣)] » أى طائفة . ويُروَى : «وسهوانا» ويقال : لَقِيته بعد سهواءٍ من اللَّيل ، أى بعد

(١) كتب فوق النون من « سهوان » فى ل : « نا » مع قرنها بكلمة « معا » لتقرأ بالرفع والنصب أيضا .

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « بقرب منى » .

(٣) ل : « وسهوانا » .

مُضِيّ صَدْره . ويجوز أن يكون فَعلاء من السَّهو ، وتـكون همزتها ملحَقة ، ويجوز أن يكون فَعْوَالاً ويكون همزتُها مبدلةً من الواو . فأمَّا سهوان فـكأنَّه أُرِيد به الوقت الذى يَسهُوا فيه الناسُ عن مَباغيهم ، وعلى ذلك يُحْمَلُ السَّهواء . وفى المثل : « إنّ الموصَّينَ بنو سَهْوَان » ، أى الذين يَسهُون عن الحاجة يُحتاج معهم إلى التَّوصية . ولا يمتنع أن يكون السَّهوانُ فى الوقت مأخوذاً من السَّاهية ، وهو ما استطال واتَّسع من الأرض من غير خَمَرٍ يردُّ العين ؛ فنُـقِل من المـكان إلى الزّمان ، أى طائفة من اللَّيل ممتدَّة واسعة .

وقوله : « فقامَ فأدنَى من وِسَادِى وسادَه » جمَعَ بين فِعلَين قام وأدنى . فيجوز أن يكون «طَوِى البَـطْن » يرتفع بالأوّل منهما ، وهو قام ، ويجوز أن يرتفع بأدنى وقد أُضمر فى قام على شريطة التَّـفسير فاعلُه . والمعنى : فقام به أو منه رجلٌ هكذا فقرّب مجاسَه من مجاسِي . الشّرجب : الطّويل . والطَّوِى البَـطْنِ : الصغيرُه خلقةً . والممشوق : الطَّويل القَليل اللَّحم . وجاريةٌ ممشوقة : حَسنة القَوام قليلةُ اللَّحم .

وقوله « بعيد من الشىء القليل احتفاظه » أى غضبُـة ، يريد أنّه سهلُ الجانبِ لا يكاد يَحتمِى من الشّىء القليل الخطَرِ والموقِع من النُّـفوس ، لـكنَّه قليل الرِّضا إذا غَضِب ، لا يكاد يَرجع إذا ذَهَبَ عنك بالهُوَيْنَا . وذِكْر البعد هاهنا يريد النَّـفى ، وهذا كما يُستعمل القليل والأقلّ ويراد بهما النَّـفْى . والمعنى لا يحتفظ بالشّىء القليل ولا يُؤاخِذ بصغائر الذنوب .

وقوله « هو الظَّفِـر الميمون » يصفُ إقبالَه فى متصرّفاته ، وأنّ المَناجِـح والسَّعادات فى رِفاقه ولاحقةٌ لمطالبه ومَباغيه ، والمَيامِن تترفرف على جوانب آرائه وأهوائه ، ثم هو حَسَنُ البِشْرِ (١) ، لَيِّن العَرِيكة ، ضحَّاك لَعوب . والاحتفاظ :

(١) فى نسخة الأصل : « النشر » ، وما أثبتناه من ل . وأشير فى هامش ل إلى أنها فى « نسخة النشر » .

افتعالٌ من الحِفْظة[1] والحَفيظةِ: الغَضَبِ. والتِّـلعابة على بنائه التِّقوالة والتِّـلْقامة والهاء فى آخره للمبالغة. ويقال: نزرْتُ الشىء نَزْرًا، ثم يقال للمَنْزور هو نَزْرٌ.

٧٠٧

وقال أبو دَهْبَـلٍ[2] فى الأزرق[3]:

١ — ماذا رُزِينا غَداةَ الخَلِّ من رِمَعٍ   عند التَّفرُّق مِن خِيمٍ ومن كَرَمِ

٢ — ظَلَّ لنا واقفاً يُعْطِى فأكْثَرُ ما   قُلْنا وقالَ لنا فى وَجْهِهِ نَعَمِ[4]

الخَل: الطَّـريق فى الرَّمل. ورمع: موضع، وقيل هو جبل باليمن. يقول: أُصِبْـنَا وفُجِعْنا غداةَ اجتماعنا لتوديع الفِراقِ، بعظيم نبيه من الكرم والخِيم، وهو سَعَةُ الخلق.

وقوله «ظَلّ لنا واقفاً يُعطى» يعنى الأزرق. أى بَقِىَ نهارَه واقفاً ونحن محتفّون به ومجتمعون حولَه، وأكثرُ ما قلناه فى وَجهِهِ وخاطَبْناه به، وقال لنا فى جوابه «نعم». كأنّ القومَ المعتَرّين اكتفَوْا بعَرْضِ نفُوسِهم عليه من ذكر حاجاتهم لتمام كرَمه، وكمالِ فطنته، وهو يَعِدُهم الخيرَ ويقرّب لهم الإسعاف

(١) الحفظة، بكسر الحاء وسكون الفاء، مثل الحفيظة. وفى ل: «افتعال من الحفيظة وهى الغضب»، وهى عبارة ناقصة عما فى الأصل.

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٢١ ص ١٣١٩.

(٣) التبريزى: «الأزرق المخزومى». وفى معجم البلدان (رمع): «الأزرق بن عبد الله المخزومى»: وفى الأغانى أن الذى يمدحه أبودهبل إنما هو «ابن الأزرق»، واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبدشمس بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، كان يقال له «ابن الأزرق»، و«الهبرزى»، وكان عاملا لعبد الله بن الزبير على اليمن. الأغانى (٦: ١٥٧) ومعجم البلدان فى رسم (الخل). وأنشد أبوالفرج أيضاً لأبى دهبل يمدح ابن الأزرق، وكان وفد عليه وهو معزول فأعطاه مائتى ألف دينار:

أعطى أميراً ومعزولاً وما نزعت   عنه المكارم تغشاه وما نزعا

(٤) الأغانى: «سمى وقال لنا فى قوله».

والبَذْل ، ويقول لكلٍ منهم : نَعَمْ ، عالماً بما يقترحه ، وضامناً لما يطلبه ، وماء الوجوه في مواضعها لم تُهرَق .

ونَعَم : حرف إيجاب ، و « يُعطِى » موضعه نصبٌ على الحال .

٣ — ثم انتحى غَيْرَ مذمومٍ وأعيُنُنا لما تولَّى بدمعٍ سافِحٍ سُجُمِ (١)

٤ — تَحمِلُه النَّاقةُ الأدماء معتَجِرًا بالبُرْد كالبدر جَلَّى ليلةَ الظُّلَمِ

٥ — وكيفَ أنساكَ لا نُعماكَ واحِدةٌ عِندِي ولا بالذِي أسدَيْتَ مِنْ قِدَمِ (٢)

يقول : اعتَمَدَ ، بعدَ الوقوفِ لنا والنَّظَرِ في مآربنا ، لوجهته ، وهو مُمَدَّح بالألسنة ، محبَّبٌ في الصُّدور والأفئدة ، وأعينُنا لِنَوازع نفوسِنا لمَّا وَلَّى ، سَيَّالة بدموعها . ومعنى سافِح : ذو سَفْحٍ ، أي ذو انصباب . والسُّجُم : جمع سَجُوم .

وقوله « تَحمله النَّاقة الأدماء معتجِراً » ، يريد ملتفًّا . والاعتجار : لفُّ المِعجَر ، وهو العِمامة ، في الرَّأس من غير إدارةٍ تحتَ الحَنَك . وقيل : بل المِعْجَر ضربٌ من ثياب اليَمَن ، وشبَّهها بالبَدْر في تلألئِه ونُوره . ألا ترَى أنَّه قال : « جلَّى ليلة الظُّلَم » .

وقوله : « وكيف أنساك » . يريد أنَّ أياديَه عنده تذكره لأنها كثرت وعَمَّت وغمرَت (٣) فلا يعرِّج على مُنْفِسةٍ إلا كانت منه ، ولا يردِّد نظرهُ في ذخيرة إلا وكان السببَ فيها ، ولم يأتِ اللَّيالى والأيام عليها فتقادمَ عهدُها ، وحالَ النِّسيان دُونَها ، بل هى غَضَّة طريّة تُنادى على نفوسها ، وتَلُوحُ الجِدَّة على صفحاتها ، وتَحمِى من الدُّروس ذِكْرَ مُولِيها .

(١) الأغانى : « بدمع واكف » .

(٢) الأغانى : « لا أريدك واحدة . . . بالذى أوليت » .

(٣) فى النسختين : « وعمرت » .

وقوله « لا أُنعِماكَ واحدةً » فى موضع الحال من « لا أنساكَ » وقد تقدَّم القول فى الإسداء وأصلِه .

٧٠٨

وقال أيضاً فيه :

١ ـ ما زلْتَ فى العَفْوِ للذُّنوب وإطْــــلاقِ لعَانٍ بجُرْمِه غَلِقِ

٢ ـ حتَّى تمنَّى البُرَاةُ أنَّهُمُ عِنْدَكَ أسرَوْا فى القِدِّ والحَلَقِ

قوله « فى العفو » فى موضع النَّصب على أنه خبر ما زال ، والجارُّ منه تعلّقَ بمضمَر ، كأنَّه قال : ما زلتَ آخِذًا فى العَفْو وداخلاً فيه ، إلى أنْ تمنَّى مَن لا جُرْمَ له أن يكون جارماً عليك حتَّى يتوفَّرَ عليه نَظَرُك وإحسانُك .

وألمَّ أبو تمَّامٍ بهذا المعنى فقال :

وتَــكَفَّلَ الأيتامَ عن آبائِهِمْ حَتَّى وَدِدْنَا أنَّنا أيتامُ[(١)]

فعدَّه كثيرٌ من أصحاب المعانى خطأً فيه ، وقالوا : جعلَه لا يعرف مواضعَ الصَّنيعة إذ صار النَّاسُ يتمنَّوْن منزلةَ الأيتام عِنده وحُرُماتِهم لديه حتَّى ينالَهم إفضالُه ، ولو ساغَ هذا القول فيما قاله أبو دَهْبَلٍ ، وهو تمنِّى البُراة أن يكونوا أُسَراءَ مصفَّدين لديه حتى يلحقَهم إحسانُه ، إذْ لا فَرقَ بين الموضعين . ولم يُنكِر أحدٌ من المتقدِّمين والمتأخِّرين ما قاله أبو دَهبل ولا تَدَحوا فيه . وقد أحكمْتُ القولَ فى التَّسوية بينهما فى «رسالة الانتصار ، من ظَلَمة أبى تمَّام » ، وبيَّنتُ أن المعنى الذى انتحاه سليمٌ من العَيب صحيح .

والعَانِى : الأسير . والغَلِقُ : المتروك لا يُفَكُّ .

(١) من قصيدة له فى ديوانه ٢٧٩ ـ ٢٨٢ يمدح بها المأمون .

٧٩

وقال الفَرَزدقُ يمدح عليَّ بن الحسين بن عليٍّ[1] بن أبى طالب كرم الله وجوههم :

١ ــ إذا رأتْهُ قُرَيْشٌ قال قائِلُها إلى مكارِمِ هذا يَنْتَهِى الكَرَمُ

٢ ــ هَذَا الّذى تعرِفُ البَطْحَاءُ وطأَتَهُ والبَيْتُ يَعرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ

٣ ــ يُكادُ يُمْسِكُهُ عِرْفانَ رَاحَتِهِ رُكْنُ الحَطِيمِ إذا ما جاء يَسْتَلِمُ

فائدة إلى فى قوله «إلى مكارم هذا» الانتهاء ، والجملة فى موضع المفعول لقال . والمعنى أنّ الكريم إذا انتهى إلى درجةِ مكارم هذا وقَفَ[2] ، لأنها الغايةُ السَّامية ، والمرتبةُ التى لا مُتجاوَزَ منها إلى ما هو أعلَى . ثم قال : «هذا» ، يعنى عليَّ بن الحسين [بن على[3]] صلوات الله عليه «الذى تعرِف البطحاء وطأتَه» من بين وطآت النَّاس إذا مشوا عليها وفيها . والبطحاء : أرض مكّة المنبطحة ، وكذلك الأبطح . وبيوت مكّةَ التى هى للأشرافِ بالأبْطَح ، والتى هى فى الرَّوابى والجِبال

(١) بعده فى ل : « صلوات الله عليهم » ، التبريزى : « وقال الحزين الليثى فى على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام . والحزين الكنانى هو عمرو بن عبد بن وهيب بن مالك بن حريث بن جابر بن راعى الشمس الأكبر بن يعمر بن عبد بن عدى بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة . ويقال : إنها للفرزدق ، قالها حين قال الشامى لهشام بن عبد الملك : من هذا الذى أعظمه الناس وفرجوا له عن استلام الحجر الأسود ؟ فقال : لا أدرى . فقال الفرزدق : لكنى أعرفه . فقال الشامى : من هذا يا أبا فراس ؟ فقال ...». وصواب « الليثى » هو « الديلى » كما فى الأغانى (١٤ : ٧٧ ــ ٧٨) ونسبة الشعر إلى الفرزدق فى هشام هى كذلك فى أمالى المرتضى (١ : ٤٨) وزهر الآداب (١ : ٦٠) . ونسب إلى الفرزدق فى على بن الحسين عند ابن رشيق (٢ : ١١٠) وأمالى المرتضى أيضاً ، وللعين المنقرى عند ابن رشيق أيضاً ، ولكثير بن كثير السهمى فى محمد بن على بن الحسين . المؤتلف ١٦٩ . ولداود بن سلم فى قثم بن العباس ، عند ابن رشيق أيضاً . وهو مثل ظاهر لمقدار اختلاف الرواة فى نسبة الشعر . وسكت الجاحظ فى الحيوان (٣ : ١٣٣) والبيان (١ : ٣٧٠ / ٣ : ٤) وابن قتيبة فى عيون الأخبار (١ : ٢٩٤ / ٢ : ١٩٦) .

(٢) كلمة « درجة » ليست فى ل .   (٣) هذه من ل .

للغُرَباء وأوساطِ الناس . والحَطِيم : الجِدار الذى عليه مِيزابُ الكعبة ، فكأنّه حُطِمَ بعضُ حَجَرِه . والأَبْطَحُ والبطحاء وإنْ كانا صفتين فإنّهما قد لحقا بالأسماء ، لذلك جُمِعا على الأباطح والبطحاوات . وانتصب « عرفانَ » على أنّه مفعول له[1] أى يكاد يمسكه رُكنُ الحطيم لأن عَرَف راحتَه . ويَستلِم ، بمعنى يَلمسُ الحجرَ الأسود . يريد : أنه ابنُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذى شَرُف به هذه المواضعُ ، فهى عارفةٌ به ، وإذا جاء إلى المُستَلَم يكادُ يتمسَّك به الرُّكنُ تمييزاً لراحتِه عن راحة غيره . وأصل يستلِمُ[2] تناوَلَ الحجرَ باليَدِ أو بالقُبلة أو مَسَحه بالكفّ ، فكأنّه من السِّلام : الحجارة . قال الخليل : ولم نسمع أحداً يفردها .

٤ ـ أىُّ القبائلِ ليستْ فى رقابِهِم لأَوَّلِيَّةِ هــــذا أوْ لَهُ نِعَمُ

٥ ـ بِكَفِّهِ خَيزُرانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِه شَمَمُ[3]

٦ ـ يُغْضِى حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فما يُكلَّمُ إلّا حِينَ يَبْتَسِمُ

يريد : أنّ طوائفَ النّاس مغمورون بنِعَمه أو نِعَم سلفه ، يعنى النبىّ والوصىّ عليهما السلام ، لأنهم اهتَدَوْا بدعائهم ، وفارقوا الهُلْك والضلالةَ بإرشادهم ودَلالتهم فلا قبيلَ إلّا ورقابُهم قد شُغِلَتْ بما قُلِّدَتْ مِن مِنَنِهم ، وذِمَمُهم قد رُهِنَتْ بما حُمِّلت من عوارفهم .

وقوله « بكفّه خيزُرانٌ » يعنى به المِخْصَرَةَ التى يمسكها الملوك بأيديهم

(١) ابن جنى فى التنبيه : « يجوز فيه أوجه : أحدها نصب العرفان على أنه مفعول له ، ورفع ركن الحطيم على أنه فاعل يكاد ، أو فاعل يمسكه عرفان راحته لركن البيت ، ويجوز رفعهما جميعاً ، أى يكاد يمسكه أن عرف راحته ركن الحطيم ، فيرفع العرفان بيكاد أو يمسكه ، ويرفع ركن الحطيم بأنه العارف ، وإذا نصبت عرفان راحته على أنه مفعول له كنت مخيراً فى نصبه إن شئت بيكاد وإن شئت بيمسكه ، ولا يجوز نصب العرفان والركن جميعاً لئلا يبقى الفعل بلا فاعل » .

(٢) ل : « استلم » وكتب فى هامش ل : « نخ : الاستلام : تناول الحجر » .

(٣) التبريزى : « ريحها » . ويروى : « فى كف أروع » .

يتعبّثون بها (١) . وقوله « ريحه عَبِق » إذا فتح الباء فمخرجه مَخرج المصادر ، كأنّه نفسُ الشيء ، أو على حذف المضاف ، والأصل ذاتُ عَبَقٍ . وإذا كسرت فهو اسم الفاعل ، ومعناه اللاصِق بالشيء لا يفارقه . يريد أنّ رائحته تبقى فهى تُشَمُّ الدَّهر من كفٍّ أروعَ ، وهو الجميل الوجه والشَّمَم : الطُّول . والعِرنين: الأنف وما ارتفعَ من الأرض ، وأوَّل الشّيء ، وتُجعَل العرانينُ كنايةً عن الأشراف والسادة . وإذا قُرِن الشَّمَم بالعِرنين أو الأنف ، فالقصد إلى الكَرَم . لذلك قال حسّانُ بن ثابتٍ :

* شُمُّ الأُنوف من الطراز الأوَّلِ (٢) *

وقوله « يُغضِى حياءً » ، أى لحَيائه يغُضُّ طرفَه ، فهو فى مَلَكته وكالمَنْخَزِل (٣) له . و « يُغْضَى من مهابته » أى ويغضَى معه مهابةً له ، فمِنْ مهابته فى موضع المفعول له ، كما أنّ قوله « حياء » انتصَبَ لمثل ذلك ، والمفعول له لا يقام مقام الفاعل ، كما أنّ الحال والتمييز لا يُقام واحدٌ منهما مقام الفاعل .

فإنْ قيل : إذا كان الأمرُ على هذا فأين الذى يرتفع بيُغضَى ؟ قلتَ : يقوم مقامَ فاعِلِه المصدرُ كأنه قال : ويُغْضَى الإغضاء من مَهابته . والدال على الإغضاء يُغضَى ، كما أنّك إذا قلت سِيرَ بزيدٍ يومَين ، لك أن تجعل القائم مقام الفاعل المصدر ، كأنّه قيل : سِيرَ السَّيرُ بزيد يومين ، وهو أحدُ الوجوه التى فيه ، فاعلَمْه.

---

(١) وكذا عند التبريزى . ولم نجد « تعبث » فى المعاجم المتداولة .

(٢) صدره فى الديوان ٣١٠ :

* بيض الوجوه كريمة أحسابهم *

(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وكالمتحرك » .

٧١٠

آخر :

١ ـ إذَا انْتَدَى واحْتَبَى بالسَّيْفِ دَانَ لَهُ شُوسُ الرِّجَالِ خُضُوعَ الجُرْبِ للطَّالِي

٢ ـ كأنَّما الطَّيْرُ مِنْهُمْ فوقَ هامِهِمِ لاخَوْفَ ظُلْمٍ ولكنْ خوفَ إجلالِ

انتدى : جلَسَ فى نادى القوم ، وهو مجمعهم . وقوله « احتَبَى بالسَّيف » ، أى حَضَرَ لعقدِ جِوارٍ ، أو فَصلِ أمرِ حَربٍ ، أو إيقاعِ حِلْفٍ ، أو تَسويدِ رئيسٍ أو ما يَجرى هذا المَجْرَى . وذلك أن السيف فى أمثالِ هذه الأحوال ربَّما مسَّت الحاجةُ إليه ، لذلك قال جرير :

ولا يَحْتَبِي عِنْدَ عَقْدِ الجِوارِ بِغَيْرِ السُّيوفِ ولا يَرْتَدِي

وفى غير هذه الأحوال إنما يَحتَبُون بالأردية وأشباهِها . ودانَ له ، أى خضع . وشُوسُ الرِّجال : جمع أشْوَس ، وهو الذى ينظر بمُؤْخِرِ عينه عداوةً أو كِبْرًا . وانتصب « خُضوعَ الجُرْب » على أنه مصدرٌ من غير لفظه ، لأنّ معنى دان له ، أى خَضَع له . ومثلُه :

* وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعبةً أىَّ إذلالِ (١) *

لأنَّ معنى رُضْتُ أذللت . وانتصب أىَّ إذلال عنه .

وخَصَّ الجُرْبَ لأنَّها إذا هُنِئَتْ بالطِّلاء طابَ لها وطاعَتْ لطالِيها . لذلك قال امرؤ القيس :

* كما شَغَفَ المهنوءَةَ الرَّجلُ الطَّالى (٢) *

وقوله « كأنما الطَّيْرُ منهم فوق هامهم » ، أراد أنَّ مجالسَهم مَهيبة ، وأنَّ

(١) لامرئ القيس فى ديوانه ٥١ . صدره :

* وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا *

(٢) صدره : * أيقتلنى أنى شغفت فؤادها *

حاضِرِيها لايموجون ولا يتخفَّفون ، بل يتوقّرون ويَسكُنون فكأنَّ على رءوسهم الطَّير ، فإنْ حرّكوا رءوسهم طارت إعظاماً لها وتبجيلاً لصاحبها . وقوله «لا خوفَ ظلمٍ » ، أي يخافونه لا خوفَ ظُلمٍ وانتقام ، ولكن خوفَ جلالةٍ واحتشام ، وتوقيرٍ وإعظام . ودلَّ على يَخافونه حتَّى انتصب عنه لا خوفَ ، قولُه كأنما الطَّير منهم فوق هامِهم . ولما كانَ غيرُ هذا الشَّاعر أراد التهكُّمَ والسُّخرية قال في وصف قوم :

* كأنّ خُرُوءَ الطَّير فوق رءوسهمْ (١) *

وقد مَرَّ ذلك .

٧١١

وقالت لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةُ (٢) :

١ – فإنّي لَمْ أَكَدْ آتيكَ تَهْوِي ... بِرَحْلِيَ رَادَةُ الأَصْلَابِ نابُ (٣)

٢ – قَرِيحُ الظَّهرِ يَفرَحُ أنْ يَراها ... إذا وُضِعَتْ ولِيَّتُها الغُرابُ

قولها « لم أكدْ آتيك » ، من قولهم : أعطاني الأمير ما لم يكد يُعْطِي ، وسَمَح بما لم يكد يسمح . تقول : لم أكد أزورك وقد زُرْتُك تطير برحلي راحلةٌ وثيقةُ الظَّهرِ ليِّنته ، قد أخذَت من السِّنّ والقُوَّة بالنَّصيب الأوفر ، دَبِرَةُ الظَّهر يَفرحُ الغُرابُ إذا وُضعت عنها بَرذعتُها فنظَر إلى ظهرِها ، لأنَّه يَنقُره ويُدْمِيه إنْ تُرِك .

(١) البيت ٥ من الحماسة ٦٠٨ ص ١٤٥٤ . وعجزه :

* إذا اجتمعت قيس معاً وتميم *

(٢) سبقت ترجمتها في الحماسة ٦٩٩ ص ١٦٠٧ .

(٣) ابن جني في التنبيه : « لو نصب رادة الأصلاب على الحال لأنها وصف نكرة قدمت عليها لكان وجها » .

وقولها « رَادَةٌ » مِن راد يرود ، إذا جاء وذهبَ لِلِينه ؛ والأصل رائدة ، فحذفت الهمزة تخفيفاً ، كما قيل (١) فى شَائكٍ شَاكُ السِّلاح . ويجوز أن يكون فَعِلَةً بُنِيَتْ منه ، وعلى ذلك قولهم : رجلٌ مالٌ ، كأنه مَوِلٌ . ورواه بعضهم : « رَارَةُ الأصلاب » . وزعم أن عينه ياء ، واحتَـجَّ له بقول الآخر :

* والسَّاقُ مِنِّى بادياتُ الرِّيْرِ (٢) *

والرَّارُ والرِّيْرُ : المُخّ . وليس الصُّلب بموضعِ مخٍّ ، فاعلمْه . ومثله على الوجه الأول قولُه :

* فى صَلَبٍ مثلِ العِنانِ المُؤْدَمِ (٣) *

الا تَرَى أنه شبهه بالعِنان لِلِينه .

٧١٢

وقال العُـرْيَان (٤) :

١ ـ مررْتُ على دَارِامرِئِ السَّوءِ وَلَهُ أَبُونٌ كَعَيْدانٍ بحائطِ بُستانِ (٥)

---

(١) ل : « كما تقول » .

(٢) قبله فى اللسان (رير) :

أقول بالسبت فويق الدير إذ أنا مغلوب قليـــل الغير

وإنما قال : « باديات » والساق واحدة لأنه أراد الساقين ، والتثنية يجوز أن يخبر عنها بما يخبر به عن الجمع ، لأنها جمع واحد إلى آخر ، عن اللسان .

(٣) للعجاج فى ديوانه ٥٩ واللسان (صلب ، أدم) .

(٤) التبريزى : « وقال العريان لسهلة وذم غيره » ، يعنى أنه يمدح « سهلة » . لـكن فى نوادر أبى زيد ٦٥ وكذا فى الخزانة (٢ : ٥٢٢) نقلا عنها ، أن اسم الشاعر هو العريان بن سهلة الجرمى » ، أحد شعراء الجاهلية .

(٥) فى النوادر والخزانة : « عنده ليوث » : قال أبو زيد : « يقال ناقة ليثة » . وفى الخزانة : « والليوث جمع ليث وهو الأسد ، أراد به الشجعان . وقال الجرمى : هو جمع ليثة ، يقال ناقة ليثة » . ولم يفسروا ناقة ليثة ، ومأخذها من الليث وهو الشدة والقوة . وجمع ليثة على ليوث من الشاذ ، نظيره صخرة وصخور ، وشعبة وشعوب ، وقنة وقنون . انظر همع الهوامع (٢ : ١٧٧) .

٢ — فقال ألا أضحتْ لَبُونى كما تَرَى كأنّ على لَبَّاتها طِينَ أفدانِ

٣ — فقلتُ عسى أن يَحْوِىَ الجيشُ سَرْبَهَا ولا واحدٌ يَسْعَى عليها ولا اثنانِ

يعنى بامرئ السَّوء المُبَخَّلَ الملوَّم ، الذى لا همّ له إلّا تثميرُ ماله وحِفظُها ومَنعها من الحقوق الواجبة فيها . واللَّبُون ، أراد بها الجِنْس ، لذلك قال « حوله لَبُون » . وأصل اللَّبون الإبلُ ذوات [الألبان[1]] . والعَيْدانُ : النَّخل الطِّوال ، واحدُها عَيْدَانةٌ ، وهُو فيعَلانةٌ مِن عَدَن بالمكان ، إذا أقام . ومثله غَيْدَاقٌ من غَدَق . ويعنى بها الرَّاسياتِ الثَّابتات على مَرِّ السِّنين . وعنى بالحائط موضعَ شجر . والبُستان : النَّخل . والأصل فى الحائط أنَّه اسم الفاعل من حاطَ ، واستُعمِل استعمالَ اسم الفاعل الذى لم يُشتقَّ من الأفعال ، ومثلُه من جِنْسه قولهُ وَالِدٌ وصاحِبٌ ، ومن المصادر : لله دَرُّك . وشبَّه الإبلَ بالعَيدان لطُولها ، ومثل هذا قول الآخر :

طيِّبةُ الأنفُس بالدَّرِّ نُعُسْ[2] كأنَّها حائطُ نخلٍ مُلْتبِسْ

وقوله « فقال ألَا أضحتْ لَبونى كما ترى » أخَذَ يتبجَّح عنده بوُفور ماله وسِمَنِها ، وتراكُم اللَّحم والشَّحم على ظهورها ، فأخذ يعجِّبه منها ، ثم شبَّه اللَّحمَ للسِّمَن على لَبَّاتها بِطِين قُصُورٍ طُيِّنَت به ، فالإبلُ كالقصور ، وما قُذِفَ به من زِيادة اللَّحم كالطين . وهذا كقول القطامى :

* كما بَطَّنْتَ بالفَدَنِ السَّيَاعَا[3] *

(١) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباتها من ل .

(٢) نعس : جمع نعوس ، وهى الناقة تنعس إذا حلبت ، أو تغمض عينها عند الحلب .

(٣) صدره فى الديوان ، واللسان (سيع) :

* فلما أن جرى سمن عليها *

ورواية « بطنت » ثابتة فى شرح التبريزى واللسان ، وكذا فى الصحاح والعباب ، كما ذكر صاحب التاج ، ويروى أيضاً : « كما طينت » .

وقوله « فقلت عسى أن يحوِىَ الجيشُ » ، هذه أمنيَّة تمنّاها . أراد كأ يدْته وقلت عسَى أن يقيِّض الله لها جيشاً يحويها ، ويَحُول بينَك وبين التمتُّع بها ، فلا يسعَى عليها مالِكٌ واحد ولا اثنان ، لكنَّها تصير مقسَّمة فى المُغيرين ، موزَّعة فى السَّالبين . ويجوز أن يريد : لا يتفقَّدها مُصلِحاً لها لا واحدٌ ولا اثنان ، لكنَّها تُسَاق وتُذَال بالغَارة وتُهان .

٤ ـ وَرحتُ إلى دار امرئ الصِّدْقِ حَوْلَهُ ... مَرا طُ أفراسٍ ومَلْعَبُ فِتيان (١)

٥ ـ ومَنْحَرُ مِئناتٍ يُجَرُّ حُوارُها ... ومَلْعَبُ إخوانٍ إلى جنبِ إخوانِ (٢)

٦ ـ فقلتُ له إنِّى أتيتُك راغِباً ... بذِعْلِبَةٍ تَدْمَى وإنِّى امرُؤٌ عانِ

٧ ـ فقال ألا أهْلًا وسَهْلًا ومَرْحباً ... جَعَلْتُك مِنِّى حيثُ أجعَلُ أشجانِى

٨ ـ فقلت لهُ جادَتْ عليكَ سَحابةٌ ... بِنَوْءٍ يُنَدِّى كلَّ فَغْوٍ ورَيحَانِ

٩ ـ وقلتُ سَقَاكَ اللهُ خَمْرَ سُلافَةٍ ... بماءِ سَحابٍ حائرٍ بين مُصْدَانِ

قوله « دار امرئ الصِّدق » ضدُّ قولهم : امرئ السَّوء . والمعنى فيهما نعم الرجل وبئس الرَّجُل . وإذا قُصِد إلى الوصف به فُتح فتميل الصَّدقُ . يقال : رَجُلٌ صَدْقٌ ونساء صَدْقات . والسَّوء يُوصف به فيقال الرَّجل السوء . وقال الخليل : الصَّدْق بفتح الصاد : الكاملُ من كلِّ شىء . فتقول : عدَلْتُ رائحاً إلى دار الرجلِ الكريم الممدَّح بالألسنة ، المرْضِىِّ المحبَّب إلى كلِّ طائفةٍ ، المرزَّأ

(١) رواية أبى زيد « ومررت على دار » ، وفيه الخزم ، وبالزاى المعجمة ، وهو زيادة بعض الحروف فى أول البيت ، انظر أمثال ذلك فى العمدة لابن رشيق (٢ : ٩٢ ـ ٩٤) ، وهم لايعدون الخزم عيباً . ولم يرو أبوزيد إلا البيت الأول من هذه الحماسية ، ثم هذا البيت ثم بيتاً ثالثاً لم يروه أبو تمام ، وهو :

فقال مُجيباً والذى حَجَّ حاتمٌ ... أخُونُك عهداً إننى غيرُ خوَّانِ

(٢) التبريزى : « وموضع إخوان » .

فى ماله، المنفاق على أضيافه وزوّاره وحوله مرابطُ الخيل ، وفناؤه مَلعبُ الفتيان ، إذ كان همُّه الاشتغالَ بالفروسيَّة وما يَكتسب به فُنونَ الذِّكر الجميل وضروبَ المَحْمَدة ، ونُدماؤه والفتيانُ ذوُو الكرَم والحرِّية ، والافتنان فى اللَّعب والشَّطارة ، وبقُرب داره مَدارج الكرامات ، ومُبَوَّأ الضِّيافات ، ومَجْزَر النُّوق العِشار الصَّحيحات الرَّائعات ، فتَجُرُّ حيرانُها إذا بُعِجَتْ عنها بُطونها لِكِبَرها(١) . يريد أنّ ما يُضَنُّ بأمثالها ويُتَنافَس فيها ، هو يَبْتَذِلُها ويَستَهينُ بها ، وله دارُ ندامةٍ (٢) ووفادة ، تُنصَب فيها الموائد ، وقد رُتِّب عليها الإخوان على سَنَن الدَّوام ، ولا يقع فيه خَللٌ ولا تجوُّز ، ولا فُتور ولا تخوُّن .

وقوله : « فقلت له إنِّى أتيتك راغباً » يريد تعرَّضْتُ له وأريته رغبتى فى مَعروفه ، وعَرَّفته أنِّى قصدته على ناقةٍ سريعةٍ من مكانٍ بعيد ، فقد دَمِيَتْ أخفافُها وحَفِيت ، وأنِّى رجلٌ مضرور ، أسيرُ فاقةٍ وفقر ، محتاجٌ من جهته إلى تفقُّدٍ ومُواساة . فقال فى جوابى : أتيتَ أهلاً لا غُرباء ، ونزلت سَهْلاً من الجوانب لا حَزْناً ، واخترت رُحْباً لا ضِيقاً ، فأنتَ فى قلبى وصدرى بحيثُ أجعل مُهِمَّاتى وحاجاتى ، تَشملُك عنايتى ، ويَسعُك إفضالى ، فكُنْ كالشَّريك فيما لَنا ، لا تمارُ ولا تباين ، ولا تمانعَ ولا تضايُق . فقُلت له فى مقابلةِ ما أوْرَدَه داعياً وشاكراً : هنَّأكَ اللهُ ما أعطاك ، ومَطَر أرضَك ومأواكَ ، بجَوْدٍ من سَحابة نشأت بنَوءٍ يُحيِي كلَّ نبتٍ ورَيحان ، بكلِّ أرضٍ ومكان . وقت أيضاً : داعياً له بالسُّقْيا : سقاكَ الله خَمرَةً صافية رقيقةً ، ممزوجة بماء مطرٍ حائرٍ بين المناقع والغُدْران ، بعد أن تقذفته المَدافعُ والمُسْلان (٣) ، وتقطَّع بأنضاد الحجر ،

---

(١) التبريزى : « يجر حوارها لأنها تجزر وهو في بطنها فيجره من بطنها » .

(٢) ندامة ، كذا وردت فى النسختين . والمعروف « ندام » بدون هاء مصدر نادمه منادمة .

(٣) المسلان : جمع مسيل ، وهو مجرى الماء ، وذلك على توهم ثبوت الياء أصلية . انظر اللسان (مسل) .

وتَغَلْغَلَ فى جوانب الحَرِ . والمُصْدَان : جمع مَصَاد ، وهى شُقوق الجبال . وقال الخليل : المُصْدَان : المضاب[١] ، واحدها مَصَادٌ ، وفى أدنَى العَدَد أمصِدة ، ومنه سُمِّى المَعقِل مَصادا . والفَغْوُ : ما له رائحةٌ طيِّبة من النَّبات ، وكذلك الفاغية . والذِّعْلِبَةُ يوصف بها النَّعامة والنَّاقةُ الشَّديدة السريعة . ويقال : اذْلَعَبَّ البعيرُ إذا أسرَعَ . وسُلافة الخَمْرِ : أوّلُ ما يخرج من عَصيرها . وإضافةُ الخَمْرِ إليها على طريق التَّبيين . وهذا كما يفيده « من » من قوله : ﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ .

٧١٣

وقال آخر[٢] :

١ - لَمَسْتُ بكَفِّى كفَّهُ أبتغى الغِنَى ولم أدرِ أنَّ الجودَ مِن كَفِّهِ يُعدِى

٢ - فلا أنا مِنْهُ ما أفادَ ذَوُو الغِنَى أَفدْتُ وأعْدَانِى فأتْلَفْتُ ما عِندِى

قوله « أبتغى الغنى » فى موضع الحال ، وأفدت بمعنى استفدت . يقول : لمَّا زُرته صافحتُه واضعاً كفِّى فى كفِّه ، وملتمساً الغِنَى من عنده ، وراجياً نَيل الخَيْرِ فى قَصده ، ولم أعلمْ أنَّ السَّخَاء يُعدِى من يده ، فلا أنا استفَدْتُ من جهتِهِ ما استفادَه الأغنياءُ منه ، وأعْدانى لمْسُ كفِّه الجودَ فأهلكتُ ما عندى أيضاً .

وقوله « ما أفاد » فى موضع المفعول من قوله أفدتُ .

---

(١) فى الأصل : « النصاب » ، صوابه فى ل . وفى اللسان : « المصاد الهضبة العالية الحمراء ، وقيل : هى أعلى الجبل » .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : هذا الشعر لعبد الله بن سالم الخياط ، مولى هذيل ، دخل على المهدى فأنشده هذين البيتين ، فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ولم يرجع إلى منزله منها بشىء » . والبيتان منسوبان كذلك إلى ابن الخياط فى الوساطة للجرجانى ١٧٢ . وذكر أن أبا تمام أخذ هذين البيتين فى قوله :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئاً لدىّ من صلتك

ونسب أبو الفرج البيتين إلى بشار بن برد . الأغانى (٣ : ٢٦) .

٧١٤

وقال آخر (١) :

١ – إذا لَاقَيْتِ قَوْمِي فاسأَلِيهِمْ كَفَى قوماً بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرا (٢)

٢ – هَلَ أَعْفُو عن أُصولِ الحَقِّ فِيهِمْ إذا عَسِرَتْ وأَقْتَطِعُ الصُّدورا (٣)

يتبجَّحُ قائلُه عند المرأة التى خاطبها ، بسهُولة جانبه ، وتركِ المناقشة فى استخراج حُقوقِه ، وسماحةِ نَفْسه بما يملكه ، فيقول : إذا رأيتِ قومى فارجعى إليهم سائلةً عنِّى ، ومستخبِرة حالى ومعتمدةً على ما تسمعينه من قِصَّتى وأمرى ، فكفى بقومى عالماً بى وبأخلاق . وقوله « كَفى قوماً بصاحبهم » مقلوبٌ وكان الواجب أن يقول : كَفَى بقومى خبيراً بصاحبهم ، ويعنى بصاحبهم نفسَه . والخبير : ذو الخِبرة التامّةِ والمعرفةِ الكاملة . وانتصابُه على الحال إن شئتَ ، وإن شئتَ على التَّمييز وقد وضع خبيراً موضع خُبْرًا ، ومثله فى القرآن : ﴿ وَحَسُنَ أُولئكَ رَفِيقاً ﴾ . وفاعلُ كَفَى قبل القلب « بقومى » وهذا كقوله تعالى : ﴿ كَفَى باللهِ شهيداً ﴾ والباء زائدة .

وقوله : « هَلَ أعفو عن أُصول الحقِّ فيهم » يريد سَلِيهم هل أُسامِحُ بما يجبُ لى مِن أُصول حقِّى ، وهل أَتركُ الاستقصاءَ فى استخراجها ، وهل أُعْنِف بهم إذا تعسَّرَتْ عِندَهم ، وهل أَجْبِى (٤) صَدْرَ ما يحلُّ لى ويجبُ راضياً به ،

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : هو لجثامة بن قيس ، وهو أخو بلعاء بن قيس » . وقد سبقت ترجمة بلعاء فى الحماسية ٨ ص ٥٩ .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى : « كفى قومى » وقال التبريزى : ويروى : قوم وقوما » .

(٣) عسر ، يقال من باب فرح وكرم . وضبطت فى النسختين بكسر السين ، وفى نسخة التبريزى بضمها .

(٤) يقال جبيت الشىء ، إذا خلصته لنفسك . فى الأصل : « أحبى » صوابه فى ل . ولولا اتفاق النسختين على هذا القدر من الحروف لكان صوابها « أجب » بمعنى أقطع .

وغيرَ معرِّج على أواخره وأعجازه ، لئلا أكون مناقِشاً في الاستقصاء مُضايقا ، ويكون هذا مثلَ قول الآخر :

إنّا إذا شَارَبنا شَرِيبُ له ذَنُوبٌ ولنا ذَنوبُ

فإنْ أبَى كانت له القَليب[1]

وقيل معنى « أقتطِعُ الصُّدورَ » أراد[2] به مَودَّاتِ الصُّدور ، فحذَف المضاف . وقيل : بل أراد بالصُّدور الرُّؤساء . والمراد من البيت أني أُسامِح في مُعاملةِ أوساط قومي لأمثالِهم بذلك ، وأجعلَ رؤساءهم منصبِّين إليّ وما ئلينَ نحوِي ، لأنّي أقتطِعهم[3] عن غيري ، وأعدِلُ بهم عمَّن سِواي .

٧١٥

وقال عَمْرو بنُ الإطْنابة[4] :

١ — إنّي مِنَ القومِ الّذين إذا انْتَدَوْا بَدءُوا بحــقِّ اللهِ ثمَّ النَّائِلِ

٢ — المانعينَ مِنَ الخَنا جاراتِهِمْ والحاشِدِين على طعامِ النّازلِ

٣ — والخالِطِين فقيرَهم بغنيِّهِمْ والباذِلِينَ عطـــاءَهم للسَّائلِ

٤ — والضّارِبين الكبشَ يبرُقُ بَيْضُه ضَرْبَ المُجَهْجِهِ عن حِياضِ الآبِلِ[5]

(١) القليب : البئر العادية القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، تكون بالبراري ، تذكر وتؤنث . ل : « كان له » .

(٢) ل : « الصدورا يراد به » .

(٣) ل : « أقطعهم » .

(٤) الإطنابة أمه ، ومعنى الإطنابة سير الحزام يكون عوناً لسير آخر إذا قلق ، وسير يشد في وتر القوس العربية . وهو عمرو بن عامر بن زيد مناة الخزرجي ، شاعر فارس من فرسان الجاهلية . معجم المرزباني ٢٠٣ — ٢٠٤ . وذكر أبو الفرج في الأغاني (١٠ : ٢٨) أنه كان ملك الحجاز .

(٥) ل : « الضاربين » بدون واو . التبريزي : « ضرب المهجهج » .

يفتخر بأنه من القَوم الذين إذا عَقَدُوا مجلسًا للنَّظَر فى أحوال الجيران لشدّة الزمان، ولإصلاح الأمور فى جوانب الحىّ عند فسادها، وكان اليومُ مشهوداً، والتوفُّر على المصالح فى الأباعد بعد الأقارب شديداً، ابتدأوا بإخراج حقِّ الله تعالى جدُّه الواجبِ عليهم فى أموالهم، ثم كرُّوا على النائل مِن بَعْدُ. ويريد بالنَّائل العطايا التى لا تَجِب فى فرائض الدِّين ونوافِلِها(١)، وإنما يُقِيمون بها المروءات، ويتطلَّبون بفعلها وجُوهَ التحمُّد والتشكُّر.

وقوله «المانعينَ من إلخنا جاراتِهم» قَصَدَ فيه إلى تعداد خِصالهم، ورواتبِ سِيَرهم، مع الإفضال التامّ، والبِرِّ العامّ، فقال: يمنعون جاراتِهم [من الفُحش(٢)] ويصونونهنَّ من دَرَن الرِّيبة وقُبْح القالة، وإذا نَزلَ بهم نازلٌ حَشَدُوا الطَّعامَ له — والحَشْد: ما لا تكلفَ فيه(٣) — ذلكَ ليكون أدنَى لانبساطه، وأدعَى إلى إقامته. ولو قال بَدَل الحاشد محتشد أو مُتَحَشِّد لكان لا بدَّ من اقتران الكلفة بما يأتون به. وتعلّق «على» من قوله «على طعام النَّازل» بالحاشد، كأنَّهم يجتمعون على إعداد الطَّعام له، ويتعاونون فى إزالة الوهم فى أنَّه زِيدَ على الحاضر منه، ليكون أهنأ، وعلى المجموع له أخفّ.

وقوله «والخالِطِين فقيرَهم بغنيِّهم»، يريد أنَّهم يسوُّون بين طوائف الأقارب فترى الفقيرَ منهم لا يتميَّز عن الغنىّ ولا ينحطّ فى الإكرام عنه، فينقبض أو يمتعِض، ثم يبذلون(٤) للأجانب والغُرباء فُرَّاطهم ووُرَّادِهم(٥)،

(١) كذا فى النسختين، والوجه «ونوافله».

(٢) التكلمة من ل.

(٣) فى الأصل: «ما لا يكلف من»، والوجه ما أثبتنا من ل. وكلمة «ذلك» ليست فى ل.

(٤) هذا الصواب من ل: وفى الأصل: «يتذللون».

(٥) الفراط: جمع فارط، وأصل معناه القوم يتقدمون الوراد فيهيئون لهم الأرسان والدلاء ويملؤون الحياض.

لا يَدَّخِرُونَ مقدوراً عليه ، ولا يعتلون بما يكون سبباً فى حرمانهم . والمعنى أن حِرمانَهم ليس بمقصورٍ على من يُدْلِى بقُرْبٍ وقرابة ، بل تشترك فيه الكافّة .

وقوله « والضّارِبين الكبش » ، وصفهم بأنّهم يقاتلون الرُّؤساء متدجّجين فى السِّلاح ، فيضربونهم ضَرب المُدافِع غرائب الإبل عن حياض الآبِل . والآبل : صاحب الإبل الكثيرة . وقوله « يبرُق بيضه » فى موضع الحال . والمُجَهْجِهُ والمُهَجْهِجُ : الزّاجر بقوله : هَجْ هَجْ ، وجَهْ جَهْ . وقد حذف مفعول قوله ضَرْبَ المجهجِه .

ويقال : فلانٌ آبَلُ من فلانٍ ، أى أحذَق برَعْى الإبل وتثميرها .

٥ – والقاتِلين لدَى الوَغَى أقرانَهم إنّ المنيَّة مِن وَراء الوائِلِ

٦ – خُزْرٌ عيونُهمُ إلى أعدائِهمْ يَمْشُونَ مشى الأُسْد تحتَ الوابلِ

قوله «والقاتِلين لدَى الوغَى أقرانهم » ، أصل الوغى هو الجَلَبة والصَّوت ، ثم كثر استعماله فصار كنايةً عن الحرب ، فيريد أنّهم يَقتلون نُظراءَهم من الكُماةِ والأبطال فى الوَغَى ، ومَنْ وَأَلَ من أعدائهم فى حالٍ من أحوالهم فالمنيّةُ من ورائهم ، لأنّهم يُمْهِلون ولا يُهمِلون ، ويَطلُبُون أوتارَهم ولا يضيِّعون .

وقوله « خُزْرٌ عيونهم إلى أعدائهم » ، يريد أنّهم يتخازَرُون إذا نَظَروا إلى أعدائهم ، فِعلَ المتكبِّر المتوعِّد ، فلا يَلوُون أعينَهم مِنْهم ، ولا يُسوُّون النَّظرَ إليهم ، بل يَتبيَّن فى نَظرِهِمْ ما تنطوى عليه قلوبُهم ، وإذا مشَوْا رأيتَهم كالأُسْد تحتَ المَطر الشَّديدِ وهى تُبادرُ إلى مواضعها من العَرين .

٧ – والقائِلينَ فلا يُعابُ كلامُهم يومَ المَقامة بالقضاء الفاصِلِ

٨ – ليْسُوا بأنكاسٍ ولا مِيلٍ إذا ما الحَربُ شُبَّتْ أَشعَلوا بالشّاعلِ

أجرى قوله : « القائلين » مُجرى قوله المتكلِّمين والنّاطقين . وكذلك عدّاه

بالباء فقال بالقضاء الفاصل » . ومثله قول عُمر بن أبى ربيعة :

بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابِها فتُبلِغَ عُذْرًا والمقالةُ تُعْذِرُ

أى لم تتكلَّم . ومما يدلُّ على ذلك قوله « فلا يُعاب كلامهم » ولم يَقُل قولُهم . ويقال : فلانٌ يقول بالإمامة ، أى يدين بها ويعتقدُها مَذهباً . فيجوز أن يكون قوله على هذه الطريقة . وإنما وصَفَهم بأنَّهم مفوَّهون خُطباءُ يَفصِلون الأمورَ عند المجامع بالحُكم العَدْل ، والقضاء الفَصْل ، ولا يُتجاوَزُ مرسومُهم ، ولا يُعابُ مَقْضِيُّهم ؛ ثمَّ إذا حضروا الحرب وأُوقِدَ نارُها فلَيْسُوا فيها بضِعاف العَقْد .

والأنكاس : جمع النِّكْس ، والنِّكْس أصله فى السِّهام ، تكسر فيجعل أسفلُها أعلاها فتَضعُف . والمِيلُ : جمع أمْيَلَ ، وهو الذى لا يستقيمُ على الدَّابَّة . وقوله « أشعلوا بالشَّاعل » يقول أوقَدوا وهَيجوا . والشاعل يجوز أن يُرادَ به يسير الإيقاد ، والإشعال له تقويَتُه ، والباء مُقْحمة ، والمراد أشعَلُوا الشَّاعل وقوَّوْه وزادوا فيه . ويجوز أن يُرادَ بالشَّاعل ذا الشَّعْل أو الإشعال أو الاشتعال ، ويكون معناه المُشْعِل ، كما يقال : لابنٌ وتامرٌ ، وحينئذ يكون الباء داخلًا على حدِّه . والمعنى أشعلوها بالمُشْعِل . ويقال : أشْعَلْتُ الخيلَ فى الغارة فشَعَلَت وهى شاعِلة ، وأشعلْتُ النارَ فى الحطَب فاشتعلَتْ .

٧١٦

وقالت حبيبةُ ابنةُ عبدِ العُزَّى (١)

١ ــ أَإلى الفتَى بَرٍّ تَلَكَّأُ ناقتى فكسا مناسمَها النَّجيعُ الأسودُ

٢ ــ إنِّى وربِّ الرَّاقصاتِ إلى مِنًى بجُنوبِ مكَّةَ هَدْيُهُنَّ مُقلَّدُ

(١) التبريزى : « حبيبة بنت عبد العزى العوراء » . وواضح من اسمها أنها إحدى شاعرات الجاهلية .

٣ ـ أُولِي على هُلْكِ الطَّعامِ أَلِيَّةً أبداً ولكنِّي أُبِينُ وأَنْشُدُ

تريد أتتكَّأ ناقتى ، أى أتتحبَّس وتتباطأ ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ، لأنَّ الإدغام ممتنِـع هنا . وبَرٌّ : اسم الممدوح . والمعنى الإنكارُ والاستفظاع ، وإن كان اللَّفظ على الاستفهام . وانجرَّ بَرٌّ على البدَل من الفتى ، والمراد أنَّ ذلك لا يكون ، ثم دعت على ناقتها بالعَرقبة فقالت : إن تأخَّرَتْ أو تلوَّمتْ فى المسير فَعقَرها اللهُ حتى يسيل دَمٌ أسودُ نَجِيعٌ على مَناسِمها فيصيرَ كاللِّباس لها . والنَّجيع فى الأصل دم الجوف ، ويقال : تنجَّعَ به ، أى تلطَّخ .

وقولها « إنِّى وربِّ الرَّاقصات إلى مِنًى » أقسمَتْ بالله مالِك رواحلِ الحجيج وهى تسيرُ إلى مِنًى مِن جوانب الحَرَم وفيها الهَدْىُ المُقَلَّدُ . والهدى : ما يُهدَى إلى البيت ، وكانوا يقلِّدونه ويجعلون فى عُنقه لِحَاءَ الشَّجر أو الصُّوف المفتول ليكون علامةً لإهدائها .

وقولها « أُولِى على هُلك الطّعام أَلِيَّةً » هو جواب القَسَم ، أى لا أُولِى ، فحُذف حرف النَّفى ولم يُخَفِ الالتباس ، لأنه لو أريد الإيجاب لوجبَ أن يقال : لَأُولِيَنَّ باللام وإحدى النونين ، والمعنى لا أحلفُ على أنْ أصونَ طعامى ولا أُطعِمَ النّاسَ ، مدَّعيةً أنه قد نفِدَ وهَلَك ، ولكنِّى أظهِرُه وأنْشُد مَن أطعمُه . ويجوز أن يريد بأنشُد : أقولُ للزّائر والمارِّ بى : أنشُدُك اللهَ أنْ تُفارقَ حتّى تَطْعَم . وقولها « هدْيهنَّ مقلَّد » فى موضع الحال للرَّاقصات ، واكتفى بضميرها فى الجملة عن إدخالِ العاطف عليه ، لأنَّ الضمير يعلِّق الحالَ بما قبله كما يعلِّق حرفُ العطف . ومثله فى القرآن : ﴿ سَيَقُولونَ ثَلَاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ، والمراد بهَدْيهنَّ التكثير لا الواحد . و « أبدا » فى المستقبل بإزاء قَطُّ فى المُضِىِّ .

٤ ـ وَصَّى بها جَدِّى وعَلَّمَنِى أَبى نَفْضَ الوِعاءِ وكُلُّ زادٍ يَنْفَدُ

٥ ـ فاحْفَظْ حَمِيتَكَ لاأَبالَكَ واحْتَرِسْ لا تَخْرِقَنْهُ فَأْرَةٌ أو جُدْجُدُ

تريد أنَّ هذه الأفعالَ التى ذكرْتُها هى موروثةٌ عن الأَسلاف ، ومأخوذة عن عاداتهم ، جَدِّى وصَّى بها أبى ، وأبى علَّمَنِيها فَهُمْ قدْوَتى ، وهذه دأبى وسجيَّتى ، أصُبُّ الزَّادَ صبًّا ، وأنفُض وِعاءَه بعد أن أُخْلِيَهُ نَفْضًا . والزَّاد كلُّه لا يبقى وإن بُخِلَ به ، فلماذا يُكتَسَب الذمُّ فيه . ثم أقبلَتْ على من تذُمُّه وتبخِّله فقالت متهكِّمة وساخرةً منه : احفَظْ نِحْىَ سَمْنِك لا أَبَالَكَ — وهذا بعثٌ وتحضيض — واحذَرْ عليه الفأر والجُدْجُد لا يتطَّه (١) .

وقد مرَّ القولُ فى قولهم « لا أبالك » وإعرابِه . والفأر مهموز ، ويقال مكان فَئِرٌ ، إذا كثُر فأرُه .

٧١٧

وقال مالك بن جَعْدَةَ (٢) :

١ - وأبلِغْ صَلْهَباً عنِّى ورَعْداً تحيَّاتٍ مَآثِرُها سُفورُ (٣)

٢ - فإنك يومَ تأتينى حريباً تَحِلُّ علَىَّ يومَئذٍ نُذُورُ

٣ - تَحِلُّ علَىَّ مُفْرِهَةٌ سِنَادٌ علَى أخفافِها عَلَقٌ يَمُورُ

٤ - لأُمِّكَ وَيْلَةٌ وعليك أُخْرَى فلا شاةٌ تُنِيلُ ولا بَعِيرُ

يقول على وجه الإزراء بالمخاطَب والغضِّ منه : أبلِغْ عنِّى (٤) هذين الرَّجُلَين تحيَّاتٍ ما يُؤثَر منها وعنها ، ويُتحدَّث بها ، تَتَّسع لها وتستغرِقُها سفورٌ إذا

(١) التبريزى : الجدجد صرار الليل ، واسمه شبيه بصوته . وفى مثله قول الراجز :

ما أنت بالسمح ولا بالماجد فاحفظ سقاءيك من الجدائد

(٢) التبريزى : « مالك بن جعدة الثعلبى » ، وفى معجم المرزبانى ٣٦٤ « التغلبى » ، وهو شاعر من شعراء الدولة الأموية ، هجا المختار بن أبى عبيد فرد عليه الطرماح .

(٣) التبريزى : « فأبلغ » .

(٤) ل : « منى » .

اكتتبت ونسخت. والسُّفور : جمع سِفْر، وهو الكتاب . ويقال : سِفْر وأسفار وسُفور . وفى القرآن : ﴿ يَحْمِلُ أسْفارًا ﴾ . والمآثر، واحدتها مأثُرَة، ويجوز أن يريد مكارمها التى تؤثر، أى تُروَى وتُنسب، واضحة كسفور الصُّبح. ويقال : سَفَر الصُّبحُ وأسفر، وكان الأصمعىُّ يأبى إلا أسْفر.

وقوله « فإنَّك يومَ تأتينى [حريبًا ، أىْ سليبًا ، وانتصابه على الحال . و « يوم » مضاف إلى « تأتينى » [(١)] على وجه التبيين ، وهو ظرف لقوله « تحِلُّ علىَّ يومئذٍ نذور» . وانتصب «يومئذ» على البدل من يوم يأتينى ، وكأنَّ الشَّاعر عَرَاه سائلًا لحرمَه، ووعدَه بما لم يَفِ به له فقال : [إنَّك[(١)]] إن أتيتنى حَرِيبًا وجدتَنى لك بخلاف ما كنتَ لى ، وعلىَّ نذورٌ يلزمُنى الوفاءُ بها متى احتجتَ إلىَّ ورأيتُك على الحالة الدَّاعيةِ إلى الإلمام بى ، والقصد لى [(٢)] . ومعنى « تحِلُّ علىَّ » تجبُ محلًّا . والمُفرِهَة : النَّاقة التى تَلِدُ الفُرهَ من الأولاد . والسِّناد : القويَّة : ويقال للمرتفع فى قُبُل جبلٍ [(٣)] سَنَد وسِناد . أى أعْقِرُ فى جُملة النُّذور لك ناقةً هكذا ، فيمورُ أى يَسيل العَلَقُ ، وهو الدَّمُ على أخفافها .

وقوله « لأمِّكَ ويلةٌ » دُعاء عليه مُصَرِّحًا بالذَّمِّ وذاكرًا الحرمةَ منه بقوله لأمِّك وَيلةٌ . وقوله « وعليك أخرى » أى ويلةٌ أخرى . واللام وعلى هنا متقاربان فى المعنى . وقوله « فلا شاةٌ تُنيلُ » لك أن تنصب شاةً بتُنيل، ويرتفع « ولا بعيرٌ » على الاستئناف ، كأنَّه قال ولا بعير مطموعٌ فيه منك ومَنُولٌ . ولك أن ترفعهما جميعًا ، ويكون مفعول تُنيل محذوفًا ، والمراد لا يُرْجى من

(١) التكملة من ل .
(٢) ل : « إلى » .
(٣) قبل الجبل : سفحه . وفى اللسان : « السند ما ارتفع من الأرض فى قبل الجبل أو الوادى » .

جِهتك شاة ولا ما فوقَها . ويقال : نِلْتُ الشَّىءَ فهو مَنيلٌ نَيْلًا ، إذا كنتَ تتناولُه بيدك ، وليس هو من التَّناول ، لأنَّ التَّناول من النَّوال ، ويقال منه نُلْتُ أَنُول . ومن الأوَّل قولُه تعالى : ﴿ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ ، ومن الثانى : نَولك أن تفعل كذلك .

٧١٨

وقال عَبدُ اللهِ الحَوالِىُّ(١) :

١ – لَمَّا تَعيَّا بالقَلُوص ورَحْلِها كَفَى اللهُ كَعْبًا ما تَعيَّا به كَعْبُ
٢ – دَعَوْنَا لها قَيْنًا رفيقًا بمُدْيَةٍ يُجَزِّئُها فينا كما يُجْزَأُ النَّهْبُ

يقال : عَيِيتُ الأمرَ وعَيِيت بالأمر . والقَلُوصُ فى الإبل ، بمنزلة الجارية فى الناس . يقول : لمَّا أعيا كَعْبًا مزاوَلةُ القَلوصِ وشدُّ الرحل عليها كفاهُ اللهُ أمرَها ، لأنَّا دعَوْنا لها جزّاراً حاذِقاً بِسكِّينٍ لينحرَها ويَقْسِمَها فينا كما يُقْسَم النَّهب ، أى المال المُنتهَب . والقَين : الحدَّاد فى الأصل ، واستعاره . وهُم فى ذوى المِهن وأسماء الصُّنَّاع يفعلون هذا : ألا ترى قولَ الآخر (٢) :

* وشُعْبَتا مَيْسٍ بَرَاها إسْكافْ(٣) *

والرَّحْل : مصدر رحلْتُ البعيرَ ، وإنما أعيا كعباً ما أعياهُ منها لنشاطِها وعِرَضْنَتِها فى سِيرتها(٤) . والضمير من قوله « ما تَعيَّا به » راجع إلى ما . ويقال :

(١) التبريزى : « عبد الله الحوالى ، من الأزد » . وبنو حوالة ، كسحابة : حى من العرب ، وهم بطن من الهنو بن الأزد ، من القحطانية .

(٢) هو الشماخ . ديوانه ١٠٣ والمقاييس (٣ : ٩٠) .

(٣) قال ابن فارس فى مقاييس اللغة : « أراد القواس » .

(٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وعرضتها » وتقرأ بكسر العين وفتح الراء وتشديد الضاد ، وهما بمعنى واحد ، وهو الاعتراض فى السير من النشاط .

تعايا عليه كذا ، أى أعياه ، قال أوس :

. . . . كلما تعايا عليه طول مرقى توصلا (١)

٣ ـ لعمرى لقد ضيعت يا كعب ناقة يسيراً عليها أن يضر بها الركب

٤ ـ موكلة بالأولين فكلما رأت رفقة فالأولون لها نصب

أقبل على كعب يوبخه فى أمرها ، وذلك أنه كان كثر شكوه منها فيقول : وبقائى لقد ضيعت ناقة يا كعب [يخف (٢)] عليها ويقل فى قوتها إضرار القوم بها فى الحمل والركوب والاستحثاث فى السير ، فلا تبالى بما تحمل أو تكلف ، حتى أنها كانت كالموكلة بالسابق المتقدم ، فكلما رأت رفقة فالهوادى منها نصب عينيها (٣) حتى تلحق بها أو تتقدمها . ومعنى التضييع أنها لم تكن سمينة ولا مستصلحة للنحر ، وإنما كانت للعمل لا غير .

٧١٩

وقال حجر بن خالد (٤) :

١ ـ سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبى قابوس حزماً ونائلا

٢ ـ فساق إلهى الغيث من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا

٣ ـ فأصبح منه كل واد حللته من الأرض مسفوح المذانب سائلا

يقول : بلغنى سعى طالبى الحمد ، ومدخرى الشرف والمجد ، وما عليه ملوك

(١) صدره فى ديوان أوس ٢١ :

* وقد أكلت أظفاره الصخر كلما *

(٢) التكملة من ل .

(٣) ضبطت «نصب» بفتح النون فى النسختين معا فى متن البيت وشرحه ، وهى لغة ضعيفة ، وفى اللسان : « القتيبى : جعلته نصب عينى بالضم ، ولا تقل نصب عينى » .

(٤) بعده عند التبريزى : « يمدح النعمان بن المنذر » . وقد سبقت ترجمة حجر فى الحماسية ١١٨ ص ٣٥١ . وروى الجاحظ الأبيات فى الحيوان (٣ : ٥٨ - ٥٩) .

الأرض فى مَصَارفهم و مَباغِيهم ، وحَزْمِهم ومساعيهم ، فَقِسْتُ بعضَه ببعض ، فلم أجد كحزْم أبى قابوسَ حَزْماً ، ولا كنائلهِ نائلا . ثمَّ دعا له بالسُّقْيَا ولِمحَلِّه بالخِصْبِ والحَيا فقال : جَمع الله لك وفى فنائك ما هو مفـرَّقٌ فى أطـرار الأرض (١) ، وجوانب الأفقِ ، من سواكب الغَيث ، فصار حواليك ، فأىُّ وادٍ نزلْتَهُ من الأرض جعـله ممطور التِّـلاع والمذانب ، مُخْصبَ المَسايل والمدافع ، سائلا بصَوبه ، مغموراً بنَداه وبَرَكته .

وانتَصب « حَزْماً » على التمييز ، والـكاف من « كمثل . أبى قابوس » زائدة ، ومثله :

لَواحِقُ لأقرابِ فيها كالمَقَقْ (٢)

أراد فيها المَقَق ، كما أنَّ هذا يريدُ : لم أر مثلَ أبى قابوس . وفى القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْء ﴾ ، ويروى: «فسِيق إليه الغيثُ فى كلِّ بلدة إليك» . وكأنه أخبر فى صدر البيت ثم خاطَب على عادتهم . وقوله « من كلِّ بلدة إليك » أى إليك أمرُها وتدبيرُها ، فصرتَ تتولَّاها . وهذا كما يقال : جُعِل بلدُ كذا إلى فلان . والمراد من البيت على هذه الرِّواية : جعل اللهُ الدُّنيا تحت أمرك ، ومَنوطة بتدبيرها ، ثم ساقَ الغيثَ من آفاقِها وأطرارها كلِّها إلى ما حَولَك فصار محتفَّاً ببيتك . ومشتمِلًا على محالِّك . فأينَ تنقَّلْت ونزَلْت صَحِبكَ الخيرُ وإنساقَ معك الغيث . وعلى هذا يكون قوله «من كل بلدةٍ » عامًّا فى أقطار الأرض (٣) وأبلادها . ورُوِى أيضاً : « فسيق الغَمامُ الغُر من كلِّ بلدة » وهو ظاهر المعنى . وقوله «فأصبح منه» ، أى من الغيث . وقوله « كلُّ وادٍ » وصفَه بقوله « حلَلْتَهُ »

(١) أطرار ، كذا وردت فى النسختين هنا وفى س ١٥ ، وفى اللسان : « وطرة الأرض : حاشيتها » . ثم ذكر أن الطرة تجمع على طرر كغرف ، وطرار بكسر الطاء .
(٢) لرؤبة فى ديوانه ١٠٦ واللسان (مقق) .
(٣) ل : « أقطاع الأرض» .

وانتصب « مَسفوحَ المَذانب » على أنَّه خبر أصبح .

٤ ـ مَتَى تُنعَ يُنعَ البأسُ والجُودُ والنّدى وتُصْبِحْ قَلوصُ الحَرْبِ جَرْباءَ حائلا[1]

٥ ـ فلا مَلِكٌ ما يُدْرِكَنَّكَ سَعْيُهُ ولا سُوقَةٌ ما يَمْدَحَنَّكَ باطلا

يقول : بَقاء السَّخاء والمروءةِ وتقوى الإله والشِّدّة ، متّصِلٌ ببقائك ، لأنها شِيَمُك وطبائعك ، فأنتَ تُقيمُها وتَرُبُّها ، وتحفظُها عن الذّهاب والدُّروس وتحرسها فإنْ هلكْتَ فقد هلكَ جميعُها ، ويُصْبِح الاستسْلام والانقياد للهَضيمة والشّرّ شاملَين للنَّاسِ ، فلا يكون بهم دونها دِفاع ، ولا إباءٌ منها ولا امتناع ، وتصير قلوصُ الحرب سيِّئة الحال يَقتَطِعُها الحِيال عن اللَّقاح ، ويمتلكها ما بنَفْسها من الجَرَب والضَّعف عن النزْوِ والجِذاب . وهذا مَثَلٌ لما يفارق الناس من العزّ والاقتدار ، ويُلازِمهم من الذُّلّ والاكتئاب . وضدُّ هذا قول زهير :

. . . . وتَلْقحْ كِشافاً ثُمَّ تَحمِلْ فتُتْئِمِ[2]

فتُنْتِجْ لكم غِلْمانَ أَشأَمَ كلُّهم كأحْمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

وقوله « فلا ملكٌ ما يدركَنّك سعيُه » يصفُه بأنّه لا غايةَ وراء غايتِه لمُرْتَقٍ ولا فَوْقَ نهايتِه نهايةٌ لمُعْتَلٍ ، فكلُّ ساعٍ من الملوك يَقِفُ دونها ، وينحطُّ عن درجتها ، وأن السُّوقَ وإنْ أسرَفُوا وأفرَطوا في التقريظ والإطراء ، يَقصُرون عن بُلوغ حَدِّه بالوصف ، وتصويرِ كُنْهِه عند النَّعت ، بل أحسنُ أحوالهم أن يقولوا بعضَ ما قيل من الحقّ .

وأدخلَ النُّون الثّقيلة في « يمدحنَّك » و « يدركَنّك » لما في الكلام من معنى النَّفي ، ولأن ما الزائدة للتأكيد لفظُه لفظُ ما النافية . ومثله :

---

(١) ل : « والجود والتقى » . والتبريزي : « الجود والبأس والتقى » .

(٢) صدره : ✲ فتعرككم عرك الرحى بثفالها ✲

* في عضة ما ينبُتنّ شكيرُها (١) *

وبالمٍ ما تختِنَنّه . وقوله « ما يمدحنّك باطلا » أراد مدحا باطلا ، فانتصب باطلا على أنه صفة لمصدرٍ محذوف .

ومثل البيت الأوّل قولُ النابغة :

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابُوسَ يَهْلِكْ ... رَبيعُ النّاسِ والشّهرُ الحَرَامُ
ونأخذْ بعدَه بذِناب عَيْشٍ ... أجَبَّ الظَّهرَ ليس له سَنَامُ

وقول الآخر (٢) :

فإذا وَلّى أبو دُلَفٍ ... وَلّتِ الدُّنيا على أثَرِه (٣)

٧٢٠

وقال آخر :

١ ـ ومُستنبِحٍ بعد الهُدُوّ دَعَوتُه ... بشَقْراءَ مِثلِ الفَجْرِ ذاكٍ وَقُودُها
٢ ـ فقلتُ لها أهلاً وسهلاً ومَرْحَباً ... بمُوقِدِ نارٍ مُحمدٍ مَنْ يَرُودُها
٣ ـ نَصَبْنا له جَوفاءَ ذاتَ ضَبابةٍ ... من الدُّهْمِ مِبْطاناً طَويلاً رُكُودُها
٤ ـ فإنْ شئتَ أثوَيناك في الحيِّ مُكْرَماً ... وإن شئت بلّغناك أرضاً تُريدُها

يعني بالمستنبح طالبَ ضيافة ، وقد تقدم الكلام فيه (٤) . ومعنى « دعوته بشقراء » أي رفعت له ناراً شقراءَ حتّى اهتدَى بها ، فكأنّي دعوتُه . وجعل النّار شَقْراء ، وربما قيل صفْراء ، لأنّها أُوقِدَتْ خاليةً من طَرْحِ اللّحْمِ عليها

(١) تمام إنشاده : « وفي عضة » . وصدره في الخزانة (٢ : ٨٣) :
* إذا مات منهم ميت سرق ابنه *
وأنشد سيبويه عجزه في (٢ : ١٥٣) .
(٢) هو علي بن جبلة . الشعراء ٨٤٠ والأغاني (١٨ : ١٠٣ ـ ١٠٤) .
(٣) قبله : إنما الدنيا أبو دلف ... لأيين مبداه ومحتضره
(٤) انظر ما سبق في ص ١٥٥٧ .

فاشتعلتْ شقراء ، ولو كُبِّبَ عليها اللَّحْمُ لالتهبَتْ كُمَيْتَ اللّون من أجل دُخَانها.
لذلك قال الأعشى :

وأوقَدْتُها صَفرَاءَ فى رأسِ تَنضُبٍ   ولـٰكُنْتُ أرْوَى للنَّزِيلِ وأشْبَعُ(١)

وذَاكِ وُقودُها ، أى مُضىءُ اتِّقادها . فقلت له أهلاً ، انتصب « أهلا » بفعل مضمَرٍ . والباء من قوله « بِمُوقد نار » تعلّق بفعل مضمر ، كأنه قال : يُنالُ ذلك كله بمُوقِدِ نارٍ يُحْمِدُهُا مَن يرودُها . ومعنى « مُحمِدٍ مَن يرودُها » أى مصادِفٍ الحمد مَن يطلبها . ويقال : أحمدتُ فلاناً ، كما يقال أجبَنْته وأبْخَلته .

وقوله « نصبنا له جوفاء » يعنى به قِدرًا كثيرةَ الأخْذ ، واسعةَ الجوف . والضَّبابة : ما يَتعقَّب المطرَ من الظُّلمة الرَّقيقة والسَّحاب الركيك . وذِكرُها ها هنا مثل . ورُوِى : « ذاتَ صُبابة » ، وهى البقيَّة ، أى يَفْضُل ما فيها عن الآكلين لعِظَمِها . والدُّهْم : السُّود . والمِبْطان : العظيم البَطْن . ومِفْعال بناء المبالغة. وجعلَها طويلَة الركود لأنَّها إذا نُصِبت لم تُنزَلْ إلا بعد لَأْيٍ لِكِبَرِها ، ولأنه لا يخفُّ مَحْمِلُها فيُتناوَل كلَّ وقتٍ .

وقوله « فإن شئت أثوِيناك » ، هذا تخييرٌ منهم للضيف بعد إطعامه ، ويقال: ثَوَى بالمكان ، إذا أقام ، وأثْوَاهُ غيره . وانتصب « مُكرَماً » على الحال . والمعنى : إنْ أردتَ المقام أقمتَ مُكرمًا مُعظَّمًا ، وإنْ أردتَ التوجُّه فى مَقْصِدك ، والارتحال لِطيَّتِك ، بلَّغناكَ مَقَرَّكَ محميًّا مُشيَّعاً .

---

(١) كذا . والبيت لم يرد فى ديوان الأعشى . ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٦٣) إلى الأزرق الهمدانى .

(٢) هذا ضبط الأصل فى « أوقدها » بفتح التاء ، وضبطت فى ل بضمها . وعند الجاحظ : « ونوقدها » .

٧٢١

وقال آخر :

١ ـ ومُسْتَنْبِحٍ تَهوِى مَسَاقطُ رأسِه إلى كلِّ شَخْصٍ فهو للسَّمع أصْوَرُ

٢ ـ يُصَفِّقُه أنْفٌ مِن الرِّيحِ باردٌ وَنكباءُ لَيلٍ مِنْ جُمادَى وصَرْصَرُ

٣ ـ حَبيبٌ إلى كَلْبِ الكريمِ مُناخُه بَغيضٌ إلى الكَوْماءِ والكلْبُ أبصَرُ

يعنى بالمستنبح ضَيفاً . ومَساقط رأسه : جمع مَسْقِطٍ ، ويعنى به المصدر لا اسم المكان . ومعنى تَهوِى تَقصِد وتُسرع . ويقال فى الفَرَس : إنّه يُساقِط العَدْوَ سِقاطاً . واسْقُط علينا ، أى اقْصِدْنا . وقال :

يُساقِطُ عنـه رَوْقُه ضارياتِها سِقاطَ حديدِ القَيْنِ أخْوَلَ أخْوَلا[1]

أى يُزيلها ويُبْعدها . ومعنى « تَهوِى مَساقطُ رأسه » ، أى يُساقِط رأسَه الشُّخوصُ سِقاطاً سريعاً . وقوله « فهو للسَّمع أصْوَرُ » أى مائل . والسَّمْع : مصدر سَمِع . ومعنى البيت : رُبَّ مُستَضِيفٍ بنُباحِه يتسرَّع مَيْلُ رأسِه ومَهواه إلى كلِّ شخصٍ يمثُلُ له ، فهو مائلٌ للسَّمع ، ومنظر متى يُجيبه الكلامَ[2] أو يتلقَّاه مَن يُنزِلُه :

وقوله « يصفِّقه » أى يَضْربه . والأنْف من الرِّيح : أوله . ومنه استأنَفتَ الأمر . وكلأٌ أُنُفٌ ، إذا لم يُرْعَ . وقوله « ونكباء ليل » يريد : وريح تنكَّبُ عن مَهابِّ الرِّياح الأربع ، فى لَيلةٍ من ليالِى جُمادَى . وصَرْصَر ، أى وبرد شديد . والصِّرُّ والصَّرصَرُ بمعنًى ، وليس من بناء وَاحد ، لأنَّ صرصَر رُباعىٌّ وذلك ثُلاثىٌّ . وجُمادى ، يريد به شهراً من شُهورِ الشِّتاء وإن لم يكن جُمادى

(١) البيت لضابئ البرجمى يصف الكلاب والثور . اللسان (خيل) .

(٢) الكلام ، بالياء فى آخره ، كما فى النسختين .

فى الحقيقة . وإنما وصفَ ما قد أشرفَ عليه المستنبحُ من أذى الرِّيح والبردِ والمطر ، ليكون ذلك عُذْراً فى الاستنباح وطلب النُّزول .

وقوله « حبيبٌ إلى كَلْبِ الكريمِ مُناخه » ، يجوز أن يرتفع حبيبٌ على أنّه خبرٌ مقدّم ، والمبتدأ مُناخه . ويجوز أن يكون صفةً للمستنبِح . وقد جُعِل خبرَ مبتدأ مضمر ، فيرتفع مناخُه على أنّه مفعولٌ لم يسمَّ فاعلُه من حبيب . ويقال : أنَخْتُ البعيرَ إناخةً ومُناخا فبركَ . واستغنَى ببركَ عن ناخ . وإنما حُبِّبَ مُناخُ الضَّيف إلى الكلْب لأنَّه يَسعَدُ بنُزوله ويَشرَكُه فى القِرَى المهيَّأ له . وأضافَ الكلب إلى الكريم ، لأنَّ كلبَ اللَّئيم يَعقِر السَّابلة والمارَّة ، ولا يَعرِف الاستضافة والاستنزال .

وقوله « بغيض إلى الكَوماء » لأنّها تُنحَر . والكَوماء : العظيمة السَّنام .

وقوله « والكَلْب أبصَر » ممَّا وقَعَ فى أحسنِ موقعٍ وشرُفَ المعنى بهِ وجاد البيت .

٤ ــ حَضَأْتُ لهُ نارِى فأبصَرَ ضَوْءَها ... وما كادَ لولا حَضْأَةُ النَّارِ يُبْصِرُ

٥ ــ دَعَتْهُ بِغيْرِ اسْمٍ هَلُمَّ إلى القِرَى ... فأسْرَى يَبُوعُ الأرضَ والنَّارُ تَزْهَرُ

٦ ــ فلمَّاأضاءتْشَخْصَهُ قُلتُ مرْحبًا ... هَلُمَّ وللصَّالِينَ بالنَّارِ أبشِرُوا

قوله « حضأْت له نارى » جواب ربَّ المضمَرة فى قوله ومستنبِح . ومعنى حَضأْتُ النَّارَ رفَعتُها وهيَّجتُها له فأبصرَها واستدلَّ بها ، ولولا رَفْعِى النَّارَ وتهييجى إيَّاها لكان لا يُبصِرُ الطَّريق ولا يَرَى مُستدَلًّا به . وفصل بين كاد وخبره بقوله « لولا حَضْأة النار » ، وفى كاد ضميرا لمُستنبِح ، لولا ذلك لَمَاجاز أنْ يقال : زيد كادَ يخرج ، لأنَّ الفعل لا يلى الفعل .

وقوله « حَضْأَة » ارتفع بالابتداء وخبره محذوف استُغنِيَ بجواب لولا [عنه ، وجواب لولا(١)] فى قوله : وما كاد يُبصِرُ لولا حَضْأَةُ النَّار .

(١) التكملة من ل .

وقوله « دعَتْهُ بغير اسمٍ » يريد : دعت الضَّيفَ النارُ ، كأنه سَمَّى استدلالَه بها وتَصَوُّرَ النَّارِ له دُعَاءً منها وإجابةً من الضَّيْف . وقوله « بغير اسم » إنَّما نكَّره ولم يَقُلْ بغير اسمِه ، لأنَّ المدعوَّ قد يُدعَى باسمه ، وبكُنيته ، وبلقبٍ له ، وباسمِ جنْسِه ، وبصفةٍ له ، كقولك يارجلُ ، ويا فتى ، ويا مُقْبِل ، ويا راكب ، ويا فلان ، ويأبا فلان . والنَّار لم تَدْعُ الضَّيف بشيء من ذلك ، فلذلك قال بغير اسمٍ ، أى بغير اسم يُدْعَى به مثلُه . ويجوز أن يكون قال ذلك لأنَّ دعوتَها بكلام ، وإنما كان علامةً واستدلالا ، كما أنَّ الإجابةَ كانت قَصْدًا وإسراءً .

وكذلك قوله « هلُمَّ إلى القِرَى » من ذلك ، لأنَّ النَّارَ لم تتكلَّمْ بهذا الكلام . وهلمَّ يجوز أن يكون أصله هاء التنبيه ولُمَّ فِعْلٌ ، وعلى هذا يُثَنَّى ويجمع . ويجوز أن يكون اسماً للفعلِ ، وحينئذٍ لايثَنَّى ولا يُجْمَع ولا يؤنَّث ، وهذا أفصحُ اللُّغَتَين . وفى القرآن : ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلينا ﴾ . وقوله أسرى ، يقال سَرَى وأسرى بمعنى . ويَبُوعُ الأرضَ أى يقطعها بخَطْوٍ واسع وحركةٍ سريعة . يقال : بُعتُ الشَّيء أبوع بَوْعاً فى هذا . وفرسٌ بَيِّع : واسع الخَطْو . وكما استُعمِل البوْع فى هذا استُعمل الذَّرْع أيضا . ومنه قيل ناقة ذَرِعَةٌ ، إذا كانت واسعةَ الخَطْوِ . وقوله « والنَّار تَزْهَرُ » الواو واو الحال ، وتَزْهَر أى تضيء فى صعود .

وقوله « فلما أضاءتْ شَخصَه قلتُ مَرْحبا » ، أى لمَّا دنا منِّى وتراءى لى شخصُه بضوءِ النَّار تلقَّيتُه بالترحيب والاستدناء ، وقلت لِمَنْ حولَ النَّار من المُصْطَلِين ومن الأهل والخَوَل : استَبْشِرُوا بالضَّيف فقد طَرَقَ ، وبِزادِنا فإنَّه حَصَل . ويقال صَلِيتُ بالنَّار ، أى دنوتُ منها ، أصْلَى صِلِيًّا(١) . وقوله : مَرْحَباً ، هَلُمَّ : كلامانِ ، ولم يتوسَّطْهما العاطف ، لأن مرحباً تسليم عليه ، وهلمَّ أمرٌ بالدُّنُوّ ،

(١) بضم الصاد وكسرها .

فكأنَّه استأنف هذا الكلام بعد التّسليم بهذا الكلام ، ولم يجمعْهما اللفظُ به في حالةٍ واحدة .

٧ ـ فجاءَ ومحمودُ القِرَى يَسْتَفِزُّه إليها وداعى اللّيل بالصُّبحِ يَصْفِرُ[(١)]

٨ ـ تأخّرْتَ حتّى لم تَكَدْ تَصطفِي القرى على أهلِهِ والحقّ لا يتأخّرُ

يقال : جاء الضّيفُ وما هُيِّىء له من القِرَى المحمود يجتذِبُه ويَهديه إلى النّار الموقَدة والدِّيكُ يَصفِر مُؤذِنا بإصباح اللّيل . وإنما قال « ومحمود القِرى » لأنَّ طعامَ الكِرام لا يُستَنكف منه ، ويَستطيبُه كلُّ متناوِلٍ ويستمرئُه ، كما يَستكرِم المثوَى عندَهم كلُّ نازلٍ بهم .

وقوله « تأخّرتَ » استبطاءٌ من القارى للضّيف . والمراد أنّك تأخّرتَ عن أوّلِ الليل حتى كأنّكَ لم تكد تطلبُ اختيار صَفْوِ القِرَى على النّازلين ، ونحنُ وإنْ فعلتَ ذلك فلكَ الواجبُ من حقِّك ، والمفروضُ من قِسْطك ، ولن يتأخّر إن تأخرت . والمعنى أنّا نستأنِفُ لك ونَحتفِل ، ونُقيم الرّسمَ ونتكلّف[(٢)] ، ونُفرِدُك بما يَجِبُ لكَ وإنْ تقدَّمَك مَن تقدّم . والهاء من قوله « على أهله » يعود إلى القِرى .

٩ ـ وقُمتُ بنَصْلِ السّيفِ والبَرْكُ هاجِدٌ بَهَازِرُه والموتُ في السَّيف يَنْظُرُ[(٣)]

١٠ ـ فأعْضَضْتُه الطُّولَى سَناماً وخَيْرَها بلاءً وخَيْرُ الخَيْرِ ما يُتَخَيَّرُ

---

(١) التبريزي : « ويروى وراعى ، فمن روى داعى بالدال أراد ما يصوت سحراً نحو الديك وغيره ... ومن روى : وراعى الليل ، أراد أن الليل مدبر ، أى جاء في آخر الليل. والأصل في ذلك أن الراعى إذا أراد سوق الماشية صفر بها فتنساق لصفيره ، فكأنه قال: والليل قد سبق وطرد » .

(٢) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٣) في النسختين : « بهازرة » ، صوابه في التبريزى ، وهو ما يقتضيه الشرح من أن في الكلمة ضميراً يعود إلى معنى البرك .

يقول : قُمْتُ مجرِّداً السيفَ ومتجرِّداً لعقرِ ناقةٍ ، والإبلُ الباركة بفنائى نائمة ساكنة ، عِظَامٌ سِمانٌ ، والموتُ ينظرُ فى سَيفى : أيُّها المُعَدُّ والموعود به . وإنما قال « والبَرْكُ هاجد » ولم يقل هاجدة ، ردًّا على لفظه ، لأنّ لفظَه لفظ الواحد وإن أريدَ به الـكثرة . وردَّ « بهازِرهُ[1] » على المعنى لا على اللفظ.

والهُجُود : النَّوم ، وقال الخليل : هَجَدوا ، أى نامُوا ، هجوداً ؛ وتهجَّدوا : استيقظوا ، تهجُّداً . والبهازِرُ[2]: السِّمان الصفايا ، واحدتها بِهزارٌ فى القياس[3].

والواو من قوله « والموتُ فى السَّيف ينظرُ » واو الحال . وقد حَسُنَ موقع هذا العَجُز من صدر البيت . ويجوز أن يـكون المعنى : والموت المركَّب فى السَّيف يَنْتظر ماذا يكون منِّى.

وقوله « أغضِبْه الطُّولَى سَنَاماً » أى عرقَبتُها به ، وجعلتُه يعَضُّ عليها . وانتَصَب « سناماً » على التمييز ، وكان الواجب فى مقـابلة الطُّولى أن يقول : والخُورَى بلاءً ، أو خُورها بلاءً ، فعَدَلَ به الوزْنُ عن تخيُّر المقابلة . ومعنى « خَيْرها بلاءً » يعنى فى العمل والوِلادة وغزارة الدَّرّ . وقوله « وخيرُ الخير ما يُتخَيَّر » يريد البرْكُ كلُّها خيار ، ثم إنِّى اخترتُ مِن بينها خيرَها ، إكراماً للضَّيف ، وخيرُ الخير ما يُتَخَيَّر من الخير.

١١ ـ فأوْفَضَ عنها وهْىَ تَرْغُو حُشَاشَةً بذى نَفْسِها والسَّيفُ عُرْيانُ أحْمَرُ

١٢ ـ فباتَتْ رُحَابٌ جَوْنَةٌ مِن لِحَامِها وَفُوهَا بما فى جَوْفِها يَتَغَرْغَرُ

قوله « أوفَضَ عنها » يريد أنَّ البرْكَ لمَّا جرى منِّى على صاحبتها التى اخترتُها ما جَرَى من العَرْقبة نفرْن وتفرَّقْنَ عنها ، وهى ، يعنى المعقورة ، ترغُو برُوحها

(١) فى النسختين : « بهازرة » ، وانظر التنبيه السابق .
(٢) فى النسختين : « البهازرة » ، وانظر ما سبق .
(٣) التبريزى : « بهزورة وبهزرة وبِـهزار فى القياس » .

حُشاشةً ، وقال « بذى نفسها » يريد خالصة نفسها . والحُشَاشة : البقيَّة من ذَمائها ، وقال الخليل : رُوح القلب ، وهو رَمَقٌ من حياة النَّفس . وانتصابه على الحال ، ويجوز أن ينتصب على التمييز ، فيكون ممَّا نُقل الفعلُ عنه ، كأنّه كان وهى ترغو حُشاشتها ، فنُقِل الفعلُ إليها ، فصار تمييزاً كقولك طِبْتُ نفساً وما أشبَهَه . وقوله « والسَّيفُ عريانُ أحمر » يريد أنّه متجرِّد من غِمده . ولم يصرفْ عريانَ ضرورةً ، وجعله أحمرَ ممَّا تلطخ من دمها .

وقوله « فباتَتْ رُحابٌ » يعنى القِدر . ويقال : رحيبٌ ورُحاب ، كما يقال : طويل وطُوال ، وعَجيب وعُجاب ، وهى الواسعة والجَوْنة : السَّوداء . وقوله « من لحامها » خبر باتت ، كقولك أنتَ منِّى . والمعنى : باتت مملوءةً من لِحامِها . وقوله « وفوها يتغرغر » أى يسيل ما فى جوفها ، يعنى عندَ غَلَيانِها على النار . ومثله :

إذْ لا تزالُ لكم مُغَرْغِرَةٌ ... تَغلِي وأعلى لَوْنِها كِتْرُ[1]

والكِتْرُ : السِّنام ، ويكون أبيضَ اللون .

٧٢٢

آخر :

١ ـ وماَ يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنِّى ... جَبَانُ الكلبِ مَهزُولُ الفَصيلِ[2]

إنما قال « جَبَانُ الكلبِ » لأنَّه عُوِّد أن يُسالِم الطُّرّاق لئلا يتأذَّى به الضُّيوفُ إذا وَرَدوا ، فقد أُدِّبَ لذلك ودُرِّبَ عليه ، ولأنَّه بطُول اعتياده لنُزول السَّابلة بِهِم ألِفَهم ، فصار لا يَستنفِر منهم . وقال « مهزول الفصيل » لأنَّه

(١) البيت لعنترة فى اللسان (غرر) برواية :« وأعلى لونها صهر » ، وصهر أى حار وضع المصدر موضع الاسم ، وكأنه قال : أعلى لونها لون صهر .

(٢) أنشد الجاحظ هذا البيت فى الحيوان (١ : ٣٨٤) .

يُؤْثرَ بلبَن أمِّه غيرهُ أو تُنحَر عنه . ومثله قولُ الآخر :

تَرَى فُصْلَانَهُمْ في الوِرْدِ هَزْلَى وَتَسْمَنُ في المَقَارِي والحِبالِ[١]

٧٢٣

وقال آخر :

١ ــ سَأَقْدَحُ مِنْ قِدْرِي نصيبًا لجارتي وَإِنْ كانَ ما فيها كَفَافًا على أَهْلِي

٢ ــ إِذَا أَنتَ لم تُشرِكْ رفيقَكَ في الذي يَكُونُ قليلًا لم تُشارِكْهُ في الفَضْلِ

سأقْدَح ، أي سأغرف من قِدرى نصيبَ الجارة وإن كان ما فيها كَنافًا على أهلى ، أى لا يَفْضُل عنهم ولا ينقُص من حاجَتِهم. وفى طريقته قولُ الآخر :

نُقسِّمُ ما فيها فإن هى قَسَّمَت فذاكَ وإنْ أَكْرَتْ فَعَنْ أَهلِها تُكْرِى[٢]

قَسَّمَت بمعنى تَقَسَّمت ، ومثله نَبَّه بمعنى تنبَّهَ ، ووجَّه بمعنى توجَّه . ومعنى أَكْرَتْ نقصَت ، يريد أنَّه يوفِّر نصيب الغريب ولا ينقص منه ، بل يجعل النُّقصان فى نصيب العيال . و كذلك قولُ الآخر[٣] :

ليسَ العطاءُ من الفُضولِ سَماحَةً حتَّى تجودَ وما لَدَيْكَ قَليلُ

يريد : والذى لديك قليلُ . وقال الرَّاعى :

إنِّى أُقسِّم قِدرى وهى بارزة إذْ كلُّ قِدْرٍ عَرُوسٌ ذاتُ جِلبابِ

أى مستورة مغطَّاة ، لشدَّة الزَّمان .

(١) أنشد فى اللسان (قرا) شاهدا على أن المقارى بمعنى القدور . وقال : « قوله وتسمن فى المقارى والحبال ، أى أنهم إذا نحروا لم ينحروا إلا سمينا ، وإذا وهبوا لم يهبوا إلا كذلك » .

(٢) أنشده فى اللسان (قسم ، كرا) .

(٣) هو المقنع الكندى ، كما سيأتى فى الحماسة ٧٧٤ . وانظر المضنون به على غير أهله ٥٦ . وأنشده ابن فارس فى أبيات الاستشهاد (نوادر المخطوطات ١ : ١٤٠) :

ليس العطاء من الكريم سماحة حتى يجود وما لديه قليل

٧٢٤

وقال عَمْرو بن الأهتم[1] :

١ – ذَرِينى فإنَّ الشُّحَّ يا أمَّ هَيْثَمٍ ... لِصَالِحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَرُوقُ[2]

٢ – ذَرِينى وحُطِّى فى هَوَاىَ فإنَّنى ... على الحَسَبِ الزَّاكى الرَّفيعِ شَفِيقُ

يقول : اتركينى على أخلاقى وإن أنكرتِها فإنَّ ما تَبعثين عليه من الإمساك والإبقاء على المال هو البُخل ، والبُخْل مُزرٍ بأخلاق الرِّجال الكريمة ، ومستهلِكٌ متحيِّف لها ، وواضعٌ من عوالى رُتَبها .

« ذرينى وحُطِّى » أى اتركينى واخفضى من كلامك وَصَاتك فيما أهواه وأُوثره . وكرَّر « ذرينى » على طريق التأكيد ومظهراً التبرُّمَ بإفراطها . والمراد : انزلِى عن مراكبك فى اللوم واتَّبِعى هوایَ ، فإنِّى مُشفق على الحسَب الذى رُفعتُ بناءه ، إذْ كانت الأحساب متى لم تُتفقَّد بالعمارة استرَمَّ بناؤُها وشيكاً ، وتهدَّمت وبارت أخيراً .

٣ – ذَرِينى فإنِّى ذو فَعَالٍ تَهُمُّنِى ... نوائبُ يَغْشَى رُزْؤُها وحُقُوقُ

٤ – وكل كريمٍ يتَّقِى الذَّمَّ بالقِرى ... ولِلحَقِّ بين الصَّالِحين طَرِيقُ

يقول : اترُكينى واختيارى ، فإنِّى قدَّمت مساعىَ تقتضينى مراعاتَها ، وأسَّستُ مبانِىَ تدعو إلى استكمالها وتبعثُ على الزِّيادة فيها ، وعوَّدتُ النَّاسَ منِّى عاداتٍ تُوجِبُ علىَّ الصبرَ لها وعليها ، وتَغْشانى نوائبُ تنوبنى ، وحقوقٌ يلزمنى الخروجُ منها . ثم إنَّ الكرام يتَّقون ببذل القِرَى وإقامته على أشرفِ

---

(١) هو عمرو بن سنان بن سمى التميمى . والأهتم لقب أبيه سنان . وفد عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى وفد تميم . وكان سيداً خطيباً شاعراً . الإصابة ٥٧٦٥ ومعجم المرزبانى ٢١٢ .

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة فى المفضليات ص ١٢٥ – ١٢٧ وهى المفضلية ٢٣ .

وُجوهِه ذَمَّ النُّزّال ، وشَكْوَ الطُّرّاق . ولقَضاء واجبات الحقوق فى الكَرم والمروءة طريقةٌ مسلوكة معروفة ، متى أُخِلَّ بها ولم تعْمَر باستطراقها والنَّظَر فى مصالحها والإنفاق فى استبقائها ، دَرَسَتْ وخَفِيت . ويُروى : « وللحمد بين الصَّالحين طريق » ، والمعنى ولكسبِ الحمد . ومعنى « يَغْشَى رُزْؤها » أى يَغْشانى رزؤها ، فحذَف المفعولَ ، أى إصابةُ الناس وانتفاعُهم بى . ويقال منه : هو مُرَزَّأٌ ، إذا كان سخِيًّا ينال النَّاسَ إفضالُه .

٧٢٥

وقال عُروة بن الوَرْد(١) :

١ — إنى امرؤٌ عَافِى إنائىَ شِرْكَةٌ وأنتَ امرؤٌ عافى إنائِكَ واحِدُ

٢ — أتهزأُ منِّى أنْ سَمِنْتَ وأن تَرَى بوجْهِى شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جَاهِدُ

٣ — أُقَسِّمُ جِسْمِى فى جُسومٍ كثيرةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ الماء والماءُ بارِدُ

قوله « عَافِى إنائىَ شِرْكَةٌ » أى يأكل مَعِى عِدَّةٌ يشاركوننى فيما فى الإناء ، وأنتَ رجلٌ تأكل وحدَكَ فعافى إنائك واحدٌ . وأصلُ العافى من عفَاه واعتفاه ، إذا طَلَبَ معروفه ، فأعفاه أى أعطاه ، كما يقال : طَلَبَ منه فأطْلَبَهُ ، ومنه عافيةُ الطَّيرِ والسِّباع . وأنشد بعضُهم فيه :

لَعَزَّ علينا ونِعْمَ الفَتى مَصيرُكَ يا عَمْرُو للعافيهْ(٢)

أى السِّباع والطُّيور ، وقيل : بل أراد العُوَّاد . وَمثله قول حاتم :

يَرَى البخيلُ سَبيل المالِ واحدةً إنَّ الجَوَادَ يرَى فى مَالِهِ سُبُلا

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ ص ٤٢١ . والأبيات فى ديوان عروة ٨٨ يرد بها على قيس بن زهير .

(٢) أنشده فى اللسان (عفا) .

لأنَّ قوله « سبيل المال واحدة » يريد إنفاقه على نفسه دونَ غيره .

وقوله « أتهزأ منّى أن سَمِنْتَ » أى لأنْ سمنت ولأنْ ترَى بوجهى شُحوبَ الحق . وأضاف الشُّحوبَ إلى الحقّ لأنّ سَبَبَه كان توفُّرَه على إقامة الحقوق وأدائها فى وجوهها . وهم يضيفُون الشّىء إلى الشّىء لأدنى مناسبة بينهما ، فكأنّه قال الشُّحوب الذى كان سببه توفُّرى على الحق ، وتوفيرى الأزواد على طُلّابها . وقوله « والحقُّ جاهد » يريد القيام بالحقّ فى الشّدائد وأدائِه يَجْهَد النُّفوسَ ويغيِّر الألوان ويُنْضى الأبدان .

وقوله « أُقَسِّمُ » أراد قوتَ جسمى وطُعْمَهُ ، لأنّى أوثِرُ به الغير على نفسى وأجتزىء بحَسْوِ الماء القَرَاح ، وهو البَحْتُ الذى لا يُخالِطه شىء من اللّبَنِ وغيره ، والماء بارد ، أى والشّتاء شاتٍ والبردُ مُتَناهٍ . وقال بعضهم : المهزول يجد بَرْدَ الماء أكثَرَ ممّا يجده السَّمين . وأنشد :

عافَتِ المــاءَ فى الشّتاء فقُلْنا بل رِدِيه تُصَادِفيه سخينا

أى سَمِنْتِ فرِدِيه تُصادِفى حارًّا ما صادفْتِه باردا . قال : وَيدُلّ على أنّه كَنَى عن الهُزَال ببَرْد الماء قولُه :

أتهزأ منّى أنْ سمنتَ وأن ترَى بوجهى شُحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

٧٢٦

وقال آخر :

١ ــ أجلَّكَ قومٌ حينَ صِرْتَ إلى الغِنَى وكلُّ غَنِىٍّ فى القلوبِ جَليلُ (١)

٢ ــ وليسَ الغِنَى إلا غِنًى زيَّنَ الفتَى عَشِيّةَ يَقْرِى أو غداةَ يُنيلُ

يقول : لما استغنَيْتَ عظُمْتَ فى عيون النّاس فأجلُّوا قدرَك ورفعوا مكانتَك

(١) بين هذا البيت وتاليه أنشدهما ابن قتيبة فى عيون الأخبار (١ : ٢٤١) .

وكذا الأغنياء مواقعهم من النفوس عظيمة ، ومحالُّهم فى الأفئدة والقلوب جليلة رفيعة ، وأقدارُهم موقوفة على سَعة أحوالهم ، ومردودةٌ إلى مقادير قُدَرهم ، لكن الغنَى المحمودَ المتّفق على فَضْله عند التَّحْصيل هو ما يَزين الفتَى فلا يَشينه ، ويَكْسب له الحمدَ والذُّخرَ فلا يَذيمه ، عشيةَ يَنزلُ الأضيافُ فيُكرِم مَثْواهم ، أو غَداةَ يُنيلُ العُفاةَ ويوسِّع فى فنائه مأواهم .

٧٢٧

وقال المثلَّمُ بن رياح(٢) :

١ — بَكَرَ العواذِلُ بالسَّوَادِ يلمْنَنِي جَهْلًا يقُلْنَ ألا ترَى ما تَصْنَع

١ — أفنَيْتَ مَالَكَ فى السَّفاهِ وإنما أَمْرُ السفاهَة ما أمَرْنَكَ أجمَعُ

يقول : بكَر اللوائم فى سَواد الليل ، ولم تَصْبِرْ إلى وقت الإصباح ، حِرْصًا مِنْ نفوسهنَّ على تقريعى وتوبيخى ، لجهلهنّ وضعفِ رأيهنّ ، وقصور بصائرهنّ عن معرفة ما لهنّ وعليهنّ ، يَقُلْن لى مستعظمات لما آتيه ، ومُستنكِرات لما أُنفقه وأُفرِّقه : ألا ترى ما تأتى وما تَذَر . وإنما صَلَح أن يقول بَكَرْن بالسَّواد لأنّ البكورَ الابتداء فى الشيء . ومنه باكُورة الرَّبيع ، والبِكْر فى النِّساء .

وهذا كما قال غيره :

* ألا بَكَرَتْ عِرْسِى بلَيْلٍ تلومُنى *

وقوله « أهلَكْتَ مَالَكَ » هو تفسيرُ ما أبهمَه قولُه « ألا ترى ما تصنع » والمعنى : صرفْتَ مالَكَ فيما هو سَفَهٌ وضلال ، وغَبَاوةٌ وضَياع . ثم قال : وإذا تؤمِّل الحال فيما يُراوِدْنكَ عليه فالأمْرُ بالسَّفاهة ما أمَرْنَكَهُ كلُّه . جعل يخاطبُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣١ ص ٣٨٢ .

نفسه بذلك . ويقال : أمرتك كذا وبكذا . قال الشاعر [١] :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ به [٢] *

فجمع بين الوجهين . وفى القرآن : ﴿فاصْدَعْ بما تُؤمر﴾ . ويجوز أن يكون معنى أمر السَّفاهة الأمر الذى تولَّد عن السفاهة ، ويكون الإضافة فيه إضافةَ المسبَّب إلى السبب ، كأنَّه جَعلَ السفاهة فيهنّ ومنهنّ . وقوله « ما أمرنك » ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، وأجمعُ توكيدٌ له . والسَّفاهَةُ والسَّفاهُ [٣] والسَّفَهُ : الخفّة والطَّيش . ويقال : زِمامٌ سَفِيه كما يقال زِمامٌ عَيَّار [٤] : وسَفَهَتِ الرِّيح الغصنَ : حرّكته . وتسفَّهت الرِّياحُ : اضطربت . « ويلمننى » فى موضع الحال . و « جهلا » يجوز أن تكون مفعولًا [له [٥]] ، ويجوز أن تكون فى موضع الحال . و « ألَا ترى [ما تصنع [١]] » فى موضع مفعول يَقُلْنَ . وما من قوله « ما تَصْنَعُ » يجوز أن يكون بمعنى الذى ، وقد حُذف المفعول من صِلته ، يريد تصنعه . ويجوز أن يكون مفعولًا مُقَدَّماً لتصنع ، أىَّ شىء تَصْنَع .

٣ — وقُتُودُ ناجِيَةٍ وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ والطَّيْرُ غاشِـيَةُ العَوافى وُقَّعُ

٤ — بِمُهَنَّدٍ ذى حِلْـيَةٍ جَرَّدْتُه يَبْرِى الأَصَمَّ مِنَ العِظَامِ وَيَقْطَعُ

قوله « وقُتودِ ناجيَةٍ » انجرَّ بإضمار ربَّ ، وجوابه وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ ، والواو من قوله والطَّيْرُ واو الحال . فيقول : ربَّ رَحْلِ ناقة سريعةٍ وَضَعْتُهُ بمكان خالٍ وتركتُه ، لأنِّى عَرْقَبْتُها ، والطَّير عوافيها تغشاها وتقع عليها . وأكثر ما يجىء

(١) هو أعشى طرود ، أو عمرو بن معديكرب ، أو العباس بن مرداس ، أو زرعة بن السائب ، أو خفاف بن ندبة . الخزانة (١ : ١٦٥ — ١٦٦) .

(٢) عجزه : * فقد تركتك ذا مال وذا نشب *

(٣) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٤) عيار : كثير الحركة والتردد . وهذا ما فى ل وفى الأصل : « جبار » ، ولا وجه له .

(٥) التكملة من ل .

المجرور برُبَّ يجيء موصوفا ثم يجيء الجواب، وهاهنا لم يَصِفْه. وقوله «غاشية العوافى» وجب أن يكونَ فيه ضميرٌ للناقة، حتَّى يكون بين ذى الحال وبينه تعلق، فحذف ذلك الضّمير لأن المراد مفهوم، ولو أتى به لكان والطّيرغاشية العوافِى إيَّاها وُقَّعٌ عليها. والعوافى: جمع عافية، وهو من قولهم عفَاه واعتفاه؛ وقد مرَّ ذكره(١).

وقوله «بمهنّد» تعلّق الباء منه بقوله وَضَعْت بِقَفْرَةٍ، لانه لم يَحُطَّ الرَّحلَ عن النّاجية ولم يَضَعْها [بالقَفْرة(٢)] إلا وقد عَرْقَبها، فكأنّه [جعل(٢)] وضعْتُ بقفْرةٍ دلالة على العَقْر والعَرْقَبة.

وقوله «ذى حِلْيَة» يريد أنه كان ملطَّخا بالدَّم، فجعل ذلك الدَّمَ كالحلية لها. وقوله «يَبرِى الاصمَّ من العظام ويقطع» يعنى بالأصمِّ ما ليس بأجوفَ، وذلك أصلَب، فإذا بَرَى الأصمَّ فهو المجوَّف أبْرَى.

٥ - لِتَنُوبَ نائبةٌ فتعلَمَ أنَّنى ممَّن يُغَرُّ على الثّناء فيُخْدَعُ

٦ - إنى مُقَسِّمُ ما مَلَكْتُ فجاعِلٌ أجْرًا لآخرةٍ ودُنْيا تَنْفَعُ

قوله «لتَنُوبَ» تعلّق اللام بفعل مضمَر دلَّ عليه ما تقدَّم، كأنّه قال فعلتُ ذلك لكىْ إذا(٣) نابتْ نائبة علمتْ أنى أنهَضُ فيها، وأطلُبُ الأُحدوثةَ الجميلة فى دَفْعها، وإنِّى أحمَلُ على الغَدْر، وأُخْدَعُ عن المال بالثّناء والشُّكر. ثم قال: إنِّى أقسِم ما أملِكُه بين أمرين: مُدَّخَرٍ للآخرة، ومنتفَعٍ به فى الدنيا. وجعل قوله لآخرةٍ ودُنْيا نكرتَيْنِ، وقد جاء فى غير هذا المكان دُنْيا فى صورة المعرفة، قال:

* فى سَعْىِ دُنيَا طَالَ ما قَدْ مُدَّتِ(٤) *

(١) انظر ما مضى فى ص ١٦٥٣.
(٢) التكملة من ل.
(٣) سبق مثل هذا التعبير فى ص ١١٦٩، ١٢٧٦.
(٤) للعجاج فى ديوانه ص ٥.

ووجه التنكير فيها وفي آخرةٍ أنْ يُرادَ أجرٌ عائدٌ في أَمَدٍ من آماد الآخرة ، ومنفعةٌ في مثله من الدنيا ، وكان الواجب أن يقول ومنفعةً لدُنْيا حتَّى يكون لِفِقَ الأوَّل فيما ساقَهُ من الكلام وتفسيراً لما قَسَمَهُ من مَصَارف المال إلّا أنّه رَمَى بالكلام على ما تَرَى لمَّا لم يلتبِسْ .

٧٢٨

وقال أبو البرج القاسم محمد بن حَنْبَل(١) :

١ ـ أَرَى الخُلَّانَ بعدَ أبي خُبَيْبٍ وحُجْرٍ في جَنَابِهِم جَفَاءُ(٢)
٢ ـ مِنَ البِيضِ الوُجوهِ بني سِنَانٍ لَوَ اَنَّكَ تَستَضِىءُ بهم أَضاءُوا
٣ ـ لهمْ شَمْسُ النَّهارِ إذا استقَلَّتْ ونُورٌ ما يُغَيِّبُهُ العَمَاءُ
٤ ـ هُمُ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ المُعَلَّى ومِن حَسَبِ العَشِيرةِ حيثُ شَاءُوا

الجنابُ : ناحيةُ القَوم . ويقال : فلانٌ رَحْبُ الجناب ، كأنَّه استجْفَى نَبْوَهُم(٣) فعَتَبَ عليهم ، ثم أَخَذَ يمدحُهم ويستعطفهم ، فيقول : أجدُ الأصْدقاء بعد هذين الرَّجلين يَجفُو جَنابُهم عنِّي ويَنْبو جانبُهم ، وهم من القَوم الكرام الغُرِّ الوجوه ، أَذْكر بني سِنانٍ . فقوله « بني سِنان » يجوز أن ينتصب على المدح والاختصاص ، ويجوز أن يُجعل مجروراً على البَدَل من البيض الوجوه . وإنما

---

(١) عبارة الإنشاد مطموسة في الأصل . وفي ل : « أبو الفرج » ، صوابه في المؤتلف ٦٢ ومعجم المرزباني ٣٣٣ والقاموس (برج) . وهو شاعر إسلامي ، وهو من بني سهم ابن مرة بن عوف بن ذبيان . وقال هذا الشعر في مدح زفر بن أبي هاشم بن مسعود بن سنان ، عامل اليمامة ، وكان زفر يكنى أبا حبيب .

(٢) خبيب ، بالخاء المعجمة في الأصل ، وفي ل « حبيب » وأشير إلى أنه في نسخة أخرى حبيب . وهي بالحاء المهملة عند الآمدي والمرزباني والتبريزي .

(٣) في الأصل : « بنوهم » : صوابه في ل .

وَصَفَهم بنقاء الحَسَب وانتفاء العار والعَيب من الذمّ . قال : فلو استضأتَ بنُور وجوههم لأضاءوا فى بُهَم الظُّلَم ، فهم من نُور الكَرَم مثلُ شَمْس النَّهار إذا ارتفعت وعَلَتْ ، ومثل نور اللّيل الذى لا يستُره ظَلام ، ولا يُخفِيه عَماء ، وهو الغَيْم الرَّقيق ، وهم حَلُّوا من الشَّرف الذى اكتسبوه ، وبحَميد أفعالهم شيَّدوه ، المُعَلَّى يعنى المُرَفَّع ، إلى أبعد الغايات ، وأقصى النِّهايات . ويجوز أن يكون أراد القِدْحَ المُعَلَّى ، لأنَّه أشرفُ القِداح وأكثرها أنصِباء ، فجعله مثلاً لأرْفَع المدارج وأسنَى المراتب . وقوله « ومن حسَب العشيرة » يريد المتوارث ، أى نزلوا منه حيثُ اختاروه وأحبُّوه . ومراده أنّه جَمَع لهم بَيْنَ المُكْتَسَب والمتَوارَث من الشَّرَف والحسب . وأضاف الحسَب إلى العشيرة لأنَّهم شركاء فى التايد منه .

وَأَزْيَدُ ممَّا قصده فى قوله من « البيض الوجوه بنى سِنان » قولُ الآخر[1]:

٥ – بُنَاةُ مَكَارِمٍ وأُساةُ كَلْمٍ دماؤُهُمُ من الكَلَبِ الشِّفاءُ
٦ – فأمَّا بيتُكُمْ إن عُدَّ بيتٌ فَطَال السَّمْكُ واتَّسَعَ الفِناءُ
٧ – وأمَّا أُسُّــهُ فَعَلى قديم مِن العَادِيِّ إنْ ذُكِرَ البِناءُ
٨ – فلو أنَّ السَّماءَ دَنَتْ لِمَجْدٍ ومَكْرُمَةٍ دَنَتْ لَهُمُ السَّماءُ

البُناة : جمع بانٍ . والأُساة : جمع آسٍ ، وهذا الجمع يختص بالمعتلّ كما أنّ فَعَلَة نحو كَفَرَة وظَلَمَة يختصّ بالصَّحيح . والآسى : مُداوى الجِراحات . والكَلْمُ : الجُرْح . وهذا مَثَلٌ لشدَّةِ الأهوال واضطراب الأحوال . والمعنى : إذا تفاقَمَت الأمورُ ، وحرِجَتْ بما اجتمعت فيها الصُّدور ، فإنَّهم يتلافَوْنَها بعُنفهم أو لُطفهم ، وهم مُلوكٌ ففى دِمائهم شفاءٌ من عضِّ الكَلْب الكَلِب ، وهو الذى يَكْلَب بأكْل لُحوم النَّاس ، فيأخذه من ذلك شبهُ الجُنون ، فلا يَعَضُّ إنساناً إلَّا كَلِبَ

(١) هو أبو الطمحان القينى . و قد سبق فى الحماسية ٦٩٥ ص ١٥٩٨ .

ويقال: إن من عضه ينبح نبيح الكلاب فينتظر به سبعة أيام، فإن بال هنات (١) على خلقة الكلاب برأ، وإلا مات بزعمهم. ويقولون: إنه لا دواء له أنجع من شرب دم ملك. ومثله قول الفرزدق:

ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا   شفتها وذو الخبل الذى هو أدنف

وقوله « فأما بيتكم [إن عد بيت (٢)] » فإنه يريد: إذا عدت البيوت فبيتكم طويل السمك ثابت الاس، فسيح الساحة والفناء، واسع الأقطار والأرجاء. والسمك: أعلى البيت الداخل، فأما أعلاه الخارج فإنه الصهوة. والعادى: القديم، نسب إلى عاد. فيريد: بناء شرفكم قديم. ومكانه وسيع، وسموقه رفيع، ورسوخه عميق.

وقوله: « فلو أن السماء دنت لمجد »، يريد لو ملكت السماء الدنو والانحطاط عن موضعه الذى سمك فيه ليرتقى إليها مجدهم، أو ليشارك الأرض فى إقلالهم وإيوائهم (٣)، والاحتواء على مكارمهم، لفعلت ذلك، ولكنها عاجزة غير مالكة.

٧٢٩

وقال أرطاة بن سهية (٤):

١ ـ لو أن ما نعطى من المال نبتغى   به الحمد يعطى مثله زاخر البحر

٢ ـ لظلت قراقير صياماً بظاهر   من الضحل كانت قبل فى لجج خضر

قوله « نبتغى » موضعه نصب على الحال، وموضع « يعطى مثله » الجملة رفع على أنه خبر أن، وقد حذف الضمير العائد إلى ما من قوله نعطى، كأنه

(١) فى الأصل: « هيئات »، صوابه فى ل. (٢) التكملة من ل.

(٣) الإقلال: مصدر أقله بمعنى حمله. وقد جعل المرزوقى الضمير العائد إلى « السماء » مرة مذكراً وأخرى مؤنثاً، لما أن « السماء » تذكر وتؤنث.

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧.

قال : لو أنَّ الذى نُعطيه من المال مُبْتَغِين به الحمدَ يُعطِى مِثْلَهُ طَامِى البحرِ ومرتفعه لظلَّت سفنٌ راكدةً وواقفةً بظاهرٍ من الماء قليلٍ ، كانت مِن قَبْلُ فى معاظمِ من البحر خُضْرٍ كثيرة . وقوله « ظَلَّتْ » جواب لَوْ . وقوله « كانت قبل » من صفة القراقير ، وهى السفن ، والواحدُ قُرْقُورٌ . وقد فَصَلَ بين الصفة والموصوف بخبر لظلَّتْ وهو قوله « صياماً » . يريدُ أنَّ السُّفن التى كانت فى الماء فى بحرٍ تعودْ بمثل العطايا منه إلى أن تكون واقفةً فى ضَحْلٍ ، إذ كان ماؤه لا يقوم مع الاعتراف منه لما يقوم له مالُنا على الإسراف العظيم منه . والضَّحل : الماء القليل ، والجمع الضُّحول . وأتانُ الضَّحْلِ : صخرة بعضُها فى الماء المغمور وبعضها ظاهرٌ مكشوف ، فيصلُب ويَمْلَاسُّ . واللُّجَج : جمع لُجَّة ، وهى مُعْظَم الماء . ويقال : التجَّ البحرُ . والصِّيام : القيام . والزَّاخر من البحور : الطامى الماء ، المرتفعُ الموج . وإذا جاشَ القومُ لنفيرٍ أو حَرْبٍ ، قيل زَخَرُوا .

٣ - ولا نَكْسِرُ العَظْمَ الصَّحيحَ تَعَذُّرًا ... ونَغْنى عن المَوْلَى ونَجْبُرُ ذا الكسرِ

٤ - غَلَبْنَا بَنِي حوّاء مَجْدًا وسُودَدًا ... ولكنَّنا لم نَسْتَطِعْ غَلَبَ الدَّهرِ

يصفُ كَرَمَهم فى عشيرتهم ، وأنهم يتعطَّفون على الضِّعاف الفقراء منهم ويتحَدَّبون ، فيجبرُون كَسْرَهُم ، ويسدُّون مَفاقِرَهم ، ويُظهِرون الغنَى عن مواليهم ، فلا يُصلِحون أحوالَ أنفسهم بل يوفِّرونهم على مصالح أمورهم ، ويُخلُّونهم واختياراتِهم فى مَباغيهم ومكاسبهم ، ومَن كان مستقيمَ الأمر واسعَ المراد يقُوم برَمِّ عَيْشِه ، وينهَضُ بتدبير تجمُّله ، لا يُلِحُّون عليه فى نوائبه ، ولا يُضَاعِفُون المُؤَنَ فى مَصَارِفه ، متوصِّلين بذلك إلى الغضِّ منهُ والحطِّ من قَدْرِه ، وجلاله ومكانه ، لحسَدِهم واستعلائهم .

وقوله « غَلَبْنا بَنِي حوَّاء » يريد أنّا قَهَرْنا النَّاسَ على طبقاتهم وتباينُن منازلهم رياسةً وشرفا ، فلمَّا جاء الدَّهرُ يَغْلِبُنا على ما نريدهُ من استبقاء وبقاء ،

واستصلاحٍ وصَلاح، لم نَستطِعْ دَفعَه، ولم نُطِقْ غَلَبته ومَـنعه. وانتصب قوله «تعزُّزًا» على أنه مصدر فى موضع الحال، ولا يمتنع أن يكون مفعولًا له.

٧٣٠

وقال حُجْر بن حَيَّةَ:

١ ـ ولا أُدَوِّمُ قِدْرِى بعْدَ ما نَضِجَتْ بُخْلًا لِتَمْنَعَ ما فيهـــا أثافيها

٢ ـ لا أَحرِمُ الجارةَ الدُّنْيا إذا اقترَبَتْ ولا أقومُ بها فى الحىِّ أُخْزِيها

٣ ـ ولا أُكَلِّمُها إلّا علَانيـــةً ولا أُخَبِّرُها إلّا أُناديها

قوله «لا أُدَوِّم» يريد لا أطيل إدامةَ قِدْرى بعد إدراكها على الأثافىّ، بُخْلًا بما فيها، ولتَمنَعها عن طلّابها أثافيها. جعَلَ المنع للأثافى، لأنها لما لم تُغرَف ما دامت منصوبةً على الأثافى جعَلَ الفعلَ لها، كأنها هى المانعة. وانتصب «بُخْلًا» على التمييز أو على الحال إن شئت. ويقال: أَدَمْتُ الشّىء، سكَّنته ودوَّمتُه أيضًا. والماء الدَّائم: الساكن الذى لا يَجرِى، وكأنّ البخيلَ منهم يفعلُ ذلك ليُرِى أنّ القدْرَ لم تُدرِكْ، وأنّ ما فيها لم ينضَجْ، انتظارًا لمن تأخَّرَ عنهُ ويُوجِب الحالُ حُضُورَه.

وقوله «لا أحرِمُ الجارةَ الدنيا إذا اقتربَتْ»، يريد أنه يُشْرِكُها فى فَضْل نعمته(١) بعد دنوِّها من داره، وأنه لا يطلب عَثَرَاتها ولا يقبِّحُ آثارَها، فلا يقوم بذِكرِها فى الحىِّ مُخْزِيًا لها. وقال بعضهم: أراد لا أحكى عليها قبيحًا. يقال: قام بى فلانٌ وقعَدَ، أى نَثَا(٢) عنّى قبيحا: وقوله «أُخزيها» يجوز أن يكون ألف النَّمل دخلَ على خَزِىَ خِزْيًا من الهَوَان، ويجوز أن يكون دخل على خَزِىَ

(١) فى الأصل: «نعمتها»، صوابه فى ل.

(٢) هنا ما فى ل. وفى الأصل: «وقعد بى نثا».

خَزَاية من الاستحياء ، وذاك لأنها ذُكِرَت بالقبيح أو شُهِرَت بما تَستُره وكُشِفَت ، فقد تستحي كما تذِل ، أو تذل كما تستحي .

وقوله « ولا أُكلِّمها إلا عَلَانيةً » انتصب علانيةً على أنه مصدر فى موضع الحال ، وكذلك قولُه « إلا أناديها » الجملة فى موضع الحال ، ونِظام الكلام يقتضيه أن يقول : ولا أخبِّرُها ، إلَّا أنه لمّا كان الغرض إلّا منادياً لها ، ناب الفعلُ عن المصدر . ولا يجوز فى علانيةً أن يكون تمييزاً ، بدلالة أن الصدر يجب أن يكون حكمه حكمَ العجُز ، ومن الظاهر أنَّ أُناديها فى موضع الحال ، والمعنى [أنَّه(١)] لا يَقرَبُ ، لسَلامةِ طريقتِه وتكامُل عِفَّته ، الجارةَ فى مواقف التُّهْمة ، فلا يُخفِي مُكالمَتَها ، ولا يُخاطِبُها مخبراً لها إلا برفْع صوتٍ ونداءٍ عالٍ . كلُّ ذلك هربًا من قِرفة تَحصُل(٢) ، أو تُهْمة تَتوجَّه ، وهذا هو الغايةُ فى العفاف ، والدَّرجة القاصية فى التوقِّى من العار .

٧٣١

وقال المساوِرُ بن هند بن قَيس بن زُهير(٣) :

١ — فدًى لبَني عَبْدٍ غَدَاةَ دَعَوتُهُمْ   بِجَوِّ وَبَالَ النَّفسُ والابوَانِ(٤)

٢ — إذَا جارَةٌ شُلَّتْ لسَعْدِ بن مَالِكٍ   لهـا إبلٌ شُلَّتْ بها إبلَانِ

خبر المبتدإ الذى هو « فدًى » قوله « النفس » ، و « جَوُّ وَبال » أضاف الجوَّ إلى وبال ، وهو اسمُ ماء . وإنما دعا لبنى عَبْدٍ بالتَّفدية لأنَّه وجَدَهم عندَ الظَّن [بهم] لمَّا استنصرَهم على أعدائه بجوِّ وبال .

(١) هذه من ل .
(٢) القرفة بكسر القاف : التهمة .
(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٥٥ ص ٤٥٨ .
(٤) التبريزى وياقوت فى رسم (وبال) : « لبنى هند » .

وقوله « إذا جارة » ظرف لقوله « شُلَّت بها إبلان » ، وهو جوابُه . وتلخيص الكلام : إذا شُلَّتْ إبل لجارةِ لسعدِ بن مالك شُلَّتْ بسببها ولمكانها إبلانِ ، وذلك لكَرَم محافَظَتهم ، وللعزِّ اللاَّحِقِ في مُعاقَدة جِوارِهم . ومعنى شُلَّتْ : طُرِدَت ، شَلًّا . وقد فَصَل بين المرتفع به[١] وهو إبل ، وبينه بقوله « لسعد بن مالك » ، ولولا أن حكمَه حكمُ الظُّروف وقد توسَّعوا فيها ، لكان ذلك غير جائز ، لأن الفصلَ بين الفِعل وبين المبنيِّ عليه بأجنبيٍّ لا يجوز عندنا . ألا ترى أنَّهم امتنعوا من جواز قول القائل : « كانَتْ زيدًا الحمَّى تأخُذ » ، وإنْ جوَّزوا : كان في الدار زيدٌ واقفاً ، لكون الحائِل هنا ظَرْفا وفي ذاك غَيْرَ ظرف . وأمّا قوله « لها إبل » فموقع لها أنْ يكون بعد إبل . لأنَّه صفةٌ لها ، والصفةُ لا تتقدَّم على الموصوف ، كما أنَّ الصِّلة لا تتقدَّم على الموصول ، لكنَّها قُدِّمت على أن تكون حالا ، والحال كما يتأخَّرُ يتقدَّم إذا لم يمنَعْه مانع ، فهو كقول الآخر[٢] :

لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ كأنَّ رسومَها الخِلَل[٣]

وتقدُّم « لها » على « إبل » كتقدُّم موحِشاً على طلل .

وقوله « إبلٌ » اسمٌ صيغ للجمع ، ويتناول الكثير دون القليل . وقد ثُنِّيَ هاهنا على معنى فرقتان ، فقيل إبلان . وهذا كما يقال قومانِ وعشيرتانِ وأهلان . وقوله « شُلَّتْ بها » أي مِن أجلها وبسببها . ويروى : شُلَّتْ لها إبلان » ، ويرجع معناه إلى معنى الباء ، وذلك لأنَّه في معنى المفعول له ، أي شُلَّت عِوَضاً عما شُلَّ منها ، فيكون « لها » الأولى في موضع الحال كما قلت لكونه صِفةً متقدِّمة ، وضميرُها يرجع إلى الجارة لا غير ، أي إبل متملَّكة

(١) في الأصل : « بين مالم يقع به » ، صوابه في ل .
(٢) هو كثير عزة . شواهد العيني (٣ : ١٦٣) .
(٣) الرواية المشهورة : « يلوح كأنه خلل » .

لجارةٍ لقبيلة سعدِ بن مالك . و « لها » الثانية تكون فى موضع المفعول له ، والضمير منها يعود إلى الإبل إن شئت ، وإن شئتَ إلى الجارَة . فاعرف الفَصْل بينهما إنْ شاء الله .

٣ – إذا عَقَدَتْ أَفْنَاءُ سَعْدِ بنِ مالكٍ لها ذِمَّةً عَزَّتْ بكلِّ مكانِ
٤ – إذا سُئِلوا ما ليسَ بالحقِّ فيهمُ أَبَى كلُّ مُجْنيٍّ عليه وجَانِ
٥ – ودارِ حِفاظٍ قد حَلَلْتُمْ مُهَانَةٍ بها نِيبُكُمْ والضَّفُ غيرُ مُهَانِ (١)

قوله « إذا عقَدت أفناءُ سعد بن مالك » يصفهم بحُسْن التعاوُن والترافُد فيما بينهم ، وانتفاء التخاذُل والتبايُن عن سِيَرِهم وأخلاقهم ، فإنهم يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم ، لا استبدادَ للكبير فيهم ، ولا انحطاطَ للصغير منهم ، بل كلٌّ يرضَى فِعلَ صاحبِه ، واختصاصُ النَّفر (٢) منهم فى الأمور كفعل الجمهور ، فمتى دخَلَ واحدٌ من أفنائهم فى الأمر العظيم وتكفَّلَ به أعانَه الرُّؤساء حتَّى يَخرجَ منه ، لا يُهمِلون أمرَه ، ولا يَستهينون بشأنه . وإن عقدَتْ أوساطُهم أو المتأخِّرون منهم ذِمَّة لها عزَّتْ تلك الذِّمَّة وغَلبَتْ فى الأماكن كلِّها ، وجب الوفاء فيها عليهم بأَسْرهم ، لا اختلال (٣) منهم فى دَفْعها ، ولا انفكاكَ لهم من ملازمتها .

وقوله « إذا سُئِلوا ما ليسَ بالحقِّ فيهم » ، يريد أنهم إذا سِيمُوا خُطَّةَ الضَّيم اجتمعوا على اجتوائها والتَّسخُّط لها ، واتِرِين كانوا أو موتورين ، وطالبين كانو أو مطلوبين ، لِمَا يفرِضونه على أنفسهم من إباء الدَّنيَّة ، والتشارُك فى طُروق البليَّة ، إلى أن تنقَضِيَ بمدافعتهم لها ، وبالانتقام من جالبيها .

وقوله : « ودارِ حِفاظٍ قد حَلَلْتُم » ، يعنى أنهم إذا نزَلوا دارَ المحافظة على

(١) فى الأصل : « قد حللت ... بها بينكم » ، صوابه فى ل والتبريزى .
(٢) فى الأصل : « الفطر » ، صوابه من ل .
(٣) ل : « لا اعتلال » .

الشَّرَف رأَوْا مراغمةَ الأعداء لَدَى الصَّبرِ على الكُلَفِ، وحَسُنَ ثباتهم[١]، وكَرُمَ بلاؤهم، وطابت أخبارُهم، وكَثُرت غاشيتهم، لأنهم يُهِينون كرائمَ أموالِهم، ويُعِزُّون مقارَّ ضيوفهم. وهذا كما قال الآخر[٢]:

ودارِ حِفاظٍ أطَلْنا المُقام ... بها فَحَلَلْنا مَحَلًّا كريما[٣]

إذا كان بعضُهمُ للهَوان ... خليطَ صَفاء وأَمًّا رءُوما

٧٣٢

وقال[٤]:

١ — جَزَى اللهُ خيرًا غالبًا من عشيرةٍ ... إذا حَدَثَان الدَّهرِ نابَتْ نوائبُه

٢ — فكم دافَعوا من كُرْبَةٍ قد تلاحَمَتْ ... عَلَيَّ ومَوْجٍ قد عَلَتْنِي غوارِبُه

يقول متشكِّرًا وداعيًا: جزى اللهُ غالبًا من بين العشائر خيرًا أشدَّ ما كان حاجةً إلى[٥] مَن يكافئه على مستحدَث بلائه الحسَن في أضيَق أوقات النُّوَب، فكم مَرَّةٍ دافعوا دوني واشتَلَوْني[٦] من كُرَبٍ انضمَّتْ عَلَيَّ، وأطبقَتْ لها الدنيا بظلامها لدَيَّ، فكأنِّي غريقٌ تتلاعَبُ الأمواجُ بي، وتُقامِسني[٧] في غِمارها، وتُرادِّني في لُجَجِها.

(١) في الأصل: « نياتهم »، ووجهه من ل.
(٢) هو ربيعة بن مقروم الضبي. المفضلية رقم ٣٩.
(٣) المفضليات: « ودار هوان أنفنا المقام ».
(٤) هذا يشعر بأن قائل هذا الشعر هو قائل سابقه. لكن عند التبريزى: « وقال آخر ».
« إليه ».
(٦) هذا الصوب من ل. يقال اشتلاه، إذا استنقذه من الهلكة. وقال حميد الأرقط:
* قد اشتلانا عفوه وكرمه *
وفي الأصل: « واستلونى » مع ضبط التاء واللام بالفتح.
(٧) تقامسني بمعنى تغامسني. والقمس: الغمس. وفي الأصل: « تقاسمني »، تحريف صوابه من ل. وفي حاشية ل: « خ: تقامسني » إشارة إلى أنها كذلك في نسخة أخرى.

وقوله : « حَدَثان الدَّهر » ، مصدر حدَث . وَالكُرْبة : الاسم من الكَرْب ، وهو الغمّ الذي يأخذ بالنفْس . والمُتلاحم : الملازم بعد أن كان متبايناً . وَيقال : التحَمَ وتلاحَمَ بمعنًى . والغارِبُ : أعلَى الموج ، وأعلى الظَّهر . ومنه قولهم : حَبلُكِ عَلَى غاربك . وكمْ موضعه من الإعراب نَصْبٌ على الظَّرف ، والمعنى فمراراً كثيرة دافعُوا دونى .

٣ـ إذا قاتَ عُودُوا عادَ كلُّ شَمَرْدَلٍ … أشمَّ من الفتيانِ جَزْلٍ مَوَاهِبُهْ[(١)]

٤ ـ إذا أخذَتْ بُزْلُ المَخَاضِ سِلاحَها … تَجَرَّدَ فيها متلِفُ المالِ كاسِبُهْ

يقول : إذا عُرِضَ على كلّ واحدٍ من بنى غالب مُعاودةُ الحْروبِ والكرور فيها عادَ منهم كلُّ رجلٍ تامّ الخلْقة ممتدّ القامة ، كريم النَّفْس ، كثير العطيَّة . وأصل الشَّمم ارتفاع الأنف . ولك أن تروى : أشمُّ جزْلٌ ، وأشمَّ جزْلٍ ، فالرَّفع على كلّ والجرُّ على شمردل . والشَّمردل : الطويل . والشَّمم [كناية[(٢)]] عن الكرم .

وقوله « إذا أخذَتْ بُزْلُ المَخَاضِ سلاحَها » فالمراد بسلاحها مَحاسنُها وأمارات عِتقِها وكَرَمِها ، كأنَّها تتجلَّى بتلك المحاسِنِ فى عين أربابها حتَّى تَحْلَى ، فيصير ذلك سبباً للضِّنّ بها . وقوله « مُتلِفُ المال كاسِبُهْ » هو كقولهم : مُفِيدٌ مُفيتٌ ، ومِخلاف مِتلاف ، ومُخلِف مُتلِف . والبُزْلُ : جمع بازل ، وهو المتناهِى قُوَّةً وشبابا . وأصل البزْل الشَّقّ . والمَخَاض النُّوق الحوامل ، وهو اسمٌ مصوغ للجْمع كالقوم والنِّسوة . ومعنى « تجرَّد فيها » أى تشمَّرَ فى عَقْرِها ونحرِها ، يريد أنَّ تحسُّنها بسلاحها فى عَينه لا يُجْدِى عليها نفعاً ، ولا يَدفعُ عنها مكروهاً ، لما بهِ من إكرام الضيوف ، ويُوجِب على نَفْسه من قَضاء الحقوق .

(١) التبريزى : « ولك أن تروى أشم وجزل ، وأشم وجزل . فالرفع على كل ، والجر على شمردل » .

(٢) التكملة من ل .

٧٣٣

وقال آخر (١)

١ ـ أيا ابنةَ عبدِ الله وابْنةَ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذِى البُرْدَيْنِ والفرَسِ الوَرْدِ
٢ ـ إذا ما صَنَعْتِ الزّادَ فالتمِسِى لَهُ ... أَكِيلا فإنِّى لستُ آكِلَهُ وَحْدِى
٣ ـ أخًا طارِقًا أو جارَ بَيْتٍ فإنَّنى ... أخافُ مَذَمَّاتِ الأحاديثِ مِنْ بَعْدِى
٤ ـ وإنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دامَ نازِلًا ... وما فِىَّ إلَّا تِلْكَ مِنْ شِيَمِ العَبْدِ

حَسُنَ تكرير ابنةٍ وإن كانَ المرادُ واحدةً لاختلافِ المضاف إليه، والقصدِ إلى تفخيم أمرها وتعظيم شأنها. والذى يدلُّ على أنَّ المرادَ واحدة قوله «إذا ما صَنَعْتِ الزّاد فالتمسى». ويعنى بذى البُرْدين عامرَ بن أُحَيْمِرِ بنِ بَهْدَلَة. وكان من حديث البُرْدَين حتّى لُقِّبَ به، أنَّ وفود العرب اجتمعَتْ عند المنذِر بن ماء السماء ــ وهو المُنذر بن امرئ القيس، وماءُ السَّماء أُمُّه نُسِبَ إليها لشَرَفها. وقيل: ماء السَّماء لُقِّبَتْ به لصفاء نَسَبها، وقيل لنَقاء لونها، يُراد أنّها كماء السماء لم يَحْتَمِلْ كُدورة ــ فأخرج المنذرُ بُرْدَيْنِ يوماً يَبْلُو الوُفود، وقال: ليقُمْ أعزُّ العَرَبِ قبيلةً فليأخذْهما. فقام عامرُ بن أُحَيمِرٍ فأخذَهما واتّزر بأحدهما وارتدَى بالآخَر، فقال له المنذر: بِمَ أنتَ أعَزُّ العربِ قبيلةً؟ قال: العِزُّ والعَدَد فى مَعَدّ، ثمَّ فى نِزار، ثمَّ فى مُضَر، ثم فى خِنْدِف، ثمَّ فى تميم، ثمَّ فى سعد، ثمَّ فى كعب، ثمَّ فى عوف، ثمَّ فى بَهْدَلة، فمنْ أنكرَ هذا فليُنافِرْنى! فسكَتَ النّاس، فقال المنذر: هذه عشيرتك كما تزعُمُ، فكيفَ أنتَ فى أهل بيتكَ وفى نفسك؟ فقال:

(١) هو حاتم الطائى يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله. كما ذكر التبريزى. ولم ترد الأبيات فى ديوان حاتم.

أنا أبو عشرة ، وخالُ عَشَرة ، وعمُّ عشرة (١) ؛ وأمّا أنا فى نَفْسى فشاهِدُ العِزِّ شاهِدى ثمَّ وضع قدمَه على الأرض فقال : مَنْ أزالَها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل ! فلم يَقمْ إليه أحدٌ من الحاضرين ، وفازَ بالبُرْدَين .

وقوله « إذا ما صنَعْتِ الزاد » ، يريدُ إذا فَرغْتِ من اتِّخاذ الزّاد وإعداده فاطْلُبِى من أجله يؤاكلنى ، فإنِّى لم أُعوِّدْ نفسى التفرُّدَ فى الأكل . وهذا الذى أَنِفَ منه حتى تبرّأ من الرِّضا به قد ورَدَ (٢) فى الخبر ما يقوِّى استقباح العربِ له ، وتزييفَهم إيّاه فيما يختارونَه من كرَم الطِّباع ، وإقامة المروءات . ألا ترى أنّه قال صلَّى الله عليه وسلم ، فيما روى عنه : « ألا أُخبركم (٣) بِشَرِّ الناس؟ مَنْ أَكل وحده ، ومَنَع رِفْدَه ، وضربَ عبده » .

وموضع « وَحْدِى » من الإعراب نصبٌ على المصدر ، والتقدير لست آكله وقد أوحدت نَفْسِى فى أكلِه إيحادًا ، فوضع وحدَه موضع الإيحاد . والكوفيُّون يجعلون وحدِى فى موضع الحال ، وإن لفظُه معرفةً ، يجعلونه من باب : جاءوا قَضَّهم بقَضِيضِهم ، وكلَّمته فاهُ إلى فِيَّ ، وما أشبهه .

وجواب إذا قولُه « فالتمِسِى له أكيلا » . وأكِيلُ الرَّجل وشَرِيبه ونديمُه وجليسه ، يقال كلٌّ مِنها فيمن عُرِف بالصِّفة . لا يقال لمَنْ أكلَ مع صاحِبِه مرّةً واحدةً هو أكِيله ، ولا لمن شربَ معه مرّةً واحدة هو شَرِيبه . وعلى ذلك قولُهم : هو جليسه ، لا يُطلَق إلَّا على من عُرِف بهذه الصِّفة فتكرَّرت منه .

إن قيل : كيف نَكَّره وقال التمسى له أكيلًا ؟ وهلَّا قال أكيلى ؟ قلتَ : لايمتنع أنْ يكون قد عُرِفَ بمواكلته عِدّةٌ ، فأراد التمسِى من أجله بعدَ ما هيّأتِه

(١) وكذا عند التبريزى . وفى حواشى ل : « نخ : عشيرة فى الثلاثة المواضع » ، اشارة الى أنها فى نسخة « عشيرة » بدل « عشرة » فى المواضع الثلاثة .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل « حتى تبرأ من الرضى فقد ورد » .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « ألا أبشركم » .

واحداً من المعروفين بنوا كاتى ، ألا ترى أنه قال مفصِّلاً لما أجمله ، وشارحاً لما أبهمه : «أخا طارقاً أو جارَ بيتٍ» ، فأبدل من الأوّل وهو أكيلا ما أبدل . والمراد : التمسى أكيلًا من أحدِ هذين النوعين طارقاً آخَيْناه ، أو جارَ بيتٍ باسَطْناه . وقوله : « فإنّنى أخافُ مذَمّاتِ الأحاديث من بعدى » ، بيانُ علةِ امتناعِه من التفرُّد فى الأكل . يريد : أخشى ما يَلْحَقُ من العار فى الأكل منفرداً إذا افتُقِدَتْ أو ذُكِرَتْ أحولُ الناس ، واستُعرضت عاداتُهم ، فاستهجن الهَجِين منها ، واستُكرِم الكريم . والمَذَمّة بالفتح : الذّمّ ، وجمعها مذمّات . والمَذِمّة بالكسر : الذِّمام . وأضاف المَذَمّات إلى الأحاديث ليُرِىَ أنّ خوفه ممّا يبقى من الذّمّ فيما يُتحَدّث به بعده .

وقوله : « وإنّى لعبدُ الضّيفِ ما دام ثاويا » ، ويُروى : « نازلا » . ويقال : ثَوَى بالمكان وأثْوَى بمعنًى . يريدُ أنّى أتكلّف من خدمة الضّيف ما يتكلّفه العَبيد ، لا أستنكِف ولا آنَف ، وليس لى من أخلاق العبيد وطبائعهم إلّا تلك ، يريد إلّا تلك الخدمةَ ، أو تلك الخليقة . وموضع « مادام » نصبٌ على الظّرف أى مدّةَ دوامِ ثَوَائه عندى . وموضع « من شِيَمَ العَبد » رفعٌ على أن يكون اسم ما ، وخبره « فِىَّ » . و« إلّا تلك » استثناء مقدّم ، وفائدة « مِنْ » التّبيين فهو كمِن الذى فى قوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ ، لأنّ الأوثانَ كلَّها رجس ، وليس يريد التّبعيض بذكر مِن ، لكنّ المراد اجتنِبو الرِّجْسَ من الضَّرب ، إذ كان الأهمَّ فيما يجب اجتنابُه .

٧٣٤

وقال آخر :

١ — لَيسَ فَتَى الفِتيَانِ مَن كُلُّ هَمِّه صَبُوحٌ وَإنْ أمسَى فَفَضْلُ غَبُوقِ[1]

(١) التبريزى : « وليس » بالتمام ، وفى النسختين : « ليس » بالخرم .

٢ - وَلَكِنْ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ أَوْ غَدَا لِضَرِّ عَدُوٍّ أَوْ لِنَفْعِ صَدِيقِ

يقول : ليس المختارُ من الفتيان والكاملُ الفُتُوّةِ فيهم مَن إذا أصبح كان معظمُ همّه مايشرب به صباحا ، وإذا أمسى كان معظم همّه ما يشربه مساءً . والصَّبُوح : ما يُصطَبَحُ به ، اسماً له . والغَبُوق : ما يُغتبَقُ به . يريد أنّ الفتوّة ليس فى إعداد الأطعمة والأشربة ، وإعطاء النّفس مُناها منهما ، لكنّ الفُتُوّةَ هو السّعىُ غُدوًّا ورَواحاً فى جَرِّ ضررٍ على مُنابذٍ مُداجٍ ، أو جلْب نَفْعٍ إلى ناصحٍ مُواخٍ .

٧٣٥

وقال حَزَازُ بن عمْرو ، من بنى عبْد مناف [١]

١ - لَنَا إبِلٌ لم تُهِنْ رَبَّهَا كَرَامَتُها وَالفَتَى ذَاهِبُ
٢ - هِجَانٌ تَكَافَأُ فيها الصَّدِيقُ ويُدْرِكُ فِيها المُنَى الرّاغِبُ [٢]
٣ - ونَطْعَنُ عنها نُحُورَ العِدَى ويَشْرَبُ مِنّا بِهَا الشّارِبُ

قوله «لنا إبلٌ لم تُهِنْ رَبَّها كرامتُها» يريد : أنّا نُؤْثِر إكرامَ النُّفوس [٣] وصيانَتَها على إكرام المال وصيانته ، لأنّ الأموال إذا لم تُجعَلْ واقيةً للنَّفس جلبت العارَ وكَسَبَت الشّنار ، فنحن نُهينُها ونبتذلُها صَوْناً للنَّفْس ، ولئلّا يكون المال كالمالك لنا ، إذ كان عُمْرُ الفتى عاريّةً مستَرَدّة ، فهو هالكٌ وإن أُمهِلَ مدّةً ، وما يُقدِّمه يذكر به ، فصيانةُ مروءتنا من أن تَرِثَّ أو تَهُون ، أجْدَى وأوجَبُ من صيانة المال وتثميرها والضِّنِّ بها [٤] . وقد اعترض بقوله « والفتى ذاهب »

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٣ ص ١٠١٧ .

(٢) التبريزى : « ويكافأ منها الصديق » ، ولكن نص شرح التبريزى لايساير نص متنه ، إذ يقول : « ومعنى يكافأ منها الصديق يماثل ، من الكفء : المثل فى المال والحسب وغيرهما » .

(٣) ل : « نفوسنا » .

(٤) ل : « وتثميره والضن به » . والمال يذكر ويؤنث . وأنشد لحسان :

المال تذرى بأقوامٍ ذوى حسب وقد تسود غير السيد المال

بين الصِّفة والموصوف ، لأنّ قوله هِجَانٌ من صفَة الإبل ، كما أنّ «لم تُهن ْ رَبّها» من صفتها أيضاً . ولولا تأ كُدُ الجملة به لكان يَقْبُح مافعَل ، لكون الاعتراضِ أجنبيًّا مما قبله وبعده . والهِجان يَقَع على الواحد والجميع ، وذلك أنّ فِعالًا كما يكون جمعاً لفعيل ، نحو ظريف وظِراف ، وكريم وكِرام ، وكبير وكِبار ، كسّرُوا عليه فِعالا أيضاً ، فقالوا : دِرْعٌ دِلَاص وأَدْرُع دِلَاص ، وبعيرٌ هِجان وإبل هجان ، لأنّ فعيلا وفِعالًا مُتَواخيان في أنَّهما من الثلاثى ، وفى موقع الزّائد منهما ، وفى عدد حُروفِهما ، فيتشاركان فى أحكامهما ، وإذا كان كذلك فهجَان وهو للواحد ، كضِناكٍ وكِنَازٍ وماأشبههما ، وهجان وهو للجميع ، كظِراف وكِبار . قال سيبويه : يدلُّك على أنّ هجاناً ليس كالمصادر التى وُصِف بها نحو ضَيْفٍ وجُنُبٍ وزَوْرٍ وما أشبههما ، أنَّك تقول هجانان فتثنّيه ، وإذا كان مُرْصَداً للتَّثنية فهو للجمع كذلك . ومعنى « تَكافَأَ فيهاالصَّديق» تماثَلَ ، من الكُفْء المِثْلِ فى المال والحَسَبِ وغيرها . والمراد بالصَّديق الجِنْس ، يريد يتساوَوْن فيها ، لا استئثار منَّا بشىء منها دُونَهم ولا تفرُّد ، بلْ كُلٌّ مِنّا ومن الأصدقاء يتصرّف فيه على مرادِهِ نافذاً أمرهُ ، وبالغاً حُكْمُه . وقوله « ويُدْرِك فيها المُنَى الراغب » ، أراد الرّاغبين . أى إنّ العُفاةَ وطُلَّابَ الخير إذا نزَلوا بساحتنا (١) نالُوا أمانِيَّهم منها كاملةً لا يتخلَّلها خَرْم ، ولا يتسلّط عليها ثَلْم .

وقوله « ونطعُن عنها نُحورَ العِدَى » ، لمّا عَدَّد الوجوهَ التى ذكر أنّهم يَصرِفون أموالَهم إليها ، ويقتسمونها فيما ذَكر فى أثنائها أنّهم يُدافعون عنها الأعداء فعلبها حافظٌ من محافظتهم ، ودونَها دافع (٢) من مدافَعتهم ، لا يطمع الأعداء فى الإغارة عليها ، ولا فى احتجان شىء منها ، بل يمتلكها وجهان : مَثُوبَةٌ أو صنيعة

(١) ل : « بساحتنا » .
(٢) ل : « ودونها نع ما » .

وقوله « ويَشرب منّا بها الشّارب » ، أراد أنّهم يَسْبؤُون بها الخمر ويجعلونَها فى أثمانها . فهو فى هذا وفيما سَلَكه كقول الآخر (١) :

نُحَابِى بها أَكْفاءنا ونُهِينُها ... ونَشْرَبُ فى أثمانِهـا ونُقامِرُ

٤ ـ ونُؤْلِفُهَا فى السِّنينَ الكُلُولَ ... إذَا لم يجِدْ مَكْسَباً كاسِبُ

٥ ـ ولم تكُ يَوْماً إذا رُوِّحَتْ ... عَلَى الحىّ يُـلْفَى لهـا جادِبُ

٦ ـ حبَانَا بهـا جَدُّنا والإلهُ ... وضَرْبٌ لنا خَـذِمٌ صَائبُ

قوله : « ونؤلفها فى السِّنينَ الكُلولَ » يعنى بالسِّنين الأعوامَ التى تَقِلُّ الأمطارُ فيها وتَشملُ النّاسَ الآفاتُ لها . يقال : أصابتهم السَّنةُ . وقد أسْنَتَ الرّجلُ ، إذا أصابه القَحطُ والجَدْب . وأراد بالكُلُول مَنْ كان كَلاًّ على صاحبه وعيالًا لمعِيله ، لا يُحسِنُ التّوجُّهَ لكسبٍ ، ولا يهتدى لارتزاء خيرٍ وترقيح عيش ، كالأيتام والأرامل وذَوِى العاهة . وقوله « إذا لم يجد مَكْسَبًا كاسِبُ » بَدَلٌ من قوله فى السنين . أى إذا اشتدّ الزمان وتضايقت الخطوبُ بما يَعُمُّ من القَحْط ، وأعْوَزَ الكاسبينَ كسبُهم فلزِمُوا مقارّهم آيِسِين من إقبال الزّمان وأهلِه جعلْنا إبلَنا يألفها كُلُولُ النّاس فينالون منها ، ويعيشون فيما يَعُود عليهم من ألبانها ومنافعها .

وقوله « ولم يَكُ يَوْمًا إذا رُوِّحَت » ، يريد رُدّت فى مراعيها رَواحًا فورَدَتْ على الحىِّ لم يُوجَد لها غائب يَعيبُها ، أى لم يُوجَد لأربابها مَنْ يعيبُهم فيرميهم بالبُخْل والإمساك . وإنما قال « يُلفَى لها » لأنه يريد يُلفَى مِن أجْلها . والجادِب : العائب . كأنّ (٢) المرادَ اتفاقُ النّاس على حَمْدهم ، ونَفْىُ [العيبِ على (٣)] العِلّاتِ كلِّها عن أخلاقهم ، وتسليمِ الفضلِ والإفضال لهم .

(١) هو سبرة بن عمرو الفقعسى . انظر الحماسية ٦٠ ص ٢٣٩ .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « لأن » . (٣) التكملة من ل .

وقوله « حبانا بها جَدُّنا والإله » أشار بالجَدِّ إلى استسعادهم بالزّمان ، فهم محظوظون فيه ، وأنّ الله عزّ وجلّ خَصَّهم بالغنى لما عَرَفه من استحقاقهم ، ومِن طَوْلِهم إذا مُكِّنُوا ومُلِّكوا . وقال « والإله » فأتى به على الأصل ، وقلّما يَعدِلون عن لفظة الله تعالى إلى الإله ، إذْ كان جاريًا مجرى الأعلام بعد لزوم الألف واللام له عِوَضًا من المحذوف منه .

وأشار بقوله « وضربٌ لنا خَذِمٌ صائب » إلى ما نالوا من الأعداء وإيقاع الغارات بهم . والخَذْمُ : القَطْع . ويقال : سيفٌ مِخْذَمٌ وخَذُوم . ومعنى صائب ذُو صَواب ، وأخرجه مخرج النَّسب . ويجوز أن يكون مِن صَابَ المطر ، إذا وَقَع ، صَوْبًا . فإن جعلتَه من الصّواب كان المعنى ضربٌ يقع على حَدِّه من الاستحقاق والقَصد ، وإذا جعلته من الصَّوْب فالمعنى واقعٌ موقِعَه عند الحاجة إليه .

وهذه الأبيات يزيد تفاصيلُها على جُمَلِها عند الفَحْص عنها . وقد وقع دُونَ غايتها قولُ الآخر(١) وقد سلكَ مسلكَه فى تَعداد مَصارِفِ أموالهم :

ثلاثة أثلاث فأثمانُ خَيْلِنا وأقواتُنا وما نَسُوق إلى القَتْل

وإن اختلفت الطَّريقتان . وكُلٌّ يدعُو إلى نَفْسه فى حُسْنه وَشُمُوله واستيفائه .

٧٣٦

وقال منصور بن مِسْجاح(٢)

١ ـ ومُخْتَبِطٍ قَدْ جاءَ أوذِى قَرابةٍ فما اعتَذَرت إبلِى عَلَيْهِ ولا نَفْسِى

٢ ـ حَبَسْنا ولَمْ نَسرَحْ لِكَىْ لا يَلُومَنا عَلَى حُكْمِهِ صَبْرًا مُعَوّدَةَ الحَبْسِ

(١) هو عمرو بن كلثوم . الحماسية ١٦٠ ص ٤٧٦ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٧ ص ١٤٥١ .

٣ - فطافَ كما طافَ المُصدِّقُ وَسْطَهَا يُخيِّرُ منها فى البَوَازِلِ والسُّدْسِ

أصل الاختباط فى الورَق . يقال : خبطتُ الورقَ واختبطتُه ، إذا نفضْتَه من الشجر ؛ والمنفوضُ خَبَط ومختَبَط . وكما يستعار الورَق فيُكنَى به عن المال يستعارُ الخَبْط فيُكنَى به عن طَلَبِه . على ذلك قولُ زهير :

وليس مانعَ ذى قُرْبى ولا رَحِمٍ يومًا ولا مُعدِمًا من خابطٍ وَرَقَا

وكأنّ الاختباط يختصُّ بفعل من يسأل مَن عُرُضٍ ، ولا يَقِف على تحرُّم أو توسُّل أو تذرُّع ، ولكنْ يكون به السُّؤالُ وبَذْلُ الوَجْه كيف جاء . وفى الافتعال زيادةُ تكلُّف ، فلذلك اختصَّ هذا الاختصاص : وعلى هذا قولهم الاكتساب والكَسْبُ . وقوله « أو ذى [قرابة » ، خصَّ من يمتُّ بالنسب أو السَّبب فيقول : رُبَّ سائلٍ تعرَّضَ لنا ، أوْ ذِى[1]] نَسَبٍ اعتمدنا ، فلانفسى احتجزَتْ عنه بمَنْعٍ ، ولا إبلى اعتذرتْ عليه بعُذْر . كأنّ عُذْرَ الإبلِ تأخُّرُها عن مَباءتها ، أو ذِكْرُ وقوعِ آفةٍ فيها أو تسلّطِ جدبٍ عليها . واحتجاز النَّفس: بُخْلُها بها ، وإقامةَ المَعاذِير الكاذبةِ دونها ، وما يَجرِى هذا المجرى .

وقوله « حَبَسْنا ولم نَسْرَح » جواب رُبَّ مُختَبِط ، وبيانُ ما تَلقّاه به عند استقباله من القَبول . ويقال : سَرَحْتُ الماشيةَ بالغداة ، إذا أخرجتَها إلى مراعيها ، وأرَحْتَها إذا رددتَها رواحاً إلى أفنيتها . ومفعول « حبَسنا » قوله « معوَّدَةَ الحَبْس » ومفعول « لم نَسْرَح » محذوف ، أى لم نَسْرَحْها .

وقوله « على حُكْمِه » تعلّق بحبَسْنا . وانتصب « صبراً » على أنه مصدر من غير لفظه ، لأنّ معنى حبَسْنا وصبَرْنا واحدٌ . وتقدير البيت : حبَسْنا على حُكْمِ هذا المختبِط العافى أو النَّسيب إبلاً جُعِلَ من عادتها الحبسُ بالفناء صَبْراً ، ولم نُخْرِجْها إلى المرعَى لئلا يَجِدَ طريقاً إلى لَوْمِنا فيما يقدِّره عندنا . ويجوز أن

(١) التكملة من ل .

ينتصب « صبراً » على أنه مصدرٌ لعلّة ، أي لصَبْرِنا على ما نَمُونه ونتحمَّله للعُفاة فعلنا ذلك . ويجوز أيضاً أن يكون انتصابُه على الحال ، لأنّ المصادر تقع مَواقع الأحوالِ ، أى صابرين على ذلك لهم .

وقوله « فطاف كما طاف المُصدِّق » ، يريد أنّ هذا الطالبَ مكّنّاه من إبلنا المحبوسة فى الفِناء فطاف فيها متخيِّرًا منها فى خِيارِها وكرائمها ، وإذا كان متخيِّرًا فى بوازِلها وسُدسها وهى أكرمُ الإبل وأقواها ، فما دونَها أولى أن يكون مخيَّرًا فيها . وتشبيهُه إياه بالمصدِّق وهو طالب الصَّدَقة تحقيقٌ لتحكُّمه وتبسُّطه وتسحُّبه (١) . يريد أنّ إدلالَه إدلالُ مَن يستخرج حقًّا واجبًا لله تعالى .

وقوله « يخيِّر منها » ، إعرابه نصبٌ فى موضع الحال مِن طاف الأوّل . ومعنى يخيَّرُ ، يُجعل له الاختيارُ منها . وهذا تحكُّمٌ ثان سِوَى ما سوَّغَتْه له نفسُه بإدلاله .

٧٣٧

وقال عامر بن حَوْطٍ ، من بنى عامر (٢) :

١ — ولقد عَلِمْتُ لتأْتِيَنَّ عَشِيّةٌ ... ما بَعدَها خوفٌ علَيَّ ولا عَدَمْ

٢ — وأَزُورُ بيتَ الحقِّ زَورةَ ماكِثٍ ... فعلامَ أَحفِلُ ما تَقوَّضَ وانْهدَمْ

٣ — فلأَتْرُكَنَّ السَّامِلينَ حِياضَهم ... ولأَحْبِسَنَّ علَى مَكارِمِ النَّعَمْ (٣)

قوله : « ولقد علمت » يَجرِى على القسَم ، ولذلك أجابه بلتأتينّ . ويعنى بالعشيّة آخر النهار من يومِ موته . فيقول : تيقّنتُ والله أنه يأتى علىّ عشيّةٌ من

(١) تسحب عليه تسحباً : أدل عليه إدلالا . وهو يتسحب عليه ، أى تتدلل .

(٢) التبريزى : « من بنى عامر بن عبد مناة بن بكر بن سعد بن ضبة » .

(٣) التبريزى : « ولأتركن للساملين » ثم قال : « ويروى : فلأتركن الساملين » .

يومٍ قد تخليت فيه من الدُّنيا وانقطعت الأسبابُ بيني وبينها ، فلا أكونُ من الفَقْرِ على رِقْبة . ولا من حوادث الدَّهرِ على خِيفةٍ ، وأزور القبرَ الذى هو «بيتُ الحقّ» وأضاف البيت إلى الحقّ لأنّه لا سُكْنَى بعدَه ، فكأنّه الموضع لذى يُؤوِى إليه الحقُّ ويُفضِى إليه مَن أنزلَه الموتُ ناقلاً من دار إلى دار . وقوله «زَورةَ ماكث» أى أزورُه زيارةَ المُقيم المنتظر لذى لا عجلةَ به ، فلماذا أُبالِى بما تقوَّض منه أو انهدم . والمعنى أنّ تدبيرَ أمرِهِ يصير إلى غيرِه فلا يهتمُّ لمأواهُ اهتمامَه له أيّامَ حياته . ويقال : أحْفِل كذا ، ولا أَحْفِلُ بكذا . و «عَلَام» ما فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرف الجر يحذَف الألف من آخره . وقد مضى مثلُه مشروحاً أمره[1] . وهذا الاستفهام هو على طريق الإنكار ، أى لم أحْفِل . والأحولُ فى كونِ البيت عامراً أو غامرا تتساوى عِندى .

وقوله «فلأتركنَّ السامِلين حِياضَهم» السَّامل : المُصلِح . والمعنى : إنِّى أرفضُ حالَ مَن همّتُه مقصورةٌ على تثمير مالِه ، وعِمارة حياضِه ، والفِكرِ فى مَوارِدِ إبلِه ومصادِرها . ومن سَمْل الحوض سُمِّى الماء الذى يَبقى فى أسفلِ الحوض السَّمَلة . قال :

ممغوثةٌ أعراضُهُمْ مُمَرْطَلَهْ فى كلِّ ماءٍ آجِنٍ وسَمَلَهْ

والمراد : أهجُرُ مَن هذا همّتُه من عَيشه وأحْبِسُ نَعَمِى على عِمارة المكارم وتفقُّدِ ما تَشيَّدَ لى من المعالى . والنَّعَم يقع على الأزواج الثَّمانية ، والغالب عليه الإبل ، وهو مذكّر ، يقال : هذا نَعم وارد . وحَبْسهُ على المكارم هو أن يَصرِف منافعه إلى المستحقّين من الوُرَّاد والزوَّار ، مقصورةً عليهم ومشغولةً بهم .

(١) انظر ما مضى فى ص ٦٣ .

٧٣٨

وقال زيد بن حُصَيْن (١) :

١ ـ أَقِلِّى عَلَىَّ اللَّوْمَ يا ابنةَ مُنْذِرٍ ونَامِى فإن لم تَشْتَهِى النَّوْمَ فاسْهَرِى

٢ ـ أَلم تَعْلَمِى أَنِّى إذَا الدَّهْرُ مَسَّنى بنائبــــةٍ زَلَّتْ ولم أَتترْتَرِ

يخاطب لائمةً له تبرَّمَ بلومها فقال : قَلِّلى من لومك علىَّ ونامى عنِّى ، فإنْ تعذَّر النَّوْمُ عليك ضجراً (٢) بالحالة التى تجمعنا فاسهرى ، فليس لك من عَتْبِكِ ما يَرُدُّ نفعًا علىَّ ولاعليك . ثم أخَذَ يقرِّرها على قِلّة احتفالِهِ بما يأتى به الدَّهر ، فقال : أمَا علمتِ أنَّ الزمان إذا مَسَّنِى بحَدَثانه ذهَبَ عنِّى ولم أَتردَّد فى حَيْرته ، ولم أتنكَّسْ فى لواحق شَرِّه ونوائبه ، بل أمضِى قُدُمًا على ما يمسُّنى منه ويخُصُّنى ، راضياً بما يُقسَم لى من عَفْوِه ، وما زِمًا ما يَمرض منه عند جَهْدِه .

وقوله « زَلَّت » استعارة حسنة . كأنَّ صبرَه على الشِّدة ، وثباتَه فى وجه المحْنَة ، تُزِلُّ النُّوَب عنه كما يُزِلُّ الماءُ الدَّنَسَ عن الصُّخور ، ويقال : قِدْحٌ زَلُول ، كما للشَّىء السريع الدَّوَران : دَرُور . والتَّترتُر : العَجَلة ، فكأنَّ المراد : زَلَّتِ النائبةُ ولم تستخفَّنى فكنتُ أَعجَلُ أو أَتحوَّلُ عمَّا كنتُ عليه .

٣ ـ يُرانِى العَدُوُّ بَعْدَ غِبِّ لقائِهِ خَلِيًّا نَعِيمَ البالِ لم أتغــيَّرِ

يقول : وإذا قاسيتُ من العدوِّ مضارَّةً ومنا كدة فيما يتجاذبُه ومجاحَشَةً ، يرانى بعد يومِ لقائه بيومٍ وكأنَّه ما مَسَّنِى أذَى ، ولا نالَنى مكروه لأنَّه يَجِدُنى خليًّا منعَّم البال ، لم أتغيَّرْ عمَّا عُهِدت عليه قبلَ الامتحان به ، ولم أتبذَّل . وقوله « نعيم البال » هو من الضَّوالِّ التى وُجِدَت الآن ، وذلك لأنَّ فعيلًا فى معنى

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٨٠ ص ٥٥٧ .

(٢) فى الأصل : « منجزاً » ، صوابه فى ل .

مُفْعَلٍ معدود محصور ، وقد ذكرته في غير هذا الموضع وتقصَّيته . ونعيم البال من ذلك ، يقال : أنعَمَ الله بالَكَ ، وبالٌ مُنْعَم ونَعيم . ولا يمتنع أن يكون نَعيمٌ فعيلا من نَعِمُ أو نَعِمَ عيشُه ، وأكثر ما يُستعمل مصدرًا . يقول : هو في نعيمٍ لا يزول ، وإذا كان كذلك فهو غريبٌ إنْ جعلْته اسمَ الفاعل ، كقَدُم فهو قديم أو حَزِن فهو حزين ؛ أو فعيلًا في معنى مُفْعَلٍ ، كفرسٍ حَبِيس ومُحْبَس ، وبابٍ تَرِيصٍ ومُتْرَصٍ . وانتصب «خليًّا» على الحال من يَرانى ، وهو الذى لا همَّ له . وفى المَثَل : « وَيْلٌ للشجىِّ من الخلىّ » وقد يكون فى غير هذا المكان المُخَلَّى .

٤ – وراكِدَةٍ غَضْبَى طويلٍ صِيامُها قَسَمْتُ على ضوءٍ من النَّارِ مُبْصِرِ (١)

٥ – طُرُوقًا فلم أُفْحِشْ وقَسَّمتُ لحْمَها إذا اجتَذَبَ العافُونَ نارَ المذَوِّرِ

يعنى بالرَّاكدة قِدرًا لانتصابها وبقائها على الأثافىّ . ويقال : ماء راكد ، أى ساكن . وجعلها «غَضْبَى» لغليانها كأنها تَعْتِب وتَشْكُو . وهذا مِن عَتَب عليه من المَوجِدة . يقال : عَتَبْتُ عليه فأَعْتَبَ . ويروى : « غَيْرَى » فيكون من الغَيْرة ، لأنَّ صاحبها يحتدّ ، فشبَّه غليانَها بغَليان الغَيْرَى . وفى الحديث : « رُدُّونى إلى أهْلي غَيْرَى نغرة (٢) » . والصِّيام : القيام . ووصفه بالطُّول ، فقال : « طويل صيامُها » لكبرها . كأنه لا تُنْزَلَ قريبًا إذا نُصِبَتْ .

وقوله « قَسمتُ على ضوء من النار مُبصِرِ » ، جعل الضوء مبصِرًا لمَّا كان الإبصار فيه ، على ذلك قولُه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ . وجعَلَ قِسْمَةَ القِدْرِ وهو يريد قِسمة مَرَقِها وما احتوَتْ عليه ليلًا ، وبضَوء من النَّار ، لشدَّة الزَّمان ، وتناهِى البرد ولأنَّه وقتُ طروق الضَّيف . وقوله « لم أُفْحِش »

(١) التبريزى : « وراكدة » . ثم قال : « ويروى : عتبي ، وغضبي . وجعلها عتبي لغليانها . ويروى : غيرى ، فيكون من الغيرة . شبه غليانها بغليان الغيرى » .

(٢) انظر لهذا الحديث اللسان (نغر) .

أى لم آتِ بفُحشٍ لا فِعلاً ولا قولا ، ولم أقترِفْ مايقبُح من الذِّكر ويُستنكَر فى السَّمع . وقوله « إذا اجتنب العافُون » ظرفٌ لقوله لم أُفحِش ، و « طُروقا » ظرف لقَسَمْتُ على ضوءٍ ، ويكون تقدير البيتين : ورا كدةٍ طويلةِ القيام قسمْتُ مَرقَها ظلاماً وقتَ طُرُوق العُفاةِ والأضياف ، وبدَّدت لحمَها ، ولم آتِ بفَحْشاءَ فى وقتٍ يتسرَّع الضَّجَرُ فِى كثرة الوُرّاد وازدحام الأشغال إلى مَنْ كان سيِّئَ الخُلُق ، سريعَ التغيُّر ، حتَّى اجتُنِب نارُه ، وزُهِد فى ضيافته . وجعَل لنفسه قِسمَين كان أحدُهما للمرَق على الثُّرُدِ ، والثّانى لِقدَر اللَّحم . وعلى الأوّل قول الآخر : * وَسِّعْ بمَدِّكَ ماءَ اللّحمِ تَقْسِمُهُ[(١)]

٧٣٩

وقال الهُذَيلُ بن مَشْجعَة البَوْلانيّ :

١ ـ إنِّى وإنْ كانَ ابنُ عَمِّى غائِباً لَمُقاذِفٌ مِنْ خَلْفِهِ ووَرائِهِ

٢ ـ ومُفِيدُهُ نَصْرِى وإنْ كان امْرأً مُتَزحْزِحاً فى أَرْضِهِ وَسَمائِه

يصف كَرَم محافظته وحُسْنَ نِيابَته عَن غُيّاب أهلِهِ وذَوِيه ، فيقول : إنّى لمُدَافِعٌ مُرامٍ دونَ ابنِ عمِّى إذا غابَ عنِّى . فأذُبُّ مِن قُدّامهِ وخَلْفِهِ . والمعنى : أنِّى أُقاتلُ دونَه كنتُ هادياً له وقد تخلّفَ عنِّى ، أو حادياً له وقد تقدَّمَنى . فقوله « من ورائه » ، من البيِّن الظّاهر أنّه بمعنى القُدّام ، وقد ذكر معه خَلْف واشتقاقه من المُواراةِ وهى المُساتَرة ، ولذلك صَلَح وقوعُه موقع الخلف والقُدّام . وفى القرآن : ﴿ وكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينةٍ غَصْبًا ﴾ . وموضع « من خلفه » نصبٌ على الحال أى متخلِّفاً أو متقدِّما .

وقوله « ومُفيدُه نصرى » أى لا أُمْسِك عن معونته وإن تباعد عنِّى فى

(١) البيت الأول من الحماسية ٧٤٥ . وعجزه :

* وأكثر الشوب ان لم يكثر اللبن *

أرضِهِ وسمائه . والمعنى : أنِّى بظهر الغيب لا أخذُله وإنْ اشتغل عنِّى بمصارف حياتِهِ فى بلاده وأوطانه . وعطَفَ على أرضه السماءَ تأكيداً لتنائيه عنه ، واشتغاله دُونَه بمباغيه ، كأنَّه لمَّا جعل له أرضاً مباينةً لأرضه ، جعل لأرضه سماءً مُبايِنةً لسماء أرضه . ولا يمتنع أن يكون جَعَلَ ذلك مثلاً لاختلاف أحواله ، كما يقال نفَضْتُ تَهائمَ فلان ونُجودَه . والمعنى : جرَّبْتُه وكشفتُ عن أحواله . وعلى هذا قولهم : خَبَرْتُ ضُحَى فلان ودُجاهُ ، والمعنى سِرَّه وإعلانه .

٣ ـ ومَتَى أجِئْه فى الشَّدِيدة مُرْمِلاً   أُلْقِ الَّذى فى مِزْوَدِى لوِعائِه(١)

٤ ـ وإذا تتبَّعَتِ الجَلائف مالَنَا   خُلِطَتْ صحيحتُنا إلى جَرْبائِه(٢)

يقول : ومتى زرتُه فى شدائد الزمان فوجدته منقَطَعاً به لم أحوِجْهُ إلى السُّؤال وبذْلِ الوجه ، واستحمال المَفاقِر عنهْ ، لكن ألقيتُ فى وعائه ما كان فى مِزْوَدى . أى أرُمُّ حالَه فى السِّرِّ من غير أن يلحقه خَجَل ، أو يمسَّه تعب .

وقوله « وإذا تتبعَّت الجلائف » يقول : وإذا تعاونت الآفاتُ والسِّنونَ على أموالنا ، وتتابعت الأزَمات معترضةً فى أحوالنا ، فقشَّرتْها ولحَتْها ، وأثَّرتْ بالسُّوءَى فيها ، خُلِطَ ما سَلِم مِن مالنا بالمَعِيب من ماله . وذِكر الصَّحيحة والجرباء مَثل . والمعنى : أصلحْنا فاسد حاله بصالح حالنا ، وتحمَّلْنا أوزارَ الأيَّام السيِّئة عنه بما خَفَّ مِن ظُهورنا . والجلائف : جمع جَليفة ، وهى الأعوام المُجْدِبة وأصل الجَلْف القَشْر . يقال : جَلفْتُ الدَّنَّ ، إذا قشرتَ الطِّين عنه .

٥ ـ وإذا أتَى من وِجْهَةٍ بطَريفةٍ   لم أطَّلِعْ ممَّا وراءَ خِبائه

(١) التبريزى : « فى الشدائد » . التبريزى : « ويروى بوعائه ، أى مع وعائه ، ولوعائه أى إلى وعائه » . وفى هامش ل : « خ : بوعائه » . إشارة إلى أنه كذلك فى نسخة .

(٢) التبريزى : « يروى : الجلائف والخلائف . قال أبو العلاء : إذا رويت الخلائف بالخاء فهو جمع خليفة . . . وإذا رويت الجلائف بالجيم فهو جمع جليفة » . وفى هامش ل : « خ : ماله » .

يروى : « من وَجْهِهِ » والمعنى من حيث ما توَجَّه له كاسباً المال . وقوله « من وِجهة » وهو اسمٌ وليس بمصدر، ولذلك سَلِم فاؤه . والمصدر الجِهَة ، أُعِلَّ كما أُعِلَّ فعله ، على ذلك العِدَة والزِّنة ، والوِعْدة والوِزنة إذا بنَيْتَ اسماً .

والطَّريفة ، أراد ما استُطرِف من المال واستحدِثَ ، لكن القصدَ هنا إلى ما يُستحسن من الأعراض ، لكونه طُرْفَةً . وقوله : « لم أطَّلِعْ مما وراءَ خِبائه » أي لم أتعرَّضْ له تعرُّض المتتبِّع لحاله ، المتطلِّع على سرائر أمره . ووراءَ هاهنا بمعنى خلف . ويجوز أن يكون المعنى : لم أَعْرِضْ نفسى عليه متعرِّفاً ما جاء به ليُشْرِكَني فى طُرَفه ويجعلنى إسوةَ نفسه .

٦ ــ وإذا اكتَسَى ثوباً جميلا لم أقُلْ يا لَيْتَ أنَّ عَلَيَّ حُسْنَ رِدائه

يصف طِيبَ نَفْسه بما يناله صاحبُه من الخير ، وينفرد به من زيادةِ تجمُّل ، أو ظهور أثَرِ نعمة ، وقِلَّة حسدِه له ، وأنَّه لا يشتمل صدرُه فيه على غِلّ ، ولا ينطوى قلبُه [له[1]] على مكنونِ حقدٍ لما يَرَى به من ظُهورِ غِنًى ، واتِّساعِ أمر ، حتَّى يتمنَّى مكانتَه ، ويختار الاستبدادَ بما أُوتِيَه ، أو مشاركَتَه فيه .

وقوله « ياليت » المنادى محذوف ، وموضع ياليت نصبٌ على أنه مفعول لم أقُل ، كأنه قال : لم أقل يا ناسُ ، ليتَ أنَّ علىَّ رداءه الحسَنَ .

٧٤٠

وقال حَسَّان بنُ حَنْظَلَة[2] :

١ ــ تلكَ ابنةُ العَدَوِيِّ قالَتْ باطِلًا أَزْرَى بقَومِكَ قِلَّةُ الأموالِ

٢ ــ إنَّا لعَمْرُ أَبِيكِ يَحْمَدُ ضَيْفُنا ويَسُود مُقْتِرُنا على الإقلال

(١) هذه من ل .

(٢) التبريزى : « حسان بن حنظلة بن أبى رهم بن حسان بن حية بن شعبة الطائى » .

انتصب « باطلا » على أنه مفعول قالت . ومن شرط القول أن يحكى ما بعدَه إذا كان جملة ، تقول : قال زيدٌ عمرٌو خارج . فإنْ كان ما بعده معنى جملة ولم يكن جملةً كاملة انتصبَ على أن يكون مفعولَه ، كقولك قال زيد حقًّا وقال كِذْبا وصِدقا . وموضع قوله « أزْرَى بقومِكَ قلّةُ الأموال » نصبٌ على البدل من قوله باطلا . ويجوز أن ينتصب باطلًا على أنَّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنَّه قال قالت قولًا باطلا ، ويكون أزْرَى بقومك فى موضع المفعول لقالتْ وقد حكاه لكونه جملة . وقوله « قالت باطلا » رَفْعٌ على أنَّ خبر المبتدإ ، وابنة العدَوىّ ارتفَعَ على أنه عطف البيانِ لتلك .

ومعنى البيت : قالت ابنة العَدوىّ زُوراً من القول وباطلًا : لقد قَصَّر بقومك فقرُهم وَقِلّةُ مالِهم وَإعراضُ الدُّنيا عنهم ! فأَجبتها بقولى : إنَّا لعمر أبيكِ يحمَدُنا الضَّيفُ ، ويشكرُنا الزَّائر والمجتاز . وَالمعنى : ليس الاعتبارُ بكثرة المال واتِّساع الحال ، فإنَّا وحقِّ أبيكِ يحمَدُنا ضيوفُنا إذا نزَلُوا بنا فينصرفون مادحِينَ لنا ، وترى مُقِلّنا ينال السِّيادةَ على إقلاله ، ولا يؤخِّره ذلك عن رتبة أمثاله . وحذف من قوله « إنَّا لعمر أبيك » فأجبتها أو قلتُ لها . ومثل هذا يُحذَف فى الكلام كثيراً . على ذلك قولُ الله عزّ وجل : ﴿ وأمَّا الَّذين اسودَّت وُجُوهُهُمْ أكفرْتُم بَعْدَ إيمانِكم ﴾ ، أى يقال لهم : أكفرتُم بعد إيمانكم .

٣ ـ غَضِبَتْ عَلَىَّ أنِ اتَّصَلْتُ بِطَيِّىءٍ ... وأنَا امرؤٌ من طَيِّىء الأجْبالِ

٤ ـ وأنَا امرؤٌ مِنْ آلِ حَيَّةَ منصِبِى ... وبنو جُوَيْنٍ ، فاسألِى ، أَخْوَالى

يقول : أنكرَت منِّى هذه المرأةُ انتسابى إلى طَيِّىء ، وتأثُّلى فيهم ، واعتزائى إليهم ، وتَغَضَّبَتْ لتجَرِّينى إلى تميم وتُحَوِّلنى فيهم ، وذلك بعيدٌ لا يقع فى الوَهْم كَونُه ، ولا يُستَجاز حصولُه ، وذلك أنِّى رجلٌ من طيِّئٍ خرجتُ ، وفى غُشِّها

درجت ، وعلى طرائقهم وشِيَمِهم تخرَّجت إذْ كانوا الأصلَ الذى منه تفرَّعت ، وعليهم إذا ذُكِرَت المناسِبُ نَسبِى أُدَرْت . وقوله « وأنا امرؤٌ مِن آلِ حَيَّةَ مَنصِبى » ، ذَكر طرفَيْه فزعَم أنَّ آلَ حيَّةَ عمومته التى تؤويه ، وأنَّ بنى جُوَيْنٍ خؤولته التى تُدْنيه ، والقَصد إلى مُراغمةِ تلكَ وتشهير نفسِه بما تُنكِرُه منه . وقوله « من طيِّئ الأجبال » يعنى سَلْمَى وأجأ . وهذه الإضافة على طريقة التَّخصيص والتَّبيين ، وذلك لأنَّ طيِّئاً فرقتان : فرقةٌ تَنزِل السَّهلَ[١] من جبالهم ، وفرقةٌ تنزل العِلْو . وقوله « منصبى » يجوز أن يكون مبتدأً ومِن آل حيَّةَ خبره ، والجملة فى موضع الصفة لامرئٍ ، ويجوز أن يكون « من آل حيَّة » فى موضع الصِّفة ، ومنصبى فى موضع الرَّفع على البدل من امرُؤٌ ، كأنَّه قال : أنا مَنصِبى من آل حيَّة . وقوله « فاسألى » [اعتراض[٢]] ، وقد توسط المبتدأَ والخبر ، ومفعولُه محذوف .

٥ ــ وإذا دَعَوْتُ بَنِى جَدِيلَةَ جاءنى مُرْدٌ على جُرْدِ المُتونِ طِوالُ

٦ ــ أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رَزانَةً ويَزيدُ جاهِلُنا على الجُهَّالِ

بنو جَدِيلة : من طيِّئ . أراد أن يبيِّن أنَّه كما يَعتزِى إليهم يَقبَلُونه ويتبجَّحون بكونه منهم وينصرونه ، فمتى استغاث بهم واستعانهم على دهرِه أو عدوِّه أعانه رجالٌ مُرْدٌ ، على خيل جُرْد ، وانتقموا له وانتصَفوا من أعدائه .

وقوله « أحلامنا تزن الجبال » ، مَدَحَ نفسَه وقبيلتَه ، والمراد أنَّهم مِن الوَقار والسُّكون والرَّزانةِ والهُدُوّ فى المنزِل الأعلى ، والمكان الأقصى ، لا يَتحلحلون للنَّوائب ، ولا يَتضعضَعُون للشَّدائد . هذا ما لم يُحْرَجُوا أو يُحْوَجُوا ، فإن استُجهِلوا من بَعْدُ ، واستُجِرُّوا إلى الشَّرِّ ، وُجِدَ جاهلُهم يزيد على الجُهَّال

(١) فى الأصل : « الشعب » ، صوابه فى ل والتبريزى .

(٢) التكملة من ل .

قهراً وتأبياً واشتطاطاً فى الحكم وتصعُّباً . وإنما افتخر بأنَّ حِلمَهم موجودٌ ثابت حالَمَ يُسَامُوا خَسْفاً ، فإنْ عُدِلَ بهم عن طريق النَّصَفَة وارُوا فى معاملتهم عَسْفاً ، كان جهلُهم مُعَدًّا ، وزائداً على كلِّ ما يُقدَّر فيُعَدّ عدًّا .

وقوله « تَزِنُ الجبالَ رزَانةً » الوزنُ : مثقالُ كلِّ شىء ، ثم كَثُر حتَّى قيل : [هو[1]] راجح الوَزْن ، أى راجح الرَّأى والعقل ، وهو يَزِن كذا ، أى هو على وَزْنه ؛ وهو أوزَن قومِه ، أى هو أرجَحُهم وأوْجَهُهم .

٧٤١

وقال إياس بن الأَرت[2] :

١ - إنِّى لَقَوَّالٌ لِعَافٍ مَرْحَبًا وللطَّالِبِ المعروفِ إنَّكَ وَاجِدُهُ[3]

٢ - وَإِنِّى لَمِمَّا أَبسُطُ الكَفَّ بالنَّدَى إذَا شَنِجَتْ كَفُّ البَخِيل وسَاعِدُهُ[4]

قوله « عافٍّ » أصله عافُوِى[5] ، لكن الواو والياء إذا اجتمعا فأيُّهما سبَقَ الآخَرَ بالسُّكون يُقلَبُ الواو ياءً ، ثم يدغم الأوّل فى الثانى ، وكُسِر الفاء لمجاورته للياء . وانتصب « مرحبا » على المصدر ، وقد وقع وهو يَجرِى مجرى الجُمَل لمكان العامل فيه معه مَوقِعَ المفعول من قوله قوَّال . وانعطف عليه قوله « وللطالب المعروف إنك واجِدُه » كأنّه قال : وقوّالٌ لطَّالب المعروف إنَّك واجِدُه . فقوله إنَّك واجِدُه واقعٌ فى مثل قوله مَرْحبا . والمعنى أنَّ العُفاةَ وطلَّاب الرُّفد إذا نَزَلوا بى تلقَّيتُهم بالترحيب والإكرام ، وتلطيف القَول فى الإنزال ، وأقول : إنَّكم تَجِدُون ما تطلبون ، لا مَنْع ولا حِرْمان ، ولا دِفاع ولا مِطال ؛ لأنِّى إذا

(١) التكملة من ل .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٥٧ ص ١٠٢٨ .

(٣) كذا بالجزم فى النسختين . وعند التبريزى : « وإنى لقوال » .

(٤) فى حاشية ل : « خ : لممن » .

(٥) هذا التقدير قبل حذف النون للاضافة . وعند التبريزى : « عافوى » بالحذف .

تقبَّضت أكفُّ البُخلاء لم تنبسط وقصرت سواعدُهم عن الامتداد في البَذْل فلم تطُلْ، تندَّيتْ وعَلَتْ على أكفِّ السُّؤال كفِّي فبسطت، لأنَّ معروفي دارٌ وخبري مَبْذول. وقوله: «لِمَّا أبسُط الكفَّ» أي لمن الأمر أنِّي أبسُطُ الكفَّ بالنَّدى، فـ«أبْسُطُ» شرحَ المبهمَ بلفظة ما. و«إذا شَنِجت» ظرفٌ لأبسُط، ويشير إلى زمان السَّوء، وشمول المَحْل، وظُهور البُخْل.

٣ — لَعَمْرُكَ ما تَدْرِي أُمامَةُ أَنَّها ثِنًى مِنْ خَيَالٍ ما أَزالُ أُعاوِدُهْ
٤ — فشقَّتْ على صَحْبِي وعَنَّتْ رِكائِبي وَرَدَّتْ على اللَّيلَ قِرْناً أُكابِدُهْ[1]

لعمرك: مبتدأ وخبره محذوف، وقد مضى القول فيه فيما تقدّم. فيقول: وبقائك، ما تعلم هذه المرأة أنّ خيالَها يأتيني ثِنًى، أي مرةً بعد أخرى. وفي الحديث: «لا ثِنَي في الصَّدقة»، أي لا تؤخذ في السنة مرتين. وقوله «ما أزال أعاوده» يريد أنِّي ممتحَنٌ بمجيئها، لأنها تُراجِعني فتصرِفُني عن أسبابي، وتعُوقني عن مُهِمَّاتي. والمعنى أنَّها غافلةٌ عما أكابِدُه من خيالها في المنام، ومن ملازمة ذكرها لي عند الانتباه، لأنَّها لا تجِدُ مثل وجدي، فلا الذِّكرُ يهيِّج الشَّوق، ولا الفِكر يجدِّد الطَّيف. وهذا الكلامُ تشكٍّ منه وتعتُّبٌ على صاحبته، يدلُّ عليه قوله «فشقَّت على صَحْبي» يعني الخيال؛ وذلك لأنَّه لمَّا سَهِرَ بعثَ أصحابَه على النُّهوض معه[2] والانبعاث في السَّير مساعدين له، فهذا معنى الشُّقة عليه. وقوله «وعنَّت ركائبي» جمع رَكُوبة. وهي تجرى مَجرى الأسماء في انفرادها عن الموصوف، لا يقال ناقة رَكُوبة. والمعنى: أتعبتُ رواحِلي، لأنِّي أزعجتُها للسَّير، وبعثتُها من القَرار، وحُلْت بينها وبين الرَّاحة. وقوله «وَرَدَّتْ علىَّ اللَّيلَ قِرناً أُكابِده» أي جعلتني ممتطياً لِلَّيل،

(١) التبريزي: «فشقت على ركبي».
(٢) في الأصل: «معهم»، صوابه في ل.

ومُتّخِذاً قِرْناً لى أُزاوِلُه وأُجاذِبه ، أى أشاقُّه . وأُناصِبُه . وأصله من الكَبَد ، فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ ، أى فى شدّة ومشاقّة . وقال الخليل : يقال كابدت ظلمةَ الليل بكابِدٍ شديد ، أى مُكابَدَة شديدة . وكلُّ هذا الكلام تبجُّح منه عندَها بأنّها تماسِكُه على غَفَلاتِها عنه ، وانفراده بالبثّ فيها فخيالُها يصرّفه التّصريفَ الذى وصف . وانتصب « قرنا » على الحال .

٧٤٢

آخر :

١ ـ أَثْنِى عَلَىَّ بما لا تُكْذَبِينَ به   يا بَكْرُ أَىُّ فَتًى للضَّيفِ والجارِ (١)

٢ ـ إنّى أُجاوِرُ ما جاوَرْتُ فى حَسَبِى   ولا أُفارِقُ إلاَّ طَيِّبَ الدّارِ

قوله « لا تُكْذَبِينَ به » أى لا تُصادَفِين بذكره كاذبةً . يقال : خبّرَنى فلانٌ فأكْذَبتُه ، أى وجدته كاذبا . والمعنى : ليكُن ثناؤكِ علىَّ حقًّا ، وبما لا يَستَسرفُه سامعُه ولا يستنكره مُخبَرُه . ثم علّمها فقال : قُولِى يا بَكْرُ ، أىَّ فتًى كنتَ للجار إذا استجار ، والضّيف إذا استضافَ .

وقوله « إنى أجاورُ ما جاوَرْتُ فى حسبى » : يريد أنَّ من صاحَبْتُه مجاوراً له يَجِدُنى حسيباً فى فَعَالى ، كريماً عند مَقَالى . هذا مدّةَ الجِوار ، ثم إنْ فارقتُه فارقتُه والدار تنطِقُ بالثّناء علىَّ ، فأخبارى تُستطاب فى السّماع إذا غبْتُ ، كما أنَّ أخلاقى تُستَماح إذا شهِدْتُ . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر :

إذا كنتَ فى دارٍ فحاولْتَ تَرْكَها   فَدَعْها وفيها إن رجَعْتَ مَعادُ

وقوله « فى حَسَبى » أى معى حسبى ، فموضعه نصبٌ على الحال . وإذا جاورَ ومعه حسبُه منَعَه ممَّا لا يَحسن . ألا ترى قوله تعالى فى صِفة المؤمنين : ﴿ وإذا

---

(١) التبريزى : « ياطيب أى فتى » ، ثم قال : « ويروى : يا بكر » .

مَرُّوا باللَّغْوِ مرُّوا كِراماً ﴾ ، أى الكرمُ مَنَعَهم من التعريج على اللَّغو . ويقال : جاءنا فلان فى دِرْعٍ ، أى عليه (١) دِرْعٌ والعامل فى موضع « فى حسبى » أجاور ، وكذلك قوله « إلاّ طيِّب الدار » انتصَبَ على الحال ، والعامل فيه لا أفارق . وقوله « أىُّ فتًى » مبتدأ وخبره مضمر ، كأنَّه قال : أىُّ فتى أنت ؟ وقد جعل الطَّيبَ كناية عن الكريم ؛ على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُم فادخُلُوهَا ﴾ . أى كَرُمتُم .

٧٤٣

وقال آخر :

١ ــ كَمْ مِنْ لَئيمٍ رَأَيْنَا كان ذَا إِبِلٍ فأَصْبَحَ اليَوْمَ لا مُعْطٍ ولا قَارِ (٢)

٢ ــ ولو يكُونُ على الحُدَّادِ يَمْلِكُه لم يَسْقِ ذا غُلَّةٍ من مائه الجارى (٣)

كم موضعه نصبٌ على المفعول من رأينا . يريد : رأَيْنا كثيراً من اللِّئام يملِكُون نفائسَ الأموال وكرامَها ، ثم ماتوا عنها أو أُزيلَتْ نِعَمُهم وحِيلَ بينهم وبينَها ، فصاروا مِن بَعْدُ لا هُمْ مُعطُونَ ولاقارُونَ ، أى عادوا وقد تغيَّرَتْ حالُهم ، فلا يُرجَى ذلك من جهتهم . وقوله « فأصبح اليومَ » و « كان ذا إبل » ، كلَّ ذلك مردودٌ على لفظ لئيم ، وإن كان من حَيْثُ المعنى يُفيدُ الكثرة .

(١) ل : « أى وعليه » .

(٢) ابن جنى فى التنبيه : « لك فى معط وقار أمران : إن شئت كانا فى موضع نصب ، أراد لا معطيا ولا قاريا ، إلا أنه أجرى المنصوب مجرى المجرور والمرفوع تشبيهاً للياء بالألف كقوله : * يادار هند عفت إلا أثافيها *

وقوله : * كأن أيديهن بالقاع القرق *

وقوله : سوى مساحيهن تقطيط الحقق تقليل ماقارعن من سمر الطرق

وإن شئت كان على : فأصبح اليوم لا هو معط ولاقار ، كقولهم فى الصفة :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم »

(٣) الحداد بضم الحاء المهملة ، ويروى أيضاً بضم الجيم المعجمة كما ذكر ياقوت . وأنشد البيت .

وقوله « ولو يكون على الحُدَّاد » ، يريد : ولو وُلِّيَ فَيْضَ الحُدَّاد ، وهو اسم بحرٍ ، ممتلكاً له أيَّامَ غِناهُ لَمَا بَرَّدَ غليلَ رجلٍ حَرَّانَ ، ولا سقاهُ ماءً لِفِيه ، لبُخْلِه وقسوةِ قَلْبه . ومعنى « على الحُدَّاد » ، أى متوليًا له ومدبّراً أمره ، يقال : مَنْ عليكم ؟ أى مَن يأمرُ عليكم ويليكم . وإذا كان كذلك فقوله على الحدَّاد يتمّ الكلامُ به ، لأنَّه خبر يكون ، ويعلكه فى موضع النَّصب على الحال . وقوله « لامُعْطٍ » مُعْطٍ فى موضع خبر المبتدأ كأنه قال : لاهو مُعْطٍ . والكلامُ بعثٌ على البَذْل والسَّخاء ، وأنَّ المالَ فى الدنيا بعَرَضِ الحوادث مُلْقًى ، وعلى طريق النَّوائب ، فلا يَبقَى لمالِكه ، كما أنَّ مالكَه لا يبقى له ، فما يقدِّمه فى اجتلاب شُكرٍ واكتساب أجْرٍ هو الباقى له ، دونَ ما يخلِّفه فيقتسمُه الوُرَّاثُ بَعدَه فائزينَ به ، وذامِّين له .

٧٤٤

وقال حسَّانُ بن ثابت (١) :

١ ـ المَالُ يَغْشَى رِجالًا لاطَبَاخَ لهمْ كالسَّيْلِ يَغْشَى أُصُولَ الدِّنْدِنِ البالى (٢)

٢ ـ أَصُونُ عِرْضِى بمَالِى لا أُدنِّسُه لا بارَكَ اللهُ بَعدَ العِرْضِ فى المالِ

٣ ـ أَحْتَالُ للمالِ إنْ أَوْدَى فأَجْمَعُه ولستُ للعِرضِ إنْ أَوْدَى بمحتالِ

قوله « لا طَبَاخَ لهم » ، أى لا خير عندهم . ويقال : هذا لحمٌ لا طَبَاخَ له ،

(١) حسان بن ثابت بن المنذر الأنصارى الصحابى ، أحد مخضرى الجاهلية والإسلام ، قالوا عاش فى الجاهلية ستين وفى الإسلام مثلها ، ومات فى خلافة معاوية ، وعمى فى آخر عمره . وهو أحد شعراء الرسول والمنافحين عن الإسلام . وترجمته فى كتب الصحابة والأغانى (٤ : ٢ ـ ١٧) وابن سلام ٥٢ ـ ٥٣ والخزانة (١ : ١٠٨ ـ ١١١) وغيرها .

(٢) التبريزى : « ولا طباخ بهم » ، وطباخ ، ضبطت بفتح الطاء فى النسختين . وفى اللسان : « ووجد بخط الأزهرى : طباخ بضم الطاء . ووجد بخط الإيادى : طباخ بفتح الطاء . على أن الشعر روى أيضاً لحية بن خلف الطائى يخاطب امرأة من بنى شمجى بن جرم ، كما فى اللسان . ولكن القصيدة لحسان بن ثابت طويلة فى ديوانه ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

أي لادَسَمَ له . وشابٌ مُطَبِّخٌ ، أَملأُ ما يكون شباباً وأرواه . وطَبَّخَ الغُلامُ ، إذا تَرعرَعَ وعَمِلَ [(١)] . والدِّنْدِن : المسوَدُّ من الـكلاِ لقِدَمِه ويُبْسه . والمعنى أنَّ المَرْءَ لا يُؤتَى الغِـنَى لفضْلٍ فيه وغَناءٍ لديه ، وإنما ذلك لمقاديرَ قُدِّرت على [(٢)] حَسَبِ ما عرَفَه الله تعالى جَدُّه ، وهو الذى يُغنِى ويُقنِى مِنْ مَصالح خلقه . وإذا كانَ كذلك فقد يتَّفق حصولُ المال عندَ مَن لا يستحقُّه بفضل أُوتِيَهُ ، أو ذِمَامٍ وَجَبَ له ، بل يكون كالسَّيل يمتدُّ من المَذَانب والتِّـلاعِ حتى يقفَ حاصلًا فى أُصول يابِسِ الـكلاِ ومُسْوَدِّه ، فى أنَّه لا يُنتَـفَع به ولا يرُدُّ خيراً على جامِعِه ، كما لا ينتفِـعُ الدِّنْدِنُ البالى بمـا يَغشَى أصولَه من ماءِ المَطَر . وفى مثل هذا قولُ الرَّاعى :

وخَادَعَ المجْدَ أقـوامٌ لهم وَرَقٌ رَاحَ العِضاهُ بهِ والعِرْقُ مَدْخُولُ [(٣)]

وقد أخذ أبو تمامٍ هذا المعنى فقالَ وأحسَـنَ :

لا تُنْـكِرِى عَطَلَ الـكَريمِ من الغِنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمَـكَانِ العالِى

وقوله « أصون عِرْضى بمالى » ، يريد أَنِّى أَجعلُ المالَ واقيةً لحسبِي ونَسَبِي ، فأصونُه ولا أُدنِّسه بتثميره وتوفيره ، وإن تقلدتُ العارَ له واكتسبتُ الإِثمَ الفاحشَ فيه ، فلا بارَكَ الله فى المـالِ بعد النَّفْس ، لأنَّ المال يُحتَاج إليه لتنتفعَ به النَّفس ، ولتنتزَّهَ عن المعايب والمَقاذر بإنفاقه . فأما قوله « بارَكَ » فأصله من اللزُّوم ، ومنه بَرَكَ البعيرُ ، إذا لَزِمَ مكانَه . فمعنى باركَ الله فيه : بقَّاه الله . وعلى ذلك قولُ المسلمين : تباركَ الله : أى بَقِيَ ودامَ ، فهو تفاعَلَ فى معنى فَعَلَ لا تـكلُّـف فيه ، تعالى الله عن ذ ك .

(١) كذا فى النسختين . وفى اللسان : « وعقل » .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « وعلى » .

(٣) انظر البيت وروايانه فى اللسان ومقاييس اللغة (روح) .

وقوله « أَحْتَالُ للمال إنْ أودَى فأجمعه » ، يريد أنّ المالَ إذا استهلكه مُنْفِقه أمكنَ الاعتياضُ منه ، ونفذَ الاحتيالُ فى جَمْعه وتثميره ، وإذا هَلَكَ العِرضُ فلا طريقَ إلى ردّه إلى ما كان عليه ، ولا استطاعةَ فى تنقيَته من دَرَن العار وقد جُعِلَ وقايةً للمال .

٧٤٥

وقال عبد العزيز بن زُرَارة الكِلابىّ (١) :

١ — دَعَوْتُ إليها فِتْيَةً بأكُفِّهِمْ   من الجَزْرِ فى بَرْدِ الشِّتَاء كُلُومُ

٢ — اذا ما اشتَوَوْا مِنْهَا شِوَاءً سَعَى لَهُمْ   به هِذْرِيانٌ للكرام خَدُومُ (٢)

٣ — فإلّا أكُنْ ذَيْنَ الجوادِ فإننى   على الزّادِ فى الظّلْماء غيرُ شتيمِ

٤ — وإلّا أكُنْ ذَيْنَ الشُّجاعِ فإنّنى   أردُّ سِنانَ الرُّمْحِ غيرَ سَليمِ

« إليها » ، يعنى إلى راحلته . وجعل الفتية مَكاوِىَ الأكفِّ عِنْدَما يتولَّونه من قِسمة الجزور وتَفصيل أوصالها ، لأنّهم لا يهتدون إلى المفاصل ، ولم يُزاولوا نَحْرَ الإبل وجَزْرَها قبل ذلك . فيقول : جمعتُ على قِسمةِ ناقتى فتياناً قد تكلَّفوا ما دعوتُهم إليه تكرُّماً ، وإنْ لم يكنْ ذلك مِن شأنهم ، ولا صار منهم ببالٍ ، لكنّ شِدّةَ الزّمانِ ، وتَناهِىَ الضُّرِّ فى الجيران وطوائف النّاس فَرَضَ على أمثالِهم تجشُّمَ نِعمائهم ، وحُسْنَ تولِّيه فيهم .

(١) هو أحد أشراف العرب وشعرائهم ، روى له الجاحظ شعراً فى الحيوان (٣ : ٨٤) والبيان (٤ : ٥٤) ، وقص خبراً له مع معاوية فى البيان (٢ : ٧٥) ، كما أنشد لبعض الشعراء مديحاً فيه ، فى الحيوان (٦ : ٣٢٩) . وذكر أبو الفرج فى الأغانى (١ : ٦٨) أنه الذى تكفل بدفن توبة بن الحمير فى أيام مروان بن الحكم .

(٢) إلى هنا تنتهى المقطوعة عند التبريزى ، وفصل بين هذين البيتين وبين تاليهما بقوله : « وقال آخر » . لكن المرزوقى جعلهما جميعاً مقطوعة واحدة على ما فى البيتين الأخيرين من إقواء ظاهر .

وقوله « إذا ما اشتهوْا منها شِواء » ، يريد : وإذا انبسطوا للتَّناوُل وتواضعوا وأظهَروا في المعاونة اهتزازَهم ونَشِطوا ، سَعَى في اتّخاذ الشِّواء لهم وتهيئتِه رجلٌ خفيفُ السَّعْي ، كثيرُ الألطاف ، حَسَنُ الخِدمةِ للكرام ، عارفٌ برُسومهم في اكتساب المكرُمات . ويعني به نفسَه .

وقوله : « فإلّا أكُنْ عَيْنَ الجَواد » ، يريد إنْ لم أكنْ كلَّ الجَواد والجامعَ لأسبابِ السَّخاء ، فإنّي لا أُشتَمُ في الظَّلماء بعلَّة الزاد وحَبْسه عن مريدِه ؛ وإنْ لم أكُنْ حقَّ الشُّجاع ، والتَّامَّ الآلاتِ في المِصَاع[1] ، فإنّي أُجِرُّ الرُّمحَ في طعونٍ وأرُدُّ سِنانه كسيراً . وليس الجودُ ولا الشَّجاعةُ إلّا ما ذكَره . ولكنّه أراد أن تكون دعواه قاصرةً عن الغاية المرموقة ، ليكونَ أحسَنَ في الأُحدوثة ، وأدخَلَ في العقل ، وأقربَ في الذِّكْر . وقد مرَّ القولُ في مثله في باب الحماسة أشبعَ من هذا .

والمِذْريان والهَيْذارُ : الكثير الكلام فيما يُحمد . والهَذِرُ والمِهْدارُ الكثير الكلام في كلِّ باب .

٧٤٦

وقال آخر :

١ — وَسِّعْ بمَدِّكَ ماءَ اللَّحْمِ تَقْسِمُهُ   وأكْثِر الشَّوْبَ إنْ لم يَكْثُرِ اللَّبَنُ

٢ — وسِّعْ به وتَلَفَّتْ حَوْلَ حاضِرِهِ   إنَّ الكريمَ الذي لم يُخْلِه الفِطَنُ

قوله « بمَدِّك » مصدر مددت القدرَ ، إذا أكثرتَ مرقَها . ويقال : مددتُ الدَّواةَ أيضاً ، إذا أكثرتَ ماءَها . وأمددتُ الجيشَ ، إذا أتبعتَه بمددٍ يكثِّره ويقوِّيه ، فيقول : كثِّر مرَق قدرك ليتّسع لغاشيتها ، وأكثِر خَلْطَ اللَّبن إن لم يكثُر في نفسه ولم يتّسع لوُرّاده . والشَّوْبُ : مصدر شاب يشوبُ ، إذا خالَطَ وهذا مثلٌ

(١) المصاع والمماصعة : المقاتلة والمجالدة بالسيوف .

ما سارَ به المَثَل ، وهو «مِثْلُ الماءِ خَيْرٌ من الماء» . وأصله أنَّ رجلًا استسقى غيره لبناً ، فقال : إنّه مثل الماء ، أى فضلةٌ بَقِيَتْ من لبن مَشُوب. فقال المستسقى : مثلُ الماء خيرٌ من الماء . يريد أنَّ المشُوبَ من اللَّبن خيرٌ من الماء القَرَاح . ومثله قولُ الآخر :

نَمُدُّ لهم بالماء مِنْ غير هَوْنِهِم ولكنْ إذا ما ضاقَ شىءٌ يُوسَّعُ

وقوله « وسِّعْ به وتلفَّتْ حولَ حاضرِه » يريد كثِّرْه والتفِتْ فيمن حولَكَ مِن جارٍ ومُحتاج ، ولا تنتظرْ بما تفرِّقُه السُّؤالَ والطَّلبَ ، ولكنْ ليكنْ مِن نفسِك باعثٌ على تمييز المحتاج ، والنَّظرِ له ، والإفضال عليه ؛ لأنَّ الكريم هو الذى لا يُخلِّيه نِظَامُه ، والتفاته ونَظَرُه . واللُّؤم : سوء التَّغافل .

وهذا كما قال الآخر :

إنَّ الكريمَ مَنْ تَلَفَّتَ حوْلَهُ وإنَّ اللئيمَ دائمُ الطَّرفِ أقْوَدُ[1]

٧٤٧

وقال آخر[2] :

١ – إذَا هِىَ لم تَمْنَعْ بِرِسْلٍ لُحُومَها مِن السَّيْفِ لاقَتْ حَدَّهُ وهو قاطِعُ

٢ – نُدافِعُ عَنْ أحسابِنَا بلُحومِها وألبانِها إنّ الكريمَ يُدافِعُ

٣ – ومَنْ يَقْترف خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نَفْسِه يَدَعْهُ وترجعْهُ إليه الرَّواجِعُ

قوله «إذا هى لم تمنع » ، يعنى الإبل . فيقول : إذا لم يكن فى النُّوق لبَن تحمى نفوسَها به من العَقْر عند نُزول الضِّيفان لاقت حَدَّ السَّيف وهو يَجزُرها ويُقطِّعها . ومثله قول الآخر :

وإنْ تعتذِرْ بالمَحْلِ من ذى ضُروعها على الضَّيفِ يَجْرَحْ فى عَراقيبها نَصْلِى

(١) أنشده فى اللسان (قود) شاهدا على أن الأقود الذى إذا أقبل على الشىء بوجهه لم يكد يصرف وجهه عنه .

(٢) هو المخضع القيسى ، من عبد القيس . معجم المرزبانى ٤٧٥ .

وأبلغُ منهما قولُ الآخر(١) :

فتًى لا يَعُدُّ الرِّسْلَ يَقْضِي ذِمامَه إذا نَزَلَ الأضيافُ أو تُنْحَرَ الجُزُرْ

وقوله « نُدَافِعُ عن أحسابنا بلحومها » ، يريد بإطعام لحومها ، وسَقْيِ ألبانها لأنّ عادتَنا تفرِض علينا المدافعةَ عن الكَرَم ، والمحاماةَ على الشّرَف ، وذلك خُلُقنا الذي نَنْشأ عليه ، و نَنبُت فيه ، ومَنْ يَتَعاطَ خُلقاً مُستجَدًّا مخالِفاً لما أَلِفَه وتعوَّدَه يفارِقْه ويَرْجِعْ إليه الخُلُق الأوّل . ومثله قولُ الآخر(٢) :

كلُّ امرئٍ راجعٌ يوماً لشِيمَتِهِ وإنْ تخلّقَ أخلاقاً إلى حِينِ

والقَرْف يكون من الذّنب والجُرْم ، يقال : هو يَقْتَرِف ذنباً ، أى يأتيه ويفعله ، ويقال أيضاً : هو يَقترِفُ لعياله ، أى يكتسب . واقترف حسَنةً ، أى اكتسبَها . وقوله : « وتَرجِعْ إلىّ الرواجع » ، يقال : رجَع فلان مِنْ كذا رُجوعًا ، ورجَعْتُهُ أنا رَجْعاً ، ومثله صَدّ وصدتُه ، وكَسَبَ وكَسَبْتُه .

٧٤٨

وقال مُضَرِّسُ بنُ رِبْعِيّ(٣) :

١ - وإنّي لَأَدْعُو الضّيفَ بالضّوْءِ بعدَما كَسَا الأرضَ نَضّاحُ الجَليدِ وجامِدُهْ

٢ - لأُكْرِمَهُ إنّ الكَرامةَ حَقُّه ومِثْلانِ عندِي قُرْبُهُ وتباعُدُهْ

٣ - أَبِيتُ أُعَشِّيهِ السَّوِيفَ وإنّني بما قال حَتّى يَتركَ الحَيَّ حامِدُهْ(٤)

يقول : إنى أَدْعُو الضّيفَ بإيقاد النّار وإعلاء ضوئها ، عند اشتداد البَرْد ،

(١) هو الأُبيرد اليربوعى . انظر ص ١٠٧٩ .

(٢) هو ذو الإصبع العدوانى . البيت ١٠ من المفضلية ٣١ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤١ ص ١١٨٣ .

(٤) التبريزى : « بما قال » ، وفى حاشية ل : «خ : بما نال» ، إشارة إلى هذه الرواية فى إحدى النسخ .

وا كتساء الأرض من جامد الماء ، ومنتضِح الجليد ، أى نَدَاه الذى يَيَّسَه البرد، لأَفضىَ حقَّه بإكرامه وإلطافه . والنَّضْحُ كالنَّضْخ ، إلَّا أن النَّضْح له أثر . والعين تنضح بالماء ، وكذلك الكوزُ . والنَّضِيحُ : العَرَق ، لأنّ جِزْمَ الإنسان يَنضَح به . وسمَّى أبو ذؤيبٍ الهُذَلىُّ ساقىَ النَّخْل نَضّاحًا ، كما سُمِّى البعيرُ الذى يُستَقى عليه الماء : النَّاضح ، فقال :

. . . . كما يَسقِى الجذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضّاحُ[(١)]

وقوله « ومِثلانِ عندى قربُه وتباعُده » ، يريد فى النَّسب . أى يتساوى عِندِى تمازُجُه وتَواشُجه ، وتنائيه و تَبايُنُه ؛ لأنَّ الواجبَ له علىَّ أقيمُه لا أتحمد بذلك عليه ، لأنَّ إكرامَ الضَّيف فرضٌ على ذى المروءة ، ومُسقطُ الفَرض عن نفسه لا يستحقُّ من الناس اعتداداً .

وقوله « أبيتُ أعشِّيه السَّديف » فالسَّديف : شَحْم السِّنام . والمراد أبقى ليلتى مُطعماً له خيارَ ما عِندى ويَحضُرُنى من شُطَب السَّنام ، ثم إن اقترَحَ علىَّ شيئاً أعدُّه نعمةً تتجدَّد له يستوجب منِّى حمْداً وشكراً عليها ، وذلك له طُولَ مُقامِه إلى أنْ يُفارقَنى ، ويترُكَ عشيرتى .

٧٤٩

وقال حِماسُ بن ثامِلٍ :

١ ــ ومُسْتَنبِحٍ فى لُجِّ لَيْلٍ دَعَوْتُه بِمشْبُوبةٍ فى رَأْسِ صَمْدٍ مقابِلِ
٢ ــ فقُلتُ له أَقْبِلْ فإنَّكَ راشدٌ وإنَّ عَلَى النَّار النَّدَى وابنَ ثامِل[(٢)]

(١) صدره فى ديوان الهذليين (١ : ٤٦) :

* هبطن بطن رهاط واعتصبن كما *

(٢) التبريز : « وقلت له » .

المشبوبة : النَّار ، وتوسعوا فقيل : شَبَبْتُ الحرب، كما قيل شَبَبْتُ النَّار . ولَجُّ اللَّيل : معظَم ظُلْمته ، وكذلك لُجُّ البحر . والصَّمْدُ : الجبَل أو الأرضُ المرتفِعة . جعل نارَه فى يَفاعٍ مُقابلٍ لسَمْتِ الضَّيف ، فدَعاهُ بها لما أعلاها ورَفَعها حتَّى اهتَدَى لها . وهذا مثلُ ما قد شرَحْتُه .

وقوله « فقلتُ له أقبل فإنَّكَ رَاشد » أى قوَّيْتُ نَفسه فى النُّزول ، وأرَيْتُه استبشارى له وانتظارى إيَّاه . ألا تَرَى أنه قال : « وَإنَّ على النَّار النَّدى وابن تامِلِ » . ولولا اشتهارُه بالطَّول والإفضال لما قال ذلك. وهذا مثل قول الأعشى :

* وباتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلِّقُ(١) *

٧٥٠

وقال النَّمرِىُّ(٢) ، ويقال إنها لرجل من باهلة :

١ – وَدَاعٍ دَعَا بَعْدَ الهُدُوِّ كأنَّما يُقاتِل أهوالَ السُّرَى وتقاتِلُهْ

٢ – دَعَا بائِساً شِبْهَ الجُنُونِ وما بِهِ جنونٌ وَلكِنْ كَيْدُ أمْرٍ يحاوِلُه

يَعنِى بالدَّاعى مستنبِحاً طالبَ بَعْدَ أن مَضَى من اللَّيل قطعةٌ مَن يُغيثُه ويَستنقِذُه من هَول الليل ، وبلاء الضُّرّ ، حتى كأنما كان يُقاتِل أسباب السُّرَى لشدَّة الأمر عليه ، وتقاتله ، أى بلَغ الحالُ به حدًّا رأى السُّرَى تغالِبُه عن نفسه وتُصارِعه عنها .

(١) صدره فى الديوان ١٥٠ :

* تشب لمقرورين يصطليانها *

(٢) المشهور بهذه النسبة من الشعراء منصور النمرى ، وهو منصور بن سلمة بن الزبرقان من النمر بن قاسط ، وكان مقدما عند الرشيد ، وكان يمت إليه بأم العباس بن عبد المطلب وهى نمرية ، ومات فى خلافة الرشيد . الشعراء ٨٣٥ وتاريخ بغداد (١٣ : ٦٥ – ٦٩) والأغانى (١٢ : ١٦ – ٢٤) .

وقوله « دعا بائساً » يعنى كلباً ذا بُؤْسٍ لضَرَر القَحْط ، ويكون على هذا مفعولًا . ويجوز أن ينتصب على الحال للدّاعى ، أى دعا وهو ذو بؤسٍ . ويجوز أن يريد دَعَا دُعاءَ بُؤْسٍ يُشْبِه الجنون . فأمّا تكريره للدُّعاء فهو لتهويل الأمر وتفظيعِ الشّأن . وانتصب «شِبْهَ الُجنونِ» أى دُعاءً يُشْبِه الْجُنُونَ ، فهو صفةٌ للمصدر المحذوف . قال : وليس به جنون ، لكنّه يُكابِد أمراً (١) ، ويعانى مَشَقّةً وضُرًّا ، فهو يطلب الخلاص من محْنَةٍ لا طريقَ للمَخْلَص منها إلاّ على ذلك الوجه . وتحقيق الكلام : ليس به جنون ، ولكنْ به كَيْدُ أمرٍ يَطْلُب دَفْعَه والسَّلامةَ منه .

٣ – فلمّا سَمِعتُ الصَّوتَ نادَيْتُ نَحْوَهُ بصَوْتِ كَرِيمِ الجَدِّ حُلْوٍ شمائلُهْ

٤ – فأبْرَزْتُ نارى ثمَّ أثْقَبْتُ ضَوءَها وأخرجْتُ كَلْبى وهو فى البَيْتِ دَاخلُهْ

يقول : جَمَعْتَ فى تلقّيه وإغاثته بينَ الأسباب التى يُستنزَل بها الضَّيف ، ويُستقبَل بها الجيران ، لإشالته من صَرْعَتِه ، واشتلائه من محْنَته ، فناديتُه بنفسى على رَفْعٍ من صَوتى ، وهو صوتُ رجلٍ كريمِ الأصل . حُلْوِ الطَّبائع ، سَهْلِ الجانب ، حسَنِ الاشتمال على الضَّيف ، وجعلْتُ نارى فى بَرَاز ، وهو المرتفِع من الأرض . ومثل البَراز البَرْز . قال :

* يظلُّ على البَرْزِ اليَفاعِ كأنّه *

قال : ثمّ أيدْتُها بثَقُوبٍ يرتفع الضَّوء له ، ويَقوَى به ، وأخرجْتُ كَلْبى من مَقرِّه ، وهو لشدّة البَرد ملازمٌ للبيت لا يَخرُج ، كلُّ ذلك فعلتُه تقريباً للأمر على الضَّيف ، وتسهيلاً لهدايته . وقوله « وهو فى البيت داخله» فى البيت

(١) أمرا بفتح الهمزة فى النسختين ، واختصر العبارة التبريزى كعادته فقال : « يكابد أمرا يطلب الخلاص منه » . ولو قرئت « إمرا » بكسر الهمزة لوافقت طريقته فى التسجيع . والإمر : بالكسر الشدة والأمر العظيم الشنيع . لكن فى نص البيت : «كيد أمر يحاوله».

موضعه خَبَرَ الابتداء وليس بلَغْوٍ ، وداخلُه(١) خبر ثان ، والهاء من داخله يعود إلى البيت كأنه قال : وهو مستقر فى البيت داخلٌ فيه ، ولا يمتنع أن يكون داخلُه(١) فى موضع البدَل من قوله فى البيت ، ويكون كقولك زيدٌ داخلَ البيت وخارجُه .

٥ — فلمَّا رآنِى كَبَّرَ اللهَ وحْدَهُ ... وبَشَّرَ قَلْباً كانَ جَمّاً بَلابِلُهْ

٦ — فقُلْتُ له أهلًا وسَهْلًا ومَرْحَباً ... رَشَدْتَ ولم أُقْعِدْ إليه أُسائِلُه(٢)

يقول : لمَّا رآنى هذا الضَّيف قال : الله أكبر ! استبشاراً واغتباطاً بما تعجَّلَ له من الفرَح ، وفرَّحَ قلباً كانت غمومُه مجتمعةً عليه يأساً من الخير فى مثلِ مكانِه ، وطمعاً فيما يستبقيه من حياته ؛ فقلت له : أتيتَ أهلًا لا غُرَباءَ ، ووَرَدْتَ سهلًا من الأفنيةِ لا حَزْناً ، وتعمَّدْتَ رُحْباً من الأماكن لا ضيقاً ، وصَحِبتَ الرَّشادَ فى عُدُولِكَ إلىَّ لا الضَّلالَ ، ورافقْتَ السَّعادةَ لا الشَّقاءَ والهَلَكةَ ، ولم أُقْعُدْ إليه مسائلاً عن أخباره وعمَّا أدَّاه إلَىَّ أرضِى فى انتقالاته ، بل عَمَدتُ إلى الاحتفال له ، وقَصَرْتُ سَعْيِى على ما يقتضى إنزالَه ، وعلى تهيئة القِرَى والأنزال له(٣) . وانتصب « وحده » على المصدر ، لأنه موضوعٌ موضعَ الإيحاد ، أى أوحَدَ اللهَ إيحاداً .

٧ — فقمتُ إلى بَرْكٍ هِجانٍ أُعِدُّهُ ... لِوَجْبَةِ حقٍّ نازلٍ أنا فاعلُه(٤)

٨ — بأبيضَ خطَّتْ نَعْلُه حيثُ أدركتْ ... مِنَ الأرضِ لم تَخْطَلْ علَىَّ حمائلُهْ

يقول : وقمتُ إلى إبلٍ باركة بالفناء ، كريمةٍ بيض ، أُعِدَّتْ لواجب حقٍّ يَنزِلُ بى . وزادَ الهاء فى « وجبة » للمرَّة الواحدة ، ويجوز دخولها لهذا المعنى فى

---

(١) ما بين هذا الرقم ومثيله ساقط من ل

(٢) يقال رشد يرشد ، من بابى نصر وفرح . وضبط فى الأصل بفتح الشين وكسرها مع قرن ذلك بكلمة « معا » ، إشارة إلى تحقيق الضبطين .

(٣) التبريزى : « وقمت » .

(٤) الأنزال : جمع نزل ، بالضم ، وهو ما يهيأ للضيف .

المصادر كلها ، وقد شرحتُ القولَ فى لفظة هجان ووقوعه بلفظه للواحد والجمع[(١)]

وقوله « بأبيض » تعلق الباء منه بقوله قمت . واللام من قوله « لوجبةِ حقٍّ » متعلِّق بقوله أُعِدُّه ، وموضع الجملة صفةٌ للبَرك ، كما أنَّ قوله «أنا فاعله» صفة للحق . والمعنى : قمت وقد تقلَّدت سيفا مصقولا ، تَخُطُّ حديدةُ جَفنه فى الأرض إذا أدركتها خطًّا ؛ وليس ذلك لأن حمائله اضطربت علىَّ أو قصُرت قامتى عن ارتدائها لطولها ، ولكن تخُطّ حيث تُدرك ، لارتفاعِ أرضٍ أو عارضِ حالٍ . والحمائل : جمع الحِمالة . وإذا طالَ النِّجادُ خَطَلَ على لابِسِه واضطرَب . وافتخارُهم بامتداد القامة وطُول الحِمالة معروف . والنَّعلُ : الحديدةُ التى يُغَشَّى بها أسفلُ الجَفْن . وعلى ذلك قوله :

* طويلِ نجادِ السَّيف ليس بجَيْدَرِ[(٢)] *

٩ ـ فجالَ قليلاً واتَّقانِى بخَيرِهِ سَنَاماً وأملاهُ مِنَ النِّىِّ كاهِلُهْ[(٣)]

١٠ ـ بقَرْمٍ هِجَانٍ مُصْعَبٍ كان فَحْلَهَا طَوِيلِ القَرَى لم يَعْدُ أنْ شَقَّ بازِلُهْ

قوله « جال قليلا » انتصب قليلاً على الظَّرف ، أى زمناً قليلا . وفاعل جَال هو البَرْكُ . ويجوز أن ينتصب قليلاً على أنّه صفةٌ لمصدر محذوف ، كأنّه قال : جال جَوْلا قليلا ؛ فأقامَ الصِّفَةَ مقامَ الموصوف ، لأنَّ المراد مفهوم . والمعنى : لمَّا بصُر البَرْكُ بى ثارت مِن مَباركها ، لما يَغْشاها من الخوف المعتاد لها

(١) انظر ما مضى فى ص ١١٣٦ والحماسية ٧٣٤ والحماسية ٧٣٥ ص ١٦٧٢ .

(٢) الجيدر ، بفتح الجيم : القصير .

(٣) ابن جنى فى التنبيه : « الهاء فى خيره وأملاه ضمير البرك المذكور قبله . وارتفع كاهله بأملاه ، وعملت أفعل هذه فى المظهر فرفعته ، وهى فى ذلك أمثل حالا منها إذا اتصلت بها من فى نحو أفعل من ، وذلك أن من تباعدها بما يكسبها من التخصيص من الفعل ، والإضافة فى كثير من هذه المواضع فى تقدير الانفصال . ولذلك قلت مررت برجل ضارب أخيه زيد . هذا هو الظاهر . وإن شئت رفعت كاهله بمضمر دل عليه أملاه ، أى امتلأ من النى كاهله » .

واضطربتْ ، ثمَّ اتقتْني — أي جعلتْ بيني وبينها — بأتمكها سناماً [١]، وأملاها من النَّيِّ كاهلا . والنيُّ : الشَّحم واللّحم . وانتصب « سَناما » على التمييز . وارتفع قوله « كاهلُه » بفعلٍ مضمَرَ دلَّ عليه وأملاه ، كأنَّه لمَّا قال وأملاه من النَّيّ قال امتلأ كاهلُه . ويشبه هذا قولَ الآخَر فى إضمار الفعل ، وإن كان هذا ناصبًا وذاك رافعا ، وهو :

* وأَضْرَبَ مِنَّا بالسُّيوفِ القوانِسَا [٢] *

وانتصاب القوانس بفعلٍ مضمَر دلَّ عليه وأضرَب منا ، كما أنَّ ارتفاع الكاهل بفعلٍ دَلَّ عليه : وأملاه .

وقوله « بِقَرْمٍ هجان » أعاد حرفَ الجرّ فيه ، وهو بدل من قوله : « بخيره سَناما » . ومثله فى إعادةِ حرف الجرّ فى المبدَل قولُه تعالى : ﴿قال الَّذين استكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ للّذين استُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ . والهِجان ، وُصِفَ به الواحد هاهنا ، فهو فى زنةِ قولهم : ناقة دِلاثٌ ، وإزارٌ وخِمارٌ . وفى قوله بَرْك هجان [٣] وُصِف الجمع به ، فهو كظِرافٍ وحِسان . والمُصْعَبُ : الفَحل الكريم الذى لا يُبْتَذَل فى العوارِض ، بل يُقصَر على الفِحْلة . وقال الخليل : هو الذى لم يُركَبْ قطُّ ولم يَمَسَّه حَبل . ويقال أُصْعِبَ الفحلُ فهو مُصْعَبٌ ، وبه سُمِّىَ الرَّجلُ إذا كان مسوَّداً مُصْعَبا . وقوله « كان فحلها » رجع الضمير إلى البَرْك ، أى كان هذا القَوْم فَحْلَ هذهِ البَرْكِ ، وهو طَويل الظَّهر لم يتجاوزْ بازله أن انشَقَّ اللحم عنه . يعنى أنَّه كان فى غاية ما يُراعَى من شَبابه وقُوّته . والبُزول :

(١) أتمكها سناما ، من قولهم تمك السنام تمكا وتموكا : طال وارتفع .

(٢) البيت ٢ من الحماسية ١٥١ ص ٤٤١ وهو للعباس بن مرداس . وصدره :

* أكر وأحمى للحقيقة منهم *

(٣) أى فى البيت السابع من هذه الحماسية .

فى السنة التاسعة . والمعنى أنّه لم يَعْدُ هذه الحالةَ إلى ما وراءها ، فكان يَضعُف .

١١ـ فَخَرَّ وَظِيفُ القَرْمِ فِي نِصْفِ ساقِهِ   وذاكَ عِقالٌ لا يُنَشَّطُ عاقِلُهْ

١٢ـ بذلِكَ أوصَانِي أبِي وبِمِثْلِهِ   كذلكَ أوصاه قَدِيمًا أوائِلُهْ

خَرَّ : سَقط ، يخِرُّ خروراً . وخَرَّ الماء يَخِرُّ خريرا . فى الكلام إضمارٌ ، كأنَّه قال اتّقانى بخيرِه فَمرَّ قَبْتَه فخَرَّ وظيفُه . ويُروى : «فحَزَّ وظيفَ القَوْمِ فى نِصفِ سَاقِه » ، وفاعِل حَزَّ يكون السَّيفَ ، أى عَقرتُها فعمل السَّيفُ فى وَظِيفه وأندَره من نِصْفِ ساقِه ، وذلك شَدْ عاقِلُه لا ينشَّط ، أى لا يحتاج إلى إحكامه وإبرامه لأنَّه لا يقع مُبرَماً . ويقال نشَّطتُ العَقْد تنشيطاً ، إذا أحكمته ؛ وأنشطتُه ، إذا حللته . وعَقَدَ عليه بأُنشوطةٍ ، إذا جعَله مهيَّئا للحلِّ مقرّبا أمرُه فيه . ومما يجرى مجرى المثل : « كأنَّما أُنْشِط مِنْ عِقَالٍ » . وذكر بعضُهم[1] أنَّ الشّاعر سَهَا فوضع نَشّطَ موضع أنشط ؛ لأنَّ المراد ذاك عِقالٌ عاقِلُه لا يَحُلُّه ولا ينقُضُ ما يُبْرَمُ منه . وكلامُ الشاعر سليمٌ من العَيب قويم . والمعنى فيه ما ذكرت .

وقوله « بذلك أوصانى أبى [وبمثله » ، يعنى فى أمر الضيف أتى ، بذا الفعل الذى وصفته وصَّانى أبى[2]] وبما يماثله . ثم قال : كذلك أسلافُه أوصَوْه قديماً . وموضع « كذلك » نصبٌ على الحال . وانتصب « قديما » على الظّرف ، والمعنى أنّى لم أرِثْ ذلك عن كَلالةٍ ، وإنّما وَرِثْناه أباً عن أب وخلفاً عن سَلَف .

٧٥١

وقال النَّابغةُ الذُّبْيانىّ :

١ ـ لَهُ بِفِنَاءِ البَيْتِ سَوْدَاءُ فَخْمةٌ   تَلَقَّمُ أَوْصَالَ الجَزُورِ العُرَاعِرِ[3]

٢ ـ بَقِيَّةُ قِدْرٍ مِنْ قُدُورٍ تُوُرِّثَتْ   لآلِ الجُلَاحِ كابِراً بَعْدَ كابِرِ

(١) هذه الكلمة ساقطة من ل .

(٢) هذه التكملة من ل .

(٣) التبريزى : « ويروى : دهماء جرنة » .

٣ ــ تَظَلُّ الإماءُ يَبْتَدِرْنَ قَدِيحَها   كما ابتَدَرَتْ سَعْدٌ مِياهَ قُرَاقِرِ

أراد بالسوداء قِدْرا . والفَخْمة : الضخمة . تَلَقَّمُ : تحتوى و تبتلع لعظمها أعضاء الجزور مُوَفَّرة . والعُراعِر : الضخم السمين ، وجمعه عراعِر ، بفتح العين . ومثله جُوَالق وجَوالق . وعُرْعُرَةُ الجبَل : مُعظمه . فيقول : لهذا الرجل بإزاء القَوم و فناء الدار منهم ، قِدرٌ [هذه صفتها من العِظَم ، وتضمّن أعضاء الجزور مؤرَّبة لم تُنتقَصْ ، وهي بقيّة قِدرٍ (١)] مِن قُدورٍ تُوُرِّثت من أسلافهم آلِ الجُلاح كبيرا بعد كبير ، ورئيساً بعد رئيس . ولم يوجد كابِرٌ فى معنى كبير إلاّ فى هذا المكان . وقد بيّن بذكر لفظة « بَعْدَ » أنّ « عَنْ » فى قوله (٢) « كابراً عن كابر » بمعنى بعد . وكان أبو عليّ رحمه الله يقول قولهم كابراً ليس باسم الفاعل ، كالقاعد والقائم والجالس ، وإنما هو اسمٌ صيغ للجَمْع ، كالباقر والجامل . والمراد كُبَرَاء بعد كُبَرَاء .

وقوله «تظلُّ الإماء يبتدِرْنَ قَدِيحَها» ، يريد وقتَ القسمة ، أى يستَبِقْنَ طُولَ النَّهار إليها ، وإلى تناوُل الغُرُفات منها ، استباقَ بنى سعدٍ مياهَ هذا المكان . وقُرَاقِر : موضعٌ فيه ماء لقُضَاعة ، وهو فِرَاطَةٌ بين أحيائهم ، أى شَرَعٌ لا تناوبَ فيه ، بل يفوزُ السَّابقُ إليه . فشبّهَ تبادُرَ الإماء نحوَ القِدرِ بتبادُرِ بُطونِ سعدٍ إلى تلك المياه . والقَدِيح : فعيل بمعنى مفعول ، وهو المَرَق المقدوح .

٧٥٢

وقال الفرزدَق (٣) :

١ ــ وَدَاعٍ بِلَحْنِ الكَلْبِ يَدْعُو ودُونَه   مِنَ اللَّيْلِ سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغُيُومُها

(١) التكملة من ل .

(٢) أى فى قول القائل من العرب أو من الشعراء . وجاء فى قول الأعشى :

ساد وألفى قومه سادة   وكابرا سادوك عن كابر

(٣) شهرته تغنى عن ترجمته . والأبيات ما عدا الخامس منها فى ديوانه ٨٠٣ محرفة =

٢ ـ دَعَا وهُوَ يَرجو أن يُنَبِّهَ إذْ دَعَا   فَتًى كابنِ لَيْلَى حِينَ غَارَتْ نُجُومُها
٣ ـ بَعثْتُ لهُ دَهْماءَ لَيْسَتْ بِلَقْحَةٍ   تَدُرُّ إذا ما هَبَّ نَحْساً عَقِيمُها

قوله « داعٍ باحِن الكلب » ، يعنى مستنبِحاً تكلَّف نَبِيحَ الكلب فى صوته ، وَلَحن لَحْنَه ، وفعَلَ ذلك إذْ حال بينه وبين المَنَاظِرِ من اللَّيل سِتْرَانِ من الظُّلَم ، والتباسُ الغُيوم . وإنما قال « سِجْفَا ظُلْمَةٍ وغيومِها » تأكيداً ، كما قيل : ﴿ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ﴾ ولهذا لم يَرضَ بذلك حتّى أضافَ إليه ظُلْمة السَّحابِ أيضاً المُغطِّيَة للكواكب .

وقوله « دَعَا وهو يَرجُو أن يُنَبِّهَ إذْ دَعَا » ، يقول : استَنْبَح ، وهو يؤمِّل أن يَنْتَبِه لدعائه ويَنبعثَ فتًى كغالبٍ ، حِينَ غارت النُّجوم باللَّيل ، والأهوالُ متراكمةٌ ، وظُلَم اللَّيلِ والسَّحابِ مُتراكِبةٌ ، واستَبدَّتْ فُرَجَ السَّماءِ وآفاقَ الجوّ . كأنَّ الضَّيفَ تمنَّى أنْ يتَّفِق له إجابةٌ كإجابةِ غالب ، وهو ابن ليلى ، فاتفق أن هيِّئ له إجابة الفرزدق . يشهد لذلك قولُه : « بعثْتُ له دَهْماء » ، يعنى بها قدراً . وكشَفَ عن مُرادِه بقوله « ليست بِلَقْحَةٍ » ، أى ليست هى بناقةٍ ، وإنما هى قدرٌ تَدرُّ مَرَقَتُها إذا هَبَّ عَقِيمُ الرِّياح بالنَّحس . ويعنى به الدَّبور ، لأنَّها لا تُلْقِح ، وبها هَلَكت الأُمم السَّالفة . وجواب رُبَّ المضمرة فى قوله « داع[1] » قوله « بعثْتُ له دَهماءَ » . وقد اعتَرَض بينهما بيتٌ .

= ورواها جميعا المرتضى فى أماليه (٤ : ٢٩) منسوبة إلى الفرزدق ، والبيت الخامس فى الحيوان (٤ : ٣٣٢) منسوب إلى الفرزدق ، وفى محاضرات الراغب (١ : ٣١٤) منسوب إلى مضرس . قال الراغب تعليقا على هذا البيت الخامس : ولما سمع ذلك زياد الأعجم قال : وما حيزوم النعامة ؟ لعن الله هذه من قدر ، فما أحسبها تشبع آل مضرس ! فقيل له : فكيف تقول أنت ؟ قال : أقول :

وقدرٍ كجوف الليل أحمشت غليها   ترى الفيل فيها طافيا لم يفصل
لو أن بنى حواء حول رمادها   لما كان منهم واحد غير مصطلى

(١) كذا بدون واو فى النسختين .

٤ ـ كأنَّ المَحالَ الغُرَّ فى حَجَراتِها عَذارَى بَدَت لمّا أُصِيبَ حَمِيمُها

٥ ـ غَضُوبٌ كحَيْزُومِ النَّعامةِ أُحمِشَتْ بأجوازِ خُشْبٍ زَالَ عنها هَشِيمُها[1]

٦ ـ مُحَضَّرَةٌ لا يُجعَلُ السِّتْرُ دُونَها إذا المُرْضِعُ العَوْجاءُ جالَ بَرِيمُها

جعل المَحالَ ، وهى فِقَرُ الظهر ، والواحدة مَحالة ، فى نواحى القِدْرِ وجوانبها لسِمنها وبياضها مع تضمُّن القدر السَّوداءِ لها ، وإحاطتها بها ، كأبكار النِّساء ، وقد لبِسْنَ ثيابَ السِّلابِ لمّا أُصِبْنَ بحميمٍ ، فيَبْدُونَ بِيضَ الوجُوه ، سُود الثِّياب . وقد أُحكِمَ القولُ فى أصل « عذَارى » فى غير هذا الموضع[2].

وقوله « غَضُوب » ، يريد غَلَيانَها وهِزَّتَها ، ثم شبَّه إشرافَها بحيزومِ النَّعامة ، كما قال الآخر[3] :

* نَعامَةَ حِزْباءٍ تقاصَرَ جِيدُها[4] *

وجعلها قد أُوقِدَ تحتَها النّارُ بحَطَبٍ جَزْلٍ أُفرِدَ عنها دُقاقُها وما تَهَشَّمَ مِن وَرَقِها ، والقَصْدُ فى هذا إلى تعظيم النَّار الموقَدةِ تحتَها لِكِبرها .

وقوله « مُحَضَّرَة » أى لا يُمنَع منها أَحَدٌ ولا تُقَنَّعُ بما يَستُرُها عن العُيون إذا أَمحَلَ الزَّمان ، واشتدَّ القَحْطُ ، وصارت المرأةُ المُرْضِعُ قد اعوجَّ خَلْقَتُها فجالَ عليها وِشاحُها ، لانحسارِ اللَّحمِ عنها ، وتأثير الهُزَالِ فيها . والبَرِيم : خَيط يُفتَل من صُوفٍ أبيضَ وأسود يُشَدُّ فى أَحْقِى الصِّبيان لتَدافُعَ العَيْنُ به عنها .

ومِثل ما وَصف قولُ الرّاعى :

إنِّى أُقَسِّمُ قِدْرِى وهى بارزةٌ إذْ كلُّ قِدرٍ عَرُوسٌ ذاتُ جِلْبابِ

وقوله : « إذا المرضع العوجاء جال بريمها » ظرفٌ لقوله مُحَضَّرَة ، أو لقوله

(١) انظر ما سبق من الكلام على هذا البيت . ورواه المرتضى : « غضوبا » .
(٢) انظر ص ٥٥٠ .
(٣) هو الراعى . فى الحماسية ٦٣٨ ص ١٥٠٩ .
(٤) صدره : * إذا نصبت للطارقين حسبتها *

« لايُجعَل السِّترُ دونها » وفيهما جواب إذا . والحجرات : النَّواحي ، واحدتها حَجْرة ، ويقال : فعد حَجْرَةً ، فيُجعل ظرفاً . وإحماش النَّار : إلهابُها . وأَحْمَشْتُ القِدرَ ، إذا أشبَعْتَ وَقُودَ النّار تحتَها حتّى تَغلى ، ومنه حَمَشَ الشَّرُّ والغضَبُ ، إذا اشتدّ . وقوله « بأجواز خُشُب » ، جَوْز كلِّ شيء : وسَطُه . وإنما أراد الغِلاظ من الحطَب .

٧٥٣

وقال شُرَيح بن الأحْوَص (١) :

١ – وَمُستَنبِحٍ يَبغى المَبيتَ وَدُونه   مِنَ اللَّيلِ سِجفَا ظُلْمةٍ وكُسورُها
٢ – رَفَعتُ لَهُ نارِى فَلَما اهتَدَى بها   زَجرتُ كِلابى أنْ يَهِرَّ عَقُورُها
٣ – فبَاتَ وإنْ أسْرَى من اللَّيلِ عُقْبَةً   بلَيلَةِ صِدْقٍ غابَ عنها شُرُورُها (٢)

يريد : ربَّ مُستضِيف بالنُّباح يَطلُب لنَفْسه مكاناً يبيت فيه ، وقد سقَطَ عنه كُلَفُ السَّير ، وأسبابُ الجَهْد ، وحَجزَ بينه وبين اللَّيل سِجفَا ظُلمةٍ وكُسورُها. والسِّجف : السِّتر ، وتكسر السين منه وتفتح . والكُسور : جمع الكِسْر ، وهو جانِبُ البيت . قال الخليل : الكَسر والكِسْر : الشُّقَّة السُّفلى من الخِباء ، يُرفَع أحياناً ويُرخى أحيانا ، وكذلك من كلِّ قُبَّةٍ وغِشاء ، حتّى يقال لناحِيَتَى الصَّحراء كِسرَاها . ولَمَّا استعار السِّجف لتَراكُم الظُّلمة استعارَ الكُسورَ لها أيضاً ، كأنَّه جعلَ اللَّيلَةَ كالبيت لِظَلامها وقد أُرخِى سِجْفاهُ وأُلبِسَ كِسراه ، فأَظلَمَ داخلُه . وجواب رب قوله « رَفَعتُ له نارى » ، والواو من قوله « ودونه » واو الحال .

(١) التبريزى : « شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب » . وكان شريح أحد فرسان يوم رحرحان ، وهو قاتل لقيط بن وزارة فى يوم جبلة . الأغانى (١٠ : ٣٢ ، ٣٨) .

(٢) ل : « غار عنها » ، وفى حواشيها : « خ : « غاب » .

وقوله « فلمّا اهتدَى بها » يريد لمّا رفعتُ النار فأبصرَها وأقبلَ نحوِى منعتُ كلابى من أنْ يهرَّ فى وجهه عقورُها . والعقور ، يريد به السيئة الخُلُق منها ، المولَعة بالعقر .

فإن قيل : ولِمَ جعل فى كلابه العقورَ حتّى احتاجَ إلى زجرِه عن ضيفه ؟ قلتَ : كأنّه كان فى الكلاب ما لم يكنْ يلزَمُ الفناء ، وإنما يكونُ مع الرّاعى فى السَّرْح للحِفْظ ، فاتَّفقَ أنْ حضرَ مع كلاب الحىّ ، فلذلك احتاجَ إلى زجره .

وقوله « فباتَ وإنْ أسرى من الليل عُقْبَةً » خبر بات « بليلة صدق » وجواب إنِ الجزاءِ ما اشتمَل عليه البيت . فيقول : مكثَ الضَّيفُ عندى فى ليلةِ صدق لا نَحْس فيها ولا شرّ ، والرّاحةُ تُعاوِده ، والسَّلامةُ تلزَمه وتتلقّاه ، وإنْ كانَ قد سرَى عُقبةً منها ، أى طائفة . وانتصب « عُقبةً » على الظَّرف ، وأصلها أنْ يتعاقَبَ اثنانِ على البعير ، فإذا ركِبَ أحدُهما مشَى صاحبُه ، ثم كَثُر استعماله فأُجرِىَ مجرى النَّوبة والفُرصة ، فيقال : سار عُقبةً كما يقال سار نَوْبة . وقال الخليل : العُقْبة فرسخان ، وهما يتعاقبانِ الرُّكوبَ بينهما . وقوله أنْ يهرّ » فى موضع النَّصب على البدل من كلابى . وقد تقدَّم القولُ فى ليلةِ صدقٍ وما أشبهَه[1] .

٧٥٤

وقال مِسْكينٌ الدَّارمىّ[2] :

١ — كأنَّ تَدورَ قَومى كُلَّ يومٍ   قِبابُ التُّركِ مُلْبسَةَ الجِلالِ

٢ — كأنَّ المُوقِدِينَ لها جِمالٌ   طَلاها الزِّفْتَ والقَطِرانَ طالِ[3]

٣ — بأيدِيهم مَغارِفُ مِنْ حَديدٍ   أُشَبِّهُها مُقَيَّرَةَ الدَّوالِى

(١) انظر ما مضى فى ص ١٦٢٨ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٩٩ ص ١١١٥ .

(٣) ويروى : « كأن الموقدين لها » بالقاف . التبريزى : « من قولك : أوقد لقدرك أى تحتها » .

جعل قدورَ قومِه متبجِّحاً بها ، منصوبةً فى كلِّ وقت . وجعلها لكبرها مشبَّهةً بخرْكاهات (١) التُّرك وقد جُلِّلت وأُلبِست أغطيةً سوْداء (٢) .

وقوله « كأنَّ الموفدين » ، يريد المُزاولين لها فى نَصْبِها وإنزالها ، وطَبْخها وتهيئتها . والمُوفِد : المشرِفُ على الشَّىء العالى له . وانتصب « مُلَبَّسةَ الجِلالِ » على الحال . وشبَّه المُوفِدِين فى سَوَادِ ثيابهم وتدنُّسها بالغَمَرِ وتلطُّخها بالدَّرَن بجمالٍ مَطْلِيَّة بالقَطِران . والزِّفتُ ، هو القار ، وقال الدُّريدىّ : أصلُه معرَّب ، وقد تكلمت العرب به كثيراً ، وفى الحديث : نَهى عن الدُّبَّاء والمُزَفَّت » . ويقال : طلاه كذا وبكذا ، فهو مطلىّ .

وقوله « بأيديهم مَغارِفُ مِن حديدٍ » جعَلَ القُدور كالأنهار أو البحور ، والمَغارفَ لها كالدَّوالى المقيَّرة ، لاحتمالها الماءَ من الأنهار وصبِّها إلى أعاليها . وجعَلَ المغارفَ سُودًا لِمَا عَلِق بها فى الممارسة من سَوادِ القُدور والنَّار ، ومن زُهومة اللَّحم والشَّحم . وقوله « أشبِّهُها مقيَّرةَ الدَّوالى » ، يقال : شبَّهته كذا وبكذا . [وموضع (٣)] الجملةِ رفعٌ على الصِّفة للمغارف .

٧٥٥

وقال آخر (٤) :

١ ــ أعاذِلَ بَكِّنِى لأضْيافٍ لَيْلةٍ ... تَزُورِ القِرَى أمْسَتْ بَلِيلًا شَمالُها

٢ ــ أعامِرُ مَهْلًا لا تَلُمْنى ولا تَكُنْ ... خَفيًّا إذَا الخَيْراتُ عُدَّت رِجالُها

بكِّينى ، أى أكثِرى البُكاءَ لى وكرِّريه ، مِن أجْل أضيافِ ليلةٍ قليلة

(١) جمع « خركاه » ، ولفظه بالفارسية « خَرْكاه » . انظر معجم استينجاس ٤٥٦ .

(٢) كذا ضبطت فى الأصل . وفى ل : « سودا » .

(٣) التكملة من ل .

(٤) التبريزى : « وقال العكلى » .

القِرى ، لإمساك النَّاس عن الإنفاق ، وإعوارهم الزَّاد ، وقد أمْسَتْ ريح الشَّمال فيها ذاتَ بَلَل ٍ وشفَّان ٍ للنَّدَى والبرد ، فإذا وَرَدُوا فقَدُوا حُسْنَ تفقُّدِي لهم ، وتوفُّرِي عليهم .

وقوله « أعامرُ مهلا » جَمَعَ على نفسه لائمةً ولائما ، فيقول : يا عامرُ رِفْقاً في عتبِك عليَّ ، ولومِك إيَّاى ، واقتَدِ بي في طلب السُّمُوِّ والاستعلاء على الأقران .

فأمَّا انتقالُه عن ذكر اللاَّئمةِ إلى مذكَّرٍ ، فمثله قولُ تأبَّط شرا :

يا مَنْ لِعَذَّالةٍ خَذَّالة أَشِبٍ حَرَّقَ باللَّوم جلدِي أيَّ تَحْراقِ (١)

ثم قال :

عاذِلَتا إنَّ بعضَ اللَّوم مَعْنَفَةٌ وهل مَتَاعٌ وإن أبقَيْته باقِ (٢)

والمراد بيان تعاون العشيرة في اللَّوم والإنكار ، وتساعُدِ رجالهم ونسائهم على الوَعظ والإنذار . وقوله « ولا تكن خفيّا » ، يريد اتَّخِذْنى إسوةً واعمَلْ على أن تكون سامِيَ الذِّكْرِ لىَ ، عالِىَ الصِّيت ، حتَّى لا يخفى إذا عُدَّتْ رجالُ الخيرات أمرُك ، ولا يَنمحِىَ إذا بانت آثار الصالحين أثرُك . وأشارَ بالخيرات إلى الخِصال الصالحة والخلال الشَّريفة . وواحدتها خَيْرةٌ . وليست هذه التى تكون في موضع أفعَلَ من كذا ومعناهُ ، كقولك فلانٌ من فلان ، بل هى الواردةُ في قوله عزّ وجلّ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ ، وفي قول الشَّاعر :

وأمُّها خَيْرَةُ النِّساء على ماخان منها الدِّحاقُ والأَتَمُ (٣)

٣ ـ أرَى إبلى تَجزِى مَجازِىَ هَجْمَةٍ كثيرٍ وإنْ كانت قليلا إفَالُها

٤ ـ مَنَاكِيلُ ما تنفَكُّ أرْحُلَ جُمَّةٍ تُرَدُّ عليهم نُوقُها وجِمَالُها

(١) البيت ٢٠ من المفضلية الأولى . وصدره فيها : « بل من لعذالة » .

(٢) في المفضليات : « عاذلتي » .

(٣) ل : « إذا ما خان » . والبيت في مقاييس اللغة (دحق) بدون نسبة ، وبرواية : « وأمكم خيرة النساء » .

وقوله « أرى إبلى تَجزِى » يقول : أجد إبلى تَقْضِى عَنِّى وتحصُل فى النَّيل منها وتورِّد الحقوق إيّاها مَحَاصِلَ هَجْمَةٍ ، وهى القطعةُ من الإبل بين السِّتين إلى المائة . والجزْيَةُ من هذا ، وهى الخَرَاج الموضوع ، لأنَّها قضاء لما عليه أُخِذَ . وفى القرآن : ﴿واتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ ، أى لا تَقضى ولا تُغنى . وفى الحديث : « كان رجلٌ يداينُ النَّاس(١) ، وله كاتب ومُتَجازٍ » . وقوله : «وإن كانت قليلاً إفالُها» ، يريد وإنْ كانت ضعيفةَ النَّسل ، قليلةَ العدَد . والإفال : صِغار الإبل واحدها أَفِيل ، وإنّما قلَّت إفالُها لذَهاب التَّثمير والزَّكاء عنها ، ولكونها محبَّسةً بالأفنية ، ومقصورةً على الْحُقوق ، مصروفةً إلى أرزاق العُفَاة . يشهد لذلك قولُه « مثاكيل » ، وهى جمع مِثكالٍ : التى تَثْكَل أولادَها كثيراً ؛ لأنَّ ربَّها يَفصِل دائما بينها وبين أولادها بالنَّحر تارةً وبالهِبَة أخرى . وقوله « ما تنفك أرحُلَ جُمَّةٍ » ، أى لا تزال أرحُلَ جماعةٍ من النَّاس ، وهو جمع الرَّحْل ، أى مَثْواهم ومَقِيلهم . ويقال : عادَ إلى رحلِه أى مَنزِله . وفى الحديث : « إذا ابتلَّتِ النِّعالُ فالصَّلاةُ فى الرِّحال » . أى لا يزال مأوَى جماعةٍ تُصرَف إليهم إذا وَرَدوا ذكورُها وإناثها . أمَّا إناثها . فللحَلْب ، وأمَّا ذكورُها فللنَّحر . وأصل الجُمَّة الجماعة تَرِدُ فى سُؤالِ تحمُّلِ الدِّيات عنهم إذا ثَقُلَت ، أو السَّعى فى صُلْحٍ أو الدَم بين عشائر . قال :

* وجُمَّةٍ تسألنى أعطيتُ(٢) *

وجعلَه اسمَ الجماعة من النَّاس وإنْ وردوا لغيرِ القَصْد .

(١) فى الأصل : « يدابر الناس » ، صوابه فى ل واللسان (جزى ١٥٧) .

(٢) الرجز لأبى محمد الفقعسى ، كما فى اللسان (جمم) . وبعده :

وسائل عن خبر لويت فقلت لا أدرى وقد دريت

٧٥٦

وقال جابر بن حُبَاب (١) :

١ – وإنْ يقتسم مَالى بنِىَّ ونِسْوَتى فلن يَقْسِموا خُلْقى الجميلَ ولا فِعْلِى
٢ – أُهينُ لَهُمْ مَالِى وأعْلَمُ أنَّنِى سأورثُه الأحياءَ ، سِيرةَ مَنْ قَبْلِى
٣ – وماوَجَدَ الأضيافُ فِيما يَنوبُهمْ لهم عند عِلاَّتِ الزَّمانِ أَبًا مِثْلِى

يقول : إن اقتسَمَ مالى أولادى وأزواجى وبناتى ، وفازوا بما أخلِّفه فيهم فلنْ يقتَسِموا ما تفرَّدْتُ به من خُلُق كريم أُعدّه لزُوَّارى ، وفَعَال شريفٍ أُقيمه لعُفاتى ، وأُدِيمُه لمن يعتاق حبلى ، أو يتَّصل سَبَبُه و نَسبه بسببى ونسبى .

وقوله «أهينُ لهم مالى» ، يريد أنِّى أبذله وأبتذله ، لعلمى بأنَّ ما أبْقيه للأحياء (٢) سيرةَ مَن تَقدَّمَنى فليس بمالٍ لى ، وأنَّ الذى يختصّ بملكى هو ما أتولَّى تفريقَه وإنفاقه فى الوجوه المحمودة عندى . وانتصب « سِيرة » على المصدرِ ممَّا دلّ عليه قوله « سأورثه الأحياء » ، كأنّه قال : أَسيرُ فيما أتركُه من مالى سِيرةَ أسلافى والنَّاسِ قبلى . يقال : سارَ سِيرةً حسنة ، يُشارُ بها إلى الحالِ (٣) فى السِّيرة المعتادة . ثمَّ أُجرِىَ مجرى الشِّيَم والعادات . وقال القُطامى :

وسارَتْ سِيرةً تُرْضِيكَ منها يَكاد وَسِيجُها يَشفِى الصُّدَاعَا (٤)

وقوله « وما وَجَدَ الأضيافُ فيما ينوبُهم » ، يريد بيانَ مكانِه من مآرب أضيافِه ، وأنَّهم لا يعتاضون فيما ينوبهم عند الزَّمان وتغيُّره وإمكان العِلّات فى

(١) التبريزى : « جابر بن حيان » .
(٢) فى الأصل : « بأنى أبقيه للأحياء » ، صوابه من ل ، لأنه يوازن بين مالين .
(٣) ل : « الحالة » .
(٤) الوسيج والوسج : ضرب من سير الإبل .

البُخْل وأهله أبا مِثْلَهُ إذا فَقَدوا . وجعل نفسَه أبًا على عادتهم فى تسمية المُضِيف أبا المَثْوى . على ذلك قال أبو العيال الهُذَلىّ :

أبو الأضياف والأيتا م ساعةَ لا يُعَدُّ أبُ (١)

ويجوز أن يكون المراد [بعِلّات الزّمان (٢)] تحوُّله وتبدُّله .

٧٥٧

وقال أبو حاتم (٣) :

١ — وعاذِلَةٍ قامَتْ عَلَىَّ تَلُومُنِى كَأَنِّى إذا أعطَيْتُ مَالِى أَضِيمُها (٤)

٢ — أعاذِلَ إنَّ الجُودَ لَيس بمُهْلِكِى ولا يُخْلِدُ النَّفْسَ الشَّحِيحَةَ لُومُها (٥)

قوله « وعاذلةٍ » انجرّ بإضمار ربّ ، وجوابُه يجوز أن يكون قامَتْ علىَّ وتلومنى فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون الجواب محذوفًا ، كأنَّه قال : قلتُ لها : أعاذِلَ إنّ الجود ليس بمُهْلِكى ، لأنَّ « قامت علىّ » من صفة العاذلة . وقوله « كأنِّى إذ أعطيتُ مالى أَضِيمُها » اعتراضٌ وقَعَ بين رُبَّ وجوابه . والمجرور بِرُبَّ أكثرُ ما يجىء موصوفًا . ويجوز أن يكون قوله « كأنِّى إذا أعطَيتُ مالى أضيمها » الجواب .

ثمَّ أقبل عليها يخاطبها ، وهذا تَشبيهٌ يَجرى مجرى تصوير الحال فى إخراج الخافِى إلى البيان ، فيقول : ربَّ لائمةٍ قامت علىَّ تعتِبُ وتوبِّخ ، كأنِّى أبْخَسُ

(١) ديوان الهذليين (٢ : ٢٤٤) .

(٢) التكملة من ل .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٢٧ ص ١١٦٦ . والأبيات لم ترد فى ديوانه .

(٤) التبريزى : « إنما قال هبت بليل تلومنى ، لأنها لا تتمكن بالنهار ، لاشتغاله بخدمة الأضياف ، فانتهزت الفرصة ليلا لتلومه على بذل ماله » .

(٥) التبريزى : « ولا مخلد » .

حظًّا لها إذا بذلتُ مالى ، أو أغصِبُها حقًّا من حقوقها ، لتتناهى ظلامتها ـ قالت لها : إنَّ ما أعتدُّه(١) من البَذْل والسَّخاء لا يُقرِّب منيّتى عن أمدِها ، ولُؤم النَّفس البخيلة ، لا يُديمُ بقاءها فى دُنياها ، فإذا كان الجودُ يُفنى والبخلُ لا يُبقى ولا يُقْنِي(٢) وكان فى السَّخاء إقامةُ المرُوءة واكتسابُ الأكرومة ، وادِّخار الشُّكر واقتناء الأجْر ، فالعقلُ يُوجب الأخْذَ به ، والحزمُ يَقتضِى الزُّهدَ فى غيره .

٣ ـ وتُذْكَرُ أخلاقُ الفتى وعِظَامُهُ مُغَيَّبَةٌ فى اللَّحْدِ بَالٍ رَمِيمُها

٤ ـ ومَنْ يبتدِعْ ما لَيسَ مِنْ خِيمِ نَفْسِه يَدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النَّفْسِ خِيمُها

يقول : إنَّ أخلاقَ الفتى مذكورةٌ بعد موته ، ومتردِّدة فى المجالس مع اسمه فإنْ حَسُنَتْ عند الفَحْص حُمِدَتْ ، وإن قَبُحت فى السَّمع ذُمَّت . هذا وعظامهُ باليةٌ قد صارت رِمَّةً فى لحده ، ومغيَّبةً عن المشاهدةِ ضِمْنَ قبره . ومَنْ تكلَّفَ ما ليس من خُلُقِهِ ، أو استَبدَعَ خِيماً ليس من شأنه ، فارَقَه المُستحدَث ، وعاوَدَه المستقدَم . ومثله :

ومن يَبْتدِعْ خُلْقاً سِوَى خُلْقِ نَفْسِهِ يَدَعْهُ فترجِعْهُ إليه الرَّواجِعُ(٣)

ويقال : فلانٌ كريم الخِيم ، أى الطَّبيعة . وقال أبو عبيدة : هو فارسيةٌ معرَّبة .

٧٥٨

وقال آخر :

١ ـ أَكُفُّ يَدِى عَنْ أنْ يَنالَ التِماسُها أَكُفَّ صِحَابى حِينَ حاجتُنا مَعا(٤)

٢ ـ أَبيتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مُضْطَمِرَ الحَشَا مِنَ الجُوعِ أخْشَى الذَّمَّ أن أَتَضَلَّعا

(١) فى حاشية ل : « نخ : أعتاده » .

(٢) كذا فى ل . وفى الأصل : « لا يفنى ولا يبق » .

(٣) البيت للمخضع القيسى . كما سبق فى حواشى الحماسية ٧٤٧ ص ١٦٩٣ . ونسب فى حماسة البحترى ٣٥٨ إلى المخضع النبهانى .

(٤) ل . « حاجاتنا » .

يقول : إذا اجتمعت مع أصحابى على طعامٍ لم تُزاحِم كَفِّى أكفَّهم ، بل آثَرْتُهم بما يروقُ من الزّاد فقَبِلتْه العين ، واصطفاه القَصْد ، وانقبضْتُ ليسأْرُوا به دونِى إذا كانت حاجتُنا(١) متوافقة ، وأيدى الآكلين متواردة ؛ وأَبْقَى لِيلتقِى صغيرَ البطن ، ضامرَ الجَنْبِ ، والزّادُ ممكِن ، والمُشتهَى مُساعِدٌ ، فلا أتضلَّعُ شِبَعاً خشيةً مِن ذمٍّ يَلحق ، أو عارٍ يَلزم . وقوله « أنْ أتضلَّعا » ، أى مخافةَ أن أتضلَّع . ويقولون : « هو الحِصْنُ أن يُرام » ويراد : هو الذى يحصَّن من أن يُرَامَ . قال لبيد :

* وهُمُ العشيرةُ أنْ يُبَطِّئَ حاسِدٌ *

أى تعاشَرُوا وتعاوَنوا مخافةَ أن يبطِّئهم حاسد .

وحذفُ حرفِ الجرّ يكثُر مع أن .

وقوله « حين حاجتنا مَعاً(٣) » حاجتنا مبتدأ ، ومَعاً سَدَّ مسدَّ الخبر ، وإن كان فى موضع الحال ، لأنَّ المصادر إذا ابتُدِئَ بها وقعت الأحوالُ أخبارًا لها ، كقولك : ضَرْبِى زيداً قائماً . وكذلك المضافُ إلى المصدر تقول : أكثر ضربى زيداً قائماً . وانتصب « حين » على الظرف وقد أُضِيف إلى الجملة بعدَه(٤) ، والعامل فيه أكفُّ يدى .

٣ — وإنِّى لأستَحْيِى رَفيقِى أنْ يَرَى ... مَكانَ يَدِى مِنْ جانِبِ الزّادِ أقْرَعَا

٤ — وإنكَ مهما تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وفَرْجَكَ نَالاَ مُنْتَهَى الذَّمِّ أجْمَعَا

وصَفَ حُسْنَ أدبِه فى مُواكلة رفيقِه ولَقِّه(٥) ، وأنّه لا يستأثر بما يُعجِبُ

(١) كذا باتفاق النسختين .
(٢) آخر بيت فى معلقته . وعجزه :

* أو أن يميل مع العدو لئامها *

(٣) كذا باتفاق النسختين ، وإن اختلفا فى إنشاد المتن سابقا .
(٤) ل : « هذه » ، تحريف .
(٥) اللف : الأكل . وهذه الكلمة ساقطة من ل .

من الزّاد ، ولا تَظهَر منه نَهْمة وحِرْصٌ ، بل يستحْيِي من أن يُرى ما يَلِي يدَه من الزّاد خالىَ المكان . وليسَ لأحدٍ أنْ يقول إنّ انقباضَه يؤدِّى إلى انقباضِ أكيله ، وذلك مذموم ، وإنما المحمود أن يَنبسط فى الأكل ويَبسُط من أكيله وذلك أنّه قد بيَّنَ الغرضَ فى البيت الذى بعدَه ، لأنّه قال :

وإنَّكَ مهما تُعطِ بطنَك سُؤْلَه وفَرْجَك نالا مُنتهى الذمّ...

فبيَّن أنَّ إبقاءَه جانبَه من الزّاد مشغولًا ليس مع حاجةٍ إليه ، ولا عن إمساكٍ يؤدِّى إلى ما ذكرتُه ، فيصيرُ ذلك سبباً فى انقباضِ مَنْ يُواكله ، وإنما يُريد ما يجرِى به عادةُ النّاس من إظهار الشَّرَهِ والذهاب فيه إلى حَدِّ السَّرَف ، حتّى يمدّ يدَه إلى ما يَلِي غيرَهُ ، ويتخطَّى أيدِيَ الناس . وهذا ظاهر . وموضع « أجمع » من الإعراب جرّ على أن يكون تأكيداً للذمّ ، وهو إلى التأكيد أحوجُ من قوله «منتهى» ، لأنّه متناولٌ للجنس والعُموم ، ومايفيده فى الجِنْس أولى . وقوله «نالا منتهى الذمّ» ، كأن الأجود أن يأتى المضارِعُ[1] فى جواب الشّرط ، وقد حصل مضارعاً وظهرت الجزميَّةُ فيه ، ولكنه أتى به ماضياً للضرورة .

وقد ألمّ بهذه الطَّريقة المُرَقِّشُ فقال فى الغزَل :

وإنى لأستَحيِي فطَيْمَةَ جائعاً خميصاً وأستحيِي فُطيمةَ طاعِما
وإنى لأستحييكِ والخَرْقُ بيننا مخافة أن تَلْقَىْ أخًا لىَ لائما

ألا ترى أنه أجملَ ما فصَّله هذا الشاعر فى قوله : أستحيي طاعمًا ، وجائعًا . هذا مع البُعْد بينه وبين صاحبته . ويجوز أن يريد بقوله « مكانَ يَدِى من جانب الزاد أقرعا » أنه يكثِّر الزادَ حتى يَسعَه وجماعَتهم ويَفضُلَ أيضًا ، والأوّل أحسن . وأصل القَرَع ذَهاب شَعَر الرأسِ من داء . وحُكِىَ أنه قَلَّ

(١) ل : « بالمضارع » .

نَعامةٌ تُسِنُّ إلا قَرَعت ؛ لذلك قيل : نَعامٌ قُرْعٌ . والسُّول يجوز أن يكون من سِلْتُ أَسَالُ ، لغة هذيل فى سأل . ويجوز أن يكون ليّن همزته وأصله الهزة . ويجوز أن يكون من سوّلتْ له نفسُه كذا ، إذا زيّنت له . وسَوّل له الشيطان كذا ، إذا أرخَى حبلَه فيه . وفى القرآن : ﴿ الشيطان سَوّلَ لَهُمْ ﴾ .

وقال الهذلىُّ (١) :

* سَحٌّ نَجاءِ الحَمَلِ الأَسْوَلِ (٢) *

فوصَف السَّحابَ بالسَّوَل لتدلّيه واسترخائه ، لكثرة مائه .

٧٥٩

وقال آخر :

١ ــ أَمَا والذى لا يَعْلَمُ السِّرَّ غيرُهُ ... ويُحيي العِظامَ البِيضَ وهْىَ رَمِيمُ

٢ ــ لقد كنتُ أختارُ القِرَى طاوِىَ الحَشَا ... مُحافَظةً من أنْ يُقالَ لَئِيمُ (٣)

٣ ــ وإنى لأَستَحْيِي يَمينِي وبَيْنَها ... وبَيْنَ فَمِى دَاجِى الظَّلامِ بَهِيمُ

أقسَمَ بالله تعالى المطَّلِعَ على الضمائر ، العالِم بخفيّات الأمور ، والمحيي للأمواتِ بعد أن رَمّت عظامُها وبَلِيَتْ يومَ النُّشور ، بأنه يختارُ إطعامَ الضَّيفِ وإيثارَه بالزادِ وهو محتاجٌ إليه قد اضطَمَرَ حشاهُ من الجوع ، لئلّا يُنسَبَ إلى اللُّؤْم ، وليُحافِظَ على الشَّرَف القديم . ويروى : « لقد كنتُ أختارُ الخَوَى » . والخَوَى : خَلاء الجَوْف من الطعام ، وخَلاء الدار من السُّكّان . فأمَّا مَن روى : « أختارُ القِرَى » فمعناه ظاهر ، يريد أختار إقامةَ القِرَى ، فحذف المضاف . وبعضهم رواه : « لقد كنتُ أختار القَوَى » وزعَمَ أنه مقصورٌ من القَوَاء ، وليس بشىء .

(١) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٠) واللسان (سول) .
(٢) صدره : * كالسحل البيض جلا لونها *
(٣) التبريزى : « ويروى : محاذرة » .

وقوله : «وإنى لأستحيي يمينى وبينها وبين فمى داجى الظلام» ، فقد زادَ فيه على ما تقدَّم فى المقطوعة قبلَه ، لأنه ذكر أنه يستحيي من نفسِهِ ويدِه وهو لا ثانىَ له ، فى الليلة الظلماء ، وإنما يريد تعوُّدَه ما يُستحسَنُ فى الأكل ، ويُختار فى الإطعام ، فإذا تفرَّدَ جرى على عادته إذا تجمَّع . وانتصب «محافظةً» على أنه مفعول له . و «طاوى الحشا» ، وانتصب على الحال ، ويجوز أن يريد إن لم يَرَنى الضيفُ فيما آتيهِ عند الأكل للظَّلام الشامل ، ولم يَبِنْ [له[1]] ما أَتْرُكُه ، فإنى أستحيي من يَدِى فلا أحتجِنُ ولا أستأثر . والأوَّل أحسن . والبَهيم : المُظلم ، وأصله الذى لا شِيَةَ فيه ولا وَضَح ، أىَّ لونٍ كان ، وأراد به هنا تأكيد السَّواد ، لأنَّ قوله «داجى الظَّلام» أفاد الإظلام .

٧٦٠

وقال رجل من آل حَرْب[2] :

١ ـ بَاتَتْ تَلُومُ وَتَلْحَانِى عَلَى خُلُقٍ ... عُوِّدْتُه عادةً وَالجُـودُ تعويدُ

٢ ـ قالت أراكَ بما أنفقتَ ذا سَرَفٍ ... فيما فَعَلْتَ فَهَلاَّ فيكَ تَصْرِيدُ

٣ ـ قلتُ اتْرُكِينى أُبِعْ مالى بِمَكْرُمَةٍ ... يَبْقَى ثنائى بها ما أَوْرَقَ العُودُ

٤ ـ إنَّا إذا ما أَتَيْنَا أَمْرَ مَكْرُمَةٍ ... قالت لنا أَنْفُسٌ حَرْبِيَّةٌ عُودُوا

يقول : بَقِيَتْ هذه المرأةُ ليلتَها تَعتِب علىّ وتذمُّنى فى عادةٍ نشأت عليها ، وخَليقةٍ تخلَّقْتُ بها ، والجودُ عادةٌ وإلْفٌ . وقوله «والجود تعويدُ» اعتراض دخَلَ فى أثناء الحكاية عنها ، فقالت لى : أراكَ تُسرِفُ فى الإنفاقِ ، وتَجْرِى

---

[1] له تكملة من ل .

(٢) التبريزى : «ذكر المدائنى أن السفاح أمر بقتل رجل من بنى أمية ، فتبعته امرأته وابنه الصغير ، فجعل يفرق أمواله وامرأته تقول : ولدك ولدك ! ؟ فقال ... » .

إلى ما لا يقوم له مالُك فى التقدير ، ولا يَفِى به وُجْدُك عند التحصيل ، فهلّا فطمْتَ نفسَك عنها وجَرَيتَ على سَنَن يُساعِدُكَ عليه حالُك ، ولا تعجزُ عنه مقدرتك . والأصل فى التَّصريد تقليل الشُّرْب . يقال : سَقاه سَقْيةً مُصَرَّدةً .

وقوله «قلتُ اتركينى» ، أى أجبتُها بأنْ خلِّينى وابتياعَ المكارم بمالى ، ليَبقى ثَناء الناس على أبداً بها ، ومُدَّةَ إيراقِ الشّجر . فما أورق العودُ فى موضع الظَّرف . وقوله «ثنائى بها» أضاف المصدرَ إلى المفعول ، والمراد ثناء الناس علىّ . وقال «أَبِعْ مالى» ، والمال ثمن المَبيعات ، لأنّ المتبايعَين كلٌّ منهما يبيع ويشترى .

وقوله « إنّا إذا ما أتينا أمر مكرُمة » ، يقول : من شأننا أن لا نرضى فى ابتناء المكارمِ ، وإسداء المعروف والصَّنائع بالإيحادِ فيها ، والاكتفاء بالوِتْر عند فِعْلها . ولكنَّا نشفع ونعاود ، ونُتْبِع الأكرُومة بأختها فنُطابِق .

وقوله «عوّدتُه عادةً » انتصب «عادةً» على المصدر ، لأنها وُضِعت موضع التعويد ، كما يوضع الطاعة موضع الإطاعة ، يدُلُّ على أنّ ذلك هو المراد قوله «والجود تعويد» . ويقال : تعوَّدتُ كذا واعتدتُه واستعدتُه وأعدتُه بمعنًى ، وفحْلٌ مُعيدٌ ومعاوِدٌ ، أى معتاد الضِّراب ، وإنما قال «أنفسٌ حربيّة» تبجُّحاً بأسلافه ، وإظهاراً بأنّ مَن كان منهم لا يأتى عِرقَ ونَجْرُه إلّا الكَرَم(١) .

٧٦١

وقال أبو كَدْراءَ العِجْلِىُّ(٢) :

١ — يا أمَّ كَدْرَاءَ مَهلاً لا تَلُومِينى   إنّى كَرِيمٌ وإنَّ اللَّوْمَ يُؤْذِينى

٢ — فإنْ بَخِلْتُ فإنَّ البُخْلَ مشتَرَكٌ   وإن أَجُدْ أُعْطِ عَفْوًا غيرَ ممنونِ

(١) ل : « من كان منهم يأبى عرقه ونجره إلا الكرم » .

(٢) فى الأصل : « أبو كبير العجلى » ، صوابه فى ل والتبريزى . وفى المؤتلف للآمدى ١٧١ : « فأما أبو كدراء فهو زيد بن ظالم ، أحد بنى مالك بن ربيعة بن لجيم » .

يخاطب امرأته (١) وقد تضجَّرَ بملامتها ولَذْعةِ (٢) إنكارِها وعتابِها . فيقول : رِفْقًا فيما تَستلكينه ، وكفًّا عما أُولِعْتِ به ، فإنِّي نشأتُ على الكَرَمِ فلومُكِ يُؤْذيني ولا يُغنى عنكِ شيئا ؛ لأَنى لا أقابله بالقَبول ، وقد يؤدِّى الإفراطُ فى القول إلى الزِّيادة فى الوَلُوع ، ولأنِّى إن بَخِلْتُ فالمبخولُ به مشترَكٌ بينى وبين ورثتى ، وإنْ أَجُدْ أُعْطِ مالِى عَفْواً ، أى تسمَحُ نفسى به فلا أكون مجهوداً ، ولا أمتَنُّ على مَن يأخذه ، لأنِّى أقضِى بالبَذْلِ لذّةً ومأرَبةً (٣) ، وأُمضِى هَوًى لى فى مَصارفى ومُنْيَةً ، مُستخلَصاً من شِرْكة غيرى ، ومُقتَسَما فى وجوه إرادتى وبَذْلِى .

وقوله « فإنَّ البُخْلَ مشترَكٌ » إنْ شئت جعلته على حذْف المضاف ، ويكون المراد : فإنَّ ذا البخل . وإنْ شئتَ جعلته المفعولَ ، كما يقال الخَلْقُ والمراد المخلوق ، ودِرهمٌ ضربٌ والمراد مضروب .

والممنون يجوز أن يكون من المَنّ ، وهو القطع ، أى أُدِيمُ ذلك إدامةَ مَنْ يتصرَّف فى مِلْكه لا من يتصرَّف فى مُشتَرَكه . ويجوز أن يكون من المَنِّ والأذَى . وقال بعضهم : أراد بقوله إنّ البخلَ مشتَرَك ، أنَّ الناس أكثرُهم بُخَّال ، فيكونُ لى شركاء . وهذا كلامُ معتذِرٍ من البخلِ لا كلامُ ذامٍّ له . ومع ذلك فعَجُز البيت يَبْعُد عنه ولا يلائمه ، وقد أبانَ عمَّا ذكرتُه فيما يليه ، لأنَّه قال :

٣ – لَيستْ بباكيةٍ إبلى إذا فَقَدَتْ صَوْتى ولا وارِثى فى الحىِّ يَبكِينى

٤ – بَنَى البُناةُ لَنا مجداً ومَكرُمَةً لا كالبِناء من الآجُرِّ والطِّينِ

(١) ل : « حليلته » .
(٢) ل : « ولذعه » ، وتقرأ على أنها فعل فاعله « إنكارها » .
(٣) المأربة ، مثلثة الراء ، بمعنى الأرب ، وهو الحاجة .

يقول : إنِّ لا أُبْقِي على إبلى ولا أُبقِّى منها ما يَفْضُلُ عن إفضالى ، فإذا متُّ عنها وفقدَتْ صوتى فى زَجْرِها والأمرِ بتفريقها ، فإنَّها لا تبكينى ؛ وكذا وارثى لا يحصِّل شيئاً من إرثى فلا تراه يندُبنى . ثم قال : إنَّ أسلافى بنَوا لى مَجْداً وكَرَماً ، فأحتاجُ أن أقتدِىَ بهم وأعْمُرَ خِطَطهم ، وإنْ لم يكنْ كالبِناء المبنىِّ من الطِّين والآجرّ ، لأنَّ المكارم تسترِمُّ فتدعو إلى تفقُّدها ، بخلاف ما تُتفقد به المصانعُ إذا استرَمَّت .

٧٦٢

وقال عُتْبَةُ بن بُجَير (١) :

١ ـ لِحَافى لِحافُ الضَّيفِ والبَيتُ بَيْتُهُ ... ولم يُلهِنى عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

٢ ـ أُحدِّثُه إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَى ... وتَعْلَمُ نَفْسى أنَّه سَوْفَ يَهْجَعُ

يقول : إذا نَزَل الضَّيف بى فإنِّى أُوثِرُه بأشرفِ مكانٍ من بيتى ، وأعزِّ فِراشٍ لى ، ولم يَشغَلْنى عنه لا الأهلُ ولا الولد ، فأخدُمُه وأؤنِّسه ، وأبسُطُ منه وأخرِّفه (٢) ، وكلُّ ذلك من شَرْط القِرَى وإنْ لم يكن طعاما ؛ ومع ذلك تعلمُ نفسى وقتَ هُجوعِهِ فلا أُمِلُّه ولا أُتعِبه ، ولا أَشغَلُه عن راحته ولا أُضجِرُه .

فإن قيل : كيف تَحمَّدَ بقوله « أحدِّثه إنَّ الحديثَ من القرى » ، وقد قال غيره فى إنزال الضيف « ولم أقعُدْ إليه أسائلُه (٣) » ؟ قلتَ : ليس قوله أحدِّثه ممَّا انتفى منه ذاكَ فى قوله ولم أقعُدْ إليه أسائله ؛ لأن ذاك أشار إلى ابتداء النزول ، وذلك وقتُ الاشتغال بالاحتفال له أولَى . وهذا يريد أنه يحدِّثه بعد الإطعام ،

(١) التبريزى : « وقيل إنه لمسكين الدارمى » . وانظر ما سبق فى ١٥٥٧ .

(٢) كذا وردت الكلمة بهذا الضبط فى النسختين . والذى فى المعاجم : خرفت فلانا أخرفه ، إذا لقطت له الثمر . وأخرفه نخلة : جعلها له خرفة يخترفها .

(٣) قطعة من بيت للنمرى ، سبق فى الحماسية ٧٥٠ ص ١٦٩٨ .

كأنه يسامِرُه حتّى تطيبَ نفسُه ، فإذا رآه يَميلُ إلى النَّوم يخلّيه .

قال الأصمعيّ : من سنّة العرب أنّ الغريب منهم إذا نَزَلَ فصادفَ هشاشة وفُكاهةً أيقنَ بالتكرُّم وحُسْنِ التّفقّد ، وإن رأى إعراضاً والتواءً عَرَفَ ابتذالاً وحِرْماناً . فلذلك قال « إنّ الحديث من القِرَى » .

٧٦٣

وقال عَمْرو بن أَحْمَرَ الباهِليّ (١) :

١ ـ ودُهْمٍ تُصَادِيهَا الوَلائِدُ جِلَّةٍ إذا جَهِلَتْ أَجْوافُها لم تَحَلَّمِ

٢ ـ تَرَى كُلَّ هِرْجَابٍ لَجُوجٍ لِهَمَّةٍ زَفُوفٍ بِشِلْوِ النَّابِ هَوْجاءَ عَيْلَمِ

أراد بالدُّهم قُدوراً سُوداً . ومعنى « تُصادِيها » تداريها وتُمارسُها فى النَّصْب والإنزال وإعدادِ الآلات لها . والولائد : الجوارى . والجِلّةُ : الكِبار العظام . وقوله «إذا جَهِلَتْ أجوافُها» ، يريد إذا غَلَتْ وأرزَمَتْ . فعَدَّ ذلك جهلًا منها . وقال «أجوافُها» جَمْعاً على ما حَوْلَه . وقوله « لم تَحَلَّم » أراد لم تَسْكُن بالهُوَينى لعظَمِها .

وقوله « تَرَى كلَّ هِرْجَاب » ، فالهِرْجاب : الضَّخم الثقيل . واللَّجوج هى التى إذا استَعَرت النّارُ تحتها لَجّت . واللَّهَمَّةُ : الكبيرة التى تلتهم الأوصالَ الموفَّرة ، والأعضاء المورَّبة . وقوله « زَفوف بشِلْو النَّاب » أى لسعَتها ترمى جوانبُها بأشلاء النَّاب وتَزِفُّ بها . والزَّفيف : ضَربٌ من السَّير . والهَوْجاء : التى كأنَّ بها هَوَجاً جُنوناً . والعَيْلم : الواسعةُ الكثيرة الأَخْذ من المَرَق ، كالعَيْلَم من الآبار .

(١) هو عمرو بن أحمر بن العمود الباهلى ، من شعراء الجاهلية الذين أدركوا الإسلام ، أسلم وغزا مغازى فى الروم ، وتوفى على عهد عثمان . الإصابة ٦٤٦٠ والمؤتلف ٣٧ وابن سلام ١٢٩ والخزانة (٣: ٣٨) واللآلئ ٣٠٧ .

٣ ـ لَهَا لَغَطٌ جِنْحَ الظَّلامِ كأنَّها عَجارِفُ غَيْثٍ رائحٍ متهزِّمِ
٤ ـ إذا رَكَدتْ حَوْلَ البُيوت كأنَّما تَرَى الآلَ يَجْرِي عن قَنَابِلَ صُيَّمِ

اللَّغَط : الصَّوت ، يعنى هِزَّتَها فى الغليان . وانتصب « جِنْحَ الظَّلام » على الظَّرف ، يريد أنها تَغلِي إذا جنَحَ الظَّلامُ بالعشيّ ، وذاكَ وقتُ الضيافة ، وكأنّ لغطَه صوتُ رعد من غَيْثٍ ذى تعجرُفٍ . والعَجَارف : شِدَّةُ وقوع المطَرِ وتتابعه ، يريد أنَّه هبَّت[1] الرِّيحُ فيه وصار له هَزْمَةٌ أى صوت . شَبَّهَ صوتَ القِدْرِ فى غَلَيانها بصوت الرَّعد من سَحَابٍ هكذا .

وقوله « إذا ركَدتْ حول البيوت » رجع إلى صفة القُدور كلِّها ، فيقول : إذا نُصِبت فثَبَتَتْ على الأثافىّ حولَ البيوت وقد أُشْبِعَت وحُفِّلت باللُّحوم والدُّسوم ، تراها تبرُقُ إهالتُها ، وتتلألأ تلألُؤَ الآلِ ، وقد جرَى على مُتُون خُيولٍ واقفة ، فساعَدَه بريقُ السِّلاح . والقنابل : الجماعاتُ من الخيل ، حدها قنبلة[2] والصُّيَّم : جمع صائم ، وهو القائم . والصَّوْم قيامٌ بلا عَمَل . وصام الفرسُ على المِعْلَف ، إذا لم يعتلِف .

٧٦٤

وقال المرّارُ الفقعَسِىُّ[3] :

١ ـ آلَيْتُ لا أُخْفِى إذا الليلُ جَنَّنِى سَنَا النَّارِ عن سَارٍ ولا مُتَنَوِّرِ
٢ ـ فيا مُوقِدَىْ نارِى ارْفَعاها لعلَّها تُضِىءُ لِسارٍ آخرَ اللَّيلِ مقْتِرِ

(١) فى الأصل : « لانه لذا هبت » ، صوابه فى ل .
(٢) كذا ضبطت فى النسختين بضم القاف والباء . وضبطت فى اللسان والقاموس بفتحهما .
(٣) هو المرار بن سعيد بن حبيب بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس ، شاعر إسلامى . المؤتلف ١٧٦ والمرزبانى ٤٠٨ والأغانى (٩ : ١٥١ ـ ١٥٤) والخزانة (٢ : ١٩٣ ـ ١٩٧) والشعراء ٦٨٠ ـ ٦٨٣ .

يقول : أخذتُ على نفسي مُوليًا ومقسِماً ، أنّى لا أُخْفِى إذا اللّيلُ سترَنى بظلامه ضوءَ نارى عن سارٍ يبغى مبيتاً ، ولا ناظر [إلى نارٍ(١)] ليهتدى بها .

ثمَّ تَرَكَ الإخبارَ عن نفسه ، وأقبلَ يخاطب موقِدَىْ ناره فقال ارفعاها ، أى اجْعلاها فى يَفَاعٍ ومَكانٍ مُشرِف ، فعسى أن تُضىءَ لِسَارٍ مُرْمِلٍ نقيرٍ فى آخر اللَّيل ، وقد كابَدَ ما كابَدَ من أوّله ، فخَلَص إلينا ، واهتدى بنارنا . والمتنوِّر : النَّاظر إلى النَّار . وإنما قال « فيا موقِدَىْ نارى » على عاداتهم فى جَعْل مُزَاوِلِى الأمور اثنَيْن اثنين . على ذلك قولُ الآخر(٢) :

* ترَى جَازِرَيْه يُرْعَدَانِ(٣) *

وكما قالوا فى الحَالِب البائن والمُستَعلِى ، وفى الاستقاء القابل والمستَقِى .

و « لعلَّ » يعد معَ أفعال المقارَبة وإنْ كان حرفاً . والمُقْتِر : الفقير . ويقال قَتَر وأقْتَر بمعنى . وقد يُجعل المُقْتِر نقيضَ المكثر .

٣ ـ وماذا علينا أن يُواجِهَ نارَنا كَرِيمُ المُحَيَّا شاحِبُ المُتَحَسَّرِ

٤ ـ إذا قالَ مَنْ أنتم لِيَعْرِفَ أهْلَها رَفَعْتُ له باسمى ولم أتنكَّرِ

٥ ـ فبِتْنا بخَيْرٍ مِن كَرَامةِ ضَيْفِنا وبِتْنا نُهَدِّى طُعْمَةً غيْرَ مَيْسِرِ(٤)

قوله « وماذا علينا » ، أى أىُّ ضرر يلحقُنا فى أن يتوجَّه إلى نارنا رجلٌ كريمُ الوجه ، هزيلُ المعرَّى ، قد ظهرَ أثرُ الضُّرّ على متحسَّرِه ، أى حيث يتحسَّرُ الثَّوب عنه ، كالوجه وسائر ما لا يغطِّيه . وقوله « كريم المحيّا » ضدّ قولهم : لئيم المَقَذِّ ، لأنّ المحيّا هو الوجه ، فأضيف الكرم إليه . والمَقَذّ : منتهى الشَّعَر

(١) التكملة من ل .

(٢) هو زينب بنت الطثرية . انظر ص ١٠٤٩ .

(٣) تمامه : ترى جازريه يرعدان وناره عليها عداميل الهشيم وصامله

(٤) التبريزى : « ويروى » : « نهدى هدية » .

من القَفا ، فأضيف إنُّؤْم إليه ، وقد قيل : حرُّ الوجه ، وعَبد القَذَ ، وعَبْدُ القفا.

وقوله « إذا قال من أنتم » ، يريد أنَّه يتعرَّف لينظرَ هل على النار من يَكْرُم قِراه ويطيبُ النُّزولُ عليه . وقوله « رفعتُ له باسمى » جواب إذا ، أى عَرَّفته اسمى إذا سأل ، ولم أُلبِسْ نفسِى خُمولًا ، ثقةً بأنَّه يرضَانِى لنزوله ، ولأنَّهم كانوا يَرُوزون المستضافَ بالكلام (١) ، لينظُروا ماذا يكون منه من استهلالٍ واهتزازٍ ، أو ازورارٍ وانقباض .

وقوله « فبِتْنا بخيرٍ من كرامة ضَيْفِنا » ، يريد : احتفَلْنا لضيفِنا فشرَكْناه فى الخير المعدِّ له ، وبقينا ليلتَنا نُهدِّى إلى الجيران من فواضل الطّعام والزّاد عنَّا وعن ضيفنا ، وذلك « غير مَيْسِرٍ » ، أى لم يكن مما ضُربَ عليه بالقِداح وتياسَرْناه أى اقتسمناه ، بل كانَ مما نَجَشَّم للضّيف لا يَشرَكنا أحدٌ فيه .

٧٦٥

وقال عُرْوةُ بن الوَرْد (٢) :

١ ـ أرَى أُمَّ حسَّانَ الغَداةَ تَلُومُنى تُخَوِّفنى الأعداءَ والنَّفسُ أخْوَفُ (٣)

٢ ـ لعلَّ الذى خَوَّفتِنَا مِنْ أمامِنا يُصادِفُه فى أهلِه المتخلِّفَ

يقول : لمَّا هممت بالسَّفَر وجعلته منِّى ببالٍ اعترضَتْ هذه المرأة علىَّ وأقبلَتْ تلومُنى وتحذِّرنى الأعداءَ فى الوجه الذى أردت تيْميمَه ، ونفسى أشد خوفاً لأنها حسّاسةٌ حذِرَة ، لكنِّى تجلَّدتُ لها وأجبْتُها بأنَّ الذى أنذرْتِناهُ من قُدَّامنا ، والسَّمْتِ الذى هو نيَّتُنا وطِيَّتُنا ، لعله يلْقاه المتخلِّفُ عن السَّعْىِ فى طلَب الرِّزق

(١) رازه يروزه : اختبره .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٤٥ ص ٤٢١ . والأبيات فى ديوانه ١٠١ وبعدها فيه ثلاثة أخرى .

(٣) أم حسان هذه امرأة عروة ، وكانت قد نهته عن الغزو ، كما فى الديوان .

المقيمُ في أهلِه راضياً بأدْوَنِ العَيش ؛ لأنَّ الحذَرَ لا يغني عن القَدَر ، وقد يُؤْتَى الإنسانُ من ناحية أَمْنِه ، ويصادف فيه ما لا يصادفه الخائفُ من ناحية خوفه .
وقوله « خَوَّفتِنا » حذَفَ الضميرَ العائد إلى الذى منه ، استطالةً الاسم بِصِلَته .
وقوله « مِن أمامِنا » ، يريد من حيث نأتمُّه ، والوجه الذى نتوجَّه إليه ، وذلك قُدَّامَه لا شكَّ . وموضع « يصادفه » رفعٌ على أن يكون خبرَ لعلّ . و « فى أهله » تَعلّق الجارُّ منه بفعلٍ مضمر ، وموضُعه نصبٌ على الحال ، أى يصادفه المتخلِّف مقيماً فى أهله ومستقِرًّا .

٣ ـ إذا قُلْتُ قدجاء الغِنَى حال دُونَه أبُو صِبْيَةٍ يَشكُو المَفاقِرَ أَعْجَفُ
٤ ـ لَهُ خَلَّةٌ لا يَدْخُلُ الحَقُّ دُونَها كريمٌ أصابَتْهُ حَوادث تَجرُفُ(١)

يقول : إذا اتَّفق لى فى مقصدٍ من مقاصدِى ما أُقدِّر فيه حصولَ الغنى وجوازَ الاعتماد عليه فى مَبَاغى الدُّنيا ، ووعَدْتُ نفسى له ومن أجله بالاكتفاء عِندَ الفِكْر فى مؤَن العيال ، حال بينى وبينه اجتداء صاحب عَيْلَةٍ ، ووالد صِبْيَةٍ ، ظاهِرِ الفقر ، سيِّء الحال ، يشكو زمانَه وتأثيرالضُّرّ فيه ، وعليه مما يتألَّم منه شواهدُ تمنع دخول حقٍّ دون خَلَّتِه ، وتأبى أن يقالَ فى شىءٍ من المفقِر هو أولَى منه . [فكأنَّه(٢)] يعنى بالحقِّ نسيباً أو جاراً أو متحرِّماً بحرمة ، لأنَّه متى قوبلَ حالُه بحالِ مَن ذَكَرَه لم يوجِبْ تقديمَه عليه ، ولم يستحقَّ العدولَ عنه إليه . هذا من طريق الوُجوب له ، ثمَّ هو فى نفسِه يَرجِعُ إلى كرمٍ ومُروءة ، ويستظهِرُ بعنوانِ نَعْمَةٍ وتَرْفَة ، وقد نابته نوائبُ تجرُف المال ؛ أى تُتوِيه جملةً لا تُزيله شيئاً بعدَ شىء ، كما يُكالُ الشىء أو يُوزَن ، فعهدُه به قريب ؛ والتوفُّر عليه متعيِّنٌ مفروض ، فإذا التزمْتُ له واجبَه ، وآثَرتُه بصَرْفِ ما فى يدى إليه ، عُدتُ

(١) الديوان : « أصابته خطوب » .
(٢) التكملة من ل .

محتاجاً كما كنتُ ، وساعياً فى الطّلَب كما ابتدأت . وقوله « كريم » من صفة أو صِفَيةٍ ، وقد تابَعَ بينَ صفاتٍ من مُفْردٍ وجملة .

٧٦٦

وقال يَزِيدُ بن الطَّثْرِيَّةِ [١] :

١ – إذا أرسَلُونى عِند تَقْدِيرِ حاجَةٍ ... أُمارِسُ فيها كُنتُ عيْنَ المُمَارِسِ

٢ – ونفْعِى نَفْعُ المُوسِرِينَ وإنما ... سَوَامِى سَوَامُ المُقْتِرِين المَفَالِسِ

يقول : إذا أرسلَنِى عشيرتى فى مُهمٍّ لهم يُقدِّرون ارتفاعه بى وبسَعيى ، ويؤمِّلون انتفاعَهم به عند اجتهادى ، فاعتَمَدُوا مُزاوَلَتى ، ووَثِقُوا بالنَّجاح لدى ممارستى ، كنتُ فيه حقَّ المارِس ، لا أُضجِع فيه ولا أفرِّط ولا أقصِّر ، بل زدتُ على ظَنِّهم بى وتجاوَزْتُ الغايةَ التى يقِفون فيها من رجائى ، فنَفْعِى نَفْعُ المُكْثِرِينَ وإن كان مالى الراعيةُ مالَ المُفْلِسين [٢] المُقْتِرين . وقوله « المَفَالس » ، الإفلاس : لفظةٌ عربيّة وإن كَثُرَ التَّداولُ لها فى ألسِنَة العامّة . وكان الأصل فى أفلَسَ الرَّجلُ أن يصيرَ صاحب فُلوس بعد أنْ كان صاحبُ أموال . وتفْليس الحاكم معروف . وهو من هذا ، كأنَّه ينسُبُه إلى ذلك ، فهو كالتَّعديل والتَّنسيق . والسَّوَام من قولهم : سامَتِ الماشيةُ تسوم ، وهى سائمة . والمِرَاس : مُزاوَلَة الشَّىء ، ويقال : مَرِسَ الحبلُ ، إذا نَشِب فى البَكْرة عند الاستقاء . ويقال لمن يردُّه إلى موضعه أمرَسَ فهو مُمْرِس . على ذلك قوله :

* بئس مَقَام الشَّيخِ أمْرِسْ أمْرِسِ [٣] *

(١) سبقت ترجمته وتحقيق نسبته فى الحماسية ٥٤١ ص ١٣٤٠ .

(٢) ل : « المقلين » .

(٣) أنشده فى مجالس ثعلب ٦ ، ٢٠ واللسان « مرس » . وبعده :

* إما على قعو وإما اقعنسس *

ثمَّ يقال في الصَّبور على طلبِ الشَّىء القوىّ : هو مَرِسٌ ، وشديدُ الممارَسةِ والمِراس . وقوله « أمارس فيها » في موضع الجرّ على أن يكون وصفاً لحاجة .

٧٦٧

وقال سالم بن قُحْفَانَ (١) ، وقد عاتبَته امرأته :

١ ـ لقدْ بَكَرَتْ أمُّ الوَليد تَلُومُنِي ولم أجْتَرِم جُرْماً فقُلْتُ لها مَهْلا (٢)

٢ ـ فلا تُحْرِقِينى بالمَلامَةِ واجْعَلِي لِكلِّ بعيرٍ جَاءَ طالبُه حَبْلا (٣)

٣ ـ فلَمْ أرَ مِثْلَ الإبْلِ مَالاً لمُقْتَنٍ ولا مِثْلَ أيَّامِ العَطاءِ لها سُبْلا

يقول : ابتكرت هذه المرأةُ لائمةً لى وعاتبةً علىَّ من غير جنايةٍ جنَيْتُها واكتسبتها ، ولا جريمةٍ اجترمْتُها وقدَّمْتُها ، فقلت لها : رِفقاً في قولك لاخُرْقا ، وصبراً على مضَضك (٤) واقتصادا ؛ ولا تحْرِقيني بنارِ عَتْبِك ، وسُلْطانِ غَيْظِك ، ولكنِ اتَّبِعِي (٥) مُرَادي ، واهتَدِي بهدْيِي ، واثقةً بأنَّ الصَّوابَ في فعلي وقَولي ، وجوامعَ الخير مقرونةٌ بعَفْوِى وجَهدِى ، واجعَلِي لِكلِّ بعيرٍ نَصَصتُ عليه لسائلٍ حبلاً ، ليقتادَه به ، مشارَكةً لى في الكرم وابتغاء الصَّلاح ، وموافقةً فيما أُوثِرُه من وجوه الاصطناع ، لا يَظْهرُ منك تكرُّه ، ولا اشتطاطٌ وتَسخُّط . واعلَمِي أنى لم أر مالًا مثلَ الإبل لمن يَقْتنِي خيرا ، ويدَّخِرُ أجرًا ، ولا مثلَ أوقات العَطاء سبيلًا لها وممرًّا . ويجوز أن يريد بقوله « مالاً لمقْتَنٍ »

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٦٨٥ ص ١٥٨١ .
(٢) سبقت هذه الحماسية برقم ٦٨٤ مع إسقاط البيت الأول هنا وزيادة بيت بين الثانى والثالث .
(٣) التبريزى : « جاء سائله » .
(٤) كذا في ل . وفي الأصل : « على خصمك » .
(٥) في الأصل : « ابتغى » ، صوابه في ل .

أى لمن يجمعُ[1] ما يقتنيه ويجعله الأصلَ فى يساره وغناه . وبعدَ ذلك فتحويلُها إلى العُفاة برُمَّتها أعْوَدُ عليهم وأَرَدُّ ، وأبقَى فى حالهم وأغنَى . والاقتناء : اتِّخاذ الشَّىء للنَّفْس لا للبَيع . ويقال : هذه إبلٌ قُنْيَةٍ ، وهذه مالٌ قُنْيان ، لما يُتَّخَذ للنَّسْل لا للتِّجارة . ويقال قَنا يَقْنو ، وقَنِى يَقْنَى ، لغتان ، ومن الثَّانية قولهم : أَقْنَى حياءَكِ . ومن الأولى قوله :

* كذلكَ أَقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ[2] *

٧٦٨

فرمَتْ إليه امرأتُه بخِمارها وقالت : صيِّرْهُ حبلاً لبعضِها

وأنشأَتْ تقول :

١ ـ حَلَفْتُ يميناً يا ابنَ قُحفانَ بالَّذى تكفَّلَ بالأرزاقِ فى السَّهْلِ والجَبَلْ

٢ ـ تَزَالُ حِبالٌ مُبْرَماتٌ أُعِدُّها لها ما مَشَى يوماً عَلَى خُفِّه جَمَلْ

٣ ـ فأعْطِ ولا تَبخَلْ إذا جاءَ سائلٌ فَعِنْدِى لها عُقْلٌ وقد زاحَتِ العِلَلْ

يقول : أقسمتُ يميناً بالله الذى تضمَّن الأرزاقَ لمرتزِقِها ، وفَطَر الخَلْقَ الذى اخترعَهم فى سَهْلِ الأرض وحَزْنِها ، لا تَزالُ من جهتى حِبالٌ مُستحصَدةٌ معدَّةٌ لإبلِكَ التى صرَفتَها فى مصارفِ بَذْلِكَ مدَّةَ الدهر ، اقتداءً بك ، ودُخولاً تحتَ طاعتك . فالمتكفِّل بالأرزاق هو الله تعالى فى أقطار الأرض ، وقد وَثِقْنا بتفضُّله والتعيُّشِ من فضله .

---

(١) فى الأصل : « ولمن يجمع » ، صوابه فى ل .

(٢) البيت للمتلمس فى ديوانه ٤ مخطوطة الشنقيطى ، والشعراء ١٣١ . وصدره :

* فألقيتها بالثنى من جنب كافر *

وقولها «تَزالُ» حذفَتْ حرفَ النَّفْي منه لأمْنِها من الالتباس ، وقد مرَّ القول فيه فى غيرِ موضع .

وقولها «فأعطِ» ترغيبٌ منها وتحضيض ، أى توسَّعْ فى البَذْل منها ، ودَعِ البُخْلَ بها ، فلا اعتراضَ عليك ، ولا مُرادَّةَ معك ، والعُقُل من جِهَتى معدَّة ، والعللُ معى مرتفعة . ويقال : أزَحْتُ العلَّة فى كذا فزاحَتْ ، أى أزلتُها فزالت . وحكى الدُّرَيدىُّ : زاح الشىء يَزيحُ ويَزُوح زَيْحًا وزَيَحانًا ، أى تحرَّكَ عن مكانه . وزُحْته فانزاح ، وأزَاحتهُ فزَاح ، وهو مَزُوحٌ ومُزَاحٌ . وقولها «ماشى يومًا» فى موضع الظَّرف ، والعامل فيه لا تَزال حِبال .

٧٦٩

وقال الأقرع بن مُعاذٍ (١) :

١ ـ إنَّ لنا صِرمةً تُلْقَى مُحبَّسَةً ... فيها مَعادٌ وفى أربابها كَرَمُ

٢ ـ نُسَلِّفُ الجارَ شِربًا وهى حائمةٌ ... ولا تَبيتُ على أعناقِها قَسَمُ (٢)

٣ ـ ولا تُسَفِّهُ عِندَ الحَوضِ عَطشَتُها ... أحلامَنا وشرِيبُ السَّوءِ يَحتَدِمُ (٣)

الصِّرْمَةُ : القليل من المال ، ويريد بالمحبَّسة أنَّها مُناخَة بالفناء لا تُسامُ فى المراعى . وقوله «فيها مَعَاد» أى أنَّها تحتمل ما تُحمَّل من مُؤَن النَّفَاقِ عَودًا على بَدء . وقوله «فى أربابها كَرم» أى فى مُلاكها سَعَةُ صدرٍ وحُسْنُ صبرٍ على ما يعتريهم من حقوق السُّؤَّال والمُجتَدِين .

(١) اسمه الأشيم بن معاذ بن سنان بن عبد الله بن حزن بن سلمة بن قشير، كان فى أيام هشام بن عبد الملك . المرزبانى ٣٨٠ .

(٢) التبريزى : «تسلف» بالتاء ، و «يبيت» بالياء .

(٣) فى الأصل : «وشروب» ، صوابه فى ل والتبريزى .

وقوله «نسلِّفُ الجار شِرْبًا وهى حائمة» الحائمة : العِطاش ؛ يقال : هو يَحُوم حولَ الماء ، إذا دارَ حولَه. وهو حائم لائب ، اشتدَّ عطَشُه وحامَ حولَ الماء . فيقول : نقدِّم الجارَ على أنفسنا عند سَقْيِ الإبل وإن كانت إبلُنا عِطاشًا ، كأنّا نَجعل الزيادةَ على نصيبِه كالسَّلَف عنده . ويقال: أسلفتُ كذا وسَلَّفتُ جميعا .

وقوله «ولا تبيتُ على أعناقها قَسَم» يعنى الأَيمان التى يؤكَّد بها المعاذير (١) والعِلَلُ عند المنع والبُخْل . فيقول : لا تبيت صِرْمَتُنا وقد لزِمَها كفّارةُ يمين احتجزْتُ بها عن البَذْلِ . ولك أن تروى : « تُسَلِّفُ الجار » بالتاء ، حتى يكون الإخبار فى العَجُز والصَّدر عن الإبل ، والحال لا تلتبس فى أنّ ذلك كلّه لأربابها .

وقوله « ولا تُسَفِّه عند الحوض عطْشَتُها » ، أى لا تستخفُّ حاجتُها إلى الماء أحلامَنا فنَبطِش بشُركائنا فى الوِرْد ، ونفعلَ ما يفعله المتعزِّز والمقتدر من الهَضِيمة فى الشِّرب ، لأنّ شَرِيبَ السَّوءِ هو الذى يتحفّظ ويغضَب فيحتدم . والاحتدام : شدة الإحماء (٢) . قال الأعشى :

* وهاجِرَةٍ حَرُّها مُحْتدِم (٣) *

٧٧٠

وقال يزيد بن الجَهْم الهِلالىّ (٤) :

١ - لقد أمَرَتْ بالبُخلِ أمُّ مُحَمَّدٍ فقلت لها حُثِّى على البُخلِ أحْمدا

(١) ل : « التى تؤكد لها المعاذير » .
(٢) ل : « والاحتدام : الاحتماء » .
(٣) صدره فى ديوانه ٣٠ :

* وإدلاج ليل على خيفة *

(٤) التبريزى : « ويروى لحميد بن ثور » . وقد نسبت فى معجم الأدباء (١١ : ١١) لحميد بن ثور ، وفى اللسان (سقط) ليزيد بن الجهم . وانظر ديوان حميد ٧٦ طبع دار الكتب المصرية .

٢ - فإنّى امرُؤٌ عَوّدتُ نَفسىَ عادةً وكلُّ امرئٍ جارٍ على ما تعوّدا

يقول: أمرتني هذه المرأةُ بالإمساك عند البَذْل، والإبقاء[1] على المال، فقلتُ لها حُثِّي على البُخل وابغى عليه إنسانًا أحمدَ لك وأرضى بوعظِك منّى، فيكون أحمد مفعولا، وقد نابت الصِّفة عن الموصوف. ويُروَى: «حُثِّى على الجُودِ أحمَدَا» ويكون قوله «أحمد» منتصبا بإضمار فعل، كأنه لما قال حُثِّى على الجود نوَى أنْتِى ما هو أحمدُ لك. وهذا كما يقال: وراءك أوسَعَ لك، واتّقِ اللهَ أعْوَدَ لك. وفى القرآن: ﴿انتهُوا خيراً لكم﴾. ومَن روى «حُثِّى على البُخل»، يجوز أن يكون أحمد اسمًا علَمًا لولدٍ لها أو قريبٍ منها، فقال: ابغى ذلك على البُخل من دُونى، لأنّى لا أُصغِى إليك ولا أئتَمِرُ لك، فقد تعوّدتُ منذ كنتُ عادةً فَطْمى عنها ومَنْعى منها يتعذَّر ويبعد، وكلُّ رجلٍ سيَجرِى على عادته، وما هو من هِجِّيراه وسَمْته[2].

٣ - أجِينَ بَدَا فى الرأس شَيبٌ وأقبلَت إلىَّ بنو غَيلانَ مَثْنَى ومَوْحَدَا

٤ - رَجَوتِ سِقَاطِى واعتِلالِى ونَبْوَتِى وراءكِ عَنِّى طالقًا وارحَلِى غدَا

ألف الاستفهام وإن كان المراد بها التوبيخ والتقريع، يَطلُب الفعل وهو رجوت. فيقول: أرجوتِ منِّى بعد اشتعال الشَّيب فى رأسى اتّباعى لكِ، وقَبولى منك، وبعدَ أن ألِفَ الناسُ منِّى طريقةً أجرِى عليها وقد أقبلت بنو غَيلانَ شَرْعًا نَحوِى اثنين اثنين، وواحداً واحداً، من طُرُقٍ مختلفة، ووُجوهٍ مفترقة، وقد علَّقوا آمالهم بى، يكون منِّى نُبُوٌّ عنهم، واعتلالٌ عليهم، وزَوالٌ عن السُّنّة المعروفة فيهم ومعهم، إلى غيرها. وقوله «سِقاطِى»، يقال

(١) فى الأصل: «والبقاء»، صوابه فى ل.
(٢) الهجيرى، بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة: الدأب والشأن والعادة.

لمن لم يأت مأتي الكرام : هو يُساقِط . قال الشاعر [١] :

كيفَ يَرجُونَ سِقاطِي بعدَ ما جَلَّلَ الرأسَ مَشيبٌ وصَلَعْ

والمعنى : كيف أمَّلت مُساقَطتي عن هذا الدَّأبِ مع اجتماع هذه الأحوال ، ومَعَ تجربتي وكمالي ، اذهَبي عنِّي بائنةً [٢] منِّي وارحَلِي غداً . وقوله «وراءكِ» ظرفٌ في الأصل ، وقد جعله اسماً للفعل . والمراد : ابعُدِي عنِّي . وعطف عليه « وارحَلِي » وهو فعلٌ ، وهذا يبيِّن قوَّةَ الظروف إذا جُعِلَت أسماءً للأفعال ، لأنه لولا ثباتُها في النِّيابة عن الأفعال والاستغناء بها عنها ، لَمَا جاز عطفُ الفعل عليها ؛ وذلك أنّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه في حكم المثنَّى ، والتَّثنية لا تحسُن إلاّ بين متوافِقَين ، في ذلك العطف . ومَثْنى ومَوْحَدُ مما عُدِلَ في النَّكِرة ، فلا ينصرف في المعرفةِ والنَّكرةِ جميعاً ، لكونه معدولاً عن أسماء الأعداد وعن الإفراد إلى التكرير . و « طالقاً » انتصبَ على الحال من قوله « وراءكِ عنِّي » ، ولم يقل طالقةً لأنه أخرجه مَخرجَ النَّسَبِ [٣] .

٧٧١

وقال آخر :

١ ـ إنِّي وإنْ لم يَنَلْ مالي مَدَى خُلُقي فيَّاضُ ما مَلَكَتْ كَفَّايَ مِنْ مالِ
٢ ـ لا أحبِسُ المالَ إلاّ رَيْثَ أُتلِفُهُ ولا تُغَيِّرُني حالٌ إلى حالِ

يقول : أنا وإن كان مالي لا يقوم بمؤني ، وكان عاجزاً عن غاية خُلُقي ، وقاصراً دونَ مدى بَذْلي وإفضالي ، فإني أَصُبُّ ما تملكه يدايَ فيَفيض فيضاً

(١) هو سويد بن أبي كاهل . انظر البيت ٧٩ من المفضلية ٤٠ .
(٢) كذا في ل . وفي الأصل : « نائية » .
(٣) ل : « النسبة » .

لا أمنعهُ طالبًا له كيف يتوصَّل ، وبماذا يتوصَّل ، إذ كنتُ لا أحبِسُ المالَ ولا أخزُنُه إبطاءَه إلاّ قَدْرَ الوقتِ في إتلافهِ وتفرقته ، ولا تَنقُلني(١) حالةٌ تعرِض عن حالي الأُولى فيما أعتاده وآلَفُه . يريد أنه مستمرٌ فيما يَجرى عليه كيف واتاهُ الزّمانُ ، وأداره الأحوال . وقوله « إلاّ رَيْثَ » في موضع الظّرف من لا أحبِسُ .

٧٧٢

وقال سَوَادةُ اليَرْبوعيّ :

١ - لقد بَكَرَتْ مَيٌّ عَلَيَّ تَلومُني تقولُ ألا أهلَكتَ مَنْ أنتَ عائلُه(٢)

٢ - ذَرِيني فإنّ البُخلَ لا يُخْلِدُ الفَتَى ولا يُهلِكُ المعروفُ مَن هوَ فاعِلُه

يقول : اعتدَت هذه المرأةُ إليّ لائمةً وقائلةً : لقد أهلَكْتَ مَن تَكَفُلُه وتَمُونه ، إذ كنتَ بعرَض الفَقر ، لتضييعك ما تملكه ، وسَرَفك فيما تبذُله . فأجبتُها وقلت : اتركيني على عادتي ، فإنّ البخلَ بالمال لا يُبقِي صاحبَه ، والبَذل لا يُميت مُعتادَه . وقد مضى مثل هذا .

٧٧٣

وقال حُطائط بن يَعفُر أخو الأسوَد(٣) :

١ - تقولُ ابنةُ العَبّاب رُهْمٌ حَرَبْتَنا حُطائطُ لم تَترُك لنفسِك مَقعَدَا(٤)

---

(١) هو تفسير قوله : « تغيرنى حال إلى حال » . وفى النسختين : « تنقلنى » ، تحريف.

(٢) التبريزى : « ألا بكرت مى » .

(٣) أخوه الأسود بن يعفر ، شاعر مشهور من شعراء الجاهلية ، قال ابن قتيبة فى الشعراء ٢١١ : « ولا عقب للأسود ولا لأخيه حطائط » . وانظر الاشتقاق ١٤٩ .

(٤) العتاب ، كذا وردت فى النسختين بالتاء . وعند التبريزى وأبى الفرج فى الأغانى (١١ : ١٣٣) : « العباب » بالباء . قال التبريزى : « ابنة العباب كانت زوجته ، وهى امرأة من بنى عجل » . وفى الأغانى أن رهم بنت العباب أمهما ، أى أم حطائط وأخيه الأسود .

٢ - إذا مَا أَفَدْنا صِرْمَةً بعد هَجْمَةٍ تَكونُ عليها كابنِ أُمِّكَ أَسْوَدَا

رفْعُهُ ارتفع على البدل من ابنة العتّاب، وحُطَائط منادًى مفرد. ويقولون: ما تَرَكَ فلانٌ لك مُقامًا ولا مَقعَدا، أى لم يُبقِ لك ما يُمكِنُك الإقامةُ والقعودُ له به. والصِّرْمة: القليل من الإبل. والهَجْمَةُ أكثرُ منها، لأنَّها تقع على الثَّلاثين أو الأربعين. فيقول: عاتبتْنى هذه المرأةُ فى إنفاقى وإفضالى، وقالت: أفقرْتَنا يا حُطائط، وأزلْتَ تجمُّلنا، وجنيتَ على نفسك أيضًا، إذ لم تتركْ من المال ما تكتفى به، وتستغنى عن السَّعى والتجول معه، فتُرِيحُ نفسك من الحلِّ والتَّرحال فى طَلَبِه، وتقعُدُ عن التَّصرُّف وتحمُّلِ المشاقِّ فى جَوْزه واحتجانه، لأَنَّا متى استفدنا[1] قليلاً من الإبل بعد ما تُفِيتُنا الكثيرَ منها تَعودُ عليها سالكاً طريقَ أخيك الأسودِ بن يَعفر، فتُفْنيه وتخلينا منه. وإنما قال «تكون عليها» لأنَّه لمَّا لم يَسْعَ فى تثميرها كان عليها لا لها. وقد جمع الشَّاعرُ بين سَيْرَيْنِ فى خَرْزَةٍ فى قوله «تكون عليها كابنِ أمِّك».

٣ - فقلْتُ ولَمْ أَعْىَ الجوابَ تَبَيَّنِى أَكانَ الهزالُ حَتْفَ زَيْدٍ وأَرْبَدَا[2]

٤ - أَرِينِى جَوَادًا ماتَ هَزْلاً لَعَلَّنِى أَرَى ما تَرَيْنَ أو بَخِيلاً مُخَلَّدَا

قوله «ولم أَعْىَ الجوابَ»، يقال: عَيِيتُ الأمرَ وعييت به عِيًّا، ورجلٌ عَيِىٌّ وعَىٌّ، وعَيِىَ عن حجته عِيًّا. يريد: أجبتها ولم أَعجِزْ من محاجَّتها: تأمَّلى وانظرى، هل كان الفقرُ والهُزال سببَ موتِ مَن مات مِن عشيرتنا، وأرينى سخيًّا أماتَهُ الضُّرُّ، منَّا أو من غيرنا، لعلَّنى أهتدى بهدْيك وأعتقدُ مذهبَك، وأئتمر لك فيما تَرَيْنَهُ رشادا، أو بخيلاً بَقِىَ فى الدُّنيا وعاش ما أرادَ ليُطلبَ

(١) فى الأصل: «استنقذنا»، صوابه فى ل.

(٢) الأغانى: «تأملى»، بدل: «تبينى». وقال التبريزى: «وقيل إن نهدا — كذا وصوابه زيدا — وأربد كانا أخوين لحطائط».

بموافقته ما حَصَلَ له من الدَّوام ، وانْصرَفَ عنه الشَّقاء والفناء .

وقوله « أرِنِى جواداً » أىْ دُلَّنِى عليه وعرِّفْنِى مكانَه . وقال أبو عبيدة فى قوله : ﴿ أرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ المراد علِّمنا ، ويروَى : « لأنّى أرى ما تَرَيْن » ، وهو بمعنى لعلِّى . يقال : ائتِ السُّوقَ لأَنَّك تَشتَرِى لنا شيئاً ، أى لعلَّك . ويقال أيضاً : أَنَّكَ تشترى ، وهذا كما تقول : عَلَّكَ ولَعَلَّكَ . ويقال فى هذا المعنى : لَعَنَّكَ .

ويُنْشَدُ بيتُ أبى النجم :

* وَاغْدُ لَعَنَّا فِي الرِّهانِ نُرْسِلُهْ *

وبعضهم ينشده : « لأَنَّا » أى لعلّنا . وإبدالُ الهمزة من العين والعين من الهمزة كثيرٌ لا ينكَر .

٧٧٤

وقال المُقَنَّعُ الكِنْدىُّ (١) :

١ — نَزَلَ المَشِيبُ فأينَ تَذْهَبُ بَعْدَهُ   وَقَدِ ارْعَوَيْتَ وحَانَ مِنْكَ رَحِيلُ

٢ — كانَ الشَّبَابُ خَفِيفَةً أيَّامُه   والشَّيْبُ مَحْمِلُه عَلَيْكَ ثَقِيلُ

٣ — لَيْسَ العطاءُ من الفُضُولِ سَمَاحَةً   حتَّى تَجُودَ وما لَدَيْكَ قَلِيلُ

يَعظُ نفسه ويذكره ما انتهى إليه حالُه فى عَيْشه وتصرُّفه ، فيقول : قد مَسَّكَ الكِبَرُ ، فأىَّ طريقٍ تَسلُك ، وأىَّ مذهبٍ تذهب ، وقد رَجَعْتَ عن جهالتك ، وارتدَعْتَ عن كثيرٍ مما كنتَ تُلابِسُه بغباوتك ، وقَرُب منك التَّحوُّل من دارِ الفَناء إلى دار البقاء ، وقد كانَ أيَّامُ الشَّباب طيِّبةَ الممرّ ، خفيفةَ المستقرّ وأيَّامُ الشَّيبِ البادى كريهةَ الظُّهور ، ثقيلةَ الأعباء والحُمُول ؛ فعليكَ بما يجمع

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٣٨ ص ١١٧٨ .

لك إلى الحمد ذُخراً ، وإلى ثناء النَّاس وشُكرِهم أجراً . واعلمْ أنَّ البذل مما يَفضُل عنكَ ليس بسَماحةٍ ، إنما الجود أن تُعطىَ من قليلِك ، وتُنفقَ من كفايتِك . وقوله « ومالديك قليل » ، يجوز أن يريد والذى لديك ، ويكون ما مبتدأ ولديك صلته وقليل خبره ؛ ويجوز أن يكون ما نافِيَةً وقليلٌ اسمه ، ولَدَيْك خَبَرُه . والمعنى حتَّى تجودَ بكلِّ شيء لك فلا يبقى قليلُه أيضا .

٧٧٥

وقال جُؤَيَّةُ بنُ النَّضْر :

١ ــ قالتْ طُرَيفَةُ ما تَبقَى دَرَاهِمُنا ... وما بِنَا سَرَفٌ فيها ولا خُرُقُ

٢ ــ إنّا إذا اجْتمَعَتْ يوماً دَراهِمُنا ... ظَلَّتْ إلى طُرُقِ المعروف تَسْتَبِقُ(١)

يقول : اشتكت هذه المرأةُ الحالَ فى سُرعةِ نفادِ مايحصلُ عندَهم من الوَرِق والمال ، وهم لا يُسرِفون فى الإنفاق ، ولا يَخْرُقُون فى الإتلاف ، فقالت : لا بَرَكةَ مع سوء التَّدبير ، ولزومِ التَّضييع والتَّفريق . وتَنْسُبُ قِلَّةَ تلوُّمِه وخِفَّةَ بقائه إلى ضَعْفِ النَّظَرِ وعجزِ التَّدبير ، وإرهاق التعجُّلِ ونَقْص التَّقصير . فقال لها : إنَّ دراهمَنا إذا اجتمعَتْ تسابقَتْ إلى مَنافذ المعروف ، وتلاحقت فى مصارِف الإحسان المألوف ، فذلك سببُ سرعةِ فنائها ، وعَجَلةِ ذَهابها لا غير . فقوله « إذا اجتمعت » ظرفٌ لقوله « ظَلَّت إلى طُرُق المعروف تستبق » . ويوماً ظرفٌ لاجتمَعَتْ .

---

(١) بعده عند التبريزى :

ما يألَفُ الدِّرهمُ الصَّبَّاحُ صرَّتَنا ... لكن يمرُّ عليها وهو منطلقٌ

حتّى يصيرَ إلى نَذْلٍ يخلِّدُهُ ... يكاد من صَرِّه إيّاه يَنمزِقُ

٧٧٦

وقال زُرْعةُ بنُ عَمْرٍو[1] :

١ ـ وأَرْمَلَةٍ تَنُوءُ على يَدَيْهـــا مِنَ الضَّرَّاءِ أو قَصَصِ الهُزَالِ

٢ ـ خَلَطْتُ بِغَثِّها سِمَنِي فأضْحَتْ شَرِيكَةَ مَنْ يُعَدُّ من العِيَـــالِ

يقول : رُبَّ امرأةٍ منقطِعٍ بها سيِّئة الحال[2] ضعيفةِ الحَرَاكِ ، إذا أرادت النهوضَ تعتمدُ على يدَيْها ، لتأثير الضُّرّ فيها ، أو لإقصاص الهُزَال إيّاها ، وهو دُنُوُّ الموتِ منها — ويقال : أقصَّهُ كذا من الموت ، أى أدناه — أنا خَلَطْتُ بفقرها غِنَاىَ ، وبما رَقَّ من حالها كثافةَ حالى ، فصارت تُعَدُّ فى جملة العيال ، ومشارِكةً فيما أقتنيهِ من المال ، لا تمايُزَ يظهر لها ، ولا تبايُنَ يوجب انقباضَها . وقوله « تنوء على يديها » ، أى تنهض ، وهو فى موضع الصِّفة لأرملة . وجواب رُبَّ « خلطتُ بغثِّها سِمَنِى » . ويقال لحمٌ غَثٌّ بيِّنُ الغَثَاثة والغُثُوثة ، إذا كان مهزولاً . وقيل : كلام غَثٌّ ، على التّشبيه ، أى لا طَلاوةَ عليه .

٣ ـ وأَفْنَتْــنِي اللَّيالِي ، أُمَّ عَمْــرٍو وحَلِّى فى التَّنَـــائِفِ وارتِحالِى

٤ ـ وتَرْبِيَتِى الصَّغِيرَ إلى مَدَاهُ وتأميلِى هِـــلالاً عن هِلالِ

يقول : أفنى قُوايَ نوائبُ الزّمان ، وتصاريفُ اللّيالى والأيّام ، وتنزُّلى فى المَفَاوِز والقِفار ، وتنقُّلى فى مختلِفات الأسفار ، وتربيَتى الطِّفلَ الرضيع إلى أن يبلُغَ ويجتمع ، واليافعَ الكبيرَ إلى أن يعلوَ ويستكمل ، وتعليقى الأملَ بشهرٍ مُستَهَلٍّ بعد شَهر[3] ، وحَوْلٍ مؤتَنَفٍ بعد حَوْلٍ . وإنَّما يصف ما عاناه ،

(١) هو زرعة بن عمرو خويلد بن بن نفيل . كان فارساً شجاعاً ، وكان ممن شهد يوم رحرحان . الأغانى (١٠ : ٣١) .

(٢) كذا فى ل ، وفى الأصل : « سيئة الخلق » .

(٣) كذا ضبط فى النسختين بفتح الهاء ، ويقال بكسرها أيضا ، فعله مبنى للمفعول وللفاعل .

وأُمتُحن به حالاً بعد حال، وتردَّدَ فيه فقاساه وقتاً بعد وقت، إلى أن تَقضَّى عمرُه، ونفِدَت قوَّتُه.

ويشبه هذه الأبياتُ قول الآخر (١):

لقد طوَّفتُ في الآفاق حتى بَليتُ وقد أنى لي لو أَبِيدُ
وأفناني ولا يَفنى نهارٌ وليلٌ كلَّما يمضي يعودُ
وشهرٌ مُستهَلٌّ بعد شهرٍ وحَولٌ بعده حولٌ جديدُ
ومَفقودٌ عزيزُ الفقد تأتي منيَّتُه ومأمولٌ وليدُ

وإن كان هذا أحسنَ استيفاء.

وقوله «وتأميلي هِلالاً عن هِلالِ»، أي بعد هِلال. ومما جاء فيه «عَن» بمعنى بعدَ قولُهم: «سَادوكَ كابراً عن كابِرٍ (٢)»، لأنَّ معناه كبيراً بعد كبير. والمراد: شغَلَه أملُه بما يُتاح له في مؤتنَفِ الأيّام من الخير، والتَّمكُّنِ من المراد.

٧٧٧

وقال عبدُ الله بن الحَشْرَج (٣):

١ — أَلَا كَتَبَتْ تَلُومُكَ أُمُّ سَلْمٍ وغَيْرُ اللَّوْمِ أَدْنَى للسَّدَادِ (٤)

(١) هو مسجاح بن سباع، الحماسية ٣٥٢ ص ١٠٠٩.

(٢) منه قول الأعشى في ديوانه ١٠٥:

ساد وألفى قومه سادة وكابراً سادوك عن كابر

(٣) هو عبد الله بن الحشرج بن الأشهب بن ورد بن عمرو بن ربيعة بن جعدة بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة. كان سيداً من سادات قيس وأميراً من أمرائها، ولي أكثر أعمال خراسان ومن أعمال فارس وكرمان. وكان جواداً ممدحا، مدحه زياد الأعجم، وفيه يقول البيت السائر:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

الأغاني (١٠: ١٤٤ — ١٤٨). والحشرج: الحسي من الأحساء.

(٤) كذا: وهو الموافق لما سيأتي في شرح البيت الخامس. لكن في ل والتبريزي: «ألا بكرت». وفي هامش ل: «نخ: كتبت».

٣ـ تقول: ألا أهلكتَ مالَكَ ضَلَّةً وهل ضَلَّةٌ أن يُنفِقَ المالَ كاسِبُهْ

: يقول: لامتنى هذه المرأةُ وقالت: قد قَلَّلَ اللبنَ مَن يحلُب الإبل — ومعنى أبكأ الدرَّ: أتى به بَكِيئًا. ويجوز أن يريد صادفه بَكِيئًا، كما يقال: أحمدتُ فلانًا. والبَكْءُ: قِلّة اللبن. يقال: ناقة بَكِيئةٌ، وهى ضدُّ الغزيرة — فأنتَ فى ضلالٍ ما دام تضييعُ المال منك ببالٍ. فأجبتُها وقلتُ منكِرًا عليها، ورادًّا لكلامها: وهل يُسَمَّى جامعُ المال إذا فرّقه ضالاًّ، وكاسبُه إذا أنفقه فيما يريده ويهواه مضيِّعًا. وانتصَب «ضَلَّةً» على المصدر، وهو فى موضع الحال، ويجوز أن يكون مصدرًا لِعِلّةٍ، فيكون مفعولاً له. وإنما أعادَ قوله «تقولُ» إيذانًا بتفنُّنها فى المَلام، وتوسُّع مجالها فى الكلام. وقوله «هل ضَلّةٌ» خبر مقدم، وأن ينفِق المال فى موضع المبتدإ. والتقدير: وهل إنفاقُ كاسبِ المال له ضلالٌ.

٧٧٩

وقال مُزَعْفِرٌ:

١ ـ وإنى لأُسْدِى نِعْمَتى ثم أبتَغِى لها أُختَها حتى أَعُلَّ فأَشْفَعا[1]

٢ ـ وأجمَلُ نُعْمَى ما فعلتُ ذَمَامَةً علىَّ وآتِى صاحِبِى حيثُ وَدَّعا

قوله «وإنى لأُسدِى نعمَتى»، يقول: إذا اصطنعْتُ عند إنسانٍ صنيعةً، وأوليتُه لاتّصال رجائه بى عارفة، لم أرضَ بإفرادها، لكنى أطلُبُ لها توابعَ ولواحق، حتى تصيرَ النِّعمةُ عنده شَفْعًا لا وِتْرًا، والإحسانُ إليه مكرَّرًا لا بِدْعًا، كلُّ ذلك تلذُّذًا بالإفضال، وشهوةً فى إسداء العُرفِ والإجمال. ويقال: شاةٌ شافعٌ، إذا كان معها ولدُها. والعَلَل: الشُّرب الثانى. والنَّهَل: الشُّرب الأوَّل، فاستعارَه لإتباع الصَّنيعة بمثلها.

(١) التبريزى: «وأشفعا».

«وأجعلُ نُعْمَى ما فعلتُ ذَمامةً» ، أجعلُ : أسمِّى ، من قول الله عزّ وجل : ﴿ وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ . ويجوز أن يكون بمعنى أصيِّر ، كأنه يعتقد فى الإحسان أنه إساءة . والذَّمامةُ : الذَّمُّ[1] . والذِّمام ، بكسر الذّال : الحُرمة . والمعنى : أتذمَّم من نُعماىَ[2] عند غيرى ، لأنِّى بالغًا ما بَلَغْتُ أكون لنفسى مُستقصِرًا ، ولفعلى مُستزِيدا ، فلا أعتدُّ بما أُسْدِيه ، ولا أتحمَّد بالإنعام فيه ، ولكنّه[3] أعُدُّه كالوَصْمة التى يُتذمَّم منها .

وقوله « وآتِى صاحبى حيثُ وَدَّعا » ، يريد أنَّ من يستغيث بى أُجيبُه وأُغيثه أشدَّ ما كانَ حاجةً إلىّ حينَ وَدَّعَ أهلَه وعشيرَته ، ليأسِه من الدُّنيا وتوطينه النَّفْسَ على الهُلْكِ والرَّدَى ، فآتيهِ مُستَنقِذًا ومُحامِيًا ، ومنتعِشًا ومُراميًا . وقوله « حيث ودَّعا » ، يجوز أن يكون للزَّمان والمكان جميعا . وقد تقدَّم القول فيه[4] . وقد جعَل « وَدَّع » بمعنى مات ، وبيت مُتمِّم يشهدُ له ، وهو :

* فقد بانَ محمودًا أخى حينَ وَدَّعَا[5] *

٣ـ وإنِّى بما يَفِى من الزادِ أهْلَهُ   أقابلُ بَذْلَ المالِ حِلْسَاهُ أجْمعا[6]

يقول : إنِّى أقابلُ بما يكون فيه كفايةُ الأهل من الزَّاد بَذْلَ حِلْسَىِ المالِ كُلِّه . فقوله « حلساه » فى موضع الجرِّ على أن يكون بدلاً من المال ، ويكون على لغة من يجعل المثنَّى بالألف فى موضع النَّصب والجرّ . و « أجْمَعا » فى موضع

(١) كذا . والذى فى اللسان أن « الذمامة » : الحياء والإشفاق من الذم واللوم . وهذا هو الأوفق .

(٢) ل : «نعمائى» .

(٣) ل : « ولكنى » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٨٨٦ .

(٥) فى الأصل : « قد » ، وصواب إنشاده من المفضلية ٦٧ : ٢٢ . وصدره :

* فإن تكن الأيام فرقن بيننا *

(٦) هذا البيت لم يروه التبريزى . وفى الأصل : « وما يكنى » والأوفق ما أثبتناه من ل .

الجر، ويكون تأكيداً للمضمر المتصل بجلساه. وذلك أن تجعله تأكيداً للمال أجود من هذا أن تجعل جلساه مرتفعاً بقوله بذل، فيكون فاعلا. وقد أضاف المصدرَ إلى المفعول، كقولك: أعجبنى ضربُ زيدٍ عمرٌو. وجعلَ الجلسَ باذلا[(1)] وإن كان الفعلُ لصاحبه، على السَّعة، ويكون التقدير: أنِّى أقابلُ بما يُكتفى به من الزَّاد وأنْ يَبذُلَ جِلسَا المال جميعَ ما يحويانِه، ويكون على هذا أجمع تأكيداً للمضمر المتصل بجلساه لا غير. والمعنى: إذا حصَلَت الكفايةُ لأهل الزَّاد فإنِّى أنقُضُ الوعاء الجامعَ المالَ، وأفرِّق كلَّ ما فيه، أى أقتصِرُ على الكفاية، وما تعدَّاه أعُدُّهُ فضْلًا. والحِلْسُ: الواحد من أحْلاس البيت. قال الخليل: وهو ما يُبسَط تحتَ حُرِّ المَتاع من مِسْحٍ وجُوالِقٍ ونحوِها.

٧٨٠

وقال عارِقٌ الطَّائىُّ[(2)]:

١ - أَلا حَىِّ قَبْلَ البَيْنِ مَنْ أَنْتَ عاشِقُهْ ... ومَنْ أنتَ مُشتاقٌ إليه وشائِقُهْ

٢ - ومَنْ لا تُواتِى دارُهُ غيرَ فَيْنَةٍ ... ومَنْ أنتَ تَبكِى كُلَّ يومٍ تُفارِقُهْ

افتتح كلامه بألا، ثمَّ قال: جَدِّد عهدَك بصاحبك وسَلِّم عليه، قبل أن تَحُولَ النَّوَى بينكما فيُهَيِّجَ شوقَك تعشُّقُك له، وبُعْدُ الدَّارِ منه، وتُهيِّجُ شوقَه لمثلِ ذلك، لأنَّ جميعَ ما أقوله من مُقتَضَيات صفاء المِقَةِ، واستحكام المحبَّة.

وقوله «ومَنْ لا تُواتى دارُه غيرَ فَيْنَةٍ» الأحسن أن ترفع الدَّار بتُواتى يريد مَن لا تقاربُك دارُه إلاَّ ساعةً لا تَطُوعُك الزِّيارةُ إلاَّ فيها. والفَيْنةُ:

---

(١) ل: «فاعلا».

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٠٤ ص ١٤٤٦.

الوقت، ويكون معرفةً ونكرة، وقد مرّ القول فيه[١]، وأنّه يجرى مجرى الصّفات فى ذلك إذا جُعلت أعلاماً كالحارثِ والعبّاسِ. وذلك أن تنصب «دارَه». والمعنى تبكيه أو تبكى عليه، وكذلك «تُفارقه» أريد تُفارقُ فيه فحذف مفعول الفعلين. ولا يمتنع أن يُجعل «كلّ يوم» مفعول تبكى. والمعنى تتأسّف على كلّ يومٍ تفارقُه فيه. فتبكيه شوقاً إليه، إذْ كان التّوديعُ جَمعَك وإيّاه فيه. ويُكتفى فى هذا الوجه بالضّمير العائد من تفارقه، فأمّا إضمار «فيه» فى «تفارقه» فلا بدّ منه. وقوله «منْ» وقد كرّره فى البيتين جميعاً مِراراً، يجوز أن يكون بمعنى الذى، والجُمَل بعدَه فى صِلَتهِ، كأنه قال: حَيِّ الذى أنت عاشِقُهُ والذى أنتَ مشتاقٌ إليه وشائقه والذى أنتَ كذا. ويجوز أن يكون نكرةً فى معنى إنسان، ويكون الجُمَلُ بعده صفاتٍ له. يريد: حيِّ إنساناً هذه صفتُه. فأمّا تكريره له فهو على طريق التّعظيم والتفخيم. وهكذا العادةُ فيما يُهوَّلُ أمرُه من مَرجُوٍّ أو مَخُوف.

٣ ــ تَخُبُّ بصَحْراءِ الثُّوَيَّةِ نَاقَتِي ... كعَدْوِ رَبَاعٍ قد أَمَخَّتْ نواهقُهُ[٢]

٤ ــ إلى المُنْذِرِ الخَيرِ بنِ هِنْدٍ نَزُورُهُ ... ولَيسَ مِنَ الفَوْتِ الذى هو سابِقُهْ[٣]

يقول: تَسيرُ ناقتى الخبَبَ — وهو ضربٌ من العدْو — فى هذه الصحراءِ تَخْتِي، عدْوَ فرسٍ، أو عَيْرٍ قد أربَعَ. والإرباعُ بينَه وبين القُروح سَنَةٌ، فكأنّه أراد استحكامَ شبابِه وقوّتِه، إذْ ليس بينَه وبين النِّهاية وهى القُروح إلاّ سنَةٌ. ومعنى «أَمخَّتْ نواهقُهُ» أى قد أطاعه العَلَفُ أو المرْتَع[٤] فصارَ

(١) انظر ماسبق فى ص ١٥٧٢.

(٢) الثوية، بهيئة التصغير، كما هنا، وتقال أيضاً بوزن غنية، وهو ضبط نسخة التبريزى. قال ياقوت: «موضع قريب من الكوفة».

(٣) التبريزى: «تزروه».

(٤) ل: «والمرقع».

لِعظامه مُخٌّ ، والنَّواهِقُ : عَظْمَانِ فى السَّاقِ ، وفى غير هذا المكانِ ما يكتنف الخياشيمَ من الدَّابّة ، والواحدة ناهِقَةٌ .

وقوله « إلى المنذر » تعلَّق بتَخُبُّ والخَيْر من صفته ، وهو الذى تأنيثه خَيْرَةٌ . ولا يمتنع أن يكون مخففا من الخيِّر ، كما يقال لَيْنٌ ليِّن ، وهَيْنٌ وهَيِّن . و « نزور » فى موضع الحال ، ويريد المنذر بن ماء السماء . وقوله « وليس من الفَوْت الذى هو سابِقُهْ » أراد سابقٌ به ، وفى الكلام وعيدٌ .

ولهذا الشِّعر (١) قصّة ، وهو أنَّ الملك كان غزا أرضًا فأخفق ، وفى مُنصَرَفه دَثَر بطائفةٍ من طيِّئ كانوا فى ذمَّته وعهده ، فأراد تجاوُزَهم فقال بعضُ نُدَمائه له : استغنمهم وأَوقِعْ بهم . فقال : إنَّهم فى ذمَّتى ! فلم يزَلْ يقرِّب الأمرَ فيه معه حتّى استباحَهم . لذلك توعدَّ فقال : ما سَبَق به لا يَفُوت تدارُكه .

٥ ـ فإنَّ نساءً غيرَ ما قال قائلٌ غَنيمةُ سَوْءٍ وَسْطَهُنَّ مَهارِقُهْ

٦ ـ ولو نِيلَ فى عَهْدٍ لنا لَحْمُ أَرْنَبٍ وَفَيْنَا وهذا العهدُ أنت مُعَالِقُهْ

٧ ـ أَكُلُّ خَمِيسٍ أخطأَ الغُنْمَ مرَّةً وصادَفَ حيًّا دائنًا هو سائقُهْ

قوله « غير ما قال قائل » ، يجوز أن يكون صفة للنساء . وقوله « غَنيمة سَوْء » يرتفع على أن يكون خبر مبتدإ ، كأنَّه قال : هُنَّ غنيمةُ سَوء ، حكايةً لكلام القائل الذى ذكره . وإضافةُ الغنيمة إلى السَّوْء يكون على طريق الإزراء والاستحقار . وقوله « وَسْطَهُنَّ مَهارِقُه » ، الجملة فى موضع خبر إنَّ ، فيكون المعنى إنَّ نساءً مخالِفَةً صفتُها لما قاله قائل ، يعنى مَنْ حَسَّن فى عين الملك الإيقاعَ بهنّ هُنَّ غنيمةُ سوءٍ معهنّ كُتُبُ العهد والذِّمّة اللذين يُخْرِجن بهما عن كونهنّ غنيمة . فهذا وجه . ويجوز أن يكون « غنيمةُ سَوْء » خبرَ إنّ ، و « وسطهنّ

(١) فى الأصل : « الشاعر » ، صوابه فى ل .

مهارقُه » من صفة النساء ، وقد فَصل بين الصفة والموصوف بخبر إنّ ، وغير ماقال قائل ينتصب على المصدر ، فيكون مؤكّداً للقصة ، والتقدير : إنّ نساءً وسطهن مهارقُه غنيمةُ سَوء ، غيرَ قولِ القائل المحسِّن الإيقاع بهن . ويجرى هذا مجرى قولهم : هذا ولا زَعَماتِك . أى هذا هو الحقّ لا ما تزعُمه . ويكون المعنى : إن نساءً معهن عهدُك ، ولا أقول ما قاله قائلٌ حسَّنَ الإيقاع بهن ، غنيمةُ سَوء لا غنيمةُ صِدْق . والمهارق : جمع المُهْرَق ، وهو فارسيّة معرّبة . وكانت العرب تَصقُل الثيابَ البيضَ وتكتب فيها كتبَ العهودِ وما أرادوا إبقاءه على الدّهر .

وقوله « ولو نِيلَ فى عهدٍ لنا لحمُ أرنبٍ وَفَيْنا » يقبِّح عندَه ما ارتكبَهُ منهن . فيقول : ولو أُصيبَ لحمُ أرنبٍ فيما تشمَلُه أَذِمّتُنا لوَفَيْنا به . ثم أنت أيُّها الملك تُغالِقُ هذا العهد ، وتَستجيزُ تخطِّيَه ، وتَستحسنُ نقْضَه وتَركَ الوفاء به . وقوله « لحم أرنب » ذكَره تحقيراً وأنه صيدٌ مُستباحٌ .

وقوله « أنت مُغالِقُه » لك أن تروى « مُعالقه » بالعين . والمعنى : وهذا العهدُ الذى معهن متعلّقٌ بذمّتك وفى رقبتكَ حتى تخرجَ منه . ومن روَى « مُغالِقُه » بالغين معجمة ، ويكون من غَلِقَ الرّهْن ، أى أنت مُفسِده ومُحْتبِسُه تاركا للوفاء به .

وقوله « أَكُلَّ خَميسٍ » لفظه استفهام ومعناه تقريع . فيقول : أكلَّ جَيْشٍ أخفَقَ فى وجهٍ قَدّرَ الغُنْمَ فيه ، وصارف فى مُنصَرفه يَّا فى طاعته يَسُوقه ويُوقِعُ به . أى إنّ ذلك غيرُ مُستجاز فى السياسة والدِّيانة ، ولا مُستحسَن فى المروءة ، والغَدر مَغبّته ذميمة ، وعاقبته قبيحة دَميمة .

٨ — وكُنَّا أُناسًا دائنين بغِبْطَةٍ يَسيلُ بنا تَلْعُ المَلَا وأَبارِقُهْ

٩ — فأَقسمْتُ لا أحتلُّ إلّا بصَهْوَةٍ حَرَامٌ عليكَ رَمْلُهُ وشَقائقُه(١)

(١) فى الأصل : « لا أحتك » ، صوابه فى ل والتبريزى .

قوله « دائنين » ، أى آخذين بالطاعة ، مغتبطِينَ بما لنا من الذِّمّة . ويكون « بغِبطةٍ » في موضع الحال . ورُوى : « دائبين » ، وهو أقرب ، ويكون من الدُّؤوب . والمعنى إنّا كُنّا نَسِيرُ مغتبطِين آمنين فرحين حيثُ شئنا . ويدلّ على هذا قوله « يسيلُ بنا تَلْعُ المَلا وأبارِقُه » . وإنما يَقتصُّ حالهم قبل معاهَدَتِه لهم ، ومعاقَدَتِه الذِّمّةَ بينه وبينهم . والمَلا : الصَّحْراء . والتَّلْعَةُ : مسيل ماء ، وجمعها تَلْعٌ ، كجوزَةٍ وجَوْزٍ . والأبارق : جمع الأَبرَق ، وهى المواضع التى قد أُلبِسَتْ حجارةً سُودًا . ومنه حَبْلٌ أبرقُ ، إذا كان ذا لونٍ بين سوادٍ وبياضٍ .

وقوله « لا أحتلّ إلاّ بصهوةٍ » ، يقول : حلَفْتُ لا أَنزِلُ إلا بعيداً من أرضِكَ ، وخارجاً من مَلَكتك ، فى صَهْوَةٍ أو فى مكان عالٍ تَحْرُم عليك جوانبُه وآفاقُه . والشَّقائق : جمع شَقِيقة ، وهى رَمْلَة بين أرْضَين . و « رَمْلُهُ » ترتفع بحرام ، أى يحرم عليك . ولك أن تروى « حرامٌ عليك رَمْلُهُ » فيكون خبرًا مقدمًا ، ورملُه مبتدأ ، والجملة فى موضع الصِّفة للصهوة .

١٠ — حلَفتُ بِهَدْيٍ مَشعَرٍ بَكَرَاته تَخُبُّ بصَحْراء الغَبِيطِ دَرادِقُهْ

١١ — لَئِنْ لم تغيِّرْ بَعضَ ما قد صنعتَم لأَنْتَحِيَنْ لِلعَظْمِ ذو أنا عارِقُه[1]

يقول : أقسمت بقَرًا بين الحَرَم وقد أُعلِمَتْ بَكَراته بعلاماتِ الإهداء . والإشعار ، هو أن يطعَنَ فى أسنمتها فيسيلَ الدَّمُ عليها ، فيُستدَلَّ بذلك على كونه هَدْيًا . وجعل الهَدْيَ دالاًّ على الجنس وما بعده صِفَته . وقوله « تَخُبُّ بصَحراء الغَبيطِ درادِقُه » ، يريد سَوْقَها نحوَ البيت . والدَّرادِق : صغار الإبل . والخَبَبُ : ضَربٌ من السَّير . وجواب القَسَم « لأنتحِيَنْ للعظم » ، ولئن فيما بين القَسَم والمُقسَمِ له موطِّئة للقسَم . فيقول : آليتُ إنْ لم تغيِّرْ أيُّها الملك بعضَ

(١) التبريزى : « لم تغير بعد » ثم قال : « ويروى : يغيِّر بعض » .

صنيعك ، ولم تتدارك ما فاتنا من عذلك ووفائك ، لأقصِدَنّ في مقاتلتك كسْرَ العظْمِ الذى صرتُ أعْرُقُه فينتزَعُ العظْمُ منه . جعل تقبيحه لما أتاه وشكواه[(١)] كالعَرْقِ ، وهو انتزاعُ اللحمِ وما بعده ، إنْ لم يغيِّرْ معاملتَه ، تأثيراً فى العظم نفسه . وقد أحسَنَ فى التوعُّدِ ، وفى الكناية عن فعله وعما يَهُمُّ به بَعْدَه . وقوله «ذو أنا» لُغَتُهم[(٢)] وهو فى معنى الذى ، وأنا عارقُه من صلته ، وقد مضى الكلام فى مثله .

٧٨١

وقال بُرْجُ بن مُسْهِرٍ[(٣)] :

١ـ سَرَتْ مِن لِوَى المَرُّوتِ حَتى تَجاوَزَتْ إلىَّ ودُونى مِنْ قَنَاةَ شُجُونُها

٢ـ إلى رَجُلٍ يُزْجِى المَطِىَّ عَلَى الوَجَى دِقاقاً ويشْقَى بالسَّنامِ سَمِينُها

٣ـ فللقَوْمِ منها بالمَراجِلِ طَبْخَةٌ وللطَّيْرِ منها فَرْثُها وجَنِينُها

اللِّوَى : مسترَقُّ الرَّمل . والمَرُّوت : فَعُّولٌ من المَرْت ، وهو الأرض التى لا تُنْبِتُ شيئاً . وقال الدُّريدىّ : هو المكان القَفْر . وقناة : موضع . وشُجونها : جوانبُها المتقاربة ونواحيها . والشُّجُون أيضاً : الأشجار الملتفّة المتداخِلة . والشَّواجن ، واحدتها شاجنةٌ ، وهى المواضع التى فيها [الشُّجُون[(٤)]] . ومن التَّداخل والالتفاف قولهم : «الحديثُ ذو شجون» . وإنما يُخْبِر عن خَيالٍ زارَه .

وقوله « إلى رَجُلٍ » ، تعلّق إلى بسَرَتْ . ويعنى بالرَّجل نفسَه ، ويُزْجى

(١) ل : « جعل شكواه وتقبيحه لما أتاه » .
(٢) أى لغة الطائيين .
(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ ص ٣٥٩ .
(٤) التكملة من ل .

المطىَّ ، أى يسوقُها . والوَجَى : الحفَا ؛ أى(١) لا يُبقِى عليها ولا يرفُق بها ، لكنَّه يُديم السَّير عليها ولا يَقِيها مع الحفا ولا يُبقِى عليها مما يُهلِكُها . و « دِقاقًا » انتصبَ على الحال ، أى ضوامِرَ مهازيلَ . ويَشْقَى بالسِّنان سمينُها ، أى بالسِّنان له ، فحذف الضمير لأنَّه لا يُخيِّلُ . والمعنى أنَّه لا ينحر سِمَان الإبل للعُفاة والضِّيوف . وقوله « فللقوم منها بالمَراجل طَبْخَةٌ » منها رَجَع الضمير إلى قوله سَمِينُها ، لأنَّه أراد بها الجنس ، وهذا إخبارٌ عن حالتها وقد جُزِرَتْ . فيقول : للوُرَّاد منها طَبْخَةٌ فى المراجل ، وللطَّيرقَرْتُها والولدُ الذى فى بَطْنِها .

٧٨٢

وقال مُلْحَةُ الجَرْمِىّ (٢)

١ ـ فَتًى عُزِلَتْ عَنْهُ الفَواحِشُ كُلُّها ... فَلَمْ تَخْتَلِطْ منه بِلَحْمٍ ولا دَمِ

٢ ـ كأَنَّ زُرُورَ القُبْطُرِيَّةِ عُلِّقَتْ ... عَلائِقُها منْـــهُ بِجِذْعٍ مُقَوَّمِ

يمدحه بالرَّزانة والعَقْل ، ونَقاء الجِسم من العيب ، وصفاء السَّبب والنَّسب من الفُحش . ومعنى عُزِلَتْ نُحِّيَتْ منه فى جانب . ويقال : هو بمعزِل عن هذا الأمر والأصحاب ، فيقول : بُعِّدَتْ عنه الفواحِشُ كُلُّها وصُرِفَتْ ، وجُعِل بينه وبينها حاجزٌ حتَّى لا تَمازجَ ولا تَخالُط ، ولا تدانِيَ ولا تشابُك والقبطُرِيَّة :

(١) فى الأصل : « الذى » ، صوابه فى ل .

(٢) ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٧٣ وأنشد له البيتين الأول والرابع . وأنشد فى اللسان « قرد » البيت الخامس ، وبيتين بعده ، وهما :

إذا شئت أن تلقى فتى اليأس والندى ... وذا الحسب الزاكى التليد المقدم

فكن عمرا تأتى ولا تعدونه ... إلى غيره واستخبر الناس تفهم

ونسبها إلى عدى بن الرقاع يمدح عمر بن هبيرة ، ثم قال : « وقيل هو لملحة الجرمى » وأنشد الأزهرى البيت الخامس ونسبه لابن ميادة يمدح بعض الخلفاء . و « ملحة » ضبطت فى النسختين واللسان « زرر » بضم الميم ، ويفهم من التبريزى أنها بالكسر .

جنسٌ من الثِّياب رفيع . ومعنى البيت أنَّه طويلُ القامة مديد الجسم ، فكأن زُرُور القُمُص من هذا الجِنْس من الثِّياب عُلِّقت منه على جِذْع مقوَّم . أرادَ أنَّ طُولَه طول جِذْعٍ هكذا . وهُمْ يتمدَّحون بامتداد القَوام ، والبَسْطة فى الأجسام .

٣ ـ عَمَلَّسَ أسفارٍ إذا استَقْبَلَتْ لَهُ   سَمُومٌ كَحرِّ النَّار لم يَتَلَثَّمِ[1]

٤ ـ إذا ما رَمَى أصحابُهُ بجَبِينِه   سُرَى لَيلةِ الظَّلْماء لم يَتهَكَّمِ

٥ ـ كأنَّ قُرَادَىْ زَوْرِه طبعَتْهما   بطِينٍ مِنَ الجَوْلانِ كُتَّابُ أعْجَمِ

العَمَلَّس : الجرىء المِقدام ، ويوصف به الذِّئاب ، وكذلك السَّلَمَّع ويوصَفُ به الخبيث من الذِّئاب والكلاب . ويقال : هو عَمَلَّس دَلَجاتٍ ، أى قَوِىٌّ على السَّيْر . وزاد اللام فى قوله « إذا استقبَلَتْ له » تأكيداً ، والأصل استقبَلَتْه . وجواب إذا « لم يتلثَّمِ » وهو العاملُ فيه . فيقول : هو فى السَّفَر بهذه الصفة مبتذِلا نفسَه لا يَتوقَّى من السَّمائم ، ولا يتخشَّى من أنواع المهالك ، فإذا قابلَتْه السَّموم المُحْرِقة إحراقَ النَّار لم يَصُنْ وجهَه منها ، ولا جعَل على محيَّاهُ لِثاماً . واللِّثام : رَدُّ المرأةِ قِناعَها على أنْفها ، وقد تلثَّمت ، وتَلثَّمَ الرجلُ بعمامته . والعَلَثَمُ ماحول الفَم ، وقيل الأنف وما حوله ، واللِّفام : رَدُّ القِناع على الفَم ، وقيل أيضا : هو مثل اللِّثام لا فرق بينهما .

وقوله « إذا ما رَمَى أصحابُه بجبينه » أراد أنهم إذا قدَّموه ليهتدوا به وهم يَسْرُونَ فى ليلةٍ شديدة الظَّلام هائلة لم يَجْبُن ولم يتكذَّب ، ولكنْ تقدَّمَهم وقادَهم على عادته .

وقوله « كأنَّ قُرادَىْ زَوْرِه طبعَتْهما » وصفَهما بالصِّغر ، ثم شبَّههما بطابَعَيْن من طين الجَوْلان ، ويقال إنَّه أسوَدُ ، تولَّى طبعَهما كاتبٌ من كُتَّاب العجم .

(١) فى متن التبريزى : « لم يتثلم » ، ولكن أتى فى التفسير على الصواب كما هنا .

وخصَّهم لأنَّهم حينئذٍ كانوا أحذَقَ بالكتابة وأسبابها. وهم يتمدَّحون بالهُزال وقلّة اللحم. والطَّبع: الخَتْم. والطَّابَع: الخاتَم. وحُكِى: هذا طُبْمانُ الأمير (١)، أى طينه الذى يختِم به.

٧٨٣

وقال بعضهم:

١ — إنَّك يا ابنَ جعفرٍ نِعمَ الفَتَى (٢)

٢ — ونِعْمَ مأْوَى طارقٍ إذَا أَتَى

٣ — ورُبَّ ضَيفٍ طرَقَ الحىَّ سُرَى

٤ — صادَفَ زاداً وحديثاً ما اشتَهَى

٥ — إنَّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى

٦ — ثُمَّ اللِّحافُ بعد ذاكَ فى الذُّرَى

يخاطب بهذا الكلام عبدَ الله بن جعفر بن محمدٍ الصّادق رضى الله عنهم، فيقول: نِعمَ الفتى أنت، أى محمودٌ فى الفِتيانِ أنتَ ومحمودٌ دارك وفناؤك، مأوى الطُّرّاق إذا وَرَدوا. وقوله «مأوى طارقٍ» أضافهُ إلى النَّكرة لأنَّ القصدَ بطارقٍ إلى الجنس، واسمُ الجنسِ فى مثل هذا المكان وأن تنكَّر فائدتُه فائدةُ المعارف، وإذا كان كذلك كان قولُك «مأوى طارقٍ» بمنزلة مأوَى الطُّرّاق. والمحمود هو المُخاطَبُ. ويجب أن يكون فى نِعْمَ ضميرٌ يعود إلى المخاطب، وقد

(١) هذا مما ذكر فى القاموس ولم يذكر فى اللسان.

(٢) الأشطار ما عدا الأخير منها رواها الجاحظ فى البيان (١ : ١٠).

اشتمل عليه قوله نِعْمَ الفَتَى ونِعْمَ مأوى طَارِقٍ ، لأَنَّ فائدة نِعْمَ الرّجل ، محمودٌ في الرجال . فكأنّه قال : إنّك محمودٌ في الفتيان يا ابنَ جعفر . وقد قيل في قول القائل : زيدٌ نعم الرجل : إنه لما كان القصدُ بالرَّجل إلى الجنس ، وكان زيد منهم ، اكتفى بكونه منهم من ضميرٍ يعود إليه .

وقوله « وربَّ ضَيْفٍ طرَقَ الحىَّ سُرى » ، يريد ليلًا ؛ لأَنَّ السُّرَى لا يكون إلاَّ بالَّليل [1] فالسُّرى في موضع ظرف ، واسمُ الزّمانِ محذوف معه ، وهو كقولك : جئتك مَقْدَمَ الحاجّ وما أشبهه . فيقول : ربَّ ضيفٍ أتى الحىَّ راجياً وجودَ القِرى عندَه ، أنزلتَه فصادَفَ في فنائك زاداً عتيدا ، وحديثاً مؤنِسا ، وإكراما مُبِرًّا . وقوله « ما اشتهى » في موضع الظَّرف ، فهو كقوله :

أُحدِّثه إنَّ الحديثَ من القِرَى وتعلمُ نفسِى أنَّه سوفَ يهجع [2]

لأنَّ في قوله « ما اشتهَى » المعنى الذى اشتمل عليه قوله « تَعلم نَفسِى أنَّه سوف يهجع » .

وقوله « إنَّ الحديثَ جانبٌ من القِرى » ، يقول : تأنيسُ الضَّيف بمُلَحٍ من الحديث من أسباب القِرَى وشرائطه ، وخِصاله التى تكمّله وتفضّله .

وقوله « ثُمَّ اللّحافُ بعد ذاك في الذّرَى » ، إشارةٌ إلى إكرامه بما يُفترش له ويُمهَّد به موضعُه . والذَّرَى : الكَنَف .

---

(١) ل : « في الليل » .

(٢) البيت لعتبة بن بجير ، أو مسكين الدارمى ، كما سبق في الحماسية ٧٦١ ص ١٧١٩ .

٧٨٤

وقال الشَّمّاخ (١) :

١ ـ وأشْعثَ قَدْ قَدَّ السِّفَارُ قَميصَه وجَرُّ شِوَاءٍ بالعَصَا غَيْرِ مُنْضَجِ (٢)

٢ ـ دَعَوْتُ إلى ما نابَنِي فأجابَنِي كَرِيمٌ من الفِتْيان غَيْرُ مُزَلَّجِ

يصف مُضيفا . والأشعث : الذى يبتذل نفسَه ولا يصونُها عن التعمُّل ، فيصير مقطوعَ القميص فى السَّفَر ، لتحمُّله عن أصحابه أثقالَ المهَن ، حتّى يتشعَّث ظواهرُه ، ويغبرّ شَعَره ، وترِثّ ثيابُه ، ويختالّ أمره . وقوله : « وجَرُّ شِواء » إشارةٌ إلى تَوَلِّيه من خدمة الرُّفقاء والأصحاب مالا يكون من عمله . وجعلَ الشِّواءَ غيرَ مدرَكٍ لتعجُّله وحرصِهِ على تقديم أمرِهم والتسرُّع فى إطعامهم . ويجوز أن ينتصب « غير » على أن يكون حالاً للنكرة — وهو أجود الرِّوايتين — حتّى لا يكونَ قد فصل بين الصِّفة والموصوف بالأجنبىّ منهما ، وهو قوله بالعَصَا ، لأن التعلُّق بينهما يقارب التعلُّق بين الصِّلة والموصول .

وقوله : « دعوتُ إلى ما نابنى » ، أى استغثت به وطلبت منه الإغاثة على ما نابنى من حَدَثان الدَّهر فأجابَنى منه كريمٌ من الفِتيان غيرُ ضعيفِ المُنَّةِ ، ولا مؤخَّرٍ عن الغاية البعيدة . وأصل التّزليج من قولهم قِدْحٌ زَلُوجٌ ، أى سريع فى الإجالة . أى إذا وقفَ على حَدّ مكرُمةٍ وأشرف على الفَوز بمَنْقبَة لم يُزلَّج عنه ولم يُدْفَعْ منه ، لأنّ الزَّلَج السرعةُ فى المشى وغيره . وكلُّ زالجٍ سريع ، ومنه مِزلاجَ الباب للخَشَبة التى يُغلَق بها .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٨٨ ص ١٠٩٠ ، والأبيات فى ديوانه ٩ — ١٠

(٢) فى الديوان : « وجر الشواء » .

٣ ـ فَتًى يملأُ الشِّيزَى ويُروِى سِنانَهُ ويَضرِبُ فى رَأْسِ الكَمِىِّ المدَجَّجِ
٤ ـ فتًى ليس بالراضى بأدنى معيشةٍ ولا فى بيوتِ الحىِّ بالمُتوَلِّجِ[1]

يقول : هذا[2] المدعوُّ المستغاث به فتًى يملأ الجفان المتخذة من الشِّيزَى للضيوف والرُّفقاء ، ويُروِى سنانَ رمحه من دِماء الأعداء ، وإذا بارزَه فى الحرب القِرنُ التامُّ السِّلاح ، الكَمِىُّ بين الصِّحاب ، غلبَه وركِبَه ، وأتى عليه فأسقطه ، وهو فتًى لا يرضَى فى دُنياه بأقرب الهمَّتين ، وأدْوَن المعيشتين ، ولكن يطلبُ غاياتِ الكَرَمِ ونِهاياتِ الفضل ، ولا يداخِل بيوتَ الحىِّ والمَجاوِرَة ، ولا يخالط النساء للرِّيبة والمغازَلة . يصفُه بالعفّة والجِدّ ، وصيانة النَّفْس ، وارتفاع الهِمّة والهَمِّ عما يُزيل الحِشْمة ، ويدنِّس المروءة .

وقوله « ولا فى بيوت الحىّ » ، جَعَلَ فى بيوت تبييناً ، وقد حصل الاكتفاء بقوله المتولّج ، فيكون موقعُه منه كوقع بك بعد مَرحبًا ، لئلّا يحصل تقديم الصِّلة على الموصول ، وإن شئت جعلت الألف واللام فى قوله «المتولّج» للتعريف ، لا بمعنى الذى ، فلا يحتاج إلى تقديرِ الصلة فى الكلام . وقد مرَّ نظائرُه .

(١) الديوان : « أبل فلا يرضى » .
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « هو » .

باب المدح

باب المدح (*)

٧٨٥

وقال يزيدُ الحارثىّ (١)

١ ـ وإذا الفتَى لاقى الحِمَامَ رأيتَه لولاَ الثناءُ كأنَّه لم يولَدِ

٢ ـ وأتيتُ أبيضَ سابغاً سِرْبالَه يَكفِي المَشاهِدَ غَيْبَ مَنْ لم يَشْهَدِ

يقول: إذا أخلَى الفتَى مكانَه من الدُّنيا وانقضى عمرُه، فانتقل من الأولى إلى الأخرى، فلولا ثناء الناس عليه، وذِكرُه بالجميل الذى يقدِّمه ويُسديه، لنُسِيَ وقتُه وأمَدُه، وصار حكمُه حكمَ من لم يولَد فيعرفَ يومُه وغده، لكنَّ باقيَ الذكر ونامىَ العهد والرَّسم، بما يُنْشَرَ من حديثٍ حسنٍ وقِصَّة، ومَحْمَد من عادةٍ وسُنَّة، هو الذى يُصير به فى حكم الحىِّ الذى لم يَمُت، والمشهود الذى لم يَفُتْ. وقد توصَّل بهذا الكلام إلى إطرائه مَن يتشكَّره والثناء عليه، وهو قوله «وأتيتُ أبيضَ سابغاً سربالُه»، يريد: وزُرت رجلاً كريماً حُرًّا، نقىَّ الحسَب من العُيوب، واسع العِطاف والقميص، لباسُه لباسُ الرُّؤساء والسادة.

وقولُه «يكفى المَشاهِد» يريد أنه ينوب فى مجالس الكبار عمن لا يحضرها، فيحسِّن المَحضَر، ويُقصِّر لسانَ المغتاب. ومثله قول الآخر:

إنَّا لنَذْكُرُ والرِّماحُ تَنُوشُنا تحتَ العجاجةِ مايقال ضُحَى الغَدِ

---

(١) ورد هذا العنوان فى ل فقط. أما التبريزى فقد جعل «باب الأضياف والمديح» بابا واحدا، كما سبق.

(٢) يزيد بن مخرم بن حزن بن زياد الحاثى، من بنى الحارث بن كعب، شاعر جاهلى معجم المرزبانى ٤٩٤.

٧٨٦

وقال دُرَيدُ بن الصِّمَّة (١)

١ — تَراه خَمِيصَ البَطْنِ والزّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ ويَغدُو في القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وقد مرَّت هذه الأبيات مشروحة (٢) .

٧٨٧

وقال آخر :

٢ — كريمٌ رأى الإقتارَ عارًا فلم يَزلْ أخا طَلَبٍ للمالِ حتّي تموَّلا

٣ — فلما أفادَ المالَ عادَ بفَضْلِهِ على كلِّ مَنْ يرجو جَداهُ مُؤمِّلا

الإقتار : نقيض الإكثار . يقال فلان مُكثِرٌ ، وفلان مُقتِرٌ . وكذلك التَّقتير عقيب التَّكثير . ويقال : قَتَرَ على أهله وأَقْتَرَ ، إذا ضَيَّقَ عليهم في الإنفاق ، وفي القرآن : ﴿ والَّذِينَ أنفَقُوا لم يُسرِفُوا ولم يَقتروا ﴾ ، قُرِئَ بضم الياء وفتحها على اللغتين . يقول : لمَّا رأى في ماله القصورَ والعجزَ عن مدى همّه ، رأى ذلك عارًا ومنقصة ، فلم يزلْ يمتطي المَرَاكب الشَّاقّة (٣) طالبًا للمال ، ويديم الحَلَّ والتَّرحالَ في كَسْبه وجمعِهِ ، حتَّى إذا استغنى ونال مُناه ، لم ينفرِدْ به دونَ مؤمِّليه ، ولم يجعَلْه مقصورًا على لذَّاته ومباغيه ، ولكن عادَ بفضلُ

(١) وردت هذه المقطوعة في الأصل بيتا واحدا كما هنا ، وعند التبريزي أربعة أبيات ، فبعد هذا البيت عنده :

وإن مسه الإقواء والجهد زاده سماحا وإتلافا لما كان في اليد
قصير الإزار خارج نصف ساقه صبور على العزاء طلاع أنجد
قليل التشكي للمصيبات حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

(٢) انظر الحماسية ٢٧١ ص ٨١٨ — ٨٢٠ .

(٣) هذا الصواب من ل . وفي الأصل : « العاتقة » .

عليهم ، وأقبل يُشرِكهم فيه ويعطيهم . ويقال أفاد بمعنى استفاد . والجَدَا والجَدْوَى : العطيّة .

٧٧٨

لمَّا أُتِيَ يزيدُ بن عبد الملكِ بآل المُهَلَّبِ (١) قام (كُثَيِّر) بينَ يديه فقال :

١ ـ حَلِيمٌ إذا ما نال عَاقَبَ مُجْمِلًا ... أَشَدَّ العِقابِ أو عَفَا لم يُثَرِّبِ

٢ ـ فَعفواً أميرَ المُؤْمنين وحِسْبَةً ... فما تَحتَسِبْ مِن صَالحٍ لكَ يُكْتَبِ (٢)

٣ ـ أساءوا فإنْ تَغفِرْ فإنَّكَ أهْلُه ... وأَفْضَلُ حِلْمٍ حِسْبَةً حِلْمُ مُغْضَبِ

يَصِفُه بكرم النَّفْس وكَظْمِ الغيظ ، واستعمالِ الحلم في وقته ، والانتقام من الأعداء بأشدِّه في إبّانه وحِينه . فيقول : إذا نالَ الجانيَ عليه ، أو العدوَّ المكاشِحَ له ، عاقَبَهُ وهو مُجْمِلٌ ، أي لا يشتطُّ ولا يُسْرِف ، ولكن ينتهج طُرُقَ العدْل في الانتقام ، ويَقصِدُ الحقَّ في إقامة الحدِّ عند التمكُّن واللِّزام ، وذلك أشدُّ ما يُعَاقِبُ به مثلُه ، أو عفا عنه غيرَ موبِّخٍ على ذَنبه ، ولا مكدِّرٍ نعمته في عَفْوِه . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ : لا تخليطَ ولا إفساد . وقال غيره : لا تعيير ولا توبيخ .

وقوله « فعفوًا أميرَ المؤمنين » طَلَبٌ وسُؤال ، وانتصاب عَفْوًا على المصدر . فيقول : اعْفُ وقد قَدَرْتَ ، واحْتَسِبْ عند الله بما تأتيه ، فهو مكتوبٌ لك إلى يومِ فاقتك ، ومُدَّخَرٌ إلى وقت مجازاتِك ، فكما تعفو يُعْفَى عنك .

وقوله « أساءوا فإن تغفِرْ » ، اعترافٌ بالذَّنْب ، واستعطاف بالغَفْر . فيقول

(١) كان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة قد خرج على يزيد بن عبد الملك وأعلن خلعه ، والتقت جيوشه بجيوش الخليفة في العقر من أرض بابل ، وكان القتال شديداً قتل فيه ابن المهلب وانهزم جيشه ، وذلك في سنة ١٠٢ .

(٢) التبريزي : « فما تكتسب » .

إن تجافيت عن إساءتهم واستعملت ما أنت أهله من العفو عنهم ، فإنَّ ذاك هو الموجوُّ منك ، والمعتادُ من نَظَرِك ، وأفضل الحِلْمِ احتساباً وأجراً حِلْمُ المغيظ ، والمضجَر المتلّك[١] .

فرُوِىَ أن يزيدَ لما قَرَعَ سمعَه هذه الأبياتُ قال : لولا أنَّهم قدَحُوا فى المُلْكِ لعفوْت عنهم[٢] .

٧٨٩

وقال يزيدُ بنُ الجهْم :

١ ـ تسائلنى هَوَازِنُ أين مَالى ... وهل لِى غَيْرَ ما أنفقْتُ مَالُ

٢ ـ فقلتُ لها هَوَازِنُ إنَّ مالى ... أَضرَّ به المُلِمَّاتُ الثِّقالُ

٣ ـ أَضَرَّ به نَعَمْ ونَعَمْ قديماً ... على ما كان من مَالٍ وَبَالُ

يقول : تباحِثُنى هذه القبيلةُ عن حالى ، وتسائلنى عن وجوه غِناى ، ومَصارِف مالى . وهذا إخبارٌ عنهم وعن مباحَثتهم واستكشافهم فى إنكارهم . وقوله « وهل لى » استفهام على طريق النَّفى ، كأنه قال : ومالى مالٌ إلا ما أتلفتُه ووضعتُه حيث اخترته . وهذا اعتراضٌ بين الابتداء من هوازن فى السُّؤال وبين ما أتى به فى الجواب ، وهو قوله « فقلت لها هوازن » . وانتصب غيرَ على أنه استثناء مُقدَّم ، كأنه لم يعتدّ بما فَضَلَ له عن مآربه ، وبقى عنده فى جواب مطالبه . والمعنى أنَّه لا مالَ له إلَّا ما أنفقه وقدَّمه لا ما يُسأل عنه .

وقوله « فقلت لها هوازن » ، يريد أجبتهم وقلت : مالى أفناه ما نزَلَ بى

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل . « المتلل » .

(٢) التبريزى : « فقال له يزيد : أطت بك الرحم ! اى عطفتك عليهم . ولولا أنهم قدحوا فى الملك لعفوت عنهم » .

من المُلِمّات الفادحة، والنّوائب المجحفة، وأَضرَّ به قولى فى جواب السُّؤّال والوُرّاد: نَعَم، إيجاباً لهم، وإسعافاً بمقترحاتهم. وهذه اللفظة وَبالٌ على الأموال معروفٌ فيما تقادمَ من الأزمان. وانتصب «قديمًا» على الظّرف، والعامل فيه ما اشتمل عليه قوله «على ما كان من مالٍ وَبالُ».

ونعَم: حرفٌ وضع للإيجاب، ونقيضه لا. وقد جعله الشاعر على هيئته منقولاً إلى باب الأسماء، فهو فاعلٌ لأضرَّ، ومبتدأ فى قوله «ونعمْ قديمًا» والخبر وبال.

فأما قول أبى تَمّام:

تقولُ إن قُلتم لا لا مسلِّمةً لأمرِكمْ ونَعَمْ إنْ قُلْتمُ نَعما[1]

فقد عِيبَ عليه قوله نعما، وليس كما ظُنَّ، لأنّه لمّا نقَلَها وَجعلها اسمًا نصَبها بقُلتمُ، على حدِّ قولك: قلتُ خيراً وقلتُ شرًّا.

ويجوز أن يكون «قديما» انتصب على الصِّفة المتقدِّمة، أى نَعم وَبالٌ قديم على الأموال، فلما قدَّمه نصبه. ومثلُه:

* لمَيّةَ موحِشًا طَلَلُ[2]

٧٩٠

وقال أعرابىّ:

١ ــ ألا فَتى نال العُلا بهمِّهِ
٢ ــ ليس أبوهُ بابنِ عمِّ أُمِّهِ
٣ ــ ترى الرِّجال تهتدى بأَمِّهِ

(١) فى الديوان ٣٠٥: «مسلمة لقولكم».
(٢) البيت لكثير عزة، كما سبق فى حواشى ١٦٦٤.

قوله « أَلَا فَتَى » تمن ، وألف الاستفهام دخل على النافية لهذا المعنى ، ولذلك حذف التّنوين من فتى . ومعنى « نالى العُلا بهمَّة » أى صرفَ همَّه ، وشَغَل نفسَه بما ابتنى به العُلَا ، وعَمَر به مكارمَ قومه وذَوِيه .

وقوله « ليس أبوهُ بابن عمِّ أُمِّه » ، هو المعنى الذى ورد به الخبر : « اغتَرِبُوا لا تُضوُوا » ، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الولدَ إذا حصَلَ بين متشارِكَيْن فى النَّسب متقارَبين ، جاء ضاويا .

وقوله « تَرَى الرِّجالَ تهتدى بأَمِّه » ، أى تراهم يَطَوُون عقبَه ويقدِّمونه فيهتدون بقصده ، ويقتدون برسمه ، لرياستِه وفَضْله .

٧٩١

وقال ابنُ المولى (١) ، ليزيد بن حاتم (٢)

١ — وإذا تُباعُ كَرِيمةٌ أو تُشتَرى فسِوَاكَ بائعُها وأنت المشتَرِى

٢ — وإذا توعَّرَتِ المَسَالكُ لم يكنْ منها السَّبيلُ إلى نَدَاكَ بأَوْعَرِ (٣)

يقول : إذا قامت سوقُ المكارم ، وثارَ رهجُ المغانم بين طلاب المعالى وتجَّار المحامد ، فغيرُكَ مِن حاضريها يزهد فى حَوْز المكرُمات ، ويرفعُ يدَه عنها فكأنَّه يبيعها؛ وأنتَ تحصِّلها وتجمع يدَكَ عليها ، وتفوز بابتياعها وإن كانت بأغلى الأثمان ، وأثقل السِّيم (٤) ، فلا رغبةَ إذا نظَرْنا فى مَجامعِ المجد ، واعتبرْنا

(١) هو محمد بن عبد الله بن مسلم بن المولى ، من الأنصار . شاعر متقدم مجيد من مخضرمى الدولتين ومداحى أهلهما ، وقدم على المهدى وامتدحه بعدة قصائد ، فوصله بصلات سنية . الأغانى (٣ : ٨٥) .

(٢) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

(٣) التبريزى : « لم تكن » . والسبيل تذكر وتؤنث .

(٤) بكسر ففتح : جمع سيمة بالكسر ، وهو الاسم من السوم فى البيع .

فيها دَواعىَ طُلاب الثَّناء والحمد، كرغبتك. وقوله: تُباعُ أو تُشترى. أوْ بمعنى الواو، فهو كما يكتب فى العقود: «وكلُّ حقٍّ له داخلٍ أو خارجٍ».

وقوله «وإذا توعَّرت المسالك»، يريد وإذا اشتدَّ الزَّمان وانسدَّت الطُّرُق إلى من يتندَّى ويَشتهِر بفعل المعروف، لشُمول القَحط وإمحال الناس، فعادَتْ مسالكُ الجُود وَعْرةً لا يمكن قطعُها، ولا الوصولُ إلى أسباب الخير منها، كنتَ قريبَ المأخذ، سهلَ الفِناء، حسنَ الإقبال على مُجتَديك، جميلَ الاشتمال على قُصَّادك وزائريك، فلا تُستَحزَنُ أرضُك، ولا يُستَوعَر جنابُك. وتوعَّرَت، من قولهم: طريق وعْرٌ، أى غليظ. وقد وَعِرَ يَوْعَر. وطريق أوْعَرُ، من هذه اللُّغة.

٣ — وإذا صنَعْتَ صَنيعةً أتممتَها بيــدَينِ ليس نَدَاهُما بمكدَّرِ

٤ — وإذا هَمَمْتَ لمُعْتَفيك بنائلٍ قالَ النَّدَى فأطعتَهُ لَكَ أكْثِرِ

٥ — يا واحدَ العَرَبِ الذى ما إنْ لَهُمْ من مَذْهبٍ عنه ولا من مَقْصَرِ

قوله «وإذا صنعتَ صنيعة»، يقول وإذا اتَّخذتَ عند إنسانٍ يداً وأزْلَلتَ إليه نعمة، فإنك لا تُخْدِجُها ولا تترك تربيتَها، لكنَّك تكمِّلُها وتقوم بعمارتها، مصُونةً من المَنِّ والتَّكدير، صافيةً من الشَّوائب والتعذير؛ ومتى نويت لمُجتَدِيك الإفضالَ عليه اقتضاكَ كرَمُك والنَّدَى [الذى(١)] هو همُّك وسَدَمُك، وقالا وأنت تُطيعُهما وتوجب مرْسُومَهُما: أكْثِرْ له ليستغنىَ عن غيرك ويَخلُصَ المنُّ لك.

وقوله «يا واحدَ العرب» يجوز أن يتَّصل بقول النَّدى(٢) ويكونَ الشَّاعرُ حاكيا، ويجوز أن يتصل بمخاطَبة الشَّاعر، والقصد فى الدُّعاء والتَّخصيص

(١) التكملة من ل.
(٢) يريد أنه مقول لقال الندى. وفى الأصل: «بقولِ الندى»، صوابه فى ل.

والإطراء . والمعنى أنَّه واحدُ العَرَب لا نظيرَ له فيهم ، فهو المنظور إليه[1] من بينهم ، فلا مَعْدِلَ عنه فى المُهمّات . ولا مَقْصِرَ دونه فى المُلِمَّات . والمَقصِر : الكفُّ والإمساك .

٧٩٢

وقال المُعذَّلُ[2] :

١ - جَزَى اللهُ فِتْيانَ العَتيكِ وإن نَأَتْ بِيَ الدّارُ عنهم خَيْرَ ما كانَ جازِياً

٢ - هُمُ خَلَطُونِي بالنُّفوسِ وأكرموا الـ صَّحَابةَ لمّا حُمَّ ما كُنتُ لاقيا[3]

كان المعذَّل أُخِذَ بِجُرم ، فكفل عليه النَّهْسُ[4] بن رَبيعةَ العَتَكيّ ، وكان حيثُ كَفَلَ عليه : دُفِعَ إليه لحمله على فرسٍ وبَغْل ، وأمَرَه أن ينجُوَ بدمه وأسلَمَ ، نفسَه مكانَه ، فقال المعذَّل : اختر أنْ أمتدِحَكَ أوأمتدحَ قومك . فاختار امتداحَ قومه ، فقال : تولَّى اللهُ عنِّى جزاء فتيان العتيكِ ، فقابَلَهم بخيرِ ما يُجازِى به مُستحِقًّا لجزاء ، وإنْ بَعُدْتُ عنهم ، وتناءت دارِى عن دارهم .

ثمَّ أخذ يقتصُّ ما عُومِل به فذَكَرهم وقال : الذين خَلَطونى بأنفسهم ، وأسقطوا الحِشمةَ بينى وبينهم ، فجعَلونى أشارِكهم فى خيرهم ، ولا أتفرَّد بالضَّير فيهم ؛ ثم إنَّهم صاحبونى مصاحبةً كريمة لمَّا قُدِّر لى ما كُنتُ أكابدُه ،

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كالمنظور إليه » .

(٢) هو المعذل بن عبد الله الليثى ، كما ذكر التبريزى . وقال المرزبانى فى معجمه ٣٨٨ : « المعذل البكرى أحد بنى قيس بن ثعلبة ، إسلامى » ثم قال : « وقدم على المهلب بخراسان فقال لمن حضره : يا معشر الأزد ، هو الذى يقول ... وأنشد هذه الأبيات . فجمعوا له خمسين وصيفاً ، وأعطاه المهلب مثلها » . وانظر خبراً عنه فى الشعراء ٢٩ ، ٨٣ .

(٣) المرزبانى : « ما كان آتياً » .

(٤) وكذا عند التبريزى . وعند المرزبانى : « النهاس » .

فضَمُّونى إلى أنفسهم متكفّلين بى ، وصابرين على المكروه دونى ، ثم فكّوا أسرِى وأبلغونى مأمنى .

فإن قيل : ما فائدةُ قوله « وإنْ نأت بىَ الدّارُ عنهم » ؟ قلتَ : أراد أنّه لا يشكرهم مُقارِضاً ولا طامعا فيؤثّر فيما هو الغرضُ فيه قُرْبُ الدّار وبُعْدُها ، بل يؤدِّى حَقَّ نِعمةٍ ، ويقضى لازمَ فريضة . وقوله « لمّا حُمّ » يجوز أن يكون ظرفًا لأكرموا . ومعنى حُمَّ قُدِّر .

٣ — هُمْ يُفرِشُونَ اللِّبْدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ وأجْرَدَ سَبَّاحٍ يَبُذُّ المُغالِيَا

٤ — طَعامُهُمُ فَوْضَى فَضاً فى رِحالِهِمْ ولا يُحسِنُونَ السِّرَّ إلا تَنادِيا

٥ — كأنّ دَنانيراً على قَسِماتِهِمْ إذا الموتُ للأبطالِ كانَ تَحاسِيَا

ذكر ما شاهدهم عليه فى مُجاوزتهم ، ويَجْرُون عليه فى عاداتهم ومَصارفهم ، ويَنْتقلون فيه أوقاتَ حَفْلهم . وعند خَلوتهم ، وفيما ينوبهم من نائبةٍ تخصُّهم أو تعمُّهم . فقوله « يُفرِشون اللِّبْد » بضمّ الياء ، أى يجعلون اللِّبْد فِراشاً لظهر كلِّ رَمَكةٍ ونابة ، وكلِّ فحلٍ كريم سَبّاحٍ فى عدوِهِ غَلّابٍ لمُبارِبه فى الغُلُوِّ ، سبّاق فى الرِّهان يَحُوز قَصَبَ التقدُّم والعلوّ .

ويقال : فَرَشْتُ الفِراشَ وأفرشَنيه فلان ، وافترشت الأرضَ والمرأة . وروى بعضهم : « هم يَفرِشون » بفتح الياء ، وقال : أراد يَفرِش اللِّبْد على كلّ طِمِرّةٍ فحذف الجار . قال : ويقال فرشْتُ ساحَتى الآجُرَّ وبالآجُرّ .

وقوله « يَبذُّ المغاليا » إن ضممت الميم جاز أن يُراد به السهمُ نفسه أو فرسٌ يُغاليه . وجاز أن يراد به الرّافع يَدَه بالسَّهم يريدُ به أقصى الغاية . ويقال : بينى وبينه غَلْوَةُ سهم ، كما يقال قِيدُ رُمْح وقابُ قوس . وإن فتحتَ الميم يكون جمعا للمَغْلاة ، وهى السهم يُتَّخذ للمغلاة . والمعنى يسبق السَّهمَ فى غلوته .

ومُراد الشَّاعر أن سعيَهم مقصورٌ على تفقُّد الخيل وخِدْمتها ، والتفرُّسِ على ظهورها .

وقوله « طعامهُم فوضَى فضًا » فوضَى من فوَّضتُ الأمرَ إليك . والفضا من فَضَت الأرضُ ، إذا اتَّسعت ؛ ومنه الفضاء ، وأفضَيْتُ إليه بكذا . والمعنى أنَّ الطعام عندَهم وفيهم لا يُكالُ ولا يوزَن ، ولا يُقتَسم ولا يُفْرَز ، بل يأكله في رحالهم كلُّ من احتاجَ إليه ، غيرَ ممنوعٍ عنه . وقوله « ولا يُحسِنُون السِّرَّ إلَّا تناديا » ، أي لا رِيبةَ في أقوالهم وأفعالهم فيَخفِضُوا الصَّوتَ بما يتخاطَبون به ، فعلى هـذا يكون تناديًا مستثنى ، ويكون التقدير : لا يحسنون السِّرَّ لكنَّهم يتنادون . ويجوز أن يكون « تناديا » في موضع الحال ، ويكون من باب :

* تحيةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيع[(١)] *

و : * أُعتِبُوا بالصَّيْلم[(٢)] *

وما أشبههما .

وقوله « كأنَّ دنانيراً على قَسماتِهم » فالقَسِمة : الوجه . ويقال : وجه مقسَّم ، إذا وُفِّيَ كلُّ جُزءٍ منه حظَّهُ من الحسن . يريد أنَّ الشَّدائد لا تَكسِرُ شوكتَهم ولا تغضُّ أبصارَهم ولا تَغيض مياهَ وُجُوههم[(٣)] ، بل يزدادُون على طول المِراس والجِذب حُسْنا ونشاطاً . فكأنّ سَحَناتِهم غُشِّيت بالدَّنانير إشرافاً ونوراً ، في وقتٍ تتحامى[(٤)] الأبطالُ فيه الموت . وهذا مَثَل للشِّدَّة وقد وُطِّنت النُّفوس عليها ، وذُلِّلت لها . أي تشرب الشُّجعانُ كُؤوسَ الموت حَسَوات .

(١) البيت لعمرو بن معديكرب ، كما سبق في حواشي ٢٤٦ ، ٥٨١ ، ٦٤١ ، ١٣٨٧ . وصدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٢) قطعة من بيت لبشر بن أبي خازم في اللسان (صلم) . وهو بتمامه :

غضبت تميم أن تقتل عامر ... يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

(٣) ل : « ماء وجوههم » . وغاض من الأفعال التي تلزم وتتعدى . يقال غاض الماء ، كما يقال غاضه ، أي نقصه .

(٤) هذا الصواب من الأصل . وفي ل : « تحامى » بالميم .

٧٩٣

وقال بعضهم :

١ — وزادٍ وَضَعتُ الكفَّ فيه تأنُّساً ... ومابيَ لولا أُنسَةُ الضَّيفِ مِنْ أَكْلِ

٢ — وزادٍ رَفعتُ الكفَّ عنه تكرُّماً ... إذا ابتَدَرَ القومُ القليلَ من الثُّفْلِ

٣ — وزادٍ أكَلْناهُ ولم نَنْتَظِرْ بِهِ ... غداً إنَّ بُخْلَ المرْءِ من أسْوَأِ الفِعْلِ

يصف وُفُورَ عقله وحُسْنَ تأتِّيه فى تقلّب الأحوال به ، وذهابَه مع الكرم أنى اعتمَدَ ، ومَعَ مَنْ تصرَّف . فيقول : رُبَّ زادٍ وضعتُ كفِّى فيه إيناساً للمجتمعين عليه ، وتأنُّساً بمؤاكلتهم ، ولكى يَنْشَطوا[1] بكونى معهم ، ويطرحوا الحشمةَ لانضمامى إليهم ، لولا ذلك لكنتُ غيرَ محتاج إليه ، ولزَهِدْتُ فى التَّناول منه . وقوله « أُنسَةُ الضَّيف » ، يقال أُنْسٌ وأُنْسَةٌ كما يقال بُعْدٌ وبُعْدَةٌ ، وشقاء وشقاوة ، ومَنزِل ومنزلة ، ودار ودارة .

وربَّ زادٍ أمسكْتُ عن أكله ، وانقبضتُ عن الاجتماع مع آكليه مؤْثِراً لغيري به ، وتوسيعاً على متناوليه ، فى وقتٍ من الزمان يُرَى القومُ يستبقون إلى القليل من سَقَط الزاد ، لعزَّته وشدَّةِ حاجتهم إليه ، وبعد عَهْدِهم[2] بأطايبه .

وربَّ زادٍ أفنيناه وتوسَّعْنا فيه ، غير مفكِّرٍ فى مستأنَف الزَّمان ، ولا خائفٍ من عواصف الحَدَثان[3] ، ولو بقَّيناه لعُدَّ ذلك من فعلنا بُخْلًا به والبُخل من أسوأ أفعال المرء وأقبحها . وانتصب « تأنُّساً » على أنه مصدر فى موضع الحال . وقوله « من أكل » فى موضع الرَّفع لأنَّه اسم ما ، والنَّفى بما تناوله من حديث لولا . وكذلك قوله « تكرُّماً » فى موضع الحال ، و« إذا ابتدر » ظرف لرفعت ، وهو

(١) ل : « ينبسطوا » . (٢) ل : « عهودهم » .
(٣) فى النسختين : « من عواطف » .

جوابه . وقوله « لم نَنْتظِرْ به غَداً » أى لم ننتظِرْ باستيفائه غداً ، أى مجىء الوقت الذى نُسميه غَداً .

٧٩٤

وقال بعضهم :

١ ــ لَقَلَّ عَاراً إذا ضَيْفٌ تَضَيَّفَنِى ما كانَ عِنْدى إذا أُعطِيتُ مَجْهُودى

٢ ــ جَهْدُ المُقِلِّ إذا أعطاكَ نائِلَهُ ومُكْثِرٍ فى الغِنَى سِيَّانِ فى الجُودِ

اللام من « لَقَلَّ » جواب يمين مضمرة ، وفاعل قلَّ ما كان عندى . و « عاراً » انتصب على التميز ، وهو مما يُقِل الفعلُ عنه ، كأنه كان لَقَلَّ ما كان عندى ، فنقل قَلَّ وجعله لقوله ما كان ، وأشبه عاراً المفعولَ فنصبه وقوله « اذا أعطيت » [ظرفٌ لقوله : « قلَّ ما كان عندى » . واذا ضيفٌ تضيَّفني ، ظرف لقوله : « اذا أعطيت[1]] مجهودى » . وتلخيص الكلام : لقد قلَّ عارُ ما كان عندِى اذا أعطيتُ منه مجهودى اذا ضَيْفٌ تضيَّفنِي . والمعنى : لا عارَ فى القليل الذى عندى اذا أعطيتُ مجهودى فى الوقت الذى يتضيَّفُنى الضَّيف . ومثل هذا البيت فيما اجتمع فيه من الظَّرْفين قول الآخر[2] :

عَلَامَ تقولُ الرمح يُثْقِلُ ساعِدى إذا أنا لم أَطْعُن إذا الخَيلُ كَرَّتِ

وقوله « جَهْدُ المُقِلِّ » مبتدأ ، وعطف مُكْثِرٍ على المُقِلِّ ، و قد حذف المضاف منه ، و المراد وجَهْدُ مُكْثِرٍ فى الغِنَى ، فاكتفَى بالأوَّل عن الثانى ، وسيَّان خبر المبتدأ ، كأنَّه قال : جَهْدُ المُقِلّ اذا أعطاك ما عنده وجَهْدُ مكثرٍ فى الغنى مِثْلان فى أحكام الجُود وشرائطه لأنَّ كلاً منها فَعَل مجهودَه . وإنما قلنا هذا لأنَّك

(١) التكملة من ل .

(٢) هو عمرو بن معديكرب ، سبق فى ص ١٥٩ .

لمن لم تضمر فى قوله « ومكثر » المضافَ تكون قد جمعتَ بين الحدَث وهو جهْد المُقِلّ ، وبين الذات وهو مُكْثِر فجعلتهما سيَّين. والشَّرط أن يُضَمّ الحدَث إلى الحدث ، والذاتُ إلى الذّات . وقوله « فى الغنى » فى موضع الصِّفة لمكْثر ، كأنَّه قال ومكْثرٍ غنيّ . وهذا كما تقول : جاءنى رجل فى جُبَّةٍ ، تريد وعليه جُبَّة ، وتحقيقه : جاءنى رجلٌ لابسٌ جبة .

وقد تُبُيِّن من البيت الثانى معنى البيت الأوّل ، واعتذارُه من القايل الذى يُعطيه إذا ضاف ضَيْفٌ(١) .

٧٩٥

وقال خَلَفُ بن خليفة(٢) :

١ – عَدَلْتُ إلى فَخْرِ العَشيرة وَالهوى ... إليهم وَفى تعداد مَجْدِهم شُغْلُ

٢ – إلى هَضْبَةٍ من آل شَيْبان أشرفَتْ ... لها الذِّروةُ العَلْياء وَالكاهل العَبْلُ

٣ – إلى النَّفر البيضِ الأُولاءِ كأنَّهم ... صفائحُ يَوْمَ الرَّوْعِ أخلصَها الصَّقْلُ

٤ – إلى مَعْدِنِ العِزِّ المؤيَّدِ والنَّدى ... هُناكَ هُناكَ الفَضْلُ وَالخُلُقُ الجَزْلُ

قوله « وَالهوى إليهم » مبتدأ وَخبره قد اعترَضَ بَينَ صدر البيت وَعَجُزه ، والواو واو الحال . والمعنى : وهوايَ معهم ؛ لأنَّ إلى بمعنى مع ، كما يقال هذا إلى ذاك . ويجوز أن يُعطف والهوى على فخر العشيرة ، فيكون المراد عَدَلْت إلى الافتخار بهم ، وإلى الهوى معهم . فيقول : صرفتُ همِّى إلى ذكر مَفاخر العشيرة ، وهوايَ معهم ، تركت غيرَه لأنَّ فى عدِّ مجدهم وإحصائه ما يَشْغَلُنى عن غَيره . ثم كرّر « إلى » مفخِّمًا ومعظِّما ، فقال : إلى هضبةٍ مِن شأنها كذا ، وإلى النَّفر الذين من

(١) ل : « ضافه ضيف » .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٩٦ ص ٨٠٩ .

شأنهم كذا ، وإلى معدن العزِّ الذى من أمرِه كذا . والمراد بجميع ما ذكر العشيرةُ وإن اختلفت العبارات عنها .

وقوله « أشرفَتْ لها الذِّروةُ العلياء » ، يعنى هضبَةَ العزّ . فيقول : عَلَت لهذه الهَضْبة ذِروةٌ شامخةٌ وكاهلٌ ضخم ، يريد عِظَمَ الهضْبة وسُموقَها واتِّساعَ جوانبها .

وقوله « إلى النَّفر البِيض » يعنى آلَ شيبان . ذِكر عِزَّهم وكَنى عنه بالهضْبة ، والقصدُ إلى أنَّهم ملجأ والمعقل . « والأُولاء » فى معنى الذين ، وما بعدهُ من صِلَته ، ويُمَدُّ ويُقصر ، فيقال الأُولاء والأُولَى . وأراد بالبِيض الكرام المُنقَّى الأحساب . وقوله « كأنّهم صفائح يوم الرَّوْع » ، يجوز أن يضيف صفائح إلى يوم الرَّوع ، ويريد تشبيهَهم فى نفاذهم وقُدودِهم بالسُّيوف المعدَّة ليَوم الروع ، لا المَعاضدِ (١) وما يُبتذَل فى العوارض سِوى الحرْب . ولك أن تنصب «يوم» على الظَّرف يريد صفائح مصقولة جُرِّدت يومَ الروع ، وأعْمِلت وأُنفذت . وعلى الوجهين جميعاً يكون « أخلصَها الصَّقْل » من صفة الصَّفائح .

وقوله « إلى مَعِدن العزِّ المؤيد » معنى المؤيَّد المقوَّى بموادّه التى تُصرف إليه ، لحسن مراعاتهم ومحافظتهم على المجد . ولك أن تروى « المؤبَّد » بالباء ، ويكون المعنى العزّ الدائم الثابت على مَرّ الأيَّام . وقوله « والندى » ولك أن تجرَّه معطوفا على العزّ وتصير هناك مكرّرا ، والفضل مبتدأ وهناك خبره ، وقد كرر الخبرَ تفخيماً وتعظيما . وكما يكرَّر الخبر يكرَّر المبتدأ ، تقول : زيدٌ زيدٌ عاقل ، وزيد عاقل عاقل . ولك أن تجعل « والنَّدَى » مبتدأ ويكون هناك الأوّل خبره ، والواو واو الحال ، ويكون « هناك الفضل » مستأنَفاً .

وقوله « الخُلُق الجَزْل » الجَزالة مستعملة فى الرّأى والخُلُق ، وفى القرآن :

---

(١) جمع معضد ، كمنبر ، وهو السيف الممتهن فى قطع الشجر .

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فاستعمل العِظَم أيضاً .

٥ — أُحِبُّ بَقَاءَ القَوْمِ بالمِصْرِ إِنَّهُمْ ... مَتَى يَظعنوا عن مِصْرِهِمْ ساعةً يَخْلُو (١)

٦ — عَذَابٌ على الأفواه ما لم يَذُقْهُمُ ... عَدُوٌّ وبالأفواه أسْمَاؤُهُمْ تحْلُو

٧ — عليهمْ وَقَارُ الحِلْمِ حتّى كأنّما ... وليدُهُمُ من أجلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ

٨ — إذا استُجْهِلُوا لم يَعْزُبِ الحِلْمُ عنهمُ ... وإن آثَرُوا أنْ يَجْهَلُوا عظُم الجهلُ

قوله « أُحِبُّ بقاءَ القوم بالمصر » يصف به كثرةَ خيرِهم وعمومَ النّفع بمكانِهم في مُقامهم ، وسُكونَ النّاس إليهم ، وقيام مُروّاتهم وسياساتهم في أوطانهم ومظانّهم ، فيقول : أحِبُّ لُبْثَهم في دُورهم ومواضعهم ، فإنّهم متى ارتَحلوا عن مصرهم ساعةً خلا وصارَ في حُكم ما لم يُختطّ من البلاد ولم يُؤْهَلْ بالقُطّان والسُّكّان ، لأنَّ عمارتَه كانت بهم ، ودخل في عداد الأمصار بسُكناهم (٢) والجزم « يخلو » لأنّه جواب الشّرط ، وهو متى يظعنوا ، لكنّه أطلقَ فزاد ما يلحق للاطلاق في قوله تخلو . قالوا : وهاهنا ليست التي كانت لامَ الفعل ، وإنّما هي كالواو التي في قولك :

* أيَّتُها الخيامُو (٣) *

وبمثل هذا تقول في لم تَرمِي ، ولم يَخْشَى ، إذا وَقعتْ في القافية ، فيصير الألف كألف « الجَرعا » ، والياء كياء « الأيّامِي » . وعلى هذا القول في :

* ألا أيها اللّيل الطّويل ألا انجَلِي (٤) *

(١) التبريزي : « من مصرهم » .
(٢) هذا الصواب من ل . في الأصل : « بسكانهم » .
(٣) قطعة من بيت لجرير في ديوانه ٥١٢ والعمدة (٢ : ٣٨) . وتمامه :
متى كان الخيام بذى طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام
(٤) لامرىء القيس في معلقته . وعجزه :
* بصبح وما الإصباح فيك بأمثل *

الياء فيه للإطلاق ، فأمّا من قال :

* ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى (١) *

[و] * ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ (٢) *

و * من هَجْو زَبّان لم يَهْجُو ولم يدَعِ (٣) *

فالياء والواو والألف لاماتٌ بُقِّيت في موضع الجَزْم ، لأنّ المحذوف للجزم عنده مِن هذه الأفعال وأشباهها حركاتٌ كانت فى النِّيّة استُثقِل اللّفظُ بها فى موضع الرَّفع مع حروف المدّ ، ثم حُذِفَتْ حروفُ المد ليكونَ الفعل مجزومًا أنقصَ لفظاً منه وهو غير مجزوم ، فعندالضرورة أثبتَها ولم يكن مخطِئاً ، إذْلم يكنْ سقوطُها إعراباً ، ويكون الياء على هذا القول فى قوله « ألا انجلِى » لام الفعل أيضاً .

وقوله « عِذابٌ على الأفواه ما لم يَذُقْهُم » ما فى موضع الظَّرف . أراد أن طَعمَهم حُلوٌ إلّا على أفواه العُداة ، لأنّ أخلاقَهم تَشْمُسُ عند الأعداء فيَخْشُن جانبُهم لهم ، ويُمَرُّ مَذاقُهم على أفواههم إذا ذاقوهم . وقد جمع بين الطّعم والذِّكر ، لذلك أعاد ذِكر الأفواه فقال : وبالأفواه ، كأنّه قصد فى الأوّل الإنباء عن كرم طبعِهم ولينِ أخلاقهم عند التَّجرِبة ، وفى الثانى أنّه يُستَحْلَى ذِكرُهم فيطيب فى المَسْمَعة ، لشُمول إحسانهم ، وكَثْرة محاسِنِهم ، فتقوم الشَّهادات بفَضْلهم فى الحالتين.

وقوله « عليهمْ وَقار الحِلْمْ » ، أراد أنّهم يحلُمون فى المعاملة ، ويتوقَّرون

(١) لقيس بن زهير ، وهو من الشواهد النحوية المشهورة . وعجزه كما فى سيبويه (١ : ١٥/٢ : ٥٩) والخزانة (٣ : ٥٣٤) العمدة (٢ : ٢١١) :

* بما لاقت لبون بنى زياد *

(٢) لرؤبة بن العجاج فى الخزانة (٣ : ٥٣٤) . وقبله :

* إذا العجوز غضبت فطلق *

(٣) صدره كما فى الإنصاف ٩٥ :

* هجوت زبان ثم جئت معتذراً *

وكذا ورد فى النسختين . وفى الإنصاف : « لم تهجو ولم تدع » .

مع من يجرّ الجرائر عليهم ، فصغارُهم لهيبتهم فى النفوس كالكهول من غيرهم ؛ وإن حُملوا على جهلٍ فى وقتٍ ، بأن يصير مجاذبهم عاديًا طَوْرَه ، لم يفارقهم الحلم أيضًا ، بل يكافئون المسىء على قدر إساءته . ثم إنْ آثروا استعمالَ الجهلِ لأمرٍ يُوجِب ذلك فاستمرُّوا فيه واشتطُّوا عَظُم البلاء بهم فلم يُطاقوا .

ويقال أثَرْتُ الشىءَ وآثَرتُ بمعنى .

٩ ـ هُمُ الجبلُ الأعلى إذا ما تناكَرَتْ مُلوكُ الرِّجالِ أو تخاطَرتِ البُزْلُ

١٠ ـ ألم تَرَ أنّ القَتلَ غالٍ إذا رَضُوا وإن غَضِبوا فى موطنٍ رَخُصَ القَتْلُ

١١ ـ لنا فيهم حِصْنٌ حَصِينٌ ومَعْقِلٌ إذا حرَّكَ الناسَ المَخاوفُ والأَزْلُ

١٢ ـ لَعمرِى لَنِعمَ الحىُّ يَدعُو صَريخُهم إذا الجارُ والمأكول أرهقَه الأَكلُ

وصفَهم بعلُوِّ الشأن وارتفاع المكان ، فقال : هم الرُّكن الأرفع ، والطودُ الأمنع ، وقتَ مداهاةِ الرّجال بعضِهم بعضًا ، ومناكَدة الأملاكِ حالاً فحالاً ، فلا يُغالَب رأيهم ، ولا يُحلَّل(١) عندهم ، ولا يُبلَغ غَورهم ، ولا يُستقصَر مكرهم . فقوله « تناكَرَت » تفاعَلَ من النُّكْر الداهية ؛ وهو حسن . ويجوز أن يكون تفاعل من الإنكار ، فيكون تناكَرَت ضدَّ تعارفَت ، أى ينكر بعضُهم بعضًا ، لِمَا يَنطوى عليه كلٌّ لصاحبه من سُوء الرأى وإضمار الشر .

وقوله « أو تخاطرت البُزْل » هو تَفاعل من الخَطَران ، وهو إشالة الأذناب وإدارتُها عند الهِياج . وهذا إشارةٌ إلى المتحاربين المتجاذبين إذا تدافعوا بأركانهم ، كما أنّ قوله « تناكَرَتْ ملوكُ الرجال » ، يريد إذا تداهوا(٢) بمكايدهم . فيريد أنهم يَعلُون رؤساء الناس قولاً وفعلاً ، ومكرًا ودَهْيًا .

وقوله « ألم تر أنّ القتلَ غالٍ إذا رضُوا » ، يريد أنّ من أوى إليهم واستنام

(١) كذا بفك الإدغام فى النسختين . (٢) ل : « تباهوا » .

إلى جانبهم ، فاستعطف هواهم وحصَّل رضاهم ، أمِنَ وعَزَّ فلا يلحقُه قَصْدٌ ، وسَلِمَ على الدهر فلا يجرى عليه جَور ؛ ومَن عَدَل عنهم واستنَّ فى سَنَن غضَبهم(١) ، عرَّضَ بنفسه وتعجَّلَ الطمعَ من كل أحدٍ فيه ، فقتلُه يَسْهُل ويَرْخُص إذا قتلُ المتعزِّز بهم يصعب أو يغلو . ثم قال : « لنا فيهم حصنٌ حصين » ، [يصف ما عمَّهم من الأَمَنَة فيهم وبمكانهم . فيقول : هم لنا معقلٌ حريز وحصن حصين(٢)] ، فى وقتٍ يَقلقُ الناسُ فيه ، لاستيلاء الخوفِ عليهم ، واستعلاء القَحط والبلاء فيهم . والأزل : الضّيق .

وقوله « لعمرى لنعم الحىُّ » ، المحمود بنعم محذوف ، كأنه قال : إذا استغاثَ بهم الصريخ وهو المستغيث فاستصرخَهم أجابوه ونصروه ، فنعم الحىُّ هم وقد دُعوا ، إذا الجارُ مأكولٌ ومطموع فيه ، وإذا اشتد الزَّمانُ ففَنِيَ الزاد وعزَّ الطعام . وقوله « الجار » مبتدأ وأرهقه الأكل فى موضع الخبر . واكتفى بالإخبار عنه وإن كان عَطَف المأكول عليه ، كأنه قال : إذا الجارُ أرهقه الأكل والمأكول كذلك .

ويشبهه قولُ الآخر فى الإخبار عن المعطوف عليه دون المعطوف :

* فإنى وقيَّارًا بها لغريبُ(٣) *

وقد مرَّ مثلُه .

ومعنى أرهقه الأكل ضيّق عليه وغَشِيَه . وقد قيل : أكلتُ فلانًا ، إذا

---

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « فى سننهم غضبهم » .
(٢) التكملة من ل .
(٣) لضابئ بن الحارث البرجمى ، كما سبق فى حواشى ص ٩٣٦ . وصدره :
* فمن يك أمسى بالمدينة رحله *

غلبتَه وقهرتَه . وكُنِىَ عن المستضعَف باللَّحم والشَّحم فقيل : تُرِكَ فلانٌ لحمًا على وَضَمٍ ، وفلان شحمةٌ المتبلِّغ (١) . قال الشَّاعر :

فلا تحسِبَنِّى يا ابنَ أَزْنَمَ شَحْمَةً ... تَزَرَّدَها طاهى شِواء مُلَهْوَجِ (٢)

١٣ ــ سُعَاةٌ على أفناء بَكْرِ بن وَائِلٍ ... وتَبْلُ أقاصِى قَوْمِهِمْ لَهُمُ تَبْلُ

١٤ ــ إذا طَلَبُوا ذَحْلًا فلا الذَّحْلُ فائتٌ ... وإن ظَلَمُوا أَكْفاءَهم بَطَلَ الذَّحْلُ

١٥ ــ مَوَاعيدُهم فِعلٌ إذا ما تكلَّمُوا ... بتِلْكَ التى إن سُمِّيَتْ وَجَبَ الفعلُ

١٦ ــ بُحُورٌ تُلاقيها بُحورٌ غَزيرةٌ ... إذا زَخَرَتْ قَيْسٌ وإخوتُها ذُهْلُ

قوله « سُعاة عَلَى أفناءِ بكر » ، والسَّعى يُستعمَلُ على وجوه ، وكذلك السِّعاية . ويقال للمصدِّق السَّاعى ، والمصدر السِّعاية . وهو يَسعَى على قومه ، إذا قامَ بأمورهم . والمَسْعَاة فى الكَرَم والجُود . والشَّاعر يريد أنَّهم يذُبُّون عنها ويَسعَون فى مصالحهم وحِفظ ذِممهم . وقوله « وتَبْل أقاصى قومهم » تبل يؤكِّد ما قبله . والمعنى ذَحْل الأباعد من قومهم كذحل المختصّ بهم ، لأنَّهم يتشمَّرون فى الانتقام والانتصار فيهما على حدٍّ واحد .

وقوله « إذا طَلَبوا ذَحْلًا فليس بفائت » ، يقال : طلبت عند فلانٍ ذَحلًا ، إذا رُمْتَ مكافأتَه على عداوةٍ منه أو جِناية . وأراد أنَّهم إن وُتِروا لا يفوتُهم إدراكُ الوتر ، وإن وَتَروا غيرَهم من أكفائهم وظلَموهم لم يُنتصَفْ منهم ، ولم يُدرَكْ الثَّأرُ من جهتهم .

وقوله « مواعيدهم [فعل » ، أراد أنَّهم ينجزون الوعد ويصدِّقون الأقوال بالفعل ، وأنّ (٣)] هذا دأْبُهم فى الخصال التى إذا سمِّيت موعوداً بها وذُكِرت ،

(١) تبلغ بكذا ، أى اكتفى به . وفى ل : « للمبتلع » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٥٨٢ .
(٣) التكملة من ل .

قال النَّاس يجب مع القول فِعلُها ، استبعاداً للوفاء .

وقوله « بحور تُلاقِيها بُحور غزيرة » ، يريد أنَّهم فى أنفسهم كالبحور كثرة وسماحا[1] ، واتِّساعا وغزَّة ، فإذا لاقتْها بحورُ قيسٍ وذُهْلٍ زاخرةً كَمُل الأمرُ وتناهى العِزُّ ، واطَّرَدَ الماء ، وطما التَّيَّارُ حتَّى لا يُطاق .

٧٩٦

وقال آخر :

١ - عادَوْا مُرُوءَتَنا وضُلِّلَ سَعْيهمْ ولِكلِّ بَيْتِ مُرُوءةٍ أعْداءُ[2]

٢ - لَسْنَا إذا ذُكِرَ الفَعَالُ كَمَعْشَرٍ أَزْرَى بفِعْل أبيهمِ الأبناءُ

يشبهُ قولُ الآخر :

لا يَمْلِكون عَداوةً مِن حاسدٍ وحِذاءَ كُلِّ مُروءةٍ حُسَّادُها

وقول الآخر :

إنَّ العَرانِينَ تلقاها مُحسَّدَةً ولا تَرى لِلئام النَّاسِ حُسَّادا[3]

وقوله « وضُلِّلَ سعيهم » أى نُسِب إلى الضَّلال لمَّا لم يلحقوا شأوَهم .

وقوله « لسنا إذا ذُكِرَ الفَعال كمعشرٍ » يريد : لا نعتمد على مَناسِبِنا ، وعلى ما قدَّمه أسلافُنا من المفاخر والمساعى ، لكنَّا نَعْمُر ما شَيَّدوه ، ونستحدث بأفعالنا ما يقوِّيه ويكثِّره ، ولا يصيرُ مُزرِياً به .

---

(١) ل : « وسماحة » . والسماح والسماحة : الجود .

(٢) ل : « مروتنا » و « بيت مروة » . التبريزى : « فضلل سعيهم » .

(٣) عرانين القوم : سادتهم وأشرافهم .

٧٩٧

وقال أعشى ربيعة (١)

يمدح عبدَ الملك بنَ مَرْوان :

ويقال إنّه دخل عليه فقال : يا أبا المغيرة ، ما بقيَ مِن شِعرك ؟ فقال : لقد بَقِيَ منه وذَهب . عَلَى أنّى أنا الذي أقول . ثم أنشد هذه الأبيات :

١ - وما أنا فى حقٍّ ولا فى خُصُومتى بمهتَضَمٍ حقّى ولا قارِعٍ قِرْنى (٢)

٢ - ولا مُسْلِمٍ مَوْلاى عِنْدَ جِنايةٍ ولاخائفٍ مولاىَ مِنْ شرِّ ما أجْنِى

قوله « فى حقٍّ » أى فيما أستحقُّه من النَّاس كافّة ، من الصِّيانة والتّمييز ، لمـا تُوُحِّدتُ به من فَضلٍ ومزيّة . وقوله « بمهتَضم حقِّى » ، يريد به حقوقَه عند النّاس . فيقول : إنى فيما أُجاذِبُ فيه الغير وأُنازِعه ، وفى طلب حقوقى إذا حَلّت لى عندهم ، وفيما يجبُ لى عند المُزاوَلات والمحاكمات من التّبجيل عليهم ، لا أُبْخَسُ ولا أُظْلَمُ ، ولا أُدْفَعُ ولا أُهان . وقولُه « ولا قارعٍ قِرنى » ، يريد أنَّه لا يأمنني فيشتغلَ عنِّي بأسبابه ومَصارفه ، ولـكن يكون أبداً خائفاً منّى ، ومشغولاً بى وحذِراً من الإيقاع به .

وقوله « ولا مُسلِمٍ مولاىَ عِند جناية » يريد بقوله مولاى أجناسَ ما يسمَّى مولًى مِن حليفٍ ونسيب ، ومنتمٍ بوَلاءٍ بعيدٍ أو قريب . فيقول : إنِّى لا أخذُلُ

(١) هو عبد الله بن خارجة بن حبيب بن قيس بن عمرو بن حارثة بن ربيعة بن ذهل بن شيبان . شاعر إسلامى من ساكنى الـكوفة ، وكان مروانى المذهب شديد التعصب لبنى أمية . وفى الأغانى أن الأعشى لما أنشد عبد الملك هذه الأبيات قال : من يلومنى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة تخوت ثياب ، وعشر فرائض من الإبل ، وأقطعه ألف جريب ، وأجرى له على ثلاثين عيلا . الأغانى (١٦ : ١٥٥) والمؤتلف ١٢ – ١٣ . التبريزى : « وهو من بنى شيبان ثم من بنى ربيعة من بطن منهم يقال لهم : بنو أمامة » .

(٢) كذا أوله فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « ولا أنا » . التبريزى : « ولا قارع سنى » ، أى لا أندم على شىء أفعله .

أحداً منهم عند جناية يجتنيها، أو جريمة يجترمُها، بل أنصُرُه وأستنقذه كيفَ ما أمكن، سَهُل أو تعذَّر، ثم إنِّى لا أجرُّ الجرائر عليهم فيؤخَذُوا بى وبما تكتسبُه يدى، لأنّ ما يرجع إلىَّ من النَّوائب أقومُ فى وجهه، وأحتال فى نَقْضِه (١) ودفعه، سواءٌ علىَّ حقَّ ذلك فى مالى أو فى نَفْسى.

٣ — وإنَّ فؤَادًا بَيْنَ جنبَىَّ عالِمٌ   بما أبصرَتْ عَيْنِى وما سمعت أُذْنِى

٤ — وفَضَّلَنِى فى الشِّعْرِ واللُّبِّ أنّنى   أقول على عِلْمٍ وأَعْرِفُ مَنْ أَعْنِى

٥ — وَأَصْبَحْتُ إذ فَضَّلْتُ مَرْوانَ وَابنَه   على النَّاس قد فضلت خيرَ أَبٍ وَابْنِ

يقول: إنى اكتسبت من مشاهداتى والأخبارِ الواقعة إلىَّ، الصَّادقة فى مواردها، المتواترة على أَلْسُن حَمَلَتِها ماصار قلبى به عَالِمًا ومتميِّزًا، فلا يلتبس علىَّ وجوهُ الحقِّ وحدودُه، ولا صُنوف الصِّدق وفنونه، فإذا قلت الشِّعر قلته على علمٍ بمَرافقه وأساليبه، ومعرفة المَقُول فيه ومستَحَقِّه، فلا أَكذبُ فى الأخبار ولا أتزيَّدُ فى الأوصاف، ولكن أُعطى كلَّ منعوتٍ حقَّه من القول والوصف. وأقسِمُ لكل مُنَوَّهٍ به قِسطَه من التَّقريظ والمدح، فمن أجل ذلك أصبحتُ إذ فضلتُ مروانَ وابنه عبدَ الملك على النَّاس قد فضلت خير والدٍ وولد، فلا يقال كذب أو أخطأ، أو اشتبَه عليه أو شُبِّه له، فلم يأتِ بالحقّ، ولم يقتصر على الصِّدق.

وقوله «وإنّ فؤادًا» جعله نكرةً لأنّه باتِّصال قوله «بين جنبىَّ» به اختَصَّ، حتّى عُلم أنه قلبُه من بين القُلوب.

٧٩٨

وقال فى سليمانَ بنِ عبد الملك:

١ — أَتَينا سليمانَ الأَميرَ نَزورُه   وكانَ امرأً يُحْبَى ويُكْرَمُ زائِرُهْ

(١) فى هامش ل: «نخ: فى كفه».

٢ – إذا كنتَ فى النَّجْوَى به مُتَفَرِّدًا فلاالجودُ يُخْلِيه ولاالبُخْلُ حاضِرُه[١]

٣ – كِلا شافِعَىْ سُؤّاله من ضميره عن الجَهْـلِ ناهيهِ وبالحِلْمِ آمِرُهْ

يقول : قصدتُ هذا الرجل ، وكان لحُسن تعطُّفه وكرم تألُّفه ، وكمال احتفافه بزائريه ، وجمال إقباله على عُفاته ومُجتديه ، يُنيل الحِبَاء مؤمِّليه على أبلغِ ما تعلَّق الرَّجاء به وفيه .

وقوله « إذا كنتَ فى النَّجوى به متفرِّدا » فالنجوى : المُسارَّة . فيقول : إذا وقعتَ فى خاطره ، وتفرَّدتَ بمناجاته ، فالجُود نَصْبُ عينيه ، والبخل غائبٌ من هِمَّته ، لا يحتاج إلى باعث ولا شافع ، ولا مذكِّر ولا عاطِف .

وقوله « كلا شافِعَىْ سُؤّاله من ضميره » جعل السُّؤّال من سانِحِ فِكره[٢] وجائل صدرِه شافِعَيْن، وزَعَمَ أنَّ كلاًّ منهما ينهاهُ عن البُخل ، ويأمُره بالإفضال والبَذْل . وهذا على طريقتهم فى أنَّ الإنسان له نفسانِ عندما يَحْضره من الفعَال والمَقَال ، فأحدهما يأمره بالفِعل ، والآخر ينهاه ويبعثه على التَّرك ، فقال هذا الشاعر : إنَّ نفسَىْ هذا الممدوح هما يشفعانِ لوُرَّاد حضرته ، ورُوَّاد سَيْله ومَطَره ، فكلٌّ يدعو إلى الإمداد إليه ، ويبعث على الإفضال عليه . ومثله :

* إذا ائتمرَتْ نَفْساهُ فى السِّرِّ خاليا[٣] *

والنَّجوى مصدر ، ويستعمل وصفاً فيقع على الواحد والجمع ، وقدمضَى القول فيه[٤] .

---

(١) التبريزى : « بالنجوى » . ل والتبريزى : « مخليه » .

(٢) هنا ما فى ل . وفى الأصل : « ذكره » .

(٣) عجز البيت الثانى من الحماسية ٣٨٣ ص ١٠٧٦ . وصدره :

* فتى كان لا يطوى على البخل نفسه *

(٤) انظر ماسبق فى ص ١١١٦ .

٨٩٩

وقال المتوكِّل اللَّيثىّ (١) :

١ - مَدَحْتُ سعيداً واصطفيتُ ابنَ خالدٍ … وللخير أسبابٌ بها يُتوَسَّمُ
٢ - فكنتُ كمجتَسٍّ بمِحْفارِه الثَّرى … فصادفَ عينَ الماء إذْ يترسَّمُ

يقول : اخترتُ من بين الناس ابن خالد ، وقرَّظْتُ فى شِعرى سعيداً ، وللخير حدودٌ ووجوهٌ بها يُتبيَّن رسمُه وعلامته ، فكنت فى اصطفائى إيّاهما ، وصرفِ ثنائى إليهما ، كرجلٍ يطلَّب الماء بمِحفاره مِن ثرَى الأرض ، فصادفَ عينَه و مَنبعَه ، إذ تتبَّعَ أثرَه ورسمه . والمعنى : أصبتُ فى القصد والاختيار ، ووَضعت الثناء موضعَه من الإيثار ، فسيقَ الخبرُ إلىّ من مطلبى ، وحُصِّل التوفر علىّ من مَقصَدى . فأما من روى « مُحْتَسٍّ » فهو مفتعِل من الحسّ . والمِحفار : اسمُ الآلة التى يُحفَر بها ، كالمِعْول وما أشبهه . وهذا مَثَل واستعارة . ومن روى « كمجتَسٍ » بالجيم ، فهو مُفتَعِلٌ من الجَس . والتَّحسُّس والتَّجسُّس يتقاربان . ومعنى يترسَّم : يتتبَّع رسومه .

٣ - فإن يسألِ اللهُ الشُّهورَ شهادةً … تُنْبِّئْ جُمادَى عنكمُ والمُحَرَّمُ
٤ - بأنَّكما خيرُ الحجازِ وأهلِه … إذا جعَل المُعطِى يمَلُّ ويَسأَمُ

يصف دوامَ بَذْلهم فى فصول السنة ، واتصالَ جدْوَاهم فى شهور الضِّيق والسعَة ، وفى الجَدْب والخِصب ، وعند شمول الحرّ والبرد . وجمادى من أزمان القَحط والضُّر ، والمحرَّم من الأشهر الحرُم . فيقول : إن استَشهَدَ اللهُ تعالى أوقاتَ السَّنَة وأهِلَّة الشهور شهِدَتْ لكم ، وأخبرَتْ عنكم بأنكما خيرُ أهلِ الحجاز بَذْلاً وإفضالاً ، وحُسْنَ تفقُّد وإحساناً ، فى الوقت الذى ترَى المعطى يمَلُّ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ .

الإعطاء ، ويتبرَّم بالسؤال ، فيصيرُ ذلك داعيةً له إلى الإمساك والكف .

وقوله « إذا جَلَ المعطى » إذا ظرفٌ لما دلَّ عليه قوله « خير الحجاز » .

وجَل بمعنى طَفِق وأقبَلَ ، فلا يتعدَّى . والسآمة فوقَ المَلال .

٨٠٠

وقال نُصَيْب فى عُمَر بن عُبَيْدِ الله بن مَعْمَر :

١ ـ والله ما يدرى امرُؤٌ ذو جَنابةٍ ولا جارُ بيتٍ أىَّ يومَيْكَ أجوَدُ

٢ ـ أيومٌ إذا أُلفيتَه ذا يَسارةٍ فأعطيتَ عفوًا منك أم يومٌ تُجْهَدُ

أقسَم بالله عزَّ وجلَّ أنه لا الغريبُ المُجانب ولا القريبُ المجاوِر يعلمُ أىَّ يومَىْ هذا الممدوحِ أكثرُ سخاءً وأتمُّ إفضالاً . وجعلَ الجودَ لليوم على طريقةِ قوله تعالى : ﴿ بل مَكْرُ الليلِ والنهار ﴾ لمَّا كان فيهما . وعلى حدّ قولِ الناس : نهارُه صائم ، وليله قائم .

وقوله « أيومٌ إذا أُلفيتَه » تفصيل لما أجمله . ومعنى أُلفيتَه أُلفيتَ فيه ، فحذف الجارّ وجعلَ اليومَ مفعولاً على السَّعة .

وقوله : « ذا يسارةٍ » ، يقال يَسار ويَسارة ، كما يقال ذِكْر وذِكرَى ، ومكان ومكانة .

وقوله « أم يوم تُجهَد » ، يُريد أم يومٌ تُجهَد فيه ، فأضاف اليوم إلى الفعل وأوصلَ الفعلَ بنفسه . والمعنى : لا يَعلم الغريبُ المتنائى عنك ، ولا القريبُ المتدانى منك ، أىُّ وقتيك أكثرُ سخاءً وخيرًا ، أيومٌ تلقَى فيه مُوسِرًا فتُعطِى ما تُعطيه عفواً ، أم يوم توجَد فيه مُعسِراً فتُعطى ما تعطيه مجهوداً متعَباً . يريد : أنه لا يَبين أحدُ وقتَيْه من الآخر ، كما لا يَبين إحدى حالتيه

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٩٥ ص ١٢٨٩ .

من الأخرى . ويروى : «أيومًا إذا أُلفيتَه ذا يسارةً ... أم يومَ تُجهَد » ويكون هذا مردوداً على المعنى ، لأنه لمّا أراد بقوله أيُّ يوميك أجْوَدُ ، أيَّ جُودَيك أفضل ، قال : « أيومًا » ، أي أجودك في يومٍ إذا أُلفيتَ فيه مُوسِرًا أم جودك في يومٍ تكون فيه مجهوداً مُعْسِرًا .

٣ - وإنّ خَليلَيْكَ السَّماحَةَ والنَّدَى مُقيمان بالمعروف ما دُمْتَ توجَدُ
٤ - مُقيمانِ لَيْسَا تارِكَيْكَ لِخَلَّةٍ من الدَّهرِ حتى يُفْقَدا حِينَ تُفْقَدُ

جمع بين السماحة والنَّدَى ، لأن السماحةَ هو سهولةُ الجانب في الإعطاء ، وطِيبُ النفس به .

وقوله « مقيمان » أي ثابتان ، من قوله تعالى : ﴿ إلَّا ما دُمْتَ عليه قائما ﴾ . ومنه أقام بالمكان ، أي جعَلَ لنفسه ثباتاً . ومنه قِوَام الأمر ، أي دوامه . وما دُمْتَ ظرفٌ . فيقول : السماحة والنَّدَى يقيمانِ بسبب معروفك وله ، ويدُومانِ ما دمتَ ثابتاً وقائما وإنما قال بالمعروف كما يُقال : فلانٌ مقيمٌ بمكان كذا ، أي يجعلُ قِيامَه به وثباتَه . فكذلك جعل قيامَه بالمعروف على هذا الوجه .

وقوله « مقيمان ليسا تاركَيك لخَلَّة » ، يريد : هما مقيمان بسبب معروفك ، وثابتان لك ولمكانك ، لا يفارقانِكَ لِخَلَّةٍ من خَلّات الدهر تعرِض ، ولا لفقر يحصل ، إلى أن يُفقَدا وقتَ فقدِك .

٨٠١

وقال أُمَيَّة بنُ أبي الصَّلْت (١) :

١ - أأَذكُرُ حاجَتي أمْ قَدْ كَفَاني حَيَاؤُكَ إنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

(١) سبقت ترجمته في الحماسية ٢٠٥٤ ص ٧٥٣ . قال التبريزي : « أمية تحقير أمة ، وهي فعلة ولامها واو . والصلت : البارز المشهور » .

٢ ـ وعِلْمُكَ بالحُقُوقِ وأنت فَرْعٌ لكَ الحَسَبُ المهذَّبُ والسَّناءُ

٣ ـ خَليلٌ لا يغيِّره صَباحٌ عن الخُلُقِ الجميلِ ولا مَسَاءُ

قوله «أأذكر حاجتى أم قد كفانى». يقول: أىُّ الأمرين أعتمدُ منك؟ لأنَّ أمْ هذه هى المعادِلة لألف الاستفهام والمفسَّرة بأى. فيقول: أُلقِي حاجتى قِبَلَك إليك، وأُنهِي قِصّتى المرفوعةَ إليك، أم أعتمِدُ اكتفائى بكَرَم فِطنتك، وذَكاءِ معرفتك، وحُسن التفاتك إلى المتعلِّقين بحبلك، والرَّاجين لخيرك وفَضْلك، لأنَّ مِلاكَ خُلُقِك الحياء، فإذا توصَّل تابِعك[1] بعَرْض وَجْهه عليك، صار ذلك مهيِّجاً لحيائك، وداعياً إلى الفكر فيما أحوَجَه إليك، وسائقاً إلى قضاء مَأْرُبَتِه لديك، ولأنَّ محافظتك على أُولِي المَوَاتِّ[2] والحُرَم، تبعثك على صِيانتهم وتحميهم من ابتذال ياحتهم، إذْ كنتَ الفرعَ لأصلٍ يجمع إلى الحسب المُنَقَّى والمجدِ المزكَّى، علوَّ همّةٍ وارتفاعَ منزلة.

وقوله «خليل» ارتفع بأنّه خبر مبتدأٍ مضمر، كأنه [قال[3]]: أنت خليلٌ لاتغيِّره الأوقاتُ عما أُلِف من برّه، وعُهِد من كرمه. وأشار فى قوله: الصَّباح والمَساء، وهما طرفا النهار ووَقتا [الغارةِ[3]] والضِّيافة، إلا أنّه لا يتغيَّر على عِلّات الزمان وإنّما يتغيَّر له الإنسان من عارضِ مَلالٍ حادث، أو تضجُّرٍ بمصارفِ أمرٍ سانح.

٤ ـ وأرضُكَ كلُّ مَكْرُمةٍ بَنتْها بنو تَيْمٍ وأنتَ لها سماءُ

٥ ـ إذا أثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْماً كَفاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّناءُ

(١) ل: «توسل تابعك»، وكتب فى هامشها: «نخ: توصل سائلك».

(٢) المواتّ، بتشديد التاء: جمع ماتة، وهى الحرمة والوسيلة.

(٣) التكملة من ل.

قوله « وأرضُك » ، يريد ما توطَّدَ له من مَبانِى المَجْدِ والشَّرَف بقومه وفصيلته ، فجعلَه كالأرض له ، وجَعَل مراعاتَه له من بَعْدُ وتوفُّرَه على ما يُشيِّده بنَفْسه كالسَّماء له ، وقد عُلِمَ أنَّ حياةَ الأرضِ وإضاءتَها بِمَا يأتى عليها من حَيَا السَّماء وبِنُورها . فيريد أنَّ عمارةَ مَكَارِمِ آبائه كانت بِرَمِّه لها ، وبالموادِّ الذى يُمِدُّها بها ، فلذلك زَكَت ورَبَتْ ، وثَبَتَتْ على مَرِّ الأيّام وعلَت .

وقوله « إذا أُثْنِى عليك المرء يوماً » ، يقول : إنَّ المُثْنِيَ عليك لا يحتاجُ إلى قَصدِك به ، لأنَّه متَى تأدَّى إليك ثناؤُه أَنَلْتَه إحسانَك ، وأغْنيْتَه عن التعرُّض والقَصْد ، وقَطْعِ المسافةِ دُونَك وحمل[(١)] الشاقّ والجَهْد .

٦ — تُبَارِى الرِّيحَ مَكْرُمةً ومَجْداً إذَا مَا الكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشِّتاء

يقول : يَدوم عَطاؤُك ويتَّصل ، فكأنَّك تُبارِى الرِّيحَ فى هُبوبِها[(٢)] أوَانَ الجدْبِ والقحط ، وحين يَقِلُّ صَبرُ الكَلْبِ على الاعتساسِ والطَّوف ، حتَّى يصيرَ رابضاً فى البُيوت ، ومُستدفِئاً بجوانب الأخْبيةِ والكُسور . وقوله « إذا ما الكلب » ظرفُ لتُبارِى أى تَفعلُ ذلك فى مثل هذا الوقت . و « مكرمةً » ، انتصب على أنَّ مفعول له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال .

٨٠٢

وَقال ابن عَبْدَلٍ الأَسَدىُّ[(٣)] :

١ — بَيْنَا هُمُ بالظَّهْرِ قَدْ جَلَسُوا يَوْماً بحَيْثُ يُنَزَّعُ الذُّبَحُ

٢ — فإذَا ابنُ بِشْرٍ فى مَوَاكِبِهِ تَهوِى بِهِ خَطَّارَةٌ سُرُحُ[(٤)]

(١) ل : « وتحمل » .
(٢) ل : « الريح وهبوبها »
(٣) هو الحكم بن عبدل . سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٤ .
(٤) موا كبه ، فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « مراكبه » .

٣ـ فكأنَّما نَظَرُوا إلى قَمَرٍ أو حَيْثُ عَلَّقَ قَوْسَهُ قُزَحُ

بينا يستعمل فى المفاجأة ، وكذلك بينما . وكان شيخُنا أبو علىّ — رحمه الله — يقول : هو ظرف زمان ، كأنَّ ، الآصلَ كان : بين أوقات ، فحُذف المضاف إليه . والظَّهر : موضع(١) . ويوماً انتصب على البدل من بيناهم ، ويريد به المتَّصلَ من الأوقات ، كما يقال : فلانٌ يَفعلُ كذا وكذا ، وكان بالأمس يفعل كذا . والذُّبَح : نبتٌ له أصل يُفتّشُ عنه ويُخرَج كالجزَر ، ويُقشَر عنه جِلدٌ أسود ، وهو حُلو يؤكل . وهذا أعنى قوله « بحيثُ ينزِّع الذُّبَح » ، بيانٌ الميقات المشار إليه .

وقوله « فإذَا ابنُ بشرٍ فى مواكبه » ، الفاء زائدة ، لأنَّ بينا وبينما يجيئان ولا فاءَ فيما يقع فيهما . على ذلك قولُه :

فبينَا يَمشيانِ جَرَتْ عُقابٌ مِن العِقْبانِ خائتةٌ طَلُوبُ(٢)

وأمَّا « إذَا » فقد ذكر سيبويه خاصّةً أنّ إذْ تقع بعدها ولم يَذكر إذا . تقول : بينما نحن نسيرُ إذْ أقبلَ زيد . وكثيرٌ من النحويِّين والأصمعىُّ يُنكرون هذا ويقولون : لاحاجة إلى إذْ وإذا ، ويستشهدون بقول أبى ذؤيب :

بَيْنَا تعنُّقِه الكُماةَ وَرَوْغِهِ يَوماً أُتِيحَ له جَرِىٌّ سَلْفَعُ

وإذا رجَعْنا إلى الموجود فيما يختارونه هو الأكثر . واستشهدَ سيبويَه بقوله :

بينما نحنُ بالكَثِيب ضُحًى إذ أتَى راكِبٌ على جَمَلِه

والبيت الذى نحن فيه جاء بإذا ، فهو أغرب .

ومعنى تَهوِى به : تُسرع . وَالخَطّارة : النّاقة تَخطِرُ بذَنبها نشاطا فِعْلَ

(١) ياقوت : « موضع كانت به وقعة بن عمرو بن تميم وبنى حنيفة » . وأنشد البيت هناك محرفا .

(٢) الخائتة : التى لجناحيها صوت عند الانقضاض .

الفحولة ، أو تخطِر فى مَشيها . والسُّرُح : السَّهلة اليدين . فيقول : بينَ أوقاتٍ النَّاسُ جالسونَ بهذا المكان ، حيثُ يُقتَلَع هذا النَّبت ، إذا ابنُ بِشرٍ وخَدْنَه مواكبُه(١) ، تُسرِع به نجيبةٌ هكذا ، فكأنَّما نظَرُوا إلى قمرٍ ، أى لمَّا اجتازَ بهم شبَّهوه فى إشراقِه ونُوره ، وبَهاء مَوكبِه ، بالقمرِ ، أوْ نَظَروا إلى حيثُ يتراءى للنَّاظِرينَ قَوسُ قُزَح . فقوله «أو حيث» يجوز أن يكون معطوفاً على قمر ، فيكون المعنى : نَظَروا إلى قمرٍ أو إلى مكانِ قُوسِ قُزح . ونَكَّر قمراً لأن فائدة المعرفة والنكرة إذا وقعَ فى مثل هذا المكان لا تتغيّر . ويجوز أن يكون « حيث» فى موضع الظَّرف ، كأنَّه قال : نَظَروا إلى قمر ، أو نظَروا حيثُ علقَ قوسَه قُزَح . وجعل قُزَح فاعلاً على اعتقاد مَن يعتقد أنّ قُزَح اسمُ شَيطان ، لهذا أخبرَ عن المضاف إليه من قولهم قَوْس قزح . وقد ورد فى الخبر النَّهىُ عن هذا ، وهو مشهور ، وقال الخليل حكايةً عن أبى الدُّقَيش : تَقْزِيحه : طرائقه ، واحده قُزْحَة ، والجمع قُزَح . وذُكِر فى الخَبَر أنّ فيه أماناً من الغَرَق . ويُروى : « عَلَّى قوسَه قُزَح » من العلوّ . وعند النحويِّين أنّ قولهم قوسُ قُزَح كحِمارِ قَبَّانَ وما أشبهَه . وإذا كان كذلك لم يَصلُح الإخبارُ عن المضاف إليه . وذكر بعضُهم أنّه يقال لقوس قُزَح : قوسُ قَزِيع ، و[هو من(٢)] تقزّع القوسُ ، إذا تشمَّر للعَدْوِ وخفّ .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : «مواكبه» ، ولعل المراد المواكب كما سيأتى قريبا .
(٢) التكملة من ل .

٨٠٢

وقال حاتِمُ طَـيِّـء[(١)] :

١ ـ مَتى ما يَجِئْ يوماً إلى المَالِ وارِثى يَجِدْ جُمْعَ كفٍّ غَيْرَ مَلْأَى ولا صِفْرِ[(٢)]

٢ ـ يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ العِنانِ وصارمًا حُسَاماً إذا ما هُزَّ لَمْ يَرْضَ بالهَبْرِ[(٣)]

٣ ـ وأَسْمَرَ خَطِّيًّا كأنَّ كُعوبَهُ نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِراعاً عَلَى العَشْرِ[(٤)]

قوله « جمع كف » هو القَدْر الذى يُجمَع عليه الكفّ من المالِ وغيره . ويقال المرأة الحاملِ : هى بجُمْـعٍ ، وكذلك للبِـكر منهنّ . والصِّفْر : الخالى من الشَّىء . فيقول : متى جاء وارثى بَعْدَ موتى يجدْ قَدْراً من المال لا يُوصَف بالكثرة ولا بالقِلَّة ، يَجِدْ فرسًا ضامراً كالعِنان فى إدماجه وضُمْرِه ، وسيفاً قاطعًا إذا حُرِّك فى الضَّريبة لم يَرضَ بالقَطْع ، ولـكن يتجاوزُه ويَخرُجُ إلى ما وراءه ، ورُمحًا أسمرَ فى لونه ، وذاك أصلبُ ، محمولاً من الخَطِّ ، وهو اسمُ جزيرةٍ يُجلَب منها الرِّماح . والكُعوب : العُقَد . شبَّهها فى صَلابتِها بنوَى القَسْب . والقَسْب : ضربٌ من التَّمْر ردىء غيظُ النَّوَى صُلْبها . وقوله « قد أرْبَى[(٥)] ذراعا على العَشْر » ، وصفَهُ بأنَّه لم يكن طويلاً ولا قصيرا حتَّى لا يكون مضطرباً ولا قاصراً ، بل يجرى مع الاعتدال . وقال الدُّريدى : القَسْبُ البُسْر اليانس . ونوَى القَسْب يشبَّهُ به أيضا ما فى جَوفِ الحافرِ من النُّسور . قال :

له بينَ حواميـــــه نُسورٌ كنَوَى القَسْبِ[(٦)]

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٢٧ ص ١١٦٦ .
(٢) فى الديوان ١٢١ : « متى يأت يوما وارثى يبتغى الغنى » .
(٣) الديوان : « مثل القناة » .
(٤) أربى ، هو ما فى ل . وهو ما اتفقت النسختان عليه فيما سيأتى فى الشرح . لـكن فى الأصل والتبريزى والديوان : « أرمى » . ومعناها واحد .
(٥) كذا بالباء باتفاق النسختين ، وانظر ماسبق فى الحواشى .
(٦) لعقبة بن سابق ، أو يزيد بن ضبة ، كما فى كتاب الخيل لأبى عبيدة ٨٣ .

وقصد الشّاعرُ إلى أنّ ما يَحصُلُ له يَجُود به ، فإذا ماتَ لم يَبْقَ له إلاّ ما ذَكَرهُ من آلاتِ الحروب والغَزْو .

٨٠٤

وقال آخر :

١ ـ آلُ المهلَّب قومٌ خُوِّلوا شَرَفاً ما نالَهُ عَرَبيٌّ لاَ ولاَ كادَا
٢ ـ لوْ قِيلَ للمَجْدِ حِدْ عنهم وخالِهِم بما احتَكَمْتَ من الدنيا لما حادَا
٣ ـ إنّ المكارِمَ أرواحٌ يكونُ لها آلُ المهلّب دُونَ الناس أجسادا

وصفَهم بأنهم أُعطُوا مجداً لم يَنلْه قبلَهم عربيٌّ ، ولا قَرُب من أن يناله ، فهم متفرّدون به ، لا ينبغى لغيرِهم . ثمَّ قال : لو قيل للمجد حِدْ عنهم . يريد أنهم للمجد موضعٌ ومقرٌّ حتى لو كان يَعقِل ثم سِيمَ تركَهُ إياهم ، وإخلالَه بهم بما يحتَكِم من الدنيا ، ويَقترِحه من أعراضها[(١)] ، لما تجنَّبهم ، ولا عدَلَ عنهم ، وذاكَ لأنّ المجدَ رضِيهم مَحَلاًّ ، ورَضُوا هُم بسُكناه أهلاً . والقَدْر يَجرِى إلى القَدْر . وقد ألَمَّ بهذا المعنى البُحْترىُّ فى قوله :

أَوَ ما رأيتَ المجدَ ألقَى رَحْلَهُ فى آل طلحةَ ثم لم يَتحوّلِ

ويقال : خالى فلانٌ قبيلتَه ، إذا تركَهم وتحوّلَ عنهم . قال النابغة :

قالَتْ بنو عامرٍ خالُوا بنى أَسَدٍ يا بُوسَ للجَهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ

معناه تارِكُوهم وفارِقوهم .

وقوله « إنّ المكَارم أرواح » جعَلَ آلَ المهلَّب كالأجساد ، والمكارمُ لها كالأرواح ، كما جعَلَهُم فى الأول دارًا ، والمجدَ سُكّاناً ، والروح لا يثبُت إلا فى

(١) ل : « أعواضها » .

جسمٍ على صفةٍ ، كما أنَّ الجسمَ لا يتصرَّف إلا بالروح الحاصلِ فيه مع القدرة . فيريد أنهم مَقارّ للمكارم ، مصرَّفون في اكتساب المعالى ، فالمكارمُ بهم تثبت وتبقى ، كما أنَّ تصرُّفَهم واقتدارَهم من بين الأجسام بها ولها .

٨٠٥

وقالت أختُ النَّضْر بن الحارث (١) :

١ ـ الواهبُ الألْفَ لا يَبْغى به بَدَلاً ... إلاَّ الإلَهَ ومَعْرُوفاً بما اصْطَنعَا

تقول : إنَّه يفرِّق ما يفرِّق من ماله لا لطلبِ عِوَضٍ ، ولا اجتذابِ نفعٍ واجتلابِ مَحْمَدة ، ولكنْ يريد به التقرُّبَ إلى الله تعالى ، وأن يفعلَ المعروفَ عما يصنعُه ، فهو يتلذَّذ بفعل المعروف ، وباحتساب الأَجرِ عندَ الله .

٨٠٦

وقالت صَفِيّة بنتُ عبد المطلب (٢) :

١ ـ ألا مَنْ مبْلِغٌ عَنِّى قُرَيشاً ... فَفِيمَ الأمْرُ فِينا والإمارُ (٣)

٢ ـ لَنا السَّلَفُ المقدَّمُ قد عَلِمْتُمْ ... ولم تُوقَدْ لنا بالغَدْرِ نارُ

٣ ـ وَكُلُّ مَنَاقِبِ الخيراتِ فِينا ... وبعضُ الأمرِ مَنْقَصَةٌ وعارُ

الرسالة التى تَطلب إبلاغَها ، وترتاد من تَضَعُها على لسانِه فيحتملُها ، قولها « فَفِيمَ الأمر فينا » ، وما فى الاستفهام إذا اتَّصل بحرف الجرّ يُحذَف الألفُ من آخره ، تقول : فيم وبم . وقد تُقُصِّى القولُ فيه من قبلُ . كأنَّ هذه المرأة

---

(١) انظر ماسبق فى ص ٦٩٣ .

(٢) فى الأصل: « بنت عبد الملك » ، تحريف ، صوابه فى ل والتبريزى . وهى صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووالدة الزبيرَ بن العوام .

(٣) ل : « ففيم الأمر فيكم » وكتب فوقها : « فينا » مقرونة بكلمة « معا » إشارة إلى أنهما روايتان . وعند التبريزى : « فينا » .

تستبطئ قبيلتَها قريشاً . فتقول : مَن يبلِّغهم عنِّي لِمَاذا كان الأمرُ فيهم والتّشاوُر ، والاقتداء والترافُع ، حتّى صار النّاسُ تبعاً ، وما لكُم تنقبضون فيما يَجِبُ عليكم السّعيُ فيه ، ولنا الشّرفُ الرّفيع والسّلَف القديم ، وقد علمتوه عِلماً خاليًا من الشّكّ ، بريئًا من الشُّبهة ، ولم يُعرفْ غَدْرٌ لنا بجارٍ[١] أو ذِي محرم ، وُقِدَتْ مِنْ أَجْلِهِ لنا نار[٢] . وكانت العربُ إذا أرادتْ تشهيرَ غَدْرِ غادرٍ حتّى يتجنّبَه النّاس أوقدَتْ ناراً في يَفاعِ هَضْبةٍ ، ونصبَتْ لواءً عند مجمعٍ لهم أو سوقٍ عظيمة ، وينادون : هذه نارُ فُلانٍ الغادر ولواؤه !! يشهِّرون أمرَه ويقبّحون صورتَه . على هذا يُحمَل قول زهير :

وتوقَد نارُكم شَرْزاً ويُرفَع ... لكُمْ في كلِّ مَجْمَعَةٍ لِواءُ[٣]

ولا يمتنع أن يراد بإيقاد النّار قيامُ النّاس وقُعودهم ، وتفاوُضُهم للغَدْرةِ إذا ظهرَتْ من الغدر ، ومايثور من الفَضيحةِ والذِّكْرِ القبيح ، فيكون هذا مثل قولِ أبي ذؤيب[٤] :

* تحَرَّقُ نارِي بالشَّكاةِ ونارُها[٥] *

والأوّل أشهر .

وقوله « وكلُّ مَناقب الخَيراتِ فينا » ، تريد أنَّ مَعالِمَ الخيرِ ومَواسِمَ الفضل فيهم ، لا يَدفعها دافع ، ولايختلط بها تنقُّصٌ من عائب . ومَنْقَبَة : مَفْعَلة من النِّقَابة

(١) كذا في ل . وفي الأصل : « ولم يعرف لنا غدر الجار » .

(٢) ل : « فأوقدت من أجله لنا نار » .

(٣) ويروى : « شرراً » كما في الديوان ٨٥ . قال ثعلب : « أي تطير في النّاس ، أي يطير لها شرر في الناس ، أي شهرة » .

(٤) ل : « من الغادر ، فيكون هذا مثل قول أبي ذؤيب فيما يثور من الفضيحة والذكر القبيح » .

(٥) صدره في ديوان الهذليين (١ : ٢١) :

* أبى القلب إلا أم عمرو وأصبحت *

وهى المعرِفة . فتقول : فينا أنواعُ الخير والشّر ، معلومةٌ للنّاس ، وبعضُ ما يُذكَر من الأمور عارٌ على صاحبِه ونقصٌ فى شأنه ، إذْ كان لا يَسلم على الجاذبين .

٨٠٧

وقال المتوكِّلُ اللّيثىُّ (١) :

١ ـ لَسنا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ ... مِمّن على الأحسابِ يَتَّكِلُ (٢)

٢ ـ نَبْنِى كما كانتْ أوائِلُنا ... تَبنِى ونَفعَلُ مِثْلَ ما فَعلوا

يقاربه قولُ الآخر :

سنا إذا ذُكِر الفَعالُ كمَعشرٍ ... أزْرَى بفِعْلِ أبيهم الأبناءُ

وقد مضى القولُ فيه مشروحًا .

٨٠٨

وقال طُرَيح بن إسماعيل (٣) :

١ ـ طَلَبتُ ابتِغاءَ الشُّكرِ فيما فَعلْتَ بى ... فقَصَّرْتُ مغلوبًا وإنِّى لَشاكِرُ (٤)

٢ ـ وقد كُنْتَ تُعطِينِى الجَزِيلَ بَدِيهةً ... وأنتَ لِما استَكْثَرْتُ من ذاك حاقِرُ

٣ ـ فأرجِعُ مَغبوطًا وتَرجِعُ بالتى ... لَها أوّلٌ فى المَكْرُماتِ وآخِرُ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٤٢ ص ١١٨٥ .

(٢) فى الحيوان (٧ : ١٦٠) والأمالى (٣ : ١١٧) « يوما على الأحساب نتكل » . والبيتان فى الحيوان منسوبان إلى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر . وبدون نسبة فى الأمالى .

(٣) طريح بهيئة التصغير . وقال التبريزى : « يجوز أن يكون تصغير طرح من قولك طرحت الشىء طرحاً أو طارح ، أو طروح . أو طريح ، ونحو ذلك » . وطريح بن إسماعيل الثقفى نشأ فى دولة بنى أمية وأكثر من مدح الوليد بن يزيد ، وأدرك دولة بنى العباس ومات فى أيام المهدى . الأغانى (٤ : ٧٧) والشعراء ٦٦٠ واللآلى ٧٠٥ .

(٤) التبريزى : « فيما صنعت بى »

يقول: غمَرني إحسانُك، وغلبني بِرُّك واعتناؤك، لا جَرَم أنِّي لما طابت مقابلَتك بالشُّكر على صنيعك بي، صِرْتُ كالمفرِّط مغلوباً وأنا مجتهدٌ في الشُّكر، بالغٌ إلى أقصى الغايات في النَّشر، لكنَّ إحسانك كثَّرني وخلَّفني بالبُعد من غايته، لأنَّك كنت تُعطيني الكثيرَ من المال مبتدئاً لا عن سؤال تقدَّمَ، ولا عن ذِكرٍ [1] في نفسك تَردَّد، ومع ذلك كنتَ تَستحقِرُ عطاياكَ وتَزدريها، وأنا أستكثرُها وأعجِّز نفسي عن ضَبْطها وإحصائها، وأبْلُغُ بها مبالغ المكثِرين المتكلِّفين، ثم أرجعُ مغبوطاً عنك مرموقا، ومُحسَّداً في الناس مذكورا، وترجعُ بِخَصْلِ [2] الكرَم والسَّبق إلى الغاية المطلوبة، التي لها عند طُلَّاب المكارم أوَّلٌ يُبتدأ به، وآخرٌ يُنتهَى إليه.

٨٠٩

وقال حبيب بن عَوْفٍ [3]:

١ – فتىً زادهُ السُّلطانُ في الحَمْدِ رَغْبةً إذا غيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلِ [4]

يقول: لم يُبْطِرْك الغِنَى ولا أَعْنَتَك السَّلْطَنة [5] ونيلُ أسبابِ العُلى في الدُّنيا، لكنَّها زادتك رغبةً في الخيرِ واكتساب الحمد بين الناس [6] إذا غيَّر مُساعَفةُ القَدَر، ومُطاوَعة الجَدّ والجِدةِ كلَّ خليل لصاحبه.

والسُّلطان في غيرِ هذه: الحُجَّة، وقيل اشتقاقُه من السَّليط: الزَّيت.

(١) ل: «فكر».

(٢) الخصل: الغلبة والسبق في النضال.

(٣) كذا. ونسب في الحيوان (٧: ١٥١) والبيان (١: ٧١) والكامل ٣٦٦ إلى زياد الأعجم.

(٤) قال الجاحظ: شبيه بقول الآخر:

فتى زاده عز المهابة ذلة وكل عزيز عنده متواضع

(٥) هذه اللفظة مما لم يرد في المعاجم المتداولة.

(٦) ل: «من الناس».

٨١٠

وقال ابن الزَّبير[1] ، يمدح محمدَ بنَ مَرْوان :

١ — لا تَجْعَلَنَّ مُبَدَّنًا ذَا سُرَّةٍ ضَخْمًا سُرادِقُه وَطِيءَ المَرْكَبِ

٢ — كَأغَرَّ يَتَّخِذُ السُّيوفَ سُرادِقًا يَمْشِي بِرايَتِهِ كَمَشْيِ الأَنْكَبِ

قوله « مُبَدَّنًا » ، أي سمينا عظيمَ البدن ، ويُروى « مُثَدَّنًا » ، وهو العظيم الثَّنْدُوة . وعلى ما يقتضيه بناء الفعل يكوى ثُنْدُوَةٌ مقلوبة والأصل ثَدْنُوَةٌ ، فَعْلُوَة ، فأما ثُنْدُؤَة بضم الأول والهمز فهو بناءٌ آخر . فكأنَّه يخاطب إنسانًا فقال : لا تجعلَنَّ صاحبًا لك هِمَّتُه في الأكل وتسمين البَدَن ، وتحسين الهَيْئة والسَّحْنة ، فترى مَرْكَبَه وطيئا ، وسُرادِقَه ضَخْما ، وجمالَه باهرًا ومنظره رائعا ، كرجل كريم سُرادِقُه ظِلالُ السُّيوفِ ، وقد غُشِّيت بما تُفِيء عليه ، ثمَّ يَمْشِي قُدَّامَ أتباعِه وأصحابِه برايته مَشْيَ الأَنْكَب . والأنكب : الذي أحَدُ مَنْكِبَيه أشرفُ من الآخَر . وهذا تصويرٌ في التَّشبيه . وإنَّما يتحمَّل الرَّاية بنفسه إذا لم يأمَنْ عثرةَ حامله وإسقاطَه إيَّاها عندَ ما يغشاه من الذُّعر ، فهو يَمْشي بها لينظرَ أصحابُه إليها فيَثبُتون معه ، ويحاربون على مُرادِه وهواه .

٣ — فَتَحَ الإلٰهُ بِشَدَّةٍ قد شَدَّها ما بَيْنَ مَشْرِقِ أهْلِها والمَغْرِبِ

٤ — جَمَعَ ابنُ مَرْوانَ الأغَرُّ محمَّدٌ بَيْنَ ابنِ أشْتَرِهِمْ وبينَ المُصْعَبِ

يقول : فتَح الله تعالى على يدِه بما توحَّدَه به من فضله ، وسعيه وحدَه ، ما بينَ أقاصِي الشَّرق والغرب ، بحَمْلةٍ حملها في جوانبها ، ثمَّ جمعَ بين قتل ابن الأشتر ومُصعبِ بن الزُّبير ، فأراحَ العبادَ والبلادَ منهما ، وأزاحَ عن الإسلام والمسلمين شرَّهما وفتنتَهما . وإنما قال « بشَدَّةٍ » لما تعجَّل وترادف من الأمور

(١) هو عبد الله بن الزبير الأسدى ، تقدمت ترجمته فى الحماسية ٣٢٢ ص ٩٤١ .

فى نَهَضاته ، وتسرَّع وترافَدَ من كَسْر الجُمهور عند ما تكلَّف من مدارته[١].
وقوله « أشْتَرِهم » أضافَهُ إلى مَن كان يَدِين له ، ويدخلُ تحتَ طاعته وهواه .

٨١١

وقال الكُمَيْتُ[٢] فى مَسْلَمة بن عبد الملك :

١ – فما غابَ عَنْ حِلْمٍ ولا شَهِدَ الخَنَا ولا استَعْذَبَ العَوْرَاء يَوْمًا فقَالَها
٢ – يَدومُ على خَيْرِ الخِلالِ وَيَتَّقى تَصَرُّفَها مِنْ شِيمة وَانفِتَالَها[٣]
٣ – وتَفْضُلُ أيْمَانَ الرِّجالِ شِمالُهُ كما فَضَلَتْ يُمْنَى يَدَيْهِ شِمالَها

يقول : ما أَخَلَّ هذا الممدوحُ بالأخذ بالحِلم ، وتَرْكِ السَّفَه والجَهلِ فى مشهدٍ من المشاهد ، وعندَ حضورِ أمرٍ من الأمور ، ولا استَحسنَ الفاحشةَ فرضِيَ بها أو تولَّاها ، ولا استطاب اللَّفظ بالكلمة القبيحة فتفوَّهَ يومًا أو توخَّاها ، لكنَّه يَدُوم على الخِصال المحمودة ، والأخلاقِ الشريفة ، ويتَّقى انصرافَه عن شِيميةٍ زكيَّةٍ عُرِف بها ، وذَهابَه عن طبيعةٍ رضيَّة فيقال تسخَّطها أو رفضَها ، فهو فى درَجات المجْد يسمو ويَصعَد ، وعلى مطالع الشَّرَف يعلو ويَغلب .

والانفتال : مطاوعة فَتَلْتُه فَتْلاً ، وهو الانصرافُ والالتواء . والعوراء : الكلمة القبيحة . والعَوْرَة : السَّوْءَةُ وكلُّ ما يُستَحيا منه .

وقوله : « وتَفْضُل أيمانَ الرِّجال شِمالُه » ، يقول : تَزِيدُ فى الفَضْل

(١) ل : « بدراته » .
(٢) الكميت بن زيد الأسدى : شاعر معروف من شعراء الدولة الأموية ، كان صديقا للطرماح على ما كان بينهما من تباعد فى الدين والرأى ، وكان أحد المعلمين . الأغانى (١٥ : ١٠٨ – ١٢٤) والخزانة (١ : ٦٩ – ٧١) والمؤتلف ١٧٠ والمرزبانى ٣٤٧ – ٣٤٨ وابن سلام ٤٥ – ٤٦ والشعراء ٥٦٢ .
(٣) ل : « تصرمها » .

والإفضال شِمالُ هذا الرَّجلِ على أيمان الرِّجال كلِّهم وتعلُو عليها ، كما غَلبت اليمنى من يديه الشِّمال . والضمير من « شمالها » يرجع إلى اليمنى ، أى كما غَلبت يمينُه شماله غلبت شمالُه أيمانَ الرِّجال كلّهم . ويكون هذا كقول الآخر :

وما فَضْل الجَوَاد على أخيهِ إذا اجتهدَا وكلٌّ غيرُ آلِ
فبرَّزَ سابقًا إلاَّ كفضلِ الـ ـيمينِ منَ اليَدَيْنِ على الشِّمال

فهذا وجه ، والأجود أن يُجعَل الضَّمير من الشمال عائداً إلى الرِّجال ، فيكون المعنى : كما فضلت يُمناهُ شِمالَ الرِّجال كلّهم . يريد أن زيادةَ شِماله على أيمانهم فى الظُّهور مِثلُ زيادةِ يمينه على شمائلهم فى الظُّهور .

٤ ــ وما أَجِمَ المعروفَ مِنْ طُولِ كَرِّهِ وأمْرًا بأفعالِ النَّدَى وافتِعالَها
٥ ــ ويبتذلِ النَّفْسَ المَصُونَةَ نَفْسَهُ إذَا ما رأى حقًّا عليه ابتذالَها

قوله « ما أَجِم » ، أى ماكرِه فِعلَ المعروف حتَّى كان ينصرفُ عنه وإن طالَ تكرُّره على يدِه ، ودامَ اكتسابُه له ، بل يَزدادُ على مَرِّ الأيّام رغبةً فيه ، ووَلُوعًا به . ويقال : فلانٌ أَجِمَ من الطعام (١) ، إذا عافَه وانصرفَتْ نفسُه عنه .

وقوله : « وأمْرًا بأفعال النَّدَى » عطفَه على المعروف ، ويريد : ولم يأجم الأمرَ بفِعْل الندى واكتسابَه له ، كأنَّه كان يبعث الغَيرَ عليه ، ويتولّى فِعلَه بنَفْسه .

وقوله « ويبتذل النَّفْسَ المصونةَ نفسَه » . نصب « نفسَه » على البدل من النَّفس . وَيكون المعنى أنّه إذا رأى ابتذالَ نفسه المصونةِ وَاجبًا عليه ، وَحتمًا ملازمًا له ، يبتذلها ولا يَصُونها . وإنّما يريد أنَّه يفعل ذلك فى الشَّدائد وعند احتماء البَأْس وهذا كما رُوِىَ فى الخبر : « كُنَّا إذا اشتَدَّ البَأْسُ اتَّقينا برسول

(١) ل : « من طعام كذا » .

الله صلى الله عليه وسلم » . ورُوى « نفسُه » بالرفع ، ويكون فاعل تبتذل . ويريد بالنَّفْس المصونةِ كرائمَ أصحابه وأمواله ، فالمعنى أنه لا يُبقِّى ذخيرةً من دخائره إذا وجَبَ إنفاقها ، ولا يَصُون نفساً عزيزة عليه من كرائمه إذا وجب ابتذالُها .

٦ – بَلَوْناكَ فى أهْلِ النَّدَى فَفَضَلْتَهم وباعُكَ فى الأبواع قِدْماً فَطَالَهَا

٧ – فأنتَ النَّدَى فيما يَنُوبُك والسَّدَى إذا الخَوْدُ عدَّت عُقْبَةَ القِدْرِ مالَهَا

يقول : خَبَرْناكَ فى جملةِ من تَدَّعِى النَّدَى وزُمْرتِهم ، فغلبْتَهم وسَبقتَهم ، كما بلونا بَسْطَ يدِكَ ، واتِّساعَ باعِكَ عند البَذْل فى الأبواع كلِّها قديماً ، فَغَلَبَها فى الطُّول . وقوله « فَضَلتَهم » ، هو للمبالغة ؛ يقال : فاضَلتُه فَفَضَلْتُه أَفْضُله . ولذلك تَعَدَّى وإن كان فَضَلَ الشَّىءُ إذا زادَ لا يتعدَّى . ومن شرط فَعَلَ فى المبالَغة أن يُجعَل مستقبلُه على يَفْعُل إذا كانَ صحيحاً ، وإن كان فى الأصل يجىء مفتوحَ العين أو مضمومَه أو مكسوره . وكذلك قوله « فطالها » إنما تعدَّى وطالَ الذى هو ضدُّ قَصُرَ [لا يتعدَّى(١)] لأنَّه من طاوَلْتُه فطُلْته أطُوله . والمعتلّ فى هذا المعنى يجرى على أصله ، يقال : باكيته فبكيته ، إذا غلبتَه فى البكاء ، وطاولتُه فطُلْتَه ، إذا غلبتَه فى الطُّول . وإنَّما لم يغيِّروا المعتلّ لئلا يلتبسَ بناتُ الواو ببنات الياء . ولا يجىء هذا فى كلِّ فعل .

وقوله « فأنت النَّدَى فيما يَنُوبك والسَّدى » ، يريد ترطُّبَه المعروف وتندِّىَ كفِّه فى العطاء عند يُوس المَحْل ، واشتدادِ الجَدْب . والنَّدَى والسَّدَى هما بمعنًى واحد . وقد قيل النَّدَى بالنَّهار والسَّدَى باللَّيل .

وقوله « إذا الخَوْدُ عدَّتْ » ، يريد أنه يفعَلُ ذلك فى الوقتِ الذى تعُدُّ عَقيلةُ الحىِّ وكريمةُ القوم مالَهَا الذى تَعيش منه وتعتمده ، ما يَرُدّ عليها من المَرَق فى القِدر إذا استُعيرت . وهذا كانوا يَفعَلُونه فى تناهى القَحْط ، وفى شِدَّة الزَّمان ،

(١) التكملة من ل .

وعند إسنات النَّاس. وكما يسمَّى المردودُ فى القِدر عُقْبةً سمِّى عافِياً. قال الكُمَيْت :

وجالَت الرِّيحُ من تِلقاء مَغرِبها وضَنَّ من قِدْرِه ذو القِدْر بالعُقَبِ

وقال آخر [١] :

فلا تسألِينِي واسألِي ما خَلِيقتِي إذا رَدَّ عافِي القِدْرِ مَنْ يستعيرُها

وخَصَّ الخود لكَرَمِها ونَعْمتِها وكَرامتِها فى ذَوِيها. وقال الخليل: الخَوْد: المرأة الشابَّة ما لم تَصِرْ نَصَفاً. وقال الدُّرَيديّ: الخَود: الفتاة النَّاعمة؛ ولم يُبْنَ منه فِعْل.

٨١٢

وقال الأعجم [٢]، يمدح عُمَر بن عبيد الله [٣] :

١ — أخٌ لكَ ليس خُلَّتُه بِمَذْقٍ إذا ما عادَ فَقرُ أخيهِ عادَا

٢ — أخٌ لكَ لا تراه الدَّهرَ إلَّا على العِلَّاتِ بَسَّاماً جَوادَا

المَذْق: اللّبنُ وقد خُلِط به الماء، فاستعاره للمودّة. ويقال: فلانٌ يَمْذُق الوُدَّ، وهو يُماذِقنى. فيقول: صداقُه هذا الأخِ صافيةٌ من الشَّوائب، لأنّه لا يَنطوِى لك على غِلٍّ ولا حِقْدٍ، ولا سوءِ دِخْلةٍ، ولا فَساد طَوِيّة، وإذا أعطَى راجيَهُ أغناه، فإن راجَعَه الفقرُ لكثرة مُؤَنه، وتزايُدِ غاشيته، أو لتحامُلِ نوائب الزّمان عليه، وَجَدَ على خُلْقه [٤] وما لِه مَحْمِلاً، فعادَ بالإحسان إليه. ثمّ لا تراه على تغيُّر الزمان، واختلاف الأحوال، إلّا ضحوكاً طَلْقَ الوجه، جَوادًا

(١) هو عوف بن الأحوص. البيت ٣ من المفضلية ٣٦.

(٢) هو زياد الأعجم. ترجم فى الحماسية ٦٦٥ ص ١٥٣٩.

(٣) التبريزى: «عمر بن عبدالله بن معمر». وفى النسختين: «عمر بن عبد الله»، تحريف. وانظر الأغانى (١٤: ١٠٠ – ١٠٣).

(٤) هذا ما فى ل. وفى الأصل: «وجد عليه خلقه».

طَيِّب النفس . وبَسَّام : بناء المبالغة ، ولم يُبْنَ على بَسَمَ ، لأن البناء على بَسَم باسِمٌ . ويقال : بَسَم ، وابتسم ، وتبسَّم .

٨١٣

وقالت امرأةٌ من بنى مخزوم :

١ ـ إنْ تسألى فالمَجْدُ غَيْرُ البَدِيعْ قدْ حلَّ فى تَيْمٍ ومَخْزومِ (١)

٢ ـ قومٌ إذا صُوِّتَ يومَ النِّزَالْ قامُوا إلى الجُرْدِ اللَّهاميمِ

٣ ـ من كلِّ مَحبوكٍ طُوَالِ القَرَى مِثْلِ سِنَانِ الرُّمْحِ مَشْهُومِ

قولها « غير البديع » انتصبَ على الحال ، وإنَّما تُخاطب امرأةً . فتقول : إنْ سألتِ الناسَ عن مَقَرِّ الجدِ ومَسكَنِه ، فقد حَلَّ غيرَ مُستبدَعٍ (٢) ولامستَنْكَرٍ ، فى بنى تَيْم ومخزوم ، وهم قومٌ تَداعَى الأبطالُ يوم النِّزال ، وصاحَ المستغيث بناصره عند القِراع ، قامُوا إلى خيلٍ قِصار الشُّعور عِرابٍ ، كِرَامٍ سِرَاعٍ . ولهاميم الإبل : غِزارُها . ولهاميم النَّاس : أسخياؤهم .

وقولها « مِن كلِّ محبوكٍ طُوَال القَرَى » ، تريد : مِنْ كلِّ فَرَسٍ مُحْكَم الخَلْق ، مُشْرِفٍ طول الظَّهْر ، خفيفٍ نافذٍ فى العَدْو ، كأنَّه سِنانُ رُمْحٍ . والمسهوم : الذى قد أثَّر الغَزْوُ فيه وأَوْحَهُ سَمُوم الحربِ والحَرّ . هذا إذا رويته « مَسْهُوم » بالسين غير معجمة ، ومن رواه « مشهوم » بالشين معجمة فمعناه حَديدُ القلب ؛ ومنه الشَّيْهم : اسم القُنفُذ ، للشَّوْك الذى فى ظهره .

---

(١) بحره السريع ، والبيتان الأول والثانى يزيدان على الثالث حرفاً . وهذا الحرف لابد من إسكانه عند الوقف عليه ، يجوز تحريك العين من « البديع » واللام من « النزال » إذا وصلا بما بعدهما فى القراءة .

(٢) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « مبتدع » .

٨١٤

وقالت أخرى :

١ ـ ألا إنَّ عبد الواحدِ الرَّجُلُ الذى يُنيلُكَ ما طالبْتَ والوَجْهُ وافِرُ(١)

تقول : يُعطِى قبل أن يُسأل ويُبْذَلَ الوجهُ له . ويشبهه قولُ الآخر :

أهْنَـــأُ المعروفِ ما لم يُبتَـذَل فيـه الوُجوهُ

ويقال : نِلتُ الشيءَ أنالَه نَيْلاً ، وأنالَنيه فلان . والنَّيْل والنَّوْل يتقاربانِ في المعنى وإن كان بناءاها مُختلِفَين ، يقال : نِلْته أنولُه نَوْلاً ، فهذا من النَّوال ، ونوَّلتُه وتناوَلَ الشَّيء ، وما كان نَوْلُك أن تفعلَ كذا ، أى ما كان ينبغى لك .

٨١٥

وقالت الخَنْساء(٢) :

١ ـ دَلَّ عَلَى معروفِهِ وَجْهُــــهُ بُورِكَ هذا هادِياً مِنْ دَليلْ

٢ ـ تَحْسِبُه غَضْبَـــانَ مِنْ عِزِّهِ ذلِكَ مِنْـهُ خُلُقٌ لا يَحُولْ(٣)

٣ ـ وَيْـلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ إذا أُلْقِىَ فيهــا وعَلَيْهِ الشَّلِيلْ

قولها « دَلّ على معروفه وجهه » ، تريد طلاقةَ وجهِه وتهلُّلَه عند تعرُّض السَّائل له ، وفرَحَهُ وبشاشتَه به إذا حَصَل عنده ، ثم قال : بارَكَ الله فى هذا الدليل من بين الأدلَّاء ، يعنى وجهه . وأصلُ البَرَكة النَّماء والزيادة ، وقيل هو

(١) التبريزى » : والعرض وافر » .

(٢) الخنساء لقب لها ، اسمها تماضر بنت عمرو الشريد . وهى شاعرة صحابية من شعراء المراثى ، وقد شهرت برثاء أخيها صخر . انظر كتب الصحابة والأغانى (١٣ : ١٢٩ ـ ١٤٠) والخزانة (١ : ٢٠٧ ـ ٢١١) والشعراء ٣٠١ ـ ٣٠٦ .

(٣) التبريزى : « ما يحول » .

من اللُّزوم والثَّبات ، ومنه تَرْكُ البعير . وانتصب «هادياً» على الحال .

وقولها « تحسَبه » غَضْبانَ من عِزِّه » ، هم – أعنى العرب – يشبِّهون الحيِّ الكريم بالمتشكِّى من ذِلَّة ، والعزيزَ المنيعَ بالمتغضِّبِ من عِزَّة . ولا غضبَ فى هذا كما أنّه لا عِلّةَ ثَمّ ، وإنما يراد فى العزيز إباء النّفس وأُبَّهة النُّبل ، كما أنّه يُراد فى الحيِّ لينُ الجانب ، والانخزالُ من الكَرَم . وقولها « ذلكَ منه خُلُقٌ لا يَحُولُ » ، يريد أنّه طُبِع على ذلك ، فلا يَزُول عنه ولا يتحوّل منه .

وقولها « ويلُ أُمِّه مِسعرَ حربِ » انتصبَ مسعر على التمييز ، وقد مرّ القولُ فى ويلُ أمِّه (١) . والكلام تعجُّب وتعظيم . والمِسْعر من أبنية الآلات ، يراد أنّه كالآلة فى إيقاد نار الحَرْب إذا أُلْقِىَ فيها وقد تَدجّج فى السلاح .

والشَّليل : الدِّرْع .

٨١٦

وقالت امرأةٌ من إياد :

١ – الخَيْلُ تَعْلَمُ يَوْمَ الرَّوْعِ إذْ هُزِمَتْ   أنّ ابنَ عَمْرٍو لدَى الهَيْجاءِ يَحْمِيها (٢)

٢ – لم يُبْدِ فُحشاً ولم يُهْدَدْ لِمُعظَمَةٍ   وكلُّ مَكْرُمَةٍ يُلْفَى يُسامِيها

تعنى بالخيل الفُرسان . تريد : قد تيقّنوا أنّه إذا اتّفق عليهم كسرٌ ، وأثّر فيهم رَدْعٌ فى يوم حرب ، لا يدْفع عنهم ولا يَذُبُّ دونَهم إلّا ابنُ عَمْرو ، فهم ساكنون إليه ، ومُعتَمِدون عليه عند استعار (٣) نار الرّوع والاصطلاء بحرِّها ، لأنه جابرُ كَسْرِهم ، ومُخْمِدُ جَمْرِهم .

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٠٢ .

(٢) ل : « لمن هزمت » .

(٣) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « إسفار » .

وقولها « لم يُبدِ فُحشاً » تريد أنَّه لا يَعرف القبيح ، فلا يظهر فى أفعاله وأقواله ما يُستهجن أو يُستَفْحَش ، ثم إذا مُنِي بخصْلَة فظيعة لا يُهدُّ لها ، ولا يَحار فيها ، بل يَصبِر ويَثبُت ، ويحسُنُ حديثُه فى أفواه الناس لخُروجِه منها ويَعْذُب ؛ وكلُّ مَكرُمةٍ تسنح ، ومأثرةٍ على القُرب والبُعد تتفق وتَعرِض ، تراه تَطْمَحُ عينه إليها ، وتحرِصُ نَفْسه على جَمْع يدِه عليها ، لعُلوِّ هِمّته ، وكمالِ خصاله .

وقولها « يساميها » فى موضع الحال أى مُسامِياً لها ، ولك أن تروى « يُلاقى » بالقاف ، و « يُلْفى » بالفاء ، ومعناهما قريب .

٣ ـ المستَشار لأمرِ القومِ يَحْزُبُهُمْ إذا الهَنَاتُ أهَمَّ القومَ ما فيها

٤ ـ لا يَرْهَبُ الجارُ منه غَدْرةً أبدًا وإن ألمَّتْ أُمورٌ فهْو كافِيها

وصفَته بجزَالة الرَّأى ، وبراعة النَّفس والعقل ، وأنَّ المرجعَ فيما يَدْهَمُ القومَ إليه ، والمعتمدَ عندما يَهجُم فيُهمُّهم عليه ، فهم يستضيئون بتدبيره فى ظُلَم الخطوب ويستكشفُونه ما يتغشَّاهم من دَوَاهى الأمور . والهَنات : جمع هَنَةٍ ، وهى كالكِناية عن المنكَرات ، ولا تُستعمل فى الخير البتَّة . وقولها « أهمَّ القومَ » ، أى جعل مِنْ همِّهم . وموضع يَحْزُبُهُم نصبٌ على الحال .

وقولها « لا يَرْهَبُ الجار منه غَدْرَةً » تصِفُه بحُسْن الوفاء فيما يَعقِد للجار من ذِمّةٍ ، ويُعطيه من عَهْدٍ ومَوْثِقَةٍ . فيقول : جاره آمنٌ لا يخاف خَتْلاً ولا مكرًا وإن نزلَتْ به أمورٌ خارجة من الجِوار فهو يقومُ بها ويتكفَّل بالكِفاية فيها .

وانتصب « أبدًا » على الظَّرف ، وهو فى المستقبل بمنزلة قطُّ فى الماضى .

تم البابُ بعونِ الله وحُسن توفيقه ، والصَّلاة على نبيِّه محمد وآله من بعده .

باب الصفات

باب الصفات

٨١٧

قال بعضهم[١] :

١ ـ وهاجِرَةٍ تَشْوِي مَهاهَا سَمُومُها طَبَخْتُ بها عَيْرَانةً واشْتَوَيتُها[٢]

٢ ـ مُفَـرَّجَةً مَنْفوجةً حَضْرَمِيَّةً مُسَانَدَةً سِرَّ المَهارَى انتقيتُها

أراد بالهاجرة الوقتَ الذى يُهجَر السَّيرُ له إذا قامَ قائم الظَّهيرة وغَلب الحرُّ فيه ، وهى فاعلة بمعنى مفعولة . والمَهاَ : بقَرُ الوحش . فيريد أنَّ حرَّها يَشْوِى الوحشَ ويَطبُخها . وقوله «طبخْتُ بها عيرانة» يعنى بتلك الهاجرةِ . والعَيْرانة : النَّاقة تُشبِه العَيْر . و « شويتها[٣] » أى سرتُ عليها حتَّى أنضاها الهواجر وحَسَرها وأذهَبَ لحمَها ، فصارت كالمحترقة . والمُفرَّجة : هى التى بَعُدت مرافقُها عن زَوْرِها واتَّسعتْ آباطُها وفرَّجتْ مابين قوائمها ، فهى فتلاء المِرْفَق لايصير حازًّا ولا ناكتاً ولاضاغِطاً . والمنفوجة : الواسعة الجنبَيْن . والحضرميَّة هى التى حصَلت من نَسْلِ إبلِ حَضْرَمَوت ، وهى قريةٌ بالشأْم[٤] . والمُسَانَدَةُ : القويّة الظهر . وسِرّ المَهارَى ، أى خِيارُها . والمهارَى : جمع مَهْرِيَّةٍ وهى المنسوبة[٥] إلى

---

(١) التبريزى : « قال البعيث الحنفى » . وقد سبقت ترجمته فى الحماسية ٦٣٠ ص ٣٧٦ .

(٢) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى والتبريزى . وفى الأصل : « وشويتها » .

(٣) كذا باتفاق النسختين .

(٤) كذا . والمعروف أنها بلاد فى جنوبى الجزيرة شرقى اليمن .

(٥) ل : « منسوبة » .

مَهْرَة بن حَيْدَان ، أى من نِتاجِه . وانتقيتُها ، أى اخترتُها . والمراد أنَّه قَطَّاعٌ للمَفَاوِز فى الهَوَاجِر ، مبتذِلٌ لنفسِه وراحِلته لا يُبقى عليهما فى حَرٍّ ، ولا يقيهما من سَمُومٍ وتعب . وقوله : « تَشْوِى مَهَاها سَمُومُها » فى موضع الصِّفة للهاجرة . وقوله « طبخْتُ » جواب رُبَّ .

٣ ـ فَطِرْتُ بها شَجْعاءَ قَرْوَاءَ جُرْشُعًا إذا عدَّ مَجْدُ العيسِ قُدِّمَ بَيْتُها

٤ ـ وجَدْتُ أباها رائضَيْها وأمَّها فأَعطَيتُ فيها الحُكْمَ حتى حَوَيْتُها

قوله « فطِرت بها » قيل أراد به حثثتُها واستعجلتُها فى السَّير ، فيكون طِرْت بها بمعنى أطرتُها على هذا ، كما يقال ذهبْت بزيد وأذهبته بمعنًى ، ويجوز أن يكون المراد أنى انتزعتُها من عيون الباعة والمشترين ، واختلستُها وفُزْتُ بها ، بدلالة أنَّه قال « وأعطيتُ فيها الحكم حتَّى حوَيتُها » . والشَّجْعاء : الجريئة القلب ، وانتصب على الحال . والقَرْوَاء : الطَّويلة الظهر . والجُرْشُع : المنتفِخة الجنبَين .

وقوله « إذا عدَّ مَجْدُ العيس » يريد إذا ذُكِرت مَفاخرُ العِيس ومناسِبُها قُدِّم نَسْلُها وقَبيلُها الذى يُؤْويها .

وقوله « وجدت أباها رائضَيْها وأمَّها » فَصَل بين المعطوف والمعطوف عليه بمفعول وجدتُ الثانى ، والمعنى : وجدتُ أباها وأمَّها رائضَيْن لها ، كأنَّها نُتِجَتْ مَرُوضَةً مؤدَّبَةً ، فما حُمِد منها حَصَل لها وِراثةً لا تعلُّما .

وقوله « أعطيتُ فيها » أى بذلْتُ فى تملُّكِها ما احتَكم بائعُها واقترحه واستامَ بها ، حتى حصّلتُها .

٨١٨

وقال عَنترةُ بنُ الأخْرَس (١)

١ ـ لَعَلَّكَ تُمْنَى من أراقِمِ أرْضِنا ... بأرْقَمَ يَسْقِي السَّمَّ مِن كُلِّ مَنْطَفِ (٢)

٢ ـ تَرَاهُ بأجْوازِ الهَشِيمِ كأنَّما ... على مَتْنِهِ أخْلاقُ بُرْدٍ مُفَوَّفِ

الأراقِم: الحيَّات. والكلامُ دعاءٌ على المخاطَب وإن كان لفظُه ترجِّيًا وتأميلًا. ومعنى تُمْنَى تُمتحَن. يقال: مُنِيَ بكذا، أي بُلِيَ به وقاسَى شرَّه. ومعنى «يَسقِي السَّمَّ من كل مَنْطَف» يريد كل مَقْطَر، لأن نَطَفَ الماء معناه قَطَر. وسُمِّي الماء نُطْفَةً لذلك. يريد أنَّه يَرشَحُ بالسَّمِّ، فسُموم جلده تَقطُر به. ولعلَّ طَمَعٌ وإشفاق. كذا قال سيبويه. ويُستعمَل بأنْ وبغير أنْ. يقال: لعلّك أن تفعل كذا، كما تقول لعلك تفعل كذا.

وقوله «تَراه بأجواز الهَشِيم» فالهَشِيم: اليابس من الأشجار والنَّبات، والقَصْدُ إلى النَّبات هنا. يقول: تراه يتخلل الهشيمَ ويتوسَّط أثناءه، فكأنَّ على متنه بجلده الذى سلَخه قِطَعَ بُرْدٍ وَشْيُه كالفُوف، وهو البياضُ الذى يظهر فى أظافير الأحداث. وجعله سالخًا ليكون أخبَثَ.

٣ ـ كأنَّ بِضَاحِي جِلْدِهِ وَسَرَاتِهِ ... وَمَجْمعِ لِيتَيْهِ تَهَاوِيلَ زُخْرُفِ

أراد أنّه ملوَّن الجلد. والضّاحى: البارز للشّمس فى الأصل، والمراد به هنا ظاهر الجلد. والتّهاويل: ما يُعلَّق من العُهون على الإبل، ولا واحدَ له من لفظه، والقياس تَهْوَالٌ، كما يقال تجفَاف وتجافيف (٣). والزُّخرُف: كلُّ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٥٣ ص ٢٢٠.

(٢) يسقى، ضبطت بالبناء للمعلوم فى النسختين. ويصح أن تقرأ بالبناء للمجهول كما ضبطت فى نسخة التبريزى. والبيت أنشده الجاحظ فى الحيوان (٤: ٣٠٧).

(٣) التجفاف، بالكسر: ما يجلل به الفرس، وآلة تقيه الجراح.

ماحسِّنَ به شىء ، وأصله الذّهب . فشبّهَ بارزَ جلدِ الحيَّة وظهرَه ومجمع صفحتَىْ عُنقِه لاختلاف ألوانها بالتّهاويل التى تُزخرف بها الإبل .

٤ – كأنّ مُثنَّى نِسْعَةٍ تحتَ حَلْقِهِ بما قد طَوَى مِنْ جِلدِهِ المتغضِّفِ

٥ – إذا نَسَلَ الحيَّاتُ بالصَّيفِ لم يَزَلْ يُشَاعِرُ باقى جُلْبَةٍ لم تُقرَّفِ

شبّهَ غُضُونَ حَلْقه لما انطوى من جلده المتكسِّر لكونه فاضلاً عن لحمه ، وذلك لكثرة سَمِّه بنِسْعةٍ مَثْنيَّة جُعِلَتْ تحتَ حلقه ، ويقال : إنّ الحيَّاتِ إذا اجتمعت سمومُها وكثُرت دَقّتْ وهُزِلت لأنّ سمَّها ينقُص لحمَها ، فلذلك يَفضُل جلدُها عن حجمها فيتغضّف ، أى يتثنَّى ، والغضَف : انكسارٌ فى الأذُن .

وقوله « إذا نسلَ الحيَّاتُ » يريد أنَّه بخُبْثِه يقاتل سائرَ الحيَّات ، سُوءَ خُلقٍ منه وعَرامةً ، فإذا انتشرت الحيَّاتُ فى الصَّيف لا يزالُ يمارِسُ ويُطاوِلُ بَوَاقىَ جُلَبٍ منه لم تُقشَرَ عنه ، لأنَّه فى مُقاتَلةِ الحيّات يحصل على جُروح طولَ الصّيْف وتَيْبَسَ عليه جُلَبها . وقوله « يُشَاعِرُ باقى جُلْبَة » ، ويروى « يساعر » بالسين ، من قولهم كلبٌ سَعِرٌ ، أى كَلِبٌ . وفى القرآن فُسِّر قوله تعالى : ﴿ فى ضَلَالٍ وسُعُرٍ ﴾ ، أى جُنون . ومنه ناقةٌ مسعورة : لا تستقرُّ قلقاً ، ومن قولهم : عُنُقٌ مِسْعَرٌ ، أى طويل . وأنْ تروىَ « يشاعر » بالشين المعجمة أحسنُ ، تجعلُه من الشِّعار الذى هو خلاف الدِّثار . ويقال : جَلَبَ الجُرْح وأَجْلَبَ ، إذا يَبِس الدَّمُ عليه .

٨١٩

وقال مُلْحَةَ الجُرْمىُّ (١) :

١ – أرِقْتُ وطالَ اللّيلُ للبارِقِ الومْضِ حبيّاً سَرى مُجْتابَ أرْضٍ إلى أرضِ

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٧٨٢ ص ١٧٤٨ .

٢ ـ نَشَاوَى من الإدلاجِ كُدْرِىُّ مُزْنِهِ يُقَضِّى بجَدْبِ الأرضِ ما لم يَكَدْ يَقْضِى (١)

٣ ـ تَحِنُّ بأجْوازِ الفَلا قُطُرَاتُه كما حَنَّ نِيبٌ بَعْضُهُنَّ إلى بَعْض

قوله «أَرِقْتُ»، يريد سهرت، ولا يكون الأرق إلّا بالّليل. فيقول: فارقنى النَّومُ وطالَ ليلى من أجلِ سَحابٍ فيه بَرْقٌ يُومض، أَسْرَى ليلاً وقد قَطَعَ أرضاً إلى أرض. والوَمْضُ: مصدرٌ كالوميض، وهو لَمعانُ البرق. وقد وصفَ به. ويقال: وَمَض وأومَض. وانتصب «حَبِيًّا» على الحال، وهو المشرف. والعامل فيه إن شئت البارق، وإن شئت الوَمْضُ. و «مُجْتَابَ أرضٍ»، أى قاطِعَها، وانتصابه على الحال، والعاملُ سَرَى.

وقوله «نَشَاوَى من الإدلاج (٢)» رَدَّه على قِطَعِ السَّحاب. ألا تَرَى أنّه قال فى البيت الأول «للبارق الوَمْض»، ثم قال «نشاوَى من الإدلاج». وهو جمع نَشْوَان. يريد أنَّ أقطاعَه لسُرَاه صارت كالسُّكارَى تميل من جانبٍ إلى جانب، وتَنْعَطِف من أرضٍ إلى أرض. كأنّه جعل حالَ السَّارى من السحاب كحال السَّارى من الإنسان. وقوله «كُدْرِىُّ مُزْنِهِ» مبتدأ، و «يقضِّى بجَدْبِ الأرض» فى موضع الخبر، و «ما لم يكد» مفعول يقضّى. وجعلَ فى لونه كُدْرَةً لكَثْرة مائه وارتوائه. والمعنى أنّ الكُدْرِىَّ منه يَحكم للمُجْدِب من الأرض، ويَقْسِم من المَطَرِ له ما لم يكد يَقْضِى به لنفسه، ولم يقرُبْ من قَسْمه له كأنَّه يَصبُّ لجدب الأرض (٣) أكثَرَ ممَّا يحتكم به لو حُكِّم، ويختارُه لو خُيِّر. ولك أن تروى «ما لم تكد تقضى» بالتاء؛ تردُّه على الأرض. وقال بعضهم:

---

(١) رواه أبو العلاء: «يشاوى من الإدلاج»، أى يسابق، من الشأو، أى الطلق؛ يقال شآه، إذا سبقه.

(٢) الكلام بعده إلى كلمة «الإدلاج» التالية ساقطة من ل.

(٣) الكلام بعده إلى كلمة «الأرض» التالية ساقطة من ل.

هذا كما يقال: أعطانى الأميرُ ما لم يكد يعطيه لأحدٍ، وسمحَ لى بما لم يكَدْ يسمح به لأحد. والأوّل أحسنُ وأغرب. وقال بعضهم: أخبرَ أنَّ هذا السَّحابَ إذا أتى على أرضٍ مُجْدبةٍ لم يفارِقْها مطرُها حتّى يُهْرِيق[1] بها من الماء ما يكون فيه عَهْدٌ ووَلِيٌّ[2] فى دَفعةٍ واحدة، وفراغُه من هذا لا يكون سريعاً هيِّناً كأنَّ حاجةَ السَّحاب فى الأرض المُجْدِبة إحياؤُها وإخصابُها من مَطْرَةٍ واحدة، فلمّا فعلَ قضَى وطَرَه، ولم يكَدْ يقضيه إلّا بعد بُطْء.

وقوله «تحِنُّ بأجواز الفَلَا قُطُراته» أى نواحيه. والقُطْر: الجنب. ويقال: قطَّرَه، إذا ألقاه على قُطرِه. ويقال فى معناه قُتْرٌ أيضاً بالتاء. يريد أنّ جوانبَه تتجاوبُ بالرّعد، فكأنّها تحِنُّ إلى مواضعَ لها قد أَلِفَتْها، فهى تشتاقُها وتتشوّف. ثمّ شبَّهَ حنينَها بحنين الإبل وقد فُرِّقت بعد اجتماع، فتحانَّت وتهادرت.

ويقرب من هذا قولُ الهُذَلىّ[3]:

يَجُشُّ رَعْداً كهَدْر الفحل يَتْبَعُهُ ... أُدْمٌ تَعطَّفُ حولَ الفَحْلِ ضَحْضاحُ[4]

٤ ـ كأنّ الشّماريخَ الأُولَى من صَبِيره ... شَمارِيخُ من لُبْنانَ بالطُّولِ والعَرْضِ[5]

٥ ـ تُبارِى الرِّياحَ الحَضْرَمِيَّاتِ مُزْنُهُ ... بِمُنْهمِرِ الأرواقِ ذى قَزَعٍ رَفْضِ[6]

الشماريخ: الأعالى. والصَّبير: السَّحاب الأبيض. ولُبنان: جبل. شبَّهَ

(١) ل: «يهرق».
(٢) العهد: المطر الأول. والولى: ما يليه من المطر.
(٣) هو أبو ذؤيب الهذلى. ديوان الهذليين (١: ٤٨).
(٤) قال خالد بن كلثوم: ضَحضاح فى لغة هذيل: كثير، لا يعرفها غيرهم. يقال: عنده إبل ضحضاح. اللسان (ضحضح).
(٥) فى هامش ل أن الصواب «الشماريخ العلى»، وهى رواية التبريزى.
(٦) التبريزى: «يبار».

أعالىَ السَّحاب بأعالى هذا الجبل وأُنوفِهِ التى تتقدَّم منـــه ، وقال « الأُولَى » تخصيصاً لما كان من صَبيرِه خاصّة ، وقال « بالطُّول والعرض » ليبيِّن وجه التَّشبيه .

وقوله « تُبارِى » أى تُحَاكِى وتُسامِى الرِّياحَ الشَّاميَّةَ سُحُبُهُ بمطرٍ سامى الأعالى . ويقال للسَّحابة إذا ألحَّتْ بالمطَر فى موضعٍ : ألقتْ عليه أرواقَها . ويقال للرَّجل إذا ألقى همَّه على الشىء ونَفْسَه : ألقى عليه أرواقه . لذلك قال تأبَّط شرًّا :

* ألقيتُ ليلةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أرواقِى (١) *

والقَـزَعُ : قِطَـعٌ من السَّحاب متفرِّقة ، والواحدة قَزَعَةٌ . وقال الخليل : القزَعُ قِطَع من السَّحاب رقيقةٌ كالظِّلّ . وعلى ما قاله يكون الإشارةُ من الشَّاعر إلى السَّحاب إلى وَصفِه وقد هَرَاقَ ماءه فَرَقاً . قال الخليل : ولذلك قيل : شَعَـر مُقَـزَّعٌ ، أى خفيف . والرَّفْضُ : المُرْفَضُ المتفرِّق ، وكأنَّ الأصل فيه الرَّفَض ، محرَّكَ الفاء ، والجميع الأرفاض ، فسكِّن ، ويجوز أن يكون وصفَ بالمصدَر ، لأنه يقال رفضتُ الشىء رفضاً ، والمرفوض رَفْضٌ . والمعنى أن مُزْنَه وهو السَّحاب ، تُحاكى الرِّياح الهابَّة من ناحية الشأْم — يشير إلى الشَّمال — بمطرٍ ذا صِفتُه من سحاب كذلك .

٦ – يُغادِرُ مَحْضَ المـاء ذُو هُوَ مَحْضُه   على إثْرِه إن كان للماء مِنْ مَحْضِ
٧ – يُرَوِّى العُـروقَ الهامِداتِ من البِلَى   مِنَ العَرْفَجِ النَّجْدىِّ ذُوبادَ والحَمْضِ

أصل المَحْض اللَّبن الخامض بلا رغْوة ، ثم استُعمِل فى الحسب وغيره ، يقول : يترك خالصَ الماء الذى هو خالصةُ السَّحابِ وصافيتُه ، ويخلِّفُه فى مسايل الأودية على إثْرِه . وإنَّما يُشيرُ إلى ما تَقطَّعَ ورقَّ من ماء المطر بنَضَد الأحجار ،

(١) عجز البيت ٤ من المفضلية الأولى . وصدره :
* نجوت منها نجائى من بجيلة إذ *

وأُصولِ الأشجار ، حتّى صفا من شوائب الكدورة ، وقَرَّ فى المناقع وقرارات الأودية .

وقوله « إن كان الماء من مَحْض » ، لأنّ ماءَ المطر جنسٌ واحدٌ إذا لم يختلطْ به غيره لا يختلف . وقد مرَّ القولُ فى ذو وأنّه بمعنى الذى فى لغة طيّئ[1] ، فقوله : « ذو باد » ، أى الذى باد ، وهو فى موضع الجرّ ، لكنه لا يغيَّر عن بِنْيتِه .

وقوله « يروّى العروق الهامدات من البلَى » ، يريد أنّه أحيا ما أشرف على اليُبْس من عُروق الشّجر البالية خَلّتها وحَمْضِها ، وأعادها غَضّةً مروية والهُمُودُ أبلغ من الخمود .

٨ ـ وباتَ الحَبِيُّ الجَوْنُ يَنهضُ مُقْدِمًا كنَهْضِ المُدانَى قَيْدُهُ المُوعِثِ النِّقْضِ

الحبىّ من السَّحاب : المشرِف المتراكِم ، والجَوْن : الأسود هنا ، وجعله كذلك لارتوائه وكثرة مائه . وقوله « ينهض مُقْدِما » انتصب مُقْدِما على الحال ، يريد أنَّ سَير السَّحاب لثِقَله وحركاته مثلُ سيرِ هذا البعير وحركتِهِ ، ثمَّ وصَفَه . والمُدانَى قَيده : الذى قُصّر عِقالُه وضُيّقَ عليه قَيده . ولم يَرضَ بذلك حتّى جعلَه سائراً فى الوَعْثِ ، وهى الأرض اللَّيِّنة الكثيرةُ التُّراب والرَّمل ؛ والسَّير فيها يَصعُب . ويقال فى الدُّعاء : « اللهمَّ إنّى أعوذ بك مِن وَعْثاء السَّفر » ، يُراد شِدَّتُه وصُعوبته . ويقال : أَوْعَثَ ، إذا صارَ فى الوَعْثاء ، كما يقال أَسْهَلَ إذا صارَ فى السهل . ثمَّ لم يَرضَ بعد ذلك أيضًا حتّى جعله نِقْضًا ، وهو المهزول الضَّعيف . ويقال نَقَضْتَ البعير نَقْضًا ، والمنقوض نِقْضٌ .

---

(١) انظر ماسبق فى ص ٥٩١ .

وقد زاد فى هذا الوصف على الأعشى لمَّا قال — وإن كان الأعشى يصف امرأةً بالنَّعْمة والتُّرْفة ، وهذا يصف سحابةً ثقيلة — :

* تَمْشِي الهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِى الوَجِلُ[1] *

لأن هذا جعل البعير مُدانَى القَيْدِ أيضاً .

تم الباب بحمد الله تعالى ومنّه ، وحسن توفيقه وعونه .

(١) صدره فى الديوان ٤٢ :

* غراء فرعاء مصقول عوارضها *

باب السير والنعاس

باب السير والنعاس

٨٠

وقال حَطِيم (١) :

١ـ وقال وقد مالتْ به نَشْوَةُ الـكَرَى ... نُعَاساً ومَن يَعلَقْ سُرَى اللَّيل يَـكْسَلِ
٢ ـ أَنِخ نُعْطِ أَنْضَاءَ النُّعَاسِ دَوَاءَها ... قليـــلا ورَفِّهْ عن قَلَائصَ ذُبَّلِ
٣ـ فقُلتُ له كَيْـفَ الإِناخةُ بَعْدَما ... حَدَا اللَّيلَ عُرْيَانُ الطَّريقةِ مُنْجَلِي

مفعول قال أوَّل البيت الثانى ، وهو « أَنِخْ نعْطِ » . وقوله : « وقد مالَتْ به نَشْوةُ الـكَرَى » ، الواو واو الحال . والنَّشوة : السُّكْر . والكَرَى : النَّوم . وانتصب « نُعاساً » على أنَّه مصدر فى موضع الحال .

وقوله « ومَنْ يَعْلَق سُرَى اللَّيل يَكْسَلِ » اعتراضٌ بيْنَ الفِعل ومفعوله . ويَعْلَق فى معنى يتعلَّق . والسُّرَى : سَير اللَّيل خاصّة ، وأضافه إلى اللّيل فقال سُرَى الليل ، تأ كيداً . ومعنى البيت : يقول رفيقى وقد انتشى من الـكَـرَى وصار يتميَّل ولا يستقيم وهو ناعس ، ومن يمُارسِ السَّير ويُهاجِرِ النَّومَ يتسلطّْ عليه الـكسلُ : أَنِخْ راحلتَك نُدَاوِ المطايا التى أنْضاها النُّعاسُ وهزَلها الجُهْد ، دَواءها من الرَّاحة والنَّوم ، وسكِّنْ من قَلائصَ مهازل ، ووسِّعْ ما ضَيَّقْتَ عليها من أوقاتها . والقَـلُوص فى الإبل بمنزلة الجارية فى النَّاس . والذُّبَّـل : جمع ذابل . والتَّرفِيهُ : التوسيع والتّنفيس . ويقال رَفَّهتُ البعيرَ ، إذا تركتَ الحَمْلَ عليه ، وعيشٌ رافِهٌ ورَفِيهٌ : فيه رَفاهةٌ وخِصْبٌ . وانتصب قليلاً على الظَّرف ، ويجوز

(١) كذا فى النسختين بالحاء المهملة . وعند التبريزى : « الخطيم » بالخاء المعجمة .

أن يكون صفةً لمصدر محذوف ، كأنَّه قال نُعطِها دواءَها إعطاءً قليلا ، أو وقتاً قليلا .

والأنضاء : جمع النِّضْو ، وهو المهزول .

وقوله « فقلت له كيف الإناخة » ، يريد كيفَ الوصول إلى النُّزول وقد أصبحنا وساقَ اللّيلَ صُبْحٌ واضحُ الطَّريقة ، متكشِّف الشريعة ، يجلِّي الظّلامَ فيه ويفرِّق . يريد أنَّ الرأيَ وقد انصرَمَ اللّيلُ أن نتبلَّغ إلى الماء الذى نَقصِده ثمَّ ننزل .

٨٢١

آخر :

١ ــ وفِتيانٍ بَذَيْتُ لهُمْ ردائى ... على أسْيافِنَا وعَلَى القِسِىِّ

٢ ــ فظَلُّوا لائذِينَ به وظَلَّتْ ... مَطَايَاهُمْ ضَوَارِبَ باللُّحِىِّ

٣ ــ فلما صارَ نِصفُ الظِّلِّ هَنَّا ... وهُنا نِصفُهُ قَسْمَ السَّوِىِّ

يقول : ربَّ فتيانٍ أثَّر فيهم الحرُّ ، وماوا إلى النُّزول ، فبذيتُ لهم ما أظلَّهم على الأسياف والقِسِىّ ، وقد غشَّيتُ بردائى فظَلُّوا من نهارهم مُلْجَئين إليه ولائذين من الحرِّ به ، وبقيَتْ مطاياهم لتأثير أُوَارِه فيها ، وإحراقها بتوقُّد الهاجرة عليها ، تضرب بلُحِيِّها على الأرض ، فلَمّا زالَ قائم الظهيرة ، وصار الظِّلُّ نِصفين لا شَطَط فى انقسامه ، ولا اعوجاجَ فى سَوِيِّه . وجواب لمَّا مُنتظَر .

وقوله « هَنَّا » انتصبَ على الظَّرف ، وقد وقع موقع خبر صار .

وسمعت شيخنا أبا علىّ الفارسىَّ رحمه الله يقول : ليس هَنَّا من لفظ هُنا فى شىء ، ووزنه فَعَّل مثل جعفر ، فهو رباعى ، وهُنا ثلاثى . كأنَّ أصله هَنَنَ ، فأبدوا من إحدى نوناته الألف هرباً من التضعيف (١) .

(١) نظيره إبدال النون ياء فى قولهم « التظنى » و « التقصى » فى « التظنن » و « التقصص » .

وقوله « قَسْمَ السَّوِىّ » انتصب على المصدر ، والمراد وقد قَسَمَ قَسْمَ الإنصاف . ودلّ على الفعل قوله « نصفُ الظّلِّ هَنّا » .

والسَّوِىّ أكثر ما يجىء فى آخره هاء التأنيث:السوِيّة ، قال الشاعر :

* أَلَا إنَّ السَّوِيَّةَ أن تُضامُوا(١) *

ويجوز أن يريد بالسوِىّ المسوَّى ، كما جاء فى الخبر : « لا تحلُّ الصَّدقةُ لغنِىّ ، ولا لذى مِرَّةٍ سَوِىّ » .

٤ ـ دَعَوْتُ فَتًى أجابَ فَتًى دَعَاهُ   بلَبَّيْــهِ أَشَــمَّ شَمَرْدَلِىّ

٥ ـ فقامَ يُصَارِعُ البُرْدَيْنِ لَدْناً   يَقُوتُ العَــيْنَ من نَوْمٍ شَهِىّ

٦ ـ فقاموا يَرْحَــلُون مُنَفَّهاتٍ   كأنّ عُيونَها نُزَحُ الرَّكِىّ

قوله « دعوت » جواب لما من قوله « فلما صار نصفُ الظّلّ » ، وهو العامل فيه ، لكونه عَلَماً للظرف . وقوله « أجابَ فَتًى دَعَاهُ » يريد أجابنى ، لأنّه هو الداعى له . وقوله « بلبّيْهِ » أراد أجاب بالتَّلبية ، أضاف لَبَّىْ إلى ضمير المجيب ، وحكى ما لُفظ به . ولَبّيْك ، من قولهم : ألَبَّ بالمكان ، إذا أقام به ، وهذه اللفظة مثنًّى ، والتّثنية فيها إيذانٌ بأنّ المراد إلبابٌ بعد إلباب ، لأنّ قد تفيد التكثير ، فكأنّ المراد : دوامٌ على طاعتك(٢) ، وإقامةٌ عليها مرّةً بعد أخرى . قال سيبويه : انتصابُه على المصدر كانتصاب سبحان الله ، ولا ينصرف كما لا ينصرف سبحان . وقال يونس : إنّه واحدٌ غيرُ مثنًّى ، والياء فيه كالياء فى عليك ولديك ، وأنشد الخليل وسيبويه عن العرب ، قول القائل(٣) :

(١) للبراء بن عازب الضبي ، كما فى اللسان (سوا) . وصدره :
* أتسألنى السوية وسط زيد *

(٢) فى النسختين : « طلعتك » ، تحريف .

(٣) غير معروف . والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التى لم يعرف لها قائل . انظر سيبويه (١ : ٢٧٦) والخزانة (١ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩) .

* فَلَبَّى فَلَبَّيْ يَدَىْ مِسْوَرِ [(١)] *

وموضع الحجّة أنه لو كان كَلَدَى وعَلَى لكان يجىء بالألف إذا أضيف إلى الظَّاهر ، كما تقول لَدَى زَيْدٍ وعلى عمرو ، والشَّاعر قال: لَبَّيْ يَدَىْ .

وقوله « أشمّ » فى موضع الجر على أن يكون بدلاً من الضَّمير المتَّصل بلَبَّيْه .

وأصل الشَّمَم الطُّول فى الأنف ، لكنَّه جعل لفظة أشمّ كناية عن الكريم . والشَّمردل : الطويل . وزاد ياءَ النِّسبة فى آخره توكيداً للوصفية ، فهو كقول رُؤْبة :

أطَرَباً وأنتَ قِنَّسْرِيُّ والدَّهرُ بالإنسانِ دَوَّارِيُّ

يريد قِنَّسْراً ودَوَّارا ، فزاد الياء لمثل ذلك .

ومراد الشاعر : لمّا انقسمَ الظّلُّ هذا الانقسام ، وخفَّ احتدامُ الوقت واشتدَّ أمرُ الحرِّ على مُوَاصِلِ السَّير والسُّرَى ، دعوتُ فتًى أجابَنِي بلبَّيك ، كريمٍ مَديدِ القامة ، تامِّ الخلقة ، فقام ولِما لحِقَه من التَّعب والكلال وتركِ النَّوم يَتمايَلُ ، فكأنَّه يصارع بُرْدَيْه . وهو ليِّن الأعطاف ، يهتزُّ اهتزاز الرمح اللَّدْن ، وهو يَنفِي عن عينه نوماً لذيذاً تمكَّنَ [منها[(٢)]] ، فهو لها قوتٌ وقِوام [وينفضها منه شيئاً بعد شيء . وإنما قال ذلك لأنَّه لم يكن استوفى من الرّاحة والنوم ما يكتفِي ويتماسك له [(٢)]] إذ كان هيَّجه وبعثه للارتحال قبلَ ذلك .

وقوله « وقاموا[(٣)] يَرحَلون » يريد : قامَ هو وأصحابه يرحلون رواحلَ لهم قد أسقَطَها واستَنفَدَ قُواها السَّير المتصل الحثيث ، فهى غائرةُ العيون ، ساقطةُ القوَى ، قد دخلت مُقَلُها فى أقفائها ، فكأنّ عيونَها آبارٌ نُزِحَتْ مِياهُها . ويقال : نَفِهَتْ نَفْسُه ونَفَّهْتُها أنا . والنُّزُح : جمع نَزِيح .

(١) صدره : * دعوت لما نابنى مسوراً *

(٢) التكملة من ل .

(٣) كذا فى النسختين . وهو فى المتن « فقاموا » بالفاء .

٨٢٢

آخر(١) :

١ - ولقدْ هَدَيتُ الرَّكْبَ فى دَيْمُومَةٍ فيها الدَّلِيــلُ يَعَضُّ بالخمْسِ
٢ - مُستعجِلِينَ إلى رَكِيِّ آجنٍ هَيْهــاتَ عَهْدُ الماءِ بالإنْسِ

يريد أنّه يتعسّف البلادَ، ويركبُها بأصحابه، وهو هاديهم، وأنّه وَرّادٌ للمياهِ التى انقطَعَ النّاسُ عنها فلا يَرِدُها إلّا السِّباعُ والطّير. ولاخلاف بينهم أنّ القَطا أهدَى الطّير، وأنّ الذئبَ أهدَى السِّباع، وهما السابقان إلى المياه؛ لذلك وصفَهما الشُّعراء وضربوا الأمثالَ بهما. والرَّكبُ: رُكبان الإبل. والدَّيْمُومة: المَفَازة، واشتقاقه من دَمَّهُ، أى أهلكه، وهو يجرى مجرى مَهْلَكةٍ ومَفازةٍ، والياء فيه زائدة. وقوله «يَعَضُّ بالخمس»، يقال عَضَّ كذا، وعضَّ على كذا، وعضَّ بكذا، قال:

* فعَضَّ بإبهام اليمينِ ندامةً *

وقال غيرُه:

* عَضَّ على شِبْدِعِهِ الأريبُ(٢) *

وفى القرآن: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ﴾. وإنّما جعل الدَّليلَ يفعلُ ذلك لخوفه الهلاكَ والضَّلالَ على نفسه ومَنْ مَعَه. ويريد بالخمْس، الأصابعَ، وهى مؤنّثة، لذلك قيل: السَّبّابة، والدَّعّاءة، والوُسْطَى.

وقوله «مُستعجِلينَ إلى رَكِيٍّ آجنٍ»، أراد مُبادِرِينَ إلى بئرٍ متغيِّرة

(١) التبريزى: «وقال رجل من بنى بكر».
(٢) الشبدع بكسر الشين وكسر الدال أو فتحها: اللسان. وبعده فى (المداخل) لغلام ثعلب:
* فظل لا يلحى ولا يحوب *

الماء، فلمّا وردُوها بعيدةَ العَهدِ بالإنسِ، لأنّ المفازةَ التى يَقصِدُها بالوصف كانت غيرَ مسلوكةٍ لهم إلّا فى النادر، وإنما يَرِد الماء بها الطّير والوحش. وارتفع «عهدُ الماء» بقوله هيهات، وهو اسم لِبَعُد. والمراد رَكْبٌ متغيّرٌ بَعُدَ عهدُ مائِه بالإنس. وقد رُوى عَهدُ الماء بالأمس» ويكون على هذا عهد الماء مرتفعاً بالابتداء، وبالأمس خبره: وأتى بلفظة «هيهاتَ» على طريق الاستبعاد، كأنّه قال: إلى رَكَىٍّ آجِنٍ بَعُدَ المطلوبُ والمبتغَى. ثم قال «عهدُ الماء بالأمس»، أى كان الماء فى وقتٍ متقادمٍ. والرواية الأولَى أصحُّ وأجْوَد وأحسن. وفى طريقته قولُ الشَّمّاخ:

وماءٍ قَدْ وَرَدْتُ لوَصْلِ أرْوَى ... عليه الطَّيرُ كالوَرَقِ اللَّجينِ

ذَعَرْتُ به القَطَا ونَفَيْتُ عنهُ ... مَقامَ الذّئبِ كالرّجُلِ اللَّعينِ

وقال ذو الرُّمَّة:

وماءٍ بعيدِ العَهْدِ بالنَّاس آجنٍ ... كأنَّ الدَّبَا ماء الغَضَا فيه يَبصُقُ

وَرَدْتُ اعتسافاً والثُّرَيّا كأنّها ... على قِمَّةِ الرَّأسِ ابنُ ماءٍ مُحَلِّقُ

٣ ــ مستعجلينَ، فمُشْتَوٍ ومُعالِجٌ ... نَقَبًا بخُفِّ جُلالةٍ عَنْسِ

٤ ــ ومُهوِّمٍ رَكِبَ الشِّمالَ كأنَّما ... بفؤاده عَرَضٌ مِنَ المَسِّ

أعاد لفظ «مستعجلين» تأكيداً، والأول منهما حال للرَّكْبِ. وقوله «فمشتوٍ» مبتدأ وخبره مضمر. كأنَّه قال على الاستئناف: فمنهم مشتوٍ ومنهم معالِجٌ نَقَباً، ومنهم مُهوِّمٌ. وذِكْرُه للمشتوى وغيرِه ليُرِىَ ضِيقَ الوقت، وأن آراءَهم لم تُقضَ فيه عند نزولهم: مِن الأكل وإصلاح عوارضِ السفر (١)، إلى سائرِ ما أحاط التَّعدادُ به ودلَّ عليه، فإنَّه أزعَجهم وهيَّجهم للارتحال. والنَّقَب: الحَفَى. والجُلالة: النّاقة العظيمة الجسم. والعَنْسُ: الصُّلْبة.

(١) ل: «عارض السفر». فلعلها «عوارض».

وقوله « ومُهَوِّم » أراد: وربَّ رجلٍ نائمٍ لمّا نبَّهه رَكِبَ شِمالَه لغلبةِ النوم عليه، وكأنما بقلبه عَرَضٌ من الجنون. والمراد بقوله « رَكِب الشِّمال » أنه أخطأ في القَصْد. من قولهم ركِب شُؤْمَه[1] وركب الشِّقَّ الأشْأَم، للعادل عن سَواء السبيل، والمنهزِم والمخطِئ. ويجوز أن يريد بقوله: « ركب الشمال » شِمالَ نفسه والراكب إذا لم يَزِغْ من شَرْطِه أن يركَبَ من يمينِ نفسه وشِمالِ مركوبه، ومتى ركب من شِمال نفسه ويمين مركوبه كان معكوسَ الرُّكوب. ويجوز أن يريد: ركب الشمال مرّةً واليمينَ أخرى، فاكتفى بذِكر أحدِها. والمعنى: لا يُبالي على أيِّ جنبيه سقَط، لغَلَبة النُّعاسِ عليه.

وفي هذه الطريقة قولُ لبيد:

قَلَّمـا عَرَّسَ حتى هِجْتُهُ ... بالتباشيرِ من الصبح الأُوَلْ
يَلْمُسُ الأحلاسَ في مَنزِله ... بيديه كاليهوديِّ المُصَلْ
يَتمارَى في الذي قُلْتُ له ... ولقد يَسْمَعُ قولي حيَّ هَل

٨٢٣

آخر:

١ ـ وهُنَّ مُناخاتٌ يحاذِرْنَ قَوْلَةً ... من القومِ أنْ شُدُّوا وقُودُوا الرَّكائبِ
٢ ـ تكادُ إذا قمنا يُطِيرُ قلوبَها ... تَسَرْبُلُنا ولَوْثُنا بالعَصائبِ

قوله « هُنَّ مُناخات »، يريد الإبل. و« يحاذرن » في موضع الصِّفة أي خائفةٌ محاذرة. وقوله « من القوم » اتصل بقولة. و« أن شُدُّوا » في موضع المفعول لقولة. وأنْ مخفَّفةٌ من الثَّقيلة واسمهُ مضمر. والمراد أنّ الأمر والشأن

(١) ل. « شؤما ».

شُدُّوا فَتَودَ رَكائبكم . و «شُدُّوا» بما بعدَه في موضع الخبر . ويريد أنّ مطاياهم وهى مناخةٌ فى ركائبها خائفاتٌ قولَ مُنادي القوم تهيَّئوا للانفصال وشُدُّوا على رواحلكم الرِّحال .

ثم قال «تكادُ إذا قمنا يُطِيرُ قلوبَها» أى قلوبَ الإبل ، أى إنها لما استشعرَتْ من هَولِ السَّير ولما تخوَّنَها وأثَّر فى قُواها من الكَلال والتَّعب ، إذا رأَتْنا نتسربلُ ونَلُفُّ عمائمنا على رءوسنا ، تكاد تطيرُ قلوبُها انزعاجا وخوفا ، لعلمها بما تُكابدُه وتعانيه .

٨٢٤

آخر :

١ — حُبِسنَ فى قُرْحَ وفى داراتِها
٢ — سَبْعَ لَيالٍ غَيْرَ معلوفاتها
٣ — حتى إذا قَضَّيْتُ من بَتاتِها
٤ — وما تُقَضِّى النَّفْسُ من حاجاتها
٥ — حَمَّلْتُ أثقالِي مُصَمِّماتِها
٦ — غُلْبَ الذَّفارَى وعَفَرْنَياتها

قُرْح : موضع[1] . ويريد بالداراتِ الرَّمل . ودارات العرب نيِّف وعشرون ، قد ذكرناها فى موضعٍ آخر . وانتصب «سبع ليال» على الظَّرف . و «غير معلوفاتها» فى موضع الحال ، والمراد : غير معلوفاتٍ فيها ، لكنَّه قدَّر

١) هو سوق وادى القرى ، كما فى معجم البلدان .

الظّرف تقديرَ المفعول الصحيح ، وحذَف في . والبَتَات : المَتَاع . والمصمّات هى التى لا ترْغو . والغُلْبُ : الغِلاظ الأعناق . والذّفارَى : جمع الذّفْرَى ، وهى الحَيْد الناتىء عن يمين النُّقْرَة وشمالها . والعَفَرْنيَات : الصُّلبة السريعة ، والواحدة عَفَرْناة . فيقول : حُبِست هذه الإبل في هذا الموضع ، وفى دارات رمالها ليالىَ سبعاً غيرَ مستوفيةٍ من عَلَفِها حظوظَها وكِفايتَها ، حتى إذا أصلحْتُ أحوالَها ، وفرَغْتُ من قضاء حاجاتِ نفسى فيها وفى غيرها ، من رفيقٍ وصاحب ، حَمَّلتُ أثقالى صابراتِها فى السَّير ، وهى التى لا ترغو ولا تشكو ، وقد غلُظَت أعناقُها ، وعادتُها أن تخِفَّ فى السَّير وتُسرِع .

والبَتَاتُ : المَتَاع . والبِتَات ، بكسر الباء : جمع البَتّ ، وهو الكساء . وانعطف «وما تُقضِّى النّفسُ» على بتات ، يريد : وما تقضّيه النّفْسُ من مُهمّاتها .

وقوله « حَمّلتُ أثقالى » جواب إذا ، والمصمِّات : الصّابرات على السّيرِ الماضياتُ ، وهى لا ترغو .

وغُلْبَ الذّفارَى ، انتصبَ على البذل من مصمّاتها .

٧ — فانْصَلَتتْ تعجَبُ لانْصِلاتها
٨ — كأنّما أعنــــاقُ ساميَاتِها
٩ — بَيْنَ قَرَوْرَى وَمَرَوْرَيَاتِها
١٠ — قِسِىُّ نَبْعٍ رُدَّ مِن سِيَاتِها
١١ — كيفَ ترَى مرَّ طِلَاحِيّاتِها
١٢ — وَالْحَمَضِيّاتِ على عِلّاتِها[1]

(١) الحمضيات تقال بفتح الميم كما هنا . وتقال أيضاً بإسكانها كما فى اللسان (حمض ٤٠٩) .

١٣ — يَبِتْنَ يَنقُلْنَ بأَجْهِزَاتِها

١٤ — والحَادِىَ اللاّغِبَ من حدَاتِها

قوله « فانصلتت » ، أى مضت جادّةً حتّى تعجب لمُضِيِّها ، وكأنّ أعناقَ اللاّتِى تَسمُو بأثْيُنها ، وترفعر ءوسَها ، وتمدُّ فى المَسِير أضباعَها ، بين هذه المواضعِ قَرَوْزَى وما حولَها ، من الأرَضِين التى لا نبات فيها ، فى طُولِها وتجرُّدها — قسيٌّ نَبْعِيَّةٌ رُدَّ ما عُطِف من أطرافها .

ثم قال : « كيف ترَى مَرَّ طُلاحيَّاتِها » على طريق التعجُّب منها ، والإعجابِ بها . وطِلاحٌ بكسر الحاء : جمع طَلْحَة ، ويقال إبل طِلاحِيَّةٌ ، إذا آلفت الطَّلْح وأكلتهُ ، وقياسُه إذا كسرتَ الطَّاء طِلْحيَّة ، لأنَّ الجمع يُرَدُّ إلى واحِدِه ، وهو صِفةٌ فى النَّسب . قال الفرَّاء فى طُلاحِىٍّ إذا نُسِب إلى الطَّلْح : هو بمنزلة أُذانِيٍّ و[رُؤاسِىٍّ ، و(١)] أُنافِىٍّ ، وإنَّما هذه النسبة تكون للأعضاء ، فشُبِّه طَلاحِىٌّ به إذْ كان ملازماً له ، فصار كأنَّه منه . وقال غيره : قيل طُلاحِىٌّ كما قيل نُباطِىٌّ ، وهو منسوب إلى النَّبَط ، وكيفما كان فإنَّه لم يجئ على القياس الأكثر ، وما هو الأصل . وقال الكسائىّ : إذا اشتكت الإبلُ بطونَها عن أكل الأراك قيل : إبلٌ أرَاكَى ، وإن كان من الطَّلْح قيل طَلاحى بفتح الحاء مقصوراً .

وقوله « والحَمَضِيّات » ، أراد ومَرَّ الحَمَضِيّات على حِلاّتها ، أى على ما يعترض لها من الأسباب الباعثة والمانعة ، والأحوال المهيِّجة والمبطِّئة . وحرَّك الميم من الحَمَضيات لأنَّ هذا مما غُيِّرَ فى النَّسب(٢) . وقال أبو العبَّاس المبرد : يقال حَمْضٌ وحَمَض ، وإذا صحَّ هذا فقد جاء على وجهه .

وقوله « يَبِتْنَ يَنقُلْن بأجهزاتها » أى يَنقُلْن أجهزاتها ، فزاد الباء تأكيداً ،

(١) التكملة من ل . (٢) انظر ما سبق فى حواشى الصفحة السابقة .

وهو جَمْع الجمع ، يقال جِهَازٌ وأجهزة وأَجْهِزات ، وهى الأَمتعة .

وقوله « والحادىَ اللاَّغبَ » عَطَف الحـادىَ على موضع « بأجهزاتِهـا » ، أي وَينْقلان الحادىَ والمُعْيِيَ لدوامِ حُدائها . ويُروى « بالغَضَويَّات » ، وهى التى ترْعَى الغَضَا . قال :

فمَا وَجْدُ مِلْيَاعِ الهوَى غَضَوِيةٍ ... بِلَوْذِ الشَّرَى فى غلةٍ وهُيَامِ

٨٢٥

وقال حَـكِيم بنُ قَبيصة [١] :

١ ـ لَعَمْرُ أَبِى بِشْرٍ لَقَدْ خانَهُ بِشْرُ ... على سَاعَةٍ فيها إلى صَاحِبٍ فَقْرُ

٢ ـ فماجَنَّةَالفِرْدَوْسِ هاجَرْتَ تَبْتَغِى ... ولـكِنْ دَعاكَ الخُبْزُ أَحسِبُ والتَّمْرُ

ذكر المدائنىُّ (فى كتاب العَقَقة [٢]) ، أنَّ هذا الشِّعر لحـكيم بن ضِرارٍ الضَّبى ، قاله لابنِهِ وكان غزا وترَكَ أباه وذكر غيرُه أنه حكيم بن قَبيصة ، وأنَّ ابنه كان فارقَه مهاجراً البَدْوَ إلى الأمصار . يقول : وبقاءِ أبى بِشْر ـ يعنى نفسه ـ لقد خانَه بشر ، يعنى ابنَه ، فى وقتٍ كان يشتدُّ فقرُه إليه . يشير إلى أوانِ كِبْرَتهِ وضَعفِه ، وتعليقِه الرَّجاء بالانتفاع به وتحمُّلِه أعباءَ المُؤَن عنه فى ظَعْنه وإقامته . فقوله « على ساعة » فى موضع الحال ، وتعلَّق عَلَى بفعل مضمَر ، كأنه قال : مُشْرِفًا على وقتٍ هـكذا . وقوله « إلى صاحب » فى موضع النَّصب على الصِّفة المتقدِّمة ، لأنَّ المراد : فيها فقر إلى صاحبٍ ، وصِفَةَ النَّـكرة إذا قُدِّمت عليه صارت حالا . على هذا قولُه [٣] :

* لِمَـيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ [٤] *

(١) التبريزى : « وقال حكيم بن قبيصة بن ضرار لابنه بشر وقد هاجر » .
(٢) جمع عاق ، وهو الذى يعق والديه .
(٣) هو كثير عزة ، كما سبق فى حواشى ٤ : ٦ : ١٦ .
(٤) عجزه : * كأنَّ رسومِها الخلل *

وقوله « فما جَنَّةَ الفِردوس » جنةَ انتصبَ على أنّه مفعول تبتغى ، وتبتغى فى موضع الحال ، والتقدير : ما هاجرتَ مبتغياً جنّةَ الفِردوس . ووجَّه هذا الكلامَ نحو الابن مُعيِّرًا . يريد أنَّ الذى دعاكَ إلى الهِجْرة (١) نَهْمَةُ بطنِك ، ورَغْبتُك فى أطعمة الحَضَر ، لا الدِّينُ وطلبُ الآخرة ، إذْ كان ذلكَ يَفرِضُ عليك طاعةَ أبويك ، وطلبَ رضاهما . وقوله « أحسِب » قد حُذف فيه مفعولاه ، فهو كقول الآخر (٢) :

* ترَى حُبَّهم عارًا علىَّ وتَحْسِبُ (٣) *

وفى الكلام مع التَّعيير تقريعٌ وتهكُّمٌ وسُخْرِىٌّ .

٣ ـ أَقُرْصٌ تُصَلِّى ظَهرَهُ نَبَطِيَّةٌ بتَنُّورِها حتَّى يطيرَ له قِشْرُ

٤ ـ أَحَبُّ إليْكَ أَمْ لِقَاحٌ كثيرةٌ مُعَطَّفَةٌ فيها الجَلِيلةُ والبَكْرُ

هذا الاستفهامُ أتى به على طريق التَّبْكيت ، ولِيُرِيَه الخطأَ فيما اختاره من الحَضَر على البَدْو ، ومن تَرْكِ والدِه والعصيانِ له أشدَّ ما كان حاجةً إليه . فقال : أَقُرْصٌ تُنضِجه فى التَّنُّور امرأةٌ خبّازة نَبَطية حتَّى يصيرَ له قُرافةٌ تتقشر عنه ، أحبُّ إليكَ أم نُوقٌ حواملُ كثيرة قد عُطِفَتْ على أولادها ، وفيها الجَلالة الكبيرة والأفتاء القويّة . يريد أنَّ فِعلَه فعلُ مَن لا يَفرُق بين هاتين الخَصْلتين ، ولا يميِّز الرُّجحان فى أىِّ جانبيهما يكون فيختاره . ويقال : صَلَيْتُ الشِّواءَ ، إذا شويتَه . وأصليتُه وصلَّيته ، إذا ألقيته فى النَّار . ويقال أيضاً صَلَّى عصاهُ ، إذا أدارَها على النَّار ، فهو مثلُ أكرمْته وكرَّمْته ، وأفرحته وفرَّحته . وفى القرآن : ﴿ إلا مَنْ هُوَ صَالِ الجحِيم ﴾ . ويقال : تصلَّيتُ حَرَّ النار واصطليته .

---

(١) ل : « المهاجرة » .

(٢) هو الكميت بن زيد الأسدى . الهاشميات ٣٨ .

(٣) صدره : بأى كتاب أم بأية سنة *

٥ - كأنَّ أَداوَى بالمدِينة عُلِّقَتْ مِلاءً بأَحْقِيها إذا طَلَع الفَجْرُ(١)
٦ - كأنَّ قُرَى نَمْلٍ على سَرَوَاتِها يُلبِّدُها فى لَيْلٍ سارِيةٍ قَطْرُ

استمرَّ فى وصف اللِّقاح ، لأنَّ تفخيمَ أمرها يزيد فى بيان الخطإ فيما اختاره . وشبَّهَ ضُروعَها بمَزَادٍ مملوء . والأَحْقِي : جمع حَقْوٍ ، وهو من الإنسان مَعْقِد الإزار من كلِّ ناحية ، ومن غيره مما يُحْلَبُ مواضع الضروع . والمعنى أنَّها بالغُدُوَات وقد حَفَلَتْ من اللَّيل ، كأنَّما عُلِّقَتْ بمواضع ضُروعها أَدَاوَى مملوءة ماءً . وانتصب « مِلاءً » على الحال .

وقوله « كأنَّ قُرَى نَمْلٍ عَلَى سرَوَاتِها » يشبهه قولُ الآخر :

إلى سراةٍ مثلِ بيتِ النَّمْلِ غَنِيَّةٍ مِنْ وَبَرٍ وَخَمْلِ

والسَّرَوَات : الأَعالى . وقَرية النَّمل ربمَّا تُرَى كأعظم جُثْوَةٍ ، ولذلك شبَّهَ ارتفاعَ أسنمتِها وكثرةَ اللَّحم والشَّحم عليها بها . ومعنى يلبِّدُها يصلِّبها . والسَّارية : السَّحابة تسرِى ليلاً .

٨٢٦

وقال واقِدُ بن الغِطْرِيف (٢)

وكان مريضاً فحُمِيَ الماءَ واللَّبَنَ :

١ - يَقُولُونَ لا تَشْرَبْ نَسِيئاً فإنَّهُ وإنْ كُنْتُ حَرَّانًا عَلَيْكَ وَخِيمُ
٢ - لَئِنْ لَبَنُ المِعْزَى بماءِ مُوَيْسِلٍ بَغَانِيَ داءً إنَّنى لَسَقِيمُ

النَّسِيء : الرَّثيئة . والحَرَّان : الشَّديد العطش . وعليك من صفة وخيم ،

(١) هذا البيت فى ل متأخر عن تاليه .

(٢) التبريزى : « واقد بن الغطريف بن طريف بن مالك بن طيء » . ونسب فى معجم البلدان (٨ : ٢٠٣) إلى واقد بن الغطريف ، او زيادة بن بحدل الطريفى الطائى .

وقد قدّمه فانتصب على الحال . ومُوَيسل : تصغير مَأْسَلٍ الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

* وجارتِها أمِّ الرَّبَاب بمأْسَلِ (١) *

فيما أظنُّ . يريد : قال النَّاسُ وهم يَحْمونني المـاءَ واللَّبن : لا تشربْهما وإن اشتدَّ حَمْىُ كَبِدِك ، وغليلُ جوفِك ، فإنَّه يثقُل عليك ، ويزيد فى أَلمِك (٢) من العارض لك . فقلتُ مجيباً لهم : إن كان اللبنُ ممزوجاً بماء هذه العَين يُورِثنى خبالًا ، ويَكسِبُنى إتْخاماً ، وهو غذائى ومِساكُ قوَّتى منذُ كنت ، إنَّنى لمتناهى السُّقْ واللهِ . فأطلق لفظة سقيم ، والمراد المبالغة ، وفَعِيل من أبنيتها .

ومثل هذا ممَّا رُمى به هذا المَرْمَى قَوْلُ الآخر (٣) ، وقد مرَّ فى باب النَّسيب :

لئن كان يُهْدَى بَرْدُ أنيابها العُلَى لأَفْقَـــرَ مِنِّى إننى لَفقيرُ

فهذا بإزاء ذاك ، وهو على منهاجه . ومعنى « بَغانِىَ داءً » كَسَبنى وأنزلَ بى وقوله « بماء مُوَيسِلٍ » ، الباء أفادَ الجمع والاختلاط . ويقول : خذْ كذا بذا (٤) ، والمعنى مجموعًا إليه ومخلوطًا به .

٨٢٧

وقال حُنْدُج بن جندج (٥) :

١ ـ فى لَيل صُولٍ تَناهَى العَرضُ والطُّول كأنَّما ليلُهُ بالليلِ مَوصولُ (٦)

٢ ـ لافارقَ الصُّبحُ كَفِّى إنْ ظفِرْتُ بِهِ وإنْ بَدَتْ غُرَّةٌ منه وتَحْجيل

(١) صدره : * كدأبك من أم الحويرث قبلها *
(٢) ل : « تألمك » .
(٣) هو عبد الله بن الدمينة ، كما سبق فى حواشى ١٣٠٥ .
(٤) فى النسختين : « كذا وبكذا » ، صوابه عند التبريزى .
(٥) التبريزى : « حندج بن حندج المرى . الحندج : الكثيب اصغر من النقا » .
(٦) الأبيات أنشدها ياقوت فى رسم (صول) .

٣ ـ لساهرٍ طالَ فى صُولٍ تَملْمُلُهُ كأنَّه حَيَّةٌ بالسَّوْطِ مقتُولُ

جعل اللَّيْلَ كالمُجَسَّمات حتَّى صار ذا طُول وعَرْض عنده . وقال : « تناهى العَرْض والطُّولُ » لأنَّه قد عَلِم أنَّهما لِيل ، كما أنك تقول : زيد حسَنُ الوجهِ ، لأنَّه عُلِم أنه لم يُرَدْ إلّا وجهه . والمعنى أنّ فى ليلِ هذا المكان بلغ الطول والعَرْض نهايتهما وغايتهما ، حتى وقفا لا مستزاد فيهما ، فكأنَّما ليلُ صولٍ (١) موصولٌ بجنسهِ كلِّه ، فليس ينقطِعُ ولا ينكشف .

وقد قال أبو تمامٍ الطائىُّ مستطيلاً ليوم :

* بيومٍ كطُولِ الدَّهْرِ فى عَرْض مثله (٢) *

ومن كلام الناس : عِشْنا زَمَناً طويلا عريضاً ، والدَّهرَ الطَّوِيلَ العريض . وكلُّ ذلك تشبيهٌ بالأجسام . وعلى ما فسَّرناه يتعلَّق الجارّ من قوله : فى ليل صُولٍ يتنَاهَى (٣) . وقد استعمِل العَرض منفرداً عن الطُّول والمراد به السعة ؛ على ذلك قولُه تعالى : ﴿ فَذُوا دُعاء عَرِيض ﴾ ، وقولُه عز وجلّ : ﴿ وَجنةٍ عرْضُها السمٰوَاتُ والأرْضُ ﴾ .

وقوله : « لا فارق الصُّبح كفِّى » ، يجوز أن يكون دعاءً ، يريد : أن ظفِرتُ بالصُّبح فلا فرَّق الله بينى وبينه ، كما يقال : لا بارك الله فى الكُفّار ، ويجوز أن يكون إخبارًا . والمعنى أنَّه يتشبَّث به فلا يُخلِّيه للزَّوال . وهذا على التَّشوُّق له والتَّبرُّم بليله . واللَّيل فى الاستعمال بإزاء النهار على الإطلاق ، والليلة بإزاء اليوم . وهذا يدُلّ على أنه يَقصِد إلى ليلةٍ واحدة ، وإنما أراد : اللَّيلُ فى صُولٍ هكذا علَىَّ .

وقوله « إنْ بَدَتْ غُرَّةٌ منه وتحجيل » ، يريد تباشيرَه ممتزجةً بالظلام .

---

(١) صول ، قال ياقوت : مدينة فى بلاد الخزر فى نواحى باب الأبواب .

(٢) صدر بيت له فى ديوانه ٢٤٤ . وعجزه : * ووجدى من هذا وهذاك أطول *

(٣) فى الأصل : « يتعلق الجار من صول تناهى » ، صوابه من ل .

كأنّه جَرَى على عادة النّاس فى قولهم المتشوّف المتوقّع : إن ظفرتُ . بزيدٍ أو رأيتُ وجهَه فعلتُ كذا ، والمراد إظهار الفاقةِ إليه وشدّةِ التشوُّف له ، وطولِ الملازمة له إذا ظَفِر به . والغُرّةُ والتّحجيل معروفان . وقد قيل : صُبْحٌ أَقْرَحُ ، مأخوذ من القُرحة ، لأنه بياضٌ فى سواد . وقوله : « لساهر » ، اللام تعلّق بقوله « وإنْ بَدَتْ » . ويعنى بالساهر نفسه ، كما أراد بذكر الغُرّة والتّحجيل نَفسَ الصبح . والتّململ : القلق والانزعاج . وإنما تَقَلْقَلَ على فِراشه لأرَقه واستطالته لِلّيل ، ثمّ شبّه نفسه فى التوائه واضطرابه بحيّةٍ قُتِل بالسَّوْطِ فطال اضطرابُه لطول ذَمائه .

٤ - مَتَى أَرَى الصُّبحَ قَدْ لاحتْ مَخايِلُه والَّليلُ قد مُزِّقت عَنهُ السَّرابيلُ
٥ - لَيْلٌ تَحَيَّرَ ما يَنحطُّ فى جهَةٍ كأنَّه فَوقَ مَتْنِ الأرضِ مَشْكُولُ
٦ - نُجُومه رُكَّدٌ لَيستْ بِزائِلَةٍ كأنّما هُنّ فى الجوِّ القَنادِيلُ

قوله « متَى أرى الصُّبحَ » لفظه استفهام ومعناه التّمنّي والتّطلُّع ، واستبعاد المنتظَر المترقَّب . ومَخايِلُه : ما يَتَبيَّن به دُنُوّه . كأنّه (١) أظهَرَ ماعايه النَّفسُ من ضَجَره بالّليل واستراحته للصُّبح . ولك أن تروى « والَّليلَ » بالنّصب ، ويكون مردوداً على الصُّبح وداخلاً تحت متَى أرى . ولك أن تروى «والَّليلُ» بالرفع ويكون الواو للحال ، ويرتفع الَّيل بالابتداء . و « قد مُزِّقت » فى موضع الخبر ، ويعنِي بالسَّرابيل الظَّلام .

ثمَّ جعَلَ الَّيلَ لامتداده واتّصال دوامِه كالمتحيِّر الواقفِ كواكبُه عن المَسِير ، القائم على خدٍّ لا يزول عنه [ولا يَحُول (٢)] ، ولا يجنَح ولا يَميل .

(١) هذ ما فى ل . وفى الأصل : « كما أنه » .
(٢) التكملة من ل .

والمَشكول : المقيَّدُ . وهذا المعنى هو الذى يَؤُمُّه امرؤ القيس فى قوله :

كأنَّ الثُّريّا عُلِّقَتْ فى مَصامِهَا ... بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

وشبَّه النجوم فى إضاءتها بالقناديل ، وإنَّما يعلو ضوء الكواكب ويَزْهَر عند تَراكُمِ الظّلام واستحكامه . والرُّكّدُ : جمع الرّاكد . وجعلَ الكواكب فى الجوِّ لأنّه توهَّمَها كالقناديل المعلّقة .

٧ ـ ما أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُدْنِى عَلَى شَحَطٍ ... مَنْ دَارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دَارُه صُولُ

٨ ـ اللهُ يَطْوِى بَساطَ الأَرْضِ بَيْنَهُما ... حَتَّى يُرَى الرَّبْعُ مِنْه مَأْهُولُ

قوله « ما أقدر الله » لفظُه تعجُّبٌ ومعناه الطَّلبُ والتَّمنِّى . وكان الواجبُ أن يقول : ما أقدرَ اللهَ على أن يُدْنِىَ ، فحذَف الجار ، ومثل هذا الحذفِ يكثُر مع أنْ لطولِه بصِلَته . والشَّحْطُ : البُعْد ، شَحَط شَحطًا وشُحُوطا . قال :

* والشَّحْطُ قَطَّاعٌ رَجَاءَ مَنْ رَجَا[1] *

لكنّه حرّك الحاء . ويقال : منزلٌ شاحط وشحيط . وموضعُ « على شَحَطٍ » نصبٌ على الحال .

وقوله « الله يَطوِى بَساطَ الأرض بينهما » البَساط : الأرض الواسعة . وجعلَ الكلامَ لما يتمنّاه ، ويَطلُب قُربَه ويتشهّاه ، على أنّه إخبارٌ عن الشّىء وقد وقع . وكلُّ ذلك تحقيقٌ لما يؤمِّله ويَسأله . وهذا كما يُجعل الدُّعاء على لفظ الخبر ، كأنّه لقُوَّة الأملِ يَجعل المطلوبَ فى حُكم ما قد حصَل . وقوله « حتى يرى الرّبع منه » ، يعنى الرَّبع بالحزْن ممَّن هو مقيمٌ بصُولٍ .

---

(١) للعجاج فى ديوانه ٨ . وقبله :

منازلا هيجن من تهيجا ... من آل ليلى قد عفون حججا

٨٢٨

وقال حُمَيْدٌ الأَرْقَط (١)

١ ـ قَدْ أَغتَدِي والصُّبْحُ مُحْمَرُّ الطُّرَرْ

٢ ـ واللَّيلُ يَحدُوهُ تَباشِيرُ السَّحَرْ

٣ ـ وفي تَوَالِيــهِ نُجومٌ كالشَّرَرْ

٤ ـ بِسُحُقِ المَيْعَةِ مَيَّــالِ العُذَرْ

الطُّرر : جمع الطُّرَّة ، وهى الناحية والحرف ، ومنه أطرار الوادى وفى المثل: « أَطِرِّى فإنك ناعلة » ، أى اركبى أطرارَ الطَّريق . والبَغداديُّون يروونه : « أَظِرِّى » بالظاء معجمةً ، والمعنى اركبى الظُّرر ، وهى حجارة محدَّدة يصعب المشىُ عليها . فيقول : أَبتكرُ ـ والصبح محمرٌّ الأرجاء والنَّواحى ، واللَّيلَ قد تجلَّى بما يَطرُده مقدَّماتُ السَّحَر وعلاماتُه ، وفى مآخيرِه ومَدارسِ آثارِه من الظَّلام نُجومٌ تتوقَّدُ كأنَّها شَرَر النَّار ـ بفَرسٍ (٢) بعيدِ غَورِ النَّشاط ، يضطرب عُذَرَه على خَدَّيه وجَبْهته . والمَيْعة : النَّشاط . وجعَلَه سُحُقاً لاتِّصاله ودَوامِه . والسُّحُق : البُعْد . ونَخلةٌ سَحُوقٌ ، منه ، أى طويلةٌ . والعُذَر : والخُصَل من الشَّعَر والعُذَر أيضاً : علامةٌ تُعقَد فى ناصية الفَرَس السَّابق من العِهْن ، والواحدة

---

(١) شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية كان معاصرا للحجاج وهو حميد بن مالك ابن ربعى بن مخاشن ، ينتهى نسبه إلى زيد مناة بن تميم . وسمى الأرقط لآثار كانت بوجهه . الخزانة (٢ : ٤٥٤) . وكان أحد بخلاء العرب الأربعة ، وهم الحطيئة ، و حميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان . الأغانى (٢ : ٤٤) .

(٢) أى أبتكر بفرس . وقد سبق فى ص ٠٧ من التقديم الإشارة إلى طول الجمل التى يفصل بها المرزوقى بين أثناء الكلام .

عَذْرَةٌ . وقال الخليل: المَيْعَةُ : مَيْعـة الشَّباب والُحضْر (١) أوَّلهما . وروى السُّـكَّرىّ : « بِـشُعل المَيْعَة » وهو من إشعال النَّار والقصب (٢) .

٥ ـ كأنَّه يَوْمَ الرِّهانِ المُحْتَضَرْ

٦ ـ وقَدْ بَدَا أوَّلَ شَخْصٍ يُنْتَـظَرْ

٧ ـ دُونَ أثابِىَّ من الخَيْلِ زُمَرْ

٨ ـ ضَارٍ غَدَا يَنْفُضُ صِئْبانَ المَـطَرْ

قوله « كأنَّه يومَ الرِّهان » ، يريد: كأنَّ هذا الفرسَ يومَ السِّباق وقد حَضَرَه النَّاسُ فصار يوماً مشهوداً . والمحتضَر : الذى يَحضره النَّاس . ويروى « يومَ الرِّهان المُبْتَدَر » . والأثابىُّ : الجماعات ، وليس لها واحد ، وقيل واحدها أُثْبِيَّة ، فعولة من الثُّبة ، وهى الجماعةُ الـكثيرة ؛ ومنه تَثَبَّيْتُ الثناءَ ، إذا أكثرتَه . والمعنى : كأنَّه وقد جاء فى هذا اليومِ سابقاً وأوَّلَ طالعٍ يُنتَظَر دُون جماعاتٍ من الخيل [جاءت (٣)] زُمرةً بعد زُمرة ، صقرٌ قد ضَرِىَ بالصَّيد ، ابتَـكَر وقد مُطِرَ اللَّيل ، فهو يَنْفُضُ صِغار القَطْر وكِبارَه عَنْ رِيشِهِ ، وهو شديد الإلحاح فى طلَب الصَّيد بعد (٤) الانقضاضِ عليه (٥) .

(١) الحضر : ارتفاع الفرس فى عدوه . فى الأصل : « والحضرة » صوابه فى ل . وفى اللسان : « وميمة الحضر والشباب والسكر والنهار وجرى الفرس : أوله وأنشطه » .

(٢) ل : « والغضب » .

(٣) التـكملة من ل .

(٤) ل : « بعيد » مع ضبط الباء بالفتح .

(٥) وصئبان ، قال التبريزى : « قال أبو العلاء : إذا روى بكسر الصاد فهو جمع صائب مثل حائط وحيطان . ويجوز أن يكون مصدراً مثل حرمان . وإذا قيل صيبان بالفتح فالمراد به ما صاب من المطر . وليس يمتنع ظهور الياء فيه لقولهم صاب يصوب ، لأن له نظائر ، منها ريحان من الروح ، وعيدان للنخل الطوال من العود . وقال غيره : شبه ما عليه من الرذاذ بالصئبان ، وهو جمع صؤاب » .

٩ ـ عَنْ زِفٍّ مِلْحَاحٍ بَعِيدِ المُنْكَدَرْ

١٠ ـ أَقْنَى يَظَلُّ طَيْرُهُ على حَذَرْ

١١ ـ يَلُذْنَ مِنْهُ تحتَ أفنانِ الشَّجَرْ

١٢ ـ مِنْ صادِقِ الوَقْعِ طَرُوحٍ بالبَصَرْ(١)

١٣ ـ بَعِيدِ تَوْهِيمِ الوِقاعِ والنَّظَرْ

١٤ ـ كأنَّما عَيناهُ في حَرْفَيْ حَجَرْ

١٥ ـ بَيْنَ مَآقٍ لم تُخَرَّقْ بالإبَرْ

قال الدُّرَيدىّ: الزِّفُّ صِغار الرِّيش كالزَّغَب، وقال قومٌ: لا يكون الزِّفُّ إلاَّ للنَّعام إلا على وجه التَّشبيه. والمِلحاح: بناء المبالَغة من ألَحَّ. أى يُلِحُّ فى الصَّيد على نَفْسه. ويجوز أن يكون من لَحَتْ عينه ولَحِحَتْ، إذا التصقَتْ أجفانها بالرَّمَصِ، كأنَّه يلتصِق بالصّيد التصاقاً شديداً. ومن هذا قولهم: هو ابنُ عمِّى لَحًّا، أى لاصقُ النَّسبِ. وقوله «بعيد المنكدَر» يقال: انكدَرَ، وانصلَتَ، وخاتَ، وانقضَّ بمعنًى. وهذا كما قال الآخر(٢):

ضارٍ يُضَرَّى بِطَرِىِّ اللَّحْمِ أَكْدَرُ كالجُلْمُودِ يَوْمَ الرَّجْمِ

إذا تَقَضَّى من أعالِى النَّجْمِ ضَمَّ جناحَيْهِ انخراطَ السَّهْمِ

وقوله «أَقْنَى» القَنَا يُستَحبُّ فى الصُّقورة والشَّواهين، وكذلك طولُ المِنْسر، وقِصَر الذَّنَب، وغُؤور العينَين، وبُعْدُ ما بين المنكبين. وقال «تَظَلُّ طيرُه على حَذَرْ»، أراد ما عرَفَهُ من الطَّير أو رآه، فلذلك أضافَ إليه. والمعنى

(١) التبريزى: «من صادق الودق».

(٢) هو رؤبة. ديوانه ١٤١.

(٣) فى الديوان: «اللجم».

يَخافُه فيحذَره ، ويَلُوذ منه بغُصون الأشجار فيستخفى فيه ، وهو صادق الوَقْع ، أى لا يكذب فيه ، بعيدُ المطلب والنظر ، شديدُ المواقَعة والبَغْت. ويقال طَرْفٌ مِطْرحٌ ، أى بعيدُ النَّظَر ، ورُمْحٌ مِطْرَحٌ ، أى طويل ، وفَحْلٌ مِطْرحٌ : بعيد موقعِ الماء فى الرَّحم.

ومثل قوله « يَلُذْنَ منه تحتَ أفنان الشجر » قولُ الآخر :

رأى أرنباً سَنَحتْ بالفضاء فبادَرَها ولَجَاتِ الخَمَرْ[١]

وقوله « كأنَّما عيناه فى حَوْقَىْ حَجَرْ » ، أى فى جانِبَىْ حجرٍ ، يعنى رأسَه ، ونفسَه بين مآقٍ لم تَخَظْ ، أى لم يُصْطَد فكان فى التَّعليم تُخاط عيناه . والمآقى جمع مُؤْقٍ مثل مُعْقٍ ، وبعد القاف ياء زائدة ، فهو من الفعل فُعْلُوٌ ، نقِلت إلى فَعْل[٢] ، وفى هذه اللَّفظة لغاتٌ كثيرة ، وقد عمِلْتها مسألةً وشرحتُها.

تم الباب[٣] بحَمْد الله ومَنّه[٤] وحُسن توفيقِه وعَوْنه ، والصَّلاة على خيرته من خلقه محمد وآله من بعده

---

(١) سبق عجزه فى ص ١٠٣ .

(٢) توضيحه ما ذكر فى اللسان أن أصله « مُؤْقُوٌ » بزيادة الواو للالحاق كعنصوة ، إلا أنها قلبت فى أدل » . وأدل : جمع دلو .

(٣) ل : « باب السير والنعاس » .

(٤) إلى هنا تنتهى خاتمة هذا الباب فى ل .

بَابُ المُلَحُ

باب الملح

٨٢٩

لبعضهم (١) :

١ ـ يقولُ لِيَ الأميرُ بغَيْرِ نُصْحٍ   تَقَدَّمْ حِينَ جَدَّ بنا المِرَاسُ (٢)
٢ ـ ومالِي إن أَطَعْتُكَ مِنْ حياةٍ   ومالِي بعدَ هذا الرَّاسِ رَاسُ (٣)

ذكر أبو العبَّاس المبرِّد (٤) أنَّ المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ قال يوماً وقد حَمِيَتْ نائرةُ الحرْب بينه وبين الخوارج ، لأبي علقمةَ اليَحْمَدِيّ (٥) : أمدِدنا بخيل اليحمَد (٦) وقل لهم : أعيرُونا جماجمَكم ساعةً . فقال : أيُّها الأمير ، إنَّ جماجمهم ليست بفَخّار فتُعار ، وأعناقهم ليست بكُرّاثٍ فتَنْبُتَ (٦) ، وقال لحبيب (٧) كُرَّ عَلَى القوم !! فقال : « يقول لي الأميرُ بغير نُصْحٍ » .

وقوله « جَدَّ بنا المِرَاس » أي اشتدّ . والمِرَاس : المجاذَبة والمُدافَعة .

---

(١) التبريزي : « بغير جرم » . الكامل : « بغير علم . . . به المراس » .

(٢) هو حبيب بن أوس كما في الكامل . وعند التبريزي أنه حبيب بن المهلب . وفي حبيب هذا يقول زياد الأعجم :

رماها حبيب بن المهلب رمية   فأثبتها بالسهم والسهم يغرب

الأغاني (١٤ : ١٠٠) . وقال التبريزي أيضاً : وقيل البيتان للأعور الشني قالها للمهلب ابن أبي صفرة .

(٣) في الكامل : « العبدي » .

(٤) هم بطن من الأزد من القحطانية .

(٥) الكامل : « وليست أعناقهم كرادي فتنبت » . قال أبو الحسن الأخفش : « تقول العرب لأعذاق النخل كراد . وهو فاوسي أعرب » .

(٦) الكامل : « لحبيب بن أوس » .

٨٣٠

وقالت امرأة :

١ ـ فَقَدْتُ الشُّيوخَ وأشياعَهُمْ وذَلك مِنْ بَعض أقواليَهْ
٢ ـ تَرَى زَوْجَةَ الشَّيخِ مغمومةً وتُمْسِى لِصُحْبَتِهِ قالِيَهْ
٣ ـ فلا بَارَكَ اللهُ فى عَرْدِهِ ولا فى غُضُونِ استِهِ البالِيَهْ
٤ ـ وإنَّ دِمَشْقَ وفِتْيانَها أحبُّ إلينا من الجاليَهْ (١)
٥ ـ نَكَحْتُ المدينىَّ إذْ جاءنى فيالَكِ من نَكْحَةٍ غاليَهْ
٦ ـ لَهُ ذَفَرٌ كَصُنَانِ التُّيوس أعيَا على المِسْكِ والغَاليهْ

الكلامُ دعاء على الشُّيوخ وإظهارُ القِلَى لصُحبتِهم والكون معهم . وأرادت بالأشياع مَنْ يرضى مُنا كحتَهم ، أو يتعصَّبُ لهم ، أو يَهْوَى هَوَاهم . وقولها « وذلك من بعض أقواليه » إيذانٌ منها بأنّ لها فى الشُّيوخ وذَمِّهم طرائقَ من القول ، وألوانا من الوَصف . وما أظهرَتْه جزء من تلك الجملة . والعَرْدُ : الفَرْج . وقال الخليل : هو الشَّديد المنتصب من كلِّ شيء ، ومنه وَتَرٌ عُرُد .

وقولها : « تَرَى زوجةَ الشَّيخ مغمومةً » بيانٌ للعِلّة فى الدُّعاء والذَّمِّ . والغُضون : جمع غَضَنٍ ، وهو تكسُّر الجِلد وتثنِّى فُضوله على الشَّيخ لبلاه .

وقولها « وإنّ دِمَشْقَ » ، كانَ هواها ثَمَّ . وكان يجب أن تقول : أحبُّ إلينا من الجاليةِ وفِتْيانها ، فاكتفتْ بما ذكرتْ ، إذْ كان مرادُها مفهومًا .

---

(١) إلينا ، فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « إلى » .

وقولها « يا لكِ مِن نَـكحة غالية » لفظها لفظُ النِّداء، والمعنى التعجُّب. وإنّما قالت من نَـكْحة غالية، لتبيِّن أنّها مكروهة كما يُـكْرَه ما يُشترى بغَلاء. والذَّفَر: شدّة النَّـتْن هنا، ويكون الطِّيب أيضاً. والدَّفَر، بالدال غير معجمة، لا يكون إلّا للنَّـتْن. والصُّنان: ريح الإِبِط، ومنه الصِّنُّ: بَول الوَبْر[1]. قال جرير:

* بِصِنِّ الوَبْر تَحْسِبُهُ المَلَابَا[2] *

وقولها: « أعْيَا على المسك » موضعه من الإعراب نصبٌ على الحال المضمَر فى أعيا. ومفعول أعيا محذوفٌ، أى أعجز ذلك الذَّفَر ما يُستعمل من الطِّيب.

٨٣١

وقال آخر:

١ — مِن أيِّنا تَضحكُ ذاتُ الحِجْلَيْنِ
٢ — أبْدَلَهـــا اللهُ بلَوْنٍ لَوْنَيْنِ
٣ — سَوَادَ وَجْهٍ وَبَيَاضَ عَيْـنَيْنِ

الحِجْل: الخلخال. وفى الـكلام هزؤٌ وإزراء، ثمّ دَعا عليها بأن يغيِّر الله لونَها ويبدِّلها منه لونَين. وقال بعضهم « بلونٍ لونَين » هو كقولك بُدِّلَتْ بالشّباب هَرَماً وضَعْفًا، وبالعِزّ خضوعًا وقِلَّةَ ناصر. وشرحُ هذا أنه جعلَ

(١) الوبر، بسكون الباء: دويبة على قدر السنور. انظر الحيوان (٦: ٣٤٩، ٣٦٩).
(٢) صدره فى ديوان جرير ٧٣:
* تطلى وهى سيئة المعرى *

اللونَ منتظِماً للألوان ، ثمَّ أبدَل منها السوادَ والبياض. ويجوز أن يريد بقوله « بلونِ » لونَيها المعروف ، أى أبدلَها مما خُلِقت عليه من لونٍ لونَين آخرَين ، ثمَّ فسَّرها.

٨٣٢

آخر (١) :

١ ـ أعوذُ باللهِ من ليلٍ يقرِّبُنى إلى مُضاجِعـةٍ كالدَّلْكِ بالمَسَدِ
٢ ـ لقد لَمستُ مُعرَّاها فما وقَعَتْ مِمّا لمسْتُ يدِى إلاّ على وَتِدِ
٣ ـ فى كلِّ عُضْوٍ لها قَرْنٌ تَصُكُّ به جَنْبَ الضَّجيعِ فيُضْحِى وَاهِىَ الجَسَدِ

الدلك : الغَمزُ والفَرْك . يقال : دَلَـكْتَ السُّنْبُـل فانفركَ قِشرُه عن حَبِّه . والمَسَد : الحَبْـل ، وأصله من الفتْـل . ويقال : مَسدت الحبل مَسْداً ، والحبل ممسود ومَسَدٌ ، كما يُقال : نفضت الشيءَ نَفْضًـا ، والشيء منفوضٌ ونفَض . قال :

* ومَسَدٍ أُمِرَّ من أيانقِ (٢) *

أى حبل فُتِل من جلود النُّوق . فأما قوله تعالى : ﴿ فى جِيدِها حَبْـلٌ مِن مَسَدٍ ﴾ . فقيل : المسدُ : لِيفُ المُقْل . ولا يمتنع أن يكون اللِّيف مَسَدًا بما يؤُول إليه من الفَتْـل عند اتِّخاذ الحبل ، ثم استمرَّ الاستعمال به فقيل له المَسَدُ وإن لم يُمْسَد.

---

(١) التبريزى : « قال أبو الخندق الأسدى . وقيل إنه لدعبل » .

(٢) لعمارة بنْ طارق ، وقيل لعقبة الهجيمى . وقبله :

* فاعجل بغرب مثل غرب طارق *

انظر اللسان (مسد) .

قوله « لقد لمسْتُ مُعَرَّاها » يريدُ مَسَحْتُ ظاهرَ بدنِها فما وقعَتْ يَدِى مما مَسَحَتْهُ عَنْها إلّا على الأوتاد. يَصِفُها بالهُزال وتعرِّى العِظام عن اللَّحم، حتّى صارلها حُجُومٌ فأشبَهت الأوتاد. وقوله « فى كلِّ عُضو لها قَرْنٌ » العِضْو والعُضْو لغتان، والمراد بالقرن نُتُوُّ عظامِها. والصَّكُّ: الدفع. يقال: صَكَّهُ، إذا ضربَه بحجرٍ أو غيرِه. وصَكَّ البازِى صَيْدَهُ، إذا ضَرَبَهُ بكفّه يَحُطُّه، قال:

إذا اجتمعُوا عَلَىَّ فَخَلِّ عنِّى وعَنْ بَازٍ يَصُكُّ حُبَارَيَاتِ

٨٣٣

آخر (١):

١ – وإذا مَرَرْتَ به مَرَرْتَ بقَانِصٍ مُتَشَمِّسٍ فى شَرْقَةٍ مَقْرُورِ

٢ – للقَمْلِ حَوْلَ أَبِى العَلاء مَصَارِعُ مِنْ بَيْنِ مَقْتُولٍ وبَيْنِ عَقِيرِ

٣ – وكأنّهنَّ لَدَى دُرُوزِ قَمِيصِه فَذٌّ وتَوْءمُ سِمْسِمٍ مَقْشُورِ

٤ – ضَرِجِ الأَنامِلِ مِنْ دِمَاءِ قَتِيلِها حَنِقٍ على أُخْرَى العَدُوِّ مُغِيرِ

تَشَمَّسَ: جَلَس فى الشَّمس. ويقال شَمَسَ يَوْمُنا وأَشْمَسَ، إذا اشتدّت شمسُه. والشَّرْقَةُ والمَشْرُقَةُ بمعنى، وهما المكان الذى يُتَشرَّق فيه. والفَذُّ الفَرْدُ. والتَّوْءم: اثنان. وقد بسطْنا القولَ فيه فى شرح الفصيح.

ويقال ضَرَّجْتُ الثَّوْبَ، إذا صَبَغْتَهُ بالحُمْرةِ خاصّة، فَضَرِجَ وانْضَرَجَ. ومنه قيل تَضَرَّجَ الخَدُّ عِندَ الخَجَلِ إذا احْمرَّ. والحَنِقُ: المغتاظ الشَّديد الغيظ.

---

(١) فى الحيوان (٥ : ٣٧٨): « وقال بعض العقيليين وهو بأبى العلاء العقيلى وهو يفلى ». وكذا فى نهاية الأرب (١٠ : ١٧٧). وانظر محاضرات الراغب (٢ : ١٣٣).

٨٣٤

آخر (١) :

١ ـ خَبَّرُوهَا بأَنني قَدْ تزوَّجْـ ـتُ فَظلَّتْ تُكَاتِمُ الغَيْظَ سِرَّا
٢ ـ ثم قالتْ لأُخْتِها ولأخْرَى جَزَعاً لَيْتَهُ تَزَوَّجَ عَشْرَا
٣ ـ وأشارَتْ إلَى نِسَاءٍ لَدَيْهَا ما تَرَى دُونَهُنَّ للسِّرِّ سِتْرَا
٤ ـ ما لِقَلْبِي كأنَّه لَيْسَ مِنِّي وعِظَامِي أخَالُ فيهِنَّ فَتْرَا(٢)

يقال : خَبَّرْتُه كذا وبكذا . والكَتْمُ : نَقِيضُ الإعلانِ . ويقالُ : كاتمْتَ ، إذا كان الكِتمانُ من اثنين . وقد حذَف المفعول الأوّل من تُكاتِم . ويجوز أن يكون تُكاتم بمعنى تَكْتُمُ ، فلا يكون من اثنين ، ولكن كما يقال : قاتَلَه الله . والكَتُوم في النّاقة : التي لا تَرْغُو ، وفي القوس التي لا شَقَّ في نَبعها . و « سرًّا » يجوز أن يكون مصدرًا من غير لفظه ، لأنّ تُكاتِمُ بمعنى تَسْتُرُ ، ويكون كقوله :

* ورُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أيَّ إذْلاَلِ (٣) *

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال . وجَزَعاً انتصبَ على أنه مفعول له . وموضع قوله « لَيْتَهُ تزَوَّجَ عَشْرا » نصبٌ على أنه مفعول ثالث ، وقوله « للسرِّ سِتْرَا » ، يجوز أن يُرْوَى « سَتْراً » بفتح السين ، فيكون مصدر سَتَرْتُ

(١) التبريزي : « هو لبعض الحجازيين » . وهو عمر بن أبي ربيعة . ديوانه ٣٨٤ بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) التبريزي : « كأن فيهن فترا » . وروى التبريزي بعده :

من حديثٍ نمى إليَّ فظيعٍ خِلتُ في القلب من تلظّيه جمرا

(٣) لامرىء القيس في ديوانه ٥٩ . وصدره :

* وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا *

ويجوز أن يُروَى «سِتْرًا» بكسر السين فيكون واحدَ السُّتُور ، والمعنى فى الوجهين ظاهر . وقوله « فيهنّ فَتْرًا » ، يقال : فَتَرَ الإنسانُ ، إذا لانَتْ مَفاصلُه وضَعُفت فَتْرًا وفُتُورًا ، وإخالُ كَسْرُ الهمزِ منه لغة هُذَيْل ، ثم فَشَتْ فى غيرها .

٨٣٥

آخر :

١ — جَزَى اللهُ عنَّا ذاتَ بَعْلٍ تَصَدَّقَتْ عَلَى عزَبٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ أَهْلُ
٢ — فإنَّا سَنَجْزِيها بما فَعَلَتْ بِنَا إذا ما تَزَوَّجْنَا ولَيْسَ لَهَا بَعْلُ
٣ — أَفِيضُوا عَلَى عُزَّابِكُمْ بِنِسَائِكم فَمَا فى كِتَابِ اللهِ أن يُحْرَمَ الفَضْلُ

روى محمّدُ بنُ حَبِيب أنّ هذا الشّاعرَ صَعِدَ إلى مِئذنة وَسْطَ الحىّ وأنشد هذه الأبيات ، فاجتمعَ عليه غَيَارَى الحىِّ وفُتَّاكُه فقتلوه .

وقوله « عُزَّابِكم » ، هو جمع العازبِ ، وقَصْدُه إلى جَمْع العَزَبِ ، وهو الأعزابُ ، لكنَّه تَصوَّرَ بُعْدَهُما عن الأهل وتساوِيَهما فيه ، فجعل العَزَبَ والعازبَ بمعنًى واحدٍ ، ثم استعار بِنَاءَ جمْعِ العازب للعَزَب . وهذا كما قيل نَمِرٌ ونُمْرٌ ، لأنَّه لما تُصُوِّرَ أنه أَنْمَرُ فى لونه جَمَعُوه جمع أنْمَر ، فأجرَوْهُ مجرى أحْمَرَ وحُمْر .

وقوله « أفيضوا على عُزَّابكم بنسائكم » توهَّمَ فى أَفيضُوا معنى تصدَّقوا ، فعدَّاه تعديتَه ، فلذلك زاد الباء فى « بنسائكم » . ويجوز أن يكون من قولهم أفاض الإناء بمائه علينا ، ويكون التَّقدير : أفيضوا العطاءَ بنسائكم . وقوله « فما فى كتاب الله » يجوز أن يريد بالكِتاب المصدرَ ، والمعنى فيما كَتَبَه وفرَضَه . ويجوز أن يُريد به القرآن .

٨٣٦

آخر :

١ ـ أَنْشُدُ بِاللهِ وبالدَّلْوِ الخَلَقْ

٢ ـ يا رَبُّ مَنْ أَحَسَّها مِمَّنْ صَدَقْ

٣ ـ فَهَبْ له بَيْضاءَ بَلْهاءَ الخُلُقْ

٤ ـ ومَنْ نَوَى كِتْمانَ دَلْوِى فاحْتَرَقْ

٥ ـ فابعَثْ عليه عَلَقًا من العَلَقْ

أنشُد بالله ، أى مستعيناً بالله أو مذكِّراً بالله . وقوله : « وبالدَّلو الخلق » ، يريد وبسبب الدلو نِشْدانى وطَلَبِى . ففصَل بين دخول الباءين .

وقوله « مَنْ أَحَسَّها » أى من رآها وأدركها بعله ، ثم صدَّقنى عند السُّؤال عنها . فقوله « ممن صَدَق » يجوز أن يكون « مِن » نكرةً ، والمراد من إنسان يَصْدُق أو عادتُه الصِّدق . ويجوز أن يكون « مِنْ » معرفة ، والمراد مِن الذين يَصْدُقون فى المقال .

وقوله « فهب له بيضاءَ بلْهاء » دعاء له بأن يُمَلِّكه اللهُ تعالى امرأةً كريمةً مستقيمة الطريقة ، سليمةَ الصَّدر ، لا غائلَ لها ولا غُلولَ لديها .

ومثل هذا قولُ الآخر (١) :

* بَلْهاءَ لم تَحْفَظْ ولم تُضَيِّعِ *

وقوله « ومَنْ نَوَى كِتمانَ دَلوى فاحترَقْ » يريد فأحرَقَه اللهُ ولا تَهَنَّأ بعَيش . والعَلَق : دويبّة حمراء تكونُ فى الماء وتأخذ بالحَلْق . ويجوز أن يكون العلقُ مصدرَ عَلِقَتْ به العَلُوقُ للداهية . وسُمِّى الأذى نفسه العَلَق ، واسم الحدَث

(١) هو أبو النجم العجلى كما فى مقاييس اللغة (عجز) وشروح سقط الزند ٩٢٩ . وقبله :

* من كل عجزاء سقوط البرقع *

قد يجعل صِفةً للفاعل، ويكون على هذا عَلَقًا يتناول واحداً من الجِنْس. وَالعَلَقُ يتناوَلُ الجنسَ كله.

٦ - إنْ لم يُصَبِّحْه بما ساء طَرَقْ

٧ - وَباتَ في جَهْدِ بَلاءٍ وأرَقْ

٨ - وهَبْ لَهُ ذاتَ صِدَارٍ منْخَرِقْ

٩ - مَشئومةً تَخلِطُ شُؤماً بخُرُقْ

فاعل يصبّحه العلَقُ المذكور. والطُّروق يكون بالليل. وقوله «في جَهْدِ بَلاء»، أى فيما يجهده ويشقُّ عليه من مقاساة البَلاء. والأرَق: السهر بالليل. والصِّدارُ: الثَّوب الذى يبلغ الصَّدر. وجعَله منخرِقاً لجنون صاحبته، لأنه دعا على مَن يكتم دلوَه بأن يَهبَ له امرأة مجنونة تُخْرِجُ يدَها من جيب صِدَارِها فتمزِّق على نفسها.

وفى هذه الطريقة قول الآخر (١):

كجَيبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهاء رِيعتْ بعد إجفالِ

وإنما وصف طَعْنَةً. فشبَّه سَعتَها بسَعَةِ جَيْبِ الوَرْهاء. ويقال: رجلٌ مشئوم، وقد شُئِم، وشَأَمَ فلانٌ أصحابه إذا أصابهم شُؤْمٌ من قِبَلِه. وتقول: هذا طائرُ أشأَمُ، وطَيْرٌ أشائم، أى جارِيةٌ بالشؤم. والخُرْقُ: ضدُّ الرِّفْق.

٨٣٧

وقال أعرابيٌّ:

١ - كأنَّ خُصْيَيْه من التَّدَلْدُلِ

(١) هو الفند الزمانى. الحماسية ١٧١ ص ٥٤١.

٢ ـ سَحْقُ جرابٍ فيه ثِنْتَا حَنْظَلِ

التّدلدل : الاضطراب . ويقال : ثوب سَحْقٌ وَجَرْدٌ ، وقد انسحَقَ وانجرد .
وإنما قال « ثِنْتا حنظَلٍ » لأنّ مراده ثنتان من الحنظال . ولو أراد تثنية حنظلة لم يَجُزْ إلا حنظلتان . وقد أُحكِم القول فيه وفى أمثاله فى غير هذا الموضع .

٨٣٨

آخر :

١ ـ كأنّ خُصْيَيْهِ إذا تَدَلْدَلا

٢ ـ أُثفيّتان تحمِلان المِرْجَلا (١)

قوله « أُثفيّة » يجوز أن يكون أفعولةً بدلالة قولهم : أثفيتُ القِدْرَ وثفيتُها . ويجوز أن يكون فُعْليّةً ، بدلالة قولهم أثّفتُ القِدْرَ . ألا ترى النابغة يقول :

* وإنْ تأثّفَك الأعداء بالرِّفدِ (٢) *

فتأثّفَ تفعّل ، والهمزة أصليّة . وإنما يتّفق مثلُ هذين التقديرين فى الكلمة الواحدة من لغتين . ويقتضى كيفيّةُ وقوعِ الاختلاف فى مثلها كلاما ليس هذا موضعَه ، فاعلمه إن شاء الله .

٨٣٩

آخر (٣)

١ ـ كأنّ خُصْيَيْهِ إذا ما جَبَّى

(١) التبريزى : « مرجلا » .

(٢) صدره : * لا تقذفنى بركن لا كفاء له *

(٣) التبريزى : هذه الأرجوزة لامرأة تهجو زوجها وأراد زوجها أن يسافر فقال لها :=

٢ ـ دَجَاجَتَانِ تَلْقُطَانِ حَبا

جَبَّى : قام منحنيا للاحتراش ، وهو إثارة الضَّبّ . ويقال : جَبَّى تجبيَةً ، إذا سقطَ لركبتيه وطأمنَ بدنه ويديه .

٨٤٠

وقال اخر :

١ ـ وفَيْشَةٍ زَيْنٍ ولَيْسَتْ فَاضِحَهْ

٢ ـ نَابِلَةٍ طَوْراً وطَوْراً رَامِحَهْ

٣ ـ على العَدُوِّ والصَّدِيقِ جامِحَهْ

٤ ـ مَنْ لَقِيَتْ فهْىَ لَهُ مُصَافِحَهْ

٥ ـ تَسُدُّ فَرْجَ القَحْبَةِ المُسَافِحَهْ

٦ ـ مُفْسِدَةٍ لابن العجوز الصَّالحَهْ

٧ ـ كأنَّها سَنْجَةُ أَلْفٍ راجِحَهْ

الفَيْشَةُ : رأس القَضِيب ، والفَيْشَلَةُ فى معناه ، وليس من بنائه ، لكنّه من باب سَبِطٍ وسِبَطْرٍ وما أشبهه . والرامح : صاحبُ الرُّمح . والنَّابل : صاحب

= إن لم أتيدك بقيد فاجحى يرد من غرب الدواهى الطمح
عن الغدو وعن التروح ودلج الليل إلى أن تصبحى
فاعتكفى فى مسجدى وسبحى

فأجابته :

من يشترى منى زوجا خبا أخب من ضب يداهى ضبا
* كأن خصييه إذا أكبا *

فأجابها : يارب إن كنت لريا ربا فاقدر لها أربد مسلحبا

النَّبل . ورَمَحت الدّابّةُ رَمْحًا : ضربَتْ بِرجْلها . ويقولون : برئتُ إليك من الجِمَاح والرِّماح ؛ لأنّ الجموح صلابةُ الرأس وأن يمضىَ الشىء لوجهه فلا يُضبَط . وفَرَسٌ جَمُوحٌ وجامحٌ . والمُصَافحة أصله فى الالتقاء والتسليم ووضع اليدِ فى اليد . ويقال : لقيته صِفَاحًا ، أى مُفاجَأةً ، والقَحْبةُ : الفاجرة . وأهل اللُّغة يقولون : هو من القُحَابِ : السُّعال ، لأنّ مُراوِدَها إذا مشى فى إثْرِها تَقْحَب لتلتفتَ إليه ، فيشير إليها بما يريد . والمُسافِحة : الزَّانية ، أصله من سَفْح الماء عندَ الجِمَاع . وهذا كما يقال مِنَ المَذْى : ماذَيْتُه . واشتهر السِّفاح بمضادّةِ النِّكاح .

٨٤١

آخر :

١ – وفَيْشَةٍ ليست كهٰذى الفَيْش
٢ – قد مُلِئَتْ من خُرُوقٍ وطَيْش
٣ – إذا بَدَتْ قُلتَ أميرُ الجَيْش
٤ – مَنْ ذَاقَها يعرفُ طعمَ العيْش

٨٤٢

آخر :

١ – لا أَكْتُمُ الأسرارَ لَكِنْ أَنُمُّها ولا أَتْرُكُ الأَسْرَارَ تَغْلِى عَلَى قَلْبِى
٢ – وإنَّ قليلَ العقلِ مَنْ باتَ ليلةً تُقَلِّبُه الأسرارُ جَنْبًا إلى جَنْبِ

أَنُمُّها : وأُفشيها أُظهرها . وقوله « جنبًا إلى جنب » فى موضع الحال .

(١) هو سحيم الفقعسى ، كما فى الحيوان (٥ : ١٨٤) .

والمعنى : يقلقُ فى مضجعه محافظةً على السِّر ، ولا يَعْرُ كُها بجنبه . ويجوز أن يكون بدلاً من الهاء فى تقلّبه .

٨٤٣

آخر :

١ ـ فجاءوا بشيخٍ كَدَّحَ الشَّرُّ وَجْهَهُ جَهُولٍ مَتَى ما يُنْفِدِ السَّبُّ يَلْطِمِ

الكَدْح والخَدْش والخَمْش ، تتقاربُ فى المعنى . ويقال نَفِدَ الشىء إذا فنِيَ ، وأنفدتُه أنا .

٨٤٤

وقالت قابِلةٌ لامرأةٍ أخذَها الطَّلْق ، واسمها سحابة[1]

١ ـ أيا سَحَابَ طَرِّقى بخيْر

٢ ـ وطرِّقى بِخُصْيَةٍ وأَيْر

٣ ـ ولا تُرِينى طَرَفَ البُظَيْر

التطريق : أن يظهر عند الولادة طَرَفة الولد ، وهى أطرافُه : رأسُه ويداه . ولك أن تروى « يا سحابَ » بفتح الباء على أصل الترخيم ، ولك أن تضمَّها نوَيْتَ تمام الاسم بعد ذهاب الهاء ثم بنيتَ على الضمِّ للنِّداء .

٨٤٥

آخر :

١ ـ فإنكَ إن تَرَى عَرَصَاتِ جُمْلٍ بعاقِبَةٍ فأَنتَ إذًا سَعِيدُ

٢ ـ لها عَيْنَانِ من أَطِطٍ وتَمْرٍ وسائرُ خَلْقِها بَعْدُ الثَّرِيدُ

(١) انظر الحيوان (٥ : ٥٨١) والبيان (١ : ١٨٥) .

قوله « إن تَرَى » أتى بترَى تامًّا وإن كان فى موضع الجزْم. فهو كقول الآخر (١) :

* ولا ترَضّاها ولا تملَّق *

وكقول الآخر (٢) :

ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمِى بما لاقَتْ لَبُونُ بنِى زِيادِ

وجُمْل : اسمُ امرأة. وعَرْصَةَ الدَّارِ وحَرْصَتُها بمعنًى . ويكون الذى حذفه للجزم فى تَرَى حركةً كانت فى النيَّة فى موضع الرَّفع . وحروفُ المدّ تُحذف من الأواخر ، ليكون بين الأفعال وهى فى موضع الرَّفع وبينها وهى فى موضع الجزم فَصْلٌ ، فلذلك جاز أن تأتىَ بها تامّة ، ولولا ذلك لكان لحناً . وقوله « فأنت إذا سعيد » جَمع بين الفاء وبين إذًا فى جواب الشرط تأكيداً للجزاء ، ولو قال فأنت سعيد لكفَى وأغنَى ، ويكون إذًا للحال ، كأنَّه يحكى الكائنَ من الأمر فى ذلك الوقت ، وكذلك لو قال فأنت إذٍ سعيدٌ ، لجاز كما قال الهذلىّ (٣) :

* بعاقبةٍ وأنت إذٍ صحيحُ (٤) *

وقوله « سعيد » يجوز أن يكون اسمَ الفاعل من سَعِدَ ، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول ، ويقال سَعَدَه الله بمعنى أسعدَه الله . وقوله « بعاقبةٍ » أى بعَقِب ما عَرَفْتَها ودُعيتَ إليها . ومن روى « فأنت إذٍ » يريد فأنت إذِ الأمرُ ذلك فى ذلك الوقت . ونوَّن إذٍ ليكونَ التَّنوينُ فيه عوضاً مما كان يُضاف إليه من الجمل . وعلى هذا حينئذٍ ، ويومئذٍ .

(١) هو رؤبة بن العجاج . الخزانة (٣ : ٥٣٤) وملحقات ديوانه ١٧٩

(٢) هو قيس بن زهير العبسى الخزانة (٣ : ٥٣٦) .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٦٨) .

(٤) صدره : * نهيتك عن طلابك أم عمرو *

٨٤٦

آخر :

١ ـ أَنِخْ فاصطنِع قُرْصاً إذا اعتادكَ الهوَى ... بِزَيْتٍ كما يَكفيكَ فقدَ الحبائبِ

٢ ـ إذا اجتمعَ الجوعُ المبرِّح والهوَى ... نَسيتَ وصالَ الآنساتِ الكواعبِ

رواه بعضهم : « فاصطنِع » كأنَّه يجعلُه من الصُّنع ، كما قال الآخر (١) :

إذا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فالتمِسي لَهُ ... أكيلاً فإنِّي لستُ آكِلَهُ وحْدِي

وليس هذا بشيء ، وإنَّما الرِّواية « فاصطبغ » من الصِّباغ وهو الأُدْم ، يدلُّ على صِحَّة هذه الرِّواية قوله « بزيت » . ومثل هذا قولُ الآخر :

كُلْ إذا كُنْتَ عاشقًا ... ما تَهيَّا من الدَّسَمْ

وادفَعَ الشَّوقَ والصُّدو ... دَ عن القلْبِ بالتُّخَمْ

وصاحِبُ الأكلِ في الهوَى ... ليس يَخشَى من السَّقَمْ

وقوله « كما يكفيك » رواه الكوفيُّون ، ويقولون كما في معنى كَيما . ورَوَوْا أيضاً فيه قولَ الآخَر (٢) :

إذا جئْتَ فامنَحْ طَرْفَ عَيْنِكَ غيْرَنا ... كَمَا يَحْسِبُوا أنَّ الهوَى حيث تَنظُرُ

وأصحابُنا البصريُّون يروونه « لكي يحسبوا » . وكذلك رووا البيت الأوَّل « لكيْ يَكفيكَ » ، ولا يعرفون ما ذكَروه . والآنسات : ذوات الأُنْس . والكواعب : اللاَّتي نَهدَت ثُديُّها .

٨٤٧

آخر :

كأنَّ ثَنَايَاها وما ذُقْتُ طَعْمَها ... لِبَا نعجَةٍ سَوَّطتَه بدَقيقِ

(١) هو حاتم الطائي . انظر الحماسية ٧٣٢ ص ١٦٦٩ .

(٢) هو عمر بن ربيعة في رائيته المشهورة . ويروى أيضاً لجميل . انظر شرح شواهد المغني للسيوطي ١٧٠ .

يقال : سُطتُ الشَّىء ، إذا جمعْـته مع غيره فى الإناء وضربتَهما حتَّى يختلطا . قال الدُّريدى : وبه سمّى السَّوطُ الذى يُضرَبُ به لأنَّه يَسُوط اللَّحمَ بالدَّم .

٨٤٨

آخر :

١ ـ رَمَتْنِى بسَهْم الحبِّ أمَّا قِذاذُه فتَـمْرٌ وأمَّا رِيشُـــهُ فسَوِيق

يريد أنَّها كانت تطعِمُه التَّمرَ والسَّويق ، فلذلك أحبَّها . والقِذَاذ : جمع القُذَّة ، وهى الرِّيش ، ويقال : قَذَذْت السهْمَ ، إذا جعلتَ له قُذذا[1] . وكان أبو زيد يُجيز : أقْذَذْتُ أيضاً ، وأباه الأصمعىُّ . وكل شىء سويتَه وأصلحتَه فقد قذذته . والسهم الأقَذّ ، الذى لا رِيش له . ومن أمثالهم ما أصبْت منه أقذَّ ولا مَريشا .

٨٤٩

آخر :

ألا رُبَّ خَوْدٍ عَيْنُها من خَزِيرةٍ وأنيابُها الغُرُّ الحِسَانُ سَوِيقُ

الخَوْدُ : المرأة الناعمة الجسم . والخزيرة : دقيقٌ يُلبَّك بشحمٍ . وكانت العرب تُعيِّر بأكله . وقيل : إنّ المقصود بذلك بنو مُجاشعٍ وقريشٌ ، وهى السَّخينة .

٨٥٠

آخر :

وما العَيشُ إلاّ نَوْمَةٌ وتَشَرُّق وتَمرٌ كأكباد الجرادِ وماء[2]

---

(١) ل : « قذاذا » .

(٢) فى البيان (١ : ١٧٩) : « كأخفاف الرباع » .

٨٥١

آخر :

١ ـ قامَتْ تَمَطَّى والقَمِيصُ مُنْخَرِقْ

٢ ـ فصادَفَ الخرقُ مكاناً قد حُلِقْ(١)

٣ ـ كأنَّه قَعْبُ نُضَارٍ مُنْفَلِقْ(٢)

تَمَطَّى ، أراد تتمَطَّى ، أى تتمدَّد ، فحذف إحدى التاءين . والنُّضار : شجرة يُتَّخذ من خَشَبِه القِصَاع . ومثل هذا قول الآخر :

إذا قَعَدْتُ مَقْعَدًا نَبا بِيَهْ كالقَدَحِ المَكبُوبِ فوقَ الرَّابِيَهْ

٨٥٢

آخر :

إذا اجتمع الجُوع المبرِّحُ والهوَى على الرَّجُلِ المِسْكين كادَ يَمُوتُ

٨٥٣

آخر :

١ ـ يا رَبِّ إنْ قَتلْتَها فَعُذْ لها

٢ ـ فلنْ تموتَ أو تَشُدَّ قتلَهَا(٣)

(١) هذا ما فى ل والتبريزى . وفى الأصل : « فصادف القلب » .
(٢) فى الأصل : « كأنه كعب » ، صوابه فى ل والتبريزى .
(٣) التبريزى : « أو تجيد قتلها » ، ثم ساق التبريزى الشرح مطابقا لشرح المرزوقى .

٨٥٤

آخر :

١ ـ وأُبغِضُ الضَّيفَ مابي جُلُّ مأكلِه إلاّ تَنَفُّجَهُ حَوْلى إذا قَعَدَا
٢ ـ مازال يَنفُجُ جَنْبَيهِ وحُبوتَهُ حَتَّى أقولُ لعلَّ الضيفَ قد وَلَدَا (١)

قوله « إلا تنفُّجه » استثناء خارج . و التنفُّج قيل هو التجشُّؤ . ويقال : تنفَّجَ فلانٌ ، أى توسَّعَ فى جُلوسه . ومنه : هو مُنتَفِجُ الجنبين . وهذا غَرَضُ الشاعر ، بدَلالة قوله : مازالَ ينفُج جنبيه وحُبوَته . والنَّفْجُ : الكِبْر ؛ وفى التنفُّجِ زيادةُ تكلُّف .

٨٥٥

آخر :

وإنا لنَجفُو الضيفَ مِنْ غيرِ عُسْرَةٍ مَخافَةَ أن يَضْرَى بنا فيعودُ (٢)

---

(١) روى التبريزى بعده مقطوعة لم يروها المرزوقى . ونصها مع تفسيرها :
وقال بلال بن جرير :
بلال : أحد أسماء الماء . والجرير : حبل الزمام .
قال أبو العلاء : كان البغداديون ينشدون علقا بالقاف والعين . وقدم الوزير ابن أبى خالد التبريزى ومعه سبط له فقرأ الغلام الحماسية على بعض أهل العلم . وأنشد هذا البيت بالغين والفاء « غلفا » وذكر بعده بيتا وهو :
فقالت لها جاراتها إذ سمعنها نعم حبذا بل حبذا مثله إلفا
وزعم أن هذه الرواية وقعت إليهم عن أبى عبدالله الأسدى البصرى صاحب كتاب المشاكهة ، وكان من أروى البصريين الذين فى زمانه لشعر العرب . والغلف : الشيء الذى يجعل فى الغلاف .
(٢) بعده كما نص التبريزى :
ونشلى عليه الكلب عند محله ونبدى له الحرمان ثم نزيد
قال التبريزى :
« وهذا البيت ـ يعنى الأول ـ يروى لحاتم الطائى . ويقال إنه أرد بالضيف الأسد . وهذا لا يمتنع من مذاهب العرب ، لأنهم يسمون كل طارق ضيفا ، حتى جعلوا الأسد كالضيف » .

قوله « فيعود » لم يعطفه على أن يَضْرَى بنا ، لكنه قَصَد به إلى الاستئناف ، والمراد فهو يَعود ، ويقال : إنّ بعضَ المتحذلقين فى زمن الأصمعىّ خالفَه فى هذا وزَعم أنّ الشاعر تمدّحَ بهذا ولم يتملّح (١) ، وزعم أنّ المرادَ إنّا لا نتكلّف للضيف ولا نحتشد له ، بل نُقدِّم إليه ما يحضُرنا لئلّا يَنفِر من احتشامنا له ، فينقبضَ عنّا ، ولا يعودَ إلينا . قال : ومعنى « مخافةَ أن يَضْرَى » أن لا يَضْرَى بنا ، ولا مُضمرة ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ يُبيِّن اللهُ لكم أنْ تَضلُّوا ﴾ . وهذا كما تكلَّفَ بعضُهم القولَ فى قوله :

قومٌ إذا استَنبح الأضيافُ كلبَهُم قالوا لأمِّهم بُولِى على النّارِ (٢)

وزعم أنه مَدْح مع اتّفاق النّاس على أنه أهْجَى بيت .

٨٥٦

آخر :

ونَظَرَ إلى جاريةٍ سوداء تَخْضِب كفَّها فقال :

١ ـ تَخْضِبُ كَفًّا بُتِكَتْ مِنْ زَنْدِهَا

٢ ـ فَتَخضِبُ الحِنَّاءَ مِن مُسْوَدِّها

٣ ـ كأنَّها والكُحْلُ فى مِرْوَدِّها

٤ ـ تَكحَلُ عَيْنَيها بِبَعْضِ جِلْدِها

وقوله « بُتِكَتْ من زَنْدِها » منقطعٌ ممّا قبله ، كأنه خبَّر عنها ، ثم دعا على كَفِّها . ولا يجوز أن يتّصل بما قبله ، لأنّه حينئذ يكون واقعاً موقعَ الصِّفة

(١) ل : « ولم يستملح » .
(٢) للأخطل فى ديوانه ٢٢٥ والكامل ٧٣٤ ليبسك .

الكفّ، والأمرُ والنّهيُ والدعاء لا تكون صفاتٍ ولا صلاتٍ ولا أخباراً إلّا بتأويل.

وقوله «فتخضِبُ الحِنّاء من مُسْوَدّها»، يريد أنّ سَواد لونها يغيِّر من الحنّاء فيخضِبه. والحِنّاء وزنه فِعّالٌ، والهمزة منه أصلية، بدلالة قولهم: حنّأته بالحِنّاء.

وقوله «في مِرْوَدّها»، استقبح الزِّحاف فشدّد الدال، ومثله:

* تعرُّضَ المُهْرةِ في الطِّوَلِّ[1] *

٨٥٧

آخر[2]:

١ ـ لَعَمْري لقد حذَّرتُ قُرْطاً وجارَه ... ولا ينفعُ التحذيرُ مَنْ ليس يَحْذَرُ

٢ ـ نَهيتهما عن نُورَةٍ أحرقَتْهما ... وحمّامِ سَوْءٍ ماؤُه يتسعَّر

٣ ـ فما مِنهُما إلا أتاني مُوَقَّعاً ... به أثرٌ من مَسِّها يتقشَّر

٤ ـ أجِدَّكما لم تعلما أنّ جارَنا ... أبا الحِسْلِ بالصَّحْراء لا يتنوَّرُ

٥ ـ ولم تعلما حمّامَنا ببِلادنا ... إذا جعلَ الحِرْباء بالجِذْلِ يَخطِرُ

قوله «أتاني مُوَقَّعاً»، انتصب على الحال. ويقال: بعيرٌ موقَّع الظَّهر، إذا كان به آثار الجرَب. ورجلٌ موقَّعٌ، إذا كان به آثار الجراح. قال:

مثلَ الحمارِ الموقَّعِ السّوءِ لا ... يُحسِنُ مَشْياً إلّا إذا ضُرِبا[3]

(١) أراد الطول، بكسر ففتح، وهو الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه. والبيت لمنظور ابن مرثد الأسدي. انظر حواشي مجالس ثعلب ٦٠١ ـ ٦٠٢.

(٢) التبريزي: «وقال أعرابي لابنه وكان قد أدخل الحمام فأحرقته النورة».

(٣) للحكم بن عبدل الأسدي. الحماسية ٤٥٠ ص ١٢٠٥.

وقوله : « لا يَتَنَوَّرُ » الأجود فى هذا أن يقال : لا يتنأر ، وقد قيل تَنَوَّر أيضًا .

وقوله «أجِدَّ كُما» انتصب على المصدر من فعلٍ مُضمَر ، كأنّه قال : أتجِدّان جِدَّ كُما .

وذكر سيبويه فى باب ما ينتصب من المصادر توكيداً لما قبله ، كقولك هذا زَيدٌ حقًّا لا باطلا ، وهذا القولُ لا قولَكَ ، وهذا زيدٌ غيرَ ما تقول ، والتقدير : هذا القول لا أقول قولَك . قال سيبويه : ومثلُه فى الاستفهام أَجِدَّكَ لا تفعلُ كذا ، ولا يُستعمَل إلَّا مضافاً ، والتقدير أجِدًّا منك . وَجَرَى هذا مجْرَى ما لَزِمَتْهُ الإضافةُ نحو لبَّيك وما أشبهه ، ومَعاذَ الله . والمعنى أعلى جِدٍّ لم تعلما ما ذكرتُ . والحرباء أعظمُ من العَظَاءة ، وهو أغبرُ ما ام صغيراً ، ثم يصفرُّ إذا كَبِرَ ، فإذا حَمِيَت الشَّمسُ عليه أخذَ جلدُه يخضرُّ . ولذلك قال ذُو الرُّمَّة لمَّا وصفه :

* ويخْضَرُّ من لَفح الهَجيرِ غباغِبُهْ[1] *

وقال الطِّرمَّاح :

وانتَمَى ابنُ الفلَاةِ فى طَرفِ الجِذْ ... لِ وأَعْيا عَلَيْهِ مُلتَحِدُ

وابنُ الفلَاة : الحرباء . والجِذْلُ : العُود وأصلُ الشَّجرة . وقال آخر[2] :

أنَّى أُتيحَ له حِرْباء تَنْضُبةٍ ... لا يُرسِلُ السَّاق إلَّا مُمْسكاً ساقا

(١) صدره فى ديوان ذى الرمة ٤٧ :

* إذا جعل الحرباء يبيض رأسه *

(٢) هو أبو دواد الإيادى من أبيات رواها العسكرى فى الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (١ : ٢٩٧ / ٢ : ٣٥) وعيون الأخبار (٣ : ١٩٢) وأمثال الميدانى (١ : ٢٠٢) وديوان المعانى (١ : ١٣٨) والمخصص (٨ : ١٠٣) .

تَنْضُبَةٌ : شجرة . والحِرْباء يَستقبِل الشَّمسَ فيدورُ معها فى سُوق الأشجار .

وقوله « جعَل الحِرْباء » بمعنى طفِقَ .

وقوله « لا يُرْسِلُ السَّاقَ » مَثَلٌ للمُلْحِف الذى لا يَقضِى حاجةً إلا بسَأَل أُخرَى .

٨٥٨

آخر :

١ ـ أَلَا فَتًى عِندَهُ خُفَّانِ يَحمِلُنِي ... عَلَيْهِما إنّنى شَيْخٌ عَلَى سَفَرِ

٢ ـ أَشْكُوا إلى اللهِ أَنِّي لا أُمارِسُها ... مِنَ الجِبالِ وأَنِّي سَيِّءُ النَّظَرِ

٣ ـ إذا سَرَى القَوْمُ لم أُبْصِرْ طَرِيقَهُمُ ... إنْ لم يكن لَهُمُ ضَوءٌ من القَمَرِ

يُروَى « إنَّنى شَيخ على سفر » بكسر الهمزة على الاستئناف ، ويروى « أنّنى » بفتح الهمزة ، والمعنى لأنّنى شيخ .

وقوله « لم أُبْصِر طَرِيقَهم » ، يريد أنَّه لا جادَّةَ فى بلادِهم . وهذا خلاف قول الآخر :

. . . . تَرَى ... للسَّائلين إلى أبوابه طُرُقًا[(١)]

كأنّه عيَّرهم متملِّحًا .

٨٥٩

وقالت جارية فى جاريةٍ تُسَبُّها[(٢)] :

١ ـ سُبِّى أبى سَبَّكِ لن يَضِيرَهْ

٢ ـ إنَّ مَعِى قَوَافِيًا كَثِيرَهْ

(١) هذا غير بيت زهير المشهور ، وهو :
قد جعل المبتغون الخير فى هرم ... والسائلون إلى أبوابه طرقا

(٢) هذا ما فى ل . وعند التبريزى : « وقالت جارية فى نساء يتسابين » . وفى الأصل : « فى نساء ين » .

٣ ــ يَنْفَحُ منها المِسْكُ والذَّرِيرهْ

يروى : « سَبكِ لى بَصيره » . وإذا رويتَ « سَبُّكِ لى بصيرة » يرتفع سَبك بالابتداء . وتنصب سَبَّك على المصدر ، أى كما تسبِّيننى ، فسُبِّى أبى أيضاً ، و « بصيرة » على النِّداء .

٨٦٠

وقالت أخرى :

١ ــ إنَّ أباك زَهزَقٌ دَقِيقُ

٢ ــ لا حَسَنُ الوجهِ ولا عَتيقُ

٣ ــ تَضْحَكُ من طُرْطُبِّهِ العُتُوقُ

الزَّهْزَقُ اللَّئيم الدَّقيق الحسَب . والعتيق : الكريم الرائع مِن كلّ شىء . والفعل منه عَتُقَ عِتْقاً . والطُّرطُبُّ : صوت الرَّاعى إذا سكَّن معزَاه . والعُنُوق : إناثُ أولادِ العزى ، أى كأنَّها تُسَرُّ لفَعلته تلك[1] . ويُروى : « تَضْحَكُ من طُرْطُبِّهِ العَبُوقُ » ، وذكر أن الخاطب كان لثديهِ حَلمة طويلة ــ والضَّرع الطويل يقال له الطُّرْطُبّ ــ وأنَّ العَبوق امرأةٌ . يريد أنَّها تَسْخَر منه وتُعجِبُها خِلقته .

٨٦١

وقالت أخرى :

١ ــ يارَبِّ مَنْ عادَى أبى فَعادِهِ

٢ ــ وارْمِ بِسهمَينِ على فُؤادِهِ

٣ ــ واجعلْ حِمامَ نَفْسِهِ فى زَادِهِ

(١) يعنى صوته بمعزاه . وفى الأصل : « لعفلته » ، صوابه فى ل .

٨٦٢

وقالت أمُّ النحيف[١] :

١ - لَعَمْرِى لَقَدْ أخلفتَ ظَنِّى وسُؤْتَنى   فَحُزْتَ بعِصْيانِى النَّدامَةَ فَاصْبِرِ
٢ - ولا تَكُ مِطْلاقاً مَلُوماً وسَامِحِ الْ   قَرِينَةَ وافعَلْ فِعْلَ حُرٍّ مُشَهَّرِ
٣ - فَقَدْ حُزْتَ بالوَرْهاء أخبثَ خِبئةٍ   فَدَعْ عَنْكَ ماقد قُلْتَ ياسَعْدُ واحْذَرِ
٤ - تَرَبَّصْ بِها الأيّامَ عَلَّ صُرُوفَها   سَتَرْمِى بها فى جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ
٥ - فَكَمْ من حَرِيمٍ قَدْ مَناهُ إلٰهُهُ   بمَذْمُومةِ الأخلاقِ وَاسِعَةِ الحِرِ
٦ - فَطاوَلَها حَتَّى أَتَتْها مَنِيَّةٌ   فصارَتْ سَفَاةً جُثْوَةً بينَ أَقْبُرِ
٧ - فأعقبَ لمّا كَانَ بالصَّبْرِ مُعْصِماً   فتاةً تَمَشَّى بين إتْبٍ ومِئْزَرِ
٨ - مُهَفْهَفَةَ الكَشْحَيْنِ مَحْطُوطَةَ الحَشَا   يَهَمُّ الفَتَى فى كلِّ مَبْدًى ومَحْضَرِ[٢]
٩ - لها كَفَلٌ كالدِّعْصِ لَبَّدَهُ الثَّرَى   وثَغْرٌ نَقِيٌّ كالأقاحِي المُنَوَّرِ[٣]

كأنّ المخاطَب كان تزوّج بامرأةٍ لم ترضها له ، فلم تحمد العاقبة ، فأخذتْ توبِّخه فى الخلاف عليها ، والعصيانِ لها ، وتشير عليه بمصابرتها وإنْ لم يستوقِفها منتظِراً رَيْبَ الزّمان وأحداثه فيها . فقالت : عامِلْها معاملةَ الأحرار[٤] الكرام ، فلا تطلِّقها وإن تكُ قد حُزْتَ بها وَرهاء ، وهى الحمقاء . وأصل الوَرَه الخرْق

(١) التبريزى : « وهو سعد بن قرط ، أحد بنى جذيمة ، وكان تزوج امرأة نهته أمه عنها » . والنحيف كذا ضبط فى النسختين . وضبطه التبريزى بالتصغير ، قال : « فيجوز أن يكون النحيف تحقير ترخيم النحيف » . (٢) التبريزى : « محطوطه الحشا » .

(٣) ل والتبريزى : « لبده الندى » . والثرى والندى واحد . وبعده عند التبريزى :
« وقال سعد وليس من الكتاب - أى ليس من الحماسة - :

ياليتها أمنا شالت نعامتها   أيما إلى جنة أيما إلى نار
تلتهم الوسق مشدودا أشظته   كأنما وجهها قد طُلىَ بالقار
ليست بشبعى ولو أوردتها هجراً   ولا بريا ولو قاظت بذى قار»

وفى كتاب العقة من نوادر المخطوطات أن هذا الشعر الأخير لمعبد بن قرط العبدى .

(٤) ل : « بمعاملة الأحرار » .

فى كلِّ عمل . ويقال : تورَّه الرجلُ فى عمله . وقولها « أَخْبَثَ خِبْثَةٍ » فالخبيث نعت كل فاسد ، وكذلك الخابث . وقد استعمِل الخُبْثة فى العجوز أيضاً . والأخبثان : البَخَر والسَّهَر ، وقيل الرَّجيع والبَوْل .

وقولها « دع عنكَ ما قد قلت » ، كأنه كان هَمَّ بمباينتِها فأنكرتْ ذلك وقالت تربَّصْ بها . والجاحم : النار الشديدة التأجُّج . ومنه جاحِم الحرب ، وجَحَمت النارُ والحربُ جَحْمةً : اشتدَّت . والسَّفاةُ : التُّراب . والجُثْوَة : الكُثْبَةُ منه . والإتبُ : الدِّرْع . وأعصَمَ من الشرِّ واعتصَمَ : التجأُ وامتَنَع . مَحطوطةُ الحَشا ، أى كأنها قد صُقِلت بالمِحَطّ ، وهو ما يُحطُّ به السيف والجلد . والمهفهَفة : الخميصة البَدْن الدقيقة الخَصْر .

وقولها « كَهَمِّ الفتَى » أى كما يهواه ويَهُمُّ به حيثما تصرَّف . والدَّعْص : المجتمِع من الرَّمل . ولَبَّده : صَلَّبَه . يعنى أنّ لحمها فى تراكُمِه واكتنازِه كذلك

٨٦٣

وقال أبو الطَّمَحان الأسدىُّ (١) :

١ — وبالحيرَةِ البيضاء شَيْخٌ مُسَلَّطٌ إذا حَلَفَ الأيمانَ بالله بَرَّتِ

٢ — لقَدْ حَلَقُوا مِنْها غُدافاً كأنَّه عَناقِيدُ كَرْمٍ أَينعَتْ فاسبكرَّتِ

٣ — فَظَلَّ العَذارَى يوم تَحْلَقُ لِمَّتِي عَلَى عَجَلٍ يَلْقُطْنَها حيثُ خَرَّتِ

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٤٧٨ ص ١٢٦٦ . قال التبريزى : « وحلقه صاحب شرطة يوسف بن عمر » . وذكر التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن القائل هو طخيم أبو الطخماء الأسدى . والذى حلق لمته هو العباس بن معبد المرى صاحب شرطة يوسف بن عمر .

بَرَّت اليمينُ بَرًّا ، وهى بارّة و بَرّةٌ ، وأبررتها أنا . قال :

* إنى [حَلَفتُ] على يمينٍ بَرّةٍ (١) *

ويقال : يَنَعت الثمرةُ ، إذا نَضِجَت ، وأينَعت أيضاً واسبكرّت : استرخت ولانت . وخَرّت : سقَطَت خُروراً . وخرّ الماء خريراً . شبّه الشَعَر فى طُوله ولينه ولونه (٢) بعناقيدَ من الكَرْم استرسلَت .

وقوله « لقد حلَقُوا منها » ، أى من الهامَة . والغُداف : الأسود ، ووُصِفَ به الغرابُ لذلك . وظَلّ العذارى ، بمعنى صار . وإنما التقطن لِمَسّها لحسنها وولوعهن بها مِن قَبل .

(١) كلمة « حلفت » ساقطة من النسختين . والبيت من قصيدة الراعى المشهورة . جمهرة أشعار العرب ١٧٢ . وعجزه :

* لا أكذب اليوم الخليفة قيلا *

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فى طولها ولينها ولونها » . والشعر مذكر .

باب مذمة النساء

اب مذمة النساء

٨٦٤

قال بعضهم :

١ ـ دِمَشْقُ خُذِيها واعلمى أنّ ليلةً   تمُرُّ بِعُــودَىْ نعشِها ليلةُ القَدْرِ
٢ ـ أكَلْتُ دمًا إنْ لم أرُعْكِ بضَرَّةٍ   بعيدةِ مَهْوَى القُرْطِ طيِّبةِ النشْرِ

أظهرَ التضجُّر بها وبالسكونِ معها ، وطلب الخلاصَ منها ، وبعثَ البلدةَ على أَخْذِها وقبضها إلى نَفْسها . وقوله « تمُرُّ بعودَىْ نَعْشِها » إنْ جعلْتَ الفعْل لدمشْقَ اقتضى أن يكون فى قوله تمُرُّ بعودَىْ نعشِها ضميرٌ يرجع إلى ليلةٍ ، والمراد تمرُّ بعودَىْ نعشها فيها ليلةُ القدر . فإن جعلتَ الفعلَ لليلة يكون المعنى أن الليلة التى تموت فيها أو تُميتُها تَحُلّ منها فى عِظَمِ موقعِها محلَّ ليلة القدر التى هى خيرٌ من ألفِ شهر ليس فيها ليلةُ القدر . وجاء فى الخبر أنه إنّما⁽¹⁾ عظُم موقِعُها لأنّ الله تعالى أنزَلَ فيها جملةَ القرآنِ إلى سماء الدنيا ، ثم أنزَلَ منها نجومًا الشيء بعد الشيء على ما عرَف من المصلحة فيه .

وقوله « أكلتُ دمًا يجرى مجرَى اليمين ، وإنْ كان لفظُه لفظَ الدُّعاء . وأكلُ الدَّمَ يَسُوغ عند الإشفاء على الهَلَكة وجَهْدِ البَلاَء فى الإعواز . والمعنى : إنْ لم أُفزِّعْكِ بأن أتزوَّجَ بامرأةٍ حسنةِ السَّالفة ، طيِّبة الرَّائحة ، فابتلانى الله تعالى بما يَحِلُّ معه أكْلُ الدّم .

---

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « أنه إذا »

٨٦٥

آخر :

١ ـ سَقَى اللهُ دارًا فرّقَ الدهرُ بينَنا وبَينَك فيها وابلًا سائلُ القَطْرِ
٢ ـ ولا ذَكَرَ الرَّحمنُ يومًا وليلةً مَلَكْناك فيها لم تكُنْ لَيلةَ البَدْرِ

دعا للدّار المُفرِّقة بينهما بالسُّقيا الغَزيرة وعلى ما جَمَع بينهما من أيّام الدّهر ولياليها بمَنعها الخبر، وحِرمانها الحيا والقَطْر، ثم قال « فيها » فردّ الضّمير على أحدِها واختار الأقربَ، إذْ عُلِم أنّ المعطوفَ والمعطوف عليه يستويان فى الإخبار. ومثله قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَها فى سَبِيلِ اللهِ ﴾ . وقوله « لم تكُنْ ليلةَ البدر » من صفة اللّيل، أى كانت تلك الليلةُ مظلمةً لا نُورَ فيها ولا سُعود. ومعنى « ولا ذَكر الرّحمن » ، أى لا تعطّفَ عليها، ولا قسَم لها خيرا .

٨٦٦

وقال آخرُ فى امرأتين تزوّجَ بهما(١) :

١ ـ رَحَلَتْ أُنَيسةُ بالطّلاقِ وَعتَقْتُ مِن رِقِّ الوَثاقِ
٢ ـ بانَتْ فلم يألَمْ لها قَلْبِى ولم تَبْكِ المآقِى
٣ ـ ودَواءُ ما لا تَشتهيهِ النّفسُ تَعجيلُ الفِراقِ
٤ ـ لَوْ لَمْ أُرَحْ بفِراقِها لأَرَحْتُ نَفسِى بالإباقِ
٥ ـ وخَصَيتُ نَفسى لا أريدُ حَليلةً حتّى التّلاقِى

(١) ل : « فى امرأة تزوج بها » . التبريزى : « فى امرأة طلقها » .

يريد طلّقتها فبانت منِّى وفارقتنى ، فصرتُ حُرًّا عتيقا . ومعنى « رِقّ الوَثَاق » يريد أنّى كنتُ كالمُوثَق لأسير ففككْتُ وَثَاقى ، وجعَلَ البكاء للمآقى مجازًا ، وهو جمع المُؤقِى على وزن المُعْقِى ، وهو طَرَف العَين الذى يَلِى الأنف ، وهو مَخْرج الدَّمع ، فلذلك جعل الفعل لها . وفى هذه اللفظة عدة لغات : مَأْقٌ على وزن المَعْق وجمعه آماقٌ ، وماقٍ على زنة قاضٍ والجميع مَوَاقٍ . وحكى أبو زيد ماقِئ والجمع مواقِئُ . وقال امرؤ القَيْس فى المآقى :

* شُقّتْ مآقيهما من أُخَرْ (١) *

وحكى يعقوب (فى المنطق (٢)) عن الفَرّاء ، أنّه ليس فى كلام العرب مَفْعِلٌ بكسر العين إلّا حرفان : مَأْقِى العين، ومَأْوِى الإبل ، وهذه اللّفظةُ على اختلاف اللُّغات قد عمِلتُها مسألةً ، وتكلّمتُ فى وُجوهها ، وبيّنتُ خطأً من وزنَ مَأْقِى العَين بمَفعِلٍ بكسر العين . وقوله « تعجيل الفِراق » ، يريد تعجيل فراقِه ، فجعل اللّفظ عامًّا ، والمراد الخاصّ ، وعلى هذا قوله « من رِقّ الوَثاقِ » ، يريد وثاقِها . والإِبَاق : الهرَب . والرّاحة : وِجدانك الرَّوْح بعد مَشقّةٍ . وما لكَ رَوَاح ، أى راحة . والتّراويح فى رمضان منه ، وكذلك قولهم : تراوحَتْه الأمطار ، وأفعَلُ ذلك فى سَرَاحٍ ورَوَاحٍ . والحَليلةُ : الزّوجة ، سمّيت بذلك لأنّها تُحَالُّ بعلَها ، أى تُنازله ويُنازلها (٣) . وقوله « حتّى التَّلاقى » ، أى إلى وقتِ تلاقِى الخَلْق فى يومِ القيامة .

وانعطف « وخَصَيْتُ » على قوله « لأرحتُ نَفْسى » . وموضع لا أريد نصبٌ على الحال ، والعامل فيه خَصَيْتُ .

(١) يروى : « فشقت » . وصدره فى ديوانه ١٦ :

* وعين لها حدرة بدرة *

(٢) يريد كتابه « إصلاح المنطق » . انظر ص ١٢٧ طبعة دار المعارف .

(٣) فى النسختين : « أى تنازلها » فقط .

٨٦٧

وقال آخر :

١ ـ أَلِمْ بجَوْهرَ بالقُضْبانِ والمَدَرِ وبالعِصِىِّ التى فى رُؤسِها عجَر

٢ ـ أَلِمْ بها لا لتسليم ولا مِقَةٍ إلّا ليَكسرَ مِنْها أنفَها الحجَر[1]

٣ ـ أَلِمْ بوَطْباء فى أشداقها سَعَةٌ فى صُورةِ الكَلْبِ إلّا أنَّها بَشَرُ

٤ ـ حَدْباء وَقْصاء صِيغَتْ صِيغةً عَجَباً وفى تَرائبِها عن صَدرِها زَوَرُ

الإلمام : الزِّيارة الخفيفة ، والباء من قوله « بجوهر » تعلَّق به . وقوله « بالقضبان » أى والقُضبان معكَ ، وهذا كما يقال : خرج بسلاحه ، أى والسِّلاح عليه . والعُجَر : جمع عُجْرة ، وهى العُقدة ، وخَيْطٌ عَجِرٌ وعَصًا عَجْراء : فيهما عُقَد . وقالوا فى روس جمع رأس ، لأنَّه جمع فَعْلًا على فُعُل ، كقولهم سَقْف وسُقُف ، ورَهْنٌ ورُهُن .

وقد أقْوَى فى بيتٍ واحد[2] ، فهو أقبح .

وقال « فى أشداقها » جمعاً على ما حواليه ، كما يقال هو ضَخْم العَثَانِين . والوطْباء : العظيمة الثَّدْيين ، وهى فعلاء ولا أفْعَلَ لها . ومثله دِيمَةٌ هَطْلاء ، والحَلْواء . وقد مرَّ نظيرُه . وقوله « إلّا أنّها بشَر » ، البشر يقع على الواحد والجمع ، ويتناول الإنس دون سائره[3] . والوقصاء : القصيرة العنُق . والترائب : جمع التَّرِيبة ، وهى موضع القِلادة . وإنَّما يصِف اعوِجاجَها فى خِلْقتها وهُزالها .

---

(١) كلمة « منها » ساقطة من ل .

(٢) يعنى البيت الأول .

(٣) ل : « غيره » .

٨٦٨

آخر :

١ ـ تَمَّتْ عُبَيْدَةُ إلّا فى مَحاسِنِها والمِلْحُ منها مكانَ الشَّمْسِ والقَمَرِ (١)

٢ ـ قُلْ لِلّذِى عابَها مِنْ عائِبٍ حَنِقٍ أقْصِرْ فرأسُ الذى قد عِيبَ والحَجَرُ (٢)

قوله « تَمَّتْ عُبيدةُ إلّا فى محاسنها » ، أطلَقَ القولَ بتمامها ، ثمّ استثنى المحاسنَ من خِصالها ، فخلَصَ التَّمامُ فى المَقابح لا غير . وقوله «والمِلْحُ منها مكان الشّمس » ، لك أن تنصب مكانَ على الظّرف ، يريد أنّ الملحَ بعيد ، فهو فى السَّماء ، ولك أن ترفعه كما تقول : هو منّى فرسخانِ ، فتجعلَ الملحَ منها نفسَ السَّماء ، كما تجعل المُخْبَرَ عنه فى قولك : هو منّى نَفْسَ الفرسَخَين ، وعلى هذا ينعطف قوله « والقمر » ، فإمّا أن تُجرِىَ على موضع مكانَ وقد نُصب لأنّه وهو ظرفٌ فى موضع الرَّفع ؛ وإمّا أن تُجرِىَ على لفظ مكان وقد رُفع لأنّه يصح أن يقال الملح منها القمرُ كما يصحُّ أنْ يقال الملحُ منها مكانُ القمر . وإذا جررتَ «والقمر» كان معطوفاً على الشّمس ، ويكون الشّاعرُ مُقْوِياً فى البيت الذى بعده .

وقوله : « فرأس الذى قد عيب(٣) » ، أى رأس الإنسان الذى قد عيب ، لذلك لم يقل فرأس التى . وعطف الحجر على الرَّأس على أحد وجهين : إما أن يريد رأسُهُ والحجرُ مقرونانِ على طَريق الدُّعاء لا على طريق الإخبار ، فحذَفَ الخبرَ لأنّ المراد مفهوم . وهذا كما يقال : كلُّ امرئٍ وشأنه . وإما أن يريد بالواو معنى مع ، كأنه قال رأسه مع الحجر ، وحينئذ يكون الخبر فى الواو ، وهذا

(١) التبريزى : « من محاسنها » .

(٢) ل : « عبت » التبريزى : « عبت الحجر » .

(٣) ل : « عبت » .

يكون كقوله : الرِّجال وأعضادُها، والنساء وأعجازها، لأن المراد الرجال بأعضادها والنساء بأعجازها . وإنما قال : « قُلْ للذى عابَها من عائبٍ حنق » تخفيفاً لقُبْحها وتسليا[1] لانتهاء عَيْبها . والحَنَق : أشدُّ الغَيظ .

٨٦٩

وقال آخر :

١ ـ لا تَنْـكِحَنَّ الدهرَ ما عِشْتَ أَيِّمًا مُجَرَّبةً قد مُلَّ منها ومَلَّتِ[2]

٢ ـ تَحُكُّ قَفَاها مِنْ وَرَاءِ خِمَارها إذا فَقَدَت شيئاً من البيتِ جُنَّتِ

٣ ـ تَجُودُ بِرِجليها وتَمْنَعُ دَرَّها وإنْ طُلِبَت منها المودَّةُ هَرَّتِ

قوله « لا تَنكحنَّ » أراد بالنِّكاح العَقْدَ لا الجماع . والأَيِّم : التى قد مات عنها زوجُها . وقد آمَت تَئيمُ أَيْمَةً .

وقوله « قد مُلَّ منها ومَلَّت » يريد أنها طَعنَتْ فى السِّن ، فقضَت مآربَ الشهوات وقُضِيَت منها .

وقوله « تَحُكُّ قفاها من وراءِ خمارها » أى تركت التنظُّف والتنطُّس ، ونسِيَت الحياء والأَنفة ، فرأسُها تَحُكُّها دائبا ، ومحبّتها للحقير تُجَنِّنُها ، حتى إذا فَقَدت ما لا خطَرَ له ، كان عندها كالكبير الذى لا عِوَضَ منه .

وقوله «تَجُود برجليها وتَمنع درَّها » ، ويجوز أن يكون مثلا لِقلَّة خَيرها ، فشبَّهها بالشَّاةِ التى تُفاجُّ رِجليها ، فإذا أُريدَ حَلَبُها مَنَعتْ . ويجوز أن يكون المرادأنَّها قَعدتْ عن الوِلادِ فهى تُساعِدُ فى الجماع ولا تَحْمِلُ ولا تَلِد .

---

(١) فى الأصل : « تسليا » ، صوابه فى ل .

(٢) التبريزى : « مخرمة » .

وقوله « وإن طُلِبَتْ منها المودَّةُ هَرَّتِ » يريد أنّها لا يُبتغَى عندها من نتائج الودّ وأسباب الشفقةِ والحبّ شيء إلا نَبحتْ نَبيحَ الكلاب. ويجوز أن يريد بهَرَّتِ كرهت وتقبّضت(١).

٨٧٠

آخر :

١ ــ لِأسماءَ وَجْهٌ بِدْعةٌ مِن سَماجةٍ يُرَغِّبُني في نَيْكِ كُلِّ أتانِ

٢ ــ بَدَا فبدَتْ لي شُقّةٌ مِن جَهَنَّمٍ فقُمتُ ومالي بالجحيمِ يَدانِ

٣ ــ وغادَرْتُ أصحابي الذين تخلّفوا بما شِيتَ من خِزْيٍ وطُولِ هَوانِ

٤ ــ وما كُنتُ أدري قَبْلَها أنَّ في النِّسا جَحِيماً أراها جَهْرَةً وتَراني

قوله « بدا » الفعل للوجه، «وشُقّة»، أي قِطعة. ولك أن ترويه بكسر الشين، فيكون كصِرْمة وكِسرة وجِذْوة وقِطْعة وفِدْرة، ولك أن تضمّ الشّين فيكون كالشُّعْبة والعُجرة والعُقدة؛ فاروِه كيف شئت . وقوله « فقمت ومالي بالجحيم يدان » أي تهيّأت للهرَب منها، إذْ لم يكن لي طاقةٌ بالصّبر عليها، ولا قوّة في ملاقاتها .

وقوله « وغادرتُ أصحابي » كأنّه شايَعه في النَّهضةِ قَومٌ وتخلّفَ عنه قوم، فقال: مَن تخلّفَ عنّي كانت حالُه على ذلك .

٨٧١

آخر :

١ ــ لا تَنكِحَنَّ عَجُوزاً إنْ أُتيتَ بها واخْلَعْ ثِيابَكَ منها مُمْعِناً هَرَبا

(١) ل : « وتغضبت » .

٢ ـ فإنْ أتوْكَ وقالوا إنَّها نَصَفٌ فإنَّ أمْثَلَ نِصفَيْها الذى ذَهَبا (١)

المراد بالنِّكاح العَقْد ههنا ، وفى القرآن : ﴿ فانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ . وقوله « واخلَعْ ثيابَك » يجوز أن يكونَ مثلَ قول امرئُ القيس :

* فَسُلِّى ثيابى من ثيابِكِ تَنْسُلِ (٢) *

وكما يقال ضُمَّ إليكَ مِن كذا جَناحَك . ويجوز أنْ يريد به تشَمَّرْ وتَخفَّفْ واخرجْ من مَسْكِك (٣) . ومعنى « منها » أى من أجلها . ونَصب « مُمعِناً » على الحال . ويقال : أمعَنَ فى السَّير ، إذا أبْعَدَ . و « هَرَباً » يريد هاربا . وإنما سامَه ما سامَه ليكون أخفَّ سيراً وأسرع حَرَاكا .

وقوله « فإنَّ أَمثَلَ نِصفَيها » أى أصلحهما ، ويقال : فلانٌ أَمثَلُ من فلان ، أى هو أدنَى منه إلى الخَيْر . وأماثل القَوم : خيارهم .

٨٧٢

آخر :

١ ـ رَقْطَاءُ حَدْباءُ يُبدِى الكِبْدَ مَضْحَكُها قَنْواءُ بالعَرْضِ والعَينان بالطُّولِ

٢ ـ لها فَمٌ مُلتَقَى شِدْقَيْهِ نُقْرَتُها كأنَّ مِشْفَرَها قد طُرَّ مِنْ فِيلِ

٣ ـ أَسنانُها أُضْعِفَتْ فى خَلْقِها عدَداً مُظَهَّراتٍ جَمِيعاً بالرَّواويلِ

الرَّقطاء : المنقّشة (٤) بالبَرَش . والقَنا : طُول الأنف ، وإذا كانَ بالعرض كانَ كأنف الخنزير .

(١) التبريزى : « ولئن أتوك فقالوا » .

(٢) من معلقته . وصدره :

* وإن تك قد ساءتك منى خليقة *

(٣) المسك ، بفتح أوله : الجلد .

(٤) ل : « المنقطة » .

وقوله « مُلتقى شِدقَيه نُقرتُها » ، أراد أنَّها لسِعَةِ فمِها يلتقيان عند نُقْرة القَفا . ومعنى طُرَّ قُطِعَ . وقوله « مُظهَّرات » أي جُعِل لها ظِهارة كما يُجعل للفرش ظِهارة ، وكما قيل من الظِّهارة ظُهِّر قيل من البِطانة بُطِّن ، ويجوز أن يكون من قولك هو ظَهِيرُك أي مُعينك . ويقال : بعيرٌ مظهَّرٌ ، أي شديد الظهر قويٌّ . والظُّهْر : ما غَلُظ من الأرض وارتفع ، والظَّاهرة مثله ، وهما ممَّا تقدَّم . والرَّواويل : زوائدُ على عدد الأسنان ، والواحد رَاوُول .

٨٧٣

آخر :

١ ـ اصْرِميني يا خِلْقَةَ المِجْدَارِ ‏ وصِليني بطُول بُعْدِ المَزَارِ

٢ ـ فلقدْ سُمْتِني بوجهك والوَصْـ ‏ ـلِ قُروحاً أَعْيَتْ على المِسْبارِ

٣ ـ ذَقَنٌ ناقصٌ وأنْفٌ غليظٌ ‏ وجَبِينٌ كَسَاجَةِ القُسطارِ

٤ ـ طَالَ لَيْلي بِها فبِتُّ أُنادِي ‏ يا لَثاراتِ مُستَضاءِ النَّهارِ

٥ ـ قَامَةُ القُصْعُلِ الضَّئيفِ وَكَفٌّ ‏ خِنْصِراها كُذَيْنِقا القَصَّارِ (١)

قوله « يا خِلْقَةَ المِجْدار » يريد أنتِ غليظةٌ ثقيلة ، فكأنَّكِ في غِلَظ الجدار وثقله ، وكما قيل من الجِدار مِجدارٌ قيل في الغليظ الثَّقيل من الجبال مِجْبال . وقال امرؤ القيس :

إذا ما الضَّجيعُ ابتزَّها من ثيابها ‏ تَميلُ عليه هَوْنةً غيرَ مِجْبالِ

ومِفْعال من أبنية الآلات ، فهو كالمِفتاح والمِقْياس (٢) والمِدْراك (٣) ، وكان

(١) ل والتبريزي واللسان (كذنق) : « القصعل الضئيل » . وفيها أيضاً : « قصار » . قال التبريزي : « وروى بعضهم : كوذينتا قصار » .
(٢) ل : « والمقباس » بالباء الموحدة . ‏ (٣) كذا في النسختين .

الأصل فى الجَدْر الارتفاع والنُتُوّ . ويقال : جَدَرْتُ الجدار . وقال بعضهم : الجُدَرِىّ منه اشتُق .

والقَروح : الجراح . والمِسْبار المُلمُول الذى يقَدَّرُ به الجُرْح وغَوْرُه ، وهو من سَبَرْتُ ، وتُوُسِّع فى استعماله حتى وُضِعَ موضعَ جَرَّبْتُ . والقَسْطار : الصَّيْرفىّ ، وساجته : لَوحه الذى يَقُوم عليه كِفّتا الشّاهين إذا وُزِن به (١) .

وقوله « يا نَثارات » يا حرف النداء ، واللام لام الاستغاثة ، وإنَّما يستغيث بمن يَرُدّ عليه النَّهار .

والقصْمُل : القصير ، والخابِلُ أهله وكذلك الخارَزَنجىُّ والدُّرَيدى . والضئيل : الدقيق . ورواه بعضهم : « قامة الفصْعُل » ، بالفاء ، وهو العقرب الصَّغير ، والرَّجل اللئيم . والمراد أنّ فى أعضائها تفاوُتاً فلا يتلاءم خَلْقُها (٢) .

٨٧٤

آخر :

١ ـ أُلامُ على بُغْضى لما بَيْنَ حَيَّةٍ ... وضَبْعٍ وتِمْساحٍ تَغَشَّاكَ مِنْ بَحْرِ

٢ ـ تُحاكِى نَعِيماً زالَ فى قُبْحِ وَجْهِها ... وصفحتها لَمَّا بَدَتْ سَطْوَةُ الدَّهرِ

٣ ـ هى الضَّرَبانُ فى المَفاصِلِ خالياً ... وشُعْبَةُ بِرْسامٍ ضَمَمْتَ إلى النَّحْرِ

٤ ـ إذا سَفَرَتْ كانت بِعينيك سُخْنَةً ... وإن بَرْقَعَتْ فالفقرُ فى غايةِ الفَقْرِ (٣)

٥ ـ وإنْ حَدَّثَتْ كانتْ جميعَ مصائبٍ ... مُوَفَّرَةً تأتى بقاصِمةِ الظَّهْـــــرِ

٦ ـ حديثٌ كَقَلْعِ الضِّرْسِ أو نَتْفِ شارِبٍ ... وغُنْجٌ كَحَطْمِ الأنفِ عِيلَ به صَبْرِى

(١) الشاهين : عمود الميزان .

(٢) فاته أن يفسر الكذينق . قال التبريزى : « تثنية كذينق ، وليس بعربى ، وهو الذى تسميه العامة كودينا » . وفى اللسان : « قال ابن برى : الكذينق مدق القصار الذى يدق عليه الثوب » . وهو بالفارسية « كدين » أو « كدينه » . استينجاس ١٠١٩ .

(٣) ل: « لعينيك » التبريزى : « لعينك »

٧ـ وتَفْتَرُّ عن قُلْحٍ عَدِمتُ حديثَها وعَن جَبَلَىْ طَيٍّ وعن هَرَمَىْ مِصْرِ

جَمَعَ بين الحيَّة والضَّبُع والتِّمساح، لأنه ليس يقصد التَّشبيهَ من وجهٍ واحد، وإنَّما يريد التَّشبيه من وجوهٍ كثيرة من الخَلْق والخُلُق. والتِّمساح: الدابة المعروفة، والرَّجلُ الكذَّاب. وجاء على هذا البناء شيءٌ من الأسماء قليل لأن المصادر كلّها على تَفعال بفتح التاء، إلّا حرفين وهما تِبْيان وتِلقاء، وقد حصرتُها في كتابي المسمَّى بـ «عُنوانِ الأديب».

وقوله «تُحاكي نعياً زال»، يريد به المَثَلَ السَّائر: «أقبح زَوال النِّعمة». يريد: تُحاكي في قُبح وجهها قُبحَ زوالِ النِّعمة، فجعل اللَّفظَ توسُّعاً على ما ترى، ثم جعل جانبها وما تُصافح به مُلاقيَها كسطوة الدَّهر. والسَّطوة: البَسْط على الإنسانِ تَقْهَرُه من فَوق، وتقول: سَطوتُ به، وفي القرآن: ﴿يَكادُونَ يَسطُونَ بالّذِينَ يَتلُونَ﴾. قال الخليل: سُمِّي الفرسُ ساطياً لأنّه يَسطُو على غيره فيقوم على رجلَيه ويَسطُو على يديه. وقوله «هي الضَّربانُ في المَفاصل خالياً»، أي إذا خلوتُ بها كانت خَلوتُها كمَوَجان العُروق بالألم في مفاصل المُنقرس، وإنْ جذبتَها إلى نفسك مرتدياً بها قاسيتَ منها ما يُقاسي المُبرسَمُ من عارضِه، وإنْ ألقت قِناعَها سَخِنت العينُ بالنَّظر إليها. كأنَّها إذا تبرقعَتْ تناهى افتقارُك من كلِّ منظرٍ يروق، ومَطلَع يُعجِب ويَروع، في ردِّ الطرفِ إليها. وقوله «فالفقرُ في غايةِ الفقر»، أي إذا تناهى الفقرُ، حتى لا يكونَ وراءَه شيءٌ منه.

والمصائب: جمع مُصيبة، وهي مُفْعِلة وشُبِّه مَدَّتُها بمَدَّة فَعيلة، وجمعت جَمعَها، والقياس مصاوِب وقد جاء ولكنَّه في الاستعمال دونَ مصائب. وهذا مما شذَّ في القياس، أعني مصائب. ومَصاوب شاذٌّ في الاستعمال مُطَّرِد في القياس. ومُوفَّرةُ، أي مكمَّلة. وقاصمة: كاسِرة، أي رَزيَّة هكذا وداهية هكذا.

وقوله «كَحَطْمِ الأنف»، الكسر للشيء اليابس. والحُطام، ما تحطَّم من ذلك. ورجل حُطَمٌ. وعِيلَ به صبرِى، أى غُلِب. وفى المثل: «عِيلَ ما هو عائِلُه(١)».

وقوله «عَدِمتُ حديثَها» دعاء لنفسه وعليها، وهو من الحَشْو الحَسَن.
ومثله فى الدعاء وحُسْنِ الموقِعِ قولُ الآخر(٢):

إنَّ الثَّمانِينَ وبُلِّغْتَهـا ... قد أحوَجت سَمْعى إلى تُرْجُمَانْ

وتَفْتَرُّ، أى تضحك، ومنه فَرَرْتُ الدابة. وقوله «جبلَىْ طيٍّ» يعنى أجأً وسَلْمَى، وإنَّما يعنى اختلافَ أسنانِها وعِظَمها.

٨٧٥

آخر:

١ ـ لو تَسمَّعْتَ صَوْتَه قُلتَ هذا ... صَوْتُ فَرْخٍ فى عُشِّه مَزْقُوقِ
٢ ـ أو تأمَّلْتَ رأْسَه قلتَ هذا ... حَجَرٌ من حِجارةِ المَنجنيق
٣ ـ مُعْمِلٌ قَرْضَ لِحْيَةٍ تَراها ... قُلْتَ عُثْنونُ هِرْبِذٍ مَحْلُوقِ(٣)
٤ ـ لَمْ أَعِبْهُ أَلَّا يَكُونَ تَقِيًّا ... مُؤْمِنًا مُبغِضًا لأهل الفُسُوقِ
٥ ـ غير أَنِّى أَرَدْتُ أَنْ يَنظرَ النَّا ... س إلى خَلْقِ رَبِّنا المَخْلوقِ

مزقوق أى يزقُّه أبَوَاهُ زَقًّا. قال:

نَتَساقَى الرِّيقَ فيما بَيْنَنا ... زَقَّ أُمَّاتِ القَطَا زُغْبَ القَطا

(١) أى غلب ما هو غالبه. وفى اللسان: هو كقولك للشىء يعجبك: قاتله الله وأخزاه.
(٢) هو عوف بن محلم الخزاعى. الأمالى (١ : ٥٠).
(٣) الهربذ: واحد الهرابذة، وهم قومة بيوت النار التى للهند، فارسى معرب. وتقييد بيوت النار بالهندية هو المذكور فى المعاجم العربية، وهى مكونة من كلمتين: «هير» بمعنى النار، و«بد» بمعنى الحافظ والقيم.

وقوله «وقلتَ هذا حَجَر» ، يريد شبَّهته فقلت من كِبَره : هو حجر المِنْجَنيق . والمِنْجنيق معرَّبة ، وقد اختُلف فى الفعل منه ، فقال بعضهم : الميم زائدة ، واحتجَّ بما حكاه التَّوَّزِىُّ عن أبى عبيدة . قال : سألت أعرابيًّا عن حروب كانت بينَهم ، فقال : « كانت بيننا حروبٌ عُون ، تَفقأ فيها العيون ، مرةً نجْنَقُ ، ومرةً نُرْشَقُ » . قال : فقوله نَجْنَق دالٌّ على أنّ الميمَ زائدة ، ولو كانت أصليَّةً لقال نُمجْنق . وإلى هذا ذهب الدُّريدىّ .

وكان أبو عُثمانَ المازنىّ يقول : الميم من نفس الكلمة ، والنون زائدة ، لقولهم مَجَانيق ، فسُقوط النُّون فى الجمع كسقوط الياء فى جمع عَيْضَمُوز إذا قلت عَضَاميز [1] . وحكى الفَرَّاء : جَنقوكم بالمجانيق أيضا . فهذا على الوجه الأوَّل [2] .

وقوله «مُعْمِلٌ فرضَ لحيةٍ » أى قطْعَ لحية و « لو تراها » حَمَل اللفظ على اللحية والمراد مَنبِتَها . والعُثْنُون : أصل اللَّحْىِ ، وأوائل الرِّيح والسَّحاب .

وقوله « خَلْقِ رَبِّنا المخلوق » وَصَفَ الخلْق بالمخلوق تأكيداً ، ويجوز أن يكون المراد خَلْق ربِّنا المقدَّر ، لأنَّ الأصل فى الخلْق التقدير . ألا تَرَى قوله :

ولأنتَ تَفرِى ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القَومِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفرِى [3]

٨٧٦

آخر :

وأُقسِمُ لو خَرَّت من استِكَ بيضةٌ لما انكسَرَتْ لقُرْبِ بعضِكَ من بَعْضِ

(١) العيضموز : العجوز الكبيرة .

(٢) المنجنيق معرب من الفارسى « منجنيك » ، وهـذه مأخوذة من اليونانى : Magganon ، وهى آلة ترمى بها الحجارة فى القتال . ويضطرب اللغويون العرب فى تأصيلها من الفارسى . انظر المعرب للجواليقى بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر ٣٠٦ ومعجم استينجاس . وقد ذكر الأخير أنها مأخوذة من اليونانى .

(٣) لزهير فى ديوانه ٩٤ .

الخرور : السقوط للوَجْه . وخَرَّ الماء المكانَ : جعَلَ فيه أخاديدَ .
والخَرْخار : الماء الكثير الجارى .

٨٧٧

آخر (١) :

أظنُّ خليلى من تقارُبِ شَخْصِه ... يَعَضُّ الفُرادُ باسْتِهِ وهو قائمُ

٨٧٨

آخر (٢) :

١ — ولقد غدَوْتُ بمُشْرِفٍ يافُوخُهُ ... عَسِرِ المَكَرَّة ماؤُه يتدَفّقُ

٢ — أَرِنٍ يسيلُ من النَّشاطِ لُعابُه ... ويكاد جِلْدُ إهابِهِ يتمزَّقُ

كأنه ألغَزَ فى هذا ، وأراد بمُشْرِفِ اليافوخ ذلك العضو .

ورُوِىَ أنَّ أعرابيًّا حضَرَ مجلسَ أبى عبيدة ، وألقى البيتين عليه ، فذهب أبو عُبيدة إلى أنَّ الشَّاعرَ يَصِفُ به فرساً ، وأخذَ يفسِّره ، فقال الأعرابىّ : حَمَلك اللهُ ياشيخُ عَلَى مِثْلِه ! ففطِنَ أبو عبيدةَ وخَجِل . ومعنى يتدفق يتصبب شيئاً [فشيئاً (٣)] . والأرِن النشيط ، ويقال للمستنِّ من النَّشاط : أَرِن يَأْرَنُ أرَناً . وقيل إنَّ الأَرَن نَشاط الخيل ، كما أنَّ الهَبَصَ نَشاط الظِّباء . والسَّنَنُ : نشاط الإبِل ، ومنه جاء فى المثل : « استنَّت الفِصالُ حتَّى القَرْعَى » . والأَشَرُ : نشاط الإنسان . والإهاب : الجِلْد الذى هو أُهْبَةُ ما وراءه من اللَّحم . كما أنَّه سُمِّى (٤) ما يمسكه المَسْكَ . ولذلك قال « جلد إهابه » فأضاف الجِلدَ إليه .

(١) هو الحزين الكنانى يهجو كثيراً الشاعر . وللبيت قصة طريفة فى الأغانى (٨ : ٢٨ — ٢٩) . وانظر الحيوان (٥ : ٣٤٩) ومحاضرات الراغب (٢ : ١٢٩) .
(٢) هذه الحماسية رواها التبريزى فى (باب الملح) ، وهو الأوفق .
(٣) التكملة من ل . (٤) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كأنه سمى » .

٨٧٩

آخر (١) :

١ - لو تتى لكِ التَّحوُّلُ حتى تَجْعلى خَلْفَكِ اللطيفَ أَمَامَا

٢ - ويكونَ الأَمامُ ذُو الخِلْقة الجَبْلةِ خَلْفاً مُرَكَّناً مُسْتَكاما

لإِذًا كُنْتِ يا عُبَيْدةُ خَيرَ النَّاس خلفاً وخَيْرَهُمْ قدَّاما

يَصفُها بأنَّها قليلة اللَّحم على العَجيزة ، عظيمةُ البطن . فيقول : لوقُدِّم مؤَخَّركِ وأُخِّر مُقدَّمكِ لارتَضِى خَلفُكِ وقُدَّامُك ، لالتئام أعضائك ، واعتدالِ مقاسِمِك. واستعمل الخلْفُ والأمام استعمالَ المُقدَّم والمؤخَّر فجُعلا اسمين . والركَّنُ : الذى له أركان . والجَبْلَةُ : الغَليظة . والمستكام ، من الكَوْم ، وهو الجِماع . وانتصب خَلفاً وقُدَّاماً على التمييز .

٨٨٠

وأَنْشَدَ لأبى الغطمَّش (٢) أبو عبَيدَةَ :

١ - مُنيتُ بزَنْمِرْدةٍ كالعصَا أَلصَّ وأَخْبَثَ من كُنْدُش

٢ - تُحِبُّ النِّساءَ وتأْبَى الرِّجال وتَمْشى مع الأَخْبثِ الأَطْيَش

٣ - لها شَعَرُ قِرْدٍ إذا ازَّيَّنتْ وَوَجْهٌ كبيْضِ القَطَا الأَبرش (٣)

٤ - وثَدْىٌ يَجُولُ عَلَى نَحْرِها كقِرْبَةِ ذى الثَّلةِ المُعطِش

(١) التبريزى : « وقال بعض المدنيين » .

(٢) التبريزى : « لأبى الغطمش الحنفى » . وكذا جاءت نسبة الأبيات فى اللسان (كندش) . وجاءت مطولة وبدون نسبة فى مجالس ثعلب ٩٢ – ٩٤ . والأبيات وردت فى الأغانى (١٠ : ١٣١) منسوبة إلى إسماعيل بن عامر ، وهو شاعر مخضرم من شعراء الدولتين يقولها فى هجاء أم ولد له .

(٣) التبريزى : « لها وجه قرد » ثم ذكر الرواية الأخرى .

يُروى « زَنمِرْدَةٍ » بفتح الزاي وكسر الميم، ويكون مما عُرِّب لا نظيرَ له في أبنية العرب. ويُروَى بفتح الزاي وفتح الميم ويكون على مثال قَهقَرٍ، وهو حجرٌ يملأ الكفّ. ويروَى « زِنمِرْدَةٍ » بكسر الزاي وفتح الميم فيكون على وزن فِعَلِّةٍ من الرُّباعيّ نحو عِلَّكْدٍ، وهو الغليظ الشديد، أو يكون فِعْلَلٌ من الخُماسي نحو خِنْزَقْرٍ، وهو القصير، وقرْطعبٌ دابّة. والمراد بها المرأة التي خَلْقها وخُلقها كما يكون للرِّجال. وشبَّهها بالعَصا لقلّة لحمها وهُزالها، واستواء صدْرِها وظهرها. وَسَنْدُشٌ: لقبُ لصٍّ كان معروفاً عندهم (١). وقوله «إذا ازَّيَّنت» أراد تزَيَّنت، فأراد الإدغام فيها وأبدلَ من التَّاء زاءً فسكّن أوّلها، فجُلِبَ ألفُ الوصل ليتوصَّل إلى النُّطق بساكن، فصار كما ترى. والثُّلّة: الفِرقة والطَّائفة من الضَّأنِ. والمُعْطِشُ: الرَّعي الذي قد عطِشت رعيَّتُه.

٥ ـ لها رَكَبٌ مِثْلَ ظِلفِ الغَزالِ أشَدُّ اصفِراراً مِن المِشْمِشِ
٦ ـ وأبْرَدُ من ثلجِ ساتيدَمَا وأكثرُ ماءً مِن العِكْرِشِ (٢)
٧ ـ وفَخْذانِ بَيْنهُما نَفْنَفٌ تُجيزُ المَحامِلَ لا تَخْدِشِ (٣)
٨ ـ وسَاقٌ مُخَلْخَلُها حَمْشَةٌ كَساقِ الجَرادةِ أو أحْمَشِ
٩ ـ كأنَّ الثآليلَ في وَجْهِهَا إذا سَفَرَتْ بَدَدُ القِشْمِشِ
١٠ ـ لها جُمَّةٌ فَرْعُها جَثْلَةٌ كمِثْلِ الخَوافي مِن المُرْعَشِ

الرَّكَبُ: أصل الفخذ الذي عليه لحمُ الفَرْج من المرأة ومُعلَّق الذكَر من الرَّجُل. والنَّفنف: المَهْواة بين الجبَلين. والخَدْشُ والخمْشُ والكَدْحُ نظائر.

(١) وقال قوم: الكندش العقعق. وذكر بعضهم أنه الفأرة.

(٢) هذا البيت ليس في ل ولا التبريزي ولا في مجالس ثعلب. وساتيدما: جبل بين ميافارقين وسعرت. والمكرش: ماء لبني عدي باليمامة.

(٣) هذا ما في الأصل ومجالس ثعلب وفيه الإقواء. وفي ل والتبريزي: « لم تخدش »

والحَمْشَةُ : الدَّقيقة . وإنما أنَّثَ والمُخلخَلُ مذكَّر لأنَّ المخلخلَ من السّاق ، والسّاق مؤنّثة ، وبعضُ الشّيء إذا أُطلِقَ عليه اسمُ الكلِّ أُجرِى فى الأحوال مجراه إلا أن يمنع مانع . وهذا كما قال الآخر (١) :

* كما شرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ (٢) *

لأنَّ صدر القناة قناة ، كما أنَّ المخلخلَ يقال له السّاق . فالبِدَدُ : جمع بِدَّة ، وهى القِطْعة المتفرِّقة . وتبادَّ القومُ : تباعدُوا . والجُمَّة من الشعر : دون اللِّمَّة فى الطول . والجَثْلة : الكثيرة الأصول . والمُرْعَثُ : الحمام الأبيض . والخوافى : ما دُون الرِّيشات العَشْر .

٨٨١

وقال آخر (٣) :

١ ـ ماذا يُؤرِّقُنى قِدْماً ويُسهِرُنى ... مِن صَوتِ ذى رَعَثاتٍ ساكنِ الدّارِ (٤)

٢ ـ كأنَّ حُمّاضةً فى رأسه نبتَتْ ... فى أوّل الصَّيفِ قد همَّت بإثمارِ (٥)

قوله « ماذا يؤرِّقنى » لفظه استفهامٌ ومعناه تعجُّب . وقد مرَّ القول فى لفظة ماذا (٦) . وقوله « من صَوْت ذى رعثاتٍ » أى من انتظار صوته ، فحذف المضاف ورعثات : جمع رعثةٍ وهى من الدِّيك عُثْنُونه . ورعثة الشّاة : زَنَمتها . والرِّعاثُ : كلُّ معْلاقٍ من قُرطٍ أو قِلادة أو غيرها ، وربما عُلِّق من الرَّحْل

(١) هو الأعشى . ديوانه ٩٤ واللسان (شرق) .

(٢) صدره : * وتشرق بالقول الذى قد أذعته *

(٣) نسب البيت الأول فى اللسان (رعث) إلى الأخطل . وروايته :

* ماذا يؤرقنى والنوم يعجبنى *

(٤) البيتان فى اللسان (حمض) والحيوان (٢ : ٢٤٦) ومحاضرات الراغب (٢ : ٣٠١) .

(٥) الحيوان : « من آخر الليل قد همت » .

(٦) انظر ما سبق فى ص ٨١١ ، ٩٣٤ .

والموْدَج رغثٌ من الصُّوف . والُحمَّاض ، من ذُكور البَقْل ، له زهرةٌ حمراء كأنّها الدَّم . والإثمار : إخراج الثَّمر . وشبَّهَ عُرفَ الدِّيك به .

٨٨٢

وقال آخر :

١ - صَوْتُ النَّواقيسِ بالأَسْحارِ هيَّجَنى ... بل الدُّيوكُ التى قَدْ هِجْن تَشْوِيقى

٢ - كأنَّ أعرافَها مِنْ فَوقها شُرَفٌ ... حُمْرٌ بُنِين على بَعضِ الجَواسيقِ

٣ - عَلَى نَعَانِـمَ سَاَتٌ فى بَلَاعِمِها ... كثيرةِ الوشْى فى لِينٍ وتَرْقيقِ

٤ - كأنـما لبِسَتْ أَوْ أُلْبِسَتْ فَنكاً ... تَقَلَّصَتْ مِن حَواشِيه عن السُّوق (١)

قوله « صَوْت النَّواقيس » أى انتظارُ صوتِ النَّواقيس هيَّجنى ، فحذف المضاف . وهذا كما قال الآخر (٢) :

لمَّا تذكَّرتُ بالدَّيْرَيْن هيَّجَنى ... صَوْتُ الدَّجاجِ وقَرْعٌ بالنواقيسِ (٣)

وقال غيرها :

* وصوت نواقيسَ لم تُضْرَبِ *

فنبَّهَ بقوله « لم تضْرَب » على أنَّه كان منتظراً لا واقعاً . والجواسيق : جمع الجَوْسَق ، وهى قريبةٌ من القُصور . وأشبع الكسرةَ فى السِّين فتولد منها ياء . ومثله :

* نَفْىَ الدَّراهيمِ تَنْقَادُ الصَّياريفِ (٤) *

(١) الفنك : دابه يفترى جلدها ، أى يلبس جلدها فروا .

(٢) هو جرير . ديوانه ٣٢١ والحيوان (٢ : ٣٤٢) .

(٣) ذكر صاحب العقد (٥ : ٣٧٨) أنه أراد ديرا وحداً هو دير الوليد بالشام . وقد صرح ياقوت أنه أراد ديرين « دير فطرس » و « دير بطرس » بظاهر دمشق .

(٤) للفرزدق فى ديوانه ٥٧٠ والخزانة (٢ : ٢٥٦) وسيبويه (١ : ١٠) والكامل ١٤٣ ليبسك . وصدره :

* تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة *

والنَّعَانِعُ : أعراف الدِّيكَة . وأصل التَّنعنع الاضطراب . لذلك قيل للطويل المضطرب النَّعْنُع . ونَعَانِع المِنْطَقَةِ : ذِنَابُها[1]. والبُلْعُوم والبُلْعُم : مجرَى الطَّعام ، وباطنُ العنَق .

وهذه المقطوعة وما قبلَها ، بابُ الصفات أولَى بهما ، فاتَّفق وقوعُهما هنا .

وهذا آخر الاختيار . والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلواتُه على النبيِّ محمَّدٍ وآله أجمعين .

* * *

قد سهَّل الله وله الحمدُ ، تعالى جَدُّه ، بلوغَ المنتظَر من تتميم شرحِ هذا الاختيار ، واللهُ بمنِّه وطَوْلِه ينفعكَ وإيَّانا به ، ويعينُك على تفهُّمه .

وهذا الكتابُ وإنْ عظُم حَجْمُه ، وكَثُر ورقُه ، فإنَّه لا يُملُّك تصفحه وقراءتُه ، إذْ كان كلُّ بابٍ من أبوابه ذا فنونٍ من آثار العقول الصَّحيحة ، والقرائح السَّليمة ، فكلُّ نوعٍ من أنواعه جَمَامٌ لما يليه ، وجِلاءٌ لما يَعيه ، ولأنَّ غوامضَ المَقَاصِد إذا تبرَّجَتْ لك في روائع المعارض ، وأقبَلَ فهمُك رائداً لقلبك ، يتشمَّم نوادرَ الزَّهَر في مَغارس الفِطَن ، ويتخيَّر فرائدَ الدُّرَر من قلائد الحِكَم ، فكلما ازداد التقاطاً زادك نشاطاً ، كما أنَّ مَن عرَفَ الفَرق بين الإطناب والإيجاز ، وبين التطويل والتَّقصير ، وعلِمَ أنَّ الإطناب تفخيمٌ وتكميل ، كما أنَّ الإيجاز تخليص وتهذيب ، وأن التَّطويل زيادةٌ على الكفاية ، وذَهابٌ عن غاية الحاجة ، كما أنَّ التَّقصير قُصورٌ عن الحدِّ المرتاد ، ووقوفٌ دونَ مَدَى المراد ، حمِدَ الإطنابَ والإيجازَ لما نالَهما من سِهام البلاغة ، وذَمَّ التَّطويلَ والتَّقصيرَ بما فاتَهما من أقسام الفَصاحة .

(١) كذا في النسختين . وفي القاموس : « ذباذبها » .

واعلمْ صَحِبَكَ التوفيقُ في مباغيك ، أنّ ما جمعتُ منتشرَهُ ، وأثرتُ مُكْتَمِنَه ، وحَلَلْتُ معقودَه ، وأعدتُ محذوفَه ، ونشرتُ مطويَّه ، ومَدَدتُ مقصوره من بيوتِ هذا الاختيار وفصولِه ، فإنّى لم أُدرِكْهُ إلّا في مدّةٍ طويلةٍ لا أذكر طرَفيْها ، وبمجاهداتٍ لشُيوخ الصِّناعة عجيبة لا أنسى مُجاذَباتى فيها ، حين كان في القول إمكانٌ ، وللتّحصيل إرصاد ، ولسهم النِّضال تسديد ، وفي قوس الرِّماء مَنْزَعٌ وتوتير ، وكانَ الرَّأىُ وَلُودًا ، والخاطر عَمُولًا ، والحدُّ حديداً ، والحِرْصُ عتيداً ، مع تمام البَراعة ، واجتماع المادّة والآلة .

فلا تظُنّنَّ فيه ما يَظُنّه الوادعُ في جَهْدِ المكدود ، فإنَّ أهْوَنَ السَّقى التَّشريع(١) ، ولن تناله إلّا بتعبٍ شديد . وتيقَّنْ أنى أمليتُ هذا الشّرح مُسْتَعْمِلًا أرفقَ الآلات في اختراعه ، وأوفق الألفاظ في تصويره وبيانه ، ومستحضراً من الشَّواهد والمُثُل ما لم يكملْ إلّا بتعاونه وحضوره ، ولو عَدَلْتُ عن نَهْج التَّقريب مشتغلًا بأبواب الإعراب والغريب إلى غيرها مما يُعَدُّ في الفضول ، لتضاعَفَت المُؤَن ، وضاعت في غُمارها النُّكت . على أنّى أرجو أن يكون ضنُّنا في تحصيله وحصره ، وسماحتُنا بعدَه بتصنيفه وبَذْله ، يُكسِبُنا من القلوب استحلاءً ، ومن النُّفوس مَيَلًا واستحبابا ، وأنَّه لا تَزال تلك المحبَّةُ زائدةً نامية ، ما دامت فوائدُه قائمةً باقيةً .

وعلى الله تعالى جَدُّه مُعوَّلنا في أنْ يوفّقنا لمرضاته ، وأنْ يجعلَ سعيَنا له وفيه ، وحسبنا هو ونِعْمَ الوكيل . والحمدُ لله الواحد القهّار ، وصلواته على نبيِّنا محمدٍ وآله الطّيّبين الطّاهرين الأخيار(٢) .

---

(١) التشريع : إيراد الإبل شريعة لا يحتاج معها إلى نزع بالعلق ولا سقى في الحوض .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من ل .

[صورة ما كتبه ناسخ الأصل]

مَشَقه لنفسه سعد بن إبراهيم بن أحمد الفرّائيّ ، وفرغ منه يوم الجمعة وقت صلاة العصر منتصف جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، حامداً لله عز وجل ومصلياً على رسوله وآله وأصحابه من بعده ومسلما (1).

[صورة نص الوقف المسجل فى نسخة الأصل]

قد وقف هذا الكتاب الجليل والأثر الجميل والدة السلطان الأعظم والخاقان المفخم السلطان عبد المجيد خان أدام الله أيامه وعمر دولته إلى آخر الدوران أعنى بها حضرة بزم عالم سلطان علية الشان جعل الله سعى الوقفة مشكوراً وجزاها جزاء موفورا . لسنة ست وستين ومائتين وألف .

(1) وفى نهاية نسخة « ل » : « وفرغ من تسويد بياض هذه النسخة أضعف عباد الله وأرجى لرضوانه محمد بن أحمد بن أيوب فى صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ... لله ومصلياً على محمد وآله » .

الفهارس العامة

صنع وترتيب

عبد السلام محمد هارون

١ — فهرس الأشعار

١ ـ فهرس الأشعار (*)

أ ـ الحماسيات

(أ)

(ب)

(*) ما وضع من أعلام الشعراء بين قوسين فهو مما لم يذكره المرزوقى وأمكن التحقيق أن يعرفه. والأرقام فى هذا القسم من الفهرس هى أرقام الحماسيات .

(١) أو الأقرع بن معاذ القشيرى .

(١) وتروى لمحمد بن بشير .

(س)

(ش)

(ص)

(ص)

(ع)

(ف)

(ل)

(١) هذه هى نسبة ابن جنى فى التنبيه .

ب ــ الشواهد

(أ)

(*) ما وضع بين قوسين ( ) من القوافي أو الأرقام فهو ما ورد صدره وأمكن معرفة عجزه .

وما وضع قبله نجم من القوافي أو الأرقام فهو ما ورد عجزه فقط .

وما وضع بين معقفين [ ] من الأرقام فهو ما ورد في حواشي التحقيق.

وما وضع بين قوسين ( ) من أسماء الشعراء فهو ما لم يذكره المرزوق واهتديت إليه في التحقيق .

(ت)

واضحه	سريع	طرفة	١١٤١
شحاحا	متقارب	(ابن هرمة)	٧٣٧
جناحا	»	(» »)	٨٠٣
الأنوحا	»	أبو ذؤيب	١٠٥٩
مشيحا	»	» »	٧١٦
يصلح	طويل	جران العود	[١٢٢٧]
تروح	»	—	١١٥١
النوائح	»	(أشجع السلمى)	٩٣٥
• الأباطح	»	(كثير عزة ، يزيد بن الطثرية)	٥٨٤
شيح	»	(أبو ذؤيب) الهذلى	٩٧ ، ٥٦٤
جنوح)	»	النابغة	٩٨٣ ، ١٠٢٢ ، ١٠٤٦
أرماح	بسيط	(أبو ذؤيب) الهذلى	١٨٠٨
نضاح	»	»	٧٢١ ، ٩٥٨ ، ١٦٩٥
ضحضاح	»	(») الهذلى	١٨٠٨
• الأماديح	»	(») »	٢٤٨ ، ١٤٧٣
مرازيخ	»	» »	١٥٦٧
المصابيح	»	ابن قيس الرقيات	٧٦١
مفتوح	»	نهار بن توسعة	[٩٥٢]
• صحيح	وافر	(أبو ذؤيب) الهذلى	١٨٥٢
فاستراحوا	مجزو الكامل	(سعد بن مالك)	١٠٨٤
فالمضيَّحِ	طويل	(الطرماح)	٩٩٨
المرشح	»	(»)	١٢٨٦
رزح	»	(عروة بن الورد)	٩٩٦
بقرواح	بسيط	(أوس بن حجر)	٩١٤
للمدح	منسرح	(مطيع بن إياس)	٨٦٠

(د)

(١) صوابه دريد بن الصمة .

(ر)

(١) وللفرزدق أيضا .

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(١) أو شقران السلامانى .

(١) انظر المفضليات ١ : ٩٣ .

معجل	طويل	امرؤ القيس	١٣٦١
* تفضل	»	» »	١٣٦٩
(بأمثل)	»	» »	١٧٧٠
* بمأسل	»	» »	١٨٢٨
جندل	»	» »	١٨٣١
* تنسل	»	» »	١٨٧٤
المعسل	»	ذوالرمة	١٤٧١]
بفصل	»	زياد الأعجم	[١٧٠٣]
(بالمثمل)	»	(العباس بن مرداس)	٣٥٩
* تحول	»	(عبد قيس بن خفاف)	٦٨
* مضال	»	المتلمس	١٧٢٧،٣٥٢
ترحل	»	المزرد	٩٥١
معضل	»	←	١٤٩٤
القبائل	»	(أبو الشغب)	٩٧٥
* قائل	»	(النابغة)	٥٧٠،[٨٢٢] [
المراجل	»	»	٩٩٤
الخالى	»	امرؤ القيس	* ١٠٢٠،٢٧٠
عال	»	» »	١٣٥٩،٤٢٣،٣١٠
(وأوصالى)	»	(» »)	٥٣٦
ولا قال	»	» »	١٣٣١
* إقلال	»	(» »)	١٨٤٤،١٦٢٤
الخالى	»	» »	١٦٢٤
بجبال	»	» »	١٨٧٥
معذول	»	الأجدع الهمدانى	[١٠٥]
وعيل	»	(أبو البيداء الرياحى)	١٠

(م)

(ن)

(أجزاء الأبيات)

(١) انظر ص ١٧٩٥ .

٢ ـــ فهرس الأرجاز

٢ — فهرس الأرجاز

ا — الحماسيات

(١) الرقم فى هذا القسم هو رقم الحماسية ولا رقم الصفحة .

ب — الشـــــواهد

(١) الرقم فى هذا القسم رقم الصفحات .

(٢) انظر قافية (عيناها) فى فهرس الاشعار (الشواهد) .

(٣) من الرجز المزدوج .

(١) من الرجز المزدوج .

(٢) وقيل لعقبة الهجيمى .

(١) الصحيح أنه للعجاج .

٣ ـــ فهرس اللغـــة

٣ — فهرس اللغة

(أ)

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ش)

(ص)

(ض)

(ظ)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(و)

كلمات ليست فى المعاجم المتـــداولة

كلمات أعجمية

٤ – فهرس الكلمات النحوية

٥ — فهرس الأمثال

٥ – فهرس الأمثال

٦ ــ فهرس الأعلام

٦ ـ فهرس الأعلام (*)

(*) الأرقام الموضوعة بين الأقواس فى هذا الفهرس وتاليه تدل على صفحات الحماسيات ، وما وضع قبله نجم من الأعلام فهو ما ورد فى متن الشعر .

(ح)

(ز)

(ش)

(ص)

(١) هذه نسبة ابن جنى فى التنبيه للحماسية رقم ٦٧٩ .

(و)

(١) انظر الخزانة (١ : ١٠٢)

٧ - فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٧ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها(*)

(*) حذفت من الفهرس كلمة «بنو» و«آل» ونحوها.

٨ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٨ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٩ – فهرس الكتب

وهى الكتب التى ذكرها المرزوقى فى شرحه

١٠ — فهرس مراجع التحقيق

أبيات الاستشهاد ، لابن فارس ، فى سلسلة نوادر المخطوطات

إتحاف فضلاء البشر ، للدمياطى . حنفى ١٣٥٩

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى . السعادة ١٣٢٦

الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقى . حيدر أباد ١٣٣٢

أساس البلاغة ، للزمخشرى . دار الكتب ١٣٤١

الاستيعاب ، لابن عبد البر . حيدر أباد ١٣١٨

أسد الغابة ، لابن الأثير . الوهبية ١٢٨٦

الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق وستنفلد . جوتنجن ١٨٥٣ م

الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣

إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، بتحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٨

الأصمعيات ، للأصمعى . ليبسك ١٩٠٢ م

« « بتحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٨

إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، لابن خالويه . دار الكتب ١٣٦٠

الأغانى ، لأبى الفرج . التقدم ١٣٢٣

إقليد الخزانة ، لعبد العزيز الميمنى . طبع لاهور ١٩٢٧ م

الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م

أمالى ثعلب ، هى مجالس ثعلب

« الزجاجى . السعادة ١٣٢٤

« ابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٩

« القالى . دار الكتب ١٣٤٤

« المرتضى . السعادة ١٣٢٥

إنباه الرواة ، للقفطى ، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . دار الكتب
إنجيل لوقا ، إنجيل متى
الأنساب ، للسمعانى . ليدن ١٩١٢ م
الإنصاف ، لابن الأنبارى . الاستقامة ١٣٤٦
بغية الوعاة ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٨
بلوغ الأرب ، للآلوسى . الرحمانية ١٣٤٣
البيان والتبيين ، للجاحظ ، بتحقيق عبد السلام هارون. لجنة التأليف ١٣٦٩
تاج العروس ، لمرتضى الزبيدى . القاهرة ١٣٠٦
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . القاهرة ١٣٤٩
« الطبرى . الحسينية ١٣٢٦
تزيين الأسواق ، لداود الأنطاكى . القاهرة بدون تاريخ
التصريح ، بمضمون التوضيح ، للشيخ خالد . الأزهرية ١٣٤٤
تفسير أبى حيان ، وهو البحر المحيط . السعادة ١٣٢٨
التنبيه والإشراف ، للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧
« على أمالى القالى ، للبكرى . دار الكتب ١٣٤٤
« على شرح مشكلات الحماسة ، لابن جنى . مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٥
« الصحاح ، للزنجانى ، بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد عطار . دار المعارف ١٩٥٢ م
ثمار القلوب ، للثعالبى . الظاهر ١٣٢٦
الجامع الصغير ، للسيوطى . حجازى ١٣٥٢
الجمهرة ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٥١
جمهرة أشعار العرب ، للقرشى . بولاق ١٣٠٨
حاشية الصبان على الأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦

حماسة البحترى . الرحمانية ١٩٢٩ م
« ابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥
حياة الحيوان ، للدميرى . صبيح بالقاهرة
الحيوان ، للجاحظ . بتحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٦
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩ والسلفية ١٣٥١
الخيل ، لابن الأعرابى . ليدن ١٩٢٨ م
« ، لأبى عبيدة . حيدر اباد ١٣٥٨
ديوان الأخطل . بيروت ١٨٩١ م
« الأعشى . ڤينا ١٩٢٧ م
« امرئ القيس . هندية ١٣٢٤
« أوس بن حجر . ڤينا ١٨٩٢م
« البحترى . هندية ١٣٢٩
« أبى تمام . بيروت ١٣٢٣
« جرير . الصاوى ١٣٤٥
« حاتم الطائى . الوهبية ١٢٩٣
« حسان بن ثابت . الرحمانية ١٣٤٧
« الحطيئة . التقدم بالقاهرة
« حميد بن ثور . دار الكتب ١٣٧١
« الخنساء . بيروت ١٨٨٨ م
« ابن الدمينة . المنار ١٣٣٧
« ذى الرمة . كمبردج ١٩١٩ م
« رؤبة ، بتحقيق وليم بن الورد . ليبسك ١٩٠٢م
« زهير بن أبى سلمى . دار الكتب ١٣٦٣
« سلامة بن جندل . بيروت ١٩١٠م
« الشماخ . السعادة ١٣٢٧

ديوان طرفة . قازان ١٩٠٩ م
» الطرماح . ليدن ١٩٢٧
» طفيل الغنوى . ليدن ١٩٢٧ م
» عامر بن الطفيل . ليدن ١٩١٣ .
» أبي العتاهية . بيروت ١٩١٤ م
» العجاج ، بتحقيق وليم بن ألورد . ليبسك ١٩٠٢ م
» عروة بن حزام . مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب المصرية
» » » الورد . الوهبية ١٢٩٣
» عمر بن أبي ربيعة . الميمنية ١٣١١
» » » » » بشرح محمد محيي الدين . السعادة ١٣٧١
» عنترة . الرحمانية بالقاهرة
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤
» القطامى . برلين ١٩٠٢ م
» قيس بن الخطيم . ليبسك ١٩١٤ م
» ابن قيس الرقيات . ڤينا ١٩٠٢ م
» كعب بن زهير . دار الكتب ١٣٦٩
» لبيد . ڤينا ١٨٨٠ ، ١٨٨١
» المتلمس . مخطوطة الشنقيطى بدار الكتب المصرية
» مسلم بن الوليد . ليدن ١٨٧٥ م
» المعانى ، للعسكرى . القاهرة ١٣٥٢
» معن بن أوس . ليبسك ١٩٠٣ م
» النابغة الذبيانى . الوهبية ١٢٩٣
» الهذليين . دار الكتب ١٣٦٩
الرسالة ، للشافعى ، بتحقيق أحمد محمد شاكر : الحلبى ١٣٥٨
زهر الآداب ، للحصرى . الرحمانية ١٩٢٥

سفر الخروج
سمط اللآلئ ، للراجكوتى . لجنة التأليف ١٣٥٤
السيرة لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م
شرح أشعار الهذليين ، للسكرى . لندن ١٨٥٤ م
« الحماسة للتبريزى بتحقيق فريتــغ . بون ١٨٢٨ م
« ديوان المتنبى ، للعكبرى . الشرفية ١٣٠٨
« شواهد شروح الفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب)
« « سيبويه ، للشنتمرى (بهامش كتاب سيبويه)
« « المغنى ، للسيوطى . البهية ١٣٢٢
« القصائد العشر للتبريزى ، بتحقيق محمد الخضر حسين . السلفية ١٣٤٣
« لامية العرب ، للزمخشرى . الجوائب ١٣٠٠
« المفصل ، لابن يعيش . محمد منير
« المفضليات ، للأنبارى ، بتحقيق ليال . بيروت ١٩٢٠ م
شروح سقط الزند ، لجنة أبى العلاء . دار الكتب ١٩٤٥ — ١٩٤٩
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، بتحقيق أحمد شاكر . الحلبى ١٣٧٠
صبــح الأعشى ، للقلقشندى . دار الكتب ١٣٤٠
صحيح البخارى . بولاق ١٣١٣
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدرأباد ١٣٥٦
الصناعتين ، للعسكرى . صبيح بالقاهرة
صيغة فعال ، بحث لجبران النحاس . طبع الإسكندرية ١٤٩٧
الضرائر ، للآلوسى شرح بهجة الأثرى . السلفية ١٣٤١
الطبقات ، لابن سعد . ليدن ١٣٢٣
طبقات الشعراء ، لابن سلام . السعادة بالقاهرة
طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدى . السعادة ١٣٧٣ .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . الجمالية ١٣٣١ ولجنة التأليف ١٣٧٠
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤

عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٣٤٣
« التواريخ ، لابن شاكر . مخطوطة دار الكتب المصرية
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية القاهرة
فوات الوفيات ، لابن شاكر . بولاق
الكامل ، لابن الأثير . محمد منير ١٣٤٨
« ، للمبرد . ليبسك ١٨٦٤م
كتاب سيبويه . بولاق ١٣١٦
كشف الظنون ، لحاجى خليفة . تركيا ١٣١٠
الكنايات ، للثعالبى . السعادة ١٣٢٦
اللآلئ = سمط
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠
ليس فى كلام العرب ، لابن خالويه . السعادة ١٣٢٧
مبادئ اللغة ، للإسكافى . السعادة ١٣٢٥
المبهج ، لابن جنى . الترقى بدمشق ١٣٤٨
المثل السائر ، لابن الأثير . الحلبى ١٣٥٨
مجالس العلماء للزجاجى . الكويت ١٩٦٢
مجالس ثعلب ، بتحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩
المجتنى ، لابن دريد . حيدر أياد ١٣٤٢
مجلة المقتطف . القاهرة
مجلة الهدى النبوى . القاهرة
مجمع الأمثال ، للميدانى . البهية ١٣٤٢
المجمل ، لابن فارس . القاهرة ١٣٣١
مجموعة المعانى ، لم يعلم مؤلفه . الجوائب ١٣٠١
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦
مختارات ابن الشجرى . العامرة ١٣٠٦
مختلف القبائل ومؤتلفها ، لابن حبيب . جوتنجن ١٨٥٠ م

المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨
المزهر ، للسيوطى . الحلبى ١٣٦١
المصاحف ، للسجستانى ، تحقيق الدكتور أرثر جفرى . الرحمانية ١٣٥٥
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣ ، ومرجليوث
« البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣
« الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤
« الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م
« ما استعجم ، للبكرى . بتحقيق مصطفى السقا . لجنة التأليف ١٣٦٤
المعرب ، للجواليقى ، دار الكتب ١٣٦١
المعمرين ، للسجستانى . السعادة ١٣٢٣
المغنى ، لابن هشام . التقدم ١٣٤٨
المفضليات ، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٦١
مقاييس اللغة ، لابن فارس بتحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٨
المؤتلف والمختلف ، للآمدى . القدسى ١٣٥٤
الموشح ، للمرزبانى . السلفية ١٣٤٣
النقائض ، رواية أبى عبيدة . ليدن ١٩٠٥م
نقد الشعر ، لقدامة . الجوائب ١٣٠٢
نكت الهميان ، للصفدى . القاهرة ١٩١٠م
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢
النوادر ، لأبى زيد . بيروت ١٨٩٤
نوادر المخطوطات ، بتحقيق عبد السلام هارون . التأليف والسعادة
الهاشميات ، من شعر الكميت . شركة التمدن ١٣٣٠
همع الهوامع ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٧

الوحشيات ، لأبى تمام ، مصورة دار الكتب ٢٢٩٧
الوزراء والكتاب ، للجهشيارى . الحلبى ١٣٥٧
الوساطة ، للجرجانى ، صيدا ١٣٣١
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠
وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ، بتحقيق عبدالسلام هارون : عيسى الحلبى ١٣٦٥

تفسير بعض الإشارات إلى المراجع

ابن الأثير = الكامل
الأمثال = مجمع الأمثال
الجمحى = طبقات الشعراء
ابن جنى = التنبيه
الجهشيارى = الوزراء والكتاب
الدميرى = حياة الحيوان
ابن سلام = طبقات الشعراء

السمعانى = الأنساب
الشنتمرى = شرح شواهد سيبويه
الطبرى = تاريخ الطبرى
العينى = شرح شواهد شروح الألفية
المرزبانى = معجم الشعراء
الميدانى = مجمع الأمثال

استدراك وتعليق

استدراك وتعليق

١ – ص ٢٢ – ٢٣ من المقدمة « نسخة روان كشك » ، هذه النسخة قد أسقطناها من أصول التحقيق وضربنا عنها صفحا لرداءتها وحداثتها ، واستبدلنا بها نسخة « لاله لى » ، وهى نسخة عتيقة جيدة كتبت فى سنة ٥٨٨ ، من مجلوبات معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وهى التى رمزنا إليها فى الحواشى برمز « ل » . وانظر ما كتبناه فى حواشى ص ٧٢٠

٢ – ص ٢٥ س ٢ « فى رِخوِه » ، وكذا فى ص ٩٢٤ . الأجود ما ورد فى نسخة م ، أى « فى رِخوةٍ » . يؤيده ما جاء من قول عمارة بن عقيل ص ١٤٣١ :

وأما إذا آنست أمناً ورِخوةً فإنك للقربى ألدُّ خصومُ

٣ – ص ١٩٦ س ٣ . صحة كتابة البيت :

قاتلى القوم يا خزاع ولا يدخلكم من قتالهم فشــل

٤ – ص ٢٩٢ س ١٤ « وقال آخر » . فى حماسة البحترى ٣٨٦ أنه عدى بن عدى النبهانى .

٥ – ص ٣٣٥ س ٦ من الحواشى « وكان سراة التيم رهط جساس » كذا جاءت رواية البيت عند التبريزى وكذا فى ديوان جرير ص ٣٢٧ . وفيه قبض « فعولن » بحذف آخره الساكن . وهو جائز فى بحر الطويل أينما كان .

٦ – ص ٣٦٥ س ٨ « وقال آخر » . فى حماسة البحترى ص ٢ أنه « معقل بن جوشن الأسدى » .

٧ – ص ٤٠٧ س ١٧ « وقال آخر » فى حماسة البحترى ٢٠٧ أنه « طرفة » . على أنه لم يُروَ فى ديوانه .

٨ – ص ٤١٤ س ٩ « فخل مكانا » هذا ما في نسخة الأصل . وفى ل والتبريزى : « فخل مقاما » وهو المتساوق مع الشرح .

٩ – ص ٤٧٤ س ١١ « الإله » لم يعرض المرزوقى هنا للكلام على ندرة استعمال هذا اللفظ الكريم . وقد عرض له فى الحماسية ٢٦٢ ص ٧٨٤ .

١٠ – ص ٤٨٥ س ١٣ « بآل الرباب » ، علق التبريزى على ذلك بقوله : « الرباب بفتح الراء : اسم المرأة ، وبكسرها لسم القبيلة » .

١١ – ص ٥٩٨ س ١٠ وقع عن غير قصد ضبط كلمة « يقدر » بفتح الدال ؛ وقد صادفت صواباً ، ففى مادة (قدر) من القاموس : « والفعل كضرب ونصر وفرح » .

١٢ – ص ٦٢٩ س ١ من الحواشى . هذه المقطوعة التى رواها التبريزى ستأتى عند المرزوقى برقم ٢٥٣ ص ٧٥٠

١٣ – ص ٦٠٤ س ١٣ « قال قوال » نسبت هذه الحماسية فى معجم المرزبانى ٤٠٧ إلى « معدان بن عبيد الطائى » .

١٤ – ص ٦٤٩ س ١٢ هذه الحماسية أجابه عليها عبد الرحمن بن الحكم بالحماسية ٦٣٤ . انظر الطبرى (٧ : ٣٢) .

١٥ – ص ٦٥٠ س ٩ « على الهوَى » كذا ورد فى النسختين والتبريزى . فلعل المراد : على ما نهوى . والأجود ما ورد فى آخر الحماسية ٦٣٢ ص ١٤٩٦ : « على الهُدَى » .

١٦ – ص ٧٢٤ س ٣ وص ٤٩٠ س ١١ « عقيرته لايا » كذا وردت فى النسختين ، مع ظهور الهمزة فى كلمة « لأيا » بنسخة الأصل . والرواية عند الزمخشرى فى شرحه للامية العرب ص ٥٥ : « عقيرته لأيِّها حُمَّ أوَّلُ » .

مضامين الكتاب